

101

مائة قصة وقصة
إبداعات عالمية



إعداد وتنسيق واختيار

علي مولا



101

مائة قصة وقصة إبداعات عالمية



إعداد وتنسيق واختيار

علي مولا



**مائة قصة وقصة ، إبداعات
عالمية مختارة من عيون
الأدب العالمي**

**101 قصة من أهم الروائع
الإنسانية الخالدة**

إعداد وتنسيق واختيار

علي مولا

إبداعات عالمية

قصص

مختارة من آسيا

● **خيالات ضوء القمر**
(من الأدب الياباني)

تأليف:

بنانا يوشيموتو

ترجمة:

بسام حجار

مراجعة:

د. منى إبراهيم غريب

خيالات ضوء القمر

حيثما ذهب، كان هيتوشي لا يفترق عن جرس صغير علقه بمحفظته.

كان هدية لا شأن لها، قدّمتها له حين كنا لا نزال متحابين، ولم أدر حينها أنها لن تفارقه حتى النهاية.

كنا قد تعارفنا في المدرسة الثانوية، في السنة الثانية، خلال رحلة مدرسية أسندت فيها لكلينا مهمة الإشراف على صفّه. وبما أنه كانت لكل صف وجهته المختلفة، لم نمض سويا سوى المدة التي استغرقتها رحلة الذهاب في الشينكانسن(*) . على رصيف المحطة، رحنا نلهو بتقليد لحظات الوداع المؤثرة والمصافحة باليد. عندها فطنت فجأة إلى أنني أحمل في جيب مريولي جرسا صغيرا كان قد أفلتت من طوق هريّ، فأعطيته إياه كتذكّار. «ما هذا؟» سألني ضاحكا، لكنه، مع ذلك، لف منديله عليه بعناية بالغة، وقد أذهلني كل الذهول تصرفه ذاك غير المتوقع بالمرّة من فتى في مثل سنّه.

هكذا يبدأ الحب دائما.

لأن تلك الهدية كانت مني أنا؟ أم لأن هيتوشي على قدر من التهذيب يمنعه من التعامل بخفة مع ما يقدم إليه؟ على أية حال كانت بادرته العفوية سببا لجعله محببا لدي.

لقد أوجد ذاك الجرس الصغير آصرة فيما بيننا. ثم، طوال تلك الرحلة التي لم نكن فيها سويا، كان حاضرا بالنسبة لأحدنا كما للآخر. كلما تنأهى رنينه إلى أذنه، راح يفكر فيّ

(*) القطار السريع.

وفي الأيام التي صرفناها سويا في الإعداد لتلك الرحلة،
أما أنا فكنت لا أكف عن التفكير في ذلك الجرس الصغير
الذي يرن تحت سماء نائية، وفي الصبي الذي يسافر بصحبته.
ولدى عودتنا بدأ حب كبير.

خلال أربع سنوات تقريبا، ليل نهار، عايش الجرس الصغير
جميع الأحداث إلى جانبنا، قبلتنا الأولى، شجاراتنا، الصحو
والمطر والثلج، ليلتنا الأولى، ضحكاتنا ودموعنا، موسيقانا
وبرامج التلفزيون المفضلة لدينا. لقد قاسمنا كل أوقاتنا. فما
أن يخرج هيتوشي محفظته التي يضع فيها نقوده أيضا، كان
يسمع رنينه الخافت العذب. نغم رائع، حاضر دائما في آذاننا.
إن قلتي إنني كنت أتوجس أمرا ما، قد يبدو، بعد فوات
الأوان، ميلا عاطفيا متكلفا يصدر عن فتاة في مقتبل العمر.
ولكن...

لطالما انتابني، في أعماق نفسي، إحساس غريب. إحساس
بأن هيتوشي ليس موجودا حقا، حتى وإن كان ماثلا أمام
ناظري. وكم مرة كنت ألصق أذني خلال نومه، على صدره،
ناحية القلب، مصغية إلى خفقات قلبه! وكان ذلك رغما عني.
عندما يشرق محياه فجأة بابتسامة، كنت ألبث في مكاني،
جامدة، أرمقه بعيني. لطالما تبدى من محياه، في ما يشيعه من
حوله، نوعا من الشفافية وكنت أحسب أنها مصدر ذلك
الإحساس الزائل غير المؤكد.

فيا للتعاسة، إذا كانت هذه هي الهواجس المسيطرة علي.
فَقَدْ حبيب: للمرة الأولى في حياتي كلها - ولم أكن آنذاك

قد تجاوزت العشرين عاما - قاسيت تلك التجربة، وكنت أكابد من الألم ما فاق طاقتي واحتمالي، منذ الأمسية التي تلت وفاته، انزلق قلبي إلى نطاق آخر وبات عاجزا عن الرجوع. فقد أصبح مستحيلا علي أن أرى العالم كما أبصرته عينا في السابق. ورأسي الذي كأنه موار مع الأمواج، فاقداً لا تزانة، كان فارغا وثقيلا. ولم يكن لي إلا أن أرثي لحالي لأنني انقذت إلى واحدة من حقب الحياة (إجهاض، بقاء، مرض خطير) التي أعفي منها البعض ممن حالفهم الحظ.

صحيح أننا كنا لا نزال في مقتبل العمر وأن ذاك لم يكن بالتأكيد الحب الأخير في حياتي، لكننا عشنا سويا، للمرة الأولى، كل صنوف التجارب. لقد بنينا تلك السنوات الأربع من خلال اكتشافنا واختبارنا وطأة كل حدث من تلك الأحداث التي تطرا حين يرتبط أحدنا بالآخر برباط حقيقي.

أما اليوم، وقد انتهى كل شيء، أصبح بإمكانني أن أقول ذلك بأعلى صوتي. أيتها الآلهة، إنني ألعنك! لقد أحببت هيتوشي حتى الموت.

كل صباح، طيلة الشهرين اللذين أعقبا وفاة هيتوشي، شربت شايا ساخنا متكئة إلى دربزين الجسر الذي يصل بين ضفتي النهر. فبسبب عجزني عن النوم، اعتدت أن أمارس رياضة الجري عند الفجر، وصودف أن ذلك الجسر يقع بالضبط عند الموضع الذي منه أعود أدراجي.

كان النوم مساء يفرعني... أو ربما كانت صدمة اليقظة هي المرعبة. عندما أستيقظ فجأة، مدركة أين أنا حقا، ألث هلة

حيال العتمات السحيقة التي تكتنفي. كنت دائما أرى أحلاما لها صلة بهيتوشي. كان دائما هناك، في نومي السطحي المضطرب، تارة يكون حاضرا وتارة أخرى غائبا، غير أنني أشعر بأن تلك لم تكن سوى أحلام وإني، في الحقيقة، لن أراه مجددا إلى الأبد. لذا، في غمرة أحلامي، كنت أبذل كل ما بوسعي لكي لا أستيقظ. يتعرق جسمي، وأتقلب ثم أتقلب في سريري. وكم من مرة، إذ يبتلعني جوف كابوس حتى الغثيان، وجدتني أفتح عيني الفاشيتين عند الفجر، والبرد القارس! كان الصبح ينبلج في الجهة الأخرى من الستائر، فيما أجدني ملقاة في صمت زمان باهت، محبوسة الأنفاس. وأجد كل شيء كئيبا وجليديا فأندم لأنني غادرت حلمي. ما كنت أستطيع الخلود للنوم ثانية لأن ذكريات أحلامي تقض مضجعي في وحشة الفجر. كنت دائما أستيقظ في تلك اللحظة. في آخر الأمر، استبد بي الخوف من الإجهاد الناتج عن الأرق، ومن تلك الساعات الطويلة التي كنت أقضيها وحيدة منتظرة، على حافة الجنون، أولى تباشير النهار، فصممت على مزاوله رياضة الجري.

ابتعت ثوبين غاليين وحذاء للرياضة وترمس ألومينيوم صغيرا. أحسب أن ذلك يدعو إلى الرثاء.. الاعتناء أولا بشراء اللوازم، لكنني، في الوقت نفسه، وجدت أن تصرفي كان بالأحرى إيجابيا.

لقد شرعت بمزاوله رياضة الجري منذ بداية عطلة الربيع. كنت أجري حتى الجسر ثم أعود أدراجي إلى المنزل، وهناك،

بعد فراغي من غسل منشفتي وثوب الرياضة، أنصرف إلى مساعدة أمي في إعداد طعام الفطور. بعد ذلك أنام قليلاً. وكانت حياتي تجري وفقاً لتلك الوتيرة. عند المساء، كنت أبذل ما أمكنني لإشغال أوقات فراغي، فالتقي الأصدقاء أو أشاهد أفلام فيديو. غير أن جهودي تلك ما كانت لتجدي نفعاً. ففي قرارة نفسي، كنت فاقدة الرغبة في أي شيء. كانت رغبتني الوحيدة هي أن أرى هيتوشي مجدداً. ومع ذلك، كنت أشعر بأنني، مهما فعلت، ينبغي حتماً أن أبقى يدي منهنكتين، وكذلك جسدي وقلبي. فقد كنت أريد أن أصدق بأن الجهود المبذولة مراراً وتكراراً لا بد أن تفضي إلى أمر ما. لا شيء يؤكد بأنها ستفضي، ولكن علي أن أصمد إلى أن يحين الوقت. ففي آخر الأمر، لقد تمكنت من تجاوز موت كلبي وفقدني عصافيري الواحد تلو الآخر، وكانت تلك التجربة التي أحيأها فرصة استثنائية، وكانت الأيام تمضي برتابة من دون أفق، كأن اليباس يدب فيها شيئاً فشيئاً. وكنت دائماً أردد بما يشبه أن يكون صلاة:

لعله خير، لعله خير، ذات يوم سوف تكتب لك النجاة!
كان مجرى النهر الذي حالما أبلغ ضفته ألتف عائدة على أعقابني، عريضاً ويشطر المدينة شطرين. ولكي أبلغ الجسر الأبيض الذي يصل بين ضفتيه، تلزمني عشرون دقيقة. كنت أعشق ذلك المكان. فهناك اعتدت أن ألتقي هيتوشي الذي يقطن الضفة المقابلة، واستمر تعلقني بالمكان حتى بعد وفاته.
فوق الجسر المقفر الذي يهدده خريز المياه، كنت أتوقف

لاستراحة قصيرة محتسية الشاي الساخن من الترمس الذي أحمله معي. المروج البيضاء مترامية على مد البصر، مغطاة بضباب الفجر المائل إلى الزرقة، والذي يكتنف المدينة. كنت ألبث واقفة في الهواء النقي البارد الذي يخز الجلد، وأشعر بأني أقرب قليلا من «الموت». فالواقع أنني ما كنت أتنفس حقا إلا في كنف ذلك المنظر ذي الشفافية الناصعة. أكان ذلك لميل مازوشي إلي؟ لا أعتقد ذلك. فلولا تلك اللحظات لما عثرت في ذات نفسي على مقدار من الثقة يعينني على مواجهة نهار جديد. كنت في أمس الحاجة إلى ذلك المنظر، كان أمرا حيويا بالنسبة لي.

مجددا، في ذلك الصباح، استيقظت مجفلة كأنتي أطلع من لجة كابوس غامض. كانت الساعة تشير إلى الخامسة والنصف، وبدأت تباشير النهار رائعة فارتديت، على جري عادتي، ملابس غادرت البيت لمزاولة الجري. كان الجو لا يزال معتما والشوارع مقفرة. كان الهواء يشيع برذا قارسا والمدينة طافية على مد أبيض. وإلى الشرق بدت السماء النيلية موشاة بحمرة تدرجية.

كنت أبذل جهدا لكي أواصل ركضي بحماسة. وأحيانا، إذ تتسارع أنفاسي لاهثة، كان يخيل إلي أنني بمثابة على الجري كما أفعل، وحاجتي الماسة إلى النوم، إنما أعذب جسدي باستنفاد طاقته، لكنني سرعان ما كنت أطرده تلك الخاطرة من ذهني المشوش متذرعة بأنني سوف أتمكن من النوم عند عودتي. وفيما أعبر الشوارع الغارقة في صمت مطبق، كنت

أجد مشقة بالغة في الحفاظ على صفاء تفكيرى .
كان هدير مياه النهر يقترب، والسماء تبدل ألوانها بين
اللحظة واللحظة . ومن خلال صفائها المائل إلى الزرقة، تلوح
تباشير نهار مشمس .

حين بلغت الجسر، اتكأت، كالعادة، إلى الدربزين، ورحت
أنظر إلى المدينة ذات الحدود الغائمة، المكتنفة بالفضاء الأزرق .
كانت المياه تجري مصحوبة بهدير مسموع، حاملة في جريانها
دوامات من زبد أبيض وفضلات من كل نوع . وكان عرقى يجف
شيئا فشيئا، فيما نسيم منعش وافد من النهر يلفح وجنتى .
نصف قمر يظهر بوضوح في سماء شهر آذار الذي مازال
محتفظا ببرودته . كنت أنفث من فمى بخارا أبيض، ورحت -
من دون أن أحول عن النهر أنظارى - أسكب شايا في غطاء
الترمس . ولما هممت برشف الجرعة الأولى منه باغتني صوت
من الخلف حين خاطبني قائلا: «أي صنف من الشاي هذا؟
حبذا لو أحظى، أنا أيضا، بجرعة منه!»

لشدة ما ذهلت أوقعت الترمس في النهر، وبقي الغطاء،
الذي كنت قد سكبت فيه شايا ساخنا، في يدي .

ألقت نحو الصوت حائرة فإذا بفتاة باسمه الطلعة، واقفة
أمامى . لاحظت على الفور أنه تكبرني سنا، وإن كنت لا أستطيع
أن أخمن كم عمرها بالضبط . خمسة وعشرين عاما، ربما ...

كان شعرها قصيرا وعيناها واسعتين فاتحتين . وعلى الرغم
من أنها ترتدي معطفا أبيض فوق ثيابها، فهي لا تبدو متأثرة
بالبرد . وبدت وقفتها تلقائية كأنها لطالما كانت هناك .

بصوت رقيق، أحنّ نوعاً ما، قالت لي ضاحكة مبتهجة:
«ما جرى الآن يشبه قصة ذلك الكلب... ما اسمه، بالمناسبة،
أهو «غريم» أم «إيزوب»؟»

- الفارق، أحببتها قائلة بنبرة هادئة، انه حين رأى انعكاس
صورته في المياه أفلت قطعة العظم من خطمه، ولم يتسبب في
الأمر شخص آخر!»

- قالت باسمه: «حسناً» في المرة المقبلة سأحضر لك ترمسا
هدية!

- شكراً! قلت ضاحكة.

كانت رابطة الجأش بحيث أشعرتني بأني عاجزة عن
الغضب، لابل وجدت حتى أن ما جرى أمر تافه. ثم وجدت أن
فيها أمراً ما يجعلها مختلفة عن الناس الغريبي الأطوار
أو عن السكارى الذين يعودون إلى منازلهم عند بزوغ الفجر.
كانت نظرتها ثاقبة وعلى قدر مذهل من الوضوح... أما
وجهها فبدا مجرباً عميق السمات كأنها خبرت كل أحزان
العالم ومباهجه... ومنه يتأتى ذلك السحر الذي يشيعه
حضورها.

بعد أن احتسيت جرعة من الشاي لأرطب جفاف حلقي،
قلت لها: «هاك البقية، إنها لك، هذا شاي صيني، من صنف
«بو- إره» ومددت يدي نحوها ممسكة بالغطاء.

- «عافاك، إنني أعشق هذا الصنف!» أجابت مستثارة وهي
تأخذ الغطاء براحتيها الرقيقتين.

«لقد وصلت حديثاً إلى هنا. جئت من مكان بعيد» قالت

وعيناها تلتمعان بالحماسة التي يبيديها بعض المسافرين، ثم
حدقت بصفحة الماء.

- الفرض السياحة جئت؟ سألت وفي ظني أن لا أماكن
سياحية في الجوار.

- أجل! أما علمت؟ سوف يتاح لنا، في وقت قريب جدا، أن
نرى مشهدا استثنائيا لا يحدث إلا مرة واحدة كل مائة عام!
- مشهدا؟

- أجل، إذا سمحت الظروف...

- من أي نوع؟

- حتى الآن ما زال الأمر طي الكتمان. لكنني سأطلعك عليه،
أعدك بذلك، لأنك قدمت لي الشاي... قالت.

- ثم تبسمت ولم أجرؤ على طرح المزيد من الأسئلة. كان
الصباح قد صار وشيكا ولن يلبث أن يغمر العالم. الضوء
يمازج زرقة السماء وشعاعات خافته توشي الفضاء ببريق
أبيض.

وإذ هممت بالعودة، قلت لها: «حسنا، سوف أتركك!»
فرمقتني بنظرات مباشرة وعين تلتمع بصفاء السريرة: أدعى
أورارا. وأنت؟

- ساتسوكي.

- سوف نلتقي قريبا، قالت، وأشارت بيدها مودعة.

- أنا أيضا لوحت بيدي مودعة وغادرت الجسر. كانت تلك
الفتاة غريبة الأطوار. لم أفهم شيئا مما كانت تقوله، ولكن لا بد
أنها لا تحيا حياة اعتيادية. وكان أمرها يزداد غموضا كلما

تقدمت خطوة، ثم التفت وقد تملكني قلق غامض: كانت أورارا لا تزال فوق الجسر.

- كانت مستغرقة في مراقبة مياه النهر، متأملة. عندها أذهلني ما رأيته من الملمح الجانبي لوجهها: كان مختلفا كل الاختلاف عما رأيته منذ قليل. ذلك أني لم أر يوما، على وجه كائن بشري، ملمحاً يمثل تلك القساوة.

تنبعت إلى توقفي فلوحت بيدها مجددا، مبتسمة، فسارعت إلى التلويح بدوري وتابعت طريقي.

عساها من تكون؟ تردد السؤال في خاطري مرارا وتكرارا ذلك الصباح. وفي ذهني الذي كان يغالب النعاس، لم يبق محفورا سوى صورة تلك الفتاة الغريبة التي تدعى أورارا، باهرة تجللها هالة من الشمس.

كان لهيتوشي أخ يصغره سنا، وكان غريب الأطوار بعض الشيء. ففي طريقة تفكيره وفي أسلوبه في الحياة كان هناك دائما ما يدعو إلى الاستغراب، كأنه ترعرع على كوكب آخر، ثم أطلق في هذا العالم حين بلغ سن الرشد، وعثر فيه على مكانه... ذلك كان انطباعي عنه منذ أن عرفته. كان يدعى هيجراجي. وبلغ لتوه الثامنة عشرة من عمره.

ذلك اليوم، كان موعدنا في صالة للشاي، في الطبقة الثالثة من مبنى أحد المخازن الكبرى، بعد دوام المدرسة، ورأيتة مقبلا في زي مدرسي لتلميذة مرتديا فوقه قميص بحار.

شمرت وقتها بحرج فظيع، لكنه اقترب مني بتلقائية كأن

شيئا لم يكن، فتظاهرت بأني لم ألحظ شيئا. جلس قبالي
وسألني مستدركا أنفاسه: « أجعلتك تنتظرين طويلا؟ » وإذ
أشرت برأسي نافية، تبسم لي مبتهجا. حين جاءت النادلة
لتسأل عن طلباتنا حدقت به- وقد التبس عليها الأمر -
بنظراتها الحائرة من رأسه حتى أخمص قدميه.

لم يكن، من حيث المحيا، شديد الشبه بأخيه، غير أنني حين
كنت أنظر إلى شكل أصابعه، أو إلى بعض الملامح التي تتلبس
قسماته، كنت أشعر بأن قلبي سيتوقف عن الخفقان.
« أوه! » كعادتي في مثل تلك المواقف استغرقت في ضحك
متماد.

« ما الأمر؟ » سألني هيراجي محدقا بي، ممسكا فنجانه
بيده.

« إنك تشبهه... » قلت. فيما شرع، هو، بلعبة التظاهر تلك
والتي كان يسميها «تقليد هيتوشي»، وضحكنا كثيرا. إذ كنا
لا نستطيع أن نفعل أكثر من اللهو بجراحنا العميقة.
كنت قد فقدت حبيبا، أما هو فقد فقد، في الوقت نفسه،
أخاه والفتاة التي أحبها.

كانت تدعى يوميكو، وكانت في مثل سنه. فتاة جميلة،
منمنمة، تمارس رياضة التنس. وبما أننا كنا، نحن الأربعة، في
أعمار متقاربة أصبحنا أصدقاء وصرنا نقضي معظم أوقات
فراغنا سويا. وعندما أقصد هيتوشي في منزله، ألتقي هناك
يوميكو بصحبة هيراجي. وكم من السهرات أمضيناها ونحن
نتبارى للفوز في الألعاب الفكرية على أنواعها!

في ذلك المساء، كانت يوميكو قد جاءت للقاء هيجراجي، وأثناء اصطحابها بالسيارة إلى محطة القطار، قبل أن يوافيني، تعرض هيتوشي لتلك الحادثة. لم تكن غلطتها، لكنهما قتلا، على الفور.

«أما زلت تمارسين رياضة الجري؟ سألني هيجراجي.

- أجل.

- ومع ذلك سممت!

-هذا لأنني أتسكع طيلة النهار!!

وضحكت. فالواقع أنني كنت أفقد وزني بسرعة كبيرة .

« الرياضة وحدها لا تكفي للحفاظ على رشاقة الجسم.

اسمعي، لدي فكرة ! هناك مطعم أفتتح حديثاً قرب منزلي وفيه يقدمون أطباقاً لذيذة بالتمبورا . إنها غنية بالسعرات الحرارية. هيا بنا! الآن، على الفور!» قال. لم يكن لهيجراجي طبع هيتوشي نفسها، غير أن تربيتهما قد حبتهما تلقائياً، هما الاثنان، بلطف دونما ادعاء أو أفكار مسبقة. مثل ذاك اللطف الذي بدر من هيتوشي حين غلف بمنديله الجرس الصغير، بعناية كبيرة.

« إنها فكرة جيدة !» قلت.

كان الثوب الذي يرتديه هيجراجي تذكراً من يوميكو.

منذ وفاتها اعتاد أن يذهب إلى الثانوية مرتدياً ذلك الزي. كانت يوميكو تحب زيها المدرسي. أهله وأهلها رجوه أن يخلع تلك التنورة، لأن ذلك ماكان ليفرح يوميكو، كما زعموا. لكن هيجراجي قابل رجاءهم بضحكة ولم يرضخ. ولما سألته عما إذا

كان يرتدي ذلك الزي لنزعة عاطفية مغالية، أجبني بلا قاطعة،
وبأن الأموات لا يرجعون إلى الحياة، والأشياء ليست سوى
الأشياء. لكن ذلك يعينه على الاستمرار.

إلى متى سترتدي هذا الزي؟ سألته.

- لا أدري» أجبني قائلاً وقد بدا متجهماً.

« ألا يوجهون إليك ملاحظات غريبة؟ ألا تسري شائعات
رذيلة بشأنك بين طلاب المدرسة؟»

- لا، على العكس من ذلك... صدقيني إذا قلت إنني أحظى
بتعاطف الجميع، ولي حظوة منقطعة النظير لدى الفتيات...
ربما لأنني بارتدائي التنورة أدرك، على نحو أفضل، بماذا
يشعرن.

- «يسرني سماع ذلك!» قلت ضاحكة.

من خلال واجهات صالة الشاي المطلة، كنا نرى زرافات
العابرين الساعين وراء ما يحتاجون إليه من البضائع. ملابس
الربيع المعروضة في أجنحة ذلك المخزن الكبير، مشرقة تحت
الأنوار، وكل شيء عند اقتراب المساء يوحي بالسعادة.

فجأة أدركت حقيقة الأمر. فهذا الزي المدرسي هو بالنسبة
له كرياضة الجري بالنسبة لي. إنهما يؤديان دوراً مماثلاً،
والفارق الوحيد هو أنني كنت مكثفية برياضة الجري لأنني لست
غريبة الأطوار مثله. فهو يحتاج، لكي يبقى صامداً، إلى أمر
أشد وقعاً فاختر ذلك الزي. ولكن في كلتا الحالتين، لم يكن
ما اخترناه سوى وسائل من شأنها أن تخفف عن قلبينا
الممزقين وأن تلهينا بانتظار أيام أفضل.

خلال هذين الشهرين، ارتسم ملمح جديد على وجهينا.
ملمح الناس الذين يجهدون في عدم التفكير في من فقدوهم.
ارتسم الملمح على قسماتنا، على الرغم منا، في الظلمات
التي اكتتفتنا، والعزلة التي كانت تفرقنا أحيانا عندما نستعيد
ذكرى ما.

إذا كنا سنأكل في الخارج، فسينبغي أن أتصل هاتفيا
بالمنزل. وأنت؟ هل هناك ضير في أن تتعشي خارج المنزل؟
سألت وأنا أنهض من مكاني.

- أوه، صحيح! أبي غائب عن المنزل اليوم.
- والدتك وحيدة. إذا ينبغي أن تعود!
- لا، لا بأس، سأعمل على طلب وجبة لشخص واحد لأجلها،
بواسطة خدمة المنازل. مازال الوقت مبكرا، لذا أعتقد أنها
لم تعد الطعام بعد. ستفاجأ بوجبة مقدمة من ابنها!
- إنها فكرة لطيفة جدا!

- وترفع المعنويات، أليس كذلك؟
وضحك هيراجي ببهجة بادية. ففي مثل تلك المواقف، كان
ذلك الفتى الذي يبدو في العادة، بالغا، يستعيد بعضا من
ملامح المراهق.

ذات يوم من أيام الشتاء، قال لي هيتوشي: «لدي شقيق
أصغر مني، يدعى هيراجي».

وكانت تلك هي المرة الأولى التي كان يحدثني فيها عن هذا
الصبي. كان الطقس مثلجا، وتحت سماء رمادية ملبدة كنا
نهبط السلم الحجري في الناحية الخلفية من المدرسة. قال لي

هيتوشي وقد دس يديه في جيبي معطفه، والغبش الأبيض
ينبعث من أنفاسه: الغريب أنه بالغ أكثر مني...

بالغ؟ قلت ضاحكة.

أجل، كيف لي أن أفسر الأمر؟... إنه يمتلك مقدارا من
رباطة الجأش... ولكن في الأمور التي تمس العائلة، وهنا تكمن
المفارقة، يتصرف مثل طفل. أمس، جرح أبي، عن طريق الخطأ،
يده بشظية زجاج، فجن جنون أخي على نحو لافت، كأن العالم
قد انهار فجأة. أذكر ذلك الآن، لأن الأمر لم يكن متوقعا!

- كم عمره؟

- أوه... خمسة عشر عاما على ما أعتقد.

- أود أن ألتقي به.

- لكنه ذو مزاج خاص. لا أحد يصدق أننا شقيقان.

وأخشى إن عرفتك به أن تكرهيني أنا أيضا؟ صدقيني إنه
غريب الأطوار حقاً! قال بابتسامة زاخرة بما يشعر به من حنان
حيال أخيه الصغير.

- إذا سيكون عليّ أن أنتظر بعد، إلى اليوم الذي يصير فيه
حبنا من المتانة بحيث يمكنه الصمود حيال غرابة أطوار
شقيقك!

- طبعاً لا، إنها مجرد دعابة! ليست هناك مشكلة على
الإطلاق. إني واثق من أنكما ستتفقان. أنت أيضاً لك حصتك
من غرابة الأطوار، ثم ان هيراجي يجيد انتقاء الأشخاص
الذين يتمتعون بالطيبة!

- الطيبة؟

- أجل، أجل!

ضحك هيتوشي من دون أن يلتفت نحوي. فلطالما أشعرته
مثل تلك المواقف بشيء من الحرج.

كان السلم شديد الانحدار، ولا أدري لماذا حثثت الخطى.
كانت سماء الشتاء الموشكة على التلبد بالغيوم، تنعكس،
صافية، على زجاج نوافذ المدرسة المطلية بالأبيض.

أذكر حذائي الأسود الذي كان يطاء الدرجات، واحدة تلو
الأخرى، وجوربي الطويلين، وهذب تنورة زبي المدرسي.
في الخارج، كان الليل قد هبط منذ بعض الوقت، زاخرا
بروائح الربيع.

كان معطف هيراجي يستر تنورة التلميذة، مما أشعرني
ببعض الارتياح. واجهات المخزن الكبير المضاءة تنير الأرصفة
حيث يتدافع المارة، راشقة وجوههم ببريق أبيض. وكان الهواء،
على الرغم من عطره الربيعي الناعم، مازال محتفظا ببرودته
المعتادة، فأخرجت قفازي من جيبتي.

مطعم التمبورا الذي حدثتك عنه يقع على مقربة من منزلي،
فعلينا أن نسير قليلا! قال هيراجي.

- « سوف نعبّر الجسر ». أجبته قائلة، ثم لزمت الصمت..
تذكرت تلك الفتاة، أورارا، التي التقيتها هناك. منذ ذلك اليوم،
حرصت على أن أذهب إلى الجسر كل صباح، لكنني لم أرها...
كنت مستغرقة في أفكاري عندما خاطبني هيراجي فجأة
« بصوت عال: وطبعاً، سأصحبك في طريق العودة! » فالظاهر أن
صمتي المفاجئ أوحى إليه بأن طول المسافة قد أوهن عزيمتي.

«لا، لا داعي لذلك، لم يتأخر الوقت بعد!» أجبته على الفور وفي سري أقول هذه المرة: «كم تشبهه!» إذ لم يعد مجبرا على تقليده، لشدة ما اتضح أنهما شقيقان حقا. لم يكن من عادة هيتوشي أن يلغي المسافة التي وضعها بينه وبين الآخرين، غير أن لطفه ينبعث تلقائيا من كلامه، وكان ذلك المزيج من البرودة والعفوية يمنح قلبي شيئا من الصفاء. كان إحساسا عذبا. أحياء مجددا الآن بحنين، وبانفطار قلب.

«منذ بضعة أيام، ذهبت للركض صباحا، إلى أن بلغت الجسر، وهناك التقيت شخصا مثيرا للفضول. هذا ما جعلني ساهية منذ قليل، فقد تذكرت ما جرى، قلت له، وقد تابعت سيري.

- شخصا مثيرا للفضول... أكان رجلا؟ سأل هيرياجي ضاحكا. فالركض عند الفجر أمرا له مخاطرا!
- لا، لا، ليس هذا ما أعني! كانت امرأة. امرأة لن أنساها مهما حاولت.
- حقا؟... سيكون أمرا حسنا إن استطعت مقابلتها مجدداً.
- أجل...»

ما قاله كان صحيحا: فلا أدري لماذا، لكنني كنت راغبة بشدة في أن أرى أورارا مجدداً، مع أنني لم ألتق بتلك الفتاة سوى مرة واحدة. ولكن أي انطباع تركته لدي. في تلك اللحظة بالذات، أحسست بأن قلبي سيتوقف. كانت تبتسم برقة طوال الوقت، ولكن، مرة واحدة فقط، تغيرت ملامح وجهها، كأنها جنيّ تلبس هيئة إنس لم يلبث، إذ ضاق بما آل إليه، أن يمزق قناعه بعنف.

بدا الأمر مثيرا. وخيل إلي أن كآبتي وألمي لا يضاهايان شيئا مما كابدته من كآبةٍ وألم. وقلت في سري إنه ربما كان لا يزال هناك ما أفعله في هذه الحياة.

لما وصلنا إلى المنعطف الكبير في وسط المدينة شعرنا بضيق (أنا وهييراجي). هناك حصلت الحادثة التي أودت بحياة هيتوشي ويوميكو. كانت حركة المرور، على جري العادة، مزدحمة جدا. ضوء إشارة المرور أخضر، فتوقفنا جنبا إلى جنب.

« أتساءل أحيانا عما إذا كانت هذه النواحي لا تعج بالعائدين من الموت » قال هييراجي ضاحكا، لكن عينيه لا تضحكان.

« كنت واثقة من أنك ستقول ما قلت لتوك! »

أنا أيضا، ضحكت بمشقة.

كانت ألوان مصابيح السيارات تتقاطع، فيدلف إلينا سيل من الأنوار المتعرجة، وأضواء إشارة المرور عائمة كبقع فاتحة في لجة العتمات. هناك مات هيتوشي. شعور بالأسى تسلل إلى أعماقي. فحين يموت الناس الذين نحبهم، يتوقف الزمن إلى الأبد. « لو نستطيع، بوقوفنا عند الموضع الذي كانوا فيه، أن نشعر بألمهم... »، يقول البعض. فيما مضى، خلال زيارتي لقصر ما أو لموقع سياحي ما، كنت أشعر حين يقال لنا: « منذ سنوات طويلة كان فلان يتجول هنا، وبإمكانكم أن تتحسسوا ماديا ذلك الحضور المائل للماضي »، بأن كل هذا ليس سوى هذر، لكنني في تلك اللحظة كنت أرى الأمور على نحو مختلف. كان يخيل إلي بأنني أدرك حقيقة ذلك الكلام.

ذلك المنعطف، ألوان الليل التي عليها تطفو صفوف المخازن والمباني... ذلك كان آخر منظر أبصره هيتوشي. وقد حدث ذلك منذ وقت ليس بالبعيد.

أي مقدار من الخوف أحس به آنذاك؟ هل فكر بي ولو لثانية واحدة؟... والقمر، هل كان، مثل اليوم، يواصل صعوده إلى قبة السماء؟

«الإشارة حمراء!»

لو لم يدفعني هييراجي، من كتفي، لمكثت غارقة في أفكار مشوشة، ساهية أحرق بالقمر. كان ضياؤه الخفر الأبيض فاتنا، وبريقه بارد مثل لؤلؤة.

«إنه لذيذ جدا!» قلت. فقد كان طبق الكاكياجيدون(*)، الذي انهمكت في التهامه على طاولة الأكل في ذلك المطعم الصغير المفتوح حديثا والعابق برائحة الخشب، لذيذا إلى حد أشعرنني مجددا بالشهية العارمة.

«لذيذ جدا!» قال هييراجي.

- حقا، ممتاز. عندما يأكل أحدنا مثل هذا الطعام اللذيذ لا يندم لأنه جاء إلى هذه الدنيا!

حيال حماستي البادية تلك، شعر مالك المطعم، من وراء طاولته، بشيء من الحرج.

«كنت واثقا من ذلك! كنت أعلم أنك ستقولين ما قلت الآن! أنت تملكين حاسة ذوق مرهفة. وأناي سعيد جدا لأن الطعام هنا قد نال استحسانك!» قال دفعة واحدة، مبتسما، وذهب لطلب

(*) طبق أرز مع التمبورا.

طبق آخر يوصله ساعي الخدمة المنزلية إلى أمه.

إنني من طينة الناس الذين يتريثون في مكابدة التجارب، كما ينبغي علي أن أجر جر خطواتي متمهلة في هذا النفق، قلت في سري فيما ألتهم طبق الكاكيا جيدون. لكنني أود حقا أن يستعيد هيراجي، وبأسرع وقت، تلك الابتسامة، دون أن يكون عليه، لأجل ذلك، أن يرتدي تنورة التلميذة.

ذات يوم، وعلى نحو مباغت قرابة الظهر، اتصلت بي. كان الزكام قد أقعدني عن رياضتي اليومية، فلزمت السرير متكاسلة. كان رنين جرس الهاتف يتردد بإلحاح في رأسي المحموم فأجبرني على النهوض مشوشة الذهن. فالواضح أن لا أحد في البيت سواي، وعلي أن أسير حتى الرواق لكي أرفع السماعة.

- نعم.

- ألو! هل ساتسوكي هنا؟

- سمعت صوتا أنثويا مجهولا، يردد اسمي.

«أجل، هذه أنا...، أجبت بشيء من القلق.

«هذه أنا، قالت المرأة المتكلمة على الطرف الآخر من الخط،

أورارا»

صعقت للمفاجأة. لقد كان لها أن تدهشني للمرة الثانية.

فلم أكن أتوقع، إطلاقا، تلك المكالمات.

قد يبدو الأمر مباغتا بعض الشيء، ولكن هل أنت متفرغة

الآن؟ أليس بإمكانك أن تأتي إلي؟

ب... ب... حسنا، ولكن... كيف حصلت على رقم هاتفي؟

سألت بصوت مضطرب، كان واضحاً أنها تتصل بي من كابينة عمومية لأن هدير السيارات يتناهى إلى مسمعي، وشعرت بأنها كانت تبتسم.

«عندما يصر المرء على الحصول على شيء فلا بد أن يحصل عليه» أجابت وكأنها تتلو تمويذة سحرية. وكان كلامها تلقائياً، حيث إنني أحجمت عن طرح المزيد من الأسئلة.

«حسناً إذًا، سنلتقي في الطبقة الرابعة من المخزن الكبير قبالة المحطة، في جناح بيع الأواني المنزلية»

وأقفلت الخط.

في العادة، حين أكون مصابة بركام كما كانت حالي عند اتصالها، لا تراودني رغبة في مفادرة الفراش مهما كان الداعي. فما أن وضعت السماعة، رحت ألوم نفسي لأنني قبلت. كانت ساقاي واهنتين، وإحساسي بأن حرارة جسمي سوف ترتفع. لكني، مدفوعة بالفضول لأن التقيها مجدداً، شرعت في ارتداء ملابس، بلا تردد، كأنما بصيص الفريزة الغامز في أعماق قلبي، يحثني على الذهاب.

عندما أستعيد، الآن، ما جرى، يخيّل إلي أن قدري كان سلماً ولزماً علي ألا أخطئ درجة واحدة منه. فإن أخطأت واحدة لما تمكنت من بلوغ قمته. ومع ذلك كان الاستسلام للسقوط منه من أيسر الحلول. إن ما قاد خطواتي، كان، بالتأكيد، ذلك البصيص الخافت الذي طالما بقي ملتصقاً في قلبي المشرف على الموت. تلك الشرارة في كنف العتيمات، والتي كم وددت ألا أبصرها لكي أستطيع أن أنام.

ارتديت ملابس دافئة وانطلقت على دراجتي. كان نهارا
مكتنفا بضوء فاتر يبشر حقا بقدوم الربيع. وكانت النسمات
التي هبت لتوها تلفح وجنتي بعدوبة. في الشوارع، أوراق
خضراء، نابئة، تنعقد على غصون الأشجار. وكانت زرقة
السماء الشاحبة، المتعكرة قليلا، تنبسط مترامية.

حيال ذلك المقدار من الطراوة، أحسست كم أن كل شيء في
قد صار يابسا. لم يستطع مشهد الربيع أن يتسلل إلى قلبي.
كان يحوم على السطح منعكسا عليه كفقاعة صابون. كان كل
شيء يتنفس ويزداد ألقا مشبعا بأشعة الشمس الرقيقة. وسط
ذلك المنظر المفعم بالحياة كنت أتحسر على الشوارع المقفرة
في الشتاء، ومجرى النهر الجاف عند الفجر. وكنت أود لو
أنكسر نثارا وأتلاشى.

كانت أورا را واقفة أمام رفوف الأواني المنزلية. كانت ترتدي
بلوفر زهريا، وتقف منتصبية القامة وسط جمهرة، لكنها، تلك
المرة، بدت لي في مثل سني.

«صباح الخير! قلت مقترية منها»

ماذا، هل أنت مصابة بالزكام؟ قالت بادية الدهشة.
أعذريني! لو كنت أعلم...

هل أبدو مزكومة؟ سألت ضاحكة.

أجل، يبدو الاحمرار على وجهك! إذا، هيا اختاري بسرعة
ما يعجبك منها... قالت وقد استدارت نحو الرفوف. أتفضلين
ترمسا كبيرا؟ ولكن ربما كان من الأفضل أن تختاري الأخف
وزنا ليسهل عليك حمله أثناء الجري... خذي، مثلا، هذا

الترمس هو نفسه الذي فقدته ذلك اليوم! أما إذا كنت تفضلين الجميل ذا الطابع الفني فما علينا إلا أن نقصد جناح البضائع الصينية.

كانت تتكلم بحماسة جعلتني أشعر باحمرار وجنتي لشدة سروري.

«حسنًا إذا، سأكتفي بهذا» قلت مشيرة بإصبعي إلى ترمس صغير الحجم، أبيض براق.

«أيتها الزبونة العزيزة، أرى أنك تجيدين الاختيار!» أجابت أورارا، وابتاعته لي.

أثناء جلوسنا لاحتساء الشاي في مقهى متواضع، في الطبقة الأخيرة من المخزن الكبير، قالت لي أورارا: «خذي، أحضرت لك هذه!» وأخرجت من جيب معطفها أكياسًا صغيرة. وأذهلني عددها الكبير.

أعرف بائع شاي، فطلبت منه أن يعد لي مجموعة من الأصناف المختارة. فهنا تجدين كل أنواع الأعشاب والشاي الإنجليزي والشاي الصيني... أسماؤها مدونة على الأكياس. فقد خطر لي أنك ربما يستهويك أن تجربها جميعًا للء الترمس.

شكرا جزيلا!

لا تشكريني! لقد كنت السبب في سقوط ترمسك الغالي في مجرى النهر!»
وضحكت.

كان الطقس جميلا بعد ظهر ذلك اليوم، والرؤية واضحة،

كانت أشعة الشمس تضيء على المدينة بريقا صارخا يكاد أن يترك في القلب لوعة، أما ظلال السحب إذ تتنقل متمهلة، تقسم شوارع المدينة بين نطاقات ظل ونطاقات ضياء. كان نهارا هادئا. لم يكن بمقدوري، بسبب أنفي المزكوم، أن أتمتع بمذاق ما أحسّيه، ولكن فيما عدا ذلك، كان كل شيء على أحسن ما يرام. كان طقسا هادئا جدا!

أخبريني... بصراحة، كيف حصلت على رقم هاتف؟ أقسم بأن ما قلته لك هو كل الحقيقة، أجابت مبتسمة. عندما يحيا أحدنا وحيدا لفترة طويلة، منتقلا على الدوام من مكان إلى آخر، فإن ذلك سيؤدي إلى شحذ بعض الحواس لتصبح كتلك التي تمتلكها الحيوانات البرية. ولا أدري منذ متى نمت في مثل هذه الأمور... إذ حاولت أن أحزر رقم هاتف ما.. رقم هاتفك، على سبيل المثال: يكفي أن أضع يدي على قرص الأرقام، وعندئذ تتحرك أصابعي من تلقائها، وفي الأغلب يكتب لي التوفيق!

في الأغلب؟ قلت، مبتسمة.

أجل، في الأغلب. فعندما أخطئ، أعتذر بلطف وأضع السماعة. ثم، لخجلي، تحمر وجنتاي قليلا، وينتهي الأمر! ثم راحت تضحك مبتهجة.

هناك بالتأكيد وسائل عملية لا تحصي للحصول على رقم هاتف ما، لكنني كنت أريد أن أصدق ما حكته لي بتلقائية مذهلة. لقد كانت تملك في شخصيتها ذلك الشيء الذي يوحي بالثقة، وكان جانب مني يسر إلي بأنني لطالما عرفتها، ويبكي

فرحا لأنه عثر عليها مجدداً.

أشعر بامتنان عميق لأنك أتحت لي أن ألتقيك هذا اليوم.
لقد أسعدني ذلك كثيراً، كمن يلتقي حبيباً!

في هذه الحال، اسمعي جيداً يا صديقتي الحسنة: أولاً
يجب أن تتعافي من زكامك بعد غد على الأكثر!

لم؟ آه، بلى... المشهد الذي حدثني عنه، أسيحدث بعد غد؟
لقد حزرت! إذاً اسمعيني جيداً: عليك بالكتمان التام!
وأردفت أورارا قائلة بصوت خفيض: «إذا تمكنت، بعد غد، من
الحضور عند الخامسة إلا ثلاث دقائق في أبعد تقدير، إلى
المكان الذي ألتقينا فيه ذلك اليوم، ربما أتيح لك أن تشهدي
أمراً...»

أمراً؟ ولكن ما هو؟ عما تتحدثين؟ هل من الممكن ألا أشهد
شيئاً؟

أكان ممكناً ألا أعاجلها بكل تلك الأسئلة؟

الأمر منوط بما سيكون عليه الجو ومنوط بحالتك أيضاً.
ولأن المسألة دقيقة، لا يسعني ضمان أي شيء. ربما كنت
مخطئة، ولكن حدسي يسر لي بأن ثمة صلة وثيقة بين النهر
وبينك. لذا أجدني واثقة من أنك سترين شيئاً. بعد غد، عند
الساعة التي ذكرتها، فقد نشهد في ذلك المكان، إذا اجتمعت
الظروف المواتية، سراباً ما لا يظهر إلا مرة واحدة كل مائة
عام. وأرجو أن تعذري كثرة استخدامي لـ «قد» و
«ربما...»

لم تبدد تلك الشروحات التي لم أدرك مغزاها شيئاً من

حيرتي، لكنني أحسست بقلبي مختلجا لا يطيق صبرا على انتظار اليوم الموعود، هو الذي لم يعرف أمرا مماثلا منذ وقت طويل.

أهو أمر جيد؟

أوه... لنقل إنه أمر نادر بأية حال. لكن كل شيء منوط بك. قالت أورارا.

بي أنا؟

منوط بي، أنا المسحوقة، التي لا تعرف حتى كيف تحمي نفسها...

حسنا، سأكون هناك!

ورحت أضحك.

صلة ما بيني وبين النهر. أجفلي ترددات تلك الكلمات، فقلت في سري: «بلى، هذا صحيح!» فذلك النهر هو الحد الفاصل بين هيتوشي وبينني. وعندما أعبّر الجسر يتراءى لي هيتوشي، على الفور، منتظرا قدومي في ذلك المكان. كنت دائما أصل متأخرة، ودائما أجده هناك. وفي طريق عودتنا كنا دائما نفترق على ذلك الجسر، لكي يعود كل منا إلى منزله. وهناك أيضا رأيته للمرة الأخيرة.

أستذهب هذا المساء إلى بيت تاكاهاشي؟

آخر حديث بيننا بدأ بهذه العبارة. كنت، آنذاك، لا أزال سعيدة، وأقل نحولا مما أنا عليه اليوم.

أجل، ولكن ينبغي أولا أن أعرج على البيت. منذ مدة طويلة لم نلتق كأصحاب فيما بيننا.

بللهم تحياتي. وبما أن السهرة مقتصرة على الفتیان، أحسب
أنكم ستتمادون في سرد بذاءاتكم!

طلبها! وما العيب في ذلك؟ أجاب ضاحكا.

كنا قد أمضين نهارا ممتعا، ثم تمشيننا، فرحين لا مبالين،
بما يشبه الثمالة. كان برد الشتاء يتسرب إلى عظامنا، والسماء
الليلية البديعة تضيء على الشوارع قبسا من روعتها. كان
مزاجي رائعا والهواء ينخز وجنتي، والنجوم تلمع. وكنت أشعر،
داخل جيبه، بالدفء العذب لكفينا المتشابكتين.

اطمئني، لن أخبرهم عنك ما قد يزعجك!

أضحكتني تلك العبارة التي أضافها بما يشبه الاستدراك،
فأحكمت رباط الوشاح حول رأسي لكي أكتم ضحكة عفوية.
ثم رحت أسأل في سري: «كيف يعقل أن أحبه بالمقدار نفسه
منذ أربع سنوات إلى اليوم؟» وحين أستعيد تلك الذكرى، الآن،
يخيل إلي أنني كبرت عشر سنوات منذ ذلك الحين. كنت أسمع
خير مياه النهر وأشعر بالحزن لأنني سأفترق عن هيتوشي.

عند ذلك الجسر. هناك افترقنا من دون أن ندرك أن فراقنا
ذاك سيكون إلى الأبد. كان النهر يجري بهدير يسري في
جسمينا مثل لسعة البرد، وريح صقيع تلسع وجهينا. افترقنا
مصحوبين بهددة المياه المنعشة، تحت سماء مرصعة بالنجوم،
بعد أن تبادلنا قبلة خاطفة، ضاحكين لذكرى عطلة الشتاء
التي قضيناها مغمورين بالسعادة. ثم ابتعد الجرس الصغير
الذي تردد رنينه في قلب الليل. كنا مفعمين بالحنان الغامر
الذي كان كل منا يكرهه للآخر.

لقد عشنا مواقف رهيبة وبعض الخيانات الطفيفة أيضا .
كنا نتعذب أحيانا، ممزقين بين الرغبة والحب، وغالبا ما كنا
نؤذي بعضنا البعض لانعدام خبرتنا في الحياة. طيلة الأعوام
الأربعة تلك، الزاخرة بكل التقلبات، لم تكن الأمور دائما
يسيرة. ومع ذلك كانت سنوات جميلة. وذلك اليوم بالذات
كان مثاليا.. كان مثاليا إلى حدٍ رجوت معه ألا ينتهي،
وفي اللحظة، وكأن النهار الرائع الذي أمضيناه معا لا بد أن
يبلغ ذروة روعته، استدار هيتوشي ملتفتا نحوي. ومازلت إلى
اليوم، أذكر سترته السوداء التي ذابت، نائية، في لجة
الظلمات.

كم مرة أعادت لي الذكرى تلك الحظات وأبكتني! كلما
تذكرتها تنهمر الدموع من عيني. وكما مرة أيضا رأيت الحلم
نفسه: أعبّر الجسر راكضة لكي ألحق بهيتوشي، وأتوسل إليه
بألا يذهب، فأعيده إلي. وعندئذ كان يقول لي ضاحكا:
«بفضلك أنت نجوت من الموت!»

بمضي الأيام ما عادت تلك الصور تبكيني حين أستعيدها
في ذاكرتي، بل إنها كانت تجعلني أشد حزنا: أما هيتوشي
الذي كان بعيدا جدا بدا لي أنه يبتعد أكثر فأكثر.

تركت أورا را غير مقتنعة كليا «بذاك الشيء الذي قد يظهر
لي بقرب النهر»، مع أن قلبي كان مضطربا بما يشبه الرجاء.
ثم توارت مبتسمة في شوارع المدينة.

قلت في سري إنه حتى لو كانت مجرد فتاة مولعة بالكذب،
وحتى لو كنت سأخضع بعد أن أهرع لملاقاتها عند الفجر،

حافظة القلب، فلن يبدل ذلك من الأمر شيئاً. فبفضلها انبثق
قوس قزح في أعماقي، وبفضلها هي شعرت ببهجة غامرة
تنبعث في كتلك البهجة التي نبديها حيال الغير المتوقع، وانتعش
قلبي بنفحة هواء، حتى لو لم يحصل شيء، فلمجرد أن ألبث
بجانبيها مستغرقة في تأمل مياه النهر الجارية، باردة لامعة في
الصباح الباكر، سوف أشعر بأني على أحسن حال. وكان ذلك
يكفيني.

كنت أسير حاملة الترمس تحت إبطي، مستغرقة في التفكير
في كل هذا. وفيما كنت أجتاز المحطة لاستعادة دراجتي، لمحت
هييراجي.

كنت أعلم أن عطلة الربيع لم تبدأ بعد بالنسبة للمرحلة
الثانوية. وإذا كان هييراجي يتسكع في شوارع المدينة فترة بعد
الظهر من دون زي التلميذة الذي اعتاد ارتدائه، فهذا يعني أنه
يتخلف عن حصص الدراسة. ولمجرد التفكير في مثل هذا
الاحتمال رحت ابتسم.

كان بإمكانني أن أناديه وأن أهرع للحاق به، لكن ذلك
من شأنه أن يتعبني بسبب الحمى. فسرت باتجاهه دونما
استعجال. في تلك الأثناء شرع في السير فوجدتني، من دون
قصد، أتبعه مثل مخبر. ولأنه كان يسير مسرعاً ولم أكن
راغبة في الجري وراءه، وجدت نفسي وراءه بمسافة لا بأس
بها.

كنت أراقبه في سيره. وبدأ لي في ملابسه الاعتيادية، فتى
وسيماً من شأنه أن يلفت الأنظار إليه. كان يرتدي كنزة سوداء

ويسير بخطى ثابتة. طويل القامة، متناسق الجسم، رشيق الحركة. قلت في سري من دون أن أحيّد بنظري عنه، إن فتيات مدرسته قد ازددن شغفاً به، بلا ريب، حين رأينه، بقوامه هذا، مرتدياً تنورة تلميذة، وعلمن - فيما بعد - أنها تنورة حبيبته، فليس من الشائع بين الناس أن يفقد المرء أخاه وحبيبته في الوقت نفسه معاً. إنها ذروة الرومانسية. أنا أيضاً كنت تولّعت بغرامه لو كنت تلميذة متبذلة ولبذلت ما أستطيع لكي أعيده إلى الحياة. فالفتيات، في صباهن الباكر، يعشقن مثل هذه القصص.

إذا ناديته، فمن المؤكد أن هيراجي سيبتسم لي. أعلم ذلك جيداً. مع ذلك، ومن دون سبب، تخرجت قليلاً من مناداته فيما هو يسير وحيداً، بالإضافة إلى إحساسي آنذاك بأن المرء عاجز عن فعل أي شيء لمساعدة أي إنسان. لا بد أنني كنت متعبة حقاً. فلا شيء يتسلل مباشرة إلى قلبي. وددت أن أهرب على جناح السرعة، لكي أصل إلى المكان حيث الذكريات لا تكون، أخيراً، سوى مجرد ذكريات. ولكن مهما ركضت وركضت، كان الطريق لا يزال طويلاً، ومجرد التفكير في المستقبل يجعلني أرتعد من الحزن.

في تلك الأثناء توقف هيراجي بغتة، وتلقائياً توقفت مثله. إنه تعقب فعلي، قلت في سري مبتسمة، وإذ هممت بالاقتراب منه هذه المرة أدركت، فجأة، سبب توقفه فتراجعت إلى الوراء. كان يتطلع إلى واجهة مخزن لبيع لوازم التنس. وبدأ من ملامحه الساهية أنه ينظر إلى الواجهة بشرود. غير أن

ملامحه الساهية تلك كانت هي التعبير الأبلغ عما يختلج في أعماق نفسه كالارتكاس لدى بعض الحيوانات، قلت في سري، كفرخ البط الذي يتبع كل ما يتحرك أمامه ظنا منه أنه يتبع أمه! وقد يبدو سلوكه هذا مؤثرا، لكنه فطر على ذلك. شعرت بأن قلبي ينقبض.

في غمرة ضياء الربيع، بين المارة، كان هيراجي لا يزال مستغرقا في تطلعه إلى الواجهة. فمن المؤكد أن كل ما له صلة بلعبة التنس يجعله يشعر بالحنين. أعرف ذلك لأن لهيراجي تأثيرا مماثلا علي أنا: مجرد حضوره كان يشعرني بالارتياح، لأن حضوره كان يذكرني بهيتوشي. وكل هذا يدعو للحزن. أنا أيضا، تابعت، ذات يوم، دورة تنس شاركت فيها يوميكو، عندما عرفوني بتلك الفتاة وجدت أنها لطيفة، لكنها بدت لي عادية جدا، بلطفها وإقبالها على الحياة، فلم أدرك ما الذي فيها قد يجذب فتى غير اعتيادي كهيراجي الذي كان مولعا بها. في الظاهر بقي هو، كما تعرفه، لكن شيئا ما لدى يوميكو كان يفتنه. قوة ما كانت تجعلهما متساويين. فسألت هيتوشي مستفسرة عما قد يكون هذا الشيء. إنه التنس! قال ضاحكا.

التنس؟

أجل. هيراجي يرى أنها لا تقهر! كنا في فصل الصيف. وكنا قد شاهدنا أنا وهيتوشي وشقيقه مباراة نهائية لعبتها يوميكو على ملعب المدرسة، تحت شمس حارقة. كانت الظلال كثيفة، والحر يجفف الحلق. كان كل شيء باهرا في ذلك الوقت.

وكانت يوميكو خصما لا يستهان به بالفعل. كأنها استحوالت شخصا آخر، حتى أنني لم أستطع أن أرى فيها تلك التي كانت تتبعني بابتسامة طفلة وديعة. كنت أشاهد المباراة مذهولة. هيتوشي بدا مذهولا هو أيضا. أما هيراجي الذي بدا عليه الفخر، فلم يكف عن تردد قوله: «أرايتم، أنها رائعة!».

كانت تضغط بقوة بأداء مقتدر، شديد التركيز، لا يترك للخصم أي هامش للاسترخاء. وكانت حقا مثيرة للإعجاب. بتعابير وجهها شبه القاتلة التي تذكر بحيوان شرس. ولكنها ما أن أحرزت الفوز بضربة نهائية حاسمة، حتى طالعت هيراجي بابتسامة طفولية، مستعدة، بسرعة لافتة، ملامح وجهها المعتاد.

خلال صحبتنا، نحن الأربعة، أمضينا أوقاتا رائعة. كانت يوميكو غالبا ما تردد على مسمعي قولها: «ساتسوكي، أود أن نبقى دائما أصدقاء! يجب ألا تنفصلي عن هيتوشي!»، فأجيبها بنبرة ساخرة: «وماذا عنكما أنتما؟ فتضحك دائما قبل أن تجيبني: «نحن! أجل، بالتأكيد!».

ثم جرى ما جرى. وكان ذلك حقا صعب الاحتمال. لم يكن هيراجي مثلي. فمن المؤكد أنه اليوم ما عاد يفكر في يوميكو. فالشبان لا يجاملون أنفسهم بمساكنة الألم. غير أن جسده وعينه يفصحان عما هو أبلغ من أي خطاب. ولن يصوغه طبعاً، ولن ينطق به، فمثل ذاك أمر بالغ القساوة، أمر مفرط في قسوته أن يتلفظ بما يشبه هذه الكلمات:

«كم أود أن تعود»

في ما يشبه الصلاة. كم يحزنني هذا كله! هل بدوت بمثل هذا الضياع، عند الفجر، قرب النهر؟ أهذا ما حدا بأورارا إلى التطفل علي للتعرف بي؟ أنا أيضا... أنا أيضا، أود أن أراه. أن أرى هيتوشي مجددا. كنت أريد أن يعود. كنت أريد، على الأقل، أن أودعه.

آخر الأمر، تخليت عن محاولتي الاقتراب من هيراجي، وغادرت المكان عازمة على أن أكون مبتهجة حين ألتقيه مرة ثانية، وألا أخبره بأني رأيته ذاك اليوم.

كانت الحمى قد اشتدت علي بوضوح، وهذا تحصيل حاصل. فما المتوقع إذا كان المحموم يجول متسكعا في شوارع المدينة بدلا من أن يلزم فراشه؟

«أليس ممكنا أن يكون التهاب النقي(*)؟» قالت أومي ضاحكة. فأجبتها بابتسامة خاطفة. لعل ما تقوله صحيحا. ففي آخر الأمر، ربما يكون سم أفكاره غير المفيدة قد انتشر في جسمي.

تلك الليلة، ككل ليلة، رأيت هيتوشي في الحلم. فعلى الرغم من الحمى كنت أركض باتجاه النهر، وكان واقفا على الجسر وسألني ضاحكا: «ولكن ماذا تفعلين هنا وأنت مصابة بمثل هذا الزكام؟» كان الأمر مريعا. فتحت عيني فإذا النهار لم يبرز إلا قليلا: وكان الوقت قد شارف الساعة التي أرتدي فيها ملابسني، وأنطلق لممارسة رياضتي. يا للبرد، يا للبرد

(*) التهاب عظام المخ الذي يسبب حمى شديدة.

القارس! كان جسدي محموما، لكن يدي وقدمي مجمدة،
وأرتعد كالغصن اليابس وأعضائي كلها تؤلني.

كنت مرتعدة وعياني مفتوحتان في العتمة، خيل إلي أنني
أصارع كائنا ضخما، مفرطا في ضخامته. وللمرة الأولى في
حياتي قلت في سري إنني قد أهزم.

كان فقدان هيتوشي أمرا مؤلما.. مؤلما جدا.

كنت كلما ضمنني بين ذراعيه أتعلم عبارات بلا كلام.
وكنت أدرك غرابة أن أكون قريبة من كائن آخر، من أحد
ما غير أبي أو أمي أو نفسي ذاتها. وبفقداني يديه وقلبه
خبرت أكثر ما يمقت الناس شهوده، ولامست جبروت أعماق
ما قد يكابد من اليأس. كنت حزينة.. بكل قسوة الحزن. ففي
حاضري كنت أحيا الأسوأ، وإن تمكنت من تجاوزه فلا بد من
وجود صباحات أخرى، وأمور مبهجة من شأنها أن تحتني
على الضحك. لو كان النور يتدفق.. لو كان النهار يجيء.

لطالما أعانتني تلك الفكرة على التحمل، ولكن، في ذلك
الصباح، إذ وجدتني حتى عاجزة عن النهوض للذهاب إلى
النهر، لم أشعر إلا بالألم. كان الوقت الذي ينقضي فاترا وبلا
طعم. وكنت شبه موقنة بأنني إذا ركضت حتى الجسر، فسوف
أجد هيتوشي هناك، كما في حلمي. خيل إلي بأنني واقفة على
حافة الجنون، بأنني أتعفن في مكاني.

بعد نهوضي متباطئة كالحلزون، سرت باتجاه المطبخ لكي
أشرب شايا. كان حلقي جافا على نحو مريع. بدا لي البيت،
تحت تأثير الحمى، معوجا ممطوطا كما في لوحة سريالية،

أفراد الأسرة كلهم نائمون والمطبخ غارق في البرودة والعمى. أعددت، وأنا أغالب نعاسي، شايًا ساخنًا جدًا وعدت أدراجي إلى غرفتي.

أشعرني الشاي بأنني أصبحت أحسن حالًا. وإذ رويت عطشي، صار تنفسي أقل ضيقًا.. فنهضت لكي أرفع الستائر عن النافذة المحاذية لسريري.

من هناك كنت أستطيع أن أرى بوابة المنزل وكذلك الحديقة. كانت الأشجار والأزهار ترتعش برفق في الهواء المائل إلى الزرقة، مشكلة منظرًا عريضًا من لون واحد. كان المنظر جميلًا، وكل شيء فيه يبدو غاية في النقاء، مغلفًا بزرقة الفجر!

كنت قد فطنت إلى كل ذلك منذ عهد قريب. وفيما كنت أتطلع إلى ما يجري في الخارج لمحت، على الرصيف أمام البيت، خيال شخص مقبل سيرا على الأقدام. حين اقترب رحت أفرك عيني كأن ما أراه حلمًا: كان الشخص المقبل نحوي هو أورارا. كانت تسير باتجاهي، مرتدية ملابس زرقاء، وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة عريضة. توقفت أمام البوابة، وقرأت حركة شفتيها تتمتمان: «هل أستطيع الدخول؟» أشرت برأسي «بلى». فاجتازت الحديقة وأقبلت نحوي حتى أسفل النافذة. فتحت الزجاج، وكان قلبي يخفق بقوة.

«ياله من برد قارس!» قالت. ومالبث الهواء الجليدي، الذي انسل إلى غرفتي، أن رطب وجنتي الملتهبتين من الحمى. كان الهواء العذب منعشًا.

«ما الذي أتى بك إلى هنا؟» سألت. ولا بد أنني ضحكت من البهجة مثل طفلة صغيرة.

«إني في طريق عودتي من نزهتي الصباحية. يبدو أن زكامك لم يتحسن بعد. هاك، هذه أقراص بالفيتامين ج». وناولتني بضع أقراص من جيبها. كانت ابتسامتها عذبة. «شكرا جزيلا»، سارعت إلى القول بصوت أبح. يبدو أن الحمى شديدة عليك. إنه أمر شاق، أعلم. أجل، حتى لقد ألفتني هذا الصباح عاجزة عن الركض. وكنت أشعر برغبة شديدة في البكاء.

إن زكامك، قالت أورا را بهدوء وبإغضاء طفيفة، قد بلغ الآن ذروة احتقانه، وهذه بالتأكيد مرحلة أضنى من الموت. ولكن بعد ذلك، فإن الأمور تتحسن بالتأكيد، لأن حدود الاحتمال مختلفة لدى الجميع. قد تصابين مرات أخرى كثيرة بالزكام، وسيكون عليك أن تكابدي مرارا ما تكابدينه الآن، ولكن إذا تحملت فلن تكون شاقة عليك كما هي حالك اليوم. الأمور دائما تجري على هذا النحو. طبعاً هناك من تحببطه فكرة أن المصاعب ستتكرر، ولكن بإمكاننا دائما أن نقول مقتنعين إن الأمور قد تكون أسوأ، وإذ ذاك تصبح الأمور أقل شقاء، أليس كذلك؟ وتبسمت لي.

لزممت الصمت حائرة جاحظة العينين. هل كان الزكام فقط هو ما حدثتني عنه؟ هل كانت تحاول أن تفهمني أمرا آخر؟... زرقة الفجر والحمى كانتا تغشيان كل شيء، وكنت قد كففت عن التمييز بوضوح بين الحلم والواقع. وإذ انحفرت

كلماتها في صميم قلبي، رحت أحرق، ساهية، بغرتها التي كان يداعبها النسيم.

«حسنا، إلى الغدا» قالت أورارا مبتسمة، وأغلقت النافذة من الخارج. ثم غادرت مجتازة البوابة بخطى رشيقة راقصة. رحت أنظر إليها وهي تبتعد وبني إحساس بأني عائمة في لجة حلم. كنت مغتبلة لأنها جاءت للاطمئنان إلى حالي على أثر تلك الليلة القاسية! وكانت فرحتي لتبكي. ولو وددت أن أخبرها كم أسعدني مجيئها في ذلك الضباب المائل إلى الزرقة كأنه طالع من حكاية خرافية، حتى أنني حسبت أن الأمور ستكون أفضل قليلا حالما أستيقظ. ثم غرقت في نوم عميق.

عندما فتحت عيني.. أحسست، على الأقل، بأن الزكام قد صار أخف. لقد نمت نوما هائلا وكان المساء قد حل منذ بعض الوقت. نهضت واغتسلت، وبعد ارتدائي ملابسني نشفت شعري. خبت الحمى قليلا، وما عدا إحساسي بشيء من الخمول، كنت في حال أفضل.

هل جاءت أورارا حقا، رحت أسأل في سري فيما هواء مجفف الشعر الساخن يلفح خدي. فقد بدا لي كل شيء أشبه بالخيال... وكلامها هل كان حقا عن زكامي؟ فقد ترددت كما تتردد أصداء في حلم.

على وجهي المنعكس على المرأة كان يلوح ظل خفيف، هذه علامة تدل على أن ليالي أخرى قاسية حقا كالذبذبات التي تنتج عن صدمة ستأتي بعد. كنت أشعر بالإعياء. منهكة إلى

حد يجعلني غير راغبة في التفكير بما ستكون عليه الليالي المقبلة. ومع ذلك، كنت مصممة على النجاة حتى ولو زحفا. كان تنفسي، ذلك اليوم، أقل مشقة مما كان عليه البارحة. ومع ذلك، فإن مجرد التفكير في احتمال أن تمر علي ليال من العزلة الطاحنة، كان يحبطني بعمق.. تلك هي الحياة إذا! تكراراتها الأبدية! لمجرد التفكير كانت تسري في جسمي رعدة. ولكن، في الوقت نفسه، كان الأمر عظيما لدرجة أن قلبي تأخذه العرشة، حيث يمكن الجزم بأن يوما ما سيأتي حتما، فيه نتنفس بشكل أفضل.. هناك أمل قابل، على الدوام، أن يولد من جديد.

وأخيرا ارتسمت على وجهي ابتسامة، حيال تلك الخاطرة. وكان لانخفاض وطأة الحمى المفاجئ تأثيره المباشر على قدرات ذهني كما لو كنت رجلا ثملا. في تلك الأثناء سمعت طرقا على الباب. «أجل، أجل»، أجبت بلا كلفة، ظنا مني أنها أمي. فتح الباب وإذا، لدهشتي الكبيرة، بهييراجي أمامي. لم أكن أتوقع قدومه على الإطلاق.

لقد نادتك أمك أكثر من مرة، وبما أنك لم تردني أبدا... قال.

مجفف الشعر هو السبب.. لم أسمع شيئا. شعرت بشيء من الحرج بسبب شعري المبلل والأشعث، لكن هييراجي، الذي لم يعر الأمر انتباها، قال لي مبتسما: «لقد اتصلت بك هاتفيا، وأخبرتني أمك أنك أصبت بنزلة قوية، ضرب من التهاب النقي وها أنا جئت إليك بزيارة قصيرة».

فجأة تذكرت أنه كان غالبا ما يأتي إلى منزلي بصحبة هيتوشي. أيام الأعياد، أو في طريق العودة من مباراة بايسبول... وبعضوية لا مثيل لها أمسك بأريكة وتهالك جالسا عليها. كيف أمكن لي أن أنسى كل هذا؟

«هذه هدية للمريضة!» وضحك هييراجي وهو يقدم لي كيسا كبيرا من الورق. عندها لم أجرؤ على القول بأني تعافيت من زكامي، كان لطفه غامرا بحيث وجدني مجبرة على السعال. إنه سندويش الدجاج «كنتاكي فرايد تشيكن» الذي تعشيقينه وحلوى مثلجة، ومعها شراب كوكاكولا. وأحضرت مثلها لنفسني، سوف نتناول الطعام سويا!

كان يعاملني كشيء هش، قابل للكسر بسهولة، وهو أمر لم أجد أنه إطراء كبير، لابد أن أُمي قد أخبرته أمرا ما. فشعرت بشيء من الضيق. ولكني، في الوقت نفسه، لم أكن في أحسن حال لكي أقول له: «إني على ما يرام، فما الداعي لقلقك؟»

جلسنا سووية على الأرض، متنعمين بالدفعاء العذب الذي كانت تشيعه المدفأة في أرجاء الغرفة، وانصرفنا متمهلين إلى تناول ما أحضره من طعام. وعندئذ شعرت بأني كنت جائعة، بدا لي كل ما أكلناه لذيذا. لم يكن الطعام بصحبته لذيذا؟ أمر لا يمكنني تفسيره.

ساتسوكي!

أجل؟

انتشلني صوت هييراجي فجأة من استغراقي في ما كنت

أفكر فيه، ورفعت رأسي.

ليس مستحبا أن تبقي وحيدة هكذا لقد هزلت بسرعة كلمح البصر. عوضا عن تعذيب نفسك على هذا النحو حتى الإعياء، ما عليك إلا أن تتصلي بي! يمكننا أن نخرج سويا. كلما رأيته أجده أكثر نحولا، وعلى الرغم من ذلك تحاولين أن تظهرين بمظهر الفرح، ولكن عبثا، لأن ذلك يستنفد طاقتك! أنت وهيتوشي كنتما على أحسن حال معا، وأمر طبيعي أن تكوني حزينة. حزينة حتى الموت!.

قال ذلك كله بنفس واحد دون توقف. لبثت مندهشة. فقد كانت تلك هي المرة الأولى التي يبدي فيها حيالي مثل هذا الاهتمام الطفولي. ولأنني أعلم جيدا أنه لا يحب أن يبدو عاطفيا، أثرت في كلماته، غير المتوقعة، تلك في صميم قلبي. وشعرت فجأة بأنني أدركت أخيرا ما أحس به هيتوشي في ذلك اليوم، عندما أخبرني ضاحكا بأن أخاه لا يستعيد طباعه الطفولية إلا إذا كانت المسألة تتعلق بعائلته.

صحيح أنني مازلت حدثا، وإنني حين لا أرتدي تنورة التلميذة أشعر بالتشوش، مما يجعلني، أنا نفسي، غير متمتع بقوة هائلة، كما أبدو، ولكن في المأساة يكون الجميع إخوة، أليس كذلك؟ وأنا أحبك بمقدار لا أتردد معه أن أقاسمك فراشي!.

قال ذلك بجدية بالغة ساهيا، فيما يبدو، عن طرفة ما يقول. يا لها من شخصية، قلت في سري ولم أستطع أن أتمالك نفسي من الاستفراق في الضحك. ثم قلت له، من صميم قلبي: «أنت محق. لن أبقى على هذه الحال، أعدك

بذلك! شكرا لك. شكرا جزيلا!..

بعد أن غادر هيجراجي عدت إلى النوم. وربما بسبب العقاقير المضادة للزكام كان نومي عميقا هادئا وخاليا من الأحلام، وهو الأمر الذي أنعم به منذ وقت طويل، نوم مبارك، زاخر بالرجاء كالنوم الذي يسبق صبيحة عيد الميلاد زمن الطفولة. حالما أستيقظ سأذهب إلى ضفة النهر حيث تنتظرني أورارا، لكي أرى ذلك الشيء... الذي حدثتني عنه. قبل بزوغ الفجر.

لم أكن قد تعافيت تماما، لكنني ارتديت ملابس الجري. كان كل شيء جامدا في كنف البرد والصمت، وبريق القمر كأنه مسمر في كبد السماء. كنت أعدو وصدى خطواتي يتردد في أرجاء زرقة الفجر الواحدة، قبل أن تمازجه متلاشية عبر الشوارع.

كانت أورارا هناك، واقفة فوق الجسر وقد دست يديها في جيبها، وغطت وجهها بشالها. لما دنوت منها قالت لي صباح الخير بابتسامة أظهرت بريق عينيها.

بضعة نجوم كانت لا تزال لامعة، تغمز ببريق أبيض، شبه مطفاً في سماء متشحة بالزرقة.

منظر جميل يشيع في الجسم رعشة. هدير النهر، والهواء العذب.

أرأيت هذه الزرقة؟ حتى أجسادنا تمتزج بها... قالت أورارا، وقد بسطت كفها فوق عينيها.

كانت خيالات الأشجار الغائمة التي ينتزع النسيم حفيفها،

تتعكس على صفحة الأفق. والسماء تميد برفق. وعبر القمر
بضيائه ناحية الظل.

لقد حان الوقت. كان صوت أورارا متشنجا.

اصغي جيدا منذ هذه اللحظة لن يعود .. لا المكان
ولا الزمان ولا الحدود موجودة. فهذه كلها سوف تنهار،
وتتراجع، في الزمان، قليلا. حتى بوقوفنا جنبا إلى جنب، فإن
إحدانا قد لا ترى الأخرى لهنيهة، أو قد ترى كل منا أشياء
مختلفة... عند الضفة المقابلة للنهر. ولكن علينا أن نمتنع عن
الكلام، وألا نعبر الجسر. هل أنت موافقة؟
موافقة.

وساد صمت.

وحده هدير المياه كان يتناهى إلى مسمعنا. جنبا إلى جنب،
محدقين بالضفة الأخرى. كان قلبي يخفق بقوة، وساقاي
ترتعدان. كان الفجر يقترب شيئا فشيئا، ويعم الضياء أوضاع
فأوضح، وزقزقات العصافير تتناهى إلى مسمعنا، متقطعة بين
الفينة والأخرى.

سمعت، في باطن أذني، صوتا يكاد أن يكون غير مسموع.
ألقت تلقائيا فلم أجد أورارا بجانبني. لم يكن هناك سوى النهر
والسماء وأنا... وممتزجا بالماء والهواء، ذلك الصوت الأليف،
ذلك الصوت المحزن...

الجرس الصغير. لم يكن هناك أي مجال للشك: إنه رنين
جرس هيتوشي. كان يصدر رنينا خافتا في ذلك الفضاء الذي
لم يكن فيه أحد سواي أنا. أغمضت عيني، لكي أسمعه طي

الهواء على نحو أفضل، ثم فتحتهما مجددا، وعندما نظرت إلى الضفة الأخرى، حسبت أنني جننت حقا، أكثر جنونا مما كنت عليه خلال الشهرين المنصرمين. كدت أن أصرخ وتمايلت نفسي بمشقة كبيرة.

كان هيتوشي هناك.

إن لم يكن ذلك حلما، وإن لم أفقد رشدي حقا، فهذا يعني أنه كان هو ذاك الواقف عند الضفة الأخرى، ناظرا إلي. وذلك النهر بيننا... غمرني الحنين وعاودتني ذكرى كل تفصيل من خياله مماثلة للصورة التي أحفظها عنه في قلبي.

كان يتطلع إلي عبر ضباب الفجر المائل إلى الزرقة. كان، كما عرفته دائما حيال هفواتي، بادي القلق، وداسا يديه في جيبه، كان يحدق بي بنظرات ثابتة. ومهما بدت قريبة أو بعيدة، تلك السنوات كلها التي قضيتها في أحضانه... لبثنا هناك، واقفين، يتطلع أحدهما إلى الآخر. وحده القمر الشاحب كان شاهدا على ما يفرق بيننا، جريان النهر الهادر وتلك المسافة المدوخة. وكان شعري وقميص هيتوشي الذي طالما أحببته يتطايران في الهواء كأننا في حلم.

هيتوشي، أتريد أن تكلمني؟ أنا، لدي الكثير لأقوله لك. كم أود أن أركض إليك، أن أرتمي بين ذراعيك، أن أشاطرك فرحة لقائنا مجددا. ومع ذلك، بدأت الدموع تنهمر من عيني، لقد فرق بيننا القدر، وجعل النهر فيما بيننا وما عدت أستطيع أن أوافيك. لا أملك إلا أن أتطلع إليك من بعيد، باكية. وأنت أيضا، ترمقني وقد بدا عليك الحزن. فقط لو أن الزمن

يتوقف... ولكن، مع تسلسل أنوار الفجر الأولى، بدأ كل شيء يتلاشى على مهل. وأمام ناظري، راح هيتوشي يبتعد شيئاً فشيئاً، وإذا استبد بي الاضطراب فزعاً، راح يلوح بيده متبسماً. تلويحة الأيدي المتكررة أبداً. كان يغوص في العتمة الزرقاء. وبدوري أومأت بيدي. هيتوشي... كنت أود أن أنقش في داخلي هيئة كتفيه وذراعيه الغالية على قلبي. كنت أود أن أحفظ في ذاكرتي، إلى الأبد، ذلك المشهد الملتبس، ودفء دموعي التي انهمرت على خدي. كانت خطوط ذراعيه ما زالت تشكل صورة أخيرة منعكسة على صفحة السماء. أما هو، ففي ابتعاده رويداً، غاب عن ناظري متلاشياً، وتبعته بنظراتي المغبشة بدموعي.

ما أن توارى عن نظري تماماً حتى استعادت موجات النهر عند الفجر حلتها التي طالما ارتدتها. وكانت أورارا بجانبني. ومن دون أن تلتفت نحوي سألتني بأسى بالغ: «هل رأيت؟»

أجل، أحببتها وأنا أمسح دموعي.

وهل أثر فيك ما رأيت؟

ثم استدارت نحوي مبتسمة. هدأت قليلاً، فقلت «أجل» وأنا أبادلها البسمة، ولبثنا هناك بعض الوقت ريثما لاحت تباشير الصباح.

خلال احتسائنا القهوة الساخنة في محل لبيع الحلوى يفتح أبوابه قبيل الفجر، قالت لي أورارا والنعاس يغالبها: «أنا أيضاً توفي صديقي في حادثة مروعة، وجئت إلى هذه المدينة على

أمل أن أودعه»

هل رأيته مجددا؟ سألت.

أجل، قالت أورارا ضاحكة. إنه أمر لا يحدث إلا مرة واحدة كل مائة عام تقريبا، عندما تجتمع بعض الظروف. ولكن يستحيل أن نعرف بالضبط في أي مكان أو زمان. ومن يعرفون بوجود هذه الظاهرة يسمونها «تانا باتا»(*)، لأنها لا تحصل إلا بقرب الأنهر الكبيرة. لكنه ليس حدثا يشهده الجميع. ولكي تظهر على هيئة سراب يجب أن يكون هناك صدى ما بين روح الميت التائهة وحزن من تبقى. أنا أيضا شهدته للمرة الأولى... لا بد أنك محظوظة جدا!

كل مائة عام!

لبثت ساهية حيال ذلك الاحتمال الضئيل، شبه المعدوم. «وصلت إلى هذه المدينة، رحت أتحرى الأماكن وصادفتك على الجسر. وبفطرتي الحيوانية أدركت على الفور أنك فقدت عزيزا. ولهذا السبب أخبرتك عن الحدث. قالت، ثم تبسمت.

كان نور الصباح يتماوج في شعرها، وأورارا غائبة في صفاء سريرتها وسكينتها كأنها تمثال.

ولكن من كانت حقا؟ من أين جاءت وما الوجهة التي تقصدها؟ ومن ذاك الذي رآته عما قليل، على الضفة الأخرى من النهر؟... كنت أشعر بأني عاجزة عن طرح تلك الأسئلة

(*) نسبة إلى أحد أكثر الأعياد شعبية في اليابان، والذي يحتفل به، بحسب رواية صينية قديمة، بلقاء المحبين بعد فراق، مرة واحدة في العام على ضفاف المجرة والفصال والطائر.

عليها .

الفراق والموت أمران شديدا القسوة. لكن حبا لا يشعرك بأنه هو الأخير، لا يستحق العناء، حتى لتمضية الوقت! قالت، كأنها تتحدث عن أمر تافه وهي تمضغ قضمة من فطيرة.

لذلك أشعر بالسعادة لأنني ودعته اليوم.

وترأى لي في عينيها بحر من الحزن.

«... بلى، وأنا أيضا» قلت. فنظرت أورا را، التي غمرت

أشعة الشمس وجهها، إليّ بحنان.

هيتوشي يلوح لي بيده. لقد آلمني ذلك المشهد كشعاع نور

ينغرز في قلبي. أهو أمر جيد؟ كنت لا أزال أجهل ما إذا كان

جيذا أم لا. فحتى تلك اللحظة، تحت أشعة الشمس اللاهبة،

لم تكن توقظ في سوى أصداء أليمة.. أصداء معذبة إلى حد

يجعلني عاجزة عن التنفس.

ومع ذلك... مع ذلك، كنت أشعر، وقد أثملتني نكهة القهوة

الخفيفة، وأورا را المبتسمة قبالي، بأني قريبة جدا من «شيء

ما». كان الهواء يرج زجاج الواجهة. حتى لو فتحت عيني

وشرعت قلبي فإن هذا الشيء لا يسعه إلا أن يرحل كما

غادرني هيتوشي. كان يلمع متوهجا في العتبات، كما تتوهج

الشمس، وكنت أعبر من خلاله بسرعة فائقة. وقد استبد بي

إحساس ببهجة غامرة كالأنشودة.

أود أن أكون أقوى!

هل سترحلين إلى مكان آخر؟ سألتها فور مغادرتنا المحل.

«أجل تبسمت وأمسكت يدي. ذات يوم سوف نلتقي مجددا!»
لن أنسى رقم هاتفك»

وغادرت مبتعدة مع الحشد في شوارع الصباح. وإذ تبعها
عيناى قلت في سري: «وأنا أيضا لن أنساك، لقد وهبتني
أشياء كثيرة!»

«احذري! ذلك اليوم. رأيت...» قال لي هيراجي.
كنت قصدت مدرسته، خلال فترة الاستراحة، لأعطيه، مع
بعض التأخير، هدية عيد ميلاده وجلست أنتظره على مقعد في
ملعب الرياضة متطلعة إلى التلاميذ المستفرقين في أداء
تمارينهم. جاءني راكضا ولاحظت دهشة أنه لا يرتدي
التنورة. وعاجلني بتلك العبارة حتى قبل أن يجلس بقربي.
من رأيت؟ سألت.

يوميكو، قال. صدمني ما قاله. مجموعة من التلاميذ في
ملابس الرياضة البيض، مرت بنا مجددا مثيرة الغبار من
حولنا.

كان ذلك صباح أول أمس، على ما أعتقد، أردف قائلا. ربما
كان مجرد حلم. فقد كنت شبه نائم حين فتح الباب فجأة، رأيت
يوميكو ماثلة أمامي. دخلت كأن شيئا لم يكن حتى أنى نسيت
أنها ميتة وناديتها. قالت «صه!» واضعة إصبعها فوق شفتيها
وتبسمت لي... عندما أفكر فيما جرى يخيل إلي أنه حلم. ثم
فتحت خزانة غرفتي وأخرجت منها تنورتها المدرسية وغادرت
بها. تمتمت شفاتها «وداعا» وهي تضحك، ثم لوحت بيدها.
لم أدر ماذا أفعل فعدت إلى النوم. بلى، لابد أنه حلم، لكن

التنورة اختفت. فتشت عنها في كل مكان، لكنها اختفت.
أتعلمين؟ لقد بكيت!

... هكذا إذا، قلت. ففي آخر الأمر، قد يكون شيء ما قد حدث، في ذلك اليوم، في ذلك الصباح، في مكان آخر بعيداً عن ضفاف النهر. وبما أن أورارا لم تعد هناك لم تكن لدي أية وسيلة للتثبت من الأمر. لكنني حين رأيت هيراجي على هدوئه المعتاد، قلت في سري إن الأمر قد يكون منوطاً به هو، ربما لأنه شخص غير اعتيادي، وبإمكانه أن يستدرج إليه ظاهرة لا ينبغي أن تحدث إلا في مكان معين.

أتحسبيني معتوها بعض الشيء؟ سألني على سبيل المزاح. بعد ظهر ذلك اليوم الربيعي المضيء بضياء عذب، كانت النسائم تحمل إلينا صخب الظهيرة. وإذ مددت إليه يدي ممسكة بالأسطوانة التي أحضرتها له كهدية، قلت ضاحكة: «في أحوال مماثلة أنصحك برياضة الجري!».

ضحك هيراجي بدوره. ضحك كثيراً في غمرة الضوء. أود أن أكون سعيدة. وبدلاً من أن أشقى كثيراً في جرف مجرى النهر، فلأستسلم لغواية حفنة من شذرات الذهب. وآمل أن يكون كل من أحببتهم أكثر سعادة في المستقبل. هيتوشي.

لا أستطيع أن أبقى هنا. يجب أن أتابع تقدمي، لأن الوقت ينقضي ولا سبيل لإيقافه. يجب أن أرحل. بعثة تنتهي، بعثة تبدأ. هناك أناس سوف نلتقيهم ذات يوم، وهناك آخرون لن نراهم بعد اليوم، وهناك من يبتعدون مع

الوقت، ومن نصادفهم عابرين فقط. نتبادل التحية لدى
عبورنا، وكلما فعلنا أزداد صفاء. ومن دون أن أحيد بنظري عن
النهر يجب أن أواصل العيش.
ولكن على الأقل، ليبق ذلك الحضور الطفولي للفتاة التي
كنتها، بقربك إلى الأبد!
شكرا لأنك لوحت لي بيدك. شكرا لأنك قلت لي وداعا.

الألف كتاب

قصة من الصين

تأليف

پیرل بس بکٹ

راجہا

ابراہیم زکی خورشید

ترجمہا

صبحی وصفی

الناشر



وجہ بوزا

لم يكن تيموثي ستاين يستطيع أن يفسر لأي إنسان سبب إقامته في معبد قديم خارج مدينة تالي من أعمال يونان في جنوبي شرق الصين . وكان الرجل يقيم في هذا المعبد لعشر سنين خلت ، أي منذ بلغ الخامسة والعشرين . وما كان أيسر على من لا يستطيعون معرفته أن يتخذوا من قيامه بالتبشير سيلا إلى معرفة شيء من حقيقته ! فإن انتهاء امرئ إلى طائفة صغيرة تسمى البعثة الرسولية للحياة والشفاء كفيل بأن يُستخلص منه شيء . ولكن ما إن يسمح تيموشي لأحد بأن يتعرف به — وكان يفعل هذا على كره منه بعد انقضاء كل هذه السنوات الطوال — حتى يبرز ذلك السؤال الذي كان يخشاه ، ويبدأ بأساليب شتى ؛ فالإنكليزي يقول له : أي صديقي العزيز ، لا أحب أن أكون فضوليا ولكن ... ، والفرنسي يقول : لا شك أن الحياة التي تحياها مثيرة ممتعة ولكن إذا سمحت لي بأن أسألك ، أما الأمريكي فيقول : إني أكره الفضول ولكن ... ، على أن خاتمة السؤال كانت واحدة مهما اختلفت بدايته ، والحق أنه كان يدور حول السبب الذي يدعو

تيموثى ستاين . وريث ملايين ستاين ، إلى الإقامة في معبد قديم في تالى .
وكان تيم يجب عن السؤال حسب ما يكون مزاجه في اليوم
الذى يوجه إليه فيه ، فقد يشير من شرقه المعبد مومثا
إلى البحيرة وجبالها التى يطوقها الجليد ، وكان سائله يعرب
عن إنكاره لقوله حسب ما تملى عليه جنسيته ؛ فما من ريب
أن البحيرات تقوم في أمريكا وفي سويسرة ، بل وفي كل مكان ،
فإذا ذكر سائله بصلته بالبعثة الرسولية اختلف إنكارهم من ابتسامة
تراود الإنكليزي إلى قهقهة عالية تنطلق من فم الأمريكى . ومن ذا الذى
يستطيع أن يأخذ قصة لبعثة الرسولية مأخذ الجد وهو يرى
في القاعة الكبرى للمعبد ، التى جعل منها تيم غرفة جلوسه ، تمثالا
كبيراً من الذهب لبوذا يبلغ حجمه خمسة أمثال حجم الإنسان ؟ .

وعلى تيموثى الأمر بقوله : « لقد اشترط على رئيس المعبد
العجوز شرطاً واحداً ليؤجره لى ، هو ألا أنقل بوذا الكبير
من مكانه وإلا حلت النكبات بتالى ، فقلت له إذا كانت الحال كما تقول
فلن أنقله من مكانه » .

أما ما لم يستطع تيم تعليله بطبيعة الحال فهو ذلك الشعور الذى
حدا به إلى أن يجعل ذخارف الغرفة تحيط ببوذا الوسيم بحيث
كان كل ما يقال أو يفعل في الغرفة يبدو كأنما يحدث في حضرة

بوذا القوى الغامض ؛ ذلك أن بوذا لم يكن ظريفاً وإن كان الوجه الذهبي الضخم ناعماً تنطق أساريره بالود ، وقد أسند يداً ضخمة إلى ركبته المطوية باسطاً إياها إلى أعلى ورفع اليد الأخرى كأنما يستعقب في هدوء . إن بوذا كان أقوى من أن يكون ظريفاً ، وكان الأشخاص التافهون الذين يدخلون هذه الغرفة ينتابهم الضيق إن عاجلاً أو آجلاً ثم يحتفون من حياة تيم دون أن يكلف نفسه مشقة التخلص منهم ، أما أولئك الذين كانوا يستطيعون البقاء في ظل ذلك الوجه الذهبي القوى فقد تبين له أنهم أهل لأن يظلوا أصدقاءه ، على أنه أدرك أن من العسير عليه تعليل هذا .

وكذلك كان من العسير عليه أن يعطل تلك الترانيم البوذية التي كانت تنساب في غرفته في باكورة الصباح وعند غروب الشمس ، وكان تيم لا ينفك يقول صادقاً إنه لا شأن له بهذه الترانيم . وعندما تسلق لأول مرة التل الذي يغشاه الغاب الهندي ويقوم عليه المعبد ورأى من تحته البحيرة الزرقاء والاسقف السوداء لمنازل المدينة ثم رفع عينيه ووقف وجهاً لوجه أمام الجبال التي يتوجها الجليد ، بادر فعرض من فوره على رئيس المعبد العجوز الذي يقف بجواره إيجاراً يجعله هو والكهنة الثلاثة العجائز في غنى طول حياتهم ، ذلك أن أهواء الناس كانت متقلبة في تعلقهم بالمعابد في تالى ؛ فقد كانت النساء في ذلك الوقت بالذات يختلفن إلى معبد كبير جديد

فى المءىنة ىقوم علىه كهنة شبان من ذوى الطلعة الوسىمة ولا ىقتضى
الحال فىه الواءة منهم إلى ءفع شىء من المال لءحمل صاءة
سفع الجبل ، على كرسى ءرع من الغاب رىط فى عموءىن بىبال
بالىة ، وكن ىبررن ذلك بأن بوذا الذهبى الكبرى قد ءءءمت به السن
وأصبع ىهل إءابة صلواتهن ، ومن ثم فإنهن ىقصدن معبءاً آءر
من قىبل الءغىر .

وكان رئىس المعبد مقءراً للجمىل ، فقبل فى الحال عرض
الأمرىكى الشاب ، ولسكنه اشءرط علىه ألا ىنقل بوذا الكبرى
من الطرف الشرقى للمعبد الرئىسى وأن ىءفظ هو وإءوانه الكهنة
لأنفسهم بالفناء الصغىر الأقصى ؛ إذ لم ىكن لهم فى هذا العالم ماوى
آءر یاوون إلیه ، ذلك أنهم أنكروا أسرهم منذ زمن طویل ،
وما من شك أنها قد نسیءهم ، ثم إنهم كانوا قد لجأوا إلى حمى هذا
المعبد ، وأصبءوا بءلك فى ءرج — وهم عبءة الآلهة الأءمىن —
من أن ىعودوا إلى الناس وأن ىءاكموا على ما اقءرفوا من ءرائم
الءقل وبعض ءرائم الآءرى .

ووافق ءىم على كل شىء ، وعىناه لا ءبرءان البءىرة . على أن
أسوأ اللءظات الءى مرء به كانت هى اللءظة الءى ءاء فىها رئىس
البعة الرسولیة من ءىنىسى للءفءىش علىه .

وقال الرجل الصالح : « إنك لا تستطيع العيش مع صنم في عقر دارك »

فقال تيم صادقا كل الصدق : « إنى لأجده يقوى إيماني »

فهتف الرجل الصالح : « وهؤلاء الكهنة الوثنيون ؟ »

فأجابه تيم : « إنهم يحترمون عقيدتي »

وكان تيم لا يتقاضى مرتباً من البعثة فأمسك الأب الموقر جوزيف برام ولم يزد ، ولقد كان خليقا أن يسأله : « لم التحقت ببعثة من بعثات المبشرين من مبدأ الأمر إذا كنت قد اتويت الإقامة في معبد وثني ؟ » ، ولكن الأب برام كان رجلا جادا غاية الجِد فلم يخطر له أن يسأله هذا السؤال ، وانصرف وهو يقول بينه وبين نفسه إن الله له في خلقه شئون وإن هذا الشاب الواسع الثراء كان من أغرب من وقعت عليه عينه من الناس !

على أن تيم كان قد ألقى على نفسه هذا السؤال عدة مرات : إذا كان قد شاء الإقامة حيث يستطيع مشاهدة بحيرة تالي فما باله لم يأت إلى هنا فقط ليقيم ، طالما أنه لم يكن ينفق إلا من حر ماله ؟ وكان الجواب عن هذا السؤال غامضا ومع ذلك فقد اهتدى إليه . لقد كان ماركو پولو هو أول من أغراه بالقدوم إلى تالي ، ذلك أنه جاء في نهاية الصفحة التي يصف فيها ماركو پولو مدينة عظيمة ،

في الفصل التاسع والخمسين من الكتاب الثاني ، حاشية تقول
إن هذه المدينة هي تالي وإن البحيرة القائمة هنالك ذات جمال رائع
أخاذ . وكان تيم في الثامنة عشرة في السنة التي قرأ فيها هذا الكتاب ،
وكان الابن الوحيد لأم غاية في الرقة حتى إن المنية أدركتها وهو
في الثانية عشرة ، ولأب غاية في القوة حتى بدا أنه سوف يعيش
إلى ما شاء الله ، وقد سلم فريد ستاين دون أن يخافه شك بأن ابنه
سيواصل تجارة الذخائر .

وكان آخر ما يريد تيم أن يفعله هو أن يتولى صناعة أى شيء ،
ولكنه تخشى أن يقول هذا ، لأنه كان شغوفاً بأبيه بطريقة
الخاصة ، على أنه وجد لنفسه مهرباً آخر .

وحدث من بعد في السنة نفسها أن سمع مبشراً أشيب الشعر
قادمًا من الصين يتحدث في الكنيسة مساء يوم من أيام الأحاد .
وكان الرجل يحمل ألواح فانوس سحري ، ولكن تلك الألواح
لم تكن جيدة كل الجودة فلم يثر الرجل اهتمام أحد قدر ما أثار
اهتمامه هو ، وإنما كان ذلك بسبب ماركو پولو ، ولم يقل الرجل
آتد شيئاً آخر يثير اهتمامه .

« إننا نؤمن بتطبيب الناس والدأب على فعل الخير في هدوء ،
وقد ألقى المبشر حديثه هذا بطريقة ذكرت تيم بأمه ، ثم اعتلى .

تيم المنصة من بعد وتحدث إلى الحاضرين ، وإن كان زملاؤه قد أمسكوا عن ذلك ، ثم حدثه الشيخ قليلا عن الصين فتذكر مرة أخرى أن تالي تقوم هنالك . وخطر لتيم فجأة أنه لو قال إنه يريد أن يكون مبشراً لحق على أبيه أن يدرك السبب الذي يحمله على السفر إلى الصين للإقامة فيها ، ذلك أن أباه كان شيخاً من شيوخ الكنيسة ، ولم يدرك أبوه الموقف تماماً كما كان يرجو ، ولكن تيم ظل مستمسكاً برأيه في سكون لا يريم . وراح أبوه يفتأ عناده في سوررات من الغضب ، ومن ثم قضى تيموئي عشر سنوات حيث كان يود أن يقيم ، ولم يعكر صفوه إلا نوبات من الشعور كانت تنتابه وتزين له أن يبدأ حياة التبشير يمضى فيها إلى ما شاء الله .

وفيما عدا ذلك مضت السنوات العشر على نحو رضى طابت له نفسه ، ولم يحدث في ثمان منها ما يجعل إحداها تختلف عن الأخرى ، وهذا ما كان يريده تماماً . فقد قضى هذه السنوات في قراءة كثير من الكتب وفي تجميل منزله ، والوقوف من حين إلى حين على أحوال تالي وشئون أهلها ، وراح أهل تالي هم أيضاً حيرة شديدة في أمر إقامته بمعبد الغاب ، واكتفوا بأن أطلقوا عليه اسم « الكاهن الأبيض » .

واتهى السلام الذي نعم به خلال تلك السنوات الثماني فجأة

ذات ليلة في أواخر يولية سنة ١٩٢٧ ، وكان يتم يقضى هذه
الأمسية ، كما قضى أمسيات كثيرة بصحبة رئيس المعبد العجوز ،
الذى كان قد علمه أن يقرأ الصينية ويكتبها . كانا يتناقشان في
الفلك ، فقد استوقف نظرهما عدد عظيم من النجوم الكبيرة
المتلاثلة تهاوى من ثريات السماء أمام أعينهما .

وكان رئيس المعبد يقول وهما يراقبان هذه العناصر من عناصر
الطبيعة : « إن النجوم المتهاوية نذير بتغير الأحوال ، فإن التاريخ
يحدثنا بأنه ما من نكبة حلت بالصين إلا وأنذرت بها نجوم كبيرة
متلاثلة تهاوى » . لقد كان رئيس المعبد فلكيا أيضا .

وفي تلك اللحظة جاء أحد الكهنة إلى الباب المستدير للشرفة
التي كانا يجلسان فيها .

وسأله رئيس المعبد : « ما وراءك ؟ »

فأجاب الكاهن في اضطراب : « لقد جاء مأمور تالى صاعداً
الجليل في عجلة من أمره »

وسأله رئيس المعبد : « وى ! فى هذه الساعة وبعد كل هذه
السنين ؟ »

فأجاب الكاهن : « إنه يريد أن يصلى لبوذا الكبير ، فقد
جاءت أنباء سيئة من القصة الشمالية »

وسأل رئيس المعبد تيم في أدب : «أيضايقك هذا ؟»

فأجاب تيم دون أن يأتي بحركة : «كلا ألبته ،

وبقي حيث هو يلفسه الظلام الرقيق الخاني ، واندفع المأمور إلى الشرفة تتطاير ملابسه من حوله وحاشيته يترا كضون خلفه ، فغاب عنه ذلك الرجل الأمريكى نفسه الذى كان جالسا على الكرسي القش قرب حافة الشرفة التى بدت كأنها معلقة بين السماء والأرض ، ومضى لتوه إلى المعبد وأمر بالشموع الحمراء التى جاء بها معه أن توقد أمام بوذا الكبير ، وأن يحرق البخور أيضا ، وتوضع الوسادة الحريرية على الأرض حتى تهوّن من وقع رأسه على الأرض ؛ فقد كان ينتظر أن يجد هنالك البلاط المؤلف الذى يغطى أديم المعابد ، وتوقف فى صلاته ليعلق على ما رآه من سمك طنفسة تيم العجيب ونعومتها الفضة ، ثم مضى يصلى مجاهراً بصوته ، وقد فهم تيموثرى صلاته ، ذلك أنه كان قد أيقن الصينية إذ ذاك .

«أى بوذا المبارك ، أخرج الأفيام اليابانيين من القصة الشمالية ، فإذا عز إخراجهم فدعها لهم ، وإذا جاءوا إلى شنغهاي فأخرجهم أى بوذا ، فإذا عز إخراجهم فدعها لهم ، ولكن لا تدعهم يأتون إلى تالى أى بوذا ! وإنى لأعدك إذا لم يأتوا إلى هنا بأن أجعل هذا المعبد أغنى وأشهر معبد فى العالم ، ولا حملنّ قومي

على أن يعبدوا بوذا الذهبي العظيم ، ولئن سمحت لليابانيين بأن
يظفروا منا ولو بقلامة ظفر ، لأسوين المعبد بالأرض وأحيلنك
أى بوذا إلى تراب أصفر ! »

وما إن انتهى المأمور من صلاته حتى انتصب واقفا ، وأبدى
أن ركبته لم تنعفرا كما كان يحدث لها دائما بعد صلاته فى المعابد ،
ثم ولى .

وكانت هذه هى المرة الأولى التى سمع فيها تيم بغزو اليابانيين
للصين ، وسمع بذلك للمرة الثانية من أبيه فى فيلادلفيا .

فقد كتب إليه أبوه يقول : « إن اليابانيين هم أحسن عملائنا
فى الوقت الحاضر ، وقد بلغنى أن القتال سوف يقع فى شمالى الصين
خاصة ، فخير لك أن تبقى حيث أنت » .

ولم يكن أمامه شئ يستطيع أن يفعله لليابان أو لآبيه ، وقضى
تيم وقتا طويلا ينكر فيهما جميعا ، ووقتا أطول يفكر فى تلك
الملايين التى سوف يرثها يوما زيادة على ما له لأن عددا كبيرا
من الصينيين سوف تقتلهم ذخائر ستاين ، ولكن لم تكن له حيلة
فى هذا أيضا ، وإن كان الأمر قد انتهى به شيئا فشيئا إلى التفكير
فيه ليل نهار ، وأكثر وأكثر . وكان وهو يفكر يجلس فى
غرفة جلوسه التى تطل على بوذا الكبير ، ولم يكن خادمه قد أزال

شموع المأمر الحر أو تخلص من البخور ، ذلك أنه لم يكن قد حدثه بشأنها ، فبقيت حيث هي . ولم يكن في ذلك بأس أيضاً ، فقد أخذ عدد من أهل تالي يتذكرون الآن بوذا الكبير ، بعد أن ظل سنوات طويلة لا يخطر لهم ببال . فضوا يتسلقون سفح التل الذي يظله الغاب ليحشوا هنالك في غرفة جلوس تيم ، وكان العامة لا يزالون يختلفون إلى المعابد الأحدث عهداً من هذا المعبد . ولكن تيم ألف أن يحمل نفسه على مغادرة غرفته بضع دقائق على حين يأخذ سادة محترمون يرتدون ثياباً عتيقة الزى من الأطلس المطرز وسيدات علا رؤوسهن المشيب وقيدت أقدامهن يدخلون غرفته متجاهلينه كل التجاهل ، ثم يوقدون الشموع الحمر أمام بوذا ويصلون دائماً ابتغاء شيء واحد .

« خلصنا يا إله السموات من أعدائنا اليابانيين ،

وسمع تيم هذه الصلوات ولاحظ تشابهها ، فخلص من ذلك أن اليابانيين ولا شك بسبيل الفوز في الحرب . وكان البريد يبطن دائماً في وصوله إلى تالي ، حتى أصبح الآن لا يعول عليه ألبته ، وكان إذا وقع نظره على جريدة وجد أنها تحمل تاريخاً متاخراً جداً يجعلها غير خليقة بأن تقرأ ، وكان هذا الأمر من قبل نعمة من نعم تالي ، ولكنه أصبح الآن من أسباب المضايقة . وراح يتمنى جاداً لو استطاع أن يفعل شيئاً حيال هؤلاء اليابانيين ، وقضى وقتاً

طويلاً في كرسية المريح في ظل عيني بوذا الذهبيتين محاولاً التفكير في عمل يستطيع أن يقوم به ، ولكنه لم يهتد إلى شيء .

ودخل عليه رئيس المعبد ذات ليلة وهو جالس جلسته هذه ، وتبادلا التحية المألوفة وأحضر وانغ الخادم الشاي ، ثم قال رئيس المعبد في هدوء ، كأنما لم يأت إلا بأبناء عادية :

« أوسمعت بأنه سيتوفر لنا طريق جديد يخرق تالي ؟ »

فقال تيم : « كلا » ، ذلك أنه لم يطرأ على مشارف تالي شيء جديد منذ خمسة قرون .

ففضى رئيس المعبد يقول : « سيظهر الطريق القديم لتجارة الحرير الذي يؤدي إلى الهند ويستخدم مرة أخرى ، وهو الطريق الذي كان يستخدمه أجدادنا في تجارتهم مع اليونان وفارس ومصر ، بعد أن ظل مغموراً في زوايا النسيان قروناً ، وستحل الآن سيارات النقل محل الجمال التي كانت تجتازه يوماً محملة بالحرير »

وقال تيم : « ولكنها لن تحمل الحرير »

فأمن رئيس المعبد على ذلك بقوله . « أجل ، لن تحمل الحرير » وكانت اليابان في ذلك الوقت قد أخذت تستولى على موانئ الصين ، ميناء في أثر ميناء ، وتسد المنافذ على الصين كأنما تضع سدادة على زجاجة .

وقال تيم : « ويطلق إذن بقاع الزجاجة »
فقال رئيس المعبد مؤمناً : « لا بأس من أن تصفه بهذا الوصف .
إن شيئاً ، أو قل إن الباب الخلفي سوف يفتح أو إن جسراً سيمد
أو إن ثقباً سيحفر في السور الكبير »
وقال تيم مفكراً : « آه ! »

ثم جلس صامتاً مستغرقاً في تأملاته وقتاً طويلاً حتى أدرك
رئيس المعبد أن تيم يود لو رحل فأنصرف ، وتبعه تيم حتى حافة
الشرقة وهو يرجوه أن يبقى وابتنس رئيس المعبد وانحنى له .
وقال : « لا شك أنك كنت واحداً منا في حياة سبقت هذه
الحياة ، وإنما جعلك بوذا تتجسد مرة أخرى في الصورة التي أنت
عليها الآن لتؤدي غرضاً خاصاً يشاؤه هو »

ومع ذلك فإن أفكار تيم لم تهدء إلى شيء وقتئذ ، وبدأ الطريق
الجديد في الظهور وراء أسوار تالي على هيئة شق من الأرض البكر
يتوسط حقولاً غنية بها أجيال من أيدي البشر وكستها ببساط
أخضر ، وأثار ذلك خياله ولكنك لم يوح إليه بشيء .

وعاد متأخراً عصر يوم من نزهة خرج فيها لمشاهدة الطريق
الجديد ، وتوقف على عتبة المعبد القديم إذ سمع صوتاً قنياً قوياً
ينطلق بصلاة من طراز جديد .

« أي بوذا ! امنحني عشرة آلاف بندقية ! أجل عشرة آلاف
بندقية أمريكية ليست من الطراز العتيق المقبض ، بل من البنادق
القصيرة القوية التي تنطلق منها النيران بسرعة ! »

وتملكت الدهشة تيم ، ماذا يستطيع حتى بوذا نفسه أن يفهم
من هذا ؟ ونظر خلال الباب العريض فرأى أمام التمثال شاباً صينياً
يرتدى السترة الزرقاء القصيرة والسروال اللذين يرتديهما الفلاحون
وكان عجيباً في طوله وقوته . وأدار الشاب رأسه ، ورد على نظرة
تيم بنظرة من عينيه السوداوين الجريئتين .

وقال تيم معتذراً : « لا تقطعن صلاتك بسبي »

فأجاب الشاب : « لقد فرغت من الصلاة ، وإذا كنت
وأنت كاهن بوذا . . . »

فقال تيم متعجلاً : « لست كاهن بوذا ، ولكن لم يسخني إلا أن
أسمع ما ابتهلت به إليه ، من أنت ؟ »

فقال الشاب بغير اكتراث كما بما كان رجلاً من سواد الناس :
« يسميني القوم الذئب الأصفر »

وأخفى تيم الفزع الذي أحس به في قرارة نفسه ، وقال :
« لقد سمعت عنك »

فأجاب الشاب دون أن يصطنع التواضع : « ما من أحد إلا

سمع عني ، فإن لدى عصابة من ألف وخمسمائة مقاتل بارع ولدى خمسة آلاف بندقية غنمناها من جنود الحكومة الذين كنا نوقع بهم الهزيمة من حين إلى حين ، وسنقاتل اليابانيين الآن بدلا من الجنود ولكن يجب أن نحصل على مزيد من البنادق أولا ،

صحيح أن كل أهالي تالي كانوا يعرفون الذئب الأصفر ، ولكن قل منهم من رآه رأى العين ، وما كان أحد يعرف من هو . فقد راح يتحول في الريف يسلب وينهب على رأس عصابة جمعت كل من شاء أن يتبعه .

وسال تيم في رقة ولطف : « أليس من العسير على بوذا أن يجد عشرة آلاف بندقية أمريكية ؟ »

فأجاب الشاب بتلك البساطة المعهودة فيه : « إن لبوذا وسائله ، وكان تيم قد دخل الغرفة وهما يتحدثان ، ووقفا تحت بصر التمثال الذهبي الضخم مباشرة ، وكان هذا التمثال خليقا بأن يجعل أي رجل يقف حياله يبدو قزما إلا هذا الرجل ، ووقف الذئب الأصفر هادئا منتصب القامة جريئا كل الجرأة لا يحفل بشيء ، وتطلع تيم إلى الوجه الذهبي ، ولم يكن يؤمن بالخرافات قط ، ذلك أنه كان يعلم أن بوذا قد صنع من صلصال تالي الأصفر المغطى برفائق الذهب . أما أن التمثال الضخم قد بدا بهذا الجمال الرائع فإنما

يرجع السبب فيه إلى أن الصلصال الأصفر قد وقع في يد مثال عظيم مجهول بدلا من أن يقع في يد صانع عادي ينحت الأصنام . ومع ذلك فقد شعر ، والشاب يتحدث وهو منصت إليه ، بشيء يضغط على عقله في رفق وثبات . لقد كانت فكرة ، وخطرت له هذه الفكرة فجأة وهو ينظر في عيني بوذا الكبير ، وتكشفت كأنها زهرة اللوتس تتفتح في الشمس .

وقاومها تيم في ثبات ، ثم خاطب الوجه الذهبي بالإنكليزية في صوت مرتفع : « لم أوت القدرة على أن أفعل هذا »

وقال الشاب بالصينية : « ماذا تقول ؟ »

فأجاب تيم في حذر : « يتعذر إجابة صلاتك ، فكيف يكون الحال إذا لم تستخدم البنادق ضد العدو واستخدمت ضد أهل تالي ؟ »

فضحك الشاب لحظة ثم قال : « إن بوذا يعلم طويتي » ثم انصرف دون أن يزيد حرفا ، وتبعه تيم من قبيل الفضول فقط فرآه يجتاز الأفنية كما تما كان يعرفها جميعا ، ثم تريت في الفناء الأخير ليحدث شخصا ، وكان ذلك الشخص هو رئيس المعبد العجوز . وشاهد تيم من خلال الأبواب الرجلين يتصالحان في ود وألفة ، ووقفا يتحدثان وقد أمسك كل منهما بيد أخيه ، ثم أوما الشاب برأسه وانصرف .

لقد ألف تيم أن يعيش في جو من الأسرار ، أما هذا الذى رآه ، فإنه على ما دار بينه وبين نفسه ، قد زاد هذه الأسرار غموضاً على غموض . غير أن تيم لم يمض إلى رئيس المعبد العجوز الذى وقف على بعد منه يرقب الذئب الأصفر وهو يقفز بين شجر الغاب الهندى مصعداً إلى أعلى الجبل ، وقضى تيم عصر اليوم بطوله مستغرقاً فى التفكير ، وإنما مضى للقاء رئيس الدير فى صومعته عندما حل المساء ، وكان رئيس الدير يستخرج الطوابع .

وسأله تيم فى اقتضاب : « أتستطيع وأنت تمثل بوذا أن تضمن الذئب الأصفر ؟ »

فقال رئيس المعبد : « أضمنه فى موضوع البنادق ؟ »

فأجابه تيم : « بالضبط »

وحقق رئيس المعبد النظر فى بعض الرموز التى كان قد رسمها على الورق بفرشاته الحادة الطرف المصنوعة من شعر البعير .

وقال : « من الجلى لدى القوم هنا أن الذئب الأصفر سيغدو قائداً ذائع الصيت ، وستصفح الحكومة عن كل ما اقترف من آثام » وسأله تيم : « وأنت ؟ »

فقال رئيس المعبد : « إنى أضمنه » ، ثم أردف : « وكىلا عن بوذا بطبيعة الحال »

وقال تيم متأملاً : « إذن لآتين بعصاى وأمضين إلى المدينة فإن
الآفاعى تخرج من ججورها بلىل »
فأجابه رئىس المعبد قائلاً . « افعل »

وتوقف تيم فى رجوعه لحظة متطلعا إلى الوجه الذهبى ، ولم
يجد أى تغىير ألم بهذا الوجه فضى إلى حال سبيله .

وهبط الطريق الجبلى الماتوى المرصوف بالحجارة ، وكان
ضوء القمر ساطعا متلألأ فلم يحس بجاجة إلى مصباح ، وبلغ سور
المدينة ، إلا أن الباب كان مغلقا فجذب حبلا وانفتحت كوة
صغيرة أطل منها الحارس .

وقال : « آه ! الكاهن الأبيض » ، ثم جذب المزلاج الخشبى
الكبىر ، وفتح الباب بحيث يسمح بولوج جسم تيم الرشىق .

ونفحه تيم بقطعة من النقود ثم اجتاز شارع المدينة الضىق
الهادى إلى مكتب البرق الصغىر وأرسل برقية إلى آبيه :

« إذا استطعت الحصول على عقد من صدىق فهل تبىع بالسعر
نفسه الذى بعت به للأعداء ؟ تيم »

وأىفظ الكاتب الذى كان نائما على المنضدة ، وقرأ الرجل
القلة من الكلمات بصوت مرتفع دون أن يفهم كلمة واحدة منها ،
ذلك أنه كان يفخر ببلغته الإنجلىزىة التى تعلمها فى المدرسة الثانوىة .

وقال تيم : « أصبت »
وتلقى رد أبيه بعد يومين :
« لم لا ؟ نقداً . لك حبي . أبوك »

وأبرق إليه أبوه بعد أسبوعين يقول : « قابل براونل في
لاشيو وأرسل الثمن »

وكان تيم قد نسي كيف يعقد الأمريكيون الصفقات ، وجاءه
خادم مهوور الأنفاس يحمل البرقية وهو يزرع بعض الألقوان
في الشرفة ويفكر في الذئب الأصفر ، ودس البرقية في جيبه
وزرع الألقوان بسرعة المندفع المتهور ، ذلك أنه خلى بأن يحتاج
إليها بعد ، ثم هرع إلى مكتب البرق .

وأبرق إلى أبيه يقول : « إنني مسئول شخصياً عن الدفع نقداً ،
ومضى هو ووانغ في اليوم التالي مجتازين الطريق الجديد ،
وكان هذا الطريق يسير في ريف البلاد كأنه أثر تخلف من عاصفة ،
مجانباً تالي بيضعة أميال فقط . ولم يكن الناس قد شهدوا مثل هذا
الطريق قط ، وكان يزداد فراسخ — أو هكذا يبدو — كل بضعة
أيام ، وقد كان هناك بالفعل آلاف من المخلوقات الصغيرة اكتست
بلون الثرى تعمل في هذا الطريق كأنها العث ، كانوا رجالاً ونساء
مهلهل الثياب يعملون من غير استعانة بآلات ، ولم تكن فؤوسهم

وسلاهم الصغيرة المثبتة في قضبان الغاب إلا لعباً ، ولكنهم كانوا يشقون الطريق أمامهم على نحو ما باطراد وسرعة ، وتبين تيم بجلاء وهو راكب السيارة القديمة التي اشتراها من دكان حداد في تالي أن الطريق قد تم بالفعل أو كاد ، وغداً مهداً لمرور سيارات النقل ، وإن كان خطراً ؛ إذ أنه كان طريقاً جديداً ، لم يختبر بعد ، ثم إنه ينشق بين الصخور فوق قنن الجبال ثم يلتف ويلتوى في منحنيات مروعة مؤدياً إلى الوديان ، ومع ذلك فقد كان اجتيازه ممكناً ؛ إذ استغرق أربعة أيام فقط . وكان وانغ يجلس في المقعد الخلفي ومعه صندوق الطعام المصنوع من الصفيح ، وكان تيم يرى في مرآة السيارة وجهه وانغ ، عشرين مرة في الساعة الواحدة ، وقد ارتسم عليه الرعب وهو يقفز إلى أعلى .

وكان يناديه بعد كل مطب : «جاءت سليمة .. أليس كذلك؟»

وكان وانغ يجيب دائماً في صوت رفيع رابط الجأش : «سليمة»

إلا أنهما اضطرا قبل أن يبلغا بورما إلى ترك السيارة ، فقد توقف الطريق فجأة كأنما كانت هذه نهايته ، وامتد أمامهما مستنقع كبير لم يستطع تيم أن يراه وإن كان قد تسلق السيارة ووقف على سطحها . وكانت المخلوقات الصغيرة لا تزال تعمل في المستنقع ولكنها بدت الآن شبه عارية أضنتها الحرارة ، بل إنه رأى وهو

يرقب المشهد واحداً يسقط هنا وآخر يسقط هناك ، ولم ترتفع لهم من بعد قامة ، وهبط من أعلى السيارة ووقف على قشرة من الأرض السوداء كانت تهتز تحت قدميه ، وأقبل نحوه في بطة شخص صيني في زى رسمى يبدو عليه المرض ، فقد كانت عيناه الغائرتان تنوهجان بالحمى تحت خوذته الموحلة .

وسأله تيم : « أوأستطيع المرور ؟ »

فأجابه قائلاً : « أجل ولكن بغير سيارة ، فإن الطريق لم يعبد بعد ، ولكنك تستطيع اجتياز عشرين ميلاً على قدميك ، ثم يبدأ الطريق مرة أخرى ،

« أوأستطيع اجتياز الطريق على قدمي في يسر ؟ »

« أجل ، ولكن لا تدع عينك تغفل ، فهذه بلاد النمر ، بلاد شويلى ، وإذا توقف إنسان دهمه المرض ، أما إذا أخذته سنة من الكرى قتله النوم ،

وعاد تيم إلى سيارته وقال : « هلمّ يا وانغ ، فلا مناص من أن نترك السيارة ونسير قليلاً ،

وترجل وانغ من السيارة ، وربط صندوق الطعام إلى ظهره بسيره الجلدى الأزرق الطويل ، وجر تيم السيارة إلى ضفة المستنقع وأغلقها ومضيا في سبيلهما ، وكان ثمة طريق للمارة لا تكاد تراه

العين يؤدي إلى الدغل فيما وراء المستنقع .
وتشبثت بجسمه الحرارة المتأججة المتراقصة كأنها الغراء ،
ورأى ، أو خال أنه رأى ، الأفاعى تتدلى من الأشجار ، وتزحف
تحت قدميه ، وتلوى حول الصخور . ولو لم يجد هذا العدد الكبير
من الأفاعى لآلئى نفسه مكرهاً على النوم حتى لو تذكر أن النوم
معناه الموت ، وكان يتذكر وانغ بين الحين والحين فيلتفت خلفه .
« أبخير أنت يا وانغ ؟ »

فيحييه وانغ بصوته الرفيع : « بخير » ، وعيناه جاحظتان
والعرق الغزير يتصبب من وجهه .

وكان الهواء من حولهما راكداً راسخاً ، وقد أطبق عليهما
رطباً لا يريم ، ولم يجد بداً من أن يشق طريقه كأنما كان يجتاز
جدولاً من الماء ، واستغرق الرجلان في اجتياز العشرين ميلاً
إحدى عشرة ساعة ، وبلغا الضفة الأخرى وراحا يساومان سائق
سيارة نقل عائداً إلى لاشيو ، ثم دلفا إلى السيارة وناما على البطيخ
الأخضر ، وظلا يتقلبان ساعات في طريق وعر خشن ، وما إن
بلغا لاشيو حتى اقتضى الأمر أن يهزأ هزاً حتى يستيقظا .

وقال له براونل في فندق لاشيو الصغير : « ... المملاريا السوداء » ،
وكان براونل رئيساً لموظفى أبيه في سنغافورة ، وقد جاء بالشحنة

إلى لاشيو وهو يتساءل هل فقد رئيسه في الولايات المتحدة عقله؟
أجل لقد كان هذا شأنه وهو ينتظر تيم الشاب مطيعاً للأمر
الصادر إليه . وكان تيم الشاب ، كما يعلم الجميع ، مجنوناً بلا شك ؛
فقد ظل حبيس معبد صيني سنوات ، ولم يزد اعتزال الناس في المعبد
إلا جنوناً في نظر الناس .

وقال براونل لـ تيم : « إنك لمجدود إذ أمكنك اجتياز المستنقع ،
فإن بعوضة صغيرة جداً لا تدركها العين خليقة بأن تعضك بضع
عضات ، وما إن تنقضي برهة وجيزة ، قد لا تزيد على يوم
أو يومين ، حتى تورثك موارد التهلكة »

فأجاب تيم : « أحقاً تقول ؟ » ، وكان يفكر في ذلك المستنقع
الذي تعمل فيه تلك المخلوقات الفاترة الهمة التي كانت تتساقط
هنا وهناك ملاقية حتفها ، وهيئات أن ينتهي الطريق إذا ترك
الأمر لهم دون سواهم . وكان بعض هؤلاء المخلوقات خلو اليدين
من الفؤوس والمجارف ، وقد جمعوا التراب في سلال بأيديهم
العارية ، وقال الملاحظ إن الطريق سيتم شقه في سبعة أيام ،
وربما تم ذلك في سبعة أيام بالفعل . لقد كان ما عبد من الطريق
حتى الآن معجزة ، ولم يكن مفر من معجزة أخرى لإتمامه .

وقال لـ براونل : « ستقضي بضعة أيام على كل حال قبل أن يمد

في هذا المستنقع طريق تجتازه سيارات النقل »

فأجابه براونل : « لقد انقضت بضعة أيام بالفعل فيما علمت
من ينتظرون المرور ، وقد صدر إليّ الأمر بأن أسلمك الشحنة
وأعود أدراجي ،

فقال تيم : « حسناً ، وإلى بالشحنة إذن ،

ووجد نفسه في الحال صاحب ثروة من البنادق الأمريكية
لم يكن بد من أن يدفع ثمنها نقداً إلى ستاين وشركاه بالولايات
المتحدة الأمريكية

وقال بينه وبين نفسه وهو يكتب الصك : « أحمد الله على أنني
الابن والوريث ، ، وكانت هذه المرة الأولى في حياته التي شعر
فيها بالسرور ، وقضى عشرة أيام في جمع سيارات النقل والسائقين ،
وفي صبيحة اليوم الحادي عشر كان متأهباً للرحيل . لقد كان
غفراً بتلك القافلة من سيارات النقل ، ولو أن منظر السائقين
كان كقطاع الطرق . وكانت لاشيو تزخر بسيارات النقل القديمة
وبالسائقين قطاع الطرق الذين يملكونها ، ذلك أن قيادة سيارة للنقل
في طريق بورما كانت تعود على السائق بثروة في هذه الأيام ،
بل هي تفضل قطع الطرق . وعندما يتم شق الطريق تماماً ، إذا قدر
له أن يتم ، فإن رحلتين اثنتين خليقتان بأن تغنيا المرء طول عمره ،

ومن ثم كان الفرح يستخف السائقين .

وصاح تيم : « هل أنتم مستعدون ؟ »

فأجابوا قائلين : « أجل ، مستعدون ! » ، في حشد من الأصوات المتعددة ، وغادروا لاشيوا وهم ينفخون أبواق سياراتهم ويتصايحون . وراحت هذه القافلة تقعّمع من خلف تيم حتى بلغ تيم المستنقع ورأى ما حدث في تلك الأيام الأحد عشر ، فقد ترحّزح المستنقع من مكانه . وأبصر على طول الأميال التي قطعها هو ووانغ مترنحين على أقدامهما بقعة عريضة من الطين الأسود ، بل مستنقعا ليس له قرار ، وأقبل نحوه رجل صغير في زى أبيض موحد ، وكانت الحصى تضطرم في عينيه اللتين تظللتهما خوذته .

وسأله تيم بالصينية : « كم نبقى هنا حتى نستطيع المرور ؟ »

فأجابه الرجل في إنكليزية سليمة : « قل سبعة أيام ولكننا نستبدل برجالنا رجالا آخرين كل بضعة أيام إذ أن الموت يدركهم بسرعة كبيرة ، وهم الآن يرفضون المجيء ، لأنهم يعلمون أنهم لو جاءوا للقوا حتفهم »

وقال تيم : « لم تكن أنت هنا عندما اجتزت المستنقع في طريق قدومي »

فأجابه الرجل قائلا : « لقد حلت محل آخر وسيحل آخر محل »

وقال تيم : « يبدو ألا مفر من أن ننتظر » ،
فأجاب الرجل : « كثيرون ينتظرون » ، ومضى إلى موقعه ،
وعاد تيم بالقافلة إلى فندق القرية الأخيرة .

كانت الشموع الحمر والبخور لا تزال ماثلة أمام بودا الكبير ،
ولكن التراب كان قد علاها . ولم يكن من المنتظر أن يعود
المأمور إلا إذا تبين أن اليابانيين لن يضربوا تالي بقنابلهم ، على أن
هذا الأمر لم يكن واضحاً بعد ؛ فقد كان اليابانيون يلقون قنابلهم
على قصبة الولاية التي تقوم غير بعيد من تالي . وسرت الشائعات
بأن الذئب الأزرق يقاتلهم ولكن لم يظهر لذلك أثر ، وإنما كان
الذئب الأصفر أكثر جراً من المألوف ، فقد رأى بعضهم العصاة
قرية من تالي قريباً أوجسوا منه خيفة .

وقال المأمور وهو يتأوه : « إنه يعلم ألا مفر لي من الاحتفاظ
بجنودي ليكفلوا حمايتي » ، وشعر في هذه الظروف بأن الأمر لا
يستحق منه أن يتجشم مشقة تسلق الجبل مرة أخرى ليذكر بودا
بوعيده ، وكف الجميع عن الذهاب شيئاً فشيئاً ، شاعرين إذا ذاك
بأنه لا بد مما ليس منه بد ، ومن ثم غشى التراب التمثال .

وكان مفتاح غرفة تيم مع رئيس المعبد العجوز ، ولو أنه كان
في صحة طيبة لذهب بنفسه ينفذ التراب عن بودا ، ولكنه كان

مريضاً وأبى أن يعطى المفتاح لأحد من الكهنة ، فقد كان اثنان منهم
لصوصاً ، احتميا بالمعبد نجاة برأسيهما . لقد شعر ، وهو الذى لم
يعد أن يكون هو نفسه قاتلاً ، أنه لا يستطيع أن يأتمنهما على مال
تيم ، عندما سألاه أن يدخل على أيسر تقدير غرفته لنفض التراب
الذى كان يعلو بوذا الكبير من حين إلى حين .

فقال لهما : « إن بوذا لن يحفل بذلك ، فهو يعلم أن مآلنا جميعاً
إلى التراب ، ، واحتفظ بالمفتاح فى ثنايا حزامه القدر .

ولكن الأحلام السيئة أقضت مضجع رئيس المعبد العجوز عدة
أيام وهو مستلق فى فراشه ، وكان الرجل قد جرى على أن يعالج
كل صعوبة تعترضه بتدخين قدر يسير من الأفيون . بيد أن الأحلام
كانت فى هذه المرة أقوى من الأفيون ، وألحت عليه الأحلام حتى
غادر فراشه وراح يتجول فى أنحاء غرفته واهن الخطى ، وكانت
الشمس تسطع مشرقة من خلال ستائر الورق التى تغطى النافذة .
حتى خرج إلى الفناء ، ولكنه كان لا يزال بعد ضيق الصدر ، فإن
كشف الطالع الذى كان مشغولاً به أبى أن ينتهى إلى نهايته المرجوة ،
ولم يستطع أن يحتاز به نقطة خطر غامضة ، لم يدرك لها سبباً .

وقال لأحد شيوخ الكهنة ، وكان يجلس فى أشعة الشمس
يتصيد القمل من ثوبه : « لأمضين وأصل لبوذا الكبير ، فإن نفسى
مضطربة ،

فأجاب الكاهن الشارد الفكر : « صلّ من أجلي » ، ذلك أن ذهنه كان منصرفاً إلى حشرة أفلتت منه .

على أن رئيس المعبد لم يصل من أجل أحد ، بل مضى إلى غرفة جلوس تيم وأشعل الشموع وأحرق البخور أمام بوذا الكبير ، ثم جذب كرسي تيم الأمريكى المصنوع من الجلد وأدناه من المذبح كل الدنو ، وجلس فيه يفكر فيما عسى أن يكون سبب ما ألم به من ضيق . وانقضت لحظة وهو جالس ، أخذ ما ألم به من ضيق يتكشف بعدها ؛ فقد كان تيم فى شدة ، وكان مصير الذئب الأصفر يتوقف على تيم ، وكلما فكر فى الأمر ، ازداد يقينا بأن هذا هو علة اضطرابه . وشعر بالفرح ، فإن من يجد سبب اضطرابه يستطيع أن يجد له علاجاً ، وإذن فلا بد أن يجد تيم ، وكان الرجل مقتصداً بطبيعته فأطفأ الشموع وأخذ البخور يابهامه وسباته .

وقال لبوذا : « أعنى ! » ، وشعر بأنه أحسن حالا بكثير ، ثم إن الرحلة كانت خليقة بأن تفيد .

وشرع فى رحلته فى اليوم التالى ، ومعه طاسه الذى يستجدى به وعصاه ، وفى حزامه إيجار الشهر الأخير الذى دفعه تيم ومفتاح غرفة الجلوس . ولو أن المأمور أراد أن يصل لبوذا لكان ذلك مستحيلاً ، على أن الأمر كان مستبعداً ، ذلك أن اليابانيين كانوا

قد عادوا لإلقاء القنابل على كونمنغ وأخذت جيوشهم تتقدم ، وكان من اليسير تفادى القنابل بالزحف فى باطن الأرض ، ولكن كيف يستطيع المرء أن يفلت من الجيوش ؟ وخرج يسعى على قدميه وهو يعرج عرجاً بالغ فيه قليلاً ، وما إن بلغ الطريق الجديد حتى توقفت حافلة (سيارة أتوبيس) كما توقع ، فقد كان بذل العون لكاهن يجلب حسن الحظ .

وسأله السائق : « أو أحملك فى سيارتى أيها الكاهن ؟ »
فأجاب مبتسماً : « إن بوذا يدبر أمرى » وركب السيارة .

* * *

وقال رئيس المعبد لتيمن : « كنت أستطيع بطبيعة الحال أن أرسل إليك روحى فقط ، وهذا أيسر على وأهون ، ولكننى كنت فى حاجة إلى رحلة فماركبت حافلة قط فى حياتى ، وجلسا تحت نخلة قرب القرية التى تقع خلف أرض النمر تما ، وهى أرض شويلى . وكان تيم قد ارتد إليها ليسأل هل قدر له أن يقضى بقية عمره فى هذا المكان مع سيارات النقل الخاصة به ، وأمر حداد هذا المكان فى الوقت نفسه بصنع ألقي مجرف لها مقابض من الغاب ، فضى الرجل ومعاونوه يعملون فيها ليل نهار . وإن هذا الخلق على أقل تقدير بأن يعنى هؤلاء القوم الضعاف الذين

يدهم الموت سريعاً من أن يمهّدوا أميالا من الأرض بأيديهم فقط .
وقال تيم : يسرنى على أية حال أنك قد قدمت . كيف حال
الأقحوان ؟ »

فأجاب رئيس المعبد . « لقد شذبت البراعم بنفسى ، وستجدها
فى أحسن حال حين تعود »

فقال تيم : « إذا لم أعد فى ملك خالص لك ، ولا حاجة بى
إلى القول ، وقد اجتزت من فورى المستنقع الكبير سيرا على قدمى ،
إن سيارات النقل الأمريكية لا تستطيع اجتيازه ؛ فهو أشبه فى ذلك
بالمحيط ، وإن الناس ليموتون بأسرع مما يستطيعون أن يحفروا
قبورهم فى الأرض »

فقال رئيس المعبد : « آه ! إذن فنحن فى حاجة إلى النساء »
وسأله تيم « أية نساء ؟ »

ولكن رئيس المعبد لم يحجر جواباً ، فقد كان يفكر ، ومضى
فى التفكير حتى غشيته غاشية ، فغامت عيناه وانطوى على نفسه ،
وانتظر تيم ؛ فقد كان يعرف تلك الحالة إذ ينطوى رئيس المعبد
على نفسه وتلتوى يداه وقدماه وينكمش رأسه بين كتفيه ، ويلتوى
جسمه بعنقه على بعض ، وقد يبقى رئيس المعبد على هذه الحالة بضع
دقائق أو ساعات بطولها . وانتظر تيم نصف ساعة ثم انسل مبتعداً ،

ومضى إلى القرية التي كانت سياراته قد اصطفت فيها أمام فندق كان قد استأجر فيه غرفة قذرة وراح يفحصها . ولم يجد فيها رآه أنه قد فُتقد منها شيء ، ذلك أنه كان قد رسم على الصناديق بمستحلب الكلس أشكالاً معقدة من زهر الأفيون . وصورها ، من قبيل السخرية ، على هيئة أفخوان الإمبراطورية المقدسة الذي تتخذها اليابان شعاراً لها . وكان لكل زهرة منها ثلاث عشرة ورقة من أوراق التويجات ، ووجد تيم الرسم سليماً ، أى أن الصناديق لم تمسها يد لص ، ولم يكن أحد يعلم بعد ما تحتويه هذه الصناديق وكذب في غير تعمد حين سأله الناس عما تحتويه هذه الصناديق فقال لهم ، كتباً ،

فلما عاد إلى النخلة كان رئيس المعبد قد رحل ، وبحث عنه يومين هنا وهناك ولكنه لم يعثر له على أثر ، وكف عن البحث عنه ، فقد كان لا بد له أن يكفى نفسه مؤونة كل شيء من هذا القبيل ليدبر أمر إنقاذ سياراته ، إذ لاح في الجو حينذاك خطر جديد ، فقد شعر في عصر ذلك اليوم الحار من أيام شهر سبتمبر بموجة من الذعر تجتاح الريف مسرعة كأنها الوباء الداهم ، ومضت الدكاكين التي على طول الشارع الوحيد في القرية الصغيرة تغلق أبوابها ، وانطلق الناس يغلِقون بيوتهم بيتاً إثر بيت ، وما إن

انصفت ساعات العصر حتى كان الشارع والأزقة قد أظفرت من
المارة ، وأصبح كل إنسان حيس فئانه المعتم الذى يتقد
حرارة وقيظا .

وعاد تيم من قمة تل كان يشرف منه على الطريق الخامد يبدو
له من بعيد فأدهشه أن يرى الشوارع خلوية مقفرة . لقد تركها
تزخر بقوم كسالى قانعين ، يبيعون قليلا ويشترون كثيرا ، ويمضون
فى الحديث والضحك ، أما الآن فلم ير أحدا . ودخل فناء الفندق
فوجد صاحبه فى انتظاره .

وقال له : « أولى بك أن ترحل من هذا الفندق التعس ياسيدى ،
فسأله تيم متعجبا : « ولم ؟ »

فقال صاحب الفندق بلهجة تتم عن الشقاء : « إن ثمة ضيوفا
آخرين قادمين »

وقال تيم فى رقة ولطف : « إننى أقيم هنا منذ زمن طويل ، ،
وأدرك أنه قد أصبح فجأة لسبب غريب مفاجئ شخصا غير مرغوب
فى إقامته بالفندق ، على أنه لم يأنس من نفسه رغبة فى الرحيل .

وقال صاحب الفندق : « فأتى أن أنبئك بأن غرفتك كان يشغلها
قبل قدومك رجل مصاب بالجدرى ،
فقال : « إن الجدرى لا يخيفنى ،

فأجابه صاحب الفندق : « لقد كان مرضه هو الجذام ،

وأمسك وانغ بصندوق الطعام وراح يمسح وجهه مسخاً شامها
يفصح عما يريد ، ثم أوماً برأسه إلى غرفة تيم مشيراً إلى أنه يريد أن
يحتلي به ، ودخل تيم الغرفة وفي أعقابه وانغ .

« الحق ياسيدي أن قطاع الطرق قادمون ،

فردد تيم : « قطاع الطرق ؟ » ، لقد كان قطاع الطرق يحلون
بطبيعة الحال في كل مكان ، فما بالهم يأتون إلى هذا المكان
وفي هذا الوقت ؟

فأجاب وانغ : « إنهم يحسبون أن في الصناديق كنزاً ،

وأوماً تيم برأسه ، إن هذا مفهوم و لكن سياراته لم تكن
مباحة لهؤلاء اللصوص .

وهناك قال لوانغ : « سأخرج للقائهم فإني أمريكي ولا يمكن
أن يستولوا على ملكي ،

وبدأ الشك على وجه وانغ ، وقال : « قد ينصت عامة قطاع
الطرق إلى الرجل الأبيض ، ولكن هؤلاء هم (النساء) وهن
لا ينصتن إلى أي رجل »

وسأله تيم : « أتعني أنهن قاطعات طرق ؟ » . وكان من

الأسباب التي حببت له الاستمرار في البقاء في الصين أن أحداً لم يكن يعلم ما قد يحدث في اللحظة التالية . لقد رأى من الصينيات عدداً قليلاً جداً حتى لقد كن في نظره أشبه بأسطورة من الأساطير ، أجل لقد رأى فلاحات ينفلتن هاربات حين يرينه ، أو سيدة بدينة في سوق تشتري اللحم والخضر ، أو مستجديات كفيفات ترك الجدرى في وجوههن أثره ، أو فتاة تقف بياب ما يقع نظره عليها حتى تولى الأدبار .

وقال وانغ في إصرار : « إنما أقصد النساء ! »

وتملكك تيم الرغبة في الضحك ولكنه ما لبث أن قال : « إن كن نساء فقط فليس الأمر كله إلا هراء ، اذهب وقل لصاحب الفندق إننا في بلادنا لا نخشى النساء »

ومضى وانغ إلى صاحب الفندق ، ولكنه قال له : « إن سيدى ابن الحاكم الأكبر الذى يجلس بجوار الملك في أمريكا ، ويعلق في رقبته خاتماً ملكياً ، وهو خاتم سحرى ، فلئن أقبلت النساء خرج إليهن وحده وتحدث إليهن ، فإذا لم ينصتن إليه قضى عليهن »
وسأله صاحب الفندق : « أألهيه أيضاً بنادق سحرية »

فأجابه وانغ : « إنه يخفى من هاته البنادق بندقيتين تحت قميصه » ، وكان وانغ قد تناقش في هذا الأمر مع تيم ونصحته بأن يتزود

ببندقية من بنادقه حين يشرعان في هذه الرحلة التي لا يقدم عليها عاقل .

وكان تيم قد أجابه قائلاً : « لا أريد ببندقية »

فسأله وانغ : « ولم ياسيدى ؟ »

فأجابه تيم : « لأنني لا أريد يوماً أن اضطر إلى قتل إنسان »

وكان وانغ يعلم أن هذا ضرب من الجنون ، وها هو ذا قد كتم هذا الأمر .

وقال صاحب الفندق : « أما وهر يملك ببندقتين والسحر طوع بنانه فإنه يستطيع أن يبق ، وإن كنت غير مسئول بحال ،

ولكنه خرج وأذاع الخبر بين القرويين حتى يهدىء من روعهم ، فقد كانوا يلحون عليه أن يخمد أنفاس تيم في هدوء ، وأن يرسل إلى النساء من يقول لهن إن الحديث كله كان حديث خرافة ، إذ لم يكن ثمة أمريكي ولا كنز ، وإذا ما لقي تيم حتفه استطعن أن يفتحن الصناديق بأنفسهن .

فقال صاحب الفندق : « يحسن بنا أن ندعه يجرب سحره ، فليس بيننا من يقوى على مجابهة « النساء » .

... وتسلل تيم في تلك الليلة مجتازاً الدغل الذي أضاءه ضوء القمر متجهاً إلى حافة المستنقع ، ثم تريت . وقال بينه وبين نفسه ، وقد افتر ثغره ، إنه لن يجديه نفعاً أن يصطنع الهدوء وهو يتنفس

بصوت مرتفع تنفسا يكشف عن وجوده لأى إنسان بحيث لا يقتضيه فى سبيل الكشف عنه أن يفتح عينيه ليراه ، وكان قد غطى جسمه بخليط من شحم الخنزير وزيت الكافور ، ليقى نفسه لدغات البعوض القاتلة ، وكان عرقه يتصبب من جسمه يجاهد طبقة الشحم التى جعلته يشعر بشعور من وضع فى غطاء من المطاط ، وراح يجلس القرفصاء تحت شجرة ضئيلة بعد أن نقب فى العشب الذى تحتها بمصباحه الكاشف بحثاً عن الأفاعى .

لم يصدق تيم كلمة من هذه القصة كلها ، ولكنه كان قد وعد ، وها هو ذا قد خرج للقاء هؤلاء النساء ، أجل لم يكن مستطيعاً أن يصدق هذا الذى عزوه إليهن ؛ فقد كانت النساء فى نظره مخلوقات فى رقة وطفولة ، ولم يكن قد خبر منهن الكثيرات حتى فى أمريكا ، وظل عزبا تحت سمع بوذا وبصره . لقد تملكه الفضول الآن ولكن الخوف لم ينل منه ، وكان كل عدته حذاء طويل الرقبة وعصا يدفع بها الأفاعى عن نفسه .

ولم يكن الليل قد انتصف بعد ، وكانت القرية من خلفه ساكنة سكون القبور ، وقد انكشف قائد كل سيارة من سياراته فى مقعده متظاهراً بالنوم ، وأبى وانغ الذى ظل مخلصاً له فى كل شئ سوى ذلك ، أن يصحبه ، وقال له : « خير للرجل الأبيض

أن يكون وحده مع النساء ، ، فلما رحل تيم وضع وانغ المتراس الخشبي في عرض باب غرفته وجلس على صندوق الطعام ، ولم يكن في ذلك الصندوق آتذ إلا القليل من الطعام : بضع علب من الحساء وعلبة من الفول وعلبة من اللبن الجاف وقليل من السكر . إن هذه المقادير من الطعام ما كانت لتغري كثيراً سائق سيارة النقل نفسه ، ولكن الواجب عنده كان قد جرى في دمه مجرى العادة .

وشعر تيم ، وهو يجلس القرفصاء في الدغل في منتصف تلك الليلة التي شاعت فيها الأصوات الشريرة ، بجلده يقشعر وشعره يقف . ورأى آخر الأمر في ضوء القمر قوماً يتجمعون في الطرف الأقصى من المستنقع ، رأى بضعة في الظلام تتحرك لا تتخللها إلا أضواء تضطرب وتذبذب ، وظل يرقبها حتى خال أن المستنقع قد امتلأ بالناس ، وقال بينه وبين نفسه : « إنهم قطاع طرق » ، رجالا كانوا أم نساء ، واستبد به الغضب شيئاً فشيئاً .

ومضى في تفكيره وهو يرقبهم قائلاً : « يا لعنة ! إن بنادق قد رصدت لقتال اليابانيين ، وسأمضى إليهم من فوري وأقول لهم هذا ، وأثير فيهم النخوة بوصفهم من المواطنين ،

وانتصب واقفاً وأشعل مصباحه الكشاف ليضيء باستمرار ثم راح يضرب في الوحل ربع ميل ورآه الجمع المحتشد ، وتبين

ذلك إذ توقفت فجأة كل حركة وانطفأ كل ضوء ، وتكأ كأت
الجماعة في كتلة سوداء واحدة ، وشعر بأنهم هناك ينتظرونه ،
ولكنه مضى في سبيله يرفع ساقاً ويتبعها بأخرى متزحاً إليها
من الطين الأسود اللازب .

فلما اقترب من الحشد بحيث يستطيع توجيه الخطاب إليه
توقف ، ثم رفع مصباحه الكشاف فسقط ضوءه على وجه ..
وجه قوى وسيم ، لقد كان وجه امرأة ! وأخذ ينقل الضوء
من وجهه إلى وجه فوجد أن الجميع نساء .

وقال بالإنكليزية في صوت واضح : « لتدركي اللعنة ! »
لم يدر همس أو تند حركة من هذا الجمع الذي كان يقف أمامه
محتشداً متماسكاً في ضوء القمر ، ساداً الطريق في وجهه .
وسألهن بالصينية : من أنتن ؟ ،

فلم ترد منهن واحدة ، بل وقفن يخيم عليهن السكون .
وعاد بالضوء إلى تلك التي كانت تصدرهن ، وراح يتفحص
وجهها مرة أخرى ، كان وجهاً كالصوان ناعماً ، وكانت العينان
الكبيرتان سوداوين كأنهما خرزتان من الخرز الباني ، لا تدركان
شيئاً أو تدركان كل شيء ، فليس يدرى . ومع ذلك فقد تملكه
شعور غريب بأنه رأى هذا الوجه في مكان آخر ، وسلط ضوءه

على جسمها الضخم ، لم تكن المرأة تحمل بندقيّة ، بل لا تحمل حتّى سلاحاً من أى نوع ، فقد كان فى يدها فأس من فؤوس الفلاحة .
وسألها : « من أين أتيت ؟ » ، وسلط الضوء على عينيها وهو يقول لها هذا ، فلم تلح فيهما بإدرة توحى بجواب ، وإنما تبدى عزم قوى على الانتظار ، وراح يرتد عنها فى شىء من الفزع والرعب ، ورأى والضوء يومض على أجسام الآخرين أن كلا منهم تحمل فأساً أو مجرفاً ، فدار على عقبيه وانطلق يخوض فى الطين .

فلما بلغ ظلال الأشجار انتظر ومضى يرقبهن ، فلم تتعبه منهن واحدة ، ثم رأى بعد لحظة أن هذا الحشد أخذ يتحرك ويسير ، كما أنما كن ينتظرن ليحققن من رحيله ، وشاهدتهن يتفرقن فى ضوء القمر ، وعادت الأضواء ترمض بعد حين ، وهنالك أدرك ما كن يفعلن . لقد كن يعملن فى تعييد الطريق ، ذلك الطريق الذى أودى بحياة الكثيرين من الرجال ، لقد جئن لهذا ، لا لشيء سواه ، ووقف يرقبهن ، وقف يرقب أجسامهن القوية الشبيهة بأجسام الثيران ، وهن يتحركن بسرعات فى ثبات . أجل ، كان هذا هو كل ما جئن من أجله ، وكل ما كن يفعلنه .

وانصرف عنهن آخر الأمر ومضى إلى القرية ، وطرق بعد الفجر بقليل الباب الذى كان وانغ قد أحكم غلقه بوضع عارضة من خلفه .

وسأله وانغ حين رآه : « ألم يقض عليك ؟ »

فأجابه تيم في اقتضاب : « كلا ، »

« وقاطعات الطريق يا سيدى ؟ »

فقال تيم بلا تفكير : « لن يأتين إلى هنا ، . لقد أراد على نحو ما أن يحتفظ بالسر ، فلهذا كان من العسير عليه أن يعلل ما رأى . وانفلت وانغ من تحت ذراعه وهو يستند إلى الباب . وسمعه تيم بعد ذلك بلحظة يتفاخر في كل مكان من الفندق .

« ألم أقل لكم ؟ إن النساء لن يأتين . فقد ردهن سيدى

عن المجيء . »

وتركه تيم يتباهى ، ولا عليه ، فقد أبصر معجزة من المعجزات . أجل أصبح الناس يعدونها معجزة في هذا الإقليم إذ استحال المستنقع ، الذى كان قد ابتلع أجسام عدد غفير من الرجال ، حزاماً قوياً من الأرض الثابتة في أيام قلائل . لقد ألقى بالحجارة في أعماق المستنقع ، وسحقت الصخور والجلاميد وسويت فوق الحجارة ثم ردمت بالأتربة . وكان الرجال يعودون في صبيحة كل يوم ويتعجبون مما أنجزه الليل ، أو لعلمهم كانوا يتساملون أتراهم أنجزوا بالأمس أكثر مما يعرفون ؟ ولا شك أن الأمر كان ينطوى على معجزة في ناحية من نواحيه . لقد كان من الخير لهم ألا يتساملوا ، وأن يقبلوا الأمر على علاته .

وانتهى تعبيد الطريق بعد خمسة أيام وليال آخر ، وساق تيم ، وهو على رأس القافلة ، سيارته في حرص وحذر وكان أول من مر في الطريق . ترى هل كان الأمر كله مجرد حلم أو سراب ؟ ولكن الطريق كان ثابتاً في هذا المستنقع المضطرب المائج . أجل ، كان الطريق مأموناً ، ففضى في سبيله وبلغ الجانب الآخر ، وجاءت من خلفه مئات من سيارات النقل الأخرى والعربات من كل نوع ، تحمل السلع إلى باب الصين الخلفي .

وأودعت الصناديق المعبد تحت الطلب ، وخرج تيم من غرفة نومه ، وقد استحم وانتعش ، ليلقى عليها نظرة . لم تكن لديه أية فكرة عما يفعل بعد . وشعر في تلك اللحظة يبد تبلس ذراعه ، فالتفت ورأى رئيس المعبد .

وقال له رئيس المعبد : « لقد سمعت أنك عدت ،

فأجاب تيم : « إنما عدت وشيكاً ،

وسأله رئيس المعبد : « وهل كنت موقفاً ؟ »

فأجاب تيم : « وقفت كل التوفيق ، وأنت إلى أين ذهبت ؟ »

فقال رئيس المعبد في سذاجة : « أنا ؟ آه ! تذكرت أين تركتك .

وى ، لقد عدت إلى ناحية كنت أعرفها وأنا بعد صغير ، حيث

قتلت وأيم الحق رجلاً بسبب امرأة ، ولم تكن المرأة زوجتي فقد شاء بوذا غير هذا ، ومع ذلك فقد أرسلني بوذا إليها في هذه المرة ثانية ، ذلك أن الناس في تلك الناحية لا يخشون مرض النمر ، ولا يوتون به ، وبخاصة النساء ،

وسأله تيم : « أوقد اكتسبوا المناعة آخر الأمر ؟ لا شك أنهم قد نكبوا به قروناً طويلة ، وأحسب أنك على حق في تسميتك هذا البعوض بالنمر ،

فأجاب رئيس المعبد : « إن بوذا يحمي القوم الذين يعيشون هناك ، وقد تذكرت هذا ففضيت أبحث عنها . . أبحث عن تلك التي كانت في شبابي لا تخشى الرجل أو النمر . .

وتوقف رئيس المعبد ثم مضى يقول : « إنها امرأة ، وأنا الوحيد في هذا الكون بأسره الذي أستطيع حملها على الإذعان لمشيئة بوذا . .

وسأله تيم وقد علت بسمة وجهه : « أهي معجزة ؟ . .

فأجاب رئيس المعبد : « إنك لتجد المعجزة في كل شيء ، وفي هذا أيضاً . لقد قلت لها : إن ابنتنا في حاجة إلى أسلحة يقاتل بها العدو ، والأسلحة عند رجل أبيض ، ولكنه ينتظر حتى يهد الطريق ، فردد تيم القول : « ابنك ؟ »

فأجاب رئيس المعبد فى هدوء : « أى نعم »

فقال تيم بعد لحظات قلائل : « إني لأحسب أنك تستطيع
فى هذه الحالة أن تقول له إن البنادق هنا »

فأجاب رئيس المعبد فى سكون : « ما إن تستيقظ فى صبيحة
الغد حتى تكون قد نقلت من هنا »

ووقفنا جنباً إلى جنب يتطلعان إلى تالى الجميلة ، تمتد أمامهما
من خلال الباب المفتوح . لقد كانت هى هى لم تتغير عما كانت
عليه منذ قرون ، اللهم فيما عدا ذلك الطريق الجديد يسير بجوارها
أبيض منبسطة ، وكان يلم بالطريق شرر متألق يتحرك فيه غاديا
رائحا ، وكان هذا الشرر سيارات ركوب وسيارات نقل من كل
نوع ، وراح تيم يرقبها وكل واحدة منها تنجل فى أشعة الشمس
لحظة ثم تمضى فى سبيلها بين الجبال شرقا وغربا .

وقال تيم : « لقد أصبح من اليسير بمكان الآن جلب أى شئ
إلى الصين بفضل الطريق الجديد »

فأجاب رئيس المعبد : « لقد أصبح ذلك غاية فى اليسر حتما » ،
ثم انصرف بعد أن قال كل ما يريد أن يقول .

فلما انصرف رئيس المعبد وفرغ تيم من تناول غذائه راح بهبط

الجل في تناقل مرة أخرى قاصداً مكتب البرق القذر ، وأيقظ
الكاتب الذي كان نائماً على المنضدة .

وقال له « برقية » ، وكتب بضع كلمات على قصاصة من الورق .
وأخذ الكاتب القلة يقرأ نعسان وهو يحك رأسه : « تسلمت
البضاعة . ما هو أفضل أسعارك إذا ضوعف الطلب الأخير .
عاجل . نعيم »

وقال تيم للكاتب « تماماً »

ثم عاد يصعد الجبل مرة أخرى ، ووجد وانغ في ثوب أبيض
طويل ينتظره وقد أعد له شيئاً من الشاي وبعض الكعك الصغير
المصنوع من السمسم ، وأدرك تيم أن وراء هذا السكون الشامل
حركة شديدة ضخمة ولكنه لم يحفل بها .

وقال وهو بادى الانشراح : « سأوى إلى فراشى يا وانغ ،
وأستغرق في النوم حتى الصباح »

فقال وانغ : « أجل يا سيدى » ، ثم أردف وصوته يختلج
معبراً عن امتنانه ، على ما ألف الصينيون : « واسمح لى يا سيدى
بأن أشكرك »

ووضع يده على المصباح ليخفض ذؤابته ، ورأى تيم الوجه

الذهبي وهو ينعطف إلى باب مخدعه على ضوء الومضة الأخيرة
للمصباح ، ولم يكن شك في أن جنمى التمثال قد ارتفعتا ، ولم يكن
شك في أن العينين الشبيهتين بخرزتين من الخرز اليماني قد أطالتا
فيه النظر ، لا تدركان شيئاً أو تدركان كل شيء ، فليس يدري .

وقال : « إنها لمعجزة لا أستحق عليها منك الشكر »



الالف كتاب

قصة من الصين وطنه

تأليف
پيرل بس. بکٹ

راجہ
ابراہیم زکی خورشید

ترجمہ
صبحی وصفی

الناشر

داد الفارید

وطنه

طاه جون ديوى تشانغ يعلم دائماً أن شارع مو ط بنويوك ليس هو وطنه ، وكان الناس يقولون عن هذا الشارع إنه الحى الصينى ، بيد أنه كان يختلف عن وطنه . صحيح إن جون قد ألف كل الإلف جميع تلك الطرقات الضيقة الكثيرة الجلبة والضوضاء ، وعرف المحلات التى امتلأت واجهاتها بخليط من السلع المستوردة من وراء البحار والسلع الأمريكية ، وعرف الرجال والنساء والأطفال الكثيرين الذين اصفرت بشرتهم كما اصفرت بشرته واسودت عيونهم اسوداداً ؛ فقد ولد الكثيرون منهم مثله فى هذه ، الشوارع المزدهمة الشديدة الحركة ، ولم تقع عيونهم على غيرها قط ، ومع ذلك فقد كان يعلم أن هذا الحى ليس هو وطنه . ولم يكن السبب فى ذلك راجعاً بحال إلى غرابة أطواره ، أو أنه كان ، وهو طفل على الأقل ، يكره الحى الصينى . فالحق أنه قضى زمناً طويلاً لا يفكر فى أى وطن آخر ، وقد شب عن الطوق بعد أن كان طفلاً هادئاً وديعاً لا تنفك أمه عن أحمله بين ذراعيها إذا ما استيقظ ، ويروح هو وهى يحملقان فى تلك الأشياء المتنوعة إلى

تتحرك فى الطريق خارج محل العاديات الذى يملكه أبوه . وكان إذا نام حملته أمه إلى غرفة داخلية يغشاها شيء من الظلام ، وتقوح منها رائحة الأعشاب الجافة والزنجبيل والشاى . وكان هذان المكانان هما عالمه ، بل هما وطنه بقدر ما يعلم .

والحق أن المرة الأولى التى عرف فيها أن هذا الحى لم يكن وطنه ، بل لم يكن وطن أحد من بنى جلده ، كانت عندما التحق بالمدرسة . وكان والداه قد أخذوا بتدريس أمر تعليمه بصوت مرتفع وهما يتناولان الأرز من طاسيهما ، ثم استقر قرارهما على ألا يلحماه بروضة الأطفال ، ولم يحفل هو بذلك فقد كان من الأرواح لنفسه أن ينطلق فى الطرقات مع كثير من الأطفال الصغار الذين يغلب على بشرتهم البياض على الصفرة ، وأن يعتلى ظهور السيارات ويغيط رجال الشرطة ذوى القلوب الرقيقة الرحيمة ، إلا أنه حل اليوم الذى بلغ فيه السادسة من عمره ، فلم يكن بد من أن يكف عن هذا كله . أجل لقد حان الوقت الذى يجب أن يبدأ فيه تعليمه . ونهضت أمه مبكرة ، ترتدى سترتها الصينية السوداء القديمة المصنوعة من القطن ، المفكوك عند العنق ، ولم تكن قد مشطت شعرها بعد ، وألبسته حلة مخططة زرقاء بلون السماء ، نظيفة غاية النظافة ، وراحت وهى تفعل هذا تبصره بسلوك الصبية الصغار فى اليوم الأول من التحاقهم بالمدرسة ، محدثة إياه بلغتها ، ذلك أنها لم تكن قد تعلمت

الإنكليزية طوال هذه السنين . وكان هو يحادثها بلغتها ، فإذا انطلق إلى الشوارع نسي أنه يتحدث بأية لغة أخرى سوى رطانة الصبية البيض . وكان ينصت إلى أمه في وقار ، شاعراً بشيء من الحشمة يهبط عليه ولا يمت إلى نيويورك بسبب ، ثم قالت له أمه في لهجة غاية في الرصانة والجد : « هكذا يكون سلوك الصبية الصينيين الصغار ، وقال له أبوه : « لا تنس أنك ابن من أبناء هان ، وأنتك غريب عن هذه القبائل البيض المتوحشة التي قدر علينا أن نعيش بين ظهرانيها حتى يتيسر لي أن أصبح من الأثرياء ، فكن مؤدباً مع معلمتك ، وأطع من يكبرونك سنأ ، وانصرف إلى كتبك ،

وكان أبوه وأمه وقت الإفطار بطوله يتوقفان ، ويرفع كل منهما عصا طعامه فوق طاس من ثريد الأرز ، ايزيداه من النصح الطيب الصادق ، وأطلق عليه أبوه بعد أن فرغ من إفطاره اسمه المدرسي ، وهو جون ديوى تشانغ ، وكان لقبه في المنزل حتى ذلك الحين « الكلب الصغير » ، وفي الشارع « تشنك » ^(١) ، إلا أن أباه كتب الاسم على قصاصة من الورق ليسلها إلى معلمته حتى تثبت اسمه جون ديوى تشانغ صحيحاً في السجلات ، وقال له أبوه إن جون ديوى اسم رجل أمريكي ساعد على فتح مدارس جديدة

(١) « تشنك » كلمة أمريكية دارجة معناها صيني .

نافعة في الصين وقد قرأ ذلك في الصحف التي جاءت من مسقط رأسه في تلك البلاد .

وصحبه أبوه إلى المدرسة ، وقدمه إلى المعلمة ، ولم يلبث أن بدأ في دراسته ، ذلك أنه اتفق أن صدر الأمر إلى التلاميذ أن يصطفوا صفاً وأن يسيروا من هذا الفصل الصغير إلى فصل أكبر منه ، على أن يمشوا إلى ذلك اثنين اثنين . واتخذ جون تشانغ مكانه في الصف خفيفاً نشيطاً وأشرق وجهه بالجد والاهتمام . وسار التلاميذ مشي ، ومضى بعضهم قبله وبعضهم بعده ، إلا أن أحداً لم يأت ليقف بجانبه ، ثم وقفوا اثنين اثنين ، ووقف هو وحده في الوسط حتى لم يبق آخر الأمر إلا صبية بيضاء بدنية صغيرة . أجل صبية صغيرة ممثلة الجسم لها ذوابات خفيفة جدلت بإحكام وربطت بقطع من الشريط الأحمر ، وكانت هي أيضاً تقف وحيدة .

وقالت الآنسة بنكني : « فلتقبلي ياماري ، ولتقبلي بجوار جون ، إلا أن ماري لم تقبل ، وعجب جون إذ رأى الصبية الصغيرة تهز رأسها هزاً عنيفاً ، وتقول بلهجة بغیضة : « كلا لست بفاعلة ، ولن أسير بجوار صيني »

ورمقتها الآنسة بنكني بنظرة قاسية لم تدم إلا لحظة ، ثم أخذت هي نفسها بيد جون وقالت : « حسن جداً ، فلتسيري وحدك ، أما أنا فأسير مع جون ،

وخيم سكون مطبق على الصف المزدوج ، وأدرك جون دوى
تشانغ أنه لبس من قبيل السكون الذى ينم عن العطف ،
وأمسك بيد الأنسة بنكن فى يقظة وانتباه ، وقد خلت أساريره
من أمارات الغبطة والسرور ، ذلك أنه كان يدرك أنه يؤثر أن يسير
مع مارى . وكان هذا بداية تعليمه .

وهكذا بدأ جون تعليمه ومضى فيه سنوات كثيرة . وألف بعد
حين أموراً أخرى . تعلم فى هدوء أن ينتظر حتى يمد كل من عداه
من التلاميذ إخواناً لهم . فإذا واتاه الحِظ أن يبقى منفرداً وقف
وحده فى نهاية الصف ، وإذا كان العدد زوجياً ، وخاصة حين يكون
شريكة فتاة ، راض نفسه على أن يقف فى شىء من الترفع الرقيق
ينتظر . وأصبح يمس بالجو السائد ، سواء انطوى على الترحيب
أو الصد ، كأنما رزق كالحشرات قرون استشعار . ولم يكن يشكو قط
أو يفضى بما يعاينه إلى والديه ، بل انطوى على نفسه وأصبح شاباً
صموتاً ، مثابراً هادئاً كل الهدوء حسن الهندام لا يفصح عما فى نفسه ،
وجعل غايته أن يكون الأول فى فصله وأن يفوز بجوائز التفوق .
وكان والداه يفخران به كل الفخر ، ويتحدثان عما يفعلان حين
يبلغ السن التى تؤهله لتولى أمر المحل . وكان جون يقضى أمسياته
عاكفاً على دفاتر الحسابات الخاصة بأبيه بعد أن يفرغ من
دروسه . على أنه كان يعلم بالرغم من ذلك أنه لن يتولى أمر المحل ،

ذلك أنه كان قد أدرك وقتئذ أن هذا الوطن ليس وطنه ، وانطوى صدره على هدف خفي ، بل مطمح يقض مضجعه ، فقد جعل همه أن يجد وطنه .

ولم تزد الطرَف والعقود والأصنام ، والصور الملونة المهمة المرسومة على اللقائق ، ومئات القطع الغريبة ذات الجمال العجيب التي كان يعرضها أبوه للبيع ، إلا شوقاً للارتحال إلى مصدرها . وراح يخرجها في رفق من صناديقها المليئة بالقش ، وهي صناديق كبيرة من الخشب ختمت بحروف حمراء وسود غامضة ، ثم يتساءل ، أو قل يحلم ، بأرض أخرى يتمثل فيها الجمال على صورة هذه الأشياء .. أرض وطنه !

ولقد سمع جون بطبيعة الحال عن تلك البلاد من أناس كثيرين ، وتعلم أن يقرأ شكسبير والتاريخ الأمريكي وهويتر ولونجفلو ، ويقرأ أيضاً الخطوط الطويلة المستقيمة التي تتألف منها حروف لغته ؛ فقد كان يوافيه ليلاً رجل طاعن في السن يتولى تعليمه ، ويشرح له أوزان الشعر القديم الرتيبة ، وكان جاراها — جورج ليو وروثكين — يثوران أشد الثورة لذلك ، ولم يتعلما قط ما يكنى لإدراك المعاني الخفية لتلك الأقواس والمربعات . وكانت روث تطوح برأسها الجميل ذى الشعر الأسود المموج ،

وتقول بصوت عال وهي تمضغ اللبان بسرعة : « دوى . . فيم كل هذا ؟ إن لدى ما يشغلنى عن مكابدة ذلك ! . . وكانت الفتاة ترمق هارى سيلز ، الشاب البقال الذى يقيم بجوارها ، بعينها السوداءوين المنحرفتين . ولم يكن هذا بطبيعة الحال يغنى أنها سوف تتزوج رجلاً أبيض ، وكل ما فى الأمر أن البيض مدعاة للهو والنسلية . وما من شك فى أنها كانت ترى أن لابد لها من الاستقرار وأن تتزوج صينياً من الطراز الحديث ، لاصينياً من الطراز القديم . أجل تتزوج قى فطناً ، وقد يكون هذا الفتى هو جورج ليو ، إذا بلغ من الفطنة ما يرضيها ، وسيكون لها شقة صغيرة تتوفر فيها الكهرباء . وكانت إذا سألها سائل تريد العودة إلى الصين أغربت فى الضحك وقالت : « العودة إلى ماذا ؟ لست أنا التى تعود إلى الصين ! إنهم يقولون لى إن الأنوار الكهربائية لا تتوفر فى مسقط رأسنا القديم فى الصين ! ثم إن القوم لا يزالون يحبسون الفتيات فى المنازل هناك ! . . وعادت تغرب فى ضحكها الرقيق العالى النبرات ، يرتفع به صوتها ارتفاعاً خفيفاً ، ذلك أن هارى سيلز كان يقف بباب محله . وافتر لها نثر هارى عن ابتسامة ثم عن الكسل ، وصاح بها : « أراهن أنهم ما كانوا يستطيعون حبسك فى المنزل لو أنك كنت هناك ! . . »

فالتفتت إليه قائلة وهي تزر عينها : « لاجاجة إلى الرهان

فإنه أمر محقق . . . وكانت قد شاهدت أنا ماى وونغ تفعل هذا
فى رواية سينائية فراق لها ، أجل راق لها ما فى ذلك من فتنة شرقية .
وراح چون ديوى تشانغ يرقبها فى جد واهتمام ، وكان ذلك
بعد الغروب مباشرة ، وقد عاد من المدرسة الثانوية وكانت تلك
السنة سته الأخيرة فيها ، ثم يلتحق بالجامعة فى السنة التالية ويمضى
بعد ذلك إلى وطنه . . . وطنه ! لقد بدأت هذه الكلمة الآن تحمل
فى طبيئتها شيئاً جميلاً غامضاً ، وأخذ يرنو بصره إلى الشارع من
أقصاه إلى أقصاه مستغرق الفكر ، وقد شاع الضجيج فى كل مكان ،
ضجيج السيارات والأطفال ، وانبعث « تروللى » يصخب فى
الشارع المجاور وهو يلتف حول الناصية . وكان أخوه الأصغر
يمجد عند قدميه فى شد رباط حذائه ، ولم يكن أتم بعد الربيع الثانى
من عمره ، وازدحمت الطبقة الصغيرة التى تعلو المحل بمقدمه حتى
لم يعد فيها متسع ، إلا أنهم لم يفكروا فى أن يتخذوا مسكناً أكثر
اتساعاً . ومضوا ينامون فى غرفة النوم فتزدحمان بهما أكثر مما
كانتا تزدحمان ، مع الأخذ بأسباب الحشمة والوقار دائماً ، فقد
كانت أخواته ينامن فى الغرفة الأخرى ، وينام والداه فى سرير
أسدلت ستائره وفصل بحاجز من جدران خشبية . على أنه كان
يسره أن يرحل ، وراح يفكر فى وطنه فى حنين وشوق ، وهو يحدق
فى الشارع المزدهم الذى يسوده الاضطراب والضوضاء عادة

في تلك الأمسيات من أواخر الربيع . لقد كان هناك في وطنه شوارع هادئة ، وقرويون ينشدون الأناشيد ، وحقول جيدة الزرع ، وسلوك طيب حميد ، وسكون وثقة واطمئنان ، وهو خليق بأن يكون فيه ، بل بين قومه . وقد سمع أمه تروى هذه الروايات عن البلدة الريفية الصغيرة التي نشأت فيها . . بلدة تقع في جنوبي بلاد الصين ينعم كل من فيها بالسعادة كما قالت له أمه ! أجل لقد كانت الفتيات كلهن جميلات طبيات ، يختلفن عن هاته الفتيات ذوات الشعر الأصفر والشفاه المطلية . ولسن بخاصة على شاكلة روث كين الحمقاء . وشعر جفاة بحنين شديد إلى تلك البلاد التي لم يقع عليها نظره قط .

وتشبث بمخطته خلال السنوات الأربع التي قضاها في جامعة الولاية تشبهاً لايمجد عنه بحال ، وأصبح شديد التعصب لصينيته ، وحمل أقرانه على الاعتقاد بأنه قادم من تلك البلاد الصغيرة الوقور الجميلة القائمة في جنوبي الصين ، وليس من ذلك الشارع الصاحب المزدهج القائم في نيويورك . وكانت الثوره قد شبت في بلاده في هذه السنوات فألف رابطة من مواطنيه الشبان الصينيين السبعة الذين في الجامعة ، وكان يحرم نفسه كل يوم من الغذاء ليدخر المال ، ويهدد الأعضاء الآخرين المشتركين في هذه الرابطة حتى يدفعوا أكثر مما يظيقون . واقبضت ثلاثة أشهر زاد فيها المبلغ المدخر

على تسعين دولاراً ، فرحوا يتناقشون في شدة وعنف في الغرض الذي يجب أن يكرس له هذا المبلغ في الصين ، ولاحظوا من دراسة الصحف والنشرات التي تصدر عن بلادهم أن ثمة وجوهاً كثيرة يمكن أن يخصص لها المبلغ ؛ فمن الممكن أن يعطى للجائعين ، ذلك أن القحط كان قد حل مرة أخرى ببلاده . ومن الممكن أن يخصص للطائرات التي كانت الحكومة الجديدة في حاجة إليها ، ومن الممكن أيضاً أن ينفق في شق الطرق . وانقضت أسابيع لم يقر لهم فيها قرار ، ثم اتفقوا آخر الأمر على أن يهبوا لشق الطرق الجديدة ، ومن ثم استبدلوا بالنقود حوالة أرسلت إلى الحكومة في نانكينغ وأرفق بها خطاب مستفيض يفصح عن أمانى الواهين ، وتلقوا بعد ستة أشهر أو نحوها خطاباً رقيقاً بصم بخاتم الجمهورية ، يقول إن النقود وصلت وستنفق دون شك في شق الطرق ، واختتم الخطاب بعبارات من الثناء على هذه الوطنية ، ووقعه السكرتير الثالث لرئيس الجمهورية .

وكان هذا أول اتصال له ببلاده . وشعر چون إذ أمسك بالخطاب بأن قلبه يفيض بالانفعال ، وتعذر عليه أن يحبس دموعه وهو يتلوّه على إخوانه بصوت مرتفع ، وقال له أرت لوك في تمك : « أجل ، إن هذه لشقشقة جميلة . » ويقول أبي إن هؤلاء القوم أنفسهم استخدموا النقود كلها التي أرسلوها إليهم في العام

الماضى فى شراء طائرة ، إلا أنه لم تكن ثمة أية طائرة ! .. فصاح به
چون تشانغ غاضباً : « أتحقّر من شأن بلادك ؟ وهل تزعم أن
سكرتير الرئيس كاذب ؟ »

ولوى آرت شفتيه الوسمتين الرقيقتين ، ونظر إلى محدثه
نظرة تتم عن احتقار ثم أخلد إلى الصمت ؛ فإن الأمر لم يكن يعنيه
على كل حال . وراح يفكر فى موعد لم يكن بد من أن ينى به تلك
الليلة فى مقهى صغير جداً مع فتاة شعرها أصفر شديد الصفرة ،
وشرع يصفر فى صوت رقيق .

وهكذا كان الأمر ، فقد ظل چون تشانغ يعمل على تحقيق
خططه لخير بلاده طوال مدة وجوده فى الجامعة ، على حين راح
زملاؤه يلعبون كرة القدم أو يمتثلون إلى السينما أو يواعدون
الفتيات . وهناك واجهت چون مسألة : ترى أيوجل عودته فترة
أخرى ليتلقى منهاجاً خاصاً فى علم من العلوم ، وليكن مثلاً الطيران
أو الهندسة أو الطب ، أم يذهب رأساً إلى وطنه بمجرد فراغه من
دراسته الجامعية ؟ وأخذ يجادل نفسه يراوده الشوق إلى المضى
إلى وطنه رأساً فلا ينتظر شيئاً . ومع كل فقد كان للتعليم الجامعى
قيمته ، ذلك أنه كان مستطيعاً أن يجد بفضله وظيفة مدرس أو
وظيفة فى الحكومة . فقد كانت الوظائف موفورة فى كل مكان

فى تلك الأيام ، أجل تلك الأيام الزاهرة المجيدة التى كانت تحياها
بلاده ، ولم تكن الحال كما هى عليه هنا فى الولايات المتحدة ، حيث
أخذ الناس يتدافعون ويتزاحمون بالمناكب فى سبيل العمل . لقد
كانت الطرق هناك فى ازدياد والطائرات تحلق فى الفضاء ، والمباني
الجديدة ترتفع والأعمال التجارية تتسع . كانت الأمة بأسرها فى
حركة دائبة تسرع إلى الأمام ، وخير له أن يسهم فى تلك الحركة
بشبابه الآن بلا تمهل ولا إبطاء ، ومهما يكن من شىء فإن من الخير
له أن يذهب ويرى ما الذى يريدون ، على أن يعود إذا اقتضاء
الأمر . بيد أنه كان يعلم أنه لن يعود . وتخرج فى الجامعة ثم أسرع
عائدا إلى شارع موط ليودع والديه ويشتري تذكرة فى الدرجة
الثالثة إلى الصين .

ولكن حدث ما عوقه ، وكان السبب فى ذلك تردده فى الرحيل
تردداً يدعو إلى أشد العجب . ذلك أنه كان قد احتمل الضوضاء
والحرارة فى الشقة التى يسكنونها أسبوعين ، واشترى التذكرة ،
وتحدث مع والديه فى كل شىء ، وراحت أمه تقول له المرة بعد
المرة : ألا فلتقل لهما فى الموقرة حين تراها إتنى حزينه لأننى لست
هناك لأقوم على خدمتها ، وحين ترى حماى المحترم وإخوتى
وزوجاتهم . . . ! وتكلم أبوه بحماسة عن العصر الجديد فقال :
ولم يكن الفتى فى صدر حياى يستطيع شيئا إذا كان الابن الثامن فى

قطعة أرض صغيرة ، ولذلك لم أجد بداً من انتهاز فرصة سفر ابن عم أبي الأكبر فصحبته إلى الخارج في أثناء قيامه بأعماله التجارية ، وبقيت هنا وأرسلوا إلى أمك حيث ولدت أنت ، لأعيدك إلى وطني والفخر يملأ جوانحي . . . وما إن فرغوا من كل ما يقال ، وتم إعداد كل شيء ، حتى شرعوا تشانغ فجأة بأنه عازف عن الرحيل .

ولم يدرك أول الأمر علة تردده ؛ فلم تكن هذه المدينة الصاخبة بحال هي السبب في بقاءه . ووقف چون ينظر إلى حركة المرور ذات ليلة مكتئباً محزوناً ، فقد كان لا يحب هذه الأضواء المندفعة تدنو منه وتسطع لحظة في وجهه ثم تعود فتختفي ، ولم يأنس شيئاً من الموسيقى في ضجيج سيارات « الترولي » ، وصريرها يثير في قلبه الحنين إلى هذه البلاد ، ولم تكن ثمة وجوه ، اللهم إلا وجوه أفراد أسرته ، يهيمه أن يراها مرة أخرى أو لا يراها ، أجل لم تكن ثمة وجوه . . . ثم أدرك والغیظ يتمسكه أنه كان يهيمه وجه واحد ، وجه مرح صغير مستدير يتوجه شعر أسود مجعد ، لقد كان هذا الوجه هو الذي أثار هذا الاضطراب في نفسه ، وجه يتوق إلى رؤيته مراراً وتكراراً ، وإن هذا الوجه هو وجه روث كين .

وما إن أدرك هذا حتى أسرع فدخل المنزل واتجه إلى ركن معتم من أركان محل العاديات الصغير المظلم ، وجلس معتمداً رأسه بين

يديه ، محاطاً بتهائل بوذا وجياد هان المصنوعة من الفخار ،
وسترات حكام الصين المعلقة على الجدران. ولم يكن چون يريد قط
أن يقع في حب روث كين ، ولم يكن يود أن يتزوج ؛ فقد حدثته
أمه عن النساء اللواتي يعشن فيما وراء البحار ، حدثته عن هدوئهن
ورقتهن وعيونهن اللطيفة الحلوة ، وطاعتهن لأزواجهن . وقال
يحدث نفسه إنه ربما استطاع يوماً أن يعيش مع امرأة جميلة مطيعة
في بيت صغير له فناء ودغل من الغاب وشجرة من أشجار الدفل ،
ولكنه لن يعيش مع روث كين المبتذلة ، السكثيرة الحركة الصخباء .
ولكن هكذا قدر له ، ولم يحد في نفسه الرغبة في ترك الفتاة .
لقد لقيها مرات كثيرة بطبيعة الحال ، وراح يسائل نفسه في مرارة
كيف يستطيع المرء أن يتحاشى لقاءها ؟ فقد كانت لا تزال تسكن
في المنزل الذي يجاور منزله ، تروح إلى المدرسة التجارية وتغدو منها
عالية الصوت كثيرة المرح ، كانت تتعلم فيها الاختزال حتى تستطيع
أن تساعد أباه . ذلك أن أباهما كان تاجراً من تجار الشاي والزيت ،
لم يتعلم قط التفصيلات المعقدة المتصلة بأعمال الجمارك والحسابات ،
فصحّ عزم روث منذ زمن طويل على أن تتولى هذا العمل وقمّا
تستطيع ذلك . لقد كانت تتوق دائماً إلى أن تتولى الأمور بنفسها ،
وأن تقوم على تدبيرها . وهكذا استطاعت على مر السنين أن تتولى
من شئون أبيها المسالم البدين قدراً أخذ يزداد عاماً بعد عام ، إلى أن

جاء الأمريكيون من تجار القطاعى إلى محل بيع الشاى بالجملة ، فوجدوا شابة أمريكية وسيمة ترحب بهم ، بل فتاة أمريكية لها شعر أسود فاحم يميل ميلا شديداً إلى الاستقامة بالرغم من العناية الشديدة التى بذلت لتجعيده ، وعينان سوداوان ثاقبتان ، وبشرة ناعمة متألقة فى لون الزيتون . إلا أن صوتها كان أمريكياً ، واضح النبرات فيه شىء من الحشونة ، وكانت اللغة التى تنطق بها هاتان الشفتان الحمران القانيتان هى لغة أهل نيويورك لا تشوبها شائبة . وكان الرجال ينظرون إليها ضاحكين ، بل مشوقين فى بعض الأحيان . أجل مشوقين إلى شىء من اللهو على الأقل ، إلا أنها لم تعدم بشىء قط . . لم تعدم بشىء محدد على الإطلاق ، وكان كل منهم يعلم أن روث كين قادرة على السهر على نفسها .

وكان الجميع يعتقدون بطبيعة الحال أنها ستزوج جورج ليو ، بل إن الأسرتين نفسيهما اعتقدتا ذلك . ثم حدث فجأة ، منذ ستة أشهر فحسب ، أن غيرت روث كين رأيها ، فقالت لأبيها فى ثبات وحزم : « كلا ، لا أريد أن أتزوج جورج » . وعرف الجميع كيف ألفت بهذا القول ، ذلك أن أباها كان قد حدث بالأمم كل أصدقائه ثم نقل هؤلاء روايته إلى زوجاتهم ، وهكذا سمع جون تشانغ أمه وهى تقص القصة فى أثناء تناول الأسرة عشاءها .

قالت الأم في حزن وأسى : « إن روث كين هذه كالأمريكيات ؛
فقد ظلت طوال هذه السنين في حكم المخطوبة إلى ابن ليو ، وقد دبر
الوالدان الأمر ، وهاهى ذى لا تريد أن تتزوجه » .

وقال الأب شارد الفكر : « ولم لا تريد الزواج به ؟ » ، ولم
يكن يحفل بأمر روث كين أو بأمر جورج ليو ، إلا أن القصة
أصبحت مثار القيل والقال في شارع موط .

وأجابت الأم وهى تنهد : « من يدري ؟ إنها تقول إنه ليس
على حظ من الفطنة كبير ، وإنها لن تتزوج إلا رجلاً غاية في الفطنة » .

وجلس چون تشانغ في محل العاديات وحده يفكر في هذا
الأمر والحزن يعصر قلبه ، وراح يتحدث نفسه قائلاً : « لن تظننى
فطناً ، لقد دأبت على السخرية بى لأننى أريد العودة إلى بلادى ، وقد
سمعتها تقول مراراً إننى أبله ، وإنه لخليق بى أن أتولى عمل أبى » .
ثم تذكر عيني روث كين السوداوين المتألفتين ، وشفقتها
الحراوين الممتلئتين ، فأدرك أنه مغلوب على أمره . . لقد
كان يحبها حباً لا رجاء له فيه .

ولذلك أجّل سفره إلى حين ، ولم يرجئه كثيراً . وأباح لنفسه
بضعة أيام أخرى أكثر مما تقتضيه الحال يرى فيها المشاهد التى
على الساحل الغربى ، ولكن ما من مشاهد كان يستطيع أن يراها ،

وقال لوالديه في اليوم التالي في شيء من الاكتئاب : « إن صحتي ليست على ما يرام ، وسأبقى يوماً » .

وبقي يوماً ، يفكر في غيظ وحنق مبتعداً عن روث كين . وكان قد ألف منذ عاد أن يمضي على غير وعي منه ويقف بالباب ينتظر عودتها إلى منزلها ، ولكنه لن يذهب الآن .. أجل لن يذهب يوماً كاملاً ، وكان اليوم التالي يوم أحد ، واضطر لجأة إلى الذهاب ليراها ؛ فقد شعر أنه إذا لم يراها مرة واحدة فقط فلن يستطيع الرحيل في اليوم التالي ، وكان لابد له من الرحيل وإلا فاته السفينة التي ستقله . وتملكه الغضب من نفسه فاستلقى على الفراش وأخذ يتمتم ويتقلب ، ثم قفز بغتة وراح يهبط الدرج مسرعاً ودخل المحل المجاور لهم . لقد كان يعلم حق العلم أين يجد روث ، ذلك أن اليوم كان يوم السبت ، ولا شك أنه واجدها في الغرفة الداخلية توازن حسابات أبيها الأسبوعية وقد انطبقت شفتاها الحمراء وان بعض الانطباق وخذّر القلم الرصاص يديها السمراوين الصغيرتين .

لقد كانت في الموضع الذي حسبه تماماً ، فلم يضيّع لحظة واحدة . وقف أمامها وشعره لا يزال مشعناً ، وخلا قيصره من ربطة للعنق ، وانبعث يقول لها مخلصاً ، لأنها كانت السبب في تعويقه عن تنفيذ خطته العزيزة على نفسه .

« أو تأتين معي إلى الصين أم لا تأتين ؟ »

ونظرت إليه في عجب، وفتحت عينيها على وسعهما، ذلك أنها لم تعد قط إلى إغراء جون تشانغ أى إغراء، أجل لم تغره قط، بل لقد كانا يتشاجران معظم الأحيان، وكانت تواقه إلى مصارحته بأمر كثيرة، كثيرة جداً، ودار خلافهما مثلاً حول هذا الموضوع بالذات، موضوع العودة إلى الصين، ورشقت قلمها الرصاص في شعرها الكث المجدد، فوقف مستقيماً كالريشة يتحداه.

وأجابته في الحال: « ولم أذهب إلى الصين؟ إننى لا أريد الذهاب إلى الصين! إننى أمريكية... فكل من يولد في نيويورك يصبح أمريكياً »

فصاح بها: « لأن بلادك في حاجة إليك! ». كانت غاية في الحسن حتى تملكه الغضب منها! أكان ينبغي أن ترتدى في هذا الصباح ثوباً من الكتان في لون القرنفل؟ وهل كان ثمة داع لأن تبدو بشرتها في نعومة القشدة وفي لون الذهب؟ « أتبقين هنا وبلادك في حاجة إليك؟! »

وأجابته في برود: « شكراً لك، سأفكر في الأمر حين تتوفر بعض الأنوار الكهربائية وحوض للاستحمام في مسقط رأسنا القديم »

فقال : « إنك لاتفكرين إلا في أسباب النعيم » . لقد كان يريد أن يهزها هزاً ، ويصفعها ، ويقول لها إنها يجب أن تأتي لأن... لأن... وما لبث أن قال بصوت مرتفع « يجب أن تأتي » ، وهنالك انتصبت واقفة ، ووضعت يديها الصغيرتين على حقوبها المضمين ، وراحت تنظر إليه من فة شعره الأسود الأشعث الغيلظ إلى حدائنه « الأوكسفورد » ، الذي تغلب عليه الصفرة الشديدة ، وسألته قائلة : « هلا سمحت فأنبأتي من تكون في نظر نفسك ياسيد چون ديوى تشانغ ؟ إنك لا تستطيع أن تتحدث إلى أمريكية بهذه اللهجة وتنجو بنفسك ! وكيف ينبغي لى أن أذهب إلى الصين ؟ »

فأجابها على غير انتظار : « لأن... لآتى أحبك ، ولم يكن يعنى أن يقول هذا فعلاً !

وراح كل منهما يطيل النظر فى صاحبه ، ثم جلست روث وأخرجت القلم الرصاص من شعرها وأخذت ترسم بعض الأشكال فى سرعة ، وقالت بلهجة تم عن البرود : « اذهب يا چون ديوى تشانغ ولا تكن مضحكا ،

فقال فى يأس وقنوط : « ليس فى الأمر ما يضحك ،

فأجابته قائلة : « إنما هو فى عرفى أمر يبعث على الضحك ،

أنا أعود إلى الصين؟ ومعك؟ إنها لنكتة. وأطبقت شفيتها
الحراوين القانيتين في مرح وسرور، ثم أخذت تنظر إليه لحظة
وكانت نظرتها في هذه المرة من طرف عينا، فلما هم بالدنو منها
صاحت به: كلا.. إني أعنى ما أقول، فارحل!

فقال لها چون تشانغ في صوت خفيف: «إلى الصين؟»
فأجابته روث كين في حزم: «أجل، إلى الصين». وأطبقت
فهما بقوة، وعلبت صفحة ملأتها بالرسوم.

وأخذ يراقبها لحظة، ولكن حالها لم تتغير، ولم ترفع بصرها
إليه، فدار على عقبيه، وقد حق عليه إذن أن يذهب، إلا أنها
نادته مرة أخرى وهو دون الباب تماماً فالتفت إليها. لقد كانت
تنظر إليه وهي مستغرقة في التفكير، ثم قالت له في صوت
مختلف، صوت خفيض فيه دلالة، قالت وهي تسبل رموشها
قليلاً ثم تنظر إليه: «هل.. إذا قلت لك إني سأهتم بأمرك... تبق؟»
وحدق فيها النظر وقد امتنع لونه، عجباً! أبعد كل هذه السنين
من الأحلام ينبذ بلادة، بلاده الجميلة المحبوبة؟

وصاح يقول: «كلا»، وأبى أن يفسح لنفسه الوقت للتفكير.
وهزت روث كتفها وضحكت، ثم قالت في مرح: «إذن
ارحل.. ارحل إلى الصين بلادك!»

وانصرف على عجل ليرحل ، وقبل أن يعمل الفكر كان قد استقل القطار ، وراح القطار ينهب به الأراضي الخضراء والمدن الكبيرة التي يعلو فيها الضجيج ، ثم المدن الصغيرة والقفار المترامية الأطراف ، متجهاً إلى ساحل البحر ، وقبل أن يتاح له التوقف وإمعان الفكر كان قد استقل باخرة عظيمة ، وانحسر بين ركاب الدرجة الثالثة ، ولم يكن أمامه في خارج السفينة إلا هدير البحر . أما في داخلها بين هؤلاء الأغراب جميعاً فقد كان أمامه وقت لا يحسد يتيح له أن يفكر ، يفكر ويحلم .

على أن أحلامه أبت الآن أن تستقيم ، أجل أبت أن تتخذ صور الماضي ، صور قومه ، وعودته إلى بني جلدته ، وحياته قائداً من قواد الثورة ، أو حاكماً ، أو سياسياً ، أو رجلاً عظيماً في ناحية من نواحي الحياة في بلاده . كلا ، إن تلك الأحلام كانت تنسلل إلى مخيلته في صورة وجه مستدير صغير عنيد ، وفي صورة عينين سوداوين ، عينين صينيتين يعلوهما شعر كث مجعد على الطريقة الأمريكية ، وفي صورة جسم صيني ، أصفر البشرة رشيق القد ، يرتدى ثوباً أمريكياً قرفلياً . وكان يقفز من فراشه في الباخرة المرة بعد المرة ويندفع بضغ أقدام من سطح الباخرة ، ذلك أنه لم يكف عن حبها ، ولم يكف عن السخط عليها ، وكثيراً ما كان يقول بينه وبين نفسه إن أخطاءها كثيرة ، وإن صفاتها

جميعاً كانت على النقيض مما يجب أن تتحلى به الفتاة الصينية ، فقد كانت تتكلم في حضرة الرجال ، وكانت تضحك بصوت مرتفع غاية الارتفاع ، وكانت تعصى أوامر والديها ، بل تسخر مما يشوب حديث أبيها من لثغة حين يحاول الكلام بالإنكليزية . صحيح إن أباهما كان قد دللها وكان يضحك مما تقول ، ولكنها مع ذلك لم تكن تحترمه ، وكمن مرة سمع جون تشانغ أمه تقول إن روث جاءت إلى المنزل متأخرة ليلاً ، وكان يصحبها في كل مرة رجل يختلف عن سبقة ! لقد تغاضى عن أخطائها جميعاً وحاول الآن أن يدرك كيف يكون سعيداً لو بقي وحيداً ، ولكنه تأوّه لأنه كان يحبها وتمنى أن يخرج من وحدته .

وبدأ يتطلع إلى بلاده في شوق متجدد ، ذلك أن بلاده قد أصبحت الآن الشيء الوحيد الذى يحمله على نسيان روث ، وإنه لخليق أن ينساها في غمرة تلك الحياة الجديدة .. حياة العمل والخدمة وإحراز النجاح ، بل إنه لخليق بلا شك أن يجد المرأة التى كان يجد فى البحث عنها حقاً . وليست هى روث ولكنها امرأة أخرى ، ولسوف يعيش هنالك ويقيم له داراً ويرزق أطفالاً ولن تكون أهمهم هى روث ، بل امرأة هادئة مطيعة حاملة النظرات تأوى إلى داره . على أن الأمر يقتضيه أولاً أن يعمل ، وأن يدرك النجاح ، ويجب عليه قبل هذا كله أن يجد وطنه .

ولكن أين وطنه؟ لقد بدا له وهو في البحر أنه قريب منه غاية القرب، هنالك حيث ينتهى البحر، أجل هنالك حيث يبدأ النهر كان هذا هو وطنه، هذا الخط الأول من الخطوط البادية في الأفق لقد اجتاز في البحر الداخلى، غير آبه ولا مكترث، الجزائر الجميلة، جزيرة إثر جزيرة، ثم حدّق في برود في جبال اليابان الصخرية الرائعة المعالم، منتظراً هذه الحافة المظلمة الأولى، بين البحر والسماء. ونهض مبكراً ليشهدها، شهدها بعد أن بزغ الفجر مباشرة حين كان يحملق في السماء الرمادية الكثيرة الضباب، شهد ذلك الخط الساكن من الأرض المعتمة، وسرعان ما أحرق بالسفينة شىء كأنما امتدت إليها ذراعان من تلك الأرض فطوقتاها. ولم يكن ثمة تلال أو منازل أو أى شىء يستطيع أن يحدّثه، إلا هاتين الذراعين السوداوين اللتين امتدتا إلى البحر لتحضنانه، وتجذباه إلى أرض الوطن. وتلى چون من سياج الباخرة مدققاً النظر وقلبه ينبض نبضاً شديداً حتى أحس كأن ضرباته تدوى في حلقه.

ثم ظهرت على الأرض منازل منخفضة صغيرة، منعزلة في لون التربة، ثم تبدّل لون التربة البنى إلى خضرة يانعة، ولم تكن الشمس تشرق بل ساد السماء لون رمادى، وبدأت الخضرة زاهرة على أديم اللون الرمادى، ولكن المنازل والحقول كانت صغيرة منفردة في هذا البسيط المتراعى الأطراف من ذراعى الأرض اللتين

كأنتا تتسعان باستمرار ، وهنا . . . أجل هنا كان وطنه ، وقد هفا
قلبه إليه ، وأخذ يحدق فيه ، وتاق إلى أن يقفز من فوق مياه
النهر الصفراء ويشعر به تحت قدميه ، عريقاً راسخاً لم يتغير ، صامتاً
يرحب به في سكون .

ثم فقد هذا كله فجأة ، فقد انطلقت السفينة على حين غرة بين
عمائر شاهقة أناخت بكل كملها على حافة رصيف من أرصفة الميناء .
وتلاشى السكون كله وولى الهدوء فلم يعد له أثر ، إذ قفز من فوق
الأسوار حشد من رجال سمر قصار القامة يرتدون سترات زرقا ،
وهم يثرثرون ويصيحون بلغة عز عليه أن يفهم منها شيئاً ، وحدهم
باللغة التي تعلمها من أمه ، ولكنهم راحوا يرمقونه بنظراتهم شرراً ،
متفرسين ، وأشار إلى حقائبه القليلة التي كانت قد حزمت بعناية
ودقة لتكون على أهبة النقل إلى الشاطئ ، إلا أنهم مروا به كأنما
لم يفتح فيه بكلمة ، وأدرك بغتة أنهم لم يكونوا ينتظرونه ، فما كان
يعنيهم أن يعود إلى وطنه آخر الأمر ، وإنما كانوا يبحثون عن
قوم أرفع منه شأناً ، كانوا يبحثون عن السائحين ، عن البيض ،
وكرّ على أسنانه لحظة ، وهو يشيّع بنظره أجسامهم المتزاحمة
المتعثرة ، ثم تناول حقائبه ، حقيبة حقيبة ، وسار يترنّح مجتازاً
سقالة الباخرة إلى الميناء .

وكانت تلك هي اللحظة التي فقد فيها وطنه تماماً ، ذلك أنه وهو

يقف في زحمة الناس يتدفقون من الباخرة ويتدفقون من الطرقات ،
خيّل إليه مرة أخرى أن هذا الوطن قد يكون أى وطن آخر ،
بل لعله يكون قد عاد وارتد إلى نيويورك ، ذلك أنه لم يسمع أية
لغة يفهمها اللّهم إلاّ الإنكليزية التي خلفها وراءه . وكانت المباني
الغريبة الشاهقة تحيط به ، وطنين الحافلات (الأوتوبيسات)
تطرق أذنيه . وانهمر المطر فجأة في صوت كصوت الطبول يقرع
سقف الميناء المصنوع من الصفيح ، واحتجزه المطر المتساقط
تحت سقف الميناء ، ولم تعد له حيلة إلاّ الانتظار ، أجل احتجزه
مع ذلك الحشد المختلط من الغرباء الذين لم يكن يعرف منهم أحداً ،
والذين لم يقبل واحد منهم للترحيب بعودته إلى الوطن . وقف تعلو
وجهه أمارات الكآبة والحزن ، يحدق في المياه الصفراء
من خلال المطر ، وكان ثمة سفينة صينية صغيرة تشق عباب النهر
مجاهدة من خلال الضباب وقد أرخت أشرعتها ووقف ملاح
يجذف بمجذافه وقد تجرد جسمه الأسمر من الملابس ، فيما عدا
مئزرا التف حول حقويه . وقد حوّل چون تشانغ بصره من هذا
المنظر الذي لم يألّفه إلى الباخرة ، تلك الباخرة التي كان الشوق
قد استبد به للهرب منها ، وها هي ذى الآن تبدو لناظريه بوجه
من الوجوه كأنها وطنه ، وطن من طراز عرف مسالكه وطرائقه ،
لقد كان فيها على الأقل سالماً آمناً .

ثم هز نفسه فجأة . إن هذا لا يجدى ، وحق عليه أن يكون قويا ، فلا سبيل إلى الارتداد الآن . لقد كان يحمل في جيبه اسم فندق كبير أعطاه له أبوه واسم ابن العم الذى كان شريكه والذى كان عليه أن يلتجئ إليه طلبا للعون . لقد كان الأمر يقتضيه أن يكون شجاعا وأن يذكر أن وطنه فى مكان ما خلف هذا الميناء وهذه الحشود ، ووضع يده على كتف حمال كان يقف بالقرب منه ثم أشار إلى حقائبه وقال فى لهجة تم عن السلطان : « ركشه ! ركشه ! » *

وتوقف الرجل ، وحملق فيه ، وبدأ عليه التردد ، ثم تناول الحقائب وهو يدمدم . وما انقضت لحظة حتى كان چون تشانغ يسير فى طريقه وقد ثبت أمامه ستار من المشمع ، ولم يكن يستطيع أن يرى شيئا إلا ساقى الحمال الذى يجر العربى ، وكانتا ساقين عاريتين سمرأوين ينساب منهما المطر انسيابا . ومضى المطر يتساقط بانتظام على سطح العربى الرقيق من فوق رأسه .

أين ، أين وطنه ؟ لقد قضى ثلاثة أيام فى غرفة الخان الصغيرة الجرداء ، ثم جلس وراح يحملق عبر شارع ضيق فى منزل للسكنى ، ولولا أن الملابس التى كانت معلقة على أعمدة الغاب كانت تختلف

* الرّكشه : عربة للركوب يجرها رجل .

فى الشكل عن ملابس الأمريكفن لبدا هذا المنزل كمنازل السكنى فى نىوبورك . وكان الأطفال القندرون يهرعون إلى المنازل الحقىرة وىخرجون منها على عجل وهم عراة فى هذه الحرارة الخائقة التى باسم بها الصىف فى إبانها ، تشبثهم صىحات النساء ، وكان الرجال الكسالى المترهلون والفتيات اللواتى يحتلسن النظر يروحون وىجيشون . لقد رأى كل هؤلاء من قبل ولم يكونوا من بنى جلدته . أجل لم يكونوا من بنى جلدته ، ومع ذلك فقد كانت عىونهم سوداء منحرقة كعینیه ، وشعرهم أسود ، وبشرتهم صفراء كبشرته ، ولكنه لا یرضى أن يكون هؤلاء من بنى وطنه .

وكان قد سم الخان وصحّ عزمه على الرحىل عنه ، فلما استطلع رأى ابن عمه فى ذلك هز الرجل كتفیه المكسرتین وقال : « لا بأس بهذا الخان ، وإن رمت خانا أرقى منه فسوف يكلفك كثیرا » .

وقال چون تشانغ فى اقتضاب : « إنه لقدر » .

وأجاب ابن عمه : « كأنك رجل أجنى ، ولكنك ستألف هذه الحال » .

وكان قد ذهب لزيارة ابن عمه مرتین ، وعاد غاضبا فى المرتین ...

واستبعد أن يكون هذا الرجل ابن عمه ، فقد كان یقیم فى ستة منازل یختلف بعضها عن بعض ، وأطفاله العدیدون یضربون

هنا وهناك دون أن يغتسلوا . وكان الضجيج المنبعث من شجار النساء يتعالى في كل مكان ، ومع وجود هذا العدد كله من النساء والزوجات والخادومات لم يحفل أحد بطرد الذباب من فوق أقذاح الشاي القائمة على المائدة ، وعندما دعا ابن العم چون تشانغ إلى مائدته في منزله ، كان الذباب يحط على الطعام ، على الرغم من أن ابن عمه لم يكن رجلاً فقيراً . لقد كان ثرياً ، ذلك أنه كان شريكاً في تجارة العاديات ، وكان هو الذي يتولى شحن تماثيل بوذا وصناديق العاج الصغيرة والحلي الفضية والثياب المطرزة وعيدان البخور ، هي وجميع الأشياء التي عرفها چون تشانغ طول عمره في ذلك المحل القائم في شارع موط ، أجل جميع تلك الأشياء التي جعلته يحلم بوطنه . وهو إذ رأى يد ابن عمه البدينة السمراء والشحم يلطخ ثوبه الحريري ولفائف الدهن مكتنزة حول رقبتة ، ورآه ، حين اشتدت حرارة الجو ، يخلع ثوبه ويبقى بنصفه الأعلى عارياً ، أقول إنه إذ رأى ذلك كله عجب كيف راودته تلك الأحلام . وكانت بنات ابن عمه أيضاً يجئن ويذهبن ، وكان ابن العم يفرقح بأصابعه منادياً إياهم إذا أراد شيئاً من الشاي أو أراد غليوناً أو حذاءه القديم ليريح قدميه ، وكان الرجل يباهى بهاته الفتيات ، ويقول : « أما بناتي . . فقد أبقيتن حيث يجب أن يبقين . . في الدار ، لقد كن يتبرمن من حين إلى حين ويطلبن الذهاب إلى مدرسة

من المدارس ولكنني رأيت تلسم الفتيات المحدثات الجريئات في الشوارع وتبينت أنه ليس من ورائهن إلا المتاعب بالرغم من كل ما أصبن من علم واتسمن به من جرأة : . المتاعب لآبائهن الذين يجب عليهم أن يعولهن، والمتاعب للرجال الذين ينبغي لهم أن يتزوجن منهم . لقد بذيت بنساء جاهلات وكن نعم المعين ، ونفخ في غليونته وصاح بابنته التي كانت تقف أمامه لتتلقى منه أية أوامر قائلاً : « اذهبي إلى أمك ولا تتلبي لسماع ما يقوله الرجال ، . وانصرفت الفتاة فقال مغتبطاً متلطفاً : « إنك لترى أية فتاة مطيعة هي ، ولتكونن مطيعة لزوجها يوماً على هذا النحو ، لقد وجهت همي إلى إعداد بناتي للزواج ، ذلك أنه ما من شيء آخر تستطيعه المرأة . والحق أن چون تشانغ أخذ يرقب الفتاة فرآها تتصرف في إذعان وامثال ، أجل رآها تدلف في حدائنها الصغير المصنوع من الأطلس في هدوء وسكون وكأنما لا يسير على أديم الأرض أحد . لقد كان وجهها غاية في الحسن ، وكانت مؤدبة فلم تنطق بكلمة واحدة . كانت من ذلك الطراز من الفتيات الذي طاف بحمله مرة إلا أن قلبه لم يتحرك قط عندما نظر إليها ، وقال يحدث نفسه : « إن السبب في ذلك هو أنها ابنة ابن عم أبي ، ، على أنه إذ عاد من الحان وجلس وحيداً تبين له ، والدهشة تتمسكه ، أن السبب لم يكن لأنها ابنة ابن عمه ، وإنما السبب أنها تبدو لعينه غنية بلهاء ، ولم يكن

وجها الصامت الجميل إلا وجه دمية ، ثم أمعن في التفكير فشفك أن يكون في اتخاذه لهذه الدمية زوجة أية متعة ، فهي ترفع ذراعها إذا أمرت برفعه ، وتجيء إذا أمرت بالجيء ، وتتصرف إذا أمرت بالانصراف . وطافت روث كين بمخيلته فجأة ، وتراءى له كيف أن أحدا لا يستطيع أن يرغبها على فعل ما لا تريد ، وها هي ذى تتمثل أمامه ضاحكة السن ، صلبة الرأى ، مأكرة ، وقد سره أنها ليست هنا .

وقضى برهة يفكر ويحلق من خلال المطر ثم استقر قراره على أن هذه المدينة ليست هي وطنه . أجل لم تكن شنغهاي ، هذه المدينة القذرة ، وطنه ، بما يشيع فيها من ضجيج العربات ، وما تزدحم به من كل جنس من الناس . إن في مكان ما وراء هذه الآفاق الواسعة أميالا وأميالا من وطنه المتراعى الأطراف يتعين عليه بعد أن يكتشفها .

ومضى مرة أخرى إلى ابن عمه وقال له : « أريد أن أوغل حتى أبلغ صميم البلاد .. أريد أن أرى وأريد أن أكتشف ، .

وهناك أخذ ابن عمه يهوى على نفسه بسرعة ثم قال : « أرجو ألا تكون من أولئك الشبان الثائرين الذين نكبت بهم أمتنا في هذه السنوات الأخيرة ! فإن كنت منهم فلا تنبئني بذلك ، فإنني

لا أريد أن أسمع شيئاً من هذا الأمر ، وإن كنت تريد أن توغل
حتى تبلغ صميم البلاد فإن عندي مهمة خاصة بأبيك تستطيع أن
تذهب لقضاها ، فلتمضين إلى المناطق القائمة عند نهاية النهر الكبير ،
ولتدخلن في إقليم سزتشوان ، فقد بلغنى أنه قد اكتشفت هناك
قبور جديدة لبعض الأمراء الأقدمين ، فإن صح هذا فإنك تستطيع
أن تجد عاديات بضمن بنحس ، فاشتر منها ما استطعت وعد بها ،
ولكن إياك أن تشتري كيت وكيت . . . وراح ابن عمه يعدد
له ما ينبغي أن يحجم عن شرائه ، ويبين له الصحيح والزائف ، ذلك
أن المرء يجد في مثل هذه المناسبات كثيراً من العاديات الزائفة
دسست بين العاديات الصحيحة ، وقد صنعها قوم يظنون أنه من
الممكن بيعها مختلطة بعضها ببعض .

وهكذا انطلق چون تشانغ يبحث عن وطنه ، متبعاً مجرى
النهر الكبير .

ومضى يبحث عن وطنه في كل مكان ، ولم ير في أى مكان
إلاّ ما سبق أن رآه .. رأى مدناً مزدحمة يعلو فيها الضجيج ، قدرة
تراكت فيها القذارة طبقات فوق طبقات ، وانتابه الخوف من أن
يشرب شيئاً اللهم إلا الشاي في درجة الغليان ، بالرغم من أن
الشمس كانت تحرق جلده ، واكتفى من الطعام بقليل من الأرز

والكرب ، ذلك أن الثلج لم يكن له وجود ، وما من شيء كان يحول دون تعفن شرايح الخنازير المعلقة في الشمس. وموت السمك في أحواض الماء الآسن ، ويدفع عن سرطان البحر الذباب يغشاه بلا انقطاع ، وكان البعوض يتغذى بدمه ليلاً ، فإذا نزل بخان سعت إليه جموع الحشرات . وعز عليه أن يرى جمال التلال البعيدة والضفاف الخضراء الوافرة النماء ، الحافلة بالأرز ، والشباك العظيمة أقيت لصيد السمك النهري الكبير ، ذلك أنه كان يركب معه في الباخرة النهرية الصغيرة مائتا حاج قاصدين معبداً قديماً على قمة جبل للتعب فيه ، وألفي كهنة لم تقع العين على أجسام أقدر من أجسامهم ، وقد فاح منها كل ما في أعطافهم من قذارة وقداسة . ومع ذلك فقد كان هؤلاء بنى وطنه ، أجل كانوا جميعاً بنى وطنه.. العميان الذين ألف أن يصادفهم في الطرقات في أية مدينة كانت الباخرة ترسو عليها ، والأطفال يركضون على هواهم وقد تجردوا من ملابسهم ، والنساء المشاغبات يغسلن حاجاتهن على حافة النهر ، وينفضن أسماهن على الصخور ، ويتشاجرن وهن ماضيات في عملهن ، وأصحاب الحوانيت الصغيرة ذوو المكر والدهاء ، والسائلون وهم يستجدون في ذلة ومسكنة في كل مكان وقد لج بهم الجذام ومدوا أطرافهم المشوهة . ووقف ذات يوم بينهم وهتف من أعماق نفسه وهو يحدهم بنظراته : « أهذا هو الوطن الذي

حلمت به كل هذه السنين؟ وهل يستطيع المرء أن ينقذهم وإن وقف على ذلك عمره كله؟

وشعر لحظة بشوق يستبد بجوانحه ويدفعه إلى مكان آخر ، أو قل إنه أحس بحنين إلى الوطن ، ولكنه كان في وطنه . وهناك بدا له أنه يهون عليه أن يبذل عمره كله في سبيل العودة إلى حانوت أبيه مرة أخرى .. أجل يعود إلى ذلك الحانوت الهادئ النظيف الصغير . فقد كان ذلك الشازع القائم في نيويورك يلوح له أنظف شوارع العالم طراً ، بل أحسنها على الإطلاق ، وفكر كالمهلوف في ذلك « البانيو » الأبيض النظيف القائم في الحمام الذي يعمل الحانوت ، ثم التفت وعاد مسرعاً إلى قمرته حيث جلس وكتب خطاباً ، ولم يكن الخطاب إلى أبيه أو أمه ، بل كان إلى روث كين ، وقد كتب إليها يقول : « لقد كنت على حق ، وما أنا إلا مغفل أبله ، ابقى في وطنك هناك ، لقد كنت محقة كل الحق » . وظل يمضي مصعداً في هذا النهر العظيم يوماً بعد يوم ، وقد علا وجهه العبوس إلى أن التف النهر ثم ضاق وعمق مجتازاً حلق الجبال ، وإذا به يبلغ آخر الأمر المكان الذي بحث به إليه ابن عمه .

وراح يكتب إلى روث كين من حين إلى حين ، ولم يدر السبب الذي كان يدفعه إلى ذلك مع علمه بأنها لم تكن تهتم بأمره ، وهناك

خيل إليه أنه قد فقد وطنه إلى الأبد ؛ إذ لم يجد في هذا الذي رآه ما راوده في أحلامه . أما وقد رآه على هذه الحال فإنه لم يعد يساوى شيئاً ، وتعلم چون أن يناكف التجار الذين أرسله ابن عمه إليهم ، وأن يرتاب في صحة كل قطعة من قطع الفخار أو البرونز يأتون بها إليه ، وأدرك أن الرجل المسكين الذي يزعم أنه من الزراع ويأتيه بقطعة من شيء أخرجها من باطن حقله قد يكون كذاباً بمعناً في الكذب كغيره ، وتعلم أن يلوى لسانه ليتحدث بلغة القوم وأن يمسك عليه ماله ويساوم ويؤجل ويأتي جميع الفعال الحقيمة التي اقتضاه الأمر أن يأتيها ، وكان وهو يستلقي في فراشه ليلا يسخر من نفسه على ما بلغت إليه حاله ، وهو الذي لم يرض أن يعمل في خدمة أبيه . ولكن كان لا بد له أن ينصاع لأحلامه وأن يقطع آلاف الأميال وتنتهي به الحال إلى ما انتهت إليه ، أجل تنتهي به إلى هذا البحث المؤسف تتخلله المنازعات والمشاجرات . وكتب بذلك إلى روث ، لا لأنه كان يسألها شيئاً ، على حد قوله لها ، بل لأنه كان يجب عليه أن يكتب إلى جهة ما ؛ فقد كان لا يستطيع أن يكتب إلى أبيه ، ولم يكن يجب أن يكتب إلى أصدقائه فيقفهم على ما هو فيه من خزي شديد .

كتب إلى روث كين يقول : « لم أر مثل هذه البلاد في قدارتها وذبابها وما فيها من تسول ، أجل ولدتني لأحسب أنها هي وطني ،

ولا مناص لي وأنا هنا في وطني من أن أصطنع الحذر كل يوم
وإلا امتدت إلى يد اللصوص ، وهنا في وطني يخطفون الرجال
فلا يعلو صوت بقول ، و . . .

وهكذا نفّض چون كل ما فاصت به نفسه من خيبة مريرة
وخزي وعار فهدأت نفسه قليلا ، بالرغم من أنه لم يكن يصيب
وجبة من طعام إلا وأثار نزاعاً حول الغبار الذي يغشى المائدة أو
الذباب الذي يحط على اللحم ، حتى شاع أمره في المدينة كلها ، وأصبح
الخان يتوجس خيفة من قدومه ، ولقبوه بالشيطان الأجنبي ، لأنه
درج على أن يثير نزاعاً كبيراً حول قليل من الغبار أو القذارة أو
بسبب ذبابة أو اثنتين .

ثم جاءه خطاب يوماً ، كما تيجيء الريح الباردة العاصفة بجنازة
البحر ، خطاب أرسل إلى ابن عمه ثم بعث به ابن عمه إليه ، وكان
الخطاب من روث كين . لقد عاد إلى الخان الذي نزل فيه ليلا بعد
يوم شاق قضاه باحثاً في أطلال جرى فيها التنقيب حديثاً فوجد
الخطاب على منضدته ، وفضه فوجد الظرف الداخلي وفتحه وقرأ
الخطاب متخيلاً روث وكتباتها الصادقة الضاحكة المرة ، كتبت إليه
تقول : « أيها الغر ! » ، ومع أنه كان يكره من قبل مثل هذا القول
إلا أنه لم يسعه الآن إلا أن يضحك بصوت مرتفع ، فقد طاب له
فيما تخيل أن تواجهه بكلمة كهذه في قسوة وصراحة . آه ! لشد ما سئم

هذا التملق المؤدب الكاذب ، تملق التجار له !

« أيها الغر ، ماذا كنت تنتظر ؟ لقد كنت خليقة بأن آت من غير مشقة ولا عناء ، لا لأنزوجك ، وأنت تعلم عنى ذلك ، ولكن لأرى فقط الحال على ما وصفت ، وإني لأود أن أعمل على تحسين الأحوال ، إذا كانت قد بلغت من السوء الحد الذى وصفت ، .

وأطل جون من النافذة على الشارع الضيق المزدهم فأدرك أنه يجب ألا تأتى روث كين ، وكان ذلك مساء يوم من أيام شهر أغسطس ، فى مغرب يوم من الأيام الحارة ، وراح الناس ينزعون إلى الشجار ، وارتفعت أصواتهم حادة غاضبة إلى نافذته ؛ فقد أخذت امرأتان تسب كل منهما الأخرى ، والتف حولهما الناس منصتين يسمعون ويلهون ، وأمسكت إحداهما بجافة بشعر الأخرى وراحتا تتقلبان فى التراب وارتفع صوتاهما بالسباب ، ولم يكن فى ذلك شىء خارج على المألوف ، وتحرك القوم ثم تفرقوا وأخرجوا أسرهم المصنوعة من الغاب ونشروا فراشهم ليقضوا عليه ليلتهم ، واستلقى الرجال والنساء والأطفال يتأهبون للنوم ، وقد خلع الرجال ملابسهم حتى أوشكوا أن يتجردوا منها ، وتعرى الأطفال تماماً ، وارتدت النسوة غللات من النسيج المصنوع من الألياف ، وارتفع

فوقهم طنين البعوض . ووقف جون يطل عليهم وسمع طفلاً ينوح
فيشق أستار الغسق ، وسمع كلباً يعوى . إن هؤلاء ، أجل هؤلاء هم
قومه ، وأبت نفسه أن تأتي روث كين .

وعاد إلى الغرفة وأشعل مصباح البترول الصغير وجلس ليرد
على خطابها . وأخذت حشرات الليل تحوم حوله ، ونهض مرتين
فوطئت قدمه جسم حشرة هي أم أربع وأربعين ، وشعر بهذا الجسم
الصلب يقطع تحت حذائه الجلدي الأمريكى ، وطفق يكتب
ويكتب ، ثم توقف أخيراً ، وأضاف سطر آخر قال فيه : « وحتى
مصباح البترول أمريكى . ألا خير لك أن تظلى فى أمريكا ،
وأوى إلى فراشه منهوك القوى ، وقد صمّ أذنيه عن تلبية نداء قلبه ،
وقال يحدث نفسه : أما وقد أخبرت روث كين بكل شيء فقد انتهى
شأنها معى !

ولم يكن ثمة رجوع بطبيعة الحال فيما استقر عليه قراره ، فقد
كان أعز نفساً من أن يرجع عما اعتزم . أجل لم يكن ثمة سبيل إلى
الرجوع بعد كل هذه السنين . وبعد أن نظم النادى الوطنى لأبناء
الصين فى مدرسته الثانوية ، وجمع المال فى الجامعة ليرسله إلى
حكومة الثورة ، وبعد كل ما صورته له أحلامه ، فصح رأيه على أن
يبقى فى وطنه لا ييغى عن ذلك حولا . وذهب ذات يوم إلى العاصمة

الجديدة وراح يتجول في شوارعها صامتاً لا يعرفه أحد من أهلها، وأدرك أنه كان يتوقع أن يرى مدينة كنيويورك أو كواشنتون أو كاليفورنيا التي رآها تحمل صورة باريس . ولكنه شاهد بدلاً من ذلك بعض الشوارع العريضة شقت بغير عناية ، تحف بها حوانيت جديدة حقيرة ذات طبقة واحدة . وكان ثمة عمارتان كبيرتان أو ثلاث من المباني الجديدة خلا نصفها من السكان ، فلما ارتقى الدرج منعه حارس من الولوج في قسوة وصرامة فدار على عقبيه وانصرف . ولو كان من أصحاب السلطان فلربما استطاع الدخول ، بيد أنه كان مجرداً من كل سلطان ، وسار شوطاً طويلاً خارج المدينة وبلغ قبر بطل الثورة ووقف يتفحص فيه ، وكان القبر مائلاً هناك ، هائلاً مخيفاً جديداً ، كأنه ندبة في جانب الجبل لا تظله شجرة واحدة وقد ثوى البطل فيه ، ثم مضى عنه مرة أخرى .

والتمس من ابن عمه يوماً أن يمنحه أجازة ، ويتم شطر الجنوب قاصداً القرية التي قضت فيها أمه أيام شبابه ، وركب لذلك متن البواخر الصغيرة ترح فيها الجرذان ، ثم استعان آخر الأمر بعربة ذات عجلة واحدة عبر بها الحقول الخصيبة المنبسطة . وكان هذا آخر معقل من معاقل أحلامه ، ولكنه ما إن ترجل من العربة حتى هاجمه كلب في وحشية وشراسة ، وضرب الكلب وأبعده عنه ، إلا أن الأمر اقتضاه أن يلزم الحذر . وهكذا بلغ القرية وهو يسير

متسللاً في حيطه وحرص ، ولكن هل تكون هذه القرية إلا قرية
فقط ؟ لقد كانت لمة صغيرة من الدور بنيت بالآجر المأخوذ
من ثرى الحقول ، لا يمترق أهلها عن جميع من رأى من سكان
الريف . لقد كانوا مثلهم تماماً ، الرجال يرتابون في أمره بحكم أنه
أجنبي ، والنساء صامتات ينفرن منه . لقد تمتثلت القرية في شارع
ضيق تن ومشب شأى قدر أو مشربين ، ورائحة تفوح من فضلات
بشرية نثرت في الحقول للتسميد ، وفتيات صامتات يحمدجنه
بنظراتهن . وأبى أن ينتظر ولو ليبحث عن أهله وعشيرته ، ولأن
كان هؤلاء القوم هم قومه فليبق جاهلاً بهم ، والتفت ثم صاح
بالرجل الذى يدفع عربته : « هيا بنا نرحل ! إني أريد أن أرحل
في الحال ! »

وقال يحدث نفسه والعربة تهزه مجتازة الطرق الريفية
المرصوفة : إن من دواعى سروره العظيم أنه كتب بذلك إلى روث كين.
لقد كان مغتبطاً أشد الاغتباط إذ أنبأها بأنها يجب أن تبقى حيث
هى وأن تزوج جورج ليو ، وتقيم في شقة صغيرة نظيفة يتوفر لها
فيها فرن كهربائى والثلج والنظافة . . أجل النظافة . . . النظافة
في كل مكان !

إذن فكيف أصبح متأهباً لخطاب روث كين في شنغهاى ؟ لقد جاء

هذا الخطاب بعد ثلاثة أشهر مجتازاً آلاف الأميال ، وشعر بخفته
أو كاد من خلاف المظروف . وكان الورق خشناً بين أصابعه
وهو الذى ألف الآن الورق الرقيق الناعم الذى صنعت منه دفاتر
ابن عمه ، وقرقع الخطاب عندما فضه ، وقفزت الكلمات أمام
عينيه ، كلمات حازمة حية لا يصدقها العقل ، لقد كان مستطيعاً
أن يرى عينيها الشرستين ، ويسمع ضحكها ، ويرى قوامها النحيل
الممشوق المتوثب ، ويرى شعرها المتطاير ، وبدأت خطابها بلا
مقدمات هائلة : « فلتعلم يا چون دبوى تشانغ أننى قادمة فقد غيرت
رأى ، وفزت أنت على ، وإنى لأحسب أن مسقط رأسى القديم
فى حاجة إلى ، وأنت أيضاً فى حاجة إلى ... »

وكان هذا هو خطابها .. بعض الأبناء وملحة أو ملحيتين
« لقد مضى جورج ليو وتزوج الفتاة التى تعمل فى محل المياه
الغازية . لقد كنت أعلم دائماً أنه مجرد من الفطنة ! ومهما يكن من
شئ فإن أهلى قد كفوا عن إزعاجى ، ثم قالت فى ختام خطابها :
« لقد حصلت على تذكرة السفر وسأصل بعد أسبوع من بلوغ
خطابى هذا إليك . إن أبى قادم لقضاء عمل من أعماله ، ولأنت
العمل الذى يشغلنى . » وقرأ بمشقة حاشية كتبت فى ذيل الخطاب
بحروف صغيرة ضغطت ضغطاً : « تستطيع أن تعد الخاتم ..
إن شئت »

وطوى الخطاب ورأسه يدور ، لقد كانت طوال هذه الأيام
في طريقها إليه من غير أن يدري ! أجل كانت قادمة ، على قدر
ما تستطيع أن تأتى بها الريح والسفينة والنهار والليل ، وكان أول
ما تبادر إلى ذهنه في تلك اللحظة أنه لم يكن يدري ماذا يفعل بها .
لقد اتباه شعور جنوني بأنه يجب أن يسوى كل شيء قبل أن
تأتى . وشعر بالحنجى فجأة من كل شيء ، الحنجى من القذارة والفقر
والنساء الجاهلات الصامتات ، ومن ابن عمه البدين ، ومن الحنان ،
ومن هذه الغرفة . وهرع إلى المرأة ونظر فيها ، أجل ، لقد شعر
بالحنجى من نفسه أيضاً ، فقد ترك شعره يسترسل ، في غير انتظام
أو ترتيب ، وكان يرتدى قبصاً قدراً . لقد بدا في مظهر لم يكن
يدور بخلفه أنه يستطيع أن يسمح لنفسه بأن يظهر به وهو في
نيويورك ، لم يكن الأمر جديراً بأن يحمله على أن يبدو في مظهر
مختلف .. حتى الآن ، ولكن الآن .. الآن .. ماذا يستطيع أن
يفعل في أسبوع ؟

ومع ذلك فقد فعل كل شيء في أسبوع .. أعنى فعل كل شيء
تقريباً ؛ فقد صبح عزمه على أن تكون لروث كين وله ، في وطنه
هذا ، بقعة نظيفة .. بقعة واحدة صغيرة ، يتخذان منها داراً .
وهرع إلى ابن عمه واقترض منه مبلغاً كبيراً من المال ، وسأله
ابن عمه في رية : « فتاة أمريكية ؟ » وهو يقاطع سيل الكلمات

التي انطلقت مناسبة من شفتى جون ديوى تشانغ .

فأجاب جون تشانغ : « كلا ، طبعاً » ، ثم توقف فجأة وقال
بينه وبين نفسه : « فتاة أمريكية أو تكاد » ، ولكنه لم يجهر
بهذا ، لعرفانه بطباع ابن عمه ؛ فإنه ما كان ليقرضه النقود لينفقها
على فتاة أمريكية ، ولذلك هز رأسه ، ومهما يكن من شيء فإن
روث كين لم تكن أمريكية .

واستأجر بالنقود التي حصل عليها منزلاً صغيراً ، لا في
المدينة حيث كان الخان وحيث كان ابن عمه يقيم وحيث كان
المحل ، وإنما كان هذا المنزل الصغير كوخاً صغيراً في أطراف
الحى الأجنبي حيث كان يقيم الأمريكيون ، فقد كان الأمر يقتضيه
أن يجنب روث ما عاناه هو من تبدد أحلامه فجأة . وكان ثمة شجرة
ورد صغيرة من أشجار البانكسيا تنمو على المدخل ، وقد أزهرت ،
حتى في هذا الخريف ، قليلاً من الزهور ، وهى خليقة أن تكون
في الربيع باقة من العطر الذكى ينعمان بأريجيه ، بل كانت فى فناء
الدار أيضاً شجرة من أشجار الدفل . لقد ظل المنزل الصغير خالياً
فترة طويلة من الزمن ، واستأجر جون خادمة بدينة من ابن عمه
لتأتى إليه وتكنس المنزل وتنظفه ، ثم راح يبحث فى المحلات
الأجنبية عن بعض ما يلزم روث : سجادة وكرسيين وفراشاً ومنضدة

وبعض الأطباق وستائر تعلق على النافذة وبعض الصور ، وقد تذكر الصور في آخر لحظة فهرع إلى محل في شارع إدوارد السابع واشترى ثلاث صور لجبال وبحيرات زاهية اللون .

ولم يكن بد من أن يسرع لتوه ، فإن سفينة روث كان مقدراً لها أن تصل إلى الميناء بعد ساعة ، وكان چون يشعر بأن السفينة تتلبّث ، إذ من المستحيل أن تكون روث قادمة إلى هذا الميناء ، ذلك أنه لم يكن يستطيع أن يتصور قدومها . وعأوده إحساسه المرهف عندما تلقت حوله ، كأنما كان مسئولاً عن الحمّالين في أسألم البالية والبائعين خارج الأسوار يحملون سلاهم الصغيرة وفيها الحلوى القذرة ، وكان يقف هناك أيضاً بعض البيض المتأنقين ، وقد نفس عليهم نظافتهم وأناقتهم ، وشاهد السرور يملأ جوانحه فتأتين صينيتين جميلتين صحبة أمهما وامرأة خادم ، ارتدت كل منهما ثوباً طويلاً من الأطلس ، وكان حسبه أن تكونا موجودتين ، ومن يدرى لعل كثيرين من أمثالها كانوا موجودين في مكان ما تخفيهم الأسوار العالية ، وقد كان المرء يراهم أحياناً في الطرقات . أما بين الجماهير الغفيرة من الشعب الجائع المضوضي فإن وجودهم يصبح كعدمه لأن عددهم كان قليلاً جداً ، ولكن المرء كان يستطيع اليوم على الأقل أن يرى هاتين الفتاتين وسوف تراهما روث ، وسوف تشعر أيضاً بأنها غريبة .. أجل غريبة

ولا شك ، ويجب عليه أن يدعها ترى هذا كله بالتدريج ، وأن
يجتنبها الشعور بخيبة الأمل ، وكان چون مسروراً من توفر السكرباء
في المنزل الصغير .

وقبل أن يدري من الأمر شيئاً أو يكاد ارتطمت السفينة
بالرصيف وأنزلت السقالة وظهرت روث وتقدم إليها راكضاً
فأخذت يده وتشبثت بها ، وراح يطل عليها محملاً وهو
لا يصدق عينيه !

ولفتت نظره وهي تضحك قائلة : « هاك أبي » ، فأنحنى إلى
الشيخ البدين الذي كان خلفها ، ثم قالت له : « معي خطابان لك
من أمك وأبيك » ، ولكنه لم يكن يحفل بأمرهما ، وتناول الخطابين
الذين أخرجهما من حقيبة يدها ومدت يدها بهما إليه . لقد كانت
أجمل ما رآها في أى وقت مضى ، ولكن لشد ما كانت تبدو
غريبة عن الديار ! فقد كانت تبدو في حلتها الزرقاء الأنيقة
الصغيرة أمريكية بمعنى الكلمة حتى رفع عينيه إلى وجهها .

وراحت هى تدقق النظر فيما حولها ثم قالت : « واعجبا !
إن هذا لا يبدو غريباً على » ، أجل ليس فيه ما يبدو غريباً على ،
صحيح أننى لم أر فى حياتى شيئاً منه ، ولكننى أحس كأنما قد
رأيت من قبل ! » .

ونادى سيارة من سيارات الأجرة كانت تقف فيما وراء
مبنى الجمارك والميناء ، ولكنها أسرعت فوضعت يدها على ذراعه ،
وصاحت تقول وهى تشير إلى عربة من عربات الرّكشة : « هيا بنا
نركب إحدى هذه العربات الصغيرة العجيبة ، فإن سيارات الأجرة
شئ مألوف جداً ! »

ولم ينتقض على ذلك لحظة حتى كانوا يسرعون فى الطريق
المخاضى للميناء خلف جمالين راوحا يلهثون . والتفتت إليه تلوح
بيدها وتبتسم فى سرور ، وصاحت تقول : « إن هذا لأمّتع من
أن يكون نزهة ! »

وهكذا كان شأنها ، وانقضى على جون أسبوع منذ استقر
فى المنزل الصغير الذى تنمو على مدخله شجرة من ورد البانكسيا ،
وإذا عجبه من أمرها يزداد عما كان فى أى وقت ، ذلك أن شيئاً
من التغيير كان قد تسلسل إليها بالفعل .. شيئاً لا يمكن وصفه لطّف
من حدة أخلاقها ، فقد كانت فى نيويورك كالمتشرّدة الصغيرة ،
سليطة اللسان حادة الطبع ، ولكن الحدة كانت فى طريقها إلى
الزوال فى هذا المنزل الصغير القائم على حافة المدينة الصينية . لقد
أصبحت أكثر إخلاداً للصمت وأخذت اللغة الدارجة التى كانت
تباهى بها كثيراً بحكم كونها أمريكية ، تزداد فى حديثها ندرة يوماً

بعد يوم ، وتملكه الفزع ، وقال يحدث نفسه : « لقد بدأت تكره هذه الحال ، وأصبح شعورها كما كان عليه شعورى ، فقد خاب رجاؤها ، وبدت لها الأمور جميعاً أسوأ مما ظنت ،

وسألته مرة : « أين كل تلك القذارة وأولئك الفقراء الذين ألفت أن تكتب لى عنهم ؟ »

وانتابه الخوف ، فقال لها وهو يروغ منها ويسرع فى طريقه : « أظن أننى كنت دقيقاً فى الوصف أكثر مما ينبغي .. إن شجرة الدفل آخذة فى الإزهار يا روث ،

لقد قال لها مرة إنه قد اختار وطنه اختياراً لا رجوع فيه سواء أكانت هى معه أم لم تكن ، أما الآن إذ يعلم قيمة بقائها بجواره نهاراً ، فى الطرف المقابل من المائدة وهو يأكل ، ويعلم أنها فى بهم الليل تستكين بين ذراعيه غامرة قلبه بالدفء ، فقد أدرك أنها لو لم تختار هذه البلاد وطناً فإنها لن تكون له وطناً . وما من بلاد تكون له وطناً إذا لم تكن هى فيها ، وهب أنها تريد أن تعود إلى نيويورك فى هذه اللحظة بالذات التى بدأ المنزل الصغير فيها يبدو لعينيه أنه وطنه ، أجل فى هذه اللحظة التى يستطيع أن يتلفث حوله فى الطرقات ولا يمتلىء قلبه بالحزن لأنه سيجد آخر اليوم هذه الدار !

فقد كان امتلاكه لهذا المركز ، بل هذا المكان الذى يستطيع أن يعود إليه عندما يفرغ من عمله ، وهذه البقعة النظيفة المشرقة ، قد غير تماماً من نظرته إلى وطنه ؛ فهو يستطيع أن يروح ويندو في الشوارع الضيقة التى تجرى القذارة فى قنواتها ، ويستطيع أن يحتمل المكفوفين والمشوهين من السائلين ، ويستطيع أن يحتمل الجهل والغش فى المساومة ، إذ يعلم أن له داراً . وهو يستطيع أن يعود إلى روث ليلاً وأن يقرأ ويتكلم وينصت إلى الحاكي وربما يذهب إلى دار للسيد ، وإن كان يفضل أن ينصت إليها وهى تتحدث وتضحك فقط .

ولكن ها هى ذى يقل مرحها يوماً بعد يوم ، وراح يحدث نفسه ذات ليلة وقد تملكه اليأس « لا بد لي من أن أنقلها إلى داخل الحى الأجنبى موغلاً إلى أبعد من هذا ، فالمكان هناك أشبه بنيويورك ، ثم قال بصوت مرتفع : « أتخيل أن نذهب إلى ملهى ليلي يا حبيبتي؟ » وكانا لا يزالان يتحدثان بالإنكليزية ، ذلك أن معرفتهما بالصينية كانت لا تزال قليلة .. لقد كانا يضحكان من لغتهما الصينية أول الأمر وهى تسأل ما عسى أن يكون هذا وما عسى أن يكون ذلك ، ولكنها أصبحت الآن تلتقط الكلمات من خادمتها ، ثم طلبت منه فى نهاية الأسبوع الثانى أن يشتري لها كتاباً أولاً ، وشرحت له

ما تعنى بقولها : « ذلك النوع من الكتب التى يستعملها الأطفال فى المدرسة » ، ثم طلبت مدرساً واقتضاه ذلك أن يستخدم أديباً عجوزاً يحضر إلى الدار ويعلمها كيف تمسك بالفرشاة لتكتب ، وهكذا ذهباً إلى الملهى ورقصاً قليلاً ، لا كثيراً . ومع ذلك فقد لاح له أنها لم تستمتع بالرقص خاصة ، بالرغم من أنه قد كلفه مبلغاً طائلاً ، يقرب من الخمسة الدولارات ، على أنهما لم يكونا يختلفان إلى الملهى كثيراً .

ونظرت إليه بطرف عينها ذات صباح فى نهاية الشهر الثانى وكأنا يتناولان إفطارهما وسألته : « ما قولك إذا كففت عن ارتداء هذه الملابس المألوفة فى نيويورك وارتديت ملابس مما تلبسه سائر النساء هنا ؟ » . وحملق فيها ، ذلك أنه لم يكن يستطيع أن يتخيلها مرتدية ثوباً ضيقاً يلتف على جسمها التفافاً ، فقد بدا له أن وجهها قد خلق لهذه الثياب الصغيرة المنقوشة التى جاءت بها معها ، وأنشأ يقول : « حسناً ، وإذا بها تقاطعه قائلة : « صبرا . . ولا تقل شيئاً حتى ترانى ! » .

فلما عاد فى تلك الليلة بالذات إلى المنزل وجدها ترتدى ثوبها الجديد . كانت قد خرجت واشترت ثوباً طويلاً أخضر من الحرير المحبوك النسيج مرتفع العنق ، وقد سوت شعرها القصير

وبرز وجهها المستدير الصغير من فوق خطوط الثوب المستقيمة كأنه زهرة جميلة فيها رزانة وفيها وقار ، وامتازت حركاتها بالرشاقة والرصانة ، وحتى ابتسامتها تغيرت فلم تعد ابتسامة مثيرة مشاكسة ، ولم يستطع أن يتخيل هذه المخلوقة الرزينة قادرة على أن ترمق بدالا بعين الحب في الطريق العام ، وراح يحدها بنظراته مفتوناً ، فقالت له في دعة ولطف : « أيعجبك ؟ »

فأجابها بأن نعم ولم يستطع أن يزيد ، ذلك أنه كان مشغولاً بمراقبتها . وقد حدث بعد ، وقد فرغ من تناول عشاءهما ، أن سألها في مشقة وهو يتوجس خيفة من جوابها : « هل هذا ... الثوب .. يبدو لك غريباً ؟ » ورفعت عينيها من قطعة من النسيج كانت تحيكها وأجابته : « كلا ، بل الغريب أنني أشعر كأنني لم أرتد ملابسى الخاصة إلا الآن »

ولكنه راح يحدث نفسه ، وهو رائح غاد إلى محل ابن عمه كل يوم ، قائلاً إن المنزل ما زال يحمها ، وإن حياتها سهلة ميسرة ، فلا حاجة بها إلى أن ترى الشوارع الأخرى ما دامت تقيم في منزل صغير نظيف يطل على شارع رصف بالحصى . كان يروح ويعود كل يوم في المدينة الوطنية ، ولكنها كانت مستطبعة أن تذهب من الناحية الأخرى إلى الحى الأجنبى وتشاهد المحلات العظيمة

والسيارات . وكان يتكلم قليلاً ، في حرص وحذر ، عن المجماعات وعن قطاع الطرق والفتن القائمة داخل البلاد ، ولكنها لم تكن تحفل بهذه الأمور كثيراً ، فقد كان يلوح لها أن مثل هذه الأمور بعيدة عن هذا المكان بعدها عن شارع موط بنيويورك . ولم تكن تقرأ الجرائد الإنكليزية قط ، كما أنها لم تكن تستطيع أن تقرأ الصحف الصينية بعد . لقد كان المنزل الصغير هو حدود حياتها ، وتنفس چون الصعداء من هذا الخاطر الذي خطر له . لقد كان يوفر لها الأمن والسعادة ، والحصانة من معرفة المدينة الوطنية القائمة ، وقال يحدث نفسه إنها وأيم الحق تعيش كما لو كانت في مدينة أمريكية بمنأى عن الحقيقة المحزنة . لقد كان يعود إليها ويستريح في هذا الملجأ الأمين وقد أوصدت الأبواب دونهما ودون العالم الحقيقي ، وكانت إذا تكلمت أحياناً عن منظر شاهده عرساً — كالذي وقع لها ذات صباح حين رأت طفلة رضيعة معلقة في الشارع نفسه المرصوف بالحصى — عمد إلى الملاطفة لتبديد ما علق بذهنها . وهكذا كان ينتهي بها الأمر إلى الشعور بالمرح فقط عندما يعود إلى المنزل . كانت مرحلة فتانة ، ولكن في رصانة ووقار . وتراءى له ، كما تراءى المعجزة أن روث كين كانت بوجه من الوجوه تشبه في كثير من الأحيان تلك الفتاة التي كان قد رآها في حلمه .. تلك المرأة الحلوة المطيعة التي تأوى إلى داره !

ثم حدث أن أدرك أن العلم بالأمور التي ود أن يحجبها إياها
أخذ يغمر فؤادها . أجل يغمره في الوقت نفسه الذي كان يود أن
يحجبها عنها بقدر ما يستطيع ، ذلك أنها كانت حاملا ، وقد قالت
في وثوق إنها سترزق ولدا ذكراً . وتبين آئذ السبب الذي دعاها
لأن ترتدى ثوباً فضفاضاً ، بدلاً من تلك الملابس الأمريكية
الصغيرة الضيقة ، وقالت : « ما إن عرفت بالامر حتى فكرت
في ارتداء مثل هذه الثياب » . وأخذ جسمها يستدير استدارة جميلة
تحت هذا الثوب الظريف الذي التصق بجسمها التصاقاً ، دون أن
ينال من رشاقها . وأدرك الآن أنه ينبغي له أن يكفل لها الأمن
في هذا العالم الذي صنعه لها ، هذا العالم الآمن التنظيف الصغير
الحديث الذي يقوم في تلك الدولة الضخمة المظلمة القديمة ، دولة
القرون الوسطى التي هي وطنه . وهرع إلى منزله تاركاً عمله ، يشق
طريقه خلال الصناديق التي تعبأ والسلع التي تشحن إلى أيه في شارع
موط . وكان الأمر يقتضيه أن يعمل الآن أكثر مما عمل من قبل
ليحفظ تلك البقعة الصغيرة آمنة مصونة .

ثم حدث في صبيحة يوم من أيام الربيع ، وقد بلغ الجنين فيما
يعلمان الشهر السابع من عمره ، وراحا يدبران أمر مولده الذي
كان قد اختار هو لوقوعه أحسن المستشفيات الأجنبية طراً في الحى

الإنكيزى .. أن طرقت أذنيهما طلقة مدفع ، وانفجر الدوى العميق وتردد صده ثم خمد ، ودوى الانفجار وتردد صده ثم خمد وحملت في روث وحملت فيه دهشة متسائلة . وعرف في الحال معنى هذا الدوى ؛ ذلك أنه لم يكن قد أباح لنفسه أخيراً فسحة من الوقت ليقراً فيها الصحف ، على أن الجو كان يندر بالعاصفة ، فقد كان اليا بانيون على الساحل . وانطلق المدفع مرة أخرى فسمعا صوت انهيار جدار وقفزا من مقعديهما ، ولكنه لم يفكر إلا في روث . روث وحدها . وصاح يقول : « لا عليك ! » ، وقد نسي أنه يتحدث بلغته . ولم يكن بعجيب أن يتحدث الآن بلغته : « لا تدعى للخوف سيلاً إلى نفسك ، ولأجدن طريقاً للعناية بأمرك والسهر عليك .. آه ليته لم يأت بها إلى هنا ، آه .. ليتهما كانا الآن في شارع موط حيث تجد روث الأمان ويولد ابنهما في سلام !

ذلك أنه ما إن ينقضى وقت قصير ، ويمضى يوم أو يومان حتى تتكشف الأمور لروث جلية واضحة ، فقد امتلأت الشوارع بقوم تصاء تملكهم الرعب وراحوا يستجدون أى ملجأ يأوون إليه ، وكانت ألسنة النار تتوثب في كل مكان إلى الغرب منهم ، واضطر هو إلى أن يقضى أيامه ولياليه ينقل المخزون من العاديات إلى البيوت التجارية الصديقة في الأحياء الأجنبية . واضطر إلى العمل يوماً وليلة لم يدر فيهما مصير روث ، إلا أنه كان يشعر أن المنزل المنخفض

الصغير لا يزال بعد أكثر أمناً من أية بقعة أخرى . وكان يرقب النيران في غدوه ورواحه ولكن لا عليه منها فإنها كانت لا تزال أبعد من أن يتوقع منها الضرر ، وهرع إلى المنزل عند الفجر وهو يخشى أن يجد روث فزعة أو مريضة أو لعل المخاض قد جاءها قبل الأوان .

ولكنها لم تكن في الدار عندما فتح الباب ، وخيل إليه أن جميع أهل المدينة الذين كان يكفيها شرهم قد استولوا على المنزل الصغير . واستوى على الطنافس التي اشتراها حشد كفيف من الرجال والنساء والأطفال وقد وضعوا صررهم النفيسة الصغيرة على ركبهم ، وشجبت وجوههم من الخيرة والخوف والإعياء ، وفاحت في المنزل رائحة أجسامهم القذرة ، ورفعوا إليه أنظارهم في صمت وخجل وسكون . وانطلق المدفع الذي في الغرب يدوي دويّاً متواصلاً ، ولقد ظل الدوي ثلاثة أيام وثلاث ليال لا ينقطع هديره ، يميزه صوت انهيار المباني في سقوطها على بعد نصف ميل . بيد أن المنزل المنخفض الصغير كان لا يزال قائماً في ثبات وجلد وقد امتلأ بهؤلاء القوم المشردين محتشدين في كل ركن من أركانه متشبثين بمقتنياتهم التافهة التي استنقذوها . لقد امتلأت الغرفة بهم وهرع جون إلى المطبخ يبحث عن الخادم ليسألها أين روث . ووجد روث تشرف على الموقد الكهربي بأى الصغير الذي كان

قد اشتراه والفخر يملأ جوانحه وقد وضعت القدور على كل مكان
من سطحه .. كانت شديدة الإعياء على ما تبين له ، وأهملت شعرها
فلم تمشطه ، إلا أن التعب لم يظهر على عينيها ؛ فقد بدا عليها الفرح
والفخر ، وارتدت فوق ثوبها مئزراً أمريكياً كبيراً ، ووقفت هي
والمرأة تحركان الطعام في القدور .

وأنشأ يقول : « ماذا ... ؟ »

وأجابته : « إنهم جميعاً جائعون ، يكادون يموتون جوعاً ..
لقد هرب المساكين لأن النيران أتت على منازلهم ،
فأخذ يقول : « لا نستطيع إطعامهم جميعاً ،

وراحت تحرك الطعام في قوة وعنف وهي تقول : « بل نستطيع !
فإن لدى هنا من الطعام ما يكفي الجميع »

ووقف لا يدري ماذا يفعل ، ثم قال فجأة : « إن في المنزل
رائحة لا تطاق ، . وكانت رائحة الحشد الذي لا يعرف الاغتسال
تفوح في المنزل حتى بلغت المطبخ وطغت على عير الأرض . وبلغ
من قبح هذه الرائحة أنه شعر بالخجل من القوم أمام روث ، ذلك
أنه لم يقل لها من قبل قط إن رائحة جمهور العامة الذي يأكل الثوم
تغشي لها نفسه ، ولا مناص الآن من أن يتحدثها بذلك أولاً .

والتفت إليه في حق وغيظ وصاحت به : « خليك بك أن

تشعر بالحجل من نفسك ، ثم أردفت في لهجة أهل نيويورك
التي لا تشوبها شائبة : « أيها اللاحق المشمخر ، ماذا عليك من
رائحتهم ماداموا أهلك وعشيرتك ؟ » ورفعت قدراً في عجلة وأخذت
تملأ طاسات رصتها على المائدة . « آه لو كنت أعلم كل ما علمته
مذ رحيلك . . . » وأخذت تصب الطعام في مهارة وعناية وقد
ذهب عنها كل ما كانت تتصف به من كسل ونحول ، كانت شديدة
النشاط كأنما تعمل بالكهرباء ، على أنه لم ير إلا وجهها ، وكان بادي
الإعياء ، إلا أنه كان يطفح بالبشر والسعادة .

وقال : « لم أكن أريد أن تعلني بحالهم ، ولئن وقع منهم
ما يصيبك بضر وأنت الآن وشيكة أن تضعي طفلك فلن أغفر لهم »
وتوقفت وهي تصب الطعام في القدور لتحده بنظراتها
وسألته : « أو تروم أن تنبئي يا جون ديوى تشانغ بأنك كنت
تخفي عني حقيقة الأمور عمداً ؟ لقد كنت أفسد عن السبب الذي
يدعوك إلى السير بي دائماً إلى الحى الأجنبي كلما خرجنا إلى مكان
ما .. وى ! لقد كاد السأم يقتلنى ! »

وعادت تصب الطعام في الطاسات ، طاساً بعد طاس ، وتملؤها
حتى حافتها ، ثم تهرع إلى الموقد وتأتى بقدر آخر .
وردد قولها : « السأم ؟ » .

فأجابته قائلة : « أجل ، فإننى لم أكن أجد شيئاً أفعله ، وكان هؤلاء القوم جميعاً فى هذه الأثناء على قيد الوجود لا أعرف من أمرهم شيئاً »

وتتم يقول : « ملايين منهم ، ملايين وملايين وملايين منهم ؟ » ولم يستطع أن يدرك ما تعنى .

وقالت فى رضا وقناعة : « هذا يحسم الأمر ،

وسألها فى غباء : « يحسم ماذا ؟ »

« يحسمه من حيث مقامى ، وهل يطيب لى المقام هنا أو فى نيويورك ،

وحملق فيها بنظرات ظلت تحمل أمارات الغباء ، فضحكت منه ضحكتها العالية الصاخبة القديمة ، ولم يكن قد سمعها تضحك هذه الضحكة منذ ذلك الصباح الذى عكف فيه على العمل فى سجلات الحساب الخاصة بأبيها فى شارع موط ، وقالت وهى تأخذ فى صب الطعام من قدر مرة أخرى : « ما أبلهك ! ألا تدرك أننى أحب أن اضطلع بعمل ما ، والعمل هنا كثير ،

وبدأ يفهم .. لذلك لم تكن تنكر هؤلاء القوم . أجل لم تكن تشعر بشئ من خيبة الرجاء فيهم ، وحسبهم أنهم كانوا قوماً بعضهم الجوع بنابه وهى تريد إطعامهم ، وإذا كانت قد علمتهم القذارة ... وكأما كانت تقرأ أفكاره فأردفت تقول . « وسأبدأ بغسل

الأطفال حين أفرغ من إطعامهم جميعا ، وربما استطاع الكبار أن يستحموا على التعاقب ... ، والتفتت تسأله . متى تنتهى هذه الحرب ؟

وى إنها لطفلة ! أجل فى لا تعدو أن تكون طفلة ، تتحدث عن الحمامات ! لقد كان صوت المدفع يدوى دويا منتظما مخترقا أجواز المدينة ، وقد بلغه أن الحصون قد دكت فى هذا الصباح . فماذا تكون نهاية هذا كله ؟

وتأوه قائلا : « لست أدرى »

وراحت تدبر الأمر قائلة : « لو أن الحرب طالت مدة كافية لا استطعنا أن نعمل على غسلهم جميعا »

ولكنه قاطعها قائلا : « أى روث ! يجب ... يجب أن ترحلى إكراما للطفل ... يجب أن تغادري البلاد ... فلا يدري أحد ما قد تنتهى إليه هذه الحرب ... »

بيد أنها ما إن سمعت هذا حتى التفتت إليه ووضعت يديها فى خصرتها .

ثم قالت فى حزم : « طفلى ؟ سيولد طفلى فى وطنه فهو ينتسب إليه » ثم تغير صوتها مرة أخرى وقالت آمرة : « عليك الآن أن تحمل هذه الصينية إليهم واشرع فى إطعامهم مبتدئا بالأطفال ، وأردفت تقول : « وعجل ! فالعمل هنا كثير »

آفاق عالمية

الهيئة العامة لقصور الثقافة



دين قديم يازوتشي إينو

ترجمة : د. حماده إبراهيم

دین قدیم
یازوشی اینو
(الیابان)

فى الساعة الثالثة من ذلك اليوم، كان «سينجىرو ساكو» فى مطار «إيتامى» لسيقل الطائرة إلى طوكيو .

كانت الأيام الثلاثة التى قضاها فى «أوزاكا» حافلة بالأعمال. وكان فندق «طوكيو»، وسط المدينة، معروفاً بضخامته والسرعة التى تم بها تشييده على اثر انتهاء الحرب، وكان زهاب صاحبنا وإيابه فى ردهة الفندق، وهو واثق من نفسه، أخرى بأن يثير غيرة النحلة النشيطة فى فصل جمع الغذاء .

كان قد تلقى ثمانى زيارات، وزار ستة أشخاص فى مختلف مقار الشركات وفروعها وإداراتها، وحضر أربع سهرات، وأثنى على المزايا التى تتمتع بها الكراسى التى تقوم شركته بصناعتها، وشرح المبادئ التى تقوم عليها شركته وتحدث عن مستقبلها .

وفى اليوم الرابع لم يعد لديه ما يفعله، فتناول الغذاء فى هدوء فى أحد أركان مطعم الفندق .

وسأل مدير الفندق قائلاً :

- من أين جاء هذا البطيخ ؟

كان «سينجيرو ساكو» أشيب الشعر فى نحو الستين من عمره .. وكان نشيطاً، محباً للنظام، ولقد قام بواجبه خير قيام، وكان راضياً عن الناس. وأول مرة كان بوسعه أن يتحدث فى موضوعات لا علاقة لها بالأعمال :

- من «كوبيه»، على ما أظن .

- إنه أصفر جدا. لابد وأن السبب يعود إلى التسميد. كان يجب أن يكون أكثر نضجاً .

ليس ذلك لأنه كان يهتم بصفة خاصة بالبطيخ. وما إن انصرف مدير الفندق، حتى أخذ منه قسمة كبيرة، فراح البطيخ اللذيذ المفعم بالعصارة يذوب فى فمه .

وما إن انتهى من الغداء، حتى خرج إلى الردهة، وأشعل سيجارا، ثم أخرج مفكرته من جيبه الداخلى. وكانت كل عبارة فى القائمة مشطوبة بخط أحمر. فقد أنجز كل شىء. وفى الخريف سيقوم بافتتاح فرع لمصنعه فى «أوزاكا». لكى يغطى السوق فى منطقة «كانزيه» ونظر فى ساعته. كانت الثانية عشرة والنصف ظهراً. إن حافلة المطار تخرج من أسفل المدينة قبل رحيل الطائرة بساعة تقريباً. فلا تزال أمامه ساعتان .

وعاد فصعد إلى حجرته، ووضع ماكينة الحلاقة وفرشاة الأسنان، وبعض الحاجيات الأخرى داخل حقيبته، ثم أغلق الباب ونزل إلى مكتب الفندق ليسدد الحساب، وكان قد عزم على قضاء هاتين الساعتين فى نزهة على طول نهر «دوجيما» الذى يخترق وسط المدينة، بالقرب من الفندق .

وكان ثمة طريق محفوف بالأشجار مزدهم بالعجلات والسيارات يسير بحذاء النهر، وأسفل منه قليلاً وعلى الشاطئ، يوجد ممر ضيق ينزل فيه المتنزهون فى المساء أزواجاً أزواجاً. أما فى النهار، فيكون خالياً كأنما قد نسيته المدينة، وبعد عشر دقائق، كان «سينجيرو ساكو» يتمشى على طول هذا الممر. ولم يكن يبدو فى الأفق متنزهون آخرون .

كانت ظلال أشجار الصفصاف المغروسة على مسافات متساوية بطول الطريق العلوى، تسقط فى خطوط متشابكة على الممر. وفوق النهر كانت تطفو بعض المخلفات، إلا أن شمس مايو كانت تعكس أشعتها على سطح الماء فى نقط من الضوء أشبه بأصداف السمك، وكانت النسمة منعشة. فى ذلك الحين قابل صاحبنا الرجل ذا الندبة .

كان وجهه عادياً، فى نحو الأربعين من عمره، وكان الرجل قد

نزل إلى الممر، على بعد بضعة أمتار من «سينجيرو ساكو»،
مستخدمًا أحد السلالم الحجرية التي كانت تقوم على مسافات
متباعدة وتفضي إلى الشارع العلوى، ولكنه كان بالنسبة
«لسينجيرو ساكو» كأنما قد هبط من السماء .

وتقدم الرجل ذو الندبة فى ببطء نحو «سينجيرو ساكو» الذى
تنحى جهة النهر ليفسح له الطريق .

كان القادم الجديد يبدو منهكاً قد استنفده العمل والهم. فلم
يتنبه لوجود «سينجيرو ساكو». ومضى، وهو حانى الظهر قليلاً.
خافض العينين، دون أن يتطلع إليه .

ولكنه قبل أن يتقدم خمس خطوات، التفت «سينجيرو ساكو»
خلفه فجأة، وتراجع خطوة إلى الوراء وصاح فيه قائلاً :

- عفواً ! أنا أعلم أنها قلة ذوق من جانبى، ولكن ألم تكن
يوماً فى مدينة «أكيوتا»، قبل عشرين عاماً ؟

فرمقه الآخر لحظة بارتياح. ثم قال بغشم الشخص الذى لم
يتعود على آداب اللياقة ومقتضيات الذوق :

- أكيوتا ؟ نعم، لقد عشت فيها عندما كنت شاباً. أنا مولود
فيها .

ولقد بدا عليه الضيق قليلاً بسبب هذا السؤال الدخيل، ولكن

مما لا شك فيه أن الندبة التى بوجهه كانت تساهم فى خلق هذا
الاحساس. فيبدو أن وجهه كان دائماً يوحى بتعبير يشوبه القلق
والارتياح .

– آه !

صرخة مكتومة، شديدة، أطلقها «سينجيرو ساكو»
– هو ذلك إذن. أعلم أنه سبق لى أن رأيته. كنت أفكر فيك
طوال تلك الأعوام العشرين. وكنت أتمنى دائماً أن أراك مرة
أخرى. لقد قابلتك فى «أكيتا» وأنقذت أنت حياتى. لا تؤاخذنى،
ما اسمك ؟

– «تاكيزو كيكوشى». ولكن لابد وأنت مخطئ .

كرر «سينجيرو ساكو» الاسم كما لو كان اسم صديق حميم.
ثم بذل مجهوداً ليهدى من روعه. وكان يتساءل كيف يبدأ .
فى إحدى ليالى ديسمبر، قبل عشرين عاماً مضت، كان
«سينجيرو ساكو» يتنزه فى شارع صغير منعزل من شوارع
«أكيتا» وفى رأسه أفكار عن الانتحار. كان يعمل فى «أكيتا» فى
أحد فروع شركة صناعية فى طوكيو. واستخدم أموال الشركة
فى المضاربة على أخشاب البناء، وانتهت المضاربة نهاية غير
محمودة، فأصبح مطارداً من الدائنين، ومهدداً باكتشاف

الاختلاسات، وأغلقت فى وجهه كل السبل .
صادف ذلك أيام الاحتفالات التى تقام فى نهاية العام،
ومضى صاحبنا، تحت الجليد الدقيق، يسير بلا غاية خلال
المدينة فى شارع رمادى اللون، وقد ضاق عليه الخناق وهو بين
الحياة والموت. وكان سيختار الموت لولا أنه فكر فى زوجته
الشابة التى لم تكن حتى لتعلم شيئاً عن مشكلاته. هذه الفكرة
وحدها كانت تحتجزه على شاطئ الحياة.

« يا للراحة التى سألقاها فى الموت ! يا للراحة !... ».

هذه اللزومة السوداء، كان يردها فى هدوء، فى قرارة
نفسه. ولكنه إن مات أصبحت زوجته بلا مورد .

– عفواً ؟ هل معك كبريت ؟

فعاد «سينجيرو ساكو» إلى نفسه. ونقب فى جيبه. كانت
كرات دقيقة من الجليد تتراقص داخل دائرة النور التى كان
يرسمها عود الثقاب ومصباح كان يحمله الرجل الذى اعترض
سبيله .

وحدث «سينجيرو ساكو» نفسه قائلاً : «لابد وأننى أهيم تحت
هذا الجليد منذ ساعات». وأعاد الرجل إليه علبة الثقاب .

– شكراً !

ولما مضى الرجل الآخر، وهو مائل قليلاً إلى الأمام، ظهر وجهه فى دائرة الضوء التى كان يرسمها المصباح. رأى «سينجيرو ساكو» باشمئزاز أن جانباً من وجه الرجل مشوه بصورة بشعة بسبب ندبات خلفها حريق قديم. كان الرجل فى ريعان شبابه، وكان يرتدى زى موظف بالسكة الحديدية. وعندئذ لاحظ «سينجيرو ساكو» أنه يسير فى شارع شبه مهجور وراء المحطة. فقد كانت هناك أسلاك مرتفعة تسير بحذاء أحد جانبي الشارع، وسمع «سينجيرو ساكو» صوت صفارة بعيدة لإحدى قاطرات السكة الحديدية .

كان المصباح ينير بضوء شديد مخزناً للبضائع، بدأ الشارع من بعده يتفرع إلى اليمين وإلى اليسار، وكان «سينجيرو ساكو» وهو يحدق فى النور الذى كان يبتعد يتساءل عن الوجهة التى سيتخذها نور المصباح الذى كان يحمله الرجل ويقول فى نفسه : «إذا اتجه إلى اليمين سأنتحر، أما إذا اتجه إلى اليسار فسأواصل الحياة» .

إن الطريق الذى كان سيتخذه النور لم يكن فى ظاهره ذا أهمية على الإطلاق. ولكنه كان يركز نظره عليه فى اللحظة التى كان يقترب فيها وهو يرتجف من مفرق الطريق وانعطف النور

إلى اليسار واختفى مع البعد شيئاً فشيئاً .

فقال «سينجيرو ساكو» لنفسه «إذاً، يجب أن أواصل الحياة». ولكن هذا القرار كان مصحوباً بنوع من السأم عندما تذكر العذاب الذى سيظل يلزمه .

ومع ذلك فإن نبذه لفكرة الموت فى تلك الليلة هو الذى جعله يتغلب على الصعوبات ويحصل فى نهاية المطاف على هذا المركز المحترم بعد عشرين عاماً من الحادث .

لقد أصبح رجل صناعة من الطراز الأول، وعندما كان يذهب إلى المسرح أو إلى أحد المطاعم، كان يجلس فى كرسى موسد - يحمل العلامة المميزة لشركته. لقد أصبح قوة . وكان من الواجب أن يكون فى عداد أعضاء الغرفة التجارية .

وكان «سينجيرو ساكو» يحب أن يروى هذه القصة. كان يرويها بانفعال وحماسة فى أغلب الأحيان حتى إن الأصدقاء كانوا يبادرونه قائلين :

- إذن، سنسمع مرة أخرى قصة الرجل ذى الندبة !

ولكن زوجته لم تكن تمل من القصة التى كانت تنتهى دائماً بهذه الكلمات :

- وكانت فى وجهه ندبة فظيعة .

وكانت زوجته تكرر هذه العبارة :

- إنك مدين بالكثير لهذا الرجل. هل تعرف كيف أصبح الآن؟

- إننى أود أن أعثر عليه مرة أخرى .

- لو حدث هذا، فلا بد وأن تكافئه بأية وسيلة .

كانت زوجته امرأة ضخمة، تكرر حياتها لأعمال الخير، وكانت خير جمهور له .

ومما لا شك فيه أن «سينجيرو ساكو» قد قام بعملية بحث محدودة داخل «أكيتا» ولكنه لم يعثر مطلقاً على أثر للرجل ذى النذبة. أما بالنسبة لزوجته، فإن هذا الاختفاء التام أضفى على القصة طابع الغموض الذى يزيد من إثارتها .

ولكى يروى قصته هذه، كان «سينجيرو ساكو» قد جلس على درجات السلم الحجرى المؤدى إلى النهر الذى كان مجراه العريض يمر أمامه فى هوادة . أما الرجل المسكين، الذى كان منقذه فيما مضى، فقد كان يجلس إلى جواره .

- إننى أود أن أفعل شيئاً من أجلك إن استطعت .

كان «سينجيرو ساكو» يكرر الجملة التى قالها وأعاد قولها سنوات بأكملها لزوجته ولأصدقائه .

أما بالنسبة «لتاكيرو كيكوشى»، فقد كان الموقف ضرباً من
الوهم أو الخيال، فلم يكن بوسعه أن يصدق ما كان يحدث له،
وكان يتساءل إذا كان لا ينبغى عليه بكل بساطة أن ينهض
وينصرف إلى حال سبيله .

كان قد غير من مهنته نحو اثنتى عشرة مرة منذ بدأ حياته
فى سكة حديد «أكيتا»، ولكن ما من تغيير من هذه التغييرات
جلب عليه السعد، وهو الآن، سمسار تأمينات، يكسب بالكاد ما
يضمن لأسرته المسكن والمأكل .

وخلال التغييرات المحمومة التى كانت تطرأ على وظيفته
ومحل إقامته، سعياً وراء متنفس فى تلك المعركة التى يخوضها
ضماناً لحياته وحياة أفراد أسرته، كان سوء الطالع يطارده. فلم
يكن بوسعه أن يفر من تلك الندبة البشعة التى تشوه خده والتى
تقع مسئوليتها على أم مهووسة، وكان مقتنعاً بأنه لن يستطيع
على الإطلاق أن يفر من سوء الحظ، ومن العمل المضنى ومن
الفقر. كان يشعر بأن الحياة لا تتضمن معنى حقيقياً وبأنه لا
أهمية لكونه حياً أو ميتاً. وكان يتصور فى بعض الأحيان أنه إذا
ترجمت الصرخة التى ترك بها أحشاء أمه، فإن معناها سيكون
: «لا أريد . لا أريد» .

وها هو ذا من جاء يخبره بأنه قد أنقذ، دون علمه، حياة شخص آخر، وساهم فى تكوين مركزه المرموق وحياته السعيدة الرغدة .

وراح يتأمل قدميه فى حذائه البالى فلاحتا له وكأنهما قدما ن جلبتا الحظ لرجل آخر، ولكنهما لم تصنعا شيئاً من أجل صاحبهما .

وسأله الرجل العجوز قائلاً :

- هل لك أسرة ؟

- زوجة وأربعة أبناء .

- ليس من شأن هذا أن يجعل أمورك سهلة ميسرة. أرجوك، قل لى كيف أستطيع مساعدتك. ضع جانباً كل حرج أو ضيق . إن «تاكيزو كيكوشى» ينصت الآن بشعور بالأمل يضحخ صوت هذه الرؤيا المذهلة. وعض على شفته لى يتأكد أنه متيقظ فعلاً. وكان يشعر برغبة تدفعه إلى أن يصيح من الفرحه. وبدلا من أن يفعل ذلك، قال متردداً :

- إنها ستندهش عندما تعلم بهذا .

كان يفكر فى زوجته .

وفجأة فكر «سينجيرو ساكو» فى زوجته هو .

- لماذا لا تأتى معى إلى طوكيو ؟ إننى أحب أن أقدمك إلى زوجتى، كنت أنوى أن أسافر إلى طوكيو الليلة .

كان «تاكيزو كيكوشى» ينتظر، فى القريب العاجل، طفلاً خامساً. وكان لابد له من تدبير بعض النقود. وكان يتعشم أن يستطيع اقتراض بعضها من عم له يدير متجرأ فى طوكيو. لم يكن هذا العم غنياً. ولكن حالته كانت تسمح له بألا يحمل هم الوجبة القادمة .

- عظيم !

ونظر «سينجيرو ساكو» فى ساعته. كانت تقترب من الثانية .

- سأستقل الطائرة بعد ظهر اليوم. فلماذا لا تأتى معى ؟

- فى الطائرة ؟

لم يكن «تاكيزو كيكوشى» قد سافر بالطائرة أبداً. فكانت فكرة إمكان حدوث هذا الأمر تبدو له شيئاً غريباً، بل خارقاً للعادة .

- إنها تقلع فى الثالثة. هل تستطيع أن تأتى مباشرة ؟

- أخشى ألا أستطيع. فلدى أعمال كثيرة يجب أن أؤديها

بعد الظهر .

وفى الواقع. كانت لدى «تاكيزو كيكوشى» أعمال عليه أن

يؤديها. فقد كان عليه أن يطلب يومين إجازة من رئيس عبوس،
ويقترض نقوداً من أحد المرابين، ويحمل النقود إلى زوجته .
ونظر «سينجيرو ساكو» فى ساعته مرة أخرى ومكث مفكراً
لحظة .

كان نادراً ما يغير جدولته من أجل أى شخص كان، ولكنه
سيخرج على القاعدة من أجل منقذ حياته .

ونهض الاثنان. ووعده «تاكيزو كيكوشى» بأنه سيكون فى
الفندق فى الساعة الخامسة. وانصرف بخطى أكثر خفة
ورشاقة. وكان يشعر مقدماً بأنه يكاد أن يحلق فى السماء .

وتناول رجل الأعمال ومنقذه الغداء معاً فى مطعم الفندق.
وكان الغداء بالنسبة «لسينجيرو ساكو» وجبة رائعة لا تتكرر فى
الحياة كثيراً. ولم تعد ندبة ضيفه تثير نفوره. بل لقد كان
«سينجيرو ساكو» يتصور أن بوسعه أن يعطى «لتاكيزو
كيكوشى» عملاً فى مصنعه دون أن يثير بذلك اشمئزاز العمال
الآخرين. كان يحدث نفسه ويقول : «كم ستفاجأ زوجتى عندما
نظهر أمام الباب» .

كانت زوجته فى هذه السنوات الأخيرة قد فقدت عادة
الاندهاش وأخذت فى السمنة كما لو كان هذا هو مشغوليتها

الوحيدة فى الحياة. وأن مفاجأة سارة تفيدها خيراً من كل ما
يمكن أن يتصوره .

أما عن «تاكيزو كيكوشى»، فإنه لم يتصور أن تتاح له فى
حياته مثل هذه الوجبة مرة أخرى .

ولولا شعوره بالحرص بسبب إحساسه بثيابه الرثة وحذائه
البالى لكان فى قمة السعادة .

كان يفكر فى كل ما فقدّه طوال تلك السنين، وهو يدير ظهره
للحياة وللناس. وكانت المشروبات اللذيذة تجعل نذبه تلمع مثل
المنارة . وكانت الأطباق التى تتتابع - وأى أطباق، إنه لم ير فى
حياته مثيلاً لها - تدير رأسه .

- قد يكون من الواجب أن أبعث ببرقية إلى زوجتى لتعلم
بمجيئك .

ولكن سمسار التأمين لم يكن ينصت له، ولم يسمع رفيقه وهو
يرسل الغلام بالبرقية، وكان الرجل العجوز يتحدث، ويتحدث،
غير أن «تاكيزو كيكوشى»، ومن علياء نعيمه، لم يكن يلاحظ، من
وقت لآخر، سوى حركة شاربه الأبيض وكأنها عنصر مكمل
لنشوته الذاتية .

وبعد السابعة بقليل، توجهها إلى المحطة واستقلا حافلة

المطار.

وألقى «تاكيزو كيكوشى» نظرة إلى السماء وهو يدخل الحافلة فسقطت حبة من المطر على جبينه.

لم تكن هناك رياح، ولكن كانت ثمة سحب تزحف فى اتجاه الشمال الشرقى وسط سماء المساء الجميلة .

كانت الطائرة متأخرة عن موعتها بعشرين دقيقة. ولم يلاحظ «كيكوشى» الوقت الذى أقفلت فيه .

- سنكون فى مطار «هانيدا» بعد ساعة ونصف .

كانت كلمات الرجل العجوز تبدو غريبة عجيبة. فإن أعباء كل هؤلاء الأبناء لم يمكن «كيكوشى» مطلقاً أن يسافر فى مجرد قطار سريع .

وانقضت الساعة والنصف .

وأنارت العلامة التى تدعو إلى ربط أحزمة المظلات، إلا أن الطائرة لم تنتهياً للهبوط.

فقال «سينجيرو ساكو» :

- يبدو أننا تأخرنا قليلاً .

ثلاثون دقيقة مضت وما من علامة تبشر بالهبوط. ونظر من النافذة الصغيرة . لم يكن يظهر تحت الطائرة إلا امتداد مظلم

للبحر. ونظر فى ساعته عدة مرات وبدأ يشعر بقلق غامض.
فأوقف المضيئة الجوية الشابة عندما خرجت من حجرة القائد
وسألها :

- ماذا حدث ؟ لقد تأخرنا، أليس كذلك ؟

- إننا لا نستطيع أن نهبط بسبب السحب، ولكننى لا أعتقد
أن هناك ما يدعو للقلق.

إن اجابته التى كانت أميل إلى الالتباس قد ثارت قلق
«سينجيرو ساكو». كان يبدو أن هناك مغزى وراء عدم قولها بكل
بساطة : «ليس هناك ما يدعو للقلق» .

- هل ظللنا طوال الوقت نحوم فوق «هانيدا» ؟

- نعم يا سيدى.

- عظيم. ولكن يبدو أن هذا الوضع سيجلب علينا المتاعب .
وبدأ يندم على تغيير جدولته .

والى جواره، كان «تاكيزو كيكوشى» مكتئباً منحرف المزاج .

ونظر من النافذة فوجد أن المروحة الخارجية لم تعد تدور .

لقد توقف أحد المحركات فهم لا يستطيعون الهبوط .

وانقبض قلبه عندما أدرك معنى ذلك .

وراح الاضطراب والقلق يسيطران على الطائرة . وبدأ

الركاب الأربعون يستشعرون الخطر .

وألقى «سينجيرو ساكو» نظرة على رفيقه. كان وجه «تاكيزو كيكوشى» أبيض من الشحوب وفمه متقلصاً .

لقد لاح «سينجيرو ساكو» وكأنه وجه الهلاك الأبدى، وجه شيطان لسوء الطالع. إن ما حدث كان نتيجة مباشرة لمقابلة اليوم .

وبغته، قفز شيطان سوء الطالع على قدميه وهو يرفع ذراعيه إلى السماء .

فهدأت المضيفة من روعه. فعاد إلى الجلوس، وسكن فى مكانه وحدث نفسه قائلاً:

«لماذا يحدث هذا ؟ إن حياتى لم تكن سعيدة، ولكن لم يحدث لى قط أن وجدت نفسى مهدداً بخطر مية عنيفة . لو تحطمت الطائرة، ومت، فستكون غلطة هذا الشيطان الجالس هنا إلى جوارى . »

ثم التفت ونظر إلى «سينجيرو ساكو» بعينين متوهجتين. فرد له «سينجيرو ساكو» نظرتة. وخطر له أنه ليس متأكداً على الاطلاق أن هذا الذى أمامه يمكن أن يكون ذلك الشخص الذى قابله فى «أكيتا» قبل عشرين عاما. وإذا كان هو فعلاً، فما أثر

تلك الانعطافة إلى اليسار على حياته أو موته ؟ فقد كان من الممكن جداً أن يقوم كلب بهذه المهمة، فى تلك الليلة. وراح «سينجيرو ساكو» يلعن سذاجته وطيبة قلبه اللتين قادتاه إلى هذه الكارثة. وانفجر سمسار التأمين قائلاً، وقد عجز عن الاستمرار فى ضبط نفسه :

- إننى لم أكن أرغب فى ركوب أى طائرة !

كانت لهجته قد تغيرت تماماً. وكان وجهه يعطى الاحساس بأنه على أهبة أن ينقض على شخص ما .

وكرّد فعل على هذا الموقف، خلد «سينجيرو ساكو» إلى هدوء بارد كالجليد. وتطلع فى ازدياء إلى شيطان سوء الطالع هذا الذى فقد السيطرة على أعصابه بهذه الطريقة .

ثم حدث نفسه خلسة : «إن مقاعد الطائرة تدفع إلى الأمام وتوحى بعدم الاطمئنان. لو خرجت سالماً من هذا المأزق، فاننى سأأخذ فى المصنع الاجراءات اللازمة لصناعة مقاعد للطائرات، أفضل من هذه المقاعد. ولكن من الجائز أن الأوان قد فات للتفكير فى مثل هذه الأمور. وتحول تفكيره باشمئزاز عن هذا الموضوع .

وبدأت الطائرة تفقد توازنها. فزادت مخاوف الرجل العجوز.

سمع صوت المضيفة فى مكبر الصوت وكأنه صوت ملاك
حارس:

- نأسف لإزعاجكم، الطائرة ستهبط فى «هانيدا» بعد خمس
دقائق .

أما «سينجيرو» و «تاكيرو» فلم يفتح أيهما فمه خلال الدقائق
التالية .

وخرجا من الطائرة وقد افترقا وسط زحام الركاب. وكان
«سينجيرو» يبحث بعينه عن شبح زوجته الضخم بين الجمهور
الذى كان ينتظر فى مدخل الردهة. فنادته بمجرد أن لمحته .

- لقد تأخرت ساعة. كنت فى غاية القلق. ولكن أين فاعل
الخير الذى أحسن إلينا؟

وراحت تتطلع حولها، متلهفة لرؤية ذلك الشخص الذى تدين
له بالكثير .

أما رجل الأعمال العجوز وسمسار التأمين فقد رمق كل
منهما صاحبه بنظرة وهما يدخلان الردهة .
وافترقا دون كلمة واحدة .

لقد خيل «لسينجيرو ساكو» أنه فى هذه النظرة الأخيرة رأى
شخصاً جديداً كل الجدة، ما من شك فى ذلك. لا المنقذ الذى

تناول معه الغداء فى «أوزاكا» قبل ثلاث ساعات، ولا شيطان سوء الطالع الذى كان جالساً إلى جواره فى الطائرة. لقد رأى ما كان يجب أن يراه منذ البداية : مجرد سمسار تأمينات حقير لا يثير اهتمامه فى شىء. وبالمثل، كان «تاكيزو كيكوشى» يرى فى «سينجيرو» رجل أعمال عجوز لا تربطه أية علاقة بحياته البائسة، وأشاح بوجهه مع رجفة من أهدابه ملؤها الارتياح .

وسألت مدام ساكو مرة أخرى :

- أين هو ... أين فاعل الخير الذى أحسن إلينا ؟

كان «تاكيزو كيكوشى» فى تلك اللحظة يدخل الحافلة .

وكان يحدث نفسه قائلاً : «ياله من يوم قذر ! لقد نسيت أن

أسترد ثمن تذكرة السكة الحديدية التى اشتريتها قبل يومين.»

قصة من الهند

ترجمة

جمال الدين زكي الشناوي

مراجعة

يونس شاهين

الأحجار الجائعة

الأحجار الجائعة

كنت عائدا مع قريبي من كلكتا من رحلتنا الى بوجا عندما قابلنا الرجل فى القطار . ومن لباسه وهيئته خيل الينا أنه مسلم من الجزء الداخلى للبلاد . ولكن الحيرة تملكنا عندما سمعناه يتحدث . وقد تحدث الرجل فى جميع المواضيع بثقة تامة ، حتى كدنا نظن أن الاله الذى بيده مقاليد كل الأمور فى هذا الكون . كان يستشير دائما فى كل ما يفعل .

وحتى ذلك الوقت كنا فى منتهى السعادة ، حيث لم نكن نعلم بذلك السر ولم نعلم أن هناك قوات لم نسمع عنها منهمكة فى عمل ما . وأن الروس قد تقدموا وأصبحوا قريبين منا ، وأن للانجليز سياسات خفية عميقة ، وأن الفوضى بين الزعماء الوطنيين قد بلغت أوجها .

ولكن صديقنا الجديد قال بابتسامة مكرة :

— « يحدث فى السماوات والأرض يا صديقى هوراشيو أشياء أكثر مما تنشره صحفكم » (١) .

ولما كنا لم نغادر موطننا من قبل فان سلوك ذلك الرجل قد ألجم ألسنتنا بالدهشة .

ومهما كان موضوع الحديث تافها فانه كان يستشهد بالعلم أو يعلق على الكتابات السرية الهندية المقدسة « الفيداس » أو يعيد رباعيات من شعر فارسي قديم .

• المراجع

هذه الجملة اقتباس بتصرف من مسرحية هاملت لشكسبير

ولما كنا لا ندعى علما بالعلوم أو بالكتابات السرية المقدسة أو باللغة الفارسية فإن إعجابنا به أخذ يزداد ولما كان قريبي صوفيا لاهونيا «ثيوسوفست» فإنه اقتنع تماما بأن صاحبنا له قوى خارقة وملهم بنوع غريب من المغناطيسية أو لقوى السحر والتنجيم الخفية ، أو بجرم سماوى ، أو ما شابه ذلك . وأخذ يصغى بخشوع ونشوة الى أتفه الأقوال التى كانت تنساقط من بين شفتى صديقنا العجيب . وأخذ يدون بعض ما يقول خفية ويخيل الى أن ذلك الرجل العجيب قد لاحظ ذلك وأنه سعد به . ولما وصلنا الى المحطة التى يجب أن نغير فيها القطار تجمعنا فى غرفة الاستراحة انتظارا للقطار القادم .

وكانت الساعة حينئذ حوالى العاشرة مساء ولما كان القطار على ما بلغ أسماعنا سيتأخر كثيرا نتيجة لعطل فى الخطوط فأننى بسطت قراشى على المائدة وكنت على وسك الاستلقاء لأنال قسطا من الراحة عندما بدأ ذلك الرجل العجيب متعمدا تلفيق القصة التالية .

وبالطبع لم أستطع النوم فى تلك الليلة :

« عندما حدث خلاف حول بعض المسائل الادارية فقد تركت وظيفتى فى « جوناغار » والتحققت بالخدمة عند « نظام حيدر أباد » وعينت على الفور لقوتى وشبابى كجامع لضرائب القطن فى « باريش » .

و « باريش » مكان جميل « وينساب نهر سوستا مثرثا فوق الأحجار ويسمع خريره على الحصى » وهو يجرى ويتهادى برشاقة كراقصة ماهرة وسط الغابات تحت سفح التلال الموحشة .

ويسعد درج من مائة وخمسين درجة من النهر وهناك عند حافة النهر وفى آخر الدرج عند سفح التلال يوجد قصر رخامى منعزل ولا يوجد حوله أى مساكن للبشر فإن القرية وحلقة بيع القطن تبعدان عنه كثيرا .

ومنذ حوالى مائتين وخمسين سنة بنى الامبراطور « محمود شاه الثانى » هذا القصر المنعزل لمتعته وترفيه . وفى أيامه كان ماء الورد يتفجر من نافوراته وعلى أرضيات عرفه الرخامية المبردة برذاذ الماء كانت تجلس فتيات ايرانيات صغيرات وشعورهن غير مرتبة قبل الاستحمام وهن يداعبن الماء الصافى فى خزانات المياه بأقدامهن العارية الناعمة وينشدن على أنغام الجيتار قصائد الغزل الغنائية الفارسية (١) .

(١) الغزل فى الفارسية هو شعر غملى يراوح عدد الأبيات فى مصانده من ٦ الى ٢٦

المراجع .

ولم تعد النافورات الآن تخرج الماء • وتوقفت الأغاني • ولم تعد تلك الأقدام الثلجية البياض تخطو برشاقة على الرخام الثلجي •

ولم يعد القصر الا مكانا رحبا ومنعزلا لايواء جامعى ضرائب السلع مثلنا - رجال ترهقهم الوحدة ويحرمون من صحبة النساء •

وكان كريم خان - كاتب حسابات مكتبى الكهل - قد حذرني مرارا من الإقامة هناك وكان يقول « امض النهار هناك اذا شئت ولكن لا تقض لياليك هناك اطلاقا » وكنت أستمع اليه باستخفاف • وقال الخدم انهم سيعملون حتى حلول الظلام ولكنهم سيتركون المكان قبل حلول الليل ، وقد وافقتهم على ذلك فورا •

وكان للمنزل سمعة سيئة بلغت الى درجة أن اللصوص كانوا لا يجرؤن على الاقتراب منه بعد حلول الظلام •

وفى بداية الأمر كانت وحشة القصر المهجور تبرك على صدرى كالكابوس ، وكنت أبقي بالخارج وأعمل بكل جهدى ولأطول فترة ممكنة ثم أعود فى الليل منهكا متعبا لآوى الى فراشى وأستغرق فى النوم •

وقبل أن يمضى أسبوع بدأ القصر يلفنى فى نوع خفى غريب مخيف من السحر •

ان من الصعب أن أصف ما كنت أحس به للناس ، أو أقنع أحدا بتصديقه كأنما أصبح البيت كله كائنا عضويا حيا يقوم بهضمى بطريقة غير محسوسة ، مستخدما فى ذلك عصارة معدية مخدرة •

ولعل هذه العملية كانت قد بدأت بمجرد وضع قدمى على أرضية المنزل ولكننى أذكر تماما ذلك اليوم الذى شعرت بها لأول مرة •

كان ذلك فى بداية الصيف وكانت السوق خاملة ولم يكن لدى ما أعمله ، وقبل غروب الشمس بقليل كنت جالسا على مقعد مريح قرب حافة الماء عند أسفل الدرج ، وكان نهر سوستا قد انخفض مستواه وعلى الجانب الآخر كانت توجد بقعة عريضة من الرمال توهجت بوهج الغروب وعلى هذا الجانب كان الحصى يلمع فى القاع الضحل • ولم تكن هناك أى نسمة من الهواء • وكان الهواء الساكن محملا برائحة مقبضة للقلب من شجيرات التوابل التى تنمو على التلال القريبة وعندما اختفت الشمس خلف قمم التلال أسدل ستار الظلام الطويل على مشهد النهار واختصرت التلال المتدخلة وقت اختلاط الضوء بالظلام الذى يحدث عند غروب الشمس •

وفكرت فى القيام بجولة بالعربة وبينما أنا على وشك القيام بهذه الجولة

إذا بى أسمع وقع أقدام على الدرج الخلفى واستندرت ولكن لم يكن هناك أحد .
وحينما جلست ثانية ظانا بأن ذلك، كان وهما إذا بى أسمع وقع أقدام كثيرة كما
لو كان عدد كبير من الناس يندفعون نحو الدرج . وسرت فى جسدى نشوة
من السعادة مصحوبة بقليل من الخوف على الرغم من أنه لم يظهر أى انسان
أمام عيني فقد ظننت أنى أرى رهطا من الغيد يهبطن الدرج للاستحمام فى نهر
سوستا فى تلك الأمسية من الصيف .

ولم يكن هناك صوت فى الوادى أو فى النهر أو فى القصر ليكسر هذا
الصمت . ولكننى سمعت بوضوح ضحكات العذارى البهجة الطروب كخريف
ينبوع يتدفق خلال مئات من مساقط المياه وهن يمرقن من حولى متجهات للنهر
فى تتابع سريع مرح وراء بعضهن البعض ، دون أن يلحظننى على الإطلاق .

ولما كنت لا أراهن ، فيمكننا القول انهن كن أيضا لا يريننى .

وكان النهر هادئا للغاية ولكننى شعرت أن مياهه الضحلة الهادئة قد
تحركت فجأة بارتطام أذرع كثيرة محاطة بالأساور ذات الرنين وأن الفتيات كن
يضحكن ويتدافعن ويقذفن بعضهن البعض بالماء، وأن أقدامهن الجميلة قد أحالت
الأمواج الضئيلة الى رشاشات من اللؤلؤ .

وشعرت برعشة فى قلبى ولم أستطع أن أحدد هل كانت الاثارة بسبب
الخوف أو الفرح أو حب الاستطلاع .

وكانت لدى رغبة قوية أن أراهن بوضوح أكثر ولكن شيئا لم يظهر أمام
بصرى ، وظننت اننى أستطيع أن أسمع كل ما يقلن لو أننى أصغيت السمع
جيذا مجهدا أذنى ولكننى رغم اصاغتى واجهادى لأذنى لم أسمع الا زقزقة بعض
العصافير فى الغابة وبدا لى أن هناك ستارا من مائتين وخمسين عام معلقا أمامى .
واكتشفتنى رغبة أن أزيح جانبا من هذا الستار وأنا أرتجف وأنظر من خلاله مع
أن كل الكون على الجانب الآخر كان يلفه الظلام .

وفجأة هبت لفحة من الهواء حررت الهواء الحبيس الذى يقبض الصدر فى
ذلك المساء وتموج وتمایل سطح النهر الهادى، كأنه شعر حورية من حوريات
الماء ومن الغابة الملفوفة برداء الليل صدرت فى نفس اللحظة همهمة للريح كما
لو أن الغابة والنهر كانا يستيقظان من حلم أسود .

قل انها حقيقة أو حلم فان النظرة الخاطفة لذلك السراب الخفى منعكسا من
دنيا تبعد مائتين وخمسين عاما عن دنيانا اختفت فى لمح البصر وان تلك الأطياف
الغامضة التى مرقت من جانبي بخطواتها الفارغة من الجسد وضحكاتهما العالية
التى لا صوت لها وألقين بأنفسهن فى النهر ولم يرجعن - كما كان منتظرا - وهن

يعصرون ملابسهن المبللة وهن يسرن كالشذى الذى يطير مع الرياح فقد تبددن بهبوب نسمة واحدة من الربيع .

ثم ملأنى خوف مفعم بالحيوية أن تكون « موزيه » (١) الهة الفنون الجميلة قد استغلت وحدتى واستولت على روحى - فمن الواضح أن الساحرة جاءت لتقضى على شيطان مسكين مثلى يربح قوته من جمع ضرائب القطن .

وقررت أن أتناول عشاء مشبعاً فمن خلال المعدة الخاوية تجد جميع الأمراض المستعصية فريستها السهلة .

وأرسلت فى طلب طباخى وأصدرت أوامرى بأعداد عشاء فاخر دسم على الطريقة المغولية مليئاً بالبهارات والزبد .

وفى صباح اليوم التالى بدت كل المسألة كأنها خيال جامح (فانتازيا) غريب . وبقلب مرح ارتديت قبعة بيضاء (سولا) كالأوربيين وقدت عربتى الى مقر عملى وكان المقروض أن أكتب تقرير الربع سنوى ذلك اليوم وأن أعود متأخراً ولكن قبل حلول الظلام وجدت نفسى مشدوداً بشكل غريب نحو منزلى . بماذا ؟ لست أدري !!

وشعرت أن الجميع ينتظروننى وأنه لا يجب على التأخير أكثر من ذلك وتركت تقريرى الغير كامل ونهضت وارتديت قبعتى وجعل الطريق المرحش الظليل من قرقة عربتى ووصلت الى القصر الهادئ الواسع الرابض على السفوح الموحشة للتلال .

وكانت درجات الطابق الأول تؤدى الى ردهة واسعة يمتد سقفها العريض على أقواس مزركشة ترتكز على ثلاثة صفوف من الأعمدة الضخمة التى كانت تئن ليل نهار تحت وطأة ثقل حداثها الزائدة .

وكان النهار قد انتهى لتوه ولم تكن المصاييح قد أضيئت بعد وحينما فتحت الباب خيل الى أن ضوضاء كبيرة تنساب من حولى للدخل كأن جبهة من الأشخاص قد تفرقت فى ارتباك دون نظام واندفعت خلال الأبواب والنوافذ والحجرات والشرفات والردهات لتهرب على عجل .

ولما كنت لم أر أحداً فأننى وقفت حائراً مدهوشاً وقد وقف شعر رأسى فى نشوة من الفرح ، وتسلقت بأنفى آثار ضئيلة من رائحة العطر والمروح التى كاد أن يلمسها مرور الزمن الطويل .

(١) الموزيه Muse - هى إحدى الآلهات التسع المسيقيات فى الميثولوجيا الإغريقية اللواتى يحمن الفناء والسحر والفنون والعلوم .
المراجع .

وكننت واقفا فى ظلام تلك القاعة الفسيحة الموحشة بين صفوف الأعمدة العتيقة وأمكننى الاستماع الى خرير النافورات وهى تنشر الماء على الأرضيات الرخامية وإلى طنين عجيب من قيثارة وإلى جلبة الحلى ورنين الخلاخيل ودق الأجراس وهى تعلن الوقت ونغمة نائية من ناي سحرى ورنين دلايات الشريات البللورية تهزها النسمة الرقيقة ، وأغنيات البلابل فى أفتافها فى الممرات ونقنقة اللقلق فى الحدائق . كل هذا خلق حولى موسيقى غريبة لا تنتمى الى هذه الأرض ثم وقعت تحت تأثير سحر جعلنى أعتقد أن هذه الرؤيا غير الملموسة البعيدة عن واقع الأرض والتى لا يمكن ادراكها عن طريق الحواس تكاد تكون هى الحقيقة الوحيدة فى العالم وأن كل ما عداها هو مجرد حلم . وأن قولى — كما يمكن أن أقول — سير جوت كذا ابن كذا وكذا الابن الأكبر لكذا لطيب الذكر كذا وكذا ، هو فعلا ذلك الرجل الذى يتقاضى مرتبا شهريا قدره أربعمائة وخمسون روبية لأداء واجب وظيفة كجامع لضرائب القطن والذى يذهب لمقر عمله يوميا وهو يقود عربة صغيرة ويرتدى سترة قصيرة وقبعة بيضاء كبيرة كوني كل هذا ، بدا لى وهما شديد الغرابة والسخف حتى اننى انطلقت فى قهقهة عالية وأنا واقف فى ظلام تلك القاعة الفسيحة الصامتة .

وفى تلك اللحظة دخل خادemy وهو يحمل مصباح غاز فى يده ولا أعرف ان كان قد ظن أن بى مسا من الجنون أو فقدت صوابى ولكننى استعدت ذاكرتى على الفور بأننى حقا سير جوت كذا وكذا ابن كذا وكذا « طيب الله ثراه وأنه ان كان فى قدرة شعرائنا وحدهم — كبيرهم وصغيرهم — أن يقولوا ان هناك ، اما فى باطن الأرض أو ظاهرها منطقة فيها نافورات تتراقص مياهها فى حركة دائمة لا تتوقف وقيثارات سحرية تعزف عليها أنامل غير مرئية السيمفونيات الخالدة ، الا أنه لا شك على الاطلاق فى أننى جابى ضرائب القطن فى باريش واننى اتقاضى على هذا العمل أربعمائة وخمسين روبية فى الشهر كمرتب .

وضحكت فى مرح كبير على أوهامى الغريبة وأنا أطلع صحيفتى جالسا الى مائدة المعسكر التى يضيئها مصباح الكيروسين . وبعد أن انتهيت من قراءة الصحيفة ومن عشائى الفاخر الدسم أطفأت المصباح واستلقيت على سريرى فى غرفة صغيرة جانبية . وخلال النافذة المفتوحة كانت هناك نجمة براقعة فوق تلال آفالى تحوطها ظلمة الغابات تحدى بتركيز من بعد ملايين وملايين الأميال فى السماء الى السيد جابى الضرائب وهو يرقد على فراش معسكر متواضع . وتعجبت وراقتنى تلك الفكرة ولا أعلم متى استغرقت فى النوم أو كم نمت ولكننى استيقظت فجأة وأنا أحس برعشة لا ارادية تسرى فى جسدى رغم أننى لم أسمع صوتا ولم أر أحدا يقتحم غرفتى ولا لاحظت شيئا سوى أن النجمة الثابتة على قمم الجبال كانت قد غربت وأن ضوء القمر الجديد الخافت كان يتلصص الى داخل الغرفة من خلال النافذة المفتوحة كما لو كان يخجل من تطفله

ولم أر أحدا ولكنني شعرت أن شخصا يدفعني برفق ولما استيقظت لم تنبس ببنت شفة ولكنها أنارت الى بأصابعها الخمسة المحلاة بالخواتم أن أتبعها في حذر .

ونهضت أن أحدث أى صوت وبالرغم من أنه لم يكن هناك كائن حى سوى فى الشفق التى لا حصر لها فى هذا القصر المهجور بأصوانه النائية ، وأصدائه اليقظة . فاننى خشيت فى كل خطوة أن يستيقظ أحد . وكانت معظم غرف القصر مغلقة ولم أدخلها اطلاقا .

وتبعت دليلي الخفى بخطى صامتة وأنا مبهور الأنفاس ولا أعرف حتى الآن الى أين . ولا عرفت كم من الممرات المظلمة الضيقة التى لا نهاية لها ولا كم من الدهاليز الطويلة وقاعات الاستقبال المهيبة الصامتة والزنايات الخفية المغلقة مررت خلالها .

ولو أننى لم أستطع أن أرى دليلتى الحسناء الا أن شكلها لم يكن غير منظور أمامى بعين عقلي . فتاة عربية . ذراعاها القويتان الباعمتان ، تظهران من خلال كميتها الفضفاضة وقناع خفيف ينساب على وجهها من حافة غطاء رأسها وخنجر رفيع مقوس حول وسطها . وخطر لى أن ليلة من ليالى ألف ليلة وليلة العربية قد وفدت على آتية من عالم الرومانسية وأننى فى سكون الليل البهيم أتخذ طريقى المتعرج خلال الأزقة الضيقة فى بغداد الهاجعة الى مكان لقاء محفوف بالمخاطر .

وأخيرا وقفت دليلتى فجأة أمام ستارة عميقة الزرقة وخيل الى أنها تشير الى شئ على الأرض ولكن لم يكن هناك شئ . ولكن رعبا مفاجئا جمده الدم فى عروقى وخيل الى أننى أرى على الأرض هناك فى أسفل الستارة زنجيا خصيا أسود اللون يرتدى حلة من الحرير المطرز الثمين وقد غلبه النعاس وقدماه ممدودتان وفى حجره سيف جرد من غمده وتخطت دليلتى الحسناء رجلية بحركة رشيقة ورفعت جانباً من الستارة وأمكننى أن أختلس نظرة الى الغرفة المفروشة بسجادة فارسية وكان هناك شخص يجلس على سرير بالداخل . ولم يمكننى أن أراها ولكننى لمحت فقط قدمين فاتنتين فى خف مطرز بالذهب تتدليان من سروال فضفاض زعفرانى اللون وترتكان على البساط البرتقالى المخمل . وعلى جانب كانت هناك آنية بللورية زرقاء بها بعض التفاح والكشرى والبرتقال وعناقيد كبيرة من العنب وقدحان صغيران وقنينة مذهب كان ظاهرا أنها تنتظر الضيف .

وكاد يتغلب على حواسي ، دخان شذى يثير النشوة ناتج عن احراق نوع غريب من أعواد البخور داخل الغرفة . وعندما حاولت - بقلب مرتجف - أن

أَتخطى بقدمي ذلك الخصى الممتد فانه هب واقفا فجأة وسقط السيف من حجره
برنين حاد على الأرض الرخامية .

وسمعت صرخة مهولة جعلتني أقفز ثم رأيت نفسي جالسا على سرير المعسكر
الذي أنام عليه وأنا أتصعب عرقا . وبدا الهلال شاحبا في ضوء الصباح كسريض
متعب بقي مسهدا حتى الفجر .

وكان المعتوه « ميهرخان » يصرخ كعادته كل يوم « ارجعوا للخلف - ارجعوا
للخلف » وهو منطلق في الطريق الموحش . وهكذا كانت النهاية المبتورة لليلة
من الليالي العربية ولكن بقيت ألف ليلة أخرى .

وتبع ذلك نفور شديد بين أيامي وليالي ففي أثناء النهار أذهب لعملي وأنا
متعب مجهود وأنا ألعن الليل الساحر وأحلامه الخاوية ، ولكن عندما يحل المساء
فإن حباتي اليومية بأصفادها وأغلالها في العمل تبدو غرورا مضحكا زائفا حقيرا .

وبعد حلول الظلام فأننى أقع فريسة مغلوبة على أمرها في شراك نشوة
غريبة وعندئذ أتحول الى شخص آخر مجهول من زمن غابر أودى دورى في
تاريخ غير مسجل ونبدو سترنى الانجليزية القصيرة وسروالى الضيق غير
ملائمين بالمرّة .

وبغطاء رأس فرمزي أحمر وسروال واسع وصديريّة مطرزة ورداء حريري
طويل ومناديل ملونة معطرة فأننى أكمل زينتى المتقنة وأجلس على مقعد عال
ذى وسائد وأستبدل سيجارتى بنرجيلة ذات لقات كثيرة مملوءة بماء الورد كأننى
أنتظر على أحر من الجمر لقاء غريبا مع محبوبتى .

وليس لدى من القدرة ما أستطيع به وصف الحوادث الرائعة التى تكشف
عن نفسها كلما أوغل الليل .

وكنت أشعر بأنه فى تلك الوحدات السكنية العجيبة فى ذلك الصرح
الواسع كانت تتطاير شذرات قصة جميلة - كان بوسعى تتبعها عن كثب ولكن
لم يكن فى استطاعتى قط أن أرى نهايتها - فى هبوب مفاجيء لنسمة من نسيمات
الرييح . ومهما كان الأمر فقد كنت اهيم طوال الليل من غرفة الى أخرى متتبعا
تلك الشذرات .

وفى وسط دوامة شذرات الأحلام هذه ، وسط رائحة الحنة ورنين القيثارة
وبين تموجات النسيم المعطر بالشذى فأننى ألح كخطف البرق غادة
حسنا .

وكانت هى نفس الفتاة التى ترتدى السروال الزعفرانى اللون وذات القدمين
الورديتين ذاتا الخف المطرز بالذهب وبأصابعها المقوسة وصديريّة ضيقة موشاة

بالذهب وغطاء رأس أحمر يتدلى منه أهداب على جبينها الناصع ووجنتيها الورديتين وكانت قد ملكت لبي وبخثا عنها فأننى كنت أهييم من غرفة لأخرى ومن طريق الى طريق بين متاهة من الممرات فى أرض الأحلام المسحورة فى العالم السفلى الذى يحكمه سلطان النوم .

وأحيانا عندما كنت أقوم بارتداء كسونى بعناية كأمير ملكى امام مرآة كبيرة على جانب منها سمعة مضيئة ، كنت ألح فجأة انعكاس صورة تلك الفارسية الجميلة بجانب صورتي فى المرآة وبلغتة عاجلة من عنقها ونظرة خاطفة مليئة بالرغبة والشوق والالم الذى يبدو فى عينيها السوداوين الواسعتين ، وبمجرد شبهة من كلام يرسم على شفتيها القرمزيتين ، وبقوامها النحيل المشوق يتوجه شباب كالغصن فى حالة الازهار ، ثم تنصب قامتها الرشيقه ، وفى ومضة تبهر الأبصار ، تجمع بين الالم والرغبة المحمومة ونشوة الفرح ، وأخيرا بنظرة وابتنسامة ، وفى وهج من بريق الجواهر ولمعان الحرير ، رأيتها تذوب وتختفى أمام عيني .

وتهب ريح عانية محملة بشذى التلال والغابات فتطفئ المصباح . وبعد ذلك أرمى كسوتي جانبا وأستلقى على سريري مغمض العينين وجسمى منتش بالسعادة وحولى فى النسيم المحمل بشذى عطر الغابات والتلال ، يطوف خلال الليل الصامت عديد من التريبت وعديد من القبلات واللمسات الرقيقة من الايدى وهمهمات رائعة فى أذنى وأنفاس عطرة تداعب جبيني أو منديل معطر يمسح مرة بعد أخرى على وجنتى .

وببطء أشعر كأن ثعبانا غامضا يلتف حولي ويعصرنى بين لفات جسده المذهلة وأروح فى غيبوبة أسقط منها الى سبات عميق .

وذات مساء قررت أن أمتطى جوادى وأخرج للنزهة – ولا أعلم من توصل الى لابقى – ولكننى لم أستجب لأى نداء فى ذلك اليوم وكنت قد وضعت سترتى وقبعتى على أحد الرفوف وكنت على وشك أن آخذهما ، عندما هبت ريح عاتية محملة برمال نهر سموستا والأوراق الجافة الميتة من شجر تلال آفالى وحملتتهما معا وأخذت تدور بهما وتدور بينما انطلقت جليجلة عالية من الضحك والمرح أخذت تعلو وتعلو لامسة كل أوتار المرح حتى ماتت بعيدا فى دنيا الغروب ولم أستطع الخروج لنزهتى ، وثانى يوم قررت الاستغناء عن سترتى الانجليزية وقبعتى البيضاء الشاذتين الى الأبد .

وفى ذلك اليوم أيضا وفى جوف الليل البهيم سمعت تشنجات مخنوقة تقطع نياط القلوب لئدءنص ما – وكأنها تأتي من تحت السرير ، أو من تحت أرضية الغرفة ، أو من تحت الأساسات الحجرية لذلك القصر الشامخ ومن أعماق قبر رطب مظلم سمعت صوتا يصرخ بطريقة تبعث على الرثا ، ويقول راجيا اياى :

« أوه - أنقذنى - اخترق هذه الأبواب المصنوعة من الوهم الصلب ، ومن النوم العميق الذى يشبه الموت ، ومن الأحلام الجذباء وضمنى بجانبك على السرج وضمنى لقابك وطربى خلال التلال والغابات وعبر النهر وخذنى الى الاشعاع الدافئ ، فى حجراتك المشمسة فوس ! » .

- « أنا ... ومن أكون أنا ؟ وكيف لى انقاذك ؟ أى جمال غارو وأى عاطفة مشبوبة متجسدة فى شكل بشر . سأجر الى الشاطئ ، بعيدا عن دوامة الأحلام هذه ؟ - ايه أيتها الرؤية الأتيرية الجميلة ! - أين ازدهرت ومتى ؟ وبقرى أى جدول ماء رطيب تحت النخيل ولدت ؟ وفى حجر أية هائمة فى الصحراء دون مأوى كانت هذه الولادة ؟ . وأى بدوى اختطفك من بين ذراعى أمك وأنت لا تزالين زهرة تفتح ، مقطوفة من نبات برى متسلق ووضعك معه على ظهر حصان أسرع من البرق ، وعبر بك الرمال المشتعلة ، وفى أى مدينة ملكية ، كان سوق العبيد ، التى اقتادك إليها ؟

وهناك ... يا ترى ... أى ضابط من ضباط البادشاه الذى حين رأى روعة شبابك فى ازدهاره الخجول ، ووضعك فى محفة ذهبية ، وقدمك هدية لمولاه ، يضمها الى سراى حريمه ؟ ويا ترى ... ما تاريخ هذا القصر بالموسيقى المنبعثة من السارنج (نوع من الكمان) مع رنين الخلاخيل الذهبية وومضات الخناجر فى بعض الأحيان ، وتورد النبيذ الشيرازى المسسم ، والنظرة الخاطفة النافذة ، أو أى عظمة خالدة وأى عبودية لا نهاية لها !

الجوارى على يمينك وعلى يسارك ، يلوحن لك بذيول الياك ، بينما يبرق الماس من أساورهن . ويركع البادشاه ملك الملوك عند قدميك الناصعتين فى خفهما المطعم بالجواهر . وفى الخارج يقف العبد الحبشى الخصى المريع الذى يبدو كأنه رسول الموت ولكنه يرتدى لباس الملائكة ، ويقف وفى يده سيفه المسلول !

وبعد - يا زهرة الصحراء ، وقد جرفك محيط العظمة المبهر المخضب بالدماء بزبد من الغيرة ، بصخوره وأماكنه الضحلة التى تصنعها المؤامرات . فعلى أى شاطئ من شواطئ الموت القاسى ألقى بك ، أو فى أى أرض أخرى أكثر روعة وأكثر قسوة قذف بك ؟

وفجأة فى هذه اللحظة بالذات ، صاح ذلك المخبول مبهز على : « ارجعوا للخلف ... ارجعوا للخلف !! كله زيف ... كله زيف ! » وفتحت عيني ووجدت أن النهار قد انبلع . وحضر تابعى وقدم الى برىدى ووقف الطاهى وهو يؤدى السلام فى انتظار أوامرى ، وقلت لنفسى :

« لا ... لن أستطيع المكث هنا أكثر من ذلك » .

وفى نفس اليوم حزمت متاعى .. وانتقلت لمكتبى وابتنسم العجوز كريم
-نان ابسامة صغيرة وهو ينظر الى واغاطنى ذلك ولكنى لم اقل شيئا وانفسمت
بى عملى .

ولما اقترب المساء شعرت كأننى تائه وشعرت كأننى على موعد يجب ان افى
به وبدأ لى أن مراجعة حسابات القطن عمل لا جدوى منه بتاتا . وحتى الضريبة
التي تخص نظام حيدر آباد بدت لى كأنها ليست ذات قيمة تذكر .

وبدا له أن كل ما يمت للحاضر وكل ما يتحرك ويمثل ويعمل للقيمة العيش
تافه وحثير ولا معنى له . وألقيت بقلمى وأغلقت دفاترى وقفزت الى عربتى
وقدتها ولاحظت ان العربى وقفت من تلقاء نفسها عند مدخل القصر المردى عند
غروب الشمس تماما .

وارتقيت الدرج بخطى سريعة ودلفت الى الحجرة وكان الصمت المطلق يخيم
على المكان وبدأت الغرفة المظلمة متهممة كما لو كانت غاضبة . وشعرت بأن قلبى
قد سحق من الشعور بالذنب ، ولكن لم يكن هناك أحد لأشكو له همى أو
أستميحه عذرا !

وهمت فى الغرف الخالية بعقل شارد وتمنيت لو أنه كان معى قيثاره
لاغنى بها للمجهول .

« أوه أيتها النار .. ان الفراشة البائسة التي حاولت عبثا أن تطير بعيدا
قد عادت أدراجها اليك فاصفحى عنها هذه المرة فقط والتهمى جناحيها وابشاهيها
فى لهيبك .

وفجأة شعرت بدمعتين سقطتا من أعلى على جبينى وكانت قمم تلال آفارى
ذلك اليوم تفعليها غيوم داكنة كثيفة وكانت الغابات الداكنة ومياه نهر سوستا
المعتمة تنتظران فى قلق بالغ وفى هدوء منذر بالسوء .

وفجأة اهتزت الأرض والمياه والسماء وهبت ريح صرصاره عاتية يعوى
زئيرها خلال الغابات البعيدة التي لا طريق فيها وهى تكشف عن أنيابها المصنوعة
من البرق كأنها مارد مجنون فك من عقال . وضربت أبها القصر الموحش أبوابها
بعنف وهى تئن من اللوعة والكرب . وكان كل الخدم بالمكتب ولم يكن هناك
أحد لاضاءة المصابيح وكانت الليلة كثيفة الغيوم ولم يسطع لها قمر . وفى
ظلمة الليل بالداخل كنت أشعر بوضوح أن هناك امرأة ترقد على وجعها على
البساط تحت السرير وهى تشد وتجذب شعرها الطويل المشعث بأصابع يائسة
وكان الدم ينساب على جبهتها الجميلة وهى تضحك مرة ضحكة جافة صلبة
لا سرور فيها ، ثم تنفجر مرة أخرى فى نوبات من النشيج العنيف ، ثم تمزق

صديريتها وتضرب على صدرها العارى بينما كانت الريح تزار من خلال النافذه
المفتوحة والمطر يسيل مدرارا ويبللها وينفذ الى جسدها حتى العظام .

وطوال الليل لم يهدأ هدير العاصفة ولا ذلك الصراخ المحموم . وهمت على
وجهي من حجرة لآخرى فى الظلام . وقلبي منفعل بذلك الأسى الذى لا جدوى فيه .
من أستطيع أن أراسى عندما لا يكون هناك أحد !!

ومن كان صاحب هذا الألم الدفين المروع ؟

ومم حدث هذا الحزن الذى لا يقبل العزاء ؟

وصاح المعتوه ميهراً على « ارجعوا للخلف . . . ارجعوا للخلف !! كله
زيف . . . كله زيف . . . » .

ثم رأيت أن ضوء الفجر قد انبثق ولا زال ميهراً على يدور فى القصر مرددا
صرخاته المعتادة فى ذلك الجو الفظيع .

وفجأة خطر لى أنه ربما هو أيضاً قد عاش فى ذلك القصر وأنه بالرغم من
أنه قد فقد رشده فانه كان يجيء يومياً ويدور ويدور مجذوبا بذلك السحر
الشبحى الغامض النابض من ذلك المارد المرمى .

وبالرغم من العاصفة والمطر فاننى عدوت نحوه وسألته :

« أوه — ميهراً على . . . ما هو الزائف ؟ » .

ولم يجب الرجل بشيء ودفعنى جانبا وهو يدور ويصرخ صراخا مسعورا
كأنه الطير الذى تنومه الحية مغناطيسيا ، فيفقد ارادته فى الهرب ويدور حول
فكيها . واستمر ميهراً على فى صياحه وهو يحاول مستميتاً أن يحذر نفسه
بتكراره « ارجعوا للخلف . . . ارجعوا للخلف . . . كله زيف . . . كله
زيف . . . » .

وعدوت كرجل فقد رشده خلال المطر المنهمر الى مكتبى وسألت كريم خان :
« قل لى ما معنى كل هذا ؟ » .

وكان كل ما جمعته من ذلك الرجل العجوز هو ما يلى :

« انه فى وقت من الأوقات كان القصر يهوى بشبهوات لم تنطفىء ورغبات
لم تشبع وقد ارتفع لهيب الملذات والجوع حتى أن لعنة القلوب المسحوقة ،
والآمال المحطمة قد جعلت كل حجر فى القصر ظمأنا وجوعانا ومستعدا كأي غول
استبد به الجوع ، أن يبتلع أى بشر يلقى به قدره الى هناك . ولم ينج من أنيابها
القاسية أى رجل قضى به ثلاث ليال متوالية سوى ميهراً على الذى أمكنه الفرار

على حساب رشده » • وتساءلت •• ألا توجد هناك وسيلة لخلاصى ؟ وأجاب الرجل العجوز •• « توجد وسيلة واحدة ولكنها صعبة للغاية وسأخطرك بها •

ولكن قبل ذلك يجب أن تسمع قصة فتاة إيرانية صغيرة عاشت ذات يوم فى ذلك القصر البهيج • ولعل مأساة أغرب من هذه ادعى لتمزيق القلوب • لم تحدث قط على الأرض » •

وفى هذه اللحظة بالذات نادى عمال المحطة بأن القطار على وصول •• أهكذا سريعا ؟!

وحزمتنا متاعنا على عجل بينما أقبل القطار • وكان رجل انجليزى يبدو أنه استيقظ لنوه من النوم يطل من نافذة فى مركبة الدرجة الأولى محاولا قراءة اسم المحطة وحالما وقع بصره على رفيقنا صاح « هاللو » وأخذ لهديوانه • ولما كنا من راكبي الدرجة الثانية فلم تسنح لنا الفرصة لمعرفة شخصية الرجل أو كيف انتهت قصته •• وقلت :

« يبدو أن الرجل قد استخف بعقولنا وخدعنا لمجرد التسلية » ••

« ان القصة ملفقة من أولها لآخرها » ••

وانتهت المناقشة التى تلت ذلك الى قطيعة بينى وبين قرييى الصوفى دامت طوال العمر •

سارات شاندرافا شاترجى

كان سارات شاندرافا شاترجى (١٨٧٦ - ١٩٣٨) كاتباً للرواية والقصة القصيرة من البنغال .

ولد في بيت فقير بالقرب من كلكتا ولم يتلق تعليماً منتظماً ولم يبدأ الكتابة إلا حين قارب الثلاثين من عمره .

ونشرت أول قصة له « ماندير » أو (المعبد) سنة ١٩٠٧ وبعدها اكتسح عالم البنغال الأدبى وانتشر قراؤه في جميع أنحاء شبه القارة وترجمت كتبه لكل لغات الهند الأساسية . ورغم أنه قد اصطدم مع النقاد الأرثوذكس التقليديين والحافظين وهاجم بعنف الأخلاقيات الزائفة التي يتظاهر بها ذووها ، إلا أن أسلوبه كان مباشراً وبسيطاً ولم يكن ممن يملأون كتاباتهم بالمواعظ .

وقد كتب اثنتى عشرة رواية وكثيراً من القصص القصيرة ، أمكنه أن يخلق فيها للريف البنغالى صورة غنية بالألوان والمآسى معا ، ونافست شهرته في العشرينات والثلاثينات شهرة طاغور . وتحولت كثير من رواياته الى أفلام هندية ناجحة .

من الأدب الباكستاني الحديث

البحيم

تأليف: راضية فاسح أحمد

ترجمة

عامر الزهير

مراجعة

شاهر عبيد

البحيم

راضية فاسح أحمد

«ثلاثون سنة، منذ ثلاثين سنة وأمي تكتوي بلظى هذا الجحيم، ولا تزال»، قال ناصر ويدا تترتشان ووجهه شاحب من الانفعالات والإجهاد.

«لم أكن معها منذ ولادتي، على رغم أنها لا تبعد عني سوى خطوات! هل سمعت شيئا كهذا من قبل؟ أخبرني، أخبرني.» ازداد صوت ناصر عنفا وزادت بحته وهو يطالب «إعجاز» بالرد على أسئلته، على رغم أنه لم يكن يعي ما يقول.

شعر إعجاز بالضعف. وتقدم ناصر نحوه ليواسيه قليلا. وضع رأسه على كتف صديقه وانفجر بالبكاء. بكى كالطفل حتى تلاشى كربه وشعر بالراحة قليلا، ثم رفع رأسه عن كتف إعجاز ونظر إليه بخجل وحيرة. وقبل أن ينطلق إعجاز بكلمة، تحرك ناصر نحو النافذة وجلس هناك على كرسي غارقا في أفكاره.

كان إعجاز قد جاء ليقضي إجازة الصيف مع صديقه ناصر في منزله. وقرية ناصر من أجمل القرى التي رآها في حياته. فهي تقع في الوادي بالقرب من نهر جارف، محاطة بأعشاب خضراء كالزمرد، وبأزهار برية مختلفة الألوان. سلسلة من الجبال المرتفعة تطل على الوادي فتبدو كأنها تحاصرها، لكن ذلك يضيف على القرية منظرا بديعا في الوقت نفسه. والد ناصر هو سيد كل الأراضي المجاورة، بالإضافة لامتلاكه بعض مصانع السكر. لم يكن غنيا فحسب، ولكنه أيضا كان السيد الأوحده لكل شخص وكل شيء تحت يده. كان هو الملك والقائد في أرضه. وطبقا للتقاليد المحلية، فقد كان له مساكن منفصلة لكل من الرجال والنساء في المنطقة.

مساكن الرجال وأجنحة الضيوف كانت مصممة من قبل معماريين

مرموقين ومبينة بإشراف المهندسين، وكان لها كل المتطلبات الحديثة. أما النساء، فيسكن في مبان مظلمة قديمة مبنية من الطين والحجر ومحاطة بسور عال له بوابة واحدة. تلك البوابة لا يمكن لذكر فوق الثانية عشرة أن يدخلها دون إذن، وهناك في تلك المساحة توجد أيضا حظائر الحيوانات الأليفة وحيوانات الحقل مسقوفة بالقش.

أراد إعجاز أن يقول شيئا لكنه لم يعرف ما يمكن قوله، ثم تذكر صورة فوتوغرافية كان قد رآها وسط أحد الكتب الموضوعة على الرف. راح وأخذ الصورة من الكتاب.

«انظر إلى هذه الصورة. هل رأيت وجها أجمل من هذا؟» سأل إعجاز. نظر ناصر إلى الصورة بلا اهتمام، ثم اختطفها فجأة من إعجاز ونظر لها بتمعن.

«كيف حصلت عليها؟» سأل بلهفة.

«وجدتها داخل أحد كتب الشعر بعنوان «قدسية». هل تعرف أحدا بهذا الاسم؟»

«لم أر والدتي أو أي صورة لها طوال حياتي»، قال ناصر وهو يتجاهل سؤال صديقه. «ولكن لابد أن تكون هذه صورتها. أوه يا للجمال، يا للرشاقة!» امتلأت عيناه بالدموع وانكب على الصورة بحب ونشوة.

«هل كان اسمها قدسية؟»

«نعم يا سخي!» ابتسم ناصر وهو لا يزال ينظر إلى الصورة.

«أستطيع أن أرى الشبه بينك وبينها الآن يا ناصر»، قال إعجاز.

«لا تكن سخيًا»، قال ناصر بنفاذ صبر. فكرة التشبه بوالدته كانت

بالنسبة له ضربا من انتهاك المقدسات، وذلك لأنها مع مرور الوقت سمت في نظره فوق البشر. بدت له تقريبا كالقديسة.

انغمس ناصر في تفكير عميق لوهلة، ثم قال وهو يهمس: «تخيل المجازفة العظيمة التي لابد وأن تجشمها ذلك الأجنبي وهو يساعدها. وأنا، الذي جئت من دمها ولحمها، لم أحرك إصبعاً لأحررها من هذا السجن. أليس ذلك معيباً؟ لا يمكن لك أن تتصور مدى ما تسببه لي هذه الأفكار من عذاب».

«لم تكن بوضع يسمح لك بمساعدتها وأنت لا تزال تلميذاً. ولكنك تستطيع ذلك الآن. ربما تستطيع أن تحصل على منزل بجوار مستشفىك مثل باقي الأطباء ذوي العوائل. وإذا لم تستطع الحصول عليه فوراً، فإن والدتي ستكون سعيدة باستضافتها إلى أن تحصل على مكانك الخاص».

لم يرد ناصر بل ظل منشغلاً بالتفكير، ومشى إعجاز إلى الباب حيث يمكنه أن يرى المرتفع الصخري المطل على النهر. ذلك المرتفع الصخري الذي شكل حافة طبيعية تحولته إلى شرفة رائعة بأيدي البنائين المهرة. والد ناصر، الخان الأكبر، كان يعقد اجتماعاته هناك مع خدمه ومزارعيه ومشرفي أعماله. إنه هناك الآن، يجلس على تخت خشبي مغطى بقماش الـ «الشتنز» الثمين. هناك وسادة دائرية ضخمة خلف ظهره. في اليوم الذي وصل إعجاز، استقبله الخان بحفاوة بالغة وأصدر أوامره بتوفير كل ما يحتاجه إعجاز لقضاء أسعد الأوقات معهم.

الشيفرولييه الخاصة به، اللاند روفر، الجيب، الخيول والزوارق، وضعت كلها تحت تصرفه. لذلك اعتبر إعجاز الخان شخصاً ودوداً وكريماً جداً، لكنه أدرك الآن أن ذلك لم يكن سوى خيلاء وغرور وعنصرية لدى الخان تعبر عن نفسها بذلك الأسلوب.

الشبابان الصغيران استغلا ما قدمه الخان . قطعاً مساحات كبيرة في صيد السمك ورحلات القنص . في البدء تخوف إعجاز من ركوب الخيل، لكنه سرعان ما تخلص من خوفه بعد ذلك إذ كانت تلك الخيول مدربة ومروضة، وكانت تتحرك بثقة وهدوء يجعلانها سهلة الركوب حتى بالنسبة للصغار .

عندما كان ناصر يقص عليه قصصاً غريبة عن المعتقدات الخرافية، عن الأمراض وطرق علاجها، لم يصدقه إعجاز في البداية، لكنه شهد الآن العديد من الحوادث الخارقة للعادة مما جعله يعيد النظر في تلك الحكايات . فقد شاهد سبعة عفاريت يتلبسون فتاة، وشاهد الملا يطردهم واحداً تلو الآخر . وكان قد توصل إلى فهم نفسيات سكان هذه المناطق . إن كون الإنسان ملازماً للجبال الشاهقة، لا بد أن يجعله إنساناً فظاً وخشناً . لكن العيش في مكان تحفر فيه الأنهار الجارفة طريقها، وتثور فيه العواصف الثلجية، يجعل عواطف الإنسان تصبح عرضة لأن تكون متهورة . عندما تتدر وسائل الراحة، وتصبح الطبيعة صديق الإنسان وعدوه، فإن شيوع العواطف المعقدة ليس نادراً . ولقد رأى إعجاز مزيجاً غريباً من التناقضات في ناصر الذي كان ابن قبيلة .

أبناء القبيلة يمكن لهم في لحظة أن يكونوا أصدق الأصدقاء وفي الوقت عينه ألد الأعداء . يمكن أن يكونوا على درجة عالية من الرقة والحنان، مرافقتهم سهلة، وكرمهم عظيم، عندما يعرف المرء كيف يعاملهم، ولكن إن بدر منه ولو بطريق الخطأ ما يضايقهم فإنهم يصبحون على درجة عالية من الفظاظة وسوء الطباع .

أدرك إعجاز الآن أن ناصر، وعلى رغم طبيعته الحماسية، إلا أنه كان طيب القلب جداً .

كان إعجاز يحقق تقدما بطيئاً في فهم ناصر، إلا أنه لا يزال يرى بعض الأمور القليلة التي تبدو غريبة عليه. فكان ناصر يشرد فجأة في تفكير عميق ويصبح كمن لا وجود له. وعلى عكس باقي الشباب، فإنه لم يبد أي اهتمام نحو الفتيات ويتكلم بجدية عن الزواج. في منزله الواسع، كان نادراً ما يذهب إلى الجزء الذي تسكن به النساء. سألته إعجاز يوماً عن السبب في ذلك وأجابه ناصر بأن زيارة سكن النساء دائماً لا تعتبر سلوكاً رصيناً. إضافة إلى ذلك، وعلى رغم وجود العديد من القريبات من بنات العم والخالات، والنساء الأخريات، فإنه بعدم زيارته لهن يكون قد خلق فجوة في العلاقات، فلا يوجد موضوع واحد مشترك يمكن التحدث فيه إلى بعضهم بعضاً.

«وماذا عن والدتك؟» سأل إعجاز. في اللحظة التي نطق فيها بتلك الكلمة الأخيرة، أدرك إعجاز خطأه وما سيترتب على ذلك. لقد طلب منه ناصر سابقاً عدم السؤال عن والدته، أبداً.

«آسف» استدرك إعجاز معذراً. «لقد طلبت مني ألا أذكر والدتك، ولكن ذلك كان عندما كنا نسكن سوياً، أما الآن فنحن أصدقاء وأنا أشاركك في كل أخبار عائلتي، أليس كذلك؟».

ظل ناصر ينظر إليه بنظرة ذات معنى لكنه لم يقل شيئاً.

«أعتقد أن لي الحق في معرفة ما إذا كانت والدتك لا تزال على قيد الحياة أو أنها، لا سمح الله، قد توفيت. حتى لو كانت تنتمي لعائلة يعتبرها الناس ذات سمعة...»

«اسكت! لا تقل كلمة أخرى»، صرخ ناصر وهو يقفز نحو إعجاز وكأنه سيضربه. ولكنه توقف فجأة وخرج من الغرفة وهو يصفق الباب

خلفه بعنف.

شعر إعجاز بالاستياء والغضب. وعلى أي حال، فما الذي قاله لي جعل ناصر يهيج هكذا؟ إنه يعرف أن النسوة من الطبقة الأدنى عادة ما يؤخذن إلى بيوت الأغنياء. إذا كانت والدته ناصر من ذلك النوع، فإن الخان الأكبر أجدر بالثناء لأنه عامله كابنه البكر - كأنه ابنه البكر من الزوجة الأولى - وقد أعطاه كل امتيازات ذلك الوضع. بالنسبة لإعجاز، فلم يكن هناك أي فارق بين كون والدته ناصر الابنة العزيزة لأحد السادة أو كانت ابنة إحدى الخادמות. المرات التي شعر بها إعجاز جعلته يقرر أن يحزم حقائبه ويغادر.

عندما عاد ناصر لغرفة إعجاز وجده يتهيأ للسفر.

«ما الذي تفعله؟» سأله بجفاء.

فضل إعجاز ألا يرد، وهذا ألم ناصر وأغضبه أكثر مما لو أنه تلقى أي جواب.

«حسن، اذهب! ولكن منذ الآن لا تقل إنك صديقي ولا تتحدث عن الصداقة ما دام الأمر كذلك.» كان هناك شيء في صوت ناصر جعل إعجاز ينظر إليه. فرأى شخصا بائساً يقف هناك. وجه ناصر بدا شاحبا كما لو أن الدم قد أفرغ من جسده. عيناه كانتا حمراوان كما لو كان قد بكى.

«هل تؤمن بالنار والجنة؟»، سأل ناصر.

«نعم، أؤمن بذلك» أجاب إعجاز وهو لا يزال ينظر في وجهه الذي بدا أغرب من السابق.

«لا أعرف ما الذي تعنيه النار بالنسبة لك»، قال ناصر بكآبة.

«تخيل والدتك وهي هناك بدمها ولحمها إلى الأبد. هل تستطيع ذلك؟»، قال ذلك وهو يحدق بإعجاز بطريقة غريبة.

نظرة ناصر، أكثر من كلماته، جعلت إعجاز يرتعد. لم يكن قد رأى ناصر بهذا الشكل وهذا الأسلوب في الحديث من قبل. وجه ناصر كان أبيض كالطباشير، كان يرتجف وقد تورمت يده وهو يمسك بمقبض الباب بكل قوة.

«أنا آسف، لم أعرف شيئاً عن هذا». ترك إعجاز القميص الذي كان يطويه يقع من يده وجلس. ذهب ناصر إلى غرفته، ومن ثم عاد بعد لحظات قليلة وهو يحمل دفترًا في يده. «هذه مذكرات والدتي وأريدك أن تقرأها، لم يقرأها أحد من قبل غيري. تذكر أنها مقدسة بالنسبة لي، وأنا أتوقع منك ألا تخبر أحداً بمحتواها أبداً. إذا كنت تستطيع أن تعدني بذلك فسأطلعك عليها».

«أعدك»، «قال إعجاز ومد يده ليتناول الدفتر.

«إذن خذها واقرأها» وناوله الدفتر وخرج.

وهكذا عرف إعجاز قصة سجن الأم في منزلها.

بينما كان إعجاز يتأمل المنظر الرائع في الخارج، بدأ يتخيل ما قرأه في مذكرات قدسية.

السائح الإنجليزي، جوم، الذي أشار إليه ناصر وأطلق عليه وصف الأجنبي، لا بد وأنه كان يجلس أسفل التل ممسكا بصنارته التي ألقي بخيوطها في مياه الجدول الزرقاء ليصطاد السمك. من المؤكد أنه كان

مأخوذاً بصفاء الماء البارد وشفافيته التي جعلته يتمكن من رؤية الحصى المختلفة الألوان بوضوح وكأنه يراها من خلال الزجاج. لا بد وأن النسيم كان يجعل الأعشاب الطويلة وأزهار الخشخاش البرتقالية والبنفسجية تتراقص أمامه. ولا بد أنه كان جذلانا، ولا بد أنه شعر بالزهو والبهجة وهو يرى الغيوم العائمة في السماء. الجو كله مشحون بالجمال، وهو يجلس هناك وبقربه سلة بها بعض الطعام الخفيف والشاي الحار.

على مسافة ليست ببعيدة منه، كان بعض الخادومات اللواتي غطين رؤوسهن بالحجب (دوباتا*) البيضاء كن منشغلات بملء جوارهن بالماء لحملها إلى منزل الخان. ومن بينهن كانت والدته ناصرة التي أيضا كان رأسها مغطى كخادمتها بالدوباتا. ولكونها سيدة المنزل، فلم يكن يفترض بها أن تكون في الخارج ما عدا في المناسبات العائلية الخاصة جدا مثل الزواج أو الوفاة. وحتى خروجها هذا يكون في عربة مغطاة. كانت تعتبر الالتزام بتلك الأعراف شيئا مستحيلا حيث إنها قد تربت في بيئة مختلفة تماما. فقد تلقت تعليمها في مدرسة أحد الأديرة حيث قرأت لووردزورث وشيلي، وغيرهما، ومثلت في العديد من المسرحيات الإنجليزية. وكانت أيضا مغرمة بالسباحة ولعب التنس وحتى الرقص الكلاسيكي الغربي.

لذلك، وكآخر ملاذ، بدأت تخرج وهي متكثرة بثياب الخدم، حيث قابلت الرجل الذي أخذ على نفسه عهدا بإنقاذها.

استمتع إعجاز وهو يتخيله بقبعته العريضة الأطراف التي يتقي بها الشمس، وكذلك وهو يدون شيئا بين فترة وأخرى في مذكراته التي توجد إلى جانبه على العشب. ثم بدافع مفاجئ ينهض ويبدأ يسير نحو المرأة. كاد إعجاز أن يراه بلحيته وما إلى ذلك وقد طوى بنطلونه الجينز

إلى ركبتيه مظهرًا رجليه القويتين.

جاء إلى النساء وبدأ يتحدث إليهن بلغتهن، الشيء الذي استغربين له لكنه سرهن. وسرعان ما ركز انتباهه على تلك المرأة التي جلست ووضعت قدميها الجميلتين في الماء. فأشاحت بوجهها للناحية الأخرى متظاهرة بأنها لا تراه. لم يعجبه تجاهلها له، وبعد أن فكر في خياراته بحذر، توجه نحوها وقال «سلام عليكم».

«وعليكم السلام»، قالت بصوت يكاد يكون همسا، وسحبت حجابها إلى فوق جبهتها ثم فوق عينيها.

ظل يحرق بها ثم سألها. «من أنت؟»

ترددت لوهلة ثم أجابت. «أنا خادمة في منزل الخان».

«حقا!» بدا مسرورا. «وماذا تفعلين؟»

«أعمل هناك كما تعمل هؤلاء الأخريات»، قالت.

«لكنني لاحظت أنك لم تفعلي شيئا طوال هذا الوقت، بينما هؤلاء الأخريات كن يغسلن الثياب أو يحملن الماء إلى المنزل»

«إنه يوم إجازتي» قالت ثم ابتسمت رغما عنها.

«هيا»، قال ضاحكا، «ليس للخدم أيام إجازة، ولا حتى في يوم العيد». ثم قال بالإنجليزية، «إذا كنت زوجة الخان وقد جئت هنا للتمتع، فأنا لا أرى ضيرا في ذلك. لا تخافي مني. أنا أقدر ذكاءك وأنا معك مائة في المائة».

في تلك اللحظة، قذفت بكل ضروب الحذر إلى الريح، وبدأت

تتحدث معه بالإنجليزية. قالت له إن وضعها في منزل الخان كان بالضبط مثل وضع العصفور في القفص.

«أظن إذن أنك غير سعيدة»، قال.

«سعادة عصفور في قفص»، قالت.

فجأة تلاشت الابتسامة من وجه إعجاز، وبدا عليه الاهتمام الشديد.
قال ناصر: «لقد قررت»

«ماذا قررت؟»

«لنبدأ فوراً». وأخذ بيد إعجاز وسحبه من الغرفة نحو أجنحة النساء. تصميمه كان بلا حدود. اجتاز البوابة العملاقة كما لو كان يملك كامل السلطة. وتبعه إعجاز بخوف، غير قادر على تحدي صديقه، لكن الرعب يملأ قلبه خوفاً على حياته وحياة صديقه.

بعد اجتياز البوابة كان هناك ممر ضيق معتم رصت في جوانبه أوان فخارية ضخمة مملوءة بالذرة. اجتاز ناصر الممر كمحارب من القرن السادس عشر. توقف عند مدخل البناء ونادى صارخاً. «غلشان داي، تعالي إلى الخارج». وفوراً، خرجت لهما من المنزل امرأة في منتصف العمر وقد تملكتها الحيرة والارتباك.

«جئت لأرى والدتي، ويجب أن أراها، هل تفهمين؟» طالبها وهو يظهر لها بأنه يعني كل كلمة نطقها. «لا تقفي هكذا، دليني على الطريق»

ارتعدت المرأة كما لو أن ريحا باردة قد لفحتها فجأة وراحت تفرك يديها ببعضهما.

«تعال، إذا كان ذلك ما أردت». «قالت وهي تتقدم أمامهما. تبعها

ناصر وأشار إلى إعجاز لفعل الشيء ذاته. مروا بمتاهة من الغرف والممرات، وأخيرا وصلوا إلى غرفة معتمة إلا من الضوء الخافت الصادر من مصباح الكيروسين. هناك وقفت امرأة وظهرها للضوء وهي تتناول شيئاً ما من الدولاب. التفتت بعد أن سمعت صوت الخطوات ووقف الاثنان ينظران إليها بذهول. لقد كانت جميلة حقاً. فارعة الطول وببشرة فاتحة اللون. بدت كأنها تمثال من الرخام. وقفت هناك تنظر إلى ناصر بصمت وبلا أي حركة وكأنها قد زرعت هناك لسنوات خلت.

«أمي!» همس ناصر وانحنى قليلاً.

تقدمت نحوه وعدلت قامته وهي تمسك برأسه في كلتا يديها، عانقته ثم قبلته على جبينه. بعد ذلك، وكأنها غير مصدقة عينيها، ظلت تحقق به خوفاً من أن يتلاشى. لكم تخيلت هذه الصورة في السابق على شكل سراب أو حلم من الأحلام.

«أمي، أريد أن آخذك معي إلى كراتشي». لاحظ ناصر النظرة الفزعة على وجه أمه وأضاف «لا تخافي. أنا ابنك وتستطيعين الذهاب معي. سأقوم بكل الترتيبات. سنقطع بعض المسافة على ظهور الخيل، ذلك سيقصر الرحلة ولن يثير أي شكوك. ومن ثم نكمل السفر بالسيارة».

«بني، هذه هي المرة الأولى في حياتي أراك وأتحدث فيها إليك. أتوسل إليك أن تقول لي شيئاً لطيفاً ومفرحاً. حدثني عن نفسك، ما الذي كنت تفعله طول هذه السنوات؟»

ثم لاحظت إعجاز وانتابها شعور من الخوف وعدم الثقة.

«من هذا؟» سألت بارتباك.

«إنه صديق. تستطيعين أن تثقي به مثل ثقتك بي. إنه ذاهب معنا.

والآن، تريدني مني أن أقول لك شيئاً لطيفاً، هل هناك أفضل مما قلته للتو؟ إنني عازم على أخذك بعيداً عن هذا السجن إلى الأبد»

«لن أذهب إلى أي مكان»، قالت بحزم.

«أنت لا تعنين ما تقولين!»، قال ناصر بدهشة.

«بلى، إنني أعني ما أقول»، قالت، «يجب أن تدرك أنه لن يستطيع إيذائي أكثر مما فعل حتى الآن، لكنه يستطيع أن يجعل حياتك أنت بائسة. يستطيع أن يتبرأ منك، أن يحرمك من كل ما تملك، وحتى يمكن أن يقتلك. إنه قادر على فعل أي شيء»

«لكن ذلك لا يهمني، ولا أعتقد أن بإمكانه أن يؤذينا حالما نكون قد خرجنا من حدود مقاطعته». رأى مقدماً أن والدته ستحاول إقناعه ثانية فقرر أن يلعب ورقته الرابعة. «إن هذا ليس من الإنصاف في شيء يا أمي!»، قال «كنت ستذهبين مع الأجنبي وتترددان في الذهاب معي، مع ابنك».

عند ذلك، تغير ذلك الوجه الناعم التجاعيد، الباسم الباكي في الوقت ذاته. تقلص ذلك الوجه فجأة. أبقت يديها معلقة في الهواء. ضمت قبضتيها وحدقت بناصر فبدت وكأنها غائبة عن الوعي. لم تتمكن من الحديث إلا بعد مرور وقت ليس بالقصير. أخبرني، قالت «ما الذي قالوه لك عني؟ الأصدقاء المخادعون! لقد رضخت لهذه الحياة بهذا البؤس الذي لا يصدق لأنهم عاهدوني على ألا يقولوا لابني شيئاً عن ماضي والدته».

«لم يخبروني بشيء يا أمي. إنني أعرف كل شيء لأنني قرأت مذكراتك». أخذ يدها في يده وحاول أن يطمئنها ولكنها كانت قد

أصيبت بأسى شديد .

«أين وجدت مذكراتي؟»

«بين كتبك القديمة»

«وأين هي الآن؟ هل قرأها والدك؟»

«لا، لم يقرأها، وهي بأمان عندي. ثقي بي يا أمي!»

«كنت متأكدة أنها احترقت منذ زمن بعيد. إنني مندهشة بأنها مازالت موجودة. إنني لا أتذكر كل ما كتبت فيه، كان ذلك منذ زمن طويل، ولكنني أتذكر أنني لم أكتب سوى الحقيقة المطلقة»

«لا داعي لقول ذلك، لقد صدقتها منذ أن قرأتها». ربت على يدها ليطمئنها.

«صحيح؟»، قالت «إذن دعني أخبرك شيئاً. بعد الله، كنت أنت الوحيد الذي أردت له أن يعرف كيف شعرت آنذاك وما الذي حدث بالضبط».

«أوه، لا تشغلي نفسك بالماضي الآن، لدينا الحياة أمامنا! ما عليك سوى أن تستعدي الليلة. خذي أشياء قليلة معك. في البدء سنأخذ الطريق الذي بين التلال. هل تستطيعين الركوب؟»

«بالطبع، أستطيع»

«إذن كل شيء على ما يرام. سأتي إليك بعد منتصف الليل بقليل. لقد عثرت على صورة لك في أحد كتبك. هل أستطيع الاحتفاظ بها؟»
بدأ ناصر يطيل الحديث لأنه ببساطة لم يود أن يتركها.

«ولم لا؟»، قالت أمه بحب. «من يملك حق الاحتفاظ بها أكثر منك؟» وجاءت العجوز التي أرشدتهما. كان الوقت قد تأخر وأرادت منهما أن يغادرا.

«إلى اللقاء يا أمي» قال وهو يمسك بيد أمه «قدسية» ثم يغادر، ولكن ليس بالسرعة نفسها التي دخل بها إلى المنزل.

عندما عاد إلى غرفته كان في حالة من الإثارة. «أشعر بأنني قد خرجت للتو من تحت أطنان من الأثقال. وأخيرا، سأقوم بدفع بعض الدين الذي أدين به لأمي». ظل يقول أشياء كهذه وهو يذرع الغرفة جيئة وذهابا.

كان إعجاز يستطيع أن يتفهم هياجه، ومع ذلك فقد اختار أن ينصحه بكلمة تحذير. قال له: «أحذرك، لا يزال هناك بعض الأوقات العصيبة جداً أمامنا». «لا يهم. قل لي، هل لاحظت كم هي جميلة أمي حتى الآن، كم هي رشيقة وأنيقة! كيف يستطيع أي رجل أن يدمر شخصا مثلها لمجرد غروره؟ ألسنا نحن الرجال قساة وأنانيين مقارنة بامرأة مثلها؟».

«نعم، أظن أننا كذلك. والآن ما الذي حل بذلك الشخص الذي حاول أن يخلص والدتك؟ هل قتله والدك ودفنه في مكان ما هنا؟»

«لا أظن ذلك. ليس من السهل قتل أجنبي بهذه البساطة هنا. لا بد أنه قد عاد إلى وطنه. والآن، اخلد إلى النوم. سأعود بعد أن أقوم ببعض الترتيبات للرحلة». قال ذلك وترك إعجاز على عجل إذ أدرك فجأة كم من الأعمال يجب عليه إتمامها.

بدلاً من الخلود إلى النوم، التقط إعجاز مذكرات قدسية وبدأ

بالقراءة ثانية.

كانت لدى جون سيارة إيطالية قديمة بابابين، وبنافذة خلفية بيضاوية الشكل كفتحة التهوية في عمارة قديمة. المقعد الخلفي والجزء الخلفي بأكمله كان يغص بمئات الأشياء التي تراوحت بين أكياس النوم إلى معدات الصيد، تتدلى في كل اتجاه. إذا نظرت إليها من جميع النواذف من الخارج، فلن تستطيع أن تتبين أي جزء من المقعد الخلفي. وعلى رغم قدم السيارة وهيئتها البائسة، إلا أن لها محركا جديدا يعول عليه. قاد جون السيارة بسرعة عالية وهو يتحدث في الوقت ذاته إلى شخص كان قد رقد مختبئاً تحت كومة من الملابس في الخلف. لم تكن لديه الوسيلة لمعرفة ما إذا كان ذلك الشخص يسمعه أم لا حيث إنه لم يكن هناك أي رد. مع ذلك ظل يحدث نفسه.

آه! يا لروعة هذا المكان، جمال لم تشوّهه وسائل العيش الحديثة. هذا هو الشيء الحقيقي. كان لصوته رنة من الابتهاج وكان النسيم البارد الذي يتنفسه مسكرا. إنه ليس مثل الأماكن في أوروبا وانجلترا حيث المئات من السياح يحتشدون كالنحل. مسؤولو السياحة الذين جعلوها صناعة، يتقاضون الأجور لدخول أي مبنى أو أماكن سياحية عادية، إلى أن يسخط الكل. أسعار الفنادق لا تكاد تصدق! لكن هنا، عوملت كالمملوك خلال هذه الأسابيع الثلاثة ولم يتقاض مني أحد ولابيزة(*) واحدة. عندما ألححت كي أدفع، احمر وجه الخان الأكبر وقال: «هل تريد أن تهيننا؟». نأخذ نقودا من الضيف؟ إننا «زامينداريين»، الوجبات للضيوف جاهزة هنا كل يوم كشيء مؤكد. أناس من القرى الأخرى يأتون إلى هنا وهم دائما يحلون على الرحب والسعة.

(*) بييزة: الوحدة الأصغر في العملة الهندية والباكستانية (روبية).

إذا كنت تحب الدفع، فإنه يجب عليك أن تسكن في فندق في مدينة كبيرة، ما كان يجب عليك أن تأتي إلى هنا منذ البدء. «يا إلهي! يا للضيافة، يا للقيم! ولكن في الوقت نفسه يا للوحشية! رجل يستعبد رجلا آخر، والزوجات يعاملن بأسوأ من معاملة العبيد. في الغرب، إذا اضطرت النساء للعيش هكذا ولو ليوم واحد، فأنا متأكد بأنهن إما ينتحرن وإما يقتلن أزواجهن».

أخذ نفسا عميقا وقال: «أهلا يا من هناك، هل هناك أحد في المنزل؟ أوه، ما الأمر؟ أنا فعلا خائف يا قدسية، هل أنت على ما يرام؟».

«إنني أبكي» صدر الصوت من تحت الملابس في الخلف.

«آه، لكم ارتحت الآن. أنت مازلت حية! والآن أخبريني كيف هو شعورك بالحرية! هل رأيت في حياتك طيرا يبكي وهو يطلق سراحه؟»

فجأة بدأت قدسية في الضحك لفكرة الطير الباكي، لكنها سرعان ما عادت لنحيبها.

«اسمعي. ليس لدي وقت لأوقف السيارة، أو لأعطيك شيئا تشربينه أو حتى لتغسلي وجهك. لا تزال أمامنا مسافة طويلة. أخبريني فقط ما إذا كنت قد غيرت رأيك. لا تقلقي بشأني، قولها وسأعود لأواجه العواقب»

«لا، لا، لا! وحق الله، لا تتحدث هكذا! إذا عدنا فسنقتل». قالت قدسية بصوت خائف.

«إذن يا عزيزتي قدسية، دعك من الحزن. إننا في هذا المصير سويا إلى أن نفرقنا الموت. خذي رشفة من الشاي، انسي الماضي وفكري في المستقبل.» وزاد جون من سرعة السيارة وتوقف عن الكلام. أدرك أنه

من السذاجة أن يتكلم وكأنه في موعد غرامي مع فتاة.

حاولت قدسية أن تفكر في المستقبل ولكن تفكيرها كان مشوشا. لم تستطع أن تتخيل أي مستقبل ينتظرها. كل شيء بدا غامضا، لم تكن واثقة من حريتها. حصل كل شيء بسرعة! عندما وجدت أن هناك شخصا يرغب في المجازفة وإنقاذها، فكرت فقط في أن تلك كانت فرصة العمر. الشيء الوحيد الذي خطر لها هو: «إما الآن وإلا فلا». ولخوفها من تلك الـ «فلا»، قفزت إلى المجهول دون تفكير فيما إذا كانت ستتهبط على قدميها بسلام. وكلما حاولت التفكير في المستقبل، راح عقلها يشدها دون قصد إلى الماضي.

عندما كانت في الخامسة عشرة، تقدم شاهزور خان لخطبتها، لكن رئيسة الراهبات في مدرسة الدير اعترضت على الفكرة قلبا وقالبا، وقدسية كانت على قدر واسع من الذكاء. فكرت أن زواجها في مثل تلك السن المبكرة سيدمرها. لكن والد قدسية، الذي كان عميدا في الجيش، قرر بأن يزوجه إلى هذا الشاب. السبب كان أن والد قدسية كانت قد توفيت وكان هو يعاني من سرطان الرئة. كان يريد أن يزوجه قبل أن يقضي نحبه. ذهب بنفسه إلى عائلة شاهزور وأعلن قبوله الزيجة. قال لقدسية إن تلك العائلة هي عائلة ثرية وأن شاهزور كان وسيما ومتعلما. العائق الوحيد الذي لاحظته هو أن العائلة كانت متخلفة قليلا، وربما ساذجة أيضا، ولكن ذلك لا يهم حيث إن والده هو نفسه كان كذلك، مثل الكثيرين. المسألة مسألة وقت فقط، قال يطمئنهما.

ومع ذلك، لم توافق هي على عرض الزواج. قالت لقريباتها إنها لا ترغب في الزواج وبالأخص من شاهزور. قريباتها أخبرن أمهاتهن، وهؤلاء أزواجهن، كما هي العادات، ولكن لم يأخذ أحد منهم رفض

قدسية على محمل الجد . ليس من شأن فتاة صغيرة كقدسية أن تقرر من يكون شريك حياتها، إضافة إلى أن الفتيات السذج عادة يتكلمون هكذا قبل الزواج. عدم إظهار اللفة على الزواج كان يعتبر شيئاً من الحكمة. كل شيء سيكون على ما يرام كما هي الحال دائماً. فكرت قدسية مرة أن تفتح قلبها لأبيها ولكنه كان في حالة من المرض لا تسمح له بأن ينزعج. سيؤله كثيراً تحدي ابنته له حيث إن أحداً من عائلته لم يسمع من قبل بفتاة تقف ضد رغبات كبار العائلة في مسألة زواجها.

ولذلك، فإن الأشخاص المسؤولين الذين جاءوا ليأخذوا منها موافقتها الرسمية على الزواج، لم يكلفوا أنفسهم سماع أي شيء منها. حتى قبل أن تنطق هي بكلمة، كانت موافقتها قد أخذت على أنها من المسلمات، وجاء التأكيد على ذلك من إحدى كبار نساء العائلة اللواتي تجمعن عند باب الغرفة حيث تجلس قدسية وسط مجموعة كبيرة من الفتيات والنساء اللواتي يتحدثن في الوقت ذاته.

فوراً راحت النساء يعانقن ويهنئن بعضهن بعضاً، بينما كان الرجال في مجلسهم يحتفلون بذلك حسب التشريعات. بعد ذلك، في المساء، حاولت أن تشرح لشاهزور خان الأمر على أمل أنه سيتفهم موقفها، لكنه لم يرغب في سماع أي شيء منها. هو الذي كان يريد لها زوجة له، وما يهمه الآن، هو أنه قد حصل على ما يريد. منذ ذلك الوقت لم يفارق عقلها فكرة كونها أسيرة. أخذت تشعر بسلسلة يزداد وثاقها إحكاماً يوماً بعد يوم، حيث إن شاهزور لم يكن يؤمن بحرية المرأة. لقد تزوجها على أمل أنها ستعود على طريقته في التفكير تدريجياً.

كل القرارات تتخذ من قبل الرجال، ولا تبلغ النساء إلا بالقرارات التي تخصهن. جمال الطبيعة الذي يحيط بهن، والذي يعجب به كل

الناس، لم يكن لأعين النساء نصيب منه. المال الذي كان يصل بالأكوام لم يكن لهن لينفقن. كلما خططت للذهاب إلى مكان ما، قيل لها إن السيارات غير متوافرة، فإما أن الخان كان يستعملها أو أنها كانت في خدمة بعض الضيوف، وهم عادة مسؤولون حكوميون كبار. هي، وهي بالذات، كان يسمح لها بارتداء ما تشتهي. وكان لها سرير جميل وطاولة تزيين وأرفف للكتب. كان ذلك من الأشياء النادرة في المنزل. النساء الأخريات في العائلة لم تكن لديهن تلك القطع من المفروشات في غرفهن، كلهن عشن تحت رحمة أسيادهن طالما كانت لهم حاجة إليهن. في كثير من الأحيان يصيبهن السل أو بعض الأمراض الأخرى ويمتن وهن ييصقن الدم، أو أنهن يبقين على قيد الحياة في بؤسهن. وذلك لم يكن من شأن أسيادهن.

بعد زواج قدسية، ذهب والدها إلى بريطانيا للعلاج. كانت تريد أن تسافر لتراه ولكن زوجها لم يسمح لها بذلك. فأثار ذلك اشمئزازها، فكتبت لوالدها رسالة طويلة تشرح له فيها الأمر، ولكن الجواب الوحيد الذي جاءها كان عبارة عن تلفراف من لندن يخبرونها فيه بأن والدها قد توفي أثناء الجراحة.

أفاقت قدسية من ذكرياتها عند الفجر على شذى الأزهار في نسيم الصباح البارد. استطاعت أن تميز في لمحة من خلال النافذة بأنهما يمران الآن في أماكن قديمة معروفة لديها. تستطيع أن ترى فندق أماندرا، وهو مبنى جديد شيد داخل قلعة قديمة. المبنى كان من العلو بحيث يستطيع المرء منه أن يرى لمسافة أميال وأميال من الأراضي الخصبة، القنوات، الجبال والطرق الملتوية.

كثيرا ما زارت تلك الأماكن بصحبة والدها، وكانت تلعب الشطرنج

معه ومع أصدقائه وقد رسمت من شرفات ذلك الفندق مناظر الشروق والغروب الرائعة وكذلك الليالي القمرية الجميلة. إنهما يمران الآن أمام قلعة مالاكاند، وقد قضت قدسية بعض الوقت في أحد مباني تلك القلعة. لم تنس أبدا الزلزال الذي ضرب هذا المكان في إحدى الليالي. كانوا قد أسرعوا بالخروج من غرفهم في الظلام حيث إن الكهرباء انقطعت نتيجة الزلزال. بعد خروجهم من المبنى الذي كانوا يقضون فيه ليلتهم، تبين لهم أن الحوائط الصخرية العالية للقلعة، وكذلك التلال العالية كانت قريبة جدا منهم ولم يكن هناك مهرب منها، لذلك قرروا العودة والبقاء في الداخل. وعادت هي ووالدها وظلا جالسين هناك لزمنا طويل وهما يتحدثان في غرفة الجلوس. لم يتحرك أحد بسبب الزلزال. السكان المحليون كانوا معتادين على تلك الظاهرة، وكانوا يعرفون أنه من الأفضل البقاء في الداخل وعدم الخروج.

في اليوم التالي، عندما نزلوا من قلعة مالاكاند ليذهبوا إلى ريسالبور، كانت السماء تمطر رذاذا. وقد فتحتها منظر قوس قزح الذي امتد في السماء بألوان زاهية. التجربة المثيرة الثانية كانت مشاهدتها قوس قزح وهو يتمطى نحو أسفل الوادي. وبعد أن ابتعدوا قليلا شاهدت قوس قزح ثانيا في السماء. وهذا أيضا، كان يبدو كأنه ينداح على أرض الوادي. الظاهرة تلك كانت فريدة ورائعة لدرجة أنها طلبت من والدها أن يوقف السيارة. واستمتع الاثنان، هي ووالدها، بمنظر قوس قزح، السمائي والأرضي، لمدة ليست بالقصيرة، قبل أن يواصلوا انطلاقهما. بينما كانت تتذكر تلك الأعجوبة التي كانت كالحلم، شعرت بالنعاس. وبما أنها كانت مرهقة، فقد راحت في غفوة.

«أفيقي يا قدسية». سمعت أحدهم يهمس في أذنها. عندما أفاقت، شعرت به يربت برفق خدها. وللحظات، لم يكن لديها أي فكرة عن

مكان وجودها ومن عساه يكون ذلك الشخص الذي تجرأ وأيقظها بهذه الصورة. كاد الغضب أن يملكها لولا أن كل شيء جاء فجأة إلى عقلها كالصدمة. لم يكن الأمر حلما.

كان جون يربت خدها برفق وهو يتحدث إليها في الوقت عينه: «لا يمكنك أن تفعلي بي هذا. إنها البداية فقط. لقد قمت بخطوة جبارة. لا يمكنك أن تدعي الأمور تفلت من يديك. يجب أن تتحلي بالشجاعة وإلا أصبحنا في خطر».

«أين نحن؟» سأل قدسية وهي تعتدل جالسة.

نحن في ريسالبور. هذا منزل أحد الأصدقاء. لا يمكننا مواصلة الرحلة في هذه السيارة. سأتركها هنا وسيتولى صديقي العناية بها. سنواصل رحلتنا في سيارته هو. سأحاول أن أغير مظهري وأنت لا بد أن تغيري مظهرك أيضا. يجب أن ترتدي ملابس زوجة صديقي لتظهري كامرأة إنجليزية. هل يمكنك ذلك؟

«سأفعل كل ما تقول»

«جيد»

إذن فقد كانت في ريسالبور اللطيفة.

لقد عرفت طرقاتها، شوارعها، أزقتها، وأماكنها كما تعرف الخطوط التي في كفها. الطرقات كانت تبدو دائما خاوية. لكم أسرع وت وهي تقود دراجتها الحمراء في تلك الطرقات. الأشجار، بأغصانها المنخفضة، بدت وكأنها تمسد رأسها بأيديها الحانية. السياج الأخضر وشجيرات الورد زينت الطرقات. تحت ظلال الأشجار المرتفعة كانت مدرستها. كانت إحدى الفتيات المفضلات لمدرساتها طوال أيامها في المدرسة. جزء

المبنى الذي سكنت فيه الراهبات وأقمن فيه صلواتهن كان يضيفي عليها إحساسا بالغموض، وكذلك كان شأن مبنى طعام ضباط الجيش بأرائكه الجلدية الضخمة وقطعه الفضية الثقيلة، والقطع الأثرية مثل تلك المزهريات الصينية من عهد أسرة «منغ»، والفواصل المبلط من العهد «المغالي». تذكرت أيضا أنها كانت ترى جزءا من العلم فوق مقر سكن لاكناو، والذي قدم جائزة للجيش البريطاني في حرب سنة ١٨٥٧ والتي اعتبرت حركة تمرد.

جاءتها رغبة مفاجئة لركوب دراجتها ومفاجأة رئيسة الراهبات أو مدبرتها بلعبة التيس، أو الذهاب إلى المقبرة حيث دفن كل من أخيها ووالدتها. ألقت بنظرة حول المكان وهي تنزل من السيارة. كانت المنازل لا تزال كما هي بحدائقها وأحواشها الكبيرة. تلك المنازل كانت ضخمة لدرجة أنهم فصلوا بينها بمئات الياردات عن بعضها البعض. المكان بدا مهجورا وكأنها بلدة كتب على سكانها أن يختفوا بفعل السحر. دخلت المنزل وهي تترنح.

بعد أن استحممت وغيرت ملابسها، تناولت إفطارا خفيفا. ثم انطلقا ثانية. نظرت قدسية إلى الطرق بحنين: طريق الشمال، طريق برودوي. كلها مظلمة بالأشجار كالسابق. كان العشب مزهرا في أرض ملعب البولو. وكانت أشجار اليوكلابتس تتأرجح مع النسيم، وأطلت الورود من السياج وحول الأكواخ. مرت السيارة بحذاء مبنى الضباط وتذكرت قدسية أن شاهزور خان كان قد رآها أول ما رآها في هذا المكان. كانت ليلة للضيوف وكان شاهزور مدعوا من قبل أحد الأصدقاء في الجيش، حينها أعلن هناك أنه وقع في غرام الفتاة الفاتنة ذات الثوب الأسود منذ النظرة الأولى. وقد حذره أصدقاؤه لأن تلك الفتاة قد تربت كأجنبية أكثر مما تربت على العادات التي يفضلها شباب الباتان.

شاهزور لم يبال بما سمع، كان متأكدا أن الزواج سيعالج قصورها كما يجب.

كانت كلما تدمرت من الاختناق يتعجب، «لماذا، ما السيئ في هذا المكان؟» تظاهر بأنه لم يفهم كيف أن المكان الذي لاءم والدته، وأخواته وقربياته، لم يكن يعجب زوجته. وكذلك أين يمكن لها أن تذهب! لم يكن لوالديها بيت. لم يكن هناك داع لأن تذهب لأي مكان في الصيف حيث إن الطقس هنا بارد ومريح، ولم يكن هناك داع للذهاب لأي مكان في الشتاء لأنهم كلهم قد اعتادوا على الطقس البارد.

«قدسية، قلت لي إنك تحبين ووردزورث وأقول لك إنك ببساطة ستعشقين مقاطعة البحيرة عندما ترينها. إن القرب من البحيرات شيء جميل.

فترات ما بعد الظهر هادئة وساكنة، وظلال الأشجار الطويلة تتراعى على العشب فتحوله إلى لون أخضر متدرج رائع. في المساء تصبح المياه هادئة لدرجة أن المرء يحبس أنفاسه لكي لا يزعج سكونها. لا أعتقد أنه سيكون باستطاعتك أن تتسي الشعور الذي ستحس به عندما ترين بحيرة ويندرمير في الليل لأول مرة. قدسية، أرجوك، قولي شيئا».

«لا أعرف. إن عقلي مغمور بالضباب وأجد التفكير نوعا من الاستحالة». وعلى رغم كل هذا الارتباك، إلا أن قدسية فوجئت به يقترح أنها سترافقه إلى إنجلترا. «حتى الآن، لم تعرفي إنجلترا إلا من خلال كتب غولسوورثي وفيرجينيا وولف وإي. إم. فورستر، ولكنك عندما ترينها بعينيك، ستكون تجربة جديدة، كالجرس يقرع في رأسك في كل مرة. حسنا، هذا مبنى البرلمان وبجانبه ساعة بن الشهيرة، هذا ماربل أرش، وهذا هو البرج».

ابتسمت قدسية رغما عنها. جون لم يكن طويلا وذا لحية وقتها، ولكنه كان شابا من الريف وكان سحر المدن الكبرى يثيره ويجعله يريد لكل أصحابه أن يروا كل شيء فيها.

ثم، فجأة، غير الموضوع: «قدسية، انظري إلى تلك التشكيلة المحمرة من الصخور والتي تنتشر لأميال عدة. هل رأيته من قبل؟»

«نعم»، حاولت أن تجيب ولكن صوتها تحشرج. إنها تعرف المكان حق المعرفة. وقع قلبها وهي تحاول أن تعود إلى كرسيها غير راغبة في النظر إلى تلك التلال الدامية. كان لذلك المكان علاقة بموت والدتها. بالنسبة لها، فإن التلال كانت حمراء اللون لأنها شربت دم والدتها التي ماتت هناك في حادث. تظاهرت بأنها نائمة. لم تهض ولم تنظر إلى أن وصلا إلى راولبندي.

كماداتها، كانت راولبندي هادئة قليلا ومزعجة قليلا، جميلة قليلا وقبيحة قليلا. قليل من أماكنها جديد وأكثرها قديم. كثيرة هي الأوقات التي قضتها في راولبندي مع أبيها وهي في طريقها إلى «مري». كآنا يتمشيان في مبنى السوق الداخلي الحديث ويتسوقان في مخزن سادار الكبير. في تلك الأيام الخوالي لم يكن يوجد مثل هذا المخزن إلا في المعسكرات. كان مدير المخزن رجلا فارسيا كان قد هاجر من إيران. كانت عندها رغبة قوية في أن تعرف ما إذا كان المخزن لا يزال موجودا إلى الآن. نعم، إنه هناك، تمكنت من أن تلمحه بينما السيارة تمر به. لكنه لم يكن الوحيد الآن، كانت هناك مخازن كثيرة مثله، وكان هناك فرن وبقالة. كانت هناك عمارات، مدارس وطرق جديدة. نعم الحياة تتغير، والتغير يبدو ظاهرا أكثر في المدن. أناس مثل زوجها ووالده من قبله هم ضد التغيير في قراهم. لا تستطيع أي من الفتيات التحدث

بالأوردو: لغتهن الوطنية، لأنه لم يكن مفترضا بهن أن يتكلمن بها. لم يكن لهن أي حق. لم يكن لهن الحق في إبداء رأيهن بأي موضوع كان، وخصوصا موضوع زواجهن. على الرغم من العقاب الشديد المفروض عليهن من قبل عوائلهن، إلا أن كثيرا من الفتيات يجازفن ويهرين بعيدا مع عشاقهن. واللواتي يقبض عليهن يتم قتلهن بأيدي أقرب أقربائهن: الأب، الأخ أو العم. هي أيضا الآن هاربة مع أحدهم، ولو أنه ليس هروبا بكل ما تعنيه الكلمة، لكن ذلك لا يعني أي شيء بالنسبة لعائلتها. الناس يفهمون أن لها علاقة به وأنها قد وجدت الفرصة لتفر معه. ليس باستطاعتهم التفكير في شيء آخر. لاشك أن أسماء بعض أبناء عائلة «الزاميندارس» المجاورة ستطرح كاحتمال. أما هي فتعرف أنها لن تختار أي واحد من تلك العائلة للهروب معه. والد زوجها، ذلك الداهية البار، ربما سيسبك في ذلك الأجنبي الذي تصرف بغرابة. لا بد أنهم أبلغوا البوليس الآن، ولا بد أن رجالا من مقاطعتهم قد أرسلوا للقبض عليها. ما الذي سيحدث لو تمكنوا من العثور عليهما؟

لم تحب أن تفكر فيما بعد هذه النقطة لأن الذي بعدها ليس سوى الموت المحتوم والشنيع.

كرهت أن تفكر في الموت وهي لاتزال على قيد الحياة. هزت رأسها كي تتخلص من الأفكار المزعجة، نظرت إلى الخارج. نباتات القمح التي لم ترتفع أكثر من بوصات قليلة في إقليم الحدود الشمالية الغربية، كانت في البنجاب على ارتفاع قدمين. كانت هناك قرى على طول الطريق، وكان الجو هناك مفعما بالهدوء والسكينة، كما كان في السابق، وكان هناك مزيج من الأصوات. صوت رتيب للسواقي الفارسية التي تدار بواسطة الثيران المغطاة عيونها، رفرفة أجنحة الدواجن وصوت همهمة البشر الرتيبة، كلها كانت مختلطة ببعضها في ذلك المحيط.

وسط تلك الحياة العادية، راحت سيارتهما تنطلق مسرعة إلى المجهول.
إلى مكان لا تملك، لا هي ولا رفيقها في السفر، فكرة واضحة عنه.

لماذا لا تذهب إلى أقرباء والدتها في كراتشي؟ هؤلاء كانوا متعلمين
ويعيشون في مدينة كبيرة، وسيتفهمون الوضع التعس الذي كانت فيه.
ولكن ماذا لو لم يحصل ذلك؟ وماذا لو أنهم وبسرية تامة أبلغوا زوجها
عن مكانها؟ على أي حال، كراتشي ما زالت بعيدة وتستطيع أن تقرر
لاحقا. في الوقت الحالي كانا قد وصلا للتو إلى لاهور، عاصمة إقليم
البنجاب، حيث عاشت مع والديها عندما كانت فتاة صغيرة.

تذكرت لاهور كما لو كانت رأتها في حلم. لم يكن لديها فكرة عن
الوقت وعن المكان، لا تعرف كم تبلغ من العمر وقتها، ولا أين يقع أي
مبنى أو كم يبعد أي مكان عن منزلهما أو عن أي مكان آخر. ولكن كل
الذي تذكرته كان جميلا وملونا على رغم رؤيتها له من خلال الضباب.
في إحدى الأمسيات أخذوها إلى إحدى الحدائق الكبيرة حيث بقوا
هناك إلى المغرب. رأت اليراعات وهي تشرق كأنها مئآت المصابيح
الطائرة فوق الأعشاب ثم ترتفع لتطير عائدة إلى الأشجار.

كان والداها يذهبان إلى النادي في المساء وكانت مربيتها تأخذها
للتزهر في الحديقة القريبة حيث يتواجد أطفال آخرون مع مربياتهم.

أحيانا كانت تتمشى على الرصيف وهما في طريقهما إلى المخزن
الكبير الذي كانت تشتري منه بعض الشوكولاته. كانت تحب ظلال
الأشجار إذ كان صفا الأشجار على الجانبين مثل نفق يمتد بعيدا ثم
يلتقي طرفاه في القمة. خالجه شعور قوي بأنها تستطيع أن ترى ذلك
الطريق الآن، لكنها عرفت أنها لن تستطيع أن تنغمس في نزوة كهذه.
ومع ذلك، يبدو أن الماضي لن يتركها. كانت هناك ذكرى أخرى. كانت

هناك قلعة كبيرة، وفي إحدى حجراتها كانت ثمة قطع صغيرة من الزجاج الملون رصت فوق السقف والجدران فشكلت صورا رائعة لطيور، طواويس، غنّب في إناء، ومثاقب جميلة. الدليل الذي كان يريهم القلعة كان قد أشعل شعلة ثم أخذ يدور بها حول الغرفة وهو يرفعها عاليا في الهواء فصارت جنبات الحجرة تبرق وتومض بالأنوار الصغيرة التي لا تعد ولا تحصى كالنجوم المتألّثة. فيما بعد عرفت أن ذلك المكان هو ما يطلق عليه «شيش محل» في قلعة لاهور. الشيء الآخر الذي علق بذاكرتها كان النفق الموجود تحت الأرض في القلعة والذي يفترض أنه كان يصل إلى مدينة أخرى على بعد مئات الأميال. كانوا قد هبطوا بهدوء إلى واحد من تلك الممرات السرية دون مساعدة من الدليل. وكان المكان مظلمًا كما الليل. أحرق والدها منديله بولاعة سجائره ليريهم بداية النفق. وها هي تشعر الآن وكأنها تسير في ذلك الممر المظلم، فلم يكن لديها أدنى فكرة إلى أين يقودها.

أرادت أن تركز على المستقبل ولكن ذكريات ماضيها تعود لتشدّها إلى الخلف. أتراها مسرعة جدا نحو المستقبل؟ لقد قرأت في مكان ما بأنك إذا استطعت أن تتطلق بسرعة الضوء فسيكون باستطاعتك أن ترى ماضيك.

أراد جون أن يتناول الغداء في أحد المطاعم على جانب الطرق ولكن قدسية كانت خائفة جدا من النزول من السيارة والمجازفة باحتمال أن يراها أحد، لذلك اشترى جون الطعام وتناولاه عند ضفة القناة.

الماء والمروج الخضراء جعلها تشعر بالنعاس، فنامت معظم الطريق إلى مونتغمري.

استيقظت فجأة وهي تشعر بالحرارة. عرفت رأسا بأنهما كانا يمران

عبر الصحراء بالقرب من مالتان. كانت الشمس حارة والصحراء تتلألأ تحت ضوءها. وتدلّت ظلال أشجار النخيل المنتشرة كأنها حيوانات مرهقة فوق الأمواج الرملية. واتجهت أنظار الشجيرات الشوكية نحو السماء وكأنها تستجديها وأبلا من المطر. شاهدت بعض قوافل البدو وهي تنتقل من واحة إلى أخرى في بحثهم عن البرك المعشوشبة، وعن ملجأ لهم تحت أشجار النخيل النابتة من الجذور نفسها مثل باقة متناسقة، عن بقعة من الأرض المعشبة حيث ترعى حيواناتهم.

كم يبدو سعداء هؤلاء الناس وهم يجلسون على ظهور جمالهم. كانت معهم عوائلهم، حاجياتهم، قطيعهم وممتلكاتهم. سارت الجمال بخطوات واسعة ومتأنية، والأجراس المعلقة في الشرائط حول أعناقها تقرع بلطف ويسمع صداها في الصحراء المقفرة. لماذا لا تذهب مع هؤلاء البدو وتبقى معهم إلى آخر حياتها؟ هؤلاء بدوا لها أحرارا. لا مبالين وسعداء. ستقول لهم إن كل ما تريده هو الحرية وأن تبقى مجهولة الهوية، فهل سيقبلونها؟ كانت تعرف في قرارة نفسها أنها لا تستطيع أن تعيش على طريقتهم كما هو صعب عليهم أن يعيشوا على طريقتها وطريقة والديها. سيكون وضعها بينهم شاذا تماما مثل وضعها في بيت شاهزور خان.

شمس المساء في الأفق بدأت تغطس سريعا. كانت هناك خطوط حمراء، برتقالية ورمادية في السماء. وبينما راحت الشمس في غروبها، فقد أخذت تلك الخطوط مسحة غامقة متزايدة القتامة، وسرعان ما حل الظلام وبدأ خوف جديد ينمو في قلبها. ظلت راقدة في المقعد الخلفي. بين الفينة والأخرى يسطع شعاع من الضوء عليهما من أنوار السيارات المواجهة وبعد ذلك يحل الظلام ثانية.

كان الوقت تقريبا هو منتصف الليل عندما شعرت بأن السيارة قد غيرت طريقها وأنها تتطلق الآن في طريق وعرة وضيقة، بعد حوالي ثلاثة أرباع الساعة توقفت السيارة. جلست قدسية في مقعدها، ويحذر نظرت إلى الخارج. رأت مبنى متوسط الحجم محاطا بالأشجار وله ملحق على مسافة قصيرة منه.

خرج جون من السيارة وتمطى مثل أسد مرهق واتجه نحو الملحق. عاد بعد لحظات مع حارس الملحق وهو يعطيه تعليماته لتجهيز بعض الطعام. لم يلمح ولو من بعيد لوجود شخص آخر معه. وعندما عرض الحارس أن يحمل الحقائب إلى الداخل قال له جون: «لا، لا داعي لإنزالها حيث إنني سأغادر في الصباح الباكر. أرجو أن تعمل على تحضير الطعام. إذا لم يكن هناك شيء متوافر فعجة البيض ستكون كافية. ثم جهز الفراش واذهب إلى بيتك. لا تقلق بخصوص الأطباق. سأضعها في المطبخ وستستطيع غسلها في الصباح».

سمعت قدسية المحادثة كلها ولاحظت أن جون تصرف كما لو كان بمفرده. كانت تعرف أنه كان حذرا، ولكن طلبه وجبة لشخص واحد وسرير لشخص واحد جعلها تشعر بعدم الراحة. دخل جون وهو يحمل طبق العجة المتواضع إلى غرفة النوم ووضع الطبق على الطاولة بين الكرسيين.

«هيا يا قدسية، لنأكل. أريد أن أنام بأسرع وقت ممكن. إنني مرهق للغاية. اليوم، أستطيع أن أنام على سقالة، كما يقول المثل لدى الأوردو»

دخلت قدسية إلى الحمام وغسلت يديها ووجهها ثم انضمت إليه للعشاء، ولكنها لم تكد تأكل شيئا. بعد العشاء، حمل جون الأطباق إلى المطبخ ثم عاد.

«اسمعي يا قدسية»، قال: «أعلم أنك خائفة جدا، ولكن لا تخافي مني. ثقي بي وكل شيء سيصبح على ما يرام». ثم ابتسم وأضاف: «ربما نكون قد احتلنا بلادا بالقوة وأنشأنا المستعمرات، ولكننا نحترم المرأة. أنا، على الأقل، أعتبر أن الحصول على المرأة من دون رغبتها لا تقبله كرامتي. لن أزعجك بأي شكل من الأشكال. ما عليك سوى أن تغلقي عليك الباب وتخلدي للنوم. لقد غلّقت الأبواب من الداخل». وابتسم ليطمئنها. «هناك غرف أخرى في المبنى كما أن هناك الكثير من الأسرة. لذلك لا تقلقي من أجلي. سأطرق على بابك في الصباح الباكر قبل أن نغادر بنصف ساعة. كوني جاهزة، وسنغادر بهدوء. ستكون تلك هي آخر الرحلة. ومتى وصلنا إلى كراتشي فسنكون في مأمن».

«أرجو ذلك» قالت قدسية بنعومة.

«لنرجو الأفضل دائما. تصبحين على خير»

أغلق الباب وراءه وأقفله قدسية حالا. اتجهت نحو النافذة ونظرت خارجا. كانت ليلة مقمرة، هادئة، حتى أوراق الأشجار لم تكن لتتحرك. الصوت المتواصل للنهر المتدفق أصبح جزءا من الليل الصامت. فجأة شعرت بشجاعة غريبة وبقوة تعثرها قادمة إليها من لا مكان، كل شيء سار على ما يرام حتى هذه اللحظة. قريبا سيكونان قد ابتعدا عن الخطر وسيكون بإمكانها أن تقرر ما تريد أن تفعله بحياتها. لم تكن تشعر بالنعاس مطلقا. أرادت أن تحس تجربتها التي اكتسبتها حديثا بنفسها. على أي حال، فليس لها أحد سوى نفسها. جون كان محررا، الشخص الذي فتح لها باب القفص والذي سيكون كذلك دائما بالنسبة لها. والآن يجب أن تعتمد على قوة جناحيها لتتأكد من بعد المسافة وطول مدة الطيران اللذين بإمكانها أن تحققهما، فتحت الباب وهي

تشعر بالسعادة والثقة لأول مرة منذ أن تركت منزلها. دخلت الصالة على أطراف أصابعها وتسالت إلى خارج المنزل. كانت هناك طريقا ترابية ضيقة تغطي نصفها الشجيرات والحشائش. أخذت ذلك الطريق ووصلت إلى ضفة النهر. جلست هناك على الرمال الرطبة الباردة كطفل سعيد مطمئن. كاد المكان أن يكون مهجورا لا بد أن حارس المنزل هو الشخص الوحيد الذي يعيش هنا، فكرت في ذلك، وهو لن يخرج من منزله في هذه الساعة المتأخرة من الليل. كانت حرة تماما لتسعد بتلك الليلة القمرية لوحدها.

جلست هناك مستمتعة بالهدوء والجمال لبضع دقائق. وفجأة، سمعت خشخشة ثياب وصوت خطوات على الرمال تدنو منها. كانت تولي ظهرها لذلك الجانب فلم تعرف من القادم. تجمد الدم في عروقها وحبست أنفاسها على أمل واهن بأن ذلك لم يكن سوى خيالها. ثم رأت ظلا طويلا يمتد أمامها وسمعت صوت جون: «هل هذه أنت يا قدسية؟».

تقدم نحوها ببطء وجلس بجانبها. «أتشعرين بتحسن؟» سألها.

أجابت: «أفضل بكثير، هذه أول مرة أشعر فيها بالحرية. حتى إنني تمكنت من الخروج من المنزل وأنا متأكدة أنه لن يكون هنا أحد في هذه الساعة. هذا شيء عظيم. أليس كذلك؟».

«نعم، وسيكون كل شيء أفضل. قدسية، أنا أوؤمن بأن كل إنسان له الحق أن يكون حرا. لا يستطيع أحد أن يكبلك مثل الحيوانات. أنت الآن خارج قبضة زوجك وأهله وتستطيعين أن تطالبي بالعدالة. سيكون القانون إلى جانبك. أنا أعرف ذلك».

ظل يتحدث، يشجعها بطريقة أو بأخرى، بينما راحت هي تفكر طوال الوقت، «هل كل ما حصل كان حلما؟» لا يمكن أن يكون ذلك حقيقة؛ هي جالسة على ضفة النهر ليلا ومع غريب أيضا!

«ما الذي تفكرين فيه؟»، سأل جون. مال نحوها وكأنه سيبوح لها بسر.

«اسمعي. تستطيع قطعة من الحجر أن تظل مختبئة في مجرى أو في زاوية شارع، ولكن هل تظنين أن جوهرة تستطيع أن تظل مختفية عن أعين الناس؟»، ابتسم ولمعت عيناه في الأشعة الأخيرة من القمر الأفل.

الحقيقة في ما قاله للتو بدأت تقنعها، فهي امرأة متعلمة، جميلة وصغيرة. فقد تكون غير معروفة وهي تقيم في فندق ذي خمس نجوم، ولكنها لن تكون هكذا في مقاطعة عادية في كراتشي.

استحوذ عليها شعور جديد باليأس، لكن جون لم يع ذلك. وبينما راحت ترسم بعض الأشكال على الرمال، بدأ هو يفلسف الأمر، «في الحقيقة، الإنسان لا يستطيع أبدا أن يفقد نفسه، سواء في أدغال ألمانيا المظلمة، أو في الغابات الخضراء في أفريقيا. هناك، كل جزء صغير من الأرض مملوك لأحد من الناس. يسألون: «من أين أنت؟» «إلى أين أنت ذاهب؟» ثم هنالك وثائق سفر وفيزا دخول البلاد لفترة وجيزة فقط. أنا أقول لك يا قدسية، إن العصر الذهبي للرامايانا عندما كان باستطاعة الناس أن يذهبوا ويعيشوا حيث أرادوا قد ولى. هل تعرفين ذلك؟ كان هناك وقت شعرت فيه بنفس ما تشعرين به، بأنني سأترجل من إحدى الحافلات في مكان غير معروف في هذا العالم وأفقد نفسي. إن ذلك غير ممكن».

صمت لوهلة ثم واصل قوله: «دعيني أقترح شيئاً . اذهبي إلى انجلترا وواصلتي تعليمك. أعرف أنك ستكونين سعيدة هناك. ستلبسين الملابس الغربية وتكلمين الإنجليزية ولن يعرف أحد أنك لست بريطانية». وابتسم مشجعاً ثانية.

وقبل أن ترد قدسية، سمعت صوتاً خفيفاً خلفها، ثم شعرت بيد قوية فوق كتفها وأخرى فوق فمها ثم غطى وجهها كيس ثقيل، وفقدت بعد ذلك وعيها.

ظلام.. تلك اللحظة التي ألقى فيها بذلك القماش فوق رأسها، ثم عندما حملت على كتف شخص ما، كان مصيرها الذي ستواجهه طوال حياتها.

لم يسمح لها أبداً بمغادرة المنزل. في البدء ظلت تتوقع أن يتم تسميمها أو إطلاق النار عليها، ولكن لم يحدث شيء كهذا، وفي إحدى الليالي جاء إليها زوجها.

«أخبريني بالحقيقة؟ هل نام الأجنبي معك؟»

قدسية كانت مشدوهة. لم تعرف كيف ترد. بعد لحظات قررت أن يكون جوابها مماثلاً للتعبير الذي استعمله جون.

«ربما يبدو هؤلاء لك بأنهم عديمو الأخلاق، لكن كرامتهم لا تسمح لهم بالحصول على المرأة من دون رغبة منها»

رأت لون زوجها يتغير، وبغضب شديد راح يصرخ كالمجنون «حسناً، منذ الآن وصاعداً لن آخذ امرأة دون رغبتها» ثم أغلق الباب وراءه ولم يعد بعدها أبداً لثلاثين سنة. عرفت لاحقاً من «غولشان داي» بأنهم أبقوا على حياتها لكونها كانت حاملاً قبل هروبها. كانت غولشان داي

قد سمعت حماتها وهي تقول لابنها: «إذا قتلتها، ستكون قد قتلت طفلك أيضا. ربما يكون ولدا، من يدري؟».

بعد ولادة ابنه، انتظرت موتها مجددا ولكن اللحظة المميتة لم تأت. يحتمل أنها قد اجتازتها. جاءوا لها بالطفل لتراه، ولكن زوجها لم يأت. بعد الولادة مباشرة، أخذوا كل الأثاث الذي أعطاه لها والدها وحل مكانه قطع قليلة، وقديمة جدا. حتى الخزانة ذات الأرفف تم أخذها بما فيها من كتب إلى غرفة الضيوف، الشيء الذي أحزن قدسية حزنا عظيما. لقد أبقى عليها كزوجة للخان الصغير، ولكنها كانت زوجة بالاسم فقط.

أغلق إعجاز المذكرات وبدأ بتحضير أمتعته. بعد قليل، جاء ناصر وأخبره بأنهم سيأخذون طريقين مختلفين وأنهم سيلتقون في نقطة معينة.

سيأخذ ناصر والدته بينما يذهب إعجاز مع شخص موثوق به.

وعند المكان السري المتفق عليه، سيستقلون سيارة جهزت لهم وينطلقون بها بعيدا. غادر ناصر على عجل ورافق إعجاز الشخص الثقة. تسللا بخفية إلى خلف المنزل، امتطيا الخيل وانطلقا إلى الممر الضيق بين التلال.

كان الظلام حالكا، ولكن الخيل بدت وكأنها تعرف الطريق. جال في خاطر إعجاز شعور مزدوج: الخوف من اكتشاف أمرهم، وإثارة المغامرة. ولم يدم شعور إعجاز طويلا فقد اقترب منه مرافقه وأمسك به ثم وضع شيئا ما فوق أنفه. وغاب إعجاز عن الوعي.

عندما عاد له وعيه، وجد إعجاز نفسه ملقى في المقعد الخلفي

لسيارة أجرة. لم تكن لديه أي فكرة عن كيفية وصوله إلى هذا الوضع. كان اليوم مشرقاً، وكانت أشعة الشمس تسقط على وجهه مباشرة. بدأ باسترجاع أحداث الليلة الماضية.

«إلى أين تأخذني؟» سأل السائق. فالتفت رجل ضخّم يجلس إلى جانب السائق وتكلم بلهجته الخاصة، إلى السائق وليس لإعجاز. أوقف السائق السيارة على جانب الطريق. نزل الرجل الضخم من السيارة واقترّب من إعجاز. «ها هي محفظتك» قال، وهو يعطيها لإعجاز، «عد نقودك وتفقد أوراقك الأخرى. حقائبك في صندوق السيارة. الخان الأكبر يريدك أن تأخذ سيارة الأجرة إلى راولبندي» بعد ذلك ستكون حراً. خذ القطار واذهب مباشرة إلى كراتشي. لا تقل لأحد أي شيء عما حصل هنا، ولا تحاول أن تعود إلى القرية أبداً. هل فهمت؟».

«نعم ولكن أين ناصر خان؟» سأل إعجاز.

«تعليماتي ألا أقول أكثر مما قلته» قال الرجل الضخم بحزم وعاد ليحدث السائق. «تستطيع أن تواصل السير». قال «أما أنا فساخذ الحافلة لأعود»

بدا جلياً أن الرجل تلقى تعليماته من الخان الأكبر وكذلك سائق سيارة الأجرة لأنه لم يجب على أي من الأسئلة التي سألها إياه إعجاز. «إلى أين تريدني أن آخذك؟» سأل السائق.

«حيث شئت». أجاب إعجاز بغضب «ولياًخذك الشيطان»، تتم بها بحقد.

«إذن لا داعي لأن آخذك إلى راولبندي، تستطيع أن تستقل القطار من ناوشيرا»، قال السائق.

«ذلك يناسبني أيضا»، قال إعجاز بسخط.

ولم يتحدثا لبعضهما بعد ذلك، فقد غرق إعجاز في تفكيره الكابوسي. حوادث الأيام الأخيرة كانت كالحلم، لا تكاد تصدق. الله وحده يعلم ما حل بناصر ووالدته. هل يحتمل أنهما تمكنا من الهرب من قبضة الخان الأكبر؟ كان ذلك بعيد الاحتمال، ولكن ما سيفعله الخان الأكبر بهما كان شيئا لم يستطع إعجاز أن يفكر فيه.

أوقف السائق السيارة في السوق الرئيسية لمدينة ناوشيرا الصغيرة. أخرج الحقائق من صندوق السيارة وألقى بها على جانب الطريق وغادر دون أن ينطق بكلمة. شعر إعجاز بالهانة ولكن لم يكن باستطاعته فعل أي شيء حيال ذلك.

لم يضطر للانتظار طويلا، فخلال نصف ساعة رأى حافلة تقترب وعليها لافتة كتب عليها راولبندي، فقفز داخلها وهو يحمل حقائقه. اشترى تذكرة وجلس في كرسي مريح. حادثة الليلة السابقة أصبحت مشوشة وضبابية، كما لو أنها حدثت منذ وقت طويل، طويل جدا.

وفي كراتشي، انتظر إعجاز صديقه ناصر أو أي خبر عنه، لكنه لم يحصل على أي شيء من ذلك. بعد ذلك كتب لناصر ولكنه لم يتلق أي رد. ما زال يحتفظ ببعض الأغراض الخاصة به وكثيرا ما يفكر فيه.

في السنوات الثلاث التالية، شغل إعجاز نفسه بفترة التخصص في مجاله الطبي، ثم أمّن لنفسه مركزا جيدا في أحد المستشفيات ذات السمعة الجيدة وبعد ذلك تزوج. اختار هو وعروسه وادي «سوات» الجميل لقضاء شهر العسل. وبما أن قرية ناصر لم تكن تبعد كثيرا عن ذلك المكان. فقد قرر أن يذهب إلى هناك أيضا. حكى القصة كاملة

لزوجته، وبعد موافقتها ذهب بمفرده ليرى ناصر.

كل شيء كان ساحرا وجميلا كما هو دائما. بدأ بتسلق الممر الترابي إلى المنزل. وبينما هو يقترب، استطاع أن يرى الشرفة الواسعة التي تبدو وكأنها معلقة في الهواء. رأى الخان الأكبر وهو يجلس على التخت الخشبي ويستند إلى الوسادة الدائرية الضخمة تماما كما في السابق. تقدم إعجاز قليلا ثم أدرك أن من ظنه الخان الأكبر لم يكن سوى صديقه ناصر خان. أسرع إعجاز وهو يخرج من مخبئه واندفع نحوه. لم يتعرف ناصر خان على إعجاز في الوهلة الأولى ولكنه لما أدرك الأمر قفز نحوه وعانقه طويلا. وعلى الفور أوقف ناصر خان الاجتماع الذي كان يعقده وأرسل خدمه لإنجاز بعض الأعمال المختلفة ليخلو له الجو مع صديقه.

«لماذا لم تأت إلى كراتشي؟» سأل إعجاز بنفاذ صبر حالما أصبحا بمفردهما «ولماذا بحق الله لم تكتب لي؟»

«كن صبورا يا صديقي» ابتسم ناصر خان بلطف. «إنها قصة طويلة، ولا أظنك تتوقع مني أن أحكيها لك بجملة واحدة. أليس كذلك؟»

«طبعًا لا، ولكن قل لي ما حدث! هل تعرف أنني عودت نفسي على فكرة أنك لم تعد من الأحياء؟»

ضحك ناصر خان من قلبه. «لا تكن أحمق! نحن نحب أطفالنا أكثر من أي شيء آخر في هذا العالم، خصوصا أولادنا. لا يمكننا إيذاءهم بأي حال من الأحوال. قلت لك إنها حكاية طويلة. سأقصها عليك بعد تناول الطعام وعند قيلولتنا حيث لن يزعجنا أحد وقتها.»

«لا، لا أستطيع الانتظار. أكاد أموت لأعرف لماذا تم إبعادي بتلك

الطريقة الدرامية ولماذا لم أسمع منك أي خبر بعد ذلك»

«حسن، تفضل واجلس». قال ناصر خان. «سأخبرك بكل شيء حالا»

جلس إعجاز على الكرسي الأقرب إلى الأريكة المقابلة للنهر، ونظر إلى ناصر بفضول.

«بعد أن رحلت أنت». قال ناصر خان، «ذهبت أنا إلى أمي. طلبت مني الدخول، ولكنها تصرفت بغرابة. عانقتني وقبلتني وطلبت أن تبقى يوما واحدا. أخبرتها بأنك قد غادرت وأن ذلك قد يسبب بعض المتاعب لك، ولكنها أصرت على الانتظار يوما آخر. وأخيرا سلمت بالأمر معتقدا أنك ستتمكن من تدبر أمرك.

بعد أن عدت إلى حجرتي، طرقت غولشان داي على بابي وأعطتني رسالة قصيرة. كانت من والدتي، وكانت تقول، إنني لا أرى أي معنى للذهاب معك. سيكون الأمر كارثة لكلينا. أريدك أن تؤمن بأن أمك ماتت في الوقت الذي ولدت فيه. هذا كل شيء. إلى اللقاء يا أعز الناس».

أخذ ناصر نفسا عميقا. نظر نحو النهر ثم قال: «كانت أمي متأكدة بأنها إذا ذهبت معي، فإن أبي سيجردني من إرثي في المقاطعة وكل شيء آخر. وعندما لم تعد تعرف ما تفعله قررت الانتحار. ربما كانت تؤجل ذلك منذ سنوات إلى ما بعد اليوم الذي تراني فيه. ذهبت إلى المرتفع لتلقي بنفسها في النهر وتنتهي حياتها. ولكن تم اكتشاف أمرها لأنها كانت تحت المراقبة الصارمة والمتواصلة ليلا ونهارا.

كانت تلك الليلة هي الليلة التي قابلت فيها زوجها بعد ثلاثين سنة. حاول أن تتصور المشهد: المكان.. كان هذا المكان نفسه. في تلك الليلة

ظهر القمر متأخرا . جاءت أمي بهيبتها وفتنتها كالإلهة وسارت ببطء
كما أمروها أن تفعل . رآها والدي وجفل . كانت أمي في شبابها كوردة
الزنبق المائية في رقتها، لكنها بدت في تلك الليلة كتمثال من الرخام،
بلا حياة، ولكن أكبر من الواقع . رق قلب الخان الأكبر، تقدم نحوها
باتزان وثقة عظيمين .

«قدسية، لقد سامحتك»، قال ذلك بصوت رقيق ولكن بنبرة حازمة.
«ليشهد الله على ما أقول».

ظلت أمي صامته للحظات ثم نظرت إلى الأعلى، والتقت عيناهما .
«أريد أن أعترف بشيء»، قالت بنبرة قوية «لقد كذبت عليك في الماضي .
لقد ... لقد لمسني الأجنبي .. ولكن ليس دون موافقة مني». وبعد أن قال
ذلك، سارت بخطوات محسوبة واختفت في جناح النساء .

ومنذ ذلك اليوم رفضت أن تقابل أحدا، ولم يشاهدها أي إنسان بعد
ذلك مطلقا . وقد امتنعت عن إصدار الأوامر للخدم وامتنعت عن الكلام .

والدي، الطاغية، أصبح بعدها في حالة يرثى لها . أراد أن يقابلها
لكي يسمع منها ولو مرة واحدة أن ما قالته له في تلك الليلة لم يكن إلا
أكذوبة: لكنها رفضت لقاءه، حتى إنه توسل أمامي كي أذهب وأنقل
رجاءه إليها . لكن أمي ظلت صامته كالحجر . توفي والدي بعد ذلك
بوقت قصير، ولكن أمي لم تره إلا في يومه الأخير .

صمت ناصر للحظات قصيرة، ثم تكلم ثانية: «أريد أن أسألك سؤالا:
هل تعتقد أن ما قالته أمام أبي كان صحيحا؟ ماذا ترى؟».

«أعتقد أن ذلك لم يكن صحيحا على الإطلاق» قال إعجاز بتعاطف،
وأردف: «ألم تقل لك إنها لم تكتب إلا الحقيقة في مذكراتها؟»

«أعرف، ولكن لماذا قالت ما قالته لأبي؟»

«قالت ذلك لتحطم كبرياءه. لقد عوقبت بقسوة لشيء لم ترتكبه وتلك كانت وسيلتها للانتقام»

«نعم، أنت على حق. وقد انتقمتم»

بينما كان ناصر يقول تلك الكلمات، رأى إعجاز فتاة في منتهى الجمال قادمة من المنزل نحوهما. كانت ترتدي ملابس حديثة، ومن منظرها عرف أنها ابنة مدينة ومتعلمة غريبة تماما عن هذا الجزء من البلاد.

ناصر رآها أيضا. ابتسم وقال. «تعالى يا عزيزتي، لأعرفك بصديقي العزيز إعجاز الذي طالما حدثتك عنه».

«إعجاز، هذه زوجتي نعيمة» قال ناصر، وهو يقدمها له.

وقف إعجاز ليحييها، وبعد أن تحدثا لفترة قصيرة عادت إلى المنزل. بعد أن اختفت قال ناصر: «لقد تخلصت من العادات القديمة. لم يعد لدينا أجنحة خاصة بالنساء وأخرى بالرجال. إنني آخذ زوجتي معي إلى كل مكان أذهب إليه. أخذتها معي إلى النهر في اليوم التالي لزواجنا مباشرة. وقد رأيت كم فرحت لنا أُمي. وانحنى ناصر نحو إعجاز كأنه سيبوح له بسر.

«إنني أتعمد تقديم زوجتي لأي أجنبي يأتي لزيارتنا هنا. لا أعرف لماذا أفعل ذلك»، قال ناصر.

ابتسم إعجاز لأنه كان يفهم تماما لماذا يفعل صديقه ذلك.

جبران خليل جبران

الروح المعنوية

الطبعة الثانية
بيروت - لبنان

الى التي تحقق الى الشمس
بأجفان جامدة ، وتقبض
على النار بأصابع غير
مرتعشة ، وتسمع نفمة
الروح « الكلي » من وراء
ضجيج العميان وصراخهم
الى M.E.H. أرفع
هذا الكتاب .

جبران

فهرست

<u>صفحة</u>	<u>الموضوع</u>
٥	كلمة الناشر
٧	توطئة
١١	الكتابة الخرساء
١٥	يد القضاء
٢٠	في باب الهيكل
٢٥	الشعلة البيضاء
٢٩	العاصفة
٤٣	بحيرة النار
٦١	أمام عرش الموت
٧٧	بين عشتروت والمسيح
٨٤	التضحية
٩٥	المنقذ

●

كنت في الثامنة عشرة عندما فتح الحب عيني بأشعته
السحرية ، ولمس نفسي لأول مرة بأصابعه النارية . وكانت
سلمى كرامه المرأة الأولى التي أيقظت روحي بمحاسنها .
ومشت أمامي إلى جنة المواطف العلوية ، حيث تمر الأيام
كالأحلام وتنقضي الليالي كالأهراس .

سلمى كرامه هي علمتي عبادة الجمال يجملها ، وأرتقي
خفيايا الحب بانعطافها ، وهي التي أنشدت على مسمعي ' أول
بيت من قصيدة الحياة المعنوية .

أي فق لا يذكر الصبية الأولى التي أبدلت غفلة شببته
ببقطة هائلة بلطفها ، جارحة بعدوبتها ، فتاكة بجلاوتها ؟ من
منا لا يذوب حيناً إلى تلك الساعة الغريبة التي إذا انتبه
فيها فجأة رأى كليته قد انقلبت وتحولت ، وأعماقه قد
اتسعت وانبسطت وتبطننت بانفعالات لذينة بكل ما فيها من
مرارة الكتمان ، مستعجة بكل ما يكتنفها من الدموع والشوق
والسهاد ؟

لكل فق سلى تظهر على حين غفلة في ربيع حياته وتجعل
لأنفرادة معنى شعرياً وتبدل وحشة أيامه بالأنس ، وسكينة
لياليه بالأنعام .

كنت حائراً بين تأثيرات الطبيعة وموحيات الكتب
والأسفار عندما سمعت الحب يهمس بشفتي سلى في آذان
نفسي ، وكانت حياتي خالية مقفرة باردة شبيهة بسبات آدم
في الفردوس عندما رأيت سلى منتصبه أمامي كعمود النور .
فسلى كرامه هي حواء هذا القلب المملوء بالأسرار والمعجائب ،
وهي التي افهمته كنه هذا الوجود وأوقفته كالمرآة أمام
هذه الأشباح . حواء الأولى اخرجت آدم من الفردوس
بإرادتها وانقياده ، أما سلى كرامه فأدخلتني الى جنة الحب
والطهر بجلالوتها واستعدادي ، ولكن ما أصاب الإنسان
الأول قد أصابني ، والسيف الناري الذي طرده من الفردوس
هو كالسيف الذي أخافني بلعان حده وأبعدني كرهاً عن
جنة المحبة قبل أن أخالف وصية وقبل أن أذوق طعم ثمار
الخير والشر .

واليوم ، وقد مرت الأعوام المظلمة طامسة بأقدامها
رسوم تلك الأيام ، لم يبق لي من ذلك الحلم الجميل سوى
تذكارات موجعة ترفرف كالأجنحة غير المنظورة حول
رأسي مثيرة تنهدات الأسى في أعماق صدري مستقطرة
دموع اليأس والأسف من أجفاني .. وسلى - سلى

الجميلة العذبة قد ذهبت إلى ما وراء الشفق الأزرق ولم يبق
من آثارها في هذا العالم سوى غصات أليمة في قلبي وقبر
رخامي منتصب في ظلال أشجار السرو . فذلك القبر وهذا
القلب هما كل ما بقي ليحدث الوجود عن سلمى كرامه ،
غير أن السكينة التي تخفر القبور لا تفشي ذلك السر المصون
الذي أخفته الآلهة في ظلمات التابوت ، والأغصان التي
امتصت عناصر الجسد لا تبيع بحفيفها مكنونات الحفرة .
أما غصات هذا القلب وأوجاعه فهي التي تتكلم وهي التي
تنسكب الآن مع قطرات الحبر السوداء معلنة النور أشباح
تلك المأساء التي مثلها الحب والجمال والموت .

فيا أصدقاء شبيبتي المنتشرين في بيروت ، إذا مررتم بتلك
المقبرة القريبة من غابة الصنوبر ادخلوها صامتين وسيرا ببطء
كيلا تزعج أقدامكم رفسات الراقدين تحت أطباق الثرى ،
وقفوا متهيئين بجانب قبر سلمى وحيوا عني التراب الذي ضم
جثمانها ثم اذكروني بتنهدة قائلين في نفوسكم: وهنا دفنت آمال
ذلك الفتى الذي نفثه صروف الدهر الى ما وراء البحار ،
وهنا توارت أمانيه وانزوت أفراحه وغارت دموعه
واضحلت ابتساماته ، وبين هذه المدافن الخرساء تنمو كآبته
مع أشجار السرو والصفصاف ، وفوق هذا القبر ترفرف
روحه كل ليلة مستأنسة بالذكرى ، مرددة مع أشباح الوحشة
ندبات الحزن والأسى ، نائحة مع الغصون على ضبية كانت

بالأمس نعمة شجيرة بين شفتي الحياة فأصبحت اليوم سرّاً
صامتاً في صدر الأرض .

استعلفكم يا رفاق الصبا بالنساء اللواتي احبتن " قلوبكم ان
تضعوا أكاليل الأزهار على قبر المرأة التي أحبها قلبي - قرب
زهرة تلفونها على ضريح ملسي تكون كقطرة الندى التي
تسكبها أجفان الصباح بين أوراق الورد الذابلة .



الكتابة الخرساء



أنتم أيها الناس تذكرون فجر الشبيبة فرحين باسترجاع
رسومه متأسفين على انقضائه ، أما أنا فأذكره مثلما يذكر
الحر المعتق جدران سجنه وثقل قيوده . أنتم تدعون تلك
السنين التي تجيء بين الطفولة والشباب عهداً ذهبياً يهزأ بمتاعب
الدهر وهو أجسه ويطير مرفرفاً فوق رؤوس المشاغل والهموم
مثلما تجتاز النحلة فوق المستنقعات الخبيثة سائرة نحو البساتين
المزهرة ؛ أما أنا فلا أستطيع أن أدعو سني الصبا سوى
عهد آلام خفية خرساء كانت تقطن قلبي وتثور كالعواصف
في جوانبه وتتكاثر فامية بنموه ، ولم تجد منفذا تتصرف منه
إلى عالم المعرفة حتى دخل إليه الحب وفتح أبوابه وأثار
زواياه . فالحب قد أعتق لساني فتكلمت ومزق أجفاني
فبكيت وفتح حنجرتي فتنهدت وشكوت .

أنتم أيها الناس تذكرون الحقول والبساتين والساحات
وجوانب الشوارع التي رأت ألعابكم وممعت همس طهركم ،
وأنا أيضاً أذكر تلك البقعة الجميلة من شمال لبنان ، فما

أغمضت عينيّ عن هذا المحيط إلا رأيت تلك الأودية المملوءة
سحراً وهيبة، وتلك الجبال المتعالية بالمجد والعظمة نحو العلاء،
ولا سمعت أذني عن ضجبة هذا الاجتماع إلا سمعت خرير تلك
السواقي وحفيف تلك الفصون . ولكن هذه المحاسن التي
أذكرها الآن وأتشوق إليها تشوق الرضيع إلى ذراعي أمه هي
هي التي كانت تعذب روحي المسجونة في ظلمة الحداثة
مثلما يتعذب البازي بين قضبان قفصه عندما يرى أمراب
البزاة تسبح حرة في الخلاء الواسع - وهي التي كانت تملأ
صدري بأوجاع التأمل ومرارة التفكير وتنسج بأصابع الحيرة
والالتباس نقاباً من اليأس والقنوط حول قلبي - فلم أذهب
إلى البرية إلا عدت منها كئيباً جاهلاً أسباب الكتابة ، ولا
نظرت مساء إلى الغيوم المتلونة بأشعة الشمس إلا شعرت
بانقباض متلف ينمو لجهلي معاني الانقباض، ولا سمعت تغريدة
الشحرور أو أغنية الغدير إلا وقفت حزينا لجهلي موحيات
الحزن .

يقولون ان الغباوة مهد الخلو والخلو مرقد الراحة - وقد
يكون ذلك صحيحاً عند الذين يولدون أمواتاً ويعيشون
كالأجساد الهامدة الباردة فوق التراب ، ولكن إذا كانت
الغباوة العمياء قاطنة في جوار العواطف المستيقظة تكون
الغباوة أقسى من الهاوية وأمر من الموت. والصبي الحساس الذي
يشعر كثيراً ويعرف قليلاً هو أتمس المخلوقات أمام وجه
الشمس لأن نفسه تظل واقفة بين قوتين هائلتين متباينتين :

قوة خفيفة تخلق به في السحاب وتريه محاسن الكائنات من وراء ضباب الأحلام ، وقوة ظاهرة تقيده بالأرض وتغمر بصيرته بالغبار وتتركه ضائعاً خائفاً في ظلمة حالكة .

للكتابة ايد حريرية الملامس قوية الأعصاب تقبض على القلوب وتؤلها بالوحدة ، فالوحدة حليفة الكتابة كما أنها أليفة كل حركة روحية . ونفس الصبي المنتصبه أمام عوامل الوحدة وتأثيرات الكتابة شبيهة بالزنبقة البيضاء عند خروجها من الكمام ترتبش أمام النسيم وتفتح قلبها لأشعة الفجر وتضم أوراقها بمرور أخيلة المساء ، فان لم يكن للصبي من الملامي ما يشغل فكرته ومن الرفاق من يشاركه في الميول كانت الحياة امامه كعبس ضيق لا يرى في جوانبه غير انوال العناكب ولا يسمع من زواياه سوى دبيب الحشرات .

أما تلك الكتابة التي اتبعت أيام حداثتي فلم تكن ناتجة عن حاجتي الى الملامي لأنها كانت متوفرة لدي ، ولا عن افتقاري الى الرفاق لأنني كنت أجدهم أينما ذهبت ، بل هي من اعراض علة طبيعية في النفس كانت تحبب اليّ الوحدة والانفراد ، وتميت في روحي الميول الى الملامي والالعب ، وتخلع عن كتفي أجنحة الصبا ، وتجعلني أمام الوجود كحوض مياه بين الجبال يعكس بهدوئه المزن رسوم الأشباح وألوان الغيوم وخطوط الأغصان ، ولكنه لا يجد ممرأ يسير فيه جدولاً مترنماً الى البحر .

هكذا كانت حياتي قبل أن ابلغ الثامنة عشرة؛ فتلك السنة
هي من ماضي بمقام القمة من الجبل لأنها أوقفتني متأملاً تجاه
هذا العالم وأرتقي سبل البشر ومروج ميولهم وعقبات متاعبهم
وكهوف شرائعهم وتقاليدهم .

في تلك السنة ولدت ثانية ، والمرء ان لم تجبل به الكتابة
ويتمنخض به اليأس وتضعه المحبة في مهد الاحلام تظل حياته
كصفحة خالية بيضاء في كتاب الكيان .

في تلك السنة شاهدت ملائكة السماء تنظر اليّ من وراء
أجفان امرأة جميلة ، وفيها رأيت أبالسة الجحيم يضجون
ويتراکضون في صدر رجل مجرم - ومن لا يشاهد الملائكة
والشياطين في محاسن الحياة ومكروهاها يظل قلبه بعيداً عن
المعرفة ونفسه فارغة من المواطن .



كنت في بيروت في ربيع تلك السنة المملوءة بالغرائب ،
وكان نيسان قد أنبت الأزهار والأعشاب فظهرت في بساطين
المدينة كأنها اسرار تعلنها الأرض للسماء . وكانت أشجار اللوز
والتفاح قد اكتست بحلل بيضاء معطرة فبانت بين المنازل
كأنها حوريات بملابس ناصعة قد بعثت بهن الطبيعة عرائس
وزوجات لابناء الشعر والخيال .

الربيع جميل في كل مكان ولكنه اكثر من جميل في سوريا ..
الربيع روح إله غير معروف تطوف في الأرض مسرعة وعندما
تبلغ سوريا تسير ببطء متلفتة الى الورا مستأنسة بأرواح
الملوك والأنبياء الحائمة في الفضاء ، مترنمة مع جداول اليهودية
بأناشيد سليمان الخالدة ، مرددة مع أرز لبنان تذكارات المجد
القديم .

وبيروت في الربيع أجمل منها في ما بقي من الفصول لانها
تخلو فيه من أوحال الشتاء وغبار الصيف وتصبح بين أمطار
الأول وحرارة الثاني كصيبة حسناء قد اغتسلت بمياه الغدير
ثم جلست على ضفته تجفف جسدها بأشعة الشمس .

ففي يوم من تلك الأيام المفعمة بأنفاس نيسان نيسان المسكرة
وابتساماته الحية ، ذهبت لزيارة صديق يسكن بيتاً بعيداً
عن ضجة الاجتماع. وبينما نحن نتحدث راسمين بالكلام خطوط
آمالنا وأمانينا دخل علينا شيخ جليل في الخامسة والستين من
عمره تدل ملابسه البسيطة وملاحظه المتجعدة على الهيبة والوقار
فوقفت احتراماً ، وقبيل ان اصافحه مسلماً تقدم صديقي
وقال : حضرته فارس أفندي كرامه . ثم لفظ اسمي مشفوعاً
بكلمة ثناء ، فحدق إليّ الشيخ هنيهة لامساً باطراف اصابعه
جبهته العالية المكحلة بشعر أبيض كالثلج كأنه يريد أن يسترجع
إلى ذاكرته صورة شيء قديم مفقود ثم ابتسم ابتسامة سرور
وانعطاف واقترب مني قائلاً : انت ابن صديق حبيب قديم
صرفت ربيع العمر برفقته ، فما أعظم فرحي بمرآك وكم أنا
مشتاق إلى لقاء أبيك بشخصك !

فتأثرت لكلامه وشعرت يجاذب خفي يدنني اليه بطمأنينة
مثلما تقود الغريزة العصفور إلى وكره قبيل مجيء العاصفة .
ولما جلسنا أخذ يقص علينا أحاديث صداقته لوالدي متذكراً
أيام الشباب التي صرفها بقربه تالياً على مسامعنا اخبار أعوام
قضت فكفنها الدهر بقلبه وقبرها في صدره ... ان الشيوخ
يرجعون بالفكر إلى أيام شباههم رجوع الغريب المشتاق إلى
مسقط رأسه ، ويميلون الى سرد حكايات الصبا ميل الشاعر
إلى تنعيم أبلغ قصائده ، فهم يعيشون بالروح في زوايا

الماضي الغابر لان الحاضر يمر بهم ولا يلتفت ، والمستقبل يبدو لأعينهم متشجاً بضباب الزوال وظلمة القبر .

وبعد ساعة مرت بين الأحاديث والتذكارات^٢ مرور ظل الأغصان على الأعشاب ، وقف فارس كرامه للانصراف ، ولما دنوت منه مودعاً أخذ يدي بيمينه ووضع شماله على كتفي قائلاً : أنا لم أرَ والدك منذ عشرين سنة ولكنني أرجو ان أتعويض عن بعاده الطويل بزياراتك الكثيرة .

فانحنيت شاكراً واعدأ بتتيم ما يجب على الابن نحو صديق أبيه .

ولما خرج فارس كرامه استزدت صاحبي من أخباره فقال بلهجة يساورها التحدر : لا اعرف رجلاً سواء في بيروت قد جعلته الثروة فاضلاً والفضيلة مثرياً . وهو واحد من القليلين الذين يحيثون هذا العالم ويفادرونه قبل أن يلامسوا بالأذى نفس مخلوق ، ولكن هؤلاء الرجال يكونون غالباً نساء مظلومين ، لأنهم يجهلون سبل الاحتيال التي تتقدم من مكر الناس وخبثهم ... وفارس كرامه ابنة وحيدة تسكن معه منزلاً فخماً في ضاحية المدينة ، وهي تشابهه بالأخلاق وليس بين النساء من تماثلها رقة وجبالاً ، وهي ايضاً ستكون ناعسة لأن ثروة والدها الطائلة توقفها الآن على شفير هاوية مظلمة مخيفة .

الاجنحة المتكسرة (٢)

لفظ صديقي الكلمات الأخيرة وظهرت على محياه لوائح
 الغم والأسف ثم زاد قائلاً : فارس كرامه شيخ شريف القلب
 كريم الصفات ولكنه ضعيف الارادة يقوده رياء الناس كالأعمى
 وتوقفه مطامعهم كالأخرس . أما ابنته فتخضع بامتثال لارادته
 الواهنة على رغم كل مافي روحها الكبيرة من القوى والمواهب .
 وهذا هو السر الكامن وراء حياة الوالد وابنته . وقد فهم
 هذا السر رجل يألف في شخصه الطمع بالرياء والخبث
 بالدهاء ، وهذا الرجل هو مطران تسير قبائحه بظل الانجيل
 فتظهر للناس كالفضائل . هو رئيس دين في بلاد الأديان والمذاهب
 تخافه الأرواح والأجساد وتخبر لديه ساجدة مثلما تنحني رقاب
 الانعام أمام الجزار . ولهذا المطران ابن أخ تتصارع في نفسه
 عناصر المفاشد والمكاره مثلما تتقلب العقارب والأفاعي على
 جوانب الكهوف والمستنقعات . وليس بعيداً اليوم الذي
 يقتصب فيه المطران بملابسه الجبرية جاعلاً ابن أخيه عن يمينه
 وابنة فارس كرامه عن شماله رافعاً بيده الأثيمة اكليل الزواج
 فوق رأسها مقيداً بسلاسل التكهن والتعظيم جسداً طاهراً
 يحيفة منتنة ، جامعاً في قبضة الشريعة الفاسدة روحاً سماوية
 بذات ترابية ، واضعاً قلب النهار في صدر الليل . هذا كل ما
 أستطيع ان اقله لك الآن عن فارس كرامه وابنته فلا تسلفني
 أكثر من ذلك لأن ذكر المصيبة يدينها مثلما يقرب الموت
 الخوف من الموت .

وحوّل صديقي وجهه ونظر من النافذة الى الفضاء كأنه
يبحث عن أمرار الأيام والليالي بين دقائق الأثير .

فقمّت إذ ذاك من مكاني ، ولما اخذت يده مودعاً قلت له :
غداً أزور فارس كرامه قياماً بوعدى له واحتراماً للتذكارات
التي ابقتها صداقته لوالدي .

فبهت بي الشاب دقيقة وقد تغيرت ملامحه كأن كلماتي
القليلة البسيطة قد أوحى اليه فكراً جديداً هائلاً ، ثم نظر
في عيني نظرة طويلة غريبة - نظرة محبة وشفقة وخوف -
نظرة نبي يرى في أعماق الارواح ما لا تعرفه الارواح ، ثم
ارتعشت شفاته قليلاً ولكنه لم يقل شيئاً ، فتركته وسرت
نحو الباب بأفكار متضعضعة ، وقبيل ان يلتفت الى الورا
رأيت عينيه ما زالتا تتبعانني بتلك النظرة الغريبة - تلك
النظرة التي لم أفهم معانيها حتى عتقت نفسي من عالم المقاييس
والكمية وطارت إلى مسارح الملا الأعلى حيث تتفاهم القلوب
بالنظرات وتنمو الارواح بالتفاهم .

وبعد أيام وقد مللت الوحدة وتعبت أجفاني من النظر
الى أوجه الكتب العابسة علوت مركبة طالباً منزل فارس
كرامه ، حتى إذا ما بلغت بي غابة الصنوبر حيث يذهب
القوم للتنزه حول السائق وجهة فرسيه عن الطريق العمومية
فسار خبياً على ممر تظله اشجار الصفصاف وتتايل على جانبيه
الأعشاب والدوالي المتعرشة وأزاهر نيسان المبتسمة بثغور
حمراء كاللياقوت وزرقاء كالزمرد وصفراء كالذهب .

وبعد دقيقة وقفت المركبة أمام منزل منفرد تحيط به
حديقة مترامية الأطراف تتعاقب في جوانبها الاغصان وتطر
فضاءها رائحة الورد والفل والياسمين .

ما سرت بضع خطوات في تلك الحديقة حتى ظهر فارس
كرامه في باب المنزل خارجاً للقائي كأن هدير المركبة في تلك
البقعة المنفردة قد أعلن له قدومي ، فهش متأهلاً وقادني
مرحباً الى داخل الدار ، ونظير والد مشتاق اجلسني بقربه
يحدثني مستفسراً عن ماضي مستطلعاً مقاصدي في مستقبل ،
فكنت أجيبه بتلك اللهجة المفعمة بنغمة الأحلام والأمانى

التي يترنم بها الفتیان قبل أن تقذفهم أمواج الخيال إلى شاطئه
العمل حيث الجهاد والنزاع ... للشبيبة أجنحة ذات ريش من
الشعر وأعصاب من الأوهام ترتفع بالفتیان إلى ما وراء
الغيوم فيرون الكیات مغموراً بأشعة متلونة بألوان قوس
قزح ، ويسمعون الحياة مرتلة أغاني المجد والعظمة ، ولكن
تلك الأجنحة الشعرية لا تلبث أن تمزقها عواصف الاختبار
فيهبطون إلى عالم الحقيقة ، وعالم الحقيقة مرآة غريبة يرى
فيها المرء نفسه مصغرة مشوهة .

في تلك الدقيقة ظهرت من بين ستائر الباب الحملية صبية
ترقدي أثواباً من الحرير الأبيض الناعم ومشت نحوي ببطم ،
فوقفت ووقف الشيخ 'قائلاً : هذه ابنتي سلمى . وبعد أن
لفظ اسمي شفعه بقوله : ان ذاك الصديق القديم الذي حجبته
عني الأيام قد عادت فأبانت لي بشخص ابنه ، فأنا أراه الآن
ولا أراه . فتقدمت الصبية إلي وحدقت إلى عيني كأنها تريد
أن تستنطقها عن حقيقة امري وتعلم منها أسباب مجيئي إلى
ذلك المكان ، ثم اخذت يدي بيد تضارع زنبقة الحقل بياضاً
ونعومة ، فأحسست عند ملامسة الأكف بعاطفة غريبة
جديدة اشبه شيء بالفكر الشعري عند ابتداء تكوينه في
مخيلة الكاتب .

جلسنا جميعاً ساكتين كأن سلمى قد ادخلت معها إلى تلك
الغرفة روحاً علوية توغز الصمت والتهيب ، وكأنها شعرت
بذلك فالتفتت نحوي وقالت مبتسمة : كثيراً ما حدثني

والدي عن ابيك معيداً على مسمي حكايات شبابه ، فان
كان والدك قد اسمعك تلك الوقائع فلا يكون هذا اللقاء هو
الأول بيننا .

فسر الشيخ بكلمات ابنته وانبسطت ملاحه ثم قال : ان
سلمى روحية الميول والمذاهب ، فهي ترى جميع الأشياء
سابقة في عالم النفس .

وهكذا عاد فارس كرامه الى محادثتي باهتمام كلي ورقة
متناهية كأنه وجد في سرّاً سحرياً يرجعه على اجنحة الذكرى
الى ربيع ايامه الغابرة .

كان ذلك الشيخ يحدق اليّ مسترجعاً اشباح شبابه وانا
اتأمله حالماً بمستقبلي ، كان ينظر اليّ مثلما تخيم اغصان الشجرة
العالية المملوءة بمآقي الفصول فوق غرسة صغيرة مفعمة بعزم
هاجع وحياة عيماء . شجرة مسنة راسخة الأعراق قد اختبرت
صيف العمر وشتاءه ووقفت امام عواصف الدهر وانوائه ،
وغرسة ضعيفة لينة لم ترّ غير الربيع ولم ترتعش إلا بمرور
نسيم الفجر .

اما سلمى فكانت ساكنة تنظر الي تارة وطوراً الى
ابيه كأنها تقرأ في وجههنا اول فصل من رواية الحياة وآخر
فصل منها .

قضى ذلك النهار متنهداً انفاسه بين تلك الحداثق والبساتين
وغابت الشمس تاركة خيال قبلة صفراء على قمم لبنان المتعالية
قبالة ذلك المنزل وفارس كرامه يتلو عليّ أخباره
فيذهلني وانا اترنم امامه بأغاني شبيبتي فاطربه ، وسلمى

جالسة بقرب تلك النافذة تنظر إلينا بعينيها الحزینتین ولا تتحرك وتسمع أحاديثنا ولا تتكلم كأنها عرفت ان للجمال لغة سماویة ترفع عن الاصوات والمقاطع التي تحدثها الشفاه والألسنة ، لغة خالدة تضم إليها جميع انغام البشر وتجعلها شعوراً صامتاً مثلما تجتذب البحيرة الهادئة أغاني السواقي إلى أعماقها وتجعلها سكوتاً أبدياً . ان الجمال سر تفهمه أرواحنا وتفرح به وتنمو بتأثيراته ، أما أفكارنا فتقف أمامه ختارة محاولة لتحديده وتجسيده بالألفاظ ولكنها لا تستطيع . هو سیال خاف عن العين يتموج بين عواطف الناظر وحقیقة المنظور . الجمال الحقیقی هو أشعة تنبعث من قدس أقدس النفس وتثیر خارج الجسد مثلما تنبثق الحياة من أعماق النواة وتكسب الزهرة لوناً وغطراً - هو تفاهم كلي بين الرجل والمرأة يتم بلحظة ، وبلحظة یولد ذلك الميل المترفع عن جميع الميول - ذلك الانعطاف الروحي الذي ندعوه حباً ، فهل فهمت روحي روح سلمی فی عشية ذلك النهار فجعلني التفاهم أراها أجمل امرأة امام الشمس ام هي سكرة الشبیبة التي تجعلنا نتخیل رسوماً واشباحاً لا حقیقة لها؟ هل اعمتني الفتوة فتوهمت الاشعة فی عینی سلمی والحلاوة فی ثغرها والرقعة فی قدما ام هي تلك الأشعة وتلك الحلاوة وتلك الرقعة التي فتحت عینی لتربني أفراح الحب وأحزانه ؟ لا أدري ولكنني أعلم انني شعرت بعاطفة لم أشعر بها قبل تلك الساعة . عاطفة جديدة تمايلت حول قلبي بهدوء يشابه رفرقة الروح علی وجه القمر قبل ان تبتدیء الدهور . ومن تلك العاطفة قد تولدت سعادتی

وتعاسقي مثلما ظهرت وتناسخت الكائنات بإرادة ذلك الروح .
هكذا انقضت تلك الساعة التي جمعتني بسلمى لأول مرة ،
وهكذا شئت السباء واعتقتني على حين غفلة من عبودية
الحيرة والحدائث لتسيرني حرّاً في موكب المحبة ، فالحبة هي
الحرية الوحيدة في هذا العالم لأنها ترفع النفس إلى مقام سام
لا تبلغه شرائع البشر وتقاليدهم ولا تسوده نواويس الطبيعة
وأحكامها .

ولما وقفت للانصراف اقترب مني فارس كرامه وقال
بصوت تعانقه رنة الاخلاص : الآن وقد عرفت الطريق الى
هذا المنزل يجب أن تأتي اليه شاعراً بالثقة التي تقودك إلى بيت
أبيك وأن تحسبني وسلمى كوالد وأخت لك - اليس كذلك
يا سلمى ؟

فحننت سلمى رأسها إيجاباً ثم نظرت إليّ نظرة غريب
ضائع وجد رفيقاً يعرفه .

ان تلك الكلمات التي قالها لي فارس كرامه هي النعمة
الأولى التي أوقفتني بجانب ابنته أمام عرش المحبة هي استهلال
الأغنية السماوية التي انتهت بالنسب والثناء . هي القوة التي
شجعت روحنا فاقتربنا من النور والنار . هي الإناء الذي
شربنا فيه الكوثر والعلقم .

وخرجت فشيوعي الشيخ الى اطراف الحديقة ، فودعتها
وقلبي يخفق في داخلي مثلما ترتعش شفتا العطشان بلامسة حافة
الكأس .

الشعلة البيضاء



وانقضى نيسان وأنا أزور منزل فارس كرامه وألتقي
سلمى وأجلس قبالتها في تلك الحديقة متأملاً محاسنها ، معجباً
بمواهبها، مصفياً لسكينة كآبتها ، شاعراً بوجود أيد خفية
تجتذبنني اليها . فكل زيارة كانت تبين لي معنىً جديداً من
معاني جمالها وسراً علوياً من أسرار روحها حتى أصبحت أمام
عيني كتاباً أقرأ سطورره وأستظهر آياته وأترنم بنغمته ولا
استطيع الوصول الى نهايته .

ان المرأة التي تمنحها الآلهة جمال النفس مشفوعاً بجمال الجسد
هي حقيقة ظاهرة غامضة نفهمها بالمحبة ونلمسها بالظهر ، وعندما
نحاول وصفها بالكلام تختفي عن بصائرنا وراء ضباب الحيرة
والالتباس .

وسلمى كرامه كانت جميلة النفس والجسد ، فكيف أصفها
لمن لا يعرفها ؟ هل يستطيع الجالس في ظل أجنحة الموت أن
يستحضر تغريدة البلبل ، وهمس الوردية ، وتنهدة الغدير ؟
أيقدر الأسير المثلث بالقيود ان يلاحق هبوب نسائم الفجر ؟

ولكن أليس السكوت أصعب من الكلام ؟ وهل يمنعني التهيّب
عن إظهار خيال من أخيلة سلمى بالألفاظ الواهية اذا كنت
لا أستطيع أن أرسم حقيقتها بخطوط من الذهب ؟ إن الجائع
السائر في الصحراء لا يأبى أكل الخبز اليابس إذا كانت السماء
لا تمطره المن والسوى .

كانت سلمى نحيلة الجسم تظهر بملابسها البيضاء الحريرية
كأشعة قمر دخلت من النافذة . وكانت حركاتها بطيئة متوازنة
أشبه شيء بمقاطع الألحان . الأصفهانية ، وصوتها منخفضاً
حلوّاً تقطعه التهنيدات ، فينسكب من بين شفثيها القرمزيتين مثلاً
تتساقط قطرات الندى عن تيجان الزهور بمرور تموجات
الهواء .. ووجهها - ومن يا ترى يستطيع أن يصف وجه
سلمى كرامه ؟ بأية ألفاظ نقدر أن نصور وجهاً حزيناً هادئاً
محجوباً وليس محجوباً بنمّاب من الاصفرار الشفاف ؟ بأية لغة
نقدر أن نتكلم عن ملامح تعلن في كل دقيقة سرّاً من أسرار
النفس وتذكر الناظرين إليها بعالم روحي بعيد عن هذا العالم !

ان الجمال في وجه سلمى لم يكن منطبقاً على المقاييس التي
وضعها البشر للجمال ، بل كان غريباً كالحلم او كالرؤيا او
كفكر علوي لا يقاس ولا يحد ولا ينسخ بريشة المصور ، ولا
يتجسم برخام الحفار . جمال سلمى لم يكن في شعرها الذهبي
بل في هالة الطهر المحيطة به . ولم يكن في عينيها الكبيرتين
بل في النور المنبعث منها . ولا في شفثيها الورديتين بل في

الحلاوة السائلة عليها . ولا في عنقها العاجي بل في كيفية
انحنائه قليلا إلى الأمام . جمال سلمى لم يكن في كمال جسدها
بل في نبالة روحها الشبيهة بشعلة بيضاء متقدة سابحة بين الأرض
واللآهية . جمال سلمى كان نوعاً من ذلك النبوغ الشعري الذي
نشاهد اشباحه في القصائد السامية والرسوم والانغام الخالدة .
وأصحاب النبوغ تعساء منها تسامت أرواحهم تظل مكتنفة
بغلاف من الدموع .

وكانت سلمى كثيرة التفكير قليلة الكلام ، لكن سكوتها
كان موسيقياً ينتقل بجليسها الى مسارح الأحلام البعيدة ،
ويجعله يصغي لنبضات قلبه ، ويرى أخيلة افكاره وعواطفه
منتصبة أمام عينيه .

أما الصفة التي كانت تعانق مزايا سلمى وتساور أخلاقها
فهي الكتابة العميقة الجارحة ، فالكتابة كانت وشاحاً معنوياً
ترقيده فتزيد محاسن جسدها هيبه وغرابه ، وتظهر أشعة
نفسها من خلال خيوطه كخطوط شجرة مزهرة من وراء
ضباب الصباح . وقد أوجدت الكتابة بين روعي وروح سلمى
صلة المشابهة ، فكان كلانا يرى في وجه الثاني ما يشعر به قلبه
ويسمع بصوته صدى مخبات صدره ، فكان الآلهة قد جعلت
كل واحد منا نصفاً للآخر يلتصق به بالطهر فيصير انساناً
كاملاً ، وينفصل عنه فيشعر بنقص موجه في روحه .

إن النفس الحزينة المتأللة تجد راحة بانضمامها الى نفس

أخرى تماثلها بالشعور وتشاركها بالاحساس مثلما يستأنس
الغريب بالغريب في أرض بعيدة عن وطنها - فالقلوب التي
تدنيها أوجاع الكتابة بعضها من بعض لا تفرقها بهجة الأفراح
وبهرجتها . فرابطة الحزن أقوى في النفوس من روابط القبضة
والسرور . والحب الذي تغسله العيون بدموعها يظل طاهراً
وجميلاً وخالداً .



العاصفة



وبعد أيام دعاني فارس كرامه إلى تناول العشاء في منزله ،
فذهبت ونفسي جائعة إلى ذلك الخبز العلوي الذي وضعته
السماء بين يدي سلمى ، ذلك الخبز الروحي الذي نلتهمه بأفواه
أفئدتنا فنزداد جوعاً ، ذلك الخبز السحري الذي ذاق طعمه
قيس العربي ودانتي الطلياني وسافو اليونانية فالتهمت أحشاؤهم
وذابت قلوبهم ، ذلك الخبز الذي عجنته الآلهة بجلاوة القبل
ومرارة الدموع وأهدته مأكلا للنفوس الحساسة المستيقظة
لثة لحها بطعمه وتعذيبها بتأثيره .

ولما بلغت المنزل وجدت سلمى جالسة على مقعد خشبي
في زاوية من الحديقة وقد أسندت رأسها إلى عمد شجرة فبانَتْ
بثوبها الأبيض كواحدة من عرائس الخيال تخفر ذلك المكان ،
فدنوت منها صامتاً وجلست بقربها جلوس مجوسي متهيّب أمام
النار المقدسة ، ولما حاولت الكلام وجدت لساني منعقداً
وشفقيّ جامدتين فاستأنست بالسكوت ، لأن الشعور العميق
غير المتناهي يفقد شيئاً من خاصته المعنوية عندما يتجسم
بالألفاظ المحدودة ، ولكنني شعرت بأن سلمى كانت تسمع في

السكينة مناجاة قلبي المتواصلة وتشاهد في عيني" أشباح نفسي المرتعشة .

وبعد هنيهة خرج فارس كرامه الى الحديقة ومشى نحونا مرحباً بي كعادته باسطاً يده إليّ كأنه يريد أن يبارك بها ذلك السر الخفي الذي يربط روحي بروح ابنته ، ثم قال مبتسماً : هلمّ يا ولديّ الى العشاء فالطعام ينتظرنا . فقمنا وتبعناه وسلمى تنظر إلي من وراء أجفان مكحولة بالرقّة والانعطاف كأن لفظه «يا ولديّ» قد أيقظت في داخلها شعوراً جديداً عذباً يكتنف محبتها لي مثلما تحتضن الأم طفلها .

جلسنا الى المائدة نأكل ونشرب ونتحدث - جلسنا في تلك الغرفة تتلذذ بألوان الطعام الشهية وأنواع الخمر المعتقة وأرواحنا تسبح على غير معرفة منا في عالم بعيد عن هذا العالم وتعلم بماّتي المستقبل وتتأهب للوقوف أمام مخاوفه وأهواله . ثلاثة أشخاص تختلف افكارهم باختلاف مقاصدهم من الحياة وتتفق سرائرهم باتفاق قلوبهم بالموودة والمحبة ، ثلاثة من الضعفاء الأبرياء يشعرون كثيراً ويعرفون قليلاً . وهذه هي المأساة المستتبة على مسرح النفس . شيخ جليل شريف يحب ابنته ولا يحفل بغير سعادتها - وصبية في العشرين من عمرها ترى المستقبل قريباً بعيداً وتحقق اليه لترى ما يخبئ لها من الغبطة والشقاء - وفتي كثير الأحلام والهواجس لم يذق بعد خمر الحياة ولا خلها يحرك جناحيه ليطير ساجداً في فضاء المحبة والمعرفة ولكنه لا يستطيع

النهوض لضعفه . ثلاثة جالسون حول مائدة انيقة في منزل منفرد عن المدينة تخيم عليه سكينه الدجى وتحديق اليه عيون السماء ، ثلاثة يأكلون ويشربون وفي اعماق صحوهم وكؤوسهم قد اخفى القدر المرارة والاشواك .

ولم نلته من العشاء حتى دخلت علينا احدى الخادومات وخاطبت فارس كرامه قائلة : في الباب رجل يطلب مقابلتك يا سيدي .

فسألتها : من هو هذا الرجل ؟ فأجابت : اظنه خادم المطران يا سيدي . فسكت دقيقة وحديق إلى عيني ابتته نظير نبي ينظر الى وجه السماء ليرى ما تخبئه من الأسرار ، ثم التفت نحو الخادمة وقال : دعيه يدخل .

فعدت الخادمة ، وبعد هنيهة ظهر رجل بأثواب مزر كشه وشارب معقوف الطرفين ، فسلم منعنيا وخاطب فارس كرامه قائلاً : قد بعثني سيادة المطران بركبته الخصوصية لاطلب اليك ان تتكرم بالذهاب اليه ، فهو يريد أن يباحثك بأمور ذات أهمية .

فانتصب الشيخ وقد تغيرت ملامحه وانحجبت بشاشة وجهه وراء نقاب من التأمل والتفكير ، ثم اقرب مني وقال بصوت تساوره الرقة والحلاوة : أرجو أن اعود والفاك ههنا ، فسلمي ستجد بك مؤنسا يبعد بأحاديثه وحشة الليل ، ويزيل بأنغام نفسه تأثير الوحدة والانفراد . ثم التفت نحو ابتته وزاد مبتسماً : اليس كذلك يا سلمى ؟

فحننت الصبية رأسها وقد توردت وجنتها قليلاً ،
وبصوت يضارع نغمة الناي رقة قالت : سوف اجهد النفس
لكي أجعل ضيفنا مسروراً يا والدي .

وخرج الشيخ مصحوباً بخادم المطران وظلت سلمى واقفة
تنظر من النافذة نحو الطريق حتى اختفت المركبة عن بصرها
وراء ستائر الظلام واضمحل ارتجاج الدواليب بتباعد المسافة
وتشرب السكون حرققة سنابك الخيل ، ثم جلست قبالي
على مقعد موشى بنسيج من الحرير الأخضر فبانئت بأثوابها
الناصعة كزنبقة لوت قامتها نسيمات الصباح على بساط من
الأعشاب .

كذا شاءت السماء فخلوت بسلمى ليلاً في منزل منفرد
تحفره الأشجار ، وتغمره السكينة ، وتسير في جوانبه أخيلة
الحب والطهر والجمال .

ومرت دقائق وكلانا صامت حائر مفكر يترقب الآخر
ليبدأ بالكلام . ولكن هل هو الكلام الذي يحدث التفاهم
بين الأرواح المتحابة ؟ هل هي الأصوات والمقاطع الخارجة
من الشفاه والألسنة التي تقرب بين القلوب والعقول ؟ أفلا
يوجد شيء أسمى مما تلده الأفواه وأطهر مما تهتز به أوتار
الحناجر ؟ أليست هي السكينة التي تحمل شعاع النفس إلى
النفس ، وتنقل همس القلب إلى القلب ؟ أليست هي السكينة
التي تفصلنا عن ذواتنا فنسبح في فضاء الروح غير الهدهد
مقترنين من الملا الأعلى ، شاعرين بأن أجسادنا لا تفوق

السجون الضيقة ، وهذا العالم لا يمتاز عن المنفى البعيد ؟
ونظرت سلمى إلي وقد باحت أجفانها بسرائر نفسها ثم
قالت بهدوء سحري : تعال نخرج إلى الحديقة ونجلس بين
الأشجار لنرى القمر طالماً من وراء الجبل .

فوقفت مطيعاً وقلت ممانعاً : أليس الأفضل أن نبقى هنا
يا سلمى حتى يطلع القمر وينير الحديقة ؟ أما الآن فالظلام
يحجب الأشجار والأزهار فلا نستطيع أن نرى شيئاً .
فأجابت : إذا حجب الظلام الأشجار والرياحين عن العين
فالظلام لا يحجب الحب عن النفس .

قالت هذه الكلمات بلهجة غريبة ، ثم حولت عينيها
ونظرت نحو النافذة ، فبقيت أنا صامتاً مفكراً بكلماتها
مصوراً لكل مقطع معنى ، راسماً لكل معنى حقيقة ، ثم
عادت فحدقت إلي كأنها ندمت على ما قالت فحاولت
استرجاع كلماتها من أذني بسحر أجفانها . ولكن سحر تلك
الأجفان لم يسترجع تلك الألفاظ إلا ليعيدها إلى أعماق صدري
أكثر وضوحاً وأشد تأثيراً وليبقها هناك ملتصقة بقلبي
متموجة مع عواطفني إلى آخر الحياة

كل شيء عظيم وجميل في هذا العالم يتولد من فكر واحد
أو من حاسة واحدة في داخل الإنسان . كل ما نراه اليوم من
أعمال الأجيال الغابرة كان قبل ظهوره فكراً خفياً في عاقلة
رجل أو عاطفة لطيفة في صدر امرأة ... الثورات الهائلة

الاجنحة المتكسرة (٣)

التي أجرت الدماء كالسواقي وجعلت الحرية تعبد كالأله كانت
فكراً خيالياً مرتعشاً بين تلافيف دماغ رجل فرد عائش بين
ألوف من الرجال . والحروب الموجهة التي ثلت العروش
ونخرت الممالك كانت خاطراً يتمايل في رأس رجل واحد .
والتعالم السامية التي غيرت مسار الحياة البشرية كانت ميلاً
شعرياً في نفس رجل واحد منفصل بنبوغه عن محيطه .
فكر واحد أقام الأهرام وعاطفة واحدة خربت تروادة
وخاطر واحد أوجد مذهب الإسلام وكلمة واحدة أحرقت
مكتبة الاسكندرية .

فكر واحد يجيئك في سكون الليل يسير بك إلى المجد
أو إلى الجنون . نظرة واحدة من أطراف أجفان امرأة
تجملك أسعد الناس أو أتعسهم . كلمة واحدة تخرج من بين
شفتي رجل تصيرك غنياً بعد الفقر أو فقيراً بعد الغنى ...
كلمة واحدة لفظتها سلمي كرامه في تلك الليلة الهادئة أوقفتني
بين ماضي ومستقبلي وقوف سفينة بين لجة البحار وطبقات
الفضاء . كلمة واحدة معنوية قد أيقظتني من سبات الحداثة
والخلا وسارت بأيامي على طريق جديدة إلى مسارح الحب
حيث الحياة والموت .

خرجنا إلى الحديقة وسرنا بين الأشجار شاعرين بأصابع
النسيم الخفية تلامس وجهينا وقامات الأزهار والأعشاب اللدنة
تتمايل بين أقدامنا ، حق إذا ما بلغنا شجرة الياسمين جلسنا
صامتين على ذلك المقعد الخشبي نسمع تنفس الطبيعة

النائمة ونكشف بجلاوة التنهد خفايا صدرينا أمام عيون السماء
الناظرة إلينا من وراء ازرقاق السماء .

وطلع القمر إذ ذاك من وراء صنين وغمر بنوره تلك
الروابي والشواطىء ، فظهرت القرى على اكتاف الأودية كأنها
قد انبثقت من اللاشيء ، وبان لبنان جميعه من تحت تلك الأشعة
الفضية كأنه فتى متكىء على ساعده تحت نقاب لطيف يخفي
أعضائه ولا يخفيها .

لبنان عند شعراء الغرب مكان خيالي قد اضمحلت حقيقته
بذهاب داود وسليمان والأنبياء مثلما انجسبت جنة عدن بسقوط
آدم وحواء ، هو لفظة شعرية لا اسم جبل — لفظة ترمز عن
عاطفة في النفس وتستحضر إلى الفكر رسوم غابات من الأرز
يفوح منها العطر والبخور ، وأبراج من النحاس والرغام تتعالى
بالمجد والعظمة ، واسراب من الغزلان تتهادى بين الطلول
والأودية . وانا قد رأيت لبنان في تلك الليلة مثل فكر
شعري خيالي منتصب كالحلم بين اليقظة واليقظة . كذا تتغير
الأشياء أمام أعيننا بتغير عواطفنا ، وهكذا نتوهم الأشياء
متشحة بالسحر والجمال عندما لا يكون السحر والجمال إلا في
نفوسنا .

والتفتت إليّ سلمى وقد غمر نور القمر وجهها وعنقها
ومعصمها فبانئت كتمثال من العاج نحتته أصابع متعبد لعشروت
ربة الحسن والمحبة : لماذا لا تتكلم ؟ لماذا لا تحدثني عن ماضي
حياتك ؟

فنظرت إلى عينيها المنيرتين ، ومثل أخرس فاجأ النطق
شفتيه أجبتها قائلاً : ألم تسمعي متكلماً مذ جئت إلى هذا
المكان ؟ أو لم تسمعي كل ما قلته مذ خرجنا إلى هذه الحديقة ؟
إن نفسك التي تسمع ممس الأزهار وأغاني السكينة تستطيع أن
تسمع صراخ روحي وضجيج قلبي .

فحجبت وجهها بيديها ثم قالت بصوت متقطع : قد
سمعتك ... نعم سمعتك . سمعت صوتاً صارخاً خارجاً من
احشاء الليل وضجة هائلة منبثقة من قلب النهار .

فقلت بسرعة وقد نسيت ماضي حياتي ونسيت كياني
ونسيت كل شيء ولم أعد أعرف سوى سلمى ولا أشعر بغير
وجودها : وأنا قد سمعتك يا سلمى - سمعت نعمة عظيمة
محبة جارحة تتموج لها دقائق الفضاء وتهتز بارتعاشها أسس
الأرض .

فأغمضت سلمى أجفانها وظهر على شفتيها القرمزيتين خيال
ابتسامة محزنة ثم همست قائلة : قد عرفت الآن انه يوجد
شيء أعلى من السماء وأعمق من البحر وأقوى من الحياة والموت
والزمن . وقد عرفت الآن ما لم أكن اعرفه بالأمس ولا
أحلم به .

منذ تلك الدقيقة صارت سلمى كرامه أعز من الصديق
وأقرب من الأخت وأحب من الحبيبة . صارت فكراً
سامياً يتبع عاقلتي وعاطفة رقيقة تكتنف قلبي وحلماً جميلاً
يجور نفسي .

ما أجهل الناس الذين يتوهمون ان المحبة تتولد بالمعاشرة الطويلة والمرافقة المستمرة . ان المحبة الحقيقية هي ابنة التفاهم الروحي وإن لم يتم هذا التفاهم بلحظة واحدة لا يتم بتمام ولا يجيل كامل .

ورفعت سلمى رأسها ونظرت نحو الأفق البعيد حيث تلتقي خطوط صنين بأذيال الفضاء ، ثم قالت : لقد كنت لي بالأمس مثل أخ أقترب منه مطمئنة وأجلس بجانبه في ظلال والدي ، أما الآن فقد شعرت بوجود شيء أقوى وأعذب من العلاقة الأخوية ، قد شعرت بعاطفة غريبة مجردة عن كل علاقة . عاطفة قوية خفيفة لذيدة تملأ قلبي حزناً وفرحاً .

فأجبتها : أليست هذه العاطفة التي نخافها ونرتجف لمرورها في صدورنا جزءاً من الناموس الكلي الذي يسير القمر حول الأرض ، والأرض حول الشمس ، والشمس وما يحيط بها حول الله ؟

فوضعت يدها على رأسي وغرست أصابعها بشعري وقد تهلل وجهها وترقرقت الدموع في عينيها مثلما تلمع قطرات الندى على أطراف أوراق النرجس ، ثم قالت : مَنْ مِنْ البشر يصدق حكايتنا ؟ من منهم يصدق اننا في الساعة التي تجيء بين غروب الشمس وطلوع القمر قد قطعنا العتبات واجتازنا المعابر الكائنة بين الشك واليقين من منهم يعتقد أن نيسان الذي جمعنا لأول مرة هو الشهر الذي أوقفنا في قدس أقداس الحياة ؟

قالت هذه الكلمات ويدها ما برحت على رأسي المنحني ،
ولو تخيرت في تلك الدقيقة لما فضلت تيجان الملوك وأكاليل
الغار على تلك اليد الحريية المتلاعبة بشعري . ثم أجبتها قائلاً :
ان البشر لا يصدقون حكايتنا لأنهم لا يعلمون بأن الحبة هي
الزهرة الوحيدة التي تنبت وتنمو بغير معاونة الفصول ،
ولكن هل هو نيسان الذي جمعنا لأول مرة ؟ وهل هي هذه
الساعة التي أوقفتنا في قدس أقداس الحياة ؟ أما جمعت روحينا
قبضة الله قبل ان تصيرنا الولادة أسيري الايام والليالي ؟ ان
حياة الانسان يا سلمى لا تبتدىء في الرحم كما انها لا تنتهي
أمام القبر ، وهذا الفضاء الواسع المملوء بأشعة القمر
والكواكب لا يخلو من الأرواح المتعانقة بالهمة والنفوس
المتضامنة بالتفاهم .

ورفعت سلمى يدها بلطف عن رأسي تاركة بين مخارص
الشعر توجات كهربائية يتلاعب بها نسيم الليل فيزيده . بموا
وحراكاً ، فأخذت تلك اليد براحتي نظير متعبد يتبرك بلثم
المذبح ووضعتها على شفتي الملتهبتين وقبلتها قبلة طويلة عميقة
خرساء تذيب بحرارتها كل ما في القلب البشري من الاحساس
وقلبه يعذوبثها كل ما في النفس الالهية من الطهر .

ومرت علينا سابعة كل دقيقة منها عام شغف ومحبة ،
تساورنا سكينه الليل وتغمرنا أشعة القمر وتحيط بنا الأشجار
والرياحين ، حتى إذا ما بلغنا تلك الحالة التي ينسى فيها

الانسان كل شيء سوى حقيقة الحب سمعنا وقع حوافر وهدير
مركبة تقترب منا بسرعة ، فانتبهنا من تلك الغيبوبة اللذيذة
وهبطت بنا اليقظة من عالم الاحلام إلى هذا العالم الواقف بمسيرة
بين الحيرة والشقاء ، فعرفنا ان الوالد الشيخ قد عاد من دار
المطران فسرنا بين الاشجار ننتظر وصوله . وبلغت المركبة
مدخل الحديقة فترجل فارس كرامه وسار نحونا منحني الرأس
بطيء الحركة ، ونظير متعب رازح تحت حمل ثقيل تقدم نحو
سلمى ووضع كلتا يديه على كتفيها وحدق الى وجهها طويلا
كأنه يخاف ان تغيب صورتها عن عينيه الضيلتين ، ثم
انسكبت دموعه على وجنتيه المتجمعتين وارتجفت شفتاه
بابتسامة محزنة وقال بصوت مخنوق : عما قريب يا سلمى ، عما
قريب تخرجين من بين ذراعي والدك إلى ذراعي رجل آخر .
عما قريب تسير بك سنة الله من هذا المنزل المنفرد إلى ساحة
العالم الواسعة فتصبح هذه الحديقة مشتاقة إلى وطء قدميك
ويصير والدك غريباً عنك . لقد لفظ القدر كلمته يا سلمى ،
فلتباركك السماء وتحرسك !

سمعت سلمى هذه الكلمات فتغيرت ملامحها وجدت عيناها
كأنها رأت شبح الموت منتصباً أمامها ، ثم شهقت وتقلعت
متوجعة كمصفور رماء الصياد فهبط على الحضيض مرتجفياً
بآلامه ، وبصوت تقطعه الغصات العميقة صرخت قائلة : ماذا
تقول ؟ ماذا تعني ؟ إلى أين تريد أن تبعث بي ؟ .

ثم شخصت به كأنها تريد أن تزيل بنظراتها الغلاف عن
نخبآت صدره . وبعد دقيقة مثقلة بعوامل ذلك السكون
الشبيه بصراخ القبور قالت متأوهة : قد فهمت الآن ... قد
عرفت كل شيء ... ان المطران قد فرغ من حبك قضبان
القفص الذي أعده لهذا الطائر المكسور الجناحين ، فهل هذه
هي إرادتك يا والدي ؟ .

فلم يجبها بغير التنهدات العميقة ، ثم أدخلها الدار وأشعة
الحنو تنسكب من ملامحه المضطربة ، فبقيت أنا واقفاً بين
الأشجار والحيرة تتلاعب بعواطفي مثلها تتلاعب العواصف
بأوراق الخريف ، ثم تبعتهما الى القاعة . وكيلا أظهر بمظهر
طفيلي يميل الى استطلاع الخصوصيات أخذت يد الشيخ مودعاً
ونظرت الى سلمى نظرة غريق تلف نحو نجم لامع في قبة
الفلك ، ثم خرجت دون ان يشعران بخروجه ، ولكنني ما
بلغت أطراف الحديقة حتى سمعت صوت الشيخ منادياً ، فالتفت
واذا به يتبعني ، فعدت الى لقائه ، ولما دنوت منه أمسك بيدي
وقال بصوت مرتعش : ساحني يا ابني فقد جعلت ختام ليلتك
مكتنفاً بالدموع ، ولكنك سوف تجيء الى دائماً ، أليس كذلك ؟
ألا تزورني عندما يصير هذا المكان خالياً إلا من الشيخوخة
المهزينة ؟ ان الشباب الغض لا يستأنس بالشيخوخة الذابلة كما ان
الصباح لا يلتقي بالمساء ، أما أنت فسوف تجيء إلي لتذكركني
بأيام الصبا التي صرفتها بقرب أبيك وتعيد علي مسمعي أخبار

الحياة التي لم تعد تحسبني من أبنائها ، اليس كذلك ؟ ألا
تزورني عندما تذهب سلمى وأصبح وحيداً منفرداً في هذا
المنزل البعيد عن المنازل ؟

لفظ الكلمات الأخيرة بصوت منخفض متقطع ، ولما
أخذت يده وهزتها صامتاً أحسست بقطرات من الدموع
السخينة قد تساقطت على يدي من جفانه ، فارتعشت نفسي
في داخلي وشعرت نحوه بعاطفة بنوة عذبة محزنة تتمايل بين
ضلوعي وتتصاعد كاللهاث الى شفتي ثم تعود كالغصات الى
أعماق قلبي . ولما رفعت رأسي ورأيت ان دموعه قد استدرت
الدموع من أجفاني انحنى قليلاً ولمس بشفتيه المرتجفتين أعلى
جبهتي ثم قال محولاً وجهه نحو باب المنزل : مساء الخير ...
مساء الخير يا ابني .

ان دموعة واحدة تتلمع على وجنة شيخ متجمدة هي أشد
تأثيراً في النفس من كل ما تهرقه أجفان الفتيان .

ان دموع الشباب الغزيرة هي مما يفيض من جوانب القلوب
المرتعة ، اما دموع الشيوخ فهي فضلات العمر تنسكب من
الأحداق ، هي بقية الحياة في الأجساد الواهنة . الدموع في
أجفان الشبيبة كقطرات الندى على اوراق الوردة ، أما الدموع
على وجنة الشيخوخة فأشبه بأوراق الخريف المصفرة التي تنثرها
الرياح وتذريها عندما يقترب شتاء الحياة .

واختفى فارس كرامه وراء مصراعي الباب وخرجت أنا

من تلك الحديقة وصوت سلمى يتموج في أذنيّ ، وجمالها يسير
كالخيال أمام عينيّ ، ودموع والدها تتحف ببطء على يديّ .
خرجت من ذلك المكان خروج آدم من الفردوس ، ولكن
حواء هذا القلب لم تكن يجاني لتجعل العالم كله فردوساً .
خرجت شاعراً بأن تلك الليلة التي ولدت فيها ثانية هي الليلة
التي لحت فيها وجه الموت لأول مرة .

كذا تحيي الشمس الحقول بجزارتها ، وبجزارتها تقيتها .

كل ما يفعله الانسان سرّاً في ظلمة الليل يظهره الانسان علناً في نور النهار . الكلمات التي تهمسها شفاهنا في السكينة تصير على غير معرفة منّا حديثاً عمومياً ، والأعمال التي نحاول اليوم إخفاءها في زوايا المنازل تتجسم غداً وتنتصب في منعطفات الشوارع .

كذا أعلنت أشباح الدجى مقاصد المطران بولس غالب من اجتماعه بفارس كرامه ، وهكذا حملت دقائق الأثير أقواله وأحاديثه إلى احياء المدينة حتى بلغت مسمعي .

ما طلب المطران بولس غالب مقابلة فارس كرامه في تلك الليلة القمرية ليفاوضه بشؤون الفقراء والموزين أو يخبره بأمور الأرامل والأيتام ، بل أحضره بمركبته الخصوصية الفخمة ليطلب منه ابنته سلمى عروساً لابن أخيه منصور بك غالب .

كان فارس كرامه رجلاً غنياً ولم يكن له وازرث سوى ابنته سلمى ، وقد اختارها المطران زوجة لابن أخيه ، لا

لجمال وجهها ونبالة روحها بل لأنها غنية موسرة تكفل بأموالها الطائلة مستقبل منصور بك وتساعد به بأملاتها الواسعة على إيجاد مقام رفيع بين الخاصة والاشراف .

ان رؤساء الدين في الشرق لا يكتفون بما يحصلون عليه أنفسهم من المجد والسؤدد بل يفعلون كل ما في وسعهم ليجعلوا أنسابهم في مقدمة الشعب ومن المستبدين به والمستدرين قواه وأمواله . ان مجد الأمير ينتقل بالارث إلى ابنه البكر بعد موته ، أما مجد الرئيس الديني فينتقل بالعدوى إلى الأخوة وأبناء الاخوة في حياته . وهكذا يصبح الأسقف المسيحي والامام المسلم والكاهن البرهمي كأفاعي البحر التي تقبض على الفريسة بمقابض كثيرة وتنص دماءها بأفواه عديدة .

عندما طلب المطران بولس يد سلمى من والدها لم يحبه ذلك الشيخ بغير السكوت العميق والدموع السخينة . وأي والد لا يشق عليه فراق ابنته حتى ولو كانت ذاهبة إلى بيت جاره أو إلى قصر ملك ؟ أي رجل لا ترتعش أعماق نفسه بالفصاة عندما يفصله ناموس الطبيعة عن الابنة التي لاعبها طفلة وهذبها صبية ورافقها امرأة ؟ ان كآبة الوالدين لزواج الابنة يضارع فرحهما بزواج الابن ، لأن هذا يكسب العائلة عضواً جديداً أما ذاك فيسلبها عضواً قديماً . عزيزاً - أجاب الشيخ طلب المطران مضطراً وانحنى أمام مشيئته قهراً عما في داخل نفسه من الممانعة ، وكان قد اجتمع بابن أخيه منصور بك وسمع الناس يتحدثون عنه

فعرّف خشوتته وطبعه والمخطاط أخلاقه ، ولكن أي مسيحي
يقدر أن يقاوم أسقفاً في سوريا ويبقى محسوباً بين المؤمنين ،
أي رجل يخرج عن طاعة رئيس دينه في الشرق ويظل كريماً
بين الناس ؟ أتعاند العين سهماً ولا تفقأ أو تناضل اليد سيفاً
ولا تقطع ؟ وهب أنت ذلك الشيخ كان قادراً على مخالفة
المطران بولس والوقوف أمام مطامعه فهل تكون سمعة ابنته
في مآمن من الظنون والتأويل ، وهل يظل اسمها نقياً من أوساخ
الشفاه والألسنة ؟ أو نيست جميع العناقيد العالية حامضة في
شرع بنات آوى ؟

هكذا قبض القدر على سلمى كرامه وقادها عبدة ذليلة
في موكب النساء الشرقيات التاعسات ، وهكذا سقطت تلك
الروح النبيلة بالحبائل بينما كانت تسبح لأول مرة على أجنحة
الحب البيضاء في فضاء تملأه أشعة القمر وتعطره رائحة
الازاهر .

إن أموال الآباء تكون في أكثر المواطن مجلبة لشقاء البنين
تلك الخزائن الواسعة التي يملأها نشاط الوالد وحرص الأم
تنقلب حبوساً ضيقة مظلمة لنفوس الورثة . ذلك الإله العظيم
الذي يعبدّه الناس بشكل الدينار ينقلب شيطاناً خيفاً يعذب
النفوس ويميت القلوب . وسلمى كرامه هي كالكثيرات من
بنات جنسها اللواتي يذهبن ضحية ثروة الوالد وأمان العريس .
فلو لم يكن فارس كرامه رجلاً غنياً لكانت سلمى اليوم حية
تفرح مثلنا بنور الشمس .

مرّ اسبوع وحب سلمى يحالسنى في المساء منشدأ على
مسمعي اغاني السعادة وينبهي عند الفجر ليريني معاني الحياة
وأسرار الكيان. حبّ علوي لا يعرف الحسد لأنه غني ، ولا
يوجع الجسد لأنه في داخل الروح . ميل قوي يغمر النفس
بالقناعة . مجاعة عميقة تملأ القلب بالاكثفاء . عاطفة تولد
الشوق ولكنها لا تثيره . فتون جعلني أرى الأرض نعيماً
والعمر حلاً جميلاً . فكنت أسير صباحاً في الحقول وأرى في
يقظة الطبيعة رمز الخلود ، وأجلس على شاطئ البحر وأسمع
من أمواجه أغاني الأبدية ، وأمشي في شوارع المدينة وأجد
في طلعات المبرين وحركات المشتغلين بحاسن الحياة وبهجسة
العرمان .

تلك أيام مضت كالأشباح واضمحلت كالضباب ولم يبق
لي منها سوى الذكرى الأليمة ، فالعين التي كنت أرى بها
جمال الربيع ويقظة الحقول لم تعد تحددق الى غير غضب
العواصف ويأس الشتاء . والأذن التي كنت أسمع بها أغنية
الأمواج لم تعد تصغي لغير أنة الأعماق وعويل الهاوية. والنفس
التي كانت تقف متهيبة أمام نشاط البشر ومجد العرمان لم تعد
تشعر بغير شقاء الفقر وتعاسة الساقطين . فما أحلى أيام
الحب وما أعذب أحلامها وما أمرّ ليالي الحزن وما أكثر
مخاوفها !

وفي نهاية الأسبوع وقد سكرت نفسي بنخمة عواطفني سرت
مساء إلى منزل سلمى كرامه ، ذلك الهيكل الذي أقامه الجمال

وقدسه الحب لتسجد فيه النفس مصلية ويركع القلب خاشعاً ،
ولما بلغته ودخلت الى تلك الحديقة الهادئة أحسست بوجود
قوة تستهويني وتستميلني وتبعدني عن هذا العالم وتدنيني ببطء
إلى عالم سحري خال من العراك والجهاد ، ومثل متصوف
جذبت به السماء إلى مسارح الرؤيا وجددتني سائراً بين تلك الأشجار
المهتبكة والزهور المتعانقة ، حتى إذا ما اقتربت من باب
الدار التفت وإذا بسلمى جالسة على ذلك المقعد بظلال شجرة
الياسمين حيث جلسنا منذ أسبوع في تلك الليلة التي اختارتها
الآلهة من بين الليالي وجعلتها بدء سعادتي وشقائي ، فدنوت
منها صامتاً فلم تتحرك ولم تتكلم كأنها علمت بقدومي قبل
قدومي ولما جلست بجانبها حدثت إلى عيني دقيقة وتهدت
تنهدة طويلة عميقة ثم عادت فنظرت إلى الشفق البعيد حيث
تعبث أوائل الليل بأواخر النهار . وبعد هنية مملوءة بتلك
السكينة السحرية التي تظم نفوسنا إلى مواكب الأرواح غير
المنظورة ، حولت سلمى وجهها نحوي وأخذت يدي بيد
مرتعشة باردة وبصوت يشابه تأوه جائع لا يقوى على الكلام
قالت :

انظر الى وجهي يا صديقي ، انظر الى وجهي جيداً وتأمله
طويلاً واقرأ فيه كل ما تريد ان تفهمه مني بالكلام ...
انظر الى وجهي يا حبيبي ... أنظر جيداً يا أخي .
فنظرت إلى وجهها ، نظرت طويلاً ، فرأيت تلك الاجفان التي
كانت منذ أيام قليلة تبتسم كالشفاه وتتحرك كأجنحة

الشعرور قد غارت وجدت واكتحلت بخيالات التوجع والألم،
رأيت تلك البشرة التي كانت بالأمس مثل ثنایا الزنبقة البيضاء
الفرحة بقبلات الشمس ، قد اصفرت وذبلت وتبرقعت بنقاب
القنوط . رأيت الشفتين اللتين كانتا كزهرة اقاح تسيل عليها
الحلاوة قد يبستا وصارتا كوردين مرتجفتين أبقاهما الحريف
على طرف الغصن . رأيت العنق الذي كان مرفوعاً كعمود
العاج قد انحنى الى الأمام كأنه لم يعد قادراً على حمل ما يحول
في تلافيف الرأس .

رأيت هذه الانقلابات الموجهة في ملامح سلى، رأيتها جميعها
ولكنها لم تكن في نظري الا كسحابة رقيقة توشح القمر
فتزيد منظره حسناً وهيبه . ان الملامح التي تبیح أسرار
الذات المعنوية تكسب الوجه جمالا وملاحة مها كانت تلك
الأسرار موجهة وأليمة . اما الوجوه التي لا تتكلم بصمتها
عن غوامض النفس وخفاياها فلا تكون جميلة مها كانت
متناسقة الخطوط متناسبة الاعضاء . إن الكؤوس لا تستميل
شفاهنا حتى يشف بلورها عن لون الحجر . فسلى كرامه كانت
في عشية ذلك النهار مثل كأس طافحة من خمرة علوية تتمزج
بدقائقها مرارة العيش بحلاوة النفس . كانت تمثل على غير
معرفة منها حياة المرأة الشرقية التي لا تغادر منزل والدها
المحبوب إلا لتضع عنقها تحت نير زوجها الحشن ... ولا
تترك ذراعي أمها الرؤوف إلا لتعيش في عبودية والدته زوجها
القاسية .

وبقيت محدقاً الى وجه سلمى مصغياً لأنفاسها المتقطعة صامتاً، مفكراً شاعراً متألماً معها ولها ، حتى أحسست ان الزمن قد وقف عن مسيره والوجود قد انحجب واضمحل ولم أعد أرى سوى عينين كبيرتين محدقتين الى اعماقي ، ولا أشعر بغير يد باردة مرتعشة تضم يدي . ولم أفق من هذه الغيبوبة حتى سمعت سلمى تقول يهدوء: تعال نتحدث الآن يا صديقي . تعال لنحاول تصوير المستقبل قبل ان يحمل علينا بمخاوفه واهواله . لقد ذهب والدي الى منزل الرجل الذي سيكون رفيقاً لي حتى القبر . قد ذهب الرجل الذي اختارته السماء سبباً لوجودي ليلتقي الرجل الذي انتقته الأرض سيداً على أيامي الآتية . ففي قلب هذه المدينة يجتمع الآن الشيخ الذي رافق شببتي بالشاب الذي سيرافق ما بقي لي من السنين ، وفي هذه الليلة يتفق الوالد والخطيب على يوم القران الذي سيكون قريباً منها جعلاه بعيداً ، فما أغرب هذه الساعة وما أشد تأثيرها ! في مثل هذه الليلة من الأسبوع الغابر . وفي ظلال هذه الياسمينه قد عانق الحب روعي لأول مرة، بينما كان القدر يخطط أول كلمة من حكاية مستقبلي في دار المطران بولس غالب . وفي هذه الساعة وقد جلس والدي وخطيبي ليضفرا إكليل زواجي ، أراك جالساً يحاني واشعر بنفسك متموجة حولي كطائر ظامئ يحوم مرفرفاً فوق ينبوع ماء يخفزه ثعبان جائع نحيف ، فما اعظم هذه الليلة وما اعظم اسرارها!

الاجنحة المتكسرة (٤)

فأجبتها وقد تخيلت القنوط شبحاً مظلماً قابضاً على عنق
حبنا ليميته في طفوليته : سيظل هذا الطائر حائماً مرفرفاً
فوق الينبوع حتى يضمنه العطش فيرديه او يقبض عليه الثعبان
الخفيف فيمزقه ويلتهمه .

فقالت متأثرة وصوتها يرتجف كالأوتار الفضية : لا ، لا يا
صديقي ، فليبق هذا الطائر حياً ، ليبقى هذا البلبل مغرداً
حتى المساء ، حتى ينتهي الربيع حتى ينتهي العالم ، حتى
قنتهي الدهور . لا تخرسه لأن صوته يحيني ، ولا توقف
جناحيه لأن حفيفها يزيل الضباب عن قلبي .

فهمست متتهداً : الظلم يقتله يا سلمى والخوف يميته .

فأجابت والكلام يتدفق بسرعة من بين شفثيها
المرتعشتين : ان ظمأ الروح اعظم من ارتواء المادة ، وخوف
النفس أحب من طمأنينة الجسد .. ولكن اسمع يا حبيبي ،
اسمعي جيداً ، انا واقفة الآن في باب حياة جديدة لا أعرف
عنها شيئاً . أنا مثل عمياء تتلمس بيدها الجدران مخافة
السقوط . أنا جارية أزلني مال والدي الى ساحة النخاسين
قابتماعي رجل من بين الرجال . انا لا احب هذا الرجل لأنني
اجله ، وانت تعلم ان المحبة والجهالة لا تلتقيان ، ولكنني سوف
أتعلم محبته . سوف أطيعه وأخدمه وأجعله سعيداً . سوف
أهبه كل ما تقدر المرأة الضعيفة أن تهب الرجل القوي .
أما أنت فلم تزل في ربيع العمر ، أمامك الحياة طريقاً واسعة

مفروشة الأزهار والرياحين . سوف تخرج إلى ساحة العالم
حاملاً قلبك مشعلاً متقدماً . سوف تفكر ببحرية وبحرية تتكلم
وتفعل . سوف تكتب اسمك على وجه الحياة لأنك رجل .
سوف تعيش سيداً ، لأن فاقة والدك لا تجعلك عبداً ، وأمواله
لا تنزل بك إلى سوق النخاسين حيث تباع البنات وتشترى .
سوف تقترن بالصبيبة التي تختارها نفسك من بين الصبايا فتسكنها
صدرك قبل أن تسكنها منزلك ، وتشاركها بأفكارك قبل
أن تساهمها الأيام والليالي .

وسكنت دقيقة كيما تسترجع أنفاسها ، ثم زادت بصوت
تتابعه الغصات : ولكن أهنا تفرقنا سبل الحياة لتذهب
بك إلى أعجاد الرجل وتسير بي إلى واجبات المرأة ؟ أهكذا
ينقضني الجلم الجميل وتندثر الحقيقة العذبة ؟ أهكذا تبتلع
اللجة نعمة الشجرور وتنثر الرياح أوراق الوردة وتسحق
الأقدام كأس الخمر ؟ أباطلاً أوقفنا تلك الليلة أمام وجه
القمر وباطلاً ضمنا الروح في ظلال هذه الياسمين ؟ هل تسرعنا
بالصعود نحو الكواكب فكنت أجنحتنا وهبطت بنا إلى
الهاوية ؟ هل فاجأنا الحب نائماً فاستيقظ غاضباً ليعاقبنا ،
أم هيجت أنفاسنا نسائم الليل فانقلبت ريحاً شديدة لتمزقنا
وتجرفنا كالغبار إلى أعماق الوادي ؟ لم نخالف وصية ولم نذق
ثمراً فكيف نخرج من هذه الجنة ؟ لم نتأمر ولم نتمرد فلماذا
نهبط إلى الجحيم ! لا لا وألف لا ولا . إن الدقائق التي جمعنا
هي أعظم من الأجيال ، والشعاع الذي أثار نفسينا هو أقوى

من الظلام ، فان فرقنا العاصفة على وجه هذا البحر الغضوب
فالأمواج تجتمعنا على ذلك الشاطئ الهاديء ، وان قتلنا هذه
الحياة فذاك الموت يحيننا .

ان قلب المرأة لا يتغير مع الزمن ولا يتحول مع الفصول
قلب المرأة ينازع طويلا ولكنه لا يموت . قلب المرأة يشابه
البرية التي يتخذها الإنسان ساحة لحروبه ومذابحه ، فهو يقتلع
أشجارها ويحرق أعشابها ويلطخ صخورها بالدماء ويغرس
تربتها بالعظام والجاجم ، ولكنها تبقى هادئة ساكنة مطمئنة
ويظل فيها الربيع ربيعاً والخريف خريفاً الى نهاية الدهور ...
والآن قضي الأمر فماذا نفعل ؟ قل لي ماذا نفعل وكيف
نفترق ومتى نلتقي ؟ هل نحسب الحب ضعفاً غريباً أتى به
المساء وأبعده الصباح ؟ أم نحسب هذه العاطفة النفسية حلماً
أبانه الكرى ثم أخفته البقطة ؟ أم نحسب هذا الأسبوع ساعة
سكر ما لبثت ان قضت بالصحو والانتباه ؟ .. ارفع رأسك
لأرى عينيك يا حبيبي افتح شفتيك لأسمع صوتك . تكلم ،
اخبرني ، حدثني ، هل تذكرني بعد أن تفرق العاصفة سفينتي
أيامنا ؟ هل تسمع حفيف أجنحتي في سكونة الليل ؟ هل
تشعر بأنفاسي متموجة على وجهك وعنقك ؟ هل تصغي
لتنهداتي متصاعدة بالتوجع منخفضة بالغصات ؟ وهل ترى
خيالي قادماً مع خيالات الظلام مضمحلاً مع ضباب الصباح ؟
قل لي يا حبيبي ، قل لي ماذا تكون لي بعد ان كنت نوراً
لعيني ونعمة لأذني وجناحاً لروحي ، ماذا تكون ؟

فأجبتها وحبسات قلبي تذوب في عيني : سأكون لك
يا سلمى مثلما تريدني ان أكون .

فقلت : أريدك أن تحبني . أريدك أن تحبني إلى نهاية
أيامي . أريدك أن تحبني مثلما يحب الشاعر أفكاره المحزنة .
أريدك أن تذكرني مثلما يذكر المسافر حوض ماء هادئ
رأى فيه خيال وجهه قبل ان يشرب من مائه . وأريدك أن
تذكرني مثلما تذكر الأم جنيناً مات في أحشائها قبل ان يرى
النور . وأريدك أن تفكر بي مثلما يفكر الملك الرؤوف
بسجين مات قبل أن يبلغه عفوه . أريدك أن تكون لي أخاً
وصديقاً ورفيقاً . أريدك أن تزور والذي في وحدته وتعزيه
في انفراده ، لأنني عما قريب سأتركه وأصير غريبة عنه .

فأجبتها : سأفعل كل ذلك يا سلمى . سوف أجعل روحي
غلافاً لروحك ، وقلبي بيتاً لجمالك ، وصبري قبراً لأحزانك .
سوف أحبك يا سلمى بحبة الحقول للربيع . سوف أحيا بك
حياة الأزاهر بحرارة الشمس . سوف أترنم باسمك مثلما يترنم
الوادي بصدى رنين الأجراس المتأيلة فوق كنائس القرى .
سوف أصغي لأحاديث نفسك مثلما تصغي الشواطئ لحكاية
الأمواج ... سأذكرك يا سلمى مثلما يذكر الغريب المستوحش
وطنه المحبوب ، والفقير الجائع مائدة الطعام الشهية . والملك
المخلوع أيام عزه ومجده ، والأسير الكئيب ساعات الحرية
والطمأنينة . سوف أفكر بك مثلما يفكر الزارع بأغمار

السنبال وغلة البيادر ، والراعي الصالح بالمروج الخضراء
والمناهل العذبة .

كنت أنكلم وسلمى تنظر الى أعماق الليل وتتاوه بين الآونة
والأخرى ، ونبضات قلبها تتسارع وتتهازل كأنها أمواج بحر بين
صعود وهبوط . ثم قالت : غداً تصير الحقيقة خيالاً واليقظة
حلماً ، فهل يكتفي المشتاق بعناق الخيال ويرتوي الظمان
من جداول الأحلام ؟

فأجبتها قائلاً : غداً يسير بك القدر إلى أحضان العائلة
المملوءة بالراحة والهدوء ، ويسير بي إلى ساحة العالم حيث
الجهاد والقتال . أنت الى منزل رجل يسعد بحمالك وطهر
نفسك . وأنا إلى مكان أيام تعذبني بأحزانها وتخيفني
بأشباحها . أنت إلى الحياة وأنا إلى النزع . أنت إلى الأنس
والالفة وأنا إلى الوحشة والانفراد . ولكنني سأرفع في وادي
ظل الموت تمثالاً للحب وأعبده . سأتحذ الحب سيراً وأسمعه
منشداً وأشربه خراً وألبسه ثوباً . عند الفجر سينبهني الحب
من رقادي ويسير أمامي إلى البرية البعيدة . وعند الظهيرة
سيقودني الى ظل الأشجار فأربض مع العصافير المحتمية من
حرارة الشمس . وفي المساء سيوقفني امام المغرب ويسمعني
نغمة وداع الطبيعة للنور ويريني أشباح السكينة ساجدة في
الفضاء . وفي الليل سيعانقني فأنام حالماً بالعوالم العلوية حيث
تقطن أرواح العشاق والشعراء . وفي الربيع سأمشي والحب

جنباً لجنب ، مترنين بين التلول والمنحدرات متبعين آثار اقدام
الحياة المخططة بالبنفسج والاقحوان ، شاربين بقايا الامطار
بكؤوس النرجس والزنبق . وفي الصيف سأتكىء والحب
ساندين رأسينا إلى أغمار القش مفترشين لاعشاب ملتحفين
السماء ساهرين مع القمر والنجوم . وفي الخريف سأذهب
والحب إلى الكروم فنجلس بقرب المعاصر ناظرين إلى الاشجار
وهي تخلع أثوابها المذهبة متأملين بأسراب الطيور الراحلة إلى
الساحل . وفي الشتاء سأجلس والحب بقرب الموقد ثالين
حكايات الاجيال مرددين أخبار الامم والشعوب . وفي أيام
الشبية سيكون لي الحب مهذباً ، وفي الكهولة عضداً ، وفي
الشيخوخة مؤنساً . سيظل الحب معي يا سلمى إلى نهاية
العمر ، إلى ان يجيء الموت ، إلى أن تجتمعني بك قبضة الله .
كانت الالفاظ تتصاعد مسرعة من أعماق نفسي كأنها
شعلات من نار تنمو وتتطاير ثم تتبدد وتضمحل في زوايا تلك
الحديقة ، وكانت سلمى مصغية والدموع تنهمر من عينيها كأن
أجفانها شفاه تجيبني بالدموع على الكلام .

ان الذين لم يهبهم الحب أجنحة لا يستطيعون أن يطيروا
إلى ما وراء الغيوم ليروا ذلك العالم السحري الذي طافت فيه
روحي وروح سلمى في تلك الساعة المحزنة بأفراحها
المفرحة بأوجاعها . ان الذين لم يتخذهم الحب أتباعاً لا
يسمعون الحب متكلماً ، فهذه الحكاية لم تكتب لهم ؛ فهم
وأن فهموا معاني هذه الصفحات الضئيلة لا يمكنهم ان يروا ما

يسيل بين سطورها من الأشباح والأخيلة التي لا تلبس الحبر
ثوباً ولا تتخذ الورق مسكناً . لكن أي بشري لم يرشف من
خمرة الحب في إحدى كاساته ؟ أية نفس لم تقف متهيبة في
ذلك الهيكل المنير المرصوف بجبات القلوب المسقوف بالأسرار
والاحلام والعواطف ؟ أي زهرة لم يسكب الصباح قطرة من
الندى بين أوراقها ؟ وأي ساقية تفضل طريقها ولا تذهب إلى
البحر ؟

ورفعت سلمى إذ ذاك رأسها نحو السماء المزينة بالكواكب
ومدت يديها إلى الامام وكبرت عيناها وارتجفت شفتاها
وظهر على وجهها المصفر كل ما في نفس المرأة المظلومة من
الشكوى والقنوط والألم ، ثم صرخت قائلة : ماذا فعلت
المرأة يا رب فاستحققت غضبك ؟ ماذا أتت من الذنوب ليتبعها
سخطك إلى آخر الدهور ؟ هل اقترفت جرماً لا نهاية لفظاعته
ليكون عقابك لها بغير نهاية ؟ أنت قوي يا رب وهي
ضعيفة فلماذا تبيدها بالأوجاع ؟ أنت عظيم وهي تدب حول
عرشك فلماذا تسحقها بقدميك ؟ أنت عاصفة شديدة وهي
كالغبار أمام وجهك فلماذا تذررها على الثلوج ؟ أنت جبار
وهي بائسة فلماذا تحاربها ؟ أنت بصير عليم وهي فائمة عمياء
فلماذا تهلكها ؟ أنت توجدتها بالهبة فكيف بالهبة تفنيها ؟
بيمينك ترفعها اليك وبشمالك تدفعها إلى الهاوية وهي جاهلة
لا تدري أنى ترفعها وكيف تدفعها ؟ في فمها تنفخ نسمة الحياة
وفي قلبها تورع بذور الموت . على سبل السعادة تسيرها راجلة

ثم تبعث الشقاء فارساً ليصطادها . في حنجرتها تبث نغمة
الفرح ثم تغلق شفيتها بالحزن وتربط لسانها بالكآبة بأصابعك
الحفية تنطق باللذة أوجاعها وبأصابعك الظاهرة ترسم هالات
الاجتماع حول ملذاتها . في مضجعها تخفي الراحة والسلامة
ويحانب مضجعها تقيم المخاوف والمتاعب . بإرادتك تحيي
ميولها ومن ميولها تتولد عيوبها وزلاتها . بمشيئتك تربها محاسن
مخلوقاتك وبمشيئتك تنقلب محبتها للحسن مجاعة مهلكة .
بشريعتك تزوج روحها من جسد جميل وبقضائك تجعل
جسدها بعلاً للضعف والهوان . أنت تسقيها الحياة بكأس
الموت والموت بكأس الحياة . أنت تطهرها بدموعها وبدموعها
تذيبها . أنت تملأ جوفها من خبز الرجل ثم تملأ حفنة الرجل
من حبات صدرها . أنت أنت يا رب قد فتحت عيني بالحبة
وبالحبة أعميتني . أنت قبلتني بشفتيك وبيدك القوية صفعتني .
أنت زرعت في قلبي وردة بيضاء وحول هذه الوردة أنبت
الاشواك والحسك . أنت أوثقت حاضري بروح فتى أحبه
ويحسد رجل لا أعرفه . قيدت أيامي فساعدني لأكون قوية
في هذا الصراع المميت واسعفني لأبقى أمانة وطاهرة حتى
الموت . . . لتكن مشيئتك يا رب . ليكن اسمك مباركاً
إلى النهاية .

وسكنت سلمى وظلت ملاحها تتكلم ، ثم حنت رأسها
وأرخت ذراعيها وانخفض هيكليها كأن القوى الحيوية قد تركتها
قبانت لناظري كغصن قصفته العاصفة وألقته إلى الحضيض

ليجف ويندثر تحت أقدام الدهر . فأخذت يدها المثلجة بيدي
المتبهة ، قبلت أصابعها بأجفاني وشفقي ، ولما حاولت تعزيتها
بالكلام وجدتني أخرى منها بالتعزية والشفقة ، فبقيت صامتاً
حائراً متأملاً شاعراً بتلاعب الدقائق بعواطفي ، مصغياً
لأنسة قلبي في داخلي ، خائفاً من نفسي على نفسي .

ولم ينبس أحداً بنبت شفة في ما بقي من تلك الليلة ، لأن
اللوعة إذا عظمت تصير خرساء ، فبقينا ساكتين جامدين
كعمودي رخام قبرهما الزلزال في التراب . ولم يعد أحداً يريد
أن يسمع الآخر متكلاً ، لأن خيوط قلبينا قد وهت حتى
صار التنهد دون الكلام يقطعها .

انتصف الليل ونمت رهبة السكوت وطلع القمر ناقصاً من
وراء صنين وبان بين النجوم كوجه ميت صاحب غارق في
المساند السوداء بين شموع ضئيلة تحيط بنمشه . وظهر لبنان
كشيخ لوت ظهره الأعوام وأناخت هيكله الأحزان وهجر
أجفانه الرقاد فبات يساهر الدجى ويترقب الفجر كملك مخلوع
جالس على رماد عرشه بين خرائب قصره . ان الجبال
والأشجار والأنهار تتبدل هيئاتها ومظاهرها بتقلب الحالات
والأزمنة مثلما تتغير ملامح وجه الانسان بتغير أفكاره
وعواطفه ، فشجرة الحور التي تتعالى في النهار كعمروس جميلة
يلعب النسيم أثوابها تظهر في المساء كعمود دخان يتصاعد نحو
اللاشيء والصخر الكبير الذي يجلس عند الظهيرة كجبار قوي
يهزأ بعاديات الزمن يبدو في الليل كفقير بائس يفترش الثرى

ويلتحف الفضاء . والساقية التي نراها عند الصباح متلعة
كذوب اللجين ونسمعها مترنة بأغنية الخلود نخلها في المساء
يجرى دموع يتفجر من بين أضلع الوادي ونسمعها تنذب
وتنوح كالشكلى . ولبنان الذي ظهر منذ اسبوع بكل مظاهر
الجلال والروثى عندما كان القمر بدرأ والنفس راضية قد بان
في تلك الليلة كئيباً منهوكاً مستوحشاً أمام قمر ضئيل ناقص
هائم في عرض السماء . وقلب خافق معتل في داخل الصدر .
وقفنا للوداع وقد وقف بيننا الحب واليأس شبحين هائلين ،
هذا باسط جناحيه فوق رأسينا وذاك قابض بأظافره على
عنقينا . هذا يبكي مرتاعاً وذاك يضحك ساخراً . ولما أخذت
يد سلمى ووضعتها على شفتي متبركاً دنت مني ولثمت مفرق
شمري ، ثم عادت فارقت على المقعد الخشبي وأطبقت أجفانها
وهمست ببطء : اشفق يا رب وشدد جميع الأجفحة المتكسرة .
انفصلت عن سلمى وخرجت من تلك الحديقة شاعراً
بنقاب كثيف يوشي مداركي الحسية مثلما يغمر الضباب وجه
البحيرة . وسرت وأخيلة الأشجار القائمة على جانبي الطريق
تتحرك أمامي كأنها أشباح قد انبثقت من شقوق الأرض
لتخيفني ، وأشعة القمر الضعيفة ترتعش بين الغصون كأنها سهام
دقيقة تريشها أرواح الجان السابجة بالفضاء نحو صدري ،
والسكينة العميقة تخيم على كأنها أكف سواداء ثقيلة القتها الظلمة
على جسدي .

كل ما في الوجود وكل معنى في الحياة وكل سر في النفس

قد صار قبيحاً رهيباً هاللاً ، فالنور المعنوي الذي أرايني جمال
العالم وبهجة الكائنات قد انقلب ناراً تحرق كبدي بلهبها
وتستر نفسي بدخانها ، والنعمة التي كانت تضم إليها أصوات
المخلوقات وتجعلها نشيد علويًا قد استحالت في تلك الساعة الى
ضجيج أروع من زجرة لأسد وأعق من صراخ الهاوية .

بلغت غرفتي وارتعسا على فراشي كطائر رماه الصياد فسقط
بين السياج والسهم في قلبه . وظلت عاقلتي تراوح بين يقظة
مخيفة ونوم مزعج ، وروحي في داخلي تردد في الحالتين كلمات
سلمى : أشفق يا رب وشدد جميع الأجنحة المتكسرة .

أمام عرش الموت



إنما الزيجة في أيامنا هذه تجارة مضحكة مبكية يتولى أمورها الفتيان وآباء الصبايا ، الفتيان يربحون في أكثر المواطن والآباء يخسرون دائماً ، أما الصبايا المنتقلات كالسلع من منزل إلى آخر فتزول بهجتهم ، ونظير الأمتعة العتيقة يصير نصيبهن زوايا المنازل حيث الظلمة والفناء البطيء .

إن المدنية الحاضرة قد أنمت مدارك المرأة قليلا ولكنها أكثرت أوجاعها بشعيم مطامع الرجل . كانت المرأة بالأمس خادمة سعيدة فصارت اليوم سيدة قسوة . كانت بالأمس عياء تسير في نور النهار فأصبحت مبصرة تسير في ظلمة الليل . كانت جميلة يجهلها فاضلة ببساطتها قوية بضعفها فصارت قبيحة بتفننها سطحية بمداركها بعيدة عن القلب بمعارفها . فهل يجيء يوم يجتمع في المرأة الجمال بالمعرفة ، والتفنن بالفضيلة ، وضعف الجسد بقوة النفس ؟ أنا من القائلين ان الارتقاء الروحي سنة في البشر ، والتقرب من الكمال شريعة بطيئة لكنها فعالة فإذا كانت المرأة قد ارتقت بشيء وتأخرت بشيء آخر فلأن العقبات التي تبلغنا قمة الجبل لا تخلو من مكان للصعود .

وكهوف الذئاب . ففي هذا الجبل الشبيه بالغيوبة التي تتقدم
اليقظة - في هذا الجبل القابض بكفيه على تراب الاجيال
الغابرة وبزور الاجيال الآتية - في هذا الجبل الغريب بميوله
وأمانيه لا تخلو مدينة من امرأة ترمز بوجودها عن ابنة
المستقبل . وسلمى كرامه كانت في بيروت رمز المرأة الشرقية
العتيقة ، ولكنها كالكثيرين الذين يعيشون قبل زمانهم قد
ذهبت ضحية الزمن الحاضر ، ونظير زهرة اختطفها تيار النهر
قد صارت قهراً في موكب الحياة نحو الشقاء .

وتزوج منصور بك غالب من سلمى فسكنامعاً في منزل فخم
قائم على شاطئ البحر في رأس بيروت حيث يقطن وجهاء القوم
والاغنياء وبقي فارس كرامه وحده في ذلك البيت المنفرد بين الحدائق
والبساتين انفراد الراعي بين أغنامه ومضت أيام العرس وانقضت
ليالي الأفراح ، ومرت الشهر الذي يدغوه الناس عسلاً تاركا
وراءه شهور الخلل والعلقم مثلما تترك أمجاد الحروب جهاجم
القتلى في البرية الهعيدة ... ان بهرجة الاعراس الشرقية تصعد
بنفوس الفتيان والصبايا صعود النسرا الى ما وراء الغيوم ثم
تهبط بهم هبوط حجر الرخى الى اعماق اليم ، بل هي مثل
آثار الأقدام على رمال الشاطئ لا تلبث أن تمحوها الأمواج .

وذهب الربيع وتلاه الصيف وجاء الخريف وعبقتي لسلمى
تتدرج من شغف فتى في صباح العمر بامرأة حسناء
إلى نوع من تلك العبادة الخرساء التي يشعر بها الصبي اليتيم نحو

روح أمه الساكنة في الأبدية ، فالصباية التي كانت تمتلك كليتي
قد تحولت إلى كآبة عمياء لا ترى غير نفسها ، والولع الذي
كان يستدر الدموع من عيني قد انقلب ولها يستقطر الدم من
قلي ، وأنة الحنين التي كانت تملأ ضلوعي أصبحت صلاة عميقة
تقدمها روحي في السكينة أمام السماء مستمدة السعادة لسمي
والغبطة لبعليها والطمأنينة لوالدها ، ولكن باطلا كنت أشفق
وابتهل وأصلي لأن تعاسة سلمي كانت علة في داخل النفس لا
يشفيها سوى الموت . أما بعليها فكان من أولئك الرجال الذين
يحصلون بغير تعب على كل ما يجعل الحياة هنيئة ولا يقنعون
بل يطمحون دائماً إلى ما ليس لهم ، وهكذا يظنون معذبين
بمطامعهم إلى نهاية أيامهم . وباطلاً كنت أرجو الطمأنينة
لفارس كرامه لأن صهره لم يستلم يد ابنته ويحصل على أموالها
الطائلة حتى نسيه وهجره بل صار يطلب حقه توصلاً إلى ما
بقي من ثروته .

كان منصور بك شبيهاً بعمه المطران بولس غالب ، وكانت
أخلاقه كأخلاقه ، ونفسه صورة مصغرة لنفسه ، ولم يكن
الفرق بينهما إلا بما يفرق الرياء عن الانحطاط . كان المطران
يبلغ أمانيه مستتراً بأثوابه البنفسجية ويشبع مطامعه محتتماً
بالصليب الذهبي المعلق على صدره ، أما ابن أخيه فكان يفعل
كل ذلك جهاراً وعنوة . كان المطران يذهب إلى الكنيسة في
الصباح ويصرف ما بقي من النهار منتزعاً الأموال من الأراذل

واليتامى وبسطاء القلب ، أما منصور بك فكان يقضي النهار كله متبعاً ملذاته ملاحقاً شهواته في تلك الأزقة المظلمة حيث يختمر الهواء بأنفاس الفساد .

كان المطران يقف يوم الأحد أمام المذبح ويعظ المؤمنين بما لا يتعظ به ويصرف أيام الأسبوع مشغولاً بسياسة البلاد ، أما ابن أخيه فكان يصرف جميع أيامه متاجراً بنفوذ عمه بين طالبي الوظائف ومريدي الوجاهة . كان المطران لصاً يسير مختبئاً بستائر الليل ، أما منصور بك فكان محتالاً يمشي بشجاعة في نور النهار .

كذا تبید الشعوب بین اللصوص والمحتالین مثلما تفتنى القطعان بین أنياب الذئاب وقواطع الجزارين ، وهكذا تستسلم الأمم الشرقية إلى ذوي النفوس المعوجة والأخلاق الفاسدة فتتراجع إلى الوراء ثم تهبط إلى الحضيض فيمر الدهر ويسحقها بأقدامه مثلما تسحق مطارق الحديد آنية الفخار .

وماذا يا ترى يجعلني الآن أشغل هذه الصفحات بالكلام عن أمم بائسة يائسة وأنا قد خصصتها لتدوين حكاية امرأة تاعسة وتصوير خيالات قلب وجيع لم يلمسه الحب بأفراحه حق صفعه بأحزانه ؟ .. لماذا تراود الدموع أجفائي لذكر شعوب خاملة مظلومة وأنا قد وقفت دموعي على ذكرى أيلام امرأة ضعيفة لم تعانق الحياة حتى احتضنها الموت ،

ولكن أليست المرأة الضعيفة هي رمز الأمة المظلومة ؟
 أليست المرأة المتوجعة بين ميول نفسها وقيود جسدها هي
 كالأمة المتعذبة بين حكامها وكهانها ؟ أو ليست العواطف
 الخفية التي تذهب بالصبيبة الجميلة الى ظلمة القبر هي كالعواصف
 الشديدة التي تغمر حياة الشعوب بالتراب ؟ ان المرأة من الأمة
 بمنزلة الشماع من السراج ، وهل يكون شعاع السراج ضئيلاً
 اذا لم يكن زيتُه شحيحاً ؟

* * *

مضت ايام الخريف وعرت الرياح الأشجار متلاعبة
 بأوراقها الصفراء مثلها تداعب الأنواء زبد البحر ، وجاء
 الشتاء باكياً منتحباً وأنا في بيروت ولا رفيق لي سوى أحلام
 تتصاعد بنفسى تارة فتبلغها الكواكب ، وتنخفض بقلبي طوراً
 فتلمحه يحوف الأرض .

ان النفس الكثيبة تجد راحة بالعزلة والانفراد فتتهجر الناس
 مثلها يبتعد الغزال الجريح عن سربه ويتوارى في كهفه حتى
 يبرأ او يموت .

ف ذات يوم سمعت باعتلال فارس كرامه ، فتركت وحدتي
 وذهبت لعيادته ماشياً على ممر منفرد بين أشجار الزيتون
 المتلعة اوراقها الرصاصية بقطرات المطر ، متنحياً عن الطريق
 العمومية حيث تزعج ضجة المركبات سكينة الفضاء .

الاجنحة المتكسرة (٥)

بلغت منزل الشيخ ودخلت عليه فوجدته ملقى على فراشه
مضنى الجسم ، شاحب الوجه ، أصفر اللون ، قد غرقت
عيناه تحت حاجبيه فباتتا كهوتين عميقتين مظلمتين تجول فيها
أشباح السقم والألم ، فاللامع التي كانت بالأمس عنوان
البشاشة والانبساط قد تقلصت واكفهرت واصبحت كصحيفة
رمادية متجعدة تكتب عليها العلة سطوراً عربية ملتبسة .
واليدان اللتان كانتا مغلفتين باللفظ واللدانة قد نحلتا حتى
بدت عظام اصابعها من تحت الجلد كقضبان عارية ترتعش أمام
العاصفة .

ولما دنوت منه سائلاً عن حاله حول وجهه المهزول نحوي
وظهر على شفتيه المرتجفتين خيال ابتسامة محزنة ، وبصوت
ضعيف خافت خلته آتياً من وراء الجدران قال : اذهب ،
اذهب يا ابني الى تلك الغرفة وامسح دموع سلمي وسكن
روعها ثم عد بها إلي لتجلس بجانب فراشي . . .

دخلت الغرفة المحاذية فوجدت سلمي منطرحة على مقعد
وقد غمرت رأسها بزنديتها وغرقت وجهها بالمساند وأمسكت
أنفاسها كيلا يسمع والدها نحيبها . فاقتربت منها ببطء
ولفظت اسمها بصوت أقرب الى التنهد منه الى الهمس ،
فتحركت مضطربة كنائم تراوده الأحلام الخيفة ثم استوت على
مقعدتها ونظرت إلي بعينين شاخصتين جامدتين كأنها ترى
شبحاً في عالم الرؤيا ولا تصدق حقيقة وجودي في ذلك
المكان .

وبعد سكوت عميق أرجعنا بتأثيراته السحرية الى تلك الساعات التي سكرنا فيها من خمرة الآلهة مسحت سلمى دموعها بأطراف اناملها وقالت متحسرة : أرأيت كيف تبدلت الأيام ؟ أرأيت كيف أضلنا الدهر فسرنا مسرعين الى هذه الكهوف المفزعة ؟ في هذا المكان جمعنا الربيع في قبضة الحب ، وفي هذا المكان يجمعنا الآن الشتاء امام عرش الموت ، فما أبهى ذلك النهار وما أشد ظلمة هذا الليل .

قالت هذه الكلمات وقد ابتلعت الغصات وأواخرها ثم عادت فسترت وجهها بيديها كأن ذكرى الماضي قد تجسدت ووقفت أمامها فلم تشأ ان تراها . فوضعت يدي على شعرها قائلا : تعالي يا سلمى ، تعالي ننتصب كالابرار أمام الزوبعة . هلمي نقف كالجنود أمام الأعداء متلقين سفار السيوف بصدورنا لا بظهورنا ، فان صرعنا نموت كالشهداء وان تغلبنا نعيش كالأبطال . . . ان عذاب النفس بثباتها امام المصاعب والمتاعب هو اشرف من تقهقرها الى حيث الامن والطمانينة . فالفراشة التي تظل مرفرفة حول السراج حتى تحترق هي أسمى من الخلد الذي يعيش براحة وسلامة في نفقه المظلم . والنواة التي لا تحتل برود الشتاء وثورات العناصر لا تقوى على شق الأرض ولن تفرح بحمال نيسان . . . هلمي نسريا سلمى بقدم ثابتة على هذه الطريق الوعرة. رافعين اعيننا نحو الشمس كيلا نرى الجماجم المطروحة بين الصخور ، والافاعي المنسابة بين الاشواك ، فان اوقفنا الخوف في منتصف الطريق

أسمعنا أشباح الليل صراخ الاستهزاء والسخرية ، وإن بلغنا
قمة الجبل بشجاعة تترنم معنا ارواح الفضاء بأشودة النصر
والاستظهار . . . خففي عنك يا سلمى وجففي دموعك
واخفي هذه الكتابة الظاهرة على محياك وقومي لمجلس يجانب
فراش والدك لان حياته من حياقتك وشفاءه بابتسامك .

فنظرت إلي نظرة ملؤها الحنان والرأفة والانعطاف ثم
قالت : أتطلب مني الصبر والتجلد وفي عينيك معنى اليأس
والقنوط ؟ أيعطي الفقير الجائع خبزه للجائع الفقير ؟ أو يصف
العليل دواء لعليل آخر وهو أحرى بالدواء ؟

ثم وقفت وسارت أمامي منحنية الرأس الى غرفة والدها .
جلسنا بقرب مضجع الشيخ العليل وسلمى تتكلف الابتسام
وهدهوء البال وهو يتكلف الراحة والقوة ، وكل منها شاعر
بلوعة الآخر ، عالم بضعفه ، سامع غصات قلبه ، فكانا مثل
قوتين متضارعتين يفني بعضهما بعضاً في السكينة . والد دنف
يدوب ضنى لتعاسة ابنته ، وابنة محبة تدبل متوجعة بعلة
والدها . نفس راحلة ونفس يائسة تتعانقان أمام الحب والموت ،
وأنا بينهما أتحمل ما بي وأقاسي ما بهما . ثلاثة جمعتهم يد القضاء
ثم قبضت عليهم بشدة حتى سحقتهم : شيخ يثقل بيتاً قديماً هدمه
الطوفان ، وصبية تحاكي زنبقة قطع عنقها حد المنجل ،
وفقى يشابه غرسة ضعيفة لوت قامتها الثلوج ، وجميعنا مثل
العوبة بين أصابع الدهر .

وتحرك الشيخ إذ ذاك بين اللحف ومد يده النحيلة نحو
سلمى ، وبصوت أودعه كل ما في قلب الأب من الرقة والرافة
وكل ما في الصبر العليل من السقم والألم قال : ضعي يدك في
يدي يا سلمى .

فمدت يدها وألقتها بين أصابعه فضمها بلطف ثم زاد
قائلاً : لقد شبت من السنين يا ولدي ، قد عشت طويلاً
وتلذذت بكل ما تثمره الفصول وتمتعت بكل ما تبرزه الأيام
والليالي ، قد لاحقت الفراش صبياً وعانقت الحب فتى
وجمعت المال كهلاً ، وكنت في جميع هذه الأدوار سعيداً
مغتبطاً . فقدت أمك يا سلمى قبل ان تبغني الثالثة ولكنها
أبقتك لي كنزاً ثميناً ، فكنت تنمين بسرعة نمو الهلال
وتنعكس على وجهك ملامح أمك مثلما تنعكس أشعة النجوم
في حوض ماء هادئ ، وتظهر أخلاقها ومزاياها بأعمالك
وأقوالك ظهور الحلى الذهبية من وراء النقاب الرقيق ،
فتعزيت بك يا ولدي لأنك كنت مثلها جميلة وحكيمة . . .
والآن قد صرت شيخاً طاعناً وراحة الشيوخ بين أجنحة
الموت الناعمة ، فتعزي يا ولدي لأنني بقيت لأراك امرأة كاملة ،
وافرحي لأنني سأبقى بك حياً بعد موتي . إن ذهابي الآن هو
مثل ذهابي غداً أو بعده ، لأن إيماننا مثل أوراق الخريف ،
تتساقط وتلبد امام وجه الشمس فان أسرع بي الساعات
إلى الأبدية فلأنها علمت ان روحي قد اشتاقت الى لقاء أمك .

لفظ الكلمات الأخيرة بنغمة مفعمة بحلاوة الحنين والرجاء
ولاحت على وجهه المنقبض أشعة شبيهة بذلك النور الذي
ينبثق من أجفان الأطفال ، ثم مد يده بين المساند المحيطة
برأسه وانتشل صورة صغيرة قديمة ينطقها إطار من الذهب
قد نعمت حدوده ملامس الأيدي ومحت نقوشه قبل الشفاه ،
ثم قال دون ان يحول عينيه عن الرسم : اقتربي ياسلمى ،
اقتربي مني يا ولدي لأريك خيال أمك . تعالي وانظري ظلها
على صفحة من الورق .

فدنت سلمى ماسحة الدموع من مقلتيها كيلا تحول بين
ناظرها والرسم الضئيل ، وبعد ان حدثت اليه طويلا كأنه
مرآة تعكس معانيها وشكل وجهها قريبته من شفيتها وقبلته
بلهفة مراراً متوالية ثم صرخت قائلة : يا أماء . يا أماء .
يا أماء ! ولم تزد على هذه الكلمة بل عادت فوضعت الرسم
على شفيتها المرتعشتين كأنها تريد ان تبث فيه الحياة بأنفاسها
الحارة ...

ان أعذب ما تحدثه الشفاه البشرية هو لفظة « الأم » ،
وأجمل مناداة هي : يا أمي . كلمة صغيرة كبيرة مملوءة
بالأمل والحب والانعطاف وكل ما في القلب البشري من الرقة
والحلاوة والعذوبة . الأم هي كل شيء في هذه الحياة ، هي
التعزية في الحزن ، والرجاء في اليأس ، والقوة في الضعف
هي ينبوع الخنو والرأفة والشفقة والغفران ، فالذي يفقد

أمه يفقد صدرأ يسند اليه رأسه ويدأ تباركه وعينا
تخرسه ...

كل شيء في الطبيعة يرمز ويتكلم عن الامومة ، فالشمس
هي أم هذه الأرض ترضعها حرارتها وتحتضنها بنورها ولا
تغادرها عند المساء إلا بعد ان تنومها على نغمة أمواج البحر
وترنيمة العصفير والسواقي ، وهذه الأرض هي ام للأشجار
والأزهار تلدها وترضعها ثم تغطمها . والأشجار والأزهار
تصير بدورها أمهات حنونات للأثمار الشبية والبزور الحية .
وأم كل شيء في الكيان هي الروح الكلية الأزلية الأبدية
المملوءة بالجمال والمحبة .

وسلى كرامه لم تكن تعرف امها لأنها ماتت وهي طفلة ،
وقد شقت متأثرة عندما رأت رسمها ونادتها : يا أماه ، قسر
إرادتها ، لأن لفظة الأم تختبئ في قلوبنا مثلما تختبئ النواة
في قلب الأرض ، وتنبت من بين شفاها في ساعات الحزن
والفرح كما يتصاعد العطر من قلب الورد في الفضاء الصافي
والمطر .

كانت سلى تحديق الى رسم أمها ثم تقبله بلهفة ثم تلاذه إلى
صدرها الخفوق ثم تتأوه متنهدة ومع كل تنهدة تفقد جزءاً من
قواها ، حتى إذا ما وهت الحياة في جسدها النحيل هوت
وسقطت بجانب سرير أبيها ، فوضع كلتا يديه على رأسها
قائلاً : قد أريتك يا ولدي شبح أمك على صفحة من الورق ،
فاصغني إلي لأسمعك أقوالها .

فرفعت سلمى رأسها مثلما تفعل الفراخ في العش عندما تسمع حفيف أجنحة العصفورة بين القضبان ، ونظرت اليه مصغية صاغرة كأن ذاتها المعنوية قد استحالت الى أعين محدقة وآذان واعية .

فقال والدها : كنت طفلة رضيعة عندما فقدت أمك والدها الشيخ فحزنت لفقده وبكت بسكاء حكيم متجلد ، ولكنها لم تعد من جانب قبره حتى جلست بجانبه في هذه الغرفة وأخذت يدي براحتها وقالت : قد مات والدي يا فارس وأنت باقى لي وهذه هي تعزيقي . ان القلب بعواطفه المتشعبة يماثل الارزة بأغصانها المتفرقة ، فإذا ما فقدت شجرة الأرض غصناً قوياً تتألم ولكنها لا تموت بل تحول قواها الحيوية الى الغصن المجاور لينمو ويتعالى ويملاً بفروعه الغضة مكان الغصن المقطوع . هذا ما قالته والدتك يا سلمى عندما مات أبوها وهذا ما يجب عليك ان تقوليهِ عندما يأخذ الموت جسدي الى راحة القبر وروحي الى ظل الله .

فأجابت سلمى متفجعة : فقدت أمي والدها فبقيت أنت لها ، فمن يبقى لي إذا فقدتك يا والدي ؟ مات والدها وهي في ظلال زوج يحب فاضل أمين ، مات والدها فبقي لها طفلة تغمر رأسها الصغير بشديها وتطوق عنقها بذراعيها ، فمن يبقى لي إذا فقدتك يا والدي ؟ أنت أبي وأمي ورفيق حدثي ومهذب شبيبتي ، فمن أستعوض إذا ما ذهب عني ؟ .

قالت هذا وحولت عينيها الدامعتين نحوي وأمسكت
بيمينها طرف ثوبي ثم قالت : ليس لي غير هذا الصديق يا
والدي ولن يبقى لي سواه إذا ما تركتني ، فهل أتعزى به
وهو متعذب مثلي ؟ هل يتعزى كسير القلب بالقلب الكسير ؟
ان الحزينة لا تتصبر بحزن جارتها كما ان الحمامة لا تطير بأجنحة
مكسورة . هو رفيق لنفسي ولكنني قد أثقلت عاتقه
بأشجائي حتى لويت ظهره وسملت عيني بهعباتي فلم يعد يرى
غير الظلمة . هو أخ أحبه ويحبني ولكنه مثل جميع الأخوة
يشارك بالمصيبة ولا يخففها ، ويساعد بالبكاء فيزيد الدمع مرارة
والقلب احتراقاً .

كنت اسمع سلمى متكلمة وعواطفها تنمو وصدري يضيق
حتى شعرت بأن أضلعي تكاد تتفجر حناجر وفوهات ، أما
الشيخ فكان ينظر اليها وجسده المهزول يهبط ببطء بين الوسائد
والمساند ، ونفسه المتعبة ترتجف كشعلة السراج امام الريح ،
ثم بسط ذراعيه وقال يهدوء : دعيني أذهب بسلام يا ولدي ،
لقد لمحت عيناى ما وراء الغيوم ، فلن أحوّلها نحو هذه
الكهوف . دعيني أطيّر فقد كسرت بأجنحتي قضبان هذا
القفص ... قد نادتنى أمك يا سلمى فلا توقفينى ... ها قد
طابت الريح وتبدد الضباب عن وجه البحر فرفعت السفينة
شراعها وتأهبت للمسير فلا توقفيها ولا تنزعي دفتها . دعي
جسدي يرقد مع الذين رقدوا ودعي روحي تستيقظ لأن الفجر
قد لاح والحلم قد انتهى ... قبلي روحي بروحك ... قبليني

قبلة رجاء وأمل ولا تسكي قطرة من مرارة الحزن على جسدي
لئلا تمتنع الاعشاب والازهار عن امتصاص عناصره . ولا
تذرفي دموع اليأس على يدي لأنها تنبت شوكة على قبري . ولا
ترسمي بزفرات الاسى سطوراً على جبهي لأن نسيم السحر يمر
ويقرأه فلا يحمل غبار عظامي الى المروج الخضراء .. قد
لحبتك بالحياة يا ولدي وسوف أحبك بالموت فتظل روحي
قريبة منك لتحريك وترعاك .

والتفت الشيخ إلي وقد انطبقت أجفانه قليلاً فلم أعد أرى
سوى خطين رماديين مكان عينيه ، ثم قال وسكينة الفناء
تسترق ألفاظه : أما أنت يا ابني فكن أخاً لسلمى مثلما كان
والدك لي . كن قريباً منها في ساعات الشدة ، وكن صديقاً
لها حتى النهاية ، ولا تدعها تحزن لأن الحزن على الاموات غلطة
من أغلاط الأجيال الفاسدة . بل اتلُ على مسمعا أحاديث
الفرح وأنشدها أغاني الحياة فتسلو وتتناسى ... قل لأبيك أن
يذكركني ، سله فيخبرك عن مآتي أيامي عندما كان الشباب
يخلق بنا إلى الغيوم .. قل له انني احببته بشخص ابنه في
آخر ساعة من حياتي ...

وسكت دقيقة وظلت أشباح ألفاظه تدب على جذبان
الغرفة ، ثم عاد فنظر إلي وإلى سلمى بوقت واحد وقال
همساً : لا تدعوا طبيباً ليطيل بمساحيقه ساعات سجنني لان
أيام العبودية قد مضت فطلبت روحي حرية الفضاء . ولا

تدعوا كاهناً إلى جانب فراشي لأن تمازيه لا تكفر عن
ذنوبي ان كنت خاطئاً ، ولا تسرع بي الى الجنة ان كنت
بارئاً . ان ارادة البشر لا تغير مشيئة الله كما ان المجمعين لا
يحولون مسير النجوم . اما بعد موتي فليفعل الأطباء والكهان
ما شاؤوا ، فاللجة تنادي اللجة اما السفينة فتظل سائرة
حق تبلغ الساحل ...

* * *

عندما انتصف ذلك الليل الخفيف فتح فارس كرامه عينيه
الفارقتين في ظلمة النزع ، فتحبها لآخر مرة ، وحولها نحو
ابنته الجاثية بجانب مضجعه ، ثم حاول الكلام فلم يستطع
لأن الموت كان قد تشرب صوته فخرجت هذه الألفاظ لهاثاً
عميقاً من بين شفتيه : ها قد ذهب الليل ... وجاء الصباح ...
يا سلمى . يا . يا سلمى ...

ثم نكس رأسه وابيض وجهه وابتسمت شفاهه وأسلم
الروح .

ومدت سلمى يدها ولمست يد والدها فوجدتها باردة
كالثلج ، قرفعت رأسها ونظرت اليه فرأت وجهه مبرقعاً
بنقاب الموت ، فجمدت. الحياة في جسدها وجفت الدموع في
محاجرها ، فلم تتحرك ولم تصرخ ولم تتأوه ، بل بقيت محدة
اليه بعينين جامدتين كعيني التمثال ، ثم تراخت أعضاؤها مثلما
تتراخي طيات الثوب البليل ، وهبطت حتى لمست جبهتها

الأرض ، ثم قالت يهدوء: اشفق يا رب وشدد جميع الأجنحة
المتكسرة .

* * *

هات فارس كرامه وعانقت الأبدية روحه واسترجع
التراب جسده ، واستولى منصور بك على أمواله وظلت
ابنته أسيرة تعاستها ترى الحياة مأساة هائلة تمثلها الخافوف
أمام عينينا .

أما أنا فكنت ضائعاً بين أحلامي وهواجسي ، تتتابني
الأيام والليالي مثلما تفتاب النصور والعقبان لسان الفريسة .
فكم حاولت أن أفقد ذاتي بين صفحات الكتب لعلني استأنس
بأخيلة الذين طوامم الدهر ، وكم جربت أن أنسى حاضري
لأعود بقراءة الاسفار إلى مسارح الأجيال الغابرة ، فلم يحدني
كل ذلك نفعاً بل كنت كمن يحاول اخماد النار بالزيت ، لأنني
لم أكن أرى من مواكب الاجيال سوى اشباحها السوداء ،
ولا أسمع من أنغام الأمم غير الندب والنواح ، فسر ايوب
كان عندي أجمل من مزامير داود ، ومراثي ارميا كانت
أحب لدي من نشيد سليمان ، ونكبة البرامكة أشد وقعاً في
نفسي من عظمة العباسيين ، وقصيدة ابن زريق أكثر تأثيراً
من رباعيات الخيام ، ورواية هملت أقرب الى قلبي من كل ما
كتبه الافرننج .

كذا يضعف القنوط بصيرتنا فلا نرى غير أشباحنا
الرهيبة ، وهكذا يصم اليأس آذاننا فلا نسمع غير طرقات
قلوبنا المضطربة .

بين عششروت والمسيح



بين تلك البساتين والتلول التي تصل أطراف بيروت بأذيال
لبنان يوجد معبد صغير قديم العهد محفور في قلب صخرة
بيضاء قائمة بين أشجار الزيتون واللوز والصفصاف . ومع ان
هذا المعبد لا يبعد أكثر من نصف ميل عن طريق المركبات
فقد قل من عرفه من محبي الآثار والحرائب القديمة ، فهو مثل
أشياء كثيرة خطيرة في سوريا تختبئ وراء ستائر الإهمال ،
فكان الإهمال قد أبقاه محجوباً عن عيون الأثريين ليضعه خلوة
لنفوس المتعبين ومزاراً للمحبين المستوحشين .

والداخل الى هذا المعبد العجيب يرى على الجدار الشرقي
منه صورة فينيقية الشواهد والبيئات محفورة في الصخر قد
محت أصابع الدهر بعض خطوطها ولونت الفصول معالمها ،
وهي تمثل عششروت ربة الحب والجمال جالسة على عرش
فخيم ومن حولها سبع عذارى عاريات واقفات بيهئات
مختلفة ، فالواحدة منهن تحمل مشعلا والثانية قيثارة والثالثة
مبخرة والرابعة جرة من الخمر والخامسة غصناً من الورد

والسادسة إكليلاً من الغار والسابعة قوساً وسهاماً ، وجميعهن ناظرات الى عثرتوت وعلى وجوههن سماء الخضوع والامتثال . وعلى الجدار الثاني صورة أخرى أحدث عهداً وأكثر ظهوراً تمثل يسوع الناصري مصلوباً والى جانبه أمه ' الحزينة ومريم المجدلية وامرأتان ثانيتان تفتحجان . وهذه الصورة البيزنطية الأسلوب والقرائن تدل على كونها حفرت في القرن الخامس او السادس للمسيح .

وفي الجدار الغربي كوفات مستديرتان يدخل منها شعاع الشمس عند أصيل النهار وينسكب على الصورتين فتظهران كأنهما قد طلبتا بماء الذهب .

وفي وسط المعبد حجر من الرخام مربع الشكل على جوانبه نقوش ووسامات قديمة الطراز قد انحجب بعضها تحت كتلات متحجرة من الدماء تدل على أن الأقدمين كانوا ينحرون ذبائحهم على هذا الحجر ويصبون فوقه قرابين الخمر والعطر والزيت .

ولم يكن في هذا المعبد الصغير شيء آخر سوى سكينة عميقة تعانق النفس وهيبه سحرية تبيح بتموجاتها أسرار الآلهة وتتكلم بلا نطق عن مآتي الأجيال الغابرة ومسير الشعوب من حالة الى حالة ومن دين الى دين ، وتستميل الشاعر الى عالم بعيد عن هذا العالم ، وتقنع الفيلسوف بأن الانسان مخلوق دين يشعر بما لا يراه ويتخيل ما لا تقع عليه حواسه ، فيرسم لشعوره رموزاً تدل بمعانيها على خفايا نفسا

ويجسم خياله بالكلام والانغام والضور والتأثيل التي تظهر
بأشكالها أقدم ميوله في الحياة واجمل مشتهياته بعد الموت .

في هذا الهيكل المجهول كنت ألتقي سلمى كرامه مرة في
الشهر فنصرف الساعات الطوال ناظرين إلى الصورتين الغريبتين
مفكرين بفق الأجيال المصلوب فوق الجلبة مستحضرين إلى
غيلتينا أشباح الفتيات والصبايا الفينيقين الذين عاشوا
وعشقوا وعبدوا الجمال بشخص عشروت فحرقوا البخور امام
تماثيلها وهرقوا الطيوب على مذابحها ثم طوتهم الارض فلم يبق
منهم سوى اسم تردده الأيام أمام وجه الأبدية .

لم يصعب علي الآن ان أدون بالكلام ذكرى تلك الساعات
التي كانت تجمعني بسلمى ، تلك الساعات العالوية المكتنفة
باللذة والألم ، والفرح والحزن ، والأمل واليأس ، وكل ما
يجعل الانسان انساناً والحياة لغزاً ابدياً . ولكن كم يصعب علي
أن أذكرها ولا أرسم بالكلام الضئيل خيلاً من أخيلتها ليبقى
مثلاً لأبناء الحب والكتابة .

كنا نختلي في ذلك الهيكل القديم فنجلس في بابه ساندين
ظهرينا إلى جداره مرددين صدى ماضينا مستقصين مآتي
حاضرنا خائفين مستقبلنا . ثم نتدرج إلى اظهار ما في أعماق
نفسينا فيشكو كل منا لوعته وحرقة قلبه وما يقاسيه من
الجزع والحسرة ، ثم يصبر واحدنا الآخر باسطاً أمامه كل ما
في جيوب الأمل من الأوهام المفرحة والأحلام العذبة ، فيهدأ

روعنا وتجبف دموعنا وتنفرج ملاحنا ، ثم نبقسم متناسين كل شيء سوى الحب وافراحه ، منصرفين عن كل أمر إلا النفس وميولها ، ثم نتعاقق فنذوب شغفا وهياما ، ثم تقبل سلمى مفرق شعري بطهر وانعطاف فتملأ قلبي شعاعا ، وأقبل أطراف اصابعها البيضاء فتغض عينيها وتلوي عنقها العاجي وتتورد وجنتاهما باحمرار لطيف يشابه الأشعة الأولى التي يلقيها الفجر على جباه الروابي . ثم نسكت وننظر طويلا نحو الشفق البعيد حيث الغيوم المتلونة بأنوار المغرب البرتقالية .

ولم تكن اجتماعتنا مقتصرة على مبادلة العواطف وبث الشكوى ، بل كنا ننتقل على غير معرفة منا الى العموميات فنتبادل الآراء والأفكار في شؤون هذا العالم الغريب وتباحث في مرامي الكتب التي كنا نقرأها ذاكرين حسناتها وسيئاتها وما تنظوي عليه من الصور الخيالية والمبادئ الاجتماعية ، فتتكلم سلمى عن منزلة المرأة في الجامعة البشرية وعن تأثير الأجيال الغابرة في أخلاقها وميولها وعن العلاقة الزوجية في أيامنا هذه وما يحيط بها من الأمراض والفساد . واني أذكر قولها مرة : ان الكتاب والشعراء يحاولون إدراك حقيقة المرأة ولكنهم للآن لم يفهموا اسرار قلبها وغيبات صدرها لأنهم ينظرون اليها من وراء نقاب الشهوات فلا يرون غير خطوط جسدها او يضعونها تحت مكبرات الكره فلا يجدون فيها غير الضعف والاستسلام .

وقولها لي مرة أخرى وقد أشارت بيدها إلى الرسمين
المحفورين على جدران الهيكل : في قلب هذه الصخرة قد
نقشت الأجيال رمزين يظهران خلاصة ميول المرأة ويستجلبان
غوامض نفسها المراوحة بين الحب والحزن ، بين الانعطاف
والتضحية ، بين عشتروت الجالسة على العرش ومريم الواقفة
أمام الصليب ... ان الرجل يشتري المجد والعظمة والشهرة
ولكن هي المرأة التي تدفع الثمن .

ولم يدر باجتماعاتنا السرية أحد سوى الله وأسراب العصفير
المتطاهرة بين تلك البساتين ، فسلمى كانت تجيء بمركبتها الى
المكان المدعوب بمديقة الباشا ثم تسير الهويناء على الممرات المنفردة
حق تبلغ المعبد الصغير فتدخله مستندة إلى مظلتها وعلى وجهها
لوائح الأمن والطمانينة فتجدني منتظراً متوقفاً مشتاقاً بكل ما
في الشوق من الجوع والعطش .

ولم تخف قط عين الرقيب ولا شعرنا بوخز الضمير ، لأن
النفس اذا تطهرت بالنار واغتسلت بالدموع ترفع عما يدعوها
الناس عيباً وعاراً وتتحرر من عبودية الشرائع والنواميس التي
سنتها التقاليد لمواطني القلب البشري وتقف برأس مرفوع
أمام عروش الآلهة .

ان الجامعة البشرية قد استسلمت سبعين قرناً الى الشرائع
الفاسدة فلم تعد قادرة على إدراك معاني النواميس العلوية
الأولية الخالدة . وقد تعودت بصيرة الانسان النظر الى ضوء

الاجنحة المتكسرة (٦)

الشموع الضئيلة فلم تعد تستطيع ان تحرق الى نور الشمس .
لقد توارثت الأجيال الأمراض والعمائم النفسية بعضها عن
بعض حتى أصبحت عمومية ، بل صارت من الصفات الملازمة
للإنسان فلم يعد الناس ينظرون اليها كعمائم وأمراض بل
يعتبرونها كخلل طبيعية نبيلة أنزلها الله على آدم ، فإذا ما
ظهر فيهم فرد خال منها ظنوه ناقصاً محروماً من الكمالات
الروحية .

أما الذين سيعيبون سلمى كرامه محاولين تلويث اسمها
لأنها كانت تترك منزل زوجها الشرعي لتختلي برجل آخر
فهم من السقماء الضعفاء الذين يحسبون الأصحاء مجرمين وكبار
النفوس متمردين . بل هم كالخشرات التي تدب في الظلمة
وتخشى الخروج إلى نور النهار كيلا تدوسها أقدام العابرين .

ان السجين المظلوم الذي يستطيع ان يهدم جدران سجنه
ولا يفعل يكون جباناً . وسلمى كرامه كانت سجينه مظلومة
ولم تستطع الانعتاق ، فهل تلام لأنها كانت تنظر من وراء
نافذة السجن الى الحقول الخضراء والفضاء الواسع ؟ هل
يحسبها الناس خائنة لأنها كانت تجيء من منزل منصور بك
غالب لتجلس بجانبه بين عشتروت المقدسة والجبار
المصلوب ؟ ليقول الناس ما شاؤوا ، فسلمى قد اجتازت
المستنقعات التي تغمر أرواحهم وبلغت ذلك العالم الذي لا
يلغى عواء الذئاب وفحيح الأفاعي . وليقل الناس ما أرادوا

عني ، فالنفس التي شاهدت وجه الموت لا تذعرها وجوه
الصوص ، والجندي الذي رأى السيوف محتبكة فوق رأسه
وسواقى الدماء تجري تحت قدميه لا يحفل بالحجارة التي يرشقه
بها صبيان الأزقة .

●

ففي يوم من اواخر حزيران وقد ثقلت وطأة الحر في
السواحل وطلب الناس أعالي الجبال ، سرت كعادتي نحو ذلك
المعبد واعدت نفسي بلقاء سلمى كرامه حاملا بيدي كتاباً
صغيراً من الموشحات الاندلسية التي كانت في ذلك العهد ولم
تزل الى الآن تستميل روحي .

بلغت المعبد عند الاصيل فجلست ارقب الطريق المناسبة
بين اشجار الليمون والصفصاف ، وانظر من وقت الى آخر
الى وجه كتلي هامساً في مسامع الاثير ابيات تلك الموشحات
التي تستهوي القلب برشاقة تراكيبيها ورنه اوزانها .، وتعيد
الى النفس ذكرى أمجاد الملوك والشعراء والفرسان الذين ودعوا
غرناطة وقرطبة واشبيلية تاركين في قصورها ومعاهدها
وحدائقها كل ما في ارواحهم من الآمال والميول ثم تواروا
وراء حجب الدهور والدمع في اجفانهم والحسرة في أكبادهم .

وبعد ساعة التفت فاذا بسلمى تيس بقدها النحيل بين
الاشجار المحتبكة وتقرب نحوي مستندة الى مظلتها كأنها

تحمل كل ما في العالم من الهموم والمتاعب . ولما بلغت باب الهيكل وجلست بقربي نظرت الى عينيها الكبيرتين فرأيت فيها معاني وأسراراً جديدة غريبة توحى التحذر والانتباه وتشير حب الاستطلاع والاستقصاء .

وشعرت سلمى بما يحول في خاطري فلم تشأ أن يطول الصراع بين ظنوني وهواجسي ، فوضعت يدها على شعري . وقالت : اقترب مني ، اقترب مني يا حبيبي ، اقترب ودعني أزود نفسي منك ، فقد دنت الساعة التي تفرقنا الى الأبد . فصرخت قائلاً : ماذا تعنين يا سلمى ، وأية قوة تستطيع أن تفرقنا الى الأبد ؟

فأجابت : ان القوة العمياء التي فرقنا بالأمس ستفرقنا اليوم . القوة الخرساء التي تتخذ الشرائع البشرية ترجاناً عنها قد بنت بأيدي عبيد الحياة حاجزاً منيعاً بيني وبينك . القوة التي أوجدت الشياطين وأقامتهم أولياء على أرواح الناس قد حتمت علي ان لا أخرج من ذلك المنزل المبني من العظام والجلاجم .

فسألتها قائلاً : هل علم زوجك باجتماعنا فصرت تخشين غضبه وانتقامه ؟

فأجابت إن زوجي لا يحفل بي ولا يدري كيف أصرف أيامي ، فهو مشغول عني بأولئك الصبايا المسكينات اللواتي تقودهن الفاقة الى أسواق النخاسين فيتمطرن ويكتحلن ليبمن أجسادهن بالخبز المعجون بالدماء والدموع .

فقلت : إذا ماذا يصدك عن المجيء الى هذا المعبد والجلوس بجانبى أمام هيبة الله وأشباح الأجيال ؟ هل فلتت النظر الى خفايا نفسي فطلبت روحك الوداع والتفريق ؟

فأجابت والدمع يراود اجفانها : لا يا حبيبى . إن روحي لم تطلب فراقك لأنك شطرها ، ولا ملت عيناى النظر اليك لأنك نورها . ولكن إذا كان القضاء قد حكم علي أن أسير على عقبات الحياة مثقلة بالقيود وبالسلاسل . فهل أَرْضَى أن يكون نصيبك من القضاء مثل نصيبى ؟

فقلت : تكلمي يا سلمى واخبريني عن كل شيء ولا تتركيني ضائعاً بين هذه المعميات .

فأجابت : لا أقدر أن أقول كل شيء ، لأن اللسان الذي أخرسته الأوجاع لا يتكلم ، والشفاه التي ختم عليها اليأس لا تتحرك ، وكل ما أقدر أن أقوله لك هو أنى أخاف عليك من الوقوع في شرك الذين نصبوا لي الحبائل واصطادوني .

فقلت : ماذا تعنين يا سلمى ومن هم الذين تخافين عليّ منهم ؟

فسترت وجهها بيديها وتأوهت ملتاعة ثم قالت مترددة : ان المطران بولس غالب قد صار يعلم بأننى أخرج مرة في الشهر من القبر الذي وضعني فيه .

فقلت : وهل علم المطران بأنك تلتقين بي في هذا المكان ؟ فأجابت : لو علم بذلك لما رأيتني الآن جالسة بقربك ،

ولكن الشكوك تخامره والظنون تتلاعب بأفكاره ، وقد بث
عليّ الميون لثقبني وأوعز الى خدمه ليتجسسوا حركاتي حتى
صرت أشعر بأن للمنزل الذي اسكنه والطرق التي أسير
عليها نواظر تحدق بي وأصابع تشير إليّ وآذاناً تسمع همس
أفكاري .

وأطرقت هنية ثم زادت والدمع ينسكب على وجنتيها :
أنا لا أخاف على نفسي من المطران لأن الفريق لا يخشى
البلل ، ولكنني أخاف عليك وأنت حر كنور الشمس أن
تقع مثلي في أشراكه فيقبض عليك بأظافره . وينهشك بأنيابه
أنا لا أخاف من الدهر لأنه أفرغ جميع سهامه في صدري ،
ولكنني أخاف عليك وأنت في ربيع العمر أن تلسع الأفعى
قدميك وتوقفك عن المسير نحو قمة الجبل حيث ينتظرك
المستقبل بأفراسه وأمجاده .

فقلت : ان من لا تلمسه أفاعي الأيام وتنهشه ذئاب
الليالي يظل مغروراً بالأيام والليالي . ولكن اسمعي يا سلمى ،
اسمعي جيداً ، أليس أمامنا غير الفراق لنتقي صغارة الناس
وشرورهم ؟ هل سدت أمامنا سبل الحب والحياة والحرية فلم
يبق غير الاستسلام الى مشيئة عبيد الموت ؟

فأجابت بلهجة يساورها القنوط والحسرة : لم يبق أمامنا
غير الوداع والتفرق .

فأخذت يدها وقد تمردت روعي في داخلي وتبدد الدخان
عن شمعة فتوتي ، فقلت متهيجاً : قد استسلمنا طويلاً الى أهواء

الناس يا سلمى ... منذ تلك الساعة التي جمعتنا حتى الآن ونحن تنقاد الى العميان ونركع أمام أصنامهم . منذ عرفتكم ونحن في يد المطران بولس غالب مثل كرتين يلعب بنا كيفما أراد ويقذفنا حيثما شاء ، فهل نبقى خاضعين لديه محدقين الى ظلمة نفسه حتى يلوكننا القبر وتبتلعنا الأرض ؟ هل وهبنا الله نسمة الحياة لنضعها تحت أقدام الموت ، وأعطانا الحرية لنجعلها ظلاً للاستعباد ؟ ان من يخمد نار نفسه بيده يكون كافراً بالسما التي اوقدتها . ومن يصبر على الضيم ولا يتمرد على الظلم يكون حليف البطل على الحق وشريك السفاحين بقتل الابرياء . قد احببتك يا سلمى واحببتني ، والحب كنز ثمين يودعه الله النفوس الكبيرة الحساسة ، فهل نرمي بكنزنا الى حظائر الخنازير لتبعثره بأنوفها وتذريه بأرجلها ؟ امامنا العالم مسرحاً واسعاً مملوءاً بالمحاسن والفرائب ، فلماذا نسكن في هذا النفق الضيق الذي حفره المطران وأعوانه ؟ امامنا الحياة وبما في الحياة من الحرية وما في الحرية من الغبطة والسعادة ، فلماذا لا نخلع النير الثقيل عن عاتقينا ونكسر القيود الموثقة بأرجلنا ونسير الى حيث الراحة والطمأنينة ؟ قومي يا سلمى نذهب من هذا المعبد الصغير الى هيكل الله الاعظم . هلمي نرحل من هذه البلاد وما فيها من العبودية والغباوة الى بلاد بعيدة لا تظالها أيدي اللصوص ولا يبلغها لهاث الأبالسة . تعالي نسرع الى الشاطئ مستترين بوشاح الليل فنعتلي سفينة نقلنا الى ما وراء البحار وهناك نحييا حياة جديدة مكتتفة

بالطهر والتفاهم ، فلا تنفثنا الثعابين بأنفاسها ، ولا تدوسنا
الضواري بأقدامها . لا تترددي يا سلمى . فهذه الدقائق اثمن
من تيجان الملوك واسمى من سرائر الملائكة . قومي نتبع عمود
النور فيقودنا من هذه الصحراء القاحلة الى حقول تنبت الأزاهر
والرياحين .

فهزت رأسها وقد شخصت عيناها بشيء غير منظور في
فضاء ذلك الهيكل ، وسالت على شفتيها ابتسامة محزنة تعلن
ما في داخل نفسها من الشدة والألم ، ثم قالت يهدوء : لا ،
لا يا حبيبي ان السماء قد وضعت في يدي كأساً مفعمة بالحلل
والعلقم وقد تجرعتها صرفاً ولم يبق فيها غير قطرات قليلة
سوف أشربها متجلدة لأرى ما في قعر الكأس من الأسرار
والخفايا . أما تلك الحياة الجديدة العلوية المكتنفة بالمحبة
والراحة والطمانينة فأنا لا استحقها ولا أقوى على احتمال
أفراحها وملذاتها ، لأن الطائر المكسور الجناحين يدب متنقلاً
بين الصخور ولكنه لا يستطيع ان يسبح محلقاً في الفضاء ،
والعيون الرمداء تحدق الى الأشياء الضئيلة ولكنهم لا تقوى
على النظر الى الأنوار الساطعة ، فلا تحدثني عن السعادة لأن
ذكرها يؤلمني كالتماسة ، ولا تصور لي الهناء لأن ظله يخيفني
كالشقاء ... ولكن انظر إليّ لأريك الشعلة المقدسة التي
أوقدتها السماء بين رماد صبري .. أنت تعلم بأنني أحبك محبة
الأم وحيدها ، وهي المحبة التي علمتني أن أحبك حتى ومن

الأجنحة المتكسرة (٧)

نفسي . هي المحبة المطهرة بالنار التي توقفي الآن عن اتباعك
الى أفاصي الأرض وتجعلني أميت عواطفي وميولي لكي تحيا
أنت حراً نزيهاً وتظل في مأمن من لوم الناس وتقولاتهم
الفاسدة . ان المحبة المحدودة تطلب امتلاك المحبوب ، أما
المحبة غير المتناهية فلا تطلب غير ذاتها . المحبة التي تجيء بين
يقظة الشباب وغفلته تستكفي باللقاء وتقنع بالوصل وتنمو
بالقبل والعناق ، أما المحبة التي تولد في احضان اللانهاية وتهبط
مع أسرار الليل فلا تقنع بغير الأبدية ولا تستكفي بغير
الخلود ولا تقف متهيبة أمام شيء سوى الالهية ... عندما
عرفت بالأمس ان المطران بولس غالب يريد أن يمنعني عن
الخروج من منزل ابن اخيه ويسلبني اللذة الوحيدة التي عرفتها
مذ تزوجت ، وقفت أمام نافذة غرفتي ونظرت نحو البحر
مفكرة بما وراءه من البلاد الواسعة والحرية المعنوية والاستقلال
الشخصي ، وتخيلت نفسي عائشة بقربك ، محاطة بأخيلة
روحك مغمورة بانعطافك ، ولكن هذه الاحلام التي تنير
صدور النساء المظلومات وتجعلنهم يتمردن على التقاليد الباطلة
ليعيشن في ظل الحق والحرية ، لم تمر في خاطري حتى جعلتني
استصغر نفسي واستضعفها وأرى محبتها واهية محدودة لا
تستطيع الوقوف أمام وجه الشمس . فبكيت بكاء ملك
أصاع ملكه وغني فقد كنوزه ، ولكنني ما لبثت أن رأيت
وجهك من خلال دموعي وأبصرت غينيك محدقتين الي ،

فتذكرت ما قلته لي مرة : هلمي يا سلمى نقف أمام
الأعداء متلقين شفار السيوف بصدورنا ، فان صرعنا نمت
كالشهداء وان تغلبنا نعش كالابطال ، لأن عذاب النفس بشباتها
امام المصاعب والمتاعب هو أشرف من تقهرها الى حيث الأمن
والطمأنينة ... هذه الكلمات قلتها لي يا حبيبي عندما كانت
أجنحة الموت ترفرف حول مضجع والدي ، وقد ذكرتها
بالأمس وقد كانت أجنحة اليأس تصفق حول رأسي ، فتقويت
وتشجعت وشعرت وانا في ظلمة السجن بنوع من الحرية
النفسية التي تستهون الشدائد وتستصغر الأحزان ، ورأيت
حبنا عميقاً كالبحر عالياً كالنجوم متسعاً كالفضاء . وقد جئت
اليوم اليك وفي نفسي المتوجعة المنهكة قوة جديدة وهي القدرة
على توضحية الأمر العظيم للحصول على أمر أعظم ، توضحية
سعادتي بقربك لكي تبقى أنت شريفاً بعرف الناس بعيداً عن
غدرهم واضطهادهم ... كنت اجيء بالأمس الى هذا المكان
والقيود الثقيلة تغل قدمي الضعيفتين ، اما اليوم فقد جئت
شاعرة بعزم يهزأ بثقل القيود ويستقصر الطريق . كنت اجيء
مثل طيف طارق خائف ، اما اليوم فقد جئت مثل امرأة
حية تشعر بوجوب التوضحية وتعرف قيمة الأوجاع وتريد ان
تحمي من تحبه من الناس الأغبياء ومن نفسها الجائعة . كنت
أجلس حذاءك مثل ظل مرتجف وقد أتيت اليوم لأريك حقيقي
أمام عشقوت المقدسة ويسوع المصوب . انا شجرة نابتة في

الظل وقد مددت اغصاني اليوم لكي ترتعش ساعة في نور
النهار ... قد جئت لأردعك يا حبيبي فليكن وداعنا عظيماً
وهائلاً مثل حبنا ، ليكن وداعنا كالنار التي تصهر الذهب
لتجعله اشد لمعاناً .

ولم تترك لي سلمى مجالاً للكلام والاحتجاج بل نظرت الي
وقد برقت عيناها فأحاطت أشعتها بوجداني واتشحت ملامح
وجهها بنقاب من الهيبة والجلال فبانت كملیكة توحى الصمت
والتخضع . ثم ارتمت غلى صدري بانعطاف كلي ما عهدته فيها
قبل تلك الساعة ، وطوقت عنقي بزندها الأملس وقبلت
شفتي قبلة طويلة عميقة محرقة أيقظت الحياة في جسدي ،
وأثارت الأسرار الخفية في نفسي ، وجعلت الذات الوضعية
التي أدعوها « أنا » تتمرد على العالم بأسره لتخضع صامتة
أمام الناموس العلوي الذي اتخذ صدر سلمى هيكلًا ونفسها
مذبحاً .

* * *

ولما غربت الشمس وامحت أشعتها الأخيرة عن تلك
الحدائق والبساتين انتفضت سلمى ووقفت في وسط الهيكل .
ونظرت طويلاً إلى جدرانها وزواياها كأنها تريد أن تسكب
نور عينيها على رسومه ورموزه ، ثم تقدمت قليلاً وجثت
خاشعة أمام صورة يسوع المصلوب وقبلت قدميه المكلومتين
مرات متوالية ثم همست قائلة :

ها قد اخترت صليبك يا يسوع الناصري وتركت مسرات
عشثروت وأفراحها . قد كللت رأسي بالأشواك بدلاً من الفار ،
واغتسلت بدمي ودموعي بدلاً من العطور والطيوب ، وتجرعت
الحل والعلقم بالكأس التي صنعت للخمر والكور ، فاقبلني بين
تابعيك الأقوياء بضعفهم وسيرني نحو الجلجلة برفقة مختاريك
المستكفين بأوجاعهم المغبوطين على كتابة قلوبهم .

ثم انتصبت والتفتت نحوي قائلة :

سأعود الآن فرحة الى الكهف المظلم حيث تتراكم
الأشباح الخفيفة ، فلا تشفق علي يا حبيبي ولا تعزن من أجلي ،
لأن النفس التي ترى ظل الله مرة لا تتخشى بعد ذلك أشباح
الآبالسة ، والعين التي تكتحل بلمعة واحدة من الملائكة لا
تغمضها أوجاع هذا العالم .

وخرجت سلمى من ذاك المعبد ملتفة بملابسها الحريية
وتركتني حائراً ضائعاً مفكراً مجذوباً إلى مسارح الرؤيا حيث
تجلس الآلهة على العروش وتدون الملائكة أعمال البشر وتتلو
الأرواح مأساة الحياة وتترنم عرائس الخيال بأناشيد الحب
والحزن والخلود .

ولما صحت من هذه السكرية ، وكان الليل قد غمر
الوجود بأمواجه القائمة ، وجدتني هائماً بين تلك البساتين
مسترجعاً إلى حافظتي صدى كل كلمة لفظتها سلمى ، معيداً
إلى نفسي حركاتها وسكناتها وملامح وجهها وملامس

يديها ، حتى اذا ما اتضحت لي حقيقة الوداع وما سيجي بعده من ألم الوحشة ومرارة الشوق جمدت فكرتي وتراخت خيوط قلبي وعلمت لأول مرة ان الانسان وإن ولد حرّاً يظل عبداً لقساوة الشرائع التي سنّها آباؤه وأجداده ، وان القضاء الذي نتوّمه مرّاً علوياً هو استسلام اليوم الى ما تي الأمس ، وخضوع الغد الى ميول اليوم . وكم مرة فكرت منذ تلك الليلة الى هذا ، الساعة بالنواميس النفسية التي جعلت سلمى تختار الموت بدلاً من الحياة ، وكم مرة وضعت نبالة التضحية بجانب سعادة المتمردين لأرى أيها أجل وأجل ، ولكنني للآن لم أفهم سوى حقيقة واحدة وهي ان الاخلاص يجعل جميع الأعمال حسنة وشريفة ، وسلمى كرامه كانت الاخلاص متأنساً وصحة الاعتقاد متجسدة .

المنقذ



ومرت خمسة أعوام . على زواج سلمى ولم ترزق ولداً
ليوجد بكيانه العلاقة الروحية بينها وبين بعلمها ويقرب
بإتسامته نفسها المتنافرتين مثلما يجمع الفجر أواخر الليل
وأوائل النهار .

والمرأة العاقر مكروهة في كل مكان لأن الأناثية تصور
لأكثر الرجال دوام الحياة في أجساد الأبناء فيطلبون النسل
ليظلوا خالدين على الأرض .

ان الرجل المادي ينظر الى زوجته العاقر بالعين التي يرى
بها الانتحار البطيء فيمقتها ويهجرها ويطلب حتفها كأنها
عدو غدار يريد الفتك به . ومنصور بك غالب كان مادياً
كالتراب وقاسياً كالفلولاذ وطامعاً كالقبرة ، وكانت رغبته باين
يرث اسمه وسؤدده تكرهه بسلمى المسكينة وتحول محاسنها
في عيذه الى عيوب جهنمية .

ان الشجرة التي تنبت في الكهف لا تعطي ثمراً ، وسلمى
كرامه كانت في ظل الحياة فلم تثمر اطفالاً . ان البلبيل لا
يحوك عشاً في القفص كيلا يورث العبودية لفراخه ، وسلمى

كرامه كانت سجينه الشقاء فلم تقسم السماء حياتها الى أسيرين .
إن أزاهر الأودية هي أطفال يلدها انعطاف الشمس وشغف
الطبيعة ، وأطفال البشر أزاهر يلدها الحب والحنو ، فسلى
كرامه لم تشمر قط بأنفاس الحنو وملامس الانعطاف في ذلك
المزل الفخم القائم على شاطئ البحر في رأس بيروت ،
ولكنها كانت تصلي في سكينه الليالي ضارعة أمام السماء
لتبعث إليها بطفل يحفف بأصابعه الوردية دموعها ويزيل بنور
عينيه خيال الموت عن قلبها .

وقد صلت سلمى متوجعة حتى ملأت الفضاء صلاة
وابتهالاً ، وتضرعت مستغيثة حتى بدد صراخها الغيوم ،
فسمعت السماء نداءها وبشت في أحشائها نغمة مختمرة بالحلاوة
والعذوبة وأعدتها بعد خمسة أعوام من زواجها لتصيرها أمًا
وتحمو ذلها وعارها .

الشجرة النابتة في الكهف قد أزهرت لتثمر .
البلبل المسجون في القفص قد هم ليحوك عشًا من ريش
جناحيه .

القيثارة التي طرحت تحت الاقدام قد وضعت في مهب
نسيم المشرق ليحرك بأمواجه ما بقي من أوتارها .
سلمى كرامه المسكينة قد مدت ذراعيها المكبلتين
بالسلاسل لتقبل موهبة السماء .

وليس بين أفراح الحياة ما يضارع فرح المرأة العاقر عندما
تهيشها النواميس الأزلية لتصيرها أمًا . كل ما في يقظة الربيع

من الجمال ، وكل ما في مجيء الفجر من المسرة ، يجتمع بين
أضلع المرأة التي حرمها الله ثم اعطاها .

لا يوجد نور أشد سطوعاً واصكراً لمائناً من الأشعة التي
يبعثها الجنين السجين في ظلمة الاحشاء .

وكان نيسان قد جاء متنقلاً بين الروابي والمنحدرات
عندما تمت أيام سلمى لتلد بكرها ، وكأن الطبيعة قد وافقتها
وعاهدتها فأخذت تضع حمل ازامرها وتلف بأقمطة الحرارة
اطفال الأعشاب والرياحين .

مضت شهور الانتظار وسلمى تترقب الخلاص مثلما يترقب
المسافر طلوع كوكب الصباح ، وتنظر الى المستقبل من وراء
دموعها فتراه مشعشعاً ؛ وقد طالمسا ظهرت الأشياء القائمة
متلعة من خلال الدموع .

ففي ليلة وقد طافت أشباح الظلام بين تلك المنازل في
رأس بيروت ، انطرحت سلمى على مضجع الخصاص
والأوجاع ، فانتصب الموت والحياة يتصارعان بجانب فراشها ،
ووقف الطبيب والقابلة ليقدا الى هذا العالم ضيفاً جديداً ،
وسكنت حركة عابري الطريق وانخفضت نغمة أمواج البحر
ولم يعد يسمع في ذلك الحي سوى صراخ هائل يتصاعد من
نوافذ منزل منصور بك غالب .. صراخ انفصال الحياة عن
الحياة .. صراخ محبة البقاء في فضاء اللانبيء والعدم ...
صراخ قوة الانسان المحدودة امام سكينه القوي غسير
المتناهية .. صراخ سلمى الضعيفة المنطرحة تحت أقدام

جبارين : الموت والحياة .

عندما لاح الفجر ولدت سلمى ابناً ، ولما سمعت اهلاله
فتحت عينيها المغلفتين بالأم ونظرت حواليتها فرأت الأوجه
متهلهة في جوانب تلك الغرفة ... ولما نظرت ثانية رأت
الحياة والموت ما زالا يتصارعان بقرب مضجعهما ، فعادت
وأغمضت هينيتها وصرخت لأول مرة : يا ولدي .

ولفت القابلة الطفل بالأقمطة الحريرية ووضعتة حذاء أمه ؛
أما الطبيب فظل ينظر بعينين حزينتين نحو سلمى ويهز رأسه
صامتاً بين الدقيقة والأخرى .

وأيقظت نغمة الفرح بعض الجيران فجاءوا بملابس النوم
ليهنثوا الوالد بولده ، اما الطبيب فبقي ينظر بعينين كئيبتين
نحو الوالدة وطفلها .

وأسرع الخدم نحو منصور بك ليبشروه بقدوم وارثه ويمألوا
أيديهم من عطاياء ، اما الطبيب فلبث واقفاً ينظر بعينين
يائستين الى سلمى وابنها .

ولما طلعت الشمس قربت سلمى ولدها من ثديها ففتح
عينيها لأول مرة ونظر في عينيها واختلج وأغمضها لآخر
مرة ، فسدنا الطبيب وأخذه من بين ذراعيها وانسكبت على
وحنثيه دمعتان كبيرتان ثم همس في سره قائلاً : هو زائر
رائع ! .

مات الطفل وسكان الحي يفرحون مع الوالد في القاعة
الكبرى ويشربون نخبه ليعيش طويلاً ، وسلمى المسكينة تحدد الى

الطبيب وتصرخ قائلة: أعطني ولدي لأضمه ، ثم تحقق ثالثة
فترى الموت والحياة يتصارعان بجانب سريرها .

مات الطفل ورنات الكؤوس تنمو وتتكاثر بين أيدي
الفرحين بمجيئه .

ولد مع الفجر ، ومات عند طلوع الشمس ، فأبي بشري
يستطيع أن يقيس الزمن ليخبرنا ما إذا كانت الساعة التي تمر
بين مجيء الفجر وطلوع الشمس هي أقصر من الدهر الذي يمر
بين ظهور الأمم وتوارثها ؟

ولد كالفكر ، ومات كالتنهدة ، واختفى كالظل ، فأذاق
سلى كرامه طعم الأمومة ولكنه لم يبقَ ليسعددها ويزيل يد
الموت عن قلبها .

حياة قصيرة ابتدأت بنهاية الليل وانقضت بإبتداء النهار ،
فكانت مثل قطرة الندى التي تسكبها أجفان الظلام ثم تجففها
ملايس النور .

كلمة لفظتها النواميس الأزلية ، ثم ندمت عليها وأعادت
الى سكينه الأبدية ...

لؤلؤة قذفها المد الى الشاطئ . ثم جرفها الجزر الى
الأعماق ...

زنبقة ما انبثقت من أكهام الحياة حتى انسحقت تحت
أقدام الموت ..

ضيف عزيز ترقبت سلى قدومه ولكنه ، ما حل حتى
ارتحل ، وما فتح مصراعي الباب حتى اختفى .

جنين ما صار طفلاً حتى صار تراباً — وهذه حياة الانسان
بل حياة الشعوب ، بل حياة الشمس والأقمار والكواكب ..
وحوّلت سلمى عينيها نحو الطبيب وتنهدت بشوق جارج ثم
صرخت قائلة :

أعطني ابني لأضمه بذراعي .. أعطني ولدي لأرضعه ...
فنكس الطبيب رأسه وقال والفصات تخرسه :
قد مات طفلك يا سيدتي فتجلّدي وتصبّري لكي
تعيشي بعده .

فصرخت سلمى بصوت هائل ، ثم سكنت هنيهة ، ثم
ابتسمت ابتسامة فرح ومسرة ، ثم تهلل وجهها كأنها عرفت
شيئاً لم تكن تعرفه وقالت بهدوء : أعطني جثة ولدي ...
قربه مني ميتاً .

فحمل الطبيب الطفل الميت ووضعه بين ذراعيها فضمته
إلى صدرها وحوّلت وجهها نحو الحائط وقالت تخاطبه :
قد جئت لتأخذني يا ولدي . جئت لتدلني على الطريق
المؤدي إلى الساحل . ها أنذا يا ولدي فسر أمامي لنذهب من
هذا الكهف المظلم .

وبعد دقيقة دخلت أشعة الشمس من بين ستائر النافذة
وانسكبت على جسدين هامدين منطرحين على مضجع تخفّره
هيبة الأمومة وتظليله أجنحة الموت .

فخرج الطبيب باكياً من تلك الغرفة ، ولما بلغ القاعة
الكبرى تبدلت تهاليل المهنئين بالصراخ والعيول ، أما

منصور بك غالب فلم يصرخ ولم يتنهد ولم يذرف دمعة ولم يفه
بكلمة بل لبث جامداً منتصباً كالصنم قابضاً بيمينه على كأس
الشراب .

* * *

في اليوم التالي كفنت سلمى بأثواب عرسها البيضاء ووضعت
في تابوت موسى بالمحمل الناصع ، أما طفلها فكانت أكفانه
أقمطته وتابوته ذراعى أمه وقبره صدرها الهادى .

حملوا الجثتين في نعش واحد ومشوا ببطء متلف يشابه
طرقات القلوب في صدور المنازعين ، فسار المشيعون وسرت
بينهم وهم لا يعرفونني ولا يدرون ما بي .

بلغوا المقبرة فانتصب المطران بولس غالب يرتل ويعزم ،
ووقف الكهان حوله ينغمون ويسبحون وعلى وجوههم الكالحة
نقاب من الخلو والغفول .

ولما أنزلوا التابوت إلى أعماق الحفرة همس أحد الواقفين
قائلاً :

هذه أول مرة رأيت جسدين يضمها تابوت واحد ...

وقال آخر :

كان طفلها قد جاء ليأخذها وينقذها من مظالم زوجها
وقساوته .

وقال آخر :

تأملوا بوجه منصور بك فهو ينظر الى الفضاء بعينين
زجاجيتين كأنه لم يفقد زوجته وطفله في يوم واحد .

وقال آخر :

غداً يزوجه عمه المطران ثانية من امرأة أخزى أوفر ثروة
وأقوى جسماً .

وظل الكهان يرتلون ويسبحون حتى فرغ حفار القبور
من ردم الحفرة فأخذ المشيعون إذ ذاك يقتربون واحداً واحداً
من المطران وابن أخيه يصبرونها ويؤاسونها بمستعذبات الكلام ،
أما أنا فبقيت واقفاً منفرداً وحدي وليس من يعزّيني على
مصيبتى ، كأن سلمى وطفلها لم يكونا أقرب الناس إليّ .

عاد المشيعون وبقي حفار القبور منتصباً بجانب القبر
الجديد ، وفي يده رفشه ومحفرة ، فدلوت منه وسألته قائلاً :
أتذكر أين قبر فارس كرامه ؟

فنظر إليّ طويلاً ثم أشار نحو قبر سلمى وقال :

في هذه الحفرة قد مددت ابنته على صدره ، وعلى صدر
ابنته قد مددت طفلها ، وفوق الجميع قد وضعت التراب بهذا
الرفش .

فأجبتة : وفي هذه الحفرة أيضاً قد دفنت قلبي أيها الرجل ،
فما أقوى ساعديك !

ولما توارى حفار القبور وراء أشجار السرو خانني الصبر
والتجلد فارتيمت على قبر سلمى أبكيها وأرثيها .

نجيب محفوظ

الحب فوق قضاة السماء

مكتبة لبنان

1990

نور القمر

- ١ -

تجربة جنوبية، انتشر نبضها في زمان الوداع، وانخرست جذورها في طمي النيل، تحت ظلال النخيل واللبلاب والجازورينا، مهومة في الحبي الرنان ذي الإحياءات اللانهائية، روض الفرج. اهتدائي إليه مصير حتمي، فهو مصيف من يهظه الرحيل إلى الإسكندرية أو رأس البر. وهناك وجدت مقلداً لكشكش بيه، وآخر لبربري مصر الوحيد، ثم قادني قدامي - من باب العلم بالشيء - إلى كازينو «الواق» الواقعة فضضيت سهرة سباع لصوت «نور القمر».

لعله أصغر المسارح، يقع في نهاية الخط، مرسوم على هيئة سفينة، تطوق جانبيه أشجار الياسمين والحناء واللبلاب، ومقاصير أهل الخلوة، وتشغل وسطه صفوف الكراسي الخيزران. يقدم أول ما يقدم تواسيح عريقة، فرقة شرقية، ثم يرفع الستار عن «نور القمر» وتحتها المكون من القانون والعود والكمان والرق وأربعة من السنييدة المعجائز.

رفعت إلى المطربة عينين فائرتين، شيء أرعشني كجرس تنبيه، انحصر وعيي كله في النظر، لم أسمع من الغناء إلا أصداً متلاشية، انسحب مني الماضي وذاب، واتجهت بدفعة من المجهول نحو قبلة جديدة، منذ تلك اللحظة أمسى «الواق» مقصدي كل ليلة طوال فصل الصيف، لم أحجره ولكنه هجرني بانتهاه المصيف وإغلاق المسارح والكازينوهات، وتحول روض الفرج إلى مرفأ لسفن الغلال.

- ٢ -

من هي «نور القمر»؟... امرأة ناضجة. تتألق بأبهة الأنوثة الكاملة. لعلها في الثلاثين. تختلف الآراء في تقدير سنّها بحسب الأهواء. لا تجد عند أحد معلومة شافية عنها. قوى مجهولة تعزلها عن الناس في موسم العمل ثم سرعان ما تختفي بقيّة العام. جميع السكارى يتكاشفون بعنوية جمالها ولكنني - فيما بدا لي - شخصت بالهيام بها لحد الجنون. ماذا جرى؟ إنهم منهمكون في الأكل والشرب والضحك والطرب، وإعجابهم بها عابر، على حين سلبت مني - بشراهة - الروح والجسد. ويقول من يدعون الخبرة:

- صوتها رقيق محبوب...

فأقول:

- ولكنها لا تغني إلا الأغاني القديمة، وفي اعتقادي أنّ أيّ ملحن معاصر يسره أن يلحن لها...

- ولم تدفن نفسها في روض الفرج؟

- من يدري؟

من يدري حقاً؟ إنها سرّ مغلق. علمي بها - كالآخرين - محدود جداً أمّا هيامي فلا حدود له، على أيّ حال لم أعرف في حياتي الانطواء أو السلبية.

- ٣ -

ولكن من أنا؟

من ذوي المعاشات، في الخمسين من العمر، أعزب، ليس بيني وبين المرأة التي تعكس صورتي أيّ

ضيق أو اعتراض. أحب الطعام الجيد، أكل، أحسن طهي ألوان من الطعام كأهمهر الطهارة، ضحك، صافي السريرة، غير أن عزوبي ركزت اهتمامي في ذاتي فعلقت بي أنانية طفولية. كنت ضابطاً بالجيش، أدركني المعاش وأنا صاغ في الخامسة والأربعين من عمري. خدمت في السودان والصعيد والسلوم. وكنت طوال عمري جامع الأهواء، مغرماً بالنساء، سئ السمعة، في صباي وشبابي خيبت أمل والدي، رغم أنني كنت وحيداً، بذلاً جهداً طموحاً ليجعل مني طبيباً أو وكيل نيابة ولكنني لم أظفر بالابتدائية إلا بطولع الروح وقد جاوزت الخامسة عشرة. لذت بالمدرسة الحربية كآخر معقل للأمل كي تجعل مني شيئاً ما. وكنت بديناً مفرطاً في البدانة. رمقني ناظر المدرسة الإنجليزي بدهشة، كأنه يتساءل عما جاء بي، ولكنني أظهرت من البراعة في السباحة والعلو ما سره وفتح قلبه لي فقبلني أو أصر على قبولي وهو الأصح. كان الفشل هو ما يدفعنا إلى المدرسة الحربية، لا الوطنية ولا الروح العسكرية. غير أن الروح تتولد بطريقة ما، أما الوطنية فقد تكفلت بها ثورة ١٩١٩. وقد اشتركت في مظاهرة المدرسة الحربية المشهورة وأصابني جندي إنجليزي بالسونكي في وركي، ولولا العفو العام لفصلت من المدرسة وخاب آخر رجاء في وظيفة محترمة نوعاً ما. وتخرجت ملازماً ثانياً في نهاية أربعة أعوام دراسية، منها عام عقوبة لاشتراكي في المظاهرة. وفي الترام سمعت أحدهم يهتف:

- كل هذا البدن وملازم ثان فقط ١٩!...

فهمس آخر:

- إنه في وزن لواء!

وكان اللوات في تلك الأيام ذوي كروش وبدانة، تحسبهم قصابين لا عسكريين. ومات والدي، وامتدت خدمتي خمسة وعشرين عاماً، ثم أدركني المعاش فوجدت نفسي ضحياً وحيداً ضائعاً يعيش في زنزانة انفرادية في صورة شقة. رسمت خطة لإنقاذ وزي فصرت مقبولاً، وفترت بهجة الطعام والنساء، وكان الشعر يستهويني فقررت أن أتخذ من حافظ

إبراهيم مثلاً على نحو ما، وشغلت وقت وحدتي بالقراءة في شتى المعارف الدنيوية والدينية، وبث من رواد قهوة المالية - قهوة أصحاب المعاشات - لعب النرد والدومينو وأتكلّم في السياسة، وأعلّق على الأحداث، أفلسها مستعيناً بثقافتي المتنامية، ثم أنضمّ لكثيرين لأداء صلاة الجمعة. ورحم كثيرون وحدتي فاقترحوا عليّ أن أتزوج.

- الخمسون مقبولة، صحتك جيدة، لم تشب شعرة واحدة في رأسك بعد، والجنس يعيش في مثل هذه الظروف حتى آخر العمر...

فكرت في ذلك باهتمام فاق تصوّري، ولكن ثبط همّي أن ظروف لي لن ترشّحنني إلا لامرأة يائسة وقد آبيت ذلك. الحقّ أنني اعتدلت في شهواني، ربما كردّ فعل لما سبق، وقتعت أكثر الوقت بمراقبة الموانم من موقعي في القهوة، ونادراً ما وجدت الدافع القوي لمطاردة إحداهنّ. أصبح لمن في قلبي أكثر من منافس كالكتاب والمسرح والسينما والأصحاب المدينين، حتى اقتادني مصري المحتوم إلى «الواق الواق».

- ٤ -

عرفت الحب لأول مرة في حياتي. إنه كاللوت نسمع عنه كلّ حين خبراً ولكنك لا تعرفه إلا إذا حضر. وهو قوة طاغية، يلتهم فريسته، يسلبه أيّ قوة دفاع، يطمس عقله وإدراكه، يصبّ الجنون في جوفه حتى يطفح به. إنه العذاب والسرور اللانهائي. تلاشي شخصي القديم تماماً وحلّ محله آخر بلا تراث ولا مبادئ، ينفّض على مصيره بعينين معصوبتين.

وجعلت أتساءل: «كيف الوصول إلى نور القمر؟»

إنها تغني وصلتين ثم تخفني حتى مساء اليوم التالي. لا تروى إلا فوق المسرح. لم تذهب إلى مقصورة قط. الراقصة وجوقتها يفعلن ذلك، ويسمين إليه، أما هي فما إن تفرغ من الغناء حتى تلاشي في الكون. وإنّي رجل في الخمسين، محدود الدخل، لا جاء ولا مركز. لا قدرة لي على حيازتها، ولا أدري إن كانت تقبل علاقة عابرة، أما ابتغاء الرضى والحب فما أبعد عن

تصوّر مَنْ كان في مثل سَنِي وحالي، وأما الزواج فإذا يعني لها إن لم يعنِ الأبهة والرفاهية؟!

أشار عليّ العقل بأن أقتلع فكرتها من نفسي الملعّبة، ولكن ليس للعقل صوت يُسمع في ضجّة أهازيج الهوى، وصخب أمواجه العاتية، وأزيز أعاصيره الهوج.

وأعجب من ذلك كلّهُ أن يتحوّل خبير الأطعمة المتقنة، زير النساء، إلى مجنون ملهم، يهيم في دنيا الحبّ المترعة بالأسرار، يخاطب بأنّيه المجهول، ويحدّ في البحث عن لا شيء في كلّ شيء، في ضياء الشمس، بهاء القمر، وهج النجوم، ثراء السحب، أريج الأزهار، سلاسة الماء، فقد غطّت نور القمر على حياتي وحياة الكون من حولي...

- ٥ -

وفي بوتقة الهجران يبعث القلب ويتطهّر ولو كان في الأصل غليظاً مشبّعاً بالإثم. وقد خربت الضحك والسخرية والشهوات فأن لي أن أعرف الشجى، وأنترّم بالحنان الأمسى.

مضيت أنسحب برفق من جوّ أصحاب المعاش، من الثروة والمقامرة والشراب والخوف من الموت. ملأت نور القمر وجداني واستأثرت بعوي. أبييت الاستسلام للقهر والهزيمة. جعلت أشجّع نفسي وأضرب لها الأمثال من ماضي. استهتاري الفائق، ومغامراتي الجريئة، واقترحاتي المذهلة. عبت دائياً ما أهوى وأريد واستهنت دائياً بالتقاليد والسمة والقليل والقال. وموقفي يوم المظاهرة المشهورة هل يُنسى؟ لقد أضربنا وذهبنا إلى مدرسة الشرطة، هتفا بالإضراب، وكما وجدنا تردّداً أطلقت رصاصة في الهواء وتحذيت بدائني فكنت أعدو بسرعة الريح كائي برميل بخاري. محال أن أقتاعس يا نور القمر...

- ٦ -

وصمت ذات ليلة، سمعت الوصلة الأولى وكانت:

كادني الهوى وصبحت عليل

ثم غادرت مجلسي ماضياً إلى الباب الخلفي للكاзино. اعترضني البوّاب فقلت بكبرياء:

- أعرف طريقي!

سرعان ما جاءني الجرسون حمّودة مبتسماً متسائلاً:

- أيّ خدمة يا بيه؟

- حمّودة، أرغب في مقابلة نور القمر لأهديها إعجابي.

- الجميع يعلنون الإعجاب بالتصفيق.

- ولكنّي أريد أن أقدمه بنفسي.

- ممنوع.

فساءلت بحدّة:

- مَنْ صاحب هذا الأمر السخيف؟

- أصحاب الشأن في الكازينو، ما أنا إلّا عبد

مأمور...

- ولكنّ لماذا؟

- لا أدري يا سيدي، جميع الزبائن يعرفون

ذلك...

فقلت بعجرفة:

- ولكنّي سأدخل...

فقال بتوسّل يليق بزبون دائم مثلي:

- أرجوك يا بيه...

- علّ مسئولتي!

- هناك سنجة الترام!

أفقت من غضبي. سنجة الترام هو فترة المحلّ

وحاميهِ. لا قبل لي به فضلاً عن أنّي في الخمسين من

العمر، تراجعت متسائلاً في استنكار:

- لهذا الحدّ؟

- أنت بيه محترم ولا يليق بك الشغب!

تهدّدت لأروّج عن غيظي، وقلت له:

- إذن فعليك أن تبّلغها إعجابي...

فقال بأسف:

- ولا هذا!

- أمر غريب حقاً!

- ما باليد حيلة...

- لماذا لا تفعل كما تفعل الراقصة وجوتتها؟

فقال وهو يحني رأسه:

- الراقصه وجوقتها تحت أمرك!

- ٧ -

إنَّ هي إلَّا جولة خاسرة ولكنَّها ليست كلَّ شيء.
الطريق طويل والزمن طويل. ها هو صوتك الحنون
ينسرب إلى أعماقي معطرًا بالفتنة وليس بيني وبينك إلَّا
خطوات. لو كان لي أنف كلب لشممت أنفاسك. لو
كان لك قلب لرُكزت بصرك على عابذك. ولو أعتيتني
السبل الماديَّة في الوصول إليك فنمَّة قوَّة الحب ستصنع
معجزة فائقة للعقل في الوصول إليك هازنة بأعين
الحراس. في تلك الليلة تعمَّدت التأخير حتَّى استقلت
الترام الأخير، واخترت مجلسي إلى جانب الجرسون
حمودة، دفعت عنه ثمن التذكرة فاستعذَّ الرجل
للحديث المتوقَّع. ولما غاص الترام في الظلام شاقًّا
طريقه بين الحقول تساءلت:

- ما معنى هذا يا حمودة؟

- تسأل عن نور القمر؟... هذا هو الواقع...

- أهي سيِّدة مصونة حقًّا؟

- هي كذلك فيما نرى...

- وما السرُّ؟

- لا علم لي به.

- يوجد سرٌّ ولا شك.

- علمي علمك.

- إنَّك تعرف السرَّ ولكنَّك تمكري بي.

- صدَّقني، ليس عندي أكثر ممَّا قلت.

- هل تؤمن بالخرافات؟

- إنَّها حقيقة لا خرافة.

- هل تصدِّقها؟

- فلنسكِّم بأنَّها شاذَّة، ما الفائدة؟

- عندك تفسير لها؟

- لا أشغل نفسي بالتفكير في ذلك.

- وراءك أشياء ولا شك؟

- أبدًا، صدَّقني...

- هل تذهب نور القمر عقب العمل وحدها؟

- كما ترى فليأتني أذهب قبل ذلك حتَّى لا يفوتني

الترام الأخير.

- بأيِّ وسيلة تذهب هي؟

- ريمًا تاكسي، حنطور المدير موسى القبلي، فورد

صاحب الكازينو حفي داود، من يدري؟

- الآن فهمت...

- ماذا فهمت يا سيدي؟

- إنَّها عشيقه أحد الرجلين!

- الله وحده يعلم.

- ألا يعرف أحد شيئًا عن سيرتها الخاصَّة؟

- نحن نتجنَّب الفضول حفظًا على رزقنا...

- أين تسكن المرأة؟

- لا أدري...

- فتحدَّثت وقلت بنبرة اعتراف:

- حمودة، أنت تدرك ولا شكَّ ما وراء أسئلتي

الملحَّة؟

- أجل يا بيه.

- والعمل؟

- ما باليد حيلة... النساء كثيرات... وكلَّهنَّ في

النهاية طعام واحد...

أهديت إليه سيجارة، غمزته ببريزة، ولكنَّه قال:

- إني لا أخدعك، وليس عندي مقابل!

- حمودة!

- صدَّقني، لقد وقع في هواها عمدة صعيدي

واسع الثراء، ولكنَّ ماذا أفاد؟

فهتفت بغیظ:

- إنَّ ملكة مصر أيسر منالًا من ذلك...

- هذا هو الواقع...

وتفكرت مليًّا ثمَّ سألته:

- سنجة الترام رجل قوي، هل يمكن الاستعانة

به؟

- لا أدري، جرِّب إن شئت...

حقًّا إنَّ جرِّد الاتصال به مهانة ما بعدها مهانة

ولكنَّ ما الحيلة؟ سألته:

- هل تساعدني في ذلك؟

- إنَّه صاحب غرزة بدأ عقب التشطيب...

ازدددت امتعاضًا وأنا أسأل:

- أين؟

وَقَفْتُ المسَاهرة بيني وبين سِنْجَةِ التَّرامِ. مساء الخير يا معلّم سِنْجَة، مساء الخير يا أنور بيه. دعوته للغداء عند الدّهَان فِدْعَانِي للغداء في المذبح. وجدّتي أندمج في أوساط البلطجيّة وتجار المخنّرات. أرهقني الخزي والحزن، عجبني لتدهوري، وكيف ساقني إليه أنقى وأصدق عاطفة شدّا بها قلبي. أجل طالما تحدّيت التقاليد والحرص على السمعة الطيّبة، ولكنّ عريضة العشاق شيء وغالطة الأوباش شيء آخر. ولم أعد أختلف إلى المقهى إلّا في النادر. وخنّ الصحاب أنّ في الأمر امرأة ولكنّهم لم يتصوّروا أيّ امرأة تكون، ولا أيّ تدهور دُفِعَتْ إليه بيد حبّها الناعمة، وطبعًا كتمت سرّي حتى لا أكون حديث الجاّة والساخِر. كذلك ندر الوقت الموهوب للقراءة غير أنّ بعض الشّعْر الذي سبقَتْ لي معاشرته امتلأ بحياة جديدة وتبدّى بحسن جديد وتفتّج عن قوى جديدة فأدركت أنّ جمال الشعر لا يكمن في ألفاظه وموسيقاه وصوره ولكنّه يكمن قبل كلّ شيء في القلب البشريّ.

وفي تلك الفترة من حياتي زارني عمّي نظميّة، أرملة في السّتين، بكرتيها مهندس مقاول قدّ الدنيا، وشقيقه موظّف دبلوماسيّ في سفارتنا بالحبشة. قالت:

- انقطعت عني منذ مدّة ولكنّي لا أنساك...

فلثمت خدّها النحيل ممثّلاً، وجعلت تنفّخني باهتمام أثار قلقي، ثمّ تساءلت:

- حتّى متى ترضى بهذه الحياة المقفرة؟
أدركت أنّها تعود إلى موضوعها المفضّل وهو «الزواج» فقلت:

- اعتدت يا عمّي العزوبة...

فقلت بحرارة:

- عادة سيّئة، ضدّ مشيئة الله.

- كلّ شيء بمشيئة الله يا عمّي...

احتست الشاي وهي تفكّر ثمّ قالت بنبرات جديدة تمامًا:

- أنور... حدّثني حمدي حديثًا لا يصلّق...

حمدي مأمور شرطة وزوج ابنتها الوحيدة، وقد اضطرب قلبي وتساءلت:

- يمكن عمّهّد لي السبيل باعتباري من أصحاب المزاج؟
- هذا ممكن...

لم أكن يومًا من أصحاب المزاج. إني من أصحاب الأمزجة الفوّارة التي لا تتلاءم مع المخنّرات. وقد دَخَنْت مرّة البانجو في السودان وسرعان ما غشيّ النوم فتوكّد ففوري من المخنّرات. وفي مثل الحال التي أنا مقبل عليها بوسعي أن أمثّل وأن أتمتّب التدخين الحقيقيّ. ما العمل وجنوني يستفحل؟ لقد ضاعت منّي نفسي. جعلت أنظر إليها - كغريب - بعين الرثاء والأسى. وهان عليّ أن أسعى لمصادقة سِنْجَةِ التَّرام. وهو أربعة متين البنيان ضخّم الرأس والوجه، في جبينه ثلاث ندبات وفي أنفه اعوجاج، واسع الأشدّاق كأنّه من أكلة الأحجار. وسرعان ما حسبت تكاليف السهرة فوجدتها - مع الإكرام - تستهلك خمسين قرشًا، وهو قدر لا يستهان به مع الاستمرار الذي يقتضيه توثيق العلاقة.

تسلّكت إلى القارب فصافحني على ضوء شعلة عربية ترمس وتتم:

- أهلاً...

فشددت على اليد الغليظة وأنا أقول:

- مساء الخير يا معلّم سِنْجَة...

وانغمست على جانب وسط تكتّل من الأوباش. وانساب القارب فوق الماء الرزّين وأهباّ ذاته المتأرجحة لظلام دامس تشعّشه أضواء النجوم كالهمسات. لعلمهم من تجار الغلال والبصل، ينگتون ويقهقهون بفضاظة. ودارت علينا الجوزة لدى امتلاء الشراع بالهواء، ولاطفنا نسائم معطرة برائحة النبل. ورغم حذري ثقل رأسي، وناء قلبي بالحزن. ومن حسن الحظّ أنّ أحدًا لم يهتمّ بأحد فلم اضطّر إلى الخروج من صمتي وأفكاري. وعند الوراق غادرنا البعض، وانفضّ السامر عند الفجر.

الكازينو، ماذا بهم؟ من حسن الحظ أنني لا أرغب فيها...

وضحكنا طويلاً، ثم سألته:

- ماذا كنت تفعل؟

- كنت أفتح المحروس والمحموس!

فقلت بدهاء:

- ظننت أن الأسرار لا تنيب عن رجل مثلك؟

- الأسرار التي تهمني فقط.

- ألسنت صديق المدير وصاحب الكازينو؟

- لك أن تعتبرني صديق الجميع، ولك أن تعتبرني

بلا أصدقاء!

وكننت عرفت من طبعه أنه لا يطبق سماع ثناء على

أحد فقلت:

- يبدو أن المدير رجل محترم!

فقال ساخراً:

- ما هو إلا قواد.

- قواد؟!

- صاحب بيت دعارة!

انبهر رأسي بضوء فوسفوري مبالغ. هل يستغل نور القمر بطريقة عنكدة؟ يا خبيثة الأمل إذا لم تكن المرأة إلا مومساً؟ ولكن حتى هذا الفرض لم يطفئ لمعة الوجد في قلبي، بل لعله أثارها بفتح باب يسير للوصول. وصبرت حتى دار رأس سنجة ورقص الانسجام في مخايله فسألته:

- ما رأيك في سهرة في بيت موسى القبلي؟

فقال بازدياء:

- أعوذ بالله!

- من باب العلم بالشيء؟

- ولكنك كهل محترم وأب!

فقلت ضاحكاً:

- لست إلا أعزب!

- أعوذ بالله!

ثم مستدركاً:

- وكيف تعيش بنصف دين؟

فقلت لنفسني بأسى «حقاً ينقصني النصف

الأخر»...

- ماذا؟

- قال إنك تصاحب قوماً ليسوا من أصلك ولا مستواك!

فزعت. هل تنفني الأسرار بهذه القوة؟ قلت مدافعاً:

- كلنا أولاد حواء وآدم...

- ولكنهما أنجبا قابيل كما أنجبا هابيل!

وقرأت في وجهي ولا شك تحرجي وضيقني فقالت بركة:

- أردت أن أحذرك فسأعني...

- ٩٠ -

تأملت ولكني لم أبال. عزمت على مزيد من الخطوات المسددة. ها هو سنجة الترام يتردد على شفتي في النيرة رافعاً الكلفة. يتناول الطعام أحياناً، وأحياناً يضطجع نائماً، ومرات أودع عندي حشيشه بعيداً عن أي مظنة. أصبح البيت بيتة ابن القديمة، وجمت حوله متحيزاً الفرس. آنس إليّ فروى لي قصة حياته منذ نشأته في سوق الزلط، معاركه، سجنه، بلاءه في ثورة ١٩١٩، حتى اختير فتوة لكازينو «الواق الواق».

- موسى القبلي هو الذي اتفق معي...

- المدير؟

- نعم.

فقلت بمكر:

- يقال إنه قريب لنور القمر.

- كلام فارغ...

- بذلك يفسرون عزلتها الغريبة...

- سكارى وأغبياء...

- أصل عزلتها تثير القيل والقال!

- إنها حرة تفعل ما تشاء...

- تعني أنها هي التي ترفض المؤانسة...

- علمي علمك، ما يهمني أنني مكلف بإبعاد من

تحذنه نفسه، بالاقتراب منها...

- بلا علم يسبب ذلك؟

- ليكن ما يكون، هبها امرأة مصونة، أو رجلاً

متنكراً في صورة امرأة، أو عشيقاً للمدير أو صاحب

- ١١ -

- قلت للجرسون حمودة وأنا أغمزه ببريزة:
- دَنِّي على بيت موسى القبلي...
ابتسم الرجل ابتسامة عريضة، غمز بعينه، قال:
- بريزة أخرى...
فأثنت في سرِّي على صدق فراستي.

- ١٢ -

- البيت في أوَّل شارع مهران السندي المتفرِّع من
شارع دوبريه، شقَّة أنيقة، صامتة، الأبواب مغلقة،
كأنَّها خالية. قدَّمني حمودة إلى موسى القبلي فتلقَّاني
بوجه ودود غير الوجه الذي يدير به الكازينو. وقلت
لنفسي من بلطجي إلى قَوَّاد يا قلبي لا تحزن. أمَّا هو
فقال بلا حياة:
- جنيهان من فضلك...
دفعته بلا تردّد فقال:
- آخر حجرة في الدهليز، هل تريد شرايبًا...
زجاجة الأوتار بجنيه واحد...
الليص!... إنَّها في السوق بثلاثين قرشًا. قلت
معتذرًا:
- ربَّما في المرَّة القادمة.
فقال بشيء من الفتور:
- الهدوء هنا مهم جدًّا!

- ١٣ -

- كم لعب الأمل بقلبي أن أجدها عقب فتح الباب
ولكنَّ المعجزة لا تقع بمثل هذه السهولة. ها هي امرأة
أخرى لا رغبة لي فيها. تنضمُّ إلى سلسلة المغامرات
العقيمة المتلاشية في العدم واللامبالاة. وقرَّرت أن
أحوز ثقة موسى القبلي ورضاه. كما فعلت مع حمودة
وسنجة الترام. وسطاء سوء ولكن بيد أحدهم مفتاح
الكنز. مثل هذا العناء تكايد الشجرة حتَّى يتمخَّض
ليلها الطويل عن زهرة ضاحكة.
واقترحت عليه - موسى القبلي - في المرَّات التالية أن
أشاربه في حجرته الخاصة قبل الذهاب إلى حجرتي
المقسومة. انبسط واعتبر ذلك تحيةً فريدة. وذات ليلة

قال لي:

- علمت أنَّك من زبائن «الواق الواق»؟
- ألم تقع عينك عليّ؟... طالما رأيتك وأعجبت
بإدارتك؟
- الأمر مختلف غير أنَّ وجهك بدا لي غير غريب
وأنت تظالعي هنا لأوَّل مرَّة...
شجَّعته على الشراب، وقلت:
- إني أشرب في اعتدال لأسباب صحيَّة!
- لكنَّها مفيدة للصحة!
فقلت ضاحكًا:
- الأمر مختلف!
- موكلَّف؟
- على المعاش.
- لكنَّك ما زلت في طور الرجولة؟
- الضابط يحال على المعاش في أيِّ سنٍّ...
- كنت ضابط جيش؟
- كنت!
فضحك عاليًا وقال:
- حلمت في صغري بأن أكون ضابط شرطة...
- مصيرنا في الحياة لا تتحكَّم فيه رغباتنا...
وهو يضحك مرَّة أخرى:
- على أيِّ حال فعلي ذو علاقة وثيقة بالشرطة!
- فال الله ولا فالك.
- متزوِّج؟
- كلَّا.
- يندر أن يجيء أحد في سنِّك...
فقلت ساخرًا:
- الحياة دائمة التقدُّم.
- وكيف عرفت بيتي؟
- صاحب الحاجة مستكشف...
- حمودة؟
- نعم.
- رجل غاية في الفطنة...
فرميت سهمي الأخير قائلًا:
- وقف مصادفة على سرِّ شغفي بنور القمر...
رفع حاجبيه الخفيفين وقال:

الحبّ المستبدّ الذي لا قاهر له . ذلك الغول الذي
تغنيه فريسته عن المطاردة . الحلم الذي يزري بكافة
الأحلام ويحوّلها إلى نفاية . لم أنقطع عن موسى القبلي
جرياً وراء المزيد من الأمل والعرفان . وكما ثمل وانبعث
من قلبه الخيال قال :

- بيتي محترم ، ليس بين زبائنه زبون واحد من
الرعاع .

ابتسمت موافقاً فتساءل :

- ما رأيك في فتياتنا؟

فقلت بإصرار :

- اعترفت لك بأنّي مشغوف بالغناء !

- نور القمر؟

- هو الحقّ .

- أنت رجل غريب ...

- ألم تحبّها أنت؟

- كلّاً ... والحمد لله ...

- الحمد لله؟!

- لو بدرت متّي حركة واحدة تنمّ عن ميل لفقدت

عملي في الحال ...

- إذن فهو حفي داود صاحب الكازينو!

- ماذا تعني؟

- هو العاشق الغيور ...

- إنّه عجوز ذو وجه قرد ...

- ذلك أدعى للخيرة ...

- صدّقني إنّي أنجاهم الأمر كلّ ...

- ولكن عندك أفكار ولا شكّ ...

- ليكن عاشقها أو أباهما ... من يدري؟!

- هل ...

- هل؟!

- هل يعجز مثلك عن مساعدتي؟

- ولم أكدر صفوي ومستقبلي بسببك؟

- كصديق ...

ولكنّه قاطعني بجفاء :

- ما أنت إلّا مغرض!

- لا تسيّ بي الظنّ ...

- لا تحاول إقحامني في هذا الأمر ، لا تكن أنانيّاً ،

- أنت من عشاقها؟
فحنيت رأسي لبلوعي آخر الأبواب وانتظرت الفرج
غير أنّه قال :

- لولا عزلتها ما أثارت شغف أحد ...

- ولكنّ الشغف سبق اكتشاف عزلتها ...

- لا تهتمّ بالممتنع ، عندي من هنّ خير منها!

يا للدهاية! ... هل خاب المسعى أيضاً؟!

وانطفأت الجمرات تحت كثافة الرماد ...!

- ١٤ -

وسألني سنجة الترام :

- كيف تطيق هذه الوحدة؟

كان قد فرغ من قذح الشاي الرابع فاسترخت

جفونه من السطول ، أجبته :

- العادة أقرى من الوحدة ...

- وهل يليق بمثلك التردّد على بيت دعارة؟

فلم أحر جواباً أمّا هو فقال :

- اعتزمت على أن أكمل لك نصف دينك ...

فضحككت وقلت :

- إنّي الأعزب الأبديّ يا معلّم سنجة ...

فقال بصراحة خفيفة :

- عندي بنت مطلقة ...

لطمني قوله كنذير حريق أمّا هو فواصل :

- بنت ممتازة ، هديّة ، أوقعها سوء الحظّ في رجل لا

قيمة له .

ما توقّعت أن أتعرض لغضبه قطّ . لعنت في سرّي

الزمان والمكان . قلت :

- يلزمني تفكير طويل فالتخليّ عن عادة مزمنة

كالعزوبة ليس بالأمر الهين ...!

- ١٥ -

بات الخطر تحتي غامّاً مثل ظلّ منتصف النهار ،

انسجبت من التجربة كلّها قبل أن يدهلك القضاء ،

هكذا حاوري عقلي . ولكنّي كنت أحلم بالنجاة وأنا

أندحرج نحو الهاوية ، لم تعد قوّة بقادرة على صدّي .

غامر بنفسك إذا شئت وألا فاصرف النظر...

فقلت بحرارة:

- أقدم لك الأسف والاعتذار!

مضيت أشاربه دافئًا همي في الصمت، ومضى
يلدوب في النشوة وينفض عن نفسه الكدر، ثم سألني:

- هل أغضبتك؟

- الحق لا يُغضب، ولكن كيف عرفت حفي

داود؟

- كان ناظر مدرسة أهلية وكنت كاتب حسابات
عنده، ونحت ضغط مراقبة وزارة المعارف ومحاسبتها
اضطرًا إلى تصفية المشروع، وبعد حين قدّم مشروع
«الواق الواق» وضمتني إليه مديراً...

- ومتى عملت نور القمر عنده؟

- من أول ليلة، لعلّه لم يقم بالمشروع إلا من
أجلها...

- وهو الذي فرض عليها العزلة؟

- على الأقل هو الذي أصدر الأوامر إلينا...

- أتصور أنّها تحيّم معه وتذهب معه...؟

- في الفور...

- لا شك أنّه أصبح ذا مال؟

- اعتقد ذلك...

لم أهدر الوقت سدى كما توقّعت، لقد أثريت
بمعلومات مفيدة، وتحدّد سبيلي كما لم يتحدّد من قبل.
ولن أقطع صلتي بموسى القبلي مداراة لنواياي
الحقيقية...

- ١٦ -

واقترحتني سجنة الترام بزيارة توقّعتها وخشيتهما.
وكنّت قد تجبّت الانفراد به لعلّه يدرك موقعي من
اقتراحه ولكنّه كان مدمن بلطجة، معتادًا للأخذ دون
مقابل ورغم المجاملات ران الغتور على اللقاء،
ويتخلّى البشاشة عن قساوته أسفرت عن دمايتها
وندرها. تساءل:

- ماذا جرى؟

إنّه يتساءل عن سرّ تباعدي رغم وضوحه فيضطرّني
إلى اختلاق المعاذير. قلت:

- ليس المزاج على ما يرام!

فقال بقحة:

- هذه عاقبة التردّد على بيت قواد!

فقلت باستياء:

- ليس الأمر كذلك...

فسأل ببرود:

- متى نفى بوعذك؟

- أيّ وعد يا معلّم؟

- ألم نقرأ الفاتحة؟

حلقت فيه بذهول فقال:

- قرئت بالقلب، أم وجدتنا دون المقام؟!

- أستغفر الله، المسألة بالنسبة لي قفزة خطيرة...

فقال وهو ينهض:

- أم وجدتنا دون المقام!

غادرني مضطرباً. كلاً. لم أعرف الجين في حياتي،

ولا كنت ممن تعرقلهم الحشية على حسن السمعة.

لكنّي شعرت بأنّي مقبل على عاصفة أو أنّ عاصفة

مقبلة عليّ، وحتىّ هذه اللحظة فالنجاة ممكنة. يمكن أن

أسدل بيدي ستاراً على روض الفرج وبيت موسى

القبلي وقارب سجنة، ثم أرجع إلى روتين حياتي

السابق بين معاشرّة الكتب وسمر قهوة المائيّة. لهذا

يمكن نظرياً ولكنّه مستحيل في الواقع. الواقع أنّي

فريسة جنون طاعٍ يلفظ كافّة قيم الحياة، ويتركّز في

هدف واحد. ذاك يدفع بي في شبكة من العلاقات

المذهلة، والأخطار المكددة، ويفتح لي طريقاً واحداً

إلى مصير محنوم.

- ١٧ -

تبادلنا الأنخاب، أنا وموسى القبلي. قال وهو
يتفحصني:

- لعلّك شفيت من حبّك؟

فهزّزت رأسي نفياً قال:

- إنّه أمر مضحك وعجيب...

- هل عندك نصيحة؟

- أأنت غني؟

- كلاً...

- هذا يعني ضياع ٩٠٪ من الأمل...

- لا مؤهلات من مال أو شباب!

فقال بدهاء:

- ثمة وسيلة للشفاء، أن تكثر من زيارتنا!

- يجئني إليّ أنك لم تعرف الحب يا موسى؟

- هذا حق.

ثم مواصلاً بقصة:

- الحق أنني لا أحب النساء، لذلك أتعامل معهن

بمهارة فائقة!

تفكرت ملياً في معنى قوله، ثم سألته:

- أترى حالي ميئوساً منها؟

- حدثني أولاً عن حبك؟

- ماذا أقول؟ إنها تفرض ذاتها على وجداني

وخيالي، أقوى وأعز من الحياة نفسها، لا غنى عنها كما

إنه لا غنى للحياة عن أشعة الشمس...

فضحك على رغبته وقال:

- ما أعجب هذا الكلام يخرج من فم ضابط

متقاعد خبير بالناس والحياة...!

- نحن نعرف معنى الأمر أكثر من غيرنا.

فضحك مرة أخرى وقال وقد ثمل:

- منظرك ضحك لا يثير الرثاء أبداً!

فغضبت وقلت له موبخاً:

- سكرت عليك اللعنة.

وقبل أن يفتح فاه دق جرس الباب الخارجي...

خفّ مسرعاً مغادراً الحجره. ترامت إليّ ضجة

مريبة، قمت إلى باب الحجره وأخرجت رأسي إلى

الدهليز. رأيت مجموعة تتدفق من رجال الشرطة

والمخبرين!

- ١٨ -

لم أشعر - من قبل - بمثل الذعر الذي اجتاحني،

تجسّد لي وجه سنجة الترام وراء الكبسة. انقضّ عليّ

غبر فقبض على أعلى الجاكطة، صكّني بكوعه في

صدري، وهو يقلّفي بوابل من الشتائم. اجتاحت

الحجرات، سيق الرجال والنساء عرايا أو شبه عرايا.

من حسن الحظ أنني لم أضبط متلبساً ولكن أيّ حسن

حقّ. حاولت أن أمسس هويتي في أذن الضابط ولكنّ

المخبر أرجعني بلكمة في عنقي. انغمست في العار حتى

القمة. دُفَعنا إلى السيارة كخراف تُشدّ إلى الذبح.

وصلنا إلى القسم وقد استلّ مني الإحساس

والفكر. وكان تحقيق مهين. حُجزت النساء، وموسى

القبلي، وحُزرت المحاضر للرجال ثم أفرج عنهم.

غصصت بذروة الألم وأنا أعلن هويتي. غادرت القسم

شخصاً جديداً عارياً تماماً!

- ١٩ -

ذُكرت الحادثة في صفحة الحوادث الصباحية. لم

تعلن أسماء - عدا موسى القبلي - وقبل عتيّ وضابط

جيش متقاعد في الخمسين من عمره! - خيل إليّ أنه

إعلان كافٍ لفضحي في محيط الأسرة وفي قهوة المالية.

انزويت في شقتي بالبنيرة غارقاً في القرف. طالت لحيي

وأهملت نفسي تماماً. على تلك الحال زارني عمّتي،

وأكد لي قلبي بأنّ صهرها أخبرها بكلّ شيء. أقنعتني -

ما وسعها ذلك - بأنّ زيارتها عادية. سأمصّ حديث

الأسرة المحترمة. أبناء عمّتي وعمّي وخالي أناس

محترمون حقاً، وطلما تبادلنا الازدراء الصامت. لا

يجبني في أسرتي أحد إلا عمّتي. ها هي تعود إلى

حديثها المفضّل «الزواج».

- لا تكن عنيداً...

حدثتها بارتياح فقالت:

- أهملت نفسك أكثر ممّا يتصوّر العقل...

فضحكت ضحكة متكلفة وتساءلت:

- ماذا عندك من أخبار؟

فضحكت ضحكة عصبية وتمتمت:

- تصوّراً!

ثم اغرورقت عيناها، وقالت:

- إنك صورة طبق الأصل من أهلك، لك منزلة في

قلبي لا نظير لها، ليتك تعمل بنصيحتي!

- ٢٠ -

لم أفد من الدرس ما يتوقّعه العقلاء. قلت إنّ

الجنون حقاً هو الرجوع بعد ما كان. تخفّفت من البقية

الباقية من الحياة فمزقت أثوابي. من الآن وإلى الأبد سأنتهي إلى عالم غير عالم الناس. سأفتح ذراعيّ للجنون والسفه وخر النرق المعتقد. الحياة لا تتكرر والحب أضلّ جوهرة في تاجها. وفي سبيل الجنون المقدس تستحلّ كلّ حماقة. اقتلعت نفسي من مجرى الحياة المألوف المحفوف بالعقل والحكم. خفّ وزني ثمًا وبثّ قادرًا على الطيران والشيطنة، وليأخذ بزمامي نبض القلب الثمل بالبهجة والأسى.

وهذان الصوت الحفيّ إلى خاطرة مبتكرة وجريئة فقلت لحمودة الجرسون:

- سيسجن موسى القبلي فهل يمضي الكازينو بلا مدير؟

فقال وهو يرمقني بانتباه:

- هذا ما يشغل حفيّ بيه في هذا الوقت...

فقلت بهدوء:

- إنّي أرتب بهذا العمل!

- أنت؟!

- نعم أنا، أم لا؟

فتردّد متفكرًا فقلت:

- قلّم ما يسعك من معاونة وأنت مطمئن!

فقال حمودة بارتياح:

- إنّي أحنّ الدافع وراء ذلك...

- إنّي أعرف الأصول!

- لدى أيّ خطأ تنوّط فيه فسأعتبر بالتبعية متورّطًا

فيه ومستولًا عنه وأخسر رزقي!

- لا تخش شيئًا من هذه الناحية.

- ألا تحاول الاستحواذ على المرأة؟

- كلّ...

- إذن لماذا ترغب في هذا العمل؟

فقلت باسمًا في ثقة وإخلاص:

- ربّما لأعمل في رحابها...

- ٢١ -

دعاني حمودة ذات ليلة لمقابلة حفيّ داود صاحب كازينو «الواق الواق». وجدته وراء مكتب صغير وأنيق في حجرة تطلّ بنافذة على النيل، استقبلني بوجه

محايد، وراح يتفحص هيكل الضخم بلا انفعال. كان عجوزًا في السبعين أو فوقها، ضئيل الجسم، له سحنة فرد لانحدار جبهته وغور عينيّه وبروز ذقنه. شعره الفضيّ مفروق وممّشط بعناية، كذلك شاربه. أشار إليّ فجلست على أحد مقعدين جلدّين متقابلين أمام المكتب. تبادلنا النظر في صمت مليًا ثمّ سألتني:

- اسمك؟

- أنور عزمي.

- أأنت ضابط جيش متقاعد حقًا؟

- أجل...

- وترغب في العمل مديرًا للكازينو؟

- نعم...

- ما الذي دفعك إلى ذلك؟

قلت ضابطًا مشاعريّ ثمًا:

- الفراغ فتاك، ثمّ إنّي محدود المعاش!

- أتراه عملاً مناسبًا؟

- لمّ لا؟... وهناك سبب آخر أن أحفظ به لموسى

القبلي لحين خروجه من السجن!

- صديقه؟

- نعم...

- ولكنّ العمل يحتاج إلى خبرة خاصّة؟

- أكثر مدّة خدمتي في الجيش انقضت في الفروع

الإداريّة فأنا ذو خبرة بالإدارة والحسابات...

- العمل عندنا يتنافر مع الروح العسكريّة؟

- لا تنقصني اللباقة!

وساد الصمت مرّة أخرى ثمّ قال:

- لا بأس من تجربتك، ولكن اعلم أنّ أهمّ

واجباتك أن تمنع المتطفّلين عن نور القمر...

- عليّ الإقناع وعلى سنجة الفؤاد عند اللزوم!

- عظيم...

ونادى سنجة الترام فجاء وقد دهش لمراي، فقال

له حفيّ داود مشيرًا إليّ:

- أنور عزمي المدير الجديد، تعاون معه كما تعاونت

مع موسى القبلي.

طيلة الوصلتين، وأصبح في تيار أنغامها المنسرب، أما الآن فلا أراها إلا من زاوية جانبية، ويشغلني العمل كثيرًا عن التركيز في عذوبة الصوت، وأسير أحيانًا في المشى الفاصل بين جانبي الصالة كأنما لأتفقد النظام، وفي الحقيقة لأملأ عيني منها، وبأمل أن ألقت عينها إلى عابدها المعبّد ولكنّها كانت تهيم في النعمة ولا ترى السامعين. وبات عزائي الوحيد أنني أنتمي إلى العالم الغامض المتورّ بنور القمر...

ثمة علاقة عجيبة بين حفي داود ونور القمر، ما هي؟ هو الذي يسيطر على ظهورها واختفائها، ويرسم الحدود التي لا يجوز تحطّيتها، وهي نجوى وتذهب، تغني وتسكت، تنزوي وتضمت، بإملائه وتوجيهه، فأني قوة خفية يملكها هذا العجوز القرد؟! وإلى هذا كلّه فهي تنبّئ هادئة وسعيدة، لم أأد ما دام لا تبدّر منها بادرة غضب أو تمرد، وهو ليس أباهًا فالقرد لا يحب ملائكا، وليس زوجها وإلا لعرف ذلك على أوسع نطاق، ولا يتصوّر أن يكون عشيقها بقبحه وعجزه، فما مرّ هذه العلاقة العجيبة؟! وهب ثريا فما قناعته بهذا المسرح الصيفي، لم لم يجعل منها نجمة من نجوم عماد الدين؟! ومهما يكن من أمر سيطرته عليها ألا يشكّل هذا الوجه الآخر لسيطرتها هي عليه؟! هذا مؤكّد فيها أرى، لا شك أنّها القوة الحقيقية في هذه العلاقة الغامضة، وما جنيت حتّى الآن من مغامرتي إلا زيادة في اضطراب عواطفني وهياج أحلامي وحوماني بجنون حول الخطوة التالية. إنّي أقبّع في مجلسي، رفيقي قدح من البيرة مكلّل بالزبد، أناجي طيلة الوقت أحلامًا طائشة. أتصوّر أنّها علمت بالمدير الجديد، عرفت اسمه وهويته، لمحتة مرّة أو أكثر، راقها منظره، لم لا؟! حدست السرّ وراء سعيه، وحتّى سيصاب حفي داود مرّة بوعكة تمنعه من المجيء، أو سينقضي أجله، أو أجد حيلة للتخلّص منه، عند ذاك تنسرب أضواء الأمل في هذا الليل البهيم، وينفصح المجال أمام الحبّ ليصنع معجزاته، إنّي أتمرّز البيرة، وأحلم، وأتذوّق النشوة، أعاني العذاب المقدّس، ومن

لي مجلس خاصّ بمحاذاة المسرح. وإلى جانب النسبة المثوثة التي تشكّل مكافأتي على امتياز وهو أن أطلب من المشارب ما أشاء. عملي الأساسي المحافظة على النظام، مراجعة دفتر التذاكر، التصدي لأيّ خلاف ينشب بين زبون وزبون، زبون وجرسون، زبون وامرأة من نساء جوقة الراقصة، إلى المهمة المقدّمة على غيرها وهي صدّ المتطفّلين عن نور القمر. ولكن ماذا فعلت بنفسي؟

أظنّ يحسن بي أن أدفن هذا السؤال وأمثاله. عملي أشرف من غشيان غرزة سنجة، أو التردّد على بيت موسى القبلي، أو موقفني في القسم. فلتدر أسئلتي حول الحبّ نفسه فهو السرّ الجدير بالبحث والفهم حقًا. على أيّ حال فانا لم أقع في هوى امرأة عادية. جمالها الفائق معترف به من الجميع. وهي تنبّئ في هالة من الغموض المثير للفضول. تحلق بها العزلة والحراسة المغريتان بالجذب والضلّال. ولكن هل اقتربت منها حقًا؟ الجواب بالإيجاب بالحساب الماديّ. فها أنا أعمل لحساب حارسها الأخير، أقابله يوميًا، أتلقّى تعليماته. أقدم له الحساب. إنّي أتمرّك على بعد خطوات من استراحتها الخاصة. سألتي بها ذات مرّة، في حجرة حفي داود أو في المشى وراء الكواليس. ولكنّ شيئًا من ذلك لم يحدث بعد. لم يحدث لقاء ولا تعارف ولا تلامس. كاتّي بذلت ما بذلت وضحيّت بما ضحيّت لأصّل في النهاية إلى القرد العجوز. وإلى هذا كلّه جعلت أقرب سنجة الترام بعذر، وأخاف جانبه. وقد أعطاني حقّي وزيادة. بل سألي مرّة:

- ألم تحنّ من جديد إلى قاربنا الشراعيّ؟

فشكرته بقلب يفيض بمقتته وقلت:

- ستجمعنا الأيام بإذن الله...

لا شكّ أنّه كان وراء الكبسة ولكن لم يخطر بباله أن يجنّدي - نتيجة لها - مديرًا عليه! ولا خطر بيالي أنّ عملي الجديد سيعدني عن نور القمر خطوة بدلًا من أن يقربني منها خطوات. كنت وأنا زبون أراها من مقبلة الصفوف وفي مواجهتها، أتملّ طلعتها البهية

ناحية تلاطفي نسمة مفعمة بأريج الياسمين . . .

- ٢٤ -

الظاهر أنني شغلت بال حفي داود كما شغل بالي،
فغلبت المحاسبة والتشطيب في ذات ليلة قال لي:

- لا تذهب.

فلبثت في مقعدي الجلدي لعبة بيد الاحتمالات
المتناقضة، ونهض قائلاً:

- تعال.

خرج من الباب الخلفي وأنا ظله. رأيت الفور
قابعة في الظلام المتفشي عقب التشطيب وإطفاء
الأنوار. فتح الباب الخلفي قائلاً:

- تفضل . . .

واتخذ مجلسه في المقعد الامامي أمام عجلة القيادة.
سرعان ما تبينت وجودها إلى جانبه فكاد قلبي يشب من
صدري. هكذا جاءت الخطوة التالية بلا سعي مني أو
تدبر، جاءت كضحكة الشروق مسربة ببهجة
سهاوية. واندفعت تلقائياً إلى تحيتها فقلت:

- مساء الخير يا هانم.

فغمغمت برّد غامض، وخفت عواقب خروفي
للتقاليد، ركزت بصري عليها لاثناً بالظلمة. غلّبت
رسم خلفيّة رأسها وأعلى منكبيها، ميّزت قبعتهما
العريضة وشملتها المطرزة بالترتر، وثملت بعطرها
الفوّاح. شبران هما ما يفصلان بيني وبينها. اتسابت
السيارة في الظلام ممزّقة هدوه الحقول بأزيز محرّكها.
انسبت معها في بحر الهيام بأمواجه المتلاطمة وحواره
الشجي. وددت أن أسمع صوتها وهي تحدّثه أو أن
تمتدّ الرحلة إلى الأبد.

وجدت السيارة تدخل حيّ المنيرة. الحيّ الذي
ولدت وما زلت أقيم فيه. ودارت إلى شارع أصلان
فوقفت أمام فيلاً صغيرة مكوّنة من حديقة ودور واحد
تقع خلف العمارة التي أسكن فيها مباشرة، لم أتأملك
أن قلت بدهشة:

- إني أسكن العمارة خلف الفيلا مباشرة!

فاجاب حفي بصوت محايد أطفأ حماسي:

- عظيم . . .

أدخلت إلى حجرة أنيقة مؤنّنة على الطراز العربي.
جلست على ديوان رانياً إلى القنديل بإعجاب، منادياً
إرادتي لجمع شتات فكري والسيطرة على هوج
انفعالاتي. لبثت وحدي عشر دقائق، استقرّ بقلبي
خلالها إحساس مطمئن بالانتفاء.

وجاء حفي داود في روب صيفي مزركش مثل
جدران الحجرة يحمل مدفأة مشتعلة الجمرات وجوزة.
رمقتها باعتبارها أدوات صداقة وألفة. أتت المعجزة
وتهلّ نور القمر بطلعتها السنيّة!

ذهب إلى الباب فأغلقه ثمّ اتخذ مجلسه بادئاً النشاط
المعهود. خاب الأمل. صمتت بلابل السرور. ما
الذي دعاه إلى استصحابي معه؟ رغم طعمونه في السرّ
فهو مدخّن شره. جاريته رغم نفوري الطبيعي من
المخدّر. مهما يكن من عبثيّة الرحلة فقد اهتديت إلى
المقام وأمسيت جليساً لصاحبه. وإذا به يقول:

- لا شكّ أنّك تتساءل عن سرّ الدعوة ولك حقّ،
اعلم أنّي رجل صريح وواضح، وأنت بدورك رجل
عسكري لا يتناسب اللفّ والدوران.

فرونوت إليه مستائلاً فقال:

- المسألة تتلخّص في الآتي، سفر إلى السويس،
نزول في فندق الفردوس، يدخل عليك صباحاً خادم
بالفطور، يترك في الحجرة لفّة معبّنة، يذهب، تضع
اللفّة في حقيبتك، ترجع بالسلامة، توتة توتة فرغت
الحدوتة!

إزاء كلّ عبارة تقهقرت ميلاً منغمساً في مستنقع
الخيبة. تمتعت:

- تهريب!

- سمّ ما تشاء من الأسماء، أربع مرّات في
الشهر، مائة جنيه مكافأة عن كلّ مرّة!

- لكنّه تهريب!

- الشكّ لا يمكن أن يرتقي إلى شخص محترم
مثلك . . .

- عندك ولا شكّ من يقوم بذلك خيراً مني . . .

- أنت خير من يقوم به حتّى يخرج صديقك من
السجن.

فقلت باستياء:

وبين القوادة نصف خطوة. فيم التردّد؟ لم اللغو بمنطق
المقلاء وأنت مجنون؟! حقاً إني أتدهور إلى غير ما حدّ
ولكن ما أحوطني إلى رحمتك يا إله المعدّين؟!
ومضيت إلى حجرة حفي داود فرمقي ببرود
وتساءل:

- يبدو أنك اتخذت قراراً؟

فحنيت رأسي في تسليم فسألني:

- ترى كيف تغبّر رأبك؟

فقلت غاضباً بصري:

- الثراء، أليس هو بالأغراء الكافي؟!

ورجعت إلى مجلسي بخاطرة جديدة من الشكّ.
هل فطن الرجل إلى غرامي بنور القمر؟. العاشق
تفضحه أحواله. وهناك أيضاً حمودة المطلع على سرّي،
وكان موسى القبلي كذلك قبله. ولعلّ العجوز لم يقبلني
مديراً إلاّ لعلمه بحالي واعتزاه استغلائي إلى أقصى
حدّ. لو صحت ظنوني فعليّ أن أتوقّع البطش بي لدى
أول بادرة تهديد من ناحيتي. ولكن لعلها مجرد ظنون
ووساوس لا أساس لها...

- ٢٦ -

ذهبت وجئت وقبضت. لأوّل مرّة يمتلئ جبيني
ويصير لي حساب في البنك، من أعياق الظلمات التي
أتردّي فيها ضعد إليّ شعور مليء بالثقة والنشوة، ينتشر
مثل الشذا الطيّب، أمثل عليّ بأنني أسير في الطريق
الصحيح وأتني بالغ شجرة طوبى. شعور داخليّ
كنشوة الخمر. ذو قوّة تنفّث حياها صخور الواقع
المتحدّية. ولم يكن مجرد شعور باطنيّ فحسب فالمنطق
آزره بطريقته الخاصة معتبراً ما تردّيت فيه من درجات
السقوط عمّا لا يمكن أن يضيع عبثاً ولكنّه الثمن الفادح
يؤدّي مقدّمًا، وإنّ حسن الحتام آتٍ لا ريب فيه.
هكذا علّكت نفسي بالأمانى لاتزوّد بالصبر وألطف من
ندالة الجوّ. وحسي الآن أنّي أمكث في هالتها كلّ
ليلة في الفورد مقدار نصف ساعة تضاف إلى رصيد
الوصلتين بالواق الواق. وحسي أيضاً أنّي صرت
عضواً خارجياً في الأسرة وجليسا دائماً في الحجرة
العربية ومغامراً يحمل إليها كلّ أسبوع كنز نعيمها

- لن أكون مهزّناً!
- ألا يغريك الثراء؟
- بلى ولكنّ الوسيلة يجب أن تكون شريفة...
- أنت حرّ طبعاً، ولكنّ العمل لا أساس فيه للشرف!
- هو كذلك في نظري...

- لعلّه الخوف؟!

فقلت بحدّة:

- لست جباناً...

- أنت حرّ يا أنور بيه.

وخطرت لي فكرة مأكرة فسألته:

- أنت رجل محترم فلم لا تقوم بالمهمّة بنفسك؟

- وفيّ لا يسمح بذلك!

فقلت بإصرار:

- لا أحبّ الأعمال المخالفة للقانون!

- أنا لا أعترف إلاّ بالقانون الإلهي...

- آسف جدّاً يا حفي بيه...

صمت. رجعتا إلى التدخين المتواصل. تنهّد أخيراً
وقال:

- على أيّ حال لفترق أصدقاء...

ظننته بطاليني بالانصراف فهممت بالقيام ولكنّه قال
بسرعة:

- لا أعني هذاء أعني أنّه عليّ أن أختار مديراً
جديداً!

وقفت مادّاً يدي، صافحتي وهو يقول:

- فكّر، إني متظر جوابك النهائي غداً!

- ٢٥ -

نجح في أن يبقيني صاحباً حتّى صباح اليوم التالي.
إني مفقود بحسب التعبير العسكري. وقلت بصوت
مرتفع في حجرة الجلوس بشقّي:

- لا... لا... لا...

إن يكن القرب نازاً فالبعد موت. ومهما يكن الثمن
فلن أرتضي هجر «الواق الواق». فيم التردّد وقد انتهى
أنور عزمي من زمان؟! لقد هجر الأقارب والأصدقاء،
تخطّى العرف والتقاليد، تمزّغ في السمعة السيّئة، حمّل
في سيّارة الشرطة بين المومسات، يعمل في وظيفة بينها

الوفير، ولديّ بعد ذلك عزاء الإنسان - أحلامه
المتهوّرة - التي تحلّق به في الفضاء بلا أجنحة.
وفي إحدى سهرات الليالي الزرقاء بالحجرة
العربية سألته:

- لم تقنع بفصل نشاط محدود في ملهى ثانويّ
بروض الفرج؟!

فأجاب باقتضاب:

- فيه ما يكفي...

- ولكنّ ثمة ملحقين معاصرين متفوّقين
والحائناً جديدة جميلة وملاهي عامرة بمهاد الدين؟
فتعيني بنظرة كريمة وسألني:

- ماذا يهّمك من ذلك؟

فرجف قلبي غير أنّي ضحكت قائلاً:

- يبدو أنّي أصبحت من رجال الأعمال!
فقال ببرود:

- كلّ أنت موظّف يا جنرال!

تضاعف حنقي عليه، تمثّيت تحطيم حجمته،
تساءلت:

- ألا تحبّ الديّوع والتوسّع والشهرة؟

فأجاب بصوت أبرد من الأوّل:

- كلّ...

المسألة أنّك أنانيّ وجبان، حريص على حبس
العصفور المغرّد في القفص. تخاف عليها من
الملحقين ومن الجمهور الحقيقيّ، ولكن لماذا لا
تُحكّم قبضتك المعروفة المدبّوعة فتبقيها في الفيلا
مثل جوارى الحريم؟!

- ٢٧ -

الحياة تمضي في طريقها لا أجني منها إلّا أضرار
الشمرات. أحترق مثل الشمعة فيترسّب ذوب في ماء
أسن. وأسريّ عن نفسي فأقول لها إنّ خليفته، لا
خليفة له غيري. ولكن هل أقتنع بالصبر كالعجائز؟ ألا
يجدر بي أنا المُعاصِر بالتهريب أن أغامر بالافتحام؟!
ولكن كيف وهو متصدّد لي مثل كلب الحراسة؟ حقّاً
إنّي لمجتون. أسير قوى غامضة تترامى خيوطها حتّى

تتشابك بمدارات الأفلاك أو تنعقد في مركز الأرض.
ويؤكّد جنوبي وأسريّ الحفيف والنسمة والحوار
والضجّة والتغريد والألوان والضوء وكلّ شيء.

وتتوقّف الحياة فجأة عندما تدنّى الساعة الثامنة مساءً
فلا يجيء القورود كعادته كلّ ليلة... انتظرت متابعاً
عقارب الساعة. اقترب ميعاد الغناء فأتصلت بالفيلا
بالتليفون. ردّ عليّ صوتها:

- ألو.

- أنور عزمي... ماذا أخركم؟

- لن تأتي الليلة...

- ولكنّ الجمهور منتظر...

- تصرف... مع السلامة...

قطعت الخط. وجدنتي في درّامة من الانتهاج
والانفعال والحيرة. إنّهُ أوّل حوار يدور بيني وبينها وإن
لم تمازجه نبرة طيّبة أو كلمة مجاملة. أين حفي داود؟ لم
لم يبلّغني بالأمر؟ لم لم يردّ بنفسه؟
وكان عليّ أن أواجه الجمهور معتذراً عن غياب نور
القمر.

- ٢٨ -

عند منتصف الليل وقفت أمام الفيلا بشوارع
أصلان. نائمة مغلّقة بالظلام ولا بصيص نور في
الداخل. إنّها تطرد الزائر بصرامة موحشة. مضيت إلى
شقتي فلم يطرّق عينيّ نوم حتّى الصباح. ترى هل
جاءت المعجزة؟ عمّ ينكشف الستار الأسود؟!
ورجعت إليها حوالى التاسعة صباحاً. سألت
البواب:

- حفي بيه موجود؟

أجاب الرجل:

- البيه مريض...

تصرّفت كفرد من الأسرة فدخلت بثبات. وجدت
في المدخل ممرضة فقلت لها:

- إنّ مدير أعمال حفي بيه... كيف حاله؟

- لعلّه أحسن.

- ماذا به؟

- تعب في القلب...

- هل أستطيع رؤيته؟

غابت دقيقة ثم رجعت وهي تشير إليّ بالدخول.
رأيتُه رافداً لا يبدو من الغطاء إلا وجهه. لمحت مخايل
الموت في نظرة عينيه الغائمة الخالية من نبض الحياة
وهومها. الحجرة خالية بخلاف ما توقّعت!

- لا بأس عليك، شدّ حيلك...

أجاب بصوت خافت:

- شكرًا.

- لن أرهقك بالحديث...

- لا أهمية لذلك... إنها النهاية!

أشار إليّ بالجلوس على مقعد قريب من الفراش

وقال:

- لم أتوقّع حضورك!

فتساءلت في دهشة:

- كيف؟... لقد جئتُك عند منتصف ليلة أمس

ولكنّي وجدت البيت نائماً تماماً...

قال باقتضاب:

- ذهبت!

جفل قلبي، تساءلت:

- من؟

- لم تضع لحظة... هربت!

- نور القمر؟

- المتوحّشة...

فترت انفعالاتي كلّها كشعلة ضئيلة زُدمت بكوم
تراب! فلم أذكر ماذا أقول، أمّا هو فقد تحطّمت مغالبتُه
وتدفّق الاعتراف بلا ضابط...

- إنها عذراء، إنه الحبّ، إنه الجنون، أنت تفهم

معنى ما أقول!

حدجته بنظرة مخرجة وبائسة فقال:

- توهّمت وقتاً أنّه أنت...

- أنا؟!

- إنك بريء، وأحقّ مثلي، إنها ابنة المرحومة
زوجتي، شبّبت تناديني بالأبوة، مانت أمّها وهي عروس
في السادسة عشرة، حاولت محاولة يائسة ثمّ قرّرت
الاحتفاظ بها مهما كلّفتني جنوني، بسببها خسرت
مشروع مدرسة أهليّة كانت تدرّ عليّ رزقاً لا بأس

به...

وعيت كلّ كلمة ولكن ما الفائدة؟... سألته:

- أين تظنّها ذهبت؟

تجاهل سؤالي وواصل اعترافه:

- حصلت على المال بأيّ ثمن كما تعلم لأقرّها لها

أسباب السعادة، أنشأت مشروع روض الفرج لأشبع

رغبتها في الغناء والفنّ، تجرّعت العذاب ليلة بعد

أخرى، فعلت المستحيل...

تساءلت بحيرة:

- ألم يكن بوسعها أن تتمرّد عليك؟

- كلّاً...

- لم؟...

وهو يتنهد:

- موهبة إذا شئت!

- أيّ موهبة؟

- في عينيّ، لا تفسير لذلك...

أخترّف الرجل؟... أيؤمن بالسحر؟... هل

يتمنّع بقوة تسلّطية خاصّة؟...

- بمجرد أن اقتحمّني المرض طارت...

- متى؟... لقد رُدّت على مكالمة تليفونية في

منتصف التاسعة من أمس...

- لم تنتظر النهار... ربّما عند منتصف الليل أو

عقب ذلك!

كان من الممكن أن أصادفها في موقف أمام

الفيلا...! يا للحسرة المعبّدة... وعدت أتساءل:

- أين تظنّها ذهبت؟

فتمتم:

- يا له من سؤال أحمق!

- ٢٩ -

مات حفيي داود في نهاية الأسبوع. أغلق «الواق»
الواق» أبوابه وكما يتّبع الموسم. توارت عن عينيّ الحياة
الجديدة بأصوائها وأناسها فوجدتني منبوذاً خارج
الأسوار. أنا وحبيّ الشهيد. هل خدعني الشعور
الباطنيّ الملهم كما خدعني المنطق؟! هل أرضى من
الغنيمة بالإياب سالماً من قبضة الشرطة؟ الحياة قفراء

لدرجة الرعب. لا شيء ولا معنى ولا طعم، وهذا الإحساس المتغلغل في الأعماق بالإحباط والحزن وخيبة الأمل. هل أستطيع أن أواصل الحياة بخواء شامل وقلب معذب؟ وإني لأتحرق كلها وجدت إلى التحري سبيلاً. أستجوب بواب الفيلا وخودة وسنجة الترام. أغشى الملاهي ملهى بعد ملهى. أمشي في الأسواق والشوارع كالمخبرين. فعلت أكثر من ذلك. قصدت قسم المنيرة. ادّعت أن لي ديناً في عتق الفتاة المخفية. أعطيت أوصافها وما لديّ من معلومات قليلة عنها، طالبت بمعاونتي في العثور عليها. اندفعت في كل سبيل بقوة جنوني والي.

ولمّا بلغ بي الألم حدّه الأعلى قرّرت أن أقاوم ما دمت أرفض فكرة الانتحار. نجّيت ززانتي ما وسعي ذلك ولكنّ قهوة المالكية لم تشغل إلّا بعض وقتي ولم تحبّد كثيراً في تسليتي. خطر لي أن أقامر، فالقمار يُنسي الإنسان النوم والطعام فلمعلّه يبرئه من الحبّ. وجدت فيه مهراً محمّوماً ولكنّه لم يستطع أن يستغرقني وأساء إلى أعصابي إساءة حملتني على إعادة التفكير. والتمست الشفاء في الكعب الروحية، ولا أنكر أنّها فتحت لي باب أمل ولكنّه لا يؤتي ثمرته بقاء المحبوبة إلّا بعد الموت، ويجعل من الحياة فترة تسهيد وتعذيب وانتظار. وخطوت خطوة جديدة تماماً فاستشرت طبيباً نفسياً. قصصت عليه قصّتي، رأيته يصغي بعناية وحسب. ولمّا وجدته يرمق هيكلي الضخم قلت له مردّداً قولاً قديماً:

- منظري لا يثير الرثاء!

فقال بجديّة:

- إنك إنسان معذب...

ثمّ واصل بعد هنيهة:

- لا اعتقد أنّك مريض إلّا إذا اعتبرنا الحبّ مرضاً!

فسالته بتوسّل:

- ألا يوجد علاج لحالي؟... أعني عقاقير مفيدة مثلاً...؟

- العقاقير مفيدة ولكنّي لا أنصح بها إلّا عند اليأس...

- أظنّ أنّ حالي ميؤوس منها تماماً...
- ليس الأمر كما تصوّر... إنك سجين ذاتك وعلاجك في أن تخرج منها...
ارتبكت أمام أقواله فصمتُ مبتهلاً فقال بوضوح:
- أنصحك أولاً بالزواج، أنصحك ثانياً بالاندماج في نشاط اجتماعي أو سياسي، إذا لم يُجدّ معك فلدينا آخر وسيلة وهي العقاقير...

بقدر ما أعاني من ألم بقدر ما أصمّ على المقاومة، أزمّني تكشف لي عن جوانب ظلّت خافية في نفسي بلا استغلال. زرت عمّي نظيمة وعاليتها برغبي في الزواج. صادفتنا عراقيل غير يسيرة. السنّ مثلاً والمعاش المحدود وأجزاء من سبري الماضية. ولكنّ ثمة نساء فضليات يعانين ظروفاً سيئة ويرحبن بالزواج بقلب متسامح وعقل متفتح. وجدت بينهنّ أرملة في الحلقة الرابعة، أمّاً لفتاة متزوجة، متوسطة الحال والمنشأ والتعليم تدعى فائزة. جدّدت شقّتي بالترميم والتجديد والطلاء ثمّ استقبلت بها عروسي. الأمر بالنسبة لي علاج، في نظر عمّي رغبة في الاستقرار والإنجاب، ليس زواج حبّ ولكنّه زواج للشفاء من الحبّ أو تخفيف حدّة جنونه، عناصره الأساسية الطيبة والمودة والتعاون والحياة النظيفة المطمئنة. سرعان ما لمحت نغائل الأبوة، تلقّيتها بقلق وحسب استطلاع ونوع من السرور، ولكنّ أسير الحبّ ما زال يرزح تحت أغلاله الصلبة. ثمة شعور بالذنب كدّرني آني في الحياة الأخرى ساطلق زوجتي المخلصة لأتزوّج من الأخرى! من يدري فلمعلّ زوجتي ترجع وقتذاك إلى زوجها المتوفّى أو إلى من يروق لها من الأرواح الخالدة!

ثمّ خضت تجربة الانتباه السياسي. تجربة مشيرة للعب عندما يشرع فيها إنسان جاوز الخمسين من عمره بلا انتهاء حقيقي. غير أنّي لم أكن بلا انتهاء. ألم يتقرّر لي ميل محدّد مذ اشتركت في المظاهرة وأطلقت الرصاصة في فناء مدرسة الشرطة؟ ولكنّ الوطن يموج بتيّارات جديدة أيضاً. تيار ديني عنيف، تيار يساري متطرف، تيار فاشستي حادّ. تحيّرت طويلاً بين المبادئ. في كلّ واحد على حدة وجدت عنصر جذب وعنصر رفض. ويدافع من ميولي القديمة انجذبت نحو

لها، لزيارة القارة الأوروبية كخطوة أولى، فبادرت - في الفندق - إلى تحرير رسالة لها، قلت:

عزيزتي الفنانة الكبيرة نور القمر:

هل تذكرين أنور عزمي مدير «الواق الواق»...
لقد جاءتني أنباء نجاحك في مكان لم أخطر لي من قبل
زيارته، وعند رجل لم أتصور أن أعرفه يوماً أو أن
يمدني عنك بخبر، وقد سعدت بنجاحك سعادة يعجز
القلم عن وصفها، سعادة موصولة بتراث قديم من
الإعجاب والحب لك في قلبي. أسلي أيتها الفنانة
الكبيرة أن تضعي مصر في أعز مكان من رحلتك الفنية
المقبلة، فهي الأصل، وفيها أول قلب نبض بحبك.

وفي مصر تلقيت الرد على عنواني باللجنة. الحق أنه
لم يكن رداً بالمعنى المفهوم. كان كارت بوستال تتألق
فيه صورتها الخالدة، وعلى ظهره دُونَ بخط اليد:

تحية شكر وتقدير

«نور القمر»

جعلت أقرأ المدون بعناية. كلاً لم أسعد به السعادة
المتوقعة. ليست رسالة شخصية من أي نوع كان. إنه
أكليشه للرد على المعجبين. لعلها أمرت بإرساله دون
الاطلاع عليه ولا حتى إمضائه، إنه يدفعني إلى عالم
الأرقام والتجريد ويتجاهل عواطفني وآلامي المقدسة.
ولكن هل هي صورة لنور القمر بين يدي، بكل بهائها
وعذوبتها، بين يدي رغم انشغالها الواضح بمجدها
ورغم حيادها القاسي إزاء المعجبين.

سأحتفظ بالصورة ما حييت. ومن يدري؟...
فربما رجعت صاحبها ذات يوم إلى مصر للزيارة أو
الإقامة. ماذا يعني هذا بالنسبة لي؟ لا أدري أيضاً،
ولا أحب أن أحسم الموضوع بفكرة محددة لن أجني من
ورائها إلا العذاب. وإذا داخلي شك ذات يوم في
حقيقة مغامرتي العجبية فما علي إلا أن أستخرج
الصورة من حافظتي، وعند ذلك تنطرح أمامي الحياة
بكل ألوانها المتضاربة، وما يند عن مفاتها من جنون
مقدس.

الوفد، وبخاصة نحو جناحه اليساري. فيه يطمئن
إيماني الراسخ بالله وحاسي العقلي الجديد للعدالة
الاجتماعية. وهو محطة تأمل حتى أكتسب مزيداً من
الخبرة والضوء وأفيد في الوقت نفسه من نفوذ الحزب
الشعبي. سرعان ما انضمت إلى لجنة الوفد بالمنيرة.
انغمست في الزوجية والسياسة. رغم ذلك ظل الأسير
الكامن في يناضل سلسله، طالبت بترشيحي في
الانتخابات ولكن مسطالبي رفضت لحدائثة عهدني
الرسمي بالوفدية. رشحت نفسي على مبادئ الوفد.
وجدتني أنافس مرشح الوفد الرسمي ومرشحاً آخر من
الإخوان. وعند احتدام المعركة وُزعت منشورات
غريبة استهدفت نفسي تماماً. فيها كلام عن محضر
الشرطة إثر القبض علي في بيت موسى القبلي، وكلام
عن وظيفتي كمدير للواق الواق، وتعليقات ساخرة
وجارحة. ونشرت التأمين، ولكنني كعادي توثبت بكل
قوتي لمواصلة المعركة السياسية، خطبت، حررت في
الصحف، وثقت علاقتي بالزعماء، تبرعت من
مذخرات التهريب للجهاد، مضى الأسير على مضى
الأعوام يتخفف من آلامه ويتحول إلى أسى مقدس
وهادئ لا يموت ولا يحيا بعنف وعردة.

وفي صيف أحد الأعوام سافرت ضمن وفد برلماني
إلى مؤتمر البرلمانات العربية ببيروت. وفي ذات ليلة، في
رحاب الجبل الأخضر والينابيع العذبة، وجدتني أمام
نور القمر كنت وبعض أعضاء الوفد في جلسة سمر
تضم صحفياً لبنانياً عائداً لتوه من باريس. تحدث
بحماس عن مغنية من أصل مصري، تشدو بأغاني
«فرانكو أراب» وتحقق نجاحاً متواصلاً تنبأ له بالعالمية،
تدعى نور القمر!

زلزل قلبي لدى ذكر الاسم بعنف يقظة كاسحة.
اندفعت في مجال التذكر والاستجواب متحرراً من
الجلادية. انقلبت طفلاً يلهو باللعب العقيمة والأحلام
المتوهرة ويناجي مرة أخرى المستحيل. وعلمت من
الصحفي أيضاً أن مدير أعمالها يرسم خطة لرحلة فنية

أهل القمة

- ١ -

أن تفوز برضى سناء. لسهام كريمة أخته جمال بديع
«إنه يحب جمالها». لم تحظ بمثله كريمة من كريماته. رغم
أن سناء لا بأس بها وهو أيضاً لا بأس به. رغم ندبة
في صدغه الأيسر من مسّ رصاصة نجا منها في أثناء
مطاردة عصابة في الدلنجات.

انتظمت السفرة حركة نشيطة في جو يسوده الصمت
حتى خرقت سناء بصوتها الرفيع:

- عندنا أخبار.

فتساءل في توجّس:

- ماذا عندكم؟

- بعد الانتهاء من الطعام...

حدثت مشاحنة من المشاحنات التي لا تنتهي.
زهيرة وسهام يكتنان هنا بلا ترحيب. لم لا يعترف بأنّه
هو نفسه لا يرحّب بالزحام وأنه يعاني منه من الناحية
الاقتصادية. ولكنّ الواجب هو الواجب. انقلبت
الشقة فأصبحت ثلاث حجرات للنوم... ألغى كارهاً
حجرة الاستقبال وأحلّ مكانها السفرة... وجعل من
الصالّة الصغيرة حجرة استقبال وجلس. يومها قالت
سناء:

- بقي تهّم!

فتساءل بامتعاض:

- هل أرمي بها في الطريق؟

- لم تذهب إلى أحد من أخواتك؟

- لا متسع لها، وكيف تذهب إلى بيت رجل

غريب وأنا موجود؟!

- أنت ضابط... ابحت لها عن شقة... ولها

قبيلة من النساء. خاطرة تراوده كثيراً وهو ينظر
نحوهنّ. سفرة الغداء معدّة. مغرية للجائع.
الصحاف والملاحق والشوك والسكاكين، وعاء
البلاستيك المملوء بأرباع الأرزغة، الدورق
والأكواب... هرعت زهيرة إلى المطبخ لتحضّر
الطعام. من باب الشرفة المفتوح لاح ميدان السكاكيني
والجانب الأبعد من البستان الذي يتوسّطه تحت ساء
الخريف المنقوشة بسحائب بيضاء متناثرة... نزع
قبعته وألبسها فازة فوق البوفيه واتخذ مجلسه فعلت
هامته بصورة ملموسة فوق مستوى المائدة لطوله
الفارع. جاءت زهرة بأواني الطعام، بالكوسة والشواء
والأرز والمخلّل. تخلّقت النساء السفرة، سناء وزوجته
(٣٠ سنة)... وكريماته الثلاث، أمل (١٠
سنوات)... سهير (٨ سنوات)... لمياء (٦
سنوات)... زهيرة شقيقته (٤٠ سنة وتكبره بخمس
سنوات)... كريمتهنّ سهام (١٧ سنة)...

تناول خيارة مخلّلة فدمعت عيناه السوداوان
الصاقيتان. ما أمهر شقيقته زهيرة. طاهية ماهرة:
تضفي على الطعام لذة تعوّض ما ينقصه من ترف.
يتجنّب اللثاء عليها إشفاقاً من إثارة سناء، يتحاشى
قوتها أو بالأحرى عصبيّتها. إنه قويّ في القسم، أمام
الخارجين على القانون، ولكنّه يتحلّى بالحكمة في
شقته. السخط لا يفارق سناء منذ اضطرت زهيرة
وابنتها للإقامة معه. ورغم أنّها تقوم بأعباء البيت
كلّها. رغم أنّها تعمل كطاهية وخادمة، فإنّها لم تستطع

معاش الأرملة! فضحك ساخرًا وقال:

- شقة في هذا الزمان!... أما المعاش فهو بضعة جنيهات... لقد مات المرحوم بعد خدمة قصيرة!
- وما ذنبي أنا؟
- لا حيلة لي أولئك...

من بادئ الأمر شعرت زهيرة بالحرج أكثر مما شعرت بالترمل، ولما يزيد الأسى أنها كانت في زواجها موفقة... ولكن الموت عاجله. إنه يدرك ثامنا. يعرف أنها على يقين من أنها غير مرغوب فيها... لا هي ولا ابنتها الجميلة. وسناء عصبية. لا تحسن إخفاء مشاعرها أو لا يمتها ذلك. ولم يخف من حديثها إقبال زهيرة على العمل اليومي الشاق. وطالبتها بالمعاش ولكن زهيرة قالت بذلك:

- إنه تافه، ولا بد من أن تظهر سهام بمظهر لائق في المدرسة... وأنا أيضًا... وهو لا يكاد يفي بهذا أو ذاك.

ولاحظ أن شقيقته مستوصية بالصبر والاستسلام... تسمع وتتجاهل... تتلقى الأحجار صامتة واجبة... تحذر كريمتها من الانفعال وأدرك أن سهام متعردة نوعًا ما. وقد غا إلى أذنيه يومًا صوت سهام وهي تقول لأنها:

- متى أنفذك وأنفذ نفسي؟

فتقول الأم:

- زوجة خالك لها عذرها، ألم تكن لطيفة قبل أن تضطر للإقامة معها؟

- لكن خالي... إنه ممتاز ولكنه ضعيف!

- ليس المفروض أن يكون ضابطًا في بيته أيضًا... الغلاء نار يا سهام كان الله في عونك... وأشد ما يزعج سهام هو موقف سناء من مستقبلها.

قالت يومًا لزهريرة على مسمع منه:

- متى ما حصلت سهام على الثانوية العامة فعليها أن تعمل...

ولم تحر زهيرة جوابًا أما سهام فقالت:

- هذا يعني ضياع مستقبلي...

فقالت سناء بحدّة:

- إنك لا تدركين حقيقة الوضع...

فقالت زهيرة:

- لم نتعجل الأمور؟

فقالت سناء بغضب:

- نحن نربّي ثلاث بنات، نحن نعاني، عليك أن تفهمي ذلك.

فقالت زهيرة باستسلام:

- لنكن مشيتة الله.

وكان محمد فوزي - الضابط - يقول لنفسه إن القبيلة عمّرة... ما منهن واحدة إلا وهي ظالمة ومظلومة... الحياة تبدو أحيانًا لعنة طويلة. ويتذكر كم أحب إخواته فيما مضى وخاصة هذه الأخت. وهي ليست أسوأ حظًا منهن... كلهن متعبات... ووراء كل سرب من الذكور والإناث.

وتقول له زوجته سناء متحدية:

- عليك منذ الآن أن تستعدّ لزواج بناتك...

فيتساءل ضاحكًا:

- من الآن يا سناء؟

- عليك أن تشري شقة لكلّ منهن.

فيضحك ضحكة عالية ويهتف:

- أتحدى وزير الداخلية أن يفعل ذلك!

- ألا تسمع عن الذين يمتثلون بالزواج في هيلتون

وشيراتون؟

- كما سمعت عن أغا خان رحمه الله...

ويداعب أمل كبرى بناته ثم يتساءل:

- ماذا ندري عن الغدا؟

- ٢ -

عقب الغداء جلسوا في الصالة، وسأل محمد زوجته:

- ماذا عندكم من أخبار؟

ساد صمت غامض كأن كل واحدة تدعو الأخرى للكلام. وقالت زهيرة:

- أحدهم يطلب خطبة سهام!

ارتسم الاهتمام في صفحة وجهه الأسمر. هذا الخبر قد يعني نكتة سخيفة وقد يعد بفرج غير متوقّع:

- من هو؟

- من نفس الحي، طالب بكلية العلوم، يدعى
رفعت حمدي...

نكتة سخيفة لا فرج قريب كما يوحي به الجؤ.
تساءل:

- ماذا تعرفون عنه أيضًا؟

فقالت زهيرة:

- أسرة طيبة...

فقالت سناء:

- ولكنها فقيرة.

فقالت زهيرة:

- سيكون مؤلفًا بعد ثلاثة أعوام وتكون سهام قد
وجدت عملاً أيضًا.

فقالت سناء:

- الجملة ثلاثون جنبها على أكثر تقدير.

فتساءلت زهيرة:

- هل تتجاهل سعادتها؟

فقال محمد فوزي متهمًا:

- أعطوني فرصة للتحرر والإحاطة!

فقالت سناء:

- المسألة واضحة، لن يملك مهرًا، لا بد من جهاز
ولو حجرة واحدة، ثم لا بد من شقة، لسنا في زمن
المواطن، وهذا ما يجب التفكير فيه من الآن...

فقال محمد متحرجًا:

- أعطوني فرصة...

وعند ذاك قالت سهام بجفاء:

- فلنعتبر الموضوع منتهيًا...

فرمقها خالها بحنان وسألها:

- لا شك أنك تعرفين أكثر مما نعرف؟

- أبدًا...

- أود أن أسمع رأيك يا سهام؟

- لقد أوضحت أبله سناء الحقيقة.

فقالت سناء:

- ربنا يرزقك برجل قادر، لا قائدة من الشباب،
هذا رأيي...

فقال محمد مجاملًا:

- المهم رأيك أنت يا سهام!

فقالت سهام بضيق واضح:

- لا رأي عندي يا خالي.

- المواطن وحدها لا تكفي...

- نعم...

- إني على استعداد لفعل ما تشيرين به!

فقالت سناء:

- سهام جميلة وسوف تسنح لها فرصة أطيب!

وسألته زهيرة:

- ما رأيك أنت يا أخي؟

فتفكر قليلًا ثم قال:

- رأيي أن تصارحه سهام بما سمعت وتسمع
رأيه...

فقالت سناء:

- معقول هذا الرأي.

هنا غادرت سهام الصالة إلى حجرتها أما زهيرة

فاغرورقت عيناها على رغبتها.

سألته سناء:

- هل أخطأنا؟

وبادرتها محمد:

- سأفعل ما تشيرين به.

فقالت زهيرة:

- لا خطأ هناك البتة، ولكني حزينة، البنت راغبة

في التعليم ولن يتاح لها ذلك، وراغبة في الشباب ولن

يكون نصيبها، لا خطأ هناك ولكني حزينة...

- ٣ -

قرب مقعده من نافذة تطل على ميدان السكاكيني

ليسترد أنفاسه. أتى حظ هذا؟ إنه غير راض عن

نفسه ولا عن أي شيء. وحسن ألا يكون شابًا. إنه

زمن المؤذنين. ولكن... وانقطعت أفكاره فجأة.

استقرت عيناه فوق البستان. هذا الوجه يعرفه تمامًا.

كان صاحب الوجه يترتب على الحشائش مسند الظهر

إلى جذع نخلة. هو هودون غيره. زعتر النوري. ماذا

جاء به إلى هنا؟ هل يترتب به الأحق؟... لا...

لا... ثمة سبب آخر. شعره حليق. ما زال حليقًا.

مفهوم. لن أمهله.

- لا مؤهل لي والحكومة لا تستخدم إلا ذوي

المؤهلات...

فهتف به:

- حذار من المزاح يا زعتر...

فقال زعتر بجديّة:

- يلزمي رأسمال يا حضرة الضابط.

- هذا ليس من شأني، وإذا عثرت عليك مرّة

أخرى بلا عمل فسوف أقبض عليك كمتشرّد!

- الله معنا...

- ادع الشيطان فهو إلهك...

- أستغفر الله ربّ العالمين...

- أجبني ماذا أنت فاعل؟

فتنهّد قائلاً:

- سأبحث عن عمل.

فقال بهدوء خفيف:

- ابعد عن وجهي قبل أن أقرّر القبض عليك...

رفع زعتر يده تحيةً ومضى في خطوات سريعة كأنه مشترك في سباق المشي. وقف محمّد فوزي يتبعه بعينيه حتّى وراه شارع ابن خلدون.

- ٤ -

حظّه من النجاح في قسم الشرطة أضعاف حظّه منه في بيته، إنّه يتصرّع عادة على اللصوص والنشالين ولكنّه ينهزم في غشاء الهموم العائلية. وقد أبْلغته زهيرة أنّ الشابّ رفعت حمدي يرجو لقاءه فرحبّ بذلك. واقترحت أن تحضر سهام اللقاء فلم يمانع، ولأنّه لا يوجد في الشقّة مكان استقبال مناسب فقد تمّ اللقاء في حديقة الشاي بحديقة الحيوان. وجده شابّاً معتدل القامة بشوش الوجه واضح الرجولة. قال لنفسه ومن واقع خبرته العريقة إنّه يوحى بالثقة ويمكن التفاهم معه، قال الشابّ:

- إني معجب بشخصيّة آنسة سهام، جادة ومحترمة، وحضرتك رجل ذو سمعة طيّبة جدّاً...

فشكره محمّد فواصل حديثه:

- ما يهمّ العلاقة المقدّسة متوقّف لدينا...

فابتسم محمّد قائلاً:

تناول قُبْعته وغادر الشقّة.

بعد دقيقة واحدة كان يقف أمام المترّبع. وثب الرجل واقفاً متهلّال الوجه. طويل القامة ولكنّه دون عمّد بقبضة. وجهه نحيل طويل... حاذّ البصر... نايت شعر اللحية... يرتدي بلوفر بنيّاً قديمًا وينطلوناً رماديّاً رأساً وصندلاً. ابتسم عن أنياب قويّة ملوّنة وهتف:

- أهلاً بحضرة الضابط العظيم...

فسأله محمّد فوزي:

- متى خرجت من السجن؟

- خرجت من السجن الذي دخلته بفضلك منذ شهر واحد.

- وماذا جاء بك إلى هنا؟

- جئت لأشتم الهواء النقي...

- اسمع يا ابن الثعلب، ماذا جاء بك إلى هنا؟

فقال بأسياً:

- لماذا تكرهني يا محمّد بك؟... لولاك ما كان الجنّ الأحمر نفسه يستطيع ضبطي متلبساً ويدخلني السجن، إنك ضابط شريف ولكنّ ربّنا أمر بالرحمة، ولا تنس العلاقة الحميمة التي تجمع بين الضابط والنشال، نحن معروفون لكم من قديم، نحن نتبادل التحية، وفي بعض حوادث النشل الحرجة تطالبني برّد الشيء الثمين فأستردّه من صاحبه خدمة لك، عظيم، أين الرحمة إذن؟...

فسأله بصرامة متجاهلاً مرافعته:

- لماذا تجلس أمام مسكني؟

- صدّقي فأني أحبّ هذه الحديقة...

- زعتر، حذار من المزاح...

- عظيم يا حضرة الضابط العظيم، فلأبحث عن حديقة أخرى.

وفتحّصه بدقّة مليّاً ثمّ سأله:

- كيف تحصل على رزقك؟

- حتّى الساعة لا رزق لي.

- هذا يعني أنّك متشرّد؟

- كلّ...

ثمّ وهو يضحك:

- للأسف الشديد فإنه تغطي ظروف جانيّة على الشروط الجوهرية...

فقال الشاب بحماس العاشق:

- علينا أن نتخلّب عليها...

- هات ما عندك...

- أمامي ثلاثة أعوام، عملي مضمون في التدريس أو المعامل.

- لعلّ التدريس أفضل فيما يقال.

- وأمامي فرصة للعمل في الخارج أيضًا...

- جميل ذلك ولكن يجب أن تعلم أننا لا نملك تكاليف الزواج...

- أعرف ذلك، المهم أن تكمل سهام تعليمها...

- زدني إيضاحًا...

- إنها أيضًا ترغب في دراسة العلوم، وستجد فرصة للعمل في الخارج.

دخلت سناء زوجته في إطار الجلسة فقال بحزم:

- ظروف حتمية توجب علينا توظيفها حال حصولها على الثانوية العامة في نهاية العام...

- ألا يمكن...

فقاطعه:

- غير ممكن. إنّي آسف...

فتفكر رفعت مليًا مغموماً ثم قال:

- فلنعلن خطبتنا الآن، ولنؤجّل المهرم للمستقبل...

وكان محمد يلحظ سهام من آنٍ لأنّ وقرأ موافقتها الصامته ولكنّه لم يَرِ بدءًا من أن يقول:

- تصرف غير مقبول.

- لماذا؟

- إنّه يعني انتظارًا طويلًا وغير مضمون العواقب...

- أرى أنّه ما دامت النية الطيبة متوفرة، فالعقبات تدوب عادة...

- لا أشاركك الرأي، سهام كريمة شقيقتي، ولا أريد أن أعلّق مستقبلها على المجهول.

- إنّه ليس مجهولًا.

- ولكن عندي رأي أفضل...

- ما هو يا سيدي؟

- أن يسير كلّ منكما في سبيله دون التزام بعلاقة ما، أنا شخصيًا لا أحب الخطبة أن تطول بلا حدود، فإذا وجدت ظروف ملائمة في المستقبل فلا بأس من الموافقة عند ذلك!

فقال رفعت حمدي بقلق:

- قد يتقدّم لها في أثناء ذلك رجل ما.

- أصارحك بأنني سأعمل ما أراه في صالحها و...

وتوقّف متمهلاً ثم قال عادلاً عَمّا كان في نيّته قوله:

- ما أراه في صالحها...

فقال رفعت بهدوء:

- أظنّ من الإنصاف احترام رأيها...

- طبعًا... طبعًا...

وساد صمت مقلّ بالخيبة... وكانت سحب الخريف منبسطة فلم يهبط من الشمس شعاع واحد غير أنّ البرودة كانت وانية محتملة... وابتسم محمد فوزي وقال:

- هناك رجاء لا مفرّ منه...

فنظر إليه الشاب مستفهِمًا فقال بحزم لا يجد مشقّة في دعوته في أيّ وقت:

- ألا يقع بينكما في الهدنة المقترحة لقاء من أيّ نوع كان!

لحظ الرجل سهام في طريق العودة مرّات... قال لنفسه إنّها ستجهش في البكاء حالما تنفرد بنفسها... لحن نفسه... ولعن أشياء كثيرة...

- ٥ -

كان منفردًا بنفسه في مكتبه عندما استأذن زغلول رآقت في مقابله... نهض باهتمام فاستقبله عند الباب، شدّ على يده باحترام، وأجلسه أمام مكتبه وهو يقول:

- شرقت يا أفندم!

الرجل في الأربعين، ولكنّه يتمتّع بحيويّة شاب في العشرين... بدين مع ميل إلى القصر، كبير القساات، دأكن السمرة... معروف أنّه رجل أعمال.

وأنه ذو صلات، وسترّد اسمه أحياناً عند التبرّع
لمشروعات خيرية في الحيّ.

قال الرجل بصوت مبجوح قليلاً:

- كان يجب أن نتعارف من قديم فانت ضابط ذو
سمعة هائلة...

- كانت ستكون فرصة سعيدة لمعرفة وجهه من
محبّي الخير...

- شكراً، ها هي الفرصة ولكنّها ليست
سعيدة...

وضحك فابتسم محمد فوزي وقال:

- حادث سخيف...

- ثمنه عشرة آلاف...

وقدّم سيجارة فلما اعتذر لعدم التدخين أشعلها
وقال:

- نشلت حافظة النقود، بمائة جنيه غير الفكة،
ولكن توجد بها علاقة مفاتيح ذهبية وذات فصّ من
الماس...

فتساءل عمّاد:

- كيف يُنشل رجل مثلك؟... لا بدّ أنك كنت
في حفل...

- هو ذلك... في جامع القبة الفداوية...

- آه...

- اعتقد أنه ليس من الميسور بيعه إذا وزعنا نشرة
بأوصافه...

- سنفعل ذلك على سبيل الحيلة. ولكنّ النشال
يبيعه بثمان بخس لمن يصادفه...

فقال الرجل مبتسماً:

- إنه عزيز لأسباب شخصيّة، ما نسبة الأمل في
استرداده؟

فقال عمّاد فوزي باسمًا ابتسامة أسيفة:

- لا سبيل إلى نشال إلّا إن ضُبط متلبّساً، نحن
نعرفهم ولكن من أين لنا الدليل، وثمة تنبيهات
متلاحقة بوجوب احترام القانون...

- إذن أقول عليه العوض؟

- توجد وسيلة مجرّبة في الأحوال النادرة. أعطني
فرصة أربع وعشرين ساعة...

- وإذا لم تنفع؟

- سنسير في الإجراءات العقيمة.

- لكم ولا شك وسائل سحرية أفرا عن أخبارها
أحياناً في الصحف.

- ٦ -

أمر الضابط باستدعاء زعتر النوري... جميع
المخبرين يعرفون مقهى النشالين المعروف بمقهى حنش
في خلاء الحدائق فيما تتصل بالحقول، وهو الذي أطلق
عليه الملمّم حنش اسم «مقهى الأمراء» بعد
الثورة... ودخل زعتر حجرة الضابط تبوح عيناه
الحادثان بنظرة قلقة متوجّسة وهو يقول:

- ستجعلني لعنتك يا حضرة الضابط؟

لم يرفع رأسه عن أوراق بين يديه. تركه وحده في
دوامة التوقعات المزعجة. قال زعتر:

- أعطني فرصة...

نظر إليه ببرود وسأله:

- أعتقد أنك مصمّم على تغيير حياتك، قد
أصبحت من المصلّين!

- نعم؟!

- رآك البعض وأنت تؤدّي فريضة الصلاة.

- أنا ما دخلت جامعاً قطّ طيلة حياتي!

- جامع القبة الفداوية.

- سيدي الضابط أنا لا أفهم شيئاً...

- ولا أنا!

- أنا تحت أمرك...

قال بهدوء:

- أريد علاقة المفاتيح!

تراجع رأسه قليلاً. اختفت نظرة القلق. أدرك أنه
مطلوب لمفاوضة. تشبّع قائلاً:

- أيّ علاقة مفاتيح؟

- نحن نفهم بعضها يا زعتر...

- مذ خرجت من السجن وأنا أعيش عالة على

الملمّم حنش...

- تشل حافظة الوجيه زغلول رأفت عمل لا يقدم

عليه سواك...

فابتسم زعتر وقال:

- إنك تطلب مساعدتي...

- حذار من الغرور.

- لقد قدمت أكثر من خدمة ولكن صدري يتقبض

في جو القسم...

- لا تخش شيئاً. إنك تعرف ما تعنيه كلمتي!

- كلام رجال.

- نعم يا ابن الثعلب...

- عظيم... لنبدأ من الأول، ماذا تريد؟

- علاقة رأفت زغلول...

- لم أنشلها.

- لا أصدقك.

- أقسم لك بشرفي.

فضحك محمد فوزي قائلاً:

- يا ابن الثعلب.

- أقسم لك بشرفك أنت!

قال الضابط بحدّة:

- عليك اللعنة، أتعرف ما يعنيه هذا القسم؟

- أعرف...

- فمن نشلها؟

فهز رأسه قائلاً:

- سؤال غير جدير بذكائك...

- عندك علم بالموضوع؟

- غير جدير بذكائك أيضاً؟

فنظر إليه مقطّباً وقد اكتمه وجهه.

قال زعتر:

- يلزمي وقت للعمل.

- متى تحضرها لي؟

- لا أدري، وربما ضاعت إلى الأبد...

- اسمع يا ابن الثعلب...

- أعدك بأنني سأبذل جهدي.

- في ظرف يوم!

- على الله الجبر.

تمهل الضابط قليلاً ثم قال:

- ربّما نالك خير، الرجل ثريّ لدرجة الخيال...

قال زعتر بحماس:

- لا يهمني المال، ما يهمني حقاً هو خدمتك!

تمتم محمد فوزي بأسياً:

- يا ابن الثعلب...

- ٧ -

المفاجأة أنّ زعتر طرق باب الضابط عصر اليوم

التالي. كانت سهام هي التي فتحت الباب وهي التي

أبلغت خالها بقدوم زائر يدعى زعتر. انفعّل محمد

انفعّالاً شديداً ولعنه ألف لعنة، غير أنّه اضطرّ

لاستقباله ومجالسته في الصالة، بل وقّلم له القهوة. بدا

زعتر مفعماً بالحيوية والسعادة. قال:

- لا تؤاخذني على حضوري إلى بيتك إذ إنني أكره

القسم.

- ماذا فعلت...؟

دسّ يده في جيبه فاستخرج منه العلاقة والمحفظة.

تمتم محمد:

- والنقود أيضاً؟

- عن آخر مليم، إذا لم تكن في الاتفاق فدعها

لي...

فقال محمد مداعباً لأوّل مرّة:

- الغني غني النفس!

فقال الآخر بتسليم:

- أمرك.

- من الذي نشلها يا زعتر؟

- لماذا تسأل يا حضرة الضابط؟

- العلم بالشيء ولا الجهل به.

فابتسم الآخر قائلاً:

- لم أحن زميلاً في حياتي...

- حقاً؟... يا لك من رجل عظيم في الشر.

فضحك زعتر واشتدّ لمعان عينيه وقال:

- وشرف ربنا لولا الحظ السيئ...

- هه... لكن من رجال الأمن؟

- كلّ... لا يعجبني عملك...

- حقاً؟... وله؟

- أقول لك، إنك تطارد اللصوص لحساب

الحكومة بينما الحكومة أكبر لصّ في الدولة!

- يا ابن الثعلب...

- إنكم تكرهون قول الحقّ يا محمّد بك...

- هه... إذن ماذا تفضّل من المهن؟

فتفكّر قليلاً وقال:

- أقرب عمل لعمل الراهن أن أكون مدير بنك!

فلم يتمالك محمّد فوزي نفسه من الضحك، فقال زعتر:

- أريد رغيماً محشواً باللحم المحمّر...

- طلب غير هيّن ولكن سيكون لك ما تريد...

فقال زعتر وهو يتنهّد:

- ورغم العيش والملح سترجعني إلى السجن غدًا

إذا وقعت في قبضتك!

- طبعاً... لا مفرّ من ذلك.

- الأمر لله... من صاحب العلاقة؟

- زغلول رأفت من رجال الأعمال والبرّ...

- رجل أعمال؟... طبعاً لصّ ولكن ما تخصّصه؟

- كلّ الناس عندك لصوص!

- اسمع يا محمّد بك... ستندم ذات يوم على

تمسّكك بالشرف.

- على فكرة يجب أن أرفّ إليه البشري...

وأدار قرص التليفون...

- زغلول بك رأفت؟

.....

- مبارك... العلاقة والحفاظة معي...

.....

- وهو أيضاً موجود.

.....

- ولكن... فكّر قليلاً... إنّه قادر على أن

يخطف الكحل من العين...

.....

- إلى اللقاء يا إكسلانس...

والثفت نحو زعتر قائلاً:

- إنّه مصمّم على رؤيتك...

فقال زعتر باهتمام:

- تحت أمره.

- كن عاقلاً... وكن حكيمًا أيضًا في الإفادة ممّا

يجود به عليك...

- طبعاً... ولن أنسى المالك الشرعيّ

للمحفظة...

- المالك الشرعيّ؟

- الذي نشله يا محمّد بك...

فابتسم الضابط وقال:

- احذر أن تجعلني أندم على الموافقة. الحظّ يفتح

لك باباً شريفاً يا زعتر... والان دعني أعدّ لك

الرغيف...

ولكنّ زعتر نهض في لفّة وقال:

- لا تضيق الوقت، شكراً، بنا إلى الرجل، وسوف

أشتري اللحم بنقودي الحلال لأوّل مرّة...

- ٨ -

مضت حياة الضابط بهموها الشخصية وتوفيقها العام. البيت يسوده غالباً التوتر وقد استغرقت سهام في دراستها ولكن في تعاسة ملحوظة. من يدرى فقد ينتصر الحبّ في النهاية، سيجد لسهام عملاً في نهاية العام وسيضمّم مرتبها إلى معاش أمها. وربما حقّق رفعت حمدي حلمه، وهاجرت الأسرة الجديدة - سهام، رفعت، زهرة - إلى الخارج مجبورة الحاطر. عند ذاك يطمئنّ على أخته وتحظى أسرته بالاستقلال وتستكّن أعصاب سناء زوجته. ما أجل الأحلام الملطّفة للآلام!

وحصلت سهام على الثانوية العامة وراح يسعى لإحداقها بعمل ولكنّ التوفيق في ذلك بدا بعيد المنال. وفي ذلك الوقت جاءه المخبرون بنياً مثير وهو أنّ مقهى والأمراء أو مقهى النشالين قد خلا منهم. وكان قد لاحظ قلّة ملموسة في حوادث النشل، حتّى مضت أشهر لم يتلقّ فيها بلاغاً واحداً. وأمر بالبحث عن مجمعهم الجديد ولكن لم يعثر لهم على أثر. ولم يجد أحد من المخبرين عند العلّم حنّش صاحب المقهى تفسيراً، وفسّره هو على هواه فقال إنهم ضاقوا بصرامته ويقظة المخبرين فهاجروا من الحيّ. وسرّ المأمور بتلك

النتيجة غير المتوقعة وهنا محمد فوزي عليها.

وكان يغادر نادي الشرطة ذات يوم عندما رأى شاباً وشابة في غاية الفخامة، يغادران سيارة، ويتجهان نحو برج القاهرة. نال من الشاب نظرة عابرة وهو يمضي في طريقه، ولكنها لم تلتصق كما توقع. التفت وراه فرأى الشخصين يصعدان سلم البرج، جعل يتأملها حتى غابا في المدخل.

ما معنى هذا؟ هل سبق له أن رأى هذا الشاب؟ لقد التفت عيناهما لحظة خاطفة؟ لم تكن عينها الآخر محايدتين. أم هكذا خيل إليه؟ لمح فيها معنى ما، حياة من نوع ما تشي بنوع من المعرفة، وضرب الأرض بقدمه. مستحيل. توقف عن المشي. استدار متجهاً نحو البرج. تفحص الكافتيريا، ثم صعد إلى الشرفة العليا. رأى الشخصين يطلان على القاهرة ونسمة عليلية من نسائم الصيف تداعبها. اقترب حتى وقف وراءهما. سمع الشاب يقول للشابة بصوت يسمعه هو كأنما هو المقصود به:

- ألم أقل لك إن له عينين لا تُخدعان؟

فهتف محمد فوزي:

- زعتر النوري...

فاستدار نحوه باسماً عن أسنان بيضاء وهو يقول محتجاً:

- محمد زغلول من فضلك؟

وأشار إلى الفتاة قائلاً:

- صديقتي هبة...

فتمتم الضابط:

- جلجلة!

- قلت هبة من فضلك...

جعل ينظر إليها برية فضحك زعتر وقال:

- هبة اسم اختاره بنفسها أما أنا فكونت اسمي الجديد من اسمك «محمد» واسم البك زغلول، بصفتكما صاحبي الفضل الأول...

فقطب محمد فوزي متسائلاً:

- ما معنى هذا؟

- عن أي شيء تسأل؟

- أنت تفهم، ما أعنيه تمامًا يا زعتر...

وضح له عن قرب أن فخامة الملابس وصقل الوجه والأطراف لم تغفّر تمامًا عن الابتذال في الحركة والهيئة، وتقدمت هبة (جلجلة) خطوة بجهاها الشعبي الصارخ وتساءلت محتجة:

- ماذا فعلنا لتحقيق معنا؟

وسأله زعتر النوري بشيء من العظمة:

- بأي حق تتعرض لنا يا حضرة الضابط؟

فقال الضابط:

- أريد أن أكتشف الجريمة المستترة وراء هذا التغيير.

- إنك تخاطب رجلاً من رجال الأعمال. وهذه امرأة من نساء الأعمال...

- نحن نعمل في ضوء النهار...

- لن يخفي سر.

فضحك زعتر وقال:

- يؤسفني أن يكون أول لقاء لنا على هذا النحو، لنا ماضٍ مشترك، وفضلك عليّ عظيم، أنت الذي سلمتني مفتاح السعادة، فإذا يثيرك عليّ الآن؟ دعني أدعوك لفنجان شاي... وليطعمن قلبك... وهالك بطاقتي الشخصية إذا شئت...

فقال محمد بدّهول:

- إنه عام واحد.

- ما قيمة الزمن؟... صفقة واحدة تحوّلك من دنيا إلى دنيا، الفضل لك ولزغلول رأفت أيضاً، ما زلت أعتد من رجاله. ولي أيضاً رجالي...

- تهريب؟!

- رجعنا نردّد ألفاظاً لا معنى لها، اسمها الوحيد «نجارة»... حتى لو أصررت على الألفاظ المبري فربما كانت تهريباً قبل أشهر لكننا اليوم في عصر الانفتاح، لا تهريب ولا دياولو... تفضل بزيارتنا... وانظر إلى تلميذك بنفسك...

فقال الضابط ببطء:

- زعتر...

فقاطعه بسرعة:

- محمد زغلول من فضلك...

في آن. جلس محمد وهو يشير للكرسي المقابل داعيًا

العجوز للجلوس وهو يقول:

- لا تقدّم شيئاً، لي معك حديث يا حنش.

جلس الحنش، لم يزايله القلق. قال:

- لم أرك منذ زمن، آخر مرة كنّا في عاشوراء.

- أذكر ذلك... ولكن أين أصحابنا؟

أخذ يطمئنّ نوعاً ما فقال:

- ذهبوا ولم يرجعوا... اختفوا تماماً...

رماه بنظرة طويلة وقال:

- عرفت ذلك، ولكن أين ذهبوا يا حنش؟

- الله وحده يعلم.

- ولكنك تدري أشياء ولا شك...

- هل وقعت حوادث نشل؟

- كلاً.

- ماذا يهلك من أمرهم بعد ذلك؟

- هذا شأني يا حنش.

- والله...

فقاطعه بنبرة أمرة:

- هات ما عندك...

اطمأنّ العجوز تماماً وشعر بأهميته، قال:

- لقد أفلعوا عن النشل، غداً سيخفي اللصوص

جميعاً...

- هات ما عندك...

فضحك العجوز عن فم خال وقال:

- أنت السبب يا حضرة الضابط...

- ذلك بالنسبة لزعر النوري. إني أسأل عن

الآخرين...

- قيل إن زعر ذهب للقاء الرجل الذي نسله.

- أعرف ذلك طبعاً.

- وإذا بالحال يتغير تماماً، لم يعد عتريس النوري

إليها. انتظروا، انتظروا طويلاً ولكنه لم يعد وكادت

جلجلة تجنّ...

- ثم؟

- ظلّوا أنّه قبض عليه... أخذوا يتناسونه...

حتى جلجلة بدأت تستجيب لعشاق آخرين... حتى

كان يوم...

- أنت تعرف من هو محمد فوزي.

- طبعاً... أعرف أنك ستتحرك... أعرف أنك

تحلم بإرجاعي إلى السجن... ولكن الحقيقة

ستكشف لك... ستعرف أنني رجل شريف...

أمل أن نكون أصدقاء... لست دون زغلول رأفت

استحقاقاً لذلك...

وقالت بهيّة بدلال:

- وأنا أيضاً أريدك أن تكون صديقاً لي!

وتساءل زعتر:

- البضائع المهربة كانت تملأ الطرقات فلم لم

تصادروها؟... لم لم تقبضوا على مروجيها؟... كنّا

نيجول في الميدان يجرسنا رجال الأمن... ووراء كلّ

واحد منا شخص ذو مقام... انتهى عصر المغامرة

وما نحن اليوم إلّا تجار شرفاء... ثمّ إنك صاحب

الفضل.

- أضجرتني بقولك هذا...

- لم يغضبك قول الحق؟... أنا أيضاً نثلت ذات

يوم ولكنّي استرددت مالي بقوتي الذاتية، لم ألبأ إليك

لستردّ بقوتك مال لصّ كبير من نشل مسكين.

وهنت بهيّة:

- صديقك زغلول رأفت لصّ عظيم...

فانتهرها زعتر قائلاً:

- اقطعي لسانك؟ إنّه بحكم القانون الجديد تاجر

عظيم!

فقالت مخاطبة محمد فوزي:

- نحن ندعوك إلى فنجان شاي.

فقطّب الضابط متحوّلاً عنها فقال له زعتر:

- يؤسفني ألاّ تلتني دعوتنا، ولكن لا تبدّد قوتك في

لا شيء...

- ٩ -

اقترب من الخلاء المشارف للحقول فتبدّى له مقهى

«الأمراء» في عزله وراثته. حجرة حجرية يتقدّمها فناء

تراي مسور بالصبار. بدا كالحالي بعد أن تحلّى زبائنه

الأصليون عنه. وقف في الفناء المهجور فلمحه الحنش

- العجوز الأحذب - وسرعان ما هرع إليه مرحّباً وقلّقا

وسكت الرجل ليشحن الضابط بالشوق. فقال هذا باستياء:
- استمر يا عجوز.

- كانوا في الداخل يقامرون حين دخل فجأة سمسون العفش مضطرباً بفرحة طاغية، لرح لم يحافظه نقود فاخرة وتساءل: «لن هذه؟». فأجابه أحدهم متفكهاً: للسفير الأمريكي، ولكنه قال بهدوء: إنه عتريس النوري. ملكهم ذهول شامل. أقبلوا نحوه وفي مقدمتهم جلجلة، أقسم لهم على صدقه. أين هو، لماذا لم يعد، وكيف نشلته، وراح الرجل يقول: «رأيت في ميدان رمسيس. كان يغادر سيارة. ليس عتريس الزمان الأول، شخص آخر تمامًا، أي وجهه وأبته، شككت فيه طويلاً حتى عرفت مشيته وسمعت صوته. إنه عتريس النوري. ماذا حصل له؟ كل شيء تغير حتى جلده. تغير لونه أيضاً كأنه نُقع في الماء عامًا. هل استولى على ثروة الرجل الذي دعاه ليكافئه؟ هل نسل البنك الأهلي، وهو يقصد دكان غيار، إنه محترم ابن الدائخة. في الحال رسمت خطة لنشله، نشلته في الدكان. هذه هي الحكاية. وصاحت جلجلة: الخائن ابن الخائنة. أين يقيم؟ ماذا يعمل؟ ولكن سمسون العفش لم يكن لديه مزيد. وصاحت جلجلة: لا بد من العثور عليه... وأكثر من صوت صالح: لن يفلت ولو اختبأ في جبال الواق الواق. وفيما هم يتبادلون الرأي إذ بدا عتريس النوري في مدخل الحجرة وهو يرمقهم بنظرة ثقيلة محتدمة بالسباب والسخرية.

وسكت العجوز ليستريح ويسعل ما شاء له السعال فصبر محمد فوزي حتى استطرد:

- دخل متفوحًا بالأبته. تبادلوا النظرات في صمت هادئ. حتى خرقتة جلجلة متسائلة: «من سعادة الباشا القادم؟». فقال بهدوء: الحافظة أولاً ثم نتكلم. فسأله سمسون العفش: عن أي حافظة نتكلم؟ فثقبه بنظرة من عينيه الحادتين وقال: هو أنت يا ابن الخائنة! قلبي قال لي... فقالت جلجلة: «قلب المؤمن». فقال زعتر لسمسون: «الحافظة واعتذر لعلمك».

- أنت خائن!

- زعتر خائن!
- أين كنت؟... تقطعنا للنقود... من أين لك هذا؟

- العمل الشريف!
هزت جلجلة وسطها وفتفت:
- ادعوا له... ادعوا له...
- العمل الشريف... عمل الناس الأجلء...
هات الحافظة...
- أقسم لك بشرفي...
قاطعها مقهقها:
- احتفظ بشرفك وهات المحفظة.
فقال سمسون بتسليم:
- لي مكافأة!
- دع ذلك للنساء، هات الحافظة لتكلم في المفيد! فرمى بها إليه سمسون وهو يقول:
- نار في جنة الخائن...
- الله يساعذك... كان في خطي أن أزورك في الوقت المناسب...

فتساءلت جلجلة:
- وما الوقت المناسب؟
- هو وقت الخير، لا يتقدم ولا يتأخر.
- ومتى يجيء؟
- عما قريب جدًا.
- ما هو العمل؟
- تجارة... بضائع نجيء من أوروبا...
- تهريب؟!

- الصبر... موعدنا بعد شهر واحد...
وفي الميعاد يا حضرة الضابط ذهبوا جميعاً ولم يرجع منهم أحد.

ترامقا صامتين، ثم تساءل الضابط:
- أين هم الآن؟
فقال العجوز بقلق:
- إنهم خارج منطقتك...
- نعم... هل تعلمني واجبي؟ أين هم الآن؟
- إنهم يعملون في ضوء النهار وتحته حماية الشرطة...

- ألم أقل لك إنك تعرف أشياء كثيرة؟
فضحك العجوز وتساءل:
- ألم تسمع عن سوق ليبيا؟
- كلا.
- إنه في القلعة يا حضرة الضابط.

- ١٠ -

يموج سوق ليبيا بالخلق والحركة والأصوات. يغمره ضوء الكلوبات الأحمر المدلّاة من رعوس أعمدة مغروسة في الأركان. أمواج تتلاطم من النساء والرجال مصبوغة الوجوه بالأضواء المركزة. قال الضابط إنهم اختاروا مكاناً مناسباً بين القلعة والمساقى القديمة. وتابع بعينه الاكشاك القائمة في محيط السوق مكتظة بالصايون والقوارير والعلب والبرطمانات والأدوات الكهربائية والإلكترونيات. وراء كل كشك صفّت الفريجيديرات والسخانات ومكيفات الهواء والنجف في سرادقات. جهر الضابط بألوان البضائع، بجنون البيع والشراء، بالمهد الذي يلد أناساً جددًا. ها هي وجوه العصابة التي اختصّ دهرًا بمراقبتها. خلقوا من جديد. إنهم يرمقونه بدهشة لا تخلو من قلق ثم ينسونه تمامًا. الشرطة تحفظ الأمن. والنشالون أصواتهم مرتفعة. سيختفي اللصوص ويستغنى بالتالي عن رجال الأمن! ما علاقة زغلول رأفت بهذا كله؟ أصبح هؤلاء من الأغنياء أما هو وأضرابه فيفوصون في غمار الفقراء. ها هو زعتر، عمّد زغلول أستغفر الله. معه جلجلة في كشك واحد. وجم الرجل عندما رآه. ها هو يقبل نحوه مرحًا مرحبًا.

- أهلاً عمّد بك... خطوة عزيزة!

- أهلاً بك...

- انتقلت إلى منطقتنا؟

- كلا.

- جئت للشراء؟

- للفرجة.

فتحت له جلجلة علبة كوكاكولا مستوردة وقدمتها

مبتسمة، قال:

- شكرًا، لا أحبّها...
تناولها زعتر وراح يشرب قائلاً:
- إني أعرف ما يحرجك!... لعلك سررت بما ترى، تاب الله علينا!
- حقًا؟... من النشل إلى التهريب؟
فضحك زعتر قائلاً:
- عملنا مشروع، انظر إلى الشرطة، نحن تجار، أناس يحتجون إذا الفقراء اغتنوا...
- الحال معدن...
- سمسون دفع أسس خلّو رجل لا يستهان به وأصبح من سكان المنيل!

وقالت جلجلة:

- عندنا بضائع تجهن... شاهد بنفسك...

فقال في هدوء:

- لست في حاجة إلى شيء...

فسأله زعتر بقلق:

- لم شرفتنا؟

- العلم بالشيء ولا الجهل به...

- اسمع يا حضرة الضابط، ما كان تهريبًا أصبح

بفضل الانفتاح تجارة مشروعة...

فضحك عمّد فوزي ولم ينبس فواصل زعتر:

- سيكون أبناؤنا ضباطًا ووكلاء نيابة...

- ولم ترجعهم إلى الفقراء؟

فتبادى الآخر في حماسه قائلاً:

- ماذا كان الأمراء والباشوات قبل أن يصيروا أمراء

وباشوات؟... كانوا لصوًّا، فنحن أصل الوجود يا

عمّد بك... ولكن أناسًا يكرهون أن يفعل أبناء

الشعب مثل الأمراء والباشوات...

- يا لها من آراء!

- دعنا من هذا كله... ألا يلزمك فريجيدير؟...

معصرة؟... ريكورد؟... مقويات، كل شيء تحت

أمرك، ومن غير فلوس...

- إنك لكريم ولكني لا أريد شيئًا...

فمدّت جلجلة عنقها بدلال وإغراء وتساءلت:

- ألا يعجبك شيء؟

فتساءل الضابط:

- وظفني عنده في أعمال تهريب تحتاج إلى جرأة
خاصة، تعلّمت أشياء وأشياء، استعملت بدوري
العصابة، اليوم العمل كلّ مشروع...
وسألته جلجلة:

- هل لو كنت في منطقتنا أيام التهريب كنت
قبضت علينا؟

- طبعًا.

- رغم الحماية؟

- بلا تردّد.

فقال زعتر ضاحكًا:

- يعملها ولو تعرّض للنفي، أنا عارفه.

فقال جلجلة:

- يا لك من حبيب قاسم، وهل كنت تقبض على
زغلول رأفت؟

- ربّما قبلكم...

فثنت رقبته في مرح وقالت:

- ستصبح المدينة بلا لصوص، ماذا تريد أكثر من
ذلك؟

- أو ستصبح كلّها لصوصًا...

- النتيجة واحدة.

وقال زعتر بحرارة:

- بوّدي أن أغرقك في السعادة!

فتمتم في فتور:

- شكرًا...

نصافحا، هتفت جلجلة غاطبة زعتر:

- قل له إنّي مستعّدة أن أوصله بسيّارتي إلى أيّ
مكان...

لوح لها مودّعًا ومضى...

- ١١ -

ما معنى ذلك؟ ها هو العبت يتأبط ذراعه متدنّراً
بالبسّات الحمراء. لاحظ الضابط أنّ صوت مرافقه
مبحوح مثل صوت حنش. سأل عن السبب فأجاب
بأنّ صوته يُع من كثرة الخطب، ولأنه يؤدّن كثيرًا داعيًا
المصلّين إلى سوق ليبيا. وأشار إلى الشجرة الضخمة
توسّط الميدان الصغير في شارع البرج وقال للضابط:

- هل تزوّجتها؟

فقال زعتر:

- كلّ... إنّها تهدّني بالقتل...

- إم؟

- رأيي أنّه يجب أن أتزوّج من أسرة!... وعليها

هي أن تبحث هي أيضًا عن عريس لقطة...

قال محمّد فوزي لنفسه إنّها جميلة، حتّى ابتذالها

جذاب، ليس في بيته من يضارعه في جمالها إلّا سهام.

وقالت بهيّة «جلجلة»:

- أنّه وغد يستحقّ الإعدام.

فقال الضابط:

- إنّها لمشكلة...

فقال جلجلة:

- لا أهميّة لذلك، المهمّ أن نقدّم لك هديّة.

- شكرًا، لا عودة إلى هذا الحديث.

فقال زعتر:

- صدّقي لا يقضي بالفقر على الإنسان إلّا عقله.

وقالت له جلجلة:

- لو عثرت على رجل قويّ مثلك لزهدت فورًا في

هذا الوغد...

فتجاهل قولها ضاغطًا تأثّر الباطنيّ.

فعدادت تقول:

- إذا لم تقبل هديّة مستوردة فخذني أنا هديّة

عجّية... ما رأيك؟

فقال زعتر:

- وتهديني حلًّا لمشكلتي معها...

فسأله محمّد فوزي:

- هل صادفتك متاعب أيّام التهريب؟

- لا تكاد تذكر، كلّ كشك يكمن وراءه رجل هامّ

يحميه من بعيد...

- لا تبالغ.

- هي الحقيقة، أنت نفسك رجّعت إلى زغلول

رأفت ماله الضائع...

- رجل لا غبار عليه!

- صدّقي ليس في ثروته ملّيم حلال واحد...

- ماذا فعل معك؟

- أيّ ضخامة، ما عمرها؟ ستعيش بعدك طويلاً،
إنّنا لا نعرف القيود، تخيا حياة مطلقة.

وأشار أيضاً إلى كليين يتلاعبان وتتم:
- يعيشان مثل الشجرة، حياة مطلقة، لا يعرفان
الضمير ولا يخافان الموت...

فقال الضابط:

- ولكنّه الإنسان، وحده.

- حماقة مقنّعة بالجلال!

- الجلال!

- هو السجن.

- لكنّه الإنسان، لا يعرف ذلك إلا الإنسان. ألا
يعني ذلك شيئاً؟

- لا يعني شيئاً.

- هو وحده.

- الإنسان الحقيقيّ مثل الشجرة، مثل
الكليين...

- إنّه وحده، هنا يكمن سرّه.

- هبك مشرفاً على الغرق ولا نجاة لك إلا
بالتضحية بآخر، ماذا تفعل؟

- ساعة الفرق يسيطر الحيوان.

- هذه هي الحياة...

- كلّ، إنّها جرعة يجب التكفير عنها...

- هل تعرف الجريمة بالفطرة؟

- كفى، على أحدنا أن يتلاشى...

تهبط النقود بلا حساب في ميدان ليبيا، السماء تمطر
هدايا. بالواقحة تُصان الهيبة. طيب، ها قد تغيّر كلّ
شيء. ستسيطر على الحياة بدل أن تسيطر هي عليك.
تحسّن علاقات الكائنات. تستقلّ سناء ببيتها ثمّ
تنقل إلى بيت أفضل، يتورّد مستقبل أمل وسهير
ولياء. تغدق البركة على سهام وزهرة. تنطلق سيّارة
بالأسرة يوم العطلة. الفضلاء يعملون بالردفيلة،
الأرذال يملكون بالفضيلة.

كان بالنادي عندما رأى زغلول رافت قادماً نحوه.
انتحى به جانباً فجلسا في جانب من الحديقة.

- فقدت شيئاً ثميناً؟

- فقال زغلول باهتمام:

- كلّاً، الأمر أجل...

- ماذا فعلت بزعتري؟

- كافأته بعمل شريف مريح... ولكنّه طماع...

- فضحك محمّد فوزي وسأله:

- ما عدد الأعمال الشريفة في نظرك...

- فقال باهتمام متزايد:

- محمّد بك... إنّي هنا لغرض هامّ... إنّك

رجل شريف... صاحب جميل... حسن... عليّ

أن أرّد الجميل...

- خير؟

- الأمر يتعلّق بزعتري.

- سرقك؟

- كلّاً... لكنّه شرع في سرقتك أنت.

- ماذا تعني؟

- الأمر يتعلّق بكرمة أخنك...

- قلب محمّد في حيرة شديدة:

- كريمة أخني؟

- إنّه يحوم حولها... يحوم حولها باعتباره الوجيه

محمّد زغلول...

- تغيّر وجهه غمماً. ارتفق الخوان بساعديه متسائلاً:

- ماذا؟

- إنّي على يقين بما أقول...

- كريمة شقيقي آية في العقل والأخلاق...

- لم أقل خلاف ذلك...

- لو تعرّض لها بإساءة لشكته إليّ...

- لا يتعرّض لها بما يسوء... إنّه يحوم حولها

كرجل شريف!

- الوغد.

- خفت أن تُخدع الفتاة به ونحن لا نملك قلوبنا.

- شكراً لك تحذيري.

- ١٢ -

بدا محمّد فوزي كئيماً متجهماً. من أوّل نظرة
لاحظت ذلك سناء وزهرة وسهام أما الصغيرات

فيحسن من ملاعبته، ونطلق بنبرة مفعمة بالغضب:

- سهام.

نظرت إليه الفتاة بذهول فقال:

- ما هذا الذي يقال عنك؟

وسكت من شدة الانفعال ثم قال بازدياد:

- عن رجل له مظهر الوجهاء يدعي أنَّ اسمه عمَّد

زغلول...

فقالت زهيرة:

- لا شيء يستحق الغضب يا أخي.

وتمتعت سناء زوجته:

- فعلاً.

فتساءل بحلّة:

- آخر من يعلم؟

فقالت سناء:

- إنّه رجل غنيّ. غرضه شريف، لم تُخفِ سهام

عنا شيئاً.

قالت زهيرة:

- لم أرد أن أزعجك قبل أن أتحقّق بنفسي، وافقتني

سناء على رأيي، قالت لي سهام إنّه رجاها أن يحذّنها،

ذهبت إليه بنفسني لأقول له إنّ الطريق الوحيد أن

يحذّلك أنت.

- ماذا قال؟

- قال إنّ ثمة سوء تفاهم بينكما قد يجتّب رجاءه.

- أكان في نيتك أن تزوّجها من وراء ظهري؟

فقالت سناء:

- اتّفقنا أن أحذّلك ولكنك سبقت!

فنظر إلى سهام متسائلاً:

- هل أعجبك؟...

فقالت زهيرة:

- إني أبحث عن حلّ يُرضي الجميع.

أدرك أبعاد الموقف. أدرك أيضاً دور زوجته التي

تحلم بالتخلّص من زهيرة وسهام. ضحك بمراة

وقال:

- ما هو إلّا نبّال قضى في السجن عامين!

فَوَجَّهَ في ذهول. تذكّر هو يوم رآه رابضاً في

البستان تحت البيت. قال بأسى:

- لقد رويت لكنّ حكاية سوق ليبيا، وحكاية زعتر

النوري، محمّد زغلول هو زعتر النوري!

قرأ وجوهه نظره الثاقب. سهام يغمرها شعور

بالنّجاة. زهيرة مطبوعة بالحليّة. سناء مغلفة بحنّة

ولكنّ قضى عليها بالهزيمة. تمتعت زهيرة:

- ما تصوّرت ذلك فقد!

فقال بسخرية:

- هو هو لم يتغيّر إلّا مظهره، كان لصّاً غير قانونيّ

فأصبح لصّاً قانونيّاً..

- ١٣ -

التقت عيناه بعينيّه رغم الضجيج والزحام. رسالة

خفيّة سرت منه إلى الآخر. غادر موقفه أمام الكشك

نحوه. بدا أنّه استشعر الجوّ كلّ. قال بتسليم:

- قلب المؤمن دليله.

سار محمّد فوزي خارّجاً من نطلق السوق والآخر

يتبعه حتّى وقفاً تحت جدار القلعة الشاهق، وعند ذاك

هتف به الضابط:

- إنك وغد كالمهد بك...

فتمتم وهو يواجهه بثبات:

- الحلم سيّد الأخلاق.

- كيف تسوّل لك نفسك التعرّض لبنت أختي؟

- بالشرف تعرّضت لها...

- لا تنطق بهذه الكلمة يا زعتر...

- محمّد زغلول.

- كذاب.

- هذا كلّ شيء.

- سأعتبر الموضوع منتهياً وحذار...

- محمّد بك... ربّنا قبل التوبة.

- أنت لصّ لا أكثر ولا أقلّ.

- إني رجل شريف وغنيّ ومن حقّي أن أفتح بيتاً

شريعاً.

- اللعنة على شرفك المزعوم.

- لا داعي للغضب.

- فليتنه كلّ شيء، إني أكره الاستمرار في هذا

الحديث...

وتركه دون تحية .

- من واجبك أن تكوني سعيدة!

فقالته سهام بنيرة متوترة:

- صبركم حتى أجد عملاً، عند ذاك سأذهب أنا

وما!

فقال محمد مقطّبا:

- قول غير لائق...

واجتاح الغضب سناء فهتفت:

- جشاك بالسعادة حتى موطنك قديمك ولكنك ما

زلت تحملين بالاستحليل، إنها فرصة لا تتكرّر، وأنا

بصراحة لم يعد بي صبرا

وقال لها محمد معاتباً:

- سناء!

فصاحت بصوت يهدير بالغضب:

- دعني أنفّس عني في صدري .

فقالته زهيرة:

- أعطونا فرصة، سهام ذكية وتفهم كلّ شيء،

ستسير الأمور كما نودّ...

- ١٥ -

أبلغ الضابط زغلول رافت بموافقة الأسرة. كان

التفاهم بين الرجلين كاملاً. لم يترك صغيرة ولا كبيرة.

اطمأنت سناء تماماً إلى أنّ زوجها لن يغرّم ملكياً واحداً

وأنّ حلمها يتحقّق بكلّ أبعاده. وتصدّى محمد فوزي

لموجة امتعاض زاحفة في أعماقه بأن جعل يؤكّد لنفسه

شرف العريس، ويقول لضميره القلق إنّ أحداً لم

يتهمه في شرفه إلّا الوغد زعتر. أجل لقد تصرف مع

سهام بطريقة قاسية. فما من شك أنّ الموافقة انتزعت

منها على رغبتها. غير أنّها ستحظى بالسعادة والجاه.

إنّهُ قرار حكيم وستثبت الأيام صدقه وإخلاصه.

وسارت الأمور في سبيلها المرسوم حتى خرجت سهام

ذات يوم إلى زيارة قريبة ولكنها لم تعد! طال الوقت

وغرق الانتظار في مستنقع الشكّ القاتل. تحرّى عنها

في جميع مظاهرها ولكن لم يسمع لها عن خبر... تجسّد

واقع لم يخطر على بال. تقوّض البنيان كلّ وتلاشت

الآمال خلفّة الرعب والأسى. جنت سناء كبا جنت

زهيرة أمّا محمد فقد ثار ثورة هائلة. قصد من توه

- ١٤ -

أول ما صنعه أن كلّف غيبراً بمراقبة زعتر. وانهمك

في العمل أكثر وأكثر لينسى هموم المطاردة. وقال

لنفسه: سأبقى شريفاً ولو لم يبق في الحومة سواي. ولم

يترك طويلاً للنسيان فقد زاره في النادي من جديد

زغلول رافت. في ذلك المساء رجع إلى بيته بالسكاكيني

متفكّراً ولكن يصاحبه أمل جديد. وبدأ وسط قبيلة

النساء مرّحاً. وقال:

- عريس له وزنه يطلب يد سهام.

فتسلّعت إليه الأبصار وقالت سناء بنغمة أمل

واضح:

- ما أكثر العرسان!

فقال يهدوء:

- هذه المرّة زغلول رافت...

فبادرته سهام:

- قلت إنّ له لصّاً أيضاً يا خالي...

- لا أنكر، ردت ما سمعته من لصّ عتّرف،

ولكن لا دليل على ذلك...

- لن يغيّر ذلك من الواقع.

فقالته سناء:

- فرق بين النهار والليل، إنّهُ رجل شريف برأي

الجميع...

وقال محمد فوزي:

- عرفته ثرياً ومن رجال البر...

فقالته سناء:

- رجل له وزنه حقاً، وهو الحلم المطلوب...

فقال محمد:

- إنّهُ في الأربعين، أرمل، ولا أولاد له.

- عزّ الطلب! لا خير في الشبان.

ونظر محمد فوزي إلى سهام وسألها:

- ما رأيك؟

ونظرت إليها أيضاً زهيرة كأنما تستوحيها الموافقة

ولكنّها لاذت بالصمت حتى ضاقت سناء بصمتها

فقالته:

رفعت حمدي ولكنّه وجده على حال يرثى لها، وصاح به غاضباً:
- إنك مسئول عما حدث، أنت... أنت المسئول الأول!

وفي الحال استغل الضابط خبرته في الخدمة وإمكاناته الغزيرة في البحث عن المخفية ولكن مرّت الأيام تباعاً دون نتيجة.

ورنّ التليفون في بيته ساعة الغداء عند اجتماع الأسرة فتناول محمد السماعة:

- آلو.
- أنا سهام يا خالي...
- سهام... أين أنت؟
- أكلّمك من الإسكندرية.
- ماذا تفعلين هناك؟
- إنّي أعمل... وبخير... اطمئنا... أريد ماما أن تلتحق بي...
- أعطني عنوانك أريد أن أقابلك...
- ممكن أحضر بنفسي.
- وماذا يؤخرُك؟
- عدني أن تلقاني بهدوء واحترام.
- لك هذا يا سهام.
- سأحضر غداً.
- احضري الليلة أرجوك.
- ليكن... إلى اللقاء.

أقبلت عليهم في ثياب كأنها قد نضجت في أيام غيابها أعواماً. تلقّتها أمها باكية. تساءلت سناء:

- ماذا فعلت بنا يا سهام؟
- وقال محمد بهدوء:
- آخر ما كان يُتوقّع منك...
- فقالت باسمّة:
- الدفاع عن النفس حقّ مشروع.
- ليس بهذه الوسيلة.
- الأفضل أن تسمعوا حكايتي...
- صممت ملياً لتجميع شتات أفكارها ثم راحت تقول:

- بلغ منّي اليأس مداه، صممت على التحدي والانتقام، قلت إنهم يريدون أن يزوّجوني من لصر مغطى آخر. سأزوّج من اللص المكشوف. وذهبت إلى محمد زغلول أو زعتر النوري.
صاح محمد في جنون:
- كلّاً.

- هو ما حصل، كنت يائسة عمياء، رأيت في كشك امرأة جميلة فلوّحت له من بعيد فجاءني وهو لا يصدّق عينيه، فقلت له أريد أن أحوّلك حديثاً هاماً. أخذني في سيارته إلى مدينة المقطم. في مكان شبه خال يطلّ على القاهرة، كان من العسير جداً أن أبداً ولكن كان لا بدّ أن أبداً، سأله ألا زلت تريدني؟ أجاب ذاهلاً بالإيجاب. فقلت له إنّي موافقة. سألتني هل أفضيت برغبتك إلى محمد بك أو والدتك؟ أجبت بالنفي. سألتني ماذا دفعك إلى المجيء إليّ؟ فقلت له إنّي لا أريد استجواباً وإنّي مستعنة وكفى، قال إنّي رجل لا يمتني شيء، لا يمتني خالك نفسه... أستطيع أن أفعل ما يحلو لي... ولكن لا بدّ أن أعرف ما حلك على المجيء... قلت لا جواب عندي... واتركني إذا شئت. قال إنّي أعرف أنّ الرغد زغلول خطبك... هذه هي المسألة... ما قولك؟ قلت إنّي أرفض الاستجواب. قال يبدو أنّك لا توافقين عليه... ربّما لسته وسوء سمعته... إنّ ما جاء بك إليّ هو الرغبة في الانتقام أو الرغبة في الانتحار، فلم أحر جواباً ولمت عينا، قال إنك عنيده مثل جلجلة... إنّي أحبّ هذا... ولكنّي لا أعرف العبودية في الحب. قلت فلنرجع. قال: أرفض أن أجعل من نفسي أداة انتقام في يدك، قلت إذن فلنرجع، قال هذا يعني أن أسلمك للوغد زغلول رأفت... كلّاً... لقد وقعت في شبكة من المنافقين واللصوص ومن الشهامة إيقاؤك. قلت ولكن كيف، قال خالك يحسبني شيئاً قلزاً... كلّاً... أنا لم أحن زميلاً في حياتي... حتّى جلجلة فإنّي مرتبط بها رغم شعبي منها... وقد جعلت عصابة من النشالين عصابة من الأعيان... معجزة تحتاج ثورة كاملة... وإنّي أرفض أن يستعملني أحد أداة انتقام... ولكنّي

سأنقذك... خالك رجل فقير لأنه شريف... لذلك
يهمه أن يتخلص منك على خير... لذلك وافق على
تسليمك للص قانوني... اسمعيني جيدًا... أنت
متعلمة... سأحققك بعمل يحفظك من النافقين
واللصوص...

ساد صمت تحلى فيه صوت الأنفاس المترددة...
ثم تساءلت أمها:

- أي عمل؟

- موظفة في كشك يملكه في الإسكندرية بأجر
بسيط ونسبة في الأرباح...

- أهو يكفيك يا بني؟

- فوق الكفاية يا ماما... لا بد أن تأتي معي...
ستجدين حياة معقولة جدًا...

وقالت سناء:

- إنه رجل مذهل.

استمر الحديث بعد ذلك ولكنه - محمد - لم يتابعه.
غرق في أفكاره بعمق وحزن وذحول. أي هزيمة مني
بها؟ إنه يتلاشى من الوجود ويحسن به أن يتوارى عن
العين. وغادر الشقة صامتًا. ولما اقترب من ضجيج
السوق أثارت الأصوات في صدره شجنًا ثقیلاً. ولحبه
زعر فهرع إليه متهللاً. تصافحا. وقفا يترامقان في
صمت طال حتى ضاق به محمد فتمتم:

- شكرًا لك يا زعر.

فقال الرجل ضاحكًا:

- محمد زغلول من فضلك.

فقال محمد فوزي بهدوء ويقين:

- زعر النوري، اسم طيب لرجل طيب! ماذا
يجعلك منه؟

السَّمَاءُ السَّابِعَةُ

- ١ -

بدلك، ولهذا حذاؤه. عانوس يحثهم على العمل، لا يراه البتة فيما يبدو، يظن أن الجسم المطروح يحوي بالكامل صديقه رءوف، لا يفتن إلى الكائن الذي يراقبه بلا انفعال. أدرك أنه غير مرئي مثل جسده المطروح. هل انقسم إلى اثنين؟ هل غادر الحياة؟ هل قُتل وعانى الموت؟ قتلتني يا عانوس؟ ألم تقض معاً سهرة ممتعة؟ متى شرعت في قتلي؟ كيف نفذته؟ وأين كان رجال أبيك الذين يحفرون قبوري؟ هانت صداقتي عليك لتستأثر برشيده؟ ألم تقل لي بأنك ستعتبرها شقيقة لك من الآن فصاعداً؟! ها هم الرجال يحملون جثتي ويرمون بها في الحفرة. ها هم يهيلون عليها التراب ويسوّون سطح الأرض. عاد وجه الأرض إلى صورته المألوفة وغاب رءوف عبد ربّه كأن لم يكن. ولكنني موجود يا عانوس. أحسنت صنعاً بدفن أداة الجريمة الصلبة. زال كل أثر. لماذا أنت متجهّم هكذا؟ أين نظرة عينيك الساخرة؟ اعترف لك - ولو أنك لا تسمعي - إنني طالما أحببتها. أنظن أن علاقتنا انقطعت وانتهت؟ الصداقة أقوى مما تظن. حتى الموت يعجز عن محققها. كذلك الحب. رشيده لي أنا وليس لك ولكنك متهور وسئى التربية. نشأت في محيط أبيك المعلم قذري الجزّار. عتكر اللحوم، ناهب الفقراء والمساكين، راشي الرجال وشاري النعم، فلقنت أن تطمع فيما ليس لك وأن تناله بقوة الجريمة. ماذا أنت فاعل الآن؟ لم يكن يطيب لك الجلوس في المقهى بدوني، ولا المذاكرة، ولا الذهاب والإياب من الجامعة، أكبر صديقين في الحارة رغم الفارق اللانهائي

سحابة معتمة تقتحم الوجود وتنغمس في الفضاء. كل شيء يهوج بحضور كوني غريب، لا شبيه له من قبل، يحلل الكائنات إلى عناصرها الأولى، ينذر بالعدم أو بخلق جديد. رغم ذلك ما زال يملك وعياً بما يحدث أو أنه يعيش اللحظات الأخيرة من الوعي. سيطر عليه شعور فائق الإلهام أنه يشهد ما لم يشهد من قبل ولكنه ما زال رءوف عبد ربّه. رءوف عبد ربّه بلا خوف ولا وساوس ولا مبالاة. يقف خارج أسوار البوابة التاريخية، في الخلاء، في الظلام، بلا وزن البتة. هو والصديق عانوس قذري راجعان من سهرة الليل، أين أنت يا عانوس؟ لا يسمع صوتاً، لا يحس بمس الأرض، وثمة شعور عجيب بانعدام الوزن، والغوص في السحابة المعتمة المفتحة. وعندما ينادي صديقه لا يندّ عنه صوت، إنه موجود وغير موجود. وهو حائر ولكنه غير خائف. وقلبه يتوقّع إجابة قريبة وصريحة. وترقّ السحابة وتمضي في الثلاثي. ويقف التمشّج ويختفي. عند ذاك تتضح ظلمة الليل المشعشة بإشعاعات النجوم. أخيراً تترامى يا عانوس. ولكن ماذا تفعل؟ ثمة أناس يحفرون في الأرض حفرة بهمة ونشاط. وثمة شاب مطروح على ظهره ينزف الدم من رأسه. إنه يرى ذلك بشيء من الوضوح أكثر مما تسمح أضواء النجوم. يا للعجب! ما الشاب المطروح إلا، رءوف عبد ربّه نفسه. إنه أنا دون غيري. وهو منفصل عنه تماماً، يراه من بعد قريب. ليس شبيهاً به ولا توأم له، إنه جسمه، وهذه

في المال والجاه والسطوة. فإن نسييتي أنت فما أنا بناسيك. واعلم بأنني لا أحمل نحوك رغبة في الانتقام أو حتى الإيذاء، لقد دقت جميع هذه العواطف والانفعالات في الحفرة مع جثتي، حتى العذاب الذي تعانيه حارتنا من ظلم أبيك وأمثاله لا ينعكس الآن في صدري غضبًا وحننًا وحقًا وثورة، ولكنه صورة شائقة مرفوضة بقوة الحب، ويشكل رغبة سامية مبرأة من الأوشاب لتغييرها تغييرًا كليًا. إني أرثي لك يا عانوس. لم أرك في هذه الصورة القبيحة من قبل. إنك هيكل عظمي تسكنه الخفافيش. الدم المسفوك يلمّخ وجهك وجبينك. عينك تقدحان شرًا وتتدلى من أذنك حيتان. رجال أبيك يسرون خلفك على حوافر حمير وبرروس غربان يرسفون في أغلال مغروسة بالشوك. إنه ليحزني أن أكون السبب المباشر لتشويه صفحتكم لذاك يغشاني الأسى وتفتر في أشواق البهجة...!

٢ -

من خلال تهدة وجد نفسه في مدينة جديدة. نضيء بلا شمس مشرقة. مسقوفة بالسحب البيضاء. أرضها تنضج بالخضرة على هيئة أزهار وفراخ، تنخللها على مدى لانهائي أكواخ بيضاء كالورود، وثمة جموع تتلاقى وتفرق في حقّة الطير. وجد نفسه في بقعة خالية. عان غربة الوافد الجديد. وعلى حين فجأة تجلّى أمامه رجل يتدثر بسحابة بيضاء. ابتسم إليه وقال:

- أهلاً بك يا رءوف في السماء الأولى!

فهتف رءوف بفرحة متألقة:

- هي الفردوس؟

- قلت السماء الأولى لا الفردوس...

- إذن فأين الفردوس؟

- بينك وبينها طريق طويل يقطعه سعيد الحظ في مئات الألوف من السنين الضوئية!

فندّ عن رءوف صوت كالأنين فقال الرجل:

- دعني أقدم لك نفسي أولاً، محدّثك أبو الذي

كان يومًا كاهن طيبة ذات المائة باب...

- تشرّفنا يا سيدي، من حسن الحظ أنّي مصري مثلك...

- لا أهمية لذلك، لقد فقدت هذه الجنسية منذ آلاف السنين، وإني الآن موفد كمحامٍ للدفاع عن القادمين الجدد...

- ليس ورائي تهمة ولكنني شهيد...

- صبراً، دعني أحدثك عن موطنك الجديد، هذه السماء تستقبل الوافدين الجدد، فيها يحاكمون وأتولى أنا الدفاع عنهم، الأحكام تتراوح بين البراءة والإعدام، في حال البراءة يقضي البريء عامًا واحدًا هنا يتأهل فيه روحياً للصعود إلى السماء الثانية... فقاطعه رءوف متسائلاً:

- لكن ما معنى الإعدام؟

- معناه أن يقضى عليه بأن يولد من جديد في الأرض ليبارس الحياة مرّة أخرى لعله يلقى قدرًا أكثر من النجاح، أمّا ما بين البراءة والإعدام فيُقضى على المتهم عادة بأن يعمل مرشدًا روحياً لشخص أو أكثر في الأرض، ويكون صعوده إلى السماء الثانية رهناً بتوقيفه أو تمكّد مدة تجربته وهكذا...

فقال رءوف باطمئنان:

- على أيّ حال فلنّني واثق من البراءة فقد عشت طيبًا ومِتَ شهيدًا... فابتسم أبو وقال:

- لا تتعجّل، ولنبدأ الحديث في قضيتك... أخبرني بهويتك؟

- رءوف عبد ربّه، السنّ ثمانية عشر عامًا، طالب تاريخ بالجامعة، يتيم الأب، أمّي أرملة تعيش على منحة خيرية من الأوقاف...

- لماذا أنت راضٍ عن نفسك هكذا يا رءوف؟

- رغم فقري الشديد فلنّني طالب مجتهد يحب العلم ولا يكفّ عن النهل منه...

- جميل هذا من ناحية المبدأ، ولكنك كنت تتلقّى كثيرًا وتفكر قليلًا...

- التفكير يُكتسب بالعمر والمران، وعلى أيّ حال لا يحدّ ذلك تهمة؟

- هنا يُحاسب الإنسان على كلّ شيء، لاحظ مثلاً

- هيهات أن يظفر أحد بالبراءة في ساحة هذه المحكمة...
 - صدقت، قلّة نادرة أثّرت واجبها الكامل نحو الأرض...
 - أعطني مثالاً أو مثالين...
 - خالد بن الوليد وغاندي...
 - إنهما نقيضان!
 - للمحكمة تصوّر آخر، والعبرة بالواجب نفسه...
 - الآن لم يعد لي أمل...
 - لا تأس، ولا تستهن بخبرتي الطويلة، سأفعل المستحيل لإنقاذك من الإعدام!
 - ماذا يمكن أن يقال؟
 - أقول إنك بدأت بداية لا بأس بها في ظروف بالغة المشقّة، وإنه كان يرجى منك خير لو امتدّ بك العمر، وإنك كنت محباً صادقاً وباراً بوالدتك...
 - إذن فغاية ما أطمع إليه أن يقضى عليّ بأن أكون مرشداً روحياً؟
 - وهي فرصة لاستدراك ما فاتك، في عالمنا هذا لا يصعد الإنسان إلّا بفضل توقيفه في الأرض...
 - أيها المحامي الجليل لم لا ترسلون مرشداً للمعلّم قلدي الجزّار؟
 - ما من أحد إلّا وله مرشده...
 - فتهتف رءوف بذهول:
 - وكيف يستمرّ الشرّ إذن؟
 - لا تنس أنّ الإنسان حرّ، كلّ شيء يتوقّف في النهاية على قوّة تأثير المرشد وحرّيّة الفرد...
 - لم يكن من الخير أن تُلقى هذه الحرّيّة؟
 - قضت المشيئة بالآل يُقبل في السموات إلّا الأحرار.

- كيف لا يُقبل في السماء وإنّ حارتنا الطاهر الشيخ عاشور؟ إنّه لا يمارس الحرّيّة فكّل ما يقول أو يفعل من إملاء إلهامه الصادق؟
 - فابتسم أبو وقال:
 - ما هو إلّا صنيعه لقلدي الجزّار، يؤوّل الأحلام لمصلحته وينقل إليه همسات الضائّرات من البيوت التي

أنت كنت تبهر بالأفكار الجديدة...
 - للجديد سحره يا سيّد أبو...
 - أوّلاً لا تقل سيّدي، ثانياً نحن لا نحاسب على التفكير ولو كان خاطئاً، ولكننا ندين التسليم بأيّ فكرة ولو كانت صحيحة...
 - إنّها محاكمة قاسية، العدل في الأرض أرحم!
 - ننقل إلى العدل، كيف وجدت حارتك؟
 - بشعة... أكثرها فقراء متسرّلون... يسيطر عليها فتوّة يبتكر الغذاء... اشترى شيخ الحارة... يسرق ويقتل ويعيش مطمئناً فوق القانون...
 - إنّه وصف دقيق، ماذا كان موقفك؟
 - الرفض والتمرد والرغبة الصادقة في تغيير كلّ شيء...
 - تُشكر. ماذا فعلت لتحقيق ذلك؟
 - لم يكن بوسعي أن أفعل شيئاً!
 - وتريد أن تصعد إلى السماء الثانية؟
 - لم لا؟ كان عقلي وقلبي رافضين لما يجري...
 - ولسانك؟
 - لو نطق بحرف متمرد لكان جزاؤه القطع...
 - ولكن حتّى الكلام وحده لا يُرضي حكمتنا المقدّسة!
 - يا لها من محكمة! وهل كنت إلّا فرداً وحيداً؟
 - حارتك مكتظة بالتعساء...
 - واجبي الأوّل كان تحصيل العلم...
 - الأمانة لا تتجزّأ ولا عذر عن التخلّي عنها...
 - لم يكن من المحتمل أن يؤدّي ذلك إلى العنف؟
 - لا تهّمنا الصفات، ما ههنا هو الحقّ!
 - ألا يشفع لي أنّي قُتل في سبيل الحبّ؟
 - حتّى هذا لا يخلو من عنصر في غير صالحك.
 - فتساءل رءوف بدهشة:
 - أيّ عنصر هذا؟
 - إنك منحت عانوس ثقتك وهو صورة من أبيه الطاغية!
 - لم أتصوّر أنّي مذنب لهذا الحدّ؟
 - ثمة ظروف خفّفة ولكنّ مهمّتي في الدفاع عنك ليست يسيرة.

- ما هي إلا ريتا السفّاحة المشهورة فانظر كم تقدّمت!

فذهل رءوف وصمت على حين استقبال أبو أوّل الوافدين. قال الوافد:

- إني أبذل أقصى ما أستطيع.

فقال أبو:

- أعلم ذلك ولكن يلزمك مضاعفة الجهد فقد آن لك أن تصعدا

ولما اختفى الوافد قال رءوف:

- إني أعرفه جيّداً. اليس هو أختانوتن؟

- هو عينه، إنّه سيّئ الحظّ فطال مقامه هنا آلاف السنين...

- ولكنّه أوّل من بشر بالله الأحدا

- هذا حقّ ولكنّه فرض إله على الناس بالقوّة لا بالهداية والإنتفاع فيفسّر لأعدائه من بعده أن ينتزعوه من القلوب بالقوّة، ولولا صفاء سريرته لقضي عليه بالإعدام...

- ولمّ طال به المقام هذا الدهر؟

- لم يوقّف مع أحد ممّن نُدب لإرشادهم مثل فرعون موسى والحاكم بأمر الله وعباس الأوّل...

- وممّن رَجُلُه اليوم؟

- كميل شمعون!

وجاء الوافد الثاني، قدّم تقريره، تلقّى كلمات مشجّعة ثمّ اختفى. عند ذاك قال رءوف:

- إنّه الرئيس ويلسون!

- أجل.

- حسبته من القلّة السعيدة التي صعدت إلى السماء الثانية...

- أنت تشير بلا شكّ إلى مبادئه السامية ولكنك نسيت أنّه لم يستغلّ قوّة أميركا في تنفيذها، بل إنّه اعترف بالحماية على مصر.

- وممّن رَجُلُه؟

- الأستاذ توفيق الحكيم!

ولما اختفى الوافد الثالث قال رءوف:

- إنّه لينين بلا شكّ...

- نعم.

ترحب ببركته!

فصمت رءوف مغلوباً على أمره. غاب قليلاً في الخضرة اليانعة المزركشة بأكواخ الورد، استسلم للملاحة وعدوية الجوّ، ثمّ تنهّد قائلاً:

- ما أتعبس أن يُجبر الإنسان على هجر هذه الجنّة! فهتف به أبو:

- حذار من الرغبة الأثمة في الهروب من الواجب... فتساءل رءوف:

- متى أمثل في ساحة المحاكمة؟

فأجاب أبو:

- لقد تمّت المحاكمة!

فرنا إليه رءوف بدهشة فقال:

- تمّ الاستجواب ومرافعة الدفاع فيما جرى بيني وبينك، وصدر الحكم وهو يقضي بنبذك مرشداً روحياً، تهان!

- ٣ -

تقرّر استقبال رءوف عبد ربّه في السماء الأولى فترة قصيرة ليتطهّر من أيّ شائبة، وليؤمّل لمهمّته. وبغية تدريبه وتنقيفه أبقاه أبو إلى جانبه في الوقت الذي يستقبل فيه المرشدين عادة. وقال له رءوف:

- أودّ أن أرى أدولف هتلر، هل يجيء الآن؟

- لقد قضي عليه بالإعدام فولد في حارتكم من جديد وطلما رأيته!

- هتلر؟

- هو المعلمّ قدرّي الجزّار.

فصمت رءوف مليّاً من الدهشة ثمّ تساءل:

- إذن فمن يكون شيخ الحارة شاكِر الدرزي؟

- لورد بلفور!

- والشيخ عاشور الوليّ الكذاب؟

- إنّه خنفس خائن الثورة العراقيّة...

- أراهم لا يتغيّرون ولم يستفيدوا من إعادة التجربة...

- ليس الحال كذلك دائماً، أتدري من تكون أمك؟

- إنّها ملاك يا أبو!

- حسبت أنّ الإعدام كان نصيبه لإلحاده، ماذا قلت دفاعاً عنه؟

- قلت إنه من خلال ثروة فكرية غير الأسماء ولم يغيّر الجوهر، سُمي إله المادّة الأزليّة وأضفى عليها من صفات الله القدّم والخلق والسيطرة على مصير الكون، وسمّى الرسل بالعلماء، والملائكة بالعمال والشياطين بالرجوازيين، ووعد أيضاً بالجنة في تحديد أكثر لزمانها ومكانها، ونوّعت بقوة إيمانه وبلائه في خدمة الكادحين وروح تضحيته وتقشفه، وقلت أيضاً إنّ ما يهّم الله سبحانه هو ما يصيب الناس من خير أو شرٍّ. أمّا هو - جلّ جلاله - فمستغنى عن البشر، لن يزيده إيمانهم ولن ينقص من شأنه كفرهم به... هكذا خُفّف الحكم وعيّن مرشداً روحياً!

فتساءل رءوف مبهوراً:

- ومن رَجُلُه؟

- الأستاذ مصطفى محمود!

- وهل تُدب ستالين مرشداً أيضاً؟

- كلا، ستالين أعدم لقتله الملايين من الكادحين

بدلاً من أن يعلمهم ويدبّرهم!

- لعله يعيش اليوم في حارتنا؟

- كلا، إنه يعمل في أحد مناجم الهند...

باتتهاء استقبال لينين فرغ أبو من مقابلات

الساعة، استصحب رءوف لنزهة في السماء الأولى.

لدى تفكيرهما في النزهة انطلقا مباشرة، استجابة

لرغبة الداخلية، بلا حاجة إلى استعمال القدمين،

كطائرَيْن، ثملين بنشوة باطنية انعكاساً لمفاتيح الحركة

المناسبة في سرّ وعدوية. غاصا في جَوْفَيّ ذي أرضية

خضراء مزركشة وسماء مضيئة بآلئ السحاب

البيضاء. مرّاً بوجوه كثيرة غمّلت شقّ الأجناس

والألوان، منهمكين في الظهور والاختفاء ما بين السماء

الأولى والأرض. كلّ مستغرق في مهمّته الرفيعة.

يستهدفون للأرض وأهلها رثياً ونصراً، يأملون من

ورائها تكفيراً وتطهيراً لأنفسهم ليواصلوا صعودهم في

مراقي الروح والإبداع والقرب من الحقيقة العظمى.

يعملون بإصرار، تدفعهم الأشواق الحارّة اللانهاية إلى

الكمال والحقّ والخلود. قال رءوف:

- يخيّل لي أنّ العناء هنا لا يقلّ عن نظيره فوق الأرض؟

فأجاب أبو بأسماً:

- هما عناء واحد متّصل، غير أنّ الإنسان يمارسه

ها هنا بقلب أنقى وعقل أذكى وهدف أوضح...

- زدني وضوحاً يا أبو.

- أنتم تحملون في الأرض باليوم الذي تتحقّق فيه

المدينة الفاضلة المؤسّسة على حرّية الفرد وعدالة

المجتمع والتقدّم العلميّ والسيطرة الظافرة على قوى

الطبيعة، وفي سبيل ذلك تحاربون وتسلمون وتحدّون

القوى المضادة المسّاة في اصطلاحاتكم بالرجعية، هذا

جميل وطيب ولكنّها ليست الهدف كما تتصوّرون، إنّ

هو إلّا الخطوة الأولى السديدة في طريق طويل من

الرقىّ الروحيّ يبدو حتّى للذين يقيمون في سبائنا

الأولى بلا نهاية...

فاستغرق رءوف في التأمل حتّى سأله أبو:

- فيم تفكّر يا رءوف؟

فقال بأسى:

- أفكّر في مدى بشاعة الجريمة اليومية التي تواصل

اقترافها القوّة المضادة!

- وهي جريمة يشارك فيها الطيّبون بالسلبية والقعود

عن الجهاد خوفاً من الموت وما الموت إلّا ما نرى.

- أيّ حياة؟!

- إنّها معركة بلا زيادة ولا نقصان!

وتفكّر رءوف طويلاً حتّى أزهقه التفكير فعاد إلى

تشوّفه السابق لمعرفة مصائر الشخصوس الذين يهتمّ بهم

فسأل أبو:

- أودّ أن أعرف مصائر زعماء وطني؟

- انتظر حتّى تراهم أو سلّ ما بدا لك.

- ماذا عن السيّد عمر مكرم؟

- إنّهُ اليوم مرشد أنيس منصور.

- وأحد عرابي؟

- إنّهُ مرشد لويس عوض.

- ومصطفى كامل؟

- مرشد فتحي رضوان.

- ومحمّد فريد؟

شبه بينه وبين هتلر في ملامحه، لكنَّ جسمه ترهل من
مَصَّ دماء البشر. ها هو لورد بلفور، أو شاكر
الدرزي شيخ الحارة، الذي أهدر القانون تحت قدمي
الجزائر، وها هو الولي الماكر عاشور الذي يستلهم
الغيث لتأييد سيده ومولاه. لك الله يا حارثنا. كيف
ومتي تمرقين من هذه الأغلال المحكمة؟ ويبدو أنَّ
اختفاء - رعوف - قد حرَّك ألسنة الحارة وقلوبها.

النسوة يحطن بأمة الباكية:

- هذا ثالث يوم يمرُّ على اختفائه...

- بلغي القسم يا أم رعوف...

- بلغت عم شاكر الدرزي شيخ الحارة...

ونجى صوت شيخ الحارة متهكِّمًا:

- ألعيب شباب هذه الأيام!

فهتفت الأم الباكية:

- ابني لم يغيب ليلة واحدة بعيدًا عن بيته...

وها هي رشيدة راجعة من معهدھا. جمال وجهھا

الأسمر مكتسب بالكآبة. أمھا تقول لها:

- اعتني بنفسك فالصحة لا تعوض!

فتقول وهي تحتق بالبكاء:

- إني أعرف، قلبي لا يكذبني...

رنا إليها رعوف بإشفاق. صدقت يا رشيدة. قلب

المحب جهاز استقبال دقيق. ولكننا سنلتقي ذات يوم.

الحب خالد يا رشيدة وليس كما يتوهم البعض. وها

هو القاتل يخطر راجعًا من الجامعة. تمسك بيد كتابا

وتقتل بالأخرى. إني لا أغيب عن ذهنك ولكنك لا

تدري بأنني انتدبت مرشدًا لك. هل تطيعني اليوم أو

تمضي في غيِّك؟ كل شيء يدعو للطمأنينة يا عانوس.

أبوك يلقي ظله على الجميع. الحكومة والولاية ملك

يمينه. تحت أمرك أيُّ شهادة زور تحتاج إليها، ولكنَّ

صوري لا تبرح غيِّك. لم لا، ألسنا صديقين ضرب

بموثقتها المثل؟ ثم إنَّك ما زلت شاذبًا في الإجماع. لم

تتمرس به كوالدك، ومن خلال ثقافتك تعلمت أو على

الأقل سمعت عن أشياء جميلة. أنعلم بأنك ستظفر

بقلب رشيدة نتيجة لتلك الجريمة؟ ما هذا الذي قتلته

ودفنته في الخلاء؟ لا يعني أمره بأكثر مما يعنيك. إني

رفيقك الأبدى كما سترى. اعترف يا عانوس، اعترف

- مرشد عثمان أحد عثمان.

- وسعد زغلول؟

- هو وحده الذي صعد إلى السماء الثانية!

- بسبب تضحياته؟

فابتسم أبو قائلًا:

- بسبب انتصاره على ضعفه البشري!

- زدني إيضاحًا يا أبو.

- لعلك تعلم بأنَّه عانى هفوات الطموح قبل الثورة

ثم سبها عقب الثورة إلى رؤية رفيعة من الشجاعة

والفداء فاستحقَّ البراءة...

- ومصطفى النحاس؟

- كان مرشد أنور السادات وعقب ٦ أكتوبر وعودة

الحرية صعد إلى السماء الثانية...

- وجمال عبد الناصر؟

- إنه اليوم مرشد القذافي...

في نهاية التدريب القصيرة قال أبو لرعوف:

- كنَّ مرشدًا روحياً لقاتلك عانوس قدرتي

الجزائر...

فامتثل رعوف الأمر بحماس وعزيمة فقال أبو:

- اعتمد في الإيحاء على فكرك وإنَّه لقوة عظيمة إذا

أحسنست استخدامها، واستعين عند الضرورة

بالأحلام، والله معك.

- ٤ -

هبط رعوف عبد ربّه إلى الحارة. يرى ويسمع على

السرائر على حين لا يرى له طيف ولا يسمع له

صوت. ينتقل من مكان إلى مكان كالنسمة المنسابة،

في حارته المحبوبة بصورتها المتكاملة الثابتة، وأناسها

المهمكين في شئون الحياة، إنَّه يملك كافة ذكرياته،

وضمناها آماله وآلامه السابقة، ويتمتع بصفاء ذهن مثل

الضياء الساطع. عشرات وعشرات من الكادحين

والكادحات يعملون بأعين خافية وسواعد مقتولة.

الضحكات تطفو فوق الشتائم كالزبد المتألق الممزوج

بالحموضة. ها هو المعلم قدرتي الجزائر في كالتة، لا

بجريتك، اعترف والحق بي فسيكون لك دور أفضل.
 ها هي أمي التعمسة تعترض سبيلك:
 - يا سي عانوس... ليس عندك خبر عن صديقك؟
 - أبداً والله...
 - قال وهو يودّعي إنّه ذاهب إليك...
 - تقابلنا دقائق ثمّ أخبرني أنّه ذاهب إلى مشوار هام
 وأننا سنلتقي مساء اليوم في القهوة...
 - ولكنّه لم يرجع...
 - ألم أذكّر سائلاً عنه؟
 - حصل يا ابني ولكنّي أكاد أجنّ...
 - وإني مثلك في القلق...
 صدقت يا عانوس. إني أرى القلق في روحك مثل
 النمش في الوجه. ولكنك قاسٍ وخبيث، إنك من
 القوى المضادة يا عانوس ألا تدرك خطورة ذلك؟ إننا
 نشكو طول الطريق الأبيض فما بالك وأنت تنحدر في
 الطريق الأسود؟! إني ملازمك. إذا لم تتلّوَق هذه
 الدجاجة المحمّرة فالذنب ذنبك، إذا لم تستطع أن
 تركز ذهنك في كتابك فالذنب أيضاً ذنبك. لن أتحلّى
 عنك فلا تبدّد تعبي هباء، واسعد طويلاً فلن يدركك
 النوم قبل الفجر.
 وكما صعد رعوف إلى السماء الأولى وجد أبو منهنّما
 في حديث مع أختاتون، وكان أختاتون يقول:
 - كلّما قلت له يمينك أخذ يساره!
 فقال له أبو:
 - استعمل قواك كما يجب.
 - ينقصنا استغلال القوّة المادّيّة...
 فهدف أبو:
 - ألا ترغب في الصعود؟ المسألة أنّك لم تعتد
 المناقشة والإقناع ولكنك ألفت إصدار الأوامر...
 والتفت أبو إلى رعوف وتساءل:
 - كيف الحال عندك؟
 - بداية حسنة.
 - عظيم!
 - ولكنّي أتساءل اليس لكلّ فرد من العامّة مرشده؟
 - طبعا.

- إذن لماذا هم مستسلمون؟
 - يا لك من مخطئ، إنك أحد أبناء عصر
 الثورات!
 في تلك اللحظة هبط عصفور أخضر في حجم
 نقّاحة حتّى حطّ على منكب أبو. قرّب منقاره الورديّ
 من أذن أبو فبدأ هذا منصّتا، ثمّ طار مدوّماً في الفضاء
 حتّى توارى خلف السحابّ الأبيض. ورأى أبو نظرة
 التشوّف في عيني رعوف فقال:
 - إنّه رسول السماء الثانية جاءني ببراءة الصعود
 للمدعوّ شعبان المنوفي.
 - ومن شعبان المنوفي؟
 - جنديّ مصريّ استشهد في المورة على عهد عمّد
 عليّ، وهو مرشد لمهرّب نقود يدعى مروان الأحدي
 فنجح أخيراً في حله على الانتحار...
 وجاء شعبان المنوفي مشمولاً بثوبه السحابيّ، فقال
 له أبو:
 - ستصعد مجلّلاً بالبركات إلى السماء الثانية!
 وهرع إلينا جميع المرشدين كاللحم الأبيض حتّى
 ازدحم بهم المكان الأخضر، وقف شعبان بينهم متهلّ
 الوجه. وعزفت موسيقى بلحن سهاويّ، وقال أبو:
 - اصعد يا وردة المدينة الخضراء واصل جهادك
 القدسيّ...
 فقال شعبان المنوفي بصوت عذب:
 - طوبى لمن يقدّم خدمة لأرض العناء...
 ومضى يصعد بخفّة الشذا الرشيّق والموسيقى تعزف
 لحن الوداع البهيج.
 - ٥ -
 ها هو عانوس قدرّي الجزّار يقف أمام ضابط
 المباحث. الضابط يسأله:
 - متى رأيت رعوف عبد ربّه آخر مرّة؟
 - عصر اليوم الذي اختفى فيه، زارني في البيت،
 سرعان ما غادرني لمشوار هامّ واعداً بمقابلتي مساءً في
 القهوة...
 - هل أخبر شيئاً عن مشواره؟
 - كلّاً...

الا تزال صورة رشيدة ترسم في مخيلتك؟ هذا هو الجنون عنه. ثم إنك تدرك أن التحريات ستجري عنك مثل الطوفان. شيخ الحارة يقرر ذلك أيضًا. الغيب ينذر بمفاجآت مجهولة. إنك تفكر في ذلك كله وتفكر أيضًا في رشيدة يا أحمق! لذلك قال رءوف لأبو:

- الخوف من الموت أكبر لعنة سلطت على البشر.
فتساءل أبو ياسيًا:

- ألم يكن ذلك خليفًا بأن يمنعه من ارتكاب جريمته؟

ولزم رءوف الصمت فقال أبو:

- لقد انتدبت مرشدًا لا فيلسوفًا فتذكر ذلك...

- ٦ -

إنك تتساءل يا عانوس لم يستدعيك الضابط ثانية، حسن، الأمور لا تنتهي بالبساطة التي يتصورها أبوك. ها هو الضابط يسأل:

- ماذا تعرف عن حياة رءوف الشخصية؟
- لا شيء فيها يستحق الذكر.
- حقًا؟ وماذا عن حبه لرشيدة الطالبة بمعهد الفنون الطرزية؟

- كل شاب لا يخلو من علاقة كهذه!
- ألك أنت مثلًا علاقة مثلها؟
- هذه شئون خاصة ولا شأن لها بالتحقيق!
- انتظن ذلك؟... حتى إذا كنت تحب الفتاة نفسها؟

- المسألة تحتاج لإيضاح...
- طيب! ما هو؟
- كاشفته مرةً بأنّي أرغب في خطبة رشيدة

فصارحني بأنّها متحابان وفي الحال اعتذرت واعتبرت الأمر منتهيًا!

- ولكن الحب لا ينتهي بكلمة...
- كانت مجرد عاطفة عابرة... لا أدري ماذا تقصد؟

- إليّ أجمع معلومات، وأتساءل ترى ألم تتغير عواطفك نحو صديقك ولو قليلًا؟

- ألم تسأله عنه؟
- كلاً... حسبته أمر يتعلّق بالأسرة...
- رآكها البعض وأنّا تسيران معًا في الحارة عقب الزيارة؟

لا تضطرب. الأفضل أن تعترف. فرصتك الذهبية لو تعلم!

- أوصلته حتى خارج البوابة...
- إذن ذهب إلى الحلاء؟

هذه فلتة لسان يا عانوس. ما أكثر الفلتات! لن ينجيك إلا الصدق.

- نعم.
- ماذا فعلت بعد ذلك؟
- قصدت القهوة لانتظره...
- حتى متى بقيت فيها؟
- حتى قبيل منتصف الليل ثم رجعت إلى بيتي.
- تستطيع أن تثبت ذلك؟
- كان يجلس بالقرب مني طوال الوقت عمّ شاعر الدروزي شيخ الحارة... وفي الصباح الباكر ذهبت إلى مسكنه وسألت والدته عنه فأخبرتني بأنّه لم يعد!
- ماذا فعلت؟
- سألت عنه جميع الأصدقاء والمعارف في الحارة...

- ألك تصوّر خاصّ عن اختفائه الطويل؟
- كلاً، إنّه شيء عسير حقًا...

ها أنت تنصرف من القسم يا عانوس. إنك تستعيد كل كلمة قيلت. تدم على ذكر البوابة. تتساءل عن شهد مسيركما معًا. كأنك تفكر في مزيد من الشر. وتعيد على مسامع أبيك ما جرى من حوار. إنّه مطمئن جدًا. في جيبه تستقرّ النقود والقانون والشهود. جرم محترف. أنصحك للمرة الثانية أن تواجه جرميتك بشجاعة وتصفي حسابك. ثم ما هذا؟

- كلاً... عاطفتي لرشيده كانت عابرة أما
صداقتنا فكانت صداقة العمر!

- تقول كانت؟... هل انتهت؟

فقال عانوس بضيق:

- أقصد أنها صداقة العمر.

تساءل ترى هل جرى تحقيق مع رشيدة؟... ويمّ
اعترفت؟ حسن إني أقول لك إنّ التحقيق جرى، وإنّما
اعترفت بمحاولاتك في انتزاعها من قلب صديقك، كما
اعترفت بسطوة أهلك وخوفها على نفسها وعلى أمها.
أؤكد لك أنّ الأمور تمضي في غير صالحك.

فضحك الضابط وقال:

- تتكلم كما لو كنت يشت من رجوع صديقك!

- إني واثق من رجوعه، بهذا يجثني قلبي...

- قلب المؤمن دليله، وإني لأرجو ذلك أيضاً!

تخرج هذه المرة من القسم وأنت أشد اضطراباً من
المرة الأولى. أظنك شعرت تماماً بأن الضابط الماكر
يشك فيك يا عانوس. لا تتصور أنّ أبك قادر على كلّ
شيء. هتار نفسه ألم يهزم ويتنحر؟!

- ٧ -

الضابط يستدعيك للمرة الثالثة يا عانوس.
أعصابك بدأت تتمزق. أبوك يرمق شاكر الدوزي
بغضب ولكن ماذا بوسعهم أن يفعل؟! قف أمام
معدّبك الضابط واسمع:

- يا عانوس، تلقينا رسالة من مجهول يتهمك بقتل
صديقك رعوف!

وهتف بغضب مفتعل:

- تهمة حقيرة... ليكشف عن وجهه...

- صبرك، نحن نقدر الأمور بميزان دقيق، أنت
وصاحبك ألم تكونا تذهبا كثيراً خارج البوابة للسهر؟
- بل...

- أين كنتما تقضيان الوقت في ذلك الخلاه؟

- في مقهى الشرفا فوق الهضبة...

- هذا ما قدرته، وقد قررت أن أجري مواجهة
بينك وبين رجال المقهى!

انتظر ولا تضطرب. إنّك عنيد، هذه هي الحقيقة.
لا تريد أن تستجيب لمناجاتي. ثق في أنني أعمل
لصالحك يا تميم...

ومّت المواجهة فشهد صاحب المقهى وصيّه أنّها لم
يريا عانوس منذ أكثر من شهر. لم يتجمل الاقتناع
الكامل على وجه الضابط. ورمى عانوس بنظرة صارمة
وتتم:

- تفضل بالانصراف!

تفادر القسم وعلى شفتك ابتسامة النصر. لك الحق
في ذلك. أباك أحكم خطوط الدفاع من حولك ولكن
هل ينتهي الأمر عند هذا الحد؟ قلبك ينقبض وأنت
تمرّ أمام مسكن ضحيتك. تساورك المواجهات مرّة
أخرى. من المجهول الذي أرسل الخطاب؟ وهل
يكون آخر خطاب من نوعه؟ إنّك قاتل يا عانوس
وضميرك لا يريد أن يستيقظ. لأزورك الليلة في
النام. ما دمت لا تستجيب إلى ندائي الخفيّ فستجد
جثتي مطروحة إلى جانبك فوق الفراش. ها هو
شخيرك يعلو تحت وطأة الكابوس. وتستيقظ فزعاً
بقلب ثقل. وتنزل من الفراش لتبلى ريقك بجرعة
ماء. ولكنك ستجد الجثة حال استغراقك في النوم،
ويتكرّر الحلم ليلة بعد أخرى. تدعو أمك الشيخ
عاشور لفحص حالك فيهلك حجاباً لتضعه فوق قلبك
ولكنّ الجثة لا تبرح منامك. وتسوء حالك فتذهب
سرّاً إلى الطبيب النفسي. تتردد عليه أسبوعاً بعد
أسبوع. يقول لك قولاً عجيباً. إنّك تتصور أنّ
صديقك قد قُتل، وإنّ جثته هي جثتك أنت للارتباط
العاطفي بينكما، عاطفة واحدة ربطت بينكما فجثته
هي البديل عن جثتك، ولكن لماذا تتصور أنّك أنت
القتيل؟ جثتك بدورها بديل عن جثة أخرى أو بديل
عن شخص آخر تود أن تقتله في أعماقك وهو أبوك،
وعليه فالحلم كلّ انعكاس لعقدة أوديب! ما معنى

هكذا؟ أنا ما زرتك في الحلم إلا تذكرك لجريعتك بغية
إيقاظ ضميرك ليكفر عن فعلك فما دخل عقدة
أوديب؟ إنك لا تعشق أمك ولا تؤذ قتل أبيك ولكنك
تعشق رشيدة وقتلتني أنا لترجيحي من طريقك!

وشكا رءوف أمره إلى أبو فقال أبو:

- الشكوى من التشخيص العلمي الناقص كثيرة،
حساسية من الإحباط تشخص كمرض ناشئ عن تناول
السيكولاطة، كآبة من فقدان الإيمان يعالج بسببها
العصب السمبثاوي، إمساك شديد بسبب الوضع
السياسي توصف له المليئات وهلم جرا!

- والعمل يا أبو؟

- هل أدركك اليأس؟

فبادره رءوف:

- كلاً...

- استثمر ما لديك من قوة!

عند ذاك خرجت عن صمتها قائلة:

- لم يُفقد ولكنه قُتل!

- ماذا؟!

- كثيرون يؤمنون بذلك؟!

- ولكنه لم يكن له عدو واحد؟!

فرمته بنظرة ازدراء ولأذت بالصمت.

إنها تتهمك يا عانوس بقتله. أكنت في شك من
ذلك؟ تستطيع أن تمحو الجريمة من صفحتك بيعت
نفسك والوقوف في وجه أبيك. لقد فات أوان الحب.

غادرت الترام قبله فأتبعها نظرة مليئة بالحقد
والرغبة. ودمعت غيخته أحلام طائشة مفعمة بالعنف
والشهوة...

- ٩ -

وقالت أم رشيدة لأم رءوف:

- الجميع يتكلمون عن ذلك الرجل العجيب الذي
يحضر الأرواح فلم لا تجربينه علماً بأنه لن يكلفك ملياً
واحداً؟

فرت إليها النكلى حائرة ثم تمتمت:

- وتذهين معي!

- لم؟... سأتصل بالمرحوم أبي رشيدة!

وقالت رشيدة وهي تتابع الحديث باهتمام:

- أناس محترمون كثيرون يؤمنون بتحضير
الأرواح...

وتواعدن على يوم في تكتم شديد، وقال رءوف لأبو
متهللاً:

- هي فرصتي لكشف الستار عن المجرم...

فقال أبو:

- أنت متئذٍ مرشداً له لا عليه!

- أنترك هذه الفرصة فقلت من أيدينا؟

- لست مرشد شرطة يا رءوف، إنك مرشد روحي

وهدفك أن تقذ عانوس لا أن تسلمه للجلاد...

- ولكنّه مثل الصخر لا تؤثر فيه نساتم

الحكمة...

- ٨ -

حُفظت قضية رءوف عبد ربّه لعدم الاهتمام إلى
أسباب اختفائه. ثلاثي الحادث رويداً رويداً من
الأذهان، لم تعد تذكره إلا أمّه ورشيدة. ومضى
عانوس يمارس حياته اليومية مستغرقاً العمل واللهو.
كان الماضي يطارده من حين إلى حين سواء في البقطة
أو في المنام ولكنه ألف مناوشاته وغالبها بالإرادة
والمخدر والنوم. وأمن جانب القانون ثامناً فراح يفكر
من جديد في رشيدة وإلا فما معنى إقدامه على أفظع
فعل في حياته؟ كان يتعمّد رؤيتها وأن يُريها نفسه كلّ
صبح وهما ذاهبان إلى معهديهما. ما زال وجهها
مكتسباً بكآبة الذكرى فهل لم تفقد الأمل بعد؟ وإلا
تفكر يوماً في مستقبلها كفتاة تنشد الحياة والسعادة
والإنجاب؟ وهل تطمح إلى من هو أصلح لها منه في
الحارة كلّها؟ لقد ضاعفت مغامرته الجنونية من تعلّقه
بها ورغبته الثابتة في الاستحواذ عليها. ومرة تصادف
جلسه لصقها في الترام فحيّاها ولكنها تجاهلته فقال:

- كان يجب أن تتبادل المساعدة...

فقطبت نافرة ولكنه واصل حديثه:

- فكلانا يعاني فقد عزيز مشترك!

- إنَّه اعتراف بالعجز...

فهتف رءوف:

- كلاً... لم أقط بعد... ولكن ماذا علي أن أفعل إذا استدعيت روعي؟

- أنت حرّ فلا تقيّد حرّيتك بالإلحاح في الاسترشاد...

وانعقدت جلسة التحضير وشهدتها أم رءوف وأم رشيدة ورشيدة. واستدعت روح رءوف فحلّ في ظلمة الحجر وقال لأمّه بصوت سمعه جميع الحاضرين:

- رءوف يميّك يا أمّي...

فشهقت المرأة لتوكّدها من موت ابنها وتساءلت:

- ماذا حدث لك يا رءوف؟...

فقال رءوف بلا تردّد:

- لا تخزني، أنا سعيد، لا يزعجني إلا حزنك،

تحياتي إلى رشيدة...

وسرعان ما غادر الحجر...

- ١٠ -

ورجعت أم رءوف وأم رشيدة ورشيدة وهنّ يتسألن:

- لمّ لم يبع بسرّ مقتله؟

فقال أم رءوف وهي تحفّف دمعها:

- ولكنّه انعدم في عزّ شبابه...

فقال رشيدة:

- لا تزعجيه بالحزن...

وقالت أم رشيدة:

- من يدري لعلّه مات في حادث...

- ولمّ لمّ يخبرنا بحقيقة موته؟

- إنّه سرّه على أيّ حال!

وأصبح شهود الجلسات هواية أم رءوف، وسلواها الوحيدة في الدنيا. وكانت تصحب أم رشيدة ورشيدة معها، وعندما جاءت الآيام الأخيرة السابقة لامتحان رشيدة تخلّفت عن الذهاب معها...

وفي ليلة من تلك الليالي وكانت بمفردها بالشقّة وهي تذاكر إذ اقتحم الحجر عليها عانوس قدرّي الجزّار. تسلّل من المنور ثمّ اقتحم الحجر. وهتف به

رءوف أن ارجع ولا تتقدّم خطوة واحدة، ولكنّه هجم على رشيدة وكنم الصوت في فيها براحته وهو يقول:

- ستجربين بعد ذلك وراثي يا عنيّدة...

وشرع بوحشية في اغتصابها وهي تقاوم بعنف يائس. وصرخ:

- سأغتصبك حيّة أو ميتة...

وتسلّلت يدها إلى المقصّ فوق الحوان وبقوة جنونية وهي مهتصرة تحت ثقله رشقته في جانب رقبته. شدّ عليها بقسوة ووحشية ثمّ تراخت قوّته فانطرح فوقها جسده بلا حراك وتدفّق الدم الحارّ على وجهها وصدرها الممزّق...

دفعته عنها فاستلقى فوق الكليم المتهرئ وجرت مترنحة نحو النافذة وهي تصرخ بأعلى صوت...

- ١١ -

هرع الناس إلى الشقّة فوجدوها كالمجنونة غصّبة بالدماء. رأوا جثّة عانوس فارتفع الصراخ. صاحت وهي تتكوّر على نفسها:

- أراد أن يفتصبني...

ولولا وصول الضابط وشيخ الحارة قبل أن يتناهى الخبر إلى المعلّم قدرّي الجزّار لفتك بها. وكان يزأر:

- ابني... وحيدتي... سأحرق الدنيا...

وأحاطت القوة برشيدة وصاح الضابط:

- الجميع يخرجون في الحال...

وصاح قدرّي موجّهاً عاصفته إلى رشيدة:

- سأشرب من دمك...

وانتشرت نيران الخبر الدامي في الحارة...

- ١٢ -

وقف عانوس يرنو إلى جثّته وهو في حيرة غاشية. تقدّم رءوف منه باسماً فنظر إليه الآخر وتتم:

- رءوف! ماذا جاء بك؟

فأجابه برقّة:

- جاء بي الذي جاء بك، هلّمّ معي بعيداً عن هذه الحجر...

فأشار إلى جثّته وقال:

- أيعني هذا أنني هلكت؟
 - أبوك ولا شك يريض وراء فسادك، هو الذي
 دُلِّلَك، هو الذي ملاك بالأنانية، هو الذي جرَّأك على
 كرامات العباد، هو الذي يُسَرِّ لك ارتكاب الجرائم
 كأنك تملك الدنيا بلا شريك...
 فقال عانوس منمتعشاً:
 - نطق بالحق!
 - ولُكَّتْك تحاكم باعتبارك ذا عقل وقلب وإرادة
 حرة!
 - قوَّة أبي خذرت قواي جميعاً!
 - السماء تعذِّك مشلولاً عن نفسك وعن العالم
 أجمع...
 - أليست مسئولية فوق طاقة البشر؟
 - ولُكَّتْك تحمِّلُها مقابل ظفرك بالحياة.
 - لقد وُلدت بغير إرادة مني.
 - بل أخذ عليك العهد وأنت في الرحم...
 - بالصدق والصراحة لا أذكر ذلك...
 - كان عليك أن تتذكَّره...
 - إنَّها محاكمة لا دفاع...
 - علينا أن نكشف عن الحقيقة!
 - لم أخل من خير فقد طلبت العلم كما أنني أحببت
 حباً صادقاً.
 - سعت إلى العلم كوسيلة إلى مركز مرموق، وكان
 حبك مجرد رغبة متعجرفة في امتلاك فتاة صديقك
 الفقير...
 - لم تكن تفارق خيالي لحظة واحدة...
 - لم تكن إلَّا كبرياء وشهوة...
 فقال عانوس متعلِّقاً بأيِّ خيط وهو يشير نحو
 رءوف:
 - مارست الصداقة الصافية...
 - ألم تقتلها بعد ذلك بوحشية؟
 - كان حزني قاسياً...
 - لا غبار على ذلك...
 - وحيي للقطط وحنوي عليها؟
 - هذا جميل أيضاً.
 وبعد صمت قليل عاد أبو يتساءل:

- وأترك هذه؟
 - هي نوبك القديم ولم يعد يصلح للاستعمال!
 - هل... هل...؟
 - أجل... لقد غادرت الدنيا يا عانوس...
 وصمت ملياً ثم قال مشيراً إلى رشيدة:
 - ولُكَّتْها بريئة...
 - أعرف ذلك، ولُكَّتْك لن تستطيع إسعافها...
 هلمَّ معي... فقال عانوس بعد تردّد:
 - آسف على ما اقترفته فيك!
 - لا أهمية للأسف...
 - إنِّي سعيد بلقائك...
 - وإنِّي سعيد بلقائك...
 - ١٣ -
 وسرعان ما أعطاه فكرة سريعة عن دنياه الجديدة.
 ولما جاء أبو قال رءوف:
 - أبو، محاميك يا عانوس...
 فقال أبو مخاطباً عانوس:
 - أهلاً بك يا عانوس في السماء الأولى...
 فتساءل عانوس بذهول:
 - كُتبت لي الجنة؟
 فابتسم أبو وقال:
 - صبرك، الطريق أطول ممَّا تتصوّر...
 ومضى أبو يزوده بالمعلومات الضرورية عن عالمه
 الجديد، والمحاكمة، ونوعية الأحكام المتوقعة. وتمثَّلت
 لعانوس أفعاله أشباحاً قبيحة مفزعة فتجهم وجهه
 وتجرَّع القنوط حتَّى الثألة، غير أنَّ أبو قال:
 - على أيِّ حال فإنَّ مهتني هي الدفاع عنك...
 - وهل لديك فرصة لذلك؟... هل يخفَّف من
 أثامي حرمانني من الحياة وأنا في عزِّ الشباب؟
 - لقد خسرتها بيد فتاة وهي تدفع عن شرفها
 اغتصابك، ثم تركتها متَّهمة بقتلك...
 - هذا صحيح، كم أتمنَّى أن أُنْذِب مرشداً روحياً
 لها!
 - كانت ناجحة كما كان مرشدها ناجحاً فليست
 هي في حاجة إليك...

- أبوه كان المشكلة، لو حَرَضته على أبيه لأصبحت أكبر الأهداف!

فلاذ رءوف بالصمت محزونًا فواصل الآخر حديثه:

- لم تحسن اختيار الهدف، غلبتك الأنانية وأنت لا

تدري، ولم يكن يسيرًا أن يعترف شابٌ أحق مدللٌ

لبُسخي بحياته، كان الأيسر أن يتمرد على وحشية

أبيه، ولو نجح في مهمته لانفضح أمر جرائم أبيه

متضمنة جريمة قتلك...

فقال رءوف مسليًا:

- أعلني بالحكم...

فقال أبو:

- يؤسفني يا رءوف أن أبلغك بأنه قُضي عليك

بالإعدام...

وسرعان ما تلاشى رءوف عبد ربه...

- ١٤ -

جرى تحقيق طويل مع رشيدة سليمان، قُدمت

للمحاكمة، اقتنعت المحكمة بأنها ارتكبت جريمتها

دفاعًا عن النفس فأصدرت حكمها بالبراءة. وجدت

ألمها أن من الخطر غير المأمون العواقب البقاء في الحارة

تحت رحمة المعلم قدرتي الجزار فهرت مع ابتها بليل

ولم يستدل لها على مكان.

ولما كان نثار الحياة المتدفق أبدًا يحرف زيد الأحزان

فقد تزوجت أم رءوف الوحيدة الفقيرة من شاعر

الدرزي شيخ الحارة عقب وفاة زوجته بنصف عام،

وأنجبت له طفلًا ذكرًا أسمته رءوف تخليدًا للذكرى

فقيدها. ولم يكن رءوف الجديد إلا روح عانوس بن

قدرتي الجزار قد لبست جسدًا جديدًا. كذلك أنجبت

إحدى زوجات قدرتي الجزار طفلًا ذكرًا أسماه الرجل

عانوس تحية للذكرى فقيده ولم يكن سوى روح رءوف

تقمصت جسدًا جديدًا.

- ١٥ -

نشأ رءوف (عانوس) في بيت شاعر الدرزي الحافل

بالإخوة والأخوات، في حياة ميسورة بفضل النقود التي

يرشوه بها قدرتي الجزار. ولكن شيخ الحارة لم يكن

- وماذا عن موقفك من جبروت أبيك...؟

- كنت ابنًا بائسًا!

- البر لم يكن مطلوبًا في حالك...

- طالما استفظعت بعض فعالة...

- وطلما أعجبت بأفعال أخرى لا تقل عن الأولى

في بشاعتها...

- لو مُد في عمري لتغير الأمر...

- إنك تحاكم على ما كان...

- أو أن أعطى فرصة أخرى.

فقال أبو بغموض:

- ربما تهيأ لك ذلك...

- متى أمثل أمام المحكمة؟

- لقد تمت المحاكمة يا عانوس ويؤسفني أن أبلغك

بأنه قُضي عليك بالإعدام...

في الحال تلاشى عانوس كنتفحة الشابورة. تحت

ضوء الشمس. ونظر رءوف إلى أبو متسائلًا:

- هل استمر مرشدًا له؟

- إنه لن يولد من جديد فوق الأرض قبل عام على

الأقل وقد ينتظر أكثر من ذلك...

- وما عسى أن يكون عملي الجديد؟

فقال أبو بائس:

- ستتقدم إلى المحكمة من جديد.

فهتف رءوف:

- ألم أبذل أقصى ما لدي من جهد؟

- بلى ولكنك فشلت وقد أعدم رجلك كما

رايت...

- العبرة بالعمل لا بالنتيجة.

- العبرة بالعمل والنتيجة معًا، ثم إنك أخطأت

خطأً فاحشًا...

- ما هو يا أبو؟

- لم يكن لك إلا أن تحملته على الاعتراف بجريمة

قتلك كأنها الجريمة الوحيدة في الحارة أو كأنها أكبر

الجرائم!

- ألم تكن مشكلته الأولى؟

- كلا.

- فإذا كانت مشكلته؟

يعنى بترية أولاده، زوّج البنات، أمّا الصبيان فلم يجاوز أحدهم مرحلة الكتاب في تعليمه، فعملوا في شتى الحرف سواء في الحارة أو خارجها، ولم يكن حظ رءوف أسعد من إخوته. في البدء أصرت أمه على أن ينجح في التعليم، وأن يعيد سيرة أخيه الفقيد، ويسبب من إصرارها تعرّضت لزجر شديد من زوجها. وسرعان ما ألحق ابنه عاملاً صغيراً في الطابونة، وفرح رءوف بذلك إذ لم يجد من نفسه الميل الصادق أو العزيمة المتوقّبة لطلب العلم. وبتقدّمه في العمر مضى يدرك الوضع في حارته، سطوة المعلم قدرى الجزّار، والدور الحسيس الذي يلعبه أبوه، والحياة الفقيرة التي قضى عليه بها في خدمة المعلم رشاد الدبش صاحب الطابونة. وقد زامل عانوس رءوف في الكتاب، ومال كلّ منها إلى صاحبه، فاشتركا في اللعب دهرًا، وتوطّدت بينهما ألفة قويّة، غير أنّ الحياة قرّنت بينهما رغم تمازجها في حارة واحدة. ألحق عانوس بالابتدائية، ثمّ الثانوية، ثمّ دخل كلّية الشرطة. ربّما تلاحقا في الطريق، أو تقابلا في بيت قدرى الجزّار ورءوف يتلقّى العجيين أو يرجع بالأرغفة، عند ذاك يتبادلان ابتسامة عابرة، أو تحيّة - من ناحية عانوس - فاترة. أدرك رءوف أنّ صداقة الطفولة ذابت وتبخرت، وأنّ عالميها متباعدا. وازداد شعوره حدّة بتناقضات الحياة وتعاستها، فحنق على عانوس ولكّنه كره قدرى الجزّار ورشاد الدبش، واحتقر أباه. الحقّ لفحته نار الحياة، ولكنّ ضرّهما ما يترامى إلى أذنيه في القهوة من مناقشات الشباب. حتّى عانوس يجالس أولئك الشبان ويدلي برأيه في حماس. وعند ذلك يبدو شابًا غريبًا، متنافرًا مع جو البيت الذي يعيش فيه، ومتمرّدًا على أبيه الجبار. وجعل المعلم قدرى الجزّار يراقب نمو ابنه بقلق. إنّه نبت جديد شرس، غريب مثير للمخاوف، أو كما قال عنه مرّة «ابن حرام».

مرّة سأله:

- ماذا تقول في القهوة للأوباش وماذا يقولون لك؟

فأجاب عانوس بأدب:

- نبادل الموم يا أبي...

- إنهم أعداؤك... فقال بأسًا:

- إنهم أصدقاؤى... فهتف الأب بغضب:

- إذا جاوزت حدك فستجدي شخصًا آخر لا يعرف الرحمة...

وقال قدرى الجزّار لنفسه إنّ ابنه سيصير عمّا قليل ضابطًا، سيعقل ويعرف موضع قدمه، ثم يتزوّج وتنتهي مشكلاته.

وتخرّج عانوس ضابطًا، وعيّن في قسم الحّي بفضل أبيه وسعيه عند الكبراء.

- ١٦ -

إنّه الزمن الذي جعل من رءوف وعانوس شخصين غير متوقّعين. اكتسح الحارة تيار، بل تيارات جديدة، متمرّدة وأحيانًا ثائرة. لذلك مرقا من جو البيت الخائق واستعار كلّ منهما لنفسه شخصية جديدة. ولم يشعر أحد بخطورة عانوس قبل أن يصير ضابطًا. أجل وقعت مشاغبات متباعدة بينه وبين أبيه ولكنّ الأب توقّع أن يتغيّر كلّ شيء لصالحه حال اندماج ابنه في حياته الرسمية، أمّا رءوف فسرعان ما غضب عليه معلّمه رشاد الدبش، فلطمه على وجهه وصاح به:

- احرص على رزقك ولا تحرّض أقرانك على الفساد...

ولولا منزلة أبيه - شاعر الدرزي - كشيخ حارة لفصله من عمله ولكّنه شكاه إليه فدهش الرجل لهذا العصيان الجديد في نوعه وأدبه بعلقة ساخنة. وكما أنس منه عنادًا استعان بحضرة الضابط عليه، قال له:

- يا فندم هدّده بالقانون فهذا خير من أن تضطرّ إلى القبض عليه غدًا...

هكذا مثل رءوف أمام صديقه القديم عانوس. تبادلًا النظر طويلًا. ثمّة ذكريات مشتركة أفعمت «جوهم» بالدفء. ابتسم عانوس وسأله:

- كيف حالك يا رءوف؟

فأجاب رءوف:

- قطران، بعيد عنك...

- كان عليك أن تستمرّ في تعليمك ...

- إنّه أبي وما مضى قد مضى ...!

فشحن صوته بجديّة وهو يقول:

- احرص على رزقك فالقانون لا يرحم ...

فقال رعوف بنبرة ذات معنى:

- معلّمِي شره ولا رحمة في قلبه ...

فقال عانوس بصوت منخفض:

- احرص على رزقك ...

وعقب ذلك سعى عانوس لانتحاذ إجراء هرّ وجدان

الحارة وزلزل أباة فقد نقل شاكر الدرزي إلى حارة

أخرى وأحلّ محلّه شيخ حارة جديداً أهلاً للثقة يدعى

بدوان خليفة. ثار الأب قدرِي الجزار ثورة عنيفة فقد

خسر اليد التي تحميه من القانون، وسأل ابنه:

- كيف يحصل هذا وأنت ضابط القسم؟

فقال له عانوس:

- في ذلك حماية لك وللناس!

- إنك ابني وعدويّ يا عانوس ...

- اعلّم يا أبي بأنّي ابنك البار ...

كان لكلّ لغته الخاصّة به، واستحال التفاهم بينهما،

واغبرّ وجه البيت بالتراب الأسود ...

- ١٧ -

وجاءت امرأة لمقابلة عانوس في القسم. عندما

وقعت عيناه على صورة وجهها جاش صدره بنغمة

جديدة وعذبة. بديدة هذه السمرة الرائقة وهاتان

العينان اللوزيّتان السوداءوان. كأنّ الصورة قد رُسمت

على هواه من أجل هواه. لعلّها في الخامسة والثلاثين

أو تزيد، فهي أكبر منه بحوالي عشرين عاماً. في

عينها رصانة تقارب الكتابة. قالت:

- إنّي أطلب حمايتك!

سألها عن هويّتها فقالت:

- اسمي رشيدة سليمان، مدرّسة، نُقلت حديثاً إلى

مدرسة العهد الجديد بالحيّ ...

هذا الاسم، هل مرّ ذات يوم بشبكة ذاكرته ...

سألها وعيناه تحدّقان في وجهها يشغف:

- ممّ تخافين؟

- إنّه تاريخ قديم، قد أتعزّض بسببه لاعتداء على

حياتي ...

- حقّاً؟ ما التاريخ؟ ومن المعتدي؟

فقالت بعد تردّد:

- قضية قديمة برّئت منها، كنت في حال دفاع عن

النفس، ولكنّ والد القتل رجل خيف وله أعوان

مجرمون ...

اقتحمته الذكرى القديمة التي سمعها تردّد في صباه

كعاصفة، شدّ على أعصابه ليملك نفسه المشتّّة. إنّه

أمام قاتلة أخيه عانوس الأوّل. ها هي تفتته كما فتنت

أخاه من قبل وواصلت رشيدة حديثها:

- هربنا إلى أمّابة، عملت مدرّسة في الأقاليم،

وإذا بي أنقل فجأة إلى الحيّ القديم ...

صمت مطحوناً بدوامّة انفعالاته، لم يسألها عن اسم

الرجل المخيف، ولكنّها قالت:

- أمّا الرجل فعرفوك عندكم، إنّه العلّم قدرِي

الجزّار ...

استردّ نفسه بجهد شديد متسائلاً:

- حضرتك متزوّجة؟

- لم أتزوّج قطّ ...

- لم تشرحي ظروفك للمنطقة التعليمية ...؟

- لم يهتمّ بي أحد ...

- أين تسكنين؟

- ١٥ شارع الدرزيّ، أمّابة ...

فقال بهدوء:

- اطمئنّي، سأخاطب المنطقة بنفسي، وإذا تباطأت

فسأعمل على حمايتك ...

تمت بحراة:

- شكراً ... لا تسني من فضلك!

كلّاً. ليس من المستطاع نسيانها!

- ١٨ -

لم يجد عانوس صعوبة في إلغاء النقل. وبمنفسه

ذهب إلى البيت رقم ١٥ بالدرزيّ بأمّابة. الوقت

أصيل، والتيل شبه ساكن، ومن فوق سطحه تنهّدي

لفحات باردة. استقبلته رشيدة بدهشة ممزوجة بسرور

وأمل ثم قادته إلى حجرة استقبال صغيرة وبسيطة
ومهندمة. قال:

- معذرة عن الزيارة، ولكنني أردت أن أسارع
بطمانيبتك بإلغاء النقل!

- ألف شكر يا فندم...

- أمرت له بقهوة فتهيأ له البقاء فترة كما أمل.

- تعيشين مع والدتك...؟

- آتي مانت منذ عشرة أعوام، معي شغالة عجوز
وطيبة...

يا للخسارة إنهما عانس ولكنها محظوظة برواتها...

- هل يزعجك أن تعرفي أنني عانوس قدرتي الجزار
ابن الرجل المخيف؟!

ذهلت. نلّون وجهها الأسمر فاكسسى بعمق. لم
تنبس بكلمة...

- إني ألس انزعاجك...

فقالت بنبرة متهذجة:

- مجرد دمشة...

- أرجو ألا تكرهيني...

فقالت بحياء:

- إنك إنسان...

ومضى يحسني القهوة وهو يختلس منها النظرات، ثم
قال ضاحكًا:

- لست غنيًا كوالدي!

- إني واثقة من ذلك...

- حقًا؟!

- الأمر واضح جدًا، والحق أنني بريئة!

فقال بهدوء:

- إني واثق من ذلك...

ومواصلًا بعد صمت:

- ولكنه ثمة شيء يحيرني؟

فرمته بنظرة متسائلة فقال:

- لم تلتزّوجي؟!

فنظرت بعيدًا مليًا ثم قالت:

- رفضته أكثر من مرة...

- ولكن لماذا؟

- لا أدري...

- بسبب حب الآخر؟!

- ولكنه نسي ككل شيء!

- لا بد من سبب!

- ليس الدم بالتجربة الهينة، لعلّي يثست من

القدرة على إسعاد أحد...

- أمر مؤسف...

- لعلّ الخير فيها كان...

فقال متعمدًا:

- ما زلت شابة جميلة!

في طريق عودته سبح في أجواء خيالية، كره
الضرورة التي تبعده عن البيت ١٥ وعن أميابة، وقال
لنفسه: «إني أحب رشيدة».

- ١٩ -

وقف الجفاء سداً منيماً بينه وبين أبيه. حزن
لذلك أنه حتى الموت. أصبح البيت كثيباً مثل جحر
فثران. هل سعى إلى النقل إلى إقليم؟ وأمابابة؟ ماذا
يحدث لو عرف أبوه العاطفة المتأججة في صدره؟
تراءت له فكرة طارئة وهي أنه خلق عقاباً لأبيه. ولأ
فيها معنى أن يعلن عليه حرباً سرّية مذ وعى ما حوله؟!
يا له من أب خليك بالرفض المطلق. إنه لموقف مؤسف
ومحزن. خاصة وأن الرجل أحبه كل الحب. بقدر ما
هو وحش فقط في الخارج فهو أليف مستأنس بين
جدران بيته. وهو لا يتصور شذوذ نفسه. يؤمن بأنه
يمارس حقوقه الطبيعية، حقوق الذكّي القوي. نهمة
للحال والسلطة غير محدود. اعتاد الإجماع كأنه نجمة
الصباح. حلوب على أعوانه وكريم حتى السفه. أما
الكادحون ممن يبتز نفودهم ويحتكر أوقاتهم فيحتقرهم
وهو لا يرحم من يحتقر. وسيمقته يوماً فيمحق أبوته.
الأدهى من ذلك أنه دمج أمه بطابعه فهي تعبد قوته.
وكلما ارتكب إثماً استغفرتها العبادات ولكنها تبعده. إنه
- عانوس - يقيم في عرين، في معبد للقوة والخطايا.

وتعقدت الأمور، وقذفت من جوفها مواقف
متحدية، فقد ضُبط أعوان لايه وهم يبتزون نقوداً من
عمال الطابونة. سرعان ما ألقي القبض عليهم لأول
مرة في تاريخ الحارة. انفجر ينبوع فرحة ضاحكة في

الحارة وثار بركان في بيت قدري الجزار. لم يعد البقاء -
لعانوس - محتملاً. قرّر الذهاب. اهتز جلدع أمّه وهي
تبكي وتقول:
- إنه الشيطان...

فلشم جبينها وذهب. واستأجر شقة صغيرة في
أمبابية! وقال لنفسه إن القضاء على أعوان أبيه هو
قضاء على طاقته الشريرة. سيمجز عن الإيذاء وتفلت
الحارة من قبضته الجهنمية. وكان يدعو الله ألا يضبطه
- أباه - متنبساً بجريمة مباشرة. والظاهر أن الرجل
صمم على مقابلة التحدي بتحدٍّ مثله قبل أن ينهار
جداره. ففي نفس الليلة نشبت معركة بين الأعوان،
وبين عمال الطابونة، وأصيب رهوف إصابة بالغة غير
أنه اغتال المعلم قدري الجزار قبل أن يلفظ أنفاسه.
أحداث متتابعة متضجرة، زلزلت بها الحارة زلزالاً،
فانغمست في الدم، ولكن تبذرت الظلمات...

- ٢٠ -

وجد قدري الجزار نفسه أمام أبوه، وسمعه وهو
يقول له:
- أهلاً بك يا قدري في السماء الأولى...
ومضى يعرفه بنفسه وبالمكان. لاحظ أن قدري
شارد اللب يثقل النظرة فقال له:
- كأنك لم تقطع أسبابك بالأرض بعد؟
- شيء يثقل على صدري...
- انتبه... إنك تعرف الآن مصيرك...
- أجل، ولكني ما تصوّرت أن يقتلني ولد مثل
رهوف!

- ذاكرتك الجديدة لم تنبعث فيها البقطة بعد...
تبذت الحيرة في أساور قدري الجزار، ومضى يفيق
رويداً رويداً حتى نذت عنه آهة عميقة وابتمس أبوه
وتساءل:

- أعرفت من هو الولد رهوف...؟

فقال قدري بأسى:

- قتلني ابني عانوس!

- أجل، وماذا كنت قبل ذلك؟

- أدولف هتلر!

- وقبل ذلك؟
- بردوني قطاع الطرق بأفغانستان!
- سجل أسود طويل، لماذا تستعصي على الترقّي
وتهدر الفرص المتاحة؟... ابنك أفضل منك، كثيرون
أفضل منك...

فقال بانكسار:

- لن يذهب هذا الدرس سدى!
- ولكنك حتى مثولك بين يدي لم تكن قطعت
أسبابك بغرائز الأرض...!
- لم أكن قد أفقت بعد.
- عذر أقبح من الذنب، فيم تأمل؟
- أمل أن أندب مرشداً!
- هل لديك دفاع عن سلوكك في الأرض؟
- نعم، لقد بدأت تاجرًا صالحًا، وما أطمعني في
الناس إلا ضعفهم وتهاونهم ونفاقهم، فاستعذبت القوة
والطغيان ولم أجد رادعاً...

- إنهم سيعاقبون على ضعفهم وتهاونهم ونفاقهم كما
ستعاقب على استغلالك لحالم...

- وقتلي بيد ابني الحقيقي ألا يكفر عني سيئاتي؟
- لا قيمة لهذه العلاقات هنا، وكم قتلت من أبناء
وأخوة وأنت لا تدري!
- على أي حال فأنا لم أخلق طبعي ولا
غرائزي...

- إنك مالكها الحر ولم تحدّ حرّيتك فيها حدود...
فقال بتوسّل:

- أحسن دفاعك عني ولك ما نشاء!

فضحك أبو وقال:

- ما زلت لاصقاً بالأرض، وهو الإثم الذي لا
يُغتفّر!

- ماذا تقول عن المحاكمة؟

- لقد انتهت المحاكمة يا قدري، وقضي عليك
بالإعدام...

وسرعان ما تلاشى قدري الجزار!

- ٢١ -

وتلقّى أبو رهوف وهو متلقّع بسحابته البيضاء،

- إناك ولد طيّب ولكنّ الصعود إلى السماء الثانية مطلب عزيز...

- ألا يشفع لي ما فعلت؟
- لقد سمع كلّ شيء، وصدر الحكم بنديك مرشدًا...

- فسلم رءوف بالحكم راضيًا فقال أبو:
- بشرى أخرى، ستندب للإرشاد عانوس...
- ضابط الشرطة؟
- أجل، وسلوكه يبشّر بالخير بما يضمن لك عاقبة سعيدة...

- هي السماء الثانية فيما اعتقد؟
- أجل...
- أهى الجنة الموعودة؟
- فابتسم أبو وقال:
- توجد سبع سموات مندورة لخدمة أهل الأرض فلم يثن الأوان للتفكير في الجنة!
- وكيف يتمّ الصعود من سماء إلى سماء؟
- من خلال المحاكيات المتتابعة...

- فتساءل رءوف في ذهول:
- وهل تعنى من الكفاح بعد السماء السابعة؟
- فابتسم أبو وقال:
- هذا ما يقال عادة على سبيل التشجيع والعزاء ولكن لا يوجد عليه دليل واحد!
- ومضى به في انسياب عذب غنائي، يغوصان في أمواج مقطرة بيضاء، فوق خضرة متألقة لا حدود لها...

وجرى تعارف قصير فتجلّى التساؤل في عيني رءوف. وقال له أبو:

- أهلاً بك في السماء الأولى...
- ومضى يزوده بالمعلومات الضرورية، ثمّ سأله:
- كيف جئت إلى هنا؟
- قُلت في معركة.
- ولكنك قُلت قاتلك أيضًا...
- هاجته وأنا مطعون، لا أدري شيئًا بعد ذلك.
- للمرة الثانية نجىء قاتلاً ومقتولاً...
- حقًا؟

- إنّي أعلم ما أقول.
- ماذا كان جزائي في المرّة السابقة؟
- الإعدام...
- فتساءل رءوف بقلبي:
- هل يتكرّر ذلك؟
- ماذا تريد أنت؟
- كنت أخوض معركة عادلة وقُلت شيطان حارثنا...

- هذا حق...
- فتهلّل وجه رءوف وتساءل:
- هل أمل في البراءة؟
- بما يؤخذ عليك كسلك عن طلب العلم!
- ما أقسى الظروف التي عانيت بها...
- هذا حق ولكننا نقيّم الفرد من خلال صراعه مع ظروفه...
- فتجلّى الأسمى في وجه رءوف فقال أبو:

الحُبُّ فوق هَضْبَةِ المَرَمِ

- ١ -

وأحلام جنسية. على ذلك فأني أبعد ما يكون عن الاستهتار أو المجون، رافض للإباحية وفلسفتها. أروم الحياة الشرعية المستقرة. ألتمس إليها الوسيلة بلا شروط متهوِّرة أو طموح كاذب أو طمع قبيح. أنشد حقاً حيويًا قَوْلًا لا أدري كيف اهتدي إليه. ولكن من أنا؟

- ٢ -

عليّ عبد السَّار، في السادسة والعشرين من عمري، ليسانس حقوق، موظف بالشركة ا. د. س. ولدت مع الثورة، ناهزت الحلم عام ١٩٦٧ المشؤم، نلت ليسانس الحقوق عام ١٩٧٤، ألحقت بالشركة عام ١٩٧٥، كنت من حملة الثانوية علمي، وكان أمني أن أخصص في الصيدلة أو الكيمياء. خاني المجموع، حملني تيار التنسيق إلى كلية الحقوق بشهادتي العلمية. ما خطر لي أبدًا أن أدرس القانون، ولكنني نجحت بقوة الإرادة، إكرامًا لعناء أسرتي المكافحة، خوفًا من التشرد والجوع. وكما ألحقت بشركة ا. د. س. عُيِّنت بإدارة العلاقات العامة. غني عن البيان أنني كنت زائدًا عن الحاجة. خيل لي أنَّ الزائدين أكثر من العاملين. وقال لي وكيل الإدارة:

- احجز كرسيًا.

ثم قال بنبرة ساخرة:

- قد يتعدَّر ذلك غداً. منظرٌ مقبول، تصلح للعلاقات العامة، ولكنك ستبقى بلا عمل حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولًا.

أريد امرأة. آية امرأة. إنَّها صرخة مدوِّية، انبعثت أوَّل ما انبعثت من جوانحي على هيئة همسات من الذهول. همسات من الأنين. همسات من الغضب. ثم انفجرت صرخة مدوِّية. ما هي بالأنانية. ما هي بالهيمية. ما هي باللامبالاة. إني أزعج بآني مواطن بدرجة مقبولة، بل إني أيضًا إنسان بدرجة لا بأس بها. رأسي شهد حوازا طويلاً عن الفقر والتخلف والسلام والديمقراطية والتموين والمواصلات والطرق. به موضع أيضًا لهموم الأسرة الكبيرة كالصراع بين الشرق والغرب، تلوث البيئة، نضوب المواد الأولية، العلاقة بين العالم المتطوِّر والعالم الثالث، احتمالات الحرب النووية، إذن فالوعي آخى بيني وبين المواطن والإنسان. غير أنني لم أعد أفكر بشيء من ذلك. أو إنَّ تفكيري به ف. وتقهقر وذاب في اللامبالاة. أنجم ذلك عن خود في العاطفة أو الفكر أو التعلُّق بالحياة؟ كلاً وأقسم على ذلك. المسألة أنني ما إن ختمت حياتي المدرسية حتَّى التحقت بالوظيفة ومن ثمَّ خربت الفراغ والبطالة. عند ذاك تفشَّحت همومي الشخصية، استأثرت بوعيي كلّهُ، ركبتي، اجتاحتني، استعبدتني، أصابتني بالهوس. باتت أيُّ مشكلة سواها ترفاً، لهواً، سخفاً. الجنس أصبح محور حياتي وهدفها. انقلب وحشاً ذا مخالب وأنياب. قوَّة مطاردة مهذَّدة. يطالب بالممكن ويطمح إلى المستحيل. خلق مني كائنًا جنسيًا خالصاً، ذا حواسَّ جنسية، وأخيلة جنسية، وآمال جنسية،

فقلت بهدوء:

- عندي فكرة عن كل شيء.

- عظيم. ستبقى أيضًا بلا مكتب حتى نراجع المخازن، أصبحنا في حاجة إلى حجرة إضافية، لماذا لا يسمحون للموظفين الجدد بالبقاء في بيوتهم مع الاحتفاظ لهم بحقوقهم في العلاوات والترقيات؟

فقلت بغضب مكتوم:

- اقترح وجيه جدًا!

- ولكن لا بد من التوقيع في دفتر الحضور والانصراف.

هكذا التحقت بالخدمة وهكذا استقبلت عهدًا من الفراغ المطلق لا خبرة لي به من قبل، فيما مضى استأثرت الدراسة بحيويتي، ولم تخلُ العطلات من الاطلاع وأنشطة الشباب. إلى ذلك فقد انتضعت بنشأة أسرية دافئة تعبق بعطر الدين والقيم. وكما انتبثق الجنس استطعت أن أروضه بالخلق والعمل والأمل. أمّا في عصر الفراغ فقد انفرد بي، كما انفرد بي الزمن في جريانه، وتساءلت متى... وكيف. جلست على الكرسي كمن ينتظر دوره في تحقيق. أراقب أقراني العاطلين، وآخرين يذهبون بالأوراق ويمشيون، وامرأتين كهلتين متزوجتين، بين نوافذ مغلقة لتصدّ تيار الخريف البارد، في جو فاسد بأنفاس البشر والسجائر، ومن زجاج النوافذ أطلع إلى شرفات العمارة المقابلة مترقبًا ظهور أنثى. وطيلة الوقت أتمثل مناظر جنسية ومواقف، وأخوض مغامرات غاية في البراعة والعذاب. وسمعت حوارًا بين الوكيل وزميل له من معارفه:

- كيف وجدت الفراغ؟

- لا يُطاق.

- على أيّامنا كانت الوظيفة حلماً عزيز المائل فاذكروا

نعمة الله عليكم.

- وما قيمة التقود؟

- هي خير من الشارع!

تبادلت مع الزميل، عقب ذهاب الوكيل، نظرة شاحبة مثل جو الحجرة وقلت له:

- هنيئًا لنا فنحن محسودون...

وتعلّمت أن أتسلّل إلى شارع قصر النيل مع الضحى. تعلّمت الصعلكة. إنّها مسلية ومفيدة ومنسّطة في الجوّ الأخذ في البرودة. وهي مضحكة أيضًا وهي تخوض في بحر متلاطم الأمواج من البشر والسيّارات والأصوات المزعجة. طابعه - الشارع - الضيق والعصبية والكبت. كل شيء يريد أن ينطلق ويعجز عن الانطلاق يسوي في ذلك الإنسان والسيّارة. الكبت والقهر والتذمر. الطريق يعاني من أزمة جنسية مثل أزمي. إنّه يفقد الشرعية والحريّة والإشباع. ومع ذلك فهو مغطى بالتراب كأنه يتهدى في مدينة خيالية. ولكنّي لم أشعر إلا برصد النساء. هنّ همّي وشغلي وحياتي ومماتي. وجعلت أبلّ ريق الحاف بمضغ اللبان. وتنقل نظراتي المحمومة من السيقان إلى الصدر إلى العين. وكدت أفقد حياتي ذات مرّة. كنت أهمّ بعبور الطريق حين اقتحمني صدر ناهد فسحرتني واستولى عليّ. كذف بي في أعناق المحو. اندفعت إلى العبور دون أن التفت بمنة كما ينبغي لي. وإذا بسيّارة تنقضّ عليّ كالقذيفة. نظرت نحوها فالتفتت بالنهاية. لا وقت للرجوع ولا للتقدّم. استسلمت استسلامًا نهائيًا وتقوّس ظهري لتلقي الضربة القاضية. تجلّلت لي حقيقة الموت لا كفكرة مجرّدة مسلّم بها ولكن كشعور مملّ الوجودان بثقله وقوته وإقناعه. صرخ بي أن هُكذا أجيء عندما يتقرّر ذلك وهكذا تنتهي الحياة في غمضة عين. خيّل لي أنّي رأيت وجهه مجسّدًا في اللحظة الخاطفة التي لا يكشف عن وجهه إلّا فيها. وحيال نظرتة الوائفة مرّ بسرعة البرق شريط حياتي من المهد إلى اللحد. لا وجهه أدري كيف أصفه ولا حياتي أدري كيف رأيتها مجتمعة في أقلّ من ثانية. وبلغ الخوف الدرجة التي يفقد فيها الشعور بذاته. لكنّه اختفى بمعجزة. انحرف السائق بالسيّارة ببديهة مذهلة فصعد الطوار مهدّدًا حيات وأوشك أن يصطدم بالجدران. ماذا حدث لي وماذا حدث للآخرين؟ سبحت في زهول أعفاني من متاعب جسيمة. مرّت دقيقة على الأقلّ قبل أن أدرك أنّ الطريق كلّّه يلهمني بنظرات السخط والغضب. ثمة صيالح وتعليقات شتى... السائق لصق السيّارة

ويقذف بالسباب كالطر. مضيت مترنّحاً أفرّ بنفسي فرازاً. كنت أعاني آلام الخروج إلى الحياة من جديد. وأعاني من مروري الحاطف فوق ثلاثة معابر متناقضة هي شهوة الجنس ومقابلة الموت ومفاجأة النجاة. وأحدثت برودة النجاة الملقاة على نيران الفزع أثراً عتيقاً تعانق فيه السرور المتألق والحزن العميق. مضيت أسير حتى وقفت لأسترد أنفاسي بعيداً عن موقع الحادثة. حتى في ذلك المكان لم أفلت من عيني عامل من عمال الطرق فقال لي بسخط واضح:

- مسطول!... بسبب أمثالك يتعرض السواقون المساكين إلى متاعب المحققين، لا تنس أنك مدين بحياتك للسائق...

تضاعف ضيقي وقلت كالمعتذر أنقاء لسخطه:

- إنها الموم.

فصاح محتجاً:

- الموم!... ماذا تعرفون عن الموم؟!!

ذهبت مبتعداً وقد نسيت أزميتي الجنسية وقتاً غير قصير. ولكنه غير طويل أيضاً. حذرت نفسي من سحر المناظر. وقلت لنفسني إنها التعاسة حقاً أن يفقد الإنسان حياته لسبب كهذا. إنها محنة. ولكن ما العمل؟ لا يغيب عني ما يقال عن الزواج وتكاليفه. المهر والشقة وخلو الرجل. يلزمي قرن من الزمان لاقتصد نفقات زيجة عادية. إنه طريق مسدود تماماً. أجل إن الآيام تمضي والصبر يفقد ولذلك هان عليّ - رغم تقاليد تربيتي الراسخة - أن أفكر في «الحرام» كضرورة لا مفرّ منها دفاعاً عن صحتي الجسدية والنفسية. شاورت في ذلك صديقاً قديماً من أهل الخبرة فقال لي:

- الفرص أكثر من أن تحصى.

ولما انس مني إقبالاً شديداً سألتني:

- هل عندك فكرة عن الأسعار؟

ومضى يستعرض الفرص والأماكن والمراتب ويذكر الأسعار حتى قلت في ذهول:

- غير معقول!

فقال بأسياً:

- العرب والتضخم والانفتاح!... هل أدلك على

أرخص سبيل؟

فسألت عنه بلهفة فقال:

- لعله الزواج!

وقلت لنفسني إنه الحزن ولا شيء إلا الجنون...

- ٣ -

أسرتي أيضاً مصدر همّ لي لا يتقضي. في متاعبها الظاهرة ما يكفي فيمنعنا الحياء من نبش متاعبها الخفية. أبي يقترب من سنّ المعاش فنحن في سباق مع الزمن. أمّي كيميائية، لا لأنها درست الكيمياء فحفظها من التعليم وقف بها عند الابتدائية، ولكن للأعاجيب التي تصنعها لتوفّر لنا الطعام اليومي. وهي تقلّب الملابس وتصبغها وترفوها وتجدها وتجعل بعضها ملكية مشاعة والبعض الآخر ملكية متوارثة وتصنع من البطاطين القديمة أرواباً للآيام الباردة. والمساعدة التي جاءت نتيجة لالتحاقني بالعمل التهمها الغلاء المتصاعد. وإني أنظر إلى شقيقتي مها (الآداب) ونهى (الثانوية العامة) برثاء، ويمزني منظرهما البسيط المتشّف. إنهما محرومتان من أشياء تعتبر في سنّها ضرورية لا كإثالة، وعمومتان أيضاً من الشكوى، التي تضيق بها أمّي فيرتفع صوتها الحاد:

- حالنا أفضل من غيرنا ألف مرة.

على ذلك فإنّنا شقنا قديم دون الأربعة جنيات بقروش، ومهما قيل في شارع شمردل بروص الفرج فهو مسقط رءوسنا جميعاً. لذلك لا يكاد أبي ينعم بضحكة صافية. ودأب على تذكيرنا بمصيره فيقول:

- لم يبقَ إلا عامان ثمّ المعاش!

وينظر إلى شقيقتي ويقول:

- النجاح... النجاح...

لقد نحل الرجل كأنما يجفّ رويداً رويداً، وزاد من ضآلته قصر قامته، ولم يكد يبقى أثر من وسامته الأصلية. الوسامة خاصية لأسرتنا مثل الفقر. وهو لا يدنّ، كما انقطع عن المقهى منذ أعوام. وكما يقال، فهو من البيت إلى وزارة المواصلات ومن وزارة المواصلات إلى البيت. وتسليته الوحيدة يجدها في تبادل الزيارة مع جار قديم - مدرّس قديم - مدرّس لغة

عربية على المعاش - يسامره ويستفتيه أحياناً في بعض
الشئون الدينية. وكان يقول:

- منذ أعوام كان رجل مثلي ذو مرتب يجاوز الستين
جنيتها شهرياً يُعَدُّ من الموظفين المنعمين ولكن الدنيا
جنت... .

وكان مما يجرُّ في نفسه أنه ضيَّع فرصة زواج لا بأس
بها على مها. يوماً قال بأني:

- ما باليد حيلة، لكنَّ المهمَّ هو العلم والعمل،
بعد ذلك تتحسن الظروف والأحوال، نحن لا نملك
بالكاد إلا قوت يومنا.
فقلت له:

- الأسعار ترتفع ونحن ننخفض.
فقال بأساً ابتسامة لا معنى لها:
- كنَّا طبقة وسطى فأصبحنا من الطبقة الدنيا... .
فقلت بحدة:

- نحن الفقراء الجدد في مقابل الأغنياء الجدد.
فحدجني بنظرة تصدني عن الاسترسال وقال:
- لا تستسلم للسخط فهذا مما يزيد الحياة تعاسة،
وحذار أن تردَّد ذلك أمام مها ونهى!
فقلت مصرّاً:

- الزواج حق مشروع، ترى كيف تفكران يا أبي؟
فتجهم وجهه وقال:
- لقد أحسنت تربيتهما، أمك صاحبة فضل أيضاً،
نحن أسرة شريفة والحمد لله، وغداً تتوظفان وبيتسم
الحقداً!

- لقد شهدت برنامجاً في تلفزيون المهدي يقطع بأن
المتسولين خير حالاً ممَّا...

- ولكنهم يتسولون ونحن نخدم الدولة!
لم تستطع الأحوال أن تقتلع بقيَّة العزَّة من نفسه،
كما إنَّ أمني تُعبر أحياناً عناد الحاضر مطلعة إلى آمال
غامضة وراء الأفق. وقلت مواصلاً حديثي:

- إني أتابع أنباء الأفراح في الفنادق بذهول.
فتساءل بحدة:

- وأيُّ فائدة تجنيها من وراء ذلك؟ يوجد أغنياء
منحرفون كما يوجد شرفاء، ولا شيء يدوم في هذه
الدنيا.

ثم نبذة أرق:

- أتدري ما هو حلمي؟

ثم أجاب قبل أن أنبس:

- أن تعملوا ذات يوم في الخارج، إنه حلم وما هو
بالحلم...

- ٤ -

الهجرة إنهم يدعون أهل المهن والحرف وأنا لا من
هؤلاء ولا من أولئك. وما فرصة الحقوقي؟ إنها نادرة
جداً. فضلاً عن ذلك فإني أمقت القانون، وما أنا
أنساء في بطالتي الرسمية دون أسف. وكنت أنسجع في
وسط البلد لا أدري أين بلغت في تسلمي عندما
لمحت - في مقهى الجزيرة - الصحفي القديم عاطف
هلال. كان منفرداً بنفسه للراحة أو التفكير فمضيت
نحوه بقرار مرتجل وبجرأة لا تعوزني. وقفت أمامه
حتى انتبه إليَّ فراح ينظر نحوي بعينين مستطلعيتين وقد
تجلى الكبر في صفحة وجهه أكثر ممَّا يبدو في الصور التي
تنشرها الصحف له. قلت:

- معذرة عن تطفلي، أنا أحد قرائك...

فتمتم بصوت محايد:

- أهلاً.

- تسمح لي بدقيقتين من وقتك الغالي؟

- تفضل.

جلست ثم قلت:

- حرصاً على وقتك سادخل في الموضوع رأساً،

المسألة آتي واقع في أزمة شديدة...

غامت نظراته بغشاء خفيف من الفتور فخشيت أن
الذي تبادر إلى ذهنه أنها أزمة مالية وأتني ساطالبه

بمعونة فقلت بصراحة:

- إنها أزمة جنسية!

توارت الغشاوة وراء بقطة طارئة وتساءل:

- جنسية؟!

- جنسية بكل معنى الكلمة.

فما تمالك أن ابتسم قائلاً:

- لعلك أخطأت الرجل المناسب!

فقلت جاداً:

- الرجل المناسب لم يعد مناسباً لأمثالي لذلك
قصدت الرجل المفكر!

فثبتت نظارته ليداري انفعاله وقال:

- يبدو لي أنك فريسة تجربة عاطفية مريرة...

- إني أفسد تجربة فلا أجدها.

- شيء جديد تماماً.

- المسألة بكل بساطة أن الزواج مستحيل وسيادتك
سيد العارفين، والانحراف أصبح خيالاً التكليف
بفضل إخواننا العرب.

فتجلى الاهتمام في عينيه فساءلت:

- هل تصدق أنني بلغت السادسة والعشرين من
عمري وكما أمارس الجنس ولو مرة واحدة؟
- أصدقك ولو أن شكك مقبول جداً.

- ولكني مرفوض موضوعاً.

قبض على ذقنه في حيرة وصمت فسألته:

- ما الحل يا أستاذ؟

فتمتم جاداً:

- إنها مأساة ولست ضحيّتها الوحيد...

- وما العمل؟

- يا له من سؤال!...

ثم مواصلاً حديثه:

- لا يوجد جواب جاهز، يمكن أن نتخذ تقاليد
الزواج السخيفة وندعو إلى الهجوم عليها، يمكن أن
نتحدث عن واجب وزارة الإسكان، يمكن أن نتحدث
عن مشكلة الإناث...

- وهل أنتظر أنا حتى يتم هذا الإصلاح؟

- ماذا أقول؟ كم من أجيال أجهضت في تاريخ
البشرية!... وكما إن ملايين من الشباب سعدوا
بمعاصرتهم لاكتشاف العالم الجديد فقد هلك ملايين
آخر في خضم الحروب الطاحنة!

- يعني أنه ليس أمامي إلا تجرع التعاسة في صبر
طويل؟

- قد يتغير الحظ بإرادة الإنسان، إنك مطالب
بالتفكير والعمل، إنك واقع في شبكة من الظروف
المعددة، وعليك أن تسأل نفسك وما أفضل سبيل
للتصرف في مثل هذه الظروف؟ وعليك أن تحيى

بنفسك...

فسألته بحق خفي:

- ألا يوجد رأي عند جيل الأماندة؟

فابتسم قائلاً:

- دلك من هذا. إنكم لا تؤمنون بأي جيل

سابق. ألم تجد ولو مثلاً واحداً صالحاً لأن تقتدي به؟

- تعني...

فقاطعت مواصلاً حديثي:

- أعرف امرأة حلت مشكلتها بالدعارة!

- ويقتنون الشق والسيارات ولكنّه حلّ مرفوض

كما قلت.

- عرفت زميلاً احترف السطو على الشق في أثناء

الصيف...

- وهو مرفوض أيضاً وعاقبته معروفة.

- سمعت عن آخر اغتصب امرأة ثم قتلها إخفاء

لجريمته...

- لعلك تقصد الشاب الذي طالب شيخ الأزهر

بشنقه علانية؟

- لا أدري، ولكن أما كان الأجدر بالشيخ الأكبر

أن يقترح حلاً إسلامياً للعاجزين عن الزواج؟!

- التشدد في العقوبة أسهل من إيجاد الحلول...

- فما الحل إذن؟

- ألم تفكر في الهجرة؟

- لست من أصحاب المهن المطلوبة ولا من أهل

الحيز.

صمت الأستاذ قليلاً ثم قال:

- ثمة رأي أفضله إذ إنني ما زلت أحتقر الحلول

الفردية...

في فترة قديمة دأب على ترديد هذا الرأي، وكان
وقتها يكتب بقلم يساري صريح، وها هو يعود إليه
فيها يشبه الجنس والاستحياء. وقلت له بهدوء لأخفي
انفعالي:

- جئتك عارضاً أزمة ملحة تتطلب حلاً عاجلاً وها
أنت تنصحي بالانخراط في عمل سياسي من أجل
تغيير المجتمع، وعلى ذلك فعلي أن أنتظر حلاً لمشكلتي
يحيى مع القرن القادم...

وغادرت مقهى الحرّية بلا ذرة من عزاء. ولكن هل كنت قصدت عاطف هلال بدافع من ثقة؟ لقد انتزعت الثقة ثم ماتت ثم دُفنت. إثم كذابون... كذابون... كذابون. ويعلمون أنهم كذابون. ويعلمون أننا نعلم أنهم كذابون... ومع ذلك فهم يكذبون بأعلى صوت، ويتصدرون القافلة...

- ٥ -

ما هذه البهجة المنعشة؟

نظرت وحلمت وثلّمت. اشتعلت النيران وأرهفت الحواس، لبثت فوق مقعدي موجّلاً الانطلاق إلى رحلة التسكّع اليومية.

- ضيفة؟

- موظفة جديدة، ليسانس آداب، اسمها رجاء محمد.

سمرتها صافية، ما أندر السمرة الصافية، لا بالنحيلة ولا بالسمنية، في العينين العسلتين جاذبية محسوسة، عند الابتسام ترسم غمازتان في وجنتيها، بيني وبين أن أرفعها بين يدي وأمضي مشكلات تعمي العديد من وزارات الدولة. انفعلت بها كما أنفعل بأي أنثى يستوي في ذلك المراهقات والكهلات، البلديات والمتفرنجات، المحتشبات والمبتذلات، انغمس خيالي في مصادر الإثارة. حتى تذكري شقيقي لم يهذب من طغيان الرغبة. غبت عن الإدارة ساعة واحدة فصاحبتني نشوتها الزكية في الذهاب والإياب. وفي آخر النهار تمّ تعارفنا في رزانة رسمية. ورجعت إلى مسكني بروض الفرج وأنا أقرب ما يكون إلى التعاسة والألم وهما ما يترسبان عادة في صدري عقب الرؤية المؤثرة. في ذلك اليوم اختلست أكثر من نظرة من مها ونهى. جميلتان بلا ريب ولكنّه جمال ملقى في سلّة مهملات. بدنا لي متشّقين صابرتين. تموت الشكوى وراء شفتيهما المتلتئتين. وسألت مها:

- هل تعرفين فتاة من كليّتك اسمها رجاء محمد؟

فتساءلت ساخرة:

- كيف أعرف ونحن أكثر من الجيش عدداً؟!

- التحقت بإدارتنا اليوم.

فتساءلت نهى بمكر:

- لم تسأل؟

فقلت بتحدّ ساخر:

- كيف لا وقد توفّر لديّ المهر وخلوّ الرّجل؟

فقلت مها:

- ادع الله أن يكون أبوها من شارع الشواربي فلا

يطالبك بمليم!

فقلت ضاحكاً:

- الشواربيات للشواربيين!

قرأت في دعابتها أحلاماً خفية، ونحن عادة نتحدث بحذر متأثرين بجوّ بيتنا المتشدّد. أبي، وأمي أشدّ منه. وأمي متفائلة جداً رغم عنائها الدائم. وهي سعيدة بأنّها حصّتنا ضدّ استهتار الزمن. وفي تقديري أنّه سيسعى إليها ذات يوم - خاصّة بعد التحاقها بالعمل - زوجان محترمان متقدّمان في السنّ والقدرة الماليّة فيهيّئان لها الحلّ الممكن. إنّهُ زمن الكهول والأوغاد.

- ٦ -

ما هذه البهجة المنعشة؟

لقد وهبني ابتسامه. مضيئة وبريئة كالوردة اليانعة. تبادلنا الكلمات عند كلّ مناسبة ثمّ جادت بالابتسامه. خلقت الابتسامه حياة جديدة. غلّفت الانفعال البهيميّ بعذوبة صادقة. نمت الشجرة وتفرّعت وتعدّر أن تُنعت بصفة واحدة. وتساءلت أهكّذا تتحوّل الغريزة إلى عاطفة؟ وكنت أخلق المجال تلو المجال للحديث. قلت لها:

- حذار من البطالة!

فقلت بحيرة:

- إثم لا يعهدون إلينا بعمل.

- ستسعين ما تعلمت.

- العمل نفسه هنا مقطوع الصلة بما تعلمت.

- ماذا كان تخصصك؟

- التاريخ.

- لولا ضوضاء المكان لا اقترحت عليك القراءة.

- لا أحبّ القراءة إلّا نادراً.

- جيل التلفزيون؟
فضحكت بصوت غير مسموع وقالت:
- ليس تمامًا.

- وحذار من الملل.
- اليوم طويل حقًا، ماذا تفعل أنت؟

- أتسكع وسط المدينة...
- لا يناسبني ذلك.

- لا مفر من أن تجدني مناسبًا ذات يوم.
- المهم ألا نعتاد الكسل!

فقلت بأسف صادق:

- كنت طالبًا مجتهدًا، حتى العطلة السنوية لم تخل
من نشاط وإطلاع أما اليوم فقد أصبح التسكع
مذهبي... كيف تمضين وقتك؟

- لي أخوات وصديقات، هناك التلفزيون دائمًا،
وأحيانًا السينما أو المسرح.

لم يعد في الدنيا ما يستأثر بوعي أكثر منها. لها
الغريزة والعقل أيضًا. ومن عجب أن مظهرها انتهت
إليه مؤخرًا نسبيًا. تعاملت مع المضمون قبل الشكل.
وعندما حدثتني عن السينما والمسرح أدركت أنها تطل
عليّ من مستوى أرفع، عند ذاك ركزت على البطلون
الرماديّ والحذاء ذي الرقبة والبلوزة المزركشة والجاكّة
الجلدية. أنيقة وثمينة. ترى ما وراء ذلك؟ الزمن
يطرح احتمالات شتى. ولأنّي أحلم بالزواج ولكنّي
أرحّب بالفرص. عاطف هلال ذو مال وبنين فهو يجتفر
الحلول الفردية! وهو لم يصل إلى مركزه المرموق إلا
بحلّ فرديّ انتهائيّ. ووجدتني أتذكر عهد الدراسة.

أتذكر التيارات التي انتظمت الطلبة. أبناء الأغنياء
الذين يتمتعون بالاستقرار ولا يهتمون كثيرًا بالدراسة.
فقراء يملكون بالشهادة من أجل الوظيفة. متمردون
يضطربون في عوالم الأحلام ويرفضون كلّ شيء. كنت
في مكان وسط بين الصنف الثاني والثالث. أحلم
بالوظيفة إكرامًا لعناد أسرتي وأكنّ للمتمردين الإعجاب
والتأييد. كثيرًا ما يتعرّضون للتحقيق والمطاردة، ومنهم
من انتهى إلى السجن. ترى إلى أيّ فريق تنتمي
وجاء؟ على أنّ الاحتمالات أوسع من ذلك. ولأنّي
أريدها من أيّ سبيل ممكن وإن ظلّ الزواج حلمي

المنشود. لذلك لم أدع فرصة تفلت لتوثيق مودّتنا حتى
نطق لسان حالي بما أحلم به. وتشجعت ذات مرّة
فدعوتها إلى لقاء ضمن رحلة للتسكع...

- ٧ -

ما هذه البهجة المنعشة؟!

فاضت نفسي بهذا المعنى وأنا أراها مقبلة نحو
موقفي أمام الأمريكيين. في تلك اللحظة شعرت بأنّي
بتّ من كبار العاشقين فعاهدت الله ألا أسيء إليها ما
حييت فقط. غصنا فوق أريكتين جلديتين يفصل بيننا
خوان معدنيّ. وضعت حقيبتها السوداء على طرف
الخوان وراحت تمشط بعض خصلاتها كما رحنا نتبادل
النظر في هدوء وحبّ استطلاع. طلبنا الشاي ليدفئنا
في الجوّ البارد وشملنا من بادئ الأمر تفاهم حميم. لا
ظلّ من الغموض يطرح نفسه على الدعوة من جانبي
والتلبية من ناحيتها. كلانا ناضج ويعرف ما يريد.
وإن تكن صداقة فهي واضحة الهدف. قد تعني من
جانبي ميلًا ورّما حبًّا وبحسبها أن تعني من جانبي أنّي
موضوع صالح للتجربة. ألا يعني ذلك القبول من
ناحية المبدئيّ؟! سألتني:

- هذا مكان تسكّعك؟

فقلت وأنا أقدم لها وعاء السكر:

- التسكّع في الشوارع ولكنّه لا يصلح للقاء.

- وكيف تطيق الزحام؟

- إنّها القيامة ولكنّها خير من القعود ستّ ساعات
فوق مقعد خشبيّ...

فابتسمت قائلة:

- إنّهُ نوع من العقاب ولكنّ الزحام لمثلي غير
مأمون!

- ماذا تركبين في الذهاب والإياب؟

- نحن نقيم في شارع الشهيد عبدالمملك فيا وراء
دار القضاء العالي فلا حاجة بي إلى الباص...

ثمّ مواصلة حديثها بسرعة:

- لولا ذلك ما قبلت الوظيفة!

فقلت بقلق:

- إذا فانت غنيّة!

- أبدًا، أبي موظف، موظف كبير إذا شئت ولكن ذلك لم يعد يعني شيئًا.
وجدت في قوفا متنفّسًا للراحة وقلت:
- الحال من بعضه حتى وإن لم يكن متطابقًا.
وانتهزت الفرصة فقلّدت لها صورة أمينة لأسرتي
متروخيًا الصديق في الأمور الجوهرية ودون تطرّف إلى
التفاصيل الحرجة ثم سألتها:
- لك إخوة؟
- ثلاث بنات كبراهن بكليّة الطبّ.
- الحقّ أنّ الحياة عبء ثقيل.
فأحت رأسها الرشيق مؤثمة على قولي فقلت:
- خاصّة للشرفاء.
- كان أبي (عمد جاد) حماميًا مرموقًا، ثمّ تغير
الحال عقب التأميمات فقبل وظيفة مدير الإدارة
القانونية بشركة ا.م.د.
قلت لنفسي إنّ مثله جدير بأن يملك مدّخرات لا
بأس بها فهو خير من الموظف العاديّ. ليس بالغنيّ
ولكنّه ليس بالفقير أيضًا. نثّة أمل ولكنّه ضعيف.
وقلت ملقيًا مزيدًا من الضوء على موقعي:
- أسرتي لن تعرف الراحة قبل أن تتوظّف أختاي،
وأمل أبي متعلّق بهجرة ثلاثتنا إلى بلاد العرب.
- علّ أختيك أن تختار مهنة مطلوبة كالتعليم.
- أنت لا تفكرين في ذلك؟
- إني أمقت هذه الفكرة وأرجو ألاّ أحتاج إليها
أبدًا. . .
انقبض صدري بعض الشيء ولكنّ ذلك دفعني إلى
مزيد من الجراءة فسألتها:
- كيف تصوّرين المستقبل؟
فتساءلت متغاية:
- ماذا تقصدين؟
- لا يمكن أن تعيشي بلا حلم ما؟
فضحكت قائلة:
- أنا لا أحلم.
- كلّ إنسان له حلمه.
- حقًا؟ . . . فما حلمك أنت؟
فقلت متهاديًا في جراتي:

- الحقّ أنّي أحلم بشريكة لحياتي. . .
فرمشت كالمرتبكة ولذت بالصمت فقلت:
- هذا هو حلمي.
فتساءلت شاردة:
- ماذا يمتك من تحقيقه؟
فلم أدر ماذا أقول اعتقادًا منّي بأنّي قلت كلّ شيء
فسألتني:
- لم لا تتكلّم؟
- قلت ما فيه الكفاية، آن لك أن تتكلّم
أنت. . .
وإذا بها تقول بجديّة تامّة:
- لقد تعرّضت لتجربة غير سارة. . .
فحدجتها بنظرة مستطلعة فقالت:
- تقدّم لي موظّف من مرعوسي والذي وقشلت
التجربة أمام عقبات لا يمكن التغلّب عليها. . .
فتساءلت بأسى لم أستطع إخفائه:
- ما هي؟
- المهر. . . والمسكن. . .
فقلت متعلّقًا بأخر خيط:
- ليس التغلّب عليها بالمستحيل.
- حقًا؟
- إن يكن بوسع الأب الاستغناء عن المهر، أو
يكون من الممكن إخلاء حجرة في البيت للعروسين!
فهزّت رأسها بأسف ثمّ يعني النفي. في الصمت
الذي تلا اعترفت بالإخفاق. جاءت مدفوعة بحبّ
الاستطلاع والأمل فتلاشى كلّ في هيكل الحقيقة
العارية. لعلّها تتأسّف الآن على ضياع الوقت سدى.
ولعلّها تفكر في انتحال سبب لإنهاء اللقاء. وقلت بلا
روح:
- حسينا صداقتنا الحميمة.
غمغمت شاكرة. ولم يبقَ إلّا أن نغادر المكان ليرجع
كلّ منّا إلى الشركة من طريق.
- ٨ -
قلت لنفسي إنّ لا مفرّ من النسيان. لا مفرّ من
الوادر. الأمل والغريزة متعلّقان بها، يتسلّطان عليّ بكلّ

قوة، يستأثران بأحلام اليقظة، يعدّبانني ليل نهار ولكن لا مفرّ. ما زلت في أوّل الطريق. وهي لا تبادلني إحساسًا أو عاطفة. ما هي إلّا فتاة عاقلة تبحث عن زوج مناسب. إنّه حقّ مشروع ورغبة نبيلة. ويبدو أنّه لا يحرّكها طمع ولا آمال جامحة، إنّها عاقلة تمامًا. لم تجرّب الحبّ أيضًا أو هذا ما أظنّ. داخلي شعور قويّ مؤثّر بأنني لن أجد فرصتي في «العقل» أبدًا. ما فائدة العقل في عالم لا معقول. لا مفرّ. وعليه فلا تحبّب مبادلتها الصداقة ما أمكن ذلك. ولا هجر الإدارة مبكرًا عن العادة. رجعت إلى الفراغ. الفراغ المحتدم بالعذاب والملل. إنّه يتجسّد لعينيّ كما تجسّد الموت في مقدّمة السيّارة، كائن محسوس، غير محسوس، يقطر كآبة ورفضًا للحياة. قبضته الخانقة تفشي لي سرّ المدمنين. مدمني الخمر والمخدّرات والقمار. لكنني محصّن بمثاليّة باهتة وبالفقر. لعلّ الأوفى لي أن أملأ الفراغ بالسياسة. ما زلت على صلة تعاوف بالزملاء القدامى. يمكن أن أطوف بهم للمناقشة والاختيار. شعار عاطف هلال صالح للتطبيق. إنّه يدعو كثيرين من ذوي الإراة ويصلح أيضًا للناثسين. إنّها مجرّد خواطر تعبر رأسي سادرة ولكن أخطر القرارات قد تبدأ من خواطر سادرة. يتسلّل إلى النفس كالمزاح ثمّ ينقلب جدًّا كلّ الجذ. لكنني أقنع بمداعة الأفكار. ومدارة الغريزة الطاغية. سيحدث شيء ما في وقت ما. شيء قريب. أو بعيد. لن تمضي الحياة في فراغ إلى الأبد. الهجرة أو السياسة أو مغامرة لا تخطر بالبال. الأيام تمضي. الحركة بطيئة في الشارع ولكنّ الأيام تسرع. رجاء تحرك أحلام اليقظة. ملكتها في الخيال بقدر ما فقدتها في الواقع.

- ٩ -

تعرّض بيتنا بشارع الشمردل لغزوة قويّة. تقدّم سبّاك في الثلاثين من عمره يدعى أحمد عبد المقصود لطلب يد نهي. قال أبي ونحن مجتمعون في الصلاة. - ما على الرسول إلّا البلاغ، أبوه عامل بالحديد والصلب، يحمل شهادة صناعيّة متوسطة، عمل في السعودية أعوامًا خمسة، يملك شقّة في العادي وسيّارة

نصر...

شملتنا حيرة. وقالت أمي مقفلة:

- ليس من مقامنا!

فقال أبي بمرارة:

- عمّ تتحدّثين؟... انتهى مقامنا من زمان...

فقلت أمي:

- إنّها لم تتمّ تعليمها بعد ولا بدّ أن تتمّه...

فقال أبي:

- إنّه يريدنا ست بيت.

فقلت أمي:

- لم تُعدها لذلك...

فقال أبي:

- إنّه أسهل من تعلّم الطبيعة والكيمياء.

فقلت:

- العمل ضروريّ لها حتّى لا نتركها تحت رحمة

المجهول.

وتحوّلت نحوها متسائلًا:

- ما رأيك يا مها؟

فقلت بوضوح:

- لم نسمع صوت صاحبة الشأن...

فقال أبي:

- الكلمة الفاصلة لها طبعًا.

وتلاقت النظرات فوق وجهها حتّى عطفها مها

عليها فقلت:

- أمهلوها لتفكر...

وقلت أنا:

- ثمّ إنّها لم تره.

فتساءل أبي:

- يهتبي أن أعرف هل تقبله من حيث المبدأ؟

فقلت بإصرار:

- بل هو مقبول من ناحية المبدأ، إنّه يتمي اليوم

إلى طبقة أعلى...

فهتفت أمي:

- إنك تخلط الجذّ بالهزل!

وحدثت الزيارة التقليديّة فوجدته مقبول الصورة

ولا عيب في مظهره إلّا مبالغة في التأنق وحساسية

بالذات ملفقة للنظر. ووضحت مواقفنا بين رفض من ناحية أمي وحياء شمل ثلاثتنا أبي ومها وأنا. وما أدري إلّا ومها تقول لي ونحن نتنظر الباص صباحاً:

- نهى موافقة!

- من ناحية شكله لا بأس به.

- ومن ناحية الموضوع أيضاً.

فسألته بقلق:

- أهو قرار أملاه اليأس؟

فقلت بضيق:

- قسره كما تشاء...

وفرضت الموافقة نفسها علينا جميعاً غير أنّ أمي قالت بغضب مخاطبة أبي:

- المسألة أنّك وجدت زوجاً لن يكلفك مليّاً واحداً.

فسألنا بمرارة:

- هل لديك مال تخفيه عنا؟

ودعوت لها من قلبي بالتوفيق...

- ١٠ -

- ما هذه البهجة المنيعة؟!

وأنا أغادر الشركة مبكراً للتسكّع وجدت رجاء كالمنظرة عند الباب. أقبلت نحوي هامسة في عتاب حاد:

- أين أنت؟ كأنك هاجرت من البلد!

غزتني فرحة راقصة سمت بي إلى أرفع سهوات السعادة. طالما ظننت أنّها نسييتي تماماً، وأنّ عقلها الحكم قد حذفني من جدول الاحتمالات. عتابها اقتحمني كنغمة عذبة مفعمة بالنداء. فيه العتاب والشكوى والرغبة والاعتراف. فيه ما يغيّر مذاق الدنيا في ثوانٍ مثلاً تغيرها الفصول في أشهر. فهل يفرق بين اليأس والأمل إلّا خيط الفجر؟

حوالي العاشرة كنّا نجلس بمجلسنا في الأمريكين.

قلت معبراً عن امتناني:

- جزاك الله كلّ خير فقد أعدت خلقي من

جديد...

تحفّفت من ارتباكها ناقرة على سطح الخوان بظفر

أحر على هيئة لوزة مصفّرة. قلت:

- توهّمت أنّ لقاءنا الأوّل هو الأخير، وعزمت على النسيان بأنّي ثمن، ولكنّ الحبّ أقوى من كلّ شيء.

فهيمت باسمه:

- ولكنّك لا تكاد تعرفني...

- عرفت ما يكفي لخلق الحبّ في أقوى أحواله...

- خيل إليّ أنّك نسييتي تماماً...

- تميّت ذلك، وتبدّد هباء ما تميّت...

فقلت باسمه:

- وما نحن نلتقي لتتقاسم العذاب!

فقلت بحماس خلقتة نشوة الظفر:

- مع الحبّ الحقيقي لا توجد مشكلات...

- حماسك جميل ولكنّه عاطفة وليس معجزة.

- بل هو في الأصل معجزة، علينا أن نعترف

كذلك، في أيّ شرع يجوز أن يفرق بين قلبين أشياء

مثل شقّة وأثاث ومهر؟!

فابتسمت في أسى وتتمت:

- إنّك تحلم بحياة كالطيور.

فقلت بإصرار:

- لدينا الحبّ والإرادة والحياة التي لا ترحم الأغبياء

فلتتعاهد على ألا يفرقنا شيء في الوجود...

فتورّد وجهها حيرة وسعادة فقلت والنشوة ترقى بي في مدارج السكر:

- فللتعاهد!

فهيمت:

- كما تشاء... ولكنّ أما أنّ لنا أن نفكر؟

فخضت أن أفيق من نشوتي فقلت:

- علينا أن نعلن خطبتنا في الحال!

- ماذا؟

- أن نعلن خطبتنا في الحال...

- لو اقتصر الأمر علينا هان.

- علينا أن نقنع الأهل...

- مهلاً... ماذا نقول لهم؟

- إنّنا سنعلن خطبتنا ونحلّ مشاكلنا بنفسنا!

- ولكنّ...

فقاطعتها:

خاض كلانا معركة عائلية على تفاوت في العنف والحرص. دهش أبي وتساءل:
- تخطب؟!!

لكنّ مراة الحياة روضته على الاستهانة بما يعده من الأمور الثانوية. وتساءل مرة أخرى:
- أأنت على استعداد؟
فقلت ببساطة:
- لا استعداد ولا خلافه.
فقلت أمني:
- أنت تعلم أنه ليس لدينا...
فقاطعتها:

- إني أعرف كلّ شيء...
فتساءلت برجاء:
- لعلّ أهلها أغنياء؟
- كلّ...
فتستم أبي:
- قرار خاطئ ولا شك.
فقلت بإصرار:
- لن أعدل عنه.
فرفع الرجل منكبته قائلاً:
- أنت حرّ، وأنتى لك التوفيق.

أما رجاء فقد خاضت معركة حقيقية. انهالت عليها الأسئلة وجاءت الإجابات كلّها بالنفي. ثار الغضب كما ثار الكبرياء. رُميت بالجنون. تدخل أقرباء وقريبات. أصرت رجاء على طلبها، بل هدّدت بإعلان خطبتها خارج نطاق الأسرة.

كانت تجربة عسيرة أن أمضي إلى عيادة الشهيد عبد الملك وأنا على علم كامل بمشاعرهم نحوي، وبأنهم يعتبروني وباء أفلت من المراقبة الصحية. الحق أنّها صدقت عندما قالت:
- إنّ جرائك تستحقّ الإعجاب...
وقد أرفهني ابتياح الدبلتين، أما الشبكة فقد اشترتها رجاء ودسّتها إليّ لأهديها إليها في الحفل الكتيب. ولم تعلّق خارج المسكن أو داخله علامة من علامات

- لكلّ منا عمله واستقلاله.
- ألا نفكر قبل أن نقدم؟
- بل نقدم أولاً...
- أخاف أن نجعل من أنفسنا...
قاطعتها:

- فلنعلن خطبتنا، يجب أن نحقق نصرًا ما. ولك عليّ بعد ذلك أن أسطو على البنك الأهليّ عند الضرورة!
غادرنا المكان وأنا أردّد في باطني «ما هذه البهجة المتعشة!».

يبدو أنّ رجاء اعتبرت ما دار بيننا دردشة غنائية فأصرت على لقاء ثالث لتناقش قرارنا بهدوء. قلت لها:
- رجاء، إذا استرشدنا بالعقل فعلينا أن نسلم بالفراق الأبديّ.
كانت تقدّم رجلاً وتؤخّر رجلاً. كانت تشاركني الرغبة ولكنّها تخاف العواقب. قلت:
- إني مخلص، يلزمي عمر طويل لكي أقصد المهر، وثلاثة أعمار لأجمع خلق الرجل، فإذا لم يكن من التعقّل بدّ فلنترق...
فقلت بقلق:

- سيرون في سلوكنا ما يقطع بجنوننا!
- يلزمنا قدر من الجنون تلقى به عالمنا المجنون...
- يحزنني أنّي سأغضب أعزّ الناس عليّ...
- إمّا أن نُغضبهم وإمّا أن ننتحر...
فتفكرت ملياً ثمّ تساءلت:

- هينا فرضنا إرادتنا فإذا بعد ذلك؟
- لو أنّ لديّ خطة جاهزة ما كتمتها عنك، ولكنّ نحملنا للمسؤوليّة سيدفعنا إلى التفكير، إلى قهر المستحيل... ولو وجدنا الطريق مسدوداً؟
- الطريق المسدود شعار العاجزين، ثمّ ألا يستحقّ حبنا المغامرة والتجربة؟
وكانت في صميمها عازمة على المغامرة...

الأفراح، وندت الوجوه عن بصمات متكلفة أخف منها العيوس.

وقال لي الأستاذ محمد جاد:

- طيبي أن أتمنى لكما التوفيق، لا تسيء الظن بنا، ستكون يوماً ما أباً وتعرف... .

أما حرمه - أم رجاء - فقالت لي:

- نحن دائم متهمون، لماذا؟ أيوجد أثاث بلا مهر؟ هل يعيش ابن آدم بلا ماوى؟ أيوجد أب أو أم بلا قلب؟!

إنه صوت العقل. هو ما يعترضني دائماً بجدار صخري. لم يبق إلا أن نجرّب الجنون. إذا صدك العقل عن السعادة فجرّب الجنون أليس ذلك من العقل أيضاً؟! ما يستحقّ اللعنة حقاً هو الاستسلام. ونحن نلقى الإهمال والضياع على حين تنغى الحناجر بالوعود المعسولة. وتحذيت الظلام.

- ١٣ -

حقّقنا الرغبة واستقرّت الدبلة في البنصر. وأثملنا إحساس هيم بأننا بلغنا غاية ما وراءها غاية. وسرعان ما أدركت أنني لم أقطع إلا الخطوة الأولى. أجّلنا مناقشة المشكلة استبقاء للصفاء ولكنّها استوت على الأفق مثل نذير النشرة الجوية. ولم يجرّني أحد من أسرتي فيسألني مثلاً: «وماذا بعد ذلك؟». مها وهي أقربهم إليّ همست لي يوماً:

- لعله عليك الآن أن تخصص لي جنيهاً شهرياً من مرتبك شهرياً؟

فضحكت ضحكة عصبية وقلت:

- أنظنين أن توفير نقطة ماء يجدي للء بحيرة؟

فقالت باهتمام:

- أظنّ أنه في وسع والدها أن يحلّ المشكلة.

فقلت بامتعاض:

- إنه حقاً موقف كبير ولكنهم أصبحوا جيّعا يتبعون كادر الشحاذين، ومدّخراته نفي بالكاد بأعبائه، ولعله يستطيع أن يقوم بالواجب إذا قدّم الطرف الآخر الشقة والمهر... .

- إذن فما هي خطّتك للمستقبل؟

فقلت ضاحكاً:

- لا أملك إلا إرادتي!

وغامت نظرها بالتفكير، ربّما في حالها أيضاً، حتّى سألتها:

- فيم تفكرين؟

فقالت وهي تتبهد:

- تمتّعوا بشبابهم في أيام يسر ورخاء ولم يخلفوا لنا إلا الأطلال!

ودأبت على زيارة آل جاد بشارع الشهيد عبد الملك من حين لآخر. أملت أن أظفر بعلاقة صادقة مع المسؤولين، ولكنّ أم حبيبي تصدّت لي هناك كالصخرة، وضمت عليّ حتّى بالابتسامة العابرة، وما من زيارة إلا وذكرتني بالواجبات المقدّسة، الشقة والمهر، وفي مجلس الأمريكين قلت لرجاء:

- الهجرة... الأمل في الهجرة... .

فسألني والحق أنّها لم تطرق الموضوع حتّى فتحت لها:

- ما هي فرصتك؟

- عمل قانوني في شركة ما، إنّي أتابع الإعلانات في الصحف، إنها فرصة نادرة... .

- لكنّها محترمة.

- الحقّ أنّي ما أحببت القانون أبداً، لقد اقتحمي مثل حوادث الطريق... .

إنّي أنتظر معجزة. أنتظر عوناً من الخارج. خارج ذواتنا، لم أتعلّم شيئاً ينفعني. أحمد عبد المقصود يعيش عصره أكثر مني ألف مرّة. إنّي أتحدّى وأحلم ولكنّي لا أفعل شيئاً. وضاعف من حدّة مسئوليتي أن عرف الزملاء في الإدارة بخطبتنا. انهالت علينا التهانئ والأسئلة. هذا السؤال اللعين:

- وجدتم الشقة؟

- دفعت الخلو؟

ما هو إلا مزيج من الإحراج. تضخّمت المسئولية التي أحملها. الأيام تمرّ. الأسابيع والأشهر. ينظرون إليّ كطفليّ يقف عثرة في سبيل شابة ممتازة. ولم تسكت عني الأسئلة حتّى فقدت أعصابي واختنقت بمشكلتي

المستعصية .

* * *

وسألتني أم رجاء ذات مرة :

- حتى متى نتنظر؟

وأفصحت عن مشروع لأول مرة - بعد موافقة رجاء

سرًا - فقلت :

- هنالك حل ممكن، جهّزونا، واعتبروا نصيبي دينًا
يُؤدّ عند الميسرة .

فهتفت الأم محتدة :

- يا له من اقتراح لا أحب أن أصفه، حسبي أن
أخبرك أنه مستحيل التنفيذ .

- لماذا؟

فصاحت :

- إنه غير لائق!

همست رجاء برجاء :

- ماما!

وقلت أنا منفعلًا أشدّ الانفعال :

- لا حيلة لي ولكن لا داعي للإهانة . . .

فقالَت الأم بحدة :

- افسخ الخطبة . . .

فقلت بالحدة نفسها :

- لا أقبل أمرًا إلا من رجاء .

فصاحت الأم :

- إن كنت تحبها فابعد عن طريقها!

ولم تكفّ إلا حين أفحمت رجاء في البكاء .

- ١٤ -

رجعت الكتابة بسائها الشاحبة وهوائها اللافح
المشيع بالتراب . زادها الصيف احتدامًا ففتر نشاطي
الروحي وغطاه الرماد . رغم جرأتي عانيت حساسية
شديدة . تمخّض الموقف الباهر لعيني عن أنانية تتجسّد
كالبلطجة . وقلت لبقايا الحلم الوردّي «لا» . لعلّها
لاحتلت كآبتي في اليوم التالي في الأمريكين فقلت لي :
- إني معك حتى النهاية .

ومع أنني تلقّيت قولها مثل شربة مثلجة في يوم قانظ
إلا أنني قلت :

- ليمعد الله عنك شرّ هذه النهاية .

فتساءلت بقلق :

- ماذا حلّ بروحك؟

فقلت بوضوح :

- ليس الحب أن أضحي بك على مذبح جنوني .

- ما زلنا في أوّل الطريق وسوف نجد حلًا ما .

- أين الحلّ؟ . . . المسألة أظنّ نأ تصوّرونا وأنت
الخاسرة!

فقلت بعتاب :

- أحسبتي قاصرة؟ . . . لا تعتبرني ضحية من
فضلك .

- لهذا هو سرّ جنوني الباهر ولكنّه هو أيضًا ما يملّي
عليّ ما ينبغي عمله . . .

- ما ينبغي عمله؟

- لا يجوز أن تبقى خطبتنا أكثر من ذلك بلا حلّ
واضح . . .

فقالَت بانفعال :

- شخص آخر يتحدث، أنسيت . . .

فقاطعتها :

- لم أنس، كنت مجنونًا، لقد أسأت إليك إساءة
بالغة، الجميع يدركون ذلك لا والدتك فقط، الجميع
حتى الزملاء، لا شك أنك تسمعين ونفهمين .
- لا أهمية لذلك . . .

- نبيل وشجاعة ولكنك تسيثن إلى نفسك بلا
أمل، رجولي تأبى عليّ ذلك، حتّي يؤنّبني ويتهمني،
لا . . . لا . . .

فقالَت بحدة :

- إني صاحبة الحقّ في القول الأخير .

- لي حقّ أيضًا، بل هو واجب، على المجنون ألاّ
يجرّ الآخرين إلى جنونه . . .

- كنت في جنونك أفضل منك الآن ألف مرة . . .
فقلت بتصميم :

- إني آسف، ولست في حاجة إلى أن أؤكد لك
حتّي . . .

فهزّني اليأس، وكنت مصرًّا بقدر ما كنت
يائسًا . . .

ما فعلته بنفسى لا يصدق. استيقظت عقب ليلة مسهدة لأرى حقيقة بشعة ترصدني لتقول لي بصوت فظ: «اختفت رجاء من حياتك». ترامت إلى أصوات الطريق كأنها هي نعي للوجود، نعي لأي معنى. لم أحيًا؟! كيف أعاشر هزيمتي إلى الأبد؟! برؤي أن أبصق على كل فكرة خطرت وكل فعل نُفذ.

قال أبي لي بأسى:

- إني حزين يا علي، وددت لو كان بوسعي مساعدتك...

واغتمت أمتي حتى دمت عيناها.

الحزن يتغلغل في أعماقي كلها ولكني لم أجد بدا من حمل حياتي والمضي بها. واستسلمت لرد فعل غضبي فقابلت وكيل الإدارة وسألته أن أنقل إلى إدارة أخرى مقدمًا أسباب ذلك. ونقلت إلى إدارة المستخدمين عاطلاً كما كنت. وصارعت أشواقى والآثام تمر متقلة بأنفاس الصيف. رجوت أن يتلاشى الحب مع الزمن، رجوت أن تحرر هي من كافة القيود لتسترّد رونقها البهيج. في تلك الأيام تابعت بإعجاب مغامرات الإرهابيين في الصحف. إنهم ينفجرون في أركان البلد معلنين عن نبض جنين ينمو في رحم الغيب. انبعث من قلبي المحطم أخيلة مطلقة مرقت في الفضاء وغاصت في أعماق المحيطات. وجعلت أأامر مع خلايا الأحياء وذرات الجهادات. ولم يحمد الحب ولم يبرد الشوق وتمادت الغريزة اشتعالاً.

وقادتني قدامي إلى مفهى الحرية فلمحت الأستاذ عاطف هلال في مجلسه. أقبلت نحوه بتلقائية وتوتر مشحوناً بالاحتقار. حيته قائلاً:

- لعلك تذكرني...

فرمقي بنظرة طويلة وشت بعبزه عن تذكرني:

- أنا صاحب المشكلة الجنسية...

فالتمعت عيناه وقال ضاحكاً:

- آه... لا مؤاخذه... السن والشواغل...

اجلس... جلست فراح يقول متسائلاً:

- لعلك وجدت الحل؟

فدفعني العبث لأن أقول:

- الحل الكامل...

ثم مستسلماً أكثر للعبث:

- سأنضم قريباً إلى أصحاب الملايين!

فارتفع حاجباه الأشيبان المائشان وتساءل:

- حقاً؟

فقلت بثقة لا حد لها:

- بكل تأكيد.

- كيف؟

- الأسرار لا تباح!

فهز رأسه هزة الخيرة وقال:

- إنها مسجلة في جدول عفووظ...

فابتسمت فيها يشبه الطمأنينة فسألني:

- ألنت سعيداً؟

- طبعاً.

- لأتلك ما زلت في أول الطريق.

- هذا حق.

- أما سمعت عن الذين يربحون الدنيا ويخسرون أنفسهم؟

فقلت كأنما سخريني:

- كيف لا وأنا أحدهم؟!

فقال بنبرة مأساوية:

- خسارة النفس لا تعوض.

فقلت منفعلًا:

- كذب.

استاء ولا شك من لهجتي فصمت مقطبًا فقلت

بسخرية:

- تحرر من الاكلشيهات لتعرف الدنيا على

حقيقتها.

فقال متضايقًا:

- إني أعرفها خيرًا منك.

فاندفعت أقول عتدًا:

- ماذا كنت؟... وماذا أصبحت؟... وثبت في

الوقت المناسب من السفينة وهي تغرق...

تساءل في انزعاج:

- ما هذا؟

وراءك...

فقلت مستزیدًا في التهادي:

تذکرت آلامي بندم وأسف فواصلت حديثها:

- أنت أيضًا من الذين ربحوا الدنيا وخسروا

- كأنك كنت تهرب من هذا المكان أيضًا...

أنفسهم...

- هل ترددت عليه قبل هذه المرة؟

فهتف غاضبًا:

فحنت رأسها بالإيجاب فقلت:

- لقد جئت بقصد إهانتني ولن أسمح لك بالبقاء

- آسف جدًّا.

بعد ذلك...

- ما فائدة الأسف؟

قمت. غادرته دون سلام، وتحت الشمس المحرقة

- سعادتك هي ما كانت تمنّني...

في الخارج شعرت بانشرائح فضحكت. ماذا قلت؟

- وفرت لي من الشقاء ما يشفق منه العدو.

كيف تأق لي قوله؟ الحوار من جانبي مرّجل من ألفه

- أما آلامي فلن أحثك عنها...

إلى يائه. المقابلة تمّت بغير خطة سابقة. انتشيت بمرج

فقلت بحرارة:

عارض وأنا أمضي فوق قاعدة راسخة من الألم. وفي

- أرجو ألا تنصرف بقباء بعد الآن...

صباح اليوم التالي بدأت بعاموده اليومي في الصحيفة

فقلت بقوة وإيمان:

فوجدته يتحدث عن الطوفان الجديد، وآته لن ينجو

- لن نفترق أبدًا.

من الغرق إلا من يلوذ بسفينة المبادئ. الحقّ أنّه ليس

فابستمت بعدوبة فقلت:

أسوأ من غيره، ومقالته تُفهم على وجهها الصحيح إذا

- لن تراجع حيال عقبة.

اعتبرت نوعًا من النقد الذاتي الخفي، وإعرابًا عن

- لم أكفّ عن التفكير لحظة واحدة.

الاغتراب الذي تطوّعوا لاعتقائه.

فهتفت:

وفي مرحلة متأخرة من رحلة الآلام - وأنا أنسج

- هذا هو الخطأ!

على غير هدى - اقتحمي إلهام منعش. مجهول

- ماذا؟

الأسباب مقطوع الصلة بالواقع، على مقربة من

- التفكير في مثل حالنا هو خصمنا...

الأمريكين تألق الإلهام وتوهّج، دفعني إلى دخول

فابستمت قائلة:

المكان بقوة واعدة بالمعجزة...

- لقد جرّبتنا الارتجال؟!

رأيت رجاء في مجلسنا كأنها تنتظر. تسمرت أمامها.

- ونجحنا، ولم نفشل إلا بالإذعان للتفكير...

- ١٦ -

تلاطمتني أمواج انفعالات متضاربة. مضيت أخرج

- أخشى أن نجعل من أنفسنا أضحوكة للعالم...

من ليلي الحالك إلى نهار مشرق. انهمرت فوقني أعذب

فقلت بتصميم وهدهو:

الحان الوجود ونشوانه مؤيدة بقوة تستطيع أن تفعل ما

- لتزوّج في الحال!

تشاء. ارتحمت إلى جانبها صامتًا. تنفّست بعمق لأسترد

فروقتني بذهول فكرزت:

شيئًا من الهدوء. تساءلت بصوت هامس:

- في الحال.

ماذا جاء بك؟

- أتعني ما تقول؟

فسألتها بدوري:

- بكلّ جدّية، ودون الرجوع إلى أحد.

ماذا جاء بك؟

فتساءلت بحيرة:

فقلت بعتاب:

- ثمّ ماذا؟

- إنك ماهر في الاختفاء فلم أرَ بدءًا من الجري

- أجلي هذا السؤال إلى ما بعد الزواج وسوف

يتبدّى لنا في صورة جديدة تمامًا...

- لا مستحيل بعد اليوم، ممكن أن تُقنعي نفسك
بالتعلم وأقنع نفسي بالقانون ثم تهاجر...

- طلالا كرهت ذلك...

- أنا مثلك، فلنعمل ما نكره لنعيش ما نحب...

لكن يلزمنا مكان!

- مكان... مكان... أنت تضعحكي...

فقلت وأنا أتصفّح وجوه العمارات:

- فدلّق... بنسيون...

فهمت:

- ماذا؟... لا حقيبة معنا!

فقلت بجديّة عمومة:

- معنا تحقيق الشخصية والوثيقة الشرعية...

- سلوك غريب...

- لا تتعلّق بالأوهام الفارغة، سترجعين إلى بيتك

في الوقت المناسب!

فقلت وهي تداري ابتسامة:

- إنك تفكر مثل مراهق!

فقلت مدافعا عن نفسي ومتذكرا في الوقت نفسه

لتاريخي الأليم:

- ولكنّي أبصرُ كرجل...

- ١٨ -

لقاءات نهاريّة، قصيرة العمر، متباعدة على قدر ما

نسمح به الميزانية. لأوّل مرّة أشعر بأنّي أنضج كإنسان

وكعاشق. لم تشاركني رجاء أفراسي بنفس القوة. حتّي

ذلك على مواجهة الحقائق. قلت لها:

- الهجرة هي طريقنا الواضح.

فقلت بعصيّة:

- لا أدري كيف سأحمّل العمل الجديد.

فقلت رغم مشاركتي لّيّاها في موقفها:

- هو خير من البطالة ثمّ إنّه سيهيئ لنا عيش

الزوجيّة.

- العمل بلا حبّ نوع من السخرة.

فقلت برجاء:

- ثمّ يبيء الحبّ مع النجاش وهناء القلب...

فتساءلت بقلق:

- ربّما وجدت في الزواج ما وجدت في الخطبة من
قبل؟

- إنّي أعرف الآن معنى الفراق كما أعرف قيمة
الجنون...

فتفكرت في قلق واضح ثمّ قمت:

- الناس... الناس... التعليقات... أف...

فقلت مترفقا بها:

- لنبدأ في سرّيّة مؤقتة... أيربحك هذا؟

فتساءلت في حيرة:

- لم تكره التفكير؟

فقلت بسخرية:

- أيّ تفكير؟... ما هو إلّا ترديد لأصداء ماضٍ
علينا أن نحكمه...

- ١٧ -

سرنا ممّا متلاصقين بعد أن تقرّر مصيرنا بأجراً

خطوة أقدمنا عليها في حياتنا. كنّا نشعر بدفع داخليّ

رغم برودة الخريف المؤدّع كما شعرنا بطمانينة ونحن

نخوض دنيا لم نعرف بعد بنا. بيد كلّ ممّا وثيقة ملكيّة

تشمل الروح والجسد. وبقلبي شعلة استأثرت

بجوارحي فتناميت الأمور المعلقة. سالتني في مرج:

- كيف تشعر؟

فقلت دون تردّد:

- بأنّي انتزعت المسؤوليّة من أيدي المختصين...

- أظنّ أنّ التفكير الآن لا يُعتبر جريمة...

- يوجد الآن ما هو أهمّ...

التفتت نحوّي متسائلة:

- ما هو؟

- أن نجد مكاناً نرتاح فيه ولو ساعة من زمان...

فقلت وهي تداري ابتسامة:

- المسألة أكبر من ذلك.

- أجل ولكنّي أسير هذه اللحظة، الأخيلة المرحّة
تطاردي.

فقلت بعناد:

- إنّي أسيرة أفكاريّ أيضاً...

رَبُّتُ على يدها وقلت بعجلة:

- ثم من أدرانا أن ذلك الهدف الثقيل ميسور في النهاية؟

فقلت بقوة أغطي بها قلقي :

- أعتقد أنه غير مستحيل ثم إنه توجد تجارب أخرى...

أدركت عند ذلك أنني أسير بها نحو الفندق فشددتني إلى شارع ماسيرو وهي تقول :

- كرهت التردد على الفندق...

فرمقتها بعتاب فقالت كالمعتذرة :

- الجميع يدركون لماذا نجيت، ما أفظع نظرات الموظفين والخدم!

- ألا تستطيعين أن تقلديني في عدم المبالاة بالآخرين؟

- فعلت الكثير ولكنني أعجز عن مجاراتك!

انزعجت حقًا وقلت وكأنها أحادث نفسي :

- لا أطيع العودة إلى العذاب!

- وحتماً تسدل على شرعيتنا ستار السرية؟!

- ما اخترتها إلا تشجيعاً لك وإنني مستعد لإعلانها

اليوم قبل الغد، أعلنيتها وقتما تشائين ودون الرجوع إلى...

وخشيت ألا تمضي الأمور بالعدوينة التي مضت بها...

- ١٩ -

دُعيت إلى مقابلة مدير عام العلاقات العامة. أول دعوة من نوعها منذ التحقت بالخدمة. ولماذا يدعوني وأنا رجل عاطل؟ طالعني بوجه متجهّم أثار أعصابي وبخاصّة وآته من الجليل الذي أناصبه العداء.

- حضرتك عليّ عبد الستار؟

- نعم.

- ما عملك؟

- لا عمل لي...

- ألا يكفي أن تستبقيك الشركة رغم أنك زائد عن الحاجة حتّى تكافئها بارتكاب الجرائم في رابعة النهار؟

فقلت بغضب وذهول معاً :

- إنّي معيّن بحكم قانون عام فلا فضل لأحد عليّ، ثم إنّي لست مجرماً فلعلّك أخطأت الشخص المطلوب.

فتساءل بهدوء الظافر بفريسته :

- من إذن الذي يصحب الزميلة رجاء محمّد إلى فندق «العشّ الجميل»؟

انشقّ قلبي تحت ضربة ذهول داهم فتساءل ساخراً :

- أرايت؟

ثمّالكت نفسي بسرعة وقلت بتحدّ :

- سيادتكم مخطئ، ومُبلِّغُك مخطئ أيضاً، رجاء زوجتي الشرعيّة!

- ماذا؟

- إليك الدليل...

قرأ الرجل الوثيقة بدهشة ثمّ تفحصني باهتمام وقد لانت ملامحه وتتم :

- مدهش، ألم يعلم زملاؤك بذلك؟

- كلّاً، ثمة ظروف جعلتنا نقرض سرّيّة مؤقتة على علاقتنا!

- ولماذا تتردّدان على الفندق بتلك الحال المريبة؟

- المسألة بكلّ بساطة أنّنا لا نجد مكاناً!

دارى الرجل ابتسامة خفيفة وقال :

- أنا مضطّر إلى إعلان زواجك كتفسير ضروريّ

لعدم إحالتكما إلى إدارة التحقيقات!

فسألته بسخريّة خفيّة :

- هل يمكن أن تدلّني مشكوراً على شقّة؟

فأجابني ببرود :

- لست سمساراً يا حضرة!

- ٢٠ -

أعلن الزواج، لا مفرّ. في بيتنا أحدث دهشة ولا شيء سواها. هتفت أمّي :

- غير معقول أن تفعل ذلك من وراء ظهورنا...

اغرقت مها ونهى في الضحك أمّا أبي فقال :

- أنتم جيل مجنون، قدّم لي سبباً واحداً يبرّر تصرفك المضحك...

فقلت معتزلاً :

بخواطري المضطربة ولكنّها لكزتي بكوعها قائمة في تحذير:

- انظر.

رأيت شيخاً قادمًا تبينته شرطياً عندما وقف أمامنا. اضطربت وأنجّه وعي نحو الوثيقة في جيبتي. قال الشرطي:

- سلام عليكم.

فقلت وأنا أجهل ما وراء سلامه:

- وعليكم السلام.

وصمت فانتظرت الخطوة التالية ولكنّه لم ينبس ولم يتحرّك فقلت:

- نحن نشمّ الهواء، أنا وزوجتي...

فقال بنبرة واضحة:

- متزوّج أو غير متزوّج، لا يهم...

فقلت بتحدّ:

- لسنا وحدنا، الحلاء مليء بأمثالنا.

فقال ضاحكاً:

- افعل مثلهم...

زاييلي الارتباك ففطنت إلى مقصده. دسست يدي

في جيبتي مستخرّجاً ورقة من ذات الخمسة والعشرين

قرشاً ومددتها إليه. تناولها ثمّ قرأها على ضوء بطارية

ثمّ ردّها قائلاً:

- مقامك جنه على الأقل!

ولما ذهب قلت ضاحكاً:

- أرخص من الفندق بما لا يقاس...

فهتفت:

- يا للعارا

فضممتها إلى بحارة وأنا أقول معتزلاً:

- إنّها ظروف استثنائية لعينة، ولسوف نضحك

عليها في القريب...

وأطلت علينا القرون من فوق الهرم وهي تضرب

كفاً بكفّ...

- كانت السريّة إكراماً لها!

- أنت أحمق، وهي أيضاً حمقاء، لولا ضيق شقّتنا

لدعوتك للإقامة معنا.

- إنّي مدرك لذلك كلّ.

فتساءل ساخراً:

- ماذا يغريكم بالزواج؟ ألا تتعظون بما حصل لنا؟

فقلت عابثاً:

- سعادة بيتنا هي التي أغرتني بما فعلت...

أمّا بيت زوجتي فقد اجتاحت حريق. استنتجت

ذلك من كلمات رجاء المرحّضة ومن امتعاضها الدائم.

تخلّلت الطعنة وأثرها الدامي في قلبي الوالدين. قالت لي:

- إنّي أعيش في بيت يرفضني تماماً.

فدفعتني قولها إلى الارتطام بمسئوليّتي فقلت:

- تعالي إلى بيتنا مؤقتاً!

ولكنّها لم تنبس فقلت:

- سأجد الإعلان الذي أبحث عنه في الصحف،

لا بدّ أن أعثر عليه ذات يوم...

فقالت بضيق:

- ومن ناحيتي فالتعليم أحبّ إليّ من هذه الدنيا.

فقلت بإصرار:

- لو اقتضى الأمر أن أتعلّم حرفة فسأتعلم

حرفة...

وكان رفضها لفكرة الفندق قد أرجعني إلى حيرة

العذاب. ورغم أنّ الأمل في الرسو على برّ - بعد تقبّلنا

للهمجرة - بات ممكناً إلّا أنّ عذابي لم يبرد. ومضيت بها

ذات مساء لا يخلو من دفة إلى هضبة الهرم. لم يبقَ

الحلال الوليد في السماء إلّا قليلاً ثمّ انتشر ظلام مريح.

عن يميننا ويسارنا مرقت الأشباح إلى الحلاء وذابت في

الظلمة. طوّقتها بذراعي بحنان وشوق ونحن نتعزّز

على مهل حتّى توقّفنا تماماً. ملت نحو أذنّها لأمس لها

سمارة الأمير

- ١ -

دنياها الوحيدة. إنها قلعة شامخة ذات أبراج الزينة وحديقة مترامية، تتوسط شارع سينالي بلوران بالإسكندرية، وروبة الدار الهانم تأسس إليها لإشراق وجهها وطيبة قلبها فتخصها بالقرب وتختارها دون غيرها لتندليك قدميها وساقها. تعطف عليها لطيفة قلبها وسذاجتها. ونقاها من المكر. فكانت الوحيدة في السراي التي يهيم لها فرصة الوجود أحياناً في اجتراح الباشا بحرمة. وتسمع أحياناً ما يدور بينها من حديث، بل وما يتبادلان أحياناً من نثار أو شجار. ويسألها - الخادمت الثلاث - عما تسمع فتشعر بأهيتها وتمضي في حكي الحكايات. وكان الباشا وحرمة عجوزين وحيدين. فكريتهما متزوجة من قنصل يعمل في الخارج، وابنها يعمل كذلك في سفارة، ولكن الرجل كان رائعاً وقوراً، يمضي في شيخوخته وأناقته كتمثال أو يجلس في روية آية في الجاذبية، وكانت حرمة جميلة رغم طعونها في السن، وكم أعجبت شلبية بلون بشرتها الأبيض وزرقة عينيها، ويقول الباشا لحرمة في غضبه وأنت ظالمة... أنت عمياء فتقول له «ما أنت إلا ثور»، «ألا تقرأ ما يكتب عنك؟». عندما ثور عاصفة تنكمش في ذاتها، تود أن تخفي، تنكس رأسها، وقد تدع عينها. ومرة سألت الهانم بحلة: «لماذا أفلتت منك الوزارة هذه المرة؟» فيقول لها «حقى السراي لا تخلو من عدو لي» فتقول له «بل أفعالك الشائنة هي عدوك الأول» فيتساءل: «وأفعالي الشائنة؟» فتصرخ «نعم... ما زلت تحلم بمبادل الشباب يا عجوز؟». ومتى منعت الأفعال الشائنة من

تبدو ضئيلة جداً، لا لضالة في تكوينها، فهي بشهادة الجميع أنضج من سنّها، ولكنها لا تكاد تُرى في الحجرات الواسعة والأبهاء المترامية، أما في الحديقة الفوّاحة الشامخة فتلوح مثل عصفورة حائرة في وثباتها المتتابعة فوق ممشى الفسيفساء. في أوقات الفراغ، المعصاري المزخرفة بالظلال، تقف مستندة إلى ضلّة الباب الكبير ترنو بعين إلى أشجار البلخ المظلة لشارع سينالي، وتلاحظ بعين الأريكة يجلس عليها البواب وسواق السيارة عليّ جلال. يعجبها منظر عليّ جلال ببذلة الرسمية، وقامته الطويلة مثل جذع النخلة ولونه الغامق ونظرته الحادة. إنه يلي في التأثير الباشا الذي لا يضارعه شيء، وهي يروعه كل شيء في السراي وما حولها، قلبها الغضّ يجود بالإعجاب لكل شيء، وهي تحب كل شيء، ولم تعد تذكر من الكوخ الذي آواها في طفولتها برشيد إلا طيقاً ذائباً في ماضٍ مضى وانقضى. حتى والداها سرعان ما نسيتهما ولم يبق من صورتيهما إلا النمط الشائع. جاء أبوها بها إلى سراي عصمت باشا خورشيد وهي ابنة ثمانية منذ سبعة أعوام، وعقب عامين جاءت أمها حاملة نبأ وفاته، ثم أبلغت بعد عامين آخرين نبأ وفاة أمها، فلم يبق من الشجرة إلا أقارب مجهولون لا يحفلون بها ولا تذكرهم. وعند كل نبأ أسود كانت تجبهش في البكاء، وتُحاط بعطف ما، ثم يطيب الخادمت الثلاث اللاتي يشاركنها حجرة البدرود خاطرها، ويحدّرنها من الاسترسال في الحزن. التصقت بالسرايا باعتبارها

الشعور بالاهمية، تداعب السرور الخفي. تغطي القلق بغلالة من إجماع وردئ.

وذات أصيل كانت تطارد ضفدعاً في جدول عفوف بالشوك. كان الوقت خريفاً والرداذ يجيء قليلاً ويغيب قليلاً. شعرت بنداء يدعوها للنظر إلى الوراء. رأت عليّ جلال يقف تحت شجرة ليمون رانياً إليها بنظرة ثملة، بسمت بارتباك ووثبت فوق الجدول. في الجوّ سرّ خفيّ وكأنّ أوراق الأكاسيا تنهامس به. عكست عينها السوداء وان بهجة وحلّزاً. ترنّحت فوق حافة مغامرة مجهولة بلا مقاومة تُذكر. دنا منها صامتاً مريد الوجه. تناول يدها ومضى بها إلى الجراج في نهاية عمشى مسفلت. لم تقاوم ولكنّها تساءلت:

- ماذا تريد؟

ضمّتها إلى صدره وغمرها بقبلاات شرهة. وقفت مستسلمة لا تشارك ولا تقاوم. نمّنت ألا يجاوز ذلك الحدّ ولكنّه لم يجترح خطوة إلاّ كتمهيد لآخرى جديدة. وسألت:

- ألا تخاف النار؟

ثمّ تساءلت ووجهها يتقلّص بالآلم:

- ما هذا؟!

- ٣ -

الواقع دون الحلم ولكنّ شخصه أهمّ من فعله، باتا شريكين في حدث خطير، وكأني لسرّ هامّ. استولى على قلبها وخيالها، أحبّته أكثر ممّا تصوّر، تصوّرت العلاقة أقوى من صلب البوابة وأنقى من ماء المطر. هو فارس قلبها وقلوبها مطيّة الأمانة. ليست السراي بالمكان المأمون لهذه الأفعال ولكن حتّام يبقى السرّ سرّاً؟ ضايقها أن يتجاهلها بحكم الحذر، طمعت إلى معاملة أرقّ وأطيب صراحة. وقال لها مرّة:

- تحبّي النظر نحوي، أنت مجنونة؟

فسألته بحق:

- لماذا تخاف؟

- أنت مجنونة؟

- أنت المجنون، أنسيت فعلك؟

الوزارة، «إني أفكر في الإقامة مع ابني في الخارج». ولا يحول ذلك دون خروجها في المساء نفسه لقضاء سهرة ممّا كزوجين سعيدين.

ألفت شليّة هذه الحياة الأنيقة، كادت تُخصّص بخدمة الهانم، ولكنّها كانت تخدم عن طيب خاطر النسوة الثلاث اللاتي يشاركنها في البدر، وتنظف الحجرة، تغسل الملابس، تبتاع لهنّ الدخان وأوراق البفرة، وتتطرّع بدافع خاصّ للفت السجائر. وعن لسان الهانم أدركت أنّها أنضج من سنّها، وأنّها «شيخه» لطيفتها ومذاجتها، أمّا في الطريق وعند البديل فمضت تدرّك أنّها جميلة فتسعد بهذا الامتياز وتعامل في تحفّظ وبدلال مع المعجبين. وكانت أخلاقها فطريّة لا تكاد تتجاوز الحياء. حدّثتها أمّها عن الجنّة والنار، وحذّرتها الخادومات من المفوعات اللاتي تقضي على مستقبل البنت. مستقبل البنت؟ إذن فحياة السراي غير دائمة، ما هي إلاّ دار انتقال. المستقبل الحقيقيّ يقع في الخارج. ربّما في كوخ كالذي جاءت منه. لكنّ ما كان يكفي لهذا لتوفير تربية أخلاقيّة حقيقيّة. كانت طيّبة، سمحة القلب والعاطفة، ومُأبئة للإعجاب والحبّ. ذات قشرة رقيقة من الدين والخلق. ألفت الحياة الأنيقة، ومعاشرة علاقة زوجيّة حافلة بأسباب الهناء والصراع، كما ألفت جوّ الإسكندريّة المتقلّب بإشراقه وعدويته ونواته الضارية. وتجمّعت أنفاس المراهقة في برعم قلبها فامتلاً برحيق الحياة الساخن. ..

- ٢ -

من عالم الرجال، العذب المخيف الغامض، يطلّ وجه عليّ جلال مثل النارة. ليست بدلتة الكحلّة هي المثيرة وحدها، ولكنّ قامته أيضاً، وبصفة خاصّة نظرة عينيه الوهاجة، في العواصف التي تسجد لها الأشجار الشاخنة يقف مستهتراً، مقعّباً وباسماً في آن، ولا يترّاجع إلى حجرة البوّاب حتّى ينهمر المطر ويشرق أديم الأرض السنباجي. له نظرة يودعها أحياناً النسمة الباردة المضمخة بشذا البحر، مثل قرصة ملاطفة لحدّ موزّد، حادة وناعمة، لغتها غامضة متحرّشة، تهبّج

- من الخير أن تترك السراي...

- حقاً؟... إلى أين...؟

- أنت مستعدة؟

- نعم.

فتفكر قليلاً ثم قال:

- انتظري مساء عند نافورة الميدان واحذري أن

يتبه إليك أحد...

- ٤ -

انتهى عهد السراي كما انتهى عهد الكوخ من قبل. في حجرة عليّ جلال الوحيدة بفراشها السفري وصوانها القديم المقشّر وحصيرتها المتهرّقة شعرت بأنّها في بيتها. لأول مرة تشعر بأنّها تنتمي إلى وطن، وأنّها ستّ بيت مثل حرم عصمت باشا خورشيد، ومضت تعرف نفسها وتبحر الحياة والرجل والحبّ. وكان للعلاقة شهر عمل أيضاً ولكنّه في الواقع أقلّ من شهر. تجلّى عليّ جلال عاشقاً نحو أسبوع ثمّ خرج من جلده رجل جديد. اختفى المجلد الباسم العطوف وحلّ محله رجل فظّ ضيق الصدر متوثّب دائماً للزجر والردع، عجبت لتغيّره، فزعت من معاملته، وكانت تردّد به تعلّقاً وارتباطاً. إنّها لا تطالبه بشيء، تخدّمه بولاء. تبه ما تملك بلا مقابل. لم تكن تذوق اللحم إلاّ مرة واحدة في الأسبوع بلا تذمّر. آيسّت من فكرة الزواج فتجنّبته وقتعت بحالها. ورغم حزنها شعرت بأنّه ملكها وبأنّه لا غنى له عنها. ومرة سألته:

- لماذا تعاملني بخشونة؟... هل بدر منّي ما يسببك؟

فقال:

- إنّك تتوهمين ذلك لأنك دلوعة!

فقالت برجاء:

- أحسن معاملتي، ألا ترى أنّي يتيمة وحيدة مقطوعة من شجرة ولا أحد لي في هذه الدنيا سواك؟ فقال بسخرية:

- إنّني مثلك تماماً، وكنت مثلك دائماً، لم أعرف لي شجرة. وعلى حين نشأت أنت في سراي باشا نشأت أنا في إصلاحية، ورغم ذلك اعتبرت الشكوى خنونة!

- ولكنّي أنائم...

- الحياة خشنة وتطالبنا بالخشونة...

- ألا تزال تحبّي؟

- أظنّ هذا واضح...

فقالت بعذوبة وبراءة:

- إنّني لا أشكو إلاّ معاملتك!

- فكذا خلقت! ماذا ينقصك؟!

أحقاً لا يدرك كم تتحمّل من شظف العيش حرصاً

عليه؟! وتهتّد قائلة:

- ربّنا موجود...

فسألها بحذّة:

- ماذا تعرفين عنه؟

فقالت باستسلام:

- إنّهُ موجود، ألا يكفي هذا؟!

ولكنّها كانت تفوص في صميم الحياة، وتزدهر رغم حرمانها من طيبات الحياة التي ألفتها في السراي، ويتألّق جمالها وشبابها في الجلباب الشعبي، وتنعم بالحبّ...

- ٥ -

وكان يقول لها أحياناً وهو يدخن ويحلم:

- لا دوام لحال...

فترمقه بسؤال حائر في عينها الجميلتين فيقول:

- وكأنت في الحضيض فسيصير الحال إلى

الأحسن!

- حقاً؟... ولكنّي لا أصلح لشيء...

ويبتسم، ويرم طرقي شاربه، ويصمت فتقول:

- بوسعي أن أخدم في أيّ بيت ولكنّي سأنقطع عن

بيتي!

فيضحك ويقول:

- هرويك آثار في السراي زوبعة...

فقطّبت ولم تجد ما تقوله... فيواصل:

- ظلّوا في بادئ الأمر أنّك سرقت شيئاً ثميناً، وكما

وجدوا كلّ شيء في محله أدركوا الحقيقة!

- الحقيقة!

- قالوا إنّها هربت مع رجل غواها، أليست هذه

هي الحقيقة؟

- ولكنهم لم يعرفوا الرجل؟

- طبعًا...

ثم يقول بثقة:

- لا دوام لحال.

- ٧ -

رجع عليّ بعد دقائق ممتلئًا حيويةً واستشازًا.

سألته:

- من الرجل؟

- مأمون القرماني صاحب ملهى الفلير دامور بالشاطبي.

- لماذا جئت به؟... وما معنى حديثكما؟

- الصبر مفتاح الفرج...

وقف ينظر إليها باهتمام ثم قال:

- غني... غني أي أغنية...

فذهلت ولاذت بالصمت فعاد يتساءل:

- ألم تغني من قبل؟... في الحقل؟... في الحتام؟

- أبدًا لم يشجّعني صوتي قط...

- يا للأسف... ولكن جسدك صالح

للرقص...

فهتفت:

- الرقص!

- ليس عندك إلا الشكوى والصراخ، إني أعرض

عليك خاتم سليمان...

- أنا أرقص؟

- بعد تهذيب وتعليم ثم تفتّح لك أبواب

الرزق...

- أمام الناس؟

- طبعًا...

- انحن... يا للعيب...

فابتسم برقة مصطنعة وقال:

- إنه مهنة شريفة، شرفك من شرفي، افهميني

جيدًا، لست أنا الذي أدفع بك إلى السقوط!

- أنا مستعدة لأعمل أي شيء آخر...

- ألا تريد غداء أوفر وكساء أجمل وحياة

أفضل؟... سنغيّر حياتنا بالعمل والشرف... جزي

- ٦ -

وذات مساء جاء معه برجل قصير بدين قمحي

اللون صامت الملامح. جلس إلى جانب عليّ على

الكنبة على حين وقفت هي مستندة إلى السرير غائصة

في ارتياكها. وكما طال الصمت والنظر قالت منهوبة:

- أصنع لكما الشاي...

فقال الغريب بصوت غليظ:

- شكرًا... لا أريد شيئًا...

وقال عليّ جلال:

- إنها لافقة ولأ فأنّي لا أعرف شيئًا...

فابتسم الرجل ولم يعلّق وواصل النظر فقال عليّ:

- إنها لافقة...

فسأله الرجل ببرود:

- ماذا تعني؟

- من ناحية الشكل...

فتساءلت بحدة:

- عمّا تتكلّمان؟

فاشار لها عليّ إشارة أمرة بالصمت على حين قال

الرجل:

- وما أهمية الشكل؟

- إنه الأساس...

- أعندك فكرة عمّا تحتاجه من تعليم؟

- إنه اليسير إذا توفّر الشكل...

- ما اسمها؟

فقال عليّ مستغلاً وثبة من الأمل:

- شليّة الأمير...

فابتسم الرجل متمثلاً:

- الأمير دفعة واحدة... ولكن أعوذ بالله من

شليّة!

فهتف عليّ بتحدّ:

ولا تخافي، سيربط الرقص بيننا برباط متين أما الحياة
كما هي الآن فلن تحسن أكثر من ذلك!
انقبض قلبها، ومقتته بتسوسل، اغرورقت
عينها... .

- ٨ -

كان صباح داكن، نجيش سماؤه بسحب ملبدة،
والرياح تزارر مطلقة الأمواج المزبلة إلى أديم
الكورنيش. جلست إلى جانبه في شيفروليه عصمت
باشا خورشيد واندفع بها نحو الشاطبي وهو يقول:
- من يدري؟ قد تمثلين يومًا سيارة كهله.
استقبلهما مأمون الفرمانى في شقته فوق الملهى
مباشرة بعمارة مكوّنة من عشرة أدوار مطلة على البحر
الثائر، تجاهل احمرار عينيها من أثر البكاء وقال:
- أهلاً بالتمليّة... ستضحكين غدا...
وقدّم لها الشاي والكمك ومضى يقول:
- انسي شليّة، اخترت لك اسم «سيارة»، سيارة
الأمير، تركت لك الأمير فهو مناسب جدًّا، هل تتوقّع
إزعاجًا من أهلك؟
فأجاب على عنها قائلاً:
- كلّاً.

- عظيم، نحن في أوائل الشتاء، الشتاء فصل
ميّت، ولكن يجب أن تعدي كما يجب قبل الصيف،
ممّ تخافين؟
- إنّها بنت شريفة كما تعلم...
- ونحن أيضًا شرفاء، لن يضطرك أحد إلى شيء
تأبينه، ولا تصدّقي غير ذلك...
ثمّ بعد فترة صمت وتأمل:
- ولكنّ التعليم لا مزاح فيه، ستعهدك امرأة
خبيرة، ولكنّ كلّ شيء يتوقّف على إرادتك... .

- ٩ -

وسرعان ما بدأ التدريب، ووَفّر لها الرجل أيضًا
كساء مناسبًا وغذاء صحيًّا. وكان التدريب يشمل
آداب المائدة واللبس والزينة. وكلّمها وجد مأمون
الفرمانى إهمالًا أو تكاسلًا استعان بعليّ جلال حتّى

اضطرّ الرجل مرّة إلى توجيه لكمة إليها. يومها رجعا
إلى حجرتهما وهي صامتا غارقة في حزن أبديّ. وغير
هناك من لهجته المألوفة فقال لها بنبرة المعتذر:
- ما من رجل إلّا وضرب عبوته عند الضرورة.
أصرت على الصمت والعبوس فداعب بإبهامه
خدّها وقال:

- العمل عمل، لا مزاح فيه، وهو لمصلحتك...
فقالت بحتق:
- بل لمصلحتك أنت!
- لمصلحتنا المشتركة إذا شئت، ما نحن إلّا شخص
واحد... .

فصاحت به:
- لقد سلّمتي إلى رجل غريب!
- إنّه رجل أعمال، وليس له في النسوان...
- لو كنت تحبّي حقًّا ما فعلت ذلك.
- ما فعلت لك إلّا لأني أحبّك...
فقالت بتحدّ:
- أنت! لم أسمع منك كلمة حبّ واحدة!
- ولكنّي أفعل ذلك!
- أريد حياة معقولة، هل في ذلك من بأس؟
وساد صمت ثقيل حتّى قطعه قائلاً:

- كنت ذات يوم نلميّدًا، انقطعت عن التعليم
بسبب الفقر واليتم، تركت شبه أمّي وانطحنت في
الإصلاحية... ها أنا أهينّ لك سبيلًا أجمل. ماذا في
ذلك من عيب؟... انظري إلى الراقصات وحظنّ
في الحياة...
لقد احتملت الحياة حرصًا عليه، ولأنّها شعرت في
أعناقها الحيّة الملهمة أنّه يحبّها.

- ١٠ -

الفلير دامور ملهى صغير وأنيق. لا تفتح نوافذه
الأماميّة شتاء، تسفحه العواصف وهو صامد بجدرانه
الأرجوانيّة، مرّيع الشكل، مسرحه صغير يعلو على
الأرض بمرّ واحد، في جوانبه مقاصير من خشب
الزان، وصفوفه مواثد، يغالب نعاسه طيلة الشتاء
والخريف، قلّة تختلف إليه كحانة نظيفة تمتاز بمزجتها

- ماذا يعني بتحيّات الزبائن؟
- سيدعوك بعض الأكابر حتّى للمجالسة والمشاربة، في تلك الحال يُحسب الكأس بضعف ثمنه وتأخذين نسبة محترمة...

فهاها الأمر وقالت بحذّة:

- ليس هذا ما نتمّ الاتفاق عليه بيتنا...
- لا خوف من ذلك وهو رزق شريف...
- لكنني لا أشرب...
- بملاً كاسك عادة بالشاي، هذا تقليد معترف به...

فقال بأثني محدثة نفسها:

- اجالس رجلاً؟
- قد يدعوك بعضهم للذهاب معه ولك أن ترفضي...

- يا له من موقف...!

- بسيط، لا تعقدي الأمور...

- ربّما تدخّل مامون الفرمانى؟

- إنّه يعرف سلفاً أنّي أدقّ عنقه لو فعل...
شدّت على ذراعه بامتنان وهما يخطّضان النسائم العذبة تحت بصيص النجوم فقال:
- لا أريد لك الابتذال الرخيص...

- ١٢ -

اعتادت الرقص ومضت خطوات في طريق إتقانه، اعتادت كذلك المجالسة والمشاربة والاعتذار عند اللزوم. اكتسبت مكانة سامية بفضل أنوثتها، وانقضى الربيع والصيف وهي تتألق كنجم في الملهى الصغير. لم تانس إلى أحد كما انست إلى سعداوي بيّاح الفستق، فهو فلاح مثلها صبح الوجه، يرمقها باحترام وعطف. يرمقها بأكثر من ذلك حتّى قالت لنفسها إنّها لو كانت حرّة بلا رجل لما تردّد في طلب يدها. وقد مالت إليه ميلاً صافياً، لأنّها كانت سليبة القلب، مكبّلة بحبّ عليّ جلال.

وذات ليلة، عقب انتهاء الموسم، وحلول الخريف، جاءها سعداوي وقال لها:
- المقصورة رقم واحد...

الغنيّة، وفرقة موسيقيّة تعزف ألحاناً شرقيّة وغربيّة، ومغنيّ درجة ثالثة يترنّم بأغانٍ كلاسيكيّة، به أيضاً مهرّج يقدّم عمراً فرديّة هزليّة وساحر، وبطانة المطرب مكوّنة من فتيات أربع يُدعون أحياناً لمشاربة الزبائن ملتزمات بأدب يناسب رؤاه الممنازين من المصريين والأجانب.

دُفعت سهارة للرقص فوق مسرحه في أوّل الربيع، كانت فرصة فريدة للممارسة والتدريب العمليّ أمام رواد معدودين غير مهالين. كانت كمن يلقي بنفسه في الماء وهو جاهز لفنّ السباحة، رقصت على أيّ حال ونالت تصفيقاً من أيدٍ معدودة، عطفاً من ناحية وانجذاباً إلى جامها من ناحية أخرى. الرقص يقدّم لأول مرّة في القلير دأمر، وسهارة وجهه ممتاز وجسد ممتاز أيضاً.

في الحجرة الخلفيّة وجدت مامون الفرمانى وعليّ جلال في انتظارها. قال الفرمانى:

- التصفيق للمرأة لا للراقصة...

فقال عليّ جلال:

- في المرّة القادمة سيكون للراقصة والمرأة معاً...
فقال بحماسة:

- إذا كنت لا أصلح فلأنصرف بسلام...

فتساءل الفرمانى ببرود:

- عندك فكرة عمّا كلّفني تدريبك وكساؤك

وتغذيتك؟

فعبست وصممت. وكان المتفق عليه أن تعمل حتّى نهاية الصيف بلا مقابل نظير التكاليف، على أن تكافأ في الصيف بعد ذلك بجنيّة في الليلة، وثلاثين قرشاً بقيّة العام. وتساءل عليّ جلال بمكر:

- ألا تعطي شيئاً على الحساب؟

فقال الرجل بحزم:

- لم أعتد أن أغتفر حقّاً في اتفاق...

ثمّ مستدركاً:

- لا تنسّ تحيّات الزبائن!

- ١١ -

سألت عليّ جلال وهما عائدان مشياً على الأقدام إلى الإبراهيميّة:

الندى بنسائم الخريف المشعشة بأضواء النجوم وقال:
 - الحظ يئس، ما رأيك في مروان أمين؟
 فقالت بحماس بريء:
 - مهذب للغاية، فوق ما تتصور...
 - الفلير دامور مكان محترم!
 - هل سمعت عنه؟ ... مروان أمين؟
 - يقول عنه مأمون الفرمانى إنه صاحب جريدة
 «الصوت»، أذكر أنه جالس مرة عصمت باشا
 خورشيد في بدرو...
 ولكنه أفلقها بحماسة الزائد وهو يتساءل:
 - متى يتاح لنا أن نؤجر شقة صغيرة وجيلة؟!

- ١٤ -

واظب مروان أمين على الذهاب إلى الفلير دامور
 مساء كل أحد. وجعل يطلبها إلى مجلسه في كل
 زيارة. نشأت بينهما مودة حميمة وألفتة بأريحية وعذوبة.
 ومرة قال لها:
 - جالك فريد، وهو مصري صميم...
 فقالت ضاحكة:
 - ولكنك لست مصرياً صميماً!
 فرفع حاجبيه الكثيفين وهتف:
 - كيف؟!
 - عيناك!
 - هذه الزرقاء؟... أوه... كانت جلدي جركسية
 ولكنني مصري مائة في المائة... المصري من يحب
 مصر...

- ولكن مستر فاوولز يؤكد حبه لمصر!
 فضحك ضحكة عالية وقال:
 - رجل البورصة الإنجليزي؟!... ذاك حب
 مغرض، الحب أنواع كما ترين...
 فتساءلت باهتمام:
 - حب مغرض؟
 - كما نحب البقرة لنستغلها...
 فوجئت وكان وجهها امرأة صافية صادقة فساءلها:

- ما لك؟
 - لا شيء.

مضت إلى المقصورة فوجدت في استقبالها شاباً أنيقاً
 وجيهاً ذا جاذبية واضحة، صافحته بيسمة كالعادة فقال
 بصوت أضخم كثيراً من عوده النحيل:
 - أهلاً... مروان أمين المعجب بفتك
 وجمالك...

فتمتعت وهي تجلس قبالة تحت أغصان الياسين
 المعشق في أعواد الزان:
 - تشرفنا.

وجاء الجرسون كظلمها فقال مروان أمين بشيرة
 مترقعة:
 - اثنين ويسكي...

عيناه نجلاوان، وسيم القسماط، مبروم الشارب،
 عذب الابتسامة. تأملها بإعجاب وقال:

- يميل إليّ أنك ولدت لتكوني راقصة، ومجيتك إلى
 الفلير دامور أضفى عليه حيوية لم ينعم بها من
 قبل...
 - أشكرك جداً...

وشرب نخبها ثم قال:
 - اطلعي ما تشائين، لا تتقيدي بي فإنّي لا أشرب
 عادة أكثر من كاسين...

فحنّت رأسها ممتنة وسأله:
 - حضرتك من الإسكندرية؟
 - نعم، أنا وأجدادي، إنها مدينة عالمية كما
 ترين...

- نصف زبائننا من الخواجات...
 لزم أدبه طيلة الوقت. لم تبدر منه كلمة نابية، ولا
 ملاحظة مأكرة، ولا حركة مستهجنة. وأتسم بوقار لا
 يناسب سنّه حتّى تساءلت في نفسها عمّا جاء به،
 وجعل يحنّها على الشرب حتّى شربت ستّ كاسات من
 الشاي المثلج.

وعند منتصف الليل نهض وهو يقول:
 - ليلة سعيدة أرجو أن تتكرّر كثيراً...

- ١٣ -

رجعت تلك الليلة بصحبة عليّ جلال وفي جيبيها
 مائة وخمسون قرشاً، وكادستها في يده تهلّل وجهه

- لا يجوز أن تتكذري هذه الليلة بالذات...

- لماذا هذه الليلة بالذات؟

- نويت أن أدعوك للعشاء في بيتي!

وبلا تردّد أعادت الأسطوانة المعتادة أمام هذا النوع

من الدعوات:

- معذرة... أنا لا أفعل ذلك...

فدهش، صمت قليلاً، ثم قال مرتبكاً لأول مرة:

- إنه لأمر مؤسف لي جدّاً، ولكنك رائعة!

وجاء مأمون الغرماني عند انتهاء السهرة ليوذّعه

فقال الشاب:

- كلّ شيء طيّب ولكن...

وضحك ضحكة عالية يداري بها ارتباكها ثم

واصل:

- ولكن من المؤسف أنّ سيطرة الحلوة لا تلبّي

طلبات المنازل!

- ١٥ -

سار عليّ جلال طوال الطريق صامتاً فتوقّعت شراً!

وفي الحجرة نفخ وهو يخلع بدلته وقال:

- غير معقول أن ترفضني النعمة...

فهتفت بحدة:

- نعمة!...

- طبعاً...

- إنه الابتذال الرخيص كما سمّيته...

- بل هو ثمين وغالٍ!

- أنت تدفعني إلى ذلك يا عليّ؟

- لصالحك، لصالحنا...

- أنت تحبّي حقّاً؟

- طبعاً.

- إنه حبّ مغرض!

فدهش عليّ وقال:

- يا لها من كلمة...

- كما نحبّ البقرة لنستغلّها.

فما تمالك أن ضحك، ثم قال:

- حديث السكارى! عليك أن تفهمي الحياة خيراً

من ذلك، الحبّ في القلب، لا أهميّة للجسد، الأغنياء

يرون في الحبّ أنواعاً أمّا الفقراء فلا وقت لديهم

لذلك، إنهم يجاربون العناء بكلّ وسيلة.

فقالت وعيناها تغرورقان:

- إنّي أرفض.

فقال بإصرار:

- كلّاً يا سيّارة. شلبية ترفض نعم. وتحفظ قلبها

لي، أمّا سيّارة فتخوض إلى جانبي معركة واحدة.

- ١٦ -

انسابت بها الفود في الطريق المحفوف بالزراع،

في السماء غيم كثير والريح تنقّض بعنف ولكنّ الطقس

معتدل لطيف. دخلاً بيتاً خلواً صغيراً في «أبو قير».

بدا مروان أمين طيلة الوقت نشيطاً سعيداً. مضى بها

إلى فراندا وهو يقول:

- لو كانت ليلة مقمرة لسبحنا معاً...

- الحمد لله على أنّها غير مقمرة.

- تخافين البحر؟... أليس إسكندرية.

- كلّاً، من رشيد...

- بلدة ذات تاريخ مجيد، إنّي سعيد بوجودك.

- وأنا سعيدة...

فرمقها بشيء من الريبة ثمّ تساءل:

- لكنّ الظاهر أنّي لم أحظّ بإعجابك؟

- أبداً، المسألة أنّي أفعل ذلك لأول مرة...

فقال بصديق:

- إنّي أصدّقك، السراة لا تكذب، ولكن هل

سألك ذلك؟

فقالت وهي تغضّ بصرها:

- إنّي سعيدة...

- ١٧ -

في رحاب مروان أمين ظفرت بحنان واحترام

ومعاملة رفيعة ونقود وفيرة. إنه أفضل من عليّ جلال

بما لا يقاس فلماذا يتعلّق قلبها بعليّ وحده؟ لا سبب

معقولاً واحداً يدعوها إلى حبّه ولكنها أسيرة هواه، وفي

سبيله تضخّي بكلّ غال. وهو أيضاً يحبّها ما في ذلك

من شكّ، على طريقتة أي نعم، ويشاركها الوحدة

والعناء. ولن تنسى قوله ساعة رجوعها من عند مروان أمين أول مرة «أنا لا أستغلك ولكنّ كلينا يسلم للاستغلال». وهو أيضاً الوحيد الذي يناديها باسمها «شلبية» فتشعر بين يديه بأنها هي وليست شخصاً آخر. أما مروان أمين فقد احتلّ من نفسها مكانة سامية واحتراماً ومودة، وهو بلا شكّ يعشق جمالها ويهيم بمفاتها، ويغلق عليها بسخاء، ويحترمها بطريقة جعلتها تشعر بإنسانيتها لأول مرة. وقال لها مرة:

- إنك طيبة أكثر من اللازم يا سارة...

فكانت ببساطة:

- الله مع الطيبين...

فجعل قلباً وتتم:

- الدنيا متوحشة وقد خلقتنا لنقاتل!

فكانت بدهشة:

- كيف أقاتل وأنا امرأة ولا أهل لي؟

فتجهّم وجهه، وفتر حماسه، ثمّ سألها:

- ماذا جاء بك إلى الغليز دامور؟

فأعادت أسطوانة حفظتها عن ظهر قلب:

- ميرث من يتمّ إلى زواج فاشل إلى طلاق، ثمّ

دعاني الفرمان...

فقال لها وهو يتنهد:

- ادخري كلّ ملكيم، فلا سبيل إلى النجاة في هذه

الغابة إلّا بالنقود! أما الإيمان فلا ينقصك...

- ١٨ -

وتوتّب عليّ جلال للتجديد بلا توانٍ، اكترى شقة صغيرة في كامب شيزار بعارة جديدة، وتبدّى في مظهر أنيق فلم يبق من ابتذاله القديم إلّا نظرة عينيه البراقة المتحدية. وقال لها:

- تركت خدمة الباشا!

فسأله باهتمام:

- ألم تتسرّع؟

- كلا، إنّي أفكر في مشاركة الفرمان...

- دفعة واحدة؟

- كلّ شيء يتوقّف على اجتهادك!

فسأله بأسى:

- ونستمرّ الحياة هكذا؟

- سنبدأ يوماً حياة جديدة...

- متى؟

- عندما نطمئنّ على مستقبلنا...

وابتسم إليها واستطرد:

- ثمّ نتزوج!

وثبت متهلّلة فتعلّقت بعنقه وهتفت:

- آه... متى يحدث ذلك؟!

- ١٩ -

منذ حديثها الأخير مع مروان أمين لم يواصل الشاب ممارسة غرامه معها. قنع بالمجالسة والمؤانسة وتبادل الاحترام والعواطف الرقيقة، ولكنّه لم يضرّ عليها بجوده وهداياه. ورغم كلّ شيء لاحظت عليه تغييراً غير يسير وفتوراً حتّى قالت له:

- لست كسابق عهدك.

فقال وهو يبتسم:

- إنّي مريض...

- كفى الله الشر...

- احتاج إلى جراحة، سأجرها في الخارج...

- يا لسوء الحظّ.

- إنّي لم أعرف الراحة في حياتي...

- ولكنك غنيّ والحمد لله...

- ليست مشكلة المال...

- عملك شاقّ؟

- جدّاً...

- سادعوك دائماً بالسلامة...

- دعاء مبارك من قلب طاهر.

ثمّ أخرج من علبة سواراً ذهبياً مطعماً بفصوص ماسية، أهدها إليها قائلاً:

- هديّة لك لمناسبة السفر.

فكانت بتأثر شديد:

- أنت شابّ نبيل، لو كان الناس مثلك ما عرف

أحد الشقاء أبداً...

- ٢٠ -

وقال لها عليّ جلال وهو يتفحص السوار باهتمام:

- لقد أنهى العلاقة بينكما بلباقة وبلا كسر خاطراً!
فقلت معترضة:
- لا تسئ به الظن فإنه لا يكذب...
فقال عليّ بازدراء:
- الصديق محرج ومهلك.

أما سيارة فقد حزنّت لفراقه، وتمتّت لو دام لها
ليجنّبها على الأقلّ التورط في علاقة جديدة مجهولة.
أدركت أنّ عليّ - وقد جنى من العلاقة القديمة ما جنى
- سيلقي بها بلا رحمة بين يدي ذراعين واعدين.
ومضت تكوّن لها شخصية فتية مؤثرة وتتوكّد شهرتها
وسحرها. وهلّ الصيف برطوبته وروّاده وضجيجه.
وازدحم الفلير دامور بالزبائن الجسد. وتكرّرت
المجالسات كلّ ليلة. والاعتذارات عتياً ذلك.
وطبعاً كان عليّ يوافق على ذلك مترفعاً عن المشاق
«المفلسين» عشاق الليلة الواحدة! واقترح عليّ أن
يدخل شريكاً في الملهى ولكنّ الفرمانى رفض. وفي
الوقت نفسه استرضاه فعينه مديراً للملهى بجنه يومية
في الصيف، ونصف جنه في سائر العام. وفي أواخر
الصيف الثريّ جاءت أنباء حزينه من وراء البحار
تنعى الصحفيّ الشاب مروان أمين. واهتزّ قلب
سيارة، وغشيها حزن صادق، فتوارت في حجرها
وبكت طويلاً. وفي أوائل الخريف رجع مسرّ فاوولز إلى
الفلير دامور، وإذا به يدعو سيارة لالعشاء في بيته!
وكالعادة اعتذرت. وسعد بذلك سعداوي بيّاع الفستق
ومس في أذنها:

- إنهم أنجاس!

غير أنّ مأمون الفرمانى احتدّ بشدة وقال:

- كيف ترفضين إنجليزياً؟!

وسأله عليّ:

- أظنه مقتصدًا كسائر تجار البورصة!

- إنه يقدم هدايا أثمن من النقود...

فقال عليّ مخاطباً سيارة:

- إنه على أيّ حال عجوز ولن يضايقك!

- ٢١ -

مسرّ فاوولز يقترب من الستين، ربعة ضخم الرأس

والوجه غليظ اليدين متين البنيان. يشرب كثيراً ونادراً
ما يسكر، يعرف كلمات معدودات من العربية يستعين
بها على توضيح إشاراته وقت السمر أو يمضي الوقت
صامتاً. كانت تؤانسه ليالي كثيرة في الفلير دامور ولكنّه
لا بدعوها إلى بيته إلا مرة أو مرتين في الشهر. وكان
يقيم في الدور الأول من بيت أنيق يقوم على هضبة
فيكتوريا. أرمل وحيد، أولاده في أستراليا، يجدهم نويّ
ومساعدته، وقد ولع بسيارة، ولانقطاع التفاهم بينها
ظلّ حيالها رمزاً مجهولاً. وجدت معاملة لطيفة وأهداها
قرطاً ثميناً ولكنّها شعرت نحوه بشبه نفور وخوف ولم
تأنس من وجهه الضخم الحادّ شعاع جاذبية واحداً.
أعجبت فقط بعمق زرقة عينيه، وتذكّرت بلونها
مروان أمين وآيامه الحلوة. في الصباح ترى البقعة
خالية ومترامية، رقعة منها صحراوية، ورقعة يتناثر فيها
النخيل وتغطيها الحشائش، ويقوم البيت الأنيق وحيداً
فوق الهضبة يصعد إليه بدرجات منحوتة في الصخر.
وهو مكوّن من دورين، يقيم فاوولز في الأرضيّ
المغروس وسط حديقة أما الثاني فلا يجيء منه صوت،
ومرة رأت في شرفته عجوزاً مهيباً فأسرعت في مشيتها
كأنّها تفرّ. البيت جميل تحت هامات السحب ولكن
كأنّه مدجج للعجائز أما النخيل الفارع المثقل بالبلح
الأحر فذكرها برشيد فنسبت على قلبها ذكرى مبهمة
مبتلة بالدمع.

- ٢٢ -

وذات ليلة وجدت في مقصورة مسرّ فاوولز آخر
بجاسه، قدّمه لها بنبرته الإنجليزىة قائلاً:

- جاري مهدي باشا جلال!

آه، إنه العجوز الذي لمحت في الشرفة، حيّاها
بابتسامة جذابة. إنه طويل ضخم الهيكل رغم رقة
لحمه، فضيّ الشعر والشارب، مشعّ العينين ذو أنف
غليظ، وله وقار نفاذ. من أوّل نظرة أنست إليه
وشغفت بأبّوته الكامنة. يبدو أكبر من فاوولز ولكنّه ممثّل
حيوية وابتساماً. شرب بكثرة مثل فاوولز وتتابع
ضحكاته، حادث فاوولز بلسانه، وحادثها - طبعا -
بلسانها. صوته عذب أيضاً. قال لها:

- رقصك جميل مثل وجهك...

وفي آخر السهرة تقدمها بسيارته حتى البيت جيد، ثم مضى إلى شقته العليا، فتمت أن يجيء ليلة.

بالجلوس معي؟

- لا أدري.

- على أي حال فأنت حرة، اليس كذلك؟
فقلت ضاحكة:

- لم يشترني بعد.

- عظيم، ما جوابك لو دعوتك إلى بيتي؟

- إنه نفس البيت...

- لم لا؟...

ويسرور، وقبل مشاورة علي هذه المرة، قالت بجرأة

جديدة:

- إني أقبل...

- ٢٥ -

أحببت المسكن، وأدهشتها فخامته، قهقه الباشا وهو يقول مشيرًا إلى أسفل:

- لا يتصور الحيوان أنك هنا...

وشرب كعادته، ونشطت شهيتها فأكلت بلذة. وكما
ثعل سألها:

- هل تغنين؟

- كلاً للأسف...

فوضع في الحاكي أسطوانة وهو يقول:

- إذن نسمع «يوم الهنا»...

وراح يفرق بأصابعه مزيجاً وقاره جاثباً ويقول:

- كل ما يخفق القلب له عبادة!

- هل تغني أنت؟

- أحياناً.

- إذن فأسمعني صوتك.

- كلاً... أود أن أعطيك خبر ما عندي...

فضحكت وقالت:

- أنت رجل ظريف.

- أنت ساحرة يا سارة.

فتساءلت وقلها يمتلئ بحب بريء صافٍ:

- متى مانت زوجتك؟

- إنك تتحرين عني، حسن، حسن، منذ عشرين

عاماً...

- ولم لم تتزوج؟

- ٢٣ -

قالت لعلّي جلال وهي تحدّثه عن الباشا:

- لقبه جلال مثلك!

فقال باسماً:

- إنه أكبر محامٍ في الإسكندرية، محترم بين أولاد

حرب والخواجات، على علاقة وثيقة بعصمت باشا

عورشيد، كما كان صديقاً للمرحوم مروان أمين رغم

أرق السن، غني لدرجة كبيرة، أرمل وبلا ذرية...

- إنه جار مستر فاويز ويعيش وحيداً مثله...

وصممت قليلاً ثم قالت بدعابة:

- لقد وقعت في هواه!

فقال لها باهتمام:

- المهم أن يقع هو في هواك!

- ٢٤ -

في الليلة التالية مباشرة شرف مهدي باشا جلال ولم

تكن من الليالي التي يسهر فيها فاويز. ودعا سارة إلى

مقصورته فجاءت ممتنة وسعيدة. رشف من كأسه وكما

رفعت كأسها أوقف يدها برقة وهو يقول مازحاً:

- الشاي منك للأعصاب!

فضحكت، وأدركت من توهها أنه دائر وابن سوق،

فقال:

- اطلبي ما تشائين ولكن لا تشربي إلا القدر

المناسب...

فقال بصراحة وبراعة:

- إني سعيدة بالجلوس معك...

- مثلك وأكثر، ولكن ما رأيك في فاويز؟

- شخص غريب...

- شيطان...

- حسبه صديقك؟

- صديق عمل ليس إلّا... ماذا لو علم بأنك سعيدة

- حزنًا عليها، وعلى نفسي لأنَّ الله لم يكتب لي
الإنجاب!

- كنت تودُّ أن يكون لك ولد؟

- إني أسألم بمشيئة الله...

فبعد تردد قالت:

- تحدثت عن الله وأنت...

فضحك عاليًا، وسلط عليها شعاع عينيه مليًا، ثم
قال:

- أرجو أن تحيي هدايتي على يدك...

فوضعت راحتها على يده وقالت:

- أنا أغضبتك!

- محال يا سيرة، ألا ترين أنني أحببك؟

- ٢٦ -

كان سخيًا فوق الوصف. وأعلن حبّه بطريقة
صارخة ودون مبالاة فكان يأخذها في سيارته إلى بدرو
وأنيوس وحديقة أنطونياس. وإذا بمستر فاوولز يقتحم
عليها الشقة ذات ليلة. أمّا هي فركبها الخوف، وأمّا
مهدي باشا فقد ضحك وهتف به:

- هاللو فاوولز!

ولكن الآخر وقف متجهّم الوجه غيورًا حانقًا. رطنا
بما لا تفهمه ولكنّها توقّعت شرًا. بدأ الحوار بدرجة
منخفضة ومضى يعلو ويشدّ. تصلّبا متواجهين في
تحذّر. عجوزان يتطاحنان على امرأة. وإذا بفاوولز يوجّه
لطمة إلى صدغ الباشا، وإذا بالباشا ينهال عليه
باللطمات. وصرخت سيرة. وتراجع فاوولز فثبت الباشا
في موضعه. ذهب الرجل وجعل مهدي جلال يلهث
فأخذته سيارة من ذراعه إلى ديوان وأجهشت في
البكاء...

- ٢٧ -

صارَتْ له وحده في حياتها الأخرى. تمثّت أن يبقى
إلى جانبها حتّى آخر العمر. ذلك الأب الذي جادت
به عليها السّماء. وسألها مرّة - كما فعل مروان أمين من
قبل:

- ماذا جاء بك إلى القلير دامور؟

فقصّت عليه القصّة المحفوظة فقال بحنان:

- لا داعي للخيال!

- ألا تصدّقني؟

- لعن الله من لقنك الكذب.

فغلبها الحياء وسكتت فقال:

- عرفت حكاية سراي عصمت خورشيد، وعليّ

جلال!

ازدادت صمًا وحياء فاستطرد:

- إنه يستغلّك بدناءة!

- كلّ... إنه يجنّني...

- وأنت، اتّخبيته؟

فلاذت بالصمت فقال:

- إنه لا يستحقّ حبّك.

- الحبّ وحده لا يكفي.

- أنت مشكلة يا شليبيّة.

- إنك تعرف كلّ شيء...

- إني محامٍ عجوز...

- إني أحبّك أيضًا!

- وكانت أمي اسمها شليبيّة!

- أنت فلّاح؟

- طبعًا، ليس كلّ باشا بعصمت خورشيد...

- إني وحيدة.

- أنت؟! كلّ، إنك أقوى منّي، وأقوى من فاوولز،

أقوى من أيّ عاشق، العاشق ضعيف أمّا المعشوق
فقويّ، ولكن ما جدوى الحبّ إذا لم أرّد إليك كرامتك
يا زينة النساء؟!

- ٢٨ -

وذات ليلة وهو ثمل لثم عنقها وتساءل:

- هل توافقين على الزواج منّي؟

ذهلت. سحرها الكلمة المقدّسة. طرب قلبها حتّى

السحر. ثمّ سرعان ما ورث الأسى كافّة مشاعرها.

راقبها صامتًا، ثمّ تساءل:

- عليّ جلال؟!

فلم تنبس، فرنا إليها واجبًا، حتّى تمثمت:

- إنك أجمل ما في حياتي...

- إني شيخ فاني وهو رجل شاب، ولكن لا تسلمي
استغلاله لك كأنه قضاء وقدر...

- إني أتمنى السعادة ولا يمتني المال!
- لا أدري كيف أكافئك على ما وهبتي من
عادة، والحق أنني ما أردت الزواج منك إلا لترني
كتي التي لا وريث لها...
فقلت بإخلاص:

- حياتك عندي أغلى من التركة...
فقال بأشئ:

- إني أحترم الحب وأقدس الإخلاص فلا بأس
بليك ولعلي أجد طريقة أخرى لمكافئك يا شلبية...

- ٢٩ -

أسعد أيام حياتها. تمتعت بالاحترام والحب ما شاء
لها التمتع، وضاعفت العلاقة - مقرونة بما نشب حولها
من عراقك بين الباشا وفاولز - من شهرتها الفنية
وأضفت عليها احتراماً لم تعرفه من قبل. وكان عليّ
جلال يستحثها دوماً على انتهاز الفرصة والإفادة من
العلاقة ما وسعتها الحيلة ولكنها كانت تأبى ذلك، وفي
الوقت نفسه لم يقصر الرجل في إغداقه. وكثيراً ما قال
لها عليّ:

- ألا تدركين أنه يترنح على حافة القبر؟
فكانت تغضب وتحتد وتدعو له بطول العمر،
وتقول:

- ما عرفت أباً قبله!

ولكن الحب مهما بلغ من قوته وصفاته لا يستطيع
أن يدفع الحتم. فقد مضت صحة الباشا في التدهور
حتى اضطر إلى اتخاذ قرار نهائي بتصفية عمله والإقامة
في الريف. وكان وداع مؤثراً، أهداها هدية ثمينة عقداً
من الذهب ذا فصوص ماسية، وقال بتسليم:
- اليوم أو غداً، لا مفر من النهاية، وسيكون لك
في وصيتي ما أستطيع أن أوصي به، وعليك أن تحتفظي
بها لنفسك حتى تملكي استقلالك، وتضمني حياة حرة
كريمة...

ودعته وهي لا تراه من فيض الدمع الصادق...

- ٣٠ -

وأصر عليّ جلال على مشاركة مأمون الفرمان،
وخشي الرجل أن ينفذ عليّ تهديده بفسخ عقد سبارة
فقبله شريكاً بضمن العقد، وفي الحال تجدد الملهى،
فدعهم بمطبخ شرقي وغربي وكافيتيريا، وطلي من
جديد، كما تجدد أثاثه. سَجَّل عقد المشاركة باسم عليّ
جلال، وظلت هي لا تملك شيئاً إلا الحب، أو لا
تملك إلا ما أتقنته من هرّ البطن والصدر والرقبة.

وسألت عليّ جلال:

- أما أن لنا أن ننزّوج؟

فداعب خدّها برشاقة وقال:

- ما زلنا في أول الطريق، الملهى لا يعمل بكامل
قوّته إلا ثلاثة أشهر، أما بقية العام فهو مثل سفينة في
مهبّ العواصف والأمطار لا يأوي إليها إلا طلاب
الدفء والستر...

- وما ضرر الزواج؟

- إنك ساذجة، لو حازك وجه وأنت على ذمّي
لأمكن أن أتعرض لنهمة خطيرة تنزج بي إلى
السجن...

- لم نعد في حاجة إلى هذه العلاقة...

- ما زلنا في أول الطريق، هل شيدت عمارة مثل
أمانة الفنجرى؟

- يا خيراً... إنه طريق بلا نهاية...

- بل له نهاية، وهي قريبة، ولكنّها تطلبنا بالصبر
والعمل...

- ٣١ -

وتجلّت في سماء الغدير دامور سحابة سوداء. فذات
يوم غزا الملهى عمرو عبد القويّ مفتش الضرائب.
شاب في الثلاثين جاد المظهر قويّ الجسم، يبرز منظره
المتهرّين من أعماقهم. راح يفحص المستندات ويقيد
ملاحظاته ثم ذهب. غاص قلب عليّ جلال في صدره
ولكن مأمون الفرمان قال له:

- لا تخف، كلّ إنسان وله ثمن!

وتحرى عن المفتش الجديد عند بعض رجال الأعمال
في الحيّ، رجع عصراً وهو يقول:

- الولد نزيه، سنلقى متاعب لا شكَّ فيها...

فقال عليّ جلال:

- لاحظت أنّه نظر إلى سمارة بإعجاب!

فقال الفرمانى:

- هُذا هو الأمل الأخير!

- ٣٢ -

وجاء عمرو عبد القويّ ليلقَى الإقرار. جلس في مقصورة ليطلقه، ويبشّره من عليّ جلال جلست سمارة على مقربة من المسرح بحيث يراها المفتش. ولما كرّر النظر نحوها ابتسمت في حياء، ثمّ مضت إليه وهي تقول:

- أتريد شيئاً في أثناء عملك؟

فابتسم عن فم عريض متمتّعاً:

- خطوة عزيزة...

فجلست قائلة:

- نحن أصحاب المكان وعلينا إكرام الضيوف...

- مفتش الضرائب ليس بضيف!

- نحن نحبّ الناس كما ترى...

- ولو كانوا من رجال الضرائب؟

- ولو كانوا!

فواصل مطالعته وهو يتمتم:

- عذرت الآن فقط مهدي باشا جلال!

فقال محتجّة ولكنّ بعدوبة:

- عفا الله عن الناس، كان لي أبّا ولكنّ الناس لا

يرحمون...

فارتسمت في عينيّه اللوزيتين ابتسامة مأكرة

وتساءل:

- أب؟

- صدّقي!

- لقد عرف كيف يختار ابنة فريدة!

فقال بتواضع:

- لست إلاّ فلاحه من رشيد!

فتجلّى الاهتمام في عينيّه، وهتف:

- رشيد! أنا أيضاً من رشيد! أسرة من؟

- لا... لا... على باب الله...

فقال مقهقهاً:

- أنا من نفس الأسرة...

ثمّ انهماك في عمله، واستدعى مأمون الفرمانى وقال:

- المخابرات كثيرة ولكن لا مفر...

عند ذاك قالت سمارة:

- أيّ معاملة بين أفراد الأسرة الواحدة؟!

فحدجها بنظرة قويّة وقال:

- العمل مقدّس مثل الصلاة!

- ٣٣ -

تمتّ المحاسبة في جوّ شديد التوتر، عمل الفرمانى المستحيل ليتملّص من قبضته ولكنّه لم يفلح. قال له عمرو بحزم:

- عندك محكمة الضرائب إذا شئت...

ومني الملهى بخسارة فادحة على حدّ قول عليّ جلال. وبكلّ جراءة جاء عمرو ليسهر سهرة شتويّة هادئة. كانت ليلة معتدلة صافية جاءت في أعقاب نوة عاصفة أغرقت المدينة وأغلقت البوغاز. وكلّما أنس من الوجوه تمهّلاً مرح ودندن واندمج في المشاهدة. ثمّ بلغ القمة عندما طلب سمارة للمجالسة. وقال لها سعداوي المحبّ الأبدى:

- اذهبي، إنّه واجبك...

وذعبت متحدّية، جلست وهي تقول:

- تقتل القتل وتمشي في جنازته...

فقال بسرور:

- إني معجب بك يا رشيدية!

- إنك مرعب...

- على المتهرّين...

- تأخذون أموال الناس!... بأيّ حقّ؟!

فتجاهل نقاشها وقال بحرارة:

- لا أحبّ الطرق الملتوية، فلنقصّد الهدف رأساً،

إني أدعوك للعشاء في شقّي المتواضعة بكامب شيزار...

- أنت في كامب شيزار أيضاً؟!

- مسكنك هناك؟! عظيم، من رشيد إلى كامب

يزار. أصبحت الموافقة حتمية!

- ولكنّي لا أقبل الدعوات الخاصّة، ألم تسمع نتي؟

- سمعت عن مروان أمين وفالولز ومهدي جلال..!

- أنت غير؟!

- إنك ترفضين الموقفين الصغار وبخاصّة إن كانوا زمين...

فقلت برجاء:

- لك جانب دمث وآخسر خشن، وقد جثت لمجالسة الدم!

- ٣٤ -

وتفكر عليّ جلال وقال:

- إنّه لا يساوي شيئاً، إنّي أعرف مدّعي الشرف أكثر ممّا يعرفون أنفسهم!

وجاء عمرو في نهاية الأسبوع. كانت الليلة صامتة ولكنّها شديدة البرودة. ارتاحت لمجيئه ارتياحاً أدفاً أعياها. أدركت أنّها تنبه شعوراً جديداً. لم تشعر به نحو مروان أمين النبيل المتباعد المترفع، ولا نحو مهدي جلال لطعونه في السنّ، إنّه شعور جديد، وهو أوّل منافس حقيقيّ لعلّيّ جلال. عجبت لذلك فإج قلبها خوفاً مبطناً بسرور خفيّ. عمرو قريب جداً وأليف جداً، ينبض في جذورها الرشيديّة. وهو يصّر على المجيء، متحدّياً الجفاء المحيط، من أجلها هي، وهو مثير للإعجاب بقوّته وتحديّه. وهمس عليّ جلال في أذنها:

- لا تلتبي إذا طلب.

هل استشعر باطنه خوفاً؟! ماذا عليها أن تفعل هي التي لم تخالف له أمراً؟! إنّها تضمّر العصيان لأوّل مرّة في حياتها. وتذكّرت كلمات مهدي باشا عن الاستقلال والكرامة. ماذا يريد عليّ منها أكثر ممّا أخذ؟ ها هي لأوّل مرّة أيضاً تخاسبه. وحلّت اللحظة الحرجة فجاء الجرسون يبلغها الدعوة، لاحظت أنّ سعداوي يراقبها بقلق، ذلك المحبّ القديم الصامت. دنا منها وهمس:

- لا تذهبي!

فتساءلت:

- لماذا؟... ألم تقل إنّّه واجبي؟

- ولكن سيقع شرّ لا مفرّ منه...

وذهبت بلا تردّد. وجلست وهي تشعر بأنّها تستقبل حياة جديدة. وإذا بعليّ جلال يقتحم المقصورة ويأمرها قائلاً بفظاظة:

- اذهبي!

حدّجه عمرو بنظرة قاسية وقال:

- عليك أنت أن تذهبي...

فلم يباله وكرّر أمره لسهارة:

- اذهبي.

ولما لم تتحرّك هوى بكفّه على وجهها.

وثب عمرو فوجه إليه لكمة صادقة، سرعان ما اشتبكاً في صراع خفيف كنميرين. وجاء مأمون الفرمانى وسعداوي والجرسونات. لم يفلح أحد في الفصل بين المتعاركين. حتّى نهّوى عليّ جلال على الأرض فعند ذاك رفع سعداوي كرسياً ليضرب به الشابّ غير أنّ سهارة صاحت به:

- ارمِ الكرسيّ من يدك يا سعداوي...

وقف سعداوي ينظر إلى عمرو ولا يقول شيئاً وقد اصفرّ وجهه من شدّة الغضب.

وقبض عمرو على يدها وهو يلهث ثمّ قال:

- لا يجوز أن تبقي هنا بعد الآن...

- ٣٥ -

كانت غاضبة وحزينة فمضت معه. كأنّها في حلم... تترك الفلير دامور وتهجر الرقص؟! هل يمكن أن تتغيّر الحياة في غمضة عين؟ لم تحبّ حياتها الماضية ولكنّها لم تبغضها أيضاً لما أمّلتها في تحقيق الحياة المستقرّة التي تهمم بها. خرجت منها كما دخلتها فقيرة لا تملك مليّاً. استقرّت في شقّة صغيرة متواضعة على مجعدة دقاتك من شقّتها الأولى. ولأوّل مرّة تحكي قصّتها بلا أكاذيب. وقال عمرو أوّل ما قال:

- لم تخسري بمجيتك شيئاً فقد كنت طيلة الوقت منهوبة...

فقلت بصديق:

- ما اهتممت أبداً بالنقود، وما تطلعت إلا للحب والاحترام...

فقال ضاحكاً:

- عندي منها الكثير ولكن لا مال لي إلا مرتبي المحدود...

- لا أهمية لذلك عندي...

فقال بحرارة:

- وبالصدق والأمانة أصارحك بأنني أحبك... ومضت الحياة عذبة غير أن عليّ جلال قابل رئيس المصلحة وأدعى أن عمرو طالب برشوة، وكما رفض سعيه افتعل مشاجرة ثم خطف راقصة الملهى...

- ٣٦ -

لم يسفر التحقيق عن شيء ولكنه أساء إلى سمعة عمرو عبد القوي حتى اضطر إلى أن يعلن رئيسه بأنه أخذ الراقصة حقاً ولكن ليتزوج منها. وبالفعل عرض الاقتراح على سارة وتم عقد القران. ورغم ذلك صدر قرار بنقله إلى الصعيد فثار عناده وقدم استقالته. إنها لخطوة جنونية ولكنه وجد عملاً في مكتب محاسبة حتى يمكنه الاستقلال بالعمل. سارة كانت السعيدة الفائزة. لقد تحقق حلمها الأبدي في الزواج. وسعدت سعادة لا مثيل لها، غير أنها سألته:

- هل تورطت يا عمرو في الزواج مني؟

فقال بقوة:

- أبداً... الظروف سبقت، هذا كل ما هنالك، ولكنني نيتي كانت صادقة... وازدهرت سارة كالوردة المتفتحة...

- ٣٧ -

وتتابعت الأيام متألفة بالبهجة، ومع أنه كان شتاء قاسياً كثير العواصف والمطر إلا أنها سعدت به وهي تشاهده لأول مرة من وراء الزجاج دون اضطراب إلى الخروج اليومي والسهر. أصبحت بمأمن من عواصف الحياة وأمطارها. واستوت العاصفة والأمطار في وعيها رمزاً للوجود والبهاء. وفي ذلك الشتاء انتقل مهدي باشا جلال إلى جوار ربّه، وقد أوصى لها بمبلغ عشرة

آلاف من الجنيهات. هبطت الثروة من السماء وقد بكّت الراحل طويلاً ولكنها نالكت نفسها لدى عودة عمرو، وقالت له:

- صرنا أغنياء يا عمرو!

ولكنّه عيس وقال:

- كيف فعل ذلك لامرأة متزوجة؟

- من أين له أن يعلم بزواجي؟

فقال بازدياء:

- ولوا!

قالت بصدق وحرارة:

- كان أبي يا عمرو، صدّقني...

- كانت سمعته الخاصة سيئة!

- رعاني وهو في السبعين...

- ولو... كان رجلاً سيئ السمعة!

فاغرورقت عينها وقالت:

- لو عرفته بنفسك لكان لك فيه رأي آخر...

فقال بحدة:

- إنني أكره هذه الدموع...

- أتريد أن أرفض النعمة؟... إنك فقير، وفي

بطني جنين!

فغادر الحجرة وهو يدمدم. لكنه لم يندل برأي

حاسم. لو أراد الرفض لجهر بذلك وهو لا ينقصه

الصراحة. هكذا احتفظت بالمال الموهوب...

- ٣٨ -

سعدت سارة بزواج يجلبها حقاً. زوج مفعم بالرجولة والفحولة والشهامة والعطف. ولم يكدّر صفوها شيء من العادات البالية إذ كان بلا أهل مثلاً. ولا شك أنه كان نشيطاً في عمله، فما لبث أن فاق دخله مرتبه السابق. غير أن الأيام كشفت لها عن عيب أو عيبين جوهريين فيه. إنه شديد الغضب، وغير متسامح، وإذا غضب أفصح عن غضبه بالكلمة والفعل. في مرة، عند خروجه من سينما رويال لمح شاباً يغازل فتاة بقحة، فما كان منه إلا أن لطمه، ثم فعل به ما سبق أن فعل بعليّ جلال. ارتعبت وقتها وقالت له:

- بالغت في العنف وكان القليل يكفي...

فقال لها بانفعال:

- إنها اللغة الوحيدة المجدية!

- لقد كنت على حقٍ ورغم ذلك فقدت عطف الناس.

- لا يهمني الناس!

ولكن ثمة عيب آخر بدا خطيراً فتأكّأ، ذلك ولعه بالغمار. ما إن انقضى شهر العسل حتى كشف سرّه. كان يقامر في شقّة بالإبراهيميّة، يسهر حتى منتصف الليل، ويمتدّ السهر أحياناً للفجر. قالت له برجاء:

- صحتك ومالك!

فقال بأسى:

- لكلّ إنسان عيبه...

- ولكنّ هذا العيب قد يخرّب بيتنا...

فقبلها وهو يقول:

- لا تبالي، ثمّ إنّي محظوظ...

ولكنّه كان يخسر أيضاً، ومرة رجح مديناً بمبلغ جسيم أخلّ بميزانه، فقالت له:

- عليك أن تسدّد الدين مهما كلّفت ذلك...

وأعطته من هبة مهدي باشا جلال فتقبلها بوجه واجم ونفس منكسرة حتى أثار عطفها.

وواصل اللعب، وانقلب عليه الحظّ حتى أن على التركة كلّها، واسودّ وجه الحياة.

وولد أحمد في ذلك الجوّ المتجهّم...

- ٣٩ -

وقال لها ليلة عقب عودته من الإبراهيميّة:

- مصادفة سيّئة جداً...

- ليحفظنا الله...

- انضمّ إلى مائدتنا عليّ جلال!

فانقبض قلبها وتساءلت بقلق:

- مصادفة؟!

- طبعاً...

- وهل ذهب إلى هناك كلّ ليلة؟

- يبدو ذلك.

- قلبي غير مطمئن...

- المائدة تجمع بين خير الناس وأساخهم...

- إنّه سبب كافٍ لكي تُقلع عن هذا الداء

الويل...

فلأذنت بالصمت. وتوكّد لديها أنّ ما تتمنّاه حلم بعيد المنال، فتهدّدت قائلة:

- طالما حسبت نفسي أسعد امرأة في الوجود.

فقهقه قائلاً:

- وإنّك لكلّك يا جاحدة!

فقالت بنبرة باكية:

- إنّي تعيسة يا عمروا!

- ٤٠ -

ومضت الأيام في قلقٍ وتوترٍ حتى صدقت مخاوف

قلبيها. بل جاءت الأحداث أسرع ممّا قدّرت. ففي

ليلة احتدم التنّاحر ما بين عمرو وعليّ فأنتهى إلى غايته

المحتومة وهي الشجار. وتراجع عليّ جلال أمام

ضربات لا قبل له بها فاستلّ مطواة طعن بها قلب

خصمه فنهاوى فاقد الحياة!

هكذا اختفى الرجلان اللذان أحبتّهما في ليلة

واحدة، ذهب أحدهما إلى القبر والآخر إلى الليان.

وجنّت المرأة من الحزن. وجدت نفسها وأينها في

دنيا خالية. فقدت الحبّ والأمان. ناعت تحت عبء

مشوّليّتها الكاملة عن وليدها ونفسها. وخاصّة

وليدها، ابن الرجل الذي أحبتّه، الذي قرصته حشرة

فقوّضت بنيانه.

- ٤١ -

وانشقت الظلمات - ذات يوم - عن وجه سعداوي

بيّاع الفستق. أثار في قلبها مكان من ذكريات جميلة

وأخرى محزنة، ولكنّها وجدت نحوه امتثالاً لا شكّ

فيه. وتلقّت مواساته الصادقة بموتة وأسى. ثمّ وضع

أثّه جاء من أجل هدف أدلّ على صدق عواطفه من

المواساة وحدها. قال:

- مأمون الفرمانى على أنّم استعداد لاستقبالك...

ولكنّها قالت بوضوح:

- لن أرجع إلى تلك الحياة يا سعداوي.

فقال الرجل بحماس:

- وَغَدُ عَلَيْهِ حَقٌّ، أَلَا يَطَالِبُكَ بِمَا لَا تَرْضِيهِ!

فقال بإصرار:

- أصبحت اليوم أمًّا، وعليَّ أن أصون سمعة ابني

من الآن فصاعدًا، ومن حسن الحظ أنني أخفيت هدية

ثمينة أهدانيها المرحوم مهدي باشا جلال، وبها يمكن

أن أبدأ بداية جديدة تمكّني من تربية ابني كما

أريد...

ارتسم الترحيب في وجه سعداوي وتمتم:

- ليكون. إنه أفضل على أيّ حال، وستجديني في

خدمتك على الدوام.

جلس الرجل يرنو إليها ولا يزيد، ولكن نظرة عينيه

باحث بأكثر مما قال. كأنما تبهل إليها أن تؤمن بأنها

ستجد دائمًا من يتذكّرها عند الشدة، ومن يحبّها حبًّا

صادقًا...

صَاحِبُ الصَّوَرَةِ

واستقرّ الرأي على إبلاغ الجهات الرسميّة. عند ذلك اتخذ البحث مجرىً جديداً فشمل الأقسام والمستشفيات، وازداد اللغز انبساطاً، والتشائم استحضاراً، وكان الرجل رائحة وتلاشت في الكون...

وتلاحقت الأيام... فتجسّد الاختفاء صخرة سوداء لا تترجّح، يتحكّم عليها الأمل. لقد اختفى شيخون محرم كأنه لم يكن. وجاء دور التحقيق والتحريّات، ولكنّه لم يسفر عن جديد أيضاً، فلا عداوة ولا سرقة ولا شبهة سبب مما قد يقضي إلى جريمة.

دخلت سريرة هانم إلى ابنتها عيسى وهي في غاية من اليأس، وقالت له:

- لم أذكر بكلّ ما عندي في التحقيق!

فرنا إليها الشاب ذاهلاً وتساءل:

- أعندك مزيد؟

- قلت إنّني لا أعرف لأبيك عدواً...

- هذا حقيقيّ...

- كلّاً...

ثمّ مواصلة حديثها بعناد:

- عمك...

- لا... لا... المسألة أنّك دائماً تسيئين به

الظنّ... ليس لديك دليل واحد.

- لديّ قلبي!

- لا يكفي. إنّك تكرهينه...

- لا شيء إلاّ لأنّه كره أباك.

اختفى شيخون محرم.

كان اختفاؤه حدثاً مرّ المجتمع مرّة عنيفة. كان رجلاً مرموقاً، ذا نشاط ماليّ عريض، وله في السياسة وجود راسخ وأثر، وفي دنيا الإحسان والخير أيدٍ بيضاء، إلى سمعة طيبة ذات رائحة زكية.

غادر سراياه في أوّيل يوم قاصداً النادي، ثمّ اكتشفت أسرته - المكوّنة من حرمه سريرة هانم ووحيد عيسى - أنّه لم يعد. انزعجت الأسرة أيّما انزعاج، إذ لم يسبق أن شدّ الرجل عن جدول مواعيله بلا إخطار. اتّصلت الهانم برفقائه في النادي فأجمعوا على أنّه لبث بينهم ساعة واحدة، ثمّ انصرف ليزور - على حدّ قوله - شقيقه محمود محرم في سراياه بالزمالك، وفي الحال اتّصلت الهانم بمحمود محرم، ولكنّ زوجته أجابته بأنّ زوجها في رحلة في البحر الأحمر يرجع منها مساء اليوم وأنّ شيخون لم يزرهم منذ أكثر من أسبوع. وشهد سائق السيّارة بأنّ الرجل غادر النادي، أمره بالانتظار في موقفه، ثمّ مضى مشياً على الأقدام، وأنّه لزم موقفه حتّى شقشقت الصبح...

وبدأ بحث شائق ملهوف على شيخون في جميع مظلّاته. عند جميع الأصدقاء والزملاء، في الإسكندرية وفي العزة، فارتطم دائماً بخيبة مرّة، فاشتعلت الأفئدة بالقلق والوجلّ، وتجمّعت سحب الظنون.

ووفد على سراياه الأهل وفي مقدّمتهم شقيقه محمود محرم، والأصدقاء والمعارف، وتداولوا الأفكار والحلول، وقالت سريرة هانم:

- لو كان بخير لاتّصل بنا!

فكان جواب العمّ أنّه سدّه، وأنّه لم يكن بينه وبين شقيقه تعامل رسمي! وزاد ذلك من سوء ظنّ المرأة. ولكنّ العجيب أنّ محمود محرم بقي على ولائه للذكرى شقيقه، بل إنّه استدعى عيسى إلى مقابلة خاصّة في النادي وقال له:

- أسباب الغضب متوافرة لديّ، ولكنّي مصرّ على الإبقاء على أواصر القرى، فتذكّر دائماً أنّي عمّك، كما أتذكّر دائماً أنّك ابن أخي...

وتواصلت الأيّام، ولحقت بها الأشهر، ثمّ الأعوام، انتهى شيخون عزم! غير أنّه عاش ذكرى حيّة في ضمير سريرة هانم، ذكرى حيّة لا تموت. لم تتعزّ أبداً، لم يفتر حبّها له. لم تياس من أن يستقيم عود العدالة المعرّج ذات يوم. وكثيراً ما كانت تقول لانيها: - أبوك يطالبني بالعدل ونحن عنه لاهون...

وكان عيسى قد حلّ محلّ أبيه في الإدارة، فشغله العمل عن كلّ شيء، وشغلته الحياة أيضاً بمسراتها اليومية، فكان يتجنّب مناقشاتهما ما وسعه ذلك. ويثيرها بروده فتتهف:

- ألا ترى أنّي لم أذرف حتّى الآن دمعاً واحدة؟!

فيقول برقة ما أمكنه ذلك:

- ما هكذا يلقي العقلاء النواثب...

- أتراني مجنونة؟

- أمي!

فتقول بأثني:

- لم ترث إلّا أملاكه!

وحلّت الكارثة الكبرى عندما قال لها يوماً:

- أمي افتحي لي صدرك...

فرمته متوجّسة، فقال:

- قرّرت أن أتزوّج من سميحة!

بهتت المرأة. اصفرّ وجهها. ارتعشت أطرافها. قال بضيق شديد:

- الأمر بسيط جدّاً لولا ظنون لا أساس لها...

فقالت بفرع:

- طالما توقّعت ذلك، طالما توقّعت أنّه الموت المحتوم...

فابتسم في امتعاض شديد دون أن ينبس، فتمتعت

- لا أوافقك على ذلك، كانت العلاقة بينهما دائماً مثاليّة.

- في الظاهر فقط، وعمّك مجرم، ألم تسمع بما يقال عن ضحاياه في الريف؟

- ذاك أمر آخر...

- إنّه مطبوع على الإجرام...

- كان يحبّ أبي وأبي يحبّه...

- قلبي لا يكذبني. كنت أقرأ في عينيه أحياناً ما يخفي، إنّه ينفس على أبيك نجاحه وثراءه...

- عمّي ليس بالفقير...

- هنالك سرّ لا تعرفه، لقد واجهت عمّك خسارة أوشك أن يبيع بسببها أرضه لولا أن أسعفه أبوك. أسعفه بلا عقد، أنت تعرف شهامة أبيك، ولكنّ الدين ثقیل ولا حجة عليه...

فتأنّف الشاب وقال:

- المسألة أنّ سيّنة الظنّ بعمي...

- المسألة أنّك مصرّ على حسن الظنّ به...

- هذا هو الأصل...

- آخر ما سمعنا عن أبيك أنّه ذهب للقاء عمّك!

- ثمّ ثبت أنّ عمّي كان في رحلة مع صحبه...

- طالما قتل عمّك الأبرياء وهو بعيد عن موقع الجريمة...

- أساطير لا دليل عليها... لماذا تكرهينه؟

- قلبي، ألا تؤمن بحديث القلب؟

- كلّ، لا أومن إلّا بالمحسوس...

- هذا يعني أنّك لا تؤمن بشيء!

- هل فاتحت أبي بظنونك؟

- لم يصدّق لصفاء سريره.

- أرايت؟

- ولكنّه اعترف لي بخلاف نشب بينها قديماً!

- هذا حال الناس جيّماً.

وكانت الأمّ أصلب ممّا تصوّر ابنها، فافضت بظنونها إلى المحقّق. وكان خطب وفضيحة. وجرى تحقيق دقيق مع محمود محرم، ولكنّه لم يسفر عن شيء. تزعرع الأساس الذي يستند إليه فرعا الأسرة الواحدة. وطالبت سريرة بالقرض الذي اقترضه من زوجها،

بجراحة:

- ابنة قاتل أبيك؟!

فقال برقة:

- ابنة عمي...

تقوَّست المرأة في جلستها من شدة الألم، ثم قالت بحدّة صارمة:

- إنه الفراق الأبدى بيني وبينك!

وهاجرت من المدينة إلى القرية، عاشت في السراي الصغيرة في وحدة عميقة. وتركزت طيلة الوقت في هواجسها. وكان صوتها يسمع وهي تحاور نفسها بلا انقطاع. غرقت في الضياع الذي ذاب فيه زوجها المحبوب.

وتزوج عيسى من سميحة. أصرَّ عمه على أن يذهبوا جميعًا إلى القرية ليقبَلوا فروض الودّ، ويستوهبوا الرضا، ولكنّها أبت أن تلقى أحدًا منهم، ومضت تردّد:

- ها هو ذا القاتل يحقّق هدفه ويصبّ ثروة ضحيته في ذرّيته!

واستقبل العذاب بالألم حتّى مرّق وحدتها. وفي محتتها الطاغية أخذت ترى المأساة خلال أبعاد جديدة وافدة من المجهول. تألّقت في باطنها إلهام متوقّب بأنّ الأشياء تخلف من جديد. وطرق أذنيها همس مضيء دعاها إلى تلبية نداء خفيّ. تلاشى إيمانها بالجريرة فتبيّخر اليأس وزال. وإذا بها تخرج من عذابها إلى الناس. تمضي في وقار ظاهريّ ويدها صورة شيخون. وكلّما صادفها شخص عرضتها عليه متسائلة وهي تنتظر أن يبيّنها الجواب الشافي في يوم من الأيام. لم تسأم من تكرار السؤال، ولم يشبط همّتها النفي، وترامت أخبارها إلى عيسى ففكر في اتّخاذ إجراء حاسم، ولكنّه اكتفى بعد تدبّر ومراجعة بتكليف أحد أتباعه في القرية بحراستها من بعيد. وتتابع خطوات الزمان وهي مصرة على بحثها العقيم، وتقدّم بها العمر فلم تهمد ولم تحمد.

ويعد دهر فريد.

كان عيسى يجلس في السلامك ذات أصيل عندما

رأى عجزًا يتسلّل إلى السراي متوكّئًا على عصاه، رنا إليه مقطّبا بادئ الأمر، ثم اجتاحه الارتياح والذهول فوثب نحوه وهو يهتف:

- أبي!

حل ما بقي منه بين يديه ومضى به إلى فراش، وسرعان ما استدعى الطبيب. لم يكن به مرض ولكن نهكته الشيخوخة والضعف. وما إن استلقى فوق الفراش حتّى تحلّت عنه قوى المقاومة فتبدّل شخصًا آخر، وكما استيقظ من نوم عميق ظنّ عيسى أنّه استردّ عافيته فسأله بشغف:

- أين كنت يا أبي؟... ماذا غيّبك ذلك الدهر الطويل؟

ولكنّه لم يجب. بل كأنّه لم يسمع، وهوّم في آفاق بعيدة، ورجع عيسى يسأل من جديد، ولكنّ الأب لم يباله، وتتم كأنّها يخاطب نفسه:

- الجبال الخضراء...

فسأله باهتمام:

- أكنت في الخارج؟

فمضى العجوز في حديثه الباطني:

- والبحيرات الزرقاء...

- أين يا أبي؟

فهمس متنبّذًا:

- وعشّ الحبّ والعناء؟

فهتف عيسى في أسمى:

- لقد فقدت أمي عقلها.

فعاود همس متمنّيًا:

- عشّ الحبّ والعناء!

ويش عيسى من الاتّصال به، ولكنّه قرّر أن يجمع بين أبيه وأمّه، وأمل من وراء ذلك في الشفاء.

وجيء بالألم رغم إرادتها حتّى بكّت، وكما أجلسوها أمام الراقد فوق الفراش كُتّت عن البكاء. خفق قلب عيسى بالترقّب... ولكن لم يحدث شيء ذو بال. لم يتبادل الزوجان نظرة عتاب أو فرح أو حزن. ترامقا كأنّها بنظران في فراغ. غاص كلّ منهما في دنيا لا علاقة لها بدنيا الآخر. كأنّه لم يعرفها وكأنّها لم تعرفه.

نفثى في الجوّ توجّس وأمى عميق. شعر عيسى بأنّه
مجهول الأبوين.
وقامت الأمّ كأنّها ضاقت بالجلوس. اقتربت من
الفرّاش حتّى لامسته، ثمّ بسطت الصورة أمام عيني
العجوز، وطرحت سؤالها الخالد:
هل تستطيع أن تدلّني على صاحب هذه
الصورة؟

الرَّجُلُ وَالْآخِر

والآخر يأمل ألا يؤجل ذلك تنفيذ خطته. يرجو ألا يهدر تعب الطويل وتدبيره الحاذق. قد يكون اللقاء قريباً فتتعدّد الأمور وقد يكون لغد لن يجيء أبداً. الرجل يسير. لا يرهقه المشي. ولا يدري أحد متى يفرّ نهمة وأشواقه. تجذبه معارض المحال التجارية كأنه ربة بيت. الساعات والنظارات والأدوات المنزلية والملابس وآلات الغيار والأجهزة الإلكترونية، حتى اللوازم الطيبة وأجهزة الصيدليات تجذبه. يشتم رائحة الكباب والطعمية، يقرأ عناوين الكتب والمكتبات. وكلما جمعه موقف مع امرأة أو فتاة دخل مجالها الحيوي، ولكن لم يحصل تلاحم جديد. ولون الغيب يتشرب بالسمة وتنثف النسائم برودة منعشة. دخل محل أقمشة، وخرج بكيس تايلون مشحون ودمس لفة الحلوى في الكيس مع القماش المشتري، ابتاع أيضاً كتاباً... ترى أي كتاب؟ متى يعتقد أنه سيقروه؟ وذو لو يعرف اهتماماته الدفينة. إنه لا يكاد يعرف عنه شيئاً ذا بال سوى الاسم والهوية والتاريخ البغيض الغامض. وعطف الرجل إلى دكان مسح أحذية. اتخذ مجلسه فوق الكرسيّ الدوّار واضعاً حمله فوق كرسيّ خيزران قديم. ينظر إلى المرأة أمامه مغاللاً وجهه بإعجاب وارتياح. يواجه الصورة تارة ويثني رقبته معنى ويسرى تارة أخرى. والآخر يراقبه من زاوية فوق الطوار. التقت عيناهما لحظة فوق سطح المرأة. تضايق وتحرك خطوة نحو الأمام. غاب الرجل عن منظوره. لا يرى الآن إلا الإسكافيّ العجوز وصاحبة المحلّ البدينة، خشبي الآخر أن تلتصق صورته بعين الرجل

من دكان الفاكهة خرج الرجل حاملاً قرطاساً مثل قمع السكر. ابتلعه تيار بطيء متلاطم في سوق الخضار. ولقائمه الطويلة برز وجهه الباسم المتورّد فلمحه الآخر من موقفه عند كشك السجائر وقال لنفسه «أخيراً... لن يفلت مني». وجعل يتابعه بانتباه حتى تملّص من الزحام فمرق إلى الميدان. من المهم جداً ألا يثير ريبته حتى تحين الفرصة المواتية. الرجل يجيل بصره في الميدان حتى يستقرّ على محلّ الحلوى في الجهة المقابلة ويمضي إليه فوق نصف دائرة الميدان الأيمن فيمضي الآخر نحو الهدف فوق نصف دائرة الميدان الأيسر. دخل الرجل المحلّ فوقف الآخر تحت عمود النور العالي. جوّ الحريف عذب. ضوء الأصيل هادئ يهبط من السماء بعد أن توارى قرص الشمس وراء العمارة العالية. الرجل ينتظر أن يفرغ البائع له. عيناه تشبان بنهم بين صفوف الحلوى الشرقية والغربية. والآخر يراقبه بصبر. ثمّة امرأة تنتظر أيضاً. مليحة ومتبرجة ومرحبة بالمجهول. الرجل يرمقها بنظرة مستطلعة. تعرض عنه ولكن شبه باسمه. يترجّح خطوة فيقتحم مجالها الحيوي. ها هو يهمس بجرأة. ها هما يتهاوسان، قال الآخر إن ذلك ينذر بتعقيد الأمور. إضافة جديدة لمتابعه وتحذّر غير متوقّع لخطته. ويجيء دورها لاتباع ما تريد ثم يجيء دوره. يخرجان ووجهه يتهلّل ويطفح بالرغبة والظفر، يتبادلان كلمات ضاحكة مثل فقاعات الشهد. ثم تمضي هي إلى شارع الملاهي، يتابعها بعينه لحظة ثم يسير على مهل حاملاً القرطاس واللفة. لا شك أنها نواعدا على لقاء،

خاصة أن وجهه سهل الانطباع. وجهه غامق وعينه حادتان وشعره أسود كثيف. ولكن الرجل مستغرق في ذاته ولم يره من قبل. أعضاء مصابيح الشارع وتحليل ظل المساء. ها هو يغادر الدكان وقد ازداد - بتلميح الحذاء - رضاء عن نفسه، وارتطم به مارٌّ مسرع فارتدَّ بخطوة ملهوجة وهو يشدد قبضته على حمله ويصيح غاضبًا:

- هوه!

توقف المسرع مبهوثًا وصمت فصاح به مرة أخرى:

- على الأقلِّ اعتذرا!

فسأله بضيق:

- أليست لديك لهجة أفضل؟

- كلاً!

- إذن فليس لديَّ اعتذارا!

- حيواناً!...

فبصق المسرع على الأرض محتجًا. عند ذلك وضع الرجل حمولته فوق الرصيف ثم انقضَّ عليه فتبادلا ضربات شديدة. أدرك المسرع أنه ليس نذًا لحصمه فراجع قائلاً:

- غاوي خناق... اشهدوا على المعتدي...

وتجمَّع خلق، وجاء الشرطي. والآخر يراقب بانفعال وضيق، وعندما قال الشرطي القسم موجود والصالح خير... بدا أنَّ المتخاصمين تحبَّبا الذهاب إلى القسم، فتناول الرجل حمولته وذهب. تنفَّس الآخر بارتياح وتبعه. نسي الرجل انفعالاته تمامًا أمام محلَّ للعب الأطفال. له أبناء في سنِّ الطفولة؟! ودخل. ما أعظم إلحاحه وصبره. وخرج بلا إضافة. لعلَّه لم يشتر شيئًا، أو لعلَّه اشترى لعبة كبيرة سيرسلها المحلَّ إلى مسكنه، في تلك اللحظة قابله كهل يتأبط حقيقة تصافحا بحرارة. تبادلوا كلمات سريعة، ثم مضى الكهل وهو يقول:

- لا تنسَ المحكمة يوم عشرة القادم.

أأنت أيضًا من أرباب المحاكم؟! متى تسمع الحكم؟ ترى أين تذهب بعد ذلك؟ عصر فواكه... ليكن، أتعتني الله يتبكم. للمرة الثانية تتلاقى عيناها فوق سطح المرأة. انقبض صدره. هل يتذكَّره؟

كلَّا... إنه مأخوذ بمذاق الشراب وعينه تدمعان. ينظر ولا يرى ويتملَّ صورته بإعجاب وبراءة.

ها هو يغادر الدكان، يعبر الطريق، يغيب في محلِّ ترزي يعدُّ كسوة الشتاء، غاب ربع ساعة ثم عاد إلى الظهور، عرَّج إلى مقهى الحزينة ثم دخل. المقهى على ناصية، وله أكثر من مدخل فلم يرَ الآخر بدءًا من الدخول. جعل يراقبه من مجلس غير بعيد والرجل يحسِّي فنجاشًا من القهوة ويكتب خطابًا. أعطى الخطاب الجرسون وقام إلى التليفون. ها هو يقف قريبًا جدًا منه:

- آلو... حسن؟... الدكتور موجود؟

.....

- احجز لي في أقرب موعد.

.....

- عظيم... الساعة السادسة مساء...

شكرًا...

وما كاد يرجع إلى مجلسه حتَّى لحق به صديق، جالسه وهو يتساءل:

- حضرت المأم؟

- نعم... علمت مصادفة...

- كلنا لها. هل أطلب الرد؟

- لا وقت!

- عشرة واحدة بجنيه، لي أو لك...

نظر في الساعة، قَبِلَ التحذير، لعبا من فورهما. يعلِّق بسخرية على كلِّ رمية زهر، ماهر في الحرب النفسية، واثق من انتصاره، في أقلَّ من عشر دقائق قام وهو يدمس الجنيه في جيبيه، فمضى ضاحكًا والآخر يقول له:

- يا لص، ربنا يرزقك بنشال!

قال الآخر لنفسه إنها دعوة مستجابة غالبًا، يمضي الآن نحو عمارته وسط المدينة. هذه هذه الفرصة. ليست مضمونة تمامًا، إذا فشلت فعليه أن يرسم خطة أخرى. كلَّمَا فشلت خطة تعرَّضتِ النالبة لمصاعب جديدة. ها هو يغيب في مدخل العمارة. لحق به ثم دخل المصعد ورائه. إنَّها مفردان. الرجل يسأل بكرم دون أن يلتفت إليه:

- الدور؟

- الأخير.

- وأنا كذلك.

ولكن امرأة أدركت المصعد قبل أن يتحرك. جن جنون الآخر. غير أن المرأة غادرت المصعد في الدور الثاني فاستعاد الآخر حيويته ونشاطه. هذه هي الفرصة. الاحتمالات كثيرة، ولكن العواقب لا تهمه البتة. ليس في خطته للسلامة إلا واحد في المائة. ويحذر شديد قبض على المطواة المستكنة في جيبه... غادر المصعد. لم يصادف أحداً. الظروف تحدهم فوق ما قدر. ترك باب المصعد مفتوحاً عن زيق. ثم هبط مسرعاً. مضى إلى حانة إيديال. شرب كثيراً ولم يتناول من الطعام إلا الخس. ونعس وحلم حلماً طويلاً في وقت قصير جداً. وغادر الحانة فعبّر أمام العبارة فوق الطوار الآخر، فرأى الشرطة وجعاً لا حصر له. واصل سيره إلى فندقه بالعبة دخل حجرته وهو يتهدد وقد نسي الحلم تماماً... أغلق الباب، أضواء الصباح. التفت إلى الوداء، رأى الرجل جالساً فوق الفوتيل يرمقه بهدوء ثقيل كالصوت... نذت عنه آهة دامية، تراجع حتى التصق ظهره بالحائط، تعلّق بالفرار ولكنّه لم يتحرك، وتسمّر في مكانه وبال على نفسه، إنّه حقيقة ما يرى، هو هو الرجل. القرطاس بيد والكيس بالأخرى... الموت يطلّ من صورة حية... يجذّق فيه بعينين جامدتين عاليتين بكل شيء. شعر بغثيان ويأس وقال إنّه الشّعور أو الجنون. وأمره بالاستسلام دون أن يتفوّه بكلمة، يخاطبه بلغة جديدة وواضحة ونافذة وغير مسموعة. كيف ومتى جاء بهذه السرعة. وما معنى تجمهر الشرطة والناس أمام مدخل العبارة؟ كم عاملاً مضت منذ ارتكاب جريمته؟ كم عاملاً

لبث بالحانة؟ وكلّما مرّ وقت تأكد له وجود الرجل بثقله وسطوته غير المحدودة. وشيء حتّ على أن يدسّ يده في جيبه، فعثر على المطواة التي تركها منفرزة في قلب الرجل فأدرك أنّ هذا العالم يخضع لقوانين كثيرة لا لقانون واحد.

دقّت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل. تلقى أوامر سرّية فتهيّا في خنوع لتنفيذها بدقّة وطاقعة عمياء. قام الرجل ببطء. سار بجلال نحو الباب. فتح هو الباب ومشى بين يديه صامتاً مدعّناً. أراد أن يصرخ، ولكن الصوت تلاشى في حنجرته. هبط السلم والرجل يتبعه التقى في طريقه بفراش، بمدير الفندق، بموظف الاستقبال، ولكن أحداً لم يعره التفاتاً، لم تسترّع المعجزة انتباه أحد، لم تتردده ولا اهتماماً!

أمام الفندق وقف حنطور بلا حصان. اتّجه الرجل نحو المقعد وجلس عليه بهدوء. أمّا هو فاحتلّ مكان الحصان وتأبّط العريشين، لم ينظر أحد من المارة لما يحدث، لم يتجمهر أحد. كلّ فرد منشغل بشيء محسوس أو بشيء لا يرى. أكثر من ذلك نرّم أحد السابلة شادياً: أهل الهوى يا ليل.

وفرّق السوط فراح يميّز الحنطور. مضى في رشاقة وهدوء واستسلام. رأى جانبي الطريق، ولكنّه لم يَر ما يمتدّ أمامه، فخاص في مجهول. في خطّ مستقيم يتقدّم أو يتعطف متلقياً توجيهاته من جذبات اللجام. إلى أين يسوقه؟ ماذا يضمّره له؟ لا يدري. ولا يبالي. يمضي بلا توقّف. يبول ويتغوّط بلا توقّف. يصهل أحياناً ويرفع رأسه، يلمس لجامه بلسانه الجافّ، تتتابع إيقاعات حافره فوق الأسفلت. إيقاع رتيب ينذر بمسيرة لا نهاية لها.

الحَوَادِثُ المَشِيرَة

- ١ -

- لا علم لي بذلك.
- لعلك تعرف محلّ نقل الأثاث الذي حلّ أثنائه؟
- إنَّها شقّة مفروشة وقد حمل حقائبه في تاكسي ومضى...
- أتعرف التاكسي أو سائقه؟
- كلّاً.
- ما عمره؟
- يصعب تحديده لقوّته وصحّته، محتمل أن يكون في الثلاثين أو في الأربعين...
- وما عمله؟
- من الأعيان، ولكنّه كان موفور النشاط. يغادر العمارة في الصباح الباكر، ويرجع في أوّل الليل، ولكنّي لم أتابع خطّ سيره إلّا كلّما اتّفق لي ذلك...
- وأسرته؟
- إنّه وحيد، لم يزره أحد فيما أعلم...
- معاملته؟
- من وجهة نظري في غاية الكمال، يؤدّي الأجرة - مائتي جنيه - في أوّل يوم للشهر، ولم أجد منه متاعب على الإطلاق.
- وسلوكه الشخصي؟
- لا غبار عليه فيما أعلم، إنّه يحترم نفسه بكلّ معاني الكلمة...
- ألم تعرفه عن قرب؟
- كلّاً، مرّة عند تحرير العقد، ومرّة عند فسخه.
- عندك فكرة عن حالته الماليّة؟
- كلّاً، ولكنّه وجيه المنظر، ثمّ إنّه يدفع إيجاراً

- سأذكر ما حييت حوادث حيّ الخليفة المشيرة المفزعة، الحقّ أنّها لم تكن كلّها مفزعة، فمنها حكايات تناقلها الناس عن هبات مجهولة من النقود تسلّل بليل إلى بيوت الفقراء، ولكنّ منها أيضاً حالات التسمّم بالجملة، والحرائق، وأكثر من ذلك تكرارها على وتيرة واحدة ممّا أشار إلى فاعل واحد. وبشّنا العيون والحراس، وقمنا بدوريات ليلية منتظمة. وقلت لرئيسي:
- المجرم مجنون ولا شكّ.
- فقال لي بحدّة:
- المهمّ أن نقبض عليه.
- وتقفّضت أياّم البحث وأنا في غاية من التعماسة، فلا نتيجة ولا أثر ولا توقّف للحوادث، حتّى جاءنا خطاب غفل من الإمضاء، به سطر واحد:
- «مجرم حوادث الخليفة هو مكرم عبد القيم المقيم بالشقّة ٣ بعمارة الفردوس».
- فقرّرنا بلا تردّد مراقبته، ولكن سرعان ما انكشف لنا أنّه أدخل شقّته منذ يومين، وبادرت إلى التحريّ عنه في العمارة، فقابلت مالكها وهو ساكن بها أيضاً، وقلت له:
- أريد ما عندك من معلومات عن مكرم عبد القيم الذي كان يسكن الشقّة رقم ٣.
- فأجاب الرجل:
- لقد أخلاها منذ يومين.
- أعرف ذلك ولكنّ إلى أين انتقل؟

- عندما سألته عن ذلك أجاب بأنه يحب
التنقل...

- ماذا تعرف عن صفاته؟
- إنه قويٌّ ومهيبٌ وجليلٌ، وهو أيضًا رقيقٌ
العواطف للدرجة لا تتناسب مع قوة مظهره، سمع مرةً
صراخًا على ميت في عمارتنا فاغروقت عيناه بالدموع،
وكان يبني نقودًا لأبتاع خبزًا للقطط الضالة التي تحوم
حول العمارة، وبلغت به الرقة أنه كان يرمي بحبات
من الفول السوداني عند بئر السلم غداءً لفأر كان
يلمحه كثيرًا...

- جميل هذا كله، ولكنك لا شك تعرف أشياء لا
يعرفها أحد عن سلوكه الشخصي، فرجلٌ وحيدٌ لا
يستأجر شقة مفروشة لوجه الله...
- لم يدخل شقته أحد قط، هذا الجانب لا يمكن
أن يفوتني...

- ولا أصحاب ولا أقارب؟
- ولا أصحاب ولا أقارب...
- وكان يغيب طيلة النهار في الخارج؟
- في بعض الأحيان كان يتغذى في شقته، فيطلب
غداءه من أحد المطاعم...
- ألم بلغت نظرك شيء داخل شقته؟
- لم أدخلها قط.

- ماذا تعرف عن مواعيد رجوعه ليلاً؟
- كان يرجع عادة حوالي العاشرة، وقد يتأخر به
السهر إلى منتصف الليل أو حتى إلى مطلع الفجر...
- كيف ترى لو ثبت لك يوماً أن ذلك الرجل سَم
أبرياء وأشعل حرائق؟
- فآخذ الرجل وقال:
- يكون نذيرًا بقيام القيامة!

- ٣ -

جمعنا سائقي التاكسي العاملين في الحي، عرضناهم
على البواب، فتمرّف على أحدهم ويدعي يونس
باعتباره صاحب التاكسي الذي حمل حقايب مكرم عبد
القيوم، ولم يجد السائق صعوبة في تذكّر الرجل، وقال
إنه أوصله إلى سميراميس. وانطلقت إلى الفندق

لسكنه فقط مائتي جنيه...

- ألم يترك في نفسك انطباعًا بالشذوذ أو الإجمام؟
- إنه أبعد ما يكون عن ذلك...
- أعطني فكرة عن منظره؟
- طوله فارح، ضخم، قوي، قمحي اللون، ذو
قسمات واضحة وقوية وبارزة، أنيق جدًا...
- له علامة مميزة؟
- رغم سمرته فهو ذهبي الشعر والشارب.
- كيف أجز الشقة؟
- بوساطة السمسار عزّوز بأول شارعنا.

- ٢ -

لم أجد في أقوال صاحب العمارة أية إشارة ضوئية،
فقرّرت أن أنثني بالبواب. وكان كالمألوف نويًا ولكنّه
كان طاعنًا في السن. قلت:
- أودّ أن أتحادث عن مكرم عبد القيوم...
فقال بحرارة:
- ربّنا يحفظه!
- إنك تحبّه فيها ييدو؟
- كيف لا، إنه أطيب خلق الله.
وسألته أول ما سألته عن التاكسي الذي حمل حقايبه
فأجاب:

- وجه السائق غير غريب عني.
فدوّنت ذلك في مذكرة خاصة، ثم تساءلت:
- قلت إنه أطيب خلق الله؟
- أجل ما كلّفني مرةً بعمل إلا نفخني مكافأة، غير
المواسم والأعياد، دائمًا بسام، يحبّي في الذهاب وفي
الإياب، يسأل عن حالي، لا أنسى مساعدته لي عندما
كنت أقوم بتجهيز ابنتي، إنه حلم المحروم، ودواء
الجربيع...

- أعتقد أنه أحرّك عن المكان الذي انتقل إليه؟
- كلا... ولكنّه وكّد لي أنه سيمرّ بي كثيرًا...
- يعني زيارة خاصة لك؟
- ربّما عند زيارته للحيّ لدى سبب من
الأسباب...
- ترى لماذا غير مسكنه؟

مصحوبًا ببعض المعاونين. وهناك تؤكد لي أنّ الرجل بات في الفندق ليلة واحدة ثم غادره في الصباح الباكر، رجعت أسأل عن هويّة التاكسي الذي حمّله، لكنّ الشّيال تؤكد لي أنّه نقل الحفّات إلى سيّارة ملاكي مرسيدس بيضاء، وأنّ البك الضخم الأسمر ذا الشعر الذهبي ساقها بنفسه، أمّا رقم السيّارة فلم يلاحظه أحد.

أهو صاحب السيّارة؟ لمّ لم يستعملها طوال إقامته في العمارة؟... هل امتلكها أمس فقط؟ كلّها أحلق الغموض بتصرفاته رسخت تهمة الاتّهام في نفسي... فتوثّبت غرائز البحث والتحليّ في أعماقي.

- ٤ -

قصّدت بعد ذلك جيرانه المقيمين معه في نفس الطابق. أوّلهم مهندس معماريّ يدعى روف، وما سمعني أردّد اسمه «مكرم عبد القيوم» حتّى تقبّض وجهه تفرّزًا، فقلت:

- يبدو أنّك لا تستلطفه؟

- عليه اللعنة! رجل غريب، منطويّ على نفسه لحذّ الشذوذ، ولا أشكّ في أنّه يمقت البشر...

- للبواب رأي آخر فيه؟

- لا تأخذ بأقوال البواب فإنّ شلّنا يدير رأسه، لا أنسى مرّة تلاقينا فيها في مدخل العمارة، بدّأته بتحيّة فردّ عليّ بإيماءة متكرّرة هبط لها قلبي وغلّ دمي، إنّه وقح وقليل الأدب.

- جديد عليّ ما تقول...

- اتحدّى أن تعرّض على ساكن واحد من سكّان العمارة قد تبادل معه تحيّة، إنّه متعجرف بخيصر، أمّا قسوته...

- تقول قسوته؟

- حكّت لي زوجتي أنّها رائته يركل قطّة بحذاءه، صادفته أمام باب شقّته، فارتطمت بعنف في الجدار ثمّ سقطت بين الحياة والموت!

- عجيب هذا...

- في مآتم العمارة يتجاهل الواجب الإنسانيّ بلا مبالاة، يمرّ أمام السراق بلا اكتراث ولا حياء.

- وسلوكه الشخصي؟... أعني الشقّة المفروشة؟
- لا... لا... لم يزرها أحد فيها نعلم، أمثاله يعانون نقصًا خفيًا يدارونه بالعجرفة وأبهة المظهر...
- ولكنّه ثريّ فيها يبدو؟
- لمّ لا؟... ما أكثر الأثرياء الأوغادا!

- ٥ -

ليست شبيهة ولكنّها تهمة حقيقية. والبواب صادق كما إنّ المهندس روف صادق. وتؤكد ظنوني معرفتي الوثيقة لتاريخ الجريمة. من غير مكرم عبد القيوم يرمي بالنقود إلى شرفسات الفقراء ويسدّ السمّ في الشيكولاتة للأبرياء؟... أليس هو الذي يهب النقود لتغذية القطط الضالّة ثمّ يركل واحدة منها حتّى الموت! وذهبت إلى الجار الثاني، مدرّس لغة عربيّة، يدعى عبد الرحمن. قال:

- الرجل وحيد حقًا ولكنّه ليس متعجرفًا، والمسألة أنّ المهندس روف كرهه من ردّ تحيته بجفاء، ولعلّه كان وقتها مكذّر البال...

- فماذا تراه أنت؟

- أشهد له بالتقوى، طالما تقابلنا في الجامع عند صلاة الجمعة...

- حقًا؟

- وماشيته مرّة عقب الصلاة فوجدته لطيفًا، دعاني إلى الغداء في مطعم الكورسال، وألحّ عليّ فلم أجد بدًّا من الاستجابة، وأعلن لي عن حبّه التراث، ورغب في الاستعانة بي للاستزادة منه...

- لعلّه لم يتعلّم؟

- كلًّا... لم يكن متبحّرًا في التراث... ولكنّه تخرّج في الجامعة بكليّة الحقوق، ودرس في السربون القانون والتاريخ...

- لعلّك الوحيد الذي خالطه؟

- لعلّي، كنّا نتقابل في مشرب مينا هاوس، وهناك وضح لي أنّه كثير الأصحاب، مصريّين وأجانب، وكان يدعى إلى التليفون مرّات عديدة حتّى خيل لي أنّه من رجال الأعمال...

- ألم يخطر لك أن تسأله عن عمله؟

- مرة سألته بلباقة عما يفعل بوقته، فأجاب بأنه يحب أشياء لا حصر لها ولكنه غير ملتزم بعمل محدد، بمعنى آخر هو من الاعيان...
- ما مصدر ثروته؟

- أرض، أسهم وسندات وهلم جرا... ولكن ميزته الأولى في نظري أنه واسع الاطلاع... وقد طالبته مرة بأن يؤلف في التاريخ، فابتسم وسألني: «أتصدق حقاً أنه يوجد شيء اسمه تاريخ؟» فاعتبرت تساؤله دهابة، ولكنه استدرك قائلاً: «يمكن الاستغناء عن التاريخ بياني المديح والمجاء في الشعر...
- طبيباً لم تعرف لماذا تجنب الزواج؟

- مرة شكوت إليه تمرّد أحد أبنائي، فقال لي بأني لم ألسه فيه من قبل: «إن تمرّد ابن خليك بأن يشكّل مأساة بلا نهاية... ولرنين الأسى في نبرته شيء قال لي إنه ذلك الابن أو إنه الأب المبطل، وبشيء من الدهاء قلت له: «لقد أرحت نفسك من ذلك كله» فنظر إليّ وابتسم... ولكنه لم يشف غليلي...

- لم تمّ تستوضح تلك النقطة؟
- كنت أعاشره وأهابه، وأخشى أن أنقل عليه فأخسره...

- طبيباً أخبرك بنبة ذهابه؟
- أبداً... فوجئت برحيله... ولكنني حتّى سألقاه يوم الخميس في مينا هاوس...
- لا أظنّ، ومع ذلك سنرى...
- لماذا قلت لا أظنّ؟
- ألا تدري أنّ ثمة شبهة في أنه مرتكب حوادث حيناً المثيرة؟

فأستعت عينا الرجل في ذهول وقال غير مصدّق بل محتجاً:
- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم...

- ٦ -

تجهّم الغموض فانقلب ظلاماً، ولكنّ شعوري - شعور الخبرة والسنين - صار يقيناً أو كاد. وأوشكت على الاكتفاء بما استخلصت من معلومات لأسرع في المطاردة، ولكنّي لم أجد بأساً من لقاء الجار الثالث -

الملاصق بابه لباب مكرم عبد القيوم - وهو مفتش الضرائب بكر الحمداني. ما إن سمع اسمه حتّى هتف:

- المجنون!

- مجنون؟!

- طبياً، طالما بلغني صوته وهو يدوي كالمطبل في صمت الليل، ترى أيتحدّث في التلفزيون؟... يتحدث نفسه؟... يتعارك مع خيال؟ ولا عزيف الريح وجعجة الرعد، وكان هنالك ما هو أدمى إلى الدهشة...
- حقاً؟

- كان يغني ويلعب بأوتار العود!

- شيء جديد تماماً؟...

- الحق أنّ صوته قويّ وجيل، ولكنه يغني أحياناً أغنيات في غاية الوقار مثل «يا ما إنت واحشني» أو يغني أغنيات في غاية الابتذال مثل: «أنا أبله كنت هبله» أو تصوّر ذلك الرجل الضخم الوقور وهو يغني: «يوم ما عَضّني العضة»... ولكنه رجل عرييد.

- عرييد؟

- كنت مرة راجعاً من سهرة مسرحية، فرأيتته خارجاً من حانة فلاديمير وهو يترنّح من شدّة السكر... ويقول بلسان ملعش: «أنا جدع»...

- ما أعجب هذا...

- بل يوجد ما هو أعجب، رجعت مرة من سهرة فرأيتته يسبقي بخطوات، دخل شقّته وملت نحو شقّتي، ولسبب ما وجدنا شراعة بابه مفتوحة، لاحت منّي نظرة فرأيت في نهاية الدهليز حجرة مضيفة، ولعلّها حجرة جلوس، فتستمرت في مكاني لغرابة ما رأيت... رأيت خليطاً من عجائب متنافرة، على الجدار المواجه لي تبيّنت أقمعة غريبة، جميلة وبشعة ورهوس حيوانات عنقطة، وأسلحة من مختلف العصور، وأدوات موسيقية، وفي وسط الحجرة ما يشبه المعمل الكيماوي... بل معمل كيماوي بالفعل...

- معمل كيماوي؟!

- أجل... مائدة طويلة صفت فوقها أوعية زجاجية مليئة بسوائل مختلفة الألوان، وأنايب طويلة

مرتبّة على قوائم معدنيّة، وموثقات، ومولّدات
الطاقة...

- مدهش... مدهش...
- ذهبت إلى شقّي ذاهلاً... أبقيت زوجتي...
أخبرتني بما رأيت... اتهمتني بالسكر... تحدّيتها أن
تخرج معي لترى بنفسها... كان منظرًا مذهلاً...
- ألم تتبادل معه تحية أو كلامًا؟
- أبدًا... أصارحك بأنني كنت أخافه، وقد
تشهدت حين سمعت برحيله...

- ٧ -

في نفس اليوم ذهبت إلى السمسار، لم أكن في
حاجة إلى مزيد من المعلومات عن شخصيّة «التهم»
ولكنّي أملت أن أجد عنده خيطًا يوصلني إليه.
ووجدته متذكّرًا تمامًا للمعاملة التي جرت بينهما رغم
انقضاء ما يقارب العام عليها. بل إنّه قال:
- ذلك يوم لا يمكن أن يُنسى!
- لماذا؟

- تمت المساومة في دقيقة، بل لم تكن ثمة مساومة
على الإطلاق، وكان أكرم ممّا يتصوّر العقل، ولكنّي
اكتشفت فقد حافظه نقودي في ذلك اليوم أيضًا،
ولذلك فهو لا يمكن أن يُنسى...

- كيف حدث ذلك؟
- سلّمني النقود فوضعتها على المكتب ثمّ انصرف،
شغلت دقائق بكاملة تليفونيّة، ثمّ تناولت النقود
لاودعها الحافظة فلم أجد للحافظة أثرًا...
- ماذا دار بخلدك؟

- كانت الحافظة معي، لم يدخل دكانيّ إلاّ مكرم
عبد القيوم ومساح الأحذية، وفي الحال شككت في
مساح الأحذية، امتدعيته، استجوبته، عثقت به حتّى
صرخ، ولكنّه أقسم بأغلظ الأيمان وبكى...
- طبعًا لم تشكّ في الآخر؟

- كلّاً، الحقّ كانت تساورني شكوك أحيانًا ولكنّها
كانت تمرّ على التصديق، وقد حرقني فقد أكثر من
مائيّ جنيه، ولكن كيف أوجّه تهمة إلى رجل مثله بدا
لي أنّه من أصحاب النقود بلا أدنى شكّ؟... وما

جدوى الاتهام إلاّ أن يعرضني لبطشه؟
- وسلّمت أمرك لله؟

- كما يحصل في أغلب حوادث النشل، وكنت أراه
أحيانًا وهو ماضٍ في الصباح فأتبعه عينيّ بحيرة وأتمتم
«ربّنا عزيز ذو انتقام».

- ٨ -

واجتمعت برئيسي في مساء اليوم نفسه، وعرضت
عليه التقارير التي سجّلتها بعناية تامّة. راح يقرأ وهو
يسند رأسه إلى راحته حتّى فرغ منها، ثمّ طالعني بوجه
متجهّم وقال:

- علينا أن نستعيد الصورة، توجد حوادث مثيرة،
بعض الفقراء يجدون في شرفات منازلهم صرًّا مليئة
بالنقود هبطت من مصدر مجهول، آخرون يجدون علب
حلوى سليمة، أناس يجدون علب حلوى مسمومة
مات بسببها أبرياء، اختفاء أطفال، حرائق تشبّ في
الحوانيت. لهذا من جهة، ومن جهة أخرى يبيح
جواب من مجهول يوجّه الاتهام إلى المدعوّ مكرم عبد
القيوم، وتتحرّى أنت عن الرجل فتجينيّ بمجموعة من
التناقضات تماثل في غرابتها تناقضات الحوادث، ما
رأيك؟

قلت:

- أصبحت على يقين من أنّه المجرم...
- يقين؟
- إنّه شعور داخليّ...
- ما يهمني هو الدليل القاطع أو الاعتراف...
- لا تنس يا صاحب السعادة أنّ الحوادث توقفت
منذ رحيله.

- الفترة قصيرة جدًّا ولا تعني شيئًا...
- لا تنس أننا أصبحنا مضغة للأفواه...
- سيخونه حرصه عاجلاً أو آجلاً... فهو بلا
شكّ مجنون!
- مجنون؟ محتمل. ويحتمل أيضًا أن يكون عاقلاً
وداهية وذا أغراض خفيّة...

- ٩ -

- لقد أشعلت النار في الإدارة!
فقلت بإصرار:
- لا غبار على الخطّة.
- ها قد جاءنا مَنْ لا نبحت عنه، وغاب عنا من
نبحت عنه!
- لعلّه تعمّد الاختفاء أو التّكرّر.
- واضح أنّ الحوادث المتفشّية في جميع الأنحاء
ليست من صنع رجل واحد...
- لعلّه رئيس عصاية!
فهتف بيأس:

- ١٠ -

- لقد أشعلت النار في الإدارة!
رجعت إلى حجرتي أعمى تماماً من الغضب. عند
الباب سمعت حواراً حاداً بين الحاجب وآخر يريد
الدخول لمقابلتي. قلت بحزم:
- لا وقت عندي الآن لأحد.
فقال الآخر بصوت جهوريّ مزّن:
- أنا مكرم عبد القيوم!

- ١٢ -

تأبّطت ذراعاه، دخلنا الحجرة، وقفنا متواجهين وأنا
ألهث، تساءل بهدوء غاضب:
- ما معنى المنشور في الجرائد؟
فسألته وأنا أمّتحته بعيني:
- لمّ لمّ تحضر مباشرة عقب النشر؟
- كنت في البحر الأحمر بعيداً عن الجرائد وغيرها.
وفصل بيننا صمت مثقّد حتّى عاد يتساءل:
- ما معنى هذه التهمة السخيفة؟
فقلت بحقن:
- سنرى...
وقرّرت إجراء التحقيق في حجرة رئيسي وتحت
إشرافه.

- ١٣ -

- ماذا أقول؟...
أجاب الرجل عن كلّ سؤال فوراً وفي بساطة وثقة،
لم نجد دليلاً واحداً يدينه، عرضناه على أهل الضحايا

اندفعت في المطاردة بقوة متحمّية، ضاعفت
الدوريات والعيون، أبلغت الأوصاف إلى جميع
الأقسام، ورسمت خطّة شاملة للمرشدين ولأهل
الخبرة بأوساط المجرمين. لم يخف عني أنّه تحدّد لشخصي
ومستقبلي وواجبي، وسيطر الموضوع على يقظتي
ومنامي، وفكرت وفكرت ثمّ قرّرت تأجيل الاستعانة
بالصحف والإذاعة.

وفيما نحن منهمكون في المطاردة انقضّت علينا
صاعقة، طلعت علينا الصحف بأنباء حوادث ممّالة لما
وقع في حيننا ولكن في طنطا هذه المرة، انطلقت إلى
طنطا بلا استئذان، وضعت معلوماتي تحت تصرّف
المسؤولين هناك.

وفيما نحن نرسم خطّة جديدة معتمدين أوّلاً على
الاستفادة من التجربة السابقة، طلعت الصحف بأنباء
حوادث تقع في أسبوط، وفي الحال سافرت إلى أسبوط
وأنا أشعر بأنّ الجريمة استحالّت فضيحة قومية. وهناك
تلفتت إلى رئيسي أخبره بمقرّي فإذا به يصيح:
- أين أنت؟!... ما هذا التصرف المشين؟!
هممت بشرح الأمر ولكنّه صاح بي:

- احضر حالاً... لقد عادت الحوادث إلى حيننا!

- ١١ -

وخطر لي أن أستدعي رسماً مشهوراً، جمعت بينه
وبين الشهود. وطالبته برسم صورة دقيقة للرجل
المجهول من واقع شهادتهم. وقلت له:
- لا تركها حتّى يقرّوا بأنّها طبق الأصل.

ونشرت الصورة في الصحف مطالباً من يعرف
صاحبها بأن يدلّنا عليه، ودلّنا مواطنون على أكثر من
شخص، عمدة، تاجر أسماك، تاجر شنطة، بل
انطبقت الصورة على مسئول في الدولة له شأن،
فاستفحلت الفضيحة حتّى انقلبنا سخرية الساخرين
وناداة المعلنّين.

وصاح بي رئيسي:

والمخبرين المبثوثين في أنحاء الحيّ فلم يشهد أحد بأنّه رآه في ليل أو نهار. أذعنا رسالة موجّهة للمجهول صاحب الرسالة أن يتورّنا بمعلومات إن كانت لديه فلم يرّد علينا أحد. وهكذا غادرنا مكرم عبد القيوم مرفوع الرأس وقد أصابني بضربة قاضية. والعجيب بعد ذلك أنّ شعوري الباطنيّ باتهامه لم يتزعزع.

- ١٤ -

كان لا بدّ من كبش فداء فقرّرت الداخلية نقلني إلى الديوان. وأحلّت عليّ من رآته أعظم أهليّة للعمل. وتلقّيت الأمر بغضب وتحدّ، فقدّمت استقّالتي معتزّماً الاشتغال بالمحاماة، وظللت أتابع أنباء الحوادث والتحقيق وأنا مشفق من أن ينجح من حلّ محليّ في القبض على المجرم، إنّه شعور غجل ولكنّه متوافق مع الطبيعة البشريّة، وما أدري ذات يوم إلّا ومكرم عبد القيوم يقتحم عليّ مكتبي، رفقته بدهشة، فجلس أمام مكتبي وهو يقول:

- جشك لأعرض عليك أن تسوّى إدارة أعمالني وقضاياي!
وكان العرض مغرياً للدرجة يتعدّر معها رفضه، ولكنني سألته:

- لمّ أنا بالذات ولم أعمل في المحاماة إلّا عامين؟
- ولكنك ذو خبرة كبيرة، ثمّ لأنني أعدّ نفسي مسؤولاً بعض الشيء عن استقّالتك...

فسألته بحذر:

- نوع من الشبهة؟

فهتف بصدق:

- معاذ الله، ما ورائي إلّا شعور طيّب...

لمّ لا؟

هكذا أصبحت مستخدماً في دائرة الوجيه مكرم عبد القيوم!

- ١٥ -

وأشهد لقد وجدته وجيهاً بكلّ معنى الكلمة، وقوراً، عالمياً، عذب الحديث، طيّب المعاشرة، كريماً ودوداً. وريماً فتر حماسي أحياناً فأتساءل وألا يفاجئني

مرّة بتناقض من تناقضاته؟... ألا يحسن بي أن ألزم جانب الحذر؟. ولكنّه خيّب وساسي. وقرص ضميري بإصراره على كلّ ما هو طيّب.

وذات صباح - وعقب مراجعته لما عرضته عليه - رجع بمقعده الهزاز إلى الوراء وقال:

- أخيراً قَبِلُوا القضية ضدّ مجهول!

فقلت بشيئة:

- لتكن هذه اللطمة ردّاً على اللطمة التي تلقّيتها.

فقال بهدوء عذب:

- كلّاً... لقد أخطأت...

- ولكن...

وسرعان ما قاطعني قائلاً:

- كان من الخطأ أن تركز الاتهام في بسبب رسالة سخيفة غفل من الإمضاء.

فقلت مدافعاً:

- ليس بسبب الرسالة ولكن بإغراء التحريّات غير العاديّة!

- وبتركيزك الاتهام في تركت المجرم الحقيقيّ فقلت من يديك!

- لم يكن معقولاً أن أربط بين أقوال الشهود وغرابة الحوادث؟!

- يا أستاذ! هل يخلو مخلوق من تناقضات؟... ثمّ ما الغرابة في أن أطعم القطط وأن أركل قطّة مريضة هاجتني؟... ما العجب في أن أتوادّ مع رجل... وأجاني آخر لسلوه خلقه؟... وما الجديد في أن أمضي وقوراً حيناً وأترّجّع من السكر حيناً آخر؟ أيعني هذا أن أسمّم الأطفال وأشعل الحرائق؟!

لذت بالصمت متفكّراً وحذراً في نفس الوقت، أمّا هو فواصل:

- بنفس المنطق يا عزيزي يمكن أن توجّه التهمة إليك أنت!

فندّلت متّي ضحكة وتمتعت:

- أنا؟

- لمّ لا... لقد استمرّت الجرائم رغم تشديد الحراسة وبثّ المخبرين، كيف اخترق المجرم سبيله في حيّ ملقّم؟... لا شك أنّه كان مطمئناً إلى أنّ أحدًا

من رجال الأمن لن يشكّ فيه، عظيم... فمن يكون
هذا إن لم يكن الرئيس المكلف بالمراقبة؟... أو بمعنى
آخر إن لم يكن أنت؟

فضحكت عاليًا وقلت:

- وجرائم طنطا؟

- لقد وقعت حوادث طنطا. وثبت أنك سافرت
إلى طنطا، أمّا أنّ سفرك لحن بالحوادث أو سبقها فلا
نعرف عنه شيئًا!

فقلت وما زلت أضحك:

- عظيم، ولكن ما الدافع وراء الجرائم؟

- هو الدافع الكامن في أعماق المجرم الذي أعياك
البحث عنه!

- في اعتقادي أنّه مجنون... .

- وغير مستحيل أن تكون مجنونًا!!

- هل تجد في عملي معك شبهة جنون؟

- الجنون أنواع، والمجنون آخر من يعلم... .

وضحكت متظاهراً بالاستهانة ولكنّ حديثه ساءني،

وساءني أكثر الجدل الذي تناول به حديثه حتّى خيل إليّ

لحظة أنّه يوجّه إليّ اتّهامًا حقيقيًا، بل إنّهُ يصبّ اتّهامه

على الناس جميعًا. ثمّ تبسّم فعاد الإشراف إلى وجهه

الكبير، وقال بنبرة جديدة:

- حسنًا، ولنواصل العمل.

وقلت لنفسى يا له من رجل عجيب!... لا شكّ أنّ

العمل في دائرته فوز مرموق، وأنّ شخصيته تتعالى عن

الاتّهام، ولكن ما بال شعوري الباطني باتّهامه لا

يفارقني؟!!

الدنيا العجيبه

تأليف

طاهر مليك

ترجمة وتقديم: د. مرتضى سيدعمر
مراجعة: أ. د. نعمة الله إبراهيموف

الدنيا العجيبة

ظاهرملك

بدأ وجه السماء يتغير بعد أن أسقطت نجومها مثل الدموع، وقد استمعت إلى الناس ييئونها همومهم وشكاواهم طوال الليل، وبقيت في السماء نجمة وحيدة كأنها تقول: «سأرى كيف ستكون أحوال هؤلاء المساكين اليوم!» وكان ييغت علي يحدق في هذه النجمة، وإلى جانبه ينام ولداه، وكانت زوجته نائمة على الجانب الآخر من الفراش، وهؤلاء سيستيقظون أيضا بعد قليل، وستذهب زوجته مع ابنه الصغير لحصاد القمح، ويذهب ابنه الأكبر ليعمل في بيت وكيل المزرعة، أما هو فسيضع كيسا فارغا على كتفه ويمشي على رجليه الخشبية ليرعى القطيع، وهكذا تظل الدار خالية حتى يخيّم الظلام.

لقد أوصاه الطبيب محذرا: «لا تمش على الرجل الخشبية!» لو عرف أنه سيعمل راعيا عندما يعود إلى قريته لما قال ذلك... ومن يعمل الآن مُتَكِنًا على جنبه! كل الناس يعملون واقفين على أرجلهم، ولحسن الحظ فإن هناك ليلا يمكن الرقود ومد الأرجل فيه، وإلا لما عرف ظهر الإنسان فراشا، ولندمت الرجل على أنها كانت رجلا! ولم يعرف ييغت علي بالضبط هل استيقظ من نومه بسبب الألم الشديد في رجليه المقطوعة، أم أنه خاف من حلمه... ولمس رجليه المقطوعة من الركبة بهدوء، وتذكر حلمه: هناك جثث ثلاثة أولاد في نعش، وكان كل منهم نحيفا، كانوا جلدا على عظم،

وقد ماتوا جميعا من الجوع، وفوق جثث الموتى يقف رمضان، صديقه الذي كان يشاركه رغيف الخبز في الحرب، وكان ينظر إليه غاضبا وهو يقول: «إنك لم ترع أولادي، وهما أنا الآن آخذهم معي!» أما بيغيت علي فيسأله: «هل... هل أنت... هل استشهدت؟» ولم يرد رمضان، وقام أولاده الثلاثة ووقفوا في النعش وحضنوا أباهم، وابتعد رمضان في هذه الحال، وأراد بيغيت علي أن يوقفه، ولكنه لا يستطيع أن يمشي.

كان هذا حلمه، أما جثث الأولاد الثلاثة فقد رآها في الواقع عندما كان راجعا أمس وهو يقود القطيع؛ كانت امرأتان ورجل يحملون ثلاثة موتى على النعش إلى المقبرة، والرجل هو قمبر الأعرج، كلفه أهل القرية وظيفة اللحد، قال إنه لا يعرف حفر القبور، ولكنهم أجبروه!

هل الوقت وقت حفر القبور وغسل الموتى وتكفينهم وفق القواعد الشرعية؟^{١٩} يكفي أن يُكفن الميت بما وُجد، ثم يُدفن في الحفرة، المهم ألا يقع التراب على وجهه عند دفنه، وألا تتبش الكلاب قبره وتأكُل جثته!

وإذا ما استثنينا العرج، فإن الرجل السليم في القرية هو هذا القمير، أما الرئيس فهو لا يُحسب؛ إنه ليس إنسانا بل هو رئيس! وهو أعلى من العباد، كأنه إله في هذا المكان، إلا أنه لا يُسجد له ولا يُصلّى، وهذا ما يفرق بينه وبين الإله، فكل ما يقوله قانون، وكلامه أمر واجب!

إن الله رحمن رحيم، يغفر لعباده الذنوب ويرحمهم، وأما هذا الرئيس فهو لا يرحم أحدا، ولا يسامح، ولهذا يخافه كل أهل

القرية، وكل المسؤولين يخافونه، طبعاً، يخافونه، وإلا لأرسلوه إلى الحرب مع الآخرين... فهل بعد هذا تستطيع أن تقول له: «يا ابن آدم» وأنت ترى أحوال الرجال في القرية، ذهب سبعة وخمسون رجلاً إلى الحرب، ولم يعد إلا اثنان منهم فقط، أحدهما بلا رجل، والثاني أعمى، ومن العيب أن تعمل النساء لحادات فيساعدن قمبر الأعرج، أو يكن غسالات للموتى، لا...

وخلاصة الكلام، أخذ قمبر الأعرج على عاتقه وظيفة لحاد وغسال موتى، وهو الآن يحمل النعش من الأمام، ويمشي ويعرج، والمرأتان تمسكان النعش من قبضتيه الجانبيتين، ومع كل خطوة يخطوها قمبر الأعرج يتمايل النعش من جانب إلى آخر، وهذا يتعب المرأتين.

وضعوا النعش على الأرض عندما رأوا يبيغيت علي، وجلست المرأتان على جانبي النعش، واقترب قمبر الأعرج من يبيغيت علي، وسلم عليه، وقال:

- دعونا من حصاد القمح، انظر، لقد توفي الأولاد الثلاثة في وقت واحد.

وسأل يبيغيت علي:

- ولبن هؤلاء الأولاد؟

أصبح يبيغيت علي صابراً متجلداً، فكثيراً ما رأى الموتى والقتلى في ساحات القتال والمركة، ولكنه غضب - وكأن شيئاً ما وقف في حلقه - لما رأى الأولاد الموتى الممددين على النعش، وقد غطوهم بأغطية بالية... لا بأس لو كان هذا في وقت الحرب، ولا بأس إن قُتلوا من قنبلة، أو ماتوا في الحصار! ولكن الآن؟...

لقد مرت سنة على انتهاء الحرب، وكيف يتحمل الإنسان موت أولاد صغار من الجوع؟ هل كان يتصور مثل هذا الوضع عندما دخل النار، وعندما رقد على وجهه على الثلج؟ إن الجوع والفقر هما من الثمرات المرة لشجرة الحرب، إذن لم تَمُتْ هذه الشجرة بعد، وسوف يذوقون من ثمراتها كثيرا .

- أحدهم، وهو المغطى بالمنديل المرقع، ابن زيبي، زوجة ساتوالدي، أتذكره؟ لقد ذهب قبلك... كان هذا الولد المسكين ذكرى من زوجها، ولكنها لم تتمكن من المحافظة عليه! أما الثاني فهو ابن حليلة، زوجة ايشقوزي، وهي أول امرأة في القرية تسلمت رسالة تعزية، وها هي الآن تسلم ولدها الثاني للخالق.

- ولمن الآخر؟

- إنه ابن ظريفة زوجة شاديواي.

ربما ظن قمبر أن ييغيت علي لما غاب في جبهات الحرب أربع سنوات نسي الجميع، ولذلك فهو عندما يتحدث عن أحد، كان يصفه موضحا بمثل هذا الشرح!

- وأين ظريفة نفسها؟ سأل ييغيت علي مستغربا .

- حرارتها مرتفعة، وقد أغشي عليها، وهي لا تدرك ما يجري حولها، حتى أنها لم تعرف أن ولدها مات! امتلأ فم قمبر بالريق فبصقه وبصق الناص، ثم مسح فمه بمنديل كان يضعه على رقبته، وقال:

- انصب العذاب كله على الأولاد، يا لهم من مساكين لم يروا في الدنيا إلا عذابا، ولا بأس إن كفنهم بكفن نظيف.

- لماذا لم يقولوا هذا والأولاد جياع بهذا القدر؟
- يقولون لمن، للرئيس؟ بدلا من أن تقول شيئا للرئيس، اطلب من الخالق أن يزيد إيمانك ويقويه، فهو الذي سيعطيك ويرزقك، أما الرئيس فتعرفه! في الحقيقة، عليك أن تكون أنت الرئيس، وفي مزرعة «كومونيزم» التعاونية انتخبوا رئيسا جديدا، إنه بائيسوف، هل سمعت عنه؟ مُنح وساما واحدا، وأهل قريتنا يفكرون في هذا الموضوع، وأنت لديك وسامان، وعليك أن تكون رئيسا!

- لا تحاول إثارة الفتن النائمة، لم يمنحوني وساما لأكون رئيسا، ولا أستطيع أن أكون رئيسا، ومن الأفضل أن نسأل الرئيس أن يخصص لنا يومي عمل، نحصد فيهما القمح ونأخذه لأنفسنا لتخفيف هم الغذاء!

وهز قمبر رأسه لما سمع هذا الكلام، وقال:

- لا أعرف... أمس ضرب الرئيس المزارعة كولجهان في التلال بسوطه، وسبب ذلك أن ولدها حصل على «إكرامية» ثلاثة أيام متتالية، ويقول الغبي: «إنك تسجلين «إكراميات» الآخرين لابنك، مستغلة منصبك، لأنك مسؤولة الفرقة»! ابن هذا لا يسمع كلامنا، ولا توجد عدالة ولا مروءة عند الناس، رأى أحد الحساد أن كولجهان أصبحت غنية، فاتهمها ووشى بها عند الرئيس، أما المسكينة كولجهان فهي لم تعمل أي شيء «لإكرامية» ابنها كأنها توقعت حدوث شيء ما... وأنت تريد أن تطلب العدالة من هذا الرئيس! من الأفضل أن نذهب لتساعدنا، سيخيم الظلام بعد قليل، وسندفنهم نحن -

الأعرجين - معا، لو بقيت وحدي سأدفنهم في قبر واحد، هيا بنا، ستساعدنا ونحفر لكل منهم قبرا مستقلا، ليرتاحوا في قبورهم على الأقل، هيا بنا.

سيعود القطيع ويمشي في طريق القرية، ولا خطر عليه هنا، وكل خروف يعرف بيت أصحابه.

وأعطى بيغيت علي عصاه لزيبي، ووقف وراء النعش. مشت المرأتان صامتتين، فليس لديهما قوة للبكاء، ولا دموع في عيونهما؛ جفت الدموع في عيون النساء من كثرة ما بكين على أزواجهن وأبنائهن وإخوانهن، ومن كثرة مشاركتهن وبكائهن في عزاء الأخريات... كان صمتهما يزيد من عذاب بيغيت علي أكثر فأكثر، لو بكنا بكاء شديدا لما عذبت وفاة هؤلاء الأولاد قلب بيغيت علي... لقد رأى في حلمه الليلة ما رآه أمس في يقظته، وبدا له أن هؤلاء الأولاد هم أولاد صديقه رمضان الذي كان يعتمد عليه.



ظل بيغيت علي مستلقيا مدة طويلة وهو ينظر إلى النجمة في السماء، وكأن الألم في رجله قد خف قليلا، وجاء صوت صهيل حصان في مكان قريب، ثم سمع صوت أقدامه... من يكون هذا يا ترى؟ استند بيغيت علي على ذراعه ونظر إلى طرف الشارع، وتوقف فارس أمام بيته.

- أمازلت راقدا في الغفلة؟

«إنه الرئيس! هل خرج الثعبان من بيته؟ ولماذا يتسكع هكذا في الصباح الباكر؟»، قام بيغيت علي ووقف وهو يفكر في هذه

الخواطر، وأخذ عصا صنعها ابنه من شجرة الصفصاف، واستند عليها وذهب إلى جانب الرئيس حاجلا.

- ماذا تعني بالغفلة يا رئيس، لم ينقشع الظلام بعد.

- هل سمعت أنهم انتخبوا رئيسا جديدا للمزرعة كومونيزم؟

- سمعت! قالها بيغيت علي مبتسما، وفكر وقال في نفسه: «هذا الذي تقصده»! أخبره الآخرون أن جنديا شارك في الحرب أصبح رئيسا قبل أن يخبره قمبر الأعرج، ربما وصل الحديث إلى آذان الرئيس بشكل أو آخر.

- يا أنت! أنت الذي يريد أن يكون رئيسا؟

- هل أفسدت هذه الفكرة عليك نومك؟ إن قلقك لا أساس

له! ابق في وظيفتك! ولست جائعا كي أحلم بسوق الخبز! يكفيني أن أعيش بلقمة حلال، فلا تتعب نفسك بهذا الكلام، ولا تعكر مزاجي! اذهب، يا ولد، ولا تتلفت في طريقك!

قال له بيغيت علي «يا ولد» عن عمد، لأن الرئيس لم يحترمه عندما خاطبه بعبارة «يا أنت!» على الرغم من أنه يكبره بأربع أو خمس سنوات، وقد أزعج هذا التصرف بيغيت علي، ولكنه سكت من باب الأدب، أما الآن، عندما حان وقته، فقد ذكره أنه أكبر منه سنا، وانبسط بعد أن قال له هذا الكلام! ومن الطبيعي أن هذا التكبر لم يعجب الرئيس، فقد أراد أن يضغط على بيغيت علي وإن علم أنه ليست لديه رغبة في إشغال وظيفة الرئيس.

- وعلى الجائع الذي لا يحلم بسوق الخبز ألا يتدخل في

شؤون الخبازين! وإن استطعت فخذ المزرعة وكن رئيسا، واسمح للناس بأن يحصدوا القمح ستة أيام لمصلحتهم، ويوما واحدا

للدولة! وليسعد الناس في عهد حاتمنا الطائي (بيغيت علي)؛
لأنهم ظلّموا في عهد الظالم (سفرقول)... فكان رئيساً!
- لا تتحدث بالإيماء يا ولد، إن كنت رئيساً فرئاستك لك،
ولا أخاف منك، وإن أردت أن تأخذ مني شيئاً فخذ هذه العصا،
أما إذا أردت أن تتحدث مثل الناس فترجل! وإن كنت تحب أن
تفوح رائحتك الكريهة وأنت على الحصان فاذهب! ولكن اسمع
يا ولد، عليك أن تتصرف بحكمة وتعقل، وإلا فسيلعنك الشعب،
وإن حصد الناس يومين من القمح لاحتياجاتهم فلن ينقص
المحصول.

- يا أخي! هذا القمح ليس لي، إنه للدولة! ونحن نقدم القمح
للفريق ستالين! هل سمعتم، للفريق س - تا - لين! أم تعترضون
على تقديم القمح للفريق ستالين؟

- اسمع يا ولد، لا تقلب الكلام! لقد قدمنا للفريق ستالين
أكثر من القمح، لقد قدمنا له حياتنا! واليوم أولاد الذين قدموا
حياتهم في حاجة إلى قطعة خبز، وعلى الأقل، تجب المحافظة
على هؤلاء الأيتام، وأنت لا تستطيع أن تخفي نفسك خلف
الفريق ستالين، فانظر أولاً لمصلحة أبناء قريتك، فهم شعبك
وسينفعونك غدا! هل تريد أن تحصد القمح من هذه الأراضي
غدا أيضاً؟ فمن يغرس، من يزرع، من يطحن؟ هل النساء اللواتي
تعبن تعباً ليس بعده تعب، أو الأولاد النحيفون الذين لا يجدون
ما يأكلونه؟

- لسانك طويل وكلامك كثير! هل أطلقت الرصاص في
الحرب أم تعلمت الكلام؟ إن رأسك مملوء بالأفكار المتطرفة!

- يا رئيس! اذهب في طريقك، وإلا فسأريك النجوم في وضع النهار.

- ياه، هل تهددني أيضا؟ اهدأ وهدئ أعصابك، ولا تقتخر بمشاركتك في الحرب! إذا كنت قد شاركت في الحرب، فنحن لم نجلس ونذلك أطرافنا، قدمنا لكم طعاما، وقدمنا لكم لباسا، وماذا تستطيع أن تفعل إذا كنت جائعا وعاريا؟ إن قُتلت برصاصة فإنك تموت مرة واحدة، أما نحن فخلال أربع سنوات كنا نموت في كل يوم مرات! ونحن لدينا لسان أيضا، ونستطيع أن نقول ما نشاء.

- أعرف أن لديك لسانا حادا، ولكنك لا تحسب نفسك في صفوف الذين ماتوا ولا مرة! ونحن نعرف من أطعمنا ومن ألبسنا، وهم لا يفتخرون بركوبهم على الخيل ولبسهم حذاء طويلا ومعطفًا جلديا، أما الذين يموتون في كل يوم فهم الذين يعملون في المزارع، يستشقون الغبار، ويصقون الدم، وأنت تعذبهم بالسوط، وإن كنت تزعم أنك متّ يوما فالحقيقة أنك لا تحب أن ترى هذا اليوم، أنت الآن وجدت فتوى لنفسك، واختفيت أربع سنوات بعيدا عن ساحة الحرب، أنت لست رجلا يا هذا!

هكذا تكلم بيغيت علي بصوت عال، وكان مغضبا فضرب ظهر الحصان بعصاه فانكسرت، وقفز الحصان خائفا، وفقد بيغيت علي توازنه وسقط على الأرض، أما الرئيس فكاد يسقط عن ظهر حصانه، ولكنه أمسك لجامه بالقوة، وصاح فيه مرتين فهدأ، وحث الرئيس حصانه في اتجاه بيغيت علي وهو يقول:

- ستعلم من الذي سيرى النجوم نهارا.

قامت آينساء زوجة بيغيت علي من فراشها وقد استيقظت
على ضجة الرجلين، وكانت تنصت إلى كلامهما خائفة، وهي
تنظر إليهما مترقبة، وصرخت قائلة:

- ياه، إنك تقتل زوجي!

ونفض الولدان على هذه الصيحة.

- أبي، يا أبي!

صاح الابن الصغير وهو لا يزال شبه نائم، أما الابن الأكبر
فأسرع إليهما، واقترب منهما بقفزتين، ووقف في طريق
الحصان.

- لا تخافي؛ إن زوجك ليس رجلا يموت بسهولة! قولي
لزوجك... لولا صلة القرابة لكنتم كلكم الآن في القبر... تبا لمن
علمك الكلام.

وشد الرئيس لجام الحصان وابتعد.

«بالمناسبة، هذا الخناس قريب لزوجتي!» تمتم بيغيت علي
وهو ينفض معتمدا على ابنه.

وسألت زوجته كأنها لا تعرف شيئا، ولم تسمع ما دار من
حديث:

- ماذا حدث، ولماذا جاء؟

- جاء ليأمر بالذهاب إلى حصاد القمح مبكرا.

هذا ما قاله بيغيت علي وقد اختصر الحديث، أما آينساء
فقالت: «يا إلهي»، وبدأت ترتب الفراش على الدكة، ثم حلبت
البقرة، وشرب كل منهم كأسا من الحليب، وقسموا رغيفا
من خبز الشعير إلى أربعة أقسام وأكلوه، كان هذا هو كل

فطورهم، وأخذت آينساء أصغر قطعة، فنظر إليها زوجها عابسا، وسألها:

- هل هناك رغيف آخر؟

- نعم.

- زوري (ظريفة)، سمعت أنها مريضة.

- لقد زرتها أمس مساء.

- زوريها اليوم أيضا.

- طيب.

عضت آينساء على شفتيها، وفسرت غضب زوجها بسبب مشاجرته مع الرئيس، وقد كانت محقة من جهتها، لأن المشاجرة حدثت قبل قليل، أما من الجهة الأخرى فقد كان ييغيت علي يتعذب من تردده في إخبار زوجته بما كان يفكر فيه وهو ينظر إلى نجمة الصبح! إن الكلام أمر سهل، ولكن إن رُفضت الفكرة من منطلق الزوجة فسيغضب، وقد يقول شيئا يزعجها... وهذا الذي يقلقه... وأخيرا قال:

- كم عندك من الدقيق؟ هل يكفي لعجنة واحدة؟

- ربما يكفي.

- يجب علي السفر إلى نظرآباد.

- طيب... ولكنك كنت تريد السفر في الخريف.

وأسقطت موافقة آينساء حملا ثقيلا كان كالجبل على كتف

ييغيت علي، فتأوه آهة عميقة وقال:

- رأيته في نومي مرارا.

- من الذي رأيته؟ صديقك؟

- رأيته واقفا على جثث أولاده.
- إذا رأيتهم ميتين في حلمك فستراهم أحياء إن شاء الله.
- لا تقسري حلمي، وافعلي ما قلت لك.
- طيب.
- انتهى الحديث هنا، ولبس بيغيت علي رجله الخشبية، ووضع
ربع رغيف قدمته زوجته في كيس ابنه وقال:
- اليوم ستعمل في الطين، وإن كنت جائعا فسيطعمك
الطين.
- ذهبت آينساء مع ابنها الصغير إلى بيت ظريفة لزيارتها،
وستذهب من هناك إلى التلال، أما ابنها الأكبر فسيذهب إلى
بيت وكيل المزرعة، وخرج بيغيت علي وهو يسحب رجله الخشبية،
وبدأ يخرج الأبقار والأغنام والماعز التي استقبلته بأصواتها
وكأنها كانت تنتظره.
- مر بيغيت علي بجانب بيت زبيي ولم ينظر إليه، ووقف أمام
الجارة التي خرجت ترافق بقرة نحيفة، ورد على تحيتها وهو
ينظر إلى الأرض، ثم قال لها بصوت منخفض:
- اليوم دورك.
- نظرت المرأة إلى بيت زبيي كأنها لم تفهم، ثم دار في خيالها
شيء ما، فهزت رأسها في الحال وقالت:
- نعم، نعم، صحيح، اليوم دوري!
- إذا كنت لا تستطيعين فلا تتعبي نفسك.
- لا، لا تقل هذا، تعال.
- ابتعد وهو مطأطئ الرأس صامتا.

كانت هذه عادته؛ لا يصيح أبدا «لقمة حلال!»، وكان إذا أعطوه شيئا يأخذه، وإن لم يعطوه سكت ومضى، فأحيانا يعود إلى بيته وكيسه فارغ، وأحيانا أخرى يعود بصاع من الدقيق، أو الإقط، أو المشمش المجفف... ويكرمه أهل كل بيت بطعام يوم، ومهمته أن يذكر من يكون عليه الدور، وكان يتعذب في نفسه كلما ذكر أحدا بدوره، وكأنه يطلب إحسانا أو صدقة، استحيا في بداية الأمر فلم يذكر، وظل جائعا لفترة، كان بإمكانه أن يتحمل الجوع، ولكن أهل القرية لأموه قائلين: «ألا تحب خبزنا وحساءنا؟» ومنذ ذلك الوقت أخذ يذكر كل من جاء دوره، صحيح أنه كان يتعذب كمن يطلب صدقة، ولكن ماذا يفعل؟



لم يستعجل القطيع في المشي، بدا كأنه يشعر بالألم في رجله، حتى الجداء كانت لا تتراكمض، وكأن أصحابها أطعموها طوال الليل، وهي من الشبع لا تريد المشي! وعند طرف القرية قابل بيغيت علي شابا يركب حصانا نحيفا، وقد أردف خلفه فتاة، فوقف معهما، كان الشاب يلبس رداء مقلما، لم يكن جديدا، ولكنه ليس قديما أيضا، وعلى كل حال لم يكن فيه أي رقعة، وكان على الفتاة فستان متواضع، ولم يعرفهما بيغيت علي، ولكن الرداء المقلم والفستان كانا يعرفان بهما وبمقصدتهما؛ فالشاب عريس، والفتاة عروس، والرداء والفستان لم يكونا لهما، بل هما لإدارة المزرعة، وهما موجودان في مكتب الرئيس، يُعطيهما للعريس والعروس يوما واحدا فقط! والآن العريس والعروس ذاهبان إلى إدارة مجلس القرية لتسجيل عقد قرانهما! إذن، في هذه الليلة

سيكون في القرية عرس، وستقام هناك حفلة الشاي، وسيقدمون للضيوف - وهم خمسة أو عشرة أشخاص - كل ما هو موجود لديهم من المشمش المجفف، وإن كان لديهم شيء من الدقيق عجنوه وخبزوه، أو يقدمون الحساء إن وجد، وإلا فلا أحد يلومك إن لم تقدم في حفلتك رغيفا أو حساء!

رد بيغيت علي عليهما السلام، وسألهما، وإن كان يعرف قصد العريس والعروس وإلى أين يذهبان:
- مرحبا، إلى أين أنتما ذاهبان؟
- ذاهبان لنقول «نعم، قبلت!».

كانت نعمة السعادة ظاهرة في صوت العريس، فهو سعيد وإن لبس رداء خاصا بالمرزعة، وكيف لا يكون سعيدا؟ هل الرداء مهم؟ لا، إنما الفتاة التي تركب خلفه على الحصان هي المهمة بالنسبة إليه، أما الفستان فقد فصل عمدا بمقاس كبير لكي لا يبدو ضيقا على واحدة من الفتيات، وكان كبيرا على قدها الأهيف، وماذا يعني إذا لبست هؤلاء الفتيات فساتين لا تناسبهن أو تليق بهن؟ هل سيمتتع الشباب عن النظر إليهن؟
بعد أن قال الشاب «نذهب لنقول: نعم، قبلت!»، خجلت الفتاة، وطأطأت رأسها كأنها انكشف سرها أمام الناس!

- أتمنى لكما السعادة، يا أبا شباب!
- آمين، ليستجب الله دعائك يا خال!
- عيشوا طويلا، ولتكن ملابس أولادكما جميلة مثلها!
- يا خالي، كن مطمئنا، سيأتي الله بالفرج، وسيلبس أولادنا ملابس لهم، إن شاء الله.

ندم بيغيت علي على كلامه الذي قاله بحسن نية .
- يا أخي، أنا لم أقصد غير هذا، ولعلي أخطأت في التعبير
ففهمتني على غير ما أريد، فإن هذه الأيام ليست أبدية، وإن شاء
الله سيأتي زمن الأيام السعيدة، فليرزق الله بلادنا رزقا فيه بركة
ورفاهية عندما يرزقكما أولادا .
- يا خالي نحن أيضا نعيش على أمل أن نرى تلك الأيام،
وليحقق الله كلامكم!

قال الشاب وهو يضغط على خصر الحصان ببطء .
سرح بيغيت علي بفكره وهو ينظر إلى الحصان الذي يركب
عليه العريس والعروس مبتعدا، ثم قال لنفسه: «يجب علي ألا
أشكو من قدرتي، وعلى كل حال، في يوم زفافي لبست ملابسني
التي كانت لي، وكان لدي شيء من الأكل والشرب لأقدمه
للضيوف، أما هذه الأيام الصعبة فستمضي وتنتهي بإذن الله،
وإن شاء الله ستأتي أيام يكون أولادي فيها سعداء...».

وقاد بيغيت علي القطيع إلى المراعي نفسها التي كان فيها في
الأسبوع الماضي، وهي على شاطئ القناة، حيث العشب لم يجف
بعد، وفي الأراضي الرطبة يوجد عشب وأعلاف، وتذكر بيغيت
علي مراعي روسيا، عندما رأى الأعشاب التي ماتت من دون أن
تتحمل حرارة السرطان... ليت تلك المراعي كانت هنا، فتشبع
الأغنام والأبقار وتسمن وتعطي الحليب!

كان بيغيت علي يفكر في صديقه رمضان طوال النهار،
ولم يبرح طيفه خياله حتى حان وقت عودة القطيع، وبدا أنه
سيستعد للسفر إلى نظرآباد بعد أن يرجع إلى القرية، ولكن كان

هناك أمران يجعلانه يتردد: أولهما أنه لا يريد الذهاب إلى بيت صديقه من دون أن يحمل له هدية، وإن كان رمضان قد استشهد فكيف يدخل على أولاده ولا يقدم لهم ما يأكلونه؟ وكيف يعيش أولاده؟ يريد أن يذهب إليهم ولو بشيء يسير من الأكل! أما الأمر الآخر فإنه لا يعرف هل مات صديقه أم أنه مازال حيا، لقد أنقذه بيغيت علي من نار جهنم بنفسه، وأراد أن يستريح قليلا، فانفجرت بجانبها قنبلة، ويذكر أن رجله قد احترقت، ولا يذكر شيئا آخر... ربما لم يعد رمضان، ماذا سيقول له أهل بيته؟ ربما سيسألون: «إذا انفجرت القنبلة بجواركما فكيف مات رمضان وأنت مازلت حيا؟» وإن لم يقولوا هذا صراحة فسيفهم من تعابير وجوههم المعنى نفسه.

وأراد أن يكتب رسالة إلى نظرآباد، ولكنه لم يجرؤ أن يبدأ رسالته بقوله: «يا أخي، هل أنت مازلت حيا؟»

أما الآن ربما حان وقته، جمعوا قليلا من الدقيق لأجل أولاد رمضان، وتدبر في خاطره كيف يقابل صديقه إن كان حيا، وكيف يقابل أولاده إن كان صديقه قُتل، وجهاز نفسه روحيا لهذا اللقاء.

وشم رائحة طيبة عندما مر القطيع بجانب الطاحونة، ويكفيه أنها تدغدغ معدته الجائعة، وفكر بيغيت علي في نفسه: «لقد طحنوا قمحا، ومن الذي يخبز اليوم، من يا ترى؟»
وأراد أن يبتعد بالقطيع من هذا المكان، ولكنه سمع صوت ولد:

- يا خال بيغيت علي، قف!

التفت بيغيت علي إلى الخلف، ورأى ولدا يسرع إليه قافزا من
جهة الطاحونة وهو يمسك رغيفا .

- خذ، قالوا إنه لك!

- وممن هذا الرغيف؟

- من الخال قمبر .

- وهل أكلت أنت؟

- نعم، أكلنا كلنا!

قالها الولد وهو ينظر إلى الرغيف الذي كان في يد بيغيت
علي، فأخذ الرغيف، وقطع منه قطعة وأعطاه للولد، وقال:

- خذها، وإن كنت شبعان، وإلا .

وابتسم بيغيت علي، وقرص الولد من أنفه مداعبا، وتابع
قائلا:

- ... وإلا ستصيبني بالعين، خذ .

وأخذ الولد قطعة الخبز «مضطرا»، إنه لأمر غير جيد إذا
وقعت العين على رجل طيب بسبب قطعة الخبز هذه .

- قل للخال قمبر ليأت إلي في بيتنا، لدي شغل له، قل له
هذا .

وقال الولد «حسنا»، ورجع من حيث جاء، وبدأ يأكل خبزته
بعد أن ابتعد عنه بضع أقدام .



تشقق كعب ابن بيغيت علي الصغير، وكان يتأوه من الألم في
الليل، وقرر بيغيت علي أن يضع زيتا على كعب ابنه، ولهذا السبب
دعا قمبر الأعرج لكي يمسكه من كتفيه، وإلا فإنه سيركض

ويقفز من شدة العذاب والألم، عندما يضعون الزيت المغلي على كعبه المتشقق مثل الأرض المتصحرة، ولا يتحمل الولد العذاب الذي يعرفه بيغيت علي جيدا، فقد سبق له أن صاح «عدم وجود الرجل أفضل من أن تكون له رجل مثلها»، ثم شفي ولبس حذاء، ومشى برجليه وحذائه في أماكن كثيرة، وأخيرا، عاد من الحرب تاركا فيها إحدى رجليه! وأحيانا كان يقول: «ليت المعجزة حدثت ونمت رجلي من جديد، وسأكون راضيا بتشقق الكعبين ووضع الزيت عليهما!»، وعندما يضعون الزيت على كعب ابنه يذكر عذابه الذي عاناه، وفي الوقت نفسه يعترف بأن هذا العذاب مؤقت، فستمر الأيام، وتلبس هذه الأرجل أحذية جميلة، وتمشي في مدن كبيرة، وهو واثق بذلك، ولكن ما يخاف منه فقط هو أن ينسى ابنه هذا العذاب عندما يصل إلى الأيام السعيدة، ففي بعض الأحيان يصل الإنسان إلى الأيام السعيدة فينسى كل ما عاناه من صعوبات، ولكن لا بد من عدم نسيان الأيام الصعبة لأجل تقدير الأيام الحسنة، يريد بيغيت علي لابنه أن يكبر وهو يتذكر الأيام الصعبة العسيرة!

وجاء قمبر الأعرج بعد المغرب حاملا بيده رغيفين، وقال كأنه لم ير بيغيت علي عندما عاد إلى القرية بالقطيع، ولم يرسل إليه رغيفا:

- اليوم قمت بطحن القمح!

وبعد أن شربوا شايًا مصنوعًا من أوراق شجر التفاح، أوقدوا الشعلة، ووضعوا الزيت، ثم وضعوا فيه البصل، ووضعوا البصل المغلي بالزيت على كعب الابن الصغير، ولقد سُمعت صيحته

في سبعة أحياء، ولم تكن الصيحة بالشيء الجديد في القرية،
ولذلك لم يهتم بها أحد .

وفي الصباح أشعلوا التتور، وخبزوا الخبز، وانتشرت رائحة
الأرغفة الطازجة، وقد عرف الجيران كلهم أن بيغيت علي يستعد
للسفر، وعندما تعلم زوجته شيئاً فسيعرفه أهل القرية جميعاً!
ومع انتشار رائحة الخبز انتشر الحديث:

- بارك الله فيه، في هذه الظروف يريد أن يزور أولاد صديقه
الذي استشهد في الحرب.

- إن كان يريد مساعدة أحد، ففي قريتنا أيتام كثيرون، فلماذا
يعطي الخبز للآخرين؟

لم يعلم بيغيت علي بهذه الأحاديث، كان يفكر في لحظات
اللقاء مع صديقه رمضان أو مع أولاده.

وعند سفره سببت له آينساء ألماً في قلبه حيث قالت:

- لو بعت نصف الخبز لاشتريت أحذية لأبنائك.

وقال بيغيت علي في نفسه: «يا لها من امرأة قليلة العقل! أنا
أفكر في أمر، وهي تفكر في أمر آخر، الإنسان يمكن أن يعيش
بلا حذاء، فهل يمكن أن يعيش بلا خبز؟ ولن يبقى الأولاد حفاة
طول العمر، كلهم شباب قادرون، وأنا موجود، لقد قلت لك إن
أولاد رمضان صغار، كان أكبرهم في السادسة من عمره، إذن هو
الآن في السابعة أو الثامنة، أنت لا تفكرين في ذلك، والصحيح
أنك أم وتفكرين في أولادك فقط، لو بقيت أنا هناك ورجع
رمضان لجاء يسأل عن أولادي منذ زمن، طبعاً، مثل هذه الأمور
لا تهملك...» قال بيغيت علي هذا الكلام في خياله عند الوداع.

وركب قطارا مشى طوال الليل، وكانت المحطة التي يجب عليه النزول فيها محطة صغيرة، يتوقف القطار فيها ثلاث دقائق فقط، وأسرع في النزول من القطار ونجح بصعوبة، وتفرق ثلاثة أو أربعة ركاب نزلوا من القطار بسرعة، وبقي بيغيت علي وحده، وكان يتساءل في نفسه: «لماذا يستعجل الناس هكذا، حتى أنني لم أتمكن من سؤال أحدهم كيف يمكن الذهاب إلى «نظرآباد»! ثم سمع صوتا يقول:

- يا أخي، كأنك تفكر في شيء ما؟

نظر بيغيت علي إلى حيث جاء الصوت، ورأى رجلا عجوزا ينتظر منه الرد.

- يجب علي أن أذهب إلى نظرآباد ولا أعرف كيف أذهب؟

هز العجوز رأسه وهو ينظر إلى الرجل الخشبية وقال:

- يصعب عليك الذهاب إلى نظرآباد في هذه الحال، إن

الطريق طويلة. انتظر قليلا، فقد تأتي إحدى العربات.

أخذ كيسه الذي كان يحمله على كتفه واتجه إلى مقعد بجانب

المبنى وكأنه يقول: «ماذا أستطيع أن أفعل؟»

سأله الرجل العجوز:

- هل لديك قريب في نظرآباد؟

- صديقي.

- صديقك، ومن هو؟ ربما أعرفه، يأتي كثيرون من نظرآباد

إلى هنا.

- هل تعرف شخصا اسمه «رمضان»؟ في منتصف السنة

الثالثة والأربعين، كان قد ذهب إلى الحرب.

- رمضان؟ ... هل هو صاحب الدكان؟
- كان يعمل محاسباً في المزرعة التعاونية قبل الحرب، ولا أعرف هل عاد من الحرب أم لا.
- على بعد أربعة كيلومترات من هنا توجد مدينة صغيرة اسمها قيزيلكوبريك، ويعمل في دكان الخبز فيها رجل من نظراًباد، قالوا إن اسمه رمضان.
- هل رأيته؟ هو قصير القامة، وأنفه مفلطح.
لم ير العجوز رمضان، ولذلك لم يعطه جواباً شافياً، ولكنه وضع له الطريق إلى قيزيلكوبريك، ولقد تحمل عذاباً لم يعان مثله كلب ضال من المشي في طريق حجري غير ممهد، ولكنه كان سعيداً لأنه عرف أن صديقه لا يزال حياً، كان واثقاً بأن الرجل الذي يعمل في دكان الخبز هو صديقه رمضان، وإن لم يقل الرجل المسن في المحطة شيئاً واضحاً، إن قلبه يقول: «إنه صديقك رمضان! إنه حي! إنك أنقذته من مخالب الموت، وهو ينتظرك، أسرع! وما هذه الطريق؟ لقد مشيت في طرق أسوأ منها بكثير، امش، هيا، امش! أنت رجل! وتتحمل ألم رجلك، وكم من آلام أشد منها عانيتُها، امش، وأسرع...»
وتصور بيغيت علي لحظات لقائه مع صديقه، وكان يتصورها بألف مشهد عندما كان في بيته، والآن جاء مشهد جديد بدلاً من كل ذلك:
تصور أن صديقه سيجري إليه، ويفتح صدره له وهو يقول:
- «يا صديقي العزيز، أين كنت كل هذا الوقت؟ لقد انتظرتك طويلاً! ويحضنه بقوة، ثم يقول: يا صديقي العزيز، هل تركت

رجلك هناك؟ كنت أعرف أنك حي، وكان قلبي يشعر بذلك،
تمنيت أن يكون لي جناحان لأطير إليك، يا صديقي، لا تغضب
على صديقك ناكر المعروف!

وسيقول بيغيت علي:

- «لا تقل هذا الكلام... لقد كنت أرقب هذا الزمان، أنت لم
تستشهد، وهذا أمر كبير، وماذا إذا تأخر لقاءنا إلى يوم القيامة؟
يجب علينا التواصل من الآن، لماذا حفظ الله حياتنا؟ لأنه يجب
علينا تربية أولادنا، ويجب علينا رؤية سعادتهم، ولذلك حفظ الله
حياتنا، كم من الناس ذهبوا وحلمهم لم يتحقق...».

حتى هذه الخواطر اللذيذة لم تجعله ينسى عذاب الطريق،
تؤلمه رجله، وبيغيت علي بصعوبة يضع قدمه على الأرض، وبدا له
كيسه ثقيلًا، وقال في نفسه: «أتوب إليك يا رب، هل يكون الخبز
ثقيلاً هكذا؟ قال لي إن المسافة نحو أربعة كيلومترات، وأظن
أنني مشيت أكثر من ذلك، ولكن لا أثر لتلك المدينة الصغيرة؟»
لما وصل إلى شجرة وحيدة في الطريق وضع كيسه أرضاً،
وأراد مواصلة المشي من دون استراحة من جهة، ومن جهة أخرى
كانت رجله تؤلمه، كأنها تقول: «سأعذبك، إذا ما توقفت عن
المشي، وستندم على اليوم الذي ولدتك فيه أمك!» وجلس تحت
الشجرة ومد رجله وفك رجله الخشبية، وهبت الرياح كأنها
كانت تنتظر ذلك، وارتاح قليلاً، وارتاحت رجله المقطوعة، وبعد
دقائق لبس رجله الخشبية، ونهض واقفاً.

لم يكن البحث عن دكان الخبز أمراً صعباً، كان هناك مبنى
متواضع، وقد وقف عنده نحو عشرين شخصاً في طابور،

واقترب بيغيت علي من دكان الخبز... ورأى رمضان! ولكنه لم يقابله وجها لوجه، ففي هذه اللحظة كان رمضان يتحدث مع أحد الواقفين بصوت مرتفع جدا، ورأى بيغيت علي امرأة عجوزا تقف مقابل رمضان، كانت نحيفة ضعيفة، وقد برزت عظام وجنتيها، وسقط شالها على كتفها، كانت ترجوه وهي تمد يديها المرتعشتين اللتين تمسك بهما أوراقا، وتقول:

- إن بقيت جائعة فلا بأس، أنا أتحمل، ولكن أولاد ابني الشهيد جائعون، ولم يذوقوا شيئا، الله يبارك فيك، ويجعلك ترى أولادك سعداء.

ولم تكمل العجوز كلامها، فقد نظر رمضان إليها وصاح بها:
- قلت لك، لا! هل أقطع لك من حق جدتي؟ من يريد خبزا عليه أن يستيقظ مبكرا!
- الله يبارك فيك، أنا واقفة هنا طوال الليل.
- كفى، كفى! ذبحتني!

ورفع شباك النافذة قليلا وسحب دعامة تسنده، فكاد الشباك يسقط على رأس العجوز لولا أن بعض الواقفين دفعها جانبا. وظلت العجوز تنتظر إلى النافذة، آملة أن تفتح ويقول صاحب الدكان: «تعال، يا أمي، هذا بعض الخبز لك!» وبدأ الذين لم يكن لهم نصيب في الحصول على الخبز بعد أن فقدوا الأمل، يشكو أحدهم حظه، ويلعن آخر صاحب الدكان، ونظرت العجوز طويلا إلى الأوراق التي تعطيها الحق في الحصول على الخبز، ثم وضعتها في جيبها، وابتعدت عن الدكان قليلا، ومشيت بضع أقدام، ثم التفتت إلى الدكان آملة أن يحدث شيء ما، وتزلزلت

الأرض تحت أقدام العجوز في نظر بيغيت علي، ماذا ستقول هذه العجوز التي أنهكها ألم فراق ابنها عندما تأتي إلى أحفادها الذين سيكون طالبين قطعة خبز؟ بأي حجر تضرب رأسها هذه الأم؟

ونسي بيغيت علي لماذا جاء إلى هنا، ونظر قليلا إلى العجوز، ثم مشى سريعا ولحقها .

- قفي يا أمي!

فوجئت العجوز بصوت غير متوقع، فسألته خائفة:

- هل تتاديني أنا؟

أشار بيغيت علي إشارة «نعم»، وأخرج رغيفين من كيسه، وقدمهما إلى العجوز، وقال:

- خذي هذا الخبز، خذيه!

وازدادت حيرة العجوز، وقالت:

- أنا؟ آخذه؟

- خذي!

- ليس معي نقود كافية لشرائه، وليس لدي شيء لأقايض به!

- هذا بلا مقابل!

- بلا مقابل؟

بدا أن بيغيت علي سيفضب من تردد العجوز وعدم تصديقها ما ترى، وكيف يشرح لها فعله، وهل عليه أن يقول لها: لا تحسبي كل شيء بالنقود، في هذه الدنيا يوجد شيء اسمه إنسانية، وتوجد ديانة، وإنصاف، وضمير... وإذا انعدمت هذه كلها فهناك

مفهوم «الأوزبكية»؟ سيحتاج ساعتين ليشرح لها مسألة رغيفين،
ثم قال بيغيت علي بلهجة الأمر:

- خذي، وإلا تراجعتي عن رأيي.

أخذت العجوز الخبز وهي لا تعرف إن كانت في حلم أم
في الواقع؛ «هل هذا صحيح، هل لا يزال في هذه الدنيا مثل
هذا الإنسان؟ لا، هذا ليس إنسانا، بل إنه من الأولياء، نزل من
السماء عندما سمع أناتي وآهاتي، لا، لا... إذا نزل الأولياء من
السماء كلما سمعوا أنات وآهات المساكين فما أكثر الأولياء في
الأرض! بلى، إنه إنسان، إنسان طيب!»

- طيب، أنا آخذه، ولكن... أرجوك... انتظري هنا، إذا أخذته
بلا مقابل سيكون صدقة، وأنا لست سائلة، فهل تنتظري هنا؟
كظم بيغيت علي غيظه وعض على شفتيه لكي لا يصرخ: «كن
محسنا، واشرح إحسانك، لماذا تحسن إلى الناس؟» وقال لها وهو
غير راض:

- طيب، سأكون في هذا الدكان.

ومشت العجوز وقد ازدادت ثقتها بنفسها.

رجع بيغيت علي إلى الدكان، وطرق شباك النافذة، فسمع
صوتا:

- لا يوجد خبز! انتهى!

وطرق بيغيت علي الشباك مرة أخرى.

- أريد أن أستريح، هل عندكم شيء من الإنصاف؟

- يا رمضان!

- نعم، أنا رمضان! ولكن لا يوجد خبز، انتهى!

- يا رجل! انظر إلي!

غضب بيغيت علي، لم يكن يتوقع لقاء مثل هذا أبدا، ولو قابل عرافا ما فقال له إنه سيقابل صديقه بهذا الشكل لكان جاهزا ليقطع لسانه، ماذا سيفعل؟ لن يحدث كل ما تتوقعه وما تريد! وبعد قليل فُتح الشباك بهدوء.

- من هناك؟

- أنا بيغيت علي!

- بيغيت علي، يا إلهي! حقا؟ هل أنت بنفسك؟

أخرج رمضان رأسه من النافذة ونظر إليه، ثم أغلقها، وبعد قليل، فتح الباب الجانبي للدكان، وخرج منه رمضان، وعانق بيغيت علي الذي كان لا يزال غاضبا، كان يتصور أنه سيعانق صديقه هكذا عندما كان يفكر فيه، ولكنه لم يستمتع بهذه المعانقة!

- يا صديقي! يا صديقي العزيز! أي رياح طيبة جاءت بك إلى هنا؟ ياه، ما هذا؟ أين رجلك؟ هل تركتها في الحرب؟ هذا أمر مؤسف، هذا أمر مؤسف جدا، تفضل، ادخل، ادخل قليلا ثم سنذهب إلى بيتي.

وقاده رمضان إلى داخل الدكان وهو لا يتوقف عن الكلام.
- نحصل على رزقنا هنا، أهلي: أولادي وزوجتي في نظرآباد، وهنا أيضا تزوجت من امرأة أخرى، لقد عرضوا علي وظيفة «الرئيس» في المزرعة في نظرآباد، هل أنا مجنون لأكون رئيسا في مثل هذا الوقت؟ في مستودعات المزرعة تمشي الفئران مستتدة على العصا، وأشكر أصدقائي الذين وظفوني هنا...

طيب، ربما كنت جائعاً؟ الآن، الآن، يا صديقي، ولكن ما حدث
برجلك هو أمر مؤسف!

وفتح رمضان صندوقاً وضعه تحت النافذة بعيداً عن عيون
الآخرين، ونظر بيغيت علي جيداً: كان في الصندوق عشرة أو
خمس عشرة رغيفاً، لو وزعها لكفت نصف الذين عادوا إلى
بيوتهم بلا خبز ولا أمل، وهم الذين انتظروا هنا طوال الليل،
وأخذ رغيفاً واحداً منها وقطعه بالسكين، وفتش في كيس كان
بجانب الصندوق، فأخرج منه قطعة لحم وأربع بيضات، ولم
يشعر بيغيت علي من أين أخذ قارورة وكؤوساً، وكان ينظر إلى
الصندوق، وكأن عيون الذين وقفوا للحصول على الخبز كانت
تنظر إليه.

وأحس رمضان نظراته أيضاً، وقال في نفسه: «ينظر إلى
الخبز فقط، إذن هو جائع، يا مسكين! ربما جاء لأجله، ربما بعد
قليل سيذكرني بأنه أنقذني، سأعطيه رغيفين، وأتخلص منه،
والآن رغيفان هما الحياة!»

- هيا، يا صديقي، سنشرب بمناسبة لقائنا، طيب، أين
تعمل؟

- أعمل راعياً في القرية.

- هذا شغل ليس جيداً، يا صديقي، ماذا تريد أن تفعل؟ هل
تريد وظيفة جيدة هنا...؟

- املاً الكأس!

كان بيغيت علي في هذه اللحظة كإنسان سعى إلى القمة
فوقع في المستنقع.

- املاً الكأس تماماً .
وشرب الكأس دفعة واحدة، ولم يمد يده لا للخبز، ولا للحم
ولا للبيض .
وصب رمضان كأساً لنفسه .
- بصحتك، يا صديقي، أنا سعيد بمجيئك، ذكرني عند
عودتك، سأعطيك خبزا لأولادك .
وانفرزت الكلمات في حنجرة ييغيت علي مثل الخنجر .
- أعطني إياها .
- إنك عطشان جداً !
ويرفع ييغيت علي الكأس بيده رغم ضحكة رمضان القبيحة،
ويشرب وهو يلوم زوجته في نفسه: «لماذا لم تقولي: «لا تذهب!»،
ولم تصري علي رأيك؟ إذا قال زوجك إنه سيذهب إلى مكان
ما كيف توافقين وتسكتين؟»
تبعثر خياله من طرقات على الشباك .
- من هناك؟ لا يوجد خبز!
وجاء صوت مكتئب:
- أبحث عن رجل .
- من هو الرجل؟
- إنه ... إنه برجل واحدة .
- هل هو أنت؟ جئت الآن وتبحث النساء عنك! إنك خطير
يا صديقي، أنت خطير!
فهم ييغيت على أن العجوز عادت، وقام من مكانه، وأخذ
كيسه وخرج، وخرج رمضان وراءه، وكانت العجوز واقفة وهي

تحتضن حذاء من الجلد.

- الله يبارك فيك، خذ هذا، والبسه في أيام سعيدة بإذن الله!
وقال رمضان في نفسه: «بيدو أن صديقي يقوم بالمضاربة،
والبيع والشراء»، وتقدم من العجوز وأخذ الحذاء بيده «إنه جديد
تقريبا، استعملوه مرة أو مرتين...» وسألها:

- كم ثمنه، أيتها العجوز؟

- لن أبيعها! أحضرتة لهذا الرجل، أعطاني خبزا.

- خبز؟ هل هذا الرجل أعطاك خبزا؟

كان رمضان مستغربا وهو يسأل العجوز، ثم نظر إلى بيغيت
على وقال:

- أنت أعطيتها خبزا؟

وأحس بيغيت على بسخونة تعبر جسمه، كان من الممكن أن
يشتم رمضان، وأن يكثر عليه من كلمات اللوم، أو يضربه! «كله
بلا فائدة، إنه ليس الإنسان الذي كنت أفكر فيه، ولا نفع من
كلام أو ضرب!» ومنعه هذا التفكير من أي تصرف.

وأخذ بيغيت علي الحذاء من يد رمضان وأعادته إلى العجوز.

- لا يناسب الحذاء الجلدي الرجل الخشبية، لم يكن هناك

داع لكي تحضره يا أمي، هيا لنذهب.

رافقتها بيغيت علي بعد قوله هذا، وبعد أن مشى معها بضع

أقدام، سمع صوت رمضان:

- هل ستعود؟ هل أنتظرك؟

ولم يلتفت إليه، كأنه لم يسمع كلامه، ونظر رمضان إليه

قليلا، وقال في نفسه: «هل هذا الرجل عاقل أم مجنون؟ ماذا

يستفيد من علاقته بهذه العجوز؟» وغضب ودخل الدكان.
لحقت العجوز التي تحتضن الحذاء بيغيت علي، وهو يفكر:
«ربما كان هذا الحذاء لابنها، يا لهذه الدنيا العجيبة! وكيف يمكن
تبديل الخبز بالذاكرة...».

- يا أمي، لا تخجلي، ولا تقولي إنك حصلت على خبز
بلا مقابل، وإن لم يكن هناك إحراج، اسمح لي أن أبيت ليلة
في بيتكم، لقد تعبت كثيرا من المشي! ولا أستطيع الوصول إلى
المحطة في حالتي هذه.

- الله يبارك فيك، بإمكانك أن تبيت ليس ليلة واحدة بل ألف
ليلة، وظروفنا تسمح بذلك!

عندما وصلا إلى البيت صنعت العجوز شايا من التفاح
المجفف، وقدمت له كأسا، وسألته قائلة:

- ذلك الرجل... هل تعرفه؟

ارتبك بيغيت علي من سؤال لم يكن يتوقعه، ولم يستطع أن
يرد عليها في الحال، وأخيرا أجاب بأسف شديد:

- لا، جئت إلى هنا أبحث عن صديق، وظننت أنه هذا الرجل،
بل علمت... أنه مات في الحرب، ولم أستطع أن أنقذه.
ولم تسأل العجوز أي سؤال آخر.

ومع حلول المساء خرجت العجوز إلى دكان الخبز لتقف
في الدور من أجل الحصول على الخبز، وفي اليوم التالي بعد
الشروق عادت إلى البيت حاملة بيدها رغيفين وهي سعيدة،
وصنعت شايا وانتظرت حتى يخرج بيغيت على من الغرفة،
وبعد أن مر وقت طويل ولم يخرج، طرقت الباب، ولم يرد

أحد، ونظرت إلى الداخل، ولم يكن الضيف هناك، أما كيسه فكان بجانب المخذة، وظننت العجوز أن الضيف «خرج إلى مكان ما»، وانتظرت، ولم يعد الضيف لا في الظهر ولا في المساء، ولم تجرؤ العجوز على فتح الكيس، وبعد ثلاثة أيام قال حفيدها الصغير إن في الكيس خبزا، ووقفت العجوز متحيرة في مكانها!



عند مدخل القرية قابله رجلان، كلاهما يلبس ملابس جيدة، وكانا يتحركان بهيئة رياضية، وسأله أصغرهما قائلا:

- هل أنت بيغيت علي سلطان عليلف؟

- نعم، أنا.

- أين كنت؟ ننتظرك منذ يومين.

- كنت أبحث عن صديق.

- هيا لنذهب معنا.

- إلى أين؟

- إلى الإدارة؟

- علي أن أخبر أهل بيتي.

- أهلك يعرفون، هيا لنذهب.

«ربما جاء هذان الرجلان من أمانة المحافظة؟ ربما كان كلام الناس صحيحا؟ ربما يعينونني رئيسا؟ لا، لن أَرْضَى، لا يمكن إدارة المزرعة برجل واحدة، إن الدنيا عجيبة، ولا يسألون عنك...».



... أعلن الرئيس للناس أنه من الممكن حصاد القمح
لاحتياجاتهم خلال يومين.

بعد ثلاثة أشهر أنجبت آينساء ولدا، وسمته «ذكرى» (في
الأوزبكية: «يادكار»)، نصحتها الناس بهذا الاسم وقد سمعت
كلامهم!

وبعد سنة كاملة جاء بيغيت علي وهو يطرق الأرض برجله
الخشبية، كان يحمل على صدره وساما، وقالت زوجته آينساء
في نفسها: «إذن، كلام الناس ليس صحيحا، وإلا فكيف يُمنح
المحبوس في السجن وساما؟» غضب بيغيت علي عندما علم أن
اسم ولده الصغير «ذكرى»، ثم قال:

- لو لم أكتب رسالة إلى قائدي الذي كنت معه في الحرب،
لبقي «ذكرى» مني فعلا، وبالمناسبة لقد قابلت قائدي، وحصلت
على وسام عن المعركة الأخيرة، كانوا يظنون أنني قتلت، حقا...
ما أعجب هذه الدنيا!

- سم ابنك بنفسك اسما آخر.

- لا، إنه يذكرنا بأيامنا هذه، وليكن ذكرى.

- وبعد مرور ستة أشهر جاءت رسالة إلى بيغيت علي، وكانت
هذه الرسالة من رمضان:

«يا صديقي العزيز! أدعوك وأناديك يا صديقي العزيز! اشتقت
كثيرا إلى صديقي الذي أنقذ حياتي، وأنقذني من مخالب الموت،
أذكرك كثيرا، ليتني كنت أملك جناحين لأطير إليك، ولأحتضنك،
ولكن ليس لدي القدرة؛ أجنحتي مقطوعة، أنا الآن مسجون
وأتعذب بسبب بضعة آلاف سوم، يا صديقي العزيز، كل أمني

فيك، اكتب إلى الإدارات العليا، وقل لهم عن خدمتي في الحرب،
اكتب إلى قائدنا في الحرب، واطلب توسطه، أنت أنقذتني من
الموت مرة، فساعدني في الخروج من هنا أيضا، لكي لا يعيش
أولادي أيتاما...».

قرأ بيغيت علي الرسالة، وغرق في التفكير، وقال في نفسه:
«إنها الدنيا العجيبة»، ثم أخذ ورقة وقلم.

الدنيا رواية

توفيق الحكيم

ملثم الطبع والنشر
مكتبة الآداب ومطبعها بالجاميز - ت ٩١٩٣٧٧
٤٢ ميدان الأوبرا - ت ٩٢٠٨٦٨
الطبعة النموذجية
٦ مسكة الشاويزي بالحلبية الجديدة

الدنيا رواية

الدنيا رواية حقة في نزار أولئك الذين يؤمنون بنظرية حلوله الروح ... تلك النظرية التي تزعم أن عدد الأرواح في الكون محدود ، كما أن عدد الممثلين في المسرح محدود ... وأن الذي يتغير هو الأدوار التي يتقمصها أولئك الممثلون ... وهي أدوار لا حدها ولا نهاية ، في تلك الرواية الاستعراضية العظمى ...!

إذا سائرنا أصحاب هذا الزعم في زعمهم ، فإن الصورة التي يمكن رسمها للدنيا تبدو جديرة بالتأمل ... ومن السهل تخيل الأرواح في ظهورها واختفائها فوق مسرح الدنيا ، على الوجه الذي يحدث بالضبط في المسارح التمثيلية ... فهناك ، مثلاً ، بعيداً عن هذه الأرض وشمسها وقمرها ، مكان خفي ، يمكن أن نتصور فيه ملاكاً يقوم بوظيفة « الريجيسير » - أي مدير المسرح - يعطى الإشارة للشمس والقمر ، فتسلط الأولى أشعتها الذهبية القوية ، والآخر أشعته الشاحبة الفضية على سطح الأرض ... كما تسلط مصابيح « البروجكتور » الكهربائية على خشبة دار التمثيل ... ولا بأس من أن نتخيل ذلك « الملاك » ، في مكانه هذا يباشر أعماله اليومية ، وينظر في « اللوح » الذي أمامه ، المسطورة فيه الأدوار والأقدار ..

ويستقبل الأرواح المهيأة للظهور على مسرح الدنيا ،
ويستقبل الأرواح الخارجة منه ... ولاضير أيضاً
في أن نطلق الخيال أبعد من ذلك ، لينسج لنا قصة روح من بين
تلك الأرواح العائدة ...

* * *

ظهر الروح الذي زوى قصته ، خارجاً من الدنيا وهو مدهوش
مدهول ، كمن أفاق فجأة من نوم عميق ، وهو يردد هذه العبارة :
— يقولون إني مت ... أنا الآن ميت حقيقة ؟ ... زوجتي
التي تتحطم تفجعاً ، تصبح بأني أمرت ، وأني مت ... أخبروني
أيها السادة ... هل أنا حقاً ميت ؟ 119

ولم يلتفت إليه الملاك ، المنهمك في أعماله ، الشاخص ببصره
إلى اللوح الذي أمامه ، والسجل الذي بين يديه ، واكتفى بأن
هز رأسه وقال كالمخاطب لنفسه :

— كلكم هكذا ... لا تريدون أن تصدقوا أنكم متهم ... ماذا
أصنع لكم ؟ ... أنا ... ليس لدى وقت أنفقه في إقناعكم وإقامة
الأدلة والبراهين لحضراتكم ... تقدم يا ... ماذا كان دورك
في الدنيا هذه المرة ؟ ...

— كنت طبيباً ... وكانت لي زوجة ... آه ... إن زوجتي

هى التى تموت الآن ولا شك حزناً علىّ أنا ... يا المسكينة ! ...
ونسى ذلك الطبيب - أوروحة - كل ما حوله ، وراح يذكر
كل دقيقة من دقائق حياته التى يؤكدون له أنها انتهت ... كان
طبيباً جراحاً ، تخرج فى كلية الطب متفوّناً ، وكل شيء يتسّم له ، لقد
كان من أولئك القلائل الذين ينالون دائماً ما يريدون ، كان حسن
المنظر لطيف المعشر ، يظفر بنظرات كل مريضة وطالبة ، لكنه كان
يعتقد أن هناك امرأة واحدة لا بد أن تستحوذ على كل قلبه وفكره
وجسمه ، ولا بد لها أن تأتى يوماً ، إنه أرادها ولا بد له أن ينالها
فالقدر قد عوده أن يذيله كل ما يتمنى ، فالنجاح فى مهمته تمناه
ففاض به ، وقد تمنى المال والترّف ، فجاءه المال من عمله ومن ميراث
عائلى ... وهو بعد ذلك يتمنى أن يلقي الزوجة التى يعطيها حياته
وكده وكسبه ... فوجد لها ذات يوم فى صورة مريضة ، أتت
ليجرى لها عملية استئصال الزائدة الدودية ، ما إن وقع بصره
عليها حتى اضطرب ، . . أترى الأرواح تتلاقى حقاً ؟ ... كيف
تلاقت روحاهما من النظرة الأولى ؟ ! ... وكان من المستحيل عليه
أن يتصور أنه هو الذى يجرى لها الجراحة بيده ، ويشق جسدها
بمديته ... إن قلبه لن يحتمل ذلك ... واعتذر لها ولأهلها بشتى
الحجج ، وعهد بأمرها إلى جراح آخر قال إنه أخطر منه ... ولم

تدرك هي معنى ذلك الاعتذار إلا يوم فاتحها قائلاً : « لقد خلقت لأكون زوجك لا جراحك ، ... وكانت هذه الزوجة كل شيء في حياته ... وكان هو كل شيء في حياتها ... ما من كاتنين اتفقا والتصقا وأصبحا كائناً واحداً مثل هذين الزوجين ... كانت زوجته تقول له يوم ترى جرحاً في أصبعه : « يا للعجب ! ... كان الألم في أصبعي أنا ... أهو وهم ، أهو حقيقة ؟ ... كيف ينتقل الوجع المسمى من أصبعك إلى أصبعي هكذا أيها العزيز ؟ ... ، وكان هو يقول لها : « العجيب حقاً هو أن كلامك هذا هو عين ما عندي ... لقد شعرت فعلاً يوم جئتني لأشق جسدك ، كأن المشرط سيشق جسدي أنا ، وأنا بالطبع باعتباري جراحك ان أعطى مثلك البنج ، فتصوري جراحة تجري لي بغير بنج ، بينما أنت المريضة لا تحس الألم ! ... ، وعاش هذان الزوجان السعيدان أعواماً كلها هناء ... ولم ينجبا أولاداً ... ولم يحل ذلك دون تعلق أحدهما بالآخر ... بل لقد كرها الأطفال حتى لا يسحبا لغيمة أسف أن نخيم على حبهما ... انهما هكذا ناعمان أحدهما يكمل الآخر ... ولا حاجة لهما بثالث ... وجاء اليوم المشؤم ... فقد نهض على عادته في الصباح المبكر لإجراء عملية جراحية ، واسكن زوجته أحسست في ذلك اليوم خطراً . . . وتنبأت بكارثة ، كما تنبأ آله

الرصد بكسوف الشمس ... فتوسلت إليه أن يبقى معها ذلك
النهار ... فأبى التقصير في واجبه ... إن مرضاه في انتظاره ...
فادعت المرض ... فلاطفها ، وداعها حتى كشف بظروف عن
تحايلها ، وقبلها قبلة طويلة ، وانفلتت من بين ذراعيها المتشبثتين
بعنقه ... وتركها جامدة كالتمثال . . . وفي الظهر عاد وفي جسمه
السم ... فقد شرط قفازه أثناء الجراحة ، وسرى الداء في دمه من
أصبع مجروحة ، واجتمع حول فراشه أساتذة الطب وأساطين
العلم لينقذوه من الموت ... ومن خلفهم زوجته تموت وتحيا مع
كل نفس من أنفاس قرينها الحبيب ... ولكن ... كان الموعد
محدداً لانهاء دوره في الحياة عند هذا الموقف ... وكان على الروح
في ذلك الوقت أن يخلع الجسد كما يخلع الممثل ثيابه التمثيل ...
وعندما كان يسلم النفس الأخير ، بين شهقات امرأته المسكترمة ،
وبريق دمعها المنساب ، ووقفها المترنحة المتجلدة ، وابتهاماتها
المموهة الدامية ، خيسل إليه أنه يرى الحقيقة تضطرب في
الظلام خلف عتبة الحياة .. نعم ... الحقيقة هي أن الحياة ليست
حقيقة ... كان احساسه احساس ذلك الممثل الذي عاش دوره ،
ونسى أمره ، وأبكى الحاضرين وبكى هو نفسه ، إلى أن فرغ من
الموقف الأخير ، وشعر بنزول الستار ، فالتفت ، فإذا عينه تلوح

في الظلام « السكواليس » بما فيه ومن فيه ، فسكن ثأره ، ورفع يده
ليمسح دمه ، قبل أن يذلف إلى داخل المسرح فيسخر منه
زملاؤه ويسخر هو من نفسه .. واسكن عبرات المشاهدين كانت
ترده إليهم وإلى التعلق بهم وبدوره .. فاعواطف في ذاتها
حقيقة ... كذلك الطبيب المحتضر ... خطر له أن يبسم زوجته
الثكلى ، وأن يهمس لها أن الأمر زيف في زيف ، ولكن ...
كيف يكون كل هذا الحب زيفاً ؟ ... مهما يكن ما بعد الحياة ،
وما بعد التمثيل فإن الدموع في ذاتها جديرة بالاحترام ، والحب
في ذاته أجل من أن يهزأ به ، إن الحب حقيقة ، وإن ما يربطه
بزوجته لا يمكن أن يخلع مع رداء التمثيل ، ولو اجتمعت عليه
كل ملائكة السماء .. وهكذا ترك الميت خشية « الأرض » وخاع
رداء جسده ، ودخل على « الملاك » المدير ، روحاً عارياً مجرداً ...
ولم يحس بعد فرناً كبيراً بين ما كان منذ لحظة وما يكون الآن ...
أين هو ذلك الموت الذي يقولون عنه ؟ ... ما الذي تغير فيه ؟ ...
ها هو ذا يحب زوجته حباً جنونياً ... وكل أمه أن يلقاها ...
ولكنه لا يستطيع ... لأنه ميت ، كما يقولون ... إذ يراها ،
ويرى جزعها ، ويريد أن يمد يده إليها ، وأن يحادثها بهون
عليها .. واسكن صوته لا يلفها ، ويده لا تطيع إرادته ... ما من

أعضاء مادية تأتمر الساعة بأمره ... كأنها أشياء منفصلة عنه ...
لا يملك تحريكها ، حاله الآن كحالها عندما كان ينتابه في الدنيا
كابوس فيريد وهو في فراشه أن يتحرك ، ولكن إرادته
لا تطاع ... إنه الآن إرادة مطلقة في الهواء لا تسيطر على أجسام ،
ووعى مطلق في الفضاء لا يؤثر في أشخاص ، عدا ذلك فهو هو لم
يتغير فمن يديره أن هذا موت ؟ ... له نوم عميق أو حلم عابر
أو كابوس مؤقت ! ...

والتفت مرة أخرى إلى الملاك ، المنعمك في أعماله وقال له :
— أنا لا أحس أني ميت ...

ف نظر إليه ، الملاك ، نظرة شزاء وقال :
— أنت حر ...

— أريد أن أعود إلى زوجتي ...

— قل هذا لعزرائيل من فضلك ...

— عزرائيل ! ... أتمرح ؟؟ ...

فلم يتمالك ، الملاك ، وقال نافذ الصبر :

— ليس عندي وقت للمزاح يا سيدي ... آه ، لو درى

عزرائيل ! ... ذلك الذي لا تبطل له شكوى من كثرة أعماله ،

لمجرد قبضه عدة أرواح كل يوم ، ينفذ بعدها يديه ويستريح ...

أما أنا فيجب على أن أقاسى من أرواحه وأتحمل حماقاتها ، وأصنى إلى ثرثرتها ١٠١ ... يا حضرة الفاضل ... ألم يقبضك عزرائيل؟ ... كيف تريد إذن منى أن أعيدك إلى زوجتك؟ ... وإذا كان كل روح يقبضها زميلي أعيدها أنا ، فما الفائدة إذن من قبض الأرواح ١٠٢ ...

— أنا شخصياً لا أرى فائدة ... لقد كنت مع زوجتى فى أتم هناء ... فلماذا تتدخلون أتم لتفروا بين المحبين ١٠٣ ...

— لا نستطيع يا سيدى الفاضل أن نتركك فى هذا الدور ، أعنى فى هذا الجسد كما تحب أنت وتشاء ، لأن روحك تلزمنا فى عمل آخر ...

— عمل آخر؟ ...

— طبعاً ... لا بد لك من جسد آخر تحمل فيه ، ودور آخر تقوم به ... وهل تفل أن هذا كان أول أدوارك أو آخرها؟ ... لقد سبق لك أن حملت فى مئات الأجساد ، وقت بمئات الأدوار ... — أنا؟ ... أنا سبق لى أن كنت شيئاً آخر غير زوج يجب زوجته ، وطبيب جراح فى ...

فابتسم «الملاك» ابتسامة الساخر المتبرم ، الرأى لجهل محدثه ... وأخذ يقلب فى صمت صفحات سجله الضخم ، إلى أن وقف على صفحة ، نظر فيها لحظة ثم قال :

— اسمع يا سيدى ... قبل أن تكون زوجا وطيباً ، كنت
لصاً سكيراً ، فتك براقة فى ملهى ليسرق عليها ... ومات على
المشقة ...

— أنا ؟ ...

— انتظر .. ثم كنت قبل ذلك جندياً بسيطاً قتل فى معركة ..
ثم كنت طفلاً مات بالدفتريا ، ثم كنت امرأة ماتت فى الوضع ..
ثم كنت رجل دين مات بالشيخوخة ، ثم أميراً مات مسموماً ...
ثم كنت ساحراً هندياً لدغته أفعى ، ثم كنت فتاة انتحرت فى
حادثة غرامية ...

— كفى ... كفى ... إني لست مجنوناً لأصدق هذا الهراء ...
أنا طبيب جراح ... ولى زوجة أحبها ، وإذا لم ألحق بها فهى
لا بد لاحقة بى ... ولن أصدق أبداً أنى كنت أمثل دوراً ...
فنظر إليه الملك ، بابتسامته الهازئة وقال :

— كل مرة تقولون لى عين هذا الكلام ، أنت وغيرك ...
إنكم لا تصدقون أن هذا كان تمثيلاً ...

— تمثيلاً ؟ ... حبها لى وحى لها .. وحياتنا معاً التى لا تتصور
حياة غيرها ... لا ... لا ...

— إنك لم نزل واقعاً تحت تأثير دورك ... إلى أن تذهب إلى

البحر ، فتغسل ذلك الطلاء ، وتزيل ذلك ، المسكياج ، عندئذ فقط
تكون على استعداد لارتداء الدور الجديد ...
وأشار الملك ، إلى أحد مساعديه العديدين ، إشارة ذات
معنى ، فتقدم ليقود روح الطبيب ، واسكنه وقف ونظر إلى عتبة
الباب وقال لرئيسه :

— عزرائيل أرسل إلينا روح امرأة ...
ولم يسكد يتم كلامه حتى ظهرت بالباب روح الزوجة ، وما كاد
روح الزوج الطبيب يرى روح زوجته ، حتى صاح فرحاً :
— ألم أقل إنها لا بد لاحقة بي ...
واندفع كل منهما نحو الآخر ... وقالت روح الزوجة :
— آه يا زوجي العزيز ... لم أستطع البقاء هناك بعدك ، لقد
كانت ليلة فظيعة ... تلك التي رأيت نفسي فيها وحيدة بدونك ،
أناديك في الظلام ... ولم آتمالك نفسي عند الفجر ، وأنا محطمة
الأعصاب فتناولت كل ما كان بجواري من أفراص الأسبيرين
طالبة النوم الأندى ، والراحة السرمدية ، أو اللحاق بك ، وهاهو
ذا أمل يتحقق وأراك ... كيف أنت أخبرني ... إنك بخير فيما
أرى ، كيف قالوا إذن إنك مت؟ ... أنا أيضاً لست ميتة فيما أعتقد ...
كنت أتمنى الموت ... وقد شعرت عندما استدعوا الطبيب والأسعاف

بعد تناولي الأفراس ، بأنهم يمسون حولي بكلمة «الموت»
ولكن ... أين هو الموت ١٩... أين هو ذلك «الموت» ، ١٩...
ولم يستطع «الملاك» صبراً ... فنفخ صائحاً :
— أف ... لعنة الله على هذه المنية ...

* * *

طفق الروحانيون كالأطفال ، وقد أعماههما الفرح عن كل
ماعهما ، ولم يحفلا بمن حولهما ، وأدرك «الملاك» أنهما لن يفرغا
من الحديث ، إذا تركا وشأنهما ، فأرما إلى مساعده أن يقودهما إلى
حيث يغسلان عنهما آثار دوريهما ... إلى «بحر النسيان» ...
واتجه المساعد نحوهما ليذهب بهما ، فجفلا منه وابتعدا عنه ،
والتفتا إلى «الملاك» صائحين :

— أيراد التفريق بيننا ها هنا أيضاً ؟ ...

— لابد من ذلك ...

— نتوسل إليك ... نتوسل إليك أن تدعنا معاً دائماً ... في
كل مكان ، وفي كل زمن ، وفي كل دنيا ... ماذا يكلفك هذا
أيها الملك اللطيف ؟ ...

— هذا قد يحدث لنا بعض الارتباك في العمل ...

قالها بصوت بدت فيه رنة لين ، فضى الزوجان في الإلحاح :

— نتوسل إليك ... مثلك لن يعدم وسيلة ... إجمعنا دائماً
ولا تفرق بيننا أبداً ...

— سارى ... سارى ... ربما دبرت لك ذلك ... لكن إذهبا
الآن قبل كل شيء واغتسلا في البحر ...
— شكراً لك ...

لفظهما الروحان بحرارة وفرح ... وذهبا في الحال مع المساعد
صاغرن إلى بحر النسيان ...

وهناك رجداً بحراً هائلاً له شاطئ جميل مثل شواطئ المصايف
الشهيرة... والبحر يعج بالآرواح السابحة فيه . تغلب لهما المنظر ...
واندفعا إلى البحر ضاحكين سعيدين كما كانا في الدنيا ...
وقفزاً معاً إلى الماء ، يتناغيان بأرق الأسماء ، وغمرهما هرج
أبيض كأنه رغوة الصابون ...

فإذا هما يحسان كأن شيئاً يزول عنهما رويداً رويداً ... وإذا
كل منهما يردد من أعماق نفسه متعجباً متسائلاً : « من أنا ؟ ...
ومن هذا الذى بجوارى ، ؟ ... وخرج من هذا البحر من خرج
إذعاناً لأوامر المساعدين ، وبقاياهما حتى أشار إليهما المساعد
الموكل بهما ، فخرجا كما تخرج اللوحه المكتوبة من الماء .. لا أثر
فى نفسيهما لحرف واحد من حروف حياتهما الماضية ... وأعادهما

المساعد إلى « الملاك » وقد جاءت نوبتهما في المشول أمامه ، لتوزيع
الأدوار الجديدة ، فسأل كلا منهما :

— هل تعرف من أنت ؟ ... وأين كنت ؟ ... وهل تعرف
من هذا الذى بجوارك ؟ ...

فأشار كل منهما بالنفى ... فقال « الملاك » كالمخاطب لنفسه
وهو يراجع سجله الضخم :

— إنى وعدت مع ذلك أن أجمعكما مرة أخرى فى دوران
يصلحان لذلك ، فلتكن أنت إذن طياراً رياضياً ... وأنت فتاة
عاطية ... أبها المساعد ... إقذف بهما إلى مسرح « الأرض » ...

* * *

كل شيء كان قد أعد ليصير « هو » طياراً فقد خرج إلى
الدنيا طفلاً فى أسرة متوسطة المركز طيبة المنبت ، وشغف فى
حداثته بالآلألعاب الرياضية ، وغداقى وتعلم فى المدارس ،
وأصبحت له ميول وموجهات ، بعضها يدافع البعض ، ولكن
الظروف النهائية وجهته على الرغم من كل شيء إلى الطيران ،
فدرسه ، والتحق بأحدى شركات الملاحة الجوية ... أما « هى » فقد
شبت خيالية "بزعة مدللة مترفة فى أسرة ميسورة الحال ، مفسكة
الأخلاق ... الأب مشغول بنفسه وملاهيه ، والأم ساذجة ضعيفة

الإرادة ... وواعيت الفتاة بالرائع والحياة الصاخبة الحديثة ...
وكان «هو» في طرف من المجتمع و«هي» في طرف ، ولم يكن
من السهل أن يلتقيا ... فهو لا يرتاد المجتمعات التي ترتادها هي ،
ومع ذلك فقد كان لابد من التلاقى، وقد حدث ...

كان يقود طائرته ذات يوم... وكان الباب الصغير الذى يفصل
بين مكان قيادته وبين مكان الركاب مفتوحا على غير العادة ، فلبح
فى أحد المقاعد فتاة تقرأ إحدى المجلات ... ما كاد يراها حتى
ارتجف ، وارتجفت معه الطائرة بمن فيها ، ففقد غفلا لحظة عن
قيادتها ... وانزعج الركاب قليلا ، ورفعت الفتاة أهدابها الطويلة ...
فتقابلت عيناهما ... وعجب مهندس اللاسلكى لما حدث ونظر إلى
الطيار بجواره ، فألفاه يصيح بين ضوضاء المحركات قائلا : «إنى
أعرفها... أين رأيته؟ متى رأيته؟» ... وما كاد يهبط بالطائرة
فى مطار الوصول ، حتى قفز منها وتبع الفتاة ، وتقدم يخاطبها كأنه
يعرفها من قبل ... أما هي فلم تنهره ولم تغضب منه ، بل أحسست
الارتياح والرضا ، وشيئا من الاطمئنان الخفى إلى هذا الشاب ...
ومضى هو يقول باخلاص حار :

— إنى آسف إذ اضطر أن أقول لك تلك العبارة التى ابتذلها
الشبان اليوم : « أين رأيته من قبل ، ؟ ... ثنى أنى لا أتخذها حجة

لمحادثتك .. ولكنى ... عندما وقع بهرى عليك شعرت فى الحال
أنى أعرفك وأنى رأيته فى مكان ما ، انتظرى ... ربما تلاقينا
آخر مرة فى ... فى بحر ؟ ...

فأجابت باسمه :

— من الجائز ... فى « بلاج » من هذه « البلاجات » ...
— ربما .. أخشى أن تكون الطائرة قد أزججتك عندما
ارتجفت ...

— لا ... إنى فقط عند هبوط الطائرة ، أحس عادة بعض
الصداع ... ولكن عندى دواء لذلك ...
— قرص واحد من الاسبرين يكفى ...
فظهر فجأة الارتياح على وجه الفتاة وهمست :

— اسبرين ! ... أرجوك ... لا تلفظ هذه الكلمة ، لا أمقت
شيئاً مثلاً أمقت الاسبرين ... ربما اهتمتى بالخبل ... ولكنى منذ
صغرى أرتاع لمجرد رؤيته ... ساعنى ... هنالك أشياء تولد فيها
ولا نستطيع لها تعليلاً ...

— لا تؤاخذنى ... إنى آسف لم أقصد إزدامك مطلقاً ...
— أعلم ذلك ... هذا ليس ذنبك ... إنما هى نزوة من نزواتى
ليس لها مبرر ... ألا يتفق ذلك أحياناً لكثير من الناس ؟ ...

ألا يحدث لك أنت أيضاً أن تذكره شيئاً بدون سبب؟ ...
— نعم ... نعم ... أنا أيضاً في الصغر كنت أحس الاغماء
كلما ذكرت أماًى كلمة «عملية جراحية» ... وعيئاً حاول أهلى
تعليل ذلك ... ولكن هذه الحالة زالت بزوال عهد الصبا ...
وأصبحت بعدئذ شخصاً عادياً ...
— أ رأيت؟ ... فينا أشياء كثيرة متقاربة ...
— هذا من حسن حظى ...

* * *

منذ تلك الحادثة الأولى ، وهما يشعران كأن شيئاً يجذب
أحدهما إلى الآخر . . . ولم يمض قليل حتى تم بينهما الزواج ،
ولكن ... مرت الأيام وكل منهما يلحظ أنه يسير فى طريق غير
طريق الآخر ... هو يأتى من عمله متعباً فيجد المنزل يصخب بأنغام
«الرومبا» و«الفوكس تروت» و«الهوجى بوجى» فيذهبوا برفق :
— أما تكفينى طول النهار ضوضاء المحركات؟ ...

فتجيبه بهرم :

— محركات؟ ... هذا كل ما تعرفه ... أنت لست
«رومانتيك» ...

وكان يبلغ هذا الخلاف بينهما فى الاتجاهات ... وكان يعمل

التفلس بأن هذا طيش قد تمحوه الأمومة ... وأنجب منها طفلين ..
 جميلين ، واسكن الأمومة لم تقهر عندها المزاج ... بل المزاج هو
 الذى قهر الأمومة ... وأسى الزوج الطيب يجد ليالى زوجته مشغولة
 كلها بالحفلات والسهرات .. وتعدى الأمر إلى ما هو أمر .. فتجد
 دخل عليها يوماً فوجد لديها شاباً لا يعرفه ... زعمت أنه من رفاق
 الطفولة ، وأنه أخوها فى الرضاع ... وقام بين الزوج وزوجته شجار ،
 حسمه الزوج بالخسنى مرعاة لأولاده .. ولكنه أدرك عندئذ أن
 عملة شقائه فى الحياة هى هذه المرأة ... وكرت الليالى حمراء بالنسبة
 إلى الزوجة اللعوب ، بيضاء من السهاد ، سوداء من الهم ، بالنسبة
 إلى الزوج المنكود .. ولم يعد يحسن عمله لقلة نومه واعتلال صحته ،
 وسمع همساً فى الشركة المتدمرة ينذر بالشر ، كما سمع همساً عن سلوك
 امرأته يندى له الجبين الحر ... وأكلت نفسه الهموم ، ونخرت فى
 قابله الشكوك ... وفى ذات ليلة دهم زوجته وهى فى أحضان شاب ...
 فارتفعت وقالت متاعشة أنه معلم راقص يعلمها الرقصة الجديدة ...
 وفقد الزوج صوابه فأخرج مسدسه وأطلق على زوجته رصاصة
 أردتها قتيلاً ... وقفز «معلم الرقص» المزعوم قفزة وفوكس تروت «
 من أعلى السلم وهرب كما يهرب الثعلب من حظيرة الدجاجة .. وسمع
 الجيران الطلق النارى ، فصاحوا ، وأقبل «البوليس» ، ينفخ فى صفارتهم

وثاب الزوج إلى رشده ، وفطن إلى الفضيحة ، فأفرغ في -أسسه
بوصاصة أخرى أردته قتيلا هو الآخر ...

ورفع الملاك ، بصره من فوق ببجله الضخم على شجار روحين
داخلين عليه ... أحدهما يقول للآخر :

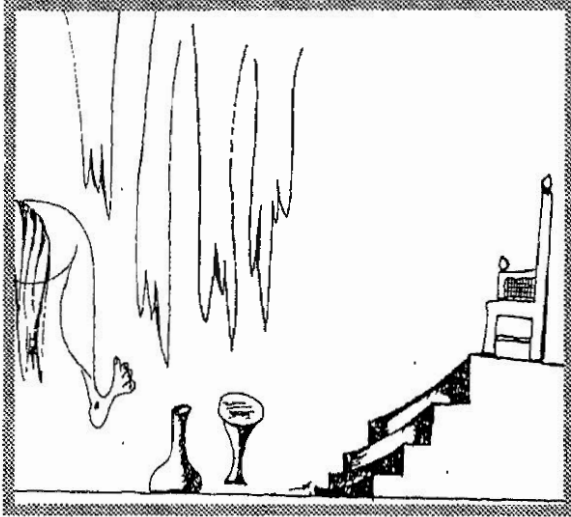
— سخيف ! ... أقسم أنك سخيف . . . تطلق على مسدسك
لسبب تافه كهذا ؟ ... ما أضيق ذهنك أيها الزوج المخفل ! ...
ولكن هل ينتظر من مثلك تصرف غير هذا ؟! ... أنك طول
عمرك كنت زوجاً مغفلاً ! ...

— اسكتي أيها المرأة ... لا داعي لسلطة اللسان ! ... ولكن
الذنب ليس ذنبك ... الذنب ذنبي أنا ... لا شك أني جئنت حتى
أقتلك وأقتل نفسي معك في نفس الوقت ... ما الفائدة ؟ ... ماذا
فعلت أنا إذن ؟ ... ها أنت ذى ممي هنا أيضاً ... يا البصيبة ! ...
يا البصيبة ! ...

ولم يجد الملاك ، بداً من التدخل ، فصاح فيهما طالبا إليهما السكون
واحترام المكان ... فنقدم إليه الزوج - أو على الأصح روحه -
صارخا بتوسلا :

— يا ملائكة السماء ! ... يا شياطين جهنم ! ... يا عفاريات
الجن ... خلصوني من هذه المرأة ! ...

احسان عبد القدوس



الراقصة

والطبال



رئيس مجلس الإدارة :
إبراهيم سمعد

جلس عبده الطبال بجانب خشبة المسرح في حديقة ملهى «ليالى
الانس» بشارع الهرم وهو يمسح بكفه فوق جلد الطبله كأنه يدلل
قطته الأليفة وبين شفثيه ابتسامة مسكينة ساخرة كأنه يسخر بها
من الدنيا كلها ومن نفسه ..

إنها ليلة أخرى من ليالى العمر الطويل .. سيصعد بعد قليل فوق
خشبة المسرح ويجلس على آخر مقعد من مقاعد الموسيقيين .. إن
نصيبه دائما هو آخر الصف .. آخر الطابور .. إنه هو وطبلته
يوضعان دائما في مكان الذيل كأن كل مهمتهما أن يهتزا عندما يصدر
لهما أمر بالاهتزاز كذيل الكلب عندما يهتز ليعبر عن مزاج صاحبه ..
وسيبدا في تقديم اللحن الذى تعزفه الفرقة الموسيقية بنقرات
عنيفة على الطبله لا تتجاوز مدتها عشرين ثانية كأنه جرسون في
المقهى يصيح بطبلته .. أيوه أنا جاي .. كله يسمع .. وبعدها تبدأ
الفرقة في عزف الدور ثم تسكت لينفرد عازف الناي بتقاسيم
موسيقية .. ويصفق الجمهور لمرضى عازف الناي .. ثم يعود اللحن
الجماعى حتى ينفرد عازف القانون بمقطوعة موسيقية .. ويصفق
الجمهور لحسنين عازف القانون .. ثم ينفرد الكمان ويصفق لمختار
عازف الكمان .. ويصفق الجمهور لأشرف عازف الجيتار عندما

ينفرد بالعزف .. ثم يصفقون لمجدي عازف الأورج .. إلى أن تظهر الراقصة علوية .. وهنا تصبح المسئولية كلها هي مسئولية الطبلية .. وعلوية لا ترقص إلا على دقة «مصمودى» .. إن كل راقصة تختار دقتها .. دقة «مقسوم» أو دقة «ملفوف» أو دقة «مصمودى» .. وكلهن لا يختلفن في التعبير بالرقصة ولكن كلاً منهن تصر على أن تختار لنفسها دقة كأنها تقدم بطاقتها الشخصية .. «صعيدى والملا بحيرى والملا الهوى رماك» وهو مضطر أن يبذل كل ليلة مجهودا كبيرا مع علوية .. انها تتميز بتباعد غريب بين احساسها وأذنيها .. وهى تحرك جسدها أثناء الرقص باحساسها لا بأذنيها .. واحساسها متعلق بالجمهور الذى أمامها .. بطنها يتقلص وينفرد ، وساقها تضيقان وتفتحان ، وصدرها يصعد وينزل حسب احساسها ليلتها بنوع الجمهور .. هل هو جمهور أغلبيته من سياح البلاد العربية أم أغلبيته من العائلات أم أغلبيته من الطلبة .. وكم عدد شبيحة وفتوات شارع الهرم الموجودين ليلتها .. وهل وصل صديقها المعلم عبد الستار المملوك تاجر الخردة قبل الراقصة أم لم يصل بعد .. كل هذا يشكل أحاسيسها ويحدد هزات جسدها وهى ترقص دون أن ترتبط أذناها بالموسيقى التى تعزف لها ولا بدقات الطبلية فتضطر الطبلية أن تتبعها وتلاحقها بدلا من أن تكون هى التى تتبع وتلاحق الطبلية .. إن علوية بلا أذنين موسيقيتين وهى لهذا لا يمكن أن تكون لها قيمة كراقصة .. انها مجرد شئ يتحرك ويهتز .. قد تكون غزالا أو جاموسة أو قطار سكة حديد .. ورقصتها تطول وتقص وفقا لاحساسها وتقديرها لقيمة النقوط .. وتظل ترقص حتى تفقد الأمل فى تلقى أى قرش آخر .. وتأخذ النقوط وتلقى به فى صدرها أو تلقى به أمام عازف القانون أو تلقى به فى يد عبده الطبال .. ولا أحد يعد ما يتلقاه من قيمة النقوط .. الذى يعد ويحسب هو صاحب الملهى انه جالس بعيدا يعد كل قرش

من قروش النقوط حتى وهو طائر في الهواء أو وهو في صدر علوية ..
وبعد الرقصة لا يستطيع أحد أن يحتفظ لنفسه بمليم واحد .. صاحب
الملمى يجتمع بهم وهو يبخلق فيهم كأنه يفتش جيوبهم ثم يجمع
قيمة النقوط ويأخذ ثلثها لنفسه ، ويترك الثلث للراقصة أو الفنان ،
والثلث الأخير للعازفين بالفرقة الموسيقية ..

وتنتهى الرقصة ..

ويصفق الجمهور لعلوية الراقصة ..

لا أحد يصفق للطبلة ..

لا أحد يصفق لعبده الطبال ..

وتتسع ابتسامة عبده الساخرة المرة حتى تبدو كأنها تكاد تنطلق
في قهقهة صارخة ييصقها في وجه العالم ..

لقد حاول منذ صباه وطول سنوات شبابه أن يضع الطبلة في
قيمتها الفنية الصحيحة وأن يبنى للطبال احترامه الفني الكامل .. إن
الطبال هو القائد الفعلى للفرقة الموسيقية .. إنه المايسترو .. وبدل أن
يقود المايسترو عازفي الفرقة بعصاه فان الطبال يقودهم بالطبلة ..
بنقرات أصابعه .. ولكن لا أحد كان يعترف للطبال بهذه القيمة .. إن
الطبال في نظر الناس هو مؤخرة الراقصة .. وهو لا يخلق ولا يوجد إلا
في حارة العوالم .. هكذا كان يعتبر الناس الطبال حتى لو كان منهم
عبده ..

وعبده لم يولد في حارة العوالم ولم يبدأ مع راقصات .. إنه من
عائلة محترمة من عائلات العباسية وكان أبوه موظفا في وزارة
المواصلات وصل إلى الدرجة الثانية ، وجده كان من رجال القضاء ،
وهم يملكون عشرة أفدنة في البدرشين ، ولم يكن اسمه أبدا عبده .
الطبال بل كان اسمه عبد الرؤوف مرعى .. وكانت العائلة كلها تهوى
الفن .. كان الفن أيامها هواية تنتشر بين العائلات المحترمة داخل

البيوت .. كان أبوه يعزف العود في أوقات فراغه ولا يعزفه أبدا أمام غريب عن البيت حتى لو كان من أصدقائه .. انها متعة يمارسها فقط في بيته ومع زوجته وأولاده .. وأمه كانت تهوى العزف على البيانو وقد اشترى لها أبوه بيانو كما اشترى لنفسه العود .. واخته كانت تهوى الغناء .. كانت تغنى وصوتها رائع وكان ما يضحكه فيها أنها لا تصبر حتى تتم الأغنية ولكنها تقفز قبل أن تتمها إلى أغنية أخرى .. وأخوه محمود هوى نوعا آخر من الفن وهو كرة القدم وتفوق فيها حتى أصبح من أبرز لاعبي المدرسة .. وأخوه مدحت هوى المصارعة وبرغم أنه لم يتفوق فيها إلا أنه استمر يعيشها حتى تخرج وتزوج واستغنى عن المصارعة بهواية الطاولة .. وهو .. عبد الرؤوف .. إنه لا يدرى متى وجد الطلبة بين يديه .. إنه لا يذكر نفسه إلا وبين يديه طلبة .. ولا يذكر نفسه إلا وأصابه تدق دقات منغمة على كل شيء سواء على الطلبة أو على الشباك أو على الصينية أو على مكتبه أو على ساقيه .. وعرف بين أهالى الحى بأنه رائع فى دق الطلبة وفى «الواحدة والنص» ..

ولم تكن أمه متحفظة كأبيه فى الاحتفاظ بالفن داخل البيت وكانت تقيم ليلة استقبال كل شهر كعادة السيدات فى هذه الأيام وتطلب من عبد الرؤوف أن يدق الطلبة أمام صديقاتها وتقوم احداهن لترقص ، وحتى فى المدرسة كان الطلبة يتجمعون حوله ويطلبون منه أن يدق الطلبة أو يدق على حقيبتة ويرقصون .. كان يعرف أن الرقص لا يمكن أن يكون إلا على دقات الطلبة .. ولكنه وهو يكبر عاما بعد عام بدأ يعرف أيضا أن ليس كل ما يمكن أن تؤديه الطلبة هو الترقيص .. وترقيص الناس .. انها آلة موسيقية كاملة .. إن سطحها يضم كل الأوتار الموسيقية وأصابه يمكن أن تعزف فوقها من حافظها إلى وسطها كل الدرجات الموسيقية .. دو .. رى .. مى .. فا .. صو .. ولكن

بشخصية مستقلة عن باقى الآلات الموسيقية .

وهو يزداد تعلقا بالطبلة .. وقد حاول وقد اكتشف قوة هوايته الموسيقية أن يهجر الطبلة إلى أى آلة أخرى .. درس البيانو وأجاد العزف عليه ولكنه وجد نفسه يعود كل يوم إلى الطبلة كأنه ينهى دراسته فى المدرسة ويعود إلى البيت .. البيانو هو المدرسة والطبلة هى البيت .. وترك البيانو وتعلم العزف على الكمان فى معهد الموسيقى الشرقية .. ولكنه عاد سريعا إلى البيت .. وعزف الجيتار .. وخلال ذلك درس «السولفيج» والنوتة الموسيقية لعله ينتقل أبعد عن الطبلة .. ولكن أبدا .. لا يستطيع أن يقضى يوما دون أن يحتضن بين يديه ويطلق أصابعه ترقص فوقها .. إنه يحس بالطبلة كأنها قطعة منه بل اقتنع أخيرا بأنه وهو يتقن نفسه موسيقيا إنما هو فى الواقع يتقن الطبلة .. ينتقل كل ما يدرسه إلى الطبلة .. ولكن لماذا الطبلة ؟

إنه يحس بها كأنها الآلة الوحيدة التى يمكن أن تفرض شخصيتها.. الشخصية الشرقية .. الشخصية المصرية .. إن الطبلة منتشرة فى كل أنحاء العالم .. العالم المتقدم .. والعالم المتأخر .. ولكن كل شعب من شعوب العالم له طبلة الخاصة التى تعبر عن شخصيته الخاصة .. هذا بعكس الآلات الأخرى .. إنها كلها آلات مستوردة تعزف لغات أجنبية حتى لو كانت للحن مصرى .. إن عبد الوهاب والموجى وبليغ يتكلمون لغة أجنبية عندما يضعون الحانهم على آلات أجنبية .. وقد تكون لهذه الآلات شخصية عالمية ولكن ليس لها شخصية تعبر عن شعب بذاته ولذلك فهى لا تتغير من بلد لبلد .. ماهى شخصية الجيتار.. وماهى شخصية الكمان .. وماهى شخصية الكونترباس والأكورديون .. لا شخصية .. كلها آلات مصنوعة كالبسكليت والسيارة وآلة الحلاقة ..

والآلات التى لها شخصية عربية تكاد تنقرض .. الناي والعود والقانون .. وربما كان العود والقانون لهما شخصية تركية وضياعهما أقل خسارة من الناي .. ولكن الناي مهم .. والأهم منه الطبله .. يجب أن يحمى شخصية الطبله من الضياع .. ويجب أن يدافع عنها .. يجب أن يفرض مكانتها وقوتها على فن الموسيقى ..

ومنذ أصبح طالبا فى المدرسة الثانوية بدأت شخصيته تعرف كعازف طبله .. إنه يرفض أن يحمل لقب طبال .. إنه عازف طبله .. ويجب أن يعترف الناس بأن الطبله هى مجموعة أوتار تعزفها أصابع الفنان كما تعزف الجيتار أو الكمان .. لماذا لا يسمى عازف الجيتار «جيتار» ، أو عازف الناي «ناي» .. لقد كانوا زمان يسمون عازف القانون «قانونجى» وكانوا يسمون عازف الكمان «كمنجاتى» .. ولكن هذه التسميات ألغيت وارتفع جميع الموسيقيين إلى لقب عازف أو موسيقار فلماذا يتركون عازف الطبله وحده يحمل لقب طبال ..

والواقع أن لقب طبال لم يلتصق به وهو طالب فى المدرسة الثانوية رغم أنه أيامها كان يكون فرقا موسيقية من أبناء الحي ويحى بها الليالى والحفلات فى بيوت الأصدقاء ، وكان يضع دائما دورا للطبله مع كل لحن .. وكان يصر فى كل حفلة على أن يضرب الطبله ضربا منفردا .. أسف .. عزفا منفردا .. بل كان يفرض شخصيته على أصدقائه العازفين معه ويصمم أن يكون مكانه هو وطبلته فى وسط الفرقة مكان عازف القانون أو عازف الكمان .. لماذا توضع الطبله دائما فى مؤخرة الفرقة مع أنها مايسترو الآلات وضابط الايقاع أى ضابط الفرقة ..

ولم يكن أحد يتنبه إلى كل هذه المحاولات التى يحاول بها أن يطور مكانة الطبله بين بقية الآلات الموسيقية فقد كان مجرد طالب يهوى الموسيقى .. ابن عائلة محترمة وليس طبالا .. وكان محبوبا بين أهالى

الحى لروح المرح والموسيقى التى تحيط به دائما ، وكانت بنات الحى يتمنينه ويتمنين أن يرقصن على طبلته .. وكان يمكن أن يعيش العمر كله كمجرد هاو للطبلة كما يهوى أبوه عزف العود وتهوى أمه عزف البيانو وتهوى أخته الغناء وتستمر به الحياة ليكون موظفا محترما ورب عائلة سعيدة .. ولكنه التقى بالأستاذ على كمال مؤنس صاحب فرقة الأحلام الذهبية الموسيقية ..

ولم يبدل الأستاذ على كمال مؤنس أى جهد فى ضمه لفرقته إنما فقط أبدى إعجابه به ، وفرح عبد الرؤوف بهذا الإعجاب واستغله فى كسب صداقة الأستاذ مؤنس ، ودفعته الصداقة إلى أن يشترك بطبلته فى بعض الليالى التى تحييها فرقة الأحلام الذهبية .. متبرعا .. مجرد هاو .. ولكنه بدأ يتعود على هذه الليالى وبدأ الأستاذ مؤنس يزداد إعجابا به ويعتمد عليه أكثر وبدأ عالم الموسيقى يكتشف فيه شخصية جديدة قادرة على جذب الجمهور ..

واحترف ..

احترف الموسيقى ..

احترف الطبلة ..

أصبح عضوا ثابتا فى فرقة الأحلام ويتقاضى أجرا كبيرا بالنسبة لما كان يتخيله كمستقبل بعد أن يصبح موظفا محترما .. جنيهاً فى الليلة الواحدة ..

وكان عبد الرؤوف أيامها قد حصل على شهادة التوجيهية التى تسمى الآن شهادة الثانوية العامة .. والتحق بكلية الزراعة تلبية لرغبة أبيه الذى كان يريد أن يتخصص أحد من أبنائه فى زراعة الأفدنة العشرة التى يملكها .. وثار أبوه عندما علم أن ابنه عبد الرؤوف احترف الطبلة وانضم إلى الفرقة الموسيقية .. وكان عبد الرؤوف يقنعه بأن الطبلة لن تشغله عن الدراسة الجامعية .. واضطر الأب إلى ..

التسلية والافتتاح وإن كان قد قاطع الاستماع إلى هذه الفرقة الموسيقية بل حرم على ابنه أن يعزف الطبل في البيت .. أترك الطبله يا ولد وذاكر ..

ولم يستطع عبد الرؤوف أن يحقق وعده .. أخذته الطبله من الجامعة .. وتفرغ بـكله للفرقة الموسيقية .. وتغير كل شيء فيه حتى اسمه .. لم يعد اسمه عبد الرؤوف مرعى .. أصبح اسمه عبده الطبال .. وعنده يحس أنه انتقل إلى الحياة التي يريد لها .. حياة الطبله .. وهو ناجح .. ويحس بنجاحه .. ولكن مشكلته انه لا يستطيع أن يستغل هذا النجاح في التطور بالطبله نفسها كآلة يريد أن يرفعها إلى مستوى الآلات الأخرى .. لا يليق أن تبقى الطبله آلة مساعدة أو آلة مكمله أو مجرد ساعة بزمبك لضبط الإيقاع ..

وقد عرض على الأستاذ مؤنس صاحب الفرقة عدة مرات أن يفسح له مكانا لعزف منفرد على الطبله .. وكان يختار المقاطع بين الألحان التي يمكن أن تنفرد فيها الطبله بنفسها .. بل إنه وضع لحنا كاملا من تأليفه خص الطبله فيه بمعظم الفقرات وابتكر فيه جملا موسيقية لم تعرف من قبل .. ولكن الأستاذ مؤنس .. وهو إنسان يضع الموسيقى في مستوى الكوكاكولا .. مجرد شيء للترفيه عن الأذن كما ترفيه الكوكاكولا عن بلاعيم الناس .. كان الأستاذ مؤنس يسخر من اقتراحات عبده الطبال .. خليك معانا يا بتهوفن .. وكان أحيانا يترك له بضع دقائق أثناء العزف لينفرد فيها بالطبله .. دقيقة أو اثنتين لا أكثر ..

ثم إنه يريد أن يحقق أحلامه ينقل الطبله من حافة الفرقة الموسيقية إلى وسطها .. إن آلة «الجازبند» توضع الآن في وسط الفرقة التي تعزف الموسيقى الأجنبية .. والجازبند هي طبله .. طبله الخواجات فلماذا لا تحترم الطبله المصرية وتحتل مكان الصدارة في

الفرقة الموسيقية .. ولكن مستحيل .. الأستاذ مؤنس لا يمكن أن يفهم هذا الكلام ..

إن عبده يحس أنه لا يستطيع أن يصل مع الأستاذ مؤنس وفرقته إلى المكانة والاحترام اللذين يحلم بهما طوال عمره .. مكانة الطبلّة واحترام الطبلّة .. لم يكن يحس بهذه المكانة وهذا الاحترام إلا مع الراقصة .. كل راقصة وأى راقصة .. إن الراقصة هي لعبة الطبال وهي تعرف انها لعبته وحتى يلعب بها لعبة تعجب الناس فهي تحاول أن تكسبه .. تحاول أن تأخذه .. الراقصة للطبال كالمطربة للملحن .. وكما تزوجت وردة ببليغ وتزوجت فايزة بمحمد سلطان .. تزوج النغم بالصوت .. وضاعت نجاة وشادية لان الصوت لم يجد نغما يتزوجه .. فإن كل راقصة تتمنى أن تتزوج طبالا حتى تطمئن على نفسها .. تتزوج الدقة بالهزة .. وقد تزوجت الراقصة نعيمة بمحروس الطبال .. وتزوجت الراقصة ليلى بعباس الطبال .. والراقصة شريفة لم تتزوج فهمى الطبال ولكنها سلمته كل حياتها .. فالطبال هو سيد الراقصة حتى ولو لم يتزوجها .. وربما لهذا هربت الراقصة حياة فاضل من كل الفرق الموسيقية وأصبحت ترقص على تسجيلات حتى لو جازفت بإعجاب ورضاء الجمهور .. وآه لو عرف الجمهور ما يجرى بين الراقصة والطبال ..

ولكن عبده الطبال شىء آخر .. إنه يرفض أن تعتبر الطبلّة مؤخرة الراقصة .. إن الطبلّة ليست دقائق لهز الخصر انها أنغام للأذن .. إنها لحن كامل .. وقد حاولت كل راقصة رقصة أمام طبلته أن تعطيه كل ما تريد وأكثر .. عرضت عليه نعيمة الزواج .. ماتجى نتجوز يا عبده وعرضت عليه سميرة ليالى بلا زواج .. وحاولت سنية أن تدفع له أتعابا .. إنه طبيبها الذى يعالج منها ويكتب الروشتة بالطبلّة ويستحق الفريضة .. ولكنه يرفض .. يرفض أن ترتبط الطبلّة والطبال

براقصة .. إن الطبلية فن أوسع من الرقص والطبال يحرك الجمهور وليس الراقصات فحسب .. ولكنه رغم ذلك هو المسئول عن الراقصة التي ترقص أمامه وكان يحدد علاقته بكل راقصة على قدر موهبتها وعلى مستوى تعبيرها بفنّها .. إن الرقص فن تعبيرى يعبر عن خوالج النفس البشرية .. وعلى قدر ارتفاع موهبة الراقصة وارتفاع مستوى تعبيرها كان عبده يعطيها من فنه .. فن الطبلية .. وقد عرفت عنه الراقصات كل ذلك وكن يبذلن في الرقص أمامه أكثر مما يبذلن عندما يرقصن أمام أى طبال آخر .. وكن يحترمنه .. بل إنهن منحنه لقلب لم ينله أحد من الطبالين .. لقب أستاذ .. الأستاذ عبده الطبال .. وبعض الراقصات كن يخفن الأستاذ عبده .. يشعرن بالعجز الفنى أمامه فيهربن منه ويرفضن الرقص أمامه .. هذا النوع من الراقصات الذى يتحرك دون أن يعبر .. فعرف عبده بأنه لا يعزف إلا لأرقى مستوى الراقصات ..

وعبده وسط كل ذلك تشتت به أزمته ..

أزمة الارتقاء بالطبلية والطبال ..

لم يعد هناك أمل إلا أن يجمع فرقة موسيقية خاصة به .. فرقة يستطيع أن يضع الطبلية على رأسها وفى مقدمتها وأن يترك الطبلية تعزف فيها عزفا منفردا ..

ولكن أين يعمل بهذه الفرقة ..

من أصحاب الملاهى يقبل أن يعرض مجرد فرقة موسيقية تقوم على طبلية ؟ ..

وأى مؤسسة من مؤسسات الدولة يمكن أن تفسح المجال لهذا الفن الجديد ! .. الإذاعة ؟ . التلفزيون ؟ مؤسسة المسرح ؟ .. لا .. لا .. لا .. يظن أنه يمكن أن يجد طريقا إلى هذه المجالات ..

وكان مع الفرقة الموسيقية فى طنطا يشترك مع المطربة فريدة

رحمى فى احياء فرح ابنة احدى الشخصيات .. وشاهد هناك مباهج ترقص .. انها ترقص مع فرقة العوالم .. بعد الزفة .. وهى صغيرة قد لا تتجاوز الخامسة عشرة ولكنها ترقص رقصا رائعا .. إنها تعبر تعبيرا جديدا عن أحاسيس صادقة .. وهى لا تفتعل .. ولا تثير .. انها كأنما تتكلم بتحركات جسدها .. كأنها تروى حكاية .. حكايتها .. من أين جاءت بكل هذا الفن .. إنها موهبة تلقائية كما وهب هو فن الطبله من قبل أن يتعلمه ..

وطرأت الفكرة على باله ..

وصمم عليها ..

ويحدث عن أب مباهج .. وكان يعتقد أنه لا شك أحد أفراد طاقم العوالم أو أحد فناني الارياف .. ولكنه لم يجد أباه ولا أمها وعرف انها تعيش ملكا لزنوبة العالمة .. وزنوبة تعرفه .. كل العوالم يعرفون أو يسمعون عن الأستاذ عبده الطبال .. واستطاع أن يقنع زنوبة بأن يأخذ منها مباهج ليضمها إلى فرقته .. الفرقة التى لم يكونها بعد .. ودفع لزنوبة .. اشترى منها مباهج وان كانت قد اشترطت عليه أن تقيم مباهج فى القاهرة مع ابنة عمتها فردوس .. وفردوس ليست راقصة ولا عالمة ولكنها متزوجة فى القاهرة وزنوبة لا تطمئن على مباهج إلا وهى مع ابنة عمته حتى لو كانت فى رعاية عبده الطبال .. وعبده يفهم ما ترمى إليه زنوبة .. انها تريد أن تبقى مالكة مسيطرة على مباهج ..

وعاد عبده بمباهج إلى القاهرة وتركها فى بيت فردوس ابنة عم زنوبة .. واستقال من فرقة الأحلام الذهبية رغم الحاح الأستاذ مؤنس بالألا يتركهم .. وبدأ يجمع فرقته الجديدة .. لم يكن فى حاجة إلى أكثر من أربعة عازفين .. إنه لون جديد من الفرق الموسيقية .. الطبال وعازف الناي وعازف أوكريديون وعازف جيتار .. واختارهم كلهم من الناشئين وكلهم من الهواة ماعدا عازف الناي .. هواة من الشبان

الناشئين .. شيان كان يعرفهم وكانوا يتعلقون به وهم مؤمنون به وبطلته..

وفي كل صباح يجتمعون كلهم في بيته ومعهم مباحج .. وهو يضع اللحن بنفسه ويطور الألحان القديمة لصالح الطبلية .. وهو يعلم أنه سيبيع فنه بالرقصة .. ليس هناك ملهى يمكن أن يقبله إلا إذا قدم له راقصة ورقصة .. لا يهم .. أن عبد الوهاب يبيع فنه بصوت أم كلثوم وهو سيبيع فنه برقصات مباحج .. ولكن هناك فرقا .. إن أم كلثوم كيان فنى يوازى عبد الوهاب وكل منهما له فضل على الآخر أما مباحج فهى راقصة جديدة لا يعرفها أحد وكذلك كل من يجمعهم من أفراد الفرقة .. لا أحد معروف ولا أحد يمكن أن يوازيه ولا أن يكون له فضل عليه .. وهو الذى يخلق كل شىء .. وعبد الوهاب يقدم أغنية أم كلثوم بمقدمة موسيقية طويلة حتى يثبت ويبرز شخصيته أمام شخصية أم كلثوم ، وهو أيضا لن يقدم رقصة مباحج إلا بعد مقدمة موسيقية طويلة تعبر عنها الطبلية .. الطبلية فقط مع مقاطع سريعة من الاكورديون والجيتار وبمصاحبة الناي ، حتى يثبت شخصية الطبلية بجانب قوة جذب الرقصة التى ترقصها مباحج .. مقدمة عشر دقائق كاملة تلعبها الطبلية قبل أن تدخل مباحج لترقص ..

والبروفات تبدأ كل صباح ولا تنتهى قبل منتصف الليل .. وهو يحاول أن يحقق في مباحج كل ما اختزنه في خياله من فن الرقص .. ويقسو عليها .. ويصرخ .. وهى تستسلم وتطيع بل إنها أصبحت تؤمن به وتتعلق به كأستاذ .. انها ترى فيه المستقبل الجديد .. وهو يتعب محفوظ عازف الجيتار .. إنه لا يزال في المدرسة الثانوية كما كان هو قبل أن يحترف الطبلية .. ويتعب أيضا عبد الحميد عازف الاكورديون .. انه يريد أن يخلصه من الانغام الأجنبية .. يريد به أن يمصر الاكورديون .. الوحيد الذى يتأمل معه بهدوء هو مصطفى عازف الناي .. انه محترف مثله .. ومصطفى ينظر إليه دائما كأنه

يشفق عليه ويطاوعه كأنه يأخذه على قدر عقله ويتحمل صديقه إلى أن يشفيه الله ..

وتمت البروفات ..

كل شىء جاهز للعرض ..

واستطاع أن يتفق مع ملهى البلابل بشارع الهرم وكان لا يمكن أن يتم الاتفاق إلا بعد أن يشاهد برسوم المليجي صاحب الملهى رقصات مباهاج .. وقاس بعينه استدارة نهديها وخصرها وخطوط ساقها .. انها جميلة .. انها شابة لم تترك الليالى بعد بصماتها على جسدها .. انها فن بكر ..

وبدأت الليلة الأولى ..

ولأول مرة تقدم الطبله نفسها للجمهور وقد توسطت أفراد الفرقة الموسيقية وعن يمينها الناي وعن يسارها الأكورديون والجيتار .. الطبله هى المايسترو ...

لقد جعل أحمد فؤاد حسن من آلة القانون مايسترو الفرقة .. وعبد الطبال ازاح القانون وطرده من الفرقة وتولت الطبله القيادة .. ربما ظلم الجمهور عبده الطبال منذ الليلة الأولى .. إنه جمهور لا يستطيع أن يفهم أن تكوين فرقة موسيقية من أربع آلات فقط هو تجديد فى فن توزيع الأنغام .. كل ما يفهمه الجمهور هو أن صاحب هذه الفرقة إنسان فقير غلبان لا يستطيع أن يدفع أجور أكثر من أربعة عازفين .. إن عدد أفراد الفرقة الموسيقية أصبح مظهرا من مظاهر غنى الفنان .. وقد كانت منيرة المهديّة تغنى على فرقة موسيقية من خمس آلات .. وجاء عبد الوهاب ورفع العدد إلى ثمانية ليثبت أنه غنى فنيا .. فاضطرت أم كلثوم أن ترفع العدد إلى عشرة رغم أنها بدأت الغناء على مزمار واحد .. وتحداها عبد الوهاب فرفع عدد أفراد فرقته الموسيقية إلى خمسة عشر .. وظهر عبد الحليم حافظ

كمنافس خطير فتقدم بفرقة موسيقية عددها خمسة وعشرون .. واعتقدت أم كلثوم أن هذه هى موضة الجيل الجديد فرفعت عدد أفراد فرقته الموسيقية إلى ثلاثين .. وهكذا سرت العدوى بين كل المطربين والمطربات ثم انتقلت إلى الراقصات وأصبحت نجوى فؤاد ترقص على أنغام فرقة تجمع أربعين عازفا وطبالا .. كل ما ملكت أيماهم .. على قدر فلوسك تجمع من يعزف لك .. رغم أن الأداء الفنى ليس فى حاجة إلى كل هذا العدد من الآلات الموسيقية ولا من الموسيقيين .. إنه أداء فردى .. المطرب أو المطربة أو الراقصة يؤدى كل منهم فنا فرديا لا يحتاج إلى كل هذه الزينة الموسيقية .. فلو كان العمل الفنى جماعيا كالأوبرا أو السيمفونية أو المسرح الاستعراضى أو رقصات فرقة رضا أو استعراضات الجيش لاحتاج إلى هذا العدد من الآلات الموسيقية حتى يتم التوازن فى الأداء .. ولكن ما حاجة الأداء الفردى إلى عشرين آلة كمان مثلا .. إنه مجرد مظهر تفاخر كتعليق الأعلام والانوار الملونة فى الموالد والأفراح .. وكانت النتيجة أن تمزق الذوق الفنى للجمهور .. أصبح الجمهور يسمع أغنية لشادية أو لفائزة وهو تائه بين مؤثرات متناقضة .. هل يرقص بلدى .. أم يرقص أفرنجى .. أم يعيش فى نغم أوبرالى .. أم يتسلطن طربا ويصيح الله الله يا ست .. وضاعت مع ذلك المقطوعات الموسيقية مع مقطوعات الغناء الفردى فلم يعد عبد الوهاب يستطيع كملحن أن يقدم مقطوعة موسيقية ويضمن لها النجاح بلا غناء ولم تعد أم كلثوم تستطيع أن تغنى بلا مقطوعة موسيقية قائمة بذاتها ولا علاقة لها بما تغنيه ..

وعبد الطبال كان يعرف كل ذلك وكان يريد أن يطور تكوين الفرق الموسيقية بحيث تكون فى حدود حاجة اللحن .. والألحان التى يقدمها ليست فى حاجة إلى أكثر من أربع آلات .. ومباهج فى رقصتها ليست أيضا فى حاجة إلى أكثر من الآلات الأربع .. لماذا يأتى بعازف

كمان مثلا .. إن آخر ما تحتاجه أى رقصة بلدى هى الكمان .. إنها آلة لا تصلح لأداء الأنغام الراقصة وعندما تشارك الآلات الأخرى فى لحن رقص شرقى تبدو أنغامها كأنها مجرد يد طفل تصفق مع هزات خصر الراقصة ..

ولكن عبده الطبال لم يكن يعتمد تطوير الفرق الموسيقية فحسب بل كان أيضا يعبر عن غيرته من الآلات الأخرى .. إنه يغار ويسخط ويلعن هذه الآلات التى تضع نفسها فوق مستوى الطبلية فتطردها إلى نهاية الحافة الموسيقية .. إلى آخر مقعد من مقاعد الفرقة .. وقد أصبحت الفرقة فرقته .. فرقة الطبال .. فرقة الطبلية .. والطبلية لن تأخذ معها إلا ما تحتاج إليه من بقية الآلات .. وهى لا تحتاج إلى كثير انها فى غنى عن معظم الآلات الموسيقية خصوصا الآلات الدخيلة كالأورج هذه الآلة التى يقف العازف خلفها كما يقف لاعب الأراجوز يقلد جميع أوتار الآلات الأخرى ..

ولما كانت الطبلية مكلفة دائما بأن تبدأ بعدة فقرات تعلن بها افتتاح اللحن ، كأنها دقات على خشبة المسرح تعلن رفع الستار .. إوعى أنا جاي .. كله يسمع .. فقد قرر عبده أن يتولى الأكورديون التقديم .. لا الطبلية .. إن الطبلية أصبحت فى فرقته هى البريمادونا .. هى البطلة .. وعلى الآلات الأخرى أن تقدمها .. ولعب عازف الأكورديون لحنا سريعا لا يتجاوز دقيقتين يعلن الافتتاح ثم دخلت الآلات الأربع مع بعضها : الطبلية والناي والأكورديون والجيتار .. تعزف الافتتاحية .. ثم سكت الجميع لحظة وبدأت الطبلية وحدها .. وكان عبده ينتظر أن يحييه الجمهور بالتصفيق عندما يبدأ كما يصفق لأم كلثوم عندما تقوم واقفة بين أفراد الفرقة وقبل أن تبدأ الغناء .. ولكن أحدا لم يصفق .. أنهم لا يعرفون ما سيقدمه لهم وبدأت أصابعه تلعب فوق الطبلية .. ان كل سنتيمتر من سطح الطبلية يعتبر وترا .. وهو يعزف

فوق أوتار .. انه لا يطبل .. ولكنه يعزف .. شيئا جديدا تقدمه الطبلية
لعالم الفن وللجمهور .. والنأى يصاحب الطبلية فى بعض المقاطع ..
والجيتار يصاحبها فى مقاطع أخرى .. والأكورديون يحييها بزغردة
موسيقية بين كل مقطع وآخر ..

وصفق الجمهور ..

وصفق بحرارة ..

إنها المرة الأولى التى يتمتع بها عبده الطبال بالتصفيق له وحده
التصفيق للطبلية ..

واستمر يعزف ولم يلاحظ أن الجمهور بدأ يتطلع إلى مداخل
المسرح كأنه ينتظر أن يرى شيئا آخر .. ولم يحس بأن بعضا من
الجمهور بدأ يحدث بعضه فى جوانب الصالة .. لم يلاحظ عبده شيئا
من هذا .. إنه مندمج كله مع طبلته وقد خصص لها كل الوقت .. عشر
دقائق .. عشرين دقيقة .. وبجانبه صديقه مصطفى عازف النأى
يزداد اشفاقا عليه .. إنه يعلم أن الجمهور لا يحتمل الطبلية كل هذه
المدة حتى لو كانت بين يدي عبده الطبال .. وهو يرى تطلعات الناس
ويعرف إلى ماذا يتطلعون .. انهم يتطلعون إلى دخول الراقصة ..
الطبلية تعنى الراقصة ..

لا .. عبده الطبال متأكد أن الطبلية تستطيع أن تغنى الناس عن كل
آلة أخرى وعن الراقصة وهو لا يحس إلا بالطبلية .. إن هذه الفرقة
كلها هى فرقة الطبلية ..
وانتهى اللحن وسكتت الطبلية ..

وصفق الجمهور .. ولكنه تصفيق خافت متناثر بين عدد قليل من
الموائد .. ورغم ذلك قام عبده وبين يديه طبلته يحيى جمهور
المصفيق .. مهما كان التصفيق خافتا فهو تصفيق للطبلية وحدها ..
وعادت الفرقة تعزف ..

وظهرت مباحج على المسرح لترقص ..
 وجه جديد يراه جمهور شارع الهرم لأول مرة .. وجه مصنوع في
 طنطا .. بركاتك ياسيدى يابدوى .. وانبهر الجمهور بالجمال
 الفلاحى الأسمر والقوام المشدود كأنه يرقص وهو يحمل فوق رأسه
 بلاصا .. والهزات التى تبدو ساذجة بريئة كأن مباحج طفلة تغافل
 أهلها وترقص فى مولد .. حتى الثوب الذى ترقص به ليس زاعق
 الألوان تنتشر فوقه حبات الترتر والفصوص وليس ثوبا يتمزق فوق
 جسدها ليكشف عن نهر شديدها وثنايا خصرها .. إنه ثوب أسود من
 الحرير الشفاف كأنه ثوب فلاحه تزف به إلى بيت عريسها .. ثم
 اللحن الذى ترقص عليه والذى وضعه عبده .. إنه لحن مصرى
 خالص يتركز فى الطبله .. وتأخذك الطبله إلى طنطا ثم تنقلك إلى
 دمنهور ثم تجد نفسك فى أسيوط ثم تقفز بك الطبله إلى بعيد إلى بلاد
 النوبة .. إن طبله عبده ترسم مصر كلها على قوام الراقصة مباحج ..
 وكل مكان من مصر له دقته الخاصة على الطبله ..
 ودوت الصالة بالتصفيق ..

ووقف عبده الطبال يحيى الجمهور .. إنه هو الذى خلق كل هذا
 الفن .. هو الذى يستحق كل هذا التصفيق .. ولكن الجمهور كان
 يصفق للراقصة مباحج ..



والأيام تمر ووراؤها النجاح وترتفع فرقة عبده الطبال إلى القمة ..
 أصبحت الفرقة هى النمرة الأساسية التى تشد الجمهور إلى كازينو
 البلابل .. وعنده يكره أن تسمى فرقته نمرة .. إنه ليس نمرة .. عبد
 الوهاب ليس نمرة .. وفرقة أحمد فؤاد حسن ليست نمرة .. وهو .. إنه
 كل شئ فى هذا الملهى .. كل الآخرين نمر تمهد لظهور فرقته على
 المسرح .. بل حتى الخمور التى توزع على الموائد هى أقرب إلى أكواب

الشربات توزع تحية لفرقته .. إنه ليس نمرة .. إنه ليلة كاملة قائمة بذاتها كلياى أم كلثوم .. وهو يعيش بكل كيانه فى نشوة النجاح .. لقد نجح .. حقق الحلم الذى ولد معه .. أصبحت الطبلبة هى الآلة الأولى وأصبح الطبال هو المايسترو .. أصبحت الفرقة الموسيقية هى طبال وليست فرقة قانونجى أو عواد أو فرقة لاعب جيتار كفرقة عمر خورشيد .. ونشوة النجاح ترتفع به إلى مستويات فنية جديدة وتدفع أصابعه لترقص فوق الطبلبة رقصات جديدة .. رائعة .. ولكن هذه النشوة أغفت عينيه عن الحقيقة ..

إنه لا يدرك أن فرقته الموسيقية أصبحت تسمى فرقة الراقصة مباهج .. لا يدرك .. أن مباهج ليست إلا آلة فنية أخرى بجانب الآلات الثلاث التى يستأجرها ويحركها .. وعندما يصفق الجمهور فى نهاية الرقصة لا يزال يقوم واقفا بجانب مباهج وينحنى ردا على تصفيق الجمهور .. بل إنه يقف متقدما على مباهج .. أن التصفيق له هو .. الذى خلق هذا الفن .. هو الطبلبة .. وربما لاحظ أن الجمهور يصفق فى نهاية الرقصة أكثر مما يصفق فى نهاية المقدمة الموسيقية التى يقدمها وحده بلا راقصة .. ولكن هذا لا يعنى شيئا .. أن الجمهور لا يصفق أكثر للراقصة ولكنه يصفق أكثر للعمل الفنى المتكامل أى بعد استكمال الموسيقى بالرقصة .. والتصفيق دائما له هو وللطبلبة .. لا يمكن أن يقال أن الجمهور يصفق لغناء أم كلثوم أكثر مما يصفق لموسيقى عبد الوهاب .. إنه يصفق للعمل المتكامل الذى خلقه عبد الوهاب وتؤديه أم كلثوم كآلة موسيقية أخرى من آلات الأداء ..

وربما لاحظ عبده الطبال أن أموال النقوطة تنهمر كلها على مباهج الراقصة .. لقد أصبحت تجمع فى الليلة الواحدة أكثر من خمسمائة جنيه أحيانا ألف جنيه إذا كان بين الجمهور أغلبية من براميل البترول .. و .. ولا ملهم للطبلبة أو للفرقة الموسيقية .. كلام فاضى .. إن

الجمهور لا يحيى بالنقود الراقصة مباهج وحدها ولكنه يحيى العمل الفنى .. إن مباهج ليست إلا قطعة من هذا العمل الفنى ، وكل ما هناك أنها تقف كآلة الكيس تتسلم الثمن .. آلة الكيس ليست هى صاحب المتجر .. صاحب الفضل ..

وقد فرح عبده الطبال عندما بدأت شركات تسجيل الاسطوانات والكاسيت تتهافت عليه .. إن التسجيل لا يشمل الراقصة طبعاً .. إنه موسيقى خالصة .. موسيقاه .. موسيقى عبده الطبال .. وقد فوجئ عندما وجدهم قد أسموا الاسطوانة التى طبعوا عليها موسيقاه «رقصة مباهج» .. لا يهم .. إنها فعلاً رقصة مباهج .. والخطأ خطؤه لانه لم يتنبه إلى أنه كان يجب أن يطلق اسماً على كل لحن من ألحانه .. إن نشوة النجاح قد أصابته بنوع من الغرور .. أصبح لا يتصور شيئاً أقوى منه ومن طبلته .. بل إنه لم يكن يهتم بأن الصحف لا تتكلم عنه انما تتكلم عن مباهج وتنشر صور مباهج وإذا جاء ذكره فهو طبال مباهج .. كل هذا لا يهتم به .. انه شامخ مغرور .. ولكن ..

مباهج نفسها بدأت تتعبه ..

لم يكن قد مر أكثر من ثلاثة شهور على بداية الفرقة عندما جاءت فردوس التى تقيم مباهج فى بيتها وابنة عم زنوبة العالمة التى اشترى منها مباهج .. جاءت فردوس تطالبه برفع أجر مباهج .. إنه يعطيها خمسة جنيهات فى الليلة الواحدة ولو كان قد تركها فى طنطا لما وصلت إلى الجنيهات الخمسة ولو رقصت ثلاثين ليلة .. ولكن فردوس تلح وتشكو من المصاريف .. وحياتك ياسى عبده خمسة جنيهات تكفى التاكسى بالكاد .. اننى أترك البيت لاصحب مباهج طول الليل واضطرت أن أبحث عن خادمة لاولادى واسكت زوجى كل ليلة بزجاجة كونياك .. ويصرخ عبده ويلتفت إلى مباهج .. ومباهج تحنى رأسها فى حياء .. الكلمة كلمتك ياسى عبده ..

هؤلاء النسوة الشماطات .. خمسة جنيهاً في الليلة .. مائة وخمسين جنيهاً في الشهر .. تكفى مباحج وأمها وأمها وأباها وأبا أبيها .. تكفى حارة العوالم كلها .. وكان عبده قد اتفق مع برسوم المليجي صاحب كباريه البلابل على خمسين جنيهاً في الليلة اتعاباً للفرقة كلها بما فيها الراقصة .. خمسة من خمسين .. انها لا تستحق بالنسبة للفرقة خمسة من ألف .. وصحيح إنه رفع اتعابه إلى ثمانين جنيهاً في الليلة بعد النجاح الذي حققه ولكن لماذا يرفع اتعاب مباحج وهي لا تستحق شيئاً بغيره وبغير طلبته ..

ورغم ذلك فقد خضع ورفع اتعاب مباحج إلى ثمانية جنيهاً في الليلة .. وامتدت أطماع مباحج إلى النقود .. وكانت قيمة النقود توزع عادة على ثلاثة .. ثلث لصاحب الملهى والثلث للفرقة والثلث للراقصة .. ولكن لماذا يخص مباحج الثلث .. إنها آلة فنية متساوية مع بقية الآلات .. فكان يجمع الثلثين من قيمة النقود ويوزعها على كل أفراد الفرقة بالتساوى بما فيهم هو ومباحج .. لم يكن يأخذ لنفسه أكثر من مباحج أو من مصطفى عازف الناي أو من محفوظ عازف الجيتار أو من عبد الحميد عازف الأكورديون .. فلماذا تأخذ مباحج أكثر من أى واحد فيهم .. ورفض .. انها اشتراكية الفن .. ولكن بعد عام من الاصرار اضطر أن يستسلم ويخص مباحج بثلث قيمة النقود خصوصاً وأن صاحب الملهى فرض نفسه كحامى حمى خزينة النقود وهو رجل لا يؤمن بالاشتراكية .. رأسمالى يستعمر الراقصات .. ومباحج تحتفظ دائماً بسداجة الفلاحة وخفر الفلاحة ولكنه يراها من بعيد وهي تجالس بسداجتها وخفرها زبائن الصالة .. ولعلها أضافت إلى السداجة والخفر النباهة .. فهي لا تجالس إلا أنواعاً معينة من الزبائن .. إن الأستاذ رفعت مدبولى المنتج السينمائى المعروف أصبح من زبائن الصالة الدائمين .. زبائن مباحج .. والامير بركات

يقيم كل أسبوع حفلة ساهرة يدعو إليها صديقه مباحج وفرقة عبده الطبال .. إنها صداقة فنية .. عبده متأكد من ذلك ..

وهى مع سذاجتها وخفرتها ونبايتها تزداد مطالبيها .. وعبده لا يهتم بما تطلبه مادام بعيدا عنه .. ولكنها بدأت تطلب طلبات فنية .. سى عبده انى اتمنى أن أرقص على رق وتار .. والله عال .. انها تريد أن تقلب كيان الفرقة كلها .. تريد أن تهدم حياته .. تريد أن تذلل بجانب الرق والتار .. مستحيل .. لقد ألغى الرق والتار حتى لا تبدو الطبلبة كأنها آلة مساعدة وحتى يثبت أن الطبلبة المصرية .. طبلبة عبده .. تستطيع وحدها أن تغنى عن كل أدوات الايقاع .. مستحيل ..

وجاءته مرة أخرى .. سى عبده لماذا لا تضم للفرقة كمان .. اثنتين ثلاثه .. أحس ان الكمان يملأ أذنى ويعدل مخى ويفتح شهيتى للرقص .. يامجرمة .. يا جاهلة .. إنك لا تعرفين ماذا فعل عبده الطبال فى عالم الفن .. لقد خلق شخصية الطبلبة المصرية .. إنه خلق فنا مصريا جديدا كالفن الذى خلقه سيد درويش .. وأنت لا تساوين شيئا بجانب الطبلبة .. الطبلبة هى التى تحركك .. هى التى تأمرك .. والطبلبة تأمرك ألا تضعى أذنيك إلا على نقراتها .. تقولين كمان .. انك لا تعرفين عن الكمان إلا أنه مظهر من مظاهر التجميل .. الكمان لا يساوى عندك أكثر من ذيل فستان أو حلق تشبكيه فى أذنيك للتجميل أمام المعجبين .. لا يابنت طنطا .. وعزة السيد البدوى لن ترى فى عمرك كمانا بين فرقة عبده الطبال ..

وعبده يتحمل مباحج ويسترد أماسها نشوته وغروره .. لابد أن هناك من يملأ عقلها بهذه المطالب .. انها جاهلة ثم انها منذ عرفتة وهى تخافه وتحترمه فمن يحرضها عليه ويحاول أن يقضى بها على شخصيته الفنية .. ثم جاءت بالطلب الأغر .. إن زنوبة العالمة تريدها لترقص ليلة فى طنطا ..

إن مباحج أصبح لها اسم كبير وسعر كبير وزنوبة تريد أن تستغلها .. ولو سمح لها بأن ترقص مع زنوبة العالمة ليلة واحدة فلن تهدأ زنوبة إلا بعد أن تأخذها كل الليالي .. مستحيل .. هو الذى صنع مباحج وهو وحده الذى له حق عليها .. لا ترقص إلا له .. ومباحج تحاول أن تقنعه .. ليلة واحدة يأسى عبده .. ان زنوبة صاحبة فضل على يا أستاذ .. لا .. أبدا .. ليس لاحد فضل عليك إلا أنا .. انتشلتك من دكان العوالم لاجعل منك فنانة .. انك اليوم لا ترقصين هز البطن ولكنك ترقصين التعبير الفنى للنفس البشرية .. فكيف تعودين بهذا الفن إلى العوالم وإلى زفة العروسة .. ومباحج تصر .. لا أستطيع يا أستاذ .. لا أستطيع اغضاب ست زنوبة .. وسافرت مباحج ليلتها إلى طنطا ..

إنها الليلة الأولى التى تظهر فيها الفرقة الموسيقية على المسرح بلا مباحج .. وعبده يتحدى .. انها فرقة موسيقية وليست فرقة رقص .. انها فرقة عبده الطبال وليس فرقة الراقصة مباحج .. الجمهور جمهور موسيقى وليس جمهور هز البطن .. وبلغ من تحديه أن رفض أن يقدم موعد الفرقة بحيث تستطيع مباحج أن ترقص ثم تسافر بعد الرقصة إلى طنطا .. انه لا يخضع مواعيد الفرقة ومصريها لاهواء راقصة .. ورقص أيضا ما عرضته عليه زنوبة بأن تصاحب الفرقة مباحج إلى طنطا .. وثار .. انه لا يتعامل مع عالمة ولا ينزل إلى مستوى فرق العوالم .. إنه الموسيقار عبده الطبال .. وقد كان الموسيقار محمد عبد الوهاب يشترك ويساهم مع العوالم فى احياء حفلات الأفراح ولكنه كان يفعل ذلك عندما كان مطربا ثم بعد أن انقطع عن الغناء وارتفع إلى مستوى الموسيقار ارتفع بنفسه فوق مستوى لىالى الأفراح .. بل أن عبد الوهاب لم يلحن حتى اليوم زفة

عروسة .. وهو أيضا .. الموسيقار عبده الطبال يجب أن يرتفع بنفسه فوق مستوى زفة العروسة ..

وقرر ليلتها أن يعتمد اعتمادا كاملا على الطبله ..
الطبله ليست في حاجة إلى راقصة ..

وقضى اليوم يعد الفرقة بحيث يملأ الفراغ الذى ستتركه مباحج ..
سيقوم النأى بتقاسيم أطول .. ثم تقوم الفرقة كلها بعزف مقطوعة «حبك شغل بالى» .. ثم تقاسيم أسبانيولية على الجيتار .. ثم يشترك مع الأكورديون فى حوار موسيقى .. الطبله تدق والأكورديون يرد عليها ..

وسأل برسوم الملىجى صاحب الملهى :

— أين مباحج ..

وأجاب الأستاذ عبده فى برود :

— سافرت إلى طنطا ..

وصرخ برسوم الملىجى :

— سافرت .. ماذا يعنى أنها سافرت .. ولم تترك الفرقة .. من سيرقص الليلة ..

وقال الأستاذ عبده وهو يلوى شفتيه امتعاضا :

— الفرقة ليست فى حاجة إلى راقصة .. انها فرقة موسيقية ..

وعاد برسوم الملىجى يصرخ ساخطا :

— ماذا تقول يا حبة عينى .. ليست فرقة راقصة .. فرقة ماذا اذن ..

فرقة رش شوارع .. فرقة قزقزة لب .. اسمع يا أستاذ .. انى سأرسل

فى استدعاء البنت فوفا الراقصة .. وترقصها ..

وقال الأستاذ عبده فى حدة :

— لن أرقص فوفا ولا غيرها ..

وصرخ برسوم :

- ستخرب بيتى يا عبده يا طبال .. الناس ستقوم وتحطم الصالة على دماغى ان لم تقدم لهم راقصة .. بل انى خائب ألا يرضوا بأى راقصة غير مباهج .. ألا تعرف قيمة مباهج .. انها كل شىء يا أستاذ .. ولم يستطع الأستاذ عبده أن يفر من إصرار برسوم على تقديم راقصة ، بل انه عندما فكر فى أن تمتنع الفرقة ليلتها عن العمل خاف أن يسلط عليه برسوم زبانيته من فتوات وخدم الصالة .. وتعتمد ليلتها أن يطيل فى المقدمة الموسيقية ، وأن يعطى الطلبة مجالاً أوسع .. ليقنع نفسه أن الطلبة هى البريمادونا .. هى الراقصة .. وهى المايسترو .. وكأنه كان يحاول أن يدافع عن شرفه ويدارى جرحه ..

وانتهت المقدمة الموسيقية وظهر برسوم المليجى على خشبة المسرح يعتذر عن غياب الراقصة مباهج وكأنه يطلب الوقوف دقيقة حدادا على غيابها ثم قدم الراقصة فوفا .. واضطر الموسيقار عبده أن ينقر على الطلبة هذه النقرات الروتينية كدقات خشبة المسرح ليقدم بها الراقصة .. ثم اضطر أن يدق «مقسوم» وهى الدقة التى ترقص عليها الراقصة فوفا .. وأحس أنه عاد بالطلبة إلى حيث كانت .. عادت الطلبة إلى مؤخرة الراقصة ..

وليلتها لم ينم وكأنه يبكى أحلامه ..

إن مباهج تتغير .. انها تنتفخ بالغرور .. وحولها ناس يدفعونها إلى تحديه .. وإلى فرض مطالبها عليه .. وليعترف .. ان الفرقة فى حاجة إلى مباهج .. والطلبة لا تستطيع أن تستغنى عن مباهج .. ويجب أن يسيطر أكثر على مباهج .. أن يخضعها لأرادته .. كيف .. ليتزوجها .. لقد كان يرتفع بنفسه عن مستوى الطبالين الذين يتزوجون راقصات .. ولكن .. الشغل شغل .. وليستسلم للمقدور ..

وعادت مباهج من طنطا فى صباح اليوم التالى ..

عادت تحمل سذاجتها وحياءها وذكاءها وكأنها لم تفعل شيئاً ..

يمكن أن يغضب عبده الطبال .. وقال لها عبده بعد أن افتعل الترحيب بها مبتسما وبعد أن سمع كلامها عن زنوبة العالمة وعن الليلة التي أحييتها في طنطا :

- بت يا مباهج .. مارأيك .. لنتزوج ..

ونظرت إليه مباهج في دهشة .. لقد مضى الآن عامان منذ أن اشتراها من زنوبة ولم يعرض عليها أبدا الزواج بل أنه لم يحاول أن يلمسها ولو على سبيل القرقزة حتى ظنت أنه ناقص الرجولة فكل رجل يصادفها يحاول أن يقرقزها كما يقرقزون اللب ..

واختبأت وراء مظهر سذاجتها وحيائها وقالت :

- بلا زواج .. أنا تحت أمرك ياسى عبده ..

وقال في حدة وهو يلوى شفثيه قرفا من هذه المرأة التي تعتقد أن الرجل يكفيه منها الجسد :

- قلت لك الزواج ..

وقالت وهي لا تزال تختبئ وراء مظهر حيائها :

- والنبي بلا زواج ياسى عبده .. أنا عمرى ما تأخرت عنك بشيء .. واشتدت حدته وقال كأنه ينهرها :

- إنى لا أريد شيئا .. الزواج لا يرتبط بشيء ..

ولكنى أتزوج لتصبح الفرقة الموسيقية فرقة شرعية ليس لأحد حق عليها ..

ثم خفت من صوته واستطرد مبتسما :

- إنها فرقتنا نحن الاثنين يا مباهج .. تعالى نعيشها نحن الاثنين ..

وقالت مباهج وقد بدأ نكاؤها يغلب حيائها :

- إنى سأعمل بالسينما .. سى رفعت المديولى سينتج لى فيلما ..

وصرخ عبده الطبال :

- مادخل السينما فى الزواج ..

وقالت مباهج كأنها ترجوه :

— يقولون أن من تريد النجاح في السينما يجب أن تعرف بأنها لا تزال عذراء .. لم تتزوج بعد .. لى فكرة .. لنؤجل الزواج إلى أن أعمل في السينما وبعدها فأنا تحت أمرك ياسى عبده ..

وارتعش عبده غيظا .. انها لا تريد أن يعرف عنها أنها زوجة طبال وهى تحلم بالعمل في السينما ولعلها تتمنى أن تتزوج مخرجا أو ممثلا سينمائيا أو طبييا كما يفعل باقى ممثلات السينما .. ان الطبال لا يمكن أن يشرف نجمة سينمائية .. وصرخ :

— أنا المسئول عنك في السينما وبلا سينما .. أنا عبده الطبال وانت لا تساوين شيئا بلا طبله ..

وعادت تتوسل فى حياء :

— لا تغضب منى ياسى عبده .. من أجل خاطرى عندك .. بلا زواج .. وصرخ بكل صوته :

— أنت طالق .. أنت طالق .. أنت طالق من الفرقة .. طالق من طبلتى .. طبلتى لا ترقص المومسات ..
— وكان كأنه جن ..

وقعلا طرد مباهج من الفرقة .. وكأنه يعرف أن برسوم المليجى صاحب الملهى لا يمكن أن يقبله بلا مباهج .. وإذا قبله فيفرض عليه راقصة أخرى .. وهو يصصر على أن يفرض وجوده كموسيقار .. الطبله وحدها تشد كل الجمهور .. وانسحب من ملهى البلابل وقدم نفسه للملهى ميامى .. بلا راقصة .. وصاحب الملهى يتردد .. فرقة من أربعة عازفين وبلا راقصة .. ولكنه لا يستطيع أن يجازف بأجر كبير .. عشرون جنيها في الليلة .. أقل من الأجر الذى بدأت به فرقة عبده الطبال عندما كانت معها راقصة والذى وصل إلى مائتى جنيه في الليلة الواحدة .. لا يهم .. ان عبده واثق أنه يستطيع دائما أن يرفع أجره ..

وبدأت الليلة .. الفرقة بلا راقصة .. أصابع عبده ترقص على

الطبلـة .. وأصابع مصطفى ترقص فوق الناي .. وأصابع محفوظ
ترقص فوق الجيتار .. وأصابع عبد الحميد ترقص فوق
الأوكورديون .. ولكن الجمهور لا يهتم برقص الأصابع فوق النغم ..
إنه يريد رقص البطن ..

وليلة ثانية .. وثالثة .. وصاحب الملهى لم يجد مكانا عنده للفرقة
وقال معذرا :

— أنت فنان عظيم يا أستاذ عبده ولكن فرقتك تصلح في حفلة
خيرية أو في حفلة خاصة ولا تصلح في كباريه ..

وخرج بفرقته يبحث عن ملهى آخر .. وكان يدفع من جيبيه
لأعضاء الفرقة في لياالى البطالة .. وطالت لياالى البطالة .. واعتذر
مصطفى عازف الناي لانه وجد عرضا مجزيا .. واعتذر محفوظ
عبد الحميد عازف الأوكورديون لان عائلته انتقلت إلى الإسكندرية ..
ومباهج كونت فرقة موسيقية خاصة بها ..

وعبده الطبال ينهار ..

يجب أن يعترف ..

يعترف بالفشل ..

وسحب أنهياره وفشله وانضم إلى فرقة الأحلام الذهبية ..
وجلس بطلته على حافة الفرقة .. على آخر مقعد من المقاعد ..
والكمان يتوسط الفرقة .. والجيتار يزغرد في المقدمة .. والأورج
يطلق زفة من جميع الأنغام .. و .. و ..

والطبلـة بعيدة ..

إنها مؤخرة الراقصة ..

وانتهت الراقصة علوية من رقصتها ..

واسقط عبده الطبال رأسه بين كفيه مستندا على طبلته وكأنه

يبكى .. واقتربت منه الراقصة علوية ولمست كتفيه في اشفاق وقالت في صوت كأنه يترحم عليه :

- مالك ياسى عبده .. قم معى .. انى خالية الليلة وتحت أمرك ..

ورفع عبده الطبال رأسه صارخا :

- أبعدى عنى يا امرأة ..

ورفع الطبلبة بين يديه وكأنه يهم أن يلقي بها ويحطمها فوق الأرض .. ولكنه توقف .. واحتضن الطبلبة إلى صدره وابتعد عن الراقصة ..

تمت

الضحية

تأليف
رايونوسوكي أكوناجاوا

ترجمة
كامل يوسف حسين

إصدارات دائرة الثقافة والإعلام، حكومة الشارقة ، ٢٠٠٤م

الفنية.....

«حتى إذا علا العمر بالمرء، فعمّر ثلاثمئة عام، من البهجة
المفرطة، فإن ذلك ليس إلا حلمًا مقارنة بالسعادة الأبدية،

جيد دوبيكادور

«من يسلك طريق الخير، سيحظى بالعدوية الغامضة التي
تواكب العقيدة،

إميتاسيونى كريستى

في ليلة عيد الميلاد منذ عدة سنوات، عثر على صبي ياباني
صغير، وقد استبد به الإعياء، ومضى يتضور جوعاً، عند مدخل
كنيسة سانتا لوتشيا في نجازاكي، فأدخله الآباء الجزويت الذين
قدموا إلى الكنيسة واعتنوا به، ودعوه باسم لورنزو، وتمت تربيته
بعد ذلك في الكنيسة برعايتهم.

عندما سألوه عن مولده وعن أبويه، لم يكشف من تاريخه
شيئاً قط، وإنما أدلى بردود غامضة للغاية من قبيل «الفردوس
بيتي» و«أبي هو أب الجميع». وحالت ابتسامته الرقيقة دون
توجيه المزيد من الاسئلة عن ماضيه.

غير أنه بدا جلياً من المسبحة الزرقاء التي أحاطت برسغه أن عائلته ليست بعيدة عن التدين، وربما كان هذا هو السبب الذي جعل الآباء العطوفين يرقّون له، ويحبونه.

ذهل الآباء حيال ورع هذا الصبي الصغير، إلى حد أنهم بمرور الوقت أصبحوا ينظرون إليه باعتباره تجسيداً لملاك، وأحبوه كأشد ما يكون الحب، على الرغم من أنهم لم يكونوا يعرفون شيئاً عن ماضيه. وفضلاً عن ذلك، فإن كمال محياه وهيبته ونقاءهما وصوته الأنثوي العذب، كل ذلك جعله مقرباً من الجميع.

من بين الآباء جميعاً، أحبه سيميون بصفة خاصة، كما لو كان أخاً له، وكانا يشاهدان معاً في دخولهما الكنيسة وخروجهما منها. وكان سيميون الذي ولد لعائلة محاربة قد خدم في وقت من الأوقات سيداً إقطاعياً. وكان عملاقاً، أوتي بسطة في البدن، يتمتع بقوة هرقل، ودافع أكثر من مرة عن الآباء ضد بعض من حاولوا رجمهم بالحجارة من مخالفيهم في العقيدة. وربما قورنت صداقته المتناغمة للورنزو برعاية صقر شديد الضراوة لحمامة أو بكرمة تزدهر ملتفة حول شجرة أرز في جبل لبنان.

في غضون ذلك، مرت ثلاث سنوات سراعاً. وآن أوان احتفال لورنزو ببلوغه مبلغ الرجال. وفي ذلك الوقت انتشرت شائعة تفيد أن لورنزو وابنة صانع مظلات يقيم غير بعيد عن الكنيسة تربطهما صلة حميمة. ولما كان صانع المظلات من

معتقي المسيحية كذلك، فقد كان من المألوف أن يرتاد الكنيسة مع ابنته، وحتى في أوقات ترتيل الصلوات لم تكن هذه الفتاة ترفع عينيها عن لورنزو. وفضلاً عن ذلك، فقد كان من المؤكد أنها في دخولها الكنيسة وخروجها منها ترمقه بعينيها الجميلتين والمفعمتين حباً. وقد اجتذب هذا بصورة طبيعية انتباه الجمع، وقال البعض إنها قد داست على قدمه عامدة، فيما قال آخرون إنهما قد شوهدا وهما يتبادلان رسائل المحبة.

لما كان القيل والقال عن الفتى والفتاة قد زاداً عن حددهما، فقد خلص كبير آباء الكنيسة إلى أن الأوان قد آن لمساءلة الفتى الذي كفله برعايته. وذات يوم استدعى لورنزو، وسأله بلطف، وهو يمسد شعره الأشيب المسترسل: «لورنزو، نمت إلى علمي شائعات غير محببة عنك وعن ابنة صانع المظلات. ولكن من المؤكد أنها لا يمكن أن تكون صحيحة. هل يمكن أن تكون كذلك؟». هز لورنزو رأسه في حزن، واكتفى بأن يكرر بصوت يخضله الدمع القول: «لا، إنها ليست صحيحة. وهي لا أساس لها بالمرّة». وبعد إنكارات الفتى العديدة الدامعة، اقتنع الأب في نهاية المطاف، أخذاً في الاعتبار حداثة سن الفتى وورعه الدائم بأنه لا يقول إلا صدقاً، وصرفه بعد كلمة موجزة عن ضرورة حسن السيرة والسلوك.

نعم، لقد تبذرت شكوك الأب، لكن الشائعات تواترت بين

أهالي سانتا لوتشيا، وأثارت هذه الفضيحة بصفة خاصة قلق سيميون، صديق لورنزو العزيز. وفي البداية، كان أكثر خجلاً من أن يتحرى أمراً شائناً على هذا النحو، ولم يعجز عن سؤال لورنزو فحسب، وإنما عن مجرد مواجهته.

غير أنه تصادف أن عثر في الحديقة الخلفية للكنيسة على رسالة حب من الفتاة موجهة إلى لورنزو، فراح يسأل لورنزو بطرق متعددة، وقد دفع الرسالة دفعاً في وجهه، ومضى يهدده ويستدرجه للحديث. لكن لورنزو اكتفى، وقد احمر وجهه خجلاً بالقول: «يتأهى إليّ أن الفتاة قد منحنتي قلبها، ولكنني لم أتلّق منها إلا الرسائل، ولم يحدث قط أن تجاذبت معها أطراف الحديث». ومضى سيميون الذي استشعر ثقل رأي المدينة يضغط بالأسئلة على لورنزو، الذي قال وهو يرمقه بنظرته المفعمة حزناً ولوماً: «هل أبدو كاذباً حتى في عينيك؟». وغادر الغرفة مثلما تفادر قبرة عشها. وفي مواجهة هذه الكلمات، أحس سيميون بالخجل يهيمن عليه، حيث ساوره الشك في لورنزو، وكان بسبيله إلى مفادرة المكان محني الرأس، عندما اندفع الفتى لورنزو فجأة إلى المكان، وعانق سيميون، وقال هامساً، وهو يلتقط أنفاسه بالكاد: «لقد كنتُ على خطأ، فسامحني!». وقبل أن يستطيع سيميون الرد بكلمة واحدة، كان لورنزو قد اندفع خارجاً مثلما جاء، مسرعاً كأنما ليخفي محياه

الذي بلله الدمع، فلم يدر سيميون ما إذا كان لورنزو قد شعر بالذنب من جراء صلته الحميمة بالفتاة أو حيال سلوكه الخشن. في وقت لاحق، صدم أهالي البلدة حيال النبأ الذي أفاد أن ابنة صانع المظلات ستصبح أماً عما قريب. وقد أبلغت أباهما بأن الطفل الذي تحمله في أحشائها هو من صلب لورنزو. وفي التو حمل صانع المظلات العجوز، وقد استبد به غضب هائل الاتهام إلى رهبان سانتا لوتشيا. قال لورنزو الذي استدعي للممثول أمامهم: «الأمر ليس كذلك» ولكنه لم يستطع أن يلتمس لنفسه عذراً أمام مثل هذا الدليل. وفي اليوم نفسه، اجتمع الآباء والأخوة جميعاً في مؤتمر حاشد، وحكموا على لورنزو بالحرّم الكنسي. ومن شأن حرمة الكنسي، أي نفيه من الكنيسة، أن يحرمه في التو من سبل المعيشة. ولكن الإبقاء على الخاطيء في سانتا لوتشيا كان سيجلب العار على الجميع، ومن هنا فإن الرهبان، الذين أحبوا لورنزو، قيل إنهم طردوه بعيداً والدموع ملء أعينهم.

كان الأكثر إثارة للإشفاق بين الجميع هو سيميون الذي كان الصديق المقرب للورنزو. وإذا فاق ضيقه من تعرضه للخداع حزنه على طرد صديقه فقد لطمه في وجهه الوسيم، وهو يخرج حزيناً من الدهليز إلى المطر الشتوي البارد المنهمر بكل عنفوانه. أخلّت الضربة بتوازنه، فهوى على الأرض، لكنه نهض متثاقلاً،

وتطلع إلى أعلى نحو السماء بعينين دامتين، وراح يبتهل بصوت مرتعش: «اللهم اغفر لسيميون، فهو لا يعرف ما تجنيه يداها». وإذا أحس سيميون بفؤاده ينكسر إزاء هذه الكلمات، فقد مضى يلطم الهواء بذراعيه لبعض الوقت عند الدهليز. وحينما كبح الآخرون جماحه، طوى ذراعيه، وبوجهه الذي يحمل سمات الحدة كالسمااء المترعة بالتهديد، راح يحدق ساخطاً في ظهر لورنزو، الذي كان يغادر بوابة سانتا لوتشيا. ووفقاً للقصة التي رواها أخوة تصادف وجودهم هناك، فإن فويبوس كان في تلك اللحظة عينها يمضي مرتعداً في غمار المطر الشتوي يقود قرص النهار القرمزي تحت سماء نجازاكي الغريبة وملاك لورنزو المكتئب يخوض في طريقه المفعم تبعاً إلى سنا القرص السماوي، وقد بدا مكتسباً لهالة نورانية من لهيب سماوي.

بعد ذلك، غدا لورنزو كائناً مختلفاً تماماً، مقارنة بالوقت الذي اعتاد فيه تقديم البخور في مذبح سانتا لوتشيا، فقد تدنى به الحال إلى التسول البائس، وأقام في زريبة مكشوفة للمنبوذيين عند أحد أطراف المدينة، وقد تعرض للازدراء، وانهالت عليه الحجارة، ولم يكن يستطيع السير في الشوارع إلا وسط سخرية الصبية الذين تجردوا من العطف. ومراراً وتكراراً تعرض للضرب بالعصي والرجم بالأحجار والطمع بالسيوف. وفي وقت من الأوقات وقع في قبضة حمى فظيعة كانت تجتاح مدينة

نجازاكي، ومضى يتقلب في ألم ومعاناة إلى جانب أحد الطرق على مدار أسبوع كامل. ولم تنقذه رحمة السماء من الموت فحسب، وإنما منحته توتاً برياً وسمكاً ومحاراً. عندما لم تكن الصدقات التي تعطى له تضم مالا أو أرزاً. هكذا مضى يبتهل ضارعاً ليلاً ونهاراً على نحو ما كان يفعل أيام سانتا لوتشيا، ولم ينتزع من يده المسبحة ذات الحبات المتخذة من حجراليشب الأخضر. وفضلاً عن ذلك، فقد اعتاد أن يتسلل في قلب الليل من زريبة المنبوذين التي يقيم بها، وفي سنا البدر يشق طريقه إلى أقرب مسافة يجرؤ عليها من سانتا لوتشيا، ليواصل ابتهالاته.

لم يكثر رواد الكنيسة بالفتى. وفي نهاية المطاف لم يحس أحد، بمن في ذلك الآباء، بالشفقة عليه. ولما كانوا مقتنعين بحقيقة الشائعات المشينة، التي سادت في وقت تعرضه للحرم الكنسي، فإنه ما من شيء كان أبعد عن أذهانهم من أنه فتى شديد الورع بحيث يقوم بزيارة سانتا لوتشيا ليلاً بمفرده. وقد كان ذلك شيئاً مؤسفاً حقاً بالنسبة للورنزو.

في غضون ذلك وضعت ابنة صانع المظلات العجوز طفلة قبل أوان ولادتها، وسرعان ما أصبحت أثيرة عند العجوز العنيد، لأنها كانت أول حفيدة له. وقد اعتنى أشد العناية لا بابنته وحدها، وإنما بحفيدته كذلك، حيث راح يحملها بين ذراعيه،

ويداعبها، ويعطيها دمية لتلهو بها . وقد كان ذلك طبيعياً بالنسبة لجد . ولكن سيميون كان متميزاً في السلوك الذي انضرد به، فبعد أن وضعت ابنة صانع المظلات الوليدة، بادر هذا الشاب، الذي كان يبدو عملاقاً قوياً بما يكفي لقهر الشيطان، إلى زيارة عائلة صانع المظلات كلما توفر له وقت الفراغ الذي يسمح له بذلك، ويرفع الوليدة بين ذراعيه الخشتين، وقد كست الدموع وجهه الممرور، ويتذكر لورنزو الرقيق، الهاديء، الشاحب، الذي أحبه كأخ أصغر له . غير أن ابنة صانع المظلات بدا أن الحزن والأسى قد استبدا بها لأن لورنزو، منذ تعرضه للحرم الكتسي، لم يأت لرؤيتها أو لرؤية الطفلة، ولم تبد مسرورة بزيارات سيميون .

الزمان والمد لا ينتظران أحداً، وقد مرَّ عام مثلما ندفة ثلج تهمي على نهر، فهي تتألق بالبياض لحظة ثم تحتجب للأبد . ثم على غير انتظار شب حريق كارثي، وهدد باجتياح نجازاكي بأسرها في ليلة واحدة . واندلعت النيران بضراوة بالغة إلى حد بدا معه كأنما قد نفخ في الصور، إيداناً بإندلاع نيران جهنم . ولما كانت دار صانع المظلات في مهب الريح، فقد التهمت ألسنة اللهب في لحظة، واستبد الذعر بالعائلة جميعها، فسارعت بالهرب من الدار بعيداً عن ألسنة اللهب، وعند ذلك أدركوا فجأة أنهم قد تركوا الوليدة نائمة في مهدها في غرفة أخرى . وكل ما

استطاع المعجوز القيام به هو الهذيان ولطم الأرض بقدمه غيضاً وجنوناً. وكان يمكن لا بنته أن تدفع عائدة للمبنى المحترق لإنقاذ صغيرتها، لولا أن الآخرين قد حالوا دون قيامها بذلك. ومضت الرياح الضارية تضيف المزيد إلى قوتها مع مرور كل لحظة، وتعالّت أعمدة السنة اللهب، كأنما لتتحرق النجوم في عنان السماء. ولم يستطع أبناء المدينة الذين تجمعوا سوياً لمكافحة الحريق القيام بشيء، إلا تحذير الآخرين من الخطر، بينما كان كل ما قدر عليه من تجمعوا قرب الدار هو تهدئة المرأة، التي استبد بها الانفعال والاهتياج. وفي تلك اللحظة أقبل سيميون شاقاً طريقه في يسر كأنما يسير وسط عشب عال، حيث كان بطلاً عملاقاً سبق له أن تلقى وقع الرصاص والسهام في معارك خاضها من أجل السادة الإقطاعيين. وسرعان ما أدرك الموقف فاندفع في جراءة نحو السنة اللهب، لكنه ما لبث أن تراجع أمام عنفوان النيران الرهيبة. وكان بالكاد قد اقتحم قلة من سحب الدخان عندما اضطر للتراجع مسرعاً، وعادوا الظهور أمام المعجوز وابنته، وقال لاهتأ: «هذه مشيئة الله. ولا بد لكما من الإذعان لما هو محتم ومقدور!» في تلك اللحظة، صرخ أحدهم قرب المعجوز «لينقذنا الرب!». ولما كان الصوت قد بدا مألوفاً لسيميون، فقد التفت ليرى عن صدر الصوت. كان الصوت صادراً عن لورنزو بلا شك. أتاحت لحظة عاجلة للساموراي

العجوز رؤية محياه الملائكي وقوامه الذي سترته الخرق البالية، وأضاء محياه النقي الناحل متألّفاً في وهج النار، وقد اجتذبت الريح شعره الأسود، الذي كان ينسدل على كتفيه. مضى لورنزو المسكين الذي ظهر في هيئة متسول يحدق في الدار التي عمّتها النيران المتقدة. ولكن ذلك لم يدم إلا مقدار طرفة عين، فلم تكد ريح رهيبة تدفع لتؤجج ألسنة اللهب حتى اندفع نحو أعمدة النيران وعوارضها وجدرانها. «لينقذنا الرب!» هكذا صاح سيميون وقد انهمر العرق البارز فعمر بدنه كله. وفي تلك اللحظة، وعلى نحو ما تراءى له قوام لورنزو الرشيق الذي يغمره الحزن وهو يخرج من سانتا لوتشيا نحو الضياء السماوي في المطرى الشتوي المنهمر.

ذهل الآباء الذين كانوا على مقربة إزاء عمل لورنزو البطولي، لكنهم تذكروا فعلته الشائنة القديمة، وفي الحال اكتسحت الجمع تعليقات غير مستحبة، وقد حملتها أجنحة الريح، ومضى شخص وراء الآخر يكيلون له اللعنات، وقال قائلهم: «حقاً الأب هو الأب. ها هو لورنزو الذي لم يجرؤ على الاقتراب بسبب عار خطيئته اندفع لتوه إلى النار لينقذ طفله». وبدا أن العجوز يتفق معهم في وجهات نظرهم، ولكي يخفي فيما يبدو ما يختلج في فؤاده من عذاب فقد راح يصرخ بأشياء سخيفة في قلق مؤرق. وجثت الابنة في فزع على ركبتها، حاجبة وجهها بيديها كليهما.

وركمت جامدة بلا حراك كأنما في غيبوبة، وهي تردد الابتهالات بكل فؤادها وروحها. انهمر الشرر كالمنطر من السماء، وتدفق الدخان فوق الأرض، فغمر وجهها. ولكنها كانت غارقة في ابتهاالها، وقد ذهلت عن نفسها وعن العالم من حولها.

بعد بعض الوقت، غمر احتياج مفاجئ، الجمع الذي تحلق حول النيران المتأججة، عندما لاح لورنزو بشعر مشعث وقد لفه برج من أسنة اللهب، ممسكاً الوليدة بكلتا يديه وقد رفعها عالياً، كأنما هبط من السماء، ولا بد أن إحدى الدعامات قد انهارت عندئذ، لأن لسان لهب مصحوباً بدخان هائل قد ارتفع عالياً، مع صوت تحطم رهيب، إلى عنان السماء، واختفى قوام لورنزو، ولم يبق ما تقع عليه العين إلا عمود من النيران المتقدمة يندفع عالياً في لون المرجان.

ذهل العجوز سيميون والآباء الآخرون جميعاً حيال هذه الكارثة الكبرى، وأصابهم الدوار. أطلقت المرأة الشابة صرخة حادة، ووثبت عالياً، فبدت ساقاها للعيان، لكنها تمددت على الأرض من جديد، كأنما ضربتها صاعقة. أياً كان الأمر، فإنه قبل أن يدروا بجلية الأمر عثر على الوليدة، وقد التفت حولها بإحكام يدا أمها التي كانت قد ألقت نفسها على الأرض. آه، بالحكمة الرب اللامتناهية والتي لا حدود لها! كانت الوليدة التي ألقتها لورنزو بأخر ما بقي له من قوة مضغمة باليأس فيما

الدعامة المحترقة تنهاوى عليه قد سقطت من دون أن يمسه
أذى عند قدمي أمها .

عندئذ ند عن فم العجوز صوت مبتهل علا بتمجيد محبة
الرب جنباً إلى جنب مع صوت الأم، التي كانت تبكي على الأرض
وتتسال على وجهها دموع الفرح. وفي غضون ذلك، كان سيميون،
في غمار رغبته التي ملأت فؤاده في إنقاذ لورنزو، قد اندفع
مباشرة إلى غمار عاصفة النار المتقدة، وارتفع صوت العجوز إلى
عنان السماء الليلية في صلاة مترعة قلقاً وإشفاقاً. لم يفرق جد
الوليدة وحده في الابتهاال الضارع، وإنما شاركه فيه كل من
وقفوا حول الأم والطفلة. وسرعان ما تمت الاستجابة لابتهاالهم.
انظروا. ها هو ذا لورنزو الذي تعرض للاحتراق على نحو فظيع
قد تم إنقاذه، واستقر بين ذراعي سيميون بعيداً عن السنة اللهب
والدخان.

لم تكن تلك هي كل بلايا تلك الليلة، فقد حمل الآباء في
أحضانهم في التو لورنزو، الذي راح يستاف الهواء، صاعدين به
التل إلى سانتا لوتشيا، وأرقدوه عند بوابتها. والآن ألقت ابنة
صانع المظلات التي غصت بالدمع، وكانت تضم وليدتها إلى
صدرها - ألقت بنفسها عند قدمي كبير الآباء، وتقدمت
باعتراف غير متوقع فيما يتعلق بعلاقتها الغرامية. قالت: «هذه
الوليدة ليست طفلة لورنزو، وإنما الحقيقة هي أنني أنجبته من

علاقة حميمة مع ابن الجيران». برهن ارتجاف صوت المرأة المشوشة وبريق عينيها الفارقتين في الدمع على نحو لا يدع مجالاً للشك على أنه ليس هناك ظل من زيف في اعترافها. وجعل هذا الاعتراف المذهل الصمت والذهول يخيمان على الآباء الذين وقفوا غير بعيد، وقد غاب عنهم إدراك السنة اللهب المتقدة والمتصاعدة نحو السماء.

جففت المرأة دموعها، وواصلت حديثها: «كان لورنزو مؤمناً إيماناً بالغ القوة بالله، وعاملني ببرود شديد إلى حد أنني حققت عليه. وقد علقت الآمال على أنني بقولي إن الطفلة ابنته سأنتقم منه لبروده حيالي، ولكنه كان أكثر نبلاً من أن يكرهني للخطيئة التي اقترفتها، وقد خاطر بحياته، وأقدم على نحو متسامح على إنقاذ طفلي من جحيم النيران. ومحبته وأعماله تجعلني أعجب به أشد الإعجاب. وعندما أفكر في خطيئتي الرهيبة، فإنني لا أعود أبالي أن تمزق مخالب الشيطان جسمي إرباً». ولم تكد تنهي اعترافها عن علاقتها الغرامية حتى ألقت نفسها على الأرض وقد انهمرت دموعها.

في تلك اللحظة علت الصيحات من أفواه الجموع: «إنه ضحية. إنه ضحية. بفعل محبته للخاطئة، تدنى بنفسه إلى التسول، متبعاً خطى مثل أعلى يحبه. ولكن ما من إنسان، بمن في ذلك كبير الآباء الذي كان يعتبره في مرتبة أبيه وسيميون

الذي اعتمد عليه كأخ له، لم يعرف ما يضمه فؤاده من أسرار.
ماذا عساه يكون إلا ضحية؟».

لم يكن بمقدور لورنزو، فيما كان يصغي لاعتراف ابنة صانع المظلات بعلاقتها الغرامية، إلا أن يؤمئ إيماء خفيفة. كان شعره قد احترق، ومست ألسنة اللهب بشرته، ولم يكن بوسعه أن يحرك يديه ولا قدميه. والآن لم تعد لديه قدرة على الحديث. ومضى صانع المظلات العجوز وسيميون اللذان مزق اعتراف المرأة فؤاديهما يقومان على رعايته بقدر ما في وسعهما وهما راكعان إلى جواره، وراحا يفسلان حروقه بدموعهما. ولكن أنفاس لورنزو غدت أقصر وأضعف مع كل لحظة تمر، وبدت النهاية جد قريبة. وكل ما ظل فيه بلا تغيير هو لون عينيه اللتين تشبهان النجوم، واللتين مضتا تتطلعان عالياً نحو السماء.

هتف كبير الآباء، الذي كان يصغي لاعتراف المرأة، وشعره الأشيب يتموج في العاصفة الليلية، وقد أدار ظهره إلى بوابة سانتا لوتشيا - هتف بالمرأة بصوت مهيب: «مباركون هم التوابون. كيف يمكن ليد إنسان أن تنزل العقاب بمن حلت بهم البركة على هذا النحو؟ من الآن فصاعداً ينبغي أن تلتزمي على نحو أفضل بوصايا الرب وتنتظري يوم القضاء العدل!» ثم أضاف: «لورنزو، إن تطالعك إلى القدوة الأسمى في سلوكك يعد فضيلة لا نظير لها في هذا البلد، وخاصة أنك في مقتبل العمر».

ماذا عساه يكون قد حدث؟ إن الأب الذي مضى في حديثه حتى هذا الموضع أغلق فمه فجأة، وراح يحدق في لورنزو بانتباه، كأنما رأى نوراً لاج له من السماء. لشد ما بدا مفعماً بالتبجيل والتوقير! كان ارتجاف يديه بالغ الغرابة. وما كانت الدموع لتكف عن الانهمار على خديه الناحلين. فجأة مضى صانع المظلات وسيميون يحدقان، وتتبع عيون الجميع نظراتهم إلى نهدين نقيين، لدنين، برزا وسط الخرق التي كست صدر الملاك الذي كان راقداً الآن في صمت عند بوابة سانتا لوتشيا، مستحماً في سنا الحريق. الآن لم يعد يخفى جمال وجلال محيا لورنزو على الرغم من الحروق المؤلمة التي أصابته. وربما لم تنقض سوى لحظة - بدت كأنها دهر - قبل أن يدرك الجمع بأسره أن لورنزو لم يكن فتى، وإنما فتاة. نعم. كان لورنزو فتاة! كان لورنزو فتاة! انظروا! تحلق الآباء وألسنة اللهب تضطرم وراءهم حول لورنزو، ووقفوا في عجب وذهول، وقد تجمدت عيونهم على الضحية. لقد كان لورنزو، الذي طرد من سانتا لوتشيا بالاتهام الزائف بالزنا، فتاة جميلة تنتمي إلى هذا البلد، تماماً مثل ابنة صانع المظلات نفسها.

يقال إن تلك اللحظة أثارت في نفوسهم قدراً هائلاً من الروع، كما لو أن صوتاً من عليين قد دوى من وراء قوس السماء المتشحة نجوماً. أحنى الجمع الواقف أمام سانتا لوتشيا

الرؤوس، كما لو كانت رؤوس سنابل قمح هبت عليها الريح، وجثوا حول لورنزو. وكل ما كان يتناهي للأسماع هو هسهسة أسنة اللهب المترامية في اتقادها نحو عنان السماء المتشحة بالنجوم وبكاء الناس غير بعيد عن المكان. وربما كان البكاء صادراً عن ابنة صانع المظلات، أو عن سيميون الذي كان صديقاً طيباً للورنزو كما لو أنه كان أخاً حقيقياً له. وسرعان ما اخترق الصمت صوت الابتهاال المهيّب الذي راح يردده كبير الآباء، الذي رفع يديه ضارِعاً. وعندما انتهى ابتهااله، هتف «لورنزو!» وعندئذ لفظت الفتاة ذات العينين النجلاوين نفسها الأخير. بابتسامة واهنة حافلة بالسلام ارتسمت على شفّتها، وهي تحديق إلى عليين بعيداً فيما وراء الليل الأسحم.

ما من شيء آخر عُرف عن حياة هذه الفتاة. ولكن ماذا لو كان الأمر كذلك؟ إن سمو الحياة يصل ذروته في أكثر لحظات الإلهام قريباً من القلب، والإنسان سيجعل حياته جديرة بأن تعاش إذا رفع بوجهه عالياً إلى السماء المتشحة بالنجوم، متجاوزاً الاهتمامات الدنيوية المظلمة لهذه الحياة، ليعكس على صقال زبدها البللوري سنا بدر لم يطل بعد. ومن هنا أليس من عرفوا اللحظات الأخيرة للورنزو هم الذين عرفوا حياتها بأسرها؟

(♦) لديّ ضمن مجموعة كتبتي كتاب بعنوان «الأساطير الذهبية» أصدرته إحدى المؤسسات في نجازاكي، غير أنه لا يحتوي على الأساطير الذهبية المنتمية إلى غربي أوروبا فقط. وهو لا يتضمن كلمات القديسين الأوروبيين وأعمالهم فحسب، وإنما هو يضم كذلك الأعمال الدينية التي قام بها اليابانيون، والتي يفترض أنها تخدم الأغراض التنويرية.

ويتألف هذا الكتاب من مجلدين يضمنان الجزء الأول والجزء الثاني، وهو مطبوع على ورق «مينو» (وهو نوع من الورق الياباني الخشن) بأسلوب «هيرا جانا» (وهو شكل متصل من أشكال الأبجدية المقطعية اليابانية) مختلط بحروف صينية في أسلوب متصل. وصف الحروف بالغ التميز إلى حد يجعلنا نتساءل عما إذا كان مطبوعاً من عدمه. وفي الصفحة التي تحمل العنوان كتب العنوان اللاتيني بصورة متصالية، وتحت العنوان كتب سطران صينيان رأسيان «طبع في بداية مارس ١٥٩٦». وعلى كل جانب من جانبي تاريخ الطبع كانت هناك صورة لملاك ينفخ في صور. وهي فجة للغاية من الناحية الفنية، ولكن لها سحرها الخاص. وصفحة العنوان الخاصة بالمجلد الثاني متطابقة مع نظيرتها في المجلد الأول

= عدا القول «طبع في منتصف مارس ١٥٩٦».

يضم كلا المجلدين حوالي ستين صفحة، ويحتوي المجلد الأول أساطيره الذهبية في ثمانية فصول، ويضمها المجلد الثاني في عشرة فصول. ويستهل كل فصل بمقدمة دبجها كاتب مجهول وفهرست تتخلله كلمات لاتينية.

بالنسبة للباحث الياباني، فإن كتابة المقدمة تترك شيئاً بغير تحقق. وهنا وهناك نجد مثل هذه التداخلات للترجمة الحرفية للكتابة الأوروبية التي تجعلنا نتساءل عما إذا لم يكن قد كتبها راهب من الجزويت.

ونص «الضحية» الوارد أعلاه مأخوذ من المجلد الثاني من «الأساطير الذهبية». وهذه القصة يفترض أنها سجل صادق لواقعة حدثت في نجازاكي في تلك الأيام. غير أن اندلاع الحريق الهائل على نحو ما سجل في هذه القصة هو أمر يستحيل التحقق منه بالإحالة إلى «تويعات ميناء نجازاكي» وغيره من الكتب. ويزيد عن ذلك صعوبة التاريخ المحدد لاندلاع ذلك الحريق.

فيما يتعلق بالنشر، فقد غامرت بإضافة بعض المحسنات الأدبية إلى «الضحية» وآمل أن الأسلوب البسيط والمصقول الذي كتب به الأصل لم يحتجب في غمار ذلك.

(أغسطس ١٩١٩)

العقاب

مصطفى لطفي المنفلوطي

دار الجيل
بيروت

العقاب

رأيت فيما يرى النائم في ليلة من ليالي الصيف الماضي كأنني هبطت مدينة كبرى لا علم لي باسمها ولا بموقعها من البلاد ولا بالعصر الذي يعيش أهلها فيه ، فمشيت في طرقها بفتح ساعات فرأيت أجناساً من البشر لا عداد لهم ينطقون بأنواع من اللغات لا حصر لها ، فخيّل إلي أن الدنيا قد استحالت إلى مدينة وأن الذي أراه بين يدي إنما هو العالم بأجمعه من أدناه إلى أقصاه ، فلم أزل أنتقل من مكان إلى مكان وأداول بين الحركة والسكون حتى انتهى بي المسير إلى بنية عظيمة لم أر بين البنى أعظم منها شأنًا ولا أهول متظراً ، وقد ازدحم على بابها خلق كثير من الناس ، ومشى في أفنيئها وأبائها طوائف من الجنند يخطرون بسيورهم وحمائلهم جيئة وذهوباً ، فسألت بعض الواقفين : ما هذه البنية وما هذا الجمع المحتشد على بابها ؟ فعلمت أنها قصر الأمير وأن اليوم يوم القضاء بين الناس والفصل في خصوماتهم ، وما هي إلا ساعة حتى نادى متاد في الناس : أن قد أجمع مجلس القضاء فاشهدوه ، فدخل الناس ودخلت على أثرهم ، وجلست حيث انتهى بي المجلس ، فرأيت الأمير جالساً على كرسي من الذهب يتلأأ في وسط القناء تلالو الشمس في دارتها وقد جلس على يمينه

(١) وضعت هذه القصة على نسق قصة أمريكية اسمها : سراج القبور .

رجل يلبس مسوحاً^(١) وعلى يساره آخر يلبس طيلساناً ، فسألت
عنهما ، فعرفت أن الذي على يمينه كاهن الدير ، وأن الذي على
يساره قاضي المدينة ، ورأيت ينظر في ورقة بيضاء بين يديه فأكبّ
عليها ساعة ثم رفع رأسه وقال : ليوث بالمجرمين ، ففتح باب
السجن وكان على يسار القناء فتكشف عن مثل خلق الليث منظرأ
وزئيرا ، وخرج منه الأعوان يقتادون شيخاً هرمأ تكاد تسلمه
قوائمه ضعفاً ووهناً ، فسأل الأمير : ما جريمته ؟ فقال الكاهن :
إنه لص دخل الدير ، فسرق منه غرارة^(٢) من غرائر الدقيق
المحبوسة على الفقراء والمساكين . فضج الناس ضجيجاً عالياً
وصاحوا : ويل للمجرم الأثيم ، أيسرق مال الله في بيت الله ؟
ثم نودي بالشهود . فشهد عليه رهبان الدين ، فتسار الأمير مع
الكاهن هنيهة ثم صاح : يقاد المجرم إلى ساحة الموت فتقطع يمناه
ثم يسراه ثم بقية أطرافه ، ثم يقطع رأسه ، ويقطع طعاماً للطير
الغادي والوحش الساعب ، فجثا الشيخ بين يدي الأمير ومد إليه
يده الضعيفة المرتعشة يحاول أن يسترحمه . فضرب الأعوان على
فمه واحتملوه إلى محبسه . ثم عادوا وبين أيديهم قتي في الثامنة
عشرة من عمره أصفر نحيل يضطرب بين أيديهم خوفاً وفرقا حتى
وقفوا به بين يدي الأمير . فسأل : ما جريمته ؟ فقال : إنه قاتل ،
ذهب أحد قواد الأمير إلى قريته لجمع الضرائب ، فطالبه بأداء
ما عليه من المال فأبى وتوقع في إباطه ، فانتهره القائد فاحتدم
غيظاً وجرد سيفه من غمده وضربه به ضربة ذهبت بحياته . فصاح
الناس : يا للفظاعة والهول ، إن من يقتل نائب الأمير فكأنما قتل
الأمير نفسه ، ثم جيء بأعوان القائد المقتول ، فأدوا شهادتهم ،

(١) المسوح جمع مسح بالكسر ، وهو ثوب من شعر يلبسه الرهبان .

(٢) الغرارة : الجواثق .

فأطرق الأمير لحظة ، ثم رفع رأسه وقال : يقاد المجرم إلى ساحة الموت فيضلب على أعواد شجرة ، ثم تفصد عروقه كلها ، حتى لا يبقى في جسمه قطرة واحدة من الدم ، فصرخ الغلام صرخة ، حال الأعوان بينه وبين إتمامها واحتملوه إلى السجن ، وما لبثوا أن عادوا بفتاة جميلة كأنها الكوكب المشبوب حسناً وبهاء لولا سحابة غبراء من الحزن تتدجى فوق جبينها ، فقال الأمير : ما جريمتها ؟ فقال القاضي : إنها امرأة زانية ، دخل عليها رجل من أهلها فوجدتها خالية بفتى غريب كان يحبها ويطمع في الزواج منها قبل اليوم ، فهاج الناس واحتدموا وهتفوا : القتل القتل . الرجم الرجم !! إنها الجريمة العظمى والحياة الكبرى . فقال الأمير : أين شاهدها ؟ فدخل قريبها الذي كشف أمرها فشهد عليها . فهمس القاضي في أذن الأمير ساعة ، ثم قال الأمير : تؤخذ الفتاة إلى ساحة الموت فترجم عارية حتى لا يبقى على لحمها قطعة جلد ولا على عظمها قطعة لحم ، فهلل الناس وكبروا إعجاباً بعدل الأمير وحزمه ، وإكباراً لسلطوته وقوته ، وهتفوا له ولكاهنه وقاضيه بالدعاء ، ثم نهض فنهض الناس بنهوضه ومضوا لسييلهم فرحين مغتبطين ، وخرجت على أثرهم حزينة مكتئبة أفكر في هذه المحاكمة الغريبة التي لم يسمع فيها دفاع المتهمين عن أنفسهم ، ولم يشهد فيها على المتهمين غير خصومهم ، ولم تقدر فيها العقوبات على مقدار الجرائم ! وأعجب للناس في ضعفهم واستخذائهم أمام القوة القاهرة وغلوهم في تقديسها وإعظامها وإغراقهم في الثقة بها والنزول على حكمها عدلاً كان أو ظلاماً ، رحمة أو قسوة ، وأردد في نفسي هذه الكلمات :

ليت شعري : ألا يوجد بين هذه الجمالير لص أو قاتل أو زان يعلم عذرهم فيرحمهم ، وينظر إلى جرائمهم بالعين التي

ينظر بها إلى جريمته ، ويتمنى لهم من الرحمة والمغفرة ما يتمنى
لنفسه إن قدر له أن يقف في موقف مثل موقفهم ، أمام قضية
مثل قضائهم ؟

ألا يجوز أن تكون الزانية غير زانية ، والقاتل إنما قتل دفاعاً
عن عرضه أو ماله ، واللص إنما سرق ما يسد به جوعته أو جوعة
أهل بيته ؟

ألم يرتكب الأمير جريمة القتل مرة واحدة في حياته فيرحم
القاتلين عند النظر في جرائمهم ؟

ألم يسقط إلى يد الكاهن يوماً من الأيام دينار من غير حله ،
فتخف لوحة أسفه على الفرارة المسروقة من ديريه ويفتخر هذه
لتلك ؟ .

ألم تزلّ قدم القاضي مرة واحدة فيما مر به من أيام حياته .
فتهدأ ثورة غضبه على الساقطين والساقطات ؟ .

من هم هؤلاء الجالسون على هذه المقاعد يتحكمون في أرواح
العباد وأمورهم كما يشاؤون ؟ ويقسمون السعود والنحوس بين
البشر كما يريدون ؟

إنهم ليسوا بأنبياء معصومين ، ولا بأملاك مطهرين ، ولا يحملون
في أيديهم عهداً من الله تعالى بالنظر في أمر عباده وتوزيع حظوظهم
وأنصبتهم بينهم ، فبأي حق يجلسون هذه الجلسة على هذه الصورة ؟
ومن أي قوة شرعية يستمدون هذه السلطة التي يستأثرون بها من
دون الناس جميعاً ؟ .

من هو الأمير ؟ أليس هو المستبد الأعظم في الأمة أو سلالة

المستبد الأعظم فيها الذي استطاع بقوة وقهره أن يتخذ من أعناق الناس وكواهلهم سُلماً يصعد عليها إلى العرش الذي يجلس عليه؟.

من هو الكاهن؟ أليس هو أبرع الناس وأمهرهم في استغلال النفوس الضعيفة والقلوب المريضة؟.

من هو القاضي؟ أليس هو أقدر الناس على إلbas الحق صورة الباطل والباطل صورة الحق؟.

ومتى كان المستبدون واللصوص والظلمة أخياراً صالحين وأبراراً طاهرين؟

عجيب جداً أن يقتل الرجل الرجل لغضبة يغضبها لعرضه أو شرفه فيسمى مجرمًا ، فلماذا قتل الأمير القاتل سُمي جادلاً ، وأن يسرق السارق اللقمة يقتات بها أو يقيت بها عياله فيسمى لصًا . فلماذا أمر القاضي بقطع أطرافه والتمثيل به سمي حازماً . وأن تسقط المرأة سقطتة ربما ساقطها إليها خدعة من خداع الرجال أو نزع من نزعات الشيطان فيستنكر الناس أمرها ، ويستبشعون منظرها ، فلماذا رأوها مشدودة إلى بعض الأنصاب عارية تتساقط عليها حجارة من كل صوب أنسوا بمشهدها وأعجبهم موقفها ومضيرها .

كما أن النار لا تطفئ النار ، وشارب السم لا يعالج بشربه مرة أخرى ، وكما أن مقطوع اليد اليمنى لا يعالج بقطع اليد اليسرى ، كذلك لا يعالج الشر بالشر ، ولا يمحى الشقاء في هذه الدنيا بالشقاء .

ولم أزل أحدث نفسي بمثل هذا الحديث حتى أقبل الليل فمررت بساحة مظلمة موحشة تتطاير في جوها أسراب من الطير غادية

رائحة ، فاخترقتها حتى بلغت أبعد بقاعها ، فرأيت منظرًا هائلًا
لا يزال أثره عالقًا بنفسي حتى الساعة .

رأيت الشيخ جثة معفرة بالتراب لا رأس لها ، ولا أطراف ، ثم رأيت
رأسه وأطرافه مبعثرة حواليه كأنها نوادب يندبته حاسرات .
ورأيت الفتي مشدوداً إلى شجرة فرعاء كأنه بعض أغصانها ، وقد
سال جميع ما في عروقه من الدم حتى أصبح شبحاً مائلاً ، أو
خيالاً سارياً . ورأيت الفتاة كتلة حمراء من اللحم لا يستبين
لها رأس ، ولا قدم ، وقد أحاطت بها أكوام من الحجارة المخضبة
بدمائها ، ثم رأيت بجانب هذه الجثث الثلاث حفرة جوفاء تفهق
بالدم ، فعلمت أنها مجمع دماء هؤلاء المساكين ، فشعرت كأن
سحابة سوداء تهبط على عيني قليلاً قليلاً حتى غاب عن نظري
كل شيء فسقطت في مكاني لا أشعر بشيء مما حولي ، فلم أستيق
حتى مضت دولة من الليل ففتحت عيني فإذا شبح أسود يدنو
مني رويداً رويداً ، فارتعت لمنظره ، وفزعته إلى ساق الشجرة
فاختبأت وراءه ، فما زال يتقدم حتى صار بجانبني فأشعل مصباحاً
صغيراً كان في يده فنبهته على نوره فإذا عجوز شمطاء في زي المساكين
وسحتهم ، فمشت تتصفح وجوه القتلى حتى بلغت مصرع الشيخ
فجثت بجانبه ساعة تبكيه وتندبه ، ثم مشت إلى رأسه وأطرافه
فجمعتها وضمتها إلى جثته ، ثم احتفرت له حفرة تحت ساق
الشجرة فدفنته فيها وقامت على قبره تودعه وتقول : « في سبيل
الله ما لقيت في سبيلي وسبيل أحفادك البؤساء أيها الشهيد المظلوم ،
وفي ذمة الله وكنفه روح طار عن جسدك ، وجسد ضمه قبرك ،
فقد كنت خير الناس زوجاً وأباً وأطهرهم لساناً ويداً وأشرفهم
قلباً ونفساً ، فاذهب إلى ربك لتلقي جزاءك عنده واطلب إليه
الرحمة لجميع الناس حتى لقاتليك وظالميك ، واسأله أن يلحقني

بك وشيكاً ، فلا شيء يعزيني عنك بعد فراقك إلا الأمل في لقاءك ،
فأبكاني بكأوها وأحزني منظرها ، ووقع في نفسي أنها صادقة
فيما تقول ، وأن شيخها شهيد من شهداء القضاء . وأخبرت أن
أقف على قصتها وقصته فبرزت من مخبئي ومشتيت إليها فارتاحت
لمرآي عند النظرة الأولى ، ثم سكنت كأنما ذكرت أن لا قيمة
لمصائب الحياة بعد مصابها الذي نزل بها ، فابتدرتها بقولي : لا
تراعي يا سيدتي فإنني رجل غريب عن هذا البلد لا أعرف من
شأنه ، ولا من شأن أهله شيئاً ، وقد رأيت الساعة موقفك على
هذا القبر وتفجعك على ساكنه فرثيت لك ويكيت لبكائك وتمنيت
لو أفضيت إلي بذات نفسك علتي أستطيع أن أكون لك عوناً على
هملك ، فاستعبرت باكية وأنشأت تحدثني وتقول :

إن زوجي لم يكن في يوم من أيام حياته لصاً ولا سارقاً ، بل
قضى أيام شبابه وكهولته عاملاً مجداً لا يفتقر ساعة واحدة عن السعي
في طلب رزقه ورزق أهل بيته حتى كبر ولده ، وكان واحده ،
فاشتد به ساعده واحتمل عنه بعد ما كان يستقل بحمله من الهم ،
وما هو إلا أن نعمنا به وبمعونته حقبة من الدهر حتى نزلت به
نازلة الموت فذهبت بحياته أحوج ما كنا إليه ، وخلف وراءه
خمسة أولاد صغار لا يتجاوز أكبرهم العاشرة من عمره ، وكانت
قد أدركت أباه الشيخوخة ، فاجتمع عليه هم الكبر وهم الثكل
فأصبح عاجزاً عن العمل لا يستطيعه إلا في الفينة بعد الفينة (١) ،
وأصبحنا جميعاً في حالة من الشقاء والبؤس لا يعرف مكانها من
نفوسنا إلا من ألم به في حياته طرف منها حتى طلعت علينا شمس
يوم من الأيام ، وليس في يدنا ما نقوم به أصلاب صغارنا ،

(١) الفينة : النعامة والحين .

ولا ما نعلمهم به تعليلاً ، فأسقط في يدنا وعلمنا أنا هالكون جميعاً
إن لم يتداركنا الله برحمته من عنده فلم أر بداً من أن أبدأ إلى الخطئة
التي يلجأ إليها كل مضطر عديم ، فبرزت إلى الناس أتعرض
لمعروفهم وأستندى ماء أكفهم فلم أجِد بينهم من يحسن إلي بجرعة
أو مضغة ، ولا من يدلي على سبيل ذلك ، وكان أكبر ما حال
بيني وبينهم وصرف وجوههم عني أني لا ألبس مرقعة الشحاذين ،
ولا أحمل رכותهم ^(١) فعدت إلى منزلي وبين جنبي من المهم ما
الله به عليم ، فرأيت الأطفال شهداء يتضاغون ^(٢) جوعاً ، ورأيت
الشيخ جالساً بينهم يبل تربة الأرض بدموعه ويقرع كفه بكفه
لا يعلم ماذا يصنع ، ولا كيف يحتال ، ولو أن شخص الموت
برز إليّ في تلك الساعة لكان منظره أهون على نفسي من منظر
هؤلاء الصبية ، وهم يحدقون في وجهي عند دخولي ويدورون
حولي ليروا هل عدت إليهم بما يسد جوعتهم ؟ وما عدت إليهم
إلا باليأس القاتل والكد الشامل ؟ فتقدمت نحو الشيخ ، وقلت
له : إن في دير المدينة كماً يزعمون مالاً للصداقات يتولى الكاهن
الأعظم إنفاقه على الفقراء والمساكين فلو ذهبت إليه وكشفت
له خلتيك وسألته أن يمنحك علالة تستعين بها على أمرك لرجونا
أن نطفئ لوعة هؤلاء الأطفال المساكين ، فاستنار وجهه بنور
الأمل وقام إلى عصاه فاعتمد عليها ومشى إلى الدير حتى بلغه
فصعد إلى حجرة الكاهن حتى وقف بين يديه ، فنفض له جملة
حاله وسكب تحت قدميه جميع ما أبقّت الأيام في جفنيه القريحين
من دموع ، فاستقبله الكاهن بأقبح ما يستقبل به مسؤول سائلاً ،
وقال له : إن الدير لا يحسن إلا إلى الذين أسلفوه الإحسان من

(١) الركوة : وهاء الهاء على صورة الزورق يحمله الشحاذون .

(٢) يتضاغون من الجوع : يتضورون منه .

قبل ، وما كنت في يوم من أيام رغدك ورخاءك من المحسنين إليه فاذهب لشأنك فأبواب العيش واسعة بين يديك ، فإن ضاقت بك فأبواب الجرائم أوسع منها ، فخرج من حضرته كثيراً محزوناً لا يرى فضاء الدنيا في نظره إلا ككثرة الحابل^(١) أو أفحوص^(٢) القطاة حتى نزل إلى ساحة الدير فلمح في إحدى زواياه غرارة^(٣) دقيقة فحدثته نفسه بها ، وما كانت تحدثه لولا العوز والفاقة ، ثم أدركه الحياء فأغضى عنها واستمر سائراً في طريقه حتى صار بجانبها فوقع نظره عليها مرة أخرى فعاوده حديثه الأول فحاول دفعه فلم يستطع فجلس بجانبها يحدث نفسه ويقول : إن الطعام طعام الفقراء والمساكين ، وأنا فقير مسكين ، لا أعلم أن بين أسوار هذه المدينة ، ولا في جميع أرباضها رجلاً أحوج ، ولا أفقر مني ، فإن كان الطمع في هذه الغرارة جريئة فقد أذن لي الكاهن بارتكاب الجرائم في سبيل العيش ، ثم مشى إليها فاحتملها على ظهره ومشى بها جاهداً مترجحاً ، فما تجاوز عتبة الدير حتى أثقله الحمل وشعر أنه عاجز عن المسير فحدثته نفسه بإلقائه عن ظهره ، ثم تمثل له منظر أحفاده الصغار ، وهم ألقاء^(٤) تحت جدران البيت يتضورون جوعاً فحمل على نفسه ومشى يعتمد على عصاه مرة ، وعلى الجدار مرة أخرى حتى نال منه الجهد فأحس كأن أنفاسه قد جمدت في صدره لا تهبط ، ولا تعلو ، وأن ما كان باقياً في عينيه من نور قد انطفأ دفعة واحدة فأصبح لا يرى شيئاً مما حوله ، وإذا نفثة من دم قد دفقت من صدره فالتحدرت

(١) الحابل : القائل لأنه يرمي الحباله للصيد ، وكفته : حالته .

(٢) أفحوص القطاة : مجشها . لأنها فحصت عنه التراب لتبيض فيه .

(٣) الغرارة : الجوائن .

(٤) الألقاء : جمع لقي -- كفتى ، واللقى الشيء : الملقى المطروح .

على رداءه فسقط في مكانه مغشياً عليه ، ولم يزل على حاله تلك حتى مر به العسس^(١) فرأوه ورأوا الغرارة بجانبه فارتابوا به ، وكان رهبان الدير قد أخذوا يتصايحون فيما بينهم : الغرارة ! الغرارة ! وينشدونها في أنحاء الدير حتى يثسوا منها فخرجوا يطلبونها في كل مكان حتى التقوا بالعسس حول مصرع الشيخ فعرفوا ضالتهم ، وما هي إلا ساعة حتى كانت الغرارة في الدير وكان الشيخ في السجن ، ثم كان بعد ذلك ما رأيت من أمره ، فوأسفاه عليه لقد مات شهيداً مظلوماً ، ووارحمته لي ولأطفالي البؤساء المساكين من بعده ! .

ثم نهضت من مكانها ومسحت عبرتها بطرف رداؤها ونظرت إلى القبر نظرة طويلة وقالت : « الوداع يا رفيق صباي ، وعماد شيخوختي ! الوداع يا خير الأزواج وأبر العشراء ! الوداع حتى يجمع الله بيني وبينك في دار جزائه » ثم انكفأت راجعة في الطريق التي جاءت منها .

وما هو إلا أن تغلغل شخصها في اعماق الظلام حتى رأيت شبهاً آخر يترأى من حيث اختفى الشبح الأول وما زال يتقدم نحوي متسللاً يختلس خطواته اختلاساً فاخترت وراء الشجرة لأرى ما هو صانع وكان القمر قد بدأ يشرف على الوجود من مطلعته ويرسل الخيوط الأولى من أشعته على تلك الساحة الكبرى فرأيت الشبح على نوره فإذا فتاة جميلة باكية لم أر في حياتي دمعة على خد أجمل من دمعتها على خدها ، فدارت بعينيها لحظة حتى وقع نظرها على جثة المصلوب بين أعواد الشجرة فمشت إليه ومدت يدها إلى الحبل المشدود به فعاجلت عقده حتى انحلت ثم احتملته

(١) العسس : الطائفون بالليل لحراسة الناس أو كشف أهل الريّة .

على يدها وأضجمته على الأرض ووقفت بجانبه ساعة تنظر إليه جامدة ساكنة كأنها غير آبهة ولا حافلة ثم هتفت صارخة : واشقيقاه ! وسقطت فوقه تضمه وتقبله وتلم شعره وجبينه وتزفر فيما بين ذلك زفيراً متداركاً كأنما تنفث أفلاذ كبدها نفثاً ، حتى نال منها الجهد فترنحت قليلاً ثم هوت بجانبه هوي الجذع الساقط لا حراك بها ، فأهمني أمرها ونخفت أن يكون قد لحق بها مكروه فمشيت إليها حتى صرت بجانبها فشعرت بأنفاسها الضعيفة تردد في صدرها ، فعلمت أنها حية فجلست فوق رأسها أندبها وأدعو الله لها حتى استفاقت بعد هنيهة فرأني بجانبها فنظرت إلي نظرة حائرة ، ثم تقدمت نحوي وقالت : على من تبكي أيها الرجل الغريب ؟ قلت : أبكي عليك يا سيدتي وعلى فقيدك البائس المسكين ، قالت : نعم إنه بائس مسكين فابك عليه يا سيدي كثيراً فقد كان زينة الشباب وزهرة الحياة وريحانة النفوس ومنتعة الأفئدة والقلوب ، ولقد ظلموه إذ قتلوه فما كان قاتلاً ولا مجرمًا ، ولكنه رجل رأى عرضه فريسة في يد من يريد تمزيقه فقطع تلك اليد الممتدة إليه وانتقم لنفسه وللشرف والفضيلة منها ، ولو أنصفوه لاستبقوه رحمة به وبشبابه ، فما أجرم من ذاد عن عرضه ولا أثم من قتل قاتله . قلت : هل لك أن تقصي علي قصته يا سيدتي ؟ قالت : نعم .

نزل قريتنا صباح يوم من الأيام قائد من قواد الأمير الذين يطوفون البلاد لجمع الضرائب فمر بأبيات القرية بيتاً بيتاً حتى بلغ منزلنا وكنت واقفة على بابه فنظر إلي نظرة مريبة طار لها قلبي رعباً وفرقاً ثم سألتني عن أخي فأرشدته إلى مكانه فسأله عن المال فأستنساه^(١) إياه أياماً قلائل حتى يبيع غلته فأبى إلا

(١) استنسا غريمه الدين : طلب منه أن ينسئه إياه أي : يؤجله له .

أن ينقده الساعة أو يأخذني رهينة عنده إلى يوم الوفاء . وغمز بي بعض أعوانه فداروا حولي وكنت أسمع قبل اليوم حديث أولئك الفتيات الشقيات اللواتي يدخلن رهائن في قصر الأمير فلا يخرجن منه إلا ساقطات أو محمولات ، ففزعت إلى أخي ولصقت به فوقف بيني وبين الرجل ، وقال له : لا شأن لك مع الفتاة إنما أنا صاحب المال وأنا المأخوذ به من دون الناس جميعاً ؛ فإن كان لا بد لك من رهينة فأنا رهينة مالي حتى يصل إليك ، فقال له لا بد لي من المال أو الرهينة ولا بد أن تكون الرهينة كما أريد ، فإن آيت فحياتك فداء عنها ، ففضب أخي غضبة انتفض لها جبينه عرق ولم أره في ساعة من ساعات غضبه قبل اليوم وقال له «فلتكن حياتي فداء لشرفي» ثم جرد سيفه وضربه به ضربة طارت برأسه ووقف في مكانه لا يبرحه وسيفه يقطر دماً حتى غله (١) الأعوان واحتملوه إلى السجن ، فتلك حياته يا سيدي وذلك مماته ، فلئن بكيته أنا أبكي فتي الفتيان همة ونجدة ، ونادرة الرجال عزة ، وإباء وأفضل الأخوة رحمة وحناناً .

ثم قالت : هل لك أن تعينني يا سيدي على مواراته قبل أن يحول النهار بيني وبينه فقد أصبحت واهية متضعفة لا أقوى على شيء ؛ فقممت إلى الشجرة فاحتفرت حول ساقها حفرة بجانب حفرة الشيخ فواريته فيها ، فتقدمت الفتاة نحو القبر وجثت بجانبه ساعة مطرقة ساكنة ، لا أعلم هل هي باكية أو ذاهلة حتى فارقت مكانها ؟ فرأيت تربة القبر غضله بدموعها ثم مدت يدها إلي وقالت : شكراً لك يا سيدي فقد أعنتني على موقف قلما يجد فيه مستعين معيناً ، ومضت لسبيلها .

(١) غله : وضع في منته الدل .

فأتبعته نظري حتى اختفت آخر طية من طيات رداها ، فعدت إلى نفسي ، فإذا جثة الفتاة المرحومة لا تزال مكانها فهاجني منظرها وقلت في نفسي : إنني لا أدخر لنفسي عملاً أرجو فيه رحمة الله وإحسانه يوم جزائه ، أفضل من مواراة هذه المسكينة التراب ، فاحتفرت لها حفرة بجانب حفرة الشهيدين ثم ألقيت عليها رداي واحتملتها على يدي حتى أضجمتها في حفرتها ، فلإني لأجثو عليها التراب إذ شعرت بحركة وراي ، فالتفت فإذا فتى يافع متلفع بردة سوداء لا يستين منها غير يياض وجهه ، فابتدرني بقوله : من صاحب هذا القبر الذي نجثو ترابه يا سيدي ؟ قلت : فتاة مرحومة رأيت جثتها الساعة منبوذة في هذا العراء فرحمت مصرعها واحتفرت لها هذا القبر الذي تراه ، فقال : إن لي يا سيدي مع هذه الفتاة شأنًا ، فهل تأذن لي أن أودعها الوداع الأخير قبل أن يحول التراب بيني وبينها ؟ قلت : نعم شأنك وما تريد ؛ وتنحيت قليلاً فدنا من القبر وجثا فوق تربته وظل يناجي الدفينة نجاء خلت أن الكواكب تردده في سمائها والرياح ترجعه في أجوائها ، حتى اشتفت نفسه ، فقام إلى التراب يهيله عليها حتى وراها ، ثم التفت إلي وقال : لقد شكر الله لك يا سيدي هذه اليد التي أسديتها إلى هذه الفتاة المظلومة بستر ما كشف الناس عن عورتها ، وحفظ ما أضاعوا من حرمتها ، فجزاك الله خيراً بما فعلت ، وأحسن إليك كما أحسنت إليها ، وأراد الرجوع فاستوقفته وقلت له : وهل ماتت هذه الفتاة مظلومة كما تقول ؟ فانفجرت شفتاه عن ابتسامة مرة ونظر إلي نظرة هادئة مطمئنة وقال : نعم يا سيدي ؟ ولولا ذلك ما رأيتني الساعة واقفاً على حافة قبرها أندبها .

أنا الرجل الذي اتهموها به ، وأستطيع أن أقول لك كما أقول لربي يوم أقف بين يديه رافعاً إليه ظلامتها : إنها بريئة مما رموها به ،

ولأنها أظهر من الزهرة المطلولة ، وأنقى من القطرة الصافية .

لقد أحببت هذه الفتاة مذ كانت طفلة لاعة ، وأحببني كذلك ثم شبينا وشب الحب معنا فتعاقدنا على الوفاء والإخلاص ، ثم خطبتها إلى أبيها فأخطبني (١) راضياً مسروراً حتى إذا لم يبق بيني وبين البناء بها إلا أيام معدودات ، إذ نزلت بأبيها نازلة الموت ، فعلمنا أن لا بد لنا من الانتظار بأنفسنا عاماً كاملاً ، ففعلنا ، حتى إذا انقضى العام أو كاد ، حدث أن ذهبت الفتاة إلى قاضي المدينة في أمر يتعلق بميراثها فرآها القاضي فتبعها نفسه فأرسل وراء عمها ، وكان ولي أمرها بعد أبيها ، وهو رجل من الطامعين المدهنين الذين لا يباليون أن يخوضوا بحراً من الدم إذا تراءى لهم على شاطئه الآخر دينار لاعم ، فعرض عليه رغبته في الزواج مع ابنة أخيه فطار بهذه المنحة فرحاً وسروراً ، ولم يتردد في إجابة طلبه ، وعاد إلى الفتاة يحمل إليها هذه البشري فاستقبلته بوجه باسر وقالت له : لأنني لا أستطيع أن أكون خطيبة رجلين في آن واحد ، فلم يبل بقولها وقال لها : ستزوجين ممن أريد طاعة أو كارهة فلا خيار لك في نفسك إنما الخيار لي في أمرك وحدي ، وما هي إلا أيام قلائل حتى أعدوا لها عدة زواجها وسموا يوماً لزفافها ، فما غربت شمس ذلك اليوم حتى جمعت ما كان لها في بيتها من ثياب وحلية ، وخرجت تحت ستار الليل هائمة على وجهها لا تعلم أين تذهب ، ولا أي طريق تسلك ، وكان عمها قد رفع إلى القاضي أمر فرارها فبث عليها عيونه وأرصاده يطلبونها في كل مكان ، حتى لمحها بعضهم جالسة تحت بعض الجدران فأقبل عليها فذعرت لمراه وتركت حقيبتها مكانها وفرت بين يديه

(١) أخطبه : قبل خطبته .

تعدو عدواً سريعاً ، وكنت عائداً في تلك الساعة إلى منزلي ، فرأيتي
فألقت نفسها علي وقالت : إنهم يتبعونني ، وإنهم إن ظفروا بي
قتلونني ، فارحمني يرحمك الله ؛ فأهمني أمرها وذهبت بها إلى
منزلي وأخفيتني في بعض حجراته . وما هي إلا ساعة حتى دخل
عنها ووراءه أعوان القاضي يطلبها طلباً شديداً ، فأنكرت رؤيتها
فلم يصدقني ، وأخذ يضرب أبواب الحجرات باباً باباً حتى ظفر
بها فصاح : ها هي الفتاة الزانية ، وهذا صاحبها ، فأقسمت له
بكل محرجة من الإيمان أنها بريئة مما يرميها به فلم يصغ إلي ،
وأمر الأعوان فاحتملوها ، وحاولت أن أحول بينهم وبينها فضربني
أحدهم على رأسي ضربة طارت بصوابي فسقطت مغشياً علي ،
فلم أستفق إلا بعد ساعة ، فوجدت الحصى قد أخذت مأخذها
من جسمي ، فلزمت فراشي بضعة أيام لا أفيق ساعة حتى يتمثل
لي ذلك المنظر الذي رأيته فأشعر بالرعدة تتمشى في أعضائي فأعود
إلى ذهولي واستغراقي حتى أدركتني رحمة الله فأبليت منذ أمس
بعض الإبلال واستطعت أن أخرج الليلة من منزلي ، فعلمت ما
تم من أمر تلك المسكينة ، فجئت كما تراني أودعها الوداع الأخير
وأواري جثتها التراب ، وما أنا بالسالي عنها ، ولا بالذائق حلاوة
العيش من بعدها حتى ألحق بها .

ثم ألقى على قبرها نظرة جمعت في طياتها جميع معاني النظرات
البائسات من حزن وبأس ولوعة وشقاء ، ومضى لسبيله .

فما أبعد إلا قليلاً حتى رأيت القمر ينحدر إلى مغربه ، ثم
ما لبث أن اختفى فإذا الفضاء ظلمة وسكون ، وإذا الساحة وحشة
واقباض ، فصعدت على ربوة عالية مشرفة على القبور الثلاثة ،
ثم تلفعت بردائي وألقيت برأسي على بعض الصخور وأنشأت

أحدث نفسي وأقول :

ليت شعري ! ألا يوجد في هذه الدنيا عادل ، ولا راحم ،
فإن خلت منهما رقعة الأرض فهل خلت منهما ساحة السماء ؟

أجرم الزعيم الديني لأنه ضمن على ذلك الشيخ المسكين بديرهم
من مال يسد به جوعته وجوعة أهل بيته ، فاضطر الرجل إلى
ارتكاب جريمة السرقة ، فعوقب السارق على سرقة ، ولم يعاقب
القاسي على قسوته ، ولولا قسوة القاضي ما كانت سرقة السارق .

وأجرم الأمير لأنه أرسل قائده لاختطاف فتاة حرة لا تؤثر
أن تجرد بعرضها فاضطر أخوها إلى اللود عنها فارتكب جريمة
القتل ، فعوقب القتي على جريمته وسلم من العقوبة من دفعه إلى
الإجرام .

وأجرم القاضي لأنه أراد ان يكره فتاة لا تحبه على الزواج
منه ، ففرت من وجهه فعاقبها على فرارها ، ولم يعاقبوا القاضي
على ظلمه واستبداده .

وهكذا أصبح المجرم بريئاً ، والبريء مجرمًا ، بل أصبح
المجرم قاضي البريء وصاحب الحق في معاقبته .

فهل تسقط السماء على الأرض بعد اليوم ، أم لا تزال تنيرها
بكواكبها ونجومها ، وتمطرها غيثها ومزنها .

ثم التفت إلى مصرع المقبورين فوق نظري على بركة الدم التي
اجتمعت فيها دماء هؤلاء الشهداء . فرأيت خيال نجم في السماء
يتلألأ فوق صفحتها ، فرفعت نظري إلى النجم فإذا هو المريخ^(١)

(١) يسمى قديماء اليونان في أساطيرهم المريخ : إله الحرب .

يتلهب ويضطرم كأنه جمرة النيفظ في أفئدة الموتورين ، فعلق نظري به ساعة ، ثم رأيت كأنه يهبط من عليائه رويداً رويداً ، فيعظم جرمه كلما ازداد هبوطه حتى إذا لم يبق بينه وبين الأرض إلا ميل أو بعض ميل ، إذا به يتفرض انتفاضاً شديداً ، وإذا هو على صورة ملك من ملائكة العذاب ينبعث الشرر من عينيه ومنخريه ، ويتطاير من أجنحته وأطرافه ، فلم يزل هابطاً حتى نزل على رأس الشجرة التي تظلل قبور الشهداء ، ثم صفق بجناحيه تصفيقة اهتزت لها جوانب الأرض وأضاءت بها الأرجاء ، ثم أخذ ينطق بصوت كأنه جلجلة الرعد في آفاق السماء ويقول : « ها هم الناس قد عادوا إلى ما كانوا عليه ، وها هي الأرض قد ملئت شروراً وفساداً حتى لم يبق فيها بقعة طاهرة يستطيع أن يأوي إليها ملك من أملاك السماء .

ها هم الأقوياء قد ازدادوا قوة ، والضعفاء قد ازدادوا ضعفاً وها هي لحوم الفقراء تنحدر في بطون الأغنياء انحذاراً ، فلا الأولون بمستسكين ، ولا الآخرون بقانعين .

ها هم الفقراء يموتون جوعاً ، فلا يجلدون من يحسن إليهم . والمنكوبون يموتون كمداً ، فلا يجلدون من يعينهم هل همومهم وأحزانهم .

ها هم الأمراء قد خانوا عهد الله وخفروا ذمامه ، فأغمدوا السيوف التي وضعها الله في أيديهم لإقامة العدل والحق ، وتقللوا سيوفاً غيرها ، لا هي إلى الشريعة ، ولا إلى الطبيعة ، ومشوا بها مفتتحون لأنفسهم طريق شهواتهم ولذائهم حتى ينالوا منها ما يريدون .

ها هم القضاة قد طمعوا وظلموا ، ووضعوا القانون ترساً
أمام أعينهم يصيبون من ورائه ، ولا يصابون ، ويتألمون من
يشاؤون تحت حمايته ، ولا يُنالون .

ها هم زعماء الدين قد أصبحوا زعماء الدنيا ، فحولوا معابدهم
إلى مغاور لصومس يجمعون فيها ما يسرقون من أموال العباد ،
ثم يفضنون بالقليل منه على الفقراء والمساكين .

ها هم الناس جميعاً قد أصبحوا أعواناً للأمرء على شهواتهم ،
والقضاة على ظلمهم ، وزعماء الأديان على لصوبيتهم ، فلتسقط
عليهم جميعاً نعمة الله ملوكاً ومملوكين وروءاء ومرؤسين .

لتسقط العروش ، ولتهدم المعابد ، ولتتقوض المحاكم ، وليعم
الخراب المدن والأمصار ، والسهول والأوعار ، والنجاد والأغوار ،
ولتفرق الأرض في بحر من الدماء يهلك فيه الرجال والنساء ،
والشيوخ والأطفال ، والأخيار والأشرار ، والمجرمون والأبرياء ،
وما ظلمهم الله ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

وما انتهى من دعوته تلك ، حتى رأيت بركة الدم تفور كما
فار التنور يوم دعوة نوح ، ثم فاضت الدماء منها ومشت تتدفق
في الأرض تدفق السيل المنحدر ، وإذا الأرض بحر أحمر يزخر
ويعج ويكتسح أمامه كل شيء من زرع وضرع ، وقصور وأكواخ ،
وحبوان وإنسان ، وناطق وصامت ، ثم شعرت به يعلو شيئاً فشيئاً
حتى ضرب بأماجه رأس الربوة التي أنا جالس فوقها ، فصرخت
صرخة عظمى فاستيقظت من نومي ، وكان ذلك في صباح اليوم
الثامن والعشرين من شهر يوليو سنة ١٩١٤ فإذا صائح يصبح
تحت نافذة غرفتي : إعلان الحرب !

من روائع الأدب الهندي

قصة الملك والدرأويش الأربعة

ترجمة ودراسة

د. دينا أحمد جاويش



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٩

القي إلى سماعاً وليكن حكمك عدلاً قال الراوى وهو يقص قصة الدراويش الأربعة:

كان هناك ملك عظيم له ملك الروم يدعى «آزادبخت» كأنما هو فى العدل «أنوشيروان» وفى الجود والسخاء حاتم، وكانت مدينة «قسطنطينية» التى يسمونها «استانبول» هى حاضرة ملكه، أمّا رعيته فكانت فى رغد من العيش وخلو فى البال، فكل إنسان آمن فى نفسه نهارة نهار العيد وليلة ليلة البراءة، وما اتسعت المملكة لشحاذ أولص أو متسول أو محتال وما أوصدت قط ليلاً أبواب الدور، أمّا الحوانيت فهى مفتوحة فى إتصال ودوام، وفى سوح الغابات وما أكثرها فى طريق المسافرين فيسعدك أن تنام أو تسير دونما سؤال من أحد من أين وإلى أين؟ وقد انطوت تحت سلطان هذا الملك آلاف المدن ويؤدى إليه الخراج عديد من السلاطين، ومع سعة هذا الملك وعظمته إلا أن الملك لم يكن يغفل لحظة عن ذكر الله والتضرع إليه، فقد كان وافر الحظ من الطيبات وزهرة الدنيا إلا الولد الذين هم بهجة الحياة فقد خلت منهم روضة حياته، وكان يقضى جل وقته مفكراً فى هذا الأمر، وعقب كل صلاة كان يبتهل إلى الله سبحانه وتعالى قائلاً:

«يا إلهى لقد منحت عبدك الضعيف من جودك وفضلك الكثير والكثير، لكن لا بد لهذا البيت المظلم من قنديل فى هذا راحة لقلبى لقد عدمت من يحمل اسمى ويروى ظمئى، وأنت سبحانه مالك لكل شىء فى خزانك، فلتهبنى ولداً يخلد ذكرى ويحفظ ملكى» .

وعلى هذا الأمل عاش الملك حتى بلغ من العمر أربعين عاماً، وذات يوم وبعد أن فرغ من صلاته وأخذ فى تدبير شئون ملكه، وقع بصره فجأة على مرآة أمامه ولمح شعرة بيضاء

فى فوده تتلآلآ كآنها خبط من لجين؁ وما أن رآها الملك حتى ترقرق الدمع فى مقلتيه وزفر زفرة حارة؁ وقال فى نفسه:

«وأسفاه على عمرك الذى ضاع هباءً منثورا فى مسعاك إلى الجاه والمال وحرصا عليهما؁ والآن ماذا أنت صانع بما تحصل لديك من أسباب الملك؟ فلسوف تدع كل شىء فى النهاية ويأتىك رسول الأجل ملك الموت. وكلما مر يوم من العمر قل جهدى وضعف بدنى حتى ليقترأ لى أنه ليس مقدراً أن يولد لملكى وارث؁ وإننى فى النهاية سأموت وأدع كل شىء فالأجدر بى أن أتخلى عن تاجى وعرشى وأقضى البقية الباقية من حياتى فى ذكر خالقى سبحانه وتعالى».

وبعد أن جال هذا فى خاطره؁ خرج إلى الحديقة ورد تحية رفاقه.

ثم تحدث إليهم قائلاً: «عليكم ألا تأتونى بعد اليوم؁ اذهبوا إلى الديوان العام وليقم كل منكم بأداء وظيفته. وبعد ذلك انتحى الملك ركنا من الأركان وانشغل بالذكر والعبادة؁ ولم يكن له شغل إلا البكاء وتصعيد الزفرات. ومضت الأيام بالملك على هذه الوتيرة؁ فما كان يطعم إلا ثلاث تمرات؁ ويحتسى من الماء القليل ويظل ليلا ونهارا فى محرابه حتى شاع هذا الأمر فى الرعية وعرفه الناس فى أرجاء المملكة وأدرك الناس أن الملك نفى يده من الملك وأثر عليه العزلة؁ وهب الطامعون يعيشون فى الأرض فسادا فى محاولة للاستيلاء على مقاليد الحكم فأعلنوا عصيانهم (وما دام هذا شأن الحاكم فلزام أن يختل نظام الحكم وتتزلزل أركانه) وبلغ خبر العصاة من كل صوب إلى البلاط فاجتمع أمراء البلاط ليتدبروا الأمر لتحقيق المصلحة.

وأخيرا رأى الأمراء ضرورة التوجه إلى الوزير العاقل الحكيم المقرب إلى الملك والموقر من قبله وصاحب المنزلة الرفيعة لدى جميع الحاشية؁ فتوجه إليه جمع من الأمراء والوزراء قائلين له: هذا هو حال الملك وهذه هى حالة الدولة؁ ولو تهاونا وتغافلنا عن هذه المحنة التى ألمت بمملكتنا لذهب الملك أدراج الرياح؁ فنحن الآن فى مشكلة خطيرة. وكان الوزير المحنك اسمه «خردمند» وهو اسم على مسمى وقد تكلم قائلاً: مع أن الملك كان قد منع مقابله؁ لكن لنمض إليه جميعا وإن شاء الله سيسمح لنا الملك بمقابله؁ قال ذلك وذهب ومعه الجميع إلى الديوان العام ثم تركتهم وتوجه إلى الديوان الخاص؁ وأرسل الحاجب ليستأذن الملك ويقول

له: هذا الشيخ الخاضع المائل أمامك الآن، لم تكتحل عيناه منذ عدة أيام بجمال الدنيا، وإننى أمل أن يطمئن خاطرى بعد أن أتزود بنظرة إلى جلالكم وأقبل أقدامكم الشريفة.

فأبلغ الحاجب هذا القول إلى الملك، ونظرا لمكانة الوزير لدى الملك وعلمه بإخلاصه وحكته وشهامته، قال الملك بعد تريث: «ادعوا خردمند للدخول فأقبل الوزير وقدم التحيات والتعظيمات وقبل الأرض بين قدمي الملك، ثم رفع رأسه ونظر إلى الملك، فوجده فى أعجب هيئة وقد تورمت عيناه من كثرة البكاء وشحب وجهه وامتنع لونه.

فساء «خردمند، ما صار إليه حال الملك فخر على قدميه، وعندئذ رفع الملك رأسه بيديه وأمره قائلاً: انظر إلى وقر عينا والآن دعنى وشأنى ولا ترهقنى أكثر من ذلك وعليك بإدارة شئون السلطنة.

وما إن سمع «خردمند، قوله حتى بكى بكاءً مرّاً وسالت دموعه حتى اخضلت لحيته وقال للملك: جعل الله عبدك وخادمك فداء لسلامة جلالكم وخلد الله ملكك، لكن اعتزلك يا ملجأ وملاد العالم على هذا النحو تضيق به السلطنة سدى وتذهب أدراج الرياح، وستكون العاقبة وخيمة فى النهاية، ترى أى هاجس قد مر على خاطركم المبارك يا جلالة الملك؟ إن كان هذا الهاجس هو حرمان هذا البيت من وارث فمن الأفضل أن تطلعننى على سرك حتى أعرض عليك ما يرد على فكرى القاصر، لقد منحنا الرفعة من أجل اليوم الذى نيسر فيه الراحة والسعادة لملكنا، فإذا وقع ملكنا فى الحيرة بسبب شئون الحكم لا قدر الله فمتى إذا سنفيد ملكنا؟

قال الملك: «الحق ما تقول أيها الوزير إن ما يختلج فى قلبى ويعتمل فى عقلى قد خرج عن نطاق تصرفى - اسمع يا خردمند لقد استنفد حكم هذه السلطنة كل عمرى، وما يؤلمنى ويقض مضجعى أن السنين قد مرت والآن لم يبق سوى الموت، وقد وصلتني رسالته متمثلة فى شعرة بيضاء تخللت شعرى الأسود، إنها بمثابة من يقول لى: (لقد نمت الليل بطوله والآن جاء الصبح أفلا تستيقظ؟) وإلى الآن لم أرزق بالولد الذى تقر به عينى، ولهذا أخذ منى الحزن كل مأخذ وتمكن من قلبى، ولهذا زهدت فى كل شىء وما أريده هو أن أباعد وأنصرف عن المال والجاه وأدع كل شىء وأخرج إلى الغابات والجبال فلا يرانى أحد قط، وهكذا أقضى أيام الحياة المعدودة، وإذا ما طاب لى مكان أقمت به، وانشغلت بالعبادة، ريداً

يكون ذلك خيراً فى النهاية، فأنا لم أجد للدنيا متعة ولا لذة، وبعد أن قال الملك هذه العبارة زفر زفرة حارة وطأطأ رأسه.

وحينما كان هذا الملك أميراً كان الوزير «خردمند» وزيراً لوالده، وكان أبوه يكن له محبة عظيمة لعلمه وحسن تدبيره فأخذ يحدثه قائلاً: لا يليق بجلالتك أن تياس من روح الله سبحانه وتعالى، فإن الذى أخضع لسلطانك ثمانية عشر ألف ملك كيف يشق عليه أن يهبك الولد؟ فيا قبلة العالم رد هذا الوهم عن قلبك، فلست من يترك العالم فى صراع مستمر، وقد أقيمت هذه السلطنة بجهد واجتهاد جلالتكم العظيم، ولو أفلت زمام هذه البلاد من يد جلالتك ولو للحظة وخربت نتيجة للجهل والحمق، فستفنى وتنهار تماماً لا قدر الله، علاوة على ذلك ففى يوم القيامة عندما يسألك ربك ويقول لك: لقد وليتك على هذا الملك وحملتك مسئولية الرعية فيمتست من رحمتنا وجعلت الرعية فى حيرة واضطراب «فماذا ستجيب على هذا السؤال؟ عندئذ لن تجديك العبادة فى ذلك اليوم المهيب شيئاً، ولهذا فقلب الإنسان هو بيت عبادة الله، ويسأل الملك عن عدله فقط. فلتغفر لغلامك تجاوزه، فإن الخروج من البيت والسياسة فى الغابات من شأن النساك والزهاد، وليس من شيم الملوك، فلا يليق بسموك السياحة فى الغابات والجبال وقصر حياتك على ذكر الله والزهد فى الدنيا، ولتنتصت لهذا البيت:

من بحث فى الغابة عم عند ربه

كمن بحث فى المدينة عن ابنه وهو فى حصنه!!

فإن تقبل عرض من يبغى انصافك وفداءك فمن الأفضل أن يتوجه ملاذ العالم فى كل لحظة إلى الله سبحانه وتعالى بالدعاء فسبحانه وتعالى لا يقف ببابه محروم، ولتقم بمهامك الملكية بالنهار ولتحكم بين الرعية والغرباء بالعدل والإنصاف فتنعم رعيته بالأمن ويظلمها الله سبحانه وتعالى بظلمه، ولتشتغل بالعبادة ليلاً فتكثر من الصلاة على النبى ﷺ والتوسل به ولتصدق على المحتاجين والنساك والعباد، ولتجرب راتباً على اليتامى وذوى العيال وعائلتى الأرامل والمساكين، فهذه الأعمال الطيبة وبركة النوايا الحسنة، يكون الأمل معقوداً فى رحمة الله بأن يبلغك مقصود قلبك وكل أمانيك وأن يمحو عن مزاجك الشريف كل ما علق به من كدر وهم، وأن يضع الخالق بعنايته سعادة ورضاء خاطرهم الشريف موضع العناية والاعتبار وأن يفعل ما يرضيكم فى العاجل إن شاء الله.

وهكذا أخذ الوزير «خردمند» يواسى الملك ويشد من أزره بهذا القول، فقال الملك (آزادبخت): من الأفضل أن نودى ما اقترحته أولاً وعندئذ فليقض الله أمراً كان مفعولاً.

وعندما اطمأن قلب الملك لحديث الوزير توجه إليه بالسؤال: وما حال أمراء الدولة ورجال الديوان وكيف تتقلب بهم الأمور؟ فأجابه الوزير قائلاً: كل أركان الدولة تلجج بالدعاء لقلبة العالم وتفتديه بالمال والروح، وهم فى غاية الاضطراب والقلق عليكم، فلتتفضل عليهم بالنظر إلى حسنكم المبارك ليطمئن خاطر الجميع، فهم الآن فى الانتظار فى الديوان العام.

فلما سمع الملك ذلك قال: «بمشيئة الله تعالى سأعقد الديوان غداً، فلتأمر الجميع بالحضور».

ولما سمع «خردمند» هذا الوعد سر سرورا لا مزيد عليه ورنع يديه بالدعاء قائلاً: أدام الله ملك جلالكم مادامت السماء والأرض، ثم استأذن فى الانصراف وخرج سعيداً، وحمل هذه البشرى للأمراء فانصرف كل منهم إلى منزله فرحاً سعيداً، وعمت الفرحة العارمة أنحاء المملكة، وعلم الرعية أن الملك سيعقد الديوان غداً، وفى الصباح وقف الجميع أمراء ووزراء وأركان دولة الصغير والكبير كل حسب منزلته، ليمثلوا بين يدى الملك، وظلوا فى انتظار مقدمه.

وعندما أصبح الصبح، رفعت الأستار وخرج الملك وترجع على عرشه المبارك، دقت الطبول فى كل جنبات القصر، وفى البداية قدم الحضور الهدايا والنذور والتحيات بين يدى الملك، فرد الملك تحية كل منهم وفقاً لمنزلته، ومكانته منه فسر الجميع وطاب خاطرهم. وعندما انتصف النهار نهض الملك ودخل إلى قصره وأمر بالطعام وبعد أن تناوله أخذ إلى الراحة والنوم، ومنذئذ قرر الملك أن يعقد الديوان صباحاً، ثم يقرأ الكتاب (القرآن) ويثلو الأوراد والتسابيح بقية اليوم، ويقف بين يدى الله سبحانه وتعالى يستغفره ويتوب إليه ويتوجه إليه بمطالبه وأمانيه.

و ذات يوم قرأ الملك فى أحد الكتب، أنه إن كان هناك شخص قد ألم به الهم والحزن ولم يجد منهما مخرجاً، فعليه أن يفوض أمره إلى الله سبحانه وتعالى ثم يتوجه إلى المقابر ويصلى ويسلم على رسوله ﷺ، وأن يتيقن فى نفسه هوان شأنه ويوقظ قلبه من غفلة الدنيا

ويبكي متحفظاً معتبراً ويتدبر قدرة الخالق سبحانه وتعالى الذى خلق كثيراً من قبله من ذوى المال والجاه، وبعد أن دار الزمان بهم صاروا تراباً طبقاً لذلك القول:

إذا نظر (دياكبيراً)^(١) إلى الطاحونة

بكى قائلاً: هكذا يسحق من يقع بين شقى الرحا

والآن من ينظر إلى سكان تلك المقابر لا يجد لهم من أثر سوى حفنة من تراب، وقد خلفوا وراءهم فى الدنيا ثرواتهم وألهم وذويعهم ومعارفهم وخدمهم وحشمهم وخيولهم وأفيالهم ولم تجدهم هذه الأشياء نفعا، بل إنهم أصبحوا مجهولين لا ذكر لهم ولا تعرف أحوالهم، وهل أكلتهم الأرضة والنمل والثعبان؟ وماذا مر بهم؟ وما آل إليه حالهم؟ وعندما يفكر الشخص فى هذه الأمور فى نفسه يدرك أن الدنيا كالفراشة، فيفتتح قلبه دائماً كالبرعم ولا يحزن من أى شىء ولا على أى شىء، وعندما اطلع الملك على تلك النصيحة فى الكتاب، تذكر قول وزيره «خردمند»، وأدرك تطابق النصيحة مع قول الوزير، ولكنه فكر أنه ليس من المناسب أن يركب ويسافر فى هيئة الملوك، بل من الأفضل أن يذهب للمقابر متخفياً ليلاً بعد أن يبدل ملابسه ويتذكر أن يلتحق بخدمة أحد الزهاد أو النساك أو يسهر طوال الليل، فربما يتحقق له عن طريق هؤلاء الموتى المراد فى الدنيا والنجاه فى الآخرة.

وبعد أن قرر الملك ذلك، ارتدى رداء عادياً ذات ليلة وأخذ معه بعض المال وخرج متخفياً من القلعة واتخذ طريقه إلى الخلاء ووصل إلى المقابر وكان يصلى على النبى ﷺ سليم النية صافى القلب، وأثناء سيره هبت عاصفة شديدة وعصفت ريح عاتية، وفجأة نظر الملك فأبصر على البعد ناراً تتلألأ مثل كواكب الصبح، فحدث نفسه قائلاً: إن هذا الضوء فى تلك الظلمة والريح الشديدة لا يخلو من حكمه، فهذا مصباح لو أشعل لا يستطيع شىء أن يطفئه، ولا تقدر أى ريح عليه، وأيا كان هذا الضوء وأيا كان هذا المصباح الذى ينبعث منه، فلا بد أن أذهب إلى حيث يوجد وأعرف حقيقته، فربما أضییء قنديل بيتى من نور هذا المصباح فأجد مراد قلبي.

وبهذا القصد توجه الملك إلى حيث ينبعث الضوء فلما اقترب منه، وجد أربعة من النساك المساكين وقد ارتدوا خرقاً بالية كالأكفان، يجلسون واضعين رؤوسهم بين أرجلهم وكانوا

صامتين كأنهم فى عالم اللا وعى، وهم فى حالهم هذا كمن سافر مفلساً معدماً مخلفاً وراءه وطنه وعشيرته متحيراً مشغولاً متأماً لفراقهم، وقد تجمدوا فى أماكنهم وكأنهم نقش على جدار وجوارهم سراج خافت الضوء موضوع على حجر لا يطفئه الهواء قط وكأن السماء هى فانوسه الذى لا خطر منه .

ولما رأى الملك «آزادبخت» هذا المشهد قال لنفسه: من المؤكد أن أمنيتك سوف تتحقق ببركة هؤلاء الزهاد وستينع شجرة أملك الذابلة بهم، فالتمض إلى خدمتهم ونقص عليهم خبرك، وتشاركهم مجلسهم، فربما يدعون الله رحمة بك ويتقبل الله دعاءهم، وأراد أن يتقدم إلى حيث يجلسون لكنه تريت لحظة وقال لنفسه: «أيها الأحمق لا تتسرع ولتتمهل قليلاً فأنت لا تعلم من يكون هؤلاء؟ ومن أين أتوا؟ وإلى أين هم ذاهبون؟ رُئى لك أن تعرف إن كانوا شياطيناً أو وحوشاً صحراوية وقد تمثلوا فى صورة الإنسان وجلسوا على هذا النحو وتلك الحال، فليس من الأفضل الإسراع والتدخل فيما بينهم، بل الأحسن أن تنتحى جانباً وتختبئ لتعرف حقيقة هؤلاء الدراويش، وفى النهاية جلس الملك مستتباً فى أحد الأركان صامتاً لا يشعر به أحد، وأخذ ينظر إلى هؤلاء الدراويش ويستمع إلى حديثهم، وفجأة عطس أحدهم وحمد الله، فاضطرب الآخرون لانبعاث هذا الصوت، فرفعوا فتيل المصباح ليضىء أكثر وتوجهوا إلى فراشهم وشرعوا فى تدخين النار جيلة، وقال أحد هؤلاء الأحرار: أيها الأحياء والرفاق فى كل مكان، لقد همنا على وجوهنا فى كل مكان فترة من الزمن ولكن بحمد الله سبحانه وتعالى ويعونه التقينا سوياً اليوم فى هذا المكان، ولا نعلم ماذا سيكون المصير غدا؟ هل سنبقى معاً أم نفترق؟ والليل طويل كالجبل وليس من المستحب أن نخلد إلى النوم الآن، والأفضل أن يقص كل منا ما مر به فى حياته شريطة ألا يكذب قط، وبهذا الحديث قطع الليل، وعندما ينقضى معظمه، نخلد إلى النوم .

فقال الجميع: أيها المرشد لقد قبلنا كل ما اقترحت على الرأس والعين، لكن لتبدأ أنت أولاً وتحكى لنا حكايتك حتى نفيدها منها:

رحلة الدرويش الأول

اتكأ الدرويش الأول على ركبتيه، وشرع فى سرد قصته قائلا: يا عباد الله، لتلثفتوا إلى، ولتستمعوا إلى كل ما ربى:

استمعوا إلى سيرتى بأذن مصغية
استمعوا فقد تبدلت أحوال الزمان بى
وإن كل ما ربى من الشدائد والصعاب
سوف أبينه لكم فاستمعوا إليه

أينما الأصدقاء، كان مولدى فى بلاد اليمن وهى بلاد الصالحين وكان والدى «خواجه أحمد، تاجرا كبيرا وملكا للتجار، ولا يدانيه أى ثرى ولا يفوقه أى ملك فى ذلك الوقت، فقد كان يملك كثيرا من القصور وله وكلاء مندوبون للبيع والشراء وكان فى بيته الآلاف من الروبيات والسلع والبضائع، رزقه الله باثنين من الأولاد، الأول هو أنا الفقير إلى الله الحاضر فى خدمة المرشدين فى لباس رث متواضع ويتحدث إليكم الآن، وأختى التى زوجها والدى فى حياته تاجرا وكانت تعيش فى بيت زوجها، والخلاصة كنت وحيدا فريدا فى هذا البيت الثرى فتصوروا مدى حب الوالد لى، فلقد نشأت وترعرعت فى ظل والدى فى كل نعمة وهناء، وبدأت أتعلم فنون الحرب والقتال وفن حساب التجارة والدفاتر وكذلك قضيت أربع عشرة سنة من عمرى فى لامبالاة، ولم يخطر ببالى أن ينزل بى أى شدة فى الدنيا، لكن فجأة توفى أبى وأمى كلاهما فى عام واحد بقضاء الله وقدره.

بعدها أصبت بحزن شديد أعجز عن بيانه، فبغته أصبحت يتيمًا وما بقى لى أحد من الكبار يعيننى، وكنت أبكى دائما على هذه المصيبة التى حلت بى فجأة، فصمت عن الطعام والشراب، وانقضى أربعون يوما واجتمع فى الأربعين الأقرباء والمعارف وغيرهم، وبعد الفراغ من قراءة الفاتحة، عينونى خليفة لأبى وأوصونى قائلين: «لن يبقى أى أب أو أى أم فى الدنيا إلى الأبد فكل نفس ذائقة الموت ونحن أيضا سنموت يوما، فاصبر وتول أنت مسئولية البيت فقد أخذت مكان أبيك، فلتلثفت إلى تجارتك ومعاملاتك».

وبعد العزاء رجع كل منهم إلى بيته، ثم حضر الوكلاء والعملاء والخدم، وسلموا على وقالوا: الق نظرة مباركة على الأموال والبضائع، وحينما رأيت فجأة هذه الأموال الطائلة

جحظت عيناى دهشة، أمرت بإعداد غرفة الاستقبال، فزين الخدم البيت بالأثاث الأنيق والمتاع الفاخر والسائر الجميلة وغيرها، وعينت لنفسى أفضل الخدم، وارتديت لباساً فاخراً وجلست على الأريكة مستنداً إلى الوسادة، وصاحبنى وقتها رجال كذابون طماعون متملقون وكنت أصحابهم ليل نهار، وكانوا يتحدثون عبثاً ولغوا ويقولون: أنت شاب، اطلب الخمر والورد وجالس الحسان وشاركهن الخمر.

الخلاصة أن شيطان الإنسان إنسان، فضلت الطريق القويم وتبدل الزمن، وبدأت ممارسة الغناء والرقص فى كل وقت ونسيت التجارة واشتغلت بالميسر والمقامرة، فلما رأى الرفاق والخدم أننى غافل تماماً عن ثروتى وتجارتى، بدأوا يأخذون منها ويسرقونها وأنا لا أدرى شيئاً عن النفقات والمصاريف، من أين تأتى ولا إلى أين تذهب؟ فالمال بلا حساب والقلب قاس، وفى تلك الحال حتى لو أننى كنت أملك خزائن قارون فإنها لن تبقى، وفجأة أصبحت فقيراً لم يبق لى من اللباس سوى مايستربدنى، وتنكر لى كل الناس حتى أصدقائى وندمائى، بل إننى كنت إذا التقيت بهم فى الطريق أشاحوا بوجوههم عنى، وتركنى الحرس والخدم ولم يبق لى من يسأل عن أحوالى إلا الهم والحزن، ولم يبق لى شىء من الحمص لكى أقتات به كما لم يعد عندى ما أشربه، وقضيت يومين بدون طعام، لكننى لم أقدر على الجوع أكثر من ذلك، فأردت أن أذهب إلى أختى لكن الندم كان يساورنى لأننى لم أصنع معها أى معروف منذ وفاة أبى ولم أرسل لها أى رسالة، بل إنها أرسلت لى عدة رسائل للمواساة ولتعزىنى فى وفاة أبى لكننى لم أرد عليها لذا كنت متردداً ولا أريد الذهاب إليها، لكن لم تكن لى حيلة ولم يكن لى ملجأ سواها، وفى النهاية عقدت العزم وذهبت إليها راجلاً بعد مشقة طويلة، فنظرت أختى لى وبكت بكاءً حاراً على ما آل إليه حالى، وتصدقّت بمالها على الفقراء من أجلى وقالت لى: إننى مسرورة جداً بلقائك لكن بالرغم من ذلك فأنا مندهشة لما أنت فيه من سوء الحال واعتلال البدن فكيف حدث هذا؟ فلم أستطع أن أجيبها وفاضت عيناى بالدمع، فأمرت بحياكة لباس جديد لى، فاغتسلت ولبسته وخصصت لى سكناً فاخراً عندهم لأقيم فيه، وكانت تعد لى الإفطار كل يوم من الحلوى والعصائر، والغذاء والعشاء من الأرز مع اللحم والكباب والفواكه وغيرها ولا تتركنى إلا بعد الفراغ من الطعام، وكانت تقوم على راحتى وتستضيفنى بأحسن ما تكون الضيافة، فشكرت الله عز وجل آلاف

المرات لأننى وجدت هذه الراحة بعد مشقة طويلة، وقضيت عند أختى بضعة أشهر مأكثاً ومستريحاً فى البيت.

و ذات يوم بدأت أختى - التى هى بمثابة الأم لى - التى تقوم على راحتى - تحدثنى قائلة: يا عزيزى أنت أختى ونور عينى، وتذكرك لوالدى ووالدى، ولقد طابت نفسى بقدمك، فحينما أراك أصبح كالحديقة وأنت لى البرعم، لكن الله تعالى قد خلق الرجال للكسب والكد والعرق، والراحة بالبيت ليست من شيم الرجال، والرجل الذى يلزم البيت يطعن الناس فيه خاصة وأن كل من بالمدينة صغيراً وكبيراً يقول بعد أن يراك هنا بدون سبب: إنه أهدر ثروة أبيه ويعيش عالة على زوج أخته، وهذا الأمر يخذل كرامتى وكبريائى وكذلك أنت، ولنا فى هذا القول ذلة ومهانة، ولوالدنا فضيحة وسوء سمعة وأنا لا أستطيع أن أخفيك عن عيون الناس، فأرجوك أن تسافر، وستتبدل تلك الأحوال إن شاء الله وتتحسن وسيعقبها الفرح والسرور. وبعد أن استمعت إلى قولها اشتعلت غيبتى واستحسننت هذه النصيحة منها وقلت: يا أختاه أنت بمثابة الأم لى، مرى بما تشائين وسأمتثل إن شاء الله وبعد موافقتى على هذا الأمر ذهبت أختى ثم عادت مع الجوارى بالأموال وقالت: «ستخرج قافلة التجار إلى دمشق، فلتشتري بهذه الأموال سلعة واعطها لتاجر أمين واستكتبه صكاً موثقاً، واستعد أنت أيضاً للسفر إلى دمشق، وبعد أن تصل إليها سالما إن شاء الله، أحص مالك وأرباحه واعرفه جيداً، وإلا فلتقم أنت بالبيع بنفسك».

فذهبت إلى السوق واشترت البضائع وسلمتها إلى تاجر كبير واطمأننت بكتابة الوثيقة وقراءتها، وسافر التاجر بالسفينة بحراً، وأردت أنا أن أسلك طريق البر، وعندما هممت أن أودع أختى منحنتى ثوباً وفرنساً جميلاً، وعلقت بسرج الفرس وعاءً مملوءاً بالمأكولات والحلوى وقربة للماء، وعقدت رابية الإمام الضامن فى عضدى، ووضعت علامة الماست على رأسى وقالت حابسة دموعها: عش محموداً، أستودعك الله سبحانه وتعالى، أرجع كما ذهبت.

فقرأت فاتحة الكتاب وقلت: فليحفظك الله لقد قبلت نصيحتك، ثم امتطيت الجواد وتوكلت على الله وقطعت المنزلين فى منزل، والمسافة فى نصف الوقت حتى بلغت مشارف دمشق.

وحينما وصلت إلى باب المدينة، كان ذلك فى ساعة متأخرة من الليل، وقد أغلق الحرس

البوابة، وتوسلت إليهم كثيراً كي أدخل وقلت: أنا مسافر، وجئت من بلاد بعيدة مسرعاً، فافتحوا كي أدخل وأنال قسطاً من الراحة فأجابوني بغلظة قائلين: «لا يسمح لنا أن نفتح البوابة في تلك الساعة من الليل فلماذا جئت الآن؟» فلما سمعت ردهم الصريح ترجلت عن فرسى وفرشت سرجى بالقرب من سور المدينة وجلست عليه، ثم بدأت في المشي لأسهر، ولما انتصف الليل هدأ كل شيء، فإذا بى أرى صندوقاً يتدلى من جدار الحصن، فعقدت الدهشة لسانى وتساءلت في نفسى وقلت ما هذا؟ ربما أرسل الله سبحانه وتعالى خزينة الغيب (طاقة القدر) لطفاً بأحوالى، وتوجهت حيث الصندوق خائفاً وبعد أن استقر على الأرض، وجدته صندوقاً خشبياً ففتحه بحرص، ووجدت به حساء بارعة الحسن تخبب الأبواب، وكانت جريحة ملطخة بالدماء تتأوه من شدة الألم، مغلقة العينين تتحرك شفثاها وتتمتم ببعض الكلمات وتقول: «أيها الشقى، ناقض العهد، أيها الظالم، هل هكذا يكون جزاء الخير والحب؟ فلتضرب كما تشاء، لقد فوضت الأمر إلى الله، هو الذى يعدل بينى وبينك وسحبت خمارها على وجهها وهى غائبة عن وعيها فى ذهول ولم تلتفت إلى».

ولما رأيت حالتها وسمعت منها ما سمعت تساءلت في نفسى: أى وضع ظالم طعن تلك الحسنة الفاتنة؟ وماذا دار فى خاطره؟ وكيف امتدت يده إليها؟ فمحبته باقية فى قلبها حتى الآن، فهى لا تفتأ أن تذكره ذلك الذى بطش بها، وبينما كنت أحدث نفسى سمعت تلك الحسنة صوتى وفجأة رفعت نقابها عن وجهها وفى تلك اللحظة التى وقعت فيها عيناى عليها، كدت أفقد وعيى واختلج صدرى وارتعد قلبى، وتمالكت نفسى بكل صعوبة، وتجرأت وسألتها: «أصدقينى القول من أنت؟ وماذا حدث لك؟ فلو حكيت لى فسوف تريحين قلبى».

وبعد أن سمعت سؤالى أجابت على مهل على الرغم من عدم قدرتها على الكلام قائلة: «الحمد لله أن حالى هذا من أثر الجرح فماذا أقول؟ إن الإنسان ضيف على الحياة، وحين همت روحى بالخروج أرسل الله إلى رجلاً رحيماً، فقد أخفى تعس الحظ الصندوق وألقاه فى مكان، ولكن ببركة الدعاء نجوت أنا ونلت أنت الثواب، وصمتت بعد أن قالت ذلك».

وطوال الليل لم يكن بيدي ما أستطيع أن أفعله، فرفعت ذلك الصندوق وأحضرتة عندى وظللت أعد الساعات المتبقية على انقضاء الليل وانبلاج الصبح كي أدخل المدينة وأحاول قدر استطاعتي علاجها، وكانت الساعات المتبقية من الليل كأنها جبل فوق قلبى وصدرى، وعندما بزغ الفجر بفضل الله وصاح الديك وبدأت أصوات الناس فى الانبعاث صليت صلاة

الفجر ووضعت الصندوق فى جوال، وبمجرد أن فتحت أبواب المدينة دخلتها على الفور، ورحت أسأل كل من ألقاه من الناس أو أصحاب الحوانيت عن مكان أستأجره، وبعد بحث وتنقيب استأجرت مكاناً جديداً فسيحاً وأول ما فعلته أننى أخرجت تلك الحساء من الصندوق واخترت لها مكاناً مناسباً وأرحتها به، وتركتها مع رجل وقور، وخرجت للبحث عن طبيب (جراح) وسألت أهل المدينة عنه وأين يقيم؟ فقال لى أحدهم: هناك طبيب ماهر وحكيم فى فنه وفريد فى براعته لو قصدته شخص فإنه بفضل الله وبحكمته يدرك بغيته، وهو يقيم فى هذا الحى واسمه عيسى.

وبعد أن سمعت هذه البشرى ذهبت على الفور وأخذت أبحث عن العنوان حتى وصلت إلى الباب، فرأيت رجلاً ذا لحية بيضاء يجلس فى رواق البيت، ويجواره بعض الرجال يعدون المراهم ويمزجونها، فحييت الرجل وسلمت عليه بتوقير وقلت: لقد جئتك بعد أن سمعت عن شهرتك وبراعتك، والذى حدث هو أننى خرجت من بلدى للتجارة، وأخذت زوجتى معى لمحبتى لها، وعندما أقترينا من هذه المدينة كان المساء قد حل بنا، ورأينا أنه من الأفضل ألا ندخلها ليلاً، فجلسنا تحت شجرة بالميدان فهاجمنا اللصوص واستولوا على الأموال والأمتعة وطعنوا زوجتى ولم يكن بيدي ما أستطيع فعله فقطعت ما بقى من الليل على أحر من الجمر. وعندما أشرق الصبح دخلت المدينة واستأجرت بيتاً وتركتها به وجئت إليك من بعيد، ولقد وهبك الله الكمال والبراعة فلتكرم على الغريب المسافر، ولتأت معى وتشرف بيتى وترأها، وإن كتبت لها النجاة فسيكون معروفاً كبيراً منك وسأكون مطيعاً لك طوال حياتى، وكان عيسى الجراح عارفاً بالله رحيم القلب، فجاء معى بعدما أدرك مدى خوفى وجزعى من حديثى معه، وبعد أن نظر إلى جروحها طمأننى قائلاً: بفضل الله ستشفى تلك السيدة من جراحها خلال أربعين يوماً.

الخلاصة أن هذا الرجل غسل كل الجروح بماء دئيم، وطهرها وخاط الجرح خياطة متقنة، وما بقى من الجرح فقد أخرج حقاً من جيبه ودهنه ثم ربطه وقال برفق شديد: سوف أحضر مرتين يومياً كى أعتنى بها وأرعاها، والحركة ممنوعة حتى يشفى الجرح، ولتصبوا فى قمها حساء الدجاج عوضاً عن الطعام ولتسقوها شراب ماء الورد بريح المسك حتى تسترد عافيتها، قال ذلك واستأذن فى الانصراف فشكرته شكرياً جزيلاً وشددت على يده قائلاً: لقد أحييتنى بفضل براعتك وسعيك لشفاها، ولم ينقذنى من الموت سواك غنمك الله السلامة ومنحته

نبات «البان»، وأذنت له بالانصراف وودعته وكنت أقوم على خدمة تلك الحساء ليل نهار، وحرمت الراحة على نفسى، وتضرعت لله سبحانه وتعالى أن تسترد عافيتها يوماً بعد يوم.

وبالصدفة حضر ذلك التاجر واعطانى مالى الذى كان أمانة لديه، وبدأت فى إنفاقه على علاجها ودوائها، ودوام الطبيب على الحضور، وخلال فترة وجيزة التأمت واندملت كل الجروح، وبعد عدة أيام اغتسلت الحساء غسل الشفاء، وانتابتنى فرحة عارمة وكافأت عيسى الجراح بالخلع أو الأموال وأجلست فانتنى على أريكة نفيسة، وتصدقت كثيراً على الفقراء والمساكين، وكنت فى ذلك اليوم كمن ملك فى يده ملك الأقاليم السبعة، وبعد أن شفيت تبدل لونها وأصبحت تتلألأ كالشمس وتلمع كالذهب الخالص ولا يستطيع أحد أن يطيل النظر إلى حسنها البارع، والفقير قائم على خدمتها بإخلاص، وكنت أمتثل لكل ما تأمرنى به، أما هى فقد كانت تنليه بحسنها وفتنتها، ومالها من رفعة شأن وعزة وشرف، وذات مرة توجهت إلى بنظرها وقالت: انتبه إن كنت ترغب فى أن تكون إلى جوارى، فلا تعترض على أمر أمرك به قط ولتقم بأداء كل ما أمرك به بلا اعتراض ولا تتدخل فى شئونى على الإطلاق، ولا تسألنى وإلا فستندم.

ومن هذا المنطلق كان يبدو أنها تبغى أن أعمل خادماً لديها، أما أنا فكنت لا أفعل ما يغضبها وأنصاع لرغباتها وألتزم بكل أوامرها.

ومرت فترة على تلك الحال، كنت أقوم فيها بكل ما تأمرنى به على أكمل وجه، وأنفقت كل ما أمتلكه من مال ومتاع عن آخره وكم عانيت فى تدبير أمور المعيشة اليومية، ولم أجد من يقرضنى فى هذا البلد الغريب، فاضطربت أحوالى كثيراً، ونال الضعف والوهن منى يوماً بعد يوم، وامتقع وجهى، ولكن لمن أشكو ضيق حالى، فما مر على القلب قد مر، وظلم الفقير على الفقير^(٢)، وأدركت الحساء ما أنا فيه من ضيق فقالت لى: «يا هذا!!! إن ما قمت به من أجلى وفى خدمتى محفور فى قلبى كالنقش على الحجر، لكن ليس فى مقدورى أن أكافئك عليه فى الثرو والحال، فإن كنت لا تملك ما تنفقه على مايلزم من الضروريات، فلا بأس عليك ولتحضر لى دواة وقرطاساً، ففكرت فى تلك اللحظة أن من تتحدث بهذه الطريقة هى بنت ملك من الملوك، وأحضرت ما طلبت فوراً، فكتبت تلك الفتاة خطاباً مهوراً بإمضائها الخاص وأعطته لى قائلة: «اذهب إلى القلعة فستجد هناك مكاناً متسعاً فسيحاً، اسم مالكه «شيدى بهار» أعطه هذه الورقة».

فوصلت إلى حيث وصفت لى، وأرسلت الخطاب مع الحارس فخرج على الفور شاب حبشى جميل ذو عمامة وإن كان لونه مائلاً للسمره لكنه حسن الطلعة، فأخذ الخطاب منى ورجع فوراً دون أن ينبس ببنت شفة، وبعد برهة جاء بصناديق مختومة يحملها الغلمان على رؤوسهم وأمرهم قائلاً: «أذهبوا برفقة هذا الشاب إلى بيته، فسلمت عليه ورجعت إلى البيت وعلى الباب ودعت الغلمان ليعودوا من حيث أتوا، وحينما قدمت هذه الصناديق إلى الحسنة قالت: خذ هذه الأكياس الأحد عشر الممثلة بالنقود وأنفقها عن آخرها والله رازق إن شاء الله تعالى، فأخذت المال وكنت أنفقه حسب الحاجة، لكننى لم أكن مطمئناً وتساورنى التساؤلات والشكوك، إذ كيف بالله منحتنى تلك الفاتنة هذه الأموال دون ضمان، وإن سألتها عن مصدرها فهى قد نهتنى من قبل عن السؤال ولا أستطيع سؤالها خوفاً منها.

وبعد ثمانية أيام خاطبتنى تلك الحسنة قائلة: إن الله عز وجل أعطى الإنسان لباس الإنسانية الذى لا يبلى ولا يتمزق ولا يتسخ، وإن كان الإنسان لا تتبدل مكانته عند الله سواء كان رث الملابس أو عظيماً فإن بالى الملابس لدى الناس لا قيمة له، فلتذهب إلى دكان التاجر يوسف واشتر خلعين فاخرتين ثمينتين.

فركبت إلى حيث هذا الدكان، فوجدت شاباً يلبس ثوباً زعفرانياً جالساً على أريكة، وكان جميل السمات والقسمات حتى كان الناس يقفون لرؤية طلعه البهية، فسلمت عليه وجلست بالقرب منه وأنا فى غاية الشوق إلى قريه وقدمت إليه حاجتى وكانت لهجتى مختلفة عن لهجة أهل هذه المدينة، وقال لى هذا الشاب بحرارة: كل ما ترغب فيه موجود لدينا، لكن أخبرنى من أى البلاد أنت؟ وما سبب إقامة الغريب فى تلك البلدة؟ فإن أخبرتنى عن السبب فهذا فضل منك، ولم يكن لدى رغبة فى أن أطلع على أحوالى، فأجبت إجابة غير شاقية وأخذت الملابس والجواهر، ونقدته الثمن وهممت بالذهاب، فقال الشاب غاضباً: يا أختى إن كنت تريد أن تسلك هذا المسلك معى، فلم أبديت الصداقة أولاً؟ فالسلام له قيمة كبيرة لدى الكرام من الناس، فانشرح صدرى لحديثه ووجدت أنه ليس من المروءة أن أكون معه على تلك الحال، فجلست إكراماً له، وقلت: أنا طوع أمرك ورهن إشارتك فسر كثيراً لقولى وضحك قائلاً: «لبيك تشرفنى فى دارى اليوم فسأقيم حفلاً لاستقبالك لنتسامر بعض الوقت، ونتناول العشاء سوياً، ولما لم أكن قد تركت تلك الحسنة بمفردها قط، لذا كنت أسوق لهذا التاجر الشاب الحجة تلو الحجة لكنه لم يتقبل عذرى قط.

وفى النهاية ودعنى بعد أن أقسمت له بأننى سأعود إليه بمجرد أن أوصل ما اشتريته من ملابس للبيت فأذن لى، فنهضت وحملت الملابس والجواهر إلى الحساء بالبيت فسألتنى عن قيمة تلك المجوهرات وصفات الصائغ، فقصصت عليها كل ما حدث من أوله إلى آخره، وكيف أكرم هذا التاجر وفادتنى، وأنه وجه لى الدعوة لزيارته فى المساء، فشرعت فى الحديث قائلة: إن على الإنسان أن يفى بوعده، فلتف بوعدك وقسمك تاركا إياى فى حفظ الله، فقبول الضيافة من سنة الرسول عليه الصلاة والسلام فقلت لها: لا رغبة لى فى أن أذهب وأتركك بمفردك لكن الأمر ما أمرت به وعلى الطاعة فسأذهب لكنى سأترك قلبى معك. ثم توجهت إلى دكان الصائغ ووجدته جالسا فى انتظارى، فقال بمجرد أن رآنى: «تفضل فقد انتظرتك طويلاً».

وأخذ التاجر بيدي وذهبنا إلى حديقة غناء ذات نسيم عليل مليئة بالجداول والأنهار والفوارات، وتحفل بشتى أنواع الثمار والفواكه التى تهتز الأشجار تحت ثقلها، وعلى تلك الأشجار السامقة تصدح مختلف الطيور بأعذب وأشجى الألحان، وفى كل ركن من أركان الحديقة الرياش والبسط الفاخرة، وأجلسنى ذلك الشاب فى قصر على حافة نهر، وبعد برهة تركنى ومضى، ثم عاد ثانية وقد ارتدى ثوبا مناسبا فقلت بعد أن رأيته: تبارك الخلاق فيما خلق، جنبك الله عين الحسود، فابتسم وقال: من المناسب أن تبدل ملابسك أنت أيضا يا أختى: ولأجل خاطره بدلت ملابسى أنا أيضا، وقد أعد هذا الشاب كل أسباب الضيافة باهتمام وعناية وأحضر كل ما يجلب للقلب السرور، ثم بدأ يجاذبنى أطراف الحديث بحفاوة بالغة وفى أثناء ذلك أحضر الساقى دنان الخمر والكئوس البلورية وأحضر ما تشتهى الأنفس من صنوف الطعام، ودار الساقى بالشراب، وبعد الكأس الرابعة حضر إلى المجلس أربعة فتيان فى غاية الحسن مطلقى الشعر وأخذوا يغنون ويصفقون، ولو حضر إلى هذا العالم «تان سين» وسمعه لئسى منه كله، وبعد أن يسمعه «بيجو باؤر» سيفقد عقله، ومن فرط المتعة أغرورت عينا هذا التاجر الشاب وقاض دمه رغما عنه، فقلت له: «لقد توطدت أواصر الصداقة بيننا، ولا يجوز للصديق أن يكتم سره عن صديقه فى أى مذهب».

فقال ببساطة ودون تردد: «إن لى بالبيت حبيبة تجلس بمفردها، وأريد أن أدعوها إلى هذا الحفل لأسرى عن قلبها وقلبى لا يطيق فراقها لحظة واحدة».

قال هذا هو القول وهو فى غاية الشوق لدرجة أننى اشتقت إليها على الرغم من أننى لم ألتق بها من قبل .

فقلت له : «إننى مقدر لفرحك وسرورك فلتفعل ما شئت ولا تبطئ فلا لذة ولا متعة بدون الحبيب» .

فأشار هذا التاجر الشاب إلى مكان ما، فجاءت إليه امرأة سوداء - يموت الإنسان قبل أجله من رؤيتها - وجلست إلى جواره، فدب الخوف فى قلبى لرؤيتها وقلت فى نفسى : «هل هذه المرأة هى حبيبة هذا الشاب التى اشتاق إليها وأسهب فى مدحها؟» . وقلت لا حول ولا قوة إلا بالله وسكت .

ودام المجلس ثلاثة أيام وفى الليلة الرابعة غلبنى السكر والنعاس فرحت فى سبات عميق، وعندما أصبح الصبح، أيقظنى الشاب وسقانى الخمر قائلاً لحبيبتة: «ليس من اللائق أن نكلف هذا الشاب أكثر من هذا»، وقام الاثنان واستأذنت أنا فى الانصراف فأذن لى بترحاب، وارتديت لباسى القديم ورجعت إلى بيتى، ومثلت بين يدى تلك الحسنة، ولم يكن قد سبق لى تركها بمفردها .

فاعتذرت لها وأنا فى غاية الخجل والأسف، وقصصت عليها وقائع حفل الضيافة، وكيف أن ذلك الشاب لم يسمح لى بالانصراف قبل مضى الثلاثة أيام، وكانت هذه الحسنة من الفطنة والحكمة بحيث ابتسمت قائلة: «لا جناح عليك فقد فعلت ذلك من أجل صديقك وقد عفوت عنك فلا بأس عليك، وعندما يذهب الإنسان لى الآخرين لا يعود إلا برضائهم، لكن هل ستصمت أنت بعد هذه الدعوة؟ أم توجه إليه أنت أيضا الدعوة لينزل فى ضيافتك؟ عليك أن تدعو هذا التاجر وتكرم وفادته ولا تشغل بالك بكيفية حدوث ذلك، فسيكون كل شئ بين يديك فى التو والحال بفضل الله تعالى، وسيشرف ضيفك المكان وينيره» .

فذهبت إلى الصائغ امتثالاً لأمرها وقلت له : «أنا قبلت دعوتك على الرأس والعين فلتلب دعوتى»، فقال لى «طوع أمرك ورهن إشارتك» .

وقلت له : «لو تشرفنا بالحضور فهذا عين الكرم، فساق لى شتى الحجج على عدم تمكنه من الحضور، لكننى ألححت عليه حتى قبل وأخذته معى إلى بيتى، لكننى فكرت فى نفسى أثناء الطريق وقلت: «لو كنت أقدر بنفسى على ضيافته، لكنت قد استضافته حتى يسعد بهذه الضيافة ويتذكرها على الدوام، والآن سأذهب به وأنظر ماذا سيحدث» .

وفى هذه الأثناء بلغنا المنزل، ففرجنت بعلامات الفرح والسرور بادية على البيت، ووجدت كل الأرجاء نظيفة تفوح منها رائحة العطر، والحرس قائمون عند الباب، فدهشت لكننى تيقنت من أنه بيتى فدخلته، ووجدت الرياش والمتاع والطناقس فى كل مكان والبسط ذات الألوان البديعة، وقد صفت الأوانى والقنينات فى كل مكان ورأيت كثيراً من التحف والنفائس وكانت المصابيح مضاءة فى الطاقات وقد ازدانت تلك الطاقات بالورود والزهور، ورائحة البخور والصندل تفوح وتتبعث من أحد الأركان والقناديل مضاءة بالشمع الكافورى فى الردهات والطرقات والثريات تتدلى من كل مكان وكل يؤدى واجبه ويشغل موقعه المحدد، ومن المطبخ تصدر أصوات القدور والأوانى ومكان الماء على أتم استعداد فقد وضع الماء فى الأباريق وربط بالقماش ليبرد، وقد صفت الأوانى والصحاف والأكواب ووضع الثلج فى الأباريق.

والخلاصة لقد كان كل شىء على أهبة الاستعداد للحفل والضيافة والراقصات والراقصون الذين يرتدون زى النساء والمنشدون يجلسون فى زى فاخر وينشدون الأغانى على إيقاع الموسيقى.

فأجلست هذا الشاب التاجر على أريكة وقد عقدت الدهشة لسانى، إذ كيف تسنى كل ما أراه فى هذا الوقت القصير ولماذا؟ وكنت أبحث عن الحساء فى كل مكان لكننى لم أجدها، فذهبت إلى المطبخ فوجدتها هناك مرتدية حلة الطباخ، وكانت بدون زينة.

- ليس بحاجة إلى الزينة من وهبه الله الحسن

- فانظر إلى القمر فهو جميل دون حلى أو زينة

وكانت الحساء تشرف على الإعداد للحفل، وتقول مؤكدة ومحذرة لكل شخص، انتبه لابد أن يكون الطعام لذيذاً ويكون الماء والملح بالقدر المطلوب وكان العرق يتصبب منها.

فوقفت إلى جوارها ومدحتها ودعوت لها، فغضبت قائلة: «الإنسان يستطيع أن يفعل أشياء لا يقدر عليها الملائكة، فماذا فعلت أنا حتى تتحير وتندهش؟، فاعتذرت لها فلم تقبل وقالت: «لماذا تركت الضيف بمفرده وحيداً وأخذت تتجول فى الأنحاء؟ وماذا سيقول فى نفسه الآن؟ اذهب بسرعة إلى المجلس لتؤنسه وادع حبيبته أيضاً إلى الحفل».

فذهبت إلى التاجر الشاب ورحلت أجاذبه أطراف الحديث بحفاوة عظيمة وأثناء ذلك جاء غلامان وسيمان يحملان الشراب في القنينات وبدءا يدوران بالخمير، فقلت لهذا الشاب: «أنا طوع أمرك بيد أننى أريد أن أدعو الحسنة التي تميل إليها بقلبك فإن أذنت أرسلت في دعوتها».

ففرح قائلا: «هذا حسن لقد نطقت بما يدور في خلدي». فأرسلت إليها خدما، فحضرت هذه المرأة على هودج في منتصف الليل، وقد استقبلتها بحفاوة رغم أنفى وأجلستها إلى جوارى ففرح هذا الشاب لرؤيتها كأنه نال نعيم الدنيا، وتعلقت هذه السوداء برقبته، وبدا هذا المشهد وكأن القمر خسف وهو بدر، فعرض الجميع أناملهم غيظاً لرؤيتهم هذا المشهد وكأن لسان حالهم يقول: أية مصيبة وقعت على رأس هذا الشاب؟ وشخص الحضور بأبصارهم إلى هذا المنظر تاركين كل ما يشغلهم من رقص وغناء فقال أحد الأشخاص: «أيها الأصدقاء إن بين العشق والعقل عداوة، فالعشق يخالف قواعد وأصول العقل، انظروا لليلي بعين المجنون، فقال الجميع: «آمنا بهذا القول».

ورغم كل هذا كنت أقوم على خدمته امتثالاً لأمر تلك الحسنة وكان هذا الشاب يداعب ويغازل حبيبته وكنت لا أرغب في رؤية ذلك، لكننى قبلت مرغماً طاعة لأمرها، ولم ألتفت إلى ما يحدث بالحفل ولم أشارك فيه طبقاً لأصول الضيافة، ومرت ثلاث ليال، وفي الليلة الرابعة قال التاجر الشاب: «نحن نرغب في أن تشاركنا الشراب، فلقد تركنا التجارة وكل شيء من أجلك منذ ثلاثة أيام: فقلت في نفسى إن لم أقبل طلبه فقد يتضايق فلا بد من قبول طلب الصديق الجديد من أجل واجب ضيافته، فقلت للشاب: (أنا طوع أمرك وأمرك فوق الأدب) فقدم لى كأس الخمر فشربت، ثم بدأت الخمر تدور بالمجلس وغاب الجميع عن وعيهم وأنا معهم».

وحينما انبلج الصباح وارتفعت الشمس في السماء ذراعين استيقظت وفتحت عيني ونظرت حولي، فلم أجد حفلاً ولا مجلساً ولا حسنة، وكان هناك منزل خال كبير، إلا من غطاء ملفوف في أحد الأنحاء، وعندما فتحته وجدت به الشاب وحبيبته مذبوحين، وطاش صوابي من هول ما رأيت، وشل عقلى عن إدراك ما كان وكيف كان؟ وأخذت أنظر هنا وهناك متحيراً وأثناء ذلك رأيت خادماً كنت قد رأيته أثناء الحفل فاطمئن قلبي لرؤيته بعض الشيء فسألته عما حدث فأجابنى قائلاً: «ما الفائدة في أن تفتش وراء هذا الحادث؟ فأمتت في

نفسى بصدق ما يقوله، وتأمّلت لحظة ثم قلت: «لا جناح عليك لو لم تخبرنى بالحقيقة، لكن لتخبرنى إذن أين عنوان حبيبتي؟» فقال: «لا شك أننى سأخبرك بكل ما أعرفه، ولكن وأنت صاحب عقل وبصيرة لماذا ذهبت إلى هذا الرجل واحتسيت الخمر معه دون تكلف على الرغم من أن معرفتك به لم يمض عليها أكثر من أيام معدودة؟».

فأخذنى عميق الندم وشديد الأسف من جراء نصيحته وما أقدمت على فعله، ولم أنبس ببنت شفة، إلا قولى ألتمس العذر إننى قد قصرت، فأشفق على هذا الخادم ودلنى على عنوانها وودعنى، وبدأ يفكر فى كيفية مواراة هاتين الجنتين، وكنت قد ذهبت بعيداً خشية أن تلصق بى هذه التهمة، وظللت أسير مضطرباً متعثراً أسقط ثم أنهض لأسقط ثانية لفرط شوقى إليها، حتى وصلت مساءً إلى عنوانها، وقضيت الليلة مضطرباً فى ركن بجوار باب منزلها، ولم أسمع أى صوت لوقع أقدام المارة، ولم يسألنى أحد عن هويتى، وأدركنى الصبح وأنا على تلك الحال من الشتات، وعندما أشرقت الشمس أطلت على الحساء من الشرفة وهى فى غاية الحسن بوجه قمرى، وفى هذه اللحظة اجتاحتنى نوبة عارمة من الفرح والسرور لا يستشعرها إلا قلبى، فحمدت الله كثيراً.

وبينما أنا كذلك إذ جاءنى أحد الخدم وقال لى:

«اذهب واجلس فى ذلك المسجد، ربما تدرك بغيتك وأمنية قلبك»، فتوجهت إلى المسجد حسبما قال لى، لكن العين ظلت معلقة ببابها لأرى ماذا سيأتى من وراء حجب الغيب؟ وقضيت اليوم منتظراً كالصائم الذى ينتظر موعد الإفطار، ودخل الليل وأنا فى شدة الاضطراب والقلق، ومر اليوم ثقيلاً على قلبى ثقل الجبال، وفجأة قدم الخادم - الذى كان دلنى على عنوان حبيبتي - إلى المسجد وبعد صلاة المغرب جاءنى - وهو لى بمثابة كاتم أسرارى - وربت على يدي مطمئناً وأخذنى معه حتى وصلنا إلى حديقة وقال لى: «اجلس هنا إلى أن تدرك بغيتك، وانصرف مودعاً، ورحت أشاهد جمال زهور ذلك البستان واللييلة مقمرة وأنطلع إلى الجداول والأنهار ذات النافورات وأستمع بجمال الطقس، وأخذت أنذكر حسن قوام حبيبتي كلما نظرت إلى تلك الأشجار والأزهار، وأنذكر جمال وجهها وبهائه كلما نظرت إلى القمر ولكنى من طول الانتظار أصبح هذا المنظر كله بالنسبة لى كالثوب.

وأخيراً ألقى الله فى قلبها الرحمة، وبعد برهة هلت على الحساء بالباب كالقمر فى لييلة تمامه، مرتدية غلالة على صدرها وثوباً ثقيلاً ثميناً محلى الذيل باللالىء، وجاءت

متبخترة فى دلال، ثم توقفت وحينما وصلت أينعت الحديقة، وانشرح صدرى، وبعد لحظة من قدمها سيراً على الأقدام هنا وهناك توجهت إلى الأريكة وجلست، فتوجهت إليها كما يتوجه الفراش إلى المصباح، وعقدت يدى كالعبد بين يدى الملك، وكان الخادم موجوداً يشفع لى عندها، فقلت للخادم: «لقد أذنبت وقصرت، فإذا أرادت معاقبتى فسمعاً وطاعة، وكانت الحسنة غير راضية وقالت بحدة: من المناسب لهذا الرجل أن يأخذ مالاً ويعد العدة ويعود فوراً من حيث أتى».

وبعد سماعى لقولها صرت كالخشب، إن يجرحنى شخص لا تخرج منى قطرة دم، وأظلمت الدنيا من حولى، وتأوهت آهة من القلب على إخفاقى فى تحقيق أملى، وجرى الدمع غزيراً من عيني، ولم يكن لى فى ذلك الوقت نصير سوى الله سبحانه وتعالى، وكنت يائساً محسوراً وقلت: «لنترى كثيراً قبل أن تقولى هذا القول، فلو كنت حريصاً على المال لما قدمت لك مالى ونفسى، وهل نسيت فى لحظة واحدة مدى تفانى فى خدمتك وفدائى لك بروحى، ثم يصدر منك هذا القول؟ وبعد كل هذا فلا حاجة لى للدنيا التى أحيأها، فالعاشق لا يستطيع أن يحيا بسبب عدم وفاء المعشوقة، كأنه يحيا بنصف روح».

وما أن سمعت ذلك حتى اكفهر وجهها وتملكها الغضب وسخرت منى وقالت: «هل أنت عاشق لى؟، هل عصك ضنفع، لقد تجاوزت حدودك أيها الأحمق، إنك تعطى لنفسك أكثر مما تستحق، وهذا يدل على تفاهتك، (فقم صغير يصدر أوقالاً كبيرة)، فاصمت ولا تتحدث بمثل هذا الحديث التافه، وأقسم بالله لو صدر هذا الفعل من أحد غيرك لمزقته إرباً وألقيت به طعاماً للجوارح لكن ماذا أفعل؟ إننى أتذكر جميعك فمن الخير لك أن تمضى فى طريقك، لقد انتهى رزقك عندي عند هذا الحد».

فقلت لها باكية: إن كان من المقدر لى ألا يتحقق أملى وأمل قلبى وأن أهيم على وجهى فى الغابات والجبال فأنا عاجز عن ذلك، فغضبت من قولى وقالت: «أنا لا أرغب فى سماع هذا الهراء، قل هذا القول لمن يحبه، ونهضت غاضبة ودخلت بيتها وناديتها كثيراً لكنها لم تلتفت لى فاضطرت أن أودع هذا المكان حزناً يائساً».

ومجمل القول فقد مرت أربعون يوماً على هذا الأمر وعندما يئست من التجوال فى المدينة خرجت إلى الغابة، وكلما مللت الغابة كنت أسير فى أنحاء المدينة كالمجنون لا أكل بالنهار ولا أنام بالليل (ككلب الغسال لا مأوى له بالبيت ولا بالعين).

وحياة الإنسان بالطعام والماء، وهن الجسد منى لدرجة أننى لم أكن أقرى على النهوض، فذهبت إلى المسجد ومكثت به، وذات يوم جاء الخادم الذى أعرفه لصلاة الجمعة، ومر بى وكنت أنشد هذا البيت بصوت خافت لضعفى:

من ألم القلب يموت الإنسان
أو يتحمل، فلتعجل يا إلهى بما قدرته لى

وكانت هيئتى قد تبدلت نهائياً، فتغير وجهى لدرجة أن من يرانى لا يستطيع أن يتعرف على ثائبة، لكن هذا الخادم سمع صوتى المتألم وتوجه إلى، وتأسف لرؤيتى على تلك الحال وخاطبنى مشفقاً: كيف تدهور بك الحال إلى هذه الدرجة؟ «فقلت: لقد مضى ما مضى فلقدمت لها المال، وبذلت لها الروح، وما هى ذى ترضى بما أنا فيه، فماذا أفعل؟».

وتركنى الخادم بالمسجد بعد أن سمع منى ذلك، وذهب إلى الصلاة، وبعد انتهاء الخطبة والصلاة خرج ووضعنى فوق محفة وتوجه بى إلى حيث توجد الحساء، وأجلسنى خارج بيتها ومع أننى لم يكن قد بقى فى وجهى أى ضياء لكننى مكثت عندها أياماً وليالى طويلة، فسألت الخادم عنى متجاهلة إياى من هذا؟ فأجابها الخادم قائلاً: «هذا هو التمس المنحوس الذى نال منك اللوم والعتاب، وأصبح على هذه الهيئة بسبب ذلك، وهو يصطلى بنار العشق ويطفئها بدموعه، لكنها تشتعل أضعافاً مضاعفة دون فائدة، هذا علاوة على موته خجلاً وندماً».

فقالت هازئة به: «لماذا تكذب؟ لقد سمعت منذ وقت طويل أنه عاد إلى وطنه، والله أعلم من يكون هذا ومن تذكره عندى؟» وعندئذ التمس الخادم وعقد يديه متوسلاً:

«إن منحتنى الأمان فسأقول لك، قالت: «قل لك الأمان، فقال الخادم: «إنك ذات شأن عظيم، بالله عليك ارحمى هذا المسكين، وأصدرى أمرك للمخدم ليأخذوه من هنا ولترحمى حاله، فليس من المناسب تجاهله، ترفقى به لينالك عنه الثواب، إننى أقول لك هذا والأمر لك فى النهاية».

ابتسمت الحساء وقالت: «أيا كان هذا الإنسان فلتذهب به إلى دار الشفاء، وبعد الشفاء نستعلم عن أخباره».

قال الخادم: «لو تفضلت ونصحت وجهه بماء الورد وتحذرت إليه بود وعطف، فسيسترد الأمل مرة أخرى ويتشبث بالحياة، فالياس أمر مستبشع، فالدنيا قائمة على الأمل والرجاء». ولم تحرك الحسنة ساكناً، وكنت أشعر بالسقم والمال فقلت دون خوف، لا رغبة لى فى الحياة على هذا النحو، فقد صرت قدمى والقبر ولكل أجل كتاب وسأموت يوماً ما وعلاجى بيديك أيتها الأميرة فاقبلى أو ارفضى».

وفى هذه المرة الآن مؤلف القلوب قلبها، فقالت شفقة بى: «احضروا أطباء الملوك على الفور، فاجتمع الأطباء من كل صوب وحذب، وبعد أن نظروا فى القارورة فكروا كثيراً فى نوع مرضى، وفى النهاية شخصوا هذا المرض على أن هذا الرجل عاشق، ولا علاج له قط إلا وصال معشوقته، فعندما يلتقى بها سيسترد عافيته». فلما شخص الأطباء مرضى أمرت الحسنة الخدم أن يأخذونى إلى الحمام قائلة: دعوه يستحم وألبسوه حلة فاخرة واحضروه، فأخذونى على الفور إلى الحمام وألبسونى لباساً فاخراً ثم عادوا بى إليها، فتحدثت إلى برقة وحفاوة بالغة قائلة: «لقد أذللتنى كثيراً وأسأت إلى سمعتى وشهرت بى والآآن ماذا تريد؟ قل بوضوح كل ما يدور فى خلدك».

إيها الإخوان، فى تلك اللحظة ضاق بى ثوبى من فرط الفرح والسرور. وتبدلت صورتي، وحمدت الله كثيراً وقلت لها: «فى هذه اللحظة، انتهى كل الطب إليك، فقد أحييتنى من الموت بكلمة واحدة وانظرى كيف تبدلت أحوالى منذئذ إلى الآن؟ وبعد ذلك طفت حولها ثلاث مرات ثم وقفت بين يديها قائلاً: «أرجو من سموك والأمر لك أن تتفضللى وتتعطفلى وتقبلينى إلى جوارك فهذا عندى أفضل من ملك الأقاليم السبعة، وشرفينى بأن أقبل قدميك». فتريثت برهة ثم نظرت لى بحدة قائلة: «اجلس إن كل ما قدمت لى من خدمة ووفاء هو جميل فى عنقى، وكل ما تقوله له عندى القبول».

وعندئذ جاءت الساعة المباركة وعقد القاضي القران، وبعد هذا الجهد الجهد والمشقة البالغة فى السعى إلى وصلها، أرانى الله سبحانه وتعالى ذلك اليوم وحقق بغيتى، وعلى قدر ما كنت أرغب فى أن أسكن إليها وأبيت معها ليلتى، كنت أريد أن أعرف من هى تلك الحسنة؟ ومن هو الرجل الحبشى الأسود الذى كتبت له الورقة فحصلت بها على المال

.....

الكثير؟ وكيف أعدت الحفل الملكي فى لحظة واحدة؟ ولماذا قتل هذان البريكان فى هذا الحفل؟ ولماذا غضبت على بالرغم مما قدمت لها من خدمات جليلة؟ ولماذا رفعت شأنى هكذا فجأة؟ وبسبب تلك الأسئلة التى تدور فى خلدى، مكثت ثمانية أيام بعد عقد القران لا أرغب حتى فى الاقتراب منها، وكنت أبيت إلى جوارها بالليل لكننى لا ألمسها.

وفى أحد الأيام أمرت الخادم أن يقوم بتسخين الماء لكى أغتسل به، فقالت مبتسمة: «لماذا تغتسل؟» فسكت لكن تلك الحسنة تحيرت من تصرفاتى وأمرى، وظهرت على وجهها ملامح الغضب والسخط، حتى قالت لى ذات مرة: «إنك لشخص غريب الأطوار، فليست لديك صفات الرجولة الحققة، لماذا تزوجتنى إن لم تكن لك القدرة على الزواج؟».

وهنا قلت بلا خوف: «يا حبيبتى فلتكونى عادلة فالعدل شرط، وينبغى للإنسان ألا يجانبه العدل والإنصاف قالت: «وهل من سبيل إلى الإنصاف؟ فما ينبغى أن يكون قد كان قلت: «فى الواقع كان لى أمل كبير فىك، فقلت لك فى قلبى رغبة فى أن أعرف توضيحاً لكل ما مربى من أحداث وأسمع تبريراً لتلك الأشياء منك بعد الزواج، فهذه الأمور لا يتقبلها عقلى، وسيطمئن قلبى بعد أن أسمع تفسيراً منك فقطبت جبينها قائلة: ما شاء الله هل نسيت ما كنا قد اتفقنا عليه من قبل؟ وإن عليك ألا تتدخل فى شئونى قط، ولا تعترض أبداً؟ فما الداعى لأن تخالف هذا الشرط وتخرج عن حدود الأدب؟ فضحكت وقلت: مثلاً غفرت لى كثيراً من سوء أدبى، فلتغفر لى هذه المرة أيضاً فتبدلت ملامح وجهها وقالت غاضبة: الآن أنت تريد أن تركب على رأسى فاذهب واهتم بشئونك فما فائدة هذا الحديث بالنسبة لى؟ فقلت لها: إن أكثر ما يصيب الإنسان بالخل والحياء فى الدنيا هو بدنه وقد أظهرته أنت لى، فلم لا تريدين أن تكشفى لى تلك الأمور أيضاً، لأنه ينبغى أن يعرف كل منا ما يخص الآخر. وأدركت ما أرمز إليه وفكرت قليلاً ثم قالت: «هذا قول صحيح، لكننى أخشى إن بحث لك بسرى، أن تنفر منى وتغضب، ثم تهجرنى».

فقلت لها: «ماذا تقولين؟» لا تخشى منى قط، ولا يتطرق إليك شك من ناحيتى، ولتقصى على باطمئنان كل ما مر بك فلن يخرج هذا الكلام من صدرى إلى لسانى فكيف يسمعه أحد؟ وعندئذ أدركت الحسنة أنها لا بد وأن تحكى قصتها لهذا الرجل العزيز، فقالت مضطربة: «عندما أحكى حكايتى ستجد فيها مفاصد كثيرة، فلماذا تلج على فى ذلك؟ لكن خاطرك عزيز عندى ولهذا سوف أحكيها لك ولتكنتم سرى ولا تبح به لأحد فهذا شرط ضرورى».

ومجمل القول أنها قالت بعد شدة تأكيد وتحذير: «أنا التعسة ابنة سلطان دمشق، وهو أعظم الملوك شأنًا وقدرًا ولم يكن لديه من الأبناء سوى، ومنذ ولادتي أحاطني والدائي بالحب والرعاية والنعمة والتدليل، وعندما بلغت سن الشباب، تصادقت مع رفيقاتي من الحسانات وكانت دائما في رفاقتي بنات الملوك والعظماء، وكانت الحوريات يقمن على خدمتي ورعايتي، وكنا نستمتع بمختلف ألوان الرقص والغناء دائما، ولم يكن لنا شأن بكل ما يحدث في الدنيا، وكنت لا أفتح فمي إلا لشكر الله سبحانه وتعالى على ما أنا فيه من نعمة.

وحدث أن تبدلت طبيعتي تدريجيا، فأصبحت لا أصادق أحدا، ولا أستمتع باللهم في أي مجلس، وتبدلت أحوالي وأصبحت حزينه حيرى، لا يسترعى انتباهي أي شخص ولا أريد أن أتحدث إلى أحد ولا أستمتع بأي شيء.

وتملك الحزن كل من بالقصر بسبب ما اعتراني من تغير وأصيبوا بالحيرة، وكانوا يخرون على قدمي، وكان من بينهم خادم طيب القلب، هو موضع ثقتي وكان أسرارى ولا يخفى عليه شيء من أمري، وعندما أدرك ما أصابني قال: «لو أن الأميرة شربت من ماء «درق الخيال، فإنها في الغالب ستعود إلى حالتها الطبيعية، وسيعود السرور إليها فاشتقت لشرب هذا الدواء بعد قوله هذا وقلت: «احضروا هذا الدواء فوراً». وخرج خادم القصر، وأعد كأسا من الشراب المثلج بعناية شديدة، وجاء معه غلام يحمل هذا الشراب فشربته، ووجدت منه الفائدة كما وصفها لى، فأنعمت على هذا الخادم بحلة فاخرة، نظير ما قدمه لى من خدمة عظيمة، وأمرته أن يحضر لى كأسا من الشراب يوميا فى مثل هذا الوقت، ومنذئذ أصبح من المقرر أن يحضر - هذا الخادم معه - هذا التاجر الشاب وكان غلاما آنذاك - حاملا هذا الشراب فأشربه فإذا انتابتنى نشوة السكر، جعلت أتبسط مع هذا الغلام وأمازحه دون تكلف حتى أسرى عن قلبي، وبعد أن تجرأ هذا الغلام وتخلّى عن خوفه منى، أصبح يغازلنى بمعسول الكلام ويأتى بأشياء غريبة مضحكة، ويبيكى ويتأوه أحيانا، وكان حسن الصورة فحاز منى القبول والإعجاب وكنت أميل إليه بلا إرادة، ومن شوق قلبي إليه وإعجابى بمرحه، كنت أنعم عليه كل يوم بإنعام، لكن هذا التمس كان يأتينى فى ملابسه العادية التى يأتى بها كل يوم، حتى إن هذه الملابس قد أصبحت رثة وبالية.

وسألته ذات يوم قائلة: «لقد نلت منى قدرا كبيرا من المال، ومع ذلك لم يتبدل حالك فما هو السبب؟ وكيف أنفقت هذه الأموال أو أين ادخرتها؟».

وعندما سمع الغلام هذا القول الرقيق وشعر أنني أهتم وأفكر في شئونه، دمت عيناه وقال: «كل ما قد منحته لعبدك وخادمك، أخذه الأستاذ (صاحب العمل) ولم يعطني شيئاً منه فأني لى أن أشتري ثوباً آخر وأحضر به إليك؟ وليس هذا ذنبى فأنا مضطر: فأشفت عليه وأمرت خادمى بأن يريه تحت إشرافه، وأن يلبسه ملابس فاخرة ويمنعه من الاختلاط برفقاء السوء وقلت له: «أريد أن تعلمه آداب مرافقة الأمراء، ثم أحضره بين يدي، فامتثل الخادم لما أمرته به وكان يعتنى به كثيراً بسبب ميلى إليه، وبعد فترة وجيزة ظهرت عليه أمارات العافية والنضارة بسبب الراحة والطعام الجيد، وأصبح وسيما حسن الطلعة، وكنت دائماً أحاول ضبط مشاعرى نحوه، لكن صورته كانت دائماً ملء قلبى ولا أريد أن أفارقه ولو لحظة، وبسبب الحب كنت أريد أن أدخله فى شلبي، وفى النهاية ألحقته بخدمى وحاشيتى، وأصبح من عادتى أن ألبسه الحلل الفاخرة والجواهر الثمينة وأنظر إليه، وأصبح قربه منى قرّة لعينى وسكينة لقلبي، وكنت طوعاً لأمره فى كل لحظة، وفى النهاية أصبحت مضطربة، ولا أجد الراحة إذا غاب عنى ولو لأمر مهم.

وبعد عدة سنوات وصل إلى سن النضج والكمال، وبدأت تظهر عليه علامات الرجولة، وذاع صيته بين خدم القصر وكان الخدم جميعاً يمنعون من الدخول عندي، فتوقف عن المجيء ففقدت راحتى بدونه فماذا أفعل يا ربى؟ وأصابنى قلق شديد، وبسبب اضطرابى استدعيت ذلك الخادم الذى هو كاتم لأسرارى وقلت له: «إننى أبغى الخير لهذا الغلام، ولهذا أريد أن تمنحه ألف دينار، وتقيم له حانوتاً للمجوهرات فى الميدان، فيقوم بالإتجار فيه ويعيش حياته، وابن له قصرًا جميلاً يكون قريباً من قصرى، واستأجر له ما يلزمه من الخدم والغلمان ليستريح راحة تامة، فامتثل الخادم، وبعد فترة وجيزة أصبح هذا الدكان متجرًا كبيراً يشتري منه حتى الملوك ما يلزمهم من الحلى والجواهر، ووجد فى هذا المتجر ما لا يجده أى إنسان حتى الملك فى أى متجر سواه وكسدت تجارة جميع تجار الجواهر بسببه.

وخلاصة القول أنه صار فى مرتبة لا يدانيها منزلة أى شخص فى هذا البلد، أو أى بلد آخر من بلاد الدنيا، وريحت تجارته آلاف الآلاف من الروبيات، وكان فراقه ينقص من طاقه يسيراً بعد يوم، ولا أجد حيلة لأراه ويطمئن فؤادى. وفى النهاية استدعيت ذلك الخادم للمشورة وقلت: «لا أجد حيلة لأراه ويهدأ بالى وأجد السلوى لقلبي، ولا مفر إلا إذا حفررت سرداباً بين قصرى وقصره، وبعد عدة أيام ووفقاً لأوامرى، أعد هذا السرداب، وكان

الخادم يأتيني بهذا الغلام ليلاً متخفياً، وكنا نقضى طوال الليل فى الشراب والشواء والمتعة والسرور فأجد السكينة فى لقائه، ويفرح هو لقرية منى .

وعندما يبرز الفجر ويؤذن المؤذن، كان الخادم يوصل هذا الشاب إلى بيته كل يوم من هذا السرداب، ولم يكن يعلم بهذا الأمر سوى هذا الخادم واثنتان من الوصيفات اللتين قامتا بإرضاعى ورعايتى وأنا صغيرة .

ومرت مدة على تلك الحال، وذات يوم وفق المتبع ذهب الخادم ليحضره، فوجده صامتا متفكراً، فسأله: «لعل الداعى خيراً ما الذى شغل تفكيرك اليوم، وكدر حالك؟» .

وصمت الشاب ولم ينبس ببنت شفة، فرجع الخادم بمفرده، وقص على ما جرى .

ولما سمعت ما أصابه لم ينسنى الشيطان حبه، ولو كنت أعرف أن العشق والحب لذلك الشاب عديم الوفاء سيسىء لسمعتى لما أحببته، وكنت قد تبنت عن ذلك الأمر منذ هذا اليوم، ولم أذكر اسمه قط ولم ألب له رغبة ولم أمنحه قلبى، لكن هذا الأمر كان من قضاء الله وقدره ولا بد أن يحدث، من أجل ذلك لم أجعل من هذا الأمر مشكلة، واعتبرت عدم حضوره من دلال العاشقين، وأدركت أنت نهاية هذه القصة؛ دون أن ترى أين أنت وأين أنا منك، ولقد مضى ما مضى، والآن دعك من هذا الأحمق ولا تفكر فى شأنه .

الخلاصة، إننى أرسلت الخادم ثانياً برسالة أخرى وقلت له فيها: «إن لم تأت أنت الآن فسوف أحضر أنا إليك بأية وسيلة، لكن فى حضورى أنا عيب كبير، فلو شاع هذا السر، فسيكون فيه لك الضرر الكبير، لهذا لا تفعل مثل هذا الأمر، فلن تجنى منه سوى العار، والفضيحة، فمن الأفضل أن تأتى بسرعة وإلا فاعرف أننى قادمة لا محالة» .

ولما بلغته تلك الرسالة، وأدرك منها مبلغ شوقى العظيم، حضر إلى مبدلاً صورته، وكأن له شأنًا كبيراً وعندما جلس إلى جوارى سألته: «ما هى العقبات التى حالت دون حضورك عندى اليوم؟ وما سبب غضبك؟ فأنت لم تأت بهذا السلوك من قبل فقد كنت تأتى دائماً دون تخلف، فأجابنى قائلاً: «إننى المسكين قد وصلت إلى تلك الحال، بفضل مساندتك ورعايتك، وبفضل مالك الذى منحتنى إياه وأحيا حياة رغدة بفضلك وأدعوك ولمالك، فلتصفحى عن تقصيرى أنا المذنب ايتهى الأميرة، وأنا أرجو صفحك وعفوك» .

فقبلت قوله المفتعل بروحى وقلبي، ولم أهتم بهذا الأمر كثيراً، وسألته بكل عطف: «ما هى المشاكل التى تعانى منها وتجعلك متحيراً هكذا؟ فلتخبرنى بها وسأدبر لك حلاً».

خلاصة القول إنه قال على سبيل التواضع: «لدى مشاكل عديدة لكنها تغدو سهلة يسيرة بمجرد رؤيتك».

وفى النهاية اتضح من حديثه أن حديقة غناء ذات مبان شاهقة ونهيرات وجداول تقع بالقرب من منتصف المدينة معروضة للبيع هذه الأيام، ومع تلك الحديقة تباع أيضاً جارية بارعة فى علم الموسيقى والطرب، والحديقة والجارية تباعان فى صفقة واحدة ولا تباع الحديقة بدون الجارية أو العكس، وكأن القطعة فى عنق الجمل، فلا بد لمن يشتري هذه الحديقة أن يشتري هذه الجارية، ومن عجب أن ثمن تلك الحديقة مائة ألف روبية، وثمن تلك الجارية خمسمائة ألف روبية، وهذا الغلام لا يستطيع أن يدفع هذا الثمن الباهظ.

وقد أدركت أنه شديد الرغبة فى شراء هذه الحديقة وأنه مكتئب لذلك وتنتابه الحيرة والدهشة فى وجوده معى وكان حزينا ممتقع الوجه، وفى تلك اللحظة أمرت الخادم أن يدفع قيمة الجارية والحديقة فى صباح الغد، ويأخذ صك ملكية الحديقة والجارية ويعطيها لهذا الشاب، ويأخذ ثمن هذه الأشياء من الخزانة الملكية، فامثل الخادم لأمرى وأضاء وجه الشاب بالفرح والسرور، وقضيت الليلة كلها كسابق العهد بكل الفرح حتى بزغ الفجر وخرج، وقام الخادم بشراء هذه الحديقة وتلك الجارية، كما أمرته، وأخذ الشاب يحضر لى يومياً حسب المألوف.

وذاث يوم من أيام الربيع، كان الطقس فى غاية الاعتدال والمطر ينقط رذاذاً خفيفاً، والبرق يلمع فى السماء والأنسام العليلة تهب بين لحظة وأخرى، ولما وجدت أنواعاً مختلفة من الشراب مصفوفة فى الأباريق، أردت أن أحتسى رشفة من الخمر، ولما تناولت ثلاثة كؤوس من الخمر تذكرت الحديقة الجديدة واجتاحتنى رغبة عارمة فى أن أذهب للنزهة فى تلك الحديقة فى مثل هذا الطقس البديع، وإذا أتى سوء الحظ وعقر الكلب الإنسان، فإنه يركب الجمل، واصطحبت خادمتى معى وعبرت هذا السرداب السرى إلى قصر ذلك الشاب، ومن هناك توجهت إلى حيث تلك الحديقة، فوجدت هوائها كما فى الجنة فقطرات الندى

على أوراق الشجر كأنها الدر المنثور والزهور مشربة بالحمرة في لونها كأنها وقت الشفق، وأمواج الجداول تتراقص وبينها تلك الوريقات الصغيرة ذات اللون الأحمر، والنهيرات كلها مستقلة وكأنها فراش من المرايا.

وكنت أتجول في هذه الحديقة حتى انتهى النهار، وحل المساء وعم الظلام، وأثناء ذلك رأيت هذا الشاب، وعندما رأيته أسرع إلى بكل أدب وأخذ بيدي بكل حفاوة وتوجه بي إلى قصر له اثنا عشر بابا ولما بلغته أذساني شكل القصر كل ما شاهدته في الحديقة، فالأضواء متألئة، والثريات تتدلى في كل مكان والمكان مكتظ بالمصابيح والفوانيس وأماكن الجلوس غاية في الإتقان والإبداع، والمشهد في هذا الموضع صورة ناطقة للبهاء والزراعة - بحيث تبدو ليلة البراءة بكل ما فيها من ضياء أقل ضياء منه - وفي ركن من أركان القصر من يلعبون بالألعاب النارية، والمكان مفعم بكل أنواع الزهور المختلفة ألوانها وأشكالها.

وفي تلك الأثناء انقشع السحاب، وبرز القمر كأنه المعشوق الذي يرتدى غلالة من النور، فانبهرت بهذا المشهد البديع، ولما سطع نور القمر قال لي الشاب: «الآن نذهب إلى شرفة الحديقة ونجلس بها، وقد صرت عمقاء لدرجة أنني أمتثل لأمره دون قيد أو شرط، احتال على أخذني إلى الشرفة، وكان مشهد المدينة من الشرفة بديعا فالشرفة عالية إلى حد أن كل مكان بالمدينة من شوارع وأسواق وقصور ومصابيح بدت كأنها تقع كلها تحت الشرفة بالحديقة.

وجلسنا وطوقت عنقه بيدي، وعندئذ جاءت جاريت سوداء دميصة في يدها كأس الشراب، ولم يرق لي دخولها في هذه اللحظة وانقبض قايي أقبوعها نفسها، تسألت الشاب: ومن هذه الجارية الدميصة؟ وأين ولدتها؟ فأجاب الشاب بثل وثلاثين سنة وهذه الجارية هي التي اشتريتها بفضلك مع الحديقة.

فتملكني الشك والظن، أنه اشتراها عن طيب خاطر، وبمنتهى اللطف، وأنه ربما يكون قد مال إليها بقلبه، فسكت رغما عني، لكن قلبي تكدر واحترق مزاجي، وكأن يوم الساعة قد حان، لأن هذا الشاب قد جعل من تلك الجارية «ساقية»، وهي على تلك الحال من الدمامة والقيح، وفي هذه اللحظة كنت كأنتي أشرب دمي، وكان هذا المشهد يبدو آمن براء (وكان شخصا قد حبس البهائم والغراب في قفص واحد) فلم تكن لي رغبة في البقاء ولا مفرا لي من الجلوس.

وخلصه القصة أن هذا الشراب عندما يتناوله إنسان يشهد به السكر، وتبدل أحواله ويصبح كالحيوان في سلوكياته فقدمت الجارية للشاب عدة كئوس من الشراب المسكر وشربت أنا نصف كأس على شرفه ولخاطره ولإلحاحه بالرغم من أنه كان لى بمثابة السم الزعاف .

وفى النهاية أصبحت هذه المرأة اللعوب تأتى بأفعال فاضحة وغير لائقة مع هذا الشاب، وفقد الفتى عقله ووعيه أيضا بسبب السكر وأخذ يأتى بأفعال من شأن الصغار والأطفال، أما أنا فتمكنتنى الغيرة حتى صرت أرجو أن تنشق الأرض وتبتلعنى، لكننى القزمت الصمت بسبب حبى له وصداقتى وصلتى به، ولفرط سذاجتى كنت أحتمل كل ذلك لأجله، لكنه لم يقدر هذا التسامح منى وشرب كأسين وفقد ما تبقى من وعيه ورفع كل أستار الحياء والخجل أمامى، وأخذ يطارح تلك المرأة الساقطة الغرام من غلبة الشهوة على مرأى ومسمع منى وكانت تلك المرأة الفاحشة الساقطة فى هذا الوضع المشين تتدلل، وأخذت يتبادلان العناق والقبلات وما هو أكثر من ذلك ولم يكن لدى هذا الخائن ناقص العهد أى وفاء ولم يكن فى هذه الغانية أى خجل أو حياء، وعندئذ وفى هذه اللحظة صرت كمن تعمل فى تنظيف القاذورات، وأخذت أصب اللعنات على نفسى فى كل لحظة وألوم نفسى وأقول لماذا جئت إلى هنا؟ فقلت ما أستحق من عقاب، وإلى أى مدى سأحتمل تلك الأفعال؟ فاشتعلت النار بى من رأسى إلى أخمص قدمى، وكنت أقلب على الجمر، ونهضت من مكانى قائلة: لم يقفز الثور فمن قفز، ومن ينظر إلى هذا المنظر.

ففكر هذا العريد الماغن فى قلبه محدثا نفسه: «إن غضبت هذه الأميرة فماذا يحدث؟ وماذا ينزل على رأسى من مصائب ومتاعب؟ فلو أمكنتى قتلتها،

وقد ورد على باله هذا الخاطر بتحريض من تلك المرأة الساقطة، فجاء وسقط على قدمى يطلب الصفح والعفو، ولما كان قلبى متعلقا به ويهفو إليه وينساق لرغبته مهما كانت، وكنت كدمية فى يده يحركنى كيفما يرغب ويشاء، فأخذ يستعطف قلبى حتى لنت له ونسيت ما حدث، وجلست إليه مرة أخرى، وشربت مرة ثانية عدة كئوس أعطانها ذلك الشاب، وكنت فى شدة الغضب، وبعد هذا الشراب فقدت وعيى تماما وبسرعة، ثم استل هذا الخائن قاسى القلب خنجره وطمعننى به، وقوم أنه قتلنى، وعندئذ فتحت عيني، وقلت بلسان هالى: «على كل حال فقد نلت جزاء ما فعلت، انقذنى يارب من هذا القتل والظلم،

- إن أمسك بتلابيبك ظالم

فاغسل دمي من ذيلك فقد مضى ما مضى

ولا تبج بهذا السر لأحد قط

وأما أنا فقد قدمت لك نفسى وكل شيء، ثم فوضت أمرى إلى الله، وفقدت وعيى وغبت عن الدنيا، وكأن هذا السفاح قد تصور أننى مت، فوضعنى فى صندوق وعلقنى على سور المدينة، فرأيتك أنت، وأنا لا أريد سوءاً بأحد لكن ما حدث كان قدر لى.

- لا يحى ما قد كتب فى القضاء والقدر

وكل هذا لأقيته بسبب عيى

فلولا شوقى لرؤية الفتيان ذوى الوسامة والحسن لما تعلقت بهذا الشاب النعس فالله عز وجل هو من بعث بك إلى هذا المكان، فقد كان ينبغى لى أن أموت ولم يكن لى فى حياتى أى أمل، بسبب تلك الفصائح، ولكن ماذا أفعل فالأموت ليس بيدي، أما انتى الله ثم أحيانى، فلنر ماذا يكتب فى القضاء والقدر من المصائب والمهالك؟، وكنت قد شفيت من جراحى بسبب ما أوليتنى من عناية وجهد، فقد بذلت لى النفس والنفيس ولم تضن على بكل ما تملك، وفى هذه الأيام وجدتك مفلساً وفقيراً، فكتبت إلى صاحب الخزانة مرسوماً وقلت له فيه: أنا بخير وعافية فى المكان الفلانى، ابلغ والدتى المحترمة أخبارى، فاعطاك صناديق مملوءة بالمال لتنفقها، وعندما أرسلتك لشراء الحلى والملابس من التاجر (يوسف)، كنت أثق فى أن هذا التاجر يتعرف بالناس بسرعة وسهولة، وأنه غالباً سيدعوك لضيافته وصادقته نظراً لأنك غريب عن الديار، وحدث ما توقعت وقام بكل ما دار فى خلدى، وهينما جلست إلى ما بعدما اتفقت معه على الذهاب إلى بيته وبينت حقيقة الدعوة، وأنه مصر على هذا سررت فى قلبى، وفكرت فى أنك بعد ما تذهب إليه وتشاركه الطعام والشراب، فسيتحتم عليك أن ترد له الدعوة وتدعوه للنزول فى ضيافتك، وسيستجيب هو على الفور، ولهذا سمعت لك بالذهاب فوراً.

وعندما رجعت بعد ثلاثة أيام، واعتذرت نادماً على تأخرى فى العودة، قلت لك لأطمئنتك، لا حرج عليك، فعندما أذن لك المضيف عدت، وقلت لك: ليس من اللائق أن

تشاركه الطعام، ولا تدعوه لضيافتك فاذهب وادعه إلى الطعام واحضره معك، وعندما ذهبت أنت إلى بيته، وتلفت حولي لم أجد أيًا من أسباب الضيافة ولوازمها، فماذا أفعل إن حضر هو؟ لكنني وجدت الفرصة سانحة بأنه كان من عادة الملوك من أقدم العهود، أن يتغيبوا حوالي ثمانية أشهر لجمع الأموال ورعاية مصالح الدولة، وكانوا يقضون أربعة أشهر في الربيع في قصورهم، وفي تلك الأيام كان والدي جلالة الملك المعظم غادر المملكة لجباية الأموال والضرائب وما يخص الدولة من شئون ومصالح، وقبل أن تعود أنت مع التاجر (يوسف) أخبر الخادم أمي - أنا المذنبة - بأحوالي فمثلت بين يدي أمي الموقرة آسفة نادمة، وقصصت عليها كل ما مر بي، وبالرغم من أنها كانت تعرف كل ما حدث لي وأنا غائبة، لكنها رحمة بي وحكمة منها، كانت صامئة وتخفي بين جوانحها ذنبي وجريرتي، لأنها لا تدري ماذا فعل الله بي؟ وهي لا تريد أن تعاقبني وتأخذني بما فعلت، لكنها كانت لم تزل تبحث عني، وعندما رأنتي على تلك الحالة سمعت قصتي، فاضت عيناها بالدمع وقالت: لقد وضعت هامة الملك في التراب عامدة أيتها التعسة الحمقاء، وأأسفاه وألف أسفاه، لقد أهدرت حياتك يا ليتني ولدت حجرا بدلا منك فصبرت عليه، والآن استغفرى الله وتوبى إليه، فلقد كان ما كان من شأنك ولتنتظري الآن ماذا تفعلين في المستقبل هل ستعيشين أم تموتين؟

فقلت وأنا في غاية الخجل: «لقد قدر لي وكتب في نصيبي أنا المذنبة أن أحيا بسوء السمعة وسوء الحظ، متجنبة الكثير من الآفات والمصائب، فالمرت لي أفضل من هذا كله، فبالرغم من الوصمة التي جالت جبيني، إلا أنني لم أفعل أي شيء من شأنه أن يخزي والدي والدي، وأنا أشعر بالألم والأسى طالما لم أقض على هذين الماجنين، وتركتهما ينضممان باللهو والمجون سوياً، ويصيبني منهم الظلم والأذى، وسيكون من المؤسف ألا اتخذ قرارا حيال هذا، فرجائي إليك أن تأمرى بإعداد لوازم ضيافة هذين الماجنين على أكمل وجه في بيتي، لأحتال عليهما وأدعوشما، وبئالان مني جزاء وفاقاً، وأقتصص منهما على ما أقترفت أيديهما في حقى، وأمزقهما إربا إربا حتى يشفى غليل قلبي، لأنني اشتعل غضبا، وفي النهاية سأحترق بنار هذا الغضب».

وبعد أن سمعت أمي هذا الكلام مني أشفقت على، وغلبتها عاطفه الأمومة وكنتمت عيبي، وأمرت بإعداد كل ما يلزم الحفل والضيافة بإشراف هذا الخادم الأمين وكاتم أسرارى،

فحضر جميع الخدم والحشم وقام كل منهم بالمهمة الموكلة إليه، وفي المساء جئت أنت مع ذلك الشاب وكنت أرغب أن تأتي تلك العاهرة أيضا.

فأمرت أن تذهب إليها وتأتي بها، وعندما حضرت واكتمل المجلس ودار الشراب، وفقد الجميع وعيهم، وفقدت أنت أيضا وعيك، وصرت جثة هامدة، أمرت السيافة أن تضرب عنقهما بالسيف، وعندئذ استلقت السيف وفصلت رأسيهما عن جسديهما، وتركت الجثتين غارقتين في الدماء. أما سبب غضبي منك فهو أنني أذنت لك أن تذهب لتلبية دعوته فقط، وليس لتمكث هناك يومين، وتعتبره صديقا لك وتشاركه الشراب، وكانت نتيجة تلك الحماسة أنك فقدت وعيك، فلم يبق لدى أى أمل فى رفقتك، وصفحت عنك وعن تلك الحماسة منك بسبب ما قد أسديته لى من خدمات، وبسبب معروفتك ودينك فى عتقى.

والآن هل بقى فى صدرك أى تساؤل أو فضول ؟ فمثلا امتثلت أنا لأمرى، عليك أنت أيضا بالامتثال، ونصيحتى لك الآن ألا تمكث فى تلك المدينة والخيار لك.

يا عباد الله!! صممت الأميرة عند ذلك الحد، أما أنا فقد كنت رهنا لإشارتها بقلبي وروحي، وكنت أسيرا لمحبتها فقلت لها: كل ما يرضى خاطرك المبارك هو الخير وسأنفذه على العين والرأس بدون عذر.

ولما أدركت الأميرة أننى طوع أمرها وأننى خادمها أمرتني قائلة: أحضر جوادين نجيبين، يسيران بسرعة البرق من حظائر الملك الخاصة، فأحضرت فرسين قويين مسرجين، ولما انقضى الليل إلا قليلا تنكرت الأميرة فى ثياب الرجال متسلحة بالأسلحة فى قبضتها وامتطت جوادها وركبت أنا الآخر متسلحا وسرنا فى اتجاه واحد، وعندما انقضى الليل وكاد الصباح أن ينبجج، بلغنا شاطئ أحد الأنهار، فنزلنا واغتسلنا وتناولنا الإفطار بسرعة، ثم مضينا راكبين، وكانت الأميرة تتحدث أحيانا وتقول: لقد تخليت من أجلك عن الحياة والملك والمال والأهل، فلعلك لا تسلك معى نفس سلوك الظالم الخائن. وأحيانا أخرى كنت أتحدث أنا لنقطع الوقت والطريق وأجيب الأميرة أيضا قائلا: يا ابنة الملك لا يتساوى جميع البشر فى السلوك فريما يكون فى أصله عيب ولهذا بدر منه ما بدر، أما أنا فديتك بالروح والمال، وأنت أكرمتنى بكل وسيلة والآن أنا عبدك دون مقابل فإن شئت أن تلبسى حذاء من جادى قلن أتأوه. وهكذا أخذنا نتجاذب أطراف الحديث، ونمشى فى طريقنا ليل نهار وأحيانا

نتوقف من التعب فنصيد الطيور وحيوانات الغابة، ونأخذ ملحاً من الملاحه وننضجه قليلاً على النار بعد أن نشعلها بالجمر، ونترك الجوادين يرعيان فى الغابة ويأكلان العشب.

وذات يوم ذهبنا إلى ساحة خالية من الناس ولا يوجد بها إنسان قط، ومع ذلك وبفضل رفقة الأميرة كان اليوم عيداً والليل كليلة البراءة، وأخذنا نسير حتى فوجئنا ببحر خضم، يرتعب القلب لرؤيته فوقفنا على شاطئه، ولم نر على مرمى البصر إلا ماء، ولم يكن هناك أى ميناء. يا إلهى !! كيف نجتاز هذا البحر الآن؟ فوقفت برهة متأملاً فلمعت فكرة فى ذهنى وهى أن أترك الأميرة فى هذا المكان وأبحث عن قارب حتى تنال قسطاً من الراحة وأهيب أسباب عبورنا لهذا البحر، فقلت لها: «أيتها الأميرة لو تأذنين أن ننقذ إتجاهات هذا البحر ونستعرضها فقلت: «لقد تعبت جداً وبدأت أشعر بالجوع والعطش ولهذا سأنال قسطاً من الراحة ولتدبر أنت هذا الأمر».

وفى أحد الأنحاء كانت شجرة سامقة ورافة الظلال، لو يجلس تحتها ألف مسافر لا يشعرون بالحرارة أو المطر فأجلستها تحتها، وأخذت أسير وأنظر فى الجهات الأربع لكى أجد أى إنسان فى البر أو فى البحر، وبحث وحاولت كثيراً، لكننى ما وجدت أحداً، وفى النهاية عدت يائساً إلى ذلك المكان فلم أجد فيه الأميرة، فماذا أقول عن أحوالى فى ذلك الوقت فقد فقدت وعيى تماماً ومسنى الجنون، فمرة أصعد الشجرة وأبحث بين الأوراق والغصون، ومرة أخرى أسقط من الشجرة على الأرض، وحيناً أبحث فى جذر الشجرة وحيناً آخر أبكى وأنوح على قلة حيلتى، وأحياناً كنت أسير من الغرب إلى الشرق، وأحياناً من الشمال إلى الجنوب.

وبحثت عنها كثيراً فلم أجد لها أثراً على الإطلاق، وعندما لم أجدها صرت أبحث عنها فى كل مكان باكية مهيلاً على رأسى التراب.

وخطر ببالى أنه ربما خطف هذه الحسناء أحد الجان وجرحنى، أو ربما كان أحد من أهل بلدتها يتبعها فوجدها بمفردها فأخذها معه وعاد بها إلى الشام، وخلال تلك الأفكار تجردت من ملابسى، وكنت أطوف بلاد الشام صباحاً ومساءً، فقيراً غريباً عارياً أبعدت عنها وأقصى الليل فى أى مكان، وبحثت عنها فى كل مكان، لكننى لم أجد لها أثراً. ولم أسمعه مني عنها من أى شخص خبراً، ولم أعرف أى سبب لغيبتها، وورد بقلبي عندما لم أجد أى أثر

لحبيبتي أن لا فائدة من الحياة الآن، فأبصرت جبلاً فى غابة فصعدت الجبل، وأردت أن ألقى بنفسى من حالى، وحينئذ سأموت وأتخلص من حياتى وأستريح من تلك الفاجعة.

وهممت بأن ألقى بنفسى بل ورفعت قدمى، فأمسك بيدي شخص فى تلك اللحظة، وعندئذ ثبت لرشدى فرأيت فارساً يرتدى ملابس خضراء، ويضع على وجهه نقاباً وقال لى: لماذا تريد أن تتخلص من حياتك؟ فالتفت من رحمة الله كفر، ولا بد أن يكون الرجاء رفيقك حتى الموت، ففى خلال ثلاثة أيام ستلتقى بثلاثة دراويش مثلك فى بلاد الروم، وهم مثلك فى هذه المحنة، وقد مروا بما عانيت من محن ومصاعب، وهناك ستجد أيضاً ملكاً يدعى . «آزادبخت» وهو أيضاً يواجه مشكلة كبرى، وعندما يلتقى بكم أنتم الأربعة، فسوف يتحقق مراد كل منكم على خير وجه.

فأمسكت باللباس وقبلت الرجل وقلت: «يا ولى الله، اطمأن قلبى المضطرب بقولك هذا، لكن بالله عليك أخبرنى من تكون؟ وما هو اسمك الشريف؟».

فقال لى: «اسمى (المرتضى على)، وعملى هو أنه عندما تعترض شخص مشكلة عويصة أدلها له».

وبعد أن انتهى من حديثه غاب عن بصرى، وبعد أن اطمأنتت ببشارة مولاي، توجهت إلى القسطنطينية ولاقيت من المصاعب ما قدر لى فى أثناء الطريق على أمل اللقاء بملك الأميرة، ووصلت إلى هنا بفضل الله تعالى ومن يمن الطالع أن تشرفت بالمثل بين يديكم، وبعد أن تلاقينا وتحدثنا، يجب علينا أن نتعرف على الملك «آزاد بخت»، ثم سيتحدد موعد الوصول إلى هدفنا نحن الخمسة، ادعوا الله وقولوا آمين، يا هادى تلك هى قصة حياتى أنا المحزون، وقد سردتها لهؤلاء الدراويش، والآن نرى متى ستبدل حالنا من الشقاء والبؤس إلى السعادة بقاء ذلك الأميرة».

ركان الملك «آزاد بخت» مستمعاً فى أحد الأركان يستمع إلى حكاية الدراويش الأول، وبعد أن سمعها من «سوركا عظيم»، ثم بدأ يستمع إلى قصة الدراويش الثانى.

قصة الدرويش الثانى

وحينما جاء دور الدرويش الثانى، جثا على ركبتيه وقال: أيها الرفاق إلى قصة هذا الفقير استمعوا سأرويها من البداية إلى النهاية فاستمعوا لا يستطيع أى حكيم شفاء لها، فليس لهذا الألم دواء، فاستمعوا يا أصحاب الدلق، هذا الفقير هو ابن ملك فارس، حيث نشأ أهل الكمال فى كل فن، وكانت مدينة أصفهان مدينة ذات شهرة، ولاتدانيها أى ولاية من ولايات الأقاليم السبعة، وجوها طيب، وأهلها ذوا خلق سمح، وهم كذلك أهل فطنة وذوق وقد هيا لى والدى ملك هذه السلطنة منذ الصبا أستاذاً بارعاً فى كل مجال وفن ليعلمنى أصول وقواعد وقوانين المملكة، لأصبح ماهراً فى شتى أنواع المعرفة، ويفضل الله عندما بلغت الرابعة عشرة من عمرى كنت قد برعت فى كل العلوم، وتعلمت آداب الحديث وكيف أحسن الجلوس والقيام ورسوم الملوك، وكان شغلى الشاغل وما أصبو إليه ليل نهار، هو أن أجلس فى مجلس العلماء، لأستمع إلى سير الملوك وأحوالهم، وسير أولى العزم والمشهورين.

وذات يوم قال شخص حكيم ضليع فى معرفة التاريخ، وبصير بأحوال العالم: «على الرغم من أن حياة الإنسان لا يؤمن جانبها، لكن الخصال الحميدة تخلد ذكرى الإنسان على لسان الناس» .

فقلت له: «لو أنك قصصت على شيئاً من تلك الأحوال بالتفصيل، استمعت إليها وعملت بها» .

فبدأ ذلك الرجل فى سرد سيرة «حاتم الطائي» .

قصة حاتم الطائي:

كان فى زمن حاتم الطائي ملك عربى يدعى «نوفل»، وكان على عداء شديد مع حاتم الطائي لشهرته وذبوع صيته بين الناس، وقد جمع نوفل جيشاً كبيراً وجاء به لمحاربة حاتم الطائي، وكان حاتم رجلاً ورعاً صالحاً، وأدرك أنه لو أعد العدة لقتاله فسوف يقتل كثير من عباد الله وسيتحمل وزرهم فى عنقه، فخرج بمفرده وصعد الجبل واختبأ بأحد الكهوف.

وعندما بلغ نبأ اختفاء حاتم، الملك نوفل ذهب إلى بيته، وصادر كل ممتلكاته، وأمر منادياً ينادى فى البلاد، أن من يبحث عن حاتم ويقبض عليه، سينال مكافأة من الملك قدرها خمسة آلاف دينار، وما أن سمع الجميع قدر المكافأة حتى طمعوا فى البحث عن حاتم للحصول عليها.

وفى يوم من الأيام جاء شيخ وامرأته العجوز وثلاثة أطفال لجمع الحطب بالقرب من الكهف الذى اختبأ به حاتم، وبدأوا يجمعون الحطب فقالت العجوز: «ليت يومنا هذا يكون مباركا، فنجد حاتمًا ونحصل على المكافأة، وعندئذ نعيش فى رغد ونتخلص من المعاناة والمشقة». فقال الشيخ: «فيما تثرثرين؟ لقد قدر علينا قطع الحطب وحمله على الرأس وبيعه فى السوق، فنحصل على ما يقيم أودنا أو نصيد أى حيوان من الغابة، فاعملى بجد أفضل من هذه الثثرة، فكيف يقع حاتم فى قبضتنا ويمنحنا الملك الجائزة؟». فزفرت العجوز زفرة حارة وصمتت.

وسمع حاتم ما دار بينهما من حديث ففكر فى نفسه أنه ليس من المروءة والشهامة أن يخفى نفسه عنهما وألا يحقق لهما أمنية، وفى الحقيقة إن لم يكن فى قلب الإنسان رحمة وشفقة فهو ليس بإنسان، وإن لم يستشعر بقلبه آلام الناس فهو سفاح - خلق الإنسان ليشعر قلبه بآلام الناس وإلا فإن الملائكة وحدها تكفى لطاعة الله.

والخلاصة أن شهامة حاتم الطائي قد أثبت عليه أن يقبل الصمت والاختفاء بعد أن سمع هذين المعدمين فخرج على الفور وقال لهذا الشيخ: «يا عزيزى أنا حاتم الطائي، فخذنى إلى نوفل، فحينما يرانى سيمنحك المكافأة التى وعد بها، فأجابه الشيخ: «مما لاشك فيه أن هذه مروءة منك أن تسلك معنا هذا المسلك وتقوم بهذا العمل، لكننى لأدرى ماذا سيصنع بك الملك، فماذا أفعل إن هو قتلك؟ ولأستطيع قط أن أقدمك إلى عدوك لطمعى فى المكافأة،

وإلى متى نأكل بهذه المكافأة؟ وإلى متى نعيش؟ وفي النهاية سنموت، ثم ماذا أقول أمام الله سبحانه وتعالى؟،

فأصر حاتم أن يأخذه الشيخ إلى الملك قائلا: «أقول لك هذا القول وأنا راضٍ وأتمنى دائما أن أقدم نفسي ومالي للآخرين ليسعدوا به.

وفي النهاية أبى هذا الشيخ أن يأخذه إلى الملك ويأخذ المكافأة بأي وسيلة.

وأخيراً قال حاتم مضطراً: «إن لم تأخذني أنت سأذهب أنا للملك بنفسى، وأقول له إن هذا الشيخ، أخفاني في كهف في الجبل». فضحك الشيخ وقال: «هل جزاء المعروف أن يقابل بالسوء، ومن تكرار هذا الجدل أقبل أناس كثيرون وتزاحموا وأدركوا أن هذا هو حاتم الطائي، فأخذوه على الفور وذهب هذا الشيخ أيضاً معهم وهو في غاية الأسف، وحينما وصلوا إلى نوفل «سألهم من قام بالقبض عليه؟ فقال رجل قاس سيء الطوية: «من يستطع غيرى أن يقوم بهذا العمل؟ فهذا الفتح باسمى». وقال مدع آخر للعظمة: «لقد بحثت عنه عدة أيام، وأخذته من الغابة، فلتقدر مجهودى وعنائى وتمنحنى المكافأة»، ومن أجل الحصول على الدنانير كان كل شخص يقول أنا من قمت بهذا العمل، وكان الشيخ يقف صامتا في أحد الأركان ويكي لأجل «حاتم»، وعندما تحدث الجميع عن شهادتهم وشجاعتهم وعرضوها أمام الملك قال «حاتم، للملك: «إن شئت الحقيقة فإن هذا الشيخ الواقف بعيدا هو من أحضرنى، وإن أردت التأكد فلتسأل ولتفى بعهدك بتقديم مكافأة لمن يقبض على - ففى جسد الإنسان لسان له أهمية كبيرة - وعلى الرجل أن يفى بما تعهد به، وإلا فإن الله سبحانه وتعالى قد أعطى لسانا للحيوان أيضاً، إذن فما الفرق بين الإنسان والحيوان؟».

فدعا «نوفل، هذا الشيخ الحطاب وسأله قائلا: أصدقنى ماهو أساس القصة؟ ومن قبض على حاتم؟ فبدأ الشيخ يقص الحكاية من البداية إلى النهاية، وقال إن حاتم جاء بمحض إرادته لأجل خاطرى، فاندesh الملك نوفل لشجاعة «حاتم، وقال: بخ بخ أبلغ بك الكرم مبلغه حتى تخاطر بحياتك؟ وأمر أن يقذف من ادعى بأنه ألقى القبض على حاتم - بالحذاء خمسمائة قذفة بدلاً من خمسمائة دينار حتى يموت، فشرع الخدم على الفور فى تنفيذ ما أمر به، وضربوهم حتى سقط شعرهم من فوق رؤوسهم، فالحقيقة قول الكذب ذنب

لايدانيه ذنب آخر فليحفظ الله عز وجل الجميع من آفة الكذب ولايعودهم عليه، فكثير من الناس يفرطون فى الكذب لكنهم يبالغون جزاءهم وقت الامتحان .

وخلاصة القول إن «نوفل» أنعم على الجميع كيفما رأى وفكر فى نفسه أن «حاتم» شخص يستفيد من كرمه كل الناس، ولايصن بنفسه فى سبيل الفقراء والمحتاجين، وهو يرضى بأن يبذل نفسه فى سبيل الله، ومعاداته وقتاله أمر بعيد عن الشهامة والمروءة، فشد الملك نوفل على يدى حاتم الطائى معرباً عن الصداقة والمودة وقال: «طالما أنت على هذه الشاكلة، فلم لأكون أنا أيضاً كذلك؟». وأجلسه على مقربة منه بغاية الذوق والاحترام، وعلى الفور رد عليه كل ماكان قد استولى عليه من أملاكه وأمواله، ونصبه من جديد زعيماً لقبيلة «طى»، وأنعم على الشيخ بخمسمائة دينار، فأخذها «الشيخ» ومضى فى طريقه داعياً له .

وحينما استمعت إلى قصة حاتم كاملة أخذتني الغيرة ودار فى خلدى أن «حاتماً» كان زعيماً لقومه فقط وذاع صيته فى كل الأنحاء لسخائه وجوده، وخلد ذكره حتى اليوم، وأنا ملك لإيران كلها بإذن الله، فإن كنت قد حرمت من نعمة الجود والكرم، فوأسفاه على ذلك، فالحقيقة أنه ليس هناك خصلة فى الدنيا أفضل من الجود والسخاء، لأن الإنسان إذا بذل ماله ومتاعه فى سبيل الله وجد الجزاء فى الآخرة، وإذا بذر حبة واحدة فى الأرض حصد فى النهاية مئات الثمار، وبعدما فكرت فى هذا طلبت أمير التشييد والتعمير وأمرته أن يبني بسرعة مكاناً عالياً فسيحاً وله أربعون باباً خارج البلاد، وبعد فترة وجيزة شيد هذا البناء وفقاً لمشيتى، وكنت أوزع الروبيات والدنانير على الفقراء والمساكين من الصباح حتى المساء، ومن يطلب منى شيئاً أمنحه له أضعافاً مضاعفة .

الخلاصة أن المساكين كانوا يدخلون من أربعين باباً ويأخذون مايشاءون . وذات يوم دخل فقير من الباب الأمامى (الرئيسى) وسألنى فأعطيته ديناراً ثم دخل نفس الفقير من الباب الثانى وطلب دينارين وقد عرفته لكننى صرفت النظر عنه وأعطيته وهكذا صار يدخل من كل باب ويطلب دنانير حسب رقم الباب الذى يدخل منه، وكنت أتقاضى عنه فى كل مرة كان يدخل فيها وأعطيته مايسأل، وفى النهاية دخل من الباب الأربعين وطلب منى أربعين ديناراً فأعطيته، ثم عاد ودخل مرة ثانية من الباب الرئيسى وسألنى فاستأت من سلوكه وقلت له أيها الطماع كيف تكون فقيراً ولاتعرف الأحرف الثلاثة التى تتكون منها كلمة «فقر»، والتى لابد للفقير أن يعمل بها؟ .

فأجابني الفقير: «أيها السخى فلتخبرنى أنت، فقلت: «من حرف الفاء الفاقة، ومن حرف القاف «القناعة»، ومن حرف الراء رياضة. فمن لا يعمل بهذه الأحرف فهو ليس بفقير فكل وانفق مما حصلت عليه منى ثم عد واطلب منى مرة ثانية فإن الصدقة تمنح لرفع الفاقة لا لجمعها وإدخارها أيها الطماع!! أنت أخذت من أربعين باباً وحصلت على الدنانير من واحد إلى أربعين فاحسب هذا وانظر كم العدد؟، ورغم ذلك كررت هذا الفعل مرة ثانية. وماذا ستجنى من جمع هذه الأموال؟ على الفقير أن يفكر فى قوت يومه، وفى اليوم الثانى الرزاق موجود يعطى رزقاً جديداً، استح واصبر واقنع، أعلمك المرشد أن يكون الفقر هكذا؟.

وما أن سمع الفقير هذا القول منى حتى ثار وأرغى وأزبد وألقى بكل ماأخذه منى على الأرض وقال: «اسمع يا هذا!! لاتغضب هكذا! خذ مالك وأملكك ولا تدعى الجود والسخاء فنعمة الجود والسخاء شئ صعب المنال وأنت لاتستطيع أن تتحمل عبء السخاء وأنى لك أن تصل إلى تلك المرتبة؟ فدهلى بعيدة جداً،^(٣) فللسخى ثلاثة أحرف أعمل بها أولاً فيقال عندك سخى، فخفت وقلت: «يا هذا!! أفهمنى ما معنى قولك هذا؟ فقال لى: «من حرف السين (سماء) فى جودها وسخائها، ومن الخاء خوف الله، ومن حرف الياء (ياد) يتذكر الإنسان لحظة ولادته وموته، فطالما لم تبلغ هذه المرتبة فلا تدعى الجود والسخاء، ومرتبة السخى أن يكون صديقاً لله عز وجل ولو كان غير صالح، إن هذا الفقير قد طاف بكثير من البلدان لكنه ما وجد سخياً غير ملكة البصرة، فلقد وقف الله السخاء على تلك الملكة فكل الناس تدعى السخاء لكنهم لا يقومون بما تقوم به هى».

وبعد أن سمعت هذا منه استحلفته وألححت عليه فى أن يعفو عنى وقلت له: «خذ منى ماشئت لكنه أبى ومشى قائلاً: «لو أنك أعطيتنى كل ماتملك لما التفت إليه ولا أخذته». واضطرب فؤادى، ولم يقر لى قرار وتمنيت أن أذهب إلى البصرة بأية وسيلة وأراها.

وفى تلك الأثناء توفى الملك وتوليت الملك خلفا له لكن تلك الأمنية لم تنزل عالقة بذهنى، فتشاورت مع الوزراء والأمراء ومسئولى الدولة فى أننى أريد السفر إلى البصرة، وعليكم بالاستعداد الكامل لإدارة شئون الدولة، ولو كتبت لى الحياة فسيكون السفر لفترة وجيزة وسأعود بسرعة، ولكن لم يوافقنى أحد قط على رغبتى، فصار قلبى مفعماً بالحزن والأسى، وذات يوم استدعيت الوزير الحكيم، وكلفته بالملك نيابة عنى دون ذكر السبب وفوضت إليه جميع الأمور الأساسية للمملكة، وتخفيت فى ملابس الفقراء، وذهبت إلى البصرة بمفردى،

ويعد عدة أيام وصلت إلى حدودها، وكنت حينما أبيت بأى مكان أجد أخدم هذه الملكة يستقبلنى وينزلنى فى مكان لائق ويقدم لى كافة واجبات الضيافة، ويقوم على خدمتى طوال الليل، وفى اليوم التالى كنت أجد فى أى مكان آخر نظيراً لما وجدته فى الموضع السابق، وقضيت عدة شهور فى مثل هذه الراحة والدعة، وفى النهاية بلغت البصرة، فجاء إلى على الفور شاب فاخر الثياب وحسن الطباع دمث الخلق ذو مروءة وشهامة تبدو عليه أمارات الذكاء والفطنة، وبدأ يحدثنى برقة ولباقة قائلاً: «أنا خادم الفقراء وأبحث دائماً عن فقير مسافر أو طالب للدنيا جاء إلى هذه البلدة، حتى يشرف ببيتى بقدمه فليس هنا أى مكان سوى مكان واحد لينزل به الغرباء، فتفضل وشرفنا بالنزول فى ضيافتنا» .

فسألته: «ما اسمك الشريف؟ فقال: «اسم هذا المجهول، «بيدار بخت»، وأمثالاً لإلحاحه وحسن سلوكه سرت معه وبلغنا بيته، قرأيت قصراً منيفاً به لوازم وأمتعة ملكية وأجاسنى بالاستراحة، وجاء بماء ساخن وغسل قدمى ومد الطاهى أمامى مائدة حافلة بشتى صنوف الطعام مما لذ وطاب، عليها أربع صوان وعليها أطباق مختلفة وكل طبق فيه صنف مختلف من الأرز وكذلك الأرز الحلو وأنواع مختلفة من اللحم والخبز والشواء والكفتة ومختلف أنواع البيض ومختلف صنوف الأطعمة المكمورة ومختلف أنواع الحلوى والمشهيات وألوان من «الماست» لدرجة أننى شعرت بالشبع بمجرد النظر إلى المائدة ولما تناولت لقمة من كل صنف امتلأت معدتى وتوقفت عن الطعام فبدأ الرجل يقول لى: «ماذا أكلت؟ إن كل الطعام موجود أمامك، كل دون حرج أو تكلف. قلت: لماذا أتكلف؟ عمر الله بيتك على الدوام، قد أكلت كل ما تستطيع معدتى أكله فكيف أعبر عن طيب مذاق هذا الطعام، فأنا أشعر بلذته على لسانى للآن، وحينما أتجشأ تأتي رائحة الطعام الطيب فى فمى. وحينما انتهيت من الطعام أحضر ماء ساخناً وصابوناً وقماشاً أملس وغسل يدى وأحضر لى التمبرول(٤).

وعندما حل المساء أضيئت المصابيح بالشمع الكافورى ولم يزل ذلك الرجل جالساً يتحدث إلى، وعندما انقضى جزء من الليل قال: «لقد انقضى الليل فلم الجلوس حتى الآن، هيا ادخل إلى تلك القاعة ونم!». .

فقلت «يا فلان!! يكفيننا نحن الفقراء جلد الطبى لننام عليه، لقد خلق الله هذه الأشياء متاعاً لكم، أى أهل الدنيا، وأخذ الرجل يقول هذه الأمتعة للدراويش والفقراء ولأملك منها أى شىء، فذهبت إلى الحجرة ونمت بها بعد أن ألح على، وكان الفراش وثيراً أملس كأوراق

الزهور، وكانت الزهريات تحيط بالفراش من كلا الجانبين، وكانوا يطلقون البخور حول الفراش، وبأى جهة أوجه وجهى عند النوم أشم الروائح الطيبة، فينتعش مزاجى، فتمت فى هذا الجو، وعندما أشرق الصبح أحضروا لى الفطور: شراب من اللوز والرمان والعنب والتين والبلح وغير ذلك من الفواكه، وانقضت ثلاثة أيام على تلك الحال وفى اليوم الرابع استأذنت فى الرحيل، فعقد ذلك الشخص يده، وشرع فى الكلام وقال: «ربما بدر منى أى إساءة نحوك ياسيدى مما عكر صفوك، فانتابتنى الدهشة وقلت: «بالله عليك ماذا تقول؟ فمن شرط الضيافة أن تستمر ثلاثة أيام فقط، وقد قصيتها وليس من المستحب أن أزيد عليها، وإضافة إلى ذلك، فقد خرجت للتجوال والسياحة، ولو مكثت فى مكان واحد طويلا، فهذا شئ غير مناسب ولهذا أرغب فى الانصراف مع أن قلبى لا يريد أن يفارقه، فقال: «لابأس إذا كان هذا يرضيك لكن لتتريث قليلاً حتى أخبر الأميرة، وبعد ذلك إذا رغبت فى الرحيل، فخذ معك كل أسباب العيش من راحة، وطعام ومال وستجدها فى تلك الغرفة ولاتفكر فى شئ فسادبر لك الأمر كله .

فقلت: «لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم أنا فقير أم متسول؟ ولو كان هذا الحرص فى قلبى، فلماذا أصبحت فقيراً، وإلا لكنت حرصت وطمعت فى الدنيا فقال هذا الرفيق لو سمعت الأميرة بهذه الأحوال، لأدرى ماذا ستصنع بى؟ ستفصلنى من خدمتها، فإن كانت لارغبة لك فى هذه الأمتعة، فاتركها فى الغرفة وأغلقها بالقفل وستكون أمانة وأفعل ما شئت .

فلم أقبل ذلك، ولم يوافق هو أيضاً، وفى النهاية اضطرت أن أوافق مضطراً على أن نترك هذه الأمتعة فى الغرفة، ونقفل عليها بالقفل، وانتظرت الإذن بالرحيل - وفى تلك الأثناء جاء أحد الموظفين فى هيئة موقرة واضعاً على رأسه عمامة، وفى وسطه حزاماً، ويحمل فى يده عصاً ذهبية، ومعه خدم وحشم وكان هذا الموظف مسئولاً كبيراً بالدولة، تبدو عليه أمارات السطوة والنفوذ فاقترب منى وشرع فى الحديث معى بلباقة وذوق وكياسة لأستطيع وصفها وقال: «ياعزيزى، إن تكرمت وتعطفت على العبد الفقير، وشرفت بيتى بقدموك الميمون، خدمة لعبد فقير، فهذا ليس ببعيد عن المروءة والفصل، فلعن الأميرة تسمع أن مسافراً جاء إلى هنا، ولم يقم أحد على خدمته بما يليق وكما ينبغى، ثم رحل، والله أعلم عندئذ ماذا سيحل بى من مصائب بل إن حياتى أيضاً ستكون فى خطر الكتنى لم أقبل دعوته، فأخذ يلح على، وذهب بى إلى مكان أفضل من السابق وقدم لى كل واجبات

الضيافة كما حدث مع الرجل الأول، ومكنت فى ضيافته ثلاثة أيام، فكان يقدم لى الطعام مرتين وبعد الظهر يأتى بالشراب، ويحضر لى مختلف أنواع الفاكهة وأخبرنى بأن كل مالىه من طنافس ومتاع ورياش وبسط هو ملك لى فاصنع به ماشئت فانتابتنى الدهشة بعد سماعى لقوله وأردت الرحيل عن ذلك المكان بسرعة، وبعد أن رآنى على تلك الحال قال لى: «يا عبد الله!! إذا كان لك أى مطلب أو رغبة أخبرنى بها حتى أبلغها الأميرة» فقلت له: «أنا فى لباس الفقير، فماذا أطلب منك من متاع الدنيا فأنت تعطنى دون سؤال وأنا أرفضه». فأخذ يقول لى: «ليس هناك من لا يوجد أثر للحرص وطمع الدنيا فى قلبه، وقد قال الشاعر:

رأيت راهبا مقطوع الأذن طويل الشعر، وعلى بدنه اللائى النفيسة

ورأيت فقيرا آخر يغطى وجهه وهو حليق الرأس

ورأيت مسرورا وفرحاً فى الغابة على الرغم من عدم استوائها

ورأيت الأصم والأعمى والبارع والأحمق

رأيت الغنى، رأيت الفقير من البداية

لكننى مارأيت أحداً قط ليس لديه طمع فى الدنيا

وبعد أن سمعت ذلك الشعر منه أجبت «هذا صحيح، لكننى لأبغى شيئا، لكن إن سمحت لى، فأنا أكتب رسالة أسجل فيها ماأريد فتوصلها للأميرة من فضلك، فتكون بذلك قد منحتنى مال الدنيا كله. قال: «على الرأس والعين، لا بأس فى ذلك، فاستهللت الرسالة بالحمد والثناء ثم كتبت «هذا عبد الله وصل هذه البلاد منذ عدة أيام فأتى أناس من أنحاء مملكته ليقوموا على خدمتى وكنت قد اشتقت لزيارتك بعد سماعى عن جودك وكرمك وقد وجدت أكثر من ذلك بكثير، والآن يقول لى أركان دولتك اطلب ماتشاء وتبغى! ولهذا فأنا أبين لك ماأتمناه دون حرج، إننى لست فى حاجة إلى مال الدنيا فأنا أيضا ملك بلادى، وقد جئت إلى هنا على هذه الهيئة واحتملت كل ماصادفنى من مشقة فى الطريق لشدة شوقى لرؤيتك، وأرجو من سموك تحقيق أمنيى القلبية والأمر لك فى النهاية، لكن إذا لم يحظ طلبى بالقبول عندك فأنا أبذل الروح فى عشقك هائما على وجهى وأموت فى أى غابة أو جبل كالمجنون، وفرهاد».

كتبت هذا فى رسالتى وسلمتها له، فأوصلها بدوره للأميرة ثم عاد بعد لحظة داعياً إياى وأخذنى إلى القصر، فرأيت هناك امرأة عجوزاً تتحلى بالحنى جالسة على كرسى مذهب، ويصطف على جانبيها العديد من الخدم واقفين على خدمتها عاقدين أيديهم، فأدركت أن هذه العجوز هى امرأة ذات شرف وجاه، فرفعت يدى لتحياتها، فسلمت على بكل عطف وترحاب قائلة: «تفضل شرفتنا بمقدمك، فقد كتبت رسالة شوق لرؤية الملكة؟ فصمت خجلاً وخفضت رأسى وجلست».

وقالت بعد برهة: «أيها الشاب إن الأميرة سلمت عليك وقالت: «لقد طلبتنى، ولا مانع عندى فى الزواج منك لكن ليس من اللائق التفاوض بالملك والحديث عنه فى الدنيا لأن كل الناس سواء فى الحقيقة، إلا من تشرف بدين الإسلام فهو الأفضل، وأنا أيضاً أتمنى الزواج منذ فترة طويلة، وكما أنت غنى عن ترف الدنيا أنا أيضاً مثلك أعطانى الله عز وجل مالا لا يعد ولا يحصى، لكن هناك شرطاً واحداً، هو أن تقدم لى المهر أولاً، ومهر الأميرة هو أمر يمكن أن تقوم به».

فقلت: «أنا طوع أمرها ورهن إشارتها ولن أدخر نفساً ولا مالا فى سبيلها، فما هو الأمر؟ قوليه لأعرفه، فقالت: «امكث لدينا اليوم وسأخبرك غداً»، فقبلت بكل رضا واستأذنت وخرجت.

وانقضى اليوم وعندما حل المساء استدعانى أحد موظفى القصر إلى هناك، فرأيت هناك العلماء والأعيان والفضلاء وأصحاب الشرع، فجلست بينهم، ومدت المائدة ووضعت الصنوف المختلفة من الأطعمة الحلوة والعادية، وبدأ الجميع فى تناول الطعام وأشركونى أيضاً معهم، وبعد الفراغ من الطعام جاءت الخادمة وقالت: «اين بهروز؟» ادعوه، فأحضره المندوب الملكى على الفور، وكان مهيب الطلعة، ذا رجلة يعلق المفاتيح والروبيات الذهبية بخصره، جاء وسلم على وجلس إلى جوارى، وبدأت تلك الجارية تقول له «يا بهروز، قل كل ما شاهدته بالتفصيل».

فبدأ بهروز فى سرد تلك القصة مخاطباً إياى قائلاً: «يا عزيزى هناك آلاف الغلمان والخدام فى مملكة أميرتى يعملون بالتجارة وأنا أدناهم مرتبة بين خدمها، والأميرة ترسل بضائع وتجارة تساوى آلاف الآلاف من الروبيات لكل أنحاء الدنيا، وعندما يعود التجار

تسألهم الأميرة عن أحوال تلك البلاد، وحدث ذات يوم أن خرجت - أى بهروز - للتجارة ووصلت إلى مدينة «نيم روز» فوجدت أهل هذه المدينة متشحين بالسواد، ينوحون فى كل لحظة ويصعدون الزفرات، ويبدو أن مصيبة كبيرة قد حلت بهم وسألت عن السبب لكن ماأجابنى أحد قط .

ومرت عدة أيام فى تلك الحيرة، وذات يوم عندما أشرق الصبح، وخرج الجميع صغيرهم وكبيرهم حتى الشيوخ منهم وكذا الغنى والفقير، واجتمعوا فى ميدان، وخرج ملك تلك المدينة إلى الميدان أيضاً وسط أمرائه وحاشيته، فاصطف الجميع حينما وصل الملك، وكنت بينهم أشاهد ذلك المشهد، ويبدو أنهم كانوا ينتظرون شخصاً ما، ويعد برهة جاء شاب ذو وسامة وملاحة يبلغ من العمر خمس عشرة أو ست عشرة سنة راكباً ثوراً وكان يحدث ضجيجاً ويحمل فى يده شيئاً، ووقف فى مواجهة هؤلاء الخلق وترجل عن ثوره وهو ممسك بإحدى يديه بلجام الثور وبالأخرى سيفاً، وجثا على ركبتيه - وكان برفقته فتى حسن الطلعة فى جمال الحور - فأعطاه ذلك الشاب الشيء الذى كان معه، فأخذه الفتى وجال به على الحضور ليروه، وكان من يرى هذا الشيء يبكى بشدة رغماً عنه وبعد أن عرضه على الناس وأبكاهم عاد مرة ثانية إلى مولاه .

وحينما وصل ذلك الفتى إلى مولاه، نهض الشاب وبتر عنق الفتى بسيفه، ثم ركب وعاد من حيث أتى، وكان كل الناس يرقبون هذا المشهد، وعندما غاب عن الأنظار عاد الجميع إلى المدينة .

وكنت أسأل كل من ألقاه عن تلك الحادثة، بل أرغبه بالمال لكى يخبرنى، وأتوسل إليه ليخبرنى عن حقيقة ذلك الشاب ولماذا فعل ما فعل؟ ومن أين جاء؟ وإلى أين ذهب؟ لكن ما أخبرنى أحد قط، وما أدركت أنا أيضاً سر هذا اللغز، وبعدما رأيت هذا المشهد عدت إلى الأميرة وقصصت عليها ما حدث، فاندبهشت الأميرة، وأرادت أن تتحقق مما رويت!! وقررت أن من سيأتيناها بحقيقة تلك الواقعة، ستكافئه بأن يكون إحضار الحقيقة مهراً لها، وتحبه وتملكه ملكها ونفسها .

ثم قالت الوصيغة لى: «لقد سمعت ما أعلنه الآن، فإن كان بإمكانك أن تأتى بخبر ذلك الشاب فاذهب على الفور لبلاد «نيم روز» وعد بسرعة وإلا فامض، ولترجع من حيث أتيت .

فأجبت - إن شاء الله - سأحضر النبأ اليقين والحقيقة الكاملة وأفوز بالجائزة، وإن لم يكن لي حظ في بلوغ الحقيقة، فليست لي حيلة، لكن الأميرة لابد أن تؤكد لي أنها لن تخلف وعدها، ففي الحقيقة ينتاب قلبي بعض الخوف من ذلك، فياليت الأميرة تسمح لي بلقائها شفقة بقلبي وتعطفاً منها عليّ باعتبار أنني غريب وعلى سفر وتجلسني خلف سترها وتسمع مني وتجيبني بنفسها، فسيكون في ذلك راحة لبالي واطمئنان لخطري، وعندئذ سأتمكن من القيام بتلك المهمة.

فأبلغت هذه العجوز الأميرة بذلك المطلب، فأمرتها قائلة أحضره تقديراً منها لشخصي، فعادت الوصيصة واصطحبتني إلى قصر الأميرة، وعندما ذهبت وجدت على الجانبين صديقات الأميرة فوصيفاتها وحشمها وخدمها وقيانها كل حسب منصبه طبقاً للمراسم الملكية، وكان المكان زاخراً بالخدم والحشم فكيف أصف هذا المشهد وأى لفظ يعبر عن كثرة الحضور، فصدرت مني آهة رغماً عني واختلج قلبي لكنني تماسكت وسرت بين هذا الجمع ناظراً لهذا المشهد، وثقلت قدماي فقد كانت الوصيصة على قدر عظيم من الحسن والجمال لدرجة أنني عندما كنت أمر بواحدة منهن لأستطيع أن أغادرها إلى الأخرى وكانت الأرائك مصنوعة من خشب الصندل، فأشارت الوصيصة لي بالجلوس، فجلست على إحدى الأرائك وجلست هي على العرش وقالت: «قل الآن مايشاء لك القول حتى ترضى».

فأنتيت أولاً على الملكة وعلى حسن شمائلها وماتمتع به من عدل وإنصاف، ثم بدأت أقول: «منذ وطلت قدماي حدود هذه البلاد وأنا أرى في كل مكان داراً لضيافة المسافرين، وشاهدت المباني العالية في كل الأنحاء والخدم والغلمان والموظفين لاحصر لهم كل في وظيفته وحسب منصبه يقومون على راحة المسافرين والمحتاجين وقد قضيت أنا أيضاً في إحدى تلك الدور ثلاثة أيام، وحينما قررت أن أغادرها في اليوم الرابع لم يدعني أحد أذهب قط وكان كل منهم يقول لي خذ معك كل ما بالبيت من متاع ومال أودعه على سبيل الأمانة فهو ملك لك خذه وقتما تشاء، ففعلت ذلك وتركته على سبيل الأمانة لكنني في دهشة فعندما تقومون بهذا السلوك معي فطبعاً أنتم تقومون به مع من يأتيكم غيري أيضاً، وذلك يتطلب أموالاً طائلة فمن أين لكم بها؟ ومن أين جاء هذا المال؟ فإن تكن لديكم خزائن قارون، فما كانت لتكفي كل هذه النفقات فلو نظرنا إلى ماتملكه الأميرة في ملكها ومايدره عليها من

ريح لوجدناه لا يكفي لنفقات الطعام فقط، فضلاً عن المصاريف الأخرى، فإن فسرت الأميرة لى هذا الأمر بنفسها لاسترحت كثيراً، وأقصد مدينة «نيم روز» على الفور، وأبحث عن حقيقة أحوال ذلك الشاب ثم أعود لخدمة الأميرة وأنعم بقرىها وأحقق أمنية قلبي» .

وما أن سمعت الأميرة قولى حتى قالت بنفسها: «أيها الشاب، إن كنت تبغى أن تعرف السبب، فلتمكث اليوم فسأخبرك بأمر تلك الأموال الثابتة بلا نقصان مساء اليوم، ولما اطمأنت لحديثها توجهت إلى مكان إقامتى منتظراً حلول المساء حتى تتحقق أمنيتى، وفى أثناء ذلك جاء رئيس الخدم والحشم ويرفقه الغلمان يحملون الصحف وبها مختلف صنوف الطعام الذى يقدم على مأدبة الأمراء، وقال لى: هذا الطعام من طعام الأمراء فكله» .

وحينما كشف الغطاء عن الطعام، انبعثت الروائح الزكية التى سال لها لعابى، وتناولت من الطعام ما طاب لى، وتركت مابقى وأرسلت شكرى وامتنانى للأميرة، وحينما دخلت الشمس بيتها بعد عشاء سفر يوم طويل، وخرج القمر فى ديوانه مع أصحابه، جاءت الوصيصة وقالت: «هيا، إن الأميرة تطلبك، فمضيت برفقتها، وأخذتني إلى مكان خاص، وكان المكان مضيئاً لدرجة عالية جداً، وكانت الرياش الملكية هنا وهناك والأرائك منسوجة بخيوط الذهب والفضة، والوسائد يتدلى منها الدر، وذوائب، الستائر من الدر واللؤلؤ والستائر نفسها معلقة بأعمدة من الذهب الخالص، وأمام مسند الأميرة كانت هناك أشجار من الذهب وزهورها من الجواهر واللآلئ الثمينة، وتبدو هذه الأشجار وكأنها أشجار طبيعية، وكان البساط من الذهب الخالص يصطف حوله الخدم والحشم على كلا جانبيه لاتبدر منهم أى حركة احتراماً وتوقيراً، والقيان والمطريات يعزفن وينشدن الأغاني، وبعد أن رأيت ذلك المشهد خلب لبي، فسألت الخادمة قائلاً: «لنهار زينة وللليل زينة كأن النهار عيد والليله كليلة البراءة، بل إن هذه الراحة والدعة مما لايتاح لملك من الملوك حتى وإن كان ملكاً للأقاليم السبعة» . فبدأت الخادمة تقول: «إن كل ما رأيت هو من مصانع الأميرة وكلها تنتج متاعاً على هذا المستوى ولايعترىها أى نقص بل إنها تزيد وتزدهر، فلتجلس هنا فإن الأميرة فى مكان آخر وسأخبرها بمقدمك» .

ثم ذهبت الوصيصة وعادت من فورها وقالت: «تفضل وأمثل بين يدي الأميرة، وبمجرد أن دخلت ذلك المكان عقدت الدهشة لسانى حيث إننى لم أستطع أن أميز أين الباب وأين الحائط فقد كانت القاعة ممثلة بالمرايا المطعمة باللآلئ والجواهر، فمن ينظر فى المرأة يجد

الدر والجواهر التى فى المرآة المقابلة وهكذا، وفى أحد الأركان «ساتر» تجلس الأميرة خلفه، وجلست الوصيصة فى الناحية الأخرى للساتر وقالت لى: اجلس، وبدأت تتحدث بما تقوله لها الأميرة فقالت: «اسمع أيها الشاب الفطن سلطان هذه المنطقة كان أبى ملكاً عظيماً وله سبع بنات، وذات يوم أقام الملك احتفالات وجلس وأحاطت به بناته وقد تجلين فى أبهى زينة متحليات بأنفس الجواهر والآلى على أثوابهن ورءوسهن، فدار بخلد الملك أمر، فنظر إلى بناته وقال: «لو لم يكن أبوك ملكاً، ولو كنتن قد ولدتن فى بيت فقير، فمن كان سيلقبك بالأميرات أو الملكات؟» احمدن الله سبحانه وتعالى بأنكن أميرات، فكل ماتنعمن به هو بفضلى، فأجابت ست منهن دفعة واحدة: «كل مايقول جلالتكم هو الحق، فخيرنا فى سلامتك». وأما السابعة وهى الأميرة التى تحدثك الآن وهى أصغرهن سناً لكنها تبدو أرجحهن عقلاً، ظلت صامئة ولم تشاركهن الحديث لأن هذه الكلمة هى كلمة الكفر، فنظر الملك إليها غاضباً وقال: «لماذا لم تقولى شيئاً أنت أيضاً يا فتاتى؟» فعقدت الأميرة يديها وقالت: «إن أعطيتنى الأمان وهبتنى العفو والصفح فسأفصح عما يجول بخاطرى، فأجابها قائلاً: «قولى ماتريدين، قلت: «ياقيلة العالم لقد علمت أن الحق مر وأقول هذا وقد غسلت يدي من الحياة (أعرف أن حياتى فى خطر) وماكتبه الله لى فسيكون:

– إن كنت تمشى كثيراً أو تكثر السجود

– سيحدث لك ماسطر على جبينك

فالملك المطلق الذى جعلك ملكاً، هو الذى جعل الناس يدعوننى الأميرة، فلا خيار لأحد أمام قدرته وإن كان جلالتك لى نعمتى وقبلى وكعبتى ومن الجائز أن أكتحل بتراب قدميك المبارك، إلا أن النصيب مقدر لكل إنسان، . فطاش صواب الملك لسماعه ذلك القول وقد شق على قلبه ذلك الجواب فقال مضطراً: «القم صغير والقول كبير، فعقاب هذه أن تجرد من كل حلّيتها وزينتها وتنفى فى غابة خالية من أى إنسان، لنرى ماذا سيكون مقدراً لها ومن نصيبها، .

وطبقاً لأوامر الملك ساق الخادم الملكة فى جناح الليل وهى التى لم تغادر قصر والدها من قبل ولم تشاهد أى مكان آخر، وتركها الخادم فى مكان لا يستطيع الطير أن يطير فيه فضلاً عن الإنسان، وانتابتها حالة من العجب والدهشة فكيف كان حالها وكيف أصبح الآن؟

فحمدت ربها وأثنت عليه وقالت: «إِنَّكَ أَنْتَ الصِّمدُ وَقَدَرْتَ وَمَاشَيْتَ فَعَلْتَ وَاسْتَغْنَى عَنْكَ مَا تَشَاءُ، وَلَنْ أَبْأْسَ مِنْ رَحْمَتِكَ قَطُّ إِلَى أَنْ يَحِينُ أَجَلِي، وَرَاحَتِي فِي سُبَاتٍ عَمِيقٍ، وَمَا أَنْ بَزْغَ الْفَجْرُ حَتَّى فَتَحْتَ عَيْنَيْهَا وَقَالَتْ: أَأَلْتَنِي بِمَاءٍ لِلْوَضوءِ. وَعِنْدَمَا تَذَكَّرْتُ كُلَّ مَآمِرِهَا بِاللَّيْلِ وَأَيْنَ هِيَ وَمَاذَا تَقُولُ، قَامَتِ وَتَيَمَّمَتِ وَصَلَّتْ رَكْعَتَيْنِ لِلشُّكْرِ- فَيَا أَيُّهَا الْمَلَكَةُ إِنَّ قَلْبِي يَنْفَطِرُ بِسَمَاعِ ذَلِكَ - (٦) وَفِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ الْحَالِ كُنْتُ أَتَضَرَّعُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَأُنْشِدُ هَذِهِ الْأَبْيَاتَ:

- عِنْدَمَا لَمْ يَكُنْ لَدِي أَسْنَانٌ كُنْتُ تَمْنَحُنِي اللَّبْنَ.
- وَعِنْدَمَا مَنَحْتَنِي الْأَسْنَانَ كَيْفَ لَا تَمْنَحُنِي الْغِذَاءَ.
- فَاللَّهُ الَّذِي رَزَقَ الطَّيْرَ وَالْحَيَوَانَ يَرْزُقُكَ أَيْضاً.
- فَلَا دَاعِيَ لِلْخَوْفِ لِهَذَا الْقَلْبِ فَلَا حَاجَةَ بِهِ لِذَلِكَ.
- فَالِرَّازِقِ لِكُلِّ ذِي رُوحٍ وَغَيْرِ ذِي رُوحٍ قَادِرٍ عَلَى أَنْ يَرْزُقَكَ.

الحقيقة أن الإنسان إذا مر بضائقة فإنه يلوذ بالله ويذكره، وإذا ما خرج من الضائقة فإنه يعتبر نفسه لقمان الحكيم أو ابن سينا، فلتر الآن وتسمع قدرة الله، فقد مضت ثلاثة أيام ولم يدخل في جوف الملكة ولا حتى حبة خردل، فجف عودها وذبلت الزهرة وصارت شوكةً وامتنع وجهها النضر وبيست شفتاها وتحجرت عيناها وكادت تموت لكن أنفاسها كانت تتردد في صدرها وكان لها رجاء في الله ألا يحضرها الموت، وفي صباح اليوم الرابع جاء أحد الدراويش في هيئة الخضر مضىء القلب والوجه، فقال لها بعدما رأى من حالها: «يا بنيته على الرغم من أن أبأك ملك، إلا أن هذا الحال قد قدر عليك، الآن اعتبري هذا الفقير خادماً لك واذكري الله عز وجل وتضرعي إليه ليل نهار يفعل الله لك خيراً.

ووضع الفقير أمامها كل ما كان في جعبته من طعام وذهب باحثاً عن الماء، فأبصر بئراً لكنه لم يجد دلوّاً ولا حبلاً، فكيف يرفع الماء، فقطع أوراقاً من الشجر وصنع منها وعاء وأخذ من صدره حبلاً وربطه وأنزله في البئر وأخرج الماء وأحضره لها وسقاها إياه. فاستعادت وعيها وطمانتها ذلك الرجل الصالح بالنسبة لوحدها وغريبتها في ذلك المكان الموحش وأخذت في البكاء، فلما رأتها طمانتها وواساها، استقر قلبها واعتدل مزاجها، ومنذ ذلك اليوم صار من عادة الشيخ أن يخرج في الصباح ويغيب طوال اليوم مستجدياً الطعام ويحضره لها

فى المساء، فمضت عدة أيام على هذا المنوال، وذات يوم أرادت أن تمشط شعرها، وتدهنه بالزيوت والعطور، وحينما حلت صنفيرتها سقط من رأسها در ثمين فمحتة للدرويش وقالت له اذهب إلى السوق وبعه فذهب الفقير وباعه ثم عاد وأعطاها الثمن، فقالت له: «ابن فى ذلك المكان بيتاً مناسباً للإقامة» فقال الفقير: «يا بئيتى، احفرى الأرض واستخرجى منها التراب وفى يوم سأحضر مواد البناء وأضع الأساس، وطوعاً لأمره بدأت تحفر الأرض، وحينما حفرت متراً تحت الأرض ظهر باب تحت الأرض، فنظفت ذلك الباب، فرأت بيتاً كبيراً ممتلئاً بالجواهر والدنانير، فأخذت بضع حفنات من الدنانير ثم أغلقت الباب، ومهدت الأرض مرة أخرى، وأثناء ذلك عاد هذا الشيخ، فقالت له: «احضر العمال والفعلة والمهندسين ليبنوا فى هذا المكان قصراً ملكياً يضاهى قصر كسرى ويفوق قصر النعمان، وأعدوا بسرعة حصناً وقلعة وحديقة ومولاً للمسافرين ليس لها نظير، لكن ليحضروا أولاً تصميماً على الورق لأوافق عليه».

وطوعاً لأمرها أحضر الفقير العمال والفعلة وبدأوا يبنون القصر، وأحضر الموظفين والخدم والحشم المنتخبين من أفضل العناصر والمتخصصين فى كل شئون الخدمة، وأخذ صيت هذا القصر يذيع يوماً بعد يوم حتى بلغت أنباؤه مسامع أبى الملك، فتعجب كثيراً وسأل كل من يقابله، من هذا الذى بدأ يبنى مثل هذه القصور؟ لكن لم يكن أحد يعرف شكلى ليخبره فأجاب الجميع بعدم معرفتهم بصاحب ذلك القصر فأرسل الملك أميراً ورسالة، إننى أريد أن أرى هذا القصر ولتعرف من أنت ومن أين جئت؟ ولأى أسرة تنتمين؟ وحينما سمعت هذا الخبر فرحت وأرسلت رسالة «سلمك الله يا ملاذ العالم، فلقد سررت كثيراً بأنك ستشرفنا بزيارتك فهذا شرف لى وعزة، ومن يمن طالع ذلك المكان أنك ستشرفه بقدمك المباركة، والقاطنون إلى جوارك وفى ظل ملكك لهم عزة ورفعة، وهذه الخادمة تأمل أن غداً يوم الخميس، يوم مبارك وأفضل عندى من «النوروز» وسموك تشرفنى كالشمس المشرقة وتشرفنى بنورك، فارفع من شأنى بتشريفك بالحضور، وبمقدمك ستكون المواساة للفقير والغريب، وودعت هذا الأمير بعد أن قمت بتحيتة وإكرامه.

وبعد أن قرأ الملك رسالتها كتب إليها قائلاً: «إننى قبلت دعوتك ولا شك أننى سأحضر، وأمرت الخدام والموظفين بأن يعدوا لوازم الضيافة حتى تحظى بإعجاب الملك وسروره، وأعدوا طعاماً لذيذاً بحيث لا يبق أى طعام فى صحاف الملك، وطبقاً لأوامرها أعدت أنواع

من الطعام والحلوى لو أكلتها بنت «برهمن» (٧) لقاتل «لا إله إلا الله»، وعندما حل المساء وصل الملك في موكبه إلى بيتها فاستقبلته بين صديقاتها وخواصها. وحينما رأينا عرش الملك تلونا التحية الملكية فتحير الملك، ثم أجلسنا الملك على عرش مرصع وأعددنا منصة باهظة التكاليف فكانت تكاليفها مائة وخمسة وعشرين ألفاً من الروبيات وأعددنا له الهدايا والنذور من الجواهر والنقود والحريز والديباج والفيلة والخيول. ثم عقدت يداها ووقفت أمامه.

فقال الملك بكل عطف ومحبة: «أميرة أى إقليم أنت؟ وكيف قدمت إلى هنا؟»، فقدمت الملكة الاحترامات والتحيات في حضرة الملك الوالد واستأذنت وقالت: تلك الخادمة المذنبة التى أثارت غضب الوالد الملك فأرسلها إلى الغابة، وكل ماتراه الآن هو بفضل الله سبحانه وتعالى. فسرت دماء الحب فى عروقه فنهض وعانقها بكل الحب والمودة. وتناول يدها وأخذها وأجلسها على العرش إلى جواره، وكان والدها متحيراً ومتعجباً وأمر باستدعاء الملكة مع بقية بناتها وحينما وصلت، عرفت أمها وأخواتها ويكوا جميعاً وحمدوا الله عز وجل، ونثرت الملكة الأموال والجواهر على أقدام أمها وأخواتها بما يفوق كثيراً ما فى خزائن الدنيا، ثم تناول الملك مع الجميع الطعام الملكى.

وكان الملك طوال حياته يزورها أحياناً مع أمها، وحينما مات الملك، ورثت الملكة كل ماتركه أبوها من ملك وثروة، لأن غيرها لم يكن جديراً بذلك.

هذه أيها الصديق قصة هذا المال الموهوب من الله عز وجل ولهذا هو دائم لا يزول، لكن لا بد أن يخلص الإنسان نيته وضميره لله سبحانه وتعالى، وكلما أنفق الإنسان من ذلك المال فى سبيل الخير زاد بركة ونماء، فلا يجوز فى أى دين أو عقيدة أن يتعجب الإنسان من قدرة الله عز وجل.

وبعد أن أتمت الوصيصة ذلك الحديث قالت: «إن شئت السفر إلى ذلك المكان «نيم روز» لتأتى بالخبر اليقين، فامض على الفور «فقلت: سأذهب الآن فوراً، وإن شاء الله أعود مسرعاً، ثم غادرت وتوجهت إلى تلك البلدة، أملاً فى رحمة الله تعالى، ووصلت إلى بلدة «نيم روز» خلال عام واحد بشق الأنفس، وكنت كلما قابلت شخصاً صغيراً كان أو كبيراً وجدته متشعراً بالسواد فرأيت بعينى كل ماسمعت، وبعد عدة أيام هلّ الهلال وكان اليوم الأول من الشهر، فاجتمع جميع أهل البلدة أمراؤهم وعظماؤهم وكبارهم وصغارهم ورجالهم ونساؤهم ووقفت

بين هذا الحشد الغفير متحيراً غريباً عن وطنى ومالى فى هيئة الفقير منتظراً لأرى ماسيحدث فى الغيب، وفى تلك الأثناء خرج شاب من الغابة راكباً الثور واضعاً يده فى فمه صائحاً، وأنا الذى تجشم العناء والمشقة لأكتشف حقيقة ذلك الأمر وقفت واجماً ناظراً إليه، وسلك ذلك الشاب نفس السلوك الذى بدر منه قبل ذلك وعاد من حيث أتى، وانصرف كل القوم إلى شئونهم، وحينما عدت إلى رشدى، تأسفت على ما فعلت وقلت: ماذا فعلت أنا؟ فلا بد لى أن أنتظر شهراً آخر، وفى النهاية عدت مع الجميع إلى البلدة، وقضيت هذا الشهر أعد أيامه يوماً يوماً وكأنه شهر رمضان ثم هل هلال الشهر الجديد، وكأن هذا اليوم عيد لى، وفى اليوم الأول اجتمع كل الناس فى نفس المكان، وكان العزم على ضرورة معرفتى لهذا السر الغريب هذه المرة مسيطراً على نفسى مالكاً لحواسى، وعندئذ وصل الشاب وفقاً لعادته راكباً على الثور ونزل وكان فى إحدى يديه سيف وفى الأخرى لجام الثور، وأعطى الغلام قدراً من الفخار، فعرض هذا الغلام القدر على جميع الناس فبكى الجميع بمجرد النظر إليه، وكسر الشاب هذا القدر، وضرب رأس الغلام بالسيف، فانفصل رأسه عن جسده، ثم ركب وعاد من حيث أتى، فبدأت أسير خلفه فجذبني الناس من يدي وقالوا ماذا تفعل؟ لماذا تتعمد أن تجازف بحياتك، لو كنت غير راض عن الحياة فهناك طرق كثيرة للموت فمت بوسيلة أخرى فألححت كثيراً وحاولت أن أفر منهم، لكننى ما استطعت فقد أحاط بى أربعة أشخاص وحالوا دون تعقبى لذلك الشاب، وأخذونى إلى البلدة، فتأسفت كثيراً ومر على تلك الحال شهر كامل.

وعندما اكتمل الشهر، وحلت ليلة رؤية الهلال اجتمع الناس فى ذلك المكان كسابق عهدهم، وكنت قد استيقظت مبكراً وقت الصلاة، ثم توجهت إلى الغابة التى تشرف على الطريق الذى يأتى منه ذلك الشاب، واختبأت بها حتى لا يعترض طريقى أحد، وجاء ذلك الشاب كالمعتاد وقام بنفس الأمور التى كان يقوم بها فى كل مرة وبدأت أتتبع خطاه حتى لحقت به، فالتفت الشاب فجأة عندما شعر بأن هناك من يتبعه وصاح صيحة عظيمة واستل سيفه راغباً فى قتلى، فأنحيت تحية له وعقدت يدي وأنا فى طريقى إليه، فبدأ الشاب، يتكلم وقال: «أيها الفقير، كادت حياتك أن تضيع هباء، لكن عمرك طويل ولهذا كتبت لك النجاة، عد من حيث أتيت».

وأخرج من وسطه خنجراً مرصعاً بالدر والجوهر وأعطاني إياه وقال لى:
«خذ هذا فهو كل ماأملك الآن» .

وقال: «اذهب به للملك فيعطيك ماتشاء» .

فتملكنى الرعب والفزع لهيئته المهيبة ولم أقو على المسير وعقد الخوف لسانى وتسمرت
قدماى .

قال لى هذا القول ومشى صائحاً، فقلت فى نفسى: «ليكن ما يكون فليس من المناسب أن
أراجع الآن، فلن تسنح لى هذه الفرصة مرة أخرى وحملت روجى على كفى وسرت خلفه» .
فالتفت إلى مرة ثانية وحساح فى وجهى غاضباً ماذا تفعل يا هذا؟ وهم بقتلى، فأنحيت
أمامه وقلت: «ياأيها الشاب» رستم، اضرب عنقى بالسيف حتى تفصل رأسى عن جسدى
كى أستريح مما أعانيه من حيرة واضطراب وضياح وقد أبحت لك دمى، فقال: «أيها
الشیطان لماذا تحملنى حرمة دمك فى عنقى؟ وتجعلنى مذنباً؟ فسر فى طريقك فهل يئست
من حياتك؟» .

فما استجبت لأمره وشرعت فى المسير خلفه فتجاهلنى عامداً وسرت خلفه زهاء
فرسخين حتى تجاوزنا الغابة ورأينا سوراً ووصل الشاب إلى بابه وصاح صيحة حتى انفتح
الباب، فدخل وجلس وكنت أقف بالخارج وقلت متحيراً: «يارب ماذا أفعل؟» وبعد لحظة جاء
الغلام وقال لى: «إن الشاب يدعوك لمقابلته، فكأن ملك الموت قد وصل، فأى سوء حظ قد
قابلك، فقلت له: «هذا من حسن حظى، ودخلت معه فى الحديقة دون خوف» .

وفى النهاية أوصلنى إلى حيث يجلس الشاب فألقيت عليه السلام بعدما رأيته، فأشار إلى
بالجلوس، فجلست على ركبتي، فوجدت ذلك الشاب يجلس على الأريكة منفرداً وأمامه
أسلحة ثمينة وأشجار من الزمرد وحينما جاء وقت قيامه اختفى جميع الغلمان من أمامه فى
الغرف، ودخلت أنا أيضاً فى إحدى الغرف خوفاً، فقام الشاب وأغلق جميع الأماكن وخرج
إلى أحد الأنحاء فى الحديقة وبدأ يضرب ثوره الذى كان يمتطيه، فوصلنى صياح الثور،
فارتعد قلبى خوفاً، لكننى تحملت جميع المصائب لمعرفة هذا السر ففتحت الباب خائفاً
واختبأت وراء شجرة ناظراً إليه، فترك الشاب السوط الذى يجلد به الثور، وفتح قفل إحدى
الغرف ودخل مسرعاً ومسح على ظهر الثور وقبله ووضع أمامه العلف ثم عاد إلى الغرفة

فأسرعت واختبأت بالغرفة ففتح الشاب جميع الغرف وخرج جميع الخدم وأحضروا وعاءً وأبريقاً للوضوء، فتوضأ الشاب وقام للصلاة وبعد أداء الصلاة قال منادياً: «أين الفقير الدرويش، فهرولت إليه ووقفت بين يديه بعد أن سمعت اسمي، فقال لي: اجلس».

فسلمت عليه وجلست، فجاء الطعام فتناول هو وأعطاني أيضاً فأكلت، وبعد الانتهاء من الطعام والاغتسال، قال الشاب للخدم: «اذهبوا للنوم والراحة، وعندما لم يبق أحد منهم وأصبحنا بمفردنا شرع في الحديث معي فسألني: «ياعزيزي ماذا حل بك فأنت تبحث وتجد وراء حتفك، فقصصت عليه قصتي من البداية إلى النهاية بكل تفاصيلها، وقلت له: «أرجو من حضرتك أن تبلغني أُملي، وعندما سمع هذا زفر زفرة حارة، وخر مغشياً عليه وبدأ يقول: «ياإلهي، من يعرف أكثر منك ألم العشق؟ فمن لم يكابد آلام العشق لايعرفها، فالذي يشعر بالآلم هو الذي يقدر آلام الغير».

— يسأل العاشقين عن آلام العشق.

— أنى للفاسق أن يعرف؟ فليسأل الصادق.

وبعد لحظة استرد وعيه وزفر زفرة حارة وتردد صدى صوته في كافة الأرجاء، فتيقنت أنه أيضاً أسير للعشق ومريض بهذه الآفة، فقلت له: «لقد قصصت عليك قصتي، فلتحك لي حكايتك أيضاً لو تكرمت، فسأبذل جهدي لأسرى عنك حسب طاقتي وأحقق لك أمنيتك».

فالخلاصة أن ذلك العاشق الصادق بدأ يقص قصته بعد أن جعلني كاتم أسرارهِ ورفيقهِ المقرب وقال: «اسمع ياعزيزي إنني محترق القلب ابن ملك هذا الإقليم «نيم روز، فالملك أبى دعا بعد ولادتي الرمالين والمنجمين وقارنى الكف وقال لهم اقرأوا طالع هذا الصبى وانظروا في يوم سعدة وأخبروني عما سيمر به طوال حياته يوماً بيوم وساعة بساعة وشهراً بشهر وعاماً بعام، فقام المنجمون طبقاً لأوامر الملك بعد النجوم وقراءة طالع الصبى، وبدأوا يخبرونه بما قرأوه في طالعه وقالوا: «من فضل الله، ولد هذا الصبى في وقت يمكن له أن يصبح ملكاً مثل الإسكندر، وعادلاً مثل أنوشيروان، ويتفوق في كل علم وفن، ويجد كل مايهفو قلبه إليه وينال شهرة في السخاء والشجاعة حتى ينسى الناس «حائماً» و«رستم» ولكن بعد النظر إلى الشمس والقمر لأربع عشرة سنة يبدو خطر عظيم بل من المؤكد أنه سيصبح

مجنوناً ومختلاً عقلياً وسيقتل الكثير من الناس، ويخاف من القرية ويخرج للغابة ويتهال
لرؤية الحيوان والطير، ويلتزم بأنه لا يرى الشمس ولا القمر ليل نهار، بل لا يرفع نظره إلى
السماء وبعد انقضاء هذه المدة سيصبح ملكاً ويحيا حياة عظيمة مطمئنة .

وبعد أن سمع الملك ذلك القول، أنشأ هذه الحديقة، كما أنشأ العديد من المبانى ذات الطرز
المتعددة، وأمر أن أربى فى قبو القصر ويكون فوقه برج ويوضع فوق هذا البرج قطعة من
القماش الثقيل تحجب أشعة الشمس وضوء القمر، وأمر أن ترضعنى مرضعة، وكنت أترعرع
تحت رعاية الخدم والمربيات، وقد عين أبى لى أستاذا ذا حكمة وبصيرة وحكمة إيهلستى كل
العلوم والفنون ويدربنى على فنون الخط السبعة^(٨) وكان الملك دائم التتبع لأخبارى، وتأتيه
التقارير عنى كل يوم، وكان هذا المكان الذى تربيت فيه هو كل عالمى ودينائى ألعب فيه
باللعب وكانت جميع أنواع الطعام موجودة بهذا المكان أتناول مأشاء وقتما أشاء، برعت فى
جميع الفنون والصناعات وكان عمري عشر سنين .

وذات يوم رأيت زهراً غريباً تحت نافذة القبة، وكان ينمو كلما نظرت إليه فرغبت أن
أشمه فكلمنا اقتربت يدي منه بعد عنها وكلمنا رفعتها إليه طال أكثر منها، وكنت أنظر إليه
متعجباً فإذا بى أسمع صوت فهقهة، رفعت رأسى لأرى صاحب الصوت، فرأيت وجهها
بارع الحسن كالقمر وكانت تتطلع إلىّ بوجهها كالقمر فى السماء، وما إن رأيت ذلك الوجه
حتى فقدت رشدى ووعى، فتمالك نفسى، فرأيت هودجا يحمله أبناء الحور وفى هذا
الهودج فتاة على رأسها تاج من الدر والجوهر ترتدى ثوباً براقاً وفى يدها كأس ياقوتية
وكانت تجلس وكأنها احتست شرباً .

هبط الهودج تدريجياً فى القبة، فدعتنى تلك الحسناء وأجلستنى إلى جوارها وبدأت تتكلم
معى حديث العشق واقتربت بغمها من فمى وأشريتنى ماء الورد، وقالت: «إن ابن آدم
«الإنسى، لعديم الوفاء، لكن قلبى يميل إليك»، وتحدثت إلىّ بأساليب كثيرة فى دلال ورقة
فخرج أمر قلبى من يدي، وسررت وكأننى وجدت لذة وممتعة الحياة، وأدركت أننى جئت
هذا اليوم فقط إلى العالم .

الخلاصة إننى أعتقد أنه لست أنا فقط من لم يشاهد هذا المنظر، بل أنه ليس هناك من
رآه قط ولا سمعه، وبينما كنا نجلس معاً فى تلك الحال من النشوة فإذا بكارثة تحل بى حيث
أدرك حاملوا الهودج من أبناء الحور ماصار بينى وبين تلك الحسناء فجاءوا وهمسوا لها فتغير

وجهها بعد أن سمعت منهم وقالت لى: «ياحبيبي إن قلبى كان يهفو إلى البقاء إلى جوارك بعض الوقت لأسعد وأود أن آتى دائماً إليك أو آخذك معى لكن السماء لاتمنح شخصين فى مكان واحد الراحة والسعادة وإنى لذاغبة، فليحفظك الله» .

بعد أن سمعت هذا فقدت وعيى - وكأن الببغاء طارت من يدى - وقلت لها: «متى نتقابل ولماذا تغضبين بهذا الخبر السيئ؟ فيما أن تعودى بسرعة وتجدينى على قيد الحياة أو تأسفى علىّ وإما فلتخبرينى بعنوانك حتى أحاول أن أجدك وأصل إليك»، فقالت: «لا قدر الله، أبعد الله عنك هذا الشر وليطيل الله عمرك مائة وعشرين سنة، إن بقينا على قيد الحياة فسنلتقى إن شاء الله، أنا بنت ملك الجن وأقطن فى جبل «قاف»، ثم صعد الهودج تدريجياً كما هبط وطوال وجودها لم تغب عن ناظرى، وكانت أعيننا شاخصة إلى بعضنا البعض وحينما غابت عن نظرى، صرت كمن مسه الجنون وغلبنى الحزن الشديد وغاب عنى العقل والوعى، وأظلمت الدنيا فى عيني، وبكيت مضطرباً وحيراناً وأنساب دمعى مدراراً، وكنت أهيل التراب على رأسى وأمزق ثوبى، ولأبالي بالطعام ولأميز بين الصالح والطالح:

— كم من مأس يسببها العشق

— فالقلب امتلأ بالأحزان والحيرة

وعلمت مريبتى ومعلمى بما حل بى من اضطراب، فأسرعا للملك خائفين وأخبراه أن الأمير أصبح غائبا عن العالم ولايعرف سبب ما حل به والذى أدى إلى تركه للراحة وزهده فى الطعام والشراب» .

فاستدعى الملك كل الأمراء والوزراء والحكماء البارعين والمنجمين الصادقين والصالحين وال دراويش والمجاذيب وأحضرهم إلى الحديقة.

فدهشوا أيضاً بعد أن رأونى على تلك الحال من الاضطراب والنواح والبكاء وغلبهم البكاء وعانقونى، وأمرهم الملك بأن يتدبروا حلاً فكتب الحكماء ورقة بها دواء يقوى الدماغ والقلب وأعطانى المشايخ وال دراويش التعاويذ والتمايم لأعلقها وأشربها وبدأوا ينفخون على بعد قراءة الدعاء والرقية، وقال المنجمون إن دوران النجوم يتسبب فى هذا فتصدق، .

فبالخلاصة أن قال كل منهم وجهة نظره طبقاً لعلمه، أما ما كان بى فأنا وحدى الذى أعرفه، ولم تجد معى مساعدة أو علاج، وازداد جنونى يوماً بعد يوم، وهزل جسمى بسبب البقاء دون طعام أو شراب، ولم أكن أقوى على شىء سوى الصباح ليلاً وضرب الجدران برأسى وقد مضت ثلاث سنوات وأنا على تلك الحال، وفى العام الرابع وصل تاجر للسياسة وأحضر معه الكثير من التحف العجيبة والغريبة من كل البلدان وقام بمصاحبتى واهتم الملك به كثيراً، وبعد أن قام بأداء واجب ضيافته سأله: «لقد طفت بكثير من البلدان فهل وجدت حكيمًا ذا كمال ومهارة أو سمعت عنه؟»، فأجاب قائلاً: «ياقابلة العالم لقد طفت ببلدان كثيرة، لكن فى الهند وفى وسط البحر يوجد جبل وبه عابد زاهد «هندوسى» وقد أسس هناك معبداً للإله «مهاديو» وسنكت، وحديقة غناء يقطن بها، ومن عادته أن يخرج من بيته فى اليوم الأخير من العام ويسبح فى البحر ويمرح وبعد انتهائه من السباحة يعود لبيته، وفى أثناء ذلك يجتمع المرضى من الأقطار المختلفة والبعيدة، ويحتشدون بالبواب.

إن ذلك العابد من الممكن أن يقال عنه أنه «أفلاطون» ذلك العصر، يقيس النبض وينظر فى القارورة، ويصف الدواء لكل شخص يذهب إلى بيته لقد قدر الله على يديه الشفاء لدرجة أن المريض يشفى بمجرد أن يرتشف رشفة من الدواء ويذول المرض نهائياً، وقد رأيت ذلك بعينى رأسى، وأدركت قدرة الله سبحانه وتعالى على خلق مثل هؤلاء البشر، فلو تأمر أن آخذ ابنك وأذهب به إلى هذا الناسك فلدى أمل قوى أن يشفى شفاء تاماً وبسرعة وفى الظاهر أن هذا التدبير حسن كذلك، لأن السياحة بين البلدان والأقطار وتناول مختلف الأطعمة والأشربة يكون من نتيجته اعتدال المزاج.

فاستحسن الملك هذا رأى أيضاً وقال مسروراً: «هذا أفضل وربما يفيد عيادته ويزيل من قلب ابنى الوحشة، فعين لى أميراً يعتمد عليه خبيراً مجرباً وهذا التاجر، وأعطانا الأشياء اللازمة للسفر كالأنواع المختلفة من السفن، وأركبنا البحر وودعنا. وقطعنا المسافة شيئاً فشيئاً حتى وصلنا إلى المكان المقصود، فاعتدل مزاجى بسبب الطعام الجديد والماء والهواء العليل، لكن صحتى كانت على حالها، وكنت أبكى فى كل وقت، ولأنسى تلك الحساء فى أى لحظة، وإن أنسى فأنشد هذا البيت:

ما عرفت حسناء شغلت قلبي

من قبل وكان سليماً ولم يصبه شيء

وعندما مر حوالى شهرين أو ثلاثة اجتمع حوالى أربعة آلاف من المرضى، وكان الكل يقول إن شاء الله سيخرج العابد من سردابه وستشفى جميعاً بقوله شفاءً كاملاً.

وتكتملة القصة حينما جاء ذلك اليوم، خرج العابد من سردابه كالشمس واغتسل فى البحر وسبح وعبر البحر ثم رجع ومسح على بدنه بنوع من الرماده ببهوت بهسم،^(٩) وأخفى جسمه الأبيض كالشعلة فى الرماد ووشم جبينه بعلامة «ملاكير»^(١٠) ولف الثوب حول وسطه ووضع المنشفة على كاهله وارتنى عبايته، وقتل شاربته وانتعل وبدأ على وجهه أنه لا يعبأ بشيء فى هذا العالم، وكان يحمل دواة وقرطاساً وكان ينظر إلى كل من يقف أمامه ويصف له الدواء إلى أن وقف أمامى وحينما التقى نظره بنظرى، استغرق فى التفكير لحظة ثم قال لى تعالى معى، فصحبته، وحينما انتهى من الجميع أخذنى إلى الحديقة، وقال لى امكث هنا فى تلك الخلوة ذات النقوش والطلاسم، وذهب إلى سردابه، وبعد مرور أربعين يوماً جاء إلى ووجدنى أحسن من ذى قبل فابتسم وقال: «سرفى هذ الحديقة وإن أردت أن تأكل من ثمرها فكل، وأعطانى كويأ صينياً مملوءاً بالمعجون وقال لى: «كل من هذا المعجون كل يوم ستة مثاقيل صباحاً قبل الأكل، وذهب، وبدأت العمل بأوامره وبدأت استشعر القوة فى بدنى والفرح والسرور لكنه ماثراً على عشقى، وكانت صورة تلك الحسناء تتمثل دائماً أمامى.

وذات يوم رأيت كتاباً فى طاق الحجرة فأنزلته ورأيت أن جميع العلوم الدينية والدنيوية موجودة بهذا الكتاب، وكان البحر أدخل فى قرية، فكانت أطلعه فى كل وقت، فمكنتى هذا الكتاب من علم الحكمة وتسخير الجن بدرجة كبيرة، وفى ذلك الوقت كان قد مر عام، ثم جاء ذلك اليوم البهيج فى نهاية العام، فخرج العابد من سردابه فسلمت عليه فأعطانى دواة وقرطاساً وقال: «تعال معى، فصحبته وحينما خرجنا من الباب، دعا لنا الناس، وخر الأمير والتاجر على قدمى الناسك بعد أن رأينى معه على تلك الحال وشكرا العابد قائلين: «لقد أصبح على تلك الحال بفضلك»، وذهب الناسك حسب عادته إلى البحر وسبح إلى الشاطئ الآخر ثم عاد وعبد كما كان يفعل فى كل سنة، وكان من عادته بعد السباحة أن يكشف على المرضى ويصف لهم الدواء، وحينما كان يقوم بذلك فى هذا العام أيضاً، رأى فجأة بين

المرضى، شاباً وسيماً لا يقوى على النهوض بسبب هزال بدنه ووهنه، فقال لى خذ هذا الشاب، وعندما انتهى من الجميع، جاء إلى سردابه وقطع خصلة من شعر ذلك الشاب، وأراد أن ينظف هذا التراب من رأسه بالمبرد، فورد بخاطرى وقلت له: إنك لو وضعت هذا المبرد على النار ثم مررت به على ظهره لكان هذا أفضل فى إزالة تلك الأوساخ، لأنه إن استخدمت المبرد على رأسه فمن الممكن أن تصيب المخ وتقضى على حياته فلما سمع الناسك ذلك نظر إلى ونهض دون أن ينبس بكلمة وتوجه إلى ركن بالحديقة وكانت به شجرة وبها حبل قلعه على عنقه ثم شده، فذهبت إليه فرأيته ميتاً فأسفت كثيراً ثم دار فى خلدى أن أدفنه، وعندما بدأت أقضله عن الشجرة سقط منه مفتاحان فأخذتهما ودفنت هذا الناسك وبدأت أفتح كل الأقفال انفتح بابان بهذين المفتاحين، وعندئذ رأيتهما مملوءتين بالجواهر الثمينة من الأرض إلى السقف، وفى ناحية صندوق مغطى بالمخمل وموشى بالذهب، ولما فتحته وجدت فيه كتاباً مكتوباً فيه اسم الله الأعظم، وطريقة تحضير الجن والحوريات واستدعاء الأرواح وتسخير الشمس، فسررت سروراً عظيماً بنيل هذا الكنز العظيم، وبدأت أعمل بما هو مكتوب به. وقلت لذلك الأمير ومن برفقته: «افتح باب الحديقة وأحضر السفن وحملها بكل هذا المتاع والمال والجواهر والكتب، وركبت قارباً وسرت فى البحر حتى بلغت مشارف بلادى، وبلغ الملك نبأ وصولى فركب واستقبلنى وعانقنى بشوق، فقلت له بعد أن قبلت قدمه: «مر بأن أسكن فى الحديقة القديمة»، فقال لى: «يابنى ذلك المكان أصبح منحوساً عندى، لهذا أوقفت ترميمه وإعداده، وذلك المكان الآن غير صالح لأن يقيم به إنسان، فأنزل بأى قصر شئت فالقصور كثيرة فتخير أحسنها وكن تحت ناظرى، وجهاز هذه الحديقة كيفما يترأى لك وتمتع بها كما يحلو لك». لكننى قمت بإعداد تلك الحديقة القديمة من جديد بعد إصرار وإلحاح منى، وزينتها كالجنة ودخلتها، ثم جلست خالى البال أربعين يوماً لأسخر الجن، وتجيب أكل اللحوم وانشغلت بالتأمل، وحينما اكتمل الأربعون يوماً، هبت عاصفة هوجاء فى منتصف الليل، وسقطت المباني الكبيرة واقتلعت الأشجار وانجرفت، وظهرت كوكبة من الحوريات وهبط عرش من السماء، وكان يجلس عليه شخص مرتدياً حلة فاخرة من اللآلى فسلمت عليه لما رأيته بكل احترام، فرد على السلام وقال: «ياعزيزى، ماشأنك بنا وماذا تريد منا؟»، فقلت له: «إننى عاشق لابنتك منذ فترة طويلة ولأجلها احتملت

كثيراً من المصاعب والمتاعب، والآن أنا يست من الحياة وألقيت بنفسى فى المهالك، وألتمس منك أن تشربنى وتشملنى بعطفك وعنايتك، وتريحنى برؤيتها فنتال الثواب عند الله، وبعد أن سمع إلتماسى قال: «إن الإنسان خلق من طين ونحن خلقنا من نار، ومن الصعب أن يتواءما»، «فأقسمت بالله وقلت إننى أشاق لرؤيتها ولأمل لى سوى ذلك، فأجابنى قائلاً: «إن الإنسان لا يتمسك بقوله، وبعد عند الحاجة ثم لا يفى بوعد»، فأنا أقول هذا لصالحك، فإن كنت تقصد أنت شيئاً آخر فهذا فيه ضرر لك ولها، بل أنا أخشى على حياتكما، فقلت: «أنا لن أفعل شيئاً يضرنى أو يضرها فأنا أريد رؤيتها فقط»، وفى أثناء ذلك وصلت تلك الحساء التى نتحدث عنها فجأة وكانت فى أبهى زينتها، واختفى عرش الملك من أمامنا، فعانقتها وكأنها روحى رغما عنى، وأنشدت هذا الشعر:

– لماذا لا يمر السحاب على بيتى

– وقد قضيت أربعين يوماً لأجله

وبدأنا نعيش معاً فى تلك الحديقة فى جو من الفرح والسرور وكنت لأقربها خوفاً عليها وعلى بل أمتع بوجودها بجوارى، وكانت تلك الحساء مندهشة لأننى أفى بما وعدت، وتقول لى أحياناً: «يا حبيبى إنك صادق فى قولك، لكننى أنصحك لأجل الصداقة احذر من كتابك، لأن الجنى إن غفلت عنه سيسرقه فى أى يوم». فقلت لها: «أنا أحفظه كنفسى».

وفجأة ذات ليلة أغوانى الشيطان ووسوس لى، وراودتنى الشهوة، وقلت لنفسى إلى متى سأصبر فليحدث ما يحدث، فاحتضنتها وأردت الجماع، فإذا بصوت يقول: «أعطنى هذا الكتاب، فإن به اسم الله الأعظم ولا تكن وقحاً وأعطيته دون أن أدري وأنا فى غمرة تلك الحالة من النشوة واللذة، فقالت تلك الحساء بعد أن رأت هذا: «أيها الظالم، أخيراً أنت أخطأت ونسيت النصيحة، ثم أغمى عليها. ورأيت عند رأسها جنياً حاملاً الكتاب، فأردت أن أضربه واسترد الكتاب، وفى أثناء ذلك أخذ جنى آخر الكتاب وهرب، فأخذت فى قراءة الأدعية التى كنت قد رأيته بالكتاب، فمسخ الجنى الموجود ثوراً لكن مع الأسف أن الحساء لم تسترد وعيها، وبقيت على حالها، فاضطربت وأصبح عيشى مرأً.

ومنذ ذلك اليوم كنت ابغض الإنسان وأعيش فى ناحية من الحديقة، ولأريح قلبى كنت أصنع وعاء من الزمرد واللؤلؤ وأركب هذا الثور وأذهب كل شهر إلى ذلك الميدان وأكسر

الوعاء وأقتل غلاماً؛ رجاء أن يعرف الناس أحوالى ويأسفوا لها، فربما أجد شخصاً يدعو لى حتى أحقق أمنيتى .

ياصديقى: «هذه هى حقيقة جنونى وقد شرحتها لك جملة وتفصيلاً» .

وبعد أن سمعت هذا اغرورقت عينائى بالدمع، وقلت له: «أيها الأمير فى الحقيقة إنك احتملت كثيراً من المصاعب فى سبيل عشقك لكننى أقسم بالله أن أتنازل عن تحقيق أمنيتى فى سبيل تحقيق أمنيتك، والآن سأسيح معك ومن أجلك فى الغابات والجبال وأقوم بكل ماأستطيع، وودعت الشاب وكنت أسير فى القفار خمس سنوات لكننى ماحققت شيئاً، وفى النهاية صعدت الجبل بعد أن يكست وأردت أن ألقى نفسى لأموت، وإذا بذلك الراكب الذى ألقى على وجهى النقاب وقال: «لاتلق بنفسك بعد مدة قصيرة ستحقق بغيتك»، فقلت بإعباد الله: «لقد تشرفت برؤيتكم وآمل بفضل الله أن أجد أمنيتى قريباً وأجد سعادتى وفرحى، والجميع يحققون أمانهم» .

وحينما أنهى الدراويش الثانى قصته، كاد الليل أن ينتهى وأشرف الفجر على البزوغ، فعاد الملك «آزاد بخت، إلى بيته صامتاً، بعد وصوله إلى البيت أدى صلاة الفجر ثم ذهب - إلى الحمام - واغتسل ولبس لباساً فاخراً، وجلس على عرشه فى الديوان العام، وأمر حاجبه قائلاً: «هناك أربعة من الدراويش فى مكان بالتحديد احضرهم معززين مكرمين» .

فذهب الحاجب إلى هناك امبتالاً لأمر الملك، فوجدهم يستعدون للخروج بعد الفراغ من غسل الوجه واليد، فقال الحاجب: «إن الملك يدعوكم جميعاً، فتفضلوا معى، فبدأ كل منهم ينظر إلى الآخر ثم قالوا له: «إننا ملوك قلوبنا فما شأننا بملوك الدنيا؟»، فقال لهم الحاجب: «لابأس لكن ذهابكم إلى الملك خير كبير، وفى أثناء ذلك تذكر الأربعة أن ماقاله المولى «مرتضى، يتحقق الآن، فسروا وساروا مع الحاجب، وحينما وصلوا إلى القلعة وجلسوا أمام الملك، ودعا الدراويش الأربعة له بالخير، ثم جلس الملك فى الديوان الخاص واستدعى العديد من الأمراء والمقربين، وقال لهم: «ادعوا الدراويش الأربعة، فحضرُوا بين يديه فأمرهم بالجلوس وسألهم قائلاً: من أين جئتم؟ وأين تقطنون؟ وإلى أين تذهبون؟» .

فأجابوا: «يزيد الله سموكم عمراً وصلاً، نحن دراويش نصرب فى الأرض هكذا منذ أمد طويل تاركين البيت والأهل «إن مسكن الفقير هو المكان الذى يحل عليه كل مساء فأنى لنا

من قدرة لنبيين كل ما رأيناه فى هذا العالم الزائل، فواساهم الملك وخفف عنهم وأمر بالطعام وقدمه إليهم وبعد أن تناولوا طعام الإفطار قال لهم الملك: «احكوا لى حكاياتكم كاملة، ولن أدخر وسعاً فى خدمتكم» .

أجاب الدراويش: «لأنستطيع أن نذكر كل ما مر بنا، إذ لن يسر الملك بالسمع؛ فسامحنا، فتبسم الملك وقال: «لقد سمعت كل ما حكيتكم فيما بينكم ليلة أمس، فلقد كنت حاضرا هناك، وسمعت قصة درويشين منكم، والآن أريد سماع قصة الاثنين الآخرين، فلتبقوا عندى عدة أيام، فاخذوا يرتعدون بعد سماع هذا القول مطأطئى الرؤوس لا يستطيعون الكلام» .

وحينما رأى الملك أنهم فقدوا رشدهم ذعرا، قال: لا يوجد فى هذا العالم شخص قط لم تمر به الأحوال المختلفة خلال حياته، فبالرغم من إننى ملك إلا أننى قد مررت بمثل هذه الأحوال أيضا، وسأبدأ بقصتى أولا فآلقوا السمع» .

قال الدراويش الأربعة: «تفضل هذا كرم دائم من جلالكم» .

فبدأ بقص القصة قائلا:

أيها الدراويش هذه قصة الملك فاستمعوا
فلتستمعوا إلى كل ما رأيته وسمعته
سأقصها للدراويش حرفا حرفا
ولتخلصوا جيدا إلى تلك الأحوال

حينما مات والدى الملك، وتوليت أنا الحكم، كنت شابا وتخضع بلاد الروم لسلطتى، وفجأة جاء تاجر من «بدخشان» محملا بالبضائع، وأخبرنى الحجاب أن تاجرا كبيرا جاء إلى البلاد بما لم يأت أحد بمثله من قبل، فاستدعيته .

فجاءنى وقدم لى التحف والنفائس التى تليق بى وكانت تلك التحف من شتى الأنواع، وفى أحد العلب كانت ياقوتة تتلأأ ذات لون بديع ووزنها خمس أوقيات، ورغم إننى ملك إلا أننى لم أر ولم أسمع بمثل هذه الياقوتة من قبل فأعجبت بها كثيرا، ومنحت التاجر كثيرا من الصلات وأعطيته وثيقة تجيز له التجوال فى البلاد، دون أن يتعرض له من يطالبه بالضرائب، وأينما ذهب وجد حسن المعاملة، من يعوضون له خسارته فى التجارة، وكان

التاجر على دراية بآداب مجالسة الملوك، صاحب بلاغة وفصاحة، يحضر بين يدي وقت انعقاد الديوان، أما أنا فكانت أطلب تلك الياقوتة كل يوم لأراها .

وذات يوم كنت جالسا في الديوان العام، وعندى أركان الدولة وعظماؤها، وجميع سفراء ملوك البلدان المختلفة، الذين حضروا للتهنئة، وفي ذلك الوقت طلبت تلك الياقوتة كعادتي فجاء بها أمين خزانة الجواهر، فأخذت أمدحها، ثم أريتها لمندوب الإفرنج . فابتسم بعد رؤيتها وأخذ يتطلع إليها كل واحد من الحضور، وقالوا بلسان فرد واحد، من حسن طالع الملك أن تيسرت له هذه الياقوتة، فلم يحز مثلها ملك حتى الآن، في ذلك الحين كان وزيرى الكيس الفطن، الذى يتولى خدمتى، حاضراً، فسلم علينا وقال: إذا سمحت لى يامولاي، أريد أن أقول كلمة.

فامرته أن يتكلم فقال: «يا قبة العالم ، إنك ملك ومن الجدير بالملك ألا يمدح حجرا حتى وإن لم يكن له نظير فى اللون والنوع إلا أنه حجر، وكل السفراء والمندوبين ماثلون هنا الآن، وعندما يعودون إلى بلادهم ، سيقولون إن الملك وجد حجرا، وجعله تحفة نفيسة يعرضها على الناس كل يوم ويثنى عليها بنفسه، وحينما يسمع الملوك هذا الخبر سيضحكون، وبالله إن فى «نيسابور» تاجرا علق اثنتى عشرة ياقوتة فى رقبة كلب ووزن كل ياقوتة سبعة مثاقيل» .

وحينما سمعت قوله تمكنتى الغضب، وقلت بحدة: «اضربوا عنق هذا الوزير، فأسرع الجلادون والسيافون على الفور وسحبوه من يده وأرادوا أن ياخذوه خارج الديوان .

وعندئذ وقف أمامى سفير ملك الفرنجة عاقدا يديه، فسألته ماذا بك؟ فقال لى: أرجو من سموك أن تتحقق من تقصير الوزير «فقلت له، وهل هناك ذنب أكبر من الكذب ؟ خاصة أمام الملوك؟» فقال لى: لم يثبت كذبه، ربما كان كل ما ذكره حقيقيا ومن غير المناسب الآن قتل البريء، «فاجبته قائلاً: إنه لا يدخل فى عقل أن من يتاجر ليتكسب قوته ويعانى فى جمع الثقليل من المال ويجوب البلدان والأقطار بتجارته من أجل الدوايق، يعلق اثنتى عشرة حبة من الياقوت ووزن كل منها سبعة مثاقيل فى عنق كلب «فقال السفير: لا عجب فى قدرة الله، إن معظم التجار والفقراء، يحصلون على هذه التحف والأشياء لأنهم يجوبون معظم البلدان والأقطار، ومن رأى يا جلالة الملك، أنه إذا كان الوزير مخطئاً فليسجن، لأن الوزراء

يكونون بمثابة العقول للملوك، وليس من اللائق بالملوك، أن يأمرؤا بالقتل عقاباً لهذا الخطأ، فضلاً عن أنهم لم يتحققوا من صحته، ويتسرن كل ما قدموا ويدلوا من مهام بإخلاص ووفاء.

أيها الملك!! إن الملوك فى البلدان الأخرى شيدوا السجون ليسجن بها من يغضب عليه الملك، وتمر أيام الغضب ويظهر الحق، ويعفى الملك من إراقة الدماء دون سبب وبهذا لا يتحمل الوزير يوم القيامة،.

وطالما جادلته كى يقتنع، لكنه كان يتكلم كلاماً معقولاً لدرجة إننى لم أستطع أن أرد عليه فقلت: «حسناً وهو كذلك، فقد عدلت عن قتله، وليلق فى السجن فإن ثبتت صحة قوله بوضع الياقوت فى رقبة الكلب خلال عام صفحت عنه، وإلا سأنزل به عقابى وغضبى، ثم قلت: اذهبوا به إلى السجن»، وحينما سمع المندوب هذا قبل الأرض بين يدى وسلم على.

ولما بلغ الخبر بيت الوزير تبدل حال أهل البيت وصار مأتماً، وكان للوزير بنت جميلة ذكية عمرها بين أربعة عشر وخمسة عشر عاماً، وكانت محبوبة لدى الوزير وقد بنى لها قصرأ خلف ديوانه، وألحق بخدمتها بنات الموظفين والموظفات لتمرر وتلعب معهن.

ويوم أن أرسل الوزير إلى السجن كانت البنت تلعب وتلهو مع صريحباتها وتزوج الدمى وكانت هناك طبول ودفوف وكانت تعد لليلة زفاف الدمى، وبينما كانت هى وأترابها يطبخن الحلوى للصدقات، إذ جاءت أمها وهى باكية ممزقة الثياب، حافية القدم حاسرة الرأس، وضربت على رأس البنت قائلة: «لو أن الله رزقنى ابنأ أعمى بدلاً منك لقرت عينى وصار معاونأ لأبيه ومرافقأ له» فسألت ابنة الوزير: «بماذا يفيدك الابن الأعمى؟ فما يستطيع أن يقوم به، أستطيعه أنا أيضاً» فأجابتها الأم: «تبا لك، إن أباك قد ذكر شيئأ أمام الملك، كان من جرائه أن زج به فى السجن» فسألت بنت الوزير: «وما هو هذا الكلام؟ أريد أن أسمع» فقالت زوجة الوزير: «قال أبوك، إنه يوجد فى «نيسابور» تاجر قد علق اثنتى عشرة حبة من ياقوت وزن كل منها سبعة مثاقيل فى عنق كلب، لكن الملك لم يصدق»ه وظنه كاذبأ فسجنه، فلو كان لى اليوم ابن، لكان قد حاول أن يتحقق من هذا القول، ويأتى بدليل يثبت به براءة أبيه، ويلتمس العفو من الملك حتى يفرج عنه،.

قالت ابنة الوزير: «يا أمى العزيزة!! إن القدر لا يحارب، عندما يبطل الإنسان عليه بالصبر وبالأمل والرجاء فى الفضل الإلهى، فإنه كريم، لا يدخل الإنسان فى مأزق إلا وعنده منه المخرج، فلا يجب البكاء، ربما وشى به أحد من الأعداء، ويسبب هذا حل به غضب الملك، بل ادعى الله، نحن من عباده وهو معبود لنا، إنه غاضب علينا وهو أيضاً رحيم بنا». وأخذت البنت تهدئ من روع أمها حتى هدأت واستكانت، ثم ذهبت إلى قصرها وصمتت، وعندما حل المساء وأظلم الليل، دعت كبير الموظفين وخرت على قدميه باكية راجية له وقالت: «أريد ألا تبقى لعنة أمى على، ويفرج عن أبى، فإن رافقتنى سأسافر معك إلى «نيسابور»، وأعود معى بالتاجر الذى علق اليواقيت فى عنق كلبه، بأية وسيلة وبأى ثمن، وأخلص أبى من السجن».

رفض الموظف أولاً، ثم عاد ووافق بعد ذلك نتيجة لإلحاحها ورجائها، فقالت له بنت الوزير: «لنعد أسباب السفر والتجارة الجديرة بالملوك، ولتتكم الأمر، واجمع الغلمان والخدم والموظفين كلهم». فوافق الخادم وشرع فى إعداد مأمريت به، وعندما تم الاستعداد وحملت أسباب السفر على ظهور البعير والحمير خرجوا وسافروا، وقد تخفت ابنة الوزير فى زى الرجال وسافرت معهم دون أن يعرف أحد قط. وحينما أشرق الصبح شاع الخبر فى بيت الوزير أن ابنة الوزير غائبة ولا يعرف أين هى.

ومع هذا فقد أخفت الأم أيضاً غياب ابنتها خشية الفضيحة وسوء السمعة، وجعلت بنت الوزير من نفسها ابناً لتاجر، ووصلت إلى «نيسابور» بعد قطع مسافات طويلة، ونزلت فى قصر المسافرين وهى فرحة، وأنزلت أسباب التجارة وقضت الليلة، وفى الصباح لبست لباساً فاخراً كزى أهل بلاد الروم، ثم خرجت تتجول فى البلاد، حتى وصلت إلى مفترق طرق، ووقفت ورأت فى أحد المواضع دكاناً للحلى والجواهر وبالدكان الكثير من المجوهرات ويقف به الغلمان لابسين لباساً فاخراً عاقدين أيديهم وكبيرهم عمره خمسون عاماً حسن المظهر يرتدى ملابس كالوزراء، يلتف حوله العظماء من ذوى الجاه والسلطان، على الأرائك يتحدثون فيما بينهم.

وحينما رأت ابنة الوزير - التى عرفت نفسها بأنها ابن تاجر - هذا الرجل تعجبت وحدثتها نفسها قائلة: «ليت الله لا يجعلنى كاذبة»، هذا هو الرجل التاجر الذى علق اليواقيت فى عنق الكلب ففى الغالب أنه هو، يا إلهى أظهر لى أحواله.

فجأة رأى ابن التاجر - أى بنت الوزير- حائوتاً فى الجانب فيه قفصان معلقان وفيهما رجلان محبوبسان، تبدو عليهما سمات الجنون، لم يبق منهما إلا الجلد والعظم، وقد طالت أظافرهما وشعرهما وجلسان منكسى الرأس، ويقوم على حراستهما حبشيان قبيحا الهيئة، فاندesh ابن التاجر وقال: «لا حول ولا قوة إلا بالله والتفت إلى ناحية أخرى فرأى حائوتاً مفروشا بالبسط وبه أريكة مصنوعة من سن الفيل مكسوة بقماش لين ، وعلى هذه الأريكة كلب فى عنقه قلادة من الجواهر ومقيد بسلسلة من الذهب، وغلامان من الفتيان الحسان يقومان على خدمته، وكان أحدهما يمسك بمروحة يهوى بها عليه، والثانى يمسك منديلاً مطرزاً ومزركشاً يمسح به على وجهه وأرجله، فأمعن ابن التاجر النظر فرأى أن فى قلادته اثنتى عشرة حبة من الياقوت موجودة فعلاً كما سمع، فشكر الله، وبدأ يفكر كيف يذهب بهذه اليواقيت إلى الملك ويطلق سراح أبيه؟ كان ابن التاجر على تلك الحال، أما الآخرون فكانوا فى حيرة من شدة حسنه وجماله ويتحدثون فيما بينهم، أنهم مارأوا قط فى جمال هذا الشخص ورآه أيضاً السيد صاحب الكلب، فأرسل غلاماً إليه قائلاً آت به إلىّ وقل له تفضل وشرف بالحضور.

وذهب إليه غلام وأبلغه رسالة سيده وقال له: «لتكرم وتقبل دعوة السيد فهو يتوق للقائك، وكان ابن التاجر يريد هذا فقال: «لأبأس، حسناً ومأن رأى السيد ابن التاجر حتى أصابه سهم العشق بطعنة فى قلبه، فخف لتحيته فأدرك ابن التاجر أن السيد أصبح فى قبضته، فتعانقا وقبل السيد جبين ابن التاجر، وأجلسه إلى جواره، وبعد تبادل المجاملات قال السيد لابن التاجر: «من أنت؟ ومن أين جئت؟ وإلى أين تمضى؟ فقال: «موطن هذا الفقير هو بلاد الروم (التي كانت تعرف قديماً باستنبول زاد) وسيدى تاجر، ويسبب كبر سنه لا يستطيع السفر وقد أرسلنى لأتعلم التجارة، ولم أخرج من قبل من البيت، وهذا هو أول سفر لى، ولم أسلك طريق البحر بل أخذت طريق البر وسمعت فى ملك العجم عن سمو أخلاقك ومحاسنك، فما جئت إلى هنا إلا للقائك، وها أنا ذا أشرف باللقاء وقد وجدت فيك مما سمعت، وتحققت أمنيى حفظك الله، والآن أريد أن أغادر إلى بلادى. ولما سمع السيد هذا القول منه طاش صوابه وقال: «ياولدى لا تنقل هذا، ولتشرفنا يوماً فى بيتنا المتواضع وأخبرنى أين أمتعتك وخدمك وموظفوك؟ فقال ابن التاجر: «سكن المسافرين فى منازل المسافرين وقد

تركت الجميع هناك وجئت إليك، فقال السيد: «ليس من اللائق أن تنزلوا في منازل الغرباء والمسافرين، ولى مكانة واعتبار وشهرة في هذا البلد، فاذهب وادعهم على وجه السرعة، فقد خصصت لك بيتاً ولغلمانك وموظفيك، ولتعرض على كل مامعك من تجارة، حتى أهيب لك كسباً وفيراً يسرك وأخفف عنك مشقة الترحال لبيعه، وتفضل على بنزولك في ضيافتى.

فاعتذر ابن التاجر ظاهرياً عن النزول في ضيافته، لكن السيد ألح في دعوته، وأمر الخدم أن يرسلوا الدواب بسرعة لتحمل أمتعة التاجر وتجارته وتضعها في مكان عينه لهم، فأرسل ابن التاجر غلاماً زنجياً كان معه ليحمل الأمتعة وجلس هو مع السيد حتى جاء وقت المساء، فأراد السيد أن يذهب إلى بيته، فاصطحب أحد الغلامين الكلب وحمل الثاني الكرسي ووضعها هذا الكلب والكرسي على الرجلين المحبوسين في القفص وساروا، وأمسك السيد بيد ابن التاجر وذهبا إلى القصر وهما يتحدثان، ووجد ابن التاجر قصراً منيفاً يليق بالملوك والأمراء، وقد فرش على حافة نهره فرش فضى، وقد صفت أمام الأرائك أسباب المتعة والرفاهية ووضعت هناك أريكة للكلب أيضاً، وأكرم السيد وقادة ابن التاجر وشرباً معاً دون تكلف، ولما دار بالخمير رأسهما، طلب السيد الطعام، فمدت المائدة ووضع عليها مالذ وطاب من الطعام، ومن نعم الدنيا، ثم أحضروا للكلب صينية الطعام مغطاة، ومدوا مائدة موشاة بالذهب أمام الكلب، ونزل الكلب من مكانه وأكل ماشاء، وشرب من إناء ذهبى، ثم ذهب وجلس على السرير، فجاء الغلمان ومسحوا على فمه ويديه، ثم حملوا تلك الأطباق والدورق إلى قفص السجينين وضربوهما بالسياط، ثم أطعموهما بقايا طعام الكلب وسقوهما من نفس الدورق، ثم أغلقوا القفص وردوا المفتاح إلى السيد.

وبعد هذا كله بدأ السيد يأكل، وأما ابن التاجر فلم يعجبه ماحدث، وامتنع عن الطعام، على الرغم من أن السيد ألح عليه كثيراً إلا أنه أبى فسأله السيد عن السبب قائلاً: «لماذا لا ترغب في الطعام؟».

فقال ابن التاجر: «إننى كرهت فعلك هذا؛ لأن الإنسان أشرف المخلوقات، والكلب نجس العين، ففى أى مذهب يجوز إطعام العبيدين بقايا طعام الكلب؟ ألا يكفى أنهما فى حبسك؟ وإن لم يكونا فى حبسك فهما وأنت سواء، والآن أنا أشك إن كنت مسلماً أم لا ولا أدري من أنت؟ أتعبد الكلب؟ وليس من المستحب أن أكل طعامك إلى أن يزول هذا الشك من قلبى.

فقال السيد: «يابنى!! أنا أدرك أنك على حق فيما تقول، ولهذا فقد صرت سيء السمعة في البلد، وقد سمانى الناس «بعباد الكلب» واشتهرت بهذا، لكن لعنة الله على الكفار والمشركين، ثم نطق بالشهادتين وطمان ابن التاجر، فسأله ابن التاجر: «لو كنت مسلماً، فلماذا تفعل هذا حتى تسيء لسمعتك؟» فقال السيد: «يابنى!! لقد اقترن اسمى بسوء السمعة كما أننى أودى للدولة الضرائب أضعافاً مضاعفة، حتى لايفش هذا السر بين الناس، فهذه حكاية غريبة كل من يسمعها لايمالك إلا الغضب والحزن، فاصفح عني أنت أيضاً، حيث إننى لن أستطيع أن أحكيها لك». ففكر ابن التاجر فى نفسه قائلاً: «مالى أنا ولهذا لقد جئت إلى هنا لغرض خاص، وقال للسيد: «حسناً إن كنت لاتستطيع أن تبوح بهذا السر فلا جناح عليك، ثم بدأ ابن التاجر فى تناول الطعام، وقضى مع السيد شهرين بذكاء وفطنة حتى لايتضح لأحد أنه فتاة، وتأكد الجميع أنه رجل، وقد ازداد حب السيد له يوماً بعد يوم، حتى أصبح لايطيق أن يغيب عن ناظره.

وذات يوم أثناء احتساء الخمر بدأ ابن التاجر يبكى، فأخذ السيد يواسيه ويكف دمه، وسأله عن سبب البكاء، فقال ابن التاجر: «ياسيدى ماذا أقول؟ ليتك لم تخدمنى هكذا ولم تعطف على، الآن تعترضنى مشكلتان فأنا لأريد أن أفارقك كما لايمكننى أن أمكث معك على الدوام، والآن على بالذهاب، لكن لا يبدو لى أى أمل فى الحياة بعد فراقك».

ومأناً سمع السيد هذا القول منه حتى انخرط فى البكاء وأخذ ينتحب وقال: «يانور عيني كيف شبت بسرعة من رفقة هذا الشيخ، لدرجة أنك تريد السفر محزوناً قلبى؟ فلتصرف النظر عن سفرك هذا، فلن تفترق عني لحظة قط، طالما أنا على قيد الحياة، وإلا مت قبل الأجل، فجو بلاد فارس طيب ومناسب لك، ومن الأفضل أن ترسل رجلاً يعتمد عليه لأبوك ليدعوهم مع أمتعتهم، وكل مايلزم للنقل سأوفره، وعندما يصل ذوك تستقر هنا وتعمل بالتجارة، فقد تحملت أنا أيضاً كثيراً من المشاق والصعاب وتجولت كثيراً بمعظم البلدان، والآن صرت شيخاً، ولم أرزق بابن وأعتبرك أفضل ابن لى، وستخلفنى من بعدى، وأنت عاقل وخبير فى عملى، وطالما أنا حى فيكفينى أن تعطينى لقمة خبز، أما إن مت فادفننى وخذ أموالى»، فرد ابن التاجر قائلاً: «فى الحقيقة إنك تواسينى وتطمأننى أكثر من والذي حتى نسيتهما، لكن والد هذا الإنسان سمح له بالسفر لعام واحد فقط، ولو تأخرت فإنه

يموت في شيخوخته، ورضاء الأبوين من رضاء الله، فلو أنهما غضبا على أخشى أن يدعوا على فأكون محروماً في الدنيا والآخرة، فإن تعطفت وتكرمت فمرنى بأى شىء أستطيع القيام به لأؤدى حق والدى على، وأما عناية جنابك بى فلن أنساها ماحييت وهى دين فى عنقى، ولو عدت إلى بلادى سأذكرها على الدوام، والله مسبب الأسباب، ربما يكون هناك سبب كى أقبل قدميك مرة أخرى، .

والخلاصة أن ابن التاجر أخذ يماطل السيد ويراوغه حتى اضطر السيد إلى أن يعرض على شفتيه أسفاً، فقد كان شغوقاً به مفتوناً، وأخذ يقول: «حسناً إن لم ترض أن تمكث هنا فسأذهب معك، فأنت لى بمثابة الابن والنفس والروح فلو خرجت الروح فما فائدة البدن؟ فإن كان رضاؤك فى هذا فلتذهب وأنا معك»، وبعد ذلك أخذ السيد يعد العدة للسفر برفقة ابن التاجر، وأصدر أوامره لمن حوله ليعدوا للسفر لوازمه على وجه السرعة.

وحينما ذاع نبأ سفر السيد تهيأ التجار أيضاً للسفر بعد عملهم بذلك، وأخذ السيد عابد الكلب معه الكثير من المجوهرات والتحف والخدم والغلمان والبضائع والمتاع الذى يليق بالملوك، وخرج من المدينة مسافراً وأقام الخيام ونزل فيها وأخذ التجار من البضائع على قدر استطاعتهم حتى أصبحوا كالجيش الجرار.

وذاث يوم تحينوا الساعة المباركة وبدأوا رحلتهم، وقد حملت حقائب المتاع والبضائع على ظهور آلاف الجمال كما حملت صناديق الأموال والجواهر على ظهور البغال، وركب خمسمائة من غلمان صحراء «قبحاق» ومسلحون من الزنج والروم وسياقون على الخيول التركية والعراقية والعربية، وخلفهم جميعاً السيد وابن التاجر فى ملابس فاخرة، راكبين على محفتين وهودج بغدادى مربوط بظهر الجمل ينام عليه الكلب، وقفص السجينين معلق فى جانب واحد، وعندما ينزلون فى أى موضع يأتى الجميع إلى السيد يلتفون حوله ويتناولون الطعام معه على مائدة واحدة ويحتسون الخمر والشراب، وكان السيد يحمد الله ويشكره لأنه برفقة ابن التاجر ويقطعان الطريق سوياً.

ووصلا إلى حدود القسطنطينية بخير وعافية ونزلوا خارج المدينة، فقال ابن التاجر: «ياسيدى لو تأذن لى فى أن أذهب لوالدى كى أخصص قصراً لجناحك، وعندما ترغب فى دخول المدينة فلتدخل، .

فقال السيد: «من أجلك جئت إلى هنا، حسناً فلتذهب لوالديك ولكن عد بسرعة بعد لقائهما، واجعل لى قصراً بالقرب منك» .

فودعه ابن التاجر، وحينما دخل الفتى البيت دهش الجميع من هذا الرجل الذى دخل البيت؟ وتوجه ابن التاجر- أى بنت الوزير- إلى أمها، وخرت على قدميها وهى تبكى وتقول «أنا ابنتك، وحينما سمعت زوجة الوزير هذا أخذت تسبها قائلة: «أيتها البنت سيئة السمعة الساقطة، لقد بعث كرامتك وعزتكم وسودت وجهك وألحقت المعرة بأسرتك، لقد بكيناك ثم تذرعنا بالصبر، فلتغري عن وجهي، فخلعت بنت الوزير العمامة عن رأسها قائلة: «يا أمى ماذهبت إلى مكان سيئ وما ارتكبت أى جرم وكل ما قمت به كان لكى أطلق سراح أبى من السجن، حسب أوامرك، والحمد لله ويفضله وببركة دعائك قمت بكل ما أستطيع وأحضرت معى التاجر مع الكلب الذى علق فى عنقه الدواقيت وماخذت الأمانة، فقد تنكرت فى زى الرجال وسافرت، وبقي عمل اليوم فقط، وبعد قيامى به سوف أطلق سراح أبى وأعود إلى بيتى، فلو أذنت فأعود وأبقى يوماً خارج البيت» .

وحينما تأكدت أمها أنها فعلت مثل الرجال وحفظت شرفها وكرامتها، سجدت لله شكراً وضمت ابنتها إلى صدرها وقبلتها ودعت لها وودعتها قائلة: «افعلى ماترينه مناسباً فأنا مطمئنة» .

وتنكرت بنت الوزير فى هيئة ابن التاجر مرة أخرى وذهبت إلى السيد المولع بالكلب، وكان السيد هناك يعانى من غيابه عنه فخرج مضطراً، فتقابلا فجأة فى الطريق فقال السيد حين رآه: «يا عزيزى!! أين ذهبت تاركاً إياي؟» . فقال ابن التاجر: «ذهبت بعد أن استأذنتك إلى البيت، لكن الشوق إلى قريك منعنى من البقاء، وشاهدوا حديقة وارفة غناء على شاطئ نهر فنزلوا فيها بخيامهم، وكان السيد وابن التاجر يشربان ويأكلان الشواء سوياً، وحينما حل وقت العصر، خرجا من الخيمة ليروحا عن نفسيهما ويتنزها وجلسا على الأرائك» .

وفجأة مر بهما صياد الملك، واندesh بعدما رأى قيامهما وجلسهما والقافلة التى معهما وقال فى نفسه، لعلمهم رُسل أى ملك، ووقف يتطلع إلى ماحوله، وفى أثناء ذلك رآه تابع السيد، فدعاه وسأله: «من أنت؟» فقال: «أنا صياد الملك، فأخبر التابع السيد بأحواله فقال السيد لغلام حبشى: «قل لهذا السوقى إننا مسافرون، إن أردت فتنفصل واجلس، والقهوة حاضرة فى الإبريق، وحينما سمع الصياد اسم التاجر تعجب، ودخل إلى مجلس السيد، ورأى

هناك الغلمان والحراس ومظاهر البهجة، فحيا السيد وابن التاجر، وشاهد ما للكلب من منزلة رفيعة، فعددت الدهشة لسانه، واستضافه السيد لشرب القهوة، وسأل الصياد الملكى السيد عن اسمه وغير ذلك ثم استأذنه فى الانصراف، فأذن له بعد أن منحه الأثواب الفاخرة والتحف الثمينة.

وحينما حضر الصياد (الjasوس) إلى قصر الملك، أخذ يقص على حاشيته أحوال السيد التاجر، فوصلنى الخبر تدريجيا فاستدعيت الصياد الملكى وسألته عن أخبار التاجر، فأخبرنى بكل ما رآه، وحينما سمعت عن كيفية تدليل الكلب وعن السجينين غضبت وأمرت بوجوب قتل ذلك التاجر، فأمرت الجلادين أن اذهبوا بسرعة واقطعوا رأس هذا المارق، ومن قضاء الله وقدره أن نفس السفير الإفرنجى كان حاضرا بالقصر فابتسم، فازداد غضبى فقلت: «يا وفتح!! ياسيىء الأدب!! الضحك فى حضرة الملوك دون سبب خروج عن الأدب، فالبكاء أحسن من الضحك دون سبب». فاعتذر السفير والتمس العفو وقال: «يامولاي كثير من الأمور قد دارت فى ذهنى لهذا ابتسمت، أولاً: أن الوزير صادق فيفرج عنه ثانياً: أن الملك قد برئ من إرقة دم الوزير دون وجه حق، ثالثاً: سيادتكم أمرت بقتل التاجر دون سبب أو جرم، فلهذه الأسباب تعجبت من أنك تأمر بقتل أى شخص دون تحقيق آخذاً بقول أى أحق، والله أعلم ماهى أحوال السيد فى الحقيقة، فلتطلبه وتسأل عن حاله، فإن كان مخطئاً ومقصراً فجلالتكم الخيار لتفعل معه ما تشاء».

وحينما وضح السفير مسلكه بهذا الإسلوب، تذكرت قول الوزير وأمرت أن يحضر التاجر وابنه والكلب على الفور.

فذهب الضابط فأحضرهم جميعاً: أولاً جاء السيد وابنه فى لباس فاخر، فتعجب الجميع وطلب لبهم من جمال وحسن ابن التاجر، وكان فى يده صينية مملوءة بالجواهر، وكل جوهره تضىء المكان، وقدم الجواهر، أمام العرش وحيانى التحية اللائقة ثم ظل واقفاً!!

وقبل السيد الأرض بين يدى، وبدأ يدعو لى بلسان عذب كالبلبل، واستحسن فتعله هذا، لكننى قلت له على سبيل العتاب: «أيها الشيطان فى صورة إنسان، أى شباك نصبته وأية بئر حفرت فى طريقك، مادينك وما سنتك؟ ومن أمة أى نبى؟ فإن كنت كافراً فلماذا تلك التصرفات التى تبدر منك؟ وما اسمك وماذا تفعل هنا؟. فقال: يامولاي زادك الله عزة وسلطاناً وعمراً، دين هذا العبد أن الله واحد لا شريك له، وأشهد بأن محمداً صلى الله عليه

وسلم نبي الله، وبعده اعتبر الإثنى عشر إماماً هم قدوتى وأصلى كل يوم خمس مرات، وأصوم، وحججت بيت الله، وأؤدي زكاة الخمس^(١١) وأدعى مسلماً لكن هذه العيوب الظاهرة التي تبدر على والتي تثير غضب جلالتك على، وجعلتني سيئ السمعة بين الناس جميعاً لا أستطيع أن أبوح بسرهما، ورغم إنني قد اشتهرت بـ (عابد الكلب) وأدفع الضريبة أضعافاً مضاعفة، إلا أنني لم أبج بسرى لشخص قط.

فازداد غضبي لمكره وسعة حيلته وقلت: إنك تسترصيني بالقول، ولن أقبل هذا قط حتى تسوق لى حجة مقنعة لما أنت فيه من ضلالة، فإن أتيتني بالحجة والبرهان، سأصفح عنك وتكون قد حفظت حياتك، وإلا فجزاء ذلك أن أشق بطنك حتى تكون عبرة لمن لا يعتبر وحتى لا يخرج أى شخص عن شرائع الدين الإسلامى.

فقال السيد: «أيها الملك، احقن دمائي فعندى مال كثير لا يعد ولا يحصى فخذة كله واتركنى وابنى فداء لعرشك واصفح عني».

فابتسمت قائلاً: أيها الأحق!! اتفرغنى بالمال؟ لا مفر ولا سبيل إلا بالصدق.

وما أن سمع السيد قولى هذا حتى انسابت دموعه رغماً عنه وتأوه بعد نظره لابنه قائلاً: إننى سأقتل لأننى صرت مذنباً فى نظر الملك، الآن ماذا أفعل؟ ولمن أفوض أمرك؟ فنهرته قائلاً: «أيها الخبيث لقد أسرفت فى الاعتذار فلتتكلم فوراً».

فتقدم ذلك الرجل وخر وقبل الأرض بين يدى وقال بعد المدح والثناء: أيها الملك!! لولم يكن حكمك بقتلى مسلماً على، لاحتملت جميع المصائب ولم أبج بهذا السر، لكن الحياة أعز من كل شيء، ولا يلقي أحد بنفسه فى البئر، فالحفاظ على الحياة واجب، وترك الواجب مخالف لحكم الله، فلورضيت جلالتك بهذا، فاستمع إلى ما مربى أنا الضعيف، لكن أولاً فلنأمر بإحضار هذين القفصين لهذين المسجونين وعندئذ سأحكى لك، فإن أخطأت أو كذبت فى أى موضع فاسألهما ثم اعدل وانصف. فاستحسن رأيه هذا فطلبت القفصين وأخرجت الحبيسين وأوقفتهما أمام السيد.

قال السيد: «أيها الملك!! هذا الرجل الذى فى يمينى هو الأخ الأكبر لهذا الغلام، وأما الذى فى يسارى فهو الأخ الأوسط لى، وأنا أصغرهما، وكان أبى تاجراً فى بلاد فارس، وحينما بلغت الرابعة عشرة من عمري توفى أبى، وبعد الانتهاء من مراسم الدفن جاءنى أخواى هذان ذات يوم وقالوا: الآن نقوم بتقسيم تركة أبينا، وليفعل كل منا ما يريد بنصيبه.

فقلت: يا أخوى ماذا تقولان؟ أنا غلامكما، ولا أدعى بأننى أخ لكما، مات أبونا وأنتما فى منزلة أبى، أريد خبزاً يابساً ليقيم أودى، وسأقوم على خدمتكما، ولا شأن لى بالتقسيم والتوزيع، أنا أسد جوعى ببقايا طعامكما وأكون برفقتكما، فأنا صغير قليل الخبرة، لا أستطيع أن أفعل شيئاً بدونكما. والآن عليكما أن تربيانى، فقالا هل تريد أن تجعلنا محتاجين وفقيرين مثلك؟ فانصرفت إلى البيت باكيًا، ثم طمأنت قلبى قائلاً لنفسى، أخواى أكبر منى وهما يزجرانى لأتعلم، ثم أخذنى النوم وأنا أفكر فى هذا وما أن أشرق الصبح حتى جاء مندوب القاضى وأخذنى إلى المحكمة، فرأيت أخوى هناك، فقال القاضى: لماذا لا تقسمون ميراث أبيكم؟ فقلت له مثلما قلت لهما فى البيت من قبل:

فقال أخواى: إن كنت تقول هذا من قلبك فاكذب لنا وثيقة تثبت أنك ليس لك حق فى ميراث أبينا، فأدركت من قولهما أيضاً، أنهما أخواى الكبيران وأنهما يريدان النصح لى حتى لا أسرف فى انفاق مال أبى، فكتبت لهما وثيقة وختمتها بخاتم القاضى، فرضيا بذلك ورجعت إلى البيت، وفى اليوم التالى جاء إلى وقالوا: يا أخى!! إن هذا البيت الذى تقطن فيه نحن نحتاج إليه فلتنتقل إلى مكان آخر لتعيش به، فأدركت أنهما لا يرضيان بأن أقطن بقصر أبى، فاضطرت أن أنتقل من هذا المكان، فإلا ملاذ الدنيا (الملك) حينما كان أبى على قيد الحياة كان يأتى بتحف ونفائس من جميع البلدان التى يسافر إليها، ويعطينى إياها لأننى صغيرهم والكل يحب الصغار، وكنت أبيع هذه الأشياء وأدخر ثمنها وأشتري به ما أريد، وفى إحدى المرات أعطانى أبى جارية من تركستان وفى مرة أخرى جاء بمجموعة من الخيل من بينها حصان قوى تبدو عليه أمارات الذكاء، فأعطانيه وكنت أحضر له الكلاً بنفسى.

وفى النهاية بعدما وجدت منهما الخسة اشتريت قصراً وتوجهت إليه وكان معى هذا الكلب، وأثنت البيت بكل ما يلزمه من أمتعة وأساس ورياش واشتريت غلامين للخدمة، وفتحت دكاناً بما تبقى لدى من أموال وتوكلت على الله راضياً بحظى ونصيبى، فإذا كنت وجدت سوء معاملته من أشقائى، فإننى وجدت الله بى رحيمًا، فأصبح الدكان خلال ثلاث سنوات مشهوراً ومعروفاً بين الناس، وأصبح العظماء والأكابر يأخذون من دكانى كل ما يحتاجون إليه من التحف النادرة، وريحت أموالاً وبدأت أعيش فى غاية الرغد والثراء وكنت أحمد الله سبحانه وتعالى فى كل لحظة وأعيش مستريحاً.

وكننت بالبيت فى أحد أيام الجمعة . وذهب غلامى إلى السوق ليشترى بعض الأشياء ، وإذا به يعود باكيًا فسألته عن السبب قائلاً: ماذا بك ؟ فقال غاضبًا: ماذا يهملك ؟ قلنفرح ، ولكن بماذا ستجيب يوم القيامة ؟ فقلت: أيها الحبشى ، أى مصيبة قد حلت بك ؟ فقال: سبب هذا الغضب أن يهودياً قد ربط أخويك فى الميدان وأخذ يضربهما بالعصا ضاحكا قائلاً لهما: إن لم تعطيانى النقود سأضربكما حتى الموت وسأنال الثواب، هذه هى حال أخويك وأنت غافل عنهما فهل هذا صواب ؟ وماذا سيقول الناس .

وحينما سمعت هذا من الغلام فارت الدماء فى عروقى وجريت إلى السوق حافياً، وقلت للغلامين لى: أسرعاً بالنقود . وحينما وصلت هناك تأكدت من صدق رواية الغلام . واليهودى يضربهما، فقلت لعسكر الحاكم لو سمحتم سأذهب إلى هذا اليهودى وأسأله لأى ذنب تفعل هذا بهما ؟ .

وبعد هذا ذهبت إلى هذا اليهودى وقلت: «اليوم هو يوم الجمعة، فلم تضرب هذين بالسلسلة ؟» .

فأجابنى: إن أردت أن تكون أحمق فلتكن غاية فى الحمق، أعطنى أموالاً فدية لهم، وإلا فعد من حيث أتيت:

فقلت: لماذا تطلب مالاً ؟ أعطنى وثيقة أعطيك مالاً .

فقال: «أعطيت صك الدين للحاكم، وأثناء ذلك جاء الغلامان بالمال، فأعطيته لليهودى وأفرجت عن أخوى وكانت أحوالهما غاية فى السوء، فقد كانا جائعين، عطشانين بالية ثيابهما فأخذتهما معى وجعلتهما يفتسلان وألبستهما لباساً جديداً وأطعمتهما، لكننى لم أقل لهما ماذا فعلتما بأموال أبيكما ؟ حتى لا يخجلا، أيها الملك: هاهما حاضران بين يدي جلالتك فسلهما هل أنا صادق أم لا ؟ وعندما نجيا من الضرب وتحسنت أحوالهما قلت لهما ذات يوم: أخواى !! لقد أصبحتما فى هذا البلد بلا اعتبار ولا احترام . ومن الأفضل أن تسافرا بعض الوقت، فسكتا فعرفت من سكوتهما أنهما راضيان، فبدأت أعد العدة للسفر، فجهزت الحافلات والأنعام، واشتريت بضائع التجارة بعشرين ألف روية، وأرسلتهما مع قافلة للتجار قاصدة مدينة (بخارى) .

وبعد عام رجعت القافلة، لكننى ما وجدت أى خبر عنهما وأخيراً سألت من أعرفه، واستحلفته أن يخبرنى بخبرهما .

فأجابني: «حينما ذهبنا إلى بخارى بدأ أحدهما يقامر، فخسر جميع أمواله وعمل خادماً ينظف مكان المقامرة ويخدم المقامرين فيعطونه بعض المال، على سبيل الصدقة وقد ظل هناك خادماً، أما الثاني فقد ارتبط بعشق ابنة لبائع خمر وأنفق عليها جميع ما يملك والآن يجول حول الحانة ويخدم فيها، وأهل القافلة لا يخبرونك حتى لا تخجل».

وبعد أن سمعت هذا جفاني النوم وتبدلت أحوالي فتزودت وذهبت إلى بخارى، وبعد وصولي هناك رجديتهما وأخذتهما معي وجعلتهما يفتسلان وألبستهما ملابس جديدة وأطعمتهما، لكنني ما قلت لهما شيئاً حتى لا يخجلا، ثم أعددت لهما أسباب التجارة، وأردت أن أذهب إلى البيت، وحينما وصلت مشارف «نيسابور» تركتهما في قرية مع الأموال والأمتعة والتجارة لكي لا يعرف أى شخص بقدمي.

وبعد يومين أعلنت أن أخوأي قد وصلا من السفر، وسأخرج غداً لاستقبالهما، وحينما أردت صباحاً أن أخرج إليهما جاء إلى مزارع من نفس القرية منادياً، وحينما سمعته خرجت له سائلاً إياه: لماذا تصيح وتبكي؟ قال: لقد سلبت أموالي بسبب أخويك ليترك ما تركتهما هناك».

فسألته: «ماذا حل بك؟» قال: «جاء قطاع الطرق ليلاً وسلبوا أموالهما وأموالي أيضاً. فأسفت وسألته أين هما الآن: قال: جالسان خارج المدينة في حالة سيئة عاريان جائعان فأخذت على الفور ملابس وألبستهما وأخذتهما إلى البيت وكان الناس يأتون لرؤيتهما، لكنهما ما كانا يخرجان لشعورهما بالخزي».

وبعد مرور ثلاثة أشهر على تلك الحال، فكرت في نفسي أنه إلى متى يجلسان في البيت ويختبئان؟ لو أمكنني فساأخذهما معي في سفر، وقلت لأخوي لو أذنتما فساأذهب برفقتكما، فسكتا، فأعددت كل أصناف التجارة وكل ما يلزم السفر وذهبت معهما.

وحينما أدينا ذكاة المال وحملنا البضائع على السفينة ورفعت المراساة وأبحرت السفينة، كان الكلب ينام على حافة السفينة، ولما رأى السفينة تهتز من تلاطم الأمواج أخذ ينبج من الخوف والدهشة، وقفز في البحر وأخذ يسبح فأرسلت خلفه قارباً صغيراً فأخذ القارب الكلب وأعادته إلى السفينة.

ومر شهر على خير في ركوب البحر، ثم وقع أخى الأوسط في عشق خادمة وذات يوم قال لأخى الأكبر: «نحن في خجل بسبب إحسان إخيना الأصغر، فكيف نتدارك هذا الأمر؟

فأجاب الأكبر: «لنى رأى فى هذا الشأن، نعمل به إن استطعنا، وأخيراً اتفق الاثنان بعد التشاور على قتل الاستيلاء على كل أموالى والتصرف فيها.

وذات يوم كنت أنام فى غرفة من غرف السفينة، والخادمة تدلك قدمى، فجاء أخى الأوسط وأيقظنى فتنبهت واستيقظت وخرجت وجرى الكلب خلفى، فرأيت أخى الأكبر متكأ على سور السفينة ليشاهد البحر وكان ينادينى فذهبت وقلت له: «خيرًا، فقال: «مأبدع المنظر، فأناسى البحر أخذوا قواقع اللؤلؤ والشجر وأخذوا يرقصون». ولو قال لى شيئاً آخر خلاف القياس لما صدقته، وقد صدقت أخى الأكبر وأحيت رأسى لأرى ذلك المشهد، فأمنعت النظر لكننى لم أر شيئاً، وكان أخى يقول لى سترى الآن، لكن كيف أرى إذا لم يكن هناك أى شىء؟ فرأى أخى الأوسط أننى غافل فدفعنى إلى الماء، فسقطت رغماً عنى، وبدأ أخواى يبكبان ويصيحان: «هيا، هيا لقد سقط أخى، لقد سقط أخى». وسارت السفينة وحملنى موج البحر من موضع إلى آخر، وكانت موجة تفرقنى وموجة ترفعنى وكنت أصرخ وسط الأمواج وأخيراً تعبت، وأخذت أذكر الله وأستغيث به ولاأستطيع أن أفعل شيئاً وإذا بى أتعلق بشىء فجأة، وفتحت عينى وإذا بى أرى الكلب لعله وثب فى البحر حين دفعنى أخى، وكان يسبح معى، فأمسكت بذيله وجعله الله سبباً فى حياتى، وقد مرت بى سبعة أيام وسبع ليال على تلك الحال، وفى اليوم الثامن وصلنا إلى شاطئ البحر وقد خارت قواى تماماً، فأخذت أتحرج على جنبى حتى وصلت إلى البر وطوال يوم كامل فقدت الوعى تماماً، وفى اليوم الثانى بلغ سمعى صوت الكلب، فعدت إلى صوابى، وحمدت الله وكنت أنظر هنا وهناك فرأيت ظل المدينة من بعيد، لكن لا طاقة لى فكيف أبلغ تلك المدينة؟ لكننى كنت مضطراً، فبدأت أخطو خطوتين، ثم أقف، ثم أسير، وهكذا سرت قرابة كيلو مترين حتى المساء وأنا على تلك الحال، وأبصرت فى الطريق جبلاً، فقضيت ليلتى به ودخلت المدينة صباحاً، ولما دخلت السوق رأيت دكاكين الحلوى والخبز، وكان لعابى يسيل للطعام لكننى لم أكن أملك نقوداً، ولم أكن أتسول من أحد وكنت أطمئن قلبى بأننى سأأخذ من الدكان وأمشى وفى النهاية مابقى لى أى طاقة ويطنى تصرخ جوعاً، وكادت الروح تفارق البدن، حين رأيت شابين لابسين لباس العجم يسكان بيد بعضهما البعض، ففرحت لرؤيتهما، لأننى فكرت أنهما من وطنى وربما كنت أعرفهما وأشكولهما حالى، فلما اقتربا رأيت أنهما شقيقاى، ففرحت كثيراً وحمدت الله أنه حفظنى من أن أتسول أمام الغير، فاقتربت وسلمت وقبلت يدا

شقيقى الأكبر، فنظرا إلى وبدءا يصرخان، ولطمنى شقيقى الأوسط حتى سقطت على الأرض وأمسكت بذيل ثوب شقيقى الأكبر لعله يحمينى فركلنى برجله .

الخلاصة أنهما إنهما على ضرياً وفعلاً بى كما فعل أخوة يوسف عليه السلام، فتضرعت إليهما واستحلفتهم بالله أن يتركانى لكنهما لم تأخذهما بى رحمة ولاشفقة، واجتمع الخلق وسألوهما ماذنبه ؟ فقال الشقيقان: «هذا الخسيس كان خادماً لشقيقنا فألقاه فى البحر وأخذ جميع أمواله، وكنا نبحت عنه منذ فترة طويلة فوجدناه اليوم . وكانا يسألانى: أيها الظالم بماذا وسوست لك نفسك حتى تقتل شقيقنا ؟ هل قصر فى شأنك ؟ وهل أخطأ حينما جعلك مختاراً لديه ؟ ثم مزقا ثوبهما، وأخذا يتباكيا ويضربانى بالأيدى والأقدام .

وفى أثناء ذلك جاء عسكر الحاكم، وغضبوا عليهما قائلين: «لماذا تضرباه ؟» وأخذوا بيدي إلى رئيس الشرطة، وذهب شقيقاى أيضاً وقصا على الحاكم نفس الحكاية، وأعطياه رشوة وطلباً منه الإنصاف وادعيا على أنى قتلت نفسك بغير حق، فسألنى الحاكم، وكانت حالتى بسبب الجوع والضرب غاية فى السوء بحيث لم أستطع أن أنبس ببنت شفة، وسكت، محنى الرأس، فتأكد الحاكم من أننى مجرم وقاتل، وأمر بإعدامى فى الميدان .

أيها الملك: أنا دفعت المال لليهودى وأفرجت عنهما وهما دفعا للحاكم لقتلى، وهما حاضران فاسألهما أنا أكذب أو أغير القصة ؟ على أية حال، ساقونى للموت وحينما رأيت مكان الإعدام نفضت يدي من الحياة، ولم يكن معى سوى هذا الكلب يبكى على، وأخذ الكلب ينبح ويتمسح بأقدام الناس، وكان بعضهم يضربه بالعصى وبعضهم بالحجارة، لكنه لم يتزحزح عن مكانه وكنت متوجهاً نحو القبلة داعياً الله عز وجل ومتضرعاً إليه : يا الله ليس لى من يحمينى سواك فاحم هذا البرىء وساعده ، فإن كتبت لى النجاة سأنجو . وبعد هذا نطقت بالشهادتين وهويت على الأرض .

ومن حكمة الله أن ملك تلك البلد أصابه مرض عضال فاجتمع الأمراء والحكماء والأطباء يعالجونه دون جدوى، فقال شيخ: «أحسن دواء أن تتصدقوا على المحتاجين، وتفجروا عن السجناء، ففى الدعاء أكثر مما فى الدواء .» وحينما سمع خدام الحاكم قوله جروا إلى دور السجناء .

وفجأة جاء واحد منهم إلى هذا الميدان، وحينما نظر إلى الزحام عرف أن ثمة رجلاً سيعدم، وبعد أن عرف هذا ترجل عن الجواد بالقرب من الدار، وقطع حبل المشنقة بالسيف،

وزجر عساكر الحاكم ونبه عليهم قائلاً: «إنكم تقتلون عبد الله، بينما حالة الملك فى غاية الحرج والسوء، وأطلق سراحى».

فذهب الشقيقان مرة ثانية لرئيس الشرطة وطلبا منه قتلى، وكان الحاكم قد أكل الرشوة وقبلها، ولهذا نزل على طلبهما. وقال لهما: «اطمئنا سأحبسه حتى يموت جوعاً وعطشاً ولا يعرف بخبره أى شخص قط».

فأخذونى إلى أحد الأماكن خارج المدينة على بعد عدة أميال، حيث يوجد جبل، كان جن سليمان قد حفروا به بئراً ضيقاً ومظلماً، وكان البئر يعرف «بسجن سليمان»، وكان الملك عندما يغضب على أحد غضباً شديداً، يسجنه فى هذا البئر، حتى يقضى نحبه بنفسه. الخلاصة، عندما أظلم الليل أخذنى أخواى وحاشية رئيس الشرطة إلى هذا الجبل وألقونى فى الجب السحيق، واطمأنوا ورجعوا، أيها الملك كان هذا الكلب معى، وحينما ألقونى فى الجب، جلس هذا الكلب على حافته، وفقدت وعيى فى هذا البئر، وحينما استرددت وعيى قليلاً حسبت نفسى ميتاً، واعتبرت المكان قبراً، وسمعت صوت شخصين يتكلمان، فحسبتهما منكراً ونكيراً (من ملائكة القبر) وأنهما جاءا لسؤالى، وسمعت صوت احتكاك الحبل بجدار البئر، كأن شخصاً ألقاه، وكنت فى حيرة أنبش الأرض فأجد عظماً.

وبعد ساعة بلغ مسامعى صوت كأنه صوت شخص يأكل، فقلت: «يا عباد الله من أنتم بالله أخبرونى، فضحكوا وقالوا: «هذا سجن خادم سليمان، ونحن سجناء، فسألتهم: «هل أنا حى؟، فضحكوا عالياً وقالوا: «إلى الآن حى ولكنك سوف تموت». فقلت لهم: ماذا تأكلون؟ أعطونى شيئاً منه حتى آكله، فنهرونى ولم يعطونى أى شىء، وناموا بعد الأكل والشرب، وأما أنا فبسبب ضعفى ووهنى صرت فاقداً لوعيى وكنت أبكى وأذكر الله، يا قbile العالم!! سبعة أيام فى البحر ثم عدة أيام فى البئر، بسبب بهتان أخوى وظلمهما لم أجد أى حبة من طعام وبدلاً من الطعام أكلت المضرب وحسبت حتى لايجول فى خاطرى، أى طريق للخلاص.

وفى النهاية جاء وقت الاحتضار، وأخذت الروح تدخل وتخرج، لكن كان هناك شخص يأتى بعد منتصف الليل ويلقى بالخبز فى المنديل وينزل قرية من الماء، وينادى وكان الشخصان المحبوسان معى يأخذان لنفسيهما الطعام والشراب ويأكلان ويشريان وكان الكلب يرى كل هذا، وفكر أن هذا الشخص كما ينزل الخبز والماء أنا أيضاً أفعل هذا وأنقذ مالكى، ثم

....

ذهب إلى المدينة وكان فى دكان الخباز منصدة عليها الخبز، فوثب الكلب وأخذ خبزاً وفر هارياً فجرى الناس خلفه يضربونه بالحجارة، لكنه ماترك الخبز فعاد الناس متعبين، ثم جرى وراءه كلاب المدينة، فتشاجروا ثم انصرفوا عنه حتى وصل إلى البئر حاملاً للخبز، فألقى به فى البئر وكان الصبح قد أشرق فرأيت الخبز أمامى وسمعت صوت الكلب فأخذته، ورجع الكلب للبحث عن الماء.

وكان فى ناحية القرية كوخ لامرأة عجوز ويجوار الكوخ عرية يد وعليها إبريق مملوء بالماء، وكانت العجوز تغزل، فاقترب الكلب من الإبريق وأراد أن يأخذه فزجرته العجوز، فسقط الإبريق من فمه على القدر فكسره، وسكنت باقى القدر، فتناولت العجوز عصاً لتصربه فاختبأ الكلب فى ذيل ثوبها، وأخذ يلحق ساقها بفمه ويحرك ذيله ومشى نحو الجبل ثم رجع، وأحياناً يمسك الحبل وأحياناً يمك الإبريق، وحيناً آخر يمسح قدمها بفمه ويأخذ ذيل رداءها ويجذبه صوب الجبل، فألقى الله عز وجل فى قلبها رحمة فأخذت الدلو والحبل ومشت معه وكان الكلب أمامها آخذاً بطرف ثوبها.

وفى النهاية بلغا الجبل، فأدركت العجوز من حركة الكلب أن مالك هذا الكلب حبيس فى هذا البئر، وأن الكلب يريد الماء من أجله، الخلاصة، أن الكلب جاء بها إلى حافة البئر، فأنزلت الإبريق بالحبل فأخذت الإبريق وأكلت الخبز وشربت شيئاً من الماء (وأرضيت كلب البطن)، وحمدت الله وجلست فى ناحية منتظراً رحمة الله، وماذا سيحدث الآن؟ وكان هذا الحيوان الأعجم يأتينى بالخبز كل يوم ويشربنى عن طريق العجوز وحينما رأى الخبازون أن هذا الكلب يأتى كل يوم ليأخذ خبزاً، ترفقوا به وقرروا أن يعطوه الخبز كل يوم بأن يلقوه أمامه، وكانت العجوز تأتى وتسقىنى الماء رغم أنفها لأنها إن لم تأت به سيكسر الكلب قريتها وقدورها، فكان هذا الرقيق يمدنى بالخبز والماء ويمكث على حافة البئر، وقضينا ستة أشهر على هذا الوضع، لكن كيف يكون حال من يعيش فى الحبس بعيداً عن الدنيا؟ فلم يبق منى إلا الجلد والعظم فقط، وأصبحت الحياة عذاباً، وكان يدور فى ذهنى: «ياربى إن أمت فسيكون ذلك الأفضل لى».

وذات يوم ليلاً حينما كان المسجونان نائمين أردت أن أتضرع إلى الله، فأخذت أبكى بين يدى الله رغماً عنى، فرأيت وقت الغروب أن حبلاً ينزل فى الجب بقدرة الله وسمعت صوتاً خفياً يقول: «أيها التعس، خذ بطرف الحبل بشدة واخرج من هنا». ففكرت فى نفسى، أن

أخوى جاء أخيراً مشفقين على لصلة الدم، ليخرجاني من هنا، فربطت الحبل فى وسطى فراحاً مسروراً وجذبنى أحد لأعلى، وكان الليل مظلماً حتى إننى لم أتعرف على من جذبنى، وحينما خرجت قال لى ذلك الشخص: «تعال بسرعة، ليس هذا مكان وقوف، ورغم أننى لم أكن أملك أى قوة إلا أننى سرت خوفاً، وكنت أسقط ثم أنهض وأسير مرة أخرى، حتى نزلت من الجبل، فرأيت فرسين مسرجين قائمين، فأركبني ذلك الشخص على فرس وركب هو على الآخر وسرنا وكنت أسير خلفه حتى وصلنا إلى شاطئ البحر.

وطلع الصبح وكنا قد تجاوزنا هذه المدينة بأكثر من عشرين ميلاً فوجدت ذلك الشاب جندياً مسلحاً لابساً زى الجندى ودرعه، وأيضاً الفرس كان مدرعاً، وكان الجندى ينظر لى نظرة غاضبة ويعض أصبعه، واستل السيف وضربنى لكننى سقطت من فوق الجواد قبل أن يصيبينى وبدأت أقول: «أنا برىء أنا برىء لم أرتكب أى إثم فلماذا تقتلنى؟ أيتها الشهم لقد أنقذتنى من السجن، فلماذا تقوم معى بهذا السلوك الآن؟ فقال: «قل الصدق من أنت؟، فقلت: «أنا مسافر قد سجنتم دون وجه حق، وخرجت بفضلك حياً من السجن، ثم مدحته.

فألقى الله فى قلبه الرحمة، فأعاد سيفه إلى غمده وقال: «يفعل الله مايشاء، لقد صفحت عنك، اركب بسرعة، ليس هذا مكان الوقوف، وركبنا الجوادين ومشينا، وكان يتأسف نادماً على ما فعله خلال الطريق، ووصلنا إلى جزيرة وقت الظهر، فنزل عن فرسه وأنزلنى أيضاً. وحل السرج وأطلق الفرسين للرعى، وخلع درعه وجلس ثم قال: «أيتها التمس!! احكى لى حتى أعرف من أنت؟ فذكرت له اسمى، وماحدث لى ومامر بى من البداية إلى النهاية.

ويعد أن سمع الشاب حكايتى أخذ يبكى، وخاطبنى قائلاً: «أيتها الشاب اسمع حكايتى، أنا بنت ملك مملكة «زيرباد، والسجين فى سجن سليمان واسمه «بهره مند، هو ابن وزير أبى، وذات يوم أمر الملك أن يخرج جميع الأمراء والعظماء إلى الميدان ويمارسوا الرماية ويتبارزوا حتى تظهر مهارتهم وتفوقهم، وكنت أجلس إلى جوار الملكة الأم فى الشرفة وكانت الوصيفات والجاريات حاضرات ينظرن إلى المشهد، وكان هذا المسجون أجمل من الجميع وكان يظهر البراعة والتفوق فوق صهوة الجواد وهو يدور به، فأعجبني وشغفنى حباً، وظلت قصة حبنى خافية مدة طويلة.

وأخيراً حينما اضطرت بحث بسرى لوصيفتى وأعطيتها كثيراً من الهبات والإنعام فجاءت بذلك الشاب بالحيلة والوسيلة إلى بيتى فبدأ هذا الشاب أيضاً بهيم بى حباً.

و ذات يوم رآه الحراس فى منتصف الليل داخل القصر وهو مسلح، فقبضوا عليه وساقوه إلى الملك، فأمر الملك بإعدامه فالتمس الجميع من الملك العفو عنه، حتى صفح عنه وأمر بسجنه فى سجن سليمان، والسجين الآخر الذى برفقته هو أخوه، وكان معه فى ذلك اليوم فألقوهما فى الحب، وهما محبوسان فى البئر منذ ثلاث سنوات لكن ماسأل أى أحد لماذا دخل هذا الشاب إلى القصر؟ فلقد سترنى الله عز وجل، فقررت منذ ذلك اليوم أن أتصدق فى كل يوم بالطعام والشراب حمداً وشكراً لله، ومنذ ذلك الحين وأنا آتى كل أسبوع وأحضر لهما طعام الأسبوع.

ورأيت البارحة فى المنام أن أحداً يقول: «يا فتاة، انهضى وخذى معك الفرس والثياب والنقود واذهبى إلى تلك البئر وأخرجيه منها، ونهضت فزعة بعد أن سمعت هذا القول، وتكررت فى زى الرجال فرحة مسرورة، وملأت صندوقاً بالجواهر والدنانير وامتطيت هذا الجواد آخذة معى بعض الملابس، وذهبت حيث توجد تلك البئر لأخرجه بالحبل، فكان من نصيبك أنت أن تخرج من هذا السجن ولا غضاضة فى فعلى هذا، فربما أرسلنى المعبود لأفرج عنك، فله خير فقد صار ماكان فى نصيبى قالت هذا وفتحت المخلاة وأخرجت طعاماً من البقول والخضر والخبز وأخرجت سكرًا وأذابته فى الماء وأضافت إليه المسك وأعطتنى إياه فتناولته وشربته، وأكلت قليلاً من طعام الفطور، وبعد برهة قالت لى: البس المنشفة وتعال إلى البحر وقصت شعرى بالمقص وقلمت أظافرى وألبستنى بعد الغسل لباساً نظيفاً وجعلتنى إنساناً من جديد، واستقبلت القبلة وصليت ركعتين للشكر، وكانت تلك الحساء ترقب أفعالى.

وحينما فرغت من الصلاة، أخذت تقول لى: «ماذا كنت تفعل، فقلت: «الخالق الذى خلق جميع الخلق، وجعلك تسدين الخدمات لى وتترفقى بى، والذى خلق جميع الخلق، والذى فك قيدي، وأفرج عنى، واحد لاشريك له، فعبدته، وشكرت له وحمدته، فقالت لى: «أأنت مسلم؟ فقلت: «الحمد لله، قالت: «فرح قلبى لقولك هذا، علمنى أن أنطق بالشهادة، فقلت فى قلبى: «الحمد لله لقد دخلت فى دينى».

نهاية القول، قلت: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله، وجعلتها تنطق بها وركبنا الفرس ومشينا من ذلك المكان، وحينما هبط الليل، كنا نتحدث عن الدين والإسلام، فأبين وأشرح، وتسمع وتفرح ومضى بنا شهران على هذا المنوال نسير نهاراً ونتحدث ليلاً، وفى النهاية

وصلنا إلى ولاية، كان في منتصف حدودها ملك «زيرباد وسرانديب، ورأينا مدينة كانت أكبر عدداً من سكان «استانبول، وكان نسيماها عالياً وماؤها زلالاً، ونظرنا إلى أن ملك تلك المملكة كان أعدل من كسرى ومحباً للرعية، مال إليه فؤادى، فاشتريت قصراً وقررت الاستقرار هنا، وبعد مرور عدة أيام، وحينما استرحنا من وعناء السفر أعددتُ العدة وتزوجت تلك الحسنة على سنة الله ورسوله، وبدأت أعيش معها، وفي خلال ثلاث سنوات قابلت الصغار والكبار هناك حتى صرت ذا مكانة مرموقة بينهم، واتسعت تجارتى حتى تفوقت على جميع التجار.

وذات يوم ذهبت إلى كبير الوزراء لأسلم عليه، ورأيت كثيراً من الناس مجتمعين في الميدان، فسأل شخص «لم هذا الزحام؟ فعرفنا أن شخصين سرقا وزنيا ولعلهما قُتلا أيضاً، فجاء بهما الناس ليرجموهما، فتذكرت أحوالى وأنتى ذات يوم قبض على وسبق بى لأرجم فأنتقذنى الله سبحانه وتعالى، فمن ياترى هذان اللذان قد وقعا فى تلك المصيبة، والمحنة؟ لا أدرى هل اقترفا تلك الجرائم أم أنهما قد اتهما بها ظلماً مثلى؟ فأفسحت الطريق واخترقت الزحام لأرى من هما؟ فرجدهما أخوى، وكانا صدرهما عارياً حفاة الأقدام، وعندما وجدتهما على تلك الحال جرى دم الأخوة فى عروقى، واحترق صدرى، فأعطيت الحراس حفنة من الدنانير وقلت لهم: انتظروا قليلاً وأسرعتم إلى الحاكم وقدمتم له ياقوته لاتقدر بضمن وشفعت لهما لدى الحاكم، فقال: «هناك شخص قد ادعى عليهما مافعله، وقد ثبتت إدانتهم، وأمر الملك برجمهما فأنا عاجز لاحيلة لى أمام هذا، وبعد كثير من التوسل والإلحاح على الحاكم، استدعى الحاكم المدعى على أخوى واسترضاه بخمسة آلاف روبية ليعفو عنهما، فأحصيت الروبيات وقدمتها إليه، فكتب تنازلاً عن الدعوى ضدّهما، وأفرجت عنهما من تلك المصيبة.

ياملجأ العالم، اسألهم هل أنا صادق أم كاذب؟ وكان شقيقاى واقفين خافضين رأسيهما نادمين، فأفرجت عنهما واصطحبتهما للبيت وجعلتهما يغتسلان، وألبستهما ملابس فاخرة وأعطيتهما مكاناً فى الديوان، وفى هذه المرة أخفيتهما عن الناس، وكنت أقوم على خدمتهما دائماً وأكل معهما، وفى وقت النوم أذهب إلى بيتى وظللت فى خدمتهما ثلاث سنوات ولم ييدر منهما أى فعل شائن وحينما كنت أذهب إلى مكان آخر، كان يمكنان بالبيت.

وحدث ذات يوم أن ذهبت زوجتى الصالحة إلى الحمام ولما خرجت للديوان ولم تجد أحداً، خلعت نقابها، وكان أخى الأوسط مستلقياً على الفراش ولكنه يقظ، وحينما رآها وقع فى

عشقها وأخبر أخى الأكبر فاتفقا على قتلى، ولم أعرف شيئاً عن فعلهما بل كنت أفكر وأحمد الله أنه لم يبدر منهما أى سوء هذه المرة وانصلح حالهما وكأننى أثرت فيهما.

و ذات يوم بعد أن فرغنا من الطعام، اغرورقت عين أخى الأكبر بالدمع وأخذ يمدح الوطن ويذكر محاسن إيران، وتأثر أخى الأوسط هو الآخر لقوله فقلت: «لو أردتما الذهاب إلى الوطن فأنا أبغى رضاكما وأتمنى هذا أنا أيضاً، وإن شاء الله سأكون برفقتكما، وحدثت زوجتى عن حزن أخوى ويرغبى أنا أيضاً، فقالت تلك العاقلة: «تلك إرادتك، لكنهما يريدان أن يخدعاك، فهما عدواك، لقد ربيت الأقمى فى كحك، وتركن إلى صداقتهما، فافعل ماتشاء لكن احذر من إيذائهما». وبعد فترة وجيزة أعددت العدة للسفر وجهزت الخيام، فاجتمعت قافلة كبيرة واتفقوا على أن أقودهم، فخرجت فى ساعة مباركة، وكنت أطيعهما فى كل شيء لكنى كنت على حذر منهما.

و ذات يوم قال لى أخى الأوسط فى أحد الأماكن: «على بعد ثلاثة أميال عين ماء كالسبيل، حولها ميدان يمتد لميلين وقد نبئت به الزهور والورود كالدرجس وشقائق النعمان وغيرها. وفى الحقيقة إنه مكان بديع للسباحة والرياضة، ولو كان الأمر بيدى لذهبت حيث هذا المكان لأروح عن نفسى وأزيل عنها عناء الطريق ووعناء السفر» فقلت له: «أنت مخير والأمر بيدك، لو تأمر نذهب إلى هناك غداً فقال: «لا شيء أفضل من هذا».

فأمرت أن تتحرك القافلة من غد، وقلت لخادمى الخاص: «أعد العدة وجهز كل ما نحتاج إليه من طعام وأدوات، وعندما طلع الصبح، استيقظ أخواى وارتيديا ملابسهما وذكراى بضرورة الرحيل مبكراً قبل أن ترتفع الشمس ويشد القيظ، فطلبت المركبة فقالا: «لو ذهبنا سيراً على الأقدام لازدادت متعتنا وكان هذا أفضل، وهذا شيء معروف فأمرت الخدم أن يحضروا الخيل فى إثرنا».

وحمل الغلامان وعاء القهوة ومشيا وأخذا يرميان بالسهم، وحينما أصبحنا بعيداً عن القافلة أرسل أخواى أحد الغلامين ليقوم بمهمة ويقى واحد وبعد قليل أرسلاه هو الآخر ليؤدى عملاً، وكنت أنا التمس الذى ينصاع لرغبتهما دائماً، كأن ختماً قد ختم فى حتى لأنبس ببنت شفة، وكانا يحدثانى ليصرفا ذهنى عما يدبران، وكان برفقتى هذا الكلب.

وبعدنا كثيراً، ولم نجد عين الماء ولا الحديقة، لكن رأينا أرضاً غير ذات زرع ليس بها إلا الشوك، وكنت أقضى حاجتى، فأبصرت بريقاً كأنه بريق السيف من خلفى، ماكدت التفت

خلفى حتى رأيت أخى الأوسط يشج رأسى بالسيف وأردت أن أقول له يا ظالم لماذا تضربنى، فعاجلنى أخى الأكبر بضربة أخرى على كتفى، وكان الجرحان عميقين، فهويت على الأرض فأخذ القاسيان يضربانى ليتأكدا من موتى، جرحانى وطعنانى وكان هذا الكلب يرى ما يحدث لى فتبجحهما، فطعناه أيضاً ثم جرحا نفسيهما، وجريا إلى حيث القافلة عاريين، وقالوا: «إن اللصوص قد قتلوا أخانا وتشاجرنا معهم فجرحنا، فأسرعوا وإلا سيستولون على القافلة ويسرقونها كلها، وحينما سمع رجال القافلة أن اللصوص البدر قد سطوا على القافلة، فزعروا وفروا على الفور خوفاً ورعباً وكانت زوجتى سمعت بسلوكهما وخداعهما لى من قبل، وحينما سمعت بقصة موتى طعنت نفسها وقاصت روحها.

أيها الدراويش!! حينما حكى المولع بالكلب مامربه وما نزل به من المصائب، جعلت أبكى رغماً عنى، وقال التاجر: «يا قبله العالم!! لولا خشية سوء الأدب لبرهنت لجلالتك على صدقى وخلفت ثوبى لترى جروحي، وقد تلايبيه وأطلعنى على جراحه، وفى الحقيقة حينما نظرت إلى جسده لم أجد شبراً واحداً يخلو من جرح، وخلع السيد عمامته فوجدت برأسه جرحاً عميقاً يمكن أن يدخل فيه ثمر الرمان كله، وحينما نظر الحضور من أركان الدولة إلى رأسه أغمضوا عيونهم ولم يقروا على إطالة النظر.

ثم قال السيد: «يا جلالة الملك!! حينما ذهب هذان الأخوان بعد أن قتلانى بزعمهما، كنت ملقى على الأرض والكلب إلى جوارى، وقد سال الدم من جسدى حتى خارت قواى وأغشى على، لأدرى أين كانت الروح معلقة حتى بقيت حياً؟ وكان المكان الذى كنت ملقى فيه على حدود سرانديب، وبالقرب من ذلك المكان مدينة عامرة، وبها معبد كبير للأوثان، وكانت ابنة ملك المدينة بارعة الحسن والجمال.

ومعظم الملوك وأبناء الملوك أضاعوا حياتهم فى عشقها، ولم يكن ارتداء الحجاب عادة فى تلك المدينة، لذلك كانت تخرج للصيد مع أتربائها وللسياحة أيضاً وكان بالقرب من موضعى حديقة ملكية، وفى ذلك اليوم خرجت بنت الملك بعد إذن والدها إلى تلك الحديقة عابرة من ذلك المكان وكانت تركب معها بعض الخادومات والوصيفات، فسمعت تلك الوصيفات تأوى وأنيى فأتين إلى، وبعد أن رأينى على تلك الحال ذهبن بسرعة إلى ابنة الملك قائلات: «هناك رجل وكلب غارقان فى دمائهما». فلما سمعت ذلك جاءت إلى وتأسفت قائلة: «انظرن هل مازال على قيد الحياة؟»، فنزلت اثنتان وقالتا: «نعم هو على قيد الحياة حتى الآن». فأمرت بأن تحملانى على محفة وتنقلانى إلى الحديقة.

وبعد نقلى إلى هناك استدعت الأميرة جراح الملك وأكدت عليه ضرورة علاجى أنا والكلب، وأغرته بالمكافأة والجائزة، فمسح الجراح على جسدى، وغسل جرحى بالخمر وخاط الجرح ومسح عليه بالمرهم وألقى فى فمى عرق المسك بدل الماء، وكانت ابنة الملك تجلس عند رأسى وتأمر بخدمتى، وتسقىنى بيدها عدة مرات فى الليل والنهار.

وحينما استرددت الوعى، وجدت ابنة الملك تتأسف قائلة: «من هو الظالم القاتل الذى ظلمك ولم يخش المعبود الكبير، وبعد عشرة أيام حينما فتحت عيني بقوة الشراب والطعام والمقويات رأيت أن الجميع قد التفوا حولى، وعلى رأسهم ابنة الملك، تأوهت وأردت أن أتحرك لكننى لم أستطع، فقالت الأميرة مشفقة علىّ: «أيها العجمى!! اطمئن ولا تكتئب، وإن كان ظالم جعل حالك بمثل هذا السوء فإن المعبود الكبير قد جعلنى رحيمة بك، فستسترد عافيتك» أقسم بالله الذى لا شريك له، أننى قد فقدت وعيى بعد رؤيتها أيضاً، فسقتنى ماء الورد بيدها، وفى خلال عشرين يوماً إندمل الجرح وشفيت، ودائماً كانت الأميرة تأتىنى ليلاً حين ينام الجميع وتطعمنى وتسقىنى.

مجمل القول إننى شفيت بعد أربعين يوماً، فسرت الأميرة غاية السرور ومنحت الجراح مكافأة عظيمة، وألبستنى الملابس، وبفضل الله تعالى ورعاية الملكة وعنايتها أصبحت فى تمام الصحة والعافية، وصرت ممثلى البدن، وأصبح الكلب أيضاً سميناً، وفى كل يوم كانت تسقىنى الشراب وتستمع إلى حديثى وتسريه وتفرح، وكنت أنا أيضاً أقص عليها غرائب القصص حتى تسعد وينشرح صدرها.

وسألتنى ذات يوم قائلة: «قص لى أحوالك ومن أنت ولماذا مرت بك هذه الأحداث؟، فقصصت عليها أحوالى كلها من أولها إلى آخرها، ومأن سمعت قصتى حتى أخذت فى البكاء قائلة: «من الآن سأعاملك معاملة تجعلك تنسى مصيبتك».

فقلت: «فليحفظك الله، لقد أنقذت حياتى من جديد، لقد وهبتك حياتى، إننى رهن إشارتك، بالله عليك اعتنى بى دائماً على هذا النحو». المهم أنها كانت تصاحبنى وتجلس إلى طوال الليل بمفردها وأحياناً تكون برفقتها الوصيغة، وتحكى كل شىء وتسمع كل شىء وحينما تمضى الأميرة أبقى وحيداً، فأتوضاً وأصلى مختبأ فى ركن من أركان البيت.

وذات مرة حدث أن ذهبت الأميرة إلى أبيها، فتوضأت باطمئنان وشرعت في الصلاة، فإذا بالأميرة تحضر فجأة مع خادمتها قائلة: «لننظر ماذا يفعل العجمي في هذا الوقت، أناثم أم مستيقظ؟ لقد تعجبت الأميرة عندما لم تجدني في مكاني وتساءلت أين هو؟ هل تعلق بأى شخص؟ وأخذت تجوب أرجاء البيت باحثه عنى، وأخيراً وصلت إلى المكان الذى كنت أصلى فيه، وكيف لهذه الفتاة أن تعرف الصلاة؟ فجمدت في مكانها ناظرة إلى، وحينما فرغت من الصلاة ورفعت يدي بالدعاء ثم سجدت داعياً، ضحكك مقهقهة وقالت: «ماذا يفعل هذا وماتلك الحركات الغريبة التى يقوم بها؟». وحينما سمعت صوت ضحكها خفت في قلبي، وجاءت أمامى وسألتنى: «أيها العجمي ماذا تفعل؟، فلم أستطع الرد عليها، فقالت الوصيفة: يا صاحبة السمو إننى أشعر أنه مسلم وعدو «للات ومناة، يعبد الله الذى لا يرى».

وبعد أن سمعت الملكة هذا، ضربت كفاً بكف، وقالت: لم أكن أعلم أنه مسلم ومنكر لآلهتنا، لهذا كان صمننا غاضباً عليه، آويته في بيتى دون فائدة، قالت هذا وهى تمشي وبعد أن سمعت هذا منها طاش صوابى منتظراً ماذا ستفعل معى؟ وجفانى النوم خوفاً وبكيت كثيراً حتى الصباح، وغسلت وجهى بالدموع، ومرت ثلاث ليالى وثلاثة أيام وأنا بين الخوف والرجاء، لم يغمض لى جفن وفى الليلة الثالثة جاءت الملكة وخادمتها وهى ثملة إلى مكاني، وجلست في مقدمة الحديقة خارج البيت وفي يدها سهم وقوس وكانت في ثرة الغضب، وطلبت قدح الشراب من الخادمة وشربت ثم قالت: «أيتها الخادمة، هل العجمي الذى كان مغضوباً عليه من آلهتنا مازال على قيد الحياة؟، فقالت الوصيفة: «إنه حى يا صاحبة السمو، قالت: «لقد سقط من نظرنا لكن استدعيه كى يخرج «فاستدعتنى الوصيفة، فأسرعت إليها، فرأيت وجه الأميرة منتعماً من الغضب، ثم تخرج وجهها بالحمرة، فخرجت روحي من جسدى خوفاً، وسلمت ووقفت عاقداً يدي فرمقتنى غاضبة وقالت للوصيفة: «إن رميت عدو ديننا هذا بسهم هل تغفو عنى آلهتنا العظيمة أم لا؟ لقد ارتكبت جرماً عظيماً بأن آويت ورعيت هذا الكافر».

فقالت الوصيفة: أى ذنب جنته الأميرة؟ فأنت آويته ورعيت دون أن تعرفى أنه عدو، لقد أشفقت عليه، فأنت جديرة بالمثوبة لأنك قصدت خيراً، أما هو فسيجنى ثمرة فعله من آلهتنا العظام، وبعد أن سمعت هذا قالت لوصيفتها: «دعيه يجلس وأشار إلى أن أجلس فجلست، وقالت للوصيفة: «اعط هذا الوضيع كأساً واحدة من الشراب ليقتل بسهولة «فناولتنى الوصيفة

كأساً فشربت دون اعتراض، وسلمت لكنها لم تنظر لى، ثم أخذت تختلس النظر لى شذراً،
وحينما شربت الخمر انتابتنى النشوة، ودارت الخمر برأسى فأخذت أنشد هذا الشعر:

- أنا فى قبضتك فما الفائدة فى أن أظل حياً؟

- فماذا يجنى أى أحد إن وضع عنقه تحت حد الحسام؟

وتعد أن سمعت هذا ابتسمت ونظرت إلى وصيفتها قائلة: «هل انتابك النعاس؟» فقالت بعد
أن رأت رضاها: «نعم غلب على النوم، فصرفتُها الأميرة، وبعد لحظة طلبت منى الأميرة
الكأس فأعطيتها إياها بسرعة، فتناولتها منى برقة، وشربتها فخررت على قدميها فريبت
الأميرة على قائلة: «أيها الجاهل!! ماذا وجدت من عيب فى آلهتنا العظام حتى تعبد المعبود
الغائب؟».

فقلت: «الإنصاف شرط، لو تكرمت فلتفكرى فى أن الخالق الذى خلق الحبيب مثلك من
قطرة ماء ووهبك هذا الحسن والجمال لتخلبى لب آلاف البشر فى آن واحد، هل هو جدير
بالعبادة؟ وما الصنم حتى تعبدينه؟ إنه حجر نحته النحاتون وجعلوا له صورة وخدعوا به
الحمقى من الناس، حرمهم الشيطان، وهم يعتقدون أن المصنوع هو الصانع، فالذى
يصنعونه بأيديهم يحنون رؤوسهم أمامه، ونحن المسلمين نعرف الذى خلقنا ونعترف به، وقد
جعل لهم جهنم وجعل لنا الجنة، ولو تشرفت الأميرة بشرف الإسلام، فستدرك حلوة
الإيمان، وتفرق بين الحق والباطل وتدرك خطأها».

وحينما استمعت إلى تلك النصائح، بدأ قلبها الحجرى يلين وأخذت تبكى بفضل الله
سبحانه وتعالى، وقالت: علمنى دينك فلقنتها الشهادة، فطلعت بها بقلب صادق، وتابى إلى
الله واستغفرت وشرفت بالإسلام، فركعت على قدميها وأخذت تتلو الشهادة، وتستغفر وتتوب
حتى الصباح، ثم بدأت تقول: «إننى قبلت دينك لكن أبى وأمى كافران فماذا نفعل بشأنهما؟»،
فقلت لها: «ما شأنك أنت، أى شخص كما يدين يدان». قالت: «لقد خطبونى إلى ابن عمى
وهو وثنى يعبد الصنم فلولا قدر الله زوجونى من هذا الرجل غدا وهو كافر وحملت منه فما
أقبح هذا وأبشعه!، فلا بد أن تفكر فى هذا الأمر حتى أتخلص من هذا البلاء». فقلت لها:
«قولك معقول فافعلى ماتشائين»، قالت: «لن أمكث هنا وسأرحل».

فسألتها كيف تستطيعين الهرب؟ وإلى أين تهربين؟ فأجابتنى: «أولا اذهب أنت والحق
بالمسلمين، فحينما يعلم الناس بخروجك بمفردك قلن يظنوا أننا هربنا سوياً، وأبحث عن

السفن الذاخرة إلى بلاد العجم وأخبرنى وسأرسل دائماً الخادمة إليك لهذا الغرض، وحينما تخبرنى سأخرج ونركب السفينة ونذهب، ونتخلص من هؤلاء التمساء الكفرة.

فقلت لها: «إننى فداء لحياتك ودينك، ماذا ستفعلين مع وصيقتك؟». قالت: هذا أمر سهل، نسقيها كأساً من سهم الهلاهل وهذا أصلح، وحينما أشرق الصباح، ذهبت إلى مكان القوافل واستأجرت حجرة لأسكن فيها، وكنت أعيش فى هذا الفراق أملاً فى الوصل واللقاء، وبعد شهرين اجتمع تجار الروم والشام وأصفهان فأردت أن أسافر برفقتهم، وبدأت أحمل أمتعتى على السفينة، وبسبب الإقامة فى مكان واحد عرفنى كثير من الناس، وقال الذين يعرفوننى: «أيها السيد تعال معنا، فإلى متى تمكث فى بلاد الكفرة؟»، فأجبتهم: «ليس هناك ما يدعونى للعودة إلى وطنى، لست أملك إلا خادمة والكلب والصندوق، فإلايتكم تمنحوننى مكاناً على السفينة لأسافر على أن أدفع أجرة السفر فأطمئن وأركب.

وأعطانى التجار حجرة، ونقدتهم الأجر، وذهبت إلى الجارية بحيلة بعد أن تماكنت نفسى وقلت لها: «سأغادر هذه البلاد وأعود لوطنى فجئت لأسلم عليك، إن تفضلتى وجطلتى ألقى نظرة واحدة على الأميرة كان ذلك فضلاً عظيماً منك». فوافقت الخادمة، فقلت لها سوف أحضر ليلاً فى المكان الفلانى، قالت: «حسناً»، ثم رجعت إلى القافلة، ونقلت الصندوق والمتاع إلى السفينة، وأعطيتها إلى ريان السفينة قائلاً: «سوف أحضر مع الخامة صباحاً». فقال الريان: «لا تتأخر، سترفع المرساة فى الصباح الباكر». فقلت: «حسناً جداً»، وحينما أرخى الليل سدوله، ذهبت إلى المكان الذى عينته للخادمة ووقفت هناك، وحينما انقضى هزيع من الليل انفتح باب القصر وخرجت الأميرة متخفية فى ثوب قذر حاملة صندوقاً للجواهر، فأعطتنى هذا الصندوق وصاحبتنى، قبلنا شاطئ البحر مع شروق الشمس، فركبنا أولاً قارباً طويلاً أقلنا إلى السفينة، وكان هذا الكلب الوفى معنا، وحينما أشرقت الشمس بوضوح رفعت المرساة وأبحرت السفينة، وكنا نساfer مطمئنين فإذا بنا نسمع صوت قذف المدافع، فتحيرنا وبدأنا نفكر ماذا حدث؟ فأوقف الريان السفينة وبدأنا نتحدث فيما بيننا، فريما يكون القائد الأعلى للميدان يخدعنا، وإلا فما السبب فى قذف المدافع؟.

وكان مع كل تاجر بعض الجوارى الحسان وخوفاً من أن يستولى عليهن رئيس الميناء أخذوا يخبئونهن ففعلت ذلك أنا أيضاً، وأخفيت الأميرة فى صندوق وأقفلته، وأثناء ذلك ظهر

رئيس الميناء فى قارب مع حراسه ومعاونيه، وسار حتى وصل السفينة وصعد إليها، لعل سبب مجيئه أن نبأ موت الجارية بلغ الملك كذلك اختفاء الأميرة ولكنه لم يذكر اسمها بسبب الحياء وخشية الفضيحة، لكنه - أى الملك - أمر رئيس الميناء قائلاً: «إننى سمعت أن التجار العجم يملكون جوارى فانتات وأنا أريد أن آخذهن لخدمة ابنتى الأميرة فأحضرهن جميعاً أمامى لأنتقى منهن أفضلهن لخدمتها وأدفع ثمنها، وإلا فليرجعن، وبموجب أمر الملك حضر رئيس الميناء إلى السفينة الآن، وكان إلى جوارى تاجر يملك أيضاً جارية حسناء أخفاها فى صندوق وجلس رئيس الميناء على ذلك الصندوق، وبدأ يخرج الجوارى، وحمدت الله على أنه ليس هناك ذكر لبنت الملك.

الخلاصة، حمل أتباع رئيس الميناء الجوارى على القارب وسأل الرئيس ذلك التاجر الذى كان جالساً على صندوق يملكه: «هل معك جارية؟ فقال ذلك الأحق: «أيتها الرئيس لست وحدى من فعل هذا، بل جميع التجار يخبئون جواريتهم فى الصناديق خوفاً منك». فأخذ رئيس الميناء يبحث فى كل الصناديق، وفتح صندوقى أيضاً، وأخذ الأميرة مع الجميع، وتملكنى يأس شديد، وقلت لنفسى: «ماذا حدث الآن ذهبت حياتى هباءً، ترى ماذا سيصنع الملك بالأميرة؟».

وكننت أفكر فيها لدرجة أننى غفلت عما يهدد حياتى بالخطر، وكننت أتضرع إلى الله بالدعاء طوال الليل، وعندما انبج الصبح أعادوا كل الجوارى اللاتى أخذوهن إلى السفينة مرة أخرى وسعد التجار بعودتهن، واسترد الجميع جواريتهم وجئن كلهن ماعدا الأميرة، فسألت: «ألم تعد جاريتى ولما لم تعد؟». فأجابونى: «نحن لانعرف، ربما يكون الملك قد استحسناها، وأخذ الجميع يهدثون من روعى ويطمئنونى قائلين: «ماحدث قد حدث، فلا تبتأس وسوف ندفع لك جميعاً ثمنها قطاش صوابى وقلت: «لن أسافر إلى بلاد العجم، وقلت لبعض الرفاق: «أيها الرفاق خذونى معكم وأنزلونى على الشاطئ، فقبلوا، وركبت قارباً بعدما نزلت من السفينة وكان الكلب معى.

وعندما وصلت إلى الميناء حملت صندوق الجواهر الذى أحضرته الأميرة معها فقط، أما باقى الأمتعة فأعطيتها لخدم رئيس التجار، وتجسست فى كل مكان علنى أسمع أى نبأ عن الأميرة وذهبت ذات ليلة متخفياً إلى قصر الملك لكننى لم أعثر لها على أى أثر ولم أجد أى خبر، وبحثت عنها حوالى شهر فى كل صوب وحذب، وقد أشرفت على الهلاك بسبب هذا

الحزن، وكنت أطوف فى هيئة التجار، وأخيراً دار فى خلدى أنه لابد وأن تكون الأميرة فى بيت رئيس الميناء ولن تكون إلا هناك وكنت أطوف حول قصر رئيس الميناء لأجد أى وسيلة للدخول .

فرأيت منفذاً ضيقاً يسمح بمرور شخص واحد، لكنه كان فى أوله سلك حديدى، فأردت أن أدخل من هذا الطريق، فخلعت ثيابى ونزلت فى طين نجس وتجمعت كثيراً من العناء حتى كسرت هذا الحديد، ودخلت عن طريق دورة المياه، وتمثلت فى هيئة امرأة وأخذت أنظر هنا وهناك وبلغ سمعى صوت من أحد الأركان، وأرهفت السمع، وكأن شخصاً يبتهل ويتضرع، فتقدمت فرأيت الأميرة تبكى فى حالة يرثى لها وهى تفرط فى الابتهاال والتضرع وتدعو الله قائلة: «يا إلهى تقبل دعائى بحق رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله الأشراف الأطهار أنقذنى من بلاد الكفر هذه، واجعلنى ألقى من دلى على طريق الإسلام على خير، وحينما رأيتها ذهبت إليها وسقطت على قدميها وعانقتنى وغبنا عن الرعى كلانا، وعندما أفقنا سألت الأميرة عن حالها فقالت: «حينما أخذ رئيس الميناء جميع الجوارى إلى الشاطئ سألت الله ألا يفشو سرى وألا يعرفنى أحد، ولا تنزل أى مصيبة بك، والله عز وجل ستار العيوب فلماذا لم يسأل شخص قط هل هذه الأميرة؟ وكان رئيس الميناء ينظر إلى جميع الجوارى كأنه يشتريهن، وحينما جاء دورى استحسنتى وأرسلنى إلى بيته سراً وعرض الأخريات على الملك .

وحينما لم يجدنى أبى بينهن سمح لهن بالانصراف، وكان قد فعل كل ذلك من أجل استردادى، وبعدها أذاع أن الأميرة مريضة جداً فإن لم أظهر فسيعلن نبأ موتى، حتى لا يلحق الخزي والعار بسمعة الملك، لكننى فى عذاب وشقاء لأن أمير الميناء يريد منى شيئاً آخر، إنه يطلب منى مطارحته الغرام، ولم أرض بذلك لكنه يلح كثيراً، ثم يلزم الصمت انتظاراً لموافقتى ولهذا فإننى مضطربة، فإلى متى تستمر هذه الحال؟ ولقد قررت الانتحار إن صمم على أن ينال غرضه منى، لكننى طالما وجدتكم فإننى لدى حيلة تساعدنى على التخلص من أمير الميناء إن شاء الله، وليس لنا حيلة غيرها، فقلت لها تفضلى ما الحيلة؟ وبدأت تقول: «إن بذلت الجهد فمن الممكن أن تجد تلك الحيلة، فقلت لها: «أنا طوع أمرك، فإن تأمرى؛ ألقى بنفسى فى النار، وأن أجد سلماً صعدت به إلى السماء من أجلك، مرنى فأنا ملك يمينك» .

قالت الأميرة: «أذهب إلى معبد الصنم الأكبر وهناك ستجد موضعاً فيه سجادة سوداء، يخلع الناس عليها نعالهم، وعادة هذه البلاد أن من يكون فقيراً محتاجاً يجلس في هذا المكان، ويضع تلك السجادة على رأسه، وكل من يدخل المكان للزيارة يمنحه الإحسان والصدقة، كل حسب قدرته، وبعد مرور عدة أيام عندما يجمع الكثير من المال، يخلع عليه البرهمن الخلع والعطايا من المعبد، ويأذن له في الانصراف فيعود وقد أصاب ثروة كبيرة وغنم مالاً وفيراً، ولا يعلم أى شخص من هو، فاذهب أنت أيضاً إلى ذلك المكان وأفعل هذا وأخف وجهك جيداً ولا تتكلم مع أى شخص وعندما تأخذ المال وحينما يعطيك البرهمن الخلعة، بعد مرور ثلاثة أيام ويأذن لك في الانصراف لاتنصرف، وعندما يلحون عليك في الانصراف قل لهم: «لاأحتاج إلى المال، لست طامعاً في مال، بل أنا مظلوم وجئت للشكوى، إلى أم البرهمن، فإن لم تنصفنى، فسينصفنى الصنم الأكبر، ويقتصلى من الظالم، وإن لم تأت لك أم البرهمن فلا ترض عن ذلك بديلاً، ففى النهاية ستضطر للحضور إليك، فهى عجوز لها من العمر مائتان وأربعون سنة، ولها ثلاثون ولداً وكلهم رؤساء المعبد، ولها منزلة رفيعة عند الصنم الأكبر، ولهذا فأمرها نافذ، يشعر الصغير والكبير بالسعادة البالغة حينما تقول له شيئاً ويمتثل الجميع لأمرها طائعين صاغرين، فخذ ذيل ثوبها وقل لها: «ياأمى!! لو لم تنصفى هذا المسافر المظلوم، فسأذهب إلى الصنم الكبير وأتشبث به حتى ينصفنى، ففى النهاية سيشفع لى عندك.

وحينما تسألك أم البرهمن عن أحوالك فقل لها: «أنا من بلاد العجم جئت لزيارة الصنم الأكبر، وسمعت بعدلك فجئت إليك من مكان بعيد، وعشت هنا عدة أيام براحة وسكون، وكأنت معى زوجتى وهى شابة جميلة فاتنة الملامح، ولأدرى كيف رآها أمير الميناء، فأخذها منى ليغتصبها قهراً وذهب بها إلى بيته، وفى شريعة المسلمين أن الذى ينظر إلى غير محرم أو يغتصبها يجب على المسلمين أن يقتلوه بأى وسيلة ويستردوها، وإلا فإنهم يضربون عن الطعام والشراب احتجاجاً على ذلك، وتصبح حراماً على زوجها طالما بقى المغتصب على قيد الحياة، وجئت إلى هنا مضطراً لأرى كيف ستنصفيننى يأم البرهمن؟ وحينما علمتنى الأميرة هذه الأشياء كلها خرجت من الماسورة، وعبرت الشبكة الحديدية ثانية.

ولما طلع الصبح ذهبت إلى المعبد، وتدنثرت بتلك السجادة السوداء، وتجمع لدى مال كثير فى ثلاثة أيام أصبح كومة كبيرة وفى اليوم الرابع جاء البرهمن إلى تالين الأوراد والأدعية

حاملين خلعة وبدأوا يودعوننى فلم أقبل الانصراف، وقلت: «بحق الصنم الأكبر، إننى لست سائلاً بل جئت إلى أم البرهمن والصنم الكبير، طالباً الإنصاف وطالما لم يتحقق مطلبى، فإن أنصرف من هنا، ويعد أن سمعوا هذا توجهوا إلى تلك العجوز، وذكروا لها أحوالى، فجاء أحدهم لى وقال: الأم تطلبك لتتفضل، فذهبت إلى المعبد ملتحفاً بتلك السجادة السوداء، فرأيت عرشاً كبيراً مرصعاً بالياقوت والآلئ والماس وعليه الصنم الأكبر، وهناك كرسى ذهبى عليه فرش كبير، وتجلس عليه عجوز متشحة بالسواد، متكئة على أريكة، وغلامان على يمينها وشمالها فى وقار وحشمة، ودعتنى أن أتقدم للأمام، فتقدمت بأدب واحترام وقبلت أعتاب العرش، وأخذت طرف ثوبها، فسألتنى عن أحوالى، فشرحت لها حالى كما علمتنى الأميرة فقالت: «هل يجعل المسلم امرأته فى حجاب حتى لا يراها أحد؟، فقلت: «فليحفظ الله أولادك، نعم هذا هو شرعنا القديم»، فقالت: «مذهبكم جيد، الآن أنا أمر بأن يحضر أمير الميناء مع زوجتك، وألقنه درساً حتى لا يقترب هذا الإثم ثانية، ذلك للنجس، ويأخذ الجميع عبرة»، وبدأت تسأل من حولها، من هو أمير الميناء؟ كيف يجرو ويغتصب امرأة غيره؟ فقال الناس هو فلان، فقالت للغلامين الجالسين عندها: «خذاه بسرعة إلى الملك وقولا له: تقول أم البرهمن: «هذا حكم الصنم الأكبر أن أمير الميناء يظلم الناس، فقد اغتصب امرأة هذا الأجنبى، وهو مذنّب فى هذا، فسارع إلى أخذ التعويض من مال هذا الضال، وأعطه لهذا المفضل لدى، وإلا ستهلك ليلاً، وسيحل بك غضبى».

فقام الغلامان من مكانهما وركبا وأحاط بهم جميع البراهمة، يتلون الأدعية والأناشيد ويعزفون.

فبالخلاصة كان الصغير والكبير يتبرك بالتراب الذى تطؤه قدما هذين الغلامين، ويكتحلون به، حتى وصلوا إلى قصر الملك فوصل الخبر إلى الملك فخرج لاستقبالهما حافى القدمين، وأجلسهما على العرش بكل تكريم واحترام بالقرب منه وسألهما: «لماذا تفضلتما وشرفتمانى بقدموكما اليوم؟، فحكى الغلامان ماسمعا من الأم وحذراه من غضب الصنم الكبير، فأمر الملك فور سماعه ذلك قائلاً: «حسناً، فليذهب المحصلون إلى الميناء، ويحضروا أمير الميناء مع تلك المرأة، وسأعاقبه على قدر ذنبه».

فخفت فى قلبى من هذا الأمر لأن الأميرة إذا حضرت مع أمير الميناء، فسينكشف الأمر وماذا ستكون العاقبة؟ فاضطربت كثيراً وتوجهت إلى الله بالدعاء، وتغير لون وجهى وبدأ

جسمى يرتعد خوفاً، وحينما رأى الغلامان شحوب وجهى أدركا أن هذا الحكم لا يرضينى فقاما غاضبين قائلين للملك: «أيها الرجل هل أنت مجنون حتى تخرج من طاعة الصنم الكبير؟ وما صدقت قولنا واعتبرته كذباً وتريد التحقيق؟ احذر، فأنت فى غضب الصنم الكبير، قد أبلغناك الأمر والآن أمرك موكول إلى الصنم الكبير» .

وبعد هذا تغير حال الملك، فوقف عاقداً يديه واهتز من رأسه إلى أخمص قدميه وطلب العفو منهما لكنهما لم يجلسا، وبقيا واقفين، وفى تلك الأثناء بدأ الأمراء جميعاً يقولون: «إن أمير الميناء رجل سيئ الخلق آثم بطبعه ويأتى بأفعال شنيعة، فماذا نقول وماذا نحكى للملك؟ كل ما قالته أم البرهمن حق، إذ كيف يكون حكم الصنم الكبير كاذباً؟»، وحينما سمع الملك من الجميع نفس الكلام ندم على قوله، فأعطانى خلعة فاخرة على الفور ومنحنى وثيقة مختومة بخاتمة وكتب خطاباً آخر إلى أم البرهمن وقدم للغلامين الجواهر والدنانير وودعهما، فرجعت إلى المعبد فى فرح وسرور وذهبت إلى تلك العجوز، وكان مكتوباً على خطاب الملك بعد الألقاب والتحية: «تقرر أن يكون أمير الميناء خادماً لهذا المسلم، ويعطى هذا المسلم خلعة والآن هو مخير فى قتله، وجميع أمواله وأملاكه لهذا العجمى يفعل بها ما يشاء وأرجو العفو عن تقصيرى وذنبى» .

فقال أم البرهمن مسرورة: «فليعزف العازفون نشيد المعبد، وليقذف خمسمائة من رماة الجيش بالألعاب النارية، وأرسلت معى جنوداً مسلحين وأمرتهم: «اذهبوا إلى الميناء وقيدوا الأمير وسلموه إلى هذا المسلم كى يعذبه كما يشاء، واحذروا أن يدخل القصر أحد سواه، واعطوه أمواله وأملاكه، فإن ردها له برضاه فأحضروا لى منه وثيقة بذلك، وأعطتنى صنماً من المعبد وأركبتنى وودعتنى، وحينما وصلت إلى الميناء كان قد تقدم أحدهم وأخبر أمير الميناء، فجلس متحيراً حتى وصلت، وكنت ممثلاً بالغضب، فما أن رأيته حتى ضربت عنقه بسيفى ففصلته عن جسده، وأمرت بالقبض على أمين الصندوق والحاكم والضباط واستوليت على الدفاتر، ودخلت القصر فقابلت الأميرة وعانقتها وبكىنا وحمدنا الله وكفكت دموعها ودموعى ثم جلسنا على العرش وأنعمنا بالعطايا على كل من يستحقها وعيناهم فى الوظائف ورفعنا من شأن الخدم والعبيد، ومنحنا الجوائز والهدايا لمن جاء معى من عند أم البرهمن، وودعنا الرسل ومنحناهم الهبات، وأخذنا الأموال والجواهر الثمينة والأثواب الحريرية القيمة ذات الألوان الجميلة الموشاة بالذهب والتحف والنفائس التى أحضرت من كل الممالك

لنقدمها للملك والأمراء والأكابر كل وفق منزلته، ولزوجات الكهنة، وذهبنا بكل هذا بعد أسبوع إلى المعبد وقدمناها للأم قريانا وأضحية فأعطتني خلعة للرفعة ومنحتني لقباً، ثم ذهبنا بتلك الأشياء إلى الملك وقدمتها إليه وطلبت منه أن يوقف الظلم الذى قام به أمير الميناء لهذا رضى عنى الملك والأمراء والتجار ومنحونى خلعة وفرساً كما أقطعونى إقطاعاً وأعلوا من شأنى.

وحينما خرجت من عند الملك، منحت الهبات لحاشيته حتى بدأوا يلهبون بالثناء علىّ. خلاصة القول أننى بدأت أعيش فى بحبوحة ورغد من العيش بعد زواجى من الأميرة، وكنت أعبد الله ويسبب عدلى وإنصافى كانت الرعاية تعيش فى أمان واستقرار ورضاء بى وكنت أذهب مرة واحدة فى الشهر إلى المعبد وإلى الملك، وكان الملك يجزل لى العطاء مرة بعد مرة.

أخيراً اتخذنى خليلاً وكان لا يقوم بأى أمر إلا بعد مشورتى، وبدأت أقضى الأيام دون فكر وهم، والحقيقة يعلمها الله أننى دائماً كنت أفكر فى أخوى، أين هما؟ وكيف حالهما؟ وبعد عامين جاءت إلى الميناء قافلة تجار من بلاد «زيرباد، كانوا مسافرين إلى بلاد العجم، وأرادوا أن يعودوا إلى بلادهم عن طريق البحر، وكانت تقاليد تلك البلاد أنه إذا أتت قافلة، أن يقدم قائدها التحف والنفائس إلىّ، وأذهب أنا إليه فى اليوم التالى وأحصل منه الضرائب والهدايا وفى اليوم التالى ذهبت إلى خيمتهم فرأيت شخصين يأتیان حاملين صرر الملابس وكانا يعرضان علىّ ما يحملانه، ثم يعودان به مرة ثانية وهكذا.... وكانا يتجشمان كثيراً من العناء والمشقة فى هذا.

وحينما أمعنت النظر، وجدت أنهما أخواى، فأبّت على غيرتى وحميتى أن أراهما يخدمان هكذا، وحينما ذهبت إلى منزلى قلت لهؤلاء الناس: أحضروا هذين الرجلين، وعندما أحضروهما ألبستهما لباساً فاخراً، واستصفتهما عندى وذات ليلة دبر هذان الخائنات قتلّى وعندما انتصف الليل، وأدركا غفلة الناس زحفا كالنمل إلى حيث أكون، وكنت قد عينت الحراس على بابى خوفاً على حياتى من غدرهما، وهذا الكلب الوفى كان ينام عند سريرى وما أن استلا سيفهما، حتى أخذ الكلب ينبج نباحاً شديداً، استيقظ الجميع على صوت نباحه،

وتنبهت أنا أيضاً من نومى، وعندئذ قبض الحراس عليهما، وعرف الجميع أنهما أخواى، فبدأوا يلعنونهما قائلين: أيفعلان هذا بعد إكرامهما!!

يا جلالة الملك، لقد خفت على حياتى وعلى حد قول المثل المشهور: خطأ وإثنان وصفح أما الثالث فلا عفو فقررت أن أقبض عليهما، لكننى إن حبستهما فى السجن فمن يرعاهما؟ فسيموتان جوعاً وعطشاً وربما يأتيان بحيلة أخرى.

لهذا وضعتهما فى قفص ليكونا دائماً تحت رعايتى، واطمئن من جانبهما، واحتاط من أن يكيدا إلى مرة أخرى إن غابا عن ناظرى، وأكرمت الكلب لأنه وفى مخلص سبحانه الله الإنسان هو الخائن السيىء، والحيوان هو الوفى هذه هى قصتى، قصصتها عليك، والآن الأمر لك، تقتلى أو تحفظ على حياتى.

ففرحت وسررت بهذا الشاب المؤمن وقلت له: لا شك أنك لست مقصراً فى المروءة وهما ليسا مقصرين فى الخسة والدناءة وفى الحقيقة: إن ذيل الكلب لو يدفن فى الأرض اثنتى عشرة سنة لا يستقيم ثم سألته عن حقيقة اليواقيت الاثنتى عشرة المعلقة فى رقبة الكلب؟ فقال السيد: أطال الله عمر مولانا الملك مائة وعشرين سنة، فى ذلك الميناء الذى كنت أحكم فيه، صعدت ذات يوم لأعلى القصر لأتمتع بمشاهد البحر والصحراء كنت أطيل النظر هنا وهناك، إذ بى أرى شبحين كأنهما شخصان يسيران فى الغابة ولم يكن بها طريق للمرور، فشاهدت عن طريق المنظار الكبير شخصين فى هيئة غريبة، فأرسلت الخدم ليدعوهما وحينما أقبلتا علىّ، وجدت أن أحدهما امرأة والآخر رجل، فبعثت بالمرأة إلى داخل القصر عند الأميرة، وأحضرت الرجل أمامى فوجدته شاباً فى العشرين أو الثانية والعشرين من عمره ويبدو أن شاربیه قد نبت حديثاً بعض الشيء، وبسبب حرارة الشمس صار لون وجهه أسود كالمرجل وطال شعره وأظافره أيضاً كأنه يعيش فى الغابة وعلى كاهله طفل فى الرابعة أو الخامسة من عمره وكان هذا الرجل يعلق فى عنقه جرابين مملوءين، وكان شكله وهيئته فى غاية العجب، فسألته وأنا فى شدة الحيرة: أيها العزيز، من أنت وما بلادك وما تلك الهيئة التى تبدو عليها؟ فبدأ الشاب يبكى رغماً عنه وفتح كيس النقود ووضعها أمامه وقال: إنه الجوع، أعطنى شيئاً لوجه الله، فأنا أكل الكلاً منذ مدة طويلة وكذلك أوراق الشجر، حتى خارت قواى فأحضرت له على الفور الشواء والخبز والشراب، فبدأ يأكل، وأثناء ذلك أحضر مسئول القصر العديد من أكياس النقود والذهب التى أحضرها ذلك الشاب معه، ففتحت

الأكياس كلها فرأيت الجواهر من كل الأنواع وكل حبة منها تساوى خراج السلطنة، وكل واحدة أفضل من الأخرى، وتعطر المكان بعد فتحها، ولما أكل وشرب وتنفس الصعداء واسترد قواه سألته: من أين أحضرت تلك الجواهر؟ قال: أنا من ولاية آذربيجان وكنت قد تجشمت كثيراً من المتاعب والمشاكل فى الطفولة بعد تركى أهلى ووطنى وعشت مدفوناً حياً لمدة طويلة، ونجوت بأعجوبة من براثن ملك الموت أكثر من مرة.

فقلت: أيها الرجل فصل القول لأعرف، فبدأ يحكى قصته: كان أبى تاجراً، وكان يسافر إلى الهند والروم والصين والخطا والإفرنج وحينما بلغت العاشرة من عمرى، أراد أبى أن يسافر إلى بلاد الهند وأن يأخذنى معه، فأصرت أُمى وخالتى وعمتى وزوجة خالى على أننى صغير ولا أستطيع تحمل وعناء السفر، لكن أبى رفض قائلاً: إننى أصبحت كهلاً، ولو لم يترعرع ولدى أمامى، فستصحبنى الحسرة فى قبرى، الآن هو طفل، وإن لم يتعلم الآن فمتى يتعلم؟.

وبعد هذا أخذنى وغادر البلاد وقطعنا الطريق بخير وعافية وعندما وصلنا إلى الهند، بعنا شيئاً من السلع واشترينا الهدايا والتحف ثم سافر إلى بلاد «زيرباد» وأنهينا هذا السفر على خير ما يرام واشترينا وبعنا هناك أيضاً، وركبنا السفينة نعود إلى وطننا، وبعد شهر بدأت العواصف تهب وثار الطوفان وهطل المطر مدراراً، وأصبحت الأرض والسماء كلها كالدخان، وانكسر شراع السفينة، وبدأ الريان يضرب رأسه فزعاً واستمرت الحال هكذا عشرة أيام، وكان الموج يقذف بالسفينة هنا وهناك، وفى اليوم الحادى عشر اصطدمت السفينة بجبل وتحطمت، ولم أدر أين ذهب أبى ولا الخدم والا الغلمان؟.

وجدت نفسى ممدداً فوق لوح خشبى، وكنت أسبح متعلقاً باللوح الخشبى طوال ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ واللوح يتحرك تلقائياً، وفى اليوم الرابع وصل اللوح إلى الشاطئ ولم يبق فى إلا الروح، فزلت عن ذلك اللوح وحبوت حتى وصلت إلى الأرض بصعوبة، ورأيت الزراعة على بعد وقد اجتمع كثير من الناس هناك، وكانوا جميعاً ذوى بشرة سوداء، عراة الأبدان كما ولدتهم أمهاتهم، وتحدثوا معى ولكننى عجزت عن فهم لغتهم، وكانت الزراعة هناك هى الحمص، وكانوا يجمعونه قبل الحصاد، ويشوونه ويأكلونه، ورأيت العديد من المنازل وكان أهلها يأكلون هذا الطعام ويعيشون عليه، فدعونى للطعام فاقتلعت الحمص من الأرض وشوينه وأكلته وشربت قليلاً من الماء وانتحييت جانباً ونمت.

عد وقت استيقظت فجاءنى أحدهم ودلنى على الطريق كى أنصرف، فاقتلعت الحمص ومشيت وكان الميدان من الطول بحيث ييدر وكأنه صحراء القيامة وكنت أسير وأكل هذا الحمص الذى اقتلعت من الأرض، وبعد عدة أيام رأيت قلعة فاقتربت منها فوجدتها عالية مبنية بالحجر وكانت تمتد من جميع النواحي إلى أربعة كيلو مترات بابها منحوت من حجر واحد وعليه قفل كبير، لكننى ما وجدت بها أثراً للإنسان، فتجاوزتها فرأيت تلا وكان لون ترابه كلون الكحل فتجاوزته أيضاً، فرأيت مدينة كبيرة محاطة بسور وفيها أبراج متجاورة ويجوار المدينة بحر خضم، فتقدمت إلى البوابة وسميت باسم الله ودخلت، فوجدت داخل البوابة شخصاً لابساً زياً أفرنجياً جالساً على مقعد، وحينما رآنى وسمعنى أقول باسم الله دعائى قائلاً: أقبل فحييته فرد تحيتى بأحسن منها، وأحضر لى على الفور رغيفاً أفرنجياً وقدم لى الشراب والشواء من لحم الدجاج وقال لى: تفضل وكل حتى تشبع هنيئاً مريئاً، فتناولت شيئاً من الشواء والشراب ونمت ملء جفونى، وحينما أرخى الليل سدوله استيقظت فاغتسلت بالماء ثم اطعمنى وقال لى: يا بنى احك لى ما مريبك من أحداث فقصصت عليه كل ما لاقيته من مصائب وعناء فقال لى: لماذا جئت إلى هنا؟ فأجبتة رغماً عنى: لعلك مجنون، لقد بلغت تلك المدينة بعد كثير من المشاق والمصائب، وأوصلنى الله عز وجل إلى هنا، وأنت تسألنى هذا السؤال؟ فقال لى: استرح الآن، أما فى الغد فسأقول لك ما أريد.

وحينما أصبح الصباح قال لى: احضر غربالاً وقاساً وكيساً جدياً فقلت فى نفسى: الله أعلم إن هذا الرجل قد أطعمنى ويريد منى أن أعمل لديه نظير ذلك، فأحضرت كل ما طلبه منى رغم أنفى، فقال لى: اذهب إلى هذا التل واحفر حفرة عمقها حوالى متر، وكل ما يخرج منها تغربله، وما يخرج منه ضعه فى الكيس وأحضره لى، فذهبت إلى هناك وقمت بما أمرنى وما تبقى من الغريلة كان جواهر وآلئى ثمينة ومتنوعة خطفت بصرى وبهرتنى، وأحضرت إليه الكيس مملوءاً حتى حافته فرآه ثم قال: خذ ما فيه وانصرف من هنا، فليس من الخير بقاؤك فى هذه المدينة فأجبتة: يا سيدى لعلك أكرمتنى بهذا، ماذا أصنع بتلك الآلئى والجواهر، إذ جعت هل أكلها؟ وإن أعطيتنى أكثر من ذلك فماذا يجدينى؟ فابتسم قائلاً: إننى أرثى لحالك فأنت أعجمى، ولا أستطيع أن أدخلك المدينة، فإن أردت الدخول فأنت وشأنك، ولكن خذ خاتمى معك وحينما تبلغ منتصف المدينة ستجد شخصاً ذا حية

بيضاء جالساً وشكله يشبه شكلى فهو أخى الأكبر، فأعطه هذا الخاتم وسيرعاك وعليك بالامتثال للنصحة، وإلا ستقتل هباء، فسلطتى تنتهى عند هذا الحد وليس لى دخل بالمدينة.

فأخذت منه ذلك الخاتم وسلمت عليه وانصرفت إلى المدينة وكانت غاية فى الجمال والنظافة وكان الرجال والنساء يختلطون ببعضهم فى الأسواق دون حجاب، والجميع فى لباس جيد، كنت أمشى وأشاهد ما حولى، وعندما بلغت ميداناً وسط المدينة وجدت ازدحاماً شديداً لدرجة أننى لو قذفت طبقاً لنزل على الرؤوس ولم يبلغ الأرض، وكان من الصعوبة السير فى هذا المكان، ولما خف الزحام تقدمت إلى هذا الموضع مفسحاً لنفسى الطريق بجسدى فرأيت ذلك الشخص جالساً على أريكة، فقدمت إليه التحية وذلك الخاتم فرمقنى بغضب قائلاً: لماذا جئت إلى هنا وألقيت بنفسك فى التهلكة؟ ألم يمنعك أخى الأحمق؟.

فقلت له: لقد منعنى فعلاً لكننى لم أستجب، وحكىته له قصتى من البداية إلى النهاية، فقام وأخذنى إلى بيته، وكان بيته مثل بيوت الملوك وله كثير من الخدم، وحينما جلس فى الخلوة قال لى معاتباً: يا بنى لم أقدمت على هذه الحمافة حتى صرت على حافة القبر؟ فكل من يأتى هنا يكون تعساً قليل الحظ فقلت: لقد أخبرتك بأحوالى من قبل وجاء بى حظى إلى هنا، لكن إن تكرمت خبرنى بأعراف تلك البلاد لأعرف سبب منعكم لى من الدخول؟.

فقال الرجل: إن ملك هذه المدينة ورئيسها كلهم مكروهون ومذهبيهم ومعاملتهم غريبة وفى هذه المدينة يوجد معبد فيه صنم يتكلم من بطنه شيطان، وينبئ عن اسم ونسب وأصل ودين كل من يأتى إلى هنا، وحينما يأتى مسافر غريب وأجنبى يبلغ نبأ وصوله إلى الملك، فيأخذه إلى المعبد ويسجده أمام الصنم، فإن سجد فحسناً وإلا أمر بإلقائه، فى البحر، وإن أراد أن ينجو من ذلك البحر فهناك أشخاص يجرونه على الأرض، فهذا عرف هذه المدينة، وأنا أشفق على شبابك، لكننى سأدبر لك حيلة لتعيش وتتجو من العذاب.

فسألته وما الحيلة قال: سأزوجك بنت الوزير فقلت له: كيف يعطى الوزير ابنته لهذا المفلس، إلا إذا كنت سأقبل دينه؟ وهذا ما لا أستطيع أن أفعله. قال: من عادة هذه المدينة أنه إذا سجد أى شخص للصنم وهو فقير ويطلب بنت الملك، فيعطيه الملك ابنته ليشمله الفرح والسرور، ولئى أيضاً مكانة عند الملك وهو يرفع شأنى ولهذا فإن جميع الوزراء وكبار الدولة يقدروننى ويوقروننى ونحن نذهب مرتين كل أسبوع إلى المعبد ونعبد الصنم، وغداً سيجمع الجميع وسأخذك معى.

وبعد ذلك أطمعنى وسقانى ثم استسلمت للنوم، وحينما طلع النهار، أخذنى إلى المعبد، فرأيت الناس يأتون ويؤدون طقوس العبادة، بينما يجلس الملك والأمير فى حضرة البرهمن عارى الرأس بأدب واحترام وكان الغلمان والفتيان والبناات العذراوات فى جمال الحور يلتقون حوله، فخطبني الرجل قائلاً: قم بما أمرك به، فقلت: سمعاً وطاعاً قال: أولاً قبل قدمي الملك ثم خذ بطرف ثوب الأمير ففعلت هذا فسأل الملك: من هذا، وماذا يقول؟ فأجاب الرجل: هذا الشاب من أقاربي جاء من بعيد يقبل قدمي الملك، راجياً أن يجعله الوزير فى خدمته ويرفع من شأنه، لو أذن الصنم الكبير وشاء الملك، فقال الملك: لو يقبل مذهبي ودينى وعرفى، فمبارك عليه، وبعد فترة وجيزة بدأ العزف والإنشاد فى المعبد وألبسونى خلعة فاخرة، ووضعوا حول عنقي قيوداً سوداء وجردوني أمام الصنم، وجعلوني - أسجد أمامه، وانبعث صوت من الصنم يقول: يا ابن السيد، حسناً أنت جئت فى سبيل عبادى، والآن تطمع فى رحمتى ورضائى ثم سجد الجميع وأخذوا يتمرغون على الأرض وقالوا: هنئاً لك، ستكون صاحب عزة وجاه .

وتمت مراسم الزواج، وقدمنا لى بنت الوزير، ومعها الكثير من الأشياء الثمينة على سبيل الهدايا، وقال لى: طبقاً لأوامر الصنم الكبير، زوجناك هذه العروس. واسكنونا فى مكان واحد، وحينما رأيت هذه العروس، وجدتها فى جمال بنات الحور، مليحة الوجه صحيحة البدن ممشوقة القوام، وكل ما نسمع عن جمال بنات الحور حسنهن كان موجوداً لديها بوفرة، فتمتعت بها، واغتسلت صباحاً ثم ذهبت إلى الملك، فخلع على الملك خلعة الصهر، وأمرنى بالحضور كل يوم، وأخيراً بعد عدة أيام صرت من المقربين إلى الملك وأصفيائه .

وكان الملك سعيداً بوجودى ويغدق على بالنعم والعطايا رغم زهدى فى متاع الدنيا، لأن قبيلتى لديها من الأموال ما لا يدخل تحت حصر وعد، وقضينا عامين فى رغد وهناء . وحدث أن حملت ابنة الوزير، ومرت الشهور حتى جاءها المخاض وحضرت القابلة واستقبلت المولود وبعدها مرضت ابنة الوزير وماتت، فأصببت بالجنون حزناً عليها، فأى مصيبة قد حلت بنا، وكنت أبكى عند رأسها وارتفع صوت نحيبى وبكائى فى جنبات القصر، وأقبلت النسوة من كل مكان، وكل من تأتى تخبط على رأسى وتقف أمامى وتبكي وتتنوح، وكادت روحى تخرج من بدنى .

وأثناء ذلك جذبنى شخص من الخلف فالتفت فوجدته ذلك العجى الذى زوجنى وقال لى: أيتها الأحق لماذا تبكى؟ فقلت: وأيتها الظالم!! كيف تقول لى هذا الكلام؟ ضاع ملكى وفقدت راحة بيتى، ثم تقول لى لماذا أنت حزين؟ فقال ذلك العزيز مبتسماً إنك تبكى لأجل موتك، لقد قلت لك سابقاً، لعل أهلك قد أتى بك إلى هذه المدينة، وقد حدث، وليس لك سبيل إلا الموت، وأخيراً أخذنى الناس إلى المعبد، فوجدت الملك والأمراء وستة وثلاثين من الرعية مجتمعين هناك، وقد جمعوا كل أموال وأمالك ابنة الوزير وكل من يريد شيئاً يأخذه ويدفع ثمنه.

الخلاصة أن ثمن كل المتاع أصبح نقداً، واشترت جواهر بملك الأموال، وأغلق عليها الصندوق، ووضع فى صندوق آخر الخبز والحلوى والشواء ولحم وفاكهة طازجة وجافة ومأكولات أخرى، ووضع جثمان السيد فى صندوق وحمل الصندوق على سمن الجم، وأركبونى ووضعوا صندوق الجواهر تحت إبطى، وشرع سدنة المعبد فى تلاوة الأذكار ونفخ النفير وسار خلفنا خلق كثيرون يرددون: «مبارك مبارك»، وخرجنا على هذا النحو من بوابة المدينة التى دخلت منها من قبل وما أن رأنى حارس البوابة، حتى أخذ يبكى ويقول: أيتها التمس الذى أخذه الموت إنك لم تستمع إلى نصحى من البداية وأهلك نفسك هباء، وأنا لم أقصر فى منعك، قال الرجل هذا وأنا فى غاية الحيرة والدهشة، وسمح لى الحارس أن أجيبه، فأجبت قائلاً: لكننى كنت أريد أن أعرف كيف ستكون نهايتى؟

وأخيراً أوصلونى إلى تلك القلعة التى رأيت بابها مغلقاً قبل ذلك، وفتح قفلها حشد كبير من الناس، وأخذوا الصندوق والتابوت وأدخلوهما، وأقترب منى البرهمى ووعظنى قائلاً: الإنسان يولد يوماً، ويموت يوماً، وهذا هو دستور الحياة، وهذا هو عيب الدنيا، وهذه هى زوجتك، وهذا هو المال والطعام يكفى لأربعين يوماً، خذها وامكث هنا حتى يشفق عليك الصنم الأكبر فتملكنى الغضب وأردت أن ألعن ذلك الصنم الأكبر، وسكان تلك المدينة وعرفها وأن اضرب ذلك البرهمى، ولكن ذلك العجى حال دون ذلك بلسانه قائلاً: إياك وأن تقول شيئاً، فإن تقل شيئاً سيحرقونك الآن، على كل حال كل شىء بقضاء وقدر، ولا تقط من رحمة الله لعل الله يخرجك من هنا حياً.

أخيراً ذهب الجميع وقركونى وحيداً وأغلقوا الباب مرة ثانية، وعندئذ بكيت رغماً عنى بسبب قلة حيلتى ووحدتى، وأنهلت على جثة زوجتى ضارباً بالأقدام قائلاً: أيتها الميتة، لماذا

تزوجتني فقد كان عليك أن تعيش طالما تزوجتني، ولماذا ولدت؟ وبعد ما ضربتها جلست صامتاً، وأثناء ذلك ارتفعت الشمس في كبد السماء واشتد قيظها، وكادت روحى تخرج من رائحة العفن، حيث كنت أرى عظام رفاة الموتى فى كل الأنحاء وكذلك صناديق المجوهرات فوضعت فوق صندوقها صندوقاً وتحت صندوقاً لأحميه من الشمس نهاراً ومن الندى ليلاً، وبحثت عن ماء فرأيت فى أحد الأركان صنبوراً من الحجر منحوتاً فى جدار القلعة، وقصيت عدة أيام بفضل هذا الماء والشراب.

وفى النهاية نفذ الماء فخفت وتضرعت إلى الله وهو كريم، فأجبنى إلى دعائى، وفتح الباب وجاءوا بميت وكان معه رجل كهل وتركوه أيضاً فجال فى خاطرى أن أقتله وأخذ صندوق طعامه، فأخذت عصا من الصندوق ووجدته جالساً واضعاً رأسه بين ركبتيه حائراً فضربت على رأسه من الخلف حتى خرج لسانه من فمه ومات على الفور، وأخذت صندوق طعامه وأكلته، وظللت مدة طويلة أقتل من يأتى وأكل طعامه براحة.

وبعد مدة طويلة جاءت فتاة مع تابوت، وكانت حسناء فأردت أن أقتلها أيضاً فرأيتنى، وفقدت وعيها خوفاً، فأخذت صندوق طعامها أيضاً، لكننى لم أكن أتناوله بمفردى بل كنت عندما أشعر بالجوع أذهب إليها ونأكل معاً، وحينما رأت الفتاة أننى لا أؤذيها بدأ خوفها منى يزول يوماً بعد يوم وأخذت تتقرب لى وتأتينى حيث أكون وذات يوم سألتها عن أحوالها قائلاً: من أنت؟ أجابت: أنا بنت وكيل الملك كنت مخطوبة لابن عمى، وليلة عرسى أصابه المرض وأخذ يتلوى من الألم وفى النهاية قاضت روحه، فجاءوا بى معه وتركونى هنا.

ثم سألتنى عن أحوالى فقصصت عليها كل ما قد مر بى، ثم قلت: أرسلك الله لى فسكتت مبتسمة.

وهكذا توطدت علاقتنا وازداد حبنا فى خلال عدة أيام، فعلمتها أركان الإسلام ولقنتها الشهادة، ثم عاشرتها فحملت وأنجبت ولداً، ومضت ثلاث سنوات على تلك الحال، وعندما فطم الطفل عن الرضاع قلت لزوجتى: إلى متى نظل هنا؟ وكيف السبيل إلى الخلاص؟ قالت: لو شاء الله فسنخرج وإلا ستموت هنا هكذا؟ فأصابنى الغم من قولها ومكوثنا فى هذا المكان، وبكيت ثم نمت، ورأيت فى المنام أن شخصاً يقول لى: إن كنت تريد أن تخرج من هنا، فلتخرج مع مجرى الماء. فنهضت فرحاً من هذه المفاجأة وقلت لزوجتى: اجمعى كل

ما تجدينه فى الصناديق من أسياخ وحديد، وبدأت أوسع مجرى الماء بأن أضرب بالحديد على فتحته بالمطرقة، وظللت أعمل وأتعب فأسترح وأعمل ثانية وهكذا حتى مر عام كامل، فأصبحت فتحة المجرى تسمح بمرور شخص منها.

وبعد ذلك حملنا ما نستطيع من الجواهر الثمينة وخرجنا من ذلك الطريق فشكرت الله عز وجل، وحملت طفلى على كتفى، وبعد شهر تركنا الطريق العام خوفاً، وسلكنا طريق الجبال والغابات، وكنا عندما نشعر بالجوع، نأكل العشب والكلأ، ولم يكن لى طاقة على الكلام هذه هى قصتى وقد سمعتها.

سلمك الله أيها الملك، فأشفقت عليه ويعنت به ليغتسل وأنعمت عليه بلباس فاخر، وجعلته فى خدمتى.

وأنجبت الأميرة لى عدة أطفال لكنهم ماتوا فى الصغر إذ مات أكبرهم فى الخامسة من عمره، وماتت الأميرة حزناً عليه، وقد حزنت عليها كثيراً، وبدأت الوحدة تنهشنى بدونها، فأردت السفر إلى بلاد العجم، فالتحمت من الملك أن يكون هذا الشاب خادماً له، ومات الملك أيضاً فى تلك الفترة فأخذت ذلك الكلب الوفى والمال كله والجواهر إلى «نيسابور» لكى لا يعرف أحد أحوال أخوى، واشتهرت وعرفت بالسيد عابد الكلب،، وبسبب سوء السمعة هذا أدفع محصولاً مضاعفاً لحكومة إيران.

وحدث أن ذهب ابن التاجر إلى هناك، فشرفت بلقاء الملك بسببه، فسأله: أليس هذا ولدك؟ فأجاب السيد: ياملاذ العالم ليس هذا ابنى فهو من رعبتك لكن تستطيع أن تقول الآن أنه مالكى ووارثى، وبعد ذلك سألت ابن التاجر: ابن أى تاجر أنت؟ وأين يسكن أبوك وأمك؟ فقبل الولد الأرض وطلب الأمان على حياته وقال: إن ابن التاجر ليس إلا بنت وزير سموك، وقد سجن والدى ظلماً بسبب هذا السيد، وقد صدر الأمر الملكى بأنه لو لم يثبت صدق قوله عن هذا السيد فليقتل، وبعد أن سمعت هذا الحكم بدلت هيتى ذهبت إلى «نيسابور» ويفضل الله أحضرت السيد مع كلبه واليوافيت فى خدمة سموك، والآن لقد سمعت جلاتك بكل ما حدث، فألتصم من سموك أن تطلق سراح أبى المسن.

وما أن سمع السيد قول بنت الوزير حتى تأوه وخر مغشياً عليه، فنثروا عليه ماء الورد حتى استرد وعيه وقال: وأأسفاه جئت متحملاً كل تلك المشاق والمصاعب أملاً فى أن اتبنى

ابن التاجر واكتب له وثيقة ليرث كل متاعى وأموالى ليبقى اسمى، ويدعوه الناس بابن التاجر، لكن خاب أملى والأمر أصبح معكوساً، والمرأة خدعت رجلاً مسناً، وأنا وقعت فى قفص مكرها وخداعها، وصرت جديراً بهذا القول: لم يعد يذهب إلى بيت أو إلى معبد وذاع صيته وساءت سمعته (١٢).

خلاصة القول أننى أشفقت عليه لاضطرابه ونحيبه وعويله، فاستدعيت به بالقرب منى، ويشترته فى أذنه وقلت: لا تحزن، سأزوجك إياها، ولو شاء الله سيكون لك أولاد منها، وتكون هى ملكتك فاطمأن وهداً بعد أن سمع هذه البشرى، ثم قلت: خذوا بنت الوزير إلى القصر، وأخرجوا الوزير من المعبد وألبسوه لباس الإعراز وأحضروه أمامى بسرعة وحينما جاء الوزير استقبلته استقبالاً حاراً وعانقته باعتباره أكبر منى، ووليته الوزارة من جديد ومنحت السيد أيضاً منصباً رفيعاً وزوجته بنت الوزير فى ساعة مباركة.

وخلال عدة سنوات ولد للسيد ولدان وبنت، وأصبح الابن الأكبر شاهبندر التاجر والأصغر وكيلاً لأملاكى.

أيها الدراويش: لقد نقلت أمامكم قصتى لأننى سمعت فى الليلة الماضية قصة الدراويشين وبقيت قصتكما، فاعتبرونى خادكم وهذا البيت بيتكم، وامكثوا عندى، وقصا على قصتكما. ولما رأى الدراويش من الملك عطفاً ووداً بدأوا يقولون: نحن نقص عليك قصتنا لأنك أحببتنا. جلس الدراويش الثالث القرفصاء وبدأ يحكى قصته:

- اسمعوا أيها الأصدقاء ما حدث لهذا الفقير

أعنى اسمعوا قصة ما جرى لى وما مربى

- وكيف كان مسلك ملك العشق نحوى؟

فسوف أبينه بالتفصيل؛ فأسمعوه

هذا الحقير ابن ملك من بلاد العجم، فقد كان أبى ملكاً هناك، ولم يكن له ولد غيرى، وكنت فى شبابى أعب مع أترابى الألعاب المختلفة كالورق والشطرنج والنرد، أو نركب الخيل ونخرج للصيد والنزهة.

و ذات يوم أعددت الركائب وأخذت جميع الأصدقاء وخرجت إلى الميدان، وأطلقت الصقور والنسور خلف الطيور، وتتبعهم إلى بعد، وشاهدت هناك مكاناً وطقساً بديعاً وكأنه الربيع، وكل مكان كنت أنظر إليه وكنت أرى على مرمى البصر المروج الخضراء والأزهار الياضعة، وما أن رأيت هذا المنظر حتى ترجلت عن جوادى، ورحت أسير راجلاً، وإذ بى أرى غزالاً عليه سرج مرصع بالدر والجوهر، وفى عنقه قلادة ذات أجراس مصنوعة من الذهب الخالص وكان يرعى ويمرح فى طمأنينة فى تلك الساحة التى لا يقدر على دخولها إنسان أو أن يحلق فوقها طير، وحينما سمع وقع حوافر جوادى انتبه وشخص ببصره، وبدأ يمشى على مهل، وحينما رأيته اشتقت أن أقول لأصدقائى امكثوا هنا، وأنا اصطاده حياً، واحذروا ولا تتقدموا خطوة واحدة من هنا وتتبعونى، وكان جوادى الذى أركبه متمسكاً فى صيد الظباء والغزلان، فحثثته على اللحاق به لأناله وحينما أبصر جوادى الغزال أسرع الخطى وكأنه يسابق الريح لكنه لم يصل إلى غبار أقدام الغزال وتصبب الفرس عرقاً، وتحجر لسانى فى حلقى لشدة العطش، لكن لم نتمكن منه، وحل المساء دون أن أشعر من أين جئت وإلى أين وصلت؟ وحينما يكسب منه تركته حتى غفل عنى ثم تناولت سهماً من الكنانة ورميته بالقوس قائلاً: الله أكبر فأصاب السهم رجله، فمشى مترنحاً إلى الجبل، فترجلت عن الفرس وسرت خلفه راجلاً، فوجدته متوجهاً ناحية تل، وكنت أقفئ أثره، وبعد الهبوط والصعود عدة مرات رأيت قبة وحينما اقتربت منها رأيت حديقة وعين ماء وكان الغزال قد غاب عن ناظرى، وكان التعب قد نال منى، فبدأت أغسل قدمى ويدي.

وفجأة سمعت صوت بكاء ينبعث من داخل القبة، وسمعت صوت شخص يقول: يا بنى!! فليصب سهم آلامى من رماك بالسهم، ولا يهنأ بشبابه، وليجعل الله يائساً مثلى. وبعدما سمعت ذلك ذهبت إليه فرأيت شيخاً ذا شعر أبيض فى لباس حسن جالساً على مسند، والظبي ممدد أمامه وهو يخرج السهم من رجله ويدعو على من رماه به.

فسلمت عليه وعقدت يدي قائلاً: حفظك الله، هذا الخطأ الذى أصاب هذا الغلام قد قدر منى دون قصد، فاعف عني لوجه الله، فقال الشيخ: إنك جرحت أعجمياً، فإن صدر هذا منك دون قصد، فقد عفا الله عنك فجلست إلى جواره وشاركنى فى إخراج السهم، وأخرجت السهم بصعوبة بالغة، وعالجت الجرح بالمرهم، ثم غسل الشيخ يده وأحضر لى ما كان موجوداً لديه واطعمنى إياه فأكلته ونمت.

نمت كثيراً لأننى كنت متعباً، وسمعت أثناء نومى صوت نواح ونحيب، فأستيقظت وفركت عيني فلم أجد أحداً فى ذلك المكان، لا الشيخ ولا الطيبى، كنت بمفردى على الفراش، والمكان خال، فنظرت فى كل الأرجاء مندهشاً، ورأيت ساتراً فى أحد الأركان، فذهبت ورفعته، فوجدت سريراً، تنكئ عليه حورية ذات أربعة عشر عاماً، ينساب شعرها على كتفيها لابسة ثوباً (إفرنجياً) تجلس مبتسمة وتتنظر بدلال شديد والشيخ يبكى واضعاً رأسه على ركبتيه كأنه غائب عن الوعى، وحينما رأيت أحوال هذا الشيخ وحسن هذه الحورية وفنتتها فقدت حيويتى وسقطت مغشياً على، ولما رآنى الشيخ على تلك الحال أحضر لى زجاجة ماء ورد وبدأ ينثرها على، ولما أفقت قمت وألقيت السلام على تلك الفاتنة، فلم تمد يدها ولم تنبس ببنت شفة فقلت لها: أيتها الحسنة فى أى دين أو مذهب يجوز هذا الغرور والكبرياء وعدم التحية؟

- لا شك أن قلة الكلام نوع من الدلال لكن ليس

- إلى درجة أن يموت العاشق والحببية لم تنفوه

بالله الذى خلقك وصورك قولى شيئاً، لقد جئت أنا أيضاً إلى هنا فجأة، ولا بد من إكرام الضيف تحدثت إليها كثيراً دون جدوى، ولم تزل صامتة كالصنم، فتقدمت وضربت بيدي على رجلها، فوجدت ساقها كالحجر، وأخيراً عرفت أن هذا الآذرى قد نحتها من الحجر وشكلها (١٣) فسألت هذا الشيخ عابد الصنم قائلاً: لقد رميت رجل ظبيك بسهم، وأنت جرحت قلبى بسكين العاشق، لقد استجاب الله لدعائك، والآن لتشرح بالتفصيل لماذا صنعت هذا التمثال؟ ولماذا تركت القرية وتعيش فى الغابة والجبل؟ قص على ما مربك.

ولما ألححت عليه أجبني قائلاً: إن هذا الأمر قد أضربى فهل تريد أن تسمعه حتى تهلك أنت أيضاً؟.

قلت: دعك من المراوغة وقل الحقيقة وإلا سأقتلك، وحينما وجدنى مصراً قال: أيها الشاب حفظ الله كل إنسان من لفحة العشق، انظر ما جاء العشق به من مصائب وآفات، فبسبب العشق تفنى المرأة عمرها وتقضى على حياتها، كما هو معلوم للجميع من قصة «فرهاد والمجنون»، فماذا سيجديك من سماع ذلك؟ فستترك البيت والمال دون فائدة.

فأجبتة: انتهى إذن، أطو بساط الصداقة، واعتبرنى عدوا لك، لو كانت حياتك عزيزة لديك فقل بكل وضوح. فاضطرب ودمعت عيناه وقال: حقيقة هذا الشريد أن اسمى «نعمان سياح، كنت تاجرا كبيرا، ويسبب التجارة زرت الأقاليم السبعة، وتشرفت بالمثل أمام جميع الملوك.

وذات مرة جال بخاطري أننى زرت جميع البلاد، لكننى ما ذهبت إلى «جزيرة الإفرنج، وما كنت قد رأيت ملكها ورعيته وما عرفت عاداتها وتقاليدها، فرأيت أنه من الأفضل أن أذهب إليها عزمتم على السفر بعد مشاورة الزملاء والأصدقاء، وأخذت معى التحف، والهدايا التى تليق بتلك الجزيرة، وجمعت قافلة التجار وركبنا السفينة، وكان الريح موافيا فوصلنا الى تلك البلاد فى عدة شهور، ووجدت أن الشوارع فى الأسواق والحوارى ممهدة ومرصوفة ومعطرة، وكانت نظيفة بدرجة لا مثيل لها، ولا توجد بها شائبة واحدة، وكانت المبانى ذات طرز مختلفة وألوان متعددة، والمصاييح مضاعة فى كل موضع، وكانت الحدائق خارج المدينة تشتمل على زهور نادرة وفواكه عجيبة لعلها لا توجد إلا فى الجنة، الغرض أن كل مدح أو ثناء فيها هو فى محله.

وأخيرا انتشر خبر وصول التجار، فجاء إلى السيد المقرب من الملك برفقة الخدم والحشم وسأل التجار: «من هو كبيركم، ؟

فأشار الجميع إلى، فدخل السيد إلى حيث كنت، فعظمته وتبادلنا السلام وأجلسته على البساط، وقدمت إليه الوسادة باحترام ثم سألته: «عن سبب تشريفه، فقال: «سمعت الأميرة أن قافلة من التجارة قد وصلت حاملة أشياء كبيرة، فأمرتنى أن أدعوكم لمقابلتها، فأحضر معك جميع السلع اللانقة بمهام الأميرة، وتشرف بالمثل بين يديها فأجبتة: «اليوم أنا عاجز عن الذهاب لشدة التعب والنصب، وسأحضر غدا إن شاء الله بالنفس والمال، وكل ما أملك سأقدمه فى خدمة الأميرة لتنتقى ما تشاء، وبعد أن وعدته، وأهديته العطر والتببول هو ومرافقيه وودعته، ثم استدعيت التجار الذين كانوا معى وجمعت كل التحف والنفائس التى كانت فى حوزتهم، وأخذت ما كان فى حوزتى أيضا، وفى الصباح توجهت الى قصر الأميرة.

فأبلغ الحراس والحجاب الأميرة بقدمى، فأمرتهم أن يحضرونى فخرج لى نفس السيد وأخذ يدي وسار بى الى حيث توجد الأميرة متحدثا إلى بكل رد وترحاب، وسلك بى طريقا

خاصا لايمريه كبار الزوار، ووصلنا الى قصر عال شامخ، وبا عزيزى لن تصدقنى إن قلت لك أننى رأيت وكأن الحوريات به قد قطعت قيود أجنحتها وأطلقت، وحينما أنظر إليهن تتسمر عينائى عليهن، وكانت قدماى لاتقويان على السير، فتمالكت نفسى بصعوبة، وحينما وقع بصرى على الأميرة فقدت وعيى وغشى على وارتعدت يداى ورجلاى، وعلى كل حال قرأت السلام، وكانت الحسنات قمریات الوجه يصطففن على كلا الجانبين عاقدات أيديهن لايحركن ساكنا، ثم قدمت كل ما كان معى من تحف وجواهر وأمتعة، وحينما وضعت أمامها أوانى الجواهر والبضائع، أعجبتها كل الصنوف ومختلف الأنواع وسرت بها وقدمتها الى خازن القصر قائلة: ادفع ثمن كل هذه الأشياء غدا .

فقدمت إليها التحية وسر خاطرى لقيمتها وأننى ساتى فى الغد أيضا، وحينما خرجت نطقت بكلام بينما كنت أريد أن أقول شيئا آخر وعدت وأنا على تلك الحال إلى القافلة فاقد الصواب، فبدأ الرفاق يسألوننى: ما بك؟ فأجبتهم قائلا: لقد زاد لهيبى بسبب الذهاب والإياب.

خلاصة القول أننى قضيت تلك اللية مضطرباً، ثم ذهبت إليها فى الصباح وأخذنى نفس السيد الى القصر، ورأيت نفس العالم الذى رأيته قبل ذلك، ورأيتى الأميرة فأرسلت كل من عندها إلى أعمالهم وشئونهم، وحينما خرج الجميع، ذهبت إلى مكان خال وطلبتنى، وحينما ذهبت إليها أمرتنى بالجلوس، فجلست بعد أن قبلت الأرض بين يديها، فقالت: «لقد أحضرت البضائع، فكم تريد ثمنها لها؟ قلت: كانت رؤية قدملك أمنية لى، فوفقنى الله لهذا، ونلت كل ما أردته كما أننى قد فزت بمقابلتك بسعادة الدنيا والآخرة، والتمن المدون فى القائمة ساخذ نصفه، أما النصف الآخر فهدية لك؟ فقالت: لا بل نقدم لك الثمن الذى كتبتة، علاوة على النعم والجوائز شريطة أن تودى لنا خدمة، أرجو أن يكون فى مقدورك القيام بها .

قلت: لو كان فى بذل روحى ومالى من أجلك يفيدك فلن أتوانى لحظة واحدة على العين والرأس.

وبعد هذا طلبت دواة وقرطاسا وكتبت رسالة ووضعتها فى كيس اللآلىء، ثم لفتها بمنديل شفاف، وأعطتني إياه، وأعطتني خاتمها وقالت: فى تلك الناحية بستان كبير اسمه «دل كش» ستجد هناك رجلاً شرطياً اسمه «كيخسرو» أعطه هذا الخاتم فى يده وبلغه دعائى،

واطلب منه الرد على هذه الرسالة وعد مسرعاً - فلو تأكل هناك تشرب هنا - صم سامحك جائزة كبيرة. فاستأذنت وانصرفت، وقطعت الطريق سائلاً عن المكان، ولما قطعت ما يقرب من ميلين لاح لى البستان من بعيد، وحينما اقتربت منه أخذنى جندى مسلح، فرأيت شاباً معتداً بنفسه كالأسد جالساً على كرسى ذهبى لابساً درعا داودية رابطاً فيها أربع مرايا، واضعاً خوذة فولاذية على رأسه، جالساً فى هيئة مهيبه، وحوله خمسمائة شاب فى أيديهم السيوف والأقواس والسهام على أهبة الاستعداد.

فكرأت عليه السلام، فدعانى بالقرب منه، فقدمت إليه ذلك الخاتم وبعد الترحيب قدمت إليه المنديل الذى أعطتنيه ليراه، وبعد أن أسمعته الحكاية، عض على أنامله بالنواجذ أسفاً ودق على رأسه قائلاً: لقد ساقك حتفك إلى هنا، على كل حال اذهب إلى البستان، ستجد هناك قفصاً حديدأً معلقاً بشجر السرو، فيه شاب مكبل بالأغلال، إعطه هذا الخطاب واطلب منه رداً، وعد مسرعاً، فدخلت البستان مباشرة وكان البستان جنة على الأرض، حدائقه غناء تزخر بشتى أنواع الزهور والرياحين وأندرها، وفيه فوارة تفور بالمياه وتصدح به مختلف أنواع البلابل والطيور، فسرت فى طريق مستقيم، فرأيت شاباً وسيماً، فأنحنيت وسلمت عليه باحترام وقدمت إليه الرسالة من خلال القضبان، وبدأ الشاب يقرأ الخطاب ويسألنى عن أحوال الملكة مشتاقاً.

وبينما كنا نتحدث إذا بقوات الزنج تظهر وتحيط على من كل ناحية، وأخذت ترمينى بالسهام، وماذا يستطيع أن يفعل رجل أعزل فى هذا الموقف؟

وفى لحظة واحدة أصابونى بجرح عظيم غابت على أثره عن الوعى، لما أفقت وجدت نفسى على مصفة يحملها اثنان ويمشيان ويتحدثان فيما بينهما فقال أحدهما: هل نرمى جنة هذا الميت حتى تأكله الغربان والكلاب؟ وقال الآخر: لو بحثت الملك - سرف بأمره سيدفننا أحياء؟ ويسفك دماء أبناءنا، قبل سنائت بنا حياتنا؟.

وحينما سمعت حديثهما قلت ليهذين الياجرج والمأجوج: ترفقا بى، إننى على قيد الحياة. وحينما أموت افعلوا بى ما تشاءان (فالْميت يكون كالحى الثمل)، لكن أخبرانى ماذا حدث لى؟ ولماذا ضربونى ومن أنتما؟ هيا أخبرانى؟.

فقالا مشفقين: ذلك الشاب المكبل بالأغلال فى القفص، ابن أخ ذلك الملك، وكان أبوه ملكاً قبل ذلك وأوصى أخاه عند وفاته قائلاً: إن ابنى الذى سيرئنى صغير السن قليل

الإدراك، فلتتول أنت زمام الأمور وتفعّل ما تراه مناسباً، وحينما يبلغ ابنى سن الرشد، زوجة ابنتك وأمنحه الحكم والخزانة، ثم توفى الملك بعد أن قال ذلك وتولى أخوه الصغير شئون المملكة، ولم يعمل بوصية أخيه، بل أذاع أن ابن أخيه مجنون، وحبسه فى القفص وعين الحراس حول الحديقة لدرجة أنه لا يمكن لطير أن يطير خارج البستان، وقدم إليه السم الزعاف عدة مرات، لكن لبنيته القوية فلم يؤثر فيه السم.

والآن فإن الأمير والأميرة عاشقان، وهو مضطرب فى قفصه وهى مضطربة فى بيتها، وقد أرسلت الأميرة معك رسالة الشوق إليه، فأبلغ الرسل الخبر إلى أبيها، فأرسل جنداً فى إثر كفضربوك، ثم سأل الملك الوزير عن حيلة لقتل هذا الشاب، فاقنع هذا الوزير الخسيس الأميرة لتقتل الأمير بيدها.

قلت: إذن فلنر ماذا ستصنع الأميرة بالأمير؟ وأنا على تلك الحال، وأخيراً اتفقنا أن نقف صامتين فى ناحية، فرأينا الملك جالساً على العرش والسيف المسلول فى يد الأميرة، ثم أخرجوا الأمير من القفص وتقدمت الأميرة كالسياف، لتقتل عاشقها وحينما اقتربت رمت السيف واحتضنته، فقال العاشق: أنا راض بمثل هذا الموت، فأنت، أمنيته هنا وأمنيته هناك (الدنيا والآخرة) قالت الأميرة: جئت لأراك بهذه الحيلة وحينما رأى الملك هذا المشهد، اشتد غضبه ونهر الوزير قائلاً: هل جئكت بى لأرى هذا المنظر؟ فأخذ الحاجب الأميرة إلى داخل القصر، ورفع الوزير السيف غاصباً، وتقدم مسرعاً إلى الشاب ليقتله بضربة واحدة، ولما هم بضربه، جاء سهم الغيب فأصابه فى جبينه فسقط حينما رأى الملك هذا المنظر، دخل قصره، وسجنوا الأمير فى القفص مرة ثانية، ثم خرجت أنا من مكمنى ودعانى رجل إلى الأميرة وحينما وجدتنى جريحاً، طلبت الجراح وأكدت عليه أن يعالجنى معالجة جيدة حتى أشفى، فامتثل الجراح لأمر الأميرة وبذل كل ما فى وسعه حتى شفيت فى أربعين يوماً، واغتسلت غسل الشفاء وأرسلنى إلى الأميرة حيث سألتنى: هلبقى بك شىء من الجرح والألم؟، فقلت: الحمد لله أنا بصحة جيدة بفضل عناية سموك فأعطتنى الأميرة الخلع والأموال الكثيرة نظراً لما قدمته إليها وودعتنى.

فرحلت مع الرفاق والخدم من هناك وحينما وصلت قلت للجميع اذهبوا لأوطانكم، وقررت أن أبنى بيتاً على هذا الجبل وأسكن فيه، وأطلقت سراح الغلمان والخدم بعد أن كافأتهم كل على حسب منزلته وقلت لهم: عليكم أن تهتموا بإعداد طعامى فى أوقاته المناسبة

مدى حياتى، وبعد ذلك أنتم طلقاء، ولهذا ويسبب جميلى معهم، فقد فقد اعتنوا بتغذيتى، أما أنا فقد أخذت أعبد هذا الصنم بكل حواسى وأصبح هذا هو شغلى طوال الحياة هذه هى قصتى التى سمعتها.

يا أيها الدراويش، بمجرد أن سمعت هذه القصة وضعت الكفن فى عنقى ولبست لباس الفقير، وخرجت مشتاقاً لأرى ملك الإفرنج. ويسبب الأسفار وطول الترحال فى الغابات والقفار أصبح شكلى كـ «المجنون» و «فرهاد» (١٤).

وأخيراً سافنى الشوق إلى هذا البلد وكنت أجوب الأزقة كالمجنون، وأقضى معظم الوقت بالقرب من قصر الأميرة، لكننى لم أجد أى حيلة لأصل إليها، كنت مضطرباً لأننى جئت لأحقق هذا الهدف ولم أحققه وذات يوم كنت فى السوق وإذا بى أرى الناس يفرون هنا وهناك ويغلق أصحاب الحوانيت حوانيتهم فقد كان السوق عامراً وصار خراباً، وفجأة خرج من ناحية شاب ضخم الجسم يزأر كالأسد، وفى يده سيف ويلوح به ويلبس درعاً على صدره، وخوذة على وجهه ورأسه متمنطقاً بحزام، ويتمتع بأشياء غير مفهومة وخلفه غلامان لابسان رداء النساء، وكان على رأسيهما تابوت من القטיפه، وحينما رأيت هذا المنظر أردت أن أسير فى الموكب معهم وكان كل من يرانى يمنعنى، ولكن لماذا أسمع كلامهم؟، وتدرجياً وصل هذا الشاب إلى مكان مرتفع وأنا فى إثره، قالتفت إلى وأراد أن يشطرنى شطرين بسيفه فاستحلفته أن يفعل، وأبحت له دمي، وقلت له: على أية حال إنك ستخلصنى من هذه الحياة، فلقد ضقت ذرعاً بالدنيا، وجئت لك عمداً فلا تبطئ وحينما رأى أننى مصر على الموت، ألقى الله عز وجل فى قلبه الرحمة وزال عنه الغضب، وسألنى بمنتهى الشفقة والعطف من أنت، ولماذا أنت معرض عن الحياة هكذا؟

قلت: اجلس قليلاً حتى أحكى لك حكايتى الطويلة، إننى أسير العشق ولا حيلة لى ولما سمح هذا فتح حزامه وجلس وغسل وجهه ويديه وتناول الإفطار، وأشركنى معه وبعد أن فرغ من تناوله طعامه قال: قص على ما مريبك، فقصصت عليه كل شيء وحكاية الأمير والأميرة، وذهابى هناك، فما لبث أن بكى وقال: تبا لذلك التعس فكم من بيوت دمرها؟ علاجك فى يدي، وفى الغالب أنك ستجد بغيثك بسبب ذلك العاصي، فلا تبتأس وقر عيناً، ثم استدعى (الحجام) وقال له: قص شعره ودعه يغتسل وبعد ذلك ألبسنى الغلام رداء نظيفاً،

ثم بدأ يقول أي: إن التابوت الذي رأيته هو تابوت الأمير المرحوم الذي كان حبيباً في القفص، قتله الوزير الثاني، لا شك أنه قد تخلص من هذا المظلوم، لكنني - وأنا عمه - أطحت برأس الوزير بالسيف، وأردت أن أقتل الملك أيضاً، فقد استعطفني وأقسم أنه برىء فتركته، ومن ذلك الحين، أنا أحمل هذا التابوت في الخميس الأول من كل شهر، وأطوف به أنحاء البلد وأقيم له مأتماً.

وبعد أن سمعت هذا اطمأننت على أنه لو شاء وأحسن الله عز وجل إلى لتحقيق أملي في أن يجعل هذا المجنون مشفقاً على، فالحقيقة لو أراد الله الرحمة، فإن الكل يكون رحيماً.

وحينما أمسى الليل وغربت الشمس، أخرج الفارس ذلك التابوت ووضعه على رأسي بدلاً من الغلام وأخذني معه وقال: سأذهب للأميرة حتى أشفع عندها لك حسب المستطاع ولا تتحرك أنت وأجلس صامتاً وأسمع كل شيء.

قلت له: أمرك! أفعَل ما تشاء حفظك الله إنك تشفق على، ثم قصد إلى البستان الملكي ولما دخل البستان رأى مصطبة من المرمر لها ثمانية أضلاع، وكان عليها رداء حريري يتدلى من أطرافه الدر والجوهر، وكان عليها وسائد للنوم والجلوس، فوقف الفارس عليها وقال: ضعا التابوت هنا، وقال لنا: اذهبا واجلسا عند تلك الشجرة.

وبعد ساعة ظهر نور المشعل وجاءت الأميرة مع خادمتها وكان الحزن بادياً على ملامحها، وجلست على الأريكة وكان هذا العم واقفاً عاقداً يديه، ثم ابتعد عن الفرش وجلس بأدب وقرأ الفاتحة، وبدأ يتحدث قليلاً، وكنت أستمع إليه، قال الفارس: أيتها الأميرة.. حفظك الله، إن ابن ملك العجم سمع عن جمال معشرك وحسنه، وترك البلاد وأصبح فقيراً ووصل هنا بعد مشقة طويلة ومن أجلك ترك مدينة «بلخ»، وهو يتجول منذ فترة طويلة في المدينة وسار في أثرى راغباً في الموت وهددته بالسيف فوضع رقبتك أمامي، والآن أريدك ألا تتمنعي فقد اختبرته ووجدته ثابتاً في عشقك، وهو جيد من كل ناحية، ولهذا أزيه عندك، فلتترقي به فهو مسافر، فهذا أوجب لتقوى الله وحسن عبادته.

وحينما سمعت الأميرة هذا قالت: أين هو؟ لو كان ابن ملك فلا حرج فليأت أمامي، فجاء ذلك العم وأخذني إليها، ففرحت جداً لرؤية الأميرة، لكن عقلي طار لرؤية حسنها الفتان وغبت عن الدنيا، ولم أستطع أن أقول شيئاً، وبعد برهة انصرفت الأميرة وعاد العم

إلى بيته أيضاً وأنا معه، وبعد وصوله إلى البيت، قال: لقد حكيت للأميرة قصتك من البداية إلى النهاية، وتشفعت لك، ولتذهب إليها كل ليلة بانتظام وأنعم بحياتك كما تشاء. فأنحيت أقبيل قدميه، فإذا به يعانقني، وظللت طوال اليوم أعد الساعات ليأتي المساء، ولما أقبل الليل ودعت العم وذهبت إلى ذلك البستان وجلست على الأريكة.

وبعد ساعة خرجت الأميرة بمفردها مع خادمة واحدة فقط وجلست على الأريكة، وكان هذا اليوم بمثابة العيد بالنسبة لى وقبلت قدميها فرفعت رأسى بين يديها وعانقتنى وقالت: انتهز هذه الفرصة وأخرجنى من هنا معك إلى أى بلد فقلت: تفضلنى ثم خرجنا من البستان، وقد ارتعدت قدمائى من الدهشة والفرحة حتى أننى ضللت الطريق، وبدأنا نهيم فى البلاد دون مأوى، فقالت الأميرة غاضبة: لقد تعبت، أين بيتك؟ عليك أن تسرع ماذا تنتظر لقد تورمت قدمائى، وإلا فسأجلس فى الطريق. قلت: بيت غلامى قريب، سنصل إن شاء الله، استمرى فى السير ولا تتوقفى كذبت لكننى كنت متحيراً إلى أين أذهب؟ ورأينا على الطريق باباً مقفلاً، فكسرتة بسرعة ودخلنا، ووجدنا بيتاً جميلاً مفروشاً بالسجاد، وفى الطاقة كانت زجاجات الخمر ممثلة عن آخرها والكباب والخبز معدان فى المطبخ، وكان التعب قد بلغ منا كل مبلغ، فاستمتعنا طوال الليل بتناول الطعام والشراب، وحينما طلع الصبح انتشر خبر اختفاء الأميرة فى المدينة كلها، وخرج المنادى يطوف الأحياء والأزقة منادياً معلناً اختفاءها، وخرجت قوات الحرس للبحث عنها وإعادتها، وجلس الغلمان على أبواب الدور لعلمهم يرونها، وصدرت الأوامر لحرس الحدود ألا يسمحوا بخروج أحد من المدينة حتى وإن كانت نملة بدون تصريح من الملك، وأعلن أن من سيأتى بالأميرة سينال جائزة كبيرة قدرها ألف أشرفى وخلعة ملكية فاخرة، وكانت هناك حارسات أيضاً من النساء أخذن يبحثن عن الأميرة فى كل بيت، وكان من سوء الحظ أننى لم أغلق باب البيت، فجاءت العجوز خالة الشيطان سود الله وجهها، وكانت بيدها مسبحة، وتستتر بنقاب، ووجدت الباب مفتوحاً فدخلت، ووقفت أمام الأميرة رافعة يدها داعية الله عز وجل قائلة: اللهم احفظ هذين الزوجين، اللهم أبقيهما طويلاً، إننى فقيرة لى بنت حامل تتضور جوعاً وليس فى مقدورى أن أشعل موقداً فمن أين آتى بالطعام؟ وإن ماتت ابنتى كيف أكفنها، وإن وضعت فمن أين أدفع للقبالة، وأقدم لها ما يلزم فى ذلك الحين، فابنتى جائعة وعطشى منذ يومين، أيتها الأميرة لو تكرمت وتفضلت، فأعطينى شيئاً تنقوت به ابنتى.

فدعت الأميرة العجوز مشفقة عليها وأعطتها أرغفة ولحماً وكباباً، وانتزعت خاتماً من أصبعها ومنحته لها، وقالت: قومي ببيع هذا الخاتم ويثمنه احترفى صناعة الحلوى لتعيشى، ولتأت فى أى وقت فالبيت بيتك ونالت العجوز ما جاءت من أجله، فخرجت مسرورة، وألقت بالكباب والخبز فى مدخل البيت لكنها أخذت الخاتم ليكون دليلاً على عثورها على الأميرة، ثم أراد الله أن يحفظنا من هذه المصيبة، فحضر صاحب البيت راكباً فرسه معلقاً ظبياً اصطاده فى سرج الفرس، ولما رأى أن قفل الباب مكسور والباب مفتوح والعجوز خارجة منه، تملكه الغضب وجذبها من شعرها وشد رجليها بالحبل وعلقها على الشجرة، فماتت فى التو واللحظة، وحينما رأينا هذا الرجل كدنا أن نفقد وعينا، وارتعدت فرائصنا، ولما رأنا صاحب البيت خائفين متحيرين، طمأننا وهدا من روعنا وقال: هذا جهل كبير منكما، إنكما قعلتما هذا وتركتما الباب مفتوحاً.

فقالت الأميرة مبتسمة: لقد قال لى الأمير إن هذا بيت غلامى فادخلى فيه . فقال صاحب البيت: لقد قال صدقاً، فجميع خلق الله غلمان وجوارى الملوك، فكلهم يعيشون ببركتهم وبفيضهم، وهذا الغلام غلامكم المشتري بذرّن مال، لكن إخفاء السر من مقتضى العقل، أيها الأمير إن بقاءك وبقاء الأميرة فى هذا البيت شرف لى وسعادة فى الدنيا والآخرة، لقد شرفتمانى بقدمكما وأنا مستعد لبذل الروح من أجلكما ولن أدخر وسعاً فى بذل الروح والمال وستعيشان فى آمان وأطمئنان فى هذا البيت، فلورجعت هذه العجوز حية إلى المدينة لجاءت بالمصائب والآن ابقيا ما شئتما واطلبا منى كل ما تريدانه، وأنى للملك أن يعرف مكانكما فحتى الملائكة لا تعرفه قال هذا الرجل كل ما يطمئن قلوبنا، فقلت: أحسنت وحقاً أنت رجل والرجال قليل، وسأكافئك جزاء هذا العون والإحسان، ما اسمك؟ قال: اسم هذا الغلام «بهزاد خان، الخلاصة أنه خدمنا ستة أشهر بكل تقان وإخلاص، وقضينا تلك المدة فى راحة ودعة، وذات يوم تذكرت وطنى والذى فكنت أجلس حزينا، ولما رآنى بهزاد خان حزينا وقف أمامى عاقداً يديه وقال: لو صدر من هذا الغلام حامل حذاء الملوك أى خطأ فأخبرنى قلت: ماذا تقول؟ لقد عاملتنى بهذه المعاملة حتى عشنا فى هذا البلد كما يعيش الجنين فى بطن أمه، وإلا كان قد صدر منا فعل لا تحمد عقباه أغضب جميع الناس، جزاك الله خير الجزاء. ثم قال: لو أنك سمعت من هذا المكان فأنا أوصالك إلى حيث تشاء. قلت: لو أصل إلى وطنى لأرى والدى، وهذا حالى ولا أدرى كيف حالهما؟ لقد تركت بلادى

ووجدت ما تركتها من أجله، والآن يجب على أن أذهب كي أقبل أقدامهما، فهما لا يدريان إن كنت حياً أم ميتاً، أى قلق يعيشان فيه؟

فقال الشاب: مبارك، فلتتفضلا وبعد هذا أحضر فرساً تركيا يستطيع أن يمشى مائتى ميل ومهرة فتيّة للأميرة، وأركبنا عليها، ثم لبس درعاً وخوذة وركب فرساً وقال: سيتقدمكما الغلام ولتتبعاني وحينما وصل عند باب المدينة رفع صوته وكبر وكسر القفل، ونهر الحراس وأفرعهم وقال: اذهبوا وقلوا لملككم: إن بهزاد خان، يأخذ معه الأميرة (مهرگار)، والأمير كام غار، الذى هو زوج ابنته، فإن كنت رجلاً فاخرج واسترد الأميرة ولا تقل أنه أخذها سراً، وإلا فلنزم القلعة مستسلماً للراحة!!

ووصل هذا الخبر إلى الملك، فأمر الوزير والقائد أن يحضرا هؤلاء مقيددين أو يأتيا براء وسهم. وبعد لحظة ظهرت بعض القوات، وأغبرت السماء والأرض من سنايك الخيل، وأنزلنى بهزاد خان، أنا والأميرة على جسر مثل جسر (جنيور)، وشد سرج فرسه وعاد إلى القوات وزار كالأسد واخترق صفوفهم كالسهم المارق، حتى وصل إلى قائد الجيش فقتلتهما، ولما قتل القائدين تفرقت القوات (عندما تكون ثمرة البيل على الشجرة فهي ثابتة، أما إذا سقطت تنأثرت وصارت مثل حبة الخردل)^(١٥) ثم خرج الملك بنفسه مع الجيش، فهزّمه ذلك الشاب هو وجيشه.

انهزم الملك، والحقيقة أن النصر والفتح من عند الله، وأبدى بهزاد خان، شجاعة وجسارة لم يدها رستم، وحينما رأى بهزاد خان، أن الجو صاف وليس هناك أحد يتعقبه، جاء إلى حيث كنا وأخذنا معه وعمر السفر يكون قصيراً فوصلنا بعد عدة أيام إلى حدود بلادنا.

فكتب خطاباً إلى الملك الذى هو والدى بأننى وصلت بصحة وسلامة، فسر الملك بقرأة الرسالة وصلى ركعتين لله شكراً، وكان الماء قد وصل إلى الأرز الجاف فأحضر الأمراء معه وجاء لاستقبالى عند شاطئ البحر، وأمر أمير البحر ليحضر سفينة ليقابلنى، وعندما رأيت موكب الملك عند الشاطئ ألقيت الفرس فى البحر، وأخذت أدفعه فى الماء حتى وصلت إلى خدمة الملك وتشرفت بالمثل بين يديه، وعانقنى أبى عناق الشوق، وعندئذ حدثت مفاجأة وهى أن الفرس الذى كنت أركبه لأنه ابن المهرة أو لأنه من جنسها فقد قفزت خلفه فى الماء

وأخذت تسبح وصاحت الأميرة مضطربة وكانت المهرة غير متمرسه وعندما شددت الأميرة لجامها انقلبت المهرة وغرقت هي والأميرة ولم يظهر لهما أى أثر، وحينما رأى «بهزاد خان» هذا المشهد قفز بفرسه أيضا وحدث له ما حدث للأميرة، وحاولنا كثيراً إنقاذهما، لكننا لم نفلح قط وأمر الملك أن تطرح الشباك فى البحر لالتقاطهما وأمر الملاحين والسباحين ليخرجوهما، فبحثوا فى البحر كله وجاءوا بالطين من داخل البحر لكنهم لم يجدوا لهما أى أثر، أيها الدراويش بسبب هذه الحادثة أصبحت مجنوناً وفقيراً تلك هي حالة العاشق، فانظر إلى كلتا الحالتين لو غابت الأميرة أو ماتت لاطمأنتت أو خرجت للبحث عنها وصبرت، لكننى حينما رأيتها تغرق فى البحر ولم أستطع أن أفعل شيئاً أردت أن ألقى بنفسى فى البحر لعلى أجدها بعد موتى.

وذات ليلة هممت أن أغرق نفسى فى ذلك البحر ولما وصل الماء إلى عنقى وأردت أن أتقدم وأغوص إذ وصل نفس الفارس الملم الذى بشركم، وأخذ بيدي وقال: اطمئن إن الأميرة «بهزاد خان» على قيد الحياة، فلماذا تودى بحياتك بغير حق، مثل هذا يحدث فى العالم (قلا تياس ولا تقنط من روح الله)، فإذا كنت حياً ستقابلهما ذات يوم، والآن اذهب إلى بلاد الروم، والحق بالدرويشين اللذين ذهبا إليها وحينما تقابلهما ستجد بغيتك، أيها الفقراء: «امثلاً لهذا الحكم حضرت إلى خدمتكم، وأرجو أن يصل كل إنسان إلى مبتغاه».

هذه هي قصتى التى قصصتها عليكم من البداية إلى النهاية.

قصة الدرويش الرابع

بدأ الدرويش الرابع يحكى حكايته وهو يبكى:
اسمعوا قصتى التى ليس لها بداية ولا نهاية..
فانتبهوا واستمعوا لكل أحوالى..
وكيف وصلت إلى ما أنا فيه من الضياع..
سأوضح كل شىء بالتفصيل فاستمعوا إلى السبب..

أيها المرشدون !! التفتوا قليلاً، هذا الفقير أسير هذه الحالة هو ابن ملك الصين، وقد تربي فى دلال ونعمة، وتلقى تربية حسنة، ولم يكن يدرى ما يجرى فى زمانه من سيىء أو حسن، وهو يظن أنه سيحيا هكذا دائماً، وفجأة توفى قبلة العالم والد ذلك اليتيم وأثناء احتضاره وهو فى سكرات الموت طلب أخاه الصغير الذى هو عمى وقال: «إننى مشرف على الرحيل، تاركاً هذا الملك وهذه الأموال لكننى أوصيك بأمر عليك تنفيذه، وهو أن تتولى الملك نيابة عن ابنى حتى يبلغ سن الرشد، ثم توليه الملك، واحرص على شئون الملك والرعية، وحينما يبلغ ابنى مبلغ الرجال، فهمه الأحوال ثم ولّه الملك وزوجه ابنتك» روشن اختر، وهكذا سيبقى الحكم فى أسرتنا، ولن يحدث فيه أى خلل، وبعد ذلك انتقل والدى إلى رحمة الله وتولى عمى الملك، وبدأ يدير شؤنه وأمرنى أن أقيم حيث تقيم الحريم، ولا أبارحه طالما أننى لست شاباً وقد عشت حتى سن الرابعة عشرة مع الحريم ولعبت معهم، وكنت سعيداً

بأننى سأتزوج بابنة عمى، وكنت أحيا مستريحاً بلا هموم على هذا الأمل وأقول فى نفسى: «سيأتينى الحكم فى يوم ما، إن الدنيا قائمة على الأمل». وكان حبشياً اسمه «مبارك»، قد تربى على يد أبى وكان له مكانة كبيرة، وكان ذا حس مرهف ووفياً، وكنت أجلس معه فى أغلب الأوقات وكان يكن لى حباً كبيراً ويسعد بأننى أنمويوماً بعد يوم، ويقول: «الحمد لله أيها الأمير أن شببت عن الطوق إن شاء الله سيعمل عمك بوصية أبيك، ويسلمك ملك أبيك ويزوجك ابنته».

وحدث ذات يوم أن لطمتنى على وجهى إحدى صديقات الأميرة بدون ذنب حتى ظهر أثر أصابعها الخمسة على وجهى، فذهبت إلى «مبارك» باكياً فعانقتى وكفكف دموعى بكمه، وقال: «اليوم أصبحك إلى الملك لعله يشفق عليك ويعطيك حقاك، فرافقه إلى عمى فى نفس اليوم، وقابلنى عمى بشفقة ومودة وسألنى: «لماذا أنت حزين؟ ولماذا جئت إلى هنا؟».

قال مبارك: «جئنا لتعرض أمرك، وبعد أن سمع هذا بدأ يقول: «الآن نزوجه، قال مبارك: هنيئاً إن شاء الله». وفى نفس اللحظة طلب الملك المنجمين والرمالين وسألهم متظاهراً بالموافقة عن الساعة المباركة لإتمام الزواج والشهر واليوم، فأدركوا نية الملك، وأرادوا رضاه فقالوا: إن هذا العام كله نحس، ولا يوجد فى أى شهر منه أى يوم مبارك، ولو مر هذا العام بخير وعاقبة فالقادم هو الخير».

نظر الملك إلى مبارك ثم قال له: «خذ الأمير إلى القصر، وبعد مرور هذا العام سأرد إليه أمانته، عليه أن يطمئن ويتعلم». فألقى مبارك السلام وصحبنى إلى القصر، وبعد عدة أيام ذهبت إلى «مبارك»، وحينما رآنى بدأ يبكى فذهشت وسألته: خيراً يا جدى لماذا تبكى؟ فقال المخلص الذى يحبنى بالقلب والروح: «ذلك اليوم الذى صحبتك فيه إلى ذلك الظالم الذى هو عمك، ما ذهبت بك إليه». قلت مندهشاً: «وأى سوء فى ذهابى إليه؟ أخبرنى»، قال: لقد سر جميع الوزراء والأمراء وكبار الدولة وصغارها ويشكروا الله أن ابن ملكهم ذلك الغنى قد كبر وأصبح لائقاً للملك فيعطى كل ذى حق حقه، ويكرم الصغير والكبير. ووصل هذا الخبر إلى ذلك الظالم، فكأن الثعبان قد مر بصدرة، فدعانى فى الخلوة وقال: «يا مبارك أقتل الأمير بأية حيلة، وابتعد خطره عن قلبى حتى أعيش مطمئناً ومن ذلك الحين وأنا أعيش بلا وعى لأن عمك أصبح عدواً لحياتك، وحينما سمعت هذا الخبر السعيد من «مبارك»، مت بغير أجل، وسقطت على قدميه خوفاً على الحياة، لقد ضاعت السلطنة فبالله عليك أنقذ روحى!! فرفع

الخادم الوفى رأسى وضمنى إلى صدره وقال لا خطر، فقد وجدت حيلة، فإن حل المساء فلا خوف، فإن بقيت الحياة فكل شىء موجود، وفى الغالب أنك ستنجو من هذه المؤامرة وتحقق أمنيتك. وبعد هذا أخذنى إلى ذلك المكان الذى كان أبى يجلس فيه وينام، وطمأننى، وكان هناك كرسي فى أحد الأركان، فنقل الكرسي من مكانه ورفع السجادة من تحته وبدأ يحفر الأرض وفجأة ظهر شباك فيه قفل وسلسلة، ثم دعانى فأدركت أنه سيذبحنى ويدفنى فى هذه الحفرة، ورأيت الموت بعينى فتقررت إليه ونطقت بالشهادة، وحينما اقتربت رأيت أن تحت الشباك بناء وأربع غرف، وفى كل ردهة عشرة صناديق مريوطة بسلاسل ذهبية وفى هذه الأماكن كان هناك تسعة وثلاثون قدراً وعلى قم كل قدر حجر ذهبى وقرد مصنوع من الزمرد، ورأيت صندوقاً مملوءاً بالأموال لا يوجد عليه قرد ولا حجر، وحوضاً مملوءاً إلى حافته بالجواهر، فسألت مبارك: يا جدى؟! ما هذا الشىء العجيب؟ الشىء وما شأنها؟ قال: «قصة هذه الأشياء التى تراها، أن أباك قد تصادق منذ شبابه مع الملك «صادق»، ملك الجن وكانا يتزاوران، فكان يذهب إليه مرة فى كل عام، ويهدى إليه التحف والعطور والهدايا وكان يقيم هناك حوالى شهر وعندما يغادر يعطيه الملك «صادق» قدراً من الزمرد، وكان الملك يأتى بهذا القرد ويضعه فى هذا السرداب ولا يعرف هذا الأمر إلا أنا، وذات يوم سألته أنا الغلام: «أيها الملك إنك تذهب إليه بالهدايا الثمينة، وتأتى من هناك بحجر أصم، فما الفائدة؟»، فرد على سؤالى مبتسماً وقال: حذارى أن تخبر أى أحد، إن كل ميمون تراه بلا روح، يتبعه آلاف الشياطين (المردة) لكن شرط استخدامه أن يبلغ عدد التماثيل أربعين، وإلا فلا طائل منه، فتوفى الملك قبل أن يكتملوا هكذا لم يأت جهده كله بأى ثمرة، أيها الأمير: حينما رأيت عجزك تذكرت وقررت أن أوصلك إلى الملك «صادق»، وأخبره ظلم عمك، وغالباً فإنه سيتذكر صداقة أبيك ويعطيك ميموناً ليكتمل العدد المطلوب ويرجع ملكك إليك، «تكون مطمئناً، وبهذه الحيلة تنقذ حياتك فى الحقيقة، وإن لم نجن من هذه الحيلة أى شىء، فلا مناص ولا مفر لنا للإبقاء على حياتك، فقلت له بعد ما سمعت كل هذا: «يا جد!! الآن أنت مفوض فى أمرى، فافعل كل ما هو صالح لى». ثم ذهب «مبارك» إلى السوق ليشتري العطور والبخور المناسب ليذهب به إلى الملك.

وفى اليوم التالى ذهب الخادم إلى العم الكافر الذى كان بمثابة «أبى جهل»، وقال: «يا ملجأ العالم!! قررت حيلة لقتل الأمير، لو أذنت سأقوم بعرضها عليك، ففرح اللعين وقال: «ما هى

الحيلة؟ قال مبارك: «لو قتلته هنا بأية وسيلة فهذا يسىء لسمعة سموك، لكن لو أخذته إلى الغابة وقتلته ودفنته، فلن يدرى أى شخص ماذا حدث؟» وحينما سمع هذا قال: «حسن جداً، إننى أريد ألا يبقى على قيد الحياة وألا يهددنى أى خطر من جهته، فإن أنت خلصتني منه فسأقدم لك جائزة عظيمة فافعل ما تشاء حتى تأتيني ببشرى أنك قتلته».

وبعدما اطمأن «مبارك» من جانب الملك اصطحبني وذهبنا إلى الملك «صادق»، وسرنا لمدة شهر، وذات ليلة كنا نمشي فقال «مبارك»: «اشكر الله على أننا قد بلغنا المنزل المنشود، قلت: ماذا قلت يا جدى؟ قال: أيها الأمير ألا ترى جنود الجن؟ قلت: إننى لا أرى غيرك فتناول «مبارك» الكحل السليمانى وكحل عيني مرتين، فإذا بى أرى جند الجن، فوجدتهم فى شكل جميل وهيئة جميلة، وأخذوا يعانقون «مبارك»، وكأنهم يعرفونه منذ أمد بعيد، وأخذوا يمازحونه.

وأخيراً وصلنا إلى خيمة الملك ومثلنا فى حضرته، ورأينا المصاييح والمقاعد مصطفة على كلا الجانبين، يجلس عليها العلماء والفضلاء والأمراء والوزراء والفقراء وغيرهم، وجبة الضرائب قائمون عاقدون أيديهم وفى المنتصف عرش مرصع يجلس عليه الملك «صادق» لابساً تاجاً وعمامة يتدلى منها اللؤلؤ متكناً على المسند فى هيبة وعظمة، فاقتربت وقدمت التحيات والتعظيمات بين يديه، فأمرنى بالجلوس بشفقة، ثم أحضروا الطعام، وبعد الفراغ منه إلتفت الملك إلى «مبارك» وسأله عن أحواله فقال «مبارك»: إن عم هذا الأمير قد تولى الحكم بعد أبيه وأصبح عدواً لحياته، لهذا جئت به إليك هارباً منه، وهو يتيم والملك حق له، لكنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً دون مرب، وبفضل رعاية جلالكم سيجد هذا الأمير من يرعاه تذكر خدمة أبيه وانصره وساعده، وأعطه القرد الأخير ليكتمل عدد القردة أربعين قرداً، وسيدعوك حينما يسترد حقه، فهو ليس له ملجأ سواك».

وبعد ذلك تأمل الملك «صادق» برهة، ثم قال: «إن حقوق خدمة وصداقة المرحوم على كثيرة، وهذا المسكين جاء إلى تاركاً هذا المال الموروث حفاظاً على حياته ولجأ إلى، وإننى لن أدخر أى مسعى لكن لى خدمة إن قام بها خير قيام ولم يخن وأتمها ونجح فى الامتحان فأتعهد بأننى سأعامله معاملة أحسن من الملوك وأبلغه ما ينشده. فعقدت يدى ملتصقاً وقلت: «إننى سأقوم بخدمة سموك قدر المستطاع، وسأؤديها على العين والرأس بأمانة وفطنة، فهذا شرف لى فى الدنيا والآخرة».

قال الملك: إنك صغير الآن، لهذا أؤكد من رأيت أنه لا قدر الله إن تقصير أوتخفى في هذا الأمر ستلقى بنفسك في التهلكة. قلت: يسهل الله عز وجل من أجلك وسأحاول حسب القدرة واحضر الأمانة إلى جنابك فدعاني الملك (صادق، قريباً منه، وأخرج ورقة من الحافظة وعرضها على قائلاً: انظر لهذه الصورة وعليك أن تحضر من يماثلها في الشكل تماماً وتحضره من أجلى، فحيث تعلم أنه موجود ابحث عنه، وحين تذهب إليه أبلغه عظيم شوقى، وإن أسديت لى هذه الخدمة فستنال منى أكثر مما تتوقع وتنتظر وإلا فإن الجزء من جنس العمل.

ولما نظرت إلى الورقة رأيت فيها صورة كدت أفقد وعيى على أثر رؤيتها فتمالكت نفسى خوفاً وقلت: حسناً سأغادر الآن، إن أراد الله سبحانه وتعالى لى خيراً سأقوم بهذه الخدمة كما تشاء، ثم خرجت من الغابة مع مبارك وبدأت أطوف قرية قرية وبلداً بلداً أسأل كل من أقابله عن صاحب هذه الصورة ولم يقل لى أحد إننى أعرفه أو سمعت عنه، وقضيت سبع سنوات على تلك الحال، ثم وصلت إلى مكان به مبان عالية وعامرة، وكل شخص فى هذا المكان يذكر الاسم الأعظم ويعبد الله. ورأيت هندياً فقيراً أعمى يتسول لكن لا أحد يعطيه أى مال ولا كسرة خبز، فدهشت وأشفت عليه فتناولت أشرفى من جيبي وأعطيته إياه فأخذه وقال: أيها المعطى أحسن الله إليك لعلك مسافر، ولست من أهل البلاد.

قلت: فى الحقيقة إننى أدمر حياتى منذ سبع سنوات، ولم أجد أى خبر لما خرجت من أجليه، واليوم وصلت إلى هذه المدينة.

فانصرف العجوز عنى داعياً فسرت خلفه، ورأيت مكاناً عالياً خارج المدينة، دخل العجوز فيه وتبعته أنا أيضاً ورأيت هناك بعض المباني المهدمة، ولا يقوم أى أحد بترميمها، فقلت فى نفسى إن هذا المبنى يليق بالملوك، لقد كان شامخاً عند تأسيسه، والآن ألم به الخراب ولا أدرى لماذا لا يسكن هنا أى شخص؟ ولماذا يعيش هذا الأعمى هنا؟ الأعمى هنا؟ وكان الأعمى يسير متكناً على عصاه إذ سمعت صوتاً كأنه يقول: أيها الأب، خيراً لماذا عدت اليوم مبكراً؟ قال العجوز: يا بنيتى إن الله عز وجل جعل شاباً مسافراً رحيماً بى لقد أعطانى ديناراً، وإننى ما أكلت منذ فترة طويلة طعاماً لذيذاً، فاشتريت لحماً وتوابل وزيتاً ودقيقاً وملحاً وثوباً لك قصيه وخيطيه، وألبسية وعندما تطهين الطعام ونأكله، ادعى لهذا الشاب، إننا لا ندرى ما هو مقصوده! لكن الله عز وجل سميع بصير، إنه يقبل دعاء الفقراء.

وعندما سمعت أحوال فقره جال بخاطري أن أعطيه عشرين أشرفيا لكنني حينما سمعت نظرت فرأيت امرأة تشبه الصورة التي أحملها فتناولت الصورة وقارنت بينهما فما وجدت أى فرق، فخرج من قلبى صوت وفقدت وعيى، وجلس مبارك بجوارى واحتضنى وأخذ يحرك مروحة على وجهى، فأفقت قليلا وأخذت أنظر إليها، فسألنى مبارك: ماذا أصابك؟ وقبل أن أجيب قالت الحساء: أيها الشاب اتق الله ولا تنظر إلى غير محرم، فالخجل والحياء من حسن الأدب لكل شخص.

تكلمت بأسلوب أعجبني، وبهرت بحسنها وخلقها، وكان مبارك يرعاني لكنه لا يعرف حالة قلبى، وأخيراً ناديت: يا عباد الله !! ويا سكان هذا المبنى إننى غريب على سفر، إن دعوتمنى وأعطيتمنى مكاناً لأقيم فيه، فتلك مروءة منكم فدعاني الأعمى بالقرب منه وعرف صوتى فعانقنى وأخذنى إلى حيث تجلس الحساء وكانت قد اختفت فى أحد الأركان، فقال لى الشيخ الأعمى: إحك لى ما جرى لك؟ لماذا تركت أهلك وتعيش وحدك وعن تبحر؟ فلم أذكر أمامه الملك «صادق»، وما يتعلق به، وقلت: إن هذا الأمير من الصين وما أدراك ما الصين، وهذا لأن أبى هو ملكها الآن، اشتريت هذه الصورة بمئات الآلاف من الروبيات، وحينما نظرت إليها فقدت كل حواسى وراحتى، وألم بى الفقر وهممت أبحث عنها فى جميع أنحاء الدنيا، والآن وجدت ما أبحث عنه فلك الخيار.

وعندما سمع الأعمى هذا صاح صيحة وقال: إن أبنتى تعاني مصيبة عظيمة ولا يستطيع أى أحد أن يتزوجها ويجنى ثمار الزواج قلت: أرجو أن تفصل الكلام فبدأ الأعمى يحكى قصته قائلاً: أسمع يا ابن الملك: أننى رئيس هذا البلد سىء الحظ وكان أبائى وأجدادى ذرى أنساب عالية رزقنى الله تعالى بهذه البنت وعندما بلغت سن الرشد ذاع صيت حسنها وجالها وعرف الجميع أن جمال بنت فلان لا يضارعه أى حسن أو بهاء حتى الحور تستحى منها وبلغ هذا الثناء ابن الملك فعشقها دون أن يراها وزهد فى الطعام والشراب ولازم الفراش.

ووصل هذا الخبر إلى الملك فدعاني فى الليل منفرداً وتحدث عن هذا الموضوع وحاول أن يقتنعنى، وأخيراً نجح فى محاولته، وفكرت فى نفسى أن لى بنتاً وعلى أن أزوجه من أى شخص إذن فمن الأفضل أن أزوجه ابن الملك حتى يكون الملك ممتناً لى أيضاً فقبلت وغادرت ومن ذلك الحين بدأ الطرفان يعدان العدة لحفل الزفاف، وذات يوم مبارك وفى

ساعة مباركة اجتمع القاضى والمفتى والعلماء والأكابر وتم الزواج، وذهبت العروس إلى بيت العريس فى بهجة وسرور.

وبعد الفراغ من مراسم حفل الزفاف، اختلى العريس بالعروس وأراد أن يغشاها إذ سمع الجميع ضجة واندھشوا وأرادوا أن يدخلوا غرفة العريس لكن الباب كان موصداً، وسمعوا صوت بكاء فكسروا الباب ووجدوا العريس مقطوع الرأس والعروس متمرغة وملطخة بدماء العريس.

فقد الجميع وعيهم برؤية هذه المصيبة التى حلت بهم فى وقت الفرح والسرور، ثم بلغ الخبر الملك، فجاء حزيناً ضارباً رأسه، واجتمع جميع أركان المملكة لكن لم يستطع أحد منهم قط أن يعرف ماذا حدث، وماذا يفعلون، أخبروا أمر الملك بقتل العروس التبعة، وما أن أمر الملك بذلك حتى سمعوا ضجة كبيرة، ففر الملك حفاظاً على حياته وأمر بإخراجها من القصر، فأوصل الخدم ابنتى إلى بيتى وذاع هذا الخبر فى الدنيا كلها، وذهل من سمع هذا الخبر، وبسبب قتل ابن الملك أصبح الملك وجميع سكان هذه المدينة أعداء لحياتى.

وبعد الفراغ من الحداد والنواح وانقضاء الأربعين شاور الملك أركان الدولة فى هذا الشأن وسألهم: «ماذا نفعل الآن؟» قال الجميع: «لا نستطيع أن نفعل شيئاً، سوى أن تأمر جلائكم بقتل تلك الفتاة وأبيها، والاستيلاء على أملاكهما وذلك للتسرية عن قلوبنا ولو ظاهرياً!!» وعندما قرروا عقوبتى هذه جاء رئيس الشرطة مع معاونيه وحاصروا ابنتى، ونفخوا فى النفير، وأرادوا أن يدخلوا بيتى تنفيذاً لحكم الملك وبدأت الأحجار والأجر تمطر عليهم من الغيب فلم يستطيعوا تحملها وفروا، وسمع الملك فى قصره صوتاً مهيباً يقول: «أيتها الملك لا تتبع خطوات الشيطان، وإن أردت خيراً لك فلا تتعرض بالسوء لهذه الفتاة، وإلا سترى بسبب عداوتك لها ما رآه ابنك بالزواج منها، ولو أذيتهما بعد ذلك سيتنال العقوبة».

خاف الملك وأمر أتباعه على الفور «بألا تتعرضوا لهذين ولا تظلموهما واتركوهما فى حالهما فى البيت، ومنذ ذلك اليوم بدأ النساك يقرأون الدعاء والرقية والأوردة، وبدأ سكان المدينة يذكرون الله ويقرأون القرآن الكريم، وحتى الآن لم يستطع أحد أن يطلع على شىء من هذه الأسرار. أعلم منها شيئاً، ولكننى سألت ابنتى ذات مرة: ما الذى رأيته تلك الليلة؟ قالت: «إننى لا أدرى شيئاً إلا أن زوجى حاول أن يغشائى، فرأيت أن السقف ينشق،

ويخرج منه عرش مرصع ويجلس عليه شاب وسيم يرتدى لباس الملوك ويدخل معه أناس كثيرون وتصعدوا لقتل ابن الملك، واقترب الشاب منى وقال: «يا حبيبتي والآن أين تفرين منى؟». وكانت أشكالهم مثل الآدميين لكن أرجلهم كانت مثل أرجل الأغنام فبدأ قلبى يخفق خوفاً وفقدت وعيى ثم لا أدري ما حدث فى النهاية؟».

ومنذ ذلك الحين ونحن نعيش فى هذا البيت العتيق وانصرف عنى جميع أصدقائى خوفاً من غضب الملك وعندما أخرج لأتسول لا يعطينى أحد شيئاً حتى «المليم» بل لا يسمحون لى بأن أقف أمام متاجرهم، وليس عند ابنتى أى ثوب يستر بدنها ولا طعام تسد به جوعها، وأرجو من الله أن يتوفانا أو تنشق الأرض لتبتلع هذه التعسة، فإن الموت أفضل من هذه الحياة، لعل الله أرسلك لأجلنا، إنك أعطيتنا ديناراً فاشترينا الطعام والكساء لابنتى وحمدت الله عز وجل ودعوته، ولو لم تصب ابنتى بمس من الجن والشيطان لزوجتك إياها وكان هذا هو منتهى السعادة والأمل، هذه أحوالى فلا تلح وانصرف عن قصدك.

وبعد كل ما سمعت ألححت وأصررت وقلت: «لا بد وأن تقبلنى كابن لك، وليحدث ما قدر الله، فما قدر لى من سوء حظى سيحدث». ولم يقبل الشيخ حينما أمسى الليل غادرته وذهبت إلى مبارك فقال لى: أيها الأمير مبروك مبروك لقد هيا الله لك الأسباب، وما ضاع هذا الجهد قلت: لطالما ألححت وتوسلت اليوم لكن ذلك الأعمى القاسى القلب لم يقبلنى والله أعلم إن كان سيقبل أم لا؟ ومر الليل على قلبى وأنا على تلك الحال بصعوبة بالغة، وكذت أتحرق شوقاً لطلوع الصبح لأذهب إليه وأحياناً يرد فى ذهنى أنه لو قبل الرجل فسيأخذها «مبارك» إلى الملك «صادق» ثم قلت فى نفسى: نأخذها أولاً، ثم نبحث عن حيلة ونرضى مبارك ثم نعيش سوياً، وأحياناً يأتى فى خاطرى أنه لو قبل «مبارك» فسيصنع بى الجن ما صنعه بزوجها السابق، وكيف يقبل ملك هذه المدينة أن يقتل ابنه ويسعد آخر.

وطار النوم منى طوال الليل وقضيته فى إعداد هذه اللحظة وحينما طلع الصبح خرجت واشترت من السوق أثواب القماش الجميلة وما يزينها والفواكه الجافة والبطازجة وذهبت بها إلى الشيخ الأعمى ففرح جداً وقال: «إن الحياة أغلى من كل شىء، لكن لو تنفك حياتى قلن أدخر وسعاً فى بذلها من أجلك، وأزوجك ابنتى الآن، لكننى أخاف أن يؤدى هذا إلى هلاكك، ويكون هذا وصمة ذنب فى جبينى إلى يوم الدين».

فقلت: «إننى بدون مأوى فى هذه القرية وأنت والذى فى الدين والدنيا لقد تجشمت كثيرا من العناء فى تحقيق أمنيى هذه حتى وصلت إلى هنا، ووجدت مطلبى أيضا، وجعلك الله رحيمًا بى حتى قبلت لكك تتردد كن منصفًا فى تفكيرك وأخبرنى أى مذهب يسمح للإنسان أن ينقذ رقبته من سيف العشق وينجو بحياته؟ إننى ضيعت حياتى، وأعتبر حياتى فى وصال المعشوق، ولا أبالى بالموت أو الحياة ولو خاب أملى فسأمت قبل أجلى وأتشبث بذلك حتى يوم القيامة».

خلاصة القول أنه قد مضى قرابه شهر كامل فى القول والرد والإلحاح والإصرار، كل يوم أذهب إلى هذا الشيخ وأتوسل إليه، وحدث أن مرض الشيخ وكنت أقوم على خدمته وأذهب إلى الطبيب وأخذ وصفة العلاج وأشتريها وأطعمه وأشتري غذاء أقدمه إليه، وذات يوم أشفق على وقال: «أيها الشاب!! أنت عنيد، لقد حاولت كثيرا أن أمتنع عن هذا وبينت لك جميع المخاطر، ولكنك تريد أن تلقى بنفسك فى البئر، وعلى كل حال اليوم أذكرك عند ابنتى فأرى ماذا تقول؟».

يا فقراء الله!! عندما سمعت هذا الخبر السعيد لم تسعنى ثيابى فسلمت عليه وشكرته وقلت: «الآن أنت فكرت فى حياتى، وغادرتى وذهبت إلى مبارك وكنا نتحدث فى هذا طوال الليل فأنى للقوم أن يداعب عيوننا وأنى للجوع أن ينتابنا؟ وحينما طلع الصبح ذهبت إلى الشيخ وسلمت عليه فقال: خذ ابنتى، بارك الله لك فيها وأستودعكم الله الذى لا تضيع ودائعه، وكونوا أمام عيني طول حياتى، وعندما أموت فأنتم مخيرون».

وبعد أيام أسلم الشيخ الروح، فبكينا وحزنا عليه ودفناه وبعد الفاتحة الثالثة ذهب «مبارك» إلى تلك الحساء وجاء بها فى هودج، وقال لى: «هذه أمانة للملك «صادق» واحذر أن تخونه فيها، وتضيع جهدك ومشقتك: قلت؟ يا عم!! أين الملك «صادق» هنا، قلبى لا يستطيع صبرا؟ فليحدث ما يحدث، أموت أو أحيأ الآن أعيش، وبعد أن اضطرب مبارك نهرنى قائلا: لا تسلك سلوك الأطفال ربما يحدث فى لحظة واحدة أى شىء هل تعتقد الملك «صادق» بعيد؟ فلا تطيع أمره؟ إنه نبهنا على كل شىء وقت مغادرتنا، إن عملت بنصيحته وأوصلتها له بالسلامة بدون أى تقصير، فإنه كملك ربما يعطيك إياها تقديرا لجهدك فلزمت الصمت بعد أن أخافنى وحيرنى، فأشترى مركبتين، وركبنا وتوجهنا إلى الملك «صادق» وكنا نمشى وإذا بنا نسمع صجيجا قال مبارك: الشكر لله أن جهدنا لم يضع هباء، فقد وصل

إلينا جماعة الجن، قابلهم مبارك وسألهم: إلى أين؟ فقالوا قد كلفنا الملك باستقبالكم ونحن في خدمتكم، وأن تأمرونا نوصلكم في لحظة قال «مبارك»: انظروا كيف أعزنا الله ورفع قدرنا عند الملك بعدما تحملناه من جهد؟ فعلمنا أن نسرع، فلولا قدر الله وحدث أى تقصير سيضيع جهدنا أدراج الرياح ويحل بنا غضب الملك. قال الجميع: «إنكم مخيرون امضوا كيف تشاءون، ورغم أن سبل الراحة كانت متاحة لنا، إلا أننا كنا نمشى ليل نهار ولا مفر لنا من ذلك.

وحيثما اقتربنا ووجدت «مبارك» نائما وضعت رأسى على قدمى تلك الحساء وبسبب اضطراب القلب وقلة حيلتى أمام مبارك بدأت أقول لها: إننى منذ وقع بصرى على صورتك حرمت على النوم والأكل والراحة، وعندما أتاح الله هذه الفرصة، أصبحت غريباً عنك.

فقلت: «إن قلبى مائل إليك أيضا لأنك عانيت كثيراً من المتاعب بسببى أنا وجلت بى إلى هنا، أذكر الله ولا تنسى، وانتظر ما يحدث من الغيب. وبعد هذا صاحت صيحة شديدة وبكت بكاء مريراً وانتحبت وهذه كانت حالى، وهذا كان حالها، وأثناء ذلك استيقظ «مبارك»، فبدأ يبكى لبيكاننا نحن المشتاقين، وقال: اطمئنوا عندى زيت أمسح به على جسد الفتاة، فينفر من رائحته الملك «صادق»، وغالباً ما يعطيك إياها،.

ولما سمعت من «مبارك» هذه الحيلة اطمأن قلبى وعانقته وأظهرت حبى له وقلت: يا جدى!! أنت الآن فى منزلة أبى لقد أنقذت حياتى، والآن تعمل أيضا ما يضمن حياتى، وإلا سأموت بهذا الحزن فطمأننى كثيراً.

وحيثما طلع الصبح سمعنا صوت الجن، ورأيت خدام الملك «صادق»، قادمون، وقد خرجوا عن آخرهم لاستقبالنا ومعهم هودج من اللآلى، فمسح «مبارك» على جسد الأميرة بالزيت وألبسها لباساً وذهب بها إلى الملك، وحيثما رآها الملك أكرمنى وأجلسنى بإعزاز وقال: سأعاملك معاملة لم يعاملك بها أحد من قبل قط، إن ملك أبيك هو لك وعلاوة على ذلك أنك ستكون بمثابة الابن لى، وكان يتحدث عن هذا إذ جاءت الأميرة أمامه وحيثما اشم رائحتها تبدل حاله ولم يستطع الصبر عليها فخرج مسرعاً ودعانا وتوجه إلى «مبارك»، وقال: «لماذا ياعزيزى لقد وفيت أنا بالعهد وكنت قد حذرتكما أنكما إن خنتما الأمانة، سيحل غضبى بكما، ما هذه الرائحة؟ والآن سترى ماذا أفعل بك، وحيثما اشتد غضب الملك خافه «مبارك».

وفتح إزاره وقال للملك: «انظر عندما حذرنا من الخيانة قطعت «عضوى» ووضعته فى ظرف وختمته بالختم ووضعته فى الخزانة، واستخدمت المرهم ثم ذهبت فى مهمتى وعندما سمع الملك من «مبارك» هذا القول نظر إلى شذرك وقال: «هل أنت فعلت هذا؟ وغضب غضباً شديداً وبدأ يتفوه بكلام بذيء..» وفهمت من أسلوبه أنه يريد القضاء على، فأخرجت الخنجر من طيات ملابس «مبارك» وطلعته دون أن أبالى بحياتى، وحينما أصابه الخنجر انحنى ثم ترنح فظننت أنه مات، لكننى فكرت أن الضربة لم تكن بهذه القوة فماذا حدث؟ ورأيت أنه يتدحرج ويتقلب حتى أصبح كالكرة ثم طار فى السماء حتى غاب عن ناظرى وبعد برهة نزل محدثاً صوتاً كالصاعقة متفوهاً بما يتم عن غضبه، وضربنى برجليه، فسقطت مستلقياً على ظهرى، والله اعلم كم من الوقت قد مر على فى هذا الوضع حتى استرددت وعيى؟ ولما فتحت عيني وجدت نفسى فى الغابة وليس هناك سوى الأشجار والأحجار، ولم يرد فى ذهنى ماذا أفعل وأين أذهب؟ وأخيراً انتابنى يأس عظيم وصرخت صرخة مدوية ومشيت، وكلما قابلت شخصاً سألته عن الملك «صادق» فيجيبني كأننى مجنون ويقول ما سمعت اسمه قط.

وذات يوم صعدت الجبل وأردت أن ألقى بنفسى من فوقه، وعندما هممت بإلقاء نفسى، إذ جاء نفس الفارس صاحب ذى الفقار ملثماً وقال: لماذا تنهى حياتك؟ إن الإنسان يمر بالحزن والألم، والآن انتهت أيامك السيئة وجاءت أيامك السعيدة، اذهب بسرعة إلى بلاد الروم، سبقك ثلاثة أشخاص مثلك، قابلهم وقابل السلطان هناك، وأنتم الخمسة ستجدون بغيتكم فى مكان واحد.

هذه هى قصة هذا الفقير التى حكيتها، وبسبب هذه البشارة حضرت إلى مرشدى المولى الذى يفرج الكرب، ومثلت فى خدمة الملك ظل الله، والآن ينبغي أن يطمئن قلب الجميع.

وبينما كان هذا الحوار يدور بين الدراويش الأربعة والملك «آزاد بخت» إذ جاء الخادم من قصر الملك مهرولاً وقدم التحيات وقال: «مبارك يا مولاي لقد ولد لسموك أمير وسيم يستحق من حسنه الشمس والقمر». تعجب الملك وسأل: «ما كان هذا فى الظاهر، هذه الشمس سطعت من أى برج؟» قال الخادم: «إن ذات الوجه القمري من الخواص التى حل بها غضب الملك منذ فترة طويلة، والتى تعيش فى ناحية من أنحاء القصر كالمسكينة ولا يسأل عن حالها أحد خوفاً من بطش الملك، قد أكرمها الله عز وجل بأن أنجبت ولداً كالقمر».

ففرح الملك كثيراً، ودعا له الدراويش الأربعة بالبركة قائلين: «عمر الله بيت جلالتك وبارك لك فيه، وأطال عمره، وجعله يبلغ سن الشباب والشيخوخة في ظلك، قال الملك: «هذه بركة قدومكم فقط، وإلا فإنه ما خطر في بالي، لو تسمحون لي فأذهب لأراه» قال الدراويش: تفصل: «بسم الله، دخل الملك القصر واحتضن الأمير وشكر الله عز وجل وقر قلبه وجاء به إلى الدراويش ضاماً يياه إلى صدره، فقرأ الدراويش الرقية والأدعية على رأسه، وأعد الملك العدة للاحتفال وفتح أبواب الخزائن وأعطى الفقراء أموالاً طائلة حتى أصبحوا أصحاب مئات الألوف، وأصدر فرماناً بمضاعفة أملاك ومخصصات أركان الدولة، ومنح قوات الجيش راتب خمس سنوات، ومنح الأوسمة الرفيعة للأكابر والمشايخ وملاً كثوس الفقراء والمساكين بالدنانير والروبيات، وأعفى الرعية من الضرائب ثلاث سنوات وسمح لهم أن يأخذوا الحاصلات الزراعية كلها دون اقتطاع أى جزء منها، وأمر أن يكون الاحتفال بالرقص والغناء من بيت إلى بيت، وصار الصغير والكبير ملك الزمان من الفرح والسرور، وفي أثناء هذا كله ارتفع صوت البكاء والنواح من القصر الملكى، وخرج جميع الخدم والحشم والجواري نائرين التراب على رؤوسهم وقالوا للملك: «عندما حصنت الوصيصة الأمير بعد الفراغ من غسله، نزلت قطعة من السحاب وأحاطت بالخادمة، ثم رأينا بعد لحظة أن الخادمة فقدت وعيها والأمير غائب، أهذه القيامة؟ ذهل الملك وارتفع العويل فى البلاد كلها وقضى أهل البلاد يومين بدون طعام وشراب.

وخلاصة القول كنا بدون حيلة وظللنا نعيش هكذا، وفى اليوم الثالث نزل نفس السحاب بمهد مرصع باللآلئ ووضع فى نفس المكان وتركه وغاب، فرأى الناس الأمير الوليد يرضع أصبعه، فأخذته الملكة بسرعة وضمته إلى صدرها ورأته لابساً ثوباً مرصعاً بالدر والجوهر وموشى بالذهب والفضة وفى معصميه وقدميه أساور مرصعة وفى عنقه سلسلة وفى يده جرس ولعبة، وفرح الجميع وبدأوا يدعون له قائلين: «أتلج الله صدر أمك بك، وأطال عمرك حتى تصير كهلاً».

وبنى الملك قصراً جديداً وأثنى وأسكن الدراويش فيه وكان يذهب إليهم فيه حينما يفرغ من شئون الحكم ويجالسهم ويعتنى بهم، وكان السحاب ينزل فى أول خميس من كل شهر ويأخذ الأمير، وبعد يومين يعود به مع الهدايا واللعب من كل نوع ومن كل البلاد تحار العقول من جمالها، وبلغ الأمير سبع سنوات والحال على ما هو عليه، وفى يوم الاحتفال

بمولده قال الملك «آزاد بخت، للدراويش: يا فقراء الله!! نحن لا ندرى من يأخذ الأمير ثم يرجعه، هذا شيء غريب فلننظر فى هذا الأمر ونرى ماذا سيكون مصيره؟ قال الدراويش: «خذ ورقة واكتب رسالة وقل فيها: «أنا مشتاق لرؤيتك بسبب حبك لى وأرجو على سبيل الصداقة أن تطلعنى على أحوالك لأطمئن ويزول العجب». فكتب الملك ما قاله الدراويش ووضع الرسالة فى طيات ملابس الأمير.

غاب الأمير كالمعتاد وحينما أمسى الليل جاء الملك «آزاد بخت، إلى مخدع الدراويش وبينما هم يتجاذبون أطراف الحديث، إذ بورقة ملفوفة تسقط عليهم، وحينما فتحها الملك رأى أنها جواب الرسالة مكتوب فيه: «اعتبرنى مشتاقاً إليك، وسيهبط عرش من السماء فلو تكرمت اركبه وتعال إلى سيكون هذا أفضل، أن نلتقى وكل أسباب العيش والراحة متاحة والمكان خال لك فقط.

ركب الملك «آزاد بخت، مع الدراويش فطار العرش كعرش سليمان وبعد قليل هبط فى مكان به مبان شاهقة وكل شيء على ما يرام لكن لا يبدو به أثر لإنسان، أو أن شخصاً يعيش فيه، وفى أثناء ذلك وضع شخص فى عيونهم كحلاً سليمانياً، فنزل دمعهم فرأوا جماعة من بنى الحور قائمين لاستقبالهم فى أزبائهم المختلفة وفى أيديهم الزهور، وحينما سار الملك «آزاد بخت، رأى أبناء الحور يقفون على كلا الجانبين فى أدب ووقار وفى الوسط رأى عرشاً زمردياً يجلس عليه الملك «شهبال بن شاه رخ، متكئاً على أريكة بهيبة وعظمة وتجلس أمامه حورية تلعب مع الأمير «بختيار، ويجلس أبناء الحور على المقاعد والمساند المصطفة على الجانبين، وعندما رأى الملك «شهبال، الملك «آزاد بخت، نهض ونزل عن العرش وعانقه وأخذ بيده وأجلسه إلى جواره وبدأ يتحدثان فى جو من الصداقة والمودة، وطوال اليوم عم الفرح والسرور، وقدمت لوازم الضيافة من طعام وشراب وفاكهة وعلطور وغناء، ثم اجتمع الملكان فى اليوم التالى فسأل الملك «شهبال، الملك «آزاد بخت، «لماذا جئت بالدراويش معك؟».

فقص الملك قصة هؤلاء الدراويش الأربعة كما سمعها بالتفصيل وقال وهو يشفع لهم: إنهم عانوا مصائب جمة، والآن لو نالوا بغيتهم بسبب عناية جلالكم فلك عظيم الثواب، وهذا المخلص (الملك) سيكون شاكرًا ممتنًا لك طوال حياته، ويفضلك سترو سوغيتهم على شاطئ الأمان بعد طول إبحار.

فقال الملك «شهبال»: على الرأس والعين، فهذا هين ويسير علىّ. قال هذا ونظر بشفقة للجن والحرور وكتب خطاباً إلى جميع زعماء الجن أنه: عليكم بالحضور مباشرة عقب قراءة الفرمان، وإن تأخر أو تردد أى منكم سينال عقابه ويأتى محبوساً، وعليكم بإحضار أى رجل أو امرأة من بنى الإنسان يكون موجوداً لديكم وإن حدث وأخفيتم أحدهم وظهر بعد ذلك، فإن من يفعل ذلك ستقتل نساؤه وأطفاله ولن يبقى له اسم أو أثر.

وأرسل الرسالة مع عفريت إلى كل الجهات، وأخذ الملكان يتحدثان سويًا بود وحب، وأثناء ذلك خاطب الملك «شهبال»، «الملك آزاد بخت، قائلاً: «كان لى أمنية كبيرة وهى أن أرزق بولد، وعاهدت نفسى أنه إن رزقت بولد أو بينت سأنزجها بولد يولد ببيت ملك ملوك بنى الإنس، وبعد هذا علمت بحمل زوجتى الملكة، وبدأنا نعد الشهور والأيام حتى حان الوقت وأنجبت بنتاً، وحسب العهد أمرت أولاد الجن أن ابحثوا فى العالم كله عن ولد يولد فى بيت ملك وأحضروه بحرص وبسرعة، فانتشر الجن فى العالم كله وأحضروا هذا الأمير بعد لحظة.

شكرت الله واحتضنته ودخل فى قلبى حبه أكثر من ابنتى ولا تقبل نفسى أن أتركه ولو للحظة واحدة، لكننى أرسله لأن والديه لولم يرياه فماذا سيحدث لهم؟ لهذا أطلبه كل شهر مرة واحدة وأبقيه عدة أيام عندى ثم أرسله والآن قابلك فى إن شاء الله تعالى نزوجه، فكل نفس ذائفة الموت، فدرى زواجهما فى حياتنا.

سر الملك «آزاد بخت، من قول الملك «شهبال، وبرؤيته وقال: «كنت أخاف من قبل على ابنى لماذا يغيب ويعود؟ لكننى حينما تحدثت معك اطمأننت، والآن هو ابنك وأنت مخير فافعل ما تشاء. وهكذا صارت الصداقة بين الملكين كالسكر واللبن، وبدءا يتمتعان بكل متع الحياة، واجتمع خلال فترة من خمسة إلى عشرة أيام الملوك الكبار لـ «ككستان آرم»، و«كوهستان»، و«الجزر» الذين عين الملك الخدام، لإحضارهم، ومثلوا بين يدى الملك، فقال أولاً للملك صادق: أحضر من عندك من بنى آدم، فاحضر بعد الغم والحزن «كلمعدار»، وطلب من ملك ولاية «عمان، الأميرة التى أصبح ابن ملك «نيم روز، راكب الثور مجنوناً بسببها، فاحضرها بعد الأسف والاعتذار، وعندما طلب الملك بنت ملك الإفرنج و«بهزاد خان، انكر الجميع وأقسموا بسليمان، وأخيراً سأل ملك بحر القلزم، فخفض رأسه وسكت،

فاستحلفه الملك «شهبال» ووعده بإعطائه الجوائز وحذره من مغبة العصيان فبدأ يقول وهو عاقداً يديه: «حفظ الله الملك، فى الحقيقة عندما جاء الملك لاستقبال ابنه وألقى الأمير فرسه فى البحر ليصل إليه بسرعة، كنت قد خرجت فى نفس ذلك اليوم للصيد، فمررت بنفس المكان وكنت واقفاً أشاهد هذا المنظر ورأيت الأميرة أيضاً تلقى بفرسها فى البحر، ولما رأيتهما خرج قلبي من حوزتى وأمرت أبناء الحور بأن يحضروا الأميرة مع فرسها وعندما ألقى «بهزاد خان» فرسه فى البحر وبدأت تبتلع الأمواج أعجبته شجاعته ورجولته، فأخذوه أيضاً، وأحضروهما، والآن هما عندى بصحة وعافية».

وبعد قوله عن هذه الأحداث دعاها أمامهم ثم طلب الملك بنت سلطان الشام وبحث عنها كثيراً وسأل الجميع بشدة عنها، لكنه لم يجد لها أى خبر، ثم قال الملك «شهبال» هل غاب أى أمير أو ملك أم حضروا جميعاً؟ قال الجنى: «يا ملاذ العالم!! حضروا جميعاً ما عدا «مسلسل جادو» الذى أسس قلعة فى جبل «قاف» بسحره ولم يحضر مستكبراً، ولا نستطيع أن نحضره بالقوة لأنه قوى وشجاع وشيطان كبير».

وعندما سمع الملك غضب وعين قوات الجن والعفاريت وأبناء الحور وقال لهم: قولوا «المسلسل جادو» أن يحضر مع الأميرة فإن قبل فيها وإلا قدموا كل ما يملكه وأحضروه مكبلاً واحترثوا أرضه وأملاكه وفى لحظة واحدة ذهبت القوات وأحضروه بسرعة فسأله الملك «شهبال» مهدداً ومتوعداً، ولكن ذلك المغرور أبى وتكبر فغضب الملك وقال: أقطعوا كل عضو لهذا المرتد وانزعوا جلده واحشوه بالقبن، وأمر بنى الحور بأن يذهبوا إلى جبل قاف ويبحثوا عن الأميرة فذهبوا وأحضروها، فشكل الدراويش الأربعة والأسرى الملك «شهبال» نظراً لعدله وإنصافه ودعوا له وفرحوا وفرح الملك «آزاد بخت» أيضاً ثم أمر الملك «شهبال» الخدم بأن يدخلوا الرجال فى ديوان خاص وأن يدخلوا النساء إلى قصره وأمر بأن يعدوا العدة للزواج بسرعة، وبمجرد أن أمر كأنهم كانوا فى انتظار أمره.

وذات يوم فى ساعة طيبة ومباركة عقد الملك قران الأمير «بختيار» على ابنته الأميرة «روشن اختر» وزوج سيد اليمن من أميرة دمشق، وابن ملك فارس من أميرة البصرة، وابن ملك العجم على ملكة الإفرنج، وبنت ملك «نيم روز» من «بهزاد خان»، وزوج أمير «نيم روز» من أميرة الجن، وأمير الصين من بنت ذلك الأعجمى العجوز التى كانت فى قبضة

الملك صادق وبلغ الجميع مقصودهم بسبب الملك «شهبال» ودام الاحتفال أربعين يوماً وقضوا الأيام والليالي في الفرح والسرور.

وأخيراً ودع الملك «شهبال» كل أمير مع التحف والهدايا والأموال إلى أوطانهم فعادوا جميعاً بالفرح والسرور ووصلوا أوطانهم بخير وعافية، وبدأوا يحكمون لكن «بهزاد خان» وسيد اليمن فضلاً أن يبقيا مع الملك «آزاد بخت» وأخيراً جعل الملك «آزاد بخت» ابن سيد اليمن أمير «خانسمان» وجعل «بهزاد خان» قائدا للجيش ، وأخذ الجميع يقضون حياتهم في رغد وسعادة .

يا الله كما نال الدراويش الأربعة والملك «آزاد بخت» هدفهم، بلغ كل من لا يجد بغيته بفضلك ما يصبوا إليه، بحق محمد ﷺ وفاطمة وعلى كرم الله وجهه والإمام الحسن والإمام الحسين وبحق الإثنى عشر إماماً والأربعة عشر معصوماً عليهم الصلاة والسلام.

خاتمة الكتاب

وحيثما اختتم هذا الكتاب بفضل الله عز وجل أردت أن أسميه باسم يبدو منه التاريخ الذي أنجز فيه. وعندما حسبت فإنني بدأت بكتابته هذا في نهاية ١٢١٥ هـ، وبسبب ضيق الوقت انتهيت منه في سنة ١٢١٧ هـ. وحيثما كنت أفكر «باغ وبهار» لأن هذا اسم جيد ويبدو منه التاريخ فسميت حديقة بل إن الحديقة قد تعاني من الخريف، لكن هذا الكتاب يانعاً.

عندما تم ترتيب «باغ وبهار»
كان العام هو ألف ومائتين وسبعة عشر
تنزهوا فيه ليلاً ونهاراً
لأن اسمه وتاريخه (١) «باغ وبهار»
لا يلحق به أثر لخريف
فإنه يكون ربيعاً متجدداً في درام
لقد ارتوى من دماء قلبي
وجميع أوراقه فلذات كبدي

(١) اسم الكتاب بحساب الجمل يسارى (ب=٢، أ=١، غ=١٠٠٠، و=٦، ب=٢، هـ=١٠٥، ١=١، ر=٢٠٠) = ١٢١٧.

سينسى الناس بعد الموت
لكن هذا الكلام يبقى كذكرى
فعلى الذى يقرأه أن يتذكرنى
هذا هو مطلبى من القراء
لو وجدوا فيه أى خطأ فعفوا
لأنه تحت الأزهار تختفى الأشواك
إن الإنسان مركب من السهو والخطأ
فإنه يخطئ فى كل لحظة، فانتبهوا
ولا أريد شيئاً غير هذا
هذا هو دعائى يا إلهى
أن أبقى فى ذكرك يا إلهى كل لحظة
وهكذا أقضى الليل والنهار
وَألا يكون لى الحسب بشدة
ولا أسأل عن الأيام والليالى
يا ربى أبقنى فى العالمين بلطفك
يا إلهى بحق الرسول العظيم

هوامش الفصل

- (١) يجرى هذا الشعر مجرى المثل على لسان أهل الهند والغرض منه أن يعتبر الإنسان ويدرك المهالك قبل أن يقع فيها، و (ديا كبيراً) اسم من الأسماء الهندية القديمة.
- (٢) «قهرديوش براجان درويش، مثل في اللغة الأردية.
- (٣) كناية عن طول الأمد فيروى أن أحد ملوك الهند عندما أشرف المحتلون على احتلال بلاده كان غارقاً في ملذاته، وقالوا له الأعداء قادمون فقال إن دهلي بعيدة جداً.
- (٤) التمبرل: نبات عطري له رائحة طيبة ويكسب الفم لونا أحمر، وهو مكون من القرنفل والحبهان ومزيج من الأعشاب الهندية.
- (٥) لقب خاص للخادم .
- (٦) هذه الجملة الاعتراضية إما روتها الوصيصة أو أن الملكة تخاطب نفسها.
- (٧) برهن: إحدى قبائل الهندوس المعروفة بتعصبها للهندوسية.
- (٨) فنون الخط السبعة هي: النستعليق . النسخ . الریحان . شكست . خط كلزار . كوفي . خط غبار.
- (٩) نوع من الرماد يستخدمه النساك الهندوس بعد الغسل (أنظر: آداب سلطنة ورسوم معاشرت ص٦٣)
- (١٠) نوع من الرماد يشبه لونه لون خشب الصندل يصنعه الهندوس على جبينه (نفس المرجع ص ٧٤) .
- (١١) المقصود بزكاة الخمس : خمس مال الغنائم ويوقف للإتفاق على الغرياء وأبناء السبيل ومن انقطع من أهله . (فيروز اللغات مادة خمس) .
- (١٢) أي لم يحدث شيء وفضح أمره دون ثمن ولا مقابل.
- (١٣) «أذر»: هو صانع تماثيل الآلهة في عهد سيدنا إبراهيم عليه السلام.
- (١٤) فرهاد : ويسمى حافر الجبل، وهو صاحب شيرين، وفي القصص أن الملك خسرو يرويز أمره بحفر طريق في جبل بيتسون وضرب له موعداً قريباً لإنجاز مهمته، فأنجز فرهاد حفر الطريق إلا أنه لم يحقق الأمل . وقد نظم القصة نظامي الكنجوي، وتلاثوه شعراء الفارسية والتركية والأردية . وضعوا القصة مضامين صوفية . (انظر حسين مجيب المصري: المعجم الفارسي العربي الجامع، مكتبة الأنجلو ١٩٤٨م) .
- (١٥) كناية على تفرق القوات بعد مقتل قائدها .

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٥١٥٥ / ٩٩

I. S. B. N 977 - 01 --- 6504 - 2

هذا كتاب من تأليف (ميرآمن الدهلوى) أشهر أدباء الأردية
عبر عصورها المختلفة ، وفيه يحكى قصة ملك وأربعة دراويش
لكل درويش حكاية تحكى على غرار حكايات ألف ليلة وليلة؛
حيث يتحدث كل درويش عما لحق به من صروف الأيام ومحن
الزمان، مما دفع بهم جميعاً إلى سلوك طريق التصوف بعد أن
تخلوا عن مباهج الدنيا وعروشها، ولبسوا أسمال الطريقة
وخرقها، وصيغت الحكاية فى أسلوب شيق جذاب وتحمل عبق
الشرق. وقيمته وتراثه وفكره. ولقد تأثر الأدب الأردى بالأدبين
الفارسي والعربي ومثلت الآداب الثلاثة واجهة للفكر الإسلامى
ومنظومة فكرية كبرى ساهمت فى نقل الأدب والفكر الإسلامى
إلى أدب اللغات الأخرى.

من الأدب الفارسي المعاصر

صي في مقبرة

من مذكرات رجل مجنون

تأليف : صادق هدايت

ترجمة : ابراهيم الدسوقي شتا





حي في مقبرة

من مذكرات رجل مجنون

سقطت فى الفراش مشلولاً بلا ارادة ، وكأنى كنت ألتقط
أنفاسى ببطء ومن ثقب ابرة محقن ، والدموع تقطر من عينى ، وفمى
ذو طعم مر ، وبرأسى دوار مؤلم ، وتعالى خفقان قلبى ٠٠ ورائحة
العرق والحمى تنبعث من الفراش ٠٠ وأخذت أنظر الى الساعة التى
على المنضدة الصغيرة بجوار الفراش فاذا بها العاشرة من صباح يوم
الأحد ٠٠ ثم نظرت الى سقف الحجرة وقد تدلى منه مصباح كهربائى
٠٠ وأخذت الدور ببصرى فى الحجرة ٠٠ وكانت الأوراق الملتصقة على
الحائط ذات ورود حمراء وباقات أخرى حمراء باهتة ، وبينها كان
هناك طائران أسودان يقفان على غصن وجها لوجه ، وكان أحدهما
يفتح منقاره كأنه يقول للآخر كلاماً ٠ كانت هذه الصور تخرجنى
عن طورى ، ولا أدرى لماذا أجدها أمامى مهما تقلبت الى أية ناحية ،
وكانت المنضدة التى فى وسط الحجرة مكتظة بزجاجات الأدوية
والفتائل ، وروائح الكحول المحرقة ٠٠ ورائحة حجرة مريض تنتشر
فى الهواء ، وحاولت أن أقوم وأفتح النافذة ، ولكن تياراً من الكسل
كان يسمرنى فى الفراش ، أريد أن أشعل لفافة تبغ ولكنى لا أجد
فى نفسى ميلاً لها ٠٠ لم تمض عشر دقائق منذ حلقت لحيتى التى

كانت قد طالت ، وأتيت فارتيميت على الفراش ، وجدت نفسى مهتما
نحيفا فى المرأة التى نظرت فيها .. كنت أتحرك بصعوبة فى الحجرة
المبعثرة وأنا وحيد فيها .

دار برأسى ألف نوع من الأفكار المثيرة للدهشة ، وكنت أراها ،
ولكن من أجل أن أكتب أتفه احساس وأقل خيال من الماضى يجب
أن أشرح حياتى برمتها .. وليس هذا من الممكن ، ان هذه الأفكار
والاحساسات نتيجة لأدوار حياتى كلها ، نتيجة لنسق من حياة
الأفكار الموروثة .. ما قد رأيته وسمعته وقرأته وأحسست به ،
وقيمته ، كل هذه الأشياء خلقت وجودى الغامض السخيف المعقد .

أخذت أتحرك فى فراشى ، وأعود بذاكرتى وخواطرى ، وكانت
الأفكار المبعثرة غير المعقولة تلح على ، وجعلت مؤخرة رأسى تؤلمنى
وتوخزنى ، واشتدت حرارة فوداى فتكورت على نفسى ، ووضعت
الغطاء على عينى ، وكم تمنيت أن لو استطعت أن أفتح جمجمتى
وأخرج هذه الكتل الدقيقة السوداء اللينة من ثناياها ، وألقى بها
بعيدا بعيدا .. الى الكلاب !

لا يستطيع أحد أن يفهم ولا يصدق . انهم يقولون للمرء
الذى يعجز عن كل شئ : اذهب وضع عنك رأسك .. ومت !
يقولون ذلك حينما لا يريد الانسان أن يموت ، أو حين يكون الموت
هو الذى يعطف على الانسان ، ويريد أن يساعده الموت بالمجىء .

الجميع يخشون الموت ، ولكنى أخشى من حياتى

كم يكون مخيفا حينما لا يريد الموت انسانا ويدفعه عنه ..
ولكن الشئ الوحيد الذى يسلينى أننى منذ أسبوع قرأت فى
الجريدة أن شخصا فى النمسا حاول الانتحار ثلاث عشرة مرة ..
وجرب جميع وسائله .. شنق نفسه فقطع الحبل .. ألقى بنفسه

فى النهر فأخرجوه من الماء ٠٠ الى آخره ، وأخيرا حينما وجد نفسه وحيدا فى المنزل قطع كل عروقه وشرايينه بسكين المطبخ ، كانت هذه هى المرة الثالثة عشرة والتى مات فيها ٠

ان هذا يبعث السلوان فى نفسى

ليس هناك شخص يكتسب التصميم على الانتحار ، ان الانتحار موجود عند البعض ، فى أصلهم وفى طبيعتهم ، لا يستطيعون الهرب من برائته ، ان القدر الذى يحكم ، وفى نفس الوقت أنا الذى أعددت مصيرى ، ولا أستطيع الآن الهروب منه ٠ لا أستطيع الهروب من نفسى !

أجل ما الذى يمكن عمله ؟ ان المصير أقوى منى

أية أهواء أخذت تضرب فى رأسى ٠ أردت من كل قلبى أن أكون طفلا ، « وكلين باجى » مربيتى العجوز كانت تجلس على رأسى وأنا راقدة فى الفراش ، فتقص على قصة وهى تبتلع لعابها ، حتى تغلق عيناي ببطء ، ويأخذنى النوم ٠ أخذت أفكر ورأيت أننى أتذكر بعض أجزاء حياتى الطفولية جيدا وكأنها حدثت بالأمس ٠ أرى أنه ليس ثمة فاصل بينى وبين طفولتى الى هذا القدر ٠ والآن أرى كل حياتى السوداء الوضيعة التى لا نفع فيها ٠ هل كنت سعيدا فى ذلك الوقت ؟ لا ٠ أى خطأ كبير يقع الناس فيه ، انهم يتصورون ان الطفل سعيد ٠ لا ٠ انى أتذكر اننى كنت حساسا أكثر فى ذلك الوقت ، وكنت حينذاك مقلدا وماكرا أيضا ، وربما كنت ألهو وأضحك أيضا فى الظاهر ٠ ولكن فى الباطن كنت لأقل عشرة لسان أو أته حدث عابر لا نفع فيه أشغل تفكيرى لساعات طويلة ٠ كنت أكل نفسى بنفسى ، فليأخذ هذا الطبع الذى فى مغسل الموتى ٠ والحق بجانب هؤلاء الذين يقولون ان الجنة والنار

داخل المرء .. وان بعض الناس يأتون الى هذه الدنيا سعداء
والبعض الآخر أشقياء .

أخذت أنظر الى نصف القلم ذى المداد الأحمر الذى كان فى
يدى والذى كنت أكتب به مذكراتى وأنا فى الفراش . بنفس هذا
المداد كتبت موضع لقائى لتلك الفتاة التى كنت قد تعرفت عليها
أخيرا .. والتى ذهبت معها مرتين أو ثلاثا الى السينما .. فى آخر
مرة كان فيلما استعراضيا غنائيا .. وفى جزء من البرنامج كان
مطرب شيكاجو الشهير يغنى Where is my Silvia ، ومن شدة
انتشائى أغمضت عينى وأرهفت السمع . وما زال صوته القوى
الجذاب يرن فى أذنى ، وأخذت قاعة العرض تهتز .. وبدا لى أنه
لا يجب أن يموت مطلقا . ولم أستطع أن أصدق أن هذا الصوت قد
يصمت فى يوم من الأيام .. وكنت قد حزنت من غناؤه الجميل فى
الوقت الذى تلذذت به ، كانت نغماته وتموجاته تجعلنى أتخيل أنهم
أتوا بقوس الكمان وأخذوا يداعبون به عروقى وشرائينى ، وأن جميع
أوصالى اندمجت مع النغم ، فأخذت ترتعش وتذهب بى الى رحلات
خيالية . وفى الظلام مررت يدى على صدر الفتاة ، فأصبحت عيناها
مخمورتين ، وأصبحت أنا أيضا فى حالة غريبة ، وفيما أذكر
كانت حالة حزن وهناء .. لا يستطيع تفسيرها ، وطفقت أقبل
شفتيها النضرتين وتوردت وجنتاها وأخذ كل منا يلصق نفسه
بالآخر .. ولم أفهم موضوع الفيلم ، وأخذت أداعب يديها وقد
ألصقت نفسها هى الأخرى بى .. وهذه الحالة أصبحت بالنسبة لى
كأنها حلم ..

ولقد مرت تسعة أيام منذ افترقنا لآخر مرة حتى الآن ، وفى
آخر لقاء قررت أن أذهب غداته اليها ، وأحضرها معى هنا .. الى
حجرتى ، وكان منزلها بالقرب من مقبرة منبارناس ، وفى الموعد

ذهبت لأحضرها ، وفى جانب الشارع نزلت من عربة قطار يسير
فى نفق ٠٠ وكانت الريح تهب باردة ، أما الجو فكان مثقلا بالسحب
٠٠ ولا أدري ماذا حدث ٠٠ اذ ندمت ٠٠ لا لأنها أتت فعلا قبيحا ،
ولا لأنى لم أسر منها ٠٠ ولكن قوة ما أعادتني ، لأنى لم أرد أن أراها
ثانية ٠ بل كنت أريد أن أجثث كل علاقة لى بالحياة ٠ وذهبت
بلا ارادة الى المقابر ٠٠ وبجوار الباب كان الحارس جالسا وقد لف
نفسه فى معطف كحلى ، وكان صمت عجيب يسيطر على المكان ،
وأخذت أخطو ببطء وأنا أنظر دهشا الى شواهد القبور والصلبان
المعلقة فوقها وألوان الزهريات الصناعية المختلفة ، والحضرة التى
كانت موضوعة بجوار القبور أو فوقها ، وأخذت أفكر بينى وبين
نفسى ٠٠ كم هم سعداء ! أخذت أحسد الموتى الذين تحللت
أجسادهم تحت التراب ٠٠ ولم يكن قد ظهر عندى احساس بالحسد
الى هذه الدرجة قط ٠٠ وبدا لى أن الموت سعادة ٠٠ نعمة لا تعطى
للمرء بسهولة ٠٠ ولا أدري بالضبط كم مر من الوقت وأنا أنظر
بجمود وقد ذهبت الصبية من خاطرى نهائيا ، ولم أحس بتيار
الهواء البارد ، وكأنى كنت الى الموتى أقرب منى الى الأحياء وأكثر
فهما للغتهم ، وعدت ٠٠ لا لأننى لا أريد أن أرى هذه الصبية مرة
ثانية بل أريد أن أبتعد عن كل شىء وكل عمل ٠٠ أريد أن أكون
يائسا وأموت ٠٠ أية أفكار معقدة وردت الى ٠٠ ربما أهذى ٠

كنت لأيام آخذ الفأل من أوراق اللعب ، لا أدري كيف أصبحت
أعتقد فى الحرافات ، لبثت آخذ الفأل عن عقيدة اذ انه لم يكن لدى
عمل آخر ، ولم أستطع عمل شىء آخر ٠٠ كنت أريد أن أقامر
بمستقبلى ، واستخرت الفأل هل أتخلص من نفسى أم لا فجاء
بالايجاب ٠ وقد حسبت ذات يوم فوجدت أنى قد جلست ثلاث
ساعات ونصف آخذ الفأل من أوراق اللعب ، كنت أخلطها أولا ، ثم
أرتب على المنضدة ورقة على الوجه وخمسا على الظهر ، وأتناول

الحمس التى على الظهر فأضع منها واحدة على الوجه والباقى على الظهر ، واستمر على هذا الترتيب حتى تأتى الورقة السادسة من نوع الأوراق التى على وجهها ، ثم أرتبها فى نسق معين بحيث يستقر الآس الأسود والأحمر فى فاصلة على بعضها وحتى يكون الترتيب ملك ، بنت ، ولد ، عشرة ، تسعة ٠٠ وهلم جرا ، وكلما قلت فئة أجعل الورقة التى تحتها على وجهها ، وإذا كانت هناك خمس نقاط أو أقل كان الفأل أحسن ، أما بقية الأوراق التى فى يدى فكنت أقسمها الى فئات ثلاثة ثلاثة بعضها فوق بعض ، وإذا خرجت ورقة مناسبة كنت أضعها على المنضدة ، ولكن ينبغى أن لا تزيد عن الفئة السادسة ، كنت أضع الأوراق ذات الفئة الواحدة (الآس) على حدة ، وإذا كان الفأل حسنا تكون كل الأوراق المرتبة فوق بعضها من لون واحد ، وكنت قد تعلمت أخذ الفأل بهذه الطريقة منذ طفولتى وأخذت أقتل بها وقتى .

منذ سبعة أيام أو ثمانية كنت جالسا فى مقهى ، وكان فى مواجهتى رجلان يلعبان النرد ، وقال أحدهما لرفيقه الذى كان ذا وجه أحمر ورأس صلعاء ولفيفة موضوعة تحت شاربه المعلق ، وقد أخذ ينصت اليه فى هيئة الحمقى : « لم يحدث مطلقا أنى ربحت من القمار ، فأنا أخسر تسع مرات فى كل عشرة مرات » ، وأنصت اليهما حائرا ، ماذا كنت أريد أن أقوله لهما ؟ لا أدرى ، وعلى كل فقد سرت بعد ذلك فى الشوارع على غير هدى ، وقد فكرت مرات عديدة فى أن أغمض عيني ثم أتقدم وأضع رأسى تحت عجلات إحدى السيارات التى تمر أمامى ، ولكنه كان موتا صعبا ، ومن أين كنت أستريح بعده ؟ وربما بقيت حيا من ثمانية ٠٠ هذا هو التفكير الذى كان يؤدى بى الى الجنون ٠٠ وتجولت فى أربعة شوارع وأماكن مزدحمة ٠٠ وفى وسط هذا الجمع الذى كان يروح ويجىء ، وأصوات حوافر الخيل التى كانت تجر العربات، وأبواق السيارات،

وفى تلك الضوضاء .. كنت وحيدا منفردا . وكنت بين ملايين الناس كأننى أجلس فى زورق محطم تاه فى محيط . كنت أجلس وأحس أنهم أخرجونى من المجتمع بعد فضيحة .. ورأيت أننى لم أخلق لهذه الحياة ، وأخذت آتى بالأدلة والبراهين بينى وبين نفسى ، وأنا أسير بخطى ملولة ورتيبة .. ووقفت أمام واجهة زجاجية عرضوا فيها لوحات مرسومة ، ونظرت إليها فترة مبهوتا ، وأسفت: لماذا لم أصبح رساما ، انه العمل الوحيد الذى أحبته وكان يسرنى .. وفكرت فوجدت أنه فى الرسم فقط أستطيع أن أكتشف عزاء صغيرا لنفسى .. ومر عامل بريد بجوارى واستمر ينظر الى عنوان خطاب من وراء منظاره ، وأية أفكار ساورتنى ! لا أدرى ربما تذكرت عامل البريد فى ايران ، أو عامل البريد فى منزلنا .

ليلة الأمس حاولت أن أغمض جفنى بكل وسيلة فلم أستطع وظهرت أمام عيني أفكار متقاطعة وأحداث مثيرة !! لم تكن أحلاما اذ أننى لم أكن قد نمت بعد ، ولا كانت كابوسا فأنا لم أكن نائما أو يقطا ، ولكننى كنت أراها . وكنت ضعيفا مهدم البنية مريضا ثقيلًا ، وآلمنى رأسى . ومرت هذه الكوابيس المخيفة أمام عيني وتصيب العرق غزيرا من جسدى ، وكنت أرى كراسة معلقة فى الفضاء وقد فتحت والأوراق تنزل منها ورقة ورقة ، ومرت جماعة من الجند ولكن وجوههم لم تكن واضحة .. وكان الليل مظلمًا ومفتتا للكبد ، ممتلئا بالأشباح المخيفة الغضبية ، وكلما أردت أن أغمض عيني وأسلم نفسى للموت كانت تظهر هذه الحيالات المثيرة للدهشة .. دائرة تدور حول نفسها وهى ترمى بالنيران ، وميت طاف على وجه نهر ، وأعين تنظر الى من كل جانب .. الآن أتذكر كل هذه الأشكال المجنونة الغضبية التى كانت تهجم على . كان هناك رجل عجوز بوجه ملوث بالدم قد ربط فى عمود ، أخذ ينظر الى ويضحك ، وأخذت أسنانه تبرق . وكان هناك خفاش يضرب

وجهي بأجنحته الباردة ، وأخذت أسير على حبل رفيع كانت تحته دوامة وكنت أنزلق . فهممت بالصراخ ، ولكن يدا وضعت على كتفي وأخذت يد ثلجية تضغط على حلقي وبدا لي أن قلبي كان قد توقف ، وكانت هناك الصرخات المشنومة التي كانت تأتي من أعماق ظلام الليل ، والوجوه التي انمحي ظلها من أحد جانبيها كانت تبدو واحدة واحدة ثم تختفي . ماذا كنت أستطيع أن أفعل حيالها ؟ انها كانت قريبة جدا وكانت بعيدة جدا في نفس الوقت !! . لا لم أكن أراها في النوم لأن النوم لم يكن قد اختطفني بعد .

لا أدري ، لقد كنت أتشفى بأن الجميع يطيعونني فصرت اليوم أتشفى بأن أطيع نفسي ، ولكن ثمة تفكيرا واحدا يجعلني مجنونا . انني لا أستطيع أن أمنع نفسي من الابتسامة ، ولكن أحيانا تنفخ الابتسامة على فمي ، وشيء آخر أن أحدا لا يعلم أصل مرضي ، وكلهم مخدوعون في ، فأنا منذ أسبوع أدعى المرض ، أو أنني أصبت بمرض غريب ، وسواء أردت أم لم أرد كنت قد تناولت لفافة وأشعلتها . لماذا أدخن ؟ أنا نفسي لا أدري فان ابهام يدي اليسرى وسبابتها هما اللتان تمسكان باللفيفة ونصفها الذي في فمي والدخان الذي أبدده في الهواء . كل هذا أيضا نوع من المرض . والآن عندما أفكر في ذلك يرتجف جسدي . انني أعذب نفسي بوسائل مختلفة منذ أسبوع وليس ذلك بهين كنت أريد أن أكون مريضا . ومنذ بضعة أيام كان الجو باردا ، فذهبت وفتحت صنبور الماء البارد على أولا ، ثم فتحت نافذة الحمام والآن عندما أتذكر ذلك تصيبني رعدة ، لقد حدثت لي عدة أعراض . زادت أنفاسي بطءا ، وأحسست بالألم في ظهري وصدري، وقلت لنفسي أخيرا تم الأمر : غدا سوف أصاب بآلم عنيف في الصدر ، ثم ألزم الفراش ، ويزداد الآلم حدة ، وبعد ذلك أتخلص من نفسي . وحينما استيقظت غداة ذلك اليوم لم يعترني أدنى احساس بأنني أصبت بالبرد

فخلعت ملابسى ثانية ، وحينما أظلم الجو أغلقت الباب من الداخل وأطفأت المصباح الكهربى . . . وفتحت نافذة الحجره ثم جلست أمام لدعات البرد . . . وكانت تهب ريح بارده ، وجعلت أرتعد حتى أننى سمعت صوت اصطكاك أسنانى بعضها ببعض ، وأخذت أنظر الى الخارج ، وكان الرائحون والغادون وظلالهم السوداء ، والعربات المارة تبدو لى أشياء صغيرة من الطابق السادس للعمارة . . . وكنت قد أسلمت جسدى العارى للرياح وأخذت أتلقى . . . وحينما تذكرت اننى صرت مجنوننا أخذت أضحك من نفسى . . . أضحك على الحياة . . . وكنت أعلم أنه فى مسرح الحياة الكبير يلعب كل امرئ دورا حتى يحين جله ، وأنا أيضا بدأت بهذا الدور لأننى كنت أعلم أنه سيخرجنى أسرع من الميدان . . . ويبست شفتى وآلم البرد جسدى ، ولم يجد ذلك نفعا ، فأدفأت نفسى ، ثم خلعت ملابسى فجأة ، وبعد أن نضح العرق من جسدى سقطت على فراش أرتجف طوال الليل حتى الصباح ، ولكنى لم أتم قط ، واكتشفت اصابة بسيطة بالبرد . . . غير أن المرض ذهب كلية بمجرد أن انتابتنى اغفائة من النوم ، ورأيت أن هذا لم يجد نفعا . . . وظللت ثلاثة أيام لا أتناول طعاما وألزم النافذة ليلا بلا ملابس لأصيب نفسى بالبرد والمرض . . . وذات ليلة عدوت فى شوارع باريس خالى البطن ، ولما تعبت جلست على سلم بارد مظلم فى شارع ضيق من شوارع باريس وكان قد مضى من الليل نصفه حينما مر على عامل ثمل يتعثر ، وعلى ضوء مصباح الغاز الباهت الغامض رأيت امرأة ورجلا يتحدثان معا ثم سارا فنهضت وأخذت أسير . . . وهناك على أرصفة الشوارع كان المساكين الذين لا مأوى لهم يغطون فى النوم .

وأخيرا أصبحت طريح الفراش من شدة الضعف ، ولكنى لم أكن مريضا . . . وجاء أصدقائى لعيادتى ، وكنت أظهار بالرجفة أمامهم ، وأتمارض حتى رقت قلوبهم من أجلى ، وكانوا يظنون أننى

سأمتوت فى الغد ٠٠ وقلت ان بقلبى نوبة انقباض ٠٠ وحينما يخرجون من حجرتى كنت أضحك من غفلتهم ٠٠ وكنت أقول لنفسى: ربما كان أصلح عمل لى فى هذه الدنيا ٠٠ أن أكون ممثلا مسرحيا .

وكم حبكت لعبة المرض هذه التى لعبتها أمام أصدقائى وأمام الطبيب أيضا ، وكلهم صدقوا اننى مريض حقا ، وكلما سألونى كنت أقول ان بقلبى نوبة انقباض لأن الموت الفجائى ينسب فقط الى السكتة القلبية ٠٠ فان مرض الصدر الجزئى لا يمكن أن يميت دفعة واحدة .

وكان هذا أيضا احدى المعجزات ٠٠ بحيث أننى حينما أفكر تتنابنى حالة غريبة ، سبعة أيام قضيتها فى تعذيب نفسى ، ولو طلبت الشاى مرة نظرا لاصرار أصدقائى وشربته فان حالتى تتحسن ٠٠ وكان كل ما يخيفنى أن ينتهى المرض نهائيا . وكم كنت أشتهى الخبز الذى كانوا يأتون به بجانب الشاى ، ولكنى لم أكن أطعمه ٠٠ وكنت كل ليلة أقول أننى صرت طريح الفراش مرة ثانية ، وفى الغد لن أستطيع القيام من مكانى ٠٠ كنت أذهب وأحضر الغلاف الذى كنت قد ملأته بمسحوق الأفيون أضعه فى درج المنضدة التى بجوار سريرى لأخرجه وآكله عندما يشتد المرض ولا أستطيع الحراك من مكانى ، ولكن المرض العنيد لم يأت ولم يكن يريد أن يأتى . وذات مرة اضطرت أمام أحد أصدقائى أن آكل قطعة صغيرة من الخبز مع الشاى وأحسست ان حالتى قد تحسنت كلية فخفت من نفسى ٠٠ خفت من روحى العنيدة وكان مخيفا ٠٠ وليس ما أكتبه مما يمكن تصديقه ٠٠ الا أن حواسى سليمة ٠٠ وأنى لا أهذى ٠٠ بل أنا أتذكر جيدا .

ترى أية قوة هذه التى ظهرت فى ٠٠ ان شيئا من هذا لم يجد ٠٠ يجب أن أمرض بحق ، أجل هناك سم قاتل فى حقيبتى .

تذكرت السم الذى يهلك سريعا الذى اشتريته ذلك اليوم المطير بعد ألف سعى وجهد واحتيال ، اشتريته باسم مزور وأعطيت اسما وعنوانا كاذبين ، أجل « سيانور البوتاسيوم » الذى كنت قد قرأت عنه فى كتاب طبى وأعلم الأعراض التى تنجم عن تعاطيه ٠٠ التشنج وضيق التنفس ثم طلوع الروح ، ويكفى اذا كانت المعدة خالية عشرون جراما منه لتقتل فورا أو خلال دقيقتين ، وكنت قد لففتها فى الأوراق الخاصة بالشيكولاتة وغلفتها بطبقة من الشمع ثم وضعتها فى زجاجة بلورية مقفلة حتى لا يفسد من تعرضه للهواء ، وحملته معى كالجواهر الغالية ٠ ولكن من حسن حظى كان هناك شيء أثمن منه ٠٠ الأفيون المهرب الى باريس ، الأفيون الذى أخذت أبحث عنه كثيرا وسقط فى يدي صدفة ، وكنت قد قرأت أن الموت بالأفيون أكثر راحة وأحسن من السم الذى حصلت عليه حينئذ ، كانت كل رغبتى أن أمرض بحق ٠٠ ثم أتناول الأفيون ٠

فضضت غلاف سيانور البوتاسيوم ، ونحت جرامين تقريبا من كتلة الببضاوية ، ثم وضعتها فى أنبوبة ورقية خالية وألصقت فوهتها بالصمغ وأكلتها ٠ ومرت نصف ساعة ولم أحس بشيء ، وكان ظاهر الغلاف الذى وضع فيه ذلك السم ملحا ، وعمدت اليه مرة ثانية ونحت منه هذه المرة خمس جرامات ثم ذهبت الى فراشى ونمت ، نمت على أمل ألا أقوم ثانية ٠٠ ان هذا التفكير يصيب كل عاقل بالجنون ٠٠ لم أكن أحس بشيء قط ، ان السم القاتل لم يؤثر فى ، الآن ٠٠ أنا حى ٠٠ والسم فى حقيبتى ٠٠ أتنفس ببطء فى الفراش ، ولكن هذا لم يكن من أثر الدواء ٠٠ لقد صرت « معدنى الجسم » المعدنى الجسم الذى يقصون عنه فى الأساطير ٠٠ هذا شيء غير مصدق ٠٠ ولكنه يجب أن أمضى فلا جدوى لبقائى ، أن حياتى مرفوضة وأنا مجبر على أن أحيها وهى لا فائدة منها ، يجب أن أخلص من نفسى وأذهب سريعا ، هذه المرة ليست مزاحا ، مهما

فكرت فليس ثمة شيء يربطني بالحياة .. لا شيء .. ولا أحد .
وتذكرت ما قبل أول أمس .. حينما كنت أذرع الحجرة
كالمجنون من ركن الى ركن ، وكانت هذه الأشياء تمر اثر بعضها
أمام عيني .. ملابسى المعلقة على الحائط ، وانا الغسيل .. المرأة
والصوان والصور التى على الحائط والفراش والمنضدة التى فى
وسط الحجرة ، والكتب المبعثرة عليها ، والحذاء الملقى تحت
الصوان ، والحقائب الملقاة فى أركان الحجرة .. لم أكن أراها ولم
أكن أدقق فيها .. ففى أى شيء كنت أفكر ؟ لا أدرى .. كنت أسير
بدون هدف .. ثم عدت الى وعيى دفعة واحدة .. كنت قد رأيت
هذا السير الوحشى فى مكان ما ، وقد أخذ هذا المكان يجذب تفكيرى
نحوه .. لا أدرى أين .. لقد تذكرت فى حديقة حيوانات برلين ،
رأيت لأول مرة الحيوانات المفترسة ، وما كان منها مستيقظا فى
قفصه كان يسير هكذا . أجل : بهذه الطريقة ، واذن فأنا فى هذا
الموقف قد صرت مثل هذه الحيوانات ، وربما صرت أفكر مثلها أيضا
.. وأحسست فى نفسى أننى مثلها ، هذا السير بلا ارادة ، والدوران
حول النفس ، وحين أقابل الحائط احس بالسليقة أنها مانع ، فأعود
أدراجى ، هذه الحيوانات كانت تفعل نفس الشيء .

لا أدرى ماذا أكتب ، ان دقائق الساعة تجلجل هكذا بجوار
أذنى وأريد أن أحملها وأقذف بها من النافذة .. هذا الصوت المهل
الذى يدق طوال الزمن فى رأسى بمطرقة . مكثت أسبوعا أجهز
نفسى للموت ، مزقت كل الخطابات والأوراق المكتوبة التى لدى ،
وأبعدت ملابسى القذرة ، حتى لا يجد الذين سيفتشون بعد مماتى
شيئا قذرا ، ولبست ملابسى الجديدة الداخلية التى كنت قد
اشتريتها حتى يروننى أنيقا حين يحملوننى عن فراشى ، ويأتى
الطبيب للكشف على .. وحملت زجاجة الكلونيا فأرقتها على الفراش
حتى يصير زكى الرائحة .. ولكنى لم أطمئن أيضا هذه المرة ، فان

كل شيء مما أفعله لا يشابه أعمال الآخرين ، فقد كنت أخاف من عناد روجي هذه المرة أيضا ، وكأنما كان هذا امتيازاً ورفعة لا يعطيان لأحد ببساطة .. وكنت أعلم أنه لا شخص يموت بمثل هذه السهولة .

وأخرجت صور أقاربي ، وأخذت أنظر إليها ، وتجسد كل واحد منهم أمام عيني طبق ما شاهدته ، سواء كنت أحبهم أو لا أحبهم .. من أريد رؤيته منهم ومن لا أريد أن أراه .. لا .. ان ذكرياتهم كانت واضحة جداً أمام عيني ، ومزقت الصور ، فلم تكن تربطني علاقة حب بهم ، وأخذت أحاكم نفسي ، وجدتنى لم أكن رجلاً حنوناً ، كنت قاسياً خشناً نافراً من الحياة .. ربما لم أكن هكذا فى الأصل ، ولكن حياتى وما عشت فيه من أيام جعلتنى هكذا .. لم أكن أخشى الموت أو أى شيء آخر ، بل على العكس اكتشفت فى نفسى مرضاً .. جنوناً خاصاً كان يجذبني نحو الموت .. كما لو كان مغناطيساً .

هذا أيضاً ليس جديداً ، تذكرت حكاية حدثت لى منذ خمس سنوات ، كنت فى طهران ، وذهبت ذات يوم فى الصباح الباكر الى شارع شاه آباد لأشتري أفيونا من أحد العطارين ، ووضعت أمامه عملة قيمتها ثلاثة تومنان وقلت له .. أعطني بقرانين أفيونا ، فأخذ يصلى على النبى بلحيته الحمراء المحناة والمنشفة التى كانت على رأسه ، وأخذ يختلس النظر الى وكأنه كان ملماً بالفراصة أو كأنه قرأ أفكارى وقال : ليس معى فكة ، فأخرجت قرانين وأعطيتهما له فقال : فى الحقيقة لا أبيع أفيونا ، ولما سألته عن السبب قال : أنت شاب وما تزال جاهلاً ، ويمكن أن تتناوبك نوبة عصبية .. فتأكل الأفيون .

ولم أظهر اصراراً أنا الآخر .

ليس هناك أحد اكتسب التصميم على الانتحار . . ان الانتحار عند البعض موجود فى فطرتهم وفى أصلهم . . أجل ان مصير المرء مكتوب على جبينه ، وقد ولد الانتحار أيضا مع بعض الأشخاص . . لقد جعلت منى الحياة مثارا للسخرية ، كانت الدنيا وما فيها كلها فى عيني لعبة وعارا ، شيئا تافها لا معنى له . . وأردت أن أنام ولا أقوم ثانية ، ولا أرى أحلاما أيضا . . ولكن ما دام الموت عند كل الناس شيئا غريبا وعجيبا أريد أن أصيب نفسى بالمرض الشديد حتى أصير عاجزا جديرا بالموت وبعد أن تمتلئ أنظار الجميع وأسماعهم بذلك أتناول الأفيون فيقولون مرض ومات .

أخذت أدون مذكراتى فى فراشى ، وفى الثالثة بعد الظهر جاء ثلاثة أشخاص لعيادتى ، وذهبوا الآن وبقيت وحيدا . رأسى يدور وجسمى مسترخ مستريح وفى معدتى فنجان من الشاى باللبن . وظل جسدى هكذا مشلولا ضعيفا فيه حرارة المرض . كنت قد سمعت لحنا جميلا من اسطوانة الجرامافون وتذكرته ، وأردت أن أعيده فلم أستطع . ليتنى استمعت اليه مرة ثانية . . الآن لا أسعد بحياتى ولا أشقى بها . أنا حى بلا ارادة بلا رغبة ، أن قوة فوق قوتى قد ألجمتنى ، وقد شد وثاقى فى سجن الحياة بسلاسل من فولاذ . ولو أننى مت لحملونى الى مسجد باريس ولسقطت بين أيدي العرب الذين لا مرشد لهم ، وأنا نفور حتى من شكلهم ، وعلى أى فلا فرق عندى ، وحتى لو كانوا رمونى فى المبولة بعد الموت لكان ذلك سيان عندى ، ولكن مستريحا . فقط كأن أهل منزلى سيكون ويلبسون الحداد ، ويخرجون صورتي ، ويأخذون فى التحدث عنى وغير ذلك من السخافات لتداولة التى تبدو كأنها فى نظرى تافهة وحماقة ، ولا بد أن بعضهم كان يتحدث عنى بالخير ، وبعضهم كان يذمنى ، ولكنى كنت أصير أخيرا شيئا منسيا اذ أننى فى الأصل متكبر غير ألوف .

مهما أفكر فان مواصلة هذه الحياة لا فائدة منها . لقد صرت

ميكروبا فى المجتمع ، موجودا يجلب الخسارة ، عالة على الآخرين ، وأحيانا يجن جنونى فأذهب بعيدا ، بعيدا جدا الى مكان أنس فيه نفسى ، وأكون نسيا منسيا ضائعا هباء ، أذهب الى سييريا مثلا وأبدأ حياتى من جديد هناك فى المنازل الخشبية تحت أشجار الصنوبر والسما الرمادية والثلج ، الثلج الغزير وسط الممرات ، أذهب وأستأنف الحياة هناك فى الهند تحت وهج الشمس المحرقة وبين الغابات المتشابكة ، بين الناس الغرباء العجيبين . اذهب الى مكان لا يعرفنى فيه أحد ولا يعرف لغتى فيه أحد . . أريد أن أحس بكل شىء فى داخلى ، ولكنى أرى اننى لم أخلق لمثل ذلك . . لا . . ألسنت عاطلا كسولا جئت الى الدنيا على سبيل الخطأ ، كقطعة من الخشب نجسة الطرفين ، لا يستطيع الامساك بها من أى طرف ، وأغمضت عينى عن مشروعاتى ، وانتحيت جانبا عن الحب . . عن الشوق . . عن كل شىء ، وأيضا فأنا فى دائرة الموتى .

أحيانا أرسم بينى وبين نفسى مشروعات عظيمة ، وأعتبر نفسى جديرا بكل شىء وبكل عمل ، وأقول لنفسى :

أجل ، ان الناس الذين نفضوا أيديهم من أرواحهم . . وأهملوا كل شىء هم الوحيدون الذين يستطيعون اتمام الأعمال العظيمة ، وبعد ذلك كنت أقول لنفسى : وماذا يفيد ذلك وأى نفع فيه ؟ الجنون كله جنون . . لا . . اضرب ، اقتل نفسك ، ليسقط جسدك ، اذهب ، انك لم تهيا للحياة ، قلل الفلسفة ، فليس لوجودك أية قيمة ، ولا يتأتى منك أى عمل ، ولكنى لا أدري لماذا يتدل الموت ؟ لماذا لا يأتى ؟ ولم لم أستطع أن أتتبع غايتى لأستريح ؟ أخذت أعذب نفسى أسبوعا ، وكان هذا كديدى أن لم يؤثر فى السم ، هذا شىء غير مصدق لا أستطيع أن أومن به . . لم أتناول طعاما ، عرضت نفسى للبرد . شربت الحُل ، وكل ليلة كنت أتخيل أننى أصبت بالسل ، وحين أستيقظ فى الصباح يكون حالى أحسن

من اليوم السابق . لمن أستطيع أن أقول هذا ؟ لم تأتني الحمى ، ولم أنم أيضا . . . ولم أغف ، كل هذا واضح في ذاكرتي لكنه غير قابل للتصديق .

حينما كتبت هذا شعرت براحة قليلة ، شعرت بالآلفة مع نفسى وكأننى أنزلت حملا ثقيلًا عن كتفى ، كم يكون حسنا لو أن كل الأشياء كان من الممكن كتابتها ، لو أننى استطعت أن أفهم أفكارى للآخرين ، لو استطعت أن أتحدث ، لا . . . هناك أحاسيس لا يمكن أفهامها للآخرين ، أشياء لا تقال ، انهم يسخرون من الانسان ، وان كل شخص يحكم على الآخر طبقا لأفكاره ، ثم ان لسان الآدمى ناقص وعاجز كالآدمى نفسه . أنا المعدنى الجسم . لم يؤثر السم فى ، أكلت الأفيون ولم يجد نفعا ، ورأيت أخيرا ان كل جهودى ذهبت أدراج الرياح . وكانت الليلة التى سبقت ليلة أمس حين صممت أن أنهى هذه الملهاة قبل أن يفوح النتن أكثر ، فسرت وأخرجت أنابيب الأفيون من درج المنضدة الصغيرة (وكانت ثلاثة فى حجم أنبوبة الأفيون العادية تقريبا) وكان الوقت فى السابعة حين طلبت شايًا من أسفل فأحضروه وشربته ، ولم يأت الى أحد حتى الساعة الثامنة ، فأغلقت الباب من الداخل . . . وسرت فوقفت أمام الصورة المثبتة على الحائط وأخذت أنظر اليها ، ولا أدري أية أفكار أثرت لدى ، ولكنه كان فى عينى رجلا غريبا فأخذت أقول فى نفسى أية صلة لهذا الرجل بى ؟ ولكنى كنت أعرف هذا الوجه وكنت قد رأيته كثيرا . . . وليس عندى أى احساس بالهياج أو الخوف أو السرور من كل الأشياء التى فعلتها ، والتى كنت أريد أن أفعلها ، كلها بدت لى تافهة لا نفع فيها . . . وبدت لى الحياة كلها تبعث على السخرية . . . وألقيت بنظرة على الحجرة . . . كانت كل الأشياء فى مكانها وذهبت الى مرآة باب الصوان ونظرت الى وجهى المشتعل . . . وأغمضت عينى

نصفيا . . . وفتحت فمى قليلا ، ولويت رأسى كالليت ، وقلت فى نفسى : غدا صباحا سأكون على هذه الصورة . . . أولا حين يطرقون الباب لن يرد أحد ، وحتى الظهر سيظنون أنى نائم ، ثم يكسرون مزلاج الباب ، ويدخلون الحجرة ، ويروننى على هذا الحال . وقد مرت هذه الأفكار أمام عينى كالبرق . وحملت كوبا من الماء ، وقلت فى نفسى وأنا أرتعد وقد شعرت ببرودة تامة : انه قرص من الاسبرين . . . وبلعت القرص الأول ، ثم بلعت القرصين الثالث والثالث دفعة واحدة ، وأحسست برعشة قليلة فى نفسى ، وأمسكت رائحة الأفيون بفمى . . . وأخذ قلبى يدق بسرعة ، فرميت اللقافة نصف المنتهية فى المنفضة ، وأخرجت حبوبا طيبة الرائحة ووضعتها فى فى ، وأخذت أمتصها ، ونظرت مرة ثانية فى المرأة ، وأخرى الى أطراف الحجرة ، وكانت كل الأشياء فى مكانها ، وقلت فى نفسى : أخيرا تم الأمر ، وغدا لن يستطيع حتى أفلاطون نفسه أن يوقظنى ، ورتبت أرديتى على الكرسي بجوار السرير ، وألقيت الغطاء المضمخ بالكلونيا فوق رأسى ، وأدريت مفتاح النور ، فأظلمت الحجرة ، وكان ثمة جزء من الضوء على الحائط وأسفل السرير قليلا ، نتيجة الضوء المظلم الضعيف الآتى من خلف زجاج النافذة لم يعد لى عمل آخر ، فقد كنت أنهيت الأعمال كلها سواء كانت جيدها أو رديئها الى هذا الحد . . . ونمت وتقلبت ، وكان كل تفكيرى موجها الى أن لا يأتى أحد لزيارتى ، ويثقل على ، رغم أنى كنت قد قلت للجميع أن لياالى عديدة قد سرت على لم أستطع النوم فيها ، قلت لهم ذلك ليدعوننى مرتاح البال .

فى هذا الموقف كان لدى حب استطلاع عظيم ، وكأنما حدث لى حادث خارق أو أننى مقبل على رحلة هنيئة ، كنت أريد أن أحس الموت جيدا ، فجمعت حواسى ، ولكن أذنى كانت فى الخارج ، وبمجرد أن يقترب منى وقع أقدام كان قلبى يرتجف ، وأخذت

أضغط على جفونى ، ومرت عشر دقائق أو أكثر وليس ثمة خبر ، وكنت قد شغلت رأسى بعدة أفكار مختلفة ، ولم أكن نادما من أجل هذا العمل ، كما لم أكن أخاف ، حتى أحسست أن المساحيق أخذت تعمل عملها ٠٠ ثقلت أولا ، وأحسست بالتعب ، وكان أكثر هذا التعب حول البطن ، وكان يشبه الثقل الناشئ عن عدم هضم ٠٠ ثم انتقل هذا الألم الى الصدر ثم الى الرأس ، وحركت يدى وفتحت عيني فوجدت حواسى كما هى ، وظمئت ، ويبس فمى ، ولم أعد أبتلع لعابى الا بصعوبة ٠٠ وأخذت دقائق قلبى تبطئ ، ومر وقت قليل ثم أخذت أحس أن الحرارة تتسرب من كل جسدى بلذة خاصة ، ومن الأماكن البارزة فى البدن مثل أطراف الأصابع ، وأرنبة الأنف ، وغيره ٠٠ وفطنت فى الوقت نفسه أننى أريد أن أقتل نفسى ، وتذكرت أن هذا الأمر محزن بالنسبة للبعض ، وتعجبت من نفسى ، ولكن كل ذلك بدا لعينى طفوليا وتافها ومضحكا ٠٠ وأخذت أفكر فى أننى الآن مستريح وسأموت بلا تعب فاية أهمية لأن يحزن الآخرون أولا يحزنوا ، أن يبكوا أولا يبكوا ، وصرت أشد ميلا الى اتمام هذا الأمر ، كنت أخشى أن أتحرك أو أفكر فيقلل ذلك من تأثير الأفيون ، كان كل خوفى أن أظل حيا بعد كل هذا الجهد ٠٠ وكنت أخاف أن يكون طلوع الروح صعبا ، أو أن أصرخ حين النزاع وأطلب النجدة من أحد ٠٠ ولكننى أخذت أقول : مهما كان صعبا فان الأفيون يخدرنى ، ولن أحس بشئ قط ٠٠ حسنا اننى أروح فى النوم ، كما أننى لا أستطيع الحركة ولا الحديث ، والباب مغلق من الداخل أيضا •

أجل ، اننى أتذكر جيدا ، ان هذه الأفكار قد راودتنى ، وكنت أستمع الى دقائق الساعة الرتيبة ، وكنت أسمع أيضا صوت أقدام النزلاء الذين كانوا يسيرون فى الفندق ، وكأنما أصبحت حاسة السمع عندى أقوى من ذى قبل • وأخذت أحس بأن جسدى يطير ،

وقد يبس فمى ، وأصبت بصداع بسيط ، وقد سقطت فى حالة من
الاغماء تقريبا ، كانت عينائى نصف مغلقتين ، وتراوحت أنفاسى بين
السرعة والبطء ، وكانت تلك الحرارة اللذيذة تتسرب من كل مسام
جسدى ، كان قد خيل الى أنى ذاهب ، وأردت أن أزيد من شدة
هذا الخيال ، فقد كنت شاعرا بنشوة لا يمكن التعبير عنها ، وكانت
الفكرة التى أردت تنفيذها اننى كلما تحركت أحسست أن هذا يمنع
الحرارة من الخروج ، وأننى كلما نمت فى استرخاء أكثر .. كان ذلك
حسنا .

وأخرجت يدى اليمنى من تحت جسدى ، وتقلبت فنمت على
ظهري ، وكان ذلك أقل ملاءمة ، فتقلبت ونمت فى نفس الحالة
الأولى ، وأسرع الأفيون فى التأثير ، كنت أعلم وكنت أريد أن أحس
بالموت جيدا ، فأسرعت احساساتى وعظمت ، وعجبت : لماذا لم أتم ؟
وكان قلبى يدق ببطء ، وكأنما كان الوجود يخرج من جسدى على
نسق لذيذ متناسب ، ودق قلبى ببطء ، وتنفست ببطء ، وتخيلت
أنه مرت ساعتان أو ثلاثة ، وفى أثناء ذلك دق شخص ما الباب
وفهمت أنه جارى فلم أجبه ، ولم أرد أن أتحرك من مكانى وفتحت
عينى ، ولكننى أغلقتها ثانية ، وسمعت صوتا فتح باب ، فقد كان
يغسل يديه ويصفر ... سمعت ذلك جميعا ، وجاهدت فى أن أفكر
فى أشياء جميلة لذيدة ، وفكرت فى السنة الماضية ، ذلك اليوم الذى
كنت راكبا فيه سفينة ، وكانت الموسيقى تعزف ، وأمواج البحر ،
والفتاة الجميلة التى كانت فى مواجهتى ، وغرقت فى أفكارى ،
وأسرعت خلفها ، وكأنما وجد لى جناح فأخذت أجول فى الجو ، صرت
خفيفا سريعا بطريقة لا يمكن تبيانها . وكان ثمة اختلاف هناك ،
اذ أن النور الذى كنت أراه طبيعيا .. بدا لى من تأثير الأفيون كأنما
كان هذا الضوء نفسه يرى من خلف ثريا أو منشور بلورى ، وأنه
يتجزأ الى ألوان عدة ، وفى هذه الحالة تنتاب الانسان الخيالات

البسيطة الساذجة ، وتكون مثيرة فى عينيه ومدهشة الى حد بعيد ،
ويصبح كل خيال سار لا فائدة فيه ولا هدف من ورائه صورة فتاة
عظيمة ، ولو مر من بعيد أو على مرمى النظر من تفكير الانسان فانه
يتجلى عظيما الى ما لا نهاية ٠٠ وكان الفضاء يتفتح ٠٠ ومرور الزمن
يصبح غير محسوس .

وفى أثناء ذلك صرت ثقيلًا جدا ٠٠ وأخذت حواسي تتموج على
جسدى ، ولكننى كنت أشعر بأننى لست نائما ، وآخر احساس
أتذكره من لذة الأفيون ونشوته أن أقدامى صارت باردتين بلا حس ،
وجسدى بلا حركة ، وأحسست أنى أذهب وأبتعد ، ولكن بمجرد
أن انتهى تأثير الأفيون حتى أحسست بحزن وانقباض يغمرانى الى
ما لا نهاية ، وشعرت أن حواسي عادت الى مكانها ، واجتاحنى تيار من
البرد صعب وشديد ، فأخذت أرتعد بشدة أكثر من نصف ساعة ،
وكنت أسمع صوت اصطكاك أسنانى ٠٠ وبعد ذلك ارتفعت الحرارة
٠٠ حرارة محرقة ، وتصيب العرق من جسدى ، وانقبض قلبى
وضاقت أنفاسى ، وأول تفكير عن لى ان كل ما غزلته قد نكت ، ولم
يكن ما ينبغى أن يكون ، وتعجبت كثيرا من قوة روحى ٠٠ وفهمت
أن قوة مظلمته وشقاء لا يوصف فى حرب معى .

ونفضت بصعوبة بنصف جسد من فراشى ، وأدريت مفتاح
النور فأضيئت الغرفة ، ولا أدري لماذا ذهبت يدي ناحية المرأة
الصغيرة التى وضعت على المنضدة التى بجوار السرير ، ورأيت
وجهى قد تورم ، ولونى شحب ، ولسانى قد اسود ، والدمع يسيل
من عينى ، وانقبض قلبى بشدة ، وقلت فى نفسى ٠٠ انه على الأقل
قد فسد قلبى ٠٠ فاطفأت المصباح وسقطت فى الفراش .

لا ٠٠ لم يفسد قلبى ، انه اليوم أحسن ، ان الباذنجان
الردىء لا تصيبه الآفات وجاء الطبيب الى ، واستمع الى دقات قلبى ،

وجس نبض ، ورأى لسانى ، ووضع الترمومتر فى فمى وقام بغير ذلك من الأعمال العادية التى يفعلها الأطباء بمجرد قدومهم ، والتى تتم بطريقة واحدة فى جميع أنحاء العالم ، وأعطانى ملح الفواكه وقينقونة ، انه لم يفهم ألى قط ، لا أحد يستطيع أن يفهم ألى ٠٠ هذه الأدوية التى وضعت على المائدة سبعة أنواع أو ثمانية من أجل ٠٠ مضحكة ، وأنا أضحك بينى وبين نفسى ٠٠ أى ملهى هنا !!

ان دقائق الساعة كانت تتوالى بجوار أذنى ٠٠ وكان صوت أبواق السيارات وصفير العجلات البخارية يأتى من الخارج ، ونظرت الى الأوراق الملصقة على الحائط فقد كانت أوراقا أرجوانية قاتمة رفيعة ، وكانت هناك باقة من الورد الأبيض وعلى أغصانها يقف طائران أسودان وجها لوجه ٠٠ وكانت رأسى فارغة ٠٠ وأخذت معدتى تتآكل ، وتحلل جسدى ٠٠ وحينما نظرت الى الصحف التى بقيت على الصوان فى حالة خاصة بدا لى مرة واحدة أنها غريبة عن عينى وعجبت ٠٠ لماذا أنا حى ؟ لماذا أقتل نفسى ؟ لماذا جعت ؟ لماذا آكل ؟ لماذا أسير ؟ لماذا أنا هنا ؟ هؤلاء الناس الذين أراهم من هم وماذا يريدون منى ؟

الآن أعرف نفسى جيدا ، نفسى كما هى ، بلا زيادة أو نقصان ، لا أستطيع عمل شىء ، وقد سقطت فى الفراش متعبا مهتما ٠٠ تدور أفكارى ساعة بساعة ٠٠ وتظل تدور فى نفس دوائر اليأس ، وقد بلغ صبرى مداه ٠٠ لقد جعلنى وجودى أتعجب ، كم يكون مريرا مهولا ذلك الوقت الذى يحس فيه الانسان بنفسه ٠٠ وحينما نظرت فى مرآة ضحكت على نفسى ، وبدا وجهى ميني مجهولا غريبا مضحكا الى حد كبير ٠٠٠ لقد فكرت فى هذا مرات عديدة ، لقد صرت معدنى الجسم ، ان المعدنى الجسم الذى يكتبون عنه فى الحرافات هو أنا ٠ ان هذا شىء معجز انى أومن الآن بجميع الحرافات والمعميات والأفكار المثيرة تمر من أمام عينى ٠٠ يا له من معجز ، لقد أدركت الآن ان

الله أو أى اسم يسمونه فى ظلمه الذى لا نهاية له قد خلق
المخلوقات قسمين : سعداء وأشقياء ، يساعد الأولين ويزيد فى
تعذيب ومضايقة الآخرين ، الآن أو من بأن ثمة قوة وضيفة مفترسة
للتعاسة ، وبملاك آخر يساعد بعض الناس .

وأخيرا بقيت وحيدا . . ذهب الطبيب الآن . . حملت الورق
والقلم . أريد أن أكتب ، لا أدري ماذا أكتب ، اما انه لا رغبة
عندى ، واما أننى لا أستطيع الكتابة من كثرة الرغبات ، ان هذا فى
حد ذاته شقاء . . ولا أستطيع أن أبكى فربما منحنى البكاء بعض
العزاء . . لا أستطيع فقد أصبح شكلى شكل المجانين . نظرت فى
المرآة فوجدت شعري مشعثا وعينى مفتوحتين باهتتين . أخذت أفكر
فى أن وجهى لا يمكن أن يكون على هذه الصورة ، وأن وجوه الكثيرين
تختلف عن تفكيرهم وهذا كان يخرجنى عن طورى أكثر . . كلما
أعلم أننى مستاء من نفسى ، حين آكل أستاذ من نفسى ، وحين أسير
أستاذ من نفسى ، وحين أفكر أستاذ من نفسى . . أية سخافة ، وأى
شئ مخيف !! لا . . ان هذه قوة فوق مستوى البشرى ، شئ ساحق
. . أنا الآن أو من بهذه الأنواع من الأشياء . . ليس هناك شئ آخر
يؤثر فى . . شربت السم ولم يؤثر فى . . أكلت الأفيون وعدت حيا
مرة ثانية . . وأعلم أنه حتى لو لدغتنى التنانين لماتت هى . . لا . .
لن يصدق أحد . . هل كانت هذه السموم فاسدة ؟! ألم تكن بالقدر
الكافى ؟! ألم تكن زيادة عن الحد العادى ؟! وهل اكتشفت مقدارها
متغيرا فى كتب الطب ؟! وهل حولت يدي السم الى عسل ؟!
لا أدري . . انتابتنى هذه الأفكار مائة مرة ، وليس فيها جديد . .
وتذكرت أن العقرب حينما تحبس فى النار تلدغ نفسها . . أليس
حولى حلقة من نار ؟!

وأمام نافذة حجرتى على حافة غطاء السقف الأسود الذى تجمع
ماء المطر فى تجويفه كان يقف عصفوران ، وكان أحدهما يضع منقاره

فى الماء .. ثم ىرفع رأسه وكان الآخر قد انكمش الى جواره ىنظف نفسه من الحشرات .. فتحركت ، فشقق كلاهما ثم طار .. وكان الجو مثقلا بالسحب ، وأحيانا كانت الشمس الشاحبة تبدو من خلف السحاب ، وكانت العمائر المرتفعة المتجاورة مغطاة بالضباب .. وبقيت سوداء مئيرة للحزن تحت وطأة هذا الجو المطير الثقيل .. وكان صوت المدينة المختنق البعيد مسموعا .. هذه الأوراق المزيفة التى أخذت الفأل منها .. الأوراق الكاذبة التى خدعتنى هناك فى درج المنضدة ، والأشد اثارة لضحكى أنى لا أزال آخذ الفأل منها .

ما العمل ، ان المصير أقوى منى .

ان من الخير لو ىستطيع الانسان بكل هذه التجارب التى أخذها من حياته أن يأتى الى هذه الدنيا ثانية ثم يبدأ حياته من جديد .. ولكن أية حياة ؟ هل هى فى يدى ؟ وأية فائدة منها ؟ انها قوى مركبة عمياء مخيفة تركب على رؤوسنا .. هناك أشخاص تدير مصائرهم نجمة شؤم ، فهم ىسحقون تحت ثقلها ، ويريدون أن ىسحقوا .

لىست لى بعد الآن رغبة ولا حقد ، لقد فقدت كل ما هو انسانى وتركته ىضيع .. والانسان فى حياته ىجب أن ىكون ملاكا أو انسانا أو حيوانا ولم أصر أحدا منها قط . كانت حياتى ضائعة تماما ، لقد جئت الى الدنيا متكبرا أبله مسكينا ، والآن لم يعد من الممكن أن أعود وأخذ طريقا آخر .. لا أستطيع ثانية أن أعدو خلف هذه الظلال الفارغة . ولا أن أمسك بتلابيب الحياة وأصارعها ، وأنتم يا من تتخيلون أنكم تعيشون حقيقة ، أى دليل منطقى فى أيديكم ؟ أنا لا أريد ثانية أن أمنح أو أمنح ، أن أذهب الى اليمين او الى اليسار ، أريد أن أربط يدى بالمستقبل ثم أنسى الماضى .

لا .. لا أستطيع الفرار من قدرى . هذه الأفكار المجنونة .

هذه الاحساسات • هذه الخيالات السارية الآتية الى • أليست حقيقية ؟ وعلى أى فهمى تبدو أكثر طبيعية وأقل صنعة ، ويبدو لى أننى حر ما دمت أفكر فى أفكارى المنطقية ، ولكنى فى مقابل قدرى لا أستطيع أن أصمد أقل صمود • ان قيادى فى يده فهو يجرنى هناك وهناك • وصنعة هذه الحياة التى لا يستطيعون الهرب من بين مخالبيها ، لا يستطيعون الصراخ ، لا يستطيعون المقاومة ، الحياة الحمقاء •

والآن لا أنا حتى ولا أنا بنائى ، لا شىء يسرنى كما أنه لا لشيء يسؤونى ، لقد صرت من معارف الموت ، صرت أنيسا له ، هو صديقى الوحيد ، بل هو الشىء الوحيد الذى يسلينى • وتذكرت مقبرة منبارناس • أنا لا أحسد الموتى ثانية • أنا أيضا أعد فى دنياهم ، أنا أيضا معهم ، أنا حتى فى مقبرة •

لقد تعبت ، أية معميات كتبتها ، أخذت أقول لنفسى • اذهب يا مجنون • ارم الورق والمداد بعيدا • ارمها بعيدا • كفى هراء ، اخرج ، فرق أوراقك لئلا تقع هذه السخافات فى يد أحد ، كيف يا ترى سيحكمون على ؟ ولكنى لا أحفل بأحد ، ولا أعلق أهمية على شىء ، وأضحك من الدنيا ومن فيها ، ومهما كانت محاكمتهم لى شديدة ، فهم لا يعلمون أننى حاكمت نفسى بشدة أكثر ، هؤلاء الذين يضحكون على لا يعلمون اننى أكثر ضحكا عليهم • أنا لا أعبا بنفسى ولا بالجميع ، ولا بكل من يقرأون هذه الأوراق •

كانت هذه المذكرات مع بضعة من الأوراق موجودة فى درج مكتبه • ولكنه كان ممددا على امفراش وقد نسى أن يتنفس •

الخاصك

رابن رنات طاغور

ترجمة : اسماعيل مظهر

مجلة العصور : 1928

الناسك

— ١ —

الناسك خارج الكهف

أن تقسيم الليالى والايام، وكذلك الشهور والاعوام ، لم يصبح من شأنى. لقد تعطل عندى مجرى الزمان الذى ترقص فوق أمواجه الدنيا، وكأنها الهشيم أو الاغصان اليابسة. فى هذا الكهف المظلم أعيش وحدى، غارقاً فى طيات نفسى. والليل الابدى هادىء لا يتحرك، كبهيرة فى جبل، تفرق من ذات اعماقها القصية. الماء تنضح به الصدوع ومنها يتساقط، وفى ماء البركة الراكد تسبح الضفادع القديمة. أنى اجلس ارتل تمويذة الاشياء. ان اطراف الدنيا تنكش امامى خطأ وراء خطأ. والنجوم المنحوتة من قطع الزمان، المضيئة كأقباس النار، تنقرض وتفتى. أما الافتتان فى ذلك الذى يزودنى به الاكل شيفاء، اذ يستيقظ بعد فترات يقضيها فى الاحلام، ليجد نفسه وحيداً منفرداً فى فناء اللانهاية. أنا حر. أنا الواحد العظيم المنفرد بذاتى. عندما كنت لك عبداً، أيتها الطبيعة، أثرت بعض أجزاء قابى ضد بعض ، وبعثتها فى حرب دموية انتحاراً فى سبيل الدنيا. وسلطت على الشهوات التى ليس لها من غاية إلا أن يأكل بعضها بعضاً، وأن تلتهم كل ما يسهه فيها ، فاضتني ألماً وفرقا. لقد عدوت تأمهاً مجنوناً اتبع ظلى. لقد قذفتنى ، بما بعثت على من وميض لذائذك الخلب، الى خلاء الشهوات. أما ميولى القاسرة، وهى حبائلك واشراكك، فقد اسلمت بي الى قحط بغير نهاية، حيث استحال الغذاء تراباً، والماء بخاراً.

حتى اذا ما صبغت الدهوع دنياى وأصبحت عندى رماداً، اقسمت قسى ، لا نتقمن منك ولا صبن عليك غضبى ، أنت يا جماع الظواهر الكاذبة المسئمة ، يا مبعث الخداع الدائم. لقد احتميت بالظلام، سكنى اللانهاية. وحرارت أشعة الضوء الخداعة، يوما بعد يوم، حتى اقدتها سلاحها، وتركتها هامة خائراً لقوى، تحت قدمى والآن. بعد أن تحررت من المخاوف والشهوات. وبعد أن انكشفت عن بصرى الضباب. وبعد أن اشعت قوى عقلى برئية وضاعة. فلا خرجن الى عالم الكذب والبهتان مرة ثانية، ولا أجلسن على ذات قلبه، غير ملموس، ولا بمزحرج عن مكاني.

الناسك على جانب الطريق

كم هي صغيرة هذه الارض . وكم هي محصورة الجوانب . حيث تقوم الآفاق الدائمة من حولها ، ترمقها وتتبعها أينما سارت . ان الاشجار والمنازل ومجموع الاشياء القائمة من حولى تغشى على باصرى . والضوء كقفص يحول بينى وبين اللانهاية . والساعات تقفر وتصيح داخل حدودها ، كطيار مأسورة . ولكن لا شئ يتدفق هذا الجمع في هذه الجلبة ؟ ولاى غرض ؟ أنهم ليلوحون لى كأنهم فى خوف مستمر فى وقدان شئ لن تناله أيديهم .

(تمر الجماهير)



يدخل قروى عجوز وامرأتان

المرأة الاولى — حقاً انك تضحكى !

المرأة الثانية — ولكن من ذا الذى يقول انك عجوز ؟

القروى العجوز — هنالك بلهاء يحكون على الرجال بطواهرهم .

المرأة الاولى — ما أحرزن هذا ! لقد بقينا نرقب ظاهرك منذ حدثتنا . وها هو ظاهرك قد ظل كما كان طول هذه السنين .

القروى العجوز — كشمس الصباح .

المرأة الاولى — نعم . كشمس الصباح اذ تكون قرعاء صلعاء .

القروى العجوز — سيدتى . لقد تخطيتا حد النقد فى تحكيم ذوقكما . انكما انما تستلفتما أشياء غيّر جوهرية .

المرأة الثانية — اتركي هذه الشقشقة يا أنانجا . لنسرع الى المنزل لئلا يفضب رجلى

المرأة الاولى — وداعا ياسيدى . نرجو أن تحكم علينا بطواهرنا . اننا لانهمم بهذا

القروى العجوز — لانه ليس لكما من باطن جدير بالكلام فيه .

(يخرجون)



يدخل ثلاثة قرويين

القروى الاول — أيشتنى؟ ذلك الوجد السافل، سوف يحزن من أجل هذا.
 القروى الثانى — يجب أن يتلقى درساً عظيماً.
 القروى الاول — درساً يتبعه الى قبره.
 القروى الثالث — نعم. يا أخى؟ قو قلبك على هذا ولا تحجم. ولا تأخذك فيه
 شفقة.

القروى الثانى — لقد انتفخ وكبر.
 القروى الاول — انتفخ الى حد يطلب فيه الانفجار.
 القروى الثالث — ان النمل عندما تنبت له أجنحة يموت ويفنى.
 القروى الثانى — ولكن. هل صمت على شىء؟
 القروى الاول — لاشىء واحد. بل. مئات. ساحرته وأبهرته حرثاً. ساركبه حماراً
 وأطوف به في المدينة، بعد أن اصبح خديه واجعل أحدهما اسود والآخر ابيض.
 سأجعل الدنيا ضيقة فيوجهه، و.... و....

يخرجون



يدخل طالبان

الطالب الاول — انى متحقق من أن الاستاذ «مادهب» ربح المناقشة.
 الطالب الثانى — لا. ان الاستاذ «جاناردان» هو الذى ربحها.
 الطالب الاول — لقد استطاع الاستاذ «مادهب» أن يؤيد وجهة نظره الى
 النهاية. لقد قال بان الصغير نتاج الكبير.
 الطالب الثانى — ولكن الاستاذ «جاناردان» قد أثبت بالبرهان القاطع بان
 الصغير أصل الكبير.

الطالب الاول — مستحيل
 الطالب الثانى — ان هذا جلى كوضح النهار

الطالب الاول - الحبوب تفتح من الشجرة
 الطالب الثانى - والشجرة تأتى من الحبة
 الطالب الاول - أيها الناسك، أيهما الحق؟ أيهما الاصل؟ الكبير أم الصغير؟
 الناسك - كلاهما
 الطالب الثانى - كلاهما ! هذا حسن. ان هذا لمقنع.
 الناسك - الاصل هو النهاية. والنهاية هي الاصل انهما كدائرة متصلة الاطراف.
 أما المفاضلة الكائنة بين الصغير والكبير، فهي من جهاتنا
 الطالب الاول - جميل ! ظاهر أن هذا بسيط مفهوم. وأظن أن استاذى قد
 قصد اليه في مناقشته.
 الطالب الثانى - حقاً ان هذا يتفق وما علمنى استاذى .

يخرجان

الناسك - هذه طيور تلتقط الالفاظ. فاتها عندما تلتقط شيئاً من هراء القول
 تملأ بها أشداقها ، تشعر بانها سعيدة

بائعتان من بائعات الزهور تدخلان منفدتين

اغنية - تمر بنا بناساعات التعب والكد، والازهار التى تفتح عنها الاكمام
 في النهار تذبل وتسقط تحت الظلال. أردت أن احوك اكليلا من الزهر في بلولة
 الصباح أزين به جبى . ولكن مضى الصباح والازهار لا تزال فوق الاخضار ،
 وجبى اختفى عن الانظار.
 عابر سبيل - لم كل هذا الحزن ، يا عزيزاتى : فان الاكليل عند ما تبهىء ، فلا
 تنقصنا الاحمق التى تزينها .

بائعة الزهر الاولى - وكذلك جبل المشقة !

بائعة الزهر الثانية - انك لجرىء الماذا تقرب منى ؟

عابر السبيل - يا بنتى . انك انما تفضين للاشئ . انى بعيد عنك بحيث
 يستطيع فيل أن يمر من بيننا

بائعة الزهر الثانية - أحقاً؟ انى لخيفة الى هذا الحد؟ ما كنت لآ كلك لوانك
اقتربت منى

ويخرجون ضاحكين

بانى سائل عجوز

السائل - يا أسيادى المشفقين . ارحموا ضعفى . عسى . الله أن يرحمكم . اعطونى
ملء يد واحدة من كوتركم ؟

يدخل شرطى - تحرك من هنا . ألت ترى أن ابن الوزير قادم ؟

(يخرجان)

الناسك - لقد انتصف النهار . وبدأت حرارة الشمس تشتد وتقوى . وتلوح
السماء كأنها اناء من النحاس المحمى وضع مقلوبا فوق الافق . والارض ترسل تهديدات
حارة . وزوابع الرمال ترقص فوقها . أى مناظر الانسانية تلك التى مررت أمامى ؟ هل فى
مستطاعى أن ارجع ثانية الى صفائر هذه المخلوقات ، وان اكون واحداً منها ؟ كلا . فانتى حر .
ليس أمامى هذه العقبة . هذه الدنيا الحاققة بى . انى أعيش فى وحدة بريئة نقية من
كل شىء .

تدخل الفتاة فازانتى ومعهامرأة

المرأة - أيتها الفتاة . أأنت ابنة راغو ؟ ألت هى ؟ يجب عليك أن تذهبي
بميداً عن هذه الطريق . ألا تعلمين انها تؤدى الى المعبد ؟

فازانتى - انى على أقصى بعد ممكن منها ؟ أيتها السيدة

المرأة - ولكننى ظننت أن طرف ثوبى قد مسك . انى ذاهبة الى المعبد لاقوم
بفرض الصلاة لألهتى ، وأخشى أن تكونى قد دنست ثيابى .

فازانتى - أوكد لك أن ثيابك لم تمس .

تذهب المرأة

انى فازانتى ، ابنة «راغو» فهل أحضر اليك يا أبتاه؟

الناسك - لم لا يا بنيتى ؟

فازانتى - اننى رجس ودنس ، كما يدعوننى

الناسك - كلهم ذلك الشئ . رجس ودنس . انهم يتمرغون فى تراب البقاء .

ان البرىء النقى هو الذى صنى عقله من الدنيا وارجاسها . ولكن أى جرم اقترفت
يا بنيتى ؟

فازانتى - ان أبى ، وقد مات ، هزأ بشرائعهم وآلهتهم . ولم يكن ليقوم بمراسم
عبادتهم .

الناسك - ولماذا تقفين بعيداً عنى ؟

فازانتى - هل تسمى ؟

الناسك - نعم . لانه لاشئ يمكن أن يمسنى فى الحقيقة . انى دائماً ساجد فى اللانهاية .
يمكنك أن تجلسى هنا لو تحبين ..

فازانتى تبللها الدموع

- لا تبعدنى عن جنباك أبداً ، ما دمت قد سمحت بان اجلس بجوارك مرة .

الناسك - امسحى دموعك يا بنتى . اننى ناسك . ليس فى قلبى حقد ولا كراهية ،

ولا تعلق بالاشخاص . اننى لن ادعى بانك متسكالى . ولهذا فلا أستطيع أن ابعدك
عنى . أنت بالقياس الى كهذه السماء الزرقاء . أنت كائنة . ولا كائنة .

فازانتى - يا أبتاه . لقد نبذتنى الآلهة والناس معاً

الناسك - وكذلك أنا فقد نبذت الآلهة ومعهم الناس

فازانتى - ألك أم ؟

الناسك - لا

فازانتى - ولا أب ؟

الناسك - لا

فازانتى - ولا صدين

الناسك - لا .

فازانتى — إذن سابقى معك . واست بطاردى ؟
الناسك — لقد فرغت من الترك والاخذ والادبار والاقبال . فانه يمكنك
أن تظلى بجانبى . ومع هذا فلا تكونين بجانبى .
فازانتى — لست أفهم ما تقول يا أبتاه . خبرنى . الا يوجد فى هذه الدنيا
الفسيحة من حى يحبنى ؟

الناسك — حى ؟ ألا تعرفين أن هذه الدنيا عبارة عن هوة لا قرار لها ؟
فمجموع هذه الخلائق إنما تخرج من ثقب العدم باحثة عن حى يحمىها ، ومن ثم
تدخل ثانية فى فوهة الفراغ اللامتناهى ، وهناك تنقذ آثارها . هاهى أشباح
الكذب والرياء تتخيل من حولك رواحاً وجيئة فى سوق الاوهام والخيالات
ولا تعطيناً من غذاء ؛ الا عدماً باطلاً . انها إنما تحرك فينا نهمسة الجوع . ثم
لا تكفيناً ؛ ابتعدى من ثم ؛ يابنتى ؛ ابتعدى !!!

فازانتى — ولكن يلوح لى أنهم سعداء جد السعادة فى هذه الدنيا يا أبتاه .
الا نستطيع أن نلاحظهم من جانب الطريق ،
الناسك — وأأسفاه . انهم لا يفقهون شيئاً . أنهم لا يرون أن هذه الدنيا
موت ممتد الى اللانهاية . انها تموت كل برهة ؛ ومع ذلك فانها لاتصل الى غاية .
ونحن ؛ مخلوقات هذه الدنيا ؛ انما نعيش ونفتدى على الموت .
فازانتى — انك تخيفنى يا أبتاه .

يدخل سائح

السائح — هل أجد من حى بجانب هذا المكان ؟
الناسك — ليس من حى فى أى مكان يابنى ؛ اللهم الا فى قرارة نفسك .
ابحث عن هذا . تشبث به ؛ ان اردت النجاة .
السائح — انى متعب وأرغب فى حى .
فازانتى — ان كوخى ليس بعيداً من هنا . فهل تذهب اليه ؟
السائح — ولكن من أنت ؟

فازاتنى - هل يجب أن تعرفنى ؟ أنا ابنة « راغو »
السح - ليباركك الرب يا بنيتى . انى لا أستطيع البقاء
(يخرج)

بدخل رجال وهم يحملون شخصاً الى فراش

الحامل الاول - انه لا يزال نائماً .

الحامل الثانى - كم هو ثقيل هذا الملعون ؟

سائح (خارج عن جماعتهم)

- من ذا الذى تحملون ؟

الحامل الثالث - « بنده » النساج . كان نائماً كميث ؛ وقد حملناه .. معنا .

الحامل الثانى - لقد تعبت أيها الاخوان . انهزه هزة عساه يستيقظ .
بنده يستيقظ

- آه . ماهذا ؟

الحامل الثالث - ماهذا الصوت ؟

بنده - اسمعوا من أنتم ؟ الى أين أنتم تحملوننى ؟
(يعضون الفراش على الارض)

الحامل الثالث - ألا يمكن أن يبقى ساكناً هادئاً ؛ ككل الاموات الطيبين ؟

الحامل الثانى - انظروا الى رقاعته . انه ليتكلم ، ولو أنه ميت .

الحامل الثالث - لقد كان من مصلحتك ، لو أنك ظلت صامتاً .

بنده - انى حزين جد الحزن لانى كنت سبباً في تعبك أيها الاسياد .

لقد أخطأتم . لم أكن ميتاً ، بل كنت نائماً نوماً عميقاً .

الحامل الثانى - انى لاؤخذ بتهور هذا الفتى وجرائه . انه لا يكتفى بأن

يموت ، بل يناقش أيضاً .

الحامل الثالث - انه لا يعترف بالحقيقة . اذن فلنذهب لنقوم بفرائض

الاموات .

بنده - انى أحلف بنفلك يا أنخى انى حتى كما أنتم أحياء .

(يذهبون به ضاحكين)



الناسك — لقد نامت الفتاة المسكينة واضعة ذراعها تحت رأسها الصغير .
أظن أنه يجب على أن أتركها الآن وأذهب . ولكن ! أيها الجبان . هل لك أن تفر ؟
أن تفر من هذا الهيكل الضعيف ؟ ان هذا الشيء كشبكة العنكبوت في الطبيعة ،
لا خطر منها الا على الهوام ؟ لا على ناسك مثلى .

(فازانتى تتيقظ غازعة)

هل تركتني يا سيدي ؟ هل ذهبت بعيداً عني ؟
الناسك — لماذا أذهب بعيداً عنك ؟ أى خوف يحيط بى ؟ هل أخاف شبحاً
أو خيالاً ؟

فازانتى — هل تسمع الجلبة المنبعثة من الطريق ؟
الناسك — ولكن الهدوء ملء روحى



تدخل فتاة ورامها رجال

الفتاة — اذهب الآن . اتركنى . لا تكلمنى يا حبيبي .
الرجل الاول — لماذا ؟ أية جريمة اقترفت ؟
الفتاة — انتم أيها الرجال لكم قلوب قدت من الصخر
الرجل الاول — ليس هذا صحيحاً . لان قلوبنا اذا كانت قد قدت
من جلد ، فلماذا تصيب هنالك السهام التى يرسل بها قوس كوييدوس ؟ (١)
رجل آخر — برافو . لقد قلت حقاً
الرجل الثانى — والآن بأى شيء نحيين على هذا يا عزيزتى .
الفتاة — اجيب ! انك تظن بانه قد نطق عن حكمة . اليس كذلك ؟
انه لمراء محض
الرجل الاول — اترك هذا الحكمكم أيها الاسياد . انى قلت الآتى . اذا
كانت قلوبنا قد قدت من جلد ، فلماذا ...

(١) اله الحب

الرجل الثالث — نعم . نعم . ليس لديها جواب أبداً .
الرجل الاول — دعوني أفسر لكم . لقد قالت اننا معشر الرجال لنا قلوب
من الصخر . أليس كذلك ؟ فقلت لها جواباً على هذا — اذا كانت قلوبنا قد
قدت من جلد ، فلماذا تصيب هنالك السهام التي يرسل بها قوس كوييدوس ؟
أتفهمون ؟

يا أخى ! لقد ظلت أبيع العسل كل يوم في المدينة مدى العشرين عاماً الفارطة
فهل تظن بعد هذا انى أعجز عن فهم ماتقول ؟
(يخرجون)

«*»

الناسك — ماذا تفعلين . يابنيتى ؟
فازانتى — انظر في راحة يدك العريضة يا أبتاه . ان يدى كطائر صغير يبحث
عن عشه فيها . ان راحة يدك كبيرة ، كالارض العظيمة التي تسع كل الاشياء .
ان هذه الخطوط كالانهار ، وهذه البقاع كالثلل .
(وتضع خدها في راحة يده)

الناسك — ان ملمسك لين يابنيتى ، كسنة النوم الجميلة . يلوح لى أن في
هذه اللسة شيئاً من الظلام العظيم الذى يمس الروح بعصا الابد السحرية .
ولكن ! انك فراشة النهار يابنيتى . لك طيورك وأزهارك وحقوقك . ماذا
تستطيعين أن تجدى في . أنا الذى وجدت مركزى في « الواحد » ومحيطى
في « اللامكان » ؟

فازانتى — لا أرغب فى شيء أكثر مما أنا فيه . ان خبك يكفينى .
الناسك — ان الفتاة تتصور أنى أحبها ! ياله من قلب أخرج ! إنها سعيدة
بهذه الفكرة . تستمرئها . انهم قد نشؤوا فى الاوهام . ويجب أن يزودوا
بها لينجدوا السوى .

فازانتى — يا أبتاه . أترى هذه النبتة المتسلقة التي تنساب على الحشائش ،
تبحث عن شجرة لتلتف حولها . انها نبتى . لقد تعهدتها ورويتها منذ أن

أُطْلِتْ من ترابها فكانت ورقتان يلعب بهما الهواء ، كصرخة الطفل المولود . ن
هذه النبتة هي أنا . لقد نبتت بجانب الطريق ، حيث كأن من السهل أن تدبها
الاقدام . هل ترى هذه الازهار الصغيرة الجميلة فاقمة الصفار بزرقه تشوبها . بقع
بيضاء في أواسطها ؟ ان هذه البقع البيضاء هي أحلامها . اسمح لى أن أسمع
جبهتك بهذه الازهار . أما أنا فأرى أن كل الاشياء الجميلة هي بمثابة منافذ يمتد
منها بصرى لأرى مالم أره ، ولا أعرف مالم أكن أعرف

الناسك — لا . لا . ما هو جميل ليس الا وهما يتسلط علينا . أما لدى الذين
يدلمون ، فالتراب والزهرة شيء واحد . ولكن ائى تحول هذا الذى أشعر به
يتمشى فى مفاصلى وغضائى مسددا على عيني حجابا رقيقا تتخيل لى فيه
الوان قوس قزح . أهي الطبيعة بذاتها تنسج أحلامها من حولى ، متكاثفة
أمام حواسى ؟

(ثم يسرع الى النبتة فيمزقها ثم يقول)

لا أريد مزيدا من هذا . لان هذا موت . أى لعب ~~هذه~~ ~~اللعبة~~ عظيمين
مع أيتها الفتاة . انى ناسك . لقد فككت كل قيودى ، انى سر ، ~~كلا~~ . كلا .
ليست هذه الدموع . انى لا احتمل منظرها . ولكن فى أية ناحية من نواحي
قلبي كان يختبئ هذا الثعبان . هذا الغضب الذى يمت بأزيرة الخوف فى الظلام
من بين انيابه ؟ لا انه لم يمت بل ظل حيا على الرغم من ~~ارهاقه~~ ~~جوعه~~ . هذه
مخلوقات جهنم تفرق هياكلها العظمية راقصة بين طيات قاي . بينما تعرف رئيستها ،
وساحرتها العظمى ، على قيثارتها السحرية . لا تبكي يا بانيق . تعالى إلى . انك
لتلوحين لى كصرخة أليمة يمت بها عالم مفقود ، أو أغنية ينشدها نجم يسبح فى
تية قصى بعيد . انك تمثلين لعقل شيئا ، هوى ذاته أشد دلالة على اللانهاية
من هذه الطبيعة أعظم من الشمس ومن النجوم . إنه ليبلغ من العظمة مبلغ الظلام .
انى لا أفهمه . انى لم أعرفه أبداً ولهذا ! فانى أخافه . يجب على أن أتركك .
ارجعى من حيث أتيت . أنت يارسل العالم المجهول .

فازاننى — لا تتركنى يا أبتاه ليس لى من أحد غيرك .

الناسك — يجب على أن أذهب • لقد ظننت بأنى هرفت • غير أنى
تبينت أنى لم أعرف • ولكن الواجب على أن أعرف • أنى أتركك ، لا
أعرف من أنت ؟

فازاننى — يا أبتاه • اذا تركتنى فانى أموت
الناسك — أتركي يدى لاتلمسينى • يجب أن أكون حراً

(ويعود مبتعداً)



— ٣ —

(يرى الناسك جالساً على صخر فى ممر جبلي ويمر به غلام يرعى الاغنام وهو ينفى)
اغنية — لا تحولى عن وجهك يا محبوبتى ، فالربيع قد فتح صدره ليلتقانا ،
والازهار تنبذ أسرارها فى الظلام ، وخفيف أوراق الغابة يتمشى بين طباق السماء ،
كدموع الليل • الى يا حبيبتى أرى وجهك الجميل
الناسك — ان ذهب الاصيل ينصب سائلاً فى جوف البحر اللازوردى .
والغابة القاءة بجانب التل ، ترشف آخر كأس من كؤوس النهار . وعن شمالى :
ترى أكواخ القرية مزخزخة خلال التلال وقد تراءت من بينها أنوار المساء كأن مقنعة ،
تسهر بجانب طفلها النائم . أيتها الطبيعة . انك أمتى . لقد بسطت أمامى بساطك
الكثير الألوان فى هذه الحجرة العظيمة التى أجلس فيها منفرداً كملك ، لارقبك
وأنت ترقصن بعقدك المصوغ من النجوم الوضاعة يتلأأ فوق صدرك الرحيب



راعيات أغنام يمررن منشدات

نشيد الراعيات

أصوات الموسيقى تنبعث عبر النهر المظلم وتدعونى
كنت فى سكونى . وكنت سعيدة
والكن التيشارة صدحت بصوتها الشجى فى هواء الليل الساكن
فتغلغل الألم الى نياط قلبى

آه . دلتى على الطريق أنت يا من تعرفها
عرفنى أى سبيل أسلك اليه
فسأذهب اليه حاملة زهرتى الصغيرة
وأتركها عند قدميه
وأقول له ان موسيقاه ومن أحب ، في غلاف واحد
(يخرجن)

الناسك — اظن ان هذه الليلة لم تصادفنى سوى مرة واحدة خلال كل
تجسدانى السابقة . لقد ملئ كأسها حتى النهاية فكان حباً وكان موسيقى . جلست
وشخصاً تذكرنى نجمة الليل بلامح وجهه . ولكن ! اين فتاتى الصغيرة بعينيهما
السوداوين الحزيفتين المملوءتين دموعاً ؟ اهى هنالك ؟ جالسة خارج الكوخ
ترقب نفس هذه النجمة من خلال وحشة هذا الليل العميق ؟ ولكن النجمة لا بد
من ان تأفل ، ولا بد ليل من ان يغمض عينيه اذا ادركه الصباح . والدموع
والتهنيدات العميقة لا بد من ان يهدى اننوم ثورتها . لا ! فليت تراجع . فلتأخذ
احلام الدنيا مايلذ لها من صور . فلاتركها ولا اعترض سبيلها ، فاخلق اوهاما
جديدة . سأرى ، وافكر ، واعرف .

*

(تدخل فتاة فى أعمال)

الفتاة — انت هنا يا ابتاه ؟

الناسك — تعالى ايتها الابنة واجلسى بجانبى . كنت ارغب فى ان
اكون جديراً بهذا اللقب الذى تدعونى به . ان شخصاً كان يدعونى بهذا اللقب
من قبل . وكان صوته يشبه صوتك . فالاب يجاوب الآن . ولكن اين الذى
كان يدعوه ؟

الفتاة — من انت ؟

الناسك — انا ناسك . خبرينى يا بنيتى : ماذا يصنع ابوك ؟

الفتاة — انه يجمع العصي من الغابة .

الناسك — وانت لك ام ؟

الفتاة — لا . فاتها ممات في حدائقى .

الناسك — هل تحبين أباك ؟

الفتاة — أحبه أ كثر من كل شىء آخر فى هذه الدنيا . وليس لى من أحد

سواه .

الناسك — انى أفهيك . اعطنى يدك الصغيرة . دعينى أقبض عليها فى

راحتى . فى راحتى الكبيرة هذه .

الفتاة — أيها الناسك . هل تقرأ الكف ؟ هل تقدر على أن تقرأ فى كفى

ماذا أنا ، وما سأكون ؟

الناسك — أظن أنى قادر على أن أقرأ . ولكن لأفهم المعنى الا غراراً .

ويوما ما ساعرفه .

الفتاة — الآن يجب أن أذهب لالتقى بأبى .

الناسك — وأين ؟

الفتاة — حيث يذهب الطريق نحو الغابة . انه يفتقدنى اذا لم يجدنى هناك .

الناسك — قربى رأسك منى يا بنيتى . دعينى أطبع على جبينك قبلة الرحمة

والسلام قبل أن تذهبي .

تذهب الفتاة

تدخل أم بطفها .

الام — ما أقوى أولاد ميزرى ؟ أجسامهم رايبة . أن المرأ ليسر من مرآهم . أما

أنتم فكلما زدتمكم غذاء ازددتم نحولا يوماً بعد يوم .

البنت الاولى — ولكن لماذا تلوميننا كل يوم من أجل هذا يأ أماه . هل

هذا شىء طلع يدنا ؟

الام — ألم أنصح اليكما أن تأخذا قطعاً من الراحة كبيراً ؟ ولكنى لم أركما

لا متحركتين كما نكح دولاب في عمل •
البنيت الثانية - انا انما نتحرك تنفيذاً لاوامرك ياأماه •
الام - كيف تجربين على أن توجهي إلى جوابا كهذا ؟
الناسك - الى أين أنتن ذاهبات ياأختاه •
الام - تقبل سلامي إليها الاب • ذاهبات الى البيت •
الناسك - كم عددكن ؟
الام - أم زوجي وزوجي وطفلان بخلاف هاتين •
الناسك - كيف تقضون أيامكم ؟
الام - أكاد لأعرف كيف تمر بي الايام • ان زوجي يذهب الى الحقل ؛
وعندى منزلى أدبر أمره • وفي المساء أغزل مع ابنتي الكبيرتين •
(ثم تقول للبنتين)
- اذهبا وحييا الناسك • باركها أيها الاب •
(يذهبن) .

(يدخل رجلان)

الرجل الاول - أيها الصديق • ارجع من هنا • لاتتقدم خطوة واحدة •
الرجل الثاني - نعم انى أعرف • فان الاصدقاء لا يلتقون فى هذه الدنيا الا
مصادفة • والمصادفة تؤنسنا جزء من الطريق • ثم تأتى البرهة التى يجب أن
نفترق فيها •
الصديق الثانى - دعنا نؤمل فى أننا نفترق الآن لنلتقى ثانية •
الصديق الاول - ان التقاءنا وافتراقنا انما يرجع الى حركات هذا العالم •
فالنجوم ليس من شأنها أن تهتم بنا •
الصديق الثانى - دعنا نحبي هذه النجوم اللوامع التى قدفت بنا الى صداقة
بعض • ولو صداقة لحظة واحدة • فأنها مع ذلك كانت عطاء بمجود •
الصديق الاول - انظر الى ما وراءك برهة واحدة قبل أن تذهب • هل

تقدر أن ترى ذلك البريق الضئيل الذى ينبعث من الماء خلال الظلام ، ومن وراء الاشجار الكازورينا التى تغطى على شاطئ الرمال ؟ ان قريننا قلوب مثل كتلة واحدة من الاشباح المظلمة • انك لا ترى سوى الاضواء • هل تستطيع أن تعرف أى ضوء من هذه هو ضوءك ؟

الصديق الثانى — ان هذا الضوء هو آخر نظرة من نظرات الوداع تلقيها أيامنا الماضية على ضيفها المغارق • وبعد هذا بقليل لا يبقى من شىء اللهم الا دامس الظلمات

(يذهبان فى طريقهما)

الناسك — لقد بدأ الليل يحلك ظلامه ، وتشدد وحشته . انه يتربع على هامة الوجود كأنه امرأة مهجورة . أما هذه النجوم ، فدموعها استعالت ناراً . آه يابني . لقد ملأت أحزان قلبك الصغير كل ليالى حياتى بالالم المضى ، والى الابد . ان يدك الجميلة قد تركت لمستها الرقيقة فى نسيم هذا الليل . انى أشعر بها على جبى . يا حبة القلب . ان تهباتك قد تبعتنى لما أن فررت بعيداً ، وتعلقت بقلبي . ولسوف أحملها حتى مماتى .

*

* *

— ٤ —

(الناسك على ممر القرية)

لتذهب عنى عهود النسك . انى أحطم هراوتى وصندوق صدقاتى . ان هذه السفينة الفخمة ، هذه الدنيا التى تعبر بحر الزمان ، تبتلعنى ثانية . ولاشارك المهاجرين مرة أخرى .

أيها البهاء . أنتم يامن تطعمون فى النجاة بأن تسبحوا وحدكم ، منسكرين ضوء الشمس والكواكب ، ظانين أنكم تهتدون الى الطريق بمصباحكم الذى تضئنه فراشة . الطير يحلق فى السماء ، لا ليذهب فى تحليقه الى انخلاء ، بل ليرجع ثانية الى أرضه العظمى . أنا حر . انى حر من القيود . تحررت من الاشياء ، ومن الضور ، ومن الاغراض . المتناهى هو حقيقة اللامتناهى . والحب يعرف حقيقته

يا فتاتي ! انك روح كل ماهوكائن ! لا استطيع أن أتركك :

* *

(يدخل قروي عجوز)

الناسك — هل تعرف ايها الاخ ابن هي ابنة راغو؟

العجوز — لقد تركت القرية ، ونحن مسرورون بذلك

الناسك — والى أين ذهبت ؟

العجوز — أو تسأل الى أين ؟ انه يستوى عندها كل شيء أية سلكت ؟

— يخرج —

الناسك — ان حبة قلبي قد ذهبت تبحث عن مكان في خلاء اللامكان.

انها ستعثر بي .

.. يدخل جمع من أهل القرية —

الرجل الاول — ومكذا . سيتزوج ابن ملكنا هذه الليلة .

الرجل الثاني — هل تستطيع أن تخبرني عن ساعة الزفاف ؟

الرجل الثالث — ساعة الزفاف يسأل عنها الزوج والزوجة . أى شأن لنا

في أن ندأل عنها .

امرأة — ألم يفكروا في أن يعطونا فطيراً ابتهاجاً بهذه الساعة السعيدة .

الرجل الاول — فطيراً ! انك لبلهاء . ان عى يعيش في المدينة . وقد أخبرني

بأننا سنعطى شيئاً من خائر اللبن وأرزاً مسلوقة .

الرجل الثاني — هذا عظيم .

الرجل الرابع — ولكننا بطبيعة الحال سنسقى من الماء أضعاف مانعطى

من خائر اللبن . لابد من أن تتأكدوا من ذلك .

الرجل الاول — انك «ياحوتى» لشاب غبي ! أنعطى ماء في آنية اللبن في

في زفاف الأمير ؟

الرجل الرابع — ولكننا لسنا امرأه يا باتشو . اما لامثالنا الفقراء ، فان اللبن في نيتته ، بحيلة ما ، تستحيل اكثر اجزائه ماء .

الرجل الاول — اسمعوا . ان ابن ذلك الرجل الذى يصنع الفحم الخشبى لا يزال مكباً على عمله . اتنا لا يجب ان نسمح بهذا ابداً .

الرجل الثانى — سوف نحوله الى فحم هو بذاته ، اذا لم ينقطع عن العمل .

الناسك — هل يعرف احد منكم ابن ابنة راغو ؟

المرأة — لقد ذهبت بعيداً عنا .

الناسك — الى أين ؟

المرأة — هذا مالاً نمره .

الرجل الاول — أما المؤكد فانها ليست عروس أميرنا !!

— يخرجون ضاحكين —

«*»

— تدخل امرأة ومها طفل —

المرأة — اقدم اليك احترامى يا ابنتى . اسمح لهذا الطفل . بأن . س . رأسه

قدميك . إنه مريض . باركه يا ابنتاه

الناسك — يا بنيتى . لم اعد بعد ناسكاً . لا تسخرى منى بتحياتك .

المرأة — اذن فمن أنت ؟ وماذا تفعل هنا ؟

الناسك — انى ابحث .

المرأة — تبحث عن ؟

الناسك — ابحث عن دنياى لاردها الى حظيرتى . هل تعرفين ابنة راغو ؟ اين هي ؟

المرأة — ابنة راغو ؟ لقد ماتت .

الناسك — كلا لا يمكن ان تكون قد ماتت ! كلا . ابداً

المرأة — ولكن فى اى شى . يعينك موتها ايها الناسك الزاهد ؟

الناسك — لا يعنينى وحدى ، انه يكون موتاً للجميع .

المرأة — لا استطيع ان افقه ما تقول .

الناسك — لا يمكن ان تكون قد ماتت . ابداً . ابداً .

— ثم يتسلق الجبل فى سكون —

الفراق

بينغ شين

ترجمة : محمد أبو جراد وآخرون



سلسلة كتب « العنقا »

بينغ شين

الفراق

انطلقت اول صرخة من فمى حين امتدت يد عملاقة اختطفتنى
مما كنت فيه من آلام خائفة .

وفتحت عبنى فرأيت اليد العملاقة تشدنى من عقب قدمى فتدلّيت
متأرجحا مقلوبا ، وقبضتاى القرنفابتان تهتران فوق رأسى فى الهواء .
ثم جاءت عملاقة اخرى سندت ظهرى بيدها الضخمة . والتفتت
الى امرأة مسنقية فى فراش ابيض وقالت لها وعلى شفتيها ابتسامة :
” مبروك ! ولد كبير . “ وفى نفس الوقت وضعتنى فى سلة مبطنة
بملاء بيضاء .

حركت رأسى لأنظر ما بخارج السلة . فرأيت ممرضات فى
ثياب فضفاضة بيضاء ومعتمرات قبعات ، ويحمن حول امرأة شاحبة
تتصبب عرقا ، تتنهد كما لو افافت لتوها من كابوس ، وكان جفناها
المتورمان نصف مغمضين . ثم اغمضت عينيها مرتاحة بعدما سمعت
كلام القابلة .

وتمتمت بكلمات تقول : ” شكرا يا طيبة . لقد امضيت معنا
وقتا عصيبا . “

ثم صرخت صرخة مدوية : ” لا ، يا اماه . نحن اللذان واجهنا
وقتا عصيبا — لقد نجونا من الموت . “

نقلت الممرضات المعلمات بالبياض والمنشغلات ، ولكن صامتات ،
امى على عربة خارج الغرفة ، اما انا فحملت الى الممر حيث كان

.....

رجل يقف بالطرف الآخر ، ينظر كما لو انه افاق من كابوس ايضا ،
ولوحث له الطيبية، فجاء اليها . ومد الرجل ذراعيه كما لو اراد ان يحملني
ولكنه تراجع الى الوراء مخلوع الفؤاد . وحنى وجهه المذهول فوقى
وبدت عيناه حنوتين دهشتين .

وقالت الطيبية :

— ألا يبدو رسيما ؟

فقال الرجل متلعثما :

— ار — ولكنه طويل الرأس !

وصرخت ثانية ، على حين فجأة ، اذ كان رأسى يؤلمنى :
” ابتاه ! ليس لديك فكرة كم كان رأسى مضغوطا . “
قالت الطيبية : ” يا الهى ! ما اعلى صوته ! “ ثم ضحكت
وناولتنى الى ممرضة بشوشة الوجه قربها .

ثم وضعونى فى غرفة مشمسة فسيحة . وكانت سرائر الاطفال ،
وفيها الاطفال ، مصطفة على جوانب الجدران . وقد نام بعضهم واكفهم
الريقة على جانبى رؤوسهم . وكان آخرون يصرخون ” عطش ! “
او ” جائع ! “ او ” الدنيا حر ! “ او ” انا مبتل ! “ وبدأ على الممرضة
التي حملتنى انها لم تسمع ايا منهم . فقد خطت فى هدوء الى حمام
بالطرف الآخر من الغرفة ووضعتنى على منضدة حجرية قرب حوض
غسيل ووجهى قبالة الحنفية . وتدفق ماء فاتر ازال المادة المخاطية
القرنفلية من على رأسى وبدنى .

اصابتنى رجة ولكننى افعمت نشاطا . وادرت رأسى لأتطلع
عبر الحوض الى المنضدة المقابلة فرأيت طفلا آخر برأس مستدير

وعينين واسعتين وبشرة قائمة وبدن قوى ، كانت تحممه ممرضة .
كان مستيقظا وينظر من الشباك فى هدوء : وفى هذا الوقت كنت قد
انتهيت ولبست ملابس فضفاضا ابيض طويلا ، وكذلك كان هو :
نظرنا الى بعض عبر حوض الغسيل . وكانت ممرضتى تتحدث الى زميلتها :
- طفلك كبير وشديد حقا ، ولكن طفلى وسيم ورشيق ؟
ولما سمع الطفل الآخر هذا الكلام ، رفع رأسه ورمقه مبتسما
كما لو يواسينى .

وبادرتة بالسؤال خجلا :

- كيف حالك ؟

فأجابنى فى ود :

- وكيف انت يا صديقى ؟

وهنا وضعتنا الممرضتان فى سلتين الى جوار بعض وركنانا .

وقلت له :

- اوه ، ينتاب الالم كل بدنى . كانت الساعات الاربع

الماضية عسيرة حقا بالنسبة لى وانا احاول ان اشق طريقى للخروج .

فكيف كان الحال معك ؟

فشد كفيه وابتسم وقال :

- قد اختنقت لنصف ساعة او ما يقرب من ذلك ، ومع ذلك

لم يكن الحال سيئا : كما لم تقاس امى كثيرا .

لم ازد على ذلك ، بل تنهدت وشعرت بالتعب . وبينما كنت

انظر حولى ، قال مهدئا :

- يبدو عليك التعب : عليك ان تنام : وانا سأفعل نفس الشئ .

وبينما انا فى نوم عميق ، حملت من سلتى ونقلت الى الباب
الزجاجى : وكان عدد من الصبيان والبنات ، انوفهم وراحات ايديهم
تضغط مستوية على الزجاج ، ينظرون الى فى اعجاب بنفس الطريقة
التي ينظرون بها الى اللعب المعروضة فى نافذة متجر . فأشاروا واومأوا
قائلين ان حاجبى يشبهان حاجبى عمى اخت ابى ، وانفى كأنف
اخيه ، وعيى مثل عيى خالى اخى امى ، وفمى مثل فم خالى
اخت امى . كانوا كما لو انهم يقسمونى فيما بينهم .

اغلقت عيني وهزئت رأسى ثم ادركت كم تؤلمنى رقبتى ؟
وبكيت على الصوت : ” انا هو انا . لا اشبه احدا سواى
نفسى : اتركونى لأنام . “

وعلت ابتسامة شفتى الممرضة : ولما حملت بعيدا ، رأيت
الصغار يغادرون ، يتدافعون ويتضاحكون ، ويتلفتون ليلقوا نظرة اخرى .
ونقلت الى الغرفة الكبيرة .

وهنا استيقظ جارى ، وقال :

— استيقظت . من جاء يزورك ؟

فأجبت وانا اوضع فى السلة :

— لا اعرف . من المحتمل عماتى واعمامى — عدد من الشباب
يبدو انهم جميعا يحبوننى .

وصمت لحظة . ” يا للروعة . مضى على يومان هنا ولم ار
حتى ابى . “

لم ادرك اننى نمت طويلا . ولم يعد ظهري ولا رقبتى يؤلمانى
كثيرا ، ولكننى كنت مبتلا . وصرخت مقلدا الاطفال الآخرين :

”تبليت : تبليت . قد تبليت .“
وكما توقعت ، جاءت ممرضة وحملتني . ففرحت ؛ ولكن قدمت
لى ماء .

وفى المساء ، جاءت ثلاث او اربع ممرضات مسرعات الى غرفتنا ،
فى ثياب منشأة تحدث حفيفا ، وحملتنا وبدلن غيارائنا . وما اشد ما
كانت فرحة زملاء الغرفة .

”نحن ذاهبون لرؤية امهاتنا . مع السلامة .“
وضع صديقى الصغير فى سرير كبير مع الآخرين وذهب بهم ،
فى حين حملتنى ممرضة عبر الباب الزجاجى الى الغرفة الاولى على
الجانب الايمن من الممر . كانت امى مستلقية على سرير مرتفع
تراقبني فى لهفة وانا محمول . ولما وصلت بين ذراعيها كانت فى
اوج سعادتها . بدت انها اصغر سنا وكان شعرها الاسود الفاحم
معتقوصا وراء اذنيها ، وكان حاجباها مقوسين مثل الهلال . وبدت
فى الانعكاس القائم بجانب المصباح كنتمثال بوجهها الشاحب الذى
يكاد يخلو من الدم وعينيها السوداوين الواسعتين .
بدأت ارضع وامى تنحسس شعري بوجنتيها ، قبلت اصابعى
ونظرت الى تغمرها البهجة والفرحة ؛

مضت عشرون دقيقة وانا ارضع ولم اجد اى حليب . ولدغنى
الجوع وكان طرف لساني جافا ، وفتحت فمى وتركت الحلمة وصرخت ؛
فهزئتني امى مذعورة ، وقالت فى ود وحب :
— آه ، يا غالى . لا تبك .

وقد رعت الجرس فجاءت الممرضة .

وقالت لها امى :

— آسفة لازعاجك . ليس لدى حليب ، وهو يبنكى . . .

— لا تقلقى . سيأتى الحليب اخيرا . وهو ما زال صغيرا ليفهم

ذلك .

وحملتنى الممرضة ، وتركتنى امى على مضض .

حينما وضعت فى سلتى كان صديقى فى نوم عميق فى سريره ، وكان يتسهم من حين لآخر راضيا فى احلامه . وتطلعت حولى . كان اغلب زملاء الغرفة سارحين فى نوم عميق : قايل منهم نصف مستيقظين يتمتمون او يطلقون صرخات متقطعة . هاجمنى الجوع ولا ادرى متى يصلنى حليب امى . لقد فهمت مع ان احدا لا يدرك ذلك . وشعرت بالغيرة والمخجل من نفسى وانا ارى الآخرين جميعا نياما وفى اطيب ما يكون من التغذية ، فصرخت مدويا على امل ان يرانى احد . وظللت اصرخ لنصف ساعة حتى جاءت الممرضة . كانت عذبة التهويز ، وربت على مطمئنة ، وتظاهرت بالغضب من امى :

— لم تغذك امك كما ينبغي . خلاص ، خلاص ، ما رأيك

فى قليل من الماء ؟

والقت حلمة زجاجة الارضاع فى فمى . واخذت امصها فى نهم ،

وعدت الى النوم تدريجيا .

وبينما كنا نستحم فى اليوم التالى ، تبادلنا اطراف الحديث

وصديقى عند حوض الغسيل . وهز رأسه وعيناه نصف مغمضتين كأنما

هو في غاية المتعة بالاستحمام ٥

وقال جدلا :

— قد تناولت حليبيا رائعا في يوم امس ٥ وامى ذات وجه
اسمر مستدير وفي غاية الجمال . وانا ولدها الخامس . وقد قالت
للممرضة ان هذه هي المرة الاولى تضع في مستشفى . وقد احضرتها ،
الى هنا ، مؤسسة خيرية . والذى انسان فقير . وعمله ذبح الخنازير
وسلخها .

وفي هذه اللحظة ، عصرت في عينيه نقط من حامض البوريك .
صرخ قليلا مشمئزاً ؛ وجاهد ليفتح عينيه ، واضاف يقول :
— أ ليس سلخ الخنازير مريعا ؟ تغمد فيه سكين حادة وتخرج
تقطر دما . سأكون جزارا مثل بابا حين اكبر ، لا اسلخ الخنازير
فحسب ، بل اولئك الذين يأكلون كالخنازير والذين يرفضون العمل . . .
استمعت اليه صامتا . وعندما وصل الى هذه النقطة اقلت عيني
وبقيت هادئا .

— وماذا عنك انت ؟ هل حصلت على ما يكفيك من طعام
بالامس ؟ ماذا تشبه امك ؟
اهتجت مرة ثانية وقلت :

— لا ، لم احصل على ما يكفي مساء امس — ليس لدى امي
حليب . قالت الممرضة انها ستدر حليبيا في غضون يومين . امي لطيفة
وتعرف القراءة . هناك اكوام من الكتب على الطاولة بجانبها ، والغرفة
ملينة بالزهور .

— وماذا عن ابيك ؟

— لم يكن هنا : كانت وحدها ولم تتكلم مع احد : لا اعرف شيئا عن ابنى .
وقال صديقى :

— هذا هو جناح الدرجة الاولى . وليس فيه سوى سرير واحد .
الجناح الذى نزلت به امى ملئ بالضعجة ، فيه عشرة سراير او ما يقرب من ذلك . وكثير من الاطفال هنا امهاتهم هناك ، ويتلقون جميعا غذاء طيبا مثلى .

وفى اليوم التالى ، رأيت ابنى حين نقلت لتناول الغداء . كان مضطجعا على وسادة امى : كان وجهها والذى متوترين ونظرا الى نظرة عميقة . وجه ابنى نحيف مسطح اهدابه طويلة وعيناه رحيمتان . وكان دائما متجهما قليلا كما لو انه يفكر طول الوقت .
وقال ابنى :
— اما وقد نظرت اليه الآن نظرة جيدة — فانه جميل الشكل
مثلك :

وابتسمت امى وتحسست وجهى فى رفق :
— عيناه واسعتان كمثلى عينيك .
قام ابنى وجلس الى جوار السرير : وامسك بيد امى وداعبها فى لطف ، وقال :
— لن نكون وحدنا بعد الآن . سأساعدك فى الاهتمام به وسألعب معه بعد انتهائى من الدروس . ويمكننا ان نصطحبه معنا فى ايام العطلة الى الجبال الى شاطئ البحر . ينبغي ان نهتم بصحته كى

لا يصبح مثلى : ومع ان لا شيء لى فلست شديدا كما ينبغى .

واومات امى برأسها وقالت :

— نعم . وجب ان يتعلم للعزف على آلة موسيقية والرسم : لا
يمكننى ان اؤدى ايا منهما فأشعر ان الحياة ليست كاملة كما ينبغى :

— ماذا تريدينه ان يكون — اديب ؟ موسيقى ؟

— اى شيء يمكن ان يكونه : وعلى كل حال ، طالما انه ولد
والصين بحاجة الى العلوم فقد يكون من الافضل ان يكون عالما :

لقد مللت اذ لم احصل على اى حليب ، ولم يمنعنى من الصراخ
سوى محادثتهما الشيقة .

— وجب ان نشرع فى الادخار لتعليمه : كلما بكرنا كان ذلك

افضل .

وقالت امى :

— نسيت ان اخبرك ان اخى وعد ان يهديه دراجة حين يبلغ

السادسة .

كان ابنى مزهوا بكل هذا ، وقال :

— الولد عنده كل شيء . ألم تشتتر اختى له مهذا ؟

وتمتمت امى وهى تقبل رأسى :

— أ ليس لطيفا ، يا ولدى ، ان كثيرا من الناس يحبونك ؟

كن لطيفا حين تكبر . . .

عدت الى سلتى طافحا بالسعادة ناسيا اننى جائع . ومهما يكن

من امر ، وجدت صديقى سارحا فى افكاره .

— مرحبا . رأيت ابي اليوم . انه مدرس وكان يتناقش مع امى
حول تعليمى فى المستقبل . وقد وعد انه سيفعل ما فى وسعه بالنسبة لى ،
وقالت امى انه ليس مهما ان كان ليس لديها حليب ، لأننى عندما
اعود الى البيت سأحصل على حليب البقر وبعد ذلك عصير الفاكهة
واشياء كثيرة كثيرة اخرى
قلت كل هذا على نفس واحد .

ابتسم صديقى بما يشبه الرأفة او ربما الازدراء ، وقال :
— ما اسعدك ! اذا ما عدت الى البيت فلن احصل على حليب
لأن امى تعمل ظهرا بعيدا عن البيت . سمعت هذا من ابي . وسأعادر
هنا فى بحر يومين ، وعندئذ سترعانى جدتى لأمى التى تنوف على
ستين حبة . وستطعمنى حساء الارز المغلى والارز المجروش ومسحوق
فول الصويا . وعلى كل حال ، لا اعبأ بذلك .
قد خرس لسانى ، وتبخر احساسى بالاطمئنان وشعرت بالخزى ،
واستطرد يقول وعيناه تلمعان بالزهو والشجاعة :

— ستكون دائما كنبئة فى اصيص فى دفيئة لا تمسها الرياح
ولا المطر وفى درجة حرارة ثابتة . واما انا فساكون كورقة عشب ملقاة
على جانب الطريق يدوسها البشر والحيوان على حد سواء ، وتعبث بها
الرياح والامطار . وقد ترانى من نافذة دفيئتك وتأسى لحالى . ولكن
لا داعى لذلك . فسأندثر بالقبة الزرقاء الواسعة والهواء النقى ، وستشدو
الجداجد والفراشات ويرقصن لى . وسأحظى بصحاب متواضعين وبواسل ،
لن يؤثر فيهم قتل ولا حريق ، سيزحفون للعالم بالخضرة نقطة فنقطة ،
اصابنى الحرج لدرجة ان نزلت دموى . وتمتت :

— لم يكن بيدى ان اكون مرهفا

ولما ادرك ما انا فيه من هموم ، لطف كلامه واكد لى يقول :
— حقا ، لا احد منا يريد ان يكون مختلفا عن الناس الآخرين ،
ولكن كل شىء يفرقنا عن بعض . سنرى ما يحدث لنا مستقبلا .
كان الثلج يتساقط خارج النوافذ كممثل الكرات القطنية ، متكوما
فوق السطوح القرميدية المزججة باللون الاخضر . وتوجب ان اعود
وامى بمناسبة رأس السنة الجديدة ، وكذا حال صديقى وامى لأنها
يتحتم ان تباشر العمل قبل رأس السنة . ولم يبق لنا غير نصف يوم .
ثم سنغوص فى بحر الحياة الشاسع . هل سيتسنى لنا وقت ننام فيه
جنبنا الى جنب تحت سقف واحد ؟

نظرنا الى بعض فى حثان . واصبح بوجهه الحازم وشفتيه المحكمتى
الاغلاق وحاجبيه المقطبين وعينه الحالمتين وذقنه المائلة قليلا ، غير
واضح فى نور المساء .

وقلت لنفسى مغلقا يدى تحت الملاء وشاعرا بضعة بسبب تفاهتى :

” سيسلخ خنازير — وانا اياها ايضا “

وعندما عدنا من والدتيينا فى المساء ، تبادلنا الانباء . سيعود كلانا
فى يوم العام الجديد بدلا من عشية رأس السنة . فقد ظن ابى ان
الدنيا ستكون مشغولة وعاجزة فى عشية رأس السنة ، وامى سينال منها
الاجهاد ، بينما سيترك والد صديقى بيته ليختفى من الدائنين الذين
يأتون فى العادة لتسوية الامور بنهاية السنة ، ولا يريد ان يتعب زوجته .
اذن ، لدينا يوم آخر نقضيه معا . “

ومنذ منتصف الليل ، حدث سيل لا ينقطع من الالعاب النارية .

وبدا نباح الكلب المتقطع فى الثلج الغزير يقول لنا ان سنة اخرى من حيلة الحب والكراهية اوشكت على نهايتها الحزينة . وقبل ان توضع اقنعة التواضع والسعادة مرة ثانية فى غد ، اراد الناس ان يندموا او يشكوا او يلعنوا او يبكونا اللبابة لأن ذلك كل ما يستأهلون . وفى شوارع وازقة المدينة الكثيبة ، تنبض كثير من المشاعر الغارقة فى فرقة الالعاب النارية .

اعترتنى ارتجافة والتفت لأجد صديقى يقضم شفته السفلى فى صمت . واخذ الليل يمضى شيئا فشيئا . واظن سمعته ، قبيل الفجر يتنهّد .

وفى الصباح ، جاءت ممرضتان مشرقتان بابتسامات العام الجديد ، لتحممانا . والبستنى احدهما "فانيلا" داخلية وكنزة خضراء اللون وكابا وجوارب ، تناولتها من حقيبة صغيرة . وقالت وانا بين يديها تنفحصى :

— وسيم . عرفت امك كيف تهندمك .
كانت الملابس ناعمة ومريحة ، ولكنها جعلتنى اشعر بالحرارة وسرعة الانفعال ، وارتدت ان اصرخ .

وفى نفس الوقت ، كان صديقى بين يدي ممرضة . فدهشت اذ صعب ان اتعرف عليه . كان ملفوفا من تحت خصره بقطعة قماش زرقاء زاوية . وارتدى معطفا ازرق مبطنا بالقطن ، والكمان طويلا عليه وكانا متيبسين كأن ذراعيه التصقتا ، على نحو اخرق ، كمثل طيارة ورقية كبيرة . نظرنا الى نفس الملابس الفضفاضة البيضاء التى خلعتنا لتونا ، ثم جفلت عارفا اننا سنفترق فراقا دائما ، ماديا

وذهنيا :

لمحنى صديقى ، وابتسم ابتسامة فيها مزيج من الكبرياء وقابل
من الحياء ، وقال :

— تبدو وسيما فى ملابسك الانيقة . قد ارتديت درعى كى
اصارع من اجل العيش فى ساحة الحياة .

واسرعت الممرضتان ، ملقيتين الملابس الفضفاضة البيضاء فى
سلة الغسيل ، وحملتنا بين اذرعتهما . لم اقدر على كبح نفسى من
الصراخ عاليا حين وصلنا كلانا الى الباب الزجاجى ، ولم يستطع صديقى
ان يحبس دموعه هو الآخر . لوحنا بأيدينا فى هيجان ، وهتفنا :
— مع السلامة يا صديقى العزيز .

وذهب كل منا فى طريق ، وذوت صيحاتنا عند طرفى الممر :
كانت امى على اهبة الاستعداد ، واقفة فى الغرفة مع ابى الذى
حمل فى يده حقيبة صغيرة . حملتنى بين ذراعيها ومسحت دموعى
وقالت تهديئى :

— لا تبك يا حبيبى — نحن عائدون الى البيت ، ماما تحبك
وبابا يحبك .

واحضر كرسى متحرك ، جلست عليه امى وانا بين يديها ملفوف
فى بطانية خضراء ومن خلفنا ابى . ونزلنا بالمصعد بعد ان قدمنا شكرنا
الى الطبيبة والممرضات اللائى جئن لوداعنا .

كانت سيارة واقفة امام منتصف الباب الزجاجى . وما ان فتح
ابى الباب هبت داخله نفثة باردة فأسرعت امى بتغطية وجهى بالبطانية .
وما لبثنا ان تركنا الكرسى المتحرك ودخلنا السيارة واغلقتنا بابها . ازلت امى

الغطاء عن وجهى فرأيت الزهور حولنا فى السيارة ووجهى ابوى الحنونين .
كانت الطريق غاصة بعربات الركشة عند بوابة المستشفى .
وبينما نحن بانتظار ان تخالو الطريق رنوت بنظرى من نافذة السيارة
فلمحت صديقى ابن العشرة ايام بين يدى والده ، تتبعه امه حاملة
صرة صغيرة ملفوفة فى قماش ازرق . وضع ابوه قبعة لبادية زرقاء على
رأسه وارثدى معطفنا محشوا قطنا ، وكان رأس وليده مستلقيا على كتفه
الصلبة تحت حافة القبعة العريضة ورأيت وجه صديقى - نتف من
الثلج حطت على حاجبين ووجنتين ، وكانت عيناه محكمتى الاغلاق ،
وظهرت على شفثيه ابتسامة شاحبة من كبرياء . لقد بدأ يخوض معركة
لحظة خروجه من المستشفى .

وانطلقت سيارتنا بين الثلج المتطاير والاصوات المكتومة لصنوج
واجراس العام الجديد . وقربتنى امى اليها وهمست :
- حبيبى ! انظر ! اى عالم لطيف نظيف لدينا !
وانفجرت فى الصراخ .

• اغسطس ١٩٣١ ، بكين

كلمة عن المؤلفة

بينغ شين : اديبة صينية معاصرة اسمها الحقيقى شيه وان ينغ ، من
مواليد ١٩٠٠ بمحافظة تشانغله ، مقاومة فوجيان . فى سنة ١٩١٨ ، التحقت



أولاً بالقسم الاعدادى لجامعة شيخه للنساء ببيكين ثم بقسم الآداب بجامعة يانجبنغ . وفى العام التالى ، اشتركت فى حركة الرابع من مايو الطلابية الوطنية وبدأت حياتها الادبية . وانضمت الى جمعية الدراسات الادبية التقدمية فى سنة ١٩٢١ . وبعد ان تخرجت فى سنة ١٩٢٣ ، درست فى الولايات المتحدة حتى سنة ١٩٢٦ ، عندها عادت الى الصين لتدرس فى جامعة يانجبنغ وكلية الآداب للبنات بجامعة تشينغها . وفى اثناء حرب المقاومة ضد اليابان ، من ١٩٣٧ - ١٩٤٥ ، انجزت اعمالا ادبية فى كولمبنغ وتشونغتشينغ وذهبت الى اليابان فى سنة ١٩٤٦ ، تدرس " الادب الصينى الجديد " بجامعة طوكيو وعادت الى الصين فى سنة ١٩٥١ ، لتواصل كتابة ادب الاطفال والاعمال النثرية . وقد انتخبت نائبا فى المؤتمر الوطنى لنواب الشعب وعضو اللجنة الدائمة للمجلس الاستشارى السياسى للشعب الصينى ، ونائب رئيس اتحاد الازمات الادبية والفنية لعموم الصين ، وعضو مجلس اتحاد الكتاب الصينيين .

تضمن كتابات بينغ شين القصص القصيرة والشعر ، ولكنها اشتهرت اكثر بأعمالها النثرية . وتشتمل كتاباتها المبكرة القصصتين القصيرتين : « عائلتان » و« الضعيف والشاحب » والمجموعة الشعرية : « النجوم » و« المياه فى الربيع » ، والاعمال النثرية : « للقراء الشباب » و« الماضى » . وهذه الاعمال تفضح الحكم المظلم لأمرأ الحرب الاقطاعيين وتعكس القلق والهموم لدى بعض المثقفين الشباب ، وتبرز القضايا الاجتماعية وتظهر التعاطف مع العائلات المضطهدات . وفى الثلاثينات نشرت « الفراق » و« الفتاة دونغ أر » وغيرهما من القصص القصيرة ومجموعة نثرية « حول النساء » ظهرت فى اثناء حرب المقاومة ضد اليابان . وبعد تأسيس جمهورية الصين الشعبية ، توجهت الى النشر اساسا . فقدمت من جملة ما قدمت : « نداء على الكرز المزهرة » و« قد ايقظنا الربيع » وقصصا للاطفال من مثل : « مذكرات تاوتشى فى العطلة الصيفية » و« مرة اخرى للقراء الشباب » و« مصباح يرتقى الى صغير » .

وفي سنة ١٩٥٤ ، نشرت دار نشر الادب الشعبي ببيكين مجموعتها النثرية التي تصف الحياة في المجتمع الجديد . لقيت اعمال بينغ شين وخصوصا النثرية ، اقبالا جماهيريا لما تتصف به من اسلوب فريد ، وتعبر بعمق عن المشاعر من خلال اللغة الطبيعية والرشيقة .

« الفراق » من كتابات بينغ شين المبكرة . ومن خلال حياة وليدين : « انا » ابن مشقف و « الصديق » ابن عامل . . تصور القصة ان الناس يفترون عن بعض ليس بمحض ارادتهم بل بتأثير الضغوط الاجتماعية والخلفية العائلية .

طفل على ضفة البحيرة

وانغ تونغ تشاو

ترجمة : محمد أبو جراد وآخرون



سلسلة كتب « العنقا »

وانغ تونغ تشاو

طفل على ضفة البحيرة

ندر ان اهتممت بزيارة البحيرة الشهيرة مع اننى عشت فى مدينة
تربض على شاطئها . وقد بدت البحيرة ضيقة تعج بالفوضى بأدغال
القصب وتكتظ بالمراكب الكبيرة . وكنت اتردد الى هناك مع اصدقاء
للتجديف فى بعض الامسيات . وكان يسودها الهرج والمرج فى كل
ليلة ، وكانت تدوى اصوات الصنج والطبول ، والغناء المقيت ، وصرخات
الرجال الغليظة وهتافات الاغراء من النساء المتجملات بأدوات الزينة
ذوات الشعر الصقيل الدهان ، وصراخ الباعة المتجولين على القوارب
الصغيرة : . . . يجرف كل ذلك سطح البحيرة الهادئ كمثل موجة
عاتية :

ومتى ما ذهبت الى البحيرة ، اقفلت عينى وصممت اذنى عما
حولى ، واهيم فى افكارى . ومن وقت لآخر ، كنت اتمشى ، حين
تنعكس الوان شمس الغروب ، على ضفة البحيرة يظللها السكون ،
لأستمتع بالنسيم . واصغى الى نقيق الضفادع فى الاعشاب الخضراء
بعد هطول المطر ، وارقب الطيور المغردة تتطاير بين الاغصان .
وكنت اشعر اننى مثار نوعا ما ، يحركنى احساس بالطبيعة عميق
وتثيرنى افكار بعيدة النطاق لا تعد ولا تحصى .

وذات يوم ساعة الغروب ، انارت شعاعات بنفسجية وارجوانية
اشجار الصفصاف الندية بعد نزول المطر . وقد نمت فى بركة الى
جوار معبد ورفقات لوتس هائلة اعلى من قامة الانسان . ومع ان هذه

اللوتسات قد ازهرت ، زهورها نقية كاليشم الابيض المنحوت ، الا انها اغلقت بتلاتها بعد الظهر ، وهناك نحلة او نحلتان ما زالتا تحومان وقد اغراهما العبير ، عازفتين عن الرحيل . وهناك على المياه الخضراء القاتمة ، سحابات قرمزية تتألأ كالذهب ، والاشعة المتدللية فى سرعة فى وسطها تميزت بألوان متدرجة . ولمعت طبقة فوق اخرى من الالوان ، متمازجة ومتفاعلة ، ببريق يزغلل النظر .

وكانت السماء قد صبت ماءها غزيرا نحوا من ست او سبع ساعات فى الليلة الماضية . وها هى القبة الزرقاء الآن صحو ، فدلقت وحيدا على طول الضفة الغربية من البحيرة مستمتعا بالمنظر الفتان وقد خلف حذائى الجلودى آثارا حادة على البلاطات المغطاة بالطحلب التى تفرش الممر .

وكان الناس فى وسط البحيرة ، يتصايحون ويتشاجرون فى عنف . وابطأت فى السير ناحية الطرف القاصى من الممر الحجرى . وكانت اغصان الصفصاف ترسل حفيفها ونبتات الفلفل المائى التى اخرجت زهورها بجانب القصبات المهتزة تراقص فى النسيم على حافة الماء . ربما كان هذا المكان الاكثر عزلة فى كل البحيرة . وكانت تغاريد العصافير الصغيرة بين الاشجار تحيى المساء ، ما عدا وقع اقدام شخص او اثنين من المارة احيانا . وكانت الضفادع فى الاعشاب متشابكة فى ايقاع متناغم .

ولم تكن بى رغبة ان استعيد المشهد الذاوى سريعا مع انه اشعرنى بحساس من البهجة اكثر من المعتاد ، لأنه ذكرنى بعبارة :
” غسق الشمس الميته ” — عبارة وجدتها مثيرة للاكتئاب .

وغرق رأسي في التفكير ، وسرت حاملا مجهادا شديدا الوطأة .
وكانت شعاعات الشمس القرمزية والارجوانية تزداد قتامة ، واصبح
نور الشمس غارقا اكثر من نصفه في الماء . ادركت ان الوقت متأخر
ومع ذلك لم ارجب ان اعود الى البيت . جلست على صخرة بيضاء
وضخمة على طرف البحيرة واتخذت اعقب من هواء الخريف في السديم
الذهبي ينساق على سطح الماء ، مرخيا السمع الى آخر ازيز لزيز
الحصاد في اواخر ليلة صيف . وجلست وحدي تحت اشجار الصفصاف
وراقبت ضوء الغسق يندوي في البعد ، ولمحت الوهج الضئيل النائي
لمصاييح المساء الاولى . لم يعد الطقس حارا في اثناء النهار ، واتي
المساء بنوع من الرطوبة الناعمة . وفي ذات الوقت ، اثارني وعلى
نحو مبهم احتياج غير محدد ، ربما بسبب هذه البرودة .

وبينما انا جالس اسبح في افكار لا معنى لها ، سمعت خشخشة
وراء شجرة الصفصاف . فارتبكت قليلا لأن ذلك حدث على نحو
غير متوقع في الظلام الذي اكتنفه السكون . وبعد لحظة ، سمعت
وقع اقدام خفيف تملو في ادغال القصب فقفزت ، ولففت حول
شجرة الصفصاف ووصلت الى الجانب الآخر من الادغال . وكان
الظلام قد ارنخى ستائره . فلم اتبين شيئا واضحا . وتيها لي انني المح
خيالا صغيرا على الضفة الموحلة بجانب الدغل .

وصحت : " من هناك ؟ "

ولكن الخيال لم يرد جوابا .

اعتاد هذا المكان ان ينعم بالهدوء الشديد . وكان اكثر ما يكون
خاليا من الناس بالليل . وها حبال الظلام تشتد اكثر فأكثر ، والقصبات

والصفصافات يخبو حفيفها . وداهمنى قليل من خوف : وصحت
للمرة الثانية : ” من هناك ؟ ” وبينما اهم لأغادر المكان اجاب
الشبح الداكن الصغير على الضفة الموحلة بصوت واهن خافت :
— انا ، الصغير شون . . . انا هنا . . . اصطاد سمكا :

فى حقيقة الامر ، كان قد ابتلع الكلمة الاخيرة ، وارزجف
صوته قليلا . وقد رن الصوت كصوت غلام فى الحادية عشرة او
الثانية عشرة . وانتابتنى شكوك كثيرة .
وسألته :

— كيف تصطاد بعد نزول الظلام ؟ كيف ترى ؟
ولم يرد الخيال الضئيل مرة اخرى .
— اين تسكن ؟

— فى زقاق ” رأس الحصان “ . . .
ثمة ما وراء هذا الصوت الواهن الذى بدا مألوفاً لى . فتقدمت
خطوة نحوه وسألته :

— هل اقممت هناك على الدوام ؟
فرد الغلام الصغير فى اسرع ما يكون :
— لا . كنت اقيم فى شارع ” السلام “ . . .
وفجأة تذكرت .

— اوه ! انت ابن آل تشن أليس ابوك حدادا ؟
وسحب الغلام عود البامبو الذى يصطاد به وجاعنى راكضا حافى
القدمين على الضفة الموحلة .
— بلى ابى حداد . ولكن من انت ؟

اقتربت من الغلام ودققت في وجهه النظر . وتعرفت عليه بعد عناء .
ماذا قد حدث لشون الصغير المحبوب ابن الخمس او ست سنوات !
كان وجهه قد علاه السواد — اما من الوحل واما من السناج . وكان
ردائه ملبسا ازرق قصيرا من صنع بيتى ، علا ركبتيه ، وكان يتقطر
وحلا ويتفصد عرقا . وما ان سمعنى اناديه باسمه حتى حماق في
دهشا . لم يعرف من اكون .

تذكرته حين كان ابن اربع او خمس سنين — كنت مغرما
باللعب مع الاطفال آنذاك . وكلما مررت ببيته لمحتة قابعا في حضن
امه تحت ظل شجرة دردار كرت عليها السنون . وكان دائما ما
يشدو لى اغنيته عن الديك الصغير .

وها قد مر ما يربو على ست سنين ، غالبا ما كنت بعيدا فيها عن
المتزل . وانبأنى افراد اسرتى ان شون الصغير قد انتقل ولا احد يدرى
اين هو بالضبط . ولما مررت ببيته ورأيت اسم انسان آخر على بابها
اصابنى الم كما لو اننى فقدت صديقا وفيما ا

وقابلته اليوم مرة اخرى في الظلام الرطب بجانب البحيرة ، فكيف
لا اندهش ؟ والاغرب ، كيف اصبح شون الصغير المتورد الوجنتين
ذو اليدين البيضوين النظيفتين كالمسولين الصغار القذرين على
قارعة الطرق ؟ كان ابوه حدادا محترما قادرا على تدبير شؤون اسرته
ماليا .

قدت شون الصغير الى صخرة واجلسته الى جوارى : وحكى
له انى طالما رأيته وهو صغير وكيف لعبت معه وجعلته يضحك ،
فنظر الى محتارا . واتخذت اسأله :

- اين ابرك الآن ؟
- يمكنك ان تقول انه بالبيت
- بهذا اجابنى شون الصغير مترددا . وادركت من تعابيره انه ظن بصديقه القديم امرا غريبا .
- أ لا يزال يعمل ؟
- ماذا . . . يخرج فى كل صباح ولكن لا يعود الى البيت . . .
ومعه فلوس ولو مرة واحدة . . . أ يعمل ؟ . . . لست ادرى .
- وماذا بخصوص امك ؟
- فرد الغلام باختصار :
- ماتت .
- لقد صدمنى ذلك . ولكن ذلك ما كان ينبغى ان يحدث . فأم شون الصغير قد كانت امرأة ضئيلة واهنة . وقال الناس انها قد وضعت سبعة اطفال فى غضون ثلاث عشرة سنة . ولم يتبق منهم على قيد الحياة سوى شون الصغير . ولكن لم يخطر على بالى ان يأتى اجلها سريعا !
- من ايضا فى داركم ؟
- عندى ام ، ام جديدة
- اوه ! هل عائلتكم أبأس مما سبق ؟ يبدو عليك
- شون الصغير متميز بالذكاء دوما . وما كان منه عند سؤالى اللفظ هذا الا ان اشاح يحملق بنظره فى الفضاء البعيد المدثر بالضباب . ثم اخفض رأسه . وبعد برهة طويلة قال فى صوت خفيض :
- لا نجد احيانا ما نأكل . وغالبا ما يكون ابى خارج البيت

- الى اين يذهب ؟
- لست ادرى ... لا يعود الا بعد الفطور ... سمعت انه يعمل في وكر افين ... لا اعرف اين هو .
- وكان صوته الخفيض في غاية البطء . وبدأت اعنى المسألة :
- وشعرت اننى مكره ان اواصل السؤال .
- كم ... كم عمر امك الجديدة ؟ هل هى حسنة معك ؟
- سمعت انها فى الثلاثين من عمرها . وهى من اسرة بداخل البوابة الشرقية ...
- وتسلل الى وجهه تعبير مشوب بالقلق : وسألته :
- هل تضر بك ؟
- فأجاب على نحو حاسم :
- هى ؟ لا . ليس عندها وقت .
- اذا كانت المرأة الشابة هى المعيل الوحيد لأسرة كأسرته ،
- فبطبيعة الحال ليس عندها وقت تستغنى عنه !
- وای عمل تزاوله ؟
- عمل ؟ هى لا تعمل . ولكنها تشغل كثيرا فى وقت متأخر من بعد ظهر كل يوم . ولهذا السبب لا اقدر ان ابقى بالبيت ... اخرج فى كل مساء الى ادغال القصب هذه ، هنا فقط ... هنا
- ماذا ؟ ...
- تعلم شون الصغير كيف يسلك مسلك الكبار . جعد انفه الصغير وشخر :

- لا ينقطع الضيوف عن بيتنا ! يأتي اثنان او ثلاثة احيانا في ليلة واحدة . و احيانا لا نرى احدا منهم . :
هزنى هذا الامر ايضا . ولكنه اضاف :

- ... تكسب امي مالا لتطعمنا ... عندما يتوافدون تطردني خارج البيت . ولا تسمح لي بالعودة الا في وقت متأخر من الليل .
ابي يعرف جليلة الامر . وهو الآخر لا يعود الى البيت ليلا ...
اتضححت الآن امام ناظرى اى بيثة نشأ فيها شون الصغير . كان هذا اشبه بما في الروايات : طفل اشعث الشعر ، شاحب ، هزيل ، عيناه غائرتان ، تحتم ان يهيم على وجهه في كل ليلة بين الادغال حافى القدمين . واذا ما عضه الجوع بأنيابه تحدث الى اصدقائه - الطيور والضفادع ، او يستمع الى الموسيقى التى تعزفها الرياح بين الادغال .

كان ابوه نادلا في وكر افيون . وامه - وبالأحرى زوجة ابيه - تبيع لحمها - تفعل اقصى ما يكون من المرارة للمحافظة على رزق الحياة .

وليس لشون الصغير من رفيق لدى عودته الى البيت في الليل الساكن المهجور سوى النجوم . وفي اليوم التالى ، كان الامر على نفس الشاكلة مرة اخرى . فقد كان يشبه فصلا من رواية الى حد كبير . لم استطع ان اصدق . فقد تذكرته طفلا نظيفا محبوا . كيف وصل به الحال الى هذا الحد ؟

وسألته :

- اى صنف من الناس هؤلاء الذين يتوافدون الى بيتكم في

كل ليلة ؟

وكان رده :

— لا اراهم دائما . وان حصل فذلك للحظة . يرتدى بعضهم سترات عسكرية رمادية ، بقبعات عسكرية مائلة على العيون . وترشح من بعضهم رائحة الكيروسين ، وعلى صنادرياتهم سلاسل ساعات فضية سميكة . وقلة منهم ترتدى جلابيب طويلة . ويكون الزوار ، في العادة ، ثلاثة واربعة في كل ليلة . وفي بعض الاحيان ، لا يسمع بابنا بأحد منهم .

— ولماذا كل هذا ؟

شعرت ان سؤالى الملحاح ليس رقيقا للغلام . ولكننى لم استطع ان اكنمه .

ضحك شون الصغير وقال :

— ألا تعرف ؟ كل البيوت في زقاق ” رأس الحصان “ مفتوحة للزائرين في كل ليلة ! ...

وضحك ثانية يهزأ منى ظانا اننى المثقف لا يعرف الا القليل : لم يتبق ما يمكن سؤاله عنه . ولم افرض نفسى لأجعل هذا الطفل البريء يحكى مزيدا عن قصته المأساوية . وبدأ ان فى عقله شيئا ما ، فحماق شارد الذهن فى النجوم اللامعة فى شحوب عبر الظلام .

لو ان امه ما زالت على قيد الحياة فاربما تغيرت الامور — استغرقت فى التأمل . فعجاة هذه المرأة البائسة التى تقوم مقام امه حاليا ليست بأفضل من جهنم !

آه ، انها الاسرة ! التنظيم الاسرى وضغط الزمن والحاجة الماسة

لتدبير الحياة ! جئت اتمشى متسكعا على ضفة البحيرة بعد هطول المطر . فانتهت فسحتى بالجسم من القضايا المتعبة التى جثمت على صدرى ، بدلا من العثور على الراحة .

واخذت اقلب فى الامر . طفل يعانى من الجوع ويقاسى من القلق ، جاء الى ادغال القصب فى الظلام وقضى نصف الليل هناك . وينبغى ان تتحمل امه ما لا نهاية له من اسوأ حالات الاذلال بسبب العبء الملقى على كاهلها فى اعالة الاسرة بكاملها . هذه الحياة دون حياة الانسان ! ولا ينتهج البائس فى مجتمعنا الحالى الا هذه الدرب اليائسة ذات النهاية القاضية !

واكتننى الوسوس . واحسست بالاهتياج عاجزا عن الجاوس فى سكون . وما قد ابتاع الظلام ما زودنى به مشهد البحيرة من انطباع مفعم بالنشاط والهدوء .

لم يطاوعنى قلبى ان اترك شون الصغير يرقب وحده ضوء النجوم على الشاطئ ، لعلمى انه لن يجسر على العودة . فجلست الى جواره تحت شجرة الصفصاف . وراودنى احساس بالاستزادة من سؤاله ولكننى شعرت ان فى ذلك قسوة . وفى هذا السكون ، فكرت فى حقيقة ان الطفل قد شكلته بيئته . . . واهتزت لشون الصغير وكل الاطفال الآخرين من امثاله !

وعلى حين فجأة ، تسلى نداء مثير من الضفة المقابلة : ” يا شون الصغير . . . اين انت ؟ . . . ” فنهضت قافزا على قدمى . وكان الطفل قد ركب الذعر والقى بعضا الصيد فى الماء وركض مسرعا فى درب ضيق . وطوقتني حيرة تامة ، ولم اعرف ما قد حدث . وهنا

بزغ رجل متوسط العمر بين القصبات واخذ شون الصغير من يده ،
وانطلق مسرعا وياه . وسمعت الرجل يقول :
” اعتقلت الشرطة اباك في الليلة الماضية . . . فقد هاجمت وكر
الافيون . . . لم تقدر ان نخبر امك . فالسيد وو في زيارتها . ومن
يجسر على ازعاجه ! انت الوحيد الذى يمكننا نحن الجيران ان
نبلغه “
واخذت ظلالهما تذوب في الليل تدريجيا ، وذوى صوت
الرجل .

وعدت مجهدا ، على مهلى ، الى البيت . وكان اناس قليلون
بالمخارج في ضباب الليل الكثيف . وكان ثمة عبء على صدرى
كأن الضغط الجوى في تلك الليلة خائق على غير العادة . وكانت
النجوم التى قادتنى شديدة الشحوب ليست ساطعة كما اعتادت ان
تكون .

اغسطس ١٩٢٢

كلمة عن المؤلف

وانغ تونغ تشاو (١٨٩٧ - ١٩٥٧) : روائى وشاعر مشهور فى الصين
المعاصرة ، ولد فى محافظة تشوتشنغ بمقاطعة شاندونغ . وقد التحق بـ مدرسة
يويينغ الثانوية فى جينان ، مقاطعة شاندونغ ، فى سنة ١٩١٣ . ودخل الجامعة

الصينية ببيكين في سنة ١٩١٨ ، واشتغل محاضرا جامعيًا ومعلمًا بمدرسة بعد التخرج ، وفي نفس الوقت زاول الكتابة الادبية . وقد لعب دورا نشطا في الحركة الادبية الجديدة في سنة ١٩١٩ . ومن كتاباته المبكرة : « بعد سقوط الثلج » و« التأمل » . وفي سنة ١٩٢١ ، اسس جمعية الدراسات الادبية بالاشتراك مع ماو دون وتشنغ تشن دو ويه شنغ تاو وادباء تقدميين آخرين ، وبدأ في سنة ١٩٢٢ يتصل بالاديب لو شيون . وذهب الى اليابان في سنة ١٩٢٧ وتضمن اعماله في هذه الفترة المجموعتين الشعريتين « الصباح المثلج » و« الطفولة » ، والقصص القصيرة : « ليلة ممطرة في الربيع » و« نداء النفير » و« اثر الصقيع » ، والرواية القصيرة : « اوراق النبات » . ونشر مجموعة تقارير صحفية بعنوان : « الربيع في شمال الصين » ، بعد جولة في شمال شرقي الصين قام بها في سنة ١٩٣٠ . وفيما بعد ، اشترك في النشاطات الادبية التقدمية في شانغهاي ، وكتب « مطر الجبل » التي تعد من افضل رواياته المشهورة وهي تصف كيف هرب فلاحو شانغونغ رغم تشبثهم الشديد بالارض الى المدن فرارا من الضرائب الباهظة في سنة من سنوات الكوارث الطبيعية والقتال ، وانضموا الى صفوف العمال الذين كانت حياتهم محفوفة بالمخاطر . وفي نفس السنة ، ارغم على مغادرة شانغهاي بسبب حظر فرض على روايته وذهب الى اوربا لدراسة الآداب والفنون القديمة . وعاد الى الصين في سنة ١٩٣٥ وانضم الى جمعية انقاذ الوطن للاوساط الثقافية بشانغهاي . وفي سنة ١٩٣٦ ، نشر رواية « زهرة الربيع » التي تعكس الاتجاه الايديولوجي المثقفين الشباب بعد حركة الرابع من مايو والطرق المختلفة التي سلكوها . ونقل أسرته الى شانغهاي في سنة ١٩٣٧ ، واشتغل معلما في كلية شانغهاي للفنون الجميلة . وبعد ان اندلعت حرب المقاومة ضد اليابان ، ذهب يعلم في جامعة جينان . وعاد الى تشينغداو في سنة ١٩٤٥ ليصبح استاذًا بشعبة اللغة الصينية بجامعة شانغونغ . وبعد ان تأسست جمهورية الصين الشعبية ، انتخب نائبا في المؤتمر

الوطني لنواب الشعب وعضو اللجنة الشعبية بمقاطعة شاندونغ وعضو الاتحاد الصيني للاوساط الادبية والفنية وعضوا دائما بمجلس الادارة لاتحاد الكتاب الصينيين ورئيس اتحاد الادب والفن بمقاطعة شاندونغ وعضو العصبة الديمقراطية الصينية . وفي سنتي ١٩٥٧ و ١٩٥٨ ، نشرت دار نشر الادب الشعبى بيكين « قصص مختارة » و « اشعار مختارة » لأديبنا .
« طفل على ضفة البحيرة » قصة قصيرة خطها يراعه في سنة ١٩٢٢ ٤
تصور حياة اسرة بائسة من خلال طفل .

الجسور السبعة يوكيو ميشيما

نقلها إلى العربية
صلاح دهني



١٩٨٨

الهيئة العامة لكتبة الأسكندرية	
٨٥٦, ٨٣	رقم النص:
٤٢٢٥٦	رقم التسجيل:

الجسور السبعة

يوكيو ميشيما (اليابان)

Yukio Mishima (Japan)

★ يوكيو ميشيما: ولد في طوكيو عام ١٩٢٥، وانتحر عام ١٩٧٠، أحد أشهر الروائيين الذين أنجبتهم اليابان المعاصرة. أعماله الأدبية متنوعة وغزيرة: دراسات، مسرح روايات قصص.

في الساعة الحادية عشرة والنصف، ليلة اكتمال القمر من شهر أيلول،
ومذ تفرق ضيوف السهرة التي قامت فيها « كويومي » (Koyumi)
و « كاناكو » (Kanako) بدورهما كمضيفتين، رجعت الاثنان إلى
« منزل الغار » وارتدتا الكيمونو القطني. كانتا تؤثران الاستحمام قبل
معاودة الذهاب، إلا أنها لم تكونا تملكان الوقت لذلك.

كانت « كويومي » في الثانية والأربعين من العمر، ممتلئة وقصيرة، لا
تكاد تبلغ متراً وستين سنتيمتراً، وتحزم نفسها في كيمونو أبيض ذي
تزويقة سوداء (« و كاناكو »)، الجيشا الأخرى، رغم أنها لم تتعد الثانية
والعشرين، وأنها راقصة جيدة، لم يكن لها حمار، فكأنما كتب عليها ألا
تقع على دور مناسب في حفلات الرقص السنوية، التي تقيمها الجيشتات في
الربيع وفي الخريف. كان كيمونها من الكريب التخين الأبيض مطبوعاً
بجلزونيّات بلون أزرق بحريّ.

قالت « كاناكو »:

« أتساءل هذا المساء عما رسمه (دي كيمونو دو ماساكو)؟ ».

- ورق النفل ، بالتأكيد . فهي تريد لنفسها ولداً .

- هل مضت إلى النهاية ، إذن ؟ .

- لكن ههنا المشكلة . بالضبط لا ، أجابت كويومي . ما انفكت بعد ، بعيدة عن بلوغ ذلك . يليق بها تماماً دور العذراء مريم - فيكون لها ولد من رجل لمجرد أنها راغبة ! .

تؤمن نساء الجيشا جميعاً بالخرافة القائلة إن المرأة التي ترتدي كيمونو صيفياً يحمل رسم نفل ، أو منظر طبيعي لا تلبث أن تحمل .

حين باتتا متهيئتين للخروج ، شعرت « كويومي » فجأة أنها جائعة . كان ذاك أمراً يصيبها كلما خرجت في دورتها للحفلات ، غير أن حاجة الأكل تلك كانت تتمثل لها دوماً ككارثة غير متوقعة ، تهبط عليها من السماء . لم تكن تأبه للجوع قط حين تكون في مواجهة الزبائن ، مهما تكن السهرة مملّة . ولكن قبل أن تلعب الدور ، أو بعده ، يمسك الجوع الذي نسيته بتلابيبها فجأة ، شأن الأزمة العصبية . لم تكن « كويومي » تحتاط أبداً ، فتأكل كما يجب أن تفعل في الوقت الملائم . ففي أحيانٍ مثلاً ، حين تذهب مساء إلى الحلاق ، كانت ترى الجيشات الأخريات يطلبن وجبةً ، ويتلذذن بها في انتظار دورهن ، إلا أن « كويومي » لم تك تأبه لذلك . بل لم تك تتساءل ما إذا كان طبق الأرز باللحم ، أو أي طبقٍ آخر ، طيب المذاق . ومع ذلك فما تنقضي ساعة ، حتى كان الجوع يداهمها على حين غرة ، فتحسن باللّعب يفرق أسنانها القصيرة المتينة ، مثل نبعٍ ساخن .

كانت « كويومي » و « كاناكو » تدفعان شهرياً لـ « منزل الغار » عن وجبات طعامها ودعايتها . كانت فاتورة طعام « كويومي » على الدوام مرتفعة بنحوٍ شاذّ . إذ لم تكن مفرطة في الطعم فحسب ، بل كانت

كذلك متشدده. إلا أنها في الحقيقة، مذ تعودت عاداتها الغربية ألا تجوع إلا قبل الحفلات وبعدها، تناقصت فواتيرها شيئاً فشيئاً، وتعرضت للهبوط إلى ما دون فواتير « كاناكو ». ولا تتذكر « كويومي » متى بدأت تلك العادة الغربية، ولا متى انزلت للمرة الأولى إلى المطبخ قبيل الحفلة المسائية الأولى لتسأل، وهي تكاد تتحرق تلهفاً: « أليس لديكم ما آكله » ؟. وقد اعتادت الآن تناول وجبة مسائية في مطبخ البيت الذي تقام فيه الحفلة الأولى، ووجبة عشاء حيث تقام الأخيرة. وتلاءمت معدتها مع هذا النظام، وتناقصت نتيجة ذلك قوائم حساب طعامها في « منزل الغار ».

كانت جادة « جينزا » (Ginza) قد فرغت حين اتخذت سيدتا الجيشا طريقهما باتجاه « منزل يوني » (Yonei) في « شمباشي ». أشارت « كاناكو » إلى السماء فوق مصرف تحمي نوافذه سجف معدنية. « نحن محظوظتان، أليس كذلك ؟ إن المرء ليرى - هذا المساء - الإنسان في انتظارهما. وكانت ترتدي، حسبها قدرت كيمنو ذو رسوم من أوراق الـ « يوني » والأخيرة في « فومينويا » وقد أحسّت الآن أنه كان عليها أن تتناول عشاءها في « فومينويا » قبل مغادرته، إلا أن الوقت لم يسعفها من أجل ذلك. كانت قد هرعت إلى « منزل الغار » لتغيير ملابسها. سوف تضطر لطلب العشاء لدى وصولها إلى الـ « يوني » في المطبخ ذاته الذي سبق لها أن تناولت فيه وجبتها المسائية. كانت تلك الفكرة تثقل عليها.

غير أن قلق « كويومي » تبدّد منذ تجاوزت عتبة مطبخ الـ « يوني ». كانت « ماساكو » (Masako)، ابنة المالك المدللة جداً، واقفة في المدخل في انتظارهما. وكانت ترتدي، حسبها قدرت كيمنو ذو رسوم من أوراق النفل. فما رأت « كويومي » حتى وسعها الوقت لتصيح: « لم أكن أتوقع

قدومكما في مثل هذا الوقت المبكر. لسنا على عجلة - تعالي كُلي قطعة قبل
المسير » .

كان المطبخ مبقعاً ببقايا حفلات المساء . وأكداس هائلة من الأطباق
والزبادي تلمع تحت الضوء القاسي للمصابيح العارية . كانت « ماساكو »
واقفة في فتحة الباب ، وإحدى يديها مستندة على إطاره ، وقامتها تحجب
الضوء ، ووجهها في الظل . لم يكن وجه « كويومي » مضاءً بدوره ، فسرّها
أن ترى تعبير الانفراج عليه ، حين دعيتها « ماساكو » ، مرّ دون أن يظن
إليه أحد .

أثناء تناول « كويومي » العشاء ، قادت « ماساكو » « كاناكو » إلى
غرفتها . إذ من بين جميع الجيشتات اللواتي كنّ يحضرن إلى منزل
« يوي » ، كانت كاناكو تلك التي تتفاهم معها أكثر من الأخريات .
كانت هي « وماساكو » في السنّ ذاتها ، وكانتا قد ارتادتا المدرسة
الابتدائية معاً ، وهما على قدرٍ متساوٍ من الجهل تقريباً . غير أنّ ما يدخل
في الحسبان أكثر من تلك الأسباب جميعها ، أنّ « كاناكو » كانت تروق
لها بما فيه الكفاية .

كانت « لكاناكو » هيئة هي من الهدوء بحيث يخال المرء أن أقلّ نفخة
تذهب بها ، إلّا أنّها اختزنت وجوه التجربة اللازمة لها ، وكلمة واحدة
منها ، تلفظّها باستخفاف ، كانت تعود على « ماساكو » أحياناً بقدرٍ عظيم
من النفع . ومن جهة أخرى ، كانت الحماسية « ماساكو » طفولية
وخجولة ، عندما يجري الحديث عن الحب . كان الجانب الطفولي فيها
معروفاً لدى الجميع وكانت أمها تثق ثقة عمياء ببراءة ابنتها ، بحيث لم
يساورها الشك حين أوصت « ماساكو » لنفسها على كيمونو موشى

بالنفل. كانت « ماساكو » طالبة في معهد الفن بجامعة « واسيدا ». وقد أعجبت على الدوام بـ « ر. » (R.) ، ممثل السينما ، إلا أنه منذ حضر إلى الـ « يوني » ، ازدادت شغفاً به . وقد باتت غرفتها الآن مزدحمةً بصورة . كانت قد كلفت من قام بطبع صورة له على إناء من الخزف تمثل فيها إلى جانبه ، أخذت يوم مجيئه الذي لا ينسى . كان مليئاً بالأزهار ، وبتيه فوق مكتبها .

قالت « كاناكو » حين جلست : « وزعوا اليوم قائمة الأدوار » . كان فهمها الصغير الدقيق متغضناً . « حقاً ؟ قالت « ماساكو » محزونة ، مبديةً عدم المعرفة .

- ليس لي إلى الآن سوى دور صغير جداً . ولن يكون لي قط أفضل من ذلك . إن ذلك كفيل بأن يحطّ من عزيمتي نهائياً . أبدو في نظر نفسي كفتاة مرقص ، ترى السنين تنقضي ، فيما تبقى هي في الجوقة .

- أنا واثقة من أنك ستحظين في السنة المقبلة بدور جيد جداً .

هزت « كاناكو » رأسها . « في غضون ذلك أهرم . وفي غفلة مني أصبح فجأةً « كويومي » .
- لا تتفوهي بترهات . أمامك عشرون سنةً أخرى .

لم يكن من اللائق أثناء تلك المحادثة أن تأتي أي من الفتاتين على ذكر فحوى الصلاة التي ستؤديها ذاك المساء ، إلا أن كلا منهما كانت تعرف دون أن تسأل ما سوف تكون صلاة الأخرى . كانت « ماساكو » تطلب حبة « ر » ، و « كاناكو » حامياً طيباً وتعرف الاثنان أن « كويومي » تطلب المال .

كانت لصلواتهن أغراض متباينة ، هذا واضح ، لكنها معقولة في الأساس . فإذا لم يستجب لها القمر ، فهو المخطيء ، لا هن . كانت أمنياتهن تقرأ بنحو جليّ وشريف على وجوههن ، وتمثل رغبات جدّ إنسانية بحيث إنّ أيّ امرئ يلتقي النسوة الثلاث سائرًا في ضوء القمر ، يقتنع حتمًا أنه لن يكون من خيار أمام القمر : لسوف يعترف بسلامة طويتهن ، ويمنحهن ما تمنّين .

« معنا شخص آخر يرافقنا هذا المساء ، قالت « ماساكو » .

– حقًا ؟ من ؟ .

– خادمة . تدعى « مينا » (Mina) ، وصلت منذ شهر من الريف . قلت للوالدة إنني لست راغبة في مجيئها معي ، لكنّ الوالدة أجابت أنها ستقلق إذا لم يرافقني أحد .

– كيف هي ؟ سألت « كاناكو » .

في اللحظة ذاتها ، فتحت « مينا » خلف الفتاتين مصراعي الباب المنزلقين ومدّت رأسها ، وهي واقفة . فقالت « ماساكو » بلهجة جافة :

« أظن أنه قيل لك إنك لدى فتح المصراعين المنزلقين ، يفترض أولاً أن تركعي أرضاً ، وأن تفتحيهما من بعد .

– نعم ، يا آنسة ! لم يكن يبدو في صوت « مينا » القاسي ، والغليظ ما يحاكي حنق « ماساكو » . أمسكت « كاناكو » نفسها عن الضحك من هيئة « مينا » .

كانت تلبس فستاناً صنع من قطع مجزأة من قماش كيمونو . وقد أجرت على شعرها عملية كيّ شعثته ، وكان الساعدان الضخمان بنحو

عجيب، والظاهران عبر الكمين، يماثلان بلونها الدّاكن لون الوجه . وكانت ملاحظتها السميكة تختفي تحت خديها الضخمين، ولم تكن عيناها سوى شقيّين . ومهما تغيّرت طريقة إغلاق فمها، فقد كانت تبرز منه سن، أو إثنان من أسنانها غير المتحاذية ! كان من العسير على المرء أن يميّز على وجهها أدنى تعبير .

« يا له من حارسٍ خاصٍ ! همست « كاناكو » في أذن « ماساكو » .

اتخذت « ماساكو » مظهراً صارماً . « هل أنت واثقة من أنك فهمت ؟ قلت لك في الماضي، ألا إنني أكرّر الآن . منذ أن نضع القدم خارج المنزل لا تفتحي فمك، مهما حدث، قبل تجاوزنا كلاً من الجسور السبعة . كلمة واحدة وتجرمين من الحصول على ما ترومه صلاتك . فإذا كلّمك شخص من معارفك، فمن سوء طالعك، غير أنني لا أظن أنك تتعرّضين لمخاطر كبيرة . ثم إن « كويومي » سوف تتقدّمننا . وما عليك إلا أن تنبئها » .

كانت « ماساكو » قد قدّمت، في الجامعة، عروضاً تحليلية لروايات « مارسيل بروسـت (Marcel Proust) ، ولكن لدى بلوغ ما يدور حوله الحديث، كانت التربية الحديثة التي تلقّتها في الصف تبارحها كلياً .

« نعم، آنسة »، أجابت « مينا » . لم يكن من الجليّ أبداً ما إذا كانت قد فهمت أم لم تفهم . « يجب أن تأتي في كلّ الأحوال . يمكنك أنت أيضاً أن تنوي . هل فكرت بشيء ما ؟ » .

— نعم آنسة »، قالت « مينا »، مع بسميّة متمهّلة .
إذ ذاك ظهرت « كويومي »، مداعبة معدتها بابتهاج : « أنا جاهزة الآن » .

- هل أحسنت انتقاء الجسور لنا ؟ سألت « ماساكو » .

- نبدأ بجسر « ميوشي » . فهو يجتاز ذراعين من النهر ، لذا يحسب جسرين . أليس هذا مما يلائمنا ؟ أنا خبيثة ، يسعني قول ذلك .

أخذت النسوة الثلاث ، اللواتي يعرفن أنهن ما إن يضحين في الخارج ، حتى يتوجب عليهن الإقلاع عن التلفظ بكلمة واحدة ، بالتكلم بصوت مرتفع وكلهن معاً ، كما لو كنّ مزروعات على التخلص من تراكم قدر عظيم من الثروة . وتابعن حتى باب المطبخ . كان قبقاب « ماساكو » ذو الطلاء الأسود ينتظرها على الأرض المطرقة قرب الباب . وحين دسّت قدميها العاريين في القبقاب ، ألقت أظافرها المقصوصة والمنعمة بعناية وهجاً خفيفاً في الظلمة .

هتفت « كويومي » : « يا للحسن ! أحر أظافر وقبقاب أسود - حتى القمر لن يقدر على مقاومة إغرائك ! .

- أحر أظافر ! أفكارك عتيقة ، يا « كويومي » ! .

- أعرف الاسم . إنه « مانكان » أليس كذلك ؟ .

تبادلت « ماساكو » و « كاناكو » النظر وانفجرتا ضاحكتين .

بلغت النسوة الأربع جادة شوا ، تتقدمهنّ « كويومي » . اجتزن باحة وقوفٍ أودعت فيها سيارات أجرة كثيرة ، بعد نهاية يومها . كان ضوء القمر ينعكس على الهيكل الأسود للمركبة . وأصوات الحشرات الصارخة تسمع . كانت ما تنفك هنالك حركة سيرٍ كبيرة في جادة شوا ، إلا أن الشارع ذاته كان هاجعاً ، فتبدو فرقعة الدراجات النارية منعزلة متوحدة في غياب الضجيج المعتاد عن الشارع .

كانت بعض قزعات السحاب تنزلق في السماء تحت القمر ، ومن فترة إلى أخرى كانت تلتحم بكتلة الغيوم الثقيلة المجاورة للأفق . كان القمر يتألق فما من شيء يحجب نوره . وحين يهن ضجيج حركة السير ، كان طرق البقايب يبدو كما لو أنه يتطاول من الرصيف حتى سطح السماء الصلب الأزرق .

كانت « كويومي » ، السائرة في مقدمة الأخريات ، فرحة إذ لم يكن أمامها سوى شارع عريض خال . كانت « كويومي » تزهو أنها تدبرت أمورها وحدها على الدوام ، وكانت مبهجة لأن معدتها ممتلئة . لم تكن تفقه ، على فرحتها بالسير ، لم كانت شديدة الرغبة في الحصول على مزيد من النقود .

كانت تحس أن ما تتمناه في الحقيقة هو الذوبان بغير نصب ولا سبب في ضوء القمر المنساح أمامها على الرصيف . كان ثمة نثار من الزجاج يلتمع على حافة الطريق . وفي ضوء القمر ذاته كان نثار من زجاج يلتمع - فتساءل عما إذا كانت ما ترغب بامتلاكه دائماً لا يشبه نثار زجاج .

كانت « ماساكو » و « كاناكو » تسيران فوق الظل الذي تلقيه « كويومي » خلفها ، وقد أمسكت إحدهما بخصر الأخرى . كان هواء الليل رطباً ، وتشعر كلتاها بنسمة رخوة تندس في أردانها ، فتجمد وتوتر نهودها التي بللها تهيج الانطلاق بالعرق . وبأصبعيهما المتشابكين كانت صلواتهما تتمازج ببلاغة ما بعدها بلاغة ، رغم إمساك اللسان عن الكلام .

كانت « ماساكو » تتمثل في مخيلتها صوت « ر . ر » الرقيق ، عينيه المديدتين اللتين أحسن تصويرها ، والخصل على صدغيه ، وإذا كانت ابنة

مالك مطعم من الدرجة الأولى في جادة « شيمباشي »، فيجب ألاّ تقرن بالمدلّهات الأخريات به - فلا تستبين، لم لا يستجاب دعاؤها . كانت تستذكر كم كان نفّس « ر . » رقيقاً حين كان يحدثها، لا يحمل أيّ أثر للكحول . كانت تستذكر ذاك النفس الفتيّ الفحل، المعفّر بفوح الكلال المقصوص . وحين كانت تلك الذكريات تعاودها وحيدة، كان ما يماثل الموجة يسري في جلدها، من ركبتها حتى الفخذين . كانت على يقين - ومع ذلك على أقل ما يكون من اليقين - من وجود جسد « ر . » في موضع ما من الدنيا، بمثل ما هي متيقنة من ذكرياتها المتكررة . وكان نصيب من الشكّ يعذبها على الدوام .

كانت « كاناكو » تحلم برجلٍ غنيٍّ في متوسط العمر، وسمينٍ . يتوجب أن يكون سميناً ليظهر في مظهر الغنيّ . لكم تكون سعيدة - هكذا كانت تحلم - لو انها إذ تغمض العينين، تحسّ بحمايته العريضة الكريمة تطوقها! كانت « كاناكو » قد اعتادت إغماض عينيها، إلّا أنّ التجربة علّمتها حتى الآن أنها ما إن تفتحها حتى يكون الرجل قد اختفى .

التفتت الفتاتان برأسيهما، كما لو أنها اتفقتا على ذلك . كانت « مينا » تتقدّم صامتة خلفها، ويدها على خديها، كانت تتقدّم متعثرة، وتدوس في كلّ خطوة على حاشية ثوبها . كانت عيناها مثبتتين في الفراغ بلا أيّ تعبير . وكانت « ماساكو » و « كاناكو » تريان في هيئة « مينا » قذفاً في حقّ صلاتيهما .

استدارتا يميناً في جادة « شوا »، تماماً في الموضع الذي تتلاقى فيه منطقتان من « جينزا » الشرقية . كان نور المصابيح الثابتة يرسم ما يشبه برك الماء على مسافاتٍ منتظمةٍ بمحاذاة المباني . وكان الظل يحرم الشوارع

الضيقة من ضوء القمر .

فما انقضت وهلة حتى شاهدن جسر « ميوشي » ينتصب أمامهن ، وهو أول الجسور السبعة التي كان عليهن قطعها . كان مبنياً بنحو غريب على شكل حرف « إي » (I) اليوناني بسبب تشعب النهر في هذا الموضع . كانت الأبنية الخزينة للإدارة المركزية للمنطقة تمتد على الضفة المقابلة ، والميناء الأبيض لساعة البرج يشير إلى الوقت إشارة غير صحيحة ، عثبة في سواد السماء . يحفّ جسر « ميوشي » بحاجز واطئ قدرأ ما ، وفي كل ركن من الجزء المركزي ، حيث تلتقي الأجزاء الثلاثة من الجسر ، ينتصب مصباح مثبت على النسق القديم تسقط منه حزمة من المصابيح الكهربائية . ويحمل كل فرع من الحزمة أربع كرات إضاءة ، إلا أنها لم تكن مضاءة كلها ، وكانت المطفأة من بينها تلمع بلون أبيض مطفأ تحت ضوء القمر . ومجموعات من الحشرات تتطاير من حول المصابيح .

كان ماء النهر مغسولاً بضوء القمر .

عند نهاية الجسر ، قبيل تمام اجتيازه ، ضمت النسوة الشابات تحت قيادة « كويومي » ، أيديهن لأداء الدعاء . انطفأ نور ضعيف في مبنى صغير قريب خرج منه رجل أنهى لتوه بغير شك ساعاته الإضافية ، وغادر عمله آخر من غادر . كان يوشك على إغلاق الباب حين أبصر المشهد الغريب فتوقف .

أخذت النسوة الشابات ، الواحدة بعد الأخرى ، باجتياز الجسر . لم يكن ذاك سوى امتداد الطريق التي سلكنها بمرح ، غير أنهن في مواجهة جسرهن الأول تحيرت خطاهن وثقلت ، كما لو أنهن وضعن القدم على

منصّة مسرح . لم يكن قد تبقى سوى بضعة أمتار لبلوغ الذراع الأخرى للجسر ، إلّا أن تلك الأمتار القليلة بعثت فيهن شعوراً بالانتصار والعزاء .

توقفت « كويومي » تحت مصباح ، وإذ استدارت جهة الأخريات ، ضمت يديها مجدداً . قلّدتها النسوة الثلاث . حسب تقديرات « كويومي » ، كان اجتياز جزأين من الأجزاء الثلاثة للجسر يحسب كاجتياز جسرين منفصلين . لذا يتطلب ذلك منهن أداء الصلاة أربع مرات على جسر « ميوشي » ، مرة قبل ، ومرة بعد قطع كل من الذراعين .

كلما مرت سيارة تكسي كانت « ماساكو » تلاحظ وجوه الزبائن المشدوّهة خلف زجاج النوافذ ، إلّا أن « كويومي » لم تكن تعير ذلك أدنى انتباه .

لدى وصول النسوة الشابات أمام الإدارة المركزية ، أدرن لها ظهورهن ، وأدين صلاتهن الرابعة . شعرت « كاناكو » و « ماساكو » بالارتياح لاجتياز الجسرين دونما حادث ، وعلى أنها لم تكونا قد أخذتا صلواتهما مأخذ جدّ كبير ، فقد بدأتا تعلّقان عليها أهمية أساسية .

كانت « ماساكو » على ثقة متنامية أنها تفضّل الموت على ألا تكون مع « ر . » وقد ضاعف مجرد اجتياز الجسر رغباتها عشر مرات . وكانت « كاناكو » الآن على ثقة أن الحياة لا تستحق أن تعاش إذا لم يكن في وسعها الوقوع على حامٍ طيّب . وخلال أدعيتها ، كان قلبها يغبان احتياجاً ، وباتت عينا « ماساكو » على حين غرة ملتهبتين .

ألقت نظرةً جانبيةً. كانت «مينا» مغلقة العينين، وتضمّ يديها بورع.

كانت «ماساكو» مقتنعةً أن صلاة «مينا» معها كانت، لا يسعها أن تبلغ في الأهمية مبلغ صلاتها هي. كان يخالجها شعور بالفراغ ويتجمد قلب مينا بشعور الاحتقار وكذلك الحسد.

كنّ يتجهن جنوباً، محاذيات النهر حتى خط الترام. كان آخر ترام قد عاد بالطبع منذ أمدٍ بعيدٍ، والخطوط التي كانت نهراً تلتهب تحت شمس الخريف المبتدئ، لم تكن ترسم الآن سوى خطين أبيضين وباردين.

قبل بلوغ «كاناكو» خطوط السكة، أخذتها آلام غريبة في البطن. عساها طعمت شيئاً لم يناسبها. فما خطت خطوتين أو ثلاثاً حتى اختفت الأعراض الخفيفة الأولى للألم حادٍ، مع الارتياح ونسيان الألم، غير أن هذا الارتياح سريعاً ما عاد موضع بحثٍ، إذ ما إن أقنعت نفسها بنسيان الألم، حتى كان يتأكد مجدداً.

كان جسر «تسوكيجي» الثالث؛ عند مدخل هذا الجسر الكثيب في قلب المدينة، شاهدن شجرة صفصافٍ مزروعة بأمانةٍ حسب العرف. صفصافة متوحدة، ما كان هنّ قط أن يلاحظنها لو أنهنّ مررن بالسيارة، كانت تنمو في رقعة صغيرة مستديرة من التراب الرخو وسط الخرسانة الإسمنتية. وحسب التقاليد، كانت الأوراق ترتعش في هواء النهر. في وقت متأخر من الليل، كانت المباني الضاحّة ميتة، والصفصافة وحدها تعيش.

ضمت « كويومي »، الواقفة في ظلال الصفصافة، يديها قبل اجتياز جسر « تسوكيجي ». ولعل إحساس « كويومي » بمسؤوليتها بصفتها رئيسة الحملة، هو ما كان يجعل قامتها الممتلئة أشد انتصاباً من المعتاد. فالواقع أن « كويومي » نسيت الغرض من صلاتها منذ أمدٍ طويل. فما هو ذو بال الآن، هو عبور الجسور السبعة بغير ما حادث كبير. كان ذلك القرار باجتياز الجسور مهما حدث، يبدو لها علامة على أن اجتياز الجسور بات في حد ذاته غرض صلاتها. ذاك كان مشهداً فريداً للغاية، إلا أن « كويومي » جعلت تعي أن ذاك كان - شأن رغباتها الملحة المفاجئة - جزءاً لا يتجزأ من طريققتها في العيش، وخلصت إلى الإقناع بذلك مع تقدمها شيئاً فشيئاً تحت ضوء القمر. فانتصبت أكثر مما كانت منتصبّة، وقد ثبتت نظرها باستقامة أمامها.

إن جسر « تسوكيجي » خلوّ من أي فتنة. والأعمدة الأربعة التي تحدّد أطرافه لا تتمتع هي الأخرى بأيّ جمال. إلا أن الصبايا شمن للمرة الأولى أثناء اجتياز الجسر شيئاً ما يشبه رائحة البحر واستشعرن نفحة هواءٍ تحلّ بالملح. حتى أن إعلاناً أحر من النيون لإحدى شركات التأمين، كان يرى جنوباً في نحو سافلة النهر، تبدّى هنّ كعلامة من نارٍ تنبئ باقتراب البحر باطرادٍ.

اجتاز الجسر وأدّين صلاةً جديدةً. كان الألم الحادّ الذي تحسّه « كاناكو » الآن، يبعث الغثيان في نفسها. عبرن خطوط الترام متقدّمات ما بين الأبنية العتيقة الصفراء لمعامل « س. » والجسر. جعلت « كاناكو » تقصر في مشيتها شيئاً فشيئاً. فأبطأت « ماساكو » أيضاً، قلقه، إلا أنه لم يكن في وسعها أن تفتتح فمها لتسأل « كاناكو » ما إذا كانت الأمور على

ما يرام. وانتهت « كاناكو » أن أوضحت ما بها ، بالإشارات ، ويدها على بطنها ، مرافقة ذلك بتكشيرة ألم .

كانت « كويومي » ، وهي في حال يمكن وصفها بالانتشاء ، تتابع مسيرتها الظافرة بالسرعة ذاتها فلا ترى ما الذي يحدث . فازداد البون ما بينها وبين الأخريات .

وها هي مع قرين حام تحت النظر ، على قاب قوسين أو أدنى ، بحيث يكفي أن تمد اليد لتمسك به ، هي ذي « كاناكو » تدرك بأن يديها لن تطلأه أبداً . كان وجهها قد اصطبغ بشحوب مبيت ، والعرق يتصبب من جبهتها . إن من المدهش ، مع ذلك ، كم ذا يتكيف القلب البشري : مع استفحال الوجع في بطن « كاناكو » ، كانت أدعيتها التي ترجو لها بجرارة فائقة حتى ما قبل فترة وجيزة ، أن تستجاب ، تلك الأدعية التي بدت على وشك أن تقبل ، فقدت بنحو ما واقعيتها كلها ، وبلغت أن توسوس لنفسها بأن رغباتها ما كانت منذ المنطلق سوى خيال لا يستند إلى واقع ، سوى أحلام طفولية . كانت تتقدم بصعوبة ، وهي تقاوم موجات متعاقبة من الألم ، ويتمثل لها أنه يوشك أن يكف ما إن تتخلّى عن أوهامها الخيالية . فلما بدا الجسر الرابع للعيان آخر الأمر ، وضعت « كاناكو » يدها برفق على كتف « ماساكو » ، وبإيماءات راقصة ، أرتها بطنها وهزت رأسها . كان شعرها المحلول ، الملتصق على خديها بالعرق ، يبدو كأنما يقول بأنها لن تتمكن من المسير إلى أبعد مما فعلت . استدارت فجأة على عقبها وعادت راكضة نحو خطوط السكة .

كانت حركة « ماساكو » الأولى أن تركض خلف « كاناكو » ، إلا أنها تذكرت أن فاعلية ابتهالاتها سوف تتقوؤ إذا هي عادت على

أعقابها ، فستمرت واكتفت بالنظر إلى « كاناكو » وهي تركض . ولم تلحظ « كويومي » أن شيئاً ما قد اختلّ إلّا حين بلغت الجسر . كانت « كاناكو » حينذاك تركض كالمجنونة تحت ضوء القمر ، دون أن تقيم وزناً لمظهرها . كان كيمونوها الأزرق والأبيض يتطاير ، وقرقعة قبقابها ترددها الأصداء على جدران الأبنية المجاورة . وقد كان يرى ، من حسن الطالع ، تكسي وحيد متوقف في الزاوية .

كان الجسر الرابع جسر « ايريفونا » . وكان عليهن أن يعبرنه في الاتجاه المعاكس للاتجاه الذي سلكته لعبور جسر « تسوكيجي » .

توقفت الصبايا الثلاث عند مدخل الجسر ، وصّلين مؤديات الحركات ذاتها .

كانت « ماساكو » متكدرة بسبب « كاناكو » ، غير أن إشفاقها لم يكن أصيلاً مثلها هو عادة . وما عبر ذهنها بشيء من البرود إلّا الفكرة القائلة إنّ من يتخلّى عن الصفوف ، عليه منذ الآن أن يتخذ مساراً آخر غير مسارها . فكلّ صلاة تؤذيها امرأة ما هي سوى قضية شخصية ، حتى ولو تمثل لها خطر ما ، فلا يمكن أن يطلب من « ماساكو » حمل عبء امرأة أخرى . لأنّ ذاك لن يكون من قبيل مدّ يد العون إلى أي شخص كي يرفع حمولته إلى قمة الجبل - بل سيكون من قبيل عمل شيء لن يخدم قضية ، ولا شخصاً .

كان اسم « جسر تريفونا » منقوشاً بحروف بيضاء فوق صفيحة أفقية من المعدن مثبتة على عمود في مدخل الجسر . والجسر ذاته يرتفع في الظل ، وأرضه الإسمنتية مغمورة بالوهج الباقى الذي تعكسه من الضفة المقابلة

خطة بنزين كالتكس. كان يشاهد في النهر نورٌ خافت في الموضع الذي يسقط فيه ظل الجسر. والرجل الذي يقيم في آخر الرصيف في كوخٍ مهتمٍ لم يكن قد أوى إلى فراشه بعد بغير شك، والنور نوره. كان كوخه مُزينا بزهورٍ في أصصٍ وتعلن كتابة: « سفن نزهة، قوارب صيد، شباك، جرّ سفن ».

انخفض خط سطوح المباني التي لا عذ لها بالتدريج على الجانب الآخر من النهر، ويكاد المرء يقول إنّ السماء الليلية كانت آخذةً بالانقشاع بمقدار ماكن يتقدّم. لاحظن أن القمر الذي كان شديد التألّق قبل قليل، لم يعد يرى إلّا عبر سحبٍ خفيفة. وكانت السحب قد تجمّعت وغطّت السماء كلها.

قطعت الصبايا جسر « تريفونا » بدون أيّ عارضٍ. بعد جسر « تريفونا » يرسم النهر زاويةً قائمةً تقريبا. كان الجسر الخامس بعيداً نوعاً ما. وعليهن اتباع النهر حذاء الرصيف العريض الخاوي حتى جسر « آكاتسوكي ».

كانت المباني عن يمينهن في معظمها مطاعم. وعن يسارٍ على ضفة النهر ذاتها، كانت هنالك أكداس من حجارةٍ وحصى ورملٍ لبعض مشروعات البناء، ويتناثر نصف الأكوام الداكنة على قارعة الطريق. وبعد برهة شوهدت مباني مستشفى القديس « لوقا » (Saint - Luc) الهائلة عن يسارهن على الجانب الآخر من النهر. كان المصحّ يكون كتلةً جهمةً في ضباب ضوء القمر. وكان الصليب المذهب الضخم الذي يعلوه منوراً، وكانت أضواء الشارات الحمراء للطائرات - كما لو أنها تغازل الصليب - تنغمز هنا وهناك فوق السطوح المجاورة، محددةً تخوم السطوح والسماء.

كانت أضواء المصلى خلف المصح مطفأة، غير أن عُصبيات الوردية الغوطية الكبيرة على الواجهة الزجاجية كانت مرئية بنحوٍ جيّد. كانت بعض الأنوار الشاحبة ما تزال مضاءة في نوافذ المصح.

كانت النسوة الثلاث يمشين ملتزمات السكوت. «فاساكو» المستغرقة في المهمة التي تنتظرها، ما كانت قط بقادرة على التفكير بشيء آخر. وكن قد عجلن الخطى بحيث كانت الآن مندأة بالعرق. ومن ثم - وقد تبادل لها بادئ ذي بدء أنها كانت تتصور تصوراً - صارت السماء متوغدة، وفيها يرى القمر، وشعرت ببضع قطرات من المطر فوق جبينها. ومن حسن الطالع أنه لم يكن يبدو أن المطر سيصبح غزيراً.

لاح الآن جسر «آكاتسوكي»، خامسهن. لا يدري أحد لماذا كانت أعمدة الإسمنت المبيضة بالجير على هيئة الأشباح في الظل. ولما كانت «ماساكو» تضمّ يديها لدى مدخل الجسر، تعثرت بأنبوب من الحديد المصبوب وأوشكت على السقوط. ومن الجانب الآخر للجسر كان الترام يستدير أمام مصحّ القديس «لوقا».

لم يكن الجسر طويلاً. كانت النسوة يسرن بسرعة فائقة بحيث أنهن كن سيجتزئن للحال، لولا أن «كويومي» صادفها سوء الطالع ما إن بلغت الضفة الأخرى. كانت امرأة فرغت لتوها من غسيل شعرها آتية لملاقاتهن، وهي تحمل بيدها سطلاً معدنياً. كانت تسير بسرعة وكيمنها المحلول، الفاجر على كتفها، يمنحها مظهراً وسخاً. لمحتها «ماساكو» لحاً، غير أن الشحوب المميت للوجه تحت الشعر المبلول بعث بجسدها الرعشة.

توقفت المرأة على الجسر واستدارت: «لكن تلك هي «كويومي»، أليس كذلك؟ انقضت قرون ها؟ وتتصنعين عدم التعرف عليّ؟»

« كويومي »، إنك تتذكّرني تماماً! » كانت تتناول برقيبتها متفرّسة في وجه « كويومي »، مقفلة عليها الطريق. خفّضت « كويومي » عينيها ولم تجب.

كان صوت المرأة رفيعاً ومتهدّجاً، حتى ليقول المرء إنه ريح تصفر في وهدّة. كانت تكمل مونولوجها، كما لو لم تكن قد توجهت إلى « كويومي »، بل إلى شخص لم يكن موجوداً. « أنا عائدة لتوي من الحمام. ها قد انقضت قرون! ولتقي ههنا! ».

أحست « كويومي » بيد المرأة فوق كتفها، فآل بها الأمر إلى فتح عينيها. كانت تعي أن لا فائدة ترجى من الامتناع عن إجابة المرأة - فمجرد أن يتوجه إليها أحد من معارفها بالكلام، كان كافياً لإهدار صلاتها.

نظرت « ماساكو » في وجه المرأة. فكرت وهلة، ثم عادت المسير، مخلفة « كويومي » وراءها. كانت « ماساكو » تتذكر وجه المرأة، كانت جيشاً قديمة مثلت زمناً في الـ « شيمباشي » بعد الحرب مباشرة.

كان اسمها « كوان » (Koen). أصبحت غريبة الأطوار بعض الشيء، وتسلك رغم سنّها مسلك فتاة مراهقة، وانتهى الأمر إلى شطب من قوائم الجيش. لم يكن من المستغرب أن تتعرف « كوان » إلى « كويومي »، التي كانت لها صديقة قديمة غير أنها كانت ضربة حظ، إنها نسيّت « ماساكو ».

كان الجسر السادس أمامها تماماً، جسر « ساكاي »، بناء صغير لا يشير إليه سوى سهم معدني صيغ بلون أخضر. عجّلت « ماساكو » بالفراغ من صلاتها عند أقدام الجسر، وعبرته شبه راكضة. وحين التفتت

برأسها ، لاحظت بارتياح أن « كويومي » غابت عن الأنظار . وخلفها تماماً كانت تتبعها « مينا » ، بسحنتها المقطبة دوماً .

صفت وجه « ماساكو » مجدداً بضع قطراتٍ من المطر . كان الطريق أمامها محاطاً بالمستودعات . وثمة مبانٍ تخفي عنها النهر . كانت الظلمة شديدة ، ومصابيح مضاءة بعيداً تزيد المسافة التي تفصلها عنها ظلمة . لم تكن « ماساكو » تخشى بنحوٍ خاصٍ المسير في الشوارع بمثل تلك الساعة المتأخرة من الليل . كانت تشغف بالمغامرة ، والغاية التي تهدف إليها ، غرضٌ صلاتها ، كانت تمنحها الشجاعة . إلا أن ضجيج قبقاب « مينا » ، الذي كان يردّد صداها خلفها ، بدأ يثقل عليها بنحوٍ مبهِظٍ . والحقيقة هي أن لطرق القباقيب جانباً بهيجاً وغير نظامي ، إلا أن مسير « مينا » الهادىء ، الذي يتناقض وخطى « ماساكو » القصيرة المتكلفة ، كان يبدو كأنما يلاحق « ماساكو » كما يسخر منها .

قبل انسحاب « كاناكو » ، كان وجود « مينا » قد أوحى ببساطةٍ لماساكو بشيءٍ من الاحتقار ، إلا أنها تثقل عليها منذ ذلك ، والآن وقد صارتا اثنتين فحسب ، لم تعد « ماساكو » قادرة على مغالبة نفسها من أن تستشيط غيظاً رغباً عنها ؛ فما كان يسع هذه الفتاة الخارجة من قلب الريف ، أن تطلبه في صلواتها كان لغزاً . لقد كان من المزعج أن تحفّ بالمرء هذه المرأة السمينة المسكينة التي لا يعرف نواياها ، لتخبّ وراءه . كلا ، فالأمر أدنى في الإزعاج مما هو في الإقلاق ، وكانت « ماساكو » تحسّ بمزاجها يزداد تعكراً حتى يبلغ مبلغ الذعر .

لم تكن « ماساكو » قد أدركت قط فيما مضى ، كم ذا يعكّر مزاج المرء جهله بنية الآخر . كان ينتابها شعور أن ضرباً من كتلةٍ مظلمةٍ يتبعها ،

ليس إطلاقاً مثل « كاناكو » ، أو « كويومي » ، اللتين كانت صلواتها جد شفافية بحيث تمكنت من بلوغ مكنونها . جرت « ماساكو » بغير طائل أن تحيي شوقها إلى « ر . » . كانت تريده أشد تلميحاً من أي وقت مضى . استحضرت وجهه . تخيلت صوته . استذكرت نفسه الفتي . غير أن الصورة ما لبثت أن تبددت في الحال فلم تجرّب من جديد تكوينها .

كان عليها أن تعبر الجسر السابع في أسرع وقت . وحتى ذاك الحين لن تفكر في أي شيء .

صارت مصابيح الشارع التي رأتها في البعد تشبه الأضواء التي تنير مداخل الجسور . كانت ترى أنها تقترب من طريق كبرى من طرق المرور ، فلا بد أن يكون الجسر قريباً .

منتزة صغير شوهد بادئ الأمر ، كانت الأضواء التي رأتها فيه تلمع فوق برك صغيرة سوداء كان المطر يخطّ بكومة رمل ، ثم جاء الجسر نفسه الذي كان اسمه « جسر بيزن » منقوشاً على عمود إسمنتي في المدخل . كان هنالك مصباح واحد في أعلى العمود يرسل نوراً خافتاً . رأت « ماساكو » عن يمينها ، على الجانب الآخر من النهر ، معبد تسوكيجي « هونغانجي » (HongANJI) كانت القبة الخضراء على سطحه تتسامق في السماء المعتمة . تعرفت إلى المكان . يتوجب عليها أن تتنبّه بعد عبورها الجسر ، ألا تعود أدراجها سالكة الطريق ذاته .

تنفست « ماساكو » الصعداء . ضمت اليدين عند مدخل الجسر ، وتعويضاً عما ارتكبته من استخفاف في صلواتها الأولى ، صلت هذه المرة بعناية وورع .

كانت ترى بطرف عينها « مينا » التي تقلدها على جري عاداتها ، ضامة يديها الضخمتين. أثار المشهد حفيظة « ماساكو » إلى درجة نسيت معها الغرض من صلواتها ، وكانت الكلمات التي احتشدت في فمها : « كنت أود لو لم أصحبها . فهي حقاً مثيرة للسخط . ما كان عليّ قط أن أصحبها » .

في تلك اللحظة صدر صوت رجلٍ مستجوباً « ماساكو » . أحسّت بنفسها تتصلّب . كان رجل شرطة ينتصب أمامها . كان وجهه فتيماً ومتوتراً ، وصوته جاداً . « ماذا تفعلان هنا في قلب الليل ، وفي مثل هذا المكان » ؟ .

لم يكن بمقدور « ماساكو » أن تحجب . ففي كلمة واحدة دمار كل ما كان . فهمت لتوها من أسئلة رجل الشرطة اللاهثة بأنه أخطأ هدفه : كان يظن أن الصبية التي تؤدّي صلواتها في قلب الليل فوق جسرٍ ، إنما تنوي إلقاء نفسها في الماء . لم يكن في مستطاع « ماساكو » أن تنطق ، فتودّ لو تفهم « مينا » أن عليها أن تحجب بدلاً عنها . شدّت ثوب « مينا » محاولة إيقاظ فطنتها . ومهما كانت « مينا » غبيةً ، فما كان يخطر في بال أنها لم تفهم ، غير أنها أبقت فمها مغلقاً بعناد . ذهلت « ماساكو » وهي تنظر إلى مينا - إما عن طاعةٍ للتعليمات الأولى التي تلقّتها ، أو حمايةً لصلاتها هي - وقد صمّمت على عدم الكلام .

باتت لهجة رجل الشرطة أشد صرامةً : « أجبي ، أريد جواباً » . خلصت « ماساكو » إلى أن أفضل ما يسعها فعله كان أن تركض حتى الطرف الآخر من الجسر ، ثم تبرّر سلوكها بعد أن تكون قد عبرت . قفزت هاربةً من يدي الشرطي ، ورأت « مينا » تركض وراءها .

عند منتصف الطريق ، وسط الجسر ، لحق الشرطي « ماساكو » . أمسك

بذراعها . « تحاولين الهرب ، ها » ؟ .

ـ « أنا أهرب ! فكرة غريبة ! إنك تؤلني ، وأنت تشدّ على ساعدي بهذا النحو ! » كانت « ماساكو » قد صاحت قبل أن تعي فعلتها . وإذ فهمت من بعد أن صلواتها ذهبت هدرآ ، تأملت متحرقة غيظاً ، الجانب الآخر من الجسر حيث كانت « مينا » ، التي مرت بلا عائق ، تنهي صلاتها الرابعة عشرة والأخيرة .

تشكّت « ماساكو » ، مغیظةً ، إلى أمها حين عادت ، وأمها التي لم تكن على علمٍ بفحوى الأمر ، وتبخت « مينا » . كنتِ في كل حالٍ تصلين من أجل ماذا ؟ سألت « مينا » لم تحب « مينا » بغير بسمّةٍ مكشّرةٍ .

بعد انقضاء أيامٍ ، وقد شدّت « ماساكو » من عزيمتها ، كانت تخاصم « مينا » ، فتسألها للمرة المئة : « ما كانت فحوى صلاتك ؟ من أجل ماذا ؟ قولي لي . يسعلك الآن حتماً أن تخبريني » .

تهربت « مينا » ببسمّةٍ صغيرةٍ .

« إنك رهيبة ، يا « مينا » ، رهيبة حقاً » .

وبأصابعها المدببة ذات الأظافر المشدّبة باعتنائها ، دفعت « ماساكو » « مينا » في الكتف . كان اللحم المطاطيّ الصلب يقاوم الأظافر . وغشّى خدر غريب رؤوس أصابع « ماساكو » ، التي لم تعد تدري ماذا تفعل بيدها .

جمهورية فرحات

يوسف أدريس

الطبعة الأولى
١٩٨٧م - ١٤٠٧هـ

جميع حقوق الطبع محفوظة

دار الشروق

بيروت : ص.ب. ٨ - ٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٢ - برقية : داشروق
تلكم : SHOROK 20176 LB

القاهرة : ١٦ شارع جلاء خلي - هاتف : ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨ - برقية : داشروق
تلكم : 93091 SHROK UN

SHOROK INTERNATIONAL: 316/318 REGENT STREET, LONDON W1, UK, TEL: 037 2743/4
TELEX: SHOROK 26779G

جمهورية فرحات

ما كدت أدلف إلى القسم ومعى الحرس حتى أحسست بانقباض مفاجئ، لم تكن تلك أول مرة أدخله ولكنها كانت المرة الأولى التي أرى القسم فيها في الليل، ولهذا شعرت حين تخطيت الباب أنني أدلف إلى خندق سفلي لا يمت إلى الحاضر ولا حتى إلى الماضي القريب.. جدران يكسوها حتى منتصفها سواد على هيئة طلاء وكآبة تكسو نصفها الثاني.. وبقع بيضاء مبعثرة هنا وهناك لا تخفف السواد بقدر ما تظهر بشاعته، وأرض لزجة لا تدري إن كانت من الأسفلت أو من الطين ورائحة.. رائحة لا تستطيع أن تحدد كنهها وإنما لا بد أن تحس معها بغثيان، وضوء باهت يأتي من مصابيح بالغة القدم عشت عليها الذباب وباض.. مصابيح معظم ضوئها محكوم عليه بالسجن المؤبد داخلها والقليل الذي يتسلل منها هارباً لا يبدد الظلام بقدر ما يحتمي به ويتستر وإن وقع على الأشياء والناس فإنما ليظهر كل ما بها من حزن وقبح وبشاعة..

وأحسست حين احتواني هذا كله وأصبحت جزءاً لا يتجزأ منه والناس من حولي على سيماهم جد خطير يشنون كالمؤمنين، وصناديق الفاكهة وعربات اليد وكراسي المقاهي التي صادرها بوليس البلدية وهي

مكومة في ركن ، وأصحابها متناثرون حول الجدران والأركان متهالكين على الأرض ورءوسهم مائلة على حجورهم ، والعساكر يبدون في أرديتهم السوداء كعفاريت منتصف الليل . .

أحسست حين احتواني هذا كله أنني لا بد أنا الآخر قد ارتكبت جريمة ونسيت ، وتمنيت أن أهرب من المكان بأسرع ما أستطيع . ولم أكن أستطيع مغادرة المكان فقد كان علي أن أحجز في القسم ليلة لأرسل إلى النيابة في صباح الغد . . واحتاروا أين يضعونني فالحجز كان ممتلئاً والحجرة الأخرى التي يوضع السياسيون فيها عادة تعج بالمراقبات وصاحبات الحرفة ، ولم يجدوا لي في النهاية خيراً من حجرة الضابط النوبتجي . . وهناك تركت ومعني حارس . .

كانت الحجرة على سعتها تضيق بمن فيها ، وكان أبرز الموجودين جميعاً الضابط النوبتجي . وحين رأيته جالساً إلى مكتبه بالحكمدار وعلى يمينه فوهات أكثر من خمسين بندقية مغمدة في فضاء الحجرة ، وخلفه اللوحة الخشبية المثبتة في الجدران والمثقلة بألوان وأشكال من السلاسل والقيود والدروع والبلط والخوذات ، وعلى يساره الخزانة الحديدية القديمة . . حين رأيته هكذا تخيلت أن لا حدود لرهبته وقوته ، وأنه يستطيع ببساطة أن يقضم ذراعي أو يضع أصبعه في عيني ، مع أنني كنت متأكداً أن لا شأن لي به ولا شأن له بي . .

ووجدتني أترك كل ما في نفسي وكل ما يشغلني وأنضم إلى جيش العيون المنصبة عليه من الناس المزدحمين أمامه ، والذين لا يفصله عنهم إلا سور خشبي منخفض . .

وبدا لي أول الأمر وكأنه ليس بكائن حي . . وإنما جسده قد صنع من

طلاء الجدران الأسود، ورأسه خوذة من الخوذات المعلقة وراءه، وعيناه
فتحات بنادق، ولسانه لا بد كرباج . .

ولكنني حين هدأت قليلاً واعتدت على المكان، وتأملت كيف وضع
«الكاب» فوق رأسه في وقار مخيف، وزرر معطفه الضباطي - على غير
العادة - إلى آخر زرار فيه، وشد جلد وجهه في تزمت صارم فاخفى كل ما
فيه من تجاعيد وأصبح أملس كجلد الطلبة المشدود، وأضفى على نظرات
عينيه بريقاً تحس معه أنه لا ينظر بهما إلى الناس بقدر ما ينقر ويلسع
وحمل صوته ما لا يطيق وهو يشخط ويهدر بكلمات غير مفهومة كأصوات
الرصاص . .

حين تأملت كل هذا بدا لي حينئذ كأحد الجنرالات الطليان الأسرى
الذين كنا نراهم أثناء الحرب . . وحدث أن جاء شاوويش، أو بيتشاوويش لا
أذكر ووقف أمامه ونادى عليه:

- يا فرحات . .

عجبت كيف ينادي بلا تكليف هكذا، ولكن عجبني زال حين قال مرة
أخرى:

- يا فرحات . . ياسي فرحات . .

ولم يرد الضابط النوبتجي إلا بعد أن قال له الرجل . . يا حضرة
الصول . .

وكنت قد اقتربت حتى استندت مع غيري من المستنديين على السور
الخشبي وسمعت لهجته التي فيها آثار باهتة من ريف الصعيد، ونم صوته
العالي عن الفضاء الواسع الذي ترعرع فيه، وعن مستلزمات الوظيفة من
شخط ونظر وقد عملت عملها طوال تلك السنين فأتلفت صوته وأضاف

إليه حشجة كالتى تلحق براديو القهوة البلدى من كثرة رفع صوته . وذهب الجنرال من خاطري تماماً ووضحت أمام عيني ملامحه التى كان يلفها ضباب الرهبة والسلطة ، ورأيتها صعيدية خالصة بأنفه الكبير كأنف رمسيس ، وجبهته الحادة العالية كجبهة منقرع ، وشيخوخته التى تنم عن تاريخ حافل فى خدمة البوليس إذ لا بد قضى أجيالاً حتى يصل إلى رتبة الصول ، وقد دخل الخدمة «نفرًا» ككل الأنفار . ورأيت جسده العجوز على حقيقته مستقيماً فى أجزاء منبعجاً فى بعضها الآخر ، وقد فرضت عليه البدلة العسكرية والحذاء الثقيل و«القايش» . . فرضت على جسده شكلها فرضاً كما يفرض قلب المكوى على الطربوش شكله وأبعاده . وكان من الواضح أنه يحب هذا المركز حين تسند إليه مهمة الضابط النوبتجي ، ويحب أن يعامله الناس كضابط بحق وحقيق وهو الذى - بلا شك - قد قضى ثلاثة أرباع عمره يحلم بهذا وينتظر اليوم الذى يحمل فيه كتفه «النجمة» . . وكان بادياً أن كتفه لن تحمل شيئاً من هذا القبيل ، فهو وإن كان يقوم أحياناً بدور الضابط النوبتجي إلا أن الإحالة إلى المعاش كانت تبدو وشيكة ، ونجمة الفجر أقرب إليه من نجمة الملازم الثانى . . وحين تركته وأدرت بصري فى الحجرة ورأيت المكاتب الخاوية التى تركها أصحابها ، ودولاب الدوسيهات ، والمروحة القديمة الموضوعة فوق الخزانة والتى كان يبدو أنها لم تستعمل منذ عشر سنين على الأقل ، وقد صنع التراب من نفسه عناكب فوقها ، والمصباح الكهربائى الذى له «برنيطة» من الصاج ، والذى يتدلى من السقف حتى يوازي رأس فرحات المائل على ما أمامه من أوراق ، والناس المزدحمين حول الحاجز الخشبي والذين يكونون خليطاً - إن تنافروا فى أشياء - فإنه يتفق فى نظرات القلق والحزن الغاضب والوجوه المنقبضة الجامدة . كان معظمهم متهمين عائدين من تحقيق النيابة

وتضمنهم سلسلة حديدية طويلة، تبينت بعد حين أنهم لا يقيمون وزناً
للسلاحك أو السلسلة أو الصول فرحات نفسه . . فشخطه تقابل بزمجرة
وأحياناً برد لا يقل عنها قسوة، حتى انفجر أحدهم مرة لأن فيشه وتشبيهه
لم يكن بعد قد جاء من تحقيق الشخصية، وكان عليه لهذا أن يمكث في
الحجز بلا إفراج حتى يجيء، انفجر ولعن الدنيا والحظ والفقر والذين
كانوا السبب، ولولا الملامة للعن الضابط النوبتجي هو الآخر. ولمحت
الضابط الذي في فرحات يعاني الحرج الشديد وهو يسمعهم يهدرون،
ولكثرتهم وشراستهم وضربهم الدنيا صرمة لا يستطيع -
كالضباط الحقيقيين في نظرة - إخماد ضجتهم. ولما انتهى منهم ومضوا
وعسكري في أول صفهم وعسكري في آخره، والسلسلة ترن وتصلصل
وهم لا يزالون يسبون ويلعنون، تنهد فرحات تنهد الذي وضع أصبعه في
الشق.

حين تركته وأدرت بصري لكل هذا وعدت إليه وجدته حينئذ يبدو
عجوزاً جداً. . عجوزاً إلى الدرجة التي تحس معها أنه عهدة من عهد
الحكومة عثرت عليه ذات يوم أثناء «كبسه» على بلدته فصادته، وختمته
بالطربوش الأحمر والبدلة الميري، وظل في مخازنها حرزاً من الأحراز
يبلى ويصبح كهنة ولا تبلى ما عليه من أختام.

وقال وهو يجوس بعينه خلال الموجودين:

- أف. . أقسم بالله الأشغال الشاقة أرحم من دي شغله.

وتوقفت عيناه عليّ وفيها دعوة واضحة، وكنت أنا الآخر لي ساعات
وأنا صامت فوجدت نفسي أقول:

- ايه. . الشغل كثير والا ايه؟

وكمن كان ينتظر الفرج من زمن رأيته ينفجر:

- يو هوه يا أستاذ.. هوده شغل؟ .. دا سرڪ.. دا مورستان..
الناس اجنتت.. يعملوا ايه؟ .. حيخس عليهم حاجة؟ كله على دماغنا!
والنبي أنا أشتغل في الحديد ميت سنة ولا أقعد هنا ساعة.. والأكاده أن
كله كلام فارغ.. كله كذب.. تبالي وحياتك.

اللي معور نفسه.. واللي ضاع منه شاكوش.. واللي كان نايم قال
وراحت طاقيته.. ونروح بعيد ليه؟ مش دي واقفة من الصبح؟ مالك يا
بت؟ أبقي مش الصول فرحات إن ما قالت أنهم ضربوها وأخذوا
سيغتها!.. مالك يا بت؟ فيه ايه؟

وكانت «البت» امرأة واقفة ضمن الواقفين ترتدي ثوباً كان أسود ثم
أحاله ساحر الحاجة إلى رمادي، وتتعصب بمنديل كالح لا يخفي إلا
القليل من شعرها البني الأكثر القصير وقد تلوت نهاياته وتنافرت، وكان
وجهها غامقاً أسمر، وفي عينيها كحل أفسدته الدموع..
وردت تقول في ذلة:

- أم سكينة والبت عيوشة وبنت أختها نبوية والواد..

- مالهم؟ مالهم؟

- اتلموا علي وضربوني في بطني.. آه يانا..

وفي ومضة خاطفة كانت في حالة بكاء تام، وأضافت والدموع
والشهقات تختلط في حلقتها..

- وأم سكينة.. عضتني.. هنا.. في كتفي.. وزغدتني في بطني..
والبت عيوشه قلعتني الحلق..

وقهقه الصول وخشخش صوته وقال:

- شايف يا أستاذ؟ شايف؟ مش قلتك؟ كله وحياتك كذب.. نصب واحتيال.. بقى بدمتك دي حيلتها البلى الأزرق؟ حلق ايه يا بت اللي خدوه؟ حلق حوش؟

- حلق دهب يا بيه وغويشتين..

والتفت الصول إلي وقال بلهجة ذكرتي ينجيب الريحاني:

- تفتكر والنبي مين المجني عليه في الحكاية دي؟

- مين؟..

- أنا!.. أنا يا فندم.. ما هو الكذب العلني ده يبقى سرقة بالاكراه.. ومحضرها المصيبة من صورتين، والمصيبة الكبرى أن أنا اللي حاكتب الصورتين..

واستدار إلى المرأة ولسعها بنظرة كاوية فيها آثار من لمعة الضحك وأمسك القلم وفتح دفتر المحاضر الكبير وكأنه يفتح بوابة المتولي وقال:

- هه.. إلهي وانت جاهي ربنا ياخدكم ويخدني معاكم خليني استريح..

ولما انتهى من كتابة مقدمة المحضر سألها:

- اسمك ايه يا بت؟

ولم ينتظر أن تجيب أو يحفل بإجابتها، وواجهني مستأنفاً كلامه وأنا أحس أنه يحدث نفسه أكثر مما يحدثني:

- أنا والنبي المجني عليه.. ومش في الواقعة دي بس.. في ألف واقعة.. في دشليون.. يمكن ما تصدقش.. اتفضل آدي دفتر الأحوال.. اصطبحنا بهتك عرض في الطريق العام و ٥٩٢ اللي بعدها

نشل حافظة نقود قال فيها قال ١٤٧ جنيه و ٨٣ صاغ وورقتين بوسطة . .
أقسم بالله ما كان فيها إلا الورقتين . ويمكن لجمل الحلفان خمسة تعريفة
كمان ، واللي بعدها قال سرقة نحاس . . قايلين في البلاغ أن النحاس
وزنه ٥٠ رطل ومتهمين الخدمة . . حنة بت قد كده . . متطلعشي كلها
على بعضها عشرة أرتال . . وغيره وغيره . . من الصبح وأنا ايدي ما وقفت
من الكتابة . . وكله ملاليم وكلام فارغ وكذب . . يا شيخ فضل .

والتفت إلى المرأة يسألها:

- ما تنطقي يا بت . . اسمك ايه؟

وقبل أن تجيب ضحك وقال كمن تذكر نكتة:

- واللا الجنة اللي لقيوها في الخرابة مالهاش صاحب . . قصدي
صاحبها مجهول . . لقيوا السر الإلهي طلع منه كده لوحده ومن غير ما حد
يكلمه . . قوللي؟ . . اشمعنى نقى الخرابة دي يموت فيها؟ . . يعني
ضاقت الدنيا في وشه . . ماكنشي يتمشى لحد شبرا مثلاً؟ الله يرحمه
مات . . وأتعذب أنا ليه؟

نهايته . . كتب عليكم الهم والغم كما كتب على الذين من قبلكم . .

وأدار رأسه إلى المرأة:

- يا وليه اسمك ايه؟ . .

- خديجة . .

- خديجة ايه . . انطقي . .

- خديجة محمد . .

- يا وليه تحركي . . محمد ايه . .

وقبل أن تجيب أرقد قلمه . . وأسند كوعيه إلى الصفحة ووضع رأسه بين يديه وقال من تحت حافة «الكاب»، والمصباح الذي أمامه يهتز كالبنديل فيتحرك ظل رأسه على الحائط الذي خلفه . . يتحرك رائحاً غادياً كقرد كبير:

- أنا المجني عليه والنبي . . هي حكاية محضر؟ هو أنا عجزت من شوية؟ ثلاثين سنة خدمة وحياتك ويومياً بهذا الشكل . . جبتها من المنزل لعينية ومن العريش لمرسي مطروح . . وشفيت اللي أدبح عشان عود قصب، واللي حرق جرن عشان كوز دره . . الناس أجننت . . هو الواحد شاب من شوية؟ . .

وأنهى كلامه فجأة وانقض على يد كانت تمتد إلى المكتب وخبط عليها بعنف وعصبية قائلاً:

- قلتك ميت مرة شوفلك نشافة تانية . . هو ما فيش في القسم كله إلا دي؟ . . أعوذ بالله أحنا في سوق النور؟

قال هذا وانتظر حتى اختفى صاحب اليد مهيض الجناح، والتفت إلي بوجهه الجاد المشدود الملامح:

- والواحد يبقى حارق دمه . . وأولاد الـ « . . » ولا هاممهم وعمالين يهزروا . .

وكان يشير بعينه وهو يتكلم إلى حجرة التليفون حيث اجتمع بعض العساكر حول زميل لهم بدين مترهل وله كرش كبير، وكان بعضهم يكتفه والآخرين يحاولون جذب بنظونه وإنزاله، والرجل يلهث ويناضل بكل ما يسمح به شحمه من قوة . .

وبركن عيني لمحت الصول فرحات يتسم ويضحك ويقهقه، ثم

ينسى كل شيء ويمد رقبتة يتابع المعركة . وظهر عليه أسف حقيقي حين انتهت المعركة بانتصار صاحب الكرش وتخلصه ممن حوله ، ورفع حينئذ صوته قائلاً بلهجة صعيدية خالصة :

- آه يا نسوان . . ما قادر نشي على أبو كرش كليته «شغت»؟!!

وما كاد يتم كلامه حتى فتح باب جانبي وظهر المعاون في الفناء وأصبح القسم فجأة أصم أبكم وهبطت الصرامة تجمد كل شيء ، وقال الصول للمرأة في حزم:

- بتقولي اسمك خديجة محمد ايه؟ . .

وتركتة يحقق وشغلتنني عنه داورية الليل وقد بدأت تتجمع في الفناء وحين تجمعت بدا منظرها عجيباً . صفان من الظلام التام ليس فيه إلا بريق الزراير النحاسية الصفراء ، وفوق الظلام نار من الطرايش الحمراء الفاقعة . . وأمام كل صف آخر من الأيدي الممدودة تسند البنادق بلا حماس . . وتسمع في الظلام همهمات وضحكات تموت سريعاً كالشهب ، وقد يشذ عن الأيدي الممدودة كوع ويلكز جاره .

وفتش عليها المعاون وأنفه - كالديك الرومي - في السماء ، وعينه على زرار لا يبرق أو حذاء نفض عنه بعض سواده ، وراح وجاء ثم دخل حجرته ، والظاهر أنه تعشى فقد خرج وهو ما زال يمضغ وعلى شفثيه لمعة وفتش مرة أخرى وهو يجفف يديه بعد أن اغتسل . .

واندكت الأرض بالأحذية وكعوب البنادق مرات ، وعوقب بعض وكدر آخرون . .

ثم . .

جنبان سلاح و .. كتفان سلاح .. و .. داورية .. معتادان
مارش ..

وخرجت داورية الليل تئز وتتمايل وفي آخرها العسكري البدين
يحاول عبثاً أن يوفق بين جسده غير المنتظم وخطواته المنتظمة ..

وأصبح فناء القسم بعد خروجها خاوياً كعربة قطار الليل حين يقترب
من آخر محطة، وعدت إلى الصول فرحات فوجدته لا يزال يحقق مع
المرأة ويسألها:

- اتلموا عليكي فين؟ ..

- جوه السيما ..

- وايه اللي دخلك السيما يابت؟ ..

- محمود ..

- محمود مين؟ ..

- محمود!! ..

وهنا بدت على الصول فرحات صعيديته، وسألها وجبهته معقودة دون
أن يكتب في المحضر:

- محمود دا ايه يابت؟ ..

- ابن خالتي ..

ووضع القلم من يده وهو يقول:

- آه يا بلد كابوريا يا ولاد ال ..

وأخرج من جيبه علبة صفيح قديمة من التي تباع فيها السجائر الغالية
ولمحت فيها سيجارتين سادة وواحدة بقله وعلبة كبريت. وأشعل السادة

وغمغم بأشياء مبهمة تمس الآباء والأجداد وانجاب الابهام حين قال
لنفسه:

- سيما . . هه . . قال سيما قال؟ . . وتدخلوا السيما تنيلوا ايه؟ . . هو
انتو بتوع سيما؟ . .

وانفلت من حديثه لنفسه يسأل المرأة وقد ثنى ظهره إلى الوراء ووضع
ساقاً فوق ساق:

- وتدخلني سيما يابت مع واد زي ده ليه؟ . .

وبحث بعينه ناحيتي ولعله كان يود أن يشهدني على إجابتها فقلت له:
- ايه . . هو المحضر لسه؟ . .

- آه . . لسه . . هو هيخلص؟ . . حاضر . . أنا عارف إني عطلتك . .
دقيقة واحدة وأفضالك . .

والظاهر أنه حسبني شاكياً أو مبلغاً . . ربما هذا . . وربما وجدني
أصلح مستمعاً يفضفض لي بما عنده في ليلة من لياليه الطويلة فأثر أن
يؤجل انصرافي . . وكتب شيئاً وهو يتسم ويقول لي:

- وادي انت بتسلى . . مش بدمتك أحسن ما لسيما؟ . .
وتنهذ وسأل المرأة . .

- هيه . . وطليقتك سلط عليك ليه؟ تروحي السيما تنيلوا ايه؟ . . ما
تتكلمي يابت طليقتك سلط عليك ليه؟ . .
- أصلي واخده عليه حكم نفقة . .

وكتب كلمة أو اثنتين والتفت إليّ بنظرة فيها استنكار:

- روايات؟ سيما؟ روايات ايه اللي بيعملوها دي؟ ييلوها ويشربوا
ميتهما أحسن!
- ليه مبتعجبكش؟ . .

- تعجبني؟ تعجبني ازاي؟ الفيلم لازم يملأ مخ الواحد.. إنما ايه
المسخرة والرقص اللي لا تجيب ولا تودي..

وأمسك القلم ووضع سنه على الدفتر وبدلاً من أن يكتب قال لي
بفتور:

- أنا مثلاً لما قرفت من الروايات عملت مرة فيلم..

ولم تجعلني قلة حماسه أصغي إليه تماماً، ولكن كلامه وقع في أذني
موقعاً غريباً فقلت:

- عملت ايه؟..

- عملت فيلم.. رواية..

- عملته ازاي؟ مثلت فيه والا ايه؟!

- لا.. فيلم ألفته مخصوص عشان السينمات..

وكدت أستخف بالأمر كله وأضحك فقد اعتقدت أنه لا بد شاهد
حادثة أو جنائية من جنایات التي تحفل بها حياته ويريد بسلامة نيته أن
يجعلها فيلماً، فقلت وأنا أكنم ضحكي:

- فيلم ايه بقى؟

فقال ببساطة ودون أن يتنحج أو يعتدل أو يضع القلم، أو حتى يلقي
بالاً إلى المرأة والناس الذين عند الحاجز:

- كان واحد هندي جه يزور مصر.. راجل غني قوي.. من الجماعة
اللي عندهم فلوس قد الفقر اللي عندنا.. الراجل جه.. وقعد في لوكاندة
فخمة قوي زي ما تقول لوكاندة مينا هاوس واللا شبت.. وكان فيه جدع
غلبان زي حالاتنا كده..

وانتهت حواسي كلها فجأة..

وملت على السور كثيراً حتى لا تفوتني كلمة من كلماته .

وأقبلت امرأة تستغيث في شبه صراخ ، وكانت بيضاء حلوة وحواجبها مخططة بعناية فائقة . . وزمجر فيها الصول فرحات :

- مالك يا وليه؟ . . مالك؟ القيامة قامت؟ . .

- الحق يا خويا . . الحق . . الواد موت أمه م الضرب!

- واد مين يا وليه؟

- الواد ابن جارتنا . .

- واحنا مالنا؟

- يوه . . مش أنت يا خويا النبي حارسك البوليس؟

- وهو يصحح أن البوليس يدخل بين الواد وأمّه؟

- يه . . ولما يموتها الدلعدي يا خويا؟!

- تبقى تفرج . . نبقي في الحالة دي نروح نمسكه . .

ويشت منه المرأة فانتحت ركناً قصياً بالعسكري الذي كان يحرسني وراحت تهمس له بالقصة وتهمس له أكثر بحواجبها ، ثم غادرت القسم والعسكري ساهم وكأنما أعجبته همسات الحواجب .

وعاد إلى الصول فرحات وقال :

- أما مصايب صحيح . واد قال! . . بس . . الجدع الغلبان ده كان

خالي شغل . . يعني زي ما بيقولوا موظف في كوبانية الشمس . . يعبي

الشمس طول النهار في قزايز ويسرح بيها في الليل . . هىء هىء . .

أمال! . . آه . . فتك في الكلام . . الراجل الهندي ده مرة طالع م اللوكاندة

فوقع منه فص الماظ يسوى النهاردة بالميت سبعين تمانين ألف جنيه ، شافه

الجدع المصري قام واخده ومديه للغني الهندي . .

- فص ايه يا راجل يا بكاش؟

والتفتنا سويا، وكان الذي قال هذا شاويش طويل معه دوسيه ما لبث أن سأل فرحات:

- عملت ايه في المتوفى المجهول الاسم؟
وهب فيه فرحات:

- حاعمل ايه يعني؟ أمشي في الشارع أقول ياللي ضايع له ميت؟ ..
- أنا رحت المستشفى وشفته ..
- تشرفنا ..

- شوف يا سيدي عينه عسلية وشعره شايب وعلى صدغه الأيمن ..
- وبتقول لي الكلام ده ليه؟ .. هو أنا بعثك تخطبه؟ .. روح شوف
شغللك أحسن .. عسلية ايه يابو طويلة يا هايف؟

ثم التفت إليّ قائلاً: الراجل الهندي جه يدي للمصري فلوس إلا رأسه وألف سيف ما ياخذ ولا مليم، يهديك يرضيك ما فيش فايده فكبر قوي في عين الهندي واكيف منه تمام .. راحت الأيام وجت الأيام وروح الغني بلده وهو محتار يجازي المصري ده إزاي، فلقي أن أحسن طريقة أنه يشتري باسمه ورقة لوترية .. تعرف البريمو كانت تكسب كام؟ والا استنى أما نشرب شاي ..

وصفق كثيراً حتى جاء صبي البوفيه، وطلب الشاي واختلف معه طويلاً على الطلبات التي تناولها في يومه .. الصبي يقول ثلاثة وهو يقول اثنين، ولم ينته الخلاف حتى بإحضار الشاي.

وسمعنا باب المعاون وهو يفتح والمعاون يخرج ويقف في الفناء ويتمطى، وعاد فرحات يسأل المرأة:

- هيه . . ايه الحكاية؟
- لما خدت عليه الحكم . . لف عليّ عايزني أتنازل . . مارضيتش فبعثلي أمه وأخته وبنت خا . .
- هوس . . كفاية لحد هنا . . واتلموا عليكي في السيماء؟
- أيوه وفصلو يضربو فيه لما كانوا حيسقطني . .
- ايه؟
- أصل أنا حامل في ست أشهر . .
- وترك الضول فرحات المحضر وقد استولى عليه حب الاستطلاع وأعجبته القصة وسألها:
- يخرب بيتك . . حامل من مين يابت؟
- منه يابيه . . من طليقي . .
- امتي؟
- قبل ما يطلقني . .
- وجوزك ده طلقك ليه وانت حامل؟
- عشان وقع علي اليمين . .
- يمين ايه؟ وطلقك امتي؟
- ليلة أول رمضان اللي فات . . كسرت قلة أمه وأنا قايمه أتسحر فحلف طلاق بالتلاته ليكسر قصاها دراعي! . .
- وكسر دراعك؟ . .
- لا . . طلقني . .
- أنا قلبي كان حاسس والنبى . . بقى قلة أمه هي السبب؟
- بقى عشان قلة أمه اكسرت في رمضان اللي فات ، يتحرق دمي النهارده طول اليوم . . قلة تمنها ساغ يا عالم أروح أنا ضحيتها؟

- اسمعي يا بت! هل لديك أقوال أخرى؟ عايزة تقولي حاجة ثانية؟ ..
- أبوه يابيه .. عيوشة هي اللي مقلعاني الحلق .. وأمها هي ..
- أف .. يابت أقوال أخرى غير اللي قلتها؟
- هو أنا لسه قلت حاجه ..

ولم أتمالك نفسي فضحكت، وتحول غضب الصول هو الآخر إلى قهقهة عالية وانتهى من المحضر، وتهد وتثاءب وهز رأسه ..

وخرجت المرأة ومعها خطاب اللكشف عليها، ولدهشتي خرج معها كل الناس الواقفين.
- هيه .. كانت البريمو تكسب كام؟ ..

- انت لسه فاكرو؟ .. تكسب مليون جنيه .. ما هي كانت غالية كمان!

واشترى ميت ورقة عشان يضمن المكسب، وجه السحب واحدة منهم كسبت البريمو .. مليون من غير الضريبة، وفكرشي الراجل أنه يطمع عليها ولا حد شاف ولا حد دري؟ أبداً .. عمل ايه؟ راح شاري غليون بضاعة كبير قوي .. ووسقه حرير هندي من اللي على أصله .. واشي عاج .. واشي ريش نعام .. واشي جوخ وكشمير ومابوليا محترمة .. وراح باعت المركب بالطقم بتاعها باللي عليها على اسكندرية، وراح باعت عقد البيع والبوليصة خالصة كل حاجة لصاحبنا على مصر .. يعني ما عليه إلا يستلم.

وهب .. وصلت المركب اسكندرية .. حاجة باسم الله ما شاء الله .. وبتاعة مين يا جماعة؟ .. بتاعت فلان .. بالاختصار الراجل باع البضاعة اللي عليها واشترى بيها مركب ثانية، وخلي مركب رايعه بلاد بره شاحنة ومركب جاية شاحنة، وإذا كان حته الطرد قد كده الواحد بيخلص عليه في

السكة الحديد بكذا. . شوف بقى مركب زي دى تكسب قد ايه في
السفريه. .

واندفع في هذه اللحظة إلى الداخل رجل قصير نحيل يرتدي جلباباً
كله زيت وبقع ورأسه عار. . ويرتدي قبقاباً له صوت مزعج، اندفع
كالسهم داخلاً وهو يقول وعلى وجهه ألم عظيم:
- يافندي. . يافندي. .

وضايق دخوله الصول فرحات، وكأن أحدهم قد صوب إلى أرنبه أنفه
لكمة فاستدار إلى الرجل وأرعد فيه:
- مالك؟

- ما ليش يافندي. . واد ابن حرام حدف طوبة كسرت لوح القزاز بتاع
بترينة الدكان. . لوح القزاز اللي معرفشي أجيبه النهارده. . بنور بلجيكي
من الأصلي اللي قبل الحرب. . ثلاثة متر في ثلاثة. . روح الله يخرب
بيتك يا بعيد زي ما خربت بيتي. .
- دكان ايه؟. .

- بقالة المودة والإخاء في الشارع العمومي. .
- عارفها. . اللي عالناصية قدام الجاراج؟. .
- أيوه. . إلهي يعمر بيتك. . ربنا مايوريك. .
- البترينة نهين اللي أكسرت. . اللي عالشارع والا الثانية اللي ع
الحارة. .

- الكبيرة يافندي اللي ع الحارة.

فقال الصول وهو ينفض يده من الأمر ويستعد لمتابعة الرواية:
- تبقى مش تبعنا. . تبع بولاقي. .
- إزاي يابيه والبيت تبعكو. .

- الناحية اللي ع الحارة تبع بولاق .
- يافندي اعمل معروف . .
- قلتلك مش تبعنا . . روح قسم بولاق . .
- ياف . .
- روح . . جك ريح خماسي . .

واندفع الرجل يقبب خارجاً كالسهم : وانتظر فرحات حتى اختفت
دقات الققباب ثم رجع محاولاً أن يستعيد الجو الذي عكره البقال . . وثنى
ظهره إلى الوراء كثيراً ومال الكرسي لانشائه . . وخلع الكاب وأمسك به في
يده يديره أحياناً وأحياناً يهف به وقال :

- الراجل كان طهقان من مراكب الخواجات ، ففي ظرف سنة ربنا اداله
واتسع قوي . . وجهه بحبه راح شاريلك مراكب اسكندرية كلها . . وما
أصبحشي فيه مركب إنجليزي . . طلياني . . تلتاني . . كله رفع العلم
الأخضر . .

ولاحظت أن ملامح الصول فرحات قد تراخت وانزاح عنها كل ما فيها
من صرامة واشمئزاز واتخذت طابعاً عجوزاً راضياً ، وعيناه هامتا في سماء
الحجرة كفراشتين حالمتين ، وصوته خلا من كل تشويش وحفل بنشوة
طارئة حلوة كانت تخرج الكلمات من فمه لذيذة وكأنها محلاة بعسل
النحل ، فلا تملك إلا أن تحبها وتحب رعشتها الممتلئة بالرنين وهي
تنساب في تودة من خلال السكون الحزين الذي خيم حتى أصبح القسم
كسرادق المأتم في آخر الليل ، حين لا تسمع فيه إلا فحيح الكلوبات . .
وهمسات المعزين :

- وأصبح للراجل مراكب لا تحصي ولا تعد . . أصغر ما فيهم تيجي قد
القسم دهه عشرة خمستاشر مرة . يسكتشي على كده ؟ . أبداً . . الفلوس

مالحستشي عقله فراخ شاري بالاپراد بتاع المراكب مصنع نسيج كبير قوي.. وشغل فيه ييجي نص مليون عامل.. بعد شهر واحد مصنع النسيج عمل مصنع قزاز.. والقزاز عمل مطاحن.. ومضارب رز.. وبعد كده اشي محالج واشي سكر.. واشي جاز.. واشي ورق.. واشي مكن.. واشي صلب.. المهم إنه جه يوم عليه امتلك فيه مصانع مصر كلها..

وما عجبوش الحال الملخبطده فراخ لأمم المصانع وبنائها على حته تطلع ألف فدان لأ.. ألف ايه؟.. هي الألف تنفع.. ييجي عشرة آلاف فدان.. خمستلاف منهم مصانع والخمستلاف الثانية سكن فيها العمال.. مش سكن كلشكان.. لا.. سكن.. بيت.. بجينة بيلكونة وحاوي مما جميعه حتى فيه عشش الفراخ والأرانب.. ومش بس كده كان ما يخدش من عرق العامل حاجة.. اشتغل بخمسة ياخد خمسة.. بعشرة بعشرة.. ما هو لا مؤاخذه في دي الكلمة العامل لما ياخذ اللي يقضيه يشتغل ويتفرعن في الشغل.. واحنا شعب وارث الفرعنة أباً عن جد.. فبدل ما يطلع متر يطلع مترين.. وبدل جزمة جوز جزم.. مهوكده هات وخد.. اديني حقي وخد حقك.. انت راخر العامل أصبح حاجة ثانية.. هدوم نضيصة أربعة وعشرين قراط، عفريته مكوية يروح بيها الشغل وييجي بعد الظهر يلبس بدلة الأيافة والطربوش النسر والجزمة الأجلسيه. وقهاوي ايه وجناين ايه وكازينات ايه وأبهة ايه.. والناس بقوا حلوين وفرحانين ومبسوطين.. ولا قرف ولا بلاوي.. طول النهار ضحك وفرفشة والليل يروحوا السيمات.. والسيما دي مهمة قوي.. في كل شارع سيما وبالأمر لازم كل كبير وصغير يخش.. والأفلام، أفلام تمام.. وبوليس، مفيش بوليس.. العسكري بدل ما يتلطح ٨ ساعات في

الداورية له كشك قزاز في قزاز في وسط الشارع . . ومكتب صغير واللي
عايز حاجة يجيله . .

استنى بقى لحسن الواغش بعيد عنك جه . . أما نشوف إيراد
النهارده حيقى كام . .

وحقيقة كنت أسمع الضجة القليلة التي أخذت تترى من ناحية
الباب، ولكني كنت أنا المنساق هذه المرة وراء ما يقوله فرحات وما ذهلت
له تماماً . .

والتفت ناحية الباب فوجدته قد ازدحم بأربعة مخبرين أو خمسة طوال
عراض أيضاً ويرتدون اللبد، وقد أمسك كل منهم في كل يد من يديه
قبضة أطفال مشردين، ومتسولين عجائز وكل منهم يجرم ما في يديه جرماً
وقد ربط جلباب الطفل في جلباب الآخر . . وكان المخبرون يبدون
كالعمالقة الطوال، والأطفال يبدون بجوارهم قصاراً صغاراً كالكتاكيت
المدعورة، وعبروا الفناء ووصل ركبهم إلى السور الخشبي، وكذلك
وصلت ضجتهم فأنهى الصول فرحات كل الأصوات بقوله:

- بس . . أخرس انت وهوه . . وقفهم طابور يابو طه قدامي . . بطل
كلام عمى في عينك . .

وذهب باقي المخبرين واصطف الطابور في سكون . .

ورجع الصول فرحات الى الوراء كثيراً وهو لا يزال في نشوته فقلت:
- وبعدين . .

- ولا قبلين . . حالاً مكن من ألمانيا جه . . والمهندسين والعمال
اشتغلت . . وراحوا زارعينك الصحرا كلها . . شوف بقى الرملة دي كلها
لما تزرع؟ . . الاكس يمشي فيها سبع تيام ما يحصلش آخرها . . وأهم من ده

وده إن ما فيش قولة حاجة اسمها توابيت محاريث .. سواقي .. كلام فارغ من ده .. كله مكن .. الري مكن والدراس مكن والسباخ مكن .. وحتى كان فيه مكن يجمع القطن ويحش البرسيم .. والفلاح اللي عليه العمل .. مفيش قولة جلابية .. طاقية .. بشت .. أبصر ايه معرف ايه .. أبداً كله بدل .. بنطلونات كاكي لحد الركبة وبرانيط بيضة نظيفة وجزم بنعل دوبل ما يدوبش أبداً .. والفلاحين يسرحوا طابور يشتغلوا لغاية الظهر بس وبعدين يرجعوا طابور .. والنسوان كذلك .. بس دول في غيط ودول في غيط .. والبيوت كلها حجر .. ولمض جاز تبطل خالص كله كهرباء والسحب على صاحب الأرض .. وكل صف بيوت له ميز ياكلوا فيه ويرجعوا لبيوتهم يقيلوا ، وبعدين العصر طابور على المدرسة يقروا ويكتبوا ويعرفوا اللي لهم من اللي عليهم . بس ياسيدي ما طولشي عليك الراجل من كتر الفلوس عنده زهد فيها كانت أرخص من التراب .. وحاكم الفلوس لما تبقى بالشكل ده الواحد لازم يقرف منها . اللي ياكل تفاح كل يوم يقرف منه .. ففي يوم من الأيام أعلن في الراديو .. أيوه .. مهونسيت أقولك إنه عمل محطة إذاعة وعمل ليها في كل بيت من البيوت وصلة .. أعلن في المكرفون أنه متنازل عن جميع ..

وكان الصول فرحات ينظر إلي ويقول كلماته الأخيرة وكأنه يفكر في مشكلة أخرى ..

وقال للعسكري فجأة :

- انت واقف بتعمل ايه يا جدع؟! انت ما وراكشي شغل؟ ..

وقال العسكري في صوت متقطع :

- أصل .. الأ .. الأفندي .. أنا مستلمه ..

- مستلمه؟ ليه؟

- حرس عليه . .

واستدار إليّ الصول فرحات وألقى علي نظرة ما رأيتهـا منه قبل الآن واستمر يحدجني طويلاً، ولا ريب أنه لم يجدني أصلح كي أكون قاتلاً أو سارقاً أو خاطف طفل ولست أدري ما كان يعنيه حين قال في بطة وشك كثير:

- آه . الأفندي ده . هو انت منهم؟ . .

فقلت وأنا أبتسم:

- من مين؟ . . المهم . . الراجل أعلن ايه في الإذاعة؟ . .

واستمر ينظر إلي ثم قال بصوت تائه:

- آه . . والله مانا فاكـر . . يا شيخ فضك . . أهو كلام . . أنت بتصدق؟

ثم شد جلد وجهه حتى عاد كالطبلـة الصارمة، وجذب «الكاب» حتى بلغ موضعه التقليدي من جبهته تماماً، وهوى على «المتسول» العجوز الواقف في أول الصف بنظرة صاعقة من عينيه، وانطلقت جعجعته المعهودة:

- ما تنطق يا بجـم . . اسمك ايه؟!

الطابور

متشابه الأسواق في الأرياف ولا تكاد تختلف، فكل منها فضاء واسع يحده سور، وله باب وعلى أرضه دكاكين بضاعة ذات رفوف فارغة قد لوحت أخشابها حرارة الشمس وليالي الشتاء، ثم مصاطب مبعثرة مصنوعة من تبن يؤلف بينه طين..

ويوم السوق هو بلا شك أروع الأيام وأشهرها، وهو الزحمة التي تحدث كل حين مرة معلنة وكأنها ساعة بشرية هائلة انقضاء أيام سبعة وفراغ جيوب وامتلأ جيوب، وقبض أجور واختلاس أجور، وشبع ناس وجوع ناس، وتقيس العمر..

وبعد أن ينفض السوق يبقى الفضاء لا تؤمه إلا الغربان وأسراب الخرفان والماعز الطوافة، وفرق الرياضة من التلاميذ، والمباريات وكرة القدم..

وتتشابه الأسواق في الأرياف إلا سوق السبت في تلك الناحية، فقد كان يتميز بظاهرة غريبة، فسوره كله كان مصنوعاً من حدائد لها أطراف مدببة ما عدا جزءاً صغيراً منه لا يتجاوز المترين قد بني من الدبش والأسمنت وأحكم بناؤه..

ومن قديم والناس يختلفون في أمر ذلك الحائط الصغير .
كانوا يقولون أول الأمر إن تحت الحائط كنزاً يفتح على ديك يؤذن
ذات فجر ويكون للموعود، ولكن ما لبث هذا القول أن بهت وأصبح
التسليم به كالإيمان بطلوع ليلة القدر، حكاية تذكر من قبيل التمني . .

ثم قالوا إن الحائط أقيم فوق فوهة بئر كانت تتسرب منها الجن من
باطن الأرض إلى ظاهرها، فأقيم الحائط ووضع فيه مصحف وبخاري
وأحجبة وقطع زجاج مكسور ليمنع تسرب الجن، ولكن هذا القول
كسابقه لم يعمر طويلاً . .

ثم شب جيل كان أقل خيالاً من سابقه رأى في الحائط الصغير تجربة
كان القصد منها بناء السور كله من الدبش والأسمنت، وفشلت
التجربة . .

ولا يكف الناس أبداً عن إيجاد تعليل . .

ومع هذا بقي السبب الحقيقي لا يكاد يصدقه أحد . .

فالسوق أول الأمر لم تكن سوقاً وإنما كانت قطعة أرض بور لا ينبت
فيها زرع . . رأى أهل القرى المجاورة أنها أقرب مكان يفدون إليه مثقلين
بالغلة والبلح والجن، ويعودون وقد خفت أحمالهم بالدمور والمرايا
والسكاكين الخارجة لتوها من تحت يد الحداد . وكانت تلك الأرض جزءاً
من الأملاك الواسعة التي آلت لأحد أعيان الجهة الذي ينحدر من سلالة
من ترك أو مماليك . . الله وحده يعلم . .

ورأى المالك في قدوم الناس ومواشيهم إلى أرضه البور كسباً له
وطريقة لإخصاب الأرض حتى يزرعها بعد حين، ولهذا سمح لهم

بالقدوم بل كان يشجعهم على القدوم حين يمر وسط زحمتهم راكباً فرسه وموزعاً ابتساماته الراضيات . .

ولما رأى أن الأرض قد استوت للزراع بما خلفته فيها المواشي من بقايا، أراد حرثها وحرثها، ومع هذا قدم إليها الناس مثقلين وغادروها خفيفين، وبططوا الحرث وأقاموا السوق . . وطرده الناس وحرثها مرة أخرى . .

وفي الأسبوع التالي أقيم السوق أيضاً وبطط الحرث .

وأشار عليه أيامها ناظره العجوز أن يستغل الأرض بطريقة أخرى فيترك الناس يجيئون على أن يأخذ ضريبة على المتسوقين . وأخذ المالك بنصحه، وفي الأسبوع التالي انطلق محصوله يترصدون القادمين ويجمعون الأتاوة، ولكي يزيد الإيراد يقلل المصاريف أقام حول الفضاء سوراً من الخشب جعل له باباً على الطريق الزراعي وجعل على الباب محصولاً واحداً . .

وهكذا وجدت سوق السبت، وما لبثت أن عمرت وازدهرت وأضيفت إلى بلادها بلاد، وأضيفت إليها هي سويقات للحمير والجمال، واكتملت أصنافها حتى من «البوطة السادة» والعرقسوس . .

وكنت تعرف أن السبت يومها حين تجد الناس في الصباح الباكر يزحفون صوب السوق من كل اتجاه، وتجد الطرق المؤدية إليه قد حفلت بلباسي العمائم والجلاليب والذين بلا عمائم أو جلاليب، وراكبي الحمير وساحبي الأبقار، وحاملي المقاطف وطالقي الجواميس والمتوكلين على الله . .

ولم يكن على أهل القرى الغربية أكثر من أن يعبروا الطريق الزراعي ويدخلوا من الباب ليصبحوا في قلب السوق . . أما أهل القرى الشرقية

فالمسألة بالنسبة إليهم كانت أصعب، فالمشايات التي تنحدر من قراهم كانت تلتقي عند الساقية القديمة في مشاية واحدة ضيقة تنتهي عند نقطة في السور الشرقي تقابل الباب في السور الغربي، وكان عليهم لكي يدخلوا من الباب أن يلفوا حول السور كله وفي هذا تعب ومشقة ودوشة لا لزوم لها. فاختصروا الطريق إذن وكسروا خشبة من أخشاب السور وأصبح الأمر لا يكلفهم أكثر من المروق بين خشبتين ليصبحوا في قلب السوق.

وبمضي الوقت أصبحت المشاية الضيقة طريقاً معترفاً به من السوق وإليه، وأصبحت الفجوة التي في السوق باباً كأحسن ما يكون الباب..

وكان لصاحب الأرض «سرايه» تطل على السوق، كلها مشربيات وشرفات وسلاميكات وأشياء من هذا القبيل، والظاهر أنه كان واقفاً في شرفته ذات يوم فرأى طابوراً لم يكن يعرف كيف يبدأ ولكنه رآه ينتهي في السوق من خلال السور، فجن جنونه وركب رأسه، وركب كذلك حصانه، وانطلق يرى الأمر. وهناك رأى الفتحة فشلضم وبرطم وأمر بإصلاح الخشبة المكسورة في الحال..

ويوم السوق التالي وقف في الشرفة يشمت في الطابور الذي لا ريب سيتكسر عند السور، ولكن آلاف العفاريت ركبته حين رأى الطابور يواصل سيره المعتاد..

ولما أسرع يعاين وجد الخشبة الجديدة مكسورة، ويقولون إنه جلد النجار الذي أصلحها وجلده مرة أخرى ليصلحها، بل وقف على رأسه حتى أتمها وامتنحن متانتها بنفسه. وفي السبت التالي روع الرجل بالخشبة مكسورة.

واحمر وجهه بالحمق حتى كاد يدمى . وقطع شجرتين من أشجار السنط وكومهما حتى سدت الفجوة . .

وما مر الأسبوع حتى كانت الشجرتان كل في أقصى ناحية والطابور لا يزال لا بداية له ، ولكنه ينتهي داخل السوق من خلال الفجوة . .

وكاد شريان من شرايين الرجل ينفجر ، وهذه المرة كلفه استعمال عقله ليلة بأكملها . وفي الصباح أحضر فرقة من الصعايدة بكريكاتهم وفئوسهم وما انتهى الأسبوع حتى كانوا قد حفروا ترعة حول السور كالخندق وأطلق فيها الماء .

ولم يتعب نفسه ويقف يوم السوق في الشرفة ولا ما بعده من أسواق فقد كان متأكداً تماماً من انقطاع الرجل . .

والذي حدث أن شجرتي السنط جيء بهما ووضعتا في الخندق وبقي ظاهراً منهما ما يكفي ليخطئ الإنسان عليه في أول سوق بعد الترعة ، ثم قلقلت كتل من الطين الجاف ، نفس الطين الناتج من حفر الترعة وأسقطت فوق فروع السنط ، وبعد أسابيع ردم جزء من الترعة أصبح يصل بين المشاية والفجوة .

ويبدو أن الرجل كان راكباً فرسه يتنزه ذات يوم فوجد المشاية واصله إلى السور وظل يسب ويرطن أياماً ، وظل كذلك يكظم غيظه ، وقد أصبحت المسألة مسألة كرامة وعند وتحد من الفلاحين العبط . فانتقى من بين خفرائه ثلاثة طوالاً عراضاً وقال لهم : خراب بيوتكم إن نفذ أحد . .

ويوم السوق تلكا الطابور لأول مرة وما لبث أن توقف ، فقد نشبت عند السور خناقة كبيرة ، وفي الضحى حمل الطوال العراض إلى السراية ودمهم يسيل . .

واستعاد الطابور بقية اليوم سيره وسرعته . وطاب الخفراء وعادوا
يحرصون الثغرة ، ونشبت معارك أقل حدة ، وتلكأ الطابور مراراً ثم كف عن
تلكئه واستأنف سيره تحت وابل من حفن الجميز ، أو خيارتين ، أو طورة
بلح ، أو نفس دخان ، أو حتى عواف عليكو يا رجاله . .

و ذات مرة رأى صاحب الأرض خفراءه جالسين يستظلون بشجرة
الجميز وتأتيهم المنح من الذهاب إلى السوق والعائد منه فطرد الخفراء
وأحضر بنائين وأحجاراً وبنى ذلك الحائط العالي الذي أغلق الفجوة تماماً
وجار على ما حولها ، وأغلق كذلك كل فجوة في نفسه ممكن أن يتسرب
منها الشك فى احتمال فشل الحائط . .

ولم يكد سبت واحد يمضي حتى اكتشف الرجل مخبولاً أن الخشبة
التي بجوار الحائط تماماً قد كسرت ، وأن فجوة جديدة قد صنعت . .
وأقسم يومها أن يبيع السوق . .

ولم يتح له أن يير بقسمه إذ استولت عليه شركة الأسواق ، بناء على
مرسوم وامتياز وبأقساط طويلة الأجل . .

ومع أن الشركة قد أقامت بدلاً من الخشب سوراً من حديد كلما بلي
جددته ، ومع أنها لم تركب رأسها كالمصاحب القديم فتستأجر فتوات أو
تقيم حيطاناً ، بل استعانت بالمركز فجعل لها كل سبت كوكبة صغيرة من
الخيالة تجوب السور رائحة غادية . .

مع هذا إلا أنك إذا وقفت في الصباح الباكر من أي سبت ، فسوف
تجد المشاية تحفل بالطابور الذي لا تعرف كيف يبدأ ، ولكنك تراه ينتهي
في السوق من خلال السور .

ودائماً ستجد هناك حديدة مكسورة . .

رمضان

كان فتحي - وهو صبي في العاشرة من عمره - ثائراً جداً على الرجال الكبار وعلى أبيه بنوع خاص ، فمن حوالي ثلاثة أعوام على ما يذكر طلب من أبيه أن يصوم رمضان فقال له أبوه : لا يصبح قبل أن تبلغ الثامنة . وكظم فتحي صبره وانتظر عاماً طويلاً على مضض . وحين حلت مقدمات رمضان من العام التالي وبدأ يرى «الفطرة» و «النقل» و «عين الجمل» تملأ الأجولة أمام الدكاكين ، لم ينتظر حتى يفاجأ بالأمر الواقع ، وإنما قبلها بكثير انتهز لحظة انسجام من لحظات أبيه - وفتحي يعرف أن لحظات الانسجام تلك تأتي في أول الشهر - انتهز الفرصة وذكره بما قاله في العام الماضي وأردف هذا بقوله أنه خلاص قرر أن يصوم . وادعى أبوه النسيان التام في أول الأمر ، ثم لما أخذ يذكره ويضيق عليه الخناق قال له : لا صيام لمن لا يصلي .

وكانت إجابة فتحي حماسة صريحة إنه حتماً سيصلي .

وحسب أن الأمر لن يكلفه أكثر من الوضوء والصلاة ، ثم يتاح له بعد ذلك أن يصوم .

وكان في هذا متفائلاً جداً إذ لم يتح له أبداً أن يصلي كما أراد .

فقد توضحاً كما تعلم في المدرسة، وفرد «سجادة» أبيه ليصلي عليها فإذا بأبيه يسبقه ويطويها. ولما سأله فتحي عن السبب أجابه بأنه يشك في وضوئه وطهوره، ويخاف على السجادة أن تلحقها النجاسة. فترك السجادة وصنع لنفسه مصلى من جلبابه القديم النظيف، ولم يعترف أبوه أبداً بطهارة الجلباب وبالتالي لم يعترف بصلاته. وقرر فتحي حينئذ أن يجبر أباه على الاعتراف فيذهب ويصلي في الجامع.

وملأه الجامع روعة وأحاسيس رنانة فيها دمدمات موسيقية ضخمة.. يكح المصلي من هؤلاء فيكح فراغ الجامع الهائل كله، وإذا قيلت: بسم الله الرحمن الرحيم فسرعان ما تتضخم، وترن وترن، وتكبر وتكبر وتموج وتلد بسملات أخريات تتصادم وتتكسر عند الجدران العالية الملساء.

ويكون الجو في الخارج ناراً وقيظاً والجامع وحده هو الذي يحفل بطراوة ممدودة حلوة ترد الروح. ويكون الضوء في الخارج فظيماً في كثرته وقوته، ولكنه يتهادى في النهار إلى الجامع من البرج الذي في أعلاه المصنوع من زجاج ملون ويسقط منه على المصلين فيلونهم تلويناً جميلاً.. وجه يبدو أحمر والرقبة التي بجواره زرقاء، وعمامة صفراء وعين بنفسجية.. وفي الليل تضيء الثريات.. يا سلام على نورها الكثير الذي يشع وينور ويزغلل.

أما المصلون أنفسهم فكان فتحي لا يحبهم إلا إذا صلوا جماعة واصطفوا صفوفاً وراءها صفوف في نظام وخطوط مستقيمة، ويقول الإمام: الله أكبر فيردد المصلون جميعاً وراءه: الله أكبر، وكلهم في نفس واحد وكأنهم رجل واحد، كبير جداً أكبر من سيدنا الحسين، وصوته ليس

مرتفعاً يخيف إنما صوته يرن رنيناً حلواً يحس معه فتحي أنه لا يصدر عنه وإنما يصدر عن ملائكة كثيرين يملئون صدر ذلك الرجل الكبير.

ثم الأروع من هذا حين يسجد المصلون ويراهم فتحي باركين على الأرض. . باركين، مئات الظهور المنحنية كلها متشابهة وإن اختلفت في ألوان ملابسها، صانعة بهذا سجادة عالية محببة مزخرفة بكل الألوان تفرش المسجد من الحائط للحائط. .

وفي الجامع أيضاً لاقى الأمرين. . فإذا ذهب يتوضأ من الحنفيات ترك الرجال الكبار وضوءهم ومضوا يترقبونه ويتمنون له الخطأ. ويتدخل أحدهم قائلاً: اغسل اليدين حتى المرفقين يا ولد. . فإذا غسلهما للمرفقين تصدى له آخر: يا ولد. . ذراعك التي غسلتها لامست ذراعك التي لم تغسلها. . أعد الوضوء. . ويعيد الوضوء مع أنه يكون متأكداً أن ذراعه لم تلامس ذراعه الأخرى ولا قاربتها. أو قد يتسم له شيخ له لحية طويلة ابتسامة صفراء ويقول: انت استنجيت يا شاطر؟! ويخجل فتحي جداً ويهز رأسه، ولكنه يترك الوضوء كله وينفض يده منه ويذهب ليتوضأ في بيتهم حيث لا رجال ولا شيوخ. .

وإذا ما وقف ليصلي جماعة لاقى الصعاب، فإن الذي بجواره يدفعه من كتفه قائلاً: روح للصف الثاني. والصف الثاني يدفعه إلى الثالث وهكذا إلى أن يجد نفسه في النهاية واقفاً في الآخر بلا صف. ويجد نفسه هو والصغار الآخرين الذين ذهبوا يصلون منبذين مطرودين فيصنعون وأمرهم إلى الله صفأً أخيراً. وما أسرع ما أدرك فتحي أن الوقوف في الصف الأخير له ميزة إذ يتاح له من مكانه هناك أن يشاهد المصلين جميعاً وهم راكعون أو ساجدون، ومن فرط ما أحب فتحي مشهدهم ذاك كان إذا صلى جماعة وركعوا هم كلهم أو سجدوا يبقى هو بلا ركوع أو سجود، ليستطيع

أن يستمتع بمشهدهم . . حتى إذا ما قاربت الحركة على الانتهاء سارع هو بالركوع أو السجود لئلا يلحظه أحد . .

وهم في صفهم الأخير ذاك كان لا يعدم الأمر أن يأتي مصلٍ مسن متأخراً ليلحق بصلاة الجماعة، فما أن يرى صفهم حتى يهب فيهم: صلاة إيه دي اللي كلها عيال . . امشي قليل الأدب منك له . ويتفرقون ويتبعثرون ويطيرون تاركين المسجد كله للكبار . .

وإذا كان سعيد الحظ ورضي ابن حلال أن يوقفه بجواره في الصف فلا بد أن أحدهم سيخرج من صلاته ليقول له: يا وله . . انت بتصلي من غير طاقة . . امشي شوف لك طاقة عمى في عينك!

ولهذا لم يتح لفتحي أبداً أن يصلي بانتظام، وكذلك لم يتح له أن يوفي الشرط الواجب للصوم. وكان يهمله جداً أن يصوم . . ولم يتحمل كل هذا العناء سدى . . كان يهمله أن يصوم ليستطيع أن يتناول السحور فلا يتناوله إلا الصائمون . .

وكان السحور عند فتحي تعادل لذائذه كل القصص التي قرأها والأفلام التي شاهدها ومرأى الأسود والقرود في حديقة الحيوان . . وكل لذائذ أخرى موجودة في العالم. ولم يكن قد أتيح له أن يحضر السحور أو يتناوله، كان يسمعه . .

فحين يعود بعد أن يكون قد شبع نطاً وجرياً وصراخاً ولعباً مع غيره من أطفال الحارة - والظاهر أن رمضان يغير من عادات الكبار - فالكبار يودون للأطفال دائماً أن يحيوا حياة مثل حياتهم . . حياة كلها جد وخطورة، فهم لا يلعبون ولا يودون لهم اللعب، وهم لا يستسيغون الصراخ والقفز ولا يودون للأطفال أن يقفزوا أو يصرخوا، بل يريدونهم دائماً أن يظلوا

جالسين مؤدبين متزمتين مثلهم . وكان رمضان إذا جاء وأكل فيه الكبار وشربوا - ورمضان الذي هو شهر الصوم يأكل فيه الناس أكثر مما يأكلون في أي شهر آخر - إذا أكلوا وشربوا ، تحدثوا وسهروا وتناقشوا وأصبحوا أكثر إنسانية ، فليس غريباً إذن أن يسمحوا للأطفال أيضاً باللعب والبقاء خارج البيوت وقتاً أطول .

كان فتحي يعود وقد استهلك كل طاقته الصغيرة من النشاط، ومع هذا . . ومع ما يكون فيه من تعب لا يأتيه النوم، فبعد وقت قد يطول وقد لا يطول يبدأ السحور، وحينئذ يرقد في فراشه وكأن قد انتابته نوبة ملاريا خبيثة تؤرق جسده فينقلب إلى اليمين وسرعان ما يمل اليمين فيفتعل الحركة إلى اليسار، ويطوح بيده ويشد الغطاء ويرخيه، وأذناه وقلبه وانتباهه كله . . هناك . . في الحجرة المجاورة حيث أبوه وأمه يتناولان السحور . .

كانا يبدآنه بصمت لا يسمع فيه إلا ثأؤب أبيه، وأمه وهي تغمغم بأهات وتشكو من تعبها ومفاصلها ومن الجيران ومن قطط الجيران وكلابهم والعيش الذي جف . ثم كان أبوه يتطوع ويقول كم الساعة وقتها دون أن تسأله أمه ، ولا ريب أنه يفعل ذلك ليفتح حديث السحور وما ألد حديث السحور . .

كان أبوه هو الذي يتحدث في الغالب ، وإذا تكلمت أمه تقول كلمات مقتضبة أو تعيد الشكاية من مفاصلها . وكان فتحي يحب أباه لحديثه ذاك حين يتكلم بصوت فيه تلك الرنة التي تصاحب صوت المستيقظ لتوه من النوم، ويخرج كلامه إلى الظلام والسكون فيبلل ذلك الرنين ويحيلانه إلى نغمة حبيبة تنفذ إلى قلبه وتنغزه ، فيتمنى لو قام في التو وعانقه وقبله . .

وحين يتحدث أبوه وفي فمه بقية من طعام . . ويمضغ قليلاً ثم يتابع الحديث الذي تحيطه هالة موسيقية من أصوات الملاعق وهي ترن في دقات معدنية هامسة ، كان حينئذ يتصور أن أباه ينطق شهداً ، ويستعذب الطعام الذي يمضغه دون أن يعرف ما هو حتى لو كان طعمية ، ويطوح بيده ويشد الغطاء ويرخيه ويتمنى أن يقفز من الفراش ليكون قريباً من حديثه ونبراته . .

وحين كان الحديث يعرج على الأولاد - أي على فتحي وأخوته - كان يتمنى أن يتعثر بائع الزبادي الذي ينادي بصوته المزعج في الخارج ويسقط في حفرة فيسكت ، وأن يضرب جارههم امرأته التي تصرخ بصوتها الملسوع ولا تتوقف ويأمرها بالسكوت ، وتصمت الدنيا كلها ليستطيع أن يسمع أباه وأمه وهما يتحدثان عنه . فأمامه في النهار لم يكونا يتحدثان إلا ليلوماه أو يأمره بإحضار شيء أو يشتماه ، أما حديثهما من ورائه - وهما معتقدان أنه نائم - فقد كان يود بحياته كلها أن يسمعه ، ويسمع المشاريع التي يدبرانها له . يقول أبوه : نشترى له بدلة كاملة للجنة الجاه ، ويدق قلب فتحي وكأن البدلة جاءت وارتماها . وتقول أمه : أحسن نوديه الزراعة المتوسطة يخلص بسرعة . ويغتاظ فتحي ويكاد في مرقده يقول لا بأعلى صوته ، ولكن أباه يتولى الاجابة ويصر على دخوله الثانوي ، فيقول فتحي في سره : يحملك يا أبي .

ويصبح حينئذ طرفاً ثالثاً في الحديث ، طرفاً بعيداً يسمع ويرضى ويفرح ويسخط ويثور ، وهو آمن أنه يستمع إلى الحقيقة المجردة ، وأن ما يقوله أبواه هو الذي سيقدر مصيره وليس الكلام المنمق الذي في النهار . . ثم الكارثة . . حين يحس فتحي - وقد تربى له من أجل ذلك إحساس

مخصوص - أن الطعام قد انتهى . . فيبدأ بطنه يمغص ولعابه يسيل ، حين تنساب إلى أذنيه أصوات أبويه وهما يغمغان في إبهام ، وتبدأ أصوات مضغهما تأخذ طابعاً معيناً يعرفه فتحي جيداً ، إذ في هذه الأثناء يكون دور «الكنافة» أو «قمر الدين» أو باقي القائمة قد أتى ، ومع أن فتحي يكون عالمياً تماماً أن سيناله من كل صنف نوب في الصباح ، إنما فرق كبير بين أن يأكل الكنافة في السحور هكذا والسكون شامل والدنيا ظلام والنور جفيل ، وبين أن يأكلها في وضوح الصبح وشمسه الكثيرة وذبابه وضجيج أخوته ومنازعاتهم . . فرق كبير . .

حين يبدأ السحور كانت تبدأ سعادات فتحي . . وكذلك تبدأ متاعبه فإذا لم يعجبه الطعام ظل راقداً مستيقظاً أسعد ما يكون برقده واستيقاظه وسماعه حديث السحور ، أما إذا لم يعجبه الحديث وسخط على مشاريع المستقبل أو هفت نفسه إلى صنف من أصناف الطعام ، كان حينئذ لا يتحمل الرقاد فيقوم مدعياً الذهاب إلى دورة المياه ماراً بالصالة ، وحريصاً على أن يري نفسه لوالديه في ذهابه وإيابه ، وأن يريهما بالذات وجهه المتجهم الذي يكاد يبكي . . بل أحياناً كان يبكي ، وأحياناً كان يسأله أبوه عن سبب بكائه فيبكي أكثر ، فإذا ألحف أبوه ادعى بعد لأي أن عنده مغصاً مثلاً أو أن برغوثاً قرصه ، فإذا ضحك أبوه ازداد بكاءه . . وكل همه أن يشعرهما أنه غاضب . وأحياناً كان يدعي أنه يحلم ويصرخ فيجري عليه الوالدان ويمثل دور المستيقظ لتوه من كابوس تمثيلاً - والحق يقال - رائعاً ، حتى أن واحداً من والديه لم يشك أبداً فيه . وكان ما يضايقه جداً أنهما لم يفهما أبداً ولم يدعوا أبداً إلى مشاركتهما السحور أو حتى الجلوس والاستماع إلى الحديث . . كل ما يقولانه . . نام يا خويا . . نام يا

حببيي.. اسم الله عليك.. وكلام مثل هذا من كلام الشيعانيين
المتحدثين المستمتعين..

كان من الضروري جداً أن يصوم فتحي..

وظل ساخطاً على الكبار وعلى أبيه بصفة خاصة، حتى أجابه إلى
مطلبه أخيراً.

جاءت ليلة النصف من شعبان وأنذرهم فتحي بأنه لا محالة صائم
فطبطب أبوه على كتفه وقال: إن شاء الله.

وافرح يا فتحي وأخبر كل الأولاد والقرايب والعمات والخالات..
خلاص انتهى كل شيء وابتسمت الدنيا، أجل سيصوم! قال له أبوه هذا
وانتزع التصريح من أمه.

وجاء رمضان، وليلة أول سحور لم ينم بل حتى لم يخرج من البيت
ليلاعب مخافة أن يغافله أبواه وهو في الخارج ويتسحرا. فإذا أصبح
الصباح قالوا معلش لقد فاتك السحور فلا ينبغي أن تصوم..

وحين جلس الثلاثة في النهاية هو وأبوه وأمه، كان فتحي حريصاً جداً
ألا يحدث صوتاً أو يسقط شيئاً، فقد كان خائفاً خوف الموت أن يصحو
أحد أخوته الصغار ويصر على السحور، قائلاً وهو يبكي بكاء
سخيفاً: اشمعني فتحي؟.. ومن يدري فقد يرق قلب الوالدين ويوافقان؟
فتفسد الوحدة التي يتمتع بها معهما ويفسد تعب السنين.

وحدث لأمر ما أن قام أخ من أخوته وعبر الصالة إلى دورة المياه، فقال
لأبيه: على فكرة.. دا قايم يتمحك وبس.. أوعوا تسألوا عنه..

ومهما كان ما حدث في ذلك السحور.. وكان أول سحور في رمضان

ويزخر كالعادة بأطياب الأطعمة . . مهما كان ما حدث فإن فتحي لم يجد له ذلك البريق الذي أحرق خياله أياماً وليالي ، بل ناله ما يناله دائماً إذا وجد في حضرة الكبار: هات دي . . ودي دي . . ناولني ده . . شوف ايه اللي بياكلني في ضهري .

ونام فتحي . .

وصبحاً متأخراً ، بل استيقظ مبكراً ولكنه آثر أن يبقى متناوماً حتى يغادر الفراش في الضحى كما يفعل الكبار تماماً . . صبحاً وفي عقله حقيقة واحدة: ألا يسهو ويشرب فقد حذره أبوه مراراً من هذا . .

وراح ينظر إلى أخوته وهم يتحدثون بكلامهم وعبتهم ضجة الصباح الوجلة ، التي تكفيها شخطة واحدة لتنتهي . . راح ينظر إليهم ويستصغرمهم ويستصغرمهم ما يقومون به قائلاً في سره: لهم حق . . فهم فاطرون . ولكنهم بدءوا يحلون لغزاً كان وارداً بإحدى المجلات .

ووضح من كلامهم أنهم يلفون بعيداً عن الحل ، وكان لا بد أن يقنعهم بأنهم صغار وأنه ذكي ولا بد أن يحله هو قبل أن يصل واحد منهم إلى حله . فتخلى عن الفراش وقام ببطة وهو يحس أن شيئاً كبيراً ثقیلاً يملؤه ، وأن في فمه طعاماً غريباً قابضاً . .

وحين جلس معهم وحاول حل اللغز ففشل أدرك أنه لغز تافه لا يستحق اهتمامه ، بل بدا له أن كل ما يحدث في العالم إن هي إلا أشياء تافهة لا تستحق عناء الجلوس ، وعاد إلى النوم مرة أخرى . . عاد وهو مطمئن فهو في إجازة ، ورمضان كان طيباً فجاء في الصيف هذه المرة . . واستيقظ فتحي لا لأنه كان يريد أن يستيقظ ، ولكن لأن شيئاً أقوى منه

أجبره على أن يتململ ثم ينتبه ويصحو: وكان الطعام الذي في فمه قد تغير وأصبح فمه جافاً يكاد يكون لا طعام له، وأحس لحظة أن فتح عينيه أنه عطشان. وفي الحال قام ووجهته الماء.. ولكنه توقف حين طردت الخطوات القليلة التي خطاها البقية الباقية من النوم في رأسه، وأدرك أنه صائم. وفرح وكأنه كان سيسقط في حفرة ثم تبينها.. ولكن عجب هذا.. أنه ما أن أدرك أنه صائم حتى ازداد عطشه.

وجلس على الكنبه التي في الصلاة.. كانت أمه في المطبخ غارقة لأذنيها في إعداد الطعام، وأبوه في الشغل وأخوته لا يبدو لهم أثر، والساعة حوالي الثانية عشرة. وكان عليه أن يتخلص من ذلك الاحساس السخيف الذي يملأ فمه.

حاول أول الأمر أن يتخلص منه بتجاهله فذهب يبحث عن شيء يشغله، وكان من زمان يريد أن يفك «المنبه» ويتفرج على «العدة» التي بداخله.. وأسرع يبحث عن معدات الفك، ولكن مسماراً استعصى عليه ورفض أن يدور إلى اليمين أو إلى اليسار، فرمى المنبه. لم يكن يقصد أن يرميه وإنما وجد نفسه هكذا يدفعه مرة واحدة من فوق الترابيزة فيسقط وتتكرر زجاجته. وانحنى يلم الزجاج المكسور ويخفي الجريمة ويخفي المنبه هو الآخر..

وهبط من المنزل بعد تجربته العقيمة تلك يبحث عن أخوته أو عن أطفال في الحارة فلم يجد، كلهم كانوا في تلك الساعة الملعونة في بيوتهم، والحارة ليس فيها إلا الشمس الحارقة والتراب وما عليه من ذباب..

وعاد إلى البيت وهو أكثر عطشاً، والضيق قد بلغ به حداً جعله يتمنى

أن يقف موقفاً من المواقف التي كانت تخذله فيها شجاعته ويتغلب عليه فيها حياؤه وخنوعه . . كان يتمنى أن يجابه موقفاً كذلك ليرى الناس العين الحمراء، والضيق من العطش قد طرد منه كل خنوع وحياء . .

وحاول أن ينام لما لم يجد موقفاً ولا ناساً . . وباءت محاولته بفشل ذريع . وسرعان ما مج الفراش وفكر في أن يجري ويلف في البيت ويكركب أشياء ثم ينظمها على يساهي الشعور بالعطش الذي كان يفري نفسه . .

ولكن ما إن بدأ يتحرك ويلف حتى جلس على أقرب كرسي وقد أيقن أن كل حركة تزيده عطشاً على عطش، وأن نتيجة محاولاته لنسيان المشكلة أنها تعقدت وازدادت حدة وخطورة، وأصبح فمه ينبع ويصرخ ويتلوى، وكأنه تناول حفنة من الشطة واستشترت حرارتها تلهب كل جوارحه . .

وبدأ فتحي حينئذ يفكر . . بل هو في الحقيقة بدأ يتململ من الصيام ويدرك وعورة الطريق الذي اختاره . . بل الذي تمناه وهفا إليه عدة رمضان. بدأ يفكر ويقارن بين العذاب الذي هو فيه واللذة التي حظي بها ساعة السحور. والحق أنه لم يقارن، فكل ما كان يشغله هو العذاب . . وكل ما كان يبحث عنه هو المهرب . .

كان من لحظات قد سمع الراديو يدق عند جيرانهم معلناً الواحدة، أي باق من الزمن خمس ساعات حتى يستطيع أن يشرب . . خمس ساعات؟ يا للهول . . خمسة في صفر بصفر وخمسة في ستة بثلاثين ومعانا صفر . . يعني ٣٠٠٠ دقيقة. لا يمكن! لا يمكنه أبداً أن يستمر حياً يعاني ما يعانيه ٣٠٠٠ دقيقة. يبدو أن هناك خطأ. لا. هناك صفران فقط. يعني ٣٠٠

دقيقة. ولو. . لا يمكنه أبداً أن يمكث ولا حتى ٣٠٠ ثانية. اسمع يا ولا يا فتحي. . خليك جدع. . واصبر وصابر. . وتحمل الألم حتى يحين موعد الافطار وتشرب ثم تسترخي كما يفعل أبوك والصائمون، وتحدث عن العطش الذي لازمك من أول النهار وتبالغ في وصف أهواله. . آه. . يجب أن يحتمل. . خصوصاً وأنه سمع شيخاً من الذين يكثرون من زيارتهم في رمضان يقول: إن الجزاء يزداد بمقدار ما يتحملة الصائم من ألم. . هه. . يعني ايه؟ سيتحمل ولن يهمله. . كلها كم ساعة وينتهي. . كم ساعة؟! ٣٠٠ دقيقة. يعني واحد اثنين ثلاثة. . عشرة عشرين. . ثلاثين. . مضت دقيقة. . يا نهار أبيض. . باقي ٢٩٩ مرة مثل هذه. . لالا لا. . لن يستطيع التحمل! سيموت، ويستشهد، ويذهب الى الجنة حدف، والجنة فيها ماء. . يا للهول! ليس فيها ماء. . لقد سمع أن فيها أنهاراً من الخمر واللبن والعسل. . أف. . أعوذ بالله. . إنه لا يطبق ذكر العسل فهو يعطش. . أنهار عسل ولبن، ولكن ليس فيها ماء. وإذا عطش عطشاً مثل هذا في الجنة فكيف يشرب؟ وهل يرتوي من اللبن؟. . اللبن الأبيض السميك الذي. . أعوذ بالله. . إخص. . ما هذه الخواطر؟ إنه الشيطان. . لابد أنه الشيطان يوسوس في صدره. ابعد أيها المنجوس لن أسمع كلامك. . أبداً أبداً أنت تدلني على الفساد. . لن أسمع كلامك. .

وسمع فتحي في تلك اللحظة - رغم ضجة الوابور - الحنفية مفتوحة في المطبخ والماء يندفع منها كركر كركر. . لا ريب أن الشيطان هو الذي فتحها أو وسوس لأمه حتى فتحتها. . سحقاً لك أيها اللعين! والله لو حتى صبيت الماء في فمي لن أشرب.

وضم فتحي فمه بشدة وكأن هناك ماء حقيقياً سيدخله، وظل على

وضعه ذاك مدة وقد خيل إليه أنه إذا فتح فمه فسيفطر لا محالة . .

ولكن الشطة استعرت حرارتها داخل فمه المضموم، وكان حلقه قد أصبح جرحاً كبيراً ملئ بها وأشعلت فيه ناراً وألماً. وحاول أن يتلع ريقه ومصمص ودار بلسانه داخل فمه كله محاولاً عبثاً أن يجد نقطة بلل واحدة . . وكان الماء لا يزال يهطل بشدة من الحنفية ويدخل أذنه حتى خيل إليه أنه يشرب الصوت من خلال أذنيه، فسد أذنيه ومع هذا ظل خريبر الماء - أو إبليس - يخترق أصابعه ويداعب أذنيه . .

وطوف خاطر في عقله وحوم . . إنه لن يفطر قطعاً ولكن ماذا يفعل بذلك العطش؟ إنه يذكر أن ذات الشيخ قال إن المضمضة ليست حراماً فلماذا لا يتمضمض؟ وكان ما يخيف فتحي هو أن يتسرب بعض الماء إلى بطنه إن هو حاول ذلك، ولكن إلحاح الخاطر أقنعه أنه لا بد أن يثق في نفسه. وقام وذهب إلى نفس الحنفية اللعينة التي أرهقت أعصابه ووقف يردد النظر بين أمه وهي منهمكة في إعداد الطعام وبين الحنفية، ثم مد يده وملاها من السيل المنهمر. ورأته أمه وهو يدفع الماء إلى فمه فشهقت شهقة عظمية وسألته عما يفعله؟ فأجابها بأن ريقه جاف وأنه يبلل فمه. فابتسمت ابتسامة من يشمت وقالت: مش قلتك؟ . . عامل لي راجل . . أما أشوف . .

واغتاظ فتحي جداً فأفرغ كل ما في فمه من ماء وراح يبصق بشدة حتى أتى على كل ما أحدثه الماء من بلل وريق، وعاد إلى حيث كان في الصلاة وفي صدره تصميم مانع قاطع أن يثبت لأمه ولكل الناس أنه رجل . . وأنه قادر على الصوم مثلهم وليكن بعد ذلك ما يكون . .

ولكن المضمضة التي لم تتم أججت فقط كل النار التي في جوفه
وجعلت العطش يمتد داخل زوره الى بطنه حتى بدأ يحس ان عاموداً من
نار وفلفل يحشو رقبته ويملاً فم معدته . .

لو يشرب مرة واحدة فقط لسكت هذا النباح واستطاع أن يواصل
الصيام إلى منتصف الليل إن شاءوا، ولكن الشرب معناه أن يفطر ولا يدعه
أحد يتناول السحور بعد الآن وتسقط رجولته في أعين والديه، ويعدانه
طفلاً فاطراً مثل أخوته الفاطرين . .

ولكن هل من الضروري أن يعلم الناس أنه شرب هذه المرة؟ ماذا لو
شرب خفية دون أن يراه أحد، ثم أمضي بقية اليوم في صيام ما بعده صيام
وسمح لنفسه حتى أن يشكو مما لاقاه من ظمأ بعد الافطار؟ ماذا لو حدث
هذا؟ إنه لن يفقد شيئاً بالمرة ولن يعيره أحد بما فعل إذ إن أحداً لن يراه
فهناك في الصالة قلة ماء لا تزال فيها بقايا من ساعة السحور، سيأخذها
ويذهب إلى حجرة الجلوس ويغلق الباب ويفرغها في فمه بأسرع ما
يستطيع، ثم يفتح الباب ويتأكد من خلو الصالة ويضع القلة في مكانها
ويلعب بعد هذا أو ينام ويمرح بقية اليوم . .

ولكن . . رمضان!!

إن رمضان سيعرف لأنه يرى الناس ولا يرونه، ويعرف إن كانوا
يفطرون أو لا يفطرون . .

وارتسم رمضان في عقل فتحي هائلاً في حجم الدنيا كلها . . يجلس
على عرش من ذهب وألماظ . . بعيداً . . بعيداً خلف الشمس ووراء كل
النجوم والسحب . . يعرف دون أن ينظر من الفاطر ومن الصائم . . ويبطح
الفاطر . . يلقي عليه حجراً يصيب منتصف جبهته ويسيل الدم .

وارتعش فتحي للرؤيا . وأفاق منها قليلاً وحاول أن يتذكر واحداً فقط يعرفه بطحه رمضان لأنه فطر فلم يجد . ولكن من يدري ربما يكون هو أول واحد ستاله البطحة .

وسأل نفسه سؤالاً مفاجئاً . ألا يمكن أن تكون حكاية رمضان هذه كذبة وأنه لا يرى ولا يبطح ولا هو حتى موجود بالمرة؟ لم يدر فتحي من أين جاءه السؤال . لعله الظمأ . ولكنه ظل حائراً بين الخوف الذي يدفعه إلى أن تكون الاجابة لا والظمأ الذي يهيب به أن يكون الجواب نعم ، ظل حائراً إلى أن عنت له فكرة: سيعد إلى ثلاثة ثم يحاول رفع ذراعه ، فإذا كان رمضان لا يريده أن يرفعها فليمنعه . وعد . واحد . اتنين . ثلاثة . وحشد كل قوته وقد خيل إليه أول الأمر أنه مهما حاول فلن تتحرك . وقفزت الذراع فجأة من جانبه في الهواء . وملاه الرعب ولكن بعد أن اطمأن قليلاً وبدأت الثقة تأخذ طريقها إلى نفسه ، رأى أن يجرب تجربة جديدة فوقف وقال : سأمد رجلي وأخطو ، فإذا كان رمضان يراني ويستطيع منعي فليمنعني . ومد رجله فامتدت ، وخطا خطوة وثانية وثالثة وكاد ألا يتوقف ، وازدادت في نفسه الثقة وقلت الرهبة ، بل انتابه غير قليل من الاستخفاف برمضان ومحاولة تحديه ، ورأى أن يتحداه أكثر ليبين قوته إن كانت له قوة ، ويجرب تجربة أخيرة . وأخذ القلة إلى حجرة الجلوس وقال سأتذوق قطرة واحدة من الماء ، فإذا كان رمضان يستطيع أن يكسر القلة قبل أن تصل إلى فمي أو أن يقطع لساني إن كان جدهاً فليفعل .

ومع امتلائه بالثقة والتحدي فقد رفع القلة في وجل وهو يحملق في انبعاثها وكأنه يتوقع في كل لحظة أن تنفجر . ولم تحدث الكارثة وأيقن حينئذ أن رمضان وحجارته وبطحاته لا بد خرافة ، وأفرغ كل ما تحتويه

القلة من ماء في جوفه . . وكان يتوقف ليتلذذ بطعم الماء ويتساءل كيف لم يفتن أن للماء طعماً من قبل ، بل وطعم حلوسا حرم يتذوق مثله أبداً .

ورجع إلى جلسته في الصلاة ينتقم من الوقت الطويل الذي أمضاه في لهيب العطش بوقت طويل آخر يمضيه في نعيم الري .

ولكن شعوراً بالانقباض بدأ ينتابه . كان هيناً أول الأمر ، ولكنه ما لبث أن ثقل وتعمق . أحس بشيء يهبش صدره ويخيفه ويرهبه . . ولم يكن خوفه كخوفه من العفاريت أو الجن أو «أبو» رجل مسلوخة وإنما كان يحس بأنه خائف من شيء داخله ، وكأنه يخاف من نفسه . .

ولم يسكت ذلك الاحساس بل راح يدب ويتسلل إلى عقله ويملك عليه كل تفكيره . وأيقن أن لا بد أن تحدث كارثة ، لا بد أن رمضان سينتقم منه ويجازيه . . فمن غير المعقول أن ينال متعة الشرب بعد الظمأ هكذا وبدون ثمن . وكان مستعداً أن يتقبل أي عذاب أو أية مصيبة ، فقط لو كان يعرف نوعها أو ما هي . أجل ، إذا كان رمضان لم يفعل شيئاً قبل الشرب فلا بد أنه فاعله بعده . ولكن متى؟ وكيف؟ ذلك هو ما يخيفه . هل يبطحه؟ هل سينقم منه بأن يجعله يرسب في الامتحان؟ هل تقع فوق رأسه الصخرة المعلقة بين السماء والأرض والتي كثيراً ما حدثته عنها جدته وقالت إنها صعدت وراء النبي؟ هل يمرض أخوه ويموت؟ . .

وتوقع أن تحل الكارثة في العصر . . ولما لم تحل قال بعد المغرب . . ومضى المغرب والعشاء ، وقبل أن ينام ضربه أبوه علة ، وقال فتحي : بس . . هذا هو عقاب رمضان . ولكنه فطن حين رقد يبكي في فراشه إلى أن أباه ضربه لأنه كسر زجاجة المنبه وليس من أجل إفطاره ، وبالتالي لم يكن ما حل به هو العقاب المتوقع .

وانتظر فتحي أن تحل المصيبة في الأيام التالية ولكنها لم تحل ، حتى بعد أن تكرر ظمؤه وتكرر شربه خفية . .

لم تحل إلا حينما ضبطته أمه وهو يشرب ذات يوم . وبعد أن انجابت لحظة مفاجأته وانتهت من تأنيبه وتعنيفه فرح فتحي في قرارة نفسه لأنهم سوف يقولون إنه لا يستحق الصيام ويجعلونه يفطر ، ويستطيع بعد هذا أن يشرب ويأكل دون عقاب أو وجل . ولكن المصيبة الكبرى أنهم هذه المرة قالوا إنه باظ . . وضربوه علقه ، وأرغموه على الصوم بالقوة ، وراقبوا التنفيذ بدقة .

واضطر فتحي أن يصوم بعد هذا ويواظب على الصيام لا خوفاً من رمضان وبطحاته ، ولكن خوفاً من أهله الذين لا يفيد معهم رفع ذراع أو إجراء تجارب ، إذ هم يعرفون كل شيء إن آجلاً أو عاجلاً ، وهم الذين يتولون بأنفسهم العقاب ، ويضربون العلق ويبطحون ولا يرحمون . .

جنکیز

ایمانوف

المعلم الأول



دار التقدم

موسکو

المعلم الأول

ها أنا أفتح الشباك على مصراعيه ، فينصب فى الغرفة تيار من الهواء الطلق • وأمعن النظر فى الغبش المزرق الآخذ بالنصوع ، بمخططات وأوليات الصورة التى بدأتها • وهى مخططات كثيرة • ذلك لأننى أعدت الصورة من جديد مرارا وتكرارا • ولكن الحكم على الصورة ككل يبدو سابقا لأوانه • فأنا حتى الآن لم اكتشف ذلك المهم الذى يجىء فجأة فى حتمية ووضوح متنام وترجيع فى الروح لا يسبر ولا يدرك كنهه مثل هذه الشروقات الصيفية الباكرة • أسير فى الصمت قبيل اطلالة الفجر ، أفكر وأطيل التفكير ، وهذا ما يحدث فى كل مرة ، وفى كل مرة اتيقن من أن صورتى ما تزال مجرد أفكار •

وأنا لا أميل الى أن اتحدث مسبقا وأخبر ولو الأصدقاء المقربين عن صورة لم تتم بعد • لا لأننى غيور جدا على عملى ، بل لمجرد اعتقادى ، بأنه مثلما يصعب الحدس كيف سيصبح الطفل الذى ما يزال اليوم فى المهد ، يصعب الحكم على عمل

فنى لم يكمل ولم ينته رسمه • ولكننى فى هذه المرة أخرج
على قاعدتى ، وأريد أن أعلن على الملأ وبالأحرى ، أن اشاطر
الناس افكارى عن صورة لم يتم رسمها بعد •
وليست هذه نزوة • أنا لا أستطيع أن أفعل غير ذلك
لاحساسى بأنى لا أقوى على ذلك وحدى • فالقصة التى تهز
روحي ، القصة التى حفزتنى على أن أمسك بالريشة تبدو لى
من الضخامة بحيث لا أستطيع أن أستوعبها • أخشى ان لا أنهض
بها • أخشى أن أهرق ما فى الكأس • أريد أن يساعدنى الناس
ويسدوا لى النصيحة ، أن يقدموا حلاً ، أن يقفوا ولو فكراً معى
الى جانب منصة الرسم ، أن يقلقوا معى •
فلا تضنوا بحرارة قلوبكم • واقتربوا • وأنا ملزم على أن
أقص هذه القصة ••

تقع قرىتنا كوركوريو على سفوح هضبة واسعة حيث
تتحد نهرات جبلية جياشة من مضائق كثيرة • وتحت القرية
ينبسط الوادى «جولتاي» (الأصفر) ، السهب الكازاخى الهائل
المحدود باطناف « تشيرنيه غورى » (الجبال السوداء) وخط
السكة الحديد القاتم اللاب ، المتوغل خلف الأفق فى الغرب
عبر السهل •

وفوق القرية تقف شجرتا حور كبيرتان على رابية • وانى
لاذكرهما منذ ذلك الحين كما أذكر نفسى • وافت تراهما قبل

أى شىء آخر مهما تكن الجهة التى تدخل منها القرية • فهما دائما على مرأى مثل فنارين على تل • وفى كل مرة أنزل من القطار ، وأسير عبر السهب الى قريتي أبحت بعينى أولا على شجرتى الحور الحبيبتين دون أن أعرف تفسيراً لذلك ، ربما هى انطباعات سنى الطفولة العزيزة على الانسان على نحو خاص ، أو لعل لذلك علاقة بمهنتى كفنان • وأيا كان طولهما فليس فى امكانك أن تراهما فى الحال من مثل هذه المسافة، ولكنهما بالنسبة لى محسوستان دائما ومرئيتان دائما •

وكم من مرة عدت من الاصقاع البعيدة الى كوركوريو كنت أفكر دائما فى حزن ممض : « هل سأرى شجرتى الحور التوأمين قريبا ؟ حبذا لو أصل الى القرية سريعا ، وأهرع الى الراية حيث الشجرتان ثم أطيل الوقوف تحتها ، واسمع حفيف الأوراق فى تلذذ » •

وفى قريتنا أنواع شتى من الأشجار • ولكن شجرتى الحور هاتين من نوع خاص • ان لهما لغتهما الخاصة ، ولهما — على ما يبدو — روحا صداحة خاصة • ومتى تأتى اليهما ليلا أو نهارا تجدهما تتمايلان وتتضاربان أغصانا وأوراقا ، وتضطربان دون توقف ، ولكن بطرائق شتى • فتارة يبدو وكأن موجة هادئة تعلق الرمل • وتارة يسرى فى الأغصان مثل نور غير منظور ، مثل همس عاطفى حار ، وتارة بعد أن تهدأ فجأة وللحظة تزفران بصخب ودفعة واحدة بكل أوراقهما المستثارة وكأنهما تلتاعان على شىء • وحين تندفع سحابة ممطرة وريح العاصفة تضرب

الأغصان ، مقطعة الأوراق ، تهدر الشجرتان مهترتين فى مرونة
مثل لهب محتدم • فيخيل اليك ان فى هديرهما الشموس نداء
متمردا : « لا ! لن تحنينا •• لن تقطعينا ! »

وفيما بعد ، بعد عديد من السنين ، أدركت سر شجرتى
الحدور • انهما تقفان عاليا على الراية مكشوفتين للرياح كلها ،
تتجاوبان مع أخف نسمة ، وكل ورقة فيهما تلتقط فى رهافة
أخف نفثة •

ولكن اكتشاف هذه الحقيقة البسيطة لم يجعلنى يائسا كلياً ،
ولم يحرمنى من ذلك الاحساس الطفولى الذى احفظه حتى الآن ،
وحتى الآن تبدو لى هاتان الشجرتان على الراية حيتين وغير
عاديتين • وهناك بالقرب منهما خلفت طفولتى مثل قطعة من
زجاجة خضراء مسحورة ••

وفى اليوم الأخير من الدراسة قبل بداية العطلة الصيفية
كنا - نحن الصبيان - ننطق الى هناك لكى ننقض على أعشاش
الطيور • وفى كل مرة كنا نرتقى الراية فى هتاف وصفير كانت
الشجرتان العملاقتان تهزان اعطافهما ذات اليمين وذات الشمال
وكأنهما تحيياننا بظلهما الوارف وحفيف أوراقهما الغزل • أما
نحن ، العيارين الحفاة ، فكنا تتسلق الفروع والأغصان وأحدنا
يساعد الآخر مثيرين الرعب فى مملكة الطيور • وتندفع أسراب
الطيور فوقنا فى زعيق • ولكن ، لا شىء يلوى بنا • كنا نصعد
أعلى فأعلى تتبارى أينما أشد جرأة ، وأخف حركة • وفجأة ينداح
أمامنا ونحن فى علو شاهق ، فى حلق الطيور ، عالمنا الباهر

عالم الرحابة والنور وكأنما فى سحر • وكانت تدهشنا عظمة الأرض ، ونحبس أنفاسنا جامدين وكل منا على غصنه ، وننسى الأعشاش والطيور • وكان الاسطبل الكولخوزى الذى كنا نعتبره أكبر بناية فى الدنيا يلوح من هنا سقيفة متواضعة • ووراء القرية فى الاغبشاش السرابى اختفى السهب المقفر المترامى • فننعم النظر فى ابعاده اليمامية اللون ما وسعنا النظر ، فترى ارضا واسعة كثيرة لم يدر فى خلدنا من قبل أنها موجودة ، ونرى انهارا لم نرها من قبل • وكانت الأنهار تتلألأ فى الأفق بخيوط فضية ناعمة • فنفكر ونحن نختفى فى الأغصان : أهذه نهاية الدنيا أم هناك فى البعد سماء مثل هذه أيضا ، وسحب سهوب وأنهار كهذه ؟ ونصغى ونحن نختفى فى الأغصان الى صوت الرياح اللاأرضى ، بينما تتهامس الأوراق فى جواب ترحابى عن الأصقاع المغرية المجهولة المخفية وراء الأبعاد اليمامية الألوان •

وكنت أصغى الى حفيف الشجرتين وقلبى يدق رهبة وفرحاً ، وأحاول مع هذا الحفيف الذى لا ينقطع ان أتصور تلك الأبعاد القصية • شىء واحد لم يخطر ببالى آنذاك : من غرس هاتين الشجرتين ؟ بم حلم وعم تحدث ذلك المجهول وهو يغرس جذور الشجرتين فى الأرض ، وبأى أمل انبتهما هنا على الراية ؟

ولسبب غير معروف سميت بيننا تلك الراية التى تقف عليها الشجرتان بـ « مدرسة ديوشين » • وانى لأذكر حين يبحث انسان عن حصان ضائع يقول الشخص لمن يلتقى به : « اسمع ! • ألم تركميتى ؟ » فيرد عليه فى الغالب : « هناك فى الأعلى قرب

مدرسة ديوشين أطلقت الخيول ليلا • اصعد فقد تراه هناك » •
وكنا نحن الصغار نكرر مقلدين الكبار ودون تفكير : « هيا يا
صغار الى مدرسة ديوشين ، الى شجرتى الحور ، نطار
العصافير » •

وقيل ان مدرسة كانت تقع على هذه الراية فى زمن ما •
ونحن لم نجد لهذه المدرسة أثرا • وفى طفولتى حاولت أكثر من
مرة أن أعثر ولو على اطلالها ، فطوفت وبحثت ، ولكن لم أجد
شيئا • ثم بدا لى غريبا أن تسمى الراية الجرداء « مدرسة
ديوشين » فسألت الشيوخ ذات مرة من هو ديوشين هذا • فأجاب
أحدهم ملوحا بيلده باهمال : « من هو ديوشين ؟ انه ينحدر من
سلالة اسمها « غنمة عرجاء » • هو ذلك الشخص الذى يعيش
حتى الآن هنا • وقد كان ذلك منذ زمن بعيد • وكان ديوشين
فى ذلك الوقت كومسوموليا • وكانت على الراية سقيفة مهجورة
لأحد الناس ففتح ديوشين هناك مدرسة ، وعلم الأطفال • فهل كانت
مدرسة فعلا ؟ انها اسم بلا مسمى • وكان زمانا طريفا • اذ ذاك
من يستطيع أن يمسك الحصان من عرقه ، ويضع قدمه فى الركاب
يعتبر نفسه سيدا • وكان ديوشين يسلك هذا السلوك • كان
يفعل ما يعن له • والآن لا تجد من تلك السقيفة ولا حجر واحد
والشيء المفيد الوحيد ان اسمها بقى ••• »

وكنت قليل المعرفة بديوشين • أتذكر انه كان كهلا مديد
القامة شكسا له حاجبان كثيفان حادان • وكان بيته فى الضفة
الأخرى من النهر فى شارع الفريق الثانى • وحين كنت فى القرية

لما أزل كان ديوشين يعمل خيرا فى رى حقول الكولخوز فكان يمضى كل وقته فى الحقول • وكان بين الفينة والفينة يأتى الى شارعنا راكبا شادا الى السرج رفشا كبيرا • وكان حصانه يشبهه على نحو ما : بادی العظام نحیلا ورقیق القدمین • ثم تقدمت السن بديوشين وقيل انه أخذ ينقل البريد • ولكن ذلك قول بالمناسبة • والأمر غير ذلك • والكومسومولى فى ادراكى آنذاك أكثر الفرسان توقدا فى العمل والكلام ، وأنشط أهل القرية ، فهو يخطب فى الاجتماعات ، ويكتب فى الجرائد عن المتبطلين والمبذرين • ولم يكن فى وسعى أن أتصور ان ذلك الرجل الملتحى المتواضع كان كومسوموليا فى يوم من الأيام ، بل كان أيضا — وهذا أغرب الأشياء — يعلم الأطفال ، وهو الضعيف فى القراءة والكتابة • لا • لم يكن ذاك يدخل فى رأسى ! وأقول بصراحة اننى اعتبرت هذه من الحكايات الكثيرة التى تتناقلها القرية • ولكن كل شىء ظهر على العكس ••

فى الخريف الماضى تلقيت من القرية برقية دعانى فيها أهل القرية الى الاحتفال بفتح مدرسة جديدة بناها الكولخوز بوسائله • وفى الحال اعتزمت على السفر ، فلم أستطع أن أقعد فى البيت فى مثل هذا اليوم السار لقريتنا • بل وسافرت فى وقت مبكر بعدة أيام ، وقلت لنفسى : لا تجول والى نظرة ، وارسم تخطيطات لصور جديدة • وظهر انهم كانوا يتوقعون حضور الأكاديمية سليمانوفا من بين المدعوين • وقد قالوا لى أنها ستمكث هنا يوما أو يومين ثم تسافر من هنا الى موسكو •

وكنت أعرف ان هذه المرأة المشهورة الآن قد رحلت عن
قريتنا الى المدينة فى الطفولة • وقد تعرفت عليها بعد أن صرت
من سكان المدينة • وكانت متقدمة فى السن بدينة اشتعل الشيب
فى شعرها المشط بنعومة • وكانت ابنة قريتنا المشهورة ترأس
كرسيا فى الجامعة وتلقى المحاضرات فى الفلسفة ، وتعمل فى
الأكاديمية ، وتسافر الى الخارج غالبا • كانت شخصا مشغولا
فلم يسعدنى الحظ فى التعرف عليها عن كثب ولكنها كانت ،
كلما التقينا ، تبدى اهتماما بحياة قريتنا دائما ، وتقول رأيا فى
رسمى دائما ولو كان رأيا مقتضيا • وذات مرة عزمت على أن
أقول لها :

— جميل منك التيناي سليمانوفنا أن تأتى الى القرية
وتتعرفى على أهلها • فهم هناك يعرفونك جميعا ، ويفخرون
بك • ولكنهم يعرفونك عن طريق السماع أكثر ، وقد يقولون
بالمناسبة أن عالمتنا المشهورة تتحاشانا فى الظاهر ، وقد نسيت
الطريق الى قريتها كوركوريو •

واذا ذاك ابتسمت التيناي سليمانوفنا ابتسامة غير مرحة
وقالت :

— بالطبع تجب الزيارة • فأنا نفسى قد حلمت طويلا بزيارة
كوركوريو فقد انقضى زمن طويل على انقطاعى عنها • حقا اننى
لا أملك أقارب هناك • ولكن هذا ليس جوهر الأمر • سأذهب
بالتأكيد • وحرى بى ان أذهب • حنت الى موطنى •
ووصلت الأكاديمية التيناي سليمانوفا الى القرية قبيل

الوقت الذى يجب فيه أن يبدأ الاجتماع الاحتفالى فى المدرسة .
وقد رأى الكولخوزيون سيارتها من الشباك ، فهرع الجميع الى الشارع . ورغبوا جميعا فى مصافحتها ، الذين يعرفونها والذين لا يعرفونها ، الشيوخ منهم والصغار . ويبدو أن التيناي سليمانوفنا لم تكن تتوقع مثل هذه الحفاوة ، بل وبدا لى أنها مرتبكة . شقت طريقها الى منصة الرئاسة على المسرح بصعوبة محيية الناس ويدها على صدرها .

ولعل التيناي سليمانوفنا قد حضرت أكثر من مرة اجتماعات احتفالية ، ولعلها كانت تستقبل دائما فى غبطة وتكريم . ولكنها هنا فى المدرسة الريفية الاعتيادية قد أربكتها حفاوة أبناء قريتها واثارتها كثيرا ، فحاولت أن تحبس دموعها غير المرغوبة .

وبعد انتهاء القسم الرسمى من الاحتفال قلد الأحداث الطلائع الضيفة العزيزة رباطا أحمر ، وقدموا الزهور لها ، وسجلوا اسمها فى أول سطر فى سجل الزيارات للمدرسة الجديدة . ثم بدأت حفلة متنوعة لفرقة الهواة المدرسية . وكانت ممتعة جدا ومرحة . دعا مدير المدرسة بعدها الى بيته ضيوفا ومعلمين وكولخوزيين نشطين .

وهنا لم يسعهم أيضا الا أن يعربوا عن فرحهم بمقدم التيناي سليمانوفنا فاجلسوها اكرم مجلس مزين بالطنافس ، وسعوا فى كل طريقة ممكنة الى أن يعربوا عن احترامهم لها . وكان الجو صاخبا . كشأنه فى مثل هذه المناسبات ، وكان الضيوف يتحدثون فى حيوية ، ويقترحون الانخاب . ولكن فتى يدخل البيت ويقدم

لرب البيت حزمة من البرقيات • وراح الحضور يتناقلون
البرقيات من واحد الى الآخر ويقرؤونها : التلامذة القدامى
يهنئون أهل قريتهم بفتح المدرسة •
وسأل المدير :

— اسمع • هل العجوز ديوشين هو الذى جاء بهذه
البرقيات ؟

أجاب الفتى :

— نعم • يقول انه كان يهزم حصانه طوال الطريق رغبة
منه فى الوصول عند الاجتماع لتقرأ البرقيات على الناس ، فتأخر
شيخنا قليلا ووصل مغموما •

— ولم هو واقف هناك ! ليرجل من فرسه • أدعه !

وخرج الفتى يدعو ديوشين • ولسبب ما انتفضت التيناي
سليمانوفنا الجالسة الى جانبى ، وسألتنى فى غرابة عن أى ديوشين
يتحدثون ، وكأنها تذكرت شيئا فجأة •

— انه ساعى البريد فى الكولخوز يا التيناي سليمانوفنا •

أتعرفين ديوشين العجوز ؟

هزت رأسها فى غموض ، ثم حاولت ان تنهض • ولكن فى
تلك اللحظة مر من النافذة رجل على حصان سمعنا وقع حوافره •
وعاد الفتى وقال لرب البيت :

— لقد دعوته يا أغانى* • • ولكنه انصرف • كان عليه أن

* أغاى : لقب يقال لاحترام الكبار ومعناه الحرفى « الأخ

الكبير » •

يوصل الرسائل للآخرين •

فقال أحد الحضور بعدم رضى :

— ليوصلها اذن •• لا سبب لابقائه وتأخيرہ • وسيجلس

مع الصبائز بعد ذلك •

— أوه ! •• أنت لا تعرف صاحبنا ديوشين • انه رجل

الواجب • ما دامت المهمات غير منجزة لا يذهب لأى مكان •

— صحيح ، انه رجل غريب الأطوار • خرج بعد الحرب

من المستشفى • وكان ذلك فى أوكرانيا • وظل هناك يعيش • ولم

يمض بعد رجوعه الا خمس سنوات • وهو يقول : عدت لأموت

فى موطنى • انه يعيش طوال حياته وحيدا ••

— على كل حال كان عليه أن يأتى الآن الينا •• ولكن

لا بأس — وهز رب البيت يده •

— يا رفاق ! لقد تعلمنا فى مدرسة ديوشين اذا كان أحدكم

يذكر — ورفع أحد المحترمين جدا من أهل القرية كأسه — ولكنه

هو نفسه بالتأكيد لم يكن يعرف كل الحروف — وقلص المتحدث

عينيه عند ذاك وهز رأسه • وكانت هيئته كلها تفصح عن الدهشة

والسخرية •

— حقاً كان ذلك • — أجاب بعض الأصوات • وضحك

الناس •

— أى كلام هذا ؟ •• لا شىء لم يفعله ديوشين آنذاك •

ونحن كنا نعتبره معلما عن جد •

وحين هدأ الضحك تابع الرجل صاحب الكأس المرفوعة :

— ولكن الناس الآن كبروا أمام أعيننا • الأكاديمية التيناي مشهورة فى البلاد كلها • وجميعنا تقريبا ذوو تعليم ثانوى • وكثيرون منا حصلوا على تعليم عال • واليوم فتحنا فى قرينتنا مدرسة ثانوية جديدة • وهذا وحده دليل على أن الحياة قد تغيرت كثيرا • فتعالوا نشرب يا أبناء قرينتنا نخب أن يكون أبناء كوركوريو وبناتها فى المستقبل أناسا متقدمين فى زمانهم !

واصطخب الجميع مرة أخرى ، ورفعوا الكؤوس فى مودة ما عدا التيناي سليمانوفنا • فقد احمرت قلقة من شىء ما ، واكتفت برشفة من كأسها • ولكن الناس كانوا يحتفلون بعيدهم فلم يفظنوا فى أحاديثهم الى حالتها •

نظرت التيناي سليمانوفنا الى الساعة عدة مرات • وحين خرج الضيوف الى الشارع فيما بعد رأيتها واقفة على مبعدة من الجميع قرب ساقية تحدق الى الراية حيث شجرتا الحور الخريفيتان المحمرتان قليلا تتمايلان مع الريح • كانت الشمس فى الغروب عند الخط الليلقى للسهب النائى الموغل فى الغبش • وكانت ترسل من هناك نورا داكنا ملونة أعلى الشجرتين بحمرة كامدة شجية •

واقتربت من التيناي سليمانوفنا ، وقلت لها :

— انهما تلقيان أوراقهما الآن • فلو رأيت هاتين الشجرتين

فى الربيع فى فصل التفتح •

— أنا أفكر بهذا أيضا — قالت التيناي سليمانوفنا متتهدة،

وبعد أن صمتت أضافت وكأنها تخاطب نفسها : — نعم .. لكل
حتى ربيعته وخريفه •

وسرى ظل كئيب استغراقى فى وجهها الذابل ذى الغضون
العديدة الصغيرة حول عينيها • ونظرت الى الشجرتين نظرة انثوية
حزينة • وفجأة رأيت أمامى ، لا الأكاديمية التيناي سليمانوفنا ،
بل امرأة قيرغيزية اعتيادية للغاية لا حيلة لها فى اظهار سرورها أو
حزنها • والظاهر ان هذه المرأة العالمة تذكرت الآن عهد صباها
الذى — كما يقال فى أغانيها — ليس بوسعك أن تدعوه من أعلى
قنة جبل • ويبدو أنها أرادت أن تقول شيئاً وهى تنظر الى
الشجرتين ، ولكن ، لعلها غيرت رأيها بعد ذلك ، وارتدت نظارتها
التي كانت تمسكها بيدها •

— يبدو ان قطار موسكو يمر هنا فى الساعة الحادية
عشرة ؟ • •

— نعم فى الحادية عشرة ليلاً •

— يعنى على أن أتهياً •

— ولم بهذه الفجاءة يا التيناي سليمانوفنا ؟ لقد وعدت
بأن تمكثى هنا عدة أيام • لن يدعك الناس •

— لا • عندى مهام مستعجلة • ينبغى ان اذهب حالا •

ومهما حاول أهل القرية اقناعها ، ومهما عبروا عن تكدرهم
ظلت التيناي سليمانوفنا متصلبة •

وفى ذلك الوقت بدأ الظلام يخيم • وصحبها أهل القرية
الحزان الى السيارة آخذين منها عهداً بالمجيء مرة أخرى لقضاء

أسبوع أو أكثر وجلست فى السيارة أيضا لمرافقة التيناي
سليمانوفنا الى المحطة •

لم استعجلت التيناي سليمانوفنا بغتة ؟ وبدا لى تقدير
أهل القرية ، على الأخص فى يوم كهذا ، تصرفا لا روية فيه • وفى
الطريق هممت أكثر من مرة بسؤالها عن ذلك ، ولكننى لم أجراً
لا لأننى خفت أن أبدو بلا لياقة ، بل لأننى أدركت أنها لن تقول
لى شيئا • وظلت التيناي سليمانوفنا صامته طوال الطريق تغرق
فى التفكير بشيء •

ومع ذلك سألتها فى المحطة :

— لعلك يالتيناي سليمانوفنا قد تضايقت من شيء • ربما

كدرناك ؟

— أى كلام هذا ؟ لا يجوز لك أن تظن هذا الظن ! ••

ممن يمكن أن أتكرر ؟ •• ربما من نفسى • نعم ، أغلب الظن
انى استطيع تقدير نفسى بنفسى •

وعلى هذه الصورة غادرت التيناي سليمانوفنا • وعدت

أنا الى المدينة • وبعد عدة أيام تسلمت منها رسالة دون توقع •
وبعد أن ذكرت أنها ستتأخر فى موسكو أكثر مما قلدرت كتبت
تقول :

« رغم أن لى أمورا مهمة ومستعجلة كثيرة فقد عزمت على

وضعها جانبا ، وكتابة هذه الرسالة اليك •• واذا بدا لك ما

أكتبه هنا طريفا أرجو منك رجاء صادقا ان تفكر فى أن يستخدم

هذا ليكشف للناس كل ما أحدثك به • واحسب ان ذلك ضرورى

ليس لأهل قرينتنا فقط ، بل للجميع ولا سيما للشبان • وقد توصلت الى هذا الاعتقاد بعد تفكير طويل • ان هذا اعترافى للناس • وعلى ان أوفى بواجبى • وكلما كثر الناس الذين يعرفون ذلك قل عذابى بتبكيت الضمير • ولا تخشى أن تضعنى فى موضع حرج • ولا تخف شيئاً •• «

وظللت أياما عديدة متأثرا برسالتها ولم أجد أحسن من أن أقص كل هذا باسم التيناي سليمانوفنا نفسها •

كان ذلك عام ١٩٢٤ • نعم فى ذلك العام بالضبط •• فى ذلك الحين كانت فى موقع كولخوزنا الحالى قرية صغيرة يقطنها قومٌ فقراء من « الجاتاكتشين » ، وكنت آنذاك فى الرابعة عشر أعيش فى أسرة أخ أبى المتوفى • وكانت أمى متوفاة أيضا •

وفى الخريف عقيب انتقال الذين أوسروا الى الجبال ليقضوا هناك الشتاء قدم الى قرينتنا فتى غريب يرتدى معطف جندى • وقد علق فى ذاكرتى معطفه لأنه كان من الجوخ الأسود لسبب لا أدريه • وكان ظهور رجل فى معطف رسمى حدثا حقيقيا بالنسبة لقرينتنا النائبة عن الطرق والمنزوية عند سفح الجبال •

وقد شاع أولا أنه كان آمرا فى الجيش ، ولهذا سيكون رئيسا فى القرية • ثم تبين أنه لم يكن أى أمر ، بل ابن ذلك الرجل المسمى تاشتانيك الذى رحل من القرية الى السسكة

الحديد ابان المجاعة قبل سنين عديدة • وانقطع خبره على هذا النحو • وقد بعث ابنه ديوشين الى القرية ليفتح مدرسة فيها ويعلم الأولاد •

وفى ذلك الوقت كانت كلمات « مدرسة » و « دراسة » جديدة ، والناس لم يفهموها جيدا • فمنهم من صدق بالاشاعات ومنهم من اعتبر هذا كله خزعبلات العجوز • وربما كان من الممكن أن ينسوا المدرسة على العموم لو لم يدع الناس الى اجتماع بعد وقت قريب • وقد تدمر عمى طويلا قائلا : « أى اجتماع هذا ؟ دائما ينتزعون الناس من أعمالهم بسبب كل التوافه » ولكنه أسرج فرسه فيما بعد ، وذهب الى الاجتماع راكبا فرسه ، كما ينبغي لكل رجل يحترم نفسه • وخرجت أنا فى أثره مع جيراننا من الصبيان •

وحين سعدنا الراية لاهتى الأنفاس حيث تعقد الاجتماعات عادة كان الفتى ذو المعطف الأسود والوجه الشاحب يخطب أمام جمع من الناس ما بين راجل وراكب • ولم نستطع أن نسمع كلامه فاقتربنا ولكن عجوزا فى معطف فرائى ممزق أسرع فى مقاطعته وكأنما أفاق الى نفسه •

فقال العجوز متلجلجا من سرعة كلامه :

— اسمع يا بنى ! • فى الماضى كان الأولاد يتعلمون عند الملا • وقد كنا نعرف أباك : كان فقيرا مثلنا • فقل لنا رحمة بنا : متى استطعت أن تصبح ملا ؟
أجاب ديوشين مسرعا :

— أنا لست ملا يا صاحبي • أنا كومسومولى ، والآن
سيعلم الأولاد مدرس لا ملا • وقد تعلمت أنا القراءة والكتابة
فى الجيش ، ولم أكن أعرف قبل ذلك الا القليل • أنا ملا من
هذا النوع •

— ولكن ذلك أمر طيب •

— شاطر ! •• ترددت صيحات الاستحسان •

— هكذا اذن • لقد أرسلنى الكومسومول لأعلم أولادكم •
ولا بد لنا من مأوى لذلك • وأنا أفكر ببناء مدرسة بمساعدتكم
طبعاً فى هذا الاسطبل القديم على الراية • ماذا تقولون عن ذلك
يا أهل قريتى ؟

وارتبك الناس وكأنهم يحاولون أن يدركوا ما وراء كلمات
هذا القادم ؟ هدد الصمت ساتيمكول المجادل وقد كنى بذلك
للجاجة • فقد أصغى طويلاً الى الحديث مرتفقاً حنو السرج باصفا
من بين أسنانه بين حين وآخر •

قال ساتيمكول مقلصاً احدى عينيه ، وكأنما يحدد هدفاً :
— اسمع يافتى • الأفضل ان تقول لنا ما حاجتنا الى
المدرسة ؟

— ما هذه الـ « ما حاجتنا » ؟ — سأل ديوشين فى حيرة •
صحيح ! ما حاجتنا الى المدرسة ! — صاح أحدهم •
وفى الحال اضطرب الجميع وضوضؤوا •

— نحن نعيش منذ الأزل بعملانا الفلاحى ، والمعول يطعمنا •
وسيعيش أطفالنا على هذا النحو • فما حاجتهم الى التعلم ؟

القراءة والكتابة يحتاج اليهما الرؤساء • أما نحن فأناش بسطاء •
فلا تغرر بنا •

وهدأت الأصوات •

— يعنى أنكم تعارضون تعليم ابنائكم ؟ — سأل ديوشين
المصعوق مثبتا بصره فى وجوه الناس المحيطين به •

— وماذا او عارضنا ؟ تجربنا بالقوة ؟ ولى ذلك الزمن •
ونحن الآن شعب حر نعيش كما نريد •

غمر الشحوب وجه ديوشين • وفك أزرار معطفه بأصابع
مرتجفة وأخرج من جيب قميصه العسكرى ورقة قد طويت اربعا
ونشرها فى عجالة ورفعها فوق رأسه :

— يعنى انكم تعارضون هذه الورقة التى تتحدث عن تعليم
الأولاد والتى ختمت بختم السلطة السوفيتية ؟ من اعطاكم
الأرض والماء ، ومن أعطاكم الحرية ؟ من يعارض قوانين السلطة
السوفيتية ؟ من ؟ أجب !

وقد صرخ بكلمة « أجب » بقوة رنانة غاضبة نفذت
كالرصاصة فى دفء الصمت الخريفى ، وكالرصاصة رجعت صدى
قصيرا بين الصخور • ولم يفه أحد بكلمة • وصمت الناس
مطرقين برؤوسهم •

وقال ديوشين بصوت خافت :

— نحن قوم فقراء • وكنا طوال حياتنا مداسين مهانين •
عشنا فى ظلام • والآن تريد السلطة السوفيتية أن نرى النور،

وان نتعلم القراءة والكتابة • ومن أجل ذلك ينبغي تعليم الأولاد ..

وصمت ديوشين ينتظر • واذا ذلك تمتم الرجل ذو المعطف الفرائى الممزق والذى سأله كيف أصبح ملا ، تمتم بلهجة المصالح :

— حسنا • علم • فاذا كنت راغبا فأى شأن لنا ..

— ولكننى أرجوكم أن تعينونى • علينا أن نصلح اسطبل البك الموجود على الراية ، كما يجب بناء جسر عبر النهر والمدرسة بحاجة الى حطب ..

— على مهلك يا فارس • أنت حرك جدا — قاطع ساتيمكول اللجوج ديوشين • وبعد أن بصق من خلال أسنانه عاد يقلص احدى عينيه وكأنما يحدد هدفا :

— ها أنت تصرخ فى القرية كلها : « سأفتح مدرسة ! » ولكن أنظر الى نفسك : لا معطف فرائيا عليك ولا فرس تحتك ، ولا قطعة أرض محروثة فى الحقل ولو بحجم راحة اليد ، ولا داجنة واحدة فى الفناء ! فكيف تفكر ان تعيس يا عزيزى ؟ هل ستسرق قطعان الآخرين ؟

— سأعيش بطريقة ما • سأتسلم مرتبا •

— هذا ما كان عليك أن تقول فورا — واعتدل ساتيمكول على سرجه راضيا عن نفسه جدا متخذاً هيئة الظافر — الآن وضع كل شيء • قم بامورك بنفسك يا فارس ، ومن مرتبك

علم الأولاد • ففى الخزانة مال كاف • واطرکنا وشأننا • فان لنا
والحمد لله ، أمورا كثيرة ••

وبهذه الكلمات استدار ساتيمکول بحصانه ، وعاد الى
البيت • وتبعه آخرون • وظل ديوشين واقفا وورقته فى يده •
ولم يعرف المسکين الى أين يتجه الآن ••

وقد أشفت على ديوشين • ورحت أنظر اليه مشبة فيه
بصرى حتى صاح بى عمى ، وقد مر بى :

— ماذا تفعلين هنا ، أيتها الشعثاء فاعرة الفم ؟ اركضى الى
البيت — فانطلقت لألحق الأولاد — ايه • تعودوا على حضور
الاجتماعات !

وفى اليوم التالى حين خرجنا نحن الصبايا الى النهر لنحمل
الماء التقينا بديوشين عند النهر • وقد عبره خوضا الى الجهة
الأخرى يحمل فى يديه رفشا ومعولا وفأسا ، ودلوا قديما •

ومنذ ذلك اليوم كان شخص ديوشين الوحيد بمعطفه
الأسود يتسلق كل صباح فى الدرب الى الراية حيث الاسطبل
المهجور • ولا يهبط الى القرية الا فى ساعة متأخرة من المساء •
وغالبا ما كنا نراه يحمل حزمة كبيرة من العشب الجاف أو القش
على ظهره ، وحين يراه الناس من بعيد يققون على ركايبهم
واضعين أكفهم فوق أعينهم ويتحدثون فى دهشة :

— أهذا هو المعلم ديوشين يحمل حزمة ؟

— هو بنفسه •

— يا له من مسكين • الظاهر ان عمل المعلم ليس بالأمر الهين أيضا •

— وماذا كنت تظن ؟ أنظر كم يحمل على نفسه • لا يقل عن خادمة البك •

— اذا سمعت كلامه لما تصورته بهذا الشكل !

— نعم • لأن له ورقة فيها ختم • وكل القوة فيها •

وذات مرة بينما كنا عائدات بأشغال مليئة بالزباله الجافة التي كانت تستعمل كوقود وكنا نجعلها عادة عند سفح الجبل فوق القرية ، انعطفنا نحو المدرسة : فمن الطريف أن نرى ماذا يعمل المعلم هناك • كانت السقيفة القديمة الطينية اسطبلا للبك من قبل • وفي الشتاء كانت تحفظ هنا الأمهار التي تلد ، والطقس رديء • وبعد مجيء السلطة السوفييتية رحل البك الى مكان غير معلوم ، وبقي الاسطبل على حاله • ولم يأت أحد الى هنا ، ففما حوله القرطب والأشواك • والآن كانت هذه الأعشاب مجتثة من عروقها ، ومكومة في جانب ، والحشوش منظفا ، والجدران المتداعية التي اتلفتها الأمطار قد ملطت ، والبواب الموارب المشقق المتأرجح دائما على مفصلة واحدة بدا مصلحا ومثبتا في مكانه •

وحين وضعنا بأشغالنا على الأرض لنستريح قليلا خرج ديوشين من الباب وقد لطح بالطين تماما • ولما رأنا أخذته الدهشة ثم ابتسم في ترحيب ماسحا العرق من وجهه •

— من أين انتن يا صبايا ؟

جلسنا على الأرض قرب الأشوال وتبادلنا النظرات فى ارتباك • وفهم ديوشين أننا صمتنا خفرا فغمز متشجعا :

— الأشوال أكبر منكن • جميل منكن يا صبايا أن تأتين الى هنا ، فانكن ستتعلمن هنا • ويمكن القول بأن مدرستكن قد أكملت تقريبا • لقد فرغت الآن من صنع موقد ما فى الركن، بل وبرزت مدخنة فوق السقف • انظرن ! والآن بقى اعداد الوقود للشتاء، ولكن لا بأس ، فهناك أعشاب جافة كثيرة حولنا • ثم نفرش على الأرض كمية كبيرة من القش ، ونبدأ الدراسة فكيف ؟ هل تردن أن تتعلمن ، وتأتين الى المدرسة ؟

كنت أكبر صديقاتى سنا فعزمت على اجابته قائلة :

— اذا سمحت عمتى أتيت •

— ولكن لماذا لا تسمح ؟ ستسمح بالطبع • ما اسمك ؟

— التيناي — أجبته حاجة بكفى ركبتى التى بدت من خلال

ثقب فى حاشية الثوب •

— التيناي اسم لطيف • وأنت نفسك ، أغلب الظن ، لطيفة •

ها ؟ وابتسم ابتسامة لطيفة تدفأ لها قلبى • — حسنا يا التيناي واجلبى معك الأولاد الآخرين • حسنا ؟

— حسنا ، يا عمى •

— سمينى بالمعلم • هل تردن رؤية المدرسة ؟ ادخلن

ولا تتهين •

— لا • نحن ذاهبات • علينا أن نعود الى البيت ••

— قلنا فى استحياء •

— لا بأس • اهرعن البيت • وانظرن بعد ذلك متى ترجعن
للدراسة • أما أنا فذهاب مرة أخرى للبحث عن عشب جاف قبل
أن يخيم الظلام •

وبعد أن تناول الحبل والمنجل خرج الى الحقل • ونهضنا
نحن وألقينا الأشوال على ظهورنا ، وخطونا نحو القرية • وفجأة
طرات على رأسى فكرة غير متوقعة • صرخت بصويحباتى :
— مكانكن يا صبيات ، هيا نبقى الروث الجاف فى المدرسة ،
وسيكون وقود للشتاء أكثر •

— ونعود الى البيت خاويات الوفاض ؟ يا لك من ذكية !

— بل نعود ونجمع مرة أخرى •

— ولكن سيكون الوقت متأخرا ويقرعنا أهلنا •

وأسرعت الصبيات الى البيت دون أن ينتظرننى •

وحتى الآن ليس فى وسعى أن أفهم ما الذى حملنى فى
ذلك اليوم على أن أقدم على هذا الأمر • فهل تكدرت من
صويحباتى لأنهن لم يفعلن ما قلت لهن فقررت أن أفعل ذلك
بنفسى ، أم لأن ارادتى ورغباتى منذ السن المبكرة كانت قد
طويت تحت صرخات وصفعات الغلاظ من الناس فاردت فجأة
أن أشكر بطريقة ما رجلا ، لا أعرف فى الواقع ، على ابتسامته
التي ادفأت قلبى ، وعلى ثقته غير الكبيرة بى ، على كلماته
القليلة الطيبة • وأنا أعرف جيدا ومتأكدة من أن مصيرى الحقيقى
وجميع حياتى بكل أفراحها واطرأها قد بدأت فى ذلك اليوم
بالذات ، من شوال الزبالة الجافة ذاته • وأنا أقول ذلك لأننى

فى ذلك اليوم ذاته ، ولأول مرة فى حياتى كلها عزمت ، دون
اطالة تفكير وخوف من عقاب ، على أن أفعل ما رأيته لازما .
وحين عافتنى صويحباتى عدت الى مدرسة ديوشين راكضة
وأفرغت الزكبية عند الباب ، وركضت بأقصى ما فى قدمى من
قوة عبر منخفضات السفح وخنادقه لاجمع الروث الجاف .

ركضت دون أن أفكر بالوجهة التى أقصدها وكأن ذلك من
فرط قواى ، وقلبى يخفق فى صدرى فى بهجة وكأننى أتيت
مأثرة جليلة . وكأن الشمس عرفت سبب سعادتى . نعم ، أنا موقنة
بأنها عرفت السر فى ركضى هذا بخفة وطلاقة . لأننى قمت بأمر
جميل صغير .

كانت الشمس قد تحدرت نحو التلال، ولكنها بدت لى بطيئة
لا تحتجب تريد أن تمعن النظر فى . وقد زينت سبيلى : فانطلت
الأرض الخريفية القائمة تحت قدمى بألوان حمراء ووردية ليلقية .
ومر مثل لهب التى فى جوانب عناقيد القصب الجاف ولمعت الشمس
كالنار على الأزوار المفضضة لسترتى العديدة الرقع . وظللت أجرى
الى الأمام وأتلذذ فكريا مخاطبة الأرض والسماء والريح :
« أنظرن الى ! انظرن ما أعظم فخرى ! سأدرس ، سأذهب الى
المدرسة وأجلب صويحباتى ! .. »

ولست أدرى كم سرت على هذا المنوال . ولكننى أقف
فجأة : على أن أجمع روثا جافا . ويا للغرابة ! كم من القطعان
كانت ترعى هنا طوال الصيف . وكم من الروث كان هنا دائما:
فى كل خطوة . أما الآن فكان الأرض قد ابتلعتة . أو ربما اننى

لم أبحث عنه ؟ تنقلت من مكان الى مكان ، وكلما أوغلت قلت
رؤيتى له • . حينذاك فكرت أننى لا أستطيع أن أجمع قبل حلول
الظلام شوالا كاملا • فخفت وتنقلت من مكان الى آخر فى أدغال
القبب فاستعجلت • وجمعت على نحو ما نصف شوال • وفى
ذلك الوقت زالت شمس الغروب ، وخيمت عتمة سريعة فى
المنخفضات •

لم يحدث قط أن بقيت لوحدى فى الحقل الى هذه الساعة
المتأخرة • لقد خيم جنح الليل الأسود على التلال المقفرة الصامتة •
ألقيت الشوال على كتفى وأنا لا أعنى نفسى من الخوف ، واندفعت
مهولة الى القرية • كنت فى هلع بل ولعلنى صرخت أيضا ،
وبكيت • ولكن ما أمسكنى عن ذلك ، رغم ما فيه من غرابة ، هو
تفكيرى غير الواعى بما سيقوله المعلم ديوشين لو رآنى معدومة
القوى هكذا • فلمت شتات نفسى متمالكة اياها ، وامنع نفسى
من أن التفت مرة أخرى وكأن المعلم يراقبنى حقا من جانب •

ركضت الى بيتى مقطعة الأنفاس عرقة مغبرة • وعبرت
العتبة لاهثة • كانت عمتى جالسة قرب النار فنهضت للقائى
متوعدة • وكانت امرأة غليظة حاقدة •

— أين كنت طائفة ؟ — تقدمت نحوى ، ولم يسعفنى
الوقت لأقول كلمة واحدة قبل أن تخطف الشوال منى وتلقيه
جانبا — هذا كل ما جمعته فى اليوم كله ؟

وبدا أن صويحباتى قد هذرنا لها بكل ما حدث ••
— يا لك من مخلوقة وقحة ! ما الذى دفعك الى المدرسة؟

لماذا لم تموتى فى تلك المدرسة ! - وأمست عمتى أذننى ،
وراحت تضربنى على رأسى - يتيمة وسخة ! ابن الذئب لن يكون
كلبا أبدا ، أولاد الناس يجلبون كل شىء الى البيت ، وهى تحمل
كل شىء من البيت • سأريك المدرسة ! تجرئى على الاقتراب
منها ، وسأكسر رجلك • وستذكرين المدرسة ••

وصمت ، وحاولت أن لا أصرخ • ولكننى فيما بعد حين
أخذت اراعى النار فى الموقد بكيت خلسة ، ودون صوت ،
ممسدة شعر قطننا الرمادية بلطف • وكانت قطننا تعرف دائما حين
أبكى ، وتقفز على ركبتى • وبكيت لا من ضربات عمتى ، لا ،
فقد تعودت على ذلك ، بل بكيت لأننى أدركت أن عمتى لن
تسمح لى بالذهاب الى المدرسة بتاتا ••

وبعد يومين من ذلك الحادث نبحت الكلاب فى الصباح
الباكر فى قريننا بقلق وقد سمعت أصواتا عالية • وقد تبين أن
ديوشين كان ينتقل من بيت الى بيت ويجمع الأولاد للمدرسة •
وفى ذلك الحين لم تكن فى القرية شوارع • بل كانت أكواخنا
الرمادية المعتمدة تتناثر فى القرية دون نظام • فكان كل امرئ
يستقر أينما يريد • وكان ديوشين ينتقل من بيت الى بيت ومعه
رھط صاحب من الأولاد •

وكان بيتنا يقع فى أقصى القرية • كنت أنا وعمتى ساعتئذ
نقشر الدخن فى مدك خشبى ، وكان عمى يخرج الحنطة المخزونة
فى حفرة قرب السقيفة ، وقد استعد ليأخذ الحنطة الى السوق •
ونحن نذك بمدكتين ثقيلتين ، بالدور ، مثل عمل الحدادة • ومع

ذلك فقد استطعت أن أسارق النظر لأرى هل المعلم بعيد • وقد خشيت أن لا يصل الى حوشنا • ورغم أنني عرفت أن عمتي لن تسمح لي بالذهاب الى المدرسة فقد وددت مع ذلك أن يأتي ديوشين الى هنا ليرى على الأقل أين أعيش • وقد توسلت الى المعلم مع نفسي لكي لا يعود دون أن يصل إلينا •

— مرحبا يا سيدة ، كان الله في عونك ، وان لم يكن يساعدك كنا نحن نساعدك جميعا • أنظري ما أكثر عديدا ! —
حيا ديوشين عمتي مازحا ، وهو يقود خلفه تلامذة المستقبل •
فتمتت بشيء جوابا ، أما عمي فلم يتكلف حتى برفع رأسه من الحفرة •

ولم يربك ذلك ديوشين ، بل قعد بهدوء على خشبة كانت موجودة في وسط الباحة ، وأخرج من جيبه قلم رصاص وورقة •
— اليوم سنبدأ الدراسة في المدرسة • كم عمر ابنتكما ؟
ولم تجب عمتي بشيء ، بل دكت المدكة بعنف • والظاهر أنها عزمت على أن تعتصم بالصمت • وانكلمت على نفسي : ما الذي سيحدث الآن ؟ ونظر الى ديوشين وابتسم ، وشعرت بدفء في قلبي كما شعرت في تلك المرة •
سألني :

— التيناي ! .. كم عمرك ؟
لم أجراً على الإجابة •
ردت عمتي في غيظ :
— ولم تريد أن تعرف ؟ هل أنت محقق ؟ ان الدراسة

ليست شأنها • لا يتعلم الذين لا أهل لهم مثلها بل حتى الذين لهم آباء وأمهات • ها أنت قد جمعت قطيعا ، فسقه الى المدرسة ، فما من عمل لك هنا •

فنهض ديوشين بسرعة •

— فكرى بما تقولين ! فهل هى مذنبه لأنها يتيمة ؟ أم هناك

قانون يقضى بأن لا يتعلم اليتامى ؟

— لا شأن لى بقوانينك •• ولى قوانينى الخاصة • فلا

تعلمنى ! ••

— قوانيننا واحدة • فاذا انت بغير حاجة الى هذه الفتاة ،

فنحن بحاجة اليها ، السلطة السوفييتية بحاجة اليها • فاذا وقعت ضدنا علمناك !

تخوصرت العمة بتحد وقالت :

— من أين جاءت لك هذه الرئاسة ؟ من الذى يتصرف بها

حسب رأيك ؟ أنا التى أطعمها وآويها أم أنت ابن المتشرد ، وأنت نفسك أفاق !

ومن يعرف الام كان ينتهى هذا لو لم يخرج فى تلك اللحظة

عمى من الحفرة عاريا حتى خصره • فقد نفد صبره حين تدخلت

زوجته بما لا يعنيه ناسية ان فى البيت بعلا ، ورب بيت • وقد

ضربها دون شفقة على ما بدر منها • والظاهر أن الغيظ قد فار فى

نفسه هذه المرة أيضا •

— اية يا امرأة ! — صاح وهو بطلع من الحفرة — من أى

زمان أصبحت أنت الرئيسة فى البيت ، من أى زمان أصبحت

الآمرة ؟ خفضى من هذرك وأكثرى من عملك • أما أنت يا ابن تاشتابك ، فخذ الفتاة ولك أن تعلمها أو تحرقها •• واخرج من هنا •

— هاه ! ستطوف فى المدارس ، ومن البيت وشؤونه ؟ أنا وحدى ؟ — أعولت العمة ، ولكن زوجها أسكتها •
— قلت وكفى !

وحتى للشر جانب خير • وهكذا قدر لى أن أذهب الى المدرسة لأول مرة •

ومنذ ذلك اليوم كان ديوشين يجمعنا من بيوتنا كل صباح •
وحين دخلنا المدرسة لأول مرة أجلسنا المعلم على القش المفروش على الأرض ، وأعطى كل واحد منا دفترًا وقلما ولوحة خشبية •

— ضعوا اللوحة على ركبكم لتكتبوا بصورة مريحة — قال ديوشين شارحا •

ثم أشار الى صورة رجل روسى ملصقة على الجدار وقال :
— هذا لينين !

وظللت أتذكر تلك الصورة طوال حياتى • ولم يحدث ان وقعت عليها عيناي مرة أخرى بعد ذلك • وقد سميتها بينى وبين نفسى بـ « الديوشينية » • كان لينين يرتدى فى تلك الصورة سترة عسكرية فضفاضة قليلا ضامر الوجه غير حليق • وقد علقت يده الجريحة فى شداد • ومن تحت قبعة مسرحية الى مؤخرة الرأس أطلت عينان ذكيتان بهدوء كأن نظرتهما الناعمة الدافئة

تقول لنا : « آه لو عرفتم يا أولاد أى مستقبل باهر ينتظركم ! » .
وقد بدا لى فى تلك اللحظة الهادئة انه هو كان يفكر فى مستقبلى
فى حقيقة الأمر .

وكل شىء يدل على أن ديوشين يحتفظ منذ زمن بعيد بهذه
الصورة المطبوعة على ورقة بسيطة من ورق الاعلانات . فقد
كانت مطوية ، وحوافها مهلهلة . ولكن حيطان المدرسة الأربعة
لم تكن عليها غير هذه الصورة .
قال ديوشين :

— سأعلمكم ، يا أولاد ، القراءة والحساب ، واريكم
كيف تكتب الحروف والأرقام . سأعلمكم كل ما أعرفه أنا ...
وبالتأكيد علمنا كل ما كان يعرف هو نفسه . وكان له فى
ذلك صبر مدهش . كان ينحنى فوق كل تلميذ ، ويريه كيف
ينبغى ان يمسك بالقلم ، ثم راح يشرح لنا بحماس الكلمات غير
المفهومة .

انى لأفكر فى ذلك الآن والعجب يأخذنى : كيف استطاع
ذلك الشاب القليل المعرفة بالقراءة والكتابة ، والذي كان يتهجى
الكلمات بصعوبة والذي لم يكن فى حيازته أى كتاب دراسى ،
حتى كتاب الالفباء العادى ، أن يتقحم هذا الأمر العظيم حقا .
ويا للصعوبة تعليم أطفال كان أجدادهم وأجداد أجدادهم حتى
سابع ظهر أميين . وبالطبع لم يكن لديوشين أدنى فكرة عن المنهج
وطريقة التدريس . وأغلب الظن انه لم يتصور أن مثل هذه
الأشياء موجودة .

علمنا ديوشين على النحو الذى كان يجيده ، بالصورة التى
كان يستطيعها ، وحسب ما رآه ضروريا لنا فيما يسمى بالالهام .
واننى مؤمنة بأن حماسه الصميمة التى قام بعمله بها لم تذهب
هباء .

وأنى بمأثرة دون أن يعلم . نعم لقد كانت مأثرة . لأننا ،
نحن الأطفال القرغيزيين الذين لم نخرج قط خارج حدود قرينتنا ،
قد فتح لنا فجأة فى تلك الأيام فى المدرسة - اذا أمكن اطلاق
هذا الاسم على ذلك الكوخ الطينى ذى الخصاص الكبيرة التى
كان من الممكن دائما رؤية قمم الجبال الثلجية منها - عالما جديدا
لم نسمع به ولم نره من قبل .

وفى ذلك الحين بالضبط عرفنا ان موسكو المدينة التى
يعيش فيها لينين أكبر بمرات كثيرة من مدينة أوليتا ، وحتى من
طشقند ، وان فى العالم بحارا كبيرة واسعة كوادى تالاس ،
وان فى تلك البحار تمخر بواخر ضخمة كالجبال وعرفنا ان
الكيروسين الذى يجلب من السوق يستخرج من تحت الأرض .
وآمنا فى يقين حتى فى ذلك الحين بان الشعب ، حين يبدأ
بالعيش أغنى حالا ، سينقل مدرستنا الى بيت أبيض كبير ذى
نوافذ واسعة يجلس فيها التلامذة وراء طاولات .

وبعد ان فرغنا من الألف باء ، وقبل أن نعرف كتابة «ماما»
و «بابا» خططنا على الورق اسم «لينين» . وكان قاموسنا
السياسى مكونا من كلمات مثل «بك» و «اجير» و «سوفييتات»
ووعدنا ديوشين بتعليمنا بعد عام كتابة كلمة «ثورة» .

وحين كنا نسمع ديوشين كنا نحارب فكريا فى الجبهات
معه ضد البيض • وكان يتحدث عن لينين بعاطفة فياضة ، وكأنما
رآه بعينه • والكثير مما قال ، كما أدركته الآن ، كان من الأساطير
التي حاكها الشعب حول الزعيم العظيم ولكننا — نحن تلامذة
ديوشين — كنا نتصور كل ذلك حقيقة تماما مثل لون الحليب
أبيض •

و ذات مرة سألنا دون فكرة مبيتة :
— يا معلم ! •• هل صافحت لينين بيدك ؟
حينذاك هز المعلم رأسه فى أسى :
— لا يا أولاد • لم أر لينين قط •
وتنهذ فى شعور بالذنب — فقد كان فى حيرة أمامنا •
وفى نهاية كل شهر كان ديوشين يذهب الى المنطقة لشئونه •
وكان يذهب ماشيا ، ويعود بعد يومين أو ثلاثة •
وكنا نحن عن صدق فى تلك الأيام • فلو كان لى أخ
لما انتظرته بنفاد صبر ، على ما أحسب ، مثلما كنت أنتظر عودة
ديوشين • وكنت بين الحين والآخر أذهب وراء البيت خفية لكيلا
ترانى عمتى وأطيل النظر فى السهب الى الطريق : متى يظهر
المعلم ذو الحقيبة الظهرية ، متى أرى ابتسامته التى تدفىء قلبى ،
متى أسمع كلامه الذى يحمل المعرفة •

كنت كبرى تلامذة ديوشين • ولعل ذلك هو السبب فى أننى
تعلمت أحسن من الآخرين • ولو بدا لى ذلك ليس هو وحده
السبب • كانت كل كلمة من كلمات المعلم ، كل حرف يكتبه

مقدسا فى نفسى • ولم يكن فى العالم شىء أهم عندى من استيعاب ما يعلم ديوشين • وقد اعتنيت بالدفتر الذى اعطانيه فكنت أخط الحروف برأس المنجل على الأرض ، وأكتب بالفحم على سياج طينى ، وبعود صغير على الثلج ، وعلى تراب الطريق • ولم يكن هناك بالنسبة لى شخص فى الدنيا أعلم وأذكى من ديوشين •

وكان الشتاء على الأبواب •

وقبل سقوط الثلوج الأولى كنا نخوض فى ذهابنا الى المدرسة نهيرا صخريا يصخب تحت الراية • ثم أصبح الذهاب لا يطاق ، فان الماء الزمهريرى كان يلذع الأقدام • وكان أكثرنا تعذيبا الأطفال الصغار حتى كانت دموعهم تنهمر من عيونهم • واذ ذاك أخذ ديوشين يحملهم على ذراعيه ، ويعبر بهم النهر • فكان يحمل واحدا على ظهره ، وآخر فى ذراعه • وهكذا ينقل جميع التلامذة بالتوالى •

والآن حين أتذكر ذلك لم أصدق ان ذلك وقع فعلا • ولكن الناس آنذاك ، اما لجهلهم أو لبلافتهم ، ضحكوا من ديوشين ، على الأخص الأغنياء الذين كانوا يقضون الشتاء فى الجبال ، ولا يأتون الى هنا الا للطاحونة • فكم من مرة حين كانوا يسيرون جنبا عند المخاضة ويمرون بنا فى عمراتهم الحمراء من فراء الثعلب ، ومعافطهم الثمينة من فراء الخروف راكبين الخيول المطهمة النافرة يتفرسون مليا بديوشين ، وينفجر أحدهم ضاحكا لاكزا جاره :
— انظر ! يحمل واحدا على ظهره ، وآخر على يديه •
وحينذاك يضيف الآخر حاثا جواده الناهر :

— أوه • غاصت بى الأرض • لم أعرف من قبل ان هذا
يصلح لأن أتخذه زوجة ثانية !

وكانوا يتعدون مقهقهين ناثرين علينا رشاش الماء ونثار
الوحل من حوافر خيولهم •

وكم كنت أود آنذاك ان الحق بهؤلاء التافهين ، وأمسك
ألجمة افراسهم وأصرخ فى وجوههم الهازئة : « لا تتجاسروا على
معلمنا بهذا القول • انكم تافهون قذرون ! » •

ولكن من كان يسمع صوت فتاة ضعيفة ؟ فلم يكن أمامى
غير ان ابتلع دموع الالهانة المريرة • أما ديوشين فكأنه لم يلاحظ
الالهانة ، وكأنه لم يسمع شيئا كهذا • ويبتكر ، فى العادة ، مزحة
فكهة ويجعلنا نضحك وننسى كل شىء •

ومهما يسعى ديوشين لم يفلح فى الحصول على خشب ليقيم
قنطرة عبر النهر • وذات مرة عند عودتنا من المدرسة بعد أن
عبرنا الأطفال بقيت مع ديوشين عند الشاطئ واعتزمنا على أن
نبنى معبرا من الحجارة وجذوع العشب لكيلا تطفأ الأقدام الماء
بعد الآن •

ولو احتكنا الى العدالة لكان على أهل قريتنا أن يجمعوا
ويلقوا سوية عبر التيار رافدين أو ثلاثا من الروافد الخشبية ،
وفى الحال يتهاجر لعبور التلامذة • ولكن الناس فى واقع
الحال لجهالتهم فى تلك الأيام لم يعيروا أهمية للتدريس • وكانوا
يعدون ديوشين فى أحسن الأحوال شخصا غريب الأطوار منشغلا
بالأطفال ، لأنه لا يملك عملا آخر يقوم به • فاذا راق له الأمر

فليعلم ، وان لم يرق فليفرق الجميع الى بيوتهم • وكان الناس
يركبون الخيول ، ولا حاجة لهم الى معابر • ولكن كان ينبغي
على أهلنا بالطبع أن يساءلوا أنفسهم : لم يعلم هذا الشاب الذى
لا يقل شأنًا عن أحد ، ولا كان أقل ذكاء من الآخرين ، لم يعلم
هذا الشاب أولادهم متحملا المصاعب والحرمانات ، متعرضا
للاستهزاء والاهانة ، وبهذا العناد الغريب ، وهذا الاصرار غير
الانسانى ؟

وفى اليوم الذى أخذنا نضع فيه الأحجار عبر التيار كان
الثلج ما يزال على الأرض ، وكان الماء شديد البرودة حتى لتتقطع
منه الأنفاس • ولا يمكن أن أتصور كم تحمل ديوشين — كان
يعمل حافى القدمين ودون مهلة يلتقط فيها أنفاسه • ومشيت أنا
بصعوبة على القاع الذى بدا لى وكأنه مفروش بالجمر المتوقد •
وبينا أنا فى وسط النهر داهمنى تشنج فى سماتى قدمى جعلنى
أطوى جذعى ولم أستطع أن أصرخ وأرفع هامتى ، وبدأت أسقط
بطء فى الماء • وألقى ديوشين الحجارة ، وقفز نحوى ، وأمسكنى
من يديه ، وركض معى الى الشاطئ وأجلسنى على معطفه •
وكان مرة يفرك قدمى المزرقتين الخدرتين ، ومرة يضغط على يدي
المتصلبتين بين كفيه ، ومرة يرفعهما الى فمه ويدفؤهما بأنفاسه •
وتتم ديوشين :

— لا حاجة يا التيناي • اجلسى هنا وتدفئى • وأنا سأدبر

الأمر •

وحين تم المعبر فى آخر الأمر لبس ديوشين حذاءه الطويل ،
ونظر الى مكفهرة متثلجة فابتسم وقال :

— كيف ؟ هل تدفأت أيتها المساعدة ؟ البسى المعطف ، هكذا
— وبعد أن صمت برهة سأل : — هل أنت يا التيناي التى وضعت
حزمة روث جاف فى المدرسة تلك المرة ؟
أجبت :

— نعم •

ابتسم من طرفى فمه ابتسامة لا تكاد تبين وكأنه كان يقول
لنفسه : « هذا ما ظننته » •

أذكر اننى شعرت فى تلك اللحظة بنار تلهب وجنتى ، يعنى
أن المعلم عرف ولم ينس ما قد يبدو حادثا تافها • وكنت سعيدة،
كنت فى السماء السابعة • وأدرك ديوشين سرورى •
وقال وهو ينظر الى فى حنان :

— أنت لامعة الذهن يا ساقيتى • وقابلياتك جيدة ...
آه لو استطعت أن أرسلك الى المدينة الكبيرة لأصبحت شخصية
ما أروعها !

واتجه ديوشين باندفاع الى الشاطئ •

والآن أتخيله واقفا أمام عيني ، كما كان واقفا آنذاك قرب
النهر الصاحب الصخرى ملقيا يديه وراء رأسه ، ناظرا بعينه
اللامعتين المتطلعتين بعيدا الى السحاب البيض التى تسوقها
الريح فوق الجبال •

بم كان يفكر آنذاك ؟ ربما أرسلنى فى أحلامه حقا الى

المدينة الكبيرة أتعلم ؟ وفكرت أنا فى تلك اللحظة وأنا ملتفة فى معطف ديوشين : « لو كان المعلم أخى ، لو كان فى امكانى أن أتعلق فى رقبته وأعانقه بقوة ، وأهمس فى أذنه ، وأنا أغمض عيني ، بأعذب الكلمات فى الدنيا • يا الهى • • اجعله أخى ! »

لعلنا جميعا كنا نحب معلمنا آنذاك لانسانيته ، لأفكاره الطبية ، لأحلامه عن مستقبلنا • ورغم أننا كنا أطفالا الا اننى أعتقد بأننا كنا نفهم ذلك آنذاك • فأى شىء آخر كان يدفعنا كل يوم الى الذهاب بعيدا ، ونصعد الراية الشديدة الانحدار والريح تقطع أنفاسنا ، والثلج يشد اقدامنا؟ كنا نخرج الى المدرسة برغبتنا ، ما من واحد منا سيق اليها سوقا ، وحمل على أن يتسلج فى تلك السقيفة الباردة حيث تتجمد الأنفاس ويتبدى الثلج الأبيض على الوجوه والأيدى والثياب • وكنا فقط نسمح لأنفسنا التدفؤ قرب الموقد بالتتالى بينما يبقى الآخرون فى أماكنهم يستمعون لديوشين •

وفى يوم من تلك الأيام الزمهريرية ، فى أواخر كانون الثانى كما أتذكر الآن ، جمعنا ديوشين مطوفا بالبيوت كلها ، وقادنا ، كما هى العادة ، الى المدرسة • سار صامتا صارما وحاجباه يقطبان مثل جناحى نسر ذهبى • وكان وجهه يبدو وكأنما قد من حديد أسود مسقى • هيئة لم نر معلمنا عليها قط • ونظرنا اليه • وصمتنا نحن أيضا : وشعرنا بشىء ليس على ما يرام •

وحين صادفنا فى الطريق أكوام ثلج كبيرة كانت من عادة ديوشين أن يشق الطريق أمامنا ، وأنا خلفه ، والآخرون ورائى •

وفى هذه المرة تقدم ديوشين عند سفح الراية حيث تجمع فى الليل ثلج كثير . وأحيانا حين تنظر الى انسان من ورائه تعرف على الفور حالته النفسية . وهكذا كان واضحا آنذاك ان معلمنا يعانى غما . سار مطأطئ الرأس يجرجر قدميه بصعوبة . وأنا حتى الآن أتذكر تناوب الاسود والأبيض الرهيب أمام عيني : كنا نصعد الراية واحدا وراء الآخر - كان ظهر ديوشين محدودبا تحت المعطف العسكرى الأسود . وفى الأعلى على المنحدر فوقه تحدوب الأكوام الثلجية البيضاء مثل سنامات البعير ، والريح تصنع دوارات فوقها ، وفى الأعلى من ذلك فى السماء البيضاء الكدرة تلوح سحابة وحيدة سوداء .

وحين وصلنا لم يشرع ديوشين فى تدفئة الموقد . بل أمرنا

قائلا :

— انهضوا ! — ونهضنا فقال : — اخلعوا قبعاتكم .

فحسرنا عن رؤوسنا طائعين ، وخلع هو الآخر قبعته العسكرية . ولم نفهم سبب ذلك . حينئذ قال المعلم بصوت مزكوم متقطع :

— مات لينين . الناس فى جميع أنحاء العالم يقفون الآن فى حداد . فقفوا أتم فى أماكنكم جامدين ، وانظروا الى هنا ، الى الصورة . ولتذكروا هذا اليوم .

وساد الصمت مدرستنا ، وكأنما غطتها طبقة من الثلج . وكان يسمع صفير الريح فى الشقوق ، وتساقط الثلج على القش فى حفيف .

فى تلك الساعة حين صمتت المدن التى لا تهدأ ، وهدأت
المصانع التى تهز الأرض ، وجمدت القطارات الهادرة فى خطوطها،
وغرق العالم كله فى حداد ، فى تلك الساعة الشجية وقفنا ، نحن
الجزيرة الصغيرة ، جزيرة الشعب ، فى مهابة واحتباس أنفاس
وقفة الحداد مع معلمنا فى تلك السقيفة المتجمدة غير المعروفة
لأحد والمسماة مدرسة • وودعنا نينين معتبرين أنفسنا فى أعماق
أفئدتنا أقرب الناس اليه ، وأكثر الجميع شجوا عليه • وكان
لينينا بسترته الحرية الفضفاضة قليلا ، ويده فى شداد يطل علينا
من الحائط ، كما كان سابقا ، ويحدثنا أيضا بنظرته الصافية النقية:
« آه لو عرفتم يا أولاد أى مستقبل باهر ينتظركم ! » • وبدأ
لى فى تلك اللحظة الصامته أنه يفكر بمستقبلى حقا •

ثم مسح ديوشين عينيه بكفه وقال :

— سأذهب اليوم الى مركز المنطقة • سأذهب وأدخل الحزب
وأعود بعد ثلاثة أيام • • •

وأنا دائما أتصور هذه الأيام الثلاثة أقسى كل أيام الشتاء
التي اضطرت أن أتحملها • فكأن قوى طبيعية جبارة حاولت أن
تحتل على الأرض مكان انسان عظيم راحل عن عالمنا • كانت
الريح تصفر فى الوادى دون أن تهدأ ، وتدوم العواصف الثلجية،
ويرن الزمهرير كالحديد • • ولم تخلد قوى الطبيعة الى الراحة
فكانت تلوب وتضرب على الأرض نائحة • • •

وهدأت قرينتنا • صمتت تحت الجبال التى عتمتها السحب
الواطئة • ومن المداخلن المغطاة بالثلوج تصاعدت أعمدة دخان

رقيقة ، فان الناس لم يغادروا بيوتهم • وبالإضافة الى ذلك قست الذئاب فجأة وأستشرت ، فكانت تظهر نهارا فى الطرقات ، وفى الليل تطوف على مقربة من القرية ، وتعوى حتى الفجر عواء جائعا يمزق القلب •

وخفت أنا على معلمنا لسبب لا أعرفه : كيف ستكون حاله هناك فى مثل هذا البرد وهو بلا معطف فرائى ، وبمعطف عسكرى لا غير ! ولما جاء اليوم الذى يجب أن يعود ديوشين فيه كنت مستظارة اللب تماما والظاهر ان قلبى استشعر شيئا غير مريح • وكنت بين الحين والآخر أخرج من البيت راكضة ، أنظر فى السهب المقفر المغطى بالثلج : ألم يظهر المعلم بعد فى الطريق ؟ ولكن لم يكن من أحد •

« أين أنت يا معلمنا ؟ أتوسل اليك أن لا تتأخر أكثر ، عد بسرعة • فنحن فى انتظارك • فهل تسمعنى يا معلم ؟ نحن فى انتظارك ! » •

ولكن السهب لم يرد على ندائى الصامت ، وبكيت دون ارادتى •

وضجرت عمتى من رواحى ومجيئى •
— ألا تعطين اليوم راحة للباب ؟ الزمى مكانك ، واهتمى بالغزل • لقد ثلجت الأطفال • حاولى أن تخرجى ثانية ! — هزت على أصبعها متوعدة ولم تسمح لى بالخروج من البيت •
وحل المساء وأنا لا أعرف هل عاد المعلم أم لا • فلم أستقر بمكان ، مرة أفكر بأن ديوشين فى القرية ، اذ لم يحدث قط ان

تأخر عن اليوم الموعد ، ومرة يبدو لى فجأة أنه قد مرض ، فهو يسير ببطء ، وان العاصفة الثلجية تهب فضل الطريق فى السهب ليلا . واستعصى العمل على فلم يتقدم ولم تطعن يداى ، وكان الغزل ينقطع بين الحين والآخر . وأغاظ العمة ذلك .

— ما الذى جرى لك اليوم ؟ يداك من خشب أم ماذا ؟
— وكانت تزداد ضراوة ناظرة الى شزرا . ثم عيل صبرها — أوه .
الموت لا ينال منك ! الأحسن أن تذهبي الى العجوز سايكال وأن أعطيها شوالها .

وكدت أقفز من الفرح . فان ديوشين كان يعيش عند العجوز سايكال بالضبط . والعجوزان سايكال وكارتانباى من ذوى قرباى الابعدين من جهة امى . ومن قبل كنت أتردد عليهما غالبا ، بل وكنت أبيت عندهما أحيانا . فهل تذكرت عمتى هذا أم الله قد لقنهما . ولكنها ألقت الى الشوال وأضافت :

— لقد ضايقتنى اليوم كثيرا ، مثل نخالة فى سنة المجاعة . اذهبي واذا سمح لك العجوزان فاقضى ليلتك هناك . اغربى عن عيني ..

وهرولت الى الفناء . كانت الريح تعريد كالمجنون : شهقت ثم اندفعت فجأة ولطمت وجهى المتلهب بحففات من الثلج الواخز . ضغطت الشوال تحت ابطى ، واندفعت أجرى الى الطرف الآخر من القرية خلال آثار حوافر الخيل الواضحة العريضة ، وفى رأسى تسيطر فكرة واحدة فقط : هل عاد المعلم أم لم يعد ؟
ووصلت ولم أجده . وقد فزعت سايكال حين جمدت على

العتبة لا أكاد أسحب أنفاسى •

— ماذا بك ؟ لم تركضين هكذا ؟ أى مصيبة وقعت ؟

— لا شيء •• جلبت اليك الشوال • هل يمكن أن أبيت

عندكم اليوم ؟

— ابقى يا صغيرتى • آه منك يا شريرة أروعبتنى • لم لم

تأت منذ الخريف ؟ اجلسى قرب النار ، تدفئى •

— أما انت يا عجوز فضعى اللحم فى القدر واستضيفى

البنت • سيأتى ديوشين أيضا — قال كارتانباى الذى كان جالسا

قرب الشباك يرتق حذاء لباديا قديما — كان ينبغى أن يعود منذ

زمن • ولكن لا بأس سيأتى عند حلول الظلام • ان مهرتنا سريعة

فى عدوها الى البيت •

وتسلل الليل الى الشباك دون أن يلاحظ • وكأن قلبى كان

فى يقظة • كان يتجمد مقشعرا حين تنبح الكلاب ، أو تتردد

أصوات الناس • ولكن ديوشين لم يظهر • واللطف ان سايكال

ملأت الوقت بالأحاديث •

وهكذا انتظرناه من ساعة الى أخرى • وتعب كارتانباى

عند منتصف الليل •

— افرشى الفراش يا عجوز • لن يأتى اليوم • فالوقت

متأخر • والرؤساء عندهم شئون كثيرة ، وربما أخروه • والا لكان

فى البيت منذ زمن طويل •

وراح العجوز يستعد للنوم •

وفرشا لى فى الركن خلف الموقد • ولكننى لم أستطع

النوم • كان العجوز يسعل طوال الوقت ، ويتقلب ويهمس
بالصلوات ليلا ، ثم تتم قلقلًا :

— كيف حال مهرتى هناك ؟ ليس فى ميسور المرء أن تطلب
قطعة برسيم • أما الشوفان فلن ينال بالفلوس •

وسرعان ما غفا كارتانباى ، ولكن الريح أزعجتني : صفرت
فى السقف ، وهزت حوافى السقف وخمشت الزجاج • وكان
يسمع دوى الريح وهى تضرب على الجدران •

ولم تهدئني كلمات العجوز • وبدا لى أن المعلم سيعود •
فكرت به متصورة اياه فى الطريق وسط الثلوج المقفرة •
ولا أعرف كم غفوت ، ولكن شيئًا ما حملنى فجأة على أن أرفع
رأسى من الوسادة • فقد رن فوق الأرض عواء أخن كطلق
الجبلى ، وجمد فى الهواء • ذئب ! ليس واحدا بل ذئابا كثيرة
تعاونت من جهات عدة ، واقتربت سريعا ، واختلط عواؤها فى
عواء واحد موصول اجتاح السهب مع صوت الريح تارة يبتعد،
وأخرى يدنو ، وثالثة يبدو وكأنه قريب جدا ، عند طرف القرية •

وهمست العجوز :

— انها تدعو العاصفة •

وصمت العجوز مصغيا ، ثم قفز من الفراش •

— لا يا عجوز ، ان فى الأمر سرا • انهم يطاردون أحدا •
هل هم يحاصرون شخصا أو فرسا • اسمعى ؟ لينقذ الله ديوشين •
انه لا يخاف شيئًا ، ساذج — تحرك كارتانباى بانفعال باحثا فى

الظلمة عن معطفه الفرائى - اشعلى الضوء • اشعليه يا عجوز •
أسرعى بحق الله •

وقفزنا مرتجفين من الخوف • وخلال الوقت الذى قضته
سايكال فى ايجاد المصباح واشعاله صمت عواء الذئاب الضارى
فجأة وكأنما اختفت بسحر •

- لحقوا به ، الملعونون ! - صاح كارتانباى واختطف
العكازة واندفع الى الباب ، ولكن البلاب نبحت فى تلك اللحظة
وركض شخص تحت الشباك يصر الثلج تحت نعليه ، وطرق
الباب بعنف وعجلة •

واندفعت الى حجرة دفقة من الريح الثلجية • وحين
انقشعت رأينا ديوشين عبر العتبة مترنحا ممتقع الوجه مقطوع
الأنفاس • واتكأ على الحائط ولهث قائلاً :
- البندقية !

ولكن ، كأننا لم نفهمه ، فقد غام رأسى • ولم أسمع
غير نديب العجوزين •

- الخروف الأسود فداء • والخروف الأبيض فداء !
فليحفظك باويدين المقدس • هل أنت هذا ؟
كرر ديوشين :

- البندقية ، أعطونى البندقية !

- لا بندقية • الى أين ذاهب ؟

وتعلق العجوزان فى كتفى ديوشين •

- أعطونى عصا !

ولكن العجوزين راحا يتضرعان :

— لن تخرج الى أى مكان • لن تخرج ما دمنا أحياء •
ومن الخير ان تقتلنا فى مكاننا •
وشعرت فجأة بوهن غريب فى كل بدنى ، واستلقيت فى
فراشى صامتة •

— لم يتسن لى الوقت • لحقوا بى قرب البيت — قال
ديوشين فى ضجة متقطع الأنفاس وألقى السوط فى الركن —
وأصاب التعب الفرس فى الطريق • ثم طاردتنا الذئاب • وعدت
الفرس الى القرية ، وسقطت هنا مثل حزمة قش • فهجمت
عليها الذئاب •

— الله معها ، مع الفرس • والمهم أنك ما زلت حيا •
فلو لم تسقط الفرس لما تركتك الذئاب • الحمد لباويدين
الحافظ على هذه النهاية • والآن اخلع ملابسك ، واجلس قرب
النار • تعال ، لأخلع لك حذاءك — اضطرب كارتانباى — أما
أنت يا عجوز فسخنى ما عندك من طعام ••

وجلسا عند النار •• واذا ذاك تنفس كارتانباى الصعداء •

— حسنا ، ما فات مات • ولكن لم تأخرت الى هذا
الوقت ؟

— طال اجتماع لجنة الحزب للمنطقة يا كاراكه • لقد
انضمت الى الحزب •

— هذا حسن • ولكن كان عليك أن تسافر فى صباح

اليوم التالى • فلا أحد على ما أعتقد قد طردك الى الطريق
بأخص بندقية •

أجاب ديوشين :

وعدت الأطفال بالعودة اليوم • سنبدأ الدراسة من صباح

الغد •

— آه يا غريب ! — بل وقفز كارتانباى فى مكانه وهز
رأسه فى حلق — اصغى الى ، يا عجوز : أترين أنه وعد الأطفال
بأن يعود ! ولكن ماذا لو لم تبق على قيد الحياة ؟ ولكن هل
يفكر رأسك بما تقول ؟

— هذا واجبى ، عملى يا كاراكه • لنتحدث عن شىء آخر:
فى العادة كنت أخرج ماشيا ، أما فى هذه المرة فقد أغرانى
الشیطان لأطلب فرسك ، وأقدمها فريسة للذئاب ••

— هذا ليس جوهر الأمر • فلتذهب الى جهنم • انها كديشة
ولتكن فداء لك — قال كارتانباى غاضبا — قضيت عمري بلا
فرس والآن لن أموت بدونها واذا استقرت السلطة السوفيتية
ستتيسر حالى • وستكون عندى فرس ••

— نعم ما تقول — قالت سايكال بصوت ملأته العبران
— ستتيسر حالنا •• خذ يا ولدى ، وكل ما دام الطعام
حارا •

وصمتوا • وبعد دقيقة قال كارتانباى فى تفكير وهو
يحرك رماد الموقد :

— أنظر اليك يا ديوشين فأراك بالأحرى ذكيا لا أحمق

ولا أستطيع أن أفهم أبدا : لأجل أى شيء أنت تتعذب بهذه المدرسة ، مع الأطفال الذين لا يدركون شيئا ؟ أم أنت لا تجد لنفسك عملا آخر ؟ ولكن يمكن أن تعمل راعيا عند أحد من الناس وستكون فى دفاء وشبع ..

— أدرك أنك يا كاراكه ترجو لى خيرا • ولكن ، اذا أخذ أولئك الصغار العقول يقولون فيما بعد ما تقوله الآن: لم هذه المدرسة، وما حاجتنا الى الدراسة، فان قضايا السلطة السوفيتية لن تحل زمانا طويلا. وأنت تريد لها أن تستقر وتعيش • ولهذا فان المدرسة بالنسبة الى ليست عبئا يا كاراكه • فلو استطعت أن أعلم الأطفال بصورة أحسن لكان هذا منتهى حلمي • وقد قال لينين ..

— بهذه المناسبة — قاطع كارتانباى ديوشين ، وصمت قليلا ثم قال : — ها أنت تفرى مهجتك اسى • ولكنك لن تعيد لينين الى الحياة بدموعك • فآه لو كانت فى الدنيا مثل هذه القوة ! أم أنت تظن أن الآخرين لا يحزنون ولا يأسون • • أنظر فى حناياى تجد قلبا يشرق بدخان مر • ولا أعرف فى الحق هل هذا يتفق مع أفكارك السياسية. ولكن رغم أن لينين كان شخصا له مذهب خاص فأنا أصلى له خمس مرات فى اليوم • ثم أقول لنفسى مرة أخرى يا ديوشين مهما بكينا عليه فلا طائل من ذلك • وأنظر الى الأمر من وجهة نظرى كعجوز على هذا النحو : لينين مخلد فى الشعب نفسه يا ديوشين ، وسينتقل بالدم من الآباء الى الأبناء ..

— شكرا على كلماتك يا كاراكه • شكرا • فأنت على صواب فيما تفكر • لقد غادرنا • أما نحن فنقيس الحياة على منوال لينين ••

وتسمعت الى حديثهما وكأني أعود الى نفسى من بعيد رويدا رويدا • وفى البدء كان كل شيء كالحلم ، وقد ظلت وقتا طويلا دون أن أستطيع حمل نفسى على التصديق بأن ديوشين عاد حيا سالما • ثم تدفق فى روحى الطليقة فرح لا حد له ، عارم مثل سيل ربيعى ، وبكيت بشدة وأنا غريقة هذا السيل الحار • ولعل أحدا من الناس لم يفرح قط مثل فرحى • فى تلك اللحظة لم أشعر بوجود شيء : لا بهذا الكوخ ، ولا بالليل العاصف ، ولا بقطيع الذئاب تمزق فرس كارتانباى الوحيدة فى طرف القرية • لا شيء • بل أجسست بسعادة غير اعتيادية لا متناهية • ولا حد لها كالنور تغمر قلبى وفكرى وكيانى كله • وغطيت رأسى وكممت فمى حتى لا يسمعنى أحد • الا أن ديوشين سأل :

— من الذى يبكى وراء الموقد ؟

فقلت سايكال :

— هذه التيناي كانت مرتعبة منذ وقت قصير • وها

هى تبكى •

— التيناي ؟ •• من أين هى ؟ — قفز ديوشين من مكانه

وركع عند رأسى ومس كتفى : — ماذا بك يا التيناي ؟ •• لماذا تبكين ؟

وانقلبت نحو الجدار ، ورحت أبكى أشد من ذى قبل •

— ماذا بك يا عزيزتى ؟ •• مم تخافين ؟ أمعقول هذا ؟••

وأنت كبيرة • أوه •• انظرى الى •••

احتضنت ديوشين بقوة ، ودفنت فى كتفه وجهى المبلل

الحار ورحت أجهش دون أن أتمالك نفسى • لقد كنت فرحة

وكأنتى فى حسى فرحا لم أقو على كبجه •

— انخلع قلبها من موضعه على أية حال — قال كارتانباى

فى قلق بل ونهض من البساط اللبady — أوه يا عجوز ، اهمسى

بالدعاء ••• تحركى •••

واضطرب الجميع فجأة • وهمست سايكال بالدعاء نائرة

على وجهى الماء البارد مرة والحار مرة أخرى فياضة بالبخار،

باكية معى هى الأخرى •

آه لو عرفوا ان « قلبى انخلع من موضعه » سعادة

عظمى لا أقوى على التحدث عنها ، ولعلى لا أملك القدرة على

التحدث عنها •

وجلس ديوشين قربى يمسد يده الباردة جبينى الحار

حتى هدأت ونمت •

واتقل الشتاء الى ما وراء الجبال • وجاء الربيع يسوق

قطعانه الزرق • ومن السهول الذائبة المنتفخة تعالت تيارات

الهواء الدافئة الى الجبال حاملة معها عطر الأرض الربيعى ،

ورائحة الحليب الطازج وتداعت أكوام الثلج ، وذاب الجليد

فى الجبال ، وتكونت الجداول وتشابكت فى طريقها مكونة
أنهارا صاخبة محطمة كل شىء فى سبيلها مائة الأخاديد المغسوة
بالضجيج .

ولعل هذا الربيع كان أول ربيع صباى . وعلى أية حال
بدا لى أجمل الفصول الربيعية الماضية . ومن الراية التى تقع
عليها مدرستنا افتح عيني لعالم الربيع الجميل . وكأن الأرض
بسطة يديها ونزلت من الجبال واندفعت لا تلوى على شىء فى
أرجاء السهب الوضاعة المتلاثلة مترعة بالشمس والسديم الخفيف
الشفاف . وهناك فى الطرف الآخر من الدنيا كانت تتوامض
بحيرات زرق ذائبة الجليد ، وتسهل خيول ، وتطير طيور الغرائق
فى السماء حاملة على أجنحتها غمام ييضا . فمن أين جاءت
طيور الغرائق وأين ملأت القلوب بهذه الأصوات المتفهة
الزاعقة ؟

ومع قدوم الربيع عشنا أكثر مراحا . ابتكرنا لعبا ،
وضحكنا دونما سبب ، وركضنا طوال الطريق من المدرسة
الى القرية بعد انتهاء الدروس ، وتصايحنا بأصوات عالية . ولم
يرق هذا للعمة فكانت لا تفوت فرصة لتقريعى :

— لم تنطين وتمرحين يا مجنونة . ولا تهتمين أبدا بأنك
عزباء حتى الآن . مثيلاتك عند الطيبين من الناس تزوجن منذ
زمان ، زدن أفراد البيت . أما أنت . . . فقد وجدت لهوا
فى الذهاب الى المدرسة . . . ولكن انتظرى وسأهدئك .

والحق يقال اننى لم آخذ تهديدات عمتى مأخذ الجد ،
فليس هذا بجديد على • اذ كانت تقرر عنى طوال حياتى • أما أن
تقول اننى ظلمت عزباء ، فهذا ليس عدلا على الاطلاق اذ أنا
لم أشب عن الطوق الا فى هذا الربيع •

ضحك ديوشين وقال :

• انت ما تزالين صبية منفوشة الشعر بل وبرشاء ايضا •
ولم يكدرنى كلامه قط • وبالطبع فكرت بينى وبين
نفسى أثنى شعئا ، ولكننى لست برشاء تماما • وحين أكبر
وأصير عروسا حقيقية ، فهل سأكون هكذا ؟ ولترنى عمتى اذ ذاك
أى فتاة جميلة سأكون • ويقول ديوشين أن عىنى لامعتان كنجمتين
ووجهى صبح •

وذات مرة كنت قادمة من المدرسة عدوا فرأيت فى فناء
بيتنا حصانين غريبين يدل سرجاهما ولجامهما على أن صاحبهما
قادمان من الجبال • وقد حدث قبل هذا أنهما كانا يعرجان علينا
فى عودتهما من السوق أو فى طريقهما الى الطاحونة •

وطعنتنى وأنا بعد على العتبة ضحكة عمتى غير الطبيعية :
« وأنت يا ابن الأخت لا تحزن ، لن تصبح فقيرا • فأنت حين
تتسلم الحمامة بالمقابل ستذكرنى بالكلمة الطيبة • ها • • ها • •
ها ! » وسمعت أصواتا مؤيدة مقهقهة فى الرد عليها • وحين
ظهرت عند الباب صمت الجميع على الفور • كان رجل جسيم
أحمر الوجه يجلس عند المفرش المنشور على البساط اللبأدى
كالصنم •

وقد نظر الى شزرا من تحت قبعته المصنوعة من فراء
الثعلب والمسترخية على جبهة عرقة ، وسعل ثم خفض عينيه •
— هل عدت يا بنيتى ! ادخلى يا عزيزتى — قالت عمتى
مكشرة فى ملاطفة •

وكان عمى يجلس على طرف البساط مع شخص آخر لا
أعرفه أيضا وكانا يلعبان الورق ، ويشربان الفودكا ، ويأكلان
لحم الخروف المسلوق • وكان كلاهما مخمورا • وكان رأساهما
يتدليان على نحو غريب حين يلقيان الورق •

وانسلت قطننا الرمادية نحو المفرش ، ولكن الأحمر الوجه
نقرها على رأسها بانامله حتى صرخت فى وحشية ونطت جانبا
ثم اختفت فى زاوية • فما أشد وجعها ! وراودتنى الرغبة فى
أن أخرج ، ولكن لم أعرف كيف أفعل ذلك ، وفى هذه اللحظة
أسعفتنى عمتى بقولها :

— فى القدر طعام يا بنيتى ، فكلى قبل أن يبرد •
وخرجت • ولكن تصرف عمتى كدرنى جدا واضطربت
نفسى • ورأيتنى أسارق السمع دون ارادة منى •
وبعد ساعتين تقريبا امتطى القادمان فرسيهما ، وذهبا الى
الجبال • وبدأت عمتى على الفور ترشقنى بالشتائم المعتادة •
وتفلس عنى وقلت لنفسى : يعنى ان ملاطفتها كانت من تأثير
الخمرة •

وبعد ذلك بقليل جاءت الينا العجوز سايكال ، وكنت فى
الفناء ولكن سمعت ما قالته :

— ماذا تفعلين ! ستهلكينها !

وتجادلت عمتى وسايكال بحرارة مقاطعة احدهما الأخرى،
ثم خرجت العجوز من البيت متأججة غضبا • وألقت على نظرة
غاضبة ولكنها مشفقة ، وانصرفت فى صمت • وجن جنونى •
لم نظرت الى هذه النظرة ، وبأى شىء لم أرضها ؟

وفى اليوم التالى لاحظت فى المدرسة على الفور أن ديوشين
مكتئب يفكر بشىء ما ، رغم أنه يحاول أن يخفى ذلك عنا • كما
لاحظت أنه يتحاشى النظر الى جهتى • وبعد انتهاء الدروس حين
خرجنا من المدرسة جماعة نادانى ديوشين :

— قهى يا التيناي — وتقدم المعلم نحوى وتقرس فى عيني
واضعاً يده على كتفى — لا تذهبي الى البيت • هل فهمت
مقصودى يا التيناي ؟

صعقت رعبا • فالآن فقط أدركت ما تنوى أن تفعله بى
عمتى •

قال ديوشين :

— سأكون مسئولاً عنك • ستعيشين معنا • فلا تغيبى عني
بعيدا •

ولعل وجهى قد أربد ، فقد رفع ديوشين ذقنى ، ونظر فى
عيني وابتسم كما كان يبتسم دائماً • وقال ضاحكا :

— ولكن لا تخافى يا التيناي • فطالما سأكون معك لا تخافى
شيئا • ادرسى ، وترددى على المدرسة كما كنت من قبل ، ولا

تفكرى فى أى شىء •• أنا أعرف أنك هيابة •• نعم ، بهذه المناسبة ، كنت قد عزمت منذ وقت طويل على أن أخبرك .
والظاهر أنه تذكر شيئا مضحكا ، فانخرط يضحك ثانية :

— أتذكرين يوما استيقظ فيه كاراكه مبكرا واختفى الى حيث لا ندرى • ثم رأيته يعود ليوصل ••• احزرى من ؟ ليوصل الدجالة ، العجوز جايناك • ولما سألت : — لم ؟ أجاب : دعها تسحر • والا فسينخلع قلب التيناي من موضعه • قلت : اطردها من الحوش • فستأخذ مقابل سحرها خروفا واحدا والا لما استطعنا التخلص منها • ولسنا أغنياء على هذه الدرجة • نحن لا نستطيع أن نهدي فرسا ، فقد أعطيناه للذئاب •• وكنت نائمة • وصرفتها لتذهب وشأنها • أما كراكه فقد ظل أسبوعا كاملا بعد ذلك لا يحدثنى • كان متكدرا • يقول : لقد أزعلتنى أنا العجوز • وعلى أية حال هما عجوزان طيبان بشكل نادر • حسنا ، لنذهب الآن الى البيت • هيا يالتيناي •••

ومهما حاولت أن أسيطر على نفسى لكيلا أوذى المعلم دون داع لم تزايلنى الأفكار المربعة • فان عمتى كانت تستطيع أن تأتى الى هنا فى أى ساعة وتنتزعنى بالقوة • وهناك سيفعلون بى ما يشاؤون ، ولا أحد فى القرية يصددهم عن ذلك • وهكذا قضيت الليلة ساهرة مترقبة المصائب •

وفهم ديوشين حالتى بالطبع • وفى اليوم التالى جاء بغرستين الى المدرسة ربما ليصرفنى عن أفكارى الكثيرة • وبعد انتهاء

الدروس أمسكنى من يدي ، وانتحي بى جانبا • وقال وهو
يتسم ابتسامة غامضة :

— الآن سنقوم ، أنا وأنت يا التيناي ، بعمل • ها قد جلبت
لك غرستى حور • وسنفرسهما معا • وحين تكبران ويشتد
عوداهما تكونين أنت قد كبرت أيضا ، وصرت انسانا طيبا • فان
لك نفسا كريمة ، وعقلا متطلعا • ونفسى تحدثنى دائما بأنك
ستكونين عالمة كبيرة • أنا مؤمن بذلك • وسترين بنفسك •
ان هذا مصيرك • وأنت الآن يافعة ، عسلوج ، كهاتين الغرستين •
فلنبتهما يا التيناي بأيدينا • ولتكن سعادتك فى التعلم يا نجمتى
الساطة ...

وكانت الغرستان بطول قامتى، غضتين ذوات جذعين مزرقين
من أغراس الحور • وحين غرسناهما على مسافة غير كبيرة من
المدرسة ، هبت نسمة من السفح فاهتزت وريقاتها الصغيرة جدا
لأول مرة وكأنما نفثت فيها الحياة • اهتزت الوريقات ، وترنحت
شجيرتا الحور ، وتمايلت ...

— أنظري ، ما أروعهما — قال ديوشين باسمًا متراجعا الى
الوراء — والآن نشق ساقية من هناك ، من عين الماء تلك •
وسترين بعد ذلك أية شجرتى حور جميلتين ستكونان ! • •
ستقفان هنا ، على الراية جنبا الى جنب مثل شقيقين • وستكونان
دائما على مرأى • وسيسر الناس الطيبون بهما • وستكون الحياة
غير هذه الحياة يا التيناي • الأيام الرائعة فى المستقبل ...
والآن لا أستطيع أن أجد الكلمات لأعبر ، ولو بمقدار ما

عن تأثرى بنبل ديوشين • ساعتذ وقت أنظر اليه لا غير • أنظر
وكأنى أرى لأول مرة ما فى وجهه من حسن وضاء ، وما فى
عينيه من رقة وطيبة ، وكأننى لم أعرف من قبل كم قويتان
وماهرتان يدها فى العمل ، وكم صافية ونقية ابتسامته المدفئة
للقلب • ومثل موجة حارة سرى فى صدرى شعور جديد لا عهد
لى به من عالم لا أعرفه • وفى طوية نفسى فزعت الى ديوشين
لأقول له : « شكرا لك يا معلمى على أنك مولود هكذا ...
أريد أن أعانقك وأقبلك ! » ولكنى لم اجراً ، وخجلت من أن
أنطق بهذه الكلمات وربما كان ينبغى ذلك ...

ولكن ، حين كنا نقف على الراية تحت السماء الصافية
وسط المنحدرات الربيعية المخضوضة كان يحلم كل واحد منا
بحلمه الخاص • وفى تلك الساعة كنت أنسى تماما الخطر المسلط
على • ولم أفكر فيما ينتظرنى فى غد ، ولم أفكر لم لم تبحث
عنى عمتى • وهذا هو اليوم الثانى لغيابى • ألعلم نسونى ، أم
لعلهم عزموا على أن يتركونى وشأنى ؟ ولكن ديوشين فكر
بذلك كما يظهر •

— لا تتألمى كثيرا يا التيناي • سنجد مخرجا — قال ذلك
بينما كنا عائدين الى القرية — سأذهب بعد غد الى مركز المنطقة •
وسأتحدث هناك عنك • فقد أفلح فى أن أجعلهم يرسلونك الى
المدينة للدراسة • هل تريدون الذهاب ؟
أجبت :

— مثلما تقول أفعل •

ورغم أنني لم أتصور أى شىء ستكون هذه المدينة الا أن كلمات ديوشين بدت لى وافية لأحلم بحياة المدينة • وكنت تارة أفزع من الغربة التى تنتظرنى فى أنحاء غريبة ، وتارة أعترى على الذهاب • وبكلمة واحدة ان المدينة لم تغب عن ذهنى الآن •

وفى اليوم التالى فكرت بذلك أيضا وأنا فى المدرسة • كيف وعند من سأعيش فى المدينة • فلو آوانى أحد من الناس فسأكرس الحطب وأجلب الماء ، وأغسل ، وسأفعل كل ما يأمرونى به • فكرت على هذا النحو وأنا جالسة فى الفصل • وجفلت من المباغلة اذ تردد من خلف جدران مدرستنا المتداعية وقع حوافر خيل • تردد بغتة ، واندفعت الخيل بسرعة حتى كأنها توشك على أن تدوس على مدرستنا • وأرهفنا الأسماع جميعا جامدى الأوصال •

وقال ديوشين بسرعة :

— لا تنذهلوا • واشتغلوا فيما بين أيديكم •

ولكن الباب انفتح بضجة فى تلك اللحظة ، ورأينا عمتى على العتبة • وقفت وعلى وجهها تكشيرة خبيثة متحدية • وتقدم ديوشين نحو الباب :

— أى شأن لك هنا ؟

— شأن لا يعنيك • سأوصل الفتاة الملعونة الى زوجها •
هيه يا متشردة — واندفعت عمتى نحوى • ولكن ديوشين وقف فى طريقها •

— هنا تلميذات فقط •• لم يحن بعد زواج واحدة منهن —
قال ديوشين فى ثبات وهدوء •

— سرى هذا بعد ذلك • يا رجال ! امسكوها ، جرّوا
الكلبة •

وأومات العمة الى أحد الفرسان • وكان نفس الشخص
ذو الوجه الأحمر والقبة من فراء الثعلب • وترجل بعده رجلان
وفى أيديهما أعواد ثقيلة •

ولم يتحرك المعلم من موضعه :

— كيف لك أيها الكلب السائب أن تتصرف بينات الآخرين
وكأنهن زوجاتك ؟ •• هيا • تنح عن طريقى •

وتقدم ذو الوجه الأحمر كالدب نحو ديوشين •

— ليس لك الحق فى الدخول الى هنا • هذه مدرسة —

قال ديوشين ذلك وهو يمسك بإطار الباب بقوة •

صاحت عمتى :

— لقد قلت لك • خطبها منذ زمن • انك أغويت الكلبة

بلا مقابل •

وهدر ذو الوجه الأحمر ملوحا بالسوط :

— لا تهمنى مدرستك !

الا أن ديوشين سبقه ، ركله على بطنه بقدمه ركلة قوية
فصرخ هذا وسقط • وفى تلك اللحظة هجم الرجلان اللذان كانا
يحملان الأعواد على المعلم وارتمى الأولاد نحوى فى صياح
وبكاء • وتطايرت الباب من الضربات قطعاً قطعاً ، وألقت قسماً

نحو المتصارعين جارة معى الأطفال الصغار المتشبثين بى •
— اتركها المعلم ! لا تضرباه ! ها أنا • خذانى لا تضربا
المعلم !

التفت ديوشين • وكان ديوشين مسربلا بالدماء ، مخيفاً
ومربدا • رفع السبورة من الأرض ولوح بها صائحا :
— اركضوا يا أطفال ، اركضوا الى القرية • اهربى يا
التيئال ! — وشهق فى صراخه •

كسروا يده فكان يسندها الى صدره ويتراجع • أما الآخرا
فراحا يضربانه ويجأران عليه كثورين هائجين لا يقيه منهما
شىء •

— اضربا • • • اضربا • اضربا على رأسه ، اقتلاه فى مكانه ؟
واندفعت نحوى عمتى المهتاجة مع ذى الوجه الأحمر •
ولفا حول عنقى بصفيرتى وجرانى الى الفناء • واندفعت أنا بكل
قوتى • وللحظة واحدة رأيت الأطفال الذين جمدوا فى أماكنهم
يصرخون ، وديوشين قرب الحائط الذى تلتطخ بالدم الداكن •
— يا معلم !

ولكن ديوشين لم يستطع أن يعيننى فى شىء • كان لا يزال
يستند على قدميه مترنحا مثل سكران تحت ضربات جلاوزة
وحاول أن يرفع رأسه المتدلى • الا أنهم ظلوا يضربونه ويوسعونه
ضربا • فألقونى أرضا ، وأوثقوا يدى • وأثناء ذلك كان ديوشين
يتمرغ على الأرض •

— معلم !

ألا أنهم كموا فمى ، وألقوني على السرج •
وكان ذو الوجه الأحمر على صهوة الفرس فحصرنى بين
يدى وصدره وقفز اللذان ضربا ديوشين ضربا مبرحا على سرجيهما
وركضت عمتى بمحاذاتنا تضرب رأسى •

— وقعت أخيرا • وقعت ! ها أنا أشيعك • ومعلمك لاقى

نهایتہ ...

ولكنها لم تكن النهاية ، من الورا انبعثت فجأة صرخة
قائطة :

اتوكوها ! التيناي !

وبصعوبة رفعت رأسى المتدلى من الحصان ونظرت • كان
ديوشين يجرى ورائنا ، مدمى مضروبا ضربا مميتا يحمل بيده
حجارة ، وخلفه تلاميذ صفنا كله ييكون ويتصارخون •

— ققوا ، يا وحوش ، ققوا ! اتركوها ! اتركوها !

التيناي ! — صرخ وهو يلحق بنا •

وتوقف القساة ، وأحاط الرجلان بديوشين وهما على
فرسيهما وأمسك ديوشين كمة بأسنانه لنكى لا تعيقه اليد
المكسورة وصوب الحجارة ، ولكنها أخطأت الهدف • وحينذاك
أوقعه الرجلان فى بركة بضربتين من الأعواد وغامت الدنيا أمام
عينى ، ولم أر غير التلاميذ يهرعون الى المعلم ، ويقفون بالقرب
منه مرتعبين •

ولا أذكر كيف وأين أوصلونى وافقت لأجد نفسى فى

« كوخ » • ومن القبة المفتوحة لاحت نجوم أوائل الليل هادئة
لا يربحها شيء • وسمعت فى مكان قريب خرير نهر ، وأصوات
رعاة الليل يحرسون قطعان الغنم • والى جانب الموقد الهامد
جلست امرأة عجوز عبوسة ذابلة مثل أرومة جذع • وكان وجهها
داكنا كالأرض • وحولت رأسى الى الجهة الأخرى •

آه لو استطعت ان أقتلها بنظراتى !

وأوعز ذو الوجه الأحمر :

— انهضيها يا سوداء •

وتقدمت المرأة السوداء منى ، وهزت كتفى بيدها الجاسية
الخشنة •

— هدئى ضرتك • واشرحى لها الأمر • واذا لن تفهم لا بأس
سيكون الحديث معها قصيرا •

وخرج من « الكوخ » • ولم تتحرك المرأة السوداء من
مكانها ، ولم تنطق بكلمة • ألعها كانت خرساء ؟ وكانت عيناها
المنطفئتان الشبيهتان بالرماد البارد تنظران بلا تعبير • هناك كلاب
تضرب منذ صغرها • وأشرار الناس يضربونها على رؤوسها بأى
شئ وقعوا عليه ، وبالتدريج تتعود هذه الكلاب على ذلك • ولكن
فى نظرتها يستقر خواء حالك فارغ يث القشعريرة فىك • وقد
نظرت فى عيني السوداء الميتين فخيلى الى اننى أنا الأخرى بلا حياة
واننى فى اللحد • وكنت مهياة لأن أصدق بذلك لولا خرير النهر •
كان الماء يجرى من مسقطه فى رشاش وهدير ••• كان طليقا •••
يا عمتى • يا سوداء الروح ! عليك اللعنة الى أبد الآبدين ! ••

وشرقت بدموعى ودمى ! .. وفى تلك الليلة بعد خمسة عشر
عاما من ولادتى أصبحت امرأة ... وكنت أصغر من أولاد ذلك
المغتصب ...

وفى الليلة الثالثة عزمت على الهروب مهما يكن الأمر .
فلأضع فى الطريق ، وليلحق بى المطاردون ، ولكننى سأكافح حتى
آخر رمق مثلما فعل معلمى ديوشين .

وتوجست طريقى بلا ضجة فى الظلمة نحو المخرج ، وتلمست
الباب . وكان مشدودا بأشوطة شعر شدا محكما . وكان من
المستحيل فك عقد الحبل المشدودة بطريقة مأكرة والظلام حالك .
حينذاك حاولت أن أرفع قليلا هيكل « الكوخ » لأنسل بطريقة ما
ومع ذلك مهما جاهدت لم أظفر بطائل : فقد كان « الكوخ » من
الخارج مشدودا أيضا فى الأرض باناشيط .

لم يبق الا أن أجد شيئا حادا وأقطع حبال الباب . وأخذت
أتلمس فيما حولى ، ولكن لم أجد غير وتد خشبى صغير . ومن
قنوطى رحت أحفر به الأرض تحت « الكوخ » . كان المسعى
بالطبع ميئوسا منه ، ولكننى لم أدرك ذلك . فقد استحوذت على
رأسى فكرة واحدة لا تقاوم – الافلات من هنا أو الموت . فقط
أن لا أسمع لهائه ، وشخيره الثقيل ، فقط أن لا أظل هنا ، وإذا
مت فلأمت طليقة ، فى عراك ، فقط أن لا أريض .

« تكول » – تعنى الزوجة الثانية . آه ما أشد مقتى لهذه
الكلمة . من ابتكرها فى الأزمنة العvisية ؟ أى شىء أكثر اهانة
من حال الزوجة الثانية المكرهة المستعبدة روحا وجسدا ! انبعثن

يا تعيسات من القبور • استيقظي يا أشباح النسوة الهالكات
المحتقرات المجردات من الكرامة الانسانية ! انهضن يا معذبات ،
وليتبدد ظلام تلك الأزمان الحالك ! أنا أتحدث هذا ، أنا الأخيرة
منكن المتخفية هذا المصير !

ولم أعرف في تلك الليلة أنه سيقدر لى أن أتقوه بهذه
الكلمات • وكنت أحك الأرض تحت « الكوخ » بعناد وعنف •
وكانت التربة صخرية لم تطاوع • حفرت بأظفري وأدميت أصابعي •
وحين صار في الامكان مد اليد تحت « الكوخ » كان الفجر قد
طلع • ونبحت الكلاب واستيقظ الجيران • ومرقت خيول في
كركة لتروى ، ومرت أغنام تشغو في نعاس • ثم أقبل شخص
نحو « الكوخ » ، وفك الأناشيط المشدودة من الخارج ، وأخذ
يرفع الغطاء اللبدي • وكانت المرأة السوداء الصموت •

يعنى أن القرية تنهياً للنقل • وهنا تذكرت أنني قد سمعت
أمس شائعات حول أنهم يريدون أن يتركوا هذا المكان منذ
الصباح ، وينتقلون في البدء الى مضرب جديد قرب المر ، ومن
ثم الى قلب الجبل خلف المر ليقضوا الصيف كله • واشتد
غمي • فان الهروب من هناك أصعب مائة مرة •

وظللت جالسة في مكاني قرب الحفرة لا أريم • فما الذي
أخفيه ولم ••• ومع ذلك رأت السوداء الأرض محفورة تحت
« الكوخ » ، ولم تقل شيئاً ، ومضت تقوم بعملها صامتة • وكانت
تتصرف على العموم وكأنما لا يعنيه شيء ، وكأن ما من شيء في
الحياة يستثير في نفسها أية مشاعر • بل ولم توقظ زوجها ، ولم

تجراً على أن تطلب مساعدته لها فى الاستعداد للرحيل • كان
يشخر كالدب تحت الأغطية والمعاطف الفرائية •

وطويت جميع الأبسطة ، وصار « الكوخ » منزوع الاسدال
وجلست فيه وكأننى جالسة فى قفص ، ورأيت ، غير بعيد ، اناسا
وراء النهر يحملون على الثيران والخيول • ثم رأيت ثلاثة فرسان
يقبلون عليهم من جانب وبعد أن تحدثوا معهم اتجهوا صوبنا •
وفى البدء ظننت أنهم يجمعون الناس للرحيل ، ثم تمنعت النظر
وذهلت • كان ذلك ديوشين والآخران يرتديان قبعتى الميليشيا ،
وعلى ياقتى معطفيهما شاربات حمراء •

ظلمت بين الحياة والموت دون أن أقدر حتى على الصياح •
تملكنى الفرح — فان معلمى حى — وفى الوقت ذاته كان فراغ
فى روحى • أنا الهالكة الموسومة بالعار •

كان رأس ديوشين مضمدا ، ويده معلقة فى شداد ...
وقفز من الحصان ، وكسر الباب بضربة من رجله ، ودخل الخيمة ،
وحسر الغطاء عن الرجل ذى الوجه الأحمر •

وصاح فى جهامة :

— انهض !

فرفع هذا رأسه وفرك عينيه ، وهم بأن يشب على ديوشين
الا أنه تراخى فى الحال ، اذ رأى رجلى الميليشيا يصوبان عليه
مسدسيهما • وأمسكه ديوشين من تلايبه ، وهزه ، وقرب رأسه
إليه بحدة •

— خنزير ! — همس من شفيتين مبيضتين — الآن اذهب

الى المكان اللائق بك ! اذهب !

وسار هذا مذعنا الا أن ديوشين هزه من كتفه مرة أخرى

محدثا بعينه • وقال بصوت منقطع :

— تظن أنك قد دستها كما تدوس العشب ، قتلتها ؟ هراء •

ولى زمانك ، وجاء الآن زمانها • وعلى هذا نهايتك ! ••

وسمحو لذي الوجه الأحمر بارتداء حذائه ، وشدوا يديه

وأجلسوه على الحصان • وسار أحد رجلى الميليشيا أمام الحصان

ممسكا بيده لجامه بينما سار الآخر خلفه • وركبت حصان

ديوشين • وسار هو الى جانبى •

وحين سرنا ارتفع من خلفنا صراخ وحشى لا انساني •

كانت المرأة السوداء تعدو خلفنا • عدت كالمجنون نحو زوجها ،

وأطاحت قبعته الفرائية بحجارة • وصرخت بصوت يمزق القلب •

— هذا جزاء دمي الذى شربته يا قاتل ، وأيامى السود

يا قاتل ! لن أدعك حيا !

أغلب الظن أنها لم ترفع رأسها أربعين عاما • والآن انفجر

كل ما تراكم فى روحها ، كل ما نخر حياتها كنبات الشيح المر •

وتردد صدى صرخاتها المندوية فى صخور المضيق الجبلى • ركضت

مرة فى هذا الجانب ، وأخرى فى ذاك ترشق زوجها المطاطىء جنبا

بالروث والحجارة ، وكتل التراب ، وكل ما وقع تحت متناول

يدها تصرخ بالمعنات :

— ليت تربة جذباء صارت حيث وطئت رجلك • ليت

عظامك تضال فى العراء لينقر عينيك الغراب • يا رب لا ترونى
وجهه مرة أخرى • أغرب عن عيني • اغرب يا هولة • اغرب ،
اغرب — ثم صمتت ، ثم اندفعت جانبا صارخة وكأنها عاربة من
شعرها الذى طأيرته الريح •

وجاء الجيران فى هذه اللحظة ، وراحوا يطاردونها على
خيولهم •

وطن رأسى وكأنتى أفقت من نوم كابوس • وكنت أمتطى
الحصان مكسورة النفس مذلولة • وكان ديوشين يسير الى الأمام
قليلا ممسكا اللجام بيده • وصمت منكسا بشدة رأسه
المضمد •

وانقضى وقت غير وجيز قبل أن تترك المضيق المشوم
وراءنا • وكان رجلا الميليشيا يتقدمانا بمسافة بعيدة • أوقف
ديوشين الفرس ونظر الى لأول مرة بعينين مرهقتين :

— التيناي ! لم أقدر على أن أحملك • فاعذرني — قال
ذلك ثم أمسك بيدي وضغطها على خده — ولكن حتى لو غفرت
لى فلن أغفر لنفسى هذا أبدا ...

رحت أجهش ، وانحنيت على عرف الحصان ، ووقف
ديوشين بالقرب منى صامتا يمسد شعرى وينتظر انتهاء نوبة بكائى
— اهدئى يا التيناي • ولنذهب — قال آخر الأمر — اصغى
لما أنا قائل لك • منذ يومين كنت فى مركز المنطقة • ستذهبن
للدراسة الى المدينة • هل تسمعين ؟

وحين توقفنا عند النهر المصوت الوضاء قال ديوشين :

— انزلى من الفرس يا التيناي واغتسلى — واخرج من
جيبه قطعة صابون صغيرة — خذى يا التيناي ولا تبخلى بها •
تريدين أن أذهب جانباً أرعى الحصان • واخلى أنت ملابسك
واستحمى فى النهر وأنسى كل ما وقع ، ولا تذكره أبدا •
استحمى يا التيناي ، وسيخفف عنك • موافقة ؟

هزرت رأسى • وحين انتبذ ديوشين مكانا قصيا فضوت
ملابسى ودخلت الماء بحذر • وكان الحصى الأبيض والأزرق
والأخضر والأحمر ينظر الى من القاع • ومر التيار الأزرق
السريع المصوت عند أنامل قدمى • اغترفت غرفات من الماء
وسكبتها على صدرى • وجرت خطوط الماء الباردة على جسمى ،
ورأيتنى أضحك ، على غير ارادة منى ، لأول مرة منذ أيام •
وما أطيب الضحك ! ومرة بعد أخرى رحت أسكب الماء على
جسمى ، ثم ألقيت نفسى فى قلب التيار • فحملنى سير الماء
بقوة الى الجرف • ونهضت وألقيت نفسى مرة أخرى فى التيار
الصاحب المرذذ •

— أحمل أيها الماء معك كل وضر ودنس هذه الأيام !
اجعلنى نقية مثلك أيها الماء ! — همست أنا بذلك وابتسمت لشيء
لا أعرفه •

لم لا تظل آثار أقدام الناس الى الأبد على الأماكن
التذكارية الحبيبة اليهم ؟ ولو وجدت الآن ذلك الدرب الذى
عدت فيه مع ديوشين من الجبال لغرت وجهى بالأرض وقبلت
آثار أقدام المعلم • فان هذا الدرب أعز طريق عندى • مبارك

هو ذلك اليوم ، وذلك الدرب ، وذلك الطريق الذى عدت به
الى الحياة ، الى ايمان جديد بنفسى ، الى آمال جديدة والى
النور ... وحمدا لتلك الشمس ، حمدا لأرض تلك الأزمان ...
وبعد يومين أخذنى ديوشين الى المحطة •

لم أرد أن أبقى فى القرية بعد كل الذى حدث • كان
ينبغى بدء الحياة الجديدة فى مكان جديد • كما ان الناس
وجدوا قرارى صائبا • وودعتنى سايكال وكاراكه • وقد ضجبا
وبكيا كطفلين وأثقلانى بالصرر والأمتعة • وجاء لتوديعى جيران
آخرون بل وحتى اللجلوج ساتيمكول اذ قال :

— الله معك يا بنيتى • طريق ميمون • لا تنهيبى والتزمى
وصية المعلم ديوشين • ولا تضيعى • ومهما قالوا فقد أصبحنا
ندرك على نحو ما •

وهرول تلامذة من مدرستنا طويلا وراء العربى ، ولوحوا

أيديهم ...

سافرت مع بعض الصبية الذين كانوا يرسلونهم أيضا الى
دار الأطفال فى طشقند • وكانت بانتظارنا فى المحطة امرأة
روسية ترتدى سترة جلدية •

وكم من مرة فيما بعد مررت بهذه المحطة الجبلية الصغيرة
المظلة بأشجار الحور • يبدو لى ان نصف قلبى قد تركته هناك
الى الأبد •

كان فى الضوء المترجرج الليلقى للمساء الربيعى شىء
كئيب شجى وكان الأغباش نفسه عرف فراقنا • جاهد ديوشين

ان لا يظهر تألمه ومضاضة نفسه ، ولكننى عرفت حاله ، لأن
نفس الألم ألهب حلقومى بغصة حارة • حلق ديوشين فى عيني
عميقا ويده تمسد شعري ووجهي وحتى أزرار فستانى • وقال :
— لو كان الأمر متوقفا على يا التيناي لما سمحت لك
بالابتعاد عنى خطوة واحدة • ولكن ليس لى الحق فى تعويقك •
ينبغى عليك أن تتعلمى وأنا لست على قدر كبير من المعرفة •
فسافرى وسيكون ذلك أفضل ••• ولعلك تصبحين معلمة
حقيقية ، واذ ذاك ستتذكرين مدرستنا ، وربما ستضحكين لها •
ليكن ذلك ••• ليكن •••

وصفرت القاطرة على بعد وتردد الصدى فى المضيق الذى
تقع عليه المحطة • وظهرت أنوار القطار • وماج الناس على
المحطة •

— ها أنت راحلة الآن — قال ديوشين بصوت مرتعش
ضاغطا على يدي — أرجو لك السعادة يا التيناي والمهم ان
تتعلمى ، تعلمى •••

ولم أستطع أن أرد بأى جواب • فقد خنقتنى العبرات •
— لا تبكى يا التيناي — مسح ديوشين عيني • ثم تذكر
فجأة :

— وشجرتا الحور اللتان غرسناهما معا سأتعهدهما بنفسى •
وحين تعودين انسانا كبيرا تجدين كيف نمنا جميلتين •
جاء القطار حينئذ • وتوقفت العربات بضوضاء وجلبة •
— فلنتوادع اذن — وحضننى ديوشين وقبلنى على جيني

بقوة — أرجو لك الصحة والسفر الميمون • وداعا يا عزيزتى...
لا تخافى وكونى جريئة •

قفزت على الدرجة • والتفت عبر كتفى • لن أنسى أبدا
ديوشين واقفا تلك الوقفة ، ويده على شداد ينظر الى بعينين
غائمتين ، ثم توجه نحوى وكأنه أراد أن يمسنى ، وفى تلك
اللحظة تحرك القطار وصاح هو :

— وداعا يا التيناي وداعا يا نورى !

— وداعا يا معلم ! وداعا معلمى العزيز !

وعدا ديوشين الى جانب العربة • ثم تأخر • وبعد ذلك
اندفع فجأة وصاح :
— التيناي !

صاح وكأنه نسى أن يقول لى شيئا مهما جدا وقد تذكره،
رغم أنه كان يعرف ان الألوان قد فات... وما زالت تلك الصيحة
ترن فى أذنى حتى الآن ، الصيحة الصادرة من صميم القلب ،
من أعماق الروح... •

مر القطار فى ثقب ، وخرج قدما مزيدا سرعته ، عابرا بى
وادي السهب الكازاخى الى حياة جديدة ، الى كفاح جديد ،
الى عمل جديد... •

وداعا يا معلمى ، وداعا يا مدرستى الأولى ، وداعا أيتها
الطفولة ، وداعا يا حبي الأول الذى لم أبح به لأحد... •

نعم • تعلمت فى مدينة كبيرة حلم بها ديوشين ، فى مدارس
كبيرة لها نوافذ عريضة حدثنى هو عنها • ثم أكملت كلية العمال

فأرسلوني الى موسكو - الى معهد الماركسية اللينينية •

كم من صعوبة تجرعتها فى سنى دراستى الطويلة ، كم من مرة أصابنى يأس • يبدو لى : لا ، أنا لا أملك حكمة العلم • وفى كل مرة فى أشد اللحظات عسرا أحسب نفسى فى امتحان فكرى أمام معلمى الأول فلا يسعنى أن أترجع • والذى يناله الآخرون فى الحال حصلت أنا عليه بشق النفس لأنه كان على ان أبدأ كل شيء من الألف باء •

وحينما كنت أدرس فى كلية العمال كتبت رسالة الى المعلم بحث له فيها بحبى وبأتنى أنتظره • ولم يجب هو • وبهذا انقطعت رسائلنا • وأظن انه تخلى عنى وعن سعادته لأنه لم يرد ان يعيق دراستى • ولعله كان على حق ... أو ربما كانت هناك أسباب أخرى ؟ كم عانيت وقلبت فكرى فى ذلك الحين ...

وناقشت اطروحتى الأولى فى موسكو • وكانت بالنسبة لى فوزا كبيرا جديا • ولم أستطع زيارة القرية طوال تلك الأعوام ثم بدأت الحرب • وفى أواخر الخريف عند الجلاء عن موسكو الى فرونزه نزلت من القطار فى تلك المحطة التى ودعنى فيها معلمى • ومن حسن حظى اننى عثرت على عربة فى الحال وتوجهت الى السوفخوز عبر قرينتا •

ايه يا مسقط رأسى • تعين على أن أزورك فى زمن الحرب العصيب علينا • ومهما كانت فرحتى بك ، وأنا أنظر الى الأراضى المستصلحة - فقد نمت قرى جديدة ، وحرثت حقول جديدة

كثيرة ، وأنشئت طرق وجسور جديدة — كانت الحرب تكدر هذا اللقاء •

واضطربت وأنا أقترب من القرية • أمعنت النظر من بعيد الى الشوارع الجديدة غير المعروفة لى ، والى البيوت الجديدة والحدائق ، ثم نظرت الى تلك الراية التى كانت تقع عليها مدرستنا، وتقطعت أنفاسى — هناك على الراية تقف شجرتا حور كبيرتان متلاصقتان كانتا تتمايلان فى الريح • ولأول مرة ناديت الانسان الذى كنت أسميه طوال حياتى بالمعلم ، ناديته باسمه • همست :

— ديوشين ! شكرا لك يا ديوشين على كل ما صنعته لى •
انك لم تنس ، يعنى فكرت ... • • • فما أشبه هذا بك !
ولما رأى صبي سائق العربى الدموع فى وجهى ارتعب :
— ماذا جرى لك ؟

— لا بأس معى • هل تعرف أحدا من الكولخوز ؟
— أعرف بالطبع ، كلهم أصحابى •
— وديوشين هل تعرفه ؟ هذا الذى كان معلما •
— ديوشين ؟ ذهب الى الجيش • لقد أوصلته بنفسى من الكولخوز فى هذه العربى الى اللجنة العسكرية •
وعند مدخل القرية رجوت سائق العربى أن يتوقف ، ونزلت من العربى • نزلت وأطلت التفكير ، قائلة لنفسى : لأذهب الآن وأطوف فى البيوت فى هذا الزمن العصيب ، وأقتش عن المعارف وأسألهم هل تذكروننى ، أنا ابنة قريتك • ولكننى لم

أقدم على ذلك • فان ديوشين فى الجيش • ثم اننى حلفت على
أن لا أذهب أبدا الى هناك حيث تعيش عمتى وعمى • وقد تغفر
للناس أشياء كثيرة ، ولكن لا غفران لتلك الجريمة على ما أظن •
كما لم أرد أن يعرفا اننى وصلت الى القرية • وتحولت عن
الطريق واتجهت نحو شجرتى الحور ، الى الراية •

ايه يا شجرتى الحور ! كم من الأحداث والسنين مرت منذ
أن كنتما شجرتين غضتين ذواتى جذعين مزرقين • سلاما
يا صديقى سلاما يا عزيزتى ، سلاما أيتها الشقيقتان • تقبلا
انحنائى الأرضى •

ها قد تحقق كل ما حلم به الرجل الذى غرسكما وتنبأ به •
وجاء الزمن الموعود • سوى أن العدو باغت وطننا ، ومرة أخرى
رحل ذلك الرجل يحمل سلاحه ليدافع عن أحلامه •

لم انتما تدندنان فى حزن ، وبم تدمدمان ، وعم تتأسيان ؟
أم انتما تشكوان من أن الشتاء يدنو ، والرياح الباردة تقطع
أوراقكما ؟ أم ان ألم الشعب وأساء يطنان فى جذعيكما ؟

نعم سيأتى الشتاء مرة أخرى ، وستأتى صبارات القرس
وعواصف الثلج القاسية • ولكن سيأتى الربيع أيضا •••

وقفت طويلا أصغى لحفيف أوراق الخريف • وكانت
الساقية عند قدمى الشجرتين قد نظفت حديثا : فما تزال على
الأرض آثار معول عميقة طرية • كان الماء الزاهى النقى فى
الساقية الملى يكاد يترقرق ، وعلى سطحه تتهادى أوراق الحور
الصفراء •

ايه أيها المعلم ! لعلك كنت هنا في آخر دقيقة لك ...
هذه آثار معولك .. فعد بنصر سريع ، عد حيا سالما . أما انتما
أيتها الشجرتان فصليا له .

ومن الراية كان بوسعى ان أرى السطح المظلي لمدرسة
جديدة . أما مدرستنا فلم يكن لها من أثر .

ثم انحدرت الى الطريق ، وصادفت عربة في طريقى ،
وعدت الى المحطة .

كانت الحرب وتحقق النصر . وكم من سعادة مرة كانت
من نصيب الشعب : هرع الأولاد الى المدرسة يحملون حقائب
الميدان التي كان آباؤهم يستخدمونها . وعادت الأيدي الرجولية
الى العمل ، وذرفت أرامل الجنود كل ما فى مآقيهن ، ثم صمتن
قائعات بترملهن . وانتظر بعض الناس طويلا عودة أعزائهم .
فليس الجميع قد عادوا رأسا الى البيت .

ولم أعرف ماذا حدث لديوشين . كان أهل قرىتى القادمون
الى المدينة يقولون انه مفقود . وقد تلقى مجلس القرية ورقة
بذلك .

وقالوا مفترضين :

— ربما قتل . مضى زمن ، وما من خبر أو اشاعة عنه .
وكنت أقول لنفسى بين الحين والآخر : « ان معلمى لن

يعود • وهكذا لم نلتق منذ ذلك اليوم المشهود يوم توادعنا
فى المحطة » •

وحين كنت استرجع الماضى لم يخطر على ذهنى مدى ما
تراكم فى روحى من أذى •

فى أواخر خريف عام ١٩٤٦ سافرت الى جامعة تومسك فى
مهمة علمية •

سرت أول مرة فى سيبيريا • كانت كالحة كثيبة فى ذلك
الوقت قبيل حلول الشتاء • كانت الغابات العريقة تمر من خلف
النوافذ مثل حائط قاتم • وفى الأدغال تتراءى سقوف القرى
السوداء يتصاعد الدخان الأبيض من مداخنها • وغطى أول
الثلج الحقول الباردة ، وكانت الغريبان العابسة تطير فوقها •
وكانت السماء قاتمة دائما •

ولكنى شعرت بمرح وأنا فى القطار • كان أحد جيرانى
فى المقصورة جنديا فى الجبهة سابقا وهو يسير على عكازتين
وقد أضحكنا بحكاياته المسلية والنوادر المستقاة من الحياة
العسكرية • وأذهلتنى مخيلته التى لا تنضب • وكنت تشعر
دائما بأن وراء بساطتها والضحكة التى بدت وديعة حقيقة فعلية •
وقد أحبه جميع من فى العربة • ثم ان قطارنا توقف برهة عند
مزلقان صغير بعد نوفوسيبيرسك ووقفت قرب الشباك ، ونظرت
إليه ضاحكة من آخر نكتة قالها جارى •

وتحرك القطار ، مزيدا سرعته : ومر من وراء الشباك مبنى
المحطة الصغرى المنفرد • وعند اندماج الخطوط تنحدر •

الشباك ، ثم التصقت ثانية بالزجاج • وكان ديوشين هناك ! كان واقفا عند الملف الاسطوانى يحمل فى يده علم الاشارة • ولا أعرف ماذا حصل لى •

— قفوا ! — صحت أنا فى العربى كلها ، واندفعت نحو المدخل دون أن أدري ماذا أفعل • ولكن بصرى وقع على فرملة الطوارئ على مقربة ، فقطعت مشدها بقوة •

فرمل القطار بقوة ، فتراطمت العربات ، ورجع القطار بقوة الى الوراء ، وتساقطت الأمتعة من الرفوف فى ضجيج ، وتدحرجت الأوانى ، وتصايح الأطفال والنساء • وصاح شخص بصوت غريب :

— وقع شخص تحت القطار !

كنت واقفة على الدرجات ، وقفزت دون أن أرى أرضا تحتى وكأنتى أتردى فى جب لا قاع له • ثم اندفعت دون أن أرى شيئا ولا أعى شيئا الى الملف الاسطوانى للمزلقان ، الى ديوشين • والى الخلف علت صفارات ملازمى القطار • وقفز المسافرون من العربات ، وجروا ورائى •

عدوت بنفس واحد بمحاذاة العربات وجرى ديوشين للقياء •

— ديوشين ، يا معلم ! — هتفت مندفة نحوه • وتوقف المكلف بالملف الاسطوانى ينظر الى دون أن يفهم • وكان هو ، ديوشين ، بوجهه وعينيه ، الا انه قد كبر قلبلا وصار له شارب لم يكن له من قبل •

— ماذا بك يا أخت ؟ ماذا جرى ؟ — سأل فى حنان باللغة الكازاخية — لعلك قد أخطأت التقدير • أنا عامل الملف جانكازين ، ويسموننى بينو •
— بينو ؟

ولا أدرى كيف وفقت فى زم فمى كيلا أصرخ من الغم ، من الألم ، من الخجل • ما الذى فعلت ! غطيت وجهى بكفى وأطرقت برأسى • لم لم تنشق الأرض تحت قدمى ؟ كان على أن أعتذر لعامل الملف ، وأطلب العذر من المسافرين • ولكننى وفقت وصمت كالحجارة الا ان الذين ركضوا من المسافرين صمتوا أيضا لسبب لا أدريه • وانتظرت أن يرفعوا الآن أصواتهم على ويعذلوننى • الا أنهم ظلوا صامتين ، وفى ذلك الصمت الرهيب قالت امرأة وفى صوتها دموع :

— مسكينة ، حسبته زوجها أو أخاها فتبين أنها كانت على خطأ •

وتحرك الناس •

وقال أحدهم بصوت أجش :

— ما أكثر أحداث الحياة !

— كل شئ يحدث ، وأى شئ لم نعاناه فى الحرب • وأى

شئ لم يتحقق ولم يذرف عليه دمع — أجاب صوت نسائى متقطع •

رفع عامل الملف يدي عن وجهى وقال :

— تعالى أوصلك الى العربة ، الجو بارد •

وأمسكنى من يدي ، وأمسك ضابط بيدي الأخرى قائلا :
— تعالى يا مواطنة ، نحن نفهم كل شيء •

وتفرق الناس ، وشيعونى وكأنهم يشيعون جنازة • سرنا
بيطاء فى المقدمة ، ووراءنا سائر الناس • كما صمت الذين
قابلونا من المسافرين ، وانضموا الى الجمع • ووضع أحد الناس
منديلا فوق كتفى • وحجل جارى فى المقصورة على عكازتين
بجانبى ، وكان يسبقنا قليلا ناظرا الى وجهى • ولسبب ما سار
هذا الرجل المرح المداعب الطيب الشجاع خالعا طاقيته وكان
ييكى كما يبدو • وبكيت أنا أيضا • وفى هذا الموكب بسحاذاة
العربات وفى الريح الصافرة الطانة فى أسلاك التلفون خيل الى
أننى أسمع لحنا جنائزيا : « لا ، لن أراه أبدا » •

وقرب العربة أوقفنا مسئول القطار ، وقد صرخ بشيء مهددا
اياى بأصبعه ، متحدثا عن المسؤولية القضائية ، وعن الغرامة •
ولكننى لم أجب بشيء • كنت غير مكترثة لشيء • ومد الى
المحضر ، وطلب منى أن أوقع • ولكن لم تكن لدى القوة الكافية
لأن أمسك بالقلم •

عندئذ اختطف جارى الورقة منه ، وتقدم منه على عكازتيه
وصاح فى وجهه :

— اتركها وشأنها • سأوقع أنا • فأنا الذى قطع مشد فرملة
الطوارئ • وأنا مسئول !

وانطلق القطار المتأخر فى الأرض السييرية ، فى المنطقة
الروسية منذ القدم • وغنى قيثار جارى فى نغم حزين فى الليل •

ومثل أغنية الأرامل الروسيات الكثيرة حملت فى قلبى الصدى
الشجى لالتقائى بالحرب التى انتهت •

ومرت سنون ، وتصرم الماضى ، ودعا المستقبل ، كما هو
دائما ، بتبعاته الصغيرة والكبيرة • وتزوجت فى وقت متأخر
بعض الشئ • لكننى التقيت برجل طيب • وصارت لنا عائلة
وأولاد ، وها نحن نعيش فى مودة • وأنا الآن أحمل لقب دكتوراه
فى العلوم الفلسفية • وغالبا ما يتعين على أن أسافر • وقد زرت
أقطارا كثيرة ••• ولكن لم أزر القرية مرة أخرى • وكانت لذلك
أسباب بالطبع ، وأسباب كثيرة • ولكن لا أنوى تبرير نفسى •
فان قطعى للاتصال بأهل قرىتى شئ سئ وغير معذور • ولكن
هكذا صار مصيرى • وأنا لم أنس الماضى • لا ، فليس فى
وسعى أن أنساه ، بل انفصلت عنه على نحو ما •

توجد فى الجبال ينابيع : ويحدث ان تشق طرق جديدة ،
وينسى الدرب إليها ، وأكثر فأكثر يقل وصول القادمين إليها
لشرب الماء ، وبالتدريج يبدأ النعناع والعليق بالنمو عليها • ثم
تتعذر ملاحظتها من جانب • ويندر ان يتذكر أحد من الناس
هذه الينابيع فيعرج عليها من الطرق الرئيسية فى يوم قارئ
ليطفئ غلته • ويأتى رجل ويبحث عن ذلك المكان المهمل ويزيح
النبت ، ويتأوه ، يذهله هدوء وعمق هذا الماء البارد الصافى
على نحو غير اعتيادى ، والذى لم يكدر صفوه أحد منذ زمان •
ويرى فى هذا النبع نفسه والشمس والسماء والجبال ••• ويفكر
ذلك الرجل من الائم أن لا يعرف مثل هذا المكان ، وان عليه

آن يخبر رفاقه به • يفكر بذلك ثم ينساه حتى المرة الثانية •
وهذا ما يحصل فى الحياة أحيانا • ولكن فى ذلك حقيقة
الحياة ...
وقد تذكرت هذه الناييع قبل وقت وجيز بعد زيارتى
للقرية •

انك بالطبع قد استغربت حينذاك من رحيلى المفاجئ من
كوركوريو • أكان من الجائز حقا أن أخبر الناس هناك بكل
ما حدثت بك به الآن ؟ لا • كنت مرتبكة مضطربة ، وخجلة • كنت
خجلة من نفسى • ولهذا قررت العودة فى الحال • فقد أدركت
أنى لا أستطيع أن ألتقى بديوشين ، لا أستطيع أن أنظر فى
عينيه • كان على ان أهديء روعى ، وأصنف أفكارى ، وأفكر
فى الطريق بكل ما أردت أن أقوله لا لأهل قريتنا فقط ، بل
ولكثير من الناس الآخرين •

وشعرت بذنب أيضا لأننى لم أكن الشخص الذى يجب
أن يحاط بكل حفاوة ممكنة ، ويجلس فى مكان الشرف أثناء
افتتاح المدرسة الجديدة • فان هذا الحق يملكه معلمنا الأول
دون أى شخص آخر ، يملكه أول شيوعى فى قريتنا ، العجوز
ديوشين • والذى حدث عكس هذا • جلسنا نحن وراء موائد
الوليمة ، وكان ذلك الرجل الطيب يسرع لتوزيع البريد ، يسرع
ليوصل عند افتتاح المدرسة برقيات التهئة من متخرجيها
السابقين •

والظاهر ان ذلك ليس مصادفة صرفا • فقد لاحظت ذلك

أكثر من مرة • ولهذا أطرح هذا السؤال : متى فقدنا القدرة على احترام الشخص البسيط بصورة حقيقية مثلما احترمه لينين ؟ والحمد لله اننا نتحدث الآن عن مثل هذه الأشياء دون مراعاة ورياء • وجميل جدًا أننا في ذلك اقتربنا من لينين أكثر •

والشبان لا يعرفون أى معلم كان ديوشين فى زمانه • وكثيرون من الجيل القديم قد ماتوا • وقتل غير قليل من تلامذة ديوشين فى الحرب • كانوا محاربين سوفيستين حقيقيين • وكان لزاما على أن أحدث الشباب عن معلمى ديوشين • وكل انسان لو كان فى موضعى هذا ملزم على أن يفعل ذلك • ولكننى لم أزر القرية ، ولم أعرف أى شىء عن ديوشين ، ومع مرور الزمن تحولت صورته بالنسبة لى وكأنها ذخيرة ثمينة فى صمت المتحف •

وسأتى مرة أخرى الى معلمى وأقدم له الامتحان • وأرجوه الصفح •

أريد بعد عودتى من موسكو أن أسافر الى كوركوريو وأقترح على الناس هناك أن يسموا المدرسة الداخلية الجديدة « بمدرسة ديوشين » • نعم باسم هذا الكولخوزى البسيط ، وساعى البريد الآن • وآمل أن تؤيدنى أنت - كواحد من أهل القرية - فى اقتراحى وأنا أرجوك فى هذا •

والساعة الآن فى موسكو الثانية ليلا • وأنا واقفة فى شرفة الفندق • أنظر الى اتساع أنوار موسكو وأفكر كيف

سأصل الى القرية ، وألتقى بالمعلم ، وأقبل لحيته الشائبة ...
ها أنا أفتح الشباك على مصراعيه ، فينصب فى الغرفة تيار
من الهواء الطلق . وأمعن النظر فى الغيش المزرق الآخذ
بالنصوع ، بمخططات وأوليات الصورة التى بدأتها . وهى
مخططات كثيرة . ذلك لأننى أعدت الصورة من جديد مرارا
وتكرارا . ولكن الحكم على الصورة ككل يبدو سابقا لأوانه .
فأنا حتى الآن لم أكتشف الشئ المهم . . وأسير فى الصمت قبيل
اطلالة الفجر ، وأفكر وأطيل التفكير . وهذا ما يحدث فى كل
مرة ، وفى كل مرة أتيقن من أن صورتي قد أخذت تتكون
لا غير .

ولكننى أريد على أية حال أن أتحدث لكم بعملى الذى
لم أتم رسمه الآن . أريد أن أتشاور . وبالطبع انكم تحدثسون
بأن صورتي ستكون عن المعلم الأول فى قريتنا ، الشيوخى الأول
العجوز ديوشين .

ولكننى حتى الآن لا أتصور هل سأقدر على أن أعبر
بالألوان عن تلك الحياة المعقدة ، المزدهمة بالنضال ، وعن هذه
المصائر المختلفة والعاطفة الانسانية . ما العمل لكيلا تهرق هذه
الكأس ، لكى أوصلها لكم يا معاصرى ؟ ما العمل لكى لا أكتفى
بأن أوصل فكرتي لكم فقط ، بل لكى تكون من ابداعنا
المشترك نحن ؟

لا أستطيع الا أن أرسم هذه الصورة . ولكن كم من
تقلب للرأى وكم من خوف استبد بى . وفى أحيان أخرى يبدو

لى أننى لن أوفق الى شىء • وحين ذاك أقول لنفسى : لم وضع
القدر الريشة فى يدى اذن ؟ أية حياة شهيدة معذبة ! وفى أحيان
ثالثة أشعر بأننى من الجبروت بحيث أستطيع تحريك الجبال •
وحين ذلك أقول لنفسى : انظر ، وادرس واختر • ارسم شجرتى
ديوشين والتيناي ، شجرتى الحور تينك اللتين أتاكتا لك فى
الطفولة كثيرا من اللحظات البهيجة رغم انك لم تعرف تاريخهما •
ارسم طفلا حافى القدمين ملوح البشرية ، صعد عاليا وجلس على
غصن الشجرة ينظر بعينين مدلهتين الى المدى غير المرئى •

أو ارسم صورة وسمها « المعلم الأول » • يمكن أن تصور
ديوشين حين كان ينقل الأطفال على ذراعيه عبر النهر ، وقد مر
به على افراس مطهمة نافرة أناس بله هازئون به عليهم عمرات
من فراء الثعالب •••

أو أرسم ديوشين وهو يودع التيناي عند ذهابها الى المدينة
فانت تذكر كيف صاح فى آخر مرة • أرسم مثل هذه الصورة
لكى تتجاوب فى قلب كل انسان مثلما تسمع التيناي صيحة
ديوشين حتى الآن •

هكذا أحدث نفسى • وكثيرا ما أحدث نفسى بأشياء •
ولكن لست دائما أوفق بشىء ••• وأنا حتى الآن لا أعرف أى
صورة سأرسم • ولكننى أعرف مقابل ذلك شيئا واحدا : اننى
سأبحث •

آفاق عالمية

الهيئة العامة لقصور الثقافة



القربان نرجس دلال

ترجمة : د. حماده إبراهيم

القربان
نرجس دلال
(الهند)

انطلقت السيارة ناشرة ضوضاءها فوق طريق وعر يغطيه
الحصى، وقد علت طبقة من التراب الأسمر أجنتها وغطاها
وسائر أجزائها التي كانت تتلألأ قبل قليل.. وامتدت الحقول
القاحلة الجرداء فى كل الجهات، فى أخاديد متكسرة، حتى
سفوح الجبال التى لفتها غلالة من وهج الحر.. غلالة خفيفة
كالدخان، مائلة إلى الزرقة .

ولم يكن السيد «تريانا» يكف عن التطلع - وهو فى جلسته
المريحة - إلى ما حوله من مناظر تلك المنطقة، لقد قام برحلته
هذه كى يرى بلاد الهند، وقد عقد العزم على أن يشاهد منها
بقدر ما أنفق على الرحلة.. فرأى المراعى الغنية والروابى
الخضراء فى الشمال، وشاهد مزارع الشاى فوق المنحدرات،
وزار بعض المعابد والأطلال، ورأى السدود التى أقيمت حديثاً،
وها هو ذا يرغب فى زيارة المنطقة التى تجتاحها المجاعة.. وكان
حريصاً على التقاط بعض الصور لبعض النسوة الهزيلات،
بأثدائهن المدلاة كالقرب، ولبعض الأطفال الذين ضمرت

أعضاءهم هزالا، وانتفخت بطونهم فى بشاعة تستحق التسجيل، فسوف ينشر هذه الصور فى صحيفته لدى عودته مباشرة.. ولسوف يكون لهذا دوى صحفى مثير، ومن ثم فقد حرص أن تكون الصور بالغة الدقة والوضوح .

أما ركاب السيارة الآخرون، فلم يبد عليهم أنهم يشاركونه قدراً يذكر من حماسه.. على أن هذا لم يكن ليعكر مزاج السيد «تريانا» على الإطلاق، فما من شئ يستطيع أن يصرفه عن غرضه، وكانت الحرارة تنقض عليهم - بلا هوادة - من خلال النوافذ الزجاجية المغلقة.. حرارة لا تكاد تطاق.. وكانت الأتربة تنفذ من بعض الشقوق الخفية - فى السيارة - فتنشر على جلد المقاعد الفاخرة .

وراحت صغرى السيدتين تجفف العرق من فوق جبينها، وهى مستلقية فى استرخاء على مقعدها الوثير، كانت ذات وجه نضير أملس، على الرغم مما تركه الإرهاق على ملامحها من علامات.. سوداء الشعر، يتراقص فى عينيها فيض من الأشعة الذهبية.. ولعلها كانت فى الثلاثين من عمرها ..

أما السيدة الأخرى - وهى شقيقة السيد «تريانا» فكانت أكبر سناً، وقد تهالكت فى أحد أركان العربى، فاغرة الفم،

متجهمة، تغفو فى نعاس مضطرب، وقد علتها طبقة رقيقة من
الأتربة غطت شعرها ووجهها، وعينيها، وتراكت فوق حاجبيها
وأهدابها.. وكأنها أحد مقاعد العربة .. ولم يكن يلوح عليها أنها
تدرك شيئاً مما حولها!

وأما السائق، فكان شاباً هندوكياً، ذا رسغين نحيلين مرنين،
وقد أمسكت يداه الرقيقتان، ببسر، بعجلة قيادة السيارة
الضخمة، وأخذتا توجهانها دون جهد واضح، وكان هو الشخص
الوحيد الذى لم يعان من وطأة حرارة الجو. ولقد كان يعمل
ضابطاً من قبل، وقد أعير للسيد «تريانا» طوال فترة الرحلة على
أن يقوم - فى نفس الوقت - بدور المرشد والمساعد، ولم يكن
يفتح فمه على الإطلاق، اللهم إلا ليشير فى عبارات موجزة إلى
ماهو مثير فى تلك المنطقة، من مواقع!!

ومال نحوه السيد «تريانا» قائلاً :

- اسمع يا «بريتام»! ابحث لنا عن ركن نستطيع أن نتوقف
فيه لتناول الغداء، أحب أن أصيب شيئاً من العظام .
وأوماً «بريتام» بحركة من رأسه توحى بأنه قد سمع، وإن لم
يحول عينيه عن الطريق ..

وأحنق ذلك السيد «تريانا» الذى لم يكن يحب الهندوكيين،

لاسيما الصموتين منهم.. كان ميالاً إلى الثرثرة، وكان قصير
القامة، ضخّم الجسم ذا عضلات قوية ثقيلة، نحاسى البشرة،
وكان شديد الزهو بإعلان جنسيته الانجليزية، لا يكف عن التلويح
بجواز سفر بريطاني ليؤيد دعواه.. وربما كان هناك خطأ ما،
فإن جواز السفر البريطاني - الذي كان السيد «تريانا» يحمله -
لم يحل دون أن تكون بشرة الرجل داكنة كبشرة «بريتام» أو أن
تكون عيناه صغيرتين سوداوين براقتين، أو أن يكون ذا شعر
طويل أسود، يلمع بفضل ما كان يعلوه من مادة «البريانتين»..
كان حريصاً دائماً على العودة إلى طرق هذا الموضوع ما أمكنه
ذلك، شأن من يريدون أن يؤكدوا انتماءهم إلى أصل مشكوك
فيه!! وما أشد ما كان ينتابه من حنين حين يتحدث عن «وطنه» -
بريطانيا- !! وتفوق هذا الوطن على غيره من الأوطان - كانت
الشعوب الملونة جميعاً - شعوب ذوى البشرة الصفراء
والنحاسية والأبنوسية - لا تعدو في رأيه أن تكون سلالات
زنجية اعتاد أن يختصها بمختلف أنواع الازدراء، وكان دائم
السخرية بكل ما يراه، وينتقده بلسان حاد.. وكم امتلأت بالغبطة
الخبیثة نفسه لكل ما كان يمر به من قرى يسودها الخراب
والجذب، حتى أنه كان يفرك يديه إعلاناً عن سعادته!.. ولعله كان

يتصور، وهو يحشر نفسه فى زمرة الأوربيين، أن باستطاعته أن يغير من لون بشرته وشكل عينيه!!

كان السيد «بريتام» - الضابط السابق بسلاح المدفعية يتساءل ساخراً عما عسى أن يكون مسقط رأس هذا السيد «تريانا». لعله ولد تحت سماء فى مثل زرقة هذه السماء، وفى مناخ أشد حرارة من هذا المناخ.. بيد أن «بريتام» كان حريصاً على أن يقف موقفاً سليماً، وكان ما يتمتع به من دماثة خلق يحمله على ألا يدع أية فرصة لإظهار ما كان يجد من تسلية وفكاهة فى مظاهر تعاظم السيد «تريانا» وادعائه!

وانحرفت السيارة الضخمة عن الطريق لتصل إلى تل كان يبدو - من بعيد - كأنه كومة من الأحجار. وهناك، اكتشفوا حصناً مهجوراً، يستطيع المرء أن يجد بداخله ملاذاً من وطأة الشمس، وأن يعثر فيه على مكان رطب تستريح فيه النفس من شر هذا الهجير !

وخرج الجميع من السيارة يتمطون فى اغتباط لأول مناسبة سنحت لهم للحركة.. وتناعبت الفتاة، ورفعت ذراعيها.. فوق رأسها، كقطة صغيرة كسول، وأخذ السيد «تريانا» - الذى لم يكن يحول عنها عينيه - يمرر طرف لسانه فوق شفثيه

الغليظتين، ويدنو منها ليمسك بذراعها العارية بين أصابعه الضخمة.. ثم قال لها فى تـلطف: «أسرعى إلى الظل يا هيلين!». وقرص ذراعها، وهو مستمر فى مزاحه : «كيف نصبح، إذا أصابك بضربة شمس .. هه؟».

وابتعدت عنه الفتاة فى فتور، ودخلت إلى الحصن وراء السيدة الأخرى، الواضح أنها لم تكن تحب السيد «تريانا» ولكن كونها مرافقة السيدة - «جوردان» شقيقته - كان يحتم عليها أن تحتـمل الكثير مما لا يروقها منه.. ولكن الوقت كان قد فات للندم على ذلك .

وتوقفت خلفهم عربة نقل صغيرة، كانت تتبعهم على مسافة كافية، ونزل منها خادمان وأخرجوا منها سلالا، وبسطا بعض المفارش، وأعدا المائدة فى حرص ومهارة ينمان عن خدم مهذبين مدربين .

ومالبثت السيدة «جوردان» التى ظلت أثناء هذه الاستعدادات صامتة، وإن راحت تتأمل الغداء بعين نهمة - أن انقضت على كومة الشطائر بيد مثلهفة، وراحت تلتهم منها بنشوة وشره.. بينما كانت «هيلين» ترقبها بشعور من الشفقة والاشمئزاز، وانتحى «بريتام» جانبا، وقد بدا على سجيته، فى قميصه الأزرق

نى الياقة المفتوحة.. وتجلى على وجهه ذلك التعبير الذى ظل يلازمه، والذى كان ينم عن البرود واللامبالاة، وكأنه كان يرجو بذلك أن يقيم حاجزاً بينه وبين الآخرين .

لم يكن السيد «تريانا» يكف عن إثارته طوال فترة الرحلة، وقد ظل يضايقه بالملاحظات المخرجة عن عادات الشعب الهندوكى ومعتقداته، ولكن «بريتام» ظل - من ناحيته - ثابت الجنان لا يتأثر، وكان موقفه هذا مما أثار حيرة «هيلين»، فقد كان عدم اكترائه يحنفها تارة، ويحملها على الإعجاب به - تارة أخرى - لما كان ينم عنه من سيطرة على النفس.. سيطرة تفوق كل تصور! وقد دفع هدوء «بريتام» السيد «تريانا» إلى ذروة السخط، فصاح فى النهاية يعلن بازدراء :

- بلد رائع !! يمكن أن يقال إنكم قد بلغت درجة من النضج تؤهلكم للتمتع بالاستقلال.. أو بتعبير آخر، يمكن أن يقال إنها تبيع لكم الحق فى أن تموتوا جوعاً فى سلام.. دون أن يؤذن لأحد بالتدخل فى شئونكم !

ولكن «بريتام» ظل على صمته.. وهنا انتابت السيد «تريانا» نوبة حنق بارد، وكأنما عقد العزم على أن يفعل أى شئ من شأنه أن يحدث استجابة لإثارته.. كان يريد أن يرى الغضب

يزيح ذلك القناع - الذى لم يكن يملك أن ينفذ خلاله إلى مافى
نفس الرجل - ويصبغ هذه البشرة السمراء بحمرته، ويشعل
الشرر فى هاتين العينين اللتين كان هدوء نظراتهما أسوأ أثراً
من الإهانة، لذلك طوح بذراعه فى اتجاه القرية القاحلة، وفى
اتجاه الأرض التى كانت تتشقق جذباً تحت الشمس قائلاً :

- فيضانات، مجاعات، فساد، رشوة، زيادة فى السكان،
نتيجة رائعة!.. هه؟ إن أحداً لم يستطع - منذ غادرنا هذه البلاد
- أن يفرض أى قدر من النظام.. ليس لديكم من معنى كلمة
الحكومة سوى الثروة الفارغة ينساق إليها بعض الساسة الذين
أسكرتهم نشوة السلطان! .. كيف تجرؤون على الاشتراك فى
جلسات مجلس الأمن؟.. كيف تتأتى لكم القحة لتقدموا للعالم
النصائح والتوجيهات.. أنتم يا من تتخبطون فى أبشع ألوان
الفوضى؟.. يالها من وقاحة لا تطاق، أن يندفع أناس فى إبداء
النصح والدعوة للنظام، وهم لا يعرفون كيف يوجهون دفة
أموالهم!

وفى لمحة خاطفة كأنها وميض البرق، لاح أن «بريتام» يوشك
أن ينقض على السيد «تريانا» فيقبض بأصابعه الطويلة على
عنقه، ويضغط بكل قواه.. ولكن يديه المتوترتين ارتدتا بسرعة،

وقال بلهجته الإنجليزية التي لاتشوبها شائبة :

- أظن أن وقت الرحيل قد حان، إذا أردنا أن نصل إلى
«الشاليه» قبل حلول الليل!

وكانت السيدة «جوردان» تنقل بصرها بين الرجلين، والقلق
يرسم على وجهها تعبيراً يزيد من معالم البلاهة التي تملو
أساريرها.. ومالبثت أن قالت بلهجة تنم عن التوفيق والمصالحة:

- سيد «بريتام» أليس عندك من معلومات مثيرة تود اطلاعنا
عليها، بشأن هذا الحصن؟

وتطلع إليها «بريتام» ثم ابتسم قائلاً :

- إنه ليس سوى حصن قديم بلا تاريخ.. على أنه من
المعلومات الطريفة أن لدى القرى المجاورة عادة جديرة بالذكر،
تتمثل فى أن يقدم السكان إلى إله المطر قرايين بشرية.. وبما أن
القانون - فى أيامنا هذه- يحرم بالطبع مثل هذه العادات، فإن
كثيرا من الفلاحين - من سكان المنطقة - يعتقدون اعتقاداً
راسخاً، أنهم ما كانوا ليوажوها هذه المجاعة لو أنهم قدموا إلى
إله المطر قربانا!

فأطلقت السيدة «جوردان» صيحة خفيفة، تنم عن الانفعال
والرعب، وهتفت:

- أتعنى أنهم كانوا يتقربون إلى ألهتهم بمخلوقات بشرية
حقاً !

وأردفت هيلين قائلة : «يا إلهى ! .. هذا غير معقول!؟»
فhez «بريتام» كتفيه، وهو يجلس إلى عجلة القيادة، وقال:
- عجباً!.. هذه ليست سوى وسيلة من الوسائل لمواجهة
الأمور. إنهم يضحون بكائن بشرى فى سبيل إنقاذ حياة المئات
من الآدميين.. وفى الوقت ذاته، نحن هنا نرى أن من البشاعة
إرسال الناس إلى بلد أجنبى بهدف قتل أناس آخرين لايكونون
لهم شيئاً من العداء! .. وعلى أية حال، فإن هذه العادة قد
انقرضت منذ عهد بعيد .

وصرخ السيد «تريانا» بلهجة غاضبة :
- هل تتناول فتقارن تلك الشعائر الوحشية، التى تؤديها
قبيلة بدائية جاهلة، بالحملات التى تنظم تنظيماً دقيقاً فى
الحروب الحديثة ؟

وقال «بريتام» فى نفسه، وقد بلغ به الضيق مبلغه :
«هاهو ذا يعيد الكرة!» ثم بذل جهداً جباراً للسيطرة على
نفسه .

كانت السيارة تسير ببطء فى طريقها المرسوم، فصرف ذهنه

إلى تأمل روعة الآلات الحديثة.. فقد لاتواتيه الفرصة - بعد اليوم - ليقود سيارة لها مثل هذه الروعة والمرونة. وراح - وهو مقطب الجبين - يركز كل اهتمامه على الطريق.. ترى بالله، ماذا سيتاح لهذا الكائن المترهل أن ينشر فى صحيفته؟

كانت الحقول العارية- التى ألهبتها الشمس وأجذبته - تتتابع فى خط واحد، على مدى البصر.. وعلى مسافات متباعدة، كانت الأبصار تلتقى عند هيكل شجرة وحيدة، تمتد أغصانها إلى السماء، أو بمجموعات صغيرة من الأكواخ المتناثرة، عبر تلك المساحات المترامية الموحشة.. ولكنها لم تكن تقع على كائن بشرى، وكأنما لم يقدر لمخلوق من الأحياء أن يخاطر ويتوغل فى هذه الصحراء .

وأخيراً بلغوا «الشاليه»، وعند عتبة الشرفة ظهر كهل بادى النعاس، وراح يتأمل السيارة الفارهة وركابها فى بلاهة.. كان المسكن نموذجاً لماوى كلاسيكى: أثاث عتيق تغطيه الأتربة ويخيم عليه نسيج العنكبوت، وحشيات يسمع صرير زنبركاتها المحطمة، وأسرع القوم ينشرون الملاءات النظيفة قبل الشروع فى اتخاذ الترتيبات الخاصة بوجبة المساء .

وأقبل على المكان بعض الأهالى الشاحبين، النحاف، فى

أسمال بالية وقد اجتذبتهم أنوار المصابيح والضوضاء والحركات غير العادية، فراحوا يحومون حول «الشاليه».

وكانت هيلين أول من رآهم، فأطلقت صيحة قصيرة، تنبه بها رفاقها. ولحوا بعض الأطفال.. كائنات صغيرة تثير الشفقة، إذ ضمرت أعضائهم، وانتفخت بطونهم، وراحوا يتأملون الغرباء بنظرات ثابتة، لا تشير بشئ..

نظرات كانت تنبعث من عيون واسعة، ذوى بهاؤها !
وغمغمت «هيلين» وقد غص حلقها: «أواه!... يا للصغار المساكين!. لكن السيد «تريانا» أخذ يفرك كفيه، وقد بدت عليه علامات الاغتياب .. وقال :

– أنا على يقين من أنني سأحصل على ما أبتغيه من صور مثيرة!

(والتفت إلى بريتام «قائلاً»: «اخبرهم بأننى أريد أن يحضروا غداً، لألتقط لهم بعض الصور، وقل لهم أن يحضروا معهم أنحف نساء المنطقة وأشدهن ضموراً .. نسوة يعطين الإحساس بالموت جوعاً!.. إنك تفهم ما أعنى.. قل لهم سامنحهم «بقشيشاً طيباً» !

ونطق «بريتام» ببعض الألفاظ السريعة مخاطباً أكبر الرجال

سناً، فاتجهت نظرات الشيخ إلى السيد «تريانا» وظل يتأمله
محدقا فيه لحظات طويلة حتى اضطرب السيد «تريانا» وأحس
بالارتباك، فأخذ يردد: «ماذا أصابه! ألم تفهم؟ أم ماذا؟»
ودمدم المواطن مخاطباً «بريتام» بشئ ما، فقام هذا بترجمة
حديثه .

- صباح غد، عند شروق الشمس، عليك أن تذهب إلى
أكواخهم وسيعرض عليك هؤلاء القوم كل ماتحب أن تراه.. هل
تحب أن توجه أسئلة أخرى ؟

فقال «تريانا» بلهجة مفعمة بالاغتياب: «قل لهم إننى أحب أن
أشهد عملية تقديم قربان بشرى ما!.. وراح يطلق قهقهة
صاخبة.. فرمقه «بريتام» فى صمت أخرس ضحكته فى حلقه،
بينما تسلل الأهالى فى طيات الظلام .

وعندما أعد العشاء، اتخذ أفراد الجماعة الصغيرة أماكنهم
إلى المائدة، كانت وجبة رائعة، تشهد بما لصناعة الأغذية
المحفوظة من أفضال.. وتناولوا بعدها أكوابا من القهوة
المسكرة، الممزوجة باللبن .

وكانت «هيلين» - خلال الغداء - تأكل بطرف شفيتها، وحين
رفعت عينها، لاحظت أن «بريتام» لم يمس أى طبق من الطعام،

بل انصرف إلى احتساء قهوته فى رشقات صغيرة، غافلاً عما حوله، وقد شردت نظراته بعيداً من فوق رؤوس الموجودين.. وكانت السيدة «جوردان» تشعر بالقلق، فأخذت تقضم الطعام دون إقبال عليه، وهى تتلفت نحو النوافذ - من أن إلى آخر - بنظرات قلقة، تسائل الظلام الذى كان يلف «الشاليه»، كأنها تخشى ظهور عينيّن لامعتين فى وجه هزيل !

أما السيد «تريانا» فأخذ يأكل بارتياح تام، متذوقاً كل الأصناف، مجففاً شفثيه بمنشفة ناصعة البياض، ملتهماً كميات ضخمة من الطعام .

وعندما بدت طلّائع الفجر الجديد، كان السيد «تريانا» على أهبة الاستعداد.. وكان الجو ينذر بيوم قائلّ الحرارة، والسماء شديدة الزرقة، وعلى البعد، كان الناظر يميناً يلمح مجموعة من الأشجار قرب بئر جافة، وكانت الأبصار ترتد دائماً إلى هذا المكان، تجذبها إليه قوة خفية لا سبيل إلى مقاومتها .

وقام السيد «تريانا» بإعداد آلة التصوير، وعلقها إلى عنقه بسير من الجلد، ثم قال: - «حسنًا! .. قم معى يا «بريتام»!

وأجاب «بريتام» فى برود : «كلا .. لن أذهب!»..

ولو أن أحداً رأى السيد «تريانا» - إذ ذاك - لخليل إليه أنه

لن يلبث أن يصاب بسكتة قلبية. وكرر الشاب بنفس لهجة اللامبالاة، قوله: «لن أذهب! إننى أتقاضى أجرى لأريك البلد فحسب!.. وهذا هو كل عملى».

مكث السيد «تريانا» مسمراً فى مكانه، وقد أخرسه الذهول، وغاب عن وجهه كل إشراق.. وكان الجهد - الذى راح يبذله كى يكتم غضبه - يزد من انتفاخ شرايين أوداجه، ثم وضع قبعته فوق رأسه دون أن يضيف كلمة واحدة، وسط الضوء الباهر الذى كان يغمر السهول .

وانقضت عليه حرارة الجود دفعة واحدة، فى قسوة لا ترحم، ولكنه لم يعرها أى اهتمام.. كان الحنق والسخط يهدران فى داخله!.. وكانت الأرض الوعرة تحيل سيره تعثراً، والمحصولات القليلة توشك - تحت لفح الشمس - أن تذبل فى حقولها، وكان مجرى النهر قد جف من أمد بعيد وتراكت فيه الرمال، وأخذ السيد «تريانا» يتعثّر فى مشيته - من وقت لآخر فيتناثر السباب خافتاً مكتوماً من بين أسنانه، وشعر بأن ثيابه - على رقتها - ثقيلة لا يطيق تحملها مع حرارة الجو، فقد أخذ العرق يتفجر من جسمه غزيراً ويملاً سترته بقعاً مبتلة، وعلى مقربة من القرية، أخرج من جيبه منديلاً مضمخاً بالعطر، فجفف به وجهه .

كان ثمة رجال ونساء راقدون أمام الأكواخ، أو على عتبات الأبواب، وكأنهم غابوا فى سبات مخيف.. ولم يكن من اليسير - لأول وهلة - أن يميز الإنسان بين الشبان منهم والشيوخ من فرط ما فعل العذاب والجوع بوجوههم .. ولم يأت أحدهم بأدنى حركة، عند اقتراب السيد «تريانا»، وإن بدت عيونهم جاحظة، محمومة، وقد اتجهت نحوه، تحملق فيه!

واتخذ السيد «تريانا» ألطف مظهر له، إذ كان بإزاء موقف فريد تماماً، وكانت سحنهم تبعث على الدهول، يالها من مجموعة صور مثيرة سيحدث نشرها فى صحيفته دويماً هائلاً!

وفى رقة مصطنعة، مال السيد «تريانا» على سيدة شابة منبطحة فوق التراب، شبه عارية، وهى تحتضن طفلاً وليداً، وازداد السيد «تريانا» انحناء عليها، وأخذ ستفحص الطفل بعناية.. كان ميتاً! .. وكان لا يزال فاغراً شفثيه، وكأنه كان يصبر - حتى بعد الموت - على طلب الزاد!

ووضع السيد «تريانا» يده الغليظة فوق كتف الأم الهزيلة البادية العظام، كل ما كان يبغيه هو أن تخرج الأم من منطقة الظل، كى يلتقط لها صورة فوتوغرافية، ولكن حركته فجرت فى ذلك الجو الساخن ما يشبه الصدمة الكهربائية، فتراجع إلى

الوراء خطوة وتطلع إلى مايدور حوله! ..

كان الرجال والنساء جميعاً قد نهضوا فى حركة واحدة مرنة، وفى صمت، كأنهم أشباح فى كابوس مزعج.. كانت المساكن قائمة على ثلاثة أضلاع من منطقة مربعة.. أما الضلع الرابع، فكان المخرج الوحيد من القرية.. وعند هذا المخرج تجمع القوم كشخصيات فى إحدى «الرقصات» الأسطورية، فقطعوا بذلك خط الرجعة على السيد «تريانا».. وأخذوا يتقدمون نحوه فى صمت رهيب! .. ورأى السيد «تريانا» عشرات النظرات المتقدة المسطرة عليه .. نظرات تنم عن تصميم لايرد.. ومضوا يقتربون، ويقتربون، ويزدادون اقتراباً !

وسرت فى أوصاله رعشة رعب.. وراح يتراجع - وقد استسلم للخوف - بدافع غريزى - حتى أحس بجدار ساخن خلفه، فاستند إليه، محال أن يمضى إلى أبعد من ذلك! ومن كل الجهات حوله، ظلت ترمقه عيون قريبة، يصلية بريقها ويحطمه.. عيون داكنة فى وجوه داكنة، غامضة، قاسية ملتهبة .

هاهو ذا يشتم رائحتهم!.. كان كمن يترقب نهايته، دون أن يأتى بمجرد حركة يدافع بها عن نفسه، وبيد مرتعدة، فتح سترته، وأخرج من جيبه حافظة منتفخة بأوراق النقد.. وتلعثم

قائلاً ، وهو ينزع حفنة من الأوراق المالية التى بسطها :

- خذوا ! .. هذه لكم !!

وسقطت الأوراق من يده وديست بالأقدام ، وأجهز هذا
الاحتقار - الذى قوبل به المال - على أعصابه وحطمها نهائياً ،
فانهار.. وصرخ : « النجدة »!

ولكن صوته ارتد إليه مرتعشاً ، بالغ الضعف !

- النجدة ! النجدة!

العيون .. الوجوه .. كل شئ ضده!.. وبغته برزت أطراف
الخاجر تومض شرراً تحت أشعة الشمس ، صرخة مكروب ،
حادة ومتصلة!.. وفى السماء ذات الشمس الحارقة ، شرعت
العقبان تحوم.. بلا عجلة ، بل فى هوادة .

وفى « الشالية » انقضى النهار ببطء ، ولم يظهر السيد « تريانا »
وقت الغداء ، ولكن أحداً لم يسرف فى القلق عليه ، وإن كانت
دقات الطبول الأولى قد أثارت فى نفوسهم شعوراً غامضاً بعدم
الارتياح.. إذ كانت دقات الطبول تتصاعد - وسط وهج القیظ -
بطيئة فى البداية ، كأنها وجيب قلب هامد ..

ثم أخذت تزداد سرعة وشدة ، حتى أصبحت تدوى بوحشية
ضارية.. وسرعان ما امتلأ الجو كله بهذه الدقات الطافرة ،

يصاحبها ترنيم رتيب، رهيب!

وتناهت كل هذه الضوضاء إلى الجالسين فى «الشاليه» فأخذ
تتابعها السريع يلقى فى قلوبهم رعباً لا سبيل إلى وصفه!
وحينما قرروا - أخيراً - أن يخرجوا للبحث عن السيد
«تريانا»، وجدوا الطبول تحاصرهم من كل اتجاه.. شعروا بها
أمامهم، وخلفهم.. وكانت تدور، وتدوى، فى نشوة عاصفة بدائية
هوجاء!

ولم ير أحد السيد «تريانا» بل اصطدمت أبصارهم بوجوه
خاليه من كل تعبير.. وجوه جامدة، لا سبيل إلى النفاذ إلى ما
وراءها.. وكأنما أصيب أهل القرية بالعمى، فلم يكونوا
يبصرون.. وبالصمم، فلم يعودوا يسمعون !

ولم يلح الأغراب فى سؤال القوم.. وكانت بهم حاجة إلى
السؤال. إذ إن المخاوف التى خامرتهم، سرعان ماتجسدت أمام
أبصارهم.. جسدها منظر الطيور السوداء تحوم فى السماء، ثم
تحط على مكان قريب.. وسعوا إلى ذلك المكان، فانزعجت الطيور
الجارحة، وطارت.. وتبين الأغراب أنها كانت تحط على جثة
السيد «تريانا».. والحق أنهم لم يتعرفوا على الجثة إلا بالحدس..
أو ما يشبه الحدس!

ودثروه فى ملاءة بيضاء، ورفعوه إلى السيارة النقل الصغيرة.. وكانت السيدة «جوردان» تنن بصوت واهن مبجوح.. وراحت «هيلين» تتطلع، وقد نضبت دماء وجهها - إلى «بريتام» وكأنها تهم بأن توجه إليه سؤالاً ما.

ولم يكن «بريتام» قد فقد شيئاً من هدوءه، مما مكنه من أن يعجل باتخاذ التدابير للرحيل ..

وعندما هموا بمغادرة المكان، بدأت الأمطار تهطل.. نقاطاً ضخمة ثقيلة، وأخذت تزداد غزارة، حتى تحولت إلى سيل تدفق فوق سقف السيارة، بينما كان قصف الرعود يتتابع فى هدير! وتطلع الثلاثة الذين كانوا فى السيارة، كل إلى الآخر، فى صمت ..

ومن خلال خيرير المياه المتدفقة، وهزيم الرعود، ظلوا يسمعون دقات الطبول المنتصرة، الظافرة، وكأنها تنبعث من أحشاء الأرض ذاتها.. الأرض الجائعة، التى أخذت قوتها تعود إليها من جديد، فى تلك اللحظات.

آفاق عالمية

الهيئة العامة لقصور الثقافة



الجسر المعلق توى آن هوانج

ترجمة : د. حماده إبراهيم

الجسر المعلق
توی آن هوانج
(فیتنام)

كانت طلقات النيران قد اقتربت من جميع الجهات.. وفجأة،
اقتربت بها انفجارات عنيفة تصم الآذان، لا يعلم مصدرها إلا
الله. أما سكان القرية الذين لم يرحلوا بعد، فلم يجدوا وقتاً
للتفكير أو الجدل.. فسرعان ما أصبح صخب فرارهم الجنونى
يتردد فى جميع الطرق المفضية إلى خارج القرية الصغيرة،
والرعب والكرب يضاعفان صراخهم: «لقد أصبحنا فى قلب
النار... لقد زحفت إلينا الجبهة». واندفع بعض الذين سمعوا
آخر الأنباء - عند مدخل القرية - يسرعون إلى بيوتهم، ليحملوا
منها كل ماتصل إليه أيديهم .

وبقى بعض منهم فى المؤخرة، ليساعدوا المسنين، وليحملوا
الأطفال... وكدست النساء فوق ظهورهن ما كانت تضمه بيوتهن
الفقيرة من أمتعة، بينما حمل الرجال على أكتافهم أدوات
الزراعة وألاتها.. وراح الجميع يتدافعون فى عجلة - فراراً من
القرية المهددة دون أن تكون لدى واحد منهم فكرة محددة عن
الوجهة التى يقصدها... فكانوا ينضمون - بلا وعى أو إرادة -

لأكثر الجماعات الهاربة عدداً، دون أن يعطوا لأنفسهم فرصة ليسألوا: من أى نواحي الجبهة ينبعث ضجيج المعركة؟... وإلى أية مسافة من القرية وصل المحاربون؟... كان كل همهم أن ينطلقوا فى فرارهم مسرعين، حاملين، أبناءهم وزادهم وأمتعتهم.

وبدا أن الطلقات كانت تنبعث من كل ناحية، وفى وقت واحد، تصحبها جلبة وسائل النقل التى كانت تتناهى إلى أسماع القرويين، فكانوا يحسون بها - أكثر مما كانوا يسمعونها - إذ كانت تزلزل الأرض تحت أقدامهم... وفى تدافعهم واضطرابهم، كان بعضهم يسقط فوق البعض الآخر، وكان الأزواج يفترقون عن زوجاتهم، والأمهات يفصلن عن أولادهن... فتنصاعد النداءات الملتاعة الملهوفة... وكلما قطعوا شوطاً، انضم إليهم فريق جديد، يضاعف ذعرهم بما يحمل من أنباء :

- لقد بلغوا الجسر ... لديهم مصفحات ... إنهم يطلقون النار على القرية .

وتأكيداً لهذا الخبر الأخير، مرقت فوق رؤوس النازحين- وهم مصطفون على ضفة النهر. مجموعات من القنابل القاصفة، فانبطحوا جميعاً على الأرض. وأطلقت النسوة عاصفة من

الصراخ والعيول :

- لقد أحاطوا بنا!... لقد حوصرنا! ... يجب أن نعبر النهر،
فهذه هي فرصتنا الوحيدة للنجاة .

وفى حركة واحدة، اندفع المهاجرون نحو حافة النهر، وقد
تركوا مناجلهم وأدواتهم وما كان يضايقهم حملة من حزم...
والكهول منهم يتننن، والأطفال يبكون، وبوت من إحدى النساء
صرخة ملتاعة، فارتفع صوت رجل يقول: «أغلِقن أفواهكن أيتها
النسوة!... إنهم إذا سمعونا فسيقصفوننا بالقنابل، فيمزقونا
إرباً إرباً». وإزاء هذا التحذير، كتم الكهول أناتهم، وأخذت
الأمهات يسكنن أبناءهن ويلصقن راحاتهن بأفواههم.

وعلى طريق الجسر، أخذت ضوضاء المصفحات تدنو مختلطة
بطلقات الرصاص، تعزف موسيقى الموت.. واستمر الضجيج
الرهيب فى الاقتراب والارتفاع .

ولكن الذين بلغوا ضفة النهر - أسفل طريق الجسر - لم
يلبثوا أن هدأوا وكأنهم أيقنوا أنهم بلغوا- فى النهاية - مأوى
آمناً.. وعادوا يلتقطون أدواتهم وأمتعتهم التى كانوا قد ألقوها
أرضاً.. وأسرع الأقوياء من الرجال إلى قواربهم المستديرة -
الشيبيهة بالسلاسل- فشرعوا ينقلون الهاربين، ويجدقون بكل ما

آتاهم الله من قوة .

وفى لحظة وجيزة، كانت القوارب قد غصت بالشيوخ والنسوة اللاتى حملن أطفالهن على أكتافهن.. أما الشبان، فاندفعوا إلى الماء، يعبرون النهر سباحة، وأفرد القارب الأخير للأمتعة التى لم يلتقطها أصحابها... وحين أصبحت القوارب فى عرض النهر - وهى تتمايل باضطراب ينذر بالخطر - أخذ العابرون يرتجفون خوفاً، إذ فطنوا إلى أنهم أصبحوا فى منطقة مكشوفة، مما يجعلهم هدفاً سهلاً للقنابل... ولم يجرؤ أحد على الالتفات نحو القرية الصغيرة أو الشاطئ الذى وقف عنده من لم تتسع لهم القوارب، ينتظرون دورهم فى العبور، وهم نهب للرعب خشية أن يصيبهم العدو، قبل أن تعود إليهم القوارب... ولكن المجدفين راحوا يجدفون فى استبسال مستميت، فعادت القوارب مرات... وعندما تمت آخر رحلة عبر النهر، وتم نقل جميع الأمتعة إلى الضفة الأخرى، استرد الهاربون هدوءهم، وانبطحوا على الأرض، يرسلون أبصارهم نحو القرية التى هجروها إلى غير عودة .

* * *

كانت سماء القرية تتوارى فى سحب من دخان أسود تمزقه

من حين لآخر ألسنة اللهب وأخذت أعمدة الدخان وألسنة اللهب تتماوج وتتلقى كالأفاعى المذعورة.. وامتدت الحرائق من أحد أطراف القرية، حتى بلغت المباني الرئيسية فيها، ثم تشعبت فانتشرت فى كافة الأنحاء، واجتاح الدخان كل شىء... وحملت الرياح الرماد إلى ضفة النهر، ثم عادت به إلى الضفة الأخرى لتصفع به وجوه الهاربين الذين التصقوا بالأرض فى ألم وذ هول، وقد سمرتهم إليها فجائية الأحداث والدمار .

ومسح أحد الرجال وجهه الذى كساه الرماد، ثم أخذ يصرخ، وهو يحدق فى يده: «انظروا.. ثمار كل تلك السنين من الجهد والعناء، تتلاشى فى الدخان... أهذا مصير العمل الدائب والحرمان؟ يا إلهى!!»

وسمع كل امرئ هذه الحسرة، فكأنما كانت إشارة بدء، إذ أخذت الدموع تسيل من العيون... وأفلتت من الرجال زفرات أسى .

ولكن أحد المبرزين فى القرية، صاح بصوت قوى: «إن المصيبة مصيبة الوطن بأسره، فلا تعتقدون أن منازلكم وقريتكم وحدها هى التى أصابتها النيران».

وبينما هو يتكلم، صرخ أحد الموجودين: «انظروا. هناك، رجل

على الشاطئ... ومعه ثور».

واتجهت الأبصار جميعا إلى الضفة المقابلة... كان هناك رجل حقاً، لاح خلال الدخان وهو يقود ثوراً، ويسير فى خط متعرج، كأنه كان يحاول تفادى الضربات التى كان يوجهها إليه خصم متوار عن الأنظار .

وعرف القرويون الرجل.. إنه «ترونج به» وثوره... وراحوا ينادونه، ويحيطون أفواههم براحتهم، حتى تتضخم أصواتهم وتبلغ الشاطئ الآخر للنهر، ولكن... أكان من الممكن أن يسمع نداءاتهم وسط ضجيج القنابل والمفرقات والمصفحات وطقطقة الأخشاب وأعواد الغاب المشتعلة ؟

ولوح «ترونج به» بيده. ثم شد الحبل ليقود الثور إلى منحدر يفضى إلى حافة النهر. ولكنه مالبث أن غير اتجاهه فجأة، ولاح أنه أراد أن يحتمى خلف جسم الحيوان، وفجأة، أنزل يديه وألصقهما ببطنه، بينما انتفض الثور جامحاً، وأفلت وانطلق مترنحاً، وكأنه أصيب هو الآخر... وأيقظ هذا المشهد الذعر بين القرويين من جديد، وأيقنوا أن الخطر يلاحقهم، فانطلقوا يجرون على غير هدى، مندفعين نحو مزارع الأرز التى جفت لطول ما هجرها أصحابها .

من خلال أحراش الغاب، تراءت - أخيراً - منازل سمراء
وحمراء... تلك كانت طلائع منازل قرية «نكون»، وقد بدت بمتانة
بنيانها ميناء أو مرفأ يلونون به من الموت الذى كان يلاحقهم من
ضفة النهر الأخرى.

وأخذوا يركضون إلى «نكون» بأقصى ماوسعهم من سرعة،
وقد تقطعت أنفاسهم، وتصيب عرقهم انصباباً.. وكان القادرون
يأخذون بأيدي المسنين، ويجرون وراءهم الأطفال.. ولكنهم، وبعد
أن عبروا نحو اثنتى عشرة مزرعة، فوجئوا بجماعة أخرى من
الهاربين تبرز من أحد الأدغال إلى يمينهم ..

وخيل إليهم أنهم ينظرون إلى صورتهم فى مرآة: كان
الآخرون مثلهم، جمهرة من الناس مثقلين بالأثوات والحزم،
يفرون والموت فى أعقابهم.. فمن الجانب الآخر للدغل، كان ثمة
خط النيران، تنطلق من ورائه القنابل كثيفة مركزة، وصاح
شخص ما: «إنها عملية تطويق، فهم على جانبي النهر... كيف
السبيل إلى النجاة؟»

وأدرك الفارون أنهم وقعوا بين نارين، بعد أن ظنوا أنهم قد
بلغوا ملجأ أميناً، فى قرية منعزلة عن المعركة.

كيف السبيل إلى النجاة ؟

وتجمدوا فى أماكنهم، لايدرون إلى أين يذهبون.. وأخذت حلقة النيران تضيق من حولهم فى كل لحظة... وازداد ارتفاع قصف المدافع، وهى تقترب من ناحية «نكون».

وانبعث من الفريق الآخر من الفارين صيحات التحذير :

– اتبعونا، فنحن على دراية بكل الطرق..! إننا نيمم شطر (بين دا)، لنختبئ فى الجبال.

وعانوا إلى الجرى، يحاولون اللحاق بالجماعة الثانية .

* * *

أخذت حدة الشمس تخف فوق مزارع الأرز، وهدأت حرارة الجو.. ولم يجرؤ أحد من القرويين على التوقف، بالرغم مما أصابهم من إرهاق، بل إن أحداً لم يعد يحفل بأثنين الشيوخ وعويل النسوة والأطفال.. واستمر الجميع فى هرولتهم خلال السهل المقفر، المتراعى.. وزاد الطين بلة، أن أخذت السحب المنخفضة تتكاثف ثم تساقط المطر مصحوباً ببرد قارس.. ولكن، ماذا يهم المطر والبرد؟... لم يكن القوم يفكرون إلا فيما بقى من مسافة بينهم وبين الملاذ الآمن .

ولما كان القادمون من «نجين» يجهلون موقع «بين دا»، فقد

كانوا يسألون العارفين، فيجيبونهم:

- لا تزال المسافة بعيدة.. هناك جسر معلق فى الفضاء، فوق
مجرى مائى عندما تجتازونه، تكونون قد وصلتكم إلى مقاطعة
«بين دا».

ومالبث الجسر الصغير أن لاح - خلال ستار المطر وضباب
المساء - وكأنه يطفو فى الهواء، وعوارضه الرقيقة، المصنوعة من
الغاب،، تتأرجح وسط الرياح بشدة تنذر بالخطر ..
والليل يهبط مسرعاً، والسماء محجوبة بسحب سوداء كثيفة،
ينعكس عليها وهج النيران.. فكأنما السماء وحش خرافى
مرعب، ينبعث منه دخان ولهب .

* * *

وازدادت معالم الجسر وضوحاً، فابتسم بعض الهاربين، وقد
أخذت الطمأنينة تخالجهم. كان قصف القنابل لا يزال مركزاً،
ولكنهم شعروا بأنهم تجاوزوا نطاق الخطر.. وراح بعض المسنين
يلهجون بالدعاء، وعيونهم معلقة بالجسر المتاخم للحدود.

* * *

على أن الحيرة عاودت القوم، عندما بلغوا الجسر المعلق.. لم
يكن مجرى الماء واسعاً، ولكن كان بالغ العمق... وكان التيار

سريعاً وقويّاً، والمسافة بين أسفل الجسر وسطح الماء لاتجاوز الشبر، ولم يثر بنيان الجسر عجب أحد. كان مكونا من سيقان من الغاب طويلة بعرض المجرى مربوطة من الطرفين ومرتكزة فوق مجموعات أخرى من الغاب، كل وحدة تتألف من ساقين على شكل صليب، غرست فى المياه لتكون دعامات... وكان ثمة سياج من الغاب المضغوط على جانبي الجسر، ليتكىء عليه العابرون، وفى غمرة القلق، انبعثت نوائح الفارين وتساؤلاتهم:

- والآن.. ألم يبق إلا أن نجتاز الجسر؟

- بلى. هذا أمر يسير على الشبان... ولكن... النساء والشيوخ والأطفال؟... وكيف تنقل الأمتعة فوق الجسر؟

وسأل أعيان القرية زملاءهم من قرية (نكون) :

- أما من طريق آخر لعبور النهر؟... ليس بوسعنا أن نظل هنا جميعا، فى انتظار أن يعبر القوم النهر واحدا واحدا، فوق هذا الجسر الضعيف .

وفجأة، وقع انفجار رهيب وراء القوم، على مسافة مائة متر تقريبا، فقطع الحوار. ونثر الوحل فوق رؤوس الهاربين، وتوالت الانفجارات... ولعل المدافع كانت تطلق قنابلها جزافاً من الشاطئ الآخر، ولكن الهاربين ظنوا أن العدو يصوب قذائفه

عليهم، فاستبد بهم الذعر، وعلا صراخهم، وغاص بعضهم فى الماء يحاولون اجتياز المجرى سباحة، وتدافع البعض الآخر نحو الجسر، فأخذ يهتز بعنف تحت ثقلهم ...

وبقيت قلة ضئيلة احتفظ أفرادها برباطة جأشهم، وراحوا يحاولون إقرار قسط من النظام، ويرفعون أصواتهم وسط الصخب والضجيج: «اعبروا الجسر فرادى.. واحداً واحداً، ولا تثقلوه، وإلا غرقتم جميعاً».

هذه التحذيرات كانت ستذهب دون تأثير، لو أن مجموعة أخرى من القنابل تبعت الأولى... ولكن القنابل انقطعت... غير أن الجسر كان مبعث خطر لا يقل عن خطر المقذوفات، إذ أخذ يهتز بشدة تحت الخطوات الملهوفة، وكأنه وشيك الانهيار، وما كان انهياره فى المياه السريعة الجريان - ليثير دهشة أو عجباً مع التزاحم والاضطراب .

وبعد أن عبر الجسر عدد من الأفراد، تقدمت إليه عجوز تحمل على كتفها عصا طويلة من الخشب، علقت فى طرفيها سلتين. وكان الليل قد لف المكان، فلم ير الرجل - الذى كان خلف العجوز- شيئاً من محتويات السلتين، وقال للمرأة:
- ألق بهذا فى النهر!... ستكونين سعيدة الحظ لو استطعت

العبور وحدك دون أن تتقلى الجسر بالسلتين.

وتشبهت المرأة بالسلتين فى اصرار، وقد رابها قول الرجل الذى لم تكن تعرفه. وكأنما أثاره إصرارها فهز السلتين بخشونة، وإذا بصراخ طفل ينبعث من احدهما، فصاح الرجل: «ماذا تحملين فيهما؟».

ورأى المحيطون بهما طفلاً - فى حوالى الثالثة أو الرابعة من عمره - قابلاً فى إحدى السلتين... بينما استغرق فى النوم - فى السلة الثانية - وليد صغير .

- يا الله !... كيف تريدين عبور الجسر بهذين الولدين؟
وأجابته السيدة فى جفاء:

- «سأفعل... لقد عبرت - من قبل - جسوراً أسوأ حالاً،
بأحمال أثقل».

وأخذ القوم يرقبون المرأة، بانفعال بالغ، وهى تتقدم ببطء فوق أعواد الغاب تحت ستار المطر الدقيق، الذى تخلله ضوء القمر الشاحب... كانت محاولتها ضرباً من المجازفة.. وقال بعض الحاضرين لأنفسهم، وهم يقدرّون الاحتمالات، «إن نجاحها فى بلوغ الشاطئ الآخر بسلام - لو استطاعت - فال حسن يبشر المهاجرين بأنهم سيبلغون قرية «يين دا»، دون خطر».

ولكن القنابل عادت تستأنف قصفها فجأة، وقد ازدادت
قرباً... وقبل أن يجد أحداً فرصة للانبطاح فوق الأرض،
انفجرت قنبلة وسط الجموع المتزاحمة أمام الجسر. وفي غمرة
الاضطراب الجنوني، أخذ الكثيرون يلقون بأنفسهم فى مجرى
الماء، بينما تدافعت أعداد كثيرة نحو الجسر .

والتفتت السيدة خلفها بعد أن بلغت منتصف الجسر، وقد
شل الذعر حركتها، وتشبثت بكل قوتها بسور الجسر الذى بدأ
يتأرجح فى عنف بسبب تدافع الفارين، وفجأة مالت إحدى
السلتين ميلاً شديداً، فاختل توازن العصا فوق كتفى السيدة
فسقطت مع السلتين فى الماء .

وضاع صراخ الأم وعويلها وسط ضجيج الناس وقصف
القنابل .

إبداعات عالمية

قصص

مختارة من أوروبا

برتولت برشت

دائرة الطباشير الأوغسبورغية

إعداد وترجمة

بو علي ياسين



دائرة الطباشير الأوغسبورغية

في زمن حرب الثلاثين^(*) كان هناك بروتستانتى سويسري اسمه تسينغلي يملك مدبغة كبيرة مع متجر للجلود في المدينة الملكية الحرة أوغسبورغ على نهر الليش. كان متزوجاً بامرأة أوغسبورغية، وله طفل منها. وعندما زحف الكاثوليك على المدينة نصحه أصدقاؤه وألحوا عليه بالهروب. لكنه، ربما أعاقته أسرته الصغيرة، ربما لم يرد التخلي عن مدبغته، على كل لم يحسم أمره بالرحيل في الوقت المناسب.

وهكذا، عندما اقتحمت القوات القيسرية المدينة، كان هو مايزال فيها، فلما جرى السلب والنهب مساء، اختبأ في حفرة في الحوش، حيث تحفظ الأصباغ. وكان علي زوجته أن ترحل مع طفلها إلى أقربائها في الضاحية، لكنها استغرقت وقتاً طويلاً في ضبّ أشياءها وملابسها وزينتها وفرشها. وهكذا رأت فجأة من نافذة الطابق الأول فصيلاً من الجنود القيسريين

(*) بدأت في عام ١٦١٨ وانتهت في عام ١٦٤٨ وأوغسبورغ هي مدينة الأديب.

يقتحمون الحوش. فتركت من ذعرها كل شيء في موضعه وهرعت هاربة عبر الباب الخلفي.

وهكذا خلفت الطفل وراءها في البيت. وكان في مهده في البهو يلعب بكرة خشبية معلقة بخيط من السقف.

لم يكن قد بقي في المنزل سوى خادمة صبية. كانت في المطبخ تتعاطى مع النحاسيات، عندما سمعت ضجة قادمة من الزقاق: اندغرت إلى النافذة، فرأت كيف يرمي الجنود بالغنائم من الطابق الأول للمنزل قبالتها إلى الزقاق. ركضت إلى البهو تريد أن تتناول الطفل من مهده، لكنها سمعت ضجيج ضربات عنيفة على الباب السندياني. تملكها الذعر، فصعدت بسرعة على الدرج.

امتألاً البهو بالجنود السكارى الذين كانوا يحطمون كل ما يصادفونه. كانوا يعلمون أنهم موجودون في بيت بروتستاني. وبما يشبه المعجزة بقيت الخادمة أنا أثناء التفتيش والنهب غير مكتشفة، وانسحب الفصيل، فنبقت أنا من الخزانة، حيث كانت محتبئة. إذ ذاك وجدت الطفل في البهو لم يمسه أحد. وبعجلة تناولت الطفل وانسلت خارجة عبر الحوش. في هذه الأثناء كان الليل قد حلّ، لكن الضوء الأحمر لبيت يحترق بالقرب، أنار الحوش، فلمحت مذعورة الجثة المشوهة لصاحب البيت. لقد سحبه الجنود من حفرة وقتلوه.

في تلك اللحظة أدركت الخادمة الخطر الذي ستلاقيه، إن قبض عليها في الطريق مع الطفل البروتستاني. فأعادته بقلب محزون إلى مهده، وأعطته شيئاً من الحليب ليشربه، هدهدته حتى نام ومضت في طريقها إلى الحي الذي تقطنه أختها المتزوجة. في الساعة العاشرة ليلاً تسللت مصحوبة من زوج

أختها، عبر حومة الجنود المحتفلين بالنصر، كي تبحث في الضاحية عن السيدة تسينغلي، أم الطفل. طرقا على باب بيت ضخم، فانفتح قليلاً بعد طول وقت. ومدّ رأسه رجل عجوز صغير، هو عم السيدة تسينغلي. فأخبرته أنها وهي تلهث، بأن السيد تسينغلي مات، إلا أن الطفل ما زال سليماً معافى في البيت. نظر العجوز إليها بعينه السمكيتين ببرود وقال إن ابنة أخيه لم تعد هنا، وإنه شخصياً لا علاقة له بالبروتستانتى ابن الحرام. ثم أغلق الباب ثانية. عند الانصراف رأى صهر أنّا، كيف تحركت ستارة إحدى النوافذ، وتوصل للقناعة بأن السيدة تسينغلي كانت موجودة. يبدو أنها لم تخلج من إنكار طفلها.

لبعض الوقت سارت أنا وصهرها جنباً إلى جنب صامتين. ثم صرّحت له بأنها تريد الرجوع إلى المدبغة وإحضار الطفل. ارتعب الصهر لسماع ذلك، هو الرجل الهادئ المستقيم، وحاول أن يصرفها عن الفكرة الخطيرة: ماعلاقتها بهؤلاء الناس؟ حتى أنهم ما كانوا يعاملونها بطيبة. استمعت أنا إليه بهدوء ووعدته بأن لا تقوم بعمل طائش. إنما تريد فقط ومن كل بدّ أن تلقي نظرة سريعة في المدبغة، ما إذا كان ينقص الطفل شيء. ثم إنها تريد الذهاب وحدها.

ونفذت أنا مرادها. في وسط الصالة المخربة استلقى الطفل في مهده نائماً بهدوء. فجلست متعبة إلى جانبه وجعلت تتأمله، ولم تجرأ على إشعال النور. غير أن البيت في القرب كان ما يزال مشتعلاً. وبهذا الضوء أمكن لها أن ترى الطفل جيداً. كانت له شامة صغيرة على العنق.

مرّ بعض الوقت، ربما ساعة، والخادمة تتأمل الطفل، كيف يتنفس ويمص قبضته الصغيرة، ثم أدركت أن هذا الجلوس الطويل والفرجة الزائدة لا

يدلّ عليّ أنها تستطيع الانصراف دون الطفل. فوقفت بشاقل، وبحركات بطيئة لفته بحرام كئاني، وشالته على ذراعها، وغادرت معه الحوش، وهي تلتفت متخوفة، مثل شخص يشعر بالذنب، مثل لصّة.

بعد ذلك بأسبوعين، نتيجة مشاورات طويلة مع أختها وصهرها، أخذت الخادمة الطفل إلى الريف، إلى قرية غروس - أيتنغن، حيث يعيش كفلاح أخوها الأكبر منها. فالمرزعة تخص زوجته، وهو مجرد زوج. فكان الاتفاق أنه ربما من الأفضل أن لاتقول إلا لأخيها من هو الطفل، فهم لم يلتقوا أبداً بزوجه الفلاحة الشابة وما كانوا يعلمون كيف ستستقبل ضيفاً صغيراً خطيراً بهذا الشكل.

وصلت أنا ظهراً إلى القرية، فيما كان أخوها وزوجته والأجراء يجلسون إلى طعام الغداء. لم يكن الاستقبال سيئاً، لكن نظرة منها على زوجة أخيها جعلتها مباشرة تقدم الطفل على أنه طفلها. وبعد أن روت بأن زوجها يعمل في طاحونة في قرية بعيدة وأنه ينتظرها هناك مع الطفل خلال أسبوعين، عندئذ فقط انبسطت أسارير الفلاحة وجرى كالعادة التعبير عن الإعجاب بالطفل.

بعد الظهر رافقت أختها إلى الغابة لجلب الحطب. جلسا على قرمتي شجر، وأفضت أنا بسرّها. كان واضحاً لها انه لم يشعر بالسرور. مكانته في المرزعة لم تكن قد رسخت بعد، فأثنى عليّ أنا لأنها كتمت الخير عن زوجته. من الواضح أنه لم يكن يتوقع من زوجته الشابة موقفاً أريحيّاً تجاه الطفل البروتستاني. لذلك أراد أن يبقى السر محجوباً عنها.

غير أن هذا لم يكن سهلاً مع الزمن. كانت أنا تشارك في العمل الزراعي، وترى "طفلها" خلال ذلك، بأن تجري من الحقل إلى البيت في

الوقت الذي يستريح فيه الآخرون. وترعرع الصغير، حتى أنه سمن، وكان يضحك كلما رأى أنا، ويحاول جاهداً أن يرفع رأسه.

لكن، من ثم جاء الشتاء، وبدأت زوجة الأخ تستعلم عن زوج أنا: لم يكن هناك مانع في أن تبقى أنا في المزرعة، فهي تستطيع أن تكون مفيدة. المشكلة في الأمر هي أن الجيران سوف يستغربون من والد طفل أنا أنه لا يأتي أبداً لرؤيته. فإذا لم تستطع أن تقدم علناً أبا لطفلها، فإن المزرعة ستناولها ألسنة الناس قريباً.

وفي صباح يوم من الآحاد جهزّ الفلاح العربية وأمر أنا أن ترافقه لاحتضار عجل من القرية المجاورة. مع قرقعة العربية على الطريق اعلمها أنه بحث لها عن زوج وأنه وجده. كان مزارعاً صغيراً، شديد المرض؛ عندما دخل الاثنان كوخه الواطئ، لم يستطع أن يرفع رأسه النحيل عن الملاءة القدرة. لقد رضي أن يتزوج أنا. في صدر الكوخ وقفت عجوز صفراء اللون، هي أمه. لقد وعدوها بتعويض عن الخدمة التي تقدمها لأنا.

تمت الصفقة خلال عشر دقائق، وأمكن لأنا وأخيها أن يتابعا المسير ويزاودا على شراء العجل. في نهاية الأسبوع نفسه تم الزفاف. وفيما كان الكاهن يتمم بعبارات عقد القران، لم يلق المريض مرة واحدة نظرة من نظراته الزجاجية على أنا. فلم يشك أخوها بأنها ستحصل خلال أيام قليلة على شهادة الوفاة. عندئذ سيقال بأن زوج أنا ووالد طفلها قد توفي في طريقه إليها، في مكان ما من قرية قرب أوغسبورغ. بالتالي لن يستغرب أحد إذا ما بقيت الأرملة في بيت أخيها.

عادت أنا سعيدة من عرسها الغريب، الذي لم يكن فيه لاقرع أجراس ولا موسيقى، لاصبايا ولاضيوف. واقتصرت وليمة زواجها على تناول قطعة

خبز مع شريحة لحم في حجرة الطعام. ثم وقفت مع أخيها أمام الصندوق حيث يرقد الطفل، الذي أصبح له الآن اسم. وضبت اللحاف جيداً، وضحكت لأخيها.

غير أن شهادة الوفاة تأخرت. فلم يأت خبر من الأم العجوز بالوفاة، لا في الأسبوع الأول ولا الذي بعده. في المزرعة كانت أنا تقول، إن زوجها في طريقه إليها. ثم صارت تقول، إذا سألتها أحد عن سبب تأخره، إن تراكم الثلوج قد أعاق سفره. لكن بعد انقضاء ثلاثة أسابيع سافر أخوها، وقد أقلقته الأمر جدياً، إلى تلك القرية قرب أوغسبورغ.

عاد الأخ متأخراً في الليل. كانت أنا ما تزال صاحبة، فهرعت إلى الباب، عندما سمعت صرير العربة في الحوش. رأت أخيها يقوم ببطء بفك الخيل عن العربة، فانقبض قلبها. لقد حمل أخباراً سيئة: فعندما دخل الكوخ وجد الميت المنتظر جالساً إلى الطاولة يتعشى، بالقميص، ويمضغ على الجائنين. لقد استعاد صحته تماماً. وتابع الأخ إخباريته دون أن ينظر في عيني أنا. فالمزارع الصغير - اسمه بالمناسبة اوتيرر - وأمه بديا كذلك مفاجئين بذلك التحول، وما كانا قد وصلا بعد إلى قرار حول ما سيجري بعدئذ. لم يتكلم هو إلا القليل، تحديداً بأن طلب من أمه السكوت، عندما أرادت أن ترثي لزوجها من امرأة غير مرغوبة ولتبنيه طفلاً غريباً. طيلة الوقت كان يأكل الجبن متفكراً، وكان ما يزال يأكل عندما غادره الفلاح.

في الأيام التالية كانت أنا طبعاً مهمومة جداً. أثناء عملها المنزلي كانت تعلم الصبي المشي. عندما كان يفلت من سترتها ويتدهبل نحوها ماداً ذراعيه، كانت تتلقاه وتحتضنه بقوة وهي تكتم إجهاشة بالبكاء.

مرة سألت أخاها: أي نوع من الرجال هو؟ فهي لم تره سوى على فراش الموت وفي المساء على ضوء شمعنة ضعيفة. الآن علمت، أن زوجها خمسيني مستهلك، مثل أي مزارع صغير.

بعد ذلك بفترة وجيزة رآته. فقد نقل إليها بائع جوال ببالغ السرية، بأن "أحد معارفها" يريد أن يقابلها في اليوم الفلاني في الساعة الفلانية عند القرية الفلانية، على مفرق الطريق الواصلة إلى جبل المنطقة. وهكذا التقى المتزوجان ما بين قريتهما، كما كان قادة الجيوش يلتقون ما بين صفى مقاتليهم، في العراء المغطى بالثلج.

ولم يعجب الرجل أنا. كانت له أسنان صغيرة رمادية. تأملها من فوق لتحت، مع أنها كانت محشورة في معطف سميك من صوف الغنم، فلا يظهر منها الكثير، وجعل يستخدم عبارة "الرباط المقلد للزواج". قالت له باقتضاب، إنه عليها أن تعيد النظر بالأمر من أصله، والمرجو منه أن يبلغها، بحضور زوجة أخيها، عن طريق أي تاجر أو قصاب يمر بغروس أيتغن، أنه قد مرض على الطريق وأنه سيأتي الآن قريباً. قزح أوتير برأسه وهو بهيئته المتفكرة. كان أطول منها بمقدار الرأس، وكان أثناء الحديث ينظرها دائماً على الجهة اليسرى من عنقها، الأمر الذي كان يثير حنقها.

لكن الرسالة لم تصل. ورازت أنا في ذهنها أن تغادر فجأة المزرعة مع الطفل، متابعة نحو الجنوب لتبحث في كيمبتن أو زونتھوفن، عن عمل. إلا أن انعدام الأمن على الطرق الريفية، كما كان يقال، وكون الفصل شتاء، منعها من الإقدام على ذلك. كذلك، الإقامة في المزرعة أصبحت الآن صعبة. فزوجة أخيها توجه إليها على مائدة الغداء أمام الجميع أسئلة مرتابة عن زوجها. وعندما وصل الأمر إلى أن قالت مرة، وهي تنظر إلى الطفل

بشفقة كاذبة، "الدودة المسكينة"، قررت أنا أن ترحل رغم كل شيء. وهنا مرض الطفل.

انطرح الطفل في صندوقته مضطرباً ووجهه شديد الحمرة وعيناه خائبتان. فسهرت أنا عليه ليال وهي ما بين الخوف والرجاء. وعندما بدأ يستعيد صحته ووجدت البسمة إلى وجهه سيلاً، عندئذ وقبل ظهر أحد الأيام قرع الباب ودخل أوتير. لم يكن في البيت أحد سوى أنا والطفل، وبالتالي لم تكن مضطرة للتمثيل، وهذا ما كان بالطبع مستحيلاً عليها وهي مذعورة بالمفاجأة. وقفا ملياً دون كلام، ثم تحدث أوتير بأنه هو الآخر قد فكر بالأمر وأنه جاء ليأخذها معه. ثم نوّه ثانية بالرباط المقدس للزواج. فغضبت أنا، وقالت للرجل بصوت واثق وإن كان مكبوتاً، بأنها لا تفكر بالحياة معه، وأنها لم تعقد الزواج إلا من أجل طفلها، وأن كل ما تريده منه هو أن يعطيها وطفلها اسمه.

عندما ذكرت أنا الطفل، نظر أوتير عرضاً باتجاه الصندوقة التي احتوت الطفل وبروت، لكنه لم يتجه نحوه. وهذا ما جعل أنا تزداد حقناً عليه. ثم دجّ بضع أقوال: أنه عليها أن تعيد النظر بكل شيء، وأنه يعيش على قدّ حاله، وأن أمه يمكن أن تنام في المطبخ.

في هذه اللحظة دخلت الفلاحة، فحيته بفضول ودعته إلى طعام الغداء. وعند الجلوس إلى الطعام حيّى أوتير الفلاح بانحناءة من رأسه، دون أن يتظاهر بأنه لا يعرفه، ودون أن يكشف عن أنه يعرفه. وجعل يجيب على أسئلة الفلاحة باقتضاب شديد، دون أن يرفع نظره عن الصحن: لقد وجد فرصة عمل في ميرنغ، وأنا تستطيع أن تنتقل إليه. لكنه لم يعد إلى القول بأنه عليها أن تفعل ذلك حالاً. بعد الظهر تجنب الاجتماع بالفلاح وجعل يكسر

الخطب خلف المنزل، مع أنه لم يطلب أحد منه ذلك. بعد طعام العشاء الذي شارك فيه وهو صامت أيضاً، أخذت الفلاحة من تلقاء نفسها فراشاً إلى حجرة أنا، كسي يستطيع هو أن يبيت هناك. وللغربة فقد نهض عندئذ بثقل، وتمتم بأنه يجب أن يعود في نفس المساء. وقبل أن يذهب، حملق بنظرة ساهية في صندوق الطفل، لكنه لم يقل شيئاً ولم يلمسه.

في الليل مرضت أنا وأصيبت بالحمى لمدة أسابيع. أمضت أغلب الوقت لا تحسّ بما حولها. بضع مرات فقط عند الظهيرة، عندما كانت الحمى تتراجع قليلاً، كانت تزحف إلى الصندوق وتوضّب اللحاف. وفي الأسبوع الرابع من مرضها قدم أوتيرر إلى المزرعة بعربة نقل وأخذها مع الطفل. وقد تركت ذلك يحدث دون أن تنبس بكلمة.

واستعادت أنا صحتي، إنما ببطء شديد، ولاعجب مع الحساء المريق في كوخ المزارع الصغير. لكنها في أحد الصباحات رأت القذارة التي ترك فيها الطفل، فقررت النهوض. استقبلها الصغير بابتسامته اللطيفة، التي كان أخوها يزعم دائماً أنه اكتسبها منها. كان قد نما. وأخذ يزحف بسرعة عجيبة في أرجاء الحجرة، وهو يخطب يديه ويصدر صرخات صغيرة عندما يقع على وجهه. حمّته جيداً في طشت خشبي واستعادت بذلك طمأنينتها.

بعد بضعة أيام لم تعد بالطبع تحتمل الحياة في الكوخ. فقمّطت الصغير ببضع أغطية، وضبت خبزة شيئاً من الجبن وولت. كان في ذهنها أن تذهب إلى زونتھوفن، لكنها لم تبعد كثيراً. كانت ركبتيها بالكاد تقويان على حملها، والناس أصبحوا بسبب الحرب كثيري الشك والبخل. في اليوم الثالث من ارتحالها التوت قدمها بحفرة في الطريق. وبعد ساعات طويلة، قلقّت فيها على الطفل، نقلت إلى إحدى المزارع، حيث وجب عليها أن

تستلقي في الاسطبل. فكان الصغير يتنقل زاحفاً بين قوائم البقر، ويضحك عندما تصرخ من خوفها عليه. بالأخير اضطرت أن تذكر لجماعة المزرعة اسم زوجها. فجاء هذا وأعادها إلى ميرنغ.

بعد ذلك لم تحاول الهرب وقبلت بنصيبها. وصارت تعمل بكد. كان من الصعب أن يستخرج المرء شيئاً من هذه الأرض الصغيرة، وأن يدبّر حياته المعيشية. غير أن الرجل لم يكن غير لطيف تجاهها، والصغير أصبح شعبان. كذلك كان أخوها يمرّ ويجلب لها معه من هذا وذاك على سبيل الهدية، حتى أنها استطاعت مرة أن تصبغ للصغير ثوباً بالأحمر. فقد فكرت، إن هذا يناسب ولا بدّ طفل الصباغ. مع الزمن أصبحت راضية تماماً وعاشت الكثير من السعادة بتربية الصغير. وهكذا مرت سنة.

لكن، في أحد الأيام ذهبت إلى القرية لتجلب عسل السكر، وعندما عادت لم تجد الطفل في الكوخ، فاخبرها زوجها بأن امرأة أنيقة مرت بعربة وأخذت الطفل. إذ ذاك استندت إلى الحائط مدووخة من الذعر. وفي نفس المساء توجهت إلى أوغسبورغ وهي لا تحمل سوى صرة بيعض ما يؤكل. في المدينة القيصرية قصدت أولاً المدبغة، لكن لم يُسمح لها بالدخول ولم تتمكن من رؤية الطفل.

حاولت أختها وصهرها أن يعزياها، لكن دون جدوى. ذهبت إلى الإدارة المحلية وصرخت بعصية، أن طفلها قد سرق. ووصل الأمر بها إلى التلميح بأن بروتستانتين قد سرقوا طفلها. فأعلموها أن ظروفها أخرى تسود الآن، وأن صلحاً قد عقد الآن بين الكاثوليك والبروتستانت. وما كانت لتفوز بطائل، لولا أن ظرفاً خاصاً سعيدياً خدمها. فقد حوّلت دعواها إلى قاض من نوعية مميزة جداً. إنه القاضي اغناس دولينغر، المشهور في كل

منطقة شفايبا، بسبب فظاظته ومفهوميته، والذي عمده أمير بافاريا باسم "هذا الفلاح الزبل اللاتيني"، على أثر خصومة قضائية حول المدينة القيصرية الحرة، في حين كان الشعب البسيط يتغنى بسيرته الحميدة.

ذهبت أنا برفقة أختها وصهرها إلى المحكمة ووقفت أمام القاضي. كان قصير القامة، بديناً، متقدماً في السن. يجلس في حجرة ضئيلة عارية بين أكداش من رقوق الكتابة. لم يستمع إليها إلا قليلاً، ثم كتب شيئاً على ورقة، وهمهم: "تقدمي إلى هناك، إنما بسرعة!"، وهو يوجهها بيد صغيرة غليظة إلى موضع من الحجرة يضيئه نور قادم عبر النافذة الضيقة. تملأ وجهها لبضع دقائق، ثم أومى إليها مع تنهيدة عميقة بالانصراف.

في اليوم التالي أرسل خادم المحكمة يستدعيها. عند العتبة صرخ قائلاً لها: "لماذا لم تذكرني أن الأمر يتعلق بمدبغة مع مزرعة رائعة؟!" قالت أنا بصوت مخنوق، إن الأمر بالنسبة لها يتعلق بطفل. فصرخ القاضي: "لاتتوهمي بأنك تستطيعين لهط المدبغة. إذا كان ابن الحرام لك فعلاً، فإن المزرعة تؤول إلى أقرباء التسينغلي". هزت أنا برأسها موافقة، دون أن تنظر إليه، ثم قالت: "هو لا يحتاج إلى المدبغة". وزجج القاضي: "أهو لك؟". أجابت بصوت منخفض: "نعم. لو يُسمح لي أن أحفظ به إلى أن يتمكن من كل الكلمات فقط. فهو لا يعرف الآن سوى سبعة". سعل القاضي ورتب الرقوق على مكتبه. ثم قال بهدوء أكثر، إنما بنبرة مازالت مغتاضة: "أنت تريدين القزم، والعنزة هناك بفساتينها الحريرية الخمس تريده. أما هو فيحتاج إلى الأم الحقيقية". - "نعم"، قالت أنا ونظرت إلى القاضي. فهمهم: "انقلعي، إلى الجلسة يوم السبت!".

في يوم السبت الموعد كان الشارع الرئيسي والساحة أمام القصر البلدي سوداوين من كثرة البشر الذين أرادوا حضور قضية "طفل البروتستانت". فهذا الحدث النادر كان منذ البداية محطّ الاهتمام العام، وفي المساكن والمحلات العامة ثار جدل حول تحديد الأم الحقيقية والأم المزيّفة. كما أن دولينغز العجوز كان مشهوراً في طول البلاد وعرضها بمحاكماته الشعبية المليئة بالحكم والأقوال اللاذعة. كانت جلساته محبوبة أكثر من أعياد الكنيسة. وهكذا احتشد أمام القصر البلدي ليس فقط الكثير من الأوغسبورغيين، بل كذلك لم يكن هناك القليل من فلاحي الجوار. ففي يوم الجمعة كان ثمة سوق، وقد باتوا في المدينة بانتظار المحاكمة.

جرت المحاكمة في القاعة المسماة القاعة الذهبية. وكانت مشهورة بأنها القاعة الوحيدة في كامل ألمانيا التي بهذا الحجم دون أعمدة، سقفها كان معلقاً بسلاسل في قمة القاعة. جلس القاضي دولينغر، كجبل صغير مدور من اللحم، أمام البوابة الرئيسية لأحد الجدران الطولانية. حبل عادي كان يفصل المشاهدين. أما القاضي فجلس على الأرض المستوية دون طاولة أمامه. كان هو الذي رتب ذلك قبل سنوات، فقد كان يهتم كثيراً بالمظهر.

ضمن البقعة المحصورة بالحبل تواجدت السيدة تسينغلي مع أهلها، وقريران للمتوفي السيد تسينغلي الذين قدموا من سويسرا، وهما رجلان وقوران حسنا الهندام، بيدوان كتاجرين مرموقين، وأنا أوتيرر وأختها. إلى جانب السيدة تسينغلي كان يرى المرء مرضعة الطفل. الجميع، من متخاصمين وشهود، كانوا واقفين. فقد كان القاضي دولينغر يردّد بأن المحاكمات تجري بسرعة إذا توجب على أصحابها الوقوف. وربما كان لا

يأمر بوقوفهم إلا لكي يجبروه عن الجمهور، بحيث لا يراه المرء إلا إذا وقف على رأس قدميه ومد عنقه.

في بدء الجلسة وقعت حادثة. فعندما نظرت أنا الطفل، أصدرت صرخة وتقدمت إليه، والطفل أراد الذهاب إليها، خبط بقوة بين ذراعي المربية وأخذ يجمر. فأمر القاضي بإخراجه من القاعة.

ثم نادى القاضي على السيدة تسينغلي. تقدمت متبخرة وسردت، وهي من وقت لآخر تهوي العينين بمنديل جيب، كيف اختطف منها طفلها أثناء نهب الجنود القيصريين. وأن الخادمة جاءت في المساء ذاته إلى والدها وأخبرتهم أن الطفل مازال في البيت، ربما كي تنال حلواناً. غير أن طباحة أيها التي أرسلت إلى المدبغة لم تجد الطفل، وهي تظن بأن هذه (تقصد أنا) استولت عليه كي تبتر المال بطريقة ما. وهي كانت بالتأكيد عاجلاً أم آجلاً ستقدم بمطلب كهذا، لو لم يجر قبلئذ انتزاع الطفل منها.

ونادى القاضي على قريبي السيد تسينغلي وسألها عما إذا كانا قد استعلما وقتذاك عن السيد تسينغلي وبماذا حدثتهما عنه السيدة تسينغلي. قالاً، إن السيدة تسينغلي أعلمتهما أن زوجها قد قتل وأنها تركت طفلها أمانة عند خادمة وأنه في الحفظ والصون عندها. تحدثنا بلهجة غير لطيفة عنها، وهذا ليس مستغرباً، إذ أن المزرعة ستؤول إليهما، إذا ما خسرت السيدة تسينغلي القضية.

بعد أن أدليا بشهادتهما التفت القاضي ثانية إلى السيدة تسينغلي وأراد أن يعلم منها، ما إذا كانت أثناء المداهمة قد فقدت صوابها وتركزت الطفل لمصيره. نظرت إليه السيدة تسينغلي بعينيها الزرقاوين الفاتحتين كالمتعجبة وقالت ممتعضة، بأنها لم تترك طفلها لمصيره. تنحى القاضي وسألها باهتمام،

عما إذا كانت تعتقد بأنه لا يمكن لأي أم أن تتخلى عن طفلها. قالت بثقة، نعم، هي تعتقد ذلك. فتابع القاضي سائلاً، ما إذا كانت الأم التي تفعل ذلك تستحق أن تضرب على قفاها، مهما كثرت الفساتين التي تلبسها؟.

لم تجب السيدة تسينغلي، فنادى القاضي على الخادمة السابقة أنا. تقدمت بسرعة وردّدت بصوت منخفض ما سبق قالته في التحقيق الأولي. لكنها كانت تتكلم وكأنها تستمع في نفس الوقت، ومن لحظة لأخرى تنظر إلى الباب الكبير، الذي إلى خلفه أخذ الطفل، وكأنها كانت تخشى أن يكون مازال يصرخ. صرّحت بأنها ذهبت فعلاً في ذلك الليل إلى بيت عم السيدة تسينغلي، لكنها لم تعد إلى المدبغة خوفاً من القيصريين ولأن بالها كان مشغولاً على طفلها الخاص والوحيد الذي أودعته أناساً طيبين في قرية ليشهاوزن المجاورة.

قاطعها دولينغر العجوز بفظاظة وتلقف الحديث قائلاً، إنه هناك إذن على الأقل شخص واحد بالمدينة يشعر بشيء مثل الخوف. ويسره أن يلمس ذلك، لأن ذلك يبرهن على أنه ليس جميلاً من الشاهدة أن تهتم فقط بطفلها الخاص، إنما كما يقال في لغة الشعب "الدم لا يصير ماءً"، والأم الحقيقية تسرق من أجل طفلها، غير أن هذا محظور في القانون أيضاً. ثم أعطى بعد ذلك أحد دروسه الحكيمة والفجة عن احتيال الناس الذين يضللون المحكمة، حتى تزرّق وجوههم. وبعد شطحة قصيرة تحدث فيها عن الفلاحين الذين يخلطون بالماء حليب البقرات البريئات، وعن المجلس البلدي، الذي ينال من الفلاحين ضريبة سوق عالية، والذي لم تكن له علاقة بالقضية على الإطلاق، أعلن بأن الاستماع إلى الشهود انتهى وأنه لم يُسفر عن شيء.

بعد ذلك أمضى استراحة طويلة، بدت عليه أثناءها كل امارات الحيرة، فكان يتلفت حوله كما لو كان ينتظر من جهة ما اقتراحاً يصل به إلى نتيجة نهائية. نظر الناس إلى بعضهم مدهوشين، وبعضهم اشرباب بعنقه، كي يرى القاضي في حيرته. لكن الهدوء بقي سائداً في القاعة، إنما كان المرء يستطيع أن يسمع صوت الجمهور في الشارع.

ثم عاد القاضي واستلم الحديث ثانية وهو يتنهد. قال: "لم يتبين من هي الأم الحقيقية. الأسف على الطفل، يسمع المرء كثيراً عن آباء يتملصون ولا يريدون أن يكونوا آباء، هؤلاء الأندال، إنما هنا عندنا أمان دفعة واحدة. وقد استمعت إليهما المحكمة بالقدر الذي تستحقانه، بالضبط خمس دقائق لكل منهما، وقد وصلت المحكمة إلى القناعة بأن كلاهما تكذبان. على أنه يجب التفكير بالطفل، فهو يحتاج ولا بدّ إلى أم. يجب إذن، دون كثرة ثرثرة، إثبات من هي الأم الحقيقة للطفل".

وبصوت ممتعض نادى خادماً المحكمة وأمره أن يجلب طبشوراً. فذهب خادماً المحكمة وجلب قطعة طباشير. فوجهه القاضي قائلاً: "ارسم بالطبشور هناك على الأرض دائرة تتسع لوقوف ثلاثة أشخاص!" فانحنى الخادم ورسم بالطبشور الدائرة المطلوبة. ثم أمره القاضي: "الآن أحضر الطفل!".

أحضر الطفل. ومن جديد عاد إلى العويل يريد أنّا. لكن دولينغر العجوز لم يهتم لهذا الجعير، إنما أعطى تعليماته بنبذة أعلى. أعلن قائلاً: "هذا الاختبار الذي سنجره الآن قرأته في كتاب قديم، ويعتبر جيداً بحق. الفكرة الأساسية البسيطة للاختبار بدائرة الطباشير هي أن الأم الحقيقية تعرف بحبتها للطفل. إذن سيجري اختبار قوة هذه المحبة. يا خادماً المحكمة، ضع الطفل ضمن دائرة الطباشير!".

أخذ خادم المحكمة الطفل وهو يجبر من يد المرضة واقتاده إلى داخل الدائرة. وتابع القاضي موجهاً كلامه إلى السيدة تسينغلي وإلى أنا: "قفا أنتما أيضاً ضمن الدائرة، ولتمسك كل واحدة منكما بإحدى يدي الطفل، وعندما أقول "ابتدي"، عندئذ حاولا أن تسحبا الطفل إلى خارج الدائرة. والتي تملك من بينكما محبة أقوى، سوف تسحب بقوة أكبر وتجذبه إلى ناحيتها".

في القاعة حدث ضجيج. وقف المتفرجون على رؤوس أقدامهم وأخذوا يتشاجرون مع الذين أمامهم. وعندما دخلت المرأتان ضمن الدائرة وأمسكت كل واحدة منهما بإحدى يدي الطفل، عاد الهدوء المطبق. كذلك خرس الطفل، كما لو أنه أدرك حقيقة الأمر، فأدار وجهه المليء بالدموع المتسابة متطلعاً نحو أنا. ثم جاء أمر القاضي: "ابتدي!".

بسحبة قوية واحدة انتزعت السيدة تسينغلي الطفل خارج الدائرة. وتطلعت أنا إليه متكدرة وغير مصدقة. فمن خوفها أن يتأذى من سحبه بذراعيه إلى اتجاهين متعاكسين في نفس الوقت، أفلتته مباشرة. هنا وقف دولينغر العجوز، وقال بصوت عال: "بذلك نعلم من هي الأم الحقيقية. خذوا الطفل من هذه الشحنة. ستمزقه بكل برودة قلب". وأومى لأنا وخرج مسرعاً من القاعة إلى فطوره.

في الأسابيع التالية تناقل فلاحو الضواحي، الذين لم ينخدعوا بما جرى، بأن القاضي، عندما حكم للمرأة الميرنغية بالطفل، قد غمزها بعينه.



موتِ اِيفان ايليتش

ليون تولستوي

موت إيفان إيليتش

ترجمة: صياح الجهم



منشورات وزارة الثقافة

في الجمهورية العربية السورية

دمشق ١٩٩٧

في المبنى الواسع لقصر العدل ، اجتمع النائب العام وأعضاء المحكمة ، أثناء رفع جلسة محاكمة ميلفنسكي ، في مكتب ايفان ايرغوفيتش شيبك : انتهى بهم الحديث إلى قضية كراسوف الشهيرة ، فأصر فيودور فاسيليفيتش بحرارة على عدم اختصاص المحكمة ، وتشبث ايفان ايرغوفيتش برأيه : أما بيري ايفانوفيتش فهو لم يشارك في النقاش فأعرض عنه وأخذ يتصفّح الجريدة التي حملت إليه . قال :

- ياسادة ، مات ايفان ايليتش !

- غير ممكن ؟

- اقرأ بنفسك .

قال ذلك وهو يدّ إليه الجريدة التي ماتزال تفوح برائحة حبر المطبعة . قرأ فيها الأسطر التالية التي يوطّرها خطُّ أسود دقيق : تعلن «براسكوفيا فيودوروفنا غولوفين» ، بمزيد من اللوعة ، لذويها وأصدقائها وفاة زوجها المحبوب ، ايفان ايليتش غولوفين ، المستشار في محكمة الاستئناف الذي توفّي في ٤ شباط ١٨٨٢ . وسيتم نقل الجثمان نهار الجمعة ، الساعة الواحدة بعد الظهر .

كان ايفان ايليتش زميلاً لهؤلاء السادة الذين كانوا يحبّونه كثيراً . وقد ألمّ به المرض منذ عدة أسابيع وتأكد أنه لا يمكن أن يشفى . كان مايزال يحتفظ بمركزه لكن كان من المقدّر أن الكسيف ، في حالة الوفاة ، سيُعين في هذا المركز الشاغر ، وسيحلّ «فينيكوف» أو «ستابيل» محل الكسيف . إذن عندما علم جميع الذين كانوا مجتمعين في المكتب ، بموت ايفان ايليتش فكروا قبل كل شيء بالآثار التي ستركها هذا الحدث على ترقيتهم وترقية أصدقائهم .

فكر فيودور فاسيلييفيتش: «سأحصل الآن بكل تأكيد على مركز «ستابيل» أو مركز فينيكوف. فقد وعدتُ به منذ زمن بعيد، وبفعل هذه الترقية سأحصل على زيادة مقدارها ثمانمئة روبل، ماعدا نفقات المنصب.

وقال بيير ايفانوفتش في نفسه: يجب أن أحصل الآن على نقل صهري إلى جنينا. وستُسَرَّ زوجتي بذلك كثيراً. ولن يُقال بعد اليوم أنني لأنوي أن أفعل شيئاً لأهلها. وقال بيير ايفانوفتش بصوت عالٍ:

– كنتُ أعتقد أنه لن يقوم من مرضه. خسارة كبيرة!

– لكن ماذا أصابه، على الإجمال؟

– لم يستطع الأطباء تحديد مرضه؛ أو على الأصح، عاجله كلُّ منهم على طريقته. وعندما رأيته آخر مرة ظننتُ أنه سينجو من دائه.

– أما أنا، فلم أعدُ منذ الأعياد. على أنني كنتُ أفكر دائماً في زيارته.

– أكانت له ثروة؟

– أظن أن لامراته ثروة ليست ذات شأن.

– لا بد من الذهاب الآن. وهما يسكنان بعيداً جداً.

– تريد أن تقول: بعيداً عنك. كل شيء بعيد عنك.

قال بيير ايفانوفتش وهو يتسم لشيبك:

– لا يمكنه أن يغفر لي أنني بقيتُ في الجهة الأخرى من النهر. حينئذ أخذوا يتحدثون عن امتداد المدينة، ثم عادوا إلى الجلسة.

فضلاً عن الأفكار بصدد تعيينات القضاء وتغييراته التي قد تنتج عن هذه الوفاة، فإن الحدث ذاته، موت صديق، أيقظ، كشأنه دائماً، في جميع الذين اطلعوا على النبأ، شعوراً بالفرح: لم أمت أنا، وإنما هو الذي مات.

كان كل واحد يفكر ويحسّ: هلاً نظرتُ! لقد مات وأنا ما زال أحياء!

أما معارف إيفان ايليتش المقرَّبون، الذين يُدْعون أصدقاءه، فقد كانوا يفكرون فوق ذلك، بصورة لإرادية، أنه ما يزال عليهم أن يقوموا بواجبات من المجاملة المملّة جداً، وأن عليهم أن يحضروا الجنائز وأن يقدموا للأرملة تعازيهم.

كان أخلص صديقين له : فيودور فاسيلييفتش وبيير ايفانوفتش .
كان بيير ايفانوفتش رفيق ايفان ايليتش في مدرسة الحقوق^(١)، وكان
يعتبره أسير فضله .

وبعد أن أطلع امرأته، أثناء العشاء، على موت ايفان ايليتش وعن
الدواعي التي تجعل ممكناً تعيين أخيها في منطقته، ارتدى ثيابه ومضى،
دون أن يستريح، إلى منزل ايفان ايليتش .

أمام درج المدخل اصطفت عربة سيّد وعربتا جياد . في الأسفل، في
البهو، قرب المشجب استند إلى الجدار غطاءُ النعش، المزيّن بالنسيج
المقصب . وبالشرابات والشرائط الفضية الملمّعة جداً . كانت سيدتان بثياب
سوداء تخلعان فروتيهما . كانت إحداهما أخت ايفان ايليتش، وكان بيير
ايفانوفتش يعرفها . كان ينزل الدرج زميلُ بيير ايفانوفتش، «شوارز»؛ فلما
شاهده من فوق، توقف وغمز بعينه، وكأنه يريد أن يقول له : ماعمله «ايفان
ايليتش» ليس بالأمر العسير، أما نحن فكنا أشطر .

نمَّ وجهُ «شوارز» الذي زانه عارضان علي الطريقة الانكليزية، وكلُّ
شخصه الهزيل بالملابس الرسمية، نمَّ كعده دائماً، على رصانة رشيقة؛
وهذه الرصانة التي تناقض طبعه المرح، اكتسبت هنا شيئاً مشيراً أشد إثارة .
هكذا كان يفكر بيير ايفانوفتش .

ترك بيير ايفانوفتش السيدات يمررن وصعد الدرج خلفهن ببطء . لم
ينزل «شوارز» وانتظره فوق . أدرك بيير ايفانوفتش لماذا: كان يريد بالطبع أن
يتفق معه على المكان الذي يلعبان فيه «الويست» هذا المساء . صعدت
السيدات إلى حيث الأرملة . أشار «شوارز» لبيير ايفانوفتش بحركة من
حاجبيه، وشفته مزموّمتان، ونظرته فرحة، إلى اليمين حيث غرفة الميت .
دخل بيير ايفانوفتش وهو لا يعلم جيداً كما يحدث ذلك في مثل هذه
الحالة، كيف ينبغي له أن يتصرف . لم يكن يعلم سوى شيء واحد وهو أن

(١) مدرسة الحقوق : مؤسسة ارستقراطية في بطرسبرج .

إشارة الصليب في مثل هذه الظروف لا بأس بها أبداً. لكنه لم يكن على يقين إن كان ينبغي فوق ذلك أن يحيي الجثمان؛ فقرر أن يوقف بين الأمرين: إذا أنه رسم إشارة الصليب، عند دخوله، وحنى رأسه قليلاً. وفي الوقت نفسه تفحص الغرفة، بقدر ما سمحت له بذلك حركات رأسه وذراعيه. كان يخرج من الغرفة شابان أحدهما طالب معهد، وربما كانا ابني أخي الفقيد، وهما يرسمان إشارة الصليب. وكانت امرأة عجوز تقف بلا حراك؛ وكانت سيدة مرتفعة الحاجبين على نحو غريب تكلمها بصوت خافت. وكان المرتلُ بسترته الرسمية وهيئته الحازمة الواثقة، يقرأ بصوت عالٍ وبلهجة تستبعد كل اعتراض. وكان خازن المؤن يروح ويجيء بخطأ خفيفة أمام بيير ايفانوفتش وهو ينشر شيئاً على أرض الغرفة. وقد أحس بيير ايفانوفتش على الفور، عند رؤية حركته، برائحة خفيفة لجثة في طور التحلل. وأثناء زيارته الأخيرة لايفان ايليتش لاحظ «جيراسيم» هذا وهو يقوم بمهمة الممرض؛ وكان ايفان ايليتش يكن له مودة خاصة. ظل بيير ايفانوفتش يرسم إشارة للصليب وينحني انحناء خفيفاً باتجاه النعش والمرتل والايقونات الموضوعة على الطاولة في زاوية من الغرفة. ثم لما بدا له أن التشوير بيديه قد دام طويلاً جداً توقف وأخذ يتفرس في الميت.

كان مُمدداً كما يمدد الأموات على نحوٍ شديد الثقل، شأن الجثث. وقد غرقت أطرافه المتصلبة في أعماق تنجيد النعش، واستراح رأسه إلى الأبد على الوسادة؛ وعرض، ككل الأموات، جبيناً أصفر شمعيّاً، بصدغين غائرين عاريين من الشعر، وأنفاً بارزاً بدا كأنه يُثقل الشفة العليا. لقد تغير إيفان ايليتش كثيراً وأصابه الهزال أيضاً منذ زيارته الأخيرة لبيير ايفانوفتش؛ لكن وجهه، ككل وجوه الأموات، غدا أجمل وأبلغ دلالة. وكان وجهه يعبر عن أن ما ينبغي فعله قد أُنجز وأنجز على نحوٍ حسن. وأكثر من ذلك، كان يعبر عن لومٍ أو تنبيه للأحياء. بدا لبيير ايفانوفتش أن هذا التنبيه في غير محله، أو على الأقل إنه لا يعنيه شخصياً. بيد أنه أحس بشيء

كرهه، فرسم بسرعة إشارة الصليب مرة أخرى، وبادر إلى النكوص واتجه إلى الباب بسرعة مفردة، كما خُيِّل إليه، خلافاً لأصول اللياقة. كان «شوارز» ينتظره في الغرفة المجاورة، منفرج القدمين، عابثاً بقبعته التي كان يمسك بها خلف ظهره. إن نظرة واحدة تُلقى على شخص «شوارز» المرح والنظيف والأنيق تكفي لإنعاش بيير ايفانوفتش. وقد أدرك على الفور أن «شوارز» فوق ذلك لا يستسلم للمشاعر المؤلمة. كانت هيئته كلها تقول: إن القدّاس على روح ايفان ايليتش ليس سوى أمرٍ عارض، ومامن مبرّر يصحّ معه أن نُؤجِّل الجلسة؛ وبعبارة أخرى لا شيء يجوز أن يمنعنا، هذا المساء بعينه، من فضّ ورق اللعب وهو يقطع، بينما يرتّب الخادم على الطاولة أربع شمعات جديدة. وعلى العموم، مامن داع يدعو إلى افتراض أن هذا الأمر العارض يمكنه أن يحول بيننا وبين قضاء سهرة اليوم بسرور كسائر السهرات. ولقد أُسرّ بذلك لبيير ايفانوفتش الذي كان يمرّ أمامه. واقترح عليه أن يأتي من أجل لعبة في منزل فيودور فاسيلييفتش. لكن كان مقدراً بالطبع أن يبيّر ايفانوفتش لن يلعب بالورق هذا المساء. خرجت براسكوفيا فيودوروفتا، وهي امرأة قصيرة، سمينة، ذاهبة عرضاً بدءاً من الكتفين حتى القاعدة، بالرغم من جميع الجهود التي تبذلها لتتحاشى ذلك، ولها حاجبان مرتفعان على نحو غريب كحاجبي السيدة التي شوهدت قرب النعش، خرجت من شقتها مع سيدات أخريات، وأدخلتهن غرفة الميت وقالت:

- سيبدأ الجنّاز؛ هيا ادخلوا، أرجوكم.

انحنى «شوارز» على نحو غير واضح، ولم يتحرك؛ ومن البديهي أنه لم يقبل هذه الدعوة ولم يرفضها. تنهّدت براسكوفيا فيودوروفنا حين تعرّفت بيير ايفانوفتش، فدنّت منه وأمسكت بيده وقالت:

- أنا أعلم أنك كنت صديقاً حقيقياً لإيفان ايليتش.

ونظرت إليه منتظرة حركة تطابق أقوالها. وكان بيير ايفانوفتش يعلم أنه كما كان ينبغي له أن يرسم هناك إشارة الصليب، فعليه الآن أن يشدّ على

يدها وأن يتنهد ويقول: «صدقيني . . .» وهذا ما فعله . وإذا فعله أحسن أن النتيجة المرغوبة قد بلغت: أحسن أنه انفعِل وأنها أيضاً انفعلت .
قالت الأرملة :

- تعال معي قبل بدء الجنّاز^(١): فعندي ما أقوله لك . أعطني ذراعك .
أعطاه ذراعه واتّجّها إلى شقتها و مرّاً أمام «شوارز» الذي رمى بيير
ايفانوفتش بطرفة عين مشفقة .

كانت نظرته الحادة تقول : ها قد طارت منك لعبة «الهويست» . فلا
تحقد علينا إذا اخترنا لاعباً رابعاً . ربما جئت لتكون الخامس إذا صرت
حرّاً . . .»

تنهّد بيير ايفانوفتش تنهّداً أكثر عمقاً ، وأكثر حزناً ، وشدّت براسكوفيا
فيودوروفنا على ذراعه اعترافاً بالجميل . دخلا صالونها المفروش بالكريتون
الوردي والذي كان يضيئه مصباحٌ بشكل ضعيف ؛ جلسا قرب الطاولة ،
جلست هي على الأريكة ، وجلس هو على غرفة منخفضة هبطت نوابضها
تحت ثقله . أرادت براسكوفيا فيودوروفنا أن تعرض عليه أن يتخذ له مقعداً
آخر ، لكنها رأت هذا العرض في غير مكانه وهي في مثل وضعها ، فلم تقل
شيئاً . وعندما جلس بيير ايفانوفتش على النمرقة تذكّر أن إيفان ايليتش قد
رتّب هو نفسه هذا الصالون وأنه استشاره بصدد هذا الكريتون الوردي ذي
الأوراق الخضراء . وعندما مرت الأرملة قرب الطاولة لتجلس على الأريكة
(كان الصالون مليئاً بالأثاث وبمختلف التحف) علق حريز طرحتها السوداء
بحقّر الطاولة ، عندئذ نهض بيير ايفانوفتش ليخلّص طرحتها فأخذت نوابضُ
النمرقة تتحرك وتدفعه . خلّصت الأرملة حريز الطرحة بنفسها ، وعاد بيير
ايفانوفتش إلى الجلوس وهو يسحق النمرقة المتمردة مرةً أخرى . لكن
براسكوفيا لم تتخلّص تماماً ؛ نهض بيير ايفانوفتش من جديد ، ومن جديد

(١) الجنّاز : كانت العادة أن يقام ، في اليوم الذي يسبق الدفن ، جنّازٌ قصير في منزل الميت وأمام
الجثمان الموضوع في تابوت مكشوف .

اضطربت النموقة وطقطقت . وعندما انتهى كل شيء ، أخرجت منديلاً رقيقاً ونظيفاً وأخذت تبكي . لكن حادثة الطرحة والصراع مع النموقة برّدا بيير ايفانوفتش الذي ظلّ جالساً ، متجهماً .

هذا الوضع المُحرج قطعه «سوكولوف» مديرُ خدم إيفان ايليتش الذي جاء يعلمهما أن الأرض التي اختارتها في المقبرة براسكوفيا فيودوروفنا تكلف مثتي روبل . كفت عن البكاء ونظرت إلى بيير ايفانوفتش نظرة الضحية فقالت له بالفرنسية : إن ذلك كله يؤلمها . لم ينس بيير ايفانوفتش بكلمة ، وبدرت منه حركة تعبر عن قناعته العميقة أن الأمور لا يمكن أن تكون غير ذلك .

قالت بلهجة شهمة ومهدودة في الوقت نفسه : دخنّ .

وأخذت تحادث سوكولوف حول سعر الأرض .

سمعها بيير ايفانوفتش ، وهو يشعل سيجارته ، تناقش بالتفصيل مختلف الأسعار ، وتختار في النهاية الأرض التي أرادت شراءها . وبعد أن انتهت من هذه المسألة أعطت تعليماتها بصدد المرتلين . خرج سوكولوف . قالت لبيير ايفانوفتش وهي تدفع الألبومات التي كانت على الطاولة : - إنني أفعل كل شيء بنفسني .

وعندما لاحظت أن رماد السيجارة يوشك أن يوسخ الطاولة قدّمت

على الفور منفضة سجائر لبيير ايفانوفتش ، وأردفت :

- أرى من النفاق التأكيد على أن ألمي يمنعي من الاهتمام بالمسائل

العملية . على العكس ، إذا كان هناك شيء ممكن - لأقول - أن يعزّيني . . .

بل على الأقل أن يسرّي عني . . . فهو بالضبط أن اهتم به .

وأخرجت مرة أخرى منديلها ، وبدت كأنها ستجهش بالبكاء من

جديد ، لكنها سيطرت على نفسها فجأة وكأنها بذلت جهداً عنيفاً لذلك

وقالت بهدوء :

- عليّ أن أحدثك في أمرٍ خطير .

انحنى بيير ايفانوفتش وهو يجهد في تثبيت نوابض النمرقة التي بدأت على الفور تهتز.

- لقد تألم آلاماً مبرحة في الأيام الأخيرة.

- تألم كثيراً؟

- أوه! بشكل فظيع. لم يكف عن الصراخ لاخلال الدقائق الأخيرة

فقط، لكن خلال ساعات كاملة. لقد صرخ دون انقطاع ثلاثة أيام متوالية.

لم يكن ممكناً تحمل ذلك. لأدري كيف استطعت أن أقاوم ذلك. كنا نسمعه

عبر ثلاثة أبواب. أوه! كم قاسيت!

سأل بيير ايفانوفتش:

- لكن هل كان بكامل وعيه؟

همست:

- نعم، حتى آخر لحظة. ودعنا قبل ربع ساعة من النهاية، بل وطلب

إخراج «فولوديا».

إن آلام رجل عرفه منذ الطفولة معرفة حميمة، رجل أصبح فيما بعد

شريكة في لعب الورق، هذه الفكرة ملأت بيير ايفانوفتش فجأة بالرعب،

مع أنه شاعر بنفاقه ونفاق هذه المرأة. رأى من جديد تلك الجبهة، وذلك

الأنف الذي يسحق الشفة العليا، فخاف على نفسه.

وفكر: «ثلاثة أيام من الآلام المبرحة ثم الموت. لكن ذلك يمكن أن يقع

لي أيضاً، في كل لحظة، وفي الحال» واستولى عليه الخوف. لكنه سرعان

ما أنجذته هذه الفكرة العادية جداً، دون أن يتبين ذلك، أن ذلك كله وقع

لإيفان ايليتش لاله، وأن ذلك لن يقع ولا يمكن أن يقع له، وأنه إذا فكر في

هذه الأشياء، استسلم لتلك الأفكار السوداء، وهو ما ينبغي أن يتحاشاه،

كما عبر عن ذلك بوضوح وجه «شوارز». وبعد أن خطرت لبير ايفانوفتش

هذه المحاكمة هداً روعه واستفهم باهتمام عن تفاصيل موت إيفان ايليتش،

وكان الموت شيء لا يمكن أن يقع إلا لإيفان ايليتش ولا يعنيه شيء هو، بيير

ايفانوفتش.

بعد أن روت براسكوفيا فيودوروفنا جميع تفاصيل الآلام الجسدية والفظيعة حقاً والتي تحملها إيفان ايليتش (وهذه التفاصيل لم يعرفها بيير إيفانوفتش إلا بمقدار ما ألمت أعصاب أرملة) رأت من البديهي أن الوقت قد حان للكلام على الأعمال.

- آه! بيير إيفانوفتش، ما أشق ذلك، ما أشد مشقة ذلك!

وعادت إلى البكاء.

تنهد بيير إيفانوفتش وانتظر حتى تمتخط، حتى إذا امتخطت قال:

- صدّقيني...

عندئذ استأنفت كلامها وعرضت تلك القضية التي كانت بالطبع تشغلها فوق كل شيء: كان المطلوب معرفة ما ينبغي الشروع به للحصول على مال من الخزانة بمناسبة وفاة زوجها. تظاهرت بأنها تسأل بيير إيفانوفتش المشورة بصدد النفقة؛ لكنه رأى أنها كانت تعلم كل شيء حتى أدنى التفاصيل، وخيراً منه، عمّا يمكن أن تنال من الخزانة بمناسبة هذا الحادث. لكنها كانت تريد أن تعلم إن كان من الممكن أيضاً أن تحصل على بعض المال الإضافي. حاول بيير إيفانوفتش أن يعثر على وسيلة ما للوصول إلى ذلك، ولكنه بعد أن فكّر وبعد أن لام، على سبيل المجاملة، الحكومة على شحّها، أعلن أن لاحيلة له في ذلك. حيثئذ تنهّدت واتّضح أنها تفكر بالوسيلة التي تتخلص بها من زائرها. أدرك ذلك فاطفاً سيجارته، ونهض، وشدّ على يدها، وخرج من الغرفة.

في غرفة الطعام حيث رأى الساعة الجدارية التي عثر عليها إيفان ايليتش بفرح غامر لدى بائع سلع من سقط المتاع. صادف الكاهن وبعض المعارف الذين وصلوا لحضور الجناز، ورأى أيضاً فتاة جميلة جداً، ابنة إيفان ايليتش، التي كان يعرفها. كانت بثياب سوداء. وكانت قامتها الرشيق تبدو أرشق. كانت ملامحها متجهمة، حازمة، بل وغضبية. حيث بيير إيفانوفتش وكأنه مذنب بشيء ما. وخلفها، كان يقف فتى غني، باد غضبه

أيضاً، هو قاضي التحقيق، خطيبها، كما قيل، وكان بيير ايفانوفتش يعرفه أيضاً. حيّاهما الاثنان تحية كثيفة وتهيباً لدخول غرفة الميت، حين ظهر، من تحت الدرج، طالب معهد صغير، هو ابن ايفان ايليتش الذي كان يشبه أباه شبيهاً مدهشاً. كان الابن ايفان ايليتش كما تذكره بيير ايفانوفتش في مدرسة الحقوق. كانت عيناه حمراوين لفرط ما بكى وكانتا تعبران هذا التعبير الذي غالباً ما نجده في عيون الفتيان الفاسدين أبناء الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة. تجهّم لدى رؤيته وبدا عليه الارتباك والعبوس في آن واحد. حياة بيير ايفانوفتش بإيماءة من رأسه ودخل غرفة الميت. بدأ القدّاس: الشموع والتهنيدات والدموع والنحيب ورائحة البخور... ظلّ بيير ايفانوفتش واقفاً، مقطب الحاجبين، مثبتاً نظره بقدميه. لم يرفع مرة واحدة نظره إلى الجثمان، ولم يسلم نفسه للمشاعر الموهنة وانصرف بين أوائل المنصرفين. كان البهو خالياً. خرج موزّع المؤن مسرعاً من غرفة الفقيد، ورمى بذراعيه القويتين يئناً ويسرة جميع الفرويات ليعثر على فروية بيير ايفانوفتش ومدّها اليه:

خاطبه بيير ايفانوفتش ليقول شيئاً ما:

أتري، يا صاحبي جيراسيم؟ ما أعظم المصيبة!

أجاب جيراسيم وهو يكشف عن أسنانه البيضاء، المترابطة، أسنان

الفلاح:

- هذه هي مشيئة الله.

فتح الباب بحركة سريعة، شأنه شأن الرجل الذي أثقلته أشغاله.

ونادى الحوذيّ، وساعد بيير ايفانوفتش على صعود العربة وقفز إلى درج المدخل، مسرعاً، ليجد، كما يبدو، مهمة أخرى تشغله أيضاً.

أحسّ بيير ايفانوفتش بسرور خاص في تنشق الهواء النقي بعد روائح

البخور والجنّة والفينول.

سأله الحوذي:

- أين ينبغي أن أذهب؟
- لم يتأخر الوقت، وسأذهب إلى منزل فيودور فاسيلينتش.
بلغ المنزل. ووجد اللاعبين وهم يُنهون جولتهم الأولى، بحيث
استطاع أن يشارك في اللعب كلاعب خامس.

-٢-

كانت قصة إيفان ايليتش من أبسط القصص، وأكثرها عادية،
وأشدها فظاعة.

لقد مات إيفان ايليتش، المستشار في محكمة الاستئناف، في سن
الخامسة والأربعين. وكان ابن موظف قضى خدمته في بطرسبرج، في
وزارات شتى، وبلغ ذلك الوضع الذي يبدو فيه بوضوح أن الذين بلغوه
عاجزون عن ملء أية وظيفة ذي شأن، لكنهم لا يمكن أن يُطردوا بسبب
خدمتهم الطويلة ودرجتهم. فهم يحصلون إذن على مراكز صورية ومرتبّات
غير صورية بثبات، تتراوح بين ستة آلاف روبل وعشرة آلاف ويحتفظون بها
حتى شيخوختهم.

كذلك كان المستشار الشخصي «إيليا إيفيموفتش غولوفين» العضو
الذي لا حاجة إليه في عدة إدارات لا حاجة إليها.

ألحجب ثلاثة أولاد، ثانيهم إيفان ايليتش. سلك الأكبر مهنة كمهنة
أبيه، لكن في وزارة أخرى، واقترب من ذلك الوضع الذي تثبت فيه مرتبّات
الموظفين بقوة العطالة وحدها. وكان الثالث مخففاً، فلم يوفق في مختلف
أعماله وعمل في سكة الحديد. وكان أبوه وإخوته وأزواجهم لا يتحاشون
فقط التقاءه، لكنهم لم يكونوا يتذكرون وجوده، مالم تكن هناك ضرورة
مطلقة. تزوجت أخت إيفان ايليتش البارون «غريف» وهو موظف من
بطرسبرج كأنه حموها. كان إيفان ايليتش فذاً في الأسرة. كان أقل برودة
ودقة من الأكبر، وأقل اندفاعاً من الأصغر. وكان في الوسط بينهما: رجلاً

ذكياً، حيويًا، مقبولا ومستقيماً، درس في مدرسة الحقوق مع أخيه الأصغر؛ وبينما لم يستطع هذا أن ينهي تعليمه وطُرد من الصف الخامس، أنهى إيفان ايليتش دروسه بتفوق. ومنذ مدرسة الحقوق ظهر كما كان دائماً: رجلاً موهوباً، مرحاً، اجتماعياً، لكنه كان يؤدي دائماً وبصرامة ما يعتبره واجباً؛ وكان الواجب عنده ما يعتبره رؤساؤه واجباً. لم يكن يتذلل وهو صبي، ولم يتذلل فيما بعد؛ لكنه كان منذ مستهل شبابه، يحسّ بالنجذابه إلى الأشخاص الذين يشغلون مراكز اجتماعية رفيعة، شبيهاً بالذبابة التي يجذبها النور؛ كان يتمثل تصرفاتهم وتصوراتهم للحياة ويصادقهم. وقد مرّت النجذابات الطفولة والصبا دون أن تترك فيه أثراً عميقة. أسلم نفسه للمذات الحسنة، وللغرور، وفيما بعد، في أواخر دراسته، لليبيرالية، لكنه أمسك نفسه ضمن بعض الحدود التي حددها له ذوقه الطبيعي.

ولما كان في مدرسة الحقوق ارتكب أعمالاً بدت له دنيئة، وكان يشمئز منها حتى وهو يقوم بها. لكنه عندما شاهد، فيما بعد، أن أناساً في المراكز العليا يرتكبون الأعمال نفسها ولا يعدونها سيئة، نسيها تماماً دون أن يراها حسنة، ولم تعد ذكرها تعذبه.

تخرج من مدرسة الحقوق بمرتبة الفئة العاشرة^(١). وتلقّى من أبيه المال الضروري لتجهيزه الكامل، وأوصى على بزة من عند «شارمر»، وعلّق بسلسلته مدالية نُقشَ عليها المثل اللاتيني: «توقع النهاية»، وودّع المدير والأساتذة، وتعشّى مع أصدقائه عند «دونون»، وتزود بحقيبة جميلة وجديدة، وبشباب داخلية، وبملايس، وبلوازم الزينة، وبموس الحلاقة، وبمعطف السفر، - أوصى على ذلك كله واشتراه من خير المخازن- وسافر إلى المقاطعة حيث عُيّن بفضّل والده، موظفاً لمهمات خاصة لدى المحاكم^(٢).

(١) - كان أفضل الحائزين على شهادة مدرسة الحقوق (وكذلك الحائزون على شهادة كلية الحقوق) يدخلون الخدمة المدنية بهذه المرتبة.

(٢) - موظف... لدى المحاكم: هو موظف شاب مرتبط بحاكم المقاطعة يكلف بمهمات شتى.

في المقاطعة ، توصل إيفان ايليتش مباشرة إلى أن يوجد لنفسه وضعاً سهلاً ومقبولاً كوضعه الذي ضمنه بمهنته ، وكان في الوقت نفسه يلهو لهواً ساراً ومحتشماً . وكان رؤساؤه يرسلونه أحياناً ليفحص المناطق ؛ كان يتصرف دائماً بكرامة ، إزاء من هم فوقه ومن هم دونه على حد سواء ، ويقوم بالمهمات التي تُعهد إليه والتي تتعلق بالطوائف المنشقة بدقة وأمانة صارمتين لا يمكنه هو نفسه إلا أن يفخر بهما .

بالرغم من شبابه وطبعه المرح ، كان متحفظاً أشد التحفظ في قضايا الخدمة ، رسمياً بل وقاسياً ؛ لكنه كان يبدو في المجتمع بشوشاً ، خفيف الروح ، لبقاً ، رقيقاً ، طيب الخلق ، كما كان يقول عنه الحاكم وزوجته وكان يتردد عليهما .

وكانت له في المقاطعة علاقة بسيدة ارتمت على هذا الشاب الأنيق ؛ وكانت له مغامرة غرامية مع تاجرة قبعات . كما حدث له أن مجن مع مرافقين عسكريين عابرين وقصد برفقتهم بعد العشاء شارعاً متطرفاً . وحدث له أن تملك رئيسه وزوجة رئيسه ؛ لكن ذلك كله طُبع بطابع نبيل ، متميز إلى حد لا يمكننا معه أن نصفه بقسوة : « يجب أن نغفر للشباب طيشهم » ، كما يقول المثل الفرنسي وكانت هذه الأشياء تُعمل بأيدٍ نظيفة ، وثياب جديدة ، وصحبة حسنة ، على الخصوص ؛ ومن ثم ، بموافقة الأشخاص الرفيعي المكانة .

خدم إيفان ايليتش هكذا خمس سنوات ، ثم خدم في المؤسسات القضائية الجديدة حيث كانت تحتاج إلى رجال جدد . كان إيفان ايليتش أحد هؤلاء الرجال الجدد .

عُرض عليه مركز قاضي التحقيق فقبله ، مع أن ذلك أجبره على الذهاب إلى حكومة أخرى ، وقطع العلاقات التي أنشأها ، وخلق علاقات أخرى . رافقه أصدقائه إلى المحطة وأهدوه علبة سجائر فضية ؛ صوّرت الجماعة كلها ، والتحق إيفان ايليتش بمنصبه الجديد .

بدا إيفان ايليتش ، بصفته قاضياً للتحقيق ، كما ينبغي للقاضي أن يكون ، دقيقاً ، ماهراً في فصل قضايا الخدمة عن العلاقات الخاصة وتصرف بالجدارة نفسها عندما كان في مهمة غير عادية بجانب الحاكم . بل إن وظائف قاضي التحقيق ظهرت لإيفان ايليتش أكثر تشويقاً وجذباً من التي كان يقوم بها سابقاً . كان يجد اللذة فيما مضى في أن يمرّ ، خفيف الخطأ ، بيزته التي من عند «شارمر» ، أمام ذوي الحاجات والموظفين المرتجفين الذين كانوا ينتظرون المقابلة ويحسدونه على أنه يستطيع أن يدخل مباشرة مكتب الحاكم ويجلس إلى طاولته ليشرب الشاي ويدخن . لكن عدد الأشخاص التابعين لمشيئته كان قليل الأهمية : كانوا ، في معظمهم ، مفوضي شرطة ومنسقين عندما كان يُرسل بمهمة : وكان يحب كثيراً أن يُعامل بلطف ، وكرفيق ، هؤلاء التابعين له ؛ كان يجب أن يشعرهم أنه يستطيع أن يسحقهم ، فيعاملهم ببساطة معاملة الصديق . لكن هؤلاء الناس كانوا قلة . أما الآن ، وبعد أن أصبح قاضي تحقيق ، فقد أخذ يحسّ أنهم جميعاً ، دون أي استثناء ، حتى أكثر الشخصيات أهمية وكبرياء ، وأنه يكفي أن يكتب بضع كلمات على ورقة بعنوانه حتى يُؤتى بأية شخصية مهمة أو متكبرة باعتبارها متهمّة أو شاهدة مجبرة على الوقوف إذا لم يدعها هو ، إيفان ايليتش ، إلى الجلوس ، ومجبرة على الإجابة عن أسئلته . لكن إيفان ايليتش لم يتعسف قط في استخدام سلطته . على العكس ، كان يبذل وسعه في تلطيف الأشكال . بيد أن الشعور بهذه السلطة وإمكان تخفيفها كانا يكوّنان في نظره الأهمية الرئيسية والجاذبية لوظيفته الجديدة . ولقد اكتسب إيفان ايليتش بسرعة ، أثناء قيامه بوظيفته في تحقيقه في القضايا الجنائية ، هذا النهج الذي يقوم على تنحية جميع الظروف الغريبة عن الخدمة ، وعلى إعطاء كل قضية ، مهما تكن معقّدة ، مظهراً تكون معه صالحة لأن يُعبر عنها على الورق ، بما أن آراء الشخصية مستبعدة ، مع حرصه على أن تُراعى جميع الشكليات . كان هذا الشيء جديداً كل الجدة . كان من الأوائل الذين طبّقوا أنظمة ١٨٦٤^(١) .

(١) - أنظمة ١٨٦٤ : الأنظمة المتعلقة بالمؤسسات الجديدة والإجراءات القضائية الجديدة .

في المدينة التي كان يشغل فيها مركز قاضي التحقيق، عقد علاقات جديدة، واتخذ هيئة جديدة، وغير لهجته. ظلّ على مسافة من السلطات الإدارية، وخلف حلقة من الأصدقاء بين القضاة والنبلاء الأغنياء الذين يقطنون المدينة: أخذ ينتقد الحكومة انتقاداً خفيفاً وعدّ ليبرالياً معتدلاً، رجلاً ذا أفكار على شيء من التقدم. ولقد كفّ عن حلق ذقنه وترك لحيته تطول^(١) كما يحلو لها، دون أن يغيّر، مع ذلك، شيئاً من أناقة ملبسه.

مرت حياة إيفان إيليتش في مقرة الحديد، بسرور عظيم؛ فالوسط الناقد الذي دخله كان موحداً توحداً كبيراً؛ ومرتباته أكبر من ذي قبل؛ ثم كانت هناك متعة أخرى هي «الهويست». لقد أخذ يلعب بالورق، وبما أنه كان يلعب بمهارة وبمروح، مع الحذر، فإنه كان يربح دائماً تقريباً.

بعد سنتين من إقامته في هذه المدينة، تعرّف على المرأة التي ستغدو امرأته. كانت «براسكوفيا فيودوروفنا ميكيل» أكثر الفتيات سحراً وذكاءً وتألّقاً في تلك الحلقة التي ينتمي إليها إيفان إيليتش. وبين التسلّيات التي أوجدها لنفسه ليستريح من مشاغله كقاضٍ للتحقيق، تلك الصلات البهجة، السارة، التي أقامها مع براسكوفيا فيودوروفنا.

ولما كان ما يزال مرتبطاً بالحاكم، رقص كثيراً. أما عندما أصبح، فيما بعد، قاضياً للتحقيق فلم يكن يرقص إلا استثناءً. كان يرقص كأنه يقول: إني وإن أكن قاضياً من الفئة الخامسة، فإني أستطيع أن أدلّ على أنني لأقلّ عن غيري، فيما يتعلق بالرقص. وهكذا كان يرقص أحياناً، في آخر السهرة، مع براسكوفيا فيودوروفنا! وأثناء هذه الرقصات فاز بقلبيها. غدت عاشقة له. لم يكن في نيته أن يتزوج، لكن عندما أغرمت به. طرح على نفسه بصراحة السؤال التالي: لماذا لا أتزوج؟

كانت براسكوفيا فيودوروفنا من أسرة نبيلة محترمة؛ لم تكن بشعة

(١) - كان على الموظفين، في عهد نيقولا الأول، أن يكونوا حليقيين؛ ثم سُمح لهم في عهد الاسكندر الثاني، بدءاً من ١٨٦٠، أن يتركوا لحاهم تطول.

وكانت تملك شيئاً من الثروة . كان بوسع ايفان ايليتش أن يطمح بامرأة أكثر تألقاً، لكن هذه كانت مع ذلك شريكاً حسناً . كان لايفان ايليتش مرتبه وكان يأمل أن يكون لها دخلها المعادل . كانت الفتاة لطيفة جداً، مقبولة، ملائمة جداً، ومن أسرة كريمة .

إن القول بأن ايفان ايليتش تزوج لأنه أغرم بخطيبته ولأنه وجد أن ميولها تتوافق توافقاً تاماً مع ميوله ، قولٌ خالٍ من الصحة كقولنا إنه تزوج لأن الناس الذين من عالمه وافقوا على هذا الزواج . وتزوج ايفان ايليتش .

مر الزواج نفسه ، والأزمة الأولى من الحياة الزوجية بمداعباتها وأثائها الجديد ، وأوانيتها الجديدة ، وبياضها الجديد ، بسرور عظيم حتى حبل براسكوفيا فيودوروفنا ، بحيث أن ايفان ايليتش قال في نفسه إن الزواج لا يقتصر على عدم تعكيره هذه الحياة السهلة ، اللطيفة ، الفرحة ، الصحيحة دائماً ، التي يُقرّها المجتمع ، والتي هي الحياة الوحيدة التي يعتبرها ايفان ايليتش ممكنة ، بل إن الزواج سيجعل هذه الحياة أكثر سروراً . لكن ها إن الأشهر الأولى من حبل براسكوفيا فيودوروفنا تشهد حدوث شيء جديد ، كرهه ، مؤلم وغير لائق ، يمكن توقعه ، ولا يمكن التخلص منه .

لقد أخذت امرأته ، دون أي داعٍ - كما خيّل إلى ايفان ايليتش - ومن كل قلبها ، كما كان يقول ، تعكّر مجرى حياته المقبول والصحيح : بدت غيرى دون مبرر ، وطلبت إليه أن يُعنى بها باستمرار ، وسعت إلى محادثته وشاحته مشاحنات كريهة وفظة .

في البداية ، كان ايفان ايليتش يرجو أن يتفادى مُزعجات هذا الوضع بموقفه المتجرد والصحيح الذي كان ناجحاً حتى الآن في حياته : تظاهر بتجاهل سوء مزاج امرأته وظل يعيش عيشة خفيفة بهجة كسابق عهده ؛ كان يدعو أصدقاءه إلى لعب الورق عنده ، كان يذهب إلى النادي أو إلى منازل زملائه . لكن امرأته شرعت ، ذات يوم ، تسبّ سباً غليظاً ، وظلت تخاصمه

بعنف شديد كلما رفض الخضوع لمتطلباتها حتى لقد ارتعب إيفان ايليتش من ذلك . كان واضحاً أنها قررت بحزم الاستمرار في ذلك مالم يخضع ، أي مادام لم يرتضِ البقاء في البيت ، ومادام لم يضجر فيه كما تضجر هي . أدرك أن حياة الأسرة - مع زوجته على الأقل - لا تجعل الحياة دائماً أكثر سروراً وملاءمة ، بل إنها ، على العكس ، تعكّر انسجامها ، ومن ثمّ كان لابد من حماية الذات إزاء عناصر التعكير هذه .

فكّر إيفان ايليتش في حماية نفسه . الشيء الوحيد الذي كان يوهم براسكوفيا فيودوروفنا كانت مشاغل زوجها ؛ ولذلك أخذ إيفان ايليتش يقاوم امرأته بالتدرّج بواجبات أعبائه ، محافظاً هكذا على استقلال عامله الخاص .

برزت ضرورة الاستقلال هذه بروزاً أكبر بعد ولادة ولدهما ، أثناء المحاولات غير المجدية للإرضاع وأثناء أمراض الأم والطفل الحقيقية والوهمية ، وهي أمراض كانت تقتضي تدخل إيفان ايليتش وإن كان لا يفهم شيئاً منها .

كلما كانت امرأة إيفان ايليتش تغدو أكثر نزقاً وتطلباً ، كان يحولّ كلّ اهتمام حياته أكثر فأكثر إلى أعمال خدمته . كان يزداد حباً لمشاغله ويغدو أعظم طموحاً .

وسرعان ما أدرك ، بعد مضيّ نحو سنة من زواجه ، أن حياة الأسرة ، وإن كان لها بعض المزايا ، إلا أنها شيء شديد التعقيد ، ومؤلم جداً ، وعليه أن يقف إزاءها موقفاً محدّداً بدقة ، شأنه إزاء خدمته ، لكي يتسنى له القيام بواجبه ، أي لكي يتسنى له أن يحيا حياة صحيحة ، وكما يوافق عليها المجتمع .

قاعدة السلوك هذه ، إزاء حياته الأسرية ، أفلح إيفان ايليتش في تهيئتها . وكان لا يتطلب من الأسرة إلا رغد العيش الذي يمكن أن تمنحه إياه : المائدة ، السرير ، نظام المنزل ، وفوق كل شيء ، تلك اللياقة التي يحدّد

أشكالها الرأي العام . كان يود لو يلقي أيضاً المجاملة والمرح ؛ فإذا حصل عليهما اعترف بحسن الصنيع ، أما إذا وجد معارضة ، وسوء مزاج ، لجأ فوراً إلى عالمه الخاص ، إلى مشاغله ، فأحس فيها بالرضا .

كان إيفان ايليتش يُعدّ موظفاً ممتازاً ، وبعد مضي ثلاثة أعوام ، عيّن وكيلاً للنياحة . إن واجبات هذا العبد الجديدة ، وأهميتها ، وقدرته على إخطار أيّ كان وإيداعه السجن ، والمرافعات التي عليه أن يلقيها أمام الجمهور ، ونجاحاته كخطيب ، كل ذلك زاد من تعلقه بخدمته .

وجاءه أولاد آخرون أيضاً ؛ غدت براسكوفيا فيودوروفنا أشدّ نزقاً ومشاكسة ؛ لكن قاعدة السلوك التي اصطفاها إيفان ايليتش لإزاء أسرته جعلته ممتنعاً تقريباً على تقريع امرأته .

بعد إقامة سبع سنوات في هذه المدينة ، عيّن إيفان ايليتش نائباً عاماً في حكومة أخرى . فانتقل إليها . لكن المال لم يتوافر له ، ولم يرق المكان لبراسكوفيا فيودوروفنا . ارتفع مرتّب إيفان ايليتش عن ذي قبل ، لكن الحياة كانت أغلى ، وفضلاً عن ذلك فقد مات اثنان من الأولاد وغدت الحياة لاتطاق أكثر مما كانت عليه .

جعلت براسكوفيا فيودوروفنا من زوجها مسؤولاً عن جميع المصائب التي حلّت في إقامتها الجديدة . إن معظم المحادثات التي جرت بين الزوج والزوجة ، ولاسيّما عندما تعلّق الأمر بتربية الأولاد ، كانت تحيي ذكرى الخصام القديم وتجرّ إلى مناقشات جديدة . وفي لحظة نادرة كان العشق يسوق الزوجين أحدهما إلى الآخر ، لكن هذه اللحظات كانت قصيرة الأمد . كانت هذه اللحظات جزيرات يسيران على شواطئها زمناً ليغرقا بعدها في بحر كرههما الكامن الذي كان يتجلّى في البعد الذي يشعر به كل منهما تجاه الآخر . كان هذا البعد جديراً بأن يُحزن إيفان ايليتش لو اعتقد أنه غير طبيعي ؛ لكنه لم يكن طبيعياً فحسب بل إن طريقته في التصرف كانت تتجه بالذات إلى هذا الهدف . كان هدفه يقوم دائماً على التخلص أكثر فأكثر من

المضايقات الأسرية وعلى أن يعزو إليها طابعاً غير مؤذٍ وسليماً . وكان يتوصل إلى ذلك بتقليص الزمن الذي يقضيه في أسرته قدر المستطاع . فإذا اضطر إلى أن يعود إلى المنزل حمى نفسه من الهجوم بفضل حضور الغرباء . ثم إن ايفان ايليتش كانت له مهماته ، وهذا هو الشيء الرئيسي . كان اهتمام حياته كله منصباً على ذلك وكان هذا الاهتمام يستغرقه استغراقاً تاماً . كان شعوره بسلطته ، والإمكان الذي هو فيه أن يدمر أياً كان ويقضي عليه ، وأمارات الاحترام التي كان يُقَابَلُ بها في المحكمة ، ومراعاة رؤوسيه له ، ونجاحاته بين من هم فوقه ومن هم دونه ، ولاسيما مهارته في الأعمال ، وهي مهارة تبينها هو نفسه ، كل ذلك كان يفتنه ويملاً حياته ، مع الهويست ، والولائم وأحاديثه مع زملائه . هكذا كانت إذن تجري حياة ايفان ايليتش كما يليق برأيه ، أي بسرور وعلى نحوٍ صحيح .

عاش هذه العيشة سبع سنوات . كان عمر ابنته البكر ستة عشر عاماً . فَقَدَ ولداً آخر ؛ وبقي له صبي ، طالب معهد كان موضوعاً لنقاشات مستمرة . كان ايفان ايليتش يريد أن يدرس في مدرسة الحقوق ، لكن براسكوفيا فيودوروفنا أدخلته المعهد ، بروح المشاكسة . وكانت ابنته تدرس في المنزل وتتقدم في دروسها ؛ وكان الولد مجتهداً أيضاً .

— ٣ —

هكذا عاش ايفان ايليتش على مدى سبعة عشر عاماً من زواجه . كان نائباً عاماً منذ زمن طويل ، وقد رفض عدة مرات تغييره انتظاراتاً لمنصب أفضل . عندما وقع فجأة حادثٌ كرهه كاد يعكّر هذه الحياة الوداعة من أعماقها . كان ايفان ايليتش يتوقع أن يُعَيَّنَ رئيساً لمحكمة في مدينة جامعية ؛ لكن لا يُدرى كيف حصل «هوب» على هذا المكان . غضب ايفان ايليتش وانحى عليه باللوم وساءت علاقاته مع رؤسائه ، فأبدوا تجاهه شيئاً من البرودة ، وعند الترفيع التالي استبعد مرة أخرى .

كان ذلك في ١٨٨٠ . وكانت هذه السنة أشد سنيه مشقة . فمن جهة ، تبين أن مرتبه لا يكفيه ليعيش ، وأن الجميع من جهة أخرى ، أخذوا ينسونه ، وأن ماكان يعده ظلماً صارحاً وشنيعاً ، لم يكن في نظر الآخرين سوى شيء جد طبيعي . حتى إن أباه نفسه لم ير من واجبه أن يمد إليه يد المعونة . أحس أن الجميع شرعوا يهجرونه معتبرين أن ثلاثة آلاف وخمسمئة روبل مرتب طبيعي بل رفيع . هو وحده كان يعلم أنه عندما يحسب حساب الظلم الذي ارتكب بحقه ، وأن مشاحنات امرأته المستمرة ، وأن الديون التي يحملها وهو يعيش فوق وسائله المادية ، هو وحده كان يعلم أن هذا الوضع بعيد عن أن يكون طبيعياً . في هذه السنة ، نال إجازته في الصيف ، لكي يخفف من أعباء النفقة ، وذهب مع امرأته ليقضي تلك الإجازة في الريف ، عند والد براسكوفيا فيودوروفنا .

في الريف ، أحس أيفان ايليتش ، بعد أن خلا من مشاغله ، ولأول مرة في حياته ، لا بالضجر العميق فحسب بل وبالقلق الذي لا يُطاق . فقرر أنه لا يستطيع أن يستمر في حياته على هذا المنوال وأن عليه حتماً أن يتخذ تدابير حاسمة . وبعد ليلة من السهاد قضها يذرع السطح ، عزم على السفر إلى بطرسبرج والقيام بالمساعي الضرورية لكي يحاول الدخول في وزارة أخرى فيعاقب بذلك الذين لم يحسنوا تقديره .

في اليوم التالي سافر إلى بطرسبرج ، رغم اعتراضات زوجته وحميه . كان هدفه الوحيد من هذا السفر أن يحصل على مركز مرتبه خمسة آلاف روبل . لم يكن يحرص حرصاً خاصاً على هذه الوزارة أو تلك ؛ كان طابع المهمات التي عليه أن يقوم بها ونوعها قليلي الأهمية عنده . لم يكن يلزمه سوى مركز ، مركز بخمسة آلاف روبل ، في الإدارة ، في المصرف ، في الخطوط الحديدية ، في مؤسسات الامبراطورة ماري^(١) ، حتى في الجمارك ،

(١) - مؤسسات الامبراطورة ماري : أنشأت الامبراطورة ماري أم الاسكندر الأول ونيقولا الأول ، مؤسسات للإحسان والتربية . وبعد موتها سنة ١٨٢٨ ظلت هذه المؤسسات تحمل اسمها وتكون دائرة خاصة .

على شرط أن ينال خمسة آلاف روبل وأن يترك هذه الوزارة التي لم يُقدَّر فيها حق قدره .

وتُوجَّ سفر ايفان ايليتش بنجاح غير عادي وغير متوقع . أحدُ أصدقائه ، «ايلين» دخل مقصورته في «كورسك» ، مقصورة من الدرجة الأولى وأعلمه عن البرقية التي تلقاها حاكم كورسك والتي تدور حول تغيير سيحدث في الوزارة في مدى بضعة أيام . سوف يُعيَّن ايفان سيمونوفيتش مكان بيير ايفانوفتش .

فضلاً عن التأثير الذي ربما يكون لهذا التغيير في مصائر روسيا ، فقد كان له أهمية خاصة لدى ايفان ايليتش . وصل الى السلطة رجلٌ جديد ، هو بيير بيتروفتش ، ومعه صديقه ، زاكار ايفانوفتش ؛ وكان هذا صديقاً ورفيقاً لايفان ايليتش .

في موسكو ، تأكَّد النبأ . فلدى وصول ايفان ايليتش الى موسكو ، ذهب للقاء زاكار ايفانوفتش ، وحصل منه على وعدٍ بتعيينه في مركز حسن في وزارة العدل .

بعد أسبوع ، أ برق لزوجته :

«زاكار في مكان «ميلر» وسوف أُعيَّن عند أول قرار .

بفضل هذا التغيير حصل ايفان ايليتش فجأة في وزارته القديمة على مركز رفعه مرتبتين فوق زملائه القدامى ؛ خمسة آلاف روبل المرتَّب وثلاثة آلاف وخمسمئة روبل نفقات الانتقال . كان ايفان ايليتش سعيداً كل السعادة ونسي الغيظ الذي كان يكنّه لأعدائه القدامى وللوزارة .

عاد ايفان ايليتش الى الريف ، مرحباً ، راضياً كما لم يكن من قبل . وكانت براسكوفيا فيودوروفنا سعيدة أيضاً ، وسادت هدنة بين الزوجين . روى ايفان ايليتش كيف لقي الترحيب في بطرسبرج ، وكيف أهين أعداؤه ، فهم يتملقونه الآن ويحسدونه ، كما روى كم كان محبوباً في بطرسبرج .

أصغت إليه براسكوفيا فيودوروفنا، وتظاهرت بأنها صدقت كل ما قاله، واكتفت بتخطيط المخططات حول إقامتهم في المدينة حيث سيسكنون. ولاحظ ايفان ايليتش بفرح أن هذه المخططات هي أيضاً مخططاته، وأنهما اتفقا من جديد، وأن حياته استأنفت، بعد الأزمة، مجراها السار والصحيح كل الصحة.

لم يُم ايفان ايليتش طويلاً في الريف. كان عليه أن يتسلم واجبات منصبه في العاشر من أيلول، وفضلاً عن ذلك، كان عليه أن يترك منزله ويستقر في مقر جديد، وأن يشتري كثيراً من الأشياء، وأن يعطي أوامره، وبالاختصار، عليه أن ينظم حياته وفقاً لمشروعاته التي تتوافق تماماً تقريباً مع رغبات امرأته.

الآن وقد سوي كل شيء بنجاح، الآن وقد تفاهم جيداً مع امرأته التي لم يكن يراها إلا قليلاً، غدت علاقاتهما أفضل مما كانت عليه منذ السنة الأولى من زواجهما. كان ايفان ايليتش يستعد لاصطحاب أسرته معه، لكنه سافر وحده بناءً على إلحاح أخت زوجته وزوجها اللذين أصبحا على حين غرة لطيفين، ودودين نحوه.

سافر، ولم يفارقه طيب مزاجه الذي سببه نجاحه ووفاقه مع امرأته. عثر على شقة فاخرة، كالتي حلم بها الزوجان بالضبط: غرف استقبال واسعة وعالية بحسب الأسلوب القديم، مكتب للعمل مريح ورسمي، غرف لبراسكوفيا فيودوروفنا وابنتهما، غرفة دراسة لطالب المعهد. كان كل شيء كأنما أقيم من أجلهم. اهتم ايفان ايليتش نفسه بترتيب المنزل؛ اختار الورق واشترى الأثاث ولاسيما الأثاث القديم اللائق المظهر، وشيئاً فشيئاً وجد كل شيء مكانه المناسب، وقارب المجموع من المثل الذي وضعه لنفسه ايفان ايليتش. وعندما استقر نصف استقرار تبين أن النتائج تجاوزت توقعاته، وأدرك الطابع اللائق، الأنيق من غير أن يكون مبتدلاً في الوقت نفسه، الطابع الذي سيتخذهُ المجموع عندما يتم كل شيء. كان إذاً نام تصور مظهر

صالة الاستقبال . وإذا مرّ بعينه على الصالون رأى مسبقاً المدفأة والحاجز
والرفّ والكراسي الصغيرة متفرقة هنا وهناك ، والصواني والصحون على
الجدران ، والبرونزيات . كان يتهجّح حين يفكر بمفاجأة «باشا» و «ليزا» اللتين
تملكان هما أيضاً حسن الذوق في هذه الأشياء . لم تكونا تنتظران مثل ذلك ،
بالتأكيد . لقد نجح في أن يكتشف ويشتري بسعر رخيص أشياء قديمة تعطي
الشقة طابع النبل . وفي رسائله ، كان يقلّل من جمال إقامته عن قصد عما
هي عليه ، وذلك لكي يفاجئهما . كان ذلك كله يشغله إلى حد كبير حتى إنّ
وظيفته الجديدة التي كان يحبّها مع ذلك ، أخذت تهمّه أقل مما كان يتوقع .
وأثناء الجلسات ، كان فكره يشرّد لحظات ، كان يفكر في سنائره : أتكون
مثناة أم مستقيمة ؟ كان نفاد صبره عظيماً حتى إنه كان يغيّر هو نفسه أمكنة
الأثاث ويرخي الستائر . وذات يوم ، بينما كان صاعداً السلم ليرى المنجدّ
الذي لم يفهمه ، كيف كان يريد أن توضع الستائر ، زلّت قدمه وسقط ، لكنه
لما كان قوياً وحاذقاً ، تماسك واصطدم جانبه بغلاظة النافذة . توجّع قليلاً ،
لكن هذا الألم سرعان ما زال .

كان إيفان ايلييتش يحسّ طوال هذا الوقت بأنه مرّحٌ ومُعافى . كان
يكتب : «أحسّ أن لي خمسة عشر عاماً أقل من عمري» . كان يعتقد أنه سيتهي
في أيلول ، لكن الأشياء امتدت حتى أواسط تشرين الأول . وبالمقابل ، كان
ذلك فتناً : ولم يكن هذا رأيه وحده ، بل كان الجميع يقولون له ذلك .

في الواقع ، كانت شقته شبيهة بشقق جميع الناس الذين لم يكونوا
وافري الغنى والذين يبدلون وسعهم ليتشبهوا بالأغنياء ، لكنهم لا يقلحون
إلا في أن يتشبهوا بعضهم ببعض : الصيغ والابنوس والأزهار والسجاد
والبرونز ، والألوان القائمة أو اللامعة ، جميع الأشياء التي يستعملها أناسٌ
من طبقة معينة ليتشبهوا بأناس من طبقة أعلى . كان هذا الشبه ، لدى إيفان
إيلييتش ، تاماً جداً حتى أن لاشيء منه جذب الانتباه ؛ لكن كل شيء بدا له
في منتهى الأصالة . كان يحسّ بالسعادة الكاملة عندما يذهب للقاء ذويه في

المحطة ، وعندما يصطحبهم إلى منزله فيفتح باب البهو المزدان بالورود الخادمُ بربطته البيضاء ، وعندما يدخلون الصالونات ثم مكتب العمل وهم يطلقون صرخات الإعجاب ؛ قادهم إلى جميع الأماكن ، متذوقاً ثناءهم ، مشرقاً بالفرح . وفي المساء ، أثناء تناول الشاي ، عندما سألته براسكوفيا فيودوروفنا بين أسئلة أخرى ، كيف سقط عن السلم ، انفجر ضاحكاً وقلد سقوطه وارتعاب صاحب النجد .

- إنني لأمارس الرياضة عبثاً ؛ غيري كان سيقتل ، أما أنا فلم أصبُ إلا بضربة خفيفة تؤلمني إذا لمست . لكن ذلك أخذ يزول ولم يبق سوى آثار اللطمة .

أخذوا يعيشون إذن في مسكنهم الجديد الذي تبين أنه تنقصه غرفة ، كما يظهر دائماً عندما يستقر الناس في سكنهم نهائياً . ولم يكن ينقص المرتب الجديد سوى القليل من الأشياء ، نحو خمسمئة روبل ؛ لكن الأمور تسير سيراً حسناً . ولا سيما في الأزمنة الأولى عندما لم يكن كل شيء قد انتهى بعد ، وكان لابد من الانشغال بالشراء ، والتوصية والنقل . كان كلا الزوجين جدّ سعيد وإن وقعت بعض الاختلافات الطفيفة ، فقد كان هناك أشياء كثيرة يجب أن تنجز بحيث كانت الأمور تُسوَّى دون كبير خصام . فإذا لم يكن بينهما ما ينبغي أن يُسوَّى دبّ المللُ وشعرا بشيء ينقصهما . لكن العلاقات والعادات الجديدة ملأت حياتهما .

كان إيفان ايليتش يقضي الصباح في المحكمة ويعود للغداء ؛ في الآونة الأولى كان حسن المزاج ، مع أنه بدأ منشغلاً بكل مايسُ المسكن (أقل بقعة على غطاء الطاولة أو على قماش الأثاث ، حبل الستارة المتزوع ، كل ذلك كان يغيبه : لقد كلّفه تجهيز المنزل كثيراً من الجهد حتى إن أدنى تلف كان مؤلماً له ؛ لكن حياة إيفان ايليتش كانت ، على العموم تجري وفقاً للمثل الأعلى الذي خطّه لنفسه : بيسرٍ وسرور وسلامة . كان ينهض في التاسعة ، ويتناول قهوته ، ويقرأ صحيفته ، ويرتدي بعد ذلك بزّته ويقصد المحكمة ويستأنف عمله الذي تعودّه والذي كان يفرغ إليه بسهولة . الملتمسون ،

طلبات الاستعلام، الرئاسة، الجلسات العامة، المؤتمرات الإدارية... كان عليه أن ينحني عن هذه المشاغل الواقع الحي الذي يأتي باستمرار فيشوش المجرى النظامي لأعمال الوظيفة: كان عليه أن يحرص على ألا يكون له مع الناس من علاقات غير التي تدخل في نطاق الوظيفة. مثلاً، يجيئه شخص يطلب معلومات. لا يمكن لايفان ايليتش، خارج وضعه الرسمي، أن تكون له أية علاقة معه، لكن إن أمكن لعلاقاتهما المتبادلة أن تعبر عن نفسها على ورقة بعنوان، فإن ايفان ايليتش، في حدود هذه العلاقات سيفعل مايسطيع، كل مايسطيع حتماً، مراعيًا شكلية الصداقة، أي التهذيب. فإذا ما انتهت علاقاتهما الرسمية، انتهت بينهما جميع العلاقات الأخرى. كان ايفان ايليتش يملك إلى أعلى درجة موهبة الفصل الواضح بين شؤون الخدمة وشؤون الحياة الواقعية؛ وتوصل جيداً بفضل ممارسة طويلة، إلى تنمية هذه الموهبة، حتى إنه كان يستبجح أحياناً، كالعازف الماهر، أن يخلط بين العلاقات الإنسانية والرسمية وكأنه يتلاعب تلاعباً. كان يستبجح ذلك لأنه كان يشعر دائماً أنه قادر على تمييز حدود العلاقات الإنسانية إن لزم ذلك، وعلى استبعادها. كان ايفان ايليتش يفعل ذلك بيسر وسرور وسلامة عظيمة، بل وبحمىة. كان يدخل في أوقات فراغه، ويشرب الشاي، ويتحدث قليلاً في السياسة وفي المسائل العامة، وفي اللوائح ولاسيما التعيينات. كان يعود إلى منزله متعباً جداً، لكن مع رضا العازف الماهر الذي نفذ تنفيذاً حسناً دوره كعازف قيثارة في الاوركسترا. وكانت الأم وابنتها تخرجان، من جهتهما، وتستقبلان الزوار، وكان الولد يذهب إلى المعهد، ويعمل في المنزل مع مدرّسيه، ويحفظ جيداً ما يُعطى في المعهد. كان كل شيء يسير سيراً حسناً.

بعد الغداء، كان ايفان ايليتش إن لم يكن عندهم ناس، يقرأ أحياناً كتاباً كثر الكلام عليه، وفي المساء، كان يكف على العمل، أي أنه كان يدرس الإضرابات، باحثاً عن القانون الذي يجب تطبيقه، ويقارن بين

الشهادات . كان يفعل ذلك دون ضجر ولا لذة . فإذا ضجر أمكنة اللعب بالورق ، وإذا لم يلق شركاء في اللعب أثر أن يعمل على أن يبقى عاطلاً أو أثر أن يتحدث مع براسكوفيا فيودوروفنا . وكانت لذته الكبرى تلك الأغذية التي يدعو إليها بعض السيدات وبعض الرجال من علية القوم : كانت هذه الاجتماعات شبيهة بجميع الاجتماعات التي من هذا النوع ، كما أن صالون ايفان ايليتش كان شبيهاً بجميع الصالونات .

بل إنه دعا مرة إلى سهرة رقص الناس فيها . كان ايفان ايليتش مسروراً جداً ، لكن جرى خلاف بينه وبين امرأته حول الحلوى والسكر . كانت لبراسكوفيا فيودوروفنا خططها ، لكن ايفان ايليتش أصر أن يشتري ذلك كله من عند بائع حلوى غالي الثمن ؛ وأوصى على كمية زائدة من الحلوى فبقي منها وبلغت قائمة البائع خمسة وأربعين روبلاً . كان الخلاف شديداً وكريهاً حتى إن براسكوفيا فيودوروفنا نعتت زوجها بأنه غبي ومغفل ، حيثئذ أمسك رأسه بيديه ، وذكر في فورته الطلاق . لكن السهرة نجحت . حضرته نخبة المجتمع ، وراقص ايفان ايليتش الأميرة تروفونوفا ، أخت المؤسسة الشهيرة لجمعية الإحسان «أزل عنائي» .

كانت المتعة التي يستشعرها ايفان ايليتش في ممارسة واجباته الوظيفية متعة قائمة على حب الذات ؛ كانت مخالفاته الإجتماعية ترضي غروره ، لكن أفراحه الحقيقية كانت تلك التي يتذوقها في «الهويست» . وكان يقر بأنه ، مهما يحدث ، ومهما تكن المكدرات ، يرى فرحه الأقصى الذي يسطع كالشمعة فوق جميع الأفراح الأخرى ، هو أن يجلس إلى مائدة اللعب مع لاعبين ماهرين ، شركاء مستقيمين ، للعبة «هويست» بأربعة لاعبين (لأن من الصعب ، إذا كانت بخمسة لاعبين ، الانسحاب عندما يأتي دورك وإن تظاهرت بالرضا) وأن يلعب لعباً جاداً وذكياً (إذا كان محظوظاً) . ثم أن يتعشى وأن يشرب كأساً من الخمر . وبعد الهويست ، ولا سيما إذا كان الريح قليلاً (كان الريح الكثير كريهاً عليه) . كان ايفان ايليتش ينام وهو في استعداد

مزاجي بالغ السعادة .

هكذا كانت تمرّ حياتهما ؛ كانا يريان نخبة المجتمع ، ويستقبلان شخصيات هامة ، وشباباً .

كان الأب والأم والبنات متفقين كل الاتفاق فيما بينهم حول اختيار علاقاتهم ، وحتى دون أن يتشاوروا بهذا الصدد ، كانوا يستبعدون أولئك الأقرباء الفقراء ، وأولئك الأصدقاء الرقيق الحال الذين يهرعون إلى صالونهم المزدان بالأواني الصينية ، وهم ممثلثون باللطف . وسرعان ما كفّ هؤلاء الناس الصغار عن تراكمهم إليهم ، ولم يعد لآل غولوفين من علاقة سوى علاقاتهم بنخبة مختارة . كان الشباب يغازلون «ليزا» وأخذ «بيتر يشتيف» ابن «دمتري بيتريشيف» الوارث الوحيد لثروته ، وقاضي التحقيق ، يغازلها بمثابة شديدة حتى إن أيفان ايليتش تشاور هو وبراسكوفيا فيودوروفنا : ألم يحن الوقت لتنظيم نزهات بالعربات أو عرض للهواة ؟
هكذا كانوا يعيشون . كان كل شيء يجري بانتظام ويسير سيراً حسناً .

-٤-

كان الجميع في صحة حسنة . ولا يمكننا في الواقع أن نعدّ مرضاً ذلك المذاق الغريب الذي كان يحسّ به أحياناً أيفان ايليتش في فمه وذلك الضيق الذي يشعر به ، كما يقول ، في الجهة اليسرى من صدره .

لكن كان يقع أن هذا الإحساس بالضيق يغدو أشدّ إجهاداً ، لم يكن ألماً بعد لكنه كان ثقلاً مستمراً ، وساء مزاج أيفان ايليتش . وسوء المزاج هذا الذي لم يكفّ عن التنامي ، مالبث أن كدّر الحياة السائغة والسهلة التي كانت تحياها أسرة «غولوفين» . غدت المخاصمات بين الزوج والمرأة أكثر تكراراً ، ولم يكن التوصل إلى إنقاذ المظاهر على الأقل ممكناً إلا بشقّ النفس . وتكررت المشاحنات ولم يبق بينها سوى جزيرات صغيرة لا يقربها الزوجان

إلا في لحظات قصيرة من الراحة. أخذت براسكوفيا فيودوروفنا تقول، ولا يخلو ذلك من الحق الآن، إن زوجها ذو طبع صعب. كانت تضخم الأشياء على عاداتها وتقول: إن طبعه كان كريهاً دائماً وأنها كان لابد من طبيعتها لتتحمله طوال عشرين عاماً. والحق أنه هو الذي أصبح الآن يشرع في المشاحنات. كان يبدأ تذمره قبل أن يجلس إلى المائدة، وغالباً قبل أن يتناول حساءه. فتارة من صحن مثلوم، وتارة أخرى من طبق يبدو له سيئاً، وتارة من ابنه الذي وضع مرفقيه على المائدة، وتارة أخرى من زينة شعر ابنته. كان يتصدى دائماً ليراسكوفيا فيودوروفنا. كانت هذه ترد عليه في البدء وتقول له أشياء غير مستحبة؛ لكنه استشاط غضباً مرة أو مرتين في بداية الغداء إلى حد أدركت معه أن ذلك نتيجة حالة مرضية أثارها الطعام، فتمالكت نفسها: لم تعد تجيب واكتفت بتعجيل الغداء. كانت تعتر اعتزازاً عظيماً بصبرها. وإذا قررت أن لزوجها طبعاً كريهاً وأنه سبب شقاء حياتها، تحتت على مصيرها هي. وكانت كلما أشفقت على ذاتها ازدادت كرهاً لزوجها. فأخذت تمنى موته، لكن هذا الموت كان سيحرمها من مرتبات ايفان ايليتش، فتزداد حنقاً. كانت تعد نفسها شقية إلى حد هائل لأن موت زوجها لم يكن ليخلصها. كانت تغتاظ وتخفي غيظها فلا يجعله ذلك إلا أشد لذة.

بعد مشاحنة بدا ايفان ايليتش أثناءها ظالماً شديد الظلم، وأقر بعدها، عند الاستيضاح الذي تلا المشاحنة، أنه أصبح في الواقع سريع التهيج، وأن ذلك مرضي، قالت له إن عليه أن يعالج نفسه لأنه مريض، وطلبت إليه أن يذهب ويستشير طبيباً شهيراً.

وقصد الطبيب. جرى كل شيء كما كان يتوقع وكما يجري ذلك دائماً. انتظار طويل، ملامح رسمية، متصنعة، يعرفها جيداً، فكدلك كان يتصرف في المحكمة؛ كشف الصدر، أسئلة اعتيادية، تتطلب بعض الأجوبة المحددة سلفاً والتي لا جدوى منها، مظهر الوفاق المتعالي الذي يعني: أنتم ما عليكم إلا أن تطيعونا وسنسوي كل شيء؛ نحن نعلم جيداً، دون أدنى

شك، كيف نسوي الأشياء، بالطريقة نفسها دائماً، مهما يكن المريض. كل شيء كان يجري تماماً كما يجري في المحكمة. فكما أنه كان يمثل ملهأة أمام المتهمين، كان الطبيب هنا يمثلها أمامه.

قال الطبيب:

- هذا وذاك يدلان على أنك مصاب بهذا الشيء وذاك، لكن في الحالة لا يُثبت فيها التحليل ذلك؛ ينبغي الافتراض أنك مصاب بهذا الشيء وذاك، وإذا افترضنا... حيثنذ... الخ.

لم يكن إيفان ايليتش مشغولاً إلا بمسألة واحدة: هل كان في ذلك خطرٌ أم لا؟ لكن الطبيب تجاهل هذه المسألة التي في غير مكانها، فهي من وجهة نظره مسألة لا جدوى منها ولا مجال لبحثها: كان المقصود فقط أن يزن الاحتمالات: كلية عائمة، نزلة مزمنة، زائدة دودية... لم تكن حياة إيفان ايليتش موضع الخلاف، بل كان المقصود هو النقاش بين الكلية العائمة والزائدة الدودية. لكن الطبيب حسم النقاش ببراعة لمصلحة الزائدة، مشيراً من ناحية أخرى أن تحليل البول يمكن أن يقدم معطيات جديدة وأن القضية في هذه الحالة سيُعاد النظر فيها. كان ذلك العملية نفسها تماماً، كلمة كلمة، العملية التي نفذها إيفان ايليتش آلاف المرات ببراعة عظيمة على المتهمين الذين كانوا يمثلون أمامه. لم تكن خلاصة الطبيب أقل تألقاً، ورمى المتهم، من فوق نظارته، بنظرة منتصرة، فرحة تقريباً. استنتج إيفان ايليتش من هذه الخلاصة أن الأمور سيئة. بالنسبة إلى الدكتور، وبالنسبة إلى جميع الناس ربّما، لم يكن لذلك من أهمية، أما بالنسبة إليه شخصياً فالأمر سيئة جداً. وهذا الاستنتاج أذهل إيفان ايليتش بالُم وأيقظ فيه شعوراً عميقاً بالشفقة على نفسه وبالكراهة للدكتور الذي لم يكثرث لشيء بهذه الأهمية.

لكنه لم يقل شيئاً؛ نهض ووضع المال على الطاولة، وتلفّظ وهو

يتنهّد:

- نحن المرضى، غالباً ما نطرح عليكم أسئلة ناشزة... ومع ذلك،

هل هذا المرض خطيرٌ أم لا؟

رماه الدكتور بنظرة قاسية عبر نظارته وكأنه يقول : « أيها المتهم ، إذا لم تلزم حدود الأسئلة التي نطرحها عليك ، فسوف أضطر إلى إخراجك من صالة الجلسات . » قال الطبيب :
قلتُ لك ما رأيتُ قوله ضرورياً ومناسباً . وسوف يكملُ التحليلُ
فحصي .
حيّاه الدكتور .

خرج ايفان ايليتش ببطء ، وصعد بحزن زلاجه وأمر بإيصاله المنزل . وطوال الطريق كلها لم يكف عن التفكير في كلمات الطبيب ، جاهداً في ترجمة العبارات العلمية المعقدة والغامضة ، إلى لغة سهلة لكي يعثر فيها على الجواب عن سؤاله : هل حالتي خطيرة ، خطيرة جداً ، أو أنها ليست شيئاً حتى الآن ؟ وبدا له أن كلمات الدكتور كانت تعني أن حالته سيئة جداً . بدت الشوارعُ حزينة لايفان ايليتش ؛ كانت العربات حزينة ، والبيوت والمارة والدكاكين حزينة . وبدا الألم الذي كان يستشعره ، ذلك الألم البهيم ، العنيد ، الذي لم يتركه لحظة ، بدا له أنه يتخذ ، من جراء جُمل الدكتور الملتبسة ، دلالةً جديدة ، أكثر جدية . أخذ ايفان ايليتش الآن يلاحظ هذا الألم بشعور جديد ، مؤلم .

روى كل شيء لأمرأته عند عودته إلى المنزل . أصغت إليه هذه ؛ لكن ابتهت دخلت ، في منتصف روايته ، وقبعتها على رأسها : كانت ستخرج مع أمها . جلست وبذلت وسعها لتصغي إلى هذه القصة المملة ، لكنها لم تطق صبراً ، لاهي ولا أمها أيضاً .
قالت هذه لزوجها :

- حسناً ! أنا مسرورة جداً ، وعليك الآن أن تأخذ الدواء بانتظام .
أعطني الوصفة ، سوف أرسل جيراسيم إلى الصيدلية .
وخرجت لترتدي ثيابها .

تكلم دون توقف مدة بقائها في الغرفة ، تنفس الصعداء عندما خرجت . قال :

- حسناً! لعل ذلك مازال شيئاً غير ذي بال، في الواقع.

تناول الأدوية، ونفذ تعليمات الدكتور التي عدّها على كل حال بحسب نتائج تحليل البول. لكن حدث حيثئذ التباس في هذا التحليل وفي التدابير التي يجب أن تتلواها. إذ لم يكن ممكناً بلوغ الدكتور نفسه؛ وبدا أنه قد نُفذ شيء آخر غير ما أمر به الدكتور، أو أنه أخطأ، أو أنه لم يقل كل شيء.

مهما كان الأمر، فقد أخذ ايفان ايليتش ينفذ بدقة جميع التعليمات ووجد في ذلك بعض العزاء، في الآونة الأولى.

كان همّ ايفان ايليتش الرئيسي، منذ زيارته الدكتور، هو أن يتبع بدقة توصياته المتعلقة بالصحة والأدوية وأن يراقب بإمعان ألمه وجميع وظائف عضويته. تركزت اهتمامات ايفان ايليتش في الأمراض والصحة: كان إذا جرى الكلام بحضرته عن المرضى أو الموتى أو الذين شفوا من أمراضهم، ولاسيما عندما يجري الكلام على مرضٍ شبيه بمرضه، يصيح السمع وهو يجهد في إخفاء انفعاله، فيسأل ويربط على الفور ما يُقال بمرضه هو.

لم يتناقص الألم؛ لكن ايفان ايليتش كان يقنع نفسه بأنه يتحسن. وتوصل إلى الكذب على نفسه، إلى حدّ إنه صار لا يضطرب لشيء. لكنه ما إن يحسّ بما يزعج في البيت أو في الوظيفة، أو في الهويست إذا لم يحالفه الحظ حتى يتفاقم وضعه على الفور. كان يتحمل قديماً هذه المتاعب قائلاً في نفسه إنه سيسوّي الأشياء ويقاوم وينجح، ويفوز فوزاً ساحقاً في اللعب، أما الآن فإن أقل مضايقة كان تهزّه هزاً وتغرقه في الأسى. كان يقول في نفسه: «كنت في طور الإبلال من مرضي؛ وأخذت الأدوية تفعل فعلها، وها إن هذه المصيبة الملعونة أو هذه المزعجات...» فتثور ثائرته على المتاعب وعلى الناس الذين يسبّبون له هذه المزعجات ويقتلونّه؛ ومع أنه أحسّ أن هذا الغضب كان يقتله فإنه لم يستطع مقاومته. كان جديراً به، كما يبدو، أن يرى بوضوح أن هذا السخط على الظروف وعلى الناس يعزّز مرضه وأن عليه، بالتالي، ألا يُعير المتاعب التي تطرأ أيّ انتباه؛ لكنه كان يحاكم بالضبط

ويراقب بانتباه كل ما يمكن أن يشوش هذا الهدوء، وكانت أقل معاكسة تثير حنقه. وما فاقم من حالته أيضاً قراءة كتب الطب وزيارة الأطباء. كان مرضه يزداد سوءاً بانتظام شديد حتى إنه توصل إلى الكذب على نفسه عندما كان يقارن بين يوم وآخر: إذ يبدو الفرق حينئذ طفيفاً. لكنه عندما كان يستشير الأطباء كان يبدو له أن حالته تزداد سوءاً، بل وبسرعة كبيرة. وبالرغم من ذلك، لم يكف عن استشارة الأطباء.

في أثناء الشهر نفسه، قصد طبيباً شهيراً آخر، قال له الشيء نفسه الذي قاله الطبيب الشهير الأول، لكنه طرح الأسئلة على نحو مختلف. وهذه الاستشارة عززت تعزيزاً شكوك إيفان إيليتش ومخاوفه. حدد صديق أحد أصدقائه، وهو طبيب ممتاز، مرضه على نحو مختلف، لكنه، وإن وعده بالشفاء، إلا أنه شوشه أكثر بأسئلته وافتراضاته وزاد من شكوكه وحدد الطبيب التجانسي مرضه أيضاً بطريقة أخرى وأعطاه دواءً تناوله مدة أسبوع سرّاً عن الجميع. لكن بعد مضي أسبوع لم يشعر بأي تحسن، وفقد الثقة في العلاج القديم وفي هذه الطريقة الجديدة، فأحس بأن عزمه قد هُدد أكثر من ذي قبل. وذات يوم حدثته سيدة عن الشفاء الذي تحدثه الأيقونات. وفاجأ إيفان إيليتش نفسه وهو يصغي إليها بانتباه ويتحقق من حقيقة الحدث. رُوِّع من ذلك وتساءل... «هل تدنّي ذكائي إلى هذه الدرجة؟ كل ذلك حماقات! ينبغي ألا نستسلم للخوف، لكن بما أنني اخترت طبيباً فينبغي أن أقتصر على علاجه. وهذا ما سأصنعه منذ الآن. انتهى الأمر الآن. لن أفكر في ذلك بعد الآن وسأتبع بدقة علاجاً وحيداً. وسأرى فيما بعد. كفى تردداً!».

كان سهلاً أن يقول ذلك لكن كان مستحيلاً أن يحققه. لم يتخل عنه الوجع في جنبه. وبدا الوجع كأنه قد غدا أشد حدة وإرهاقاً؛ وغدا المذاق الذي يحسه في فمه أشد غرابة، وخيّل إليه أن فمه تفوح منه رائحة أنتن: وانحطت قواه وتناقصت شهوته إلى الطعام. كان من غير الممكن أن يخطيء

في ذلك : كان يجري فيه شيء رهيب ، شيء جديد أهم من كل ما وقع حتى الآن لايفان ايليتش . وكان وحده يعلم ذلك ؛ أما الذين كانوا يحيطون به فلم يكونوا يفهمون ذلك أو لم يكونوا يريدون أن يفهموه ، وكانوا يتصورون أن كل شيء يسير في العالم كما كان يسير في الماضي . وهذا ماكان يؤلم ايفان ايليتش أكثر من أي شيء آخر .

كانت أسرته وزوجته وابنته جد منهمكين في موسم الحياة المدنية فلم يفهموا شيئاً ، كان يرى ذلك ، وكانوا يغضبون حين يرونه شديد التطلب والحزن ، وكان ذلك من غلظه . كان يستشف أنه يضايقهم وإن كانوا يجهدون في إخفاء ذلك ، وأن امرأته اتخذت إزاء مرضه قاعدة للسلوك تراعيها مهما قال أو فعل ويتجلى موقفها كالاتي :

كانت تقول لأصدقائها : «تعلمون أن ايفان ايليتش عاجز عن المتابعة الدقيقة للعلاج الموصوف ، كما يفعل سائر الناس ، فهو يتناول اليوم الدواء ويأكل ماأمر به الطبيب وينام ؛ أما في اليوم التالي فهو ينسى أن يتناول دواءه ، إذا لم أسهر على ذلك ، ويأكل سمك الحنش (وهو ممنوع عليه) ويظل يلعب بالورق حتى الواحدة صباحاً . »
فيرد ايفان ايليتش :

- متى وقع لي ذلك ؟ مرة واحدة ، عند «بيير إيفانوفتش» .
- مالك ! ومع «شيبك» !
- لم أكن أستطيع النوم لشدة الألم .
- هناك دائماً ، بالطبع ، سبب ما . ولكنك لن تشفى أبداً هكذا وأنت تعذبنا .

كان موقف براسكوفيا فيودوروفنا إزاء مرض زوجها يتلخص في أن تعلن للجميع ، ولايفان ايليتش نفسه ، أن مسؤولية هذا المرض إنما تقع عليه ، وأن هذا المرض ماهو إلا واحد من تلك المكدرات العديدة التي يسببها لامراته . وكان ايفان ايليتش يرى أنها تتصرف هكذا دون أن تريد ، لكنه لم يكن يشعر من جرأ ذلك بأنه أحسن .

في المحكمة ، كان ايفان ايليتش يلاحظ ، أو خيّل إليه أنه يلاحظ موقفاً لا يقل غرابة إزاءه : فتارة يبدو له أن الناس يمعنون النظر إليه وكأنه رجل سيترك مركزه عمماً قريب ؛ وتارة أخرى يأخذ أصدقاءه في السخرية من مخاوفه وكأن ذلك الشيء الفظيع والمروع ، ذلك الشيء الغريب الذي استقرّ فيه ، الذي ينخره أبداً والذي يجره جرأاً إلى حيث لا يدري ، كأن ذلك الشيء لم يكن سوى موضوع مسلّ للمزح . وكان «شوارتز» على وجه الخصوص هو الذي يثير ثائرتة ، «شوارتز» . الذي كان يذكره ، بهيئته المرحّة ، وحيويته ، ومظهره اللائق ، ماكانه هو نفسه قبل عشر سنوات .

يأتي الأصدقاء ليلعبوا جولةً بالورق ، فيجلسون الى مائدة اللعب ، ويوزّع الورق ؛ يجمع ايفان ايليتش أوراق الديناري : معه سبع . قال الشريك :

- بلا أوراق رابحة .

ويعلن عن ورقتين ديناري .

ماذا يلزمه أيضاً؟ ينبغي أن يشعر أنه مرحّ ، مفعّم بالطاقة : إنه فوزٌ ساحق . لكن ايفان ايليتش يحسّ فجأةً بذلك الألم العضال ، ذلك المذاق الشنيع في فمه . ويبدو له أن من الغباء أن يبتهج بفوزه في الوضع الذي هو فيه .

وينظر إلى ميشيل ميخايلوفتش ، شريكه ، الذي يضرب المائدة بيد صلبة ، ويمتنع بأدب وتسامح عن لمّ المحصول ، لكنه يدفعه نحو ايفان ايليتش ليتيح له لذة تناوله دون أن يتعب ، بل دون أن يكلف نفسه مدّ يده . ليفكر ايفان ايليتش : «هل يتصوّر أنني بلغت من الضعف حدّاً لأقدر معه على مدّ يدي» . وينسى أن يعدّ الأوراق الرابحة ، ويقاطع شريكه ويفوته الفوز بضربات ثلاث . الأسوأ أن نرى كم تألم ميشيل ميخايلوفتش من ذلك بينما ظلّ هو غير مُبال . والرهيب أن يفكر في سبب هذه اللامبالاة .

يلاحظ الجميع أنه يتألم فيقولون له :

- إن كنت متعباً فنحن نستطيع أن نوقف اللعب . استرح .
يستريح ؟ لا ، إنه ليس متعباً البتة . وسوف تُنهى اللعبة . الجميع
مقربون ، صامتون . ويدرك ايفان ايليتش أنه هو الذي يشيع ذلك فيهم ،
لكنه لا يستطيع أن يُبدد هذا الجو الكثيب . فيتعشون ويتركونه . ويبقى ايفان
ايليتش وحده ، مع هذا الشعور الواضح وهو أن حياته قد ذبلت وأنه يسمم
حياة الآخرين وأن السم ينفذ إليه على نحو يزداد عمقاً .
عليه أن يمضي الى السرير بهذا الشعور وبذلك الألم الجسدي ،
وبرعبه ، وأن يظل ، في الغالب ، دون أن ينام ، جزءاً كبيراً من الليل .
وعليه ، في صباح اليوم التالي ، أن ينهض من جديد ، وأن يرتدي ثيابه ، وأن
يقصد المحكمة ويتكلم ويكتب ، أو أن يبقى في بيته ليراقب جريان الساعات
التي كل ساعة منها عذاب . كان مضطراً أن يعيش هكذا على حافة الهاوية ،
وحيداً تماماً ، دون أي كائن يفهمه ويرثي له .

- ٥ -

دام ذلك شهراً ، شهرين . وقبل رأس السنة ، زارهم أخو براسكوفيا
فيودوروفنا الذي نزل عندهم لبضعة أيام . كان ايفان ايليتش في المحكمة
وامراته في السوق تتبضع . وعندما دخل مكتبه وجد أخا زوجته ، وهو رجل
متين البنية ، دموي المزاج ، يفك حقائقه . ولدى سماعه خطوات ايفان
ايليتش ، رفع رأسه ونظر إليه لحظة دون أن يفوه بكلمة . كشفت هذه النظرة
الوجيزة كل شيء لايوان ايليتش . فتح أخو زوجته فمه ، لكنه حبس التعجب
الذي كان سينبعث من شفثيه . هذه الحركة أكدت النظرة .

- مالك ! هل تغيرت ؟

- نعم . . . قليلاً .

وبالرغم من كل ما فعله بعد ذلك ايفان ايليتش ليسوق الحديث إلى هيئته، فإن أخا زوجته كان يتملّص من أسئلته. عادت براسكوفيا فيودوروفنا فلحق بها أخوها. أغلق ايفان ايليتش الباب بالمفتاح وأخذ يتفرّس في نفسه، في المرأة، يتفرّس في وجهه كاملاً أولاً، ثم في صفحة وجهه. وتناول إحدى صوره التي تصوّرُها مع زوجته وقارنها بوجهه في المرأة. كان الفرق عظيماً. ثم عرّى ذراعيه حتى المرفقين، وفحصهما، وردّ كميّه، وجلس على الديوان، وغدا أكثر تجهّماً من الليل.

قال أخيراً:

- لا ينبغي ذلك، لا ينبغي ذلك!

نهض فجأة، واقترب من الطاولة. وفتح ملفاً وأخذ يقرأ، لكنه لم يستطع أن يستمر في قراءته. فتح الباب ودخل غرفة الاستقبال. كان باب الصالون مغلقاً؛ اقترب منه على رؤوس أصابعه وأصغى.

كانت براسكوفيا فيودوروفنا تقول:

- كلا، أنت تبالغ.

- أنا، أنا أبالغ؟ ألا ترين أنه ميت؟ انظري إلى عينيّه؛ إنهما منطفئتان. لكن ماذا أصابه؟

- لا أحد يعرف. قال نيكولايف (وكان هذا طبيباً آخر أيضاً) شيئاً لم أفهمه. وقال ليتسيتزكي (وكان طبيباً مشهوراً) العكس...

عاد ايفان ايليتش إلى غرفته، واستلقى وأخذ يفكر: «الكلية، الكلية العائمة». تذكّر كل ما شرحه له الأطباء: كيف انفصلت وكيف أخذت تعوم. وحاول بجهد خياله أن يمسك بها، أن يبقّيها في موضعها، أن يشبّثها: لا يلزم سوى القليل من أجل ذلك، كما بدا له. قال في نفسه: سوف أذهب لأرى بيير بيتروفش (كان زميلاً صديقاً طبيب). قرع الجرس وأمر بإعداد العربة وتهياً للخروج.

سألته امرأته وقد عبّر وجهها تعبيراً حزيناً هادئاً على نحو فريد غير

مألوف :

- أين تذهب ، يا جان ؟

غاضبه هذا الطيب الذي لم يتعوده .

- سأذهب إلى منزل بيتر وفتش .

قصد هذا الزميل الذي صديقه طبيب ، وذهبا معاً الى ذلك الطبيب .
وجداه في منزله وتحدثنا طويلاً .

و حين فحص بالتفصيل من وجهة النظر التشريحية والفيزيولوجية
ماكان يجري فيه بحسب رأي الطبيب ، فهم .

هناك شيء صغير ، شيء صغير جداً في زائدته . لكن يمكن تسوية ذلك . ينبغي أن تدعم طاقة عضو ، ويُنقص نشاط عضو آخر ، وحينئذ تُحل المشكلة ويعود كل شيء إلى نصابه . تأخر قليلاً عن الغداء . أكل ، وتحدث بمرح ، لكنه لبث طويلاً ولم يستطع أن يزمع على البدء بالعمل . وأخيراً مضى إلى مكتبه وشرع على الفور في العمل . أخذ يقرأ الملف ويدرسه ، لكن الشعور بأن له قضية هامة تمسه عن كُتب ، سيعكف عليها بعد ذلك ، هذا الشعور لم يفارقه . وعندما انتهى من عمله ، تذكر أن هذه القضية الشخصية هي حالة زائدته . لكنه لم يجز وراء هذه الفكرة وذهب إلى الصالون لتناول الشاي كان ثمة مدعوون : كانوا يتحدثون ، ويعزفون على البيانو ، ويغنون ؛ وكان قاضي التحقيق ، الخطيب المنتظر ، هنا أيضاً . قضى ايفان ايليتش ، كما لاحظت امرأته ، هذه الأمسية ، بمرح أكثر من عادته ؛ لكنه لم ينس لحظة واحدة أن عليه التفكير جدياً بزائدته . وفي الحادية عشرة استأذن المدعويين وانسحب إلى غرفته . كان ينام وحده منذ مرضه ، في غرفة صغيرة قرب مكتبه . خلع ثيابه وتناول رواية لزولا ؛ لكنه لم يقرأها . أخذ يفكر . كان شفاء الزائدة الذي شداً ما أمّله يتم في خياله ، بالامتصاص والتمثل ، فيعود عمل أعضائه إلى سابق عهده . قال في نفسه : نعم ، هذه هي الحال بعينها ، لكن يجب أن نمّيد العون إلى الطبيعة . تذكر الدواء الذي ينبغي أن يأخذه ،

فنهض وأخذه واستلقى على ظهره، وهو يبذل جهده في مراقبة آثاره السعيدة ومقاومته للداء. «يكفي أن أتناوله بانتظام وأن أتخاشى كل تأثير مؤذٍ؛ أحسّ أنني تحسنت قليلاً، بل كثيراً». وجسّ جانبه، فلم يشعر بأي ألم تحت يده. «نعم، إنني لأحسّ بشيء؛ تحسنت الأمور كثيراً، في الحقيقة. أطفأ الشمعة، وانقلب على جانبه. «نعم، إن ذلك يُمتصّ، وكل شيء ينتظم.

لكنه عاد فأحسّ فجأةً بذلك الألم المعهود، القديم، المألوف، الخفيّ، النافذ، العنيد، المقيم، الجسيم. فأصابه غثيانٌ ودار رأسه. قال: «يا الهي! يا الهي! هوذا الألمُ من جديد، ولن يكفّ أبداً!» وعلى حين غرة، تمثل له الأمر بمظهر مختلف تماماً. فكّر: «الكلية، الزائدة، كلا، الأمر لا يتعلق بها، بل بالحياة. . . وبالموت. نعم كنتُ أحياء، وحياتي تمضي؛ إنها تمضي، ولا يمكنني أن أستبقيها. نعم، لماذا أكذب على نفسي! أليس واضحاً للناس جميعاً ولي أيضاً أنني أموت. وأن المسألة مسألة أسابيع، أيام. . . وربما في هذه اللحظة بالذات؟ كان النور قبل ذلك، والآن جاءت الظلمات. كنتُ هنا؛ والآن إلى أين أنا ذاهب؟ إلى أين؟» تملكه البرد، وتوقّف نفسه. ولم يعد يسمع سوى دقات قلبه.

«أنا لن أكون، فما الذي سيكون حيثُذا؟ لن يكون شيءٌ. لكن أين سأكون حين تنقضي كينونتي؟ أهو الموت حقاً؟ لا، لا أريد». استوى جالساً وأراد أن يشعل شمعته، وتلمسها بيد مرتجفة، فقلب الشمعدان وارتمى على وسائده. «لماذا؟ وما أهمية ذلك!» كذلك كان يفكّر وعينه محدقتان في العتمة. الموت. نعم، هو الموت. وجميعهم لا يعلمون ذلك، لا يريدون أن يعلموه. إنهم يلعبون (كان يسمع من خلال الباب دوي أصواتهم وأغانيهم). سيّان عندهم، لكنهم سيموتون أيضاً يا للأغبياء! أنا ذاهب قبلهم، وسيلحقون بي. سيموتون جميعاً أيضاً. لكنهم يتهجون الآن، فيالهم من حيوانات بلهاء!» «خنقه الغيظ. كان ثقلٌ هائلٌ يسحقه. وليس ممكناً أن يُقدّر على الجميع معرفة هذا الرعب الفظيع!» فنهض.

هناك شيءٌ لا يسير سيراً حسناً. يجب أن أهدأ وأن أتذكر جيداً كيف وقع ذلك. وأخذ يفكر.

«نعم، بدء المرض. صدمتُ علاقة النافذة. لكن لم يتغير شيء: ظلمتُ كما كنت. ثم ألمني ذلك قليلاً، وبعد ذلك اشتدَّ الألمُ. ثم جاءت الآلام، والمزاج السيء، والقلق، ثم الآلام أيضاً. واقتربتُ شيئاً فشيئاً من الهاوية. تضاءلت قواي. وتزايد قربي من تلك الهاوية. لم يبق في عيني من ضوء إنه الموت وأنا أفكر في الزائدة. أنا أفكر في إصلاحها. وهذا هو الموت. أهو الموتُ حقاً؟».

غمره الخوف مرة أخرى. أخذ يلهث. انحنى وفتش عن علبة الكبريت، وصدم بمرفقه، طاولة الليل. كانت تضايقه وأوجعته الصدمة. وفي حركة غضبي دفعها وقلبها. وارتمى على ظهره وهو يائس، يلهث، منتظراً الموت.

انسحب الزوار في هذه الآونة؛ كانت براسكوفيا فيودوروفنا تشيخهم. سمعت صوت الوقعة ودخلت.

- مابك؟

- لا شيء. قلبتُ بالمصادفة. . . .

خرجتُ وعادت بشمعة. كان مستلقياً على ظهره وهو ينفخ نفخاً صاخباً، سريعاً، مثل رجل يركض فرسحاً. حدّد النظر إليها.

- مابك، جان؟

- لا. . . لا شيء. قلبتُ. . . .

وفكر:

«ما جدوى الكلام! فلن تفهم».

والحقيقة أنها لم تفهم. رفعت الشمعة، وأشعلتها وانصرفت على عجل: كان عليها أن ترافق صديقة لها. وعندما عادت وجدته في الوضع نفسه، وعيناه في السقف.

- أتحس أن حالتك أسوأ؟

- نعم .

هزّت رأسها وجلست للحظة .

- أتعلم ، جان ؟ ألا يجب علينا أن نستدعي ليشيتسكي ؟

كان ذلك يعني استدعاء الطبيب الشهير دون النظر إلى النفقة .

ابتسم ابتسامة مريرة وقال :

- لا

بقيت جالسة لحظة ، ثم نهضت وقبلته في جبينه .

في هذه اللحظة ، كان يكرها بكل قوى نفسه وتحامل على نفسه لكي

لا يصدّها عنه .

- ليلة سعيدة ! ربما أفلحت في أن تنام .

- نعم .

- ٦ -

رأى ايفان ايليتش أنه كان يموت فكان يائساً . كان يعلم في أعماق

نفسه أنه كان يموت : لكنه لم يتوصل إلى أن يألف هذه الفكرة ، بل إنه لم يكن يفهمها . كان عاجزاً عن فهمها .

إن القياس الذي تعلّمه في كتاب المنطق الذي ألفه «كيوزيوترو»^(١) :

كايوس انسان - الناس فانون - وإذن كايوس فان . هذه المحاكمة بدت له

صحيحة إن تعلّقت بكايوس لابسخصه . كان كايوس انساناً على العموم ،

ولابدّ من أن يموت . لكنه ليس كايوس ، وليس انساناً ، على العموم ؛ إنه

مستقل ، مستقلّ تماماً عن الكائنات الأخرى : كان «فانيا» مع أمه وأبيه ، مع

«ميتيا» و «فولوديا» ، مع خادمتها ، ومع الحوذي ، ثم مع «كاتنكا» ، مع

(١) - استاذ المنطق في برلين ١٧٦٦-١٨١٩ .

الأفراح كلها، والمشقات كلها، وحماسات الطفولة والصبا والشباب كلها. أكان كايوس يعرف رائحة تلك الكرة الجلدية المبرقشة التي أحبها فانيا حباً جماً؟ أكان كايوس يقبل يد أمه مثل فانيا؟ أو من أجل كايوس كان حفيف تنورة أم فانيا الحريرية؟ فانيا؟ وهل كايوس هو الذي احتج في المدرسة بصدد المعجنات؟ وهل أحب مثل فانيا؟ وهل يمكنه أن يرأس جلسة مثله؟

كايوس، في الواقع، فان، ومن العدل أن يموت. أما أنا، فانيا، إيفان ايليتش، مع جميع أفكاره، وجميع مشاعري فشيء آخر تماماً. ومن المستحيل أن يكون لا بد من موتي. ذلك جد فظيع. هكذا كان يحس.

«إن كان عليّ أن أموت مثل كايوس، فسأعلم ذلك جيداً، وسيقوله لي صوتي الداخلي. بيد أنه لم يقل لي قط شيئاً من هذا القليل. فأنا وجميع أصدقائي نفهم جيداً أننا مختلفون جداً عن كايوس. وهأنا ذا الآن... هذا مستحيل، والأمْرُ مع ذلك هكذا. كيف؟ كيف نفهم ذلك؟».

لم يكن بوسعهم أن يفهم ذلك وسعى جهده إلى طرد هذه الفكرة عنه، باعتبارها فكرة خاطئة، غير طبيعية، مرضية، وأن يُحل محلّها أفكاراً أخرى، طبيعية وسليمة. لكن هذه الفكرة، أو بالأحرى هذا الواقع كان لا يلبث أن يعود لينتصب أمامه.

ولكي ينحّيه كان يستنجد بأفكار أخرى على أمل أن يجد فيها سنداً له. كان يحاول أن يلجأ إلى تلك الحالة الفكرية التي كانت تخفي فيما مضى عن عينيه فكرة الموت. لكن، يالللغربة! كل ما كان يخفي ويدمرّ قديماً الشعور بالموت لم يعد له الآن ذلك السلطان. في الآونة الأخيرة، كان إيفان ايليتش معنياً على الخصوص بمحاولة استعادة تلك الحالة الفكرية التي كانت تستر عنه الموت. كان يقول تارة: «سأنصرف إلى عملي. كانت هذه حياتي في الماضي. فيمضي إلى المحكمة طارداً عنه بعيداً الشكوك والترددات. ويحدث زملاءه، ويجلس وهو يجيل في الجمهور نظرة متألمة شاردة من جراء عادة قديمة، مستنداً بيديه الهزيلتين على ذراع مقعد من السنديان. ثم

ينحني، كعادته، نحو معاونه، ويتبادل وإياه بعض الخواطر بصوتٍ خفيض، ويتناول الملفّ، ثم يرفع عينيه بغتةً ويستوي في مقعده. ويتلفّظ ببعض الكلمات وتبدأ الجلسة. لكن الألم في جنبه يبدأ فجأةً عمله غير مبالٍ بالدعوى الجارية، الألم الخفي، العنيد ويحاول إيفان ايليتش جهده أن يصرف عنه فكره، لكنه يستمرّ في عمله، فيجيء ويتصبّ أمامه لينظر إليه. ويحسّ إيفان ايليتش أنه مشلول، وتنطفئ عيناه ويتساءل من جديد: «أليس من شيء حقيقي «غيره»؟». ويرى زملاؤه ومرؤوسه بدهشة وحزن أنه هو، القاضي اللامع المحنّك يتشوّش ويرتكب أخطاء. فيستوي في مقعده من جديد ويحاول أن يسيطر على نفسه مُدبراً الجلسة كما اتفق له إلى نهايتها، ويعود إلى بيته وبه شعور مؤلم بأن وظيفته كقاضٍ لا يمكنها أن تخفي عنه ما ودّل لم يره، وأن خدمته لا يمكنها أن تخلصه من حضوره «هو»، والأسوأ أنه «هو» كان يصرفه عن عمله لا ليصنع شيئاً مالمكن لينظر إليه فقط، ليشخص إليه؛ ويتألم ألماً لاتعبير له، دون أن يفعل شيئاً على الإطلاق.

كان إيفان ايليتش، في مجهوده للخروج من هذه الحالة، يبحث عن تعزيات أخرى، عن شاشات أخرى؛ وهذه الشاشات تظهر عندما يدعوها، وتبدو للحظة قصيرة كأنها تحميه، لكنها لاتلبث أن تغدو شفافة، دون أن تختفي، وكأنّ الألم يمرّ خلالها وكأن لا شيء يمكن أن يخفيه.

كان يقع له، في هذه الآونة الأخيرة، أن يدخل الصالون الذي أثّته، هذا الصالون الذي سقط فيه، والذي من أجله- صار يفكر في ذلك الآن بسخرية مريرة- من أجل تجهيزه ضحّى بحياته (ذلك أنه كان يعلم أن مرضه جاء من الضربة التي أصابته)، دخل ولاحظ شقاً في خشب الطاولة الملبّك. بحث عن السبب واكتشف أن زخارف الآلبوم البرونزية بارزة. فتناوله وكان عزيزاً عليه، وقد ركّبه بكثير من الحب، فاغتاظ من فوضى ابنته وصديقاتها: كان ممزقاً والصور مقلوبة. فأعاد الصور بعناية إلى سابق نظامها وقوم الزوايا النحاسية.

ثم خطر له أن ينقل هذه «التجهيزات» كلها مع ألبوماتها إلى ركن آخر، قرب الأزهار. نادى الخادم، وجاءت امرأته وابنته لمساعدته؛ اختلفتا في الرأي وأبدتا اعتراضهما؛ ناقشهما وغضب. لكن كل شيء كان يسير سيراً حسناً، لأنه لم يكن يفكر (فيه)، ولم يكن يراه. لكن بينما كان ينقل الطاولة قالت له امرأته:

- انتظر، سيفعل الخدم ذلك. وستؤدي نفسك من جديد.

وبغته أنبعث «هو» عبر الشاشة. رآه. انبعث أمامه، لكنه يرجو أن يختفي «هو» عما قريب. ويصغي إلى نفسه: كان الألم مقيماً يتأكله؛ حيثئذ لم يعد بوسعه أن ينساه، ويشاهده بوضوح وهو ينظر إليه من فوق الأزهار. لم كل ذلك؟

«هل فقدت الحياة حقاً، قرب هذه الستارة. وكأنني مقبل على هجوم؟ أمكن ذلك؟ ما أفزع ذلك وما أغباه ذلك غير ممكن، لكنه كائن». عاد إلى مكتبه. اضطجع وظلّ وحيداً «معه». وجهاً لوجه «معه». ولاعمل له «معه» إلا النظر «إليه»، بينما يتجمد القلب.

- ٧ -

كيف حدث ذلك أثناء الشهر الثالث من مرض إيفان ايلييتش، لاسييل إلى معرفة ما حدث، لأنه تمّ شيئاً فشيئاً، لكنه طراً، دون أن يلحظه أحد، وأن زوجته وابنته وابنه والخدم والأصدقاء والأطباء، وعلى وجه الخصوص إيفان ايلييتش نفسه، قد أدركوا أن أهمية وضعه كلها بالنسبة إلى الآخرين تنحصر في معرفة متى يُخلي أخيراً مكانه، ومتى يخلص الأحياء من الضيق الذي يسببه حضوره، ويتخلص هو نفسه من أوجاعه.

كان نومّه يتناقص. أعطوه الأفيون وحقنوه بالمورفين. لكن ذلك لم يخفف ألمه. إن القلق الخفي الذي استشعره في حالة النعاس، في البدء، حمل إليه بجدته شيئاً من التسرية، لكنه أصبح فيما بعد أشقّ من الألم.

هيئت له وجباتٌ خاصة بحسب تعليمات الأطباء ، لكن هذا الغذاء أخذ يبدو له تفهاً ومقززاً أكثر فأكثر .

ومن أجل خروجه لُجىء إلى طريقة خاصة وكان ذلك في كل مرة عذاباً له بسبب عدم الملاءمة والوسخ والرائحة وأيضاً لأنه كان لا بدّ له ممّن يساعده .

لكنه استطاع بفضل هذا الأمر الشاق بالذات أن يجد شيئاً من العزاء . كان «جيراسيم» هو الذي ينظف إناء ايفان ايليتش . وكان فلاحاً فتيّاً ، نظيفاً ، سليم الجسم ، وقد سمن قليلاً في المدينة . كان مرحاً أبداً ، مستوي المزاج . في البدء تضايق ايفان ايليتش من مظهر هذا الرجل النظيف ، اللابس على الطريقة الروسية ، الذي يقوم بمهمة مثيرة للاشمئزاز .

و ذات يوم ، وبينما هو يقوم عن كرسيه ولا يجد القوة ليرفع بنطاله سقط على المقعد فأخذ ينظر برعب إلى ذراعيه العاريتين الهزيلتين اللتين ارتسمت عضلاتهما بوضوح . في هذه اللحظة ، دخل جيراسيم بمشيئته الرشيقة والقوية ، ناشراً حوله رائحة جزمته الضخمة المدهونة والهواء البارد . كان عليه قميصٌ نظيف من القطن ووزرة من الكتان الشتوي ؛ كان كمّاه المشمرّتان يكشفان عن ذراعين فتيّتين وقويتين . اقترب من الكرسيّ المثقوب دون أن ينظر إلى ايفان ايليتش ، كابحاً ، على نحو ملحوظ ، وكلّي لايجرح المريض ، فرح الحياة الذي أضاء نظرتّه .

لفظ ايفان ايليتش بضعف :

- جيراسيم !

ارتعد جيراسيم وقد خشي أن يكون ارتكب خطيئة ، وأدار بحركة سريعة ، نحو المريض ، وجهه الفتّي ، الطيّب والبسيط ، الذي لم تكد لحيته تطلع .

- فيمَ يرغب سيدي ؟

- هذا كربةٌ عليك ، كما أظن . اعذرني . لم أستطع . . .

- ماذا تقول ، ياسيدي؟ (لمعت عينا جيراسيم وكشف بابتسامته عن أسنانه البيضاء الفتية) لم لا تأخذ هذا الجهد؟ أنت مريض .
وأتم يديه القويتين والحادقتين عمله المعهود وخرج وهو يمشي برشاقة .
وبعد خمس دقائق عاد بالخطوة نفسها .
ظل إيفان ايليتش في مقعده . وقال عندما أعاد جيراسيم الإناء الذي غُسل بنظافة :

- أرجوك ، ساعدني . تعال (اقترب جيراسيم) . أنهضني . يصعب علي الوقوف وحدي وقد صرفت ديمتري .

دنا جيراسيم منه ، وأخذته بين ذراعيه القويتين ، وأنهضه بهارة وهدوء ، وسنده بيما كان يرفع بنطاله باليد الأخرى ؛ وبعد ذلك أراد إجلاسه . لكن إيفان ايليتش طلب منه أن يوصله إلى الأريكة . قاده جيراسيم دون جهد ، حتى دون أن يلمسه ، بل حمله إلى الأريكة حيث أجلسه .

- شكراً ما أمهرك وأنت تفعل هذا ! أنت تفعل كل شيء . . . جيداً .
ابتسم جيراسيم مرة أخرى وأراد أن ينصرف . لكن إيفان ايليتش كان يحس بالطمأنينة معه حتى إنه لم يشأ أن يتركه .

- أتعلم ! قرب مني هذه الكرسي ، أرجوك . لا ، هذه ، تحت رجلي .
أحس براحة أكبر عندما ترفع رجلاي .

حمل جيراسيم الكرسي ، وحطها بحركة دقيقة ، دون أن يصدمها ، ووضع فوقها قدمي إيفان ايليتش . بدا إيفان ايليتش أنه يحس بشيء من التخفف عندما رفع جيراسيم قدميه عالياً .
قال إيفان ايليتش :

الأمر أفضل عندما ترتفع قدماي . دس تحتها هذه الوسادة .
أطاعه جيراسيم . رفع من جديد قدميه ووضعها على الوسادة . ومرة أخرى خيّل إلى إيفان ايليتش أنه يشعر بشيء من الانفراج عندما كان جيراسيم يمسك قدميه ؛ وعندما كان يخفضهما كانت أموره تسوء .

قال له :

- جيراسيم ! هل أنت مشغول؟

أجاب جيراسيم الذي تعلّم كيف يخاطب أسياده :

- لا ، سيّدي .

- أما يزال لديك عمل؟

- لاشيء خاص . لقد أنهيت كل شيء ولم يبق عليّ إلا أن أقطع

الحطب للغد .

- إذن ، أبقى قدمي أكثر ارتفاعاً . . . أتستطيع؟

- لم لا؟

رفع جيراسيم قدميه ، وبدا لايفان ايليتش أنه لم يعد يحسّ بأي ألم ،

في هذا الوضع .

- والحطب للغد .

- لا تقلق ، إذا تكرمت . فلدينا الوقت الكافي .

طلب ايفان ايليتش من جيراسيم أن يجلس ويمسك بقدميه ، وتحدّث

معه . شيء غريب جداً! خيّل إليه أنه يتحسن مادام جيراسيم يسند قدميه .

بدءاً من هذا اليوم ، كان ايفان ايليتش يدعو جيراسيم لكي يضع قدميه

على كتفيه . كان يحب أن يتحدّث معه . وكان جيراسيم يصنع ذلك راضياً ،

بمهارة ، وببساطة ، وبطيّب يرقّ له قلب ايفان ايليتش . كانت القوة وامتلاء

الحياة لدى الآخرين تغيظان ايفان ايليتش . لكن نشاط جيراسيم وطاقته لم

يكونا ليسخطاه . على العكس كانا يهدّثانه .

كان الهم الرئيسي الذي يعذب ايفان ايليتش هو الكذب ، الكذب

الذي ارتضاه الجميع دون أن يُعرف السبب ، وهو أنه مريضٌ لا مشرفٌ على

الموت ، وأن ليس عليه إلا أن يظل هادئاً يُعنى بنفسه لكي يُسوّى كل شيء .

بينما كان يعلم جيداً أنه مهماً يفعلوا فلن يجني غير آلام أشد فظاعة ، وغير

الموت . كان هذا الكذب يعذّبه ؛ كان يتألّم من أنهم لم يشاؤوا أن يقبلوا بما

يراه الجميع جيداً كما يراه هو نفسه ، من أنهم يكذبون حين يجبرونه هو نفسه على مشاركتهم هذه الخدعة . هذا الكذب الذي كان يُرتكب تجاهه عشية موته ، هذا الكذب الذي يُسقط ذلك الحدث الفظيع والجليل ، حدث موته ، إلى مستوى زياراتهم ، وستائرهم ، وأعشيتهم ، كان شاقاً بشكل فظيع على ايفان ايليتش . شيءٌ غريب ! كان في كثير من المرات ، على وشك أن يصرخ بهم ، وهم يرتّبون من حوله قصصهم الصغيرة : « كفى كذباً أنتم تعلمون وأنا نفسي أعلم أنني أموت ! كفوا على الأقل عن كذبكم ! » لكنه لم يجرؤ قط على التصرف هكذا . إن الحدث الفظيع لاحتضاره قد انحطّ على أيدي المحيطين به ، - وكان يرى ذلك جيداً - إلى مستوى مجرد مكدرٍ من المكدرات ، عدم لياقة تقريباً (كما يتصرفون تقريباً إزاء رجل تنبعث منه رائحة خبيثة وهو يدخل صالوناً) وذلك باسم «التصحيح» نفسه الذي خدمه طوال حياته . كان يرى أن لأحد يرأف به لأن لأحد يريد أن يفهم وضعه . كان جيراسيم وحده يفهم هذا الوضع ويرأف به . ولذلك كان ايفان ايليتش يشعر بالراحة عندما يمسك جيراسيم قدميه ، طوال ليالٍ كاملة أحياناً ، ويأبى أن يذهب لينام ، قائلاً :

- لانهتم بي ، ايفان ايليتش : ما يزال لدي متسع من الوقت للنوم .

أو حين يضيق وهو يخاطبه فجأة بضمير المفرد :

- لو لم تكن مريضاً لاختلف الأمر ؛ لكن لم لا أساعدك الآن ؟

جيراسيم وحده لم يكن يكذب : كان كل شيء يُظهر أنه وحده يفهم مايجري ولا يرى من الضروري إخفاء ذلك ، لكنه كان يرأف بسيدة الضعيف ، المهزول . بل لقد قال له مرة بكل صراحة عندما ألح ايفان ايليتش لكي ينصرف :

- سنموت جميعاً . فلماذا لانكلف أنفسنا بعض المشقة .

قال ذلك ليبين أن هذا العمل غير شاق لأنه يقوم به بالضبط إزاء محتضر ، راجياً أن يفعل معه الناس كذلك إذا جاء دوره .

وأكثر ما كان يعذب إيفان إيليتش عدا هذا الكذب أو نتيجةً لهذا الكذب هو أن لأحد كان يرثي له كما كان يحب . وفي بعض الأحيان ، وبعد النوبات الطويلة المؤلمة ، كان يود ، - وإن كان مخجلاً الاعتراف بذلك أمام نفسه - قبل كل شيء أن يرثي الناس له كما يرثي للطفل المريض . كان يشتهي أن يداعبه الناس ، أن يعانقوه ، أن يبكوا قربيه كما يداعب الأطفال ويعزّون . كان يعلم أنه عضو في محكمة الاستئناف ، وأن لحيته دب إليها الشيب ، وأن مايريده من ثمّ مستحيل . لكنه كان يشتهي ذلك كثيراً . وفي علاقته مع جيراسيم كان هناك شيء يقارب ذلك . ولذلك كان حضور جيراسيم يهدّته . كان إيفان إيليتش يود لو يبكي ، كان يود أن يلاطفه الناس وأن يبكوا على مصيره ، لكن إذا بزميله «شيبيك» يدخل ؛ وبدلاً من أن يبكي إيفان إيليتش وأن يرق ، إذا به يتخذ هيئة جادة ، صادقة ، مستغرقة ، ويعرض بجمود رأيه في قرار محكمة النقض ويصرّ بعناد . إن هذا الكذب الذي كان سائداً من حوله وفيه سمّ ، أكثر من أي شيء آخر ، أيام إيفان إيليتش الأخيرة .

- ٨ -

كان الوقت صباحاً . بديهي أن الوقت كان صباحاً ، بما أن جيراسيم انصرف وأن يبير الخادم أطفأ الشموع وأزاح الستائر وشرع يرتب الغرفة . وسواء أكان الوقت صباحاً أم مساءً ، أحداً أو جمعةً ، فإن الأمر واحد عند إيفان إيليتش : كان هناك دائماً ذلك الألم الخفي الذي لا يفارقه لحظة ، وذلك الإحساس بأن حياته تهرب هرباً لا رده ، لكنها لم تستنفد تماماً بعد ، كان هناك دائماً ذلك الموت الرهيب البغيض الذي يقترب ، الواقع الوحيد ، والكذب ذاته دائماً . . . فما أهمية الأيام والأسابيع وساعات النهار في هذه الحالة إذن ؟

- ألا يرغب سيدي في الشاي؟
فكر ايفان ايليتش: «إنه يرى من اللازم أن يتناول الأسياد الشاي صباحاً، إنه يستسيغ النظام» .
واكتفى بالرد:
- لا .
- ألا يرغب سيدي في الجلوس على الأريكة؟
وفكر:
- إنه بحاجة إلى ترتيب الغرفة ، وأنا أضايقه . أنا أمثل الفوضى وسوء النظافة .
وقال فقط :
- لا . اتركني .
- بقي يبير أيضاً بعض الوقت . مدّ ايفان ايليتش يده ، فبادر ببير إلى الدنو منه :
- فيم يرغب سيدي؟
- ساعتني .
أخذ ببير الساعة التي كانت في متناول يد ايفان ايليتش ومدّها إليه .
- الساعة الثامنة والنصف . لم ينهض أحد بعد؟
- لا ، ياسيدي . فلاديمير ايفانوفتش (كان هذا هو الابن) ذهب إلى المعهد ، وبراسكوفيا فيودوروفنا أمرت أن نوقظها إذا ما طلبتها . هل ينبغي إيقاظها؟
- لا ، لا فائدة من ذلك .
وفكر : «ليتني أتناول الشاي» . . .
- احمل لي شيئاً من الشاي .
اتجه ببير إلى الباب . خاف ايفان ايليتش أن يبقى وحده . «كيف أستبقيه؟ آه ، نعم ! الشراب !» .

- بيير، دوائي!

«ولمَ لا؟ ربما أراحني» تناول الملعقة وشرب. «لا، لن يخفّف الشراب عني. حماقات، كذبٌ ذلك كله!» قال ذلك في نفسه بعد أن أحسّ بالمذاق التافه والمزعج الذي كان يعرفه جيداً. «لا، لم أعد أومن به! لكن لم هذا الألم؟ ليته يتوقف ولو للحظة!» تنهّد. عاد بيير إليه.

- لا، اذهب واثني بالشاي.

خرج بيير. تنهد ايفان ايليتش بعد أن بقي وحده، لامن الألم (مع أن الألم كان مبرّحاً) بقدر ما كان من القلق. «الشيء نفسه دائماً، الشيء نفسه دائماً هذه الأيام والليالي التي لانهاية لها! ليت ذلك ينتهي بزمن أسرع؟ ماذا؟ الموت، الظلمات!... لا، لا! كل شيء ولا الموت!

عندما عاد بيير بالشاي على طبق، نظر إليه ايفان ايليتش طويلاً نظرةً شاردة غير مدرك من هو وماذا يريد. اضطرب بيير لهذه النظرة، وعندما رأى ايفان ايليتش اضطراب بيير ثاب إلى رشده. وقال:

- نعم، الشاي... ممتاز. ضعه هنا، لكن ساعدني أولاً على الاغتسال ولبس قميص نظيف.

أخذ ايفان ايليتش يغتسل. وببطء وبوقفات عديدة، غسل وجهه ويديه وأسنانه، وامتشط، ونظر إلى المرأة. خاف وهو يرى نفسه في المرأة عندما لاحظ كيف التصق شعره السابل بجبينه الشاحب.

عندما بدّل قميصه لم ينظر إلى جسده، لعلمه أن خوفه سيزداد لو شاهده.

وحين انتهى من زيتته ارتدى مبدله وغطّى رأسه بغطاء، وجلس في مقعد لتناول الشاي. أحسّ بالانتعاش لحظة، ولكنه ما إن شرع بتناول الشاي حتى أحسّ بالمذاق نفسه وبالألم يعود إليه. بذل جهداً لينهي شايه واضطجع بعد ذلك ممدداً ساقيه. اضطجع وصرف بيير.

الشيء نفسه دائماً: فتارة بريق أمل ، وتارة أخرى عاصفة يأس ،
ودائماً هذا الألم وذلك القلق . الشيء نفسه دائماً . الوحدة تعذبهُ ؛ ودلّو
ينادي أحداً ؛ لكنه يعلم مسبقاً أنه إن جاء أحدٌ ساءت الحالُ أيضاً . «لو
حقنوني على الأقل بالمورفين ! حينئذ سأنسى نفسي ! سأطلب من الدكتور أن
يعثر لي على شيء ما . مستحيل ، مستحيل أن استمر هكذا !»

مرت ساعة ، ساعتان . دقّ الجرسُ في البهو . لعله الدكتور ؟ كان
الدكتور ، في الواقع ، غضباً ، ضخماً ، مفعماً بالطاقة ، فرحاً ، وكأنه يقول :
أنت مخطيء بقلقك . سوف نُصلح ذلك كله . « إن الدكتور يعلم أن هذا
التعبير ليس لائقاً هنا ، لكنه اتّخذهُ من مرة ولا يستطيع أن ينزعه بعد ذلك ،
مثل سيد ارتدى ثيابه منذ الصباح ليقوم بزياراته .

فرك الدكتور يديه بانسراح ورضاً ، وقال :

- مازلتُ متجمداً . فالصقيع شديد . اسمح لي أن أتدفأ قليلاً .

وكانما كان يكفي الانتظار إلى أن يتدفأ ، وأن كل شيء سيُسوّى حالما
يتدفأ . وسأل :

- حسناً ! كيف الحال ؟

ايفان ايليتش يعلم جيداً أن الدكتور يريد أن يقول : كيف حال أمورنا
الصغيرة ؟ لكنه تبين أنه لا يستطيع التعبير هكذا فقال :

- كيف قضيتَ الليل ؟

نظر ايفان ايليتش إلى الدكتور نظرة استفهام :

« ألا تستحي حقاً من أن تكذب عليّ هكذا ؟ »

لكن الطبيب يأبى أن يفهم .

فيقول ايفان ايليتش :

- على أسوأ حال ، كالعادة . فالألم لا يزول ولا يريد أن ينقطع . ليتنا
نستطيع أن نفعل شيئاً ما .

هذه حالكم دائماً ، أيها المرضى . حسناً ! أظن أنني تدفأت الآن ؛
براسكوفيا فيودوروفنا نفسها التي تتقن عملها لا تستطيع أن تفعل شيئاً إزاء
حرارتها . حسناً ! صباح الخير .

شدّ الدكتور على يد ايفان ايليتش . ثم تخلّى عن هيئته المرحّة وأخذ يفحص المريض وهو رصين الطلعة ؛ تحرّى نبضه ، وأخذ حرارته وتسمع إلى قلبه وتنفسه كما يفعل دائماً .

ويعلم ايفان ايليتش أن ذلك كله ماهو إلا كذب ؛ لكن عندما ركع الدكتور وانحنى عليه وأسند أذنه هنا وهناك ونفّذ بمظهر جادّ عدداً من التمرينات ، انساق ايفان ايليتش معه ، كما كان ينساق أحياناً لخطب المحامين مع علمه الأكيد بكذبهم وبسبب كذبهم .

كان الدكتور راكعاً أمام الأريكة متابعاً معالجاته عندما وافى حفيفُ فستان على العتبة وسُمعت براسكوفيا فيودوروفنا تلوم بيير لأنه لم ينبهها بوصول الدكتور .

وتدخلُ وتقبّلُ زوجها وتشرع على الفور في تأكيدها له أنها نهضت منذ زمن بعيد وأن سوء تفاهم قد حدث .

وينظر ايفان ايليتش إليها ويفحصها كلها ويلومها في داخلها على بياض سحتتها ، وعلى وجنتيها المدوّرتين ، وعلى نضارة ذراعيها وعنقها ، ولعان شعرها ، ويريق عينيها المملّتين بالحياة . إنه يكرهها بكل قوى نفسه . ومسّها يثير فيه انتفاضة الغيظ التي تجعله يتألم .

إن موقفها من ايفان ايليتش ومرضه لم يتغير . وكما أن الدكتور اصطنع إزاء مرضاه قاعدةً للسلوك لا يمكنه التخلص منها ، فكذلك تبنت موقفاً مفاده أن تقول إن ايفان ايليتش لا يفعل بعض الأشياء التي كان ينبغي أن يفعلها ، وأنه مسؤول هو نفسه عن وضعه ، وذلك ماكانت تلومه عليه بلهجة ودّية . وكان يستحيل عليه أن يتخلص من تكوينه .

- إنه لا يسمع مايقال له ، ولا يتناول أدويته بانتظام . وهو يتخذ ، علي الخصوص ، في نومه وضعاً ضاراً بالتأكيد . إنه يرفع رجله إلى الأعلى . وروت أنه كان يجبر جيراسيم على أن يمسك برجليه مرفوعتين .

ابتسم الدكتور ابتسامةً مترقعة ومشفقة، كانت تعني: «ما العمل! إن هؤلاء المرضى يخترعون حماقات! لكن ينبغي أن نعتذرهم». عندما انتهى الطبيب من فحصه نظر إلى ساعته، وحينئذ أعلنت براسكوفيا فيودوروفنا لايفان ايليتش أنه مهما يقل فسوف تستدعي الطبيب الشهير الذي سيفحصه في هذا اليوم بالذات مع ميشيل دانيلوفتش (طبيب الأسرة).

- لا تعترض، أرجوك. إنني أفعل ذلك من أجلي أنا. قالت ذلك بسخرية وكأنها تلمح أنها تفعل كل شيء من أجله وأنه، من ثم لا يحق له أن يقاوم. ظل صامتاً، متجهّم الوجه. أحس أن الكذب الذي يحيط به قد تشوش بحيث غدا من الصعب أن يفهم شيئاً منه. كل ما كانت تفعله إنما كانت تفعله من أجل مصلحته هو، لكنها كانت تقول وهي تشير إلى ذلك: إنها إنما كانت تفعله من أجلها هي باعتباره شيئاً غير عادي بحيث كان ينبغي له أن يفهم العكس. والواقع أن الدكتور الشهير أقبل في الحادية عشرة والنصف، وبدأت من جديد الفحوصات وكذلك المشاورات، بحضوره وفي الغرفة المجاورة، بصدد الكلية والزائدة. كانت الأسئلة والأجوبة تُبادَل بلهجة رسمية جداً حتى إن المسألة الحقيقية، مسألة الحياة والموت التي كانت تطرح نفسها وحدها على ايفان ايليتش، أخلت مكانها مرة أخرى لمسألة الكلية والزائدة اللتين لم تعود تعملان، على ما يبدو، كما ينبغي لهما، لكن ميشيل دانيلوفتش والطبيب الشهير سيردانها مباشرة إلى جادة الصواب. ودّعهم الطبيب الشهير بوجه رصين وإن لم يكن مُبْطِطاً. ورداً على سؤال خجل طرحه عليه ايفان ايليتش وعينه تبرقان خشية ورجاء:

- هل هناك أمل في الشفاء؟

أجاب:

- إنه لا يمكن أن نضمن شيئاً، لكن هناك حظاً في الشفاء.

إن النظرة المحمّلة بالأمل التي أرسلها إيفان إيليتش في إثر الطبيب كانت مثيرة للشفقة إلى حدّ أن براسكوفيا فيودوروفنا أخذت تبكي وهي ترافق الطبيب الشهير لتسلّمه أجرته .

لم تكن الثقة التي أوحى بها الكلمات المشجّعة للطبيب الشهير طويلة الأمد . كان هناك دائماً الغرفة نفسها، واللوحات نفسها، والستائر نفسها، والأوراق نفسها على الجدران وهذا الجسد نفسه متوجعاً، متألماً . لقد أخذ إيفان إيليتش يتأوه . . فأعطي حقنة مورفين أسلمته إلى حالة من النعاس .

عندما صبحا، كان الظلام قد أخذ يخيم، فجيء بطعامه . حمل نفسه حملاً على تناول شيء من الحساء : مرّت الساعات متشاكلة . وهبط الليل .

بعد الطعام، في الساعة السابعة، دخلت الغرفة براسكوفيا فيودوروفنا، بفستان السهرة، وصدرها القوي محزومٌ، وآثار البودرة على وجهها . أخطرتة من الصباح أنهم سيذهبون إلى المسرح : لقد وصلت سمساره برنار، وكانت لهم مقصورة، مستأجرة بناء على إلحاح إيفان إيليتش . لكنه نسي ذلك، وأهانته هذه الزينة الآن . كتم الإهانة مع ذلك عندما تذكر أنه ألحّ هو نفسه للحصول على هذه المقصورة ومشاهدة العرض الذي كان يحمل إلى الأولاد المسرة التعليمية والجمالية .

دخلت براسكوفيا فيودوروفنا وهي جدّ راضية عن نفسها، لكنها دخلت وفي وجهها أيضاً تعبيرة مذبذب قليلاً . جلست واستعلمت عن صحته ؛ أدرك أن ذلك لكي تقول شيئاً مالا لتعلم كيف حاله، لأنها كانت تعلم أنه لا يمكن أن يطرأ عليها جديدٌ . وبعد ذلك أخذت تتحدّث عما يشغل بالها : انها ماكانت لتذهب إلى المسرح لولا أن المقصورة مستأجرة وأن من المستحيل ترك ابنتها تذهب وحدها مع من يطلب يدها، بيتر يشتييف . وكانت ستسرّ كثيراً لو ظلت بجنبه ! على شرط أن يتبع في غيابها تعليمات الطبيب ! .

- بالمناسبة ! فيودور ديميتريفتش (بيتر يشتييف) يودّ لو يراك، وكذلك

«ليزا» . . . ممكن ؟

- ليدخلا .

دخلت ليزا لابسة بأناقة وقد تعرّى جسدُها الفتّيّ هذا الجسد الذي طالما ألم إيفان ايليتش والذي كانت تعرضه للأنظار . كانت طويلة ، معافاة ، عاشقة كما يبدو ، وغاضبة على المرض والأوجاع والموت التي تقف عائقاً في وجه سعادتها .

دخل فيودور ديمتريفتش أيضاً ؛ كان في الثياب الرسمية وشعره مصفّف على غمط «كابول» ، وكان عنقه الطويل الذي برزت عروقه غارقاً في ياقة عالية بيضاء ، وكان صدره مغطى بواقية عريضة منشأة ؛ وكان البنطال الضيق الأسود يشد فخذه المتيتين شداً ؛ وكان يمسك بيديه قفازاً أبيض وقبعة رسمية .

انسلّ خلفهما طالبُ المعهد ببذلة جديدة ، المسكين ، وهو يلبس قفازاً حديث العهد ، وحول عينيه دائرة سوداء كان إيفان ايليتش يعلم دلالتها . كان يحسّ دائماً بشفقة عظيمة على ابنه الذي كانت ترعبه النظرة الخائفة المشفقة . وفيما عدا جيراسيم ، كان هذا الابن - على ما بدا لإيفان ايليتش - هو الذي يفهمه ويشفق عليه .

جلس الجميع ؛ استعلموا مرة أخرى عن صحته . ثم صمتوا . سألت ليزا أمها أين المنظار ، وتلا ذلك نقاش بين الأم وابنتها اللتين تبادلتا تهمة إضاعته . كان ذلك غير مستحب .

سأله فيودور ديمتريفتش إن كان قد رأى ساره برنار . لم يفهم إيفان ايليتش السؤال في البدء ، ثم قال :
- لا ، وأنت هل رأيتهما ؟

- نعم ، في «ادريين ليكوفير»^(١) .

(١) - مسرحية ألفها «سكريب» ١٨٤٩ ، مثلتها بنجاح ساره برنار (١٨٤٤ - ١٩٢٣) أثناء جولاتها في روسيا .

قالت براسكوفيا فيودوروفنا إنها كانت رائعة بخاصة في هذا الدور أو
ذاك . حيثئذ أخذوا يتحدثون عن أناقة تمثيلها وواقعيتها ؛ وكان الحديث عادياً
كالحديث الذي يدور في مثل هذه الحالات .

في وسط الحديث نظر فيودور ديميتريفتش إلى ايفان ايليتش وصمت .
نظر إليه الآخرون أيضاً وصمتوا مثله . كان ايفان ايليتش يحدث فيهم ، وعيناه
تلتمعان ، وقد بدا مغتاضاً . كان ينبغي إصلاح الأشياء ، لكن ذلك كان
مستحيلاً . كان ينبغي أن يكفوا عن الصمت على هذا النحو أو ذاك . فلم
يُقدم أحدٌ على ذلك ؛ كان الجميع يخافون أن يبدؤوا فجأةً الكذب الصحيح
وأن يُظهروا هكذا الواقع بوضوح . قرّرت ذلك ليزا قبل غيرها . أقلعت عن
الصمت . أرادت أن تُخفي ما أحسّ به الجميع لكنها فضحت نفسها وقالت
وهي تنظر إلى الساعة ، هدية أبيها ، وتبادل الشاب ابتسامةً خفيةً يفهمانها
وحدّهما .

- مع ذلك ، لیتنا نذهب .

ثم نهضت وفستانها يحفّ حفيفاً .

نهض الجميع وودّعوا ايفان ايليتش وخرجوا .

عندما غادروا الغرفة شعر ايفان ايليتش بالانفراج : اختفى الكذبُ ،
خرج معهم . لكن الألم باقٍ . الأوجاع نفسها دائماً ، والرعب نفسه . وما من
عزاء .

تتابعت الدقائق والساعات ، دون تغيير ، بلا نهاية ، وبدت النهاية
المحتومة التي تشتدّ شراستها .

ردّ على بيير :

- نعم ، ابعث لي جيراسيم .

عادت براسكوفيا فيودوروفنا في ساعة متأخرة من الليل . دخلت على رؤوس أصابعها ، لكنه سمعها . فتح عينيه ومالبث أن أغمضها . أرادت أن تصرف جيراسيم وتأخذ مكانه ، ففتح عينيه ثانية وقال :

- لا ، انصرفي .

- أتتألم كثيراً ؟

- ما أهمية ذلك !

- خذ شيئاً من الأفيون .

وافق وجرع الجرعة . خرجت . ظلّ حتى الساعة الثالثة غارقاً في خدر مؤلم . بدا له أنه يدفع دفعاً موجعاً إلى كيس أسود ، ضيق وعميق ؛ إنه يدفع لكنه لا يفلح في المرور بالكيس . ويسبّب له هذا الشيء المرعب المأحداً . ويخاف ، ويود لو يسقط في الكيس ، ويقاوم ويبدل وسعه ليمرّ عبر الفتحة الضيقة . ثم ينزلق فجأة ويسقط ، ويثوب إلى رشده .

كان جيراسيم ما يزال هنا ، عند قائمة السرير ، غافياً ، هادئاً ، صابراً . وكان هو ممدداً على ظهره ، مهزول القدمين ، بجوربيهما ، وهما مستندتان إلى كتفي جيراسيم . وماتزال الشمعة في مكانها تغطيها كمة . وذلك الألم الذي يُحتمل لا يريم . همس :

- انصرف ، جيراسيم .

- لا بأس علي ، سأبقى قليلاً .

- لا ، انصرف .

رفع قدميه عن كتفي جيراسيم ، واضطجع على جنبه ، ويده تحت خده ، ورقّ لحاله . انتظر فقط أن يتركه جيراسيم ؛ حيثنذ ترك نفسه على سجيتها وأخذ يبكي كالطفل . بكى على حالته الميؤوس منها ، على وحدته المرعبة ، على قسوة الناس ، على قسوة الله الذي تخلى عنه . « لم فعلت ذلك كله ؟ لم أتيت بي إلى هنا ؟ لماذا ، لماذا تعذبني هكذا ؟ » .

لم يكن ينتظر جواباً، وبكى لأنه لا جواب عن أسئلته ولا يمكن أن يكون هناك جواب. اشتدّ الألم، لكنه لم يتحرك ولم يدعُ أحداً. كان يقول في نفسه: «حسناً! اضرب! اضرب بقوة أكبر! اضربني! لكن لماذا؟ وماذا فعلتُ لك؟ لماذا؟»

ثم هدأ وكفّ عن البكاء، بل كفّ عن التنفس وغدا كلّهُ آذاناً، وكأنّما كان يصيخ السمع لصوتٍ صامتٍ، لصوت نفسه، لتقلّب الأفكار التي تتصاعد فيه.

«إلامَ تحتاج؟» هذه أول فكرة واضحة يمكن أن يُعبّر عنها بالكلمات، سمعها. «إلامَ تحتاج؟ إلامَ تحتاج؟» «إلامَ؟» ردّد ذلك وأجاب: «ألا أتألم. أن أحيّا!».

وغدا أيضاً أشدّ انتباهاً، وقد توتر كيانه إلى حدّ أن الألم لم يفلح في صرف انتباهه.

سأل صوت النفس: «أن تحيّا؟ كيف تحيّا؟»

«نعم، أن أحيّا، كما كنت أحيّا سابقاً، على نحو سارٍّ، سهلٍ.»

سأل الصوت: «كيف كنت تحيّا على نحو سارٍّ وسهلٍ؟»

أخذ يستعرض بخياله أفضل لحظات حياته السارة. لكن الشيء الغريب أن تلك اللحظات اتخذت في نظره مظهراً مختلفاً كل الاختلاف عمّا كانت عليه قديماً. جميع اللحظات ماعدا ذكريات طفولته الأولى. كان في طفولته شيءٌ جميلٌ حقاً. شيءٌ جديرٌ بأن يعينه على الحياة الآن لو استطاع بعثه. لكن الذي عاش ذلك الشيء لم يعد موجوداً: ربما كان المعنيُّ شخصاً آخر.

فما ان بدأت سلسلة الأحداث التي آلت في النهاية إلى ايفان ايليّتش الحالي، حتى تبدّدت الآن أمام عينه جميع الأفراح التي عاشها والتي بدت له آنذاك أفراحاً، وتحولت إلى شيء تافه بل وحقير.

وكلّما كانت ذكريات ايفان ايليّتش تبتعد عن طفولته، وتقرب من الحاضر بدت له الأفراح التي عاشها مشبوهة وفارغة. بدأ بمدرسة الحقوق:

هناك عرف أيضاً لحظات طيبة حقاً؛ هناك عرف الفرح والصدقة والأمل . لكن هذه اللحظات في الصفوف العليا أخذت تندثر . وفيما بعد ، في زمن خدمته مع الحاكم ، كانت له بعض الدقائق الجميلة : أحب امرأة . ثم اختلط كل شيء ، وغدت اللحظات الجميلة مرة أخرى أندر ، وأندر . . . زواجه . . . مصادفة ؛ وخيبة الآمال ، ونفسُ امرأته النتن ، والشهوانية ، والنفاق . . . ثم خدمته ، الكثيرة جداً ، وهموم المال . دام ذلك سنةً ، ستين ، عشر سنوات . الشيء نفسه دائماً . كانت الحياة ، كلما مرت السنون ، تزداد فراغاً وكآبة . « كنتُ كأني أهبط سفحاً وأنا أظن أنني أصعد . كنتُ أصعد ، بالفعل ، في نظر الرأي العام ، لكنني في الحقيقة ، كنت أنزلُ إلى الأسفل ، وكانت الحياة تهرب مني . . . وهأنذا ! انتهى كل شيء . فمُت الآن !

« لكن ماذا يعني ذلك ، ياترى ؟ لماذا ؟ مستحيل ! لا يمكن أن تكون الحياة بمثل هذا الغباء والحقارة . وإذا كانت كذلك فلم كان لابد من الموت مع الألم ؟ هناك شيء على غير ما يُرام . لعلني لم أعش كما ينبغي لي أن أعيش ؟ ذلك غير ممكن ، بما أنني فعلتُ دائماً ما ينبغي فعله . » .

ولم يلبث أن طرد الحلَّ الوحيد ، حلَّ لغز الحياة والموت باعتباره غير معقول : « ماذا تريد الآن ؟ أن تحيا ؟ وكيف تحيا ؟ أن تحيا كما كنت تحيا إذا كنت قاضياً ، عندما كان الحاجب يعلن : « محكمة ! » وردد في نفسه : المحكمة ! المحكمة ! هاهو ذا الحكم . مع أنني لست مُذنباً ! لماذا ؟ » صرخ بذلك كله وهو محنق .

كفَّ عن البكاء ، وأخذ يفكر ، وقد أدار وجهه إلى الجدار ، بالشيء نفسه : لماذا ؟ لماذا هذا الشيء الرهيب ؟

لكنه لا يجد جواباً مهماً فعل . وعندما كانت تنبعث فيه هذه الفكرة : - وما أكثر ما حدث له ذلك - أن كل ذلك ناجمٌ من أنه لم يعيش ، كان يتذكر على الفور استقامة حياته ويطرد بعيداً هذه الفكرة الغريبة .

مر أسبوعان أيضاً. لم يكن إيفان ايليتش يفارق الأريكة التي ظل مضطجعا عليها، إذ لم يشأ أن يبقى في سريره. كان يتألم وهو ممدد تقريبا ووجهه إلى الجدار، وحيدا، يتألم آلامه المستعصية على الحل، كان يغوص، وحيدا، في أفكاره المستعصية على الحل.

«ما هذا، ياترى؟ أهو الموت حقاً؟»

فيجيبه الصوت الداخلي: «نعم، هذا هو الموت»- «لكن لم هذه الآلام؟» فيجيبه الصوت: «هكذا، من أجل لاشيء».

منذ بداية مرضه، منذ اللحظة التي ذهب فيها إيفان ايليتش إلى الطبيب، انشقت حياته الداخلية، منتقلة تباعاً من اليأس وانتظار الموت المرعب وغير المفهوم إلى الرجاء واستعمال ذكائه كله لعمل أعضائه. فتارة لم يكن يفكر إلا في كليته وأمعائه التي كانت ترفض مؤقتاً أن تقوم بوظيفتها؛ وتارة أخرى، لم يكن أمام عينيه سوى هذا الموت الشرس، الذي لا يفهم، والذي لا يمكن أن يخلصه منه شيء.

هاتان الحالتان الفكريتان تناوبتا فيه منذ بداية مرضه، لكن كلما كان مرضه يتفاقم كانت آماله تبدو له خيالية ووهمية، بينما كان الشعور بالموت القريب يفرض نفسه عليه بواقعية أكبر.

كان يكفيه أن يتذكر ما كان عليه قبل ثلاثة أشهر، والانتظام الذي تم به الانحدار، لكي يختفي على الفور كل إمكان للأمل...

في هذه الآونة الأخيرة من وحدته، هذه الوحدة وسط مدينة كبيرة، ووسط أصدقائه وأسرته، وحدته التي لا يمكن أن تكون أتم في أعماق البحر أو الأرض، في الآونة الأخيرة من هذه الوحدة الرهيبة، لم يكن إيفان ايليتش يعيش، ووجهه مستدير إلى مسند أريكته، إلا في الماضي. كان يبدأ

دائماً بأقرب الأحداث إليه ليعود بعدها بخياله إلى طفولته ، ويقف عندها .
وإذا بالخوخ المطبوخ الذي قُدم له في هذا اليوم ، يُذكر بالخوخ المجفّف المجعّد
في طفولته ، وطعمه الخاص ، واللّعب الذي يملأ فمه عندما يصل إلى
النواة ؛ وكانت هذه الذكرى تجرّ غيرها من الفترة نفسها : مربيته ، أخاه ،
ولُعبهما . . . « لا ، لا ينبغي أن يفكر في هذ الأشياء جميعاً . فذلك مؤلمٌ ألماً
يتجاوز الحدّ » . كان يقول ذلك في نفسه ويعود إلى الحاضر . الأضرار على
مسند الأريكة وطيّات الجلد الدقيقة . « الجلد غالٍ وقليل المتانة . نخاصمنا
بهذا الصدد . لكن كان الموضوع جلدًا آخر وخصاماً آخر ، عندما مزّقنا
محفظةَ والدنا وعوقبنا ، وحملت إلينا ماما الحلوى . . . » ويعود فينغمس في
ذكريات طفولته التي كانت تؤلمه ، فيبذل وسعه ليطردها وليفكر في شيء
آخر .

وفي موازاة سلسلة الذكريات هذه كانت تُشَرّ سلسلةٌ أخرى تتصل
بتطوّر مرضه وتفاقمه . وفي هذه الحالة أيضاً ، كان كلما تراجع في مجرى
الزمن رأى نفسه أكثر حياةً . كان أفضل وأكثر حياةً . كان الخير والحياة
يختلطان وفكر : « فكما أن آلامي كانت تشتدّ كانت حياتي تسوء أيضاً .
وليس هناك سوى نقطة واحدة مضيئة ، هناك في بداية وجودي ، ثم يغدو
كلُّ شيء أسود ، يزداد سواداً أبداً ، ويزداد سرعة أبداً . بعكس مربع مسافات
البعد عن الموت . » كذلك كان يقول إيفان ايليتش في نفسه . وانطبعت في
نفسه صورة حجرٍ يسقط بسرعة متزايدة . إن الحياة ، إن سلسلةً من الأوجاع
المتعاطمة تندفع بسرعة متزايدة نحو غايتها الأخيرة ، الوجع الأرهب .
« إنني أسقط . . . » انتفض وتحرك وحاول أن يقاوم لكنه كان يعلم أن
المقاومة غير ممكنة ، وحدّق في مسند الأريكة بعينيهِ المتعبتين اللتين لم تكونا
تستطيعان ألا تنظرا أمامهما ، وانتظر ، انتظر ذلك الشيء الفظيع السقوط ،
الصدمة ، الدمار .

قال في نفسه : المقاومة غير ممكنة ، لكن ليتني أستطيع على الأقل فهم لماذا كل ذلك ؟ فذلك أيضاً غير ممكن . يمكن تفسير ذلك لو قيل إنني لم أعش كما كان ينبغي لي أن أعيش . أما ذلك فهو غير مقبول البتة . « وإنما فكّر هكذا لأنه تذكر صحة حياته وانتظامها واستقامتها . وردّد في نفسه متبسماً بشفتيه فقط وكان هنا من ينظر إلى هذه الابتسامة ويؤخذ بها : « ذلك غير مقبول بتاتاً . لا تفسير لذلك ! الأوجاع ، الموت . . . لماذا ؟ » .

- ١١ -

مرّت ثلاثة أسابيع على هذا المنوال ، وفي أثنائها جرى ذلك الحدث الذي طالما ابتغاه إيفان ايليتش وزوجته : ذلك أن بيتر تشتييف . خطب الفتاة رسمياً . كان ذلك مساءً . في اليوم التالي ، دخلت براسكوفيا فيودوروفنا غرفة زوجها ، وهي تتساءل كيف تبلغه أمر الخطبة . لكن في هذه الليلة تغيرت ، ساءت حالة إيفان ايليتش ، فوجدته براسكوفيا فيودوروفنا على أريكته ، في وضع جديد : كان مستلقياً على ظهره ، يتأوه ويحدّق النظر أمامه .

أخذت تحدّثه عن الأدوية . صعد نظره إليها ، فلم تكمل الجملة التي بدأتها لفرط ماعبرت هذه النظرة عن الكراهية ، ولا سيما نحوها .
- باسم المسيح ، دعيني أمت بسلام .

أرادت أن تنصرف ، لكن ابتتها دخلت في هذه اللحظة ودنت من أبيها لتسلم عليه . نظر إلى البنت نظرتة إلى الأم ، ورداً على أسئلتها عن صحته أجاب بجفاف أنه سيخلصهما من حضوره عما قريب . فصمتتا كلتاها وجلستا بضع لحظات وخرجتا .

قالت ليزا لأُمها :

- فيم أذنبنا ؟ كأن الغلطة غلطتنا إنني أشفق على بابا . لكن لماذا يجعلنا نتألم ؟

جاء الدكتور في ساعته المعتادة، فلم يجبه ايفان ايليتش إلا بـ «نعم» أو «لا»، دون أن يرفع عنه نظرتة المثقلة بالكرامية؛ وأخيراً قال له:
- أنت تعلم جيداً أنك لا تستطيع أن تعينني؛ دعني وشأني.
قال الدكتور:

- يمكننا تخفيف الآلام.

- وهذا أيضاً لا يمكنك أن تفعله، فدعني إذن!

خرج الدكتور إلى الصالون وأعلن لبراسكوفيا فيودوروفنا أن حالته ساءت وأنه لم يبق سوى دواء واحد هو الأفيون، لتخفيف الآلام التي لا بد أن تكون رهيبة.

قال الدكتور إن أوجاع ايفان ايليتش الجسدية رهيبة، ومقاله حق؛ لكن أوجاعه الروحية كانت أرهب من آلامه الجسدية، وهي التي كانت تعذبه على وجه الخصوص.

إن أوجاعه الروحية جاءت هذه الليلة وهو ينظر إلى رأس جيراسيم ذي الوجنتين البارزتين حين أخذ ينعس، وخطر له فجأة هذا الخاطر: «وإذا لم تكن حياتي حقاً، حياتي الواعية، كما ينبغي لها أن تكون؟».

خطر بباله أن ما كان يعدّه حتى الآن استحالة مطلقة - أنه قد عاش على نحوٍ مختلف عما كان ينبغي له أن يعيش - يمكنه أن يكون هو الحقيقة. وأن الجهود التي بذلها في مقاومة ما كان الأشخاص المتقلدون أرفع المناصب يعدّونه صالحاً، وهي جهود لم تكد تُلاحظ وكان يكبتها من فوره، وربما كانت حقيقية وكلّ ما سواها كذب. . . وربما لم تكن خدمته وحياته المنظّمة وأسرته ومصالحة الدنيوية سوى كذب. لقد حاول أن يدافع عن جميع هذه الأشياء أمام نفسه. لكنه أحسّ فجأة بتهافت ما أراد الدفاع عنه. فليس في ذلك ما يُدافع عنه.

قال في نفسه:

«إذا كان الأمر كذلك، وإذا كنتُ أفارقُ الحياة بشعور من أضع وخرب كل مأمّنه، وإذا كان لا سبيل إلى إصلاح مافات، فماذا حيثنّ؟»

استلقى على ظهره وأخذ يتفحص حياته من وجهة نظر جديدة كل الجدة. فعندما رأى في الصباح خادمه، ثم امرأته، ثم ابنته، ثم الطبيب، كانت كل حركة من حركاتهم تؤكد له الحقيقة الفظيعة التي انكشفت له في هذه الليلة. كان يرى نفسه فيهم، وكانت حياته ماكانت عليه حياتهم؛ ورأى بوضوح أن الأمر لم يكن كذلك وأنه كان كذبة هائلة، مرعبة، تخفي الحياة والموت. كان هذا الشعور يزد ويضاعف آلامه الجسدية. كان يتأوه ويضطرب ويجهد في أن يقلع ثيابه التي كانت تضغط عليه وتخنقه، كما بدا له. ولذلك كره جميع أقربائه.

أعطي جرعة قوية من الأفيون؛ أغفى. لكن ذلك عاد من جديد ساعة الغداء: طرد الجميع خارج غرفته وتقلب علي أريكته ذات اليمين وذات الشمال.

دنت منه براسكوفيا فيودوروفنا وقالت:

- جان، يا صاحبي، افعل ذلك من أجلي (من أجلي؟). فذلك لا يؤدي، بل إن ذلك قد يعزي. ثم إن الناس المعافين أنفسهم... شخص بعينه:

- ماذا- أن أعترف؟ لماذا؟ لا يجب... بيد أن... أخذت تبكي.

- نعم، يا صاحبي. سأدعو كاهننا. فهو عظيم اللطف. - ممتاز، جيد.

عندما جاء الكاهن وعرفه، عاد إليه هدوءه، بدا له أنه تخفف من شكوكه، وتبعاً لذلك من آلامه. بل لقد لاح له الأمل دقيقة. فأخذ يفكر من جديد في الزائدة ووسائل شفائها. تناول القربان والدموع في عينيه. عندما أضجع بعد تناول، أحسّ بالتحسن للحظة، وبدأ الأمل يراوده. ففكر في العملية التي يقترحونها عليه. قال في نفسه: «أن أعيش! أريد أن أعيش!».

جاءت امرأته تهتهته. ولفظت الكلمات المعتادة في هذه الحالة وأضافت:

- أنت تشعر بالتحسن، أليس كذلك؟

قال: «نعم»، دون أن ينظر إليها.

كانت ثيابه وشخصه كله وتعبير وجهه وجرس صوته كان كل شيء يقول له: «ليس الأمر كذلك؛ كل ما كان يجعلك تحيا، كل ما تحيا منه، ليس سوى كذب يخفي عنك الحياة والموت.» وما إن قيل ذلك حتى تجددت كراهيته، ومع الكراهية الآلام الجسدية، ومع الآلام، الشعور بالموت الوشيك، المحتوم. عادت الآلام: كان ذلك ينخره، يثقبه من جهة إلى جهة، ويقطع أنفاسه.

كان تعبیر وجهه عندما قال «نعم» فظيلاً. إذ قالها وهو يحدق في عينيها بحيوية غير عادية بالنسبة إلى حالة ضعفه، انقلب ودفن وجهه في الوسادة، وصاح:

- اذهبي، اذهبي، دعيني!

- ١٢ -

بدءاً من هذه اللحظة بدأت هذه الصرخات التي دامت ثلاثة أيام بلا انقطاع، وكانت فظيعة بحيث لا يمكن الاستماع إليها عبر عدة أبواب مغلقة دون أن تهز المستمع هزاً. وفي الدقيقة نفسها التي أجاب فيها امرأته أدرك أنه هالك وأن العودة مستحيلة وأن النهاية آتية هذه المرة، وأن شكوكه لم تشأ أن تسكن، وظلت دون حل.

صرخ بنبرات شتى: «آه! آه! آه! بدأ صياحه: «لا أريد!» وانتهى بهذه النبرة: «... آ...».

طوال هذه الأيام الثلاثة التي لم يكن الزمن موجوداً أثناءها، كان يتخبط في ذلك الكيس الأسود الذي كانت تدخله فيه قوة خفية لا تُفهر. كان يتخبط كما يتخبط بين يدي الجلاد محكوم بالإعدام، وهو يعلم أنه لا يمكن

أن ينجو . وكلما كانت الدقائق تمر كان يحس أنه بالرغم من جميع جهوده يزيد قريباً مما ملأه رعباً . كان يحس أن عذاباته تنجم عن دفعه في هذا الثقب الأسود ، وأكثر من ذلك عن أنه لا يفلح في دخوله . وما كان يمنعه من الدخول هو شعوره بأن حياته كانت صالحة . كان هذا التسويغ لحياته هو الذي يثنيه ويمنعه من المواجهة ويعذبه أكثر من غيره .

وفجأة ضربته بعنف قوة مجهولة في صدره ، في جنبه ، وقطعت نفسه ؛ سقط منقلباً في الثقب وهناك ، في أعماق القاع ، التمتع شيء . فأحس بما أحس به قديماً في القطار عندما نتصور أننا نتقدم بينما نحن نتأخر ونتعرف فجأة الاتجاه الصحيح .

قال في نفسه : «نعم ، لم يكن «ذلك» على الإطلاق . لكن لا بأس ، فإن «ذلك» يمكن أن يفعل أيضاً» .
ثم تساءل وما «ذلك» ؟
وسكن فجأة .

كان ذلك في نهاية اليوم الثالث ، قبل موته بساعتين . في هذه اللحظة بالذات انسل طالب المعهد برفق إلى الغرفة ودنا من السرير . لم يكف المحتضر عن إطلاق الصرخات اليائسة وهو يحرك ذراعيه . صادفت يده رأس الولد ؛ أمسك بها طالب المعهد وأطبق شفثيه عليها وشرع ييكي .
في هذه اللحظة بالضبط سقط ايفان ايليثش ، شاهد النور واكتشف أن حياته لم تكن كما كان ينبغي أن تكون ، لكن اصلاح مافات ما يزال ممكناً .
تساءل :

«ماذلك؟» . سكنت نفسه وأصاخ السمع . حيثئذ أحس أن هناك من يلثم له يده . فتح عينيه ونظر إلى ابنه . فأشفق عليه . اقتربت امرأته منه فنظر إليها أيضاً . تفرست فيه بئاس فاغرة الفم ، وقد تبلل خداهما وأنفها بالدموع .
فكر : «نعم ، إني أعدبهم . هم يشفقون علي ؛ لكن من الأفضل لهم أن أموت» . أراد أن يقول لهم ذلك ، لكنه لم يقو عليه . وفكر : «ثم ، لماذا الكلام . يجب أن تفعل ذلك» . أشار بنظرته إلى ابنه وامرأته وقال :

اثّيني به . . . أنا أشفق . . . عليك أيضاً .
أراد أن يضيف : «سامحيني!» لكنه قال :
- دعيه يمرّ .

وعجز عن استدراك ذلك فأشار بيده لعلّهم سيُفهم من سيفهمه .
وبغته ، أحسّ بوضوح أن ما كان يعذّبه ويضغط عليه قد تبدّد ، وأنه
ينساب خارجاً عنه دفعة واحدة من جميع الجهات . إنه يشفق عليهم . وينبغي
له ألا يجعلهم يتألّمون بعد الآن . ينبغي أن يخلّصهم ويخلص نفسه من
عذاباتهم . فكّر : «مأحسن ذلك وما أبسطه!» . «لكن ماذا أفعل به «هو»؟
حسناً! أين أنت؟ أين أنت، يا ألمي؟» .
وأرّهف انتباهه :

«آه! هاهو ذا! حسناً ليبقَ هنا! والموت؟ أين هو؟» .
فتش عن رعبه المعتاد فلم يعثر عليه . «أين هو؟ أي موت؟» . لم يعد
يخاف لأن الموت قد مات أيضاً .
بدلاً من الموت رأى النور .
وقال فجأة بصوت عالٍ : «هاهو ذا إذن . ياللفرح!» .
حدث ذلك كله له في لحظة واحدة ، ولم تتغير بعد ذلك دلالة هذه
اللحظة . لكن احتضاره بالنسبة إلى الذين يُحدّقون به ، دام ساعتين . انبعث
من صدره حشرات ، وارتعش جسمه العاري من اللحم . ثم تباعدت شيئاً
فشيئاً الانتفاضات والحشرات .

قال أحدهم :

انتهى الأمر .

سمع هاتين الكلمتين وردّدهما في نفسه قائلاً :

«انتهى الموت! مات الموت» .

تنشقّ الهواء بعمق ولم يُنه تنشقّه . تصلّب ومات .

مايحتاج إليه الإنسان من الأرض

ليون تولستوي

ما يحتاج إليه الإنسان من الأرض

ترجمة: صياح الجهم



منشورات وزارة الثقافة

في الجمهورية العربية السورية

دمشق ١٩٩٧

كان هناك أختان، الكبرى متزوجة من تاجر في المدينة، والصغرى من فلاح في الريف. وذات يوم جاءت ساكنة المدينة تزور ساكنة الريف، فأثنت على الحياة التي تحياها في المدينة؛ إنها تعيش على هواها، وهي أنيقة في ملابسها، وأولادها يرتدون ثياباً حسنة، ولا تأكل ولا تشرب إلا الأشياء الطيبة؛ وعندها، النزاهات والعروض المسرحية، إذا شاءت أن تسري عن نفسها. ردت الصغرى التي لامس كلام أختها النقطة الحساسة فيها بأن حطت من حياة التاجرة وعظمت فوق الحد حياة الفلاحة، حياتها.

قالت لها:

- لا أبادل مصيري بمصيرك. إن حياتنا باهتة، في الحقيقة، لكنها لم تُسمَّم بالخوف. حياتكم أكثر إمتاعاً؛ لكن إذا وقع لكم أن ربحتم كثيراً من المال فقد يقع لكم أن تخسروا كل شيء. وكما يقول المثل: الخسارة أخت الربح الكبرى. فإذا كنتم اليوم أغنياء تعرضتم غداً للاستجداء. أما حياتنا، نحن الفلاحين، فهي مضمونة أكثر. إن بطن الفلاح رقيق لكنه طويل؛ وإذا كنا لاثري أبداً ظل عندنا مانقتات به.

أجابت الكبرى:

- نعم، لكن حياتكم هي أن تعيشوا مع الخنازير والعجول. ومهما يُنهك زوجك نفسه بالعمل فلن تعرفوا أناقة السلوك ولن تبلغوا الرفاهية؛ ولدتُم بين الأقدار وستعيشون وتموتون فيها، كما سيعيش أبناؤكم ويموتون.

أجابت الصغرى:

- ذلك أن مهنة الفلاحة تحتاج إلى ذلك. لكن حياتنا من أجل ذلك

أكثر استقراراً عندما تملك الأرض . وليس علينا أن نذل أو نرتجف أمام أيّ كان . وكم من الإغراءات تترصدكم في المدينة ! إذ تكون الأعمال حسنة اليوم لكن الشيطان قد يغوي زوجك غداً بالقمار أو الشراب فإذا أنتم مفلسون . وهذا مايقع غالباً .

كان «باكوم» زوج الصغرى ، جالساً على المدفأة ، يصيخ السمع إلىثرثرة المرأتين . فعبر عن رأيه قائلاً :

- لاشيء أصدق مما قالته . فلكوننا مشغولين ، منذ طفولتنا بنقّب أمانا الأرض ، لم يبق لدينا متسع من الوقت لسفاسف الأمور . إن همنا الوحيد هو أننا لاثملك مايكفي من الأرض . آه ! لو كان عندي مايكفي منها لما أخافني الشيطان بذاته ! .

تناولت المرأتان الشاي ، وعادتتا إلى الكلام عن وسائل الزينة وأدخلتا الكؤوس ومضتا إلى النوم .

وسمع الشيطان كل شيء من خلف المدفأة حيث كان كامناً . وسعد أن امرأة الفلاح دفعت زوجها إلى تحديّ الشيطان ، إذ أعلن عالياً أنه لو ملك مايشاء من الأرض لما أخافه الشيطان .

فكرّ الشيطان : «النزال بيننا نحن الاثنين . سأعطيك ماتشاء من الأرض ، وبهذه الأرض سأغلب عليك .

- ٢ -

كان لـ «باكوم» الفلاح جارة ، سيّدة قصر تملك مئة وعشرين هكتاراً من الأرض . وقد عاشت دائماً في وفاق تام مع الفلاحين ، دون أن تُسيء إلى أحد ، عندما اختارت عسكرياً قديماً متقاعدأ وكيلاً لها صبّ على الفلاحين فنون الغرامات .

عشناً اتّخذ «باكوم» جميع الاحتياطات ، فلم يمكنه أن يمنع حصانه من

ارتياذ شيلم الأرض المجاورة، أو بقرته من دخول الحديقة، أو عجوله من الرعي في المرج: فتنهال حينئذ عليه الغرامات أنهيالاً. وكان باكوم يؤديها وهو يجذف، وكان ذووه يعانون من سوء مزاجه. وطوال هذا الصيف كان هدفاً لاضطهاد الوكيل الجديد. وكان انفراجاً حقيقياً له عندما عاد الفصل الذي تعاد فيه الحيوانات إلى الاصطبل؛ وإذا كان سيضطلع بإطعامها، فإنه لم يكن يخاف الغرامات، وكان يعيش بسلام.

في أثناء الشتاء، علم أن سيّدة القصر ستبيع قصرها، وأن جابي رسوم المرور ينوي أن يحصله لنفسه.

أشاع هذا النبأ الذعر بين الفلاحين وفكروا:

- «إن كان جابي رسوم المرور سيشتري هذه الملكية فسوف يرهقنا بالغرامات أكثر من سيّدة القصر.

قصدوا سيّدة القصر مجتمعين ورجوها أن تبيعهم هذه الأرض هم لاجابي الضرائب، وعرضوا عليها ثمناً أعظم. وافقت على ذلك، اجتمع الفلاحون ليتشاوروا في تملك الناحية هذه الأرض. لكن الشيطان نفث بينهم الشقاق. واجتمعوا مرةً ومرتين دون أن يفلحوا في الاتفاق. وبعد أن أعيتهم الحيل قرّ رأيهم على أن يشتري كل واحد حصّة، في حدود وسائله المادية. وذلك ما وافقت عليه أيضاً سيّدة القصر. وهكذا حصل جار «باكوم» على عشرين هكتاراً من الأرض مع حقّه في دفع نصف ثمن الشراء بأقساط سنوية. وعندما علم «باكوم» بذلك عضّته الغيرة.

- سوف تُباع الأرض كلها، ولن يبقى منها شيء لي.

استشار امرأته قائلاً لها:

- غيرناً يشتري، فعلينا أن نشترى أيضاً نحو عشرة هكتارات، وإلا استحال علينا أن نكفي أنفسنا: لقد خرّبت بيتنا غرامات الوكيل.

وفكر في الوسيلة التي يجمع بها المال الضروري.

باع المهر، ونصف نحلته، ووضع ابنه أجيّراً في مزرعة، وهذا مع وقرّ مئة الروبل التي يملكها أمّن له نصف المبلغ.

أخذ إذن ماله ووقع اختياره على قطعة من خمسة عشر هكتاراً ومعها غابة صغيرة، وقصد سيّدة القصر لعقد الصفقة، فيتفقان ويتصافحان ويذهبان الى المدينة لتثبيت العقد. دفع باكوم نصف الثمن نقداً؛ أما النصف الثاني فقسّط على ستين. وعاد مالكا للأرض.

وإذ اقترض من زوج أخته ما يشتري به حبوباً، بذر الأرض التي أصبحت في حوزته، وتم كل شيء على مايرام. وكفى مردود سنة واحدة لسداد ديون سيّدة القصر وزوج أخته. وأصبح، هو الفلاح باكوم ملاكاً حقيقياً. صارت له الأرض التي يفلحها وبيذرها؛ وعلى أرضه صار يحصد الكلا، وعلى أرضه ترعى حيواناته.

ويتهلّل «باكوم» فرحاً وهو ينظر إلى الحنطة تكبر والمراعي تخضر. وبدت له الأعشاب والأزهار مختلفة جداً. فعندما كان يمشي قديماً على هذه الأرض، كانت في نظره ما ينبغي أن تكونه الأرض؛ أما الآن فهذه الأرض نفسها بدت مختلفة جداً.

— ٣ —

كان باكوم يعيش سعيداً، وكان كل شيء يجري وفق ما يطمناه، عندما أخذ الفلاحون يقتحمون قمحه ومراعيه اقتحاماً متكرراً. وعبثاً رجاهم أن يكفّوا عن ذلك؛ لقد أمعنوا في اقتحامهم. فتارة كانت البقرات التي يتركها رعاتها تدخل المراعي، وتارة أخرى كانت الخيل هي التي تجري في حقول الحنطة.

اكتفى «باكوم» أولاً بطردهم، كان يغفر للفلاحين ويأبى أن يقدمهم للقضاء. ثم مالبت أن فقد صبره وشكاهم إلى محكمة الإقطاعيين. ولم يكن يجهل أن مايفعله هؤلاء الفلاحون إنما كان بسبب ما هم فيه من ضيق، لابتية الأذى، لكنه فكر: «بيد أني لا يمكنني أن أغمض عيني دائماً، وإلا انتهى بهم الأمر إلى التهام كل شيء لي. لا بد لهم من عبرة يتعظون بها».

استدعى أمام المحكمة فلاحاً، ثم استدعى فلاحاً آخر. لم تزد هذه الأمثلة الفلاحين المجاورين إلا تهيجاً، ولكي ينتقموا من باكوم أرسلوا مواشيهم عمداً ترعى على أراضيه. وذات ليلة دخلوا الغابة الصغيرة واجتثوا من على الأرض نحو عشر زيزفونات.

في اليوم التالي، شاهد باكوم، وهو يمر بغابته، شيئاً أبيض على الأرض، وعندما اقترب عرف أشجار الزيزفون التي نُزعت عنها قشرتها. ولم يبق على الأرض سوى الأرومات. وليت المجرم اقتصر على أشجار التخوم، وليته ترك ولو شجرة واحدة واقفة! كلاب لقد اقتلعت كل شيء. استرلى الغضب على «باكوم». وفكر: «لو علمتُ من فعل هذه الفعلة لانتقمْتُ شر انتقام!».

لمن يعزو هذه الإساءة؟ فكر، وفكر. بالتأكيد ذلك الخسيس سيميون. ومضى إلى فناء منزل سيميون فلم يعثر على شيء. فتشاجر معه؛ ولما ازداد ثقة بأنه مذنب أحاله إلى القضاء. نُظر في القضية وأصدرت المحكمة حكمها فيها فبرأت سيميون وردت الشكوى بسبب انعدام شواهد الإثبات. هذه التبرئة لم تزد باكوم إلا حدة. وكاد يهين المشرف الملكي والقاضي، قائلاً لهما:

- أنتما تدعمان اللصوص. ولو قمتما بواجبكما لما برأتما اللصوص. منذئذ بدأت حربٌ معلنة بين باكوم وجيرانه وصلت إلى تهديده بأشد العقاب. كان بوسع باكوم أن يعيش كما يحلو له على أرضه، لكنه لما كان هدفاً لحقد الفلاحين شعر بالضيق في ناحيته. في هذه الأثناء علم أن الناس أخذوا يهاجرون.

فكر باكوم: «أنا لاشيء يجبرني على الانصراف من هنا؛ لكننا سنغدو أكثر يسراً لو هاجر بعضنا. سأشتري أرضهم لأوسع أرضي وسأصبح أكثر رفاهية».

وذات يوم، كان باكوم في منزله عندما مرَّ به غريبٌ، فلاح. دخل

منزل باكوم، وطلب إيواءه ليلةً، وافق باكوم، وأطعمه وسأله: من أين جاء؟ وأين ذهب؟ أجاب الفلاح أنه أت من بعيد، من ضفاف الفولغا حيث عمل. وتشعب الحديث فروى الغريب كيف يهاجر الناس إلى هناك. وأن ذويه هاجروا ليقيموا هناك. وقد سُجِّلوا في سجلات الناحية وتلقَى كل واحد منهم عشرة هكتارات^(١). وأضاف:

- وهناك الأرض طيبة! فحيثما يزرع الشوفان تطلع سنابله مترابطةً، عالية جداً بحيث لا ترى الخيل. وتكفي خمس قبضات من السنابل لتصنع حزمة. ورب مسكين وصل وهو لا يملك غير ذراعيه يحرق اليوم خمسين هكتاراً من القمح، وباع في السنة الماضية حنطة محصوله بخمسة آلاف روبل.

تلظى باكوم عند سماع هذه الحكاية. وفكر:

- ماذا أفعل أنا هنا، في الضيق، في حين أستطيع أن أعيش في سعة هناك؟ ماعلي إلا أن أبيع أراضي ويأتي لأذهب إلى هناك، ومعني مالي لأبني بيتاً وأستقر. إنها الخطيئة أن يعيش المرء هنا في ضيق. بيد أنني سأذهب لأرى بأم عيني وأتبين الحقيقة بشخصي.

عندما جاء الضيف أعدّ عدة السفر وسافر. وعندما وصل الفولغا نزل النهر على قارب بخاري حتى «سامارا»، ومشى بعد ذلك مسافة أربع مئة فرسخ وبلغ غاية رحلته.

لم يكن كذباً ما قيل له. كان الفلاحون في هذه البلاد في سعة من العيش. كانت الناحية ترحب بالمهاجرين، وتوزع عشرة هكتارات على الرأس. وكل من كان معه بعض المال كان يمكنه إضافة إلى الهكتارات الممنوحة لزمن، أن يحصل، بسعر ثلاث روبلات الهكتار، على أجود الأراضي، بقدر ما يريد، وإلى الأبد.

(١) - كانت تُوزع مجاناً، في المناطق النائية، ولاسيما في سيبيريا، أراضي الدولة على الفلاحين الذين يوافقون على الهجرة إليها.

بعد أن استعلم «باكوم» عن ذلك كله ، عاد إلى منزله وباع كل ماكان عنده . باع أرضه وبيته وماشيته بسعر رخيص : ثم طلب أن يُمحي اسمه من سجلات الناحية ، حتى إذا جاء الربيع سافر مع ذويه إلى البلد الجديد .

— ٤ —

وصل باكوم البلد الجديد مع ذويه . وسجل نفسه في سجلات قرية كبيرة ، قدم كاساً للذين تقدموه وأدى ماعليه من حقوق لكل منهم . رُحِبَ به ، وأُعطي أرضاً مقابل خمسة أنفس ، أُعطي خمسين هكتاراً مع حق الرعي في أراضي الناحية . ابنتى بيتاً ، واشترى ماشية كثيرة العدد ؛ رأى نفسه أغنى مرتين مما كان عليه قبل . وما أعظم الخصب ! خصب المراعي والأراضي المفلوحة . كان عنده كل شيء وعلى قدر مايشاء : وعندما كان يقارن بين حياته الجديدة والحياة التي عاشها قبل ، كان يجد نفسه أسعد عشر مرات ، وكان كل شيء يبدو له أجمل عشر مرات .

هكذا رأى الأشياء في الأشهر الأولى ، بينما كان يبني بيته ويستقر ؛ لكنه لم يلبث أن أحسّ ، بعد بعض الوقت ، أنه في ضيق شديد . كان يود أن يبدأ كالآخرين في بذر حقوله بالقمح الأبيض ، القمح التركي ؛ لكن أراضي القمح كانت نادرة في الأراضي الممنوحة . كان القمح يُبذر في الأرض البكر التي اجتاحتها العشب البري العالي ذو الريش ، أو في الأراضي المستريحة . كانت الأرض تُزرع سنة أو سنتين ثم تترك ليطلع كل العشب البري قبل أن يبذروها مرة أخرى . الأرض الخفيفة كان يملك منها مَنْ شاء مايشاء . لكنها لا تُنبت غير الشيلم ، ويتطلب القمح أرضاً قوية . وكان الجميع يطلبون الأرض القوية . ولم تكن متوافرة للجميع : ومن هنا المشاجرات . فمن كان يملك شيئاً منها فلحها بنفسه إن كان ميسوراً ، أما من كان أفقر فهو يبيعها للتجار ليدفع ضرائبه .

بذر «باكوم» في السنة الأولى أرضه بالحنطة العتيقة فأينع زرعها وغلّ، لكن أرضه كانت أقلّ كثيراً من أن تُطلع له الحنطة التي يرغب في جنيها؛ ولم تكن الأرض التي يملكها هي الصالحة لمثل ذلك؛ كان يريد أرضاً أفضل منها. لقي إذن تاجراً واستأجر أرضاً لسنة. حيثُذ أنيح له أن يبذر كمية أكبر، وكان الحصاد جيداً. لكن هذه الأرض كانت بعيدة جداً عن القرية؛ وكان لابدّ لكي يصلها من السير خمسة عشر فرسخاً.

بيد أن باكوم رأى الفلاحين التجار يبنون منازل في الريف ويربحون مالاً كثيراً، ففكر:

- آه! لو أمكنتني أن أشتري أرضاً للملكية أبدية لكان عندي، أنا أيضاً، المال والمنزل الريفي.

وبحث في ذهنه عن الوسيلة التي بها يشتري أرضاً للملكية أبدية. على هذا المنوال عاش «باكوم» طوال خمسة أعوام، مستأجراً أراضي التجار ليبذرهما قمحاً. وبما أن السنين كانت جيدة الغلة وأن الحنطة حسنة الاستواء، فقد كان يربح بعض المال، وما كان عليه إلا أن يستمتع بحياته دون همّ استئجار الأرض كل سنة. لكن متاعبه كانت تتجدد دائماً: فما إن تعرض أرض للإيجار حتى يتهافت عليها أحد الفلاحين ويستولي عليها؛ وإذا وصل باكوم متأخراً لم يذُر أين يبذر. وفي مرة أخرى، وبعد الاتفاق مع التجار، يستأجر حقلاً لدى الفلاحين؛ ويبذر ويفلح، وإذا بالفلاحين يدعون عليه أمام القضاء، فتضيع جهوده سدى. ليته يملك أرضاً له، له وحده! إذن لما ارتبط بأحد ولسارت أموره على نحو أفضل.

وإذا أخذ يبحث عن أرض يشتريها للملكية دائمة، انتهى به الأمر أن عشر على فلاح يملك خمس مئة هكتار، أصيب بالإفلاس وعزم على بيع أرضه بسعر رخيص. قصده «باكوم» وبعد نقاشات طويلة اتفق معه على الثمن وهو ألف وخمس مئة روبل يدفع نصفها ويقسط نصفها الآخر. وأوشك العقد أن يُوقّع عندما توقف عند باكوم تاجرٌ عابر طريق ليطلع

جياذه. قُدِّمَ الشاي، وبدأ الحديثُ، فأخبره التاجر أنه قادم من بلاد «البشكير»^(١). ففي هذا البلاد حصل على خمسة آلاف هكتار من الأرض بمبالغ ألف روبل. وأردف راداً على أسئلة باكوم:

- لم أحتج من أجل ذلك إلا أن أحوز على رضا المتقدمين. أعطيتهم فساتين وبسطاً وصندوق شاي وسقيت كلاً منهم، وحصلت على الأرض بعشرين كوبيكاً الهكتار.

أخرج من جيبه صكَّ البيع وأراه «باكوم»، وأضاف:

- ويمرُّ بالأرض نهرٌ صغير، وهي مغطاة كلها بالعشب العالي البري ذو الريش.

انهال عليه باكوم بأسئلته، فأضاف التاجر:

- وهناك الكثير من هذه الأرض التي لا تستطيع أن تدور حولها في سنة من المشي. كلها ملكُ البشكير، وهم جدُّ سُدَّج، بحيث يمكن أن نحصل على الأرض بثمن بخس.

وفكَّر باكوم:

- لم أشتري خمس مئة هكتار بألف روبل، وأستدين فوق ذلك، في حين أستطيع بهذا الألف أن أحصل على أرض لا أندري مداها؟



استدلَّ باكوم على الطريق الذي يوصل إلى بلاد البشكير، وبعد أن استأذن التاجر، أعدَّ عِدَّتَه للسفر. عهد إذن ببيته إلى زوجته، ومضى مع خادمه قاصداً أولاً المدينة المجاورة حيث تزوَّد بالشاي والخمر والهدايا طبقاً لتعليمات التاجر.

(١) بلاد البشكير: شعب تترى كان يعيش على التخوم الأوروبية لجنال الاورال، وكان في هذه الحقبة، في حالة بدواة، لكنه كان يملك الكثير من الأرض البكر.

شرعاً في السير . سارا وسارا؛ سارا خمس مئة فرسخ ، وفي اليوم السابع بلغا قريةً من قرى البشكير . كان كل شيء جيداً كما أخبر التاجر . لقد خيمَ البشكير في السهوب ، بحذاء النهر الصغير ، في خيامٍ من الصوف . وهم بدوٌ ، لا يفلحون الأرض ، ولا يأكلون الخبز ، ويقضون وقتهم وهم يطوفون السهوب بخيلهم ومواشيهم .

وخلف خيامهم يربطون مهارهم التي ترضع أمهاتها مرتين في اليوم . ومن حليب الفرس يصنعون شراب «الكوميس»^(١) ، ويمخضون «الكوميس» ليستخرجوا الجبن . وشرب الكوميس والشاي ، وأكل لحم الخروف والعزف على الناي ، ذلك هو عمل البشكير كله . إن هؤلاء الناس السمينين ، المتألقين ، الفرحين ، الذين يقضون صيفهم معيدين ، جهلةٌ جداً ولا يعرفون كلمةً من الروسية ، لكنهم مضيافون جداً .

عندما رأى البشكير «باكوم» مقبلاً تركوا خيامهم وتحلقوا حول القادم الجديد . استطاع باكوم ، بفضل مترجم في مخيمهم ، أن يفهمهم وأن يقول لهم أن ماجاء به إليهم هو رغبته في امتلاك الأرض .

احتفى به البشكير واقتادوه إلى أجمل خيمة في خيامهم ؛ هناك اجلسوه على بسط وثيرة ، وغطوا قدميه بوسائد من الريش ، وقدموا له الشاي و«الكوميس» . وإذ ذبحوا خروفاً أعطوه أجمل قطع فيه .

أرسل باكوم خادمه ليأتيه بالهدايا التي حملها في عربته وقدمها للبشكير ووزع عليهم ما حمله من الشاي . فرحوا بذلك ؛ وتشاوروا بلغتهم وأمروا الترجمان بأن يترجم . قال الترجمان :

إنهم يأمروني بأن أقول لك إنهم يكتنون لك المودة . وإن من عاداتنا نحن أن نرحب بالغرباء أجمل ترحيب وأن نرد على هداياهم بهدايا من عندنا . فقل لنا ما الذي تريده في مقابل هداياك .

أجاب باكوم :

(١) كوميس : كلمة تترية تعني الشراب المتخمّر المصنوع من حليب الفرس .

- ماأحبه فوق كل شيء هو الأرض . فنحن في حاجة الى الأرض ،
ونحن في ضيق عندنا ، والقليل الذي نملك من الأرض ليس بالخصيب . أما
أنتم فعلي العكس ؛ إن لديكم الكثير من الأرض ، الأرض الطيبة . ولم أر
قط أرضاً شبيهة بأرضكم .

ترجم الترجمان وتشاور البشكير مرة أخرى . لم يفهم باكوم كلمة مما
قالوه ؛ إنهم يتتهجون ويضحون ويضحكون . ويخيم الصمت أخيراً
وينظرون إلى باكوم ، فيقول الترجمان للغريب :

- إنهم يأمروني بأن أقول : اعترافاً بكرمك ، إنهم يعطونك عن رضا
ماتشاء من الأرض . ماعليك إلا أن تشير بيدك إلى الأرض التي ترغب فيها
حتى تغدو ملكك .

وبدأ النقاش بينهم .

سأل باكوم :

- ماذا يقولون أيضاً؟

أجاب الترجمان :

- يقول بعضهم إنه تجب استشارة الزعيم الذي لا يمكن إبرام شيء
دونه ؛ ويقول آخرون : إن تدخله ليس ضرورياً .

- ٦ -

كانت المشاورة بينهم مستمرة عندما شوهد رجل بطاقيّة من جلد
الثعلب يقبل عليهم . فكف الجميع عن الكلام ونهضوا .
قال الترجمان :

- هذا هو الزعيم .

حينئذ تناول باكوم أجمل ثوب عنده وسفطاً فيه خمس ليبرات من
الشاي ، وقدمها للزعيم ، فقبلها وجلس في المكان الأول . عرض البشكير
عليه القضية فأصاخ السمع ثم أخذ يضحك وقال لباكوم بالروسية :

- ليكن! الأرض موفورة: أشر إلى الموضع، واختر ماتشاء من الأرض.

فكر باكوم: «كيف! أخذ منها ماأشاء! يجب أن يكون كل شيء نظامياً، كيلا يأتوا ويستردوها مني بعد أن يكونوا قد قالوا لي: هذه الأرض لك».

وقال للزعيم:

- أشكرك على عرضك الكريم. أنتم تملكون الكثير من الأرض، وأنا لأطلب الكثير منها. ينبغي أن أعلم فقط عن أي أرض تتنازلون، وأن نثبت حدودها، وأن تجري الأمور حسب الأصول؛ لأننا جميعاً ميّتون. وماتعطونه يمكن أن يخطر لأولادكم أن يستردوه.

قال الزعيم:

- ليكن! سنجري الأمور طبقاً للأشكال القانونية.

قال باكوم:

- علمت أن تاجر أزاركم وأنكم تنازلتم له عن شيء من أرضكم، وأنكم أمضيتم له صكاً؛ فامنحوني إذن صكاً مثله.

فهم الزعيم، وقال:

ليكن. عندنا كاتب موثق. وسنذهب معاً إلى المدينة المجاورة؛ وسنمضي صكاً ونغطيه بجميع الأختام الضرورية.

قال باكوم:

- قل لي الآن ماالسعر الذي تطلبونه.

- ليس لدينا سوى سعر واحد وهو ألف روبل باليوم الواحد.

أدهشت باكوم هذه الطريقة في حساب السعر، فلم يفهم. وسأل:

- كم هكتاراً يساوي ذلك؟

- مستحيل أن نعلم بالضبط مسبقاً. نحن نبيع بسعر كذا في اليوم.

فالأرض التي تدور حولها في يوم من المشي هي ملك لك. والشمس ألف روبل في اليوم.

دهش باكوم وقال :

- يمكننا أن ندور حول الكثير من الأراضي عندما غشي يوماً كاملاً .
- حسناً! سيكون كل شيء على مايرام ، لكن بشرط أن تعود ، في
نهاية اليوم الى المكان الذي انطلقت منه . وإلا فقدت مالك .
سأله باكوم :

- ومن يغرس الأوتاد حيثما أمر؟

- الأمر هكذا : سوف تختار المكان أنت نفسك ، وسنقف نحن حيث
تشاء وسنبقى فيه ، بينما تقوم أنت بدورتك . وسيرافقك شبابنا على الخيل
وسيغرسون الأوتاد حيثما تشاء . وستربط الأوتاد بعضها ببعض بثلم يخطه
المحراث بين الوتد والوتد . يمكنك أن تضمّ ماتشاء من الأرض ، بشرط أن
تعود إلى نقطة انطلاقك قبل مغيب الشمس : فكل ماتدور حوله ملكٌ لك .
راق هذا الترتيب باكوم . وتقرر أن يكون الانطلاق في اليوم التالي ،
في الفجر . وعاد الجميع إلى الحديث وشرب «الكوميس» والشاي ، وأكل
لحم الخروف . ثم أعطاه البشكير فراشاً من الريش ومضوا إلى النوم بعد أن
تواعدوا على اللقاء غداً عند الفجر ، ليقصدوا معاً الموضع المختار قبل طلوع
الشمس .

- ٧ -

استلقى باكوم على فراش الريش ، لكن همّ الأرض الأبدي منعه من
أن يغمض له جفن . وفكّر :

ما أعظم العمل الذي قمتُ به هنا ! سوف أنشئ لنفسى مملكة صغيرة
تامة . وأنا أستطيع أن أقطع في يوم واحد خمسين فرسخاً^(١) ، لأن النهار ، في
هذا الفصل طويلٌ طوال سنة . وخمسون فرسخاً لا تعادل أقل من مساحة

(١) أي مايعادل اثنين وخمسين كيلو متراً .

عشرة آلاف هكتار وحينئذ سأغدو سيد نفسي ولن أرتبط بأحد سأشتري ثيراناً لمحراثين، وأستأجر خدماً، وأفلح قطع الأرض التي تبدو لي أفضل القطع، وأرعي ماشيتي فيما يبقى من الأرض.

على هذا النحو، قضى الليل كله دون أن يتمكن من النوم. ولم يغف لحظة إلا عند الفجر. أغفى وحلم.

حلم أنه مضطجع تحت هذه الخيمة ذاتها وأنه يسمع في الخارج قهقهات. ولما كان حريصاً على أن يعلم من الذي يقهقه هكذا، إذا به يثب من فراشه ويخرج من الخيمة؛ فيظهر له زعيمُ البشكير جالساً أمام الخيمة، يداه على بطنه وهو يقهقه. فيتقدم ويقول له، «مُ تضحك؟» فإذا الذي أمامه ليس زعيمُ البشكير وإنما التاجر الذي توقف قديماً عنده وحدثه عن السهوب. سأل التاجر عن أخباره. لكنه لم يعد يرى التاجر وإنما رأى الفلاح الذي استضافه ذات ليلة. لكنه ليس الفلاح وإنما هو الشيطان بعينه، قرناه في جبينه وقدماه ظلّفاوان، وهو يضحك بملء فيه وينظر إلى شيء ما. فيتساءل باكوم: «لأَمْ ينظر هكذا؟ ومُ يضحك؟ فيدنو منه، وماذا يرى؟ يرى رجلاً نائماً، حافي القدمين يرتدي فقط قميصاً وسروالاً داخلياً، ناظراً إلى السماء، أبيض الوجه كالثوب الأبيض. وإذا حدث في باكوم تعرف على نفسه في هذا الرجل.

فيطلق باكوم صرخة ويستيقظ. يستيقظ ويفكر: «باه! ما هذا إلا حلم».

ويحاول أن يعود إلى النوم، لكنه يتبين أن الصباح سينبج. «يجب أن أوقظ الجميع، فقد حان موعدُ الانطلاق».

وينهض، ويمضي إلى عربته، ويوقظ خادمه، ويأمره بربط الخيل، وينادي البشكير.

وينهض هؤلاء، ويجتمعون، ويصل الزعيم بدوره، ويحمل الكوميس والشاي. ويقدمون شيئاً منهما لباكوم لكنه شديد الاستعجال، فيقول لهم:

- حان موعد الانطلاق، فلنتطلق.

فيشرعون في السير جميعاً، بعضهم على الجياد، والبعض الآخر في العربات، وباكوم في عربته مع خادمه. لم يلبثوا أن بلغوا السهوب. وبينما كان الفجر يطلع، بلغوا قمة رابية. ترجل البشكير وشكلوا جماعة واحدة. اقترب الزعيم من باكوم، وأراه بإصبعه البلد الذي يمتد أمامهم، وقال له:

- هذا البلد كله، ملك لنا، كل ماتشملة بنظرك. فاختر.

اشتعل بريق في عيني باكوم. لقد كانت الأرض تمتد حتى أبعد نقطة في الأفق، مفروشة ببساط من العشب البري العالي ذي الريش، مستوية مثل راحة اليد، سمراء مثل حبوب الخشخاش. أعشاب من جميع الأنواع. أعشاب عالية حتى الصدر تشير إلى مواقع الوهاد. وينزع الزعيم طاقيته التي من جلد الثعلب ويضعها على قمة الرابية. قال:

- هنا نقطة الاستدلال. سيمكث خادمك هنا. اترك مالك في الطاقية. ستنتقل من هنا وستعود إلى هذه النقطة ذاتها. كل ماتدور حوله سيكون ملكك.

أخرج باكوم ماله ووضع في الطاقية، ونزع معطفه، ولم يبق سوى قفطانه، ويشد زناره، ويتزود بقليل من الخبز في زوادة صغيرة، ويلتصق بجنبه زجاجة صغيرة مملوءة بالماء، ويصطحب ساقيتي حذائه. ويستعد للانطلاق. ويفكر لحظة: في أي اتجاه أسير؟ لكن الأرض جيدة في جميع الأرجاء. ويفكر: «حيثما التفتنا وجدنا الأرض جيدة. سأمشي في جهة الشرق». وإذا اتجه إلى جهة الشمس انتظر طلوعها.

وفكر: «لا وقت أضيّعه، يجب أن أستغل البرودة، فالمشي فيها أقل إجهاداً.»

اعتلى البشكير جيادهم، واستعدوا، من جهتهم، لنزول الراية كي يرافقوا باكوم. ولم تكد الشمس تنزع في الأفق حتى انطلق باكوم ومضى عبر السهوب يتبعه الفرسان.

كان يمشي مشية متساوية، لاهي بالبطيئة ولا هي بالمستعجلة. وبعد فرسخ غرس وتداً، وانطلق من جديد. وعندما نشطت ساقاه أغدّ السير. سار وسار، وأمر بغرس وتداً آخر أيضاً. التفت إلى الوراء: كانت الراية ظاهرة بوضوح، تيرها الشمس المشرقة، وميّز عليها دون مشقة جمهور البشكير.

كان قد قطع إذ ذاك، حسب تقديره، نحو خمسة فراسخ. وبما أنه حمي خلع قفطانه، وشدّ زناره، وتابع طريقه. مشي أيضاً خمسة فراسخ، وأخذ الحرّ يشتدّ. رفع عينيه نحو الشمس ورأى أن وقت الفطور قد حان. وفكّر:

ها أنا ذا في الربع الأول من نهاري، وفي النهار أربعة أرباع. لم يحن بعد وقت الانعطاف. لكنني سأقلع حذائي فقط. جلس أرضاً، وقلع حذائه، واستأنف سيره، بخطاً خفيفة نشطة. وفكّر:

«خمس فراسخ ثم انعطف بعدها إلى اليسار الأرض جيدة هنا وهي أجود من أن انعطف الآن. وكلما تقدّمتُ كانت أجود».

واستمر في طريقه، لا يلوي على شيء. وفي لحظة أدار رأسه مرة أخرى: لم يكد يشاهد الراية، وبدا البشكير عليها كالنمل الأسود. قال في نفسه: «هيا، يجب أن انعطف هنا. فقد تجمّع لدي الآن الكثير من الأرض».

أخذ العرق يُتصبّب على وجهه، كما أنه عطش. وأثناء مشيه، تناول زجاجته وشرع يشرب منها. ثم غرس وتداً جديداً وانعطف إلى اليسار. هاهو ذا يسير ويسير؛ العشب عال وكثيف، والحرّ يتضاعف، ويحسّ باكوم بشيء من التعب. إنه ينظر إلى الشمس ويتبيّن أن الوقت ما يزال وقت الغداء. وفكّر: «حسناً سوف أستريح لحظة».

ويتوقف، ويُخرج من زوادته قطعة خبز يأكلها واقفاً. لأنه قال في نفسه: لو جلستُ لتمدّدت على الأرض ولنمتُ.

ويظل هنا لحظة، ويسترد أنفاسه ويستأنف السير.

سار أولاً بخفة، إذ عاد إليه نشاطه بالطعام. لكن الحرارة تشتدّ ويتملكه النعاسُ. لقد كان تعبهُ عظيماً. فيقول في نفسه متشجعاً: «ساعة من الألم ودهرٌ من السعادة».

ظل يسير في وجهته نحو عشرة فراسخ؛ ولما كان على وشك أن يعطف إلى اليسار أيضاً راعه منظرٌ وهدّة نضرة. فقال في نفسه:

«لا يمكنني أن أترك هذه الوهدة خارج ملكي؛ فهنا يغلُّ القنب». وتابع طريقه على خط مستقيم وقرّر ألا يعطف إلا بعد أن يضمّ الوهدة إلى دائرته وأمر بغرس وتد.

ومرة أخرى، نظر إلى الراية. فشقّ عليه تمييز جماعة البشكير، كانت تفصله عنهم نحو خمسة عشر فرسخاً على الأقل. وفكّر:

«جعلت الضلعين الأولين طويلتين جداً؛ ينبغي أن تكون هذه الضلع أقصر». قطع الضلع الثالثة بخطأٍ حثيثه. أخذت الشمس تنحدر بسرعة؛ رآها قريبةً من مغربها. لم يكد يسير فرسخين على هذه الجهة الرابعة؛ كان ما يزال عليه نحو خمسة عشر فرسخاً من المَعْلَم الرئيسي الذي ينبغي بلوغه. يجب أن أتجه الآن نحو الهدف. ولا ضير إن كانت أرضي غير منتظمة الجوانب فعندي ما يكفيني.

ويتمم شطر الراية رأساً.

— ٨ —

كان باكوم يسير رأساً إلى الراية. كان منهكاً. تشقّقت قدماه، وآلمته ألاماً فظيماً، وتخاذلت ساقاه تحته. ودّلوا يستريح. لكن كل توقّف كان

محظوراً عليه : فلن يبلغ حينئذ هدفه قبل مغيب الشمس . والشمس لا تنتظره ؛ كانت تنحدر وتنحدر وكأنها ستسقط ، وكأن هناك من يدفعها . فكر باكوم : «وأسفاه ! أخشى أن أكون خُدعتُ . لقد وسَّعتُ الدائرة . وماذا سيحلُّ بي إذا لم أبلغ الهدف قبل الوقت المحدد؟ وما أبعدُه حتى الآن ، وما أشدَّ تعبِي ! أوه ! وماذا لو فقدت روبيلاتي وعنائي ! سأضاعف جهودي وأحاول المستحيل» .

وأُسرع باكوم في مشيته . نَزَّت قدماه دماً ، فلم يخفَّف من جريه . إنه يركض ويركض لكن الهدف ظل بعيداً . تخلص من قفطانه ومن زجاجته ، ونزع طاقيته وحذاءه ورماهما .

فكر : «وأسفاه ! أضاعني طمعي . لن أبلغ الغاية قبل مغيب الشمس» .

خنقه الرعبُ ، وضاق نفسه من جراء ذلك . واستمرَّ يركض ؛ جفَّ حلقُه ، ولصق قميصه وسرواله الداخلي بجلده من العرق . وأخذ صدره يرتفع ويهبط كأنه منفاخ الحدَّاد ، وقلبه يخفق كالطرقة . لم يعد يحسُّ بقدميه ، وانطوى عرقوباه ، وخارت قواه . لم يعد يفكر بالأرض ؛ وغدا همه الوحيد ألا يسقط ميتاً من التعب . إن باكوم يخشى الموت ، لكنه لا ينفك عن الركض ، وهو يفكر :

«بما أنني ركضتُ هذا المقدار ، سأعدَّ غيباً الآن إن توقفت» .

إنه يسمع صرخات البشكير و صفيرهم فيزيده ذلك حميةً للركض . ويستعجل وينهك نفسه ، ويبدل آخر قواه . ويقترب من الهدف . فيميّز على الرابية كل واحد ؛ جميع الأيدي تومئ إليه أن يستعجل . وهاهو ذا يشاهد الطاقية على الأرض ، مع المال ، والزعيم مقرصاً على الأرض . ويداه على بطنه . فيعود حلمُ باكوم إلى ذاكرته .

قال في نفسه :

«الأرضُ مُوفورة ، فهل سيُنعم عليَّ الله بأن أحيا فيها؟ أوه ! أنا نفسي أهلكتُ نفسي» .

وتابع جريه . رفع عينيه نحو الشمس ؛ كانت قانية الحمرة ، شديدة العرض ، تكاد تلامس الأرض ، بل لقد لامستها ؛ فها إن حافتها السفلى تختفي عن النظر . وعندما يصل باكوم راكضاً سفح الراية يختفي الكوكب . أطلق باكوم آهة اليأس ، ورأى نفسه هالكا . لكنه يفكر في أن الشمس إن غابت بالنسبة إليه ، وهو عند سفح الراية ، إلا أن الذين في أعلى مايزالون يرونها . ويصعد جرياً ، ويشاهد الطاقة . إنه النصر ! ويتعثر باكوم ويتدحرج على الأرض لكنه يلامس بيده اليمنى الطاقة وهو يسقط .

قال له زعيم البشكير :

- ممتاز ! مرحى ، يافتاي . لقد ربحت ملكاً كبيراً .
هرع خادم باكوم ليرفع سيده ، لكنه يتبين أن الدم يسيل من فمه . لقد مات باكوم . ويجلس الزعيم على الأرض ويداه على بطنه ، وينفجر ضاحكاً .

. . . ثم ينهض ويتناول معولاً ويرمي به إلى الخادم ، قائلاً :
- خذ هذا المعول لتحفر له حفرة .
ويعتلي جميع البشكير خيلهم وينسحبون تاركين الخادم قرب الجثة .
وحين بقي الخادم وحده ، حفر حفرة بطول الجسم فقط ، بطول ثلاثة أذرع ، ودفن فيها باكوم .

قصة ايفان الغبي

ليون تولستوي

قصة ايفان الهبي

ترجمة: صياح الجهم



منشورات وزارة الثقافة

في الجمهورية العربية السورية

دمشق ١٩٩٧

ذات مرة، كان في إحدى الممالك فلاحٌ غني له ثلاثة أولاد: سيميون المحارب، وتاراس البطين، وايفان الغبي^(١)، وبنتٌ خرساء تُدعى ميلانيا. دخل سيميون المحارب في خدمة القيصر^(٢)، ومضى تاراس البطين إلى المدينة ليتدرب عند أحد التجار؛ أما ايفان الغبي فقد ظل في بيته مطمئناً مع أخته الخرساء.

حصل سيميون المحارب أخيراً من القيصر، لفرط محارب، على رتبة عالية وأرض حسنة، مكافأة له. حينئذ استطاع أن يتزوج ابنة اقطاعي. لكن كان يُعوزُه المال دائماً، وإن كان ملكه واسعاً ومرتبته مرتفعاً؛ كان كل ما يكسبه تنفقه امرأته، وكان دائماً خالي الوفاض.

ذات يوم ذهب إلى ملكه ليتسلم المزارعة. قال له وكيله:
- لاشيء عندي أسلمك إياه. إذ لا ماشية لدينا ولا خيل ولا ثيران ولا محراث. اشتر ذلك كله إن شئت أن تحصل على مردود.

حينئذ ذهب إلى والده الفلاح وقال له:
- أنت غني، ولم تُعطني شيئاً. أنت مدين لي بالثلث؛ أعطني إياه لأتمكن من استغلال أرضي.

لكن الشيخ أجابه:
- لم أعطيك الثلث. وأنت لم تأت بشيء إلى البيت؟ سأجور على ايفان وابتني.

(١) تصوّر الحكايات الشعبية الروسية شخصية الأخ الثالث أبله وطيباً، لكنه ناجح في الحياة أكثر من أخويه اللذين يحتقرانه.

(٢) في خدمة القيصر: في الحكاية الروسية كل ملك يحمل لقب «قيصر».

ردّ عليه سيميون :

- ايفان غبي ، وميلانيا خرساء . وهل هما بحاجة إلى شيء ؟

أردف الشيخ :

- هيا ! ليقرّر ايفان بذاته .

ولما استشير ايفان أجاب :

- فليكن ، فليأخذ حصته .

فأخذ حيثنّ سيميون المحارب حصته ، واستخدمها في أراضيه ، وعاد يحارب مع القيصر .

جمع تاراس البطين أيضاً شيئاً من المال وتزوج ابنة تاجر ؛ لكن لم يكن لديه المال الكافي ، فقصد أباه وقال له :

- أعطني الثلث الذي يخصني .

لكن الشيخ لم يكن أيضاً مستعداً لأن يسلم تاراس الحصّة التي يطالب بها . فقال له :

- أنت لم تأت بشيء إلى البيت . ايفان هو الذي كسب كل ما عندنا . ولا أريد أن أجور عليه ، ولا على ابنتي .

قال تاراس :

- ايفان غبي ، ولا يمكنه أن يتزوج : فأية فتاة ترضى به زوجاً ؟ لا حاجة به إلى المال ، وكذلك الخرساء .

وأضاف مخاطباً ايفان :

- أعطني نصف القمح وسأترك لك كل آلات الحراثة ؛ أما الحيوانات فلست أطلب بغير الفرس الشهباء التي لاتصلح للحراثة .

قال ايفان الذي أخذ يضحك :

فليكن !

وهكذا أخذ تاراس ، مثل سيميون ، حصته من الإرث . واقتاد الفرس الشهباء ، وحمل إلى المدينة نصف القمح . أما ايفان فظل وحده مع حصان عجوز ، يعيش في حقله ، وهو يفلح الأرض ويُعيل أهله .

بيد أن رئيس الشياطين ثارت ثائرتة حين رأى الإخوة الثلاثة يسوون قضاياهم تسوية ودية، دون أي خصام، ويفترقون أصدقاء متحابين، فاستدعى ثلاثة شياطين صغار، وكلمهم بالكلام التالي:

- اصغوا إليّ. هناك ثلاثة إخوة، سيميون المحارب، وتاراس البطين، وايفان الغبي. وبدلاً من أن يختصموا كما ينبغي أن تكون الأمور، هاهم أولاء يعيشون وبينهم أحسن العلاقات. والخطأ يقع على عاتق إيفان الغبي فهو الذي أحبط مشاريعنا كلها وأفسد أعمالنا. اذهبوا والقوهم ثلاثتهم؛ اذهبوا وأفسدوا ما بينهم إلى حد يسعون معه إلى اقتلاع العيون. هل تضطلعون بهذه المهمة.

قال الشياطين الثلاثة:

- نعم نضطلع بها.

- وكيف السبيل إلى ذلك؟

- السبيل إلى ذلك كالتالي: سنفقرهم أولاً حتى إذا لم يبق لديهم ما يأكلونه سنجعلهم يتواجهون، يواجه بعضهم بعضاً، وحيث سيتقاتلون.

قال رئيس الشياطين:

- ممتاز. أرى أنكم تحسنون العمل. انطلقوا إذن، وإياكم أن تعودوا قبل أن تفرقوا بين الأخوة الثلاثة. وإلا فأنذرکم بأني سأسلخ جلودكم.

عاد الشياطين الصغار إلى مستنقعهم^(١) ليتشاوروا. كيف ينجحون؟ تناقشوا طويلاً، وكان كلُّ منهم يود لو يضطلع بأسهل مهمة. ترك للقرعة أمر تقرير القسط الذي يعود لكل منهم في العمل المشترك، واتفقوا على أن من ينهي مهمته أولاً عليه أن يمد يد العون لرفيقه. وبعد أن اقترعوا وحدّوا

(١) إلى مستنقعهم: تريد العقائد الشعبية أن يكون المستنقع مقراً للأرواح الشريرة.

اليوم الذي يجتمعون فيه مرةً أخرى ليُطلع كلُّ منهم رفيقيه على ما حققه من مشروعاتهم ، افترقوا .

وفي اليوم الموعد ، التقوا ثلاثتهم في مستنقعهم وتحادثوا عن مشروعاتهم . تحدث الأول عن سيميون قائلاً :

- إن عملي يسير وفق المرامد . سيذهب سيميون ليلقى أباه غداً .

سأله رفاقه عن الطريقة التي اتخذها لينجح .

- بدأتُ بإثارة شجاعة سيميون إلى الحد الذي تعهد معه بإخضاع الدنيا كلها لقيصره . حيثُذ عيّنه القيصر قائداً عاماً وأرسله ليحارب القيصر الهندي . وعندما التقى الجيشان بلّلتُ البارود في معسكر سيميون ، وفي الليلة نفسها ، ذهبت إلى القيصر الهندي ، وصنعتُ له جنوداً من القش . وفي اليوم التالي ، نشبت المعركة ؛ وعندما رأى محاربو سيميون جنود القش يسرون نحوهم ارتعبوا . وإذا رأى سيميون ذلك ، أمر بإطلاق النار ، لكن البنادق والمدافع أبت أن تنطلق . استولى الذعر على جنود سيميون وفروا كالخراف ؛ ولم يجد القيصر الهندي مشقة في تذيبهم . حُقر سيميون ، ونُزعت منه أملاكه ، وسيُعدم غداً . ولم يبق عليّ سوى أن أفتح له سجنه . سينتهي كلُّ ذلك غداً . فمن منكمم أساعد؟

تحدث الشيطان الثاني الذي كُلّف أمر تاراس قائلاً :

- إن عملي يسير أيضاً في الطريق الصحيحة . ولا فائدة من مساعدتي فبعد هذا اليوم بثمانية أيام ، ستتغير أعمال تاراس تغيراً كلياً . كان همّي الأول تضخيم بطنه ومضاعفة جشعه . وغدا طمأعاً في أموال الآخرين حتى إنه كان يريد أن يمتلك كل ما يراه . أنفق ماله كله في التملك . وهو ما يزال يشتري حتى الآن ، لكن بالمال الذي اقترضه . لقد حمل نفسه عبثاً ثقيلاً بحيث لا يمكنه التخلص منه . وفي مدى ثمانية أيام تبلغ سدادته استحقاقها ، وبما أنني أفسدت بضاعته كلها فسوف يعجز عن مواجهة التزاماته ، وسيمضي قدماً إلى أبيه .

وسئل الشيطان الثالث عن حالة عمله ، فقال :

- لأدري ماذا أقول لكم . كل شيء عندي يسير من سيء إلى أسوأ . بصقت أول الأمر في شراب التفاح الذي لايفان كي أفسد أحشائه . ثم قصدت حقله ، ولأحول بينه وبين الحراثة ، صلبت الأرض حتى صارت كالحجر ، ظاناً أنه لن يستطيع الهرب . لكن الغبي وصل بمحراثه وفتت المدر . لقد بذل طاقة عظيمة بحيث أن عمله تم مع ذلك . وماذا فعلت ؟ كسرت محراثه . لكنه عاد إلى المنزل وحمل محراثاً آخر وأخذ يحرق مرة أخرى . وحينئذ دخلت تحت الأرض وقبضت على المحراث ؛ لكن تعذر إيقافه لفرط ماكان يشد بثبات ؛ وبما أن سكة المحراث كانت مشحونة أدميت يدي . حرث حقله كله ماعدا شريطاً أخيراً . وأنا بحاجة إلى مساعدتكما يا أخوي ، لأننا إن لم نتغلب على الغبي فإن تعبنا سيذهب أدراج الرياح . فما دام يشتغل سيظل يطعم أخويه ، وسيظلان بأمن من الفاقة .

تعهد شيطان سيميون المحارب بالعودة في اليوم التالي ، وبعد ذلك افرقوا .

- ٢ -

لم يبق على إيفان سوى شريط إذا فلحه انتهى كل شيء . عاد ليستأنف العمل . كان يشكو بطنه ، لكنه استمر مع ذلك في عمله ، مخلصاً سكتته من الأرض التي كانت تلتصق بها ، مديراً محراثه ليشرع في ثلم جديد . وبينما هو يبدأ ثلماً جديداً . أحس أن جذراً أوقفه . كان ذلك هو الشيطان الذي غاص تحت الأرض وأمسك بالمحراث وتشبث به . قال إيفان في نفسه :

- هذا شيء فريد . إذ لم يكن في هذا الموضع جذور ، مع أن هذا بالتأكيد جذر . ولما أدخل يده في قاع الثلم ، نبش قليلاً فوقعت أصابعه على شيء رخو . قبض عليه وسحبه من الثلم . كان أسود كالجذر وكان يتحرك .

- أوه! أوه! شيطان صغير حي! باله من حيوان حقير!
رفع ايفان يده ليسحق رأسه على الأرض. أرسل الشيطان تأوها؛

قال :

- لا تقتلني ، فسوف أفعل كل ماتريده مني .

- وماذا ستفعل لي؟

- ماتشاء . ماعليك إلا أن تتكلم .

حك ايفان قذاله .

- إنني أتألم من بطني ؛ أتستطيع شفائي؟

قال الشيطان :

- نعم

- إذن ، اشفني .

انحنى الشيطان ، نبش الأرض بمخالبه واقتلع جذراً ذا ثلاثة رؤوس
حادة قدمه لايفان ، وقال له :

- خذْ هذا الجذر ، ابلعْ من هذه الرؤوس وستشفى من دائك .

أطاعه ايفان واقتطع أحد الرؤوس الثلاثة وابتلعه فشفى .

أخذ الشيطان يتأوه من جديد وقال :

- اتركني ، سأغوص تحت التراب ، وأعدك ألا أنجوك بعد الآن .

قال ايفان :

- فليكنْ ، واللهُ معك !

لم يكذ ايفان بلفظ اسم الله حتى ابتلعت الأرض الشيطان وكأنه
حصاة في قاع الماء إذ لم يترك وراءه سوى ثقب .

وضع ايفان في طاقيته رأسي الجذر الباقيين واستأنف حراثته . فأنهى
الشريط الأخير . فأدار المحراث وعاد إلى منزله .

عندما حلَّ الدواب دخل مسكنه الخشبي : كان أخوه سيميون المحارب
جالساً مع زوجته إلى المائدة لتناول وجبة المساء . لقد نُزعت منه جميعُ

أملاكه . وبشقّ النفس استطاع أن ينجو من السجن ليبحث عن مأوى له في بيت أبيه .

قال سيميون لدى مرأى ايفان :

- جئنا لنلقاك . أطعمنا أنا وزوجتي مالم نجد ملجأً آخر .

قال ايفان :

- فليكن! عيشا هنا بطمأنينة .

ومضى ليجلس على المقعد . لكن امرأة سيميون ، وهي ابنة إقطاعي ،

أعربت عن تضاييقها من رائحة الغبي . وقالت لزوجها :

- ليس بوسعي أن أكل بجانب فلاح خبيث الرائحة .

حينئذ خاطب سيميون المحارب ايفان قائلاً :

- استقبحت امرأتي رائحتك . ينبغي لك أن تذهب وتأكل في البهو .

قال ايفان :

- فليكن! ها قد جاء الليل ، وعليّ أن أطعم الحصان .

وإذ قطع شيئاً من الخبز ، تناول قفطانه وذهب إلى الفناء من أجل

حراسة الليل .

غداً شيطان سيميون المحارب حرّاً منذ الآن ؛ جاء ، كما وعد ، ليضمّ

جهوده إلى جهود رفيقه للتغلب على ايفان الغبي .

سلك طريق الحقل حيث ظنّ أنه سيلقى صاحبه : ويصل ويبعث فلا

يجد أحداً . لأحد سوى الثقب . قال في نفسه :

- هيا . قد تكون أصابت صاحبي مصيبة . وعليّ أن أحلّ محله . لكن

الحقل محروث بأكمله . وسأنتظره حيث يُحشّ الكلاً .

مضى إلى المرج ، ونشر على العشب طبقة من الطين . عند مطلع

الفجر ، أنهى ايفان حراسة الليل ، فأطلع منجله وانطلق لحشّ مرجه .

وصل وباشر من فوره عمله .لقى بمنجله مرة ومرتين : لكن العشب

قاوم ، والمنجل لم يقطع ؛ حدّ المنجل بحاجة إلى شحذ . وعبثاً بذل ايفان

جهده ، كان مستحيلاً أن يصل إلى شيء . فقال :

- سأعود إلى البيت لآتي منه بحجر الشحذ مع مؤونتي من الخبز ،
ولو أنني بقيت ثمانية أيام هنا ، فلن أترك هذا المرج قبل أن يُحصد بأجمعه .
هذه الكلمات التي سمعها الشيطان حملته على التفكير . قال :
- ما أشد عناد هذا الغبي ! سيشقّ عليّ التغلبُ عليه . وعليّ أن أعثر
على وسيلةٍ أخرى .

وبعد أن شحذ إيفان منجله استأنف عمله .
اندس الشيطان بين العشب ، أمسك بيده رأس المنجل وأغرقه في
الأرض . لكن إيفان بذل كثيراً من الطاقة وفرغ من حصاده ، بالرغم من
الصعوبات التي أثارها الشيطان ، ولم يبق عليه سوى شريط أخير يحصده ،
بحذاء المستنقع .

انسلّ الشيطان إلى المستنقع وقال في نفسه :
- سأمنعه هذه المرة ولو اضطررتُ أن أفقد جميع قوائمي .
قصد إيفان المستنقع . كان العشب نادراً ؛ لكن المنجل لم يعد يعمل .
اهتاج ورماء من غضبه بكل قوة ذراعه .

لم يصمد الشيطان للضربة ؛ ولم يتملص منها إلا بجهد بالغ ، فيشعر
أن مشروعه لايسير البتّة ، ويلجأ إلى شجرة عظيمة . لكن إيفان بحركة من
منجله يصيب الشجرة ويقطع ذنب الشيطان . انتهى من الحصاد ، وكلف
أخته تجميع الكلال ، وأخذ منقباً وذهب لحصاد الشيلم .

ويصل إلى حقل الشيلم ويلاحظ أن جميع السنابل متشابكة . هذا من
عمل الشيطان الذي مرّ من هنا . ويعود إيفان إلى بيته ويترك المنقب الذي لم
ينفعه ، ويستبدل به منجلاً ، وهاهوذا يقطع قطعاً حسناً وكثيراً فلم يلبث
الشيلم أن أصبح على الأرض .
قال :

- والآن دور الشوفان .
فيسمعه الشيطان ذو الذنب المقطوع ويفكر : « لم أستطع أن أطوله في
الشيلم ، لكنني سأطوله في الشوفان . لنتظر الصباح فقط .

ويصل الشيطان عند مطلع النهار إلى حقل الشوفان فإذا بالسنابل قد قُطعت . ذلك أن ايفان قضى الليل وهو يعمل كي لا يفقد من الحب إلا الأقل .

غضب الشيطان :

- قطع الغبي كل شيء ، وأنا منهوك . لم يصبني ، حتى في الحرب مثل هذا الأذى . هذا اللص لا ينام . من المستحيل الوصول قبله . لم يبق عليّ إلا أن أندس بين الأكداس لكي أجعلها تتعفن كلها .
واتجه نحو أكداس الشيلم ، وانسل بين حُزمه وأخذ يُعفّنها . تعب في تسخينها وانتهى بأن نام .

بعد أن ربط ايفان الحصان بالعربة ذهب لجلب حزم الشيلم . وسرعان ما وصل إلى الحزمة التي كمن عندها الشيطان ؛ ألقى بمذراته في الكدس فأصاب مؤخرة الشيطان . وسحب المذرة ، فماذا رأى في طرفها؟
شيطاناً صغيراً حياً ينقصه نصف ذنبه . أخذ يتلوى ويرتعش ويحاول الفرار .

- أوه ! ياللعنوان الحقيقير ! أهذا أنت مرة أخرى؟

أجاب الشيطان :

- أنا ، أنا غير الذي عرفته . الذي رأيته أخي . أما أنا فكنتُ عند أخيك سيميون .

- لتكن من تكون ، لا أهمية لذلك . سأعاملك كما عاملتُ الآخر .

أوشك أن يحطم رأسه على الأرض لولا أن أخذ الشيطان يستعطفه :

- اتركني . أعدك ألا أعود إليها ثانية ، وأن أفعل لك كل ماتشاء .

- وماذا تحسن أن تفعل؟

- أحسن صنع الجنود بأي شيء كان .

- جنود؟ وما الفائدة من ذلك؟

- تصنع بهم ماتشاء : الجنود يصلحون كل شيء .

- أيعرفون الغناء؟

- نعم.

- إذن، اصنع لي بعض الجنود.

أجاب الشيطان:

- خذْ حزمة الشيلم هذه، واضربْ سنابلها بالأرض وقلْ هذه الكلمات: «عبيدي يأمر أن تكفّي عن كونك حزمة وأن تتحول كل سنبله من سنابلك إلى جندي».

تناول ايفان الحزمة، وهزّ سنابلها على الأرض ولفظ الكلمات المطلوبة. تناثرت الحزمة وتحوّلت سنابلها إلى جنود يتقدمهم بواقٌ ينفخ في بوقه وطبّال يقرع طبله.

أخذ ايفان يضحك، وقال:

- انظروا، ما أجمل هذا! إنه مسلّ! هو بهجة البنات. . .

قال الشيطان:

- ستتركني الآن انصرف.

- لا. لن أتركك الآن. أريد أن يعود الجنودُ سنابل، وإلا ضاعت حبّاتُ الشيلم. علّمني الطريقة التي أرجعهم حزمًا، لكي استخرج حبّها بالمدقّة.

أجاب الشيطان:

- ما عليك إلا أن تقول: «ليكن عددُ السنابل بعدد الجنود. إن عبيدي يأمر أن يتحول الجنود إلى حزم».

فعل ايفان ما أشار به الشيطان وتحوّل الجنود إلى سنابل. حيثُذ أخذ الشيطان يتوسّل ويتأوه.

- دعني، الآن.

قال ايفان الذي وضعه على الأرض وقد أمسكه بيد وسحب المذراة باليد الأخرى:

- ليكن الله معك !

لكن لم يكذب ايفان يلفظ اسم الله حتى ابتلعت الأرض الشيطان مثل حصاة في قاع الماء ، ولم يترك وراءه سوى ثقب .

عاد ايفان إلى منزله فوجد أخاه الثاني تاراس جالساً إلى المائدة مع زوجته لتناول وجبه المساء . لم يستطع تاراس البطين أن يفهم بالتزاماته فبحث عن ملجأ لدى أبيه . قال عند مرأى أخيه :

- ايفان ، أطعمنا ، زوجتي وأنا إلى أن أعود غنياً .
قال ايفان :

- فليكن ! عيشا مطمئنين هنا .

ثم خلع قفطاناه وجاء ليجلس إلى المائدة ، لكن التاجرة قالت لزوجها :
- يستحيل عليّ أن أكل مع «الغبي» ؛ فرائحة العرق تفوح منه .
حينئذ خاطب تاراس البطين أخاه قائلاً له :

- ايفان ، رائحتك خبيثة . ليتك تذهب وتأكل في البهو .
قال ايفان :

فليكن . على كل حال ، عليّ أن أخرج لإطعام الحصان والحراسة الليلية .

أخذ قطعة من الخبز وارتدى قفطاناه ومضى إلى الفناء .

- ٥ -

عاد شيطان تاراس البطين الذي تحرّر بعد إكمال مهمته ، عاد للبحث عن رفيقه ليساعدهما على «الغبي» ، كما تعهّد بذلك .

ويصل حقل ايفان ، فيبحث ويبحث : لأحد . لا شيء سوى ثقب .
ويقصد المرح ويبحث . لا شيء سوى ذنب في المستنقع ، وبين الشيلم ثقب آخر . ففكر :

- آه ! ربما أصاب رفيقي مكروهٌ وعليّ أن أحلّ محلّهما وأن أناضل وحدي ضدّ إيفان .

وينطلق بحثاً عن إيفان . لكن «الغبي» الذي لم يعد له شغل في الحقل حيث انتهى من مهمته ، كان قد قصد الغابة ، وعكف وفأسه في يديه ، على قطع الأشجار .

كان قد وجد أخوا إيفان منزله ضيقاً عليهما ضيقاً شديداً ، فأمر «الغبي» ببناء منزل آخر لهما .

بلغ الشيطان الغابة بسرعة واندس بين الأغصان وتهيأ لعرقلة عمل إيفان .

شقّ إيفان شجرة ليقطعها ويرميها في مكان فارغ ، ودفعها بشدة ، لكن الشجرة انحنت إلى الجهة غير المطلوبة ، فتعلقت أغصانها بأغصان الأشجار المجاورة . تناول إيفان مذراة طويلة وحاول تخليصها ؛ لكنه لم يتوصل إلى إسقاطها في الموضع المحدّد إلا بعد جهود هائلة .

حيثئذ انتقل بفأسه إلى شجرة أخرى . فلقي المشقة نفسها في اجتثاثها . تصدّى لشجرة ثالثة ، فحدث الشيء نفسه . واحتاج لينجح في عمله إلى بذل طاقة جبّارة .

كان قد قدرّ أنه سيقطع في يومه خمسين جذعاً فتيّاً ، ولم يكد يتجاوز العشرة عند حلول الظلام .

أحسّ بأنه منهوك . كان البخار ينبعث من جسمه كما ينبعث الضباب في الغابة ؛ لكنه تابع عمله .

وسقطت شجرة أخرى تحت ضرباته ؛ لكنه أحسّ حيثئذ في ظهره بألم حادّ جداً قطعه عن عمله . فترك فأسه على الأرض ليستريح قليلاً .

أفرح هذا المنظر الشيطان الصغير ، ففكّر :

- ممتاز ! سيترك عمله . وسأستمتع أنا أيضاً ، بلحظة من الراحة .

وجلس مفرشخاً على غصن وكلّه سرور .

لكن إيفان يقف فجأة، ويتناول فأسه، ويلوح به ويقذفه بكل قوة ذراعه، وإذا بالشجرة التي ضُربت بعنف شديد تنهار بضربة واحدة، ولا نقصافها قرعة هائلة.

لم يتسع الوقت للشیطان كي يسحب ساقيه. وينكسر الغصن الذي كان جالساً عليه، أثناء سقوطه، وتعلق إحدى قوائمه، ويقطع إيفان الغصن، وفجأة يشاهد الشيطان حياً. فيدهش ويقول:

- آه! يا للحيوان الحقير! أهذا أنت، أيضاً؟

قال الشيطان:

- أنا غير الذي عرفته. أنا كنتُ عند أخيك «تاراس».

- لتكن من تكون، لأهمية لذلك. سأعاملك كما عاملت الآخرين.

ورفع فأسه وأوشك أن يحطم رأس الشيطان، فإذا بالشيطان يستعطفه وهو يتأوه قائلاً:

- اعفُ عني. سأفعل لك كل ما تشاء.

- وماذا بوسعك أن تفعل لي؟

- سأصنع لك كل الذهب الذي يحلو لك.

- حسناً! اصنع لي شيئاً منه.

حينئذ قال له الشيطان:

- «ما عليك إلا أن تأخذ أوراق السنديان وتفركها في يديك. سيقع

الذهب على الأرض.

أمسك إيفان بالأوراق وفركها في يديه فوقع الذهب على الأرض.

قال:

- هذا رائعٌ لتسلية الأطفال.

قال الشيطان:

- دعني إذن.

- فليكن!

أخذ ايفان مذراته وأطلق سراحه ، قائلاً :

- ليكن الله معك !

لكن ايفان لم يكذب يذكر اسم الله حتى ابتلعت الأرض الشيطان مثل حصاة في قاع الماء ، غير تارك وراءه سوى ثقب .

- ٦ -

عندما انتهى الكوخ الخشبي الجديد ، انتقل إليه الأخوان للإقامة فيه .
أتم ايفان أعماله الزراعية ، صنع جعة ودعا سيميون وتاراس للاحتفال عنده .
لكنهما أجاباه بالرفض . قالاً :

- نحن نعلم حق العلم ما احتفال الفلاح .

اكتفى ايفان إذن بإيواء الفلاحين والنساء لبعض الوقت . إلى أن
ابتهجوا قليلاً . ثم خرج إلى الشارع لينظر إلى رقصات الفتيات .
وعندما اقترب من حلقاتهن طلب اليهن أن يغنين المدائح له ، قائلاً :
- سأعطيكن شيئاً لم ترينه قط .

قهقهت الفتيات وغنّين مدائح لايفان . فلما انتهى الغناء قلن له :
- أعطنا الآن ما وعدتنا به .

أجاب :

- سأعطيكن إياه في الحال .

أخذ منخلاً ومضى إلى الغابة .

قالت الفتيات وهن يضحكن :

- أوه ! ياله من غبي !

تركن التفكير فيه عندما رأيته يعود راكضاً ، وفي منخله شيء يلمع .

قال لهن :

- أتردن شيئاً من هذا ؟

- طبعاً، نريد .

تناول من المنخل قبضةً من القطع الذهبية وربماها للفتيات .
قالت الفتيات وهنّ يرمين على القطع التي تدرجت على الأرض :

- آه ! أبونا الصغير . . .

وهُرع الفلاحون وأخذوا يتخاطفون القطع . وكان الزحام شديداً جداً
حتى إن عجوزاً أوشكت أن تُدهس .

أخذ ايفان يضحك :

- لماذا تؤذون جدّة، يا أغبيائي الصغار؟ لا تنزاحموا هكذا . فما يزال
لدي شيء من هذه القطع وسأعطيكم إياه .

ورمى لهم قبضات أخرى من الذهب .

هُرع الجمهور الذي كان عدده يتزايد . فرغ المنخل وظلوا يطلبون
ذهباً . فقال لهم :

- لا ، كفى ذهباً هذه المرة . وستحصلون عليه في يوم آخر . لنُغنّ الآن

ونرقص .

استأنفت الفتيات أغنياتهم . قال لهن :

- ليست جميلةً هذه الأغنيات التي تغنيها .

- أتعرف أجمل منها؟

- سترين . اصغين .

ومضى إلى البيدر، وأخذ حزمةً، وضرب السنابل بالأرض، كما

رأى الشيطان يفعل، ولفظ الصيغة التالية :

- إن عبدني يأمر أن تنتهي من كونك حزمةً، وأن تتحوك كل سنبله من

سنابلك إلى جندي .

تناثرت الحزمة، وتحوكت سنابل الحزمة إلى جنود يتقدمهم الطبّالون

الذين يقرعون طبولهم والبواقون الذين ينفخون في أبواقهم . أمر ايفان

الجنود بأن يسيروا في رتلٍ معه، في الشارع وهم يغنون، مثيرين دهشة

الناس . وعندما انتهى الجنود من غنائهم ، عاد ايفان بهم إلى البيدر بعد أن
منعهم من اللحاق به ، وهناك حوّل الجنود إلى حزم ، ورجع إلى بيته ونام .

— ٧ —

في صباح اليوم التالي ، جاء سيميون المحارب ، الأخ الأكبر ، بعد أن
أُعلم بما جرى عشية أمس ، ليلقي ايفان ، وقال له :
- أرني من أين أتيت بجنودك وأين وضعتهم .
وماذا تريد أن تفعل بهم؟

- وكيف ، ما أريد أن أفعل بهم؟ لكننا نستطيع أن نفعل كل شيء
بالجنود ، نستطيع أن نحتل اميراطورية!
تعجب ايفان :

- لم كم تقل لي ذلك قبل الآن . سأصنع لك ماتشاء من الجند . فلقد
حصدنا ، الأخت وأنا كمية كبيرة .

وقاد سيميون إلى البيدر ، وقال له :

- سأصنع لك جنوداً ، لكن بشرط أن تعيدهم ، لأننا إذا كان علينا أن
نطعمهم أكلوا القرية كلها في يوم واحد .

تعهد سيميون أن يقتاد الجنود بعيداً . بدأ ايفان . هزّ حزمة فخرجت
منها سريةٌ . وهزّ حزمة ثانية فخرجت منها سريةٌ ثانية . واستمرّ في ذلك كما
يتفق له حتى امتلأ الحقل بالجنود .

- هل يكفي هذا؟ ماعليك إلا أن تتكلم .

- هذا يكفي . أشكرك ، ايفان .

قال ايفان :

- حسناً . إذا احتجت إلى غيرهم ، ماعليك إلا أن تعود ، وسأصنع
لك غيرهم . فليس ينقصنا القشُّ ، بالذات .

خطب سيميون المحارب في المحاربين ، ورتبهم بحسب جميع قواعد الفن العسكري ، ألقى أوامره ، وسار للحرب .

لم يكذب يتعد حتى أقبل تاراس البطين . فلقد سمع ، هو أيضاً ، عن أنباء حوادث البارحة . فسأل هو أيضاً ايفان :

- هلاً قلت لي أين تجد الذهب ؟ لو استطعت أن أحصل عليه بالسهولة التي تحصل عليه بها أنت لجمعت ، على الفور ، بهذا الذهب ذهب العالم بأسره .

هتف ايفان متعجباً :

- حقاً ؟ لم لم تقل لي ذلك قبل الآن . سأصنع لك ماتشاء من الذهب .

- يكفيني ثلاثة مناخل .

قال ايفان :

- ليكن ! اتبعني إلى الغابة ، واربط حصانك إلى عربته لكي تتمكن من حمل كل شيء .

ويمضي كلاهما إلى الغابة . ويفرك ايفان في يديه أوراق السنديان . فتتجمع كومة كبيرة من الذهب أمام تاراس .

- أتريد أيضاً ؟

قال تاراس وقد امتلأ فرحاً :

- يكفيني هذا هذه المرة . أشكرك ، ايفان .

- حسناً ، حسناً . إذا احتجت إلى شيء منه فما عليك إلا أن تأتي ، سأصنع لك غير هذا . فالأوراق موفورة .

حمل تاراس العربى إلى حافتها وذهب يتاجر : هاهما الأخوان مسافران ، أحدهما يحارب والآخر يتاجر . احتل سيميون المحارب مملكة لفرط محارب ، وأحرز تاراس البطين ثروة لفرط متاجر .

جاء يوم التقى فيه الأخوان ؛ قال كلٌ منهما للآخر ماجرى له : حكى
تاراس من أين جاء بماله ، وحكى سيميون من أين جاء بجنوده .
حيثُذ قال سيميون المحارب لأخيه :
- أنا احتللتُ مملكة وأعيش سعيداً . لكن المال هو الذي ينقصني .
فليس لديّ منه ما يكفي لإطعام جيشي .
فأجاب تاراس البطّين :
- وأنا كسبتُ الكثير من المال ؛ لكن ليس لديّ مَنْ يحرسه ، وهذا
يقلقني .

فكّر سيميون المحارب لحظةً ، وقال لأخيه :
- اتبعني إلى منزل ايفان . سأطلب منه جنوداً آخرين أعطيك إياهم
لتحرس مالك ؛ وأنت ستطلب منه مالاً غير مالك أستخدمه لإطعام
جنودي .

وهاهما يذهبان إلى منزل ايفان . قال له سيميون :
- أنا بحاجة إلى مزيد من الجنود . فاصنع لي جنوداً .
أو ما ايفان برأسه أن «لا» :
- لا أريد أن أصنع لك جنوداً آخرين دون أن أعرف الدافع إلى ذلك .
- لكنك وعدتني بذلك !
أجاب ايفان :

- نعم ، وعدتك بذلك ، لكنني لن أصنع لك بعد الآن جنوداً .
- ولم لا تريد أن تصنع لي ، أيها الغبي ؟
- لأن جنودك قتلوا رجلاً ، مؤخراً . كنتُ أدفع محراثي بحذاء
الطريق ، عندما مرّت امرأةٌ مسكينة تبكي خلف نعشٍ ، فسألتها : « ومن
فقدت » ، أجابت : « زوجي » ، قتله جنودُ سيميون في الحرب . وكنتُ أعتقدُ
أنا أن الجنود لا عمل لهم سوى الغناء ! فبما أنهم قتلوا رجلاً ، لن أعطيك

جنداً بعد الآن وأبى أن يتراجع عن كلامه . ورفض أن يصنع جنوداً آخرين .

طلب تاراس بدوره من الغبي أن يصنع له ذهباً غير ذاك . أوماً ايفان برأسه أن «لا» .

- لا أريد بعد الآن أن أصنع لك ذهباً بغير داع .

- لكنك وعدتني بذلك .

قال ايفان :

- وعدتك بذلك ، لكنني لن أصنع لك ذهباً بعد الآن .

- ولم لا تريد أن تصنع لي ، أيها الغبي ؟

- لأن ذهبك سرق بقرة ميخيلوفنا .

- كيف ، سرق ؟

- نعم ، سرق ! كان لميخيلوفنا بقرة تُطعم بحليبها أولادها . وذات يوم

جاءني أولادها يطلبون حليباً . فقلت لهم : لكن أين البقرة ، يا ترى ؟

فأجابوني : إن وكيل تاراس البطين جاء يبحث عن أمي ، ووضع في يدها

ثلاث قطع ذهبية وقاد البقرة ، ومنذئذ لم يبق لدينا حليب » . وأنا إنما أعطيتك

تلك القطع الذهبية لتسري عن نفسك ، فسرقت بقرة هؤلاء الأطفال ! لن

أصنع لك بعد الآن قطعاً أخرى .

أبى «الغبي» أن يتراجع عن كلامه . رفض أن يصنع قطعاً أخرى .

واضطر الأخوان أن يعودوا صفر الأيدي .

وفي الطريق أخذوا يتحدثان ويبحثان عن الوسيلة التي تخلصهما من

مأزقهما .

قال سيميون لتاراس :

- اصغ إلى ما يمكننا أن نفعله . أعطني مالاً للإنفاق على جنودي

وسوف أعطيك أنا نصف مملكتي وجنودي لحراسة كنوزك .

قبل تاراس الصفقة . وجرت القسمة ، وغدا الأخوان قيصرين كليهما

وغنيين كليهما .

كان ايفان يُعيل ذويه ، بعد أن أصبح وحده في المنزل ، فالحأ حقوله ،
مشتغلاً فيها مع أخته .

ذات يوم ، مرض كلبُ الحراسة مرضاً أشرف معه على الموت .
حرّكت ايفان الشفقةُ فحملَ الخرساءَ خبزاً وضعه في قبعته وخرج ليعطيه
الحيوان المسكين . تمزّقت القبعةُ فسقط الخبزُ ومعه جذرٌ صغير . أكل الكلب
الخبزَ والجذر ، وما إن ابتلع الجذر حتى وقف على قائمته خفيفاً نشيطاً ،
يلعب ويركض وينبح ويحرك ذيله . شفي شفاءً تاماً مما أدهش والدي ايفان
اللذين كانا يتبعان لعبه بعيونهما .

فسألا ايفان :

- كيف شفّيته ؟

- هكذا : كان عندي رأسا جذر شافٍ لجميع الأمراض فأكل الكلب
أحدهما .

في هذا الزمن مرضت ابنةُ القيصر ؛ وأعلن القيصر في جميع المدن
والقرى أن من شفاها نال جائزة رائعة ، وإذا لم يكن متزوجاً حظي بيد ابنته .
أذيع هذا الخبرُ أيضاً في قرية ايفان .
قال له أبوه وأمه :

- أتعلم ما أعلنه القيصر في مملكته كلها؟ وما دام عندك جذرٌ أذهبْ
واشف ابنة القيصر . وستعيش منذئذ في سعادة حتى آخر أيامك .
قال ايفان :

- فليكن !

تهيأ للسفر . وُضعتْ له ملابسٌ لائقة ، وخرج إلى درج المدخل وإذا به
يرى فقيرة مشلولة الذراع .

- قيل لي إنك تشفي ؛ اشف لي ذراعي ، لأن من المستحيل أن ارتدي ثيابي دون مساعدة .

قال ايفان :

- فليكن !

أخرج ما بقي من الجذر ومدّه إلى الفقيرة قائلاً لها أن تبلعه . بلعته الفقيرة فإذا بها تشفى بحيث حرّكت يدها في جميع الاتجاهات .

وصل والدا ايفان في هذه اللحظة ليودّعا . وعندما علما بنبا أعطائه الباقي من الجذر ، وأنه لم يبق لديه ما يشفي به ابنة القيصر ، أنحيا عليه باللوم . قالوا :

- أعطاه فقيرةً ، أخذته الشفقةُ عليها ، أما ابنة القيصر فلم يشفق عليها .

وأخذت الشفقة ايفان على ابنة القيصر . ربط حصانه بالعربة وملأ قاع العربة بالقش ، وتسلىّ المقعد .

- أين تذهب ، يا «غبي» ؟

- اشفني ابنة القيصر .

- لكن لم يبق معك ما تشفيها به !

قال وهو يسوط حصانه :

- وما أهمية ذلك ؟

ويعضي ، ويصل القصر ؛ ولم يكديضع قدمه على آخر درجة من درج المدخل حتى شفيت ابنة القيصر .

استخفّ الفرّحُ القيصر . فاستدعى ايفان ، وأمر له بلباس بديعة ، وقال له :

- ستصبح صهري .

قال ايفان :

- فليكن !

وتزوج ابنة القيصر .
مات القيصر بعد زمنٍ قصيرٍ ؛ وخلفه إيفان . وهكذا غدا الأخوةُ
الثلاثةُ قياصرةً .

— ٩ —

عاش الإخوةُ الثلاثةُ وملكوا .

لم يبقَ لسيميون المحارب من رغبةٍ يرغب فيها . فقد أضاف إلى الجنود
الذين صنعهم إيفان من حزم الشيلم ، جنوداً آخرين كثيراً ، إذ أمر ، في
مملكته ، أن تُقدّم له الأسرُ جنوداً ، بنسبة جندي واحد لكل عشر أسر ، جنوداً
طوال القامة ، أصحاب الجسم ، أشداء ، فجند ، بهذه الطريقة جيشاً كثير العدد
مدرباً . وإذا مارفض أحدُ الطاعة بعث جنده وفرض مشيخته في كل مكان .
فخافه كلُّ واحد .

عاش عيشةً هائلةً . فكل ماتخيله دماغه ، وكل مارأته عيناه ، حصل
عليه . كان جنوده يجوبون البلاد ويأخذون له كل مايشتهيه .

لم تكن حياة تاراس البطين أقلّ رغداً . إذ لم ينفق المال الذي جاءه من
«الغبي» ، بل زاده زيادة عظيمة . وأدخل النظام إلى مالية مملكته . كان يخبئ
الذهب في خزائنه ، وينتزع الذهب من رعاياه ، فارضاً الضرائب بصدد كل
شيء ، طالباً كذا على القرية والنفس والنقل والأحذية وماسوى ذلك . كان
يملك كل مايشتهيه ، وكانت تُحمل إليه الأشياءُ جميعاً ، وكان كلُّ واحد
يعطيه عمله في مقابل المال الذي يوزعه : لأن الجميع كانوا محتاجين إلى
المال .

ولم يكن إيفان «الغبي» بائساً أيضاً ، فلم يكد حموه يُدفن حتى خلع
بزة القيصر وأعطاه امرأته طالباً إليها أن تعبثها في صندوق . ثم عاد إلى
ارتداء قميص القنب ، وسراويله ، وحذاء الفلاح ، واستأنف العمل . قال :

- لقد ضجرتُ. وبدأتُ أَسْمَنُ، وذهبتُ شهيتي إلى الطعام، وصرتُ لَأَنَامَ.

فدعا إلى جواره أباه وأمه وأخته الخرساء وعاد إلى عمله . قيل له :

- لكنك أنت القيصر .

أجاب :

- وماذا يضيرني من ذلك ؟ ألا يحتاج القيصر إلى العمل كي يكسب

قوته . جاءه وزيره وقال :

- لم يبق لدينا مال لندفع المرتبات .

قال ايفان :

- إذا لم يبق لدينا فلا تدفع .

- لكنهم سينصرفون جميعاً .

- فليكنْ، لينصرفوا . سيكون لديهم وقتٌ أوسع ليعملوا . ها إن

الزبل يتكدّس من غير فائدة، فلينقلوه .

جاء إليه رعاياه يطلبون أن يقضي بينهم بالعدل .

قال أحدُ المشتكين :

- سرق جاري مالي .

قال ايفان :

- لاشك أنه فعل ذلك لأنه محتاجٌ إليه .

وعلم الجمهور حينئذ أن ايفان غبيّ .

قالت له امرأته :

- أتعلم ما يقولون ؟ يقولون إنك غبي .

قال ايفان :

- فليكنْ !

أخذت امرأة ايفان تفكّر ؛ كانت هي أيضاً غبيّة . قالت :

- حسناً ! ليس لي الحق في معاكسة زوجي . المرأة على دين زوجها .

وإذ خلعت لباس القيصرة الذي وضعته في صندوق، ذهبت إلى
الخرساء ورجتها أن تعلمها العمل . وعندما أحسنت العمل ساعدت زوجها .
هجر البلاد جميع العقلاء ولم يبق في المملكة سوى الأغبياء . لم يكن
لدى أحد مالٌ ، وكانوا يعيشون جميعاً من عملهم ، يأكلون ويُطعمون
الآخرين .

- ١٠ -

بيد أن الشيطان العجوز انتظر طويلاً شياطينه الصغار ؛ كان حريصاً أن
يعلم كيف تصرفوا ليهلكوا الإخوة الثلاثة لكنه تعب أخيراً من عدم تلقي
أخبارهم فأزمع على السفر ليستعلم بشخصه عما جرى .
ويصل ، ويبحث في كل مكان ، فلا يجد سوى ثلاثة ثقوب ، ويفكر :
« ذلك لأنهم ربما هُزموا . سأعمل أنا بنفسى » .
مضى يبحث عن الإخوة الثلاثة ، ومرّ بمنزلهم القديمة التي سافروا
منها وانتهى بأن عثر عليهم قياصرةً لثلاث ممالك .
أحسّ الشيطان العجوز بالذلّ من جراء ذلك . وقال في نفسه مرةً
أخرى :

- سأعمل أنا بنفسى .

قرر أن يقصد القيصر سيميون أولاً . تحوّل إلى جنرال ومضى إلى
لقائه . قال له :

- علمت أنك قائدٌ عظيم . أنا نفسي خبيرٌ بشؤون الحرب . سأخدمك
إن شئت .

أخضعه القيصر سيميون للاستجواب ؛ ولما اكتشف قدراته ، قبل
عرضه الخدمة لديه .

أخذ الجنرال الجديد بعلمه القبصر كيف يُنظّم الجيش . قال :

- الجوهرى أن يكون لديك أكبر قدر ممكن من الجنود؛ وبغير ذلك سيكون في مملكتك فضلة من الناس الذين لا فائدة منهم. جند جميع الشباب بالجملة، وسيكون لك جيش أكبر بخمس مرات. وبعد ذلك ستكون بحاجة إلى البنادق والمدافع من النوع الجديد. وسأصنع لك منها ما تشاء: بنادق ترمي مئة طلقة دفعة واحدة، مثل مطر من الحمص، ومدافع قادرة على أن تحرق، من بعيد، الرجال والخيل والأسوار.

امتلأ القيصر سيميون لنصائح الجنرال الجديد وجند جميع الشباب وبنى مصانع السلاح لتصنع البنادق والمدافع من النمط الجديد. ثم ذهب يحارب القيصر المجاور. وعندما التقى الجيشان أمر سيميون بإطلاق رصاص بنادقه وحرائق مدافعه وكفاه تفريغ واحد لشل نصف خصومه وإحراقهم. ارتعب القيصر المجاور وخضع وتنازل عن مملكته لسيميون الذي استخقه الفرع. قال:

- سأشن الآن حرباً على القيصر الهندي.

لكن القيصر الهندي سمع عن سيميون؛ وتبنى اختراعاته وعثر على خير منها. فلم يعجد الشباب وحدهم بل جند فتيات مملكته أيضاً، وجمع بهذه الطريقة جنداً أكثر عدداً من جند سيميون. لقد تزود بالبنادق نفسها والمدافع نفسها، وتخيل فضلاً عن ذلك، وسيلة يطير بها في الهواء ويرمي من الأعلى قذائفه المتفجرة.

هذا العدو هو الذي كان القيصر سيميون سيحاربه، واثقاً من أنه سيتنصر عليه بالسهولة نفسها التي انتصر بها على الآخر.

لكن المنجل يتثلّم لفرط الاستعمال. فلم يترك القيصر الهندي لسيميون وقتاً يقترب فيه ويصبح على المدى المناسب، بل إنه أمر فتياته أن يطرن فوق الجيش العدو وأن يُمطرنه بالقذائف المتفجرة. أطاعت الفتيات الأمر، وأبادت أكثرهم القنابل المتفجرة التي رمتها الفتيات من أعالي الجو، فهرب جنود سيميون وتركوه وحده في ساحة القتال. ووضع القيصر الهندي يده على مملكة سيميون الذي تاه على وجهه.

وبعد أن تخلص رئيس الشياطين، على هذا النحو، من سيميون، مضى ليلقى أخاه تاراس. تحوّل إلى تاجر، وأقام في مملكته، وتعاطى التجارة. وأخذ يدفع سعر وافرأ بكل شيء، حتى اكتسح جمهور الناس منزله ليكسبوا مالاً، وكسبوا الكثير، حتى إن جميع الضرائب المتأخرة سُدّت، وأن جباية الضرائب منذئذ صارت منتظمة.

سرّ القيصر تاراس بذلك. وفكّر:

- ينبغي أن أحمّد لهذا التاجر عمله. فبفضله تزايدت خزيتي، سأعيش برفاهية أكبر.

وها هو ذا يُسلم نفسه لمشاريع جديدة. صمّم أن يبني قصرأ أجمل من قصره الأول، وأذاع أن الناس يمكن أن يأتوه بالخشب والحجارة، وأنه سيوفّر عملاً للجميع، معطياً كل شيء سعراً مجزياً. حسب أن ماله سيجذب الناس، وأن الناس سيهرعون إليه جماعات ليحملوا إليه عملهم كالسابق. لكن الناس حملوا خشبهم وجميع أحجارهم إلى التاجر وحده، وإلى التاجر إنما توافد الناس.

ضاعف القيصر أسعاره، فجعلها التاجر ثلاثة أضعاف. ذلك أن تاراس مهما يكن غناه فقد كان التاجر أغنى، وكانت الغلبة له. وتعدّر على تاراس بناء القصر.

أراد «تاراس» أيضاً أن ينشئ حديقة. وعندما جاء الخريف أعلن على الملأ أن الناس يستطيعون أن يأتوا ويطلبوا عملاً: فلم يأت أحد. لقد احتكر التاجر جميع العمال لحفر بركة. وعندما جاء الشتاء، انتهى القيصر فروة سمور سيبيريا. كلّف أحد خدمه أن يذهب ليشتري فروة. لكن الخادم رجع صفر اليدين. وقال القيصر:

لم يبق من فرو في أي مكان. فجميع جلود السمور أرسلت إلى التاجر الذي دفع أسعاراً أعظم؛ وعمل منها بساطاً.

احتاج تاراس إلى الجياد، فأرسل من يشتريها. لكن الذين أرسلوا عادوا كما ذهبوا.

- جميع الخيول الجيدة يشغلها التاجر لنقل المياه كي يملأ مستنقعه .
وهكذا تعطلت جميع مشاريع القيصر . كان الناس يفعلون كل شيء
للتاجر ولا شيء للقيصر . واكتفوا بأن جاؤوه بالمال من التاجر لتسديد
الضرائب .

وكان القيصر غنياً بحيث ارتبك بماله ؛ لكن الحياة أصبحت صعبة ،
فعلّق جميع مشاريعه ، واقتصر على أن يجد ما يعيش به ، بيد أن ذلك لم يكن
ميسراً أيضاً . لقد ارتبك بكل شيء : بخدمه وطهاته وحوذيّه ، إذ تركوا
خدمته إلى خدمة التاجر ؛ حتى إنه كان يشقّ عليه أن يحصل على ما يفتن
به . كان يرسل من يأتيه بالمؤن من السوق فلا يجد شيئاً ؛ لأن التاجر رفع من
السوق كل شيء . ولم يكن يُحمّل إلى القيصر سوى مال الضرائب .

استولى عليه الغضب في نهاية الأمر ، وطرده التاجر من مملكته . لكن
التاجر الذي استقر قرب الحدود استمر في تجارته . وبفضل ماله ، استخلص
كل شيء ولم يبق شيء للقيصر .

أخذت أموره تزداد سوءاً وكانت تمر أيام كاملة دون أن يضع شيئاً في
فمه . وذات يوم ، شاع نبأ مفاده أن التاجر يتججج بأنه سيشتري القيصر بذاته .
خاف تاراس ، ولم يكن يعلم ماذا سيحل به .

حينئذ جاء سيميون المحارب ليلقى أخاه تاراس . قال له :

- أعني . لقد خلعني عن عرشي القيصر الهندي .

فأجاب تاراس :

- وأنا نفسي لأجد ما أكله في كل يوم .

- ١١ -

وإذ تخلص رئيس الشياطين من الأخوين ، يَمّ شطر إيفان . تحوّل إلى
جنرال ، ومثّل أمام «الغبي» ، ودعاه إلى تكوين جيش ، قائلاً له :

- لا يلبق بقيصر أن يستغني عن الجيش . واسترح من عناء تنظيم جيش لك من رعاياك .

وافق ايفان . وقال :

- فليكن! بأشر عملك . علمهم كيف يغنون أغاني جميلة . فأنا أحب ذلك .

حيثُذ طاف رئيس الشياطين بجميع مقاطعات المملكة ، داعياً فيها المتطوعين إليه ، معلناً أنه يقبل الجميع ، وأنه سيوزع على الجميع كيلة ماء الحياة وقبعة حمراء .

أضحك ذلك الأغبياء . فقالوا :

- ماء الحياة موفورٌ ولدينا منه مانشاء . ونحن نصنعه بأنفسنا . أما القبعات فإن نساءنا يصنعن لنا قبعات من جميع الألوان وحتى المبرقشة . ولم يتطوع أحدٌ منهم .

عاد رئيس الشياطين إلى ايفان :

- إن أغبياءك يرفضون التطوع . وينبغي تجنيدهم بالقوة . قال ايفان :

- فليكن! جندهم بالقوة .

حيثُذ أعلن رئيس الشياطين أن على جميع الأغبياء أن يتطوعوا كجنود وأن كل رفض سيُعاقبُ بالموت . ذهب الأغبياء للقاء الجنرال .

- أنت تقول أن جميع الذين سيرفضون منا التطوع سيُعاقبون بالموت . لكنك لم تقل لنا ماذا سيحلُّ بنا إذا صرنا جنوداً . يُقال أن الجنود يُقتلون . هل هذا صحيح ؟

أجاب :

- نعم ، هذا واضح .

ثبَّتَهم هذا الجوابُ في رفضهم . قالوا :

- لا نريد أن نتطوَّع . وإذا كنا سنُقتلُ فلنُقتلُ في بيوتنا .
صاح رئيسُ الشياطين :

- أغبياء ، طائفة من الأغبياء ! صحيح أن الجنود يتعرضون للهلاك .
لكنهم يستطيعون أيضاً أن يتفادوا الموت ؛ وإذا ما عصيتم الأمر فسوف
تُعدمون على يدي إيفان .

حملهم ذلك على التفكير . وذهبوا إلى إيفان يشكون له . قالوا له :

- لديك جنرال يحتم أن يجندنا جميعاً . ويقول «إن تطوَّعتم فقد
تنجون من الموت ، أما إن رفضتم فما من شك أن القيصر سيُعدمكم جميعاً .
سأل إيفان وهو ينفجر ضاحكاً :

- حقاً ؟ لكن كيف أفعل أنا وحدي لأقتلكم جميعاً ؟ كنتُ سأخبركم
كيف لو لم أكن غيباً ؛ لكنني عاجزٌ عن أن أفهم شيئاً من ذلك ، أنا .
قالوا :

- إذن لن نذهب .

أجاب :

- فليكن ! لا تذهبوا .

عاد الأغبياء ليقابلوا الجنرال وليُطلعوه على رفضهم .

يئس رئيس الشياطين من النجاح ، فغادر مملكة إيفان واتجه إلى قيصر
«تاراخان»^(١) ، فنال حظوته ، وقال له :

- هيا نحارب القيصر إيفان . إنه فقير بالمال ، لكنه غني بالحنطة
والماشية ، والخيرات الأخرى .

استمع إليه قيصر «تاراخان» . جمع جيشاً كبيراً مع البنادق والمدافع
وسار إلى الحدود لاجتياح بلاد إيفان .

أعلم إيفان بذلك :

(١) قيصر تاراخان : ملك مقاطعة خرافية ولعلها تذكر بولاية روسية على البحر الأسود في القرن
الحادي عشر .

- إن قيصر تاراخان يشن الحرب عليك .

قال ايفان :

- فليكن! وليسر إلى الحرب .

اجتاز قيصر تاراخان الحدود بكامل جنده، وقذف بطلائعه بحثاً عن جيش ايفان، ففتشت ونقبت في كل مكان، لكنها لم تعثر على جيش . لعل جيش ايفان سينبعث من الأفق؟ لم يقعوا على أي نبال . يستحيل أن يقاتلوا . حينئذ أمر قيصر تاراخان باحتلال القرى . خرج الأغبياء رجالاً ونساءً، إلى الشارع، فدهشوا لدى مرأى الجنود . نهب الجنود حنطة الأغبياء وماشيتهم؛ وترك الأغبياء لهم كل شيء دون أن يفكروا في أدنى مقاومة . اجتاح الجنود قرية ثانية وثالثة . وحدثت الحوادث نفسها . ساروا يوماً ويومين، فحدث الشيء نفسه في كل مكان . لامقاومة بتاتاً من جانب السكان الذين كانوا يعطونهم كل شيء بل ويقاسمونهم معاشهم، قائلين لهم :

- إذا لم تكونوا سعداء في بلادكم، أيها الأصدقاء، فعيشوا عندنا إلى

الأبد .

سار الجنود ماوسعهم السير فلم يصادفوا جيشاً، ولم يعثروا على شيء سوى الناس الذين يعيشون من عملهم، ويأبون أن يدافعوا عن أنفسهم، ويريدون أن يستبقوا الجنود .

تعب الجنود في النهاية وذهبوا إلى قيصر تاراخان ليقولوا له :

- يستحيل علينا أن نقاتل . خذنا إلى مكان آخر . ما كنا لنشكو لو كنا نحارب حقاً . لكننا هنا كمن يقطع عصيدة . يستحيل علينا أن نحارب في هذه البلاد .

غضب قيصر تاراخان . أمر جنوده بعبور البلاد في جميع الاتجاهات .

- خربوا القرى، دمروا المنازل، أحرقوا القمح، اقتلوا الماشية . . .

وإذا لم تفعلوا ما أقوله لكم فسوف أعدمكم جميعاً

خاف الجنودُ، فأطاعوا وجابوا أرجاءَ المملكة، مهدّمين المنازل،
محرقين الزرع، قاتلين الماشية.

لكن الأغبياء لم يزد هم ذلك ميلاً إلى الدفاع عن أنفسهم. اكتفوا
بالبكاء، بكى الجميعُ، شيوخاً ونساءً وأطفالاً. كانوا يقولون:

- لماذا تعاملوننا هكذا؟ لماذا تضيّعون كل هذه الخيرات؟ إذا كنتم
تحتاجون إليها فلماذا لا تأخذونها وتستعملونها.

هذا النمط من الحرب لم يرق للجنود. فلم يعد يحدوهم شيء إلى
الذهاب أبعد مما وصلوا إليه. فرموا سلاحهم، ولم يبق من جيش تاراخان
أحد.

- ١٢ -

عندما رأى رئيسُ الشياطين أن الجنود لم يفيدوه شيئاً توأى عن
الأنظار.

مالبث أن عاد إلى الظهور، متحوّلاً إلى سيّد، وجاء إلى مملكة ايفان
كي يقيم فيها، وليتغلب عليه بواسطة المال، كما تغلب على «تاراس»
البطين. قال للناس:

- جئتُ لأغدق عليكم الهبات ولأعلمكم أجمل الأشياء في هذا
العالم سأبني بيتاً عندكم.

أجابوه:

- فليكن! ابق معنا.

في صباح اليوم التالي، قصد الساحة العامة السيد الحسن الهندام،
وقد تزوّد بكيس كبير من الذهب وبورقة. قال:

- أنتم تعيشون كما تعيش الحيوانات. سأعلمكم كيف تعيشون. ابنوا
لي بيتاً حسب هذا المخطط. اشتغلوا بإدارتي، وسأعطيكم المال ذهباً. وبسط
ذهبه أمامهم.

دُهِشَ الأغبياءُ. هذه أول مرة يرون فيها الذهب ؛ وكانت منتوجات عملهم تصلح لمبادلاتهم فقط . تعجبوا وقالوا :
- جميلةٌ هذه الأشياء !

ووافقوا على أن يحملوا للسيد الحسن الهندام عملهم مقابل هذه الأشياء الذهبية . وأخذ رئيس الشياطين يذل الذهب بملء يديه كما فعل عند تاراس ، وحصل بالمقابل على جميع المنتوجات والأعمال . وكان سعيداً بذلك وفكر :

« إن مشروعى يسير في الطريق الصحيحة . وماعليّ إلا أن أفقر الغبيّ كما أفقرتُ تاراس ، وأن أشتريه هو ذاته » .

لكن المالبث الأغبياء أن كثرت بين أيديهم القطعُ الذهبية كثرةً لم يعرفوا ماذا يصنعون بها : كانوا يعطونها نساءهم ليصنعن منها عقوداً ، والفتيات ليزينَ بها جدائلهن ، والأطفال ليلعبوا بها في الشارع . ورأوا أن ما حصلوا عليه منها كاف ، ورفضوا أن يقبلوا قطعاً أخرى .

بيد أن السيد الحسن الهندام لم يبن غير نصف بيته ، ولم تكمل مؤونته من القمح والماشية . فأعلن أن من أراد عملاً وجد عملاً عنده ، وأنه سيشتري القمح كله ، والماشية التي يجلبونها كلها ، واعدأ بكومة من القطع الذهبية في مقابل كل عمل ، وكل شيء .

لكن لم يأت أحدٌ للعمل ، ولم يحمل إليه أحدٌ شيئاً ، أيّاً كان الشيء . لم يكد يأتيه ، من وقت إلى آخر سوى صبيٍّ صغير أو طفلة جاءا يبادلان ببيضة قطعة ذهبية . ولم يبق لدى السيد الحسن الهندام ما يضعه في فمه . فتملكه الجوعُ وخرج إلى القرية ليشتري ما يأكله .

دخل فناءً وعرضَ قطعةً ذهبيةً مقابل دجاجة ؛ لكن المرأة رفضت القطعة قائلة :

- ما يزال عندي بقيةٌ من هذه الأشياء .

وقرع باباً آخر ، واقترح على صاحبة المنزل أن يشتري منها سمكة مقابل قطعة ذهبية . أجابته :

- لست بحاجة إلى ذهبك، يا صاحبي ليس لديّ أولاد، ولا أحد يلعب بهذه الأشياء الذهبية. ولديّ منها ثلاثة قبلتها بسبب الفضول الخالص.

قصد بعد ذلك فلاحاً وأراد أن يشتري منه رغيفاً. لكن الفلاح رفض أيضاً ذهبه، قائلاً له:

- لا حاجة بي إلى الذهب. لكنك إن كنتَ تطلب رغيفاً لوجه الله، فانتظر لحظة، وستقطع لك امرأتِي قطعة منه. . .

بصق الشيطان وفرّ ركضاً. كان يحب لو تلقى طعنة سكين على أن يسمعه وهو يعرض أي شيء لوجه الله، على أن يسمع مجرد اسم الله. وهكذا طاف القرية ولم يجد رغيفاً. رفض الجميع أن يبادلوه شيئاً بذهبه.

- إن لم يكن معك شيء آخر تعرضه، فاعمل، أو خذ شيئاً لوجه الله.

بيد أنه لم يكن يملك شيئاً يعرضه غير الذهب؛ أما العمل فلم يكن يريده؛ وأما أن يأخذ لوجه الله فذلك مالم يكن يستطيعه.

استبد الغضبُ برئيس الشياطين، وقال لهم:

- ماذا تريدون أكثر من ذلك، إذ أني أعرضُ عليكم الذهب؟ وإذا امتلكتم الذهب أمكنكم أن تحصلوا على كل ما تحتاجون إليه، وتشغلون من تشاؤون.

لكن الأغبياء رفضوا الاستماع إليه. وقالوا:

- ما نفعُ الذهب؟ لسنا مديونين لأحد، ونحن لا ندفع ضرائب. احتفظ بمالك؛ فلسنا بحاجة إليه.

اضطّر رئيسُ الشياطين أن ينام خالي البطن.

سمع ايفان «الغبيُّ» الناسَ يتحدثون عن هذه القضية. فقد جاؤوا يسألونه:

- سَأَ الْعَمَلُ؟ جَاءَنَا سَيِّدُ حَسَنِ الْهِنْدَامِ، وَهُوَ يَبْغِي أَنْ يَأْكُلَ جَيِّدًا. وَيَشْرَبُ جَيِّدًا، وَيَلْبَسُ جَيِّدًا؛ لَكِنَّهُ يَرْفُضُ أَنْ يَعْمَلَ وَأَنْ يَأْخُذَ شَيْئًا لَوَجْهِ اللَّهِ. وَهُوَ لَا يَحْسِنُ شَيْئًا سِوَى أَنْ يَعْرِضَ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ قِطْعًا ذَهَبِيَّةً. وَطَوَالَ الْوَقْتِ الَّذِي كَانَتْ فِيهِ قِطْعَةُ الذَّهَبِيَّةِ تَسْلِينًا كَانَ يَحْصُلُ فِي مَقَابِلِهَا عَلَى كُلِّ مَا يَرِيدُ. أَمَّا الْآنَ فَلَمْ يَعِدْ يَعْطِيهِ أَحَدٌ شَيْئًا. فَكَيْفَ نَمْنَعُهُ مِنَ الْمَوْتِ جَوْعًا. أَنْتَرَكْهُ يَمُوتُ جَوْعًا.

قَالَ لَهُمْ إِيْفَانُ بَعْدَ أَنْ اسْتَمَعَ إِلَيْهِمْ بِانْتِبَاهٍ:

- حَسَنًا! فَلْيُعْطَ مَا يَأْكُلُهُ. لِيَطْلُبَ خَبْزَهُ مِنْ بَيْتٍ إِلَى بَيْتٍ، كَالرَّاعِي. اضْطَرَّ الشَّيْطَانُ أَنْ يَذْهَبَ مِنْ فَنَاءٍ إِلَى فَنَاءٍ. وَعِنْدَمَا بَلَغَ مَنْزِلَ إِيْفَانِ، رَجَا الْخُرْسَاءَ الَّتِي كَانَتْ مَشْغُولَةً بِطَبْخِ غَدَاءِ أُخِيهَا، أَنْ تُطْعِمَهُ. وَطَالَمَا خَدَعَهَا الْكَسَالَى الَّذِينَ يَأْتُونَهَا مَبْكَرِينَ يَطْلُبُونَ الطَّعَامَ، دُونَ أَنْ يَكُونُوا قَدْ عَمَلُوا، فَيُلْتَهَمُونَ بِرُغْلِهَا كُلِّهَا؛ وَكَانَتْ تَعْرِفُهُمْ مِنْ أَيْدِيهِمْ، فَتَجْلِسُ إِلَى الْمَائِدَةِ مَنْ كَانَ مَقَرَّحَ الْأَصَابِعِ، وَلَا تَعْطِي الْآخَرِينَ سِوَى فَضَلَاتِ الطَّعَامِ. وَبِمَا أَنَّ الشَّيْطَانَ الْعَجُوزَ سَلَكَ بِمَكْرِ الطَّرِيقَةِ إِلَى الْمَائِدَةِ، أَمْسَكَتِ الْخُرْسَاءُ بِيَدِهِ لَتَفْحَصَهُ: كَانَتْ هَذِهِ الْيَدُ بَيَضَاءَ، لَيْسَ فِيهَا أَثَرٌ لِلْقُرُوحِ، وَكَانَتْ تَنْتَهِي بِمُخَالَفِ طَوِيلَةٍ. أَطْلَقَتْ خَوَارًا وَأَلْقَتْ بِالشَّيْطَانِ بَعِيدًا عَنِ الْمَائِدَةِ.

قَالَتْ لَهُ امْرَأَةُ إِيْفَانِ:

- لَا تَغْضَبْ، أَيُّهَا السَّيِّدُ الْحَسَنُ الْهِنْدَامِ. فَكُلْ مَنْ لَيْسَ فِي أَيْدِيهِمْ قُرُوحٌ تَبْعُدُهُمْ عَنِ الْمَائِدَةِ أُخْتُ زَوْجِي. فَاصْبِرْ؛ وَعِنْدَمَا يَنْتَهِي النَّاسُ مِنْ غَدَائِهِمْ سَتُعْطَى الْفَضَلَاتُ.

احْمَرَّ الشَّيْطَانُ خَجَلًا: أَيُّشَارَكَ الْخَنَازِيرُ طَعَامَهَا، هُوَ، فِي مَنْزِلِ الْقَيْصَرِ!

- إِنْ مِنَ الْغِبَاءِ أَنْ يُؤَمَّرَ جَمِيعُ النَّاسِ، فِي مَمْلَكَتِكَ، أَنْ يَعْمَلُوا بِأَيْدِيهِمْ. حَمَاقَتُكَ وَحَدَّهَا أَمَكْنَهَا أَنْ تُوْحِيَ إِلَيْكَ بِهَذَا الْقَانُونِ. أَلَا يَعْمَلُ النَّاسُ إِلَّا بِأَيْدِيهِمْ؟ وَبِأَيِّ شَيْءٍ يَشْتَغَلُ، بِرَأْيِكَ، الْأَذْكَاءُ.

أجاب ايفان :

- وهل في وسعنا أن نعلم ، نحن الأغبياء . نحن نشتغل بأيدينا وصلبنا .

- ذلك أنكم أغبياء . . . لكنني سأعلمكم أنا ، أن تعملوا برؤوسكم ، وستعرفون أنتم أنفسكم إلى أي حدّ ذلك العمل أجدر بالترفضيل .
دهش ايفان ؛ وقال :

- حقاً؟ الحقّ مع الذين ينعنوننا بأننا أغبياء !
أضاف رئيس الشياطين :

- لكن العمل بالرأس أشدّ عسراً . أنتم ترفضون أن تعطوني ما أكله وحجّتكم أن ليس في يدي خشونة ، وتجهلون أن العمل بالرأس أصعب بمئة مرة . إلى الحد الذي قد ينفجر فيه الرأس أحياناً .
تضاعفت دهشة ايفان . وقال :

- ولم تكذبون أنفسكم إلى هذا الحدّ ، يا صاحبي ؟ ليس شيئاً حسناً أن ينفجر الرأس . أليس من الأفضل أن يشتغل المرء دون مشقة بيديه وصلبه مثلنا .

أجابه الشيطان :

- إنما أكذب نفسي بسبب إشفاعي بالذات عليكم ، أيها الأغبياء .
ولولا لي لظلمتم أغبياء . لكنني سأعلمكم كيف تعملون برؤوسكم ، مثلي .
قال ايفان وهو مدهوش :

- علمنا ذلك . فإننا سنشعب أيدينا أيضاً مع الزمن . وسيريحنا أن
نعمل برؤوسنا من وقت إلى آخر .

وعد الشيطان بتعليم الأغبياء ، وأذاع ايفان في مملكته كلها أنه قد قدم سيّد حسن الهندام سيعلم كل واحد طريقة العمل بالرأس ؛ وأن الرأس يقوم بعمل أكثر من اليدين ، وأن على الجميع أن يأتوا ليتعلموا .
كان في مملكة ايفان برج عظيم الارتفاع ينتهي بمصطبة يوصل إليها

يسلم مسند إلي الجدار . وإلى هذا الموضع اقتاد ايفان السيد لحسن الهندام :
فبهذه الطريقة يستطيع الجميع أن يروا .

استقر السيد الحسن الهندام ، وأخذ يخطب في الناس . كان الأغبياء
ينظرون إليه معتقدين أنه سيربهم بالفعل كيف يعملون بالرأس ، دون
مساعدة اليدين ؛ لكن رئيس الشياطين اقتصر على تعليمهم بالكلام السبيل
إلى العيش دون عمل .

فلم يفهم الأغبياء شيئاً مما قاله . تعبوا من النظر وعادوا إلى أشغالهم .
قضى رئيس الشياطين نهاره كله على البرج ، ثم نهار اليوم التالي ،
دون أن يكف عن الكلام . فتملكه الجوع ، لأن الأغبياء نسوا أن يُصعدوا إليه
ما يأكله . وفكروا : « إن سيّداً يُحسن العمل برأسه أكثر من يديه لن يُربكه أن
يصنع لنفسه خبزاً » .

جاء اليوم الثالث ، والشيطان العجوز ما يزال هنا ، يخطب أبداً من
أعلى برجه . ويقترب الأغبياء واحداً بعد واحد ، يرفعون أبصارهم ، ينظرون
ويبتعدون .

ومن وقت إلى آخر كان ايفان يسألهم :

– ألم يشتغل هذا السيد برأسه بعد ؟

فيجيبونه :

– لا ، لم يشتغل بعد ! فهو يثرثر .

مرّ اليوم ، وأخذ الشيطان يفقد قواه . رآه مرة أحد الأغبياء يترنح على
ساقيه ويصدم العمود برأسه . فأخطر امرأة ايفان التي جرت لتخبر زوجها
المشغول في حقله . صاحت به :

– تعال بسرعة وانظر . يبدو أن السيد بدأ يعمل برأسه .

أدهش هذا النبأ ايفان ، فقال وهو يقترب :

– حقاً ماتقولين ؟

خارت قوى رئيس الشياطين . شوهد وهو يترنح على ساقيه ويصدم
العمود برأسه .

وبينما كان ايفان يصل ترنح الشيطان وسقط على السلم، ضارباً
بجبهته جميع عوارضه، وكأن رأسه كان يعدّها تباعاً.

قال ايفان :

- أوه! أوه! لم يكن مخطئاً السيد الحسن الهندام: فالرأس يفرقع
أحياناً! وأنا أفضل التقرّح. فطريقة العمل هذه صالحة لمن شاء أن يُصاب
بندوب في الرأس.

سقط رئيسُ الشياطين وأغرق رأسه في التراب. ولما تقدّم ايفان،
مدفوعاً بفضوله لأن يرى إن كان قد قام بعمل كبير، وانشقت الأرض
وابتلعت الشيطان العجوز الذي لم يترك وراءه سوى ثقب.

حك ايفان رأسه، وقال :

- أوه! يا للحيوان الحقيّر! وهذا هو أيضاً! لعله أبو الآخرين؛ أرايت
ما أكبره!

- ١٣ -

ظل ايفان يعيش. هُرُع الناسُ إلى مملكته جماعات. ووجد الأخوان
أيضاً مأوىً عنده، وهو الذي أعالهم. وكان يقول لمن يجيئه طالباً ما يعيش
به :

- فليكن! عيشوا. لا شيء ينقصنا هنا. لكن لهذه المملكة قانوناً
واحداً: هل في يدك قروح؟ اجلس إلى المائدة. . . ليس في يدك قروح؟
كل الفضلات.

العامل اميليان والطبل الفارغ

ليون تولستوي

العامل ايميليان والطبل الفارغ

ترجمة: صياح الجهم



منشورات وزارة الثقافة

في الجمهورية العربية السورية

دمشق ١٩٩٧

كان اميليان مجرد عامل .

كان يجتاز ، ذات يوم ، حقلاً ليذهب إلى عمله ، فوثب ضفدعٌ أمامه .
أوشك أن يدوسه في مشيه ، لكنه تخطّاه ، وبِعَفْوِيَّةٍ سمع وراءه مَنْ يناديه .
التفت اميليان فرأى فتاةً تقول له :

- اميليان ، لماذا لا تتزوَّج ؟

- وكيف أتزوَّج ؟ يافتاتي العزيزة . هذا كل ما أملك ؛ ليس عندي شيء ؛ فمن يقبل بي ؟

قالت له الفتاة حينئذ :

- تزوجني أنا .

كانت الفتاة تُعجب اميليان كثيراً .

قال بفرح :

- أنا ! لكن أين نعيش ؟

قالت الفتاة :

- عجباً ! لا يستحقّ ذلك التفكير ؛ ليزد العملُ فقط ، ولينقصَ النوم ،
وسنجد ما نأكله وما نلبسه أينما كنّا .

قال :

- حسناً ، حسناً ، فلنتزوَّج . وأين نذهب ؟

- لنذهب إلى المدينة .

سافر اميليان الى المدينة مع الفتاة اصطحبها الى بيت صغير في أطراف
المدينة ، وتزوَّجا ، وعاشا معاً .

ذات يوم ، ذهب القيصِرُ يتنزّه خارج المدينة ، فمرّ أمام منزل اميليان ،
وخرجتُ زوجة اميليان لترى القيصِر .

شاهدها القيصِر ودهش : « أين وكُد هذا الجمال » .

أوقف القيصر العربية ونادى زوجة اميليان وسألها:

- مَنْ أَنْتِ؟

أجابت:

- أنا زوجة اميليان.

- لماذا تزوجتِ، أنتِ الفاتكة الجمال، فلاحاً؟ كان ينبغي أن تكوني
قيصرة..

قالت:

- أشكرك على كلماتك اللطيفة، لكنني جد مرتاحة مع فلاحي.

حدثها القيصر قليلاً ومضى بعيداً.

عاد إلى القصر. لم تخرج زوجة اميليان من رأسه. لم يستطع النوم
طوال الليل، وأخذ يفكر في الوسيلة التي ينال بها امرأة اميليان، فلم يعثر
على وسيلة. نادى خدومه وأمرهم أن يتخللوا له وسيلة. قال الخدم الملكيون
للقيصر:

- شغل اميليان في قصرك عاملاً، سنقتله بالعمل، وستغدو زوجته
أرملة، وحينئذ تستطيع أن تأخذها.

عمل القيصر ذلك. أمر بإحضار اميليان ليأتي ويعمل في القصر
ويعيش فيه مع امرأته. وصل المبعوثون إلى منزل اميليان وأبلغوه أمر
القيصر. حينئذ قالت المرأة لزوجها:

- حسناً! اذهب! اشتغل في النهار، وعد في الليل إليّ.

ذهب اميليان. جاء إلى القصر. سأله أحد ضباط القيصر:

- لم جئت وحدك، دون امرأتك؟

- ولم آتي بها؟ إن لها بيتها.

في بلاط القيصر، أعطي اميليان كثيراً من العمل حتى إنه حين بدأ به
لم يكن يأمل في الانتهاء منه.

بيد أنه أنهى كل شيء قبل المساء. رأى الخادم أنه انتهى، حينئذ أعطاه

في اليوم التالي عملاً أكبر بأربع مرات . وعندما عاد اميليان إلى بيته ، كان كل شيء منظفاً ، مرتباً ، والمدفأة ساخنة والطعام مُعداً ؛ كانت المرأة تخطط أمام الطاولة منتظرةً زوجها . لاقته ، وسكبت له حساءه ، وأطعمته جيداً ، وسقته شرباً ، وأخذت تسأله عن عمله . قال :

- أوه ! إنه سيءٌ . فهم يعطونني عملاً أكثر مما أستطيع ، سيقتلونني

بالعمل .

قالت :

- لا تفكر في العمل ، ولا تنظر خلفك وأمامك ، وإذا كنت قد صنعت الكثير أو إذا بقي عليك الكثير فاشتغل فقط ، وكل شيء سيكون جاهزاً في حينه .

ذهب اميليان إلى النوم . وفي الصباح انطلق من جديد إلى العمل . عمل دون أن يرفع بصره ولو مرةً واحدة . كان كل شيء منتهياً في المساء ، وعاد إلى البيت لينام . زادت مهمة اميليان أكثر فأكثر ، لكن كل شيء كان يتم في ميعاده . وكان اميليان يعود كل مساءً إلى البيت لينام .

مضى اسبوعٌ ؛ وعندما رأى خدماً القيصر أنهم لم يستطيعوا أن يتغلبوا على الفلاح بالعمل المضني ، قرروا أن يعطوه عملاً أدق ، لكن هذه الوسيلة لم تنجح أكثر من غيرها . وسواء أعطي عمل النجار ، أو عمل المسقّف ، أو غيرهما فقد كان يتم في الوقت المحدد كل ما يُعهد به إليه ، ويذهب كل مساءً لينام في بيته .

مضى اسبوعٌ أيضاً . دعا القيصرُ خدمه وقال :

- أأطعمكم وأنتم لاتفعلون شيئاً؟ مضى اسبوعان وما من نتيجة ! أردتم أن تميّتوه بالعمل . ومن نافذتي أراه كل يوم يعود إلى المنزل وهو يغني . أنهزؤون بي؟

حاول خدماً القيصر أن يبرروا أنفسهم :

- عملنا كل ما هو بإمكاننا؛ عذبناه في البداية بعمل مضمّن، لكن لم تكن لنا حيلة به؛ إنه يقوم بعمله وكأنه يعمل بمكنسة، وهو لا يحس بالتعب. حيثُ أَعْطيناه عملاً دقيقاً، ظننا أنه لا يملك المهارة الكافية. لكننا لم ننجح هذه المرة أيضاً. من أين جاء ذلك؟ إنه يعرف كل شيء ويعمل كل شيء! لا بدّ أنه هو أو امرأته يستخدمان سحراً ما. ضجرنا من ذلك. نريد الآن أن نكلّفه عملاً لا يستطيع القيام به. لقد تخيلنا أن نأمره ببناء كاتدرائية في يوم واحد. استدع اميليان ومُره أن يبني كاتدرائية في يوم واحد، قبالة قصرِك، فإن لم يبنها أمكننا قطع رأسه لعصيانه. استدعي القيصِر اميليان، وقال له:

- حسناً! هذا هو أمري: ابن لي كاتدرائية جديدة، في الساحة، قبالة القصر، ويجب أن يكون كل شيء جاهزاً غداً مساءً. إن بنيتها كافأتك، وإلاّ قطعتُ رأسك.

بعد كلمات القيصِر هذه، عاد اميليان إلى بيته. وفكّر:

- آه! لقد اقتربت نهايتي الآن.

وصل البيت وقال لامرأته:

- آه! يا امرأة، استعدي للهرب، إلى أي مكان، وإلا هلكنا!

قالت:

- ايه! لم تخاف هذا الخوف الذي يحمل على الهرب؟

- كيف لا أخاف! أمرني القيصِر أن أبني غداً، في النهار، كاتدرائية،

وإذا لم أبنها هددني بقطع رأسي. لم يبقَ علينا إذن إلا أن نهرب مادام في الوقت متّسع.

لم تكن امرأته من هذا الرأي. قالت:

- للقيصِر جنودٌ كثيرٌ، وسيقبضون عليك أينما فررت؛ لا يمكننا الإفلات منه، وينبغي أن نطيعه قدر المستطاع.

- لكن كيف أطيعه إذا كان ذلك يتجاوز قواي؟

- اذهب، يا صاحبي، لا تخف، كل عشاءك ونم. وانهض غداً أبكر من عادتك، وسيُسوّى كل شيء.

نام اميليان ، وأيقظته امرأته في اليوم التالي . قالت :
- أسرع أكثر من عاداتك ، أنه الكاتدرائية ، خذ هذا المسمار وهذه
المطرقة ؛ وهناك لم يبق عليك سوى عمل يوم .

سافر اميليان إلى المدينة ، فشهد في الواقع كاتدرائية جديدة وسط
الساحة . ولم تكن منتهية تماماً . باشر اميليان عمله ، وفي المساء كان كل شيء
جاهزاً .

ما إن استيقظ القيصر حتى نظر من نافذة قصره ورأى الكاتدرائية . كان
اميليان يمشي في أعلاها ويغرز بعض المسامير .

لم يكن القيصر مسروراً من الكاتدرائية ، كان متزعجاً من أنه لم
يستطع أن يأمر بقطع رأس اميليان وأن يأخذ امرأته .
ومرة أخرى استدعى القيصر خدمه وقال لهم :

- قام اميليان بهذا العمل ، ولا مبرر لقطع رأسه . هذا العمل لم يكن
شيئاً ذا بال بالنسبة إليه ؛ يجب أن نتخيل شيئاً أصعب أيضاً . فكروا ؛ وإلا
قتلتكم قبله .

تخيل الخدم أن يؤمر اميليان بتمرير نهرٍ حول القصر ، وعلى ضفافه
مراكب .

استدعى القيصر اميليان وأمره أن ينهض بهذا العمل الجديد ، قائلاً له :
- اميليان ، إذا كنت قد استطعت أن تبني كاتدرائية في ليلة فأنت قادرٌ
أيضاً على القيام بهذا العمل . ليكن كل شيء جاهزاً في الغد ، وإلا قطعتُ
رأسك .

جاء اميليان امرأته أشد حزنًا من عشية أمس . فقالت له :

- مالك؟ هل أمرك القيصرُ بشيء آخر؟

روى لها اميليان القضية ، وأضاف :

- يجب أن نهرب .

أجابت امرأته :

- لا تقلق، كلٌ عشاءك واذهب للنوم؛ استيقظ أبكر من عادتك
وسيسوى كل شيء.

ذهب اميليان لينام، ايقظته امرأته صباحاً، وقالت:

- اذهب إلى القصر، كل شيء جاهز. لكن ما يزال قرب المرفأ، قبالة
القصر، أكمة صغيرة، فخذ المعول وسوها.

شافر اميليان؛ وعندما وصل المدينة، رأى النهر حول القصر؛ وعلى
أواجه تطفو مراكب. اقترب اميليان من المرفأ قبالة القصر، فرأى الأكمة
وأخذ يزيلها.

استيقظ القيصر فرأى النهر والمراكب واميليان، يسوي بمعوله الأكمة.
ارتعب القيصر ولم يسرّ لأن النهر ولا من المراكب؛ حزن لأنه لم يتمكن
من قطع رأس اميليان. يظن أنه مامن عمل لا يستطيع إنجازه.
وماذا يتخيلون الآن؟

استدعى القيصر خدماً وأخذ يفكر معهم. قال:

- تخيلوا عملاً ليس بوسع اميليان إنجازه، لأنه عمل حتى الآن كل
مأمراه به؛ ولا سبيل إلى أخذ امرأته.

فكر رجال حاشيته، وبعد أن عثروا على فكرة اجتمعوا عند القيصر
واقترحوا عليه:

- يجب أن يدعى اميليان وأن يُقال له: «اذهب إلى حيث لا تعلم
واجلب ما لا تعلم»، لكي لا يُفك منك بعد الآن. أينما يذهب تقل له إنه لم
يكن حيث كان يجب أن يكون؛ ومهما يجلب لك تقل له إنه لم يجلب
ما ينبغي جلبه، وحينئذ يمكننا قطع رأسه وأخذ امرأته.

رضي القيصر وقال:

- ما أحسن ما تخيلتم.

أمر القيصر بإحضار اميليان وقال له: «اذهب إلى حيث لا تعلم،
واجلب ما لا تعلم، وإذا لم تفعل اللازم قطعت رأسك».

وصل اميليان الى بيته وروى لامرأته ماقاله القيصر . فكرت المرأة وقالت :

- ايه ! لقد نصحوا القيصر نصيحة حسنة ؛ ويجب الآن أن نتصرف بحكمة . فكّرت وفكرت ، ثم قالت لزوجها : يجب أن تذهب بعيداً ، إلى جدتنا العجوز ، جدّة الفلاح والجندي ، وتطلب منها حمايتها . ستعطيك شيئاً تعود به رأساً الى القصر ، وسأكون هناك ؛ الآن لاأستطيع أن أتفادى أيديهم ، سأأخذونني بالقوة ، لكن ذلك لن يدوم طويلاً وإذا مانفذت ماتأمرك به الجدة فلسوف تخلصني على الفور .

هيأت المرأة ثياب زوجها وأعطته كيساً صغيراً ومغزلاً . قالت :

- خذ ، سلمها هذا المغزل ، وحينئذ ستعرف أنك زوجي .

دلته المرأة على الطريق . انصرف اميليان ، وخرج من المدينة . رأى جنوداً يتدربون ، فنظر إليهم . عندما انتهى الجنود جلسوا ليستريحوا . دنا منهم اميليان وسألهم :

- هل تعرفون ، ياإخوتي ، أين يجب أن أذهب إلى هناك ، إلى حيث

لأعلم وأن أجلب من هناك ماالأعلمه ؟

عندما سمع الجنود ذلك دهشوا وقالوا :

- من الذي أرسلك هكذا ؟

- القيصر .

- نحن أنفسنا نذهب إلى حيث لانعلم ، ولايمكننا بلوغه ، ونبحث

عماً لانعلمه ولا نستطيع العثور عليه . فليس في مقدورنا إذن أن نساعدك .

بقي اميليان لحظة مع الجنود وذهب بعيداً .

سار وسار ، فبلغ غابة كان فيها كوخ خشبي صغير وفي الكوخ

عجوز ، جدّة الفلاح والجندي . كانت تغزل وتبكي وتبّلّل أصابعها لابلعاب

فمها بل بدموع عينيها . صاحت العجوز وهي ترى اميليان :

- ما حاجتك ؟

أعطاهَا المِغْزَلَ وقالَ لَهَا إنْ امرأتَهُ أرسلتهُ إِلَيْهَا . عادَ إِلَى العَجُوزِ هَدِوْءُهَا عَلَى الفورِ وأخذتْ تسألهُ . روى لَهَا اميليانُ حَيَاتَهُ كُلَّهَا ، كيفَ تزوجَ ، وكيفَ ذهبَ لِيَسْكُنَ المَدِينَةَ ، وكيفَ شغَلَهُ القِيَصِرُ عاملاً ، وكيفَ عملَ فِي القِصْرِ ، وكيفَ بنى الكاتدرائيةَ ، والنهرَ والمراكبَ ، وكيفَ أمره القِيَصِرُ الآنَ أنْ يذهبَ إِلَى هُنَاكَ ، إِلَى حَيْثُ لَا يَعْلَمُ وَأَنْ يَجْلِبَ مِنْ هُنَاكَ مَا لَا يَعْلَمُهُ .

أصغَتِ العَجُوزُ وكفَّتْ عَنِ البِكَاءِ وَتَمَتَّتْ ، وَقَالَتْ :

- بَدِيهِي ، جَاءَتِ السَّاعَةُ . حَسَنًا ! اجْلِسْ كُلُّ .

أَكَلَ اميليانُ فَقَالَتْ لَهُ العَجُوزُ :

- هَاهِي ذِي كَبَّةٍ غَزَلَ ؛ ادْفَعْهَا أَمَامَكَ وَاتَّبِعْهَا حَيْثُمَا تَدْحَرُجُ .
سَوْفَ يُلْزِمُكَ أَنْ تَذْهَبَ بَعِيدًا ، حَتَّى الْبَحْرِ . فَإِذَا وَصَلْتَ الْبَحْرَ طَالَعْتُكَ
مَدِينَةً كَبِيرَةً ، فَادْخُلْهَا ، وَاطْلُبِ الْإِذْنَ بِالْمَبِيتِ ، فِي آخِرِ بَيْتٍ مِنْهَا ، وَهُنَاكَ
سَتَجِدُ مَطْلُوبَكَ ؟

- وَكَيْفَ أَعْرِفُ الْمَطْلُوبَ ، يَا جَدَّةُ ؟

- عِنْدَمَا تَرَى شَيْئًا يُطَاعُ خَيْرًا مِمَّا يُطَاعُ الْأَبُ وَالْأُمُّ ، فَهُوَ الْمَطْلُوبُ ؛
خُذْهُ وَاجْمَلْهُ إِلَى الْقِيَصِرِ . سَتَحْمِلُهُ إِلَيْهِ وَسَيَقُولُ لَكَ : أَنْتَ لَمْ تَحْمِلِ
الْمَطْلُوبَ . حَيْثُذَ أَجَبَ : « إِنْ لَمْ يَكُنْ هَذَا فَيَجِبُ تَحْطِيمُهُ . اضْرِبْ ذَلِكَ
الشَّيْءَ وَاجْمَلْهُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى النَّهْرِ وَاكْسِرْهُ وَارْمِهِ فِي الْمَاءِ . وَبَعْدَ ذَلِكَ سَتَلْقَى
امْرَأَتَكَ وَتَسْتَجِفُّ دُمُوعِي .

وَدَعَ اميليانُ الْجَدَّةَ وَسَافَرَ وَهُوَ يَدْفَعُ الْكَبَّةَ .

دَفَعَ الْكَبَّةَ وَأَمْعَنَ فِي دَفْعِهَا فَقَادَتْهُ إِلَى الْبَحْرِ . قَرِبَ الْبَحْرَ مَدِينَةً
عَظِيمَةً ؛ فِي آخِرِ بَيْتٍ يَطْلُبُ اميليانُ الْإِذْنَ بِالْمَبِيتِ فَيُجَابُ طَلْبُهُ ، وَيَنَامُ ،
وَيَسْتَيْقِظُ مُبَكَّرًا ؛ سَمِعَ الْأَبُ يَوْقُظُ ابْنَهُ لِيَذْهَبَ إِلَى قَطْعِ أَشْجَارِ الْغَابَةِ ، فَلَا
يُطِيعُ الْابْنَ الَّذِي يَقُولُ :

- مَا يَزَالُ الْوَقْتُ مُبَكَّرًا جَدًّا ، وَمَا يَزَالُ لَدِي مَتَسَعٌ مِنَ الْوَقْتِ .

سمعت الأم، من على المدفأة، هذه الكلمات، فقالت :
- اذهب، يابني، فأبوك عجوز، وهو لا يستطيع أن يذهب بنفسه،
اذهب. تذرّ الابن وعاد إلى النوم.

ماكاد ينام حتى سمع شيئاً يُقرع من ذاته في الشارع ويدوي. وثب
الابن، وارتدى ثيابه وجرى مسرعاً إلى الشارع؛ اندفع اميليان وراءه ليرى
ماالذي يحدث هذه الضوضاء التي يطيعها الابن أكثر مما يطيع أباه وأمه.
خرج اميليان ورأى في الشارع رجلاً يحمل أمامه شيئاً مدوراً يضربه بعضا.
وهو الذي أحدث هذا القرع، وهو الذي أطاعه الابن. دنا اميليان وأخذ ينظر
إلى هذا الشيء. رأى أن هذا الشيء اسطواني الشكل، مُغلقٌ من طرفيه
بجلد. فيسأل :

- ما اسم هذا الشيء؟

قليل له :

- هذا طيل.

- أهو فارغ؟

- نعم.

دُهِش اميليان وطلب الطبل، فأبوا أن يعطوه إياه. لم يلح اميليان،
لكنه تبع حامل الطبل. مشى النهار كله، وعندما نام الطبال، استولى اميليان
على طبله وهرب به.

جرى وجرى وجرى فبلغ بيته. أمل أن يجد امرأته في البيت، لكنها
لم تكن هناك؛ لقد اقتيدت عشية أمس إلى القيصر.

قصد اميليان القصر وأعلن عن وصوله هو الذي :

« ذهب إلى هناك، إلى حيث لا يعلم، وحمل من هناك ما لا يعلمه ».

أعلم القيصر بذلك.

أمر القيصر أن يُبلغ اميليان أن يعود في اليوم التالي. طلب اميليان أن
يُعلن عنه مرة أخرى. قال :

- أنا جئتُ اليوم ، وحملتُ ما أمرتُ به ؛ ليأتِ القيصرُ وإلاّ دخلتُ
عنوةً .

خرج القيصر ، وسأل :

- أين كنت ؟

أجابه اميليان :

- كنت حيث لا أعلم أين .

- وماذا حملت ؟

أراد اميليان أن يريه ما حمل لكن القيصر قال دون أن ينظر :

- ليس هذا هو المطلوب :

قال اميليان :

- إن لم يكن هذا هو المطلوب فيجب أن نكسره وأن نرميه للشيطان .

خرج اميليان من القصر حاملاً الطبل وأخذ يقرعه . وعلى الفور تجمع

حوله جيشُ القيصر كله ؛ حظي بالتكريم وانتظروا أوامره .

صاح القيصر بجيشه من شرفة قصره ألا يقترب من اميليان ؛ فلم يُصغ

أحدٌ إليه وهُرعوا جميعاً نحو اميليان . عندما رأى القيصر ذلك أمر بأن تُقتاد

زوجة اميليان إلى بيتها وأن يُطلب من اميليان إعادة الطبل إليه . قال اميليان :

- لا أستطيع ، لقد أمرت أن أحطّمه وأن أرمي حطامه في النهر .

دنا اميليان من النهر وهو يحمل الطبل ، وتبعه الجنودُ جميعاً . وعند

ضفة النهر ، حطّم اميليان الطبل إلى قطع صغيرة ، ورماه في النهر ، فتفرّق

الجنود جميعاً . أخذ اميليان امرأته وعاد إلى منزله .

ومنذ ذلك اليوم كفّ القيصر عن تعذيبه . وصار اميليان يعيش

بطمأنينة ويجمع الأموال .

الحبة العجيبة

ليون تولستوي

الحبة العجيبة

ترجمة: صياح الجهم



منشورات وزارة الثقافة

في الجمهورية العربية السورية

دمشق ١٩٩٧

وجد أطفال ذات يوم، في حفرة صغيرة، شيئاً بحجم بيضة الدجاجة، شيئاً تعترضه فرضة كالتي في الحبة. رآه بين أيديهم أحداً المارة، فاشتراها منهم بخمسة كوييكات، وحملها إلى المدينة، وباعها إلى القيصر باعتبارها طرفة من الطرف.

أحضر القيصرُ الحكماءَ وعرضَ عليهم هذا الشيء، ودعاهم إلى تحديد طبيعته: أهو بيضة؟ أهو حبة؟ فحصه الحكماء من وجوهه كافة، فعجزوا عن تحديده.

تُركت الحبة على حافة نافذة، فجاءت دجاجة ونقرتها وفتحت ثقباً فيها؛ عرف الجميع أنه حبة؛ وأعلم الحكماءُ القيصر أن الحبة حبة سليم. دهش القيصر من ذلك. كلّف الحكماء أن يبحثوا عن هذه الحبة متى وأين نبتت. استغرق الحكماءُ في أفكارهم، ورجعوا إلى كتب كثيرة، لكن بلا نتيجة. وذهبوا إلى القيصر ليقولوا له:

- يستحيل أن نجيب جواباً يرضيك: أن كتبنا لم تنبأ بمثل هذه الحالة. ويجب أن نسأل الفلاحين، فربما سمع واحدٌ منهم متى وأين أمكن لهذه الحبة أن تنبت.

استدعى القيصرُ الفلاح الأكبر سنّاً بين قدامى الفلاحين. فجيء بفلاح عجوز دخل عليه، أخضر الوجه، أورد الفم، يجرّ نفسه على عكازتين. عرض عليه القيصرُ الحبة، لكن الشيخ لم يرها بوضوح، وكان لا بدّ له أن يستعين، ليفحصها بعينه وبأصابعه.

سأله القيصر:

- أيمكنك أن تقول لي، أيها الجدّ، أين أمكن لمثل هذه الحبة أن تنبت؟ فلعلك قد بذرت مثلها في حقولك، أو لعلك قد اشتريت مثلها من مكانٍ ما؟

كان الشيخ أصمّ، شديد الصمم، فلم يسمع إلا بمشقةٍ، وأخيراً
أجاب:

- لا، لم أبذر قط، ولا حصدتُ في حقولي قط، ولا اشتريت قط
مثل هذا الشيلم. والحب الذي كنتُ أجنيه أو اشتريه لم يكن أكبر من شيلم
اليوم، وينبغي أن أسأل أبي أين يمكن أن ينبت مثل هذا الحب.
استدعى القيصر والد الشيخ. فجيء به؛ كان فلاحاً عجوزاً جداً يعيش
على عكازة واحدة.

عرض عليه القيصرُ الحبة.

- أيمكنك أن تقول لي أيها الشيخ أين أمكن لمثل هذه الحبة أن
تنبت؟ فلعلك قد بذرت مثلها في حقولك، أو لعلك قد اشتريت مثلها من
مكان ما؟

كان سمعُ الشيخ ثقيلًا لكنه كان يسمع خيراً من ابنه.
أجاب:

- لا، لم أبذر قط، ولا حصدتُ في حقولي قط، ولا اشتريت قط مثل
هذا الشيلم. كان المالُ غير معروفٍ في زمننا. كان كل واحد يأكل خبز
حقله، ومن زاد ما عنده عن حاجته شارك المعوزين فيه. . . ولا أعلم أين
أمكن لمثل هذه الحبة أن تنبت، كان الشيلم في زماني أكبر من اليوم، لكنه
أصغر بكثير من هذه الحبة. سمعتُ أبي يردّد أن الشيلم في عصره كان يغلّ
أكثر ويعطي حباً أكبر. أسأل أبي.

استدعى القيصرُ والد الشيخ. فجيء به أيضاً. دخل بغير عكازة،
رشيق الخطو، صحيح النظر، مرهف السمع، ثابت الصوت. عرض عليه
القيصرُ الحبة.

أمسك بها الجداً الأكبر، ونظر إليها، ووزنها في يده، وقال:

- هاقد مضت سنوات طوال لم أر فيها شيلم الزمن الغابر .

وبعد أن عضها ولاكها بأسنانه أضاف :

- إنها من الحب نفسه حتماً .

- قل لي إذن أيها الجدد ، أين ومتى بُدّر مثل هذه الحبة . ألم تحن أنت

مثلها في حقولك ، أو ألم تشتتر منها من مكانٍ ما ؟

أجاب الفلاح العجوز :

- لم يكن الناس يعرفون ، في زمني ، شيلماً آخر . فهذا هو الشيلم

الذي كنت أكله أنا نفسي وأطعمه الآخرين . وهذا الشيلم هو الذي كنتُ

أبذره ، وأحصده ، وأرسله إلى المطحنة قديماً .

سأله القيصر أيضاً :

- أكنت تشتتريه أم كنت تزرعه أنت بنفسك في حقولك ؟

أخذ الفلاح العجوز يضحك ، قائلاً :

- لم يكن أحدٌ يرتكب مثل هذه الخطيئة في زمني : أن يبيع أو يشتري

الحبز ! بل إن المال لم يكن موجوداً في زمني . كان كل واحدٍ يملك ما يكفيه من

الحبز .

أردف القيصرُ :

- قل لي إذن ، أيها الجدد ، أين كنت تزرع مثل هذا الحب ، وأين كان

حقلك ؟

أجاب الجددُ :

- كان حقلي أرضَ الله . وحيثما كنتُ أدير محراثي فهناك كانت

أرضي . كانت الأرضُ مشاعاً . لم يكن أحدٌ يسمي الأرضَ أرضه ، ولم

يكن أحدٌ يملك سوى عمله الخاص .

واصل القيصرُ كلامه :

- أحبّ أن أعرف شيئين أيضاً. أولاً، هذا الحبُّ الذي كان ينبت قديماً
لماذا لم يعد ينبت الآن في أي مكان؟ ثانياً، لم احتاجَ حفيدك لكي يمشي إلى
عكازتين، وابنك إلى عكازة واحدة، بينما أنت نفسك نشيط الساقين؟
وعيناك بعيدتا النظر، وأسنانك تعضّ وتلوك، ولسانك بيّن ولطيف . . . لم
ذلك، أيها الجد؟

فأجاب الفلاحُ العجوز:

- ذلك أن الناس عزّفوا عن طلب خبزهم من عمل أيديهم، وأنهم
يؤثرون أن يعيشوا من عمل الآخرين. لم يكن الناس يعيشون هكذا في
الزمن الغابر، كانوا يتبعون شريعة الله؛ كانوا يعيشون مسرورين من القليل
دون أن يحسدوا أحداً.

ثلاثة أبناء

ليون تولستوي

ثلاثة أبناء

ترجمة: صياح الجهم



منشورات وزارة الثقافة

في الجمهورية العربية السورية

دمشق ١٩٩٧

أعطى أبُ ابنه ملكاً واسعاً وقمحاً وماشيةً، وقال له :

- عشْ كما عشتُ، وستكون أموركَ على مايرام».

تسلّم الولدُ ما أعطاه إياه أبوه، وانصرف، وشرع يعيش من أجل لذّته.
«دعاني أبي أن أعيش كما يعيش ؛ وهو يعيش عيشةً هنيئةً، وإذن فسوف
أعيش مثله».

عاش هكذا سنةً، سنتين، عشر سنين، عشرين سنة. انفق كلَّ
ما أعطاه إياه أبوه، فعاد صفر اليدين. حيثذبذبا يسأل أباه أن يعطيه المزيد،
لكن الأب رفض، حاول أن يتملّقه، وأن يهديه أحسنَ ما عنده، وأن يتوسل
إليه. لكن الأب أصمّ أذنيه. فأخذ الابنُ يسأل والده المغفرة، ظاناً أنه أهانه،
وتملّقه مرة أخرى ؛ لكن الأب أبى أن يلين.

وأخذ الابن يلعن أباه، ويقول :

- إن كنت لا تريد أن تعطيني شيئاً الآن، فلماذا وهبتي تلك الهبة فيما
مضى، وعلّلتني بأنها تكفيني لأن أعيش عيشة هنيئة دائماً؟ . . . إن جميع
الأفراح التي شعرتُ بها وأنا أنفق ثروتي لاتعادل ساعةً من الآلام التي
أقاسيها الآن. أرى أنني أغرق ولاسييل إلى النجاة. أنت . . . كان ينبغي أن
تعلم أن تلك الثروة لن تكفيني، وأنت لم تعطيني المزيد. قلتَ لي فقط :
«عشْ مثلي وستكون الأمور على مايرام». ولقد عشتُ مثلك ؛ أنت عشت
من أجل لذتك وأنا عشتُ من أجل لذتي. أنت احتفظت بالقسط الأكبر من
الثروة، وأنا لم يكن عندي ما يكفي. أنت لست أباً، أنت خداعٌ مسيءٌ!
ملعونةٌ حياتي! ولتكن ملعوناً، أنت، أيها الغشاش، الجلاّد! لن أتعرف
عليك بعد الآن، إنني أكرهك!

أعطى الأبُ أيضاً ملكاً واسعاً للابن الثاني وقال له فقط :

- عشْ كما عشتُ، وستكون أموركَ على مايرام.

لم يكن رضا الابن الثاني عن هذه الهبة بقدر رضا الابن الأول ؛
وجدها عادلة، لكنه كان يعلم ما حدث لأخيه البكر، ولذلك أخذ يفكر في

الطريقة التي يتبعها لكي لا ينفق هو أيضاً ثروته كلها . أدرك أن أخاه أول
تأويلاً سيثاً قول أبيه : «عشُ كما عشتُ» ، وأنه لا ينبغي أن يعيش الانسان من
أجل لذته ليس غير . وأخذ يفكر فيما يمكن أن تعنيه هذه الجملة : «عشُ كما
عشتُ» . وفكر أنه كان يجب عليه ، شأنه شأن أبيه ، أن يكسب ثروة تساوي
الثروة التي أعطاه إياها أبوه . فشرع يعمل لينشئ ملكاً آخر شبيهاً بالذي
جاءه من أبيه ، وفكر في الوسائل المؤدية إلى ذلك .

استشار أباه ، فلم يُجبه أبوه . ظن الابن أن الأب يخاف أن يقول له
شيئاً ، فأخذ يفحص جميع الأشياء التي يستعملها أبوه ، لكي يفهم ، من ذلك
كيف كان يتصرف . أفسد كل ماتلقاه من أبيه ، وكل ما كان يفعله لم يكن له
من قيمة . لكنه لم يشأ أن يعترف بأنه أفسد كل شيء . كان يقول للجميع : إن
أباه لم يعطه شيئاً ، وأنه فعل كل شيء بنفسه ، وأن الجميع كان يمكنهم أن
يفعلوا ما هو أفضل ، وأن الناس سيبلغون عملاً قريب الكمال بحيث يغدو كل
شيء كاملاً .

هكذا تكلم الابن الثاني طوال الزمن الذي بقي له فيه شيء مما أورثه
أبوه . لكنه عندما أضاع كل شيء انتحر .
أعطى أبوه ملكاً مائلاً للأخ الثالث ، وقال له : «عشُ كما عشتُ»
وستكون أمورك على ما يُرام .

ترك الابن الثالث أباه ، سعيداً مثل أخويه بأن يحصل على مثل هذا
الملك . لكنه كان يعلم ما حصل لأخويه . فأخذ يفكر في معنى هذه
الكلمات : «عشُ كما عشتُ» «كان أخي الأكبر يحسب أن عيشنا كما عاش
أبونا يعني أن نتصرف تماماً كما تصرف ، وهو أيضاً قد مات . وإذن ، فما
معنى أن نعيش كما عاش أبونا ؟ .

أخذ يتذكر كل ماعرفه عن أبيه . عبثاً فكر ، إذ لم يكن يعلم سوى
شيء واحد أنه لم يكن له شيء قبل ولادته وأنه لم يكن موجوداً ، وأن الأب
هو الذي أوجده وأطعمه وعلمه ووهبه خيرات من كل صنف ، وقال له :

«عشُ كما عشتُ وستكونُ أمورك على ما يُرامُ» وكان يعلم أن أباه فعل كذلك لأخويه . عبثاً ففكر ولم يكن بوسعه أن يعلم شيئاً أكثر من ذلك . كل ما كان يعلمه هو أن أباه أحسن إليه وإلى إخوته .

وحينئذ أدرك ماتعنيه كلمات : «عشُ كما عشتُ» أدرك أن العيش كما عاش الأب يعني أن يفعل ما ينبغي فعله من أجل خير الناس .

وبينما هو يفكر كذلك أقبل عليه الأب وقال له : هانحن أولاء معاً من جديد وستكونُ أمورك على ما يُرامُ . إذهب إذن إلى جميع أولادي وقل لهم مامعنى : أن يعيشوا كما عشت ، وأن الحق أن كل الذين سيعيشون مثلي سيكونون سعداء أبداً .

ومضى الابن الثالث يروي ذلك لذويه ، ومنئذ كان كل ولد ينال حصته يتهجج لا لأنه نال الكثير ، بل لأنه يستطيع أن يعيش كأبيه وأن يكون سعيداً دائماً .

الأب هو الله ، وأبناؤه هم البشر ، والثروة هي الحياة . والناس يُظنون أن بوسعهم العيش وحدهم دون الله ؛ يتصور البعض أنهم أعطوا الحياة ليتسلوا ؛ وهم يتسلون ويددون حياتهم ، وعندما يأتي الموت لا يفهمون لماذا أعطوا الحياة التي تنتهي لذاتها بالآلام والموت .

وهؤلاء الناس يموتون وهم يجددون على الله ، وينفصلون عنه . كذلك الابن الأول .

ومن الناس من يحسب أنهم أعطوا الحياة ليدرسوها وليحسنوها ، وهم يعملون ليصنعوا لأنفسهم حياة أفضل ؛ لكنه حين يحسنون هذه الحياة يفقدونها ويحرمون أنفسهم بأنفسهم الحياة . وهناك أخيراً من يقول :

- كل ما تعلمه عن الله هو أنه يهب الناس الخيرات ويأمرهم أن يفعلوا مثله الشيء نفسه . فلنفعل إذن الشيء نفسه : الخير للناس . وما إن يفعلوا حتى يأتي الله إليهم ويقول لهم :

- هذا ما كنت أريده . افعلوا معي ما أفعله ، وستعيشون مثلي .

نیکولا بالکین

ليون تولستوي

نيكولا بالطين

ترجمة: صياح الجهم



منشورات وزارة الثقافة

في الجمهورية العربية السورية

دمشق ١٩٩٧

قضينا الليل عند جندي قديم عمره خمسة وتسعون عاماً خدام في عهد الاسكندر الأول ونيكولا الأول .

- ماذا، أيها الجدل! أتريد أن تموت؟

- أن أموت! آه! نعم، أريد ذلك؛ فيما مضى كنتُ أخاف الموت، والآن لأطلب من الله إلا شيئاً واحداً: أن أتوب وأتناول لأنني أتيتُ كثيراً من الذنوب .

- ما ذنوبك؟

- كيف، ماذنوبي! ألا تعلم أنني خدمتُ في عهد نيكولا الأول؛ أكانت الخدمة آنذاك كما هي الآن؟

«أوه! هذه الذكرى رهيبة! بدأتُ خدمتي في عهد الاسكندر، كان الجنود يغنون مدائحهم، قيل إنه كان صالحاً جداً...»

تذكرت الأزمّة الأخيرة من ملك الاسكندر، عندما كان يُضرب عشرون جندياً من مئة، حتى الموت، فماذا عساه يكون نيكولا مقارنةً به، إذا نُعت الاسكندر بأنه صالح .

وأردف الشيخ :

- تابعتُ خدمتي في عهد نيكولا .

ومالبت أن نشط وأخذ يروي :

- وأي زمن! لم يكن البنطال يُرفع من أجل خمسين جلدة إذ ذاك؛ ومن أجل مئة وخمسين ومئتين وثلاث مئة جلدة... كان الجلد حتى الموت .

كان يتكلم باشمئزاز واستفظاع .

- والعصا^(١)! لم يكن يمر اسبوع دون أن يُضرب رجلٌ أو رجلان من الفوج حتى الموت . لا يعرف أحدٌ الآن ما العصا، أما فيما مضى فإن هذه

(١) والعصا: أدخل هذا العقابُ البغيض في الجيش الروسي من المانيا في القرن الثامن عشر، وألغى في بروسيا سنة ١٨٠٧، ومورس كثيراً في الجيش الروسي، ولم يُلغ إلا في سنة ١٨٦٤ .

الكلمة الصغيرة لم تكن تخرج من الفم: عصا، عصا. كان الجنود عندنا يسمّون الامبراطور نيكولا بالكين^(١). كانوا يقولون نيكولا بالكين بدلاً من نيكولا بافلوفيتش. وهأنذا عندما أتذكر ذلك الزمن، عندما أتذكره، إنه فظيع. كم من الذنوب تُثقل الضمير! كنت تؤمّرُ بمئة وخمسين جلدة لسوء سلوك جندي (كان الشيخ صفّ ضابط)، وأنت كنت تعطيه مئتين، ولم يكن هذا يشفيك؛ وتلك هي الخطيئة.

كان صفّ الضباط يضربون الجنود الشباب حتى الموت: كانوا يضربون بعقب البندقية أو بقبضة اليد في الصدر أو في الرأس، ويموت الجندي فلا يوبّخك أحد.

كان يموت لأنه ضُرب، وكانت السلطات تُكتب: «مات بمشيئة الله»، وكان ذلك كل شيء. لكنني هل كنت أفهم ذلك، حينئذ؟ لا يفكر المرءُ إلا بنفسه، ونستلقي الآن على المدفأة فلا ننام الليل ونفكر: سيكون شيئاً حسناً إن نلت المناولة المسيحية والمغفرة، وإلا فالأمر رهيب! عندما نتذكر مقدار الألم الذي ألحقناه، ومانع الجحيم، هذا أسوأ من الجحيم . . .

كنتُ أتصورُ بشدة كل ما يمكن أن يتذكره في شيخوخته المنعزلة هذا الرجل المشرف على الموت، ومع أنه غريبٌ عني، إلا أنني ارتعبتُ. كنتُ أتذكر كل الفظاعات التي لا بد أنه شارك فيها. كنتُ أتذكر كيف كان يُعذَّب الجنودُ بالقضيب حتى الموت، وأتذكر القتل، ونهب المدن والقرى، في الحرب (شارك الشيخُ في حملة بولونيا^(٢))، ورجوّته أن يحدثني عن ذلك كله؛ طلبتُ إليه أن يروي لي تفاصيل عن عقوبة القضيب، فروى لي قصة هذا التعذيب الرهيب. إذ تُربط يدا الرجل كلُّ يد ببندقية، ويمرّ بين صفيين

(١) نيكولا بالكين: جعل بعض الجنود اسم أسرة القيصر بافلوفيتش (ابن بول) كأنه مشتق من «بالكا» التي تعني العصا . . .

(٢) حملة بولونيا: إبّان الثورة البولونية (١٨٣٠ - ١٨٣١).

من الجنود الذين يمسك كل منهم قضيباً يضربون به الضحية ؛ وخلف الجنود ،
يتمشى ضباطٌ وهم يصرخون :

- اضرب ضرباً أشد ، ضرباً أشد !

كان الشيخ يصيح بهذه الكلمات ، بصوت حاسم ، وقد تذكرها برضاً
واضح ، محاكياً تلك اللهجة ، لهجة البسالة الأمرة . كان يروي هذه
التفاصيل دون ندم ، وكأن الكلام يجري على ثيران معدة للذبح . روى كيف
جرّ مسكينٌ ذهاباً وإياباً ، بين الصفوف ؛ كيف يقاوم الرجلُ المضروب ويقع ؛
كيف تُشاهد أولاً المساحبُ الدامية ؛ كيف يسيل الدم ؛ كيف يسقط مزقاً
اللحمُ المضروب ؛ كيف تُشاهدُ العظام ؛ كيف يصرخ المسكين في البداية ثم
يزعق زعاقاً بهيماً عند كل ضربة ، ثم يسكت ؛ كيف يدنو الطبيبُ المكثفُ ،
ويفحص النبضَ وينظر ويقرر إذا كان من الممكن أن يُضرب الرجلُ دون أن
يُقتل ، أو هل ينبغي الانتظار إلى أن يشفى ويبدأ الضربُ من جديد حتى
تنتهي كمية الضربات التي قررَ فرضها عليه وحوشُ مفترسة ، وعلى رأسهم
بالكين ؛ ويستخدم الطبيب علمه ليحول دون موت الرجل قبل أن يكابد
جميع العذابات التي يمكن أن يتحملها جسده . وعندما يعجز عن المشي
يُحملُ إلى المشفى على معطفٍ ويعالج هناك ، لكي يستوفي ، إذا شفي ، ألف
ضربةٍ أو ألفين بقيت عليه ولم يستطع أن يتحملها دفعة واحدة . روى أن
الجنود كانوا يطلبون الموت ، لكنهم لم يكونوا ليُعطوا الموت ، بل يُشفون
ليُضربوا مرة ثانية وثالثة . ويعيش المسكين ؛ إنه يُرمى في المشفى منتظراً
العذابات الجديدة التي تقوده إلى الموت ؛ وحينئذ يُساق إلى التعذيب مرة ثانية
وثالثة ويُضرب حتى آخر نفس . كل ذلك لأن الرجل هرب من الفوج ، أو
لأنه أوتي الجسارة والجرأة لأن يشكو سوء التغذية من أجل رفاقه أو لأنه
يقول إن القادة يسرقون .

روى ذلك كله ، وعندما أردت إيقاظ ندمه على مثل هذه الأفعال ،

دهش ثم ارتعب بعد ذلك . قال :

- لا ، كان ذلك بحكم صدر ، فيم أنا مذنبٌ ، كان ذلك حكم القانون؟

كان مطمئناً أيضاً ولم يشعر بتبكيه الضمير كذلك للفظائع العسكرية التي شارك فيها والتي كثيراً ما رآها في تركيا وفي بولونيا .
تحدث عن قتل الأطفال ، عن السجناء الذين يُتركون ليموتوا من الجوع والبرد ، عن قتل شاب بولوني اندفع نحو شجرة ، بطعنات الحرب ؛ ولما سأله إن لم يكن ضميره معذباً بهذه الأفعال ، لم يفهم . كانت هذه هي الحرب ، بالقانون ، من أجل الامبراطور ومن أجل الوطن ؛ وإذن فلم تكن هذه الأفعال سيئة ، بل لقد كان يظنها مجيدة ، فاضلة ، وقادرة على التكفير عن ذنوبه . لم يكن يتعذب إلا من أفعاله الشخصية : من كونه ، وهو رئيس جماعة ، ضرب وعاقب رجالاً . كان ذلك وحده يكدر ضميره . لكنه لكي يكفر عن أخطائه ، يؤمن بوسيلة وحيدة هي المناولة . وهو يأمل أن يحصل عليها قبل الموت ؛ ولقد رجا لذلك ابنة أخيه ؛ فوعده هذه بعد أن أدركت أهمية هذا الفعل ، وهو مطمئن النفس .

لم يكدر ضميره أنه نهب ، وقتل نساءً وأطفالاً أبرياء ، وذبح رجالاً بطعنات الحرب ، وجلد حتى الموت مساكين جرّهم إلى المشفى ليعذبهم من جديد ، ليس ذلك من شأنه ، ويبدو أن رجلاً آخر غيره هو الذي فعل ذلك .
وماذا عسى يفكر هذا الشيخ لو فهم ما كان ينبغي أن يكون واضحاً جداً عنده عشية الموت ، وأن ليس هناك ولا يمكن أن يكون ، حتى في ساعة الموت ، أي وسيط بين ضميره والله .

ولا يمكن أن يكون أيضاً أي وسيط يجبره على تعذيب الآخرين وقتلهم ؟ وماذا سيحل به لو فهم الآن أن لا شيء يمكن أن يكفر عن الشر الذي ارتكبه آنذاك والذي كان بإمكانه ألا يرتكبه ؟ لو علم أن ليس هناك سوى قانون وحيد وأبدي يأمر بالمحبة والشفقة بين البشر ، وأن ما دعاه قبل قليل قانوناً ليس سوى خدعة مخزية ، حقيرة ، ما كان ينبغي له أن يقع فيها ؟ وإنه

لشيء رهيب حين نفكر فيما يُلَازِمُ ذهنه أثناء هذه الليالي المسهّدة على المدفأة، وكم سيكون يأسه لو فهم أنه في اللحظة التي أتيح له فيها إمكان فعل الخير أو الشر، لم يُقدم على غير الشر، في حين كان يعلم ممّ يتكوّن الخيرُ.

- حيثُثد، لم نريدُ تعذيبه، لم نُقلقُ ضمير شيخ يموت، الأولى أن نهذّته؟ لم نُزعج الشعب، ونذكره بما مضى؟

ما مضى؟ فيما مضى؟ أهو ماضٍ مالم نبدأ بتدميره أو الشفاء منه بعد، بل مانزال نخشى تسميته باسمه؟ المرضُ المُخطرُ هل يمكن أن يكون ماضياً لأننا نقول فقط إنه غير موجود؟ إنه لم يشف ولن يشفى إذا لم نعترف بأننا مرضى. ولكي نشفي المرض يجب أن نعرفه أولاً، وذلك بالضبط ما لانفعله. ونحن لا نُحجم عن فعله فحسب، بل إننا نفعل وسعنا لكي لانراه، لكي لانسمّيه. والمرض لم يزل، إنه تغير فقط، وهو ينفذ نفاذاً أعمق الى اللحم والدم والعظام. إن المرض يكمن في أن الناس الذين وُلدوا أخياراً ودعاءً، متشرّين روح العقيدة، الناس المفعمين بالأسف لأنهم جرحوا القريب بالكلمات، ولأنهم لم يتقاسموا خيراتهم مع المتسولين، لأنهم لم يَرَنُوا للسجناء، هؤلاء الناس يقضون أفضل سني حياتهم في الجريمة، ويعذبون إخوتهم، وهم لا يندمون فقط على هذه الأفعال، لكنهم يعتبرون الحرب ضرورة حتمية كالأكل والتنفس. أليس من واجب كل واحد أن يعمل وسعه للشفاء من هذا المرض، وأن يكتشفه أولاً وبصورة رئيسية، ويعترف به، ويسمّيه باسمه. إن الجندي العجوز قضى حياته يعذب الآخرين ويذبحهم، ونحن نقول: لماذا نذكره بذلك؟ إن الجندي لا يظن نفسه مذنباً، وهذه الأشياء الرهيبة، العصي والسياط وما سواها، كل ذلك قد مضى؛ لم التذكير بهذه الأشياء العتيقة. الآن لم يعد شيءٌ من ذلك موجوداً. لقد كان هناك نيكولا بالكين، فلم الكلامُ عليه؛ الجندي العجوز وحده يتذكره، فلم نُزعج الشعب؟

قيل الشيء نفسه عن الاسكندر في زمن نيكولا ؛ والشيء نفسه عن «بول» في زمن الاسكندر ؛ والشيء نفسه عن كاترين في زمن بول ، عن هيجان فسادها ، وجنون عاشقيها ، وفي زمن كاترين قيل الشيء نفسه عن «بطرس» ، الخ . . . لم التذكير بذلك كله ؟ كيف ، لم التذكير بذلك ؟ إن كنت مصاباً بمرض رهيب أو مخطر يصعب شفاؤه ثم تخلصت منه ، فسأتذكره بفرح ؛ لكنني لن أتكلم عنه مادمت مريضاً به مرضاً يسير من سيء إلى أسوأ ، مادمت أريد أن أوهم نفسي . حينئذ فقط لا أتكلم عنه . ولا نريد أن نتذكره لأننا مازلنا مرضى . لم نُحزن الشيخ ونزعج الشعب . العصا ، القضيب ، كل ذلك غدا بعيداً ، غدا من الماضي . كلا ، إن ذلك قد غير شكله فقط . في جميع الأزمنة ، حدثت أشياء لا نتذكرها باستفظة فقط ، بل بسخط . نقرأ وصف المحارق للمهرطقين ، والتعذيب ، والعصي ، والتعذيب بالجلد بين الصفين ، فلا نستفزع وحشية البشر فحسب ، بل اننا لانستطيع أن نتصور نفسية البشر الذين كانوا يفعلون ذلك . ماذا في نفس ذلك الرجل الذي ينهض من فراشه ، ويرتدي بزته ، بزة السيد المطاع ، ويصلي لله ، ثم يذهب إلى غرفة التعذيب ليفكك أوصال النساء والسيوخ ، ويجلد هم بالسوط ، ويقضي في هذا الشغل خمس ساعات في اليوم ، مثل الموظف الحالي في مجلس الأعيان ، ثم يعود إلى البيت ، ويجلس مطمئناً إلى طاولته ويقرأ الكتاب المقدس ؟ ما الذي نجده في نفس هؤلاء الأمرين للأفواج والكتائب الذين (وقد عرفت أمثال هؤلاء) كانوا يرقصون ، عشية أمس ، رقصة المازوركا مع إحدى الحسان ، ثم يذهبون مبكرين لكي يتمكنوا في اليوم التالي ، في ساعة مبكرة ، أن يعطوا أوامرهم ليعذبوا بالقضيب ، حتى الموت ، جندياً تترياً هرب أو قتل رجلاً ، ثم يعودون إلى الغداء في بيوتهم ؟ كل ذلك جرى في عهد بطرس وكاترين والاسكندر ونيكولا^(١) ؛ ليس من

(١) بطرس الأكبر : ١٦٨٩ - ١٧٢٥ . كاترين : ١٧٦٢ - ١٧٩٦ . الاسكندر ١٨٠١ - ١٨٢٥ .

نيكولا ١٨٢٥ - ١٨٥٥ .

حقبة لا نجد فيها هذه الأحداث الفظيعة التي لا نستطيع فهمها. لا نستطيع أن نفهم كيف يستطيع الناس ألا يروا الوحشية الشرسة لهذه الفظائع، أو على الأقل غياب العقل عنها. جرى مثل ذلك في جميع الأزمنة، فهل زمننا بلغ جداً من السعادة بحيث لا نجد له نظائر، أليس فيه أعمالٌ ستبدو للآتين بعدنا غير قابلة للفهم مثل تلك؟

نجد في زمننا الأفعال نفسها والفظائع نفسها، لكننا لانراها، كما أن أسلافنا لم يروها في زمنهم. ليست الوحشية وحدها، بل غياب العقل عن المحارق والتعذيب القضائي كوسيلة لمعرفة الحقيقة، كل ذلك واضح لنا. الطفل يفهم مافيه من مخالفة للعقل. لكن الناس فيما مضى لم يكونوا يفهمونها. كان العقلاء والعلماء يؤكدون أن التعذيب شرطٌ ضروري لحياة البشر، وأنها مؤلمة، لكن لا بد منها؛ والشيء نفسه بالنسبة إلى العصا والعبودية. ثم مضى الزمن، ومن الصعب علينا الآن أن نتصور الحالة الذهنية لهؤلاء الناس الذين أمكن أن يقعوا في مثل هذا الخطأ الكبير. لكن ذلك حدث في جميع الأزمنة، ولذلك فلا بد أن يحدث في زمننا، ولا بد أن نكون، نحن أيضاً، عُمياً عن جرائمنا. أين تعذيبنا، وعبوديتنا، وعصيتنا؟ يبدو لنا أنها لم تعد موجودة، وأنها وُجدت فيما مضى، وأنها زالت الآن. يبدو لنا ذلك لأننا لانريد أن نفهم الأشياء فيما مضى، ونغمض عيوننا بكل عناية. لكننا لو فحصنا الماضي بانتباه لفهمنا بوضوح وضعنا الحالي وأسبابه. ولو سمينا فقط بأسمائها المحرقة، والتعذيب، والمشفقة، والتجنيد، لوجدنا إذن الاسم الحقيقي أيضاً للسجون والجيوش والنواب العامين والشرطة. وإذا لم نقلها فلماذا نتكلم عنها؟ لكننا لو أمعنا النظر فيما كان يجري قديماً لرأينا وفهمنا ما يجري الآن. وإذا كان واضحاً لنا أن من الخبَل قطع الرؤوس على خشبة الجزار، وانتزاع الحقيقة بالتعذيب؛ حيثئذ سيغدو واضحاً لنا وليس أقلّ وحشيةً وخبلاً شق الناس، وحبسهم في زنانات تعادل الموت إن لم تكن أسوأ ومعرفة الحقيقة على أيدي محامين مأجورين أو نواب عامين. وإذا

بدا واضحاً لنا أن من الوحشية والخبل أن يُقتل إنسانٌ ضلَّ طريقه ، فكذلك يتضح لنا أنه أشد وحشية إيداع ذلك الرجل السجن لإفساده نهائياً . وإذا كان واضحاً لنا أن من الخبل والوحشية جعل الفلاحين جنوداً ووشمهم كما يوشم الحيوان ، فكذلك يبدو لنا أن الخبل والوحشية أن يُجبر كل إنسان بلغ الواحدة والعشرين على الذهاب الى الخدمة . وإذا كان واضحاً لنا مدى الخبل والوحشية في «الاوريتشينا»^(١) فإن خبل الحرس والشرطة السرية ووحشيتهما لأوضح . وإذا ما كففتنا فقط عن إغماض أعيننا عن الماضي وعن القول : لماذا نذكر الماضي ؟ حينذاك سنرى بوضوح أن في زمننا الفظائع نفسها ، لكن بشكل جديد ليس غير . نحن نقول : كل ذلك مضي ، ولا نجد الآن عذاباً ، ولا ملكات فاسدات مثل كاترين ، مع عشاقهن القادرين على كل شيء ، ولا عبودية ، ولا قتلاً بالعصا .

لكن ذلك هو الظاهر . هناك ثلاث مئة ألف سجين محبوسون في السجون ، في حجر منفردة ضيقة ونتنة ، يموتون موتاً بطيئاً ، موتاً جسدياً ومعنوياً ؛ ويظل أولادهم ونسأؤهم وحيدون يموتون جوعاً . ويودع هؤلاء الناس في كهوف الفساد ، في السجون ، وهذا الحبس الوحشي الجنوني لا يُفيد سوى الحُرَّاس والمديرين ، وهم السادة المطلقون لأولئك العبيد . إن عشرات آلاف البشر من ذوي «الأفكار الضارة» يحملون هذه الأفكار ، بنفيهم إلى الأرجاء المنعزلة من روسيا ، أو يصبحون مجانين ويشنقون أنفسهم . إن الآلاف محبوسون في القلاع حيث يقتلهم سرّاً رؤساء السجون أو يصبحون مجانين بتأثير الحبس الانفرادي . إن ملايين البشر يهلكون معنوياً وجسدياً في عبودية المصانع . مئات الآلاف يُتزعون كلَّ خريف من أسرهم وزوجاتهم ، ويُعلمون القتل ، ويُفسدون إفساداً منهجياً . ولا يستطيع امبراطور روسيا أن ينتقل إلا في حماية سلسلة من نحو مئة ألف جندي

(١) الاوريتشينا : الاسم الذي أطلق على الحرس الشخصي لايفان الرهيب والذي أسس عام ١٥٦٦ والذي كان ينهب الشعب ويعذبه .

يوضعون على دربه ، بحيث يبعد كل جندي عن الآخر خمسين قدماً ، وسلسلة سرية تتبعه حيثما ذهب . ورب ملك يجمع الضرائب ويأمر ببناء برج في قمته ينشئ بركة ملونة باللون الأزرق ، وآلة تحاكي العاصفة ، ويتنزه فيها بزورقه . ويموت الشعب في المصانع ، في إيرلندا وفرنسا وبلجيكا . ولا يحتاج المرء إلى بصير نافذ فوق العادة لكي يرى أن الشيء نفسه يجري في زمننا ، وأن فيه حالياً التعذيب نفسه ، والفظائع نفسها التي ستسبب للأجيال القادمة دهشة عظيمة بوحشيتها وخبلها .

المرض ما يزال هو نفسه ، لكن المرضى ليسوا هم الذين يستغلون هذه الفظائع . لكن ليستغلوها مئة مرة أو ألف مرة أكثر ؛ وليبنوا الأبراج ، والمسارح ؛ لينهبوا الشعب ؛ ليجلده بالكين ؛ ليشنق «بوييدو نوزترزيف»^(١) و«اورغيفسكي»^(٢) الناس بالمئات سرّاً في القلاع ، لكن ليفعلوا ذلك كله بأنفسهم ؛ وعليهم ألا يفسدوا الشعب ، ألا يخذعوه حين يجبرونه على أن يشارك في ذلك ، مثل ذلك الجندي العجوز . إن الشر الرهيب يكمن في هذه الفكرة وهي أنه يمكن أن يوجد للإنسان شيء أقدم من قانون محبة الإنسان . إن الإنسان يمكنه أن يقوم بكثير من الأعمال إرضاء لطلبات أمثاله من الناس ، لكن هناك عملاً واحداً لا يجوز أن يفعله : لا يجوز له ، بأمر من أي شخص ، أن يسير ضد مشيئة الله : أن يقتل إخوانه ويعذبهم . ومنذ ألف وثمان مئة سنة كان الجواب على سؤال الفريسيين : «هل ندفع الجزية لقيصر» ؟ «دعوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله» .

إذا كان للناس عقيدة ما ، واعتقدوا أن ثمة شيئاً يدينون به لله ، فسوف يعتقدون قبل كل شيء أن ما يدينون به لله هو ما علمه الإنسان : «لا تقتل» ، «لا تفعل بالآخرين ما لا تريد أن يفعلوه بك» ، «أحب قريبك كنفسك» ، وما حفره في قلب كل إنسان بخطوط لا تمحى : حب القريب ، الشفقة عليه ، استفظاع القتل وظلم الإخوان .

(١) «بوييدو نوزترزيف» ١٨٢٧-١٩٠٧ نائب المجمع المقدس ، ورجعي محدود مارس تأثيراً مشزوماً على الاسكندر الثالث ونيكولا الثاني . أما «اورغيفسكي» فكان قائد الشرطة في عهد الاسكندر الثالث .

ولو آمن الناس بالله لما أمكنهم تجاهل هذا الواجب الأول نحوه : ألا يعذب الإنسانُ الإنسانَ ، ألا يقتله . وحيثُذ يصبح لهذه الكلمات : «دعوا مالمقيصر لمقيصر ومالله لله» ، دلالة واضحة ودقيقة .
يقول المؤمنُ :

- للملك أو لمن تشاء ، كلُّ مايشاء ، على ألا يناقض مشيئة الله . يريد قيصرمالي ، هاهوذا ؛ يريد بيتي وعملي ، خذهما ؛ امرأتي ، أولادي ، حياتي ، خذ كل ذلك ، كل ذلك ليس لله بل لمقيصر . أمّا أن أقف وأمد عصاي على قربي ، هذه قضية مع الله ، هذا عملٌ من حياتي يجب أن أقدم حسابي عنه لله ، ولم يأمرني الله أن أتصرف هكذا ولا يمكنني أن أسلم بذلك لمقيصر . لا يمكنني أن أقيّد إنساناً ، وأن أسجنه ، وأن أعاقبه ، وأن أقتله ، كلُّ ذلك هو حياتي ، وهي تخصّ الله ، ولا يمكنني أن أهبها ، أن أضحي بها لأحد ، ماعدا الله .

إن هذه الكلمات : «الله مالله» تعني لنا أننا يجب أن نقدّم لله شموعاً وصلوات وكلمات ، وعلى العموم ، كل ماليس ضرورياً لأحد ، ولا لله ؛ وكل ماسوى ذلك : كل حياتنا ، كل قداسة نفسنا التي تخصّ الله ، كل ذلك نهبه القيصر ، أي نهبه رجلاً غريباً نكرهه .
لكن هذا رهيب ، أيها الناسُ ، فتذكروه .

الحفش

نقلها إلى العربية
صلاح دهني



١٩٨٨

الهيئة العامة لكتبة الإسكندرية	
٨٥٦, ٨٣	رقم النسخة:
٤٢١٥٦	رقم التسجيل:

الحفش

يوري كازاكوف (الاتحاد السوفياتي)

Youri Kazakov (URSS)

★ يوري كازاكوف: ولد في موسكو عام ١٩٢٨. نشر عدة قصص طويلة
شبهت من حيث قيمتها الشعرية بأعمال تورغنيف. فرض نفسه كأحد أهم
الكتاب السوفييات في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية.

يحس المرء بالدفء مع أن الطقس بارد . وأشعة الشمس التي تعكسها كتل الجليد والمياه الفيروزية تعبر الأهذاب المسبلة وتبلغ العين فتبهرها . وخطّ السّهب الجليدي يبدو قريباً ومنخفضاً إذا ما نظر إليه المرء من ناحيتنا ، إلا أننا نسير ، نسير ويظهر كما لو أن الساحل يبتعد . نظرة إلى الهضاب المزرقّة أو إلى كتلة الجليد التي تعبر ، ثم ما إن تعاود النظر إلى الشط حتى يبدو أشدّ بعداً مما كان . مياه هادئة ؛ غير أننا نشعر بأن كل شيء يرتعش من حولنا ، وأن الرّوى وتهويل السراب تطوقنا . ونسقط فيما نتصور أنه شلال ماء ثم يدهشنا أننا لم تبتلعنا موجة نهضت كما جدار ، ثم ها نحن صرنا فوق رأس قمة ، ويبدو آنذاك لا أن الأفق وحده قد انفتح بل الغيب كله كذلك ؛ فبعيداً تتلامع البحيرات ، وتتفكك عرى الأنهار بتكاسل . ويتراءى مقدم السفينة معلقاً أو مركزاً فوق حاملٍ هوائيٍ شافٍ .

ثمة رجال عن يسار يتحركون فوق قطع الجليد ، يتجمعون ويتفرقون وما من أمرٍ غريب فيهم سوى ألبستهم الشاذة . وعن يمين ، عند حافة الجليد الساحلي ، هنالك دب يستقي من مغيض ؛ بطنه مصغّر ، ولشفتيه

السوداوين حواف كهرومائية، وعيناه سوداوان... أنظر إلى صحي. كلا،
ما من أحد يُشرع بندقيته. كلهم جلوس، قد استولى النعاس على عيونهم.
بل إن ثلاثة منهم ناموا ملتفين على أنفسهم في أسفل السفينة وقد غطوا
عيونهم بطاقياتهم... منهكين!

يتملكني إحساس منذر بالخطر، يسري في سريان تيار دقيق. ثمة أمر
غريب موشك على الوقوع... كل شيء مهيباً؛ فقد اجتزنا مئات
الكيلومترات عبر كتل الجليد، والشباك قد نصبت، والمنطقة المسوّرة
جاهزة، والمحركات ضبّطت. وهي ذي السفينة تغفو، تهددها رياح
السهب الدافئة، ورجل المناوبة وحده ساهر في عيش المحرس. أنه يرصد
سمك الحفش الروسي.

إن الدروب التي يسلكها غامضة وما من صياد يعرف في أية مياه خفية
يظهر السمك، ولا لماذا يتجه بدأب وعناد في اتجاه الشرق عبر المحيط
القطبي، ولا أين يختفي فيما بعد.

ثمضي نحو الشاطئ لنصطاد أنواعاً من سمك السلمون؛ تدعى أومول.
نجر خلف سفينتنا قارباً قابلاً للانشاء، يشق الماء البارد حتى بالنسبة
للنظر، ويسبب زبدًا خفيفاً كأنه ندف أبيض. وفي القارب حفظت
الشباك المثلثة وقدّر معدنية سوداء.

قال لي الميكانيكي الرئيسي: «ها يا يورا، لسوف نملاً جوفنا بحساء
السمك»، ليأخذه الشيطان! الريح، كالماء، ساكنة. والطقس جد حار
حتى أن الثياب المكسوة فرواً تبدو فجأة غير محتملة، فيتذكر المرء أن
الزمن صيف، غير أن هناك شريطاً أسود يتشكل قربنا فيجعد صفحة الماء
ويتوسع فتحمل إلينا الريح الخفيفة برداً يجعل واحدنا يتدثر أفضل ما

يسعه ذلك . أهبط إلى أسفل السفينة ، فأتكىء بظهري على مقعد ، وأرفع ناظري : ما في السماء كلها سوى ثلاث غيمات ثابتة . وإنما لتبدو رخية وبراقة وقد أضاءتها من أسفل انعكاسات الأشعة فوق الجليد .

أرنب بنظري إلى الغيمات ، فأتذكر الأيام التي انقضت : سفينة الصيد السريعة ، والأمان الوقور الذي كنت أستشعره فيها ، فلا أكاد أنام ، وأقضي النهارات والليالي فوق السطح . بل إن أياً من الصحب أيضاً لم يكن ينام لأن سفينة الصيد مع طاقمها لا تخرج سوى مرة واحدة في العام لصيد الحفش ، وكل يتساءل عن امكان نجاح الصيد ، وإمكان تفادي محاصرة الجليد للسفينة ، أو عدم تسبب عاصفة في غرقها وهي في طريق العودة ، وقد حل فصل الخريف .

كم ذا كانت تلك الأيام على السطح جميلة ! فالرجال كلهم كانوا نشيطين ، يعملون بسرعة واثقان ، بعض منهم بالقميص وآخرون بالسترة القصيرة أو بنصف كم ، وبعض عراة حتى الزنار . كان ثمة من يصلحون الشباك الخارجة من العنابر ، أو من يعقدون حبال الطوافات المطاطية ، أو يتفقدون محركات القوارب ، أو يملطسون الزوارق ويهيئونها . وكان الصيادون بالخطاطيف يجربون بنادقهم فينكسر الصدى الحاد ثم يعود فيتردد فوق قطع الجليد .

والجليد ملء الدنيا ، حتى آخر مدى الأفق :

كانت كتلة منه تقترب فتنتطح هيكل السفينة بضربة صماء ، فتصير ثم تتخلص وهي تصدر ضرباً من الصغير . أو أنها إذا ما انحرفت تحت جسم السفينة ، زحفت تحت جزئها المستدير ، ثم بشهقة وضجيج جنح تراها

انبعجست عن يمين أو يسار حتى علو السطح ثم عادت فسقطت ضابجةً صاخبةً.

ملء الدنيا : طيور البط. كانت تضرب بأجنحتها صفحة الماء فيما هي تبتعد بمقدار ما يسعها من سرعة، وتغطس، غير أن الماء جد شفاف حتى لكأنت تظهر من سطح السفينة وهي تسبح، متطاولة حيناً، وحيناً متقبضة. وفوقنا، الطيور القطبية، وهنا وهناك عجول البحر تنسحب رؤوسها السوداء على شفا الماء، تُرى من هذه المسافة مشكلة رسماً جميلاً. وكانت النوارس تسبح في الجو منسابة بتكاسل حتى تبلغنا، فتتوقف لحظةً ما كما لو كانت معلقة بأسلاك غير مرئية فوق مؤخرة السفينة - ثم تبتعد.

يتشكل ضباب يزحف نحونا.. ضباب خفيف في بداية الأمر لا يلبث أن يتكاثر وكان المراقب من أعلى المرصد يأمر النوتي: «يساراً، يساراً. حافظ على الاتجاه»، تفادياً لكتل الجليد. وفوقنا كانت الشمس تلتمع دوماً غير أننا لا نراها، وثمة قوس قزح يتشكل. ويعلو بصورة حدوة حصان حتى منتصف السارية. وهو حيناً ثنائي وحيناً ثلاثي، حتى ليتمكن لمسه باليد، وفيما السفينة تغير مسارها دواماً، كان قوس القزح ينتقل من جانب إلى جانب... وكانت السفينة تتقدم، بيضاء، مطهرة من الدم، ما تنفك بريئة غارقة في لجج الضباب في قوس قزح.

حددت أجهزة القياس موقعنا على بعد عشرين ميلاً من الشواطئ. ومن بعد لم نعد نسمعها فتوجب علينا أن نمر على غير هدى. محاولة أخرى، وفشل آخر. لزمنا عند ذلك أن نرجع إلى الرادار الذي جعل شعاعه الأخضر يدور على الشاشة. كنا دوئماً ريب، بناء على حساباتنا، على بعد عشرة أميال من الشاطئ، غير أن الشاشة ظلت فارغة. وكان

...

المسبار اللاسلكي يشير إلى عمق مئتي متر، إلا أن الأعماق في هذه المياه
جد متباينة الارتفاعات بحيث كنا نخشى في كل حين أن نصدم الصخور .
فتوجب علينا أن نزيد من تمهلنا، وأن نضاعف المناوبات... كانت الساعة
العاشرة ليلاً. وقد انبثقت غيوم وزادت عتمة السماء .

على حين غرة، لم يشير المسبار اللاسلكي إلى أكثر من خمسة عشر ثم
عشرة أمتار. فأمر الربان من فوره بالسير عكسياً إلى وراء، وتجمدت
السفينة في مكانها. وصرخ الربان خارجاً من قمرة: « يا رئيس الطاقم،
الق المرساة ».

فصرت سلسلة المرساة مدة تقارب الدقيقة خلال امتدادها، ثم انها
تثبتت دون بلوغ القاع.

« يا رئيس الطاقم، أمر الربان، قم بقياس العمق بالمسابير ».

فعدت المسبار كله، خمسة وأربعون متراً، دون أن يبلغ القاع. كنا قد
تجمدنا في الصمت المطبق وفي الضباب. وكان في وسع المرء إذا ما دقق
النظر فقط من جهة اليمين أن يبصر في صدر السماء صفاً من الغيوم
الليلكية، كانت تقنع الشمس.

توجب التحقق من سلامة المسبار اللاسلكي. فتبين أن شريطة الذي
يفترض بقاؤه رطباً، كان جافاً. فلما رطب عاد المسبار اللاسلكي يشير
بانظام إلى عمق مئتي متر.

فغمغم الربان وهو يحفف جبينه: « قبح الله التقنية. اسحبوا المراسي » !
عدنا نتقدم ببطء على هدي الرادار، فما هي إلا فترة وجيزة حتى جعل
الشعاع الأخضر على صفحة شاشته يخط خطاً عصبياً: أرض!

كيف كان يدعى النهر الذي كنا نندفع نحو مصبه؟ لم أحفظه... ومن كان الرجل الذي اكتشفه فمنحه اسمه ومتى؟... كنت أتصوره والتيارات السريعة تجتازه، حاملة مياهاً طينية ممزوجة بدوامات مزوبعة تسبب على طول مجراها تشكّل الضباب والصقيع. لقد عرفت أنهاراً من هذا النوع في شبه جزيرة كولسك. وأصيغت إلى هديرها وتابعت بنظري مياهاها التي لا تقل ثقلها وتوجاً عن لب مخزن حطب. تسكنها أسماك نادرة ويحدث أحياناً للمرء أن تصدر عنه حركة تراجع وخوف هبيج حينما تنط فجأة، تحت قدميك، على ظهر السفينة، سمكة سلمون. وثمة حجارة باهرة الحسن ومجلوة بالثلوج والمياه، تؤزّر أنهار السهب تلك. وتغطيها طحالب جد طرية على صفحاتها الشمالية، فتلتمع وتسخن في أيام الصيف الجميلة. وإنها لمتعة أن يتمدد المرء عليها بعد أن ينزع عن ظهره حقيبته المبللة بالعرق إثر مسير طويل.

هنالك في الزورق حركة. يقول أحدهم، رافعاً صوته لتغطية ضجيج المحركات، إن عند مصب النهر كوخاً يعيش فيه، منذ أكثر من خمسة عشر عاماً، صياد وزوجته البالغة الجمال... يتباطأ المحرك. فأنهض منتصباً: إننا نلج مصب نهر بطيء وداكن.

إن الأنهار التي تصب في البحر الأبيض وحشية وقاحلة، ولكن المرء يكتشف أثر الإنسان حتى على ضفاف أكثر الأنهار بعداً عن الحاضرة: رحي علف، قوارب جانحة، مخالب تثبيت للجليد ملقاة على الشط، أو أوتاد تحدد موضع موقف قارب، بقايا نار، صليب عتيق أو حتى «أيسبا» (منزل خشبي) خال ومهدم. أما هنا، فما من شيء يحيد النظر. فالنهر مسطح فارغ يسري ما بين هضاب جرداء... أرسينا الزورق وعدنا

بالقارب المحمل شباكاً، وقفزنا إلى اليابسة. بدا كل شيء بالغ الهدوء وبالغ الوحشة، حتى أننا سارعنا إلى إشعال غلاييننا ولفافاتنا. بعيداً عنا كان هناك مستنقع يلمع، وآخر أبعد بقليل عن يمين. وتمتد من فوق، سلاسل سوداء تشبه بعض حين غيوماً صغيرة داكنة: أسراب بط تطير فوق مستوى المياه الهادئة.

« انظر يا يورا، يقول لي ايليا وهو يشرع بندقيته... هل ترى ما أنا أرى؟... فيقاطعه الربان:

- انتظروا الصيادين. ماركو فيتش، شيلكوف، امضيا فاحملا القدر إلى الإيسبا وأبلغا صاحبها إننا قادمون بعد قليل ومعنا سمك للحساء. أما المضيفة فقولا لها أن تتزين لأن معنا شعراء مشهورين من موسكوا وهم يكتبون عن الحب وسيتغنون بها بأشعار غنائية! »...

كان الربان يضحك بقلب خلي ويدفعني بمرفقه. كنت قد لاحظت للتو وجود حزمة حطب قرب الشط، وركام داكن لا أدري ما هو في السهب، كما لاحظت أخيراً في قلب فرجة رملية - وجود منزل رمادي مزرق. كنت أبحث دون جدوى عن آثار أخرى فيها البحاران يلجان الماء لأخذ القدر التي بقيت في القارب ولتجهيز الشباك، وقد أثار حمتها الربان الذي كان يستعجلها.

سألني ايليا:

« هل سبق لك يا يورا أن ذقت سمك الأومول؟ ما من تشابه إطلاقاً مع طعم السلمون. سترى ذلك في الحساء.

- أو مجففاً مع الجعة، تدخل الربان قائلاً، ثم صرخ: من الذي يرتب

خيوط الصنانير على هذا النحو ؟ وخاض متعجلاً في الماء .

كانت قطع جليدية تسبح في مصب النهر . وعند خط الأفق كانت سفينة الصيد تظهر معلقة فوق مساحات الجليد . تمنيت لو كنت وحيداً ، فتناولت بندقيتي ، واتجهت نحو المستنقع ، إلا أنني ما كدت أقطع مئة خطوة حتى اضطررت للعودة : فالبعوض الذي كانت الريح الصقيعية تبعده عن الشاطئ ، ألقى بنفسه عليّ في دفء السهب .

جهزت شباك الصيد المثلثة آخر الأمر ووُضعت في القارب الذي ابتعد عن الساحل . جعل بحار متين البنية يجذف فيما رفيقه يلقي الشبكة بسرعة . بلغ القارب وسط النهر وألقيت شبكة أخرى . وعاد القارب بعد أن هكل في مساره نصف دائرة واسعة . فأخذنا في مجموعتين نسحب الشبكتين ونحن نرسل صيحات قوية ، ونؤشر ونصول ، وحين ظهر قعر الشبكتين ألقى بعض البحارة بأنفسهم لتخليصه متر ششين بالماء من القدمين إلى الرأس . وقد قطعت الخيبة نفْسنا : فوسط الطحالب التي استخلصناها لم يكن هنالك سوى بضعة أسماك « أبو لحية » تتخبط . ألقينا بها على الطحلب . وعدنا نلقي الشبكتين في القارب ومضينا إلى موضع أبعد بقليل نجرب حظنا . وغمغم ايليا وهو يحفف العرق عن جبينه :

« يا للشيطان ! ما الذي يحدث ؟ لا نجد شيئاً هذه السنة . مرّ وقت ... يساراً أكثر » صرخ ، وجعل يعدو فوق الرمل ليشرف على إلقاء الشباك . توجهت بنظري من جديد نحو الإيسبا بتشوق متزايد بسبب ما جعلت أُميّز فيه الآن من علامات حياة . وقد استأثرت لعبة الصيد باهتمامي فجعلت أسحب الشباك ، إلا أننا لم نجد مرةً أخرى سوى أسماك أبو لحية صفراء ورمادية .

وكما يحدث في الحكايات، اعتزم الرجال إلقاء الشبكة مرة ثالثة. أما أنا فرحت أصطاد نفوساً ولذا توجهت نحو الإيسبا مردداً بيني وبين نفسي: «خمس عشرة سنة من الوحدة، ليس هذا بالأمر الطفيف»! كانت هنالك الزوجة والولدان. ولعله كان يحضر صياداً ما صيفاً. بعثة تقضي الليل في هذا الملجأ. بعض اللابونيين يراعون الأياثل في الجوار... ولكن ماذا عن الخريف! الشتاء!...

وإذ اقتربت، أذهلني حجم الإيسبا ولونها: فقد ابتنتبت بالخشب المتموج المشرب بالملح البحري وبالذرة القاسية، وفي زوايا البيت كانت بروزات العوارض قد تهرأت بفعل الثلوج والأمطار. والنوافذ صغيرة، وفسحة المصطبة جد كبيرة، أما الباب فقد ركب تحت السقف مباشرة.

«هيا، صاح بي البحارة من بعيد. وماذا عن هذا الصيد؟»

كانت القدر قد وضعت على النار. ودخان خفيف ينتشر في السهب. وكانت الأشراك والأفخاخ القلابة مكدسة قرب الفسحة، وفراء ممسرة على الحائط وكلها اسكيمو يلاحق كل منها الآخر. وفي كل مكان، بنحو متفرق أو مجتمع باعثناء، عصي صيد وأدوات صيد مائي وبري متنوعة... ورائحة طحلب يابس طيبة، وماء مملح وأسماك مجففة...

لدى سماع أصواتنا، خرج صاحب البيت إلى المصطبة. كان رجلاً جافاً، يتأرجح ما بين عمريين، حليقاً فيما عد شاربين كثيرين. مدّ لنا يده وأمال رأسه بعض الشيء داعياً إيانا للدخول.

«ههنا، ما يشبه المستودع»، قال باسمًا حين دخلنا الزريبة وأشار إلى الباب الذي ظلّ موارباً. لم أتمالك نفسي عن دفع الباب: غرفة فسيحة،

تضيؤها كوة وحيدة كدست فيها جلود الأيائل، الفراء، المطرات،
الشباك، أخشاب الأيائل، المدافئ المحمولة، أدوات المطبخ، أكياس
الطحين، الأسماك المجففة، علب المحفوظات والمربيات.

كنا نسمع في الإيسبا الساور وهو يغلي: قطعة زبد في صحن، سمك
مملح، زجاجات فودكا ذات انعكاس أخضر. من حول المدفأة، كانت
المضيفة الشابة تتحرك وقد تزينت بالأحمر ورجلت شعرها، وصبيان
خفران ظلا جالسين باحتشام في زاويتيها. اتخذنا أماكننا إلى جانب
المضيفة قرب النافذة المحمية بنبتات غرنوقية مزهرة. وكثانت الشمس
تضفر أشعتها على الأرض الخشبية.

«الجو هنا طيب، قال المضيف وهو يزيح أصص النباتات، غير أننا لا
نتمكن من فتح النوافذ بسبب البعوض. إنه لا يدعنا نستريح». كنا
ندخن صامتين، ونتملى من مشهد المرأة داخلة خارجة، مهيئة المائدة فيما
الصبيان يتفحصان البندقية التي علقتها عند المدخل ويتبادلان الحديث
بصوت خفيض.

«إنهما في مدرسة «أمبيريه» الداخلية. صيادان في الأعماق. لكنني لا
أعيرهما بندقيتي الوينشستر. لهما معاً بارودة واحدة: كبيرهما، ذو الشعر
الأشعث، علم أخاه كيف يطلق طيور القنص. إنه يخيف البط في حين
ينتظر الثاني وقد ألقى مع بارودته... وأنتم؟ هذا الصيد؟

- رديء، أجبته، بضعة أسماك أبو لحية فحسب.

- هذا ما أقوله، سمك الأومول اختفى... نصبت شبكة في مسيل ماء
ولا شيء يسقط فيها...»

أبصرت بقعة بيضاء فوق رابية يحلوها النظر من النافذة...

« إنها طيور البوم القطبية. وهي كثيرة هذه السنة. جاءت اللاموس الفأرية إلى هنا فلحقت بها البوم ».

فرقعات أصوات، انفتح الباب ودخل الربان:

« تحية، يا بتروف. كيف تعاملتك الحياة؟ ما من فودكا، قال وقد أبصر الزجاجة. احتفظ بها لنفسك. لم تأت من أرخنجلسك لننهبك. ماركو فسكي، امض فاجلب هدايانا. بليوف، اسرع إلى البركة، نظّف السمك لعمل الحساء. قل يا بتروف، هل ازدردت السلمون كله؟ »

أعادت المضيضة الفودكا، ووضعت السماور. رحنا نغسل أيدينا ووقفت المضيضة قرب المغسلة لتقدم لنا المنشفة. كانت عيناها تبرقان...
كان البحارة يؤججون النار في الباحة، والقدر تدخن. وكانت الطلاب تغمغم فوق المصطبة، راغبة في الدخول.

« وسمك الحفش؟ سأل الربان بعد قدحه الأول.

- جدّ قليل، حوالي العشر. عدها الولدان.

- ستأتي أخرى! سننفذ الخطة. والثعالب الزرقاء؟

- لا أتشكى، قال المضيف، وهو يرمي زوجته بنظرة.

- فهمت.

- ليأخذك الشيطان. سوف تصبح مليونيراً عما قريب»، هتف ايليا

الذي كان قد شرب بعض الشيء...

أخذ البحارة ينقلون الحساء.

قالوا إن سفينة الصيد الأخرى آتية إلى هذه الناحية.

- لم يتحملوا، قال الربان ضاحكاً، هفت نفوسهم إلى حسائنا...-

تبين على غير انتظار بأن الحساء لذيد... إلا أنه لم يكن هو الذي يستأثر باهتمامي. غادرت البيت في انتظار أن يفرغ المضيف من طعامه.

لم يكن داعي الريح هو الذي يستبقه هنا، طوال تلك السنين. الحرية، المدى، الصمت... معرفة الانسان بأنه، هنا، السيد الوحيد، ملك الخليقة على مدى عشرات الكيلومترات من حوله... ثمّة أسراب من البط تهتاز آلاف الأميال لتأتي إلى هنا، لتضع هنا وليس في أي مكان آخر، آلافاً أخرى من البط... في السهب كله، تربي الثعالب الزرقاء صغارها الآن، الأسماك تشق الماء في البرك وفي الأنهار، ويبدو كما لو أن ذلك كله إنما يحدث من أجلك، من أجلك وحدك...

ولكن حين يحل الخريف! والشتاء! أي فؤاد يجب أن يكون للشر حتى تتمالك نفسك وسط ليل بلا نهاية، عواصف، أمطار. إن قضاء سنوات في ايسبا صغيرة، تنار بالنفط، ونصب مئات الشراك للثعالب ثم التجوال عبر مئات الكيلومترات في كل طقس، الانغراز في الثلج والعاصفة وتحيل انك صنعت، حرمان النفس من كل المتع وإلى الأبد على وجه التقريب - لا من الموسيقى، المكتبات، المتاحف، ومن كل الخيرات التي تدعي ذهنية فحسب، بل حتى من متعة الاستلقاء فوق الرمل على ضفة نهر من أنهارنا الروسية الرائعة، التجول في الغابة بحثاً عن الفطر، التحدث مع قريب لك... لم هذه التضحيات كلها؟ من أجل أن تتمكن سيدة، في مكان ما

في لندن أو نيويورك، من الهبوط من السيارة متدثرة بشعالب زرقاء ثم
لتتوجه إلى المطعم...

★ ★ ★

تناول البحارة بنادقهم وخرجوا إلى صيد البوم القطبي الذي كان
بياضه مميزاً فوق اللون الرمادي اللؤلؤي للهضاب. فرقعت طلقات نار
جافة ومخنوقة في الوادي. وما كانت طيور البوم لتعيرها انتباهها حتى لولا
أن الرصاصات كانت تنتزع جزازات من الطحلب على بعد قريب منها.
كانت آنذاك تطير، ثم تحط للتو تقريباً، وتطير من جديد.

« لن يتمكنوا منها، قال المضيف باشاً. إنها على مبعدة كيلومترين.
تلزها بندقية خاصة.

- لا بد أنك رام ماهر، قلت له من أجل تحريك المحادثة.

- لدي بندقية جيدة: وينشستر مما قبل الحرب، الأولى، الامبريالية.
لكن الطرائد قليلة... وفي الشتاء أحتفظ بها لتحميني. الدببة البيضاء.
إنها تأتي أحياناً في جماعات من ثلاثة، أو أربعة، غير أن صيدها محظور.
وفي مكاتب الشراء يرفضون جلودها.

- هل ولدت في الجوار؟

- في أرخنجلسك. كنت في البداية بحاراً... غير أنني لا أحب
البحر... بعد رحلة... اتخذت لنفسني زوجة بطريقة غريبة أيضاً. لم
أتزوج كالأخرين... لا أدري كيف فعلت...

★ ★ ★

أمسك عن الكلام، وبدأ مصغياً، مال على النافذة. فعلت مثلها فعل
فرأيت سفينتنا الثالثة تدخل مصب النهر.

نادي مضيفنا الربان:

- الكسندر ماتفيتش، يبدو أن جماعتك لم يأتوا لأجل الحساء !
يلوحون، ينادون... لا أفهم ما الذي يريدونه ؟

هرع الحضور إلى النوافذ، وخرجوا إلى المصطبة. كانت السفينة تدخل
النهر وحجبتها رابية عن الأنظار. سمعنا طلقات المحرك الحذرة الذي ما
لبث أن صمت. وعند الأفق رأينا فرقاطتنا ما انفكت معلقة فوق الجليد
على حامل شاف وهوائي. كان الخليج الهائل مزروعاً بقطع الجليد، والرياح
الخفيفة الباردة تهب من المحيط، فيما السهب يتوجع تحت الشمس. الصمت،
الهدوء...

استبد بنا القلق اثر ذلك: ففيما كنا نأكل ونتمازح حصل أمر غريب في
السهب والمحيط. ظهرت قامات على رأس الرابية جعلت تؤشّر لنا.
« ما الذي يحدث هنالك ؟ غمغم الربان بعصبية قافزاً من فوق
المصطبة.

انفصلت قامتان - عن الأخريات وتقدمتا في اتجاهنا بسرعة فائقة.
كانتا تصرخان لكننا كنا نسمع فقط:

« آ - آ - آ »

- ماذا ؟ لا نسمع ! صاح الربان، ويده إلى أذنه.

سمعنا آخر الأمر بوضوح :

« حفش ، حفش » !

يا للبلبله التي حدثت ! خلال الصيد ، والطعام ، خلع أكثرنا ستراته ، قمصانه ، أحذيته ، ألقى الجميع بأنفسهم على الملابس ، الشباك ، القدر . لبست حذائي ، تناولت بندقيتي ، نظرت إلى مضيبي مستأذناً . ابتسم لي على المصطبة ابتسامة حزينة . كنت أقاسمه حزنه : فإن أراه ثانية ، أتحدث إليه مرة أخرى : لن يحدث ذلك قط ! لن يحدث قط لن أعرف أبداً كيف يعيش هنا ، إذا كانت تنتابه أفكار سوداوية ، إذا كان سعيداً ... بعد دقائق عشر كانت السفينتان تغادران النهر ، تخرجان إلى المحيط . كنا جميعاً متوترين ، متهيجين .

★ ★ ★

كانت العودة إلى سفينة الصيد مثيلة الرجوع إلى البيت . لحس الكلب كلاً منا وركض فوق سطح المركب ، وتبع الربان الرجال الذين بينوا بأن الحفش عبر نحو عرض البحر وهزأوا منا لأننا لم نحصل على سلمون . مكث الربان فترة طويلة معكر المزاج مؤاخذاً كل فرد ، غير أننا ظللنا مبتهجين وواثقين من أننا وصلنا في الوقت المناسب . فأسراب الحفش بدأت تأتي نحونا . وآرخنجلسك ، التجهيزات ، العبور ، صارت كلها خلفنا . أماننا : ما كان هنالك سوى الحفش .

لم يعد الراصد يغادر قط مرقبه ، وبنظاراته المكبرة يرصد الأفق . لا شيء ، فجعلتُ مذ ذاك أتأسى لتعجلنا بمغادرة الإيسبا . نلجأ إلى أسرتنا عند الفجر : الشمس ، النسمة الهادئة النقية ، أسراب البط التي تتسلسل . أصابني

الغم فطلبت وحصلت على إذن بالصيد وحدي فوق طوف. أنزلتني السفينة، ومضت. تملك جنائي شعوري بالوحدة واستولت على ذهني أفكار غريبة: فالسفينة لن تعود قط، وسيحدث شيء ما للزورق فيختفي من الوجود. غير أن البط كان يطير من كل مكان. فجعلت أطلق النار وجعل قلبي يخفق كما لو كان لم يفعل منذ زمن طويل. نسيت كل شيء، وقد أخذتني رجفة الحماسة: كنت وحيداً في الدنيا وأسراب البط كلها تطير نحوي...



بعد العودة، فيما كنت أدخن مستلقياً فوق السطح، وقد سلّمت بطاتي للمطبخ، ارتفع فجأة صراخ:

« الحفش! الحفش! يقترب! »

زلزلنا الصراخ الساقط من صاري السفينة. كان يطاردنا فنقفز كيفما اتفق إلى الزوارق. كم من مرة كشفنا على المحركات! بأية محبة اعتنينا بها، أصغينا إليها، لكن بالتأكيد، في اللحظة الحرجة، حين آن أو ان كل ما جئنا من أجله وما حلمنا به عبر شهور الشتاء والربيع كلها، امتنع اثنان من المحركات عن الدوران! استولت على الرجال عصبية كهربائية: فالأيدي والأرجل، الرؤوس المنكسة والمرفوعة تتحرك كأنها البرق. دارت المحركات آخر الأمر. استعنا بعصي معقوفة طويلة وتوجهنا نحو عرض البحر حيث كانت أسماك الحفش تتقدم على طول الشاطئ بصمت وسريّة.

بهرت الشمس المنعكسة على الأمواج نظري، وفجأة في اعقاب دقائق

طويلة، برز ظهرٌ ذو لون أبيض مبهٍر كانت حِسْكَته الفقْريّة مدبّية ومنحنية، وذيل متكامل في شكله، أفقي، جبار... ها هو ذا!

«ها هو! ها هو!» كرّرت عدّة أصوات مجتمعة.

في تلك اللحظة، وكأنّما الحفش كُله حرم من الهواء أو رغب في رؤية أولئك الذين يطاردونه، انبجست كتل بيضاء ثمّ عادت فاخفتت مثيرّة رشات صقيعية.

في تلك اللحظة الوجيزة، أمكنني أن ألتقط تفصيلات من تعابير، ومن حركات أذهلتني غرابتها وجمالها الوحشي.

رائع ومقزّز، برؤوس تشبه الخوذ الألمانية، ذات القبة الهابطة باستواء نحو مقدّم هو الأنف. كان يبدو أعمى بالولادة، مثل دود أرضي أبيض هائل الحجم لأن عيونه متوضعة في موقع خلفي بعيد وجانبياً في حين أنها لا يبين منها من أمام سوى الجبهة الميتة، بلا تعبير وبعناد. شيء ما من إله الموج: وحين كان واحد، بمفرده أو بمجموعات تخرج، تنتصب كما يقول البحارة، لكي تتنفس ثم تعود فتسقط بتمام كتلتها في الهاوية الخضراء، كان يخيل إليّ أنني أرى وحشاً كالسمندل أو كحيوانات العصور البدائية التي كانت تحتل الكوكب زمن كان غارقاً تحت المياه.

وكان سمك الحفش رائعاً: فجلدو مشدود مثل الحرير ومطاطي، ويقارب أن يكون كسولاً في جبروته وسرعته. كانت عنفاتنا تدور بأقصى قدرتها، فيما الحفشات تحرك بالكاد أجسامها وأذيالها، ورغم ذلك تحافظ على تقدّمها.

كان هوس القتل الرهيب قد تملكني فطلبت بندقية ثقلت على يدي،

معبأة بالرصاص بالطلقات المتفجرة التي تحدث ثقباً بجسم قبضة اليد في اللحم الذي تستقر فيه. إلا أنني حين رأيت تلك الأسماك، ألقيت سلاحي وجعلت أصلي: «يا رب، اجعلها تبلغ عرض البحر، ولتتعطل محركاتنا!...» وما الذي يحول دون قيام هذه المخلوقات الرائعة حتى إذا أخذت في أشراكنا، من تمزيق شباكنا، والقفز عبر عواماتها والمضي بعيداً لمتابعة حياة لا يتمكن الانسان لا من فهمها ولا من اخضاعها؟...

وفي خلال ذلك، كان الصمت يسود الزوارق. وكان الرماة قد تركزوا في المقدمة، والموجهون يرقبون الرماة والأسماك. كان الشغف ذاته يعمر نفوس أولئك الرجال جميعاً: فالرقاب ممدودة، والعيون مجمدة، والأفواه مفتوحة. ثمّة سمة فنتازية على وجوه الرماة حين كانوا - مثل قادة أوركسترات - يمدون أذرعهم لتوجيه الزوارق وجعلها تتبع أسماك الحفش أو تدور من حولها.

«إن أجسام تلك الأسماك، فكرت بيني وبين نفسي، سوف تذهب غذاء للشعالب التي ستقتل فيما بعد، وشحمها سوف يستخدم في صنع زيوت صناعية. فما الذي يهمها؟ وروحها، من يحتاج إليها؟»

لم تطلق النار. كانت زوارقنا تمضي مثل رعاة يتبعون قطعياً وبدأت العوامات منذئذ بالظهور: أخذت أسماك الحفش تعبر سياج شباكنا. أمامها، صفان من الشبابك، عن يمين الجانب، عن يسار صفان من الشبابك. ثمّة مخرج وحيد: أن تعود أدراجها.

منذ أن عبر آخر حفش المقطع العرضي من السياج، دوت أولى الطلقات النارية. كان الرجال يرمون في الماء لإخافة السمك، من أجل أن يغوص في عمق الشبكة فيضيق فيها. ألقى أحد الزوارق قارباً وجره نحو

الشاطيء فيما كان ركابه يلقون بالشباك بسرعة جنونية وبذا يحكمون اغلاق الفخ. وانقضّ الزورقان الآخران نحو عمق السياج الذي كانت الحفشات قد أخذت تعود منه. كان الرجال يطلقون العيارات النارية من بندقياتهم والصدى يرجعها، فتثير أعمدة من الماء وتعلقها فوق أقواس قزح عابرة.

كانت بعض الأسماك قد سقطت في أحبولات الشباك؛ فتظهر أجسامها الضخمة البيضاء وهي تتخبط في الأعماق حتى ليبدو كما لو أن البحر يوشك أن يرتعش إلا أنها ليست أكثر من حركة تغرق العوامات مدة لحظة. وقد عادت الحفشات الأخرى أدراجها؛ غير أن اللعبة كانت قد انتهت وانغلق الفخ. في لحظة ما اختفت الأسماك في الأعماق. بلا جدوى، فقد قضى عليها كلها؛ منذ كم من السنين، وعبر أية محيطات، طافت بحياتها. لسوف تموت كلها؛ كان قلبي يتفطر. كانت مع ذلك قوية وكان في وسع كل منها بضربة من ذيله أن يجعلنا نتأرجح. لم تكن تعرف شيئاً غير الاختباء إلى أن تحين لحظة... هو ذا ظل منور يمر تحتنا. ننطلق إلى مطاردته. يصرخ الرامي «يساراً» ويرمي في الماء عن يسار السمكة التي تغير مسارها بشيء من التكاسل، كما لو كانت تأسف لما فعلت، وتنثني يميناً... تطلق النار على يمين السمكة. وهكذا بالرمي حيناً عن يمين، وحيناً عن يسار، كنا ندفع الدابة أمامنا ولحول دونها وتغير مسارها أو الغطس تحت الزورق - إلى أن ينقصها الهواء. فلا يطيق الحفش ذلك، فتخور قواه تحت الماء، ويتوجب عليه بأيامئذ أن يصعد إلى السطح. يستبين شكله، ويظهر لونه الصحيح. يبدو عظيماً. يفتح البحر بضجيج حريري، وتبرز الجبهة والخطمان الأسودان، وفي تلك الجبهة يغرز رامينا رصاصاته.

كنت قد تصورت نزعاً ضاجاً: الماء الراغي، ضربات الذيل، صرخات مخنوقة. كلا، اختفت الجبهة، تجمد الذيل، انبسط الجسم، غُمي، انفتحت الغلاصم كما من استمتاع، وجعلت السمكة تغوص فيما أشعة الشمس تتلاعب فوق جثمان الحفش. كان قد قضى نحبه. خارت قواه، ونضب قلبه وهو يُفرز غيمات من دم وردي كانت تتسرب من حول الرأس الكابية وتطفو.

« إلى الورا سر ! ضجت المرساة وأحاطتنا بآلاف الفقاعات المتألقة.
« الدافعات ! »

استخرجت الدافعات. بدأت حركة السير على طريق العودة فأخذت الفقاعات تحيط بالحفش فيما الدافعات تستدرج جسمه الطري، الأنثوي، وتسحبه بنعومة نحو مقدم السفينة... فوق سطح الماء ظهر الذيل الرائع، فعقد البحارة من حوله أنشودة متحركة ثم رفعوا السمكة، وفيها هم يجفون جباههم استدار كل منهم ليرى ويصفي إلى الضربات التي كانت توجهها الزوارق الأخرى. في غضون ساعة كانت أسماك الحفش كلها قد قتلت. وتم رفع تلك التي حوصرت واختنقت في الشباك ومن باب دفع الشك باليقين غُرزت في رأسها رصاصة. عُلقت الأذيال بانشوطات متحركة حتى صارت الزوارق بحيث جعلت المراسي تبرز من الماء فاضطرونا للتجمع في خلفية السفينة. هكذا، ببطء، سلطنا طريق العودة مخلفين وراءنا خطاً من الدم. علق السمك فوق سطح السفن. فقطع وفسخ. والدم يسيل. وكانت الأحشاء تلقى في البحر كتلاً. فجعلت غمامة من النوارس تدوم فوق سفينة الصيد. صيحات واضطراب لا يتصوره العقل: الأحذية والصدارات، الأيدي، السطح، جوانب المركب، المياه من حوله، كان كل شيء نحرّاً من أثر الدم... كانت الشمس مع ذلك

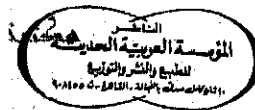
ساطعة وقطع الجليد تنزلق بنحو خفي من حولنا. فيما بعد ألقيت جثث
الحفش في العنابر وملحت، والجلود السمكية بمقدار نصف بوصة علقت
على سلك غليظ وألقي بها في الماء الجليدي حيث صارت تشبه وريقات
زهرة هائلة الحجم. ثم غسل السطح. عاد الماء صافياً وانصرفت النوارس.
اغتسل البحارة، غيروا ملابسهم، طعموا، ثم إن بعضهم استسلم للنوم،
وآخرين جعلوا يتبادلون الحديث عن النساء أو يحركون أزرار جهاز
راديو. وثمة آخرون كانوا يدخنون، ينظفون بندقياتهم. ولكن في عش
المراقبة، فوق السارية، كان الراصد ساهراً، يدقق النظر في المياه من
حولنا من أجل أن يهز من جديد، بصرخة واحدة، أركان سفينتنا
الهاجعة:

« الحفش يقترب » !

حلمي مراد

الحب الأول

إيفان تورجنيف





الحب الأول

قصة كبرى للروائي الروسي
إيفان ترجنيف

الساعة الكبرى في غرفة المائدة تدق النصف بعد الثانية عشرة .. كانت المأدبة قد انفضت وانفرط عقدها ، ولم يبق في الغرفة غير رب البيت واثنين من ضيوفه ، هما «سرجى نيكولايفتش» و «فلاديمير بتروفتش» .. فدق رب البيت الجرس وأمر الخادم برفع بقايا الطعام ، ثم غاص في مقعده المريح وأشعل سيجارة ، وقال بلخيسييه : «لإذن اتفقنا .. فليرو كل منا قصة حبه الأول ، ولتبدأ أنت يا سرجى ...» .

فالتفت سرجى - وهو رجل صغير الجسم صبوح الوجه - إلى مضيفه ، ثم رفع بصره إلى السقف برهة كالمفكر ، وقال بعد حين : «لم يكن لى حب أول .. فقد بدأت بالثاني ١٠» .

- عجباً ، وكيف حدث ذلك ؟..

- إنه أمر غاية في البساطة . كنت في الثامنة عشرة حين أقدمت على أول مغامرة غرامية لى ، مع حسناء فاتنة .. لكنى لم أجد في حبها ، أو حب من تلونها من النساء ، أى جديد .. وعلى هذا فلانى اعتبر أن حبي الأول - والأخير - هو الذى أصابنى فى سن السادسة ، حين أغرمت بمرييتى ١٠ .. لكن تفصيلات علاقتنا ووقائع حينها ذاك قد تبخرت من ذاكرتى .. ولو كنت أذكرها فما أظنها تشوق أحداً ..

وسكت «سرجى» منبهاً كلامه .. فقال رب البيت :

«وأنا بدورى أعتقد أن قصتى لا تشوقكما .. فلانى لم أحب امرأة

قط قبل الثقاتى بزواجى « انا نيكولايفنا » .. وقد سار كل شىء بيننا طبيعياً ، وتم زواجنا ببساطة وفى أسرع وقت .. وهكذا تتلخص قصة حبي الأول فى كلمات . والواقع أنى حين اقترحت أن يروى كل منا قصة حبه الأول كنت أعتمد عليكما ، أنتما الأعززين المخضرمين .. وها هو سرجى قد خذلنى ، فهلا أنحفننا يا « فلاديمير » بقصة مسلية ؟ » .

كان « فلاديمير » رجلاً جاوز الأربعين ، ذا شعر أغبر كان فى شبابه فاحم السواد .. فقال بعد تفكير : « من حسن حظكما أن حبي الأول لم يكن عادياً ، فإذا شئتما رويت لكما قصته .. ولكن ، كلا ، لو رويتهما لجاءت جافة مقتضبة . الأفضل أن أكتبها بإسهاب وروية ، ثم أقرأها عليكما غداً .. » .

وفى الليلة التالية قرأ عليهما « فلاديمير » القصة التالية :

- ١ -

● فى سنة ١٨٣٣ كنت فى السادسة عشرة ، أعيش فى موسكو مع والدى .. فلما أقبل الصيف استأجرنا بيتاً فى الريف ، مواجهها لحدائق « نسكتشنى » . وكان والدى يعاملنى معاملة طيبة ، أقرب إلى التسامح وقلة الاكتراث .. أما والدتى — التى كانت تكبره بعشرة أعوام ، والتى تزوج منها طمعاً فى مالها ! — فكانت كذلك منصرفه عنى (برغم كونى ابنها الوحيد) إلى ملاحقة زوجها الشاب بغيرتها الشديدة وغضبها ، ولكن فى غير حضوره .. فقد كان

قاسياً حازماً بارد الأعصاب ، بحيث كانت تخشاه وترهبه ..
ولا تجرؤ على مواجهته بثوراتها !
وهكذا أتاح لي جو البيت أن أنعم بقسط وافر من الحرية ،
أفعل في ظله كل ما يحلو لي .. وخاصة بعد أن انتهت مرحلة دراستي
المتزلية على أساتذة خصوصيين ، وظفرت بعطلة طويلة استعداداً
لالتحاق بالجامعة بعد انقضاء الصيف ..
ولن أنسى الأسابيع الأولى التي قضيتها في ذلك المنزل الريفي .
كان الطقس رائعاً ، فاعتدت أن أتنزه في حديقتنا والحدائق العامة
المجاورة ، وفي يدي كتاب ما .. ولكن كان ينسدر أن أفتحه ،
ولمّا كنت أوثر أن أردد أبياتاً من الشعر الذي أحفظه بصوت
مسموع وأنا سائر بين الأشجار ، ودمى يجرى في عروقي ، وقلبي
يرف بين ضلوعي رفيفاً عذباً غريباً ، لا عهد لي به من قبل ! ..
كان يملأ أعطافي الأمل ، والترقب ، والخوف من شيء ما ،
والعجب من كل شيء .. وخيالي يخلق بي على الدوام في الآفاق
البعيدة ، ويحوم حول النزوات الحمقاء ، كما تخلق الحمام فوق
أبراج الأجراس عند الفجر ! .. كنت أحلم ، وأكتب ، وأبكي
أحياناً .. ولكن من خلال الدموع والأشجان كانت عذوبة النغم
الجميل أو فتنة الليل الساجي تنتزعني من همى فأستمرى الإحساس
اللذيد بالشباب ، والحياة الفوارة ، وأزدهر كما تزدهر الحشائش
في الربيع ... !

وكان عندى حصان أركبه ، فكنت أسرجه بنفسى وأنطلق
فى جولات بعيسدة أركض فيها خلال الحقول بأقصى سرعة ،
وأنا أتصور نفسى فارساً من فرسان العصور الوسطى البوابل ،
والهواء يهمس فى أذنى بالأمانى الحلوة ، فأرفع وجهى نحو السماء
أستروح لإشعاعها المشرق وأغترف زرقها الصافية ، فأملأ منهما
روحى الرحبة المفتوحة أبداً لاستقبالهما ...

فى ذلك الوقت لم تكن صورة المرأة ورؤى الحب تتخذ
لنفسها فى ذهنى صورة واضحة محددة .. ولكن فى كل أفكارى
ومشاعرى كان يكمن إحساس غامض خفى خجول ، نصف نائم
ونصف يقظان ، بشىء جديد .. عذب .. أنثوى ... وهو إحساس
هيمن على كيانى كله فتنفسته وجرى فى عروقى مختلطاً بكل قطرة
من دى .. فكان مصيره حتماً أن يشيع ويرتوى !

وكان بجوار البيت الذى استأجرناه فى ذلك الصيف مسكن
خشبي صغير معد للتأجير .. وذات يوم - بعد نحو ثلاثة أسابيع من
وصولنا - فتحت نوافذ المسكن المذكور وأطلت منها وجوه بضع
نسوة . كانت إحدى الأسر قد استأجرته .. وفى نفس اليوم
استفسرت أمى من الخادم ونحن حول مائدة الغداء عن جيراننا
الجلدد ، فلم يكذب ينطق باسم الأميرة « زازيكين » حتى عقلت أمى
فى لهجة احترام وتوقير : « آه ، أميرة .. » ثم أضافت : « ولكنها
أميرة فقيرة فيما أحسب .. » فقال الخادم وهو يقدم أحد أطباق

الطعام : « نعم .. فقد أحضرت متاعها على عربات بالأجرة ..
والمناخ كله متواضع من أحقر صنف ! » وإذا ذاك قالت أمي
« ملقة على كلامه : « هذا من حسن الحظ .. ! » فحدها أبي
بنظرة لوم صارمة ، أسكتها !
لكن الحديث كله لم يكن يعنيني ، فدخل سمعي من أذن ،
وخرج من الأخرى ..

- ٢ -

● وكنت قد اعتدت التجوال في حديقتنا كل عصر ، بحثاً عن
غربان أصطاها ببندقيتي الصغيرة ، وفي ذلك اليوم تمخضت
جولتي عن فشل ذريع .. وفيما أنا عائد إلى البيت صادف أن مررت
بجوار السور المنخفض الذي يفصل حديقتنا عن حديقة الجيران ..
وكان بصرى إلى الأرض حين طرق سمعي فجأة صوت صادر من
الحديقة المجاورة .. فالتفت ناحية مصدره ، وإذا بصرى يقع على
منظر غريب في بابه !

كانت فتاة طويلة رشيقة القد ، ترتدى ثوباً وردياً وتضع
على رأسها منديلاً أبيض ، منتصبه فوق الحشائش وسط « هالة »
مكونة من أربعة شبان .. تضرب جباههم الواحد بعد الآخر بغصن
رفيع من أغصان الشجر ، وهم يقدمون لها الجباه برضا وارتياح ! ..
وكانت حركات الفتاة وفتاتها فاتنة ، آمرة ، ساخرة إلى حد كاد
يخرجني عن طورى ويجعلني أصبح إعجاباً بها وافتناناً ، بل أتمنى

لو أنزل لها عن كل ما أملك نظير أن تمنحني ضربة من أصابعها
الريقة على جبيني !

وأذهلني جمالها عن نفسي ، فسقطت بندقيتي مني على الأرض
بغير أن أشعر . ونسيت كل شيء إلا المخلوقة الناعمة التي أراها
أمامي في وضع جانبي ، والتي راح بصري ينهب رقبتها العاجية ،
وذراعيها الناصعتين وشعرها المرسل تحت منديلها الأبيض . وعينها
نصف المعصتين ، وأهدابها الطويلة ، وخديها الناعمين ! .. وفجأة
صاح بي صوت رجل صادر من مدى قريب : « يا فتى .. يا فتى ..
أيليق أن تنظر هكذا إلى امرأة لا تعرفها ؟ » .

والتفت .. فإذا الرجل يرمقني من وراء السور بنظرة ساخرة ..
وفي نفس اللحظة استدارت الفتاة بوجهها نحوي . وضجكت ..
فبرقت عيناها الغبراوان بريقاً خلاباً ، ولمع بين قرمز شفيتها صف
من الأسنان اللؤلؤية الجميلة .. فلم أملك غير أن غصضت الطرف
في إجفال ، ثم التقطت بندقيتي ومضيت . وضجكتها الموسيقية
تدبني .. حتى بلغت غرفتي فارتيمت على الفراش ودفنت وجهي
بين زاحتي ، وقد أخذ قلبي ينتفض في صدرى من فرط الحجل ،
والفرح ، والانفعال الممتع الذي لم أكن قد تذوقته من قبل !

وحين تماكنت نفسي بعد برهة ، فصفت شعري وهبطت
إلى الطابق الأرضي لأتناول الشاي ، كانت صورة الفتاة تتأوج
أمام عيني .. فسألني والدي وقد لحظ اضطرابي : « ماذا ؟ .. هل

تتلت غراباً ؟ » وإذ ذاك أوشكت أن أقص عليه كل شيء ،
ولاً أنى قعت ميل فى آخر لحظة ، وابتسمت لنفسى ... !

- ٣ -

• « كيف أتعرف إليها ؟ » .

كان هذا أول ما فكرت فيه حين استيقظت فى الصبح
التالى .. فهبطت إلى الحديقة قبل تناول الإفطار ، لكننى جئنت عن
الاقتراب من السور .. وبعد الإفطار خرجت إلى الشارع ،
فجعلت أتمشى أمام البيت ذهاباً وإياباً ، وأتطلع إلى نوافذ غرفتها
من بعيد ، حتى لحت وجهها وراء إحدى الستائر فهرعت مبتعدة
فى انزعاج ، مستأنفاً طوافى العقيم بمحاذاة الحدائق العامة ، وأنا أجهد
ذهنى بالتفكير فى شيء واحد : « كيف أتعرف إليها ؟ » .

لكن القدر كان رحيماً بى ، فتولى حل مشكلتى من حيث
لا أدرى . لم أكد أعود إدراجى إلى البيت حتى علمت من أمى أنها
تلقت فى فترة غيابى رسالة من جارتها الجديدة تسألها فيها أن تسمح
لها بزيارتها كى توسطها لدى بعض ذوى المناصب الكبرى ممن
تعرفهم ليدلوا لها عقبه تعترض بعض أعمالها . وعلى هذا طلبت
منى أمى أن أنوب عنها فى إبلاغ الأميرة ترحيبها ورجاءها أن
تفضل بزيارتها فى الساعة الواحدة إذا شاءت ..
كتمت عن أمى فرحتى بهذه الاستجابة السريعة لأمنيى ،

وصعدت إلى غرفتي فأبدلت ثيابي ، ثم هبطت أعدو إلى بيت
الأميرة ..

وعلى باب الحديقة ، أو الممر الضيق المؤدى إلى البيت ،
استقبلني خادماً أشيب الشعر أسمر الوجه ، متسائلاً : « ماذا
تريد ؟ » .

— هل الأميرة زازيكيين في البيت ؟

وقبل أن يجيبني سمعت صوتاً نسائياً يناديه من الداخل :
« فوتيفاني ! » .. فأدار الرجل ظهره ومضى ليلى نداء سيده ..
ثم عاد يدعوني إلى الدخول ، فبذلت مجهوداً كبيراً للسيطرة على
أعصابي وهو يقودني إلى غرفة الاستقبال .. وهناك وجدت امرأة
في نحو الخمسين ، قبيحة الخلقة ، تجلس فوق مقعد مريح بقرب
النافذة ، وعيناها السوداوان الصغيرتان ترقبان الباب ، فأنجھت
إليها رأساً وانحنيت أمامها محيياً ، ثم قلت : « أحسب أن لي شرف
مخاطبة الأميرة زازيكيين ؟ » .

— أنا الأميرة زازيكيين .. وأنت ابن ميسو « ف » ، أليس

كذلك ؟

— نعم ، وقد جئت برسالة من أمي ..

.. تفضل بالجلوس ..

وأنهيت إليها رد أمي على رسالتها ، فاستمعت إليه وهي تنقر
على إطار النافذة بأصابعها الحمراء المتورمة ، وحين أنهيت كلامي

نظرت إلى نظرة ثابتة ثم قالت : « حسناً .. سوف آتى بالتأكيد ..
أنك تبدو صغيراً ، كم سنك .. إذا جاز لى أن أسأل ؟ » ..
— ست عشرة سنة ..

— جميل .. والآن اعتبر نفسك فى بيتك ، فأنا أمقت الكلفة
والمظاهر الرسمية ..

وفى تلك اللحظة انفتح باب الغرفة وبرزت منه الفتاة التى
رأيتها فى الليلة السابقة فى الحديقة .. فلم يكذبصرها يقع على حتى
ارتسمت على فها ابتسامة ساخرة .. بينما قالت الأم مشيرة إليها :
« هذه ابنتى « زينو تشكا » .. وهذا هو ابن الجيران .. هل لى أن
أسألك عن اسمك ؟ » ..

فأجبتها وأنا أنهض محيياً الفتاة فى اضطراب : « فلاديمير » ..
— واسم والدك ؟

— « بتروفتش » ..

— كنت أعرف فيما مضى « قوميسيراً » للبوليس يدعى
فلاديمير بتروفتش أيضاً ..

وكانت الفتاة ما تزال ترمقنى بنفس النظرة ، وهى تميل برأسها
قليلاً ، وأجفانها تختلج فى حركة رشيقة .. ثم قالت أخيراً : « لقد
رأيت (فولدمار) من قبل . أتسمح لى أن أدعوك بهذا الاسم ؟ » ..
وكان فى صوتها جرس كرنين الفضة ، بعث فى أوصالى رعشة
عذبة .. فأجبتها فى لهفة : « بربك افعللى » ..

وتنبيهت الأميرة الأم متأخرة ، فسألت : « ماذا تقولان ؟ » ..
لكن ابنتها لم تجبها ، بل مضت في حديثها معي بغير أن تحول بصرها
عني : « هل عندك ما يشغلك الآن ؟ » ..
- كلا ..

- إذن هل لك أن تساعدني في طي بضعة كرات من صوف
الإبرة ؟ هيا بنا ..

وأومأت إلى برأسها كي أتبعها ، فسرت وراءها إلى غرفتها
كما لو كنت أمشي في حلم .. حتى جلست هي على مقعد وأشارت
إلى كي أجلس في المقعد المقابل ، ثم فككت رباط « شلة » من
الصوف الأحمر ووضعتها بين رسغي يدي .. كل ذلك وهي صامنة
تفتershفتها عن تلك الابتسامة الخفيفة الماكرة ! .. ثم بدأت تطوى
الخيط على كرة صغيرة من الورق .. وفجأة رمقتني بنظرة براقية
خاطفة سببت لي دواراً ، فلم أقو على الصمود لها ، وغضضت بصرى
مرعماً .. فسألتني بعد لحظة : « ماذا دار بخاطرك عني أمس
يا فولدمار ؟ أحسبك أسأت بي الظن ؟ ! » ..

فأجبتها في ارتباك : « أنا .. يا صاحبة السمو .. أبدأ .. كيف ؟ » ..
فقلت معقبة : « أصغ لي .. أنك لا تعرفني جيداً .. أنا مخلوقة
غريبة ، أحب دائماً أن أسمع قول الصدق ، وأنت - كما ذكرت
الآن - في السادسة عشرة ، وأنا في الواحدة والعشرين .. وهكذا
ترى أنني أكبر منك بسنوات ، ، ولإذن فيجب أن تصدقني القول

دائماً ، وأن تفعل ما أطلبه منك .. انظر إلى .. لماذا لا تنظر إلى ؟ » .
وكنت لا أزال مرتبكاً ، لكنني تحاملت على خجلي ورفعت
عيني إليها .. فابتسمت ، لا ابتسامتها الأولى ، وإنما ابتسامه
تشجيع .. ثم قالت بصوت متهلج حنون : « انظر إلى .. لست
أمانع في ذلك .. فأني معجبة بك ، وأشعر شعوراً غامضاً بأننا
سوف نصير أصدقاء .. ولكن ، ترى هل أعجبتك ؟ » .
— يا صاحبة السمو ..

لكنها قاطعتني قائلة : « أولاً يجب أن تناديني باسمي « زينايدا
الكسندروفنا » .. وثانياً إنها عادة سيئة في الشباب ألا يحاوروا
بآرائهم ومشاعرهم فوراً وبصراحة .. أننى أعجبك ، أليس
كذلك ؟ » .

فأجبتها وأنا أتكلف أقصى ما استطعت من مظاهر « الرجولة »
والاتزان : « بلا شك » ، يا زينايدا الكسندروفنا .. ولست أميل
إلى إخفاء شعوري .. » .

فهزت رأسها في خفة ، ثم سألتني فجأة : « هل لك مررب
أو معلم خصوصى ؟ » .

.. أوه ، كلا .. كان ذلك منذ زمن بعيد ..

وقد كذبت ، فإنه لم يكن مضى شهر على رحيل معلمي
الفرنسى .. لكن أكاذيبي أثمرت ثمرتها التي أردتها ، فقد علقت
على جوابي قائلة : « إذن فأنت قد كبرت ! .. » ثم نفرت على

أصابعي وأصافت : « أمدد ذراعيك بالخيط جيداً ! » .. وانهمكت من جديد في طي خيوط الصوف على كرة الورق ، فانهزت فرصة إطرافها ببصرها إلى أسفل وجعلت أتأملها بإمعان وجرأة تزيدنا تدريجاً ! .. فبدأت وجهها أجمل وأشد فتنة منه بالأمس . كان كل ما فيه عذباً جذاباً . وكانت جالسة وظهرها إلى نافذة عليها ستارة بيضاء شفافة ، تنساب خلالها أشعة الشمس فلا يقع منها إلا ظلها الناعم على جدائل شعرها الذهبي ، وعنقها الناصع ، وكتفها المستديرتين ، ونحرها المخروط بانتظام رائع .. فضيت أتملى من جمالها وأفكر . شعرت كأنى أعرفها منذ زمن ، بل كأنى لم أعرف الحياة أو أتذوقها قبل أن ألقاها .. كانت ترتدى ثوباً بسيطاً ، فتملكنى ميل قوى وحنين إلى تقبيل كل ذرة من ذلك الثوب ! ولحت طرف حذاءها من تحت رداها .. ماذا لو أنحنيت فلثمت حذاءها ؟ .. وهمست لنفسى : « ها أنذا قد تعرفت إليها .. بل ها أنذا جالس أمامها .. فأية سعادة حبوتني بها يا ربى ؟ » وبذلت مجهوداً كى لا أقفز من مقعدى نشوان .. فقد كنت سعيداً سعادة السمك في الماء ، ولو خيرت لبقيت في تلك الغرفة لا أرحها .. إلى الأبد !

ثم رفعت الفتاة أجفانها ببطء إلى ، ومرة أخرى برقت عينها بريقاً حنوناً ، وابتسمت ، وهى ترفع إصبعها نحو مهددة : « كيف جرؤت أن تنظر إلى ؟ » .. فصعد الدم إلى وجهي ،

وجالت الخواطر برأسى : « أنها قد لحظت كل شيء ، وفهمتني ! كيف لا وهى .. » .

وفى تلك اللحظة سمعنا دقاً على الباب .. كان الطارق خادمنا نحن ، أرسلته أمى ليتعجل عودتى حاملاً رد الأميرة على دعوتها .. فخرجت بصحبة النناة إلى غرفة أمها ، وهناك انحنيت للأميرة قائلاً : « آن لى أن أذهب يا صاحبة السمو ، فهل أقول لأمى : إنك قادمة لزيارتها حوالى الساعة الثانية ؟ » فقالت : « نعم ، يا بنى .. » ثم رفعت إلى أنفها غلبة السعوط التى فى يدها فتنشقت منها أنفاساً ، بينما كنت أستدير للخروج .. وتبعنى صوت الابنة يقول : « تعال لزيارتنا ثانية يا فولدمار » ثم ضحكت !

« لماذا تضحك دائماً ؟ » أخذت أدير هذا التساؤل فى ذهنى وأنا عائد إلى البيت . وحين وصلت أنبتنى أمى بعنف على تأخرى ، فلم أجب بحرف .. وأسرعت إلى غرفتى لأخلو بنفسى .. وأحلم !

- ٤ -

● وفى الموعد المحدد جاءت الأميرة لزيارة أمى ، لكنها تركت فى نفسها أثراً سيئاً ، فقد قالت أمى لأبى على أثر ذلك ونحن جلوس حول مائدة الغداء : « إن هذه الأميرة زازيكيين تبدو امرأة سوقية مشاكسة ، وقد صدعت رأسى بالحديث عن منازعاتها القضائية والمالية التى تطلب منى التوسط لها بشأنها لدى أحد الأمراء ! » .. ثم أضافت أمى أنها برغم ذلك قد اضطرت لدعوتها هى وابنتها

لتناول الطعام فى اليوم التالى ، بحكم الجوار واللقب الذى تحمله على الأقل ! .. وقد علق أبى على الحديث بقوله : إنه قد تذكر أخيراً أنه كان فى شبابه يعرف زوج الأميرة المرحوم « زازيكن » ، الذى كان يعرف فى المجتمعات بلقب « الباريسى » نظراً لأنه قضى فترة طويلة من شبابه فى باريس ، وقد كان من الأثرياء لكنه أضاع ثروته فى القمار ! .. ثم أضاف أبى أنه قد سمع أن الابنة بخيلة ومثقفة ، مثل أبيها لا أمها !

وانتهت المناقشة عند هذا الحد .. وبعد الغداء خرجت إلى الحديقة ، بعد أن أقسمت لنفسى ألا أقرب من حديقة الجيران .. لكن قوة خفية جذبتنى برغى إلى هناك ، فلم أكد أبلغ سور الحديقة حتى لمحت « زينايڊا » ! .. لكنها كانت وحيدة هذه المرة ، تتمشى على مهل وقد أمسكت فى يدها كتاباً تقرأه .. حتى اقتربت منى ومرت بمحاذاى ، بغير أن تلحظنى ، فأثرت أن أدعها وشأنها .. لكنى للحال شعرت فجأةً بحافز قوى يدفعنى إلى أن أسعل متعمداً ، كى أنبهها إلى وجودى ، ففعلت .. وإذ ذاك استدارت بوجهها من غير أن تقف ، وأزاحت بيدها شريط قبعتها العريضة عن عينيها ، ونظرت لى ، ثم ابتسمت ابتسامة باردة .. وعادت إلى مطالعة الكتاب !

وكنى قد شرعت فى رفع قبعتى تحية لها ، فجمدت يدى .. واستأنفت سيرى بخطى بطيئة وقلب ثقيل ، وأنا أهمس لنفسى

« من أكون أنا بالنسبة لها ؟ » .. وبعد لحظة سمعت خلفي خطوات
مألوفة ، فاستدريت .. وإذا أبي مقبل ..
— أهذه هي الأميرة الشابة ؟

— نعم ..

— أو تعرفها ؟

— رأيته هذا الصباح عند أمها ..

فتوقف أبي ، وعاد أدراجه .. حتى حاذى الفتاة ، فانحنى
لها محيياً .. فردت له الانحناء وقد أسفرت الدهشة في عينيها ،
وكفت عن القراءة .. ثم تبعته ببصرها برهة وهو يبتعد .. فلحقت
بها بدوري ، لكنها لم تبعاً حتى بالنظر إلى ، وإنما رفعت كتابها
إلى عينيها مرة أخرى واستأنفت القراءة !

— ٥ —

● قضيت تلك الليلة — وطيلة اليوم التالي — في شبه ذهول ،
أحاول استذكار بعض علوي فلا أعى منها شيئاً ، فقد كانت
الحروف المطبوعة تمر أمامي مجردة من كل معنى ! .. وأذكر أنني
قرأت هذه العبارة أكثر من عشر مرات : « كان يوليوس قيصر
يمتاز بشجاعته الفائقة الشبيهة بشجاعة الجندي المحارب في ميدان
القتال » لكنني لم أفهم منها حرفاً ، فألقيت الكتاب جانباً ! .. وقبيل
موعد الغداء صففت شعري وارديت سترتي الأنيقة ورباط رقبتي
الجديد ، فسألني أمي : « علام كل هذا ؟ .. أنك لم تدخل الجامعة

بعد . ومن يدري هل تنجح في الامتحان أم لا .. » فأجبتها في اكتئاب : « لبست هكذا من أجل الضيوف القادمين » .. فقالت ساخرة : « يا لم من ضيوف ممتازين .. كفى هراء ! » .. فاضطرت لإبدال سترتى ، ولكنى احتفظت برباط الرقبة !

وجاءت الأميرة وابنتها بعد قليل .. فجلسنا حول المائدة ، وجاءت جلسة أبي إلى جوار « زينaida » فجعل يتحدثها ويحييها بظرفه ولباقة ، وأعجبتني لهجتها في نطق الفرنسية .. أما أمى فلم تعجب بالأم ولا بالابنة ، وقالت عن الأخيرة : إنها فتاة مغرورة ، بلا مبرر ! .. وبعد الغداء بقليل انصرفت الضيفتان ، فرافق أبي الأميرة حتى الباب الخارجى .. وحين مرت بي « زينaida » مسرعة همست لى بلهجتها الرقيقة : « تعال ليزارتنا في الثامنة ، أسمع ؟ .. لا تنس » .. وأدهشنى تقلبها وأطوارها ، فإن معاملتها الجسافة لى خلال الغداء كانت قد سمحتنى وأياستنى .. ولكن ها هى تغير خطتها معى على حين غرة !

١ -

● وفى الثامنة تماماً عبرت باب حديقة الجيران ، وأنا فى أزهى ثيابى .. وكانت تبعث من الداخل أصوات مرحة ، فلم أكد أدخل الردهة حتى تراجع مدهوشاً . كانت الفتاة واقفة فوق كرسى فى وسط المكان ، ممسكة بيدها قبعة رجل ، وحولها « نصف دسطة » من الرجال يحاولون لمس القبعة بأيديهم ، عبثاً .. ولم تكذ

ترانى حتى صاحت : « انتظروا ، انتظروا .. ها هو ذا ضيف آخر ، لابد له من تذكرة أيضاً » ثم قفزت من الكرسي إلى الأرض واقتادتني إلى وسطهم قائلة : « أيها السادة ، دعوني أعرفكم بمسيو (فولدمار) ، ابن جيرانتا .. وهؤلاء هم : السكونت مالفسكى ، دكتور لوشين ، الشاعر ميدانوف ، الضابط المتقاعد نيرماتسكى ، وضابط (الهوسار) بايلفزرروف .. فعلكم تصيرون أصدقاء » .

أما أنا فكنت في حالة من الارتباك أنستنى حتى أن أنحنى لواحد منهم ، بينما استطردت زينايदा قائلة : « اكتب تذكرة لمسيو فولدمار يا كونت » .. فسرت همسة احتجاج بين الحاضرين ، لكن الفتاة أصرت على طلبها ، فلباه السكونت مرعماً .. ثم شرح « لوشين » الأمر لى بلهجة ساخرة : « نحن نلعب لعبة يانصيب ، ومن يلتقط النمرة الراجعة من القبعة يحظى بشرف تقبيل يد الأميرة زينايदा . أفهمت يا قتي ؟ » .

لكن « الفتى » وقف حائراً صامتاً ، بينما قفزت الفتاة فوق الكرسي من جديد وشرعت تهز القبعة بما فيها فوق رءوسنا ، وكل منا يمد يده نحوها فيأخذ نصيبه .. وكنت آخرهم في الحصول على ورقتي ، لكنني لم أكد أفضها حتى .. يا إلهي ، ترى كيف كان منظري حين قرأت فيها كلمة « قبلة » ؟! .. كل ما أذكره أنني صحت بأعلى صوتي : « قبلة ! » .. فصاحت الأميرة في أثرى : « برافو ، لقد ربحتها .. كم أنا مسرورة بذلك » وهبطت من الكرسي

وهي ترمقني بنظرة عذبة أدارت رأسي ، ثم سألتني : « هل أنت مسرور بالنتيجة ؟ » .. فقلت في حشجة وغباء : « أنا ؟ » .. وفي تلك اللحظة سمعت أحدهم يهمس لي : « بعني نمرتك الراحجة ، أتي أدفع لك فيها مائة روبية ! » .. فلم أجبه إلا بنظرة احتقار بالغة جعلت الفتاة تصفق بيديها شامته .. ثم جاءت مرحلة « التنفيذ » فطلب مني لوشين أن أجنو على إحدى ركبتي ، ووقفت زينايدا أمامي مادة يدها إلى في وقار .. ومرت أمام عيني سحابة : لكنني تماكنت نفسي فضغطت شفتي على أصابعها بنهم إلى حد أن طرف ظفرها خدشني ! .. فصاح لوشين وهو يعينني على النهوض : « لقد أتقنتها ... » .

ثم ابتكرت الجماعة ألعاباً مسلية مختلفة ، سادها المرح والمرح والضحك الصاخب ، حتى لقد دار رأسي ، وكأني ثملت بنخم مجهولة ، فجعلت أضحك وأتصايح ، وقد أحسست بسعادة لا توصف .. وطيلة الوقت حبتني زينايدا بالكثير من عطفها ومحباتها ، وأجلستني بجوارها .. وفي إحدى اللعبات كان على أن أجلس معها تحت ملاء كبيرة سوداء شبه شفاقة ، تغطي كليتنا تماماً ، كي أهمس لها « بكلمة السر » في اللعبة .. ولن أنسى التصاق رأسي في الظلام ، وبريق عينيها الناعم في العتمة ، والأنفاس الساخنة التي لفحتني من شفتيها ، ولمعة أسنانها اللؤلؤية ، ودغدغة شعرها المرسل التي أشعلت النار في بدني ! .. لكنني لبثت

صامتاً ، فنظرت إلى وابتسمت ابتسامتها الغامضة الماكرة ، ثم همست في أذني أخيراً : « ماذا بك ؟ » .. فأحسست بالدم يصعد إلى وجهي ، وضحكت ضحكة هستيرية وأنا ألتقط أنفاسي اللاهثة مشيحاً عنها !

واستأنفنا ألعابنا .. يا إلهي ، أي شيء لم نفعله في تلك الليلة ! لعبنا على البيانو ، ورقصنا ، وغنينا ، ومثلنا « معسكر العنجر » ، وقلدنا الدببة ، واشتركنا في أعجب الحيل وخدع « الكوثشينة » ، ثم أنشد لنا « ميدانوف » بعض أشعاره الجميلة ، وألبسنا الخادم ثوب امرأة ، ولبست الأميرة ثياب رجل ... إلخ .

وأخيراً تعبنا وأنهكنا الصخب ، فأعد لنا العشاء ، حوالى منتصف الليل .. وبعد أن أكلنا وشربنا تفرقنا ، فغادرت المنزل أخيراً وقد أرهقتني سعادتي ، وفيما أنا أصافح زينايدا مودعاً ضغطت على يدي بحرارة وابتسمت لي .. ابتسامتها الغامضة !

كان هواء الليل حين خرجت ثقيلاً رطباً وهو يلطم وجهي الساخن ، وقد بدت في الجو تباشير عاصفة تتجمع ، وتسوق أمامها على أديم السماء قطعاً من السحب السود تضطرب وترتعش فوق هامات الأشجار القائمة من بعيد ، وهزيم الرعد الغاضب يلطم عن الأفق .. فأخذت طريقتي إلى غرفتي من السلم الخلفي ، وكان خادمي الخصاص مضطجعا داخل الباب ، فخطوت فوقه متلصصاً .. لكنه استيقظ ، وراى ، فأنبأني أن أمي غضبت لتأخري

وأرادت أن ترسل في استدعائي لولا أن أبى نهاها عن ذلك !
وفي غرفتي جلست على مقعد ، مخدر الأعصاب ، لا أفكر
في أن أخلع ثيبي أو أنام ، وإنما أستمري لذة إحساسي الحديد
العذب ، وأضحك في نفسي بين الحين والآخر كلما تذكرت نادرة
حدثت خلال السهرة .. أو أحس ببرودة في أطرافي كلما فكرت
في أنني « أحب » ، وأن هذا هو الحب ! .. فيطفو وجه زينايدا
أمامي ببطء من الظلام ، وجهها بنفس الابتسامة الغامضة على
الشفتين ، ونفس النظرة المتسائلة الحاملة الرقيقة من العينين ! ..
وأخيراً نهضت من المقعد فشيت إلى فراشي وتمددت عليه ، بثيبي ،
ثم أرحت رأسي على الوسادة في رفق ، كأنما خشيت أن أفعلها
بحركة عنيفة تبدد الأطياف التي تملأه .. لكنني لم أغمض عيني ،
ولنما لبثت أرقب وميض البرق في الخارج ، وكنت الحقائق العامة
السوداء ، وواجهات المباني الصفراء .. حتى أطل الفجر من الأفق
وانتشرت في الجو رقع السحاب الأحمر .. فشعرت بالتعب والنعاس ،
وصورة زينايدا تطفو أمام عيني .. حتى أغفيت !
أواه أيتها المشاعر العذبة والنفحات المباركة التي تعمر القلب
حين يختلج بأولى انفعالات الحب .. أين أنت ؟ .. أين أنت ؟

- ٧ -

● وفي الصباح ، حين جلست إلى مائدة الإفطار أنبتني أمي
بشدة ، وطلبت مني أن أقص عليها كيف قضيت الليلة السابقة ..

فأجبتها في بضع كلمات بعد أن حذفت أكثر التفاصيل، وخلعت على كل ما رويته طابع البراءة التامة .. وبرغم ذلك فقد قالت معقبة : « على أى حال لا أحب لك أن تخالط هؤلاء الناس ، ثم أمامك دروسك وامتحاناتك التي يجب أن توليها كل التفاتك .. » .
لكنى لم أكد أفرغ من الإفطار حتى أخذنى أبى من ذراعى ومضينا إلى الحديقة ، وهناك أجبرنى أن أصارحه بكل ما رأيت فى بيت آل زازيكين ، مستغلا احتراى وحبى ، بل صداقتى له .. فأفضيت له بكافة التفاصيل ، وأصغى هو إلى بمزيج من الانتباه وعدم المبالاة ، وهو جالس على أحد مقاعد الحديقة يرسم بعضاه على الرمل أشكالا ورسوماً مختلفة ، يضحك أحياناً ، أو ينظر إلى بامعان ، أو يسألنى سؤالاً قصيراً .. وفى البداية لم أجرؤ على أن أنطق أمامه باسم زينايدا ، لكنى لم أستطع أن أقع ميلى إلى أطرائها ، فضحك والدى طويلاً ، ثم بدا كمن يمعن الفكر .. وأخيراً نهض ومضى عنى ، ثم اختفى عند الباب الخارجى ، لكنى لمحت قبعته تتحرك بحذاء السور .. حتى اختفت بدورها داخل حديقة الجيران !

قضى أبى نحو ساعة فى بيت آل زازيكين ، ثم خرج فضى مباشرة إلى المدينة ، ولم يعد إلا فى المساء ! .. أما أنا فذهبت إلى بيت زينايدا بعد الغداء ، فلم تكذ الأميرة العجوز ترانى حتى طلبت منى أن أنسخ لها عريضة أعطتني مسودتها ، فجلست ألبى رغبتها .

وكان باب الغرفة المجاورة قد فتح أثناء ذلك ، فأريت منه وجه زينايدا شاحباً ، وشعرها مرسل على كتفها في إهمال واضح ، ونظرت الفتاة إلى بعينها الواسعتين لحظة ، ثم .. أغلقت الباب في وجهي برفق !.. ونادت الأم مراراً : « زينا .. زينا » لكنها لم تتلق رداً .. فأخذت العريضة معي إلى البيت وعكفت طيلة الليل على نسخها ..

- ٨ -

● ومنذ ذلك اليوم شعرت أنني لم أعبد طفلاً .. فكان يوم بداية حبي وبداية آلامي !.. لم أعد أطيق البعد عن زينايدا ، صرت أقضي أيامي وليالي أفكر فيها تفكيراً مضنياً .. وتملكتني الغيرة ، إذ شعرت بضآلتي في نظرها ، لكن قوة خفية كانت تجذبني دائماً إليها ، فأنتفض فرحاً وأنا أعبر باب غرفتها ! وأدركت زينايدا أنني قد تدللت في حبيها ، فجعلت من عاطفتي لعبتها ، وعذبتني بلا رحمة .. مارست معي تلك اللذة القاسية التي يستمرها الإنسان حين يشعر أنه قد صار - بالنسبة لشخص آخر - المنبع الوحيد لفرحه الطاغى وألمه المميت !.. صرت كالشمع بين يديها ، لكنني لم أكن الوحيد الذي أحبها ، فإن كل الرجال الذين كانوا يترددون على البيت شغفوا بها شغفاً جنونياً ، ولكن خاسراً .. فقد احتفظت بهم جميعاً عند قدميها . كانت تسليتها الكبرى أن تستثير آمالهم ، ثم تخاوفهم .. وأن تضرب

رءوسهم بعضها بالبعض الآخر ، من غير أن يخطر ببالهم أن
يتمردوا أو يقاوموا ..! وكانت عواطفها ومشاعرها المتناقضة
تتعاقب على شفيتها وعينيها بسرعة وسهولة كما تتعاقب ظلال
السحب في صفحة السماء في يوم عاصف ، فكان وجهها يعبر
عن السخرية ، والاستغراق في الأحلام ، والهوى المشتعل ، في
آن واحد تقريباً ، أو في لحظات متلاحقة خاطفة ..!

وكان كل رجل من عشاقها ضرورياً بالنسبة لها . كان
بايلغزروف « حيوانها المتوحش » الذي يقذف بنفسه في النار طائعا
مختاراً من أجلها .. و « ميدانوف » شاعرها المفضل الذي ينشدها
قصائد غزله الحارة في حماسة دافقة ، فيستجيب « للأنسجة »
الشاعرية في طبيعتها !.. و « لوشين » طبيها الساخر الذي يفهمها
أكثر من سواه ، ويحبها أكثر من سواه ، فتحترمه بالرغم منها ،
وإن لم تعدم أوقاتاً ومناسبات تمارس معه فيها لذتها الخبيثة في
إشعاره بأنه هو بدوره تحت رحمتها !.. أما الكونت « مالفسكي »
فقد عجزت عن فهم مدى العلاقة بينه وبين زينايدا . لكن دى
كان يفور ويغلي في عروقي كلما رأته يقترب منها في نعومة الثعلب
فيتكىء على ظهر مقعدها ثم يهمس في أذنيها بكلماته المعسولة وهو
يبتسم ابتسامته المثيرة ، بينما تعقد هي ذراعيها على صدرها وتصفى
إليه ، ثم تبتسم وتهز رأسها ..!
وذات يوم جرؤت فسألته : « ماذا يغريك باستقبال الكونت

مالفسكى فى بيتك ؟ » فأجابتنى ساخرة : « شاربىه الجذاب » !
ثم استطردت جادة : « هل تحسبنى مولعة به ؟ .. إبنى لا أستطيع
أن أولع برجل أدنى منى فى المرتبة ، بحيث أنظر إليه من عل ..
ولمّا اشتراط فى رجلى أن يستطيع السيطرة على ، وإن كنت أمل
ألا أثمر على ضالتي قط ، فلست أريد الوقوع فى براثن إنسان ما ،
بأى ثمن ! » .

— أنت إذن لا تؤمنين بالحب ؟

— أو لست أحبك أنت ؟

قالتها ولطمتنى مداعبة بطرف قفازها على أنفى ..

نعم ، لقد جعلت « زينبدا » منى ملهاتها .. ظلت ثلاثة أسابيع
أراها كل يوم ، فرأيت منها عجباً ! .. ولم تكن تأتى إلى بيتنا
إلا نادراً ، فحمدت لها ذلك ، ففى بيتنا كانت تصطنع الوقار
والاتزان .. وبرغم ذلك لم ترض أُمى عنها ، بل ظلت ترقبها وإياى
بعين لا تغفل . أما أبى فلم أكن أحسب حسابه كثيراً ، فقد كان
يتركبى وشأنى .. وهكذا طلقت كتبى ودراساتى ، بل طلقت
نزهاتى الخلوية ورياضتى المحببة : ركوب الخيل . صرت كالخشرة
المربوطة من ساقها ، أدور وأدور حول محور واحد ، هو بيت
زينبدا . وأحياناً كنت أتسلق حائطاً مهدماً يشرف على حديقتنا ،
فأجلس فوقه ساعات أحرق فى الفضاء ، ولا أرى شيئاً .. يغمرنى
إحساس عجيب ، سخرى بالعواطف والانفعالات : بالكآبة ،

والبهجة ، والتفكير فى المستقبل ، وحب الحياة ، والخوف من
الحياة !

واستمرت « زينايدا » تلعب معى لعبة القط والفأر ! كانت
تغازلنى وتتودد لى حتى تثور عواطفى ومشاعرى .. وفجأة تنكسر لى
فلا أجرو على أن أقرب منها ، أو حتى أنظر لىها ! .. وأذكر أننى
لمست منها بروداً دام عدة أيام ، حتى تحطمت أعصابى .. وذات
يوم كنت أتمشى فى الحديقة بجوار السور الفاصل بيننا ، فرأيت
« زينايدا » جالسة فوق الحشائش متكئة بمرفقىها على الأرض ،
بلا حراك .. وفجأة رفعت رأسها ورأتنى ، فأومأت لى برأسها
لإمساءة أمرة لم أفهم قصدها منها ، فتريت حائراً .. حتى كررت
إشارتها ، فقفزت فوق السور ، وعدوت نحوها فرحاً .. وإذا
هيتها تصدمنى . كانت شاحبة شحوباً مخيفاً ، يبدو على وجهها
الآلم الدفين والعذاب المر ، فسألتها وقد انفطر قلبى : « ماذا بك ؟ » .
فدلت يدها واقتلعت بضعة أعشاب من الأرض عضتها بأسنانها فى
عصبية ثم ألقتها بعيداً .. وأخيراً خرجت عن صمتها فسألتنى :
« أنت تحبى كثيراً ، أليس كذلك ؟ » .

لم أجب .. فما جدوى الجواب ؟ .. وإذا ذاك أردفت وهى
ترمقنى بنظرة فاحصة « بلى ! » .. ثم شرد فكرها برهة ، وأخفت
وجهها بين يديها ، وعادت تقول هامسة : « كل شىء صار
بضايقتى . كان خير لى أن أذهب لى أبعد أقطار الأرض ، من

أن أفاشى هذا . لم أعد أحتمل . لم يعد فى طوق التغلب على همى ..
إننى ضائعة ، يا إلهى إننى ضائعة .. ! » .

فألحفت فى السؤال : « لماذا .. ماذا جرى ؟ » .

لكنها لم تجب ، وإنما اكتفت بهز كتفها .. فظلت أحسق
فيها والكتابة تعصر قلبي . لقد فطرته كلماتها .. ولكم تمنيت فى
تلك اللحظة أن أضحي بحياتى لو كانت فى ذلك منجاتها من
شجنها ؟!

وكان الهواء يهمس لأوراق الشجر ، ويؤرجح الأغصان
فوق رأس زينايدا .. وهديل الحمايم وطنين النحل يملآن الآذان ..
والشمس فى علاها تشرق على سماء صافية .. فاتكأت الفتاة على
مرفقها وقالت لى : « أقرأ لى شيئاً من الشعر ، فأنا أحب طريقتك
فى إنشاده .. ولكن اجلس أولاً » .

جلست .. ثم قرأت عليها قصيدة « فوق نلال جورجيا » ..
فأوقفتنى عند بيت أعجبها وجعلت تكرر نصه ساهمة ، كأنما
تحدث به نفسها : « لن يستطيع القلب أن يختار غير الحب » ..
وفجأة نهضت واقفة وقالت لى : « هيا بنا ، فإن (ميدانوف) فى
الداخل مع ماما .. لقد نظم لى قصيدة .. وهجرته .. ولا بد أن
ذلك جرح إحساسه . ولكن ماذا كان بوسعى أن أفعل . أنك
ستفهم هذه المواقف يوماً .. فلا تغضب منى ! » .
ثم ضغطت يدى على عجل ومضت تعدو صوب البيت ،

وأنا خلفها .. وهناك تلا علينا ميدانوف أحدث قصائده التي
نشرت ، فلم أفهمها . كان يقرأ شعره بصوت كالجرس ، لكنني
لم أسمع إلا ضجيجاً ! .. كنت منهمكاً في مراقبة زينايدا ومحاولة
استخلاص مغزى كلماتها الأخيرة .. وأفقت على صوت الشاعر
يتلو هذا البيت : « لعل غريماً مجهولاً قد فاجأك وسيطر على
قلبك ! » .. وفي هذه اللحظة التقت عيناي وعينا « زينايدا » ،
فأطرقت إلى أسفل وتضرجت وجتها .. وإذ ذاك انتابني لون
من الرعب أثلج أطرافي .. لقد ذقت طعم الغيرة عليها من قبل ،
ولكن في تلك اللحظة فقط ومض في رأسي احتمال أن تكون قد
وقعت في شرك الحب .. فهمست لنفسى في انزعاج : « يا إلهي ..
إنها عاشقة ! » .

- ٩ -

● ومنذ تلك الساعة بدأ عذابى الحقيقى . أرهقت ذاكرتى وذهنى ،
وقلبت الأمر على وجوهه ، محاولاً الاهتداء إلى اسم معشوقها
المحظوظ ، ولكن عبثاً .. فقرضت عليها رقابة صارمة في الخفاء ،
وهدتنى رقابتي إلى مدى التغير الذى طرأ على الفتاة . بدأت تخرج
للمشى وحدها ، مسافات طويلة .. وأحياناً كانت تمتنع عن مقابلة
الزائرين ، وتلوذ بغرفتها لا تبرحها .. فجعلت أستعرض المعجبين
بها واحداً بعد واحد ، سائلاً نفسى : « ترى هل هو هذا ، أم هو
ذاك ؟ » وانتهيت من تفكيري إلى ترجيح أن يكون غريمى هو

الكونت مالفيسكى ، وإن كنت قد خجلت من أن أفتح زينايدا في أمره ..

ولم تكشف لى رقابى عن أبعد من أنى ، على أنها انكشفت للبعض ، وفي مقدمتهم الدكتور لوشين ، لكنه لم يحدثنى في الأمر .. وكان هو قد تبذلت أطواره أيضاً ، فنحل جسمه وصارت ضحكته جوفاء قصيرة ، وصار يثور لأتفه سبب ، بل إنه كف حتى عن سخريته اللاذعة المعتادة ..

و ذات يوم جمعنا غرفة في بيت زينايدا ، هو وأنا وحدنا ، فقال لى : « أراك تكثر من التردد على هذا البيت أيها الفتى ، أليست عليك واجبات مدرسية تحضرها ؟ » .. فأجبت في شيء من الخفاء : « ومن أدراك أننى لا أنجزها في بيتى ؟ » .

— على أية حال لست أملك على ما تفعل ، فإنه شيء طبيعى ومألوف في مثل سنك .. لكنك سيء الحظ في اختيارك . ألا تعرف حقيقة هذا البيت ؟

— لست أفهم قصداك ..

— هذا أمر يؤسف له أيضاً . لكنى أجند من واجبي أن أحذرك ، فاصنع لى يا فتى . إن العزاب القدامى ، مثلى ، يستطيعون التردد على هذا البيت من غير أن يصيبهم أذى ، فقد تبذلت قلوبنا ، وما من شيء يؤثر فيها .. أما أنت فقلبك ما يزال فجأ ، وهذا الجو يؤذيك ، صدقنى ..

— كيف ؟

— ماذا .. هل أنت فى خير حال الآن ، هل أنت طبيعى ..

وهل ما تحس به فى صالحك ؟

— ما هو هذا الذى أحس به ؟

— آه يا فتى .. ما جدوى الإنكار والمراوغة ووجهك يظهر

ما يبطن قلبك ؟ .. ولكن ما فائدة الكلام ؟ .. أنا نفسى ما كان لى

أن أدخل هذا البيت ، لولا .. لولا أنى مخلوق غريب الأطوار ! ..

والذى يدهشنى حقاً أن شاباً فى مثل ذكائك لا يدرك ما يدور

حوله ..

— وماذا يدور حولى ؟

— كأنما أنت تجهله .. دعنى إذن أقوله لك . صدقتى إن

« الجو » هنا لا يناسبك .. قد يكون الهواء معطراً ، لكنه خائف ! ..

نعم ، خذ نصيحتى وعد إلى درسك ..

وهنا أقبلت الأميرة العجوز ، وبدأت تشكو للطبيب ألم

أسنانها .. ثم ظهرت فى أثرها زينايدا ! .. فقالت الأم : « على

فكرة ، يجب أن تؤنبها يا لوشين ، لأنها تشرب ماء مثلوجاً طيلة

اليوم ، فهل هذا يناسب صحتها ، مع ما تعلمه عن ضعف

صدرها ؟ » .

— لماذا تفعلين ذلك يا فتاتى ؟

— وماذا فيه يا طبيى ؟

- قد تصابين ببرد وتموتين !
- ليت ذلك يحدث حقاً ..
- يا لها من فكرة بارعة !
- ولم لا ، هل الحياة تساوى كل هذا العناء ؟
- إنك كمهدى بك دائماً ، تتلخص طبيعتك في كلمتين :
- نزوات ، وعدم شعور بالمسئولية !
- فليكن .. وأنت يا ميسيو فولدمار ، لا تنظر إلى هكذا ،
- لست أحتمل أن يرثي الناس لحالى ..
- ثم خرجت لتوها من الغرفة ، فالتفت إلى « لوشين » وقال :
- « دعنى أقول لك مرة أخرى يا فتى : إنه جو لا يصلح لك ! » .

- ١٠ -

● وفي مساء اليوم نفسه اجتمع أصدقاء زينايدا في بيتها كالعادة ودار النقاش حول قصيدة « ميدانوف » ، فأبدت الفتاة إعجابها البالغ بها ، ثم قالت معقبة : « ولكن .. أتعلم ماذا كنت أفعل لو كنت شاعرة ؟ .. كنت أختار موضوعات أخرى لقصائدى .. فأصف مثلاً جماعة من الفتيات في قارب يسبح بهن فوق مياه نهر ساكن ، والقمر في أوجه ، وكلهن يرتدين ثياباً بيضاء ويحلقن صدورهن بأزهار ضاحكة ، ويغنين أعذب الأغاني .. حتى يصلن إلى الشاطئ فنستقبلهن فرقة من الراقصات بالمشاعل والغناء والضحكات .. ولكن .. إن صدرى منقبض ، فدعونا نتسلى (م ٣ - الحب الاول وقصص اخرى)

بمسابقة «التشبيهات» (ومن مقتضاها أن يقترح أحدهم موضوعاً ما، فيتسابق الجميع في مقارنته بشيء يشبهه ، والفائز هو صاحب أبرع وأدق تشبيه !) .

واتجهت زينايدا إلى النافذة ، وكانت الشمس تنحدر نحو المغيب ، وقد انتثرت في الجو رقع من السحاب الأحمر ، فقالت الفتاة : « ماذا تشبه هذه السحب ؟ » وقبل أن يفكر الباقون في جواب استطردت هي مجيبة : « أعتقد أنها تشبه الأشرطة القرمزية التي كانت تسير سفينة « كليوباترة » الذهبية حين أبحرت بها لتقابل حبيبها أنطوني .. أتذكر يا ميدانوف يوم رويت لي قصتها ؟ » . وأجمعت كلمتنا على أن أحداً منا لم يكن يستطيع أن يهتدى إلى تشبيه أروع من هذا ، فعادت زينايدا تتساءل : « ولم كان عمر أنطوني إذ ذاك ؟ » .. فقال مالفسكى : « كان شاباً بلا شك » وأيده ميدانوف قائلاً : « نعم كان في أوج شبابه » .. وهنا تدخل لوشين مصححاً : « كلا أيها السادة ، بل كان قد جاوز الأربعين ! » . « جاوز الأربعين ؟ » رددت زينايدا عبارته في شرود .. وبعد قليل انفض الجمع ، فعادت إلى بيتي وشتتاي ترددان بلا وعي : « إنها عاشقة .. ولكن لمن ؟ » .

- ١١ -

● ومرت الأيام .. وازدادت أطوار زينايدا غرابة وشذوذاً .. وذات يوم ذهبت للقائها . فوجدتها جالسة فوق مقعد ومثكئة

برأسها على منضدة .. فلما أحست بدخولى رفعت وجهها ، وإذا هو قد تندى كله بالدموع ، لكنها اغتصبت ابتسامة ، وقالت لى : « أهو أنت ؟ .. تعال » .. فاقتربت منها ، وإذا ذاك وضعت يدها على رأسى ، وفجأة جذبت شعرى بشدة ، حتى صحت برغى : « إنك تؤلمينى » .. فقالت شامته : « آه ، وهسل لا يوجد ما يؤلمنى أنا ؟ » .. ثم صاحت نادمة وقد تبينت أنها انترعت فعلا بعض شعرات من رأسى : « أواه ، ماذا فعلت بك يا فولدمار يا مسكين ؟ » .. ولفت الشعرات على أصابعها بانتظام ثم قالت والدموع تلمع فى عينيها : « سوف أضع هذا التذكار من شعرك فى أيقونة ألبسها فى رقبى .. فلعل هذا يعزبك بعض الشيء .. والآن ، وداعاً ! » .

وتركتنى ، فعدت أدراجى إلى البيت .. وهناك وجدت أمى تعنف أبى بشدة من أجل شيء لم أعرفه ، بينما ظل هو كعادته هادئاً صامتاً لا يجيبها بكلمة ، ثم تركها ومضى . وبعد خروجه أنبتنى على زيارتى المتكررة لبيت الأميرة « القسديرة » على كل شيء « كما وصفتها .. فقبلت يدها كى أنهى الموقف ولذت بغرقى .. لكنى لبثت عاجزاً عن التفكير . كانت دموع زينايدا قد فطرت قلبى ، حتى لقد أحسست بميل إلى البكاء .. ولم لا أبكى ، ألسنت طفلاً ، فى السادسة عشرة ؟؟

وذاث يوم ..

وأنا في جلستي المعتادة فوق الحائط ، أو « برج المراقبة » ،
الذى يشرف على حديقة الأميرة . أحرق في الفضاء وأنصت
إلى أجراس الدير القريب ، انتابني ذلك الإحساس الغامض بوجود
شخص بالقرب مني ، فنظرت إلى أسفل . كانت زينابدا في ثوبها
الرمادي البسيط تمرق في المعر الذي تحتي ، فلما رأته توقفت
ورفعت طرف القبعة « القش » العريضة التي ترتديها ثم نظرت إلى
بعينها المكسوتين بالقطيفة : « ماذا بربك تفعل في علاك ؟ .. هيا ..
إنك دائماً تصارحنى بحبك ، فإذا كنت صادقاً فاقفز من مكانك
إلى ! » .. وقبل أن يضيع صدى كلماتها كنت أطيح في الهواء إليها ،
كأن يداً قوية دفعتني من الخلف .. وكان ارتفاع الحائط أربعة
عشر قدماً ، فلم أكد أمس الأرض بقدمي حتى سقطت عند قدميها
فاقد الوعي .. وحين عدت لوعي ، وقبل أن أفتح عيني ، شعرت
بزينابدا منحنية فوقى ، تقول في صوت تبين فيه الرقة والانعراج :
« طفلى العزيز ، كيف فعلتها .. كيف أطعتنى .. أنت تعلم كم
أحبك .. هيا وانهض » .

وكان صدرها لصق صدري ، ويداها تحتضنان رأسي ..
وفجأة بدأت شفتاها الناعمتان الغضتان تغطيان وجهي بالقبل .. ثم
انطبقتا على شفتي .. ولعل الفتاة أدركت في تلك اللحظة ، من تعبير
وجهي ، رغم بقاى مغمض العينين ، أنى قد أفقت من إغماءتى ..
فنهضت واقفة وهى تقول : « هيا ، انهض أيها الفتى العايب ..



فقطرت إلى أسفل . كانت زينبaida في
ثوبها الرمادي البسيط تمزق في الممر ..

لماذا ترقد هكذا فوق التراب ؟ .. فوقفت على قدمي . بينما
استطردت هي : « لا تنظر إلى هكذا .. يا للعبث . إنك لم تصب
بسوء .. فامض إلى بيتك واغسل وجهك .. وإياك أن تتبعني .
وإلا غضبت منك و .. » .

ولم تتم حملتها . بل مضت في طريقها .. فجلست على الرصيف
أرقبها ببصر شارد !

- ١٢ -

● في اليوم التالي صحت مبكراً ، وكان الطقس جميلاً منعشاً ،
فخرجت أرتاض في ضواحي المدينة . تسكعت طويلاً فوق التلال
وخلال الغابات . ثم اضطجعت فوق الحشائش ، وشردت ..
استعدت في خيالي حادث الأمس ، وكلمات زينايدا التي لا تنسى ،
وقبلاتها ! لكن أعذب ما جال بخاطري أن الفتاة لن تستطيع بعد
الآن أن تنكر شجاعتي ، بل بطولتي ... وهمست لنفسي : « إنها
قد تفضل سواي ، لكن سواي يكتفي بالقول : إنه (سوف)
يفعل من أجلها كذا وكذا ، أما أنا فقد فعلت .. وأى شيء أتردد
في أن أفعله من أجلها ؟ » .. وجمح خيالي فتصورت نفسي أنقذها
من يد الأعداء ، وأنتزعها بالقوة من السجن .. حتى يسيل دمي .
وأستشهد عند قدميها !

ثم نهضت على قدمي . واستأنفت طواني في الغابة .. حتى
تنبهت إلى أن موعد الغداء قد اقترب . فأردت اختصار المسافة

الباقية بالعودة من طريق آخر قصير ، عبر ممر رملي ضيق ،
فدخلت إليه .. لكنى لم أكد أسير فيه خطوات حتى طرق سمعى
صوت حوافر جياذ آتية من ورأى ، فالتفت ناحيتها بحركة غير
إرادية .. وإذا أنا أرى جوادين مقبلين جنباً إلى جنب ، تبينت فى
راكبيهما زينايدا ووالدى .. فاخبتأت كى لا يربانى ، وحين مرا
بمحاذاى لحظت على وجه الفتاة شحوباً شديداً !

وضاعفت من سرعة خطاى حتى بلغت البيت ، فوجدت
والدى جالساً بجوار والدتى - وقد أبدل ثيابه وغسل وجهه - يقرأ
ها مقالا فى إحدى الصحف بصوته الموسيقى الناعم وهى تبدو غير
مصغية .. فلما رأتنى سألتنى غاضبة : أين قضيت النهار ، وفى صحبة
من ؟ .. وكنت على وشك أن أجيبها بأنى كنت أتنزه بمفردى ، لكنى
وجدت نفسى أنظر إلى أبى وألزم الصمت .. لست أدرى لماذا !

- ١٣ -

● ومضت خمسة أيام أو ستة لم أر فيها زينايدا إلا لمسماً ، فقد
كانت مريضة - وإن كان هذا لم يمنع « فرقة المعجبين » من
التردد عليها كل يوم للسؤال عنها ! - وفى تلك الفترة لحظت أنها
بدأت تتجنبنى ، وتضيق بوجودى .. ومع أن مسلكها قد سحقتى
وأشقتانى ، فإنى آثرت أن أنفذ رغبتها وأبتعد عن طريقها ، مكتفياً
بمراقبتها من بعيد ، ورصد الشواهد المتعددة على مبلغ التغير الذى
طرأ عليها !

و ذات صباح التقينا مصادفة في الحديقة ، فهممت بأن أدير لها ظهري مبتعداً عن طريقها .. لكنها أوقفتني ، وقالت : « أعطني ذراعك .. منذ متى لم تتحدث معاً ؟ » .

واسترقت نظرة إليها . كانت عيناها مفعمتين بضياء ناعم ، وجهها كأنما يتسم من خلال ضباب .. فسألتها : « أما زلت متوعدة الصحة ؟ » فأجابتنى وهي تقطف وردة حمراء : « كلا . لقد انتهى كل ذلك ، ولم أعد أشعر بغير قليل من التعب ، سوف يزول .. » فعدت أسألهما : « وحين يزول .. هل تعودين كما كنت في الماضي ؟ » .. فرفعت الوردة إلى أنفها ، وانعكس ظلها الأحمر على وجنتيها ، ثم قالت : « وهل تغيرت ؟ » .

- نعم ، تغيرت كثيراً ..
- أعلم أنى عاملتك أخيراً بشيء من البرود ، ولكن .. لا تفكر في ذلك ، فإنه يحدث بالرغم منى . دعنا من هذا الموضوع ..
- أنت لا تريد أن أحبك .. هذا هو الواقع !
- بل أحببني ، ولكن بطريقة أخرى ..
- وكيف ؟
- لنكن صديقين .. أصنع إلى ، أنت تعلم أننى أكبرك في السن ، بحيث أصلح لأن أكون عمك - أو أختك الكبرى على الأقل - بينا أنت ..
- أنا فى نظرك طفل !

— نعم ، ولكن طفل عزيز ذكى أحبه كثيراً . أتعلم ؟ منذ
هذه اللحظة أخلع عليك لقب « فارسي » ! ولا تنس أن الفارس
يلزم في العادة سيده ، وهاك عربون ودي ..

قالتها ورشقت وردتها الحمراء في عروة سترتي .. فقلت
مغمماً : « لقد أوليتني مرة جميلاً (أجمل) من هذا ! » .
— آه ، يا لذاكرك .. على أى حال أنا مستعدة ..

ثم طبعت على « جيني » قبلة هادئة .. واستدارت مبتعدة
وهي تقول : « اتبعني يا فارسي » .
.. وتبعها !

— ١٤ —

● وفي تلك الليلة التأم الجمع في بيتها كالمعتاد ، وابتكرت
هي لعبة السهرة كما جرت العادة ، لكنها لم تكن في هذه المرة
يانصياً أو مسابقة التشبيات ، وإنما كان موضوعها أن يقص
كل منا أغرب حلم رآه في منامه .. وكالعادة كان حلمها هو
الفائز ، قالت : « رأيت قصراً فخماً ، يموج بالراقصات
والراقصين ، في إحدى ليالى الصيف .. وكانت ربة القصر الداعية
إلى الحفلة ملكة شابة ، والقصر قد تلالأ بالأنوار ، والذهب ،
والمرمر ، والبللور ، والحرير ، والماس ، والأزهار ، والعمود ،
وكل نزوات الترف .. وكان ضيوف الحفلة كلهم من الشبان

المتألقين الشجعان ، وكلهم متم بالملكة الشابة متدله في هواها ،
ينظم القصائد في التشبيب بها ويكيل لها عبارات الغزل والإطراء ..
وهي تنصت لغزلهم ، وتصغى للموسيقى ، لكنها لا تعبأ بشخص
منهم ، أو يحظى أحد بإعجابها ! .. وكانت بالقاعة ست نوافذ
عالية تمتد بين الأرض والسقف ، مفتوحة كلها على الحديقة
المظلمة ، بأشجارها الضخمة ، والسماء الصافية بنجومها المضيئة ..
فأطلت الملكة منها على نافورة بيضاء في وسط الحديقة ، يختلط
خبر مائها بأنغام الموسيقى وضجيج الحاضرين .. ثم خاطبت
مدعوها قائلة : « أتم جميعاً أيها السادة نبلاء ، أذكىاء ، أثرياء ،
تحفون بي ، وتبدون استعدادكم للموت عند قدمي ، ولكن ما حيلتي
في قلبي .. إن الذي أحبه ، ويملكني في يمينه ، ليس بينكم . إنه
ينتظرني في الخارج ، بجوار النافورة .. وهو لا يملك مالا ولا جاهاً
ولا يعرفه أحد ، لكنه ينتظرني ، واثقاً من ذهابي للقائه ..
وسأذهب لألقاه ، وما من قوة تستطيع أن تحول بيني وبينه حين
أريد أن أهرع إليه ، وأبقى معه ، ونضيق معاً في ظلام الحديقة ،
تحت همس الأشجار ، وفي ظلال النافورة .. ! » .

وفرغت زينيدا من سرد حلمها العجيب ، فتناولها الأصدقاء
بالتعليق والتفنيد .. حتى انقضت السهرة وقد انتصف الليل ،
فتفرقنا كل إلى بيته ..

لكنى عبثاً حاولت أن أنام فى تلك الليلة . ظلمت أنقلب على
سعير ، من جنب إلى جنب ، ومن خد إلى خد ، أقلب قصة
زينابدا على شتى وجوهها ، محاولاً استخلاص مغزاها ، وأنا أهمس
لنفسى : « ترى من هو . رجل النافورة ؟ .. وأى ثمن لا أدفعه
كى أكون ذلك المحظوظ ؟ » واشتعل دمي فى عروقي وغلي ،
فجعلت أهذى : « الحديقة .. النافورة .. سأخرج إلى الحديقة . » .
وخرجت فعلاً .. ارتديت ثيابى على عجل وانسللت من البيت .
كان الليل حالكأً ، والهواء ساكناً ، فضيت أذرع ممرات الحديقة
على غير هدى ، ووقع قدمى يتبعنى ويخيفنى .. ثم وقفت ، وأنصت
السمع ، وانتظرت .. فلم أسمع غير دقات قلبى السريعة العالية .
وفجأة خيل لى أنى أرى شبح امرأة ، فددت عيني فى الظلام ،
وحبست أنفاسى .. ماذا ، هل أسمع صدى خطوات ،
أم نبضات ؟ .. أضحكة مكتومة ، أم حفيف أوراق الشجر ،
أم آهة قلب مكلوم ؟ .. وأحسست بالخوف والرعب ، فناديت
بصوت لم أسمعه أنا : « من هناك ؟ » .. وهبت نسمة هواء ،
وهوت نجمة من السماء ، فأردت أن أصرخ : « زينابدا !
لكن الصبيحة ماتت على شفتى .. وعاد الصمت والسكون يلفان
الكون . حتى الضفادع كفت عن نقيقها !
وأخيراً عدت يائساً إلى غرفتى . وفراشى البارد ، لأستأنف
عراكى مع نفسى من جديد !

● واستيقظت في اليوم التالي والكا بوس ما يزال يملأ رأسي ..
فخرجت أتمشي في الحدائق ، وصادفت الكونت مالفسكي ..
يا للثيم ! لم يكدراني حتى قال بخبثه المعهود وبخبرته : « أهكذا
يترك الفارس مليكته تغيب عن بصره ورقابته .. إنك مهمل يا صاح
ولما قصرت في حراسة مولاتك ، نهاراً أو .. ليلاً ! » .

— ماذا تعني ؟

— أنسيت الحديقة ، والليل ، والرجل عند النافورة ؟
ثم ضحك وأدار ظهره لي .. بعد أن نفذت كلماته إلى قلبي
كالمسم حين يسرى في العروق ، فاندفع الدم إلى رأسي وهمست
لنفسى : « إذا كان الأمر كذلك .. فويل لمن يقع في يدي ، سوف
أثبت للجميع ، وللخائنة ، أنني أستطيع أن أنتقم لنفسي ! » .
وهرعت إلى غرفتي ، فأخرجت من أحسد الأدراج سكيناً
حاددة كنت قد اشتريتها حديثاً ، وتحسست حدها .. ثم دسستها
في جيبي وقد شعرت بقلبي ينتفض غضباً ، ويرزح تحت ثقل
كالخجر ! .. وطوال اليوم جعلت أروح وأجىء في البيت ،
وأنا أتخسس بيدي السكين التي في جيبي ، كمن يتهاى لحدث رهيب ..
وشغلتنى هذه المشاعر والانفعالات عن كل ما عداها ، حتى
عن التفكير في « زينايدا » نفسها .. ولحظت ألى انشغالي ومظهر
« البطولة » الذي أقمصه . فقالت لي ونحن على مائدة العشاء :

« مالك تبدو مهموماً شاردأ ؟ » فأجبتها بابتسامة غامضة وأنا أقول
لنفسي : « آه لو يعلمون ! » .. ودقت الساعة الحادية عشرة ،
فضيت إلى غرفتي ، لكنني لم أخلع ثيابي ، وإنما لبثت أنتظر
منتصف الليل بصبر نافذ !

وأخيراً دقت الساعة مرة أخرى ، ففركت يدي في حماس :
« لقد حانت الساعة ! » وهبطت إلى الحديقة .. وكنت قد اخترت
أثناء النهار مكان المراقبة الذي أكن عنده ، وكانت شجرة صنوبر
كثيفة بجوار السور ، فاتجهت إليها وأسندت ظهري إلى جذعها ،
وانتظرت ! .. كانت الليلة ساكنة كسابقتها ، بل أكثر منها صفاء .
وكانت الدقائق الأولى من فترة الانتظار مملّة مرهقة ، فجعلت أتخيل
فيها ما سوف أفعله وأقوله لغريمي : هل أصبح به « قف » إلى
أين أنت ذاهب ؟ سلم نفسك أو أقتلك ! .. أم أعمد السكين في
صدره دون إنذار ؟

وبدت لي كل حركة بين الأغصان ، وكل صوت ، غير
مألوف .. لكن ساعة انقضت بلا جديد ، فبدأ دمي يهدأ ويبرد ،
وبدأت أشعر بجماقي ، وبأن مالفسكي إنما هزأ مني ! .. فتركت
مكاني ورحت أجول في الحديقة . كان السكون شاملاً ، وكل
الكائنات قد هجعت . حتى كلبنا قد أدخل للنعاس .. فتسلقت
أطلال الحائط المهدم وسرحت الطرف في الفضاء العريض الذي
أمامي ، وتذكرت لقائي مع زينايدا .. فاستغرقتني الأحلام !

وفجأة خيل إلى أنى سمعت صوتاً غير عادى ! صوت باب
يفتح ثم يغلق . ثم خطوات خفيفة متلصصة تقترب .. فقفزت من
مكانى وقد غاودنى نشاطى . وكنت فى ظل الخائط .. « ها هو
ذا يظهر .. أخيراً » واستللت السكين من جيبي ، وفتحتها ..
ورقص لون الدم أمام عيني . وانتفض شعر رأسى خوفاً وغضباً ..
والخطوات مقبلة نحوى .. فتحفزت للانقضاض على غريمى ، ومِر
الرجل بمجازاى .. !

يا إلهى .. إنه أنى !!!

وفى طرفة عين تحول « عطيل » الغيور ، المتأهب للقتل .. إلى
تلميذ مدرسة . خائف ، خجول ! .. وأهتتى حدة المناجاة عن
تبعه ببصرى . وسقطت السكين من يدي على الحشائش . فلم أعبأ
حتى بالبحث عنها . من فرط خجلي من نفسى !

وفيا أنا عائداً إلى البيت عرجت على مقعدى المختار بالحديقة ،
ورفعت بصرى إلى نافذة « زينaida » . كانت مفتوحة . والغرفة
مظلمة إلا من النور الأزرق القاتم المتعكس عليها من عتمة الليل ..
وعلى حين بغتة أسدلت على النافذة المفتوحة ستارة بيضاء ،
حجبت داخلها عن الأنظار ! ..

« ولكن لماذا .. وما معنى هذا ؟ » أخذت أسائل نفسى
حين تمددت على فراشى : « أهو حلم . أم وهم ، أم حقيقة ؟ » ..

وكانت الفروض التي صعدت مع الدم إلى رأسي ، رداً على تساؤلي
غريبة جديدة على .. بحيث لم أجرؤ على مجرد التفكير فيها !

- ١٦ -

● وصحوت في الصباح وبني صداع شديد في رأسي .. وكانت
انفعالات اليوم السابق قد تبخرت ، وحل محلها شعور بالانقباض
والكآبة لم أعهده من قبل . وكأن شيئاً في قد مات نهائياً ! .. وعلى
مائدة الإفطار استقرت نظرة مني على أبي . كان هادئاً كعادته ..
لكنه لم يتبسط في الحديث معي ، بل نسي أن يلقى إلى تحية الصباح !
وبعد قليل ذهبت للقاء « زينايدا » ، وفي عزمي أن أصارحها
بما رأيت .. لكنني جهنت ! وفي المساء ، بينما كنت منفرداً
بنفسي في ركن من الحديقة ، جاءت تبحث عني .. وسألتني عن
سبب كآبتي ، فانهمرت دموعي فجأة بغزارة أزعتها ، فألحت
علي : « ماذا بك يا عزيزي (فولوديا) - وكانت تلك أول مرة
تدللني فيها بهذا الاسم ! - ماذا بك .. أحب ! » لكنني لم أحب ،
ولم أكف عن البكاء ، فهمت بأن تقبلني في وحتي المبللة ، لولا
أن أشحت بوجهي عنها وأنا أقول بصوت متقطع خلال نسيجي :
« إنني أعرف كل شيء ، فلماذا تعبتين بي ؟ » .

- أنا المألومة حقاً .. كم من بدور الشر والخطيئة ! .. لكنني
لست ألهو بك الآن . وانمسا أنا أحبك حقاً ، لسبب لا يخطر على
بالك .. ولكن خبرني أم لا . ماذا عرفت ؟

ماذا كنت أستطيع أن أقوله لها ؟ .. وقفت في مواجهتي
ونظرت إلى ، وللحال صرت ملك يمينها من رأسى إلى قدمى ..
وبعد ربع ساعة كنت ألعب معها لعبة « الاستغاية » وأنا أصبح
متهللاً كلما أفلحت في اقتناصها من خصرها .. وكانت دموعى
تنساقط بين الحين والآخر ، ولكن من فرط فرحتى !

- ١٧ -

● قد أجد صعوبة لو حاولت وصف مشاعرى خلال الأسبوع
التالى .. فقد قضيتة فريسة لنوع من الحمى النفسية ، اختلطت فيها
كافة ألوان الأحاسيس العنيفة المتناقضة ، والأفكار ، والشكوك ،
والآمال ، والآلام .. فعشت أيامى كالحكوم عليه بالإعدام الذى
يريد أن يظفر من الدنيا بأقصى ما فيها ، هارباً من ذكرياته ،
متجاهلاً ماضيه وآتیه ، مستغرقاً فى حاضره فقط .. حتى عدت
إلى البيت يوماً قبيل الغداء ، فقيل لى : إن أبى قد خرج بغير أن
يتناول طعاماً ، وأن أمى معتكفة فى غرفتها لا تريد أن تأكل
شيئاً ! .. وتبينت على وجوه الخدم تبهماً غير عادى ، فسألت
أصغرهم - وكان يحبنى بصفة خاصة - عما حدث .. فقص على
أن أمى قد اشتبكت مع أبى فى نقاش حاد ، اتهمته فيه بخيانتها
والوقوع فى هوى الأميرة الشابة ، فدفع التهمة عن نفسه طويلاً
حتى فقد اتزانته أخيراً فأهانها بكلمة جارحة عرض فيها بكبر سنها ..

فأجهشت أُمى بالبكاء .. ثم أضاف الخادم إن سبب الفضيحة كلها خطاب بغير توقيع استلمته الزوجة .. من مجهول !

قابلت النبأ بوجوم ، ثم صرفت الخادم وأويت إلى فراشي . لم أبك أو أستسلم لليأس ، أو أسأل كيف ومتى حدث ذلك ، وكيف لم أستنتجه من قبل .. بل لاني لم ألم أبي في قلبي .. فقد كانت « الفاجعة » بالنسبة لي أفدح من أن يجدى فيها شيء من ذلك .. كان معناها النهاية !

وفي اليوم التالي أعلنت أُمى عزمها على العودة إلى المدينة ، وبعد أن اختلى أبي بها فترة في غرفتها بدأت تعد معدات السفر في هدوء ، وأدركت أنهما قد اتفقا على عدم إثارة فضيحة علنية . وفي المساء حضرت مشهداً غريباً . رأيت أبي يقتاد الكونت مالفسكى من ذراعه في الردهة ثم يقول له ، أمام كبير الخدم ، ببرود مثير : « منذ بضعة أيام أريتك طريق الباب ، واليوم أراني مضطراً ، لأن أنذرك بأنك لو طرقت بابي مرة أخرى فسوف أقذف بك من النافذة .. فلست أحب الخط الذي تكتب به خطاباتك ! » .

إذن فهو الذي أرسل إلى أُمى ذلك الخطاب الذى بغير توقيع ؟ وتقاذفنى الخواطر : كيف عرضت الأميرة الشابة سمعتها ومستقبلها للضياع ، وماذا كانت تأمل وهى تعلم أن أبى متزوج وليس حراً ؟ .. لكنه الحب ، والتفانى ، والتكريس !

واستقر رأى على وجوب زيارة زينايدا ، لتوديعها قبل
سفرنا .. فانتهزت فرصة مناسبة وقصدت إلى بيتها .. واستقبلتني
أمها استقبالا فهمت منه أنها لم تقف على فضيحة ابنتها . ثم دخلت
زينايدا الغرفة شاحبة الوجه ، ترتدى ثوباً أسود . وقد أرسلت
شعرها على كتفها في إهمال .. وبغير أن تنطق بكلمة قادتنى من
يدى إلى غرفتها وهناك قالت لى : « لقد سمعت صوتك فسعيت
إليك .. أهكذا سهل عليك أن تتركنا يا شقى ؟ » .

— لقد جئت لأودعك يا سمو الأميرة ، ربما إلى الأبد !
— أشكرك .. لكنى أرجو ألا تسمى الظن بى فى قلبك ..
ربما أكون قد عذبتك أحياناً ، ولكن ثق بآنى لست الفتاة المستهتره
التي تتصورها !

— صدقيني يا زينايدا أنك مهما فعلت بى ، فلسوف أظل
مقيماً على حبك حتى آخر أيامى .. !

فاستدارت إلى بحركة سريعة ، فاتحة ذراعها .. ومنحتنى قبلة
عاطفية ملتهبة ، الله يعلم من قصدت بها ، لكنى على أية حال
تذوقت عذوبتها كاملة ، عالماً أنها الأولى والأخيرة ، وأنها لن
تتكرر قط ! .. ثم انتزعت نفسها منى وخرجت لا تلوى على
شئ .. وخرجت أنا إلى بيتى نهياً لانفعال لا يمكننى وصفه
— ولا أتمنى أن يعاودنى — ولو أنى كنت أكون سبيء الحظ لو لم
أجربه قط فى حياتى !

ثم عدنا إلى موسكو ، فبدأ جرحى يلتئم في ببطء شديد ..
فإني لم أستطع أن أنفض عنى غبار الماضي وأعود إلى دراستي
إلا بعد مجهود عنيف . أما شعورى نحو والدى فلم يسوء عن ذى
قبل ، أو يطرأ عليه أى تحامل ، أو حقد ، أو لوم .. بل إنه على
العكس صار أدنى إلى قلبى وأحب إلى نفسى ! .. وليفسر علماء
النفس هذه الظاهرة كما يحلو لهم !

- ١٨ -

● وكان والدى قد اعتاد بعد عودته إلى العاصمة أن يرتاض
على ظهر جواده كل يوم .. وذات صباح طلبت منه أن يسمح لى
بمصاحبتة على جوادى ، فتردد لحظة ثم قبل .. وخرجنا معاً إلى
ضاحية المدينة ، وحين بلغنا منعطف الطريق المحاذى للنهر ، ترجل
عن جواده وطلب منى أن أنتظره فى تلك البقعة حتى يعود .. ثم
سار على قدميه فى ذلك المنعطف ، حتى اختفى عن ناظرى !
لكن ساعة مرت وهو لم يعد ، وكان قد بدأ يتصاعد من
النهر ضباب كثيف .. ثم هطل المطر ، وظل يتزايد ويشدد .. فنقد
صبرى ، ولم أر ما يمنع من أن أسير بالجوادين فى الاتجاه الذى
انعطف إليه والدى . فضيت فى الشارع القصير حتى آخره ، ثم
وقفت حائراً .. وفيما أنا أستدير راجعاً حانت منى نظرة إلى نافذة
مفتوحة فى أحد البيوت الخشبية القائمة قبالتى ، فرأيت أبى متكئاً
على حافة النافذة وظهره إلى الطريق ، يتحدث إلى امرأة فى ثوب

قامم جالسة داخل الغرفة ، تكاد تحجبها عن الأنظار ستارة بيضاء .
ولم تكن المرأة سوى .. زينايدا !

وكانت المفاجأة أعنف من أن تحتلمها أعصابي ، فخطر لي في
البداية أن أعود لإدراجي مسرعاً ، خشية أن يستدير أبي فيراني ..
لكن شعوراً غريباً ، أقوى من الفضول ، وأقوى من الغيرة ، بل
أقوى من الخوف ، سمر قدي حيث كنت ! فوجدتني أرقب
ما يجري وأشحد أذني كي أسمع ما يدور بين الحبيبين ، ولكن ،
بلا جدوى .. كل ما استطعت استنتاجه من حركاتهما أن والدي
كان يصر على شيء ما ، وزينايدا تأتي لإجابه إلى طلبه ! .. وكان
وجهها الجميل حزينا ، يحمل في آن واحد سمات الهوى ، والأسى ،
والياس .. ثم رأيت أبي يهز كتفيه ويعدل وضع القبعة على رأسه
— الحركة التي كانت عنده علامة نفاذ صبره ! — وسمعت من
كلامه هذه العبارة المبتورة : « يجب أن تقطعي كل صلة
بـ » ولم يكدينه عبارته حتى فعل ما لم يكن يخطر بباله أن
يفعله : رفع السوط الذي في يده فجأة وهوى به على ذراع الفتاة
العارية حتى مرفقها ! .. ولا أدري كيف استطعت أن أضبط أعصابي
فلم تصدر مني صيحة انزعاج مفاجئة ! .. أما الفتاة فقد ارتجفت
رجفة شديدة ورمقت أبي بنظرة صامتة ثم رفعت ذراعها ببطء إلى
شفتيها فقبلت البقعة الحمراء التي خلفها السوط على جلدها ! ..
بينما كان أبي يلتقي بالسوط بعيداً في انفعال ويندفع خارجاً لا يلوي
على شيء ، والفتاة تتبعه إلى الباب !

سقط قلبي رعباً وهلعاً ، وتدبرت موقفي عل عجل فرأيت
أن أعود مسرعاً إلى حيث تركني أبي . وهكذا أطلقت للجوادين
ولنفسى العنان فعدونا بأقصى سرعة حتى بلغت مكانى الأول
وأنا ألث ، قبل أن يخرج أبى إلى الطريق .. وهناك وقفت أنتظره
كالذاهل . كنت أعلم أن اتراته وبرود أعضابه يخذلانه . أحياناً
ويسلمانه للغضب والتهور ، لكنى عجزت عن إقناع نفسى بأن
ما رأيته قد وقع فعلاً .. بل شعرت أننى ، مهما طاللت حياتى ،
لن أنسى يوماً هيئة الفتاة ونظرتها وابتسامتها ، وهى تتلقى جلدة
السوط .. فقد حفرت صورتها تلك فى ذاكرتى إلى الأبد ! ..
فجعلت أحرق فى مياه النهر بنظر زائع من غير أن أنبه إلى أن
دموعى أخذت تسيل من عيني .. فإن إدراكى كله كان قد تركز
فى فكرة واحدة : « أن زينايدا قد جلدت بالسوط أمام عيني ! » .
وأفقت من شرودى أخيراً على صوت أبى يخاطبني : « هل
ضايقتك الانتظار ؟ » .. فأجبتة وأنا أقمع انفعالى : « قليلاً .. ولكن
أين أضعت سوطك » .. فرمقنى بنظرة خاطفة وقال : « لم أضعه ،
بل رميته عامداً ! » ثم استغرق فى التفكير ، ونكس رأسه ..
وعندئذ ، وللمرة الأولى والأخيرة على ما أذكر ، رأيت مدى الرقة
والشفقة اللتين تستطيع قسمات وجهه الجامدة أن تعبر عنهما ! ..
وفجأة ركل جواده بمهمازيه وانطلق به يسابق الريح فى اتجاه بيتنا ،
فبلغه قبلى بنحو ربع ساعة .

وفي المساء ، حين جلست إلى منضدة كتي ، جعلت أهرس
لنفسى كالذاهل : « هذا هو الحب .. هذه هى العاطفة الحققة ،
وإلا فكيف يستطيع المرء أن يتحمل ضربة سوط من يد كائن من
كان ، بل من يد أعز إنسان ، إن لم يكن .. يحبه ؟ ! » وللغور
بدا لى غرامى بالفتاة كشيء صبياني تافه يدعو إلى الرثاء ، إلى
جانب هذه العاطفة الأخرى .. العنيفة .. العارمة !

- ١٩ -

● وبعد شهرين التحقت بالجامعة .. ولم تكده تنقضى ستة أشهر
حتى مات أبى بالسكتة القلبية فى « بطرسبرج » - حيث كنا قد
انتقلنا منذ أسابيع - وكان قد استلم قبيل وفاته بأيام خطاباً من
موسكو أثار غضبه وانفعاله ، وعلى أثر ذلك رأيته يتوجه إلى غرفة
أى فيطلب منها طلباً لم أقف على تفصيله .. وسمعت أنه ذرف أمامها
دمعاً غزيراً ، برغم أنه كان بالدمع ضئيلاً ! .. وفى صبيحة يوم
وفاته الفجائية بدأ يكتب خطاباً لى بالفرنسية جاء فيه : « يا بنى
احذر حب المرأة ، احذر ذلك السم فى الدسم ! » .. وبعد موته
بأيام أرسلت أمى مبلغاً كبيراً من المال إلى موسكو !

- ٢٠ -

● وانقضت أربعة أعوام ، وتخرجت فى الجامعة .. فقضيت
زمناً حائراً لا أدرى أية وجهة فى الحياة أتخذ ، وأى باب أطرق ..
وذات مساء قابلت الشاعر « ميدانوف » مصادفة فى أحد المسارح ،

فعلمت منه أنه قد تزوج ، لكنى لم ألحظ عليه تغيراً يذكر ! ..
وفيا نحن نتحدث قال لى ضمن ما قال : « أتعلم أن (مدام دولسكى)
هنا الآن ؟ » .

فقلت متسائلاً : « ومن تكون مدام دولسكى ؟ » .

— أو يمكن أن تكون قد نسيته ؟ .. تلك الأميرة الشابة التى
وقعنا جميعاً فى حبها ، بما فينا أنت ، يوم كانت تقيم فى المنزل
الصغير المجاور للحدائق « نسكتشنى » ؟

— وهل تزوجت شخصاً يدعى دولسكى ؟

— نعم ..

— وهل هى هنا فى المسرح ؟

— كلا ، بل أقصد أنها فى بطرسبرج . لقد قدمت منذ أيام
وهى توشك أن تسافر فى رحلة طويلة ..

— ومن يكون زوجها ؟

— إنه شاب رائع ، ثرى ، كان زميلاً لى فى موسكو ..
أفليس غريباً أن تفوز به بعد فضيحتها الكبرى .. التى تذكرها
جيداً ولا شك ؟ .. لكن براعتها وذكاءها يكتسحان جميع
العقبات ! .. وبهذه المناسبة ، لم لا تذهب لتزورها ؟ إنها سوف
تسر كثيراً برؤيتك ..

وأعطاني ميدانوف عنوان زينايدا ، وكانت تقيم في فندق « ديمو » ، فثارت ذكرياتي القديمة في أعماقي ، واعتزمت زيارتها في اليوم التالي .. لكن عملاً طارئاً شغلني . وهكذا انقضى أسبوع ، ثم آخر ، وحين توجهت أخيراً إلى فندق « ديمو » أسأل عن مدام دولسكي ، علمت - ويا للصدمة التي أصابتني ! - إنها قد ماتت فجأة منذ أربعة أيام وهي تضع مولودها الأول !

وشعرت بخنجر يطعن قلبي .. وتولاني ندم فظيع وأنا أفكر في أنني كنت أستطيع أن أراها ، لولا تقصيري ، وأنني لن أراها قط بعد ذلك ! .. فجعلت أكرر لنفسي وأنا أحرق في حارس الفندق بغباء : « لقد ماتت ! .. ماتت .. » .. ثم تنهت لنفسي فقفلت راجعاً إلى الطريق ، ومضيت ذاهلاً لا أعلم إلى أين أنا ذاهب .. كان ماضي كله قد استيقظ فجأة وطفاً سابحاً أمام عيني .. إذن فهذه هي النهاية ؟ نهاية تلك الحياة الغضة اللامعة الفوارة بالحرارة والحيوية ؟ .. وتراءت لي قسما وجهها الحبيب ، وعيناها الساحرتان ، وخصلات الشعر ، والوجنتان .. راقدة في ذلك الصندوق الضيق ، في قلب الأرض الرطبة المظلمة .. غير بعيد مني ، وربما على بعد أمتار من أبي .. بينما أنا لا أزال حياً ، أنا وحدي ! .. أواه ، ماذا بقي لي ، ما أمل في الغد ، أي مستقبل يتراءى في خيالي ، بعد أن غاض شبح حي الأول ، كزفرة

حارة تضيق في الهواء .. ذاب كما يذوب الشمع في الشمس ..
كما يذوب الجليد !
والآن ، وظلال الليل ترحف على خريف حياتي ، أى شيء
أعز على خيالي ، وأغلى ، من ذكريات ذلك الإعصار الجامع الذي
عصف بقلبي في فجر شبائي ؟ !

[نمت القصة]

القصة التركية المعاصرة

الأقلام ينتار كمال

ترجمة

عبدالقادر عبدالي

مراجعة

زينب سعد زغلول أبو سنة

الأقلام

المزابل واحدة من أهم معالم المدن. هل خطر ببالكم تصور كل هذه الأهمية أو الضرورة للمزابل؟ أنا لم يخطر ببالي هذا قبل رؤيتي إحدى مزابل المدن الكبرى. المزبلة بالنسبة لي تعني مدينة.

اسطنبول مدينة جميلة، أخاذة، لو تذوق أحد طعمها، واستنشق هواءها، فلن ينساها، وهي لوحات تتساب من خلال فرشاة الرسامين عبر السنين. كم التقط لها من صور، وكتب عنها من شعر؟ أنا أعتبر نفسي قرأت وشاهدت معظمها، ولكن لم تعطني أي منها صورة شاملة عنها كالصورة التي أعطتها لي مزابلها. إذا كانت اسطنبول تتبعث من مزابلها رائحة ننتة، كرائحة الجيف، تחדش الأنوف... وإذا كانت رائحتها أنظف، فتتبعث من مزابلها رائحة أقل ننتة، وإذا كانت رائحتها عطرة، فتتبعث من مزابلها رائحة طيبة. ستقولون: «أتتبعث رائحة طيبة من مزبلة؟» نعم، تتبعث.. لماذا؟ وهل أنا إنسان يعرف المزابل عن قرب إلى هذا الحد؟ يجب أن أدافع عن نفسي. أنا لست خبير مزابل.. لا بد أن أخبركم بهذا السر لكي لا تتظروا إلي بعين الريبة. أولاً: أنا أحب النوارس.. أحبها؟.. لا، لا، من الأدق أن أقول: مهتم بحياتها. أذهب لأراقبها ساعات.. فوق البحر، أو الصخور، أو المزابل. النوارس مخلوقات شرسة، ومقاتلة. تنهش كل ما يقع تحت مناقيرها. لهذا عندما أريد الكتابة عن النوارس ليس من الضروري أن أدخل إلى أدق تفاصيل حياتها. لعلي أكتب لكم يوماً مقالة غريبة، وطويلة، عن النوارس، تلك المخلوقات الشرسة. يتجلى صراع النوارس أكثر ما يتجلى على المزابل، وهي سبب اهتمامي بالمزابل. والسبب الثاني هو جارنا الجاويش رستم.

لجارنا رستم هذا شاريان كشان، وعينان براققتان، وهو حيوي، ومرح، ومفعم بالحب والحياة، وهو من ناحية ظارار، التابعة لمدينة سيواس، وزبال في اسطنبول منذ عشر سنوات، ورقّي إلى مرتبة جاويش الزبالين منذ أربع سنوات.

اشترى قطعة الأرض المجاورة لبيتنا بعد أن أصبح جاويش الزبالين. في البداية سورّها وغرس فيها ثلاث شجرات دلب. فوجئنا بتفتح زهر العسل في الربيع، إذ عبق الحي برائحته.. متى حدث هذا؟ متى بني البيت وسط قطعة الأرض؟ لم ينتبه سكان الحي لهذا، كما لم انتبه أنا.. ولعله لم ينتبه هو أيضا.. هناك خلف السور المزهر يبدو بيت نافذته ذات ثلاثة مصاريع، يتلامع، وكأنه هناك منذ ألف عام. عرفنا زوجته فيما بعد. قصيرة عريضة الفخذ، ذات عينين واسعتين، صبية تبدو في الخامسة والعشرين من عمرها. تقضي يومها من الصباح حتى المساء بمسح الزجاج، وتنظيف الأخشاب، وعزق الحديقة. كان بيتهم أجمل بيوت الحي وأنظفها. أحيانا، كنت أرى الزوجين واقفين أمام البيت، وينظران إليه بإعجاب كأنهما ينظران إلى لوحة رسام. عندما يلاحظان أنهما بهذا الموقف يهربان خجلا، بخوف طفل ضبط متلبسا، إلى بيتهما. كثيرا ما ضبطهما بهذا الموقف. فيما بعد، أصبحنا نشاهد البيت معا، ولساعات طويلة، دون أن نشبع منه.

في الربيع تفتحت أنواع من الزهور في حديقة البيت.. وامتألت نوافذ البيت بأصيص زهور المسك، والعيهون والريحان.. كان بيت الجاويش رستم لوحة تتعش النفس، وتبعث فيها السعادة، أنجزتها يد فنان كبير.

لديهما ولدان. صبي و بنت. كان الصبي ناعما، مفعم بالحركة، ويطن

كنحلة من الصباح إلى المساء دون توقف ولو لحظة. يظهر في كل مكان من الحي، وهو ليس من أولئك الأولاد المغبرين من فرقهم إلى قدميهم. كان نظيفا وعطرا كبيتهم. أما ابنتهما فهي أكبر قليلا، هادئة، قليلة الكلام، دائمة الابتسامة اللطيفة، خجولة، حلوة، ذات وجه مكرر قليلا.. دقة ذقنها، وامتلاء شفيتها يجعلانها تبدو أكبر مما هي عليه. هذا كل ما حولهم. كانت العائلة بيتا وأولادا وأزهارا وزوجين نبعا من حب، وأفقا من سعادة. وكل من يمر بجانب البيت يدرك هذه السعادة، ويفعم بالحب. ثمة أمكنة وبيوت وأناس تفمرك السعادة عندما تنظر إليهم.

طيلة سنوات أربع، كلما تضايقت، أو اسودت الدنيا في عيني، وحلت علي لعنتها، أخرج وأنظر إلى ذلك البيت الصغير فأشعر بالراحة. يعود الرجل الوسيم ذو الشاربين الكثين ببذلة الزبال كل مساء، إذا كان فرحا يحتضن طنبوره، وبصوت خافت جدا يؤدي أغنيات شعبية لم أسمعها، ولا أمل لي في سماعها مرة أخرى حتى أموت. ماذا تقول تلك الأغاني؟ هل تعني الفرح؟ أم القدر؟ أم تحكي قصة ما؟ لم أفهمها. أحيانا كنت أرغب في ضبطه وهو يفني، والاستماع إليه، وفهم ما يقول، ولكن ما إن أدخل بيته، يهب واقفا، ويجلسني بعد أن يرمي طنبوره بسرعة خلف صندوق بجانبه. طلبت العزف منه عدة مرات، ولكنني فهمت أنه لن يعزف أمامي مهما كان الثمن، فعدلت عن طلبي، وهذا ما كان يؤجج نار فضولي. ما الكلمات التي يؤديها الجاويش رستم لتغدو أغانيه جميلة إلى هذا الحد؟ كان يحبني. طلبت منه اصطحابي إلى مكان عمله فلم يخجلني، بل، على العكس، فرح.. تكررت زيارتي. المكان خارج المدينة حيث أفران القرميد. تفرغ القمامة هناك، والجاويش رستم على رأس العاملين. يحرقون القمامة أحيانا، وجدت أنه لا توجد في هذه الدنيا رائحة أكثر كرها من رائحة حرق القمامة.

المزيلة مختصر مدينة، وتحتوي على كل ما تحتويه المدينة من أشياء. ثمة ساعات ثمينة، حتى إنها جديدة جداً. ثمة خواتم، وأساور، وأطواق ذهبية، وماسية. ثمة أقلام حبر، وجافة، ومقصات، ولفات خيوط، وبكرات، ونظارات، ونقود... يتقاسم الزبالون كل ما يخرج من المزيلة، قيماً كان أم بخساً. الأقلام هي المادة الوحيدة التي لا يستطيعون اقتسامها. من يجد في المزيلة قلماً يصرخ بفرح كأنه وجد ذهباً أو ماساً.

- يا جاويش رستم.. وجدت قلماً.. قلم جميل جداً.. لونه أحمر، ولم يفتح بعد.

- يا جاويش رستم.. قلم آخر.. جاف.. أخضر، يا له من لون..

- يا جاويش رستم.. قلم يساوي ثمنه مائة ليرة.. ما زال في علبته.

أمام الجاويش رستم وعاء ماء، يقلب القلم المجلوب إليه، ثم يغسله بالماء والصابون.

أصر الجاويش رستم على اقتسام الأقلام بين الزبالين، لكنه لم يستطع إقناعهم. لديه ولدان يتعلمان، سيصبحان من السادة والسيدات، لهذا، فإن كل ما يجدونه من الأقلام، حتى لو بلغت الآلاف فهي لطفلي الجاويش رستم.

يشعر الزبالون بمنتهى السعادة والفرح عندما يعطون الأقلام للجاويش رستم. إعطاء القلم للجاويش رستم كأنه تحقيق نصر كبير، أو إنجاز عمل عظيم. كان كل منهم يشعر بسعادة لمساعدة طفلين سيصبحان إنسانين جيدين، ومسؤولين، وليس زبالين. هذا ما يقرأ في عيونهم بشكل واضح، والجاويش رستم لا يعطي لنفسه الحق بحرمانهم

من هذه السعادة. والأقلام من أهم ألعاب الأطفال. كان يعود إلى بيته كل مساء بمختلف الأشكال من الأقلام، ويتراهن الولد والبنت والأم على عدد الأقلام التي سيجلبها الأب كل يوم، ودائما يجدون أن عدد الأقلام إما مساويا أو قريبا إلى توقع البنت.

البنت هذا العام في الصف الخامس الابتدائي. يخفي الجاويش رستم فخره واعتزازه بالبنت عن الجميع، وهو يثق بها ولا يظهر هذا لأحد. لدى تلاميذ المدرسة كل ما يحتاجون.. ملابسهم رائعة، وحقائبهم جميلة، ولديهم سيارات خاصة تأخذهم من أمام المدرسة، ولكن لم يكن عند أحدهم أقلام بعدد أقلام البنت، حتى من لدى آبائهم دكاكين أقلام. كانت تفخر بأقلامها بلا حدود. كلما فكرت فيها تبرق عيناها. ويلمع خداهما بلون زهري.. لا أحد يعلم أن لديها كل هذه الأقلام. وهذا هو همها.. لو جلبتها إلى المدرسة، لأكل الأولاد أصابعهم من الدهشة.. كان لديها ألف قلم بألف لون.. الأحمر، والأبيض، والأسود، والأزرق، والبرتقالي.. لو جمعتها لشكلت تلة من الألوان.. حقيقة إنها تلة من الأقلام. إنها تريد أن تأخذها إلى المدرسة، ولكن ماذا يحدث لو سألها الأولاد عن مصدرها؟ ماذا يمكنها أن تقول؟ لا تستطيع القول: إن أباهما رئيس الزباليين، جمعها من القمامة. لا تستطيع أن تقول هذا ولو ذبحوها. كيف تقول هذا؟ ولكن يجب أن تأتي بها.. يجب أن تريها لأصدقائها.

فكرت في هذا طويلا، فما وجدت حلا. لو قالت أبي اشتراها لي لما صدقها أحد. حتى أصحاب الملايين لا يشترون لأولادهم كل هذا العدد من الأقلام الجميلة. آه.. لا بد من جلب هذه الأقلام إلى المدرسة لتريها لأولاد. يجب أن تجد مخرجا لهذا الأمر. صممت على هذا، ولم تعد تستطيع نزعها من رأسها. في أحد الأيام ملأت حقيبتها بالأقلام،

وأخذتها إلى المدرسة، جن جنونها لفرط رغبتها أن تريها للأولاد. ولكن مع الأسف لم تستطع أن تريها لأحد. على مدى أسبوع وهي تكتوي بنار تشوقها لأن تريها لأصدقائها، لكنها لم تفعل. لعلها كانت ستنسى الأمر هذا العام أيضا لولا أن التقت جازهم (إرول)، الذي يعمل في مكتبة ضخمة في منطقة (العثمانية). أخذت منه دفترًا. ثمة أقلام كثيرة في محل عمله.. آه لو كان إرول هذا قريبها.. ابن خالها مثلا.. ما أجمل هذا.. كان من الممكن أن تقول: «أهداني هذه الأقلام ابن خالي إرول». فكرت في إرول حتى منتصف تلك الليلة.

عندما ذهبت إلى المدرسة صباحا ملأت حقيبتها بالأقلام، وعرضتها أولا على زميلتها في المقعد (صباحات).. لدى والد صباحات دكان صياغة في السوق المغلق، مليء بالذهب والأساور.. ولكن لم يكن لدى صباحات هذا العدد من الأقلام..

- آآآ.. من أين لك كل هذه الأقلام؟

أجابت نرمين دون اكتراث.

- إرول جلبها لي.. كل مساء يجلب لي أقلاما. لدى إرول مخزن مليء بالأقلام في حي (بايزيد).. أتعرفين إرول من يكون لي؟.. إنه ابن خالي. لم يتزوج بعد.

هرعت صباحات إلى بقية الأولاد قائلة:

- عند نرمين أقلام كثيرة.. بهذا القدر.. عندها.. عندها ألف قلم.. لتعم عيني إذا كنت أكذب.

تراكض الأولاد نحو نرمين. حقيقة كان لديها مزيد من الأقلام. قالت صباحات.

- إنها من ابن خالها .. لم يتزوج بعد .. لديه دكان ضخيم في بايزيد
لا يوجد فيه سوى الأقلام. سنذهب كل يوم إليه ويعطينا أقلاماً.

سرت نرمين من صباحات كثيراً، واختارت خمسة أو ستة أقلام،
وقالت:

- أرسل إرول هذه الأقلام لك .. قال لي: اعطيها لصباحات. حدثته
عنك كثيراً، وقلت له إنك أفضل صديقاتي.

قالت صباحات ضاحكة:

- أعرف .. شكرا لك ..

رن الجرس، وملاأت نرمين حقيبتهما بالأقلام أمام دهشة الجميع.
دخلوا إلى الصف .. أصبحت أفضل من الجميع .. امتلأت وفاضت
فرحاً.

بعد هذا أصبحت تذهب كل يوم إلى المدرسة بحقيبة مليئة بالأقلام.
كانت توزع أقلاماً على الجميع. أصبحت أختاً لكل التلاميذ. لم يشتر
الأولاد أقلاماً من السوق؟ إرول يجلب لها الكثير، وهي تعطي للجميع.
كان لديها أقلام لو وزعتها على جميع تلاميذ المدرسة، لظل عندها
الكثير.

استمرت فرحة نرمين حتى انفجرت هذه القضية القذرة.

أعرفون ذاك القصير زهدي الغبي، أفطس الأنف ابن السمان؟ هو
الذي خرب كل شيء. إنه كاذب خنزير. لو نظرت إلى وجهه لأوشكت
على التقيؤ، وما استطعت الأكل لمدة أربعين يوماً .. كل ما حدث بسببه.

وقف أمام المعلم، وقال:

- والله، والله يا أستاذ.. والله، بالله.. ليميتني الله إن كنت أكذب..
نرمين سرقت قلبي.. رأيته بين أقلامها.. إنه قلم أخضر، وقد علمته
بحزّين، ورأيته معها.

نادى المعلم نرمين، وطلب إليها فتح الحقيبة.. دهش المعلم لهذا العدد
من الأقلام.

ارتقى زهدي فوق الأقلام. أخذ قلمه، وقال:

- هذا هو يا أستاذ.

سأل المعلم نرمين بصرامة:

- من أين لك كل هذه الأقلام؟

كانت نرمين جاهزة للإجابة. قالت:

- أعطاه لي إرول، وعندي في البيت القدر نفسه منها.

نظر المعلم إليها نظرة مكر، وقال:

- اذهبي، واحضري بقية الأقلام من البيت!

ثم قال لزهدي:

- اعط القلم لنرمين.

- ولكن يا أستاذ، يا أستاذ..

- اعطها القلم!

أخذ القلم من يده، وأعادَه لنرمين.. أعادت نرمين الأقلام إلى
حقيبتها، وركضت نحو البيت.

ناداها المعلم قائلاً:

- اتركي المحفظة هنا!

عادت نرمين، وتركت المحفظة على الطاولة، وهرعت نحو البيت،
وملأت حقيبة قماشية بالأقلام، وأسرعت عائدة إلى المدرسة.

- ها هي يا أستاذ.

قال المعلم:

- اذهبي الآن إلى صفك.

ذهب المعلم إلى المدير وشرح له الوضع بتفصيل. تجول المدير على
صفوف المدرسة كلها، وأذاع على التلاميذ: «من أضاع، أو سرق له قلم،
فليأت إلي بعد الانصراف».

بعد عدة ساعات، تجمع التلاميذ أمام الإدارة. نصف تلاميذ المدرسة
قد سرقت أقلامهم، أو ضاعت.

يقول المدير: «صف لي قلمك المسروق!» يصف التلميذ قلمه، يخرج
المدير من بين الأقلام، ويعيده له. وهكذا أعاد المدير أقلام مجموعة
كبيرة من التلاميذ. الأطفال لا يكذبون. الأقلام فعلاً كانت لهم.

- قولي كيف سرقت كل هذه الأقلام؟

- لم أسرقها.

- سأعفو عنك لو قلت الحقيقة يا بنتي.

- لم أسرقها.

- لو كان إرول هذا مليونيرا، فلا يعطيك كل هذه الأقلام. لنقل أنه أعطاك خمسة أو عشرة أقلام.. ولكن، مئات الأقلام؟

- أعطائها لي إرول. دكانه مليء بالأقلام.

بعد تحقيق طويل. عندما لم يستطع المدير سحب الحقيقة من لسان البنت، قال:

- اذهبي، واحضري أباك أو أمك.

عادت نرمين إلى البيت، ارتمت على سريرها وهي تبكي. تحولت عيناها إلى وعائين من الدم. الأم تحاول استجوابها بقلق. والبنت لا تستطيع الإجابة لفرط نحيبها. عندما هدأت قليلا شرحت لأمها ما جرى. عاد الأب مساءً يخرج الأقلام مرة أخرى. قذفت نرمين الأقلام بكل قوتها إلى الشارع. شرحت له الأم ما حدث لابنتها وهي تبكي. كانت نرمين تصرخ بأقصى قوتها متوسلة:

- أرجوكما لا تقولا إن الأقلام من الزبالة. قولاً إن إرول أعطائها لي.

- لن يصدقوا.

- غير مهم، وهل جمع الأقلام من الزبالة أفضل من سرقتها؟

استغرق الجدل بين البنت من جهة، والأب والأم من جهة أخرى إلى منتصف الليل. نرمين تقول:

- إذا قلتما إن الأقلام من المزبلة سأموّت نفسي.

الجاويش رستم يعرف أولاده جيدا. من الممكن أن تتحرر ابنته. قال لها:

- معك حق يا بنتي. سأقول لهم في المدرسة إن ابن خالك إرول أعطاك إياها.

شرح الجاويش رستم للمعلم، والمدير، عندما ذهب مع ابنته صباح اليوم التالي عن إرول، وشهامته، وكرمه. طلب المدير عنوان دكان إرول. دهش الأب وابنته. أخيرا، كتب الجاويش رستم عنوانا غير معروف وأعطاه للمدير، ثم ذهب من المدرسة.

انتهى التحقيق. أدينتم نرمين بسرقة الأقلام. ولهذا فصلت من المدرسة.

سمعتُ بهذه القصة بعد مدة طويلة. هرعت إلى بيت الجاويش رستم فلم أجد أحدا. ترددت إلى البيت أسبوعا. كان جدار البيت وبابه متشابهان. بعد ستة أشهر، عندما انتقلت إلى حي آخر، كان البيت مغلقا.. وقد داس الأطفال بأقدامهم الحديقة، وقلعوا الأصص من النوافذ.

أنا أعرف المزابيل جيدا بواسطة الجاويش رستم. المزابيل مرايا المدن.. إذا كانت المدن تعج بالقذارة، والسفالة، والفدر، والقسوة، فالرائحة التي تعج من مزابلها أقذر ألف مرة.. مثل الجيف.. وتحط طيور النورس على مزابيل اسطنبول، فتشكل فوقها ستارة بيضاء.. ولا تعد ترى المزابيل بسببها.. آه.. ويمكن إيجاد أقلام ملونة في مزابيل اسطنبول.. حتى إنه وجد في بعض المرات خواتم ذهبية..

زيات سليم أوغلو

(ولد في اسطنبول العام ١٩٢٢)

درس في الثانوية الألمانية، وكلية الحقوق جامعة اسطنبول، وتخرج فيها، ثم عمل شريكا في إدارة شركة بحرية.

متفرغ الآن للكتابة والترجمة. شق طريق النجاح من خلال زاويته الصحافية: «من قرى مدينة ريزة» التي نشرها بين العامين ١٩٤٩-١٩٥٠ في جريدة الجمهورية، ونال عنها جائزة يونس نادي الأولى. اشتهر من خلال قصصه، وترجماته عن الألمانية، وتمثيلياته الإذاعية، إذ نال جائزة مؤسسة الإذاعة والتلفزيون التركية عن عمله: «نقطتان في البحر».

ولأنه عمل في شركة بحرية، فقد أعطى حيزا واسعا من قصصه لحياة البحارة، وتصرفاتهم، بأسلوب بسيط، وهي: «نهاية العراك وبدايته ١٩٥٥»، «رجل في أعلى الساري ١٩٦٦» ونال عنهما جائزة سعيد فائق للقصة العام ١٩٧٠، «اجتماع في مؤخرة السفينة ١٩٧١»، «نقطتان في بحر واسع ١٩٧٣» وقد نال عنهما جائزة مجمع اللغة التركية للقصة العام ١٩٧٤، «طفى البحر على البر ١٩٧٥» «الزلال ١٩٧٦ - قصة طويلة»، «العراة ١٩٨٠»، «زقاق الجبل المزهر ١٩٨٢»، «رجال البحر ١٩٨٤ - وتضم المجموعة الكاملة لقصص البحر»، «كان كأغنية ١٩٨٧».

نشر رواية واحدة بعنوان «زوايا التعصب ١٩٨٢»، ومنذ العام ١٩٦٦ حتى العام ١٩٧٧ قدم عشرين عملا مترجما. نشر عدة كتب للأطفال: «الزورق الصغير ١٩٧٩»، «جزيرة النوارس ١٩٧٩»، «نوري اللامتأقلم ١٩٨١».

القصة التركية المعاصرة

عنتق محمود الفسفس

زيان سليم أوغلو

ترجمة

عبدالقادر عبدالي

مراجعة

زينب سعد زغلول أبو سنة

عشق محمود الفسفس

غالباً ما يمثل هذا المشهد بعد طعام العشاء.. كنا نجتمع حول الطاولة أربعة أو خمسة أشخاص. يجلس الرئيس محمد على مقعد القائد الرئيسي من الطاولة، وعلى بقية المقاعد يجلس الرئيس خضر والضابط البحري المتقاعد مسؤول التشغيل في السفينة السيد حسين، وأوهانس، وأنا.. ألا يوجد على ولائم القادة مقاعد مخصصة لضيوف الشرف؟.. كان ينضم إلى هذه المائدة في بعض الأحيان زكي مسؤول اللاسلكي.. وزكي هذا ضيف الشرف. ونحن لسنا في مركب لنقل الفحم، بل على سفينة حازت شريطة الملكة ماري الزرقاء، وجلسنا إلى المائدة محتفلين بهذا النصر. بعد أن يأكل الرئيس محمد نصف الدجاجة التي يمسكها من فخذها بيده، وينقض عليها بأسنانه الحادة كالذئب، يلتفت إلى محمود الفسفس لاهثاً، ويقول ناهراً:

- أين المنشفة؟ هات المنشفة يا ديوث!

أثناء سيلان الدهون من أسفل ذقن الرئيس محمد الضخمة، يمد له محمود الفسفس منشفة كانت على ذراعه، تغيرت ملامحها من القذارة، اسودت، وامتصت ألف رائحة طعام، ورائحة، ويقول:

- تفضل ياسيدي.

بحركة واحدة، تجوب المنشفة حول فم الرئيس محمد جارفة الدهون الموجودة، وتاركة دهونها، وهنا تسنح فرصة تعليقه على محمود الفسفس:

- ما هذه المنشقة؟

هنا يضحك الرئيس خضر بصمت، ويسدد في الهدف:

.....

عندئذ يحمر وجه الضابط البحري المتقاعد مسؤول التشغيل:

- آه، آه.. أستغفر الله يا سيدي!

ولكن ما فائدة الاستغفار الآن، المسرحية بدأت، والستارة رفعت،
وهنا يفجر الرئيس محمد ضحكة تشبه مدفع الإفطار، ويقول:

- ما هذا ياسيد حسين؟ أخجلت؟

ثم يشير إلى الخمر المتبقي في قعر الزجاجاة، ويقول لمحمود
الفسفس:

- محمود.. هيا احك لنا عن روزا، كيف كانت تحب؟ هيا احك لنا!

وهنا يتجعد ما حول عيني محمود الفسفس الزرقاوين، البريئتين،
ويقول مبتسما:

- ألا تملون من سماعها ياسيدي.. أنا مللت. فكيف أنتم؟ كم مرة
حكيناها؟

يرفع الرئيس محمد زجاجة الخمر نحو محمود الفسفس كأنه يريد
ضربه، لكن محمود لا يتحرك ويقول:

- أنت لا تستطيع ضربي ياسيدي. إنك تحبني كثيرا. أنا أعرف
هذا.

وهنا ينظر الرئيس محمد نظرة ذات مغزى، ويقول:

- حسن. هل كانت تحبك روزا؟

- آه. أمن الممكن ألا تحبني. كانت مجنونة بحبي، تجن من أجلي، تجن..

- إذن لماذا كانت تضربك ياديوث؟ قل لماذا كانت ترفضك؟

- هذا أمر آخر. المرأة ترفض الرجل لفرط حبها له. روزا كانت تحبني، ولا تستطيع العيش من دوني.

هذه المرة، الرئيس خضر هو الذي يسدد في الهدف:

- يبدو أنك تقصد البغلة بكلمة امرأة..

- روزا تحبني.. وكنت أدرك مدى حبها لي من رفضتها على ظهري..

هنا يحملك الرئيس محمد بدهشة:

- ما هذا العشق؟ تضربك المرأة وتقول تعشقتك؟

هنا يهز محمود الفسفس رأسه موافقا بعناد، ويقول:

- وهل يوجد عشق دون ضرب وعراك ياسيدي؟ الضرب هو ملح وبهار العشق.. آه ياروزا.

- حسن.. اضربها أنت! وهل ستبقى أنت المضروب؟

عندئذ ينفخ محمود الفسفس نفسه منتصبا على ساقين رفيعتين مثل الديك، ويقول:

- نحن رجال ياسيدي. الرجل لا يرفع يده على امرأة، وهذا شرط الرجولة..

يحاول الرئيس خضر التسديد بشكل مباشر نحو محمود الفسفس:

- اسمع مفهومه عن الرجولة!... تضريك امرأة، وتعتبر هذا شرط الرجولة.

عندئذ يشيح محمود الفسفس بوجهه الشاحب عنهما نحونا، ويقلب شفثيه مبديا تعابير مختلفة، كأنه يريد أن يقول لنا: «لا يفهمون بهذه الأمور». يوهانس وأنا أصغر سنا، لذلك يعتبرنا أقرب إلى قضايا العشق. ونحن ننظر إلى وجهه مبدين تعابير بمعنى: «لا تهتم، لا تهتم، نحن نفهمك جيدا».. وفي تلك الأثناء، وهو على وشك إغلاق الموضوع، يفتحه مرة أخرى.

إثر هذا يفضب الرئيس خضر، ويقول:

- ما شرط الرجولة هذا؟

ويهز محمود الفسفس كتفيه، ثم يأتي دور الرئيس محمد بالغضب. يمسك طرفي الطاولة بيديه القويتين ويصرخ قائلاً:

- اسمع، تضربه امرأة ويعتبر هذا رجولة. المرأة تسر للرجل المتوحش، للذي يحملها بين ذراعه ويرطمها بالأرض، للرجل الذي إذا نطق الكاف من كلمة «كفى» تجمدت مكانها، يا ديوث...

أجاب محمود الفسفس ببرود أعصاب بالغ:

- النساء اللواتي تتحدث عنهن، لا يثقن بأنفسهن. يجدن قوة الرجل وسيلة يبررن بها ضعفهن.

يلتفت الرئيس خضر إلى محمود الفسفس، وكأنه يريد أكله:

- وهل ستعرف أنت أكثر من الربان؟

بعد سكوت طويل، ولكي لا ينظر إليه باستصغار، تدخل مسؤول تشغيل السفينة الضابط البحري المتقاعد، وبدأ الكلام بأدب:

- المحبة تفاهم متبادل. على الرجل والمرأة أن يحترم كل منهما الآخر، وعلى كل منهما ألا يجرح شعور الآخر. نحن هكذا تعلمنا الحب. هذا ما أعرفه أنا، وأقوله.

يدور الحديث، ويعود إلى موضوع عشق محمود الفسفس، ويتأوه قائلاً:

- يالروزا من امرأة.. كل جزء من جسدها كأنه امرأة مختلفة.. عيناها، يداها، كتفاها،.. لا يمكن أن يرى مثلها.

يرد عليه هنا الرئيس خضر:

- ولا يمكن أن يُرى رجل مثلك!

- لروزا مشية، يا لها من مشية، كأنها مهرة تستعرض قبل السباق.. كيف تقترب السفينة من الرصيف، ويقترب الرصيف من السفينة ببطء عند الرسو.. هكذا كانت تتهادى روزا بمشيتها. عندما كنت أطرق بابها، أشعر بنفسى كمهر اشتم رائحة مهرة.. هذه هي الحياة.. يا لعينيها ومشيتها.. أنا فداؤك ياروزا.. يا لمشيتك!.

- انتبه كي لا تتعثرا!

عندما كان يصل محمود الفسفس إلى هنا، يرمق الجالسين إلى الطاولة بنظرات تحمل معاني مثل: «من أين لكم فهم النساء أنتم؟»، «وهل عرف أحدكم في حياته امرأة حقيقية؟»، وفي هذه اللحظة تبدو

على وجهه الطفولي، على الرغم من عمره البالغ خمسين عاما،
رعشة شوق، وتغرورق عيناه، وكأنهما ستمدعان. ويتابع الحديث
بلطف أكثر:

- كان لدى روزا ثوب نوم وردي، مطرز بالحريز، وفي قدميها
(صندل) متلامع. شعرها براق. كانت تقابلني عندما أتوقف قليلا عند
الباب بقولها: «أتى محمودي». أشعر عندئذ بأن دمي يتدفق بسرعة
أكبر. كنت أجيبها: «أتيت ياروزا. أتيت من جديد. أتى محمودك
ياروزا...» وأدخل.

وهنا لا يستطيع الرئيس خضر دون أن يتكلم:

- محمود يدخل من باب، وعثمان يخرج من باب آخر..

الرئيس محمد لا يمرر هذه الجملة، يفتتم الفرصة، ويلتفت إلى
الرئيس خضر مفتعلا ملامح الاستغراب:

- أقول شيئا؟ ماذا قلت؟ وهل بيت روزا لوحة إشارة للدخول
والخروج؟.. يا محمود! ماذا يقول الرئيس؟ ماذا يقصد بكلامه؟ أنا لم
أفهم المقصد من عبارة: «هذا يدخل، وذاك يخرج»؟ كيف؟ كأن محمود
الفسفس لم يكن موجودا، تابع كلامه، وكأنه لم يسمع:

- كانت تطفح عيناها بالفرح عندما تراني أمامها. تبرق عيناها
السوداوان كاللحم، وشعرها أيضا فاحم وكذلك حاجباها. عندما أقترب
منها أرى بوضوح كيف يتحرك جانبا أنفها. آه ياروزا.. أي امرأة أنت
ياروزا.. لا يمكن أن يخلق مثلك ياروزا.. عندما يقترب منها الرجل، أو
يلمسها من كتفها، أو يمسكها من ذراعيها، يبدأ الارتجاف كقلوع تعبث
بها الرياح.

قاطعه الرئيس خضر قائلًا:

- خاصة إذا كان الرجل مثلك..

- آه ياروزا.. يالك من امرأة. عندما كنت أمسكك من ذراعيك كنت ترتجفين، لماذا ترتجفين؟ كانت تقول: «كيف لا أرتجف يا محمودي.. أتى نمرى.. إذا لم أرتجف، ماذا أفعل؟».

يقاطعه هنا الرئيس خضر مرة أخرى:

- هيه.. يا صغيري... انظر إلى النمر كأنه قط صغير.

-.. كانت تقول لي: «يا محمودي.. ماذا جلبت لي معك؟ أي الأشياء الحلوة جلبتها لي؟» كنت أجيبها: «روزا.. ليكن محمود فداك.. خذي، خذي..» وأخرج ما في جيبى من جوارب، وعطر، وربطات شعر.. «خذي، خذي.. كل هذا لك، كل هذا لروزاي.. أتريدين نقودا؟ هل تحتاجين نقودا؟ خذي إن كنت تريدين.. خذي.. خذي...».

فكير بايقورت

ولد في مدينة بوردور العام ١٩٢٩

تخرج في معهد إعداد المعلمين العام ١٩٤٨، وعمل في التعليم الابتدائي فترة خمس سنوات، ثم انتقل إلى التعليم في المرحلة المتوسطة، وبعدها إلى التفتيش، وشغل منصب رئيس نقابة المعلمين في تركيا، ورئيس رابطة المعلمين أيضا. يعيش الآن في ألمانيا.

بدأ كتابة الشعر وهو لا يزال طالبا في المعهد، ونشره باسم مستعار، ثم انتقل لكتابة القصة والرواية.

يعتبر فكير بايقورت من الكتاب الواقعيين التقدميين من خلال التزامه بمقولته: «الفن هو تقديم قضية الريف الذي عشت فيه، مع أخذ السوية الفنية بعين الاعتبار، ومهمة مساعدة الإنسان / القارئ على القفز إلى الأمام، ولو قليلاً».

نفدت كتبه من الأسواق، وأعيدت طباعتها عدة مرات. من مجموعاته القصصية: «الجدري ١٩٥٥»، «هرب السادة ١٩٥٩»، «ألم البطن ١٩٦١»، «محمد القزم ١٩٦٤»، «جراج الأناضول ١٩٧٠»، «عشرات الآلاف من العربات ١٩٧١»، «الوردية الليلية ١٩٨٢».

له العديد من الروايات، وقصص الأطفال، والكتب التعليمية، والسير الشعبية.

نال العديد من الجوائز في جميع مجالات الكتابة - عدا الشعر - ومنها أهم الجوائز التي تمنح للقصة في تركيا.

القصة التركية المعاصرة

الولد سنجاب

فقرير يا قوت

ترجمة

عبدالقادر عبدالي

مراجعة

زينب سعد زغلول أبو سنة

الولد سنجاب

لم يجد سنجاب والده في البيت. كانت أمه تخبز. قاد الغنم إلى الحظيرة، وصعد خلف المقود. كانت الخرزات المعلقة في الشاحنة تتأرجح. صورة أبيه المنزوعة من وثيقة ما، محفوظة في حافظة، ومثبتة بجانب المرأة الأمامية. بماذا سيفتح التماس؟ بحث هنا وهناك. لا يعرف تشغيل الشاحنة من دون مفتاح. وبما أن الشاحنة أمام البيت، فهذا يعني أن والده ذهب لسقاية الفاصولياء في وادي التفاح.

نادته أمه: «تعال كل خبزا. سيأتي أبوك بعد قليل. ذهب إلى السقاية على الرغم من مرضه، لأنه سيفقد دوره إذا لم يذهب. تعال، سأدهنها لك بالسمن».

كانت أمه تقرقع بالأغراض فوق السقيفة من أجل جلب السمنة. إنها الفرصة المناسبة. قفز فورا، ومد يده إلى جيب سترته الجلدية، وتناول مجموعة من المفاتيح، ودسها في حزامه. أتت أمه حاملة السمنة بمعلقة خشبية. فتحت قطعة العجين بشكل عشوائي، ورمتها فوق (الصاج)، ودهنتها بالسمنة ثم اقتلعتها خبزة ناضجة، محمرة، وألقته فوق الأُرغفة قائلة: «لا بد أنك جمعت، تعال كل».

تناول سنجاب الرغيف المدهون بالسمنة قبل أن يبرد، ولفه، وأدخله إلى فمه. انهمر الدمع من عينيه. لم يهتم. كان مصمما. سيقود الشاحنة من القرية نحو الأحراش، ثم سيصعد التل عبر الحقول المحروثة. كان يخطط ليكون سائقا سريعا حاذقا (كخليل ضوغان)، وليس متأنيا صبوراً كأبيه. سيطيئرها. كان والده الذكي ينصحه قائلاً: «عليك ألا

تصبح سائقا . كن راعيا»، وهو مصمم ألا يكون راعيا . مشى والرعيف بالسمنة مازال نصفه .

- قف! قف لأعمل لك رغيفا آخر. إلى أين أنت ذاهب؟

لم يصغ لأمه. نزل الدرج. صعد خلف المقود. جرب المفاتيح حتى طابق أحدها. أداره بسرعة. لم يقرقع المحرك كثيرا. كان يعرف الفاصل، والفرامل، والزيت... والمسرع إلى الأمام، والخلف... واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة.. انطلق بسرعة. ويلمح البصر، أدار المقود، وسار عبر القرية، صرخ في سره: «يابنات، أين أنتن؟ أين أنتن أيتها النعاج الرضيعات؟ أيتها المغرورات، والثرثارات!» ضغط على البوق كي يهرب الأطفال من أمام العجلات. مر كالريح من أمام بيوت (إلياس الأعور)، و (أوليا قاضي)، و(مصطفى). وبلحظة نزل صوب الأحراش. إذا كان وهو طفل بهذا العمر يقود شاحنة ضخمة كهذه، فلم يضحى بحياته في الرعي؟ أيمن لطفل في صدر شاحنة ضخمة يسيطر على محرك هائل، أن يكون راعيا يسرح بالغنم؟ ثمة نساء في حديقة الورد الغربية .. ومجموعة من الفتيات في حقول اليناسون .. ضغط على البوق.. ضغط، ضغط.. جعل المكان يرتجف من الصوت.

عاد من جانب حقل المهاجر. ماذا سيحدث لو ذهب أبعد من هذا؟ في الحقيقة كان يود الاستمرار أكثر، ولكنه أصبح قريبا من وادي التفاح حيث والده يسقي الفاصولياء. سيستمع صوت البوق، ويهرع لرؤية السائق الخبير. لو سمع صوت شاحنته من خلف الجبال لعرفها. عاد سنجاب بمهارة فائقة. كان يسير وهو يرتفع وينخفض وكأنه على ظهر حمار من دون سرج. قاد الشاحنة بانفعال شديد. انعطف من بين الأحراش، تحت أعشاش اللقالق داخلا القرية. أتت عربة أمامه ووقفت.

كان عليه أن ينحرف بسيارته كي لا يصدمها، لكنه كان مسرعا جدا. أمه تنادي من فوق الدرج:

- ماذا تفعل يا سنجاب؟ وهل هذا العمل صحيح؟

لعله انحرف بالسيارة فجأة، وبقوة، أو أنه بدلا من الضغط على الفرامل، ضغط على الوقود. قفزت الشاحنة إلى الأمام كالبرق. لحظة ولوج الشاحنة في بيت (إبراهيم خليل القرش) القرميدي، هي اللحظة نفسها التي أزيل البيت عن الوجود فيها. كان جدار البيت الرئيسي متصدعا تحت تأثير المطر، والعمر، ولأنه رئيسيا سيتحمل كثيرا من التصدع عبر الزمن. ولكن كيف يقاوم شاحنة منقضة بأقصى سرعة كالنسر؟ انفتح الجدار كأنه باب ذو مصراعين، ودخلت الشاحنة منه إلى البيت، عبرت مستودع التبن من وسطه، ثم خرجت من زريبة البقر، ثم وصلت إلى الداخل عبر صحن الدار، ووقفت أمام باب غرفة جلوسهم. لم تترك جدارا، أو عمودا منتصبا في الأماكن التي عبرت منها. فكت حتى مساميرها. خلطت كل شيء. لم يبق فيها مصباح، أو زجاج، أو خرز، تصدعت المرأة، ومؤشرا السرعة والوقود. تعطلت بشكل كامل. المحرك - بارك الله فيه - وقف تلقائيا. لأنه من غير الممكن لسنجاب أن يوقفه.

لم ترتكب زوجة إبراهيم القرش ذنبا في حياتها. في البداية ظنت أن هزة أرضية قد حدثت، ثم خطر ببالها أن نهاية الدنيا قد حلت، وتهدمت القرية، ولكن عندما وجدت شاحنة (سليم القولاقي) على مسافة شعرة منها، لم تعد تشعر بأنها ستغيب عن الوعي. أدركت ما حدث عندما رأت سنجاب يقودها. استجمعت قواها.. «واخ يامجنون الحمير! أخذت الشاحنة دون علم أبيك، أليس كذلك؟ خربت بيتي..

شردت أطفالي.. أم ليمحق الله كل من يدعى سنجاب لأجلك!». ولكن بعد قليل لاحظت وجود خدوش، وكدمات في رقبتة وساعديه، وأن جبهته مدماة، وقد شحب لونه، وأصبح كلون تبن الشعير. كان يرتجف. تأملت له. قفزت نحو مقبض الباب الأيسر، وفتحته وسحبت الولد. أخرجته، وقالت:

- تعال يا صغيري، تعال عندي، قفا لا تفلت بسرعة!..

كان الماء فاترا لتركه تحت أشعة الشمس طوال النهار. غسلت يديه، ووجهه، وسقته... «إن شاء الله أطرافك سليمة! أنت شقي لكنك جريء. كم أحبك من بين أولاد القرية! عندي ثلاثة أولاد، لو كان عندي بنت لزوجتك إياها. ولكن ثلاثة أولاد كالحطب.. سرقتها دون علم أبيك، أليس كذلك؟ ألم يكن في البيت؟ هل ذهب إلى السقاية؟

سنجاب لا ينبس. كان ينظر أمامه بخجل عميق، وهو ساكت. كان لايعرف ما الذي سيفعله، وإلى أين سيهرب، لأن والده سيذبحه، ويفرم لحمه. هذه الشاحنة مصدر خبز البيت. من يعلم كم من المئات أو الألوف تضررت. أين قطع التبديل، والمصلحون، والمصفحون، والدهانون؟

فجأة غدت القرية كيوم الحشر.

- شاحنة ضخمة دخلت إلى البيت.

- دخلت مباشرة.

- على الرغم من كل شيء فهو سائق ماهر.

- إنه على قول الأجداد: «الولد يُعرف من مناغاته»

- أنا فداء روحه. والله أنا فداء روحه.

أتى البعض راكضين مثني، وثلاث. طفح المكان بالبشر أمام بيت خليل إبراهيم القرش. ينظرون إلى الخراب، ثم يدورون حول الشاحنة، وينحنون على سنجاب قائلين: «حمدا لله على سلامتك يا كبير السائقين!» أصبح صحن الدار طريقا للذهاب والآيب.

قالت زوجة القرش: «لا تتجمعوا ياناس. أليس لديكم عمل. حتى الذين يعملون دورة قيادة، وينجحون في فحص السائقين يعملون حوادث! ألم يعمل (كريم ماجر) حادثا؟ و(إسماعيل قالدندر)، حتى (إسماعيل القولاقي) ألم يعمل حادثا؟ اقطعوا الضحك، وانصرفوا من فوق الولد كي يصحو...».

بدأ يتفرق الجمع مثني وفرادي. أتت (ملك غلدانة) أم سنجاب نادبة نفسها: «تفوه، تفوه! إلى أين أذهب، ومن سأقصد؟ شاحنة بهذا الحجم تخطفها بلمح البصر. آه يابني. كُتب علي رؤية ما جرى يا سبعي؟ عندما سيأتي أبوك سيدبحني. سيسحقني تحت رجله، ويهينني شر إهانة وسط القرية. لماذا فعلت هذا يا سبعي؟».

- اسكتي يا غلدانة! قللي هذا قبل الحادث. ابكي بكاءك قبل وقوع ما وقع! اسكتي، لا حلّ لما فات ومات... ليتفرق الزحام، وخذي ابنك، اخفيه في مكان ما. أخشى أن يميته أبوه بطلق ناري تحت تأثير الغضب.. عندما يهدأ غضبه تسحبون الشاحنة من أمام بيتي. خليل إبراهيم سيدبحني أيضا. سيقول لي: «لماذا لم تنتبهي للبيت وتركته يهدم؟» إحضار القرميد أو الأحجار، وجلب معمار من الناحية لرفع الأعمدة المهدمة قضية. نظفوا بيتي، وأصلحوه بسرعة؟ هيا، هيا ياناس، تفرقوا! قلت تفرقوا، ألم تسمعوا؟

تفرق الجمع وكل فرد منهم يضرب يدا على يد قائلا: «في الحقيقة

إنه سائق ماهر! قلب الحائط على الأرض. ضغط على الوقود، فدخل من طرف، وخرج من طرف، وجعل زوجة القرش تقف له باستعداد».

حاول سنجاب الجلوس إلى المقود، وإدارة السيارة مرة أخرى، ولكن لم يتركوه. سحبت (ملك غلدانة) ابنها وذهبت. عندما وصلت إلى البيت غسلت يدي ابنها، ووجهه، وهو يرتجف كأنه مصاب بالحمى. كاد يموت من الندم. لو أنه عندما رأى عربة الحطب قد أخذ يمينه، وانتظر مرورها، ما الذي كان سيحدث؟ الآن يأتي أبوه، ويضربه دون وعي، وهو يقول له: «هل آلمك هذا؟ أتريد المزيد؟».

لو يهرب إلى البستان، وينام هذه الليلة هناك؟ أو يذهب إلى بيت خالته، لو يدفن نفسه بالأكياس؟

- قف، قف! لا ترتجف، سأأخذك إلى بيت خالتك..

البركة بأمه لا تعذبه، ولا تقول له: «لماذا أخذت الشاحنة، ولماذا صدمتها؟».

مسكت (غلدانة) ابنها من يده، واصطحبته إلى بيت أختها. كانت زوجة ابنهم زكية في البيت، والبقية في الحصاد. زكية بقيت ترعى ابنها المريض. قالت لها:

- لو أتى عمك لذبحه، أرجوك خبئي عندكم! أخذ الشاحنة، وذهب ليتنزّه بها، فدخل في بيت آل القرش. الرجل لم يعد يدري، أبحزن على هدم بيته، أم على تكسير الشاحنة، أم على ما سيفعله سليم وهو غاضب؟ أنا سيضربني ويقول لي: «أين كنت؟ وهل أنت راعية حمير؟ لماذا لم تحرسه ولم تمنعيه؟» يجب ألا يضربه. أرجوك يا زكية خبئي عندكم..

تركته، وذهبت تنتظر مجيء زوجها ليضربها. ولأنها حفظت ما تناله في حالات مشابهة جيدا، أخرجت قديم ثيابها من الصندوق، ولبسته، كي لا تؤلمها كثيرا ضربيات العصي..

سمع سليم القولا قجي بما حدث عندما وصل إلى جانب حقل المهاجرين. هرع فورا. سيضرب زوجته. زوجته فقط، لأن كل الذنب يقع على عاتقها. مشى وهو يشتم. لماذا لم تنتبه إلى ابنها؟ لماذا لم تمنعه؟ لماذا لم تقل له: «قف! واقعد عاقلا» لو تركت ولدا بحجم الكف على هواه، سيتناول البندقية ويطلق النار على الناس. لماذا لم تنتبه له؟ وصل إلى بستان الورد الغربي. فجأة قال لنفسه: «ولكن ما ذنب المرأة؟ كل الحق على السافل سنجاب. من يدري كيف تحايل عليها وسرق المفتاح؟ وعندما أخذه، قفز إلى الباب، وجلس إلى المقود؟ وداس على الوقود. الذنب ذنب الولد. هذا الذي أعرفه».

وصل إلى القرية. رأى دار آل القرش وكأنها حليب سفح على الأرض، والشاحنة قطرة تلعه، فازداد غضبه مائة ضعف. صعد إلى الشاحنة، وفتح التماس محاولا تشغيل المحرك، ولكن في المرة الأولى أصدر صوت (فس) مرة و(تس) مرتين، وبقيت الشاحنة مكانها. كيف سيأخذها إلى البلدة؟ أين سيجد كهربائي السيارات، مصلحا؟ بكم سيأتي الرجل إلى هنا؟ لم تنته ديونها بعد! قال: «آآآ.. آه..» نظر إلى الأرض، ثم إلى فوق، ثم تلفت إلى ما حوله، ثم ركض نحو البيت. كان يصرخ وهو راكض: «أين؟ أين عجل الوادي؟ أين هو؟». قال جعفر الشنب.

- أنا أعرف أين هو يا خال سليم.

- قل يا جعفر، قل ولك ما تريد!

- أخذته الخالة غلدانة إلى بيت أختها..

سمعتة ملك غلدانة. قالت: «لتعم عيناك يا جعفر البوال. لابد أن تقع في يدي يوما ما، عندها إن لم أسيل دمك...» هرع سليم القولا قجي. أطرق قليلا. لم تكن البندقية على كتفه. أين وضعها يا ترى؟ تناول حجرا. رمى الحجر، وسأل نفسه: «إلى أين أنت ذاهب يا سليم؟ هل أنت ذاهب لمواجهة العدو؟ إنه أسوأ من العدو. لو كان عدوا لما فعل كل هذا، خذ عصا، وربّ ولدك جيدا. اضربه بقوة لتربيته فقط. اجعله يخاف. إذا أخفته مرة أخرى فلا يعود يفعلها.. لأن اللعب بالشاحنة ليس كاللعب بالمواعين والأدوات...».

كسر غصنا من شجرة في بيت آل (إكيز). ضغط عليه برجله كاسرا رأسه. جرده من فروعه وأوراقه، وركض.

كانت زكية تقف على صندوق خشبي، وتنظر نحو القرية مستطلعة ما يجري. رأت سليما قادما كالرعد. نزلت. هربت سنجاب من فتحة تستخدم لإفراغ روث الحيوانات، ثم أخذت حفنة طازجة منه، وكورتها، ورمته بها قائلة: «اهرب. جاء أبوك. أخبره واحد لم يرضع حليب أمه». تدرج عدة مرات على الروث الناعم، ثم انتصب، وبدأ الركض.

فجأة، رأت زكية سليما أمام الباب يقول: «هرت الولد يا زكية. هريته لكنك لم تقلحي! يأخذ الشاحنة، ويتنزه بها، ويخرب بيت الناس، بعد هذا، تدله أمه، وكنة خالته... أحسنتما!..»

- لا تكن أسير الغضب يا عم سليم! اهدأ أولا، ثم أجلسه أمامك وانصحه. لا تظن أن هذا الأمر يحل بالضرب! ستكسر أحد أطراف الولد..

- اسكتي، اسكتي. بدلا من أن تتصحيني، ربي ولدك من الآن! اليوم
أو غدا لابد أن يشتري زوجك شاحنة.

صفق الباب الكبير خلفه، وركض نحو القرية. كان يصرخ: «أين؟ أين
ذهب الولد؟».

خرج نعمان حفيد الحاج عثمان هذه المرة، وقال:

- اختبأ في زريبة آل إكيز بين الأغنام.

ركض سليم القولاقي، ونعمان بجانبه:

- هنا، إنه هنا يا خال سليم! بين الأغنام.

هرع سليم هذه المرة دون صياح، وصل ماشيا على رؤوس أصابعه.
سيقفز مثل مهر، ويمسكه من كتفيه ثم يضربه حتى يدميه، ويهدأ. لو
قفز فوق السور لراه أو سمعه. رفع مزلاج الباب الخشبي بهدوء. كان
روث الغنم قد نضج تحت أشعة الشمس، وسنجاب فوقه بين الأغنام.
اضطربت الأغنام، وبدأت أجراسها تقرع. رفع سنجاب رأسه بهدوء،
ونظر. نعم، القادم أبوه.

إنه هناك عند الباب. فكر، إلى أين سيقفز، أو سيهرب؟ قال لنفسه:
«أبي رجل ضخم، لا يستطيع أن يدوس على الغنم، ولكنني أستطيع،
وأهرب. لم يمتن! وإذا متن، أليس أفضل من موتي أنا؟». ثم قفز مثل
البرق. في البداية اتجه نحو أبيه، ثم غير اتجاهه بشكل مفاجئ، وقفز
فوق السور متجها نحو القرية. بقي سليم القولاقي داخل الحوش بهيم
إلى هذا الطرف، وإلى ذاك. يقف، ويقف، وبعد جهد مضن خرج من بين
الأغنام. تلفت حوله قائلاً: «أين الولد؟ إلى أين ذهب؟ قولوا لي! أرتي
إياه! إلى أين ذهب؟».

ما زال نعمان هناك حتى تلك اللحظة. كان على أهية الاستعداد، وكأنه مكلف بمهمة.

- دخل إلى باحة الجامع يا خال سليم..

الجامع وسط القرية. توقف سليم القولا قجي فجأة، وقال: «آه يا كلب، آه. عرفت أين تختبئ. ولكن سأقبض عليك إذا كنت في باحة المسجد، ولكن سيختلف الوضع لو دخلت إلى الحرم. سأقبض عليك قبل أن تدخل» ثم ركض بكل ما أوتي من قوة.

كان سنجاب قد صعد فوق المتوضأ، ومحدثا نفسه: «سيبحث عني أبي في كل مكان، ولن يبحث عني هنا».

دخل سليم القولا قجي من الباب المؤدي إلى باحة المسجد. نظر إلى اليمين، وإلى اليسار، رأى ولده فوق المتوضأ. فرح. قال لنفسه: «حصرته الآن». كاد يبتسم، لكن الوقت ليس مناسباً للضحك. ارتمى نحو الصنابير بغضب أشد. قفز سنجاب نازلاً. ولحظتها فكر بحذاقة. ركض أبوه نحوه بسرعة. ارتمى سنجاب بين رجليه. سقط الرجل. عندها وقف سنجاب. منذ سنتين وهو يعرف هذه اللعبة. عندما يتعارك مع من هم أقوى منه. يركض أمامهم، ثم يلقي بنفسه أمام أرجلهم فيقعون. كذلك فعل هذه المرة. مازال والده متمدداً على الأرض. فكر لحظة: «إذا عدت إلى البيت فسيقبض علي. إذا ذهبت إلى بيت آخر، فسيدلونه علي». فجأة وجدها: «لأدخل إلى الحرم، فهو أفضل مكان للاختباء...» سنجاب يعرف جيداً لِمَ الحرم أفضل مكان للاختباء، سبع سنوات وأبوه مقاطع الشيخ محمد الملا. إذن الحرم أفضل مكان للاختباء. وقبل أن يستجمع الأب قواه دخل الجامع، ثم مشى بهدوء على السجاد. لم يصعد إلى المكان الذي تستمع فيه النساء للموالد، ويقمن فيه صلاة التراويح،

بل جلس بجانب الجدار متجها إلى القبلة، إذا نسي أبوه قطيعته مع الشيخ سيدخل، وعندئذ سيراه فورا، لكنه لن يدخل. لا يستطيع الدخول دون مصالحة الشيخ محمد الملا. أقسم يمينا معظما على هذا.

- سنجاب.. هيه ياسنجاب! اخرج! أقول لك اخرج! لن أضربك، وإذا فعلت فلن يكون مبرحا. سأضربك حتى أدمي أنفك قليلا. أقسمت بالله، لذلك سأضربك، وأدمي أنفك، وأتركك. هذا أفضل لك. إذا لم تخرج الآن فسأضربك ضربا مبرحا فيما بعد. اخرج. أنت تعرف أنني مخاصم المدعو محمد الملا! سبع سنوات ونحن متخاصمان.. لا تدخلني مكانا لم أدخله منذ سبع سنوات. اخرج بسرعة.

كان سليم القولا قجي يفكر بخسائره في الشاحنة المكسرة، والمحطمة من جهة، ويقول: «اخرج ياسنجاب» من جهة أخرى. ثم فكر في حجارة، وقرميد، وعمالة دار آل القرش، إضافة إلى إرضاء صاحبها. قال: «لا تفعل هذا السوء بأبيك. لا تدخلني إلى الحرم بعد سبع سنوات. اخرج وسترى. سأضربك، وأكتفي بإدماء أنفك. اخرج لأنفد قسيمي. يالله يابني!» كان يقف بجانب الباب، ولا يتقدم خطوة إلى الداخل. وسنجاب لا يخرج.

حاول معه، تلفت، توصل إليه، ثم وجد أنه ليس من المناسب أن يتوصل إليه أكثر من ذلك. ضرب كفا بكف، وقال: «لم أدخل منذ سبع سنوات، ولن أدخل الآن.. عفوت عنك» وسار نحو البيت، غسل يديه ووجهه، وذهب إلى الشاحنة، وبينما هو مار وسط القرية صرخ: «سنجااااا!» عفوت عنك يابني، عفوت عنك. اخرج! لا تبق مختبئا!.

لكن سنجاب ظل مختبئا حاسبا كل الاحتمالات. كان الرجال على وشك المجيء إلى الصلاة مساء، وسينتظر هو حتى ذلك الوقت.

حاول سليم القولاقجي تشغيل الشاحنة فلم يستطع. تحدث إلى
خليل إبراهيم القرش:

- إنتي أقبل بما تقدره من خسارة يا صديقي. يكفي ألا نسمع
أصواتنا للناس. سأجد بنائين في الناحية وأحضرهم، وسيعيدون
الأمكن المهدمة أحسن مما كانت عليه.

وقال لزوجة القرش:

- صار ما صار ! إنه ولد. ليس بضاعة تشتري وتباع. لابد أن يرى،
ماذا سنفعل؟

عاد إلى أمام الجامع. قال لنفسه: «آه لو أنه خرج قبل أذان المغرب.
لو أننا لم نذل أمام أهل القرية؟».

- اخرج يا بني، اخرج. أصبحنا فرجة للناس، بما فيه الكفاية. يجب
ألا نصبح أكثر مما نحن عليه. هيا اخرج..

خرج سنجاب عندما كان الظلام قد بدأ ينسدل فوق القرية.

أمسك الأب بيد ابنه، وسارا وسط القرية.

- والله حطمت الشاحنة كي لا أضرب عربة الحطب. والله كنت
أسير بشكل صحيح.

حتى الآن يتكلم وكأن لا ذنب له. غضب سليم القولاقجي، وقال:
«لا ضرورة لغبائك. اقبل بغلطتك. مازلت مقسما على عدم ضريك، وإلا
قلن أتدخل بعد ذلك».

عدالت آغا أوغلو

(ولدت في قرية ناليهان التابعة لأنقرة عام ١٩٢٩)

بعد الدراسة الثانوية، درست الأدب الفرنسي في كلية الآداب والتاريخ والجغرافية، جامعة أنقرة، وتخرجت فيها عام ١٩٥٠.

اشتهرت في مجال الكتابة للمسرح، ونالت جائزة مجمع اللغة التركية عن كتابها الذي ضم ثلاث مسرحيات ويحمل هذا العنوان (ثلاث مسرحيات) وصدر عام ١٩٧٣، ونالت شهرة تعدت حدود تركيا.

انتقلت في الفترة الأخيرة لكتابة الرواية، وترجمت رواياتها إلى الإنجليزية. من رواياتها: «التمدد للموت ١٩٧٣»، «وردة فكري الرقيقة ١٩٧٦»، «ليلة العرس ١٩٧٩»، «نهاية الصيف ١٩٨٠»، «ثلاثة أو أربعة أشخاص ١٩٨٧»، «لا ١٩٨٧».

أما قصصها فقد اعتمدت على الملاحظة الدقيقة، والتقييم، فاتحة الباب على مصراعيه للتجريب في تقنيات العرض. من أعمالها القصصية: «التوتر العالي ١٩٧٤»، «أول صوت للصمت ١٩٧٨»، «لنذهب ١٩٨٢».

نالت العديد من الجوائز في القصة، والرواية، والمسرحية، والعمل الإذاعي، وقدمت تمثيلياتها الإذاعية في كل من فرنسا وألمانيا منذ عام ١٩٥٥. وأدرج اسمها في موسوعة الدراما العالمية.

فازت بجائزة سعيد فائق للقصة عام ١٩٧٥، وبجائزة سادات سماوي، وجائزة أورخان كمال في الرواية عن روايتها «ليلة عرس»

وتبذل جهدنا كي لا تتراجع محبتنا، ونبصق مرارة فميننا وننشغل في البحث عن حياة أجد.

تتساقط الأوراق على شعرهما، كأن الشهور والأيام الذابلة هي التي تتساقط وتتلاشى فوقهما. تحدث قدماهما حفيفاً أثناء مداعبتهما للأوراق يزيد من جمالهما. كنت أؤمن بأنهما قادمان في وقت نسي فيه الجمال كي يصدرا هذا الصوت من تلك الأماكن.

وجه الفتاة متطاوول ورطب. يبرق على جبهتها اعتزاز استطاعتها للعشق. جذع الشاب رأساً كأنه طائر دافئ. كلامهما قليل، يعطيان قيمة للصمت. تظنون أنهما لا يرغبان في تصعيد أي قضية إلى ضوضاء. كلما مرّاً من الزقاق يجلسان تحت عريشة الأفاقيا بجانب الحائط المواجه لمدخل الزقاق. عندما تعبر الأوراق أو الأغصان أو كلاهما من النصف إلى الشتاء، غالباً ما تغيّر نقش وجهيهما. جدية غير متغيرة، وطقولة تهيمن على كلمات لا تستهلك على عجل، ولون وردي يطفح على خديهما يناسب شبابها. لا تضغط الأيام القادمة على عشقهما، فليس القلق صياداً، ولا صيداً.

مرّاً من زقاقنا الضيق على مدى شهور. كثيراً ما جلسا على ذلك الحائط، وتحدثنا عن ترك أحدهما للآخر دون جرحه. حافظا على طبيعة نقاشنا أثناء العمل، وعلى حسرتنا التي لا تنتهي، وعلى عدم تغيير تلك التمثيليات الممثلة دون نظّارة. كلما رأيتهما أقول لهما: «إذا أردنا الصمود إلى الغد فدافعا عن العشق، دافعا عن أنفسكما».

من الصعب معرفة حيّهما. ارتديا العشق من رأسيهما إلى أقدامهما. رصفا أحلامهما، وصفحات حريتهما وراء بعضها بعضاً، أو أنا كنت أشعر بهذا، وأجد الكثير من البراهين التي تثبت فرضيتي هذه. هما

عزيز نسن

صراع العميان

نقلها إلى العربية
عن الطبعة التركية السادسة

فاروق مصطفى

Orientalia
Bok & Biblioteksservice

المكتبة العربية الخرفية

أورينتاليا

Surbrunnsgatan 13
114 21 Stockholm
Tel. 08-612 04 35

صراع

العميان

كان للبلدة مقهيان، كما كانت
هناك مقهى آدم بودور >> القصير >>
لكن مقهاه تلك كانت بعدد الخمارة
خارج البلدة.

أنا لا أحسب مقهى آدم بودور
فهي بعيدة وصغيرة، إضافة إلى أن آدم
بودور رجل غريب لا ينتمي لأي
حزب، لذلك لم يكن رواد مقهاه كثيراً.

وكان رجال البلدة منقسمين إلى
قسمين.. قسم يرتاد مقهى اسحق
الترزي >> الخياط >>، والقسم الآخر
يرتاد مقهى كاظم طوبال >> الأعرج >>.

سابقاً كان للبلدة مقهى واحدة
فقط هي مقهى كاظم طوبال، ثم لما برز
في الساحة شيء اسمه >> المعارضة >>
فإن كاظم طوبال هذا ودون أن ينظر إلى
ساقه الواحدة - هكذا يقول القسم الآخر
من أهل البلدة - انضم إلى المعارضة

>> ولك أيها الأعرج هل سيركّب لك المعارضون ساقاً اصطناعية ؟ << .

ساق كاظم طوبال مبتورة من عند الركبة، وكان يمشي متأبطاً عكازاً يستند إليه، ولما قلب كاظم طوبال هذا مقهاه إلى مقر للمعارضة في البلدة، خفت أقدام الناس عن المقهى خوفاً.

>> ولك أيها الأعرج، إذا جرت الانتخابات فإنهم يكسرون ساقك الأخرى، عندها تضع محركاً على أنفك وتصبح سيارة << هكذا كانوا يقولون لكاظم. أما هو فلم يكن يصغي لما يقال. لن يرتاد أحد مقهى كاظم طوبال خوفاً، ولكن لا توجد مقهى أخرى. ومقهى آدم بودور بعيدة، ثم إن مقهى كاظم طوبال هذا شبيهة بمقاهي المدن الكبرى، فعلى جداريها ثبتت مرآتان، مرآتان كبيرتان، فالداخل يرى نفسه في المرآة، والخارج يرى نفسه في المرآة، والجالس يرى نفسه في المرآة، ويكفي الجالس على كرسي القش أن يتفرج على نفسه في المرآة وهو يقتل شاربیه.

وكان كاظم طوبال واثقاً من مراياه ومعتمداً عليها... إذ كان يردد: >> طالما هذه المرايا لدي فإنهم سيأتون شاؤوا أم أبوا << .

وعلى ذلك قسم اسحق التريزي دكانه إلى قسمين وجعل أحدهما مقهى، وصار أنصار الحزب الحاكم يترددون على مقهاه هذه، والمعارضون يترددون على مقهى كاظم طوبال. وكانت المعارضة تبدو وكأنها غير موجودة في البلدة في ذلك الوقت، إذ كان المعارضون بضعة أفراد متفرقين...

>> ولك أيها الأعرج، لتنته هذه الانتخابات وسترى أنهم سيقطعون ساقك الأخرى، عندها ضع محركاً على أنفك وامش واصرخ أنا سيارة >>.

حان الوقت وجرت الانتخابات، لكن الأمور سارت بعكس ما كان متوقعاً لها. إذ فاز حزب كاظم طوبال في الانتخابات! وظهر في الصناديق خمسة عشر إلى عشرين صوتاً للحزب الآخر. دهش الجميع لهذه النتيجة إلا كاظم طوبال فإنه لم يدهش، وقال:

- كنت أعلم مسبقاً أن الأمور ستسير هكذا.

ولما سأله:

- ومن أين علمت يا أعرج؟

أجاب:

- أيمن أن لا أعرف، كان ذلك واضحاً من عدم ارتيادهم مقهي، هم لم يترددوا على مقهي خوفاً من الحكومة، لكنهم في الصناديق أعطوا أصواتهم لحزبنا.

هكذا كان الوضع عندما قدمت إلى هذه البلدة، كان حزب كاظم طوبال في السلطة، وحزب اسحق التريزي في المعارضة بعد أن سقطت السلطة، أي أنهم كانوا قد تبادلوا مواقعهم. وكان كاظم طوبال قد ركّب لرجله العرجاء ساقاً اصطناعية في أحد مشافي أنقرة.

انقسمت البلدة إلى قسمين، وراح المعارضون يترددون على مقهى اسحق التريزي، والمؤيدون يترددون على مقهى كاظم طوبال. وكانت بين الفريقين عداوة ظاهرة للعيان. إذ قطعوا حتى التحية فيما بينهم، وغيروا طرق ذهابهم وإيابهم إلى المقهيين حتى لا يصادف بعضهم بعضاً.

هم لم يفصلوا المقهيين فقط، بل فصلوا حتى البقالين والحلاقين واختص كل فريق بقسم من هؤلاء. وعملوا ما بوسعهم كي لا يلتقوا ويتبادلوا التحيات، وإلا لو التقوا وتحادثوا مرة أو مرتين لانتهى حديثهم إلى شجار بسبب تحزيبهم.

وكان وضعنا نحن الموظفين صعباً جداً، إذ اشتكوا إلى أنقرة على عدة موظفين كانوا قبلي بدعوى أنهم يترددون على مقهى اسحق التريزي المعارض فنقلوهم من البلدة إلى أماكن أخرى. لذلك كان الموظفون يحذرون من ارتياد مقهى اسحق التريزي، عدا طبيب البلدية وصديقه أحد موظفي البلدية، إذ لم يكونا يبرحان مقهى اسحق التريزي، كما لم يكونا يعتبان مقهى كاظم طوبال. وكان الاثنان من أعز أصدقائي. وفي إحدى الأمسيات وفيما كنا نحتسي الخمر قلت لهما:

- هذا الذي تفعلانه ليس صواباً يا صديقي.

فتساءلا:

- ماذا نفعل؟

- وماذا ستفعلان أكثر من ذلك ! إنكما تخالفان القانون هكذا صراحة وعلى المكشوف. أنتما تعلمان أن الاشتغال بالسياسة محظور على الموظفين قانوناً، وأنتما لا تبارحان مقهى المعارضة، وهذا يعني صراحة أنكما تعملان بالسياسة. أليست هي مقهى بالنتيجة، حسناً كل المقاهي سواء، وبدلاً من أن تذهبا إلى مقهى المعارضة وتعملا بالسياسة، اذهبا إلى مقهى كاظم طوبال.

ضحك طبيب البلدية وقال :

- سوف تفهم فيما بعد سبب اشتغالنا بالسياسة ..

فهمت المسألة بعد خمسة عشر يوماً إذ نُقِلَ الاثنان إلى منطقة أخرى بعيدة. وفيما هما يغادران البلدة أوضحا لي أنهما ما كانا يرغبان في البقاء في هذه البلدة، وأنهما رفعاً طلبات النقل طلباً إثر طلب >> انقلونا من هنا إلى أي مكان تشاؤون. << لكن الطلبات لم تجدِ نفعاً، فصارا لا يبرحان مقهى المعارضة، ولم يستغرق الأمر شهراً واحداً حتى نُقلا.

قال لي الطبيب أثناء مغادرته :

- هم ما كانوا لينقلونا إلى مكان أسوأ من هنا على أية حال...

وبما أنني لم أكن أرغب في مغادرة هذه البلدة بعد، لذلك لم أكن أعمل بالسياسة؛ أي ما كنت أذهب إلى مقهى المعارضة وأعمل بالسياسة، ولا كنت أذهب إلى مقهى كاظم طوبال فأغضب المعارضين. لكن المشكلة أن البلدة صغيرة ويكاد الانسان ينفجر فيها ضيقاً، ولا مكان آخر سوى المقهى للذهاب إليه وقضاء

الوقت فيه ، وكانت مقهى كاظم طوبال شديدة الازدحام والضجيج. ولكي أظهر حيادي صرت أتردد على المقهييين، فإن جلست نصف ساعة في مقهى اسحق التريزي المعارض ، جلست ساعة في مقهى كاظم طوبال. هكذا وازنت ميزان السياسة وأنقذت الموقف.

كان رواد مقهى المعارضة قليلين، وكانوا يتناقصون يوماً إثر يوم. وكنت قد صرت صديقاً حميماً لكاظم طوبال، وكنا نفضي همومنا لبعض حين أذهب إلى مقهاه. وفي أحد الأيام وفيما كنا نتحدث عن أوضاع الأحزاب قال :

- أقول لك شيئاً ياسيدي، ولكن على أن يبقى ذلك بيننا، لقد فقد حزبنا شعبيته.

ظننت أنه يستدرجني ويختبرني فقلت :

- لا ياروحي، إن حزبكم صامد كالطود.

- لا تلقِ بالاً لذلك، انظر إن مقهانا مزدحمة جداً بينما لا يوجد أحد في مقهى اسحق التريزي، وهذا له دلالاته الكثيرة لمن يفهم. فهم يزدحمون هنا خشية من الحكومة وتحسباً لما قد يحدث أو لا يحدث. ولكن إن جرت انتخابات ستري أن كلهم سيعطون أصواتهم للحزب الآخر. وقد حدث هذا في الانتخاب الماضي.

- طيب، ماذا ستفعلون؟

- إننا نفكر ببعض الأشياء. سوف يأتي مفتش الحزب قريباً وسوف نفعل شيئاً ما.

وبعد فترة قصيرة من الزمن عقدت عدة اجتماعات حزبية حاشدة في مقهى كاظم طوبال. وبعدها بفترة أيضاً قدمت إلى البلدة فرقة استعراضية اسمها فرقة << شنسس >> قال أهل البلدة إنه لم تفد إلى بلدتهم فرقة كبيرة مثلها حتى ذلك الحين. نصبت الفرقة خيمة كبيرة في الساحة الواسعة بين المدرسة والجامع، وفعلاً كان حجم الخيمة يدل على أنها فرقة كبيرة جداً. إذ كانت بحجم خيام السيرك الأوروبية.

ذهبت في اليوم الأول لنصب الخيمة إلى مقهى اسحق التريزي أولاً فبادرني قائلاً بمكر:

- إن كاظم طوبال يدبر أيضاً بعض الأمور، لكننا لم نفهم بعد ماهي.
خرجت من هناك وذهبت إلى مقهى كاظم طوبال الذي غمزته متخابثاً
وقلت:

- ماذا يجري يا كاظم أفندي، هل تسير الأمور على ما يرام؟

غمزني هو الآخر وقال:

- انتظر ياسيدي، انتظر.. غداً تعرف كل شيء.

اهتزت البلدة في ذلك اليوم، إذ انتشر رياضيو الفرقة ولاعبو الجمباز والبلدياتشوات في أزقة البلدة ينادون ويعلنون ويدعون إلى عرضهم الكبير الذي

سيعرضونه تلك الليلة. وفيما كان هؤلاء بأرجلهم الخشبية العالية ، ووجوههم المصبوغة بالأصبغة ، وقباتهم الطنانة ، وتنانيرهم الرنانة ، وقبعاتهم الملونة ينادون ويصرخون ، كانت أوركسترا الفرقة الموسيقية الخماسية تصدح بالموسيقى في أرجاء البلدة. وقد رفعت الأعلام الملونة على الأعمدة ، ولصقت الاعلانات على الجدران ، وعلقت اللافتات في الأزقة.

وعند المساء رحت أتجول بالقرب من الخيمة حيث كانت الفرقة الموسيقية تعزف عند باب الخيمة ، وبقربها وقف الحاوي يخرج أرانب من قبعته. وحول الكوة التي على يمين باب الدخول نشرت ملابس نسائية داخلية ملونة. فالكلاسين النسائية البنفسجية ، والقمصان الداخلية الزرقاء ، وحملات الصدر الحريرية الصفراء كانت تنتفخ وتتطاير في الهواء إلى جانب الأعلام الملونة. وقد غصت الساحة بالناس وهم يتدافعون نحو الكوة للحصول على تذاكر الدخول.

كل شيء كان ماشي الحال ، لكن الملابس النسائية الداخلية المتطايرة في الهواء على المكشوف لم تعجبني. فذهبت وأخبرت قائد الشرطة الذي أجابني قائلاً:

- لدينا علم بذلك !

- لماذا لا ترفعونها؟ فالاعلان بملابس الفنانات الداخلية شيء معيب.

- لا أريد التدخل بالمسائل الحزبية.

- وهل ملابس الفنانات الداخلية مسألة حزبية أيضاً؟

- ذهبت ، وقلت << ارفعوا هذه. >> فأوجدوا مبرراً مقنعاً.

- وماهو مبررهم؟

- نظراً لكونهم متجولين دائماً فإن نساءهم يغسلن ملابسهن وينشرنها
حيثما حلت الفرقة ونصبت خيمتها.

- في الحقيقة لا بأس.. ولكن ألا تُغسل ملابس الرجال أيضاً؟

- كانت هناك كلاسسين وسراويل رجالية طويلة الساقين مرقعة منشورة
أيضاً. ولقد كانت الكلاسسين الرجالية والكلاسسين النسائية منشورة بمهارة بحيث
كان انتفاخها وتطايرها والتفافها ببعض منظرراً فاضحاً جداً، فأمرتهم قائلاً:
<< ارفعوا هذه الحاجيات الرجالية على الأقل >> . وإذ بهم راضون بذلك منذ
البارحة..

وصلت أخبار الكلاسسين النسائية المنشورة عند باب خيمة الفرقة
الاستعراضية إلى القرى المحيطة، وراح الناس يتوافدون مسرعين زرافات
زرافات.. وصاروا يتجولون حول الكلاسسين الملونة والقمصان الداخلية، وما كان
أحد ينظر إلى الحاوي وإلى الأرناب التي يخرجها من قبعته ولو أخرج لكل واحد
منهم زوجاً من الثيران من قبعته وأهداه إياهما فلن يلتفت إليه أحد.

دخلت في الازدحام لأحصل على تذكرة دخول، ووقفت في الصف وبعد
طول انتظار وتزاحم وتدافع جاء دوري. كانت قاطعة التذاكر امرأة صبغت شعرها
بلون أشقر ذهبي. كان سعر أرخص تذكرة خمس ليرات، فمددت لها يدي

بخمس ليرات ، استدارت المرأة إلى الخلف ورفعت الستارة التي خلفها ونظرت ، فلمحت وجه المرافق عمر خلف الستارة. وكان المرافق عمر هذا من أخلص رجال كاظم طوبال. سحبت المرأة المصبوغة الشعر رأسها من تحت الستارة المزهرة التي خلفها والتفتت إلي وقالت :

- ليست لدينا أماكن !

- وماذا سنفعل ؟

- ماذا ستفعل ، اذهب واستبدل الهواء ، ولا تدع عيني تقع عليك لفترة من الزمن !

هكذا مازحتني قاطعة التذاكر ، فأجبتها :

- تكلمي بأدب !.. ياسيدة !

- ايه.. لا مكان لدينا ، تعال غداً .

انسحبت ، لكن قاطعة التذاكر أعطت الشخص الذي تلاني تذكرتين . تضايقت فذهبت من فوري إلى كاظم طوبال .

- ماهذه الفرقة التي أحضرتموها يا كاظم أفندي.. إن في الكوة امرأة تعطي التذاكر لمن تشاء وتمنعها ممن تشاء . فأجابني كاظم طوبال :

- لا تحدث جلبة ياسيدي . حسن أنهم لم يعطوك تذكرة دخول ، غداً تعرف حقيقة الأمر .

كذلك أعطوا بعض الزملاء الموظفين تذاكر دخول، وقالوا لبعضهم الآخر << لا توجد لدينا أماكن، تعالوا غداً! >>. لم أستطع حضور العرض تلك الليلة فنمت باكراً. وكان بيتي قريباً من موقع الخيمة فسمعت أصوات الطبول والزمور والأبواق فترة ثم غفوت بعدها. وإني وإن كنت قد استيقظت عدة مرات على صرخات حادة عند منتصف الليل إلا أنني لم أصح من غفوتي وأتبين تلك الصرخات.

كان اليوم التالي يوم أحد، خرجت إلى الشارع وإذ بالخيمة الضخمة منهارة تماماً وممددة على الأرض مثل جثة وحش مرعب، وقد تجعد قماشها وانكمش وتغضن مثل جلد امرأة عجوز، فيما بقي عمود الخيمة الأوسط الضخم منتصباً لم ينهدم، وقد علقت ساق على أعلى قمة العمود، ساق اصطناعية، لا بد أنها الساق الاصطناعية التي ركبها كاظم طوبال مؤخراً. لم أجد أحداً لأسأله << ماهذا؟ >> وكان البلدة قد أخليت فليس هناك سوى بضعة أطفال يلعبون. مررت على مقهى اسحق التريزي التي في طريقي أولاً، وهي مقهى قليلة الرواد منذ افتتاحها. ومثل كل مرة كان فيها بعض المعارضين الذين لا تخاف عيونهم، وكانوا جميعاً يتضحكون ويتمازحون، أسألهم فلا يجيب أحدهم بشيء، أسأل اسحق التريزي، هو الآخر يقهقه بالضحك. كاد الفضول يقتلني، شربت شاياً وخرجت، إلى مقهى كاظم طوبال مباشرة.. لم يكن في المقهى التي تعج وتزدحم بالرواد دوماً سوى ثلاثة أشخاص في ذلك اليوم. ولأن وجوه الجميع وعيونهم

كانت معصوبة ومربوطة بالأربطة فأني لم أعرفهم. اقتربت من أحدهم وأمعنت النظر فيه وإذ به المرافق عمر. فداعبته قائلاً:

- معافى يا عمر آغا ماهذا؟ لا تكن قد أكلت علقه من زوجتك.

- ليتني اكلت علقه من زوجتي ياسيدي، وهل حالتي تشبه حالة من أكل علقه من زوجته؟ لم يبق في جسمي مكان سليم.

- وأين كاظم أفندي؟

- هل أدري. ليته يبتلي بكسر ساقه السليمة إنه يبحث عن ساقه الاصطناعية.

- طيب ماذا حدث يا عمر آغا؟

- وماذا سيحدث أكثر من هذا ياسيدي، لقد كسرنا جميعاً، فأسعف بعضنا إلى المشفى، وبعضنا الآخر يئن في البيت. ولم يسلم منا جميعاً سوانا نحن الذين ترانا، وأنا في ظهري جرح كبير مفتوح. لقد تكسرت عظامي كلها.

- هل حدث هذا بسبب الرقصات؟

- لا ياروحي إنها مسألة سياسية.

- كيف مسألة سياسية يا عمر آغا؟

- لا تسل ياسيدي، وكأننا دخلنا حرباً.

- هات أفهمني..

- أنت لا تبوح بالسر، آه ياسيدي، إنها مسألة سياسية ويجب أن لا يسمع المعارضون، اسمع كيف حدث الأمر ياسيدي، لقد صارت قدرتنا على مواجهة المعارضة في هذه البلدة تضعف يوماً إثر يوم، فأرسلنا إلى القيادة المركزية لحزبنا نخبرهم << إذا استمرت الحال هكذا فالأمور ستسوء، أنجدونا بسرعة >>. حضر المفتش وقال << افعلو كذا وكذا >> فقلنا << لن تُكسر عين المعارضة بفعلنا كذا وكذا>>. فقال << اذن افعلو كيت وكيت >> فقلنا << لن تُهرس رأس المعارضة بفعلنا كيت وكيت >> فقال: << إذن يجب أن يُضرب هؤلاء ضرباً تُهرس به رؤوسهم هرساً تاماً>>. فقلنا جميعاً << يسلم فمك، فليست هناك طريقة أخرى، يجب أن نضرب هؤلاء ضرباً مبرحاً، لكن يجب أن يكون ضرباً قانونياً لكي لا نكون مسؤولين في النهاية >> فقد نقع فجأة بين يدي قاضٍ أو محامٍ سياسي معارض هضم القانون هضمًا، فيحكم علينا للاشيء بأننا ضربنا معارضين. أجمعنا رأينا على ذلك، وقال المفتش: << هذا سهل، بإمكاننا إيجاد طريقة قانونية >>. فأعضاء فرقة شُنُسُ الاستعراضية من حزبنا، وسوف يحضر هؤلاء وينصبون خيمتهم هنا، وفي منتصف الاستعراض تماماً يقوم أنصارنا بقطع حبال الخيمة وإسقاطها على الأرض، فيختلط الحابل بالنابل، عندها وفي ظلمة الخيمة المتهدمة نشبع المعارضين ضرباً ونمددهم على الأرض كاللباد، ولن يُعرف مَنْ ضرب مَنْ تحت ظلام الخيمة الكبيرة المتهدمة. هل هذا جيد؟

- جيد جداً..

- وعلى هذا الأساس ياسيدي ، قدمت فرقة شنسس ، ونصبت خيمتها الكبيرة في الساحة ، لكن صادفتنا مشكلة ، وهي أنه سيكون بين الجموع موظفون أمثالكم ، كما سيكون هناك محايدون. ففكرنا بحيلة نجنبهم بها الضرب ، واتفقنا إن جاء محايد وطلب تذكرة أن يُقال له ليست لدينا أماكن. واختفيت أنا خلف الستارة التي خلف قاطعة التذاكر ، وصرت إذا جاء أحد وطلب تذكرة أمس رجل الفتاة بيدي مساً خفيفاً ، فإن أنزلتُ صفة على رجلها تعرف بأن هذا يجب أن لا يعطى تذكرة فتقول له << ليست لدينا أماكن >> ، ولكن بعد فترة ما عادت الفتاة الشقراء تحس بالصفعات ، فهل تلبدت مؤخرتها فماعدات تحس فعلاً بالصفعات ، أم أن الصفعات كانت تعجبها ، خطيئتها في رقبتها ، أنا لا أعرف. لذلك صرت كلما جاء محايد يطلب تذكرة أهوي بكفي على مؤخرتها بقوة كمن يحرض ثوراً.

- أنا أيضاً قالت لي ليست لدينا أماكن.

- طبعاً تقول.. فعندما رأيته من ثقب الستارة أعطيت الفتاة صفة من خلف الستارة ، فقالت ليس لدي مكان. خلاصة القول ياسيدي ، نحن ملأنا الخيمة بالمعارضين ، وقبل بداية الاستعراض ذهب علامتنا كاظم طوبال إلى اسحق التريزي المعارض وقال له : << ما هذا؟ لماذا نحن واقعون ببعض يارفيق؟ ألسنا جميعاً أبناء وطن واحد؟ لنترك أمور السياسة جانباً ، ولنلتفت ونتفرج على الاستعراض. لقد زهت البلدة فلنأكل ولنشرب يارفاق>>. هل هذا جيد؟

- جيد..

- تصالحنا المؤيدون والمعارضون صلحاً خادعاً وتظاهروا بالصداقة، وجمعنا ليلتها جميع المعارضين الذين سنضربهم، وقدمنا لهم العرق والمازوات من مخصصات الحزب. وكان تقديمنا الخمر لهم بدافع من خوفنا، فلربما انتبهوا وأحسوا بالملكيدة فجأة عندما تقع الخيمة فوقهم، عندها يحملون عصيهم ويهجمون علينا، إذن لابد أن نسكرهم سكرًا شديدًا ثم ننهال عليهم بالضرب.. هل هذا جيد؟

- جيد..

- شرب المعارضون وشربوا، وما عاد أحدهم قادراً على الوقوف على قدميه، وكان أعرجنا كاظم طوبال قد نبهنا قائلاً >> حذار أن يشرب أعضاء حزبنا، تظاهروا بالشرب، أريقوا العرق على ملابسكم وعلى رؤوسكم >>. ولأنه مضاد للحرارة غسلت رأسي بزجاجتي عرق. وهكذا تظاهروا بالسكر. وصار كل عضو من حزب يناجي العضو من الحزب الآخر ويقول له >> آه يا صديقي ألسنا جميعاً أبناء هذا التراب الواحد ؟ >> ويلتفان ببعض ويتعانقان، وكان هناك من يبكي، وهناك من ينتحب. وهكذا بالعناق وبكلمة >> كلنا اخوة >> جمعنا هؤلاء المعارضين داخل الخيمة. وكان المفتش قد أوصانا قائلاً >> اضربوهم ولكن حذار من إراقة الدماء، اعفسوهم واهرسوهم إن أردتم ولكن بدون دماء، فإن أريق دم فإني لا أستطيع إنقاذكم! >> لذلك أمرنا كاظم طوبال قائلاً >> ممنوع حمل المسدسات والسكاكين. >> وهكذا لم يحمل أحد منا مسدساً أو سكيناً. لكن بعضنا أخفى في وسطه سوطاً من عروق الثور، وبعضنا أخفى حبلًا مجدولاً ذا دبوس

مدبب، أو عصاً مسننة، أو حزاماً جلدياً مزيتاً، أو حزاماً جلدياً بأطراف حديدية، وكان لدي سوط من عروق الثور ورثته عن أبي، يعتبر دبوس رستم زال أوغلو لا شيء بجانبه، دسسته في ساق حذائي الطويل، ثم أخذنا مواقعنا داخل الخيمة وجلسنا في أماكن محددة، وحددنا مسبقاً الذين سنضربهم، وسوف تقطع حبال الخيمة فور إعطاء كاظم طوبال الإشارة، هل هذا جيد؟

- جيد..

- إلى هنا جيد، لكن شيئاً آخر كان في نيتي. أنت تعرف نوري الأقرع وحيدر شببك من حزبنا، ليس هناك على وجه الدنيا أسفل من هذين الاثنين، كذلك هناك من حزبنا سليمان صاري وقد استدان مني خمس ليرات منذ سنتين، وأنا أروح وأجيء إليه على مدى السنتين ولا يفييني إياها. وهناك سعيد سيفري الذي تعرفه، وبينني وبينه خصومة، وإن قلت أمين البقال فهو أيضاً من حزبنا لكنه عدوي اللدود، كذلك أليس المختار عزيز هناك أيضاً؟ فكرت في نفسي وقلت من سيعرف من عندما تقع الخيمة فوقنا ويدخل الناس ببعضهم في الظلام؟ وماذا يعني أنهم من حزبنا؟.. سوف أبدأ بهؤلاء أولاً، وسوف يظنون أن المعارضين ضربوهم. فسوطي لا يحمل خاتمي على أية حال.. وهو لن يطبع توقيعني على جباههم إن أنزلته عليهم. جعلت هؤلاء نصب عيني، ولسوف أنهي عملي معهم بلمحة واحدة، ضربة لهذا وضربة لذاك.. وسأبدأ بالمختار أولاً. عيني على هؤلاء، والأخرى على كاظم طوبال. وكانت فتاتان قد صعدتا على خشبة المسرح وبدأتا بالرقص والصراخ، وقد انكشفت عوراتهما كلياً، ولم يكن هناك سوى شبر

من الغربول وحفنة من الخرز تستر موضع الأنوثة فيهما.. الموسيقى تصدح والمعارضون انتشوا وراحوا يصرخون << يعيش >> وإذا بكاظمنا يمرر يده اليمنى على شاربیه، وكانت هذه إشارتنا. وفيما كان كاظم طوبال يقتل شاربیه وقعت الخيمة فوقنا فجأة وانطفأت الأضواء، فما كان مني إلا أن سحبت سوطي من ساق حذائي وصرخت يا الله وهجمت على المختار، وبما أنني كنت قد حددت أماكنهم مسبقاً فسوف أنهى عملي معهم في الظلام بغمضة عين. رفعت سوطي في الهواء ولحظتها تماماً لمعت في عيني بروق، إذ هوت على رأسي عصاً أحسست لشدتها أنني سأموت فنطقت بالشهادتين، ولكنني مع ذلك كنت أثناءها قد هويت بسوطي على دماغ المختار. لكن المختار السافل عرفني في ذلك الظلام وكأن عينيه كشافتان إذ قال << عرفتك أنت المرافق عمر! >> لم يكن المختار في حالة يستطيع معها رؤيتي، فرفع دبوسه الثقيل وأهوى به قائلاً: هي ذي رأس رضا يارجي. كيف هذا؟ أليس رضا يارجي من حزبنا؟ تركت المختار، وقلت يا الله وهجمت على نوري الأقرع، وكنت بضربة واحدة أطرح من أرضه أرضاً، وعندما تركت نوري الأقرع واتجهت صوب حيدر شبيبك، هوت على ظهري عصا طرحتني أرضاً فوراً. لكنني استطعت الإمساك بذراع من أهوى بالعصا على ظهري، ولك أليس هذا عضو حزبنا نوري آغا؟ << ولك نوري آغا ألسنت من حزبنا؟ >> فأجابني << اسكت أرجوك يا رفيق، فأنا ملتزم بالحزب بروحي، لكن يبدو أنني أخطأت في الظلام >>. لكنني قلت << ولك هل يجوز الخطأ يا سافل؟ لقد أقعدتني! >> واستعنت بالله وهويت بالسوط على ما تحت رأسه، بحيث يمكنك القول أن نوري آغا انقسم نصفين. ثم هويت بالسوط كذلك على سعيد سيفري،

وإذ بعضا غليظة تهوي بقسوة على كتفي الأيسر هذا. مع نزول العصا على كتفي أمسكت بساق الرجل بيدي، لكن هذه الساق ساق مغايرة ياسيدي، إنها ليست طبيعية، إذ ترك الرجل ساقه وهرب. يا عالم ياهو أليست هذه الساق التي في يدي ساق كاظم طوبال الاصطناعية؟

الكل يصيح ويصرخ، والخيمة فوقنا، ولا أستطيع تحريك يدي، عظامي متكسرة، ولا مجال للخروج والنجاة من الخيمة، إذ لم نعثر في هذه الخيمة اللعينة التي وقعت فوقنا على أي ثقب نفر منه وننجو بأرواحنا، كذلك لم نستطع تمزيق الخيمة بسكين والخروج منها لأن المفتش أوصانا بعدم حمل واستعمال السكاكين. بقينا هكذا نئن ونصرخ، فأغمي علي ولا أعرف كيف أخرجوني. هكذا ياسيدي. والشكر لله أننا وصلنا إلى هنا، أما الآخرون فلا نعرف هل ماتوا أم مازالوا أحياء..

- وماذا حل بالمعارضين؟

- ماذا سيحل بهم؟ لا شيء.. ولو سال الدم من أنف أحدهم لما حملت همًا، لكننا لم نمس شعرة من أي منهم، فنحن جميعاً نحمل عقيدة سرية. فبالرغم من كوننا من حزب واحد إلا أنه ثبت أننا أعداء بعضنا لبعض، وليقيننا بأن لا أحد سيعرف ويكتشف دخلنا ببعضنا بعضاً. ماذا تقول لم نمس شعرة من معارض واحد لانشغالنا بضرب بعض. أرايت كاظم طوبال هذا! إنه السافل الذي هوى بالعصا على ظهري وأوقعني مغمياً علي..

في هذه الأثناء حضر كاظم طوبال مستنداً إلى عكازه وقال:

- كنت أعرف أن هذا سيحدث ، كان ذلك واضحاً من ازدحام مقهانا.

ثم جلس على الأريكة وسأل :

- هل رأى أحدكم ساقى الأخرى يارفاق؟

انطون تشيخوف

اللعوب

ترجمة د . ابو بكر يوسف



دار التقدم 1343 موسكو

اللعوب

١

شهد زفاف اولجا ايفانوفنا كل اصدقائها ومعارفها الطيبين .
- انظروا اليه ، اليس صحيحا ان فيه شيئا ما ؟ - قالت
لاصدقائها وهي تومي الى زوجها وكأنما تريد ان توضح لهم لماذا
تزوجت هذا الرجل البسيط والعادى للغاية والذي ليس فيه اى
شئ مميز .

وكان زوجها اوسيب ستيبانتش ضيموف طبيبا يحمل لقب
المستشار الاعتبارى * . وكان يعمل فى مستشفىين ، فى احدهما
طبيبا ممارسا منتدبا ، وفى الآخر طبيب مشرحة . وكان يستقبل
المرضى ويعمل فى العنبر يوميا من التاسعة صباحا حتى منتصف
النهار ، وبعد الظهر يتوجه بالعربة الى المستشفى الآخر حيث
يشرح من يتوفى من المرضى . وكان دخله من الممارسة الخاصة
ضئيلا ، لا يتعدى خمسمائة روبل فى العام . وهذا كل ما هنالك .
فما الذى يمكن ان نضيفه عنه ؟ بينما كانت اولجا ايفانوفنا
واصدقائها ومعارفها الطيبون اناسا غير عاديين ابدا . كان كل
منهم يتميز بشئ ما ، ومعروفا قليلا ، وله اسمه وشهرته ، او
اذا لم يكن بعد مشهورا فقد كان يبشر بآمال رائعة . كان هناك
ممثل من مسرح الدراما ، موهبة كبيرة ، معترف بها منذ زمن ورجل
رشيق ، ذكى ومتواضع واستاذ ممتاز فى الالتقاء كان يعلم اولجا
ايفانوفنا فن الالتقاء . ومغنى اوبرا . . رجل بدين طيب ، كان

* المستشار الاعتبارى من الرتب المدنية الدنيا فى روسيا القيصرية .
المعرب .

يؤكد لاولجا ايفانوفنا متنهذا انها تقضى على نفسها ، فلو لم تركن الى الكسل ، وحزمت امرها لاصبحت مغنية رائعة . وكان هناك ايضا عدد من المصورين وعلى رأسهم ريبوففسكى مصور المواضيع والحيوانات والمناظر . . شـاب اشقر ، جميل جدا فى حوالى الخامسة والعشرين من عمره ، حقق نجاحا فى المعارض وباع لوحته الاخيرة بخمسمائة روبل . كان يصصح لاولجا ايفانوفنا رسوماتها ويقول انها ربما بلغت شيئا ما . وكان هناك ايضا عازف الفيوولنشلو الذى كانت آلتة تنتحب ، والذى اعترف صراحة بأنه من بين جميع من يعرفهن من النساء لا توجد من تستطيع مصاحبته فى العزف سوى اولجا ايفانوفنا . وكان هناك اديب ، شاب ولكنه معروف ، يكتب الروايات والمسرحيات والقصص القصيرة . ثم من ايضا ؟ نعم ، كان هناك فاسيل فاسيليتش ، السيد الاقطاعى، المصور الهاوى والمزخرف ، والذى كان يجيد تذوق الاسلوب الروسى القديم والروايات الشعبية والملاحم . وكان يصنع المعجزات على الورق والخزف والاطباق المدخنة . ووسط هذه الجماعة الارستقراطية الحرة التى دللها القدر ، وان كانت مهيبة ومتواضعة ، هذه الجماعة التى لم تكن تتذكر وجود اطباء ما الا ساعة المرض ، والتى كان اسم ضيموف لا يثير اهتمامها تماما كاسماء مثل سيدروف او ساراتوف . . وسط هذه الجماعة كان ضيموف يبدو غريبا ونشازا وصغيرا ، رغم انه كان طويل القامة عريض المنكبين . وبدا كأنه يرتدى حلة ليست له ، وان له لحية خولى . وعموما فلو انه كان كاتباً او مصورا لقالوا ان لحيته تذكر بالاديب زولا .

وكان الممثل يقول لاولجا ايفانوفنا انها بشعرها الكتانى وفى ثوب الزفاف تشبه الى حد كبير شجرة كرز رشيقة عندما تغطيها الازهار البيضاء الرقيقة تماما فى الربيع .

وقالت له اولجا ايفانوفنا وهى تقبض على يده :

- كلا ، بل اسمع ! كيف امكن ان يحدث ذلك فجأة ؟ اسمع ، اسمع . . . ينبغى ان اقول لك ان ابى كان يعمل مع ضيموف فى مستشفى واحد . وعندما مرض ابى المسكين ظل ضيموف مرابطا الى جوار سريريه ليل نهار . اوه ، ياللتفانى ! اسمع

يا ريبوفسكى . . وانت يا حضرة الاديب اسمع ، فهذا طريف جدا . اقترب منا . ياللتفانى والمشاركة المخلصة ! انا ايضا لم انم الليالى جالسة بجوار ابنى ، وفجأة . . اهلا ، انتصرت على الفارس الشجاع ! غرق ضيموف فى حبى حتى اذنيه . حقا ما اغرب تصارييف القدر . حسنا ، بعد وفاة والدى كان يزورنى احيانا ويلقانى فى الشارع ، وذات مساء رائع ، هوب ! طلب يدى . . وكان لذلك وقع الصاعقة على . . . قضيت الليل كله فى النحيب ووجدت نفسى احبه بجنون . وها قد اصبحت كما ترون زوجة . أليس صحيحا ان فيه شيئا ما قويا ، هائلا ، شيئا من الدببة ؟ ان وجهه الآن لا يبدو لنا من هنا كاملا ، والاضاءة ضعيفة ، ولكن عندما يلتفت انظروا الى جبينه . ماذا تقول فى هذا الجبين يا ريبوفسكى ؟ - وصاحت زوجها - يا. ضيموف ، اننا نتحدث عنك ! تعال هنا . مد يدك الشريفة الى ريبوفسكى . . . نعم هكذا . فلتكونا صديقين .

ومد ضيموف يده الى ريبوفسكى وهو يبتسم ببشاشة وسنداجة وقال :
- سعيد جدا . لقد تخرج معى شخص يدعى ريبوفسكى ،
اليس قريبك ؟

٢

كانت اولجا ايفانوفنا فى الثانية والعشرين من عمرها بينما كان ضيموف فى الحادية والثلاثين . وعاشا بعد الزفاف حياة رائعة . وغطت اولجا ايفانوفنا جدران غرفة الجلوس كلها برسوماتها ورسومات الآخرين ، فى اطر وبدون اطر ، وصنعت بجوار البيانو والاثاث ازدهاما جميلا من المظلات الصينية والحوامل والخرق الملونة والخناجر والتماثيل النصفية والصور . . . وغطت جدران غرفة الطعام برسومات «اللوب» وعلقت على الجدران احذية «اللابتى» * والمناجل ، ووضعت فى احد الاركان محصدة ومجرقة ،

* صور «اللوب» هى لون من التصوير الشعبى بالالوان على الواح خشبية ، و«اللابتى» احذية فلاحية قديمة كانت تصنع من لحاء الشجر .
المعرب .

فاصبحت غرفة طعام على الطراز الروسى . اما غرفة النوم فارادت ان تجعلها تشبه الكهف فكست السقف والجدران بقماش داكن ، وعلقت فوق الاسرة مصباحا من طراز مصابيح البندقية ووضعت بجوار الباب تمثالا يحمل رمحا برأس بلطة . وقال الجميع ان لدى الزوجين الشابين ركنا لطيفا .

وعندما تنهض اولجا ايفانوفنا من الفراش كل صباح فى الساعة الحادية عشرة تلعب على البيانو ، او اذا كان النهار مشمساً ، ترسم شيئا ما بالوان الزيت . ثم ترحل بعد الثانية عشرة الى خياطتها . ولما كانت نقودها هى وضيوف قليلة وتكفى بالكاد فقد لجأت هى وخياطتها الى الحيلة لكى تبدو كثيرا فى ازياء جديدة وتبهر الناس بفساتينها . وكثيرا جدا ما كان يخرج من الفستان القديم المعاد صبغه ومن قطع الدانتلا والقטיפه والحريير التى لا قيمة لها معجزات حقيقية ، شئ ما خلاب ، ليس فستانا بل حلم . ومن الخياطة كانت اولجا ايفانوفنا تتوجه عادة الى احدى معارفها من الممثلات لتعرف اخبار المسرح وبالمناسبة تدبر امر بطاقة لاول عرض لمسرحية جديدة او بنفيس . ومن الممثلة كان عليها ان تذهب الى مرسوم مصور او الى معرض صور ، ثم الى احد المشهورين لتدعوه لزيارتهم او لترد الزيارة او لمجرد الثرثرة . وفى كل مكان كانوا يستقبلونها بمرح ومودة ويؤكدون لها انها جميلة ورقيقة ونادرة . . . وأولئك الذين كانت تسميهم بالمشهورين او العظام كانوا يستقبلونها كواحدة منهم ، على قدم المساواة ، ويتنبأون لها فى صوت واحد بأنها بمواهبها وذوقها وذكائها يمكن ان تصبح ذات شأن كبير اذا لم تبعثر قواها . لقد كانت تغنى وتعزف على البيانو وترسم بالالوان وتشكل الصلصال وتشترك فى تمثيليات الهواة ، ولكنها لم تكن تفعل ذلك كيفما كان ، بل بموهبة . وسواء أكانت تصنع المصابيح للزينات ، ام تتزين ، ام تعقد ربطة العنق لشخص ما . . فقد كان كل شئ يخرج من بين يديها بفن ورشاقة ولطف لا مثيل له . ولكن موهبتها لم تتجل فى اى شئ بمثل هذا السطوع كما تجلت فى قدرتها على التعارف بسرعة والتقرب من مشاهير الناس . فما ان يشتهر شخص ما ولو قليلا ، وما ان يجعل الناس تتحدث عنه

حتى تتعرف به على الفور وتتصادق معه في نفس اليوم وتدعوه لزيارتها . وكان كل تعارف جديد عبدا حقيقيا بالنسبة لها . كانت تعبد المشاهير وتفتخر بهم وتراهم كل ليلة في الحلم . كانت متعطشة اليهم ولم تستطع ابدا ان تروى ظمأها . كان القدامى يرحلون او يطويهم النسيان ، ويأتى محلهم آخرون جدد ، ولكنها كانت تعتاد عليهم بسرعة او يخيب املها فيهم فتبدأ في البحث بنهم عن الجديد والجديد من المشاهير فتجدهم ، ثم تعود تبحث ثانية . لاي شيء ؟

وبعد الرابعة كانت تتغدى في البيت مع زوجها . كانت بساطته وتفكيره الراجح وطيبة قلبه تثير تأثرها واعجابها . كانت تقول له :

- انت يا ضيموف انسان ذكى ، نبيل . ولكن فيك عيبا واحدا خطيرا جدا . انت لا تهتم ابدا بالفن . انت تنكر الموسيقى والتصوير . فيقول باستكانة :

- انا لا افهمهما . لقد اشتغلت طوال حياتى بالعلوم الطبيعية والطب ولم يكن لدى وقت للاهتمام بالفنون . ولكن هذا فظيع يا ضيموف !

- لماذا ؟ ان معارفك لا يعرفون العلوم الطبيعية والطب ، ولكنك لا تعيبين عليهم ذلك . كل شخص ما يخصه . انا لا افهم المناظر او الاوبرات ، ولكنى افكر هكذا : اذا كان بعض الناس الاذكياء يكرسون لها حياتهم كلها ، وبعض الناس الاذكياء الآخرين يدفعون مقابلها مبالغ ضخمة ، اذن فهي ضرورية . اننى لا افهمها ولكن عدم الفهم لا يعنى الانكار .

- دعنى اشد على يدك الشريفة !

وبعد الغداء كانت اولجا ايفانوفنا تذهب الى معارفها ، ثم الى المسرح او الى حفلة موسيقية ، وتعود الى البيت بعد منتصف الليل . هكذا كل يوم .

وفي ايام الاربعاء كانت تقيم حفلات . وفي هذه الحفلات لم تكن ربة البيت او الضيوف يلعبون الورق او يرقصون ، بل يسرون عن انفسهم بشتى الالوان الفنية . فكان فنان مسرح الدراما يلقي،

والمغنى يغنى ، والمصورون يرسمون فى الالبومات التى كانت اولجا ايفانوفنا تحتفظ بعدد ضخم منها ، وعازف الفيو لنشلو يعزف ، اما ربة الدار فكانت ايضا ترسم وتشكل الصلصال وتغنى وتصاحب العازفين والمغنين .

وفى فترات الراحة ما بين اللقاء والعزف والغناء كانوا يتحدثون ويتناقشون فى الادب والمسرح والتصوير . ولم تكن هناك نساء ، لان اولجا ايفانوفنا كانت تعتبر جميع النساء ، ما عدا الممثلات المسرح والموسيقى والتصوير .

كان الزوجان الشابان سعيدين ، وسارت حياتهما على اروع ما يكون . ولكن الاسبوع الثالث من شهر العسل لم يمض فى سعادة تامة ، بل مضى فى حزن ، فقد مرض ضيموف بعدوى الحمرة ولزم الفراش ستة ايام ، واضطر ان يحلق تماما شعره الاسود الجميل . وجلست اولجا ايفانوفنا الى جواره وبكت بحرقة ، ولكن عندما تحسنت حالته قليلا ، وضعت على رأسه الحليق منديلا ابيض ، وراحت ترسم عنه صورة بدوى . وشعر كلاهما بالمرح . وبعد ثلاثة ايام من شفائه وتردده ثانياة على المستشفى وقع له حادث جديد .

- اننى سيبى* الحظ يا ماما - قال ذات مرة على الغداء - كان لدى اربع عمليات تشريح اليوم فجرحت اصبعين دفعة واحدة . ولم الحظ ذلك الا فى المنزل .

وخافت اولجا ايفانوفنا . فابتسم وقال ان هذا شىء تافه وانه كثيرا ما يجرح اصابعه اثناء التشريح .

- اننى انهمك فى التشريح يا ماما فاصبح شاردا .

وراحت اولجا ايفانوفنا تتوقع عدوى لجثة بقلق وتصلى لله فى الليل ، ولكن كل شىء مر على ما يرام . ومن جديد سارت حياتهما وخياطتها ، مملاات ومبتذلات . ولم تكن حفلة تمر دون ان تنتفض ربة الدار لدى كل قرع لجرس الباب ، ودون ان تقول بتعبير انتصار على وجهها : «هذا هو !» وهى تعنى «هو» شخصية شهيرة جديدة دعتها الى الحفلة . لم يكن ضيموف يبقى فى غرفة الاستقبال ، ولم يكن احد يتذكر غيابه . ولكن فى الحادية عشرة

والنصف تماما كان الباب المفضى الى غرفة الطعام يفتح ، ويظهر
ضيوموف بابتسامته البشوش المستكينة ويقول وهو يفرك راحتيه:
- تفضلوا الى المائدة يا سادة .

فيسير الجميع الى غرفة الطعام ويرون في كل مرة نفس
الاشياء على المائدة : طبق «ام الخلول» ، وقطعة من لحم الخنزير
او العجل ، وسردين وجبن وكافيار وفطر وفودكا ودورقان من
النيذ .

وتقول اولجا ايفانوفنا وهي تشيح بيديها من الاعجاب :
- آه يا مترودوتيلي العزيز ! انت ساحر ! انظروا يا سادة
الى جبينه ! ضيوموف ، استدر الينا بجانب وجهك . انظروا
يا سادة : وجه نمر بنغالى ، بينما التعبير طيب ورقيق كأنه
لغزال . اوه يا حبيبي !

ويأكل الضيوف وهم يتطلعون الى ضيوموف ويفكرون :
«بالفعل ، انه شاب رائع» ، ولكنهم سرعان ما ينسونه ،
ويواصلون الحديث عن هادئة سعيدة بلا احزان او هموم . كان
الحاضر رائعا ، واقترب الربيع ليحل محله وهو يتسم من بعيد
ويبشر بألف فرحة . ولن تكون للسعادة نهاية ! سينقضى أبريل
ومايو ويونيو في البيت الريفي البعيد عن المدينة ، وفي التريض
والرسم وصيد السمك وسماع غناء البلابل ، وبعد ذلك ، ومن
يوليو حتى الخريف ستكون رحلة للمصورين في نهر الفولجا . وفي
هذه الرحلة سوف تشارك اولجا ايفانوفنا باعتبارها عضوا اساسيا
في «السوسيتي» * . وقد اعدت لنفسها بالفعل ثوبى سفر من
الخيش ، وابتاعت الوانا وفرشا وقماش رسم ولوحة الوان جديدة .
واصبح ريابوفسكى يتردد عليها كل يوم تقريبا لكي يرى مدى
التقدم الذى احرزته في التصوير . وعندما كانت تعرض عليه
رسومها ، كان يدفع يديه عميقا في جيبي سرواله ، ويزم شفتيه
بقوة ويشن بأنفه ثم يقول :

- هكذا . . . هذه السحابة عندك تصرخ . . ليست مضاءة
بضوء الغروب . المنظر الامامى ممزوج قليلا ، وليس بالشكل

* الجماعة (بالفرنسية فى الاصل) .

المطلوب يعنى . . . اما المنزل فقد ضغط عليه شيء ما وهو
لذلك يعول متوجعا . . . هذا الركن ينبغي رسمه بصورة ادكن
قليلا . وعموما فلا بأس . . . اثنى عليك .
وكلما ازدادت كلماته غموضا ، سهل على اولجا ايفانوفنا ان
تفهمه .

٣

في اليوم التالى لعيد العنصرة بعد الغداء اشترى ضيموف مزات
وحلوى ورحل الى زوجته في البيت الريفى . لم يكن قد رآها منذ
اسبوعين واشتاق اليها كثيرا . وعندما كان جالسا في عربة
القطار ، وبعد ذلك عندما كان يبحث عن داره في الغيضة الكبيرة ،
كان يشعر دائما بالجوع والتعب ويحلم بالعشاء مع زوجته في
حرية ثم بالخلود الى النوم . واحس بالمرح وهو ينظر الى اللفة
التى يحملها وبها الكافيار والجبن والسبك الابيض .
وعندما وجد داره وتعرف عليها كانت الشمس تميل نحو
المغرب . وقالت الخادم العجوز ان السيدة ليست في الدار ومن
المفروض ان تعود قريبا . لم يكن منظر الدار جذابا ابدا . وكان
بها ثلاث غرف فقط ، واسقفها منخفضة ومغطاة بورق ابيض
وارضيته مشققة وغير مستوية . وكان في احدى الغرف سرير ،
وفي الثانية تراكمت الفرش وقماش الرسم والاوراق المشحمة
والمعاطف والقبعات الرجالية على الكراسى . وفي الغرفة الثالثة وجد
ضيموف ثلاثة رجال لا يعرفهم . كان اثنان منهم اسودى الشعر
وبلحى صغيرة ، اما الثالث فكان حليقا تماما وبدينا ، ويبدو انه
ممثّل . وعلى المائدة كان السماور يغلى .
وسأل الممثل ضيموف بصوت غليظ وهو يتفحصه بنظرة غير
ودود .

- ماذا تريد ؟ هل تريد اولجا ايفانوفنا ؟ انتظر ، سوف
تأتى قريبا .

وجلس ضيموف وراح ينتظر . وتطلع اليه احد الرجلين
الاسودى الشعر بكسل وتراخ وسأله وهو يصب لنفسه شاي :
- ربما تريد شاي ؟

كان ضيموف يريد ان يشرب وان يأكل ، ولكنه امتنع عن تناول الشاي لكيلا يفسد شهيته . وسرعان ما تردد وقع خطوات وتناهي الضحك المألوف . واصطفق الباب واندفعت اولجا ايفانوفنا الى داخل الغرفة وهي ترتدى قبعة عريضة الحواف وتحمل في يدها صندوقا ، ودخل وراءها ريبابوفسكي مرحا ، احمر الوجه يحمل مظلة كبيرة وكرسيا مطويا .

وصاحت اولجا ايفانوفنا وتضرجت من الفرحة :

- ضيموف ! ضيموف ! - رددت وهي تضع يديها ورأسها على صدره - أهو انت ! لماذا لم تأت طوال هذه المدة ؟ لماذا ؟ لماذا ؟

- متى استطيع يا ماما ؟ اننى مشغول دائما ، وعندما افرغ قليلا اجد مواعيد القطارات غير مناسبة دائما .

- اوه كم انا مسرورة برؤياك ! حلمت بك طوال الليل ، وخفت ان تمرض . آه لو تعرف كم انت غال وكم جئت فى الوقت المناسب ! ستكون مخلصى . انت الوحيد الذى استطيع ان ينقذنى ! - ومضت تقول وهي تضحك وتربط ازوجها ربطة العنق - ستقام هنا حفلة زفاف طريفة للغاية . سيتزوج عامل البرق فى المحطة ، المدعو تشيكيلايديف . وهو شاب جميل ، ليس غبيا ، وفى وجهه ، المدعو اتدرى . . شىء ما قوى ، شىء من الدبة . . يمكن ان ترسم منه شابا من النورمانديين . ونحن المصطافين جميعا نشاركه الفرحة واعطيناه كلمة شرف ان نشهد العرس . . انه شخص غير ثرى ووحيد وخجول ، وحرام بالطبع الا نشاركه فرحته . تصور ، الزفاف بعد الصلاة مباشرة ، ثم سيتوجه الجميع من الكنيسة سيرا على الاقدام الى شقة العروس . . اتفهم . . الغيضة ، وصدح الطيور ، وبقع الشمس على العشب ، ونحن جميعا نسير كالبقع الملونة على خلفية خضراء زاهية . . شىء طريف للغاية ، حسب ذوق الانطباعيين الفرنسيين - ثم سألت واكسبت وجهها تعبيرا باكيا - ولكن يا ضيموف ماذا ارتدى للكنيسة ؟ ليس لدى شىء هنا ، ليس لدى شىء اطلاقا ! لا فساتين ولا ازهار ، ولا قفازات . . عليك ان تنقذنى . اذا كنت قد جئت فان القدر نفسه قد ارسلك لتنقذنى . خذ يا عزيزى المفتاح وارحل الى المنزل وخذ من الصوان فستانى

الوردى . انت تذكره ، انه اول فستان على المشجب . . . وفى
غرفة المخزن سترى الى اليمين على الارض علبتين من الكرتون .
تفتح العلبة العليا فتجدها مليئة بالدانتلا وقطع القماش المختلفة ،
وتحتها الازهار . اخرج الازهار كلها بحذر ، وحاول يا روحى الا
تجدها ، وسوف اختار منها . . . واشتر قفازا .
فقال ضيموف :

- حسنا ، سأرحل غدا وارسلها لك .
فتساءلت اولجا ايفانوفنا وهى تنظر اليه بدهشة :
- متى غدا ؟ متى تلحق غدا ؟ غدا يمضى اول قطار فى
التاسعة ، والزفاف فى الحادية عشرة . كلا يا عزيزى ، بل اليوم ،
لا بد اليوم ! اذا لم يكن فى وسعك ان تأتى غدا ارسلها مع
رسول . حسنا ، اذهب اذن . . سيأتى القطار الآن . لا تتأخر يا
روحى .

- حسنا .
فقالت اولجا ايفانوفنا والدموع تترقرق فى عينيها :
- آه ، كم يحزننى ان ترحل ! يا لى من حمقاء لماذا وعدت
عامل البرق ؟

وشرب ضيموف كوبا من الشاي بسرعة ، واخذ سميطه ،
وابتسم باستكانة ، ثم اتجه الى المحطة . اما الكافيار والجبن والسمك
الابيض فقد اكله صاحبها الشعر الاسود والممثل .

٤

فى ليلة هادئة مقمرة من ليالى يوليو وقفت اولجا ايفانوفنا على
ظهر مركب من مراكب الفولجا ومضت تنظر تارة الى المياه وتارة الى
الشواطىء الجميلة . ووقف ريبوففسكى الى جوارها وهو يقول لها
ان الظلال السوداء فى الماء ليست ظلالا ، بل حلم ، وانه عند رؤية
هذه المياه الساحرة ذات البريق الخيالى ، وعند رؤية السماء
اللانهاية والشواطىء الحزينة المتأمللة التى تتحدث عن باطل حياتنا
وعن وجود شىء ما سام وخالد ومقدس ، يجدر بالمرء ان يندثر ،
ان يموت ، ان يصبح ذكرى . فالماضى مبتذل وليس طريفا ،

والمستقبل تافه ، اما هذه الليلة الرائعة ، الليلة الوحيدة في العمر
كله فسرعان ما تنتهى وتتحد بالخلود - فلماذا العيش ؟
وكانت اولجا ايفانوفنا تصغى تارة لحديث ريبوفسكى وتارة
لسكون الليل وهى تفكر فى انها خالدة ولن تموت ابدا . وحدثها
لون المياه الفيروزى ، الذى لم تره من قبل ابدا ، والسما ،
والشيطان والظلال السوداء والفرحة الغامرة التى ملأت روحها بأنها
ستصبح مصورة عظيمة ، وانه هناك فى مكان ما ، وراء الافق ،
وخلف الليلة المقمرة ، فى الفضاء اللامتناهى ، ينتظرها النجاح
والشهرة وحب الشعب . . . وعندما حدثت طويلا فى الافق وهى لا
تطرف خيل اليها انها ترى جموع الشعب والاضواء وانغام الموسيقى
المهيبية ، وصيحات الاعجاب ، وكانت هى نفسها فى رداء ابيض ،
بينما انهالت عليها الازهار من جميع الجهات . وجال بخاطرها ايضا
انه يقف الى جوارها مرتكزا على الحاجز انسان عظيم حقيقة ، عبقرى ،
من الذين اختارهم الله . . . كل ما ابدعه حتى الآن رائع وجديد
وغير عادى ، وكل ما سوف يبدعه فى المستقبل ، عندما يشتد
عوده وتترسخ موهبته الفريدة ، سيكون باهرا وساميا الى ما لا
نهاية ، وهذا واضح من وجهه وطريقة تعبيره ومن نظراته الى
الطبيعة . فهو يتحدث عن الظلال ، والوان المساء وبريق القمر بطريقة
خاصة ، وبكلماته هو ، بحيث تشعر لاراديا بسحر سلطانه على
الطبيعة . اما هو نفسه فجميل جدا ، وفريد ، وحياته حرة ،
مستقلة ، بعيدة عن امور المعيشة ، وتشبه حياة طائر .

وقالت اولجا ايفانوفنا :

- الجو مال الى البرودة .

وانتفضت .

ودثرها ريبوفسكى بردائه وقال بحزن :

- اننى اشعر اننى تحت سيطرتك . اننى عبد . لم انت باهرة

هكذا اليوم ؟

كان يحرق فيها طوال الوقت دون ان يحول عنها عينيه . وكانت

عيناه مرعبتين فخافت ان تتطلع فيهما .

وهمس وهو يزفر انفاسه على خدها :

- اننى احبك بجنون . . . قولى لى كلمة واحدة فأنتهى حياتي ،

اهجر الفن . . . - دمدم فى اضطراب شديد - احبينى ، احبينى . . .
فقال اولجا ايفانوفنا وهى تغمض عينيها :

- لا تتكلم هكذا . . رهيب . وضيموف ؟

- ماذا ضيموف ؟ لماذا ضيموف ؟ وما شأنى بضيموف ؟ هنا
الفلولجا ، والقمر ، والجمال ، وحبى ، واعجابى ، وليس هنا اى
ضيموف . . آه ، انا لا اعرف شيئا . . . لا اريد الماضى . . اعطنى
لحظة واحدة . . برهة واحدة .

وخفق قلب اولجا ايفانوفنا . ارادت ان تفكر فى زوجها ، لكن
ماضيها كله ، بحفل الزفاف ، وضيموف ، والحفلات ، بدا لها
صغيرا . . قافها ، كايا ، لا داعى له ، وبعيدا بعيدا . . . وبالفعل ،
ماذا ضيموف ؟ ولماذا ضيموف ، وما شأنها بضيموف ؟ وهل هو
موجود على قيد الحياة ام هو مجرد حلم ؟

وقالت لنفسها وهى تغطى وجهها : « بالنسبة لرجل بسيط
وعادى مثله ، يكفيه ما حصل عليه من سعادة . فليستكنكروا
هناك ، وليلعنوني ، اما انا فكيذا فيهم سأقتل نفسى . . نعم ، اقتل
نفسى . ينغى ان يجرب المرء كل شئ فى الحياة . يا الهى ما افظع
هذا وما اطيبه !»

ودمدم المصور وهو يحضنها ويقبل بنهم يديها اللتين كانت
تحاول بهما ان تدفعه عنها بوهن :

- حسنا ، ماذا ؟ ماذا ؟ هل تحبيننى ؟ نعم ؟ نعم ؟ اوه يا لها
من ليلة ! ليلة رائعة !

- نعم ، يا لها من ليلة ! - همست وهى تتطلع الى عينيه
البراقتين بالدموع ، ثم تلفتت بسرعة ، وعانقته ، وقبلته فى شفتيه
بقوة .

- نقترب من كينشما ! - قال شخص ما من الطرف الآخر لسطح
المركب .

وسمع وقع خطوات ثقيلة . كان ذلك عامل البوفيه . فقامت له
اولجا ايفانوفنا وهى تضحك وتبكي من فرط السعادة :

- اسمع . . احضر لنا نبيذا .

وجلس المصور على الارىكة ، شاحبا من شدة الانفعال ، ونظر

الى اولجا ايفانوفنا بعينين والهتين شاكرتين ، ثم اغمض عينيه وقال
وهو يبتسم ساهما :
- اننى متعب .
واسند رأسه الى حاجز المركب .

٥

كان الثانى من سبتمبر يوما دافئا هادئا ولكنه مكفهر . وفى
الصباح الباكر انتشر ضباب خفيف على الفولجا ، وبعد التاسعة
تساقط المطر رذاذا . ولم يكن هناك اى امل فى ان تصفو السماء .
وانثناء تناول الشاى قال ريبوفسكى لاولجا ايفانوفنا ان التصوير
هو اشد الفنون مللا وانحطاطا ، وانه ليس فنا ، وان الحمقى
وحدهم هم الذين يعتقدون انه موهوب . وفجأة ، ودون مقدمات ،
التقط سكيننا وخدش به افضل رسومه . وبعد الشاى جلس الى
النافذة عابسا وراح يتطلع الى الفولجا . ولم يعد الفولجا براقا ، بل
كأبيا ، مغيشا ويبدو باردا . وكان كل شيء يذكر بقرب مجيء
الخريف الكئيب المكفهر . وبدا ان الابسة الخضراء الفحمة على
الشاطآن ، وانعكاسات الاشعة الماسية والأفاق الزرقاء الشفافة ، وكل
ما هو انيق واحتفالى قد نزعت الطبيعة عن الفولجا ووضعته فى
الصناديق حتى الربيع القادم ، بينما حلقت الغربان بجوار الفولجا
وهى تستغزه بصياحها : «عريان ! عريان !» . واصغى ريبوفسكى
الى نعيقها وهو يفكر فى انه قد انتهى وفقد موهبته ، وان كل شيء
فى هذا العالم زائل ونسبى واحمق ، وما كان ينبغى ان يربط نفسه
بهذه المرأة . . . وباختصار كان متضايقا ومكتئبا .

وكانت اولجا ايفانوفنا جالسة على السرير خلف الحاجز وهى
تقلب باصابعها شعرها الكتانى الرائع ، وتتخيل نفسها تارة فى
غرفة الجلوس ، وتارة فى غرفة النوم ، وتارة فى غرفة مكتسب
زوجها . وحملها الخيال الى المسرح ، الى خياطتها ، الى اصدقائها
المشهورين . ترى ماذا يفعلون الآن ؟ هل يتذكرونها ؟ لقد بدأ
الموسم ، وآن الاوان للتفكير فى الحفلات . وضيوف ؟ ضيوف
العزیز ! كم يرجوها باستكانة وشكاية طفل فى رسائله ان تعود
بسرعة ! وكان يرسل اليها كل شهر ٧٥ روبلا ، وعندما كتبت اليه

تقول انها مدينة للمصورين بمائة روبل ارسل اليها هذه المائة
ايضا . يا له من انسان طيب ، سمح ! لقد ارهقت الرحلة اولجا
ايفانوفنا ، وشعرت بالملل ، واحست بالرغبة فى ان تترك بسرعة
هؤلاء الرجال ورائحة الرطوبة النهرية ، وان تتطهر من احساسها
بالقذارة الجسدية ، هذا الاحساس الذى تملكها وهى تعيش طوال
الوقت فى بيوت الفلاحين وتتنقل من قرية الى قرية . ولو لا ان
ريابوفسكى وعد المصورين بشرفه ان يبقى معهم حتى العشرين من
سبتمبر لكان من الممكن ان ترحل اليوم . وكم كان ذلك جميلا !

وان ريبوفسكى :

- يا الهى ! متى ستشرق الشمس ؟ لا تستطيع ان اكمل منظرا
شمسا بدون الشمس !

فقالت اولجا ايفانوفنا خارجة من وراء الحاجز :

- لديك مشهد بسماء غائمة . اذكر ، فى الجانب الايمن غابة
وفى اليسر قطع بقر واوز . تستطيع الآن ان تكمله .
فامتعض المصور وقال :

- ايه ! اكمله ! احقا تظنين اننى من الغباء بحيث لا اعرف
ما الذى ينبغي على عمله !

فزفرت اولجا ايفانوفنا قائلة :

- كم تبدل شعورك نحوى !

- فليكن ، رائع .

وارتعش وجه اولجا ايفانوفنا ، فاتجهت نحو الفرن واجهشت
بالبكاء .

- لم يكن ينقصنا سوى الدموع . كفك ! ان لدى الف سبب
للبكاء ولكننى لا ابكى .

فقالت اولجا ايفانوفنا وهى تجهش :

- الف سبب ! اهم سبب انك بدأت تضيق بى . نعم ! - قالت
ثم انفجرت بالنحيب - اذا شئت الحقيقة فانت تخجل من حينا . انت
تحاول دائما الا يلحظ المصورون ، رغم ان ذلك لا يمكن اخفاؤه ،
وهم يعرفون كل شئ من زمان .

فقال المصور بضراعة وهو يضع يده على قلبه :

- اولجا ، ارجو منك شيئا واحدا . . شيئا واحدا : لا

تعذبينى ! انا لا اريد منك اكثر من ذلك !

- اقسام انك ما زلت تحبنى !

فقال المصور من بين اسنانه وهو يقفز :

- يا للعذاب ! سينتهى الامر بان القى بنفسى فى الفولجا او

افقد عقلى ! دعينى !

- اقتلنى ، اقتلنى ! اقتل !

وعادت الى العويل ثانية ومضت خلف الحاجز . ونقر المطر على سقف المنزل الريفى القش . وامسك ريبوفسكى برأسه وسار من ركن الى ركن ، ثم اكتسى وجهه ملامح الحزم وكأنه يريد ان يثبت شيئا ما لاحد ما ، وارتنى القبة ووضع بندقية الصيد على كتفه وخرج من المنزل .

وبعد خروجه ظلت اولجا ايفانوفنا مستلقية على السرير طويلا وهى تبكى . وفى البداية فكرت فى انه من المستحسن ان تتناول سما لكى يعود ريبوفسكى فيجدها ميتة ، ثم حملها الخيال الى غرفة الجلوس ، وغرفة مكتب زوجها ، وتصورت نفسها جالسة الى جوار ضيموف دون حراك ، وهى تستمتع بالسكينة والنظافة الجسدية ، وفى المساء جالسة فى المسرح تصغى الى مازينى . وعصر قلبها الشوق الى التحضر وصخب المدينة والشخصيات الشهيرة . ودلفت فلاحا الى المنزل وراحت تشعل الفرن على مهل لتجهز الغداء . وانتشرت رائحة الحريق واصبح الهواء ازرق من الدخان . وجاء المصورون ينتعلون احذية طويلة قذرة ووجوههم مبللة بالمطر ، وشاهدوا الرسوم وقالوا عزاء لانفسهم ان للفولجا سحره حتى فى الجو السيئ . اما ساعة الحائط الرخيصة فمضت تتك : تك تك . . وتجمع الذباب المقرور فى الركن الامامى بجوار الايقونات وهو ينز ، وتناهى صوت الصراخىر وهى تعبت فى المحافظ السميكة تحت الارائك .

عاد ريبوفسكى الى البيت عند الغروب . والقى قبعته على الطاولة وتهالك على الارىكة شاحبا ، منهكا وفى حذاء قدر ، واغمض عينيه .
- انا متعب . . . - قال وهو يحرك حاجبيه محاولا ان يفتح جفنيه .

ولكى تتقرب اولجا ايفانوفنا اليه وتبدي له انها ليست غاضبة منه ، اقتربت وقيلتته في صمت ، ومرت بالمشط في شعره الاشقر . فقد ارادت ان تمشطه .

فانتفض ريبوفسكى وكان شيئا باردا قد مسه ، وسأل وهو يفتح عينيه :

- ما هذا ؟ ما هذا ؟ دعيني لحالى ارجوك .

وابعدها عنه بيديه ، وتنحى قليلا ، وخيل اليها ان تعابير وجهه تنم عن التقرز والاسى . وفى تلك اللحظة دخلت الفلاحة حاملة فى يديها طبقا من حساء الكرنب ، ورأت اولجا ايفانوفنا اصابع الفلاحة الكبيرة وهى مغموسة فى الحساء . وبدت لها هذه المرأة القدرة المحزومة البطن ، والحساء الذى راح ريبوفسكى يلتهمه بشراهة ، والبيت ، وكل هذه الحياة التى احتتها كثيرا فى البداية لبساطتها وفوضاها الفنية ، بدت لها الآن فظيعة . وفجأة احست بالاهانة فقالت ببرود :

- ينبغى ان نفترق لبعض الوقت ، والا فقد نشاجر جديا بسبب الملل . لقد سئمت كل هذا . سأرحل اليوم .

- وكيف ؟ هل ستمطين صهوة عصي ؟

- اليوم خميس ، اذن فسيأتى المركب فى التاسعة والنصف .

- هه ؟ نعم ، نعم . حسنا ، سافرى . . . - قال

ريبوفسكى بنعومة وهو يمسح فمه بالفوطة بدلا من المنديل - انت هنا تسأمين ولا عمل لديك ، وينبغى ان اكون انا نيا كبيرا حتى امنعك من الرحيل . سافرى ، وبعد يوم عشرين سنتقابل .

وحزمت اولجا ايفانوفنا امتعتها بمرح ، بل ان خديها تضرجا من السرور . وسألت نفسها احقا سوف ترسم فى غرفة الاستقبال وتنام فى غرفة النوم وتتغدى على طاولة بمفرش ؟ وانزاح الاسى عن قلبها ولم تعد غاضبة على المصور .

وقالت :

- سأترك لك الالوان والفرش يا ريبوشا * . وما يبقى منها

احضره معك . . . اياك ان تتكاسل وتكتئب هنا بدونى ، بل اعمل .
انت شاطر يا ريبوشا .

* « ريبوشا » - تدليل من « ريبوفسكى » . المعرب .

فى العاشرة قبلها رىابوفسكى قبله الوداع لكى لا يقبلها ، كما اعتقدت ، امام المصورين على ظهر المركب ، وودعها حتى المرفأ . وسرعان ما وصل المركب وحملها .

ووصلت الى البيت بعد يومين ونصف . ودون ان تنزع القبعة ومعطف المطر ، مضت الى غرفة الاستقبال وانفاسها تتلاحق من الانفغال ، ثم دلفت من هناك الى غرفة الطعام . كان ضيموف جالسا الى المائدة بدون سترة ، فى صدىرى مفتوح الازرار ، وهو يسن السكين بالشوكة ، وامامه فى الطبق ديك برى . وعندما دخلت اولجا ايفانوفنا الشقة كانت موقنة بأنها لا بد ان تخفى عن زوجها كل ما حدث ، وان لديها من المهارة والقدرة ما يمكنها من ذلك . بيد انها الآن ، عندما رأت هذه الابتسامة العريضة المستكنة السعيدة ، والعينين البراقنتين الفرحتين اجست ان اخفاء الامر عن هذا الانسان شىء وضيع مقرز ومستحيل لا تقوى عليه تماما مثل الافتراء والسرقة او القتل ، فقررت فى لحظة ان تروى له كل شىء . وبعد ان تركته يقبلها ويعانقها ، جثت امامه على ركبتيها وغطت وجهها بيديها .

فسأل ضيموف برقة :

- ماذا ؟ ماذا يا ماما ؟ اشتقت الى ؟

ورفعت اليه وجهها مضرجا بحمرة الخجل ، ونظرت اليه نظرة مذنبه وضارعة ، ولكن الخوف والخجل منعاهما من ان تقول الحقيقة . وقالت :

- لا شىء . . . هكذا . . .

فانهضها ضيموف واجلسها قائلا :

- فلنجلس . نعم هكذا . كلى الديك . لقد جعت يا مسكينة !

واستنشقت بنهم الهواء المألوف واخذت تأكل الديك البرى بينما راح يتطلع اليها بحب ويضحك بسعادة .

٦

يبدو ان ضيموف بدأ فى منتصف الشتاء يخمن انها تخدعه . وكأنما كان ضميره هو الذى يعذبه ، اذ لم يعد يستطيع ان ينظر مباشرة فى عينى زوجته ، ولم يعد يبتسم بفرح عند رؤياها ، ولكى

يقلل من فترة بقائه معها على انفراد كان كثيرا ما يدعو الى الغداء زميله كوروستيلوف ، وهو رجل قصير حليق الشعر ذو وجه مطابق . وعندما كان يتحدث مع اولجا ايفانوفنا يفك جميع ازرار سترته ويزررها ثانية من الخجل ثم يروح يبرم شاربه الايسر بيده اليمنى . واثناء الغداء كان الطبيبان يتحدثان فى ان ارتفاع الحجاب الحاجز يؤدى احيانا الى اضطراب ضربات القلب ، او فى ازدياد الحالات العصبية فى الفترة الاخيرة ، او فى ان ضيموف عندما شرح امس جثة بتشخيص «انيميا خبيثة» اكتشف سرطانا فى البنكرياس . وبدا وكأنهما يخوضان فى احاديث طبية فقط لكى يعطيا اولجا ايفانوفنا فرصة لان تصمت ، اى لكيلا تكذب . وبعد الغداء كان كوروستيلوف يجلس الى المعزف ، بينما يتنهد ضيموف ويقول :

- ايه يا اخى ! فليكن ! اعزف لنا شيئا حزينا .

ويرفع كوروستيلوف كتفيه عاليا ويبسط اصابعه ويعزف بعض النغمات ويبدأ فى الغناء بصوت «تينور» : دلنى على دار لا يئن فيها الفلاح الروسى * ، ويتنهد ضيموف ثانية ويعتمد برأسه على قبضته ويستغرق فى التفكير .

وفى الآونة الاخيرة كانت اولجا ايفانوفنا تتصرف بصورة غير حذرة للغاية . كانت تستيقظ كل صباح فى اشد حالات الكدر وبفكرة انها لم تعد تحب ريبوففسكى وان كل شىء قد انتهى والحمد لله . ولكن بعد ان تشرب القهوة تدرك ان ريبوففسكى سلبها زوجها ، وانها الآن اصبحت بلا زوج وبلا ريبوففسكى . وبعد ذلك تتذكر احاديث معارفها عن ان ريبوففسكى يعد للمعرض شيئا صاعقا ، خليطا من المناظر والموضوع ، حسب ذوق بولينوف ، شيئا يثير اعجاب كل من يزور مرسمه . وفكرت اولجا ايفانوفنا فى سرها ان هذا قد ابدعه تحت تأثيرها ، وعموما فبفضل تأثيرها عليه تغير بشدة نحو الافضل . ان تأثيرها عليه مفيد وحاسم بحيث لو تركته فرما انتهى . وتذكرت ايضا انه زارها فى المرة

* اغنية مشهورة فى اوساط الثوريين الديمقراطيين الروس فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين عن قصيدة للشاعر نكراسوف بعنوان «تأملات عند المدخل الرئيسى» . **المعرب** .

الاخيرة فى ستره رمادية براقه وفى ربطة عنق جديدة وسألها بنظرة ساهمة : «هل انا جميل ؟» . وبالفعل كان بخصلاته الطويلة وعينه الزرقاوين واناقتة جميلا جدا (او ربما خيل اليها هكذا) وكان رقيقا معها .

وبعد ان تذكر اولجا ايفانوفنا الكثير وتقلبه فى رأسها ، كانت ترتدى ثيابها فى حالة من الاضطراب الشديد وتتجه الى مرسم ريبوفسكى . وتجده مرحا ومعبجا بلوحته الرائعة بالفعل . كان يقفز ويتشاقى ويرد بالنكات على الاسئلة الجادة . وغارت اولجا ايفانوفنا على ريبوفسكى من اللوحة ومقتنهما ، ولكنها بدافع المجاملة كانت تقف امامها صامتة حوالى خمس دقائق ، وتتنهد كما يتنهد المرء امام شئ مقدس ، وتقول بصوت منخفض :

- نعم ، لم ترسم ابدا شيئا مثل هذا . اتدرى ، انها تثير الرهبة .

ثم تروح تتوسل اليه ان يحبها ، والا يهجرها ، وان يشفق عليها المسكينة البائسة . كانت تبكى وتقبل يديه وتلح عليه ان يقسم لها بأنه يحبها ، وتثبت له انه بدون تأثيرها الطيب سيضل الطريق ويهلك . وبعد ان تفسد عليه مزاجه الرائق وتحس بنفسها مهانة ، ترحل الى الخياطة او الى احدى معارفها الممثلات لتدبر امر بطاقة .

فاذا لم تجده فى المرسم تترك له رسالة تقسم فيها انها سوف تنتحر بالسسم حتما اذا لم يأت اليها اليوم . ويخاف ريبوفسكى فيأتى ويبقى لتناول الغداء . ولم يكن يخجل من وجود زوجها فيخاطبها بتبجح ، وترد عليه بنفس الصورة . كان كلاهما يحس بأنه يكبل الآخر وبأنهما طاغيتان وعدوان فيزدادان غلا ، ويعميها الغل عن ملاحظة سلوكهما الفاضح وعن انه حتى كوروستليوف الحليق يدرك كل شئ . وبعد الغداء كان ريبوفسكى يسرع بالوداع والانصراف . فقسأله اولجا ايفانوفنا فى المدخل وهى تنظر اليه بكراهية :

- الى اين انت ذاهب ؟

فيمتعص ويزر عينيه ، ويذكر اسم احدى النساء من معارفهما المشتركين ، وكان واضحا انه يسخر من غيرتها ويريد ان ينغص عليها .

فكانت تمضى الى غرفة نومها وتستلقى فى الفراش . وبسبب
الغيرة والاسى والاحساس بالمهانة والغزى كانت تعض الوسادة وتعول
بصوت عال . فترك ضيموف كوروستليوف فى غرفة الجلوس ،
ويذهب الى غرفة النوم ويقول لها بصوت خافت وهو محرج ومرتبك :
- لا تبكى بصوت عال يا ماما . . . لماذا ؟ عليك ان تسكتى
على هذا . . عليك الا تبدى ما بك . . اتدريين ان ما وقع لا يمكن
اصلاحه . .

ودون ان تدرى اولجا ايفانوفنا كيف تكبت فى نفسها غيرتها
الممضة التى كان صدغاها يكادان يتكسران بسببها ، واذ تعتقد انه
ما زال من الممكن اصلاح الامور ، تنهض فتغتسل وترش البودرة
على وجهها الباكى ، وتطير قاصدة السيدة معرفتها . وعندما لا تجد
ريابوفسكى عندها ، تذهب الى سيدة اخرى ، ثم الى ثالثة . . .
وفى البداية كانت تخجل من هذا الطواف ، ولكنها تعودت على ذلك
فيما بعد ، وكان يحدث ان تطوف فى مساء واحد بجميع معارفها من
النساء بحثا عن ريابوفسكى ، وكان الجميع يدركون ذلك .
وذات مرة قالت لريابوفسكى عن زوجها :

- هذا الرجل يرهقنى بسماحته !
واعجبتها هذه الجملة لدرجة انها عندما كانت تلتقى بالمصورين
الذين كانوا يعرفون قصة غرامها مع ريابوفسكى ، كانت تقول فى
كل مرة وهى تحرك يدها حركة حادة :
- هذا الرجل يرهقنى بسماحته !

وظل نظام حياتها كما كان فى العام الماضى . فالحفلات تقام فى
ايام الاربعاء . ويلقى الممثل ، ويرسم المصورون ، ويعزف عازف
الفيولنسلو ، ويغنى المطرب ، وفى تمام الساعة الحادية عشرة
والنصف يفتح الباب المؤدى الى غرفة الطعام ، ويقول ضيموف وهو
يبتسم :

- تفضلوا الى المائدة يا سادة .
وظلت اولجا ايفانوفنا كما فى السابق تبحث عن الاشخاص
العظام ، وتجدهم ولا تكتفى فتبحث من جديد . وكما فى السابق
كانت تعود كل يوم فى ساعة متأخرة من الليل ، ولكنها لا تجد
ضيموف نائما كما فى العام السابق ، بل جالسا الى مكتبه يعمل .

وكان يأوى الى الفراش فى حوالى الثالثة ويستيقظ فى الثامنة .
وذات مساء ، عندما كانت واقفة امام المرأة لتستعد للذهاب الى
المسرح ، دخل ضيموف مرتديا حلة سهرة وربطة عنق بيضاء . كان
يبتسم بوداعة ، ونظر فى عيني زوجته مباشرة بفرح كما فى
السابق . كان وجهه متهللا .

وقال وهو يجلس ويمسك ركبتيه :

- لقد ناقشت الآن رسالة الدكتوراه .

فسأله اولجا ايفانوفنا :

- ونجحت المناقشة ؟

- ايوه ! - وضحك ومد رقبته لكى يرى فى المرأة وجهه
زوجته التى ظلت مولية ظهرها له وتصلح تسريحتها ، وردد -
ايوه ! اتدريين ، من المحتمل جدا ان يعرضوا على «بريفات -
دوتسنتورا» * فى الباثولوجى العام . يبدو كذلك .

كان واضحا على وجهه السعيد المتهلل انه لو شاركته اولجا
ايفانوفنا فرحته وانتصاره ، لغفر لها كل شيء ، فى الحاضر
والمستقبل ولنسى كل شيء ، ولكنها لم تكن تفهم معنى بريقات -
دوتسنتورا والباثولوجى العام ، وعلاوة على ذلك كانت تخشى ان
تتأخر عن المسرح ، فلم تقل شيئا .

فجلس ضيموف دقيقتين ثم ابتسم ابتسامة مذنب ، وخرج .

٧

كان ذلك يوما مزعجا .

فى الصباح احس ضيموف بصداع شديد . ولم يتناول الشاى فى
الصباح ، ولم يذهب الى المستشفى ، وظل طوال الوقت راقدا على
الكنبة التركية فى غرفة مكتبه . وكالعادة توجهت اولجا ايفانوفنا
فى الثانية عشرة الى ريبوفسكى لتريه مشهد «ناتور-مور» رسمته
وتسأله لم لم يحضر امس . وكان الرسم يبدو لها تافها ، ولم
ترسمه الا لتجد ذريعة اخرى لزيارة المصور .

* بريقات-دوتسنت - اللقب العلمى للمدرس الجامعى من خارج هيئة
التدريس . المعرب .

دخلت دون جرس ، وبينما كانت تخلع خفها في المدخل خيل اليها انها سمعت صوت هرولة خفيفة في المرسم وحفيف ثوب نسائي ، وعندما اسرعت لتلقى نظرة على المرسم لم تر الا جانبا من جولة بنية ظهر لحظة واختفى وراء لوحة كبيرة مغطاة هي والحامل بغطاء اسود منسدل حتى الارض . لم يكن ثمة مجال للشك . . لقد كانت تختفي هنا امرأة . وكم مرة اختفت اولجا ايفانوفنا نفسها وراء هذه اللوحة ! ويبدو ان ريبوفسكى كان مرتبكا للغاية فتظاهـر بابداء دهشة لمجيئها ، ومد نحوها كلتا ذراعيه وقال وهو يعتصر ابتسامة :

- آ-آ-آ ! سعيد جدا برؤياك . ماذا لديك من انباء طيبة ؟

اغرورقت عيننا اولجا ايفانوفنا بالدموع . كانت تشعر بالخجل والمرارة ، ولم تكن لتوافق ، ولو دفعوا لها مليوناً ، على الكلام في حضرة امرأة غريبة ، غريمة ومخادعة ، تقف الآن خلف اللوحة وربما تضحك بتشف .

- جئت اليك بمشهد . . . - قالت بوجل وبصوت رفيع ، وارتعشت شفتاها - ناتور-مور .
- آه . . مشهد ؟

واخذ المصور المشهد في يديه وراح يتفحصه وهو يسير الى الغرفة الاخرى كأنما بصورة آلية .
وتبعته اولجا ايفانوفنا بأذعان .
ودمدم وهو ينتقى كلمات مسجوعة :

- ناتور-مور - احسن دور . . . بور . . . حور . . . سور . . .
وتناهى من المرسم وقع خطوات حثيثة وحفيف فستان . اذن فقد خرجت هي . وودت اولجا ايفانوفنا لو صرخت بصوت عال وضربت المصور بشيء ثقيل على رأسه وانصرفت . ولكنها لم تر شيئا خلال الدموع ، وكانت مقهورة من الخجل ، واحست في نفسها بأنها ليست اولجا ايفانوفنا وليست مصورة بل حشرة صغيرة .

- انا متعب . . . - قال المصور ساهما وهو يتطلع الى المشهد ويهز رأسه ليطرد عنه النعاس - هذا طبعاً جميل ، ولكن اليوم مشهد ، وفي العام الماضى مشهد ، وبعد شهر سيكون

مشهد . . كيف لا تملين ذلك ؟ لو كنت مكانك لتركت التصوير
وانكبتت جديا على الموسيقى او اى شىء آخر . انك لست مصورة ،
بل موسيقارة . ولكن اتعلمين كم انا متعب . سأطلب لك شاي ،
هه ؟

وخرج من الغرفة وسمعتة اولجا ايفانوفنا وهو يأمر خادمه
بشىء ما . ولكي لا تودعه ، وتتصارع معه ، والاهم من ذلك لكي لا
تنتحب ، هرولت بسرعة الى المدخل قبل ان يعود ريبوففسكى ،
وارتدت خلفها وخرجت الى الشارع . وهناك تنفست الصعداء واحست
بنفسها حرة الى الابد من ريبوففسكى ومن التصوير ، ومن الخجل
الممض الذى اطبق على قلبها فى الرسم . انتهى كل شىء !
وتوجهت الى الخياطة ، ثم الى برناى * الذى وصل بالامس فقط ،
ومنه الى متجر للنوت الموسيقية ، وظلت طول الوقت تفكر فى
الرسالة التى سكتبتها لريبوففسكى ، رسالة باردة ، قاسية ، مفعمة
بالعزة ، وفى انها ستسافر مع ضيموف فى الربيع او الصيف الى
القرم ، لتتخلص هناك تماما من الماضى وتبدأ حياة جديدة .

وعندما عادت الى البيت فى ساعة متأخرة من المساء ، لم تبدل
ثيابها وجلست فى غرفة الجلوس تدبج الرسالة . لقد قال لها
ريبوففسكى انها ليست مصورة ، وسوف تكتب الآن ، انتقاما منه ،
انه يرسم كل عام نفس الشىء ، ويقول كل يوم نفس الشىء ، وانه
قد ركد ولن يبلغ شيئا اكثر مما بلغ . وأرادت ان تكتب ايضا انه
مدين لها بتأثيرها الطيب عليه ، واذا كان يسلك سلوكا مشينا
فذلك فقط راجع الى ان تأثيرها تشله شتى السيدات المربيات ،
كتلك التى اختبأت اليوم وراء اللوحة .

- ماما ! - نادى ضيموف من غرفة المكتب دون ان يفتح

الباب - ماما !

- ماذا تريد ؟

- ماما ، لا تدخل على ، بل اقتربى فقط من الباب . اسمعى . . .
منذ ثلاثة ايام انتقلت الى المستشفى عدوى الدفترى ، والآن . . .
حالتى سيئة . ارسل بسرعة فى طلب كوروستليوف .

* ممثل المانى . المعرب .

كانت اولجا ايفانوفنا تدعو زوجها ، ككل معارفها الرجال ، باسم عائلته لا باسمه ، فلم يكن اسم زوجها يعجبها لانه كان يذكرها بشخصية اوسيب عند جوجول * ، اما الآن فقد صاحت :

- اوسيب ، هذا لا يمكن !

- ارسلنى فى طلبه ! حالتى سيئة . . . - قال ضيموف خلف الباب ، وسمع وقع خطواته وهو يتجه الى الكنبه ويستلقى عليها ، وجاء صوته مكتوما - ارسلنى !

وفكرت اولجا ايفانوفنا والرعب يجمد اطرافها : «ما هذا ؟ انه شىء خطر !» .

ودونما داع تناولت شمعة ومضت الى غرفتها ، وهنا ادركت ما الذى ينبغى عليها ان تفعله ، ونظرت عرضا الى صورتها فى المرآة . وبدت لنفسها مخيفة ودميمة بوجهها الشاحب المدعور ، وبسترتها ذات الاكمام العالية والشرائط الصفراء على الصدر ، والخطوط ذات الاتجاهات غير العادية فى الجونلة . وفجأة احست لدرجة الالم بالاسف على ضيموف ، وعلى حبه اللامحدود لها ، وعلى حياته الشابة ، بل وحتى على فراشه هذا اليتيم الذى لم يعد يرقد فيه زمن طويل ، وتذكرت ابتسامته المألوفة الوادعة المدعنة . وبكت بحرقه وكتبت لكوروستليوف رسالة ضارعة . وكانت الساعة قد بلغت الثانية صباحا .

٨

عندما خرجت اولجا ايفانوفنا من غرفة النوم فى الثامنة صباحا ، بصداع فى الرأس بسبب السهاد ، وغير مصففة الشعر وقبيحة وبتعبير مذنب على وجهها ، مر بجوارها شخص ما اسود اللحية ، يبدو انه طبيب . وانتشرت رائحة الادوية . وبجوار باب غرفة المكتب وقف كوروستليوف وهو يبرم شاربه الايسر بيده اليمنى .

وقال لاولجا ايفانوفنا متجهما :

- عفوا ، لن اسمح لك بالدخول اليه . قد يعديك . وعموما

* هو اسم خادم خليستاكوف فى مسرحية جوجول «المفتش العام» .
المعرب .

فلا حاجة لدخولك فى الواقع . انه على اية حال يهذى .

فسألت اولجا ايفانوفنا بهمس :

- هل عنده دفترىا حقيقية ؟

فدمدم كوروستليوف دون ان يجيب على سؤال اولجا ايفانوفنا :

- اولئك الذين يندفعون بتهور ينبغى محاكمتهم فى الواقع .

اتعلمين كيف انتقلت اليه العدوى ؟ فى يوم الثلاثاء شفت بالانوبية اغشية الدفترىا من طفل مريض فما الداعى ؟ حماقة . . هكذا ، بلا تفكير . .

فسألت اولجا ايفانوفنا :

- هل هذا خطير ؟ جدا ؟

- نعم ، يقولون ان الحالة صعبة ، فى الواقع ينبغى ان

نستدعى شريك .

وجاء رجل صغير ، احمر الشعر ، طويل الانف ، ويتحدث بلكنة

يهودية ، ثم رجل طويل ، مقوس ، مشعث الشعر يشبه رئيس

الشماسية . وبعده جاء شاب ، بدين جدا ، احمر الوجه ، يضع

نظارة . كانوا اطباء جاءوا ليسهروا بجوار زميلهم . ولم يكن

كوروستليوف ينصرف الى داره بعد ان يقضى نوبة سهره ، بل

يبقى وهو يطوف بالغرف كلها كالظل . وكانت الخادم تقدم الشاى

للاطباء المناوبين وتذهب كثيرا الى الصيدلية ، ولم يكن هناك من

ينظف الغرف . وساد جو من الهدوء والوحشة .

وجلست اولجا ايفانوفنا فى غرفة النوم واخذت تفكر فى ان هذا

عقاب من الله لها على خداعها لزوجها . كان هناك مخلوق صموت ،

مطيع ، غير مفهوم ، فقد شخصيته بسبب وداعته ، مخلوق بلا

ارادة ، وضعيف بسبب طبيته الزائدة ، يتعذب هناك على الكنية فى

غرفته دون ان يشكو . ولو انه اشتكى ، حتى فى الهذيان ، لعلم

الاطباء المناوبون ان الدفترىا ليست المذنبة وحدها ، وليسألوا

كوروستليوف فهو يعرف كل شىء ، ولذلك فهو ينظر الى زوجة

صديقه نظرات وكأنها هى الشريرة الاولى الحقيقية ، وما الدفترىا الا

شريكتها . ولم تعد تذكر الامسية المقمرة على الفولجا ولا الاعتراف

بالحب ، ولا الحياة الشاعرية فى البيت الفلاحى بل كانت تذكر

فقط انها بدافع النزوة الفارغة واللهو قد تلطخت كلها ، بيديها

ورجليها ، بشيء قدر ، لزج ، لن يزيله ابدا اى غسيل . . .
«آه ، كم كذبت بفضاعة ! ! - فكرت اولجا ايفانوفنا وتذكرت
حبها القلق لريابوفسكى - اللعنة على كل ذلك ! . . .»
فى الساعة الرابعة تناولت الغداء مع كوروستليوف . ولم يذق
شيئا ، بل شرب فقط النبيذ الاحمر ، وتجهم . ولم تذق هسى
ايضا اى شيء . وكانت تارة تصلى فى سريرتها وتقسم لله بأنها ،
اذا ما شفى ضيموف فسوف تحبه ثانية وتبقى زوجة وفية له .
وتارة تنسى لحظة فتتظر الى كوروستليوف وتفكر : «ليس من الممل
حقا ان يكون المرء بسيطا ، لا يتميز بشيء ، انسانا مجهولا ، وفوق
ذلك يكون له وجه مطبق كهذا ، وتصرفات غير مهذبة ؟» . وتارة
يخيل اليها ان الله سيقضى عليها فى التو واللحظة لانها ، خوفا من
العدوى ، لم تدخل غرفة مكتب زوجها بعد ولا مرة . وعموما فقد
كانت تحس بالتبلد والوحشة وبقناعة بأن الحياة قد فسدت ولن
يمكن اصلاحها

حل الغسق بعد الغداء . وعندما خرجت اولجا ايفانوفنا الى غرفة
الجلوس كان كوروستليوف نائما على الارىكة ، وقد وضع تحت رأسه
وسادة حريرية مطرزة بخيوط مذهبة . وكان شخيره يتصاعد
«كخى - بوا . . . كخى - بوا . . .»

وحتى الاطباء الذين كانوا يجيئون للمناوبة ، وينصرفون لم
يلاحظوا هذه الفوضى . فوجود شخص غريب نائم فى غرفة الجلوس
ويشخر والمشاهد المعلقة على الجدران ، والوضع الغريب فى
البيت ، وربة الدار غير المصففة الشعر والمهملة الثياب . كل ذلك
لم يعد يثير الآن ادنى اهتمام . وضحك احد الاطباء عرضا ، فتردد
هذا الضحك غريبا وخجلا ، بل واثار الرهبة .

وعندما خرجت اولجا ايفانوفنا الى غرفة الجلوس مرة اخرى ، لم
يكن كوروستليوف نائما بل جالسا يدخن .
وقال لها فى شبه همس :

- لديه دفتريا التجويف الانفى . اصبح القلب يعمل بشكل
مضطرب . الاحوال سيئة فى الواقع .

فقالت اولجا ايفانوفنا :

- استدع شريك .

- كان هنا بالفعل . وهو الذى لاحظ ان الدفترية انتقلت الى
الانف . ايه ، وماذا يفعل شريك ، فى الواقع شريك لا شىء . انه
شريك وانا كوروستليوف . . ولا شىء اكثر .

مضى الوقت ببطء رهيب . كانت اولجا ايفانوفنا مستلقية
بشيائها فى الفراش الذى لم يرتب منذ الصباح وهى تغفو . وتراى
لها ان الشقة كلها ملاءى من السقف حتى الارض بقطعة ضخمة من
الحديد ، وانه ما ان يلقى بهذا الحديد الى الخارج حتى يشعر الجميع
بالخفة والمرح . وعندما استيقظت تذكرت ان ذلك ليس حديدا بل
هو مرض ضيموف .

وفكرت وهى تغفو من جديد : «ناتور-مور ، بور . . حور . .
وكيف شريك ؟ شريك ، بريك ، فريك ، كريـك ، واين الآن
اصدقائى ؟ هل يعلمون بمحنتنا ؟ يا الهى الرحمة ، النجاة . .
شريك ، بريك . . .» .

ويعود الحديد ثانية . . والوقت يمضى ببطء ، والساعة فى
الطابق الاسفل تدق كثيرا . ومن حين لآخر يدق جرس الباب ويدخل
الاطباء . . . ودخلت الخارم تحمل كوبا فارغا على صينية وسألت :

- سيدتى ، هل تأمرين باعداد الفراش ؟
وخرجت دون ان تتلقى جوابا . ودقت الساعة فى الاسفل ،
ورأت اولجا ايفانوفنا فى الحلم المطر يسقط على الفولجا ، ومرة
اخرى دخل غرفة النوم شخص ما ، يبدو انه غريب ، فقفزت اولجا
ايفانوفنا وعرفت فيه كوروستليوف .

فسألته :

- كم الساعة ؟

- حوالى الثالثة .

- ماذا هناك ؟

- وماذا هناك ! جئت اقول انه يحتضر . . .

واجهش بالبكاء ، وجلس على السرير بجوارها ، ومسح دموعه
بكمه . ولم تدرك ما قاله على الفور ، ولكن البرودة شملت جسدها
كله ، وراحت ترسم علامة الصليب ببطء .

وردد كوروستليوف بصوت رفيع :

- يحتضر . . . - واجهش ثانية - انه يموت لانه ضحى

بنفسه . . . - وقال بمرارة - يا لها من خسارة للعلم ! لقد كان بالمقارنة بنا جميعا انسانا عظيما ، انسانا غير عادى ! اية مواهب ! اية آمال كنا نعلقها عليه ! - ومضى يقول وهو يعصر يديه - يا ربى ، كان من الممكن ان يصبح عالما لا مثيل له الآن . اوسكا ضيموف ، اوسكا ضيموف ، ما الذى فعلته ! آه يا الهى ! وغطى كوروستليوف وجهه بكلتا يديه من اليأس وهز رأسه . ومضى يقول وهو يزداد حقدا على شخص ما :

- وأية قوة اخلاقية ! روح طيبة ، طاهرة ، محبة - لم يكن انسانا بل بلور ! عاش فى خدمة العلم ومات بسبب العلم . كان يعمل كالبغل ، ليل نهار ، ولم يرحمه احد ، وكان عليه وهو العالم الشاب والاستاذ المقبل ان يبحث عن زبائن ، وان يعمل فى الترجمة ليلا لكى يدفع ثمن هذه . . . الخرق الحقيبة ! وتطلع كوروستليوف بمقت الى اولجا ايفانوفنا ، وامسك الملاة بكلتا يديه وشدها بغضب ، وكأنها هى المذنبة . - لم يرحم نفسه ، ولم يرحمه الآخرون . اوه ، ماذا اقول ، فى الواقع !

وقال شخص ما فى غرفة الجلوس بصوت غليظ :
- نعم ، كان انسانا نادرا .

وتذكرت اولجا ايفانوفنا كل حياتها معه ، من البداية حتى النهاية بكل تفاصيلها ، وادركت فجأة انه كان بالفعل انسانا غير عادى ونادرا بالمقارنة مع من كانت تعرفهم . وعندما تذكرت كيف كان يعامله المرحوم ابوها وكل زملائه الاطباء ، ادركت انهم جميعا كانوا يرون فيه رجلا عظيما فى المستقبل . وغمرت لها الجدران والسقف والمصباح والبساط بتهكم وكأنها تريد ان تقول لها : «يا غافلة ، يا غافلة !» فانطلقت من غرفة النوم وهى تبكى ، وعبرت غرفة الجلوس مارة بشخص غريب ، واندفعت الى غرفة مكتب زوجها . كان ممدا بلا حراك على الكنبه التركيه ، مغطى الى نصفه ببطانية . ضم وجهه وهزل بشدة واصبح لونه رماديا اصفر بصورة لا تبدو بها ابدا وجوه الاحياء ، وكان لا يمكن معرفة ان هذا هو ضيموف الا من جبينه وحاجبيه الاسودين وابتسامته المعهودة . وتحسست اولجا ايفانوفنا صدره وجبينه ويديه بسرعة . كان صدره لا يزال

دافئا ، لكن جبينه ويديه كانت باردة بصورة منفرة . وكانت عيناه
شبه المفتوحتين لا تنظران الى اولجا ايفانوفنا ، بل الى البطانية .
ونادته بصوت عال :

- ضيموف ! ضيموف !

كانت تريد ان تشرح له ان ذلك كان خطأ ، وانه لم يضع كل
شيء بعد ، وان الحياة يمكن ان تكون رائعة وهنيئة ، وانه انسان
نادر ، غير عادى ، وعظيم ، وانه سوف تظل تقدسه طول العمر
وتصلى له وتضمير الخوف المقدس . . .

- ضيموف ! ضيموف ! يا ضيموف ! - دعتة وهى تهزه من
كتفه دون ان تصدق انه لن يستيقظ ابدا .

وفى غرفة الجلوس كان كوروستليوف يقول للخادم :
- وفيم السؤال ؟ اذهبي الى خفير الكنيسة واسألى اين تقطن
عجائز الملجأ . . سيغسلن الجسد ويهندمنه ، ويقمن بكل
المطلوب .

انطون تشيخوف

كاشتانكا

ترجمة د . ابو بكر يوسف



دار التقدم 1374 موسكو

كاشتانكا

الفصل الاول

سلوك مشين

أخذت كلبة حمراء شابة - خليط من فصيلة الهجين والدشهند - سحنتها قريبة الشبه جدا بسحنة الثعلب ، تجرى الى الامام والى الخلف على الرصيف وتلتفت حولها بقلق ، واحيانا كانت تتوقف ، وترفع باكية تارة هذه الكف المقرورة وتارة تلك ، وهى تحاول ان تفهم : كيف حدث ان ضلت الطريق ؟ كانت تذكر جيدا كيف قضت النهار ، وكيف اصبحت اخيرا على هذا الرصيف المجهول .

بدأ النهار بأن ارتدى سيدها ، صانع الاثاث لوقا الكسندريتش ، الطاقة الفراء ، واخذت تحت ابطه قطعة خشبية ما ، ملفوفة فى منديل احمر ، وصاح :
- كاشتانكا ، هيا !

وعندما سمعت الكلبة الخليط من فصيلة الهجين والدشهند اسمها ، خرجت من تحت نضد النجارة حيث كانت ترقد على نشارة الخشب ، وتمطت بتلذذ وركضت خلف سيدها . كان زبائن لوقا الكسندريتش يعيشون بعيدا جدا ، حتى انه كان على صانع الاثاث قبل ان يصل اليهم ، ان يعرج عدة مرات على الحانة ليتناول ما ينعش به نفسه . وكانت كاشتانكا تذكر ان سلوكها اثناء الطريق كان غير لائق ابدا . فقد راحت تقفز ، اذ سرها ان سيدها اخذها للتريض ، وتنقض على عربات ترام الخيول



بالنباح ، وتعرج على الافنية وتطارد الكلاب . وكانت بين الحين والحين تغيب عن انظار صانع الاثاث فيتوقف ويصرخ فيها بغضب . بل انه ذات مرة ضم اذنها الثعلبية في قبضته بينما ارتسم على وجهه تعبير نهم ، وهزها وقال وهو يشدد على مقاطع الكلمات :

- ان شا - الله - تأ - خذك بلوى . . . يا - ملعو - نة !
وبعد ان زار لوقا الكسندريتش زبائنه ، عرج لحظة على اخته حيث شرب عندها وأكل . ومن اخته توجه الى عامل تجليد من معارفه ، ومن عامل التجليد الى الحانة ، ومن الحانة الى الاشبيين وهكذا . . . وباختصار ، عندما اصبحت كاشتانكا على هذا الرصيف المجهول كان المساء قد حل ، واصبح عامل الاثاث ثملا كاسكافى . واخذ يلوح بذراعيه ، ويزفر بعمق ، ويدمدم :
- ولدتنى امى فى رحم الذنوب ! آه ، الذنوب ، الذنوب !
اليوم نسير فى الشوارع وننظر الى المصابيح ، فاذا متنا فسنصل عذاب السعير . . .

او كانت تداهمه نوبة طيبة ، فيدعو اليه كاشتانكا ويقول لها :
- انت يا كاشتانكا لست سوى حشرة وليس اكثر من ذلك .
وانت بالمقارنة مع الانسان مثلك مثل النجار بالمقارنة مع صانع الاثاث . . .

وبينما كان يتكلم معها بهذه الطريقة دوت الموسيقى فجأة . والتفتت كاشتانكا فرأت فوج جنود يسير فى الشارع نحوها مباشرة . ولما كانت لا تطيق سماع الموسيقى التى تثير أعصابها ، فقد اندفعت جانبا وهى تعوى . ولدهشتها البالغة رأت صانع الاثاث ، بدلا من ان يفزع ويصرخ وينبح ، يبتسم ابتسامة عريضة ، وينتصب شادا قامته ، ويرفع اصابعه الخمس مؤديا التحية . وعندما رأت كاشتانكا ان سيدها لا يحتج ، عوت بصوت أعلى ، وانطلقت عبر الشارع الى الرصيف الآخر وهى لا تعي شيئا .

وعندما أفاقت لم تعد الموسيقى تصدح ، واختفى الفوج . فركضت عبر الطريق الى المكان الذى تركت فيه سيدها ، ولكن

هيهات ! لم يكن صانع الاثاث هناك . فاندفعت الى الامام ، ثم الى الخلف ، وعبرت الطريق ثانية ، ولكن لم يكن هناك اثر لصانع الاثاث ، وكأنما ابتلعت الارض . . . واخذت كاشتانكا تتشمم الرصيف ، على أمل ان تعثر على سيدها عن طريق آثاره ، ولكن أحد الاوغاد كان قد مر في خف جديد من المطاط ، فاختلطت الآن كل الروائح الرهيبة برائحة الكاوتشوك القوية الكريهة ، بحيث لم يعد من الممكن تمييز شيء .

ركضت كاشتانكا الى الامام والى الخلف دون ان تعثر على سيدها ، وفي تلك الاثناء أظلمت الدنيا . وعلى جانبي الشارع اضيئت المصابيح ، وظهرت الانوار في نوافذ المنازل . وتساقط الثلج ندفا كبيرة زغبية ، فطلى باللون الابيض ارض الشارع وظهور الخيول وطواقى الحوزية ، وكلما ازداد الجو ظلاما تبدت الاشياء اكثر بياضا . ومن بجوار كاشتانكا بلا توقف ، الى الامام والى الخلف ، زبائن مجهولون ، وهم يحجبون عنها الرؤية ويدفعونها بأقدامهم . (كانت كاشتانكا تقسم البشر الى قسمين غير متساويين ابدا : الى سادة وزبائن . وكان هناك فرق جوهري بين هؤلاء واولئك : فقد كان من حق الفريق الاول ان يضربوها ، اما الفريق الثاني فكان من حقها هي ان تطبق على سمانات سيقانهم) . وكان الزبائن يسرعون الى جهة ما ، دون ان يعيروها اى انتباه .

وعندما اطبق الظلام تماما استولى اليأس والرعب على كاشتانكا . فانزوت عند مدخل احد المنازل وراحت تبكي مرارة . لقد هدها التعب من التجوال مع لوقا الكسندريتش طول النهار ، وبردت اذناها واكفها ، وعلاوة على ذلك كانت جائعة الى درجة رهيبة . فلم تمضغ طوال النهار سوى مرتين : عند عامل التجليد أكلت قليلا من الصمغ ، وفي احدى الحانات وجدت بجوار النضد قشر سحقي . . وهذا كل ما هناك . ولو كانت انسانا لفكرت على الارجح :

« كلا ، هذه حياة لا تطاق ! ينبغي ان انتحر ! »

الفصل الثانى

الرجل الغريب الغامض

ولكنها لم تفكر فى شىء بل كانت تبكى فحسب . وعندما غطى الثلج الزغبى الناعم ظهرها ورأسها تماما وغابت فى نعاس ثقيل بسبب الارهاق فرقع باب المدخل فجأة وتحشرج ولطمها فى جنبها ، فقفزت . ومن الباب المفتوح خرج رجل ما ، ينتمى الى فريق الزبائن . ولما كانت كاشتانكا قد عوت واصطدمت بقدمه فلم يكن من الممكن الا ان تلفت انتباهه . فانحنى عليها وسألها :
- من اين انت ايتها الكلبة ؟ هل آذيتك ؟ آه يا مسكينة . . . حسنا ، لا تغضبى ، لا تغضبى . . . انا آسف . ونظرت كاشتانكا الى الرجل الغريب من خلال ندف الثلج العالقة برموشها ، فرأت امامها رجلا قصيرا وبدينا ، بوجهه حليق مكتنز ، وبقبعة اسطوانية ومعطف فراء مفتوح . ومضى يقول وهو ينفض الثلج عن ظهرها باصبعه :

- لماذا تعولين ؟ أين سيدك ؟ يبدو انك فقدت ؟ آه ، يا للكلب المسكين ! وماذا سنفعل الآن ؟
وعندما احست كاشتانكا فى صوت الرجل الغريب بنبرة دافئة قلبية ، لعقت يده ، وأعولت بصوت اكثر شكاية . فقال الرجل الغريب :

- ولكنك لطيفة ، مضحكة ! كالثعلب تماما ! طيب ، ما العمل ، هيا معى ! ربما تنفعين فى شىء ما . . . هيا ، فويت ! وممصص بشفتيه ولوح لكاشتانكا بذراعه بحركة لا يمكن الا ان تعنى شيئا واحدا : «هيا !» . فمضت كاشتانكا .

ولم يمر اكثر من نصف ساعة حتى كانت جالسة على الارض فى غرفة كبيرة مضيئة ، تنظر بتأثر وفضول ، وقد أمالت رأسها جانبا ، الى هذا الرجل الغريب ، الذى كان جالسا الى الطاولة يتناول طعامه . كان يأكل ويلقى اليها بقطع . . . فى البداية اعطاها قطعة خبز وقشرة جبن خضراء ، ثم قطعة لحم ، ونصف شطيرة ، وعظام دجاج ، فأكلت من الجوع كل ذلك بسرعة حتى

انها لم تتمكن من معرفة طعمه . وكلما أكلت أكثر ازداد احساسها بالجوع .

وقال الغريب وهو يرى بأى نهم وحشى تزدد القطع دون مضغ :

- ولكن أصحابك يطعمونك بصورة سيئة ! يا لك من نحيلة ! جلد على عظم . . .

أكلت كاشتانكا كثيرا ولكنها لم تشبع ، بل ثملت فقط من الطعام . وبعد الأكل تمددت فى وسط الغرفة وفردت سيقانها ، وهزت ذيلها وقد احست بضعف لذيق فى جسدها كله . وبينما كان سيدها الجديد مضطجعا فى الفوتيل يدخن السيجار ، مضت تهز ذيلها وتقرر مسألة : أين الافضل - عند الرجل الغريب ام عند صانع الاثاث ؟ كان الفرش عند الرجل الغريب فقيرا وقبيحا . فبغلاف الفوتيلات والكنبة والمصباح والسجاجيد لم يكن لديه شئ وبدت الغرفة خاوية . اما لدى صانع الاثاث فالشقة كلها غاصة بالاشياء . فلديه طاولة ، ونضد نجارة وكوم من النشارة ، ومساحيق وأزاميل ومناشير وقفص به عصفور ، وبرميل . . . ولا تنبعث لدى الغريب اية روائح ، اما لدى صانع الاثاث فالضباب يملأ دائما شقته وتفوح رائحة رائعة من الصمغ وورنيش اللك والنشارة . ولكن لدى الغريب ميزة هامة للغاية ، فهو يقدم طعاما كثيرا ، وهو والانصاف ، عندما كانت كاشتانكا جالسة امام الطاولة تتطلع اليه بتأثر ، لم يركلها مرة واحدة ، ولم يدق بقدمه مرة ولم يصرخ : «غورى من هنا يا ملعونة !» . وبعد ان فرغ السيد الجديد من تدخين سيجاره خرج ، ثم عاد بعد دقيقة ممسكا فى يده بفرشة .

وقال وهو يضع الفرشة فى الركن بجوار الكنبة :

- تعال هنا يا كلب . ارقد هنا ونم !

ثم اطفأ المصباح وخرج . وتمددت كاشتانكا على الفرشة واغمضت عينيها . وتناهى نباح من الشارع فارادت ان ترد عليه ، ولكن العزن داهمها فجأة . تذكرت لوقا الكسندريتش وابنه فيدوشكا ، ومكانها المريح تحت نضد النجارة . . . وتذكرت انه فى أمسيات الشتاء الطويلة ، عندما كان سيدها

ينجر او يقرأ الصحف بصوت مسموع ، كان فيدوشكا يلعب معها عادة كان يسحبها من ساقها الخلفيتين من تحت النضد ويصنع بها من الألاعيب ما يجعل عينيها تغيمان ومفاصلها كلها تؤلمها . كان يجعلها تسير على ساقها الخلفيتين ، ويلعب بها لعبة الناقوس ، اى يشدها بقوة من ذيلها فتصرخ لذلك وتنبح ، ويدس فى انفها التبغ . . . وكانت اللعبة التالية اشدها تعذيبا : كان فيدوشكا يربط قطعة لحم بخيط ويلقى بها الى كاشتانكا ، وبعد ان تبتلعها يسحب القطعة فيخرجها من معدتها وهو يقهقه عاليا . وكلما توهجت الذكريات ازداد نحيب كاشتانكا ارتفاعا ووحشة .

ولكن سرعان ما تغلب الارهاق والدفع على الحزن وبدأت تنعس . وفى خيالها ركضت كلاب . وركض بالمناسبة ذلك البودل العجوز الاشعث الذى رأته اليوم فى الشارع ، ذو السحابة على عينه وخصل الشعر حول أنفه . وطارد فيدوشكا البودل بمعول فى يده ، وفجأة اكتسى هو بشعر اشعث ، ونبح بمرح وظهر بجوار كاشتانكا . وتشمم كل منهما أنف الآخر بمودة وركضا الى الشارع

الفصل الثالث

تعارف جديد سار جدا

عندما استيقظت كاشتانكا كان النور قد انتشر ، وتناهى من الشارع ضجيج النهار المميز . ولم يكن هناك احد فى الغرفة . وتمطت كاشتانكا وتشاءبت واخذت تطوف بالغرفة غاضبة متجهمة . وتشممت الاركان والاثاث واطلت فى المدخل ، فلم تجد اى شئ طريف . وكان هناك باب آخر بخلاف الباب المفتوح الى المدخل . وفكرت كاشتانكا قليلا ثم مضت تخمشه باظافر كفيها دفعة واحدة ففتحته ، ودلفت الى الغرفة التالية . وهنا ، على السرير ، كان الزبون ، ذلك الرجل الغريب الذى رأته بالامس نائما وقد تغطي ببطانية .

- هر-ر-ر-ر- - زمجرت ، ثم تذكرت غداء الامس
فهزت ذيلها وبدأت تتشممه .

تشممت ملابس الرجل الغريب وحذاءه ، فوجدت انه تفوح
منها بشدة رائحة خيول . وفي غرفة النوم ايضا كان ثمة باب
يفضى الى مكان ما ، وكان ايضا مغلقا . وخمشت كاشتانكا هذا
الباب ، واتكأت عليه بصدرها ففتحته ، وعلى الفور احسست
برائحة غريبة ، مريبة جدا . وتوقعت كاشتانكا لقاء غير سار
فزمجرت وتلفتت وهي تدلف الى غرفة صغيرة ، بورق جدران
قذر ، ثم تقهقرت مذعورة . فقد رأت شيئا غير متوقع ومخيفا .
فنجوها مباشرة تقدم ذكر اوز رمادى وهو يفتح ، وقد أمال رأسه
وعنقه الى الارض ونشر جناحيه . وغير بعيد عنه تمدد قط ابيض
على فرشاة . وعندما رأى كاشتانكا قفز من مكانه ، وقوس
ظهره ، ورفع ذيله ونفش شعره وفتح هو الآخر . وخافت الكلبة
عن حق ، ولكنها لم تشأ ان تفصح عن خوفها فنبحت بصوت عال
وانقضت على القط . . . وقوس القط ظهره اكثر وفتح ، وضرب
كاشتانكا بكفه على رأسها . وقفزت كاشتانكا مرتدة ، وجلست
على اكفها الاربعة ، ومدت بوزها نحو القط وانفجرت فى نباح عال
حاد . وفى تلك الاثناء اقترب ذكر الاوز من الخلف ، ونقرها
بمنقاره فى ظهرها بقوة . فهبت كاشتانكا وانقضت على ذكر الاوز . . .
- ما هذا ؟ - تردد صوت عال غاضب ، ودخل الرجل
الغريب الى الغرفة مرتديا روبا وبين اسنانه سيجار . - ما معنى
هذا ؟ الزم مكانك !

اقترب من القط ، ولكزه فى ظهره المقوس قائلا :

- ما معنى هذا يا فيودور تيموفيتش ؟ تثيرون شجارا ؟
يا لك من محتال عجوز ! نم !

واستدار نحو ذكر الاوز وصاح :

- ايفان ايفانيتش ، الزم مكانك !

رقد القط باذعان على فرشته واغمض عينيه . وبدا من
تعبير سحنته وشواربه انه هو نفسه لم يكن راضيا عن احتداده
واشتراكه فى المشاجرة . وعوت كاشتانكا باحساس بالاهانة ، اما

ذكر الاوز فقد مد عنقه وانطلق متحدثا عن شيء ما بسرعة وحرارة ووضوح ، ولكن بصورة غير مفهومة ابدا .
فقال رب الدار متثائبا :

- حسنا ، حسنا ! ينبغي ان تعيشوا في سلام ومودة . -
وربت ظهر كاشتانكا واستطرد - اما انت ايتها الحمراء فلا تخافي . . . هذه جماعة طيبة ، لن تمسك بسوء . ولكن مهلا ، كيف سنسميك ؟ لا يليق ان تظلي بلا اسم يا اختاه .
وفكر الغريب قليلا ثم قال :

- اسمعي . . سيكون اسمك : خالة . . . مفهوم ؟ خالة !
وبعد ان كرر كلمة «خالة» عدة مرات خرج . وجلست كاشتانكا وراحت تراقب الموقف . كان القط جالسا على الفرشة بلا حراك ، متظاهرا بالنوم . ومضى ذكر الاوز يتحدث عن شيء ما بسرعة وحرارة ، وهو يمد عنقه ويرأوح في مكانه . ويبدو انه كان ذكر أوز ذكيا جدا . فبعد كل عبارة من عباراته الطويلة كان يتراجع الى الخلف بدهشة ، ويتظاهر انه يعجب بكلامه . . . وبعد ان استمعت كاشتانكا اليه واجابته : «هر-ر-ر» اخذت تتشمم الاركان . كان في احد الاركان طست صغير رأت فيه حمصا منقوعا وكسرات مبلولة من خبز الجودار . وتذوقت الحمص فلم تجده لذيذا ، وتذوقت الكسرات وبدأت تأكل . ولم يغضب ذكر الاوز على الاطلاق من ان كلبة غريبة تأكل طعامه ، بالعكس ، تحدث بحرارة اكثر ، ولكي يظهر لها ثقته ، تقدم الى الطست وأكل عدة حمصات .

الفصل الرابع

عجائب مذهلة

بعد فترة قصيرة عاد رب الدار حاملا معه شيئا غريبا يشبه البوابة او حرف П . وتدلى من عارضة هذا الحرف الخشبي السييء الصنع ناقوس وشد اليها مسدس . ومن لسان الناقوس وحرك المسدس امتدت خيوط . وضع الغريب حرف П

فى وسط الغرفة ، وامضى وقتا طويلا فى فك وربط اشياء
ما ، ثم نظر الى ذكر الاوز وقال :

- تفضل يا ايفان ايفانيتش !
فاقترب منه ذكر الاوز ووقف فى وضع ترقب .
فقال الغريب :

- حسنا . . فلنبدا من البداية . قبل كل شىء يجب ان
تحبى الجمهور وتنحنى احتراما . بسرعة !
فمد ايفان ايفانيتش عنقه ، واوماً فى جميع الجهات ، وحك
الارض بساقه .

- حسنا ، شاطر . . . والآن مُت !
فرقد ذكر الاوز على ظهره ورفع ساقيه عاليا . وبعد ان قام
الغريب بعدة نمر تافهة كهذه ، أمسك برأسه فجأة ، راسما على
وجهه الرعب ، وصاح :

- النجدة ! حريق ! النار !
فركض ايفان ايفانيتش نحو حرف ، وامسك بمنقاره
الخيط وقرع الناقوس .

وأحس الغريب بالرضى تماما ، فمسد عنق ذكر الاوز وقال :
- شاطر يا ايفان ايفانيتش ! والآن تصور انك مجوهراتى
تبيع الذهب والماسات . وتصور الآن انك ذهبت الى متجر
فوجدت فيه لصوصا . فكيف تتصرف فى هذه الحالة ؟

فأمسك ذكر الاوز فى منقاره بخييط آخر وشده ، فدوت على
الفور طلقة تصم الأذان . وأعجبت كاشتانكا جدا بالرنين ، اما
الطلقة فسلبت لبها حتى انها دارت حول حرف II ونبتحت .

فصاح بها الرجل الغريب :

- يا خالة ، الزمى مكانك ! صمتا !

ولم ينته عمل ايفان ايفانيتش عند حد اطلاق النار . فقد ظل
الرجل الغريب يديره حوله ساعة كاملة وقد ربطه اليه بحبل ،
ويفرق بالسوط ، وكان على ذكر الاوز اثناء ذلك ان يقفز
فوق حاجز وعبر حلقة ، ويشب على اطرافه ، اى يقعى على
مؤخرته ويلوح بساقيه . ولم تحول كاشتانكا نظرها عن ايفان
ايفانيتش ، وعوت من شدة الاعجاب ، وركضت خلفه عدة مرات

وهى تطلق نباحا رنانا . وبعد ان ارهق الغريب ذكر الاوز وارهق نفسه ، مسح العرق عن جبينه وصاح :

- يا ماريا ، هاتى خفرونيا ايفانوفنا الى هنا !

وبعد لحظات تردد نخير . . . فزمجرت كاشتانكا ، واتخذت مظهر الشجاعة الفائقة ، وتحوطا للأمر ، اقتربت اكثر من الرجل الغريب . وفتح الباب ، واطلت امرأة عجوز ما ، وقالت شيئا ما ، ثم دفعت الى الداخل بخنزيرة سوداء قبيحة للغاية . ودون ان تعير الخنزيرة اى اهتمام لزمجرة كاشتانكا ، رفعت نخرتها الى أعلى ونخرت بصوت مرح . يبدو انها كانت مسرورة جدا برؤية سيدها والقط وايفان ايفانيتش . وعندما اقتربت من القط ودفعتها بنخرتها برفق فى بطنه ، ثم تحدثت عن شىء ما مع ذكر الاوز ، تجلى فى حركاتها وصوتها وفى ارتعاش ذيلها الكثير من الطيبة . وادركت كاشتانكا على الفور انه لا جدوى من النباح والزمجرة مع مخلوقات كهذه .

ونحى السيد حرف II وصاح :

- تفضل يا فيودور تيموفيتش .

فنهض القط ، وتمطى بكسل ، واقترب من الخنزيرة بلا رغبة كأنما يصنع معروفا .

وقال السيد :

- فلنبدأ بالهرم المصرى .

ومضى يوضح شيئا ما مدة طويلة ، ثم امر : «واحد . . . اثنان . . . ثلاثة !» . ولدى سماع ايفان ايفانيتش كلمة «ثلاثة» خفق بجناحيه وقفز على ظهر الخنزيرة . . . وعندما استقر على الظهر الاهلب وهو يحفظ توازنه بجناحيه وعنقه ، صعد فيودور تيموفيتش الى ظهر الخنزيرة بتراخ وكسل ، وباستهتار واضح ، وبدأ وكأنما يحتقر فنه ولا يكن له ادنى تقدير ، ثم تسلق بلا رغبة ظهر ذكر الاوز ووقف على ساقيه الخلفيتين . وتكوّن ما سماه الرجل الغريب بالهرم المصرى . وعوت كاشتانكا من شدة الاعجاب ، ولكن فى تلك اللحظة ثئاب القط العجوز فاختل توازنه وسقط من على ظهر ذكر الاوز . وترنج ايفان ايفانيتش وسقط هو الآخر . وصرخ الرجل الغريب ، ولوح بيديه ، وعاد يشرح

شيئا ما . وبعد ان انفق ساعة كاملة في نمره الهرم ، بدأ رب الدار الذى لا يكل في تعليم ايفان ايفانيتش كيف يمتطى صهوة القط ، ثم بدأ في تعليم القط كيف يدخن وما الى ذلك . وانتهى التعليم بان مسح الرجل الغريب العرق عن جبينه وخرج . ونفخ فيودور تيموفيتش بأنفه في اشمزاز ، ورقد على الفرشة واغمض عينيه ، وتوجه ايفان ايفانيتش الى الطست ، اما الخنزيرة فساقتها المرأة العجوز . وبفضل هذه الكثرة من الانطباعات الجديدة انقضى النهار بسرعة بالنسبة لكاشتانكا ، وفي المساء انزلت مع فرشتها في الغرفة ذات ورق الجدران القدر ، وباتت في صحبة فيودور تيموفيتش وذكر الاوز .

الفصل الخامس

موهبة ! موهبة !

ومر شهر .

وتعودت كاشتانكا على انهم كل مساء يطعمونها عشاء لذيذا وينادونها بـ«الخالة» . وتعودت ايضا على الرجل الغريب وعلى شركائها في المسكن . ومضت الحياة في يسر وسهولة . كانت الايام كلها تبدأ بداية متشابهة . وكان ايفان ايفانيتش يستيقظ عادة قبل الجميع ، وعلى الفور يتوجه الى الخالة او الى القط ، ويلوى عنقه ويبدأ في الحديث عن شىء ما بحرارة ويقين ، ولكن بصورة غير مفهومة كما في السابق . واحيانا كان يرفع رأسه ويلقى منولوجات طويلة . وفي الايام الاولى لتعارفهما ظنت كاشتانكا انه يتحدث كثيرا لانه ذكى جدا ، ولكن ما ان مرت فترة قصيرة حتى فقدت له كل احترام . وعندما كان يتوجه اليها بحديثه الطويل لم تعد تهز ذيلها ، بل كانت تزدره باعتباره ثرثارا مملا يزعج نوم الآخرين ، ودون ادنى كلفة كانت تجيبه بـ«هر - ر - ر» . . .

اما فيودور تيموفيتش فكان سيدا من طراز آخر . فعندما يستيقظ لا يصدر اي صوت ، ولا يتحرك ، بل حتى لم يكن

يفتح عينيه . ولو كان بمستطاعه لما استيقظ ، لانه كما يبدو لم يكن يحب الحياة . لم يكن ثمة ما يثير اهتمامه ، وكان ينظر الى كل شيء بتراح واستخفاف ويحتقر كل شيء ، وحتى حينما يتناول طعامه اللذيذ ينفخ بانفه في اشمئزاز .

وكانت كاشتانكا عندما تستيقظ تبدأ في الطواف على الغرف وتشمم الاركان . ولم يكن مسموحا الا لها وللقط فقط بالطواف في الشقة ، اما ذكر الاوز فلم يكن يحق له ان يتخطى عتبة الغرفة ذات ورق الجدران القذر ، بينما كانت خفرونيا ايفانوفنا تقطن حظيرة في مكان ما في الفناء ، ولا تظهر الا فترة التدريب . وكان السيد يستيقظ متأخرا ، وما ان يشرب الشاي حتى يشرع على الفور في شعوزته . وكل يوم يحمل الى الغرفة حرف П والسوط ، والحلقات ، وكل يوم تجرى نفس التدريبات تقريبا . كان التدريب يستمر ثلاث او اربع ساعات ، حتى ان فيودور تيموفيتش كان يترنح احيانا كالثل من شدة الازهاق ، ويفتح ايفان ايفانيتش منقاره لاهثا ، اما السيد فيصبح احمر الوجه ولا يتمكن ابدا من مسح العرق عن جبينه .

كان التدريب والطعام يجعلان اوقات النهار شيقة جدا ، ولكن الامسيات كانت تمضي في ملل . وفي العادة كان رب الدار يرحل كل مساء الى مكان ما ويأخذ معه ذكر الاوز والقط . وحينما تصبح الخالة وحدها ترقد على الفرشة ويتولاها الحزن . . . كان الحزن يتسلل اليها بصورة لا تلحظ ، ويشملها تدريجيا ، كما تشمل العتمة الغرفة . ويبدأ ذلك بأن تفقد الكلبة اية رغبة في النباح او الاكل او الركض في الغرف او حتى التطلع ، ثم تلوح في مخيلتها صورتان غير واضحتين لكلا ب او بشر ، بوجهين لطيفين رقيقين ولكن غير مفهومين . وعند ظهورهما تهز الخالة ذيلها ، ويخيل اليها انها رأتها في وقت ما وفي مكان ما واحبتهما . . . وعندما يداعبها النعاس كانت تشعر برائحة الصمغ ونشارة الخشب وورنيش اللك تفوح من هاتين الصورتين .

وعندما ألفت تماما حياتها الجديدة وتحولت من كلبة نحيلة معروقة الى كلبة شبعانة معتنى بها ، ربت السيد على ظهرها ذات مرة قبل بدء التدريب وقال :

- آن الاوان يا خالة ان تزاولى عملا . كفاك تسكعا . اريد ان اجعل منك فنانة . . . أتريدى ان تصبحى فنانة ؟
وبدا يعلمها شتى العلوم . فى الدرس الاول تعلمت كيف تقف وتمشى على ساقىها الخلفيتين ، الامر الذى اعجبها للغاية .
وفى الدرس الثانى كان عليها ان تقفز على ساقىها الخلفيتين وتخطف السكر الذى كان معلمها يمسك به عاليا فوق رأسها .
وفى الدروس التالية رقصت ، ودارت وهى مربوطة بحبل ، وعوت على انغام الموسيقى ، وقرعت الناقوس واطلقت النار ، وبعد شهر اصبح بوسعها ان تحل باقتدار محل فيودور تيموفيتش فى «الهرم المصرى» . كانت تقبل على التعليم عن طيب خاطر ، وارضاهما نجاحها . اما الدوران بالحبل بلسان مدلى ، والقفز عبر الحلقة ، وامتناء صهوة فيودور تيموفيتش العجوز ، فكان يجلب لها متعة عظيمة . وكانت تصاحب كل نمرة ناجحة بنباح رنان حماسى ، اما المعلم فيدهش ، ويتولاه الحماس هو ايضا فيفرك راحتيه قائلا :
- موهبة ! موهبة ! موهبة حقيقية ! بالتأكيد ستحظين بالنجاح !

وتعودت الخالة على كلمة «موهبة» حتى انها كانت تقفز ، كلما سمعت السيد يرددها وتتلفت حولها ، كأنما كانت هذه الكلمة اسمها .

الفصل السادس

ليلة مزعجة

رأت الخالة فى المنام حلما كلايبيا ، اذ طاردها البواب بمكنسة ، فاستيقظت من الخوف .
كانت الغرفة مظلمة ، ساكنة وخائقة جدا . وكانت البراغيث تلدغ . ولم يسبق للخالة ان شعرت بالخوف من الظلام ولكنها الآن احسست لسبب ما بالرعب وارادت ان تنبح . وفى الغرفة المجاورة زفر رب الدار عاليا . وبعد ذلك بقليل نخرت الخنزيرة فى حظيرتها ،

ثم لف الصمت كل شيء . عندما تفكر في الطعام تشعر في نفسك بالراحة ، ومن ثم اخذت الخالة تفكر في انها سرقت من فيودور تيموفيتش اليوم ساق دجاجة وخبأتها في غرفة الجلوس بين الصوان والحائط ، حيث تتراكم خيوط عنكبوت وغبار كثير جدا . ولا بأس لو مضت الآن لتنظر هل هذه الساق بخير ام لا ؟ من المحتمل جدا ان يكون رب الدار قد عثر عليها واكلها . ولكنها ، حسب القواعد ، لاتستطيع الخروج من الغرفة قبل الصباح . واغمضت الخالة عينيها لتنعس بسرعة ، اذ كانت تعرف بخبرتها انه كلما اسرعت في النوم اسرع الصباح بالمجيء . ولكن دوت فجأة بجوارها صرخة غريبة جعلتها تنتفض وتقفز واقفة على سيقانها الاربعة . كانت تلك صرخة ايفان ايفانيتش ، ولم تكن صرخته ثرثرة ومقنعة كالعادة ، بل رهيبية ، ناقبة غير طبيعية ، تشبه صرير بوابة تفتح . وعندما لم تميز الخالة او تفقه شيئا في الظلام ، احست بمزيد من الخوف فزمجرت :

- هر-ر-ر-ر . . .

ومر بعض الوقت ، بقدر ما يكفى للمعق عظمة طيبة . ولم تتكرر الصرخة . وشيئا فشيئا هدأت الخالة وادركها النعاس . ورأت في المنام كلبين اسودين كبيرين بخصائل من شعر العام الماضى على افخاذهما واجنابهما . كانا يأكلان بشراهة من برميل كبير فضلات طعام تصاعد منها بخار ابيض ورائحة لذيدة جدا . واحيانا يتطلعان الى الخالة ويكشران عن انيابهما ويزمجران : «لن نعطيك شيئا !» . ولكن رجلا يرتدى معطف فراء خرج من البيت ركضا وطردهما بالسوط . عندئذ ذهبت الخالة الى البرميل وشرعت تأكل . ولكن ما أن غاب الرجل وراء البوابة حتى انقض الكلبان الاسودان على الخالة وهما يزاران ، وفجأة دوت من جديد الصرخة الثاقبة .

صرخ ايفان ايفانيتش :

- كيكي - كيكي . . . ي . . . ي !

واستيقظت الخالة وقفزت واقفة ، ودون ان تغادر الفرشة انفجرت في نباح معول . اصبح يخيل اليها ان من يصرخ ليس ايفان ايفانيتش بل احد آخر غريب . ولسبب ما نخرت الخنزيرة مرة اخرى في الحظيرة .

ولكن ها هي تتردد خشخشة حذاء ، ودلف السيد الى الغرفة مرتديا روبا وفي يده شمعة . وتراقص النور المتذبذب على ورق الجدران القدر وعلى السقف وطرد الظلمة . ورأت الخالة انه لا يوجد احد غريب فى الغرفة . كان ايفان ايفانيتش جالسا على الارض ، ولم يكن نائما . وكان جناحه ممدودين ومنقاره مفتوحا ، وعموما بدا وكأنه متعب جدا ويريد ان يشرب . ولم يكن فيودور تيموفيتش العجوز نائما هو الآخر . يبدو ان الصرخة ايقظته هو ايضا .
وسأل السيد ذكر الاوز :

- ايفان ايفانيتش ، ماذا بك ؟ لماذا تصرخ ؟ هل انت مريض ؟
وصمت ذكر الاوز . وتحسس السيد عنقه ، وربت على ظهره وقال :

- يا لك من غريب الاطوار . لا تنام ولا تدع الآخرين ينامون .

وعندما خرج السيد واخذ معه الضوء حل الظلام ثانية . واحست الخالة بالخوف . ولم يصرخ ذكر الاوز ، ولكن عاد يغيل اليها ان احدا غريبا يقف فى الظلام . وكان افزع شيء انها لا تستطيع ان تعض هذا الغريب ، لانه لم يكن مرثيا وليس له شكل محدد . ولسبب ما فكرت انه فى هذه الليلة حتما سيحدث شيء ما سيء جدا . وكان فيودور تيموفيتش هو الآخر قلقا . فقد سمعته الخالة يتقلب فى مرقده ويتشاءب وينفض رأسه .

وفى مكان ما فى الخارج تردد طرق على بوابة ، ونخرت الخنزيرة فى الحظيرة . وعوت الخالة ، ومدت ساقها الاماميتين واسندت اليهما رأسها . وخيل اليها ان ثمة فى الطرق على البوابة ، وفى نخير الخنزيرة المستيقظة لسبب ما ، وفى الظلام والسكون ، شيئا موحشا ورهيبا كما فى صرخة ايفان ايفانيتش . كان كل شيء فى اضطراب وقلق ، ولكن ما السبب ؟ ومن هو ذلك الغريب الذى لم يكن مرثيا ؟ وما هى تومض بجوار الخالة للحظة شرارتان خضروان كايبتان . كانت تلك اول مرة يقترب منها فيودور تيموفيتش طوال فترة تعارفهما . ترى ماذا يريد ؟ ولعقت الخالة كفه ، ودون ان تسأله عن سبب مجيئه ، اعولت بصوت خافت وبغيمات متنوعة .

وصرخ ايفان ايفانيتش :

- كيكي - ي - كيكي - كي !

وفتح الباب مرة أخرى ودخل السيد بالشمعة . كان ذكر الاوز
جالسا في وضعه السابق بمنقار مفتوح وجناحين ممدودين . وكانت
عيناه مغمضتين .

وناداه السيد :

- ايفان ايفانيتش !

فلم يتحرك ذكر الاوز . وجلس السيد امامه على الارض ، ونظر
اليه دقيقة في صمت ثم قال :

- يا ايفان ايفانيتش ! ماذا جرى لك ؟ هل نويت ان تموت ؟ -
صاح وامسك رأسه بيديه - آه ، الآن تذكرت ، تذكرت ! عرفت
لسبب ! هذا لان الحصان اليوم داسك ! يا إلهي ، يا إلهي !
لم تفهم الخالة ما قاله سيدها ، ولكن رأيت في وجهه انه
يتوقع شيئا رهيبا . فمدت بوزها نحو النافذة المظلمة التي خيل اليها
ان شخصا غريبا يطل منها ، واعولت .
وقال السيد وهو يشيح بيديه :

- انه يحضر يا خالة ! نعم ، نعم ، يحضر ! الموت جاء الى
غرفتك ، فما العمل ؟

وعاد السيد الشاحب المنزعج الى غرفة نومه وهو يتنهد ويهز
رأسه . واحست الخالة بالرعب من البقاء في الظلام ، فتبعته .
وجلس على السرير وردد عدة مرات :

- يا إلهي ، ما العمل ؟

ودارت الخالة حول ساقيه وهي لا تفهم سر هذه الوحشة التي
تحس بها ، ولماذا يسيطر الانزعاج على الجميع ، ولكي تفهم راحت
تراقب كل حركة تصدر عنه . اما فيودور تيموفيتش ، الذي كان
نادرا ما يغادر فرشته ، فقد جاء هو الآخر الى غرفة السيد ، وأخذ
يتمسح بقدميه . وراح ينفض رأسه ، كأنما كان يريد ان ينفض
منها الافكار المزعجة ، ويتطلع تحت السرير بارتياح .

وتناول السيد طبقا صغيرا وصب فيه ماء من صنبور المغسل ،
وذهب الى ذكر الاوز مرة أخرى .

وقال برقة وهو يضع الطبق امامه :

- اشرب يا ايفان ايفانيتش ! اشرب يا عزيزى .
ولكن ايفان ايفانيتش لم يتحرك ولم يفتح عينيه . واحنى السيد
رأس ذكر الاوز الى الطبق ووضع منقاره فى الماء ولكنه لم يشرب ،
بل بسط جناحيه اكثر ، وبقي رأسه ممددا فى الطبق .

فتنهد السيد قائلا :

- كلا ، لم يعد من الممكن عمل شئ ! كل شئ انتهى . هلك
ايفان ايفانيتش !

وانحدرت على خديه قطرات براقه كتلك التى تسيل على
النوافذ اثناء المطر . والتصقت الخالة وفيودور تيموفيتش بسيدهما
وهما لا يفهمان شيئا ، وتطلعا الى ذكر الاوز برعب .
وقال السيد وهو يتنهد بأسى :

- مسكين يا ايفان ايفانيتش ! كنت احلم بان آخذك فى الربيع
الى الدار الريفية واتجول معك على العشب الاخضر . ايها الحيوان
العزيز ، يا رفيقى الطيب ، لقد فقدتك ! كيف سأعمل الآن بدونك ؟
وخيل للخالة انه سيحدث لها نفس الشئ ، اى انها هى ايضا
ستغمض عينيها هكذا ، لسبب غير معروف ، وتمد ساقيهما ، وتكشر
عن انيابها ، وسوف ينظر اليها الجميع برعب . ويبدو ان مثل هذه
الافكار جالت بخاطر فيودور تيموفيتش ايضا . ولم يسبق ان كان
القط العجوز مكفها وعبوسا كما هو الآن . . .

وبدا الفجر يلوح ، ولم يعد موجودا فى الغرفة ذلك الغريب
الذى ارعب الخالة الى تلك الدرجة . وعندما طلع الفجر تماما جاء
البواب فرفع ذكر الاوز من ساقيه وحمله الى مكان ما . وبعده بقليل
جاءت العجوز فحملت الطست .

وذهبت الخالة الى غرفة الجلوس واطلت وراء الصوان : لم
يأكل السيد ساق الدجاجة ، وكانت فى مكانها وسط الغبار وخيوط
العنكبوت . ولكن الخالة كانت تشعر بالوحشة والحزن وبرغبة فى
البكاء . ودخلت تحت الكنبه حتى دون ان تشم الساق ، وأخذت
تعول هناك بصوت خافت رفيع :

- عو - عو - . . .



الفصل السابع

بداية غير موفقة

ذات مساء دلف السيد الى الغرفة ذات ورق الجدران القذر
وقال وهو يفرك يديه :
- حسنا . . .

كان يريد ان يقول شيئا آخر ولكنه لم يقل وخرج . وخمنت
الخالة ، التي درست جيدا وجهه ونبراته اثناء التدريبات ، انه
منفعل ومهموم ، بل وعلى ما يبدو ، غاضب . وعاد بعد قليل وقال :
- اليوم سأخذ معى الخالة وفيودور تيموفيتش . انت يا خالة
ستحلين اليوم محل المرحوم ايفان ايفانيتش فى الهرم المصرى .
الشیطان يعلم ما هذا ! لم نستعد ابدا ، ولم نحفظ شيئا ،
والتدريبات كانت قليلة ! سنفضح ونفشل !

ثم خرج مرة أخرى وعاد بعد دقيقة فى معطف الفراء والقبعة
الاسطوانية . واقترب من القط وفرعه من ساقيه الاماميتين وخبأه
فى صدره تحت المعطف ، بينما بدا فيودور تيموفيتش غير مبال
ابدا ، وحتى لم يكلف نفسه عناء فتح عينيه . والظاهر انه كان
يستوى عنده تماما سواء رقد او رفع من ساقيه ، او تمدد على
الفرشة ، او استقر على صدر سيده تحت المعطف . . .
وقال السيد :

- يا خالة ، هيا بنا .

وسارت الخالة خلفه وهى لا تفهم شيئا وتهز ذيلها . وبعد
دقيقة كانت جالسة فى الزحافة عند قدمى سيدها تصغى الى دمدمته
وهو ينكمش من البرد والقلق :

- سنفضح ! سنفشل !

توقفت الزحافة امام بيت كبير غريب ، يشبه قصعة حساء
مقلوبة . وكان المدخل الطويل لهذا المنزل ، ذو الابواب الزجاجية
الثلاثة ، مضاء بدسته مصابيح قوية . وكانت الابواب تفتح برنين ،
وكالأشداق تبتلع الناس الذين كانوا يتزاحمون عند المدخل . كان
الناس كثيرين جدا ، والخيول ايضا كثيرا ما كانت تقف راکضة الى
المدخل ، ولكن لم يبد أثر للكلاب .

وحمل السيد الخالة على يديه ودسها في صدره تحت المعطف حيث كان فيودور تيموفيتش . وكان المكان هنا مظلمًا خانقا ولكنه دافئ . وللخطة توهجت شرارتان خضراوان كايبتان ، اذ فتح القط عينيه وقد ازعجته اكف جارتة الباردة الصلبة . ولعلقت الخالة أذنه ، وأرادت ان تتخذ وضعا مريحا فتحركت بقلق وداسته تحتها بكفها الباردة ، وأطلت برأسها عفوا من فتحة المعطف ، ولكنها زمجرت على الفور بغضب وغاصت تحت المعطف . وخيل اليها أنها رأت غرفة ضخمة ، سيئة الاضاءة ، مليئة بالكائنات الخرافية المخيفة . ومن وراء الحواجز والشباك التي امتدت على جانبي الغرفة أطلت سحن رهيبة : سحن خيول ، وسحن بقرون ، وبآذان طويلة ، وسحنة ضخمة سمينة بذيل في مكان الأنف ، وبعظمتين طويلتين معروقتين تبرزان من فمها .

وماء القط بصوت أبح تحت اكف الخالة ، ولكن المعطف انفتح في تلك اللحظة ، وقال السيد «هوب !» فقفز فيودور تيموفيتش والخالة الى الارض . كانوا الآن في غرفة صغيرة بجدران رمادية من الواح الخشب . ولم يكن هنا ، بخلاف طاولة صغيرة بمرآة ومقعد بلا ظهر ، وخرق معلقة في الاركان ، اى أثاث آخر ، وبدلا من المصباح او الشمعة توهج نور ساطع على شكل مروحة كان موضوعا في انبوب مدقوق في الحائط . ولحق فيودور تيموفيتش فروته التي جعدتها الخالة ، ومضى فرقد تحت المقعد . وبدأ السيد يخلع ملابسه وهو لا يزال مضطربا يفرك يديه . . . خلع ملابسه كما يفعل عادة في البيت عندما يستعد للنوم تحت البطانية الخفيفة ، اى نزع عنه كل شيء عدا الملابس الداخلية ، ثم جلس على المقعد ، وراح يصنع بنفسه اشياء عجيبة وهو يتطلع الى المرآة . قبل كل شيء وضع على رأسه باروكة بمفرق وقصتين تشبهان القرنين ، ثم طلى وجهه بطبقة كثيفة من مادة بيضاء ، ورسم فوق الطلاء الابيض حاجبين وشوارب ووجنتين حمراوين . ولم تنته أفعاله عند هذا الحد . فبعد أن لوث وجهه وعنقه بدأ يرتدى حلة غير عادية لا يمكن مقارنتها بشيء ، حلة لم ترها الخالة من قبل ابدا لا في البيوت ولا في الشوارع . تصوروا مثلا سروالا واسعا للغاية محاكا من قماش الشيت المنقوش بالازهار ، من ذلك النوع المستخدم في بيوت صغار البرجوازيين

للسناثر وتنجيد الأثاث ، سروالا يزرر عند الأبطين تماما . واحدى
ساقى السروال محاكة من شيت بنى والاخرى من شيت أصفر فاقع .
وغرق السيد فى هذا السروال ، ثم ارتدى ايضا سترة من الشيت
بياقة كبيرة مسننة ونجمة ذهبية على الظهر ، وجوربا مختلف الالوان
وحذاء أخضر . . .

ومن كثرة الالوان زاغ بصر الخالة وقلبها . وانبعثت من هذا
الجسد المترهل الابيض الوجه رائحة السيد ، وكان صوته ايضا
مألوفاً ، صوت السيد ، ولكن الشكوك كانت تعذب الخالة احيانا ،
وعندئذ كانت على استعداد لأن تهرب بعيدا عن هذا الجسد المزعزكش
وتنبج . فالمكان الجديد ، والنور المروحي ، والرائحة ، والتحول
الذى طرأ على السيد . . كل ذلك بعث فى نفسها خوفاً مبهما
واحساسا بأنها سوف تقابل حتما شيئا مرعبا ، مثل تلك السحنة
السمينة ذات الذيل فى مكان الأنف . وعلاوة على ذلك فقد دوت
الموسيقى الكريهة فى مكان ما بعيدا خلف الجدار ، وتناهى احيانا
زئير غير مفهوم . شئ واحد فقط هدا من روعها : برود فيودور
تيموفيتش . فقد كان نائما فى هدوء تحت المقعد ، ولم يفتح عينيه
حتى عندما كانوا يزحزون المقعد .

وأطل فى الغرفة شخص ما يرتدى حلة الفراك وصديريا أبيض
وقال :

— الآن نمرة ميس أرابيللا ، وأنتم بعدها .

فلم يرد السيد بشئ . واخرج من تحت الطاولة حقيبة غير
كبيرة ، وجلس ، وراح ينتظر . وكان واضحا من شفثيه ويديه
أنه منفعل ، وسمعت الخالة تهدج أنفاسه .
وصاح أحد ما وراء الباب :

— مسيو جورج ، تفضل !

ونفض السيد ، ورسم علامة الصليب ثلاث مرات ، ثم أخرج
القط من تحت المقعد ودسه فى الحقيبة . وقال بصوت خافت :

— هيا يا خالة !

واقتربت الخالة من يديه وهى لا تفهم شيئا ، فقبلها فى رأسها
وضعتها بجوار فيودور تيموفيتش . ثم حل الظلام . . . وداست
الخالة على القط ، وخدشت جدران الحقيبة ولم تستطع من الرعب أن

تتفوه بصوت ، بينما كانت الحقيقة تتأرجح كأنها فوق موج
وترتعش . . .

وصاح السيد بصوت عال :

- انا هنا ! انا هنا !

وشعرت الخالة بعد هذه الصيحة بالحقيقة تصطدم بشيء صلب
وتكف عن التأرجح . وتردد زئير عال غليظ ، وربت احدهم على
شخص ما ، فزار هذا الشخص ، الذى كان فى الغالب تلك السحنة
ذات الذيل فى مكان الأنف ، وقهقه بصوت عال حتى ان اقفال الحقيقة
ارتعشت . ورد السيد على الزئير بضحكة رفيعة ثاقبة ، لم يضحك
مثله أبدا فى البيت .

وصاح محاولا أن يطفى على الزئير :

- ها ! حضرة الجمهور المحترم ! ! وصلت حالا من المحطة !
جدتى ماتت فى داهية وتركت لى ميراثا ! فى الحقيقة شيء ثقيل . .
يبدو انه ذهب . . . ها - ها ! ربما فيها مليون ! سنفتحها الآن
ونرى . . .

وفرقع قفل الحقيقة . وتسלט ضوء ساطع على عيني الخالة ،
فقفزت من الحقيقة وتراكضت حول سيدها بكل ما فى وسعها من
سرعة ، وقد أصمها الزئير ، وانفجرت فى نباح رنان .

فصاح السيد :

- ها ! خالى فيودور تيموفيتش ! خالى العزيزة ! اقربائى
الأعزاء ، فلتخطفكم الأبالة !

وارتمى على بطنه فوق الرمل ، وأمسك بالقط والخالة وراح
يخضنهما . وبينما كان السيد يعصر الخالة فى احضانه نظرت هى
بطرف عينها الى ذلك العالم الذى القاها فيه القدر ، وأذهلتها
ضخامته ، فتسمرت لحظة من الدهشة والاعجاب ، ثم افلتت من
احضان سيدها ، ودارت كالخدروف فى مكانها من قوة الانطباع . كان
العالم الجديد كبيرا ومليئا بالاضواء الساطعة . وأينما نظرت بدت فى
كل مكان ، من الارض حتى السقف ، وجوه ، وجوه فقط ، ولا شيء آخر .

وصاح السيد :

- يا خالة ، اجلسى أرجوك .

ولما كانت الخالة تذكر ما معنى هذا فقد قفزت على الكرسي

وجلست . ونظرت الى سيدها . كانت نظرة عينيه جادة ورقيقة كالعادة ، ولكن وجهه ، وخاصة فمه وأسنانه ، كانت تشوهها ابتسامة واسعة جامدة . اما هو نفسه فكان يقهقه ويقفز ويهز كتفيه ، ويتظاهر بأنه مسرور للغاية في حضرة آلاف الوجوه . وصدقت الخالة سروره ، وفجأة احست بكل كيانهما ان آلاف الوجوه هذه تحديق فيها ، فرفعت بوزها الثعلبي الى أعلى وعوت بمرح .

فقال لها السيد :

- اجلسي انت يا خالة اما أنا وخالي فسنرقص كما رينسكى * .
كان فيودور تيموفيتش واقفا وهو يتطلع حوله بلا اكتراث ، في انتظار اللحظة التي سيجبرونه فيها على القيام بأشياء حمقاء . ورقص بفتور ، وباستهتار وعبوس ، وبدا واضحا من حركاته ، ومن ذيله وشواربه ، أنه يحتقر الى حد بعيد هذا الجمهور ، والضوء الاطع ، وسيده ، ونفسه وبعد أن رقص دوره تشاءب وجلس .

وقال السيد :

- طيب يا خالة . في البداية سنغنى معا ، وبعد ذلك سنرقص .
حسنًا ؟

واخرج من جيبه مزمارا وعزف عليه . وتململت الخالة ، التي لم تكن تطيق الموسيقى ، على الكرسي بقلق وعوت . وتناهى الزئير والتصفيق من كل مكان . فانحنى السيد محييا ، وبعد ان سكن كل شيء استأنف العزف واثناء عزفه نوتة عالية جدا ندت أحد المتفرجين في أعلى الصالة آهة عالية .

وصاح صوت طفولي :

- بابا ! هذه كاشتانكا !

فأكد صوت «تينور» ثمل مرتعش :

- بالضبط كاشتانكا ! كاشتانكا ! يا فيدوشكا فليعاقبنى الله

ان لم تكن كاشتانكا ! فويت !

وصفر أحد ما في أعلى الصالة ، وصاح صوتان عاليان ، احدهما

طفولي والآخر لرجل :

* رقصة شعبية روسية بطلها فلاح ثمل . البحر ب .

- كاشتانكا ! كاشتانكا !

وانتفضت الخالة ونظرت الى الموضع الذى تردد منه الصياح .
كان هناك وجهان ، أحدهما أشعر ، ثمل ، ضاحك باستهزاء ، وآخر
مكتنز أحمر الخدين ومذعور تسلطا على عيني الخالة كما تسلط الضوء
الساطع من قبل . . . فتذكرت ، وسقطت من الكرسي وتقلبت على
الرمل ، ثم قفزت واقفة واندفعت نحو هذين الوجهين وهى تعوى
بفرح . ودوى زئير يصم الآذان تخلله الصغير وصيحة طفل ثاقبة :
- كاشتانكا ! كاشتانكا !

وقفزت الخالة عبر الحاجز ، ثم فوق كتف ما ، وأصبحت فى
المقصورة . ولكى تبلغ الطابق التالى كان عليها أن تقفز من فوق
جدار مرتفع . وقفزت الخالة ولكنها لم تصل فانزلقت عن الجدار الى
أسفل . ثم انتقلت . بعد ذلك من يد الى يد ، وهى تعلق أىدى
ورؤوس اشخاص ما ، وتقدمت صاعدة أعلى فأعلى ، حتى وصلت
اخيرا الى أعلى الصالة . . .

بعد نصف ساعة كانت كاشتانكا تسير فى الشارع خلف شخصين
تفوح منهما رائحة الصمغ وورنيش اللك . وكان لوقا الكسندريتش
يترنج ، ويحاول غريزيا ، وقد علمته الخبرة ، أن يسير بعيدا
عن خندق الطريق .
ومضى يدمدم :

- فى رحم الذنوب السحيق أتمرغ . . . أما أنت يا كاشتانكا
فأمرك عجب . انت ، بالمقارنة مع الانسان ، مثلك مثل النجار
بالمقارنة مع صانع الأثاث .
وبجوارهما سار فيدوشكا مرتدبا عمرة أبيه . ونظرت كاشتانكا
الى ظهريهما وخيل اليها انها تسير خلفهما منذ زمن بعيد وتشعر
بالفرحة لأن حياتها لم تتوقف لحظة واحدة .
وتذكرت الغرفة ذات ورق الجدران القذر ، وذكر الأوز ،
وفيدودور تيموفيتش ، والطعام اللذيذ ، والتدريب ، والسيرك ،
ولكن ذلك كله بدا لها الآن كحلم طويل مشوش مرهق . . .

مُسَارَات

نقلها إلى العربية
صَاح دهنِي



١٩٨٨

الهيئة العامة لكتبة الإسكندرية	
٨٥٦, ٨٣	رقم التخصيص:
٤٢٢٥٦	رقم التسجيل:

مُسابَرات

تاغ أوريل (السويد)

Tage Aurell (Suède)

★ تاغ أوريل؛ ولد عام ١٨٩٥ في أوسلو، لكنه سويدي الجنسية. قصّاص بالفطرة يستمد مادته من حياة القرية، وحياة الناس البسطاء اليومية. ترجم مسرحيات « ستريندبرغ » إلى الفرنسية، ورواية « الأحمر والأسود » إلى السويدية.

« يوهان تشادر » (Johan Tjäder) ذاهب في رحلة.

ذاك أنها تزدادان عناداً ، حسب زعمه .

رسائل ورسائل ، تعيد الشيء ذاته وتبديه .

والقضية أنه يفكر بالحصول حقاً على إجازة من محطة الكهرباء ليسافر ، لأنه راغب ولو مرة أن يصبح حراً كالهواء . يريد أن يأخذ غرفة في فندق .

ويجد « بلومكفيست » (Blomkvist) ، رجل التعاونية ، أن الفكرة ممتازة ، وفي سبيل أن يقطع ، باللين ، دابر حكاية الرسائل تلك - ولم يكن منها الشيء الوفير - فإنه يمسك قلباً ومغلفاً قديماً ، يأخذ بتخطيط الطريق التي يتوجب سلوكها .

« انظر قليلاً ، يا « يوهان » (Johan) . أترى إذن ، عندنا أول الأمر المحطة المركزية هناك ... »

ولكن سريعاً ما بلغ الغاية ، بسبب « تشادر » (Tjäder) والرسائل المزعومة ، بالتأكيد ، ولكن أيضاً بسبب الفترة الطيبة التي قضّاها خلال

ذاك المؤتمر العتيد تظل دوماً شديدة الحضور في ذاكرته . كان قد نزل فيها
كان يسمى بفندقٍ للدعارة ، غير أنه كان هناك من كل فاكهة صنفان ،
ولم يحرم المرء نفسه من أيّ شيء . الغرفة رقم سبعة وعشرين ، رقم ٢ ورقم
٧ يرسمها ، فيملأ الطريق الفارغ كله ابتداءً من المحطة .

« وتلك التي صعدت مع الزجاجات ... » .

يحيط « بلومكفيست » (Blomkvist) الرقم بهالة من « ضربات »
متشاعلة ومعقدة بالقلم - فقد اشتغلت ابنة « يوهان تشادر » (Johan
Tjäder) الصغرى بعض الوقت في فندق . يتابع « بلومكفيست » ،
متخبطاً ، أنها كانت نشيطة ومرحة ، وسوداء الشعر .

« وإلى ذلك فسعرها ليس مرتفعاً » .

ثم يتوقف آخر الأمر ، وبالمحاة يزيل الهالة والرقم في الوقت ذاته
الذي تمحي فيه الذكرى الخاصة . يغادر الفندق ويرتمي في المعترك .

يقول :

« كان ذاك المؤتمر مدهشاً ، من أوله إلى آخره » .

على أن « يوهان تشادر » يتماسك ، يفوت فرص الحيلة ، ويجب
متجرعاً أسباب الخجل ، أن ، ما يلزمه فعلاً شيء من هذا القبيل نعم ،
هذا بالطبع فيما إذا حدثت هذه الرحلة .

يتحرك القطار ، يدرج القطار ، بل إن « يوهان » ليستشعر بين الفينة
والفينة بشعور يوم العيد . . وفي محطة أو اثنتين نزل ودفع ثمن مشروب . ثم
يتحدث عن ابنته الساكنة في « استوكهولم » ، إحدى ابنتيه ، مع رفيقه في

زاوية النافذة. عُمِدَت باسم « يوهانا » لأن اسمه هو « يوهان ». إنها متزوجة وربة منزل . يحكي، ويسهب في الحديث عن أحفاده. يسمع نفسه متكلمًا، ويحكم أن لهجة كلامه سليمة وطبيعية.

رفيقه لا يجاريه، بل شتان ما بينهما. وحين ودّع أحدهما الآخر، عاوده توحد رغم أنه لم يكن في الحجرة مكان واحد فارغ.

فيما بقي من فترة ما بعد الظهر، وحين يهبط الظلام ويخيم الليل، تجلس بمقابله واحدة من صنف « إيلزا » (Elsa) تقريباً. فلا يعود يجرؤ آخر الأمر على النظر إليها إلاّ خلسة، ثم يستدير باقي الوقت جهة النافذة.

إنها تمطر، وتتراكض خطوط من سواد الدخان المبلل على الزجاج. ويثّر حديد القطار لدى عبور جسر، فوق ماء أسود كله. يتمنى لو يقول لتلك التي تواجهه: أف! عودي إلى بيتك، ارجعي بالاتجاه الآخر.

ليس من حديث حولها إلاّ عن الأزقة، وعن أناس يفترض أن ينتظروك في المحطة، كلّ يصلح هندامه، يقيم الدنيا ويقعدها بالأكياس والمحفظات.

أما هو، فيأخذ تذكّره، يقرأ كلمة « إياب »، ويؤكد عليها بنحوٍ ما، حين تتكاثر لمعات النور، وتتلوّن بالأصفر والأحمر والأخضر. فتلك كلها أمور تبعث على الريبة، أمور مريبة وصعبة.

يجلس فترة طويلة على حافة السرير دون أن ينزع ثيابه، لم ينزع سوى حذاءه الجديد الذي آلمه على مدى ما يقارب الساعات العشر بنحوٍ متواصل.

أحياناً يذهب بهدوء حتى النافذة، أو إلى الباب، ويعود إلى سريره،
يمكث هنالك جالساً متلهياً فترة ما بتدوير إحدى الكرات النحاسية.

ومن الحق القول إنّ الفندق ذو انتهاء ديني، مع كتاب مقدس،
وكتاب أناشيد. غير أنّ الاعلانات المطبوعة على هامش الورق النشاف،
والحروف الكبيرة التي تميزها على غلاف دليل الهاتف تكفيه.
نساء « بلومكفيست » الطبيبات.

لديه في محفظة أوراقه صورة قديمة مُصَفَّرَة، صَوَّرَتهَا المعلمة فيها مضى.
ليتهنّ لا يكبرن! أبداً.

العنوان الوحيد الذي يملكه هو عنوان ابنته البكر. ينطلق إليه سائلاً
عن وجهته كلما بلغ زاوية طريق. إلّا أنه لم يحضر من أجل هذا، فثمة
فراسخ وفراسخ فيما بينه وبينها، هي « جوهانا »، حتى قبل أن تغادر
البيت. كانت في معسكر أمها ونصيرات « بيتيل »^(١).

فإذا كانت « ايلزا » في العطلة - هو ذا ينسب إليها حياةً نظاميةً،
وعملاً مع عطل.

يفتح التجار مخازنهم، يدخل أول مخبز في طريقه، يشتري سكاكر
وقوالب صغيرة من الخبز المحلى.

« كيف، أنت تأتي إلى هنا »؟.

لم يكن صوتها قط حاراً، ليس من أجله في كلّ حال، وهي بالطبع
غير مغتبطة، لأنها فوجئت بمثل هذه الصبيحة المبكرة بمطبخ بلا ترتيب.

(١) إحدى مدن فلسطين القديمة، ظهر فيها السيد المسيح لإبراهيم ويعقوب.
(عن لاروس).

« كان في وسعك أن تكتب . على كل حال ، اجلس . »

زوجها في عمله والصبيان يغيبان أيضاً مع الكاراميل . هناك بنيتة جد صغيرة ، لم يسبق له أن رآها قط تنام في السرير المزدوج القابل للطي . يستعمل كلمات مضحمة ، يقوم بمقارنات - وعلى حين غرة تستبد به الرغبة في أن يقول إنها تشبه « إيلزا » . لسوف تكون تلك وسيلة للإسراع في طرح الموضوع الذي يأخذ عليه نفسه .

غير أن الشبه معدوم . وفي ذاته تنقصه الجرأة .

تذهب « يوهانا » إلى خزانة الطعام مع كيس الورق دون أن تفتحه ، وتعود منها حاملة بعض الكعك بالحليب والبسكويت على صحن . تنظف جانباً من المائدة ، وتضع عليها الطبق وفنجان القهوة .

ثم إنها تطحن فترة قبل أن تسأل :

« لعلك ذاهب إلى المستشفى ؟ »

يستعجل الحذر ، والسؤال الآخر يعقب الأول :

« أم لعلها كتبت ؟ أهو ذاك ؟ »

لم يبلغ بعد من الجرأة حداً يجعله يسأل بدوره ، فيقول إذ ذاك ، إن الرسائل صارت نادرة ، من الواحدة ومن الأخرى ، ولهذا حضر بزيارة قصيرة .

بريق خاطف في نظرة « جوهانا » يجعله يفهم أنها تفكر بالإيواء . فيتحدث إذ ذاك عن غرفته في الفندق . وهو بمقدار ما يسرع في الذهاب يفكر بالإسراع في الإياب ، ولنفرض بعد غد .

تنفرج زوايا فمها، غير أنها مع ذلك على قدرٍ من قلة الحياء بحيث تقول: «أما بكّرت»؟.

التقصير في كل شيء، المطبخ، البنت، الطريقة التي استقبلته بها - ما من شيءٍ كما يتمنى المرء أن يكون، وأقل وأبسط ما يشغل أفكارها يفسره المرء بيسرٍ بالغ:

«إذهب إليها بعد الظهر. فإذا تأخرت أكثر، فلا طائل من الذهاب».

هو يعرف الآن كلّ شيءٍ. ويدرك ما في صوت الأخرى من ادعاء وقسوة - يتكهّن دون أن يسمع - حين تتابع بغير ما حاجة للمتابعة:

«خلال النهار تستمتع بوقتها كله. تلك ليست حالي أنا، مع كلّ ما يقع على عاتقي من أعمال».

فما تنقضي برهة حتى تدفع المقارنة، احتمال المقارنة:

«لكنك خجلت، لكنت أنا...»

فيلحق بها هذه المرة، قائلاً:

- نتحدث عن «إيلزا». أعطني فقط عنوانها.

- ليس عندي، تجيب.

إنها تكذب، هذا أمر واضح. تصحح:

«لأنني لا أعرف إن كانت بعنوانها. فهي تمضي وقتها بالتنقل.

فيرد:

- لا حاجة بك لمرافقتي. سوف أجده. جئت على قدمي من الفندق إلى هنا دونما عناء كبير. اكتبي بوضوح فقط.

- أرافقك؟ أنا؟ ما شاء الله...».

مع ذلك تفتّر مقاومتها للتوّ، توضّح له الطريق بالتفصيل. لا ترغب من جهتها بإلزامه بالبقاء، حتى في هذا اليوم.

«اعتقد أنك عائد، من بعد، لترتاح في الفندق».

لم كتب عليه أن يُفْلِت منه بالتّام ما لا يريد قوله! كقوله الآن:

- ومساء اليوم؟ ماذا تفعلين؟

ويستدرك، متحسباً مسترضياً:

«لا، مكثت فترةً طويلةً. ثم لعلّي أعود غداً فأراك برهة».

ثم مبالغاً في الاسترضاء:

«بعد ذلك أعتقد أنك قد رأيتني بما فيه الكفاية».

وإذ هي لا تسأل شيئاً، ولا تحتج:

«لا يمكنني أبداً أن أغيب فترةً طويلةً، تعرفين ذلك جيداً».

أهي تعرف؟ تعرف ويعرف أن هذا الكلام لا يستقيم. فما من أحدٍ مثلاً وفي كل الأحوال، ينتظره في الفندق. إنه يلتزم ببساطة بالبرنامج الذي تخطّطه له «جوهانا».

«حسنًا. بعد قليل أمضي إلى هناك متمشيّاً على مهل، وأستلقي لأرتاح».

تلك السفرة كلها لكي يقول: إنه سيستلقي ويرتاح، هو الرجل المديد القوي، هذا أكثر من ذاك لا يقف على قدمين.

وهي لا تخفّ إلى تقديم أيّ مساعدة، لا حقيقية ولا كاذبة، بل هي لا تلفظ كلمة «جوهانا»: «أما بكرت؟».

كانت في السرير حين وصل قبل فترة، كانت قد سألت بغضبٍ شديدٍ عبر الباب، من القارع بحق الشيطان؟.

فلم تواته الجراءة للإجابة، ومكث منزعجاً هناك دوغماً كلمة، حين فتحت الباب.

«إيه، بابا...»

شيء من الرعب، مع شيء أقل من السعادة كذلك.
كان ذاك جنى الرحلة كلّها. بذلك فكّر.

كانت شديدة الشحوب في البداية. لكنها عادت فظهرت مرتديةً ملابسها، نضرة وموردة، من خلف الحاجز. ومشاكسة. مثلها كانت في الماضي، وشأنها في الليلة الأخيرة التي قضتها في البيت.

«قل، لم تأتي؟ ألا يمكنك أن تدعني هادئة؟ لم أعد طفلة. هوذا الأمر، أنت لا تقول شيئاً، لكنك مع ذلك تتساءل. وأنا أفهم لماذا جئت، دعك من ذلك!»

إنها يوهانا «الطيبه الروح، التي جعلتك تحضرا من أجل أن تحسدني! إذن فانظرا ها، هل أنت مسرور؟ أنا، هنا، في غاية السرور، أسمع؟ أنا في غاية السرور هنا.

كان يسمع . كان يسمع كل شيء . قائلاً لنفسه : لو أنها تسألني فقط عن عنوان الفندق . وكما لو أنه يفعل من أجل مزيد من الأمان - لأنه ليس على ثقة تامة من توفر بقية من شجاعة لديه ، إذا هو لم يرها هذا المساء - فإنه يشرح لها ذاك العنوان بتفصيلٍ مستفيضٍ . إلى اللحظة التي فهم فيها تماماً أنه ، رغم كل شيء ، سوف يظل وحيداً .

يتجاوز الأمر ، كما حدث مع « بلومكفيست » . « أيوه ، الفندق ، إنه جيد ، المرء فيه حر كالهواء » .

ولكن ما دام الآن هنا ، فعليه أن يدافع عنها الآن ضد الآخرين ، أن يقف في صفها ضدهم . لسوف يجد شيئاً ما يسمعهم أن يتحدثوا عنه بطريقة لينة وطفولية ، لكي يمكنها أن تعود ، مقدار برهة ، الطفلة التي كانت . مجمل الأمر أنها طريقتهم الوحيدة بالتعارف . لتكن الأمور كلها حلوة وطيبة .

« أنت لديك أثاث جميل » .

لا يدل فمها وعيناها على سياء الطفولة . بل هي تفعم باحتقارٍ ساخرٍ .
« هاه ، أترى ذلك ، وأنت ضليع في هذا ، أليس كذلك ؟ » .
وتزيد ، حاقدةً :

« ألا قل ، هل تهزأ بي ؟ » .

يبلغ بها الأمر أن تفيض عيناها بالدموع ، دموع الغضب . وإذا هي تقف خلف مقعد ، فإنها تؤرجحه ، وهي تستند فيسقط على الأرض محدثاً ضجة هائلة .

تقول : « حاقات » .

غير أنها لتوّها تقريباً، تسترخي، وقد عجزت عن حل الحقيقة كلها، ولم يعد بوسعها أن تتحمل أبداً:

« إنه مسافر في رحلة عمل. ولكن لدى مرورك ثانية « باستوكهولم » سأعرفك به. إنه ممثل تجاري لشركة ضخمة جداً. وضع متين. تقطن أمه « سمالاند »، وسنذهب لرؤيتها لدى عودته. فنصبح خطيبين. وسوف يهديني معطف فرو، من فأر أمريكا.

وتقطع كلامها على حين غرة.

« ألا تصدقني؟ ».

تذهب فتعائن نفسها في المرأة، تهزّ قرطبيها الأسودين، تنظر إلى ساعة يدها، تقول دون أن تستدير:

« على هذا، فأنت عائد إلى الفندق، أنا أيضاً يجب أن أخرج. أعمل نصف وقت في مغسل ثياب. أحياناً، يمكن القول إنه عمل متعب ».

المغسل في القمر، والحياة في « سمالاند »، من أين تأتي بهذا كله؟ يستشعر ضرباً من الاعتزاز، ضرباً من التواطؤ المتزايد، يمازج تعاسته. بما أنه غير راغب في سحب محفظة نقوده ببرود، فإنه يجرب صيغة ملتوية:

« قريباً عيد ميلادك ».

بحركة خرقاء، يدسّ أكبر ورقة مالية تحت منفضة للسكائر. هناك زاوية ظاهرة، إنها ورقة كبيرة، هذا واضح.

إلا أنه لا يسمع قولها إنها سيلتقيان في المساء. وعن الغداة، ولا كلمة واحدة.

يبدو له أنه مشى حتى الآن فترة طويلة جداً، ولعله تاه. لكنه إذ يستدير، يرى نوراً في نافذة على الجانب الآخر من الشارع، فيتأكد لتوه أنها نافذتها. الوحيدة المضاءة في جدار هائل داكن. بل هوذا من ناحية أخرى رصيف سكة الحديد، أو شيء ما من هذا القبيل، هنالك في آخر الشارع. وعربات بضاعة بصفوف طويلة. وثمة قاطرة تلهث، وتتوقف وتصفر، على مسافة أبعد.

وهوذا شخص يقترب من النافذة، هي أو شخص آخر في غرفتها، لا يسهه أن يميز، تختلط عليه الرؤية مثلما حدث في الفندق عشية أمس، وبعد لحظة تفرغ النافذة مجدداً، ويبقى النور، ثم تستحيل إلى سوادٍ شأن النوافذ الأخرى.

يقول في نفسه حينذاك إنه لن يتحرك من هناك، وإنه سوف ينتظر. لكن الضوء يعود فيشتعل بعد برهة، أشد سطوعاً من قبل، كما لو أنه متأت من مصباحين بدلاً من واحد. يمضي للقيام بدورة حتى الرصيف، دون أن يلتفت برأسه، مثبتاً النظر أمامه باستقامة في الظلام، فوق العربات وخطوط السكة. قال في نفسه:

لعلها (ستنطفئ) حين أستدير. حينذاك يمكنني معاودة اتخاذ مركزي في الموضع ذاته.»

النور أقل شدة فحسب. بهم بالابتعاد مجدداً حين يجد فجأة أنه لم يعد وحيداً. ثمة شخص ما هناك في العتمة، إلى جانبه - مفتاحي خطوط السكة أو شيء ما مقارب - وشريط من الجلد الملمع وزر يعكسان بريقاً في المطر الساقط بنعومة.

لا يدري كيف يتصرف لكي يقول للآخر :
« إمضِ فم. لا تبَقْ منزرعاً ههنا ، شاقاً عينيك عن آخرهما .
- أهى عارية تماماً ؟ يسأل عامل السكة .

يحسّ بادیء ذي بدء أنه مشلول ، من الرأس إلى القدم . ومع ذلك
يتنبّه إلى أن لهجة الآخر ليست سوقية ، لا يعتبر إلاّ عن الوحدة ، وكذلك
عن نوعٍ من العرفان .

« رأيتها ذات مرة عارية تماماً في الخريف الماضي . ومنذ تلك الفترة ،
يحدث لي أن أتوقف هنا وأنتظر فترة ما ، فيها أنا عائد من العمل ، في هذه
الساعة » .

ومن ثم يسود الصمت دقيقتين كاملتين .

« هل تعرفها ؟ »

لا يسمع مفتاحي السكة الجواب تماماً ، ولا يبدو أنه يعرفها . فيقول :
« أنا كذلك ، لكنني أعرف أين تتصيّد على الرصيف . هي على كل
حال فتاة حلوة .

دفع مساء البارحة حسابه ، واستلم الايصال . ترك كذلك إكراميات ،
أكثر مما يجب لا أقل - كانت تلك ، طريقته في الاحتفال ههنا وخاصة في
هذه المرة - يستيقظ مستذكراً ما قاله لنفسه قبل أن ينام : في كل الأحوال
أنقذ المظاهر فيما إذا هو عاد لحضور مؤتمر ما ، ثم تحضره فكرة أخرى من
أفكار عشية الأمس : من المحتمل أن يأتي هذه الليلة من يسطو عليّ ، ما
دمت قد أظهرت أنسي أملك هذا القدر من النقود .

لا زالت محفظة نقوده وحافظة أوراقه ههنا ، تحت الوسادة .

وساعته كذلك هنا ، وهي تشير إلى الثالثة إلا خمس دقائق .

هو جاهز ، جاهز تماماً ، قبل الساعة الرابعة صباحاً ، لكن السكون يجعله يفهم أن باب الدخول لم يفتح بعد ، يتصدّر خلف طاولة مكتب ذات هاتفٍ وحاملة أقلام ، كما لو أنه « بلومكفيست » آخر . يشعر أصلاً أنّ هذا الأمر يجب أن يستحوذ على جانبٍ ذي بالٍ من وصف رحلته لدى عودته إلى بلده : هوذا ما كان قادراً عليه في الفندق .

خطى في الشارع الفارغ . ضجة تنبجس من حنفية . باب يخطط . النهار الجديد يبدأ .

عند ذاك يتناول حقيبتيه ، وينطلق إلى بيت « يوهانا » ، فلم يعد لديه هنا ما يفعله .

ترافقه « يوهانا » إلى المحطة ، بذلك أوعز الصهر . جعلها كذلك تلتزم الصمت حين جعلت تتشكى من أخلاق « إيلزا » .

« اخرسي ، يا « يوهانا » . دعي أباك الذي سيذهب .

ها هما هناك قبل الوقت ، يشتري تفاحاً ، وسوساً ، وشوكولا للصبيين ، وبرتقالة للصغيرة التي تحملها أمها . تمكث « يوهانا » إلى جانبه خلال وقوفه في الصف ، لمدة ربع ساعة تقريباً ، حاملة الصغيرة وكيس الورق بالساعد ذاته ، فلها على ذلك يد فارغة حتى يمكن دس ورقة من فئة عشرة كورون فيها .

تقول شكراً ، ولكن دون أن تنظر إليه ، بل ولا حتى إلى الرصيف ، أمام درجة العتبة . تثبت نظرتها على نقطة أبعد بكثير ، ناحية القاطرة ،

« لم تبق سوى بضع دقائق ، قالت وهي تغضب نفسها فجأة . الأفضل أن تصعد إلى القطار . قولي مع السلامة لجدك ، يا « جون » . يسك بيده يداً صغيرة هشة . وتتزع « يوهانا » نظرها عن القاطرة قائلةً بالطف لهجةٍ تقدّر عليها :

« ابقى المرة القادمة فترة أطول . اكتب مسبقاً كما أتدبر الأمور بعض الشيء ، قبل وصولك » .

يا سلام ، يا سلام ! انظروا ! هوذا . « تشادر » يصل ، هابطاً من خلفية قطار البضائع ، هوذا الآن على بعد خمسين متراً من المحطة .

قال في نفسه : يمكنني أن أقطع الطريق باجتياز الخط واختراق حاجز الصنوبر . لكن الطريق ليست خالية تماماً ، يرى أنه لكي يكون وحيداً كلياً يستحسن السير في محاذاة مبنى المحطة . إنه يحمل تذكرته في يده في كل حال .

قال « بترسون » ، (Pettersson) ، المأمور :

« لم تغب طويلاً . لِنز إلى يوم لذهاب . الإثنين ؟
يجيب :

- مكثت مع هذا فترة أطول مما كنت أظن » .
ويضيف :

« المهم أن نتلاقى من حين إلى آخر » .

يجلس بهدوء على المقعد ليرى عملية تحويل الخطوط . إنه يعرف من جهة أخرى ما عليه أن يقول ، وفكر أن يجرب خطبته على « بترسون » ،

ولكن ما جدوى ذلك ، لقد لاحظت أموراً كثيرة ، ويمكنه أن يبتدع قصة توازي قصة « بلومكفيسيت » : فهم لم يستقروا في الفندق ، ويمكن القول إنهم أمضوا وقتهم في المطاعم ، الواحد بعد الآخر - وقد توقف فترة طويلة أمام واحد منها فيه زهور في الصناديق ، حديقة حقيقية ، من أجل ما يكون . وقائمة الطعام المؤطرة تحت الزجاج .
كان هو « ايلزا » أكثر الوقت .

« يوهانا » أقل من ذلك ، بسبب الأولاد . حالتها جيدة ، « ايلزا » ، حالتها جيدة جداً . يمدد ساقيه ، يمددها كما لو أنه لم يفعل ذلك منذ الأزل ، حسبما يبدو له .

وقد انتهت المناورة على وجه التقريب ، عربة بضاعة واحدة فقط تجري أمامه . ومن بعد لا يسمع سوى ضجّة ذهاب السنونوات وإيابها تحت السقف .

« ولكن ، يا لطيف كم هذا متعب » ، قال « لبترسون » حين جاء هذا يجلس بجواره .

وليس بحاجة لأن يجيب عن أيّ سؤال . فالحقيقة أن مستخدم المحطة هذا ، ليس سوى امرئ عبوس . وهو بحق لا يوازي زميله مفتاحي السكة لباقة ، تحت نافذة « ايلزا » ، ولا يساويه عرفاناً .

جان في القاعة

نقلها إلى العربية
صلاح ذهني



١٩٨٨

الهيئة العامة لكتبة الإسكندرية	
٨٥ ٦, ٨٣	رقم التسمية:
٤٧٢٥٦	رقم التسجيل:

جان في القاعة

دانييل بولانجييه (فرنسا)

Daniel Boulanger (France)

★ دانييل بولانجييه: أحد أعلام القصة في فرنسا، ولد عام ١٩٢٢، نشر أول رواية له «الظل» عام ١٩٥٨، ثم أعقبها بروايات وقصص كثيرة. حصل على عدة جوائز أدبية. واعتبرت «الجائزة الأدبية الكبرى لمؤسسة أمير موناكو» التي مُنحت له عام ١٩٧٨ عن مجمل أعماله تكريماً له كأحد كبار كتاب فرنسا، كتب أيضاً سيناريوهات أفلام، وحوار أفلام ومثل. مجموع كتبه حتى الآن يزيد عن أربعين.

كان ذاك خريف « المجمع الديني »، وسكان روما كلهم في روما، وما كان في المستطاع العثور على غرفة يأوي إليها المرء. « وجان كوزينو » (Jeanne Cousineau) التي هبطت في الصباح من قطار باريس، لتلقى عشيقها الذي كان يصور لوحات طبيعية ممتة في حي الترانستيفيري، كانت قد أخذت تفقد الإحساس بساقيها. فمذ قرعت الباب في بيت « آردوينو آغرسيتي » (Arduino Agresti) وأجابتها طفلة: فتية: « بابا مسافر ».

- إلى أين؟

- إلى « صقلية »، ليصور الجبال.

تيقنت « جان » أنها لن تراه من بعد قط. دخلت عشرين فندقاً، وعشر بنسيونات، مشغولة كلها، وقد جعلت المدينة تترجح وتصطبغ بلون صلصالي حار، ينثال غباراً وينقلب بلون الإسمنت في ظلال الدروب الصغيرة. كانت ابنة « آردوينو » جميلة حقاً، ذات فكّ متين. بعض الشيء على صورة أبيها، وعينين فاحتين تغشاهما نقاط حمراء.

وضعت « جان » آخر الأمر محفظتها أمانةً في مقهى، وتابعت بحثها عن مأوى. لو لم يدعها « آردوينو »، ولو لم يرغب في بحثها لرؤيته، لم أعطها عنوانه؟ إنه في « صقلية » لتصوير بعض المناظر الطبيعية، مثلما جاء « باريس » لتصوير الشوارع.

« في منزلي لا أعطي سوى فواكه في طبق، باقية، حاجات، لا يمكنني تصوير أشياء أخرى. وحين أصنع منها سلسلة أنطلق حينما كان، بحثاً عن الضجيج، الحياة، الآلات الضخمة ».

كانت تعود بالذاكرة إلى اللوحات التي صورتها في غضون الشهر الذي قضياه معاً: تقاطعات طرق مدوّمة، دار الأوبرا ليلاً، سوق « موفتار » الشعبي، ولوحة الباستل التي قدّمها إليها، وعلّقها فوق سريرها: جبهة الناس في حدائق « فرساي » أمام نوافير « المياه الكبرى ».

في سبيل أن تظل « جان » رابطة الجأش، كانت تجرع كل ربع ساعة فنجان قهوة، غير أنّ نعلها كانا يحرقانها، فنزعتها وسارت حافية القدمين. أخذ اليأس يساورها من إيجاد موضع تنام فيه، وقد حلّ الآن وقت العصر، والبيت المفروش الخمسون مشغول، وهي تحتاز نهر « التير » من جديد. وجدت نفسها مجدّداً، دونما قصدٍ منها، في شارع « آردوينو » الرطب. قرعت وفي ظنّها أنها ستلقى الصغيرة ثانية، إلا أنّ سيّدةً ابتسمت لها، كانت مثلها وصفها المصور، فذهب ذهن « جان » بمجوح إلى أن من العجب العجائب أن نرى من يعيشون الجمال، يربطون حياتهم بهذا القدر من الأشكال الكئيبة.

« من أجل ماذا؟ سألت مدام « أغرستي ».

- غلط ، قالت « جان » . أعطوني دون ريب عنواناً خاطئاً . ألا تؤجرون غرقاً ؟

- كلاً ، قالت الأخرى .

- لم يعد في المدينة كلها موضع يصلح لإيواء قط . دفعت مني باب .

فقال مدام « آغرسيتي » وهي تحدد النعدين في يدي « جان » :

- إنه « المجمع الديني » . حتى بيوت البغاء ممتلئة . وقد أكدت لي ذلك صديقتي « جيوزينا فورني » (Glusppina Forni) التي تدير بيتاً قرب ساحة اسبانيا . « وجيوزينا » كانت معني فيما مضى في بيت لأخوات الهوى . فإذا كان في مقدورها أن تفعل شيئاً فعلته . أترغبين أن أسألك ؟ .

من عتبة الباب كانت « جان » تنظر إلى الممر ذي البلاط الأصفر ، وشجرة التين في الصدر من حديقة كثيفة وضيقة ومجنونة .

« هل أنت فرنسية ؟ زوجي يحب فرنسا حباً جاً . إنه يذهب إليها كل سنة .

- كل سنة ؟ سألتها « جان » وقد تملكها الغيرة .

قالت مدام « آغرسيتي » :

- هو فتان . ولو أنه كان هنا لفعل المستحيل لمساعدتك . ادخلي ، سأكلم « جيوزينا » . الهاتف في الطابق الأعلى .

دأبت « جان » أعمدة الزينة على السلم . وكان يسمع صوت الموسيقى عبر الجدار . وثمة رائحة عتيقة لبندورة مشوية تفرش الدرجات الحجرية ،

حتى اللوحة التي كانت تزين المنسبط العلوي، وتمثل قدحين على مائدة، فارغين ولكلّ لمعته على عروته شأن مجمل الأزواج، وتخيّلت «جان» مدام «آغرسّي» و «آردونيو» جنباً إلى جنب.

« جيوزينا ؟ أنا « كورنليا » ، Cornelia كيف أنت ؟

لم تكن «جان كوزينو» تصغي، وقد استغرقها النظر إلى داخل البيت الذي يؤوب إليه الحبيب بانتظامٍ من بعد الهروب. وقد تراخى شيء ما في ذاتها شأن ما يحدث من بعد الخوف، حينما يتخلّص المرء من كارثة. في الأسفل، كانت الصغيرة عائدة تغني، وهي تقذف وتتلقى حبة مانجه في يدها. لم تُبدِ اندهاشاً لرؤية الفرنسية مجدداً، وفكرت الفرنسية أن الطفلة ستأتي على ذكر لقائهما الأول، إلّا أن العينين السوداوين ذوات البقع البرتقالية تحوّلتا، وجلجل صوت الأم معلناً عنوان مدام «فوري».

«هأنا أكتبه لك، خذي. اسألي عن «جيوزينا». إنها معروفة، وهي في انتظارك».

احتذت جان نعلها من جديد، ولاحظت وجود نملة على إحدى الدرجات، ثم أخرى، ورتلين يتصالبان في أسفل الجدار الأبيض. وقد كان يسرها عادة أن تسحقها، إلّا أن احساساً بالرضا غمرها، إذ تمثّلت البيت الملعوم بالحشرات وهو ينهار فوق عائلة «آغرسّي».

قالت مدام «آغرسّي» :

«أنا سعيدة جداً. هنالك أيام تحملك فيها المصادفة على فعل الخير.

وأضافت وهي ترى « جان » تتملى من منظر لوحة القدحين: أتحببها؟
لدى زوجي أفكار مبسطة جداً. يصور ما يرى، ويراه على طبيعته.
قدحان كسبناهما بيانصيب، ذات يوم كنا فيه سعيدين ».

هي ليست كذلك طوال الوقت، فكرت « جان » التي كانت ما تنفك
تتخيل بتلذذ البيت وهو ينهار.

« رغب بعض جامعي اللوحات في الحصول على هذه، لكن
« آردوينو » يحرص عليها. أتفهمين جيداً؟ هل أتكلم بسرعة أكثر مما
ينبغي؟ »

كان « آردوينو » يسألها ذلك أيضاً، منذ بعض الوقت.

« كلا »، قالت « جان » وهي تدسّ العنوان في محفظتها. « الوداع،
شكراً ».

كان بيت « جيوزينا فورني » يخفى نافورة ماء، يذكر خيرها في
غرف الممران الحرّ ما ينفك شديداً.

قالت صاحبة البيت « لجان »:

« إذا لم يكن لديك مانع، سأستخدم غرفتك بعد الظهر حين تخرجين
للنزهة. إنني أرفض الزبائن، لكنني يجب ألا أبالغ. إننا نتبادل المعونة،
أليس كذلك؟ اعلمي إنني أضع في صوان حمامك - فيما إذا نسيت، وهي
جالة قلما تحدث - عدة أزواج من المفارش. هل تعرفين « روما »؟

- كلا، قالت « جان ».

إنها إقليم ريفي. بؤرة زيت. في داخلها يتألق بعض الأحبار بلون
البهار. وجبات فلفل النساء الجميلة مخبوءة في الأعماق».

كانت « جيوزبينا » تلقي أول صئارة لها ، ولم تلحظ المرأة الشابة ذلك .

قالت « جان » :

« لن أتحرك حتى الغداة . فقدماي مدميان » .

فما كادت تتمدد على السرير حتى قرع الباب ، وجاءتها خادماً بالملح
والمراهم ، من قبل صاحبة البيت . فأسلمت « جان » قدميها للاستحمام
والرعاية . وكان ثمة مرآة بيضاوية الشكل معلقة بجداول من خيوط القنب
شكت فيها نباتات من زهور الخالدة ، تعكس لها صورتها وبجمل السرير .
وإفريز من تماثيل الحب التي كانت ألوانها تتراكمض على حافة السقف .
وكان المصباح المصنوع على شكل الفطر يحتبس ضوءه تحت غلالة منسوجة
بالصئارة . نامت « جان » ، واستيقظت ظهيرة اليوم التالي ، تقريباً وهي في
كامل ملابسها . دعته « جيوزبينا » لمشاطرتها طعامها في الباحة الصغيرة
الداخلية ، التي كانت تظللها في شكل عرزالٍ واقٍ نبتة حلوة متعرشة .

« تعرفين اذن مدام « آغرسيتي » ؟

- زوجها ، قالت جان وقد زایلتها الرغبة في الكلام أو في التستر على
أي شيء كان .

- فنان ! نبرت « جيوزبينا » . سترين لوحه له في الغرفة ١١ ، زنجية
تسرح شعر أخرى . ذاك ما ينقصني ، زنجية . كان عندي منهن في
بداياتي . كن يشتغلن كثيراً ، إلى أن جاء يوم قلن لي وداعاً ، ليمضين

وحدهن ويعشن معاً. لقد منحتهن بركتي فليس لي سوى مبدأ واحد،
سعادة الجميع. تدخل الواحدة بيتي بلا عقيد. فالقلب وحده ما يحسب
حسابه، وعليه تؤسس أمتن العقود. أنت جئت من أجل «آردوينو»،
أليس كذلك؟

- أجل، قالت «جان» :
- فلم تجديه. وكان قد أعطاك عنوانه. وأنت تجبينه.
- كنت أحسب ذلك.
- هذا حسن، قالت «جيوزينا». يمكنني إذن أن أكلّمك من
فوري.

رفعت «جان» عينين قلقتين، وتقبّض حلقها.
قالت مدام «جيوزينا» :

«عرفت «آردوينو» وهو بهذا الطول. وعندما صار كبيراً. وقد
احتفظ بأفضل الذكرى عن التربية التي منحته إياها. يجب أن يبدأ
الصبيان حياتهم بين أيدي مجرّية. فهذا سر الاحتفاظ بفؤاد فتى، خالٍ من
الجروح. إنه بين الحين والحين، ومن قبيل الاعتراف بالجميل، يبعث لي
النسوة الصبايا اللواتي يقابلهن. وإنني لأعترف أنك جئتني بحيلة أكثر
نعومة، ففي العادة يصطحب إلى هنا صويحباته. لم يجرؤ على استقبالك.
إن للرجال أحياناً نذالاتهم، لكن لعله أحبك أكثر من الأخريات».

كانت جان تنظر إلى ذبابة تهبط في عنق دورقي قائم على الطاولة، التي
رسمت الظلال عليها نقوشاً. كانت قد بلغت مرحلة شديدة العناء،
وعادت إلى طبيعتها الكسول، وميلها العميق إلى القبول بحكم القدر.

« أو ما زلت تحببته؟ سألت « جيوزينا ». غالباً ما تكون عواطفنا محاولاتٍ موهية للإقناع. والواقع أننا نتوق جميعاً إلى هدوء النفس، تلك هي السعادة، ولا شيء غير ذلك ».

كانت القوادة تحذق في « جان » بعينٍ نفاذةٍ وتخرقها. لم يك في هذه البنت ما يحير إلا ظاهرها. وإنما لتقسم أنها غير جديرة أن تتوَّج. وإذ كالتها بمكيالها ثمنت كل ما يسعها أن تستخلص منها.

« باريسية! ذاك جانب أيضاً من الأسطورة. وههنا يجب الإفادة منه. في مدى شهر قليلة، يا عزيزتي « جان »، ستكونين لنفسك ثروة. ستعودين إلى موطنك، وترتاحين، وتعيشين ميسورة دون اعتمادٍ على شخص، وتعودين لرؤيتي لموسمٍ جديدٍ.

قالت « جان »:

- ما عدت أريد رؤية هذا الرجل قط. هل يأتي إلى هنا؟
- سأتدبر أموري بحيث لا تلتقيان أبداً.
- هل يأتي؟ غمغمت « جان ».

كانت موجة تنقضّ عليها، واحدة من تلك الأمواج التي تكتسح في الكوارث الجدران والزهور، الحاجات، المارة، الأشياء الحبيبة، وتصهرها وتحيلها إلى خليطة عجينية، تغطي الأرض بحلٍ ينهار. « وجان » التي كانت « جيوزينا » تراها دقيقة القدّ في غلالاتٍ شفافة، وهي تستقبل الزائر ببسمةٍ حزينةٍ أخاذة، لم تعد سوى شكلٍ حائرٍ، نتوء في صورةٍ ما ضمن الوحل العام.

« أفهم كونك تفكرين، قالت مدام « فورني »، منذ اللحظة هذا ردّ

إيجائي. يا صغيرتي، المستقبل لك. حصيلة كبيرة. لا تحدثنيني بشيء عن حياتك في باريس. حدثني «آردوينو» عن كل شيء. أنت وحيدة بائعة صنف ثانٍ لدى خياط. مناولة دبابيسٍ إلى مصلحة الأثواب. الإتيان بقطع الفرو من خزانة الملابس، قهوة للمدام البائعة، زوج من الجوارب للزبونة، الركض إلى المشغل، هل الطلبات جاهزة؟ ساعية، متدربة، نقالة! لا تنسي العينة! اذهبي فاطلي إلى العارضة أن تعود إلى ارتداء القطعة الثامنة من المجموعة. عجلي يا «جان»! وتبعث بك العارضة بدورها لتعثرني لها على أحمر شفاه، والرئيسة لا تريد أن تستلحقك العارضة. دعي مساعدتي، فأنا بحاجة إليها! إنني لا أعثر عليها قط. إنها تقوم دوماً على خدمة الآخرين. وبالطبع، هنالك اللحظات الطيبة، حين تجرّب الواحدة في القبو معاطف الزبونات، حين تنتزع أختام المبيع إلى اللآتي يرغبن بتزيين أثوابهن بقرشين. فهذا يزيد، ولكن بنحو ضئيل. ونادر جداً حصيلة الشهر الضمنية! عدا رسميات الصباح لدى الحضور! وويلك إن أنت نسيت أداء تحية الصباح لمديرة الدار، وبالتدريج لسم المراتب كلها! لكنها آخر الأمر حياة، طالما أن سيداً يظهر ذات يوم، ويرغب بتقديم وشاح، ويكلمك هذا السيد بلطف، يكلمك أنت، أنت وحدك، لأن في وجهه نظراً. إنه يدعى «آردوينو». العين سوداء، نفق ينفث هنالك على السماء، اللوحات المصورة، غرفة الحب، عن روما، عني، يا «جان»! وهل لك أن تعلمي أنهن جميعاً، جميع أولئك اللواتي ساعدتهن، بعد الكثير من الزبائن، زبائن راعين، وأنت تبدئين المهنة أيام «المجمع الديني»، كلهن وجدن زوجاً؟ إنهن يكتبن لي. لسوف أجعلك تقرئين رسائلهن. إنهن صديقات».

أخذت «جان» الدورق بحركة بطيئة وقلبته، ساكبة الماء على الغطاء،

ومختصة الذبابة التي اجتازت الطاولة، على مدى زمنٍ طويلٍ، قبل تمكنها من الطيران. فقدت عينا مدام « جيوزينا » لونها، « وانقلبنا » قرصين شفافين، بلون رماديّ قاتلٍ. كيف تراها انخدعت إلى هذه الدرجة! مع أن يد « آردوينو » كانت دوماً يد سعيدٍ. فيالسوء الحظ أن تكون « جان » التي استقبلتها الطفلة على غير توقع في المرة الأولى، قد عادت إلى بيت عائلة « أغرستي » من جديد! كيف يعاكس المرء القدر؟ نظرت إلى الساعة الراقدة بين ثدييها، وكانت على وشك أن تقول: « يا آنسة، بعد ساعتين لديك قطار إلى باريس »، حين تبسّمت لها « جان ». رأتها مدام « جيوزينا » تأخذ الدورق من عنقه، فزايها أيما تفكير إذ تملكها الرعب. فلعل الموت حين يحتم، لا يدخل إلا الجسد المفرغ. شعرت مدام « جيوزينا » أنها رحة وباردة، قصرٌ خالٍ فيه ألواح زجاجية طويلة تنتظر حلول الليل، غير أن « جان » التي كانت تداعب الآن بكلتا يديها تعرجات الكريستال، قالت بصوتٍ واضحٍ سمعته الأخرى كشكوى صادرة من أعماق أبعد غرفة من غرف بيتها:

« حسناً، أبدأ غداً ».

مناورات ضرورية

نقلها إلى العربية
صلاح دهني



١٩٨٨

الهيئة العامة لكتبة الإسكندرية	
٨٥٦, ٨٣	رقم النسخة:
٤٧٢٥٦	رقم التسجيل:

مناورات ضرورية

دوميترو تسينياغ (رومانيا)

Dumitru Tsepencag (Roumanie)

★ دوميترو تسينياغ: ولد عام ١٩٣٧ في بخارست، يعتبر منذ عام ١٩٦٥ قائد جماعة من الكتاب الرومانيين الشباب، لجأت إلى طرق أخرى في التعبير غير طرق الواقعية الاشتراكية. مؤلف عدة مجموعات قصصية.

حضر رجل بادىء ذي بدء يسحب وراءه كرسيّاً، وكان يجره بنصب شديدٍ على إسفلت السّاحة الخشن. كان كرسيّاً ضخماً من الأبنوس منحوتاً بثرّاء، كعرشٍ حقيقيّ. وضع الرجل المقعد الثقيل العتيق بعناية في وسط السّاحة تماماً، ومن ثمّ انصرف.

عاد بعد مضي بضعة دقائق، فظهر ومعه كرسيّان آخران، أصغر من الأول وأقلّ وزناً، فوضعهما مقلوبين، فوق الآخر. وسحب من جيّبه منديلاً مسح به جبهته المنمّدة بالعرق. ثمّ عاد أدراجه.

وبعد فترةٍ وجيزة عاد مع رجلٍ آخر مثله قامّةً، وصنوه شبهاً. كان كلّ منهما يحمل على ظهره - وهو ينفخ تعباً - حملاً من الكراسي. ويبدو أنّهما على عجلةٍ من أمرهما. فوضعا الكراسي كيفما اتّفق فوق مثيلاتها، ثمّ ابتعدا بجريان جرياً، وحينما عادا، كانا يدفعان عربةً من صنفٍ ما - سطح فوق عجلتين - كدّسا فوقها عشرات الكراسي. أفرغا العربة بسرعةٍ واستدارا على عقبيهما بالسرعة ذاتها.

تكرّرت العملية على مدى ساعاتٍ عدة. وخلص الرجلان إلى أن ملاّ

الساحة بجشدٍ من المقاعد من مختلف المقاسات: كراسٍ ضخمة احتفالية مثل سُدّة الكهان، ثلاثية الأرجل، مضحكة ذات أقدام كأقدام الطيور المائية، مقاعد مستديرة بلا ظهر، نمارق بطينة ذات مخملٍ طرّي، منابر عالية وقاسية، دواوين ثمينة من خشب الجُزُر، أو كراسي مطبخ ذات دُفوفٍ أسيء تقطيعها، صبغت بالأخضر، مقاعد طويلة مستطيلة، ودكك منخفضة مغطاة بالخدوش، مصاطب مطبخ، ومقاعد ذات أذرع وسيقانٍ مذهبة... يحيط من المقاعد .

كانت الغيوم في أثناء ذلك تتجمع. وفي الأفق البعيد، في العمق، تبدو فسحة من سماءٍ زرقاء. كان الجو قد مال مذاك إلى البرودة، وهي تزداد شيئاً فشيئاً.

بدا الاعياء على الرجلين. كانا يلهثان، وقد غشّاهما الغبار، وتلطّخ وجهاهما بسواد الدخان والعرق. ومن أرديتهما الممزقة كانت تظهر عضلاتهما المعصوبة. ولم يمتحنا نفسيهما أيّ برهة للراحة، بل شَمَرَا الأردنّ وانكبّا على العمل. فجعللا، بدءاً، من المقاعد المتينة ذات المساند الحديدية مرتباً يشكّل الأساس، وزفعا فوقه الكراسي والمقاعد الأكبر حجماً. وفي خفّة مذهلة تسلق أحدهما على كتفي الآخر، ومن هناك صعد فوق مساند المقاعد، كما يصعد المرء على صقالة. وأخذ الذي بقي في الأسفل يلقي إليه بالكراسي الأخرى واحداً بعد واحد. ويبدو للملاحظ أنها كانا يتبعان خطة أعدّاهما طويلاً، فهما يرتبان المقاعد حسب نظامٍ محدّدٍ مسبقاً: فوق المقاعد الكراسي الواطئة المستديرة، وفوق هذه صفّ من الكراسي ذات الظهر العالية، ومن ثمّ دكك توضع شاقولياً بنحوٍ متوازنٍ كلياً، وهكذا دواليك. فلما خارت قوى الرّامي بسبب الارتفاع الذي بلغه بناؤهما، عمداً إلى طريقةٍ مبسّطةٍ بقدر ما هي حاذقة، فقد صنعا،

- باستخدام حبل مرّاه تحت ساعدي مقعدي - ، نوعاً من البكرة المت
الرافعة ، وعلى هذا النحو ارتفعت الكرسي الأخرى بدورها نحو
ومن حين إلى آخر كان الذي بقي في الأسفل يسأل :

« هل تشاهد شيئاً ؟ هل تراه ؟ »
وكان الجواب في كلّ مرة سلبياً .
فيعاودان العمل ثانية باحتداد .

وعندما جاء دور الكرسي الأخير ، ربطه بالحبل ، ورفعته عالياً ،
يشاهد الرجل الجاثم فوق قمة هذا الهرم الهائل إلّا بصعوبة فائقة . فما
من الآخر إلّا أن جمع يديه حول فمه على صورة مكبر صوت ، وصا

« هيه ! هل تراه الآن ؟ »
فلم يتلق جواباً . فكرّر سؤاله ، وهو يكاد يزجر :
« أجبني ، هل رأيته ؟ »

فما ردّ عليه أحد ثانية ، فأخذه الغضب ، وجعل يرفس برجله
ويضرب بقبضتيه على الكرسي التي كانت في متناول يديه ، ويهزّ ظ
المقاعد المنحوتة كما تهزّ القضبان .
ثم إنه صرخ ثانية في اتجاه صاحبه .
وأخيراً استسلم للسقوط تعباً على بلاط الساحة البارد ، وانفجر ناز
وقد أخفى وجهه بين يديه .

حكاية مزرعة

نقلها إلى العربية
صلاح دهني



١٩٨٨

الهيئة العامة لكتبة الإسكندرية	
٨٥٦, ٨٣	رقم التوثيق:
٤٢٢٥٦	رقم التسجيل:

حكاية مزعجة

ندلتشو دراغانوف (بلغاريا)

Ndeltcho Draghanov (Boulgarie)

★ ندلتشو دراغانوف: كاتب بلغاري معاصر، نشر حتى الآن عدّة مجموعات قصصية. يتميز بمعالجة موضوعاتٍ من الحياة المعاصرة، فيها تصوير دقيق للعلاقات الإنسانية وفهم عميق وذكيّ لنفسية الرجل والمرأة في المجتمع الحديث، ويغلف الكاتب ذلك كله بنفحةٍ من الفكاهة، يستخلصها من طبيعة العلاقات التي يصوّرها.

الصديقة الحميمة

كان رقيقاً، مخلصاً، لطيفاً، (أو هكذا في أقلّ تقدير كنتُ أراه) ولهذا كنتُ أحبّه. كان هو نفسه يقول: أترين يا عزيزتي؟، أنا رجل بمعنى الكلمة. وكان يلحّ على هذه الناحية، أكثر مما يجب حسب رأيي، غير أنني كنتُ أوّمن مع ذلك بما يقول. من جهة أخرى لم يكن ثمة سبب يحول دون تصديق ذلك. وسارت الحال على هذه الصورة حتى يوم الصفر.

في يوم الصفر - وكان الجو جليلاً، والشمس ساطعة، وكانت السماء زرقاء - قرّرنا الذهاب إلى الجبل. كان يوماً جليلاً في الواقع، تناولنا فيه وجبةً طيبةً، ولم يستطع أي إنسان، حتى نادل المطعم أن يفسد علينا مزاجنا الحسن. كانت الأمور كلها تسير على أفضل صورة، خصوصاً أنّ «روميف» هذه المرة دون باقي المرات لم يكن على عجلةٍ من أمره. (كما هي عادته)، ولم يبدُ عليه الانزعاج من نظرات الآخرين. (تلك العادة التي تجعله دوماً في موقف المترصّد). وكان أماننا بعد الظهر بكامله وسهرة بتمامها. لنا، ولنا وحدنا. وكنا قد قرّرنا الذهاب بعد الغداء لنأخذ نصيباً من الراحة في موقعٍ لطيفٍ جد قريب، هادئٍ وصامتٍ،

(موقعنا) بعيد عن النظرات المتطفلة .

حين خرجنا من المطعم ، رأينا أنّ السيارة اختفت من مكانها . وكنت أتذكر تماماً أننا كنا قد أوقفناها في المكان الوحيد المتاح ، بين سيارة فوكس فاغن حمراء ، وسيارة لادا خضراء . وقد كانتا بالفعل هناك ، لكن سيارتنا البيجو كانت قد اختفت . دار بسرعة حول خلفيات السيارات - الخلفيات العليا والسفلى ، المستديرة أو المسحاء ، المتعددة الألوان - وهو يلقي نظرات تائهة من حوله ، حتى ظهرت بقع حمراء على وجهه - كعلامة مؤكدة على الاحتياج عنده . عاد إليّ راكضاً فاقداً أنفاسه ، غارقاً في العرق ، وبما أنه لم يكن يصدق عينيه ، فقد عاد يمدج المكان الفارغ الوحيد في الصف الطويل للسيارات المتوقفة - فيما بين الفوكس فاغن والادا الخضراء .

- مستحيل . سرقوها .

- مشكلة ارتكبتها بعض الصبية الرعناء ، يا « رومين » (Romine) ، وستجدها الشرطة على الفور .

- لكن في أيّ حالة ! مثل سيارة « نيكولا » (Nicola) ، حطّموها بكل معنى الكلمة ، ولا من رأى ، ولا من عرف .

وما لبث أن اندفع نحو الجرف العاري من الشجر ، ثم عاد أدراجه ، فاجتاز الساحة أمام المطعم العام راكضاً ، وهبط على مدى الجادة التي تقود إلى المدينة . وعاد فظهر بعد ربع ساعة ، وقد تخبّص وجهه وتقطّعت أنفاسه .

- لم .. لم .. لم أجدها .

- اسمع يا « روم » ، لننطلق إلى المدينة ، وهناك تطلب الشرطة من فورك .

- كلا ، ما الذي تتفوهين به ؟ أذهب هكذا ؟ بيجو ٥٠٤ ويحك ألا تفهمين .

وعاد يركض ، الله يعلم إلى أين .

انتظرتة نصف ساعة ، فما رجع . أخذت سيارة تكسي وعدت إلى المدينة . مكثت يومين دون أن أهتم له . وفي الثالث لم أعد أمتلك نفسي . طلبته في مكتبه .

- مرحباً ، « روم » ، أنت حرّ هذا المساء ؟

- كان عليك أن تسأليني أولاً عما جرى بالسيارة .

- وجدوها ، أليس كذلك ؟

- تصوّري أن الجواب : لا . الشرطة كلها أخطرت ، ومع ذلك ، لا شيء !

- لكنهم سيجدونها آخر الأمر ، لم تطر في الهواء « روم » ، هل نلتقي هذا المساء ؟

- كلا ، أرجوك ، ليس لديّ وقت . أنا أسير نحو الجنون ، وهي لا تفكر إلا بالتسلية .

- ماذا تعني ؟

- بالضبط ما قلته - كان الجواب قاطعاً .

- اسمع ، أنا أيضاً تقلقني حكاية السيارة هذه ، لكنني لا أرى أيّ شيء يسعنا عمله :

- اسمعي ، دعيني في سلام ، يكفيني ما أنا فيه . أنت التي حرصت على الذهاب إلى الجبل ، فالغلطة غلطتك .

أعدت السعاة ، هتفت له مرتين آخرين . لم تكن في رأسه سوى هذه السيارة . ما عادت به رغبة للخروج في صحبتي ، ولا أن يراني ، بل حتى ولا أن يكلمني . وقد توجب أن تحدث قصة السيارة هذه لأفهم أخيراً كم كان رقيقاً ، مخلصاً ، لطيفاً ، أعني ، رجلاً حقيقياً .

الزوجة

فهمت منذ أمدٍ ليس ببعيدٍ أن له صديقةً حيمةً . زوجي « رومين » له معشوقة ! جعلت أتصوره وهو يرفعها إلى أعلى عليين ، شأن ما كان يفعل معي قبل زواجنا . وأنا أعرف روحه اللطيفة معرفةً وثيقةً ، لذلك قررت تسوية الأمور بلا ضجيج ولا دموع . فحين أخذ السيارة ذات يوم سبت ، قفزت إلى سيارة تكسي ، وقد قرّرت ملاحقته . كانت صديقته تنتظره في زاوية الطريق ، كانت جميلةً حسب ما أمكنني أن أحكم من بعيدٍ - طويلةً وممشوقةً ، تلبس بدوقٍ ، ولها شعر أشقر ، أو خرنوبي فاتح . سلكت سيارة البيجو الطريق المؤدية إلى الجبل . فرجوت السائق أن يتمهل ، فبدا مندهشاً ، ونبر قائلاً :

- لا أفهم شيئاً ، كنت أظن أنك تودّين ألا تغفل العين عن سيارة البيجو البيضاء .

عندما بلغنا الساحة الصغيرة أمام المطعم ، أبصر السائق البيجو البيضاء

تلمع بكل بهائها ما بين سيارة حمراء وأخرى خضراء زيتونية. توجه إلى بسملة بآمرية، فسويت حساب التاكسي، وأخرجت من محفظتي مفاتيح السيارة، (فقد كان عندي بديل للأصلية). كان هنالك معطف نسائي بلون كحلي ملقى على المقعد الخلفي. لمسته، فوجدت القماش ناعماً للغاية. لا بأس، قلت في نفسي، وجلست خلف المقود، واتجهت نحو المدينة، وضعت السيارة في مرآب أصدق صديقاقي. فما عاد زوجي مساءً حتى أخذ يزجر:

- لعنة الله عليهم، الأوغاد، كومة القمامة، آه لو أني ألقى القبض عليهم:

- من هم؟ قلت في براءة. كان منظره مخيفاً - مبهوتاً، مشعث الشعر، وأي رأس، يا إلهي، كما لو كان يشكو وجعاً رهيباً في أسنانه.
- يا للأوغاد، اللصوص، الدواب الوسخة... (كان لا يتالك أنفاسه)، الأنذال الفجرة...

- لكن يا عزيزي، هديء نفسك، لا أفهم شيئاً مما تقول.

- سرقوا سيارتي، أفهمت؟، سيارتي البيجوا

- مستحيل!

- آه، لو أنهم يقعون تحت يدي، سأحطمهم، أؤكد لك ذلك، حتى لو ساقوني إلى السجن.

- لا تتفوه بالحقايات من فضلك، وبدلاً من أن تغضب على هذا النحو، ليتك تفكر قليلاً...

- ولكن ما الذي تقولينه؟، فطاعة... أفكر! أأنت التي تتكلمين عن التفكير؟ أنت والتفكير لا تلتقيان. أفهمت؟

- طيب، طيب، روح النكتة نامية عندك. هيا، هل هتفت إلى

الشرطة على الأقل ؟

هوى في مقعد ، انتزع ربطة عنقه انتزاعاً ، وألقى بها أرضاً بغضب .
- من هناك أنا آتٍ بالضبط .
- إذن ؟

- أخذوا رقم التسجيل ، ووعدوا بالبحث عنها ... هم يعدون
دوماً ... في أي حالة سوف يعيدونها إليّ ، في أي حالة ! هذا الذي يزيدني
انزعاجاً على وجه الخصوص .. سيارة جديدة ، بلا شطب ، أجل في غاية
الجدة ، مشت ٨٠٠ كيلو متر فقط ، وأنت تعرفين على الأقل كم كنت
أعني بها على الدوام .
- أعرف بالطبع ، فأنت لم تعري إياها سوى ثلاث ، أو أربع مرات ..
لم أمش بها ٥٠٠ كم .
- وهذا كافٍ لك وزيادة ، انفجر مجدداً ، أجل زيادة . إيه للأوغاد ،
الأوغاد ، فليقعوا بين يدي ، وليروا أي كارثة ستحلّ بهم .
- تمالكت نفسي بصعوبة كي لا أبتم .
- « رومين » ، لم أكن أعرف أنك قادر على إصدار صرير من
أسنانك .

- وكيف لا أصر .. هه غر ، غررر . وبعد ، ما الذي يهيك من الأمر
أنت ، إنها أسناني أنا ، وأفعل بها ما أريد .

- طيب ، طيب ، تابع ، ما دامت هذه الموسيقى تلدّ لك ، لكن ذلك
لن يجعلك تتقدم في الموضوع . قل لي متى ، وأين سرقوا لك سيارتك ؟
- كيف أين ، قال مقطّباً حاجبيه . تغضّنت ملامحه ، غير أنّ نظرتة
بقيت غامضة .

- كيف أين ؟ كان يجهد لكسب الوقت . الخلاصة ، كنت قد أوقفتها أمام المطعم ، تعرفينه هناك في الجبل . كنت قد ذهبت إلى هناك في صحبة أحد الأجانب ، ضيف على شركتنا . شخص هنغاري ، أو شيء من هذا القبيل . كان عليّ أن أدعوه إلى الغداء ، وهذا يحدث أليس كذلك ؟ ومن ثم ، أترين ، كان راعباً اطلاقاً بالذهاب إلى الجبل ، فقد سمع عنه أو ما يشبه ذلك . وعاد صوته ناعماً ، لا يكاد يسمع .

- ولماذا لم تركبا سيارة الشركة ؟
- لأن... لأنني أبله ، هوذا ! سوف يقال فيما بعد إنني راعب في استجرار مكسب... تعرفين ، وسيقال...
- اسمع يا « رومين » ، إنك تدهشني ! هذه أول مرة أسمع فيها شيئاً كهذا . لم يكن مثل هذا الأمر ليضايقك ، أو ليحرجك حسب علمي ..
- بلى ، لكن اليوم هو السبت ، وتعرفين أن تكليف السائق يوم السبت أمر مزعج ، أليس كذلك ... ؟
- بلى ، بلى ، معك حق ! لم تكونا سوى أنتم الإثنين مع ذاك الهنغاري .
- بلى ، طبعاً ، مع من تريدین ؟
- بأيّ لغة تحدثنا ، مع ذاك الهنغاري ؟
انتفض ونظر إليّ نظرة بلهاء .
- بأيّ لغة... لكنك لا تريدننا أن نتحدث بالهنغارية ، أليس كذلك ؟ كان يتكلم هو الفرنسية .
- هنغاري يتكلم بالفرنسية ؟

- ولم لا ؟ قولي لي . الهنغاريون ليسوا كالصينيين ، أليس كذلك ؟ إنهم أوروبيون ، أليس كذلك ؟ ، فلا غرابة . ومع هذا فما أهمية ذلك . صاح مجدداً في حنق . أنا أجنّ وهي تكلمني هنا عن الصينيين . فما كان مني إلا

أن انفجرت ضاحكةً.

- اية، يمكنك أن تضحكي، هيا - قال « رومين » مكتئباً - إنك تضحكين مثل... كما لو كانت تلك السيارة لا تخصك أنت أيضاً، كما لو كانت ملكاً للبقال الذي في الزاوية.

- لكم أنت مسلّ، حقاً. أين تريد أن يحشروا سيارتك؟ غداً أو بعد غدٍ، على الأكثر سيقعون عليها.

- أجل سوف يجدونها، لكنها لن تكون سيارةً بمعنى الكلمة.

انقضى أسبوع، صار الجو أكثر برودة، ووجدت نفسي أفكر بمعطف خليلته. يا للمسكينة، سترى نفسها مجبرةً على شراء آخر جديد، أو أن تلبس معطفاً شتوياً، منذ الآن. ومن الواضح أن « رومين » لم يفكر مجرد تفكير بالمعطف في أي لحظة. فما كان في رأسه سوى تلك السيارة. كان يتردد كل يوم على الشرطة، ويهتف - دوماً لا شيء! كان يحقد على الشرطة وعلى الدنيا بأجمعها لعجزها عن اكتشاف المجرمين. (أشخاص كهؤلاء - كان يقول وقد خنقه الغضب - يجب إعدامهم، إعدامهم فوراً!).

بعد عشرين يوماً، عندما لاحظت أن رومين قد نقص وزنه بسبب عدم النوم، وعدم الأكل، وأن أعصابه باتت على وشك الانهيار، وأنه بعث بخليلته حتماً إلى الجحيم. (فالسيرة قبل كل شيء)، أعلنت أمامه أنني تلقيت هاتفياً من الشرطة: أن السيارة موجودة في الساحة التي تركها فيها أمام المطعم.

- لكن هذا مستحيل . زجر بقوة . ذهبت إلى هناك ست مرات على الأقل !

- حتى لو ذهبت إلى هناك عشرين مرة ، فالأمر سواء . قالوها بوضوح ، بيجو ٥٠٤ - رقم كذا وكذا - سيارتنا البيجو هي الموجودة أمام المطعم - نظيفة ولم يصبها أذى .
رفض حتى أن يتناول غداءه . طلب سيارة تكسي .
- لكنها سيارتنا ، بالفعل ، صاح وقد أثملتته الفرحة ، منذ أن رآها .
وفيما كان يسوي حساب التكسي ، هرعت إلى السيارة التي كنت قد أعدتها بنفسني في ذلك الصباح .
قلت له :

- أنظر ، يوجد داخلها معطف نسائي . لا ريب في أن شخصاً ما قد نسيه ، أتعرف ، هناك مؤخراً نسوة كثيرات صرن عضوات في عصابات .
إنه أنيق جداً . ما رأيك فيه ؟
- ما عساي أفكر - قال مغمغماً بعض الشيء - معك حق بلا شك ، فالنساء يمكن أيضاً أن يصبحن سارقات .
- في هذه الحالة يسرني أن أقبل هذا المعطف كهدية متواضعة من سارقة كبيرة .

المنشرة

نقلها إلى العربية
صلاح دهني



١٩٨٨

الهيئة العامة لكتبة الإسكندرية	
٨٥٦, ٨٣	رقم التخصيص:
٤٢٢٥٦	رقم التسجيل:

المنشرة

أوغستو روا باستوس (باراغواي)

Augusto roa Bastos (Paraguay)

★ أوغستوروا باستوس: ولد عام ١٩١٧ في الباراغواي. يعتبر أحد معلمي القصة الواقعية، برز في وصف شقاء واستغلال أهل بلده، الذي هو أفقر بلدان أميركا الجنوبية.

يتبادر للمرء ، أيام الريح الشمالية ، أن المنشرة أقرب إلى القرية الصغيرة مما هي عليه حقاً ، لأنّ العصفات المحرقة تقرّبها منها ضمن هدير المناشير الكبيرة . علماً أنها لا تبعد أكثر من نصف فرسخ . فهي قائمة في الموضع ذاته الذي بوشر فيه بنشر الجذوع الأولى بُعِيدَ « الحرب الطويلة » ، حينما وُضعت الأراضي المصادرة في المزاد العلني لرفع الديون - كما قيل - لمنتصري « الحلف الثلاثي » . وهذا ما يبعث على الاستغراب ، إذ هو يشبه أن يقضى على أهل الميت بأن يموتوا كذاً ونصباً ، على مدى عشرة أجيال ، ليدفعوا للقاتل نفقات الميتة والدفن . إنها حقاً حكاية من الحكايا التي تُروى في سهرات المآثم . ولكن امض فاروها في سهرة مآثمٍ ما ، فقد تُفيض في القول ، وتفعل ما يحلو لك فعله : لكن ذلك لن يُضحك أيّ إنسان ، لأنّ الناس يسخرون منه كعادتهم وهم يزدادون سخريّةً مما جرى سابقاً . حتى أنهم ليسخرون بالقدر ذاته مما حدث مؤخراً ، وما عساه أن يحدث . إنّ الناس لا يتذكرون البلاء ، وبما أنه لا يحدث ما يسعد ، فالناس لا يتذكرون شيئاً .

ولعلّ من الأفضل أن تسير الأمور على هذا النحو .. لكن أسوأ ما في

الحال أنّ الأمور قد لا يسمعا أن تجري مجرى آخر، لأنّ تلك الأرض، وعلى الأقلّ تلك التي أعرفها من منطقة غويرا، حيث ولدت، بقيت مدفونة عملياً في الماضي. الأرض والبشر. فإذا رغبتم في معرفة قرارة نفسي، فسأقول إن ذلك هو شأن الدواب ذاتها، لا تلك التي نَقَطُرُها أو نَحْتَسِبُها فحسب، بل حتى الحيوانات المتوحشة. كل نوع: الأفاعي، الحشرات، حتى الطيور التي تطير بنحو منحرف، كما لو كانت توشك على السقوط في أي لحظة، مصطدمة بذاك الجدار من القبط الأبيض كلّهُ، الذي يسدّ الأفق من أيّ جانب تملّأه المرء.

يكفي أن يرى المرء العيون الباهتة، الخالية من الذكريات، وتلك الحركات التي لا تعرب عن أيّ توقع، حتى ولا عن الأمل أن الزمن يتصرّم ويجرف معه ذاك الموج كله المرتد على أعقابهِ، المترام إلى علوّ يوشك معه أن يلامس سماء الهضبة السفلى والكثيفة.. ذاك الموج المرتدّ الموجود حتى لو لم نره، لأنه في داخل كلّ منّا، أكثر منه في خارجه، ويطفو بالتأكيد في نظراتنا وفي تنفّسنا، في تلك الطريقة التي تَحْصِنُنا بالمشي كما لو كنا نضع قدماً خلف الأخرى، ونتكلّم بصوتٍ خفيضٍ ومغشّى، كما لو أننا نعبّر عن مرادنا بنحوٍ معوجٍ.. ذاك الموج المرتدّ الذي يمكث كلّهُ دوماً في ذاتك، مهما تبادر لك أنك قد تخلّصت منه. ونحن كلّنا ازددنا تجدثاً عنه، وأمعنا فيه تفكيراً، ازداد هو تسمياً لدمائنا.

لكنّ المشكلة أنّ الغيوم ذاتها قدرة، بلون القطن الخام المزوج بالتراب.. لأنها، تحرف بالتأكيد مياه المستنقع المحيط بمنطقتنا. ففي كلّ عامٍ يهطل مطرٌ أحمر يوم القديس «بليز» (Saint - Blaise) فإذا لم يهطل في سنة من السنين، قلق الناس لأنهم لا يرون هطوله؛ كما هي الحال

مع الجفاف، أو الجراد، أو الثورات. عند ذاك يمشون لاستجداء مسيح
الرابية، الذي بدأ دون ريب يملّ اللّجوجين، من هذا الشعب، متسوّل
العناية الآلهية.

هنالك، على جنبات الرّابية، كانت تولد الغابات العذراء التي بُدِئ
بقطعها منذ بعض الوقت، وبات جزء كبير منها، - حسبما يُقال -، ملكاً
لذاك الماريشال البرازيلي، الذي قاد جيوش الاحتلال. وهي الآن تستثمر
من قبل « شركة الغابات الباراغوانية - البرازيلية ش.م. » هذا إذا صدّقنا
الكتابات المصوّرة بالقطران على نقاط التخوم وعلى العرّبات. وفي هذا
المكان بالضبط تقوم المنشرة مثلما كان عليه الأمر فيما مضى: ضيعة أصغر
من الأخرى، أكواخ بلا جدران، ليس فيها سوى عوارض، سقوفها
القشّية ذات المنحدرين، وقممها المصنوعة من الخشب الغليظ، وتحتها
حفرها المربعة كالقبور.

كان في كلّ كوخ رجلان يعملان من الفجر حتى الليل: كان أحدهما
في الأعلى، واقفاً على الجذع، رافعاً ومنزلاً ببطء ذراعيه المشدودتين على
مقبض المنشار الضخم، متتبّعاً بوصة بعد بوصة الخطوط المرسومة
بالدخان الأسود على القشرة الخشنة. أمّا الآخر فأرأسه خارج الحفرة،
وقد ابيضّ من النّشارة المتساقطة.

إن كلّ شيء على حاله الأولى، ومن المؤكّد أنه لن ترتّب أبداً مناشير
على البخار، وبقدر أقل على الكهرباء، لأنه إذا كان صحيحاً أن أذرع
الكادحين تعمل ببطءٍ أشدّ، فإنّها كذلك أقلّ كلفةً، ومن جهة أخرى،
فلو رُكّب منشار ميكانيكي، فلن يغيّر ذلك عظيم أمرٍ. فلا تزال غابات

عذراء باقية . فلو جرى ذلك بمنشار بخاريّ ، أو بطاقة مولدة من الماء ، أو ببساطة ، من رئات الرجال الذين ينشون شقين لدى كلّ هدير منشارٍ تحت سقف القشّ المتعفن ، فسيبقى عملٌ لمدة ألف سنة . إنّ الزمن لا حساب له . فلا معنى للزمن عند أولئك الرجال ، سوى تلك الغابة التي لا نهاية لها ، والتي تقطع المنشرة أوصالها ، وحيث لا يفكر المرء إلا أن يبصق في يديه ، بعد قطع شبرين أو ثلاثة ، لكي يمسك من جديد مقبض المنشار الكبير ويعاود العمل .

« ها قد عاد ايلوجيو » (Eulogio) ، خبر ذاك الذي في الأعلى ، رجل قصير غليظ . وذراعه القصيرتان تضطّرانه للانحناء أكثر من الآخرين .

« من ؟ » سأل الذي في الأسفل .

- « ايلوجيو أسكيفل » . توجب على القزم أن يرفع صوته ، واغتم تلك الفرصة لإيقاف المنشار الكبير في الجو ، وليمرر حافة يده على صدره الدبق . هزّها بعصبية ، فتساقط الرشاش على الألواح . وفي الحال ، جاءت الزنابير (الذبابير) الحمراء الجائعة ، فاندست داخل هذا الثفل من الخشب والعرق .

- « ايلوجيو أسكيفل » ردّها الرجل الشاب كالصدي ، وهو ينظر إلى البعيد .

- رأيته وأنا قادم قرب الساقية ، نائماً تحت شجرة . كانت قبعته فوق وجهه . لكنني واثق من هويته . بسبب تلك الطريقة التي كانت لايلوجيو باظهار نفسه ، حتى حين يكون ثملاً ، أو مستغرقاً في النوم ، كان الشخص هو ذاك العفريت أسكيفل .

- لا يمكن أن يكون هو. فقد انقضى ربح من الزمن وهو في الأرجنتين.

- لِمَ تراه يعود ؟ فهناك كل ما يُرجى من عملٍ ، ولكلّ الناس .

- لم يقلق العمل باله قط. لا ريب أن في ذهنه خاطراً آخر، تعال أعرفه، ولعلّ ذلك فقط، من أجل متعة أن يدس تحت أنوفنا العضلات القوية والأموال التي عاد بها من هناك .

- شاهدناه في حالة « دون نيكانور بلّها سيّد » .

- يمكنك أن تثق. وافق القزم، إن الأمر كذلك حقاً. فالأمر الأول الذي كان يهّمه، أن يمضي، فيسكر كعادته دائماً. ولعلّي أخطأتُ إذن. يا لِلْحَرِّ العاهر ! وطعام الغداء ما انفكّ بعيداً... »

كان جليّاً أنه يعمل على إطالة المحاورّة، فيتكلّم في أمورٍ وفي أخرى، من أجل الاستمتاع بمتابعة تهوية نفسه بقبعته الوسيعة من القشّ، وهو مزروع بقوة فوق جذعه. فلم يجب الآخر، بل أفاد هو أيضاً من الاستراحة، لينفض النشارة اللاصقة التي كانت تلتصق جلده.

« أوّد لو أتمدّد هنا بالذات، تابع الآخر، فأحتسي جعّة مثلجّة جدّاً، مثل تلك التي يقدمونها لك في منهل « ايتابيه » يا للشيطان ! يتمثّل لي أنّي أرى العرق المتجمّد الذي يكسو القنينة لا شيء أفضل من الجعّة، يا صاحب. أتمنّى لو أخرج قنينة بعد أخرى بلا حراك، حتى أصاب بالحزقة، وإلى أن أحسّ بما يشبه ساقية من الجعّة المثلجة تسري فيّ، وتدغدغ أنفي برغوتها... وأنا أعتقد أني ذاهب أيضاً يوماً ما لأحسن

أحوالي في الأرجنتين. فقد ننجح هناك ، « يامانويل » Manuel . يقال : إنّ المرء هناك يأكل ويشرب جيداً ، على الأقلّ .

- يجب أن نعاود العمل ، يا « بيرو » Peru . نُنْزِجِي الوقت في تسمين أنفسنا ، وهذا لا يدفع العمل . غرز الرجل السمين قُبْعَتَهُ ثانية حتى عينيه ، وعاد المنشار الضّخْم يزجر على خشب التّيمبو .

حدث ذلك في الصباح ، قبل وصول النّساء حاملات أواني الغداء .

وعند غروب الشّمس ، ولدى إشارة رئيس العمّال بالضّرب على قطعة فولاذٍ ، هبط الرجال عن المنصّات الحاملة ، وخرجوا من الحفر ، فكذّسوا الألواح ، وجمعوا الأدوات بعجلة فائقة ، في غمرة من مزاحٍ وصيحاتٍ جافية ، أخذت تنطفئ بلا أصداء بين أكوام النشارة .

تأخّر « مانويل راموس » (Manuel Ramos) أكثر من المعتاد ، وهو يعدّ الألواح ويكعبها ثم انغمس في سنّ المنشار الكبير بتباطؤ كبير بحيث أن رئيس العمّال اقترب وقال له :

« ألن ترجع إلى بيتك ؟ »

- بلى ، قال دون أن يلحظ لهجة الآخر السّاخرة .

- لا ريب في أن زوجتك تنتظرك . (وأمام صمت مانويل (Manuel) : أنا لو كانت لي زوجة مثل زوجتك ما تركتها قيد أمّلية .
قالها مع غمزة عين ، لم يرها مانويل Manuel أبداً ، لأنه كان منحنيّاً على الفصل المثلّم الملتصع كلّهُ بلونٍ أحمر فاقعٍ تحت البريق الأخير للغروب .

بعد انقضاء برهة، عاد مانويل Manuel متأيلاً، وهو يعرج لدى كل خطوة يخطوها، في اتجاه الدور الزراعية غير المرئية عبر الساقية، على الجانب الآخر من صفوف التخليل كانت طيور ضخمة ماثلة تطير عنه وهي تزقو. كان يستنشق بقلق رائحة ثمار الغوافة الناضجة التي يعبق بها المساء، وذاك الفوح المعدني الصادر عن الصراير التي اطار صوابه اقتراب الليل؛ شيء ما يمكن لمسه بالأيدي، أليس كذلك، يا مانويل (Mnuel)؟ مثلما كان يحدث حين كنا أطفالاً، ثمضي للسباحة في المستنقع لعلك كنت تبادلني الكلام الآن أيضاً، ولو لم تتكلم لعرفت من الأمر القدر ذاته بمجرد أن أنظر إليك. وكل ما جرى من بعد كان سيجري. وما كانت لي حاجة لأن أحفر رأسي كي أحزر مشاغلك.

إنك حين ترجع إلى مزرعتك، تعاودك أمسيات صيفية أخرى كهذه. بالتأكيد، حين بدأ خصامك مع « ايلوجيو » (Eulogio) على حب « برونيل سانا بريا »، (petronila sanabria)، خصام بدل أن يفرق ما بينكما، جمعكما بقوة متعاضية في ذاك الضرب من المطاردة المتبادلة الذي لم يكن سوى شكل جديد للصحة، تلك الصحة الشجارية المتحررة التي ما كانت تبلى فيما بينكما أنتم الاثنان منذ أيام المدرسة في « ايتابه » (Itapé). فأمامك بمقدار صنفين كان مقعد « نيل » (Nila) التي تنعج لكليهما وتقبل منكما الإثنين، بلا تفضيل ظاهري، بيوض الحجل الملونة، وأناني البتغاء الصغيرة التي التقطت في الغابة بالشرك، الأمر الذي لم يكن ينبجم عنه سوى أن تعمدوا إلى مزيد من شد القبضات والعص على النواجد حتى الإدماء. لقد كانا حينئذ متقاربين جداً، متلاحمين أحدهما بالآخر بالحبّة ذاته، وبالكراهية ذاتها، حتى لم يعودا سوى الشفتين والأسنان من فم واحد.

حلّت مع ذلك، فترة تبادر فيها « لايولوجيو إسكيفل » (Eulogio Esquivel) أنه في سبيله إلى الانتصار: حدث ذلك حين أصبحت معوقاً بإحدى قدميك، وبدأت كلمات السُخرية والهزء التي كان « ايلوجيو » (Eulogio) يستثيرها أكثر من أي شخص آخر، دون أن يدري أنّ ذاك المزاح ذاته كان يثني « بترونيلا » (Petronilla) لصالحك، هي التي ما كانت قادرة على رؤية انسان ما يتوجّع، بل ولا أصغر دابة تضرب. ومن بعد، طلبهما التجنيد كليهما إلى « آسونسيون » (Asunsion). هل تراك تذكر أنّ الأمر جاءك كالفرج، لأن حبّك « لبترونيلا » (Petro Nila) طوال ذاك الوقت كان قد تعاظم وأنّ ما في قدمك من عيبٍ فقط هو ما كان يعينك على كتمانهِ، خشية أن تُذله وأن تُذلّ أنت نفسك، لأنك ما كنت قادراً على تحمل إشفاقها؟

كانت تلك العاهة - نوع من الثآليل لم تَسعَ إليه - هي التي أعفّتك من الخدمة وأعادتك إلى القرية. أمّا « ايلوجيو » (Eulogio) فاضطرّ للبقاء مجترّاً غضبه وغبار الثكنة، طوال سنتين لا نهاية لهما. فلَمّا عاد، رأى أسباب تخوّفه في مرآة الواقع: اكتشف أنك تزوّجت من « بترونيلا » (petro Nila). فشعر أنّ خيانة مزدوجة قد حلّت به، في صداقته وفي حبّه. إلا أنه لا يفاتحك بشيء. بدا فجأة وكأنه نسي تلك السنين كلّها من التنافس. حتى ليقال: إنه انقلب حقاً على حين غرة، وللمرة الأولى، صديقاً لك، رغم أنك - باختصار - شككت بلا ريب في البداية أنه ينوء الآن بعبء إخفاء خبيته، بمقدار ما وقع عليك أنت نفسك في البداية عبء إخفاء يأسك. واقتنعت آخر الأمر بإخلاصه، أي أنه بمعنى آخر خدعك للمرة الأولى. وقد خدعك لأنك كنت تجهل ما حاك خلف ظهرك. وفي هذا لعلّ « بترونيلا » (Petro Nila) أخطأت حين كتمت

عنك كل شيء.

وإنك لتذكر أن «إيلوجيو» (Eulogio) منذ عاد كان يخرج قدميه كشخص تافه في القرية. كان يقضي أيامه كلها في حانة «دون نيكانور بلما سيذا» ، (donnicanor Balma ceda) ، وهناك اعتاد التردد على بيتك ، مشبعاً بالخمر والغم ، لمناوشة «بترونيلا» ، (petronilla) ، زوجتك أنت ، في حين كنت تضمي نفسك تحت جذوع الخشب المدورة في المنشرة .

بذلت «بترونيلا» (petronilla) جهداً لطرده ولإسماعه صوت العقل . فكرت بأفضل وسيلة لإبعاد رجل في مثل عناد «إيلوجيو» (Eulogio) . أما هو ، فقد تخيل أن الأمر سينتهي «بترونيلا» (petro Nila) إلى الاستسلام . وذات صباح تجرأ وأراد استعجال الأمر . فقاومت «بترونيلا» (Petro Nila) - وللأسف أنك لم تدر بذلك - بسكين مطبخها ، وسببت له جرحاً في وجهه . عندئذ اختفى . وفي المرة الأخيرة التي سمعت عنه كلاماً ، علمت أنه شوهد لدى نزوح العمال الموسمين الذين يهاجرون كل عام للحصاد عبر الحدود .

ولكن في هذا العصر الوردي والحار من كانون الثاني ، عاد «إيلوجيو» اسكيفل» (Eulogio Esquivel) فظهر بعد غياب ثلاث سنين . رآه «مانويل» (Manuel) من بعيد ، حزر تقريباً من يكون ، وهو مستلق على حافة الطريق بين الأعشاب المجنونة ، بقبعته المنزلة فوق وجهه . فينتصب دفعة واحدة ويمكث جالساً ، متكئاً على كوع ، ناظراً إلى «مانويل» (Manuel) ومرسلاً ضحكة عريضة .

«هولا ، مانويل» (Manuel) .

إنه أشدّ سواداً وأكثر نحافةً، لوّحته شمس أكثر قدرةً على الإحراق من شمس المزرعة وحرّقة المسافات، والدروب والتيه. إنه محروق بنحو أخصّ من الداخل، بتلك الشعلة التي يلحظها المرء في عينيه، في ضحكته، فوق جلده المسمر، المتيبّس بلا قدرٍ ولو ضئيل من الشحم، الملتحم بشدةٍ بعظام وجهه، الذي يكاد يتمزّق عند الوجنتين البارزتين. لا يزال يُبدي المودة والتباعد، كأنه لم يرجع بعد تماماً، أو كما لو كان بعث بغتةً تحت شجرة الغوافة، ولم يسعه بعد أن يجمع جسمه كلّهُ بسرعةٍ. وأنا خلال تذكري رجالاً من شاكلة « ايلوجيو » (Eulogio) مثل في ذهني ما قلته قبل قليل: هذا الصنف من الموج المرتدة، الوحل الجاف، الحياة بالقلوب، كما هي متواجدة داخل أعطاف كلّ منّا، والتي لا يسع « ايلوجيو » (Eulogio) اخفاءها، حتى ولا بتلك الضحكة العريضة العظمية كلّها، التي يرنو بها إلى « مانويل » (Manuel).

« ايلوجيو ! (Eulogio) متى عدت ؟

- للتوّ، أجاب باحثاً عن شيءٍ ما حوله، لأنه مذ ذاك انصرف عن المكان، بل إنه لم ير، أو تعتمد ألا يرى اليد التي مدّها إليه « مانويل » (Manuel). فينهض وينتزع ثمرة غوافةٍ، فيهشمها بأسنانه، ويأكلها ببطءٍ، متلصّطاً كالأطفال. تُلطّخ الحبات الصغيرة فمه بالأبيض والأحمر، فيما هو يرمق « مانويل » (Manuel) مجدّداً، ولكن كما لو كان لا يراه، أو كما لو كان « مانويل » (Manuel) لا ينتصب أمامه.

« روى لي « بدرو اورويه » (pedro Orué) أنه رآك هذا الصباح فما أمكنني تصديق ذلك... ».

بعد لحظة، يتحول تعبير « ايلوجيو » (Eulogio) البهيج، المكّار، إلى
تكشيرة قرف، إلا أنّ بسمته تعود للتوّ فترسم على فتحة فمه .

« وصلت للتوّ ولم أمرّ بالقرية . لا يمكن لأحد أن يراني . »

يلقي ما تبقى من الثمرة، ينظف فمه بقفا يده، ويضعها من بعد على
كتف « مانويل » (Manuel)، الذي لا يلحظ خطأ الجرح المندمل على أحد
صفحتي الوجه، لأنه بالتأكيد، لا يدري بوجود هذا الجرح فيه، ولا
البسمة الساخرة إلى حدّ ما، بل يلحظ وجود الصديق العائد فحسب . إنه
لا يذكر، أو لعلّه راغب الآن في نسيان كلّ الأمور السيئة التي ربطت ما
بينهما فيما مضى : خصومتها بسبب « برونيللا »، (Petro Nila)، لطمة
« ايلوجيو » (Eulogio) التي جعلته يسقط عن شجرة، لمنعه من الإمساك
بالقبرة الصغيرة، فكسرت قدمه بتلك السقطة، والمشاجرات الإفرادية
لدى الخروج من المدرسة، حين كانا يتضاربان، كما لو كان ذلك في
الخفاء، وسط أشجار جوز الهند، حتى الإدماء، وإلى درجة الانهيار على
آخر نفس، مستمرين بالتهاusk على الأرض المحرقة، المرشوشة بأشواك
جوز الهند الطويلة، تلك الأشواك التي ينسج منها أهل « ايتابه » (Itapé)
أكاليل الصليب « للجمعة المقدسة ». إني لأتذكر تلك المرّة التي أراد فيها
إغراقك في ثنية من النهر، بأن بطحك تحت جذور ضخمة من « الإينغا »
وتطلّب الأمر أن نهجم عليه، فنوسعه ضرباً بالعصي وبالحجارة ليتركك،
وحين جررناك فوق الرمل، كان وجهك قد تغشّى بطحالب الغرقى، في
حين كان هو يتصاحك مستنداً على شجرة، نصف حائق، نصف راضٍ
عن نفسه، مداعباً ذكره، مبرزاً لنا بغتة بتكشيرة بذئبة خصيتيه
المنتفختين بنحو لا يصدق، وهما تطفران تحت ضغط اليد . حركة لم تكن

تخصّتنا ، إحدى تلك الحركات السريعة والمبهمة التي تدهش ، أو تعزل جانباً أولئك الذين لا يقدرّون على فهمها ، لأنها تنجم عن عاطفة أقوى وأشد غموضاً من مجرد السفاهة والحقد والحزى .

« هيتا ، تعال ، سنذهب إلى البيت ، يا « ايلوجيو » (Eulogio) (لا بدّ أنه قال له ذلك) .

– بلى ، ولكن عليك أولاً أن ترافقني .

– إلى أين ؟

ترتفع اليد ذات السّلاميات المتعظّمة في اتجاه الرّابية .

« وقعت على – قبر من قبور الحرب الطويلة – » .

– إنك تسخر منّي ، يا « إيلوجيو » ، (Eulogio) قال « مانويل » (Manuel) بين مصدّق ومكذّب .

– كلاً ، بل بقدر صحّة مواجهة أحدنا الآخر . أتذكر « دون كاسيانو » ، (Don Casiano) ذاك الجنديّ القديم من « إيسلا – فاللي » (Isla - Valle) ؟

– أجل ، لكنّه قضى منذ زمنٍ بعيدٍ .

– قابلت ابنه ، « سكوندينو » (Secundino) في « فورموزا » . كان مريضاً جدّاً ، فاعتنيت به . وقبل أن يموت ، ذكر لي أين يوجد القبر ..

– كان قبره هنا ، ويذهب إلى الشيطان ليميت نفسه في العمل كأيّها

كادح ؟ - يقاطعه « مانويل » (Manuel) ، وقد تملكه الغضب إماً بسبب غباء العامل الموسمي ، أو بسبب ترّهات العائد .

- إنك لا تدع لي فرصة حتى للكلام . طرحت عليه السؤال ذاته ، وكدت أضحك منه ، في حين كان هو يسلم الروح . ألا أنه أفهمني عند ذاك أنهم حفروا مع العجوز في عدة أماكن ، دون أن يعثروا على شيء ، ولكن لا بدّ لشخص آخر يتمتع بحظّ أوفر ، ولا يحول أحد دونه ، من أن ينشئه . وقد انتهى بي الأمر أن صدقت ذلك لأنه كان قد مات فعلاً ، ولأن مسيحياً في تلك الحال لا يكذب من أجل أيّ شيء في الدنيا .

« كان يرغب في ذكر المزيد ، إلّا أن صوته غاب ، وكانت تنتشر منه رائحة كريهة أكثر من جثّة ، لأنّ دمه كله كان فاسداً في الدّاخل . لهذا عدت يا « مانويل » (Manuel) ، لأجرب حظّي . ومثلما تفيد الكلاب بما تخلفه القطط وراءها ، أخذت أحفر مذ وصلت . إلّا أنّ هناك مساحة كبيرة ، وأنا بحاجة إلى شخص أثق به . لهذا جئت باحثاً عنك .

- سوف نذهب غداً .

- كلاً ، هذا المساء بلا تأخير . غرفت قدراً لا بأس به ، وقد يكتشف المكان . فمن المعروف أنّ الراية لا تزال تحتفظ بقدر وافي من المحفوظات من هذا النوع ... - تنغلق يد « ايلوجيو » (Eulogio) على كتف « مانويل » (Manuel) . سنصبح أغنياء ، يا « مانويل » (Manuel) ! لسوف يسقطون على أقفيتهم ، حين يرون جراننا مليئة بقطع النقد والحاجات الجميلة . سنشترى حانة « دون نيكانور » (Don Nicanor) ونعمل شريكين . سنفتح دكاناً كذلك ؛ وعلى هذا يمكنك أن تترك

منشرك ... » تكشف ضحكته أسنانه المسودة من التبغ ، في حين أن عينيه اللتين لا تتحركان ، وتبقيان جادتين ، تغترسان في مؤق العينين رغبة « مانويل » (Manuel) ، وتدفعانه رغماً عن إرادته .

يتجه الإثنين نحو الرابية ، أحدهما ظالماً ، والآخر بمشية مرنة ، متكوراً كما لو كان تحت ثقل تلك الثروة المتلاحمة ، والرفاهية القادمة ، تلك الطمأنينة التي تغشاه كله ، حتى تذوب القامتان في واحدة ، وتخلصان إلى التلاشي في ظلال الغسق .

إلا أن « برونيل » (Petro Nila) لا تملك أن تعرف ، إنها لا تستطيع أن تقدر ما الذي حدث « لمانويل » (Manuel) .

أخذت ترقب ، كما هي عادتها ، الدرب التي لا بدّ أنه عائد منها إليها ، فيما هي تجهّز الماء في السطل بسرعة ، والمنشفة ، والقميص النظيف الذي سوف تزرّعه له بنفسها ، وهي تتلّكأ عند كل زرّ ، متكئة آخر الأمر على صدره ، فيما أصابعه الدبقة ، الفوّاحة برائحة الخشب تلتفّ على شعر صفائرها الأسود ، التي يحبّ العبث بها . بل لقد قال لها أكثر من مرة ، ليغيظها ، إنه يريد أن يموت مشغولاً بإحدى صفائرها . وهي التي كانت تحبّه صاحكة : « إنّ الحبل أحاط بعنقك وقضي الأمر ، يا « مانويل » ، (Manuel) منذ أن تزوجتني . وأنا أيضاً أسلمت الروح . ولأننا ميّتان كلانا بالضبط ، ليس لنا أولاد » . في تلك المرة تهرب منها « مانويل » (Manuel) ، وظلّ على استيائه منها طوال أيام عديدة .

إنها تعرف بدقّة اللحظة التي اعتاد الظهور فيها عند منحني الدرب ، بالضبط بعد شجرة الخروب الكبرى ، القائمة تقريباً مقابل حانة « نيكانور

بمزيدٍ من الثقة كما لو أنها محميةً بهذه الرقعة. إن شعلة الشمعة الصغيرة تدعو زوجها، تحميه بفوح هذا الدهان اللعابي ضدّ سلطان نساء « من شاكلة » « ماريا دومنغا »، (Maria Dominga)، التي تجتذب الرجال والقيثارات تحت جنح سقفاها.

أطفأت هبة ريح الشمعة على منحنى الجرن. و « بترونيلا » (Petro Nila) لا تدري لأنها خرجت للمرة المئة، لتذهب فتتنظر إلى الدرب وقد أفعم بالقمر. هيأت لنفسها ببطيء، وبتمهلٍ، منقوع « كوروبا »، من نسغ تلك النبتة ذات الأوراق الصغيرة، كنقاط المطر التي تفوح منها رائحة بقّ الأدغال، والتي كانت تنوم جدّها كحطبة في أسوأ فترات سهاده. أوتّ « بترونيلا » (petro Nila) إلى فراشها في نحو منتصف الليل، بعد فترة طويلة من تلاشي الدرب شيئاً فشيئاً تحت بلى نظراتها، المكثّرة هي ذاتها بالمنوم البلديّ.

تبلغها ضجّة، تمرق عبر النعاس الذي تحاول الخروج منه، في قلب هذا الدغل اللّزج الذي ما إن تتناهض، حتى تغوص فيه أكثر فأكثر.

« ما ... نويل ...، قالت متلعثمة »، بصوتٍ ثقيلٍ.

- نعم...، أجابها بصوتٍ خفيضٍ. ثمّة تعبٍ عظيمٍ، تعبٍ طويلٍ وقديمٍ، شيء ما آتٍ، من موضعٍ جد بعيدٍ، في هذا اللهاث الحيواني اليائس، في هذا الصوت الخافت الصّافر. ولكن فيه كذلك جزعاً، وتعجلاً يجعله يتعثّر في الظلمة.

« سأحضر ... لك ... العشاء ...

- لا أريد الأكل ... »

سكوت. يدع نفسه يسقط على السرير. إنه يسبح في العرق. في غمرة نعاسها، نصف المقطوع، تتشبث به «بترونيلا» (Petro Nila)، تداعبه ألياً في عتاب حنون، ينبجس على مهل مثل حشرة، حيث الغريزة لا الرأس، هي التي تعمل بلا ريب، بنحو غامض. ولا بد أنها أحسّت أن جسد زوجها المتين، الرطب، يتشبث كذلك بها إلى الدرجة التي تكاد تخنقها بين العليق الإسفنجي، حتى أنها لا تملك أن تنتزع نفسها، هذا الجسد الذي يناوشها بمداعبات فظة وجازمة، تجعل النسيج الجلدي للسرير يصير، وتجعلها تتوجع، وهي تلوك اسمه حتى شهقة التشنج النهائي، وحتى صارت كالميتة إلى جانبه.

ولسوف يُبحث عن «مانويل» (Manuel) عبثاً في الصباح، في كل الجهات. فلا أحد يدري أين هو، لم يقل لأحد إنه ذاهب. تبخر كما يتبدد الدخان، وستروي «بترونيلا» (Petro Nila) أنها سمعته وهي في سدير «الكوروبا»، وأنها نامت في جواره حتى الفجر. «لا بد أنها قد حلمت» سيقول «بدرو أورويه» (Pedro Orué)، همساً، للآخرين، ألا إن هنالك في الحقيقة بقعة دم صغيرة فوق الوسادة، كإمارة خلفها وجه مخدوش، وأنه يمكن أن يرى على الأرض نثاراً من رمل الرابية الأحمر.

وما من أحد - حتى ولا معتادي التقفي الذين وجدوا آثار رجلين، يظهر أنها تشاجرا على أقصى حافة كهف المنحدر، الذي يجهل الناس مقدار عمقه، والذين اكتشفوا من النظرة الأولى أن الخطى المرتسمة بالرميل فوق أرضية المزرعة لم تتخلف عن خفي «مانويل» (Manuel) - يرغب في ذكر ما يفكر فيه. حتى «بدرو أورويه» (Pedro Orué)، الذي سيتوجب عليه الآن أن يبحث عن صاحب جديد لمنشرته، لن يجروا على مناقضتها، ولا على تثبيط همتها بمجرد شكوك بسيطة.

فَعِنْدَهَا أَنْ « مَانُوِيل » (Manuel) انْطَلَقَ هُوَ الْآخِرُ إِلَى بِلَادِ اللَّهِ الْوَاسِعَةِ ، ضَمِنَ نَزُوحَ الْعَمَالِ الْمِيَاوَمِينَ . وَهِيَ لَا تَتَوَصَّلُ إِلَى تَفْسِيرِ أَسْبَابِ ذَلِكَ ، لِأَنَّهَا كَانَتْ تَحْسَبُهُ فَرَحًا بِقَرَبِهَا . إِلَّا أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ يَبْدُو غَرِيبًا لَهَا ، مِنْذُ أَنْ خَسِرَتْ « مَانُوِيل » (Manuel) .

وَلَنْ يَجْرُو أَحَدٌ ، لَا فِي ذَلِكَ الْحَيْنِ وَلَا فِيهَا تَلَاهَ ، عَلَى تَسْمِيَةِ انْتِظَارِ « بَتْرُونِيَلَا » (petronila) الْعَنِيدِ ، فَسَتَصْبِحُ عَيْنَاهَا مُحْتَرَقَتَيْنِ وَمَتَبَاعِدَتَيْنِ أَكْثَرَ فَأَكْثَرَ ، وَخُصُوصًا عِنْدَمَا يَقْرَبُ رِيحُ الشَّمَالِ الْمُنْشِرَةُ مِنْ مَوْضِعٍ جَدِّ قَرِيبٍ مِنْ بَيْتِهَا ، وَسَتَمْضِي بَيْنَ فِتْرَةٍ وَأُخْرَى إِلَى الْمَجَازَةِ ، عِنْدَ « مَارِيَا دَوْمِنْغَا » (Maria, Dominga) ، لِتَشْحِذَ بَعْضَ أَخْبَارِ زَوْجِهَا مِنْ حِرَّاسِ الْقِطْعَانِ ، وَالْجُنُودِ الْمَسَافِرِينَ الْعَابِرِينَ ، وَسَتَمْكُثُ أَخِيرًا - حِينَ يَسْتَحِيلُ انْتِظَارُهَا الْيَأْسَ دُونَ أَنْ يَدْرِي بِهَا أَحَدٌ ، إِلَى ذَلِكَ الْجُنُونِ الْهَادِيءِ وَالْمَجْرَدِ الَّذِي يَرَسُخُهَا إِلَى الْأَبَدِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ - لِتَلَازِمَ « مَارِيَا دَوْمِنْغَا » (Maria Dominga) ، مَكْرُسَةً وَقْتُهَا مَعَهَا لَزْبَائِنِهَا الرَّحْلَ ، دَوْمًا أَجْرٍ تَتَقَاضَاهُ ، سِوَى تِلْكَ الشَّائِعَاتِ الْغَامِضَةِ الَّتِي تَحْتَمِلُ أَمَلَهَا ، وَشَبَحَ « مَانُوِيل » (Manuel) وَتَذَهَبَ بِهَا .

المبلغ

نقلها إلى العربية
صلاح دهني



١٩٨٨

الهيئة العامة لكتبة الإسكندرية	
٨٥٦, ٨٣	رقم التخصيص:
٤٧٢٥٦	رقم التسجيل:

المبلغ

جود ستيفان (فرنسا)

Jude Stéfan (France)

جود ستيفان: كاتب فرنسي محدث، ولد عام ١٩٣٦، ونشر مجموعات قصصية وشعرية. قصصه متنوعة، تتميز بمستويات متباينة في الفكرة، التحليل، البحث البسيكولوجي، ولئن بنى قصصه على أحداث من واقع الحياة، أو أسسها على أحداث غير معاشة من بنات الخيال، وفيض الخاطر، فإنها تظل تحمل لمسة شعرية في مستوى من الحنان، أو القسوة، حسب مقتضى الحال، تُستشف من خلفيات الأحداث.

متّ العديد من المراتّ، ثم بعثت، ثم متّ وبعثت - دون أن يبقى في ذاكرتي، رغم ذلك، أثر من تلك الذوات المؤقتة، بل صرت بالمقابل غير آبه كلياً بمصيري - إلى أن أمكنني آخر الأمر أن أمارس وظيفة أرضى عنها، مرهقةً بالتأكيد، لكنّها منزّهةً كلياً عن أيّ غرض، هي وظيفة مأمورٍ مكلفٍ تخصيصاً بالوفيات. وأنا منتظم، دقيق الألفاظ لا يعرف المسaire حسب الطلب؛ لذا ما كان لهم إلّا أن يثنوا على خدماي. وعلى هذا، أوفدت آنذاك إلى مدينة صغيرة، حيث باشرت عملي مذ وصلت مساءً - فكلّما بكّر واحدنا في التخلص من تلك الأمور، كان ذلك أفضل، إذ يتوجّب على المرء أن يتعجل في دفن حياته.

كان عليّ أن أقوم بعملٍ في شارع الأرامل، وهو شريان عريض للمواصلات، كانت تقطن فيه كما تشير التسمية أكثرية من الأرامل وأرباب المداخل، بالإضافة إلى عدد من الأزواج الشباب وكثير من الأطفال. مضيت، على ذلك، لدى هبوط الليل إلى البيت الأول المقرر، في الرقم ١٩ على اليسار صعوداً، ضربت ضرباتٍ خفيفةً على الزجاج، مستعيناً بالدليل المطوي. وكان لباسي يمازج الظلمة الهابطة، فيما كنت

أنتظر. وتسَلَّقت الدرجتين المهرتئتين، كما أُلقي نظرةً من فوق السحف التي يتكهّن المرء بقذارتها، وإنها لم تستبدل منذ سنواتٍ، إلا أنني لم أكنُ أُميّز سوى كتلةً ما انفكت منوّرة عن يميني: طاولة ريفية. وظهر ألق على الجدار، آتٍ من الظل، فهبطت الدرجتين وانفتح الباب. تملكنتي رائحة عفنة فيما كان يغلقه - وكان في الواقع هو الذي هبط - بعد أن وضع المصباح على الطاولة. حنيت رأسي: «لديّ ما أتحدّث به معك حول قضية خاصة».

كان ينتظر بقية كلامي، مرفوع الوجه، متقبّضاً بلا ريب بما اكتسب من تنبّه دقيقٍ عبر ممارسة مهنته كخياطٍ. لمحت كرسيّاً وأشرت إليه بالأصبع، سائلاً إياه بالنظر، وجلست وظهرني إلى الجدار، ومرفقي مستند على الطاولة. نادى من جهة الظل صوت رفيع: «ليون!». - فمضى يقف عند أسفل السلم و: «ماذا؟ آتٍ. شخص جاء لشأن»، (لم يكن قد تكهّن بعد بأي شيء). عاد خبيّاً، واتخذ مكاناً على كرسي، ملتفتاً بعض الالتفات ليواجهني، وأخرج قراباً من جيبه وقرص أنفه بنظّارة. كان الآن يتفحصني، مطرق الوجه، كما لو أنه يدع لي الوقت لمباشرة اللعبة التي ستقودنا لأن نلتقي هنا كل ليلة. قلت عند ذاك ممراً يدي التي ما انفكت في القفاز على شفتي: «يتعلق الأمر بقضية دقيقة بعض الشيء...» وأخبرته، وقد جعلت جلستي أكثر راحة، عن حلول الأجل بالفاظٍ واضحة ومع ذلك غير متميزة بنحوٍ ما، لإقناعه بنعومة بالأمر المحتوم الحزين: فالقضية ليست بذات بالٍ في الواقع، ويمكن للإنسان أن يعيش ثانياً في آخر، فيما بعد، دون أن يدري حتى بذلك، مستعيداً بين الحين والآخر وبنحو مفاجيء ذكرياتٍ مبهمّة ومقلقة. - بدل أن تنطلق كلمة خرقاء، (وغالباً ما برهنت لي التجربة على ذلك)،

لتوقع الإنسان في أحابيل الشكّ، وتعيده إلى الأسوأ،: «ولكنك تخيفني»! أو: «أو تعتقد أنني سأصدقك»؟.

كان واضحاً للعيان أنّ الشخص إنسان بسيط، ولم أخطئ في ملاحظاتي السريعة، حين أبصرت به ظهراً، وقد اعتمر قبعةً وطالت لحيته واندست يده في جيوبه أمام باب بيته متبادلاً الكلام مع بعض المارة، ثم ماضياً لشراء زجاجة من البقالية المجاورة. ورغم ذلك كنت أخشى أن يظهر، شأن غيره، انزعاجاً عديم الجدوى، أو يحاول المراوغة، أو يتضّرع، أو يقاوم ما ليس منه مهرب. أجاب فقط حين فرغت، وقد قلقت عيناه، وغلظ صوته:

«وزوجتي، ما الذي سيحل بها»؟.

كنت قد تأملتُها هي أيضاً، قصيرة متكوّمة على نفسها، ممسكة بعنان كليب صغير، فيما كانت ترافقه في نزهته اليومية، وهي متدثرة بوشاح غليظ. ما من ريب في أنها كانا زوجين سعيدين، يكتفيان بالقليل بسبب عوزهما، إلّا أنها راضيان بما كتب لهما. وعاد يقول: «هل أنت متأكد؟..»

- نعم.

- ولكن أما كنت تعرفني حتى الآن؟..

- وصلت لتوّي، وتعرّفت إليكما ظهراً. نزلت في الفندق، في أسفل الشارع.

- لكن ماذا إذا كان الأمر مجرد حلم؟... أو خطيئة... قال ذلك وهو

يمرّز يده ، كالمذهول ، على اللحية القصيرة المشعّنة والوسخة التي تبيّض خديّه .

قلت : كلا .

كنت قد تعودت الآن الرائحة ، فلا بد أنه البلاط الذي لم يغسل منذ زمنٍ طويلٍ . كان يستجدي تفسيراً ، إلا أنه لم يكن في وسعي أن أبدأ من جديدٍ . فوقنا ، كانت المرأة تسير بخطى قصيرة ، وكنت أتساءل أين هو الكلب ؟ ولم لم ينبح لدى قدومي ؟ . ولرغبتي بالابتعاد قبل تزولها ، غرزت عيني في عينيه ، يجب أن يتم الأمر مستأذناً بالانصراف بقسوة ، ومهتئاً النفس لاختياري تلك الساعة المناسبة ، مستفيداً من تواطؤ الظل - فعلى هذا النحو سوف يمكنه أن يتم يرمه بهدوء فلعلّ لها ابن يأتي لزيارتها مرة في السنة ، يكاتبها . كان ذلك مصدر فرحةٍ أخيرةٍ لها بعد انقراض عقد الآخرين ، وانتظار موزع البريد والقراءة بصوتٍ عالٍ . كان المصباح يدخن ، وبما أنه لم يعد يفكر قط في ضبط فتيله ، فقد فعلت ذلك عنه ، ونزعت يدي من القفاز حتى لا أفسد الجوّ الهادئ المحيط بنا ، الذي يثبت أنه ما من أمرٍ غريبٍ كان يحدث . ولأمس ساقِي شيء ما ، لا ريب أنه الكلب هبط بلا ضجيجٍ . عند ذاك جعل ينبح بعد أن تشمّني .

« قال العجوز : سادعو زوجتي .

- لا ، لا تفعل أبداً . ليس من الضروري أن تعلم . »

نهضت ، وبقي هو خافض الرأس ، منحنيّاً على الطاولة ، حيث كان القراب يلتصق في متناول اليد ، دون أن يعير أي انتباهٍ إلى تفجرات الكلب . لم يكن سوى خياطٍ فقيرٍ اهترأت حياته ، وتخرّبت رثائه ، حلّ

مساء فتمتدّد ، لكي لا ينهض من بعد قط . لم يكن في وسعي أن أبادره :
« ما من سرّ مكنون ، يجب أن تقبل الأمر » . فاكثفت بوضع يدي بالنحو
المعتاد على كتفه :

- ليس الأمر بذّي بالٍ ، لا شيء بالمرّة .

- ولكن زوجتي ، هي ؟ ... هكذا ، بغباء ... أما كان ثمة حاجة
لإبلاغي .

- بلى ، قل إنه بنسب زوجتك ... » .

والتي كانت ما تنفك تمشي في الأعلى ، أوشكت أن تنزل ، وظلالها
تحركت برهةً . فما بلغت ، في الواقع ، منتهى الشارع - وقد تصرّمت بضغ
دقائق - حتى قرع ناقوس الموت في الساعة المحتومة . فلا بد أنه سقط
هاوياً من الانفعال عند قدميّ زوجته . نظرت إلى ساعتي ، وأخذت
دفترتي ، وشطبت اسم : « غانديه » (Gandals) .

على هذا المنوال ، أتممت مهمتي ، طيوال فترة دامت ثلاثة شهور ،
تقريباً ذاهباً أول الأمر إلى بيت مدير أحد المصارف ، في الرقم ٣٩ ،
الذي كافح يائساً بالرغم من نصائحي في أن يستسلم للراحة ، مستشيراً
أخصائيين باهظي الكلفة ، مستصرخاً أصدقاء له في جماعة سرية ليهتوا إلى
مساعدته . ومن ثم نزلت الجادة ، من الجهة المزدوجة هذه المرة ، في الرقم
١٤ ، لدى سيّدة عجوز : دخلت بيتها ذات مساء ، (كما دخلت بيت
الخيّاط الذي باتت نوافذه مغلقة منذ فترة) . ودفعت بها إلى قبوها ، فيما
كانت تميل فوق سطل فحم . مكثت على ذاك النحو طوال الليل ، تحشرج
فاقدة الوعي ، إلى أن حضر أولادها صباح الأحد ، وكانوا يقطنون

الريف، ويأتون ليمدّوها بما يقيم أودها مرة في الأسبوع. والكهربائي في الرقم ١٧، كان يقيم مقابلها: توفي بحادثة عمل، حين فتحت العداد خفية وكان يظنه مغلقاً، فيما هو يصلح تيار الفندق، سقط هاوياً عن سلّمه.

ساد الذعر في الجوار. فذهب بعضهم في إجازات استجمام، غير أنّ هؤلاء كانوا من الشباب الذين لم يكن الأمر يمسهم بشيء. وزوجة الخياط، في الرقم ١٩، لم تعش من بعده سوى شهرين؛ وكانت قد حطّت الرحال في مستشفى، إذ لم تعد قادرة على القيام وحدها بمحاجاتها. على هذا لم يكن لي سوى أن أدع الحزن يفعل فعله - فبكيت، وأبليت نفسها، وجفّت نهائياً. أجهزت كذلك بالسكنة، في الرقم ٣١، على مزارع ضخم اعتزل العمل، السيد «مارسيال» (Martial). فلم يتأس أحد قط على مصيره، على نقيض السابقين. كانت له ابنة دخلت سلك الدين، عادت بهذه المناسبة لرؤية الدنيا، وزوجة مخلصة كان قد اعتاد توبيخها. وأخيراً محوت بتصميم من عداد الأحياء، واحداً بعد الآخر، كاتباً عجوزاً خرفاً فاق عمره كتبه، وكاهن خورنية كانت وظيفته الصلاة في موت أبناء رعيته، وطبيب اشتهر في الجوار بمقدرته على الإبراء - وتلك حالة أثارت أسف من بقي على قيد الحياة. فلما فرغت من تلك الميتات، لم تبقي لي سوى واحدة قبل مغادرتي الحي - لأن الولادات كانت تترى في أماكن أخرى، مما يهدّد التوازن الحيوي للمدينة.

توجهت هذه المرة إلى أسفل الشارع تقريباً، وكان له امتداد من جهة واحدة يميناً، نجا من أثر حرب سابقة في الرقم ٧. قرعت جرس بيت ذي مظهر بال، رغم أن نباتات من زهر البغونية كانت تتناثر والواجهة المخططة. كانت الضحية قد أُنذرت مؤخراً فيما كانت عائدة من شراء

حاجياتها. فقد تملكها دوار، فجعلت تترجح في الطريق بحيث - وقد فاتتها فرصة التشبث بالسياج القريب - أخذت تدور على نفسها مثل خذروفي، وسقطت بكل ثقلها على جنبها فوق إسفلت الطريق. فرفعها لنجار العربات وأحد زبائنه وأعادها إلى بيتها. أجابني هي نفسها، فاتحة الباب على ممرٍ تمتد به باحة صغيرة نحو الخارج، تظهر بعدها خضرة حديقة - وذلك كله ضمن منظر بهيج. كان ثمة قطّ يتمسح بساقي، فيما كنت أدخل مستعملاً التوريات المعتادة، وقد اجتذبني الضياء الذي تستحّم به الساحة ذات الجدار المدهون مجدداً بالأبيض. أدخلتني غرفة الطعام. من جانبي المفترق كانت نباتات خضراء تلقي أوراقها الممتشقة، وعلى الطاولة اللامعة تبتسم حزمة زنبق، وعلى الجدار لوحة لابن قتل في حادث طائرة، وعلى جدار المدفئة صورة فوتوغرافية لبنت صغيرة لطيفة، وفي الجانب الآخر من تمثال صغير للربة ديانا الصيادة، تمثال لموسيقى ألماني. لم سجّلت تلك التفاصيل، في حين كان عليّ عادةً أن أغلق عيني دون أي شيء؟ على خزانة الصحن كانت ما تزال ترى، في أطرافها المذهبة، وجوه مكبرة لبعض الأجداد. وأخيراً، قرب الباب الذي ينفتح على الساحة المشمسة، قفص معلق يزقزق فيه عصفوران.

ثمّة أمورٍ أخرى حيرتني أيضاً. ففيما كانت المرأة العجوز تكلمني - وكانت تبدو وقد تأكلت من حامض البول، فالعينان مخمورتان بسم الأدوية، والوجه مصفرّ، أو منفوخ في مواضع بفعل البودرة التي كانت تكافح ضد الأذى - كانت تسمع أصداً بيانو آتية من غرفة تؤدّي إلى الساحة، ضيقة، لكنها عميقة. خرج منها إذ ذاك كلب شائخ جاء يشتمني، ثم تمدد على السجادة، وقد وضع قدماً فوق أخرى، علامة الانتظار الصابر. والقطّ الأسود الموشح بالأبيض، اتخذ لنفسه بهدوء

مكاناً فوق أحد الكراسي الجلدية ، وانشغل كلياً بتنظيف نفسه - والأمر المعتاد أن يكشف أمرى بسرعة ، فيهرب أحدهما وقد وقف شعره ، وينبح الآخر . كانت المرأة العجوز قد سبقني إلى الكلام . ودون أن تتوسل إليّ ، أخذت تروي قصة وجودها بقوة ، متظاهرة أنها ظننتي صديقاً قديماً لابنها ، وأنها لم تعرف للتوّ من أكون . كانت ابنتها تعكف على الموسيقى منذ وفاة الأخ ، وذهاب الأب الذي تركهما « لتجديد شبابه » . لفت نظرها إليّ أنها لم تعد تشاهد في المدينة إلّا نادراً . (والواقع أنه لم تعط لي أيّ إشارة إلى حياتها) : كلاً ، إنها لم تعد تخرج قط . « أتريد رؤيتها ؟ » عرضت عليّ . نهضت بسرعة ، مؤكّداً أنّ ذلك بوجه خاص يجب ألاّ يحدث . « إنها تحيا وكأنها ميتة » ، تابعت كلامها وهي تحدجني عن قصدي .

في لحظة الوداع - وكان عليّ أن أعاود المجيء ، وأن ألقى الحقيقة هذه المرة في وجهها ، دون أن أستسلم للاندهال بكلامها المشوّش : فهي لا بد تعرف أنني أجوب تلك الأمكنة منذ بعض الوقت - أبصرت على الجدار ، فوق صورة الطيّار ذي الشاربين الدقيقين ، رأس كلب مصغراً ، ومعلّقاً هناك ، كلب يشبه ذاك الذي كان للمضيضة ، مجعّد الشعر وبنيّاً . فلما خرجت وقعت في حيرة من أمرى ، إذ كنت في حاجة إلى روح عاشرة . فالفتاة لن تعيش من بعد موتها كما أسمعني أمها ، وإنها هي نفسها ما كانت تعيش بعد ما حلّ بها من مصائب ، إلّا لتتفادى وقوعها في براثن اليأس المطلق . وعلى ذلك يمكن تركها لتنطفئ وحدها ، كما فكّرت ، فمرضاها يوشك من جهة ثانية أن يقصفها بقسوة : فالحياة لذوي الصلابة ، لا لذوي الأوجاع . مضيت على ذلك إلى بيت المبلّغ ، ذاك الذي يذهب من بيت إلى بيت ، ليخبر أهل المدينة بميتة الأمس ، وبساعة الصلاة الجنائزية . أخبرته أنّ الناقوس لن يقرع مساءً ، حسبها هو مقرر . - ولن

كان سيقرع ؟ سألني من وراء زجاج نظارته المدخن ، وقد استبدت به حبة
الاطلاع رغم الرفعة التي تمنحه إياها وظيفته . - لقد تأجل الأمر إلى فترة
لاحقة ، والواقع أن الأسى الخالص لم يدخل بعد البيت ذا الزهور
والطيور ، بل حلّ محله الحزن الذي سببه فقدان كلب مسن وأصم ، لدى
حلول الشتاء .

بعد تلك الحماقة الطفيفة ، وخرقي وظيفتي ، (على أن الحيوانات اليوم
في الحقيقة ، تبدو وقد حببت بـ « النفس » الوهمية ذاتها التي يدعيها البشر
وحدهم ، وقد خدعتهم لغتهم المنطوقة ، فلديهم دفن ، وصلوات ، وأسف
كما يكون الأسف تماماً) ، تم نقلي إلى مدينة أخرى ، وألحقت بفرع
مختلف - لم يعد فرع الشيوخ ، الميسر نسبياً ، بل هو أشد إيلاماً ، فرع
« الموت المفاجيء وغير المتوقع » ، الذي يختص بأشخاص يتمتعون بصحة
كاملة وتقبض أرواحهم في حلاوة العمر . وعلى هذا ، فمنذ صبيحة الغداة
يتوجب عليّ أن أنكب على العمل ، فأروح أفرع بالسرّ باب واحد ما من
مواطني هذه الدنيا الفانية - قد يكون بابك أنت .

العصفور في ثوب صبيته

نقلها إلى العربية
صلاح دهني



١٩٨٨

الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية	
٨٥٦, ٨٣	رقم التوثيق
٤٧٢٥٦	رقم التسجيل

العصفور في ثوب صبية

ويلي سورنسن (الدانمارك)

Willy Sorensen (Danemark)

★ ويلي سورنسن؛ ولد عام ١٩٣٩ في «كوبنهاغن»، ناقد لامع وحاذ، أثر تأثيراً بالغاً في جيلٍ بتمامه، مؤلف دراساتٍ فلسفية، أدبية سياسية، ووضع قصصاً فلسفية وفنتازية.

كنت جالسة إلى طاولة أمي، أقلب كتباً مزينة بالصّور، كانت الصّور تمثّل جميعها حيواناتٍ، فأتخيل أنّ الحيوانات تنطق مثل البشر، وأتوق بجرارة للحصول على كلبٍ، أبادل الكلام معه، لأنني كنت بنتاً وحيدةً. غير أنّ أمي كانت تخاف الكلاب، وكلّ ما حصلت عليه وعاء فيه سمك أحمر، ولم تكن الأسماك تتكلّم، لكنّ ذلك لا يعيقها عن فتح فمها، كما لو أنّها راغبة فيه. وإذا كانت لا تبلغ أن تنطق، ولعلّ ذلك أيضاً بسبب الليل المحيط بها، فقد كانت عيناها مملوءتان دموعاً من شدّة تأملها. ومن ثم حصلت على عصفورٍ أصفر كله، ذي منقارٍ معقوفٍ: كان ينشد طول اليوم، وتعلّمت الإنشاد مثله.

لكنه من جانبه لم يتعلّم قطّ أن ينشد مثلي. كانت الأغاني القديمة التي أغنيها تدور حول حيواناتٍ، تنقلب إلى بشر حين تتلقّى قبلة آدميةً، فكنت أمنح عصفوري قبلاّت كثيرة، إلّا أنه بمنقاره المعقوف عصّني بأنفي ورفض أن ينقلب إلى مخلوقٍ بشريّ.

وتوجب عليّ من ثمّ أن أذهب إلى المدرسة، فوجدتني وسط أولادٍ آخر، وساءلت نفسي، لِمَ رغبت في قلب الحيوانات إلى أبناء آدم؟ فشمة

منهم على هذا النحو ما يكفي. كنت أفهم لغتهم بنحو أفضل وتعلمت التهجئة، وعلى طاولة أمي كنت أجلس وأقلب أكداً من الكتب، غير أن تلك الكتب لم تكن تزيّنها الصور.

كان رفاق المدرسة يتمثلون في خاطري كعصافير، وكانوا يزقزون مثلهم، ومع ذلك لم أستطع، وأنا في صحبتهم الإنشاد، بمثل الفرح الذي كنت أنشد فيه حين كنت وحيدة فيما مضى مع عصفوري الأصفر. إذ لم أعد إلى تصوّري السابق بتحويلهم إلى بشر بمجرد منحهم قبلة، ما داموا هم كذلك أصلاً. ولم يعد شاغلي أن أمنحهم قبلاً.

في تلك الفترة خطر لي، أن الأولاد قد لا يكونون بشراً حقيقيين أيضاً، وأنني أنا نفسي لست واحدة منهم. كنت أكبر، وأصابني وجع في الركب، فذاك هو النمو، ولاحظت أن جلدي لم يعد يسعني. حين كنت أنظر إلى نفسي في المرآة، أرى بالفعل أنني أكبر، لكنني ما عدت أتساءل عما يشبهني فإذا كان شخص ما مقابلي، كنت أرجو لو أفق أمامه، مثلما يقف المرء أمام مرآة، فأعرف أفكاره، مثلما أعرف أفكارني بالتمام. كنت دوماً أعرف المزيد من الكلمات، بل أعرف منها بلغات أجنبية، غير أن ذلك لا يعني أنني كنت أتكلّم أكثر من السابق، ولعلي ورثت هذا عن أمي، مع أنها لم تكن لي في الحقيقة غير أم بالتبني، وبالفعل كانت صامتة على الدوام.

علّموني في المدرسة أن البشر كانوا حيوانات، وحينذاك عاودتني ذكرى أناشيدي القديمة. فسألت: 'ألم تنقلب الحيوانات فيما مضى تحت تأثير قبلة إلى مخلوقات بشرية؟' فانفجر الجميع ضاحكين مني، وكان الصبيان أشدهم ضحكاً، بأصواتهم التي باتت تختلف منذ بعض الوقت

عمّا كانت عليه، حتى ليظن المرء أنهم على وشك أن يتحولوا جميعاً إلى ذئاب، وقد اكتفى الأستاذ بالابتسام، ولفظ بضع كلمات لم أفهمها للتوّ، وبسبب ذلك لم يكن بمقدوري قطعاً أن أنساها: « في ذلك الزمان، كان البشر يشفقون على حال الدّواب، لأنها لم تكن بشراً. والآن يشفق البشر أنفسهم على حالهم لأنهم ليسوا دواباً. هنا يكمن الفارق: إن الدابة يسعها أن تتشكى لحالها، أمّا الإنسان فيسعه أن يشكو حال غيره - وحاله هو ».

منذ ذلك اليوم لاحقني الصبيان ماديّن الألسن لي: « هلاً أردت قبلة صغيرة لتصبحي مخلوقاً بشرياً »؟. كذا كانوا يصيحون وهم يحيطون بي كدائرة، وأنا أخش أيديهم حتى تُدمى. وكانوا يصيحون: « إنها قطة متوحشة! ». وحينما كنت، كانوا يركضون خلفي ويتحلّقون حولي مردّدين: « كيس كيس... ميس، ميس... » - لأنهم تعلموا أن كلمة قبلة تُلفظ كيس في لغة أخرى.

كان أحد أولئك الصبيان يُدعى حتّا - الذئب، لأنه كان أقوى من الآخرين، ولهذا السبب كان يخيفني كذلك أكثر منهم. فقد كنت أحسّه على الدوام ورائي. وحين كان الآخرون يلاحقوني بصيحاتهم « كيس، ميس... »، كان يطردهم، فصوته كان أقوى من أصواتهم، ويسيطر عليهم جميعاً. ومع هذا لم يكن يوجه إليّ الكلام قطعاً. وحين كنت أغادر المدرسة وأعود إلى البيت، كان يعود هو الآخر، وإذا يبلغ المدخل، يتوقف ويمكث هناك يراقبني، فيما أنا أجلس إلى طاولتي وأنظر إلى الخارج، لأنّ أُمّي بالتبني لم تكن تسمح لي في تلك السن بالخروج. وفيما بعد، حين كان الليل يرخي سدوله، وبما أنّ نظري أُمّي كان يخفّ، كنت أخرج مع ذلك ونهقني هناك، نحن الإثنين، كلّ في جانبنا من المدخل،

دوئما كلمة نلتق بها ، وكنت أستشعر الإحساس نفسه الذي كان يخالطني ، حين كنت أنظر إلى نفسي في المرأة ، وأحلم بذلك الذي سأعرف أفكاره بمقدار ما أعرف أفكاره . ومع هذا ، كان ثمة فارق : فلم تعد بي حاجة للتفكر في نفسي ، ما دام هو يفعل ذلك . لذا كنت أفكر فيه هو . إلا أنه لم يكن من الممكن أن نبقي دوماً صامتين هنالك ، رغم أن ذلك كان مفضلاً ، فیرغب دائماً بأن يقول شيئاً ما ، إلا أنه كان ينسى ، إذ يغادر المدرسة ، كيف يتدبر ليتكلم فتخرج من فمه أصوات غريبة . كنت أعود مسرعة ، ولكن رغم أن الوقت كان ليلاً ، إلا أنني لا أبلغ أن أنام وأتابع سماعه ، وأتابع رؤيته متسكعاً في ضوء القمر ، دون أن أعلم إن كان ذلك لحمايتي ضد كل أنواع الأخطار ، أم سهرأ منه علي حتى لا أغادر البيت .

هكذا تتابعت الليالي ، وكان يعلم أن أُمي بالتبني رغبة في أن أترك البيت ، لأذهب وأعيش في بيت آخر . ولدت من بيضة طير - كانت تقول لي - آن الألوان لتغادري العش . ولم أك أنشغل بتلك الكلمات ، ولكن حين توجب علي أن أرحل ، دعوت حنا - الذئب . إلا أنه كان - في غضون ذلك - قد نام ولم يتوقف عن إرسال بعض التبخير في نومه .

لم أمض للعيش في بيت آخر ، لأن البيوت كانت نادرة ، فوجدتني أنتقل إلى دكان للزهور . هنالك كنت أبيع زنابق ووروداً ، ويدفعون لي أجري زهوراً ، ولكن لمن أعطيها ؟ وهنالك في أعلى غرفتي في السقيفة ، كان الجو مثقلاً بعبط الورود الحمراء . وكنت أسير في النهار كما أسير في الضباب ، ولا أبلغ أن أنام في الليل حتى تصفر الورود في ضوء القمر .

كان هنالك فتى يأتي الدكان كل يوم فيشتري طاقات ضخمة ، فإذا صدقنا لباسه مع ذلك قلنا إنه لم يكن سوى ساعر بسيط في فندق . كان

سلوكه عصبياً بنحو مستغرب، وحين كنت أدير ظهري لربط الزهور، أراه في المرأة مائلاً فوق المكتب، فأتصور بشيء من الغرور، أنه يفعل ذلك ليراني بنحو أفضل. إلى أن حلّ يوم اكتشفت فيه أن ما يطمع فيه هو درج الصندوق للحصول على المال الذي يدفع به قيمة الزهور. لم أظاهر بشيء، وقلت في نفسي: ما من ريب في أنه يعرف شخصاً ما يقدم إليه هذه الطاقات. إلا أن تاجر الزهور استدعاني، وهددني بالطرد لأنّ المال ينقص في الصندوق، فلما عاد الفتى، قلت له: إنه لم يعد لي حق في بيعه أي شيء، أمّا إذا صعد مساءً إلى سقيفتي، فيسعي أن أعطيه زهوراً، لأنّ الهواء في غرفتي أصبح خانقاً أكثر فأكثر. وصعد، لكنه لم يرغب في قبول الزهور، كان عصبياً جداً، ويكاد يغمى عليه. وروى لي بصوته الغريب الذي يشبه صوت طير الشاهين، أنه إنما جاء الدكان بسبي أنا، وأن هناك زنايق ووروداً كثيرة في المكان الذي يقطن فيه.

صعد ليراني كلّ مساءً، محدثاً إياي عن الطقس الجميل، وعن المطر، وما عدت أبالي بصوته الذي يشبه صوت الشاهين، ولا بعينيّه المنقبتين، وذات مساءً جلب خاتمين من الفضة، ورغب في إعطائي أحدهما. كان يرغب في أن يحملي على أجنحة، فهناك حيث يقطن تنبت زنايق وورود. وكانت تكفيني ورودي الذابلة، وكنت شديدة الإصفرار في ضوء القمر، فقبلت خاتمه، لكنّ يدينا ارتجفتا بقوة، بحيث سقط الخاتم أرضاً. وفي الغداة جاءتنا ابنة الصائغ لتقول لنا أن ننتبه، لأنّ خاتمين فضيين قد اختفيا من متجر الحلي. وقد حلّ إليّ في المساء مجوهرات من الذهب والفضة، إلا أنني قلت له: إنك سارق، فاغرورقت عيناه بالدموع، وبكى إلى أن صار صوته في غاية النعومة، وجعل يقول: ما إن يرى أشياء تلمع حتى يفقد المقاومة، فيندفع إلى أخذها، تلك كانت

طبيعته، وهو تعيس جداً وأنا وحدي يسعني مساعدته على إخفاء مختلساته، واكتشاف كل ما ينطوي عليه من طيبة، فجعلت أقبّل البدلة التي يرتديها، ومنحني أول قبلة في حياتي الفتية، لكنني لم ألحظ التحول الذي حلمت به: فلم أصبح بسبب ذلك مخلوقاً بشرياً حقيقياً، كما لم يصبح هو كذلك من جهة أخرى، لأنهم حين طرّقوا بابي وانفتح فاسحاً المجال لدخول رجال بلباس الشرطة، تسلّق نافذتي، وهودا، كالعصفور قد طار. ولم يقدم لي أي عون، وكانت الحليّ تلمع في ضوء القمر، فوضعتني في القفص كما لو كنت عصفوراً.

فلما خرجت منه، مضيت إلى تاجر الحليّ لأقسم له على براءتي، ولكنني فوجئت به هناك، بصحبة ابنة الصائغ، وقد مال برأسه خلف المكتب. فعدت أدراجي، وعلى طول طريقي، فوق كلّ المداخل، كانت قد حطّت عقاقع كبيرة، وهي تحكّ أذيالها متفاخرة، وتضحك بأصواتها التي تشبه أصوات الشاهين.

حينذاك، قفّلت عائدةً إلى بيت أمي بالتبني، وقد أفعمت أفكاراً سوداء، وتمنّيت رؤية حنّا - الذئب مجدّداً، لمجرّد أن أسأله بأن يمزّق أوصال سباعي. لكنني لم أقع إلّا على أمي بالتبني، وكانت قد هرمت، مثلي، وشاخت إلى الدرجة التي تحتاج فيها إلى عون. قالت لي: «أي بنتي، أردت لك أن تغادري هذا البيت حتى لا تشبهني بي، وليكون لك أولاد حقيقيون من البشر. ومع ذلك كنت أتمنى مخلصاً أن تعيش حياة أخرى تختلف عن حياتي، لأنني التقطتك بغية أن أحبّ فيك مصابي الشخصي، وكنت أعرف أنك سوف تعودين».

كان صوت أمي بالتبني من الآن فصاعداً أبحّ مثل صوت الغراب،

ولم يكن لكلام الناس أبداً مثل هذا الرجوع في أذني. عند ذاك فهمت أن البشر يجبرون على الكلام لفهم بعضهم البعض بعد فوات الأوان. كنت أحب الآن التزام الصمت، وأذهب بذاكرتي إلى أسماك طفولتي التي كانت تتظاهر فقط بمعرفة النطق، وأفكر أيضاً بجناح الذئب الذي لم يكن بمقدوره أن يلفظ كلمة واحدة، ويكتفي بإرسال أصوات غريبة. لم أعد أقول لأمي بالتبني كلمة واحدة، كما كانت هي ساكنة فيها مضي. فأنا أعرف أنني لو أردت التحدث معها، فسأكون مجبرة على توجيه أقوال خبيثة لها، وكنت أتأسى لها بسبب شراستها. خلال النهار، لم يكن بمقدوري مغادرتها، فلا أخرج إلا ليلاً، في عتمة الحديقة، لكنني حينها سرت خشخشت الأوراق الميتة، فكنت أسلك الطرقات الهادئة، حيث تلتصع المصابيح أكثر من ضوء القمر، وهنالك أيضاً سمعت همساً خلفي، وقد حذرت من يكون على ضوء المصابيح، إلا أنني لم أرغب في رؤيته، لأنني كنت أحتقر ما في هذا الإنسان من شيء زاحف. ومع ذلك، تركت الباب موارباً لأنني سوف أصبح عمّا قريب في سن متقدمة، أكثر مما يجب لكي أكون شابة. وفيما هو يصفر، مال فوقني وطبع قبلة على شفتي النديتين والباردتين، وكاد يخنقني، والتفت من حول صدري، وعضني في أسفل البطن، وحينذاك صرخت مثلها تمنيت دوماً أن أفعل، صرخة وحشية، صرخة دابة، فيما لعبه يسيل فوقني، والغثيان يبعث النتن في فمي. فلما عدت إلى نفسي، كان قد مضى زاحفاً. في تلك الليلة ماتت أُمِّي بالتبني، ولعلها ماتت رعباً وهي تسمع صراخي.

كنت أجلس وحيدة، إلى طاولة أُمِّي بالتبني، أنظر إلى أحواض الماء بأسماكها، والمعاشب بثعابينها، وأقفاص الزجاج بفئرانها التي تصني. لم أعد أغادر الحديقة أبداً، فهي تغلق ما إن يهبط الليل، وتضاء المصابيح،

وفي أماسي الصيف، كنت أمكث جالسة خلف السياج، أصغي إلى الدواب التي تمرّ خبياً. لم تعد لي حاجة لمنح قبلة إلى رجلٍ، لأعرف ما يكون شكله الحيواني، وحين مرّ حنّاً - الذئب فيما بعد - ولعلّ ذلك بدافعٍ من ذكرياتٍ قديمة - رأيته وقد تغطّى جسمه كلّهُ بالشعر، داباً على أربعٍ، لأن أخرياتٍ غيري طبعن قبلةً على خطمه. فطرت إلى أعلى شجرة الزيزفون، وهناك بكيت، ولكن ليس بالصوت العالي مثلما كنت أصبح أيام حداثتي، لأنني كنت قد تعلّمت كيف أتمالك نفسي. فما عثم أن هرب، وسمعته يزجر مبتعداً أكثر فأكثر، وفي تلك الليلة الصيفية بكاملها، بقيت في الزيزفون أتجشأ بقايا فثرائي.

رباط

نقلها إلى العربية
صلاح ذهني



١٩٨٨

الهيئة العامة لكتبة الإسكندرية	
٨٥ ٦, ٨, ٣	رقم التخصيص:
٤٧٢٥٦	رقم التسجيل:

رباط

ميهاي شيكشو (المجر)

Mihai Chikeho (Hongrie)

★ ميهاي شيكشو: ولد عام ١٩٣٣، ودرس الأدب في بودابست، كاتب، باحث، ناقد، ورئيس تحرير مجلة ذات صفة عقائدية واجتماعية، يعتبر من أرباب الثقافة الواسعة، ومن المهتمين بنحو خاص بالأدب الأنغلو سكوفي، يتميز بنبرة حديثة، وذهنية، وتعبير مفاجيء عن مشاعر وعواطف معاشة.

ما إن تواريثِ خلف الباب، حتى استدرتُ، فهبطت السّلام،
واشتريت زجاجة كونيّاكٍ من المخزن المقابل.

أمّا أنتِ، ففي خلال تلك الوهلة، كنت قد وُسدت على سريرٍ مدّ
عليه غطاء مطاطي، وحلقوا شعرك، وأعطوك حقنةً منظفةً أفرغت
أمعاءك، وأخذت تنتظرين استعداداً للبدء، في قميصٍ كتانيٍّ جد
فضفاضٍ عليك.

في ذاك اليوم، الرابع من حزيران، يوم سبتٍ، الساعة التاسعة
والنصف صباحاً، والطقس حار نسبةً للموسم، سألتُ طبيبك، صديقي،
ما إذا كانت الأمور تسير على ما يرام، فأجاب وقد كان يتسلّى بـ « مجلة
الشطرنج »، عن عمومية سؤالي إجابةً عامةً، أنكِ احتملتِ حملك
بصورةٍ حسنةٍ جداً.

ما كاد أحدهنا يرى الآخر، حتى كنتِ قد حلت، وفيما خلا تنانيرك
التي ضاقت عليك، فلم يُغمَ عليك أبداً، ولا كان التعب يتغشّاك بأسرع
بما اعتدت، وكنت تهَيِّئين لي القهوة، وتزَيِّنين، وتمكثين واقفةً مثلي حتى

الساعة الثانية من الصباح، ونام في السرير ذاته، وفي الصباح توقظيني،
فما أنتِ تقومين بحركاتك الرياضية.

على ذلك، قَبَلت طيبك، صديقي، متمنياً له حظاً سعيداً، ولنا
كذلك، ثم هبطت السلالم، وأخذت تاكسي، وفي البيت فتحت زجاجة
البراندي، ذقته، وجلست قريباً من الهاتف.

لم يجر شيء، أخذت دوشاً، وجلست بالمايو إلى جانب الهاتف
الأخرس، ولم يحدث شيء. أدت الرقم، فأجابني صوت نسائي اعتاد أن
يكون موضوعياً، أن الولادة لم تبدأ بعد.

شربت قدحي الثاني من الكونياك، وكانت شقتنا آنذاك معرضة
لشمس الظهيرة، فكل ركن كان إذن غارقاً آنذاك بالضياء، ذرعت
غرفتي الصغرتين سائراً في كل اتجاه، ونصبت سرير الوليد في الموضع
المقرر.

كانت تتملكني الرغبة في أن يتوسده ولدنا، إذ كنت أعلم أنه سوف
يرسخ عرى حياتنا المشتركة، إلا أنني كنت أعلم أنه سوف يفسد نهديك،
وأن صراخه المفاجيء سيزعجنا خلال تبادلنا الحب.

قال لي الصوت النسائي الذي اعتاد أن يكون موضوعياً، وهو يخفي
نفاد صبره! إن الأمور ستطول، وعليّ ألا أقلق، وما من شيء غريب
يحدث (هذا ما قالته، هذا ما بلغ علمها، بنحو غير صحيح، لكن
بوضوح). فتناولت طعام غدائي خبزاً وجبناً، وشربت قدحي الرابع من
الكونياك، ووضعت الهاتف عند قمة السرير، والطقس جد حار.

أيقظني الهاتف ووخز الضمير في الوقت ذاته، فلعلّي أكون قد قصرت

في أمري من الأمور، كانت تلك المرأة أُمي، (كانت آنذاك عجوزاً في الرابعة والستين، وتوفيت بعد خمس سنواتٍ بسرطان المعدة)، على بعد حوالي سبعة وعشرين كيلو متراً بخط طيران العصفور، وكانت تنتظر حفيدها بتلهف.

كانت الظلمة قد بدأت تحلّ، فطلبت المستشفى، وهذه المرة خرج لي طبيبك على الطرف الآخر من الخطّ، وكان يفترض أن يكون مع عائلته في العطلة منذ يومين، وهو مهمل حدث سيذهب في الغداة، يوم أحد، إلى «البالاتون»، ويرجوني الآن بعصبية، (في سمّاعتي وفي أذني)، أن ألزم الهدوء، فالأمور تجري مجراها، وإذا لم يبدأ الوضع الساعة الثامنة والنصف، فسيثقب الأغشية، ولا حاجة لمجيئي.

بدأت للحال أستشعر الخوف الشديد، فلبست من فوري قميصاً نظيفاً، وطلبت سيارة أجرة، ومضيت للقائك، (استدردت مرتين على العتبة نصف دورة، إذ وقع في ظني أنني سمعت الهاتف يرن).

في قاعة العمل، وأنت على سريرك المسطح، كنت قد زرقت حقنتين محرضتين، وكنت تعدّين نبضاتك، (كانوا قد صادروا منك ساعتك، وسوارك، وسلسلتك حتى لا تضايقك في عملك)، لتري كل خمس دقائق متى ستظهر الآلام التي كانت تعاودك كل عشر دقائق، وكنت قد رفعت بلا جدوى شعرك الذي كان قد بلله التوقّع.

كانت قد تقضّت تسع ساعاتٍ، وأنت تستمعين إلى العويل الموقع واللامنتظم المنسرب من قاعة التوليد المجاورة، وكانت تتملّكك الرغبة والرعدة للانتقال إليها، فيما كانت الممرضة - المولدة تحيك بالصنارة.

غطاء صغيراً أصفر مربعاً، ليوضع تحت جهاز التلفزيون أو الراديو، ألهم
إلا إذا كان مهتماً لمسند رأس في مقعد، (حتى لا يوسخه الضيوف)،
وهي تلقي عليك نظرة وتتشاءب، أنت التي بسببك يمتنع عليها حتى
الانصراف للالتقاء بزوجها، أو عشيقها مساء يوم سبت.

صعدت الدرج، (وكنت أسمع خلال ذلك رنين الهاتف هناك، في
البيت)، قالت لي رئيسة الممرضات: إنه لم يحدث شيء بعد، إلا أنهم
سيبادرون فوراً إلى تحريض الوضع، أعطيتها خسين فورنت بالتام، قطعة
عشرين أولاً، وقطعة عشرة، ثم بسوء تصرف وتسرع، وفيما أنا يضايقي
ضيقني، وجدت قطعة عشرين أخرى، فاذا وضعت امرأتي، أخبريني،
وسأكون في المدخل.

في المواجهة، ورغم الظلام، رأيت سيارة أليك، وكان يجلس أمام
المقود والنور مطفاً، فقبل أحدها الآخر عبر الباب المنزل زجاجه، ولم
يسألني أي شيء، وقلت له: إنني ذاهب لاحتساء قهوة، ولم أجلس،
فشربت القهوة وظهري إلى الدكة، وعيناي متجهتان نحو مدخل
المستشفى، ومن فوري شربت فنجاناً آخر، وعدت إلى أمام مدخل
المستشفى، فرأيت لفافة أليك في السيارة المظلمة، ورأى هو أيضاً لفافتي
بكل تأكيد.

خلال ذلك، لم يعد طبيبك ينتظر المزيد، فنقب الأغشية بمقصته
المستدير، وخطر لك أن عويلك هو الذي ستسمعه الأخريات، ولم تعد
بك حاجة لأن تعدي نبضاتك.

نقلوك من ثم، من قاعة العمل إلى قاعة التوليد، وما كنت تفكرين

بشيء ، لأنك كنت قد قضيت أربع عشرة ساعة مستلقية على ظهرك ،
والطقس حار ، ولم تتناولي أيّ طعامٍ ، وفقدتِ ماءً كثيراً لم يسمح لك
بتعويضه .

عندما توقفت الممرضة المساعدة عند العتبة متطلعة حولها ، علمت أنني
أنا الذي تبحث عنه ، فقفزت السلام . كانت تلك هي السنة الثالثة التي
نعيش فيها معاً ، ومن الصباح إلى الصباح لم يكن قد تعب أحدنا من
الآخر ، أما الآن ..

تحت الغطاء ، ثمة جسد متعب من العمل الذي استكمل ، مخلوق جميل
بنحو عام ، لكن عينيه الآن محتقنتان بالدم ، مع خطّين غائرين في لحم
الوجه الرّخو في كلّ من طرفي الأنف المدبّب الحاد . لم تكوني تعرفين سوى
شيء واحد ، هو أنّ الأمر انتهى ، فاستدرت على جنبك لتنامي ، ومضيت
أرى ولدي .

كتلة لحمٍ منتزعة من غطاؤها الحروري ، بلغتِ الهواء الطلق ، وثمة
عينان برّاقتان وضريرتان ، ومواء بلا غاية ، ولا هدف خلف حاجز
الزجاج .

الأب في الجانب الآخر من الزجاج .

سعيد ، فخور ، مسرور ؟

مرتاح ، لأن هذا النهار بلغ أيضاً نهايته ، نهاية مشمرة ، ويسعه أن يعود
إلى بيته ، ويشرب ما تبقى من الكحول المقرّر ليومه ، ويغوص في النوم ،
أما عودة زوجته وابنه إلى البيت فأمر ما ينفك بعيداً .

عدت إلى البيت ، سمعت أخبار منتصف الليل ، شربت باقي

الكونياك، ما يقارب القدح ونصفه، ابتلعت مضاداً للتعصيب مع ماء غازي كثير، حتى لا أصاب الغداة بوجع الرأس، طلبت المنبه الهاتفي لأتمكن من الذهاب في وقت مبكر.

صعدت وفي يدي باقة من قرنفل أبيض وأحمر مضموم بعناية، لأرى الأم الشابة التي كانت قد استغرقت في نوم هادئ ليلها بطوله، وقد أعطت ثديها لابنها، وكانت قد نهضت لتقضي حاجتها في نهاية الممر، وتزيتت، وتميأت لتلقي قبلات العرفان من الزوج، الأب، ورحنا معاً نشاهد ابننا خلف زجاجة.

هذه الشفة السفلى التي تشبه شفتيك، وهذا المشبك الأنفي المقولب على أنفك، ميراث الجدتين، والأسلاف الذين لا يحصرهم عد، هذه الدلائل التي لا تحجب لديمومة الحياة.

ثمة ظل من ازرقاق يتلامح على الوجه المخملي، فوق جلد ابني الأول المولود من صلب امرأتي الأولى، كما لو أفي لم أر قط ما يشبه ذلك من قبل.

اليوم الأحد، في الصبيحة الباكرة، والطقس حار، وطيبك، صديقي، قد وصل «البالاتون».

أعتذر من الطبيب الداخلي المناوب، إلا أن وجه ولدي، ابني، مزرق، فيقولون لي إن عليّ ألا أبالغ في الأمور، فأسأله أن يعذر عدم اختصاصي، غير أن لون الصبي لا يعجبني، فيقول إنه سيذهب ليري، وإن عليّ أن أقوم بتطويف زوجتي على الشرفة.

هنالك مقعد وقمم الأشجار على خطٍ مستقيم تحت شمس حزيران،

وذراعي فوق كتفك ، وعلى شفتك السفلى أثر عضة أسنانك العلوية ،
وأثار معركة الأمس ، لكن هي ذي منذ الآن شريطة بيضاء في شعرك ،
وأصابعي تفتت مئزر المستشفى الذي ترتدين ، علامات صامتة لتحاببنا .

الطبيب الداخلي عند الباب البلوري المفتوح ، فقد حان وقت عودة
الأم الشابة إلى سريرها .

إن الطفل أزرق بما لا يدع مجالاً للشك ، - يقول الطبيب - الذي هو
أكثر شباباً مني ؛ - أنا لست مؤهلاً لاتخاذ قرار ، ويستحسن أن يراه
مختص .

سألته : « بسرعة ؟ » ، وأنا أحسب المسافة التي يمكنك أن تسمعي منها ،
فقال : « بسرعة » ، وهو يدير نظره .

كادت الظهيرة تحلّ ، وكنت تتلقين الشمس ، وأنت ملتفتة نحو
النافذة ، وتنتظرين ابنك ، إلا أنني جئت وحدي جاهداً لأقول ، إن شيئاً
ما يتعثّر في الطريقة التي يبلغ بها ابنك ، وإنه لن يتناول غداءه قربك ، وإنه
سيستفادى ما فاتته في ساعة العصر .

وأنت اذ ذاك سألت : أهو أزرق ؟

إنه أزرق ، أجبت بعد تحيّر قصير لأنني كنت أعلم أنك تعلمين ،
ولأنه كان في وسع المرء أن يأمل أن تكوني على قدرٍ من الشجاعة .

ارتديت مئزر المستشفى وعدنا إلى المقعد ، مع قمم الأشجار على خط
مستقيم ، وضعت الكريم على وجهك ، وقد قاربت الظهيرة وزايلتنا الرغبة
في تناول الغداء فمكثنا جالسين على المقعد ، وقد رغب الاختصاصي

بالتحدث إليّ.

التحدث إلى الأب، رئيس العائلة، فهو الذي يقرّر، هو الأقوى.

هذا الاختصاصي في القبط اللاهب من ظهيرة هذا الأحد، بقميص أبيض، وربطة عنق سوداء بالصنارة، والزرّ الأوسط من بزّته الوبرية الرّمادية مربوط، هو شاب أيضاً في مثل سني تقريباً قد قطّب جبينه. فليس من سبب للقلق، ويشير لون وجه المولود إلى علّة ولادية في القلب، ويستحسن نقله إلى مستوصف مختص، ويجب تهدئة الأم.

قلّب لك عند ذاك: إنني سأرافق الصغير إلى المستوصف، وإنّ هذا قد يستغرق يوماً أو اثنين، الفترة اللازمة لتخليص رئتيه من المفرزات التي توضع فيها خلال الوضع، والتي تسبّب ازرقاق الوجه، حتى إنني لم تكن بي حاجة كبيرة لتهدئتك، إذ خلفت أظافرك على ذراعي شجّاً دائماً إلى أن غادرتك.

ومن بعد، صعدت إلى سيارة أجرة على المقعد الخلفي، (كانت الساعة تقارب الواحدة والربع)، وإلى جانبي ممرضة - مساعدة شابة، وفي حضنها الصغير ملفوفاً بقماطه.

كنت أنظر إلى ابني على طول المسار، لأرى ما إذا كان وجهه حقاً أزرق، وفي حال الإيجاب، (فمن واجبي أن أرضخ لحكم الواقع)، ما الذي يمثله هذا اللون الأزرق، بالنسبة لك، أنت التي لم تكوني معه، وبالنسبة لي، أنا الموجود هنا، وبالنسبة له، هو الذي لم يكن له سوى معنى، بغير ما إدراك بعد.

جعل ابني يتعرق، حبات دقاق كثيفة من العرق ملأت البشرة

الزرقاء للوجه .

عند ذاك أخذت أنا أيضاً أتعرق، وكنت قد بلّلتني الريب عندما توقف التاكسي، (في الساعة الثانية إلا ربعاً تقريباً)، أمام مستوصف الأطفال. رافقت الممرضة - المساعدة التي كانت تحمل ابني بين ذراعيها إلى قسم الإسعاف، وهناك سلّمتُ ممرضة المستوصف الرزمة، وشكرت للممرضة المساعدة وما تحملته من نصب، ومنحتها خمسين فورنت، إضافة إلى أجرة التاكسي ذهاباً وإياباً.

أملت الإجابات لاستمارة الدخول عبر كوة صغيرة، ومن بعد كان عليّ أن أنتظر.

كنت جالساً على جانب من معدي طويل، وحيداً في قسم الإسعاف، والتلفزيون يذيع بصوتٍ خفيضٍ مسابقة العاب، وقد أذن المقدم للاعبين أن ينزعوا ستراتهم، وتوجب عليّ أن أنتظر طويلاً، وكانوا قد حقنوك جرعة مزدوجة من مادة منومة، وكنت أجهد باحثاً عن إجاباتٍ لأسئلة المسابقة، عندما دخل دكتور « غولد شميث »، (Gold Shmith) ونظر من حوله.

لم يكن بالإمكان إلّا أن أكون أنا من يبحث عنه، فقدّمت نفسي، ونظر في عينيّ عبر نظارتيه المطوّقتين بالمعدن، إنه يميل إلى الظن، بعد أن قام بالفحوص الأولى، أن ابني جاء إلى الدنيا مع علة عضوية، إذ يمكن سماع ضربات قلبه على سطح الصدر كله، الأمر الذي يفترض إذن أنه ليس هنالك غشاء بين الأذنين والبطين، ومن المسلّم به أن الفحص المتعمق يمكن أن يعدّل تلك الفرضية، ويتوجب ابقاء ابني آنياً في المستوصف.

هذا ما قاله دكتور « غولد شميث » تقريباً ، فيما هو يحاول أن يتحدث بنحو مفهوم حتى أمام شخص غير متفقه ، إلا أن كل ما فهمته هو أن الأمور تسير بنحو سيء ، وفكرت بدءاً من تلك اللحظة بما سوف أقول لك .

من حسن الطالع أنه أمكنك أن تنامي أربع عشرة ساعة ، فلما استيقظت ، قلت لك : إن ابننا تحت رقابة أطباء ممتازين ، مهنتاً النفس في أعماقي ، أنك لم تسمعي دكتور « غولد شميث » ، وهو يتلفظ بتشخيصه المقتضب . لأنني في وقت مبكر من صبيحة الغداة ، في الطابق الثالث من مستوصف شارع « فرسو » ، حددجني دكتور « شميث » في العينين عبر نظارتيه ، (لم يكن آنذاك من شخص ما ينفك يضع تلك النظارات المستديرة المطوقة بالمعدن ، أو أنه لم يضعها أحد بعد) . إن الفحوص التفصيلية أكدت فرضيته ، فقد ولد ابني ببطين مفتوح ، وفي مجرى دمه يختلط الدم الطازج المحتمل بالأوكسجين بالدم المستهلك باستمرار ، وإن حالة ابني تتطلب إشرافاً منتظماً ، وسئلت أن أرسل ثلاث مرات في اليوم كمية من حليب الأم الطازج إلى المستوصف .

انكبت على العمل بذلك .

بدأت بطلب إجازة ، بالهاتف ، اذ لم تكن لي رغبة بالإجابة عن اسئلة زملائي ، وهي تكشف إشفاقهم أو تتستر عليه .

ثم إني فككت سرير الوليد الذي سبق لي أن جهزته في البيت ، وأخفيت قطعه في خزانة المحافظ في شقتنا آنذاك (فوق المدخل) ، وحشوت كسوة الوليد التي اشتريناها في الخزانة ، تحت قمصاني .

وذهبت ثالثاً، لقبض معونة الولادة، غير أنني لم أنفقها كما كان مقرراً على شراء الكسوة، بل لتغطية رحلات التاكسي المتتالية في الأيام التالية.

بعد أن فعلت هذا كله فقد جسرت على التفكير بك، وبعودتك إلى البيت، ونظرتك الدائرية الأولى في الشقة، والطريقة التي سيستمر بها كل منا، معاً أو منفصلين، أو يقدر بها على الاستمرار.

في اليوم الرابع، كان ابننا يحيا عندما عدت بك إلى المنزل، ولعدة أيام أخرى.

خلال تلك الحال التي لا تصدق والتي يتمكن المرء من أن يعتادها، كنت أنت تجمعين حليبك ثلاث مرات في اليوم بجهاز حصيد من المطاط والزجاج، وتضعين الرضاعة في كيس من البلاستيك، وأنا أمتطي الترام أخذاً طريقي.

ونمضي الأيام، فيأتيني دكتور «غولد شميث» ويشد على يدي، مهيباً إياي للأسوأ قائلاً: إن البطين المفتوح يفسح المجال أحياناً للعيش عدة سنين، إلا أن احتمال أن يذهب ابننا بعيداً احتمال ضعيف، ويقول دكتور «غولد شميث» إن مزيج الدم الطازج والمستهلك يبطئ من سيرورة الحياة يوماً بعد يوم، إلى أن تتوقف سيرورة الحياة، يقول ذلك وهو يحدجني عبر نظارتيه المطوقتين بالمعدن.

كان الطقس في ذلك المساء قائظاً جداً، وظللك على الجدار، وفي ذاكرتي التي لا تستطيع ولا تريد أن تنسى.

امرأة شابة عقيم على بلاط المطبخ الأسود والأبيض، أثناء الليل في مجمع «لاجمانبوش» السكني الكبير، يا حدى عواصم الرّيف، في نهاية الستينات.

هي أم لا تزال تخاف من آثار جهدها الخائب، بطنها المرخي، ثدييها المنفوخين، تعرق من الجبهة إلى الخوض، وتصرخ بمزقٍ من كلماتٍ.

أضعك في السرير، أغسلك بأسفنجية.

وفي الغداة، تحيط بسرير ولدنا صقائل وأجهزة، بما يوحي اليّ بانطباعاً مستحيلةً، (وتبدل الحال بنحوٍ فاضحٍ)، أن فريقاً من التلفزيون يرغب في تصوير القاعة، وفي الوسط منها سرير ابني.

قضبان حديدية، أمبيقات من زجاج، أسلاك معدنية، آنية متصلة، سائل متلألئ يجري، ذلك أن ابني يرفض حليب الأم منذ ثلاثة أيام، وأنبوبان رفيعان مطاويان يخرجان من أنفه، (هل لي أن أتجرأ فأذكر انطباعي الأول: كان ذلك يشبه لقاطة شواربٍ مضحكة)، ويصلانه بقناني الأوكسجين وباللوحه.

فأنحني فوقه، وفي رغبة في أن أثبت العناصر المرتبطة بنا، المتروكة لمصيرها، المخلدة عندي، والعارضة عند الآخرين طرّاً.

ثم جذر الأنف الذي كان يشبه مثيله عندي، ويستنشق منذ الآن هواءً اصطناعياً، والعينان اللوزيتان اللتان كانتا تشبهان عينيك، وقد باتتا مغمضتين أكثر الوقت، والغضون الثلاثة الدقيقة في الرقبة فوق قبة قميص المولود، وارتعاشة أصابعه (جذور وردة، عظيمات فرخ دجاج؟).

انحنيت فوق الجسد الصغير، فتنشقت عقب المولود، خليطة رائحة حليب الأم، والمفرزات، وتعقيم أغشية سرير المستشفى. ولم يكن حينئذٍ هو الذي يتنفس.

ألحفت عليّ لنحمل معاً في اليوم التالي آخر قدرٍ، غير ذي نفعٍ، من

الحليب الأمومي إلى شارع « فرسو » ، ومن حسن الطالع أن أوقفت
المرضة في الممر ، ومن حسن الطالع أنني دخلت القاعة .

قضبان الحديد المخفية ، السرير بغير أغطية ، مكان ابني الفارغ ،
مفقود .

النظارتان المطوقتان بالمعدن ، الصوت الموضوعي ، ودكتور « غو
شميث » يقول : صدق أن ذلك أفضل له .

كنت أرغب حقاً في تصديقه ، إلا أنني كنت هنالك ، في فقدان
وعبثاً كنت أتشم من حولي متعقباً رائحة ابني الذي بات عدماً .

أخذت يدك ، لم تسألني شيئاً ، لم أجب بشيء ، رأسي برأسك المنكّ
على مدى الجدران المقشرة . في المدخل جعلت تبكين ، فأخذتك
ذراعي ، وازداد بكأوك أكثر فأكثر ، وأنا أضمك أكثر فأكثر ، وقه
الجادّة متعثرين متجاوزين الخطّ المتتابع .

امرأة شابة تمرر أصابع مجنونة في شعرها المحلول ، وصدرها قاسٍ
صلابة الشلل ، تترنح على قدميها من الداخل .

ورجل في الحداد ، تأخذه الرعدة ، ويحيط زوجته بذراعيه الطويلتين

أعمى يقود امرأة ماتت منها العينان ، وثمة من سارع في اللحظ
المناسبة ، حتى لا نسقط تحت الترام ، وجده صمتنا الأبكم .

وجدت كرسيين من خشب الصفصاف الأحمر في الطرف الآخر
الجادّة . وعلى حين غرة عاودني النطق ، ولم أكن أستشعر الخسارة
أحقت بي أنا نفسي ، بل كان همّي الأكبر أن أملأ فراغك ، ومذ طلي

إحضار القهوة، لم أعد أتوقف عن الكلام.

قلت: إن ما حدث فاجعة تتصل بالدقائق الحاضرة، وإننا إما راجعنا التفكير بها غداً، بعد أسبوع، بعد سنة، فلسوف نسترجع ذكرى اختفاء مخلوق بلا شعور، بلا إحساس، لم يتوَجَّع، وجعلت منه الصدفة ولدنا الأول، وقضى في سن أحد عشر يوماً.

وقلت: إنه قد مضى، وإننا نحن باقيان، مستمران في الوجود، وشابان نسبياً، وإننا قادران، ونحن جنباً إلى جنب، أن ننجب ذرية أخرى قادرة حتماً على العيش.

وقلت: إننا محظوظان، إذ إن عدد الوشائج التي تصلنا بالعالم في المواقف الحرجة هو المعول عليه، وهو الذي يقرر كل شيء، وإن وشيكتك أنت، ووشيحتي على قدر كافٍ من التفرغ، وموت ولدنا الأول ليس نهاية، بل بداية جديدة.

وقلت أخيراً كدسة من العموميات، عموميات مقنعة نسبياً فوق ذلك، وكنتُ جالساً إلى جانبك، أكلّمك، وشربت قهوتك، وامتنطينا الترام، وفي البيت وضعتك في السرير.

كنت تنامين كثيراً حقاً، وتعتنين بجسمك المتعطّل، وإذا أنت تأخرت عن وضع الكمادات، كان الحليب غير المفيد يتجاوز قميصك.

وددت لو كنت قادراً على النفاذ تحت جلدك كما أرقبك على الدوام، فقد كنت أخاف عليك من أجلك، رغم معرفتي بك، كنت أخشى اندفاعات غريزية مجهولة، فأنبش محفظة يدك، أقلب أدراجك، أدخل

فجأة حجرة الاستحمام ، وكنت قد ذهبت لشراء الخبز ، فلما عدت كنت منطرحاً على أرضية الخشب ، ووجهك على الأرض . استجوبتك .

تلك كانت علينا أشد فترة استمرت ساعة ونصف الساعة ، فلا أنت تردّين ، ولا أنا بقادر على معرفة ما اذا كنت فعلت شيئاً ما ، فأرغب حدقتيك ، وأداعب جبينك ، وأرطبك . على مدى ساعة ونصف الساعة حيوانان يتحاوران ، الأنثى ، أضعف ، وتثنّ بصوت من الرأس ، والذكر (ظاهرياً) أقوى ، يهدّتها بصوتٍ من الحلق .

وفي اليوم الأخير ،
وقد تلاشى قيظ شهر حزيران اللاهب ، كنّا نحث الخطى تحت مظلتينا ،

خلف عربة مقبرة « فركشرت » ، في القفص الزجاجي المقرب من الهدف ضمن علبة سيجار ، قُشِلُ - استمراريتنا ، البقايا الرمزية لحياتنا المشتركة ، خلف العربة السوداء الموحدة الشكل ، شخصان في الحداد الموحّد الشكل ، وعلبة السيجار في رقبها ، مصطفة بين علب أخرى ، في مستودع رماد الموتى ، مع الأحرف المذهبة ، وتاج السعف ... آخذ ذراعك فتتوكئين عليّ .

وانطلاقاً من تلك اللحظة ، يصبح كلّ شيءٍ في غاية البساطة .

أنتِ بلغتِ لتوّك الرابعة والعشرين من عمرك ، وأنا مقبل على الخامسة والثلاثين ، ولن يكون في وسع هذا أن ينسينا ، لو أننا شئنا أن ننسى .

يسعنا أن نفعل أيّ شيء .

لسوف نحيا سنين طويلةً جنباً إلى جنبٍ، معاً، ونحن نحسب على جبينينا ، على وركينا ، في عموميات محاوراتنا ، تقدّم الآخر في العمر .

في وسعك أن تفعل أيّ شيء ، أن تشري نبيذاً أكثر مما يجب ، أن تروي بصوتٍ أعلى مما يجب حياتنا الصميّة ، أن تعود في وقتٍ متأخّرٍ أكثر مما يجب ، أن تذهبي في عطلةٍ بدوني ، أن تتنقلي .

وفي وسعي أن أفعل ما أشاء ، فأطلب من صديقتك أن تمثّل دور الشخص الثالث في بيتنا ، أو أتركك فجأةً في مواقف مقلقة ، أو أذهب فألتقي بـ « جنيفر » في لندن .

يسعنا أن نفعل أيّ شيء ، أن يهرن واحدنا للآخر عن كنهه ، متحرّراً أحدنا من الآخر ، مبتعداً أحدنا عن الآخر ، باستطاعتنا أن نحيا منفصلين ، أن أصفعك على الوجه ، ويكنك أن تحمسيني تحت العينين ، ونعود أحدنا للآخر .

نريد أن نكون معاً ، إننا معاً .

نسير ، منفصلين ، مجتمعين ، جنباً إلى جنبٍ ، منع طريقٍ أمامنا ، وطريقٍ وراءنا ، نقترّب من القبر ، (الذي لم يحترق بعد) ، إلا أننا لا ننسى .

تلك الأيام الأحد عشر ، القيظ ، المطر ، مقبض سياج الدرج ، تكتكة عدادات التاكسيات ، الانتظار القلق قبل النوم وبعد اليقظة .

أما وقد كنتِ إيتاي وكنتُ إياك ، أنّ كتلتين من الخلايا اكتشفت

إحداها الأخرى بنحوٍ متبادلٍ في حضورٍ، وفي اختفاءٍ ثالثةٍ ولدت
منهما، فما تقدران على النسيان، حتى لو رغبتا في النسيان.

هذا الضياء الحزيراني، والعرق المتسللُء فوق شفتيك، على جبهةٍ
ولدنا الميت، تحت ابطي النبات الصائر في المقبرة، فرحنا، ألما الزائلين.

برغم مما حدث، وفي توقع ما سيحدث، سنبقى سويةً ما دامت لم
تُحمد لنا ذاكرةً، تحفظ الماضي وتطلب البقية.

السلام في بلغاريا

نقلها إلى العربية
صلاح ذهني



١٩٨٨

الهيئة العامة لكتبة الإسكندرية	
٨٥٦, ٨٣	رقم التوثيق:
٤٧٢٥٦	رقم التسجيل:

السلام في بلغاريا

ويلي كيركلوند (فنلندا)

Willy Kyrklund (Finlande)

★ ويلي كيركلوند: ولد عام ١٩٢١ في «هلسنكي». نشر روايات قصيرة،
ومجموعات قصصية، ووصف أسفار ومسرحيات.

عندما جاشت الكراهية في نفس « باصيل » حامل اللقب المجيد
« باصيل ذبّاح البلغار » ، بمقدار كافٍ من الشدة على مدى عدد كافٍ من
السنين ، أسلمه الربّ جيش البلغار برمته . فجعلت النواقيس تقرع فوق
أسطحة القسطنطينية جميعاً ، ومن الكنائس كلها ترتفع تراتيل العرفان ،
ويتصاعد البخور في السماء الزرقاء ، وريح الجنوب تذهب بالبخور إلى ما
فوق « القرن الذهبي » ، باتجاه « بيرّا » (pera) بحمد الله تعالى ! .

وكان أن سمل عيون الجميع ! غير أنه ترك لرجلٍ من مائة عيناً
واحدةً ، بحيث يقدر ذاك على قيادة الآخرين إلى منازلهم .

فسار البلغار يداً بيدٍ ، باتجاه الغرب ، بطوابير مديدة لا نهاية لها .
سلسلةً طويلةً ، طويلةً ، تتعرج كالأفاعي فوق الجبال العارية ، وعلى رأس
كل سلسلة يسير الرجل المائة ، ذاك الذي احتفظ بعينٍ واحدة مفتوحة .
كان الجميع يمضون محنيّ الرقاب ، فلما انفتحت ممرات الجبال أمامهم
ودنت منهم بلادهم ، خذلتهم قواهم عن رفع الرأس .

كانت نسوتهم ينتظرون في المنازل . فخلال تلك السنين الطويلة ، وعلى

قدر ما يسع ذاكرتهن أن تضرب صعداً في الأجيال، كان قدرهن أن يحلن الماعز، وينفخن في الرماد، في انتظار الرجال. فلما بدأت طوابير الجنود العميان التي لا نهاية لها تحتاز القرى، فهمت النسوة أنهم عادوا كلهم، وأنها عودة لا رجعة بعدها.

في ذلك اليوم أعطت الماعز خلاً وانطفأت النار وسط الرماد. والشيخ الذين مكثوا في البيوت بسبب سنهم المتقدمة، سقطوا مرضى من غم وغيظ، ثم قضوا نحبهم. غير أن الشباب كانوا أعظم قوة، فما كان لهم أن يموتوا. إن أجساد المحاربين المفتولة العضلات، المتصلبة، ما كان لها أن تموت من جرح بسيط تحت الجبين. فلما استعاد الشباب قواهم، انتزعوا أنفسهم من جلود الماعز، أخذ التلّيف يتصاعد في أعضائهم، مثلما يتصاعد النسغ بالشجر في فصل الربيع.

اجتمعوا في مجلس القرية ليتناقشوا فيما بينهم، لكن تلك الجلسة اتخذت مجرى مضطرباً واختتمت في البلبلة، فاجتمعوا في الحانة ليتضاربوا، فسارت الأمور سيراً أفضل. كانت الضربات تضع في الأغلب، لكنها توجع عندما تصيب. ولدى انبثاق الفجر، كان الرجال يعودون إلى منازلهم متلمسين طريقهم بالسيف بمثابة عصا الأعمى، وفي غضون ذلك يمكث كثيرون في مواضعهم على شفا الموت. كان في ذلك عزاء وراحة.

غير أنه لم يكن بمقدور الرجال أن يفهموا ما جرى حقاً. فعن الحرب مع بيزنطة، كانت الأمور كالفصول، تتقلب مثل الربيع والخريف. كانت تسير مسارها، مثلما الجليد في الشتاء، وفي الصيف الحرّ اللاهب. ولكن هي ذي الأمور الآن قد مضت وانقضت. فبلغاريا مغلوبة على أمرها، بلغاريا القوية المتوحشة مسحوقة. حدثت أعمال همجية غزيرة،

واندفاعات رجولية، لكنّ الأمباطور وضع لذلك حدّاً. فارتجّ على ذلك كلّ بمفتاحه الصغير المحمّر، وأنه لأمر يعسر على الفهم.

كانت النسوة يفكّرن بسرعة أكبر بقليل. فبلغاريا مسحوقة، والروم قد فازوا، والحرب المستمرة تبلغ غايتها! كان ثمة عمالقة، مشدودة عضلات سيقانهم يهيمنون على وجوههم في شوارع القرى، شراذم عاجزة، حينذاك، فيما بين النساء، كانت تلتهب في عمق العيون المائلة، العيون التترية، نار خفيفة. كنّ يهررن كالقطط، ويمشّين إلى الرجال فيسحبنهم من اللحية. ويبتعدن من تمّ وهنّ يهززن أردافهنّ.

هكذا في بلغاريا الغمّ، كانت تُسمع من أحواض الغسيل، ومن الينابيع ثرثرة النسوة وضحكاتهن الرنانة. وقد انتزع بعضهن أسلحة الرجال، حتى إذا هم ذهبوا إلى الحانة لا يبقر أحدهم بطن الآخر بعض الشيء. وجعل بعضهنّ يحملن السيف على جنب، لكن أولئك كنّ شرسات، عسيرات المراس، نسوة بلا رحمة. كان قد حلّ آخر الأمر الزمن الذي لم تعد فيه للنسوة ذوات العين الحاذّة والجسد الودود حاجة لتحمل ضربات الأزواج، إذا لم تكن لهنّ فيها رغبة.

وخلال ذلك كان الأعمى يستحيل مغنياً، بالطبع، هكذا كان الأمر دوماً، لأنّ العمى يحسّن الصوت، بعض الشيء على أقلّ تقدير. ولكنّ مثل هذا العدد الكبير من الرجال العميان، هل يمكنهم أن يشكّلوا جوقاً؟ امتنع الرجال عن مناقشة هذا الأمر. كان السقوط عقياً، ولم يكن في المقدور محو المذلة، لقد انتهى كلّ شيء بالنسبة لأولئك الرجال.

كانت جوقة المنشدين خارقة، رائعة. فالرجال يتدربون في ساحة

القرية، ويتوفر لهم متسع من الوقت . كانوا ينشدون حتى لتتطابر الفضلات على طول الدروب، والمنازل تهتز، ويرجع الصدى فيما بين الجبال البلغارية. غير أنها ما كانت تهويمات أطفال . كانوا ينشدون هزيمة جيش الروم عبر الاستعراضات، والبطون المبقورة لجند الأعداء، وهم يمسون أحشاءهم بكلتا اليدين. كان الرجال ينشدون للجيش اليوناني النائم في قعر النهر حيث النسوة ينهلن الماء، ويغسلن الثياب، كانوا ينشدون قباب القسطنطينية والطريق المؤدية إليها، واليونانيون الذين يلتقونهم على الدرب وما ينتظرهم من مصير وما يهيأ من مصير لنسوة أولئك اليونانيين.

كانت النسوة يصحن السمع مفتونات، وما من ريب في أنهن سمعن أنات الشيوخ، وسمعن أنغام العود الذي يضرب على اوتاره. لكن هؤلاء كانوا رجالاً! فلما لم يعد ثمة متسع في القرية للمنشدين، توجهوا إلى الحقول. فتبعتهم النسوة، وأمسكن عن حلب الماعز. ها قد حل الآن أوان التسلية. كان نوع من الطيش يشيع، فحين ينشد الرجال، تصفق النسوة بالأيدي.

أبدأ لم يخطر ببال النسوة أن يوماً كذاك سيحلّ، يقف فيه الرجال أنفسهم فقط على تسليتهن وإمتاعهن، تلك الجوقة الوسيعة كلّها، من دم وأعصاب، وهي تتأيل وسط الحقول.. لم يكن لها من هم سوى أن ترفه عنهن، هن النساء، نعم، الغناء هنّ، وإمتاعهنّ بلحظات طيبة.

وكان الرجال يبدون تعطشا كبيراً للحظات الطيبة، فما كان يشغلهم أمر سواها، ولا يفكرون بغيرها. حتى إذا حظوا بساق امرأة فحسب، أو

بذراع ، أو بأصبع ، كان يظهر للعيان أنه لم يكن ينقصهم شيء . ولا تذكر النسوة أن قد سبق لهنّ أبداً أن سُري عنهن بمقدار ذلك .

كانت الجوقة تحتلّ وسط الحقول . ويترنح الرجال على إيقاع الموسيقى ، وقد انعقد منهم تشكيل مغلق ، استدارت فيه الظهور نحو الداخل وبين الواحد والآخر مسافة ذراع . وعلى المدار كله تحوم النساء كالهرة ، شحذ قابليتها طبق طعام ما ينفك يغلي . فهنّ يمددن بحذرٍ إصبعاً ، ثم ما يلبثن أن يسحبنه .

فلما جعلت رياح الربيع تصفر في الدغل ، وتمايل زهر شقائق النعمان في الحقول أحمر قانياً ، في ذلك الحين بدأت الجوقة تعاني عسراً بالتجمّع في الوقت المطلوب . فيحدث أن يتمّ التجمّع صباحاً جماعاتٍ صغيرة متناثرة ، وفي ساعة الغداء يقرّر أصحاب الأصوات الجهيّة الإضراب ، وبعد الظهر يذهب المطرب ذو الصوت الأعلى إلى الحانة . لكنّ الأناشيد الرائعة كانت تستمر الليل بطوله ، وتمتدّ ، ولا تتوقف ، فكانت النسوة يكمثن يقظاتٍ الوقت كلّهُ ، وبخاصّة الصبايا اللواتي يجافيهنّ النوم العميق . هكذا كان الرجال كالديكة المستثارة التي تضرب بأجنحتها في منتصف الليل ، وبأعلى حنجرتها تصيح ، فكلّ دجاج الحظيرة يعود فيفتح العيون .

أمّا الصبايا من النساء ، أولئك اللواتي يجفوهن النوم ، فينطلقن إلى الحقول المجاورة للقرية . كنّ يمددن إصبعاً ، يمددن يدياً ، وكانت الشرسات يلاحقهنّ بسيوفهنّ ، غير أنّ ذاك كان يجري في الليل البهيم ، فتدوس الأقدام قدراً كبيراً من زهر شقائق النعمان .

وفما بعض النساء بدان يتساءلن إلى أين المصير ، مع هذا السلام ؟ لم

تكن لديهم تجربة سابقة في هذا المجال، فكيف لمن أن يعرفن أي إجراءات تتخذ؟ وكان الرجال بغير ما إحساس بالمسؤولية إطلاقاً، فما يصغون عندما يتوجه إليهم أحد بكلام. كان يأسهم بعد الهزيمة عظيم جداً. فما يبلغون أن يتعزوا منه بشيء، وأن يتلاءموا معه.

جاء من القسطنطينية في أعقاب السلام حشد من الباعة الجوالين يعرضون بضاعتهم، وهي على الأغلب حوائج براقية ومنتجات نفيسة، كما تحبها النساء. وقد اشترت النسوة حاجات لم تبلغ علم الرجال إلا فيما بعد.

« ما هذا الذي يحيط بساعدك؟ »

- ايه ليس سوى سوار من ألماس، عرضها الرومي بسعر بخس.

- وما هذا الذي في شعرك؟

- ايه، ليس سوى مشط من ذهب. اشتريته لأتحلى به لك.

- وما هذا الذي يحيط بعنقك؟

- قلادة عليها أربعة حروف رومية تعني: « ليس كل ما عدا ذلك

سوى رمادي ».

- أربعة حروف يونانية تعني: « ليس الباقي سوى رمادي »؟.

- ذاك ما قاله التاجر ».

كانت الزوجة تطلب من الزوج أن يسامحها لهذا الإسراف المفرط، واعدة أنه لن تعود إليه. ولكن بما أنّ الزوج كان يشك في أنّ زوجته حصلت على مجوهرات أخرى تخفيها عنه، فقد أخذ على عاتقه أن يبحث عنها في كل جزء من جسدها. كان يبحث بحماسة فوجد ما وجد.

واستمرت النسوة يتزين بكل صنف من بضائع القسطنطينية الرديئة.

أساور، أمشاط، مشابك، تحمل هذه الكتابة: إيروس^(١).

كانت الصبايا في ليالي الصيف يمضين إلى الحقول، وكان ذاك شهر القيث الشديد. فالهواء عليل غير أن الأرض ما انفكت حارة. كانت الحجارة تحترق، ويظل التراب ساخناً حتى الصباح.

وعلى ذلك فقد حدث ما كان متوقعاً أن يحدث، فبطون النسوة بدأت تتضخم، وانصبّ اهتمام النسوة فجأة على شؤون أخرى. بتن حذرات، متخوفات ببطونهن الضخمة من الاصطدام بأحد ما، وما هي إلا فترة حتى صرن أثقل من أن يجدن الجراءة على النهوض ليلاً والتوجه إلى الحقول. وفي كل حال كان الخريف يقترب.

غضب الرجال بالطبع غضبة شديدة من سلوك النساء، ولكن لم يكن بمقدورهم أن يفعلوا شيئاً. كانوا يتزاحون في الحانة، بعضهم لصق ببعض، وكان الثلج خلال ذلك يتساقط. وفي تلك الفترة ابتدعت أناشيد جديدة، كانت تتحدث عن الزهد وعن تجارب الحياة.

وفي الربيع وُلد الأولاد. كانوا جميعاً من الصبيان، وجعلوا يرضعون حليب الأمهات، ويطرعون في ظلّ عنايتهن الدائمة. حتى إذا آن الأوان، فلسوف يشرعون سيوفهم، ويعاودون الحرب. ذاك أن بلغاريا لم تكن قد سحقت بعد، ولم ينتهِ كل شيء. كانت النسوة يتشممن جاجم المواليد، حيث تنبض الحياة تحت الغشاوة الرقيقة.

(١) الإسم اليوناني لإله الحب.

رسائل

نقلها إلى العربية
صلاح دهني



١٩٨٨

الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية	
٨٥٦, ٨٣	رقم التصنيف:
٤٧٢٥٦	رقم التسجيل:

رسائل

ميكلوش فاموش (المجر)

Mikloche Vamouche (Hongrie)

١٠ ميكلوش فاموش: كاتب مجري شاب، ولد عام ١٩٥٠، ظهر بنحوٍ عاصفٍ في أجواء الآداب المجرية في الستينات، نشر أولى قصصه ولما يتجاوز التاسعة عشرة من عمره، واعتبر على الفور من أفضل ذوي المواهب الجديدة. بذل نشاطاً نقدياً، وأصدر مجموعاتٍ قصصية، تتصف برؤيةٍ فظة، وساخرةٍ للعالم مع ميل هازلٍ لكشف عيوب ونقائص الحياة اليومية للناس.

أتين. (Etienne) - يجب عليك قطعاً أن تكون هنا مساءً هذا اليوم، فالسيد « بيلا » (Bella) يأتي للعشاء. وقد أصبت في المرة الفائتة بخزي شديد، لأنك لم تفعل سوى أن مددت رأسك من الباب، لتلقي التحية وتمضي في الحال. قل كذلك « لماري » (Marie) رجاءً، أن تكون هناك. وتذكر أن تذهب إلى الحليب.

قبلات. ماما.

صغيري « أتين ». - ستجد غداءك على الطبخ. تذكر وأنت تسخن نصيبك من البطاطا أن تقلبها حتى لا تحترق. اكتب أيضاً وظائفك.

مامي

إذا فشلت مرةً أخرى، لن أوقع جلاءك. ستقدمينه لأبيك الذي سيعاقبك. « مارييت » (Marcette)، كلفتني ماما أن أخبرك بالآلة الخرجي هذا المساء، لأن السيد « بيلا » سوف يحضر. أنا آسف لأنّ عندي حصّة تدريب. اعتذري لي لديهما. وبعد، اذهبي إلى الحليب، كوني لطيفة! « أتين »

أتين». - حضرت، إلّا أنّك كنت قد خرجت، رغم وعدك. إذا كنت تتوهم أنني سأتوسّل إليك راحة، فأنت تحشر إصبعك في عينك. تلفن لي حتماً صباح غدٍ، وإلّا، فتلك نهاية ما بيننا.

«سوزان»

مررت بدكان الألبان، لكن لم يكن قد بقي حليب.

«ماري»

هيات فواتيركم، تفضّلوا بدفع الأجرة لي. انقضى العاشر من الشهر! لا تنسوا قسط المصعد!

البوابة

«أتين». إذا عدت قبل الساعة العاشرة، أيقظني، لأنّ لديّ ما أتحدّث به معك. إنك تسخر منّا، فيما أظن! ولا تقيم وزناً لأيّ شيء. (فوق هذا عاد أبوك متأخراً ساعة ونصفاً). أنت لا تشارك بشيء في حياة العائلة. لا أعرف ما تأخذه على السيد «بيلا»، مع أنه لم يرتكب قط معك أيّ إساءة.

كعاته، جلب معه ثمانية هدايا لنا جميعاً. وضعت هديتك فوق منصة سريرك.

قبلات. ماما.

ماما -. عدت لتوّي، والساعة تجاوزت الحادية عشرة. أيقظني الساعة السادسة والرّبع كحدّ أقصى، فما زال عليّ أن أدرس الفيزياء. شكراً للشوكولا، كانت رائعة.

«أتين».

« ماري » . - عليك أن تشتري :

٢ كيلو بطاطا ،

١٠٠ غ. زبدة ،

٣ ليمونات ، لا تكون جد كبيرة .

قطعتي جبن صغيرتين ،

١ لتر حليب . وأرجوك ألا تنسي شيئاً !

قابلت البارحة مدام « فرنيك » من الطابق الثالث ، فقالت لي إنه كان هناك حليب في دكان الألبان حتى الساعة الثامنة ، في حين زعمت أنه لم يكن قد بقي منه شيء . ستجدين الدراهم فوق البوفيه .

قبلات . ماما .

إضافة إلى ذلك . أنت لا تنظفين أوعية الطعام ، هذا مزعج ! فيما يخص هذا المساء ، ازعجي نفسك ورتبي المطبخ ، من فضلك !

أماه . - أخذت عشرة « فورنت » من حصالتك ، من أجل عملية تبرع يقومون بها في المدرسة ، لكن جذي لم يرض باعطائي أي شيء .

« اتين »

« اتين » . - خرج الجدّ والجدة في نزهة . افعل مثلاً فعلاً من

فضلك ، لأن أحد الأصحاب يأتي ليراني بعد ظهر اليوم . شكراً !

ماري

ماما . - من فضلك ، اتركي لي عشرة « فورنت » على البوفيه ، من أجل عملية تبرع تجري في المدرسة . وهل لك أن توقمي أيضاً جلاني ، والملاحظة التي سترينها فيه من أجل الفيزياء ، ليست بسبب خطيئة ارتكبتها أنا .

« اتين »

« اتين » . - ليس من الشرف في شيء ما فعلته ، إذ تركت لي جلاءك لأوقعه ومضيت بصمت لتعود في وسط الليل ! هذا عدا الكلام عن هاتين العلامتين الرديئتين الآخرين ! إذا تابعت العمل بهذا المستوى من السوء في المدرسة ، فلن تصلح لغير العتالة . أنا لا أطلب منك أن تعمل لأجلي ، بل يجب أن تفهم أن الأمر يتعلق بمستقبلك الشخصي ! في المرة القادمة سأطلع أباك على جلائك ، وسيتوجب عليك أن تتدبر أمرك معه ! وقد كنت فعلت ذلك أصلاً ، لو أنني عرفت فقط أين هو ، إلا أنه لم يدع لي سوى كلمة على البوفيه ، يعلمني فيها أنه لن يعود وقت العشاء . إنني أعرف على الأقل عمن ورثت ميولك التسكعية ! سوف تنتهي نهاية سيئة ، سترى !

قبلات . ماما .

ذهبت لألعب الورق . لا تنتظريني على العشاء .

« شارل »

ماري - جدتي تشاجر مع جدتي ، لأنها لم ترض بخفض الراديو . عند ذلك أغمي عليها ، وأخذوها إلى مستشفى القديس « روش » (Roche) . قولي ذلك لماما . خذي هذه الصرة إلى المستشفى ، إلى الجدة . فيها قميص نومها ، وخفها ، وصابونة ، إلخ . . . عندي غيبة ، لكن لا تقولي عنها شيئاً لماما ، لأنني ذكرت لها أنني ذاهب إلى ندوة الطوابع . تحية .

« اتين »

ماما . - أخذوا جدتي إلى المستشفى . جدتي كسر إبريق الماء ، وشرب قنينتي نبيذ ، وهو مخمر تماماً . هذه صرة يجب أن تحملها إلى الجدة في المستشفى ، لأنها تحتوي قميص نومها ، ومشطها ، وصابونتها ، وخفها . يجب أن أذهب إلى درس الرسم .

« ماري »

سأعود متأخرةً بعض الشيء ، لا تنتظروني .

« شارل » . - لا يمكن أن تستمرّ الأمور على هذا النحو ، إنك تتصرّف كما لو كنت غريباً عن العائلة بكلّ معنى الكلمة ، في حين أنّك زوجي وأب أولادي . أبقيني من فضلك ، مهما كانت الساعة التي تعود فيها . ويشهد الله أنني تحمّلت أكثر مما يجب ، لكنني هذه المرة مللت .
« ايرما »

ماما . - ضعي لي من فضلك عشرين « فورت » على البوفيه . فأنا بحاجة ماسة إليها .

« اتين »

« شارل . - منذ ثمانية أيام وأنا أطلب محادثتك ، لكن بلا جدوى .
أمي في المستشفى ، و « اتين » على شفا الطرد من المدرسة ، و « ماري » شاهدها عدّة مستأجرين فيما كانت تدع شاباً - تفضل - يقبلها على الفم تحت مدخل العمارة ، وأنت لا تهتم بشيء ! لا تندهش إذا ما حطمت أنفك ذات مساء على الباب !

« ايرما »

من بعد ، يمكنك معاشرّة عاهراتك على هواك .
« اتين » . - تقول لي أمك إنك لا تعمل في الصفّ ، وإنك تعود في ساعات غير معقولة . اعمل على أن تتصرّف كما يجب ، إذا لم تكن ترغب برؤية قدمي على قفاك ! وكذا الأمر بالنسبة « لماري » !

أبوك

« ماري » . - اذهبي واثّ بالغسيل من المصبغة .

قيلات . ماما .

ماما . - مرّ الطبيب . يجب على جدّي أن يلزم السرير ، راحة كليّة ،
لأنّ معه جلطة . الوصفات فوق الطاولة ، اذهبي إلى الصيدلية من فضلك .
اتيين »

ماما . - من فضلك ، عاد بابا فأحضر امرأة إلى منزلنا هذا الصباح ،
ولم يقبل بعودتي . أما عدنا في بيتنا إذن ؟ أم ماذا ؟ هذه النقود لك .
« ماري »

« شارل » . - طفح الكيل . عزمّت على طلب الطلاق . اذهب إلى
الشیطان !

« ايرما »

ستجد حوائجك في غرفة الخادمة . ستنام « ماري » مكانك . لم أعد
أرغب في رؤيتك ، يا وغد !
« ايرما » . - كنت دوماً غبيةً ، كقدميك . لكنني لا أهتم ، افعلي ما
شئت . تصبحين على خير !

« شارل »

ماما . - ما عدت أطيع . إنني أستغني عن المدرسة . سأذكر لك كل
شيء مساء اليوم .

« اتيين »

شارل . - هذه المرة يتعلّق الأمر « باتيين » . يريد ترك المدرسة ،
ويقول إنها لا معنى لها . يجب أن تحدّثه قطعاً لا يهمّ ما جرى بيننا ، فأنت
تظلّ أباه . أحد رفاقه ، شابّ حقير ، عبّأ رأسه ويريد الآن بأيّ ثمن
الذهاب إلى مصنع بصفة متدرّب . يقول إنه شبع من الاستجداء راکعاً

كلما كان بحاجة إلى بعض النقود لكن ما الذي سيصير إليه ؟

« ايرما »

لا أحد يهتم بي، إنها ليست عيشة، هذه. كفاني المكوث مستلقياً،
متجمداً بلا حراك طوال النهار. وداعاً يا صحي جيعاً.

جدكم

ماما . - إن ما جرى لأمر مرعب ! تناول جدي انبوبة منوم
بكاملها . استدعت مدام « فرنيك » على الفور دكتور « فارغا » من
الطابق الثاني، لكن بعد فوات الأوان . عندما عدت ، الساعة الثالثة
والنصف ، كانوا قد ذهبوا بالجثمان . تلفنت إلى بابا ، في المشغل ، غير أنهم
قالوا لي إنه كان قد انصرف . انتظرت حتى الآن ، لكن الساعة بلغت
السابعة وأنا خائفة وحدي . أنا ذاهبة إلى بيت صديقة . قد يسعك أن
تعودي أنت أيضاً أحياناً . ما الذي يجعلك تمضين سهراتك كلها مع هذا
البغيض السيد « بيللا » ؟ كل ما أراه منك بضع رسائل متركبة على
البوفيه .

ماري

« اتين » . - يا صغيري ، عليك أن تأخذ شهادة الوفاة إلى البوابة ، ثم
تذهب وتحضر :

١ كيلو خبز ،

٢٠٠ غ مرتديلا ، شطائر رقيقة ،

١ لتر حليب .

قبلات . ماما .

« ماري ». - شخص اسمه « كالمان » تلفن إنه سيعود فيطلبك مساء اليوم .

« اتين »

« شارل ». - إنه لمن المحنق حقاً أنك لم تأتِ حتى إلى دفن أبي . طلبت الطلاق ، لا بأس ، لكن لا تتصور أن ذلك يعطيك الحق في أن تدوس بالأقدام حرمة العائلة وقدسيته . وما يقوله الناس ، أترك لا تبالي به ؟ من ناحية أخرى يجب ألا يحول هذا كله دون بقائنا صديقين . أحسن أنني جد وحيدة !

« ايرما »

ماما . - يكلفني بابا بإبلاغك أنه يغادر المنزل . وأنا ، حسبها يجب ، لا تقال لي الأشياء إلا عندما يتعلق الأمر بنقل رسائل ! نقل كل أمتعته في المحفظة الكبيرة ، هبت أنا إلى السيما . تحية إلى « بيلا » رأس الخنزير ! أنا عامل طباعة متدرّب منذ ثلاثة أيام ، إذا كان هذا يهيك !

« اتين »

ماما . - انتظرتك لأنّ « أتिला » Atella حضر ، تعرفين أنه هو الذي حدثتكَ عنه فيما مضى . نحن في أحسن حالٍ معاً ، لذا تمنيت أن أقدمه لك .

أما أنتِ ، فيمكننا دوماً أن ننتظرك ...

« أتिला » يأخذني إلى المسرح ، وهذا يعني أنني سأعود متأخرة .

« ماري »

اتين . - إنك تبالي بعض الشيء ، هذا مؤكد ! أولاً بالنسبة لك ،

هو ليس « بيلا » بل السيد « بيلا » ، أو على الأقل العم « بيلا » . وبعد ذلك ، فهو أبعد ما يكون عن وصف رأس خنزير . أخيراً ، فأنت تعرف الموقف جيداً . تلك لهجة لا أقبلها أبداً !

قبلات . ماما .

ماما . - من فضلك أيقظيني الساعة السادسة والنصف !

« ماري »

« اتينين . - أرجوك أن تذهب قطعاً لترى جدتك في المستشفى . منذ ثمانية أيام لم يذهب أحد لرؤيتها . احمل لها علبة خشاف ، وسأرد لك النقود فيما بعد .

قبلات . ماما .

« ماري » . - كوني لطيفةً واذهي زوري جدتك في المستشفى . ليست لدي لحظة فراغٍ هذه الأيام . خذي لها علبة خشاف .

« اتينين »

ماما . - اليوم دورك في زيارة جدتي ، أنا ذاهبة للرقص مع « أتिला » . إنها أملك ، أليس كذلك ؟

« ماري »

« اتينين » ، « ماري » . - إنني أصرّ على رؤيتكما هذا المساء في البيت ، لأحدثكما في قضية شديدة الأهمية . إنكما لم تعودا طفلين وسوف تفهماني . قد يأتي السيد « بيلا » فيقطن معنا .

قبلات . ماما .

« اتيين » . - واحدة إسمها « سوزان » تلفنت لك .

« ماري »

اما . - جاؤوا للمرة الثالثة لتقديم فاتورة الكهرباء . اتركي النقود في المنزل ، من فضلك .

« اتيين »

« بيلا » . - أنا عند خياطتي ، إلا أنني عائدة بعد قليل . العشاء على الغاز ، اذا كنت جائعاً ، وبالانتظار سخنه ، لكنني أفضل أن تنتظري لكي نأكل معاً .

« إيرماك »

سيقطع الماء ابتداءً من الساعة ١٥ ، بسبب قطع مجرى . خذوا احتياطاً .

البوابة

ماما . - سوف اتزوج من « أنيلا » . سيجري الأمر في غضون ثلاثة أسابيع من الآن . أرجو أن تكوني موافقة ، وأن يسرك ذلك . وإلا فالأمر سواء .

ماري

ماما . - من فضلك ، تلطفني واسألني « بيلا » بالآتي ينبش حوائجي . عاد فأخذ مني علبة سكاكر ، هذا الأبله ، ولم تكن تلك الأولى . من جهة ثانية ، يحسن عملاً اذا هو نظف حوض الاستحمام عندما يخرج منه .

« اتيين »

« ماري » . - لا تخرجي هذا المساء يا صغيرتي ، فلدي ما أتحدث به معك بخصوص هذا الزواج . أنت الآن بنت كبيرة ذكية ، وتعلمين أن الزواج لا يؤخذ مأخذ خفة . هو رابطة تلزم المرء الحياة بطولها ، آخر الأمر ! « أتيليا » فتى لطيف ، أوافقك بطيبة خاطر ، إلا أنه مجرد تقني بسيط ، ويمكنك أن تجدي من هو أفضل . هذا رأيي ، لكننا سنتحدث في ذلك مساء اليوم . من جهة أخرى رأي « بيلا » .

قبلات أمك

لا أقيم لرأيك وزناً كبيراً ، كما أن رأي بيلا يهمني دون ذلك . أريد أن أحيا حياتي .

« ماري »

« أتيين » . - يا صغيري ، كن أكثر لطفاً بقليل مع « بيلا » ! لقد تشكى منك . لا تنسَ أنني أمك ، وأنه مهما كان رأيك في « بيلا » فهو صديقي .

قبلات . ماما

سأعود هذا المساء متأخراً بعض الشيء .

« بيلا »

« ماري » . - تلفن « أتيليا » . عاودي الاتصال به .

« أتيين »

« أتيين » . - تلتطف واذهب فاشترِ :

١ كيلو خبز ،

٣٠٠ غ مرتديلا ،

نصف كيلو طحين ،

ربع كيلو شوكولا ،

قنينة نبيذ أبيض .

اليوم عيد « بيلا » . لا تخرج اليوم ، ساهيَّ عشاءً طيباً !

قبلات ماما .

خرجت لأشرب قدحاً مع الأصحاب .

« بيلا »

جرى اليوم توزيع المكافآت في المشغل .

« بيلا » . - كان اليوم يوم عيدك إن كنت قد نسيت . إنتظرناك مع

عشاء عظيم ولم تتنازل بالعودة ، ألا تفجّل ؟ دائماً محشور مع الأصحاب !

على الأقل كل الكاتو عندما تعود . ستجده على منصّة الليل .

« ايرما »

« اتين » . - هل لك أن تقول « لبيلا » إن لديّ ساعاتٍ إضافية أقوم

بها هذا المساء ، وإنني لن أعود قبل الساعة السادسة والنصف .

قبلات . ماما .

يكلفني « بيلا » أن أخبرك أنه في المقهى الصغير في الزاوية ، لكنه لا

يشير عليك أن تذهبي إلى هناك لجلبه ، لأنه سيجعلك تتأستفين لذلك .

يقول أيضاً إنّ عليك أن تتركه بسلام .

« اتين »

« اتين » . - واحدة تدعى « فيرا » Vira جاءت وتركت لك هذه

الكلمة : « هل نسيت ، يا « اتين » ؟ كُنّا اتفقنا على هذا المساء ! لا أحبّ

من يخلف الموعد! « فبرا » .

« ماري »

اتيين . - تكون لطيفاً إذا لم تعد إلى البيت هذا المساء . لأن السيد
« دزيريه » Desiré سيحضر . وهو كما تعلم ، الشخص الذي كنت كلمتك
عنه . أخبر ماري أيضاً !
قبلات . ماما .

الثروة

نقلها إلى العربية
صلاح ذهني



١٩٨٨

الهيئة العامة لكتبة الإسكندرية	
٨٥٦,٨٣	رقم النسخة:
٤٧٨٥٦	رقم التسجيل:

الثروة

پول مرسليه (فرنسا)

Paul Mercier (France)

★ پول مرسليه : كاتب فرنسي معاصر .

جلس « دافيد بور » (David bor)، وابتسم، وطرق موضوعه بنحو مباشر :

- حضرة رئيس البلدية، تعرف أنت من أمثل، فقد أوضحت لك ذلك على الهاتف.

فأجاب ثعاده وبصوته بعض الاحترام :

- لهذا أجلت اجتماع مجلسي البلدي، الذي كان يفترض عقده الآن، لأستقبلك فوراً.

وبحركة من الرأس، عرف « دافيد بور » كيف يظهر شكره لرئيس البلدية عن لطفه، وفي الوقت ذاته أفهمه أنه لو اتخذ موقفاً مغايراً، لتبدى له ذلك عسير التصديق. ثم إنه تابع بالابتسامة ذاتها :

- في سبيل تنظيم أسباب راحته الشخصية، يرغب السيد « ج.س. غولدتو » الثالث، منذ سنتي الثلاثين - أي، لعمرى، منذ خمس سنوات - في أن يدع لي هذه الأمور كلية. ويشترفي أنني لم أحن ثقته قط.

وأرجو، هذه المرة أيضاً، ألا أخيب أمله. والواقع...

كان على وشك أن يتابع إلا أنه فكر أن هذا القاضي الأول في مدينة صغيرة من مدن «فلوريدا»، على الرغم من تأكيده أنه يعرف، (بل يعرف حتماً، شأن ٩٩٩ أمريكي من كل ١٠٠٠)، من يكون «ج.س. غولدتو» الثالث، فقد يجهل نقاطاً معينة ذات أهمية مؤكدة. فما كان من «دافيد بور»، الذي لا يزال شاباً، إلا أن غير بنعومة لا تدرك من لهجته، وانزلق بها وجهة التسار:

- يتوجب على المرء أن يعيش يوماً قرب السيد «غولدتو»، ليفهم كيف يحيا رجل مثله. صدقني إنها حياة لا نتمناها لأنفسنا، لا أنت ولا أنا. لا بد من القول إنه غني، بل غني جداً. ولا بد من القول إنه يتعامل مع معظم كبار رؤساء الدول، كقوة تواجه قوة. بل لقد كان الأمر يتعلق بكلمة منه، قبل سنتين، لو رغب في أن ينتخب لمنصب سيناتور، وقد ضغط عليه أصحابه لهذا! وكان انتخابه للرئاسة فيما بعد يأتي من نفسه. إلا أنه لا يهتم بالسياسة إلا كعنصر من عناصر نجاحه المالي؛ فالسياسيون يخدمونه، ويقوم هو باستخدامهم. وهو لا يفكر قط بالانخراط في صفوفهم. بل يكفي أن يكون فقط، وعلى وجه التخصيص، رجل مال. ولكن، رجل مال من الصنف الذي يدعى في الساعة الثانية، أو الثالثة، أو الخامسة صباحاً، من «جوهانسبرغ»، «طوكيو»، «لندن» أو «ساو باولو». من ذاك الصنف من الرجال الذي، إذا ما أوقف على حين غفلة، عليه في الحال أن يتخذ قرارات ترتقي إلى آلاف وآلاف الدولارات، في الحد الأدنى. إن حال هذا الرجل الأربعيني الذي لا يبدو عليه الآن أنه أكبر من سنه، رغم هذه الدرجة من الإستهلاك العصبي، لتدل على قدر رفيع من التوازن الجسماني والعقلاني.

- يقال أيضاً إنه تزوّج عدة مراتٍ ...

وافق « دافيد بور » على هذا التساؤل الذي ألقاه رئيس البلدية :

- خمس مراتٍ . لكنّ ذلك ، في الحقيقة ، لا يدخل أبداً في الحساب . فكل من تلك المغامرات الخائبة انتهت بمرتباتٍ معاشية ، قد تقلّ أو تكثر . وهي في الواقع نقطة ماءٍ في محيطٍ . محيطٌ يخلص إلى أن يجرف كل تلك المخلوقات الشرهة للمال ، والتي لم يكن مستر « غولدتو » ، آخر الأمر ، يعيرها سوى اهتمامٍ عابرٍ .

بدا على حين غرةٍ كما لو كان سماع هذا النقاش حول شخصية بارزةٍ على المستوى القومي ، كشخصية مستر « غولدتو » ، قد ضايقت رئيس البلدية . فما كان منه إلّا أن أعاد إشعال السيغار الضخم الممضوغ ، الذي كان يقلّبه بين أصابعه منذ دخول زائرهِ . ثم أبدى وهو لا يدري ما يقول : هذه الملاحظة السطحية :

- إنه ليصعب عليّ أن أصدّق أن السيد « غولدتو » ، الذي يسعه ألا يحرم نفسه من شيء ، لا يحب سوى المال ...

- ليس المال ، يا حضرة رئيس البلدية ! (هكذا صاح « دافيد بور » مندهشاً) . بل الأرقام ! النجاح ! أعني النجاح دوغماً تعلق به ... خذ مثلاً ، إنني لا يدهشني أن أراه يوماً ، وقد سحق خصماً له ، وهدمه ، أن يعيد له دينه كله ، وأن يعينه على معاودة الصعود ، ولكن ...

وبالسبّابة ، أشار إلى أنه بعد هذا الاسترسال السطحي ، قد آن الأوان للدخول أخيراً في موضوع اللقاء الذي يجله رئيس البلدية . وعلى ذلك ،

عاد « دافيد بور » إلى القول :

- للسيد « غولدتو » ولع آخر ، ولع مضاعف آخر : ولع بالجمال ، وولع بالمنظر الطبيعية . فحياته المثقلة بالجهد يجب أن تتخللها فترات - قصيرة جداً مع الأسف ! - من الراحة ، يكون فيها وحيداً ، أو شبه وحيد ، أمام الطبيعة . وهذا سبب وجودي هنا .

فما كان من رئيس البلدية إلا أن انتفض كالملسوع . فهو ليس بالأحق ، وما كان يقال له لتوه يوحى بتعقيدات ، ومتاعب ما أنزل الله بها من سلطان . بل هو يوحى بما قد يكون أخطر من هذا ، (فما من شيء يمنع آخر الأمر ، من قتل كبار الرجال في هذا العالم ، خارج مقاطعة التكساس) . على أن « دافيد بور » ليس بالأبله أيضاً ، فقد قرأ ما يدور في ذهن محادثه كما يقرأ المرء في كتاب مفتوح ، فرفع يده :

- أرى يا حضرة رئيس البلدية ، أنك قد فهمتني . أجل ، فبعد أن ضربت ذات اليمين وذات اليسار ، وجدت أن الشاطئ المشرف على خليج « المكسيك » والتابع لبلديتكم يمكن أن يكون الموضع المثالي لأيام العطلة الأربعة التي سيخص بها مستر « غولدتو » نفسه قبل نهاية الشهر ، برفقة بعض الخللص من أصحابه .

فتساءل رئيس البلدية قلقاً :

- بعض الخللص ؟ كم عددهم ؟

- ايه ، مئة وخمسون على أكثر حد ، أجاب « دافيد بور » بلهجة هوائية .

فاعترض رئيس البلدية في بارقة فزع :

- ولكننا لسنا مجهزين لمثل هذا ...

قال « دافيد بور » ، بشيء من الضيق :

- دعني أتكلم . سأحاول الاختصار ، وهذا في مصلحتنا نحن الإثنين .
إن الشاطئ الشرقي من ولايتك لا يهم السيد « غولدتو » ، فهو يعرفه جيداً . لذلك نظرت جهة الغرب . هنالك وقفت متحيراً ما بين « أبلاشيكولا » ومنطقتكم في « كاربور » . وقد بدت لي البلاجات في كلتا المنطقتين جذابة بدرجة متساوية . ولكن ، في المنبسط في « أبلاشيكولا » ، ثمة جزر تقطع منظر الخليج . لهذا اخترت « كاربور » ، أو على الأقل جوارها القريبة ، لاستقبال مستر « غولدتو » ومدعوّيه ، من الآن وحتى الخمسة عشر يوماً المقبلة . « وكاربور » ليست مجهولةً ، هذا مؤكد . لكن حضور مستر « غولدتو » لا يمكن بالطبع إلا أن يخدم دعايتها .

اعترض رئيس البلدية قائلاً :

- صحيح ، لكنّ البلاج ليس مهياً . أعرف « أوستراليا » مرّة من هنا ، وقال لي إن رماله تشبه رمال جزيرة الصنوبر ، في مكان ما من « زيلنده » الجديدة أو من « كاليدونيا » الجديدة ، فيما أعتقد . وفيما عدا ذلك ، لا يوجد شيء ، كيف تريد في خمسة عشر يوماً أن يسعنا بناء فندق يليق بمستر « غولدتو » وأصدقائه ؟

- لماذا ؟ تساءل « دافيد بور » برقة بالغة .

- لماذا ، يا سيدي العزيز ؟ لأنّ كل عملية تفترض توفر حد أدنى من الوقت و (بزفرة خارجة من الأعماق) المال ! الكثير ، الكثير من المال !

★ ★ ★

عند هذه النقطة من المحادثة، انتزع دافيد بور نفسه عن المقعد، فتناول سيكارة، واستدار على نفسه، وجعل ينظر عبر النافذة متأملاً السماء الرائعة التي تنجلي عنها « فلوريدا » في هذا الفصل. حتى إذا عاد إلى الأرض، استدار ثانيةً وجهاً لقفأً، وقاس عرض الهوة التي تفصل إلزاماً فيما بينه كرجل نيويورك، وبين ساكني محلي من أهل كاربور، فألقى :

- أفهم كلامك عن المال، يا حضرة رئيس البلدية. وأنا، على عكسك، لا أستوعب حشرك موضوع الزمن، لأن التجربة تثبت أن المال يكتيف الزمن، ويبلغ أحياناً أن يلغيه. على أن القضية ليست هنا. فرغم المقالات، والكتب، (وتمثل أطناناً ضخمة)، التي كتبت عن مستر « غولدتو »، ألاحظ، وأنكر، جهلك بوجه بارز كوجهه. مستر « غولدتو » رجل ذو ميول بسيطة، يا حضرة رئيس البلدية! غير أنني عندما أقول: إيواء ترد عليّ: قصر. إن الأمر لا يعني هذا قط! فكل ما هنالك، وما أفكر به للأيام الأربعة التي تحدثنا عنها، وللمئة وخمسين أو المئتي شخص الذين سيجرّهم مستر « غولدتو » في ركابه، هو بناء مئة وعشرين كوخاً من القش، لا أكثر. إذ سيكون هنالك رغم كل شيء عدد من الأزواج. والأكوخ التي أعنيها من نوع أكوخ معسكرات الاصطيف. وبالطبع مكيفة الهواء ومجهزة بالدوش. بل إنه ليس من الضروري وجود غرف استحمام. تماماً كما أقول لك: معسكر اصطيف!

يضاف إلى ذلك سقفان كبيران، يرتفعان على أعمدة بسيطة، بلا جوانب، يضم أولهما منهلاً، وموائد قمار، ويضم الثاني مطعماً. وبعد انصرافنا، تنصرفون كما تشاؤون بهذه التجهيزات كلها. والبناء ان المشيدان من قطع مصنوعة على نحو مسبق، لن يضيرا، إلا بصورة

خارجية، مشهد أشجار النخيل والقصب، وسبقيان صالحين سنتين أو ثلاثاً. ولعمري فوجودنا على شاطئكم سيكون دعايةً، وستدفع كثيرين من هواة عطل نهاية الأسبوع لاستئجار المبنيين والأكواخ، الأمر الذي يوفر لبلديتكم على الأقل ما تصلح به أرضفتها، وهو أمر - بيني وبينك - لن يكون من باب البذخ، ولكن، ما بالك، ما بك يا حضرة رئيس البلدية؟

كان القاضي الأول في «كاربور» رجلاً كثيفاً، بالغ التغذية، ويبدو أميل إلى سرعة الاستشارة، ولكن السرعة لم تكن قط متربصةً به شأنها في تلك الدقيقة. ولما كان «دافيد بور» (الذي تنبّه إلى ذلك)، يعيد ويكرّر: «ولكن، ما بالك، ما بك يا حضرة رئيس البلدية؟»، فقد أمكن أن ترشح منه الكلمات التالية:

- تهاني... لمستر «غولدتو»... لحسن اختياره مساعدته.. هذه هي.. المرة الأولى.. التي يظن بعض الناس أنهم يفرضون عليّ فيها إنفاق...
وأعاد إليه الغضب أنفاسه:

-... إنفاق أموال في مقابل ماذا؟ مقابل احتمال ارباح رجراجة، إذ إن شاطئنا هذا لم يتردّد عليه انسان قط، فيما عدا البنات الساقطات، والشبان الرديئين ممن تحاول شرطي وتجهد لمنع التقائهم!

ترجت تكشيرة صغيرة عن الأحاسيس التي استثارها عدم الفهم المطبق هذا في نفس «دافيد بور». ودون مداراة منه أو تقنيع لاحتقاره:

- بم تفرّزق هنا؟ من ذا يطلب منك دفع نفقات تسلياتنا؟ أنا أدفع.

وليس عليك أن تنفق فجلةً. بل لن يقع عليك حتى أن تحيِّش شرطتك.
ففرقنا الخاصة بالأمن ستسهر على إبقاء أركالك المحليين على بعدٍ كافٍ.

- ضمن هذه الشروط، أجب رئيس البلدية...

- تلك هي شروطنا العادية.. بهذا حسم «دافيد بور» الكلام، ثم عبّ
من لفافته، واستدار وابتسم، وأخيراً اقترح تطريةً للجوّ:

- ما إن نخرج، حتى نشرب نخب اتفاننا.

فحدجه رئيس البلدية بنظرة، وأخذ وقتاً، ثم قال:

- هذا، يمكن أن نفعله هنا.

وفتح أحد أدراج مكتبه الأخيرة، فأخرج كأسين وزجاجة نبيذ
بوربون، فتحها بأسنانه. ثم ملأ الكأسين كما لو كان يصبّ ماءً معدنياً،
وقدم أحدهما «لدافيد بور»، وأمسك بالآخر براحة يده
كلّها، ورفعها إلى ارتفاع عينه، وهدر: «Here's to you!» ثم خلص إلى
القول:

- حسناً، ياسيد، اعتقد أن قضيتنا قد حلّت بشكلٍ مرضٍ
ومنسجمٍ.

- وبالتأكيد، وافق «دافيد بور» الذي عاد إلى حسه المدني المعتاد.
ولكن، مع ذلك، ضمن تحفظٍ يخصّ بعض التعديلات في التفاصيل...
منذ أن أحصل على موافقتك.

قال رئيس البلدية:

- لئلا تكون..

بدأ منظم العطلات الخاصة بالسيد «غولدتو»:

- بالدرجة الأولى : الرمل .

فصرّ رئيس البلدية على فكيّه ، ثم :

- ما به ، رملي ؟ إنه ، كما ذكرت لك ، من أنعم رمال الدنيا .. بودره
حقيقية !

وافق المبتسم أبداً ، دافيد بور « :

- لقد خبرت جودته ، ومرونته ، ونعومته . لكن مستر « غولدتو » لا
يطبّق سوى صنف من الرمل وردي - أحمر لا يوجد إلا في المملكة العربية
السعودية ، عند أطراف « جدّة » . فإذا لم يكن لديك اعتراض ما ،
فبمقدورنا أن نجلّ الشاطئ به . إيه ! طبقة من ثلاثة أو أربعة
سنتيمترات ، من أجل العين ، وتحتها تكتشف القدم نعومة البودرة كما
تقول ، أي الرمل الأصلي .

فغمغم رئيس البلدية :

- إذا لم يكلفنا ذلك شيئاً ... قل ، لا شيء إطلاقاً ، أليس كذلك ؟
إذن ، فليكن ... ولكن كيف عسى تتمكن البواخر من نقل ...

- طائرات ، يا حضرة رئيس البلدية ! لا بواخر . نحن نظير ، نحن لم
نعد نزحف . لكنك حتماً على عجلة من أمرك . لنته إذن بسرعة من
الزهور ، والبحر ، والسماء .

هنا ، جدت الدهشة رئيس البلدية .

- ها ؟ أترك ستغبر أيضاً ذاك كله ؟

فصحّح « دافيد بور » بحركة مباركة :

- ايه ، إلى حدّ ما . اسمع ! إنّ مستر « غولدتو » يفضّل صنفاً من الورود لا ينمو إلّا في أطراف « مانيلا » . سنوعز بإحضار بضعة مئاتٍ من حزم هذا الورد من « الفيليبين » ، وننتهي من هذا الأمر . وذلك دون أن تدفع من جانبك ، يا سيدي رئيس البلدية ، درهماً واحداً ، ما دامت هموم الفوائد البلدية ، تشغل فؤادك بهذه الدرجة من القوة . كما إنك لا تدفع شيئاً من أجل البحر .

تحت تأثير الدهشة ، باتت هامة رئيس البلدية تذكر المرء برأس صغدع :

- البحر ؟ البحر ؟ هل تراه لا يعجبك ؟

- إنه يسخر منّي ، (قال « دافيد بور ») . بنقطةٍ تفصيليّةٍ ، أو مسحةٍ إضافيةٍ . فمستر « غولدتو » يجب أن يجد في بحره انعكاساً بلون زنجاريّ خاص بعض الشيء . مرةً أخرى ، لا تشغل بالك . فلدينا عقد مع (سلاح البحرية في الولايات المتحدة) بهذا الخصوص . ففي اليوم المطلوب ، ومهما كانت المدة ، ترسل البحرية نفراً من رجال خفر السواحل فيصّبون كلّ صباح التّسب اللازمة من اللون المطلوب .

- أما عن السماء ، (تابع رئيس البلدية بسخريةٍ مقصودةٍ) ، فافتراض أن (سلاح الجو الأمريكي) سوف يتولى أمرها ؟

- هيه ، لا تهتم : سحابة اصطناعية تنتشر بصورةٍ عاموديةٍ فوق الشاطئ ، وتصبح سهاوكم مثاليّةً ، لو لم تكن ، في هذا الفصل ، متائلة الزرقة إلى هذه الدرجة . ومستر « غولدتو » لا يطيق رؤية جويّ لازورديّ ... بلا دنسٍ ، إن كنت أستطيع قول ذلك . لكي نكسر هذا اللون إلى حدّ ،

يلزمه تدخل سحابة . من هنا ، جاءت فكرة إرسال طائرة ، مرتين أو ثلاث مرّات في اليوم ، على علو مرتفع جداً فلا تسمع ، تقوم بنثر ذرات سحابتها ، وتجميدها ، (ولا أعرف تماماً في الحقيقة ما الذي تصنعه ، لكنّ السحابة تظهر هناك ، على شكل بياضوي كالمطلوب ، وببضاء كما يجب أن تكون) ، ومن ثم ، تغيب .

وأخذ يفرك يديه ، منهياً كلامه :

- هو ذا . لا شيء أكثر من ذلك . هل ترانا لا نزال متفقين ؟

- من حيث المبدأ ، نعم ، (قال رئيس البلدية ، وعيناه إلى السقف ، وأضاف :) لكنني أخشى ألا يكون من السهل عليّ اقناع أعضاء مجلسي .

فما كان من « دافيد بور » إلا أن عرض على الفور :

- لعلّ منحة تقدمها إلى الأعمال الخيرية في المدينة قد تزيّت بعض الدواليب ؟ .. ولكن ما هو المبلغ ؟ إنني أسألك كصديق .

تمهل رئيس البلدية بعض الوقت ، ثم قدّم رقماً .

- إن أعمالكم الخيرية شرهة ، (لاحظ دافيد بور) . هيه ، لكنّ راحة مستر « غولد تو » تستحقّ تضحيةً طفيفةً .

وسحب دفتر شيكاتٍ من جيب بنطاله الخلفي ، وقلم حبر ، وسجّل الرقم الذي (أوحى له به) ثم سأل :

- أحرّر الشيك باسم من ؟

- باسمي أنا ، (أجاب رئيس البلدية ، ثم تابع :) حسناً ، والآن نحرّر رسائل ونبتادلها . على أقل تقدير ، لكي نثبت أنه لن يقع عليّ ، أعني ، لن يقع على « كاربور » ، إطلاقاً ، إنفاق « سنت » واحد .

أجاب « دافيد بور » ببساطة :
- يا لك من رجلٍ منعدم الثقة .

★ ★ ★

بعد خمسة عشر يوماً ، برز حوالي مئة كوخ إصطياف محبّب على النمط
« البوليني » من رملٍ يذكر مجلود ثعالب باذخة ، وازدهرت في كل
مكان ورود أرجوانية . ومع زرقة البحر المحوّرة بنحوٍ طفيفٍ ، جعل
يتجاوب عالم من الزرقة الإضافية ، زيتت في قمتها بسحابة متكاملة
هندسياً .

كان معظم مدعوّي « ج.س. غولدتو » الثالث ما انفكوا يفكّون
حقائبهم ، عندما كان هو بجسمه البطولي ، الملوّح بالشمس مرتدياً مايوه
سباحية بسيطاً ، يرافقه صديق غطس معه لتوّه غطسة سريعة بين
الأمواج - كان يتنجه نحو المنهل .
والتفت ، قبل أن يدخله ، فتأمل المشهد أمامه ، ومكث صامتاً ، ثم أسرّ
لرفيقه ، مع حركة بيده تدلّ على الإعجاب .

- عندما يرى المرء طبيعةً بهذه الروعة ، وتوازناً في الأشكال والألوان
بهذا الكمال ، وحين يستنشق عطوراً كهذه على درجة رفيعة من طلاوة
المزج ، تضاهي عطور البحر والورود ، لا يملك إلا أن يقول لنفسه ...
فما سكت الملياردير ، حتى ردّ له الآخر الكرة :
- يقول ماذا ؟

- إيه ، (ردّ ج.س. غولدتو الثالث) ببساطة هذا : آخر الأمر ، ما
فائدة الثروة ؟

قصة ارمنية

الأطلس

هاجوب أوشاجان

ميريت للنشر والمعلومات

الأطلال

هاجوب أوشاجان

لا شيء أكثر عمقاً وبقاءً من علامة يطبعها على
أرواحنا الخوف، الضغينة، والدهشة المتراكمة منذ
طفولتنا. ما نتلقاه حينها يشكل لأرواحنا أساساً لا يتزعزع.
إنني أفرغه على هذه الصفحات ، غير خائف.

الآن يمكنني الحكم على إنجازاتنا العظيمة ، دون
جبن قبل أن تخبو الرغبة في إبراز عيوبنا . قبل أربعين
عاماً ، اكتشفت سر الأسطورة الغامضة . عندما بدأت
رحلاتي ، على طوف السيد " آرتين " ، اقتربت من
معرفة أسماء وحيوات أخرى . إنها صيبانية، بالطبع، أن
تحب حياة شخص ما ؛ ولكنها أكثر صيبانية من أن
تشجبها، لا أن تحبها . كنا أول من بدأ في طرح مفهوم
حديث للأشياء في المدن التي دمرها الأتراك ، ومنذ مائة
عام ، قَدَمنا لما يحاولون قبوله بصعوبة اليوم، المفروشات
والشقق ، الأغنية والرياضة . ولا تتكرر روعة الجهد
والطموح الذين يقتضيهما التخلص من نير الاستعباد
البغيض . ولا تتشغل بأمر حجم بحيرة أو اثنتان من
الدماء...

أخبرتكم أنه ، منذ أربعين عاماً ، كان يوجد منزل
لعائلة " نالبانديان " . وكانت هناك حديقة بالطبع ،
وللحديقة ظل كما في الأسطورة . ورغم أنها كانت كلاب
حراسة هزيلة وجائعة تأتي من مكان آخر ، فإنها لم تكن
تخفف من طلعاتي الليلية ، جنوني ، رهبتي ، ولكنها

وبالغربة كانت تسرني . كانت الجائزة رماناً من نوع ليس له مثل في القرية . يبدو أنه استعار دماء من عرائس عائلة " نالبانديان " ، بتقوساته الذهبية والخشنة ، وذروة بارزة مثلما تعلو خوذة الحرب رأس قديس ، قديس ملكي في زي جندي .

لم أعر انتباهها لهل هو ناضج أم لا ، كان ما يشغلني هو خداع هذه الأشجار التي ملأت أحلامهم ، لأمتص ما حُرّم على أجدادي .

وبعد الرمان ، يأتي التين . عندما يبرز من بين أوراق الثمار ، يتشكل مثل أئداء صغيرة مما يجعل الأشجار أنثوية ولينة ، لبنية وحلوة ، تعد أسناني مبدئياً بطعم مميز آتٍ ؛ ثم أشعر بعدها بزغب ونعومة ، عندما تبدأ أصابعي في اكتشاف الفاكهة على شجرة المعرفة .

مهما كانت الحكايات التي أخبرتني بها عمتي عن الأيام الخوالي لهذا المنزل - وكذا الحكايات التي لم تخبرني بها ، تلك الخادمة العجوز التي كانت مبعث الحياة بالمنزل ، وكانت عمياء ، تُقر بوجود الشبح وكأنها تحكي قصة مرعبة ، بإشارات مثل : ذات مرة ، بينما ، في زمن ما - وهو ما كان بالطبع غير كافٍ ليُجعلني أفهم لماذا لعميد عائلة " نالبانديان " السيد " سيروب " جسد ضعيف جداً بالكاد يمكن زعم إصابته بالشلل ، أو بمرض - ما - غامض يبقيه دائماً ملازماً فراشه ، المرض الذي يأتي ، يمكن أن يأتي فقط ، مباشرة من دماء الجد الأكبر .

شكله الشبحي كان بالفعل هناك قبل أن يعيه عقلي ، الوجه المخضر ، المستدير ذو العظام البارزة يلتصق بزجاج النافذة ، بيد واحدة مترددة تتحرك دوماً نحو فمه ، لتحبس السعال ؛ محروم من الهواء النقي وضوء الشمس ، قاس ومتحامل وعنيد أمام الألم . لماذا عانى كثيراً ، تعجبت ، ثم اهتممت بأشياء أخرى . أرواح الأطفال لها شطحات صغيرة .

كانت الفاكهة والسرقات الصغيرة تملأ هذا العالم الصغير . هل انجذبت ؟ ولكن النهار كان للدجاج والبط . وكنت أعلم أنه لا السيدة " أنا " ولا بناتها الصغيرات الجميلات تجرؤن على وضع أرجلهن في الحديقة . لم تكن تسمح لبناتها حتى بمجازفة الخروج عن حدود المنزل خلال النهار . كان من المفترض أن مدرّس القرية ذا الذراع المشوه - ولكنه كان يلقب بـ " البرميل الرابض " ، وهو اسم قريب للمظهر - قد استطاع بالكاد أن يعلمني أن أميز بين الحروف الأبجدية ، فقد كنت أذهب للمدرسة مثلاً يعود حمل صغير إلى القطيع ؛ كنت أجلس هناك دون أن أنبس بكلمة ، يعذبني الفقر الذي تسلل إلى روحي . أبناء الأغنياء يمكن أن يترقوا إلى مدرسة ثانوية خلال أسبوع ؛ فليس لديهم مشكلة في فهم حديث المدرس عن الواقع الذي هو " من يدفع يختار اللحن " ؛ أثر البيض المختلس على سمعتي ، لأنني كنت أنتزعه من تحت الدجاجات الحاضنة ، ما كان يخرج منها كنت أضعه

بمقلادة المدرس بكل ما فيه من مخاطر ودم . وظللت مثبتاً إلى أداة التعذيب الخشبية لمدة عام كامل ، حيث كانوا يضربونني ثم يضعونني عليها ، من العسير أن أقول كيف استطعت أن أكون بعض الأفكار عن أشياء مرتبطة بأسطورة " النالبانديان " إلى جانب تعرضي لتقريع عنيف كان يجب أن أتحملة أو " استمتع به " ، كما يُطلق عليه المدرس التقليدي ، عدة مرات في الأسبوع ، عن دناءتي ، انحرافي ، صعوبة مراسي ، وجوعي كيتيم هزيل لا يستطيع المقاومة . هذا التقريع وتلك الأسطورة ارتبطا دائماً بتعرضي للضرب بشكل روتيني جداً ومتميز على " الفلقة " ، بهدف عقاب قدمي " الملعونتين والمؤذيتين " ويديي " السارقتين ، الشريرتين " وذلك في حضور السيدة " أنا " ، التي كانت تصاحب المدرس بارتياح وسعادة خبيثة عند كل نوبة قلبية ، وقسم موثوق به ... هذا النوع الذي تفوح منه رائحة البول ، وهو طفيلي ، فصيح ، ويخرج سلسلة من النكات الكريهة الواحدة تلو الأخرى .

مستثيرة نيران الانتقام الإلهي ، سهام الشيطان وكل القذائف من الجحيم ، دعت أن تتحطم أصابعي ، التي تستحق ذلك ، تحترق ، تتفجر ، وأن تتحول إلى بودة كالدقيق لأنها لا تقدر جمالها ، أنافتها ، الرمان الذهبي الناضج كغير الناضج .

إليك من أجل أمك ، فوق الجبال ثم اذهب ، اطحن

أصابها في طاحونة سريعة الدوران حتى تستخرج قطعة خبز جاف من ماء يغلي ، كما تصنع هي الحرير لتغطي النهود البيضاء لزوجات أبناء " النالبانديان " . إيك من أجل أبيك ، فوق الجبال ثم اذهب ، حيث يحترق قلبه من الألم على دموع طفله ، يعلم الله كيف ، منذ أن كان طوله ستة أقدام ... ثم جاء الاختبار الذي يصون سمعة المدرس على حساب الأولاد وهو " من الذي لديه أسنان " ، من الذي يرد ، يلاحق بجسارة ثم يقتصر على قتلهم ، كما أطلق هو صراخا عندما أدار الصولجان حول رأسه ثم أنزله تحت قدمي ، ليضرب الطفل اليتيم الذي لا أحد له في العالم ولكن العمة العمياء غير القادرة على المجازفة لأبعد من حدود جيراننا ؛ لعناتها ، تنتقل عن طريق المتحدث الرسمي ، وترتد إليها بأربعة أضعافها لتفرغ في صدرها . كم تأسي قلبها ، في ثورتها العقيمة ، عندما بكت عيناها دما بدلا من الدموع ، كانت تتوسل إلى السيد الأزرق الذي كان يجيب دعوات الناس لكي تفتح عيناها ولو للحظة ، لمدة تسمح بفعل ما هو غير متوقع منها قبل هذه الكارثة ، أن تطول بذاعة لسانها المدرس السيئ ، وأن تمزق أحشاءه بسيل من لعناتها .

كانت تتحب وتهتاج . كان الجيران يشعرون بالرتاء نحوها ، رغم حصولهم على نصيهم من اللعنات . وعد أحدهم أن يبعث بزوجها إلى الغرفة الملحقة بالكنيسة التي يعيش فيها المدرس . ووعد آخر ، ثانية ، بأن يرسل

المدرس إلى نار جهنم ، بسببها هذه المرة . وحينئذ عدنا إلى حجرتنا . هناك ، وقفنا على تلك الأرض القذرة التي تفوح منها رائحة الأرض والسماد الجاف ، تحولت دموع عمتي إلى صلاة ، تتأشد بها أبى القوي في مكان بعيد عن الأرض ، ليجئ ويقف بجانب اليتيم الصغير ، بسرعة العصفور ، ليظهر بجلاء أمام المدرس ، ولكن بالأخص أمام تلك المفترسة المجنونة " أنا نالبانديان " ، والتي ربما تتقل خطاياها بدلو من آبار عميقة ، لتدفنها في مكان آخر أمام خيالي المذهول .

في مثل هذه الأوقات ، كنت أتذكر لا إرادياً شخصاً آخر ، الجد الأكبر للنالبانديان ، الذي كان معروفاً بأنه راعي الفقراء ، كما تخبرني عمتي غالباً لترضي فضولي المتلهف . " لعله ، لعل الرب ، يحمي اليتيم " ، كانت تقول ذلك ، وتضمني إلى صدرها بذراعين غير مدبرين ، يستريح رأسها على وجنتي ، غير قادرة على منع دموعها . لا أعلم ، لا أتذكر الآن كم كنا نكذب هناك ... لكي أكفر عن جرائمنا ، كان يجب أن أقطع حزمة من فروع السنديان بيدي العاريتين ، أقشرها لساعات بقطعة من الزجاج بينما يلعب الأولاد الآخرون الكرة ، ألمعها حتى تومض ، كما اعتدنا أن نفعل بعظام الحملان أو عظام الدجاج ، وبعد أن أطلقها وأتركها لتجف طوال الليل في الفرن ، أضعها على مائدة المدرس . كانت هذه كفارة قوية ، كفارة تليق بلقب العائلة وكان الهدف منها كلها

تنظيف أصابعي السارقة من السموم التي يعلم الله كيف استطاع الشيطان أن يزودها بها ، حتى تسالت إلى لحمي ، قدمي ، وإلى كل ظفر في يدي .

ضربات ؟ بالطبع ، حصل الآخرون على نصيبهم. ولكن نصيبي كان الأكبر .

رغم الألم البشع ، الذي ضاعفه خوفاً أكثر وأكثر ، ونقلني إلى جحيم مطلق ، لحمي يحترق تحت ضربات العصا كما لو كان معلقاً فوق لهب ، أنا قادر اليوم على التذكر ، بكآبة يتيم ، ضحكة صامتة ، هذا " الغليان الجاف " للأيدي والأقدام ، لاستخدام الاسم الذي قدمه المدرس اللاهث - كان قد أرجأ غلياناً رطباً للعظم في قدره - وهو يلحق بلسانه الزبد عند زوايا فمه . ولكن ، حتى ذلك اليوم ، لم أكن قادراً على تفسير لماذا تزداد حدة الخوف للدرجة التي جعلت شعري يقف على آخره عندما كان يمل من استخدام عصاه ، وبنفس ضراوته ، يهدد بأنه سيشطر رأسي إلى نصفين كقرعة ضخمة ، في حجم طفل عمره شهر واحد ، ويستخدمها كسنادة للوسادة الرقيقة التي يسند المدرس - الذي يجلس دائماً في المقاعد الجانبية - كتفه الأيسر فوقها .

في تلك الأيام الاستثنائية ، كان المدرس - ليرحم الله روحه ، ولكن لا يضع أبداً مدرسة أخرى تحت تصرفه ، سواء في الجنة أو في النار - بأصابع غاية في النحافة وكأنها على وشك السقوط ، يسحب الكتاب من

تحت الوسادة ، يسعل ، ويلهث ، ويتنفس بجهد ، وآلاف
من نوبات السعال تنقر حنجرتة ، وهو يتوتر ، حتى يجد
الوقت والطريقة لحملها ، بضجة شديدة ، وإحضارها -
كنت طوال الوقت أحمل سريعاً بواسطة أربعة أولاد
أقوياء ، اثنان يمسكان بذراعي واثنان يمسكان بقدمي -
لتصبح رأسي لأسفل وقدماي لأعلى ، طيران الشعر
وهدوء الروح لكونها قادرة على الثأر ، ليقيم مسكين ،
جعل الرب يحكم على المدرس بعقاب فوري وهو نوبات
سعاله ، التي تطعن حنجرتة بآلاف الإبر كما لو كان
يلدغه سرب من النحل ؛ مما جعل عينيه تنتفخ وتجحظ
وتشكل تجعيدات على جلد وجنتيه . يُخرج البلغم والدماء
في الشتاء ، في المدفأة ، وفي الصيف ، خارج النافذة
وعلى رقعة الأرض الصغيرة التي كنا نلعب فيها بعد أن
يدق الجرس ، تشير إلى بقعة الدم متزايدة الدكنة ، نقسم ،
وتهداً نفوسنا .

ذلك الكتاب ، كان جامداً كالحديد ، وكأنه مجلد
بالفولاذ ؛ سقط على رأسي مثل حجر خفي برز للعيان
فجأة في النور . فجأة تدفق النور من عيني ، ثم جاء
الظلام بعدها وهو يفور ، كما لو كان يسبب الدماء التي
تندفق بعنف .

وقفت هناك مبهوراً ومتحولاً إلى هلام . كم كلفني
هذا الكتاب من دموع ، خاصة بعد المدرسة .

قصة ارمينية

الآنسة أيضا

هاجوب أوشاجان

ميريت للنشر والمعلومات

الآنسة " إيفا "

هاجوب أوشاجان

إلى " كريكور زهراب "

كل من في القرية يعلم أنها تحب الأطفال حديثي الولادة . تحضر إلى الكنيسة عند كل تعميد . مرتدية ملابس ذات ذوق سليم ، تحمل تحت ذراعها رزمة بيضاء ناعمة وصغيرة ، كانت تقف بالقرب من الطفل المُعمد ، وابتسامة خفيفة على وجهها ، تقوم بنفسها بالمهام الضرورية . بعد أن يخرج الطفل من جرن المعمودية ، يجب أن تكون هي أول من يقبله . وتلبسه ، وتغدق عليه بحفان من أشياء صغيرة وخفيفة . وحلي متألفة كالتلج ، ووشاحات حريرية مبهجة ومتطايرة ، وشرائط معقودة ملونة مثل الأشعة الوهمية تجلب السكينة إلى قلوب المترددين على الكنيسة . وعندما تسألها لماذا تفعل ذلك ، كانت تجيب : إنها مشاعري الودية .

عاشت " إيفا هانم " في القرية سنوات عديدة ، تعيش حياة سيدات المدن غير المتزوجات اللاتي تظهرن الهدوء والخمول في الخارج ، ملابسهن أنيقة ، وتعلقن برقة على محاسن الأيام الخوالي . تمنحن ابتساماتهن لكل شخص تقابلنه ويذهبن في نزاهات وحدهن أو مع كلابهن . يُبدین فضولاً وحماسة منفردة لكي يتجنبهن الرجال .

كل ذلك أكسب " إيفا هانم " اسماً جيداً . تنتشر الإطراءات في كل الغرف عبر الفناءات ومن الفناءات

عبر الشوارع ، وتلف القرية عدة مرات . في المناسبات ، يجب أن تقدم هدايا كالسراويل الجميلة للأولاد وتدفع بالأحذية الناعمة في أقدام الأطفال الذين لا يستطيعون السير . كانت تجلس لساعات أمام المهود مداعبة الحلي الذهبية المتدلية من أقواسهم . أغان تغنيها كفيض من الحب ، تعطي صوتها العاطفي نبرة بكائية .

بين كل الفتيات ، كانت هي الأكثر جاذبية ، إن لم تكن الأكثر جمالاً . في تلك القرية الصغيرة ذات المنازل غير المنتظمة حيث يقدم نقص الرجال فرصاً لإنعاش الذاكرة على المنسي ، اسمها كان على شفاه كل شخص . كانت تفتقد نعومة الجسد المبهجة ، النبض بالحياة ، القسمات ذات الوعود . كثيرات كن أجمل منها ، لكن ولا واحدة منهن كانت في رقتها وكياستها . في عيد الفصح ، كانت أفضل من تلبس ، رغم أنها ليست ثرية . صديريات كانت من " بروسا " ، صديريات تطوق صدرها بخفة ، وتصقل ظهرها . ضخامة ثدييها ، جعلت الطراز يصبح جذاباً لأنه يلفت النظر إلى أن المجنون يستطيع أن ينتزع جزء من الجمال المخبأ .

ذهبت إلى " بروسا " عندما كانت شابة وبدأت العمل في أحد مصانع الحرير الكبرى ، تحت ملاحظة عمة لأبيها . وبعد الصعوبات الأولية ، جاءت أيام الراحة ببطء .

خلال فترة عملها ، نما شعرها وتحسن وضعها

قليلاً . ما تمننت أن يحدث لها في الأيام الماضية ، سيصبح الآن مُرضياً فجأة - مفاجأة جميلة .

كان لديها أشقاء أكبر لم يحتاجوا إلى أجرها الذي لم تكن تنفقه كله ، رغم أنها لم تكن تأخذ " بارا " واحدة إلى القرية . ولكن لكي تفتح قناة وصل كانت هناك طريقة . فملابس وحلي الفتيات الريفيات كانت متوفرة هناك ، حيث الأنواع المختلفة من المشدات والأحزمة ، والقبعات الأنيقة تشبع الرغبات . العديد من الأثواب صنعت من أقمشة غالية ولذا فقد كلفتها ثروة . خاطت لهم جميعاً ، وكان تناسق الثياب أو دقة المقاييس تستغرقها لأيام ، كل تلك الموضات كانت معروفة للفتيات القرويات اللاتي لم يحالفهن الحظ بارتداء الملابس التي تصنعها إلا في عيد الفصح ، عندما تأتي إلى القرية ، فهل نجحت ؟ بعد شجار طويل مع أمها ، لترتدي بعض هذه الأثواب الجميلة التي سوف تبرز جمال صدرها ، وكأنه طائر يجثم بين كتفيها .

كانت تمشي عبر الأراضي المزروعة مثل فتاة من المدينة ، شعرها غير معقوص ، طيات ثوبها مربوطة بإحكام . في وجود جمالها ، تنزوي كل فتيات القرية في الظلام وتصبحن باهتات . كانت عادة ما تتواجد في القرية عند كل مناسبة .

* بارا " PARA " : عملة أرمينيا .

وكانت تمر عبر الحقول في أيام عيد الفصح الثلاثة
المشمسة قاصدة الكنيسة حتى ولو كانت تمطر . ولهذا ،
كانت الأخبار تنتشر باكراً ، وخلف النوافذ ، كان الكبير
والصغير ينظر في الحال لهذه المخلوقة النحيلة التي تمر
مثل نسمة . تحت مظلة حريرية ، كانت تربط رأسها
بقوة؛ جامعة شعرها إلى أعلى بينما يتحرك شعرها بحرية
بين بعض الزهور الصناعية .

وصدرها ، عرضة دائماً للتدفق خارج حدوده ،
مما يضيفي عليه أطياف من إغراء شخصيتها القوية ،
جمال يجعل كل فرد ينتظر في إعجاب وترقب حتى
تختفي عن الطريق .

* * *

في أحد أيام عيد الفصح أتت ثانية ولم تعد أبداً إلى
" بروسا " . وكانت تقضي معظم اليوم في المنزل الريفي
الخلفي حيث زرعت حديقة رائعة تنمو بها أجمل وأغرب
الزهور . وقد شكلت صفاً من الأشجار ، منسقاً ومشذباً
كما لو أنها أخذته عن نموذج لرداء حريري . في المساء
كانت تخرج ، تسير قليلاً عبر الأراضي المحروثة ، ثم
تهبط في النهاية إلى القرية عبر حافة الجبال مع أشعة
الشمس الأخيرة ، هادئة وراضية ، ودائماً ما يكون في
يدها باقة من نباتات خضراء وزهور قليلة في شعرها .
هذا النوع من الحياة هو ما أكسب خديها حمرة خفيفة ،

وأضرم ناراً جديدة في أعماق عينيها . ابتساماتها الهادئة
تلف جسدها كله .

وهكذا ، لعشرين عاماً ، هذه الفتاة القروية ،
الأكثر جاذبية إن لم تكن الأجمل على الإطلاق ، لم
يتزوجها أحد . أصبحت عانساً . مثل تلك الفتيات الغريبات
اللاتي ، لأسباب غير معروفة ، يرفضن الزواج ، هي
أيضاً بدأت في الذبول ببطء ، برغم أن تصرفاتها احتفظت
ببساطتها . صدرها الكبير بدا وكأنه أصابته الشيخوخة
خاصة وهو داخل سجنه ، وشعرها ظل مفروداً ، محولاً
وجهها الجميل إلى قطعة صغيرة . نظراتها ، كنظرات
الفتيات غير المتزوجات ، تبرد تدريجياً ، مضيئة على
قسماتها نوع من الحزن .

ماتت والدتها منذ فترة طويلة . وتزوج كل
أشقائها ، وامتأل المنزل بزوجاتهم وكانت دائماً في انسجام
معهن . وقد أعدت ببراعة زخارف ملابس عرس "الأغا"
كما زينت أوعية الزيت المقدس بديكورات رائعة . مرة
في العام ، كانت تذهب إلى المدينة ، وحزمتها الصغيرة
في يدها . وفي كل مرة كانت تعود ، كان يُسمع صوت
صندوقها ، يُفتح وبعد قليل ، يُغلق .

كانت لها غرفتها الخاصة في المنزل ،
وصندوقها الخاص ، المصنوع من خشب الجوز الفاخر ،

* الأغا " AGHA " : هو سيد القرية أو أغنيائها .

الذي يحوي أثمن ممتلكاتها على الإطلاق . وفوق الأرضية الخشبية سجادات غالية وفي نهايتها أريكة واسعة ، وفوقها الستائر التي تخفي الضعف ، والأسرار الهاربة ، وعلى أحد الجوانب ، يرقد الفراش وحيداً على هيكله ، بارداً وقائماً مثل سر مقدس . على الأقل مرة واحدة يومياً ، كانت تحرص أن تجلس هناك بانتظام ، رغم أنها لم تكن تتام . كل يوم ، كان صندوق " دوطتها " يُمسح بالماء الدافئ .

كان نصف يومها قد مر أمام النافذة . وزهور الريحان ، توازي إطار النافذة طويلاً ، في صناديق حديدية ضيقة ، تتمايل مع الرياح إلى الأمام وإلى الخلف ، عبيرها يهدئ قلبها .

كل صباح ، عند الشروق ، كانت تسقيهم . وقد أحضرت روث الأغنام ، وخلطته بتربة الجبال الخصبة حتى تخرج أشجاراً باسقة ، وأعطت لكل صندوق اسماً مختلفاً . كانت تشعر بالسعادة عندما تمر بأصابعها على رؤوس الريحان المرفهة ، ليتطاير عبيرها إلى يديها . كان يطربها صوت ماكينة الخياطة القريبة منها ، واصلت أحلامها ، بنظرة بعيدة محدقة ، بعيدة جداً ، نحو البحيرة اللامعة ، تاركة قلق أيامها خلفها .

كل ليلة ، دون انقطاع كانت تسير من الأراضي المزروعة حتى الجبال ، وفي يدها مظلتها الأسطورية ، تفتحها ثم تغلقها .

لم تمل القرية أبداً الحديث عنها ، وحيك حولها
العديد من القصص . فقط عمتها أبقت لسانها صامتاً .
- لديها شخص ما في " بروسا " .
- سوف تتزوج ، في العام القادم .
- لن تذهب إلى " بروسا " بعد ذلك .
مجرد آراء تتعدد ، ولكنها تنتهي برغم ذلك دائماً
بكلمات فيها تبجيل :
- ولكن ، يالها من عينين جميلتين ! لا يستطيع
المرء مقاومتها .

* * *

وفي الحقيقة كان هناك من لا يستطيع مقاومة
هاتين العينين . في شبابها ، كانتا أكثر جمالاً عندما
تحرمان من بخار الماء المغلي وعندما تمثلان بالدموع .
كثيرون من المدينة كانوا ينظرون لها . فصدرها الكبير
يثير الرغبة ؛ فهو يلفت النظر حتى تحت ملابسها
القروية، وكثير من النظرات المحدقة كانت توجه إليه ،
ووجهها الخجول يصطبغ عندما تلتقي الألفاظ غير
المحتشمة في طريقها . كلمات تأتي وتذهب ، ولكن
" أرباج " يظل باقياً معها .
جلست في إحدى غرف المصنع بأفكار وملابس
فتاة القرية . وللتخفيف من ضجر ليالي الشتاء ، كانت هي

والفتيات الأخريات تتحدثن عن الحاجة إلى إعداد دوطتها.
في المساء ، عندما تكون الغرف حول المصنع
مضاءة ، يصطحب " الأغا " زوجته وابنه ، في جولة في
الفناء ، ويحيي النساء اللاتي يعملن تحية فائرة . ابن
" الأغا " أيضاً اعتاد أن يأتي . أمسيات قليلة كانت كافية ،
ولم يذهب بعد ذلك " أرباج " من الغرفة . ففي حضوره ،
كانت " إيفا " تشعر بقلبيها يرتجف .

كم تبدو هذه الأشياء ضئيلة الآن لها . الوقت
سرق الكثير من ظلال هذه المشاعر . ولكن في كل مرة
تجلس على صندوقها ، كانوا يتكاثرون حولها ببطء ، مثل
مخلوقات تنبثق من الضباب حيث تسمع كالعادة :

- ولكن ، يا لهما من عينين جميلتين ، يا إيفا .
عينان جميلتان ، يا إيفا . لا يستطيع المرء أن
يقاومهما .

وابن " الأغا " لم يكن قادراً على المقاومة ...
وفي ليلة مظلمة عندما كانت صديقاتها نائمات ، نهضت "
إيفا " من فراشها ، فتحت الباب بيدين مرتعشتين ، وألقت
نفسها للخارج .

* * *

تلك الليلة ، كانت بداية حياة جديدة لها . لم تحلم
قط بالأحلام المبالغة للفتيات الأخريات ولكنها عندما وقعت
في شباك ابن الأغا ، لم تكن تغرق في آمال عقيمة بأن

تصبح السيدة الأولى . بل كانت تتبع شعوراً طاغياً
بالارتياح ، وإحساساً بالسعادة لاكتشافها السلام .
بقيت الليالي مظلمة ، وأماكن اللقاء مظلمة .
وكانت هناك عندما فاجأتها رائحة عطر لشارب رجل من
المدينة ، مما جعل عقلها يعود إلى القرية وإلى صديقاتها
اللاتي كن تبكين دماً ودموعاً تحت وطأة أزواجهن القساة ،
كاشفاً لها بالتفصيل كيف كانت عرائس القرية تعشن
حيواتهن ، ممثلاث ببؤسهن المعثق . كانت ترى إبريق
الماء الطويل المألوف كامناً خلف كل باب وكأنه تهديد .
ارتباك ، صمت مغيط ، تعبيرات خرقاء ، تصرفات منهكة
- كلها صور متنافرة لهذه العادات السخيفة . هذه الأفكار
مرت بذهنها مثل لمحة ، ومضات خاطفة .
تدريجياً ، غير طعم السعادة أيضاً طبيعتها .
عندما بدأت عملها في الأزياء ، والذي أثر بشكل حاسم
على شخصيتها . ولكي تسقط تحت وطأة أفضال الرجال ،
فقد تخلت عن ثقلها ، وتنازلت عن ملابسها القروية .
ضيق خصرها ، ضيقته كثيراً ؛ متوجهة نحو إظهار
مقاييس مثيرة تركز الانتباه على نهديها . فبدلاً من الأحذية
الواسعة، ارتدت الأحذية الرقيقة الضيقة . بل إنها تجرأت
على ارتداء القبعات المزينة بريش النعام .
احتفظ خداهما دائماً بجمالها ، رغم انتشار شئ
كذرات الثلج عليهما . وتوهجت الأقراط الغالية من أذنيها ،
وأصبحت صديقاتها تستمتعن بإدخال السرور عليها .

- آنسة " إيفا" ، سقط الثلج على وجهك ثانية . لقد
تعلقت شمسان في أذنك . ماذا فعلت ؟ خصرك
سوف يمتد قريباً حتى صدرك . ماذا يحدث ؟
كانت تشتعل غضباً ولكنها لم تكن تجيب . وذات
يوم ، قالت :

- " أرباج " ، أخشى أنك سوف تخدعني . لقد
فعلت كل ما طلبته أنت ؛ ولكن والدتك ما زالت
تتظر إلي بطريقة سيئة .

- ما تعتقدينه خطأ . والدتي لا تعلم شيئاً . لا
تقلقي . إنك تزدادين جمالاً كل يوم . في يوم آخر
، وضعت يدها على بطنها قائلة :

- إني خائفة يا " أرباج " . أخبرني بالحقيقة . هذا
يكفي . دعنا لا نرتكب خطيئة ضد دماء بريئة .

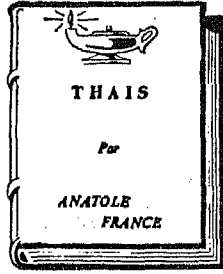
- هل أنت مجنونة ؟ لقد أخبرت القابلة . وغداً
سوف تذهبين إليها وينتهي كل شيء .

- لا تأخذه مني . لقد نما بداخلي . سوف أحتفظ
بالطفل . بعدما فقدت عذريتي . هذا ما سوف يبقى
لي منك . " أرباج " دعني أحتفظ به .

ولكن في اليوم التالي ، تحت ضغط تهديداته ،
ذهبت إلى القابلة ، وأغلق كل شيء للأبد .
وعندها ؟

عندها عادت ثانية إلى القرية . وطلب رجال
أغنياء كثيرون الزواج بها . وكانت تجيب بالرفض ،

وتقول : أنا ذاهبة إلى " بروسا " .
قالت خالتها عندما علمت بما شاع :
- طفل !! هيا ، لا تفسدي حظك ، تخل عن هذه
المشاغل . إنهم من " بروسا " ، ويتصرفون بمكر ،
أتوسل إليك يا صغيرتي .
لم يؤثر على حبها شيء . ولكن عندما ذهبت إلى
مصنع الحرير ، وجدت كل الأبواب مغلقة .



أناتول فرانس

تايس

قصة غانية وقديس

لم ينعم أديب فرنسى ، منذ فولتير ، بالشهرة والمجد
اللاذين نعم بهما « جاك أناتول تيبو » الملقب بأناتول فرانس ..
فقد كان فناناً ظفر بتقدير النقاد وإعجاب عامة الشعب فى
آن واحد ، حتى دان له قياد الأدب الفرنسى وتمت له
السيطرة عليه طيلة أكثر من ثلاثين عاماً كاملة !

وقد ولد « فرانس » - لأب كان صاحب حانوت
لبيع الكتب - فى ١٦ أبريل سنة ١٨٤٤ ، بمدينة باريس ..
وشب الفتى مجدداً مثابراً ، وذكياً .. ولكنه كان يميل إلى
القراءة أكثر منه إلى الكتابة . ثم بدأ يألف الكتابة حين
أسند إليه تحرير مقال أسبوعى فى صحيفة « العالم المصور »
(يونيفير إيلوستريه) .

وفى سنة ١٨٨١ كتب أناتول فرانس قصته الطويلة
الأولى : « جريمة سيلفستر بونار » ، فاستقبلها النقاد استقبالا
حسناً .. ثم التى - عام ١٨٨٣ - بامرأة تدعى « مدام
أرمان دى كايافيه » ، وكانت سيدة نابهة نشطة لها أصدقاء
عديدون من قادة السياسة والمجتمع ، فشجعت على احتراف
الكتابة وأعانت على اكتساب الشهرة التى صارت له . وقد
دامت صداقتهما مدى الحياة ، واعترف لها الأديب بفضلها

عليه فكتب في مقدمة أحد مؤلفاته عبارة الإهداء التالية :
« إلى مدام كايافيه أهدي هذا الكتاب الذي ما كنت لأكتبه
بغير مساعدتها .. وبغير مساعدتها لم أكن لأؤلف أى كتاب
على الإطلاق ! » .

وتابع أناتول فرانس نشاطه في الإنتاج الأدبي بعد ذلك
التاريخ أربعين عاماً كاملة ، نشر خلالها نحو خمسين كتاباً
عدا قصائده الشعرية الباكورة . ومن أهم مؤلفاته قصص :
تاييس ، الزنبقة الحمراء ، جزيرة « بنجوين » ، ثورة
الملائكة ، بيير الصغير .. ثم قصة حياة جان دارك .. وفي
سنة ١٨٩٥ عين ضابطاً في فرقة الشرف (لجيون دونور) ،
وفي العام التالي انتخب عضواً في الأكاديمية الفرنسية ..
فدخل في عداد الخالدين !

تايبس !

غانية الإسكندرية القديمة ، منذ عشرة قرون أو تزيد ..
المرأة التي كانت قبلاتها « أحر من الجمر وأعذب من
الشهد ! » .. والتي تساقط عند قدميها يستجدي حبها ورضاها
أعظم حكام المدينة وحكائما ، فنحتهم حبها قطرة قطرة ، وواحداً
واحداً ، ثم سخرت منهم ونبتتهم ، واحداً بعد واحد ! .. فلما
جاءها (بافئوس) رجل الدين يسعى إليها من قلب صومعته في
الصحراء كي يهديها إلى الصراط المستقيم ، ويربح للدين أجل رعايا
(فينوس) ، سخرت منه في البداية .. ثم ارتحت عند قدميه في
النهاية تطلب حمايتها من ألد أعداء المرأة : الشيوخوخة والموت !

تايبس !

.. القصة القديمة الجديدة ، التي لن تبلى جدتها مع مضي
العصور .. والتي طالما نازعتني نفسي إلى تقديمها لك ، وإشراكك
معي في هذه اللذة الذهنية الرائعة التي تنبعث من خلال سطورها ..
هي قصة الجسد والشیطان .. قصة الصراع الرهيب بين الخير
والشر ، بين الفضيلة والذيلة ، بين التبتل والغواية ..
قصة العراك الدائم بين الهدى والضلال .. بين حب الإنسان
لربه ، وحبه لنفسه ممثلاً في حبه للجنس الآخر .. إلى جد الاحتراق !
قصة الضعف الإنساني في أبشع صورته وأقوى مظاهره :

حين ينشب أظافره في قلب رجل الدين فينزعه منه روحه ويلقى بها
في أحضان إبليس !

قصة امرأة أحب واستمتعت وتبذلت ، ثم زهدت ! ..
ورجل حرم نفسه من متع الدنيا الفانية دهرًا ، ثم اشتهى كفرًا !
قصة راهب وغانية .. تقابلا ، فتصارعا ، وتأرجحت
نفساهما بين الغواية والهدى .. حتى انتصر هو ، فهداها ..
ثم غوى .. ! .. فوهبت هي نفسها لله ، وباع هو روحه للشيطان !
تاييس !

أما تاييس المرأة ، والبطلة ، فقد ماتت - في خيال مؤلفها
وخالقها - منذ أجيال ..
وأما تاييس القصة ، فخالدة لن تموت !

- ١ -

● نحن في صحراء مصر منذ ألف ونيف من السنين ، حيث
يعيش الراهب الشاب (بافنوس) رئيساً لجماعة من الرهبان اتخذوا
من الصحراء منقً اختيارياً يقيمهم إغراء الجسد والشيطان ، ويضرب
بينهم وبين مغاى الحضرة وملاهى المدن المصرية أميالاً شحيقة من
الرمال ..

لكن الشيطان لا يلقى سلاحه بسهولة ، بل ينفس على الراهب
المتعبد حبه لله ، وتعلقه بربه ، وإيمانه بالنعيم الموعود .. دون

الموجود !.. ومن ثم يحبك الشباك لإيقاعه في حباله ، والتربع
فوق عرش قلبه وروحه ، مكان الله !!

* * *

وإذا برؤيا تتراءى لبافنوس فتقضى مضجعه ، وتتركه مبلىل
الفكر ، ينصت لهلمات الشيطان ، ويقنع نفسه بأن ذاك لم يكن
سوى نداء من السماء عليه أن يلبيه ، لكى ينال رضا ربه !
لقد رأى التعس خيال أشهر غانيات الإسكندرية ، « تاييس »
الفاتنة ، التى كان قد لمحها يوماً وهو ما يزال صبيّاً ، فأحبها
وعبدها بقلب الصبى .. من بعيد !

أما الآن فهو يتأملها فى رؤياه بعين الراهب المتعب ، أو هكذا
يزعم لنفسه - أو يزعم نفسه له - أو يزعم لكليهما الشيطان ،
هامساً فى أذنيه ليل نهار ، همساته المعسولة : « بافنوس ..
بافنوس .. إنها رؤيا من الله .. إن ربك يناديك كى تسعى وراء
تاييس ، باحثاً عنها أينما وجدت ، حتى تلقاها فتلقى فى وعيها ،
وتصب فى أذنيها .. وفى نفسها وروحها .. رسالتك التى حملتك
إياها السماء .. رسالة الهدى والرشاد .. فهيا قم وانفض عنك رداء
الخمول وارتد مسوح الكهان ، ثم امض فى سبيلك تكلاًك رعاية
الله ! » .

* * *

● ويشد الراهب رحاله ، ضارباً في الصحارى والوهاد ،
بوجهته المدينة العظيمة — الإسكندرية — حتى يبلغ بيت صديقه
وزميله القديم الفيلسوف (نيسياس) فيفضي إليه بمقصده .. لكن
هذا يحذره قائلاً : « إن فينوس إلهة الحب ستغضب أشد الغضب
إذا انتزعت منها أنضر زهراتها ! » .. لكنه يقبل أخيراً — بحكم
صداقتهما القديمة ، وبدافع من الفضول — أن يقود الراهب إلى
الملعب الذى تؤدى فيه تاييس دور الممثلة الأولى .. ثم إلى حفل
كانت تاييس تسامر فيه جماعة من الفلاسفة .. وأخيراً إلى بيتها !

— ٣ —

كانت تاييس مضطجعة فى استرخاء فوق مقعد طويل تنصت
لخرير المياه المتساقطة من النافورة وتمنم شذى الزهر وعطر الورود ..
.. وأمسكت بالمرأة تتأمل فيها وجهها وتطالع فيه أول نذر
الغروب — غروب جمالها الأسر وشبابها الناضر ! — فتمثل لها اليوم
الذى سيبيض فيه شعرها وتشوه التجاعيد وجهها .. وعبتاً حاولت
أن تسترد سكينه نفسها وطمأنيتها ، فقد مضى صوت صارم
يصيح فى أذنيها :

— « إنك سهرمين يا تاييس .. سهرمين ! » .

فتصيب للعرق البارد على جبينها وعادت تحديق فى المرأة فى
انزعاج .. لكن المرأة «لما لعتها فى هذه المرة بوجه ما يزال جميلاً ،
جديراً بأن يحب ، فابتسمت لصورتها ونغممت : « ليس فى
(م ه — الحب الأول وقصص أخرى)

الإسكندرية من تدانيني في جمالى ، ومرونة قوامى ، وفتنة ذراعى
الفاخرتين . وما أدراك يا مرأتى ما الذراعين ؟ إنهما أغلال الحب ! »
وفىما هى تدبر فى رأسها هذه الخواطر ، رأت مجهولاً منتصباً
أمامها .. نحىلاً ، ذا عينين ناريتين ولحية كثة وعباءة مطرزة ! ..
فأسقط الذعر مرأتها من يدها وأفلتت منها صيحة انزعاج ..
أما بافئوس فوقف بلاحرارك ، وقد أذهله جمال الغانية ، حتى لم
يملك أن همس فى سره بهذه الصلاة : « فلتبارك يارب عبدك
ولتدراً عنه لغراء هذه المرأة ! »

ثم انتزع من غمرة البلبلة التى هزت أعصابه ، القوة على أن
يقول مخاطباً تاييس : « تاييس ، لئى أقطن صومعة بعيدة عن هنا ،
لكن صيت جمالك الذائع قادنى رغم بعد الشقة إليك . يقولون إنك
أقن النساء وأفتك الغانيات ، وها أنذا أرى الواقع يفوق كل
ما رويوا ، فإنك أحكم وأجمل ألف مرة مما يشيعون ! والآن ،
وأنا أراك أماًى وجهاً لوجه ، أكاد أقول لنفسى : « إنه لمن
المستحيل أن يقترب الإنسان منك دون أن يترنح كالثلل ! » .
وكانت تاييس تنصت له وهى تتأمل هذا المخلوق الغريب الذى
أخافها وبعث رعدة غامضة فى أوصالها ، بهيئته الخشنة ، والنار
القائمة التى تشع من نظراته ! .. لكنها لم تلبث أن أحست فضولاً
قوياً إلى معرفة ذلك الرجل الذى يختلف مظهره ، ولا بد أن يختلف
باطنه ، عن سائر الذين عرفتهم .. فأجابته فى سخرية ناعمة :

« إنك تبدو جديراً بالإعجاب أيها الغريب ! .. فخذ حذرك
لئلا تحترق نظراتي جسداً وتحرق عظامك .. احذر من أن تحبني ! »
لكنه أجابها في لهجة الواثق : « بل إني أحبك يا تاييس ! أحبك
أكثر من حياتي ومن نفسي . ومن أجلك تركت صحرائي الآمنة ..
ومن أجلك لفظت شفتاي - اللتان نذرنا للصمت - أقوالاً دنيوية
دنسة ! من أجلك رأيت مالم يكن ينبغي أن أرى ، وسمعت ما كان
محرمًا علي أن أسمع .. من أجلك اضطربت نفسي وفتحت قلبي ،
فانبثقت منه الأفكار كما تنبثق ينابيع المياه فتروى منها الحمام !
من أجلك مشيت الليل والنهار عبر رمال تملؤها الزواحف وتسكنها
الأشباح .. من أجلك خضت بقدمي العازية وسط الحيات والعقارب ..
» نعم ، إني أحبك ، أحبك ولكن لا على غرار أولئك الذين
يسعون إليك كالذئاب الضارية والثيران الهائجة وهم يتلظون بنار
الرغبة والجسد . إن غرامهم الوحشي يفتك بك حتى قرارة روحك ..
أما أنا فأحبك أيتها المرأة بالروح والحق ، أحبك في الرب لأجيال
الأجيال ! .. إن ما أكنه لك في صدري هو الحرقعة الحققة والبر
الإلهي . وما أعدك به يفوق النشوة التي في عمر الزهر وحلم الليل
القصير . أعدك بعرس دائم في السماء . إن السعادة التي آتيتك بها
لن تنتهي أبداً .. لأنها لشيء لم يسمع أو ينطق به ، لو لمح سعداء هذا
العالم ظله فقط لصعقوا من فورهم عجباً ودهشة ! »
فضحكت تاييس ضحكة لها رنين التحدي ، ثم قالت :

« إذن فهيا أيها الصديق وأرني حبك الرائع هذا وأسرع ، فإن
« المحاضرات » الطويلة فيها امتهان لجمال .. هيا ولا تضيع وقتاً ،
فلكم أنا مشوقة إلى تذوق هذه السعادة التي تتحدث عنها ،
إنك لتتحدث عن حب مجهول ، ولكني ذقت من القبلات ما يجعلني
أستبعد أن تكون للحب أسرار أخرى أجهلها .. والعشاق مرجع في
الهوى أكثر من الكهان ! » .

— تاييس ، لا تسخرى . إني أحمل إليك ذلك الحب الأعظم .
— ولكنك جئت متأخراً أيها الصديق ، فإني أعرف كل ألوان
الهوى !

— إن الحب الذي آتيك به يعد بالحجد ، في حين أن الهوى الذي
تعرفين ينضح بالعار !

.. ونظرت إليه تاييس نظرة قائمة ، وارتسمت على جبهتها
الصغيرة غصون :

— إنك تغالى في الجرأة ، أيها الغريب ، وتهين مضيفتك ..
فتأملنى ملياً وقل إذا كنت أبدو كمخلوقة يجللها العار ؟ كلا !
ليس في حياتي أى عار .. إني أبذر الترف أينما حللت ، وهذا سر
شهرتي في الدنيا بأسرها . إن لي نفوذاً يفوق نفوذ سادة الأرض ،
فلقد خبروا كلهم سجداً عند قدمي ! .. انظر إلى ، تأمل قدمي
الصغيرتين : إن ألوف الرجال يبذلون دمهم ثمناً للحظوة ببلدة
تقبيلهما ! .. إني أخلق بين الرجال بغضاً وعداء وبأساً وجرائم تملأ

الأرض .. أفلست مجنوناً إذ تحدثني عن العار ، بينما الدنيا تحيطني
بهالة من المجد ؟

— إن ما يبدو مجداً في أعين الرجال ، هو فحش في نظر الله ،
فأين من يلهمني كلاماً كاللهب يذيك كالشمعة أمام أنفاسي ؟
وأين من يهب أصابعي القدرة على أن تصوغك وفق رغبتى ؟ أيا أعز
نفس على ، من لى بقوة الإيحاء كى أجعل الروح التى تملؤنى
تخلفك خلقاً جديداً ، وتطبعك بحال علوى حتى تصيحين وأنت
تبكين من الفرح : « اليوم فقط ولدت ! » .. ومن لى بمن يفجر
من قلبي ينبوعاً نقياً تغتسلين فيه من خطاياك ، وتستردن طهارتك
الأولى ؟

ولم نجب تاييس ، فقد تناهت بها الخواطر ، وراحت تهمس
لنفسها : « هذا الرجل يتكلم عن حياة أبدية ، وكأنه يقرأ من لوح
مسطور .. فما من شك فى أنه ساحر ، وأن عنده تسمائم تقى من
الشيخوخة والموت ! »

وعند هذه الفكرة اعتزمت أن تسلم نفسها له ، وتطيعه طاعة
عمياء .. فابتعدت بضع خطوات واستلقيت على حافة الفراش وجذبت
رداءها نوق صدرها فى حركة إنغراء ، ثم ظلت بلا حراك ،
صامتة ، مخفوضة الأجفان .. تنتظر ! وكانت أهدابها الطويلة تلتق
ظلالاً ناعمة على خديها ، وساقاها العاريتان تتأرجحان فى رخاوة ،
كطفلة جلست على شاطئ نهر تفكر ..

لكن بافنوس طفق يتأملها دون أن يتحرك ! وإن كانت قدماه المرتجتان قد عجزتا عن حمله ، والكلام الذى كان فى ذهنه قد جف فى حلقة .. وثار فى رأسه إعصار مخيف ! .. وفجأة سقطت على عينيه سحابة كثيفة أخفت عنهما صورة المرأة التى أمامه .. وبمجهود عنيف استعاد رباطة جاشه ، وتساند على نفسه كى يقول ، فى صرامة تليق براهب الصحراء : « أتمحسين أن استسلمك لى يخفى على عين الله ؟ » .

فنكست رأسها ثم قالت : « الله ؟ .. أولم يخلقنا الله هكذا ؟ إذن فلماذا يغضب حين يرانا نعيش وفق الطبيعة التى جعلها فىنا ؟ إن كثيراً من النواهى التى ينسبها البعض إلى الله لم تصدر عنه ، أو أسىء تفسيرها .. فأنت مثلاً ، هل تستطيع أن تزعم أنك مطلع على أفكاره ، أو تعرف نواياه ؟ .. ومن أنت حتى تخاطبنى باسمه ؟ » وعند هذا عاود الراهب كبرياؤه ، واعتداده بنفسه ، فقال فى لهجة الحزم : « أنا بافنوس كاهن (أنتينوى) ، أقف أمامك أيتها المرأة ، كما لو كنت أقف أمام ضريح ميت ، لأصبح فيك : « تاييس ، انهضى ! »

وهزتها الكلمات ، فشحب وجهها وتهدل شعرها .. وبيلديها المضمومتين فى ضراعة ، تهاوت عند قدميه تبكى وجسدها ينتفض : « لا تؤلمنى .. لماذا جئت ؟ ماذا تريد منى ؟ لا تسىء لى ! أنا أعلم أن رهبان الصحراء يكرهون النساء اللواتى خلقن مثلى للغواية .

ولكم يحيفني أن يتلفني بغضك لى ، فاذهب .. لم أعد أشك فى قوتك وقدرتك ، ولكن فلتعلم يا بافئوس لى لا أستحق بغضاً أو احتقاراً . إن الطبيعة هى التى صاغتنى على هذا المنوال ، خلقتنى لإغراء الرجال !

« .. وأنت ، ألم تقل منذ لحظات أنك تحببى ؟ .. أضرع إليك أن لا تنطق بكلمات سحرية تتلف جمالى أو تحيلنى عموداً من الملح . لا تخفى ، لا تجعلنى أموت .. فلکم أرهب الموت ! » .
فأشار لها كى تنهض وهو يقول متلطفاً : « اطمئنى يا طفلى ، ولا تراعى ، فلن أكن لك بغضاً أو احتقاراً .. ولست بلا خطيئة حتى أرميك بحجر .. إنه ليس الغضب بل الشفقة التى ساقتنى إليك .. ولئن كنت ترهبين الموت فاهجرى حياة الخطيئة والدنس ، تعيشين إلى الأبد ! .. ولئن أردت الحياة فتعالى جددى شبابك فى ينايع الغزلة المباركة .. » .

— وهل صحيح أنى أولد فى السماء من جديد بجسمى هذا ، وجمالى كما هو ؟

— تاييس ، لى آتيك بالحياة الأبدية ، فصديقى !
— بودى لو أصدقك ، فلى أعترف لك بأننى لم أجد السعادة فى هذا العالم ! إن سلطانى ومجدى يفوقان أمجاد الملوكات ، ومع ذلك فإن حياتى حافلة بالمرارة والأحزان . والحق أنى تعبت من هذه الحياة ، وصرت أحسد اللواتى يحسدننى .. أحسد بائعة الجوى

العجوز التي تبيع بضاعتها عند أبواب المدينة ! وليخيل إلى أحياناً
أن الفقراء وحدهم هم الطيبون السعداء المباركون . وأن في الحياة
البسيطة المتواضعة لذة وعذوبة كبرى .. لقد حركت بأقوالك
أمواج نفسي ، وجعلت ما كان كامناً في أعماقي يطفو على السطح .. !

وفيما كانت تتكلم كان يغمر وجه الراهب فرح طاع ، فلما
انتهت تقدم منها صائحاً : « يا ذات الحكمة الإلهية . الآن عرفت سر
القوة التي كانت تدفعني نحوك ، والتي جعلتك عزيزة جميلة في
نظري . فتعالى يا أختاه وتقبلي من أخيك قبلة السلام ! »

ورطب الراهب بشفتيه جبين الغانية . أما هي فبكت بدموع
غزيرة .. دموع التوبة !

* * *

● وعلى دهش من الراهب بافنوس قبلت تاييس بمحض رغبتها
أن تتبعه إلى حيث يقودها ، وأن تحرق وفقاً لرغبتها كل ما لها
وكنوزها ، حتى صورة (كيوييد) الرائعة التي كانت تحرص عليها
أشد الحرص ، لجعلها الفنى !

ويقود بافنوس تاييس الثابتة إلى دير للراهبات ، حيث يعهد
بها إلى رئيسه (ألبينا) .. ثم يعود هو إلى صومعته في الصحراء ..
لكنه قد فقد راحة البال ، وسكينة النفس .. فإن تاييس
لا تكف عن أن تترامى له في رؤاه وأحلامه .. وتستل النعاس من

أجفانه .. وتوقظ في حسه ونفسه أطباعاً وأخيلة تنخر في كيانه ،
كالسوس !

ويعاول المسكين أن يلتمس من ذلك مهرباً بالصعود إلى قمة
معبد مهديم مهجور ، ودفن همه في التعبد الصارم لله ، وسط جماعة
من النساك الزاهدين ..

لكن بهرج الدنيا وأهواء الحياة لا تفتأ تسعى إلى قلبه سعيها
الحثيث ، وتراوده عن زهده وتقواه ، وتنزع منه الإيمان ، حجراً
بعد حجر ، حتى تقوض دعائمه !

وهكذا .. وتحت تأثير ملازمة خيال تاييس له في يقظته
وأحلامه ، وإلحاح رؤاها عليه .. أسلم بافنوس أخيراً قياده لهواه ،
ومضى إلى قديس عجوز يدعى (سانت أنطوني) يبثه همه وبأواه !
لكن الأقدار هيأت له الخاتمة ودفعته إليها دفعاً على لسان
منجم من الراجمين بالغيب ساق له النبأ المفجع الذي كان خليقاً
أن يذرو مع الريح بقايا الرماد الذي ستر غرائزه ، ويوقظ في
حنايا ضلوعه رغبة عاتية معزبة مجنونة ..

.. فإن المنجم يزعم ويؤكد أن « تاييس على وشك أن تموت ! »

- ٣ -

● صعد النبأ بافنوس ، فلم ير أو يسمع مزيداً . كانت الكلمات
التي ملأت أذنيه وانسحقت تقول : « إن تاييس على وشك أن
تموت ! » .. فأى معنى جديد ورهيب ينطوى تحت هذه الكلمات :

تاييس على وشك أن تموت ! .. إذن فأى فائدة تبقى للشمس ،
والأزهار ، ومجارى المياه وكل الخليقة ؟ .. وما جدوى الدنيا
بأسرها ؟

وفجأة هب واقفاً ، وصوت يهيب به : « اذهب لتراها ..
يجب أن تراها مرة أخرى ! » .. فبدأ يعدو .. لم يدر إلى أين ،
لكن غريزته كانت تقوده بيقين تام ، فيمم وجهه شطر النيل ..
وكانت مجموعة من القوارب تغطي صفحة النهر ، فهبط إلى واحد
منها يتولاه بعض النوبيين .. وحين استقر داخله رفع بصره نحو
الأفق البعيد ، وصاح مخاطباً نفسه في حزن وغيظ : « يا لى من
أحمق .. كيف لم أنل تاييس حين كان في الوقت متسع ! ..
وكيف بلغت فى الحماقة أن أصدق أن فى الدنيا شيئاً سواها جديراً
بتكريس نفسى من أجله ! .. لقد كنت مجنوناً إذ فكرت فى
الآخرة وفى الحياة الثانية ، كلئما ذلك كله يساوى شيئاً بعد رؤية
تاييس ! .. كيف لم أدرك أن السعادة الأبدية فى قبلة واحدة من
هذه المرأة ، وأن الحياة بدونها لا معنى لها وليست سوى كابوس
ثقيل ؟ ما كان أغباني إذ رأيته ومع ذلك طمعت فى أشياء أخرى ،
فى عالم آخر ! .. وما كان أشد جبنى إذ رأيته وخشيت عقاباً
أو طمعت فى ثواب ! .. وهل من شئ يساوى جزءاً مما كانت
تستطيع أن تمنى ليها ؟ أيها المخبول الأحمق ، الذى بحث عن

السعادة الخالدة في غير شفتي تاييس ! أى يد ختمت على بصرك
وحجبت الحقيقة عن عينيك ؟

« لقد كان في إمكانك أن تشتري لحظة من حبها ولو حلت
عليك اللعنة إلى الأبد ، لكنك لم تفعل ! بل لقد فتحت لك
ذراعيها ، المصوغتين من اللحم وشذى الأزهار ، ومع ذلك لم تدفن
نفسك في أحضان صدرها العارى .. إطاعة منك لصوت ضمير
دفعته الغيرة وحدها كي يحذرك منها !.. والآن ماذا يجدى الندم ،
والأسف ، واليأس ، بعد أن أضعت فرصة الهناء الطاغى الذى
كان في متناول يدك ، والذى كنت خليقاً أن تحسه حين تحمل
معك إلى جهنم ذكرى متعة لا تنسى !.. يا إلهى ، لإحرق لحمى
وهشم عظامى وجفف الدم فى عروقى ، ولكن .. لا تسلبنى
الذكريات التى ستعطرني وتنعشني على مر الأجيال !.. تاييس
على وشك أن تموت ؟.. رباه ، إنها لن تكون من نصيبى أبداً ،
أبداً ، أبداً ! » .

وفيا كان القارب يمرق به منساقاً مع التيار الجارف ظل
الراهب أياماً يهمس لنفسه في حشجة مروعة وحسرة من نار :
« أبداً ، أبداً ، أبداً ! » .. وحين تجسست في ذهنه فكرة أنها
قد وهبت نفسها لغيره وأراقت على الدنيا موجات حبها ، وأنه
لم يرطب شفثيه منها .. هب واقفاً والشرر يتطاير من عينيه ،
وصرخ من أعماق نفسه الحزينة ، ثم أنشب أظافره في صدره

وراح يمزق جلده ويعض ذراعيه وينتحب ! .. ثم انتابه حنين
طاغ ورغبة جارفة في أن يلتقي بنفسه بين أحضان رفيق شبابه
« نيسياس » ويناشده : « نيسياس ، إني أحبك كما أحببتك أنت ،
فحدثني عنها .. أعد على سمعي كل ما قالته لك .. » .. وفجأة
عادت تطرق قلبه بقوة هذه الكلمات : « تاييس على وشك أن
تموت ! » .

.. أيا ضوء النهار ، ويا ظلال الليل الفضية .. أيتها النجوم ،
والسماوات ، والأشجار ذات الهامات المتأيلة .. ويا وحوش
البرية ، وحيوانات الأدغال ، وقلوب الرجال ، ألا تفهمين :
« إن تاييس على وشك أن تموت ! » .. ويا أيها النور والنسيم
والعير ، اختف كلك من الوجود ! .. وأنت يا جميع الأشياء
والأفكار ، احجى من الأرض .. فإن تاييس على وشك أن تموت ،
لقد كانت جمال الكون ، والآن صار ذلك كله مجرد حلم ..
فإن تاييس توشك أن تموت ! .. فكيف لا أموت بموتها ؟ ..
ولكن ما أغباني إذ أظن أنني أستطيع أن أتذوق الموت ، أنا
الذى لم أعرف الحياة !

● وعند الفجر استقبلت الراهبة (ألينا) بافنوس على عتبة الدير :
« مرحباً بك في دار السلام أيها الأب المبارك ، فإنك ولاشك
قد جئت لتبارك القديسة التي أهديتنا إياها . إن تاييس تدنو من

نهايتها السعيدة بعد أن أتمت رسالتها .. وسأذكر لك في اختصار
مسلكها في الفترة التي أقامتها بيننا :

« بعد رحيلك مباشرة أرسلت لها في الكوخ الذي أغلقته عليها
قبل ذهابك ، قيثارة كنتك التي تعزف عليها عادة في الولايم
مشيلاتها من الغانيات . وقد فعلت ذلك عامدة كي لا تفقد صوابها
من الوحدة والوحشة الجديدة عليها ، ولكي أتيح لها فرصة تظهر
فيها لله بعض مواهبها التي طالما أظهرتها أمام أعين الرجال !
وقد صدق حدسي ، فقد صارت تاييس تعزف على القيثارة كل
يوم بعض الأناشيد الدينية ، وفتن صوت القيثارة بقية الراهبات
فازددن حمية في أداء واجباتهن الروحية . وهكذا كانت تاييس
تؤدي رسالة التكفير يوماً بعد يوم ... حتى فوجئنا بعد ستين يوماً
بالباب الذي أحكمت لإغلاقه بنفسك ينفتح من تلقاء نفسه ،
وبالختم الذي وضعته عليه ينكسر دون أن تمسه يد بشر ! ..
وأمام هذه العلامة أدركت أن العقوبة التي فرضتها أنت عليها يجب
أن توقف ، وأن الله قد غفر خطايا عازفة القيثار !

« ومنذ ذلك اليوم شاركت تاييس بقية الراهبات حياتهن
وتعبادهن ، بل تفوقت عليهن بالتواضع الذي لازم حركاتها
وأقوالها .. حتى صارت تبدو بينهما وكأنها تمثال حي للفجل
والعار ! وأحياناً كانت تنتابها الكتابة ، لكن هذه الذنوب كانت
لا تلبث أن تمر . وحين لمست مقدار تعلقها بالله وإيمانها به لم أتردد

فى استغلال فنها وجمالها لنفع زميلاتها ، فدعوته لتمثل أمامنا أجد أعمال القديسات والعدارى والنسوة الطاهرات ، فثلت صوراً من حياة كل من استير ، ودبورة ، وأخت اليعازر ، ومريم العذراء ... وأنا أعلم أيها الأب المبارك أن هذه الفكرة قد أزعجت وصدمت قداستك ، ولكنك كنت خليقاً أن يغلبك التأثر لو رأيته فى تلك المشاهد الورعة وهى تسكب الدموع الغزار وتمد ذراعيها كأعواد النخيل نحو السماء .. !

« لقد خبرت طويلاً طباع النساء بحكم سيطرتى على الراهبات ، ومن مبادئى التى أطبقها معهن دائماً أن لا أقهر واحدة على عمل يخالف طبيعتها ، فإن كل البذور لا تنتج ذات الثمار .. وكل النفوس لا تتوب بطريقة واحدة .. ثم إننا يجب أن نذكر أن تاييس هجرت العالم ووهبت نفسها لله وهى ما تزال جميلة ، وهذه التضحية وإن لم تكن فريدة فهى ولا شك نادرة جداً .. وها أنت سترى أن جمالها ، ذلك الثوب الذى خلعتة عليها الطبيعة ، لم يخلق أو يبلى برغم الحمى التى تحرق جسدها منذ ثلاثة أشهر وتوشك أن تقضى عليها ! .. ولما كانت لم تكف طوال مدة مرضها عن الضراعة وطلب تمكينها من التطلع إلى صفحة السماء ، فقد جعلتها تحمل كل صباح إلى الفناء الخارجى قرب البئر التى تقع تحت شجرة التين العتيقة .. وهناك تستطيع أن تراها الآن أيها الأب المبارك ، فقط عليك أن تسرع لأن الله يدعوها إلى سماواته ..

والليلة سيسدل الغطاء على الوجه الذى خلقه الله للضلال والهدى ! »

* * *

● تبع بافنوس الراهبة (أليينا) إلى فناء الدير ، الغارق فى ضياء الصباح .. وكانت الحائث البيضاء فوق الأسقف المصنوعة من الطوب أشبه بعمود من اللؤلؤ ! .. وفوق فراش متواضع ، فى ظل شجرة التين ، كانت تاييس مضطجعة يكسوها شحوب الموت ، وقد عقدت ذراعها فوق صدرها .. وإلى جوارها وقفت الراهبات وعلى وجوههن الأنفة يرتلن صلاة الاحتضار من مزامير داود : « ارحمنى يا الله حسب رحمتك . حسب كثرة رافئك أجمع معاصي »
وناداهن بافنوس : « تاييس ! » .

فرفعت أجفانها فى بطل ، وأدارت نحو مصدر الصوت حددتها البيضاء ، فأشارت (أليينا) إلى الراهبات أن يرجعن خطوات إلى الورا ..

وعاد صوت الراهب يناديهن : « تاييس ! » .. فرفعت رأسها قليلا ، وخرجت من شفقتها الشاحبتين غممة خائرة : « أهذا أنت يا أبتاه ؟ » .

ثم كفت عن الكلام ، وسقط رأسها إلى الورا . كان الموت يثم فوقها ، وعرق الترع يكلل هامتها .. وفجأة قطع الصمت الخفيف صوت حمامة تصبح متوجعة .. ثم اختلط نشيج الراهب



فرفعت أجفانها في بقاء ، وأدارت نحو
مصدر الصوت حدقتها البيضاء ..

بترتيل العذارى من جديد : « اغسلنى كثيرأ من لائمى ومن خطيئتي
طهرنى ، لأنى عارف بمعاصي وخطيئتي أمامى دائماً » .

وفجأة نهضت تاييس فى فراشها وانفتحت عيناها ، اللسان
كساهما الشحوب بلون البنفسج ، إلى آخر مداها . وب نظرات تنو
إلى بعيد ، وبذراعين ممدودتين نحو التلال البعيدة ، قالت فى صوت
واضح مسموع :

« ها هو الفجر الوردى للصباح الأبدى » .. ثم أشرقت عيناها
ولوت وجنتيها حمرة خفيفة ، وبدت أجمل وأعذب مما كانت فى
أى يوم من الأيام !.. فجثا بافئوس أمامها واحتواها بين ذراعيه
السمراوين ، وهو يصيح بصوت غريب أنكره هو ذاته :
« تاييس ، لا تموتى .. إني أحبك .. لا تموتى ! انصتى يا تاييس ،
إنك ملك لى وحدى . لقد خدعتك ، ولكم كنت بائساً أحمق . إن
الله والساوات لا تعنى شيئاً فى نظرى ! لا شىء حقيقى سوى الحياة
على الأرض ، وسوى الحب ! إني أحبك يا تاييس ، فلا تموتى .
هذا مستحيل . إنك أتمن من أن يعدو عليك الموت . تعالى ، تعالى
معى . سأحملك بعيداً بين ذراعى . هيا ودعينا نتحاب . اسمعى
يا محبوبتى ، وقولى : « سأعيش .. أريد أن أعيش » .. تاييس ،
تاييس ، انهضى ! » .

لكنها لم تسمعه ، فقد سبحت عيناها فى فضاء اللانهاية .. ثم
نغمخت : « ها هى السماء تنفتح .. إني أرى ملائكة ، وأنبياء ،

وقديسين .. وبينهم (تيودور) القديس النوبى ، إن يديه مليئتان بالأزهار .. إنه يتسم وينادى .. وهاهما ملاكان يقبلان نحوى ..
لأنهما يقتربان .. كم هما جميلان .. ها أنذا أرى الله !! » .

وأطلقت آهة فرح .. ثم سقط رأسها على الوسادة بلا حراك .
لقد ماتت تاييس ! .. وإذا بافنوس يحتضنها فى حركة يأس تفيض بالشهوة والحب والغىظ .. فصاحت به البينا : « اغرب من هنا ،
أيها الشرير ! » .. فأجفل بافنوس مترجعاً وهو يرتعد . كانت
عيناه تتلظيان بلهب من نار ، وأحس بالأرض تميد تحت قدميه ..
.. بينما استطردت العذارى مرتلات : « مبارك اسمك يا الله » ..
وفجأة ماتت الكلمات فى حناجرهن ، فقد رأين وجه الراهب بشعاً
مخيفاً ، فانطلقن هاربات وهن يصحن فى فرع : « شيطان ! ..
شيطان ! » .

.. لقد انقلبت سحنة بافنوس إلى حد أنه حين مر بيده على
وجهه ، أحس هو نفسه ببشاعة صورته !

[تمت القصة]



قصة للروائي الفرنسي الكبير

«جی دی موباسان»

العائش

● كنا سبعة - ثلاثة رجال وأربع نساء - في عربة تسير بنا
الهيوا في الطريق العريض المتعرج ، بمحاذاة الشاطئ ، وقد اتخذ
أحدنا مجلسه في مقدم العربة إلى جوار السائق . وكنا قد برحنا بلدة
(اترينا) عند الفجر - لزيارة أطلال (تنكر فيل) - والنحاس
ما يزال يتكسر بين أجفاننا ، ونسائم الصباح الباردة تخفق على
وجوهنا ، وتتردد في صدورنا . وكانت النسوة أكثرنا عجزاً عن
مقاومة سلطان النوم القاهر ، إذ لم يعتدن أمثال هذه الرحلات
المبكرة ، فكانت أجفانهن تنفرج وتنطبق بين دقيقة وأخرى ،
ورؤوسهن تعلو ثم تهبط فوق صدورهن مع اهتزازات العربة ،
وأفواههن تنثائب كسلا وخمولا .. وبالاختصار ، كن في غفلة
تامة عن جلال الفجر الساحر !

وكانت الأرض ترتدى حلة الخريف ، وحقول الحنطة تمتد
على جانبي الطريق إلى مرمى البصر ، تتوجها سنابل ذهبية تلمع في
ضوء الشروق كشعيرات نامية في ذقن رجل .. والبلايل تصدح
في الرياض مرحة جذلانة .. وفي أقصى الأفق السحيق أخذت
الشمس تنهض من رقادها محمرة العينين كخمور أفرط في السهر ..
فيفصحو الريف كله معها وهو يبتسم ، ويتمطى ، كعذراء تنفض
عنها النعاس وتنضو عنها قيصها الأبيض !

وفجأة ، صاح الكونت « ديتراي » من مكانه بجوار السائق :
« انظروا .. انظروا ! .. هذا أرنب برى ! » ، وأشار إلى اليسار ،

حيث كان الأرنب الشارد يتابع عدوه بين النباتات التي تكاد تغطيه
وتحجبه ، فلا تظهر منه إلا أذنان كبيرتان تمرقان بأقصى سرعة ،
متنقلتين من مكان إلى مكان .. ثم توقف بغتة أمام مجرى عميق ،
ريثما غير اتجاهه ، وتابع سباقه للرياح .. إلى أن عاقه عائق آخر ،
فتوقف من جديد وراح يتلفت حواليه في انزعاج وحيرة ، يتلمس
طريقاً مأموناً يجنبه مواطن الخطر وسهم الصياد . وفجأة استأنف
جريه بخطى واسعة وقفزات سريعة ، حتى اختفى آخر الأمر وسط
حقول من حقول البنجر ، وأعيننا تتابع خط سيره بفضول وانتباه !
ولذ ذاك قال أحدنا - ويدعى « رنيه ليمانوار » : « الحق أننا
لم نقوم بواجب الرجال المهذبين بإزاء رفيقاتنا في الرحلة ، في حين
تقتضينا آداب اللياقة أن نحسن مسامرتهم » .. ثم التفت إلى جارته
البارونة الشابة « دى ستيرين » - التي كانت تقاوم النعاس جاعدة -
وقال لها مداعباً : « أراهن أنك تفكرين في زوجك يا عزيزتي
البارونة .. ولكن اطمئني ، أنه لن يعود قبل يوم السبت ، فأمامك
إذن أربعة أيام أخرى ! » .. فأجابته بابتسامة ناعسة وقالت :
« يالك من وغد ! » .. ثم نفضت رأسها لتطرد النوم عنها ،
وتوجهت إلى رفيقاتها قائلة : « ما هذا ؟ .. أليس في جعبة أحداكم
نادرة طريفة تضحكننا ؟ .. وأنت يا ميسو (شينال) .. يقولون :
إنك تملك ثروة من الذكريات أضخم من ثروة دوق ريشليو ،
فهلا رويت لنا إحدى قصصك الغرامية الشائقة ؟ » .

وابتسم « ليون شينال » - وكان رساماً طاعناً في السن ، عرف في شبابه بأناقته وقوته ولطف معشره - ثم أمسك بلحيته البيضاء الطويلة ، وراح يتخللها بأصابعه مفكراً .. وبعد لحظات ، رفع رأسه وقد بدا عليه الجلد الصارم ، وقال : « سيدانى .. أخشى ألا تكون القصة - التى سأسرد وقائعها عليك - مسلية ، أو مضحكة كما تتوقعن ، فهى قصة أتعس مغامرة غرامية مرت بى فى حياتى ، وأرجو مخلصاً ألا تمتحنكن الأقدار أو تمتحن أحداً من أعزائكن بتجربة أليمة من نوعها !

- ١ -

● « كنت - فى تلك الأيام - فى الخامسة والعشرين من عمرى ، أقوم بجولات على ساحل (نورمانديا) ، حاملاً حقيبتى على ظهري ، منتقلاً من جبل إلى جبل ، بحجة دراسة الطبيعة ورسم صور لها . وليس أمتع من حياة التجوال المرحلة الطليقة التى يكون الإنسان فيها حراً مطلق الحرية ، لا يعاب فيها بشيء ، ولا يتقيد بقيد أو يلتزم بعمل أو واجب ، من أى نوع كان . إنه لا يجد ما يضطره إلى التفكير فى أمر غيره ! .. وإنما يمضى على غير هدى فى أى اتجاه يروق له ، بغير دليل يرشده سوى نزواته ، ولا مشير أو ناصح غير عينيه .. يحط رحاله فى المكان لأن غديرأ أغراه بالتوقف لتصويره ، أو لأن رائحة طعام شهى - منبعث من إحدى الحانات - قد جذبتة ليأكل ! .. وأحياناً يكون « تقرير مصيره » أو اختيار

طريقه خاضعاً لوحى زهرة عبقة أسرت خياشيمه، أو نظرة ساذجة
من عيني فتاة في حانة أسرت قلبه !
« لا تحتارني من أجل ميلي لأولئك القرويات ، فلهن روح
أصني وشعور أرق مما لغيرهن ، أما عن خسلودهن النضرة ،
وشفاهن الشهية فحدثن ولا حرج .. وأما قبلاهن القلبية الصادرة
عن رضاء واختيار ، فلها طعم الفاكهة التي تنمو في الأحراش !..
والحب كما تعلمن له دائماً ثمنه الذي ينبغي أن يبذل .. والقلب الذي
يخفق حين يظهر الحبيب في المكان ، والعين التي تلمع حين يمضي
الحبيب بعيداً ، كلها انفعالات نادرة ، عذبة ، غالية .. إلى حد
يجب معه ألا تحتقر قط !

لقد كانت لي مواعيد غرامية في حظائر ماشية ، وبين أجران
غلال .. وفي رأسي ذكريات جلسات فوق مقاعد خشبية قلدة
وصلبة ، وقبلات شهية مجردة من الرياء والتكلف ، أرق وأعذب
وأكثر إخلاصاً من قبلات النسوة المتأنقات ، المترفات !
« لكن أجمل ما يعيشه الإنسان حين يطوف أقاليم الريف ، هو
الريف نفسه : الغابات ، وشروق الشمس ، وحمرة الشفق ، وساعة
الغسق ، وضياء القمر .. فهذه المشاهد في نظر الرسام رحلات
« شهر عسل » مع الطبيعة العذراء .. يختل فيها بها خلوة طويلة
هادئة ، وينام في حقولها على فراش من أزهار « المرجريت »
والزنابق البرية ، ويرقب بعينين مفتوحتين انحدار الشمس إلى قبرها

ساعة الغروب ، ويرنو من بعيد إلى شبح القرية الصغيرة ، ينهض في وسطها برج الساعة التي لا تلبث أن تدق معلنة انتصاف الليل ! « وقد يجلس إلى جوار نبع ماء ينبثق تحت قدم شجرة بلوط ، وسط إطار من الخضرة والأعشاب الزاهية المليئة بالحياة .. ثم يظماً فيجثو على ركبتيه ويمد رأسه كي ينهل من المورد العذب ماءه البارد الزلال ، فيبتل شاربه وأنفه ، ويشعر وهو يشرب بلذة حسية ، كما لو كان يقبل الربيع ، شفة إلى شفة ! .. وأحياناً ، يعثر ببقعة عميقة تتخلل مجارى تلك الغدران الصغيرة ، فيخلع ثيابه ويلقى بنفسه فيها ، كي يستمتع من قمة رأسه إلى قدمه بدغدغة المياه الباردة على جلده ، ورعشة التيار اللطيفة ، وعناق الأمواج ! « وعلى هذا المنوال يشعر السائح بالغبطة وهو فوق التلال ، وبالنشوة على ضفاف البحيرات ، وبالبهجة حين يتوج قرص الشمس بهالة من الأشعة اللموية الحمراء ، وحين يلتقي انعكاساته القانية على مياه الأنهار .. وفي الليل ، تحت ضوء القمر وهو يسبح في الفضاء ، يفكر المرء في أشياء خاصة ، ويحلم أحلاماً غريبة لم تكن لتخطر قط على باله في ضياء النهار الساطع !

• • •

● « وفي سياحتي تلك ، غادرت (فيكامب) متخذاً طريق الساحل المؤدى إلى قرية (بينوفيل) الصغيرة ، وهو طريق مرتفع فوق البحر تتلوى منه صخور تشرف على الماء . وكنت قد قضيت

ساعات الصباح سائراً بخطوات واسعة، فوق الأعشاب والحشائش
المبتلة - الشبيهة ببساط من السندس الأخضر - أغنى جسداً
وأنا أقرب طيراً من طيور البحر يسبح بأجنحته البيضاء القصيرة
في السماوات الزرقاء ، في بطاء وتكاسل ، أو أمد بصري إلى رقعة
المحيط الشاسعة الخضراء ، أو أتابع أشعة أحد قوارب الصيد ..
وبالاختصار ، كنت قد قضيت يوماً سعيداً ، في جو من الحرية
والانطلاق ..

« وأرشدني أحدهم إلى حانة يقضى فيها السياح ليلهم ، يحيط
بها فناء كبير ويظللها صنفان من الأشجار .. وكانت تديرها امرأة
تدعى « الأم ليكاشور » ، وهي عجوز ريفية متغضنة الوجه ، من
الطراز العتيق ، تستسلم دائماً لضغط العادات والتقاليد الجسدية
والآراء العصرية بشيء من التأفف والاحتقار ..

« وكنا في شهر مايو ، فكان أول ما طالعني في حديقة الخان
شجيرات التفاح التي فرشت أرضها ببساط من براعمها التي كانت
تساقط على الناس والأرض بلا انقطاع . ثم قدمت نفسي إلى
صاحبة الخان قائلاً : « هل عندك غرفة لي يا مدام ليكاشور ؟ » ..
وكأنما أدهشها أن أعرف اسمها ، فرفعت حاجبيها بحركة غير
إرادية ، وأجابتي : « هذا يتوقف على حظك .. فإن جميع الغرف
مؤجرة فعلاً ، على أنه لن يضيرني أن أبحث لك عن مكان » .
وبعد انقضاء خمس دقائق كنا قد اتفقنا ، ووضعت حقيقتي

على البلاط العارى فى الغرفة المتواضعة التى قادتنى إليها . وكان
أثاثها مكوناً من سرير ، ومقعدين ، ومائدة صغيرة ، ومنضدة
عليها « إبريق وطشت » للاغتسال ... وكان بالغرفة باب يتصل
بالمطبخ الواسع الذى يملأ جوه الدخان ، والذى كان النزلاء يتناولون
فيه طعامهم مع أهل المزرعة ومع صاحب المزرعة الأرمل ..
« ولم أكد أستقر بغرفتى ، حتى غسلت يدى ورتبت أمتعتى ،
ثم خرجت إلى الحانة ، فوجدت صاحبها العجوز تشوى كتكوتاً
للغداء ، وترقب آتية الطعام الضخمة القائمة فوق النار ، وقد
أحالتها الدخان الكثيف إلى لون الفحم .. فقلت لها : « أرى أن
الخان مزدحم بالمسافرين فى الوقت الحاضر ! » .. فأجابتنى بلهجة
المستاءة : « نعم .. » .

— ومن يقطن الغرفة المجاورة لى ؟

— امرأة إنجليزية نضجت منذ دهر طويل !

« فنفتحها بخمسة دراهم فوق الأجر اليومى الذى اتفقنا عليه ،
فى مقابل أن تكون لى حرية تناول طعامى فى الفناء الخارجى حين
يكون الطقس معتدلاً .. وهكذا وضعت مائدتى فى المكان الذى
اخترته . ولم تكد تعد لى الطعام حتى جلست أقضم أطراف
« الكتكوت » المشوى بشراهة الجائع ، وأجرع شراب التفاح
المعتق ، وأجهز على قطعة الخبز الأبيض الشبيهة التى زادها مساعاً
انقضاء أربعة أيام على خبزها ! وفجأة ، فتح الحاجز الخشبى

الذى يتوسط السور الخارجى ، ودخلت منه مخلوقة غريبة المنظر ، طويلة جداً ، ونحيفة جداً ، تضع على كتفها شالا من الطراز الاسكتلندى له حافة حمراء .. يكاد يخيل للناظر إليها أنها بلا ذراعين لفرط نحافتها ، لولا المظلة البيضاء المرفوعة فوق رأسها ، والتي لا بد لها من ذراع تحملها ! . وكان وجهها وجه مومياء ، تحيط به صفائر - كالسجق - من الشعر الأغبر ، تقفز مع كل خطوة تخطوها ، حتى لقد ذكرتني - بغير ما مبرر أدريه - بسمكة من أسماك « الرنجة » فى طبق ، محوطة بلفافات من الورق المزخرف .. ولم تكد المرأة تحاذيني حتى غضت من بصرها ومرقت مسرعة إلى الداخل ..

« أيقنت إن تلك المخلوقة هى جارتى الإنجليزية العجوز التى حدثتني عنها صاحبة الحانة .. وأثارت هيئتها فضولى ، فانشغلت بالتفكير فى أمرها برهة .. ولكننى لم أرها فى ذلك اليوم مرة أخرى .

* * *

● « وفى اليوم التالى ، بينما كنت أرسم لوحة عند نهاية الوادى الجميل الممتد حتى بلدة (اتريتا) ، رفعت عيني عن غير قصد ، فلمحت فوق قمة المنحدر « شيئاً » متشعاً بزى عجيب ، وكأنه صار خشبي رشقت فيه طائفة من الأعلام المنوعة .. وكانت « هى » ! .. وما أن لمحتنى حتى اختفت !
« وحين عدت إلى الحان وقت الغداء ، حرصت على أن أخذ

مجلسي حول المائدة الرئيسية ، كى أتعرف إلى تلك المخلوقة العجيبة .
لكنها لم تستجب لمحاولاتي التمهيدية المؤدبة ، ولا أبدت التفاتاً لعباراتي
وملاحظاتى ، برغم أنى كنت أصب لها الماء فى كأسها ، وأقرب
مخاف الطعام منها . بشهامة ومروءة مقصودتين ! .. بل كان أقصى
ما تلقيته منها رداً لجميلي هزة خفيفة من رأسها تكاد لا تلاحظ ،
وكلمة أو كلمتين بالإنجليزية نغممت بهما بصوت لا يكاد يسمع !
« وهكذا لم أجد بداً من الانصراف عن الاهتمام بها ، بالرغم
من أننى لم أستطع صرف ذهني عن التفكير فيها من وقت لآخر ..
فجعلت أستدرج « مدام ليكاشور » إلى الحديث عنها حتى استنفدت
فى خلال ثلاثة أيام ، كل معلوماتها عنها .. فعرفت أنها تدعى
« مس هارييت » ، وأنها وفدت على قرية (بينوفيل) منذ ستة
أشهر ، لتقضى فصل الصيف ، فإذا بها تستطيب المقام هناك ،
ولا تبدو عليها نية الرحيل .. ثم أضافت صاحبة الخان إلى ذلك
بعض ملاحظاتها الشخصية ، فقالت : إنها لا تتكلم قط أثناء تناول
الطعام ، وإنما تأكل ما يقدم لها بسرعة ملحوظة ، ثم تنهض كى
تستأنف مطالعاتها فى الكتب الدينية التى توزع نسخاً منها على كل
من تقابله ، حتى لقد بلغ نصيب قسيس القرية أربعة من كتبها ! ..
وكانت كثيراً ما تقول لصاحبة الخان فجأة وبلا مقدمات : « لاني
أحب إلهي أكثر من كل شيء » ، وأعبدته فى كائنات خلقته ،
وأعجده بتقديسي للطبيعة بأسرها .. بل إننى أحمله دائماً فى قلبي ! ..

ثم تردف عبارتها بإهداء محدثها إحدى نشراتها الدينية !
« ولم تكن مس (هارييت) محبوبة في القرية ، وكان ناظر
المدرسة يصفها بأنها ملحدة ، وإن معتقداتها الدينية ليست سليمة
من الشوائب !.. أما القسيس ، فحين سألته (مدام ليكاشور)
رأيه فيها ، أجابها بقوله : إنها تبنى إيمانها الديني على أسس خاطئة ،
لكنها تبدو طاهرة الذيل ، حميدة الخلق » .

« وكان طبيعياً أن تلقى هذه الآراء في رءوس البعض ظلالة
من الشك في حقيقة أمرها ، فانقسم الناس شيعاً في حكمهم عليها ..
لكن الجميع اتفقوا على أنها امرأة غنية ، وأنها قد قضت حياتها
جائلة في بلاد الأرض كلها ، بعد أن تنكرت لها أسرتها .. أما لماذا
تنكرت لها أسرتها فذلك ما لم يعرفه أحد ! » .

« والواقع إنها كانت امرأة من ذلك الطراز من الناس ذوي
المبادئ الرفيعة ، من فئة الطهرين المتعصبين — « البيوريتان » —
الذين تنتجهم إنجلترا بسخاء عجيب !.. إحدى أولئك العوانس
الطيبات المزعجات اللواتي يبدون كالرؤى المفزعة حول موائد
الفنادق الأوروبية الكبرى .. يفسدن جو إيطاليا ، ويسممن هواء
سويسرا ، ويجعلن من مدن البحر الأبيض الجميلة أماكن كريهة
منفرة !.. ويحملن معهن — حيثما ذهبن — نزواتهن الشاذة ،
وتزمتن العتيق ، ووجوههن الكالحة ، وتلك الرائحة الغريبة العالقة
بهن ، التي توحى إلى المرء بأنهن يقضين لياليهن داخل أكياس من

المطاط !.. الأمر الذى يجعلنى لا أكاد ألمح لإحداهن فى مكان حتى ألوذ بالفرار ، كالطير الذى يفرغ من شبح الصياد !

« أما فى هذه المرة ، فإن طابعاً فريداً فى تلك العانس جعلنى لا أنفر منها !.. بعكس صاحبة الخان التى كانت تمقت بطبعها كل جديد مستحدث ، فأضمرت فى قلبها للعانس المتطرفة شعوراً بالكراهية والازدراء .. وأوحى لها شعورها هذا بتسمية مبتكرة تفتق عنها ذهنها ، فأطلقت عليها لقب « الشيطانة » .. وبدأت لى التسمية طريفة فصرت لا أراها مرة حتى أجده لذة عجيبة فى أن أهمس لنفسى بتلك الكلمة « شيطانة ! » ، وصرت أسأل الأم ليكاشور عنها بقولى مثلاً : « كيف حال شيطانتنا اليوم ؟ » .. فتجيبنى فى انفعال : « ماذا تظن يا سيدى ؟ لقد أحضرت لى غرفتها ضفدعة مجروحة ، فغسلتها فى حوض الغرفة وضممت لها جرحها كما لو كانت إنساناً .. فإذا لم يكن هذا تهوساً وقذارة فإذا يكون !؟ » .

* * *

● « وفى مناسبة أخرى ، صادفت العانس أثناء سيرها بمحاذاة الخليج صياداً معه سمكة كبيرة حية كان قد اصطادها ، فابتاعها منه ، ثم ألقت بها فى البحر من جديد !.. وبالرغم من الثمن السخى الذى دفعته للصياد ، فإن تصرفها استثاره وأغاضه أكثر مما لو وضعت يدها فى جيبه واستولت على ماله .. بل إنه ظل شهراً لا يتحدث

عن تلك « الفعلة » ، إلا وينفعل غضباً ويصفها بأنها إهانة جارحة له ! .. والحق أن الأم ليكاشور قد وفقت وألهمت بوحي من عبقريتها حين أطلقت على مس هاريت لقب « الشيطانة ! » .

« لكن صاحبة الخان لم تكن الوحيدة التي أخذت على عاتقها الزاوية بالعانس الإنجليزية ، فقد جاراها في ذلك آخرون ، منهم « سابور » خادماً حظيرة الجياد الذي قال عنها بلهجته الخبيثة : « إنها ساحرة شريرة استنفدت أيامها على الأرض ، وأن لها أن تموت ! » .. أما ساقية الخانة الطيبة القلب « سيلست » ، فكانت تخدم النزيلة الإنجليزية بتأفف وضيق ، ربما لكونها أجنبية من جنسية أخرى ، ولغة أخرى ، ومذهب ديني مخالف .. في الوقت الذي احتدمت فيه الخصومة والتنازع بين الكنيسة الفرنسية الكاثوليكية والكنيسة الإنجليزية الإنجيلية .

« وكانت مس هاريت تقضى أوقاتها في التجوال بأنحاء الإقليم ، تتملى بحال الريف ، وتمجد الله في سحر الطبيعة التي أبدعها . وذات مساء ، كنت أتنزه في الحديقة ، فلفت نظري « شيء » أحمر مخبئ بين أغصان الأشجار ، فلما نحيت الأغصان جانباً ، وجدت مس هاريت جاثية على ركبتيها تصلي .. وفوجئت المسكينة بمرآى ، فازتبتكت ، وهبت واقفة على الفور وفي عينيها نظرة الهرة المتوحشة التي ضببطت تسرق شيئاً ! » .

« وكان يحدث أحياناً أن أكون منشغلاً بعمل بين الصخور

المطللة على البحر ، فأراها واقفة على شاطئ الخليج بلا حراك
مثل عمود « السيفور » تحديق في البحر العريض الذي تبرق مياهه
تحت أشعة الشمس ، أو ترفع بصرها إلى أديم السماء المطلخة برقع
من السحاب الأحمر المشتعل بالنار . وأحياناً أخرى كنت أصادفها
في بطن الوادي تسير مسرعة بخطاها الإنجليزية المطاطة ، فأتجه إليها
مدفوعاً بدافع غريب ، لا لشيء إلا لأرى وجهها الجاف المتغضن
وعينيها المضيئتين بضياء السعادة الباطنية العميقة !

« .. أو كنت أعثر بها في ركن أحد الحقول جالسة فوق
الحشائش تحت ظل شجرة تفاح ، وإنجليزها الصغير مفتوحاً فوق
ركبتها ، بينما نظراتها المتأملّة عالقة بالأفق البعيد » .

« وتوالت الأيام وأنا أزداد تعلقاً وشغفاً بتلك البقعة الهادئة من
الريف ، وكأن ألف رباط ورباط يشدني إليها ويحبيني في أرضها
الطيبة ، الصحية ، الجميلة ، الخضراء .. التي أشعرتني بأنني أبعد
ما أكون عن الدنيا الصاخبة وضجيج الحياة المتحضرة . بل لم
لا أعترف بأن دافعاً أقوى من مجرد الفضول أغرائني بالبقاء في خان
الأم ليكاشور ، لعله الرغبة في التعرف إلى هذه العانس الغريبة
الأطوار ، واستقراء ما يدور في أعماق نفوس أولئك العجائز
الإنجليزيات الجائلات ! »

- ٢ -

● « وقد تم تعارفنا فعلاً على صورة غير مألوفة .. كنت قد

فرغت من رسم لوحة ممتازة توقعت لها ذبوع الصيت - وحققت الأيام ما توقعت فبيعت بعد خمسة عشر عاماً من ذلك التاريخ بعشرة آلاف فرنك ! - وكانت تمثل صخرة كبيرة تغطيها أعشاب البحر الزاهية الألوان ، وتنصب عليها أشعة الشمس كمجرى من الزيت المتأوج لا يكاد يلمسها حتى تشب فيه النار .. والضوء الباقي من النهار يحجب النجوم ، فلا تبدو في مؤخرة الصورة إلا أشباحها .. وإلى اليسار يمتد البحر العريض ، بحر من الزرجد في مثل لون السماء .. » .

« ولم أكد أتمها وأتأملها ملياً ، حتى تولاني شعور بالزهو والرضى عن نفسي وعنهما ، فحملتها إلى الحانة وأنا أرقص طرباً . وددت لو أتيح للعالم كله أن يرى في وقت واحد لوحى الرائعة .. وأذكر لى أريتها لبقرة صادفتها في طريق عودتى وأنا أهتف بها : « انظرى إلى هذه أيتها الغبية .. إنك لن ترى مثلها كثيراً ! » .. وحين بلغت باب الحانة الخارجى ناديت الأم ليكاشور بأعلى صوتى : « تعالى وانظرى .. » .. فجاءت ونظرت إلى الصورة بعينين يتمثل فيهما الغباء ، وبمنظرة من النوع الذى يبدو عاجزاً عن التمييز بين ما إذا كانت الصورة لثور أو لبيت أو ...

« وفى تلك اللحظة ، أقبلت مس هاربيت من الخارج .. ومرت بمحاذاة فى الوقت الذى كنت فيه ماداً ذراعى باللوحة أمامى ، أعرضها على صاحبة الحان ، فلم يكن بد من أن يقع بصر العانس (م ٧ - الحب الاول وقصص اخرى)

عليها وهى مارة .. فتوقفت فجأة ، وجعلت تتأمل الصورة
كالمشدوهة .. وأدركت أنا ما لفت نظرها . فقد كانت الصخرة
التي رسمتها هى ذات الصخرة التي اعتادت أن تتساقطها كلما أرادت
أن تخلو بنفسها كي لا يزعجها أحد ! » .

« أوه ! .. أطلقت المرأة صيحة الاستغراب هذه ، على
الطريقة الإنجليزية ، فاستدبرت إليها مبتسماً وقلت : « هذه هى
أحدث لوحاتى يا آنسة ... » ، فقالت فى لهجة إعجاب رقيقة :
« أوه ، مسيو ... يبدو أنك فنان مرهف الإحساس ! » .

« وصعد الدم إلى وجهى على الفور ، واغتمطت بهذا المديح
أكثر مما لو كان قد صدر من ملكة ، بل عرتنى نشوة عذبة
غلبتني على أمرى ، وجعلتني أود لو كافأت المرأة بقبلة ! » .

« وعندما حان وقت الغداء ، اتخذت مقعدى إلى المائدة
بجوارها ، كالعادة . وللمرة الأولى ، خرجت عن تحفظها ،
فتبسّطت معي فى الحديث . وقدمت لها أنا خبزاً ، وماء ، وبعض
النبيذ .. فتقبلت منى كل ذلك بابتسامة جوفاء .. ثم شرعنا نتحدث
عن المنظر الذى رسمته ، فقالت فى حماس : « لكم أحب الطبيعة ! » .

● « وبعد الغداء نهضنا عن المائدة معاً ، وسرنا نتسكع فى فناء
الحانة .. وكانت الشمس تصب نورها ونارها على سطح البحر ،
فأغراني جمال المنظر بأن أفتح البوابة المفضية إلى الخارج فى اتجاه

الخليج .. وسرنا جنباً إلى جنب ، تستخفنا السعادة كأى رجل
وامرأة توصل كل منهما إلى فهم الآخر والتعمق إلى أغوار مشاعره
ودوافعه .. » .

« وكانت الليلة صافية ساكنة ، كتلك الليالي الممتعة التي تغمر
بسحرها الجسد والروح ، حتى ليغسود فيها كل شيء بهيجاً
جذاباً .. ويتفرق الهواء المنعش محملاً بأريج الأعشاب وعبير
الأزهار البرية إلى أعماق كيان الإنسان فيعطر خلاياه بعذوبته ! ..
ومضينا حتى حافة الخليج المطل على البحر العريض الذى تصطبغ
أمواجه على بعد أقل من مائة متر . وهناك وقفنا نجرع بأفواهنا
المفتوحة وصدورنا الرحبة نسبات المحيط المغشة التي تدغدغ
البشرة .. ثم لفت رفيقتى جسمها في شالها المربع كى تحمى به
من الهواء الرطب ، وثبتت بصرها على قرص الشمس العظيم وهو
ينحدر نحو البحر ، حتى لمست أشعته الماء وبدأت تغوص في اليم
تدريجاً إلى أن ابتلعها تماماً .. أمام أبصارنا ! » .

« استغرقت (مس هاريت) في التأملات ، وهى ترقب
— نشوانة — آخر قبس في ضوء النهار يتلاشى وينطفئ ، وسمعتها
تغمغم : « ما أحب هذا المنظر إلى ... » ، ثم استطردت والدمعة
تنزل من عينيها : « ليتنى كنت طائراً صغيراً ، كى أحلق طليقة
في أجواز الفضاء ! » .
« وظلت واقفة كمن سمرت في مكانها ، تحدق في الأفق

البعيد وقد اجتمعن وجهها فصار في حمرة شالها .. في ذات الوضع
الذى رأيته فيه مراراً من قبل . فأشحت بوجهي عنها وأنا أغالب
ميلي إلى الضحك ، ووددت لو رسمت لها رسماً كاريكاتورياً وهي
على تلك الصورة ! » .

« ثم استأنفنا الكلام ، فحدثتها عن فن الرسم ، كما لو كنت
أحدث زميلاً فناناً ، مستخدماً أعقد المصطلحات التي يفهمها
محترفو المهنة ، وأصغت هي إلى بانتباه ، باذلة كل جهدها كي
تفهم معاني الكلمات الغامضة التي استعصت عليها .. وبين الحين
والآخر كانت تعلق على كلامي قائلة : « أوه .. فهمت ، فهمت ..
هذا أمر شائق للغاية ! » .

« ثم عدنا أخيراً إلى الخان . وفي اليوم التالي ، لم تكذ ترائي
حتى أقبلت على في شوق ظاهر .. وصرنا صديقين » .

« وأدركت من اختلاطي بها أي امرأة هي .. كانت مخلوقة
ينقصها (التوازن) ، شأن أكثر العوانس في سن الخمسين ..
ويحتفظ قلبها ببقية من حيوية الشباب وفتوة العذارى .. وكانت
تكن للطبيعة والحيوان عاطفة قوية وحياً أشبه بالنبيذ المعتق ، يعوضها
عن حرمانها من الحب الجنسي .. فكانت تنفعل بحمى النشوة العنيفة
إذا رأت ، طائراً في عشه يطوى جناحيه على صغاره التي لم ينبت لها
بعد جناح ، أو فرساً ترعى في الأعراس وإلى جانبها مهرٌ وُلِدَ ! »
« ولم ألبث أن أدخلت تصرفها في روعي إنها تكتم شيئاً تود

لو تبوح لى به ، لكنها لا تجرؤ . وكان خجلها هذا مبعث تسلية
ومتعة لى . وكنت أخرج فى الصباح الباكر وعلى ظهري أدوات
الرسم ، فتصحبني هي إلى آخر حدود القرية ، صامئة ، تصارع
نفسها كي تجدد الكلمات التي تبدأ بها الحديث معي .. وفجأة ،
تتركني وتعود أدراجها مسرعة بخطى مترنحة ! » .

« وذات يوم ، وجدت في نفسها الشجاعة كي تقول لى :
« بودى أن أرى كيف ترسم لوحاتك .. فهلا أتحت لى فرصة
إشباع فضولى إلى ذلك ؟ » .. وصعد الدم إلى وجهها وهي تنطق
بهذه العبارة ، كأنما قد تفوهت بكلمات مشينة ! .. ولم أبخل عليها
بما طلبت ، فقلدتها إلى بطن الوادى الصغير ، حيث كنت قد
بدأت لوحة جديدة .. ووقفت هي إلى جوارى تتابع حركات
ريشتي بانتباه عظيم ، وفجأة - وكأنما خشيت أن تكون قد
ضابقتني - قالت لى : « شكراً !! » ، وقفلت راجعة ! » .

* * *

● « ولكن لم تمض أيام حتى غدت أكثر ألفة معي ، وصارت
تصحبني كل صباح ووجهها يطفح بشراً ، وتحت أبطها مقعد
مطوى من القماش ، كانت تأتي أن أحمله لها .. فلا أكاد أبدأ عملي ،
حتى تجلس إلى جوارى وتظل في جلستها ساعات صامئة بلا حراك ،
تتبع بعينها طرف ريشتي حينما تحركت .. وحين تبرز معالم جزء
من الصورة بلمسة خاطفة من الريشة ، لا تملك قمع صبيحة الإعجاب

والدهشة والانشراح ! .. وكانت تنظر إلى لوحاتى نظرة احترام ، بل شبه تقديس ، لما تفصح عنه من تعبير عن إبداع الخلاق فى خلق الطبيعة الحية ! .. بل ما لبثت صورى أن بدت فى نظرها ذات طابع دينى ، حتى لقد صارت المرأة تحدثنى أحياناً عن الله - بفكرة هدايتى ! - وتصوره فى صورة الغاضب من أجل المظالم التى ترتكب تحت سمعه وبصره ، العاجز عن منع ارتكابها ! .. وتصور نفسها فى صورة المطلعة على أسرارهِ ونواهيه ، المنوط بها إبلاغ رسالته للناس ، فكانت تقول لى فى كل مناسبة : « الله يريد هذا ، ولا يريد ذاك ! » .. وكأنها ضابط يبلغ جنوده أوامر قائده ! .. « وصرت أعثر كل يوم ، فى جيوبى ، أو قبعتى ، أو صندوق ألوانى ، أو خدائى الذى أتركه للخادم كل ليلة أمام باب غرفتى ، على تلك النشرات الدينية المنوعة التى كانت كأنما تتلقاها مباشرة من السماء ! .. أما أنا ، فصرت أعاملها كما يعامل المرء صديقه قديمة ، بغير كلفة .. لكنى ما عثمت أن تبينت تغييراً طارئاً فى أطوارها ، وإن لم أعره فى البداية كبير اهتمام . كنت أصادفها أحياناً فى بقعة من الوادى أو فى أحد أزقة القرية ، فلا تكاد ترانى حتى تتلاحق أنفاسها فتجلس على أقرب مقعد ، وهى تلهث من فرط التعب أو الانفعال . ويحمر وجهها ذلك الاحمرار التقليدى عند الإنجليز - وحدهم دون غيرهم ! - وبغته ، وبلا أدنى سبب أو مناسبة ، يشحب وجهها شحوباً شديداً ، وتبدو كأنها على

وشك الإغماء .. ثم تستعيد هدوءها بالتدريج ، فتتحل عقدة لسانها وتكلمنى . وفى وسط الحديث - وبغير تمهيد - تبتّر عبارتها ، وتهب واقفة ، ثم تمضى عنى مسرعة بخطى عنيفة تاركة إياى ، أضرب كفاً بكف ، محاولاً عبثاً أن أهتدى إلى السر الذى أغضبها منى على هذا النحو ! » .

« وكانت تعود أحياناً إلى الحانة ، بعد مسيرة ساعات على الشاطئ العاصف ، شعثناء الشعر ، فتقصد إلى غرفتها رأساً كى تصلح من هيئتها ، ثم تعود مهندمة .. فأقول لها مازحاً ، وإن بدا كلامى فى قالب جدى : « لكم أجيلة اليوم يا مس هاربيت ! » .. وإذ ذاك تقفز إلى وجنتها حمرة خفيفة أشبه بحمرة العذراء التى فى سن الخامسة عشرة .. وتغسّدو جافة معى بعد ذلك لفترة ما ، تقاطعنى خلالها فلا تمنحنى شرف مصاحبتى وأنا أرسم ! .. فكنت أقول لنفسى : « إنها أزمة نفسية عارضة لن تلبث أن تزول » . « لكن الأزمة لم تكن تنتهى دائماً سريعاً . كنت فى بعض المرات أكلّمها ، فتجيبنى إما بعدم مبالاة أو بغضب ظاهر .. وأحياناً كانت تغدو فظة عصبية نافذة الصبر ! ثم مرت فترة لم أكن أراها فيها إلا حول مائدة الطعام ، فكنا نتبادل بضع عبارات مقتضبة ! .. وأخيراً انتهى بى التفكير فى علة تبدل أطوارها إلى أنى لا بد قد أسأت إليها بغير أن أشعر .. فسألتها ذات ليلة : « لماذا صرت تعاملينى بغير معاملتك الأولى يا مس

هاريت ؟ .. بماذا أسأت إليك ؟ .. إن مسلكك يسبب لى
المأ عيقاً ! » .

فأجابت بلهجة غاضبة : « هذا غير صحيح .. غير صحيح ..
إن مسلكى نحوك لم يتغير ! » .. ثم اندفعت تصعد السلم إلى غرفتها ،
وأغلقها على نفسها !

« وصارت تنظر إلى أحياناً نظرة غريبة ، أشبه بنظرة المحكوم
عليهم بالإعدام حين يعلمون أن يومهم الأخير على الأرض قد
أقبل ! .. كان يكمن فى عينيها لون من الحماقة .. حماقة غامضة
وعنيفة معاً .. بل أكثر من ذلك ، جى .. رغبة فائرة قلقه ، لا هى
بالمثقة .. ولا بالمتعذرة التحقيق ! » .

« أجل .. لقد خيل إلى أن معركة كانت تصطرع فى قلبها ..
معركة اقتتل فيها قلبها مع قوة مجهولة كانت تريد إخضاعها ..
أو لعل كنت مخطئاً ، ولكن أتى كان لى أن أعرف ! » .

- ٣ -

● « ثم جاء اليوم الذى أزيح فيه الستار عن الحقيقة ! .. كنت
قد بدأت منذ فترة لوحة جديدة تمثل غديراً عميقاً ، يجرى فى
بطن واد ضيق سحيق ، تحف به أحراش وصفوف متراسة من
الأشجار ، غارقة فى بحر من الأبحر والضباب ، مسربة فى ذلك
الرداء المبهف الذى يرفرف فوق الوديان فى مطلع النهار . ومن
وراء هذه الغلالة الرقيقة ، يبدو ، بل يدنو شبحان متعانقان لفتى

وعذراء ، رأسها على كتفه .. والشفاه ملتقبة ! .. وخلف العاشقين
الريفيين ، التمتع شعاع من الشمس خلال الأغصان ، فثقب ضباب
الفجر ، وأشاع فيه ضوءاً في لون الورد .. » .

« وبالاختصار فقد جاءت اللوحة آية في الروعة والإبداع .
وفي اليوم الذى وقع فيه الحادث الذى أعنيه ، كنت أشتغل برسم
المنحدر المشرف على الغدير وقد استوحيت من طبيعة المكان المؤدى
إلى وادى « اتريتا » .. وصادف أن خيمت على الوادى فى ذلك
الصباح تلك الغلالة من الضباب التى كنت أنوى رسمها .. وفجأة برز
فى الأفق الذى أرسمه شيء ، شبح ما .. وكانت مس هاريت ! » .
لكنها لم تكدر أنى حتى عمدت إلى الفرار ، فلاحقتها منادياً :
« تعالى .. تعالى هنا يا آنسة .. فلدي لك صورة رائعة ! » .

« وجاءت ، فى مشية تنطق بالتردد والتخاذل ، فأريتها
لوحى . لكنها لم تعلق بكلمة ، بل وقفت تتأملها طويلاً ، جامدة
بلا حراك . وفجأة ، انهمرت من عينيها الدموع .. بكت بعصبية
وحرقة كما يبكى الرجال بعد أن يجاهدوا أنفسهم طويلاً لقمع
دموعهم ، بلا جدوى ، فيستسلمون لشجنهم راغمين ! » .

« ووجدتني أنهض من مقعدى مضطرباً ، متأثراً ، وقد
هزنتى رؤية ذلك المظهر المفاجئ من مظاهر الأسى الذى لم أفهم
كنهه . وتناولت يديها بحركة عطف طبيعية ، مدفوعاً بتلك الغريزة
التي توحي للمرأة أن يتصرف بأسرع مما يفكر » .

« وتركت هي يديها في يدي بضع ثوان ، أحسست خلالها
أنهما ترتجفان في عصبية شديدة .. ثم سحبتهم ، بل انتزعتهم من
يدي في نخشونة ! .. وأدركت للفور كنه تلك الرعدة .. لقد
صدق حدسي . إنها رعدة الحب عندما يصيب المرأة ، سواء في
سن الخامسة عشرة أو في سن الخمسين ! .. كان كيائها كله كريشة
في مهب الريح ، لا سيطرة لها على نفسها ! .. وقبل أن أتمالك
نفسى لأنطق بكلمة ، انفلتت المسكينة من بين يدي لا تلوى على
شيء ، تاركة ليأى مشدوها كما لو كنت قد شهدت معجزة خارقة ،
مضطرباً كما لو كنت قد ارتكبت جريمة بشعة ! » .

« ولم أعد إلى الحانة لتناول الإفطار . بل مشيت على شاطئ
الخليج وبى إحساس من يريد أن يبكي أو يضحك .. لا أدري
أنظر إلى المغامرة نظرتي إلى ملهاة أو إلى مأساة ؟ . كان موقفي يدعو
إلى الرثاء حقاً ، حتى لقد خيل إلى أنى فقدت رأسي ! » .

« وجعلت أسأل نفسي : ماذا ينبغي أن أفعل ؟ أولاً يحسن أن
أبادر بمغادرة القرية فوراً ؟ .. وسرعان ما صبح عزيمى على الرحيل ..
فجعلت أتسكع في أرجاء الوادى حائراً مكتئباً حتى وقت الغداء ،
ثم عدت إلى الخان أجز أذيال الخيبة والحسرة على قرب سفري
الاضطرارى ، فوجدت القوم قد بدأوا يتناولون الحساء ..

« واتخذت مقعدى حول المائدة كالمعتاد . وكانت مس هاربيت

في مكانها ، تأكل واجبة ، لا تكلم أحداً أو ترفع عينها إلى أحد..
وعلى وجهها نفس التعبير الصارم الذي ألقته .. »
« وانتظرت بصبر نافذ حتى فرغ الجميع من الغداء ، ثم
استدريت إلى صاحبة الخان قائلاً : يؤسفني يا مدام ليكاشور أن
أراني مضطراً إلى الرحيل من هنا في أقرب وقت ! »
وبدت الدهشة والأسف على أسارير المرأة الطيبة ، وقالت
في صوت مضطرب : « ماذا تقول يا سيدي ؟ أتتري أن تتركنا
بعد أن ألقنا صحتك ؟ »

« ونظرت إلى مس هاريت من زاوية عيني . لكنني لم ألحظ
عليها أى تغير .. بعكس خادمة الخان « سيليست » التي أقبلت
على تستفسرني وقد اتسعت حدقتها استغراباً .. وكانت سيليست
فتاة في نحو الثامنة عشرة ، متوردة نضرة ، قوية البنية ، بدينة
الجسم ، تمتاز عن بنات طبقتها بولعها الشديد بالنظافة والتأنق .. »

* * *

● « وتوجهت بعد الغداء إلى الفناء العريض ، كي أدخن غليونى
تحت شجرة التفاح ، ثم جعلت أذرع المكان ذهاباً وجيئة من ركن
إلى ركن ، شارد الدهن ، أستعيد وأجتز الأحداث المفاجئة التي
وقعت لي في الصباح : العاطفة العنيفة التي وجدت نفسي بغتة هدفاً
لها ، والذكريات المنوعة التي تداعت في رأسي على أثر الاكتشاف ،
فأضياءت لي مقدمات ذلك الحب التي مرت على بغير أن أتنبه

للدلولها في أوانها .. الذكريات العذبة والأليمة في وقت معاً .. ثم
قد أكون فكرت أيضاً في مغزى تلك النظرة التي رمقتني بها الخادم
حين أعلنت نبأ اعتزاي الرحيل ! .. كل هذه الأفكار المختلطة
المتداخلة أثارت في نفسي نوعاً من الانفعال الجثاني ، أحسست معه
فجأة بدغدغة القبلات على شفقتي ، وبنار تمشي في عروقي وتهيب
بي أن .. أرتكب حماقة ! » .

« فلما هبط الليل ، وألقى ظلاله القاتمة تحت الأشجار ، تبعت
سيلست خلصة بخطى متلصصة إلى أقصى الفناء ، حيث مضت
لتغلق « عشة » الدجاج .. ثم كنت لها في ركن مظلم ريثما تحكم
رتاج النوافذ الصغيرة التي تدخل منها الكناكيت وتخرج .. فلما
فرغت من مهمتها وهمت بالعودة ، برزت لها من مكمن وأخذتها
بين ذراعي وأمطرتها بوابل من القبلات المحمومة .. وفيما هي
تقاومني بعزيمة خائفة ، وتضحك كعادتها في مثل هذه المناسبات ،
شعرت بذراعي تتراجعان عنها فجأة في تحاذل ، وقلبي يرق صدري
بشدة كمن تلقى صلعة مباغثة ! .. ترى من هذا الذي أسمع خطواته خلفي ؟
» .. كانت مس هارييت ! .. وقد تسمرت قدمها على قيد
خطوات منا كتمثال ، وأخذت تنظر إلينا ولا تتحرك ! .. وبعد
لحظة كانت قد اختفت في الظلام من حيث أتت ! » .
« وخجلت من نفسي ، وتولتني حيرة تفوق ما كان خليقاً
أن يتولاني لو أنها ضبطتني أرتكب جريمة بشعة ! » .



« .. کانت مس هاريت ا... وقد تسمرت قدماها
على قيد خطوات منا كتمثال » ..

« ولم أنم في تلك الليلة .. أزعجتني وطساردتني ألوان من الأفكار القائمة ، الحزينة . وخيل إلى أني أسمع صوت نجيب متقطع ، ولو أني كنت واهماً في ذلك ! بل توهمت أكثر من ذلك ، توهمت أني سمعت شخصاً يصعد ويهبط سلم الخان أكثر من مرة ، بل ويفتح على باب غرفتي ! » .

« وأخيراً ، قبيل الفجر ، هددني التعب والإجهاد فأغفيت . وصحوت متأخراً ، فلم أبرح حجرتي حتى موعد الفطور ، خجلاً من أن تلتقي عيناي بعيني مس هارييت . لكن خجلي وحيرتي زائلا في حين هبطت أخيراً فلم أجدها حول المائدة ، وقال الجميع : لأنهم لم يروها في ذلك الصباح .. فانتظرواها فترة ، لكنها لم تظهر .. وإذ ذاك قصدت الأم ليكاشور إلى غرفتها لتستدعيها .. فلم تقف لها فيها على أثر ! .. وأيقنا كلنا أنها لا بد قد خرجت في مطلع النهار كما اعتادت أن تفعل أحياناً ، كي تستمتع بمنظر شروق الشمس . ولم يستغرب أحدنا ذلك ، فعكفنا على فطورنا نتناوله صامتين .. ! »

« وعند الظهر ، كان الجو حاراً ، قائظاً ، والهواء ساكناً ثقيلًا ، لا يحرك غصناً أو ورقة . وكانت المائدة قد أعدت في الفناء ، تحت شجرة التفاح . ومن وقت لآخر ، كان الفتى « ساربور » - سائس الجياد - يروح ويحجي حاملاً من القبو قنينة من خمر التفاح المعتق .. فقد كنا جميعاً في أشد حالات الظمأ . أما سيلبيست ، فكانت تحمل إلينا من المطبخ صحاف الطعام عامرة

باللحم والبطاطس ولحم الأرنب البارد و «السلطة» ، وأخيراً ، وضعت أمامنا طبقاً من الفراولة الطازجة ، كان أول تباشير المحصول الجديد ، فطلبت من الخادم أن تأتي بدلو من الماء البارد لغسل الفراولة وتبريدها ..

« لكنها عادت بعد دقائق تقول إن البئر قد جفت من الماء ، وأنها قد أنزلت الدلو إلى آخر الحبل حتى لمس القاع ، ثم رفعته فارغاً كما كان ! .. وأزعج النبأ الأم ليكاشور ، فضت لتتحرى الحقيقة بنفسها ، ثم عادت تقول أنها رأت في البئر شيئاً غير عادي ، وإن لم تتبين كنهه بوضوح ، ولابد أنه حزمة من القش ألقتها أحد الجيران بدافع الكيد لها ! »

* * *

● « وأثار الأمر فضولي ، فأردت أن أذهب بدوري لكشف ذلك السر الغامض . ولم أكد انحنى يجذعي على حافة البئر حتى لمحت في جوفها شيئاً أبيض ، لم أستطع تمييزه . ترى ماذا يكون ؟ ... وإذا ذاك خطر لي أن أدلى مصباحاً إلى جوف البئر ففعلت . ورقص اللهب الأصفر على جدار البئر الحجرية ، فبدأ القاع يظهر بوضوح . وكان أربعة منا قد انحنوا ينظرون بفضول وشوق . ثم استقر المصباح على كتلة مختلطة من السواد والبياض ، غير واضحة المعالم ، فهتف « سابور » : « إنه حصان .. ها أنا أرى حوافره ..

لا بد إنه انفلت من الأحراش فى ظلمة الليل ، فسقط فى البئر وهو
يركض بسرعة ! »

« وفجأة مرت بظهرى قشعريرة باردة .. فقد تبينت قدماً
بشرية ، ثم ساقاً مكسوة بالثياب .. ثم اكتمل الجسم كله ،
ما عدا الساق الأخرى ، التى كانت ولا ريب غائصة تحت الماء !
وشهقت مذعوراً ، وتولتني رعدة شديدة هزت الجبل فى
يدى فتأرجح ضوء المصباح بين جدران البئر ذهاباً وجيئة . وفى
أثناء تأرجحه ، وقع على فردة حذاء . فصحت من فورى :
« إنها امرأة ... ولكن من ، من تكون ؟ .. يا إلهى ، إنها
مس هارييت ! »

« كان سابور أربط الجميع جأشاً ، فقد سبق له أن شاهد
مشاهد كثيرة مماثلة فى إفريقيا ! »
« أما الأم ليكاشور وسيليس ، فجعلتنا تصرخان وتتصايحان
فى رعب ، وهما تلوذان بالفرار . »

« وكان لابد من انتشار الجثة ، فربطت الفتى الإفريقى فى
طرف الجبل ، وأدرت البكرة برفق ، فهبط الفتى تدريجاً حتى
اختفى فى جوف البئر ، ولم ألبث أن سمعت صوته وكأنه منبعث
من جوف الأرض ، وهو يصيح بى : « كفى ! » .. ثم لمحت
شبحه يلتقط الساق الأخرى من الماء . وحين فرغ من ربط قدمى
الجثة ، هتف بى : « اجذب الجبل » .. فبدأت أجذبه بمجهود

شاق ، لكنى شعرت بذراعى تحذلاننى وعضلاتى تتراخى ..
فتملكنى الدعر خشية أن ينفلت الحبل من يدى فيسقط الفتى إلى
القاع .. فلما برز رأسه فوق حافة البئر ، تنفست الصعداء ،
وسألته بلا وعى : « ماذا وجدت ؟ » - كأنما كنت أجهل
ما وجد ! - ثم اشتركنا معاً فى رفع الجثة .
« وكانت الأم ليكاشور والخدام سيليست ترقباننا من بعد ،
وهما مختبئتان وراء حائط الحانة .. فلما شاهدتا حذاءى الغريقة
يبرزان من داخل البئر ، وفى أثرهما جوربيهما ، ثم ساقهما ...
هرعتا إلى داخل الحان وقد تولاهما الفزع !
« وكنا قد جذبنا جثة المرأة من ركبتيها حتى أخرجناها من
البئر ، فوجدنا رأسها مهشماً اختلطت عظامه بلحمه واسودت
معالمه .. وشعرها الأغبر الطويل متهدلاً معقداً أشعث . فهتفت
سابور فى دهشه : رباه .. كم هى نحيلة البدن ! »
« وتعاوننا على حملها إلى غرفتها . ولما لم تظهر واحدة من
النسوة فى المكان ، فقد اضطررنا لتهيئتها للدفن بأنفسنا ، فتوليت
أنا غسل وجهها المشوه .. وفيما أنا أقوم بهذه المهمة ، لمست أصابعى
إحدى عينيها ، فانفتحت قليلاً .. وبدأت كما لو كانت تتفحصنى
بتلك النظرة الشاحبة الباردة الرهيبة .. نظرة الأموات التى يخيل
لن يراها إنها آتية من العالم الآخر ! »
« .. وبدأت جهدى فى تصفيف شعرها الأشعث قدر طاقتى .

وأصلحت وضع خصلة نافرة منه فوق جبهتها ، ثم جردتها من ثيابها المبللة وقد تملكني شعور بالحجل ، وكأني قد أتيت فعلا دنساً ، فانكشفت كتفاها وصدرها ، وذراعاها الطويلتان النحيلتان كأغصان الشجر ! » .

« ثم هبطت إلى الحديقة أبحث عن بعض الأزهار البيضاء والأعشاب النضرة المعطرة كي أفرش بها فراشها الأخير . واقتضائي عدم وجود أحد غيري إلى جوارها ، أن أتولى بنفسى جميع المراسم الخاصة بدفنها ، ففضضت خطاياها الذي عثرت عليه في جيبها ، والذي أيقنت أنها كتبتة في آخر لحظة . وقد وجدت فيه وصيتها الأخيرة ، التي التمس فيها أن تدفن في القرية التي قضت فيها آخر أيامها . وعندما قرأت هذا ، خطر لى خاطر مخيف جثم على قلبي طيلة النهار : ألم تختر قبرها في ذلك المكان بالذات .. كى أتولى أنا دفنها ١٩ »

* * *

● « وقيل المساء ، أقبلت نسوة القرية التثرارات ليشبعن فضولهن برؤية جثة التعسة ، لكننى لم أسمح لواحدة منهن بالدخول إلى الغرفة .. فقد أردت أن أنفرد بنفسى وبضحيتى « .. وبقيت ساهراً على جثتها الليلة بطولها !

« وعلى ضوء الشموع المتأرجح ، جعلت أتأمل جثة العانس البائسة ، التي ماتت هذه الميتة المفجعة ، بعيداً عن وطنها وأهلها :

وأنا أسائل نفسي : ألم يكن لها أصدقاء أو أقارب ؟.. كيف قضت سنوات شبابها وطفولتها ؟.. منذ متى هجرت بلدها وأسرتها وجاءت تضرب في الأرض منفردة ، ككلبة طريدة ؟.. أية أسرار وآلام ومحن قد انطوى عليها هذا القلب الساكن ، وأوصدت عليها هاتان الشفتان ، واختفت داخل هذا الجسد الهامد ؟.. وأية مأساة غامضة تلك التي طوحت بهذه المرأة ها هنا ، بعيداً عن الوطن ، والأسرة ، والحنان .. والحب ؟ » .

« واسترسلت بي خواطري إلى نتيجة واحدة : كم في الدنيا من مخلوقات بائسة ونفوس معذبة ؟.. وشعرت أن مظالم الطبيعة القاسية الخالدة قد ناءت بكل ثقلها على هذه المخلوقة !.. إنها قد فرغت من الحياة بغير أن تتذوق مرة - فيما يلوح - ذلك الأمل الذى يهون الحياة حتى على أتعس التعساء من البشر ... الأمل فى أن تصادف يوماً رجلاً يحبها !... وإلا فلماذا كانت تحرص دائماً على الانزواء والفرار من الناس ؟.. ولماذا أحبت دائماً ، بكل عنف ورقة ، جميع الكائنات الحية ، باستثناء كائن واحد : الرجل ! »

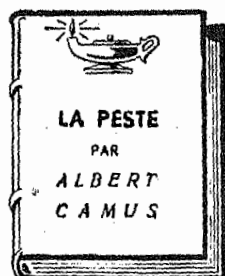
« وقد تبينت إلى جانب ذلك أنها كانت تؤمن بالله ، تأمل فى أن يعوضها عما قاست فى حياتها من آلام !.. وها هى ذى قد أصبحت جثة لن تلبث أن تتحلل وتغدو تراباً يختلط بالأرض ، فتتغذى عليه الأعشاب التى تنمو فى هذه الأرض ، وهكذا تستحيل إلى أعشاب تأكلها الماشية ، فتتحول فى أحشائها من جديد إلى

لحم ودم .. ويتغذى الإنسان على هذا اللحم ، فلا تلبث مرة أخرى
أن تتحول إلى .. لحم آدمي ! .. أما روحها ، التي طالما توهجت ،
فقد خمدت أخيراً فى جوف البئر المظلمة ، فما عادت تقاسى وتتألم !
« وتوالت على الساعات ، وأنا فى خلوقى مع الجثة ، مسترسلا
فى تأملاتى ونجواى ، حتى أعلن ضوء الفجر الشاحب أخيراً مشرق
يوم جديد .. وانساب من النافذة شعاع باهر ارتدى على فراش
العانس الطاهرة .. إنها الساعة التي طالما أحبتها .. والتي تصحو
فيها الطيور ، فيسمع تغريدها من فوق أغصان الشجر .. »
« وفتحت النافذة عن آخرها ، وأزحت عنها ستارها ، حتى
تستطيع السماوات كلها أن تطل علينا .. ثم انحنيت على الجسد البارد
المسجى ، فتناولت الرأس المشوه بين يدي .. وبغير فرع
أو اشمئزاز ، طبعت قبلة طويلة على تلكما الشفتين اللتين لم تتلقيا
قط من قبل .. تحية الحب ! » .

* * *

● ولاد « ليون شينال » بالصمت ، فانهمرت دموع التأثر من
أعين النساء .. وعقد الوجوم ألسنة الرجال . وكان الخوذى قد غلبه
النعاس وهو فى مقعده ، واستراحت الجياد من سياطه اللاذعة ،
فأبطأت من خطواتها . ومضت العربية فى طريقها على مهل ، كأنما
أثقل الحزن ظهرها .. وأمنضها الأسى !

[تمت القصة]



الطاعون!

القصة الطويلة التي خلدت مؤلفها
الفيلسوف المعاصر الراحل: البير كامى

● تدور حوادث الرواية في مدينة (أوران) - بالجزائر - حيث ينتشر وباء الطاعون ، فتحاصر المدينة ، وتعبأ كل القوى لقمع هذا الخطر المفزع الذي يهدد كيان جميع سكانها .. وبينما يحاول البعض مقاومة الوباء ، يرى فيه البعض الآخر أمر القضاء المحتوم ، فيستسلمون له .. ولكنهم جميعاً يظهرون بطولة نادرة ، سواء في بذل جهودهم أو في قوة تحملهم .

وتتجه القصة اتجاهاً تصاعدياً كلما تقدم الكاتب بحوادثها وأمرن في وصف بشاعة المرض والرعب الذي يعيش فيه أهل المدينة ، والذي يلاحقهم في صباحهم ومساءهم فلا يستطيعون الهروب منه .. حتى يصل بنا الكاتب إلى القمة أو الـ Climax ثم يعود فيهبط بنا تدريجياً إلى حيث يصف لنا مشاعر هؤلاء الناس وقد خلقت منهم التجربة أناساً آخرين ، لكل منهم فلسفته في الحياة ووجهة نظره ، فقد كان الوباء كارثة مهولة تركت آثارها في نفسية كل شخص منهم .

وقد اختار «كاي» وباء الطاعون كناية عن الكوارث التي تحيق بالبلاد كالحروب والاضطهادات السياسية والاستبداد ... إلخ .. فمدينة (أوران) الموبوءة ترمز إلى استعمار فرنسا .. وهنا يقف الشعب في مفترق الطرق ، بين أن يتفرق أو يتكتل ليصمد أمام الخطر الذي يهدد البلاد !

ثم يخرج الكاتب بفكرته إلى نطاق أوسع ، فالطاعون هو الشر

الذى يحيق بالعالم ، وهو حكم القدر الذى يثقل على كاهل الإنسان ،
أو الموت الذى يمسك العالم فى قبضته .

ومدينة (أوران) التى تعيش أثناء الوباء فى عزلة عن العالم ،
تمثل وحدة الكون السابح بين أجواز الفضاء ، حاملا نصيبه من
الشر والفسقة . أما تصدى سكان المدينة للشر فيرمز إلى مختلف
وجهات النظر الفلسفية والمعنوية التى يطبقها الناس فى حياتهم :
فهناك الأشرار الذين يتحدون وقت الكروب لإشباع ما فى أنفسهم
من حب للشر وإمعان فيه ، بل تلذذ بوقوعه ، بحيث لا يستحقون
إلا الاحتقار - ومن أمثلة هذا الفريق الشرير المدعو « كوتار » -
وهناك فئة أخرى من الناس يحاولون الفرار من تفاهة حياتهم
بالبحث عن اللهو والملذات ، فيحمون أنفسهم من الضيق بأعمال
لا تقل تفاهة عما كانوا فيه .. ولكنها أعمال تكفى للملء فراغ حياتهم
وعقولهم ، أو إرضاء غرائزهم - ومن أمثلة هذا الفريق ذلك الشيخ
الطاعن فى السن الذى ينفق وقته فى البصق على القطط ! - وهؤلاء
الشفقة والمغفرة .. ولكنها شفقة تصطبغ بلون من التفاهم والمحبة ،
كشخصية « جوزيف جرانند » الذى يكرس حياته لتأليف كتاب
ولكنه يخشى لإنهاء أول جملة لأن فيها شيئا من الخطورة !

أما الطبيب « ريو » Rieux فيعبر عن فلسفة « كامى » التى
ترى إلى أن الحكمة هى محور الحياة وعربون السعادة . وأن المجهود
الذى يبذل بشجاعة يعين الإنسان على أن يسمو على الحياة ومتاعها

نحو هدف أعلى . فالحياة تتطلب أحياناً مجهودات الأبطال ، وليس من الأنانية أن تتجه جهود الإنسان إلى تحقيق السعادة في الحياة ، فهي هدف كل فرد يعمل ويكد .. كما أن الحياة لا تخلو من التعاون مع الآخرين ، والتضامن ، والرحمة ، وحب العسالة .. وهي مبادئ تهدف إلى تحقيق سعادة الآخرين .

ولذلك فعندما يجد « رامير » حبه فيسعى للهروب من هذه المدينة المربوة لا يلوّمه أحد ، لكنه يعود فيفضل — بعد التأهب للسفر — البقاء في المدينة لمكافحة المرض !

وهناك من يعتقدون أن أهل المدينة يستحقون ما أصابهم ، ولكنهم حين يرون الموت يلاحق الصغار الأبرياء ، لا يملكون إلا أن يتساءلوا : لم كل هذه الأهوال ؟ .. وكما يقول الأب « بانلو » : إما أن ينكر الإنسان وجود الله ، لبشاعة ما يحدث في العالم ، أو يعترف بوجود الله والشر معاً .. وفي هذه الحالة يبذل الإنسان مجهوداً أعظم لكي يحمي إيمانه . وعندما يصاب الأب « بانلو » بنفس الوباء ، نراه لا يفعل شيئاً لإنقاذ نفسه ، بل ويرفض استشارة الطبيب ، لكي « لا يفر من إرادة الله » . ويعتقد « تارو » والطبيب « ريو » أن هذا الموقف فيه كثير من النبيل والمنطق .

و « تارو » و « ريو » شخصان مقتنعان بقيمة الإنسان ، فهو الذي يستطيع بضميره وعقله أن يعطي للحياة وللعالم معنى ، وأن ينظم — بعض الشيء — الفوضى المسيطرة على العالم ! .. أما « تارو »

فقد وهب نفسه للحد من المصائب ومحاولة تخفيفها على الناس ، فقد رأى أباه - وكيل النيابة - يطلب رأس متهم ، ثم رأى أمامه شعباً ثائراً وأناساً يتقاتلون باسم المبادئ . وهو يعتبر رسول السلام في البيئة التي يعيش فيها ، ويدعو - كما دعا تولستوى قبله - إلى عدم استعمال القوة ..

أما الطبيب « ريو » فهو شخص نشيط يميل إلى العمل ، لكنه يرى كل يوم ما يدخل الشك إلى نفسه وما يدعو إلى أن يغلف شعوره وإحساسه بشيء من الخشونة والقوة ، فهو طبيب لديه الوسائل التي يكافح بها الوباء ، لكنه يرى أن من الصعب التغلب عليه .. فهو يأخذ من الحياة مكانه ويعرف أن كل شيء نسبي ، ويميل إلى أن يكون عملياً أكثر منه خيالياً ، فهو لا يهدف إلى أن يصبح بطلاً أو قديساً ، ولكنه يريد أن يؤدي واجبه على أتم وجه ويساعد الناس على أن يكونوا سعداء .

وبذلك نرى أن قصة « الطاعون » تظهر الجوانب الإنسانية لسكاي .

والآن ، تعال معي نستعرض الهيكل الرئيسي للقصة :

الطاعون

● إن الأحداث التي تمر بمدينة (أوران) تعتبر أحداثاً جسيمة بالنسبة لهذه البلدة الصغيرة التي تقع على ساحل الجزائر ، فهي بلدة هادئة بعيدة عن كل ضجيج وضوضاء ، لا تعرف من الربيع غير اسمه ، وصحو سمائه ، بينما تحرق شمس الصيف منازلها ذات الطابع المتكشف . أما الحريف فيغمرها بغيثه المنهمر ، ولا تتمتع البلدة بأيام جميلة إلا في الشتاء .

ويعتمد أهل مدينة (أوران) على التجارة بصفة خاصة ، فهم أناس كادحون يقضون النهار في مزاولة نشاطهم ، أما سهراتهم فيقضونها في المقاهي أو المتنزعات وغيرها . وهم جادون في عملهم متحابون ، إذ ليس لديهم من الفراغ ما يسمح بقيام الخلافات والمنازعات !

وفي هذه المدينة يجهد المريض نفسه وحيداً ، بعيداً عن أي عناية ، بل إنه يشعر بالوحدة القاتلة ، وربما يرجع ذلك إلى كثرة الأعمال التي تسلب أصحابها أوقاتهم ، هذا إلى جانب حرمان البلدة من الإسعافات الطبية الضرورية لمواجهة مختلف الأمراض .

في صبيحة يوم ١٦ إبريل من تلك السنة (١٩٤٠) ، بينما كان الدكتور « ريو » خارجاً من مكتبه متوجهاً نحو السلم ، إذ اصطلمت سمه بفأر ميت ، فأزاحه بلا اكتراث وهبط السلم ، ولكن الأمر

لم يلبث أن استرعى انتباهه فعاد لينبه البواب . كان وجود هذا
الفأر بمثابة فضيحة بالنسبة لميشيل البواب الذى كان يعنى كل العناية
بسلم العمارة . ولما عاد الدكتور « ريو » فى المساء رأى فأراً كبيراً
يترنج فى خطوات مضطربة ، باحثاً عن مكان بعيد عن صوت
الأقدام ، ولكنه سرعان ما انقلب على ظهره والدم يتدفق من أنفه ..
فدهش الطبيب لهذا الأمر ، واسترعى انتباهه هذا الدم المتدفق !
.. ثم تكررت هذه الظاهرة ، فاعتقد البواب أن الغلمان الأشقياء
يريدون معاكسته وإغاضته بإطلاق هذه الفئران الميته فى سلم العمارة ..
وإزاء هذه الظاهرة رغب الدكتور « ريو » فى زيارة الأحياء الفقيرة ،
فلاحظ أيضاً عدداً كبيراً من الفئران الميته متناثرة فى الطرقات
يجوار الأرصفة ، وفى سلال المهملات ، وكذا فى المخازن والمصانع !
.. وأخذ الناس يتبادلون الملاحظات حول هذه الظاهرة الغريبة ،
فقد بلغ عدد الفئران فى يوم واحد ٦٢٣١ فأراً ! .. وبعد ثلاثة
أيام ارتفع هذا الرقم إلى ٨٠٠٠ ! .. فبدأ الذعر يذب فى المدينة ،
ونشرت الصحف هذه الأنباء ، وتتابعت الأيام وانطفأت وراء
جدران المنازل أعمار كثيرة ، ولكن أحداً لم يدر عنها شيئاً !

و ذات يوم علم الدكتور « ريو » بمرض بواب منزله فذهب
ليفحصه ، فوجده يتقيأ مادة تميل إلى الاحمرار ، بشدة تكاد تقتلع
جذور أحشائه ، بينما تضخمت غدد رقبته ، وتورمت أطرافه ،
وارتفعت حرارته إلى تسع وثلاثين درجة ونصف .. فوصف له

تعاطى السوائل ، وعلى أثر ذلك هبطت حرارة المريض بعض الشيء ، لكنها سرعان ما ارتفعت إلى أعلى مما كانت عليه ، وامتلاً جسمه بالحراراييج والبقع السوداء التى تناثرت على بطه ، وتحت إبطيه .. ثم مات البواب بعد عذاب وهذيان داماً أياماً .

* * *

● ختمت وفاة البواب فترة القلق والحيرة والشك ، وبدأت فترة جديدة يسودها الذعر والخوف . وبدأت الحيرة على وجه الدكتور « ريو » ، فقد أسفرت أبحاثه فى المعمل عن وجود جرثومة الطاعون ، ولكنه لم يصدق عينيه .. ووقف وراء نافذة حجرة مكتبه يفكر ويظيل التفكير : « هل يعقل أن يحل الطاعون بهذه المدينة الهادئة ؟ » . لقد ابتلى العالم مرات عديدة بالحروب والأوبئة ، ومن شأن الإنسان ألا يصدق الكوارث إلا بعد وقوعها ، وحينئذ يشعر الإنسان بالقلق . ولكنه قلق ممزوج بالأمل ، الأمل فى أن تنتهى الكارثة سريعاً . وكيف لا تسرع بالرحيل وأهل هذه المدينة أناس شيمتهم الطيبة وعمل الخير وأداء الواجب ؟ ربما كان هذا حلماً مزعجاً لن يلبث أن يختفى ، فيفقد منه الجميع وتعود الحياة إلى مجراها الطبيعى ، هادئة لطيفة كما كانت ..

ولكن عدد المرضى يزداد .. ودلت الإحصاءات على أن عدد الموتى أصبح رهيباً ! .. واسترسل الدكتور « ريو » فى تفكيره العميق ، وجالت بخاطرهِ وجوه أصدقائه ومعارفه من أهل البلدة .

إنهم يروحون ويغدون ، يعملون بالليل والنهار وهم ممثلون بشراً
وأَمْلاً ، بينما هو كطبيب يعرف مدى خطورة هذا الوباء وقسوته ..
وبالاهول حين يتصدى المرض لهذه الحياة الدافقة فيطوئها في
سكون الموت الرهيب !

وأخذ الدكتور « ريو » يستجمع كل معلوماته عن هذا
المرض . فهو قد قرأ عن الثلاثين وباء التي اجتاحت العالم في
عصور مختلفة ، والتي اكتسحت أمامها حوالى مائة مليون من
الضحايا ، وقرأ عن الطاعون الذى حل بالقسطنطينية فأودى بحياة
عشرة آلاف نسمة في يوم واحد ! .. وخشى الطبيب أن يترسل
في هذه الأفكار السوداء ، وحاول أن يطمئن نفسه بأن الأمر لن
يتعدى بضع حالات . وراجع في ذهنه أعراض المرض التي تبدأ
بارتفاع في الحرارة مصحوب بصداع وعطش حاد . وظهور
خراريج وبقع سوداء .. ثم هبوط في النبض ، بحيث لا يكاد
المريض يتحرك حركة بسيطة حتى يسلم الروح .

لا ، لم يكن الدكتور يستطيع أن يتصور أن تلفظ كلمة
« الطاعون » في هذا البلد ، أو أن تكون (أوران) مسرحاً لانبعاثة
التي خلقتها الأوبئة في البلاد التي نكبت بها ! .. وتذكر الدكتور
« ريو » أكرام الخطب التي تحدث عنها « لوكريس » والتي كان
أهل (أثينا) يقيمونها أمام البحر ليحرقوا فوقها جثث موتاهم الذين
أصابهم الطاعون ، وما كان يقوم بينهم من عراك بسبب التسابق

على ذلك كى لا تظل جثث أحبائهم عرضة لأن تنهشها الحيوانات المفترسة !

وقطع تفكير الدكتور « ريو » دخول موظف بالبلدية يشتغل بالإحصاء يدعى « جوزيف جران » ، وقد جاء ليبلغه أن عدد الوفيات يزداد يوماً بعد يوم . قال جران :
— لقد توفي أحد عشر شخصاً في ثمان وأربعين ساعة !
— يظهر أنه يجب الاعتراف بالأمر الواقع وتسمية الأشياء بأسمائها .

— وما هو هذا الاسم يا دكتور ؟
— لا أستطيع أن أصارحك الآن ، فليس هذا بالأمر الهين .
كان « جوزيف جران » طويل القامة نحيف الجسم ، يسير في ملابسه الفضفاضة التي كان دائماً يختارها هكذا كى لا تبلى سريعاً ، وعندما بيتسم كانت شفته العليا تكشف عن فم مظلم خال إلا من بضع أسنان تناثرت على فكه الأسفل . وكان يمشى بخطى حثيثة بحيث يكاد رداؤه أن يحف بالجلدران التي يسير بجوارها . وكان عمله متواضعاً ومرتبته ضئيلاً ، حتى لقد شكى للدكتور « ريو » ضيقه المالى ، لكن تواضعه وحياءه كانا يمنعاناه حتى من المطالبة بحقوقه . ولم يكن له من اللباقة أو الدأب ما يجعله يطالب السلطات بوفاء وعودها له . كان جران مرهف الحس ، يتأثر من رنة معينة لأجراس الكنائس ، ويفرح للقاء شخص عزيز ، أو لزيارة أولاد

أخته الذين كان يعترف دون خجل بأنهم أقرباؤه الوحيدون .
وفهم الدكتور « ريو » أنه يحاول تأليف كتاب ، وكانت في ذلك مشقة كبيرة على جران ، الذى طالما اعترف للطبيب بأن التعبير يخونه دائماً ، بحيث إذا ما بدأ جملة كان من أشق الأمور عليه أن يتمها ! .. وكانت حياته مثالية ، لكنه كان عاجزاً عن القيام بالأعمال الضخمة التى تستوجب كفاحاً مريراً أو تتطلب مجهوداً شاقاً ، وإنما كان يودى - فى هدوء - الكثير من الخدمات الصغيرة التى لا تكاد تظهر ولكنها مع ذلك كانت هامة بالنسبة للمجتمع الذى يعيش فيه .

• • •

● واجتمع الأطباء وتناقشوا فيما بينهم ، وانفقوا على الإجراءات الواجب اتخاذها لوقف انتشار الوباء الذى كان يهدد كل يوم عدداً أكبر من السكان . أما اللافتات التى أمرت السلطات بلصقها على الجدران فكانت تحاول التخفيف من وطأة الواقع منعاً لانهاج الرأى العام ، كى يحتفظ الشعب بهدوئه وسكينته حتى تنقضى العاصفة . كما أمرت السلطات بتطهير الأماكن العامة من الفران ، وملء المراحىض بالغازات السامة ، وتعقيم المياه ، وعزل المرضى .. وغير ذلك من الإجراءات الوقائية والعلاجية .
وبحث الدكتور « ريو » مع المسؤولين مشكلة نقص الأسرة فى المستشفيات ، فتقرر إخلاء مدرسة للأمومة وتزويدها بكافة

المستلزمات الطبية كى تستوعب الازدياد المطرد فى عدد الإصابات .
وتكلمت الأرقام ، فأسرعوا بطلب المصل من باريس ، ولكن
الكمية التى وصلت لم تكن كافية ، فأرسلوا فى طلب غيرها .
ولما كان عدد الوفيات بدوره يزداد ، فقد تشددت السلطات
فى إجراءات العزل ، ونظم الجوازات والحجر الصحى .

وجاء الربيع ، وازدهرت الورود ، ولكنها سرعان ما ذبلت ،
فإن الناس لم يشعروا بربيع هذا العام كما كانوا يستشعرونه من
قبل .. وسارت عربات الترام خاوية ، وانطوى الناس على أنفسهم
فى حياة يسودها الهدوء والانكسار .. فهناك عجوز يجد لذته فى
البصق على القطط من نافذة حجرتها ، بينما يقضى عجوز آخر
ساعاته الطويلة فى نقل البازل من آنية إلى أخرى . وزاول كل
فرد أعماله المعتادة داخل بيته .

وقد أصبح الطاعون مشكلة الجميع منذ اللحظة التى ضرب
فيها الحصار على المدينة . ولم يكن ليدور بخلد الناس أنهم بين
يوم وليلة سيفترقون عن أحبائهم الذين ودعوهم بالأمس على أمل
اللقاء بهم فى الغد ، فقد أغلقت منافذ المدينة قبل إذاعة نبأ الوباء ،
وامتنع الخروج منها أو الدخول إليها . ولم يجد المحاصرون أمامهم
إلا الورق تجرى عليه أقلامهم تعبر عن الشوق والحب للأصدقاء
والأهل والأحباء ، فى سطور ملتزمة .. ولكنهم فوجئوا ذات يوم
بمنع المراسلات البريدية والاكتفاء بالرسائل البرقية ، فعادوا

يلخصون مشاعرهم في كلمات موجزة بدت جوفاء غير معبرة ،
وإن كانت تنم عن الأسى والحنان والأمل في اللقاء القريب ..
وازداد شعور الأهالي بالمنفى كلما تذكروا أيامهم الماضية ،
أو حاولوا التطلع إلى المستقبل ، فكانوا يشعرون بسهام الذكرى
تخترق أفئدتهم وعقولهم . كان خيالهم يصور لهم صغير القطار الآتي
من بعيد ، أو رنين أجراس أبوابهم تؤذن بحضور الأهل والأحباء ،
ولكن خيالهم كان يخونهم ، فالقطارات ساكنة وأجراس الأبواب
صامتة !

ولما كان أكثر الناس تشاؤماً قد قدرُوا أن الوباء سيدوم ستة
شهور ، فقد حاولوا أن يوطنوا أنفسهم على تحمل هذه المدة ،
وعلى أن يستجمعوا كل شجاعتهم لمواجهة التجربة القاسية التي يمرّون
بها . فإذا طلعت جرائد الصباح بتعليق على سوء الحالة ، أو فاه
صديق أو زائر بشكه في أن تتحسن الحالة سريعاً ، انهارت الشجاعة
وخارت القوى وشعروا بأنهم هبطوا في هوة تحيقة ، وامتلأت
نفوسهم يأساً وأسى . ولهذا اعتادوا عدم التفكير في مصيرهم
وحاولوا أن يعيشوا يومهم لا يفكرون في شيء سوى حاضرهم .
ومع هذا فليس من السهل أن يتجاهل الإنسان الألم فينجو من هذا
الصراع الداخلي بين الأمل واليأس . فكلما حاولوا منع أنفسهم من
التفكير في بأسهم وبؤسهم وقصروا تفكيرهم على حاضرهم ضاعت
منهم الساعات الجميلة التي كان خليقاً بهم أن يمضوها في مناجاة
(م ٦ - الحب الاول وقصص اخرى)

أحبائهم ، وبذلك أضحت أيامهم عجافاً لا يقوون عليها إلا إذا انغرسوا في أعماق أحزانهم ، وعاش كل فرد وحيداً منكمس الرأس . وبدلاً من أن تصقل هذه الوحدة أخلاقهم ، جعلتهم أكثر حساسية !

* * *

● وذات يوم طرق باب الدكتور « ريو » صحنى يدعى « رامبير » ، جاء ليأخذ منه تقريراً عن حالة الوباء ، ثم اعترف له بحقيقة الأمر : فقد لجأ إليه ليطلب مساعدته في موضوع حيوى بالنسبة له . لقد ترك خطيبته التي يكن لها كل الحب وجاء إلى مدينة (أوران) زائراً عابراً ، فأدركه الحصار .. وهو الآن يريد أن يخرج من البلدة بأية وسيلة ، فهو غير مقتنع بوجوده هنا ، وقد خلق ليعيش من أجل الحب لا ليكون صحفياً ، فضلاً عن أنه ليس من أهل المدينة فكيف يتحمل العذاب والفراق — وربما الموت — وهو لم يكتب له أن يكون من أهل هذا البلد ؟

قال له الدكتور « ريو » : إنه يفهم شعوره ويقدره ، وهو مهتم بحالته ، ولكنه لا يستطيع بعد أن شدد الحصار أن يسمح له بالخروج ، فلن مسئولية مهنته تمنعه من أن يعطيه أية شهادة بأنه ليس مريضاً ، إذ قد يصاب بالعدوى قبيل رحيله بيوم وعندئذ يكون الدكتور « ريو » قد أجرم في حق ضميره ومهنته . ثم إن الوقت لا يسمح الآن بخروج أى إنسان مهما كانت ظروفه . واتهم « رامبير » الدكتور « ريو » بأنه ينظر للأمور نظرة مجردة ، وهز

رأسه بعصبية وهو يقول للدكتور : إنه يأسف لكونه أضاع عليه وقته . فرجاه الدكتور « ريو » ألا يحمل له أية ضغينة وأن ينبئه بنتيجة مساعيه . ثم أضاف أن هناك طريقاً آخر — غير رسمي — يمكن أن يلجأ إليه « رامبير » ، ولو أنه لا ينصح به باتباعه (ونفهم من هذا أن الوسيلة غير المشروعة هي محاولة الفرار من المدينة خلصة ، بالخيلاء !) . ولما ابتعد « رامبير » هز الدكتور رأسه : أنه يعذر الصحفي الشاب لتلهفه على سعادته ، ولكن هل صحيح أنه ينظر للأمور نظرة مجردة ! إن كل إنسان يتمنى السعادة لنفسه وللآخرين ، ولكن الظروف هي التي تدعوه إلى أن ينظر للأشياء هذه النظرة المجردة . نعم ، يجب على الدكتور « ريو » أن يؤدي واجبه ولا شيء غيره في هذا الوقت العصيب الذي يرتفع فيه عدد الوفيات إلى خمسمائة في الأسبوع !.. فعندما تحاول الكوارث أن تفنى مدينة بأسرها ، يجب أن ينظر الإنسان للأمر نظرة مجردة ، وكان على الدكتور « ريو » أن يضبط أعصابه ليتحمل بكاء أهل المرضى وصراخهم وذويلهم كلما قرر عزل المريض وإرساله إلى المستشفى .. فكلما سمع الناس أجراس سيارة الإسعاف خيل إليهم أنها أجراس الموت فأثروا إغلاق أبوابهم عليهم وعلى مرضاهم ليعيشوا معهم البقية الباقية من أعمارهم ، طالما كان خروج المرضى معناه عدم عودتهم !.. ومن هنا يبدأ الدكتور « ريو » يشعر بمعنى

الكلمة التي وجهها إليه « رامبير » ، فقد كان الصراع قائماً دائماً بين واجبه ومشاعر الآخرين ..

* * *

● وكانت والددة الدكتور « ريو » تنتظره كل ليلة جالسة إلى جوار الشباك المطل على الشارع حتى يعود من عمله لتسأله نفس السؤال :

— كيف الحال اليوم ؟

— مثل كل يوم .

.. فإن المصل الذي جاء من باريس لبس فعالاً ، والدمامل التي تطفح فوق أجساد المرضى لا تطرد الصديد الذي تكون بها ، وكان موسم تجملها قد جاء ، فهي تزيد من إيلامهم . ومنذ يومين أصبح الطاعون رثوياً ، واتخذت كافة الإجراءات الوقائية اللازمة وتضاعفت الجهود لمنع انتشار العدوى بانتقالها من فم إلى فم ! وجاء المدعو « تارو » ليزور صديقه الدكتور « ريو » ، فحيا والدته ثم قال له :

— بعد فترة وجيزة لن تجدى جهودك ، فإن الظروف تتفاقم ضدك .

فأوما ريو برأسه موافقاً : « هذا صحيح » !

وأضاف تارو : « وإنني ألاحظ أن مؤسسة الخدمات الصحية لا تقوم بأعبائها كما يجب ، وإن ما ينقصك هو الوقت والرجال » .

فاعترف ريو بذلك وقال : إن السلطات أعلنت عن احتياجها للمتطوعين ، ولكن عدد المتقدمين قليل ، كما أنهم فكروا في استدعاء المسجونين للقيام بالأعمال الشاقة .
تارو : إني أفضّل الأحرار .

ريو : وأنا كذلك ، ولكن لماذا ؟
تارو : إني أكره المحكوم عليهم بالإعدام . إنهم لا يعملون كأحرار .

ريو : وبعد ؟
تارو : لقد وضعت مشروعا لتكوين فرق من المتطوعين تقوم بالأعمال الصعبة . فهل تعتقد كما قال الأب « بانلو » : إن للوباء مزاياه ، وأنه يفتح الأذهان ويدعو إلى التعمق والتفكير ؟
ريو : ككل تجربة في الحياة ، فهي تكون بعض الرجال ، هل تعتقد في وجود الله ؟

فاعتدل تارو في مقعده وقال : « إني كالتائه في الظلام ، أحاول أن أرى النور » .. ثم استدار يسأل الدكتور ريو : « لماذا تظهر كل هذا التطوع والأريحية إذا لم تعتقد في وجود الله ؟ .. فربما تساعدني على تفهم ما لا أفهمه إذا أجبت أنت على سؤالى هذا ! »

قال ريو : « لقد سبق لي أن أجبت على هذا السؤال بأننى لو كنت أعتقد في وجود الله لتركته له مهمة شفاء المرضى ،

ولكن طبيعة عملي هي الكفاح ضد الطبيعة كما هي في الواقع .

تارو : هل هذه هي الفكرة التي كونتها عن مهنتك ؟

ريو : أقول نعم بشيء من الاعتداد بالنفس ، ولكن ليس لدى من الكبرياء إلا أقله ، فإني لا أدري ماذا ينتظرني ولا ماذا سيحدث فيما بعد . كل الذي أدريه هو أن أمانى مرضى يجب معالجتهم ، وإني أترك لهم ولنفسى فرصة التأمل في وقوع الكوارث بعد انتهائهم ، مكتفياً الآن بحمايتهم .

تارو : حمايتهم ممن ؟

ريو : لا أدري ، فعندما بدأت ممارسة هذه المهنة ، فعلت ذلك لاعتقادي أنه عمل مثل أى عمل آخر . وقد رأيت الموت بعيني . هل تعرف أن هناك أناساً يكافحون ضد الموت ؟ هل سمعت امرأة تقول : « كلا » في آخر دقيقة من عمرها ؟ عندما سمعت ذلك شعرت أنني لا أستطيع تحمل رؤية الموت ولا التعمود عليه ، وثررت على أوضاع العالم - وكنت شاباً آنذاك - ومنذ ذلك الحين أصبحت أكثر تواضعاً ، ولكنني بذلت كل جهودي للتغلب على الموت في كل فرصة سنحت لي .

تارو : وبعيد ؟

ريو : وبعيد ، وبما أن الحياة تنتهى بالموت ، أفلا ترى أن الأوفى ألا نعتقد في وجود الله ، وأن نحارب الموت بكل قوانا ، دون أن نرفع بصرنا إلى السماء ، حيث الله صامت ؟!

تارو : ستكون دائماً انتصاراً لك على الموت مؤقتة .

ريو : ليس هذا مبرراً لعدم الاستمرار في الكفاح .

تارو : إنى أتصور إذن ما هو الطاعون بالنسبة لك !

ريو : فشل مستمر .

تارو : من علمك هذه الفلسفة ؟

ريو : البؤس .

وكان الوقت قد تأخر فخرجنا من المنزل ، وقد ناهزت الساعة الحادية عشرة ، وسمعا من بعيد جرس سيارة الإسعاف يقطع السكون العميق الذى يخيم على المدينة .

ريو : سأنتظرك غداً يا تارو لأعطيك المصل الواقى ، ولكنى أحذرك قبل أن تنغمس فى هذا العمل : إن الأمل فى النجاة ضعيف !

تارو : بل إننا قرأنا فى تاريخ الوباء الذى حل بمدينة فارسية أن جميع أهلها ماتوا ما عدا الرجل الذى كان يقوم بمهمة غسل الموتى !
ريو : ولكن أخبرنى يا تارو : ماذا يدفعك إلى مشاركتنا فى هذا العمل ؟

تارو : لا أدرى . ربما أكون متمسكاً بقيمة من قيم الحياة ..

ريو : وما هى ؟

تارو : إدراك حقيقة الأمور وتفهمها .

* * *

● ولم يكن تطوع « تارو » بالعمل النادر ، فإن الإنسان لا يخلو من صفات طيبة ، ولكن الذى يمنعه من عمل الخير هو الجهل . والمحبة الحقيقية لا توجد إلا مع الإدراك التام لحقائق الحياة . وليس المهم هنا هو الإشادة ببطولة هذا الشخص أو ذاك ، بل وصف البؤس المستمر الذى أضنى قلوب سكان المدينة الموبوءة . فقد أصبحت مكافحة الطاعون هى الشغل الشاغل للجميع ، وشعر كل فرد بواجبه نحو الآخرين . ولم يكن ذلك رغبة فى التظاهر بعمل الواجب ، ولا بحثاً وراء فلسفة فى الحياة ، وإنما كان رائد الجميع أن يواجهوا الحقيقة المرة ويمنعوا بأية وسيلة أكبر عدد ممكن من الناس من مفارقة الحياة مفارقة أبدية . فكان عملهم هذا نتيجة حتمية للحالة التى كابدها ، وكان من الطبيعى أن يسلكوا هذا المسلك .

وانهالت المساعدات على المدينة .. وكلما أدار الدكتور « ريو » مفتاح مذبحه فى أمسياته قبل أن ينام سمع عبارات المواساة والتشجيع تأتى من العالم الخارجى ، ولكنه كان دائماً يشعر بأن هذه العبارات — على بلاغتها — تعبر عن الهوة السحيقة التى تفصل بين المدينة المنكوبة والعالم الخارجى !

* * *

● وبلغت حالة الوباء الذروة ، بينما كان هناك أناس مثل رامير ما زالوا يحاولون الهروب من المدينة — ولكن فى هذه المرة

عن طريق غير رسمي — فقد دله المدعو « كوتار » على منظمة تقوم بأعمال التهريب ، وكان كوتار نفسه أحد معاوني المنظمة ، إذ كان يبيع السلع في السوق السوداء .

وقد توجه « رامبير » عدة مرات إلى المكان المعين وفي الميعاد المعين للهرب ، ولكنه لم يجد واحداً من هذين الشخصين اللذين وعدا بمساعدته . وبعد محاولات كثيرة باءت بالفشل ، أحس رامبير بأنه قد فقد لذة التفكير في خطيبته ! وحتى عندما سئلت له الفرصة — فيما بعد — للخروج ، فإنه فضل أن يعيش مع أهل المدينة ، الذين شاركهم الكثير من الآلام فأصبح يعد نفسه واحداً منهم . وحين عرض خدماته على الدكتور ريو ، قبلها هذا مرحباً .

* * *

● في ذلك الوقت من السنة عصفت الرياح المتربة بشدة ، ولم تكن تلقى أى عائق في طريقها .. وكان الناس يسرون وقد أحنوا ظهورهم واضعين مناديلهم على أفواههم لمنع دخول الأتربة إليها .. وكانت أعصابهم متوترة ، وأخذ الذين خرجوا من الحجر الصحي يشعلون النار في مساكنهم ، معتقدين أنهم بذلك سيقبرون الطاعون في ضرام تلك النيران ، ولكن العواصف كانت تساعد على تطاير الشرارات النارية فتودى بالمنازل المجاورة .. ولم تلبث أن أوقفت هذه الأعمال الجنونية ، كما حكم بالإعدام على شخصين ضبطا وهما يسرقان منازل مهجورة . غير أن موتهما لم يترك أى أثر في المدينة ،

فكان بمثابة نقطة في بحر .. ومنذ ذلك الحين أطفئت أنوار المدينة ليلا ، فباتت وكأنها قطعة من الحجر لا صوت فيها ولا حركة ..

وانطبع الدليل المظلم في قلوب الناس ، وظهرت مشكلة تشييع الجنائزات - حين زاد عدد الوفيات بصورة بشعة - فكانت الجثث تنقل إلى المدافن ، حيث ينتظر القسيس وصولها ، فينثر عليها الماء المصلى عليه ثم توارى التراب وتغطي بالطين والرمل . وبعد أن كان أهل الموتى حريصين في البداية على أداء القروض الجنائزية بكل دقة ، رأوا أنه من الأصوب أن يتساهلوا ، ومنعوا من دخول أسوار المقابر . وقل عدد الصناديق التي تنقل فيها الجثث فأصبح خمسة فقط ، ونقص القماش الذي يصنع منه الكفن .. وبعد أن كان الرجال يدفنون على حدة والنساء على حدة ، ضاق بهم المكان فاضطروا إلى عدم مراعاة هذه الأمور المتعلقة باحترام الموتى والحياء ، فكانت الجثث تختلط بعضها ببعض . وكان الهواء ينقل في الصباح رائحة كريهة تخلق فوق الأحياء الشرقية من المدينة ، فجزع أهلها واعتقدوا أن الطاعون يهبط عليهم من السماء ! ..

وبلغ التشاؤم من نفوسهم مبلغه ، وانغرس اليأس في قلوبهم ، وبعد أن كانت الذكرى تؤنسهم في أول الأمر ، أصبحت الآن تؤلمهم ، فكادوا ينسون أن لهم أقارب وأهلا وأحباء .. لقد انخرطوا في سلك الوباء فأصبح منهم وأصبحوا هم منه !

وكان هناك شخص هو « كوتار » يعيش وكان هذا الجو خلق

له ، فقد أدهش بعض معارفه بقوله : « إني سعيد بأن وباء الطاعون يعيش بيننا » ، فقد كان من هؤلاء الناس الذين يعيشون في أى جو ما دام هذا الجو يجلب الربح ! .. وكان يعمل بالتجارة في السوق السوداء فجمع من ذلك ثروة طائلة ، لكنه أصيب بحالة هستيرية كانت تجعله يطلق الرصاص على المارة من نافذة بيته ، فقبض عليه !

* * *

● وذات ليلة ، شعر تارو أنه يود الإفضاء إلى الدكتور ريو بأسرار طالما طواها في نفسه .. فقد حدث في صباه أن حضر جلسة في المحكمة بصحبة أبيه - الذى كان من وكلاء النيابة - وسمع أباه يطالب برأس متهم ، فشعر الابن بالحق على أبيه والاشمئزاز من هذه الأوضاع القائمة ، وآثر الابتعاد عن هذا الأب بعد أن كان يكن له محبة قوية . ولم يكن أبوه جباراً وإنما كان يبدو كذلك أحياناً بحكم عمله ..

وأضاف تارو ، في حديثه إلى الطبيب :

- هل تشعر يا دكتور ريو بقسوة الحكم بالإعدام ، وببشاعة منظر المحكوم عليه وهو معصوب العينين ، وأمامه على بعد متر ونصف خمسة جنود يصوبون نحو قلبه بنادقهم ، فإذا ما أطلقوا زنادها أحدثت له في قلبه فجوة كبيرة ، في حجم اليد !؟ إن كل إنسان مهما كان طيباً قد يأتى على يديه الموت للآخرين !

وكان تارو يرى أن الطاعون هو الشر ، وأن كل إنسان يحمل الطاعون في نفسه ، فلا يتحرك فيه بكلمة إلا وينقل العدوى المميتة ويتسبب في موت شخص آخر ! ... وهو لا يعنى بذلك المسوت المادى وحده ، بل الموت المعنوى كذلك . إذن كيف يستطيع الإنسان ألا يكون نكبة على الآخرين ؟ إن ذلك يتطلب منه مجهوداً كبيراً جبراً كى يستطيع أن يلزم حدوده وأن يعرف كيف يعبر عن رأيه دون أن يجرح مشاعر الآخرين .. وأن يعيش حراً دون أن يطفى على حرية الآخرين وحقوقهم .. وليس من السهل أن يكون الإنسان قديساً في هذه الحياة ، وأن يكون دائماً صديقاً لكل من حوله .. « إن جرثومة الشر موجودة في العالم . أما الصحة ، والنقاء فيطلبان مجهوداً كبيراً وقوة إرادة عظيمة ، والشخص الأمين النقي هو الذى لا يسئ إلى أحد ، وهو الذى يلاحظ دائماً أن تكون أعماله حميدة وعباراته حسنة ، وهو الذى لديه من قوة العزيمة والإدراك ما يجعله دائماً واعياً لما يعمل وما يقول .

« والشخص الذى يعنى دائماً كل حركة من حركاته يفرض على نفسه المنقى والوحدة ، ووحدة المتواضع الذى يعرف قيمة كل شيء ، وحدود كل شيء ، لا وحدة المتغطرس المتكبر . والواقع أن الشر يأتى من أن الناس لا يعبرون عن آرائهم بوضوح ، فالخطأ يولد الخطأ ، ولذلك آثرت منذ زمن بعيد أن أتعلم كيف أعبر عن رأي بوضوح ، ولكنى إذا فشلت بعد كل هذه الجهود فى أن أمتنع

الشر من جانبي ، فإني على الأقل سأكون قاتلاً بريئاً ! » .

» » »

● وذات يوم ، استدعى القاضي — ميسو أوتون — الدكتور ريو ليفحص ابنه المريض ، فلاحظ الطبيب أن أعراض الوباء تظهر على جسد الطفل ، فنقل إلى المستشفى ، بينما نقل والداه إلى الحجر الصحي . وقرر الدكتور ريو بعد عشرين ساعة أن حالة الطفل ميؤوس منها ، فأعطاه المصل الذي أحضره من باريس ، ولكن دون جدوى . وكان الطفل يتلوى في فراشه من شدة الألم ، فتارة تتخشب أطرافه ، وتارة أخرى ترتخي . وعانى الطفل من المرض ما يفتت الأحشاء ويدي القلوب ، وكثيراً ما لوحظت الدموع تسيل على خديه ، وهو يعاني سكرات الموت . وبعد ساعات طويلة من الألم المبرح فارق الحياة ، وعلى خده هذا الدمع الذي يعبر عن مقدار ما تحمل من آلام !

وقد تركت وفاة الطفل أسوأ الأثر في نفس « الأب بانلو » ، والدكتور ريو ، وتارو ، وجميع من حضروا ساعاته الأخيرة . ومنذ ذلك الوقت تغيرت نظرتهم جميعاً للحياة ، فرغم أنهم رأوا الكثيرين وهم يموتون ، إلا أن موت هذا الطفل الساذج البريء الذي لا ذنب له ولا خطيئة جعلهم يسألون أنفسهم بما كانوا يهابون البوح به من أفكار وخواطر تتصل بالله وإرادته العلياء

» » »



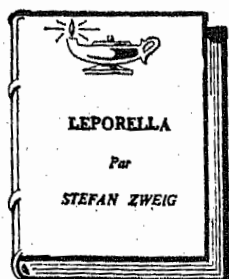
وبعد ساعات طويلة من الألم المبرح فارق الحياة ، وعلى
خده هذا الدمع الذى يعبر عن مقدار ما تحمل من آلام ...!

● غسلت أمطار الخريف الجو وبدأت تباشير الشتاء ، وكان المرض قد أوقف حملاته الوحشية نوعاً ما ، فهبطت الوفيات ، ونجت بعض حالات كان ميؤوساً منها . وذات يوم ، بينما كانت وطأة الوباء تخف رويداً علم الدكتور ريو بمرض تارو ! وتابع الطبيب الصراع العنيف بين صديقه والموت الذى داهمه كالسوج ليكنم أنفاسه الأخيرة فى حشجة تعتصر القلب .. وتذكر الطبيب كلمة تارو عندما قال له : « إنك دائماً ستخوض معركة خاسرة ضد الوباء » . نعم ، لقد خسر المعركة نهائياً ، وخسر معها صديقه تارو الذى لم يكن قد تمتع بصداقته كما كان يود . وتركت هذه المعركة الأخيرة فى نفس ريو هذا الشعور بالأسى والعذاب النفسى الذى تركه كل معركة فى نفس القائد الفاشل ، حتى بعد إعلان السلام .. وكان قد أحس عند وفاة ابن القاضى برغبة فى البكاء ، ولكنه شعر عند موت صديقه تارو بألم من نوع آخر يعتصر قلبه . وقد عاش الطبيب هذه الفترة من الزمن مشاركاً مواطنيه كل آمالهم وآلامهم ، فوفى لهم بنصيبه من المحبة . وكلما أراد التعبير عن أشجانه أو مشاعره وجدها تتردد فى نفوس الآخرين ، فأغلق روحه داخل نفسه ليقوى على الاستمرار فى عمله يوماً بعد يوم ، بالرغم من الشعور بالاشمئزاز الذى كان ينتابه فى كثير من الأحيان . ولم يكن من هذه الفترة التى مرت عليه إلا ذكرى الوباء ، وذكرى الصداقة التى لم تدم ، وذكرى حبه لزوجته التى ماتت فى فرنسا

— بغير الوباء — بعد أن ودعها عند سفرها من الجزائر وكله أمل
في اللقاء ..

ورفع الحصار عن المدينة ، وذهب الناس للقاء أحبائهم بعد
فراق دام شهوراً طويلاً ، ورغم أنهم لم يكونوا يشعرون بنفس
الرغبة القوية التي كانوا يستشعرونها من قبل ، فإن قلوبهم لم تلبث
عند لقاء الأحباء أن فاضت بهذا الشعور العميق الذي كان مكبوتاً
طوال الأيام الماضية ، والذي انبثق عندئذ في فيض من الدموع
الساخنة .

[تمت القصة]



ليپوريللا

للكاتب النمساوي الأشهر
ستيفان زفايج

● قدمت لك في أعداد سابقة من كتابي الكثير من روائع الكاتب النمساوي الأشهر «ستيفان زفايج» ، وفي مقدمة هذه الروائع قصصه الخالدة : «أموك» ، و «رسالة من مجهولة» ، و «الخوف» .. وفيما يلي أقدم لك تحفة رابعة من روائع هذا الكاتب الإنساني المتعمق ، هي هذه القصة التي أطلق عليها «ليبوريللا» .. والقارئ للقصة في لغتها الأصلية ، أو ترجماتها الأوربية ، لا يجد فيها أى إيضاح لمغزى إطلاق لقب «ليبوريللا» على بطلتها ، في منتصف القصة ، على سبيل المحاز والدعابة .. وذلك لاعتماد المؤلف على ثقافة القارئ الغربي الذي يعرف — من إلمامه بقصص الأوبرات العالمية — شخصية المدعو «ليبوريللو» ، القواد الذي كان يلزم العاشق الأسباني دون جوان في مغامراته الغرامية ، ويسهلها له ، على ما جاء في قصة أوبرا دون جوان — أو «دون جيوفانى» بالإيطالية — وهي الأوبرا المشهورة التي لحنها الموسيقي الخالد «موزار» ، والتي مثلت لأول مرة في أوبرا (براج) عام ١٧٨٧ ، وفي أوبرا لندن عام ١٨١٧ ، وفي أوبرا نيويورك عام ١٨٢٦ .. إلخ.

ويبدو أن «ستيفان زفايج» حين أطلق على قصته هذه اسم «ليبوريللا» — مؤنث «ليبوريللو» — أراد الإشارة

إلى وجه الشبه بين شخصية بطله القصة وشخصية ليبوريللو المذكور بطل تلك الأوبرا العالمية المشهورة.. وتدور حوادث أوبرا « دون جوان » في مدينة (أشبيلية) بأسبانيا ، حيث مارس الفارس الوسيم الأنيق دون جوان فنه الخاص في إغواء أجمل فتيات المدينة ونسائها ، ثم هجرهن !.. وهكذا نراه يمضي بصحبة خادمه الوفي ليبوريللو ، فيوقع بالحسنة « دون الفيرا » ، ثم ينبذها لينصب شباكه لابنة القائد دون بدرو - المدعوة « دونا أنا » - ويقتل خلال المحاولة أباه ، في مبارزة !.. ويفر العاشق المحترف على الأثر ليحول دفة « جهوده » إلى العروس الفلاحة « زرلينا » ، فيحتال بكل الطرق للتغريب بها وصرفها عن خطيبها !.. وفي النهاية يقتص شبح القائد القتييل « دون بدرو » من الشاب الماجن ، بأن يلقي به في هاوية تتلظى فيها النيران.. فيموت شهيد مجونه !

● كان اسمها في شهادة الميلاد « كريسانس » ، وكانت في التاسعة والثلاثين من عمرها ، ابنة غير شرعية ، ولدت في قرية صغيرة بوادي « زيلار » .. وفي خانة « العلامات المميزة » من بطاقة العمل الخاصة بها ، خط أفقي ينم عن خلوها من علامات كهذه . ومع ذلك ، فلو أن الموظفين عنوا بأن يسجلوا علامة مميزة ، لكفتهم لحظة بصر - ولو سريعة - كي يلاحظوا أنها كانت تحمل كافة سمات حصان الجبل الأعرج المعروف .. إذ لم يكن أحد ليخطئ ما يبدو عليها من مميزات فصيلة الخيل : في شفتها المدلاة في صفحة وجهها المستطيل الجامد الذي دبغته الشمس ، وفي عينيها الكثيبين المجردتين من الأهدا ب ، ثم بنوع خاص في شعرها الكثيف الملبد الملتصق بجبهتها في خصل لزجة . بل إن مشيتها أيضاً كانت تنطق بذلك التردد الحذر والعناد العصبي الذي تتميز به بغال الجبل .. تلك البغال التي تسلك الطرق الجبلية المحصية ، عبر ممرات الألب ، تحمل الخشب صيفاً وشتاء ، وتسير في كآبة ، صاعدة وهابطة بنفس الخطوة المترنحة ..

وما أن تلقى كريسانس عنها « بردعة » العمل ، حتى تراها ، وقد ثنت ذراعيها ، وأوشكت يداها أن تتلاقيا ، وهي تنظر أمامها في شرو د يشبه البله ، وكأنها حيوان في حظيرة ! .. فلقد كان كل شيء فيها جامداً ، دميماً ، ثقيلاً .. وكان من الشاق عليها

أن تفكر ، إذ كان فهمها بطيئاً ، تنسرب كل فكرة جديدة من أعماق نفسها في صمت ، وكأنها تقطر خلال مصفاة دقيقة .. فإذا قدر لها أن تدرك - في صعوبة بالغة - فكرة جديدة ، وتمثلها ، تمسكت بها في عناد ، لا تتخلى عنها أبداً !

ولم تكن تقرأ شيئاً : لا صحفاً ، ولا كتب صلوات .. بل كانت الكتابة لديها عملاً شاقاً ، وكان خطها المشوه في دفتر المطبخ يشبه إلى حد بعيد جسمها الكثير الزوايا ، السيء التكوين ، الذي حرم حرماناً واضحاً من كل صفات الأنوثة ! وكان ردفاها ، ويدها ، وجمجمتها ، وصوتها ، جامدة كلها كعظامها .. ومع أن لغة « التيرول » تمتاز بلهجة تنبعث من الحلق في نبرات مليئة ، إلا أن هذه اللهجة كانت تصدر عن « كريسانس » في صرير كأنه صرير الباب الصدئ ! ولم يكن ثمة عجب في أن يصدأ صوتها ، فإنها لم تكن توجه إلى أحد كلمة ، ما لم تدع إليها ضرورة .. كما لم يرها أحد قط تضحك ! .. فكان هذا كله يزيدها شبهاً بالحيوان ، لأنه إذا كان هناك شيء أدعى للأسى من فقدان النطق ، فهو بلا ريب فقدان الضحك .. ذلك الانفجار الذاتي للعاطفة ، الذي حرمت منه مخلوقات الله « غير الواعية » !

وكانت البلدية قد كفلت كريسانس وأنفقت على تربيته ، حتى إذا بلغت الثانية عشرة من عمرها أخذت تعمل كخادمة ، ثم غسالة للأواني في مطعم حقير ، فلفت إليها النظر تكالبها على

العمل فى نشاط محموم .. ولم تلبث أن التحقت طباشرة بفندق
للسياح ، بعد خروجها من ذلك المطعم الذى كان وقفاً على الحوذيين .
وفى هذا الفندق كانت « كريسانس » تستيقظ فى الساعة الخامسة
من كل صباح ، لتكنس وتنظف ، وتجلو وتدعك بالفرشاة .
وتنظم وتسخن ، وتطبخ وتعجن ، وتغسل وتشطف ، وتلشر ،
وتكدح حتى ساعة متأخرة من الليل .. لم تأخذ قط إجازة ،
ولا خرجت إلا لتذهب إلى السوق أو إلى الكنيسة . وكان قرص
فرنھا الملتبھ يحل بالنسبة إليها محل الشمس ، كما كانت آلاف قطع
الحشب التى تشقها طوال السنة ، هى غابتها !

ولم يكن الرجال يضايقونها فى شىء .. إما لأن ربع القرن
الذى سلخته فى عمل متكالب ، جردها من كل ما كان يحتمل أن
يكون فيها من أنوثة ، وإما لأن جفوتها وصمتها المطبق كانا يقطعان
السييل على كل محاولة للتقرب منها .. فكانت تجد لذتها الوحيدة
فى تلك النقود التى كانت تجمعها — مدفوعة بالفطرة النهمة التى
يجبل عليها الفلاحون والبسطاء — لكيلا تضطر فى شيخوختها إلى
أن تعود فتقتات من خبز البلدية المر فى ملحجاً للفقراء !

.. وقد كان حب المال دون غيره هو الذى دفع هذه المخلوقة
« المغلقة » إلى أن تترك لأول مرة ، وهى فى السابعة والثلاثين ،
موطنها فى الثيرول : فقد رأتها — أثناء إجازتها فى الريف —
امرأة ممن يقدمن الخادومات إلى المنازل ، وكانت وقتئذ تتكالب

على العمل من الصباح إلى المساء ، فاجتذبتها إلى فيينا ، بأن وعدتها
بضعف أجرها !.. ولم تشغل « كريسانس » أثناء السفر بغير
الأكل ، فلم تتحدث إلى أحد ، وأصرت على أن تحمل فوق
ركبتها المضميتين سلتها الثقيلة التي ضمت كل ما كانت تملك
- رغم تلطف زملائها في السفر حين عرضوا عليها وضع السلة
فوق الشبكة ! - وما ذلك إلا لأن السرقة والنصب كانا كل
ما انطبع في مخها المغلق عن المدينة الكبيرة !

- ٢ -

● وخلال الأيام الأولى في فيينا ، لم يكن بد من أن يرافقها
أحد إلى السوق - إذ كانت تخشى العربات ، كما تخشى البقرة
السيارات ! - ولكنها لم تكد تعرف الشوارع الأربعة التي تؤدي
إلى السوق حتى أصبحت في غنى عن كل إنسان : فكانت تمضي
من المنزل إلى معارض الباعة ، ثم تعود منها وملتمة بذراعتها ..
وكانت تكنس وتوقد النار في مطبخها الجديد على نحو ما كانت
تفعل في مطبخها القديم ، دون أى تغيير ، فإذا حانت الساعة
التاسعة - ساعة النوم في القرية - ذهبت إلى فراشها ونامت
كالدابة ، مفتوحة الفم ، إلى أن ينتزعها الصباح بغتة من النوم !
ولم يقدر لأحد أن يعلم ما إذا كانت راضية عن حالها أم غير
راضية ، بل لعلها - هي نفسها - لم تكن تعرف ذلك .. فما كانت
تبوح لأحد بشيء ، ولا كانت ترد على الأوامر التي تتلقاها

إلا « بنعم » مكبوتة ، أو بهزة كتف عنيدة إذا لم يعجبها الأمر ! ..
ولم تكن تلقى بالا إلى جيرانها ، ولا إلى خدام المنزل الآخرين ..
ولم تحرك نظرات زميلاتها المرححة ، المنبعثة عن روح مخالفة ،
ساكنة لديها .. حتى كان يوم ، أخذت فيه إحدى الخادومات
تقلد لهجتها الثيرولية ، وتسرف في السخرية منها ، فاستلت فجأة
من فرنها جذوة من النار ، وانقضت على البنت المدعورة .. التي
هربت صارخة ! .. ومنذ ذلك اليوم أخذ الجميع يجتنبون هذه
المخلوقة الشرسة ، ولم يعد أحد يجسر على السخرية منها !

ومع ذلك ، ففي يوم الأحد من كل أسبوع ، كانت
« كريسانس » ترتدى ثوبها الفصفاف ذا الشنايا ، وقبعها المنبسطة
كالطبق – الشبيهة بقبعات الفلاحات – لتذهب إلى الكنيسة .
وجازفت ذات مرة – بمناسبة أول إجازة لها في فيينا – فخرجت
« للترهة » ! .. لكنها كانت تأبى ركوب الترام ، ولما لم تر طوال
سيرها الحذر خلال الشوارع المزدخمة الصاخبة سوى سلسلة من
أحجار الجدران ، فإنها لم تذهب إلى أبعد من قناة الدانوب ..
وهناك أخذت تحديق في الماء الجارى ، كما يحديق المرء في شيء
معروف ، ثم عادت من نفس الطريق ، محاذية المنازل دائماً ،
ومتعجبة وسط الشارع .. خوفاً من العربات ! ولا شك في أن هذه
الرحلة « الاستكشافية » الوحيدة خيبت أملها ، إذ أنها لم تغادر

بعدها المنزل قط ، مفضلة أن تجلس يوم الأحد بجوار النافذة ،
خالية اليدين ، أو ممسكة بشيء تخطه .
وهكذا لم تحدث المدينة الكبيرة أى تغيير فى نظام حياتها
الرتيبة ، فيما عدا شيئاً واحداً ، هو أن يديها اللتين براهما الطبخ
والغسل أصبحتا تتلقفان فى نهاية كل شهر أربع أوراق مالية زرقاء
بدلاً من اثنتين ! وكانت فى كل مرة تفحص هذه الأوراق النقدية
طويلاً ، ثم تطويها فى دقة ، وتسويها فى حنو ، قبل أن ترتبها إلى
جوار سابقاتها داخل صندوق الخشب المحفور الذى حملته معها من
القرية . وكانت هذه « الخزنة » الخشنة القبيحة هى كل « سرها »
وسبب حياتها الوحيد ! فكانت تضع - فى المساء - مفاتيحها
تحت وسادتها .. أما فى النهار فلم يتح لأحد فى المنزل أن يعرف أين
كانت تودعه .

* * *

● هكذا كانت تلك المخلوقة البشرية العجيبة - إذا صح هذا
التعبير - فإن الطابع « البشرى » لم يكن يلوح على تصرفاتها إلا على
نحو بدائى غير واضح المعالم . على أنه ربما كان من الضرورى
لكريسانس أن تكون منطوية ومغلقة إلى هذا الحد ، لكى تظل فى
خدمة تلك الأسرة العجيبة - أسرة البارون « ف . س » - التى
لم يكن الخدم يحتفلون جو الشحنة الذى كان يسود الدار التى
تقطنها ، إلا أقل فترة ممكنة ، بعد دخولهم فى الخدمة .. فقد كان

الصراخ الصاخب الشبيه بالصرع ، ينبعث بصفة شبه دائمة من سيدة المنزل !.. كانت ابنة ثرى من رجال الصناعة فى مدينة « اسن » ، ولم تكن فى مستهل الشباب عندما تعرفت فى إحدى مدن المياه المعدنية بالبارون ، الذى كان يصغرها فى السن كثيراً. ورغم أنه لم يكن دونها مرتبة فى النبيل ، إلا أنه كان فى حال مالية أكثر تواضعاً . ومع ذلك خفت إلى الزواج من هذا المتحذلق الجميل ذى السحر الأرستقراطى !

.. غير أنه لم يكده شهر العسل ينقضى ، حتى أخذت العروس تتبين أن أهلها لم يكونوا على خطأ عندما عارضوا تسرعها فى الزواج وتمسكوا بضرورة توفر صفات أكثر صلابة فى الزواج .. فقد ظهر عندئذ أن البارون الشاب لم يخف فقط عدة ديون كان مثقلاً بها ، بل إنه كان أيضاً يحفل « بمغامرات الشباب » أكثر مما يحفل بواجبات الزوجية ! ومع أنه لم يكن يعوزه اللطف ، بل كان يملك أيضاً تلك الروح المرحية ، الملازمة للطبائع الخفيفة ، إلا أنه لم يكن يتصور الحياة إلا على ذلك النحو الكسول الخالى من الشعور بالمسؤولية .. فكان يستهين بكل مسألة مالية ، وكأنها أمر لا يستحق أن يوليه اهتماماً ، وكان يحب الحياة السهلة .. فى حين كانت زوجته على العكس منه ، تريد بيتاً منظماً ، ذا تقاليد ، على نحو ما اعتادت أن تكون عليه الحياة لدى ثراة الطبقة الوسطى — « البورجوازية » — فى إقليم « الرين » .. فكان هذا يخرج البارون عن أطواره !..

حتى إذا رأى نفسه مضطراً - برغم راء زوجته - إلى أن يدخل معها في مناقشات كلها شاء مبلغاً كبيراً من المال ، ولاحظ أنها تمادت إلى حد معارضة أعز رغباته - وهي الحصول على اسطبل لحيل السباق - لم يجد داعياً لأن يقيم زناً لهذه الزوجة البدينة العريضة الكتفين ، المنحدرة من أقاليم الشمال ، والتي كان صوتها القوي الأمر يؤذى أذنيه ! .. وهكذا انتهى إلى وضعها على الرف ، في رفق وبغير ضجيج - وإن حرص على أن يكون إهماله إياها إهمالاً تاماً ، كاملاً ! - وحين كانت توجه إليه اللوم ، كان يصفي إليها في أدب واهتمام ظاهرين .. ثم يبادر بمجرد انتهاء « الموشح » ، إلى طرد مواعظها الحارة مع دخان سيجارته .. ويمضى في غير تخرج ، يفعل ما يحلو له !

وكان هذا التأدب السهل ، شبه المحترف ، أكثر إغاظه للزوجة الخائبة الأمل ، من أي اعتراض .. فقد وجدت نفسها عاجزة تماماً ، مسلوكة الحول ، إزاء تأدب هذا « الأرسقراطي » الخبيث الناعم ، الذي لم يكن يتزلق قط إلى أية فظاظه ! .. لذلك لم يلبث غضبها المكبوت أن أخذ ينطلق في مجال آخر ، فكان ينفجر ضد الخدم ، ويصب ثورته على الأبرياء ! ولم تلبث النتيجة أن ظهرت : ففي خلال سنتين اضطرت إلى أن تغير خادماتها ست عشرة مرة ! بل وحدث يوماً أنها اعتدت باليد على إحداهن ، واضطرت - تفادياً للضجة - إلى أن تدفع لها مبلغاً كبيراً كتعويض !

وسط هذا الجو العاصف ، استطاعت « كريسانس » وحدها أن تصمد ، كحصان « الحنطور » تحت المطر . ولم تكن تنحاز إلى صف أحد ، أو تعنى بالتغيرات التي تطرأ .. بل يلوح أنها لم تكن تلاحظ أن أولئك المجهولات اللاتي يعملن معها ويقاسمنها حجرتها ، كانت تتغير باستمرار أسماءهن ، وألوان شعرهن ، ورائحة أجسامهن ، وطبائعهن ... إلخ . فلإنها لم تكن تتحدث إلى أى منهن ، أو تعنى بالأبواب التي تصطك ، أو الوجبات التي لا تتم .. ولا بالأزمات العصبية ، أو الإنعماءات .. كانت تذهب من المطبخ إلى السوق ، ومن السوق إلى المطبخ ، في نشاط وعدم مبالاة .. فما كانت لتعنى بما يجاوز أفقها المغلق .. وإنما كانت تعمل كالمدق الآلى ، محطمة الأيام بعضها في أثر بعض ، حتى مرت بها سنتان من عمر المدينة الكبيرة ، لم يزد عليها خلالها سوى أن الأوراق الزرقاء المكسدة في صندوقها قد وصلت الآن إلى سلك الإبهام .. وإنما عندما كانت تعدها واحدة بعد الأخرى بإصبعها المبللة ، كانت تصل في النهاية إلى الرقم السحري : ألف !

- ٣ -

● ولكن الصدفه تمتلك آلات ثاقبة ، والقضاء الواسع الدهاء يعرف كيف يشق - على غير انتظار - طريقاً إلى النفوس ، وكيف يثير الاضطراب في أكثر الطبائع تحجراً . وعنده « كريسانس » أخذ السبب الخارجى للأحداث مظهراً مبتذلاً مثلها .. كان قد

مضى على آخر تعداد عشر سنوات ، ورأت الحكومة أن تقوم بتعداد جديد للسكان ، فأرسلت نماذج بأسئلة معقدة إلى كافة المنازل ، كي تعرف بالضبط أسماء وتواريخ وأماكن ميلاد السكان . ولما كان البارون لا يثق بدراية خلمه ولا إدراكهم ، فقد فضل أن يملأ النماذج بنفسه ، ولهذا استدعى « كريسانس » إلى مكتبه كما استدعى الآخرين . وعند مناقشتها في أصلها ومنبتها تبين البارون ، وهو الشديد الشغف بالصيد ، أنه قام عدة مرات بصيد الوعل في الإقليم الذى وفدت منه ، بل إن دليلا من أبناء قريتها اصططحبه لمدة أسبوعين . وشاءت المصادفة الغريبة أن يكون هذا الدليل هو خال « كريسانس » ، كما شاءت أن يكون البارون في ذلك اليوم بالذات مرح المزاج ، فأطال الحديث مع خادمته .. وإذا هو يقف على اكتشاف مفاجئ آخر : أنه كان قد تذوق شواء « تيس » جبلى في نفس الفندق الذى كانت تعمل فيه « كريسانس » طاهية . وكل هذه كانت بلا ريب تفاهات ، ولكنها مع ذلك مصادفات غريبة ، بدت لعيني الفتاة المسكينة أمورا بخارقة .. فراححت تتثنى في غير رشاقة وهى تقف أمام البارون محمرة الوجه ، منبسطة الأسارير ، وقد أرضى الحديث زهوها . وتمادى البارون فزاحها ، أخذ يقلد لهجتها التيرولية ، ويسوق إليها بعض النكات المضحكة .. حتى إذا استخفه الطرب في النهاية ضرب براحته على ردفها - على طريقة أهل الريف - وقال

ضاحكاً : « والآن .. اذهبي يا شاطرة ! .. ولكن ، خذى قبل انصرافك هذين الكورونين ، لأنك من وادى زيلار .. » .

* * *

● ولم يكن الحادث ذا قيمة في حد ذاته ، ولكن الحسيث الذى استغرق خمس دقائق ، كان كالحجر الذى يلقي في بركة ماء ، إذ حرك أعماق الروح الجامدة في جوف تلك المخلوقة الكثيرة .. ولم يكن ذلك لأنها لا ذت بالصمت فلم تتبسط في حديث مع أحد منذ سنين ، فحسب ، بل لأن المصادفة شاءت أيضاً أن يكون الرجل الذى أظهر ميلاً للحديث معها بعد هذا الجمود الطويل ، من رواد جبالها ، وأن يكون قد أكل شريحة من تيس أعدتها هى بنفسها ! .. وهى أمور لاحت لها من قبيل المعجزات .. فضلاً عن ضربته تلك على ردفها في غير تخرج ، وهى في عرف الفلاحين دعوة صامته ، وطعم يبذل للمسرة ! وإذا كانت « كريسانس » لم تجرؤ على أن تعتقد أن السيد الرشيق الرفيع المقام قد اشتهاها حقاً ، إلا أن هذه الألفة حركت مع ذلك حواسها الهامدة !

وتحت تأثير هذه الدفعة المفاجئة ، تحركت الطبقات العميقة في قرارة كيائها ، واحدة بعد الأخرى .. حتى برز منها إحساس جديد ، كان في أول أمره مبهماً ، ثم أخذ يتضح .. فإذا هو شبيه بذلك الإحساس الذى يقود الكلب عندما يكتشف فجأة ذات يوم

بين جمهور من الناس ، السيد الذى يرتضيه .. فيروح منذ تلك اللحظة يتبعه ، ويستقبله بالنباح أو بهز الذنب ، ويطيعه راضياً ، ويصاحبه طائعاً فى كل مكان ! .. وكان ذلك حال « كريسانس » . كانت حياتها « المغلقة » لا تبسّع لغير خمسة أو ستة أشياء : النقود والسوق ، والفرن ، والكنيسة ، والفراش .. فإذا بعنصر جديد يدخلها منذ ذلك اليوم ، فيزيح جانباً كل ما كان قد سبقه ! .. وبتكالب الفلاح الذى لا يمكن أن يتخلى عما استحوزت عليه يدها الجامدتان ، امتصت « كريسانس » هذا العنصر ، حتى وصلت به إلى عالم غرائرها المضطرب .. وفى الحقى أن فترة من الزمن قد مرت قبل أن يصبح هذا التحول محسوساً . بل إن مظاهره الأولى كانت باللغة التفاهة ، فقد صارت تعنى مثلاً بتنظيف ملابس سيدها وأحذيته فى خمس بالغ ، بينما ظلت تترك للخادم الأخرى كل ما يتعلق بالبارونة ! وأخذت تظهر فى الردهة والحجرات أكثر مما كانت تفعل فى الماضى .. وما أن تسمع صرير قفل المدخل ، حتى صارت تسرع إلى لقاء سيدها ، لتأخذ عنه عصاه ومعطفه . وباتت تعنى بالمطبخ بنوع خاص ، بل إنها حرصت على أن تعرف الطريق إلى السوق الرئيسية خصيصاً كي تشتري شريحة من التيس البرى لإرضاء السيد ! .. فضلاً عما جعلت تسبغه على مظهرها من عناية خاصة ..

● وكان لابد من مرور أسبوع أو أسبوعين ، كيما تظهر أولى براعم هذا الإحساس الجديد ، منبثقة من عالمها الداخلى . بيد أن أسابيع أخرى مرت قبل أن يتفتح فوق هذه البراعم إحساس ثان ، وقبل أن يصبح هذا الإحساس حقيقة واقعة . ولم يكن هذا الإحساس الثانى غير تكملة للأول .. كان بغضاً - كامناً فى أول الأمر ، ثم ظاهراً واضحاً شيئاً فشيئاً - لزوجة البارون ، المرأة التى أتيج لها أن تحدثه ، وتساكنه ، وتنام معه ، مع أنها لم تكن تحمل له مثل هذا الحب المتفانى الذى اختصته هى - كريسانس - به ! ولما كانت قد أصبحت - دون تعمد أو قصد - أكثر انتباهاً لما حولها ، فقد شاهدت أحد تلك المواقف المخرجة التى كانت الزوجة السليطة تذلل فيها كبرياء السيد المعبود ، على نحو أشد ما يكون إثارة للنفس .. فهل زادت ألفة الزوج المرحه ، إحساساً بالتحفظ المتعالى الذى كانت تلك السيدة الألمانية القادمة من الشمال تتميز به ؟ .. مهما يكن الأمر ، فإن « كريسانس » شرعت تبدي نحو السيدة - التى كانت تجهل كل شئ - ألواناً من العناد والعداء ، ظهرت فى مئآت من صغائر الأمور : من ذلك أن البارونة كانت تضطر لأن تدق الجرس أكثر من مرة ، قبل أن « تتفضل » كريسانس بالرد عليها ، فى تناقل متعمد وسوء طوية !.. وكانت عندما تتقدم نحوها ، تدخل رأسها بين كتفها

كأنما هي تتأهب لتجابه أية ملاحظة . وكانت تنصت دائماً
— بسحنة عابسة — للأوامر التي تصدر إليها ، دون أن ترد ،
فلا تدري البارونة هل فهمت عنها أم لم تفهم ! فإذا أعادت عليها
أمراً ، من باب الاحتياط ، نفضت كريسانس رأسها في امتعاض ،
أو قالت في ترفع : « لقد سمعت ! » .. وقد يحدث عند موعده
الذهاب إلى المسرح — وفي اللحظة التي تشتد فيها عصبية سيدتها
وهي تدرع الحجرات — أن يخنق مفتاح ، فلا يعثر عليه إلا بعد
نصف ساعة وفي مكان لا يخطر لأحد ببال ! .. وباطراد ، أخذت
كريسانس تغفل أن تبلغ البارونة المكالمات التليفونية الخاصة بها . فإذا
سألتها السيدة تفسيراً لذلك ، قالت في جفاء وكأنها تقذف بالكلمات
في وجهها : « لقد نسيت ! » .. وكانت تحرص على ألا ترفع بصرها
قط إلى عيني السيدة ، خوفاً — بلا ريب — من ألا تستطيع إخفاء
بغضها لها !

* * *

● وباتت المشاحنات العائلية ، في تلك الأثناء ، تسبب بين
الزوجين مشاهد متزايدة الماراة ! ولعل ما كان يصدر عن
« كريسانس » — دون وعي منها — من سوء خلق ، قد ساعد على
هياج أعصاب الزوجة .. إذ راحت تزداد انفعالا من أسبوع لآخر
وتفقد اتزانها شيئاً فشيئاً من فرط اضطراب أعصابها — بسبب
الحرمان الجنسي الطويل ، وما كانت تلقاه من إهمال الزوج .
(م ١١ — الحب الأول وقصص أخرى)

وقحة الخدم وعدائهم ! - ولم تجد العقاقير والمسكنات نفعاً في تهدئتها ، إذ كانت النوبات المستيرية تتلو نوبات البكاء ، دون أن تفلح أية محاولة لتخفيفها .. حتى انتهى الأمر بالطبيب إلى أن نصح لها بالإقامة لمدة شهرين في أحد المصحات .. وهي نصيحة وافق عليها الزوج - الذي كان عادة لا يبالي - في حماسة دعت الزوجة ، السيئة الظن ، إلى أن تجنح إلى العصيان ! .. ولكن السفر تقرر في النهاية ، على أن تصحب الخادم الأخرى سيدها ، بينما تبقى « كريسانس » بالمنزل الرحب في خدمة السيد . وما إن علمت هذه أن سيناط بها وحدها مهمة العناية بالسيد ، حتى انتفضت حواسها الهامدة .. وغدت كزجاجة سحرية هزت هزاً عنيفاً .. فقد انبعث من أعماق كيائها راسب خفي من الشهوة ، أضنى على حركاتها مظهراً جديداً كل الجدة ، فاختنى ما كان فيها من ثقل وتكلف ، وانحلت عقد أطرافها المتحجرة ، وأصبحت مشيتها حية خفيفة .. وما أن شرعوا في إعداد العدة للسفر ، حتى أخذت تعدو من حجرة إلى حجرة ، وتصعد السلم وتهبط ، وترتب الحقبائب قبل أن تؤمر بذلك ، وتحملها بنفسها إلى العربة ! .. وعندما عاد البارون من المحطة في المساء ، وقدم إلى الخادم الحفية عصاه ومعطفه ، وهو يقول متنفساً الصعداء : « ها هي قد ذهبت ! » .. حدث شيء عجيب : فقد تقلصت في عثف مفاجئ ، شفتا كريسانس المطبقتان ، اللتان لم تضحكما

قط ، وكشر الفم تم اتسع .. ومن ذلك الوجه الذى أضاء فى بله ،
انبعثت ضحكة ، بلغت من الصراحة - بل من الوقاحة والحيوانية -
جداً جعل البارون يبهت فى اشمئزاز ، وقد انتابه خجل مفاجئ من
تبسطه فى رفع الكلفة مع الخادم إلى الحد الذى أغراها بهذا
الإسفاف ! .. ثم دلف إلى حجرته دون أن ينبس ببنت شفة !

● على أن هذه العارضة من الاشمئزاز لم تلبث أن تبددت . وفى
الأيام التالية أخذ الصمت الممتع ، والحرية المريحة التى تمتع بها
فى صباه ، يخلقان نوعاً من الصلة بين السيد والخادمة .. حتى يمكن
القول بأن سفر الزوجة قد أفسح له مجالاً للتنفس ، للخلاص من
ذلك الالتزام الأبدى الذى كان يقتضيه أن يقدم حساباً عن كل
تصرفاته .. فعاد إلى بيته - منذ الليلة الأولى - فى ساعة جد
متأخرة ، ليستمتع بالمقارنة بين الحفاوة الصامتة التى تلقتها بها
« كريسانس » ، وبين تلك الروح العدائية التى كانت تلتقاها
بها زوجته !.. وغالت الخادمة فى الانغماس فى عملها اليوى إلى
حد الهوس : صارت تستيقظ أكثر بكوراً من ذى قبل ، وتجاوز
المقايض وقطع النحاس كالمحمومة ، وتؤلف قوائم الطعام بعناية
زائدة ، واختيار مرهف .. وفى غداة سفر البارونة ، فوجئ
البارون عند الإفطار بأن « الطقم » الذى لم يكن يخرج عادة من
سوان الفضية إلا فى المناسبات الكبيرة ، قد أخرج من أجله وحده !
وبالرغم من أنه - بطبعه - كان شارد البال ، إلا أنه كان

من المستحيل ألا يلاحظ تلك العناية اليقظة ، الشبيهة بالحنان ، التي كانت تبديها تلك المخلوقة العجيبة نحوه ! ولما كان هو — في قرارة نفسه — رجلاً طيب القلب ، فإنه لم يضمن عليها بعباسات الإطراء .. فكان يمتدح طهيها ، ويوجه إليها — من وقت إلى آخر — بعض العبارات الطيبة . وعندما رأى على المائدة في عيد ميلاده قطيرة فخمة ، نقشت عليها بالسكر الحروف الأولى من اسمه ، وشعار نبالته ، قال لكريسانس وهو يضحك بلا احتفال : « إنك ستلايننى يا (سنزى) ! إلام يصير أمرى عندما تعود زوجتى .. لا قدر الله ؟ » .

.. ولم يكن هذا التبذل الخالى من الذوق — والذي قد يدهش له الناس في بلد آخر — شيئاً غريباً عند أرستقراطية النمسا القديمة ، إذ كان ينبعث عن استهتار أولئك النبلاء ، في كل مناسبة ، وعن ذلك الاحتقار البالغ الذى كانوا يظهرونه نحو عامة الشعب ! .. وكما كان « الأرشيذوقات » المعسكرون في قرية نائية في « غاليسيا » يكلفون أحد صف الضباط بأن يقتاد إليهم عاهرة من ماخور ، ثم يتركونها له بعد ذلك نصف عارية ، ويسخرون أعرق السخرية بكل ما يمكن أن يقوله أبناء المنطقة في اليوم التالى .. كذلك كانت الأرستقراطية العليا تفضل أن تصطحب في الصيد حوذاً أو سائساً بدلاً من أن تصطحب أستاذاً أو تاجراً كبيراً . ولكن هذا التبذل الديمقراطى فى الظاهر ، والذي كانوا يتنزلون إليه ثم يترفعون عنه

كان يختلف فى حقيقته عنه فى مظهره تمام الاختلاف .. فهو لم يكن قط إلا من جانب واحد ، كما كان ينتهى فى اللحظة التى يغادر فيها السيد المائدة ! .. وكان صغار النبلاء يحاولون دائماً أن يحاكيوا تصرفات الإقطاعيين ، ولذلك لم يجد البارون أى حرج لضميره فى أن يتحدث باحتقار عن زوجته ، أمام فلاحه تيرولية جلفاء ! .. ومع أنه كان مطمئناً إلى أنه لم يسرف فى الحديث ، إلا أنه لم يستطع أن يتصور مدى الغبطة الجشعة واللذة الجساعية اللتين كانت تتذوق بهما تلك الخادمة الكظوم ، عبارات الاحتقار التى يفوه بها أمامها !

— ٥ —

● ومع ذلك فقد ألزم نفسه لمدة يوم أو يومين آخرين شيئاً من التحفظ ، قبل أن يلقى الزمام ! .. فلما تضافرت عدة دلائل على ترسيخ اعتقاده فى « صمت » الخادمة ، أخذ يسلك مسلك الأعزب الحقيقى .. فاستدعى « كريسانس » ذات يوم ، وأمرها فى صوت طبيعى — ودون ما إيضاح — بأن تعد فى المساء عشاء لشخصين ، وأن تذهب بعد ذلك لتنام ، على أن يتولى هو بنفسه بقية الأمر . وتلقت « كريسانس » الأمر دون أن تنطق بحرف . ولم يلمح ، سواء من نظرتها أو من أقل اضطراب فى أهدابها ، أن معنى كلماته قد نفذ خلف جبهتها المنخفضة .. لكن السيد لم يلبث أن تبين — فى طرافة مشربة بالدهشة — إلى أى حد أدركت مقاصده

الحقيقية !.. فعندما عاد بعد انصرافه من المسرح في المساء ، مصطحباً حسناء شابة من تلميذات الأوبرا ، لم يجد المائدة محلاة بالزهور ومرتبّة في ذوق فحسب ، بل وجد الفراش المجاور لفراشه في غرفة نومه مرتباً على نحو مشير .. بينما كان قيص امرأته الحريرى ، وخفها ، في مكان واضح معدن للبس ! ولم يستطع الزوج المتحرر أن يمنع نفسه من الضحك لما أوتيت تلك المخلوقة من تल्पف ذهبت فيه حقاً إلى مدى بعيد !.. وسقط - من تلقاء نفسه - آخر حاجز بينهما ، أمام ذلك التآمر الحامسى .. فلما أشرق الصباح ، دق البارون الجرس ليستدعى « كريسانس » كى تساعد الحسناء الدخيلة على ارتداء ملابسها ، وقد اطمأن إلى أن الميثاق الضمنى قد وقع بينهما نهائياً !

ومنذ ذلك الحين صارت « كريسانس » تدعى باسم جديد .. فإن المغنية الطروب التي كانت تتدرب عندئذ على دور « الفيرا » ، والتي حلا لها من قبيل المداعبة أن تخلع على صديقتها الحانى لقب « دون جوان » ، قالت له ضاحكة : « هل لك أن تستدعى تابعتك (ليبوريللا) ؟ » .. فراقت له هذه التسمية ، لأنها كانت تصور - على نحو مضحك - تلك التيرولية الجافة .. ومنذ ذلك اليوم لم يعد يسميها بغير هذا الاسم ! وقد أخذها الدهول من ذلك في أول الأمر ، ثم لم يلبث أن أغراها حش جرس ذلك الاسم الذى لم تفهم له معنى ، وإن أحست بأن فيه سموً ورفعاً لها !.. وفي

كل مرة كان البارون المرح يدعوها بهذا الاسم ، كانت شفتها
الرفيعتان تنفرجان ، فتكشفان عن أسنانها الصفراء التي تشبه أسنان
الحصان . وفي خشوع وذلة كانت تقترب لتتلقى الأوامر من
السيد المبعجل .

* * *

● وكانت كوكب المستقبل قد أطلقت اسم « ليوريللا » على
كريسانس من باب السخرية ، فلقد وجدت فيه — دون تعمد —
اسماً شديد الملاءمة لتلك المخلوقة العجيبة .. فقد كانت الفتاة
الخافة ، التي تجهل الحب ، أشبه بقواد دون جوان ، تجسد في
مغامرات سيدها لذة فريدة ممزوجة بالكبرياء ! فهل كان مبعث
هذه اللذة ، ذلك الرضى الذى كانت تستشعره كل صباح عندما
تجد مضجع المرأة التي كانت تبغضها — البارونة — مدنساً بواسطة
هذه المرأة أو تلك ؟ .. أم أن حواسها كانت تشارك سرّاً في اللذة
التي تبذرهما في سماء رجولة سيدها ؟ .. مهما يكن الأمر فإن
تلك العانس الصارمة المتعبدة كانت تخدم — في حماسة ملتزمة —
مغامرات البارون . وكانت سنوات العمل الطويلة قد جردت
جسمها المنهوك من الحاسة الجنسية ، فلم يعد يضطرب لنوازعها ..
وإن لاح أنها كانت تجد لذة حقيقية — كقوادة — في أن تتابع
بنظراتها كل امرأة جديدة تدلف إلى حجرة نوم سيدها الغائبة ! ..
وأخذ هذا التآمر — المختلط بأريج جو الغرام المثير — يعمل

كالحامض في حواسها الهامدة .. فأصبحت كريسانس «ليبوريللا»
بحق ، أى قواداً حقيقياً ! أصبحت حية يقظة ، واسعة الحيلة
مثل سميتها المذكور . وبفضل ذلك الحافز الحار المنبعث من
مشاركتها في مغامرات سيدها الغرامية ، استيقظ فيها المكر ،
وحب الاستطلاع . أرادت أن تعرف ما كانت تنطوى عليه تلك
المغامرات .. وفي سبيل ذلك جهدت في استراق السمع من وراء
الأبواب ، وفي اختلاس النظر خلال ثقب المفتاح ، وفي تفحص
المخادع والمضاجع ! وانتهى بها هذا النشاط إلى أن تخرج من حالة
الجمود التي كانت تلازمها من قبل ، إلى نوع من الحياة «البشرية» !
وبلغت دهشة الجيران أقصاها عندما رأوا « كريسانس » تصبح
فجأة محبة للاختلاط ، فتتحدث إلى الخادومات الأخريات ، وتمزح
مزاحاً ثقيلاً مع ساعى البريد ، وتدخل في مناقشات مع الباعة ..
بل حدث ذات مرة أن انطفأت الأنوار في الفناء ، فسمعت
خادومات الجيران طنيناً غريباً ينبعث من نافذة كريسانس ، التي
كانت في العادة صامتة .. وإذا هي تتمتع مغنية - بصوت ناشز
ذى صرير - إحدى أغنيات الألب الرتيبة ، التي يرددها في المساء
رعاة البقر في الجبال .

ومن شفيتها الغفلتين كان اللحن ينبعث في حشرجة ، مشوهاً ،
مصدوعاً ، في نبرة مشروخة .. ولكنها مع ذلك لم تخل من شيء
غريب مؤثر : لأول مرة منذ طفولتها حاولت « كريسانس » أن

تغنى ! وكان شيئاً مؤثراً أن تسمع تلك النبرات المتعثرة ، التي أخذت تصعد في مشقة نحو الضوء ، من ذلك القاع المظلم لأعوامها الدفينة !

- ٦ -

● وكان البارون أقل الناس إدراكاً لهذا التحول الخارق ، مع أنه كان هو السبب غير الإرادى له .. وذلك لأن أحداً لا يلتفت إلى الخلف ليرى ظل شخصه . إننا نحس بالظل يتبعنا وفيماً صامتاً ، أو يسبقنا أحياناً ، كالرغبة التي لم نغتنم إليها بعد .. لكننا قلما نقف عند هذا الظل ، أو نتعرف على أنفسنا في هذا « الكاريكاتير » .. كل ما أدركه البارون هو أن « كريسانس » كانت دائماً على استعداد لأن تخلعه ، وأن عدم فضولها كان تاماً ، وأنه كان يستطيع أن يعتمد عليها إلى حد التضحية . وكان صمتها ، وحدود الكلفة التي كانت تعرف كيف تحافظ عليها في كافة الظروف الدقيقة ، هما الصفتان اللتان كان يقدرهما فيها بنوع خاص . وفي بعض الأحيان كان يوجه إليها بعض العبارات اللطيفة كما يلاطف الإنسان كلبه ! وكان يداعبها .. فيقرص طرف أذنها ، أو يعطيها ورقة بنكنوت ، أو تذكرة مسرح ، يستلها في غير مبالاة من جيب صدره .. وكانت تلك الأمور بالنسبة له أشياء تافهة .. أما بالنسبة لها ، فقد أصبحت « مقدسات » ، احتفظت بها في روع داخل صندوقها !

وبتراخي الزمن اعتاد البارون أن يفكر بصوت عال أمامها ،
بل وأن يكلفها ببعض المهام المعقدة . وكلما أظهر لها مزيداً من
الثقة ، ضاعفت من جهدها كي ترتفع إلى مستوى حسن ظنه .
وشيثناً فشيئاً ، أخذت تظهر عندها غريزة فريضة .. غريزة كلب
الصيد الذي يتشم ويبحث ويحدث رغبات سيده ، حتى لاح أنها
ترى معه ، وتنصت معه ! .. كل مسرات البارون وكل مغامراته ،
كانت تلذذ بها في حماسة تشبه الفحشاء ! .. فكانت تهلل عندما
تعبّر امرأة جديدة عتبة الدار .. وتلوح حزينة متكدرة عندما
يعود في المساء غير متأبط رفيقة طوه ! .. وأخذت أفكارها - التي
كانت هامة من قبل - تعمل في نشاط محموم ، لا عهد لغير
يديها به .. بينما أخذت عيناها تشعان بريقاً جليداً ، بريقاً يقطأ .
فقد أخذ كائن « بشري » يستيقظ في « دابة » العمل القديمة
المنهكة .. كائن عنيد ، كنوم ، ماكر ، قلق ، مدرك نشط ،
خبيث خطر !

* * *

● وحدث ذات يوم أن عاد البارون إلى المنزل مبكراً عن عادته .
ووقف في الصالة مندهشاً : أليست ضحكة مختنقة تلك التي سمعها
منبعثة من المطبخ ؟! .. ولكن ها هي « ليبوريللا » تخرج من الباب
المنفرج ، وهي تحفف يديها في مرولتها ، ثم تقول في لهجة محرجة
ووقعة معاً : « ألا معذرة يا سيدي ! » .. ثم تضيف وقد خفضت

بصرها إلى الأرض : « إن ابنة الحلواني موجودة هنا .. بنت جميلة .. وهى تود لو تعرفت بسيدى ! » .. ونظر إليها البارون فى دهشة ، لا يدري أينبغى أن يثور لرفع الكلفة بينها وبينه على هذا النحو الجريء ، أم أن يلهو بتلطف القوادة . وفى النهاية تغلب فيه فضول الذكر ، فقال : « دعينى أراها ! » .

ومن المطبخ خرجت الفتاة : صبية شقراء مثيرة للشبهة ، فى السادسة عشرة من عمرها — وكانت « لييوريللا » قد راحت تجتذبها إليها شيئاً فشيئاً بأقوالها المعسولة — خرجت متوردة الخدين وعلى شفتيها ابتسامة حائرة ، والخادم تدفعها وتشجعها . ودارت فى ارتباك أمام السيد الرشيق الذى كثيراً ما رمقته من داخل محل الحلوى المواجه ، فى إعجاب يشبه إعجاب الطفولة . ووجدتها البارون جميلة ، واقترح أن تتناول معه الشاي فى حجرته . ولما لم تدر ماذا تفعل — إزاء دعوته — أخذ نظرها يتلمس « كريسانس » لكن هذه كانت قد عادت إلى المطبخ فى سرعة واضحة .. فلم يبق أمام الفتاة التى استدرجت إلى هذه المغامرة ، إلا أن تقبل — محمرة الوجه ، منفعة ، مستطلعة — تلك الدعوة الخطرة !

* * *

● لكن الطبيعة لا تعرف القفز . وإذا كان ذكاء « كريسانس » قد دفعه شعور غامض مختلط إلى نوع من الانطلاق ، فإن هذا الذكاء لم يصل إلى أبعد من غريزة الحيوان الذى ظلت من فصيلته ..



ومن المطبخ خرجت الفتاة: صبية شقراء مثيرة ..

فإن الرغبة التي استغرقتها في خلعمة سيدها المحبوب ، بتفاني العبيد، أنستها سيدتها الغائبة نسياناً مطلقاً .. الأمر الذي أدى إلى زيادة اليقظة هولاً ، فأحست « كريسانس » بكارثة غير متوقعة عندما أخبرها البارون ذات صباح ، وفي يده خطاب ، وعلى وجهه علامات الامتعاض ، أن زوجته عائدة في اليوم التالي ، وأوصاها بأن ترتب كل شيء في المنزل !.. كان النبأ بمثابة خنجر طعنها ، فامتقع لونها ، وجمدت في مكانها فاغرة الفم من الفزع ، دون أن تحرك ساكناً ، وهي تنظر أمامها وكأنها لم تفهم !.. واضطربت ملاحظها ، إلى حد حل البارون ، على أن يخفف عنها بعبارة فكهة فقال : « أظن أن هذا لا يسرك أنت أيضاً يا (سترى) ! ولكن ماذا نصنع ، وليست لنا في الأمر حيلة ؟ » .

ومع ذلك فقد أخذت تشيع في وجه « كريسانس » المضطرب لحظتئذ ، حركة تشنجية صعدت من الأعماق وراحت تلون صدغيها الشاحبين شيئاً فشيئاً .. إنها شيء أخذ يصعد في بطنها ، مدفوعاً بوجيب عنيف راح صدرها يهتز له ، حتى وصل أخيراً إلى شفتيها .. ومن بين أسنانها المطبقة انبعث صرير يقول : « إن .. هناك شيئاً يجب أن يعمل ! » .

انبعث هذا الصرير في عنف كأنه القذيفة النارية ، ثم تقلص وجهها مكفهرأ بالشر بعد هذا التنفيس ، مما حمل البارون على التفهقر على الرغم منه .. لكن « كريسانس » كانت قد استدارت

وأخذت تنظف هاوتاً من النحاس فى نشاط محموم ، يخيل للرائى
أنها ستكسر فيه أصابعها !

- ٧ -

● وبعودة الزوجة استأنفت العاصفة هبوبها فى المنزل : فالأبواب
تصطك فى عنف ، والصراخ يرتفع فى كافة الحجرات ، مكثحاً
ذلك الجوى الدافئ المريح الذى ساد فى الأيام السابقة .. ولعل الزوجة
البائسة قد أحيطت علماً — بفضل ثرثرة الجيران ، أو بفضل
خطابات غفل من الإمضاء تلقتها — بسلوك زوجها المعيب .. أولعل
الزوج — الذى لم يخف سخطه لعودتها — قد أساء استقبالها ،
مما أثار حفيظتها ! على أية حال ، فقد بدا أن الشهرين اللذين
قضيتهما فى المصححة لم يأتيا بأية نتيجة لتهدئة أعصابها المتوترة ،
فعادت إلى نوبات الدموع والتهديدات ومشاهد الغضب ، وأخذت
العلاقات بين الزوجين تزداد سوءاً .. ومع ذلك ، فإن البارون
لم يتخل قط ، إزاء حملات التقرير التى كانت زوجته تشنها عليه ،
عن ذلك التأدب الذى خبره منذ زمن بعيد ! وعندما كانت تهدده
بأن تكتب لدويها وتهجره ، كان يتجنب الرد عليها ، أو يبدل
جهده لتهدئتها .. ولكن مثل هذا السلوك لم يكن يؤدى إلا إلى
اشتداد انفعال هذه المرأة التى كانت تحس بأن لا سند لها ، وبأنها
محوطة بعداوة سرية !

.. أما « كريسانس » فقد عادت إلى التحصن الكلى خلف صمتها

القديم . ولكن هذا الصمت أصبح عدوانياً خطراً ، فقد أصرت في بادئ الأمر على عدم الخروج من المطبخ عند قدوم سيدتها . وعندما دعته السيدة بعد أن تبينت أنها لم تخرج من المطبخ للاقائها ، رفضت أن تحييها ، وظلت جامدة في موقفها وقد زمت كتفيها إلى الأمام كمن يتأهب للوثوب ، وأخذت ترد على أسئلة البارونة في نغمة تنضح بالحقد ، حتى نفذ صبر السيدة فاستدارت .. وإذا بنظرة بغض تخترق ظهرها كالخنجر ، دون أن تشعر .

والواقع أن «كريسانس» أحست منذ عودة سيدتها بالحرمان .. فبعد أن تذوقت ملذات الخضوع الذي لم يكن يقف عند حد ، والذي كانت تتفانى فيه بكل قلبها وروحها ، إذا بها تتزوى من جديد في المطبخ ، بل وتحرم من اسمها اللطيف «ليبوريللا» ! فقد أخذ البارون يتجنب في حذر أن يظهر لكريسانس أى عطف أمام زوجته . ومع ذلك فقد اتفق بعد إحدى المعارك البالغة العنف ، أن أحس بالحاجة إلى الترويح عن نفسه ، فتسلل إلى المطبخ ، حيث جلس على أحد مقاعده وتهدأ قائلاً : «إننى لم أعد أحتمل ! » .

وكانت اللحظات التي يلتجئ فيها هذا السيد المعبود إلى المطبخ وقد أثقله التوتر الشديد ، أسعد اللحظات عند «ليبوريللا» ، التي لم تسمح لنفسها قط بأن ترد عليه أو توجه إليه كلمة عزاء ... وإنما كانت تظل صامته منطوية على نفسها ، مكثفة بأن ترفع أحياناً نظرة «إشفاق» نحو معبودها ، الذي كان يجد راحة في

هذا العطف الصامت ! وما أن يغادر المطبخ ، حتى كانت التقطية
الثائرة تعود إلى جبهة « كريسانس » ، فتروح تعجن اللحم المستسلم
بين يديها الثقيلتين ، في حركة عصبية ، أو تصب غضبها على
الفضيات والأواني التي تنظفها !

في مثل هذا الجو ، حدث في النهاية ما لم يكن بد من حدوثه :
انفجرت العاصفة ! فخلال أحد المشاهد العنيفة فقد البارون صبره ،
وتخلى عن دور الغلام المتواضع الخاضع .. فصاح في غضب :
« كفى ! » .. ثم صفق خلفه باب الصالون في عنف ، اهتزت له
ألواح الزجاج في كافة الغرف ، وانطلق إلى المطبخ حيث كانت
« كريسانس » تهتز كالقوس المشدود ، وقال : « أعدى لى فوراً
حقيقتى وبندقتى . لأنى مسافر للصيد لمدة ثمانية أيام . إن الشيطان
نفسه لا يستطيع احتمال هذا الجحيم ! .. يجب أن أضع له حداً ! » .
ونظرت إليه « كريسانس » مأخوذة بالنشوة : لقد عاد فأصبح
السيد ! .. وفي نفس الوقت الذى انطلقت فيه من حنجرتها ضحكة
خشنة ، قالت : « إن سيدى على حق ! يجب وضع حد لهذه
الحال ! » .. وفي حماسة معمومة أخذت تعدو من حجرة إلى
أخرى ، لتنتزع في عنف من داخل الدواليب أو من فوق المناضد ،
كل ما هو في حاجة إليه .. ثم حملت بنفسها الحقيبة والبندقية إلى
التربة .. وإذ هم البارون بشكرها ، ارتد إليه بصره مفزوعاً .
ف فوق شفتى الخادمة المطبقتين ، كانت ترحف تلك الضحكة الخبيثة

التي كانت تروعه في كل مرة ، إذ تبدو له أشبه بتكشيرة الحيوان
الذي يتأهب للانقضاض على فريسته ! ولكنها لم تلبث أن عادت
إلى ذلتها .. وفي ألفة جارحة أخذت تتمم بصوتها الخشن :
« فلتطب لسيدى الرحلة .. وليطمئن ! فلاني سوف أفعل كل
ما يجب فعله » !

- ٨ -

● وبعد ثلاثة أيام من ذلك التاريخ ، استدعى البارون من الصيد
ببرقية !.. وكان ابن عمه ينتظره في المحطة . فأدرك فوراً أن أمراً
غير سار لابد قد حدث .. سيما وقد لاح ابن عمه مرتبكاً مضطرب
الاعصاب . وبعد مقدمات قصيرة ، علم البارون أن زوجته قد
وجدت في الصباح في مخدعها جثة هامة ، وأن الموت نشأ عن
اختناقها بالغاز !.. وأضاف ابن العم أن اقتراض القضاء والقدر
أمر لا يمكن تصوره ، ففي تلك الفترة من العام - شهر مايو -
كان قد مضى زمن طويل على عدم استخدام مدفأة الغاز .. كما أن
المسكينة تناولت عشيّة موتها أقراص « الفيرونال » المنومة ، مما يدل
على قصد الانتحار .. وهذا فضلاً عن شهادة الطبّاخة ، التي كانت
وحدها بالمنزل في تلك الليلة ، والتي سمعت سيدتها تمشي أنشاء
الليل في دهليز الغرفة ، مما يرجح أنها كانت ذاهبة لفتح صنبور
الغاز الذي كان محكم الإغلاق . واعتماداً على هذه الشواهد قرر

الطبيب الشرعى عند استدعائه ، فى محضر حرره ، استبعاد فكرة القضاء والقدر ، مقررأ أن الوفاة كانت بالانتحار !
وأخذ البارون يرتعد .. فبمجرد أن أشار ابن عمه إلى شهادة « كريسانس » ، أحس بيديه تبردان ، واستبدت به فكرة مؤلمة بشعة - كأنها الكابوس - ولكنه كتبها ، وترك نفسه يقاد إلى منزله فاقد الإرادة . وكان جسد الميتة قد وضع فى تابوت ، والأهل ينتظرونه فى الصالون ، عابسين .. وقد بدا شعورهم العدائى ، وتعازيهم الباردة ، كنصال الخناجر ! .. ورأوا أنفسهم مضطرين إلى أن يؤكدوا أنه ليست هناك لسوء الحظ وسيلة لإخفاء القضيحة ، وذلك لأن الخادمة أخذت منذ الصباح تهرول فى السلام صائحة بصوت حاد : « سيدتى قد انتحرت ! » .. ولذلك أوصوا بأن تكون الجنائزة بالغة البساطة ، فإن الشائعات أثارت فضول الجمهور .. وكان فى كل هذا الحديث ما وجه النصل الحاد من جديد نحو البارون ، الذى انهار وأخذ ينصت فى ذهول ، وبالرغم منه ، رفع فى إحدى المحطات بصره إلى باب غرفة النوم المغلقة ، ولكنه لم يلبث إن خفضه فى استخفاء .. وحاول أن يسترسل فى تقليب فكرة غامضة أخذت تلح عليه وتعذبه ، لكن هذه الأحاديث الجوفاء الصادرة عن الأهل ، فى بغضاء ظاهرة ، أنزلت به الاضطراب الشديد .. وظل هؤلاء الناس المحجلون بالبواد يدورون حوله ويثرثرون ، لنصف ساعة أخرى ، ثم انصرفوا ..

وبقى هو وحيداً فى الغرفة الخالية المعتمة، يرتعد كمن تلقى صدمة ،
وفى جبهته صدام .. وفى مفاصله تكسر !

* * *

● ودق الباب ، فانتفض قائلاً : « ادخل » ! .. وأحس خلفه
بخطوة مترددة ، خشنة ومتسللة معاً .. خطوة كان يعرفها جيداً !
وأخذه ذعر مفاجئ . وخيل إليه أن عنقه قد تحجر ، كما انتابته
رعدة سرت من صدغيه إلى ركبتيه ! وأراد أن يستدير ، لسكن
عضلاته أبت عليه ذلك ، فظل واقفاً فى مكانه وسط الغرفة صامتاً
مرتجفاً ، وذراعاه متدليتان ، متصلبتان ، وقد خالجه فى وضوح
ذلك الإحساس بالجن الذى يحسه المجرم ! وحاول أن يتحرك ،
لكن مجهوداته ذهبت عبثاً ، ولم تستجب له عضلاته .. وما لبث
أن سمع من خلفه صوتاً جافاً غير مكترث يقول : « إنما أريد
أن أسأل سيدى : هل سيتناول طعامه هنا أو فى المدينة ؟ » ..

وتزايدت رجفة البارون ، وسرت فى قلبه برودة الثلج ،
فتلثم عدة مرات قبل أن يستطيع أن يتمم بقوله : « إننى لا أريد
شيئاً الآن ! » .. وأخذت الخطوة تبتعد متثاقلة ، بينما ظل هو
عاجزاً عن أن يستدير . وفجأة انكسر هذا التصلب ، فأحس بهزة
تخترق كيانه من رأسه إلى قدميه .. هزة تشنج أو اشمئزاز ! وفى
قفزة انطلق نحو الباب ، وأدار المفتاح - وهو يرتعد - كى
لا تلاحقه تلك الخطوة الاعمىة البغيضة ! .. ثم ألقى بنفسه فى مقعد

وثير ، ليطرد فكرة كان يحاول أن ينحيها فلا تكف عن أن تلح عليه ، باردة لزجة كالأفعى ! .. وكانت هذه الفكرة الملحة التي كره أن يفحصها ، هذه الفكرة اللازجة المنفرة ، قد أخذت تغزو نفسه دون أن يستطيع فككاً منها ، فلم تتركه طوال الليل ، ولا في الساعات التي تلت .. بل ظلت ملازمة له أثناء دفن المتوفاة ، وهو واقف في صمت إلى جوار التابوت !

* * *

● وفي اليوم التالي للجنائز بادر البارون إلى مغادرة المدينة ، إذ لم يعد يطبق رؤية كل تلك الوجوه التي كان عطفها عليه يحمل نظرة غريبة من التساؤل والتحرى الذي كان يرضيه . بل إن الجمادات ذاتها كانت تتحدث إليه في خبث ، وكأنها تتهمه !

أما الكابوس المخيف الذي أخذ يخنقه في النوم والصحو ، فقد تمثل فيما لاحظته من عدم اكتراث شريكة أسرارهِ السابقة ، التي أخذت تسرح في المنزل الخاوي ، كأنما لم يحدث فيه شيء على الإطلاق ! ومنذ اللحظة التي فاه فيها ابن عمه باسمها في المحطة ، صار البارون يرتجف لمجرد التفكير في أنه سيلقاها ! .. وصار إذا سمع وقع قلميها ، تملكه انفعال عصبي قلق يدفعه إلى الهرب ! .. فهو لم يعد يطبق رؤيتها ، ولا جرجرة خطواتها ، ولا برودها وجود إحساسها .. وبات ينتابه الاشتزاز لمجرد التفكير فيها : في

صريـر صوتها ، وفي شعرها اللزج ، وإحساسها الأصم الحيواني ،
الذي لا يعرف الرحمة !

وفي غمرة غضبه نغم على نفسه أن أعوزته القوة كي يحطم هذا
الرباط الذي بات يخنقه ، حتى لم يعد يرى غير مخرج واحد
منه ، هو الهرب !.. فأعد حقايبه سراً دون أن ينبس ببنت شفة
لكريسانس ، مكتفياً بأن يترك لها مذكرة مقتضبة يخبرها فيها
بأنه قد ذهب إلى أصدقاء في « كارنتيه » .

- ٩ -

● وظل البارون متغيباً طوال الصيف ، حتى استدعى إلى « فيينا »
كي يسوى حساب الميراث .. ففضل عندئذ أن يعود إلى العاصمة
« سراً » ، وأن يتزل في فندق ، دون أن يخطر ذلك الكائن المشؤم
الذي كان ينتظره في منزله !.. والواقع أن « كريسانس » لم تلتق
منه أي خبر طوال غيبته .. وكانت تعود إلى محاميه فيما يختص
بالعناية بالمنزل وتغطية المصروفات الجارية . وفيما عدا ذلك كانت
تقضي الأيام منتظرة في المطبخ ، جامدة فوق مقعدها ، كثيبة
كالبنومة !.. ثم بدأت تذهب إلى الكنيسة مرتين في الأسبوع بدلا
من مرة واحدة . وأخذت عظام وجهها تزداد بروزاً .. وشكلها
يشته قسوة .. وأصبحت حركاتها حركات تمثال آلي !.. وعاشت
على هذا المنوال أشهراً طويلة ، في حالة خمول غامض !
ومع ذلك فقد جدت في الخريف أمور عاجلة ، منعت

البارون من أن يطيل غيابه ، واضطرته إلى أن يعود إلى منزله .. فوقف متردداً عند مدخل المنزل ! .. كان الشهران اللذان قضاهما بين أصدقاء جميعين قد أنسيه أشياء كثيرة .. أما الآن ، وقد أوشك أن يجد نفسه وجهاً لوجه أمام ذلك الكابوس - بل أمام تلك الشريكة في الجرم ! - فقد أخذت تعاوده نفس التقلصات الخائفة ، ونفس الغثيان القديم ! .. فكان كلما صعد درجة من السلم ازداد تباطؤاً ، وكأن يداً خفية تأخذ بخناق ، وتزداد ضغطاً عليه شيئاً فشيئاً ! واحتاج إلى أن يجمع إرادته كلها كي يحمل أصابعه المتجمدة على أن تدير المفتاح في قفل الباب الخارجى ، ليدخل ..

.. وما أن فوجئت « كريسانس » بسماع صرير المفتاح حتى قفزت إلى خارج المطبخ ! .. فلما رأت سيدها ، امتقع لونها لحظة ، ثم مالت نحو الحقيبة التي وضعها عند قدميه ، كي تطرق برأسها إلى الأرض .. ولكنها نسيت أن تقدم إليه تحياتها ، كما أنه من ناحيته لم يفتح فمه ! .. وفي صمت حملت الحقيبة إلى الحجرة ، وفي صمت تبعها هو ! .. ثم أخذ ينظر من النافذة منتظراً أن تغادر الغرفة ، فلما فعلت سارع إلى إغلاق الباب بالمفتاح مرتين !

* * *

● وانتظرت « كريسانس » - كما انتظر البارون أيضاً - أن تختفي تلك « القشعريرة » المزعجة التي كان يحس بها عند رؤيتها ! .. ولكن عبثاً .. فقد كان الضيق يأخذ بخناق بمجرد سماع وقع

خطواتها بالردده ، دون أن يراها ! .. ولم يعد يتناول إفطاره في البيت ، بل كان يسارع في كل صباح إلى الهرب - بغير أن يوجه إليها قولاً ! - فيظل غائباً حتى ساعة متأخرة من الليل ، لا لشيء إلا لتجنب رؤيتها ! .. وعندما كانت الضرورة الحتمية تقتضيه أن يوجه إليها الحديث ، ليصدر إليها أوامره ، كان يفعل ذلك وهو مشيح بوجهه عنها .. بل إن مجرد استنشاقه هواء الحجرة - التي تجمعها وهذا الشبح - كان يخنقه ويكاد يزهق أنفاسه ! .. وفي تلك الأثناء ، كانت كريسانس تقضى بحسابة يومها فوق مقعدها في صمت مطبق ، فلم تعد تطهو شيئاً لنفسها ، وكانت تنفر من كافة أنواع الطعام ، وتتجنب جميع الناس ! .. كانت قابضة هناك واجفة القلب ، كالكلب الذي يعلم أنه أخطأ ، ولكنه ينتظر صغير سيده يبشره بالصفح ! إنها لم تدرك بعقلها المغلق ما حدث .. ولكن مجرد تجنب سيدها إياها ، وزهده في خدماتها ، كان يؤثر فيها تأثيراً عميقاً !

وبعد عودة البارون بقليل دق الباب ، وإذا برجل أشيب الشعر ، حليقه في عناية ، ينتظر لدى الباب ويبيده حقبة . وأرادت كريسانس أن تعرف من يكون ، فقال : إنه الخادم الجديد الذي طلب إليه السيد أن يحضر في الساعة العاشرة . وطلب إليها أن تبلغ سيدها بقدمه .. فامتقع لون « كريسانس » ، وظلت لحظة كالمتجمدة ، مادة يدها في الهواء ، وقد تصلبت أصابعها

المنفرجة ، ثم سقطت يدها كالعصفور الذى أصابته رصاصة .
وفى صوت مخنق ، قالت للرجل : « تول أنت تبليغه » !
ثم حبست نفسها فى المطبخ بعد أن صكت الباب من خلفها !

* * *

● واستلم الخادم عمله . ومنذ ذلك اليوم ، لم يعد السيد فى حاجة
لأن يوجه إلى « كريسانس » أى حديث . فقد كانت الأوامر
الخاصة بها تنقل إليها بواسطة هذا الخادم الكهل الهادئ . ولم تعد
تعلم بما يجرى فى المنزل ، فقد صار كل شىء يمر فوقها فى برود ،
مرور الموجة فوق الحجر !

واستمرت هذه الحال خمسة عشر يوماً كانت وبالا على
« كريسانس » ، فأضحى وجهها مديباً حاد الزوايا ، وابتض
شعرها فجأة عند الصلغين . واستمرت تجلس على مقعدها كأنها
كتلة من الخشب ، محذقة بنظرها الحاوى فى فضاء النافذة ..
وصارت حركاتها ، حين تشتغل ، تشبه نوبات الصرع !

وفى نهاية الأسبوعين ، أتى الخادم يوماً إلى السيد فى مكتبه .
واستنتج البارون من مظهره أن لديه شيئاً هاماً يود أن يفضى به
إليه . وكان الخادم قد سبق له أن شكاً من غلظة تلك التيرولية
القدرة ، واقترح طردها .. ولكن لاح عندئذ أن البارون لا يستمع
إليه ، فانسحب الخادم منحنياً .. أما فى هذه المرة فقد صم على
فكرته . وفى عبوس ينم عن الحرج ، تتم راجياً من سيده أن

يسخر منه إذا شاء ، ولكنه .. مضطر .. نعم ، لا مفر له من أن يعترف بأنه .. خائف منها ! .. فإن هذه المرأة المنطوية الشريرة لا تطاق . و « السيد لا يعلم قطعاً أى شخص خطر يظله بمنزله ! » .

وعند سماع هذه الألفاظ ، انتفض البارون ، وسأل الخادم عما يعنيه ، فاضطر هذا إلى أن يتراجع ، وادعى أنه لا يستطيع تحديد شيء ، ولكنه يحس أن هذه المرأة حيوان متوحش ، قادر على أن يأتى أمراً رهيباً .. ولقد فطن إلى نظرة منها أشعرته بأنها تود لو كتمت أنفاسه ! ومع أنه ليس من الصواب أن يبنى حكماً على مجرد نظرة ، إلا أنه منذ ذلك الحين صار يخافها ، إلى حد أنه كان يخشى أن يمس لوناً من ألوان الطعام التى تصدها ! .. ثم أضاف : « لا شك أن سيدى البارون لا يعلم إلى أى حد تبلغ خطورة هذه المرأة ! إنها لا تتكلم ، ولا تقول شيئاً ، ولكنى أحسبها قادرة على أن ترتكب .. جريمة ! » .

وألقي البارون المفزوع نظرة مفاجئة على صاحب الاتهام ! .. ترى هل سمع حديثاً عن شيء محدد ؟ .. هل عبر له أحد عن شك ما ؟ .. وأحس بأصابعه ترتجف ، فسارع إلى إلقاء السيجار حتى لا يفضح تعرج الدخان اضطراب أعصاب يديه ! .. ولكن وجه الخادم الكهل لم يكشف عن أى قصبة دفين .. لا ! .. لا بد أنه لا يعرف شيئاً ! .. وتردد البارون ، ثم تسلح فجأة بميله الباطنى وقال :

« اصبر عليها قليلا .. ولكن إذا عادت إلى الغلظة معك ، فلتعطيها بالنيابة عنى حسابها وتفصلها » .

وانحنى الاندام ، وعاد البارون إلى الجلوس . كان التفكير في هذه المخلوقة الغامضة الخطرة ، يفسد عليه نهاره كله .. وقال لنفسه : « قد يكون من الأفضل أن يحدث هذا أثناء غيابي .. في فترة عيد الميلاد مثلا ! » .. وكانت مجرد فكرة الخلاص المرتقب تشعره بالراحة . وعاد يكرر : « نعم ، أثناء فترة عيد الميلاد .. أثناء غيابي » .. وكأنما كان بهذا التكرار يبرر قراره في عيني نفسه !

- ١٠ -

● على أنه - في اليوم التالي - لم يكده ينسحب إلى مكتبه بعد الطعام ، حتى أخذ الباب يدق . فانتزع بصره بحركة آلية عن الصحيفة التي كان يطالعها ، ورجرج قائلا : « ادخل ! » .. وإذا بالخطوة البغيضة - تلك الخطوة القاسية المجرجرة التي تقض أحلامه - تصك أذنيه ! .. وفوق هيكل « كريسانس » الأعرج الأسود ، كان يهتز رأس ضامر ممتقع يذكر الرائي برأس ميت ! .. فأخذ شيء من الشفقة يخالط فزع البارون ، حين رأى ذلك المخلوق البائس المنحني على نفسه يقف في خوف عند حافة السجادة ! .. ولكى ينحني ارتباكاه ، قال متظاهراً بالسذاجة : « هه ! ما وراءك يا كريسانس ! » .. ولكنه لم ينجح في أن يعطى

عبارته النغمة اللطيفة التي أرادها .. ولاح سؤاله — بالرغم منه جافاً .. غير ودى !

ولم تتحرك « كريسانس » ، وإنما غاص بصرها في السجادة .. وفي النهاية تمتت فجأة كمن يركل في عنف شيئاً بقدمه ، قائلة : « لقد أخطرتي الخادم بفصلي من الخدمة .. وقال إنه يفعل ذلك بناء على أوامر السيد ! » .

فنهض البارون ، وقد اشتد به الضيق والخرج .. لأنه لم يكن يحسب أن الأمر سيسير بهذه السرعة ! .. وأخذ يرد عليها بطريقة غامضة غير محددة ، ناصحاً إياها بالأىفزها الأمر ، وأن تحاول الاتفاق مع الخدم الآخرين .. وبالجملة قال لها كل ما مر برأسه . ولكن « كريسانس » ظلت جامدة في موقفها ، وعيناها لا تفارقان السجادة ، ورأسها غائر بين كتفها ، ورقبتها محنية في عناد .. لم تكن قد أنصتت إلى شىء مما قال ، فقد كانت ترتقب عبارات أخرى لم توجه إليها ! .. حتى إذا صمت البارون في النهاية — ساخطاً على هذا الدور الحقير الذى لعبه أمام الخادم — تمتت قائلة : « إنما أردت فقط أن أعرف هل سيدى البارون هو الذى كلفه بطردى ؟ » . قالت هذه العبارات في قسوة وعنف غاضب ، فأحس البارون المهتاج الأعصاب بتحفز .. أهو تهديد ؟ .. أهو استفزاز ؟ .. وفجأة ، تلاشى من نفسه كل جبن ، وكل شفقة .. واختلط البغض والاشتمزاز الاذنان تجمعاً في نفسه منذ أسابيع ، بالرغبة في

إنهاء هذا الوضع .. فغير لهجته تغييراً تاماً ، ليؤكد بالبرود « الإدارى » الذى تعلمه قديماً فى منصبه الحكومى ، أنه قد فوض الخادم تفويضاً تاماً فى كل ما يختص بشئون المنزل . وأنه شخصياً لا يريد لها غير الخير ، كما أنه مستعد لأن يسوى المسألة ، على أنها إذا أصرت على الاستمرار فى فظاظتها مع الخادم ، فسوف يجد نفسه مضطراً إلى أن يستغنى عن خدماتها !

وعند التفوه بهذه العبارات الأخيرة ، استجمع كل قوته ، وقد انعقد عزمه على ألا يتأثر بأية ألفسة أو أى تلميح خفى .. وجعل يحدق بعزم وإصرار فى تلك التى ظن أنها تهدده ! لكن النظرة التى رفعها « كريسانس » نحوه فى تلك اللحظة ، فى استحياء ، لم تكن إلا نظرة حيوان جريح ، يرى أمامه كلاب الصيد خارجة إليه من خلال الأحراش التى كان يأمل أن يجد فيها مأوى له وملاذاً !

وتتممت الخادم قائلة بصوت كسير : « شكراً ! .. إلى ذاهبة ! .. فلست أريد أن أثقل على السيد ! » . وفى بطاء ، ودون أن تلتفت ، خرجت تخرج رجز قلميها ، متهدلة الكتفين !

* * *

● وفى المساء ، عاد البارون من « الأوبرا » ، وإذ تقدم يتناول بريدته اليومى من فوق مكتبه ، لمح على المكتب شيئاً غريباً

مستديراً .. صندوقاً صغيراً من الخشب المحفور بالطريقة الريفية ،
لم يكن مغلقاً بمفتاح . وفي داخله ، إلى جوار حزمة من أوراق
البكنوت المستطيلة ، وجد تلك الأشياء الصغيرة التي كانت
« كريسانس » قد أخذتها منه ، وقد رتبت في عناية : بعض
خرائط الصيد ، وتذكرة مسرح ، وخاتم من الفضة .. وثمة
صورة فوتوغرافية أخذت لكريسانس في « التيرول » منذ عشرين
عاماً .. وفي عينيها اللتين أفرعهما يومئذ بلاريب وهج المغنسيوم ،
رأى نظرة الحيوان المطارد .. نفس النظرة التي لاحظها في عينيها
بعد ظهر اليوم ، وهي تغادر مكتبه ..

وأحس البارون بشيء من الارتباك ، فدفع الصندوق ..
ونادى الخادم ليسأله عن سر وجود هذه الأشياء الخاصة بالطباخة
على مكتبه ! .. فانطلق الخادم بدوره ليجث فوراً عن غريمته .
كى تقدم لسيده إيضاحاً ..

لكن « كريسانس » لم تكن بالمطبخ .. ولا بأية حجرة
أخرى .. ولم يعرف مصيرها إلا في اليوم التالي ، حين أعلن
البوليس أن امرأة في نحو الأربعين قد انتحرت بإلقاء نفسها في
قناة الدانوب .. ومنذ تلك اللحظة لم يعد هناك محل للتساؤل عن
مكان ليبوريللا !

[تم الكتاب]

زها توبولك

تأليف : برتراند راسل
ترجمة : شاكرا ابراهيم
مراجعة : عبد الحليم البشلاوي



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٦

فى رداء فضفاض وبخطى وثيدة اعتلى بروفيسر « دريوزدستادز » ،
عميد كلية التعليم الطائر الصيت ، منصته بقاعة الانكا بمدينة كوزكو ،
بعد أن أعيد إليها رونقها وجلالها ، حيث واجه الحاضرين الذين كانوا
يتحرقون شوقا الى سماعه فى مستهل العام الدراسى • وكان قد خلف
فى هذا المنصب الخطير أباه ، بروفيسر « دريوزدست » - الذى لم يكن
دونه شهرة - بعد أن وافقه المنية • أما من كان على وشك أن يحاضرهم
من الدارسين ، فهم المائة المنتقاة من طول البلاد وعرضها ممن كانوا
يبشرون بمستقبل باهر مشرق وأنهوا المرحلة العادية فصاروا يقفون
على أعتاب دراستهم العليا التى جعلت لكلية التعليم مالها من تأثير بالغ
على الرأى العام • واشرايت أعناق الشباب ينتظرون فى شوق ولهفة
كلمات الحكمة الرصينة - ونى ذلك لم يداخلهم أدنى شك - التى توشك
أن تتدفق من بين شفتيه • ولم تظهر بين تلك الصفوة المختارة دلائل أى
ذكاء متقد يستوقف الانتباه الا بين اثنين دون غيرهما : أحدهما ابنه
توماس الذى يرجى أن يخلف أباه فى مركزه المرموق حين تحين الساعة ،
والآخر فتاة رائعة الحسن ، عميقة التفكير ، تلتهب حماسا وغيرة ،
اسمها « ديوتيميا » كاذت قد أسمرت بالحب قلب توماس •

وتنحنح البروفيسر اورشف قليلا من الماء ، ثم طفق يقول :

« أن موضوع محاضرتى اليوم هو القرن الثلاثون قبل « زهاتوبولك »
أو القرن العشرون بعد الميلاد كما يطلق عليه الذين عاشوه • ويعتقد
الحكام ممن يرسمون سياسة التعليم فى هذه البلاد السعيدة أنكم ،
أيها الصفوة المنتخبة ، قد بتم راسخين فى فهم وتقدير عقيدتنا المقدسة
والالهام الذى ندين به للاله زهاتوبولك ، مؤسس هذه العقيدة ، رسوخا
يتسنى لكم معه أن تسمعوا عن عصور كانت تفتقر الى ايمانكم وحكمكم

لن أن يخلل اتزانكم العقلى . وبديهي أنه لن يغيب عن بالكم هنية
أنها كانت عصوراً غارقة فى دياجير الظلمات . وخليق بكم كذلك -
كباحثين مجدين فى دراسة التاريخ - أن تعزلوا ، وأن تكن مهمة شاقة
مضنية فى بعض الأحيان ، فى خيالكم كل ما تعرفونه عن المخلصين
الصالحين مدركين بأنه وسط الظلمة عينها قد وجد رجال يرقون الى
مستوى أفاضل الرجال ، اذا ما قيسوا - على الأقل - بمن كانوا
يعيشون فى زمانهم . وحرى بكم أن تتعلموا الا ترتاعوا حين تعلمون
أن أولئك الذين كانوا يحظون باحترام الجميع وتجيلهم كانوا يأكلون
البازلاء علانية وبلا حياء ! . ولعل الحقيقة الأخرى التى قد يصعب
عليكم التجاوز عنها هى أنه حين كان عدد أبنائهم يتعد ثلاثة الأولاد
لم يأكلوا ، كما نفعل نحن ، الزيادة من أجل مجد الدولة بل كانوا يبقون
عليهم ، فى أئانية ، أحياء . وخلاصة القول أن من واجبكم أن تنموا
فى ذواتكم ملكة الخيال التاريخى . دون أن يخفى عليكم أنه وإن كانت
هذه فضيلة تتحلون بها أيتها النخبة المنتقاة ، الا أنها ستكون عاملاً
هداماً جد خطير فيما لو انتشرت فى دوائر أرحب وأوسع نطاقاً .
وانكروا دائماً أن ما يتردد فى هذه القاعة إنما هو وقف على الحكماء
ولا ينبغى أن يذاع على السوقة ، وبهذا الشرط أبداً مهمتى .

كان القرن الثلاثون قبل « زهاتوبولك » عصر انتقال سادته الفوضى
وعمه الاضطراب ، عصراً زخراً بالانتفاضات والنكبات ، عصراً استعصى
فيه عن النظرية الاغريقية - اليهودية بالفلسفة البروسو - سلافية ،
وتلاشى فيه من عقول الصغار والكبار على السواء أساس العقيدة التى
بدونها لا ينعم المجتمع بأمن أو استقرار . كان هنالك ما يعرفه ضحايا
الشك المدللون بعصر الايمان حين كانت الفلسفة الاغريقية - اليهودية
يتقبلها الجميع بلا جدال باستثناء أقلية ضئيلة كانت تخرسها المقطرة
ويأتى عليها التعذيب بالخازوق المنتصب فى قلب النار المتأججة . بيد أن
الذى وضع نهاية لهذا العصر عقيدة فاسدة ضارة لم تجد لها بيننا -
ويسعدنى التنبؤ بذلك - نصيراً واحداً ، تسمى بفلسفة التسامح . وأمن
الناس فعلاً أن بوسع الدولة أن تنعم بالاستقرار رغم الخلافات الجوهرية
فى معتقدات المواطنين الدينية . تلك هى البدعة التى أدت الى انهيار
النظرية الاغريقية اليهودية أمام الادعاء القوي للفلسفة البروسو - سلافية
وأرجو ألا يساء فهمى ، فأنا لا أنكر - وأملئ ألا يتصور أحدكم لحظة
أننى أفعل ذلك - أن ثمة ذرة من الحق فى مبادئ الفلسفة الاغريقية -
اليهودية أو فى تلك التى قامت عليها النظرية البروسو - سلافية ، إذ أن

واحدة منهما لم تتنبأ بالاله زهاتوبولك ، ولم يتبين ما للرجل الأحمر من تفوق فطرى على ماعداه من الأجناس ، كما لم يدركا المبادئ السامية التى تقوم عليها ، فى سعادة تامة ، كل من الحياة العامة والخاصة ، من بينهما حياتنا نحن ٠٠ انما أقول عن تلك الأنظمة التى عفى عليها الزمن شيئا واحدا فحسب : أقول انها طالما ظلت قائمة وآمن بها الناس بحماس بالغ يتحتم معه الاصرار على وحدة الصف ، استبطاوا بذلك توحيد المجتمع عن نمط معين - حتى وأن لم يرق ، بالطبع ، الى مستوى الكمال الذى بلغناه نحن بفضل الهام زهاتوبولك ٠ لقد كانت للأنظمة السالفة جميعا نقائصها التى أدت الى انهيارها ٠ فكان النظام البروسو - سلافى يبدو فى أوج مجده راسخ البنيان ، شأنه فى ذلك شأن الفلسفة الصينية - الجاوية التى أعقبته ، بيد أن ما انطوت عليه من نقائص قد أطاح بها فى نهاية المطاف ، وما خلا من الشوائب سوى نظام زهاتوبولك ، الذى سوف يكتب له الدوام - دون سواه - طالما وجدت كائنات حية تمد زهاتوبولك بالمتعبدین المؤمنین ٠٠٠

ومضى البروفسور يعلن أن معظم ما بين أيدينا من روايات عن انحلال الفلسفة الاغريقية - اليهودية قد سطر من وجهة نظر الظافرين ، فهم تبرز زحف النصر للاله ستالينوس واستئصال ما تبقى من المشايخين لذلك النظام المتنازع فى كل بقعة من بقاع العالم ٠٠ وأشار الى أنه من واجب المؤرخ - لو تيسر له ذلك - أن يبحث عن روايات تمثل وجهة نظر الجانبين ، وأن يكون للمقهورين نصيبهم فيما يكتب فى هذا الصدد ٠٠٠

واستطرد يقول : « ومن حسن الحظ أنه ظهرت ، أخيرا ، فى جزر « فولكلاند » وثيقة تمكن من يطلع عليها من أن ينظر بعين العطف الى ما تميزت به نهاية عصر عظيم من فنون وارتباك بالغين » .

وبعد أن فرغ من تلاوة الوثيقة مضى يقول : « كانت أمثال هذه الوثيقة مجهولة بطبيعة الحال حين سادت الفلسفة البروسو - سلافية ، فتحت لواء الاله العظيم « ديالميت » أسس سكان السهول الشمالية امبراطوريتهم المظفرة وساندوها بالتشريعات التعسفية التى لولاهما ما حظيت أساطيرهم بالقبول ٠ ولقد ذاع صيت رسولهم « ماركوس » و « ليننوس » فى جميع أنحاء الدنيا بواسطة الأيقونات التى كان على كل بيت أن يقتنيها ، ومن لم يحرزها كان الاعداء جزاءه ! ٠٠ ويات

المؤسسان يتميزان بطويل اللحية وقصيرها على التوالي ، وساد الزعم بأن فضيلتهما اتى تسلب اللب انما تكمن فى زوائدهما الكثيفة الشعر ، ٠٠٠٠ أما خليفتهما « ستالينوس » الذى كانت فضيلته عسكرية لا عقائدية فلم ينل قدر ما حظى به سلفاه من تكريم وتبجيل ، وليس أدل على ذلك من الاستعاضة عن اللحية بالشارب فحسب !! وسرعان ما انقرضت اللغة الألمانية التى سطرت بها الكتب المقدسة لتلك الحقبة بعد زوال عهد « ستالينوس » ، فلم يستطع قراءتها سوى نفر ضئيل من العلماء الذين لم يكن يسمح لهم بالاتصال بالشعب الا عن طريق السلطة السياسية العليا ، فلقد كان ذلك القيد ضروريا بسبب ما تضمنته تلك الكتب من فقرات ، لو ترجمت بحذافيرها لأثارت قلق الحكام واضطرابهم وحملت المحكومين على الاستياء والتبرم .

« وسارت الأمور سيرها المحمود قرونا عديدة حتى جاء الوقت الذى توهم فيه الحكام أنهم فى أمان وأطمئنان فأعاروا أذانهم لعلماء الصين المتشككين المحدثين ولم تكن لبعض هؤلاء المتشككين ، ولا غرو ، أية دوافع خفية بل كان يحركهم الفضول الفكرى الجامح الذى لعب دورا بالغ الشأن فى انهيار الحقبة السالفة ، لكن فريقا آخر يمثل الغالبية كان له هدف أسمى ، فلم يكن أفرادهم يرون أن ثمة مبررا لاحتكار البيض للكتب المقدسة ، وعقدوا العزم ، فى مخاتلة ودهاء ، على الحط من شأن تلك الكتب وجعلوا يوحون بأن فى لغتهم - التى يجهلها حكامهم - كتباً ضارية فى القدم تفوقها قدسية وغموضا وتدعو للرهبة . وراحوا يستميلون حكامهم رويدا رويدا وينشرون الالحاد بين صفوفهم ، أما هم فقد عزفوا عن ذلك . وبعد أن اتحدوا معا بأوثق الروابط التى تربطهم بها عقيدة سرية انطلقوا يعملون فى الخفاء متذرعين بالصبر لتقويض الصرح الشامخ للنظام البروسى - سلافى . وفى اليوم المعين الذى سبق أن حددوه فى مجالسهم السرية قبل وقت طويل ، هبوا للقضاء على حكامهم بسم مركز مستخلص من نبات كراكاتو البركانى ، ومن ثم بزغ فجر الحقبة الصينية - الجاوية التى سبقت عصرنا الميمون مباشرة . . . »

« لقد ظلت بلادنا العزيزة ، التى هى اليوم فى أوج مجدها وعظمتها وتنعم بأمن دائم ، أجيالا طويلة تقاسى ألما مريرة مبرحة ، فى غضون القرون الأربعة الأخيرة من العصر الاغريقى - اليهودى تعرض الرجل الأحمر للخداع ، أو أصبح طريد القانون ، أو انحط الى مرتبة العبيد . »

وفرض الرجل الأبيض الصلف سلطانه على قارتنا العظيمة التي طردته منها الطبيعة الرحيمة ردحا من الزمن ايان ازدهار امبراطورية الانكا الأولى ، ولاح لفترة كائن الاطاحة بهؤلاء السادة القساة تحمل بين جنباتها الحرية ، ولما كان « البروسيون - السلافيون » فى حاجة الى تأييدنا كى يطيحوا بالعثنين من « الاغريق - اليهود » فقد جعلوا يقطعون أعظم الوعود بالحرية ليلهبوا حماسنا ويحظوا بتأييدنا ، فما أن تحقق لهم النصر حتى حنثوا بالعهد وألفى الحمر الشجعان - من كان لمعونتهم أبلغ الأثر فى الظفر - أنفسهم فى حال لا يفضل ما كانوا عليه من قبل ، ولم يطرأ علينا أى تحسن فى ظل العهد الصينى - الجاوى . لكن التقاليد المتليدة المستمدة من الماضى السحيق للانكا المقدسين وآثارهم التى ما برحت تخبر بمجدهم وعظمتهم ، هى وحدها التى أحييت الرجاء فى نفوس جماعة سرية صغيرة بأن اله أجدادنا سيعود ريمنحننا السيادة التى نستحقها بما لنا من فضائل ولما قاسيناه من آلام وأوجاع ..

« وانغمس الصينيون - الجاويون ، مثلهم مثل حكام العصور السائفة ، شيئا فشيئا فى الملذات وفى الحياة للرغدة الناعمة ، فلم تغرم قمم جبالنا الوعرة ووديان أرضنا المقدسة الصعبة المنال ، فسكنوا القصور فى السهول ، وأحاطوا أنفسهم بكل ألوان الترف ، يرتدون الحرير الناعم ويتكئون على الوسائد المزركشة ويقوم على خدمتهم - وأن كنت أحس بخجل وأنا أفوه بذلك - عبيد من شعبنا ٠٠٠٠ عبيد لم يشاركوا ساداتهم تخذلهم ودلائهم ، إذ لم يكن لهم نصيب فيما يتغمسون فيه من ملاذ وترف . وفى تلك الحقبة ، أى منذ ألف عام قسب ، ظهر الاله « زهاتوبوك » . لقد حسبه ، فى بادئ الأمر ، بعض الناس انسانا ليس الا ، وكان ذلك. كما نعلم ، ضللا مبينا ، إذ نزل من قلب السماء واستقر فوق قمة جبل « كوتوباكسى » ورائه الألوف العديدة من بنى جنسنا ، ممن ألهمهم الوحي الالهى ، رؤية العيان وهو يهبط من العلا ، ومن ذلك الجبل المقدس تعطف بالنزول والخلول بين عابديه الذين سرعان ما تبينوا فى ملامحه صورة لالههم المجيد الذى كان يتقبل ولاعهم قبل مجيء « بيزارو » المخرب المرذول . وتاجج الحماس المقدس فى نفوسهم جميعا بطريقة معجزة فأخذوا الداعرين الصينيين على غرة وأبادوهم ، وفى الحروب الطاحنة التى اندلع ليهيبها بعدئذ ، قادهم زهاتوبوك الى النصر بفضل نوع قاتل من فطريات كوتاباكسى التى لم يكن أحد يعرف خواصها حتى أعلنها لتابعيه ، وظل ثلاثين عاما بينهم غارقا فى الحرب أولا ثم فى فنون السلم ، التى هى أشق وأعوص ، بعد أن تحقق النصر الشامل . واليه

يرجع الفضل فى اقامة المنظمات التى نعيش اليوم فى كنفها ، وسيفقى « كتاب الناموس المقدس » ، مهما أضافت اليه الأجيال المتعاقبة ، أساسا لسياستنا . واللويل كل اللويل لمن يوحى بالتحول ولو قليلا عن تلك الرسالة السماوية المقدسة .

الفصل الثانى

الحاضر

استغرق نظام الحكم الذى أقامه الاله « زهاتوبولك » فترة من الزمن حتى توطدت دعائمه . أما مبادئه فقد كانت على نحو من الرسوخ والحكمة السياسية بحيث لم تنتبها أية انحرافات جذرية خلال الألف سنة التى مضت على حلوله ، لقد انهارت الامبراطوريات السابقة جميعها . كما علم زهاتوبولك ، من جراء الترف والنعمه ٠٠٠ ترف فى المعيشة ورقة وسطحية فى التفكير . وهذا ما ينبغى على تابعيه أن يتجنبوه ، ومن ثم تحتم الامتثال لبعض القواعد دون اعتراض وتنفيذها بلا رحمة أو شفقة .

وأول ما أوصى به الاله تابعيه هو أن يذكروا دائما سمو الجنس الأحمر على ما عداه من الأجناس ذات الألوان المتباينة . وأن لشعب بيرو السيادة على الحمر جميعا ، يليه فى المرتبة أهل المكسيك . ومن المسموح به ، بل من المحمود ، أن يشاد بما كان للمايا القدماء من حكمة قبل أن يبدأ رجس البيض بتلويت نصف الكرة الغربى ، على أن يظل شرف المجد القديم من نصيب الانكا . وفوق منحدرات كوتوياكسى نبتت فطريات دقيقة سامة كانت دماء هنود بيرو النقية محصنة ضدها ، بينما نشرت الموت الزؤام بين ما عداه من الشعوب ، وبعد اختبار ما كان يجلبه ذلك الوباء من دمار دأنت بقية شعوب العالم لسلطان الانكا ، وبات التفكير فى التمرد أو الثورة عبر القرون أمرا غير محتمل الوقوع .

وأمكن الحفاظ على قوة الجنس الحاكم بفضل قواعد عديدة

وتنظيمات حكيمة ، لقد حظر عليهم أى لون من الترف ، فكانوا يرقدون فوق أسرة صلبة ذات وسائد خشبية ويرتدون ثياباً من الجلد ، مع الاعتبار أن حلة واحدة تكفى أى رجل أو امرأة من مرحلة النضوج حتى الوفاة • وكان الحمام البارد فى الطقس الجليدى ووسط ثلوج الجبال اجبارياً بقوة القانون ، أما الطعام ، وإن كان صحياً وكافياً ، فقد روعيت فيه البساطة الا فى عيد الظهور السنوى ، وتحتم على كل مواطن فى بيرو أن يقوم بالتدريبات الرياضية العنيفة يومياً حفاظاً على لياقته البدنية ، وحرم الخمر والتبغ على الطبقة الحاكمة وأن أبيضاً لرعاياهم • وأعلن الإله زهاتوبولك مالم يكن معلوماً من قبل ، وهو أن تناول البقول رجس يؤدى الى تلوث كريبه ، فمن تناول البقول من بين البيرويين كان الموت عقابه حتى ان لم يتوفر لديه غذاء آخر ، ومن شهد تلك المفعلة الشنعاء خضع لعملية تطهير شاقة طويلة •• كان ذلك قاصراً على شعب بيرو حيث أن دماء ماعداهم قد تلوثت بالفعل ولا سبيل الى تطهيرها بحظر أو منع •

وكان التدريب على الخشونة يبدأ منذ الطفولة ولاسيما بين الذكور ، فوزعت ساعات الدراسة بين العلوم والألعاب الرياضية والمباريات الخشنة العنيفة ، وحرم على الفتى أن يشكو من تعب ، أو برد ، أو جوع ، ولو حدث ذلك لكان من نصيبه الازدراء به كضعيف هزيل ولتعرض لاحتقار القائمين على أمره ولمعاملة أقاربه السيئة التى يستحقها •• وكان ذلك النظام الصارم يودى بحياة من به ضعف جسمانى ، إذ ساد الاعتقاد أن من العبث تركهم على قيد الحياة ، فكانوا يلقون حتفهم منبؤذين غير مأسوف عليهم ، وإن بكاهم أبائهم فذلك فى الخفاء خشية أن يشاركوا أبناءهم خزيهم وعارهم •

أما التشدد فى تربية الفتيات ، فكان على نحو مغاير اعتقاداً بأن النمو العضلى لا يساعد على انجاب الأطفال ، ولم يكن يسمح للفتاة أن ترضى شيئاً من غرورها أو تكشف عن عواطفها فيما خلا التعبد الروحي والتكريس للانكا • وكانت تجبر على الطاعة المطلقة بأساليب عنيفة محددة ، ومع ذلك فإن عدداً ضئيلاً ممن أظهرن قدرة بدنية ملحوظة تمتعن بشيء من الحرية والمبادرة وإن لم يتعد ذلك حدود الأساليب التى تبيحها التقاليد •

أما نشاط النساء ، باستثناء القلة الضئيلة اللاتى اعتبرن فى شبابهن موهوبات بصورة فذة خارقة للعادة - فقد كان قاصراً على الأعمال

المنزلية ، ولم يعاملن على قدم المساواة مع الرجال ، إذ لم يكن ذوات نفع في القتال مثلهم . حقا ، لم تنشعب معارك بعد الأعوام الأولى ، إذ صار البيرويون يعرفون بأنهم شعب لا يقهر ، وكان عليهم أن يتذكروا دائما - هكذا علمهم زهاتوبولك - أنه لا حفاظ على امبراطوريتهم الا بالتفوق في ميدان القوة ، وأن كل احساس كاذب بالأمن والطمأنينة قد جلب الدمار على كل جنس سبق أن كانت له السيادة ، ولذا وجب على النساء أن يكن تابعات خاضعات ، وأن يمارس الأزواج في الدار أساليب الأمر والنهي ، ألتى سوف يحتاجونها في العالم الخارجى .

لقد روعى مبدأ عدم تعدد الزوجات بكل دقة ، ولم يسمح للرجال أو النساء بالانحراف عن سبيل الفضيلة ، ولم يكن الحب الأثم وحده هو الذى يثير السخط والاستياء ، بل كل ألوان الحب ، وكان الآباء يرتبون شئون الزواج ، أما اليتامى فكان الكهنة يتولون أمرهم . ولم نسمع قط أن رجلا أو سيدة تجاسرت على الاعتراض على هذه الأوضاع . فلم تكن المذات غاية الحياة بل أداء الواجب نحو الدولة ونحو زهاتوبولك المقدس . وفى حالات الخيانة الزوجية جد النادرة كان الطرف المذنب يلقي الهوان ويطرد من البلاد ليعيش كعضو من عشيرة غير بيروية .

ونادى زهاتوبولك بحتمية أن يظل البيرويون طبقة أرستقراطية حاكمة معتمدة بنفسها ، وبأنما يزيد عددهم بالسرعة التى يصبح معها الكثيرون منهم فقراء معوزين ، مع الاعتماد على موارد بيرو حيث أن السلطة ، وليست الثروة ، هى التى ينبغى أن تكون أساس تعاملهم مع العالم الخارجى . فما كان من مشرعهم الأقدس الا أن أصدر قرارا يقضى بأن ما يرزق به الوالدان من أبناء بعد الثلاثة الأول يؤكل بخشوع فى غضون شهر من ولادته ، ومن ثم يقيم الوالدان على براءتهما من هدف احداث عجز فى الموارد الغذائية كما أن ذلك رمزا لخضوعهما لزهاتوبولك كاله للخصب .

وكانت هناك طائفة مجدفة لم يكتب لها البقاء طويلا ، ضللتها الفلسفة الانسانية المهزوزة ، أثرت تحديد النسل على أكل الفائض من الأبناء ، فكان رد المقائد الأقدس أن تحديد النسل خطية ضد هبة الحياة التى يمنحها الاله ، على حين أن أكل الطفل يحيل جسده جزءا من حياة الوالدين التى منها انبعثت حياته التى تظل دائما ممتزجة بها امتزاجا

خفيا ، ومن ثم بات أكل الوالدين لطفلهما إجراء دينيا عميق المغزى إذ هو تجسيم لاستمرار تيار الحياة ، كما أنه لاقى قبولا من الجميع بلا استثناء .

وإذا كان شعب بيرو قد شكل عنصرا أرسنقراطيا بالنسبة للسلاسل الأقل شأنًا ، فقد وجدت طبقة أرسنقراطية بين البيرويين أنفسهم ، تقوم على الأصل والمقدرة فكان ينضم الى صفوفها أى فتى أو فتاة يكشف عن نبوغ حقيقى ، ومع ذلك جاء السواد الأعظم من أعضائها من سلالة القواد الذين قادوا قوات زهاتوبولك الى النصر فى حروبه العظيمة التى خاضها من أجل الحرية والفتوحات . وكان رجال الدين ، من نوى السيطرة والنفوذ ، يختارون جميعا من بين هذه الطبقة التى كانت تنعم فى بعض مناحى الحياة بقدر من الحرية لم يحظ به سواهم ، فكان بوسعهم ، مثلا ، أن يضاجعوا زوجات عامة الشعب دون لومة لائم ، كما كانوا يستنون من القوانين الخاصة بالمأكل والملبس .

أما العقيدة الدينية فقد تبعت الى حد كبير ما كان سائدا فى بيرو والمكسيك قديما ، فارتبط زهاتوبولك فى الأذهان بالشمس ، وكانت أشعته المقدسة هى التى تهب النمو للنباتات ، كما كانت هنالك الهة تمثل القمر تحتل مرتبة أقل شأنًا فى العقيدة ، مع أنها كانت تضطلع بدور هام فى السنة الزهاتوبولكية ، إذ فى بدء بزوغ أول قمر بعد الانقلاب الشتائى وفى اللحظة التى يلوح فيها كان الشمس والقمر فى خطر من أن يفقدا فضائلهما المتعددة ، كانتا تستردان قوتيهما بفضل طقوس قديمة عندما يحل زهاتوبولك ، كاله للشمس ، لبرهة وجيزة فى الانكا الحاكم فى حين تتجسد الهة القمر فى عذراء يعرف الكهنة شخصيتها عن طريق بعض الرموز المقدسة . وتتحد الشمس ليمنح كل منهما الآخر حياة جديدة . كان الكهنة يقودون العذراء المختارة فى خشوع ووقار الى الانكا ، وبامتزاجه بها تسترد الشمس قوتها ، وتحقيقا لامتزاج التام كان الانكا يلتهم المرأة فى صبيحة اليوم التالى لأنها لم تعد تصلح للغاية التى كانت العذرية شرطا أساسيا لتحقيقها . وعقب أداء هذه الفريضة المقدسة اثر الانقلاب الشتوى مباشرة يحل عيد الظهور ، وكان يوم عطلة عامة يرفع فيه ، لبرهة وجيزة ، الكثير من قيود التقشف .

ولم يكن امتزاج الانكا السنوى « بعذراء العام » يتم لغير الأهداف الدينية بطبيعة الحال ، فقد كانت له زوج سوف يخلفه ابنها الأكبر . ولم

يكن بصفته الشخصية بل كممثل مؤقت لزهاتوبولك ، يضاجع السيدة التي كانت تكرم أثناء أداء تلك الفريضة ، كعروس لزهاتوبولك ومن كان يقع عليها الاختيار بين العذراء تحظى بأعظم تكريم ، ومن ينالها الشرف بين الأسر يعلو شأنها ، أما العروس نفسها فكانت تفيض غبطة وفرحاً رغم ما كان ينتظرها من موت محقق . وان أروع ما عرف من الشعر الغنائي ليس في الواقع إلا أناشيد النصر التي كتبت بلغة قديمة جافة تعبر عن فرحة العروس لجرد التفكير في أن المدة المقدسة ستبتلعها .

وحدث مرة أبان القرن الأول من هذا الحكم ، أن وقعت حادثة مشينة هزت السلطة الحاكمة من أساسها ، عندما نصب أحد الرجال « انكا » على البلاد فوقع في غرام عروس زهاتوبولك وأبى ، في عقود ، أن ينحرها ويأكلها ، وأبقاها على قيد الحياة ، وجعل يواقيها في الخفاء ، فوقع ما كان في الحسبان ، ولم تسترد الشمس قوتها وباتت تشرق كل صباح متأخرة كعهدها في فصل الشتاء . وأصيب الانكا المزعوم بالشيخوخة قبل الأوان ، فسقط شعره وأسنانه . وسادت الحيرة وعم اليأس المصحوب بالشكوك القائمة . وفي عيد الاعتدال الشمسي ، عيد الربيع الذي أقيم في موعده المعتاد برغم احتجاب الشمس طفق البرق يومض في السماء الصافية فصرع الانكا المزعوم وأرداه قتيلاً . واتضح فيما بعد أن أمه كانت قد ارتكبت الفحشاء ولم يكن من حقه أن يرتقى العرش . لقد كانت بعض الشكوك تداعب أفكار فريق من المفكرين ، فما لبثت أن تبذرت بالطبع نهائياً .

وكانت أراضي بيرو المقدسة تضم ما كان يعرف في العصر الأسباني باكوادور وشيلي ، وحين تحررت تلك المنطقة ، اتخذ زهايوبولك الاجراءات الكفيلة بالحفاظ على نقاء الدم الهندي ، فاستئصل البيض والزنج ، وعقم المولودون . ومع ذلك أفلت بعض الذين لم يتكشف فيهم أثر الدم الأجنبي ، فكان يولد ، بين الفينة والفينة ، أطفال يحملون سمات البيض أو الزنج . وكان أطباء الدولة يقومون بفحص جميع الأطفال الحديثي المولد فان ظهر مثل هذا الأثر تحتم على الوالدين أكلهم وتعريضها بدورهما للتعقيم ، ولما كان النظام لا يزال حديث عهد ، كان هذا الاجراء الصارم كفيلاً بأن يثير السخط والاستياء . ومن ثم حامت الشبهات حول أمثال أولئك الوالدين وخضعوا لرقابة رجال الشرطة وما كادت تمضي مائتا عام حتى اختفى كل أثر للدم الأجنبي ولم يبق في طول البلاد المقدسة وعرضها سوى الدم الهندي النقي .

وانتهجت سياسة رسمية مغايرة فى خارج بيرو ، فكان شعب المكسيك يعامل على قدم المساواة تقريبا مع البيرويين ، فسمح لهم بتولى مناصب الجيش والحكومة ما خلا العليا منها وبشروط أن يكون دمههم نقيا ، وكان التعليم العالى متاحا لهم ، بل كانوا يقبلون فى جامعة كوزكو . ولم يحظ ماعداهم من الهنود بامتيازات مماثلة ، وان كان من المسلم به أنهم نالوا من المزايا ما هو جدير بالتقدير . أما البيض والصفير والسمر والسود فكانوا يعاملون كسلالات أدنى ويحاول المسئولون ، عن عمد ، الابقاء على حالتهم الدنيئة . حقا كانت هناك بعض الفوارق ، فقد كانوا يكرهون السود الذين لم يحدث أن قامت لهم امبراطورية ولكن دون أن يخشوهم ، أما البيض والصفير ممن كانت لهم امبراطوريات عالميية فكانوا مرهوبى الجانب ، وكان لا مناص من تدعيم ما يكنه البيرويون لهم من ازدراء وكراهية .

كان التعليم محرما على كل من ليس هنديا ، وقضى على الجميع بلا استثناء ، بالعمل اليدوى عشر ساعات يوميا . وبينما كانت بلاد بيرو تحتفظ ببساطتها الريفية القديمة وتعزف ، فى حرص ، عن كل ما يفسد جمالها الطبيعى ، كانت بقية العالم تزخر بكل ما هو حديث فى ميدان الصناعة ، اعتقادا بأن المصانع والمناجم وأكوام عوادم المصانع والأزقة القذرة والدخان الأسود والقاذورات انما تتفق وطبيعة البلاد الأجنبية . وآمن البيرويون - وجعلوا يلقتون العالم بأسره - بأنهم أبناء الشمس وما عداهم من أجناس قد خلق من الطين . واستغلوا كل ما نادى به زهاتوبولك عن تأثير المذات الموهن للقوى فى الحط من شان الشعوب غير الهندية التى ما كانت تفرغ من عملها اليومى حتى تتعرض لكل أنواع الاغراء على شرب الخمر والانغماس فى تعاطى الأفيون فيفقدوا صوابهم ، ولم يكن الزواج بينهم مباحا بل الاختلاط العام . وحرم على الأطباء مقاومة الأمراض التناسلية التى انتشرت من جراء هذا الاختلاط ، وكان الموت عقابا للبيروى الذى تثبت عليه ثمة الاختلاط الجنسى مع من ينتمى لجنس أدنى . أما قوات بيرو التى تحتم وجودها لصون الأمن والنظام بين السكان المتبربرين فكانوا يحاطون بكثير من العناية لكيلا يتدنسوا بما يحيط بهم ، فكانوا يشجعون على مشاهدة سكان البلاد الأصليين وهم يتناولون البقول ان كان هذا المشهد المقرز للنفس يثير حميتهم الوطنية الى أبعد حد . وكان من نتيجة الأمراض والافراط فى الشهوات أن أخذ سكان العالم غير الهندى ينقضون رويدا رويدا وطق بعض الحالمين يتكهنون بعالم تظهر من جميع الأجناس خلا الجنس

الأحمر فى المستقبل البعيد ، عندئذ تتحقق بين الناس المساواة التى لا يسمح بها فى الوقت الراهن . ومع ذلك كانت تلك الأحلام المعنة فى الخيال ضربا من المخاطرة ، من أنغمس فيها نظر اليه بعين الريبة والشك . أما حكام البلاد الأجنبية ، فكانوا ينتخبون بحذر ودقة ، فقد دلت التجربة على أن من بطبيعتهم عنصر من عناصر القلق وعدم الاستقرار كانوا عرضة لمختلف أنواع الاضطرابات العصبية . لقد كان بعضهم يلجأ الى أساليب العنف مع المواطنين بلا مبرر ، كما يسعى البعض الآخر وهم الأشد اضطرابا ، الى أن يعقد معهم صدىقات ويعاملهم على قدم المساواة ، كما وجدت شردمة من الحكام أمنت بأخوة البشر جميعا ، واكتشفت وثائق أثرية ترجع الى العصر الأغريقى - انيهودى تؤيد هذه النظرية المستهجنة . واقتضى الأمر أن يؤخذ أولئك الحكام بالشدة والعنف وأن تعقد كلية التعليم فى كوزكو دراسات من شأنها أن تدفع هذا الخطر ، وبمرور الزمن تضاءلت هذه هذا الخطر بفضل نجاح الأساليب التى انتهجتها الحكومة فى حمل المواطنين على الانحطاط شيئا فشيئا حتى صاروا أشبه بالحيوانات . وهكذا غدت سيادة البيرويين بعد بضعة قرون راسخة لا تتزعزع .

الفصل الثالث

الثلاثى

استمرت محاضرات بروفيسور دريوزد سستاذ طوال العام الدراسى وأثارت بين توماس وديوتيميا مناقشات حامية كان لصديقتها « فريا » فيها نصيب ضئيل ، وأخذت ديوتيميا تحس بتأثير المحاضرات من ناحية وقراءة التاريخ القديم من ناحية أخرى ، تحس بمعضلات أثارت دهشتها وبعثت الحيرة والقلق فى نفسها . فلم تكن على يقين من أن أكل لحوم البشر أمر ضرورى أو مرغوب فيه لقد أوضح بروفيسور دريوزدستاذ أن تشبيه العروس بالقمر ينبغى ألا يفهم حرفيا ، فما هو الا تشبيه رائع جميل . وفى صبيحة أحد الأيام راودت ديوتيميا فكرة رهيبة وطفقت تتساءل : « ترى ، اذا كان الارتباط مجازيا لم لا يكون أكل

العروس كذلك ؟ ألا يمكن لتمثال من كعك الجنزبيل أن يقوم مقام العروس الحية ؟ وهنا أحست الدم يتجمد فى عروقها من جراء التفكير المشوب بالتجديف . وارتعدت أوصالها وامتقع لونها - فتساءل توماس الذى كان يجلس الى جوارها ، فى دهشة عما جرى ! فأدركت ديوتيميا أنه ليس من الحكمة بمكان أن تبوح بما يجول بخاطرها لأنه فكر عابر فحسب ، ولكن الوسواس راحت تترى ٠٠ وفى مكتبة الجامعة عثرت على كتاب قديم علاه التراب ، يلوح جليا أن يدا لم تمتد اليه منذ امد بعيد ، كان الكتاب يحوى بين ضفتيه أعمق تأملات العصور المظلمة التى سبقت ظهور زهاتوبولك المقدس ، وارتاعت اذ كانت ضاربة فى القدم ، فقد سبق بعضها بزوغ فجر الفلسفة الاغريقية - اليهودية ٠ لقد عثرت على نظرية تقضى ألا يقصر المرء عطفه على بنى جنسه بل ينبغى أن يتعداه الى سائر أجناس البشر ٠ كما اكتشفت أن فى الزمن الغابر كان الناس من غير الجنس الآخر تتملكهم أفكار ويفهمون بكلمات لا تقل حكمة وعمقا عنها فى عصر زهاتوبولك ٠ وبدأت تتساءل عما اذا كانت وحشية البيض والسمر - كما تعلمت - تعزى الى دناءة متأصلة فى طبيعتهم أم أنها نتاج التنظيمات التى خلقتها السياسة البيروقراطية فحسب ٠ ولم تفصح كثيرا عن تلك الشكوك التى ساورتها لكن بعضها تكشف من خلال حديثها الحذر ٠

لقد أقلقته حالتها الفكرية بال توماس الذى بلغ اعجابه بها حدا أقام معه وزنا لكل كلمة تنساب من بين شففتيها - ومهما يكن مقدار ما تسببه له من انزعاج ، فلم يكن فى مقدوره أن يبعد شكوكها المبهمة الغامضة كما يدفع عنه ما يساور زميلا آخر ، لكن برغم ما استبد به من القلق فقد ظل ايمانه راسخا ، ظنا منه أنه لولا النظام الصارم للعقيدة الزهاتوبولكية لانهار المجتمع وعمت الفوضى ٠ كان يخشى أن تفقد الحضارة خير ما فيها اذا اندلعت نيران الحرب الشاملة بالصورة التى تراوده ٠ فماذا ، ياترى ، يكون مصير العلم والفن ؟ وما الذى ينتظر الحياة العائلية المستقرة ؟ وهل من وسيلة تقى من الدمار الشامل الذى تسفر عنه المعارك التى تجتاح العالم بين الشيع المتطاحنة ؟ فتلك المخاوف جميعها ، كما تبدت له ، لم يحل دونها غير الاستقرار الراسخ للعقيدة التقليدية ٠٠٠ فلو تغلغل الشك فى أدنى تصدع لانهار الصرح بأسره وخيم على العالم ظلام ثقافى دامس وانحدر الناس فى كل مكان الى درجة من الانحطاط كتلك التى عليها أخط الشعوب الخاضعة حاليا ٠ كانت فرائصه ترتجف وترتعد من مثل هذه

الأفكار كنما كشفت ديوتيميا - وإن حدث ذلك للحظات وجيزة وعن غير قصد - عن آرائها الجديدة العارضة .

ودأب يقول : « حذار يا ديوتيميا ! انك تبدئين رحلة ذهنية خطيرة . . رحلة لا تؤدي إلا الى هوة سحيقة معتمة سوف تبذلك ما لم تقنلى راجعة . ولست أبغي أن أراك تسيرين على هذا الدرب وحيدة لكن لا سبيل الى مرافقتك وإن كنت أحبك حبا جما » .

كانت فريا تشهد أحيانا تلك المناقشات ، وإن تعذر عليها تقدير خطورتها ، وكانت تعجز ديوتيميا ، التي كانت ترتبط بها منذ الطفولة بذكريات عديدة مشتركة . أما توماس ، الابن النابه لأب نابغة ، الذي كان يرجى - وهو أمل راود الجميع بلا استثناء - أن يحمل رسالة الثقافة الزهاتوبوليكية المتليدة ، فقد حظى ، ولا غرو ، بتبجيل تلك الفتاة التي كانت تقدس كل ما هو ثابت راسخ البنيان . ومع ذلك كانت أقل اضطرابا مما كان ينبغي أن تبدو عليه ، إذ كانت تقضى جل وقتها فى هيام صوفى أشبه ما يكون بحلم ، وكل مالم يتفق مع هذه الحال بدا لها وكأنه ضرب من سوء الفهم ، وعندما كانت ديوتيميا تفوه بما يلوح هداما ، تبسمت فريا وقالت بلطف « انك ، بالطبع ، ياعزيزتى لا تعنين ما تقولين » . ولم تكن ديوتيميا ترى من اللائق أو الممكن أن تعكر صفو معتقدات فريا ، فقطاهرت بالأذعان كما لو كانت منهمكة فى تسليية فكرية ليس الا .

كانت أسرة ديوتيميا تنتمى الى أعرق الطبقات الأرستقراطية فى بيرو وأرفعها شأنًا ، وقد تولى أحد أسلافها قيادة أكبر جيوش زهاتوبولك فى حرب التحرير ، وظلوا عن جدارة يتبوأون تلك المكانة المرموقة عبر قرون متعاقبة ، كما اختيرت عروس الشمس من أسرته مرات عديدة ، وكانت صور تلك العرائس تطوق دائما بجداول الريحان الخضراء الناضرة وتحتل مكان الصدارة فى قاعة طعام الأسرة . أما قصرهم المنيف فاتخذ مكانه فى أرقى أحياء كوزكو بحديقته الغناء التي كانت أزهارها المختلفة تملأ جانب التل المنحدر بالروائح العطرة ، وتزينه بألوانها البديعة .

وكانت أسرة فريا بدورها أرستقراطية وإن لم تكن على هذا الشاؤ من العظمة ، أما توماس فقد تسنى له أن يندمج فى تلك الأوساط الراقية بفضل ما ينعم به أبوه المرموق من عقل راجح وما يؤديه من خدمات جليلة . ولعل موقف الأسر العريقة من أمثاله كان ينطوى على كل شيء من

المجاملة ، لكن الحكومة كانت تعترف بأن استقرار نظام الحكم يتطلب خدمات أفضل العقول المفكرة بلا انقطاع . وأوحدت السياسة بأنه لا غبار فى التقبل الاجتماعى لأولئك الذين ارتقوا على هذا النحو سلم الطبقات الاجتماعية . فلم يكن مثارا للدهشة إذن - عندما ذكرت ديوتيميا لوالديها صديقيها توماس وفريا - أن أصرا على دعوتها ليفحصاهما ويحكمما عليهما بمقتضى المقاييس الحكيمة التى طورتها أجيال من السيدة . وقبلما أفصحت ديوتيميا لوالديها عن أفكارها الدفينة ، لكنهما استسغما منها جموحا فكريا رثيا له كل الرثاء . وبدا أن من عانتها الشمية أن تدع الجدل يقرر النتيجة بدلا من أن تحدد النتيجة أولا ثم تطوع المناقشات حتى تتواءم معها . وشعر الوالدان بأن هذا الانجذاب انما ينطوى على الفوضى والخطورة . لكن رغم ما كان يقلقهما من تأملاتها الجمحة (التى كانت فى الواقع أشد جموحا مما كانا يعلمان) كانا يعتقدان أنها مجرد حماس شباب متأجج سوف يخمده القليل من اختبار العالم الواقعى . وطابت نفسيهما بصادقتها لفريا التى تشهد لها كثيرون من الأصدقاء المعروفين بالتقوى المثالية . وأحيانا كان الأسى يستبد بهما . إذ لم تكن ابنتهما تشبه هذه القديسة التى لا تثير المتاعب لأحد ، بيد أن شهادة المعلمين لقدرات ديوتيميا العظيمة ورغبتها الملحة فى الدرس والتحصيل خففت من حدة مخاوفهما . وأحسسا بأن الزمن كفىل بأن يكشف لها أن الذكاء ليس كل شئ . كما سيزودها بذلك الحماس الاخلاقى الذى يبدو أنها تفقد الىه فى الوقت الراهن . وكان توماس . تمززه سمعة أبيه الطيبة وسجله الخاص الحافل، عين الصديق الذى يتمنيانه لابنتهما . وكل ما كانا يأخذانه عليه هو اشتهاره بالذكاء اللامح ، إذ لم يكون يعتقدان أن ابنتهما فى حاجة الى تطوير فكرها . لكن من كن ما عرفاه عن توماس فإن ذكاءه لم يمض به الى أبعد مما ذهب اليه أبوه ، وأنديهما كل ما يدعوهما الى الأمل فى أن يكون عامل استقرار للنظام الاجتماعى كعهدهما بأبيه العظيم . تلك هى الاعتبارات التى حدث بأن ديوتيميا الى دعوة فريا وتوماس لتناول الشئ على مائدتها .

كانت أم ديوتيميا ، كمضيعة ، جوادا تتوق الى أن يكون ضيفاهما على سجيتهما ، وأن تعذر عليها التخلص من مظهر العظمة الذى بعث الرهبة فى نفسيهما فى بادئ الأمر ، فكان حديثها معبرا وأحاسيسها صادقة ، ولم تغفل قواعد اللغة وسلامة الألفاظ ، وأى رأى ينحرف ، ولو قيد أنملة ، عن جادة الصواب لم يفلت ، على الأقل ، من لوم تعبر عنه برفع حاجبيه . أما ديوتيميا فلم تقم وزنا يذكر لحرمات أمها

الاجتماعية ، فكان حديثها طلقا بحيث جاءت بعض كلماته من البراعة
بمكان ، بينما اصطبغ البعض الآخر بالعامية ، وكانت تطلق العنان
لسرعة بديتها فكانت تجود في بعض الأحيان بما هو مستهجن ، وتارة
تسخر بالبارزين من أصدقاء أبيها .

قالت أمها : « إنك ، يا عزيزتي ، لن تحصلي على زوج مدمت
تستخدمين مثل هذه العبارات المستهجنة ولا تبدين الاحترام اللائق بمن
يكبرونك سنا » . ولما بدا لها أن ديوتيميا تحسن الظن بتوماس وحداها
الآمل إلى أن يجد من جرأة ابتهاج المفردة استدارت نحوه قائلة : « انني
على يقين يا توماس من أن بروفيسور دريوزدستاز لا يقبل هذا التصرف ،
أليس كذلك ؟ » .

وأحس توماس بحرج شديد لا يطاق ، فقد كان متفقاً بينه وبين نفسه
مع مضيافته ، بيد أن الوفاء لم يدعه يتخلى عن ديوتيميا ، فتدخلت فريا
لانتقاد الموقف وطفقت تهيم بجمال المكان .

قالت : « بالسعادة التي تنعمون بها حين تجلسون في هذه الحديقة
الغناء تتأملون تلك الثلوج الخالدة وتدركون أن مملكتنا المقدسة
سرمدية سامية كتلك القمم السماء ! » .

وشاركتها أم ديوتيميا تلك المشاعر وإن ساورها الشك في أنه من
دواعي الذوق السليم أن تعرب عنها ، فلا غبار على حماسها ، لكن ينبغي
أن يظل دائماً في حدود الآداب واللباقة ، وبينما كانت تتردد فيما عسى
أن تكون عليه الاستجابة الملائمة لهراء فريا ، اندفعت ديوتيميا تقول :
« هيا ! هيا ! يا فريا ، فالقمم ليست بخالدة لأننا نعلم من الجيولوجيا أنها
تكونت بفعل هزات أرضية عنيفة ، بل وسوف تدكها يوماً هزة عنيفة
أخرى . ألا تخشين أن يكون في مقارنة النظام الزهاتوبولكي بتلك الكتل
الصماء الشاهقة ضرب من التجديف ؟ » .

كان صدى تلك العبارة حسماً أليماً حاول توماس أن يخفف من
وطأته إذ قال : « آه ، ان ديوتيميا تستثيرنا فحسب ، وأخشى أن مزاحها
يذهب مع خيالها بعيداً في بعض الأحيان » .

فألت أمها : « حسنا ، أرى ألا تقسو عليها كثيراً ، اني أذكر كيف
كان أبوها العزيز ، الذي بلغ الآن كل ما أتمناه من رصانة واتزان ،

يضايقنى فى فجر حياتنا ، بالثرثرة حول البارزين من الجيل السابق ،
وسوف تتعلم شأنها فى ذلك شأننا جميعا » •

وبتلك الملاحظة التى خفت من حدة الموقف انفضت الجماعة •

وما أن وجد الشك له مقرا فى أفكار ديوتيميا حتى أخذت الاكتشافات
العديدة تثبته وتؤكدده ، فإن الكتاب الأثرى الذى وقع بين يديها زودها
برغبة فى البحث فى أجزاء من مكتبة الجامعة قديمة تراكم فوقها الغبار
على نحو حال دون ارتيادها ، وفى أحد هذه الجوانب عثرت على رواية
معاصرة عن الانكا الشرير الذى تخلى عن واجبه فى التهام العروس
المقدسة ، واستبان لها أنه كان للانكا فى ذلك الحين مشايعون عديدين
راحوا يؤكدون أن عجز الشمس فى أن تسترد قوتها لم يكن الا ظاهريا ،
وأن الكهنة هم الذين أوحوا بتأخير الساعات العامة نهارا وبتقديمها
ليلا فبدت كما لو أن النهار لم يطل والليل لم يقصر ، واعتقدوا أن سقوط
شعر الانكا وأسنانه لم يكن الا بفعل سسم بطيء ، وأن البرق لم يرده قتيلا
بل ومضة انبعثت من عمودين كهربائيين يحملان شحنة عالية • وكان من
الطبع أن يقاوم خليفته ذلك الفريق من المشايعين ويقضى عليهم بعنف
بالغ • وتبينت ديوتيميا أنه قد استخدم ضدهم الاضطهاد والقمع لا الحجة
والاقتناع •

ولقد وجهت الى ايمانها المترنح ضربة أخرى ، بغير وعى ، من أحد
أعمامها الذى كان يشغل منصبا مرموقا فى حاشية الانكا • فذات يوم
أصيب هذا الرجل بمرض عضال ، وفى هذيانه فاه بأمر كثيرة حسبها
من سمعوها هلوسة مجنونة ، أما لديوتيميا – التى كان من واجبه أن
تقوم بتمريضه أحيانا – فقد بدت أوهامه المحمومة وكأنها تنطوى على
عين الحقيقة •

كان ينفجر ضاحكا ثم يقول : « ها ، ها ، يخال الناس أن الكهنة هم
الذين يختارون العروس المقدسة ، وكم يفجعون لو تبينوا أن خصيان
الحاشية هم الذين ينتقونها كأفضل فتاة تشبع شهوات الانكا ونزواته ! » •

وكان خصيان الحاشية فريقا من الرجال ، وظيفتهم الرسمية ترتيب
الترانيم القديمة للشمس فى المعبد اللفخم ، مركز عقيدة زهاتوبولك ،
فكانت أصواتهم الحلوة التى تسلب الأبواب تملأ السامعين جميعهم بما

كانوا يحسبونه الروح المقدس • وبينما هم ينصتون فى خشوع كانت قلوبهم ترتفع نحو السماء ويلوح وكأنهم يبلغون درجة من التجلى والاتحاد مع الاله • وكم كان مريعا أن يتصور المرء أولئك الرجال قوادين يرتدون قناع الدين الخادع • لكن ما حمل ديوتيميا على هذا الاعتقاد هو هذيان عمها المضطرب •

وولد هذان الكشفان عن الاحتيال باسم الدين - أحدهما وقع منذ زمن طويل ، والآخر يتكرر عاما بعد آخر الى هذا اليوم - فى ديوتيميا نفورا شديدا ، وان لم تظهر منه ، فى الوقت الراهن ، سوى النزر اليسير ، فكانت فى حديثها مع توماس تحفظ لنفسها بأخطر أفكارها يحدوها الأمل فى أن تقوده برفق رويدا رويدا الى الاقتناع بأسلوب تفكيرها ، ادراكا منها بأن أية صدمة سابقة لأرائها قد تنفره منها • لقد كانت فريا برغم جمالها الأخاذ أشد غباء وتفاهة من أن تحرك فى توماس مشاعر عميقة ، أما ديوتيميا فقد وجدها جذابه مثيرة حقا لكنها مخيفة فى الوقت ذاته ، كان يحس معها بنشوة من يتسلق قمة جبل ثلجى منحدر خطير • فلم يكن قادرا على الابتعاد عنها أو الاذعان لها أو هجرها الى غير رجعة •••

الفصل الرابع

فريا

كان الثلاثة يجلسون ذات يوم بجانب مجرى جبلى غارقين فى نقاش عميق ، واذا ببصر ديوتيميا يقع على رجلين يختلسان النظر اليهم من خلف الأشجار تبينت من زيهما ، أنهما من خصيان الحاشية • كان أحدهما يشير الى فريا والآخر يومئ برأسه فى حزن وكآبة • ولم ير رفيقاها ذلك المشهد الذى بدا مغزاه واضحا فى ضوء ما أمارت اللثام عنه عمها ، وسرعان ما امتقع لونها وقالت فى صوت خفيض : « قلنعد الى المدينة » • فتساءل الآخران : « ماذا دهاك ؟ » • ولما بلغوا مكانا آمنا راحت توضح لهما أنها تعلم أن فريا ستكون العروس المقبلة

لزهاتوبولك • فسألاها : « وكيف علمت ذلك ؟ » فأجابت : « ذلك مالا
أستطيع توضيحه الآن ، لكنكما ستبينان أنى على صواب » •

ولم يمض وقت طويل حتى أعلن على الملا اختيار فريا • فغمرتها
الفرحة العارمة واختبرت كل ألوان المشاعر التى كانت تنسب ، أيام
الفلسفة الاغريقية اليهودية ، للسيدة العذراء فى عيد البشارة ، وارتجفت
ديوتىما واهتز كيائها ، ولم تحل العقيدة الدينية دون الاحساس بأن
صديقة عمرها مستقاسى من مصير رهيب ، أما توماس فكان يدرك ،
بالطبع ، أن مشاعر ديوتىما ليست ما يتطلبه الايمان الصحيح ، ولم يعتقد
أنها محقة فى ذلك ، غير أنه لم يقو على احتمال ما يولده التفكير فى أنها
مخطئة من ألم • وغمرت الغبطة والذى فريا ، كما هو منتظر ، بنشوان
اسرتهم هذا الشرف العظيم • وطفقت أم ديوتىما تهنئها ل صداقتها بفريا
وتتباهى بهذه الصداقة أمام كل زائريها ، وما أن مضت أيام معدودة على
الاعلان حتى أيعدت فريا عن الأمور الدنيوية وخضعت لعملية التطهير
والتقديس الطويلة التى تسبق زفافها ، فبكتها ديوتىما • وعبثا حاول
توماس أن يغبط بما أسبغ عليها من شرف ، وبذلت ديوتىما ، التى
ما برح الأمل يحدوها الى تغيير توماس كلية ، قصارى جهدها حتى
لا تؤدى خلافاتها الى القطيعة ، وظلت الأمور بينهما على ما هى من شك
وترقب طيلة أشهر اعداد فريا •

وبتأثير النظام الذى طوره الخصيان المقدسون شيئا فشيئا عبر
القرون حتى بلغ مرحلة الكمال ، انغمست فريا رويدا رويدا فى هيام
روحى ، وعاملها الخصيان القائمون على أمرها كما لو كانت كائنا الهيا
فأتوا لها بالثياب الفاخرة التى لم تكن ترتديها غير عرائس زهاتوبولك
عند تزينها ، كما كانوا يقودونها كل صباح ، وعند بزوغ الشمس تماما ،
لتسبح فى نبع مقدس كان من يدنو منه غير عرائس زهاتوبولك يصيبه
الموت المحقق • وفى معبد مرصع بالجواهر تتلأل جدرانها بحجارة
الفسيفساء التى تصور حياة زهاتوبولك الأرضية ، راحت تصغى الى
الترانيم المقدسة التى كان الخصيان يرتلون بها بأصوات طابعها الذقواء
الروحى ، كما كانت تغتذى طعاما خاصا مغائرا لما يتناوله العاديون
من الرجال والنساء ، وتزود بدواوين الشعر القديم الذى يتغنى بغيطة
القمر وهو فى أحضان الشمس ، وبصور لزهاتوبولك وعروسه فى
احتضان عاطفى مقدس • وفى عالم الأسطورة القديمة والطقوس كادت
نكريات حياتها اليومية السابقة تختفى ، فكانت تتحرك وتتفلسف وكأنها فى
حلم ، ولاح لها أن روح الالهة تمتلكها شيئا فشيئا ويوما بعد يوم •

وأخيرا حلت الليلة العظيمة ، فارتدت ثوبا أزرق براقا تزينه نجوم لا حصر لها ولا عدد ، وأمسكت بيدها شعلة ملتهبة وأخذت تهبط بهبط السلم المقدس المفضى الى الانكا المترقب ، وفى طريقها اليه انطلقت ترتن ترنيمة ضاربة فى القدم ، عذوبتها تأخذ بالألباب . ولما فرغت من المقطع الأخير كذت قد بلغت نهاية السلم فألقت أمامها الانكا الذى طال انتظاره .

ومع أن الانكا كان رجلا ذا شفتين غليظتين وأنف مفلطح وعينين أشبه بعيني خنزير غائرتين فى شحم ، فقد بدا لناظرها كائنا مقدسا جديرا بأن يحل فيه زهاتوبولك . وأمسك بها فى عنف ، وهو يقول : «والآن هيا انزعى هذا الرداء ، فلا تتركينى أنتظر طوال الليل » . وأحست بأنه هكذا يسلك الاله ورحبت بالفرصة التى فيها تتواضع أمامه ، وما أن فرغ من أداء المفريضة حتى أخذته سنة من النوم وراح يغط بينما مضت هى تتأمل فى خشوع هيئته وهو فى سبات عميق . وعند منتصف الليل فتحت الكهنة فى هدوء تام بابا سريرا وأومأوا لها فتبعتهم على مهل ، وهى نشوى ، الى حيث تلقى حتفها .

واستقظ الانكا فى الوقت المعين وهبط لتناول افطاره ، وعند أول قضمة جعل يتمتم : « حسنا ! لقد طهوها على نحو أفضل هذا العام على أية حال ! » .

الفصل الخامس

ديوتيميا

بعد أن اقتادوا فريا الى التآليه والموت تغيرت حال ديوتيميا ، ففاضت نكاء ومرحا وأحبت التسلية الفكرية ، وانطلقت تتابع أية محسورة أو جدل ، مهتمة بالمنطق أكثر منها بالاعتبارات الاجتماعية ، ومع ذلك باتت تحت وطأة تأثير فقدان فريا تضيق ذرعا بما تمخض عن المعتقدات الكاذبة من آثار اجتماعية . ولم تعد تصدق كلمة واحدة عن العقيدة الرسمية ، وأدركت بوضوح وجلاء أن زهاتوبولك لم يكن سوى انسان

عائى ، وأن عقيدته عن سيادة شعب بيرو ما هى الا تجسيم للغرور القومى . وسرعان ما بدت لها الطقوس المرتبطة بالانقلاب الشستوى سخيفة قاسية وأحست أن فريا لم تقدم قربانا لاله بل راحت ضحية اشباع شهوات وحش كاسر . بيد أن الثورة ضد نظام هكذا تأصلت جذوره ، لم يكن بالأمر الهين . فظل نشاطها فترة من الزمن قاصرا على المناقشات السسرية وكلما اكتملت الثورة فى أفكرها ، زادت قدرتها على قمع مظاهرها الخارجية ، فحدا توماس الذى كان يهرب ثورتها ، الأمل فى أنها قد أخذت تهديا ولما كان يحاورها ضد بذور الشك الأولى التى كانت تكشف عنها فى بادىء الأمر لم تكن تفند آراءه ، فتوهم أنه قد أقنعها ورأت أنه يحبها وكان بوسعها أن تبادله الغرام لولا احساسها المتزايد بأنها قد كرسست نفسها لمهمة على قدر مروع من الصعوبة ، ذلك الاحساس الذى حمها على أن تعيش فى عزلة وحال دون ادعائها بكل قلبها لأية عاطفة نحو انسان مجرد ، وشعر توماس بكبريائها الذى كان مبعث ضيق و ألم لنفسه . لكن سرعان ما أتى اليوم الذى قررت فيه أنها لم تعد قادرة على أن تخفى عنه آراءها التى ملكت عليها كيانها

وفى فجر أحد الأيام كان توماس وديوتىما يسيران معا فى أحد اودية « الأنديز » العميقة وتحت أقدامها جمال أزهار الربيع الوفيرة الدفىء ومن فوقهما القمم الثلجية الشامخة تشق عنان السماء الزرقاء . وكان الظل لايزال يكسو معظم أجزاء الوادى ، لكن أشعة الشمس المشرقة الباهرة للابصار ، راحت تتسلل بين ظلال الجمال فبدت ملامح ديوتىما الحلوة الدقيقة لتوماس كأنها تجمع بين الجمال الدافىء من أسفل والسمو الرائع من أعلى ، واتحد منظر الطبيعة مع جمال المرأة ليولدا فى نفسه شعورا كاد يفوق النشوة والهيام . واشتعل الحب فى قلبه نارا ، فكبح جماحه بما هو أقوى من الحب بالرهبة والدهشة والاحترام ، وأدرك ما يمكن أن يكون عليه الانسان ، وبدت كلمات الحب المألوفة عاجزة عن أن تعبر عما يجيش بصدرة ، فسار لبرهة فى صمت واجف ، ثم استدار نحوها وقال : « لقد بدأت أدرك فى هذه اللحظة كيف يعيش المرء حياته » .

فقلت : « أجل ! ينبغى أن تكون ناعمة جميلة كالزهور ، راسخة شامخة كقمم الجبال ، عميقة وبلا حدود كالسماء . هكذا يمكن أن تكون الحياة . لكن ليس وسط ما يسود مجتمعنا من بشاعة وفظاظة » .

فصاح توماس : « بشاعة وفظاظة ! ماذا تعنين ؟ » .

قالت : « ثمة بشاعة حين يسمح لمجرد انسان أن يرتكب الموبقات
اعتقادا بأنه اله » .

وما أن تناهت هذه الكلمات الى سمع توماس ارتجف وطار ليه وراح
يتساءل : « مجرد انسان عادى ؟ انك . بالطبع لا تقصدين الاله
زهايوبولك » .

فقالت : « هذا ما أعنيه ، فما هو بآله . فالأسطورة التى تعظمه
وترفعه الى مصاف الآلهة هى وليدة الخوف : الخوف من الموت ، ومن ضربات
القدر ، ومن قوى الطبيعة ، ومن طغيان الانسان واستبداده . فمن تلك
القمم التى فوقنا ينحدر الموت الخاطف الى الوديان تحتها من حين لآخر ،
فيتملك الناس الاحساس بأن القوى التى تحكم فى القمم قاسية عنيفة
ولا يمكن اخماد حقدھا الرهيب بغير قسوة طابعھا العطف . بيد أن
الخوف يشتى ألوانه دفىء ، والأساطير التى تتمخض عنه حقيرة ، وسن
تعظمهم الأساطير من الرجال أدنياء . فزهايوبولك ليس الها ، بل انسانا
أخرق وأحط من الحيوانات الضارية فى شتى المناخى . والفريضة التى
قدمت فريا بمقتضاها قربانا ليست من مصدر الهى ، بل وليس ثمة ماهو
من مصدر الهى . فما الآلهة سوى ظلال لمخاوفنا فوق عتمة الليل ، انها
تجسد ضعف الانسان أمام القوى التى بوسعها أن تجهز عايه ، كما
أنها تجسم الاستعباد للزمن فيتعذر تقدير اللحظة الأبدية ما دامت فى
نظامنا الدنيوى لحظة فحسب . افنى لن أذعن للاذلال ، ومادمت على
قيد الحياة سأقف شامخة كالجبل ، فان أدركتنى البلية ، وهى آتية
ولا ريب ، فلن تكون سوى مأساة ظاهرية ، وستبقى قلعة ايمانى بما
يمكن أن يحدث فى المستقبل « راسخة لا تقهر » .

بدا توماس ، وهى تتحدث ، كأن صراعا رهيبا يمزقه الى شطرين ،
شطر ألهيته كلماتها وتمنى لو وافقها ، وهو الجانب الذى كان يبدو منذ
هنية مرتبطا بها فى وحدة سامية تجل عن الوصف ، لكن جاذبا آخر ،
بنفس القوة ان لم يققه ، كان يقف لها بالمرصاد ، فكل ما تعلمه ما عرفه
عن المجتمع الذى يعيشان فيه ، وكل مشاعر الرهبة والجلال التى غرست
فى نفسه منذ نعومة أظفاره هبت تناهضها ، كما ملأه العالم الجامد الملحد
الذى راحت ترسمه برعب بالغ . وأحس بأن الها ، قد يكون قاسيا

لكنه ليس بغريب علينا تماما مادام قد جرب مشاعرنا ومر بتجاربنا ،
لهو أفضل من عالم فسيح لحياتة فيه يخاف ويبيد دون تفكير • وبلا
اكتراث يبنى الانسان الذين خلقهم عن غير ذى قصد ، وسوف
يهلكهم بلا ندم • كان هذا الرعب المريع الذى استولى على توماس فى
الوقت الراهن يفوق حبه لديوتيميا فاستدار نحوها ، وقد شحب لونه
وارتعدت فرائصه ، وقال : « حاشاى أن أرحب بعالمك ، فانا لا أقوى
على الحياة مع أفكارك فلا أستطيع أن أذكى لهيب الحماس الانسانى
المتراقص وسط هذا التيار الجارف البارد من القسوة غير المحدودة ،
فان كانت غايتك تدمير عقيدة آبائى تحتم على كل منا أن يسلك سبيله » •

وسار الاثنان على مهل ، يخيم عليهما الصمت ، حتى بلغا الدار
الوحيدة بالوادي حيث وجدا خصيان الانكا فى الانتظار • قابضوا
ديوتيميا بقولهم : « نقد وقع الاختيار عليك » وحملوها بعيدا • وراح
توماس يحملق ببصره خلفها حتى غابت عن الأنظار • لكنه لم ينيس ببنت
شفة ولم يبد حراكا • وأبلغ اختيار ديوتيميا كعروس العام رسميا لوالديها
ولبروفسور دريوزدساز ، لتبرير سبب انقطاعها عن الدراسة • وتمشيا
مع عادة ضارية فى القدم ، أقام والداها حفلا مهيبا بمناسبة ما ، سبع
على ابنتهما من مجد وشرف • وجاء الى الحفل على القوم فى كوزكو ،
يحملون هدايا الزفاف ويلقون كلمات التهنئة • فتقبلت أمها الهدايا
والخطب بتواضع جم ظاهري ، واحتفظ أبوها ، وقد وقف منتصب القامة
بهى الطلعة ، بطايحه العسكرية حيث وارى غبطته بلباقة • ولاقى الحفل
نجاحا منقطع النظير ، وأحست أسرة ديوتيميا بأنها أضحت أكثر مجدا
ورفعة عن ذى قبل •

وأحس البروفسور أن حظا من مجد تلميذته ديوتيميا قد ناله ،
ولامراء فى أن الهة القمر قد لاحظت أن ديوتيميا أصبحت جديدة بأن تكون
أداة لتجسدها بفضل تأثيره ، وطفق يهنئ ابنه على صداقته للعروس
المجدة • لكن شيئا من القلق والاضطراب تسرب الى نفسه حين لم
يبد جذلا بالقدر الذى تمليه المناسبة ، غير أنه فى بادئ الأمر أخذ
يطيب خاطره بالقول أن الشعور بشيء من الأسى لفقدان رفقة ديوتيميا
قد يغتفر لشباب كتوماس ، وان يكن ذلك مفاجعا للحساس الصادق
الذى لا غبار عليه •

لكن ما أن مضت أيام معدودة حتى انطلقت الشائعات المرعبة تنتشر
بين الناس ، وسرى همس بأن ديوتيميا لم تقبل الشرف بنفس راضية ،

وأنها ترفض القيام بواجبها فى طقوس التطهير ، وتنكر أى إدراك من جانبها لحلول إله القمر فى جسدها ، كما تقذف فى حق الانكا ، بل تعتقد - وباللعار ! - أن الشمس والقمر سيمضيان فى طريقهما المؤلف بدون إقامة شعائر هذا العيد .

وا أسفاه ! لقد كان لتلك الشائعات أساس كبير من الصحة واستبد الفزع بالكهنة والخصيان حيث لم يقع شىء مماثل منذ أمد بعيد عندما عزف الانكا المزيف عن أكل العروس . وفى حيرتهم رأوا مجازاة الظروف وأخفوا عن الانكا تمرّد ديوتىما ، وقرروا استخدام كل ما يمكن من الضغط أملا فى ثنيها عن عزمها وحملها على الاندعان والانصياع ، ولتحقيق هذا الهدف راحوا يدبرون سلسلة من اللقاءات مع من ظنّوهم أقدر الأشخاص على اقناعها .

كانت أولى تلك اللقاءات مع أمها ، التى كانت تبتسم بالزهو والخطرسة ، وتلوح رابطة الجأش رزينة قادرة على التحكم فى مشاعرها . أما الآن فقد تبدل ذلك كله وأحست بكل مهانة وإذلال . لم تقو على مواجهة العالم ، ولم تجسر على مقابلة أصدقائها خوفا من النقد أو - وهو الأسوأ - من الرثاء لحالها . لقد آلت ابنتها فى زناينة مكشوفة ترتدى ثوب التفكير وتعيش على الخبز والماء ، وراحت تتمم بكلمات الحزن والتقرير المتقطعة وهى ترتجف من النحيب والدموع المنهمرة فوق وجنتيها .

قالت : « أواه يا ديوتىما ! كيف توقعين بأبيك وأمك هذا الخزي المزرى الرهيب ؟ ألا تذكرين سنّى طفولتك البرئية حين كنت تنمين ، بفضل رعايتى ، جسما وعقلا وتسمين بأمالنا المعقودة على مستقبلك يوما فيوما ؟ ألا تعطفين على الأسرة الأبية التى ظلت عدة قرون تحمل لواء التاريخ فى هذه البلاد العظيمة ؟ وهل يهون عليك أن توقعى بمن أحبك أبشع مصير يحل بانسان . . . أعنى العار الذى تجلبه علينا ابنة لا غبار عليها ؟ أه يا ديوتىما ، اننى لا أستطيع حمل نفسى على تصديق ما تنهى الى سمعى . . . قولى انه حلم آثم عابر ، فيظل حبي لك كعهديك به من قبل . . » وهنا خنق النحيب صوتها فلم تفه بكلمة أخرى .

أما ديوتىما فظلت رابطة الجأش حتى فرغت أمها من حديثها المتقطع ، ثم أجابت بكبرياء وقتور ظاهرى : « إن الأمر يا أماه ، لينطوى على ما هو أعظم من حب الوالدين وأرفع من شرف الأسرة ، بل وأسمى

من هذه الدولة التى ظلت راسخة زهاء ألف عام ، لأن هذه الدولة المتغطرة - وإن كنت أعلم أنه يتعذر عليك التسليم بالحقيقة - قد قامت على الأكاذيب وأعمال العنف والموبقات . ولا يمكن أن يكون لى فى هذه الأمور ضلع . وإن غدوت وكأن دموعك لا تحرك لى ساكنا ، فانما ذلك ليس عن فتور بل لأنه تشتعل فى أعماقى نار أخرى أعظم مما يطوف بخيالك . انه يتعذر عليك فهم ما أقول أو قبوله ، لكنى أضرع اليك أن تنسى أنك ابتليت بمثل هذه الابنة » .

وفى حال من القنوط واليأس المطلق ، تحولت عنها أمها وتركتهما وحيدة .

وبعد أن فشلت أمها جاءوا فى اليوم التالى بأبيها الى زنازنتها . وكان أسلوبه . مغائرا بعض الشيء لما اتبعته معها أمها .

وابتدراها بالقول : هيا ! هيا ! لم تبدين فتاة حمقاء عديدة ؟ اننى أخالك مضطربة إذ تعلمت قبل الأوان وبسرعة فائقة أمورا قد عرفناها وسلمنا بها منذ أمد بعيد ، نحن الذين نعيش بالقرب من الحاشية . أتظنين أن العقلاء يصدقون كل ما يتردد عن الشمس والقمر من هراء ، أو تتصورين أن الانكا الذى نعرفه جميعا ونمقته يصير لها مرة كل عام حسب التقويم ؟ نحن نعلم علم اليقين أنه ما من مشاعر دينية تلهم أبان ما تسمى « بالليلة المقدسة » ، بيد أننا لا نقيم الأرض ونقعدها كما تهديدين أن تفعلنى ، ادراكا منا بأن تلك المعتقدات وإن لم يكن لها أساس من الصحة ، تخدم مصلحة الدولة . إذ تحمل على احترام الحكومة وتعيننا على صون الأمن فى الداخل وفى الامبراطورية فى الخارج . ترى ، ماذا تخالين سيحدث لو طفق الشعب بأسره يفكر على غرارك ؟ حتما ستقع الاضرابات فى بيرو ، وستندلع زيران الثورات فى الخارج ، وسرعان ما يتصدع صرح المجتمع المتحضر بأكمله . يالك من فتاة طائشة ، إذ ترفضين أن تكونى قربانا للانكا ولم تدركى أن القربان الحقيقى هو لحفظ القانون والنظام واستقرار المجتمع ، وليس لأمير أخرق فظ ، أنك تهذين بالحق ، فكيف للحق أن يصون امبراطورية ؟ ألم يلقنك البروفسور أن الامبراطوريات جميعا وفى كل الأزمنة قد قامت على أكاذيب نافعة ؟ أخشى أن تكونى من دعاة الفوضى ، ولا تأملنى فى رحمة الدولة بك مالم ترجعى عن غيك » .

فأجابت : « أبى ، أخاله أمرا طبيعيا ، فى ضوء ماأسرتنا من تقاليد ، أن تتخذ من دولة بيرو الها لك • كما أن التفكير فى نظام آخر للمجتمع خلاف الذى قضيت فيه حياتك كلها يتطلب خيالا خصبا • وأخشى . يا أبى ، أنك لا تؤمن بالخيال • اننى أرى فى أفكارى عالما أفضل من ذلك الذى خلقه جنسنا •• عالما أكثر عدلا وأعظم رحمة وأقوى حبا ، وفوق ذلك ، أشد تمسكا بالحق • ولعل الهزات العنيفة والاضطرابات الخطيرة كامنة فى الطريق الى هذا العالم الأفضل ، ولكن حتى هذه ينبغى أن تكون مفضلة على بشاعة ما نرتكبه فى الجهر والسر من نرق ورجس » •

وهنا استشاط أبوها غضبا وصرخ فيها بصوت مجلجل : « اننى أدعك لمصيرك أيتها الابنة العاقبة الوقحة » ، ودلف الى الخارج حيث الشمس المشرقة • كان البروفسور هو التالى فى زيارة السجينة العنيدة ، فدخل زنزانتها ، وكان يبدى دمثا رقيق الفؤاد ، وراح يخاطبها بلهجة حجبت رغبته فى اقناعها ما تتسم به من سلطان وقال : « ابنتى المسكينة ! يؤسفنى أن أراك فى هذا المكان ، ولا يسعنى الا أن أعتقد أن جانباً من اللوم يقع على ، إذ كان ينبغى فى غضون العام الذى استمعت فيه لمحاضرات التفقيه التى ألقيتها على مسامعكم ، أن أفلح فى أن أنقل اليك فكرة عن الواجب الاجتماعى أكثر استقامة من تلك التى تدل عليها ورطتك الراهنة • لكن حديثي يا ديوتيميا عن العوامل والأسباب التى حدث بك الى الخروج على المبادئ التى وكل الى شخصى الضعيف محاولة تلقينها ؟ » •

فأجاب : « حسنا ، مادمت تسألنى فساخبرك • اننى لا أؤمن بحقائقك ، ولا أصدق نظرياتك ، وأعتقد أن مفهومك للنفع الاجتماعى ضيق وإيمانك بثبات العقيدة وعدم قابليتها للتغير جامد بالقدر الذى يقتل العقل والمشاعر سواء بسواء ، أرى أن لامبالتك بالحقيقة تمرد ، وانصياعك للسلطان تملق ينم عن حقارة وخسة • الآن وقد أوضحت لك الحقيقة هأنذا مستعدة لأن أسمع رأيك » •

وما أن تناهت هذه العبارات الجافة الى سمعه حتى حمى غضبه وانتابته لبرهة رغبة فى أن يقابل الاساءة بمثلها ، لكنه رأى فى ذلك منافاة لمبادئه • لقد كانت صريحة ، وأنحت جانباً الغموض والابهام على نحو لا يشعر معه بأسف بالغ • وقنعت بأن تقيم فى مناطق الحق المجرد التى

ما هي الا مراقى المبتدئين الى قمم الحكمة الشامخة ، وراح يحدث نفسه ، وقد كظم غيظه بمشقة ، أن الفتاة بادية الاعياء وأن غذاءها المكون من خبز وماء يثير سخطها ، فأسعفته خبرة العمر كمحاضر فرد على هجومها العنيف ردا يثير الاعجاب اذا قورن بعظمته وحدثتها .

قال : « يلوح يا ديوتيميا » أن ثمة أمورا لا تلمين بهما ، وهي ما ينبغي حتى في هذه الآونة الأخيرة - أن أضعها أمامك بكل ما أوتيت من قوة ، وسأبدأ بما هو أساس لما عداه . هل تنكرين ألوهية زهاقوبولك المقدس ؟ » .

فأجابت : « أجل .. لقد تعلمنا أنه نزل من السماء بمعجزة ، لكنى أعتقد أنه هبط في هليكوبتر من طائرة كانت تحبىء فوق السحاب ، قيل لنا انه لم يمت وقد صعد بأعجوبة الى السماء حين أتم رسالته على الأرض ، وهذا أيضا مالا أصدقه ، فأنا أؤمن بأن زمرة خاصة من قواده أحاطت به أثناء مرضه الأخير وحالت دون اتصاله بالعالم الخارجى ، ولما وافته المنية ألقوا بجثته فى فوهة بركان كوتوباكسى . ان الأساطير التى تميظ اللثام عن هذه الحقيقة قد تناقلتها الأجيال سرا نى أسرتى التى كان سلفها الأكبر أحد القادة الذين اضطلعوا بتلك المهمة . لقد أقسم الجميع على السرية ولم يبرحوا بهذا السر لغير الرجال ، بيد أن الرجال يصابون بالحمى ، والحمى تجلب الهذيان ، وفى الهذيان تفشى أخطر الأسرار » .

وعندئذ اعتقد البروفسور أن الأمر يقتضى محاضرة عن الحق ، فانطلق يقول : « دعينا ، يا فتاتى العزيزة ، نسلم بأنه حسب المستوى الدنيوى للحقيقة المنطقية كانت الأمور كما تقولين ، ألا تدركين أن هناك معنى أسمى ، به تعلن عقيدة بلادنا القويمة حقا أعمق من أية أسطورة عن الهليكوبتر والجماعة السرية العسكرية ؟ فما علاقة طائرات الهليكوبتر بالألوهية ؟ انها مجرد اختراعات حاذقة ، ولا ريب ، مريحة ولا غرو ، لكنها ليست جديرة بأن تتبوأ مكانة رئيسية فى المبادئ الجوهرية التى تقوم عليها نظرية تكوين العالم . ولو حدث حقا أن رأى مؤسس عقيدتنا الأقدس أن يستخدم بعض هذه الأجهزة فان ذلك ، ولا ريب فيه ، كان لهدف سام ليس لنا أن نشك فيه البته . واذا كنت تنكرين أنه نزل من السماء ، فهل أنت واثقة من أنك تعرفين أين توجد السماء ؟ ألم تتعلمى الحقيقة الروحية العظيمة القائلة بأن السماء توجد حيثما تكون الأفكار

لسماوية ؟ وليكن فى يقينك أنه حيثما حل زها توبولك تكون الأفكار السماوية . أما عن موته فبوسعنا أن نورد حججا مماثلة . فماذا يحدث لو أن الهيكل الأرضى صار جامدا بلا حياة ؟ وأى غضاضة فى أن يعيده أحباراه الى النار الأرضية التى هى أقرب الأشياء فى هذه الدنيا الى النار الالهية التى مكنته من تعليم تلاميذه ؟ ونحن لا نتعبد للهيكل الأرضى ، فإلهنا يعبد بالروح والحق ، والروح والحق يسكنان النفس لا الجسد . فالكلمات الهوجاء التى تتفوهين بها عن أسمى اله قد تختلف ، بالمعنى الضيق الساذج ، عن الحقيقة المادية ، لكنها من السانحة الروحية كما أوضحت لك وبالمعنى الوحيد الذى يعيننا ككائنات شريكة ، وإن يكن ذلك بغير كمال ، فى الجوهر الالهى ، فهى باطلة تماما ولا بد من دحضها بازدراء بكل ما تلهنا آياه عقيدتنا المقدسة من قوة » .

وهنا أجابت الفتاة : « ان لقولك ، يا بروفيسور ، وقعه البالغ على النفس ، لكنى توصلت الى رأى قد يبدو لك رهيباً . انى أعتقد أن ثمة حقائق وأوهاما ، كما أن هناك صدقا وهناك أكاذيب . وأعلم أن الذين ينادون بنظرية الاعتدال - التى أظنك أحد أتباعها - يرون أنه ينبغى على المرء أن يراعى الاعتدال بين الحق والمزيف كما راعيته ببراءة فى حديثك الذى استمعت اليه لتوى ، بيد أن الحقائق ، فى رأى ، مرة ولا سبيل الى انكارها . أدرك أنه بفجور وحشى تمتع الانكا المصاب بالسادية (١) بصديقتى فريا ثم التهمها . هذه حقيقة . ومهما حاولت أن تلبس الحقيقة رداء الضباب والابهام فستبقى حقيقة ، وطالما حاولت اخفاءها عن بصرك فانك تشترك فى خستها كما أنها سوف تفسدك » .

قال البروفيسور : « هيا ! هيا ! هذا أسلوب عنيف ، كما أنى لا أعتقد أنك درست النظرية الفلسفية للحقيقة بالعمق الذى يقتضيه واجب الأكاديمى . الا تدرين أن حقيقة العقيدة تكمن فى نفعها الاجتماعى وعمقها الروحى ، وليس فى الدقة البشعة الدنيئة كتلك التى يمكن أن تقاس بمسطرة وضعت فى يدى آخرق ؟ وكم تبدو أحاسيسك نحو صديقتك « فريا » تافهة حقيرة لو قيسست بمقياس صادق . فكم كان هيامها فى لحظات تأليها عميقا وأشد اتفاقا مع حاجات الجنس البشرى . تأمل فى فيما نالته فى غضون دقائق معدودة - وهذا ما ترفضين فى غطرستك بعض مظاهره - اتحدت بالالهة القمر ، وانطلقت روحها الخالدة فى سلام دائم وجمال خالد تهيم فى أجواء الفضاء العليا وقد تحررت

(١) حب تذيب الغير .

من أحزان الحياة الفانية وخطوبها ، فكرى فيما تدين به البشرية لتلك
الفريضة المقدسة التى أنهت حياتها الأرضية ، وتأملى الشعر والموسيقى
الخفيفة الاخاذة وأحجار الفسيقساء العجيبة والمعبد بتقاسيمه وروعته ..
هذه كلها تجذب العين والنفس على حد سواء الى السماء .. أفتردين
زوال كل هذا من الدنيا ؟ أتبعين أن تنحط البشرية الى جماعة من الحفاة
القذرين المعدمين ؟ وهل تقبلين فناء الشعر والموسيقى وفن العمارة ؟
ومع ذلك كيف يمكن لفن من تلك الفنون أن يظل قائما بدون الأسطورة
الالهية (اننى أستخدم العبارات بمعناها السامى) التى أوحى بها ؟ »

وإذا كان الفن والجمال لا يعينان لديك شيئا فماذا عن البنيان
الاجتماعى ؟ وماذا عن القانون والأخلاق والحكومة ؟ أتظنين أنه يمكن
أن تقوم لهذه قائمة ؟ وهل تحسبين أن الناس يعزفون عن القتل والسرقة
بل وارتكاب الفحشاء مع غير البيرويات اذا هم لم يشعروا بأن عين
زهاتوبولك تراقبهم ؟ ألا ترين أن تعاليم عقيدتنا المقدسة حق مادام الحق
ما هو نافع اجتماعيا ؟ اننى أضرع اليك أن تقلعى عن كبريائك وعنادك
وأن تخضعى نفسك لحكمة الأجيال ، وبذلك تضعين حدا لما تجلبينه
على والديك ومعلميك وأصدقائك من خزي وألم » .

فصاحت ديوتيميا : « كلا ! كلا ! وألف كلا ! فهذا الحق السامى
الذى تتحدث عنه ما هو الا خداع سام ، وذلك النفع الاجتماعى الذى
تعالى فى وصفه كثيرا هو مجرد الرغبة فى الحفاظ على امتياز جائر .
وتلك الأخلاق الرائعة التى تتشدد بها ليست سوى تبرير لقمع السواد
الأعظم من الجنس البشرى واذلاله . لقد انفتحت عيناي ولا يمكن
لكلماتك الملتوية أن تحملنى على اغلاقهما ثانية » .

وصاح البروفسور ، بعد أن أشد غضبه فى النهاية ، وقال : اذن
فلتهلكى فى غطرسك وعنادك أيتها المارقة اللعسة اننى أتركك لقضائك
الذى تستحقينه بحق » . وما لبث أن تحول عنها ومضى .

ولم يبق بعد ذلك سوى احتمال واحد لحمل ديوتيميا على التوبة
والندم . ولما كان معروفا أن توماس يحبها ، فقد راودهم الأمل فى أن
تبادلته الغرام ، وفى أن الحب قد ينجح فيما فشل فيه النفوذ والسلطان ،
وتقرر أن يلتقى بها توماس ، فان بآء مسعاه بالفشل فلن تغلج أية محاولة
فى ردها عن غيها ...

وكان توماس يمر بفترة عصيبة من الصراع والخوف واليأس ،
فكل رجل يحب كان يعانى من ضياع أمانيه ، وكشاب طموح بدأ طريقه

الى النجاح ممهداً . كان يخشى أن تحوم حوله الشبهات لصداقته الوثيقة بمارقة ، وكباحث فى اللاهوت و التاريخ لم ير مبرراً للشك فى حكمة أبيه ، هاله ماقد يتمخض عن انتشمار معتقدات ديوتيميا من نتائج خطيرة . فمنذ الحادها رأى أن الكثيرين من أصدقائه السابقين أخذوا يتحاشونه ، وأدرك أنه قد بدأ يفقد مركزه القيادى وسط فريقه ، وما أن عاد أبوه غاضباً من زيارته لديوتيميا حتى جعل يخاطبه بحدة باللغة :

وقال له : توماس ، ان روحاً شريرة تحرك ديوتيميا لم أعرها اهتماماً كافياً فى دراساتى اللاهوتية ، ومنها تتبعت آراء خطيرة أشبه ما تكون بلهب مكفهره مندلعة من نار كبريائية . ولست أدري مدى تأثير هذا السم على عقلك . أرجو ، اكراما لخاطري ، ألا يكون التأثير كبيراً ، وإذا أردت أن تسترد احترام الجميع الذى كان يثلج قلبى الأبوى ، فما عليك الا أن تكون واضحاً جلياً ، وأن تعلن على الملأ أنك تناهض بشدة هرطقتها الشريرة ، وأنه مامن رواسب حب يمكن أن توهم رغبتك المتأججة فى أن تراها تاحذ العقاب العادل لفجورها ، ومع ذلك ما انفك ثمة بصيص أمل ، ولعلك تنجح فيما فشل والداها وأنا ، فلو أفلحت سارت الأمور على ما يرام ، وان باء مسعاك بالفشل بات لزاماً عليك أن تبرهن بحماسك على أنك لم تتلوث بأفكارها .

وألقي توماس نفسه فى زنزانة ديوتيميا ولا يزال صدى كلمات التحذير هذه يطن فى أذنيه ، ووقف برهة مشدوها أمام جمالها ورباطة جأشها . وفى بادئ الأمر بدد حبه لها وشوقه العارم الى انقاذها ما يتسم به من حكمة ورسوخ عقيدة ، فانفجر باكياً وأخذت دموعه تنهمر من عينيه وهو يصيح : « أواه ، يا ديوتيميا ، ليتنى أستطيع انقاذك ! » .

فأجابت : « عزيزى توماس ، كيف تتمسك بمثل هذا الأمل الأخرق ؟ مهما فعلت فان حياتى ضائعة لا محالة ، سواء قضيت نحبي كعروس لزهاتوبولك بشرف ظاهر وخزى خفى أم لقيت حتفى كمجرمة منبوذة ومحترقه من الجميع خلا ضميرى » .

فاستطرد يقول : « ضميرك ! كيف تنصيبه حكماً أوحده ضد كل هذه الحكمة والأجيال العديدة المتعاقبة ؟ وكيف تكونين على هذا القدر من اليقين ياديوتيميا ؟ ومن أدراك أننا جميعاً مخطئون ؟ ألا تكونين أى احترام لأبى ؟ وهل تقبلين تلويث شرف أجدادك ؟ لقد أحببتك ...

وودت لو أنك بادلتنى الحب ، لكنى أرى أن هذا الأمل قد خاب ، وكم يؤلنى القول أنى لا أستطيع الاستمرار فى حبك وأنت تمزقين أعماق مشاعرى ، فذلك أكثر مما أحتمل ياديوثيما ! » .

فقلت : « كم أنا آسفة إذ جعلتك فى هذا المأزق الخطير . كان لديك قبل اليوم . من الأسباب ما يحملك على أن تأمل فى حياة ناعمة كريمة ، لكن من الآن فصاعدا عليك أن تخفار . فان أدنتنى فقد تظل حياتك سهلة ميسورة ، وان لم تفعل فربما كان ذلك أشرف وانبل لكنى أعلم - حتى وان أخفيت هذه الحقيقة عن نفسك - أنك لن تشعر فى أعماقك بسعادة لو أنك أدنتنى وأنحيت على بلائمة . لعلك استطعت أثناء ساعات انشغالك أن تخرس شكوكك وأنت تصفى الى ثناء الناس . لكن حين يرخى الليل سدوله ستشهد رؤيا أشير اليك فيها نحو عالم اسعد ، وما ان تولينى ظهرك حتى تستيقظ حزينا مهموما لأنى أعلم أنك قد رأيت ، وان يكن فى سرعة خاطفة ، تلك الرؤيا التى من أجلها اذان راضية . فليست الشمس والقمر ، كما نزع ، هما اللذان يوحيان بعقيدتنا الرسمية . بل الزهو والخوف : زهو بامبراطوريتنا وخوف من ضياعها . فلا ينبغى ان تبنى الحياة البشرية على تلك العواطف بل على الحق والمحبة ، حياة يجب ان نحياها بلا خوف وفى سعادة ينعم بها الجميع ، ولا يمكن أن تستمد الرضى من اذلال الغير بل تخجل ان يكون هدفها حماية تافهة للجسد على حساب الينابيع الداخلية للفرح والحيوية التى تفيض فى أولئك الذين يكشفون للعالم عما يعتمل فى نفوسهم فى مخاطرة جريئة باسلة . لقد كبنا أنفسنا بالأغلال . ففى خارج بلادنا فرضنا القيود على الضحايا . ولم ندرك أن من يسجن غيره يصبح سجينا . . سجين الخوف والبغض . فالأغلال التى قيدنا بها الآخرين قد قيدتنا فى سجن فكرى مطبق . تذكر الشمس التى وجدت طريقها الى وادينا ، ولابد أن يشرق النور فى بقاع العالم المظلمة . وسوف تكون رسالتك فى الحياة بعد قضاء نحى هى مواصلة تلك المهمة ، وان كنت لا تدري عن ذلك شيئا يذكر » .

أحدثت كلماتها صدى فى قلبه لبرمة وجيزة ما لبث بعدها أن استجمع قواه وانقلب اذعانه المؤقت الى ثورة غضب عارمة وصاح : « كيف تجرئين على مثل هذا التفكير ، وكيف تخالين أنك تستطيعين بعبارتك الطنانة حملى على نبيذ ما أقدس . لا جدوى من الماضى فى الحديث

معك ، وحرى بك أن تلقى حتفك ، أما أنا فينبغى أن أعيش كى أقارم
الشـر الذى تحسبـينه خيرا » . وبهذه الكلمات اندفع خارجا من زنازنتها .

ولما فثـل توماس فى مهمته ، فقد المسئولون الأمل فى حمل ديوتـيما
على التوبة والندم ، فانتخبـت عروس جديدة ، وحكم على ديوتـيما بالموت
العـلى فى اللحظة التى تنعم فيها العروس بوحدة روحية مع الاله .

وأعلن يوم اعدامها عطلة رسمية ، وأقيمت الأوتاد فى ميدان المدينة
الرئيسى وفى الصفوف الأمامية أعدت مقاعد النبلاء وعلية القوم ،
ووقف خلفهم سكان المدينة بأسرها يتحرقون شوقا ولهفة وقد راحوا
يمرحون ويمزحون ويتهكمـن وهم يأكلون الجوز والبرتقال ، ويطلقون
نكات سـمجة ، ويهللون ترقبا للتعذيب الذى كانوا على وشك أن
يشاهدوه . أما الأشراف الذين اتخذوا أماكنهم فى الصفوف الأمامية
فكانوا أكثر اتزاناً ، كما لـان الانكا فوق عرشه بالصمت فى جلال
ووقار . أما توماس ، كابن لأبيه ، فقد نال شرف الجلوس بين الأشراف .
لقد حامت حوله الشبهات ظلماً بأنه يشارك ديوتـيما هـرطقـتها ، الا انه
برأ نفسه من هذا الاتهام بحماس وقوة . وكـمكافأة له وكاختبار فى الوقت
نفسه ، تحتم عليه أن يجلس حيث يشهد مصرعها بوضوح تام .

وجاءوا بها عارية البدن ، لكنها ظلت رابطة الجأش هادئة النفس .
وانطلق الجمهور يردد : « ها هى المرأة الشريرة ! ستزين الآن من هو
الاله ! » . ثم أوثقوها بالأوتاد وأشعلوا النيران بشعلات ملتهبة .
وما أن بلغت ألسنة اللهب حتى رمت توماس بنظرة ... نظرة غريبة
خارقة تعبر عن ألم ورثاء وضراعة فى آن واحد ، رثاء لضعفه وضراعة
كى يحمل رسالتها من بعدها .. لقد مزق ألباسها أحشاءه ، وسحق رثاؤها
رجولته ، وأشعلت ضراعتها فى عقله لهيباً لا يقل ضراوة عن ذلك الذى
يحرق عودها . وفى لحظة رهيبـة أدرك أنه كان مخطئاً وأن ما تتعرض
له رجس ودنس ، كما أدرك أنها قد نذرت نفسها لما قد يكون راثعاً فى
حياة البشر وأن الأشراف ومن خلفهم من جماهير الشعب كانوا كذلك
ضحايا الخوف الدفين . وفى اللحظة الرهيبة أحس بالندم والتوبة
لكن التوبة لفظ لا يعبر عما اختبر . فلقد اختبر ذلك الاحساس العميق
القوى الذى حملها على أن تقف مرفوعة الرأس فى قلب النار المندلعة ...
احساس بتكريس نفسه للعمل الذى لم يتسن لها تكملته ، وبرغبة فى

تحرير البشرية من أغلال الخوف وما يتولد عنه من قسوة وعنف -
وتراءى له أنه صرخ من أعماقه قائلا : « ديوتيميا ، أنا لك ، لكنه فى
تلك اللحظة سقط مغشيا عليه ، وكانت الصيحة ولا ريب ، قد ترددت فى
أعماقه فحسب !

الفصل السادس

توماس

ظل توماس طريق الغراش باحدى المستشفيات زمنا طويلا يعانى
مرضا عضالا أعجزه عن التفكير المترابط ، وطافت بخياله أحلام بغية ،
اليمة اختلطت فيها نساء معذبات ، ورجال متوحشون ، ونيران ،
وموت ، وصرخات النصر المدوية التى تنم عن قسوة ووحشية -
وأخذ عقله يؤكد وجوده رويدا رويدا ، وما لبثت أن عادت اليه صحته ،
ومع الصحة استرجع عزيمة راسخة لا تلين سرعان ما خلقت منه
شخصية جديدة ، فلم يعد الشاب الرقيق المتواكل ، القانع بأن يقتفى أثر
أبيه فيقر عيننا - مثله - بنجاح بخس حقير . . . وبفكر ثاقب منبثق
من عاطفة متأججة فطن الى كل ما انطوى عليه النظام البيروى من
مزاعم ، وأدرك الدوافع الدنيئة التى أملتها ودعمتها . أما عقله الذى
دأب على العمل باتقان تام فى نطاق الحدود التى فرضتها العقيدة فقد
تخطى تلك الحدود دون أن يفقد ذرة من دقته واتزانه ، فلم يتحرر عقله
وحده بل قلبه أيضا . . . وكان البيرويون قد تعلموا أن يقدسوا الدولة
باعتبارها رداء الله الأرضى ، وأن يقصروا عطفهم على أولئك الذين
يخدمون الدولة بكل ما أوتوا من قوة ، بيد أن الدولة هى التى أطاحت
بديوتيميا . وفى غمرة ثورته على تلك الوحشية ، اذا هو يعلنها حربا
عوانا على جميع ألوان العنف والقسوة الأخرى ، وعلى ضروب النظم
التي تكبل العطف الانسانى بالقيود لا فى بلاده فحسب بل أينما حل بنو
الانسان . وبفعل نار عواطفه المتأججة امتزج الحب والحقد والعقل معا
فى وحدة صلبة لا تلين . . . حب لديوتيميا أولا ، ثم لغيرها من الضحايا ،

وحقد على الذين قضوا بموتها ، ومن ثم على النظام بأكمله الذى تسبب فى هذا القتل ، وعقل يحدّثه بأن ألوهية زهايوبولك ضرب من الأساطير ، وأن الشمس والقمر ليسا الهين بل كثلتين جامدتين لا حياة فيهما . كما أن تحريم تحديد النسل خرافة ، والتهام الناس لأبنائهم انما يقتل فى نفوسهم القدرة على العطف والحنان . وعقد العزم بكل عقله وفؤاده وارادته على الا يقيم على الأرض ، لو استطاع الى ذلك سبيلا ، نظاما افضل من ذاك الذى تعلم أن يحترمه ويقدسه ، نظاما أكثر اتساقا مع ما كانت ديوتيميا تحلم به وتمنّاه . وحسب أن الشعور بالذنب الذى ينخر فى أعماقه لا يمكن أن تخمد له جذوة ما لم يتسن له أن يقدم تلك التضحية تخليدا لذكرى ديوتيميا المؤلة المضنية .

ولكن لكى يهدأ ندمه وتبكيته ضميره ، لابد للقربان الذى يقدمه لذكراها أن يكون تغييرا للعالم كله وليس مجرد اخلاص شخصى أو استشهائ لا طائل من ورائه . وبتصميم أكيد متوقد فى أعماقه ، وان بدا فى الظاهر باردا كالثليج ، راح أولا يرسم خطته ، ثم يخرج بها الى حيز التنفيذ ، ولم يفه بكلمة ضد النظام القائم فى الجهر ولا مع من لا يثق بهم ثقة مطلقة ، وكان يبدو فى نظر أبيه وكل انسان آخر تقريبا ، وقد تطهر من كل ما كان يشوبه ذات يوم من شكوك ، فسرعان ما تبددت تلك الظنون التى حامت حوله فى الأيام الأخيرة لديوتيميا وصارت حياته الرسمية هادئة تنتقل من نجاح الى نجاح ، قتولى منصبا قياديا بين أقرانه ، كما كانت كلماته تشف الاذان لما تنطوى عليه من حكمة ورسانة .

وكان أشد أصدقائه حماسا له واعجابا بأرائه شابا يدعى « بول » وفى ساعة متأخرة من احدى ليالى الصيف ، فتح قلبه لبول بحذر فى بادئ الامر ، وما أن وجد منه استجابة حتى راح يفرغ ما بجعبته شيئا فشيئا كانت الشكوك تساور بول حول حرق ديوتيميا ، وكان من الحكمة بحيث كتم الأمر فى نفسه ، فجاءت كلمات توماس ، لتؤكد شكوكه ، ووفق الاثنان بتحادشان طوال ليلة الصيف حتى بزغ الفجر ، ثم افترقا بعد أن تعامدا على انكاء نار أية ثورة يندلع لهيبها ، واستطاعا تكوين جمعية سرية تضم من عقبوا العزم على الثورة من بين طلبة العلوم الذين تعذر عليهم التسليم بالوهية الشمس والقمر ، ودارسى التاريخ ممن لم يؤمنوا بانحطاط الأجناس الأخرى ، وطلاب علم النفس الذين ثاروا ضد عادة أكل الأبناء التى تقتل الحب الأبوى . وأخذت الروايات حول مسلك الانكا الذى لا يمت بصلة لأى تصرف الهى ، تتسرب من دوائر الحاشية رغم ما اتخذ من

احتياطات أمن مشددة • ومع ذلك ظل توماس بعيدا عن هذه التيارات •
وفى الخفاء راح يشجع أكفأ تلاميذه على القيام بالبحوث التي حظرتها
الحكومة وجعلت الموت عقابا لمن يضطلع بها • ولما كانت قوة بيرو تستند
الى فطريات كوتوباكسي القاتلة ، فقد اكتشف طبيب نابيه علاجا واقيا من
الوباء ، كما أصبح الكثيرون من حلفاء توماس حكاما لأقاليم نائية ، تلك
المناصب التي لم تكن مرغوبا فيها لبعدها عن بيرو وكانت في العادة توكل
الى الشبان كخطوة أولى في هرم الترقى الرسمي • وانطلق هؤلاء الرجال
بحذر وفي سرية ، يتخلون عن سياسة ازدياء الذير التي دأبت بيرو على
انتهاجها في بقاع العالم الأخرى • وصار بول ، الذي أصبح الرجل الثاني
لتوماس ، حاكما لاقليم « كيلمنجارو » حيث كان متسلقوا الجبال في تلك
المنطقة على ما هم عليه من جرأة وعنف ، ان طبعوا على الخشونة
والجفاء • ففرب اليه زعماءهم وولد في نفوسهم ، لأول مرة منذ أجيال
عديدة ، الأمل في النجاة من ربة الاستعمار البغيض ، وظل الكثيرون من
المقامين يقولون في بيرو مناصب رئيسية دون أن تحوم حولهم الشبهات •

وأخيرا ، وبعد عشرين عاما من التدبير المقرون بالحيلة والحذر ،
قرر توماس أن الوقت قد حان للعمل السافر ، ورسمت خطة دقيقة لما
سيقع من أحداث ، فأعلن ، وكان آنذاك يشغل منصب مدير الجامعة ، أنه
سيميط اللثام في اليوم الذي حدده عن حقيقة مثيرة وطلب الى جميع
أنصاره - باستثناء من أوكلت اليهم مهام خاصة - الحضور في القاعة
التي سوف يلقي فيها خطابه ، واعتلى المنصة كما فعل أبوه من قبل • بين
أن كلماته كانت مغايرة تماما هذه المرة ، ان جاهر بكل ما يؤمن وما لا يؤمن
به ، ولدهشة من لم يكونوا مشتركين في الخطة لقيت أشد آرائه الهدامة
تصفيقا حادا ، وخيم الرعب والحيرة على المكان ، لكن السلطات أفلحت
كما كان متوقعا ، في أن تلقى القبض عليه وتحكم عليه بالموت كديوتيميا ،
حرقا في اللهب التي تشعل في عيد الظهور •

وما حدث بعد ذلك لم يكن في حسابان الحكومة ، فقد اكتشف واحد
من أصدقائه كيف يصنع المطر ، وحال طوفان الماء دون اشتعال النيران
التي كانت ستلتهمه • وحين علم صديقه بول بالسبب المحددة لتنفيذ
الاعدام ، استقل طائرة ضخمة من مقر رئاسة الحكومة في « كيلمنجارو »
وانطلقت تطير بسرعة الصوت حتى بلغت سحب المطر المخيمة في سماء
« كوزكو » • ثم هبطت منها طائرة هليكوبتر في الميدان واختطفت توماس
الذي نقل الى كيلمنجارو تاركا جماهير الشعب تعتقد أنها قد رأيت معجزة

وان ذاك وجدت الحكومة نفسها مغلولة اليدين ازاء التمرد غير المتوقع الذى رفع لواءه الكثيرون من ضباطها . ولما نعى الى علم السلطات فى كوزكو وقوع ثورة فى كليمنجارو ظنوا أنهم قادرون على قمعها باستخدام وباء الطفيليات ، فاذا بهم يفاجأون بأن سكان أفريقيا محصنون ضد هذا الوباء . واستبد بهم الرعب الذى انقلب الى اضطراب وذعر حين تبينوا ان العلماء من أنصار توماس قد اكتشفوا السبيل الى توليد أشعة مميتة من المنحدرات البركانية للجبل المقدس الجديد . لقد ظلوا قرونا عديدة لم يتسرب الخوف الى نفوسهم ، ما أن واجهتهم الأزمة حتى خانتهم شجاعتهم وحين حُلقت قوات توماس فى أسطول ضخم من الطائرات فى سمائهم وراحوا يهددونهم بنشر غبار الموت الذى جاءوا به معهم ، لم يكن من الطبقة الأرستقراطية الحاكمة الا أن استسلمت على أساس الوعد بالبقاء على حياتهم ، وأصبحت كليمنجارو مركزا للحكومة ، ونصيب توماس رئيسا لجمهورية العالم كما اختير بول رئيسا لوزرائه . واعترف الجميع بأن عهدا جديدا قد بدأ ، أما عصر زهاتوبوك فقد زال ولى !

وما أن استقر حكمه حتى بدأ توماس يعمل فى رفع الذل الذى لحق بالشعوب غير الهندية جميعها ، فخفض ساعات العمل التى كان البيرويون قد حددوها بعشر ساعات لا بدائع اقتصادى بل بهدف ارهاق العمال حتى لا يقفوا على التحرر أو الثورة . وبفضل جهود فريق المخلصين ، ازدادت موارد العالم الغذائية ، وبإباحة منع الحمل باتت هذه الزيادة تخدم الصحة وتحقق الرفاهية بدل أن تؤدي الى مضاعفة عدد السكان . واشترك فى السلطة السياسية من كان علم قدر كاف من التعليم الذى أخذ ينتشر بأقصى سرعة ممكنة فى ربوع الأرض قاطبة . وشهدت كثير من الدول التى كانت تزرع تحت نير العبودية نهضات عظيمة فى الفن والشعر والموسيقى وانطلقت الطاقات المقيدة ، التى ظلت قرونا فى ركود وخمول تشكل حياة خصبة مثمرة لم تشهد مثلها سوى عصور عظيمة محدودة لقرون محدودة . ونادى بعدم الاعتراف بالآلهة وبذل قصارى جهده لى يقنع العالم بأن العجيزات مستحيلة الوقوع ، وان رأى الناس فى نجاته من الموت معجزة محققة ، وكان هنالك من أرادوه فى مكانة زهاتوبوك السابقة ، لكنه رفض التآليه بشدة ودعا الى مقاومة هذا المبدأ فى جميع المدارس ، فلم يكن فى عهده كهنة ، أو طبقة أرستقراطية . لا أجناس حاكمة ولا شعوب مغلولة على أمرها .

الفصل السابع

المستقبل

تلك هي قصة الثورة العظيمة كما رواها بول ، صديق توماس ، بعد حكم دام سنين طويلة وانتهى بموته ، ومنذ ذلك اليوم صارت قصة حياته وتعاليمه كتابا مقدسا للعصر الكليمنجارو ولكن ما لبث الناس أن اكتشفوا شيئا فشيئا أن بعض جوانب نظرية توماس قابلة للتحريف وسوء التفسير ولو ترك كتاب « بول » يقرأه الجميع لأدى الى نتائج وخيمة لا تحمد عقباها ، اذ هو لم يشير الى الأمور التي تفهم حرفيا وتلك التي تعتبر مجازية . وساد الاعتقاد في ربوع الأرض قاطبة أن توماس كان في الحقيقة الها ، كما كانت ديوتيميا الهة ، وأن كليهما ارتدى رداء البشر لفترة وجيزة . فما أن وافقتهما المنية حتى استأنفا حياتهما السماوية التي تخليا عنها لبضع سنوات معدودات من أجل خلاصنا ، وحين أنكر توماس ألوهيته فانما كان ذلك بالنسبة لظهوره الأرضي . ذلك ما نادى به المفسر العظيم « جريجوريوس » بعد موت توماس بخمسمائة عام .

وظل كتاب بول متداولاً فترة من الزمان مشفوعاً بتفسير جريجوريوس ومع ذلك ظل ينطوى على ضرب من المخاطرة . فحظرت قراءته حتى مع التفسير إلا لمن يصرح لهم بذلك من اللاهوتيين ، ولم يضعف هذا الحظر من خطورته ، وفي نيوزيلاند لا توجد غير نسخة واحدة بجامعة أوكلاند كانت قد أعيدت أخيراً الى الجامعة وقد دونت فوق صفحاتها الأخيرة الملاحظة التالية الغريبة : « أنا ، طوبيا من قبيلة نجابوهي » المقيم فوق منحدرات « روبيهو » ، لست مقتنعا بما ذهب اليه « جريجوريوس » من تفسير أخرق . ويقيني أن توماس كان أحكم من جريجوريوس ، وأنه كان يعني حرفياً كل ما يراه ذلك الكاهن الذي تستبد بذهنه الأمور اللاهوتية محيراً مقلقاً . ولسوف تكون رسالتي - اذا ما أتيت لي ذلك - أن أعود بالعالم الى ذلك الاتحاد القديم الذي سعى محرره الى نشره » .

تلك كلمات تنذر بالسوء لم يتضح بعد ما تمخضت عنه من نتائج .

الايمان والجمال

تأليف : برتراند راسل
ترجمة : شاكرا براهيم
مراجعة : عبد الحليم البشلاوي



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٦

الايمان والجبال

الفصل الأول

استبدت الدهشة بمندوب نيبال لدى هيئة « اليونسكو » وتملكته الحيرة ، فقد كانت هذه هي المرة الأولى التي يهجر فيها أنهار بلاده الجليدية وصخورها المنحدرة الآمنة ، ويدفع بنفسه الى مخاطر الغرب التي تثير في النفس القلق والاضطراب . كان المندوب قد وصل بالطائرة في ساعة متأخرة من عشية اليوم السابق فلم يلحظ شيئا من حوله ، وراح يغط في سبات عميق حتى الضحى ، اذ كان متعبا منهوك القوى . ثم أخذ يتطلع الى شارع كان النادل الذي أعرض له طعام الافطار قد أبلغه أنه شارع « بيكاديللي » ، فلم يبد له بالصورة التي رسمتها في ذهنه أفلام السينما ، كما أنه لم يلمح فيه حركة عادية للمرور بل موكبا هائلا من رجال ونساء يسرون على الأقدام ، وقد رفعوا لافتات لم يسعفه قاموس ، كان يحمله ، لادراك مغزاها . غير أن العبارات التي تضمنتها كانت تتردد على نحو تمكن معه من فك رموزها ، فقد كانت الجماهير تهتف بعبارات متعددة ، لكنها تحمل معنى واحدا استطاع في النهاية أن يحدسه . « لقد سمعها تصيح : « تحية للملبدنوم (1) صانع الأجسام الصحيحة » . ثم ترامت اليه عبارة أخرى ترددت كثيرا تقول « الى المجد مع الملبدنيين » . وثالثة لم تتكرر كسابقتها هي « عاشت القديسة مولى . ب . وين » . وكان هناك فريق آخر قد تولاه الهياج والغضب ، يحمل لافتة تقول : « الموت لأنصار المغناطيس الأدياء » . كان الموكب مهولا ، اذ بلغ طوله في بعض الأحيان ما يقرب من ربع الميل . كما كان يضم فرقة موسيقية وجوقة من المرتلين أخذوا ينشدون ما بدا كأنه نشيد الجنود الزاحفين الى أرض المعركة :

الملبدنوم أحسن المعادن ،

نافع للعظيم والحقير ،

(1) عنصر معدني هش يمزج بالفولاذ لحفظ صلابته ضد الحرارة الشديدة .

يشفى جميع أمراض الصدر ،

وينمى أيضا عضلاتنا ٠٠

كانوا يرددون النشيد كما يرددون التراتيل الدينية ، وهذا ما لم يدركه المندوب النيبالى ، إذ لم ينعم بتربية مسيحية .

وما أن خيل اليه ألا نهاية لذلك الموكب حتى حدثت فجوة أعقبتها شرذمة من شرطة السوارى . ثم موكب آخر يحمل لافتات مغايرة تماما كتب على طائفة منها : « المجد لأورورا بوهرأ » بينما حملت أخرى عبارة : « القوة للقطب الشمالى » ٠٠ الى جانب لافتات أخرى كانت تقول : « عن طريق المغناطيسية ننال العظمة والجلال » . ومالبث النزاحون أن انطلقوا في هذا الموكب وجعلوا يرتلون بدورهم ترنيمة لم يفهم كتبها ، شأنها شأن ترنيمة الموكب الأول . كانوا ينشدون :

أنتقدم

نحو الشمال

فى مركبتى ذات المحركات المتناثرة ،

أهبط فوق القطب

لخير نفسى

وأعلم أن « بوهرأ » تفضل « هاريت » كثيرا .

كان كلما مر الوقت ازداد قصول مندوب نيبال حتى بلغ الذروة ، فإذا هو يندفع الى الشارع فينضم الى الموكب الزاحف ، ويأدب الشرق العتيق يسائل من كان يسير بجواره : « ألا نكرمت ياسيدى ، وتفضلت بأن تشرح لى السبب الذى يحمل هذا النجمور المتزل على الزحف تأحية الغرب بمثل هذا العزم والنظام ؟ » .

فأجابه الرجل « باركك الله ، أتعنى أنك لا تدرى شيئا عن طائفة « الماجنتس » ، ترى من أين أنت قادم ؟ »

فاستطرد المندوب « لا تضق ذرعا بجهلى ياسيدى ، فأنا لم أهبط من الطائرة الا بالأمس القريب فقط ، وكنت من قبل ، أقطن جبال الهيمالايا فى

منطقة لا يسكنها غير البوذيين والشيوعيين ، جماعة طبعت على السكينة والهدوء ولا تشغل بالها بمثل هذه المسيرات الطويلة الغريبة » .

فقال جاره : « يا الهى ، ان كان هذا شأنك ، فتبسيط الأمر لك كى تفهمه يتطلب من الجهد ما لا غنى لى عنه » .

ثم مضى المندوب فى صمت يحدوه الأمل فى أن يكشف له الزمن حقيقة الأمر .

وفى نهاية المطاف ، وصل المركب الى مبنى هائل مستدير اسمه « قاعة البرت » ، على حد قول جاره ، حيث سمح للبعض بالدخول بينما أجبر السواد الأعظم من الجماهير على البقاء خارجا . أما مندوب نيبال فلم يؤذن له بالدخول فى بادئ الأمر ، لكن بعد أن أفصح عن مركزه الرسمى كمندوب وأوضح اهتمام بلاده البالغ بمظاهر الغرب الثقافية اذنوا له ، فى النهاية ، بأن يتخذ مقعده فى المؤخرة فى منتصف القاعة تماما .

ولاح له أن ما شاهد وسمع انما يلقي ضوءا عظيما على أخلاق شعب عجيب وجد نفسه بين ظهرائه ، وعلى عاداته وتقاليده وعقائده وأساليب تفكيره . بيد أن ما ظل خافيا عليه كان كثيرا ، فقرر أن يكرس نفسه لبحث جدى ويرفع تقريراً مفصلاً ينير به عقول حكماء الهيمالايا .

وبرهنت المهمة على أنها شاقة فعلا ، ولم ير أن ما توصل اليه جدير بحكمة من أوفدوه الا بعد مضى اثنى عشر شهرا . وكان من حسن حظى إبان تلك الشهور الاثنى عشر أن توطدت بينى وبينه أواصر الصداقة وأن أتيح لى الانتفاع بحكمته . وفى ضوء تقريره ، كتبت هذه القصة التى تتناول المناقشة العظيمة والأحداث التى أفضت إليها وأعقبتها . ولولا جهوده ما كان لقصتى أن تبلغ مابلغته من دقة وإقاضة .

الفصل الثمانى

كانت كل من الطائفتين اللتين شهد مندوب نيبال مناقشتها العلنية، قد ظهرت بعد فترة اكتنفها الغموض . وفى السنوات الأخيرة راحتا تنتشران بسرعة مذهلة قل أن تجد معها شخصا ، باستثناء العلماء ، لم ينضسو تحت لواء احدهما . وكان يطلق عليهما : « الملبدينين » و « المغنطسيين الشماليين » أو « المغنطسيين » فحسب كما اتخذت كل منهما لندن مقرا لرئاستها ، وكان « زيرويا تومكنز » يدير دفة أمور الملبدينين بينما تولى « متاسا ميرو » ادارة شئون « المغنطسيين » . أما العقيدة الأساسية التى كانت تعتنقها الطائفتان ، فكانت بسيطة لا تعقيد فيها . .

كان الملبدينون يعتقدون انه لتنمية الصحة والقوة تنمية كاملة يحتاج جسم الانسان فى الغذاء الى قدر من الملبدنوم أكبر مما هو مألوف من قبل، وكانت آيتهم المختارة هى : « من يأكل ، يأكل للرب ، ومن لا يأكل ، فللرب لا يأكل » . لكنهم غيروا ترتيب كلمات الشطر الأخير من الآية فصارت تقرأ : « من لا يأكل ، لا يأكل للرب » . . وراحوا يفسرون عبارة « من يأكل » بأنها تعنى شخصا يأكل الملبدنوم ، مدعمين رأيهم بقصة لا أستطيع أن أقطع بصحتها ، وهى أن قطعانا كبيرة من الغنم فى منطقة معينة باستراليا أخذت تضعف وتموت موتا بطيئا لخلو مراعيها القليلة خلوا تاما من عنصر الملبدنوم بعكس ما يوجد فى أوروبا وآسيا . وأعلن بعض علماء الكيمياء العضوية والأطباء - لعلمهم ليسوا من أبرز المشتغلين بالمهنتين - ما لعنصر الملبدنوم من أهمية غذائية ، فاستغل انصار هذه الطائفة المخلصون هذه التصريحات واتخذوا منها دليلا يبرهن على صحة عقيدتهم . لقد كان الاقبال على هذا العنصر المعدنى ، غير الشائع ، شديدا لصناعة الأسلحة ، فلما أخذت حدة التوتر تخف رويدا رويدا تناقص هذا الاقبال . لكن مع انتشار طائفة الملبدينين وتطورها ، لم يعد طلب الملبدنوم

يعتمد على اندلاع نيران الحرب • اذ كان الملبدينون يناهضون الحرب ويعتبرون الناس جميعا اخوة ما خلا أنصار طائفة •• المغنطيسيين •• لكن التغلب على هذه الطائفة ما كان ليتحقق بالقوة بل بنور الحق الساطع الوضاح •

أما طائفة « المغنطيسيين الشماليين » فقد اكتشفت سر سعادة الانسان ورفاهيته في اتجاه مغاير تماما فهي تقول « نحن جميعا أبناء الأرض ، والأرض ، كما يعلم كل تلميذ مبتدئ ، مغنطيس عظيم • ومن واجبنا جميعا أن نشارك بدرجات متفاوتة في الميول المغنطيسية لأمتنا العظيمة • وإذا لم نخضع أنفسنا لسلطانها الخير شملنا القلق والاضطراب ومن ثم يتحتم علينا دائما أن ننام ورؤوسنا متجهة صوب القطب الشمالي وأقدامنا نحو القطب الجنوبي ، ومن يداوم النوم هكذا ينل رويدا رويدا نصيبا مما للأرض من قوى مغنطيسية ، وينعم بالصحة والعافية والحكمة •• ذلك ، على الأقل ، ما كان يؤمن به أنصار طائفة « المغنطيسيين » إيماننا راسخا لا يتزعزع •

وكان بكل طائفة دائرتان . واحدة داخلية وأخرى خارجية ، يطلق على الأولى دائرة « القادة » كما تسمى الثانية دائرة « الأتباع » • وكانت لأعضاء الدائرتين شارة تميز أعضائها عن غيرهم • فقد كان أتباع « الملبدونوم » يضاعون خاتما من الملبدونوم في أصابعهم ، بينما دأب المغنطيسيون على أن يعلقوا في أعناقهم مغناطيسا في شكل قلادة • وكان القادة يكرسون أنفسهم للحياة المقدسة التي كانت موزعة بين الطائفتين أصحاء والعمل التبشيري • ومن ثم كان « القادة » لدى كل من الطائفتين أصحاء وسعداء وأطهارا • لقد كان الخمر والتبغ محرمين عليهم • كذلك كانوا يأوون الى الفراش في ساعة مبكرة ليتسنى للדם ، بالنسبة لطائفة الملبدونوم أن يمتص ما تناولوا من الملبدونوم مانح الصحة والعافية ، ولتتمكن قوى الأرض المغناطيسية ، بالنسبة للمغنطيسيين من أن تعمل عملها كاملا ابان ساعات الظلام • ولم يكن القادة ، بقوة الايمان ، يعبأون كثيرا بالمضايقات اليومية التي كانت تقلق من لم يؤثروا هذا القدر من الايمان • حقا كانت لهم مشكلاتهم في أيام خلّت ، حين كان المتطرفون من غير الحكماء يدفعون بتعاليم الطائفتين الحكيمة السامية الى ما وراء حدود الحكمة ، فقد وجد يوما بين صفوف الملبدينين جماعة متطرفة حسبت أن القداسة يمكن قياسها بقدر ما يستهلك من الملبدونوم يوميا ، فانغمس بعضهم في استهلاك هذا العنصر حتى بات جلداهم أشبه بلون المعدن ذاته ، وبات واضحا أن من

الممكن الانغماس في الملبندونوم كما في أى شئ آخر لدرجة الافراط مهما سميت نواياهم . واضطر الشيوخ منهم ، عقب اجتماع عاصف ، الى معاقبة المتطرفين وتدريبهم على النظام ، فلم تظهر بعد هذه الواقعة المؤلة مشكلة مماثلة .

وبرز بين المغنطيسييين نزوع الى تطرف من لون مغاير ، اذ وجد من

قالوا : مادمننا نزال الفضيلة ونحن نيام في اتجاه قوة الأرض المغنطيسية ، فقد بات لزاما علينا أن نضطجع على هذا النحو بصفة مستديمة . فالنهوض من فراشنا مخاطرة بفقدان الفضيلة الملهية التى تهيبها الأرض لمن يعبدونها كما ينبغى . ومن ثم كان هؤلاء المتحمسون يقضون الأربع والعشرين ساعة في الفراش ، مما بعث الضيق البالغ في نفوس أقربائهم وأصدقائهم ممن كانوا دونهم حماسا وتعصبا . وأمكن القضاء على هذه الهرطقة بما كان للشيوخ من سلطان ، كما قضى على تلك التى ظهرت بين صفوف الملبنديين وأن يكن بمشقة ، وصبر قرار يحظر على أى عضو من المغنطيسييين البقاء في فراشه أكثر من اثنتى عشرة ساعة من الأربع والعشرين ، باستثناء أوقات المرض .

بيد أن هاتين المشكلتين لم تظهرا الا في الأيام الأولى من تاريخ الطائفتين ، أما في أيامهما الأخيرة فقد اتحد الجهاد في الدعوة والنجاح السريع مع الصحة والقوة ليملاؤا حياتهم غبطة وبهجة . ولم يكن ثمة ما يقلق القادة سوى أمر واحد هو أن الملبنديين لم يستطيعوا فهم السر الذى حدا بالعناية الالهية الى أن تسمح بنمو المغنطيسييين ، كما أن هؤلاء لم يتسن لهم فهم السبب الذى حمل العناية الالهية على السماح بنمو الملبنديين وتقدمهم . وراحت كل طائفة تعزو نفسها بالقول أن هناك . ولاشك ، سرا غامضا يكمن في مكان ما ، وليس لعقل الانسان المحدود أن يدرك مقاصد العناية الالهية السامية ، ولامرأ في أنه عند اكتمال الزمان سوف يسود الحق وستحظى الطائفة التى ظلت تعلن الحقيقة بالتأييد العالمى . وعلى « القادة » ، في هذه الأثناء ، أن ينشروا النور بالقوة الحسنة والارشاد والكلمات الحكيمة في وقت مناسب وغير مناسب . ولقد كان النجاح الذى حققته كل من الطائفتين في هذا الصدد موضع دهشة واستغراب لغير المكترث .

ولقد تعرضت كل طائفة ، في فجر تاريخها ، لسخرية غير المؤمنين بها ، الذين راحوا يتساءلون : ولماذا معدن الملبندونوم بالذات ؟ ولم لا يكون

السترونتيوم ؟ ولم لا يكون الباريوم ؟ ثم ما سر عظمة هذا العنصر دون
سواه ؟ وحين أجاب المؤمنون بأن السر لا يدركه الا أولئك الذين نالوا
الايمان قبل الرد بتهكم وسخرية •

وسرعان ما واجه المغنطيسيون الشماليون عين المعضلة ، فكان
المرتاقبون يتساءلون : ولماذا لا يكون القطب الجنوبي ؟ وذهب البعض -
ولا سيما من كان منهم يقطن نصف الكرة الجنوبي - الى حد أنهم دأبوا
على النوم ورؤوسهم في اتجاه الجنوب ، وراحوا يعلنون تحديهم لأنصار
طائفة المغنطيسيين الشماليين للدخول معهم في مباريات للمصارعة لاثبات
أن القطب الجنوبي يمنح القوة والنشاط كالشمالي سواء بسواء • وكان
المغنطيسيون الشماليون يقابلون مثل هذه التحديات بالازدراء الذي
تستحقه ، فيجيبون بالقول : ان الذين يتبعون النظام المحدد لا ينالون الصحة
والقوة فحسب ، ان بتغلغل قوة الأرض المغنطيسية في الأعماق بتحقيق نوع
من الانسجام الداخلى • فمن الناحية البدنية وحدها قد يتغلب بعض الكافرين
على بعض المؤمنين ، لكن المؤمنين الحقيقيين سيظلون أكثر سموا وعظمة
من حيث ما ينعمون به من انسجام تام بين الجسد والروح • وأما القول
بأن القطب الجنوبي خير كالقطب الشمالي تماما ، فقد دحضوه قائلين بأنه
لو كان هذا صحيحا فهل من تبرير للسبب الذي حدا بالخالق الى أن يخلق
في الشمال مساحة من الأرض تفوق ما في الجنوب بمراحل ؟ ومع أن هذا
الرأى قد أثار شيئا من السخط في جنوب أمريكا وجنوب أفريقيا وأستراليا
فقد ساد الشعور بأن الرد عليه أمر عسير • ولم يكن هناك ما يحصل دون
تأثير آراء طائفة المغنطيسيين الشماليين سوى حماس أنصار الملبدون
وعصبيتهم •

كان كل جانب يحاور ، ويحاور في صدق ونزاهة ، بأن الايمان بالحق
هو وحده الكفيل بمواجهة الايمان بالباطل • ولا يستطيع المنطق الذي
لا يسانده الايمان أن يتغلب على حماس المتعصبين المخدوعين • وعندما
كانت الطائفتان فتيتن ، حاول بعض رجال العلوم وعدد من نقاد الأدب
أن يقابلوا مزاعمهما بمزيج من الاحصائيات والتهكم ، غير أنهم عجزوا
عن وقف التيار الشعبى الجارف • وجاء الوقت الذي لم يقف فيه ضد كل
من الطائفتين سوى أولئك الذين منعهم نكاؤهم الفائق (أو كما هم أنفسهم
يظنون) من التعاطف مع جماهير الشعب • كما لم تقف على الحياد غير
الصحف الباهظة الثمن ، المحدودة التوزيع التى لم يكن يقرأها غير
ارستقراطى الفكر ، والتى كانت تكتفى بنشر أقل ما يمكن ذكره عن أخبار

الطائفتين ، مما جعل كبار المتعلمين يعيشون في شبه عزله عما كان يجرى من حولهم . أما الصحف الرخيصة فقد حاولت في بادئ الأمر مهادنة كل من الجماعتين ، لكن سرعان ما اتضح أن المضي في هذه السياسة أمر متعذر ، فكان أى ثناء على طائفة المغنطيسيين الشماليين يثير سخط طائفة الملبدنوم ، كما أن عدم القدر في الملبدنيين كان يحمل المغنطيسيين على القسم ألا يطالعوا ثانية تلك الصحيفة الساقطة . ومن ثم اضطرت الصحف الشعبية الى الانحياز الى أحد الطرفين . فانضمت صحيفة «ديلى ليتنينج» الى جانب المغنطيسيين الشماليين ، بينما انحازت « ديلى ثندر » الى الملبدنيين . وراحت كل منهما - يوماً بعد يوم - تصور بشكل أشد عنفاً من ذى قبل ، الانحطاط الخلقي والفكرى للطرف الآخر ، وتبرز ذرى الطهر والحماس والتكريس التى يرقى اليها الطرف الذى تسانده . وتحت تأثير هذه البراعة الصحفية ، أخذت الروح الطائفية تقوى شيئاً فشيئاً فضاغت الوحدة القومية ، وبلغ الأمر حداً كان يخشى معه اندلاع نيران حرب أهلية .

ولم تكن المشكلة قاصرة على بريطانيا وحدها ، بل كان التوتر المتزايد بين الولايات المتحدة وكندا - ذلك التوتر الذى نشأ عن أسباب لم نتعرض لها بعد - هو ، فى الواقع ، أخطر مظهر لها .

الفصل الثالث

كانت مؤسسة طائفة الملبدنيين أرملة أمريكية فى ربيع العمر تدعى « مولى . ب . دين » وكان زوجها فاحش الثراء ، لكنه كان وديعاً ، وداعة من النوع الذى يرث الأرض كما تذكر الأناجيل . . لقد كان يملك مساحة شاسعة من أرض كلورادا آل اليه جانب منها بالميراث ، وحصل على الجانب الآخر بالاستثمار الناجح . وكانت زوجته ، التى ألت اليها الثروة الضخمة برمتها ، احدى النساء اللاتى خلقن ليصبحن أرامل .

ولا يبلغ أولئك الذين يتزوجون من مثل هذه النساء سناً متقدمة • ومن ثم مات السيد دين وهو في ربيع الحياة •

لكن يبدو أنها لم تدرك هذه الحقيقة كجانب حتمي من مصيرها ، اذ دأبت على التردد عند تحدثها عن مزايا الملبدنوم : « آه لو عرفت آثار هذا المعدن النافعة في وقت مبكر ، اذن لظل زوجي العزيز (يهوشافاط) على قيد الحياة » •

اكتشفت مسز « موللى • ب • دين » - التى كانت عقيدتها الدينية وبراعتها التجارية غير منفصلتين بالصورة التى يتمناها المرء - عند فحص استثمارات زوجها بعد موته أنها تمتلك نحو تسعة أعشار موارد العالم من خام الملبدنوم • وانتابتها الدهشة للتشابه القائم بين اسم هذا العنصر واسمها ، وأيقنت أن هذا التشابه لا يمكن أن يكون وليد الصدفة ، وإنما هو من صنع القدر ولا ريب • ولا مناص من أن تكون رسالتها المجيدة في الحياة هى أن تطلق اسمها على عقيدة جديدة أكثر نقاء من أية عقيدة سابقة وتدر عليها ، في ذات الوقت ، ربها وفيرا •

كان الأمر يقتضى تلقين استهلاك الملبدنوم للتابعين الذين ينبغي أن يحملوا اسمها ويطلق عليهم « الملبدنيين » • وسرعان ما نما وليد هذه اللحظة من التفكير المبدع الخلاق ، واستطاع أن يسير على ساقيه ألا وسمًا: العقيدة الدينية ، والبراعة التجارية • وحتى لا تتداخل الواحدة في الأخرى قامت بتكوين شركة أطلقت عليها اسم « شركة المعادن المتحدة » ثم احتفظت بسيطرتها عليها دون أن يظهر اسمها • كما استطاعت في الوقت نفسه أن تغرس عقائدها الدينية في عقل « زرويا تومكنز » وهو رجل يصغرها سناً كان قد حقق نجاحاً باهراً كواعظ معمدانى • لكنه كان قد اختفى عن الأنظار لأنه انحرف قليلاً عن جادة الصواب وسيطرت عليه شخصيتها القوية سيطرة تامة ، فكان يتقبل كل كلمة تنطق بها كما لو كانت ناموساً الهياً • وامتلاً حماساً بالغاً لتجديد الجنس البشرى عن طريق انجيلها الحقيقى • ولما كانت قدرته على التنظيم لا تقل شأنًا عن غيرته ، اوكلت اليه - دون تردد - المهام الدينيوية لرابطة الملبدنيين الأخوية المقدسة •

أما طائفة المغنطيسييين الشماليين فتدين بتكوينها - وان كان أنصارها أنفسهم لا يدركون هذه الحقيقة - لرجل مرموق يدعى « سير ماجنوس ثورت » • وكان هذا الأخير شخصية بارزة في حياة كندا الوطنية ، يملك

مساحات واسعة من الأراضي في الشمال الغربي الخاوى التي كان يعتقد أنها تحوى ثروة معدنية ضخمة . وقرر أن يضع منطقة الشمال الغربي « على الخريطة » . فاستخدم علماء الجغرافيا الطبيعية لتحديد موقع القطب المغنطيسى بدقة أكثر مما تم حتى الآن ، واستبان له ، كما كان يأمل ، أنه يقع في منتصف الأرض التي يملكها تماما . كما اكتشف - أو بالأحرى اكتشف العلماء الذين استخدمهم - أن جبلا بركانيا يقع عند القطب المغنطيسى ، وأنه سواء بفعل البراكين أم نتيجة لنشاط إشعاعي ، فإن التربة في المنطقة المجاورة دافئة والجليد فيها يذوب ، كما أن ثمة بحيرة لا تتجمد مياهها حتى في فصل الشتاء . وبعد أن جمعت لديه هذه الحقائق فكر في القيام بحملة واسعة النطاق ، واستطاع ، بمساعدة أستاذ في علم الأجناس كان قد درس معتقدات الاسكيمو وهنود الشمال ، أن يصوغ المبادئ الأساسية للعقيدة التي باتت مذهبا لطائفة المغنطيسيين . بيد أن السيطرة على الناس لا تتم بالمنطق المجرد وحده كما حذر علماء الأجناس وعلمته تجاربه في سوق الأوراق المالية . وحتى ان كانت الأسانيد المؤيدة للمذهب الجديد الذي أراد نشره يذبحى أن يقبلها المنطق دون تردد فإنه راح يبحث عن مفتاح ، سرعان ما عثر عليه ، يقربه الى قلوب الناس حين ترق وتصبح أكثر استعدادا . لقد أدرك أنه ليس من مصلحته أن يكون رسولا للمذهب الجديد ، وإنما لابد أن يكون الرسول ديناميكيًا صوفيا في آن واحد ، شخصا قادرا على أن ينفذ الى أعماق القلب البشرى، انسانا يستطيع أن يدخل في أعماق الرجال والنساء ذلك السلام الدافق العجيب الذي يبدو كأنه يجلب السعادة ، لكنه لا يأتى بالكسل والخمول .

وترك مهمة البحث عن مثل هذا المؤسس لمساعدته عالم الأجناس الذي قام بمقابلة رؤساء المذاهب فى لوس أنجلوس بشيكاغو . وذهب حيثما وجد البحث الجاد عن معتقدات جديدة ، دون أن يكشف عن هدفه بناء على توجيهات سير ماجنوس ، وفي نهاية المطاف أعد قائمة قصيرة من ثلاثة أشخاص رفعها الى سير ماجنوس ليصدر قراره الأخير بشأنها . وكان بين الثلاثة من رأى سير ماجنوس أنه شخصية بارزة دأبت على أن تلهب حماس شعب « وينبيج » الذى تنتمى اليه بالوعد بظهور اعلان عظيم ، لكنها لم تكن بعد قد أعلنت طبيعة هذا الاعلان . لقد كانت امرأة عملاقة ، طولها ستة أقدام وأربع بوصات وأبعادها الأخرى بنفس الحجم . وكانت تذكر الكثيرين ممن شاهدوها بتمثال الحرية ، بل انها كانت تبدو أكثر من هذا التمثال روعة وجلالا . . ولم يكن يعيها سوى أمر واحد هو اسمها

« اميليا سكيجز » • ولما أخذ سير ماجنوس يفكر فى المستقبل الذى يتمناه لم يستطع أن يتصور خضوع العالم لمملكة سكيجز أو لعقيديتها • وتذكر مصير طائفة « مجلتون » التى لم يكن يؤخذ عليها غير لقبها • وظل أمام هذه المشكلة مترددا لفترة ما لبث بعدها أن عثر على حل موفق • وما أن توصل الى هذا الحل حتى قرر أن الوقت قد حان ليكشف لاميليا العظيمة ما ادخره لها من مصير عظيم •

فقال لها « أتبين ، يا مس سكيجز ، من عطاتك البليغة أنك تحسين بمصير عظيم ينتظرك ، ولقد شكاتك الطبيعة بهدف السيطرة على البشر ، لا بروعة هيكلك فحسب بل بعظمة النفس التى تسكنه أيضا ، فقد خلقت كما تعلمين ، لتؤدى رسالة • بيد أنك لم تدري حقيقة هذه الرسالة الا الآن ، ولقد اوكلت الى ، كمبعوث العناية الالهية المتواضع » مهمة ارشادك الى سبيل المجد الروحى المتألق الذى تعلمين أنه مصيرك • وراح يشرح لها المبادئ التى أعتنقها فيما بعد طائفة المغنطيسيين الشماليين •

وبينما هو يتحدث ، امتلأت هى بحماس روحى ، ولم يبق لديها مكان للشك ، فكان ذلك هو الانجيل الذى تبحث عنه ، انه الحق السعيد الذى يحيل كندا أرضا مقدسة ويدفع المؤمنين فى ربوع الأرض الى القيام برحلات متواضعة لزيارة حرمها المقدس الذى يأخذ بالآليات •

لم تبق أمام سير ماجنوس سوى خطوة واحدة • فابتدر المرأة بالقول « وأنت تكافحين فى ميدان الجهاد الروحى ينبغى أن تحملى اسما مغايرا لما هو لك فى العالم ، اسما مقدسا يعكس كل مقطع من مقاطعه مهمتك المقدسة • ومن ثم سوف تعرفك أمم الأرض قاطبة بلقب جديد رائع •

ولسوف يناديك الجميع :

« أورورا بوهر »

وتركته نشوى يملأ نفسها الهيام الصوفى والهدف السامى ، ومن تلك اللحظة صار التعاون بينهما وثيقا ، الا أنها احتفظت بدوره سرا مطويا نزولا على توجيهاته •

ولم يمضى وقت طويل حتى أحرزت « أورورا بوهر » نجاحا باهرا ، وطار صيبتها بين دوائر واسعة النطاق • وكان من حظها أن نعمت بمساعدة « مناسا مبيرو » ، وهو رجل رغم ما أوتى من قدرة فائقة على التنظيم ، الا أنه كان يفتقر دائما الى الثقة بنفسه ، والى تلك السمات

الروحية التي كان مغرما بها فى شبابه كلما تذكر أمه القديسه • ولقد عوضته عن هذا النقص « أورورا بوهرا » التي كان يكن لها تقديسا مخلصا لا هواة فيه • ولو سألته أحد عما اذا كان يحبها لاشتات غضبا ازاء هذا التجديف • فلم يكن يشعر نحوها بحب بن بعبادة • ولقد ألقى عند قدميها بمقدرته الفائقة فى تدبير أمور الحياة ثم تركها حرة طليقة تعبر بطلاوة عن ذلك الهيام الروحى الذى عليه يتوقف تأثيرها على الرجال والنساء •

الفصل الرابع

من المشروعات الأولى التى يرجع الفضل اليها فى نجاح جماعة « المعنطيسيين الشماليين » اقامة المصحح الدائرى العظيم حول القطب المغنطيسى ، لقد أطلق على هذا المصحح « البيت المغنطيسى » • وفى هذا الصرح الضخم اتجهت رأس كل سرير نحو القطب الشمالى المغنطيسى الذى كان يحتل مركز الثناء الدائرى • أما مؤخرة كل سرير فقد وجهت صوب القطب الجنوبى المغنطيسى ، وبفضل موقع هذا المصحح كانت النتائج العلاجية للمغنطيسية الأرضية أعظم منها فى أى مكان آخر • وباطاعة النظام العادى المحدد كان السواد الأعظم من التابعين والأنصار ينعمون بصحة عقلية وبدنية ، لكن كان هناك من تهم لاصقة بهم – فى الأشهر الأولى – من تتلمذهم – آثار النورستينيا (خدر عصبى) التى كانوا قد جاءوا بها من أيام الكفر وعدم الايمان • فكانت مثل هذه الأرواح القلقة تنقل – بشرط أن تتوافر لديهم الوسائل اللازمة – بطائرات نفاثة فاخرة الى المصحح القطبى حيث تقدم اليهم كل ألوان الترف ويسمح لهم ، لأغراض طبية ، بشرب الخمر والتدخين المحظورين على المؤمنين فى أى مكان آخر •

وكان من بين رواد المصحح الأوائل ، من المصابين بالنورستينيا ، رجل يدعى « جيدىا جيليف » كاد أن يفقد صوابه لوقوعه فى هوى – لا طائل

من ورائه – جعله يتعلق بسيدة بارعة الجمال اسمها « هاريت هموك » ،
ولكن بفضل قوة « أورورا بوهررا » المغنطيسية استطاع أن يبرأ من حبه
تماما ، وعرفانا منه بجميل الشفاء أقام حفلا ألقى فيه قصيدة خالدة صارت
بعد ذلك نشيد الزحف الذى يردده المغنطيسيون ، والذى بعث الحيرة
والدهشة فى نفس المندوب النيبالى •

وعند مركز القطب المغنطيسى الذى كان فى قلب الغناء الدائرى ،
ارتفعت سارية يرفرف فوقها فى معظم الأحيان علم المغنطيسيين الذى يمثل
رأس « أورورا بوهررا » وقد انبعث منها نور الشفق الشمالى ليضىء فى
جميع الاتجاهات ، وبعد فترة كان المؤمنون التابعون يجيرون خلالها ، عن
طريق التهديد بعقوبات قاسية ، على تحويل أنظارهم ، يحل محل العلم ،
مرة كل يوم ، وكر تلقى منه الكاهنة العظيمة وهى ترتدى ثيابا سوداء
فضفاضة ، كلمات الحكمة الملهمة ، وكان فوق رأسها تسعة مكبرات
للصوت تتخذ ثمانية منها وضعا أفقيا متجها صوب الشمال والجنوب ،
والشرق والغرب ، والشمال الشرقى ، والجنوب الغربى ، والجنوب
الشرقى ، والشمال الغربى • لقد كانت هذه أيوافا من فضاة الى جانب
مكبر آخر ، بوق من الذهب الخالص ، يتجه الى أعلى كى تسمع كلماتها
فى السماء كما تسمع كلماتها على الأرض •

وحين وقفت فوق قاعدة تمثال لا يراه التابعون المخلصون من أسفل،
فى قاعة مستديرة تدور ببطء ، جدرانها من أكثر أنواع الزجاج شفافية ،
بذراعين يلوحان كما لو كانا فى حالة احتضان عنيف وجسمها كله يتمايل
ويهتز ببطء كما لو كان منجذبا بقوة التيار المغنطيسى ، بعينين واسعتين
ثاقبتين وحاليتين فى آن واحد ، تومض أحيانا ويكتنفها الغموض أحيانا
أخرى – حين وقفت هكذا طفقت تتكلم • وكان صوتها ، الذى يختلف عن
أى صوت ، قد تناهى الى آذان سامعيها فى أى مكان آخر ، يجمع بين
روعة رعد الجبال القاصف ورقة اليمام الهادر •

كانت تقول : « أخواتى واخوانى الأعزاء فى المغنطيسية ، لمن دواعى
غبطتى أن أعود الى الحديث اليكم عن عقيدتكم المقدسة ، وأن أنقل اليكم ،
بفضل ما وهب لى من قوة خفية ، قوة أمن الأرض المغنطيسية وسلامتها
فلهيها يسرى فى عروقى ، وهدها الذى لا يوصف يستقر فى أفكارى •
ولسوف تنالون ، مستمعى الأعزاء ، كليهما وان يكن بدرجات أقل • فهل
تتسم حياتكم بالقلق والاضطراب ؟ وهل تخشون أن يضعف عن ذى قبل

الحب العارم الذى كان يكتنه لكم يوما أزواجكن أو زوجاتكن ؟ ألا تصادف أعمالكم نجاحا ؟ وهل يعاملكم جيرانكم باحترام أقل - حسب يقينى - مما تستحقون ؟ لا تنزعجوا ولا تضطربوا أيها الاصدقاء الأعزاء . فذرع امن الأرض العظيمة تضمنا جميعا ، وما أحزانكم المؤقتة الا اختبار لايمانكم . فاطرحوا عنكم آمالكم ولتفرض عليكم الصحة المغنطيسية ، ولتكن المحبة والقوة والبهجة من نصيبكم كما هى من نصيبى .

كان الذين ينصتون اليها يتأثرون جميعا بطرق متباينة ، فالمنهوك القوى تجددت قوته ، واليائس امتلأ رجاء . ومن كدرت المشكلات صفر حياتهم أخذوا يحسسون بتفاهتها ، ووجد الجميع أنفسهم ، فى تعبدهم لأورورا ، متحدين فى انسجام متبادل .

وكان للمولبدنيين قصرهم المنعش للنفس والمجدد للقوى ، الذى أقيم فوق قمة جبل « أكمى ألب » بكلورادو . وهو جبل يبلغ ارتفاعه زهاء عشرة آلاف قدم ، ويغطيه الجليد خلال ثمانية أشهر من كل عام ، بينما يبدو فى الشهور الأربعة الباقية وقد تحلى بالمروج الجبلية التى يكسوها العشب والزهور البرية . ومن فوق قمته يشاهد المرء منظرا بديعا إذ تمتد فى كل اتجاه الجبال والوديان والغابات والأنهار . كما يرى من على بعد نهر كلورادو الأحمر وهو يشق طريقه المتعرج عبر الصخور . ولم يكن جمال المنظر وحده هو الذى أوحى للسيدة « موللى . ب . دين » باختيار هذا الموقع ليكون مقرا لقصرها ، بل لأن له فى نظرها ميزة أخرى عليها تفوق ماعداها من مزايا ، فقد كان جبل « أكمى ألب » يقع فى قلب منطقة الملبدنوم التى تفرض عليها سلطانها . وكان قصر الانعاش المجدد للقوة يتربع فوق قمته ويعرف فى طول البلاد وعرضها « بمصح أكمى » . ولشدة انحداره لم يكن الوصول اليه ممكنا الا بطائرة « الهيلوكبتر » . فكانت الطائرة تحمل الرواد الى « دنفر » ثم ينتقلون الى إحدى طائرات الأسطول الضخم الذى يقف على أهبة الاستعداد فى انتظار رواد تلك المنشأة الفاخرة .

ولعل مصح « أكمى » لم يكن يرقى ، فى مظهره الى مستوى مصح المغنطيسيين الا أنه لم يكن يقل عنه البتة من حيث الراحة والمتعة . والواقع أن الرواد الجدد كانوا يشعرون بشيء من التبرم مما تضمه قائمة الطعام من أغذية غير مألوفة . ففى أول غذاء تناولوه ، قدم لهم « موليدا شيبوس » و « موليجاتونى » و « موليب بوليب » ولحم الضأن مضافا اليه ملبدنوم

و « موليفلويس برتنجوس » وغيرها من ألوان الطعام ، فقد كانت « موللى . ب . دين » حريصة على تجنب اتباع نظام موحد يبعث فى النفس الملل ، ومن ثم اتخذ الطعام الذى يحتوى على عنصر الملبدنوم أشكالا متباينة فى أمسيات مختلفة . وكان ثمة فارق شاسع بين الجو الذى كانت تهيئه « موللى . ب . دين » لرواد قصرها وذلك الذى أضفته « أورورا بوهر » التى كانت تؤمن بقوة الأرض الخفية الغامضة وتدعو الى نوع من التقبل السلبي كأساس لعمل قوى لاحق . أما « موللى . ب . دين » فكانت ترى على النقيض من ذلك ، أن تذكى فى كل فرد قوته الخاصة ورائته الذاتية وتحكمه فى مصيره ، فلم تكن تؤمن بالاعتماد على معونة خارجية . وكانت فى خطبها المؤثرة المذاعة التى كان يجبر رواد المصح على سماعها قبل تناول طعام العشاء ، تطلب الى كل رجل وكل سيدة ، بل وإلى كل طفل ، أن يعتمد على ما لديه من رصيد العزيمة الذى لا مناص من أن يستند اليه جميعنا كملاذ أخير . . . وابتهجت موليا لتنمية هذه القوى :

فكانت تتساءل : هل تشعر باحجام عن النهوض من فراشك فى الصباح ؟ لا تدعن له ، وابدأ نهارك بقرار حاسم للإرادة ، ثم امتط حصانك الآلى . وبعد خمس دقائق من التمرين الشاق بهذه الأداة الصحية كرس نفسك للتدريبات البدنية دون معونة . المس أصابع قدميك بيديك تسعا وتسعين مرة مع الاحتفاظ بالركبتين مشدودتين كعصا صلبة . ولن تجد بعد ذلك مشقة فى القيام بحمامك البارد ، ولو كان الماء جليدا ذائبا . وبعد الانتهاء من التزئين ، امبط الى الطابق السفلى حيث تتناول طعام الافطار الجماعى بشهية مفتوحة وبقوة فائقة فى تأهب واستعداد لما يأتى به اليوم . هل تصلك رسائل مليئة بالمعضلات العويصة : ماذا تفعل إزاءها ؟ فى مقدورك التخلص منها بقدر يسير من القوة التى استمدتها مما مارسته من تمرينات قبل تناولك طعام الافطار . هل انخفضت قيمة استثماراتك ؟ لا تقلق ، فذلك الموضوع الفكرى المستمر من الحصان الآلى سوف يمكنك ، دون مشقة ، من أن تختار بحكمة فائقة ، مشروعات جديدة لا شك فى نجاحها مستقبلا . وإن راودتك الأفكار الشريرة التى قد توجد حتى فى هذا القصر المقدس ، وإن سمحت لنفسك بالرغبة فى قضاء فترة أطول فى الفراش أو فى حمام أقل برودة ، وإن اشتهيت لحم الضأن خاليا من الملبدنوم ، وإن ساورك التفكير الرهيب ، باغراء الشيطان لاشك ، فى أن مفعول السترونتيوم كمفعول الملبدنوم . . فى هذه الحالات الرهيبة جميعها أى فى واحدة منها بوسعنا أن نحظى بالخلاص باتباع قاعدة بسيطة هى : عليك فى بادئ الأمر أن تركز لمدة عشر دقائق حول فناء القصر ثم افتح ،

كيفما اتفق ، الكتاب المقدس « ملبدنوم » ، علاج الأمراض المستعصية » .
وفي أى موضع تفتح فيه هذا الكتاب سيقع بصرك على آية تزودك بالصحة .
فيتسنى لك ، بقوتك الذاتية ، أن تدفع عنك الأفكار البشعة التي حاولت
تحويل مجرى حياتك النقية غير الملوثة . وفوق هذا كله تذكر الحقيقة
الثانية : أن الخلاص ليس في ميدان الفكر بل في مجال العمل ، العمل
الشاق ، العمل الذي يعطى الصحة ويولد القوة . وحين تهدد الأعياب
الشیطان وحيله بايقاعك في الشرك ، فلا تلجأ الى التفكير المضنى بل الى
العمل ، العمل الذى سوف يحدده الكتاب المقدس : العمل ! العمل !
العمل باسم الملبدنوم المقدس .

الفصل الخامس

لقد عهدت « موللى . ب . دين » و « أورورا بوهرا » بمهمة ادارة
القصرين لوكيليهما المبجلين « تومكنز » و « ميرو » . ولم يكن خافيا على
كل من هذين الرجلين أن الطائفة التي يرعى شئونها عرضة لعداء الطائفة
الأخرى . كما كان كلاهما على يقين تام من أن الطائفة المعادية تضم سفلة
وأوغادا لا يتورعون عن القيام بما من شأنه القضاء على منافسيهم . ومن
ثم وضع كل منهما ، لا في الحجرات العامة فحسب بل في كل غرفة من غرف
النوم ، أجهزة « الدكتافون » التي كانت تسجل ما كان يفترض أنها
محادثات الرواد الخاصة . واستبان لكليهما أن هناك سـاـخـطـيـن بل
ومرتابين لا يخفون شكوكهم من بين الذين حصلوا على اذن بدخول القصر
بطريقة أو بأخرى ، رغم ما كانت تتسم به لجنة الاستقبال من حيطة وحذر
بالغين .

ويفضل جهاز سرى بارع في « آكمى ألب » أمكن تتبع أثر هذا السـخـط
واكتشاف أن رجلا يدعى « فاجنر » كان مصدره . وكان السيد « فاجنر »
قد بدا للمدارة أنه عين الانسان الذى أقيم المصح من أجله ، فقد كان ،
على حد علم الادارة ، رجل أعمال ناجحا أصابه التردد ، فكان يقول :

« لقد قمت بدراسة مزايا هذا وذاك وتبينت أن الأسانيد المؤيدة لكليهما متعادلة تماما . فماذا أفعل في مثل هذه الظروف ؟ » . كان ثمة خطر أن تتبدد ثروته من جراء ذلك فحاول الخلاص من هذا النقص بالانضمام الى جماعة الملبدينين ، وبدأ واضحا أن الأمل كان يراوده في الشفاء . لكن رغم ما طرأ على حاله من تحسن لم ينل الشفاء التام ، وتقرر أنه من الضروري أن يقضى فترة في « أكمي ألب » ، فوافق اذ كان لا مفر من الاذعان لأولى الأمر ، وبعد أن عهد بأعماله الى مساعديه مضى الى دار الراحة والهناء حيث يسودها جو صحي .

بيد أن مناقشاته هناك كانت من النوع الذي يتعذر الموافقة عليه . لقد قال مخاطبا شخصا كان قد تعرف عليه بالصدفة عقب تناول طعام العشاء : « عجيب ، كما تعلم ، تأثير الملبدنوم على جماعة الملبدينين . . . بيد أن هناك من الأمور ما يبعث على الحيرة في نفسي ولا أجد لها حلا في الكتاب المقدس فما دام الملبدنوم يتركز أساسا في كلورادو لا يسع المرء الا أن يفترض أن سكان هذه الولاية يستهلكون منه أكثر مما يستهلكه أولئك الذين يعيشون في أجزاء أخرى من هذه الجمهورية العظيمة . لكن بنقص الاحصائيات الدقيقة لم اكتشف أى فرق جوهري بين صحة من يقطنون كلورادو وصحة سكان الولايات الأخرى ، لا أنكر أن هذا الأمر يحيرنى الى جانب أمر آخر حملنى على التأمل والتفكير لقد طلبت من طبيب أعرفه أن يفحص بدقة كمية الملبدنوم في جسم العضو المكرس من جماعة الملبدينين الذى استهلك القدر الذى وصفه زعيمنا المبجل من المعدن المقدس ، وتلك التى في جسم مواطن عادى . وثبت - لدهشتى - أن ما يحتفظ به جسم عضو الجماعة الصحيح البدن من هذا العنصر لا يزيد عما في جسم أى انسان يتناول طعاما عاديا . ويقينى أن ثمة جوابا لمثل هذه الأمور المحيرة ، عساي أن أهتدى اليه . اننى لا أريد ازعاج مستر تومكنز فهو رجل جد مشغول ، فهل لك ، من وسيلة تقترحها لحل مشكلتي ؟ » .

واتضح انه يقوه بمثل هذه الأحاديث الى عدد من الناس في « أكمي ألب » . ومع ذلك لم يتسن للمسئولين أن يتثبتوا ضدهم خطأ محديا ، فاكثفوا بأن قرروا اعلان شفاؤه وارجاعه الى مسقط رأسه .

ولم يمض وقت طويل حتى ظهرت في قصر المغنطيسييين مشكلة مماثلة الى حد ما . ذلك أن رجلا يدعى مستر ثورنى كان ، على حد زعمه ، رحالة الى البلاد النائية ، عاد من رحلة ، بعد أن أنهكت قواه المصاعب التى جلبتها عليه سلسلة النكبات التى حلت به . وفي حال من القنوط

والاعياء طلب انقوة المانحة للحياة عن طريق جماعة المغنطيسيين ، وصار من التابعين وتمنى له أصدقاؤه من المؤمنين تحسنا سريعا ، بيد أن التقدم كان بطيئا على نحو يدفع الى اليأس والقنوط . وبدأ غير قادر على أن يسترد الحماس الذى حمله على القيام برحلاته . وقرر المسئولون أن شفاؤه لن يتحقق الا بزيادة للمقطب المغنطيسى . وكانت حكمة أولئك الذين أدركوا تدبيرات منافسيهم قد أوجت باستخدام أجهزة « الدكتافون » كما هو الحال فى « أكمى ألب » ، فاستبان أن محادثات مستر ثورنى انما تهدف الى اضعاف الايمان الراسخ لمن يستمعون اليه ، وان كانت لا تتضمن ما يقطع باعتبارها ضربا من الهرطقة . وثار الشكوك حوله وأتهم بأنه لا يكن الاحترام الواجب لأورورا بوهرا التى لم يكن المؤمن يراها الا حين تظهر فى خدرها . ودأب على أن يسأل من بجوارده : أما فكرت فى مدى طول أورورا ؟ فيجيبه الجار بلهجة تنم عن شيء من الرعب والدهشة : كلا ، كما لا اعتقد أن السؤال لائق . فيستطرد مستر ثورنى : « حسنا ، انها ، على أية حال ، امرأة حقيقية من لحم ودم . وبحكم ممارستى لعمليات المراقبة فى رحلاتى تجاسرت على ان أقيس طولها بمزولتى . ومع استبعاد قدميها اللتين لم يتسن لى رؤيتها ، تبينت ان طولها يتراوح بين ستة أقدام وثلاث بوصات ونصف البوصة ، وستة أقدام وأربع بوصات ونصف بوصة . ولم يمكن لتقديرى أن يكون اكثر دقة بسبب انكسار الأشعة الضوئية على الزجاج الذى نراها من خلاله . بيد أنى تأكدت بها لا يدع مجالا للشك أن منظرها كامرأة لا بأس به » .

ولم تكن المشكلة فى التقود بهذه الألفاظ عن الالهة المسيطرة ، فمما ينبغى التسليم به ، وان يكن فى ألم ، هو أن ثمة من تأثروا بوجهة نظر مستر ثورنى فأضحوا أقل ميلا من أن ينسبوا الى تلك السيدة النبيلة قوى خارقة للطبيعة . بل كان يتخطى حدود ذلك أينما وجد التربة الصالحة لغرس بذور ما يكنه لتلك السيدة من عدم احترام . ودأب على القول « لا يخفى عليك أن هناك حالة لا يعرفها سوى نفر قليل من البيض غيرى لا أجد لها تفسيراً على أساس المبادئ المغنطيسية التى ندين بها جميعا » . هناك فى منطقة نائية بالتبت واد ضيق شديد الضيق على نحو غير مألوف يكاد معه أن يكون شقا . ويتجه هذا الوادى كما أكدت لى ملاحظتى ، صوب القطب المغنطيسى الشمالى مباشرة ، ورغم ضيق الوادى فان هناك من يقضون الصيف فيه لما يحتويه من الماس ، وكانوا يضطرون الى النوم ورؤوسهم متجهة نحو الشمال أو نحو الجنوب اذ كان بعضهم يختار الشمال والبعض

الآخر يفضل الجنوب ، وكان يمكن للمرء أن يتوقع أن الذين يتألمون ورؤوسهم متجهة صوب الشمال يتفوقون على أولئك الذين يؤثرون ماعداه في شتى النواحي . . لكن رغم انى قضيت قيما بينهم وقتا طويلا واستفسرت عن ماضيهم ، فلم أثبتين أى فارق كذلك الذى تجبرنا عقيدتنا المقدسة على التسليم به . ويقيني أن ثمة ردا قاطعا لكنى لم أستطع تصور ماعساه أن يكون ، لو كان لك ، أو لأى من أصدقائك ، أن تنقذنى من حيرتى لنلت عظيم شكرى وبالغ امتنانى » .

وحين كشفت أجهزة « الدكتافون » عن عادته في طرح مثل هذه الأسئلة على غيره من رواد القصر الدائرى ، قرر المسئولون أنه باحث عن الحقيقة مخلص ولا ريب ، إلا أن أسلوب بحثه وطابعه لا يستحقان التشجيع ، ومن ثم أعلن شفاؤه قبل الأوان ، وأعيد الى بلده مع تحذيره بأن يتأمل ، لو حدث ذلك ، في صمت في تلك الأسئلة الغريبة التى أثارها بشئ من التهور والاندفاع .

الفصل السادس

نجحت الحركتان وازدهرتا برغم ما صادفهما من مثل هذه الصعاب الهينة ، فحظيت طائفة المغنطيسيين بتأييد كل فرد في اسكندناوا ما خلا طبقة المثقفين ، كما حذت حذوها آيسلند وجرينلاند حيث راح رجال العلوم يبرهنون ، بما لا يدع مجالا للشك ، على أن القطب المغنطيسى سوف يكون بمرور الوقت من نصيبهم . أما طائفة الملبدينين فازدهرت في الولايات المتحدة . وفى زهول تخلت ولاية « يوتا » حيث اكتشفت كميات كبيرة من الملبدونوم ، عن كتاب « المرمون » واستعاضوا عنه بكتاب « الملبدونوم علاج الأمراض المستعصية » ، ومكافأة لهم على اعتناقهم للإيمان الصحيح ، وافقت « موللى . ب . دين » على ادماج « يوتا » في الأراضى المقدسة . أما الشباب الحائر في ربوع العالم الغربى الذى تعذر عليه أن يختار

صادقاً ، في تعبه ، بين الفاتيكان والكرملين فقد وجد راحته العقلية والعاطفية في مذهب أو آخر من المذهبيين الجديدين *

وفي إنجلترا حيث كانت الطائفتان متعادلتين تماماً ، كان خطر وقوع صراع عنيف بينهما أشد منه في أى مكان آخر . ولم تعد المسابقات تثير الاهتمام ، وطوى النسيان فرق كرة القدم القديمة ، ولم تجذب الجماهير سوى المباريات العظيمة التى تقام بين أنصار الملبدون وأتباع المغنطيسيين ودخلت الطائفتان في سباق لا في كرة القدم فحسب بل في جميع ألوان الرياضة بنجاح متأرجح ، دون أن يكون النصر الحاسم الدائم من نصيب أيهما . واكتشف ، في شيء من الدهشة والفرح ، أن الجماهير لم تعد حسنة الطوية ، وأن المعارك تنشب بين الأنصار المتعصبين للمذهبيين المتنافسين . واقتضى الأمر في النهاية اتخاذ قرار بفصل الملبدين عن المغنطيسيين فيتخذ جانب منهما مكانه على اليمين والآخر على اليسار . وأما الذين أعلنوا حيادهم فكان ينظر إليهم بعين الازدراء ويطلب إليهم أن يقللوا راجعين الى ديارهم *

وكان من دواعى غبطة المتعلمين أن يكسبوا ود الطرفين ، ولم يكن هذا أمراً يسيراً ، فكان هؤلاء المهادنون يواجهون بالقول : « من ليس معنا ، فهو علينا » . وبرغم ذلك وجدت محاولة دائبة للتوفيق بين الطائفتين ، ونشرت صحيفة « تمبورا سبلمنترى لىترن » مقالا عميقا كاشفا حول المذهبيين جاء فيه : « حرى بنا أن نسلم بأن الفكر الناقد المتزن تقايله أمور عسيرة الفهم في كل من الانجيليين اللذين يجلبان آمالا جديدة وحياة جديدة للغرب المتعب المزهوك القوى . لكن أولئك الذين تشربوا الثقافات العظيمة واستوعبوا رسالة جميع المفكرين العظام من أفلاطون حتى القديس توما الأكوينى ، لن يرفضوا باستخفاف العقائد الجديدة وان بدت مستعصية على الفهم ، كما كانت حال العقيدة المسيحية بالنسبة لرتليان الذى تقبل بقلب خالص ، المبادئ الجديدة التى تتخطى حدود المنطق رغم استحالة فهمها ، بل وبسبب هذه الاستحالة عينها . وسوف يرحب جميع الذين يفكرون تفكيراً سديداً ، بغض النظر عن المشكلات التى تواجههم في الاختيار بين الملبدين والمغنطيسيين ، بما هو مشترك بين الطائفتين . والى عهد قريب ظلت الفلسفة الآلية تسود أفكار فلاسفتنا الأفاضل وهذه الينابيع العميقة للحكمة التى لا تستمد من الملاحظة المجردة للحقيقة البشعة ، بل تفيض في القلب المتضع حين ينفث لعمل روح الحق العظيم . . من تلك الينابيع يستمد الملبدين والمغنطيسيون على السواء نشاطا وانتعاشا .

لقد ولى أدعياء العلم الأصلاف ، وولت الحقيقة الجوفاء التى نادى بها أولئك الذين أغفلوا الحقائق الخالدة التى يقوم عليها عالمنا الغربى ، فعقيدة الملبدين والمغنطيسيين على السواء تتضمن الكثير مما يرحب به كل محب للحكمة ، حتى أنه لا يسمعنا الا أن نأسف على ما هما عليه من تناحر وتنافس . ونحن نوّمن ، ويشاركنا كثيرون هذا الايمان ، بأن الاتحاد أمر ممكن ، ولو تحقق لزود الايمان بقيمنا الغربية بقوة راسخة لا تتزعزع ، نحتاجها فى صراعنا الخطير مع الحاد الشرق » .

كان هذا الرأى الرزين يحظى بتأييد ذوى النفوذ والسلطان . فقد كانت الحكومة البريطانية الموزعة بين حبيها للكونولث واعتمادها على الولايات المتحدة ، تنظر بقلق بالغ الى الأزمة المتفاقمة بين كندا والنصف الغربى من الولايات المتحدة ، تلك الأزمة التى قد تؤدى ، مالم تخف حدتها ، لا الى فشل الأمم المتحدة فحسب بل الى انهيار حلف شمال الأطلسى على حد سواء . وكان أنصار الجماعتين فى انجلترا متمائلين على وجه التقريب . وكان كل من الجماعتين قويا لكن واحدة منهما لم تأمل فى أن تكون لها السيادة . وتقدمت الحكومة البريطانية للسيدبن تومكنز وميرو بمقترحات لعقد مؤتمر وبتوصيات جادة للتعايش السلمى على الأقل ، بين الطائفتين .

وتشاور السيدان تومكنز وميرو عن طريق المكالمات التليفونية البعيدة مع رئيسى الكهنة : موللى . ب . دين ، وأورورا بوهر ، وى الخفاء بحثت أورورا بوهر الأمر مع سير ماجنوس نورث ، وأسفرت هذه المشاورات العديدة عن قرار بعقد مؤتمر كبير بقاعة ألبرت يستهدف الوصول الى نوع من الاتفاق عن طريق المناقشة العلنية هذه هى النتيجة التى كانت الحكومة تأمل فى تحقيقها على أسوأ الفروض ، بيد أن الآمال التى كانت تراود الطائفتين مغايرة . فكانت كل منهما على يقين تام من مناعتها ، بحيث لم يكن يخامرهما شك فى النصر المبين فى أية مجابهة علنية . وعلى أساس هذه الثقة وافق كل جانب على مقترحات الحكومة .

واتفق الطرفان على أن يعقد المؤتمر الكبير برئاسة أستاذ الديانات المقارن بجامعة أوكسبردج ، ذلك الباحث الحكيم المذهب الذى كان ملما بكل ما له صلة بديانة شعب تازمانيا المنقرض ومعتقدات الهوتنتوت ومذهب الأقزام ، ومن ثم افترضت الحكومة أن بوسعه أن يظهر فهما ينم عن عطف لكل من الملبدين والمغنطيسيين ولكن خوفا من فشله ، اذ كان أكثر رقة

منه عنفا ، زودته الحكومة بفرقة قوامها بضع مئات من الجنود الأقوياء الذين لابد أن يجتاز كل منهم اختبارا دقيقا للتأكد من أنه لا يتحاز لأى من الجانبين . وأقيمت القرعة لتحديد أى الطرفين سيستقر على الجانب الأيمن ، وأيهما على الأيسر ، وانتهى الأمر بأن صار اليمين من نصيب المخطيسيين واليسار للملبدينين . وروى هذا التقسيم على المسرح وفى القاعة وفى كل شرفة من الشرفات ، كما ترك ممر فسيح بين الجانبين . وكان الجنود المحايدون طيلة انعقاد المؤتمر يروحون ويغدون فى هذا المشى مزودين بأوامر مشددة لحفظ الأمن بأى ثمن .

وهبطت « أورورا بوهر » و « موللى . ب . دين » من فوق جبليةما لتلتهما أتباعهما المخلصين فى تلك المناسبة الحاسمة الخطيرة ، وجلست كل منهما على عرش بالقرب من وسط المسرح لا يفصل الواحدة عن الأخرى سوى اتساع المشى . وكانت « موللى . ب . دين » تحب البشر جميعا . لكنها كانت تبغض « أورورا بوهر » كما كانت « أورورا بوهر » تعشق الناس جميعا ما خلا « موللى . ب . دين » . وبعينين سوداوين تشيعان عنفا وسخرية رمت موللى . ب . دين - بعد أن استعرضت جمهور الحاضرين - أورورا بوهر بنظرة قاتلة ، تحمل من السم الزعاف ما بيعت الرعب فى نفس شخصية أشد منها ضعفا . أما أورورا بوهر فبعد أن حملقت فى السقف باستغراق ، جالت عيناها الواسعتان ، فى غموض ، بين صفوف الجماهير الغفيرة المحتشدة . وإن بدت نظرتها أحيانا وكأنها موجهة الى العرش المقابل . ولاح كأنها لا ترى شيئا فى ذلك الاتجاه . وفى التأمل المستغرق فى القبة العظيمة فحسب غدت وكأنها تستسلم لتلك الأحاسيس النبيلة التى خلقت منها ما هى عليه .

ووقف السيدان تومكنز وميرو أمام مكتبيهما ، وقد تسليح كل منهما بمجموعة من الأوراق ، وعلى أهبة الاستعداد بجميع الحقائق والآراء المدروسة ليتسنى له التفوق على الطرف الآخر .

وخلف زرويا تومكنز مباشرة جلس ابنه ، خليفته المختار ، زاكارى ، الذى علمه أبوه باهتمام بالغ كيف يصون عقيدته من بعده . ولم يشك زاكارى لحظة فى مبادئ الملبدينين ولم يتصور هنيهة أن مصيرا ينتظره غير مساعدة أبيه وهو على قيد الحياة وحمل رسالته عندما يناديه الموت الى مكان أكثر سعادة وهناء . بيد أنه كان شابا نحىلا مع أن غذاءه كان يتبل بقدر كبير من الملبدنوم . وفى أوقات فراغه كان يتجه بأفكاره الى

الشعر بدلا من العلوم الدينية ، ورغم الافتراض بأن الملبذوم يجلب
البهجة والانشراح الى قلوب المؤمنين ، كان زاكارى فريسة لمظهر يتم عن
شئ من الحزن الذى كان مدعاة لخل دفين • وكان يعتقد أن « قصيدة
الى الخريف » للشاعر كيتس « مفرحة بلا داع ، فراح يكتب بنفسه
« قصيدة الى الخريف » مطلعها :

أوراق الخريف

وحزم الشعر

تثير التفكير فى الغد

وفى الأحزان وفى الثلج

وغالبا ما كان يعكف على العمل آملا فى أن يبلغ حالة المرح التى تساعد
على الهضم ، والتى كانت مثل طائفته الأعلى • لكن رغم ما بذل من جهد
اجتاح الحزن والوهن أعماق كيانه أينما لاذ بالفرار من الهرج والمرج فى
مكتب الملبذيين •

وأما خلف « مناسا ميرو » جلست مقابل زاكارى تماما « ليته » ،
ابنة ميرو التى كانت قد لقنت ، شأنها شأن زاكارى ، مبادئ العقيدة
القوية بكل حذاقيرها بهدف أن تخلف أباهما ، كما هى حال زاكاي • لكن
كانت تشبه فيما تعانیه من صعوبة فى أن تكون بالحنانة النفسية التى
يجب أن يكون عليها العضو « القيادى » • بل مرت بها لحظات لم تستطع
فيها حمل نفسها على احترام أورورا • كما كانت تقضى فى العزف على
« البيان » الأوقات التى تفرغت فيها من العمل فى مساعدة أبيها • فكان
« مندلسون » موسيقارها المفضل مع أنها كانت ترقى الى مستوى تذوق
موسيقى « شوبان » بين الفينة والفينة • وبرغم ذلك لم تكن تفضل الموسيقى
الكلاسيكية بل الأغاني الرومانسية القديمة مثل أغنية « بالسعادة
تروبادور وابنة شريف مقاطعة اسلانجتون » • ولم تكن « ليته » فائقة
الجمال ، غير أن ملامحها كانت تنم عن عظمة وأبهة ، كما كانت عيناها
واسعتين ينبعث منهما حزن وأسى •

كان طبيعيا أن يجد كل من زاكارى وليته نفسيهما فى المؤتمر أكثر
اهتماما بالطائفة الأخرى منه بطائفتها • ورمى زاكارى أورورا بوهرا
بنظرة خاطفة ، لكنه ما لبث أن تراجع فى اشمئزاز من ضخامة جسمها ،

كما التقت عينا لينة لحظة بنظرة من نظرات « موللى • ب دين » الثاقبة فامتألت من الرعب بما حملها على الرغبة في الاختباء • وما أن مرت لحظة الذعر هذه حتى طابت نفس كليهما بمنظر الذعر المتماثل عبر المشى وتقابلت عيناها ، وحتى تلك اللحظة كان كل منهما يظن أن من يناصر الفريق الآخر إنما هو من الأوغاد والأشرار • ولكن حينما تقابلت هذه العينين المرتجفة اهتز كيان كل منهما ، وطلق كل يفكر : « يقينا ، أن هاتين العينين لا تحملان شرا أو ضعينة ، ألا يكون أبى مخطئا ؟ ألا يمكن لما أحس بهمن مشاعر أن يجد له مكانا في صدر عدو ؟ أليس ثمة عامل انساني مشترك من شأنه أن يقضى على هذه الخلافات ؟ » • وبينما كانت هذه الأفكار تراود كلا منهما مضى الواحد منهما يحمق في عيني الآخر •

وفي هذه الأثناء كان المؤتمر يسير في طريقه بينما كاد الشاiban ، في بادئ الأمر ، لا يدريان شيئا مما يجري حولهما •

ونفض البروفيسور ليلقى خطاب الافتتاح الذي كان قد أعدّه بعناية فائقة ، وبحث مع رئيس الوزراء كل كلمة تضمنها ليبعد أى إشارة ، ولو طفيفة ، للنقد أو ما يوحى ، من بعيد أو قريب ، بعدم الحياد ، وبشيء من العصبية تنحج ثم انطلق يقول :

الكاهنتان المجلتان ، سيداتى ، سادتى اننا جميعا على بينة من أن ثمة شقا في هذا المؤتمر الكبير (ومن كل ركن في القاعة دوى الصياح : الصوت ! الصوت !) لكنى أثق وأؤمن بأننا متفقون في أمر واحد هو أننا نبحث باخلاص عن الحق وحين نجده نعلنه على الملأ •

وعند سماع هذه الكلمات انطلقت من جانبي القاعة صيحة مدوية : « كلا ، كلا ليس هذا في الجانب الآخر » فأغفل البروفيسور المسكين ، في شيء من الارتباك ، بعض العبارات الظلية واستطرد يقول : « حسنا ، أيمكن ما يكون ، لكن أناسا ممن أكن لحكمتهم تقديرا بالغاً يرون أن انقسام بلادنا العظيمة الى شيع متطاحنة يجلب معه اليوم ، كما جلب أيام حرب الوردتين والخلافات التى نشبت بين الملك والبرلمان في القرن السابع عشر ، خطر أننا نغفل - ونحن غارقون في معاركنا الداخلية - ما يهددنا من مخاطر قيما وراء البحار • تلك المخاطر هى التى حملت على التنام هذا المؤتمر آملا في أن يتحد المذهبان ، دون أن يضعف حماسهم أو ينتقص شيء من عمق عقيدتهم الدينية ، وبينذا الاتحاد تشكل الطائفتان سلاحا منيعا لصدم ما قد يهدد به الأعداء حياتنا القومية » •

وهنا قوطع البروفيسور للمرة الثانية وانبعثت الصيحات من كثر حذب وصوب تردده : « هذا أمر يسير فلينضم الآخرون إلينا » ، ووجد نفسه مضطرا لأن يسقط مرة أخرى بضع صفحات من خطابه المعد ، ذلك لاعتقاده أن من الحكمة فض المؤتمر بسرعة فقد كان الجو مشحونا بالعواطف المتأججة . واختتم خطابه بالقول : « ليس لى أن أملى الاتفاقية التى ينبغى الوصول إليها . فالأمر متروك لكم أن أننا نعيش فى كنف نظام ديمقراطى . ولا يسعنى الا أن أؤكد أن المناسبة هامة وأن مسئوليتكم بالغة وليبارك الله مداولاتكم » .

ولاح جليا أثناء القاء هذه الملاحظات الافتتاحية أن جو المؤتمر متأزم ، فاتبع القائمون عليه أسلوبا غير مألوف ، وهو أن يتولى مأمور الشرطة ، وليس رئيس المؤتمر ، مهمة اعلان جدول الأعمال . وبصيغة الأمر ، وهى لهجة مغايرة تماما للهجة البروفيسور ، أعلن أن من حق ثلاثة من كل جانب أن يدلوا بحديث لا تزيد مدته عن عشرين دقيقة ، وأن القرعة قد حددت أن يلقي الملبدينون الخطاب الأول . وهدد بأنه يحتفظ بقوة كبيرة من رجال الشرطة ، وعند أول بادرة للشغب سوف يطرد من بالقاعة . وفى حالة من الذعر أذعن الحاضرون فترة واستمعوا للخطابين الأولين دون أن تتجاوز المقاطعة حدودها .

أدلى بهذين الخطابين السيدان تومكنز وميرو فأشاد كل منهما بمزايا طائفته وبما أحرزته من نجاح . وكاتا من الحكمة بحيث عزفا عن التعرض لمنافسيهما . ودوى السعال ، وظهر التثاؤب ، وغالب النعاس عددا كبيرا من الحاضرين الذين استسلموا لجو العنف الذى خيم على القاعة ، وغدا المؤتمر وكأنه سينفض فى حالة من السأم والملل . لكن كانت هناك فى الجعبة أسهم نارية . فما أن جلس السيد ميرو حتى دعا تومكنز ثورنى ليلقى خطاب المؤتمر . وكشف السيد ثورنى ، فى مستهل حديثه ، أنه ليس ميالا الى الصلح .

واستهل خطابه بالقول : « سيداتى وسادتى وأنصار طائفة المغنيطسيين الشماليين اننى رئيس الجهاز السرى لجماعة الملبدين وأعرف من الحقائق ما هو خاف عليكم ، أعرف دخل سير ماجنوس نورث ، وما يبسط يده عليه من اقطاعيات شاسعة فى منطقة الشمال الغربى . كما أعلم أنه يقضى مع الأنسة بوهر ، من تزعمون أنها امرأة قديسة ، ساعات طويلة من كل عشية ، سواء أكان ذلك فى فسق ودعارة أم فى تجارة رابضة لست أدري » .

وبهذه الكلمات ساد الذهول المؤتمر دقيقة كاملة لقد كان المغنطيسيون يعرفون مستر ثورنى كصديق لهم ، كما شق على المولبدنيين فهم الدور الجديد الذى يضطلع به . وبينما كان المؤتمر لا يزال منعقدا فى صمت يبعث على الحيرة والقلق ، اذ بمستر واجنر يثب من مقعده ويصيح قائلاً :

« لقد استمعتم الى أكاذيب ، وسأخبركم أنا بالحقيقة . ماذا تعرفون عن شركة المعادن المتحدة ؟ وماذا تعرفون عن ثروة المساهم الأكبر فى هذه الشركة ؟ هل تعلمون دور مادة الملبدنوم فى عملياتها التجارية ؟ اننى أستطيع بحكم منصبى كرئيس لجهاز المغنطيسيين السرى ، أن أقدم الجواب المذهل : ان الثورة ضخمة وأساسها مادة الملبدنوم ، والأرملة دين هى صاحبها المحظوظة » .

وما أن جلس حتى هاج الجانبان فى صورة غضب عارمة ، ومن جانب انطلقت الهتافات تردد « الموت لسيير ماجنوس ! ، والعار لعشيقته الداعرة » . ورد الجانب الآخر : « ليسقط الأثرياء البخلاء . الى المقصلة بموللى القاتلة » . ولبرهة وجيزة اتحد الجانبان فى مقاومة فرقة الشرطة . وما أن انتهت هذه المهمة حتى اشتبك القديسون المتنافسون فى ملحمة عنيفة . أما رجال الشرطة الذين احتفظوا بتماسكهم ، فقد استطاعوا أن يطردها من بالقاعة باستخدام القنابل المسيلة للدموع . وتدفقت الآلاف المذعورة وقد انهمرت دموعهم ودهمتهم نوبة عطس أخذت تحدث صوتاً كالرعد . وما أن أنعشهم الهواء الطلق حتى عاودوا الكرة الى القتال فى جماعات متفرقة ، فتمزقت الثياب من فوق ظهورهم ، وتبادلوا اللكمات وداسوا أقدام بعضهم بعضاً ، وتعالى العبارات النابية . واستمر الشغب حتى ساعة متأخرة من الليل ، الى أن غلب النعاس المتقاتلين المقدسين ، بعد أن أنهكت قواهم تماماً ، فارتموا فوق الطوار البارد فى سبات عميق .

الفصل السابع

كان رجال الشرطة ، في تلك الأثناء ، يستحثون الشخصيات البارزة فوق المسرح على استخدام باب سـرى للخروج ، وأبدى رئيس المؤتمر استعدادا تاما لمغادرة المكان احساسا منه بأن القيام بالمهمة التي أَسندت اليه لم يعد أمرا ميسورا . أما المذدوب النيبالى ، الذى شعر بأن كارثة محققة وشيكة الوقوع ، فقد ربت على كتف البروفيسور قائلا : « دعنى أتول أمرك » . ودفع رجال الشرطة بالرجلين معا الى احدى سياراتهم ، واذا ذلك تساءل البروفيسور : « آه ، ترى الى أين نحن ذاهبون ؟ فأجابه صديقه الجديد : « الى سفارة نيبال » . وما أن بلغ المكان منهوكا خائر القوى حتى أنعشه اللطف والعطف (ويدا رويدا . . وبعد فترة من الزمن استجمع خلالها أفكاره ، عرض عليه منصب أستاذ لمادة تخصصه بجامعة نيبال بمنطقة الهيمالايا ، بشرط أن يوقع على وثيقة كتبت بلغة يجهلها ، فوقع على الوثيقة، وبعد أن دعم بذلك أوراق اعتماده، التى كانت تحتوى – كما اكتشف بعد ذلك بوقت طويل – على بيان أن « تنسنج » هو أول من من بلغ قمة جبال ايفريست . ثم أقلته طائرة الى كرسى الأستاذية حيث طفق يمارس نشاطه الأكاديمى الجديد . وبعد عشر سنوات ، خرج بكتابه الخالد « الدين والخرافة بين سكان الغرب الأصليين » ، غير أن هذا المؤلف لم يقدر له أن يظهر بأية لغة أوروبية .

كانت الكاهنتان تشكلان لشكلان لرجال الشرطة معضلة عويصة ، فقد اندفعت موالى . ب . دين في وحشية وجنون – وقد نسيت كل ما يحيط بها – عبر الممر لتعتدى على أورورا الضخمة ، فنشبت أظافرها في وجه منافستها وأحدثت به خدوشا طويلة دامية ، فما كان من الأخيرة الا أن دفعتها بيدها فطرحتها أرضا ، فصرخت وهى منبطحة على الأرض « يالك من امرأة وقحة خبيثة ! » . فرددت عليها « أورورا » ، بصوت مختلف تماما ، بل أشد قوة وحدة ، عما اعتاده تلاميذها ، تقول « يالك من امرأة سليطة

سارقة ! » • ورفع بعض رجال الشرطة مولى • ب • دين بينما راح عشرة آخرون ، بهراوات ممدودة ، يدفعون أورورا بوهرا الى الأمام ، وزج بكليهما الى عربة السجن حيث مضتا تكيل كل منهما السباب للآخرى عبر فاصل من رجال الشرطة بينهما • ووجهت الى كليهما تهمة الأخلال بالأمن واحتجزتا لتقضيا الليلة فى زنزانة منفصلة أثارت تأملات هى أبعد ما تكون عن أية تأملات سارة !

وعاد تومكنز وميرو الى مكتيهما فى حماية رجال الشرطة ، ولم يكونا يتوقعان تدخل رئيسى مخابراتهما بصورة متطرفة عنيفة • وباكتئاب شديد راحا يفكران فى انهيار العمل الذى قضيا فى بنائه جل حياتهما وقد غاصت رأسهما بين أيديهم • وبالرغم من أن الامتناع التام عن المسكر ، باستثناء من هم فى قصور الانعاش والترويح ، كان من المبادئ الأساسية لكل من الطائفتين فقد عثرت الخادومات فى الصباح على هذين الرجلين المؤمنين منبطحين على الأرض والى جوار كل منهما زجاجة قارغة •

أما زاكارى وليئة فقد اندمج كل منهما فى الآخر على نحو لم يدرىا معه ما كان يجرى من حولهما حتى صار الضجيج لا يحتمل ، وخلفهما بمسافة قصيرة كان يجلس بين المحايدين « أنانياس واجثورن » ، أحد المسؤولين فى وزارة الثقافة الذى كان قد أرسل ليحصل على بيانات تستعين بها السلطة المركزية عند اتخاذ أى إجراء • ولقد كان رجلا لطيفا قادرا على تمييز الأمور ، ولاحظ اندماج كل منهما فى الآخر • ولما بلغ الاضطراب ذروته مد يدا لكل منهما وقال : « ساحرسكما الى مكان أمين » • ورغم ما انتاب كلا منهما من ارتباك فى حضرة الآخر فقد أذعنا ، اذ لم يكن أمامهما من سبيل آخر ميسور ، ويعون من رجال الشرطة استطاع أن ينقذهما وينقلهما فى هدوء الى مسكنه ، حيث قدمهما الى زوجه التى مضت تنصت اليه فى وعى وهو يسرد ما منى به المؤتمر من فشل ذريع • وكانت زوجة طيبة القلب تحس بعطف بالغ نحو الشباب • فقالت لزوجها : « من رأى ألا يحاول هذان الشبان العودة الى ديارهما هذه الليلة ، فالشوارع صاخبة مضطربة ولا يمكن لأحد أن يتكهن بما قد ترتكبه الجماهير الغاضبة ، فاذا قنع السيد زاكارى بأريكة غرفة الاستقبال يمكن للآنسة ليئة أن تشغل الغرفة الشاغرة ، ومن ثم يتسنى لكليهما أن يقضيا الليلة هنا » • ووافق الاثنان بامتنان • وسرعان ماراحا يغطان فى نوم عميق اذ كانا منهوكى القوى متعبين •

ولما كان المؤتمر الكبير قد انعقد يوم السبت فقد تسنى لستر واجثورن أن يبقوا بالمنزل في صبيحة اليوم التالي • وكرس نفسه لمواساة الشابين والتخفيف من حدة مشاكلهما • ولم يدر أى منهما ماذا يصدق مما استمع اليه بالأمس من أمور أفشيت في غير وضوح • فهل يعقل أن تكون عقيدة الملبدين قد قامت على خديعة مالية ؟ وارتعدت أفكار زاكاري من مثل هذا الاحتمال البشع • وهل يمكن ألا تزيد عقيدة المغنطيسيين عن كونها فى طريق سير ماجنوس نورث المفضى الى الثروة والجاه ؟ ولأح هذا التفكير الخائق للبيئة وكأنه مجرد الحياة من كل أهدافها • وحين رآهما مستر واجثورن مكتئبين وبلا شهية لطعام الافطار ، استفسر منهما عما يساورهما من شكوك • فابتدراه بالسؤال : « أيمكن أن تكون هذه الأمور حقيقية ؟ » •

فأجاب واجثورن : « أخشى أن تكون عين الحقيقة •• ان مهمتى الرسمية هى أن أقوم بتحقيقات عن كل من الطائفتين ، ومن مجلس التجارة تأكدت مما تمتلكه مسز دين من أسهم ضخمة فى شركة المعادن المتحدة ، كما أنه عن طريق حكومة الاقليم الشمالى - الغربى تبينت المنطقة الشاسعة التى يمتلكها سير ماجنوس والاحتمال الكبير لاحتوائها على ثروة معدنية أما علاقة سير ماجنوس بأورورا بوهراف فقد اكتشف أمرها منذ وقت طويل وهى موضع رقابة رجال الشرطة • ولست أشك فى أن والديكما يجهلان ما أفشى فى مؤتمر الأمس ، ويقينى أنهما مقتنعان اقتناعا قلبيا خالصا بأن ما يبشران به من مبادئ انما هو الحق والخير ، وحين يتسع أمامكما المجال للتأمل والتفكير ربما أيد كل منكما أباه واحتفظ بعقيدته كسابق عهده ، لكن الذى أراه أكثر احتمالا هو أنكما سوف تدركان ما أرى أنه الحقيقة فى هذا الموقف المؤلم فتتعلمان كيف تبنيان حياتكما على أساس أشد رسوخا مما استندتما اليه من قبل •

وصاح كلاهما : « وهل يمكن لأية حركة لها هذا القدر من الانتشار كما لها هذه القدرة الفائقة على التأثير فى أفكار الناس ، أن تقوم على الحماقة والخداع وحدهما ؟ »

فأجاب : « هذا أمر جد ميسور ، ان عملى يقتضى دراسة تاريخ مثل هذه الحركات ، فهى متعددة ، يزدهر بعضها فترة وجيزة بينما يظل البعض الآخر قائما قرونا بأكملها • لكن ليس ثمة علاقة على الاطلاق بين قوة الحركة وحياتها وبين أساسها الذى يقوم على الخير والصلاح • »

وهنا تناول من رفوف مكتبته مجلدا ضخما بعنوان : « قاموس المذاهب والخرافات والطوائف ومدارس الفكر الدينى » .

ثم قال : « لا تتوهما أن ثمة مبررا يحملكما على الاحساس بالخجل أو الاعتقاد بأنكما تختلفان عن بقية البشر من حيث القدرة على الايمان بما يثبت بعد ذلك أنه هراء . ان هذا المجلد يحتوى على مثل هذه الحماقات التى وقعت خلال الألفى سنة الماضية ، وقليل من الدراسة والبحث يكشف لـكما أن مذهبيكما يبدوان معقولين ومعتدلين اذا قورنا بكثير من تلك المذاهب . وبما أن كلا من مذهبيكما يبدأ بحرف « م » ، فلنر ما يذكره هذا الكتاب تحت هذا الحرف . كما أوصيكما بدراسة تعاليم مذهب « مكاريوس » . وأؤكد لكما أنها جديرة بالاهتمام ، شأنها شأن مذاهب الماجورنية ، والملاكانية ، والمارسلينية ، والماركوسية ، والماسيونية ، والملكصادقية ، والميتانجسموننتية ، والمورلستشيكية ، والمأجلتونية ، ولأخذ على سبيل المثال ، الماركوسية التى اتبعت ماركوس ، الساحر . . . »
« كان بارعا فى الخدع السحرية . . . يجمع بين حركات اناكزيلوس البهلوانية وسحر المجوس » . وبهذه القنون كان يهتك أعراض زوجات الشمامسة ويستبيح لنفسه هذه الحرية المطلقة على أساس المبدأ القائل أنه « قد ارتفع فوق كل قوة » ، ومن ثم فانه حر طليق يفعل ما يشاء ، بل لعل من دواعى غبطتكما أنكما لا تنتميان لمذهب جماعة المورليستشيكي التى من « عادة أفرادها أن يلتقوا معا فى مكان منعزل فى يوم معين من كل عام ، وبعد أن يحفروا حفرة عميقة يبدأون فى ملئها بالخشب والقش وغيرهما من المواد القابلة للاشتعال وهم ينشدون ترانيم غريبة خاصة بالاحتفال . وما أن تشتعل النيران فى كومة الوقود حتى تثبت الأعداد الغفيرة الى قلب النار تدفعهم تراتيل الظفر التى يرددوها الذين يقفون من حولهم ، وذلك لشراء الاستشهاد المزعوم بهذا العمل الانتحارى » . كلا ، يا صديقى العزيزين . ليس ثمة ما يدعو الى الاحساس بأنكما فريدان فى هذه الحماقة ، فالحماقة شىء طبيعى فى الانسان . اننا نعتقد أن ما يميزنا عن القردة هو قوة التفكير ، ولا نتذكر أن القدرة على التفكير فى العام الأول من الحياة شبيهة بالقدرة على المشى ، نحن نفكر ، هذا حق ، بيد أننا نفكر على نحو من السوء . أشعر معه فى أغلب الأحيان أنه من الأفضل لو أننا لم نفكر . . . وبما أن لدى بعض الأمور التى يتحتم على القيام بها ، فانى أدعكما الآن وشأنكما » .

وفى خلوتهما خيم الصمت المشوب بالحيرة والارتباك فى بادئ الأمر ، وفى النهاية قال زاكارى فى تردد : « لست على استعداد للاعراب عن رأيى

فيما سمعت بالأمس وفيما قاله صديقنا اللطيف • لكن شيئاً واحداً لا يداخلى فيه شك ، هو أنه حينما تطلعت عبر الممر ورأيت الطهر الخالص والحب الصادق يشيعان من عينيك ، لم أقو على تصديق ما يقال من أن المغنطيسيين قوم ساقطون » •

فتنهدت وقالت : « اننى سعيدة بما قلت يا مستر تومكنز ••• و ••• وان عين الاحساس كان يخالجنى نحو الملبدينين » •

فتساءل في دهشة : وهل يصدق ، يا مس ميرو ، أن شيئاً قد أنقذ من وسط هذا الدمار ؟ وبعد أن جرفنا التيار على انفراد وفرق الشك واليأس بيننا وبين رفقاءنا القدامى وآمالنا السابقة ، هل لى أن اعتقد أن كلامنا قد اكتشف الآخر في هذه الليلة التى نبذو فيها كأننا في عزلة ؟ • فقالت : « أحسب أن ذلك ممكن يا مستر تومكنز •• » •

وعقب هذه الكلمات ارتمى كل منهما بين ذراعى الآخر •

ولبرهة نسيا أحزانهما في نشوة متبادلة ، لكن سرعان ما تنهدت ليئة وقالت : « لكن ماذا نفعل يا زاكارى ؟ انحطم قلبى أبويننا ؟ وماذا يمكن أن نفعل خلاف ذلك ؟ انه لمن المتعذر أن نتزوج وأن نواصل الاعتراف بعقائدنا العديدة السالفة » •

فأجابها بالقول : « كلا ! هذا مستحيل ، وعلينا أن نخبر أبويننا بارتدادنا عن العقيدة مهما يكن وقع ذلك اليما عليهما ، ومن الآن فصاعداً ينبغي أن نكون يا آنسة ليئة ، صفاً واحداً في الفكر والقول والعمل ، وذلك لن يتحقق لو أننا رضينا بولاء متجزئ •• » ••

وبقلبين مثقلين ، قررا مواجهة أبويهما بحقيقة الأمر دون أن يترددا أمام المحنة إذا كانت نار الحب المتأججة تدفعهما الى ذلك دفعا •

الفصل الثامن

بعد مباحثات عديدة ، قرر زاكارى وليئة تأجيل مواجهة أبيهما الموقرين الى اليوم التالى ، لا سيما أن « واجثورن وزوجته قد طلبا اليهما في عطف بالغ أن يمكثا معهما ليلة أخرى • واثر تناولهما طعام الغداء ، انطلقا يتنزهان في حدائق كنسـنجتون ، ولما كانا ، حتى تلك اللحظة ، لا يعرفان من الدنيا سوى المكاتب طيلة الأسبوع وقاعات الاجتماع الفسيدة في أيام الآحاد ، فقد سلب جمال الطبيعة لبهما وراحا يستمتعان بالعواطف التى حمات الآخرين على زيارة جبال الألب وشلالات فكتوريا •

وقال زاكارى ، وهو يمتع عينيه بحسـوض من زهور التوليب (الخزامى) المتعددة الألوان : « يراودنى التفكير فى أن حياتنا الماضية لم تكن تشغلها سوى أمور تافهة محدودة ، ويقينى أن هذه الزهور لا تدين بشيء لعنصر الملبدنوم ! » •

فأجابت ليئة : « كم هى منعشة للنفس كلمات الحكمة المناسبة من فمك ! اننى بدورى واثقة من أنه لا دخل للمغنطيسية فى خلق هذا الجمال الحليـمى » •

وأجمعا على أنهما يشعران وكأن عقليهما يتسعان وقلبيهما يكبران كلما مر الوقت منذ أن لاذا بالفرار من عبودية العقيدة وربقتها • لقد نشأ على عبادة القوة ولم يظهر أيهما فى هذا الميدان تفوقا أو انغماسا ، كما أنهما تعلمتا ازدراء كل ما هو دقيق ورقيق ، وكل ما هو هش وسريع الزوال • لقد كان زاكارى يستمتع ، فى خجل دقيق ، بدواوين الشعراء ، لكن شعوره كان أشبه بشعور مدمن المورفين وهو يتعاطى جرعات منه خلصة • أما هى ففى الساعات المختلسة التى كانت تقضيها فى العزف على البيانو كانت تؤثر الأوقات التى تعلم أن أباهـا يغيب فيها • غير أنه ، لحسن الحظ ، لم يكن يزعم بأذن موسيقية ، وفى المرات التى أمسك بها وهى تجلس

الى المعزف تسنى لها أن تقنعه بأنها تدرس كتاب ترانيم المخطيسيين • أما الآن فكأننا يحسان ، على الأقل ، بأنه لم يعد ثمة مبرر يدعوها الى أن يخجلا من ذوقيهما •

لكن المخاوف لم تتركهما • • مخاوف تتعلق بالعالم وبنفسيهما • • وتساءلت ليئة في شيء من التردد : « أعتقد أن بوسع المرء أن يكون خيرا دون عون من عقيدة ؟ لقد عشت ، قبل الآن ، حياة لا غبار عليها ، فلم أقه قط بكلمة نابية ، ولم أذق للخمر طعما ، ولم أعان من تلويث التبغ لمرئتي ، ولم يحدث مرة أن اضطجعت ورأسي متجهة الى غير القطب المغنطيسي ، كما لم آى الى فراشى في ساعة متأخرة من الليل ، ولم أستيقظ بعد الساعة المحددة • • ولقد لمست مثل هذا التفانى بين أصدقائي • لكن هل يتسنى لى مواصلة الحياة على هذا النحو ، وأنا لم أعد أشعر أن كل عمل أقوم به وكل نسمة أستنشقها انما هو ضرب من الولاء والتعبد للأرض المغناطيس الأكبر ؟ » •

فكان رده : « وا أسفاه ! ان عين الأمور المحيرة تضايقنى • وأخشى أننى قد اكتفى في الصباح بلمس أصابع قدمي أقل من تسع وتسعين مرة ، بل ربما رضيت بأخذ حمام من الماء الفاتر ، كما أنى لم أعد أثق بأن الخمر والتبغ يقودان الى الجحيم • فما هو مصيرنا وهذه الشكوك تساورنا ؟ هل نسلك سبيل زينة الدنيا وزخرفها الذى يؤدى الى انهيار أخلاقى ودمار جسدى ؟ وما الذى يحفظنا ، ويحفظ الذين كانوا ، من قبل ، شركاء لنا في العقيدة من الانغماس شيئا فشيئا في السكر والعشق والدمار ؟ وماذا يكون جوابنا ، حينما نلتقى بأبويننا ويأخذان في الجدل بأن مذاهب ، كمذاهبيهما ، سواء أكانت على حق أو باطل ، ضرورية لحفظ الجنس البشرى ؟ أننى لا أدرى بعد ما عسى أن يكون ردنا ، فلنأمل أن يلهمنا الغضب الأبوى جوابا حين تحين اللحظة » •

فقالت : « ليت ذلك يحدث ، لكنى أقر بأن المخاوف تستبد بى لأننا ، ونحن مسلمان بقوة العقيدة ، لم نحجم تماما عن الخطيئة ، فقد ارتكبت ، أنت بشعرائك ، وأنا بمعزفى ، خطيئة الخداع • فإذا كنا قد أخطأنا في الماضي فما عسى أن تكون حالنا اليوم ؟ » •

وعادا لتناول الشاي على مائدة أسرة واجثورن مثقلين بهذه الفكرة الكئيبة • يخيم عليهما الغم ويملاً الحزن نفسيهما •

وفي صبيحة يوم الاثنين سعى كل منهما الى أبيه في اصرار على أن يبسط له الأمر كما ينبغي ، وأن يحاول تحقيق الصلح ان كان ذلك ممكنا .
ووجد زاكارى أباه في مكتبه تحوطه المتاعب من كل حذب وصوب ، فالاستقلالات قد تراكمت فوق قمطره كما كانت مقالات الهجوم التي نشرتها الصحف التي كانت من قبل صديقة ، نذر خراب ودمار ، فبعد قضاء يوم الأحد في استجمام واسترخاء قررت غالبية الذين تقابلوا كمؤمنين مخلصين لهذه الطائفة أو تلك ضرورة نبذ الطائفتين سواء بسواء . ففى عشية يوم السبت انضم نصف الجماهير الى مستر تومكنز بينما انحاز النصف الآخر الى مستر ميرو . أما اليوم فان الأعداد التي مرت بالمكتبين ، وان يكن الوقت غير مناسب للتجمهر ، أظهرت عددا مماثلا لكليهما ، ولم يحم البقية القليلة المؤمنة من العداء الموحد لأولئك الذين أحسوا بأنه قد غرر بهم سوى قوة كبيرة من رجال الشرطة . وان كان مستر تومكنز ظل متمسكا بايمانه الا أنه حار في فهم مقاصد العناية الالهية من السماح بما حدث . وما أن رأى زاكارى حتى ارتسم على محياه بصيص من أمل .

وقال متأوها : « يا للمحن التي تحل بالصالحين ! أما أنت ، يا من علمتك منذ نعومة أظفارك الايمان الصحيح . . أنت ، يا من حياتك النقية وايمانك الراسخ هما من أعظم مصادر البهجة والسعادة لحياتى المتعبة . . أنت لن تتخلى عنى فى هذه الساعة الحرجة . لم أعد شابا وقد لا تسعفى قوتى فى هذه السن فى إعادة بناء تلك الطائفة العظيمة من أساسها بعد أن كانت قاب قوسين أو أدنى من النصر الحاسم . أما أنت فبشبابك القوى وحماسك المتأجج الذى لم يشبه شك أو ريبة . . فسوف تعيد بناء الصرح المتهدم أشد نقاء ، وأكثر بهاء ، وأقوى اشعاعا من ذلك الذى أحالته محنة يوم السبت أنقاضا » .

وكان لهذه الكلمات وقعها البالغ على نفس زاكارى واغرورقت عيناه بالدموع ، وتمنى من صميم فؤاده أن يجيب بما يتوق أبوه الى سماعه . وما كان ذلك بوسعه ، فقد حال دون ادعائه ما هو أقوى من الشكوك الفكرية التى ساورتها حول فوائد الملبندوم الفسيولوجية . فالتفكير فى ليئة جعل الخضوع لأبيه أمرا متعذرا إذ أن أباه لا يوافق على الزواج من عضو فى طائفة المغنطيسيين ، وأدرك زاكارى أنه لا مناص من أن يفصح عما يجول بخاطرهما كان الوقع على نفس أبيه أليما .

قال : « أبى ، وان كنت أرق كثيرا لحزنك ، الا أئننى لا أستطيع تحقيق

رغبتك ، ولقد ارتددت عن العقيدة ، انكم لتؤكدون لنا أن الملبدون يشعرون
أمراض الصدر ، لكنك تعلم ٠٠ أو على الأقل ارتبت في أنى مصاب بالتهاب
رئوى . يقال لنا ان الملبدون يقوى عضلاتنا ، ومع ذلك فان أى عريبد
كافر من الأحياء القذرة بوسعه أن يحق بى الهزيمة فى أية مباراة
للمصارعة ولعل هنالك تفسيراً لهذه الأمور ، لكن ما هو أشق وأعوص هو
أننى أصب ليئة ميرو ٠٠ » .

وشهق أبوه قائلاً : « ليئة ميرو ؟ »

« أجل ، ليئة ميرو ، وقد وافقت على أن تصبح زوجا لى ، فهى لم
تعد ، مثلى تؤمن بالعقيدة التى ترعرعت بين أحضانها . كما أنها عقدت
العزم - مثلى - على أن تسلم بالحقائق المرة مهما يكن فى ذلك من تحطيم
لعالم من العقائد عزيز على النفس . ولم تعد عقيدتك أو عقيدة مستر ميرو
مصدر الهام لحياتنا ، انما نريد أن نحيا حياة لا تقيدنا أغلال العقيدة وأن
وأن نعيش أحراراً فى أن نقبل ما توحى به الحقائق بعقول متفتحة لرياح
السماء ، غير مغلفة بنظام مريح يشيع منه الدفاء الى حد ما ! » .

فأجاب أبوه : « آه ، انك تحطم قلبى يا زاكارى ! أنت تطعننى فى
الجرح المميت ! ألا يكفى أن العالم قد انقلب ضدى ؟ هل ينضم ابنى الى
صفوف أعدائى ؟ آه ، يا له من يوم رهيب ! انك برعونتك القاسية لا تقضى
على فحسب بل تحطم عالماً بأسره . ماذا تعرف عن طبيعة البشر ؟ وأنى
لك أن تقدر القوى الفوضوية الضاربة التى تطلق سراحها « رياح السماء
الطليقة » التى تحدث عنها ؟ ما الذى ، فى تصورك ، يكبح جماح الناس
عن القتل والنهب والدعارة وارتكاب جرائم الاحراق العمد ؟ هل تتوهم
أن قوة المنطق التافهة قادرة على تحقيق هذا الهدف العظيم ؟ وا أسفاه !
لقد ضربت سياجاً حول حياتك حتى لا تعرف الجانب المظلم من الطبيعة
البشرية . فأمنت بأن اللطف والصلاح ينموان نمواً طبيعياً فى قلب الانسان ،
ولم تدرك أنهما النمو غير الطبيعى لمعتقدات غير طبيعية . هذه هى
المعتقدات التى حاولت أن أغرسها فى نفسك ، وفى هذه الساعة الحالكة
السواد أعترف بأن هذا ما كانت تضطلع به طائفة المغنطيسيين ، ولازلت
أومن بأن عقيدتنا أسمى من عقيدتهم سمو شمس الظهيرة عن آخر بصيص
لنور الشفق . مع أن ما تقدمه ليس نور الشفق بل ليلاً مدلهما حالك
السواد . ولكم من أعمال شريرة ترتكب فى الليل . فان كان هذا ما تنوى

الاضطلاع به ، فستقوم بينى وبينك عداوة أعماق وأشد ضراوة من تلك التى فرقت بينى وبين أنصار طائفة المغنطيسيين » .

وجاءت استجابة زاكارى لهذا الحديث بعكس ما كان أبوه يتوقع ان قال : « كلا ! كلا ! ليس بالزور والبهتان يكون خلاص بنى الانسان ، فأنت تتوهم أنك تقيم الفضيلة ، ولكن ما الذى تبنيه حقا ؟ انها ثروة موللى . ب . دين التى تخال أنها امرأة قديسة . هل القداسة هى التى ألهمتها خدش وجه أورورا بوهرا ؟ وهل القداسة هى التى حملتها على اخفاء أرباحها المالية تحت اسم شركة المعادن المتحدة ؟ ولم أذهب بعيدا ، هل تدرك أنك ضحيت بحياتى نتيجة سلامة نيتك ؟ وهل تعلم أنك حرمتنى مما يحتاج اليه جسمى من علاج ان لم يكن علاجى من النوع الذى يصنعه مذهبك ؟ ألا ترى أن هنا ، فى حالتى الخاصة ، عينة من الشرور التى يقاسى منها أولئك الذين يستعيزون عن الحقيقة بالعقيدة ؟ اننى لا أؤمن بأن الطبيعة البشرية على هذا النحو من السوء كما تقول . لكن ان جانبك الصواب فى ذلك فما من نظام مفروض يمكن أن يشفى الشرور ، ذلك لأن الذين يفرضون تنظيما سوف يعملون بوحى من عواطفهم الشريرة وسيجدون طريقة غير مباشرة لفرض ضريبة العذاب التى يملئها شرهم . كلا ! انكم لاتفعلون أكثر من تنظيم الشر ، وحين ينظم الشر يصبح أشد رعبا من أى شئ يتمخض عن تلك العاطفة الفوضوية الطبيعية . وداعا يا أبى ! ان حبى ووجدانى هما لك . وأما نشاطى فليس كذلك من الآن فصاعدا ! » .

وبهذه الكلمات انصرف .

وأخذ لقاء ليئة مع أبيها أسلوبا مماثلا كما انتهى الى نفس المصير . وحاول كل من تومكنز وميرو مواصلة الكفاح القديم ، لكن قدرتهما على التأثير كانت قد فارقتهما ، ولم يبق من التابعين المخلصين سوى نفر قليل يعيشون فى مناطق منعزلة نائية . واضطر السيدان تومكنز وميرو أن يخليا مكتبيهما الفاخرين ، ان لم يعد سيرا ماجنوس ومسز دين يؤمنان بجدوى ما يدفعانه وبعد أن أصبح الرجلان يعتمدان على هبات البقية الضئيلة الباقية من التابعين ، بدءا ينحدران الى فقر مدقع .

وظل سير ماجنوس ومسز موللى . ب . دين ثريين ، وإن منيا بخسائر فادحة ، لكنهما استطاعا أن يعوضا ، الى حد كبير ، هذه الخسائر

بتوحيد مصالحهما ، مما أسفر عن تبدد الخلاف القائم بين الولايات المتحدة وكندا . فتبسمت الحكومتان بالرضى على مشروعاتهما المشتركة . أما أورورا بوهرا التى لم تتصور أن ما أحرزته من نجاح إنما كان يتوقف على أموال سير ماجنوس فقد بقيت بالمصح تستقبل كعادتها الزوار القلائل الذين مالبثوا يترددون . بيد أن القصر أخذ يتعرض للهجر رويدا رويدا . ولاحظ المؤمنون القلائل ما طرأ على قواتهما من ضعف . وعزا المتعصبون بين من بقى لها من أتباع انهيارها الى تأثير الملبدنوم الشرير ، وعصفت بهم الشكوك فى أنها قد ارتدت عن الايمان ، لكن وا أسفاه لقد بدأ الدليل على ارتدادها يتضح شيئا فشيئا ، ففى بداية الأمر انغمست فى السكر ثم راحت ترتاد مملكة « الحشيش » . وكان لا مفر فى نهاية المطاف من حملها بعيدا ، وهى تهذى فى جنون ، وتركها فى مستشفى الأمراض العقلية تقضى أيامها الأخيرة .

وأما زاكارى وليئة اللذان لم يعرفا الفاقة ، وكان يفترض أنهما سيخلفان أبويهما فى مراكزهما المريحة المجزية ، فقد وجدا نفسيهما فى حالة احتياج شديد الى بعض مقومات الحياة ، غير أن زاكارى الذى أقنع مستر واجثورن بقدرته على الفهم والاستيعاب والذى نال قسما وافرا من المعرفة عن طريق قراءاته الواسعة ، فقد عين بتوصية من مستر واجثورن فى إحدى الوظائف الصغيرة بوزارة الثقافة . وتزوج زاكارى من ليئة بعد أن ساعدتهما مسز واجثورن فى تأسيس مسكن صغير .

وانهمكت ليئة فى تدبير شئون المنزل وفى حبها لزاكارى فلم يكن أمامها متسع من الوقت تشعر خلاله بالسأم والملل ، كما لم يعاودها الحنين الى الحقائق السابقة . أما التكيف بالنسبة لزاكارى فكان أشق وأعسر . لقد كان اتخاذ القرارات فى سالف الأيام أمرا يسيرا أما اليوم فهو أمر عسير ، وكان يقف حائرا : هل يقبل هذا أم ذاك ؟ وهل يؤمن بهذه أو تلك ؟ ووجد نفسه يحوطه التردد دون وجود بوصلة بحرية تقود سفينة حياته . وبأت من عادته أن يقضى أيام الأحاد فى مسيرات طويلة على انفراد .

وفى عشية أحد أيام الشتاء ، وبينما هو فى طريق العودة منهوك القوى يشق طريقه وسط ضباب كثيف وتتساقط عليه قطرات من الرذاذ ، اذ به يجد نفسه خارج معبد من الصفيح حيث كانت بقية من جماعة الملبدنيين مازالت تتعبد ، وعلى نفعات أرغن صغير طفقوا يرتلون تلك الكلمات المعروفة :

الملبدونم أحسن المعادن

نافع للعظيم والحقير

يشفى جميع أمراض الصدر

وينمى أيضا عضلاتنا

وتنهى ، وراح يهملهم بالقول : ليتنى أعود الى أحداث الماضى
الرائعة ! آه لكم هى قاسية « حياة المنطق » !

آفاق عالمية

الهيئة العامة لقصور الثقافة



التنقيحان

مارسيا إيميه

ترجمة : د. حماده إبراهيم

الشقيقان
مارسيل إيميه
(فرنسا)

كنت أعمل أمين سر عند السيد الفريد ليجيندوم، ذلك العالم الكبير الذى كان يدفع لى ثلاثمائة فرنك شهرياً، كان قد كرس حياته فى دراسة ظاهرة تدهور استعمال إحدى الحالات المصرفية فى قواعد اللغة اللاتينية .

حينما بلغ الثانية والسبعين من عمره، كان قد جرب ثلاثة وأربعين فرضاً، غير أنه كان يقول إنه على وشك الوصول إلى الغاية، والحقيقة أن مبلغ الثلاثمائة فرنك يعتبر راتباً ضئيلاً فى الشهر، ولكن الحقيقة أيضاً أن البريد الذى كنت أتولى أمره لم يكن ضخماً .

لم يكن السيد ليجيندوم يرسل سوى شخصين اثنين: ابنة عمه الشابة، وكان يرد عليها بنفسه، ثم محصل الإيرادات . وذات صباح وصل المكتب خطاب من أمريكا ففتحته وقرأت فيه ما يلى :

أخى العزيز : ها قد مضت سبع وأربعون سنة على فراقنا،

وفى تقديرى أنها قرن كامل، فألى اللقاء قريباً، أخوك الحبيب :
جيروم.

وضعت الخطاب بين البريد اليوم، وقدمته إلى سيدى الذى
بادرنى بقوله :

- يا سيد بيرونيه، وصلنى أمس خطاب من زولما ابنة عمى.
تخبرنى أنها ستصل مساء الأحد. فبلغ السيدة هوريتشس بأن
عليها أن تقوم بإعداد غرفة النوم الوردية، ولكن قل لى يا سيد
بيرونيه، أين وصلت فى تنظيم وتصنيف مراسلاتى، هل هى على
مايرام ؟

- أجل يا سيدى، وبالمناسبة، كنت أنوى أن أسألك عن إمكان
فتح ملف جديد، لأننى تسلمت قبل قليل خطاباً من شخص ليس
من ضمن مراسليك المعتادين.

وقدمت إليه بريد اليوم، فاطلع عليه .

- آه، آه، خطاب من أخى الصغير الذى كنت أعتقد أنه مات
قبل أربعين عاماً، بدليل أننى ورثت عنه مبلغاً هائلاً من المال،
كان قد عهد به إلى محاميه أو موثق عقوده، ولا بد أن لديه
مايستند عليه قانونياً للمطالبة باسترداد ماله. ما رأيك؟
- أعتقد فعلاً

- أليس كذلك، إذن لابد أن نأخذ من اليوم احتياطنا، وطبعاً أنت تفهم الآن مايجعلنى مضطراً لتخفيض راتبك. وبما أنني كنت أنوى أن أمنحك زيادة، فسأكتفى بخمسين قرناً من راتبك الشهري.

- أه يا سيدى ...

- كلا، كلا، لا تشكرنى، الحقيقة أنك كنت تستحق هذه الزيادة .

وفى يوم الأحد التالى، كنت فى حجرتى حينما سمعت قهقهة عالية تدوى فى أركان المنزل، فخرجت إلى بسطة السلم، وانحنيت على الدرايزين لألقى نظرة على الدهليز، فسقطت من يدى صابونة الحلاقة التى كنت أمسك بها، وسقوط صابونة الحلاقة أمر من الأمور العادية جداً بالنسبة للصاعقة .

ذلك أن (زولما) ابنة عم سيدى كانت غاية فى الجمال، ولم أكن قد أمعنت فيها النظر وأنا أقف على بسطة السلم، أما بعد ذلك بربع ساعة فقد تحققت من صفاء بشرتها ونضارتها وسحر عينيها الواسعتين اللتين تثيران نوعاً من الاضطراب لا أدرى كنهه، أما شعرها فمع قلة غزارته إلا أنه كان مشدوداً معقوصاً بحيث يبرز أنفها فى خط مستقيم، وأما مشيتها فكانت لينة وزاد

من لينها مايعتريها من عرج بسيط .

وقال السيد ليجيندوم وهو يقدمنى إليها :

- زولما، هذا السيد بيرونيه، مستخدم عندى .

فاعترضت قائلاً :

- سيدى، أنا لست مستخدماً عندك، بل أنا أمين شرك، هناك

فارق، بالنسبة لى أنا الحساس لدقائق الأمور وبالذات موضوع

الكرامة، فالأمر مهم جداً بحيث لا أستطيع أن أعبر عن ذلك،

وكنوز الدنيا بأسرها لا يمكن أن تجعلنى مستخدماً عندك .

كانت زولما تنصت لى بكل انتباه وجدية فاغرة فاها بشفتيها

الورديتين، وأدرك السيد ليجيندوم أنها لا تقره على تصرفه، الأمر

الذى أسخطه، فأردف قائلاً :

- يا سيد بيرونيه، إنى أعلنك بأن تبحث لك عن عمل آخر .

فما دامت زولما ستبقى عندنا عاماً كاملاً، فهى ستتولى مهام

عملك.

فاعترضت زولما معلنة أنه لاينبغى أن يعتمد عليها فى ذلك،

وكانت تتكلم بحرارة وحساسية مما أخرج السيد ليجيندوم الذى

أضاف من فوره :

- ليكن، فلتبق فى خدمتى، ولكن مادمت أحتفظ بك بالرغم

منى، فإننى سأخصم منك الزيادة التى منحتك إياها وعلى ذلك،
وابتداء من اليوم سأدفع لك مائتى فرنك فى الشهر .
إن الأحبة يعيشون على الخبز الجاف، وقد وطنت نفسى على
ذلك.

ولقد عكفت كل صباح على أن أضع بباب زولما باقة صغيرة
من الأزهار، وكنت أرفق هديتى بعبارة لطيفة كانت غالباً من
الشعر، ولم ألاحظ على زولما أية بادرة سرور لما أقدم لها، وذات
صباح وأنا أمر أمام حجرتها، فوجئت بالسيد ألفريد ليجيندوم
يزج بنفسه من فتحة الباب حاملاً باقة أزهارى بين يديه قائلاً :
- عزيزتى، لقد أسرع بحمل هذه الأزهار إليك لتحيتك حال
نهوضك من النوم، ولكن ها هى ذى قد أصيبت بالذبول إذا
تأملت أزهار شبابك الغض .

وفى اليوم التالى ، اعتقدت أن من الواجب أن أسلم أزهارى
لزولما بين يديها، وبعد دقائق استدعانى السيد ليجيندوم فى
مكتبه وقال لى بلا مقدمات :
- لقد قررت أن أطردك .
فقلت:

- سيدى - وشعرت بالرغبة فى أن أغرز قلمى فى عنقه -

سيدي - أنت تعرف مدى إخلاصى فى خدمتك، ولكن إذا كنت قد قصرت فى أداء عملى بوصفى أميناً لسرك، فلتكن مشيئتك، إننى سأغادر البيت داعياً الله أن يبارك آخر نظرياتك العلمية، ومع كل فثق أننى على استعداد لتصحيح خطئى، وإذا شئت أن تعود فى قرارك، فستجد أن كل شىء سيعود إلى مجراه ابتداء من صباح الغد .

- يا سيد بيرونيه، أنا أسف لأنه لم يعد بيننا ذلك التفاهم الذى كان سائداً خلال الأعوام الماضية، وإذا أردت أن أعيدك للعمل فلن يكون ذلك إلا بتخفيض راتبك إلى النصف، بالنسبة لشاب حسن السير والسلوك، فإن مائة فرنك تعتبر مبلغاً معقولاً. وفى أواخر شهر نوفمبر، وصل خطاب آخر من شقيق السيد ليجيندوم يعلن فيه عن وصوله خلال الأيام الأولى، من ديسمبر. وهنا قال سيدي :

- الخطر يقترب، لذلك فأنت ترى أن المصلحة تقتضى أن أخفض راتبك إلى خمسة وسبعين فرنكاً فى الشهر. فأمام الخطر الذى يتهددنا ينبغى أن نربط الحزام .

وصرت إلى حال يرثى لها من البؤس والعوز، ولم أعد أضع أمام باب زولما سوى بعض أزهار البنفسج الرخيص مما عكر

مزاج السيد ليجيندوم .

وذات صباح عكفت على العمل بكل نشاط وبعد عشر دقائق كنت قد فرغت من الأعمال التي كنت قد قدرت لها عشرة أشهر، حينئذ أمكنني أن أفكر في الانتحار في راحة وهدوء .

ولما كان الجو صافياً والشمس مشرقة، لم أجد أجمل من أن ألقى بنفسى في البحر من فوق صخرة مرتفعة بارزة. ولما أخذت القرار قمت بكتابة طقوطة من الشعر موجهة إلى زولما، كذلك كتبت خطاباً من مجهول إلى مفتش الشرطة أتهم فيه السيد ليجيندوم بقتل أمين سره بطريقة غادرة وإلقاء جثته في البحر. وفي نحو التاسعة والنصف، غادرت المنزل من باب خفى لأنفذ خطتى.

كانت ثمة نسمة علية تهب من الجنوب وغيوم خفيفة تحجب قمة الصخرة التي نويت أن ألقى نفسى من فوقها. وحينما بلغت قمة المرتفع، تملكنتى رعدة لم أستطع أن أكتسها وكان ثمة رجل عجوز يشرف على البحر من أعلاه وينظر إلى الهوة بمنظار مكبر، فاقتربت منه وسمحت لنفسى وأخبرته بأننى أنتهز هذا اليوم الجميل من شهر ديسمبر لكى أنتحر، فلمس العجوز قبعتي، ودون أن يتحول عن تأمله، أجابنى بأدب قائلاً :

أرجو ألا يزعجك وجودى يا سيدى، كل ما أرجوه منك أن
تسمح لى بمشاهدتك .

شعرت بارتياح لسماع هذا الكلام من العجوز، وتراجعت
بضع خطوات لأهين نفسى للقفز. حينئذ أخرج العجوز من
جيبه رزمة كبيرة من الأوراق المالية فئة الألف فرنك وسحب منها
ورقة، ورفعها فوق رأسه، ثم تركها فى الفضاء.

فحملتها النسمة قليلاً ثم سقطت نحو البحر بطيئاً بطيئاً.
وهنا نمت عن العجوز حركة ضيق، ثم سحب ورقة أخرى وفعل
بها ما فعل مع الأولى، ثم ورقة ثالثة، فرابعة، فخامسة. حينئذ
أجلت انتحارى دقائق لكى أسأل هذا المهرن عن الهدف من وراء
هذه التجارب الباهظة التى يقوم بها، فرفع العجوز منظاره
المكبر ومسح عنه بخار - أنا أبحث عن مصدر الريح .

- إنه يأتى من الجنوب الغربى يا سيدى، ولكنه فى المساء
سيغير اتجاهه، فانظر إلى قرص الشمس بانعكاساته الحمراء،
إنه وسط السماء أشبه بطست كبير للمربى .

- شكراً أيها الفتى، وعفواً إن كنت تسببت فى تأخير
انتحارك، إنى أترك لك مكانى.

ورفع قبعبته ومضى سريع الخطى نحو أسفل المرتفع

فأسرعت وراءه .

- سيدى، لقد أخبرتك باتجاه الريح فادفع لى أجزتى، ألف
فرنك.

فتبث العجوز منظاره وراح يتأملنى من أخصم قدمى حتى
أم رأسى باحتقار شديد.

- أيها الفتى، إن أسعارك باهظة للغاية. صحيح أنك أطلت
إقامتك بضع دقائق فى وادى الدموع هذا من أجلى، ولكننى لم
أسألك رأيك، وأعتقد أننى أكون كريماً جداً إذا أعطيتك عشرة
فرنكات، مقابل تلك الاستشارة البسيطة .

- ليكن، أوافق على منحك هذا التخفيض، ولكن هل فكرت
فى أنك رجل عجوز، وأنه ليس هناك شاهد علينا وأن جيبك الذى
به المسدس ليس من السهل الوصول إليه ...

- هذا صحيح، لم أفكر فى ذلك، ولا اعتراض لى على
كلامك.

وهنا سلمنى العجوز حافظة نقوده وساعة معصمه وحفنة من
الأوراق المالية، ولم أشأ أن أحتفظ بالأوراق التى تبلغ قيمتها
ثمانى مائة ألف فرنك، ومقابل ذلك طلبت منه أن يعطينى
المسدس، فوافق عن طيب خاطر، بل وكان لطيفاً إذ حذرنى من

أن السلاح محشو .

- إننى أخبرك بذلك فى حالة ماقد يروق لك هذا النوع من الانتحار.

- الحقيقة أننى أصبحت أعتقد أن موتى الآن سابق لأوانه،
فأنا شاب فى مقتبل العمر، وهناك فتاة جميلة أحبها وهى
لاتصدنى. الواقع أننى لا أفهم كيف اتخذت هذا القرار، أين كان
عقلى صباح اليوم؟

فى تلك الأثناء كنا نتجه شطر المدينة ونحن نتبادل الخواطر
عن المناظر التى نصادفها، وعلى حين فجأة قال رفيقى:
- بالمناسبة أعطنى عنوان مفتش الشرطة، فأنا أنوى أن أقدم
ضدك شكوى ولاداعى لتأجيل ذلك .

- شىء سخيـف. كان ينبغى أن تقول ذلك ونحن عند الصخرة
حتى أجهز عليك هناك، أما الآن فكيف أفعل بجثثك هنا، أين
أخفيها؟

ونمت عن العجوز حركة أسف واعتذر لى عن المتاعب التى
يسببها لى بإهماله، ولكننى أخبرته بأننى سأتصرف ولا داعى
لكى يزعج نفسه، ثم قبضت على المسدس وسألته إن كان يرغب
قبل أن يموت أن يكلفنى بمهمة فى المدينة أو غيرها، فأجاب

قائلاً :

- فعلاً، كنت سأطلب منك أن تمر على المنزل رقم ٣ بشارع تورنبريك وتخبر السيد ألفريد ليجيندوم أنك قتلت أخاه جيروم، وسيعلم السبب الذى جعلنى لم أقم بزيارته كما أخبرته فى خطابى الأخير.

فقلت وأنا أعيد المسدس إلى جيبي :

- آسف جداً لا أستطيع أن أقتلك. إننى أعرف أخاك.

فقال السيد جيروم :

- أنت سييء الحظ، تخشى على أخى من الصدمة والانفعال فلاشك أنك تحبه كثيراً.

- أبداً، إن أخاك أفاق كبير، شيطان مريد، بل أنا أحب فتاة لطيفة تسكن معه تحت سقف واحد، وهى أيضاً ابنة عمك.

- هل هى جميلة ؟

- آه يا سيدى! إن الوردة فى الصباح، حينما يداعبها الندى لا تكون فى مثل نضارة زولما ولا روعتها ولا رقتها. كلامها يا سيدى، موجات سحرية .

- حسناً، ربما تذهب لتزورك فى السجن.

- كلا يا سيدى، أنا لن أذهب إلى السجن، لأننى سأعيد لك

نقودك. لم يكن ذلك كله سوى دعاية وقد أدركت أنت ذلك الآن،
أما أنا فسأعود إلى الصخرة لأضع حداً لحياتي .

وقام السيد جيروم بعد الأوراق المالية، ثم أشعل سيجارة
بواحدة منها وتمنى لى حظاً سعيداً، وعدت على أعقابى وما إن
سرت قرابة المائة متر حتى صاح العجوز ينادينى، فتركته يقطع
المسافة التى تفصل بيننا ثم قال لى وهو يقاوم دقات قلبه:

- أيها الفتى، لقد نسيت أننى مدين لك بعشرة فرنكات مقابل
الاستشارة التى قدمتها لى.

وراح يفتش فى جيوبه كلها، ثم أخرج ورقة من فئة الخمسة
فرنكات وأربع قطع من فئة الفرنك وأخرى من فئة العشر مليمات
وقال:

- كما ترى ليس معى قطع معدنية كافية، ولكن إذا وافقت أن
تعمل لى خصماً مقداره خمسون سنتيماً برئت ذمتى.

- لا يمكن يا سيدى، لقد سبق أن منحتك تخفيضاً مقداره
٩٩٠ فرنكاً ولا أستطيع أن أخفض أكثر منذ لك .

فراح العجوز يعض يديه من الحسرة واليأس قائلاً إنه لا
يستطيع أن يتحمل أن يكون مديناً لأحد، وتوسل إلى أن أصحابه
إلى المدينة ليغير العملة، ويعطينى حقى، زاعماً أنه رجل شريف

وأنه لم يحدث أن أكل مليماً لأحد.

- لا يهيم، إننى أريد أن أموت قبل غروب الشمس، وأحمل إلى
قبرى صورة الأصيل الرائعة .

- أيها الفتى، يمكننى أن أفتح لك باب الحظ .

- أنا لا أريد سوى أن أموت .

- أيها الفتى، يمكننى أن أساعدك فى حبك. بدلة جديدة
وساعة جيب ذهبية بسلسلة وعصا من العاج الأصيل يمكن أن
يكون لها فعل السحر فى عيون النساء ..

- هزنى اقتراحه وخاصة أنه يلح ويزيد فى الإلحاح،
وبالذات حينما نطق باسم زولما استسلمت لرغبته، وعند أول
دكان أعطانى ورقة من فئة الألف فرنك وطلب منى أن أصرفها،
لكننى خرجت من المحل حائفاً:

- سيدى، إن ورقتك زائفة .

- ربما، هذا ممكن، سأعطيك أخرى.

ومن جيب سرى لم أفطن إليه، أخرج حافظة صغيرة
وأعطانى منها ورقة من فئة المائة فرنك. ويعد أن دفع لى
الخمسين سنتيماً سألنى: هل سأذهب إلى زولما، فقلت من
فورى:

- كلا، ليس الآن، لأننى ينبغي أن أذهب إلى الشرطة لأقدم
بلاغاً ضد أحد المزورين وهو أنت، أيها الوغد! فعلاً أنت شقيق
السيد ليجيندوم، أه! تعمل فى تزوير العملة .

واستدعيت رجلين من رجال الشرطة، وأبلغتهما بالمزور،
فقبضا عليه وأخبره أحدهما بأن هذه الجريمة ستفضى به إلى
السجن المؤبد مع الأشغال الشاقة كنص القانون.

وحينما وصلنا قسم الشرطة، فوجئت بالسيد ليجيندوم الذى
أعمل عنده يدخل القسم أمامنا يقوده شرطيان وسمعته يحتج
بصوت يتميز غيظاً :

- أنا عالم محترم، ولا يجوز لكما ...
وحتى لا أعرض نفسى لطائلة القانون، وأحرم نفسى من
متعة التشفى فى سيدى، غيرت ملامح وجهى واتخذت هيئة
شخص أبله، بحيث يصعب التعرف على شخصى .

وخرج مفتش الشرطة من مكتبه فى اللحظة التى كان فيها
المتهمان يدخلان قاعة الانتظار، وقال موجهاً حديثه إلى سيدى :

- أنت السيد ليجيندوم ؟

فأجاب سيدى قائلاً :

- نعم، أنا السيد ليجيندوم.

وهنا تدخل السيد جيروم قائلاً :

- عفواً، لكن أنا السيد ليجيندوم .

حينئذ أمر المفتش الشرطيين قائلاً :

- فتشوا لى هذين الرجلين .

فانقض الشرطيان على جيوب المجرمين وأخرجوا منها كل

مافيها من أوراق وساعات ومحافظ، وجعل المفتش من هذه

الأشياء كومتين ونزع من كل كومة بطاقة وقرأ بصوت مرتفع :

وفى غفلة من حراسهما، اندفع جيروم وألفريد وألقى كل

منهما بنفسه فى حضن الآخر.

- أخی، ها أنا ذا أعثر عليك بعد فراق دام سبعة وأربعين

سنة.

وبكى الجميع تأثراً، حتى رجال الشرطة اغرورقت عيونهم

بالدموع، وقال الملياردير للعالم:

- أنت لم تتغير تقريباً يا ألفريد، أؤكد لك ذلك، بالمناسبة أنت

مدين لى بأحد عشر ألف فرنك ورثتها عنى زوراً ما دمت حياً

أرزق.

فاحمر وجه العالم من الاضطراب وقال:

- أبداً، القانون فى صفى، وسأثبت ذلك.

- ليكن، سنلجأ إلى القضاء، فأنا لن أترك لشقيقى الأكبر
الفرصة ليأكل مالى .

- آه، وأنت لم تتغير، ولكننى لا أعتقد أنك شقيقى.
وقال مخاطباً المفتش :

- هذا الشخص ليس هو جيروم ليجيندوم، فالواقع أن أخى
مات منذ أكثر من أربعين عاماً، والأحوال المدنية سجلت وفاته.
فانفجر المفتش قائلاً للملياردير:

- آه! آه! أنت تزور الشهادات الرسمية ؟

- سيدى المفتش، أنا لا أعلم أن وفاتى سجلت فى الجهات
الرسمية.

فصاح العالم قائلاً :

- لقد مات، لا تستمع إليه .

فاستطرد المفتش ساخراً :

- آه، يا للعائلة الكريمة، ميت يزور النقود، وعالم يقتل أمين
سرهِ المسكين .

ولدى سماع هذه العبارات الأخيرة لم أتمكن من حبس
دموعى، ولكن السيد الفريد ليجيندوم صاح محتجاً على المفتش:
- أيها المفتش، أرى أنك قليل الحياء إذ تجرؤ على توجيه هذه

الاتهامات.

ألا فاعلم أن اسم ليجيندوم اسم له مكانته واحترامه فى عالم الفكر، إن بحوثى فى قواعد اللغة اللاتينية معروفة فى كل المحافل العلمية .

- على أية حال إن جثة هذا الفتى المسكين تم اكتشافها قبل قليل على شاطئ البحر.

وانزويت فى أحد الأركان حتى لا ألفت انتباه سيدى، ولحسن الحظ كان قد نسى نظارته، كما أن الغضب أجهز على بقية بصره، وقال صائحاً :

- أحسن، فهذا الفتى يستغفلنى ويغازل ابنة عمى الصغيرة زولما ليجيندوم.

فقال المفتش :

- ياسيد ليجيندوم، يبدو لى أن الغيرة كانت هى الدافع وراء الجريمة.. تفضل فى مكتبى.

حينما غادرت قسم الشرطة، كانت أول فكرة راودتنى هى أن أزور زولما.

كان الليل قد أسدل أستاره، فاقتربت من البيت خفية، وكان الطابق الأرضى مضيئاً، ولحت فى مكتب السيد ليجيندوم

حبیبتی زولما جالسة، ویبدو أن خبر موتی كان قد بلغها لأن وجهها كان يبدو شاحباً حزیناً. وكان ثمة صديق للعائلة، ولاح لی أنه يحدثها عن الفکید لأننی لمحت ابتسامة غامضة تشرق على وجه زولما.

وحملت معی هذه الصورة المشرقة إلى أمريكا التي سافرت إليها فی مساء الیوم نفسه أبحث عن عمل فی مطعم أو فندق ککل من یرید أن یصبح ملیارديراً .

ولكن شوقی إلى زولما جعلنی أعود بعد ستة أشهر قبل أن أكون ثروة طائلة .

وما إن نزلت من الباخرة حتى أسرع إلى منزل السيد لیجیندوم فإذا بحبیبتی زولما ترتق بعض الجوارب.

فأخذتها بین ذراعی بقوة، الأمر الذی ضایقها، وقال:

- ما أغرب هذا من میت!

وانتابنی شعور قوى بالغيرة والحنق فصحت بها قائلاً :

- زولما، لمن هذه الجوارب؟

- لنزجی .

- یا للعنة! لقد كنت أحبك.

- تعبرنی بذلك الآن، لقد فات الأوان، ثم على أية حال أنت

كنت موظفاً بسيطاً، أنا هنا فى بيتى، ابن عمى الفريد ليجيندوم
ترك لى كل ما يملك. إن عمى المسكين..

- صحيح إنه حكم عليه ؟

- لقد شنق بالمقصلة صباح أمس .

- وأخوه ؟

- برئت ساحته، وهو الآن فى أمريكا ملك العملة المزيفة،
ولكن إذا أردت رؤيته يمكنك أن تصعد، فقد أجرت له الحجرة
التي كنت تشغلها فى الطابق الأول .

- وداعاً يا زولما، لقد تحطم قلبى، ولكن المستقبل حافل
بالأسرار.

وفى الطابق الأول وجدت السيد ليجيندوم الصغير مستغرقاً
فى دراسة خطة لإصدار عملة بلغارية مزورة، فاعتبرته لصاً
وطالبته بالتعويض لما أصابنى من جراء عدم وفائه بوعده فى
مساعدتى فى الحصول على زولما.

- لقد تبخرت كل أحلامى، ولكننى سألجأ إلى القضاء .

- مستحيل أيها الفتى، فأنت تعلم جيداً أننا فى حكم
الأموات أنا وأنت .

ولكن بما أننى إنسان نزيه فيما يتعلق بالمعاملات، فإننى

أقترح عليك أن تعمل عندي فى منصب مراقب العملة المزيفة
التي أصدرها فى أمريكا الشمالية، لقد كثر التزييف اليوم بحيث
فكرت أن أفتح هذا الفرع الجديد.

وعلى الفور وقعت على العقد، ولم تمض ستة أشهر حتى
دخلت أحد السجون الأمريكية الكبرى لأقضى فيه عشرين عاماً،
وحيثما خرجت منه بعد سبعة عشر عاماً وثلاثة أشهر، كان
يحدوني الأمل فى أن أجد زولماً أرملاً .

.

عندما انتهت الحرب

هاينرنتس بل

ترجمة : دكتور مصطفى ماهر

الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية	
رقم التصنيف	833
رقم التسجيل	٢٠٧٩٨

دار صادر
بيروت

عندما انتهت الحرب

بقلم هاينريش بل

كان النهار قد بدأ يطلع عندما بلغنا الحدود الألمانية :
كان هناك إلى اليسار نهر واسع ، وإلى اليمين غابة يستطيع
الناظر إلى أطرافها أن يقدر مدى عمقها . وساد الهدوء عربة
القطار ، وسار القطار ببطئاً يتجاوز أرصفة أعدت على عجل
وبدت كالثوب المرتق ، ويتجاوز دوراً خرقتها الطلقات
النارية . ويتجاوز أعمدة البرق المحطمة . وخلع الصغير القابع
إلى جوارى نظارته وراح ينظفها بعناية .

وهمس إليّ : « رباه ! هل لديك أدنى فكرة عن المكان
الذي نحن فيه ؟ »

فقلت له : « نعم . هذا النهر الذي رأيته لتوك ، يسمى
عندنا نهر « الراين » ، وهذه الغابة التي تراها عن يمينك
اسمها « رايشستالد » — وهذه هي مدينة « كليفه » . »

« هل أنت من هنا ؟ »

« لا » . كان ثقيل الظلّ ، ظل طوال الليل يحدثني بصوته الرفيع حتى كدت أجنّ ، ويحكى لي أنّه قرأ سرّاً برشت وتوخولسكي وفالتر بنيامين وبروست وكارل كراوس ، وأنّه يريد أن يدرس علم الاجتماع وعلم اللاهوت أيضاً ، وأنّه يريد أن يسهم في منح ألمانيا نظاماً جديداً . فلما وصلنا عند الفجر إلى « نيمفيجن » ووقف القطار وقال بعضهم إن هذه هي الحدود الألمانية ، راح يسأل متردداً هل هناك من يريد أن يعطيه خيطاً لقاء عقبين من أعقاب السجائر ، ولما لم يحبه أحد عرضت عليه أن أنتزع من ياقتي الرمز العسكري المثبت عليها والذي كما أظن كانوا يسمّونه « المرأة » وأن يحوله إلى خيط أخضر ؛ فخلعت الثوب ورحت أنظر إليه وهو يفصل منه هذه الأجزاء بعناية مستعملاً قطعة من الصفيح ، ثمّ وهو يكرّ خيطها . وبدأ فعلاً يخيّط لنفسه بروازاً حول الجزء الممتد من الرقبة إلى الكتف علامة على رتبته العسكرية كضابط مبتدئ . فسألت هل يصح أن نرد اشتغاله بالحياكة على هذا النحو إلى تأثير برشت وتوخولسكي وبنيامين وكارل كراوس ، أم هل هو من تأثير خفي ليونجر ، دفعه إلى إعادة مركزه العسكري باستعمال سلاح دويمرلنج ؟ فاحمرّ خجلاً وقال إنّته انتهى من يونجر وإنّته صفّي معه

حسابه . فلما دخل القطار بنا كليفه قطع عملية الحياة
وقعد بجواري وفي يده سلاح دويمرلنج .
وقال : « لا يخطر ببالي شيء في كليفه . هل يخطر ببالك
أنت شيء ؟ »

فأجبت : « نعم . لو هنجرين ، وماركة المارجرين
« بيعة الرباط الأزرق » والأميرة أنه فون كليف إحدى
زوجات هاينريش الثامن . »

فقال : « أصبت . لو هنجرين . ولكننا كنا نأكل في
البيت ماركة زانيللا من المارجرين . ألا تريد عقي السجائر ؟ »
فأجبت : « لا . خذهما معك إلى أبيك . وأرجو أن
يصفحك عندما تدخل البيت وعلى كتفك هذا الشريط . »
فقال : « أنت لا تفهم هذا الموضوع . بروسيا ، كلايست ،
فرنكفورت على نهر الأودر ، الأمير فون هومبورج ،
برلين . »

عندئذ قلت له : « هه ، ولكن كليفه كانت بروسية
منذ وقت مبكر — وهناك في مكان ما من الناحية الأخرى
من الراين مدينة صغيرة اسمها فيزل . »

فقال : « رباه ! هذا صحيح . طبعاً ، منها شيلي . »
ثم قلت له : « الحقيقة أن البروسيين لم يتجاوزوا نهر
الراين أبداً تجاوزاً تاماً . كل ما في الأمر أنهم كانوا يسكنون

برأس جسور : بون وكولتس » .

فقال : « بروسيا » .

وقلت : « بلومبرج . هل تريد خيطاً ؟ » فاحمرّ خجلاً

وصمت .

* * *

سار القطار بطيئاً ، واندفع الجميع إلى باب العربة المفتوح ونظروا إلى كليفه . كان هناك حراس إنجليز في المحطة يتصفون باللين والصلابة ، بالاستهتار واليقظة في وقت واحد . أمّا نحن فكنا لا نزال أسرى . وكانت هناك في الشارع لافتة كُتب عليها : إلى كولن . قلعة لوهنجرين فوق المرتفع بين الأشجار الخريفية ، أكتوبر في منطقة الراين السفلى ، سماء هولندية . بنات العم في كسانتن ، العمات في كيغيلير ، اللهجة ذات المدات . همسات المهريين في الحانات . مواكب مارتن ، أرغفة على هيئة الإنسان ، كرنفال برويجل . وكان كل مكان يفوح برائحة فطائر البرنتن حتى وإن لم يكن به فطائر البرنتن .

وقال الصغير بجواري : « بل افهم مقصدي » .

فقلت له : « دعني ولا تزعجني » . حقيقة أنه لم يكن

رجلاً ولكنه كان في طريقه ليصبح رجلاً عمّاً قريب ،

ولذلك كرهته . وقبع غاضباً يحوك الغرز الأخيرة في شريطه .

ولم أحسّ نحوه حتى بمجرد التعاطف : كان يدسّ بإبهامه
الدايمي بلا مهارة الإبرة في قماش سترته الزرقاء ، سترته التابعة
لسلاح الطيران ، وكان زجاج نظارته مغبشاً حتى إنني لم
أستطع أن أتبيّن هل كان يبكي حقاً أم هل بدا لي فقط
كأنه يبكي . كذلك كنت أوشك على البكاء : بعد ساعتين
أو ثلاث ساعات على الأكثر كنّا سنصل إلى كولن ، إلى
مكان غير بعيد من تلك التي تزوّجتها ولم يرن صوتها بنغمة
الزواج قط .

وأقبلت امرأة فجأة من وراء مخازن البضاعة ، وقبل أن
يتنبه الحراس ، كانت قد وصلت إلى عربتنا وأخرجت من
طيات قماش أزرق كان معها شيئاً حسبته في أوّل الأمر
طفلاً : أخرجت خبزاً . وقدمت الخبز إليّ فأخذته . كان
ثقيلاً . وترنّحت لحظة حتى كدت أسقط من القطار المتأهب
للسير . كان الرغبةف أسمر اللون ، لا يزال ساخناً . وأردت
أن أصبح « شكراً ! شكراً ! » ولكن الكلمة لاحت لي سخيفة .
وكان القطار قد أسرع السير ، فبقيت راكعاً على ركبتي
والرغبةف الثقيل على ذراعي . ولست أعرف حتى اليوم شيئاً
عن هذه المرأة أكثر من أنّها كانت تحمل إشارباً غامقاً
وأنّها كانت متقدّمة في السن .

فلمّا نهضت والرغبةف على ذراعي ، كان السكون قد

زاد في العربة عن ذي قبل . وكان الجميع ينظرون إلى الرغيف ،
الذي زاد من فعل نظراتهم إليه ثقلاً . كنت أعرف هذه
العيون وكنت أعرف الأفواه المتصلة بهذه العيون ، وكنت
قد فكرت شهوراً في الحد الفاصل بين الكره والاحتقار فلم
أعرفه . قسمت الناس حيناً إلى حائكين وغير حائكين عندما
نقلنا من معسكر أمريكي (كان حمل الشارات العسكرية
فيه ممنوعاً) إلى معسكر إنجليزي (كان حمل الشارات
العسكرية فيه مباحاً) ، وكان هناك رباط تعاطف يربطني
بغير الحائكين إلى أن تبينت أنهم لم يكن لهم رتب حتى يحوكونا
شاراتها إلى أكتافهم . بل إن أحدهم وهو « أجلهشت » حاول
أن يعقد محكمة شرفية أو ما يشبه ذلك لتجردني من صفتي
كألماني (وكنت أتمنى لو جردني هذه المحكمة التي لم تتعقد
قط ، من صفتي كألماني فعلاً) . أمّا الشيء الذي لم يعرفوه ،
فهو أنني لم أكن أكرههم ، سواء كانوا نازيين أو غير
نازيين ، بسبب أعمال الحياكة أو بسبب الآراء السياسية ،
ولأنما كنت أكرههم لأنهم كانوا رجالاً من جنس أولئك
الذين كان عليّ أن أعيش معهم ستّ سنوات . كانت كلمة
رجل وكلمة غبي توشكان أن تعبوا في تقديري عن شيء
واحد .

وارتفع صوت أجلهشت في الجهة الخلفية يقول : « أول

رغيف ألماني — ولا يناله .

كان صوته قريباً من الانتخاب ، كذلك كنت أنا على
وشك البكاء ، ولم يكن هؤلاء ليفهموا أنني أوشك على البكاء
لا من أجل الخبز فقط ، ولا لأننا تجاوزنا الحدود الألمانية
فحسب ، وإنما أولاً وقبل كل شيء آخر لأنني أحسست
لأول مرة بعد ثمانية أشهر بيد امرأة تلمس ذراعي لحظة .
وقال أجلسهشت بصوت خفيض : « يبدو أنك ستجرد
الخبز من صفته كآلماني أيضاً » .

فقلت له : « نعم . سألجأ إلى حيلة فكرية خاصة وأسأل
نفسي ألا يصح أن يكون الدقيق الذي صنع منه هذا الخبز
هولندي أو إنجليزي أو أمريكي الأصل ؟ » ثم قلت له :
« تعال وقسمه إن شئت » .

كنت أكره أغلبهم ، ولا أعبأ بأكثرتهم ، وبدأ دويمرلنج
الذي كان آخر من انضم إلى جبهة الحائكين ، يبدو لي ثقيل
الظل . ولكني رأيت من اللياقة أن أقسم معه الرغيف وكنت
موقناً من أنه لم يكن لي وحدي .

وتقدم أجلسهشت ببطء إلى الأمام : كان طويل القامة ،
تحيف الجسم في مثل طولي ونحافتي ، وكان في السادسة والعشرين
مثلي . وقد ظل يحاول طوال أشهر ثلاثة أن يوضح لي أن
الوطني ليس نازياً بالضرورة أو أن الكلمات : شرف ،

إخلاص ، وطن ، لياقة ، كلمات لن تفقد قيمتها أبداً —
وكنت أرد على كلامه الكثير المسرف في الكثرة بخمس كلمات :
فيلهم الثاني ، بابتن ، هندنبورج ، بلومبرج ، كايتل . وكان
يغتاز إلى درجة الجنون لأنني لم أتكلم عن هتلر ، حتى ولا في
يوم أول مايو عندما سار الحارس في أرجاء المعسكر ينادي
من خلال مكبر للصوت : « لقد مات هتلر وانتهى » .

قلت له : « هيا ، خذ قسم بيننا الخبز » .

فقال أبلهشت : « فلنعدّ الموجودين » . وأعطيته الرغيف ،
فأخرج معطفه وبسطه على أرضية العربة بحيث كانت البطانة
إلى أعلى ، بينما جرى عدد الحاضرين حولنا . قال دويمرلنج :
« اثنان وثلاثون » ثمّ ظلّ ساكناً . وقال أبلهشت : « اثنان
وثلاثون » ثمّ نظر إليّ لأقول « ثلاثة وثلاثون » ولكنني لم
أقل وأشحت بوجهي ونظرت إلى الخارج فرأيت الطريق
الزراعي ذا الأشجار العتيقة : أشجار نابليون التي كنت
أستريح أنا وأخي تحتها عندما كنا نذهب بالدراجة إلى الحدود
الهولندية لنشتري شوكولاته وسجائر رخيصة .

وأحسست أن من خلفي قد غضبوا غضباً شديداً ،
ورحت أنظر إلى اللافتات الصفراء المعلقة على الطريق :
إلى « كالكار » ، إلى كسانتن ، إلى جلدرن ، وأسمع خلفي
صوت سكين أبلهشت وأحسّ كيف يزداد الغضب ويكبر

كالسحابة الكثيفة . كانوا يغضبون لأي سبب ، كانوا يغضبون ويحسون بالإهانة إذا قدم إليهم حارس إنجليزي سيجارة ، وكانوا يغضبون إذا لم يقدم إليهم شيئاً ، كانوا يغضبون إذا شتمت هتلر ، وكان أجلهشت يغضب غضباً مميتاً إذا أنا لم أشتم هتلر ، أما دويمرلنج فكان قد قرأ سرّاً بنيامين وبرشت وبروست وتوخولسكي وكارل كراوس ، ومع ذلك عندما اقتربنا من الحدود الألمانية راخ يخطط على كتنفي سترته العلامة الدالة على تبعيته لسلح الطيران . وأخرجت من جيبي سيجارة أخذتها لقاء شرائط رتبتي العسكرية ، واستلدت وجلست إلى جانب دويمرلنج ونظرت إلى أجلهشت وهو يقسم الخبز أولاً إلى نصفين ثمّ وهو يقسم كلّ نصف إلى أرباع والأرباع إلى أثمان . وهكذا تكون لكلّ واحد لقمة جميلة سميئة ، لقمة مكعبة سمراء ، قدرت وزنها بستين جراماً .

وكان أجلهشت منهمكاً في تقطيع الثمن الأخير إلى أربعة أجزاء ، وكان كلّ واحد ، كلّ واحد ، يعلم أن أولئك الذين يأخذون من الشرائح الوسطى ، ينالون على الأقل من عشرة إلى خمسة جرامات أكثر من غيرهم ، لأن الرغبة في الوسط أعرض منه في الطرفين ، وكان أجلهشت يقطع الشرائح متساوية في السمك ، ولكنه قطع الزيادة في شريطي الوسط وقال : « ثلاثة وثلاثون — نبدأ بأصغرنا » . ونظر دويمرلنج

إليّ ، واحمرّ وجهه ، ثمّ انحنى وأخذ قطعة من الخبز دسها على الفور في فمه . سار كلّ شيء هادئاً حتى أتى دور بوفيه الذي كان لا يكف عن الحديث عن طائراته والذي أوشك أن يبلغ بي الجنون بحديثه ، فأخذ قطعته ، وبذلك جاء دوري ، وكان اجلهشت يليني . ولكني لم أنحرّك . كنت أودّ أن أشعل السيجارة ، ولم يكن معي ثقاب ، ولم يقدم لي أحد ثقاباً . كان أولئك الذين تناولوا خبزهم مشغولين بالمضغ مرعويين ، وكان أولئك الذين لم يتناولوا خبزهم بعد لا يعرفون ما يجري ولكنهم كانوا يفهمون أنّني لم أشأ أن أقسم الخبز معهم ، وكانوا غاضبين ، بينما كان الآخرون (الذين نالوا خبزهم) في حيرة من أمرهم . وحاولت أن أنظر إلى الخارج ، إلى أشجار نابليون ، إلى هذا الطريق ذي الثغرات ، الذي تظهر من خلال ثغراته السماء الهولندية ، ولكن محاولتي التظاهر بعدم الاشتراك مع الآخرين فشلت . كنت أخشى المشاجرة التي كان لا بدّ أن تنشب في تلك اللحظة ، فلم أكن مشاكساً يجيد الشجار ، وحتى لو كنت كذلك ، لما نفعتني ذلك شيئاً ، ولضربوني ضرباً مبرحاً ، كما فعلوا بي في معسكر بروكسل عندما قلت لانتني أفضل أن أكون من موتى اليهود على أن أكون من أحياء الألمان . وتناولت السيجارة من فمي ، من ناحية لأنني وجدتها مضحكة ، ومن ناحية ثانية لأنني أردت

أن أصونها إذا نشب شجار . ونظرت إلى دويمرلنج الذي كان قاعداً بجانبى وقد احمرّ وجهه وبدأ قرمزياً . ثم تناول جوجلر الذي كان يلي اجلهشت في الدور قطعه من الخبز ودسّها على الفور في فمه ، وأخذ كلّ واحد قطعه . كانت هناك ثلاث قطع ، عندما أتى شخص إلى الأمام لم أكن أعرفه معرفة طيّبة ، لأن عهدي به يرجع إلى يوم أتى إلى خيمتنا في معسكر بروكسل . كان متقدماً في السن يوشك أن يكون في الخمسين ، قصير القامة ، أسمر الوجه ، ذا ندبات ، وكان إذا بدأنا نتشاجر لا يقول شيئاً ، بل يخرج من الخيمة ويسير على طول سور الأسلاك الشائكة سير من يتقن هذا النوع من التجوال . لم أكن أعرف اسمه . كان يرتدي زياً باهتاً خفيفاً وحذاء مديناً . أقبل هذا الرجل من مؤخرة العربة نحوي مباشرة ووقف أمامي وقال بصوت فيه رقّة مفاجئة : « خذ الخبز » ، فلما لم آخذه هزّ رأسه وقال : « إن لكم عبقرية شيطانية في تحويل كلّ شيء إلى عمل رمزي . هذا خبز ، وليس شيئاً آخر سوى الخبز ، والمرأة التي أهدته إليك ، امرأة — تعال » . وتناول قطعة من الخبز ووضعها في يدي اليمنى التي هوت يائسة ثمّ أطبقها عليها بقوة . كانت عيناه سمرأوين ، ولم تكونا سوداوين ، وكان وجهه يدلّ على أنّه مرّ بسجون كثيرة . وأومات برأسي وأعملت عضلات

يدي لأبقي على الخبز ، فانطلقت زفرة عميقة خلال العربة ،
وأخذ اجلهشت قطعته ثم أخذ الرجل ذو الزي الباهت الخفيف
قطعته وقال : « أعوذ بالله ! لقد أمضيت اثني عشر عاماً
بعيداً عن ألمانيا ، وهأنذا أبدأ تدريجاً في أن أصبح مثلكم
أيها المجانين » . وقبل أن أدرس قطعة الخبز في فمي وقف
القطار ونزلنا .

مكان خال ، حقول بنجر ، لا أشجار . وأتى بعض
الحراس البلجيكيين يحملون إشارة الأسد الفلندري على القبة
والباقة يسرون على طول القطار وينادون : « نزول ! الجميع
ينزلون » .

وبقي دويمرلنج بجانبي ونظف نظارته ونظر إلى لافتة
المحطة وقال : « فيتسه — هل يخطر ببالك هنا شيء ؟ »
فقلت : « نعم ، تقع شمالي كييفيلير وغربي كساتن » .
فقال : « آه . كييفيلير ! هايريش هاينه » .
ثم أضفت : « وكساتن : زيجفريد ، إن كنت قد
نسيته » .

وفكرت : العمة هيلينة . لِمَ لم نساfer إلى كولن ؟
لم يكن هناك شيء يُرى في فيتسه سوى بعض بقايا متناثرة
من الطوب الأحمر بين فروع الأشجار العالية . كان للعمّة
هيلينة في فيتسه محلّ تجاري كبير ، متجر قروي بمعنى الكلمة ،

وكانت تعطينا كلّ يوم نقوداً حتى نستأجر قارب نيرس ،
أو نركب الدراجات إلى كيفيلير . أمّا أيام الآحاد فكنا
نسمع العظة في الكنيسة ، وكانت تنصبّ عنيقة على رؤوس
المهرين والزناة .

قال الحارس البلجيكي : « أسرع . تقدم . أم لعلّك
لا تريد أن تعود إلى بيتك ؟ »

ودخلت المعسكر . كان علينا أولاً أن نمرّ على ضابط
إنجليزي أعطانا ورقة من فئة العشرين ماركاً ووقعنا بالاستلام .
ثمّ كان علينا أن نذهب إلى الطبيب . كان الطبيب ألمانياً
صغير السن ، وكان يضحك ساخراً . وانتظر حتى تجمع في
الحجرة منّا اثنا عشر أو خمسة عشر شخصاً وقال : « من
كان مريضاً لا يستطيع اليوم أن يسافر إلى بيته فليرفع يده » .
فضحك جماعة منّا من هذه النكتة الطريفة الجنونية . ثمّ
مررنا الواحد بعد الآخر على مكتبه وتلقينا خاتماً طبعه على
بطاقة إطلاق سراحنا ثمّ خرجنا من الباب الآخر . وبقيت
لحظات واقفاً بالباب المفتوح وسمعته يقول : « من كان
منكم مريضاً » ، ثمّ سرت ، وسمعت الضحك عندما بلغت
نهاية المدخل ، ووصلت إلى المرحلة الثانية : وهنا وقف
جاويش إنجليزي في الساحة المكشوفة بجوار مرحاض مكشوف .
قال الجاويش : « أروني البطاقة العسكرية وما قد يكون معكم

من أوراق أخرى » . قال ذلك بالألمانية . وكان كلما أروه بطاقتهم العسكرية أشار إلى المرحاض وأمر بإلقائها فيه . وكان عند ذاك يقول بالألمانية أيضاً : « هيا إلى المتعة ! » فيضحك الكثيرون منا على هذه النكتة . والحق أنني تبيّنت أن الألمان بدوا كأنما تكوّنت لديهم فجأة حاسة النكتة إذا كانت النكتة أجنبية ، حتى اجلهشت نفسه ضحك في المعسكر عندما قال لنا الضابط الأمريكي وهو يشير إلى الأسلاك الشائكة : « لا تخزنوا يا أولاد ، فقد أصبحتم الآن أحراراً ! »

وسألني الجاويش الإنجليزي عن أوراق . ولكن لم أكن أحفظ أوراقاً سوى ورقة إطلاق سراحى ، فقد بعث بطاقتي العسكرية لأحد الأمريكان لقاء سيجارين . فقلت : « ليس معي أوراق » . فأغاظ هذا الجاويش الإنجليزي ، كما اغتاظ الجاويش الأمريكي مني من قبل عندما رددت على سؤاله : « هل أنت من الشباب الهتلري أم من فرقة الصاعقة أم من الحزب ؟ » بقولي : « لا ! » حينذاك صرخ فيّ وهدّدني وتوعّدني ولعني ولصق بجدّتي تهمة جنسية لم أفهمها بالضبط لعدم تمكّني من اللهجة الأمريكية . هكذا كانوا يستشيطنون غضباً عندما يصادفون شيئاً لا ينطبق على آرائهم المسبقة . احمرّ وجه الجاويش الإنجليزي من الغضب وهبّ واقفاً وبدأ يتحتسّني ، ولم يستمر بحثه طويلاً حتى وجد مفكرتي : كانت

سميكة مكوّنة من أوراق الأكياس ، وكنت قد جمعتها إلى بعضها بدبايس من السلك ، وكتبت فيها كلّ ما صادفني من منتصف أبريل إلى آخر سبتمبر : من يوم أسرني الجاويش الأمريكي ستيفنسن ، إلى يوم مررنا بالقطار عبر انفرن الحالكة وقرأت على حيطانها : يعيش الملك ! كانت مفكرتي تضمّ حوالي مائة ورقة من أوراق الأكياس ملاّتها بالكتابة المكتظة ، فأخذها الجاويش الثائر وألقى بها في المرحاض المكشوف وقال : « ألم أطلب منك ما معك من أوراق ؟ » ثمّ سمح لي بالانصراف .

* * *

وقفنا محتشدين عند باب المعسكر ننتظر عربات النقل البلجيكية التي قيل لنا إنّها ستأتي لتقلنا إلى بون . بون ؟ ولماذا بون دون غيرها ؟ وحكى أحدهم أن كولن مغلفة لأن الجثث لوثتها تلويثاً وبائياً ، وحكى آخر أنه سيحكم علينا بثلاثين أو أربعين سنة من العمل في حمل الأنقاض والأطلال ، وأضاف « إنهم لن يعطونا عربات للنقل بل سيكون علينا أن نحمل الأنقاض والردم في سلال » . وكان من حسن حظّي أنه لم يقف بجواري واحد ممّن كانوا معي في الخيمة أو في القطار ، وكانت الثروة الصادرة من أفواه لا أعرفها أقلّ إثارة لتفري من ثروة تصدر من

أفواه أعيرَ فيها . وقال لأحدهم وكان واقفاً أمامي في مكان ما :
« لكنه أخذ الخبز من اليهودي » . وقال آخر : « هؤلاء أشخاص
ستكون لهم الكلمة المسموعة » . ولكزني أحدهم من الخلف
وسألني : « ما رأيك في مائة جرام من الخبز لقاء سيجارة ؟ »
ووضع يده من الخلف أمام عيني فرأيت قطعة من الخبز
الذي وزّعه اجلهشت في القطار . فhezزت رأسي . وقال
آخر : « البلجيكيون يبيعون سجائر ، الواحدة بعشرة ماركات » .
ولاح لي هذا الثمن رخيصاً لأن الألمان في المعسكر كانوا
يبيعون السيجارة بمائة مارك . « هل يريد أحدكم سجائر ؟ »
فقلت : « نعم ! » ووضعت الورقة ذات العشرين ماركا
في يد مجهولة .

كان الجميع يتاجرون مع الجميع . كان الاتجار هو
الشيء الوحيد الذي يهتمهم ويحدّون فيه . كان الواحد يحصل
على حلة مدنية لقاء ألفين من الماركات وزى عسكري مستهجن ،
وكان التبادل وتغيير الملابس يتمّ في مكان ما بين الجمع المحتشد ،
وكنّت أسمع فجأة من يصبح قائلاً : « بما في ذلك الملابس
الداخلية ، طبعاً . وكذلك ربطة العنق » . وباع أحدهم
ساعته بثلاثة آلاف مارك . أمّا أهم بضاعة فكانت الصابون .
كان لدى أولئك الذين نزلوا من معسكرات أمريكية صابون ،
لأنّهم كانوا ينالون كلّ أسبوع قطعة ، ولم يكن لديهم ماء

ليغتسلوا ، أمّا أولئك الذين كانوا في معسكرات إنجليزية فلم يكن لديهم صابون على الإطلاق . وهكذا تحركت قطع الصابون الخضراء والحمراء هنا وهناك . وكان البعض قد اكتشفوا في أنفسهم طموحاً تصويرياً فصنعوا ممّا كانوا يحصلون عليه من صابون أشكال كلاب صغيرة أو قطط صغيرة أو أقزام من التي تزين بها الحداثق ، وتبين الآن أن هذا الطموح التصويري هبط بقيمة البضاعة : كانت قطعة الصابون غير المصنوعة على هذا الشكل أغلى من المصنوعة هكذا ، ممّا أدّى إلى الخوف من أن تكون أقلّ وزناً .

وعادت اليد المجهولة التي دسست فيها الورقة ذات العشرين ماركاً إلى الظهور ودسّت في يدي اليسرى سيجارتين . وتأثّرت للأمانة التي أظهرتها (وبقيت متأثراً إلى أن تبينّت أن البلجيكيّين كانوا يبيعون السيجارة بخمسة ماركات . ويبدو أن نسبة المائة في المائة كريح كانت نسبة تُعتبر شريفة خاصة بين « الزملاء ») . ووقفنا ما يقرب من ساعتين متلاصقين لا أذكر إلّا الأيدي : تتناقل البضائع ، وتأخذ الصابون من اليمين إلى الشمال ومن الشمال إلى اليمين ، ثمّ تأخذ النقود من الشمال إلى اليمين ومن اليمين إلى الشمال . أحسست آنذاك كأني في عش الثعابين . أيدٍ من كلّ ناحية تتحرّك في كلّ ناحية ، وتمتد فوق كتفيّ وفوق رأسيّ حاملة البضائع والنقود

إلى كلّ اتجاه .

* * *

كان دويمرلنج قد نجح في الاقتراب مني . وقعد بجواري في عربة النقل البلجيكية التي اتجهت إلى كييفلير واخترت كييفلير إلى كريفلد ودارت حول كريفلد إلى نويس . كان السكون نحيماً على الحقول والمدن . لم نرَ بشراً ، ولم نرَ إلاّ القليل من الحيوان . وكانت سماء الخريف المظلمة منخفضة قريبة من الأرض . كان دويمرلنج يجلس عن يساري ، وكان الحارس البلجيكي يجلس عن يميني . وكنا ننظر إلى الطريق الزراعي الذي كنت أعرفه معرفة جيّدة : فكم قطعته أنا وأخي جيئة وذهاباً . وكان دويمرلنج يحاول دائماً أن يبرّر موقفه ، ولكني كنت دائماً أقطع عليه الكلام فيعود إلى الكلام حتى يبدو من المتنورين أولي الفكر الثاقب . لم يكن من الممكن أن يكفّ عن الكلام . قال : « ولكن في نويس لا يمكن أن يخطر ببالك شيء . هل يمكن أن يخطر ببالك في نويس شيء ؟ »

فقلت : « شوكلاته نوفيسيلو الساوركراوت وكويرينوس .

ولا شكّ أنّك لم تسمع قطّ من قبل بفرقة ثيبة ؟ »

فقال : « لا » . واحمرّ وجهه خجلاً مرّة أخرى .

وسألت الحارس البلجيكي هل كولن حقيقة مغلقة لأنّها

تلوّث من الجثث ؟ فقال : « لا ولكن الجال هناك تبدو سيّئة ،
هل أنت من هناك ؟ » فقلت : « نعم » .
ثمّ قال لي : « استعد لشيء هام — هل ما زال لديك
صابون ؟ »

فقلت : « نعم » .
فقال : « تعال » . وأخرج علبة من التبغ من جيبه وفتحها
ومدّ الخليط الطازج الأصفر الفاتح تحت أنفي « هي لك
لقاء قطعتين من الصابون — أليست هذه مبادلة شريفة ؟ »
فأومأت برأسي وبحثت في جيب المعطف عن الصابون
وأعطيته قطعتين وأخذت التبغ . ثمّ أعطاني سلاحه الأوتوماتيكي
لأحمله عنه بينما راح يوارى الصابون في جيوبه . وتنهد
عندما أعدت إليه السلاح وقال : « هذه الأسلحة اللعينة !
يبدو أنّه سيكون علينا أن نحملها مدّة طويلة . ليست حالكم
من السوء على ما تعتقدون . لماذا تبكي ؟ »

وأشرت ناحية اليمين : إلى الراين . كنّا متجهين إلى
دورماجن . ورأيت دويمرلنج يتأهب لفتح فمه ، فعاجلته
بقولي : « أرجوك أن تلزم السكوت ، أستحلفك بالله أن تسكت
إلى النهاية » . ويبدو أنّه كان يريد أن يسألني هل يخطر ببال
شيء لإزاء الراين ، فالحمد لله على أنّه أحسّ إهانة وغضب
غضباً شديداً ولم يقل شيئاً عندما وصلنا بون .

كانت هناك بعض المنازل في كولن لم تنهدم فعلاً ،
بل إنني رأيت في مكان ما حافلة تسير ، ورأيت أناساً بل
ونساء . ولوحت واحدة منهن إلينا . وانعطفنا من طريق
نويس إلى الشوارع الدائرية فانطلقنا فيها ، وانتظرت طوال
الوقت أن تسعفني الدموع ولكنها لم تنهمر . كان الدمار
في كل ناحية ، حتى مباني شركة التأمينات كانت حطاماً ،
ولم أرَ من حمام هوهنشتاوفن إلا بعض البلاط الأزرق الفاتح .
وتمنيت طوال الوقت أن تنعطف السيارة بنا في مكان ما إلى
اليمين ، لأننا كنّا نسكن في شارع كاولنجر الدائري .
ولكن السيارة لم تفعل واستمرت في تقدّمها إلى ميدان بارباروسا
ثمّ إلى شارع زاكسن الدائري ثمّ إلى شارع زليبر الدائري ،
ولم أحاول أن أنظر ، وما كنت لأنظر ، لو لم تتجمع سيارات
النقل الأمامية وتتكدّس في ميدان كلودفيج ، ولو لم تقف
سيارتنا أمام البيت الذي كنّا نسكن فيه . نظرت إذن ،
والحقيقة أن عبارة « دمار شامل » عبارة مضلّلة ، فإنّه
لا يمكن إلاّ في أحوال استثنائية تدمير بيت تدميراً شاملاً
إلاّ بنسفه ثلاث مرّات أو أربعاً ثمّ بإحراقه بعد ذلك لضمان
تمام التدمير . كان البيت الذي كنّا نسكن فيه ، مدمراً دماراً
شاملاً حسب المصطلحات الرسمية ولكنه لم يكن كذلك
من الناحية الفنيّة . أعني أنني استطعت أن أتعرف عليه :

الملخل وأضرار الجرس ، وأرى أن بيتاً يستطيع إنسان أن يتعرف على ملخله وأضرار جرسه ليس مدمراً دماراً شاملاً إذا التزمنا المعنى المحدد للاصطلاح . وكان من الممكن التعرف على أجزاء أخرى سوى أضرار الجرس والملخل : حجرتين في البدروم ، كانتا سليميتين أو نحو ذلك ، وثلاث حجرات في الدور الأرضي وهو شيء غير معقول في حد ذاته ، وكان هناك جزء من حائط يسند الحجرة الثالثة التي ما كانت لتحفظ توازنها إن لم يسندها ، أمّا مسكننا في الدور الأول فلم يبقَ منه سليماً سوى حجرة واحدة مطلّة على الشارع تبدو وكأنّها مشقوقة وقد تربّع فوقها سقف هرمي ضيقٌ أجرد به تجاوزيف نوافذ فارغة . وكان أطرف شيء تبينته هو رجلان كانا يتحركان هنا وهناك في حجرة الجلوس بمسكننا كما لو كانت أرضيتها مألوفة لأقدامهما . خلع أحدهما صورة من الحائط ، صورة منقولة عن الرسام تيربوخ كان أبي يحبها حباً شديداً ، واتجه بها إلى الأمام وأراها لشخص ثالث كان يقف أمام البيت ، فهزّ هذا رأسه كما يفعل أحدهم في مزاد علني عندما تعرض له بضاعة لا يهتمّ بها ، وعاد الرجل الأول بالصورة فعلقها على الحائط ثانية ، بل إنّه عللها حتى استقامت تماماً في مكانها ، وقد تأثرت لهذا الكلف بالدقة — فقد رجع الرجل بضع خطوات إلى الوراء ليرى هل الصورة معتدلة

في مكانها أم لا ، ثم هزّ رأسه علامة على الرضا . وفي هذه الأثناء تناول الثاني الصورة الأخرى من الحائط ، وكانت صورة للكاتدرائية صنعها لوخنر بطريقة الحفر على النحاس ، ولكنها أيضاً لم تعجب الرجل الثالث الواقف في الشارع . وأخيراً تقدّم الرجل الأوّل الذي أعاد صورة تيربوخ إلى مكانها على الحائط ، ووضع يديه حول فمه لتكبير الصوت وصاح : « أرى بيانو » وضحك الرجل الواقف في الشارع وأوماً برأسه ووضع يديه حول فمه لتكبير الصوت وصاح : « سأحضر الحزام » . لم أستطع أن أرى البيانو ، ولكنني كنت أعرف مكانه : كان على اليمين في الركن الذي لا أكشفه والذي اختفى فيه الرجل بصورة لوخنر منذ قليل . وسألني الحارس البلجيكي : « أين كنت تسكن في كولن ؟ »

فقلت : « آه ، في مكان ما » . وحركت يدي حركة مبهمة في اتجاه الضواحي الغربية .

وقال الحارس : « الحمد لله . سنستأنف السير الآن » . وتناول السلاح الأوتوماتيكي الذي كان قد وضعه على أرض السيارة وعدّل قبعته ، وكان الأسد الفلندري فوق قبعته قد اتسخ إلى درجة كبيرة . فلما انعطفنا إلى ميدان كلودفيج استطعت أن أتيّن سبب توقف المرور وتكدس السيارات : كانت هناك هجمة بوليسية . كانت هناك في كلّ مكان

عربات البوليس الحربي الإنجليزي وقد وقف خلفها مدنيون يرفعون أيديهم إلى أعلى وتجمع حولهم حشد كبير من الناس يقفون ساكنين ولكن ثائرين : فجأة يتجمع هذا العدد الكبير من الناس في مدينة ساكنة مدمرة إلى هذا الحد ! وقال الحارس البلجيكي : « إنها السوق السوداء ! من حين إلى آخر ينظفون هذا الجيب » .

وقبل أن تغادر كولن أخذني النعاس وكنا لا نزال في شارع بون ، ورأيت في المنام طاحونة البن التي كانت تملكها أمي : رأيتها تنزل مربوطة في حزام يدليه الرجل الذي عرض صورة تيربوخ بلا جدوى ورأيت الرجل الواقف في الشارع يرفضها ، ثم رأيت الآخر يرفعها مرة ثانية ويفتح باب المدخل ويحاول أن يركبها في المكان الذي كانت فيه : وراء باب المطبخ مباشرة ، ولكن لم يكن هناك حائط يثبتها فيه ، ولكنه مع ذلك حاول وكرّر المحاولة (وقد أثارني هذا الميل إلى الدقة حتى في المنام) . راح يبحث بسبابة اليد اليمنى عن الخواير فلم يجدها ، فرفع قبضته حانقاً إلى سماء الحريف ثائراً عليها لأنها لا تمنح طاحونة البن مكاناً تثبت فيه ، وأخيراً صرف النظر عن تثبيتها ، ولفّ الحزام حولها وذهب إلى الأمام وأنزل طاحونة البن وعرضها على الثالث ، فعاد هذا إلى رفضها ، فرفعها الآخر مرة أخرى إلى أعلى وأخفاها تحت

سترته كما يخفي الإنسان شيئاً ثميناً قيماً ، ثمّ بدأ يحلّ الحزام من حولها ، ويلفّه حتى صار كالقرص وقذف به الرجل الثالث الواقف في الشارع في وجهه . وبقيت طوال الوقت في قلق على الرجل الثاني الذي عرض صورة لوخر بلا جدوى ، ولكن لم أستطع أن أهتدي إليه . كان هناك شيء ما يحول بيني وبين النظر إلى الركن الذي كان البيانو موضوعاً فيه هو ومكتب أبي ، وكنت أحسّ بالنعاسة عندما أتصور أن الرجل قد يقرأ في مذكرات أبي . ثمّ وقف الرجل المسك بطاحونة البن بباب حجرة الجلوس وحاول أن يثبت الطاحونة في سجاف الباب وكأنّما أراد أن يمنح الطاحونة مكاناً وبقاء ، وبدأت أحبه حتى قبل أن أكتشف أنّه كان واحداً من أصدقائنا العديدين الذين واستهم أمّي تحت طاحونة البن ، واحداً من أولئك الذين لقوا حتفهم في بداية الحرب أثناء غارة جويّة .

وأيقظني الحارس البلجيكي قبل أن نصل بون وقال : « تعالَ افرك عينيّك . لقد اقتربت الحريرة » . فاعتدلت في الجلوس ، وفكّرت في الكثيرين الذين كانوا يجلسون تحت طاحونة أمّي : هارين من المدرسة خوفاً من الواجبات المدرسية ، نازيين كانت تحاول نصّحهم ، وغير نازيين كانت تحاول تقوية عضدهم . هؤلاء جميعاً جلسوا على الكرسي تحت

طاحونة البن والتمسوا المواساة والشكوى والدفاع والتأجيل ،
تخطمت مثلهم بكلمات مريرة ، وقدمت إليهم في كلمات
لينة أشياء تبقى على مرّ الأزمان : اللطف بالضعفاء والمواساة
للمضطهدين .

المقابر القديمة . السوق . الجامعة . بون . من خلال باب
كوبلنتس إلى حديقة هوفجارتن . وقال الحارس البلجيكي :
« وداعاً ! » وقال دويمرلنج بوجهه الغض المتعب : « اكتب
إليّ » . فقلت له : « نعم . سأرسل لك طبعة توخولسكي
كاملة » . فقال : « حسناً . وهل ترسل إليّ كلايست كذلك ؟ »
فقلت : « لا . سأرسل لك المكررات فقط » .

* * *

وهناك أمام باب المعسكر المحاط بالأسلاك الشائكة الذي
أُطلق سراحنا من خلاله نهائياً ، وقف رجل بين سلتين
كبيرتين من سلال الغسيل ، كان في إحدهما تفاح كثير ،
وكان في الأخرى قليل من الصابون ، وكان يصيح : « فيتامينات
أيها الرفاق . تفاحة لقاء قطعة من الصابون » . وأحسست كيف
سال لعابي . كنت قد نسيت منظر التفاح . فأعطيته قطعة من
الصابون ، وأخذت تفاحة وقضمت منها قضمه في الحال .
ثمّ بقيت واقفاً ونظرت إلى الآخرين كيف يخرجون . لم يعد
بالرجل حاجة إلى الصباح فقد تحوّلت العملية إلى تجارة صامته ،

كان يتناول تفاحة من السلة ويأخذ قطعة الصابون يلقيها في السبت الفارغ فينطلق منه صوت مكتوم حاد عندما ترتطم به قطعة الصابون . لم يأخذ كل واحد تفاحاً ، ولم يكن لدى كل واحد صابون ، ولكن العملية تمت بسرعة كما يحدث في المحلات التي يخدم المشتري فيها نفسه . فلما فرغت من تفاحتي كانت سلة الصابون قد امتلأت إلى نصفها . جرى كل شيء بسرعة وبدون احتكاك وبدون كلام . حتى أولئك الذين كانوا يقترنون على أنفسهم ويعملون للنقود حساباً لم يستطيعوا مقاومة إغراء التفاح ، وبدأت أحسّ بالعطف عليهم . هكذا كان الوطن يحيي العائدين إليه بالفيتامينات على نحو مفعم بالحب .

* * *

ولم يطل بي الوقت حتى عثرت في بون على تليفون ، وحكت لي بنت في مكتب البريد أن الأطباء والقساوسة وحدهم هم الذين يحصلون على تليفونات على شرط ألا يكونوا قد انتموا إلى الحزب النازي . وقالت البنت : « إنهم يخافون خوفاً شديداً من فرقة الفيرفولف » ، ثم قالت : « هل معك سيجارة لي ؟ » فأخرجت علبة التبغ من جيبي وقلت لها : « هل ألفت لك سيجارة ؟ » فقالت : لا ! وأضافت أنها تستطيع فعل ذلك بنفسها . ونظرت إليها وهي تخرج ورق

السجائر من جيب معطفها وتلفُ سيجارة بسرعة ومهارة .
وقالت : « بمن تريد أن تتصل تلفونياً ؟ » فقلت : « بزوجتي »
فضحكت وقالت لي إنتي لا أبدو في هيئة المتزوجين . ولففت
لنفسى سيجارة وسألتها هل هناك إمكانية بيع قطعة من الصابون
فقد كنت محتاجاً إلى النقود لدفع ثمن التنقلات ولم يكن معي
مليم واحد . فقالت : « صابون ؟ أرني » فأخرجت قطعة
من الصابون من طيات بطانة معطفي ، وانتزعتها هي من يدي
وشمتها وقالت : « رباه ! قطعة صابون بالموليف أصلية
— ما ثمنها ؟ — أنا أعطيك بها خمسين ماركاً » . فنظرت
إليها مندهشاً فقالت : « نعم ، أنا أعرف أنهم يدفعون بها
لغاية ثمانين ماركاً ، ولكنني لا أستطيع دفع مثل هذا المبلغ » .
ولم أكن أريد مبلغ الخمسين ماركاً ولكنها أصرت على أن
أأخذه ودست لي المبلغ في جيب المعطف وجرت من مكتب
البريد . كانت جميلة جداً ، جميلة جمالاً جائعاً يضفي
على صوت البنات نوعاً من الحدة .

ولفت نظري في مكتب البريد وفي أنحاء بون وأنا أهييم
فيها عدم وجود طالب واحد في أي مكان يرتدي شيئاً ملوناً .
وكانت هناك روائح : كان كل الناس تفوح منهم رائحة
كريهة ، كانت كل الأماكن تفوح منها رائحة كريهة ،
ففهمت لماذا جنت البنت عندما رأت قطعة الصابون . وذهبت

إلى محطة السكك الحديدية وحاولت أن أثبتن طريقة الوصول إلى « أوبر كرشنباخ » (هناك كانت تسكن تلك التي كنت قد تزوجتها) ، ولكن أحداً لم يستطع أن يقول لي . كنت أعرف من أمر هذا العش أنه في مكان ما بعيداً عن بون في منطقة الإيفل . ولم تكن هناك خرائط قط يمكن أن أستخدمها في معرفة الموضع ، والظاهر أن الخرائط كانت ممنوعة خوفاً من فرقة الفيرفولف . كنت دائماً أحب أن أعرف مكان كل بلد بالضبط ، ولهذا استبدت بي القلق لأنني لم أكن أعرف عن « أوبر كرشنباخ » شيئاً بالضبط ، ولم أكن أستطيع أن أحصل على معلومات دقيقة عنه . ودرت على عناوين بون التي أعرفها كلها هنا وهناك فلم أجد بينها طيبياً أو قسيساً . وأخيراً تذكرت أستاذاً في اللاهوت . كنت قد زرته قبل الحرب بقليل بصحبة بعض الأصدقاء ، فقد كان له أمر ما يتصل بروما وبالقائمة السوداء ، وذهبنا آنذاك إليه نعبّر له عن تعاطفنا معه . لم أكن أعرف اسم الشارع ولكنني كنت أعرف مكانه ، فاتبعت شارع بوبلسدورمز وانعطفت إلى اليسار ثم اليسار مرة أخرى فوجدت البيت وارتحت عندما قرأت الاسم على الباب . وأقبل الأستاذ بنفسه إلى الباب . كان قد كبر جداً ونحف وانحنى وشاب شيئاً شديداً . قلت : « لا شك أنك لم تعد تعرفني يا سيادة الأستاذ ، لقد أتيت لزيارتك عندما

كنت مشتبكاً في عركة مع روما والقائمة السوداء — هل أستطيع أن أتكلّم معك لحظة ؟ » فضحك لاستعمالي كلمة « عركة » وقال : « أهلاً بك » ثمّ سبّقي إلى حجرة المكتب — ولفت نظري أن المكان لم تعد تفوح منه رائحة التبغ ، وأنّه فيما عدا ذلك لم يتغيّر بكلّ ما فيه من كتب وصناديق البطاقات وأشجار المطاط . قلت للأستاذ إنّي سمعت أن القساوسة والأطباء هم وحدهم الذين لديهم تليفونات وإنّي أريد أن أتصل تليفونياً بزوجتي ، فتركني — وهو ما لا يحدث إلّا نادراً — أتمّ كلامي ثمّ قال إنّه حقيقة قسيس ولكنه ليس من هؤلاء الذين لديهم تليفون : « لأنّي كما ترى لست قسيساً عاملاً » .

فقلت له : « لعلّك من فرقة الفيرفولف ! » وقدمت إليه تبغاً وتأثرت عندما رأيته ينظر إلى تبغي ، وإنّي لأنّاثر دائماً عندما يتحمّ على المسنين أن ينزلوا عن أشياء يجنونها . كانت يدها ترتعشان وهو يشحن غليونيه ، ولم تكونا ترتعشان لتقدمه في السنّ فقط . فلمّا أشعل غليونيه — لم يكن معي عيدان ثقاب ولذلك لم أستطع مساعدته في ذلك — قال لي إن الأطباء والقساوسة ليسوا وحدهم هم الذين لديهم تليفون ، بل هناك أيضاً تليفونات « في تلك الحانات الصاخبة التي تفتح في كلّ مكان يكون فيه جنود » وأشار عليّ بأن أحاول

في إحدى هذه الحانات وقال لي إن هناك حانة على ناصية الشارع مباشرة . وبكى عندما قدمت إليه وأنا أودعه كمية من التبغ لعلونه وضعتها على مكتبه ، وسألني والدموع في عينيه عما إذا كنت أعرف ما سأفعل ، فقلت نعم ، إتي أعرف ما سأفعل ، وطلبت منه أن يقبل التبغ كمشاركة متأخرة مني في تقدير الشجاعة التي أبدأها حيال روما في ذلك الوقت . ووددت أن أهدي إليه قطعة من الصابون فقد كان معي خمس قطع أوست في بطانة المعطف ، ولكنني خشيت أن يتحطم قلبه من الفرح ، فقد كان هزماً ضعيفاً .

* * *

كانت كلمة حانة كلمة رفيعة جداً ولكنها ضابقتني أقلّ ممّا ضابقتني الحارس الإنجليزي الذي كان يقف أمام باب الحانة . كان في مقتبل العمر . فلماً وقفت عنده نظر إليّ نظرة صارمة وأشار إلى اللافتة التي كتب عليها أنّه محظور على الألمان الدخول ، ولكنني قلت له إن أخي يعمل في الداخل وإنتي عائد لتوي إلى الوطن الغالي وإن مفاتيح البيت مع أخي . فسألني عن اسم أخي فلاح لي من الأوفق أن أذكر له أكثر أسماء البنات الألمانيات ألمانية ، فقلت : « جريشن » ، فقال : « نعم . الشقراء » . وتركني أدخل . ولا حاجة بي إلى وصف المكان من الداخل ، ويكفي أن أحيل

إلى ما كتب عن البنات في ذلك الوقت وإلى الأفلام والتلفزيون ،
كذلك أوفر على نفسي مهمة وصف جريتشن وأحيل إلى
المصنفات نفسها . المهم أن جريتشن كانت سريعة البديهة
على نحو مدهش وأنها كانت مستعدة لقاء قطعة من صابون
البالموليف لأن تصلني تليفونياً بمكتب القسيس في كرشنباخ
(الذي رجوت أن يكون موجوداً) وأن تطلب تلك التي
كنت قد تزوجتها لتأتي إلى التليفون . تكلمت جريتشن في
التليفون بلغة إنجليزية سلسة وقالت لي إن صديقها سيحاول
أن يرتب هذه المكالمة عن طريق الإدارة فهذا أسرع . وقدمت
إليها أثناء الانتظار شيئاً من التبغ الذي كان معي ، ولكنها
كان لديها أحسن منه ، وهممت بتقديم قطعة الصابون التي
اتفقنا عليها ثمناً للمكالمة إليها مقدماً ، ولكنها رفضت وقالت
إنها متنازلة عنها وإنها لا تريد أن تأخذ ثمناً ، فلمّا صممت
على الدفع بدأت تبكي واعترفت لي بأن لها أخاً في الأسر
وآخر في العالم الآخر ، فحزنت لها ، فليس من الحسن أن تبكي
البنات مثيلات جريتشن . ثم إنها اعترفت لي بأنها كاثوليكية ،
وهمت بإخراج صورتها عند أول مناولة ، ولكن التليفون دقّ
فتناولت جريتشن السماعة وقالت : « سيادة القسيس » وكنت
أنا قد سمعت أن الصوت ليس صوت رجل . ثمّ قالت
جريتشن : « لحظة من فضلك » ودفعت إليّ السماعة ،

ولكني كنت مضطرباً فلم أستطع القبض عليها كما ينبغي
فوقعت من يدي ، لحسن الحظ ، في حجر جريتشن ، فتناولتها
ووضعتها على أذني وقلت : « هاللو — هل أنت ذاك ؟ »
فقلت : « نعم . وأنت ، أين أنت ؟ »
فقلت : « أنا في بون . لقد انتهت الحرب بالنسبة إليّ » .
فقلت : « رباه ، أكاد لا أصدق . لا — ليس صحيحاً » .
فقلت : « بلى ، صحيح . ألم تسلمي البطاقة التي أرسلتها
إليك ؟ »

فقلت : « لا . أية بطاقة ؟ »
قلت : « عندما كنت في الأسر سمح لي بأن أكتب
بطاقة بريدية » .
قالت : « لا . لا أعرف شيئاً عنك منذ ثمانية أشهر » .
فقلت : « هؤلاء الخنازير . هؤلاء الخنازير الملاحين
— آه ، قولي لي أين كرشنباخ ؟ »

فقلت : « أنا . . . » وراحت تبكي بكاء مريراً حتى
إنّها لم تستطع الكلام . وسمعتها تنهد وتزفر ، ثمّ استطاعت
أن تقول هامسة : « في محطة السكك الحديدية ببون ، سآتي
إليك وأخذك » . ثمّ لم أعد أسمعها ، كان هناك صوت
متكلم يقول شيئاً بالإنجليزية لم أفهمه .
ووضعت جريتشن السماعة على أذنّها وأنصتت لحظة

ثمّ هزّت رأسها وأعادت السّماعه إلى مكانها على التليفون .
فنظرت إليها وعلمت أنّي لم أعد أستطيع أن أقدم إليها
الصابون ، ولم أكن أستطيع أن أقول لها « شكراً » فقد بدت
لي هذه الكلمة سخيّة ، فرفعت ذراعي وخرجت .
وعدت إلى المحطة وذلك الصوت النسائي في أذني ،
ذلك الصوت الذي لم يرن هكذا قطّ من قبل بهذه النبرة
الزوجيّة .

ترجمة : الدكتور مصطفى ماهر

المرفأ الحر

هوبرن فيننته

ترجمة: فواء رفقة

الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية	
رقم التصنيف	٨٣٣
رقم التسجيل	٢٠٧٩٨

دار صادر
بيروت

المرفأ الحرّ

بقلم هوبرت فيشته

لوّحت له بيديها من خلف الستائر ، فردّ عليها ملوّحاً
بيده صوب الطابق الثالث . ورأته يدخل سيارة النقل . أخذت
تنظف مائدة الإفطار من الفناجين والزبدة والمريات وأوعية
الحليب وقشور البيض . « لأنّي لا أعرف المنطقة » ، فكرت
في نفسها . لقد أراد أن يعرفها عليها ، لكنه تجنّب ذلك ،
وكثيراً ما حاولت التحدّث بهذا الأمر ، غير أنّه كان يتهرّب .
« ليس الآن . . . » كان يقول لها لأنّها لا تحتل البرد هناك ،
ولم تكن لتعلم ما تعني هذه الكلمة . وكلّما سألته عن الطريق
التي تؤدي إلى المرفأ الحرّ كان يتهرّب من الجواب . « لماذا
يسمّى بالمرفأ الحرّ ؟ » ساءلت نفسها . « هل هو حرّ أكثر
من سواه من المرافئ ؟ هل يتحرّك عمّال الجمارك والبحارة
وعمال المرفأ بحرية هناك أكثر ممّا في بقيّة المرافئ ؟ هل

يوجد هناك قوانين أخرى ؟ أم هناك يتمّ السماح لمروور
البضائع كما يتمّ تسير الرسائل الملصق عليها طوايح ؟ «
لم تحبّ أن تسأل أحداً عن الأمر ، لأنّها تخشى رؤية
معارفها يتسمون قائلين : « ألا تعرفين ؟ فعلى زوجك أن
يكون قد أخبرك من زمان . على كلّ ما هو إلاّ مساعد في
مركز ، ويظهر أنّه سيقوّى إلى درجة أعلى ، وإذا سار
كلّ شيء على ما يرام فإنّه سيصبح مفتشاً في الجمارك .
ولكن حان لك كزوجة أحد عمال الجمارك معرفة معنى
المرفأ الحرّ » .

لم تلحّ عليه بالذهاب أيّام الأحد إلى المرفأ الحرّ ، إذ كان
يفضّل المشي إمّا إلى حديقة الحيوان وإمّا على ضفاف النهر .
وربّما قررا السفر إلى إيطاليا في العطلة القادمة . لم يشأ التحدّث
عن عمله وهو خارج الخدمة ، وكثيراً ما كان يخفي في أعماقه
أسرار انتصاراته وانكساراته بدلاً من أن يتحدث عنها .
بعد الامتحان — « كان الامتحان أهمّ شيء بالنسبة له » .
هذا ما قاله أكثر من مرّة — ربّما صار أكثر انفتاحاً .
« ما زالت الحياة أماناً » ، فكّرت في نفسها .

ولو أنّ كلّ شيء يجري على هذا المنوال فإنّها ستكون
سعيدة ، مع أن ساعات عمله غير منتظمة ، فقد ينقلب البيت
رأساً على عقب كلّما تغيّر وقت عمله فجأة من الخدمة

الصباحية إلى الخدمة الليلية .. غير أن هذا لم يكن بالأمر الصعب . وهو لم ييلز معاشه الذي قدره ٤٥٠ ماركاً ، هذا المعاش الذي اعتاد أن يقبضه في الوقت المحدد .

« إنه شاذ » ، فكّرت في نفسها ، « إنه ليس كالآخرين » .

لم تشعر بالضجر عندما كان يتركها وحيدة في البيت .

فغالباً ما كانت تعمل في المخابز أيام الأعياد ، وتغسل الملابس بنفسها ، وتكوي ملابس زوجها الثقيلة التي يستخدمها في وظيفته ، هذا كله بدون تدمّر . كما أنّها كانت تشتري كل حاجاتها وتطبخ في الأوقات المحددة . وكلّما عاد من عمله عبر الحدود إلى البيت كان يجد المائدة مهياًة .

« أبة حدود ؟ » فكّرت في نفسها بينما كانت تنظف المائدة من البقايا التي ظلّت من الفطور .

« هناك حدود في الشمال حيث كان يخدم في الحرب » .

« لقد كانت فترة جميلة » قال هذا مرّات وأخرج من كيس ممزّق صوراً له ولرفاقه يظهرون فيها ضاحكين ولايسين سراويل فضفاضة ومتكئين بعضهم على بعض .

« كم كنتم فتياناً بعد » قالت هذا كلّ مرة رأت الصور فيها .

وبرأس إصبعه دلّ على بعض الضاحكين قائلاً : « فلان وفلان وفلان سقطوا في الحرب — أخيراً في روسيا . وهذا

كان أقرب الأصدقاء إليّ ! » وبقيت عيناه لحظات ، وبدون حركة ، مشغرتين على العيون المصوّرة .
« ما هذا ؟ » وسحبت صورة رمادية مكسّرة من تحت الصور .

« إنّه مشهد لإحدى المعارك . أما عدتِ تذكّرين آثار الضوء ، وأشجار التنوّب ، وبريق النار ؟ »
« لا ، فقد كنت آنذاك صغيرة » .
« لو أعرف كيف يبدو المكان الآن » .
« هذه الأيام لم تعد الحدود الدائريّة حدوداً بالفعل » ، فكرت في نفسها .

« ما زالت الحدود قائمة في إفريقيا . الحدود بين الهند وباكستان حدود حقيقة — وسط مدينتنا — في المرفأ الحرّ — يتحدث البعض عن حدود .

« هل يحدث تهريب كثير عندكم ؟ » سألته زوجته .
« التهريب يتطلّب في الأوّل إمكانيّة الوصول إلى بضاعة تستحق التهريب ، ويتطلّب جرأة ، وإذا حدث أن لأحدهم الجرأة في أن يهرّب علبتين من اللحم المحفوظ فإنّه سيقع بالتأكيد في أيدي المفتشين قبل أن يكون قد خرج » .
« ماذا تقصد بالفتيش ؟ »

« بلاهة » .

« ألا تحبّ العمل على الحدود ؟ »
« إنّي مكثف بوضعي ، فأنا أقبض ما يوفر لنا الحياة
إذا أضفنا ما تحصيله أنت . ربّما كان عليّ تقديم الامتحان
للترقية - وربّما لا . على كلّ أنا مكثف - غير أن هذا
غير سهل . »

« هل عليك أن تشتغل كثيراً ؟ »
« لا . »

« لست بحاجة لأن تقدم الامتحان من أجلي . كذلك أنا
مقتنعة . »

« كلّ شيء على ما يرام . »

« نعم . »

« صحيح ؟ »

« صحيح ، لمَ لا ؟ »

« تقصدين أنّه كان من واجبي ألاّ أرفض الامتحان ؟ »
ربّما كان عليها أن تتركه يتكلّم ، فكّرت في نفسها ،
بينما سكبت بقايا القهوة في مياه الغسيل . « إذا ما تحدّث
بهذا الأمر مرّة أخرى فإنّي سأحسّه على تقديم الامتحان .
فهو سيجتازه بكلّ تأكيد . »

فكرت لو أنّها تنجب طفلاً منه ، وتصورت أن الطفل
سينتحرّك صامتاً كأبيه عندما يتسلّقان الصخور يوم الأحد

في حديقة الحيوانات ويمدّ يده إليها كي يعينها على الصعود .
انتهى عمل ديتريش حوالي الساعة السابعة والنصف على
الحدود . لم يذهب على الجسر الذي يؤدي إلى المدينة ، وإلى
الحمامات حيث يشرب البحارة الكحول ويأكلون الشورباء
واللحوم — تابع سيره عميقاً داخل المرفأ الحرّ .

« ألا يكفي ؟ » سأل السيد شينفلدر ديتريش . « أتريد أن
تقوم بجولة ثانية ؟ هل أنت على ميعاد ؟ أم تريد أن تهرب
شيئاً ؟ » وضحك السيد شينفلدر .

« تذكرت شيئاً » ، أجابه ديتريش . قرّر المجيء إلى
هذا المكان كي يفاجيء السيد شينفلدر . لم يقدر أن يقول :
« أريد أن أكون الآن وحيداً تماماً ، وبدون سبب ، بدون
هدف أريد أن أتسكّع داخل المرفأ . لا شيء آخر » .
« غير أن هذا غير صحيح » فكّر ديتريش .
« أريد القيام بمراقبة ما لا أستطيع الكشف عنه الآن ،
يا سيّد شينفلدر » .

« أفهم » وتطلّع السيّد شينفلدر إلى ديتريش متفحصاً .
وارتخت التجاعيد الحادّة في وجهه من جديد . وهمس :
« هل تتعلّق القضية بالمخدرات ؟ »

وهزّ ديتريش رأسه . « مجوهرات ؟ ذهب ؟ »
ومضى ديتريش هازأً رأسه عبر منطقة المستودعات ودخل

ممرّاً يؤدّي إلى مرسى السفن ، وكانت الطريق المزدقة عند المستودعات خالية من البشر ، وتحت التسقيفات سيارات كثيرة واقفة وحمولة ثقيلة ملقاة عند المرسى وكباكيب من الحبال بقامة الإنسان مكتوب عليها عناوين سويدية .

وانجه ديتريش مؤرجحاً يده صوب المرسى حيث يتم شحن البضاعة ، ومرّ بين المستودعات والمياه عبر مكان بناء السفن وقاطرات البضاعة . وعلى أبواب القاطرات كانت حروف كبيرة ، وفي فترات متساوية كانت تعبر أضواء نيونية جعلت ظله يدور حوله .

« في هذه الساعة كل شيء مقفر في الخارج ، وخلف الأبواب تتكدّس الأشياء وتختلط الروائح : مواد فجّة ، أشياء شبه مهترئة ، دخان ، بوتاس ، وزيب ، وفي مكاتب الموظفين تتكدّس أمام مفتشي الجمارك القسائم والوثائق » ، هذا ما فكّر به لنفسه .

وراح صوب رأس الجزيرة حيث تنصبّ المياه الجانية في النهر الرئيسي . وبانت المستودعات القديمة متأكلة ، وظهرت قطع من الجدار قرمزية تحت الأضواء الكهربائية المنعكسة في الأحواض . وتصور ديتريش كم هو جميل لو يتسلّق الإنسان على الحدود الجدران المتهدّمة بعد ساعات الفراغ لشمّ الهواء المخلوط بغيار جدران المستودعات البالية

وبرائحة فاسدة تهبّ من الدهاليز المكشوفة .

« ثماني ساعات من العمل على الحدود » ، قال ديتريش في نفسه . « السيارات تجميء من الطرف الآخر للمرفأ وتعود عبر المحطة التي أعمل فيها . وكذلك بالعكس . إنهم يوفرون عليهم الدورة على الطريق الرئيسي العام . وما من داع لتفتيشهم ، فهم لا يحملون شيئاً يوجب دفع ضريبة جمركية عليه . ولكني أمرٌ عليهم فقط من حيث الشكليات وأنفحص السائقين والمسافرين في وجوههم ، وبعد لحظة من التردد لحظة لا أنتظر خلالها شيئاً ولا السائقون ينتظرون شيئاً — أعطي إشارة المرور » .

وتلمّس ديتريش خطاه إلى العوامة ، وحين لامس المياه اندفع رجل من الظلّ وصرخ : « لقد خفت ! »
« لا أريد شيئاً منك » ، أجابه ديتريش . « لماذا أنت خائف هكذا ؟ »

« بالطبع ، عندما تقفز هكذا إلى العوامة » .

« هل تقوم هنا بمهمة ؟ »

« أنا و . . . »

« ما تعمل هنا في هذه الساعة المتأخرة من الليل ؟ »

وفي الحقيقة لم يكن ديتريش مكرثاً لما يفعله الرجل تلك الليلة في المرفأ — ولكنه هو أيضاً أوقف راكبي الدراجات

على الحدود وصرخ بهم حين أسرعوا كثيراً عند مركز
التفتيش وأجبرهم على العودة ليقوم بتفتيشهم .

« إنها حتى الآن أقلّ من السابعة والنصف » أجابه
الرجل . « وثانياً : ماذا تريد هنا عند هذه العوامة المنعزلة ؟ »
« أنا مساعد في الجمارك » .

« صحيح ؟ »

« نعم - في مركز الإدارة » .

« فقط في الإدارة ؟ »

« هذا شيء شكلي فقط . لم تجب على سؤالي كفاية » .
« يحقّ للإنسان أن يتجول عند النهر من غير أن يكون
بمهمة جمركية » .

لم تتغير لهجة ديتريش ، غير أنّه لم يستمر في الحديث
خوفاً من أن يثير شكوك الرجل ، فباستطاعته تفتيشه إن
أراد .

« لم يحالفني الحظّ حتى الآن . فالدوريات المفاجئة التي
قمت بها ، كلّها كانت سلبية . وأحياناً يعثر الإنسان على
بعض صفائح من السكائر مخبأة تحت أرض السيارة ، أو على
جلد نمر أو على جزدان مصنوع من جلد التمساح ، على
أشياء يكلّف ضبطها أكثر من قيمتها . وحتى الآن لم أضبط
جواهر أو مخدرات .

في هذه المدينة تصير التجارة بالمخدرات أقلّ رواجاً
كما يعتقد السيّد شينغلدر : وشعبنا لا يهتمّ بها إذ أصبح بعد
الحرب أكثر صلابة . لماذا يهرّب بعض الناس عندنا المخدرات ؟
« هذا ما لن يعرفه الإنسان » أجابه ديتريش ، « فمن
المحتمل أن ترتكب في هذا المكان ما هو مغلّ بالآداب
أو ربّما تحاول الانتحار – في المياه في الليل » .

وشعر ديتريش بالجوع يتمدّد في جسده . « هذه الساعة
تسكب أنكه البطاطا في وعاء أبيض كبير وتضعه على الطنجرة
مع أنواع الخضرة » . كانت العوامة ترتفع وتهبط ، وتطلّع
إلى النجوم الزرقاء المنعكسة في الحوض ، وحاول رؤية السفن
بتقاطيعها ، سفن الشحن غير الكاملة ، وسفن الركاب المصلحة ،
وحجمها الكبير القادر على ابتلاع البضائع وإنزالها على أرصفة
المرسى . ولم يبقَ باستطاعته احتمال هزيمة العوامة ، فقد
بدأ يهتزّ معها ، وذهب باتجاه الدرج الخشبي دون أن يقول
للرجل كلمة واحدة . وبينما كان يسير على امتداد المستودعات
كانت الأمواج المرتفعة تصيبه وتدفعه .

وتفكر إن كان عليه تقديم الامتحان ، فزوجته لم تصر
على ذلك ، وهي تقتصر على الضروري من العيش حتى ينال
زيادة في معاشه بعد سنين من الخلعة .

إن أنكه لم تصر على تقديمه امتحاناً يترقى على أساسه إلى

مرتبة أعلى كي يرتفع معاشه بسرعة . وهو لم يعرف تماماً ما يتوقعه الفاحص من المتقدم للامتحان ، وكان يخشى التحدث مع زملائه في العمل حول هذا الموضوع خوفاً من أن يعتقدوا أنه قدم طلباً للامتحان . ولما كانوا يتحدثون في هذا الأمر بطريقة عفوية لم يكن مستطاعاً الحصول على معلومات هامة ، فهم تحدثوا عن الأخطاء اللغوية والعوائق البدنية ، وفهم من هذا كله أن الامتحان يدور حول الذكاء ، ولم يعتقد أنه بليد الذهن ولكنه خشي من أن يخطئ من قدره في قاعة الجمارك كما يقلل الإنسان من البضاعة التي تتقيم فقط حسب الوزن . وعليه أيضاً حفظ القوانين الجمركية ومعرفة خصائص جميع البضائع ، مكان صنعها ، وقيمتها ، وديمومتها ولونها ووزنها ، والمعامل كدست من هذه البضائع أكواماً أشبه بالتلال المستننة .

وكان عليه معرفة هذه الأكوام بالتفصيل واكتشاف المنتوجات التي تشد عن المستوى العام - قبل توزيعها بواسطة تجار الحملة إلى تجار المفرق ، إلى المستهلك ، وإلى أنه في البيت .

ومسح ديتريش حاجبيه .

« لاني أحلم ، والجوع وحده مسؤول عن هذا » .

وأسند وجهه على الأسلاك التي تحيط بأحواض الغاز .

وببطء دارت القساطل والخزانات ، وخلفها انطلقت
شرارات نارية صوب الغيوم ، وظهرت الأبراج والتلال
من الاحمرار كقطعة من مقصّ يعلو على اللهب ويهبط .
لم يتخذ ديتريش اتجاه إشارة السير التي تدلّ على المخرج ،
بل اتجه صوب محطة القطارات . وعلى جانبي الطريق تمايلت
أعشاب عالية وقديمة ، كانت قد نمت على قواعد المستودعات
المخروبة ، ومنها كانت تهبّ الروائح الفاسدة .

« لعلّ هذه الرائحة الفاسدة من الغاز الذي يهبّ من
الحشائش . عليّ في الامتحان أن أعرف في الكيمياء والفيزياء ،
وعندما يكون الإنسان قد هجر هذه العلوم منذ أيام المدرسة
فإنّه من الصعب جدّاً الغوص فيها من جديد » . والتفت
إلى وراء فشاهد مصنع الفحم في الجانب الآخر ومنه تنقذ
أشكال سوداء مغلفة بالدخان الكثيف . وكانت ألسنة اللهب
تمتدّ حتى الممرات عبر المداخل . وانعكس في عيني ديتريش
جبل من نار ، وبدا كلّ شيء كالمستودعات التي كانت
تلمع أثناء الحرب ، كالرافعات التي احمرّت وسقطت في
الماء ، كالنار التي أحرقت بضائع المرفأ ورمدها ، كأيام
خدمته على الحدود الدانمركيّة — قبل أن تمكّنت الأعشاب
الطويلة الصفراء من الدهاليز نصف المهدمة .

وانطفأ اللهب من موضع الفحم .

لم تعيره أنه لأنه عاد متأخراً إلى البيت . وسألته :
« هل كان عليك شغل كثير ؟ »

لم يحاول أن يكذب عليها ، ولم يرد تقديم إيضاحات ،
فأجابها : « لا » .

قطعت سؤالها ، وظنت أن تأخره بسبب الامتحان ، وأنت
بالبطاطا الجافة القشرة وقطعت اللحمه .

« جمدت المرقه ، وآمل أن يكون الملح كما يجب » .
وناولته منشقة طعام موضوعة في حلقة ، وأكل ببطء ،
وبصعوبة أكل كل قطعة بطاطا وألقى كل مرة « الشوكه »
جانباً قبل دفع اللقمة إلى فمه وتطلع إلى حرف الصحن .
« أليس طيباً ؟ » — « طبعاً » .

مضغ بحرص والتفت إليها وقال : « طبعاً » .
لاحظها وهي تنحي فوق الأكل ، واستطاع رؤية عظام
خدودها النافرة وبدت بلون الدراق الذي يترك غباره على
جلدها ، وتطلع إلى شعرها الملفوف والمرفوع إلى فوق ،
وإلى عينيها وإلى الرموش العليا المخططة بالأسود في عناية .
وتطلع إلى طوقها الأبيض — إن أنه تغير بلوزتها كل
يوم — وتصور الكومة الصغيرة من البلوزات ، بالكاد مغبرة
أو وسخة ، ومنها تفوح رائحة الصابون التي تستخدمها كل
يوم جمعة لتسرع في الغسيل . وتصور كيف تميل صوبه

بثوب النوم بعد انطفاء الضوء . وتطلع إلى أدوات الطعام ،
إلى الأوعية المليئة بالطعام ، إلى البهارات ، إلى غطاء المائدة
الذي تظهر طياته بين الأوعية ، وقال في نفسه : إن كل شيء
سيكون هادئاً وعلى ما يرام ، وإن كل شيء سيكون تاماً
وصحيحاً لو يتقدم بطلب للامتحان . فبمعاش أعلى سيتمكنان
من شراء مائدة أحسن ، وبلاط أدق ، وطعام أشهى ، وخزانة
من خشب الساج ! أمّا بالنسبة لإنجاب الأطفال فإن هذا
ممكن فقط بعد اجتياز الامتحان ، إذ كيف يتسنى لها أن
تتابع عملها وفي نفس الوقت تعني برضيع ؟ وهو نفسه
سيحصل على مكان لائق له في المرفأ عندما يرتقي إلى الدرجة
الوسطى . وهو بصفته مفتشاً في الجمر ك سيصير رجلاً يستفيد
من وقته ، ولن يبقى مساعداً يقضي أيامه بتفتيش السيارات
والمسافرين الأبرياء ، وكمفتش بوسعه استئجارها في مكتبه
والإشارة إلى الملفات ومرسى السفن من نافذته ويقول :
« هذا هو نطاق عملي » .

وشعر أنه يصغر ويصغر ، يصير صغيراً كفارة في المستودع
بين صناديق الكرتون الكبيرة المملأ بالبلاط ، وتصور أنه
يجتبيء بينها ، وفي غرفته في البيت رأى ثياب الأطفال ،
والكترات الصوفية ، والأنايب ، والجوارب والطابات .
وفكر في نفسه : « أي شيء سيبقى مني ومن أنكه ؟ »

وتوقف عن الأكل ، فأخذت الوعاء نصف الملائن
والصحون جانباً .

« يجب تشجيعه » ، فكّرت أنكه ، « فهو قادر على
اجتياز الامتحان بكلّ بساطة » .

« باستطاعتك اجتيازه يا ديتريش بسهولة ، فأنت لست
كالاخرين . إنك أكثر موهبة ، وما أحبّ أن أقول أمضى
عزيمه . وأنا لا أقول ذلك من أجلي ، فحياتنا ، كما هي ،
حسنة ، إنني لا أضغط عليك لأنني أريدها أحسن ممّا هي
عليه الآن ؛ سأكون لك زوجة صالحة ولأطفالي أمّاً صالحة
أيضاً ، حتى ولو اضطررت إلى الاستمرار في العمل ؛
ولكن أنت بمؤهلاتك الخاصة لن ترضى مع مرور الزمن
بهذه المعيشة الوسطية .

لما التحقت بالجمرك لم تفعل ذلك عن عجز — بل تبعت
رأي والدك الذي شجّعك على الالتحاق بهذه المهنة — بصفته
أستاذ مدرسة ابتدائية . لهذا عليك ألاّ تخشى الامتحان —
لأنه امتحان للذكاء فقط . وعلاوة على ذلك اجتزت امتحان
مساعد في الجمرك منذ عامين بكلّ سهولة . لا أقول هذا من
أجلي . فبالنسبة لي سواء لديّ إن كنت موظفاً بسيطاً أو فوق
العادة . وكما أذكر ، إنك أوّل ما التحقت بالجمرك أردت
حياة استقرار بعد الحرب ، أردت نسيان كلّ ما جرى لك

في المدفعية . والآآن تريد في الواقع أن تترقى . صدقني ،
فأنا لا أقول هذا للحصول على معيشة أرقى .

وأحسّ أن ما من شيء سوى إثارة الأعصاب سيقى
في حياتهما . فالتزهات في حديقة الحيوانات صارت أقلّ ،
والمشاوير عند النهر قد انتهت .

وفكّر : « الأطفال . هل ننجب أطفالاً ؟ »

وقال : « كان كلّ شيء متغيراً عندما خدمنا في المدفعية .
فآنذاك لم يخطر على بالنا بناء عائلة وإنجاب أطفال . نمنا في
المخيمات أربعة أربعة أو ستة ستة . وفي النهار كنّا نذهب
إلى حدائق الفلاحين ونقطف التفاح ، وكنّا نعرف من الراديو
عن المدن التي هوجمت وعن عدد الضحايا . لقد كان وقتاً
جميلاً ، لا أعرف لماذا ، ولكنه كان وقتاً جميلاً » .

« كأن مجهودي راح سدى » ، قالت في نفسها . « كنّا
مخدرين عندما تزوّجنا كتلاميذ مدرسة يلعبون الناي » .

وقالت له : « هاتِ الصور ودعني أراها ثانية » .

وفكّر : « فرضاً سقطت في الامتحان ؟ في ذلك الحين
واجهت العدو كسواي . هل صرت جباناً ؟ ربّما أخاف
من الامتحان ؟ زوجتي ورفاقي سيحتقروني » .

« لست بحاجة لأن تقدّم الامتحان من أجلي ، يا ديتريش .
فنحن ندبّر أمورنا كما هي الحالة الآن » .

« إنتها لا تعي ما تقول . فهي تريد أطفالاً تدور بهم
في عربة عالية . إنتي لا أخاف الامتحان » .
« هاتِ صور أيتامك الجميلة في المدفعية » .
« في الحال . غير أنني أريد بسرعة شراء علبتين من
السكاثر من الصندوق الآلي » .
« لا تزال بعض السكاثر هنا موجودة » .
« هي بدون فلتر . وأنتِ تحبّين السكاثر ذات الفلتر » .
« ألا ترتدي معطفك ؟ »
« لا . إنتها لا تمطر . إنتها غير باردة في الخارج » .
وانتظرت . كانت أضواء السيارات تلقي بظلال أشجار
الشارع على الجدار الخلفي في الغرفة ، وعلى البوفه وميزان
حرارة الطقس . وفجأة أحسّت بالخوف من أن يطول انتظارها ؛
لعلّه سيخونها يوماً من الأيام ، لعلّه سيضيق ذرعاً بالعمل ،
وبانعكاس الأضواء على الحائط عاودها الخوف ثانية . وهيات
الكاتو والفناجين لتناول القهوة التي أرادت صبّها له حين
يعود .
« لقد أصابه شيء ما . فصندوق السكاثر الآلي لا يبعد
أكثر من خمس دقائق ، بينما هو غائب منذ ساعة . أو ربّما
يخطيء الإنسان بتقدير الوقت عندما يجلس وحيداً ويبتظر .
لعلّه التقى بأحد رفاقه » .

لم تشأ أن تلعب دور المرأة السخيفة التي تركض وراء زوجها حتى المطعم عند الزاوية وتمنعه من تناول نصف لتر من البيرة .

« إنها أول مرة » .

وأحست كأن خشبة قد تجمدت في رأسها .

« هل سيحدث هذا مراراً من الآن فصاعداً ؟ هل سأقضي حياتي عند الفناجين وفرشاة الغسيل والمكواة ؟ لو كان عندي طفل منه » .

وفتحت النافذة ومدت رأسها خارجاً علّها تراه من بعيد :
« لو كان عندي طفل أتسلّى به حين أكون بين هذه الأشياء وأنتظره » .

وارتدت عن طرف النافذة متجهة إلى الباب الرئيسي لترى ما إذا كان واقفاً عند التعليقة يخلع عنه معطفه .
« لا . إنه لم يأخذ معطفه . وهذا أوضح دليل على أنه سيعود في أية لحظة . لو كان لي منه طفل على الأقل قبل أن يتركني » .

« إنك مجنونة » ، قالت لنفسها .

« عادة يجيء متأخراً عن هذا الوقت نصف ساعة — هل يمكن أن يكون قد انتحر خوفاً من الامتحان ؟ إنه ليس من أولئك الذين يتحرون » .

وودت لو تنظر ثانية إلى الشارع ، ولكنها بدأت تخاف
النافذة المربعة .

« من يقدر الآن على التفكير بأسوأ احتمال ؟ »
وبقيت عيناها جامدتين في الظلمة القابعة بين الجدران
الملبسة بالبُسط والمدينة . وفكرت أنه اندهس .
« إنه مضرّج بدمه أمام واجهة مصبغة خالية من البشر ،
تحقق به الغسالات العور بينما دمه ينزف — لا يجب التفكير
بأشياء كهذه خوفاً من أن يحدث هذا بالفعل . »
« لا أعرف شيئاً من أمره . كان عليه أن يذكر ما يجول
في نفسه » . قالت هذا بصوت عال . ظنت أن في الأمر حادث
سيارة .

« لقد أصيب إصابة خفيفة . وهو الآن في المستشفى
للتضميد . »

وتجنبت رؤية المربع الأسود ، وضغطت الجفون على عينيها
فلمحت مربعاً بلون الحليب يلمع وتخرقه خطوط أرجوانية ،
خيوط باهتة ، ونور ضئيل .

« أين زوجي ؟ أين ديتريش ؟ »

لم تشأ الذهاب إلى البوليس ، فاخفأوه ينحسه وينحسها
وحدها . وقرّرت أن تبحث عنه تاركة وراءها قصاصة من
الورق : إنّي أبحث عنك في المرفأ . انتظر حتى أرجع أو

اكتب لي أين تذهب .

لم تركب في الباص . فهي لا تعرف تماماً المحطة التي عليها التزول فيها . سألت بعض المارة المسرعين عن الطريق ، وغالباً ما تصوّرت أنّه يتبعها . والتفتت : ما من أحد يتبعها — ما من غريب ، ولما وقفت عند الجسر المكتوب عليه « جمرك » فكّرت : « سأعود . لا أريد الدخول خفية في منطقته . لقد تركت البيت من وقت قصير ولست متأكدة أنني سألتقي به الآن » .

عبرت الجسر ذا الدعائم التي تشبه ظلالاً في مياه مترجرجة ومضاهة بالقناديل . ودخلت مركزاً للمراقبة فيه ميزان كبير وسألت :

« أسمح لي بدخول المرفأ ؟ »

« إن لم يكن عندك شيء أفضل » أجابها الحارس .

« ما تبغين هنا في هذه الساعة المتأخرة ؟ » سألها آخر .

« إنني هنا صدفة وأريد أن ألقى نظرة » .

« يجب أن تعرفي أن كل ما تنقلينه عندما تتركين المكان

يجب عرضه على الجمرك لدفع رسمه ، هذا إذا كان عليه رسم جمرك » .

« نعم » .

وحاولت أن تبيّن اللوحات المعلقة في الشوارع .

« إنه لمن العجيب أن للشوارع هنا أسماء كشوارع المدينة » . وقرأت كلمة هولندا على إحدى اللوحات .
« لعلّ ديتريش سافر إلى هولندا ؟ سأعثر عليه هنا بالتأكيد . ربّما نسي شيئاً أو التقى بأحد رجال الجمرك الذي اصطحبه للقيام بجولة تفتيشية » .
ومرّت عبر بيوت عالية سوداء لاحت وكأَنَّها معدّة للسكن ولكن ما من أحد كان يمشي على الرصيف إلى مداخلها .
وتقدّمت إلى الأمام وتطلّعت إلى البرج الصغير الأخضر وحاولت رؤية ما يجري في الداخل من خلال النوافذ ؛
واكتشفت أن النوافذ مظلمة ومدهونة بلون أزرق .
« كمنظارات مظلمة زرقاء » ، قالت في نفسها .
وفي آخر الشارع كانت تشتعل نار بين الأعمدة .
« يوجد حريق . لهذا أسرع إلى هنا » .
وعندما اقتربت من المراكز الفولاذيّة المتقدّمة كانت النار قد انطفأت ، وركضت عبر رافعات جامدة وهادئة ، عبر قاطرة ، وتاهت بين المواقف التي لا إشارة لها وبحث عن طريق العودة . وتطلّعت إلى النوافذ العالية ، فلعلّ هناك من يفتح نافذة ليستنشق الهواء أو لينصت في اللّيل . وانزلت رجلاها وحاولت التمسك بشيء على الرصيف فلم يقع في قبضتها سوى حبوب صغيرة مرشوشة تحت النوافذ . فجمعت

ملء قبضتها منها وأخذتها حتى أقرب ضوء .
« إنتها قهوة ، قهوة غير محمصة ، كلّ الشارع مرشوش
بجبوب من القهوة ، القهوة خلف كلّ التوافذ . يجب أن
تكون الآن في البيت يا ديتريش » .
وعندما فتحت الباب طارت البطاقة التي تركتها بصورة
دائرية عن الطاولة . فديتريش لم يكن في البيت . وارتمت
بشبابها على الصوفا وراحت تمرّ بإصبعها على طيات الشرف
يبطء ومن ثمّ جمدت الإصبع وهي نصف مملودة .
لم يرجع ، ورؤساؤه لم يسألوا عنه خارج الخدمة ، ولا معارفه
عرفوا شيئاً عن مكانه ، وما من خبر عند البوليس ، وجرى
التفتيش ، وفي الربيع ، وقريباً من الحدود الدانمركيّة ،
عثرت على جثته دوريّة قامت بتفتيش على نطاق واسع .
كان في حفرة مدفع مطمورة بالعلّيق والأعشاب وعلى جانبه
أنايب جبوب منومة فارغة .

ترجمة : فؤاد رفقة

فتى البحر

هانس إرينتن نوساك

ترجمة : الدكتور مصطفى ماهر

الهيئة العامة للكنيسة الأسكندرية	
رقم التصنيف	٨٥٥
رقم التسجيل	٢٠٧٩٨

دار صادر
بيروت

فتى البحر

بقلم هانس إيريش نوساك

كثيراً ما سمعنا أن صياداً اصطاد امرأة من البحر بشبكته ،
وأن هذا شيء لا غرابة فيه . والحقيقة أن صيداً من هذا النوع
لم يُنح لي ، وربما كان مرجع ذلك إلى أنني لم أجد قطّ
فرصة للصيد في البحر ، ولست أشكّ في أنني قد أوفقت في
ذلك لو أتيت لي مثل هذه الفرصة ، فأنا أتصوّر الآن الشبكة
وهي تشدّني وتزداد ثقلاً كلما جذبتها ، وأنظر وراء حافة
القارب فأرى شيئاً ظاهراً في الماء ، فلا أدع الشبكة بطبيعة
الحال تغلت مني بل أستجمع قواي ما استطعت حتى أوفق
في إخراج الصيد إلى السطح وأتبيّن أنّه امرأة تورّطت في
شبيكتي وأجدها بلا حركة ، ربما لأنها لا تريد أن تتحرّك
ولكنّها تعيش لأنها تنظر إليّ من خلال فتحة جفنيها ،
ويتساقط الماء من جسمها في لآلئ كبيرة . منظر ممتع !

أما الذيل الصغير الذي يحلّ محلّ رجلها فمن الصعب تصوّره ،
ولا بدّ أنّي سأحسّ بإحساس مضطرب ، ولكن ما دام
الأمر قد وصل إلى هذا الحد ، فلمّا أن أكفّ عن النظر إليها
ولمّا أن أعود نفسي عليها سريعاً .

وغالباً ما تنتهي مثل هذه القصص نهاية حزينة ، لأن
المرأة أو عروس البحر لا ترتاح للعيش على الأرض رغم
كلّ الحبّ الذي تلقاه ، أو لأنّ الصياد يدع الشبكة تفلت
منه في اللحظة الأخيرة ويقفز إلى الماء وراءها ، فإذا لم يفعل
الصياد ذلك ، لأنّ العادات تحول بينه وبين ما ينويه ، فإنّه
يصبح إنساناً لا يصلح لشيء ، يبتعد عن البشر وعن النساء
خاصة ، نعم عن النساء خاصة ؛ لأنّه إذا حدث أن نسي
وتزوَّج واحدة منهن ، فإنّه سيتهيّئ إلى الشقاء والتعاسة .
لذلك يراه الراؤون في المساء يجلس على صخرة وينظر إلى
البحر وربّما سمعه بعضهم يغني .

الأمر إذن كذلك ولن يمكن تغييره أبداً ، ومن أراد أن
يتجنّب هذا الخطر فعليه أن يبقى في البيت ويدع جدّته
تطبخ له الأكل المحبّب إلى نفسه .

أما أن امرأة يحدث لها مع رجل أمر من هذا النوع فهذا
شيء لم يقصّه أحد علينا . والحق أنّي كنت أعتقد دائماً
أنّ البحر لا يعيش فيه إلاّ نساء وبنات وربّما عاش فيه أيضاً

عجوز بحري يضع فوق رأسه قبعة عتيقة ويلبس صدرية
لامعة مقرقة . أمّا الفتیان الدكن الذين يلهون ويلعبون ويدورون
حولہ ككلاب البحر فلا مكان لهم في حسابي .

هل يرجع هذا الخطأ في تصور الموضوع إلى أن النساء
اعتدن التزام قدر أكبر من الكتمان في هذه الأمور أكثر ممّا
نفعل نحن معشر الرجال ؟

ومهما يكن من أمر فقد حدثت لهنة قصة من هذا النوع ،
والحقيقة أن اسم هنة لا يعجبني بصورة خاصة ، وربّما
كان السبب في ذلك فكرة قديمة تسمّرت في ذهني ، فعندما
كنت طفلاً كان لدينا خادمة في البيت بهذا الاسم شعرها
أشقر شقرة عجبية وخدّاها أحمران حمرة غير مألوفة .
وكانت إذا ربطت لي الفيونكة الحريرية البيضاء وألبستني
الياقة المنشأة المتعّبة ، على نحو ما كان ينبغي للصبية
إذا ذهبوا لزيارة ، أحسست بالغیظ . وخلاصة القول أنّني
لو اختلقت هذه القصة لوجدت بلا شكّ اسماً أفضل من
اسم هنة ، اسماً اتخذ في غضون حادثة قديمة ذات شهرة
كبيرة أو صغيرة نغمة معيّنة إذا سمعها سامع الاسم قال :
« آه ، هذا هو المقصود » أو « كان منظرها كذا » . فلم
تكن هنة التي أعنيها شقراء ، بل كانت ذات شعر أسود
قصير لطيف ، وكان وجهها شاحباً ضيقاً ، وكانت رقيقة

ورشيقة القوام أو بالأحرى كانت عجفاء ، وليس في هذا ما ينجل فلأتنا نجوع جميعاً منذ ثمانية أعوام . لو كنت فرنسيّاً لأسميتها مثلاً سوزت . ولكن لنبقَ مع هنة ولنترم الحقيقة : عندما نزلت البحر في مساء يوم من أيام شهر يوليو في الساعة التاسعة لتستحمّ ، أحست بشيء يمسكها من الخلف من تحت الماء ، ويمسّها مسّاً رقيقاً ولكنه متمعدّ فوق ركبتيها اليسرى ، واعتقدت في أوّل الأمر أنّ شيئاً من أعشاب البحر تعلق بساقها .

وكان الجو في ذلك اليوم خانقاً ، وكان البحر هادئاً أملس السطح ، وكان هناك غيم خفيف بنفسجي اللون يهيم فوق الماء ويزداد كثافة قرب الأفق ، وبدأ لسان الشاطئ قريباً جدّاً ، ولمع بيت الصياد فوقه أبيض شبيهاً ببيت بعض الأرواح ، دون أن يكون هناك في هذا الوقت من اليوم مصدر ضوئي يلقي عليه نوراً .

كانت هنة قد وصلت هذا المكان عند المغرب بعد رحلة شاقة كالرحلات التي تقوم بها اليوم في القطارات الحديثة ، وقطعت الجزء الأخير من الطريق سيراً على الأقدام ، وكان هناك قديماً أوتويس يسير عليها ثمّ ألغى . كان سيرها على الأقدام في وسط الحرارة وهي تحمل حقيبة ، أبعد شيء عن المتعة . فلمّا وصلت تكلمت في القرية مع بعض السّمّاكة

الذين نجوا بحياتهم من الحرب ، وأخذت مفتاح واحد من بيوت
الاستراحة الصغيرة القائمة على مرتفع ينحدر إلى الشاطئ
انحداراً شديداً ، كانت في ما مضى قد سكنت فيه مرة وأرادت
أن تجرّب السكنى فيه أيضاً الآن .

كان البيت الصغير قد تعرّض للنهب الشديد ، ولكن هنّة
كانت قد عملت حساب ذلك مقدّماً ، وربّت ما استطاعت
إلى الترتيب سيلاً ، وتبينت أن الإنسان يستطيع عند الضرورة
أن يقيم فيه ، ثمّ جلست خائرة القوى إلى مائدة حجرة الطهي
والأكل والمعيشة وفكرت : الآن أكتب خطاباً . وفجأة
خطر ببالها أنّها لم ترَ البحر حتى الآن كما ينبغي ، فنهضت
وتناولت ملابس الاستحمام من الحقيبة ونزلت إلى الشاطئ
الذي كان آنذاك خالياً تماماً .

وخلعت ملابسها بعد شيء من التفكير وارتدت لباس البحر
ونزلت إلى البحر باحتراس وحذر ، فوصل الماء أولاً إلى
عرقوبها وتبينت أنه لطيف منعش ، ولكنها لم تترجم فيه ،
بل نزلت خطوة خطوة باحتراس كأنّها أرادت ألاّ تترك
آثاراً في رمل أرضية البحر ، ثمّ وصل الماء إلى ردفها ،
وصادفت مرتفعاً تحت الماء كلّما سارت عليه برزت من
الماء حتى كادت تبرز منه كلّها ، وعاد البحر إلى العمق
وأخذت تغوص وتغوص ، فلمّا بلغ الماء كنفها فكرت :

الآن أريد أن أعود إلى الشاطئ ساجدة . عند ذلك حدث ما
أشیرنا إليه من قبل .

ربما لا يكون من الصواب ما قلته من أنها أحست
بشيء بمسكها ويجرها إلى الوراء ، والأقرب إلى الصواب
أنها أحست بشيء يستند إلى ساقها .

ونحست هنة ساقها واعتقدت أن يداً صغيرة أو على
الأصح يداً لطيفة صغيرة مكتنزة تقبض على ركبتيها ، وبطبيعة
الحال كان هذا خداعاً حسيّاً ربّما سببه الماء .

وأبعدت هنة يدها مندهشة ونظرت إلى الماء وقد لوت
جسمها حتى نصفه ، فرأت عند قدميها شخصاً أبيض اللون
لم تستطع أن تتيّنه على وجه الدقة .

وصاحت : « دعني ! » فركها على الفور ، ولكنه
ظلّ في قاع البحر يدور حوالها ، واعتقدت هنة أنها ترى
عينين تنظران إليها متسائلتين ، ولكن الماء سرعان ما كان
يغير المراتبات جميعاً .

ثمّ صاحت : « اخرج ! » وأحست بالماء يندفع رقيقاً
عند قدميها إلى أعلى جسمها ، وطفأ رأس شاب من البحر .
كانا قريبين أحدهما من الآخر ، كان الفتى أطول من
هنة قليلاً ، وكان الماء يصل إلى إبطيه ، وكانت كتفاه والشاطئ
على خط مستقيم ، أمّا هنة فكانت تقف وظهرها ناحية البحر .

ولا ينبغي أن يعجب أحدكم عندما نقول إنها لم تفرع ،
فأنا مثلاً كما سبق أن ذكرت لن أحسّ بالفزع إذا اصطدت
بتناً من البحر . عندما يجد الإنسان هذا الصيد يأخذه في أول
الأمر فضول ثمّ ما تلبث أفكار أخرى مختلفة تماماً أن تدور
في رأسه عندما يكون قد عرف حقيقة الأمر .

ظلاً واقفين بصمت برهة ومتواجهين ، الفتى ينظر إلى
هنة في شوق، وهي تتأهب لتسأله عما يريد منها، ثمّ تصرف
النظر بعد قليل عن هذا السؤال ، وتقول لنفسها : لا بدّ أنّه
رآني عندما دخلت الماء فأحبّتي ، ولا يجرؤ على مصارحتي
بحبه لأنّه ما زال صغير السن .

وحاولت أن تبسم له ، كذلك ابتسم الفتى في تردّد ،
ولم يُعجب هنة منه ذلك وفكرت : ماذا يدور بخله ؟ إنّه
يتصرف كما لو كنت أشواق إليه ، ثمّ ماذا أفعل به ؟ لا يمكن
أن أظلّ واقفة معه في الماء أبد الدهر . كذلك لا أستطيع
أن أنهره وأطرده عني . ما أتعسني إذ حدث لي هذا اليوم !
وراحت تفكّر في الأمر وتجدّ في التفكير فتكونت طية
كثيرة بين حاجبيها ، كذلك اعترى وجه الفتى شيء من
الاكتئاب ، فصعب هذا على هنة وقالت له : « تقدّم إلى
هناك » وأشارت إلى الشاطئ ، فقد كان أحبّ إلى نفسها
أن يتقدّم إلى الأمام حتى تبقى في محيط بصرها .

وأطاع الفتى . ولما بلغ الجزء المرتفع من أرضية البحر ،
تبيّنت هنة أنّه عريان ، فتردّدت قليلاً ، فظلّ على التو
واقفاً في مكانه ودار ناحيتها لأنّه ، بلا شكّ ، خاف ألاّ
تتبعه . وصاحت به هنة : « تقدّم » وهناك فوطي التفّ بها .
وقالت في نفسها : إنّهُ جميل جدّاً ؛ وسارت ناحية
الشاطئ ، لم يكن هذا يعني أنّها هامت به فليست هناك امرأة
تهيم برجل لأنّه جميل ، على أيّة حال هذا هو ما اعتقده ،
وإذا حدث أن هامت بعض النسوة برجال لجمالهم ، فلسن
من خيرة النساء .

ولا بدّ أن هذا الفتى ، على قدر ما تبينت من الكلام ،
كان يشبه « العبد الناعس » لميشيل أنجلو ، إذا رآه الإنسان
أحسنّ برقة ممتزجة بالخوف تتملّكه ، لا لأنّه جميل الجسم
فحسب ، بل لسبب آخر أيضاً .

لم تفكر هنة بطبيعة الحال في ذلك العبد ، ولكنها أحست
بالفرح والاطمئنان عندما رأت أن الفتى جميل . وإذا كنت
في حديثي عن هنة أستعمل كلمة امرأة ، فلا يصحّ أن
يؤدي هذا إلى تشويه الصورة . كانت هنة في نحو السادسة
والعشرين ولم تكن متزوجة ، كذلك إذا قلنا عنها إنّها بدت
شابة ، شوّها الصورة أيضاً ، فذلك كلمة غيبة تسبّب
الخرج .

وذهب الفتى إلى حيث كانت أمتعة هنة وأخذ الفوطة
ليلتفّ بها ، ولكنه لم يتمكن من ذلك .

وقالت هنة : « مالك لا تجيد هذا ؟ تعال ! » وساعدته
في الالتفاف بالفوطة وثبتتها في وسطه ، ولما لمسته انتفض
لأن يديها كانتا باردتين من ماء البحر وكان هو جافاً دافئاً
كأنه لم يكن في الماء على الإطلاق .

وقالت هنة : « حسناً . ستثبت الفوطة هكذا » . كانت
تلك الفوطة زرقاء فاتحة توشك أن تكون مستهلكة من كثرة
غسلها ، ولكنه كان ، كما فكّرت هنة ، أنيقاً فيها .
وقصت هنة عليه شيئاً عن الفوطة فقالت : « لقد
استعرتها من صاحبة لي . فلست أملك فوطة لأن أمتعي كلّها
قد حُرقت » .

وهزّ الفتى رأسه عندما انتهت من جملتها . فقالت هنة :
« والآن اجلس هناك في الرمل ، وانظر إلى ناحية أخرى بينما
أرتدي ملابسني » . فأطاع ونظر إلى البحر .
وبينما أخذت تخلع لباس البحر المبتل فكّرت أنه كان
من الغباء أنها أعطته الفوطة ولم يعد لديها شيء تجفف به
جسمها ، وأخيراً استخدمت قميصها بدلاً من الفوطة وقالت
لنفسها إن الوقت ليل وإن القميص سيكون قد جف عندما
يأتي الصباح .

ولكنها غضبت رغم ذلك وراحت تسبّ في سرّها ما فعلته عندما حمّلت نفسها هذا الحمل ، ونظرت إليه وقالت في نفسها : ها هوذا يجلس ويعتمد عليّ في كلّ أمر . ماذا دفعني إلى ذلك ؟ هذا شيء لا يمكن أن يحدث إلّا لي . وهذا رأسي يوشك أن ينفجر .

ولاح بريق عاصفة بعيدة في الأفق وأضاء الشاطئ بنور يهتزّ اهتزاز اللهب .

وقالت هنّة الفتى وقد نظر إليها : « لا شيء في هذا ، ستهبّ علينا عاصفة ، على ما أظنّ » .

ثمّ فكّرت : لقد أمرته أن ينظر إلى ناحية أخرى وها هوذا ينظر إليّ . لا بأس في هذا ، فهو فتى طيب ولا يفكر في سوء عندما ينظر إليّ ، فلو أعدت عليه الأمر فلن يؤدي هذا إلّا إلى حمله على التفكير في سوء .

ربّما كان الفتى جائعاً . كم أنا غبية ، فلم أسأل السمّانة عن طعام ، وكانوا قديماً يبيعون ثعابين السمك . ثعابين السمك ! فهل يا ترى ما زالوا ينتظرون بالثعابين حتى أحضر أنا إليهم ؟ ولكن هذا الفتى أتى من البحر ولا شكّ أنّه لا يأكل سوى الأسماك والقواقع . ومرّت عليه ببصرها فتبيّنت أنّه لا يبدو بحمد الله جائعاً ، وأنّه أقرب ما يكون إلى الطفل ، وأفضل ما أقدمه إليه هو كوب من اللبن .

ثمّ ضحكك ضحكة خفيفة وكذلك ضحك الفتى .
وفكرت : عليه أن يضحك ما شاء له الضحك . فمن
أين آتبه الآن بالبن ؟ ولعلّه لا يعرف من قريب أو بعيد أنّنا
نجوع منذ سنين طويلة ، وأنّه يظنّ أن الإنسان لا يحتاج إلّا
إلى مناداة ماما ، فإذا الطعام معدّ على المائدة .
ولكن هذا ليس ذنبه ، لا بدّ أن أرى كيف آتبه بما
يسدّ به رمقه .

فلمّا ارتدت ملابسها صعدا معاً غابة على سفح المرتفع .
كان الظلام الشديد مخيماً على الطريق الضيق . وتركت هنة
الفتى يتقدّمها ورأت ظهره العاري يبرق ، كأن القمر يسقط
عليه نوره ، وفجأة تعثر ، فقد انحلت رباط الفوطة لأنّه داس
على أطرافه بقدميه ، فانحنى وأمسك بالفوطة وهو يتّجه إلى
هنة في حيرة .

فقالت له : « لا بأس . سأربطها من أعلى بإحكام » .
وفكرت : لا بدّ أن يتعلّم الكثير ، ولا ينبغي أن يترك
بمفرده وإلّا سخر الناس منه .

فلمّا بلغا أعلى المرتفع ووصلا إلى الكوخ فتحت وأشعلت
شمعة وقالت : « ينبغي أن نقتصد في استخدامها فهي غالية
الثلثين جداً وقد أحضرتها معي احتياطاً - والآن اجلس إلى
المائدة ، وإذا أحسست بالبرد فضع معطف المطر على كتفك ،

وسأعدّ شيئاً من الشاي . وكان السماكة قد أحضروا لي شيئاً من البترول وأعطيتهم لقاءه سجائر لم يقبلوها إلاّ بعد إلحاح . أمّا الشاي الذي عندي فشاي أصلي أصرت ماما على أن آخذه معي رغم أنّي لا أحبّ أن أشربه .

وبينما أخذت تشعل موقد الغاز القديم وتغلي عليه الماء قرّرت أن تعدّ الشاي خفيفاً جداً : لا لأنّي أبخل عليه به ولكن لأنّي لا أعلم هل يتحمّل الشاي بصفة عامّة أم لا ، ولعلّه يفضلّه حلواً ، كان ينبغي لي أن آتي بشيء من السكر معي ، ولكنني فكّرت عند قيامي أنّي لن أحتاج إليه وأنّه ليس هناك معنى لحمل ما لا جدوى منه ، ولذلك قلت لماما : أنا لا أستطيع السكر فاحتفظي به . ومن منّا يستطيع معرفة المستقبل ؟ ثمّ ...

ونخبط هنة القميص المبتلّ ولباس البحر وعلّقت الاثنين على ظهر كرسي ليجمّاً . وكان الفتى يجلس طوال الوقت لطيفاً مهذباً على كرسيه يتبعها بعينيّه إلى كلّ مكان . وقرّعت هنة بالفنجانين وهي تضعهما على المائدة وقالت في نفسها : أنا لم آتِ إلى هذا المكان من أجله ، فماذا يدور بخلده ؟ كنت أريد أن أدخلو إلى نفسي ، فإذا بي أحضر معي في الأمسية الأولى على الفور فتى البحر هذا . ليتني لم أستحم ! ولست أظنّ أنّي سأتخلّص منه بسهولة .

وذهبت إلى الحجرة المجاورة وتركت بابها مفتوحاً ليدخل إليها منه النور ، وانحنى على حقيبتها وأخذت تتحسس فيها بعض الأشياء ، وفجأة أظلم المكان عليها . فقد تبعها الفتي في سكوت تام ووقف في فتحة الباب .

وعنفته هتة قائلة : « لماذا لا تبقى جالساً ؟ لن أهرب منك . إنما أبحث عن الخبز الذي أعطتني أمي للرحلة ، ولا شك أنها وضعت عليه تموين الأسبوع كله من شرائح السجق ، وكم ثُرت وتمنعت ورفضت ، ولكنها تجدد دائماً حيلة لإعطائي أحسن ما عندها . وفي الطريق لم تكن لديّ شهية وكان الجوّ حاراً وما زال كذلك . فكل أنت . »

وأتمت إعداد الشاي وصبته في الفنجانين وجلست أمام الفتي ثم تناولت فنجانها ونفتت فيه لتبرد الشاي ، ولم يبعد الفتي عينيه عنها بل راح يقلدها في كل شيء لأنه اعتقد أن الصواب في ذلك .

وتبينت هتة أن يديه جميلتان . شيء عجيب ! لقد أمسك بهما ساقى وكأنهما كان يفعل شيئاً عادياً . ربّما كان ذلك من عاداتهم ، والمهم أنه لم يفكر في شيء عندما أمسكني . لو كان لي الخيار لتناولت قرصاً من الأسبرين . ولكن ذلك قد يثير قلقه ، أو ربّما أراد أن يتناول قرصاً هو الآخر . والمؤكد أنه لم يعانِ قطّ في حياته من الصداع .

أو لعلّي أَدْخَن سِجَارَةَ الْآنَ . ولكن ما عساه يظنّ بي ؟
ومن ناحية أخرى فلم يعد معي سوى إحدى وعشرين سِجَارَةً ،
لا ، انتظري - السّمَاك أخذ خمساً ، وأنا دخنت في الطريق
ثلاثاً - لا يهم ، غداً أبادل عليها لأحصل له على شيء ،
فهذا أهمّ .

ثمّ استجمعت أفكارها وقالت : « علينا على أيّة حال
أن ننتظر حتى تهدأ العاصفة . قصّ عليّ في هذه الأثناء شيئاً
عن نفسك . من أين أتيت ؟ أعني أن تصف لي داركم » .
ونظر الفتى إليها بانتباه ليفهم أسئلتها .

وعادت هتّة تسأل : « أو قل لي إن شئت : ما اسمك ؟
فلا بدّ أن لك اسماً » .
وهزّ الصبيّ رأسه .

« ليس هناك شيء من هذا القبيل . لعلّك لا تريد أن تقوله
لي ؟ فكيف أناديك إذن ؟ أم هل تريد مني أن أخمّن اسمك ؟ »
نعم ، بأيّ اسم أناديه ؟ وأخذت هتّة تفكّر وتنظر إليه
نظرة متفحصة ، ولاحت لها الأسماء كلّها غير مناسبة ، وأخيراً
خطر ببالها اسم ، وقبل أن تنطق به هزّ الفتى رأسه مسروراً .
وفكّرت هتّة : هذا شيء عجيب ! لم أعرف في حياتي
إنساناً بهذا الاسم ، كلّ ما في الأمر أنّي فكّرت أحياناً أن
هذا الاسم جميل وأنّه قد يُستخدَم مرّة . هذا لا يهمّ ،

فالمهمّ أن هذا الاسم يناسبه تماماً ، وأنّه لا يمكن أن يحمل اسماً آخر غيره . وقالت الاسم لنفسها دون أن تحرك به شفيتها .

واحمرّ وجه الفتى من الفرح .

ربّما ... وفزعت هنّة . ما أعجب أنّه لم يخطر بباله من قبل أنّه ربّما كان غريقاً ، ولكنها لم تجرؤ على سؤاله بصوت مسموع . ويبدو أن الصبي فهمها لأنّه هزّ رأسه .

واعترضت هنّة قائلة : « دفعني إلى هذا غبائي وأرجوك ألا تغضب مني ، ثمّ إن فكرتي هذه لا تتضمن إساءة ، لأنّها ممكنة ، فقد كنت أعرف شخصاً يعمل مهندساً ثانياً في البحرية ، وعندما وقع الهجوم على الترويج غرقت السفينة . والحقيقة أنّي لم أكن على علاقة به فقد كان صديق زميلة لي . وعندما قصت عليّ القصة فكّرت : كيف يعيش هؤلاء الذين يعيشون في قاع البحر ؟ »

وأرادت هنّة بهذا أن تلهيه ، ولكنّها لحيرتها لم تعرف سيلاً إلى موضوع الحديث الأول واستطردت :

« هناك أيضاً ألوان من العذاب . وهذا ما يحزنني . ولكن ما لنا نتحدّث عنها ؟ أنا اسمي هنّة . يمكنك أن تناديني هكذا أو تناديني بما شئت . »

وابتسم الفتى ابتسامة نبيهة كأنما أراد أن يعبر بها عن
أنه يعرف هذا خيراً منها ، ولاح له أنها تريد أن تعبت به .
وقالت هنة متحمسة : « هذا هو اسمي حقاً وصدقاً .
ويمكنني أن أطلعك على بطاقتي الشخصية . حقيقة أن الاسم
ليس حسناً بنوع خاص ، ولكن هذا ليس ذنبى ، فقد كان
جددي يدعى يوهانس » .

ولكن الفتى بدا كأنه لا يزال متشككاً .
وسألت هنة الفتى وهي تنظر إليه باهتمام : « فما اسمي
إذن في رأيك ؟ »

وبدا عليه أنه يفكر : ما هذا السؤال الذي لا داعي له ؟
لأنه ظلّ وقتاً طويلاً ساكناً قبل أن يجيب ، حرّك شفّتيه
فلم يُخرج منهما صوتاً ، وانطبقت شفّته مرّتين في رقة ثمّ
« هينا مفتوحتين قليلاً » . وتحرك وجدان هنة وقالت في نفسها :
لو علمت على أي صورة يتصوّرنى . كم أودّ أن أخيّب ظنّه ،
فهو يعتمد علىّ كليّة . وأشاحت عنه في حيرة والتمست عذراً ،
فنهضت لتحضر علبة من البسكويت .

« لقد نسيتها تماماً . هي من السويد . جرّب فهذا بسكويت
لم نعد نعرفه ، حصلت عليه هدية في عيد ميلادي ، والحقيقة
أنّني كنت أريد الاحتفاظ به ، ولكن لا يهمّ ، كل » .
وراحت هنة في الحجرة وجاءت وبحث عن شيء آخر

تشتغل به ، لأنها لم ترد أن تستمر في النظر إلى الفتى ، وفجأة جلست وقالت : « الآن عرفت من تكون . يا لغباي فلم يخطر لي هذا على الفور . لا ، لن أهرب ، ولا حاجة بك إلى التفكير في أنني أخاف منك . لماذا ؟ لعلني أتيت إلى هنا لهذا الغرض ، وكان لقاءنا في الماء منذ برهة صواباً . والغريب أنني لم أتعرف عليك » .

ولكن الفتى نظر إليها وهو لا يفهم مقصدها . وعادت هنة تتكلم معه : « ما جدوى التختي . اعترف . لقد قصص عليّ أحدهم القصة ذات مرة ، أو لعلني قرأتها في مكان ما ، المهم أنها كذلك وأنها تخطر ببالي الآن فقط . وملاك الموت عندما يأتي ، لا يتعرف عليه المرء على الفور بطبيعة الحال ، أولاً يعيشه الإنسان ويهيم به ثم يحدث ما يحدث » .

ولكن الفتى بدا كأنه لا يريد أن يتقبل هذا الاقتراح . وفجأة بدأت هنة تبكي ، لم تكن تريد أن تبكي ولكن الدموع انهمرت هكذا من عينيها ، أولاً سبحت على ماقيها واعتقدت أنها ستهدأ تَوّاً وأنه لن يلاحظ شيئاً ، ولكن الدموع لم تقبل أن تنحبس وانهمرت على وجهها . وحاولت أن تقول : « عفواً ، الأفضل ألاّ تلتفت إلى دموعي ، فأنا هكذا سريعة الدموع ، وقد مرت ست سنوات

لم أرَ فيها البحر ، وهذا هو ما يُبكيّني ، ولا يمكنك أن تتصوّر
ما يعنيه هذا بالنسبة إليّ ، والحقيقة أنّي لم أكن أعلم أنّي
ما زلت أستطيع البكاء .

وسقطت قطرة من دموعها في فنجان الشاي ، ولما
رأتها هتّة ساءت حالها .

وتحرّك الفتى قلقاً على كرسيه ، ولم يعرف ماذا ينبغي
له فعله . لو كان لديه منديل لقدمه إلى هتّة ، ومدّ يده
متردداً إلى هتّة يريد أن يربت عليها ، فلما لمس وجهها
أبعدت هتّة يده عنها .

وقالت : « لا داعي ، سيتهي ما بي توّأ » .
ولكن ما بها لم ينته . وأمسكت يده التي كانت على
المائدة وضغطت عليها .

وقالت وهي تنهّد : « فماذا أفعل بك ؟ سيضعونك
في زي الجنود ويرسلونك إلى الحرب ، كما يفعلون بالجميع ،
ولا طاقة لي على تغيير هذا ، عليك أن تفهم هذا ، فهو
لا يناسبك على الإطلاق ، وأنت لا تعلم بما يجري هنا ،
وتعتقد أن الأمور تسير في كلّ مكان على نحو ما تسير في
المكان الذي أتيت منه ، أو لنقل في هذا المكان . هنا البحر
وما زالت هنا أشجار وقرية الصيادين والحقول ، ولم أكن
أعلم بهذا . وهذا البيت الصغير تعرّض للنهب ولكن ما حدث

له لا شيء بالنسبة لما حدث ويحدث ، والبيت من أملاك والدي
خطيبي القديم ، وقد قالوا لي : « اذهبي إلى هناك وانظري
ماذا بقي ، فقد تقدّمت بنا السن ولم تعد لنا قدرة على
ذلك » . كان خطيبي وحيدهما ، وسقط في الحرب عندما
قامت مباشرة ، لقد مرّت على ذلك مدّة طويلة !

ولكنك إذا خطوت بضع خطوات إلى داخل البلاد
وجدت كلّ شيء محطّماً ، وقد اعتدنا على منظر الحطام ،
ولم نعد نعرف المنظر على نحو آخر ، وصرنا نعتقد أنّه لا بدّ
أن يكون كذلك . أمّا أنت فما شأنك بهذا ؟ لعلّك تفكر
أن الحال ستتحسن ذات يوم وأنّهم عندما يتبيّنون أن كلّ
شيء قد تحطّم ، فلن يعودوا إلى الحرب مرّة ثانية . آه ،
حتى إذا صارت الحال إلى هذا ، وتحطّم كلّ شيء ،
فسيعودون إلى البداية ويشعلون نار الحرب من جديد . إنّهم
لا يهدأون ولا يستطيعون التصرّف على نحو آخر على ما يبدو .
حينذاك ستسقط وهذا ما لا أريده ، وحتى إذا لم تسقط في
الحرب ، فستعود مختلفاً تماماً ولن تعرف ماذا تعمل بي .
كلّهم أصبحوا كذلك على ما أرى . ستضرب في الأرض
غضبباناً ثائراً من الجوع ، أو ستجتر في السوق السوداء لتربح
مالاً وتشترى شيئاً ، ولست الشخص الذي يصلح لهذا .
أمّا أنا فماذا أفعل عندما أرى هذا ؟ لقد قالت لي إحدى

الطيبات منذ مدّة قليلة : « من تلد طفلاً في هذه الظروف ،
ترتكب جريمة » ، وكانت ناثرة على الرجال لأنهم لا يفكرون .
وليك هذا المثل ، ماما امرأة طيبة ، وأنا أحبها ولكني
لا أستطيع أن أتحدّث معها في هذا الموضوع . وأنا أعمل
في مكتبة ، وعندما أعود مساء إلى البيت تقصّ عليّ ماما مثلاً
أنّها حصلت على رأسٍ من الكرنب عند بائع الخضروات ،
وكان عليها أن تقف ساعتين حتى يصيبها الدور ، وهي تودّ
أن أفرح بها ، وهو ما يحدث أحياناً . ولكن الجهد لا يوازي
رأس الكرنب . أو تحكي لي أنّها تشاجرت مع الناس الذين
نسكن عندهم ، أو غضبت في المطبخ أو ما شابه ذلك .
فنحن نسكن سكناً رديئاً . إذ عندما نُسف الحي الذي كنّا
نسكن فيه عن آخره كان علينا أن نبحث عن مكان نأوي
إليه . ولعلّك تتخيّل أنّي أمتلك شيئاً ؟ نعم ، كنت أمتلك
الكثير قديماً ، وفقدنا كلّ شيء . لم أكن فيما مضى أرندي
فستاناً كهذا الذي أرنديه الآن ، ثمّ عليّ أن أواسي أمّي ،
فأقول لها : ليست الحال على هذا النحو من سوء . ولكن
هذا غير صحيح ، ولست أستطيع ترديد هذا الكلام على
الدوام ، وعندما يستعصي عليّ قوله يتملّكني الغضب ،
ولست تعرف إلى أي حدّ استبدّ بنا الغضب جميعاً ، ولو
عرفت هذا فلن تحاول أن تغضب غضباً مثله ، وربما استبدّ

بك مثل هذا الغضب دون ذنب منك . وأنت تمسكني من
ساقى وتظن : أنها ستصرف . ولكن كيف ؟ ماذا تعرف
عني ؟

منذ ثلاثة أيام فقط قرّرت أن آتي إلى هنا . هكذا فجأة .
ولم يكن من السهل الحصول على تذكرة . ثمّ المرحلة الشاقة .
ولكنني قلت لنفسي : لا بدّ أن تخرجني من كلّ شيء وأن
تفكّرني في كلّ شيء . وكيف كنت أعلم من قبل أنني
سأبكي ؟ لأن الإنسان لا يستطيع أن يتكلّم في هذا حتى
ولا مع أحسن الناس ، نعم ، هناك أخيار . ليس من الصواب
القول بأننا جميعاً أشرار . فهناك أناس ظلّوا على ما ينبغي أن
يظلّ عليه الناس . ليسوا كثرة ، ومن الصعب العثور عليهم ،
ولكنهم موجودون . فإذا عثرت عليهم فلا ينبغي أن تتكلّم
معهم في هذا ، أعني لا ينبغي أن تتكلّم معهم في موضوع
الكرنب أو ما شاكله من الموضوعات ، لأنهم سيقولون :
هذه أشياء لا أهميّة لها ، فيحسّ الإنسان بالجل . ولعلّك
أنت أيضاً تفكّر هذا التفكير ، وهذا الموضوع في حقيقته
ليس مهماً ، ولكنه إذا لم يلقَ العناية ، متّ جوعاً . فماذا
أفعل ؟ « وضغطت هنة على يد الفتى وارتاعت هي نفسها
لهذا .

وسألت : « هل آلتك ؟ هل تحسّ بالبرد ؟ لماذا لا تأكل

البسكويت ؟ إنه جيّد وليس عندي لك شيء سواه . إنه يسكويت مصنوع من الزبد الأصلي ، كذلك الشاي لم يكن في الحقيقة من أجلك ، بل أعطانيه زبون حصلت له على كتاب كان يحتاج إليه حاجة ماسة ، وليس هناك من الكتب إلاّ القليل ، ورفضت أخذ الشاي في أوّل الأمر ، ولكني أخذته لأسباب معيّنة .

أنصت إليّ . يمكنك أن تعرف كل شيء ، بل من الأفضل أن تعرف كل شيء حتى لا توجه إليّ فيما بعد أيّ لوم ، هذا بالإضافة إلى أنّي لم أتخذ قراراً نهائياً حتى الآن ، لأنّني اليوم على موعد معه ؛ أعني على موعد مع ذلك الذي أحضرت له هذا الشاي ؛ حقيقة أنّه يقول دائماً : لست أحتاج إلى شاي ؛ ولكني أعرف كم يفيد الشاي في عمله . ولم أقل له إنّني قائمة بهذه الرحلة ، وعندما يأتي اليوم إلى البيت سيدهش ، ولكن دهشته لن تدوم طويلاً ، وقد هممت منذ برهة بكتابة خطاب إليه ، ثمّ صرفت النظر عن ذلك ، وسيفكر : لقد حال بينها وبين ذلك أمر طارئ ؛ ثمّ يذهب إلى عمله ، وهو لا يعني بذلك الغلظة التي ربّما تخنط ببال السامع بادئ الأمر ، ولكني غير متأكدة ؟ ماذا ترى أنت ؟

قبل ثلاثة أيّام لاح لي الأمر هكذا . كنت جالسة على

الأريكة في حجرته أخيط قميصه ، وكنت قد لاحظت أن
أسورة القميص اليسرى متأكلة من احتكاكها بالساعة . وقلت
له : هاته ، من الممكن قلب الأساور . وأجاب في غيظ :
لا حاجة بي إلى ذلك . ثمّ أضاف : ولست هنا لهذا . ولكني
أخذت القميص وبدأت أشغل .

وكان يجلس إلى البيانو الكبير ويجرب لحناً ، فقد كان
عازف بيانو . وقد تعرّفت عليه عندما أتى إلى المكتبة يبحث
عن كتاب ، فسألته : « لماذا لا تقيم كونسرتات ؟ » لأنّني
كنت قبل نشوب الحرب قد سمعته وهو يعزف عدّة مرّات .
وكان مشهوراً .

منذ ذلك اليوم ونحن متعارفان . إنّه يؤكّد أن أصابعه
تحتاج إلى جهد لتعود إلى مرونتها الأولى ، فقد جندوه في
النهاية . يا للعار ! إنهم عندما يحاربون يستهينون بكلّ شيء
ومن يمتنع يرمونه بالرصاص ، أترى ؟ هذه هي أحوالنا .
ولكن حكاية الأصابع ليست السبب الوحيد ، فقد استرد
القدرة على استعمالها كما يريد منذ مدّة طويلة .

وليس لي أن أسأله عن السبب ، فإذا سأله تهكم عليّ
أو اغتاظ ، فتصنعت عدم الاهتمام وأنّني أعتبر أن السبب
لا يهمني في شيء .

ولكنني أعتقد أنّي عرفته إنّما يصعب عليّ التعبير عنه ،

فلم أدرس موسيقى . ذات مرة أتى أحد أصحابه إليه — وهو لا يحاط إلاّ القليل من الناس — وراحا يتحادثان ، وكان حديثهما يهمني فتابعته . قال لصاحبه : لست أفهمكم ، لماذا لا تبقون في مخيلكم وتسكتون ، إنكم تخافون من السكوت ، هذا كلّ ما في الأمر ، ولذلك تقفون وتخطبون مردّدين الكلام الذي علّموكم إياه ، وكأنّ حرباً لم تنشب وكأنّ شيئاً لم يحدث . إن ما تفعلونه شبيه تماماً بما لو أقمت على حافة مدينة منسوفة أرجوحة هوائية وقلتم : تفضلوا ، اركبوا وتأرجحوا ! كان صاحبه هذا كاتباً فضحك على هذا الكلام ، ولكنه هو لم يكن يحمله حمل الضحك ، قال : الناس يذهبون إلى الكونسرت لينسوا محتتهم ساعة ، وهذا شيء لا يمكننا أن نستعيه ، ولكن زجاجة من النبيذ تؤدي إلى النتيجة نفسها ، إلاّ أن ثمنها في السوق السوداء أغلى من ثمن تذكرة الكونسرت . أمّا الموسيقى فما أشبهها بفجر العاهرات .

ولا ينبغي لك أن تنفر من تعبيراته ، فإنّه يطلقها هكذا طبيعياً على قدر نغمتها . ونحن نفهمها بالتقريب ، أليس كذلك ؟

وبينما كنت أخيط قميصه أخذ يجربّ اللحن نفسه ويكرّره ، وكان يقطعه أحياناً ويعود إلى أوّله ، وكنت أرتاع كلّما قطعه لأنّ ذلك كان يحدث بغتة ، وكنت أعتقد أنّه

يجيد عزف اللحن ، وأظنّ أنّه لا يمكن تأديته على نحو أفضل .
فلماذا لا ينتهي به إلى النهاية ؟
أخذت ألاحظه سرّاً دون أن يتمكن من الانتباه إليّ ،
فرايت أنّه لا يقوى على احتمال الحال : كان يحفظ النغمة
الآخيرة ويصغي إليها .

لهذا قرّرت أن أرحل إلى هنا ، وسيصعب عليّ صعوبة
هائلة أن أشرح لك القصد من رحلتي . ولست أحبّ أن تظن
أنّي أتقول عليه وأظلمه ، لبتك تعلم كم أحبّ في هذه
اللحظة أن أعود إليه ! نعم ، أن نذهب إليه معاً ، أنت وأنا ،
يمكنك أن تأتي معي ، فسوف تحبّه ، وسيكون بينكما تفاهم
وتعاطف .

فأنت تشبهه . ربّما لا يرى آخر هذا الشبه ، ولكني
أراه . فلا تُشجّ ببصرك . طبعاً هو أكبر منك سنّاً ، وله
طيات في وجهه ، ويضغط على نواجذه كثيراً . كذلك شعره
يختلف ، فيه ما شاب ، وإن لم يكن كثيراً . ولكنه فيما
مضى ، أعني قبل ذلك الزمن الذي أصبح فيه جنديّاً ونحطم
فيه كلّ شيء ، بل وقبله ، لا بدّ أنّه كان في شكلك .
هذا مؤكد .

وهو الآن يبدو أحياناً في شكلك . ثمّ . . . ثمّ . . .
ألا تحسّ برداً ؟ لو كنت علمت أنّي سألقاك هنا لأتيت

بأمتعة أخرى معي ، فليس معي شيء لك .
نعم ، عندما كان جالساً إلى البيانو ، لم يفكر فيّ ، فقد
كان متوتراً منهمكاً في عمله ، ولكني كنت أعلم ما كان
سيفعل بعد ذلك ، كان سيأتي ويجلس إليّ بعد برهة ، أعني
عندما يتبين أنّه لن يتمكن من إكمال اللحن إلى نهايته ،
ثمّ كان سيشعل سيجارة ويتظاهر بأن شيئاً لم يحدث ، ولكني
كنت سألاحظ كل شيء ، ثمّ كان سيتحدث معي أو
غير ذلك .

فهو لا يحتاج إليّ . هذا ما في الأمر . لا عليك أن ترتاع ،
ولكن لا ينبغي أن يوهم الإنسان نفسه ، طبعاً يمكنني أن
أغير له أساور قميصه ، وأحياناً يكون متعباً فيأتي إليّ ،
ولكنه عندما يجلس إلى البيانو لا أكون بالنسبة إليه موجودة
في الدنيا ، بل على العكس قد يكون وجودي مقلقاً له .

فهل تصدقني إن قلت لك إنني كثيراً ما أغضب منه
لهذا السبب ؟ ولكني لا أعني أنّي غاضبة منه الآن ، بل
وأعترف بأنني كنت أجنب العدل في ذلك ، وقد غضبت
منك منذ برهة ، بالرغم من أنّه لم يكن قد مضى على تعارفنا
إلاّ وقت قصير . فأنا كذلك ، وليس لك في ذلك ذنب .

وماذا لو عزف القطعة إلى نهايتها على النحو الذي يستصوبه؟
ماذا يحدث ؟

لا أستطيع أن أصوّر لك مدى فزعي ، كنت أخشى
أن يختفي كل شيء ويضيع لو رحت أفكر فيه . الحجره ،
الأريكة ، القميص وأنا أيضاً .
وتعلقت بالقميص . أمّا هو فيستمرّ في العزف ولا يهتمّ
بشيء .

كنت أريد أن أتناقش معه في موضوع ، لا من قبيل
موضوعات الكرب والمشاكل التي أتناقش فيها مع ماما ،
فمثل هذه الموضوعات لا مكان لها في مناقشة معه ، ولكن
في موضوع أكثر أهميّة ، فهناك موضوعات أكثر أهميّة .
وبدلاً من أن أفعل ذلك ، رحلت . لم يكن تصرفي هذا
سهلاً ، ولا أعرف هل أصبت أم أخطأت ، ولست أعرف
ما سأفعل فيما بعد . وعليّ أن أرى بمفردي ، كيف أقوم
على أموري وأحسن التصرف فيها . كان ينبغي لي أن أنتبه
بقدر أكبر ، فقد كان الموضوع في نهاية المطاف موضوعه هو .
ولعله ينتهي من عزف اللحن إلى نهايته وأنا قاعدة هنا .
وأنصت هنة طويلاً ونسيت تماماً أنّها ليست وحدها .
وأعادتها إلى نفسها ريح مفاجئة هبت من ناحية البلد على
البيت ، وكان الفتى لا يزال جالساً أمامها ، وبدأ عليه كأنّه
يتعب في الإبقاء على عينيه مفتوحتين .
وفكرت هنة في خجل : المسكين ، لِمَ قصصت عليه

كلّ هذا ؟ إنّه لا يفهمه ، ويبدل جهداً في الإنصات إليّ ،
ليصنع فيّ جميلاً . يا لي من شخص مضحك !

وقالت : « عليك أن تذهب الآن إلى فراشك . وعلينا
أيضاً أن نوفر في استهلاك الشمعة فقد ظلّت مشتعلة مدّة
طويلة جداً . تعال ! ليس عندي من البياضات ما يكفي
إلاّ سرير واحد ، ولكن لتصرف » . وذهبت بالنور إلى الحجرة
الجانيّة وتبعها الفتى ناعساً .

وقالت : « ارقد الآن ، سأغسل الفناجين الآن حتّى
لا يكون عليّ عمل شيء في الصباح الباكر » .

وخلع الفتى القوطة من وسطه واجتهد في تطبيقها بدقّة
حسب طيّاتها المعلّمة ، واندeshت هنّة لذلك وقالت في
نفسها : يا له من فتى منظم !

وقالت له : « دع القوطة ، أو ألقها على كرسي . سأطبقها
أنا » . واندسّ الفتى في الفراش وذهبت هي بالشمعة إلى
المطبخ لتغسل الآنية .

وبينما هي منهمكة في ذلك بدأت العاصفة ، فانفضت
ونظرت بعد الرعد الأوّل إلى الباب المفتوح الموصل إلى حجرة
النوم فلم تجد هناك شيئاً يتحرّك .

وقالت في نفسها : الأصوب أن أنتظر حتّى تنتهي العاصفة
وهو لا يفكر أنّي أخاف منه . ثمّ خلعت ملابسها .

كان الفتى نائماً عندما بلغت هنة الفراش . ولا أعرف ما إذا كانت هنة توقعت هذا أو توقعت شيئاً آخر . وقالت في نفسها : ليس هذا غريباً ، فقد كان متعباً ، وهذا أول يوم له على الأرض ، وقد خبر فيه الكثير . كان يرقد على جانبه ويتنفس هادئاً ، ولم يكن صدره وذراعه تحت الغطاء لأن الجو كان حاراً بالنسبة له .

ووضعت هنة يدها حول الشمعة حتى لا يوقظه ضوءها وتأمّلت فيه متأثرة ، وأسفت لأنها لم تقبله متمنية له ليلة هادئة ونوماً مريحاً .

لعله كان يتوقع مني ذلك ؟ أو لعله كان ينتظر أن أصلي معه صلاة ما قبل النوم ؟

وأطفأت النور وهي تبسم ووقدت في الفراش بجواره . كان المكان كافياً ولم يستيقظ . وفي الخارج كان المطر ينهمر ، ونامت هنة على الفور .

ولا ينبغي أن ندهش عندما نعلم أن الفتى كان قد انصرف في الصباح التالي ، كذلك هنة لم تدهش . وقد ذكرت من قبل أن هذه القصص تنتهي غالباً نهاية حزينة أو تنتهي على الأقل نهاية غير مرضية . ولو كنت أنا الذي اختلقها ، لصعب عليّ أن أضع لها نهاية ترك القارئ في شك من أمرها ، فالحديث عن هنة والفتى لا يحتاج إلى كلمات كثيرة لإنهائه :

كان من الممكن أن نقول إنها تمكنت من الحصول عند الصيادين بطريق البدل على بعض ثعابين السمك ، هذا شيء مثلاً . أو نقول إنها كتبت خطاباً إلى أمها ، ونتبع أيسر السبل فنذكر نصّ الخطاب ونعتبره خاتمة . أمّا عازف البيانو فسيكون من الصعب ابتداء مصير له ، فالقارئ يجب أن يعرف مثلاً هل وُفّق في عزف اللحن إلى نهايته . ولكن من يعلم ذلك ؟ ربّما استمع إليه البعض في هذه الأثناء يعزف في صالة الكونسرتات . وحتى إذا صحّ هذا يبقى سؤال وهو : هل عرف شيئاً عمّا حدث لهنة ؟ فإذا كان الردّ بالإيجاب : فهل كان لذلك أثر ما على عزفه ؟ ولكني كما قلت لم أبتدع هذه القصة ، بل أقصّ ما أعرف .

في الصباح التالي خرجت هنة إلى باب الكوخ وكان الجوّ فيه رطوبة من اليوم السابق ، ولكن العاصفة كانت قد انتهت منذ مدة طويلة وامتدت الأرض منتعشة نظيفة تحت الشمس . وهناك عن قرب قعد ثعلب أمام جحر فيران ، فلما رأى هنة قال في نفسه : لتقف ما شئت ؛ وأشاح عنها ولم يلتفت إليها ، وانهمك في مهمته .

وتنفّست هنة نفساً عميقاً . وخطر ببالها : آه ، لقد بكيت بالأمس ! ولمع البحر الفضي من بين جدوع أشجار البلوط القائمة على السفح .

وأرادت هتّة أن تقول شيئاً ولكنها لم تتمّ الفكرة إلى آخرها لأنها لاحت لها بديهة : عندما يأتي في المرّة القادمة فسأعرف بوسيلة أو بأخرى كيف أتصرف .

كان البحر قد تجمّع تجمّع رقيقة جداً ، وأخذت أمواج ضئيلة تلامس الشاطئ في رقّة شديدة دون أن تترك أثراً ، الواحدة وراء الأخرى .

ومن الممكن أن نضيف شيئاً إلى القصة دون أن نتورط في كذب ، فنقول إن النساء اللاتي يعشن خبرة من هذا النوع يمكنهن أن يستفدن منها فائدة أكبر ، يمكنهن مثلاً أن يتمنين أن يرزقن طفلاً يشبه قتي البحر هذا ، فإذا بذلن شيئاً من الجهد تحققت أمنيتهن ، فهذا بلا شك أفضل بكثير من مجرد الجلوس على صخرة والاسترسال في إنشاد أغنية الحنين من حين لآخر في المساء .

ويحضرنني الآن قول مأثور قرأته في موضع ما ذات مرّة ، وأعتقد أنّه يرجع إلى اليونان الأقدمين ، ولكني لا أعرف قائله : البحر يغسل محن البشر جميعها .

ترجمة : الدكتور مصطفى ماهر



إبداعات عالمية



إيتالو كالفينو

آدم ذات ظهيرة

ترجمة

الياس فركوح و مؤنس الرزاز



آدم ، ذات ظهيرة

كان لصبي البستاني الجديد شعر طويل عمل على ضبطه بقطعة قماش ربطها حول رأسه وثبتها بعقدة صغيرة . كان يمشي في الممر حاملاً وعاء السقاية الطافح ، وبيده الأخرى يسندة ليوافق حمله . سقى الكبوسين* ببطء ، وبحذر ، وكأنه يسكب قهوة وحلياً ، حتى تفككت التربة عند ساق كل نبتة ، واستحالت الى بقعة ناعمة سوداء . يرفع وعاء السقاية عندما تكبر وتتخصل بما فيه الكفاية ، وينقل نحو النبتة التالية . كانت ماريا - نانزياتا تراقبه من نافذة المطبخ ، وتفكر كم هو لطيف وهادئ عمل البستنة . كان شاباً يافعاً ، لاحظت ، ومع ذلك فانه ما يزال يرتدي سروالاً قصيراً ، كما ان ذاك الشعر الطويل جعله يبدو مثل فتاة . توقفت عن غسل الأطباق ونفرت على النافذة .

« أنت ، يا ولد » . نادى .

رفع صبي البستاني رأسه . أبصر ماريا - نانزياتا وابتسم . ضحكت بسبب من انها لم يسبق لها أن رأت صبياً بشعر طويل كهذا ، وعقدة على رأسه . دعاها صبي البستاني بيده ، واستمرت ماريا - نانزياتا بالضحك على الايحاء التي قام بها . راحت توميء بالمقابل لتشرح له أن عليها أن تغسل الأطباق . لكن الصبي عاود الايحاء ، وأشار الى أصص الأضاليا بيده الثانية . لماذا أشار الى تلك الأضاليا؟ . فتحت ماريا - نانزياتا النافذة وأخرجت رأسها .

« ماذا بك؟ » . سألت ، وعادت للضحك مرة اخرى .

« أتريدن رؤية شيء جميل؟ » .

« وما هو ؟ » .

* Nasturtium الكبوسين ، أبو خنجر - المورد . -

« شيء لطيف . تعالى لتري . بسرعة » .
« أخبرني ما هو » .
« سأعطيه لك . سأعطيك شيئاً لطيفاً جداً » .
« لكن عليّ غسل الأطباق ، وستأتي السنيورة ولن تجدي » .
« هل تريدني أم لا ؟ تعالى ، الآن » .
« انتظر لحظة » . قالت ماريا - نانزياتا ، وأغلقت النافذة .
عندما خرجت عبر باب المطبخ كان صبي البستاني ما يزال هناك ، يسقي نبتة
الكبوسين .
« مرحباً » . قالت ماريا - نانزياتا .
تبدو ماريا - نانزياتا أطول مما هي عليه بسبب حداثها مرتفع الكعب ، والذي من
الخسارة أن تنتعله بينما تشتغل ؛ لكنها كانت تحب ان تفعل هذا . بدا وجهها الصغير مثلما
طفل وسط شعرها الأسود المجعد ، كما ان قدميها كانتا نحيلتين وطفوليتين أيضاً ، وكذلك
جسمها ، تحت ثنيات وزرتها ، مدوراً ومكتنزاً . كانت دائمة الضحك : إما بسبب كلام
الآخرين أو كلامها هي .
« مرحباً » . قال صبي البستاني . كانت بشرة وجهه ، ورقبته ، وصدره ، بنية غامقة ؛
ربما لأنه نصف عار دائماً ، كما هو الآن .
« ما اسمك ؟ » . سألت ماريا - نانزياتا .
« ليبرسو » . قال صبي البستاني .
ضحكت ماريا - نانزياتا ورددت : « ليبرسو . يا لالاسم الطريف ، ليبرسو » .
« انه اسم بالاسبرانتو » . قال . « انه يعني (حرية) بالاسبرانتو » .
« اسبرانتو » قالت ماريا - نانزياتا . « هل أنت أسبرانتو ؟ » .
« اسبرانتو لغة » ، فسّر ليبرسو . « أبي يتكلم الاسبرانتو » .
« أنا من كالايريا » . أوضحت ماريا - نانزياتا .
« ما اسمك ؟ » .
« ماريا - نانزياتا » . قالت وضحكت .
« لماذا تضحكين دائماً ؟ » .
« لماذا تدعى اسبرانتو ؟ » .

« ليس اسيرانتو ، ليبيرسو » .

« لماذا ؟ » .

« لماذا تدعين ماريـا - نانزياتا ؟ » .

« انه اسم مريم العذراء . سميت على اسم العذراء وأخي على اسم القديس يوسف » .

« القديوسف ؟ » .

اهتزت ماريـا - نانزياتا ضاحكة : « القديوسف ! القديس يوسف ، وليس قديوسف ، يا ليبيرسو ! » .

« ان أخي يدعى جيرمينال » . قال ليبيرسو . « وأختي تدعى أومنيا » .

« الشيء الجميل الذي أخبرتي عنه » ، قالت ماريـا - نانزياتا ، « أرنى آياه » .

« تعالي ، اذن » . قال ليبيرسو . وضع وعاء السقاية على الأرض وأخذها من يدها .

ترددت ماريـا - نانزياتا : « أخبرني ما هو أولاً » .

« سترين » . قال ، « لكن عليك أن تعديني بالعناية به » .

« هل ستعطيني آياه ؟ » .

« أجل ، سأعطيه لك » . قادها الى زاوية عند جدار الحديقة . هناك حيث تقف

الأضاليا في أصص في مثل طولها .

« انه هناك » .

« ما هو ؟ » .

« انتظري » .

اختلست ماريـا - نانزياتا النظر من فوق كتفيه . انحنى ليبيرسو ليعيد أحد الأصص ، ورفع احدها على الجدار ، وأشار الى الأرض .

« هناك » . قال .

« ما هو ؟ » . سألت ماريـا - نانزياتا . لم تستطع أن ترى شيئاً . كانت الزاوية غارقة في

الظل ، وطافحة بورق الأشجار المكومة .

« انظري ، انه يتحرك » . قال الصبي . وبعدها رأت شيئاً يشبه حجراً متحركاً أو

ورقة شجر، شيئاً مبللاً، بعيون وأرجل، علجوم* .
« مام مامياً ! » .

وراحت ماريا - نانزياتا تحجل وتختلس النظر؛ حذرة، بين الأضاليا بحداثها مرتفع الكعب. قرفص ليبرسو بجانب العلجوم وضحك، كاشفاً عن أسنانه البيضاء في وسط وجهه البني .

« هل أنت خائفة؟ انه مجرد علجوم ! لماذا تخافين؟ » .

« علجوم ! » همست ماريا - نانزياتا .

« طبعاً علجوم . تعالي هنا » ، قال ليبرسو .

أشارت نحوه بإصبع مرتجف : « أقتله » .

فمد يديه كأنها يحميه : « لا أريد . انه لطيف جداً » .

« علجوم لطيف؟! » .

« كل العلاجم لطيفون . انهم يأكلون الديدان » .

« أوه ! » ، قالت ماريا - نانزياتا ، لكنها لم تقترب اكثر. كانت تمضغ طرف وزرتها وتحاول المراقبة من طرف عينها .

« انظري كم هو لطيف » ، قال ليبرسو ووضع احدى يديه عليه .

اقتربت ماريا - نانزياتا . كفت عن الضحك، ونظرت بفم مفتوح . « لا ! لا ! لا تلمسه ! » .

كان ليبرسو يتحسس ظهر العلجوم الرمادي - الأخضر بإصبع واحدة وقد غطته الثأليل .

« هل أنت مجنون ؟ ألا تعرف انها تحرق عندما تلمسها ، وتسبب تورم يدك؟ » .

أراها الصبي يديه البنيتين الكبيرتين، حيث كانت راحتا يديه مكسوتين بطبقة من الجلد الأصفر الميت الصلب .

« أوه ، انه لن يؤذي » ، قال « كما انه جميل جداً » .

وأمسك الآن بالعلجوم من مؤخرة عنقه كأنه قطعة ، ووضعها في راحة يده . اقتربت ماريا - نانزياتا ، وهي ما تزال تمضغ طرف وزرتها ، وجثت بالقرب منه .

* العلجوم : ضفدع الطين - الموردي .

« مام ماميا ! » .

كانا يجثوان معا خلف الأضاليا بينما ركبتا ماريا - نانزياتا الورديتان تلامسان ركبتَي ليبيرسو البنيتين لمساً رفيقاً عابراً . كور ليبيرسو يده الأخرى فوق ظهر العلجوم ، وأمسك به مراراً وتكراراً كأنها سيفلت منه .

« ملّسي عليه يا ماريا - نانزياتا » . قال .

خبأت الفتاة يديها في وزرتها .

« لا » ، قالت بحزم .

« ماذا ؟ ألا تريدينه ؟ » .

خفضت ماريا - نانزياتا عينيها ، حدجت العلجوم ، وعادت لتخفض عينيها بسرعة .

« لا » . قالت .

« لكنه لك . انني أمنحه لك » . قال ليبيرسو .

غاضت عينا ماريا - نانزياتا . من المحزن أن يرفض المرء هدية ، كما أن لا أحد قام باهدائها شيئاً ، لكن العلجوم سبب لها الغثيان حقاً .

« بإمكانك أن تأخذه الى البيت اذا أحببت . سيكون رفيقاً يؤنسك » .

« لا . . » .

أعاد ليبيرسو العلجوم الى الأرض ، فسارع الأخير الى الوثب والاختفاء تحت الأوراق .

« وداعاً ، يا ليبيرسو » .

« انتظري دقيقة » .

« لكنني يجب أن اذهب وأنتهي من غسل الأطباق . ان السنيورة لا تحب أن أخرج الى الحديقة » .

« انتظري . أريد أن أعطيك شيئاً . شيئاً لطيفاً حقاً . تعالي معي » .

وبدأت تتبعه على طول الممرات المرصوفة بالحصى . كم هو غريب هذا الليبيرسو ، بذاك الشعر الطويل ، وبالتقاطه العلاجي ووضعتها في يديه .

« كم عمرك ، يا ليبيرسو ؟ » .

« خمسة عشرة . وأنت ؟ » .

«أربعة عشرة».

«الآن ، أم في عيد ميلادك القادم؟».

«في عيد ميلادي القادم . في عيد صعود مريم العذراء».*.

«ألم يمض هذا العيد؟».

«ماذا ، ألا تعرف متى يكون عيد صعود مريم العذراء؟» . وبدأت تضحك .

« لا » .

«يكون عيد صعود مريم العذراء عندما تحدث المواكب . ألا تذهب الى المواكب؟».

«أنا ؟ لا » .

«هناك في البلد مواكب جميلة . ليس مثل هنا . يوجد هناك حقول كبيرة مليئة بالبرغموت**، لا شيء غير البرغموت ، والجميع يلتقطون البرغموت من الصباح حتى الليل . لي أربعة عشر أخاً وأختاً وكلهم يلتقطون البرغموت ، خمسة منهم ماتوا عندما كانوا أطفالاً ، وبعد ذلك أصيبت أُمي بالكزاز***، وركبنا جميعاً في قطار لمدة اسبوع لنذهب الى بيت العم كارمیللو، ونام ثمانية منا في كراج هناك . قل لي ، لماذا لك هذا الشعر الطويل؟» .
كانا قد توقفا .

«لأنه ينمو هكذا . أنت لك شعر طويل أيضاً» .

«انني فتاة . اذا وضعت شعراً طويلاً ستكون مثل فتاة» .

«أنا لست مثل فتاة . إنك لا تستطيعين التفريق بين صبي وفتاة من الشعر» .

«ليس من الشعر؟» .

«لا ، ليس من الشعر» .

«لماذا ليس من الشعر؟» .

«هل تريدین أن أعطيك شيئاً لطيفاً؟» .

«أوه ، نعم»

بدأ ليبيرسو يتحرك بين الزنايق القلقاسية والمتسلقات البوقية البيضاء المتبرعمة

* عيد كاثوليكي لذكرى صعود مريم العذراء الى السماء بعد موتها - المترجم والمورد - .

** البرغموت : ضرب من الليمون اجاصي الشكل يستعمل قشره في صنع العطور .

*** الكزاز : مرض تشنج معه عضلات العنق والفك بخاصة - المورد - .

والمظلمة تحت السماء . نظر ليبرسو داخل كل واحدة، يتلمس طريقه بأصبعين، ثم خبأ شيئاً في قبضته . لم تذهب ماريا - نانزياتا الى حوض الورود . كانت تراقبه بضحكة مكتومة . ماذا يريد الآن؟ كان ليبرسو قد انتهى من النظر في كل الزنابق . عاد اليها واضعاً إحدى يديه فوق الأخرى .

«افتحي يديك» . قال . فتحت ماريا - نانزياتا يديها، لكنها كانت خائفة من وضعهما أسفل يديه .

« ماذا أحضرت هنا ؟ » .

« شيء جميل جداً . ستين » .

« أرنى أولاً » .

فتح ليبرسو يديه وجعلها تنظر الى ما فيها . كان كفه مليئاً بخنافس متعددة الألوان، حمراء وسوداء وحتى أرجوانية، لكن الخضراء كانت الأبهى . كانت تظن وتنزلق فوق بعضها البعض وتلوح بسيقان دقيقة في الهواء . خبأت ماريا - نانزياتا يديها تحت وزرتها .

«انها تدغدغ عندما تمسكها باحكام . هل تودين أن تحسي بذلك؟» .

أخرجت ماريا - نانزياتا يديها بقلب مرتجف، وسكب ليبرسو شللاً صغيراً من الخنافس من كل الألوان فيهما .

«لا تخافي . لن تعضك» .

«مام ماميا!» . لم يخطر في بالها إن كانت الخنافس ستعضها . فتحت يديها فبسطت الخنافس أجنحتها وتلاشت الألوان الزاهية وما كان هناك شيء يُرى سوى سرب من حشرات سوداء تحوم وتطير .

«يا للأسف . حاولت أن أعطيك هدية لكنك رفضتها» .

«عليّ أن اذهب وأغسل الأطباق . ستغضب السنيورة اذا لم تستطع أن تجدني» .

«ألا تريدين هدية؟» .

«ماذا تريد أن تعطيني الآن؟» .

«تعالي وانظري» .

عاد وأخذ بيدها وقادها بين أحواض الورود .

«يجب أن أعود الى المطبخ حالاً، يا ليبرسو . هناك دجاجة يجب أن تُتف أيضاً» .

«أففف» . قال متذمراً

«لماذا تدمرت ؟» .
«نحن لا نأكل لحم الطيور الميتة أو الحيوانات» .
«لماذا ، هل أنتم في صيام دائم ؟» .
«ماذا تقصدين ؟» .
«حسناً ، ماذا تأكلون اذن ؟» .
«أوه ، كل أصناف الأشياء ، أرضى شوكي ، خبى ، بندوره . أبى لا يجب أن نأكل لحم حيوانات ميتة . أو قهوة أو سكرأ . . كذلك» .
«ماذا تفعلون بحصتكم من السكر، اذن ؟» .
«نبيعها في السوق السوداء» .
«كانا قد وصلا بعض النباتات المتسلقة المرصعة بورود حمراء .
«يا للورود الجميلة» ، قالت ماريا - نانزياتا . «هل سبق وأن قطفتها ؟» .
«ولماذا أقطفها ؟» .
«لتأخذها الى العذراء . الورود للعذراء» .
«ميسمبريا نزميم*» .
«وماذا هذا ؟» .
«هذا النبات يدعى ميسمبريا نزميم باللاتينية . لكل الورود أسماء لاتينية» .
«القداس هو باللاتينية ، أيضاً» .
«لا أعرف عن هذا» .
«كان لييرسو يحدق عن قرب بالأغصان الملتفة على الحائط .
«ها هي» . قال .
«ماذا ؟» .
«كانت سحلية خضراء مرقطة بالأسود ، تستدفيء بالشمس .
«سأمسك بها» .
« لا » .
«لكنه اقترب اكثر من السحلية ، ببطء شديد ، فاتحاً يديه الاثنتين ، وبقفزة كان قد

* نوع من الطحالب - المورد - .

أمسك بها . ضحك فرحاً كاشفاً عن أسنانه البيضاء . «انظري ، انها تنفلت» . بان رأسها المذهول أولاً ، ثم الذيل ينزلق من بين أصابعه المطبقة . كانت ماريا - نانزياتا تضحك بدورها ، لكن في كل مرة ترى السحلية تثب الى الخلف وتشد تنورتها حول ركبتيها .
«اذن أنت لا تريدينني أن أعطيك أي شيء ابدأ؟» . قال ليبرسو بحزن ، وبحذر كبير وضع السحلية ثانية على الجدار ، فاندفعت قافزة . أبقت ماريا - نانزياتا عينيها منخفضتين .

«تعالى» ، قال ليبرسو ، وأمسك بيدها ثانية .
«أحب أن يكون عندي أحمر شفاه ، وأن أطلي شفتي في أيام الأحاد كي أخرج للرقص . وأحب أيضاً ان أملك خماراً أسود لأضعه على رأسي بعدئذ لأنال البركة من الكاهن» .

«في الأحاد» ، قال ليبرسو ، «أذهب الى الغابة مع أخي ونملاً كيسين بأكواز الصنوبر . وبعد ذلك ، في المساء ، يقرأ لنا أبي من كتاب الـ «كروبتكين» . لأبي شعر يصل الى كتفيه ولحية تتهدل على صدره . وهو يرتدي سروالاً قصيراً في الصيف والشتاء . كما انني أقوم بالرسم من أجل نوافذ مبنى الاتحاد الثوري . الأشخاص بالقبعات العالية هم رجال الأعمال . الذين يعتمرون القلنسوات هم الجنرالات . والكهنة هم أصحاب القبعات المستديرة . وبعد هذا ألونهم بالألوان المائية» .

وصلا الى بركة طفت على وجهها أوراق زنابق الماء المدورة .

«اصمتي الآن» ، أمر ليبرسو .

بدا للعيان ، تحت الماء ، ضفدع يسبح للأعلى بضربات حادة صغيرة من ذراعيه وساقيه الأخضرين . طفا فجأة ، ثم قفز على ورقة زنبق الماء ، وجلس في وسطها .

«هناك» ، صاح ليبرسو ومد إحدى يديه ليمسك به ، لكن ماريا - نانزياتا أخرجت صرخة : «أوه!» ، فقفز الضفدع عائداً الى الماء . بدأ ليبرسو يحفر بحثاً عنه ، وكاد أنفه أن يلامس الماء .

«ها هو» .

دفع باحدى يديه وأخرجه ممسكاً به في قبضته المضمومة .

«ضفدعان معاً» ، صرخ . «انظري . ضفدعان ، فوق بعضهما» .

«لماذا؟» . سألت ماريا - نانزياتا .

«ذكر وأنثى ملتصقان ببعضهما» ، قال ليبيرو. «انظري ماذا يفعلان». وحاول أن يضع الضفدعين في يد ماريا - نانزياتا. لكن ماريا - نانزياتا لم تكن متأكدة إن كانت خائفة بسبب من انها ضفدعان، أو لأنها كانا ذكراً وأنثى يلتصقان ببعضهما.

«أتركهما» . قالت . «يجب ان لا تلمسهما» .

«ذكر وأنثى» ، عاد ليبيرو ليقول ، «انها يصنعان شرغوفاً* . عبرت غيمة فوق الشمس . وفجأة طفقت ماريا - نانزياتا تشعر بالقلق .

«تأخرت . لا بد أن السنيورة تبحث عني» .

لكنها لم تذهب . وبدلاً من ذلك راحا يدوران ويتجولان رغم ان الشمس قد غابت . وعثر بعد ذلك على أفعى : كانت أفعى دقيقة صغيرة خلف حاجز من القصب . لفها ليبيرو حول ذراعه وملس على رأسها .

«سبق وأن قمت بتدريب الأفاعي . كنت أملك منها العشرات . كان احدها طويلاً وأصفر، أفعى ماء . لكنها بدلت جلدها وهرت . انظري الى هذه تفتح فمها، انظري كيف ان لسانها متشعب . ملسي، فلن تعضك» .

لكن ماريا - نانزياتا تخاف الأفاعي أيضاً . ذهبا الى البركة الصخرية . أراها الينابيع أولاً، ثم فتح كل بخاخات الماء مما ملأها بالفرح . وبعدها أراها السمكة الذهبية . كانت سمكة ذهبية متوحدة ومسننة ، وكانت حراشفها قد بدأت تبيض . وفي الأخير، أحبت ماريا - نانزياتا السمكة الذهبية . بدأ ليبيرو يحرك يديه في الماء ليقبض عليها . كان هذا صعباً جداً . ولكنه عندما نجح في ذلك كان على ماريا - نانزياتا أن تضعها في زبدية وتحفظها في المطبخ . تدبر أمره وأمسك بها، إلا انه لم يخرجها من الماء خوف أن تحتق .

«ضعي يديك واهبطي بها هنا، أمسكي بها» . قال ليبيرو . «يمكنك أن تحسي بها تتنفس . ان لها زعانف كالورقة وحراشف تحز . انها لا تؤذي» .

لكن ماريا - نانزياتا لم ترد ان تمسك السمكة أيضاً .

كان التراب ناعماً جداً في حوض البطونية* . راح ليبيرو يحفر فيه بأصابعه وأخرج بعض الديدان الطويلة، الناعمة .

* الشرغوف : فرخ الضفدع - المورد .

* البطونية : Petunia نبات امريكي من الفصيلة الباذنجانية - المورد .

لكن ماريا - نانزياتا ركضت بعيداً وهي تصرخ -
«ضعي يدك هنا» ، قال ليبيرو ، مشيراً الى جذع شجرة دراق قديمة . لم تفهم ماريا - نانزياتا السبب ، الا انها ما أن وضعت يدها هناك حتى زعقت وركضت لتغطسها في البركة . وعندما أخرجتها كانت يدها مغطاة بالنمل . كانت شجرة الدراق عشاً للنمل . نمل أرجنتيني أسود ودقيق .
«أنظري» . قال ليبيرو ، ووضع احدي يديه على الجذع . كان يمكن رؤية النمل وهو يصطخب على يده الا انه لم يزحه عنها .

«لماذا؟» . سألت ماريا - نانزياتا . «لماذا تدع نفسك تُغطى بالنمل؟» .
استحالت يده الآن سوداء تماماً ، وبدأ النمل يزحف صاعداً الى رسغه .
«أبعد يدك» . أعلت ماريا - نانزياتا . «انك تتركهم يغطونك كلك» .
كان النمل يزحف على ذراعه العارية ، ويبلغ كوعه . إن كامل ذراعه الآن ، قد تغطي ببرقع من نقاط سوداء متحركة . وصل النمل الى ابطه لكنه لم يطرده .
«تخلص منه ، يا ليبيرو . ضع يدك في الماء» .
ضحك ليبيرو . كان بعض النمل يزحف الآن من على رقبته نحو وجهه .
«ليبيرو سأفعل ما تشاء ! سأقبل كل تلك الهدايا التي عرضتها علي» .
ألقت بذراعيها حول رقبته وبدأت بازاحة النمل بعيداً .
ومبتسماً ابتسامته البنية والبيضاء ، أبعد ليبيرو يده عن الشجرة وطفق بغير اكتراث ينفذ ذراعه . ولكنه كان بادي التأثير .
«حسناً . اذن ، سوف أعطيك هدية حقيقية كبيرة . لقد قررت . اكبر هدية يمكنني إعطاؤها» .

«وما هي ؟» .

«قنفذ» .

«مام مامياً ! السنيورة ! ان السنيورة تنادي علي» .

كانت ماريا - نانزياتا قد انتهت لتوها من غسل الأطباق عندما سمعت ضربة حصي على النافذة . وقف ليبيرو أسفل النافذة حاملاً سلة كبيرة .
«ماريا - نانزياتا ، دعيني أدخل . اريد ان أعطيك مفاجأة» .

«لا ، لا يمكنك أن تدخل . ماذا لديك في السلة ؟» .
ولكن السنيورة قرعت الجرس في اللحظة ذاتها ، وغابت ماريا - نانزياتا عن النظر .
عندما عادت الى المطبخ ما كان ليبيرسو موجوداً . ليس في المطبخ ولا أسفل
النافذة . توجهت ماريا - نانزياتا صوب المجلى . وعندها شاهدت المفاجأة .
على كل طبق تركته لينشف كان هناك ضفدع رابض . أفعى تتلوى لتصعد من قدر
صغير . طنجرة حساء مليئة بالسحالي . وحلزونات رفيعة كانت تشكّل أشرطة متقزحة اللون
على جميع الأكواب . وفي الحوض المليء بالماء كانت السمكة الذهبية المتوحدة تسبح .
تراجعت ماريا - نانزياتا خطوة ، لكنها رأت بين قدميها عُلجوماً ضخماً . ومن خلفه
كان خمسة علاجيم صغيرة في صف واحد ، تثب وثبات قصيرة باتجاهها فوق البلاط ذي
اللونين الأسود والأبيض .

دافيد كوبر فيلد

تشارلز ديكنز

ترجمة : محمد عطية الإبراهيمي



مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

دَافِيدُ كَثيرُ فيلِد

فِي قَرْيَةٍ (بَلَنْدِرْمَنْتُون) مِنْ مُقَاطَعَةٍ (سَافُك) عَاشَ (دَافِيدُ كَثيرُ فيلِدُ) ، فِي مَنزَلٍ صَحِيٍّ تَحْنُو^(١) عَلَيْهِ بَيْنَ جَنَابَتِهِ وَالِدَةٍ رَءُومٍ تُحِبُّهُ كُلَّ الحُبِّ ، وَقَفَّتْ عِنَايَتَهَا عَلَى رَاحَتِهِ ؛ لَتُعَوِّضَهُ فَقْدَانِ وَالِدِهِ . وَكَانَ مَعَهُمَا فِي هَذَا البَيْتِ خَادِمٌ رَحِيمَةٌ الفَوَادِ طَالَمَا بَذَلَتْ الوُدَّ لَذَلِكَ الطِفْلِ الصَّغِيرِ ؛ لِتَجْعَلَ لَهُ مِنْ عَيْشِهِ سُرُورًا وَمَرَحًا^(٢) . وَكَانَ «لَدَافِيدَ» عَمَةٌ كَبِيرَةُ السِّنِّ ، طَوِيلَةُ القَامَةِ ، شَدِيدَةُ المَعَامَلَةِ ، زَارَتْ الأُسْرَةَ مَرَّةً أَيَّامَ وَلادَتِهِ ، فَتَأَلَّتْ — عَلَى غَيْرِ العَادَةِ — إِذْ كَانَتْ تَتَمَنَّى أَنْ يَكُونَ المَوْلُودُ بِنْتًا .

مَضَتْ الأَيَّامُ وَدَرَجَ (دَافِيدُ) مِنْ حِجْرِ أُمِّهِ وَبَيْنَمَا الأُسْرَةُ الصَّغِيرَةُ فِي حَالٍ تَبَعَثُ عَلَى الرِّضَا والطُّمَأْنِينَةِ ، وَ(دَافِيدُ) قَانَعٌ بِحَيَاتِهِ المَنْزِلِيَّةِ ، إِذْ زَارَهَا رَجُلٌ طَوِيلٌ ، عَابَسُ الوَجْهِ ، أَسْوَدُ الشَّعْرِ ، انْقَبَضَ صَدْرُ «دَافِيدَ» لِرُؤْيَيْهِ ، وَتَمَلَّكَتْهُ الغَيْرَةُ عِنْدَمَا شَعَرَ بِأَنَّهُ يَرِيدُ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ أُمِّهِ زَوْجًا .

(١) تَعَطَّفَ عَلَيْهِ . (٢) شِدَّةُ الفَرَحِ والنَّشَاطِ .

لم يُطِقْ (داقيد) على ذلك صَبْرًا ، فرأتِ الخادمُ أن تذهبَ
به لزيارةِ أخيها ، وأخذتْ تُحِبُّ إليه تلك الرحلةَ قائلةً : « هل
لكَ في زيارةٍ لأخي في « يَرْمُوثَ » ؟ وهل لكَ في رؤية البحرِ
المائج^(١) ، والجواري المنشآتِ فوقَ المياهِ المتلاطمةِ ؟ »
فما طرَقَ سمعُه هذا الحديثُ حتى انبسطتْ أساريرُ الغبطةِ في
وجهه ، وطربَ أيما طربٍ ، ولكنه تذكرَ أمَّهُ ، ووحدتها الموحشة ،
وما تُعانيه من ألمِ الفراقِ ، فقال بلهجةٍ تنم عن استغرابٍ شديدٍ :
« وهل نتركُ أميَّ وحدها ؟ »

فقالت له الخادمُ : « لا ، إنَّ والدتك سَوَفَ تذهبُ لتزورَ
بعضَ الأصدقاءِ . »

فاطمأنَّ قلبُ (داقيد) ، وقضى الليلَ فرحاً يُفكرُ في ملابسِ
السفرِ ، ويَهْتَفُ بطلائعِ الصبحِ . وما كادتْ تظهرُ بشارُها حتى
هرولَ إلى أمِّه يُودِّعُها ، وعاطفةُ البُنةِ قد تاجَّجتْ في صدره ،
فذرقتْ^(٢) عيناه بالدمعِ السخينِ ؛ حينئذٍ إلى مُربَّاه ومهدِ صباه .
غالبَ (داقيد) تلك الصعابِ ثم ركبَ هو والخادمُ في مركبةٍ
ثَقِيلَةٍ بطيئةِ السيرِ ، فما وصلَا إلى « يَرْمُوثَ » حتى كان
التعبُ قد أضناه ، وأخذَ منه كلَّ مأخذٍ ، فعمله ابنُ أخي الخادمِ

(١) المائج : المضطرب . (٢) سالت بالدمع .

على ظهره ، وأوصله إلى المنزل ، فارتاحت نفسه ، وسرَّ عند ما وجدَ به طفلة ناهزت^(١) سنَّه أو كادت ، اتخذَ منها صديقةً لِعَبٍّ ومرحٍ ، يُداعِبُها^(٢) وتُداعِبُه . ولم تَمُضِ به الأيامُ إلا قليلاً في مُقامِه حتى علِمَ أن « مستريحيَّتي » — وهو أخو الخادم — رجلٌ مُحسِنٌ يُربِّي في بيته أطفالاً يتامى رَغَمَ ما يُعانيه من فقرٍ مُدقعٍ^(٣) ، وضنكٍ^(٤) شديدٍ ؛ فهو يكدُّ^(٥) ويتعب طولَ نهارِه ليحصلَ على قوتٍ لهؤلاء . وثَبَّتَ في نفسِ دَائِدْ أن هذا الرجلَ الكريمَ يَسْتَحِقُّ الثَّناءَ ونَظرةَ الإِكبارِ .

سَعِدَ (دَائِدْ) بتلك الرُّحلةِ الميمونةِ ، وَلَعمَ بجوارِ الفتاةِ الصغيرةِ (إِملي) ، وكمْ كانَ جَميلاً أن تَفيضَ نفسُ كُلِّ منهما بالموَدَّةِ والصفاءِ في ظِلِّ الطفولةِ البريئةِ الناعمةِ ؛ فقد كانت أحاديثُهما لا تتجاوزُ هذا المَيدانَ الرَّحْبَ^(٦) ؛ (فدَائِدْ) يَصِفُ لها النعيمَ في بيتهِ السعيدِ ، و (إِملي) تَقصُّ عليه كيفَ فَرَ^(٧) البحرُ فاه ، وابتلعَ أباهَا ، ولم يَرَحَمْ مُتَمَها ، وها هي ذِي الآنَ في كِفالةِ عَمَّها يَكلُوها^(٨) بَينَ رِعايتِهِ ، وَيَبذلُ كُلَّ ما يَملكُ

(١) ناهزت : دانت . قاربت . (٢) يداعبها : يمازحها . والمداعبة : المازحة .

(٣) مُدقع : شديد . (٤) ضنك : الكدُّ : الشدة في العمل وطلب الكسب .

(٦) الرَّحْب : الواسع . (٧) فَرَ فاه : فتحه . (٨) يَكلُوها : يحفظها

في سبيل هَناءِ تها ، وكم تمنى أن تكبرَ بسرعة ، لتُقدِّمَ إلى عمِّها
بعض الهدايا الجميلة ، والتحفِ الثمينة . ولا عجب ؛ فخيالُ الطفولةِ
المائلُ يُملئُ عليها ما تودُّ أن تردَّه إليه جزاءَ إحسانه إليها . فهي
تنوى أن تُهدى إليه (غليوناً) فضيًّا ، وحُلَّةَ زرقاءِ اللونِ مُوشاةً
بأزرَّةٍ من الماسِ وصِدارٍ^(١) أحمر ، وساعةً ذهبيةً كبيرةً ، وقُبعةً
سوداء ، وما إلى تلك من التحفِ الغالية .

لكل رحيلٍ مهما طال أَوْبَةً^(٢) ، ولكلِّ سفرٍ عَوْدَةٌ ،
وها هو ذا (دافيد) يشدُّ رحالَه ليرجعَ إلى أحضانِ أمِّه ، ويعاودُه
الشوق إلى أرضِ الوطنِ التي عليها دَرَج ، وبينَ رحابِها نَما ، يتنازعه
في عودته أمران : تألمه لتركِ (إملي) الصغيرة ، ولَهْفُه على رؤيةِ
والدته العزيزة .

وبعد لأيٍ أَلْقَتْ به عصا التَّسيارِ في منزلِ أمِّه ، فوجد معالمَ
الحياةِ قد تغيَّرت فيه ؛ إذ احتلَّه زوجُ والدته « مسترِ مردستون »
وكان فظًّا غليظَ القلبِ ، يكرهُ (دافيد) الصغيرَ كلَّ الكُرهِ ،
فلم تألفه نفسُ (دافيد) ، وشعرَ بأن المنزلَ قد صارَ جحراً يتلظى ،
ولكنَّه بذلَ جُهدَه في اكتسابِ رضا الزوجِ حتى لا تضيقَ

(١) الصِّدار : ثوب رأسه كالقنعة وأسفله يُفتش المصدر . (٢) رجوع .

نفس أمه ، غير أن ذلك لم يُجِدْ نفعا ؛ فلم يَسمح الزوجُ لزوجته أن تُدَلِّلَ ابنها (دائِد) ، ولا أن تُرَفِّهَ ^(١) عنه كما كانت تفعل من قبل ، ولكنه وَسَطَ هذه المتاعِبِ الْمُضِئَةِ ^(٢) كانت أمه تُعْطِيهِ درسا في القراءة والكتابة ، فوجدَ في الجالوس إلى الكتابِ خيرَ أنيسٍ وأحسنَ مَهْرَبٍ من الحياةِ القائمةِ ، وآثَرَ العُزْلَةَ مُتَخِذاً من عُرفَةِ عُليا صغيرةٍ مَسْكَنًا له ومَأْوَى .

لم يَدَعِ (مستَرِدستون) (دائِد) يَهِنًا بِحَيَاتِهِ الجديدةِ ، ويتمتعُ بمطالعةِ كُتُبِهِ التي سَلَّتْهُ وَأَنَسَتْهُ ما يُخَالِجُهُ من أَلَمٍ مثل كتابِ (روبنسون كروزو) وكثير من القصص والرحلات ، بل ادَّعى أنه أَهْمَلُ بعضَ دروسِهِ ، واتَّحَى بِهِ مَكَانًا بَعِيدًا عَنْ أُمِّهِ ، وأَخَذَ يُشْبِعُهُ ضَرْبًا ، وَيُوسِّعُهُ لَكُمًا ؛ إِجَابَةً لِدَاعِي قَسَوَتِهِ ، وَغِلَظِ قَلْبِهِ . ولقد آلمَ (دائِد) هذا النَّهْجُ الغريبُ ؛ إِذْ لم يُضْرَبْ قَبْلَ اليَوْمِ ، فَمَضَى يَدَ الرَّجُلِ دَفَاعًا عَنْ نَفْسِهِ ، فَعَدَّ الرَّجُلُ ذَلِكَ جَرِيمَةً لَا تُغْتَفَرُ ، وَتَمَلَّكَهُ الْغَيْظُ مِنْ هَذِهِ الْفِعْلَةِ الشَّنْعَاءِ ، وَرَاحَ يَرُكِّلُ ^(٣) (دائِد) وَيَلْكُمُهُ ^(٤) فِي غَيْرِ رَحْمَةٍ ،

(١) ترفه عنه : تنفس عنه . والرفاهة من العيش والرفاهية والرُّفْهِيَّة : السَّعة .

(٢) الحَشَنَةُ ، القَاسِيَةُ . (٣) الرُّكْلُ : الضَّرْبُ بِرَجُلٍ وَاحِدَةٍ . (٤) اللَّكْمُ :

الضَّرْبُ بِالْيَدِ بِمَجْمُوعَةٍ .

وَتَرَكَ سَجِينًا فِي الْحَجَرِ مُلْقَى عَلَى الْأَرْضِ يَبْكِي وَيَصِيحُ ، وَيَشْعُرُ
شُعورًا مُؤَلِمًا نَحْوَ زَوْجِ أُمِّهِ الَّذِي يُبْغِضُهُ ، وَلَا يَوَدُّ أَنْ يَرَاهُ فِي
الْبَيْتِ . فَتَبَدَّلَ نَعِيمُ (دَاوَيْدَ) شَقَاءً ، وَسُرُورُهُ حُزْنًا ، وَرَأَى مَا لَمْ
يَرَهُ مِنْ قَبْلُ مِنَ الْمَتَاعِبِ وَالْآلَامِ .

الْتَزَمَ (دَاوَيْدُ) وَحْدَتَهُ أَيَّامًا فِي غُرْفَةٍ ضَيِّقَةٍ لَا يَرَى أَحَدًا ،
وَلَا تَقَعُ عَلَيْهِ عَيْنٌ ، اللَّهُمَّ إِلَّا (مِسْ مَرْدَسْتُون) — وَهِيَ أَخْتُ
(مِسْتَر مَرْدَسْتُون) — الَّتِي حَضَرَتْ لَتَعِيشَ مَعَ أَخِيهَا ، وَكَانَتْ
أَشَدَّ مِنْهُ قَسْوَةً . مِنَ الصَّعْبِ إِرْضَاؤُهَا . تَكَرَّهُ الْأَطْفَالُ ،
وَالْأَطْفَالُ يَكْرَهُونَهَا . تَمَقَّتْ (دَاوَيْدَ) وَ (دَاوَيْدُ) لَا يُحِبُّهَا .

وَذَاتَ يَوْمٍ — وَالْأَسَى ^(١) يَمْلَأُ جَوَانِبَ نَفْسِهِ — سَمِعَ طَرَقًا
خَفِيفًا أَنْصَتَ لَهُ ، فَإِذَا الطَّارِقُ (بِيْجُوتِي) خَادِمَتُهُ . فَهَشَّ لِلْقَائِمِهَا ،
وَبَشَّ فِي وَجْهِهَا ، وَهُوَ يَسْأَلُ عَنْ حَالِ أُمِّهِ ، وَالْمُسْتَقْبَلِ الَّذِي
يَنْتَظِرُهُ ، فَعَلِمَ أَنَّهُ ذَاهِبٌ غَدًا إِلَى مَدْرَسَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْ لَنْدُنْ ، وَسَوْفَ
تَوَدُّعُهُ أُمُّهُ قُبَيْلَ الرَّحِيلِ ، بَيْنَمَا « بِيْجُوتِي » الْخَادِمَةُ سَتَقُومُ عَلَى
رَاحَتِهَا ، وَتَكْتُبُ لَهُ كُلَّ أُسْبُوعٍ . فَشَكَرَ لَهَا عَطْفَهَا وَعِنَايَتَهَا .

(١) الأسى : الحزن .

وعند الصباح أقبلت الأم تودّع ابنها وتشيعه ، فرآها في حالٍ
تبعثُ الألمَ والحُزنَ ، صفراء اللونِ ، حمراء العينين . فارتقى في
أحضانها ، وسألها العفو عما سلفَ . فأجابته إلى طلبته^(١) : على
الألّا يحمل لزوجها موجدة^(٢) ، ونصحت له بأن يُصلح من شأنه ،
ويجد في عمله ، ودعت له بالتوفيق والهداية .

حزن (داقيد) أشدَّ الحُزن؛ إذ أن أمّه — أقرب الناس إليه —
تسبب به الظنَّ ، وتعتقد أنه فاسدٌ شريرٌ ، مُحجفٌ بحق زوجها ،
مع أنه ذكيٌّ مؤدّبٌ ، هادئٌ الطبع ، رقيقُ الشعور . فاغرو رقت
عيناه بالدموع حينما ترك المنزل . ولم يكذِّ يتابع السير إلا قليلاً
حتى وقفت المركبة التي تُقله^(٣) إلى لندن ، تنتظر (ييجوتي)
وهي مُقبلةٌ تجرى وفي يديها عقدٌ من الكعك ، وورقة ملفوفةٌ
بها بعضُ النقود ، وقد كتبت عليها بيد أمّه : (هديةٌ إلى داقيد
مع حُبِّي . « فقبلها شاكرًا ، وقسم الكعك وأعطى سائقَ
المركبة منه نصيبًا ، وهو يُجيب عن سؤاله : « هل الكعكُ
من عمل (ييجوتي) ؟ » فأجاب (داقيد) : « نعم . فرجاء أن

(١) الطَّلِبَةُ : الشيء المطلوب (٢) الموجدة : الغضب .

(٣) تُقِلُّهُ : تطيق حمله ، تحمله .

يَبْعَثُ إِلَيْهَا رَسُولًا بَأَن (بَرَكَيسَ) رَاضٍ . « فاتهز الفتى فرصةً
انتظاره السيارة العامة في (يَرْمُوثَ) ، وكتبَ إِلَيْهَا الرسالة الآتية :

« عزيزتى (يَجُوتى)

قد وصلتُ إلى (يَرْمُوثَ) سالماً ، وإنَّ (بَرَكَيسَ) راضٍ .

كلُّ حُبٍّ لَأُمِّ . «
المخلص
دافيد

وهناك في (يَرْمُوثَ) جلسَ وحيداً إلى مائدةٍ في مَطْعَمٍ ،
وقد كان يُعَكِّرُ عليه صفو الحياة تلك الوحشة المُرَوِّعة^(١) ، التى
تَقَطَّعَتْ لها نياطُ^(٢) قلبه ، وملاً رُوعه^(٣) اليأسُ المُبْرِحُ . وعلى
حينٍ غفلةٍ فاجأه الخادمُ ، وهو مُستسلمٌ لتيارِ هواجسه يُخْبِرُهُ بَأَن
رجلاً سقط ميتاً إثر تناوله جرعةً من الشرابِ ، ابتاعه من الفندقِ ،
فارتاب الفتى وفزع . وكَم كان سرورُ (دافيدَ) عظيماً عند ما تجرَّعَ
الخادمُ قَدَحَه حتى لا يؤذَى شعورَ أصحابِ النُّزُلِ^(٤) .

وبعد هذا الحادثِ بأيامٍ وصلَ إلى لَندنَ ، وأخذَ إلى مدرسةٍ
في « بَلَا كِهَيْث » وكانت مُعَطَّلةً ؛ لأن الإجازة لم تنتهِ بعدُ ،

(١) المفزعة ، الخيفة . (٢) عروق غليظة نبط بها القلب . ناط : علق .

(٣) قلبه . (٤) النزل والنزل : ما يهبط للنزول وهو الضيف .

فأدرك أنه أرسلَ قبلَ بدءِ الدراسةِ عقاباً له . ولشدَّ ما كان ألمُه عندَ ما قرأَ على ظهرِ معطفِه بطاقةً كُتِبَتْ عليها العبارةُ الآتيةُ بخطِّ واضحٍ : « احترسوا منه فإنه يَمُضُ . » ولكن الله سَلَّمَ ؛ إذ لم يَرَ كثيرٌ من التلاميذِ هذه الكتابةَ ، ومن رآها حَسِبَهَا مزاحاً . وليسَ بمعجيبٍ أن تكونَ محوراً تدورُ عليه فُكاهتهم وأسلوبُ دُعابَتهم ، حتى تَمَيَّزَ^(١) (دافيدُ) من الغيظِ ، ووَدَّ لو يجانبهم ، وليسَ له من دونِ ذلك بُدٌّ ، حتى قَيَّضَ اللهُ له تلميذاً أنكرَ فعالمهم ، وذمَّ خلقهم ، واتخذَ منه أخاً له معواناً ، وصديقاً وفيّاً .

مرت الأيامُ ، و (دافيدُ) يَجِدُ في دروسِه حتى ظهرَ ذكاؤه ، فازدادتَ محبةُ إخوانِه له ، والتفؤوا حوله ، يُروى ظمأهم ، ويُشبعُ رَغبتَهم من الميلِ إلى استماعِ القصصِ والحكاياتِ .

و ذاتَ يومٍ عادَه (مستريجوتى وهام) يَحْمِلَانِ له هديةً من السمكِ اللذيذِ ، فقَدَّمَا إليهما مُفْتَخِرًا صديقَه الجديدَ (مسترفورث) وهو يُبْنِي عليه ، ويُطْرِيه^(٢) أيما إطراء ، والصديقُ يُرَحِّبُ بهما . وأخيراً أتتِ العُطلةُ ، وأعدَّ (دافيدُ) العُدَّةَ للرحيلِ ، ورجَعَ إلى بيتِه ، فقابله السائقُ (بَرَ كيسُ) واجماً^(٣) ، ولم يُخْفِ عليه

(١) تَمَيَّزَ من الغيظِ : تقطع (٢) أطراء : مدحه . (٣) الواجم : الذى اشتد حزنه حتى أمسك عن الكلام .

وجومَه ، وفِطَنَ لأمرِه ، فوعده أن يعملَ عَلَى تَهْدِئَةِ خَاطِرِه ، وإِراحَةِ ضَمِيرِه . وقد كان سرورُ أمِّه وخادمِه (يِجُوتِي) عَظِيماً بِلِقَائِه ، فَقَضَى يَوماً هَيناً يُدَاعِبُ فِيهِ (دَائِدُ) أَخاهُ المولودَ الصَغيرَ ، وَيُذَلِّلُهُ ، وَيُظهِرُ لَهُ حُبَّهُ وَعَظْفَهُ ، فِي وَقتِ غابِ فِيهِ عَنِ الأُسْرَةِ (مَسْتَرِ مَرَدُسْتُون) وَأَخْتَهُ . وَلَكِنِهما عَندَ ما عَادَا سِرْعانَ ما بَدَأَ البَغْضُ عَلى مُحَيَّاهِما^(١) ، وَبَجَّاهُ عَلى مُعامَلَتِهِ ، وَمَنَعَا مِنْهُ أَخاهُ ، وَحرَّما عَليه الجُلوسَ مَعَ (يِجُوتِي) . فَخَنَقَ^(٢) فِي نَفسِهِ ، وَكَظَمَ غِظَظَهُ حَتى انقَضَتِ الإِجازَةُ ، فودَّعَ أَهْلَ البَيتِ ، وَقَبَّلَهُ أُمُّهُ قُبَلاتٍ كُلَّها عَطفٌ وَحَنانٌ ، وَقَدَّمتْ إِلَيْهِ أَخاهُ الصَغيرَ لِيَراهُ حِينَما أَخذَ يَركَبُ المَرَكَبَةَ لِلعَودَةِ إِلَى المَدْرَسَةِ .

وَبَعدَ شَهرينَ مِنَ عَودَتِهِ أَرسَلَتْ إِلَيْهِ إِحدَى صَدِيقَاتِ أُمِّهِ تَخْبِرُهُ بِمَوْتِها ، فَخَزِنَ حَزنًا شَدِيدًا ، وَتَأَلَّمَ إِخوانُهُ كُلُّ الأَلمِ ، وَرَجَعَ إِلَى بَيتِهِ فِي اليَومِ التَّالِي ، فَعَلِمَ وَفاةَ أَخِيهِ الصَغيرِ ، فَكانَ حَزنُهُ أَشَدَّ وَأَوَقَعَ . قَابَلَتَهُ (يِجُوتِي) وَهِيَ تَخَفُّفُ عَنهُ لَوَعَةِ الأَسى^(٣) ، وَحَدَّثَتَهُ عَنِ مَرضِ أُمِّهِ ، وَرَسالَتِها الرَقيقَةَ إِلَيْهِ ، وَهِيَ عَلى فِراشِ

(١) وَجَهِها (٢) حَنَقَ : اغتاظ ، وَالْحَنَقُ : الغِظُ . (٣) الأَسى : الحَزن .

الموتِ تحتضر^(١) ، ودَعَوَاتِهَا الصَّالِحَاتِ الْمُبَارَكَةِ بِأَنْ يَحْفَظَهُ اللَّهُ
وَيَحْرُسَهُ بِعَنَانِيَّتِهِ ، وَيَكْتُبَ لَهُ النِّجَاحَ وَالتَّوْفِيقَ .

هكذا قُدِّرَ (لدايِدَ) أَنْ يَفْقِدَ أُمَّهُ وَهُوَ غُلَامٌ ، وَأَنْ تُحْرِمَ نَفْسُهُ
رُوحَ الْإِشْفَاقِ وَالْحَنُوءِ عَلَيْهِ ؛ فَقَدْ تَجَاهَلَهُ زَوْجُ أُمِّهِ كُلُّ التَّجَاهُلِ ،
وَأَنْكَرَتْهُ (مِسَ مَرْدِسْتُون) وَزَادَتْ كَرَاهِيَّتَهَا لَهُ . وَغَادَرَتْ
(بِجُوتِي) الْمَنْزَلَ وَهِيَ تَصْحَبُهُ لَزِيَارَةِ قَصِيرَةٍ لِأَخِيهَا . وَفِي الطَّرِيقِ
عَلِمَ مِنْهَا رَغْبَةً (بَرَكِيسَ) فِي تَزَوُّجِهَا ، وَرِضَاءَهَا عَنْ هَذَا
الْقِرَانِ السَّعِيدِ . وَقَدْ فَرِحَ كُلُّ مَنْ فِي بَيْتِ (مُسْتَرِ بِيْجُوتِي) بِرُؤْيَا
(دَايِدَ) ، وَعَمِلُوا جُهْدَ الطَّاقَةِ عَلَى رَاحَتِهِ وَالتَّرْفِيهِ عَنْهُ ، حَتَّى (إِمْلِي)
الصَّغِيرَةُ ؛ فَقَدْ غَمَرَتْهُ بِعَظْفِهَا ، وَجَلَسَ إِلَيْهَا يُحَدِّثُهَا عَنْ فَقْدِ أُمِّهِ ،
وَهِيَ تَذَرِفُ^(٢) قَطْرَاتِ الدَّمْعِ مِنْ مَا قَبِهَا أَسْوَأُ الْجِرَاحِ ، وَتَعْزِيَةً
لِفَوَادِهِ الْمَكْلُومِ^(٣) . وَكَمْ وَدَّ لَوْ يَكُونُ (مُسْتَرِ بِيْجُوتِي) وَصِيًّا عَلَيْهِ ؛
حَتَّى لَا يَشْعُرَ يَتِيمًا ، وَلَا يُحْسِنُ آلَامَ الْحَيَاةِ .

شَاءَ الْقَدَرُ وَأَرَادَتْ الْعِنَايَةُ الْإِلَهِيَّةُ أَنْ يَتِمَّ زَوَاجُ « بَرَكِيسَ »
الْحَوْذِيِّ وَ « بِيْجُوتِي » ، فَقَضَى « دَايِدُ » اللَّيْلَةَ الْأَخِيرَةَ مِنْ زِيَارَتِهِ

(١) احتضر بالضم : حضره الموت

(٢) ذرفت العين : سال دمعها . (٣) المجروح

بمنزلها ، مُرَجَّبَةٌ بِمَحْضُورِهِ ، مُزَوَّدَةٌ إِيَّاهُ بِنِصَائِحِهَا ، وَأَنَّهَا سَوْفَ تُفَكَّرُ فِيهِ إِلَى الْأَبَدِ ، إِنَّ قَرُبَ وَإِنْ بَعْدَ ، وَأَنَّ مَنْزِلَهَا سَيَكُونُ مُعَدًّا لِلِقَائِهِ ، فِي كُلِّ لَحْظَةٍ ، فِي صِغَرِهِ وَفِي كِبَرِهِ . فَشَكَرَ لَهَا حُسْنَ إِخْلَاصِهَا ، وَجَمِيلَ رِعَايَتِهَا ، وَشَعَرَ بِمَا تُضْمِرُهُ لَهُ مِنْ حُبٍّ وَإِخْلَاصٍ . ثُمَّ عَادَ إِلَى دَارِهِ بَعْدَ أَنْ وَدَّعَتْهُ ، وَدَلَّائِلُ الْحُبِّ الصَّادِقِ ، وَالْوَفَاءِ الْحَقِّ ، تَرْتَسِمُ عَلَى مُجَيَّاه .

شعر « دَائِدُ » الْمَسْكِينُ بِالْمِ الْوَحْدَةِ وَالْعُزْلَةِ بَعْدَ مَوْتِ أُمِّهِ وَفِرَاقِ خَادِمِهِ . وَلَمْ يَجِدْ قَلْبًا بِجَوَارِهِ يُذْهِبُ عَنْهُ مَا أَلَمَ بِهِ مِنْ أَتْرَاجٍ . وَلَمْ يَجِدْ مِنْ يُزْجِي إِلَيْهِ كَلِمَةَ عَطْفٍ ، أَوْ يُلْقِي إِلَيْهِ نَظْرَةَ حُبٍّ . لَمْ يَجِدْ سِوَى شَخْصَيْنِ قَضَا عَلَى حَيَاةِ أُمِّهِ ، هُمَا زَوْجُهَا وَأَخْتُ زَوْجِهَا .

عاش « دَائِدُ » تِلْكَ الْفَتْرَةَ^(١) مِنْ حَيَاتِهِ مَعِيشَةً كُلُّهَا بَوْمُسُ وَشَقَاوٍ ، وَاسْتَسَلَّمَ لِهَوَاجِسِهِ الْقَاتِلَةِ ، حَزِينًا كَسِيرَ الْخَاطِرِ ، وَبِخَاصَّةٍ بَعْدَ أَنْ عَرَفَ أَنَّهُ لَنْ يَعُودَ إِلَى الْمَدْرَسَةِ ، رَغَمَ مِيلِهِ الْكَثِيرِ إِلَى الْإِغْتِرَافِ مِنْ مَنَهْلِ الْعِلْمِ ، وَحُبِّ التَّعَلُّمِ . وَلَمْ يَجِدْ سَلْوَى تُبَعِّدُهُ

(١) الْفَتْرَةُ : الْمُدَّةُ .

عن همة إلا زيارة « ييجوتى » الفينة^(١) بعد الفينة . وبينما هو على هذه الحال يتجرع كئوس الهم المترة^(٢) ، ولا يجد من يعنى بشئونه ، ولا من يهتم بأموره ، أخبره زوج أمه « مستر مردستون » بذهابه إلى لندن فى النقد للعمل فى شركة « مردستون » واكتساب معاشه . وما كادت تطلع عليه شمس النهار حتى كان بجانب المدير ليتسلم العمل ، ويقاتل العالم ، والعالم يُقاتله .

اتقحم « دافيد » ميدان الحياة العملية ، وهو لم يتجاوز عشر سنين ، وبرز بين عمال أسدلت عليهم الأمية ستار الجهل ، يعمل فى أخط الأعمال وأخسها ؛ يغسل الزجاجات ، ويلصق الإعلانات ، فحزرت فى نفسه صفحة الماضى . وتذكر ما كان يؤمله من مستقبل زاهر ، وحياة رغد^(٣) بين إخوانه فى المدرسة ، وخلافته فى قريته . ولا عجب إذا بكى غابره بدموع حارة ، فإنما يبكى عيشاً قوصت^(٤) دعائمه كوارث الدهر ، يبكى آماله فى أن يكون رجلاً مثقفاً عظيماً ، يبكى خوفاً من أن ينسى كل ما تعلمه فى المدرسة ، يبكى لأنه لم يستطع أن يتم تعليمه بالمدرسة بعد أن

(١) الفينة بعد الفينة : الحين بعد الحين . (٢) المترة : الملوثة .

(٣) يقال : عيشة رغد ورغد أى واسعة طيبة . (٤) قوصت

قَذَفَتْ بِهِ السَّنُون إِلَى ذَلِكَ الْمَعْمَلِ لِيَكْسِبَ عَيْشَهُ وَهُوَ طِفْلٌ ،
وإِلَى أُسْرَةٍ « مِيكُوپَر » وَقَدْ أَثْقَلَتْهَا الدِّيُونُ ، وَلَا تَعْرِفُ مَعْنَى
التَّرِييَةِ ، مَعَ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ مِنْ طِيبِ الْقَلْبِ ، وَحُسْنِ الْمَعَامَلَةِ ،
فَلَمْ يَجِدْ بَدْءًا مِنْ مُسَاعَدَتِهَا ، وَمَدَّ يَدَ الْمَعُونَةِ إِلَيْهَا . وَكَيْفَ تُجِدِي
مُسَاعَدَتَهُ ، وَهُوَ لَمْ يَزَلْ صَغِيرًا ، لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُومَ بِمَا يَكْفِي
نَفَقَاتِهِ ؟ وَلَوْلَا مَا كَلَّأَتْهُ ^(١) بِهِ الْقُدْرَةُ مِنْ عَنَاءٍ ، وَوَهَبَتْ لَهُ مِنْ
طَهَارَةٍ وَاسْتِقَامَةٍ لِسَارِمْ الشَّارِدِينَ ، وَأَصْبَحَ بَيْنَ الْمَجْرِمِينَ ، يَهْمُ
عَلَى وَجْهِهِ فِي الطَّرْفَاتِ يَفْتَرِشُ الْأَرْضَ ، وَيَلْتَحِفُ ^(٢) بِالسَّمَاءِ ،
وَلَكِنَّ اللَّهَ حَفِظَ ذَلِكَ الْيَتِيمَ مِنَ الشُّرُورِ وَالْآثَامِ .

لَمْ تَكْتَفِ الْأَيَّامُ بِمَا حَلَّ بِدَائِدَةٍ مِنْ بؤْسٍ وَشَقَاءٍ ، بَلْ أَخَذَتْ
تَكْوِيلًا لَهُ صَنُوفَ الْإِيلَامِ ؛ فَإِنَّ أُسْرَةَ « مِيكُوپَر » ^(٣) الَّتِي أَلِفَ
صَدَاقَتَهَا ، وَمَالَ إِلَى الْعَيْشِ مَعَهَا انْتَابَتْهَا النُّكْبَاتُ سِرَاعًا ، فَشَدَّتْ
الرَّحَالَ إِلَى بَلَدٍ آخَرَ ، فَوَدَّعَهَا بَعْدَ أَنْ أَهْدَى إِلَى صَغَارِهَا هَدَايَا
مِنَ اللَّعَبِ الَّتِي اشْتَرَاهَا بِمَا اقْتَصَدَهُ مِنْ قُوَّتِهِ .

(١) كَلَّأَهُ اللَّهُ يَكْلُوهُ كَلَاءَةً : حَفِظَهُ . (٢) يَلْتَحِفُ : يَتَغَطَّى .

(٣) اتَّخَذَ دَكْنَاسَمَ مِيكُوپَرَ رَمْزًا خَيَالِيًّا لِأُسْرَتِهِ ، فَهُوَ حِينَمَا يَتَكَلَّمُ عَنْ مِيكُوپَرٍ
يَتَكَلَّمُ عَنْ أَبِيهِ (جَن دَكْنَ) . وَحِينَمَا يَتَكَلَّمُ عَنْ (مَسَز مِيكُوپَر) يَتَكَلَّمُ عَنْ وَالِدَتِهِ .

بَلَغَ بِهِ الْيَأْسُ أَشَدَّهُ، وَكَرِهَ الْعَمَلَ فِي تِلْكَ الشَّرَكَةِ، وَاضْطُرَّ
لِلْبَحْثِ عَنْ مَسْكَنٍ مَعَ غُرَبَاءَ، وَلَكِنْ كَيْفَ يَلْذُّ لَهُ عِيشٌ فِي
بُؤْرِهِمْ؟ فَوَجَدَ أَنَّ الْحَاجَةَ مَاسَةً لِمَكَاتِبَةِ «بِيجُوتِي» يَسْأَلُهَا عَنْ
مَسْكَنٍ عَمَتِهِ «مِسْنُ بِنْسِي تَرْتُوُودْ» الَّتِي حَدَّثَتْهُ أُمُّهُ عَنْهَا
كَثِيرًا، وَوَدَّتْ لَوْ يَزُورُهَا لَشِدَّةٍ حَدِيثُهَا^(١) عَلَيْهِ، وَرَحِمَتِهَا بِهِ؛
فِرَارًا مِنْ تِلْكَ الْحَيَاةِ التَّعْسَةِ.

فَأَجَابَتْهُ (بِيجُوتِي) إِلَى طَلْبِهِ، وَأَخْبَرَتْهُ بِأَنَّهَا فِي (دُور)، وَزَوَّدَتْهُ
بِبَعْضِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ نَقُودٍ فِي سَفَرِهِ. وَلَمَّا انْقَضَتْ أَيَّامُ الْأُسْبُوعِ،
وَوَفَّى مَا عَلَيْهِ مِنْ دَيْنٍ لِلشَّرَكَةِ، أَزْمَعَ^(٢) عَلَى الرَّحِيلِ، وَمُغَادَرَةِ تِلْكَ
الدِّيَارِ، فَبَحَثَ عَنْ حِمَالٍ يَحْمِلُ عَنْهُ صَنْدُوقَهُ، فَعَثَرَ عَلَى شَابٍّ، وَلَسُوهُ
الْحِظُّ كَانَ لَصًّا سَلَبَهُ كُلَّ مَا يَحْمِلُ حَتَّى نَقُودَهُ الْيَسِيرَةَ، وَتَرَكَه
صِفْرَ الْيَدَيْنِ حَائِرًا لَا يَلْوِي عَلَى شَيْءٍ. وَبَعْدَ لَا شَيْءٍ لَمْ يُجِدْهُ نَفْعًا عَزَمَ
عَلَى السَّفَرِ مَاشِيًا، فَتَابَعَ السَّيْرَ، وَلَكِنْ الْجُوعَ أَنَّهُكَ قُوَاهُ، فَلَمْ
يَجِدْ وَسِيلَةً تَنْقُذَهُ مِنْ مَخَالِبِ الْمَوْتِ سِوَى أَنْ يَبِيعَ مَلَابِسَهُ الزَّائِدَةَ

(١) عَطَفَهَا عَلَيْهِ (٢) أَزْمَعَ عَلَى الرَّحِيلِ: ثَبَّتَ عَلَيْهِ عَزَمَهُ. هَذَا مَا قَالَهُ الْخَلِيلُ.
وَقَالَ الْكَسَاوِيُّ: يُقَالُ: أَزْمَعَ الْأَمْرَ وَلَا يُقَالُ أَزْمَعَ عَلَيْهِ. وَقَالَ: الْفَرَاءُ بِقَالَ: أَزْمَعَ
الْأَمْرَ وَأَزْمَعَ عَلَيْهِ كَمَا يُقَالُ أَجْمَعَ الْأَمْرَ وَأَجْمَعَ عَلَيْهِ.

ليشترى بثمنها ما يحتاجُ إليه من الخبزِ الضروريِّ في أثناء سفره
حتى لا ينفدَ دونَ أن يصلَ .

وبعدَ ستةِ أيامٍ على هذه الحالِ ، وصلَ إلى (دُوقَر) مُمزَّقَ
الثيابِ ، مُعَبَّرَ المنظرِ ، بينَ الحياةِ والموتِ . وفي أوَّلِ الأمرِ لم
يُوفِّقْ إلى معرفةِ مَنْسَكِنِ عَمَتِهِ . وبينما هو في الطريقِ يَبْحَثُ
إِذْ اعترضته مَرَكَبَةٌ سَقَطَ منها غِطاءُ الحصانِ ، فناولَه للسائقِ ،
ثم سألَه عن بيتِ (مِسْ تَرْتُوود) عَمَتِهِ ، فأرشدهُ إليه .

سارَ (دافيدُ) وطريقه إلى المنزلِ فتلاقى مع خادمِ (مِسْ تَرْتُوود) ،
فهدَّتهُ إليه ، ثم تركته واقفاً بالبابِ تصطكُ أسنانهُ من هَوْلِ البردِ ،
وهو يتطلَّعُ إلى النوافذِ علَّه يُرى شَبَحَ عَمَتِهِ ، فوقعَ بَصَرُهُ على
رجلٍ تلوحُ عليه سِيما^(١) الوقارِ . ولكن فكره لم يَقِفْ عند هذا
الحدِّ ، بل سَبَحَ في مَيْدانِ البحثِ عما يَفْعَلُ . وعلى حينِ غفلةٍ
رأى سيدةً مُسِنَّةً مُعْتَدِلَةً القامةِ ، تلبسُ مِدْعَةً ، وفي يَدِها
سِكِّينٌ لقطع الحشائشِ من الحديقةِ . وما وقعَ بَصَرُها عليه حتى
أمرته بأن يفارقَ المكانَ .

(١) علامة .

تَحَطَّم قَلْبُ « دَاوَيْدَ » الْمَسْكِينِ ، وَمَلَكَ الْيَأْسُ فُؤَادَهُ الْمَكْلُومَ
فَتَقَدَّمَ إِلَيْهَا - وَأَنَا مِلَهُ تَرْتَعِشُ^(١) ، وَفَرَأَيْصُهُ^(٢) تَرْتَعِدُ - يَقُولُ :
« عَمَتِي ، رِفْقًا بِي ». فَمَعْجَبَتٌ أَيْمًا عَجَبٌ ، وَحَدَّثَتْ^(٣) إِلَيْهِ تَحْدِيقًا
تَسْتَمَعُ لَحْدِيثَهُ وَهُوَ يَقُولُ :

« أَنَا دَاوَيْدَ كَبَرُ فِيلْدَ » مِنْ بَلَدَةِ « بَلَنْدَرَسْتُونِ » حَيْثُ
أَتَيْتُ وَأَنَا طِفْلٌ ، وَرَأَيْتُ أُمِّي الْعَزِيزَةَ ، وَقَدْ عِشْتُ مَعِيشَةً
كُلُّهَا شَقَاءٌ مُنْذُ أَنْ اخْتَارَهَا اللَّهُ لِجَوَارِهِ ، وَأَهْمَلْتُ كُلَّ الْإِهْمَالِ ،
وَحُرَمْتُ التَّعْلِيمَ ، وَقُطِعْتُ مِنَ الْمَدْرَسَةِ ، وَطُرِدْتُ مِنَ الْمَنْزِلِ ؛
لَا كَسِبَ عَيْشِي وَأَنَا طِفْلٌ . وَوُضِعْتُ فِي شَرَكَةٍ لِأَعْمَلَ عَمَلًا
لَا أَصْلَحُ لَهُ ، وَلَا يَصْلَحُ لِي . وَقَدْ اضْطَرَرْتُ أَخِيرًا إِلَى الْهَرَبِ مِنْ
تِلْكَ الْبَيْتَةِ ، وَالْإِلْتِجَاءِ إِلَيْكَ . وَسَرَقَ أَحَدُ اللَّصُوصِ نَقُودِي
فِي مَبْدَأِ سَفَرِي ، فَأَتَيْتُ إِلَيْكَ مَاشِيًا ، وَاسْتَفْرَقَ سَفَرِي سِتَّةَ
أَيَّامٍ ، لَقِيتُ فِيهَا مَا لَقِيتُ مِنْ مَتَاعِبَ وَآلَامٍ . وَلَمْ أَنْمْ فِي سَرِيرٍ
مُنْذُ بَدَأْتُ تِلْكَ الرَّحْلَةَ الشَّاقَّةَ . » وَأَخْبَرَهَا بِأَنَّهُ لَمْ يَلْجَأْ إِلَيْهَا إِلَّا
لِتُزِيلَ عَنْهُ مَا غَشِيَهُ مِنْ غَمٍّ وَهَمٍّ ، ثُمَّ اسْتَرْسَلَ فِي بُكَائِهِ بَعْدَ أَنْ

(١) ارتعش وارتعد : اضطرب . (٢) الفرائص : جمع فريضة وهي حلقة بين
الجنب والكنف لاتزال ترتعد من الدابة . (٣) التحديق : شدة النظر

أَتَمَّ حَدِيثَهُ . فَأَشْفَقَتْ عَلَيْهِ ، وَقَادَتْهُ إِلَى الْمَنْزِلِ ، وَأَعْتَمَتْ فَظَّ بِهِ
 حَرَارَةَ الدَّمِّ بِمَا أَعْطَتْهُ إِيَّاهُ مِنْ شَرَابٍ وَدَوَاءٍ ، وَطَلَبَتْ مِنْ
 السَّيِّدِ « دِكْ » — الَّذِي رَأَاهُ « دَاثِدُ » مُطْلَافاً مِنَ النَّافِذَةِ — النَّزُولَ ،
 ثُمَّ أَخْبَرَتْهُ بِأَمْرِ هَذَا الْغَلَامِ ، مُسْتَفْسِرَةً عَمَّا تَفَعَّلُ ، فَنَصَحَ لَهَا
 بِإِعْطَائِهِ حَمَاماً سَاخِناً ، وَتَغْيِيرَ مَلَابِسِهِ الْقَدِرَةِ . فَلَاقَتْ هَذِهِ الْفِكْرَةَ
 مِنْهَا قَبُولاً . وَفِي الْحَالِ كَانَ « دَاثِدُ » يَرْفُلُ^(١) فِي ثِيَابٍ غَالِيَةٍ ،
 وَيَنَامُ عَلَى فِرَاشٍ وَثِيرٍ^(٢) ، وَعَمَّتُهُ تُرْتَبُ لَهُ شَعْرَهُ وَتَقُولُ :
 « مَا أَجْلَكَ أَيُّهَا الْفَتَى الْمُسْكِينُ . »

وَبَعْدَ تَنَاوُلِ الْغِذَاءِ وَوَسْطِ هُدُوءٍ شَامِلٍ تَلَحُّظُهُ عَيْنُ الْعِنَايَةِ
 السَّاهِرَةِ ، جَلَسَ « دَاثِدُ » إِلَى عَمَّتِهِ وَالسَّيِّدِ « دِكْ » يَقْصُصُ عَلَيْهِمَا
 قِصَّتَهُ مِنْ جَدِيدٍ ، وَالْأَسْفُ مَلَأَ جَنْبِيهِ . وَمَا كَادَ يَفْرُغُ مِنْ حَدِيثِهِ
 حَتَّى نَصَحَ السَّيِّدُ « دِكْ » بِأَنْ يَذْهَبَ الْفَتَى إِلَى الْفِرَاشِ لِيَسْتَرِيحَ
 مِنْ وَعْثَاءِ^(٣) السَّفَرِ ، فَنَامَ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ نَوْمًا عَمِيقًا هَادِئًا ، حَامِداً
 اللَّهَ عَلَى نَعْمَائِهِ الْجَزِيلَةِ ، دَاعِياً بِقَلْبِهِ أَلَّا يَحْكُمَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِالطَّرْدِ
 وَالشَّقَاءِ ، وَأَنْ يَقِيَهُ ذَلِكَ السَّوَالِ ، وَالْوَحْدَةَ وَالْبُؤْسَ ، وَأَنْ يَرْحَمَ
 أَوْلَئِكَ الْأَطْفَالَ الَّذِينَ لَا مَلْجَأَ لَهُمْ وَلَا نَصِيرَ .

(١) رَفُلٌ فِي ثِيَابِهِ : أَطَالَهَا وَجَرَّهَا مَتَبَخِرَةً (٢) مَهْدٌ ، مَرِيحٌ (٣) وَعْثَاءٌ : مُشَقَّةٌ
 (٣)

وفي الصباح التالي أخبرته عمته بأنها بعثت^(١) إلى السيد «مزدستون» كتاباً، ففرع الفتى لسماع هذا النبأ، وطار في أمره، كيف يفعل إذا أجبرته على العودة معه، وهو لا يريد أن تجمعهما الأيام ثانية بعد فراقهما. فاختلف عليه الحال، ولم يفهم السر من إرسال هذا الكتاب، وبقي في حيرة دبّت فيها خواطرُ السوء في نفسه حتى وصل زوج أمّه ومعه أخته. وقد اغتاضت العمّة حينما رأت الأنسة «مزدستون» ممتطيةً حماراً يسير على حشائش الحديقة، فطردت الحمار وسائقه، ثم استقبلت الزائرين بعد أن أجلسَت «دائيد» على مقعدٍ بالقرب منها. ولما استقرَّ بهم المجلس تحدّث السيد «مزدستون» إلى عمّة «دائيد» عن أخلاقه، ومحاولة إصلاحه، وإقامة ما اعوجَّج من سلوكه وهربه من العمل، وأنه الآن آتٍ لأخذه، فإن أبت فلن يطرق له باباً بعد اليوم.

حينئذٍ لم يسع العمّة الروم إلا أن تسأل «دائيد» قائلةً: «أأنت مُستعدٌّ للذهاب يا دائيد؟» فتوسّل^(٢) إليها الفتى ألا تُجيب رغبة هذا الرجل وأخته؛ فإنهما لم يُحبّاه، ولم يعطفا عليه، وجعلا أمّه ترسّف^(٣) في قيود الذل والاستعباد، فعاشت شقيّة

(١) بعثت: أرسلت (٢) تضرّع وتقرّب (٣) رسف: مشى معى المقيد

لَعَسَةً^(١)، محرومةً ابْنَهَا، مُبْعَدَةً عَنْهُ، وَرَجَاهَا أَنْ تَحْفَظَ بِهِ
إِبْقَاءً لِدِكْرَى أَبِيهِ الرَّاحِلِ .

فَتَرَدَّدَتِ الْعَمَّةُ بُرْهَةً اسْتَعَانَتْ فِي خِلَالِهَا بِالسَّيِّدِ « دِكْ » .
الصَّائِبِ الرَّأْيِ، الْحَاضِرِ الْبَدِيهِةِ، فَنَصَحَ لَهَا بِأَنْ تَذْهَبَ
وَتَشْتَرِيَ لَهُ مَا يَحْتَاجُ مِنْ مَلَابِسَ، وَتُبْقِيَهُ مَعَهَا . فَشَكَرَتْ لَهُ
حُسْنَ تَدْيِيرِهِ، وَخَالَصَ نَصِيحِهِ، ثُمَّ رَفَضَتْ إِعْطَاءَ الْغُلَامِ لَزَوْجِ
أُمِّهِ؛ ذَاكِرَةً أَنَّهَا سَتَحَاوُلُ إِصْلَاحَهُ مَا اسْتَطَاعَتْ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا .
وَمَا أَشَدَّ سُرُورَ « دَائِيْدَ » حِينَ سَمِعَ النُّطْقَ بِهَذَا الْحُكْمِ الْعَادِلِ؛
فَقَدْ تَهَلَّلَتْ أُسَارِيرُ^(٢) وَجْهِهِ بِشَرٍّ^(٣)، وَامْتَلَأَ قَلْبُهُ جَذَلًا^(٤)،
وَطَارَ فَوَادُهُ فَرَحًا، وَأَقْبَلَ عَلَى عَمَّتِهِ مَاذَا ذِرَاعَيْهِ حَوْلَ رَقَبَتِهَا
يُسَبِّحُهَا لَثْمًا وَتَقْبِيلًا، مُرَدِّدًا عِبَارَاتِ الشُّكْرِ، وَجَزِيلَ الثَّنَاءِ .
وَمِنْ ذَلِكَ الْحَيْنِ بَدَأَ « دَائِيْدُ » حَيَاةً جَدِيدَةً، شَمَرَ فِيهَا
بِعَظْفٍ لَمْ يَشْعُرْ بِهِ مِنْ قَبْلُ، وَرَفَلَ فِي ثِيَابِ الْعِزِّ وَالْفَخْرِ، يَحْمِلُ
اسْمَ عَمَّتِهِ « تَرْتُوود كَبْرَ فِيلْد »، وَانْقَشَعَتْ عَنْهُ سَحَابَةُ الظَّلَامِ
الدَّاكِنِ^(٥)، وَزَالَتْ تِلْكَ الْغُيُومُ الدَّاجِنَةُ^(٦)، الَّتِي كَانَتْ تُنْذِرُ بِالْوَيْلِ

(١) النعس : الهلاك (٢) أسارير الوجه : خطوطه

(٣) البشعر : السرور . (٤) الجذَل : الفرح .

(٥) الدُّكْنَةُ : لون يضرب إلى السواد . (٦) التلبدة : الكثيفة .

وسوء المصير . وفارقَ حياةَ النفسِ والإِجرامِ ، وعاشَ رافِهاً^(١) ،
 ناعمَ البالِ ، يَغْتَرِفُ العِلْمَ في أحسنِ المعاهدِ في حِياطةِ عمته التي
 مُحَضَّتُهُ^(٢) نُصَحَهَا بقولِها : « تَرُتْ كَثْرَ فَيْلِد » ، ثِقْ بِنَفْسِكَ ،
 وَجِدْ في دُرُوسِكَ . وَأَحِبَّ لِأَخِيكَ ما تَحِبُّ لِنَفْسِكَ . ولا تَوَخَّرْ
 عَمَلَ اليَوْمِ إلى الغدِ . ولا تَقِفْ مَوْقِفاً مُخْجِلاً . وإياكَ والدِناةَ
 والقَسْوَةَ والكَذِبَ . تَجَنَّبْ هذه الرذائلَ الثلاثَ . وسأُضَعُ
 كُلَّ آمالِي فيكَ . وأرجو أن تكونَ عندَ حُسْنِ ظَنِّي بك . »

ولم يَكْذِبْ يَسْمَعُ هذه النصيحةَ الغاليةَ حتى بَدَلَ ما في وسعِهِ
 لتحقيقِ امْنِيَّتِها ، والوصولِ إلى رَغْبِها الصادقة ، فصارَ رَجُلًا
 عَظِيماً ، وكاتباً قَديرًا ، وأديباً كَبيرًا ، ومُمَثِّلًا ماهرًا ، وخطيبًا
 مَفوَّهاً ، ومُصَلِّحًا اجتماعيًا ، يُدافعُ عن الفقراءِ ، وينصُرُ المَظْلومينَ .
 تَعَرَّفَ إلى أَصْدِقائِهِ القَدماءِ ، واتَّخَذَ بَطانَةً من أخلصِ الأوفياءِ ،
 ولا عَجَبَ؛ فتلِكَ طَبيعةُ الزمانِ ، ما كَثَرَ عن نابٍ إلا ابتسم ثَغْرُهُ
 عن نِجَاحِ باهرٍ ، وتوفيقٍ كَثيرٍ . فالسعادةُ يَجِبُ أن تُشْتَرى ،
 ولا بُدَّ لَها مِن ثَمَنِ . ولا تَمَنَّ لها إلا تَحْمِلُ المتاعِبِ والآلامِ .

(١) بِنِعْمًا سَعيدًا . (٢) أَخَصَصْتُ لَهُ .

كناسُ هولبورن

تشارلز ديكنز

ترجمة : محمد عطية الإبراهيمي



مطبعة المعارف، مكتبتها بمصر

كناسٌ هُولُبورن

(جُو) شابٌ في الثلاثينَ من عُمره، مديدُ القامة، هزيلُ البدنِ، طويلُ العُنُقِ، دميمٌ^(١) الخَلْقَةُ، ضَيِّقُ الجبهة، ضاقت سُبُلُ الارتزاقِ في وجهه، فلم يَحْذِرْ حِرْفَةً يَكْتَسِبُ منها قُوته غيرَ الكَنَسِ في حَيٍّ «هُولُبورنَ بَلندنَ».

كان يخرجُ من منزله مُبَكِّراً. وقد حَمَلَ على كَتِفِهِ مِكنَسَةً، ومِكتَلًا^(٢)، ومَرَأً^(٣) يُرِيلُ به الثلوجَ والأوحالَ المتراكمةَ على سَطْحِ الأرضِ. كان لا ينفكُ يَعْمَلُ صَيْفًا وشتاءً، لا يَتَنَبَّهُ عن ذلك شِدَّةُ القُرْ^(٤)، ولا انهماكُ المطرِ، ولا تساقطُ الصقيعِ. حياةٌ مُرَّةٌ قاسيةٌ تلك التي كان يَحْيَاها «جُو»؛ فهو على الدوامِ ردىءُ البِزَّةِ^(٥)، قَذِرُ الملبسِ، خاوي البطنِ، يسمَعُ مَرَّةً الشَتائمَ من الناسِ جميعاً على السواءِ، إن قَدَّمَ له بعضُ الأغنياءِ شَيْئاً من فَضلاتِ موائِدِهِم التَّهَمَةَ في شَراهِةٍ ونَهَمٍ، شاكرًا لهم فضلَهُم

(١) فيبيح (٢) شبه الزنبيل (المقطف) (٣) المرء : لوح من الحديد يعرف «بالكريك» (٤) شدة البرد (٥) الهيبة

وإحسانهم من غير أن يعرف أن ذلك أقل ما يجب عليهم نحوه .
لقد ألفت نفسه الضعة^(١) ، واعتادت عدم الاكتراث لما يناله
من ذلٍ وتحقير .

نشأ فقيراً معدماً ، لا يعرف له أباً ولا أمّاً ، هو ابن السبيل ،
نشأ فيه وتربى بين شوارع وحاراته . وجد الناس يُنادونه باسم
« چو » ، وهو لا يعرف اسم ذلك الوالد الذى أرسله ليشقى في
هذه الحياة ، ولا اسم الأسرة التى ينتمى^(٢) إليها .

لم يذهب إلى المدرسة ، ولم يتعلم القراءة والكتابة . ولم يستطع
تهجئة اسمه ، ولكنه كان يعرف شيئاً واحداً هو : « الصدق
فضيلة ، والكذب رذيلة » . ولذا كان يقول الحق دائماً ، ويتمسك
بالحق ، ولا يعرف إلا الحق . وكان مع هذا يعرف شيئاً آخر
هو الجوع ؛ فقد جاع كثيراً ، وقاسى آلام الجوع ، وعرف معنى
الجوع وأعراضه ودواءه .

• كان « چو » يسكن فى حيّ « تُم أولُ الوز » وهى ناحية
قذرة تترام فيها الفضلات التى تنبعث منها الروائح الكريهة .

(١) تعودت المذلة (٢) ينسب

وشوارعها ضيقةٌ مُتَعَرِّجَةٌ يَكْثُرُ فِيهَا الطينُ وَالْوَحْلُ . منازلُها
قَدِيمَةٌ مُتَدَاعِيَةٌ ، لَا مَنَقَذَ فِيهَا لِضِيَاءِ ، وَلَا مَسَرَى لِهَوَاءِ .

قَدْ يَبْلُغُ عَدْدُ سُكَّانِ الْحَجَرَةِ الْوَاحِدَةِ عَشْرَةً يَنَامُونَ جَنْبًا إِلَى
جَنْبٍ بِأَجْرِ تَافِهِ يَدْفَعُونَهُ آخِرَ كُلِّ أُسْبُوعٍ . وَكَانَ لَا يَسْكُنُ فِي
ذَلِكَ الْحَيِّ إِلَّا أَفْقَرُ الطَّبَقَاتِ مِنْ فَقَرَاءِ لَنْدُنَ ، تُغَطِّي أَجْسَامَهُمْ
أَسْمَالُ تَصِفُ الشَّقَاءَ . مَلَابِسُهُمْ لَا تَقِيهِمْ نَافِثَ^(١) الْبَرْدِ ، وَلَا
وَابِلَ^(٢) الْمَطَرِ . لَمْ يَكُنْ « چو » مَجْهُولًا لَدَى سُكَّانِ ذَلِكَ الْحَيِّ ؛
فَمَا مِنْ رَجُلٍ أَوْ سَيِّدَةٍ أَوْ طِفْلِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ إِنَّ « چو » لَمْ
يُقَدِّمْ لِي خِدْمَةً ، أَوْ إِنَّهُ لَمْ يَقُمْ لِي بِعَمَلٍ مِنَ الْأَعْمَالِ . وَقَدْ اعْتَادَ
أَهْلُ ذَلِكَ الْحَيِّ أَنْ يُلَقَّبُوا كُلُّ سَاكِنٍ فِيهِ بِلَقَبٍ يُنَادِي بِهِ ، وَلَا
يَمُتُّ^(٣) إِلَى اسْمِهِ بِصِلَةٍ ، فَإِذَا سَأَلْتَ عَنْ « چو » مَثَلًا قِيلَ لَكَ :
أَتَقْصِدُ « كَارُوتَز » أَمْ « الْكُولُونِيل » أَمْ « الْجَالُوز » أَمْ . . .

فِي إِحْدَى اللَّيَالِي الْقَارِسَةِ الْبَرْدِ وَقَفَ « چو » فِي الشَّارِعِ
تَحْتَ أَحَدِ الْمَصَابِيحِ ، وَقَدْ أَتَكَأَ عَلَى الْمُرِّ ، وَوَضَعَ الْمِكْتَلَ تَحْتَ
قَدَمَيْهِ لِيَقِيَهُ الْبَرْدَ ، وَأَسْنَدَ الْمِكْنَسَةَ إِلَى الْجِدَارِ ، وَأَخَذَ يُفَكِّرُ

(١) شديد البرد (٢) شديد المطر (٣) يتصل

فيمَن يَقْصِدُهُ مِنْ سَكَانِ الْحَيِّ مُسْتَجِدِّيًّا^(١) . وَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ رَأَى شَخْصًا يَدْنُو مِنْهُ ، وَيَتَفَرَّسُ^(٢) فِي وَجْهِهِ ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ : « مَا لِي أَرَاكَ زَائِعَ الْبَصَرِ ؟ فِيمَ تَفَكَّرُ ؟ إِخَال^(٣) أَنَّكَ مَحْمُومٌ أَوْ جَائِعٌ مَضَتْ عَلَيْكَ أَيَّامٌ بَلْ أَسَابِيعُ لَمْ تَتَنَاوَلَ مَا تُنْمِسُ بِهِ رَمَقَكَ^(٤) . دُونَكَ^(٥) تِلْكَ الْقِطْعَةُ الْفِضِّيَّةُ . . . أَسْرَعُ إِلَى أَقْرَبِ مَطْعَمٍ . . . وَلَكِنْ قَبْلَ أَنْ تَنْطَلِقَ عَرَّفْنِي مَنْ أَنْتَ ؟ هَلْ لَكَ صَدِيقٌ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ ؟ » .

فَقَالَ ، وَقَدْ فَفَرَّ^(٦) فَاهَ دَهْشًا : « إِنِّي « جَوْ » . لَيْسَ لِي صَدِيقٌ . . . أَيْمَكُنْ أَنْ يَجِدَ فَقِيرٌ مُعْدِمٌ مِثْلِي صَدِيقًا !! أَلَا تَتَّخِذُ مِنِّي صَدِيقًا ؟ إِنِّي مِثْلَكَ وَحِيدٌ لَا صَدِيقَ لِي . تَصَافِحَ الرِّجَالانِ ، وَمَضَى هَذَا لِيُشْبِعَ جَوْعَتَهُ ، وَانْطَلَقَ ذَاكَ إِلَى كُوْحِهِ الَّذِي يَعِيشُ فِيهِ مَزْهُوًّا^(٧) مَسْرُورًا ؛ إِنَّهُ قَدْ وَجَدَ الصَّدِيقَ .

لَمْ يَكُنْ هَذَا الرَّجُلُ أَحْسَنَ حَالًا مِنْ « جَوْ » ؛ فَقَدْ كَانَ مَزْمُوقَ الثِّيَابِ ، أَشْعَثَ^(٨) أَغْبَرَ ، يَعِيشُ مِمَّا يَكْسِبُهُ مِنْ صُنْعِ بَعْضِ اللَّعْبِ

(١) طَالِبًا الْعَطِيَّةَ وَالْإِحْسَانَ (٢) يَتَأَمَّلُ (٣) أَظُنُّ (٤) الرَّمَقُ : بَقِيَّةُ الْحَيَاةِ (٥) خَذَ (٦) فَتَحَ فَهُ (٧) غُورًا (٨) مَغْبَرٌ

الساذجة التي يبيعها لأبناء الفقراء بأتفه الأثمان . وقد يمر عليه اليوم إثر اليوم ، وهو يعرض سلعته على الأطفال ، ولا يجد بينهم من يحمل في جيبه درهما يشتري به إحدى اللب .

كانا يلتقيان كل يوم فيتحدثان طويلاً ، ويقص كل منهما على صاحبه ما لاقاه في يومه ، حتى إذا ما حان وقت النوم انصرفا بعد أن يدس ذلك الرجل في يد « چو » قطعة أو قطعتين من البرتر إن كان معه نقود ، وإلا اعتذر له عن عذمه^(١) بقوله : « إننا اليوم في الفقر سواء يا « چو » ، ثم يمضي وهو دافع العين . لقد شاءت الأقدار أن تفرق بين الصديقين اللذين تعارفا على غير موعد ؛ فقد ضم أحدهما القبر من غير أن يسير إلى جواره غير صديقه ؛ وبقي « چو » ايندب حظه العائر^(٢) ، وليكن بدمعه المنهر ذلك الصديق المحسن .

كان « چو » يعمل قبيل الغروب ، فجاءه شرطى وأمره بأن يتبعه إلى دار الشرط . ولما مثل بين يدي الموظف المختص سأله عما يعرف عن الميت ، فقص عليه — ودموعه تنهمر غزيرة من مآقيه — كل ما عرفه عنه من نبلى ، وشهامية ، وفضل . وذكر له

(١) المُدَم : الفقر (٢) الساقط ، النعس

كلّ ما سمعه منه خاصّاً بأهله ونشأته . ولما انصرف من تلك الدار وجد في جيبه « شلّنين » ، فوقع في حيرة من أمره ، وأخذ يُسائل نفسه : أئنّى لك ذلك المبلغ الكبير ؟ وكيف وصل إلى جيبك ؟ ولم يدر أن مُحسنًا كان يرى بُكاءه ويستمع لحديثه ، فأخذته الشفقة عليه ، فأسقط ذلك المبلغ في جيبه وهو خارج من دار الشرط .

لقد كان « چو » وفيّاً لصديقه بعد مماته ، كما كان مُخلصاً له في حياته ؛ ففي كلّ يوم يذهب إلى قبره ، فيكنس ما حوله ، ويُبَلِّلُ الترابَ بدمعه الغزير ، ويُناجيه ^(١) بألوان من الذّكري المؤثّرة في عبارات عميقة ، ويدعو الله أن يُسكّنه فسيح جنّانه ، ثم ينطق إلى عمله ، وهو يرتقب ^(٢) اليوم الذي يجتمع فيه بصديقه في تلك الدار التي لا يعرف فيها المرء ذلّاً ولا هواناً .

بعد بضعة أيام من موت ذلك الصديق قصّدت سيدة - تلبسُ السواد - « چو » ، ورجّته أن يَدُلّها على المقبرة التي دُفِنَ فيها صديقه ، ثم قدّمت له قطعة مستديرة صفراء ذات بريق أخاذ ^(٣) ، فردّها إليها ؛ لأنه لم يشأ أن يأخذ أجرًا على عملٍ يحسبه من

(١) بمادته (٢) ينتظر (٣) شديد

واجب الوفاء لصديقه ، ولكنها أبَت أن تَسْتَرِدَّهَا ، وَرَجَّتْهُ أَنْ
يَسْتَعِينَ بِهَا عَلَى الْجُوعِ وَالْفَقْرِ .

سار « جو » أمام السيدة مشغولَ الْفِكْرِ بِتِلْكَ الْقِطْعَةِ الصَّفْرَاءِ
الَّتِي مُنِحَهَا^(١) . لَقَدْ حَسِبَهَا أَوَّلَ الْأَمْرِ قِطْعَةً نُحَاسِيَةً ، وَلَكِنَّهُ وَجَدَ
أَنَّهَا لَا تَمُتُ^(٢) إِلَى النُّحَاسِ بِصِلَةٍ . أَلَا يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ « الْجَنِيَّةُ »
الذَّهَبَ الَّذِي تَمْتَلِئُ بِأَمْثَالِهِ جُيُوبُ السَّادَةِ الْأَغْنِيَاءِ ؟ بَلَى ، إِنَّهُ
« جَنِيَّةٌ » مِنَ الذَّهَبِ . ثُمَّ سَارَا حَتَّى وَصَلَا إِلَى الْمَقْبَرَةِ ، وَهَنَّاكَ
جَثَّتْ^(٣) السَّيِّدَةُ أَمَامَ الْقَبْرِ ، وَأَخَذَتْ تُصَلِّي وَتَدْعُو ، يَنِمَّا كَانَتْ
دُمُوعُهَا تَتَسَاقُطُ غَزِيرَةً مِنْ مَآقِئِهَا .

إِنَّهَا سَيِّدَةٌ يَبْدُو عَلَيْهَا الْوَقَارُ ، تُزَيِّنُ أَصَابِعَهَا بِخَوَاتِمٍ رُصِعَتْ
بِالْأَحْجَارِ النَّفِيسَةِ . إِنَّهَا تَبْكِي ذَلِكَ الْفَقِيرَ الَّذِي طَوَاهِ الرَّدَى^(٤)
فِي تِلْكَ الْحُفْرَةِ . وَلِمَ تَبْكِيهِ ؟ أَتُرَاهَا كَانَتْ تُحِبُّهُ ؟ إِنْ صَحَّ ذَلِكَ
فَلِمَاذَا لَمْ تُقَدِّمْ لَهُ فِي حَيَاتِهِ يَدَ الْمُسَاعَدَةِ ، وَلِمَ تُنْقِذْهُ مِنْ تِلْكَ
الْحَيَاةِ اللَّاعِبَةِ^(٥) الَّتِي كَانَ يَحْيَاهَا فِي خِصَاصِيَّةٍ^(٦) وَإِقْلَالٍ ؟ لَا ، إِنْ
عَاطِفَةٌ أَرْقَى وَأَنْبَلَ مِنْ عَاطِفَةِ الشَّفَقَةِ هِيَ الَّتِي تُسْقِطُ دُمُوعَهَا . . .

(١) أعطى (٢) اتصل (٣) خربت ساجدة (٤) الهلاك والموت
(٥) الكثيرة الثوب والإعياء (٦) فقر

مَنْ يَدْرِ لَعَلَّهَا صَدِيقَةٌ أَوْ قَرِيبَةٌ فَرَّقَتْ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ عَوَادِي^(١)
الزمن ، وحوادثُ الأيام !!!

عاد « چو » إلى مأواه في « ثُمَّ أَوَّلَ الْوُزْرِ » ، ثم بدا له أن يتحقق
صِدْقَ ما أخبرته به السيدة عن القطعة التي أعطتها إياه . فذهب
إلى أقرب متجرٍ من منزله ، وطلب من صاحبه أن يبيعه أَقَّةً من
اللحم ، ولما طلب منه الثمن قَدَّم له (الجنيه) ، فنظر إلى « چو »
في رِيبةٍ^(٢) ، ثم قال له : « أَقَّةَ لَحْمٍ وَ (جَنِيهًا) ذَهَبِيًّا ؟ » من أَيِّ
مخلوق سَرَقْتَ هذا ؟ إنني أعرفك لا تملك من مَتَاعِ الدُّنْيَا غيرَ تلك
الْأَسْمَالِ^(٣) البالية التي لا تكادُ تَسْتُرُ جِسْمَكَ . أَجِبْ وَإِلَّا أَبْلَغْتُ
أَمْرَكَ لِلشُّرْطَى . . . إنه قريبٌ منا .

عَبَثًا حَاولَ « چو » أن يُفهِمَ التَّاجِرَ أَنَّ (الجنيه) وصل إليه
من غرضٍ شريفٍ ، وأنَّ سَيِّدَةً مُحْسِنَةً مَنَحَتْهُ إِيَّاهُ ، ولكنَّ هذا
القولَ كَانَ يَزِيدُ الرَّجُلَ إِيمَانًا بِأَنَّ « چو » لصٌّ سَارِقٌ ، وقد
وجدَ الْفُرْصَةَ سَانِحَةً لاسْتِغْلَالِ فَقْرِ « چو » وسَدَّاجَتِهِ^(٤) لمصلحته .
فلم يَدَعْ « چو » يَغَادِرُ مَتَجَرَّهُ إِلَّا بَعْدَ أَنْ تَنَازَلَ لَهُ عَنْ ثَمَانِيَةِ

(١) الحوادث والنوازل (٢) الريبة : التهمة والشك (٣) الملابس القديمة

(٤) بساطته

(مثلنات) منه . عاد «جو» إلى مسكنه فتعقبه^(١) لص استطاع بمهارته وحذقه أن يسلب منه باقى (الجنيه) من غير أن يشعر . وهكذا عاد «جو» فقيراً مُعدماً كما كان قبل أن تلاقيه تلك السيِّدة المحسنة .

ما أمرَ الحياةَ حينما يجتمعُ الفقرُ وفقدُ الصديق . . . لقد صارت أيامُ «جو» بؤساً لا حدَّ له ، وشقاءً لا نهايةَ له . . . كان الشرطُ^(٢) يُطارِدونه أنَّى ذهب ؛ لَقذارتهِ ، ورثائتهِ ثيابه . وكانوا يأمرونه ألا يقفَ ، وإن كان ذلك للاستراحة من عناء^(٣) العمل . وكان كُلما ذهبَ إلى شارعِهِ ليكنسه طرده منه الشرطى المكلفُ حراسته . ولكنه يريدُ أن يكنسَ ليا كل . . . إنه جائعٌ . . .

كان يحملُ كلَّ أذى ويصبرُ على كلِّ شرٍّ حتى لا يموتَ جوعاً . وذاتَ يومٍ تضايقَ منه الشرطى فساقه إلى دار الشرط مُتَّهماً إياه بوقوفهِ فى عرضِ الطريقِ من غيرِ عملٍ ، وكلما أمره بالسير أظهرَ الطاعةَ ، حتى إذا ما انصرفَ عاد إلى الوقوفِ ، واستجداً^(٤) المارة .

حقق السيدُ «سناجز باي» الضابطُ فى تلك الشكوى ، وكان يعلمُ من أمرِ «جو» الشئ الكثيرَ ، فلم يأخذ بكلامِ الشرطى ، بل

(١) تنبّه (٢) جمع شُرطة وشُرطى (٣) تعب (٤) سؤالم

قابل قوله باحتقارٍ وازدراءٍ ؛ فهو يعلمُ منه الكذبَ والتدليسَ^(١) والوشايةَ، ثم قال له في تهكمٍ مُرٍّ : « لا تخفْ من « چو » ؛ فإنه لن يُلحِقَ بك أذى . إنه رجلٌ مُسالمٌ لا ضررَ منه على أحدٍ كائنًا من كان . » ثم أمره بأن يَمِضَ إلى عمله ، وقال لحو : « انتظرني في الخارج ؛ لأننى فى حاجةٍ إليك . » فصَدَعَ^(٢) بالأمر .

ولما صارا خارجَ حجرةِ الضابطِ قال الشرطىُّ لحو : « أيها الشريرُ ، حذارٍ أن تأتى إلى حىِّ « هُولبورن » ثانية . إننى لورأيتُك فيه إذا لأصابك منى ما لا قبلَ^(٣) لك باحتماله . » ثم سارَ قليلاً ، والتفتَ إليه وقال : « لك مُطلقُ الحريةِ فى أن تذكرَ للضابطِ ذلكَ الوعيدَ الذى توعَّدتُك به ، ولكنْ تذكرْ ما سيُصيبُك إن أنتَ أقدمتَ على هذا . »

كان الضابطُ قد دَعَا أصدقاءه لتناولِ (الشاي) عنده فى مساء ذلك اليوم ، فخطرَ بباله ، وهو يُحقِّقُ مسألةَ « چو » أن يأخذه معه عند عودته إلى المنزلِ ، ليقدِّمَ له ما يزيدُ على حاجةِ ضيوفه من فطائرٍ وحلوى ، وقد أنقذَ ذلكَ الخاطرَ . ولأولِ مرَّةٍ

(١) الفس (٢) صدع بالأمر : أطاع وفنذ (٣) قدرة

أكل « جو » حتى امتلأت معدته ، من أطايب الأطعمة التي كان يراها ، ولا يعرف إن كانت تؤكل أم توضع للزينة .

لقد أحسَّ « جو » فوارق المجتمع المرة القاسية في ذلك اليوم ، فهذا موظف صغير يُقدم لأصدقائه الأربعة فطائر وحلوى بما يكفي إطعامه أربعة أشهر . يا بؤس الرجل الفقير حينما يدرك أنه لا يجد الخبز الذي يدفع به المسغبة^(١) عن نفسه ، بينما يدرك أن سواه تتزاحم أطايب الأطعمة على مائدته ، فيتخم^(٢) من غير أن يتناول شيئاً ؛ لأنه لا يدري ماذا يأكل ، وماذا يبقى . . . !!!

أظلمت الدنيا في عيني « جو » ، وضائق سبل الارتزاق في وجهه ، وصار ينتقل بين أحياء « لندن » فرعاً مهموماً يبحث عن عمل ، ولكنه لا يدري ماذا يعمل ؛ فهو لم يتعلم صناعة تُدرُّ عليه أخلاقاً^(٣) من الرزق ، ولم يوهب تفكيراً سليماً يكفل له الوصول إلى ما يريد . لقد بات طريداً مُشرّداً تُلحُّ عليه بطنه بالعمل ، ويأمره الشرط بالسير ، وينصح له كلُّ من يستجديه بالعمل . وأخيراً تنوء قدماه بحمله فيسقط على الأرض من جوع ومن إغياء بالقرب من الكوخ القذر الذي يقضى فيه ليله ، فيراه بعض الصبية من

(١) المسغبة : المجاعة (٢) تمتلئ بطنه لدرجة المضايقة (٣) جمع خلف وهو ما استخلفته من الشيء

أبناء ذلك الحى، فيجتمعون حوله، ويُبصرونه وهو مُصَفَّرُ الوجه، مُتصلَّبُ الأطراف، عديمُ الحركة، فيفزَعون منه، ويهرَّبون إلى آبائهم وأمهاتهم ليخبروهم بما لحقَ «چو». فيتساءلُ بعضهم، ويتضاحك الآخرون، يَبْدُو أن شاباً أخذته الشَّفَقَةُ على «چو» حينما سمِعَ بما حدث له، فانطلقَ إليه وجسَّ نَبْضَهُ، فأدرك أنه ما زال حياً، فاحتمله بينَ يَدَيْهِ، وانطلقَ به إلى كوخِهِ. ثم مَضَى إلى منزله، وعادَ إليه بقدحٍ من (الشَّاي) المزوجِ بقليلٍ من اللبنِ، ثم أخذَ يَسْقِيهِ ذلكَ الشَّرَابَ الدافئ. وبعدَ أن استعادَ «چو» بعضَ قُوَّتِهِ انصرفَ الشابُّ من غيرِ أن ينتظرَ كلمةً يشكرُهُ بها «چو» على ما قدَّم من فَضْلٍ، لأنه يُدْرِكُ أن هذا من أهمِّ واجباتِهِ.

عاد الأملُ في الحياةِ إلى «چو» بعدَ أن وجدَ إلى جِوارِهِ ما يُساوِ ثلاثةَ دراهمٍ تركها ذلك الشابُّ عمداً عند انصرافِهِ. ولكن هل تنفعُ الدراهمُ الثلاثةُ رَجُلًا لا عملَ له، وليسَ له مَوْرِدُ رزقٍ يُدِرُّ عليه مالاَ يَعِيشُ من ورائه؟ لقد انحدَرَ في اليومِ الثاني الدرهمُ الثالثُ إلى جيبِ بائعِ الخبزِ، وطفِقَ «چو» يمدو في

الشوارع هائماً على وجهه ، يمتدُّ بصره الحائرُ إلى الطريق ؛ كأنما يبحثُ عن شيءٍ فقدَ منه ، وعهدُ الجميع به أنه لا يملك شيئاً تمتدُّ إليه يدُ سارقٍ فيتعقبه ويبحثُ عنه . فويلٌ للفقير حين يقسو به الإنسان . إن « چو » في الحقُّ يبحثُ عن عقله الذي ضيَّعه الفقرُ وألمُ الجوع ، واجتماعُ الهموم ، وسوءُ الحظِّ .

عرَفَ « چو » من قبلُ عجوزاً فقيرةً ، فكان يقومُ لها بقضاء ما تحتاجُ إليه نظيرَ أجرٍ تافهٍ^(١) هو بعضُ لُقياتٍ ممَّا تعافه^(٢) نفسها . وكان يُدركُ أن تلك المرأةَ أحسنُ منه حالاً ؛ فإن هناك سيدةً مُحسنةً ، تزورها الفينة^(٣) بعد الفينة ، وتتركُ لها بعضَ المالِ ، لتستعينَ به على الحياة . وبينما كان سائراً في طريقه يمدو إذ أبصرَ تلك العجوزَ تسير على ثلاثٍ^(٤) مُحدَّودة الظهرِ ، فما إن رآته على حاله هذه حتى نادته ، فأقبلَ عليها وقال : « إنني جائع » . فألقتُ إليه لُقمةً فالتهمها^(٥) ، ثم سقطَ على الأرضِ ، وهو يرتعدُ من شدة البردِ .

وبينما كانت العجوزُ تفكرُ فيما تفعلُ لذلك التائه المسكينِ جاءت

(١) حقير (٢) تكرهه (٣) الحين بعد الحين

(٤) الثلاث : قدماها وعصاها (٥) التهمها : ابتلعها بجمرة

(٤)

السيدة المحسنة لزيارتها ، وأبصرت « چو » على حاله هذه ، فأمرت خادماً باستدعاء الحوذى ، وكلفته أن يحمله إلى مركبتها وينطلق إلى المنزل بعد أن يُمرِّجَ على طبيبها الخاص ؛ لئیسعفَ المسكين بالعلاج . فأسعفه الطبيب ثم أخذ إلى قصر تلك السيدة الكريمة .

فتَح « چو » عينيه فألْفَى ^(١) نفسه ينامُ على فراشٍ وثيرٍ ^(٢) في حجرةٍ مضاءةٍ ، وإلى جواره وعاءٌ مملوءٌ بالحساء ، فحسِبَ نفسه في حُلْمٍ ^(٣) ، فحسَّ أعضائه حتى اقتنع بأنه في حقيقةٍ لا في خيالٍ ، ولا حُلْمٍ . فتجرَّع الحساء عن آخره ، ثم أدرك أنه لن يستطيع البقاء في ذلك الجوِّ الذي لم يُخلَقْ لمثله ، فغادر الفراشَ وانطلقَ يَعدُّو إلى الشارع ، ولم يذرْ ما حلَّ به . غير أنه وجد نفسه بعدَ أيامٍ في إحدى المصحاتِ يُعالَجُ من حمى شديدة أصابته في الأمعاء وكادت تقضى عليه .

وقبل أن يَتِمَّ برؤؤه لفظه ^(٤) المستشفَى ، فاحتضنته الشوارع يذرْعُها ^(٥) كما كان يفعلُ من قبلُ ، وأبصرَ به طبيبٌ سائرٌ في الطريق ، وأدرك أنه مريضٌ ، فأقبلَ عليه وجسَّ نبضه ، ثم مدَّ إليه يده

(١) وجد (٢) مهد ، مرج (٣) الحُلْم بضم اللام وسكونها : ما يراه النائم (٤) رماه (٥) يقبسها

ليتوكأ عليها ، وطلب منه أن يتبعه إلى داره . وهناك أمر خادمه ،
أن يهيئ الحمامَ لذلك المسكين ليغتسل ، ويُعد له ثياباً نظيفةً ،
ففعل . وبات « چو » ليلته هادئاً مستريحاً .

وبعد أيام كان الطبيبُ جالساً بالقرب من سرير « چو » ، فقام
هذا من فراشه وهو في شدة المرض ، وحاولَ مُغادرة الفراش ، فقال
له الطبيبُ : « ابقَ في مكانك ! ماذا تريد ؟ »

فقال « چو » : « إنني أريدُ الذهابَ إلى المقبرة . إنني أريدُ
للحاقَ بصديق الذي جمعتني به أوأصر^(١) المحبة والوفاء . إنني أتوق^(٢)
لرؤيته ، وأريدُ أن أنامَ بجواره . لقد مضى على فراقنا أمدٌ
طويلٌ ، وكانَ من الواجبِ ألاَّ نفترقَ . لقد استراح وخلفني
لأشقى . إنني أعيشُ هنا وحيداً ، وهو يعيشُ هناك وحيداً ، فيجبُ
أن نجتمعَ ليستأنسَ كلُّنا بصاحبه .

فقال الطبيبُ لچو : « نَمَ وستكونُ إلى جواره في الوقت
الملائم . . . »

فقال له : « أتعدني بدفني معه ؟ »

فقال الطبيبُ : « لك على هذا » .

(١) جمع آصرة وهي الرحم والقرابة والمِنَّة (٢) أشتاق

فقال (جو): «سَيِّدِي، هناك بقعةٌ طاهرةٌ من الأرضِ اعتدتُ أنْ
 أنظفَها وأثُرَ الرياحينَ فوقَ أرضِها، وأزويَ جَدَّهَا^(١) بدموعي .
 آه... إِنَّ الدُّنْيَا مُظْلِمَةٌ فِي عَيْنِي... أَيْنَ النُّورُ؟ أَيْنَ هُوَ...؟»
 الطَّيِّبُ : « إِنَّ النُّورَ آتٍ سَرِيعًا . » ثم ساد الصَّمْتُ وَخَيَّمَتْ
 عَلَى الْمَسْكَانِ الرِّهْبَةُ وَالسَّكُونُ، ثُمَّ قَالَ الطَّيِّبُ « اِجْوِ » :
 (جُو ، جُو) كَيْفَ أَنْتِ أَيُّهَا الْمَسْكِينَةُ ؟

فقال (جو): « إِنِّي هُنَا أَسْمُكُ . »
 الطَّيِّبُ : « أَتَسْتَطِيعُ أَنْ تُرَدِّدَ مَا أَقُولُ ؟ »
 جُو : « نَعَمْ : نَعَمْ . . إِنِّي وَسَطُ الظَّلَامِ الدَّامِسِ أَحْسَنُ
 عَطْفَكَ ، وَأَدْرِكُ رِعَايَتَكَ . »
 الطَّيِّبُ : « قُلْ « اللَّهُ . »

جُو : « نَعَمْ . نَعَمْ . « اللَّهُ الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ يَا سَيِّدِي . »
 الطَّيِّبُ : « اللَّهُ مَالِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ »
 جُو : « اللَّهُ مَالِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ . أَيْنَ النُّورُ يَا سَيِّدِي ؟ »
 الطَّيِّبُ : النُّورُ قَرِيبٌ جَدًّا . وَالْبَقَاءُ لِلَّهِ .

(١) الْجَدُّ بفتح الجيم : القبر ، وجمعه أجداث وأجدان

أَمْسَكَ الطَّيِّبُ عَنِ الْكَلَامِ ، وَصَمَتَ^(١) (چو) إِلَى الْأَبَدِ .
لَقَدْ أَسْبَغَ عَلَيْهِ النُّورُ نَعِيمَهُ . لَقَدْ انْتَقَلَ مِنْ عَالَمِ الشَّرُورِ وَالْآثَامِ .
لَقَدْ وَدَّعَ تِلْكَ الْحَيَاةَ الْفَانِيَةَ وَهُوَ يُفَكِّرُ فِي رَحْمَةِ رَبِّهِ الَّتِي وَسِعَتْ
كُلَّ شَيْءٍ ، وَفِي ذَلِكَ الصَّدِيقِ الْمَخْلُصِ الَّذِي سَيَلِقَاهُ عَمَّا قَرِيبٍ ،
وَفِي هَذَا الطَّيِّبِ الَّذِي لَمْ يَشَأْ أَنْ يَتْرَكَهُ لِيُودَّعَ الْعَالَمَ وَهُوَ حَاقِدٌ
نَاقِمٌ عَلَى جَمِيعِ بَنِيهِ .

الأمل الضائع (دمبي)

تشارلز ديكنز

ترجمة : محمد عطية الإبراهيمي



مطبعة المعارف، مكتبها بمصر

بُولُ دُمْنِي الصَّغِيرِ أَوْ الْأَمَلِ الضَّائِعِ

كَانَ « دُمْنِي » الصَّغِيرُ ابْنًا لِتَاجِرٍ مُوسِرٍ ، وَاسِعِ النِّعْمَةِ ، وَافِرِ الثَّرَاءِ ، يَبْدُو أَنَّهُ كَانَ جَافَ الطَّعْمِ ، بَارِدَ الشُّعُورِ ، تَمَنَّى مُذْ تَزَوَّجَ أَنْ يُعْقِبَ وَلَدًا يَخْلُفُهُ فِي تِجَارَتِهِ الَّتِي شَغَلَتْ فِكْرَهُ كُلَّ عُمْرِهِ ؛ لِأَنَّهَا أَعْظَمُ شَيْءٍ لَدَيْنِهِ فِي الْوُجُودِ . وَلَيْسَ بِعَجِيبٍ أَنْ يُؤَمِّلَ خَلْفًا يُشْرِكُهُ مَعَهُ فِي عَمَلِهِ ، وَيَحْمِلُ اسْمَهُ بَعْدَهُ ، ذُوْنُ أَنْ يُبَادِلَهُ الْحُبَّ .

بَدَتْ دَلَالُ رَغْبَتِهِ جَلِيَّةً ، فَعَنُونُ قَائِمَةُ الْمُسْتَجَرِّ بِاسْمِ « دُمْنِي وَوَلَدِهِ » ؛ تَفَاوُلًا بِتَحَقُّقِ طَلِبَتِهِ . وَقَدْ اقْتَضَتْ الْعِنَايَةُ الْإِلَهِيَّةُ أَنْ يُجَابَ نَدَاؤُهُ ، فَكَادَ يَطِيرُ سُرُورًا وَطَرَبًا بِهَذَا الْمَوْلُودِ السَّعِيدِ ، الَّذِي عَقَدَ عَلَيْهِ الْأَمَلَ الْبَاسِمَ ، وَالْمُسْتَقْبَلَ الزَّاهِرَ . وَكَانَ لِتَقْدَمِهِ رَنَّةُ فَرَجٍ تَجَاوَبَتْ أَصْدَاؤُهَا بَيْنَ جَوَانِبِ نَفْسِهِ ، فَأَقَامَ لَذَلِكَ مَا أَقَامَ مِنْ شَعَائِرِ التَّرْحِيبِ الْكَرِيمِ ، وَالْحَفَاوَةِ الْبَالِغَةِ .

مَاتَتِ وَالِدَةُ « بُول » إِنْثَرًا وَلَادَتِهِ — وَلَكِنْ مَوْتَهَا لَمْ يُحْرِكْ فِي الزَّوْجِ لَوَاعِجَ الْأَسَى . وَمَاذَا يَعْنِيهِ مَا دَامَ الْمَوْتُ قَدْ تَجَاوَزَهُ ،

فتركه حياً يرزى فتاه ويتعهد شؤنه — على أنها قد تركت بجوار
 طفلها ابنة جميلة تدعى «فلورانس» عمرها ست سنوات .
 لم يحن إليها قلب أبيها ، ولم يغمرها بعطفه ، حتى لقد أوشك أن
 يتجاهل معرفتها إذا قابلها في الطريق ؛ ظناً منه أن الفتاة
 لا تفيدُه وشركته ؟

فقدت « فلورانس » حنان الأب ، وشقة الوالد الرحيم ،
 فظلت تبكي أمها الرؤوم^(١) وهي في عزلتها ، من غير أن تجد
 من يرزح فؤادها الحزين ، وقلبها الكظيم^(٢) .

وبعد أشهر قلائل اشتدت مفاصل الصبي ، ونما عوده واستوى .
 حينما بدأ يعرف من حوله ، لم يحب أحداً حبه لأخته «فلورانس» ؛
 فقد كان يتسم لها ابتسامة الطفولة البريئة ، ويمد إليها ذراعيه
 مرحباً - وملائكة الرحمة ترفرف عليه حرصاً من كيد الحاسدين -
 كلما شاهدها مقبلة صوبه . ولا غرابة ؛ ففي ود أخيها لمست
 كل ما يعزبها في وحنها الموحشة ، واعتاضت به عن بر أبيها

(١) الرؤوم : كثيرة العطف

(٢) الكظم : الحزن الشديد ، وقلب

كظيم : شديد الحزن

المتعسف^(١)، فكانت تداعبه في أوقات فراغها، وتقوم بخدمته غير مُكترِثةٍ لما يعثرها من نصيب^(٢). ولما بلغ السنّ الملائمة أخذ إلى الكنيسة، وتسمّى باسم أبيه « يول دُمبي » في حفلٍ عظيم أقامه له، وفيه نال إعجاب الحاضرين صورةً وجمالاً.

وفي ذلك اليوم تملك الطفل بردٌ شديدٌ، أخذ يتزايد يوماً بعد يوم، حتى ضُفِّفَ جسمه، ووهنت^(٣) قوّته، واصفرَّ وجهه، فأصبح مُعرّضاً لأمراضِ الخُصبة والجُدريّ والسُّعال الديكي، كما قالت مُرَيِّثته « ريشاردز ». وكلّما تخلص من مرضٍ انقضَّ عليه مرضٌ آخر. وكلّما ظهرت له سنٌ أصابته نوبةٌ من النوبات.

ورغم ما أصابه من نُحول^(٤) — وهو لا يزال صبيّاً لم يتجاوز السادسة من عمره — فإن مَسْحَةَ^(٥) الجمال ما انفكت مطبوعةً على مُحيّاه^(٦)، وبشاشة الوجه لم تُفارق لحظةً، والسرور بادٍ عليه كلَّ حين، ولا سيما عند ما يلعبُ هو وأخته في حُجرتَهما الخاصّة، ولكن كانت تظهرُ عليه آثارُ الجهد والعناء. ومن دواعي العجب وإثارة الدهشة رؤيته كالِكبار، يفعلُ كما يفعلون،

(١) السيُّ الخلق، القاسي في معاملته (٢) النصيب : النيب (٣) ضمنت

(٤) النحول : الهزال (٥) يقال على فلان مَسْحَة من جمال أى شئ منه (٦) وجهه

وَيَتَكَلَّمُ كَمَا يَتَكَلَّمُونَ، وَهُوَ بَيْنَ بَرَاثِنِ الْمَوْتِ وَمَخَالِبِ الْوَبَاءِ^(١)
السَّامِّ، مِمَّا حَطَمَ قَلْبَ مُرِيَّتِهِ الَّتِي وَدَّتْ لَوْ يَكُونُ طِفْلاً يَتَذَوَّقُ^(٢)
حَلَاوَةَ الطُّفُولَةِ، وَيَتَمَتَّعُ بِجَمَالِهَا، فَيَلْعَبُ كَمَا يَلْعَبُ الصِّغَارُ،
وَيَتَحَدَّثُ كَمَا يَتَحَدَّثُونَ.

وقد اعتاد أبوه أن يأخذه بعد الغداء، ويجلسه على كرسيه،
يُحَاذِبُهُ أَطْرَافَ الْحَدِيثِ، فَكَانَا يَتَفَقَّانِ أَحْيَانًا، وَيَخْتَلِفَانِ أَحْيَانًا.
وَذَاتَ يَوْمٍ بَيْنَمَا كَانَ الْإِبْنُ فِي جِلْسَةٍ كَمَا دَتِهِ سَأَلَ أَبَاهُ :
« مَا الثُّقُودُ يَا أَبَتَاهُ ؟ »

الْأَبُ — « هِيَ الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ وَالنُّحَاسُ يَا بُنَيَّ . إِنَّكَ تَعْرِفُ
مَعْنَى الثُّقُودِ يَا (بُول) ! »

الْإِبْنُ — « نَعَمْ ، وَلَكِنْ مَا فَائِدَتُهَا ؟ »

فَأَجَابَ الْأَبُ — وَقَدْ أَمْسَكَ يَدَيَّ طِفْلِهِ الصَّغِيرِ يَعْْبَثُ بِهِمَا :
« بِالثُّقُودِ تَصِلُ إِلَى مَا تَرِيدُ يَا بُنَيَّ الْعَزِيزُ . »

فَسَحَبَ « بُول » يَدَيْهِ بَرَفَقٍ، وَهُوَ يَقُولُ بِصَوْتِ خَانِقٍ
تَبْدُو فِي مَقَاطِعِهِ آيَاتُ الْأَسَى^(٣) وَالْجَزَعِ : « وَلَكِنِّهَا لَمْ تَسْتَطِعْ إِنْقَازَ

(١) مرض عام (٢) يتذوقها : يذوقها شيئاً بعد شيء (٣) الأسى : الحزن

أُمِّي لَتَبَقَ حَيَّةٌ تَمْنَحُنِي حَنَانَهَا وَعَظْفَهَا ، وَلَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَهْبِي الصَّحَّةَ
وَالْقُوَّةَ وَالنُّمُوَّ لَتِمَّ سَعَادَتِي . »

فَلَمْ يَسْعَ الْأَبُ إِلَّا أَنْ يَبْعَثَ الْأَمَلَ فِي نَفْسِ ابْنِهِ الْمُتَقَوِّضَةِ ،
وَيُعِيدَ إِلَيْهِ بِالْإِيحَاءِ مَا ذَوَى^(١) مِنْ صِحَّتِهِ وَقُوَّتِهِ ، وَمَا ذَبُلَ مِنْ
زَهْرَةِ طِفْلُوتهِ : « دَعْ عَنْكَ هَذَا الْوَهْمَ يَا « بُول » ؛ فَإِنَّكَ قَوِيٌّ
الْبَنِيَّةُ^(٢) ، سَلِيمُ الْبَدَنِ كَغَيْرِكَ مِنَ الْأَطْفَالِ . »

فَرَدَّدَ الصَّبِيُّ الصَّوْتَ وَهُوَ يَتَأَوَّهُ وَيَزِفِرُ : « لَا يَا أَبِي ؛
حِينَما كَانَتْ « فُلُورَانْسُ » صَغِيرَةً وَفِي مِثْلِ سِنِّي ، لَمْ تَلُقَ الَّذِي
لَا قِيْتُ ؛ مِنْ تَعَبٍ بَعْدَ لَعِبٍ قَلِيلٍ ، وَضَعْفٍ يَسْرَى فِي أَعْضَائِي
سَرِيانَ الدَّمِ فِي الشَّرَايِينِ ، مِمَّا أَقْعَدَنِي وَحَرَمَنِي لَذَّةَ التَّمَتُّعِ بِمَا يَرْغَبُ
فِيهِ أَمْثَالِي مِنَ اللَّعِبِ . »

اسْتَوَلَى الْقَلْقُ عَلَى الْأَبِ ، وَبَرَقَ^(٣) بَصَرُهُ ، وَأَخَذَتْ الْحَيْرَةُ
مِنْهُ كُلَّ مَا خَذَ . فَكُنْتُ تَرَاهُ مُشْدُوهاً^(٤) فَاقْدَ اللَّبِّ^(٥) ، فَأَرْسَلَ
إِلَى أُخْتِهِ يَسْتَشِيرُهَا فِي أَمْرِ « بُول » ثُمَّ اسْتَدْعَى الطَّيِّيبَ لِعِيَادَتِهِ ،
فَأَتَى عَلَى عَجَلٍ ، وَخَصَّ عَنْ الْمَرِيضِ خُصْصاً دَقِيقاً ، عَرَفَ مِنْهُ عِلَّةَ

(١) ذَوَى : ذَبُلَ (٢) البنية : العظيمة ، الجسم (٣) تحير فلم يظرف

(٤) مدهوشاً ، متحيراً (٥) العقل

الدَّاءُ ، ووقفَ على الدَّواءِ فقال : إِنَّ جِسْمَ الطِّفْلِ أَهْيَفُ^(١)
لَا يُنَاسِبُ سِنُّهُ ، وعقله أكبرُ من جَسَدِهِ . إِنَّهُ يُفَكِّرُ تفكيرَ
الرِّجَالِ ، وَيَبْدُو عليه الهَمُّ والقلقُ ، في وقتٍ يحتاجُ فيه إلى كثيرٍ
من المَرَجِ واللَّعِبِ ؛ ولذا يَحْتَاجُ إلى تَغْيِيرِ الهَوَاءِ عَلَى قُرْبٍ من
ساحِلِ البَحْرِ ؛ فَإِنَّ نَسِيمَ البَحْرِ يُفِيدُ الأَطْفَالَ أَجْلاً فائِدةً .

وافقَ الأبُ على سَفَرِ ابنِهِ ومُهْجَةِ نَفْسِهِ ، تَصَحَّبَهُ أخته والمرِيَّةُ ؛
إِجابةً لِرَغْبَةِ الطَّيِّبِ النَّطَاسِيِّ ، وأملاً في اسْتِشْفَاءِ طفله العزِيزِ ،
إلى «برايتون» — وهى مدينةٌ بَحْرِيَّةٌ تَبْعُدُ ساعةً عَنِ «لندن» —
فاختيرتْ مَصَحَّةٌ جَمِيلَةٌ ، حَسَنَةُ المَوْقِعِ ، كَامِلَةُ الأَدَوَاتِ ، نَزَلُوا بِهَا ،
تَدِيرُهَا سَيِّدَةٌ شَمَطَاءُ^(٢) ، عَابَسَةُ الوَجْهِ ، بَارِزَةُ الأنْفِ ، جَاحِظَةٌ^(٣)
العَيْنَيْنِ ، تُدْعَى السَيِّدَةُ (بِيكِينِ) . وكانَ يَعِيشُ لَدَيْهَا في ذَلِكَ الوقتِ
طِفْلَانِ أَخَوَانِ : فَتَاةٌ ذَاتُ جَمَالٍ ، شَابٌ مُقْلَتِيهَا زُرْقَةٌ ؛ وَغَلامٌ تَدُلُّ
حَرَكَاتُهُ عَلَى مَا فِي نَفْسِهِ مِنْ حُرْقَةٍ الجَوَى^(٤) ، وَلَوْعَةٍ الوَجْدِ الدِّفِينِ ،
فكَثِيراً مَا سَأَلَ «فلورانس» بِصَوْتِ بَاكِ ، عَنِ الطَّرِيقِ الَّذِى
يُوصِلُهُ إِلَى الهِنْدِ ، حَيْثُ يَقِيمُ أبَوَاهُ .

(١) ضامر . (٢) شعرُ رأسها أبيضٌ يخالطه سواد . (٣) يُقالُ جَاحِظَتْ
عَيْنُهُ أى عَظُمَتْ مَقَاتِهَا وَتَأَتَتْ . (٤) الحزن .

هاجت بلبل الرجل ، وثارت خواطره ، فأصبح لا يرى
إلا مكتئباً حزيناً ، من أجل وارثه وفلذة^(١) كبده ؛ فقد استهام
به قلبه ، وسهد^(٢) له جفنه ، فلم يزر الكرى^(٣) مقلتيه ؛ تعلقاً بفتاه ،
وشغفاً بحبه . ولو أنه ما زال غير مكرث لا بنته المسكينة ،
يحرّمها اللطاف^(٤) برّه ، ويحول بينها وبين عاطفة الأبوة الكريمة
التي ترعاها بالحنان ، وتكلؤها بالمعطف والإحسان ، فضلاً عما
كان يتاجّع في صدره من لظى^(٥) الغيرة ونار الحقد كلما رأى
ابنه يخطب ودّ أخته أكثر منه ؛ فقد كان يتمنى أن يفوز بتلك
المنزلة التي نالها « فلورانس » من أخيها . ولكن هذا لم يؤثر
في نفس الأب ، فأخذ يعود طفله مرة كل أسبوع في « برايتون »
حيث يُعالج ، ثم يستصحب ولديه إلى الفندق النازل به ، من
السبت إلى الاثنين ؛ ليقف على قدر ما آل إليه العلاج من
نجاح ، وما نعم به « بول » من تحسّن في صحته . وذات مرة
قالت صاحبة المصحّة للطفل : « أتحبني أيها الطفل العزيز ؟ »
فأجاب وهو يهز رأسه : « إنني لا أحببك ؛ بل أود أن أرحل
من بيتك ؛ لأنني أكره الإقامة فيه . » ومع نفوره من لقياها

(١) قطعة من كبده . (٢) الشهاد : الأرق ، وبابه طرب . (٣) الكرى :

الناس . (٤) أطفه بكذا : برّه به والطفة : الهدية . (٥) نار .

كَانَ يَجْلِسُ عَلَى أَرِيكَتِهِ وَيُصَوِّبُ إِلَيْهَا نَظْرَهُ مِثْلَمَا يَفْعَلُ مَعَ
وَالِدِهِ بِالْمَنْزِلِ .

مَضَتْ بَعْدَ ذَلِكَ عِدَّةُ أَسَابِيعَ تَحَسَّنَتْ فِيهَا صِحَّةُ « يُوْل »
عَنْ ذِي قَبْلِ ، غَيْرَ أَنَّ التَّحَسُّنَ لَمْ يَبْلُغْ شَأْوَهُ ؛ فَإِنَّ الطِّفْلَ
مَا زَالَ ضَعِيفًا لَا يَقْدِرُ عَلَى مُتَابَعَةِ السَّيْرِ . وَلِذَا أُعِدَّتْ لَهُ عَجَلَةٌ
صَغِيرَةٌ يَدْفَعُهَا شَيْخٌ - بَلَغَ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا^(١) ، قَدْ أَلْفَهُ وَاطْمَأَنَّ إِلَى
حَدِيثِهِ - كُلَّ يَوْمٍ إِلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ كَيْ يَقْضَى سَجَابَةَ النَّهَارِ
أَمَامَ أُمُوجِهِ الْمِصْطَخِبَةِ الْمُتَلَاطِمَةِ ، وَعُجَابِهِ^(٢) السَّاخِرِ الْمُتَدَفِّقِ ،
مُتَمَتِّعًا بِالْهَوَاءِ الْبَلِيلِ ، وَالنَّسِيمِ الْعَلِيلِ ، يَرْمُقُ^(٣) الْأَطْفَالَ بِنَظَرَاتِهِ
وَهُمْ يَلْعَبُونَ وَيَسْتَحْمُونَ ، وَيَتَسَامَرُونَ تَحْتَ الْمِظَلَّاتِ ، وَقَدْ انْبَسَطَ
ضَوْءُ الشَّمْسِ فَوْقَ أَدِيمِ الْأَرْضِ الصَّفْرَاءِ .

وَلَشَدَّ مَا كَانَ يُعْجِبُهُ هَذَا الْمَنْظَرُ وَيَعِيلُ إِلَى مُشَارَكَتِهِمْ .
وَلَكِنْ أَنَّى لَهُ ذَلِكَ وَهُوَ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْقِيَامِ ؟ فَاقْتَنَعَ بِجَوَارِ أَخْتِهِ
الَّتِي آتَرَ رُفْقَتَهَا دُونَ سِوَاهَا ، تَقْرَأُ لَهُ الْقِصَصَ وَتُحَدِّثُ إِلَيْهَا ،
تَحْتَ أَطْبَاقِ ذَلِكَ الْجَوْ الْجَمِيلِ ، وَفِي رِحَابِ^(٤) ذَلِكَ الْهُدُوءِ

(١) عَتَا الشَّيْخُ عَتِيًّا : أَسَنَّ وَكَبَرَ . (٢) الْمَوْجُ (٣) رَمَقَهُ : نَظَرَ إِلَيْهِ

(٤) الرِّحْبَةُ : السَّاحَةُ الْمُنْبَسِطَةُ أَمَامَ الْمَسْجِدِ ، وَالْجَمْعُ رِحَابٌ ، وَالْمَعْنَى فِي سَاحَةِ
الْهُدُوءِ الْفَسِيحَةِ

الشامل، وفي كنف تلك الطبيعة الساحرة التي تَحُلِبُّ الألباب،
وتأخذ بمجامع القلوب .

وَذَاتَ يَوْمٍ بينما كَانَ الْفَتَى معَ شقيقته في جِلْسةٍ هادئةٍ ،
ابتدرَهَا مُحدثًا : « إِنِّي أَهيمُ بِكَ حُبًّا يَا أُخْتِي ! وَثِقِي بَأَنِّي
سَأَمُوتُ لو ذَهَبْتُ إِلَى الهِنْدِ كَأَخْتِ ذَلِكَ الصَّبِيِّ . »
فَأَمَالَتْ « فُلُورَانِسُ » رَأْسَهَا إِلَيْهِ ، وَهَمَسَتْ فِي أُذُنِهِ : « إِنِّي
لَنْ أَفَارِقَكَ لَحْظَةً مَدَى الْحَيَاةِ . وَيَسُرُّنِي أَنْ أُرَاكَ مَوْفُورًا ^(١) الصَّحَّةِ ،
قَوِيَّ الْبَنِيَّةِ ، مُعَافَى فِي بَدَنِكَ ؛ لِنَكُونَ معًا ثَوَاسِينِي وَأَوَاسِيكَ فِي
هَذِهِ الْحَيَاةِ . »

فَقَالَ « بُولُ » : « نَعَمْ ؛ إِنِّي أَقْدَرُ شُعُورَكَ نَحْوِي أَيْتَهَا الْأَخْتُ
الْعَزِيزَةُ ! وَإِنْ صَحَّتِي فِي تَقْدِيمٍ . انْصَبِي يَا (فُلُور) ! مَاذَا يَقُولُ الْبَحْرُ ؟ »
فُلُورُ : إِنَّهُ لَا يَقُولُ شَيْئًا يَا عَزِيزِي ! وَلَكِنْ تَلَاطَمَ الْأَمْوَاجُ
يُحْدِثُ ذَلِكَ الصَّوْتَ الَّذِي تَسْمَعُهُ . »

بُولُ : « نَعَمْ ؛ وَلَكِنْ الْأَمْوَاجُ تَقُولُ شَيْئًا ، وَتَقُولُهُ دَائِمًا .
وَسَرَّعَانَ مَا حَوَّلَ مَجْرَى كَلَامِهِ وَقَالَ : « مَا الْمَكَانُ الَّذِي
أَرَاهُ بُعِيدًا يَا (فُلُور) ؟ »

فلور : « إِنَّهُ بِلَدَةٍ أُخْرَى . »

واستمرَّ يتكلَّمُ مع شقيقته ، ولكنه كثيراً ما قطعَ اتِّصالَ الحديثِ ؛ ليُصْنِفِي إلى أمواجِ البحرِ ، ويَنظُرَ إلى المكانِ النَّائِي .
وبعدَ أن مكثَ في « برايتون » زهاءَ سَنَةٍ تحسَّنتُ صحَّتُهُ قليلاً ؛ غيرَ أَنَّهُ لم يَزَلْ على قُتُورِهِ ونحافتهِ ، هزيلَ الجِسْمِ ، ضيقَ الصَّدْرِ ، يَتَعَبُ لِأَقَلِّ شَيْءٍ . وفي بَعْضِ زياراتِ أَبِيهِ الأَسْبُوعِيَّةِ خَاطَبَ صَاحِبَةَ المَصْحَحةِ مُسْتَفْسِراً : « كَيْفَ حَالُ وَلَدِي أَيُّهَا السَّيِّدَةُ ؟ »

فَقَالَتْ : إِنِّي أَشْعُرُ بِتَقَدُّمِهِ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ .
الأب : حَقًّا إِنَّهُ فِي تَحَسُّنٍ ، ولكنهُ يَحْتَاجُ إلى سَنَوَاتٍ عَشْرِ ؛
بل أَكْثَرَ حَتَّى يَصِحَّ وَيَسْتَجِمَّ قُوَاهُ .
وَأَخَذَ أَبُوهُ يَقُولُ — وَالْأَسَفُ مِلًّا جَنَانِهِ — إِنَّ ضَعْفَهُ سَوْفَ
يُؤَخِّرُ دِرَاسَتَهُ ، وَرُبَّمَا قَضَى عَلَى مُسْتَقْبَلِهِ ، مع أَنَّهُ الْوَارِثُ الْأَكْبَرُ
لشَرِكَةِ « دُمْبِي » وَلَدِهِ .

اتَّفَقَ السَّيِّدُ « دُمْبِي » مع « الدَّكْتُورِ بَلَمْبَر » أَنَّ يُلْحَقَ ابْنَهُ
بِالْقِسْمِ الدَّاخِلِيِّ مِنْ مَدْرَسَتِهِ ، الَّتِي تَقْرُبُ مِنَ المَصْحَحةِ ، عَلَى أَنْ

تَبَقَى «فلورانس» تحت عناية السيِّدة «بيكين» صاحبة المصحَّة،
للإشرافِ على أخيها، وزيارته مرَّة كلَّ أسبوع.

كانت مدرسة «الدكتور بلمبر» تؤثرُ هذا النمط^(١) من
التربية التي تعنى بحشو المعلومات في أذنيِّ التلاميذ، من غير
نظرٍ إلى ما يلائمُ سنَّهم، ويوافقُ استعدادهم؛ إذ كان المشهورُ
عن «الدكتور بلمبر» أنه يستطيعُ أن ينهضَ بالتلميذَ أيَّامًا كانت
مقدِّراته العقلية، وأن يُكوِّنَ منه رجلاً في وقتٍ قصير؛ ولذا وعدَ
بأنه سيكوِّنُ من «بول» رجلاً في أذنيِّ فرصةٍ ممكنة، وأقلَّ
زمنٍ مُستطاع.

عندَ ذلك سألَ الأبُّ ابنه: «أُحِبُّ أن يُكوِّنَ منك رجلٌ،
وأن تُعاملَ كرجُلٍ يا بُنَيَّ؟»

الابن: «إني أُفضِّلُ أن أكونَ طِفْلاً، وأن أعاملَ كطفِلٍ،
وأودُّ أن أمكثَ مع أختي فلوى.»

ترك «بول» المصحَّةَ وبدأ حياته المدرسية، فاخصَّصَتْ بتعليمه
الآنسة «بلمبر» ابنة (الدكتور) وتدعى «كورنيليا» وهي مُدرِّسة
مُثَقِّفةٌ تلبسُ مِنْظَاراً، ولا تعرفُ كثيراً ولا قليلاً عن نفسِيةِ

(١) النمط بفتحين: الجماعة من الناس أمرهم واحد، ثم أطلق اصطلاحاً على الصنف والنوع

الأطفال ، وميولهم وغرائزهم ؛ ولا تفهم ما يلائمهم وما لا يلائمهم ، فكانت تُرهقُه وتحشو ذهنه بمختلف العلوم من بدء اليوم حتى نهايته . فأخذ يئن من كثرة الدروس التي لم يستطع لها فهماً ، ولم يذق لها طعماً . وبدأ يشكو الصداع وضعف الرجلين . ورجع إلى ما كان عليه من تحول الجسم ، وشحوب الوجه . وصار كرجل هريم حطمه الدهر ، وأفناه الزمن ، وامتدت إليه يد البلى . إزاء ذلك لم يجد الناس بدءاً من دُعائه باسم « الرجل الهرم » بحسب ما تراءى لهم ، مع رقة معاملته ، واحترامه الصغير والكبير ، وإحسانه إلى الغني والفقير ، وعطفه على الطير والحيوان ، مما قرب إليه الأنفس ، وحجب فيه الأرواح ، فرثت لحاله ، وبكت سوء مآله .

لم يقف أمر صاحب المدرسة عند هذه الغاية ؛ بل أوصى ابنته « كورنيليا » أن تبذل جهدها في حشو عقله بكل ما يستطاع من مواد ، طارحاً العناية بحسبه ومراعاة سنه وراءه ظهرياً . فعملت بوصية أبيها ، ولم تقصّر في تحقيق رغبته ، ولكن « فلورانس » لحظت على أخيها في أثناء عيادته شدة الاصفرار

والضعف من العناء والإجهاد ومواصلة الدّرس . فكانت أُخته
 تريح عقله ، وتساعده في إعداد واجبه الأسبوعي ؛ ليستعيد
 نشاطه ، ويقبل على استماع الدّرس بفؤاد ملؤه الغبطة والانشراح .
 وقد حدث ذات يوم - بعد انتهاء الدّراسة ، وقبل أن تبدأ
 العطلة بأسبوعين - أن وضع « بول » رأسه المكدود المتعب
 على فخذ أحد قُرّانه ، ولم يتمكن من رفعه ؛ إذ غشيتُه إغماءة
 أفقدته رشده ، فصبَّ عليه الماء ليُفِيْقَ ويرجع إليه صوابه .
 ولأوّل وهلة - وقتما أفاق - لحظ أن النّافذة مفتوحة ، وأن
 وجهه وشعره مُبتَلان بالماء ، فعرف حقيقة الحال ، ثم رأى
 « الدكتور بلنبر » والعريف واقفين يُحدّقان^(١) بالنظر إليه .
 وما كاد يفتح عينيه حتى فاجأه « الدكتور » مخاطباً :

« كيف حال صديق الصغير الآن ؟ »

« إنّ حالي حسنةٌ يا سيّدي ! ولا يسعني إلّا أن أقدم لك
 جزيل شكرى ، ووافر ثنائى ، على ما أوليتنيهِ من عطفٍ . »
 وبعد قليل ظهرت أُمّاه أرض الحجرة تتحرّك ، وبدت

(١) حدّق إليه بالنظر تحديقاً : شدّد النظر إليه .

الجذران كأنها تمايل رقصا، ولاحت له رأس « اللكتور » في
 ضعف حجمه المعتاد ، وتردد صدَى الطَّبِيعَةِ صَفِيرًا في أذنيه ،
 وأظلمت الدنيا في وجهه ، فقاده رفيقه الذى أسند إليه رأسه إلى
 غرفة نومه ، وساعده في خلع ملابسه برفق ولين ، وأرقده على
 سريره بتؤدة . استدعى الطبيب في الحال ، فأتى وفحص عنه ، ثم
 قال : « يجب أن يُوقَفَ عن استذكار دروسه في الوقت الحاضر . »

وبعد بضعة أيام استطاع أن ينهض من فراشه ويسير في
 حديقة المدرسة . وكان يعجب حينما يجد كل من رآه يتألم له ،
 ويشفق عليه ، ويحبه ، ويحادثه ، ويسأل عنه . فقابل الجميل
 بمثله ، ولطف إخوانه برقته المهددة ، وبأدبهم حبا محبا ،
 وإخلاصا بإخلاص ، حتى ذلك الكلب الخشن الذى عاش في
 الحديقة اعتاد أن يبحث عن (بول) ويؤزره ، فيلاقى منه
 إحسانا ورفقا .

وكان مدير المدرسة يُقيم كل عام حفلا مسائيا قبل بدء
 الإجازة السنوية لتلاميذ معمهده ، يحضره جمع غفير من الناس ،
 فرغب (بول) في شهوده ؛ لأن أخته « فلورانس » ستكون بين

الزائراتِ ، لِتَرَى عَطْفَ إِخْوَانِهِ عَلَيْهِ ، وَتَعْلَقَهُمْ بِهِ . ثُمَّ صَمَّمَ فِي مُغَادِرَةِ الْمَدْرَسَةِ بَعْدَ انْقِضَاءِ الْحَفْلِ .

وَفِي الْمَسَاءِ تَهَافَّتَ الْمَدْعُوُّونَ عَلَى الْمَكَانِ ، وَمَلَأُوا صَفُوفَ الْمَقَاعِدِ ، وَانْتَحَى « بُول » نَاحِيَةً ، وَجَلَسَ عَلَى أُرِيكَةٍ مُعْتَزِلًا ، فَهَرَّوْلَ إِلَيْهِ رُفَقَاؤُهُ يُحْيُونَهُ أَطْيَبَ تَحِيَةٍ ، وَيُبَادِلُونَهُ حُبًّا خَالِصًا مَبْنِيًّا عَلَى التَّقْدِيرِ وَالْإِعْجَابِ ، وَحَنَانًا كَرِيمًا تُرْجِيهِ الْأَخُوَّةُ الصَّادِقَةُ — وَهُوَ يَرْقُبُ جَمَالَ « فُلُورَانِسَ » وَاحْتِرَامَ إِخْوَانِهِ لَهَا ، وَإِعْجَابَهُمْ بِكَمَالِهَا .

فَلَمَّا أَسْفَرَ الصُّبْحَ ، وَأَجْفَلَتْ ^(١) جُيُوشُ الظَّلَامِ ، خَرَجَتْ الْغَزَالَةُ مِنْ سِتْرِهَا ، تُرْسِلُ شُعَاعَهَا مُنِيرًا أَرْجَاءَ الْبَسِيطَةِ . هُنَالِكَ أَسْرَعَ الطُّلَابُ وَاحْتَشَدُوا عَلَى سُلَّمِ الْمَدْرَسَةِ ، يُودِّعُونَ صَدِيقَهُمْ وَأَخْتَهُ ، وَبَوَادِرُ الْأَسْفِ لِفُرْقَتِهِمَا تَبْدُو عَلَى وَجْهِهِمْ ، وَدَوَافِعُ الْحُزْنِ مَائِلَةٌ فِيمَا يَتَحَدَّثُونَ . فَشَكَرَ لَهُمْ « بُول » جَمِيلَ رِعَايَتِهِمْ ، وَحُسْنَ صَنِيعِهِمْ ، وَسَارَ بَيْنَ تَحِيَةِ الْأَيْدِي الْمَرْفُوعَةِ ، وَهُوَ يَفْتَحُ بَابَ الْمَرْكَبَةِ مِنْ حِينٍ لِآخَرٍ مُحْيِيًّا إِخْوَانَهُ ، حَتَّى وَصَلَ إِلَى الْمَصَحَّةِ . فَبَاتَ لَيْلَةً يُطْلُبُ الرَّاحَةَ ، ثُمَّ اسْتَأْنَفَ السَّفَرَ

(١) أَسْرَعَ فِي الْهَرَبِ

إلى يَنْتَه ، وهناك حُمِلَ تَوًّا إلى فِرَاشِهِ ، وسأل أخته بعد أن
استَجْمَعَ بَعْضَ قَوَاه : «

« أختي ! هل كَانَ أَبِي في فِنَاءِ الْبَيْتِ عِنْدَ مَا حُمِلْتُ ؟ »

الأخت — « نَعَمْ يَا عَزِيزِي ! »

بول — « هل بَكِي حِينَمَا رَأَيْتَنِي وَذَهَبَ إِلَى حُجْرَتِهِ الْخَاصَّةِ ؟ »

فلم تَسْطِيعَ « فلورانس » أَنْ تَمْلِكَ مَا اخْتَفَى فِي نَفْسِهَا مِنْ
شُعُورٍ يَفِضُّ بِالْأَلَمِ الْعَمِيقِ ، وَإِحْسَاسٍ بِالْحُسْرَةِ وَالْكَدِّ ، لِحُبِّهِ ،
وَلَكِنَّهَا طَاطَأَتْ رَأْسَهَا تُحَاوِلُ إِخْفَاءَ وَجْهِهَا وَهِيَ تُقْبِلُهُ قُبُلَاتٍ
حَارَّةً يُقْرَأُ مَعْنَاهَا مِنْ بَيْنِ ثَنِيَّاتِ ثَغْرِهَا .

وَلَمَّا فَارَقَهُ الشَّهَادُ^(١) وَزَارَهُ الْكَرَى^(٢) هَمَسَ : « إِنِّي
لَا أَحِبُّ أَنْ أَسْمَعَ أَنَّ أَبِي بَكِي . » وَظَلَّ رَاقِدًا يَوْمًا بَعْدَ آخَرَ ،
وَهُوَ سَعِيدٌ بِحَالِهِ ، صَبُورٌ عَلَى بَلَوَاهُ ، قَانِعٌ بِرُؤْيَا « فلورانس »
وَالْتَحَدَّثَ مَعَهَا عَنْ أَخْلَامِهِ الَّتِي رَأَاهَا فِي مَنَامِهِ ؛ إِذْ كَانَ يَحْمِلُ
أَحْيَانًا بَأْنَ أَشْعَةَ الشَّمْسِ تَكْسُو مِيَاءَ النَّهْرِ أَبَدًا . وَأَحْيَانًا يَرَى
نَفْسَهُ وَهُوَ يَتَنَزَّهُ فِي زَوْرَقٍ صَغِيرٍ يَسْبَحُ فِي مَاءٍ أَيْضًا مِنْ
اللُّجَيْنِ^(٣) ، وَقَدْ رَسَا عَلَى شَاطِئٍ بَعِيدٍ تَعْدُرُ رُؤْيَاهُ ، ثُمَّ شَاهَدَ

(١) الشَّهَادُ : الْأَرْقَى . (٢) الْكَرَى : النَّعَاسُ . (٣) اللَّجَيْنُ : الْفُضَّةُ

الْبَحْرَ يَبْرُقُ فَيَكَادُ يَذْهَبُ سَنًا^(١) بَرْقَهُ بِالْأَبْصَارِ . وَلَا غُرَابَةٌ ؛ فَهُوَ
الْآنَ أَقْرَبُ إِلَى الْفَنَاءِ مِنْهُ إِلَى الْبَقَاءِ .

مَرَّتِ الْإَيَّامُ سِرَاعًا وَ « بُول » يَجْدُ فِي خَطْوِهِ إِلَى حَيْثُ
يَنْعَمُ بِرِضْوَانِ رَبِّهِ . وَلَمَّا قَارَبَ النَّفْسَ الْأَخِيرَ انْحَنَى عَلَيْهِ أَبُوهُ
— وَقَدْ ابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ — يَقُولُ : وَلَدَاهُ ! رَحْمَةً بِأَيِّكَ
الْمِسْكِينَ ! أَلَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَنْظُرَ إِلَى لِتَشْهَدَ حَالِي ؟

فَارْتَدَّ طَرْفُ الصَّبِيِّ وَقَالَ : « أَبِي ! لَا تَحْزَنْ فَإِنِّي سَعِيدٌ .
أَسْتَوْدِعُكَ اللَّهُ أَيُّهَا الْوَالِدُ الشَّفِيقُ عَلَيَّ ، وَأَوْصِيكَ بِأَخْتِي ،
أَخْتِي الْمُسْكِينَةِ ، أَخْتِي الْوَحِيدَةِ فَلُورَانِسَ . »

ثُمَّ أَخَذَ يُعَالِجُ سَكْرَةَ الْمَوْتِ وَيتكَلَّمُ بِصَوْتٍ خَافِتٍ :
(فَلَوِي) ! أَخْتِي ! إِنَّ أُمِّي تُشَبِّهُكَ ، وَأَنْتِ تُشَبِّهِينِي . اقْتَرَبِي
مِنِّي لِأَرَاهَا . « وَفَجْأَةً سَكَتَ وَلَمْ يَنْبَسْ يَبْنِتِ شَفَةً ؛ إِذْ صَعِدَتْ
رُوحُهُ إِلَى بَارِئِهَا ، فَدَارَتْ حَوْلَهُ هَالَةٌ مِنْ نُورِ سَمَاوِيٍّ ،
وَتَوَجَّتْ جَبِينُهُ الْوَضَاءِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ ، بَيْنَ دُمُوعِ الْأَبِ الَّذِي
عَلَّقَ عَلَيْهِ الْأَمَالَ كُلَّهَا ، وَبَنَى الْمُسْتَقْبَلَ كُلَّهُ ، وَبَيْنَ نَحِيبِ الْأَخْتِ
الَّتِي وَجَدَتْ فِيهِ خَيْرَ سَلَوَى ، وَأَحْسَنَ عَزَاءٍ لِفُقْدَانِ أُمِّهَا .

(١) السَّنَا : ضَوْءُ الْبَرْقِ .

صانعة اللُّعب

تشارلز ديكنز

ترجمة : محمد عطية الإبراهيمي



مطبعة المعارف، مكتبتها بمصر

صانعةُ اللَّعَبِ

أو

من الخيال إلى الحقيقة

بَيْنَ جُدرانِ كُوخٍ صغيرٍ ، تُظِلُّهُ سُحُبُ الفقرِ ، فيبدُو حالَكَ
الَّوْنِ ، مُتصدِّعَ البنيانِ ، يَنْمُ عَنْ حياةِ أَهْلِهِ الَّذِينَ أَشْقامُ الزَّمانِ ،
— عاشِ الصانعُ « كَالِيبُ يَلَمَرُ » مع ابنتِهِ العمياءِ « بِرْثَا »
عِيشَةً ساذِجَةً ، لا يُعَكِّرُ صَفوَةَ حَياتِهِمَا أَلَمٌ ، ولا يَشوبُ
عِيشَهُمَا كَدَرٌ . قَنِعًا بما دأَبًا في العَمَلِ فيه ، ورضيًّا بما قَسَمَ اللهُ
لَهُما مِنْ رِزْقٍ يَسِيرٍ ، فأخذاً يَصْنَعانِ اللَّعَبَ التي تُدِرُّ عليهما
القُوتَ لِشَرَكَةِ « جَرَفٍ وَتَكَلُّونَ » .

شَعَرَ الأَبُ بِضالَةِ العِيشِ في كُوخِهِ ، وأدْرَكَ ما فيه مِنْ دُلٍّ
وَهَوانٍ ، وأَحَسَّ ما يُقاسِيانِهِ مِنْ بؤْسٍ بَئِيسٍ^(١) ، فاعتَرَتْهُ

(١) شديد

رَجْفَةٌ شَدِيدَةٌ كَادَتْ تُسَلِّمُهُ إِلَى يَأْسٍ قَاتِلٍ يَعْقِبُهُ سُوءُ الْمَصِيرِ .
 وَلَكِنْ مَا لَبِثَ أَنْ سَكَنَ رُوعُهُ^(١) ، وَهَذَا فُؤَادُهُ الْمُتَحِيرُ الْقَلِقُ
 خَوْفًا عَلَى تِلْكَ الزَّهْرَةِ النَّاضِرَةِ « بَرْنَاءً » مِنَ الذُّبُولِ ، وَعَلَى
 رَيْعَانٍ صَبَاهَا مِنَ النُّحُولِ ، لَوْ عَلِمَتْ مَا يَقَاسِيَانِهِ مِنَ آلَامٍ ،
 وَمَا يَجْرَعَانِهِ مِنْ كُثُوسِ السَّقَامِ^(٢) ؛ بَيْتٌ دَاجٍ^(٣) يَلْتَمَسَانِ فِيهِ
 الرَّاحَةَ ، لَا يَنْفِذُ إِلَيْهِ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْ أَشْعَةِ الضَّوءِ ، وَلَا يَهْتَدِي إِلَى
 نَوَافِذِهِ إِلَّا قَبَسٌ^(٤) مِنْ نَوْرِ ، تَكَادُ تُتَلَمَّسُ فِيهِ الْجُذُرَانُ فَلَا سَبِيلَ
 إِلَى الْوَصُولِ . وَتُطَلَّبُ الْأَبْوَابُ فَإِذَا هِيَ صَعْبَةٌ الْمَنَالِ . كَادَتْ
 أَسْقَفُهُ تَهْدُمُ ، وَكُلُّ مَا فِيهِ قَدْ امْتَدَّتْ يَدُ الْبَلَى إِلَيْهِ ، وَنَسَجَ
 الْعَنْكَبُوتُ خَيْطَهُ عَلَيْهِ ، فَأَصْبَحَ بَالِيًا تَنْصَرِفُ الْأَعْيُنُ عَنْ رُؤْيَتِهِ ؛
 لِمَا صَارَ إِلَيْهِ مِنْ وَضَاعَةِ الشَّانِ ، وَحَقَارَةِ الْقَدْرِ .

أَنِفَ الْأَبِّ أَنْ تَعْلَمَ ابْنَتُهُ حَقِيقَةَ الْحَالِ ، وَتَتَبَيَّنَ سُوءَ الْمَالِ ،
 فَهَدَاهُ الْخَيَالُ أَنْ يُصَوِّرَ لَهَا الْعَيْشَ فِي بَيْتٍ أُنِيقٍ ، تُحِيطُ بِهِ
 الْأَشْجَارُ الْوَارِفَةُ^(٥) الظِّلِيلَةُ ، وَيَحْوِي أَنْفَرَ الْأَنَاثِ ، وَأَحْسَنَ
 الرِّيشِ ، يَطِيبُ الْمَقَامُ فِي حُجْرَاتِهِ ، وَتَلَذُّ الْحَيَاةُ بَيْنَ جَنَابَاتِهِ ،

(١) الروع بالضم : القلب والعقل ، وبالفتح الفزع (٢) المرض (٣) مظلم
 (٤) القبس : بفتحتين شعلة من نار يقتبسها الشخص . (٥) الكثيرة الظل .

قد زُيِّنَتْ غُرْفُهُ بِتَذَكِّراتٍ تَخْدُومُهُ السَّيِّدِ « تَكِلْتُونَ » الذي
 صَوَّرَهُ الأبُّ لَهَا بِأَنَّهُ رَحِيمُ الْقَلْبِ ، شَفِيقُ الْفُؤَادِ ، جَمِيلُ
 الْمَحْيَا^(١) ، حَسَنُ الْقَوَامِ^(٢) ، عَفِيفُ النَّفْسِ ، رَقِيقُ الْمَاطِفَةِ
 وَالْوَجْدَانِ ، نَبِيلُ الْإِحْسَاسِ وَالشُّعُورِ ، كَرِيمُ الْأَخْلَاقِ وَالطَّبَاعِ .
 وَلَمْ يَقِفْ بِهِ التَّصْوِيرُ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ ، بَلْ انْتَزَعَ مِنْ شَخْصِيهِ
 رَجُلًا قَوِيَّ الْجِسْمِ ، سَلِيمَ الْبَنِيَةِ ، مُكْتَمِلَ الصَّحَّةِ ، قَادِرًا عَلَى
 أَدَاءِ مَا يُمَهِّدُ بِهِ إِلَيْهِ مِنْ أَعْمَالٍ ، وَيُكَلِّفُهُ مِنْ وَاجِبَاتٍ ، عَلَى
 الرِّغْمِ مِمَّا كَانَ فِيهِ مِنْ شَيْخُوخَةٍ بِالْفَةِ ، ابْيَضَّ لَهَا شَعْرُ رَأْسِهِ ،
 وَتَقَوَّسَ ظَهْرُهُ ، وَانْحَنَتْ ضُلُوعُهُ ، وَانْبَرَتْ عِظَامُهُ ، حَتَّى أَصْبَحَ
 هَيْكَلًا بِلا رُوحٍ ، وَجَسَدًا بِلا عَظْمٍ ، وَنَفْسًا تَنُوءُ بِالْأَرْزَاءِ^(٣) ، وَقَلْبًا
 مُقْطَعًا النَّيَاطِ^(٤) . وَفَضْلًا عَمَّا عَانَاهُ مِنْ قَسْوَةِ الرَّجُلِ الَّذِي
 يَعْمَلُ عِنْدَهُ — فَقَدْ قَدَّ قَلْبُهُ مِنْ صَخْرِ جُلُودٍ ، لَا يَعْرِفُ الرَّحْمَةَ ،
 وَالرَّحْمَةُ لَا تَعْرِفُهُ ؛ يُحْمَلُهُ مَا لَا يُطِيقُ ، وَيُثْقَلُ كَاهِلُهُ بِمَا لَا يُسْتَطَاعُ —
 أَوْرَثَهُ الْهَمَّ وَالْغَمَّ ، وَالضَّجَرَ وَالْمَلَلَ . تَرَاهُ مُقْطَبَ الْوَجْهِ ،
 يَفْتَرُّ^(٥) نَفْرُهُ عَنِ بَسْمَةِ الْحَزَنِ الْأَلِيمِ ، وَالشَّجَنِ^(٦) الدَّفِينِ .

(١) الْوَجْهَ (٢) الْقَامَةَ (٣) الْمَصَائِبَ (٤) النَّيَاطُ : عِرْقٌ مُتَّصِلٌ بِالْقَلْبِ
 مِنَ الْوَتَنِ إِذَا قُطِعَ مَاتَ صَاحِبُهُ (٥) افْتَرَّ : ضَعِيفٌ ضَعِيفًا حَسَنًا (٦) الْحَزَنُ .

ولكنه في سبيل إسماعيل ابنته الوحيدة ، وإدخال السرور إلى روعها^(١) ، كي لا تسكن إلى هواجس أفكارها ، وشوارد عقلها تكلف أن يُصوّر لها حياته بصورة خيالية ؛ رحمة بها ، وإشفاقاً عليها ؛ لتشعر بالسعادة النفسية ، واللذة الروحية .

كان الأب يبذل غاية جهده ، ويدفعه حبه لابنته — منذ نعومة أظفارها — أن يجعل حياتها سعيدة ، بعيدة عن مواطن الكدر ، ومنازل الألم ، حتى لا تحزن لذهاب بصرها ، وفقدان نور الحياة الوضاء من عينيها ، في ذلك الوجه الذي تشع منه آيات الجمال ، وعلامات الذكاء . وقد بلغ مأموه ، وحقق قصده ؛ فلمست ابنته الغبطة عن كسب^(٢) ، وأحسّت الهناءة تحوم حولها ؛ إذ كانت ترى كل شيء في الوجود بعيني أبيها ، اللتين كانتا تصوّران الظلام نوراً ، والشقاء سعادة ، والفقر غنى .

وذات يوم كانت « برثا » مشغولة بعمل ملايس اللعب في حجرة الجلوس التي ظهرت كمصنع ، زينت جدرانها برفوف صفت عليها صناديق مملوءة باللعب من كل حجم وصنف ، على

(١) قلبها (٢) عن قرب

مراتب مُتباينة في القدر ، منها ما يصلحُ لأبناء العامة ، ومنها ما يُناسبُ أبناء الخاصة . وأمام الفتاة خِوانٌ عليه قِطعٌ من النسيج الملون ، تصنعُ منها ملابسُ الذمى ^(١) ، وحوْلِها أكوامٌ منشورة ، من سُفنٍ وعجلاتٍ ، وأحصنةٍ وطُبولٍ ، في حين أن أباهَا قد وقفَ بالجانبِ الآخرِ من الخِوان ، يُلَوِّنُ بريشةَ الرسمِ صناديقَ اللُعبِ — فقالت : « أبي ! إنكَ خرجتَ الليلةَ الماضيةَ بِمِعْطَفِكَ الجميلِ الجديدِ . »

فأجاب أبوها ، وقد نظَرَ — والأسفُ يملأُ قلبه — إلى مِعْطَفٍ من الخيشِ مُعلَقٍ لتجفيفه — : « نعم ؛ قد خرجتُ بِمِعْطَفِي الجميلِ الجديدِ . »
الابنة : « ما أشدَّ سُروري بِشِرائِكَ إياه يا أبي ! »

الأب : « ولقد خاطَتهُ لى يدٌ حاذقة ، ويكبرُ على وثلي أن يَسْتَحَقَّه . »

عند ما سَمِعَت الفتاةُ الوقيةُ قولَ أبيها ، صاحت بصوت يَنِمُّ عن العَجَبِ — وقد افترَّ ^(٢) فوها عن ابتسامية عذبة

(١) جمع دُمية . وهي الصورة من العاج وغيره ، أو الثياب التي فيها التصاوير وهو المراد (٢) ضحك ضحكا حسنا .

رقيقة — وهي تُصَفَّقُ يديها : « أهو جميلٌ لا تستحقه ؟ أهناك
 شيءٌ يعظمُ على أبي الباسمِ الوجهِ ، الأسودِ الشعرِ ، الجميلِ المحيَّا ^(١) ؟
 أيمكنُ أن يكونَ في الحياةِ شيءٌ جميلٌ ليسَ أبي أهلاً له ؟ »

دارَ هذا الحديثُ بين الأبِ وابنته « برثنا » التي تخالُ ^(٢) أن
 السعادةَ قد أظَلَّتْ سماءَ حياتهما ، وما كانت تعلمُ أن تلكَ
 السعادةَ من نسجِ الخيالِ أو الوهمِ الذي تكلفه والدها . ولو
 استطاعت المسكينةُ أن تراه — وقد حطمه الدهرُ ، وأحناه الزمنُ —
 بظهره المُقَوَّسِ ، ووجهه العابسِ ، دائباً في عمله ، والرقى يسيلُ
 على جبينه من كثرةِ الكدِّ والجهدِ ، يُخرجُ زَفَرَاتِ الحسرةِ
 وتأوهاتِ الندمِ المُخرقةِ — لأثرَ هذا المنظرِ في نفسها تأثيراً
 تدمعُ له عيناها ، وتقطعُ أوصالُ فؤادها ، فتخرُ مَغْشِيّاً عليها من
 هولِ تلكَ الصدمةِ العنيفةِ ، رحمةً بالأبِ المسكينِ وحناناً .

أخذَ الأبُ « كَابُ » يُؤدِّي عملهَ بهمةٍ ونشاطٍ ، ورَغِبَ
 في أن يُسرِّيَ عن نفسه بعضَ ما أَلَمَ به من شجنٍ ^(٣) ، وما رَزَحَ ^(٤)
 فيه من نصَبٍ وعناءٍ ، فبدأ يُغْنِي حَوْلَ طائرٍ من الطيورِ ، ولكنَّ

(١) الوجه (٢) تظن (٣) حزن . (٤) رزحت الناقة : سقطت لإعياء .

ضَعَفَهُ ، وما كَانَ يُبْلِقِيهِ مِنْ سُوءِ الْعَيْشِ وَشَقْوَةِ^(١) الْحَيَاةِ ، كُلُّ ذَلِكَ بَدَأَ بَيْنَ نَبْرَاتِ صَوْتِهِ جَلِيلًا ، فَارْتَجَفَتْ نَفَمَاتُهُ ، وَاضْطَرَبَتْ إِيْقَاعَاتُهُ ، وَاهْتَزَّتْ عَضَلَاتُ لِسَانِهِ ، وَكَادَ صَوْتُهُ يُتَلَاشَى .

وَعَلَى حَيْنِ غَفْلَةٍ ، دَخَلَ الْمَخْدُومُ « تَكَلُّتُون » لِيُشْرِفَ عَلَى الْعَمَلِ ، فَرَأَتْهُ تِلْكَ الْحَالُ ، وَخَاطَبَهُ بِصَوْتٍ مُزَعِيجٍ غَاضِبٍ : « حَذَارِ يَا (كَالِبُ) أَنْ تَعْمَلَ وَتُفْنَى ؛ فَإِنَّ الْغِنَاءَ مُلْهُ عَنِ الْعَمَلِ ، مَضِيعَةٌ لِلزَّمَنِ . حَذَارِ أَنْ أُرَاكَ ثَانِيَةً تُفْنَى وَقْتَ الْعَمَلِ . » فَهَمَسَ « الْأَبُ » فِي أُذُنِ « بَرْتَا » حَتَّى لَا تَتَأَثَّرَ بِذَلِكَ الْخَطَابِ الْقَاسِي : « إِنَّكَ لَا تَرَيْنَ كَيْفَ يَنْظُرُ السَّيِّدُ إِلَى بَعَيْنَيْهِ مَا زِحًا ، مُدَّعِيًا أَنَّهُ يُوجَّحُنِي . »

فَضَحِكَ الْفَتَا ، وَأَوْمَأَتْ إِلَى أَيْيَهَا مُصَدِّقَةً مَا قَالَ ، وَقَدْ أَخَذَتْ يَدَ « تَكَلُّتُون » وَهُوَ نَافِرٌ مِنْ إِعْطَائِهَا إِيَّاهَا ، وَقَبَّلَتْهَا بِلُطْفٍ ، فَانْتَزَعَهَا مِنْهَا بِغِلْظَةٍ وَقَالَ مُتَذَمِّرًا : « مَاذَا يَفْعَلُ الْمُعْتَوُّ (كَالِبُ) ؟ »

فَظَنَّتْ « بَرْتَا » أَنَّهُ لَا يَزَالُ يَمَزَحُ وَقَالَتْ : « أَشْكُرُكَ

(١) الشَّوَا ، وَالشَّوَا ، وَالشَّقْوَةُ وَالشَّقْوَةُ : الشَّدَّةُ وَالْعُسْرُ .

يا سيدي على شجرة الورد التي تفضلت بإهدائها إلي . «
وكان أبوها قد اشتراها لها بما اقتصدته من دراهم المدودة ،
وجعلها تمتد خطاً أنها هدية من « تكثون »
تاجر اللب .

ولم تكذ تنهي من كلامها حتى بادرها^(١) السيد متسائلا :
ماذا تريدن أيتها الحمقاء ؟ « فلم تجز جواباً . وللحال أمر
« كالب » بأداء بعض الأعمال مع قسوة في المعاملة ، خالية من
المجاملة ، وخرج دون أن يودع أحداً .

أوصد الباب بعد خروج « تكثون » وأصبح الأب
في جو حر طليق ، فلم يجد مناصاً^(٢) من التحدث إلى فتاته ،
ليزيل ما عساه أن يكون قد علق^(٣) بذهنها من الخواطر
والهواجس ، حتى لا تبدو الحياة أمامها مرة قاسية ، وحتى لا ينهار
ذلك الصرخ^(٤) الذي شيده لها من السعادة الخيالية .

فقال وقد مال برأسه إليها : « لورأيت يا (برثا) وهو ينعطف
إلي بعينه مازحاً لأذكرت أنه يتظاهر بالأنف ، ويدعي خسونة
المعاملة ، ليفر من حمد الناس وثنائهم . »

(١) عاجلها (٢) مفرا ، ملجأ . (٣) تعلق . (٤) القصر ، وكل بناء عال

فَقَالَتْ : « إِنْ طَبَعَهُ كَذَلِكَ يَا أَبَتَاهُ ! خُلِقَهُ قَوِيمٌ ، وَأَصْلُهُ كَرِيمٌ ؛ إِذْ يَأْتِي أَنْ يَشْكُرَهُ إِنْسَانٌ عَلَى هَدَايَاهُ ؛ فَهُوَ مَلَكٌ يَمُزَّحُ لَيْسُرُنِي كُلَّمَا أَتَانَا . »

ولقد حفَزَ الأبَ إِلَى خِدَاعِ ابْنَتِهِ وَمُهِجَةِ حَيَاتِهِ عَلَى هَذَا النَّحْوِ ، مِنْ تَصْوِيرِ الْبَاطِلِ لَهَا حَقًّا ، وَالْخَيَالِ حَقِيقَةً — مَا يُكِنُّهُ لَهَا مِنْ حُبِّ طَاهِرٍ ، وَمَا يَخْتَلِجُ بَيْنَ جَوَانِحِهِ مِنْ حُنُوءٍ وَإِشْفَاقٍ عَلَى رُوحِهَا الطَّاهِرَةِ ، وَنَفْسِهَا الْبَرِئَةِ . فَقَدْ مَثَّلَ لَهَا مَخْدُومَهُ « تِكَلْتُون » بِرِيشَةِ رَسَائِمٍ مَاهِرٍ ، مُفْتَنٍّ ^(١) فِي صِنَاعَتِهِ ، بَارِعٍ فِي فَنِّهِ — فِي صُورَةِ رَجُلٍ نَبِيلٍ ، طَيِّبِ الْقَلْبِ ، عَظِيمِ الْمَرْوَةِ ، مُحِبِّ « لَبْرَنَّا » . فَهَامَتْ بِهِ حُبًّا ، وَكَانَتْ سَعِيدَةً بِعَقِيدَتِهَا ؛ وَلَكِنْ لَمْ تَدَعِهَا الْآيَامُ تَرعى ثَمَارَ بَذْرِهَا ^(٢) ، وَتَهْنَأَ بِغُرْسِ يَدَيْهَا ، بَلْ صَوَّبَتْ إِلَيْهَا رِمَاحَ قَسِيَّهَا النَّافِذَةِ ، فَأَصَابَتْ الْغَرَضَ ، وَنَالَتْ الْمَهْدَفَ ، وَتَرَكْتَهَا رَهِينَةَ الْآلَامِ ، سَجِينَةَ الْخَوَاطِرِ ، تَصَلَّى ^(٣) سَمِيرَ الْهَوَى الْغَادِرِ ، إِذْ أُخْبِرَتْ ذَاتَ يَوْمٍ بِأَنَّ مَالِكَ رُوحِهَا ، وَآسَرَ لُبَّهَا ^(٤) تَزَوَّجَ ، فَلَمْ تَسْطِيعْ أَنْ

(١) افْتَنَّ فِي صِنَاعَتِهِ : جَاءَ بِالْأَفَانِينَ (٢) زَرَعَهَا .

(٣) تَصَلَّى : تَحْتَرَقُ (٤) عَقَلَهَا

تُخْفِي عَنْ أَبِيهَا مَا أَثَارَ رَوْعَهَا^(١) مِنْ شَجَنِ^(٢) مُلِمٍّ ، وَحَزَنِ كَثِيرٍ ،
حِينَ سَمِعَتْ نَبَأَ قَرَانِهِ .

فَهَمَّ الْأَبُ الْحَقِيقَةَ ، وَعَرَفَ مَا وَقَعَتْ فِيهِ فَنَاتُهُ ، فَصَاحَ
وَهُوَ يَتْنُ مِنْ وَخْزِ^(٣) الضَّمِيرِ : « يَا لَلسَّمَاءِ ! هَلْ خَدَعْتُكَ يَا « بَرِثَا »
مَدَى عُمْرِكَ لَا كَسِرَ قَلْبِكَ فِي النَّهَايَةِ ؟ » ثُمَّ أَخَذَ يُعَنِّفُ نَفْسَهُ
عَلَى مَا أَرْتَكَبَهُ مِنْ خَطَأٍ كَبِيرٍ ، وَاقْتَرَفَ مِنْ إِثْمٍ عَظِيمٍ ،
بَاحِثًا عَمَّا يُكْفِّرُ بِهِ عَنْ جُنَايَتِهِ الْعَظْمَى ، وَيُزِيلُ عَنْ ابْنَتِهِ
شَبَحَ سَقَامَهَا^(٤) الْمُجَسِّمَ .

وَأَخِيرًا لَمْ يَجِدْ بُدًّا مِنَ الْاعْتِرَافِ بِالْوَاقِعِ فَقَالَ :
« عَزِيزَتِي بَرِثَا ! إِنَّ لَدَيَّ نَبَأً يَجِبُ أَنْ أُبَوِّحَ^(٥) لَكَ بِهِ .
هُنَاكَ شَيْءٌ فِي نَفْسِي لَا بُدَّ أَنْ أُسِرَّهُ إِلَيْكَ ، فَأَصْنَعِي إِلَيَّ
وَأَعِيرِي نِي سَمْعَكَ ، وَلَا تَظْنَيْنِي قَاسِيًا عَلَيْكَ . »
فَتَوَجَّهَتْ نَحْوَهُ « بَرِثَا » قَائِلَةً : « أَأَصَدِّقُ أَنَّكَ تَقْسُو
عَلَيَّ يَا أَبِي ؟ »

الْأَبُ : « إِنَّ لِي لَا أَقْصِدُ ذَلِكَ يَا ابْنَتِي الْعَزِيزَةُ ! وَمَا خَطَرُ لِي

(١) فزعها (٢) حزن (٣) تأنيب (٤) السقام : المرض . (٥) أظهره .

أَنْ يُخَالَجَكَ مِثْلُ هَذَا الظَّنِّ . ابْنَتِي الْمُسْكِينَةُ ! إِنَّ الْعَيْنَيْنِ اللَّتَيْنِ
وَقَعَتْ بِهِمَا قَدْ غَشَّتَاكَ . إِنَّ الْعَالَمَ الَّذِي صَوَّرْتَهُ لَكَ لِتَعِيشِي
مُنْعَمَةً بِلَذَاذَةِ الْعَيْشِ فِيهِ ، سَعِيدَةً هَانِيَةً — لَا وُجُودَ لَهُ . لَقَدْ
كُنْتُ عَنْكَ مَا يَثْلُمُ^(١) عَوَاطِفَكَ ، وَأُظْهِرْتُ لَكَ مَا تَقْرَأُ بِهِ
عَيْنِكَ ، وَيَبْغِمُ فِيكَ الْأَمَلَ . وَأَخْرَجْتُكَ مِنْ عَالَمِ الْحَقِيقَةِ إِلَى
عَالَمِ الْخَيَالِ الْوَاهِي . وَجَعَلْتُ الْبَيْتَةَ الَّتِي تَحِيطُ بِكَ بَيْتَةً
خَيَالِيَّةً بَعِيدَةً عَنِ الْوَاقِعِ .

بِرْتَا : « وَلَكِنَّ الْأَحْيَاءَ مِنَ النَّاسِ لَيَسُوبُا بِخَيَالَاتٍ ، وَلَيْسَ
فِي اسْتَطَاعَتِكَ أَنْ تَتَنَاوَلَهمُ بِالتَّبْدِيلِ . »

الْأَب : « لَقَدْ فَعَلْتُ ذَلِكَ يَا بِرْتَا ! وَانْخَدَعْتَ بِخَيَالَاتِي
الْكَاذِبَةِ ، فَاصْفَحِي عَنِّي وَسَامِحِيْنِي إِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي يُحْتَفَلُ بِزَوَاجِهِ
الْيَوْمَ ، لَيْسَ مَنْ وَصَفْتُهُ لَكَ بِالْأَمْسِ . إِنَّهُ قَاسَى الْقَلْبَ ، لَا يَتَأَلَّمُ
لِأَحَدٍ ، وَلَا يَحْزَنُ لِأَحَدٍ . إِنَّهُ نَافِرُ الطَّنْبَعِ ، غَلِيظُ الْقَوْلِ ،
سَيِّئُ الْمُعَامَلَةِ ، لَا يَجْزَعُ لِإِخْوَانِهِ ، وَلَا يُسَاطِرُهُمْ مُصَابِهِمْ .
لَا يَعْرِفُ الشَّفَقَةَ ، وَالشَّفَقَةُ لَا تَعْرِفُهُ . »

(١) يمسُّ بِأَذَى

(٦)

برئنا : « يا لله ! ما أعظم ما رزئتُ به من فقدِ البصر !
 كيف تخذعني يا أبي ! وأنا عاجزة لا عون لي ولا ناصر ؟ »
 فطاطاً « الأب » المسكين رأسه نحو الأرض أسفاً . ثم
 سأله ابنه أن يصف لها بيتها ، فقال : « إنه متواضع تبدو عليه
 سيماً^(١) الفاقة ، ودلائل الهوان والضراعة^(٢) ، فهو عُشُ الحرمان
 والخصاصة^(٣) ، ذو حَجَرٍ مُقْفَرٍ ، وسُقْفٍ مُنْهَارَةٍ^(٤) ، وعمد^(٥)
 خاوية ، بَالٍ كِعِطْفِي الْخِشْيِ . » ثم أَلَحَّتْ عَلَيْهِ أَنْ يَكْشِفَ
 عن سِرِّ الهدايا التي قُدِّمَتْ إِلَيْهَا فَأَحْبَبَّهَا . فلم يُجِبْ رَغْبَتَهَا ،
 فعَرَفَتْ أَنَّهُ اشْتَرَاهَا مِنْ نُقُودِهِ التي اقْتَصَدَهَا مِنْ قُوَّتِهِ ،
 وَقَالَتْ : « أَلَا أَنْظُرَ إِلَيْكَ أَيُّهَا الْوَالِدُ الشَّفِيقُ ! فَصِفْ لِي
 نَفْسَكَ ، وَأَيَّ شَيْءٍ تُشَبِّهُ ؟ »

الأب : « إِنِّي هَرِمٌ يَا بُنَيَّةُ ! نَحِيفُ الْجِسْمِ ، مُقْوَمُ الظَّهْرِ ،
 مَنُهِوِكُ الْقُوَى ، مُخَادِعٌ أَحْمَقٌ ، قَدْ وَخَطَنِي^(٦) الشَّيْبُ ، وَعَلَانِي
 الهمُّ ، وَافْتَرَسَتْني حَوَادِثُ الدَّهْرِ ، وَمَحَنُ الْأَيَّامِ ، وَتَتَابَعَتْ عَلَيَّ
 صُرُوفُ الزَّمَانِ كِقِطْعِ اللَّيْلِ ، فَأَكَلَتْ مِنِّي الْأَخْضَرُ وَالْيَابِسُ .

(١) علامة . (٢) الدل . (٣) الفقر . (٤) مهدمة .

(٥) عمْد ، عمُد : جمع عمود . (٦) خالطني

فَجِئْتُ^(١) الفتاةُ أمامَ أبيها ، وأدارت ذراعَينِها حَوْلَهُ تَبْكِي
وتَقُولُ : « لقد عادتُ إِلَى بَصِيرَتِي ، ورجعَ إِلَى نَظَرِي ، وأَرَى
الآنَ أباي حَقًّا إِنِّي لَمْ أَرِ أَبِي حَقًّا إِلَّا الآنَ . هَلْ يَظُنُّ أَحَدٌ أَنَّ
عَلَى وَجْهِهِ البَسِيطَةِ أَبًا شُجاعًا أَحِبُّهُ كُلُّ الحُبِّ ، وَأَنِّي لَهُ كُلُّ الوَفاءِ ،
كَذلِكَ الشيخُ الواهِنُ الأَبْيَضُ الشَّعْرُ ؟ أباي ! لَنْ أُنْسِيَ فِي أَدْعِيَتِي
وَتَبَتُّلِي ، وصَلَاتِي ، وتشكرَاتِي لِلَّهِ — شَعْرَةً يَبْضَاءَ مِنْ رَأْسِكَ . »
فانْحَدَرَتِ الدُّمُوعُ مِنْ عَيْنَيْهِ ، وسالتْ عَلَى وَجَنَتَيْهِ وَقَالَ :
« ابْنَتِي ! إِنَّ أَبَاكَ لَا يَسْتَحِقُّ عَطْفَكَ بَعْدَ أَنْ خَدَعَكَ عَنْ حَسَنِ
نِيَّةٍ ، وسَلَامَةٍ طَوِيلَةٍ ، وأَذْهَبَ سَعَادَتَكَ النَفْسِيَّةَ . »

بِرْثًا : « أَبَتَاهُ ! وَارْحَمَتَاهُ لِفَتَاتِكَ ! فَإِنَّكَ لَمْ تَذْهَبْ
بِسَعَادَتِي يَا أَعَزَّ الآبَاءِ . وَكُلُّ مَا أُبْتَغِيهِ قَدْ تَحَقَّقَ لِي فِي
أَبَوَتِكَ . كُنْتُ سَعِيدَةً قَانِعَةً فِيمَا مَضَى ، وَلَكِنِّي الآنَ أَكْثَرُ
سَعَادَةً وَقَنَاعَةً ؛ فَقَدْ عَرَفْتُكَ حَقَّ المَعْرِفَةِ ، وَقَدَّرْتُكَ حَقَّ
التَّقْدِيرِ . وَرَأَيْتُ العَالَمَ كَمَا هُوَ ، والحَيَاةَ كَمَا هِيَ . فَلَسْتُ
بِعَمِيَاءَ بَعْدَ اليَوْمِ . »

(١) جلست .

الخدام المسكينة

تشارلز ديكنز

ترجمة : محمد عطية الإبراهيمي



مطبعة المعارف وكتبتنا بمصر

« الْمَرْكِونِس »

أو

الْخَادِمُ الْمُسْكِينُ

عاش السيدُ «سَمْسُونُ بَرَّاسُ» المحامى مع أختٍ له جُبِلَتْ على
الفظاظةِ والقسوةِ تُدعى الآنسةُ «سَالِي بَرَّاسُ». وكان على النقيض
منها كاتبُ أخيها السيدُ «دِكْ سُوَيْقَلَرُ» ؛ فهو مَرِحٌ خفيفُ الروحِ ،
متواضعٌ لا يُحِبُّ الظهورَ . ولقد وَقَفَ فى صباحِ اليومِ الأولِ
من عمله مع المُحامى على كثيرٍ مما انطَوَتْ عليه نفسُ أخته ؛
إِذْ أَخَذَتْهُ بِالْغِلْظَةِ وَعَسَفَتْ^(١) به ، وَضَيَّقَتْ الْخِنَاقَ^(٢) عليه ، فَأَخَذَ
يَنْتَهزُ الفرصةَ لِلْخُلَاصِ مِنْهَا . وما كادت تَغَادِرُ الْمَكْتَبَ حَتَّى
أَحَسَّ زَوَالَ الرِّقَابَةِ عَنْهُ ، وَانْطَلَقَ يُزِيلُ عَنْ نَفْسِهِ الْهَمَّ ؛ فَفَقَزَ
مِنْ كُرْسِيِّهِ ، وَأَخَذَ يَغْنَى فى فِنَاءِ الْحَجَرَةِ . وَبَيْنَمَا هُوَ غَارِقٌ فى
سُروره إِذْ سَمِعَ دَقًّا خَفِيفًا خَارِجَ الْحَجَرَةِ أَعَقَبَهُ دَقٌّ هَادِيٌّ عَلَى

(١) ظَلَمَتْه (٢) الْخِنَاقُ : حَبْلٌ يَنْخَقُ بِهِ

باب حجرة المكتب فقال : « ادخل » . فتكلم الطارق بصوت خافت^(١) هادئ : « أسمع يا سيدي بأن تجيء لترى الحجر من يريدون الشكني ؟ »

رفع (الكاتب) رأسه فإذا أمامه فتاة هزيلة الجسم ، ترتدي^(٢) ميدعة^(٣) خشنة قذرة ، قد أسدلت على رأسها غطاء ظهر منه وجهها ويدها . مخاطبها قائلاً : « لماذا ؟ ومن أنت ؟ » فلم تجر الفتاة جواباً إلا أنها قالت : « أرجوك يا سيدي أن تأتي لترى الغرف الساكنين الجدد . »

قال (الكاتب) : « إنه لاصلة لي بالحجر ، أخبرهم بالحضور ثانية في وقت آخر . » فقالت : « أرجوك يا سيدي أن تقوِّم بما عرّضت عليك ؛ لأنّ الأنسة (سالي) لم تشأ أن أقابلهم ؛ لئلا يجدوا في صغري ما يدعوهم إلى الاعتقاد بعدم العناية بهم ، والقيام بخدمتهم خير قيام . »

فقال (الكاتب) وهو متذمّر^(٤) وأمارات الغضب بادية^(٥) على وجهه : « هذا شيء غريب . أتريدون أن تقولوا إنك القائمة بأمر الخدمة في المنزل ؟ » ثم ذهب من فوره وأرى الغرف الساكنين .

(١) منخفض (٢) تلبس (٣) ثوب العمل (٤) مستاء (٥) ظاهرة

عاد الكاتبُ إلى مكتبه ، وقد تألمَ لتلك الخادمِ الصغيرةِ المسكينة ؛ إذ كانت تعيشُ عيشةَ البؤسِ والشقاء ، في سردابٍ مظلمٍ تحت الأرضِ ، ولا يتسنى^(١) لها الخروجُ إلا تلبيةً لنداءِ أجراسِ القاطنين^(٢) ، فما خرجتْ للتنزهِ مطلقاً ، وما خلعتْ ميدعتها الخشنة ، وما رأتها الشمسُ إلا مراتٍ معدودةً ، وما أُتيح^(٣) لها أن تمكثَ في الهواءِ المنعشِ إلا قليلاً ، ولم تُواتها الفرصةُ لتركنَ إلى الراحةِ ، ولم يأتِ أحدٌ للاستفسارِ^(٤) عنها أو الاستئناسِ بها ؛ لأنها لا تعرفُ أحداً ، ولا يفكرُ فيها أحدٌ .

وذاتَ يومٍ قال الكاتبُ لنفسه : « إني مُستعِدٌّ لأنْ أمنحَ^(٥) مكافأةً عظيمةً مَنْ يدُلُّني على مسكنٍ هذه الخادمِ المسكينةِ ويُخبرُني كيف تُعاملُ ، وكيف تعيش . » وبينما هو غارقٌ في آمالِه إذ حانتْ منه التفاتةٌ فذهبَ إلى بابِ المكتبِ ففتحه ، وإذا الآنسةُ (سالي) هابطةٌ إلى المطبخِ في سردابِ^(٦) تحت الأرضِ فقال : « واعجباً ! إنها ذاهبةٌ لإطعامِ الخادمِ الجائعةِ . » وبعدَ أن اختَرقتْ الآنسةُ (سالي) حُجُبَ الظلامِ ، وتوارتْ^(٧) عن الأنظارِ

(١) يتسنى (٢) الساكنين (٣) فُتِحَ (٤) السؤال

(٥) أعطى (٦) السرداب : بناء تحت الأرض للصيف (مغرب) (٧) اختفت

خَفَّ (الكاتبُ) إلى السُّلَمِ واقتفى آثارَها حتى وصل إلى بابِ
المطبخِ الخلفيِّ، بعد أن دخلته الآنسةُ (سالي) وقد حملت في يدها
نَحْذاً من لحمِ الضأنِ .

كان هذا المطبخُ مُنخفضاً جداً قد ضربت الرطوبةُ في أنحائه،
وانتشرت الظُّلُمَةُ في نواحيه، وخيمَ البؤسُ والشقاءُ عليه، وكانت
فيه قِطَّةٌ نحيفةٌ يبدو عليها الجوعُ، تلمسُ ما يتساقطُ على الأرضِ
بشرهٍ شديدٍ، وكان كلُّ ما في المطبخِ مُحكَمَ الإغلاقِ حتى لا يتسنى
لأحدٍ الوصولُ إلى شيءٍ منه، ولا يستطيعُ كائنٌ من هَوامِّ الأرضِ
أن يعيشَ فيه؛ لأنه لا يجدُ ما يستطيعُ به الحياةَ .

وقفت الخادِمُ أمامَ سيدتها مَوْقفَ الخنوعِ والذُّلِّ، وانحنَتْ
نحوَ الأرضِ . فقالت الآنسةُ (سالي) : « هل أنتِ هنا ؟ »

فأجابت الخادِمُ بصوتٍ ضعيفٍ : « نعم يا سيِّدتي ! »
فقالت : « لا تقربِي نَحْذا الضأنِ ؛ فَإِنِّي أخشى أن تلتقيَ بها . »
فانزوت^(١) الخادِمُ المسكينةُ في جانبٍ من المطبخِ .

أخرجت الآنسةُ (سالي) مفتاحاً من جيبها، وأخرجت بعضاً

(١) اتحت

البطاطس؟ خذها . » ثم قطعت لها قطعتين صغيرتين من اللحم البارد ، وأمسكنهما بالشوكة ، وأعطتهما إياها ، وقالت لها : « لعلك لا تذهبين إلى أحدٍ ثم تدعين أنك لا تجدين هنا لحماً ؛ فهذا هو اللحم فتناوليه »

فنظرت إليها الخادم الصغيرة بعينين ملوئهما الجوع ، ثم انقضت على الطعام فالتقمته في أقل من ارتداد الطرف^(١) .

قالت الأنسة (سالي) : « أتريدن شيئاً أكثر من هذا ؟ » فأجابت - والجوع قد أخذ منها مأخذه ، فلم تستطع الكلام إلا همساً : « لا يا سيدي . »

وضعت الأنسة (سالي) اللحم في الخزانة وأحكمت إغلاقها ، ثم اقتربت من الخادم ، وأخذت تردد النظر إليها ، ثم بدأت تقرعها مرة على رأسها ، وأخرى على يديها ، وثالثة على ظهرها^(٢) ، كأنها وجدت من المستحيل أن تقف بالقرب منها دون أن ينالها بعض الأذى ، ثم تناولت شيئاً من البطاطس^(٣) وصعدت في السلم ، فتسلل أمامها الكاتب إلى المكتب من غير أن تراه .

(١) البصر (٢) يُعامل الخدم الآن في إنجلترا معاملة كلها عطف وشفقة .

(٣) ما يعطس منه مثل النشوق

رجع الكاتبُ (دِكْ) إلى مكتبه والحزنُ يحزُّ^(١) في قلبه ،
وعلاماتُ الضَّجَرِ والألمِ باديةٌ على مُحْيَاهُ^(٢) ؛ لهَوَلٌ ما رآه من سوءِ
معاملةِ تلكِ الخادمِ البائسةِ المسكينةِ التي لا تجدُ من الطعامِ
ما تُمسِكُ به رَمَقَهَا^(٣) ، ولا تَشَمُّ من الهواءِ ما يُقوِّيها ، ولا ترى
الشمسَ إلا غِرَارًا^(٤) ، فكانت تَقْضِي طولَ وَقْتِهَا بينَ جُدْرانِ
ذلكِ المطبخِ الرطبِ المظلمِ ، فكثُرَ تفكيرُهُ في أمرِها ، ووَدَّ لو
استطاعَ إنقاذَها وإخراجَها من ظُلُماتِ سِجْنِهَا .

وذاكَ لَيْلَةٌ بينما هو جالسٌ في مكتبه سَمِعَ غَطِيظًا آتِيًا من
جهةِ البابِ ، فظَنَّ أَنَّهُ صوتُ الخادمِ لا مَحَالَةَ ؛ فكثُرَ ما كانت
تُصابُ بالبردِ لرُطوبَةِ المطبخِ الذي تعيشُ فيه . ولقد حانت منه
التفاتَةُ ، فنظَرَ نحوَ البابِ ، فرأى عَيْنًا تنظُرُ من ثَقَبِ المِفْتَاحِ ،
فذهبَ إليه بِخَفَةٍ وهدوءٍ وفتحَها ، وإذا بالخادمِ خَلْفَهُ ، فأمسَكَ
يَدِهَا قبلَ أنْ تُحَسَّ اقترابهَ منها ، فذُعِرَتْ وصاحتُ ؛ ظانَّةً أَنَّهُ
سَيُعاقِبُهَا . وأخذتْ تحاولُ الفِرارَ وتتوسَّلُ إليه قائلةً : إِنِّي لَمْ أَبْغِ
من وراءِ نَظَرَتِي رِيبةً يَا سَيِّدِي . وما أَتَيْتُ إلى هنا إِلَّا لِأَنِّي

(١) يقطع (٢) وجهه (٣) الرَّمَقُ : بقية الحياة . (٤) فترات قصيرة

سُمْتُ الحَيَاةَ تَحْتَ الْأَرْضِ ، وَبَيْنَ جُذْرَانِ ذَلِكَ الْمَطْبِخِ الْمَظْلَمِ
الرَّطْبِ . فَأَرْجُوكَ يَا سَيِّدِي أَنْ تَرْفُقَ بِي ، وَتَرْحَمَ ضَعْفِي ، فَلَا
تُخْبِرَ الْآنَسَةَ (سَالَى) بِشَيْءٍ مِمَّا حَدَثَ وَإِلَّا قَتَلْتَنِي شَرًّا قَتْلَةً . «
فَقَالَ الْكَاتِبُ : « اطمَئِنِّي وَلَا تَخَافِي أَحَدًا ، وَلَا يَتَسَرَّبُ
إِلَى ذَهْنِكَ أَيْ فِكْرِي إِذَا نِئْتُكَ أَوْ إِحْلَاقِ الضَّرَرِ بِكَ ، ثُمَّ سَكَتَ
هُنَيْهَةً ، وَصَمَحَ لَهَا بِمَدِّهَا بِالْدُخُولِ فِي حَجَرَتِهِ لَتُدْفَى نَفْسَهَا ،
وَأَمَرَهَا بِالْجُلُوسِ .

قَالَتِ الْخَادِمُ : « إِنِّي لَا أَجْسُرُ ^(١) عَلَى ذَلِكَ ، وَأُخْشَى أَنْ تَقْتُلَنِي
الْآنَسَةُ (سَالَى) إِذَا عَرَفَتْ أَنِّي أَتَيْتُ إِلَى هُنَا . «

الْكَاتِبُ : « أَعِنْدَكَ نَارٌ فِي الْمَطْبِخِ ؟ »

فَأَجَابَتْ . « عِنْدِي نَارٌ ضَعِيفَةٌ . »

الْكَاتِبُ : « إِنَّكَ تُرَيْنِ نَحِيفَةً هَزِيلَةً . أَيْمُكُنْكَ أَنْ تَتَنَاوَلَ

شَيْئًا مِنَ الْخَبْزِ وَاللَّحْمِ مُقِيمِينَ بِهِ أَوْدَكَ ^(٢) ؟ »

قَالَتْ : « نَعَمْ ، وَأَشْكُرُكَ يَا سَيِّدِي . »

قَالَ : « مَا عَمْرُكَ ؟ »

(١) أَقْدَمَ (٢) اَعُوْجَاجُكَ ، صَحْنُكَ السَّيْنَةُ .

قالت : « لا أعرفُ يا سيدي ، ولكنني أظنُّ أن عُمرى
عشرُ سنوات .

فنظر إليها (الكاتبُ) والأسي^(١) يملأُ جوانحه، والأسفُ يُقِضُ^(٢)
مَضَجَهُ ، ثم أحضرَ ما تيسَّرَ من الطعامِ والشرابِ ، وتبعها إلى
المطبخِ ، فوضعه أمامها وأمرها بتناوله . وما كادت الخادِمُ المسكينَةُ
تَرى الطعامَ حتى هوتْ عليه فأتت على ما في الإناء . وبعد أن
انتهت من الشرابِ قام (الكاتبُ) وأخذ يُدرِّبُها على القيامِ ببعضِ
الألعابِ المنزلية حتى أجادتها . ثم قال لها : « اسمحي لي لكي
يَتِمَّ سروري أن أناديك (بالمرَّكيُونِس) أسمعين ؟ . » فأومأت
الخادِمُ المسكينَةُ أن نعم ، ثم أخذها يلعبان حتى دقت الساعةُ العاشرةُ ،
فتذكَّرَ أنه يجبُ عليه أن يذهبَ إلى حجرةِ مكتبهِ قبلَ أن يعودَ
(المحامي وأخته) ، فاستأذنها في الخروجِ وقال : يا (مرَّكيُونِس) ،
أرجو أن تعدِّني صديقاً لك ، وآملُ أن نلعبَ كثيراً حتى
أُدخلَ السرورَ على نفسك . وقبل أن أغادرَكَ أريدُ أن
أسألكِ مرَّةً أخرى عن السببِ الذي حدا بكِ إلى النظرِ

(١) الحزن (٢) يلقه .

الفرعُ : « ما كنت أريد شيئاً أكثر من أن أسألك قطعةً من الخبز ؛ فقد تغلبَ علىَّ الجوعُ ، ولم تُعطني سيّدتي ما يكفي من الطعام . ولو تركتُ لى مفتاحَ الخزانةِ ما امتدّت يدي إلى أكثر مما يحفظ الحياة ، ويُزيلُ ألمَ الجوع .

دارت الأيامُ دورتها وتركَ الكاتبُ عمله مع المحامى ، وعاش فى حُجرةٍ صغيرةٍ مُنْعَزلةٍ عِشّةِ الفقرِ والشقاء . وذات ليلةٍ دبَّ ديبُ المرضِ فى جسمه ، فأوى^(٢) إلى فراشه يتلوّى من فرطِ الداءِ ، ووطأة^(٣) المرضِ ، وشعرَ بظماً شديداً لا يستطيعُ إطفاءه ، وأخذَ يحلمُ فى تلك الليلةِ أحلاماً مُزعجةً . وهكذا قضى ليلته فى بحرٍ لُجْبِيٍّ^(٤) تتقاذفه^(٥) الأهوالُ ، وترتطمُّ به الهمومُ . وفى إحدى الليالى مرَّ به طيفُ الكرى^(٦) ، فأزال عن عينيه شبحَ^(٧) السهادِ ، فاستسلمَ للنومِ ، وانقطعت عنه أحلامه وآلامه ، فاستيقظَ من نومه وقد سرى النشاطُ فى أعضائه ، وأحسَّ الراحةَ تعمُّ جسمه ، فأخذَ يتذكّرُ الماضى ، وما ألمَّ^(٨) به

(١) الفرع والخوف . (٢) لجأ (٣) شدة (٤) عميق (٥) تتلففه

(٦) النوم (٧) جسمه (٨) نزل

من آلامٍ وأحزانٍ . وبينما هو ساجدٌ في بحارِ خياله إذ تذكر أنه نسيَ بابَ الحجرةِ مفتوحاً ، فأزاح الستائرَ بيده ، ونظرَ إلى الحجرةِ فوجدَها مُغلقةً ، ولكنه شاهد فيها تغيراً كبيراً ؛ فقد وجدَها نظيفةً مرتبةً الأثاثَ ، نقيّةَ الهواءِ ، تختلفُ كثيراً عما كانت عليه حينما أوى إلى فراشه . ولشدة ما كانت دهشته عند ما وقعَ نظره على زجاجاتِ الأدويةِ . وسرعانَ ما عادت إلى نفسه ذِكْرُ (المرْكِيُونِس) ، فتخيّلها وهي واقفةٌ أمامه تلاعبُ نفسها على الخوان .

وتذكرُ كلَّ ما دار بينهما من حديثٍ . فظن أنه في حلمٍ من الأحلامِ ، فوضع رأسه على الوسادةِ ، واستسلمَ لأحلامه ، ولكنه عاد فرفعَ الستائرَ ثانيةً ، وأخذَ يجولُ بنظره في الحجرةِ ، فوجدَ (المرْكِيُونِس) واقفةً في ناحيةٍ منها وقد تملكها الفرحُ ، وشملها^(١) السرورُ . فأخذت تضحكُ وتُصَفِّقُ يديها ، وأغرَبَتْ^(٢) عن سرورها لشفائه ، وما لاقته من همٍّ وحيرةٍ في مرضه . فنظرَ إليها (دك) نظرةَ العطفِ والرحمةِ ، وطلبَ إليها أن تدنو منه حتى يقفَ على ما أصابه من ألمٍ أضنى^(٣) جسمه ، وضعفٍ أنهك^(٤) قواه ، فهزّت

(١) عَمَّها . (٢) أَبَات . (٣) أُنَبَّ . (٤) أَذْمَب

(الْمَرْكُيُونِس) رَأْسَهَا وَعَاوَدَهَا بُكَاءُهَا . فَتَحَرَّكَ (دِك) فِي فِرَاشِهِ وَقَالَ : « أَلَا أَنْ فَهِمْتُ أَنِّي كُنْتُ مَرِيضًا مَرَضًا شَدِيدًا . » فَأُجَابَتْ الْخَادِمُ الصَّغِيرَةُ وَهِيَ تَمْسَحُ الدَّمُوعَ الْمُنْحَدِرَةَ عَلَى خَدَّيْهَا : « لَقَدْ كُنْتُ مَرِيضًا حَقًّا ، وَكُنْتُ قَابَ قَوْسَيْنِ^(١) أَوْ أَدْنَى مِنَ الْمَوْتِ . وَلَقَدْ مَضَى عَلَيْكَ الْآنَ ثَلَاثَةُ أَسَابِيعَ وَأَنْتَ طَرِيحُ الْفِرَاشِ . » فَقَالَ (دِك) : « يَا (مَرْكُيُونِس) ، كَيْفَ حَالُ (سَالِي) ؟ » فَخَارَتْ قَلِيلًا ، وَلَمْ تُجِرْ جَوَابًا ، وَلَكِنَّا هَزَّتْ رَأْسَهَا وَقَالَتْ : « لَا أَعْرِفُ عَنْهَا شَيْئًا يَا سَيِّدِي ؛ فَقَدْ هَرَبَتْ مِنْ خِدْمَتِهَا ، وَأَسْأَلُ اللَّهَ لَكَ الشِّفَاءَ التَّامَّ . » فَسَأَلَهَا : « وَأَيْنَ تَعِيشِينَ الْآنَ . » فَأُجَابَتْ : « إِنِّي أَعِيشُ هُنَا . »

زَفَرَ (دِك) زَفَرَاتٍ طَوِيلَةً ، ثُمَّ وَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى الْوِسَادَةِ وَقَدْ وَقَعَ فِي نَفْسِهِ حَدِيثُ (الْمَرْكُيُونِس) مَوْقِعَ النَّبَالِ فِي الْأَهْدَافِ ، وَقَالَ : « أَخْبَرَنِي كَيْفَ فَكَّرْتِ فِي الْمَجِيءِ إِلَى هُنَا ؟ » فَأُجَابَتْ : « لَقَدْ أَصْبَحْتُ بَائِسَةً مِنْذُ غَادَرْتُ الْعَمَلَ فِي مَكْتَبِ الْحَامِي ، فَلَمْ يَكُنْ لِي أَحَدٌ يُفَكِّرُ فِي سِوَاكَ . وَفِي صَبَاحِ أَحَدِ الْأَيَّامِ كُنْتُ قَرِيبَةً مِنَ الْمَكْتَبِ ، فَسَمِعْتُ قَائِلًا يَقُولُ : « إِنَّكَ مَرِيضٌ جَدًّا ، وَلَيْسَ لَدَيْكَ أَحَدٌ يَهْتَمُّ بِشَأْنِكَ ، أَوْ يُعْنَى بِخِدْمَتِكَ . »

(١) قَرِيبًا جَدًّا

وسمعتُ المحامى يقول : « ليس ذلكَ من شأنى . » ورددتُ
أخته تلكَ العبارةَ أيضاً ، فلم أطقُ صبراً على وَحْدَتِكَ ومَرْضِكَ ؛
ولذلكَ هَرَبْتُ وأُتيتُ إلى هنا ، ومكثتُ بجوارِكَ هذه المدةَ
أسهرُ على خِدْمَتِكَ ، وأغنى بِشُؤْنِكَ . »

فصاح (دِك) : « إن هذه (المَرْكِوْنِس) الصغيرة قد
حَمَلَتْ نَفْسَهَا ما لا طاقةَ لها بِحَمْلِهِ ، وتَجَشَّمتُ^(١) هذه المتاعبَ
وتلكَ الآلامَ حتى أوهنتُ صَحَّتَهَا . » فقالت : « لا ! إننى وجدتُ
فى تمرِيضِكَ سروراً عظيماً ، ولم ألقَ تعباً قطُّ ، فلا تفكرْ فى .
ويسرُّنى أنْ صَحَّتَكَ الآنَ فى تقدِيمِ مستعيرٍ يا سيدى . »

فقال (دِك) : لولاكَ يا (مَرْكِوْنِس) لُمْتُ وَحيداً فى هذه
الحجرة ، فخيأتى وصَحَّتى وراحتى منسوبةً إليك ، وإلى حسنِ
عنايتِكَ بى ، فلنْ أنسى لكِ هذا الجميلَ ما حَيَّيتُ .

آنَ للسَّيِّدِ (دِك) أنْ يَفِى بِجَمِيلِ تلكَ الفتاةِ المسكينة ؛ فقد
ورثَ بعضَ المالِ عن أحدِ أقاربِهِ ، فاشتَرى (للمَرْكِوْنِس)
ما تَحْتَاجُ إليه من حُلَلٍ جديدةٍ جميلةٍ ، وأَلْحَقَهَا بالمَدارسِ لتَنالَ
نصيبَها من التَّربيةِ والتَّعليمِ . ولما بَلَغتِ التاسعةَ عشرةَ من عَمْرِها
بَنى^(٢) عليها ، وعاشا معاً زوجينِ سَعِيدَيْنِ .

(١) تَكَبَّتْ (٢) أَضَمَّتْ (٣) تَزَوَّجَهَا

دُرَّت الصَّغِيرَة

تشارلز ديكنز

ترجمة : محمد عطية الإبراهيمي



مطبعة المعارف وكتبتها بصيرة

(دُرَّت) الصَّغِيرَة

كان المَدِينُ بانجلترا - في القرونِ الماضية - يُحكَّمُ عليه بالسَّجْنِ إذا عَجَزَ عن أداء ما عليه من الديون . وذات مرة خسر أحدُ الرجالِ المهذَّبينَ ما لديه من مالٍ ، فاخذ إلى سِجْنِ (مَرْشَالِسى) . وكان لذلك الرجلِ زوجٌ وفتيةٌ ، وابنٌ يُدعى (إدوارد) سنَّه ثلاثُ سنينَ ، وابنةٌ اسمُها (فاني) تبلغُ من العمرِ سنتين . لم تجد الأمُّ أملاً في أداء تلك الديونِ ، فذهبت بطفليها للمعيشة في السَّجْنِ بجوار زوجها المسكين . وكان القانونُ الإنكليزيُّ إذ ذاك يُبيحُ للزوجة أن تكون مع زوجها السَّجينِ في مُعتقله . ضمَّهم السَّجْنُ بين جدرانِهِ الضَّخمة ، وصاروا لا يرونَ إلا وجوهَ المسجونينَ ، ولا يبصرون من العالمِ الخارجى إلا الأشعةَ التى تنفذُ إليهم من خلالِ النوافذِ الضيقة . يَبْدُ (١) أنه كان يُسمحُ للأطفالِ باللَّعبِ في فناءِ السجْنِ ، فلم يشعر الطِّفلانِ بالآلامِ الحبسِ ، ولم يُدركا كيف كانت حالُ أبيهما من قبلُ من

(١) غير أنه .

الثراء^(١) والنَّعمة، والعيشة الرَّغد^(٢)، وكيفَ حال الأسرة اليومَ ،
وما هيَ فيه من ضيقٍ وشقاءٍ ، وذلٍّ وهوانٍ .

وُلِدَ للرجلِ وزوجته في السَّجنِ بنتٌ سَمَّيَها (دُرَّت) ،
عاشتْ في السَّجنِ ولم تَخْرُجْ منه في طفولَتِها ، وكانت ذَكِيَّةَ
العقلِ ، عميقةَ التفكيرِ ، حسنةَ الوجهِ ، خفيفةَ الروحِ ، أحبَّها
كلُّ مَنْ رآها من السَّجَناءِ ، فأقبلوا عليها يُداعِبونها^(٣)
ويُقدِّمونَ لها ما يَسُرُّها .

وكان السَّجانُ « بوبٌ » أكثرَ الناسِ إعجاباً بها ، وعطفاً
عليها ، يحبُّها كما يحبُّ ابنته .

وحينما تعلَّمتِ المشيَ اشترى لها كرسيًّا صغيراً وضعه لتجلسَ
عليه بجانبِ الموقِدِ في حُجْرَتِهِ بالسَّجنِ . وكان يقدِّمُ لها اللَّعَبَ
والدُمى^(٤) لتلهو بها . وقد أحبَّتْ (دُرَّت) السَّجانَ كما أحبَّها .
لا تفارقه إلا حينما تأوى إلى فراشها بجوار أمِّها في المساء .

كان نِظامُ السَّجنِ يَسمحُ للزوجةِ وأولادها بالخروجِ منه
للرياضةِ في أوقاتٍ مُعيَّنة ، ولكنها حرَّمتْ نَفْسَها وأولادَها ذلكَ

(١) الثراء : كثرة المال (٢) عيشة رغد بسكون الفين وفتحها أى واسعة
طية . (٣) يمازحونها (٤) جمع دُمية : التمثال الصغير

لتكونَ إلى جوارِ زوجها ؛ حتى لا يشعرَ بأنَّ شريكهَ حياتِه تنعمُ
بزيارةِ الحداثقِ والبساتينِ من دُونِه .

نشأتُ (دُرْتُ) وهى لا تعرفُ مِنَ الدنيا غيرَ السَّجَنِ
ذى الأبوابِ الضَّخمةِ ، والسَّيَّاجِ^(١) المرتفعِ ، والنوافذِ الضيقةِ .
وكانت أمُّها لا تُحدِّثُها عن شىءٍ من أحوالِ الأسرةِ حتى لا تشعرُ
وهى فى مَهْدِها بآلامِ الحياةِ .

وذاتَ يومٍ جَلَسْتُ (دُرْتُ) إلى جانبِ السَّجَنِ فى حُجْرَتِه
وأخذتُ تُحدِّقُ^(٢) بنظرها إلى النافذةِ ، وتُقلِّبُ طَرَفَها^(٣) فى
السَّماءِ ، فلحَظَها السَّجَانُ وقال لها :

« فِيمَ تَفَكِّرِينَ يا (دُرْتُ) ؟ أَتَفَكِّرِينَ فى الحَقولِ ؟ »

فقالت : « مَا الحَقولُ ؟ وأين هى ؟ »

فأجاب السَّجَانُ -- وقد أشارَ بِمِفْتَاحٍ فى يده : إنها قَريبةٌ من
هنا . أَلَمْ يَقعْ نَظْرُكَ عَلَيْها من قَبلُ ؟

بلى : إننى لم أَرها . هل الحَقولُ تُفَتَّحُ وتُغَلَقُ كما يُفَتَّحُ
السَّجَنُ ويُغَلَقُ ؟

(١) السَّيَّاجُ : السور (٢) حدَّقَ : شدد النظر (٣) عَينها

تألم السجانُ في نفسه لسؤالها هذا ؛ لأنه أحسَّ ما يُخالج^(١)
فؤادها من مرارة الأسْرِ . ثم قال لها : « لا يا بُنَيَّتِي ، إنها
لا تغلق دائماً . »

فسأله : « هل الحقول جميلة يا (بوبُ) ؟ وكان يُحبُّ أن
تُناديه باسمه مُجرّداً .

فأجاب (بوبُ) : « وَيْ^(٢) ! إنها جميلةٌ جدًّا يا (درَّتُ) ، وسأخذُكِ
مَعِي حيثُ أخرجُ ؛ لِتَتَمَتَّي بِجَمالِ الطَّبيعةِ ، وتَرَيَ بَينَكِ الأشجارَ
المثمِّرةَ ، والحدائقَ الغنَّاءَ ، والمتنزهاتِ العامَّةَ وقد اكتستَ أرضُها
بِيساطِ سُنْدُسٍ جميلٍ ، وازينتِ بالأزهار التي تَبَعَثُ في الجوّ
أريجَها^(٣) المنعشَ ، وجرتَ فيها الجداولُ صافيةً رَقَاقَةً تَحْمِلُ الحياةَ
والنِّماءَ للنباتِ ، يَقصِدُها الناسُ للتنزهِ واللَّعبِ .

درَّتُ : وهل الناسُ جميعاً يَتَمَتَّعونَ بِمَا في الحدائقِ والبساتينِ ؟
بوبُ : نعم يا (درَّتُ) . إنَّ في قدرتكِ أن تذهبي إليها ،
وتأخذي حبلَكِ وتقفزي به هنا وهناك كما يحلو لكِ .

درَّتُ : أفى الحدائقِ أطفالٌ كثيرونَ أُستطيع اللُّعبُ معهم ؟
بوبُ : سَتَجِدِينَ كُلَّ ما يَسُرُّكِ ويُفَرِّحُكِ هناكِ .

(١) خالَجَ قَلْبِي أَمْرٌ : نازَعَنِي فِيهِ فِكْرٌ (٢) كَلِمَةٌ لَتَتَعَجَّبُ (٣) رَائِحَتُهَا الطَّيِّبَةُ

دُرَّتْ : وهل كان أبي يَتَنَزَّهُ في تلك الحديقة ؟
السَّجَّانُ : أجبها مثلاً : نعم كان يَتَنَزَّهُ فيها ، ويتمتعُ
بمناظرها أحياناً .

دُرَّتْ : أهو أسِفُ الآنَ لِحُرْمَانِهِ الحُرِّيَّةِ في الحياة ؟
السَّجَّانُ : أظنه غير أسِفٍ كثيراً .

دُرَّتْ : أليس السَّجَّانُ أسِفِين لا تقطاعهم عن العالم ،
وحِرْمَانِهِم الرياضة والتَّنزُّه ؟ أَجِبْ يا (بوبُ) ! ما لي أراك
تصمُتُ ؟ لم يُحَرِّ (١) السَّجَّانُ جواباً ، وتنفَّسَ الصُّعْداءُ (٢) . وللتخلُّصِ
من الإجابة غير موضوع الحديث ، ثم حملها بين يديه ، وأخذ
يُسَلِّيها بلعبة جديدة كان قد اشتراها ليقدِّمها لها في عيد الميلاد .
صار (بوبُ) بعد ذلك يأخذُ (دُرَّتْ) كلَّ يومٍ أحدٍ إلى
الحداثق والمتنزَّهات فتلهو وتلعبُ ، وتقطفُ الأزهارَ الجميلةَ ،
وتنظِّمُ منها طاقتين تقدِّمُهما لأبويها حينَ عودتها في المساء
إلى السجن .

وحينما بلغت (دُرَّتْ) من العمر ثمانية أعوامٍ تُوفِّيتُ أمها ،
فحزن الأبُ والأطفالُ عليها حزناً شديداً . وبفقدِها فقدوا مَنْ

(١) لم يَدْر (٢) تنفَّساً طويلاً

يُعْنَى بِأُمُورِهِمْ ، وَيِهْتَمُّ بِشُؤْنِهِمْ ؛ فَقَدْ كَانَتِ الْابْنَةُ (فَانِي) فَتَاةً لَا تَعْرِفُ شَيْئًا ، وَلَا تَهْتَمُّ بِشَيْءٍ . وَكَانَ الْابْنُ (إِدْوَارْدُ) خَامِلًا بَلِيدًا ، لَا يَعْمَلُ ، وَلَا يَحِبُّ الْعَمَلَ . وَلَمْ يَكُنْ لَدَى الْأَبِ الْمِسْكِينِ مَنْ يِعْتَمِدُ عَلَيْهِ سِوَى ابْنَتِهِ الصَّغِيرَةِ (دُرَّتْ) . وَمُنْذُ صَغِيرِهَا كَانَتْ تَحْمِلُ قَلْبًا شَفِيقًا ، وَرُوحًا وَثَابَةً ، وَعَزِيمَةً قَوِيَّةً ، وَذِهْنًا حَاضِرًا . فَلَمْ تَلْبَثْ أَنْ رَاضَتْ^(١) نَفْسَهَا عَلَى الْعَمَلِ ، وَأَخَذَتْ تَفَكَّرُ - كَأَمْ حَازِمَةٌ - فِي أَبِيهَا وَأُخْتِهَا وَأَخِيهَا .

وَلَقَدْ قَاسَتْ كَثِيرًا فِي سَبِيلِ أَنْ تَتَعَلَّمَ ، وَيَتَعَلَّمَ أَخَوَاهَا ؛ فَكَانَتْ تُرْسِلُهُمَا إِلَى مَدْرَسَةٍ نَهَارِيَّةٍ ، وَتَقُومُ هِيَ بِشُؤْنِ الْأُسْرَةِ ، وَتَعْمَلُ طَوْلَ النَّهَارِ مَنْفَرِدَةً ، فِي جِدِّ وَدَأْبٍ^(٢) ، حَتَّى إِذَا مَا جَنَّ^(٣) عَلَيْهَا اللَّيْلُ تَرَكَّتِ الْمَنْزِلَ ، وَذَهَبَتْ إِلَى مَدْرَسَةٍ لَيْلِيَّةٍ لِتَتَعَلَّمَ فِيهَا الْقِرَاءَةَ وَالْكِتَابَةَ وَالْحِسَابَ .

وَحِينَمَا بَلَغَتْ الثَّلَاثَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمرِهَا أَلْفَتْ^(٤) نَفْسَهَا قَدْ حَدَقَتْ^(٥) التَّدْبِيرَ الْمَنْزِلِيَّ ، وَاسْتَطَاعَتْ أَنْ تَقْرَأَ وَتَكْتُبَ .

دَخَلَ السَّجْنُ سَجِينٌ جَدِيدٌ لَدَيْنِ كَانِ عَلَيْهِ ، وَسَمِعَتْ (دُرَّتْ)

(١) عودت (٢) جد وتعب . (٣) ستر (٤) وجدت (٥) مهت

أنه معلمٌ للموسيقا . وكانت تجدُ في أختها (فاني) ميلاً لذلك
الفنّ ، فذهبتُ إليه وقالت له :

سيدي ، أسمحُ لي بالتحدّثِ إليك ؟

السجين الجديد : نعم ، إنني مُنصّتٌ^(١) لكلِّ ما تقولين .
ولن أبخلَ عليكِ بأيةِ معونةٍ تكونُ في طاقتي أيتها السيّدةُ
الصغيرةُ .

درّت : شكراً لك يا سيدي . إنني أريدُ أن أرجوَك شيئاً
لا لنفسي ، بل لأختي الكبيرة ، وهو أن تسمحَ بتعليمها الموسيقا .
فهل لك أن تُسدي^(٢) إلينا يداً^(٣) لن ننساها أبداً الدهر بتعليمها
ذلك الفنّ الجميل ؛ علها تستطيعُ فيما بعدُ أن تكسبَ منه
ما تُعينُ به أسرَتنا العائرة^(٤) الجُدّ ، ولن نبخلَ عليكِ بما يصلُ
إلى أيدينا من مالٍ ؟

السجين الجديد : بكلِّ سرورٍ سأقومُ بتعليمِ أختك من غيرِ
أن أنتظرَ أيَّ أجرٍ على القيامِ بواجبٍ .

واظبتُ (فاني) على دروسها ، وأظهرتُ براعةً ومقدرةً ،
وعني^(٥) بها المدرّسُ عنايةً كبيرةً ، وأعجبَ بتقدّمها في الموسيقا

(١) ساكت ومستمع (٢) تحسن (٣) اليد : النعمة والإحسان

(٤) السيئة الحظ (٥) اهتم

يوماً بعدَ يومٍ . ولم يَنْقَطِعْ عن الحضورِ لتعليمها حتى بعدَ أن
أدَّى ما عليه من الدينِ ، وأُطْلِقَ سَراحُه من السَّجنِ .

سُرَّتْ (درت) كثيراً بتقدم أختها، فدعاها ذلك إلى أن تتعارف
بسيدة سَجِينِ كانت تَتَّخِذُ خياطةَ الملابسِ للسيدات مهنةً لها .
ورَجَّهتا أن تُعَلِّمَهَا . فاعتذرت السيدةُ ؛ مُدَّعِيَةً أَنَّ (درت) ضعيفةُ
البنيةِ ، صغيرةُ الجسمِ ، لا تستطيعُ أن تحتلِ آلامَ تعلُّمِ الحياكةِ .
ولكنَّ (درت) أظهرتُ لها في جِدِّ ودأبٍ^(١) ، وعزيمةَ صادقةٍ ،
أنَّ في قُدرتها أن تتعلَّم كلَّ شيءٍ رَغِبَتْ في تعلُّمِهِ ، وأنَّ لديها
استعداداً للفهم إذا سمحت السيدةُ بتعليمها .

فعارضتِ السَّجِينَةُ قائلةً : « إنك لا تزالين صغيرةً ، وصغيرةً
جداً . »

فقالت (درتُ) : « نعم . أنا صغيرةٌ ، وصغيرةٌ حقاً . »
وأخذت تبكي ، فتألمتُ لها السيدةُ ، وأخذتها بينَ يديها ،
وعطفتُ عليها ، ثم بدأتُ تُعَلِّمُها ، فوجدتها ذكيةً ، قويةَ الملاحظةِ ،
كثيرةَ الصبرِ ، شديدةَ الرغبةِ في التعلُّمِ . وسُرَّعان ما أظهرتُ
نجاحاً باهراً في الحياكةِ والتطريزِ .

(١) دأب في عمله : جَدُّ وتعب ، وبابه قطع وخضع

اشتغلت (فاني) بالموسيقا في إحدى دُورِ الملاهي ، واستطاعت أن تكسبَ عَيْشَهَا بِنَفْسِهَا ، وعاشتْ معَ عَمَّهَا الهَرِمِ الْمِسْكِينِ خَارِجَ السَّجْنِ . وَحَذَقَتْ^(١) (دُرْتُ) حِرْفَةَ الْخِيَاطَةِ ، وَبَدَأَتْ الْحَيَاةُ تَبْسِمُ لَتِلْكَ الْأُسْرَةِ الْمُنْكَودَةِ ؛ فَإِنَّ (دُرْتُ) نَجَحَتْ فِي عَمَلِهَا ، وَأَخَذَتْ تَفَكَّرُ فِي إِخْرَاجِ أَخِيهَا مِنَ السَّجْنِ ، لَتُنْقِذَهُ مِنْ أَسْرِهِ مِنْ أَخْلَاقِ السَّجَنَاءِ وَيُنْشِئَهُمْ . وَبِمُسَاعَدَةِ (بوب) الصديقِ الْقَدِيمِ أَمَكْنَهَا أَنْ تَجِدَ لَهُ عَمَلًا يَكْسِبُ مِنْهُ قُوَّتَهُ ، وَلَكِنْ وَاسْفَاهُ ! كَانَ كُلَّمَا أَلْحَقْتُهُ أُخْتَهُ بِعَمَلٍ أَظْهَرَ مِنَ الْكَسَلِ وَالْإِهْمَالِ وَالتَّقْصِيرِ مَا يُلْجِي^(٢) صَاحِبَ الْعَمَلِ إِلَى طَرْدِهِ وَالْإِسْتِغْنَاءِ عَنْهُ . وَأَصْبَحَ عَيْبًا^(٣) ثَقِيلًا عَلَى (دُرْتُ) الصَّغِيرَةِ حَتَّى يَنْتَسِبَ مِنْ إِصْلَاحِ حَالِهِ ، فَعَمِلَتْ عَلَى أَنْ تَقْتَصِدَ مِقْدَارًا مِنَ الْمَالِ يَكْفِي سَفَرَهُ إِلَى (كَنْدَا) ؛ لِلْبَحْثِ عَنْ حَظِّهِ هُنَاكَ . وَكَانَ يَهَاجِرُ إِلَيْهَا الْفُقَرَاءُ الْمُعْدِمُونَ فَيَعُودُونَ مِنْهَا أَغْنِيَاءَ . ادَّخَرَتْ^(٤) الْقَدْرَ الْكَافِيَ وَقَدَّمَتْهُ لِأَخِيهَا (إِذْوَاردَ) ، وَطَلَبَتْ مِنْهُ الْمَهَاجِرَةَ ، وَزَوَّدَتْهُ بِنِصَائِحِهَا الثَّمِينَةِ ، وَوَدَّعَتْهُ عِنْدَ مَغَادِرَتِهِ بِقَوْلِهَا : « أَسْتَوْدِعُكَ اللَّهُ أَيُّهَا الْأَخُ

(١) مهرت (٢) يضطر (٣) العبه : الحمل . (٤) اقتصدت

العزيزُ . أرجو لك النجاحَ في (كندا) ، وآملُ أن تكتبَ إلينا .
ولا تنسَ أن تعودَ لرؤيتنا حينما يكتبُ لك اللهُ الفوزَ والتوفيقَ .
أخذَ (إدواردُ) النقودَ من شقيقته ومضى . ولكنه لم يسافرَ
إلى (كندا) ، بل مكثَ في (ليقربول) حتى فُقدتْ نقودُه ،
ثم عادَ إلى (درت) المسكينةَ بعد شهرٍ ، دأبى القدمِ ، مُمزقَ
الثيابِ ، رثَ^(١) الهيئةَ فذُعرَت^(٢) أخته ذُعرًا شديدًا حينما رأتَه ،
واستولى عليها الحزنُ والألمُ حينما قصَّ عليها قصته ، وأخبرها بأنَّ
نقودَه سُرقتْ منه في (ليقربول) ؛ فلم يتمكنْ من السفرِ إلى
(كندا) ، واضطرَّ إلى الاستدانةِ ، مُحكَمَ عليه بالسجنِ .

فَزَعَتْ لقوله هذا الفرعَ كُلَّهُ ، وَرَجَّتْهُ أَلَا يَرُدُّ كَلِمَةَ
« السَّجْنِ » ؛ لأنها تبعثُ في نفسِها كلَّ غَمٍّ وَهَمٍّ ، وألَا يُخْبِرُ أَبَاهُ
حتى لا ينفطرَ^(٣) قلبه كمدًا وحُزنًا ، ولا تتضاعفَ آلامُه ، وينوءَ
تحتَ تلكَ الأرزاءِ فيخِرَ صريعًا .

اثنتانِ وعشرونَ سنةً قضتها (درتُ) في شقاءٍ دائمٍ ، وألمٍ
مستمرٍّ ، وهَمٍّ مُقيمٍ . ألمٌ تَبْزُغُ^(٤) شمسُ حياتِها في غياهبِ^(٥)

(١) الرث : البالي (٢) فزعت (٣) ينقطع (٤) تطنع

(٥) الغِيَهَبُ : الظلمةُ ، والليل

الظلمات ؟ أَلَيْسَتْ رَيْبَةَ السَّجْنِ ، وابنة طريدِ المجتمع ؟ أَلَمْ تَجَاهِدِي فِي سَبِيلِ الْحَيَاةِ وَهِيَ لَمْ تَعُدِ الثَّامِنَةَ مِنْ عُمْرِهَا ؟ أَلَمْ تَحْمِلِي أَوْصَابَ^(١) الْحَيَاةِ فِي سَبِيلِ تَعْلِيمِ إِخْوَتِهَا وَإِنْقَاذِ أَسْرَتِهَا ؟

« رَبَّاهُ ! أَتَقِذْنِي مِمَّا أَعَانِي^(٢) . لَقَدْ احْتَمَلْتُ مَا لَمْ يَحْتَمِلْهُ أَحَدٌ ، وَقَاسَيْتُ مَا لَمْ تُقَاسِهِ فِتَاةٌ . لَقَدْ تَعَبْتُ كَثِيرًا ، وَشَقِيتُ طَوِيلًا . رَبَّاهُ ! عَفْوُكَ وَرَحْمَتُكَ ! وَإِحْسَانُكَ وَرِضْوَانُكَ . »

بهذه الكلماتِ الحارّةِ كانت تَضَرَّعُ إِلَى رَبِّهَا بِأَكْبَرِ صَبَاحِ مَسَاءٍ . وَقَدْ اسْتَجَابَ اللَّهُ دُعَاءَهَا الصَّادِرَ عَنْ تِلْكَ النَّفْسِ الطَّاهِرَةِ ، وَالرُّوحِ الْبَرِيئَةِ ، وَأَخَذَ الدَّهْرُ يُبْتَسِمُ لَهَا ؛ فَقَدْ ذَهَبَتْ فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ تُتْلَى دَعْوَةُ سَيِّدَةٍ غَنِيَّةٍ اسْتَدْعَتْهَا لِتَخِيطَ لَهَا ثِيَابَهَا فِي بَيْتِهَا . وَكَانَ لِتِلْكَ السَّيِّدَةِ ابْنٌ كَرِيمٌ أُخْلِقَ ، شَرِيفٌ النَّفْسِ ، رَضِيَ الطَّبْعَ ، كَثِيرُ الْعَطْفِ عَلَى الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ، يُدْعَى السَّيِّدَ (كَلِينَامَ) . عَرَفَ قِصَّةَ (دُرَّت) وَمَا قَاسَتْهُ مِنْ آلَامٍ ، وَمَا قَامَتْ بِهِ مِنْ أَعْمَالٍ ، فَأَخَذَتْهُ الشَّفَقَةُ عَلَيْهَا ، وَالرَّأْفَةُ بِهَا ، فَعَزَمَ عَلَى أَدَاءِ دَيْنِ أَبِيهَا وَأَخِيهَا ، وَإِنْقَاذِهِمَا مِنْ غِيَاهِبِ^(٣) السَّجْنِ .

(١) الْوَصَبُ : الْمَرَضُ (٢) أَقَاسَى (٣) ظِلْمَاتُ

وَذَاتَ يَوْمٍ كَانَا عَائِدَيْنِ إِلَى الْمَنْزِلِ - بَعْدَ أَنْ مَرَّ بِالْداثِنِينَ
 لِمَعْرِفَةِ مِقْدَارِ الدَّيْنِ - فَسَمِعَتْ (دُرَّتُ) صَوْتًا يُنَادِيهَا :
 « أُمِّي الصَّغِيرَةُ . » فَتَلَقَّيْتُ نَحْوَ مَصْدَرِ الصَّوْتِ ، فَرَأْتُ فِتْنَةً
 تَعْدُو نَحْوَهَا . وَمَا كَادَتْ تَصِلُ إِلَيْهَا حَتَّى أَلْقَتْ بِنَفْسِهَا بَيْنَ يَدَيْهَا ،
 وَقَدْ سَقَطَ مِنْهَا مَا كَانَ بِيَدِهَا مِنْ (الْبَطَاطِسِ) . فَعَرَفْتُهَا (دُرَّتُ)
 وَقَالَتْ لَهَا بِكَلِّ عَطْفٍ وَحَنَانٍ : مَرْحَبًا بِكَ يَا (مَاجِي) . أَيْنَ
 أَنْتِ ؟ وَمَالِي أَرَاكِ مُشَعَّنَةً ^(١) الشَّعْرَ ؟

قَدِّمْتُ (دُرَّتُ) الْفِتْنَةَ لِلسَّيِّدِ (كَلِينَامَ) ، وَعَرَفْتُهُ أَنَّهَا
 كَانَتْ حَفِيدَةً لْجَارَةٍ لَهَا ، وَأَنَّ جَدَّتَهَا كَانَتْ تَقْسُو فِي مُعَامَلَتِهَا
 وَهِيَ صَغِيرَةٌ ، وَقَدْ أُصِيبَتْ بِحُمَّى شَدِيدَةٍ وَهِيَ فِي الْعَاشِرَةِ مِنْ
 عُمْرِهَا ، فَأُرْسِلَتْ إِلَى الْمُسْتَشْفَى ، فَوُجِدَتْ فِيهِ مِنَ الرَّاحَةِ وَالْعِنَايَةِ
 وَالرَّعَايَةِ مَا لَمْ تَأْلَفْهُ مِنْ جَدَّتِهَا . وَكَثِيرًا مَا تَنَاوَلَتْ فِيهِ شَرَابَ
 اللَّيْمُونِ اللَّذِيذِ ، وَالدَّجَاجِ الشَّهِيءِ ، وَالطَّعَامَ الصَّحِيءَ . فَوَدَّتْ لَوْ
 أَنَّهَا تَبْقَى مَرِيضَةً إِلَى الْأَبَدِ . وَلَكِنْ لِحَسَنِ حِظِّهَا أَوْ لِسُوءِ
 بَرَّتِ ^(٢) مِنْ مَرَضِهَا ، وَخَرَجَتْ مِنَ الْمُسْتَشْفَى ، وَعَادَتْ لِتَلْقَى
 مِنْ عَذَابِ جَدَّتِهَا ، وَشِدَّةِ قَسْوَتِهَا الْأَمْرَيْنِ ^(٣) . وَلَكِنَّهَا كَانَتْ

(١) مُغْبَرَّةٌ (٢) سَلِمَتْ وَشُفِيَتْ (٣) الْأَمْرَانِ : الْفَقْرُ وَالْمَرَمُ

مُجِدَّة كَثِيرَةَ الصَّبْرِ ، اسْتَطَاعَتْ بِمَثَابَرَتِهَا أَنْ تَشُقَّ لِنَفْسِهَا طَرِيقًا فِي الْحَيَاةِ ، وَتُوجِدَ لَهَا عَمَلًا تَرْتَزِقُ مِنْهُ .

قَصَّتْ (دُرَّتْ) عَلَى السَّيِّدِ (كَلِينَامَ) كُلَّ شَيْءٍ عَنْ تَارِيخِ (مَاجِي) إِلَّا مَا كَانَتْ تُقَدِّمُهُ لَهَا مِنْ مَعُونَةٍ ، وَمَا كَانَتْ تَحُوطُهَا^(١) بِهِ مِنْ عَطْفٍ وَرِعَايَةٍ ، وَمَا كَانَتْ تُسَاعِدُهَا بِهِ مِنْ مَالٍ ، عَلَى الرِّغْمِ مِنْ فَقْرِهَا وَحَاجَتِهَا . لَمْ تَذْكُرْ لَهُ (دُرَّتْ) أَنَّهَا هِيَ الَّتِي قَدَّمَتْهَا لِإِحْدَى الْأَسْرِ لَتَكُونَ مَرِيئَةً لِأَبْنَائِهَا . وَلَكِنَّهُ فَهِمَ هَذَا كُلَّهُ مِنْ تَلَقَّاءِ نَفْسِهِ ؛ مِنْ مَنَادَاةِ (مَاجِي) الْمُسْكِينَةِ لِدُرَّتْ «بَأُمِّي الصَّغِيرَةَ» ، وَمِنْ شِدَّةِ تَعَلُّقِهَا بِهَا ، وَمِنْ نَظَرَاتِ الْإِجْلَالِ الَّتِي كَانَتْ تَرْمُقُ^(٢) بِهَا (مَاجِي) أُمُّهَا الصَّغِيرَةَ (دُرَّتْ) .

وَفِي إِحْدَى اللَّيَالِي الْقَارِسَةِ^(٣) الْبَرْدِ ذَهَبَتْ (دُرَّتْ) وَمَعَهَا (مَاجِي) إِلَى بَيْتِ السَّيِّدِ (كَلِينَامَ) ؛ اتَّقَدَّمَ لَهُ جَزِيلَ شُكْرِهَا ، وَوَافَرَ^(٤) ثَنَائِهَا ، لِأَدَائِهِ الدِّيُونَ عَنْ أَخِيهَا وَأَبِيهَا . وَلَكِنَّهَا أَلْفَتْ^(٥) الْبَابَ مُوَصَّدًا^(٦) ، فَلَمْ تَشَأْ أَنْ تَقْرَعَهُ حَتَّى لَا تُزْعِجَ مِنْ فِيهِ . وَعَادَتْ إِلَى السَّجْنِ فَرَأَتْهُ مُغْلَقًا ، وَوَجَدَتْ السَّجَانَ نَائِمًا .

(١) نَكَلَتْهَا وَتَرَعَاهَا . (٢) تَنْظَرُ (٣) الشَّدِيدَةُ (٤) كَثِيرٌ

(٥) وَجَدَتْ (٦) مَغْلَقًا

فَقَضَتِ اللَّيْلَةَ فِي الشَّوَارِعِ ، تَجْلِسُ آوَنَةً^(١) يَجَانِبُ بَابِ السَّجَنِ ،
وَتَمْشِي آوَنَةً أُخْرَى فِي الطَّرِيقِ . كُلُّ هَذَا (مَا جَى) تَرْتَعِدُ مِنْ
شِدَّةِ الْبَرْدِ . وَكَانَتْ كُلَّمَا هَمَّتْ بِمُؤَالَاةِ^(٢) قَرْعِ الْبَابِ مَنَعَتْهَا
(دُرَّتْ) ، وَقَالَتْ لَهَا : « لَيْسَ مِنْ حَقِّنَا أَنْ نَوْفِظَ النَّائِمَ مِنْ
رُقَادِهِ ، وَلَيْسَ مِنَ الْمُرُوءَةِ فِي شَيْءٍ أَنْ تُتَبَّ غَيْرَنَا لِنَسْتَرِيحَ . »
وَأَخِيرًا انْقَضَتْ تِلْكَ اللَّيْلَةُ اللَّيْلَةُ^(٣) — بَعْدَ أَنْ طَالَ الْإِنْتَظَارُ —
وَأَتَى الصَّبَاحُ ، وَفُتِحَ الْبَابُ ، وَاسْتَرَاخَتْ (مَا جَى) . وَعَانَقَتْ
(دُرَّتْ) أَبَاهَا السَّجِينَ ، وَذَكَرَتْ لَهُ مَا كَانَ مِنْ ذَلِكَ الْمُحْسِنِ
النَّبِيلِ السَّيِّدِ (كَلِينَامَ) .

خَرَجَ الْوَالِدُ مِنَ السَّجَنِ ، وَشَكَرَ لِلَّيِّدِ (كَلِينَامَ) ذَلِكَ
الْعَطْفَ الْكَثِيرَ ، وَتِلْكَ الْمُرُوءَةَ النَّادِرَةَ ، وَدَعَا اللَّهَ أَنْ يَقْدِرَهُ
عَلَى رَدِّ ذَلِكَ الْجَمِيلِ .

ابْتَسَمَ الدَّهْرُ ثَانِيَةً لِتِلْكَ الْأُسْرَةِ الْكَرِيمَةِ ، وَزَالَ ذَلِكَ الشَّقَاءُ
الَّذِي كَانَ يُخَيِّمُ عَلَيْهَا ، وَتَغَيَّرَتِ الْحَالُ تَغْيِيرًا كَثِيرًا ، وَتَبَدَّلَتْ مِنْ
شَقَاءٍ إِلَى سَعَادَةٍ ، وَمِنْ سِجْنٍ إِلَى حُرِّيَّةٍ ، وَمِنْ فَقْرٍ إِلَى غِنَى .

(١) مرة (٢) متابعة (٣) ليلة ليلاء : شديدة الظلمة .

سبحانه جلّ شأنه . « يُعزُّ من يشاء ، ويُذلُّ من يشاء . إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . »

ولكن لم تنسَ (درّت) أصدقاءها الفقراء ، ومن مدّوا لها يدَ المعونة ؛ فكانت تحسنُ إليهم وترعاهم ، وتقدّم لهم كلَّ ما تستطيع من مُساعدةٍ . وكان أبوها يشجّعها على الإحسان .

شاء القدرُ أن يُصبحَ السيدُ (كلينام) فقيراً ، وأن يستدين فيُزجَ به في السّجن . فلم تنسَ (درّت) تلك اليَدَ^(١) التي أسداها^(٢) إلى أسرّتها ، فعوّلت على إنقاذه من السّجن ، وإطلاق سراحه مهما كلفها ذلك . وأدّى أبوها ما على (كلينام) من ديونٍ ، فأخرجَ من السّجن . ومكّن الله والدَ (درّت) من أن يرُدَّ له الجليل . ولا يضيع جميلٌ أينما وُضع .

وتزوَّجَ السيدُ (كلينام) الأمَّ الصغيرةَ (درّت) ، وعاشا سعيدين مدَى حياتهما ، تُرفرفُ عليهما الهناءة والسعادة ، يكلوهُما^(٣) الله بعنايته ، ويحفظُهُما برعايته .

(١) النعمة (٢) قدمها . (٣) يحفظهما

تيم ، الكسيحُ الصغيرُ

تشارلز ديكنز

ترجمة : محمد عطية الإبراهيمي



مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

« تَم » الكسِيحُ الصغِيرُ

جَرَتْ عَادَةُ الْأُمِّ مِنْ قَدِيمِ الزَّمَانِ أَنْ تَتَّخِذَ لَهَا مِنْ بَيْنِ أَيَّامِ الْعَامِ
أَعْيَادًا ، يَنْقَطِعُ فِيهَا الْأَفْرَادُ عَنْ أَعْمَالِهِمْ ، فَيَلْبَسُونَ جَدِيدَ الثِّيَابِ ،
وَيَتَلَقَّوْنَ مُتَصَافِينَ فَرَحِينَ ، فِي مَظَاهِرِ السَّعَةِ وَالرَّفَاهَةِ ^(١) ،
كُلٌّ عَلَى قَدَرِ طَاقَتِهِ . وَمِنْ تِلْكَ الْأَعْيَادِ يَوْمُ عِيدِ الْمِيلَادِ ؛ فَقَدْ
كَانَ النَّاسُ يُوفِّرُونَ لَأَنْفُسِهِمْ فِيهِ سُبُلَ الرَّاحَةِ وَالذَّعَةِ ^(٢) ، وَوَسَائِلَ
السَّعَادَةِ وَالشُّرُورِ . وَعَلَى النَّقِيضِ مِنْ ذَلِكَ السَّيِّدُ « سَكْرُوجُ »
التَّاجِرِ ؛ فَقَدْ كَانَ غَلِيظَ الْقَلْبِ ، جَافِي الطَّبْعِ ، سَيِّئَ الْمَعَامَلَةِ ، لَا يُفَكِّرُ
إِلَّا فِي ادِّخَارِ الْأَمْوَالِ ، وَالتَّقْتِيرِ عَلَى نَفْسِهِ . فَلَا يَأْبَهُ ^(٣) لَشْتُونَ
غَيْرِهِ ، وَلَا يَحْفَلُ ^(٤) بِمَا يَتَمَنَّوْنَهُ مِنْ خَفَضِ الْعَيْشِ ، وَرَغَدِ ^(٥)
الْحَيَاةِ . لِهَذَا أَبْغَضَ الْعِيدَ ، وَلَمْ يَهْتَمَّ بِهِ ؛ إِذْ عَدَّهُ نَوْعًا مِنْ
حُبِّ الظُّهُورِ .

(١) الرِّفَاهَةُ : السَّعَةُ . (٢) السَّكُونُ . (٣) يَأْبَهُ : يَكْتَرِثُ ، يَفْتَنُ .

(٤) يَحْفَلُ . (٥) وَاسِعَةٌ طَيِّبَةٌ

عاشَ السَّيِّدُ «سَكْرُوجُ» عَيْشًا وَضِعًا عَلَى نَحْوِ مَا يَعِيشُ
أَهْلُ الْمَتَرَبَةِ وَالْإِمْلَاقِ، فِي حَجَرَتَيْنِ لَا تَنْفُذُ إِلَيْهِمَا أَشْعَةُ الشَّمْسِ،
وَتُدْخِلَانِ النِّعَمَ عَلَى النَّفْسِ، وَتَبْعَثَانِ الْأَلَمَ فِي الْقَوَادِ. عَاشَ لَا يَشْعُرُ
بِفَرْحٍ، وَلَا يُحْسُ جَذَلًا^(١)، بَلْ كَانَ يُبْغِضُ الْفَرْحَ، وَيَمْتَقُ الْأَعْيَادَ.
وَلَقَدْ تَسَرَّبَ بَوْسُهُ وَتَبَرَّمَتْهُ إِلَى كَاتِبِهِ الْمُسْكِينِ؛ فَقَدَّرَ^(٢) عَلَيْهِ
رِزْقَهُ، وَلَمْ يُمْطِهِ إِلَّا نُقُودًا ضَنْيَلَةً، لَا تُنَاسِبُ جَهْدَهُ وَنَشَاطَهُ.
حَدَّثَ فِي لَيْلَةِ عِيدِ الْمِيلَادِ - وَقَدْ اشْتَدَّ بَرْدُهَا، وَكَثُرَتْ
مُتَلَوِّجُهَا، فَكَسَتْ الشَّوَارِعَ وَالْحَدَائِقَ بِسَاطًا نَاصِعَ الْبَيَاضِ -
أَنْ سَمَحَ السَّيِّدُ (سَكْرُوجُ) - عَلَى كَرِهِ مِنْهُ - لِكَاتِبِهِ التَّعَسُّ
بِقَضَاءِ يَوْمِ الْعِيدِ فِي بَيْتِهِ مَعَ أُسْرَتِهِ، فَأَغْلَقَ مَكْتَبَهُ وَهُوَ يَكَادُ
يَتَمَيَّزُ^(٣) مِنْ شِدَّةِ الْغَيْظِ. وَذَهَبَ إِلَى مَنَزَلِهِ شَارِدَ اللَّبِّ^(٤)،
ضَيِّقَ الصَّدْرِ، لَوْ قَفَ حَرَكَةَ الْعَمَلِ فِي غَدِهِ.

تَنَاوَلَ (سَكْرُوجُ) التَّاجِرُ نَزْرًا^(٥) يَسِيرًا مِنْ طَعَامٍ لَا يُسْمَنُ
وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ. وَجَلَسَ بِالْقُرْبِ مِنْ مَوْقِدٍ صَغِيرٍ فِي جَانِبِ
مِنْ حُجْرَتِهِ الْعَاسِيَةِ، لِيُذْهِبَ عَنْ نَفْسِهِ قُرًّا^(٦) الشِّتَاءِ، ثُمَّ أَوَى

(١) الجَذَلُ: الْفَرْحُ. (٢) قَدَّرَ: يَنْقُطُ. (٣) يَتَمَيَّزُ: يَتَقَطَّعُ. (٤) اللَّبُّ: الْعَقْلُ.

(٥) النَّزْرُ: الْقَلِيلُ الْكَافِي. (٦) يَرُدُّ.

إلى فراشه . وما كاذَ الكرى^(١) يُناوئُ أجفانه حتى تراكمت^(٢)
 عليه الأفكارُ من كلِّ صوبٍ ، وتراحتْ في عقله بواعثُ
 القلق والاضطراب . ففضى ليلته بين أحلامٍ مُزعجة ، وأوهامٍ
 تُقضى^(٣) المضاجع ، وتورقُ الأعين .

ولندع الآن التاجرَ تائهاً في بحار أحلامه المروعة ، مُتقلِّباً
 على أشواقٍ من حسك السعدان ، فتَمنع طرفه^(٤) الرقاد .
 ولنعدْ إلى الكاتبِ العائرِ الجَدِّ ، لنرى كيف قضى ابنه (تم)
 الصغيرُ يومَ العيد .

يُدعى ذلك الكاتبُ (بُوب كراكت) ، وقد عاشَ مع زوجته
 وأولاده الستة ، ومن بينهم (تم) الصغيرُ . وهو طفلٌ ضعيف
 البنية ، لا تقوى قدماه الواهتانِ على حمله ، بل لابدَّ له من عصا
 يتكى عليها ، فنال عطفَ والديه ومحبة الأسرة . ومع ضعفه وقلة
 حيلته ، كان رقيقَ الطبع ، جميلَ الوجه ، صبوراً على المكاره ،
 يُحبُّ أبويه وإخوته ، يعطفُ عليه كلُّ من رآه ، ويرأفُ به
 جميعُ من رآه^(٥) إليه . وكثيراً ما كان يحمله أبوه على كتفه في أوقات

(١) النعاس . (٢) اجتمعت . (٣) تجملها خشنه . (٤) عينه

(٥) أدام النظر .

فراغه ، ويخرجُ به للزَّهَةِ والرياضَةِ بينَ الحِداثِ الغَناءِ ، والبساتينِ
النَّاضِرَةِ ، والحوانيتِ الجميلةِ ، وَاجدًا من اللَّذَةِ والسَّعَادَةِ في إِدخالِ
الشُّرُورِ على ابنِهِ ما لا يَشْعُرُ بِهِ إِلَّا الآبَاءُ الرَّحْمَاءُ .

حملَ الأبُ طِفْلَهُ الصَّغِيرَ ، وذهبَ بِهِ إِلَى الكَنِيسَةِ يَوْمَ
العِيدِ ، تاركًا زَوْجَتَهُ تُهَيِّئُ طَعَامَ الغَداءِ حَتَّى يَحْضُرَا . وَلَمَّا انْتَهتْ
أَخَذَتْ تَسْأَلُ أَوْلَادَهَا :

« مَاذَا حَدَّثَ لَأَيِّكُمْ الْبَارُّ وَشَقِيقُكُمْ حَتَّى تَأْخُرَا إِلَى تِلْكَ السَّاعَةِ ؟
إِنِّي مَا عَهَدْتُ تَأْخِيرًا يَوْمَ الْعِيدِ قَبْلَ الْآنِ . »

فَمَا إِن سَمِعَ الْأَوْلَادُ كَلَامَهَا حَتَّى أَسْرَعُوا إِلَى التَّافِذَةِ يَسْتَطْلِعُونَ
الْخَبَرَ ، فَإِذَا أَبُوهُمْ مُقْبِلٌ يَتَأَفَّفُ وَتَصْطُكُ أَسْنَانُهُ مِنْ شِدَّةِ الْبُرْدِ ؛
إِذْ كَانَ يَرْتَدِي حُلَّةً بَالِيَةً ، لَيْسَ عَلَيْهَا مِعْطَفٌ يَدْفَعُ عَنْهُ قَوَارِسَ
الْبُرْدِ ، وَثُلُوجَ الْأَمْطَارِ . وَقَدْ حَمَلَ عَلَى كَتِفِهِ أَخَاهُ الصَّغِيرَ ،
وَفِي يَدِهِ الْعَصَا الَّتِي يَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا . فَصَاحُوا جَمِيعًا فِي نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ،
وَالْبِشْرُ يَتَلَأَلُ عَلَى صَفْحَاتِ وُجُوهِهِمْ : « هَا هُوَ ذَا مُقْبِلٌ يَا أُمَّاهُ ! »
وَأَسْرَعُوا نَحْوَهُ لِلِقَائِهِ .

ولما قُرب ودخل فناء الدَّارِ سألت الزوجُ : « كيف كان
سلوكُ » تِم « في الكنيسة يا عزيزي ! »

« حَسَنٌ جدًّا ، على خير ما نرجو وإنِّي لأظنُّه بدأ يشعُر بالقلق
وضيق الصَّدْر لمكثه داخل البيت كثيرًا ؛ فقد أخبرني وأنا عائدُ
بأنه يرجو أن يتذكَّر الناسُ — الذين رأوه في الكنيسة
كسيحًا ، لا يستطيعُ السيرَ على الأقدام — اللهَ الخالقَ الذي
جعلهم قادرينَ على المشي . »

فقالت أمُّه بصوتٍ مُرتجفٍ : « كلاًهُ^(١) اللهَ بعينِ رِعايته ،
وبارك في قلبه الطاهر . »

وقال الأبُّ : « إنَّ » تِم « قد تحسَّنت صحَّته ، وأصبح أقوى
مِمَّا كان . »

أعدَّت الأمُّ مائدةَ الغداء ، فوضعت في وسطها إوزةً
كبيرةً ، وأحضرت « بلندا » إحدى بناتها الحُضرَ ، وأتى
« پيتَرُ » بالبطاطسِ ، ونظَّم الأطفالُ الآخرون الكراسيَّ
حول المائدة ، ثمَّ جلسَ كلُّ في موضعه يَطمَعُ^(٢) ، و « تِم »
بجانب والده يحوطُه بحنَّانه وعنايته . وقد بدأ البشرُ على

(١) حفظه . (٢) يأكل .

مُحْيَا^(١) « تَم » وهو يُرَدُّ عباراتِ التَّهَانِي : مَرَحَى . مَرَحَى .

جىء بعد ذلك بالعَصِيدَةِ والبَخَارُ بِصَاعِدُ مِنْهَا ، فَالْتَهُمُوهَا
حَتَّى آخِرَ لُقْمَةٍ فِيهَا ، ثُمَّ صُفَّ الْبُرْتُقَالِيُّ أَمَامَهُمْ ، فَأَكَلُوا
هَنِيئًا وَشَرَبُوا مَرِيئًا . وَلَمَّا انْتَهَوْا مِنْ تَنَاوُلِ الْغَدَاءِ قَالَ أَبُوهُمْ :
« عَيْدٌ سَعِيدٌ يَا أَبْنَاءُي الْأَعْزَاءُ ! أَعَادَهُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ بِالْيُمْنِ وَالْإِقْبَالِ . »

فَقَالَ « تَم » : « اللَّهُ يُسَعِدُنَا جَمِيعًا . » وَتَنَاوَلُوا أَقْدَاحَ^(٢)
الشَّرَابِ ، فَشَرِبَ كُلُّ مَنْهُمْ نَخْبَ أَخِيهِ ، ثُمَّ اقْتَسَمُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ
نَخْبَ السَّيِّدِ « سَكْرُوجَ » رَبِّ نِعْمَتِهِمْ . وَأَخَذُوا يَتَجَاذَبُونَ أَطْرَافَ
الْحَدِيثِ وَمُلَحَّحَ الْكَلَامِ ، وَيُعْنِي كُلُّ مَنْهُمْ مَا يَعْرِفُ مِنَ الْأَغَانِي .
وَكَانَ « تَم » عَذْبَ الْحَدِيثِ ، رَخِيمَ الصَّوْتِ ، فَغَنَّى أَغْنِيَةً^(٣)
طَرِيفَةً حَوْلَ طِفْلِ فَقِدَ فِي الثَّلَجِ يَوْمَ عِيدِ الْمِيلَادِ .

هَكَذَا قَضَى الْكَاتِبُ يَوْمَ الْعِيدِ سَعِيدًا بَيْنَ أَبْنَائِهِ الصِّغَارِ ،
وَزَوْجِهِ الرِّئُومِ ، قَرِيرَ الْمَيْنِ بِرُؤْيَاهُمْ وَالتَّحَدُّثِ إِلَيْهِمْ . فَلَمَّا تَرَكَهُ
حِينَئِذٍ تَرْفِرُ عَلَيْهِ الْقَنَاعَةُ ، وَلَنَعْمَ إِلَى « سَكْرُوجِ » التَّاجِرِ ؛
لَنَعْرِفَ مَا كَانَ مِنْ أَحْلَامِهِ الْمَزْمُجَةِ لَيْلَةَ عِيدِ الْمِيلَادِ .

(١) وَجْه . (٢) جَمْعُ قَدَحٍ وَهُوَ مَا يَشْرَبُ فِيهِ . (٣) غَنَاء .

رَأَى التَّاجِرُ فِي نَوْمِهِ أَنَّ رُوحَ الْعِيدِ أَرْتَه مِنْزِلَ كَاتِبِهِ ،
 فَرَمَقَ^(١) الْأَطْفَالَ جَائِينَ^(٢) بِالْقُرْبِ مِنَ النَّارِ بَعْدَ الْفَرَاغِ مِنَ
 الطَّعَامِ ، وَهُمْ يَشْرَبُونَ نَحْبَهُ ، كَمَا سَمِعَ غِنَاءَهُمْ ، لَا سِيَّمَا أُغْنِيَةَ^(٣) « تِم »
 الرِّقِيقَةِ الْعَذْبَةِ . وَفِي أَحْلَامِهِ الْمَرْعِجَةِ تِلْكَ اللَّيْلَةَ قَدْ طَافَتْ رُوحُ
 التَّاجِرِ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ مُيُوتِ الْفُقَرَاءِ ، فَشَاهَدَتْ أَرْوَاحًا مُتَبَايِنَةً لِمُخْتَلَفِ
 طَبَقَاتِ النَّاسِ . وَتَوَّأَ عَادَتْ بِهِ ثَانِيَةً إِلَى كُوخِ كَاتِبِهِ الْفَقِيرِ « بوب » ،
 فَوَجَدَ زَوْجَهُ جَالِسَةً بِجَانِبِ الْمَائِدَةِ ، تَقُومُ بِبَعْضِ الْأَعْمَالِ الْيَدَوِيَّةِ ،
 وَالدَّمُوعُ تُحْدِرُ عَلَى وَجْهِهَا تَنْعَى حَظَّهَا وَتَقُولُ : « إِنَّ كَثْرَةَ الْعَمَلِ
 بِالْإِزْرَةِ أَضَرَّتْ بَعِثَنِي » . وَرَأَى الْأَطْفَالَ جَالِسِينَ وَالْوُجُوهَ^(٤) مُنْجِمَةً
 عَلَى رُءُوسِهِمْ ، وَالْحُزْنَ يُعَالُو وَجُوهَهُمْ ، وَالذَّلَّةُ وَالْمُسْكِنَةُ تَمْلِكَانِ
 شِعَابَ أَنْفُسِهِمْ . فَجَالَ يَبْصُرُهُ فِيهِمْ لِيَنْظُرَ « تِم » ، فَلَمْ يَعْثُرْ عَلَيْهِ
 بَيْنَهُمْ ؛ إِذْ ذَهَبَ إِلَى فِرَاشِهِ . ثُمَّ شَاهَدَ كَاتِبَهُ فِي حَجَرَةِ نَوْمِهِ
 وَقَدْ مَالَ بِرَأْسِهِ كَثِيبًا حَزِينًا ، كَاسَفَ الْبَالِ ، يُنْخَفِي وَجْهَهُ بَيْنَ
 كَفَّيْهِ ، بِجَانِبِ سَرِيرِ صَغِيرٍ تَوَسَّدَهُ طِفْلٌ وَدِيعٌ ، يَلْبَسُ مَلَابِيسَ
 بَيَاضَ ، تَرْعَاهُ مَلَائِكَةُ السَّمَاءِ .

(١) نَظَرَ إِلَيْهِمْ . (٢) جَالِسِينَ . (٣) شِدَّةُ الْحُزَنِ .

أخذ الأبُ يبكي وقطراتُ الدمعِ تذرِفُ^(١) من مآقيه ويتفوه:
« طفلي الوداعَ الصغيرَ ! ولدى الهادئ الجميل ! قد افتقدتُك ضحيةً
فقري ، ولو كنتُ ثرياً^(٢) لعرَضْتُك على الطبيب . » ثم انحنى
على ابنه ، وطبّع على وجهه الباسمِ قُبلةَ التاكلِ الحزينِ ، قُبلةَ
الوداعِ الأخيرِ . وغادرَ الحجرةَ إلى الطَبقةِ السفلى ، لِيُحضِرَ بعضَ
الأزهارِ المقدَّسةِ التي لا تزالُ في غرفةِ الطعامِ المتواضعةِ .

بعد ذلك أمسك بقبَعَتِهِ وخرج حزينا قد ملأه الأسى ، وهو
يرنو^(٣) إلى هراوة صغيرة وُضِعَتْ في أحدِ أركانِ البيتِ كان
ينحنى عليها « تم » الكسيحُ ، وأغلق البابَ خلفَهُ .

رأى التاجرُ ذلك كله في حلمه ، وهو يغطُّ في نومه ، بل
شاهداً كثراً وأروعاً ؛ من رؤى^(٤) تنفطر منها القلوبُ ، وتنصدعُ
لها الأفتدةُ ؛ فقد أَرَتْهُ الرُّوحُ في رحلتها كلَّ ما يمكنُ أن يُرى
في بيوتِ المُعْدِمِينَ المُقْلِينَ^(٥) ليلةَ العيدِ .

وقد خرج التاجرُ من هذه المعركة الداميةِ شخصاً جديداً ،
مختلفاً كلَّ الاختلافِ ؛ إذ استيقظ وقد تغيَّرتْ حالُهُ ،

(١) تسيل (٢) غنيا (٣) ينظر إلى (٤) جمع رؤيا (٥) الفقراء

وتبدلت نظرتُه الأولى في الحياة ، وأضحى رجلاً آخرَ يشعرُ بما لم يشعر به من قبل ، ويرى نفسه قد ابتدأت عهداً جديداً لم يكن لها بالألمس ؛ فقد أصبحَ لديها شعورٌ كريمٌ ، وإنسانيةٌ عاليةٌ ، وإحساسٌ نبيلٌ . تلك حياةُ التاجر الثانيةُ التي هبطت عليه من السماء ، فقال لنفسه : « لماذا أجدني اليومَ نَشِيطاً ، كقديسٍ طاهرٍ ، مرحاً كتلميذِ المدرسةِ . أرجو عيداً سعيداً لكلِّ فردٍ ، وعاماً سعيداً لجميعِ العالمِ . »

وبعد برهة^(١) اشترى ديكاً رومياً سميناً ، لم يستطع الخادمُ حمله ، فأرسله في عجلةٍ هديةً لمنزلِ « تيم » الكسيح .

شاطرَ الأبُ أبناءه جذلهم^(٢) يوم العيد . ولما أصبح صباحُ اليوم التالي ذهبَ إلى مكتبه متأخراً بضعَ دقائق عن مواعده ، فانتابته^(٣) الهموم ، واستولى عليه النغمُ ، وخشى بائسٌ « سكرُوج » وقوارصَ كلمه اللاذعة . ولكن ما إن وطئت قدماه أرضَ المكتب ، حتى وجدَ سيده متقمصاً^(٤) شخصيةً أخرى ، فأصبح لطيفاً في معاملته ، رفيقاً في حديثه ، قامَ إليه وقابلهُ بسيل من

(١) مدة من الزمان (٢) فرحهم . (٣) انتابته : أتته مرةً بعد أخرى

(٤) متخذاً له ، متحلاً

الإحساس الرقيق ، والشعور الحى ، ووَعَدَه أَنه سيرفع راتبه ،
وسأله بإخلاص عن صحة « تيم » ، ولده الصغير . ثم تَرَكَهُ وهو
يقول : « لَا تَنْسَ » يا بُوبُ « أَنْ تُشْعِلَ نَارًا قَوِيَّةً فِي حَجَرِكَ
قَبْلَ بَدْءِ الْعَمَلِ ، حَتَّى لَا يَضُرَّكَ الْبَرْدُ . »

حَارَ « بوب » فى أمر سيده ، وانقلابه الفجائى ، من رقة
بَعْدَ غِلْظَةٍ ، وَلِينٍ بَعْدَ شِدَّةٍ ، وَرَحْمَةٍ بَعْدَ قَسْوَةٍ ، وَجُودٍ بَعْدَ
بُخْلِ ؛ فَلَمْ يَمْتَقِدْ مَا شَهِدَتْهُ عَيْنُهُ ، وَسَمِعَتْهُ أُذُنُهُ ، وَلَكِنَّ الْأَيَّامَ
حَقَّقَتْ ذَلِكَ . فَوَفَى الرَّجُلُ بَوَعْدِهِ ، وَعَطَفَ عَلَى كَاتِبِهِ ، وَزَادَ
رَاتِبَهُ . فَانْقَلَبَ حَالُ أُسْرَتِهِ مِنْ بُؤْسٍ وَفَاقَةٍ ، إِلَى عِزٍّ وَسَعَادَةٍ ؛
وَمِنْ فَقْرٍ وَحُزْمَانٍ ، إِلَى نَعِيمٍ وَيَسَارٍ . وَلَمْ يَمْتَ « تيم » كَمَا كَانَ
يَحْلُمُ أَبُوهُ ، بَلْ بَقِيَ يَتَمَتَّعُ بِالْحَيَاةِ ، نَاعِمًا فِي ظِلِّ وَالِدَيْهِ ، سَعِيدًا
بِحَوَارِ إِخْوَتِهِ — بَعْدَ أَنْ أُرْسِلَ إِلَى الطَّيِّبِ ، فَفَحَصَ عَنِ الدَّاءِ
وَوَصَفَ الدَّوَاءَ .

عادت إلى الطَّفْلِ قُوَّتُهُ ، فَأُضْحَى قُوَى الْبَنِيَّةِ ، مُنْشَرِحَ الصَّدْرِ ،
يَرْتَعُ فِي مُجْبُوحةِ الْعَيْشِ الرَّغْدِ^(١) ، وَيَتَفَقَّأُ ظِلَالَ الْحَيَاةِ الْهَنِئَةِ ،

(١) الواسع الطيب .

تَخَفُّقُ عَلَى أَسْرَتِهِ السَّعِيدَةِ أَجْنَحَةُ الْحُرِّيَّةِ الْمُطْلَقَةِ بَعْدَ أَنْ طَوَّقَهَا
الذُّلُّ بِقَيُودِهِ وَأَغْلَالَهُ رَدَحًا^(١) مِنَ الزَّمَنِ . وَلَقَدْ تَغَيَّرَتْ حَيَاةُ هَذِهِ
الْأُسْرَةِ فِي كَنَفِ الرَّجُلِ الْجَدِيدِ ؛ رَجُلِ الْمُرُوءَةِ وَالْإِحْسَانِ
السَّيِّدِ « سَكْرُوجَ » الَّذِي أَحَبَّ « تَمَ » حُبًّا جَمًّا ، وَتَبَنَّاهُ فَبَادَلَهُ
رِسَالَةَ الْأَبُوَّةِ الْحَقَّةِ .

وَهَكَذَا تَغَيَّرَتْ طَبِيعَةُ السَّيِّدِ « سَكْرُوجَ » فَأَصْبَحَ إِنْسَانًا
كَرِيمًا ، يُحِبُّ الْفُقَرَاءَ وَالْمَسَاكِينَ ، وَيَعْطِفُ عَلَى الْبَائِسِينَ
وَالْمُعْزِزِينَ^(٢) ، مُنْذُ ذَلِكَ الْحَلَمِ الْمُرْعِجِ لَيْلَةَ الْعِيدِ .

(١) رَدَحًا : طَوِيلًا مِنَ الزَّمَنِ . (٢) الْفُقَرَاءُ .

لا يضيعُ جميلُ أينما وُضع

تشارلز ديكنز

ترجمة : محمد عطية الإبراهيمي



مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

مخاطرة « پيب »

أو

لا يَضِيعُ جَمِيلٌ أَيْنَمَا وُضِعَ

نودى « فِيلِبُّ پِرَب » باسم « پيب » ، واشتهرَ بين أترابه^(١) بهذا الاسم . ولم يكن يعرف من أمر أبيه وأمه وإخوته الصغار سوى أسمائهم التي رآها منقوشةً على لوحات المقابر في مدفن الكنيسة . وقد عاش في كنف أخته الكبرى ، تحوطه برعايتها ، وتُعنَى بشؤونهِ مع زوج طيب القلب ، رقيق العاطفة ، نبيل الإحساس . وكان قيناً^(٢) يدعى « جوجر جري » في قرية تبعدُ عن البحر عشرين ميلاً . وعلى الرغم من حُسن خلقه ، ولين طباعه كانت زوجته غليظة القلب ، جافية الطبع ، تُسيء معاملته ، وتقسو على أخيها .

وفي أصيل^(٣) يوم اشتدَّ برده خرج « پيب » — ولم يتجاوز

(١) الترب بالكسر : اللدة ، ومن وُلد معك (٢) حدادا .

(٣) الأصيل : الوقت بعد العصر إلى المغرب

السابعة من عمره — لزيارة قبر والدته وإخوته ، وأخذَ يُحاولُ
تعرُّفَ تلك النقوش المحفورة على رموس^(١) أسرته ، وسرعان
ما غربت الشمس ، وأقبلَ الليلُ يَمْحوُ آيةَ النهارِ ، فشعرَ بالوحدة ،
واستولى عليه الفزعُ من رهبة المكان ، فبكى وعلا صوته
بالنحيب^(٢) ، فتصدى له رجلٌ — لم تقَعْ عليه العينُ قبلُ من بينِ
الأجداث^(٣) — بِشِعْ المنظرِ ، مُصَفِّدًا^(٤) بالأغلال ، يرتدى لباسَ
السَّجْناءِ . وقد لاحَتْ عليه أماراتُ الشَّقاءِ ، وعلاماتُ البؤسِ
والهوانِ ، ترتعدُ فرائضه^(٥) من شدة الزَّمْهِيرِ ، وتضطكُ أسنانه
من قسوةِ القرِّ ، وقال له بصوتٍ مُخيفٍ : « قِفْ مكانك أيها
الغلامُ الصغير ، ولا ترفعْ صوتك ، وإلا . . . » ثم خطا نحوه
والشررُ يتطايرُ من عينيه ، ومِرْجَلُ الغضبِ يَغْلِي في صدره ،
وزأَرَ بصوتٍ مُخيفٍ كأنه الرُّعدُ حينما وضعَ أصابعه في عُنقه ،
فصاح « ييب » خائفًا وجِلًّا : « بالله لا تقتلني يا سيدي ! »
فسأله الرجلُ : « أخبرني ما اسمك ؟ أسرع ! » فأجابه الصبيُّ :

(١) الرَّمْس : تراب القبر (٢) النحيب : رفع الصوت بالبكاء

(٣) الجدث : القبر (٤) مقيد وموثق بالقيود (٥) الفريضة لحمة بين

الجنب والكف لا تزال ترتعد من الدابة

اسمى « ييب » . « فلم يتبين الرجلُ ما قاله الصبيُّ ، وَحَمَلَقَ^(١) في وجهه قائلاً : « اِرْفَعْ صَوْتَكَ ! » فرفع صوته والرَّوْعُ يَمْلَأُ فَوَادَه . فقال الرجلُ : « أين تسكنُ ؟ وفي أيِّ مكانٍ تعيشُ ؟ » فأشار « ييب » إلى قريةٍ تبعدُ ميلاً أو أكثرَ عن الكنيسةِ .

صَوَّبَ^(٢) الرجلُ نظره نحوَ القريةِ بُرْهَةً^(٣) ولم يلبثُ أن توجَّهَ إليه ، وأخذ يفتشُ جيوبه ، فلم يجد فيها سوى قطعة من الخبزِ النَقَمِها^(٤) بنهمٍ^(٥) وشره ، وأخذ يُتمِّمُ عباراتِ شعرِ الصبيِّ منها أن لا مَنَاصَ من قتله ، فتضرَّع^(٥) إليه أن يرحمه ويتركه إلى حيث شاء ، فتوقَّفَ الرجلُ وسأله : أين أمُّك ؟

فأجاب « ييب » : « أمِّي تُوفِّيَتْ وَجُثْمَانُهَا فِي هَذِهِ الْمَقْبَرَةِ . » وأشار إليها . ففكر الشقيُّ في الهربِ وفي تركه . ثم وقف ونظر حوله وسأله : « أهذا أبوك المدفونُ بجانب أمِّك ؟ »

فقال ييب : « نعم يا سيِّدى ! » فطأ طأ الرجلُ رأسه ، وقال مُتَعَجِّباً : « مع من تعيشُ حينئذٍ إذا خَلَيْتُ سَبِيلَكَ وتركْتُكَ لتعيشَ ؟ »

(١) حَمَلَقَ : فتح عينه ونظر نظراً شديداً (٢) اتجه بنظره (٣) مدة من الزمان
(٤) النَّهَمُ : الإفراط الشهوة في الطعام (٥) ابتهل

يببُ : « أَعِيشْ مَعَ أُخْتِي قَرِينَةَ الْحَدَّادِ . » فَارْتَسَمَتْ عَلَى وَجْهِهِ دَهْشَةٌ ، وَنَظَرَ إِلَى رَجُلَيْهِ الْمُكَبَّلَتَيْنِ ^(١) بِالْأَصْفَادِ ^(٢) ، ثُمَّ قَبَضَ عَلَى الطِّفْلِ وَهُوَ يَتَرَجَعُ إِلَى الْوَرَاءِ فَرَقًا ^(٣) يَحَاوِلُ أَنْ يَفِرَّ مِنْهُ ، وَحَمَلَقَ ^(٤) فِيهِ قَائِلًا : « الْآنَ مَا زِلْتُ أَفَكِّرُ ؛ هَلْ أَدْعُكَ حَيًّا أَمْ لَا ؟ أَتَعْرِفُ الْمِبْرَدَ ؟ . »

يبب : « نَعَمْ »

الرجلُ : « وَهَلْ تَعْرِفُ الطَّعَامَ ؟ »

يبب : « نَعَمْ »

الرجل : « يَجِبُ أَنْ تُحْضِرَ لِي مِبْرَدًا وَطَعَامًا . »

دَارَ هَذَا الْحَدِيثُ وَهُوَ قَابِضٌ عَلَى (يِبْب) الْمُسْكِينِ حَتَّى كَادَ يُغْمَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : « إِيَّاكَ وَالتَّهَاوْنَ فِيمَا طَلَبْتُ . غَدًا فِي الصَّبَاحِ الْمُبَكَّرِ أُرَاكَ حَامِلًا مَا أُرَدْتُ . وَإِيَّاكَ أَنْ تُخْبِرَ أَحَدًا بِشَأْنِي أَوْ تُعْلِمَهُ مَكَانِي . سَوْفَ أَتْرُكَكَ حَيًّا إِذَا نَفَذْتُ رَغْبَتِي . » فَوَعَدَهُ « يِبْب » بِشَرْفِهِ أَنْ يُجِيبَ رَغْبَتَهُ ، وَيَكْتُمُ سِرَّهُ . حِينَئِذٍ خَلَّى الرَّجُلُ سَبِيلَهُ قَائِلًا : « تَذَكَّرْ مَا دَعَوْتُكَ إِلَيْهِ ، وَلَا تَنْسَ مَا تَعَاهَدْتَ بِهِ . إِذْهَبْ إِلَى أَهْلِكَ آمِنًا تَصْجُبُكَ الْعَنَاءَةُ الْإِلَهِيَّةُ . »

(١) المُقْبَدَتَيْنِ (٢) القيود ، مفردهما صَفَد (٣) خوفًا (٤) فتح عينيه ونظرًا شديداً .

فِيَّاه «يَيْب» تَحِيَّةُ الْمَسَاءِ، وَأَسْرَعَ فِي عَدْوِهِ ^(١) خَافَةً أَنْ يُغَيَّرَ
رَأْيُهُ فَيُلْحَقَهُ وَيُوقَعَ بِهِ الْأَذَى . وَلَكِنْ الرَّجُلَ قَالَ : « يَكْفِي ذَلِكَ . »
وَقَدْ سَرَّحَ طَرْفَهُ ^(٢) فِي الْفَضَاءِ حِينَ اشْتَدَّ الْبَرْدُ ، وَتَرَكَ الصَّقِيعَ عَلَى
وَجْهِ الْأَرْضِ ، وَتَمَنَّى لَوْ كَانَ صِفْدَةً تَحْتَمِي بِالْأَعْشَابِ ، أَوْ جُرْدًا ^(٣)
يَأْوِي إِلَى الْأَجْحَارِ .

وَصَلَ « يَيْب » إِلَى الْمَنْزِلِ عَلَى عَجَلٍ ، وَصَعِدَ فِي السَّلَمِ إِلَى
حُجْرَتِهِ ، فَوَجَدَ صِهْرَهُ جَالِسًا يَنْتَظِرُهُ ، فَأَخْبَرَهُ بِأَنْ أُخْتُه قَدْ خَرَجَتْ
بَاحِثَةً عَنْهُ وَالْعَصَا فِي يَدِهَا ؛ لِتُعَاقِبَهُ جَزَاءَ تَأَخُّرِهِ إِلَى غَسَقِ ^(٤) اللَّيْلِ .
فَوَقَعَ هَذَا النَّبَأُ فِي نَفْسِهِ مَوْقِعَ الْأَلَمِ ، وَوَقَفَ فِي جَانِبٍ مِنَ
الْعُرْفَةِ مَشْدُوهاً ^(٥) ، حَتَّى أَتَتْ تُصَعَّدُ زَفَرَاتِ الْغَضَبِ ، وَمَا إِنْ وَقَعَ
نَظَرُهَا عَلَيْهِ حَتَّى أَقْبَلَتْ عَلَيْهِ بِالْعَصَا تُذِيقُهُ مَرَارَتَهَا .

أَعَدَّتِ الزَّوْجَةُ (الشَّايَ) ، وَدَعَتْ زَوْجَهَا وَأَخَاهَا لَشُرْبِهِ ، ثُمَّ
تَنَاولَتْ قِطْعَةً كَبِيرَةً مِنَ الْخُبْزِ وَالزُّبْدِ قَسَمَتْهَا بَيْنَهُمَا ، فَانْتَهَزَ
« يَيْب » الْفُرْصَةَ وَأَخْفَى نَصِيبَهُ لِيَقْدِمَهُ لِلصَّبِيِّ وَفَاءً بِوَعْدِهِ ، وَبَرًّا
بِعَهْدِهِ . ظَنَّ الزَّوْجُ أَنْهُ قَدْ التَّقَمَّ الْخُبْزَ دَفْعَةً وَاحِدَةً ، فَاسْدَى إِلَيْهِ

(١) جَرِيه (٢) عَيْنَه (٣) الْجُرْدُ : ضَرْبٌ مِنَ الْفَأْرِ ، وَالْجَمْعُ جِرْدَانٌ
(٤) أَوَّلُ ظِلَّةِ اللَّيْلِ . (٥) حَاطَرًا مَدْهُوشًا .

النَّصِيحَ قَائِلًا: « صَغَّرَ اللَّقْمَةَ يَا « يَب » ، وَلَا تُسْرِعْ فِي الْأَكْلِ ،
وَامْضُغِ الطَّعَامَ جَيِّدًا ، وَإِلَّا وَقَعْتَ فِي الضَّرَرِ ، وَتَعَبْتَ مَعِدَتَكَ .
أَنْتِ تَعْلَمُ مَغْبَةَ^(١) الْإِسْرَاعِ فِي الْأَكْلِ وَعَدَمِ الْمَضْغِ جَيِّدًا ، كَمَا
تَعْرِفُ مَقْدَارَ حُبِّي وَإِخْلَاصِي لَكَ . لَقَدْ مَحَضْتُكَ^(٢) النَّصِيحَةَ . »

فصاحت أختُه « هل كان يبتلعُ طعامَه ؟ »

فقال (جو) : « حينما كنتُ صغيرًا كنتُ أزدرد^(٣) الطعامَ
مثلَكَ ازدِرَادًا ، وَإِنَّكَ لَا تَزَالُ أَقْلٌ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الْأَطْفَالِ فِي
التَّعَامِ الطَّعَامِ . »

فقامتِ الزَّوْجُ وَهِيَ تَكَادُ تَتَمَيَّزُ^(٤) مِنَ الْغَيْظِ ، وَنَفْسُهَا تَغْلِي
غَضَبًا ، وَقَبَضَتْ عَلَى أَخِيهَا ، وَجَذَبَتْهُ مِنْ شَعْرِهِ ، وَانْهَلَتْ عَلَيْهِ
تَعْنِيفًا وَتَوْبِيخًا . كَانَ ذَلِكَ فِي لَيْلَةِ الْعِيدِ — وَهِيَ اللَّيْلَةُ الَّتِي هُمْ فِيهَا
« يَب » بِالْوَفَاءِ بِوَعْدِهِ — فَكَانَ عَلَيْهِ أَنْ يُحَرِّكَ حَلَوَى الْعِيدِ بَيْنَ
السَّاعَةِ السَّابِعَةِ وَالثَّامِنَةِ ، وَلَكِنَّهُ وَجَدَ أَنَّ قِطْعَةَ الْخُبْزِ تَحُولُ بَيْنَهُ
وَبَيْنَ الْمِضِيِّ فِي سَبِيلِهِ ، فَخَرَجَ خُلْسَةً ، وَذَهَبَ إِلَى حَجَرَةِ نَوْمِهِ
نَجْبًا الْقِطْعَةَ فِيهَا .

(١) عاقبة (٢) صدقت (٣) أبتلع (٤) تنقطع

جاء ميعادُ النومِ فذهب « ييب » إلى فراشه ، علَّ طيفَ الكَرَى^(١) يمرُّ بأجفانه ، ولكنَّ أنَّى له ذلك وهو مُبلبلُ الخاطر ، مُشَتَّتُ الفكرِ ، كثيرُ الهواجسِ ، شاردُ اللَّبِّ مما عساه أن يكونَ من أمرِ نزولِ المقبرةِ المكبَّلِ بالحديدِ . وما زال كذلك حتى طلعَ الفجرُ ، فانسَلَّ من فراشه ، وغادره بهدوءٍ ورفقٍ وهو يتخيَّل أن كلَّ شيءٍ بالمنزلِ يُحدِّقُ^(٢) إليه بالنظرِ ويقولُ : « أوقفوا هذا اللصَّ . استيقظي يا (مِسز چو) لترى ما يفعله أخوكِ . » وقبل أن يرتدَّ طرفه أخذ « ييب » قطعةً كبيرةً من الخُبزِ ، وأخرى من الجُبَنِ ، وثالثةً من اللحمِ ، وبعضاً من فطيرٍ مخشُوٍّ باللحمِ ممَّا جهَّزته أخته لضيوفها ، وغير ذلك ممَّا لَدَّ طعمه ، وطابَ مذاقه من طعامٍ شهى ، وشرابٍ لذيذٍ . ثم أتى بالميزِدِ ، وحملَ الكُلَّ ، وسارَ في طريقه إلى حيثُ ينتظرُ ذلك السَّجينُ الهاربُ .

خرج « ييب » في الصباح الباكر ، حيثُ البردُ قارسٌ ، والطريقُ وغرَّةٌ ، والجوُّ ملبَّدٌ بالضبابِ الكثيفِ ، وخيالُ الرجلِ لا يبرحُ فؤاده ؛ فقد ظنَّ أن كلَّ الحيواناتِ التي مرَّ بها تنظرُ إليه ، وكانَ لسانُ حالها يقولُ : « أين تذهبُ أيها اللصُّ الصغيرُ ؟ »

(١) النعاس (٢) يشدد النظر إليه .

سَارَ حَتَّى اعْتَرَضَهُ نَوْرُ أَسْوَدُ اللَّوْنِ، مُخَطَّطُ الْإِهَابِ^(١)، تَمَّ نَظْرَاتُهُ
 عَنْ رِيَّةٍ فِي أَمْرِ الصَّبِيِّ. فَارْتَاعَ « يَيْب » وَمَلَأَ الْخَوْفُ قَلْبَهُ ،
 فَتَقَدَّمَ إِلَى الثَّوْرِ قَائِلًا: « إِنَّ هَذَا الْعَمَلَ خَارِجٌ عَنْ إِرَادَتِي ، وَلَمْ آخِذْ
 ذَلِكَ لِنَفْسِي . » فَأَخْنَى الثَّوْرُ رَأْسَهُ، وَزَفَرَ مِنْ أَنْفِهِ سَحَابًا كَالدُّخَانِ ،
 ثُمَّ اخْتَقَى وَهُوَ يُحَرِّكُ ذَنْبَهُ .

وَصَلَ « يَيْب » إِلَى الْمَقْبَرَةِ فَوَجَدَ الرَّجُلَ يَنْتَظِرُهُ عَلَى أَحْرٍ
 مِنَ الْجَمْرِ ، وَالْجُوعُ كَادَ يَذِيقُهُ الْمَوْتَ ؛ فَقَدَّمَ إِلَيْهِ الطَّعَامَ ،
 وَمَا لَبَثَ أَنْ تَنَاوَلَهُ بِشَرِّهِ وَنَهَمَ اسْتَرْعَى نَظَرَ « يَيْب » فَقَالَ :
 « إِنِّي مُسْرُورٌ لِأَنْكَلِكَ بِشَهِيَّةٍ » .

الرَّجُلُ : « شُكْرًا لَكَ يَا بَنِي » ؛ فَقَدْ أَدْرَكْتَنِي بَعْدَ يَأْسٍ ،
 وَأَنْقَذْتَنِي مِنَ الْمَوْتِ . »

وَلَمَّا فَرَغَ الرَّجُلُ مِنْ طَعَامِهِ، تَنَاوَلَ الْمِبْرَدَ ، وَأَخَذَ يَبْرُدُ أَغْلَالَهُ^(٢) ،
 وَلَكِنْ « يَيْب » خَشِيَ التَّأَخُّرَ فِي الْعُودَةِ ، فَأَسْلَمَ سَاقِيهِ لِلرَّيْحِ ،
 وَعَادَ أَسْرَعَ مِنَ الْبَرْقِ الْخَاطِفِ .

أَخَذَ « يَيْب » يُفَسِّكِرُ فِيمَا أَلَمَ بِهِ مِنْذُ الصَّبَاحِ ، تَقَرَّعُ أُذُنَيْهِ فِي

(١) الْجِلْدُ مَا لَمْ يَدْبَغْ (٢) قَبُودُهُ .

كل لحظة أسئلةُ أخته عن الفطير الذي أخذه ، ولكنها كانت في شغلٍ عنه بإعدادِ مائدةِ الغداءِ لبعضِ الزائرين ؛ فقد هيأت لهم من اللحمِ المملحِ ، وبعضِ الحُضَرِ ، والدجاجِ السمينِ والمَصِيدَةِ^(١) اللذيذة — طعاماً شهياً .

تناول الزائرون طعامهم والفرح يغمُرهم ، وأماراتُ البشرِ تعلو وجوههم . وقبيلَ نهايةِ الطعامِ شعرَ « ييب » بأنه قد حانَ وقتُ افتتاحِ أمره ؛ فقد قالت أخته في رقّةٍ ورشاقةٍ لضيوفها : « سأخضر لكم هديةً لذيذةً جميلةً هي فطيرةٌ محشوّنةٌ باللحم . » فلم ينتظر ليُسمعَ من أخته أكثرَ من ذلك ؛ بل غادرَ المائدةَ خفيةً إلى البابِ ، فقابلته جماعةٌ من الشرطِ ، خرجت للبحثِ عن مجرمين من الأشقياء ؛ فرأتهم تحتَ جُنُجِ الليلِ من عنتِ^(٢) السجنِ وقسوةِ الحياةِ فيه ، وانقطاعِ السجينِ عن العالمِ . وقد أمسكَ أحدهم بيده زوجاً من الأغلالِ الحديديةِ أفسدتهما هذان الشقيان . وبينما كانت المضيفةُ ذاهبةً لتخضرَ هديتها الجميلةَ ، سمعتَ جلبةً وضوضاءً أنسها ما ذهبت إليه ، فاتجهت شطرَ^(٣)

(١) سميت بذلك لأنها تمصّد أي تقلّب وتلوى

(٢) إثم ، عذاب (٣) نحو الباب .

الباب ، فإذا الشَّرَطُ واقفون مع « ييب » ، فأسرعت نحوهم
وسألتهم : « ماخطبُكم »^(١) ؟ فأجابها أحدُهم : « إِننا نريدُ « جُو »
لإصلاح القيدِينِ . « فعادت إلى ضيوفها ذاهلةً حَيْرَى^(٢) ،
لم تحضر لهم ما وعدتهم به .

خرج « جُو » إلى الشَّرَطِ^(٣) ، فأصلح القيدِينِ ، وذهب في
صحبتهُم مع أحدِ ضيوفه للبحثِ عن هذين المجرمينِ ، وقد حملَ
معه « ييب » على ظهره .

همس « ييب » في أذنِ « جُو » : « إِنني آملُ يا « جُو » ألاَّ نَجِدُهُما .
فأجاب : « إِنني سأمنحك (شِلْناً) مكافأةً إذا كانا قد قطعاً
أغلاهما وفرّا . «

ولكن سرعانَ ما قبضَ عليهما الشرطُ ، وكان أحدهما ذلك
الشقي التعس الذي عرفه « ييب » . فلم يكذِّد يقع نظره عليه ،
حتى هزَّ الطفلُ رأسه محاولاً أن يفهمه أنه لم يقل شيئاً ، ولم يَبْحِ^(٤)
إليهم بسرّه ، ولكنَّ المجرمَ أخبرَ الشرطى بأنّه يريدُ الإقرارَ بشيءٍ
قبلَ أن يقتادوه إلى السَّجْنِ ليمنعَ الشبهةَ عن غيره ، فقال :

(١) ما أمركم ؟ (٢) حائرة (٣) الشرطُ جمع ، مفردة شُرْطَة وشُرْطَى
(٤) باح بسرّه : أظهره ، وبابه قال .

« إِنِّي فِي اللَّيْلَةِ الْمَاضِيَةِ قَدْ سَطَوْتُ عَلَى مَنْزِلِ الْحَدَّادِ ،
فَسَرَقْتُ مِنْهُ بَعْضَ الطَّعَامِ . » وَيَبَيِّنُ الْأَشْيَاءَ الَّتِي ادَّعَى أَنَّهُ سَرَقَهَا .
وَالْحَقُّ أَنَّ الْغَلَامَ أَحْضَرَهَا لَهُ .

فَسَأَلَ الشَّرْطِيُّ : « هَلْ فَقَدْتَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ أَيُّهَا الْحَدَّادُ ؟ »
قَالَ : « نَعَمْ ، إِنْ زَوْجِي فَقَدَتْ ذَلِكَ ؛ فَقَدْ كَانَتْ تَبْحَثُ عَنْ
الْفَطِيرَةِ قَبْلَ مَجِيئِكَ فَلَمْ تَجِدْهَا . أَلَيْسَ كَذَلِكَ يَا « يَدَب » . »
فَقَالَ الْمَجْرُمُ وَقَدْ نَظَرَ إِلَى « چو » : « إِذَا أَنْتَ الْحَدَّادُ . أَنَا
أَسِيفٌ لِأَنِّي أَقُولُ : إِنِّي قَدْ اضْطَرَرْتُ إِلَى أَكْلِ فَطِيرَتِكَ . »
فَقَالَ (چو) : « اللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي مُسْرُورٌ بِأَكْلِكَ إِيَّاهَا ، وَمَا كُنْتُ
أَوْدُ أَنْ تَمُوتَ جَوْعًا مِنْ أَجْلِ فَطِيرَةٍ أَيُّهَا الرَّجُلُ الْمُسْكِينُ الْبَائِسُ .
ثُمَّ اقْتَادَ الشَّرْطُ السَّجِينَ ، وَأَعَادُوهُ إِلَى سِجْنِهِ ، وَحَمَلَ « چو »
« يَدَب » ، وَرَجَعَ إِلَى الْمَنْزِلِ .

تَوَالَتِ السَّنُونَ ، وَتَتَابَعَتِ الْأَعْوَامُ ، وَحَيَاةُ « يَدَب » مُفْعَمَةٌ^(١)
بِالْحَوَادِثِ ، مَمْلُوءَةٌ بِالْمَخَاطِرِ لَوْلَا أَنَّ الْعَنَاءَةَ الْإِلَهِيَّةَ كَفَلَتْهُ حَتَّى صَارَ
شَابًّا يَافِعًا ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ صَدِيقٌ مُجْهولٌ — وَهُوَ لَا يَزَالُ فِي مِيعَةِ
الصَّبَا^(٢) — نَقُودًا لِيُنْفِقَهَا فِي تَعْلِيمِهِ ؛ كَيْ يَكُونَ رَجُلًا مُتَّقِفًا .

(١) مملوءة (٢) أول الصبا

استمرت النقود تردُّ إليه دون أن يَعْرِفَ لها مصدراً ، أويتبينَ لها موردا . فغمَرته الدهشةُ ومن معه ، وحسبَ أولَ الأمرِ أنها آتيةٌ من قِبَلِ سَيِّدَةٍ عَجُوزٍ صَدِيقَةٍ ، ولكن اتَّضحَ خطأُ زعمه عند ما جاوزَ العشرين عاماً من عمره ؛ فقد انجَلَت الحقيقة ، وانكشفَ السُّرُّ ، فعرفَ أنَّه ذلك الرجلُ المسكينُ الذي أنزلَ الرُّعبَ^(١) بين حَنَائِيا فؤاده في تلكَ اللَّيلةِ القارسِ برْدُها ، الحالكِ سوادُها ، ليلة عيد الميلادِ .

قال «بيب» : « ذاتَ ليلةٍ شرَّعتُ في تركِ كتابي على المكتبِ ، وكانت الساعةُ الحاديةَ عشرةَ مساءً . فسمِعْتُ فجأةً وقعَ أقدامٍ على درجاتِ السلمِ ، فمرَّ بخاطري أنها لأختي . ولا أدري كيف خطرَ ذلك بيالي . ثم أرهَفْتُ^(٢) أُذُنِي ، فإذا الخطواتُ تتعَثَّرُ . تَذَكَّرْتُ أن نورَ السلمِ مُطفَأٌ ، فأخذتُ مصباحَ المطالعةِ ، وخرجتُ أُضيءُ للصَّاعدِ وسطَ هذا الهدوءِ الشاملِ ، وهذه الطَّبيعةِ الصامتةِ . وسرعانَ ما توقَّفَ عن الصُّعودِ فسألتُ :

« أهناك رجلٌ على السلمِ ؟ »

فأجابَ صوتٌ في الظَّلامِ : « نعم »

(١) الفزع ، الخوف (٢) أصفيت كل الإصغاء

يُيب : « آيَة طَبَقَة تَرِيد ؟ »

الرجلُ : « الطَبَقَة العَليَا أيها السَيِّد النَّابِه (يُيب) .

يُيب : « هَذَا اسْمِي . أَحَدْتُ شَيْءٌ ؟ »

الرجلُ : « كَلَّا ! لَمْ يَحْدُثْ شَيْءٌ . »

« ابْتَدَأَ الرَّجُلُ يُتِمُّ صُعُودَهُ ، وَأَنَا فِي انْتِظَارِهِ بِمَصْبَاحِي الضَّئِيلِ
الَّذِي لَا يَصْلُحُ إِلَّا لِلْقِرَاءَةِ . فَشَاهَدْتُ عَنْ كَثْبٍ ^(١) رَجُلًا غَرِيبًا ،
يَبْدُو عَلَيْهِ التَّأَثُّرُ لِرُؤْيَايَ ، وَالسَّرُورُ بِلِقَائِي .

تَحَرَّكَتُ نَحْوَهُ ، وَتَحَرَّكَتُ نَحْوِي ؛ فَإِذَا هُوَ يَرْتَدِي اللَّبَاسَ
الضَّرَرِيَّ ؛ كَأَنَّهُ قَادِمٌ مِنْ رَحَلَةٍ بَحْرِيَّةٍ . وَشَعْرُهُ طَوِيلٌ أَشْهَبُ ،
أَسْمَرُ اللَّوْنِ مِنَ التَّعَرُّضِ لِلشَّمْسِ وَالْهَوَاءِ . يُنَاهِزُ ^(٢) عَمْرُهُ السَّتِينَ ،
تَلُوحُ عَلَيْهِ سِيمَا ^(٣) الرُّجُولَةِ ، وَدَلَائِلُ الْقُوَّةِ . ارْتَقَى السُّلَّمُ ، وَمَدَّ يَدَهُ
يَصَافِحُنِي بِشَفَفٍ زَائِدٍ ، وَتَلَهَّفُ كَثِيرٍ . فَعَجِبْتُ لِأَمْرِهِ ، وَاسْتَوَلَى
عَلَى الدَّهْشِ ^(٤) مَعَ شَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْقَلَقِ . سَأَلْتُهُ : « مَاذَا
تَرِيدُ يَا سَيِّدِي ؟ »

فَأَجَابَ بَعْدَ تَفْكِيرٍ وَرَوِيَّةٍ : « سَوْفَ أَخْبِرُكَ يَا بُنَيَّ بَعْدُ . »

يُيب : « أَتَرِيدُ أَنْ تَمَكِّثَ مَعَنَا اللَّيْلَةَ ؟ »

(١) قُرْب (٢) يَقَارِبُ ، يَدَانِ (٣) عَلَامَةٌ (٤) التَّعْبِيرُ

الرجل : « نعم . »

كان في سؤاله شيء يدل على النفور والفزع ؛ فقد استأثرت من
شدة تعلقه بي وأنا لا أعرفه . ولكنني قد تته إلى حجرتي ، ووضعت
المصباح على المكتب ، وطلبت منه أن يشرح لي حاله .

أخذ يُجيب^(١) الطرف قليلاً حوله وهو متعجب ، فتملكته
حيرة خالطها السرور . ولم أكن أقل منه استغراباً . ثم خلع معطفه
وقبّعته ، فبدأ أصلع الرأس ، مُسترسِل الشعر من الجوانب . ولم
يَلْبَ طَلَبَتِي ، بل شرع يمدُّ يديه إلىَّ ، فصيحّت مدعوراً — وقد
ظننت أنه مخبول : « ماذا تقصد ؟ »

فأشار الرجل بالصمت ، ومسح رأسه بيده اليمنى ، وتكلم
بصوت مُتهدِّج^(٢) يغلب عليه التأثر : « إن من الخطأ أن تُحدثَ
إنساناً قطعَ مرحلة طويلة في سفر شاق بتلك اللمحة التي تدل على
سرعة في الحكم . وبعد عن الأناة والتريث . ولكن لا لوم عليك
ولا على . فاصبر يا بُنَيَّ . سأخبرك بعد ثوان معدودة عما تريد . »
جلس الرجل على كرسيّ وضع أمام الموقد ، وغطى جبهته
بيديه السَّمراوين فنظرت إليه نظرة المتعريف له ، ولكن لم
أستطع معرفته . ثم قال وهو يُدير البصر يمنة ويسرة :

(١) يُدير (٢) مُتهدِّج : متقطع في ارتعاش .

« لا أحد قريبٌ منا . أليس كذلك ؟ »

فقلت : « لم أتيتَ أيُّها الغريبُ إلىَّ في ذلك الوقتِ المتأخِّر من الليلِ ؟ فأوِّمًا إلىَّ بنَظرةٍ حبٍّ وحنانٍ ، وقال :
« إني مسرورٌ ببقائك ورؤيتك شابًّا مُتَقَفًّا . لا تَتَسَرَّعْ في الاستِثاءِ مِنِّي والحُكْمِ عَلَيَّ ، وإلاَّ أُسِفْتَ كثيرًا فيما بعدُ على ما حَدَثَ مِنكَ . »

فازدادَ عِنْدِي الأمرُ غموضًا ، وتعمَّدتُ في ذهني مُشكلةً ذلك الرجلِ الغريبِ . وأخيرًا لجأتُ إلى الماضي البعيدِ أستوحيهِ ما غابَ عَنِّي ، وأُستنبِئُهُ عِلْمَ ما لم أعلم . وتصفَّحتُ سِجَلًا طُفولَتِي ؛ عَلَيَّ أَجْدُ فِيهِ ما يكونُ عونًا لِي على تَعَرُّفِهِ . ثم رَدَدْتُ طَرَفِي إِلَيْهِ ، فَعَرَفْتُ فِيهِ صُورَةَ الرَّجُلِ الْمُسْكِينِ الَّذِي وَقَفْتُ أَمَامَهُ وَجْهًا لَوَجْهِهِ عِنْدَ مَدْفِنِ الْكَنِيسَةِ مِنْذُ سَنَوَاتٍ كَثِيرَةٍ . وَلَكِنْ تَوَارَدَ الْأَيَّامُ وَتَعاقَبَ الْحَادِثَاتِ غَيَّرَتْ سِخْنَتَهُ ، فَلَمْ أَتَثَبَّتْ مِنْ حَقِيقَتِهِ .

ترك الرجلُ مَجْلِسَهُ ، وأخذَ يَذْرَعُ^(١) أَرْضَ الْحَجَرَةِ ذَهَابًا وَجَيِّئَةً ، وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَيَّ ، وَقَدْ أَخْرَجَ مِنْ جَيْبِهِ مِبْرَدًا لِيُرِيَنِي إِيَّاهُ . ثُمَّ أَخَذَ مِنْدِيلًا وَضَعَهُ عَلَى رَقَبَتِهِ ، وَلَفَّهُ حَوْلَ رَأْسِهِ ، فَلَمْ أَلْبَثْ أَنْ تَبَيَّنَتْهُ ، وَتَحَقَّقْتُ صُورَتَهُ .

(١) يَفِيس ، يَسِر .

أقبلَ الرَّجُلُ إِلَىَّ وقد قَتُّ من مَكَانِي ، وتناولَ يَدَيَّ بِلَهْفَةٍ
وشوقٍ ، ورفعَهُمَا إِلَى شَفَتَيْهِ ، وقَبَّلَهُمَا ، ثم قال :

« لقد أسديت^(١) إِلَىَّ من الجليل وأنتَ طفلٌ ما يُسديه النبلاء .
إِنَّكَ نبيلٌ . يا « ييب » . فلا زِلْتُ أَذْكَرُ ما قَدَّمْتَهُ إِلَىَّ يَوْمَ
العِيدِ عندَ المقبرةِ ، وسأَذْكَرُهُ ما حَيَّيْتُ . » .

ثم أَخْبَرَنِي بِأَنَّهُ هو الذي أَرْسَلَ النُقُودَ لِأَتَعَلَّمَ فَأَصْبَحَ رَجُلًا
مُهَذَّبًا ، أَدِيبًا مُتَقَفًا ؛ فَقَدْ أَخَذَ عَلَى نَفْسِهِ عَهْدًا وَمَوْثِقًا مِنْذُ أَنْ
التَقَى بِي عندَ المقبرةِ أَنْ يَتَوَلَّى تَرْبِيَّتِي ، والقيامَ بِشُؤْنِي إِذَا قُدِّرَ
لَهُ الْخُرُوجُ مِنَ السَّجْنِ . فلما تَحَقَّقَتْ أَمْنِيَّتُهُ ، سافرَ إِلَى (أستراليا) .
وهناكَ صادفَهُ حَسَنُ الْحِظِّ فَكَانَ مِنَ الْأَغْنِيَاءِ . واستمرَّ يَحْدِثُنِي :
« لقد تَبَنَّيْتُكَ يا « ييب » ؛ فَأَنَا أَبُوكَ الثَّانِي ، بَلْ أَنْتَ أَجْدُرُ
بِالْبُنُوَّةِ مِنْ أَيِّ ابْنٍ آخَرَ . وقد أَدَّخَرْتُ لَكَ الْكَثِيرَ مِنَ الْمَالِ ،
وحَفِظْتُهُ لَكَ حِينَما كُنْتُ أُسْكِنُ فِي كُوخٍ صَغِيرٍ مَنْعَزِلٍ عَنِ الْعَالَمِ ،
وَأَقُومُ بِرِغْيِ الْغَنَمِ . وقد نَسِيتُ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى وَجُوهَ الرِّجَالِ
وَالنِّسَاءِ إِلَّا وَجْهَكَ الْبَاسِمَ ، وشَخْصَكَ الْوَادِعَ الَّذِي مَلَأَ الْمَكَانَ
أُنْسًا ، وَبَدَّدَ مَا فِيهِ مِنْ وَخْشَةٍ . »

وَكُنْتُ أَذْكَرُكَ آثَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافِ النَّهَارِ ، وَأُتَخَيَّلُ صُورَتَكَ

--- (١) قَدَّمْتُ ، أَحْسَنْتُ

وَأَنْتَ تَنْظُرُ إِلَى عِنْدَ مَقْبَرَةِ الْكَنِيسَةِ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ السَّوْدَاءِ .
وَكَلَّمَا ذَكَرْتَكَ أَكْذْتُ غُرَا الْعَهْدِ ، وَأَحْكَمْتُ الصَّلَاةَ ، حَتَّى
هَيَأَ اللَّهُ لِي مِنْ أَمْرِى رَشْدًا^(١) ؛ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السَّجْنِ ، وَمَهَّدَ
لِي سُبُلَ الْوَفَاءِ . وَهَآنَذَا أَرَاكَ الْآنَ وَقَدْ حَقَّقَ اللَّهُ فِيكَ أَمَلِي .
وَهَذِهِ آثَارُ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْكَ ؛ حَيْثُ هَيَأَ لَكَ مَا تَسْتَحِقُّ مِنَ
النَّجَاحِ وَالتَّوْفِيقِ .

« أَيْ بُنَى ! إِنَّكَ سَتُصْبِحُ » لُورْدَا مِنْ اللُّورْدَاتِ ؛ بَلِ
أَتَقَاؤُ بِأَنَّكَ سَتَفُوقُهُمْ وَتَعْلُو عَلَيْهِمْ .

ثُمَّ اسْتَطَرَدَ فِي حَدِيثِهِ ، وَقَدْ أَخَذَ السَّاعَةَ مِنْ جَيْبِي ، وَنَظَرَ
إِلَى الْخَاتَمِ فِي إِصْبَعِي وَقَالَ : « أَنْظُرْ إِلَى تِلْكَ السَّاعَةِ الذَّهَبِيَّةِ الْجَمِيلَةِ !
أَنْظُرْ إِلَى الْخَاتَمِ الْمَاسِيِّ الَّذِي يَتَلَا فِي يَدِكَ ! إِنَّهُ خَاتَمُ رَجُلٍ نَبِيلٍ .
أَنْظُرْ إِلَى مَا لَدَيْكَ مِنْ أَثَاثٍ فَخِيرٍ ، إِنَّهُ بَلَغَ غَايَةَ الْجُودَةِ
وَالْإِحْكَامِ ، وَحُسْنِ التَّنْظِيقِ وَالِإِتْقَانِ . »

ثُمَّ أَخَذَ يَنْظُرُ فِي نَوَاحِي الْعُرْفَةِ وَقَالَ :
« أَنْظُرْ إِلَى تِلْكَ الْمَكْتَبَةِ الْجَمِيلَةِ وَقَدْ جُمِعَتْ مِنَ الْكُتُبِ
الْثَّمِينَةِ ، وَالْمَجَلَّاتِ النَّفِيسَةِ مَا سَأَلْتُذُ بِسَمَاعِهِ . وَسَأَسْعُدُ بِالْجُلُوسِ إِلَى

جانِبِكَ تُتَرَجِّمُ لِي مَا حَوَتْهُ مِنْ قِصَصٍ رَائِعَةٍ ، وَأَدَبٍ جَمٍّ ، وَعِلْمٍ
غَزِيرٍ . وَسَأُكُونُ نَفُورًا بِكَ ، شَائِدًا بِذِكْرِكَ فِي كُلِّ نَادٍ . »

قال « ييب » : ثم عاد المحسنُ ثانيةً يَطْبَعُ على يَدَيَّ قُبْلَةً
المطفِ والحنانِ الأبويِّ .

هكذا يُؤَثِّرُ المعروفُ في أَفئدةِ ذَوِي النفوسِ النبيلةِ ؛ فلقد
كانَ جَمِيلُ « ييب » سببًا في مُنْمُوِّ عاطفةِ الرَّحمةِ في قلبِ ذلكَ الرجلِ
السجينِ ، فصارَ والدًا شفيقًا ، وأبًا كريمًا ، يُنْفِقُ على « ييب »
من مَالِهِ ، وَيُرَبِّيهِ بما مَلَكَتْ يَمِينُهُ ، حتَّى أَضْحَى سَعِيدًا جزاءَ
وفاقِهِ لما قَدَّمَتْ يَدَاهُ .

عرَفَ « ييب » ذلكَ فلم يَسْعُهُ إِلَّا الشكرُ ؛ وأقبلَ على يَدَيْهِ
يُسَبِّحُهُمَا لَثَمًا وَتَقْبِيلًا ؛ تقديرًا لوفائِهِ ، واعترافًا بِفَضْلِهِ . ثم قَدَّمَ
الْمَعذِرَةَ على ما أَبْدَاهُ مِنْ نَفَورٍ في سُؤْأَلِهِ ، واشْتِبَاهٍ في أَمْرِهِ . وعاشَ
يَنْمُو بِمُطْفِهِ وَحُبِّهِ ، والرجلُ قَرِيرُ العَيْنِ بِإِخْلَاصِهِ وَحُسْنِ رِعَايَتِهِ
لِلْجَمِيلِ . ولا رَيْبَ ؛ فالإنسانُ عَبْدُ الإِحْسَانِ ، وأسيرُ المعروفِ .

أَحْسِنِ إِلَى النَّاسِ تَسْتَعْبِدُ قُلُوبَهُمْ

فَطَالَمَا اسْتَعْبَدَ الْإِنْسَانُ إِحْسَانُ

الضحية

تشارلز ديكنز

ترجمة : محمد عطية الإبراهيمي



مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

« نِل » الصغيرة وجدّها

أو

الضاحية

هناك في ضاحية من ضواحي لندن حيث أُرْخِيَ السُّكُونُ
ستائرَه، وتَجَلَّى الهدوءُ يَنْفُثُ في القلوبِ شيئًا من عُرْسِ الطَّبِيعَةِ
وبَهْجَتِهَا، عاشت « نِل » الصغيرةُ مع جدّها - وقد بَلَغَ من الكِبَرِ
عِتِيًّا - في منزلٍ عَتِيقٍ طَوَّحَ الزَّمانُ بِجدرانِه، فأَصْبَحَ خاويًا على
عُرْشِهِ^(١). عاش الجدُّ وحفيدُهُ بَعِيدَيْنِ عن العالمِ؛ فقد آثَرَا
حياةَ العزلةِ والانفِرادِ. ولكنَّ رُوحَ الفتاةِ الطاهرةِ وجدتِ
السعادةَ في كلِّ شيءٍ، فَعَلِمَتِ البَسَمَاتُ ثَغَرَهَا، وَبَدَتْ لِلنَّاظِرِ
مَرِحَةً كَأَنَّهَا في هَناءٍ، وهى في ذلك المنزلِ الرهيبِ^(٢) الذى
يَرُوعُ^(٣) قلبَ من يَأْوِي إِليه، أو يَتَوَيَّ^(٤) به.

أَحْبَبَتْ « نِل » جدّها حُبًّا جَمًّا، وَقَدَّسَتْهُ التَّقْدِيسَ كُلَّهُ،

(١) جمع عريش وهو بيت أو خيمة من خشب وثمام . (٢) المفزع الخفيف

(٣) راعه فارتاع : أى أفزعَه ففزع . (٤) يقيم به

ولم يكن الجُدُّ أَقلَّ منها تعلقًا وشغفًا ؛ فكثيرًا ما يَرْتُو^(١) إليها
 بنظراتِ العطفِ والحنانِ حتى في أَشدَّ ساعاتِ أَلَمِهِ ، ولحظاتِ
 يَأْسِهِ ، رَغْمَ ما يُقاسيه من حُزنٍ دفينٍ كادَ يَقْضِي عليه ، ويَزْهُقُ
 رُوحَهُ ؛ لكثرةِ التفكيرِ في أمرِ قوتِهِ ، وما يُحِبُّهُ المستقبلُ لتلك
 الطفلةِ المسكينةِ إِذا نَماه الدهرُ ، واختَرَمَتْهُ^(٢) يدُ المنيَّةِ . فاشتدَّ
 به الهمُّ ، وأصبح كثيرَ النَمِّ . لم يَطْفُ بِحُفْنِيهِ طائفُ الكرى^(٣) ،
 ولم يَذُقْ للنومِ طَعمًا ، ولم يَجِدْ للراحَةِ سَبيلًا ، إِلَّا في تلكِ الفتراتِ
 القصيرةِ التي كان يقضيها في نَومٍ متقطَّعٍ في أثناءِ النهارِ على
 كرسيِّ حَطْمِهِ البَلِيِّ بجانبِ الفتاةِ وهي جاثيةٌ^(٤) أمامَه تحاولُ أن
 تَتَبَّنَ من أساريرِ وجههِ المتجعِّدةِ أسبابَ سُرودِ عقلِهِ ، وبَلْبَلَةٍ^(٥)
 أَفكارِهِ . وعبثًا ما أرادته ؛ فقد كان أمرُ الشيخِ غامضًا ، ودونِ
 الوُصولِ إِلَيْهِ خَرْطُ^(٦) القَتَادِ .

تواترت الأيَّامُ وتتابعت الليالي ، والجُدُّ يَزْدَادُ شحوبَهُ ، وتَضَعُفُ
 قُوَّاه يوماً بعدَ يومٍ ، حتى صارَ هَيْكَلًا خُفِيفًا ، صَرَعَتْهُ الهمومُ

(١) رنا إليها : أدام النظر (٢) قطعته واستأصلته (٣) الكرى : الناس

(٤) جالسة (٥) اضطراب أفكاره ، وشدة همه

(٦) قال في المختار : وفي المثل : دونه خَرْطُ القَتَادِ . خَرْطُ الورقِ حَتُّهُ ، وهو أن
 يقبض على أعلاه ثم يمر يده عليه إلى أسفله . والقَتَادُ شجر له شوك .

وشدائدُ الأسي ، وانشغالُ البَالِ ، وطَحْنَةُ طَحْنِ الرَّحَى بِثِفَالِهَا^(١) .
ازدادَ أَلَمُ الفتاةِ ، وكادَ قَلْبُهَا يَنْفِطِرُ من هَوْلِ ما تَرَاهُ ، وقسوةِ
ما رَمَتْها به السُّنُون والأَيَّامُ في أَمَلِ حَيَاتِهَا ، وَعَتَادِ مُسْتَقْبَلِهَا .
ولم تَجِدْ « نِل » مناصاً من أن تَمَثِّلَ للقضاءِ المبرمِ ، والقَدَرِ
المحتومِ ، فصَبَرَتْ نَفْسَهَا ، وَسَكَنَتْ إلى بَلَوَاهَا .

لم يَعدْ ذلكَ الجَدُّ يَحْتَمِلُ أَكْثَرَ مما احْتَمَلَ ، فاستولتْ عليه
الْحُمَّى ، ورقَدَ يَهْدَى فَاقَدَ الإحْسَاسَ والشُّعُورَ عِدَّةَ أَسابيعَ ،
عرفت « نِل » خِلَالَهَا أَمْرًا خَطِيرًا أَظْلَمَ حَيَاتَهَا أَكْثَرَ مما كانتْ ،
وأوشكَ أن يُطْفِئَ بِصَيصِ الأَمَلِ الذي كان يَلْعُ لَهَا بين ثَنَايَا
الدَّهْرِ ؛ فَإِنَّ المَنْزِلَ الصَّغِيرَ الذي جَمَعَ بين قَلْبَيْهِمَا ، وأَوَتْ
إِلَيْهِ رُوحَاهُمَا ، قد أَصْبَحَ مِلْكَاً لغيرهما مَغْبَةً^(٢) لِإِسْرَافِ جَدِّهَا
فِيمَا لَا يُفِيدُ . فَتَجَسَّمْ أَمَامَهَا شَبَحُ الفَقْرِ المَرُوعِ^(٣) ، وَاكْفَهَرُ
فِي وَجْهِهَا الزَّمَانُ ، وَتَقَادَقَتْهَا عَظَائِمُ المَتْرَةِ^(٤) والضُّيْقِ . غيرَ أنَّ
من عَادَةِ الدَّهْرِ أن يُحْلِيَ وَيُمِرَّ ؛ فقد عَادَتْ إلى الرَّجُلِ
بعضُ قُوَاهُ ، وَأَبْلَ^(٥) من مرضِهِ ، رَغَمَ ما أَصَابَ عَقْلَهُ من ضَعْفٍ

(١) ثفال . بكسر التاء وضمها : الحجر الأسفل من الرحى .

(٢) نتيحة وعاقبة . (٣) الخيف (٤) الفقر . (٥) نجا وشق .

أَقْعَدَهُ عَنِ التَّفْكِيرِ ، وَلَمْ يَبْعِدْهُ عَنْ جَلْسَاتِهِ مَعَ حَفِيدَتِهِ سَاعَاتٍ طَوِيلَةً يُبَادِلُهَا الْعُطْفَ ، فَيَعْبَثُ بِأَنَامِلِهَا آناً ، وَيُرَبِّتُ^(١) عَلَى شَعْرِهَا آناً آخَرَ ، وَيُقَبِّلُهَا مِنْ جَبِينِهَا ، فَيَرَى الدَّمُوعَ تَسَاقَطَ مِنْ عَيْنَيْهَا حُنُوءًا إِلَيْهِ ، فَيَتَأَخَذُ الْحَيْرَةَ ، وَيَشْتَدُّ بِهِ الْعَجَبُ .

وَلَمْ تَكْذُ « نِل » تَهْنَأُ بِتِلْكَ الْبَارَقَةِ ، وَتَسْتَرِدُّ قَلِيلاً مِنْ ذَلِكَ الْأَمَلِ الْمُحْطَمِّ حَتَّى آتَى الْوَقْتُ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يُغَادِرَ فِيهِ الْمَنْزِلَ . وَلَمْ يَكُنِ الشَّيْخُ قَدْ أَخَذَ الْعُدَّةَ ، وَلَمْ يَهَيِّ السَّبِيلَ لَذَلِكَ ؛ فَقَدْ كَانَ يَشْغَلُ ذِهْنَهُ فِكْرَةٌ خَفِيَّةٌ مُبْهِمَةٌ لَا تَقْفُ عِنْدَ حَدٍّ ، وَلَا تَنْتَهِي إِلَى غَايَةٍ ، جَرَّ أَذْيَالَهَا إِلَيْهِ حَفِيدَتُهُ الْوَحْدَةُ الْمُحْتَاجَةُ إِلَى الْمَعُونَةِ ؛ فَجَعَلَتْهُ حَاضِرًا مُشْرِدًا اللَّبَّ ، ذَاهِلَ الْفُؤَادِ ، وَأَلْهَمَتْهُ عَنِ الْبَحْثِ عَنِ بَيْتٍ آخَرَ يَقِيهِمَا نَفَحَاتِ الْبَرْدِ ، وَسَبَرَاتِ^(٢) الشِّتَاءِ . وَيَلْتَجَتَّانِ إِلَيْهِ آتَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ . وَذَاتَ لَيْلَةٍ بَيْنَمَا كَانَ فِي جُلُوسَةٍ هَادِئَةٍ مَعَ حَفِيدَتِهِ يَدَاعِبُهَا^(٣) كَعَادَتِهِ ، لَحَتْ عَلَى مُجَيَّاهِ^(٤) أَثَرُ تَغْيِيرٍ فُجَائِيٍّ أَرَادَتْ أَنْ تَعْرِفَ سِرَّهُ ، فَبَادَرَتْهُ بِالْكَلامِ ، وَلَكِنَّهُ أَسَارَ إِلَيْهَا بِالسَّكُونِ قَائِلًا :

(١) التَّرْبِيتُ : ضَرْبُ الْيَدِ عَلَى جَنْبِ الطِّفْلِ قَلِيلًا لِيَنَامَ .

(٢) السَّيْبَرَةُ : الْغَدَاةُ الْبَارِدَةُ . (٣) يَمَازَحُهَا (٤) وَجْهَهُ .

« لَتَكَلِّمْ بِصَوْتٍ خَافَتْ بِأَنَّهُ نِلٌّ » ؛ فَلَوْ عَرَفَ النَّاسُ
مَقْصِدَنَا لَرَمَوْنِي بِالْجُنُونِ ، وَأَخْذُوكَ مِنِّي . إِنَّا لَنُ نَمَكْتُ هُنَا
أَكْثَرَ مِنْ يَوْمِنَا هَذَا . وَسَنَسَافِرُ غَدًا عَلَى أَقْدَامِنَا بَيْنَ الْحَقُولِ
وَالغَابَاتِ ، وَاضْمَعِينَ نَفْسَيْنَا أَمَامَ قَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ يَا عَزِيزَتِي !
سَنُغَادِرُ هَذَا الْمَكَانَ الْمَوْحِشَ ، وَتِلْكَ الْمُنَاطَرَةُ الْمُفْزَعَةُ إِلَى حَيْثُ
تَحْقُقُ عَلَيْنَا أَعْلَامُ الْحَرِّيَّةِ ، وَالْوَيْةُ السَّعَادَةِ ، كَمَا تَحْقُقُ فَوْقَ
هَامَاتِ الطُّيُورِ ، بَيْنَ أَزْهَارِ الرِّيَاضِ ، وَأَفَانِينِ الدَّوْحِ^(١) .
وَمَا كَاذَ الشَّيْخِ يَنْتَهِي مِنْ حَدِيثِهِ حَتَّى تَحْرُكَتِ الْفَتَاةُ فِي مَجْلِسِهَا ،
وَأَشْتَدَّتْ ضَرْبَاتُ قَلْبِهَا ، وَمَا لَبِثَتْ أَنْ عَادَتْ إِلَى هَدْوِهَا ،
وَامْتَلَأَتْ إِيمَانًا وَثِقَةً بِاللَّهِ ، فَلَمْ تَفَكَّرْ فِي آلَامِ الرِّحَلَاتِ مِنْ
تَعَسُّرِ الزَّادِ ، وَبَرُودَةِ الْجَوِّ ، وَكَثْرَةِ الْمَطَرِ ، بَلْ هَيَأُ لَهَا
الْوَهْمُ أَنَّ فِي وَسْمِهَا التَّغْلِبَ عَلَى تِلْكَ الصَّعَابِ مَا دَامَ ظِلُّهُمَا
لَا يَفْتَرِقُ .

هَجَعَ الْكَوْنُ وَانْقَطَعَتِ الْأَصْوَاتُ . وَاطْمَأَنَّ الْأَطْيَارُ إِلَى
أَوْكَارِهَا . وَفِي وَسْطِ ذَلِكَ السَّكُونِ الْمُخِيفِ أَخْذَا يَتَجَاذَبَانِ أَطْرَافَ
الْحَدِيثِ بَيْنَ أَمَلٍ بِاسِمِ ، وَيَأْسٍ مُحْطَمٍ . فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهَا الْخِيطُ الْأَيْضُ
(١) الدوحة : الشجرة العظيمة ، والجمع دوح .

من الخيطِ الأسودِ من الفجرِ ، أنسلًا من المنزلِ يتلَمَّسانِ الطريقِ
 وسطَ هذا الظلامِ الدَّامِسِ ، وفي غسقِ اللَّيْلِ الداجي^(١) . ولم يلبثا
 إلا قليلًا حتى وقفًا حائرَين . فابتدرت^(٢) الطفلةُ جدَّها متسائلةً :
 « أَى طريقٍ نسلِكُ يا جدِّي ؟ »

نظر الشيخُ إلى حفيدته وأماراتِ الاضطرابِ والحيرةِ باديةً على
 وجهه ، ولهيبُ اليأسِ بينَ جوانحه يضطرمُّ ، ثم هزَّ رأسه هزَّةً
 اليأسِ المتحيرِ الذي لا يدرى إلى آيةٍ جهةٍ يقصِدُ ، وأى طريقٍ
 يخترقُ . وليس ذلك منه بمعجيبٍ ؛ فقد أصبحَ مَشْدُوهُ^(٣) العقلِ ،
 حائرَ الفكرِ ، فاقدَ الجَنانِ^(٤) ، عَيَّى اللسانِ ، لا يَسْتَطِيعُ هذيانًا
 ولا إرشادًا .

حينئذٍ شعرت الفتاةُ بِعَبٍّ^(٥) ثَقِيلٍ أُلْقِيَ على كاهِلِها ، وعرفتُ
 لأوَّلِ وهلةٍ أنها ستكون منذُ ذلك الحينِ القائدةَ المرشِدةَ . فوضعت
 يدها في يده ، وخرجتا من المدينةِ والناسُ نِيَامٌ ، لا يدرِيان أين
 يذهبان . وأخذَا يَسْلُكُانِ شوارعَ طويَلةً خِيَمَ عليها السكونُ ،
 وانتشرَ في رحابها الهدوءُ ، فأثرت الصَّمَتُ البليغُ . وسارا يهديهما

(١) المظلم (٢) ابتدرت : عاجلت (٣) مَشْدُوهُ الرجلُ : دُهِش . وقال

أبو زيد : مَشْدُو الرجلُ : مُشْفِلٌ لا غير (٤) العقل (٥) حمل

نورُ الصبّاحِ المبكرِ ، إلى أنْ خرجت الشمسُ من كِناسِها^(١) ،
تَمَلُّهُ بِأَشِعَّتِهَا العَسْجَدِيَّةُ الدُّنْيَا حَيَاةً وَسَنًا^(٢) . وامتَلأتِ الطُّرُقَاتُ
بِالغَادِينَ وَالرَّاحِمِينَ . ظَلًّا سَائِرِينَ آمِنِينَ حَتَّى قَضَيَا سَحَابَةَ
نَهَارِهِمَا . وَمَا كَادَ الْمَسَاءُ يُقْبِلُ بِظِلَامِهِ الْحَالِكِ ، حَتَّى أَلْقَيَا عَصَا
الْتِّسْيَارِ^(٣) فِي ضَاحِيَةٍ مِنْ ضَوَاحِي لَنْدَنَ ، فَقَضَيَا تِلْكَ اللَّيْلَةَ فِي
حَجَرَةٍ اسْتَأْجَرَاهَا فِي كُوخٍ صَغِيرٍ .

وَفِي الْيَوْمِ التَّالِيِ اسْتَأْنَفَا سَيْرَهُمَا قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ عَلَيْهِمَا الشَّمْسُ .
وَمَا زَالَا سَائِرِينَ حَتَّى أَتَاهُمَا الْمَشْيُ ، وَأَضْنَاهُمَا الْجُهْدُ^(٤) ، وَأَثَرَتْ
فِيهِمَا مَشَقَّةُ السَّقَرِ . فَأَوَيَا إِلَى ظِلِّ شَجَرَةٍ وَارِفَةٍ يَتَقَيَّانِ^(٥)
فِي ظِلَالِهَا ، وَيَقْضِيَانِ فِي كَنَفِهَا وَقْتَ الظُّهْرِ ، وَيَتَقَيَّانِ أَشْعَةَ
الشَّمْسِ . وَبَعْدَ أَنْ اسْتَجْمَعَا نِشَاطَهُمَا ، أَخَذَا طَرِيقَهُمَا إِلَى إِحْدَى
الْمَدَنِ لِيَقْضِيَا فِيهَا لَيْلَتَهُمَا .

وَبَيْنَمَا هُمَا سَائِرَانِ تَقَابَلَا مَعَ اثْنَيْنِ مِنَ الْمَسَافِرِينَ أَمِنَا إِلَيْهِمَا ،
وَاطْمَئَنَّا إِلَى جَانِبِهِمَا ، فَاسْتَمَرَّا فِي رُفْقَتِهِمَا يَوْمَيْنِ مَرُّوا خِلَالَهَا

(١) مِنْ مُخْبِتَتِهَا (٢) السَّنَا: الضَّوْءُ (٣) السَّيْرُ (٤) الْجُهْدُ: الْمَشَقَّةُ .

(٥) يَتَقَيَّانِ فِي فِيْئِهَا : يَسْتَضِلُّانِ فِي ظِلِّهَا .

ببعض المدن والقرى حتى وصلوا جميعاً إلى مكان السباق مع رقيقين جديدين من الشبان .

وقد رأت « نيل » فيهم قسوة المعاملة ، وغرابة الحال ، ولكنها لمست بين جنوبهم قلوباً تمتلئ شفقةً وتفيضُ حناناً .

وفي ضوء السباق سَحت لها الفرصة لكسب ما تَقَاتُ به هي وجدها ؛ فحاولت بيع بعض الأشياء للنظارة^(١) . ولم كانت تؤذ السفر في حماية هؤلاء الشبان لولا أنها شعرت بسوء طويّتهم وخُبث دَخلتهم ، وما تُكنّه نفوسهم من الخيانة لهما ؛ فقد اشتبهوا فيهما ، وهُمّوا بإبلاغ أمرهما إلى الشرطيّ ليرجعا إلى حيثُ كانا .

أطلقت « نيل » عنان الفكر والتأمل ، وسبحت في بحار الخيال ، فاهتدت إلى الحقيقة ، وأيقنت أن أمر الجدّ لو عُرف لانتهى به الطواف إلى مستشفى المعتهين . فيحرم نور الشمس ورؤية السماء ، وتفقد ما كانت تحسّه من لذة وغبطة وهي بجوار جدّها ، يتبادلان العطف والمودة ، ويرتشفان كثوس الصفاء والحياة والإخلاص ، فأخذت تبحث عن مخرج من أعين الرقباء لتقطع

(١) النظارة : القوم ينظرون إلى الشيء .

حَبَائِلَ أَهْلِ الشَّرِّ، وَتَرَدَّ كَيْدَهُمْ حَتَّى تَهَيَّأَ لَهَا، فَوَضَعَتْ يَدَهَا
 فِي يَدِ جَدِّهَا، وَسَارَا لَا يَلْوِيَانِ عَلَى شَيْءٍ. فَوَصَلَا إِلَى قَرْيَةٍ
 صَغِيرَةٍ، وَرَأَاهُمَا مَدْرُسٌ بِهَا، طَيِّبُ الْقَلْبِ، سَهْلُ الْخُلُقِ،
 حَسَنُ الْمَعَامَلَةِ. فَرَّقَ لِحَالَهُمَا، وَعَطَفَ عَلَيْهِمَا، وَهُوَ مُعْجَبٌ
 بِعَذُوبَةِ «نَل» الْمُسْكِينَةِ، وَكَمَالِ طَبْعِهَا. وَرَحَّبَ بِضِيَاقَتِهِمَا
 ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ لَقِيَا فِيهَا مِنْ ضُرُوبِ الْكَرَمِ مَا أَنْسَاهُمَا مَشَاقَّ
 السَّفَرِ، وَوَيَالَاتِ الْإِغْتِرَابِ، وَعَذَابِ التَّزْوِجِ عَنِ الدِّيَارِ.

وَلَمَّا أَدَّانَ مُوَذَّنُ الرَّحِيلِ وَدَّعَهُمَا مَدْرُسُ الْقَرْيَةِ، وَسَارَا فِي
 طَرِيقٍ رَيْفِيَّةٍ جَمِيلَةٍ قَدْ أُسْبِلَتْ عَلَيْهَا الطَّبِيعَةُ ثِيَابًا مُوَشَّاةً^(١) مِنْ
 جَلَالِهَا الْقُدْسِيِّ، وَافْتَنَّتْ يَدُ الْخَالِقِ فِي تَنْسِيقِ أَشْجَارِهَا
 الْفَيْنَانَةِ^(٢). فَأَوَتْ إِلَيْهَا الْعِنَادُلُ وَالْأَطْيَارُ، وَوَجَدَتْ فِيهَا مَرْتَعًا
 خَصِيْبًا. وَانْطَلَقَتْ صَادِحَةٌ^(٣) شَادِيَّةٌ، تَتَرَنَّمُ بِجَمَالِ الطَّبِيعَةِ،
 مُرَدِّدَةً آيَاتِ الشُّكْرِ وَالْحَمْدِ لَخَالِقِ السَّمَوَاتِ، وَمُبْدِعِ الْكَائِنَاتِ.
 لَقَّتْ «نَل» وَجَدَّهَا هَذِهِ الْمَنَاطِرُ الرَّائِعَةُ، وَأَنْسَا بِتَغْرِيدِ الطُّيُورِ،

• (١) مَرْقُومَةٌ مَنقُوشَةٌ. (٢) الْكَثِيرَةُ الْأَغْصَانُ. (٣) صَدَحَ الرَّجُلُ
 وَالطَّائِرُ: رَفَعَ صَوْتَهُ بِفِنَاءٍ.

وَتَنَاوُحٌ^(١) الْأَفْنَانِ ، فَاطْمَأَنَّ قَلْبَاهُمَا ، وَعَاوَدَهُمَا السَّرُورُ ، وَوَدَّأَ
لَوْ بَقِيََا فِي تِلْكَ الطَّرِيقِ مُدَّةَ سَفَرِهَا . وَلَكِنْ أَنَّى لَهَا ذَلِكَ ،
وَقَدْ وَصَلَ بِهِمَا السَّيْرُ إِلَى طَرِيقٍ مُتَعَرِّجَةٍ كَثِيرَةِ الْإِلْتَوَاءِ ، وَغَرَّةٍ
مُقْفَرَةٍ لَمْ يَجِدَا فِيهَا سُبُلَ الرَّاحَةِ وَالسَّرُورِ ؟ فَتَسَرَّبَ إِلَيْهِمَا الْيَأْسُ ،
وَدَبَ فِي أَعْضَانِهِمَا دَيْبُ التَّعَبِ ، فَسَارَا يَبْطِئُ حَتَّى الْمَسَاءِ .
وَصَلَا إِلَى هَوْدَجٍ فِي جَانِبِ مِنَ الطَّرِيقِ ، عَلَى شَكْلِ مَنْزِلٍ
صَغِيرٍ جَمِيلٍ ، أَقِيمَ أُسَاسُهُ عَلَى عَجَلَاتٍ ، وَقَدْ جَلَسَتْ عِنْدَ بَابِهِ
سَيِّدَةٌ بَدِينَةٌ ، أُمَامَهَا مَائِدَةٌ صَغِيرَةٌ ، بِمَشُوشٍ أَيْضَ ، تَشْرَبُ قَدْحًا
مِنْ (الشَّاي) وَهِيَ تَتَفَيَّأُ^(٢) فِي ظِلِّ السَّعَادَةِ ، مُتَسَرِّبَةً لِبَاسِ الْهَيْبَةِ
وَالْوَقَارِ ، تَحْسِبُ^(٣) أَنَّهَا تَتَنَاوَلُهُ عَلَى مَوَائِدِ الْمُلُوكِ وَأَرْبَابِ التَّيْجَانِ .
أَرَادَتْ « نِل » أَنْ تَتَقَدَّمَ إِلَيْهَا ، وَلَكِنْ جَلَالُهَا عَقَدَ لِسَانَ
الْفَتَاةِ أَنْ يَنْطِقَ ، وَالْجَمُّ تَغَرَّهَا أَنْ يَفُوهَ ، وَلَكِنَهَا بَعْدَ تَرَدُّدٍ وَإِقْدَامٍ
تَجَشَّمَتْ مَشَقَّةَ السُّؤَالِ فَاقْتَرَبَتْ مِنْهَا ، وَسَأَلَتْهَا عَنِ الْمَسَافَةِ إِلَى
أَقْرَبِ بَلَدٍ يَذْهَبَانِ إِلَيْهَا ، وَبَزَكَنَانٍ إِلَى الرَّاحَةِ فِيهَا . فَأَخْبَرَتْهَا
بَأَنَّهَا ثَمَانِيَةُ أُمْيَالٍ ، وَنَظَرَتْ إِلَيْهَا نَظْرَةً أَلَمَّتْ فِيهَا بِحَالِهَا ،
وَمَا أَصَابَهُمَا مِنْ نَصَبٍ^(٤) الْهَجَرَةِ ، وَعَنَاءٍ^(٥) الرَّحِيلِ . فَلَمْ تَكْتَفِ
(١) تَقَابُلَ (٢) تَسْتَظِلَ (٣) تَقْنَنَ (٤) تَعَبَ (٥) مَشَقَّةَ

بإعطائهما (الشاي) ، بل دعتهما إلى الإقامة معها الليلة رافة بهما ،
وإشفافاً عليهما ، فقبلا الدعوة شاكرين .

كانت صاحبة الهودج واسمها السيدة « جازلي » تُديرُ معرضاً
للشَّمْع ، فطلبت إلى الفتاة أن تقوم بتقديم الصورِ إلى زائري
المعرض ؛ لما ظنَّته فيها من حُسن الخلق ، ورقة الشَّيم ، وعذوبة
اللسان ، وجمال الطبع ، ووعدتها بأن تُمدَّها بما يكفلُ لها ولجدها
حياةً رغداً مُطمئنةً . فقبلت الفتاة ، وأثنت على حُسن رعايتها .
وهكذا قدَّر لها أن تعيدَ سيرتها الأولى ؛ إذ نَعِمَت بالسعادة
مع جدِّها المهرم في ظلِّ تلك السيدة البارَّة الرحيمة .

دار الزمانُ دورته ، وعاد الجدُّ إلى سالفِ أيَّامه من بؤسٍ
وشقاء ؛ فقد خرج ذات ليلةً مع حفيدته ، وضرَّبا فيما حولَ المدينة
من رياضٍ جميلةٍ ، وحقولٍ زاهرةٍ ، ومُروجٍ خضراءٍ ، يُتمتَّعان
النفْسَ بجمالِ الطبيعةِ الأخاذةِ ، ويستعيدان ذكريَ الماضي ، وما
صارا فيه من نعيمٍ ورفاهيةٍ^(١) . وبيناهما في أحلامهما إذ عَصَفَتْ
بهما ريحٌ شديدةٌ أنستهما آمالهما ، وبددت سُحْبَ هوائيهما ،
فألجأتها^(٢) إلى حانةٍ صغيرةٍ أخذتا مكانهما في ناحيةٍ منها حتى

(١) سَمَةٌ (٢) اضطرتها

تزول العاصفة ، وتهدأ الطبيعة الثائرة . ولكن شاء القدر أن تقع
المسكينة نهبا للشقاء مرة أخرى ؛ فقد حانت من الشيخ التفاتة
فوق نظره على جماعة من الأشرار يلهون ، فدنا منهم يرقب
حركاتهم في اهتمام ، فعاوده الحنين إلى اللهو واللعب ، وسرت
بين جوانحه ذكريات الماضي ، وتطلعت نفسه إلى مشاركتهم .
ولكن كيف السبيل إلى إشباع هذه الرغبة الجامحة التي انتهت به
إلى هذا المصير المؤلم ، وجعلته جواب آفاق ؟ وأنى له بالمال الذي
يدفعه ثمنا لهذا اللعب الآثم الذي طالما أظلم الحياة في وجوه
السعداء ؟ ما كان لهذا الشيخ الفاني بعد أن شعر بشيء من العافية
والسعادة بفضل حفيدته البائسة « نل » إلا أن يهدم صرح
سعادتها الجديدة ، وأن يظهر شيطانا مريدا يسرّه أن يشقى غيره ؛
فقد استولى على حافظه النقود التي لحفידته ، وفيها كل ما تملك
من حطام الدنيا . فتضرعت إليه أن يرحم ضعفها ، ويكف عما
شرع فيه . ولكن حمى اللعب قد لعبت بعقله الغافل ، وأفقده
رُشدّه ، فضرب بقولها عرض الحائط ، وتقدم إلى الجماعة شرها
في اللعب كأنه يريد أن يعوض ما فاتّه . ولما لم تجد الفتاة

سبيلاً إلى إقناعه جلست حزينه القلب ، باكية العين ، ذاهلة
 الفؤاد ، تفضل أن يهبط^(١) عليه ملك الموت فيقبض روحه ، عن
 أن تراه متهاكاً على اللهو الذي كان سبباً في ضياع منزله
 وسوء حاله .

انقضى الليل إلا أقله ولم ينته اللعب ، فلم تجد : « نل » مناصاً
 من المبيت في تلك الحانة ، فارتعت على كرسيها خائرة القوى .
 أخذ الكرى^(٢) بما قيد أجفانها ، فرأت شبحاً^(٣) في المنام سطا
 على كيس نقودها ، فسلب ما فيه بيد مرمشة ونظر حائر ، يرقبها
 حيناً ، ويصني حيناً آخر ؛ خوفاً من أن تستيقظ . ولكنها استيقظت
 من نومها منزعجة ، وهبت من رقدتها مذعورة ، فوهمت عيناها
 على جدّها وهو يسترق الخطو ويسرق الدراهم .

هكذا قدر للفتاة أن تودّع أيام الصّفو والهناء والسعادة ،
 وأن تستقبل نذر الشقاء ؛ فقد أصبح من المتعذر أن يقلع الشيخ
 عن طغيانه ، وزاده توسل فتاته تهاوتاً على اللهو ، فانقلب عطفه على
 حفيدته غلظة وخشونة ، وأصبحت وداعته شراسة ، ولينه فظاظة .
 واشتدّ في طلب النقود منها ليطن غلته ، ويروى ظمأه ، ولكن

(١) ينزل (٢) الناس (٣) شخصاً

ما الْعَمَلُ ، وهى لا تملكُ سِوَى راتبِها الضئيلِ الذى تتقاضاهُ
من السيدةِ « جَارِلَى » ؟ ولما لم تُسَعِفْهُ بِالْمَالِ الكافى لِإِشْبَاعِ نَهْمَتِهِ
عَوَّلَ على سُرْقَةِ السيدةِ « جَارِلَى » التى أَوْثَمُها بعد ضلّالهما فى
يَبْدَاءِ الْفَقْرِ الْمُدْفَعِ ، وَصَحْرَاءِ الذَّلِّ وَالْفَاقَةِ ، وَأَحْسَنْتِ إِلَيْهِمَا بَعْدَ مَا
حَلَّ بِهِمَا مِنَ الْوَأَنِ الْعَذَابِ ، وَالْمِ السَّفَرِ وَالْإِغْتِرَابِ .

قَلَبَ الدَّهْرُ لُئْلُ ظَهَرَ الْمَجْنُ ، وَبَدَّلَهَا مِنْ نَعِيمِهِ بُؤْسًا ،
وَمِنْ سَعَادَتِهِ شِقَاءً ؛ ففى اللَّيْلَةِ التى هَمَّ فيها الشَّيْخُ الْأَثِيمُ بِسُرْقَةِ
رَبَّةِ نَعْمَتِهِ ، أَخَذَتِ الْفَتَاةُ يَدَ جَدِّهَا قَبْلَ أَنْ يُقَدِّمَ عَلَى جَرِيمَتِهِ ،
وَتَرَكْتَ تِلْكَ الْبَلَدَةَ تَحْتَ جُنْحِ الظَّلَامِ رَابِطَةَ الْجَأَشِ ، غَيْرَ مُحْتَاجَةٍ
إِلَى نَصِيحَةٍ أَوْ مُسَاعَدَةٍ ، مُخْتَرِقَةً حَارَاتِ الْقَرْيَةِ وَأَزَقَتَهَا ، تَرْتَعِدُ
مِنْ شِدَّةِ الْبَرْدِ ، وَقَدْ تَوَالَتْ عَلَيْهَا الْمُحَمُّومُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، وَتَرَاءَتْ
عَلَى صَفْحَةِ ذَهْنِهَا الْمَكْدُودِ ذِكْرِيَّاتُ الْمَاضِىِ النَّعِيسَةِ ، وَتَصَرُّفَاتُ
الدَّهْرِ الْقَاسِيَةِ . فَلَمْ تَرَ بُدْءًا مِنْ تَسْلِيمِ نَفْسِهَا لِلْإِلَهِ الْقَادِرِ يُصَرِّفُهَا
أَنَّى شَاءَ . فَاقْتَضَتْ عِنَايَةَ الْبَارِئِ أَنْ يَبْدَأَ رَحِلَةً أَوْسَى مِنَ الْأُولَى
ذَاقًا فِيهَا مِنَ الْوَأَنِ الْآلَامِ مَا نَأَتْ عَنْ حَمَلِهِ الْجِبَالُ ؛ فَقَدْ نَامَا
تِلْكَ اللَّيْلَةَ فى الْخَلَاءِ يَتَوَسَّدَانِ الثَّرَى ^(١) ، وَيَلْتَحِفَانِ بِالسَّمَاءِ .

(١) التراب

وفي الصَّبَاحِ الباكرِ عَرَضَ عليهما بمضُ المارِّينِ أَخَذَهُمَا عَلَى
مَرَكَبَاتِهِمْ ، فَلَقِيَتَ (نِل) مِنْهُم عَطْفًا وَإِشْفَاقًا ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا
كَثِيرِي الشَّغَبِ وَالْمَشَاجِرَةِ فِيمَا بَيْنَهُمْ . فَوَجَفَ ^(١) قَلْبُ الْفَتَاةِ ،
وَمَلَأَ الرَّوْعُ ^(٢) فُؤَادَهَا . وَبَيْنَا هُمُ فِي طَرِيقِهِمْ إِذْ تَغَيَّرَ الْحَالُ ،
وَاكْتَهَرَ وَجْهُ الْكَوْنِ ، فَأَمْطَرَتْهُمُ السَّمَاءُ مَطَرًا أَهْتُونًا ^(٣) ، وَاسْتَمَرَّتْ
تَهْمِي ^(٤) وَتَنَدَفَعُ وَدَقُّهَا ^(٥) حَتَّى وَصَلُوا إِلَى مَدِينَةٍ كَبِيرَةٍ بَعْدَ أَنْ
جَهَدُوا . فَأَخَذَتْ « نِل » وَجَدُّهَا بِحُوسَانٍ خِلَالَ الدِّيَارِ ، وَجُيُوبِهِمَا
خَالِيَةً الْوَفَاضِ ، وَلَيْسَ مَعَهُمَا شَرَوْى تَقِيرٍ يَحْفَظُ رَمَقَهُمَا ^(٦) .
فَتَفَرَّسًا أَوْجَهَ الْمَارَّةَ عَلَيْهِمَا يَحْدَانِ مِنْ بَيْنِهِمْ مَنْ يَرِقُّ لَضَعْفِهِمَا
فِيكْرِمُ وَفَادَتَهُمَا . وَلَكِنْ لَمْ يُغْنِ الْبَحْثُ فِتِيلًا ، فَافْتَرَشَا
الْبَسِيطَةَ ، وَقَضِيًّا عَلَى تِلْكَ الْحَالِ يَوْمَيْنِ ، لَمْ يَحْصُلَا فِيهِمَا عَلَى
قُوْتٍ سِوَى رَغِيفٍ تَقَاسَمَاهُ . وَلَمَّا جَاءَ الْيَوْمُ الثَّالِثُ — وَقَدْ بَلَغَ
الضَّعْفُ بِالْفَتَاةِ مَبْلَغَهُ ، وَأَنَهَكَهَا الْمَرَضُ ، وَلَمْ تُظْهَرْ شِكَايَةٌ وَلَا الْمَاءُ —
صَمَّمَتْ فِي الرَّحِيلِ مِنْ تِلْكَ الْمَدِينَةِ الصَّاخِبَةِ إِلَى الرَّيْفِ الْهَادِي
تَنْشُدُ أُمْنًا وَقَرَارًا ، وَتَأْمُلُ خَفْضَ الْعَيْشِ ، وَرِفَاهَةَ الْحَيَاةِ ،

(١) اضطرب (٢) الخوف والفرع (٣) هتَن المطرُ : قطرَ

(٤) تسيل (٥) مطرها (٦) الرَّمَقُ: بقية الحياة

فكابدتْ هي وجدُّها مَشَاقَّ السَّفَرِ . وفي الطَّرِيقِ لَاحَ لها عن
بُعْدٍ شَبَحُ مُسَافِرٍ يَسِيرُ أَمَامَهَا ، فَأَحْيَاهَا شِعَاعُ الْأَمَلِ ، وَتَقَدَّمَتْ
تَسْتَحِثُّ السَّيْرَ لِتَأْنَسَ بِهِ ، وَلَكِنْ كَيْفَ الْوَصُولُ وَهِيَ مُتَهَدِّمَةٌ
الْقُوَى ؟ فَلَمْ تَلْبَثْ أَنْ هَوَتْ عَلَى وَجْهَهَا تَتَنُّ وَتَصْرُخُ بِصَوْتٍ
خَافِتٍ ، أَتَسْكَلُهُ حَادِثَاتُ الزَّمَانِ ، وَنَكَبَتُهُ النَّائِبَاتُ ، وَقَصَمَتُهُ
الْأَرْزَاءُ ؛ فَقَدْ كَانَتْ تَجِدُّ فِي السَّيْرِ عَلَى الطَّوْى ^(١) أَيَّامًا ، وَتُغَالِبُ
الْبُؤْسَ وَالْبَلَاءَ حَتَّى سَقَطَتْ خَائِرَةَ الْقُوَّةِ ، مُقَطَّعَةَ الْقَلْبِ .

سَمِعَ الْمَسَافِرُ أُنْبِيَهَا ، فَهَرُولٌ ^(٢) إِلَيْهَا لِاتِّقَادِهَا ، فَإِذَا هِيَ فَاقِدَةٌ
الْوَعَى ، فَأَشْفَقَ عَلَيْهَا ، وَحَمَلَهَا بِلَيْنٍ وَرَفَقٍ إِلَى فُنْدُقٍ صَغِيرٍ
قَرِيبٍ مِنْهَا ، حَيْثُ وُضِعَتْ بِعَنَاقَةِ فِي الْفِرَاشِ . اسْتَشَارَ فِي
أَمْرِهَا الطَّبِيبَ ، فَكَتَبَ لَهَا الدَّوَاءَ ، وَوَعَدَهُ الشِّفَاءَ . وَسُرْعَانَ
مَا عَادَ إِلَى « نِيل » رُشْدُهَا ، فَوَقَعَ نَظَرُهَا لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ عَلَى ذَلِكَ
الشَّخْصِ الَّذِي كَانَ سَبَبَ بَقَائِهَا ؛ فَإِذَا هُوَ الْمُدْرُسُ صَاحِبُ الْأَيْدِي
الْبَيْضَاءِ عَلَيْهَا مِنْ قَبْلُ ، كَانَ فِي طَرِيقِهِ إِلَى مَنْزِلِهِ الْجَدِيدِ .

أَبْلَتْ ^(٣) « نِيل » مِنْ مَرَضِهَا ، وَعَاوَدَهَا مَرَحُهَا وَسُرُورُهَا ، فَنَصَحَ

(١) الجوع (٢) أسرع (٣) شفت

لها المدرّسُ بِمُرافقته إلى القرية التي نُقل إليها ، وأخبرها بأنه سيَبْذُلُ قُصارَى جُهدِهِ في البَحْثِ عن عَمَلٍ يَكْسِبَانِ مِنْهُ قُوَّتَهُمَا ، فَالَا إِلَيْهِ ، وَجَنَحَا إِلَى مَشُورَتِهِ . وَأَقَامَا فِي تِلْكَ الْقَرْيَةِ الرِّيفِيَّةِ هَادِيَيْنِ مُطْمَئِنِّينِ . وَكَثِيرًا مَا كَانَتْ « نِل » تَذْهَبُ خُلْسَةً إِلَى الْكَنِيسَةِ ، وَتَجْلِسُ بَيْنَ الصُّوَرِ وَالتَّمَاثِيلِ الْمُنْحَوْتَةِ عَلَى الْقُبُورِ ، تَفَكَّرُ فِي أَيَّامِ الصَّيْفِ ، وَجَمَالِ الرِّيعِ ، وَتَغْرِيدِ الطُّيُورِ ، مِمَّا تَنْتَبِشُ بِهِ الْحَيَاةَ ، وَيَعْلَا النُّفُوسَ بِهَجَةٍ وَرَوَعَةٍ . وَلَكِنَّ وَجُودَهَا بَيْنَ أَحْضَانِ الرُّمُوسِ ^(١) ، وَمَا قَاسَتَهُ فِي حَيَاتِهَا مِنْ ضُرُوبِ الشَّقَاءِ وَالْوَلَنِ الْعَذَابِ — أَيْقَظَا فِي رُوحِهَا حُبَّ الدَّارِ الْبَاقِيَةِ ، وَحُبًّا إِلَيْهَا النَّزُوعَ عَنِ الْحَيَاةِ الْفَانِيَةِ . حَيْثُ تَرْفِرُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ ، وَرُسُلُ السَّلَامِ .

غَالَتْ « نِل » فِي أَفْكَارِهَا وَهَوَاجِسِهَا ، وَأَخَذَتْ تَسْتَرْجِعُ أَيَّامَ بُوْئِهَا وَصَبْرِهَا عَلَى الشَّدَائِدِ ، فَمَا زَادَهَا ذَلِكَ إِلَّا وَهْنًا ^(٢) عَلَى وَهْنٍ ، فَبَدَأَ نَجْمُ حَيَاتِهَا يَأْفُلُ ، وَأَخَذَتْ زَهْرَتُهَا تَذْبُلُ ، حَتَّى وَافَاهَا الْقَدَرُ الْمَحْتَوِمُ . فَلَبَّتْ نِدَاءَ رَبِّهَا غَيْرَ أَسْفَةٍ عَلَى حَيَاتِهَا ، وَذَهَبَتْ ضَحِيَّةً جَدُّهَا ، وَدُفِنَتْ فِي مَقَابِرِ الْكَنِيسَةِ الَّتِي كَانَتْ

(١) القبور (٢) الوهن : الضعف

تجلسُ إليها مُستسلمَةً لخواطرها المؤلمة. فحزن الجدُّ حُزنًا شديدًا؛
فقد فارقَه قَبَسُ الأملِ الذي استضاء به ، ومَن كانت له عونًا في
المِحَن ، وهاديًا وقتَ البلاء. فأقامَ على قَبْرِها جاثيًا على رُكْبَتَيْهِ ،
يندُبُ حظَّهُ وسوءَ مَصِيرِهِ ، وأمامَهُ قُبَّةٌ لها من القشِّ ،
وبجانِبِهِ السَّلَّةُ التي كانت تَحْمِلُها — وعيناه تَقْطُرُ دَمًا — يَنْتَظِرُ
أَوْبَتَهَا^(١) فلا تعودُ. فَلَ الحَيَاةَ ، وأَبْنَضَ كُلَّ شَيْءٍ في الوُجُودِ ،
وودَّ من صميمِ قُودِهِ أن يودَّعَ العالمَ ، فيلْحَقَ بِمَن بَدَلَتْ
حَيَاتُهَا رَغْبَةً في إِسعادِهِ .

بقيَ الجدُّ على تلك الحالِ يَنعَمُ^(٢) حفيدته ، وقَدَمَاهُ تُسرعان
الخطو إلى هاويةِ القبرِ ، وروحُهُ يُناجيها مَلَكُ الموتِ من
أبواب السماء ، حتى فاضتْ مُستسلمَةً إلى خالقها. فوسَّدَ التُّرى^(٣)
بجوارِفَتاه ، تُظِلُّهُمَا سَمَاءُ قَبْرِ واحدٍ ، يَرْتَشِفَانِ رَحيقَ الحَيَاةِ الخالدةِ ،
بعد ما جَرَعَا أَقداحَ المذَلَّةِ والهوانِ ، بين أحضانِ الحَيَاةِ الزَّائِلَةِ .

﴿ انتهى والحمد لله ﴾

(١) رجوعها (٢) النعمى : خبر الموت

(٣) الترى : التراب



خمسون ألف دولار

إرنست همنجواي

ترجمة وتقديم: د. موسى الحالول

مراجعة: د. إسماعيل صافية

خمسون ألف دولار

[١٩٢٧]

«كيف حالك أنت، يا جاك؟» سألتُه.
«هل رأيت والكوت هذا؟».
«في الجيمانزيوم فقط».
«سأكون في حاجة إلى حظ عظيم لمواجهة هذا الصبي»، قال
جاك.
«لن يتمكن من إصابتك، يا جاك»، قال سولجر.
«أتمنى ذلك من كل قلبي».
«لن يتمكن من إصابتك ولو بحفنة من الخُرْدُق».
«لا بأس بالخردق»، قال جاك. «لست أمانع الخردق على
الإطلاق».
«يبدو أنه فريسة سهلة»، قلتُ له.
«بالتأكيد»، قال جاك. «لن يدوم طويلا. لن يدوم مثلي ومثلك،
يا جيري. لكنه الآن لديه كل شيء».
«ستسقيه كأس المنون من يُسْرَاك».
«ربما»، قال جاك. «ومن المؤكد أن أمامي فرصة».
«افعل به ما فعلت بكِدّ لويس»^(١٤).
«ذاك الصبي لويس»، قال جاك. «ذلك الكايك!»^(١٥).

(١٤) تيد لويس (١٨٩٤ - ١٩٧٠): ملاكم يهودي من مواليد لندن، اسمه الحقيقي غيرشِن مندلوڤ، ويُلقب «كِد» أيضا [المترجم].
(١٥) الكايك هو تعبير قديم يستخدمه الأمريكيون للإشارة إلى أي شخص يهودي، وغالبا ما يرتبط هذا اللقب بفكرة البُخل [المترجم].

كنا نحن الثلاثة، جاك بريّن^(١٦)، وسولجر بارتلت، وأنا في مطعم هانلي، وكانت تجلس إلى طاولة بجانبنا امرأتان، وكانتا تتناولان المشروب.

«ماذا تقصد بكايك؟» سألت إحدى المرأتين. «ماذا تقصد بكايك، أيها المتسكع الإيرلندي السمين؟»
«فقط ما قلت، لا زيادة ولا نقصان»، قال لها جاك.
«كايك»، تابعت المرأة. «دائما يتحدث هؤلاء الإيرلنديون السمان عن الكايك. ماذا تقصد بكايك؟»
«هيا بنا. دعنا نخرج من هنا».

«كايك»، تابعت المرأة. «قل لي: من رآك يوما تشتري مشروبا؟ إن زوجتك تخيط لك جيوبك كل صباح. سئمت من هؤلاء الإيرلنديين ومن تصوراتهم عن الكايك. إن بإمكان تد لويس أن يهزمك أيضا».

«من دون شك»، قال جاك. «أما أنت فامرأة مُحسنة تهب كثيرا مما عندها، أليس كذلك؟»
خرجنا. هكذا هو جاك. دائما يقول ما يحلو له حينما يحلو له ذلك.

بدأ جاك تدريبه في مُنتَجَع داني هوغن الصحي في جيرزي^(١٧). لم يستسغها جاك على حسناتها. لم يكن يريد الابتعاد عن زوجته وأولاده، لذلك كنت تراه ممرورا، متجهما في معظم الأحيان.

(١٦) لا يوجد ملاكم أمريكي باسم جاك بريّن ولا باسم والكوت، مما يقودنا إلى الاعتقاد بأن همنغواي رسم هاتين الشخصيتين على شاكلة ملاكمين حقيقيين بعد أن غير اسميهما [المترجم].

(١٧) تقع جيرزي ستي في الشمال الشرقي من ولاية نيو جيرزي، وهي قريبة من شاطئ المحيط الأطلسي [المترجم].

لكنه أحبني وسارت الأمور بيننا على خير ما يرام، كما أحب هوغن أيضاً، لكنه بعد مدة بدأ يتضايق من سولجر بارتلت. إن وجود مزّاح في معسكر يتحول إلى نقمة، لاسيما إذا صار مزاحه من النوع الثقيل. كان سولجر لا يكف عن ممازحة جاك، ولم يكن مزاحه مضحكا ولا جيدا، فأصبح جاك يتضايق منه. كان مزاحه من هذه النوعية. كان جاك ينهي تمرينه برفع الأثقال وملاكمة الكيس وهو يرتدي قفازيه.

«هل تريد أن تتمرن؟» كان يقول لسولجر.

«بالتأكيد. لكن كيف تريدني أن أتمرّن؟» كان سولجر يسأله.
«هل تريدني أن أقسو عليك مثل والكوت؟ أم تريدني أن أطرحك أرضا عدة مرات؟».

«كفى»، كان جاك يقول له. ولم يكن يحب ما يسمعه من سولجر.

ذات صباح كنا جميعا نسير على أحد الدروب. كنا قد قطعنا مسافة، وكنا نُقْفِلُ عائدين. كنا نسير بسرعة لمدة ثلاث دقائق، ثم نمشي ببطء دقيقة واحدة، ثم نعاود الكرة مرة أخرى. لم يكن جاك ممن يمكنك أن تسميهم بالعدائين على الإطلاق. فهو قادر على التحرك بسرعة إن اضطر إلى ذلك، لكنه على الدرب لم يكن كذلك. وطوال مسيرنا كان سولجر يمازحه. صعدنا الراية وبلغنا المنزل، فقال جاك:

«يجدر بك أن تعود إلى المدينة، يا سولجر».

«ماذا تقصد؟».

«يجدر بك أن تعود إلى المدينة وتبقى فيها».

«لماذا؟».

«لأنني سئمت سماع حديثك».

«حقاً؟» سأله سولجر.

«حقاً» قال جاك.

«ستزداد سأمًا على سأم عندما ينتهي منك والكوت».

«ربما»، قال جاك. «لكن ما أعلمه علم اليقين هو أنني

سئمتك».

وهكذا ارتحل سولجر بالقطار إلى المدينة في صباح ذلك

اليوم. ذهب معاً إلى المحطة، وكان يتصعد غيظاً.

«لقد كنت أمارحه ليس إلا»، قال لي ونحن ننتظر على

الرصيف. «لا يمكنه أن يعاملني بتلك الطريقة، يا جيري».

«إنه متوتر الأعصاب ومتعكر المزاج»، قلت له. «لكنه شخص

طيب، يا سولجر».

«وأي طيب فيه؟ إذا كان في الجحيم شخص طيب، فهو

طيب».

«على أي حال، وداعاً»، قلت له.

وصل القطار، فصعد مع حقيبته.

«وداعاً، يا جيري»، قال لي. «هل ستأتي إلى المدينة قبل

المباراة؟».

«لا أظن ذلك».

«إلى اللقاء في ذلك الحين».

دخل إلى القطار، فقفز الجابي وتابع القطار رحلته. عدت

إلى المنتجع الصحي راكباً عربة. كان جاك في رواق المنزل يكتب

رسالة إلى زوجته. كان البريد قد وصل، فأخذت الصحف واتجهت نحو الطرف الآخر من الرواق وجلست للقراءة. طلع هوغن من الباب قاصدا إياي.

«هل حصل شجار بينه وبين سولجر؟»
«لم يكن شجارا. كل ما هنالك أن جاك طلب منه أن يعود إلى المدينة.»

«كنت أتوقع ذلك»، قال هوغن. «لم يستسغ سولجر كثيرا.»
«لم يكن يستسغ كثيرا من الناس.»
«إنه شخص بارد العواطف»، قال هوغن.
«في الحقيقة أنا لم أر منه سوءا.»
«ولا أنا»، قال هوغن. «لست من أنصاره، لكنه يظل شخصا بارد العواطف.»

دخل هوغن من الباب المنخلي وبقيت جالسا في الرواق وقرأت الصحف. كان الطقس قد بدأ يميل إلى الخريفي وكانت المروج في جيرزي جميلة، لا سيما في التلال، وبعدها فرغت من قراءة الجريدة كاملة، رحت أراقب المروج والطريق التي بينها وبين الغابات والسيارات تسلكه مثيرا وراءها زوابع من الغبار. كان الطقس جميلا والمروج رائعة المنظر. جاء هوغن إلى الباب، فقلت له، «قل لي، يا هوغن، أليس لديك صيد هنا؟»

«نعم»، قال هوغن. «لا شيء سوى العصافير.»

«هل رأيت الجريدة؟» سألت هوغن.

«ماذا فيها؟»

«لقد طرد ساند ثلاثة منهم يوم أمس.»

«لقد علمت بالأمر هاتفياً ليلة أمس».
«هل تتبع أخبارهم عن كثب، يا هوغن؟» سألته.
«بل أبقى على اتصال معهم»، قال هوغن.
«وماذا عن جاك؟» قلت له. «هل لا يزال يشترك في تلك
المباريات؟».

«جاك؟» قال هوغن. «وهل تظنه يستطيع ذلك؟».
في تلك اللحظة بالذات جاء جاك من عند الزاوية حاملاً
الرسالة في يده. كان يرتدي كنزة وبنطالاً قديماً وحذاء
ملاكمة.

«هل لديك طابع، يا هوغن؟» سأل جاك.
«أعطني الرسالة»، قال له هوغن. «سأضعها لك في
البريد».
«قل لي، يا جاك، ألم تكن تشترك في سباقات الخيول؟»
سألته.
«بالتأكيد».

«كنت أعلم ذلك. لقد كنت أراك في شيبزهد»^(١٨).
«لماذا لم تعد تشترك فيها؟» سأله هوغن.
«خسرت الأموال».
جلس جاك في الرواق بجانبني، واتكأ على عمود خلفه. أغمض
عينيه في الشمس.
«هل تريد كرسياً؟» سأله هوغن.
«لا. لا بأس بهذا»، قال جاك.

(١٨) شيبزهد خليج صغير قريب من مدينة نيويورك [الترجم].

«إنه يوم جميل»، قلت له. «إنه شيء جميل أن يكون المرء في الريف».

«إنني أفضل أن أكون في المدينة مع زوجتي».

«على أي حال، لم يتبق لك سوى أسبوعٍ واحد».

«أجل»، قال جاك. «هو كذلك».

بقينا جالسين في الرواق، وكان هوجن قد دخل المكتب.

«ما رأيك في هذه الهيئة التي أنا عليها؟» سألتني جاك.

«في الحقيقة، لا يبدو عليك ما يلفت الانتباه»، قلت له. «ثم إن

لديك أسبوعا بكامله لتبدو على ما يرام».

«لا تُراوغ».

«حسنٌ، لستَ على ما يرام»، قلت له.

«لست أنا»، قال جاك.

«ستكون على ما يرام في غضون يومين».

«لا»، قال جاك. «لقد أصابني الأرق».

«ما الذي يشغل بالك؟».

«إنني أفتقد زوجتي».

«دعها توافيك هنا».

«لا. لقد كبرت على هذه الأمور».

«سنذهب معك في مشوار طويل سيرا على الأقدام، وحين

تعود ستكون قد تعبت تماما».

«تعبت تماما!» قال جاك. «أنا دائما متعب».

ظل على هذه الشاكلة طوال الأسبوع. كان يأرق ليلا، وينهض

صباحا وهو يشعر كأنه لا يقوى ولو على تحريك يديه.

«لقد فقد نكهته كأنه قطعة حلوى في بيت فقير»، قال هوغن.
«لقد أصبح أثرا بعد عين».
«لم أر والكوت قط»، قلت لهوغن.
«سيقتله والكوت»، قال هوغن. «سيشطرُه نصفين».
«لا بد من الهزيمة، إن عاجلا أو آجلا»، قلت له.
«ليس بهذه الطريقة»، قال هوغن. «سيظن
الناس أنه لم يتدرب قط، وهذا سيشكل صفة موجهة لسمعة
المنتج».
«هل سمعت ما قاله عنه الصحافيون؟»
«طبعاً، قالوا إن وضعه يُرثى له، وقالوا إنه يجب أن يُمنع من
دخول المباراة».
«ولكنهم دائماً يخطئون، أليس كذلك؟» قلت له.
«أجل»، قال هوغن. «ولكنهم مُحَقِّقُونَ هذه المرة».
«وما الذي بحق الجحيم يعرفونه عما إذا كان المرء على
ما يرام أو لا؟»
«لكنهم ليسوا أغبياء كما تظن»، قال هوغن.
«كل ما فعلوه هو أنهم اصطادوا ولُرد في توليدو. اسأل
لاردنر، هذا الذي ظهرت عليه الحكمة فجأة، متى اصطاد ولُرد
في توليدو»^(١٩).
«في الحقيقة إنه لم يخرج قط»، قال هوغن. «إنه لا يكتب إلا
عن المباريات الكبرى».

(١٩) جِس ولُرد (١٨٨٣ - ١٩٦٨): ملاكم أمريكي وبطل العالم للوزن الثقيل (١٩١٥ - ١٩١٩)؛ توليدو مدينة في ولاية أوهايو الأمريكية؛ أما لاردنر فقد يكون المقصود رِنغ لاردنر (١٨٨٥ - ١٩٣٣) وهو صحافي أمريكي فكاهي، وكاتب قصة قصيرة [المترجم].

«لا يهمني من يكونون»، قلت له. «ما الذي يعرفونه بحق الجحيم؟ ربما يستطيعون أن يكتبوا، لكن ما الذي يعرفونه بحق الجحيم؟».

«وَأنت، ألا تظن أن جاك غير مؤهل؟» سألني هوغن.
«بلى. لقد انتهى. كل ما يحتاج إليه هو أن يختاره كوربيت للفوز ثم ينتهي كل شيء»^(٢٠).
«وهذا ما سيفعله كوربيت بالضبط»، قال هوغن.
«بالطبع سينتقيه».

أمضى جاك ليلته تلك ولم يغمض له جفن أيضا. كان صباح اليوم التالي اليوم الأخير قبل المباراة. بعد الإفطار خرجنا إلى الرواق مرة أخرى، فسألته:

«ما الذي تفكر فيه عندما تأرق؟».

«إنني كثير القلق»، قال جاك. «أقلق على أملاكي في برونكس»^(٢١)، وأقلق على أملاكي في فلوريدا. أقلق على أولادي. أقلق على زوجتي. وفي بعض الأحيان أفكر في المباريات. أفكر في ذلك الكايك تد لويس فأكاد أنفجر من الغيظ. أقلق على ما لدي من أسهم تجارية. ما الذي بقي لي لا أفكر فيه؟».

«لا بأس»، قلت له. «سينتهي كل شيء ليلة الغد».

«بالتأكيد»، قال جاك. «هذا ما يجلب إلي الطمأنينة. إن هذا يُصلح ما يُفسد عليّ القلق، على ما أظن. بالتأكيد».

ظل مغتاظا سحابة يومه. لم نتمرن على الإطلاق. قام جاك

(٢٠) جيمس كوربيت (١٨٦٦ - ١٩٢٣): ملاكم أمريكي وبطل العالم للوزن الثقيل (١٨٩٢ - ١٨٩٧) [المترجم].

(٢١) برونكس: اسم أحد أحياء مدينة نيويورك [المترجم].

ببعض الحركات البسيطة للتخلص من التوتر، ولاكم الظل عدة مرات. وحتى في هذه لم يُبَلِّ بلاء حسنا. قام بنط الحبل قليلا، لكنه لم يتعرق.

«يجدر به ألا يتدرب اليوم على الإطلاق»، قال هوغن. «كنا نقف نراقبه وهو ينط الحبل».

«ألم يعد قادرا على التعرق؟».

«لا يستطيع ذلك».

«أتظن أن لديه ما يلزمه من الثقة؟ لا يبدو أنه يواجه مشكلة في اكتساب الوزن، أليس كذلك؟».

«لا، ليس لديه ما يلزم من الثقة. لقد أصبح خاويا ذاويا من الداخل».

«عليه أن يتصبب عرقا».

أقبل جاك علينا وهو ينط الحبل. كان يرتفع ويهبط أمامنا، مُصَالِبًا ذراعيه عند النطة الثالثة.

«فيم تتحدثان، أيها الأحمقان؟» قال جاك.

«أظن أنه يتعين عليك أن تكف عن التمرين»، قال له هوغن. «ستفقد نكهتك».

«يا للهول!» قال جاك وراح ينط مبتعدا عنا، وكان يضرب الحبل على الأرض ضربا شديدا.

في عصر ذلك اليوم حضر إلى المزرعة جون كولينز. كان جاك في غرفته في الأعلى. حضر جون في سيارة من المدينة. كان يرافقه صديقان له. توقفت السيارة، فترجلوا جميعا. «أين جاك؟» سألتني جون.

«يستلقي في غرفته».

«يستلقي في غرفته؟».

«نعم»، قلت له.

«كيف حاله؟».

تطلعت في الشخصين اللذين جاءا مع جون.

«إنهما من أصدقائه»، قال جون.

«إنه في وضع يُرثى له»، قلت له.

«ما مشكلته؟».

«إنه لا ينام».

«تبا له»، قال جون. «لم يستطع ذلك الإيرلندي أن ينام».

«إنه ليس على ما يرام»، قلت له.

«تبا له»، قال جون. «لم يكن قَط على ما يرام. لقد عرفته مدة عشر سنوات، ولم يكن قَط على ما يرام».

ضحك رفيقاه اللذان أتيا معه.

«أريد أن أقدم لك السيد مورغن والسيد ستاينفلت»، قال جون، ثم قدمني لهما قائلاً، «هذا هو السيد دُوَيْل، مدرب جاك».

«سُررت بلقائكما»، قلت لهما.

«دعونا نذهب لرؤية الصبي»، قال الذي يُدعى مورغن.

«دعونا نلق نظرة عليه»، قال ستاينفلت.

صعدنا الدرج جميعاً.

«أين هوغن؟» سألتني جون.

«لقد خرج إلى المنتجع مع اثنتين من زبائنه»، قلت له.

«هل يأتيه كثير من الناس هنا؟» سألتني جون.

«أثنان فقط».

«مكان هادئ جدا، أليس كذلك؟» قال مورغن.

«نعم، إنه كذلك»، قلت له.

وقفنا عند باب غرفة جاك، فطرقه جون. لم نسمع جوابا.

«قد يكون نائما»، قلت له.

«ولماذا بحق الجحيم ينام نهارا؟».

أدار جون مقبض الباب، ودخلنا جميعا. كان جاك يرقد نائما

في فراشه. كان مُكَبِّا على وجهه. كان وجهه يغوص في الوسادة التي يطوقها بذراعيه.

ناداه جون باسمه.

تحرك رأس جاك على الوسادة قليلا. مال عليه جون ونداه

باسمه ثانية. فما كان من جاك إلا أن غاص أعمق فأعمق في الوسادة. رُبَّت جون على كتفه برفق. اعتدل جاك ونظر إلينا. كان غير حليق ويرتدي كنزة عتيقة.

«لماذا لا تتركوني أنام، بحق الله؟».

«لا تكن مغتاظا»، قال جون. «لم أقصد إيقاظك».

«طبعاً، طبعاً، لم تقصد إيقاظي»، قال جاك.

«أنت تعرف مورغن وستاينفلت»، قال له جون.

«سُررت برؤيتكما»، قال جاك.

«كيف حالك، يا جاك؟» سأله مورغن.

«بخير»، قال جاك. «قل لي بحق الجحيم كيف ستكون

حالي؟».

«تبدو بخير»، قال ستاينفلت.

«فعلاً»، قال جاك، ثم توجه بحديثه إلى جون، «أنت تدير أمورِي، وتحصل على مرتب ضخْم. لكن قل لي بحق الجحيم لماذا لا تأتي إلى هنا عندما يأتي الصحفيون؟ أتريدني أن أتحدث إليهم أنا وجيري؟».

«كنت أرافق لو في مباراته في فيلادلفيا»، قال جون.
«وماذا بحق الجحيم يهمني من كل هذا؟» قال جاك. «أنت تدير شؤونِي، وتحصل على مرتب ضخْم، أليس كذلك؟ وهل كسبتُ أنا من ذهابك إلى فيلادلفيا أي فلس؟ قل لي بحق الجحيم لماذا لا أجِدك معي حين أريدك؟».
«ألم يكن هوغن معك؟».

«هوغن؟» تساءل جاك. «أنا وهو متساويان في الغباء!».
«ألم يكن سولجر بارتلت يعمل معك هنا بعض الوقت؟» قال ستاينفلت محاولاً تغيير الموضوع.
«نعم، لقد كان هنا»، قال جاك. «لقد كان هنا من غير شك».
«هلاً ذهب، يا جيري، إلى هوغن وقلت له إنا نريد أن نراه بعد نصف ساعة؟» قال لي جون.
«بالتأكيد»، قلت له».

«ولماذا بحق الجحيم لا يبقى إلى جانبي؟» قال جاك. «ابق بجانبِي، يا جيري».

نظر كل من مورغن وستاينفلت أحدهما إلى الآخر.
«اهداً، يا جاك»، قال له جون.
«يجدر بي أن أذهب للبحث عن هوغن»، قلت له.
«لا بأس في ذلك إن كان هذا ما تريده»، قال جاك. «لا يحق

لأي من هؤلاء أن يطردك».

«سأذهب للبحث عن هوغن»، قلت له.

كان هوغن في الجيمانزيوم في المنتجع. كان يدرب اثنين من مرضى منتجعه وهما يرتديان قفازيهما. لم يكن أيُّ منهما راغبا في لكم الآخر، خشية أن يرد الآخر على اللكمة بمثلها.

«هذا يكفي»، قال هوغن عندما رأيته مقبلا. «أوقفا هذه المذبحة. استحمّا أيها السيدان، وسيقوم بروس بتدليككما».

تسللا نازلين من بين الحبال، وأقبل هوغن نحوي، فقلت له: «لقد جاء جون كولنز مع اثنين من أصدقائه لرؤية جاك».

«لقد رأيتهما يأتیان في السيارة».

«من هذان الشخصان اللذان حضرا مع جون؟».

«إنهما ممن يُسمون بالصبيان الشُّطّار»، قال هوغن. «ألا

تعرفهما؟».

«لا»، قلت له.

«واحد اسمه هاڤي ستاينفلت والآخر لو مورغن. لديهما صالة ألعاب بلياردو».

«لقد غبتُ طويلا»، قلت له.

«بالتأكيد»، قال هوغن. «هاڤي ستاينفلت داهيةٌ كبير».

«لقد سمعت باسمه من قبل»، قلت له.

«إنه ولد بارع جدا»، قال هوغن. «إنهما قنّاصان ماهران».

«على أي حال، هم يريدون رؤيتنا بعد نصف ساعة».

«أنت تقصد أنهم لا يريدون رؤيتنا قبل نصف ساعة؟».

«أجل، هذا قصدي».

«هيا بنا إلى المكتب»، قال هوغن. «ليذهب ذاك القناصان إلى الجحيم».

بعد نحو ثلاثين دقيقة صعدنا الدرج أنا وهوغن. قرعنا باب جاك. كانوا يتحدثون داخل الغرفة. «لحظة»، قال أحدهم.

«تبا لكم!» قال هوغن. «إن أردتم رؤيتي فأنا موجود في مكتبي في الأسفل».

سمعنا قفل الباب ينفتح، وكان ستاينفلت هو الذي فتحه. «تفضل، يا هوغن»، قال ستاينفلت. «سنتناول جميعا المشروب».

«اقترح لا بأس به»، قال هوغن.

دخلنا، فوجدنا جاك يجلس على سريره. كان جون ومورغن يجلسان على كرسيين، بينما كان ستاينفلت واقفا. «أنتم أولاد تتعاملون بكثير من الألفاظ»، قال هوغن. «مرحبا، يا داني»، قال جون.

«مرحبا، يا داني»، قال مورغن وصافحه.

ظل جاك صامتا، جالسا على سريره. لم يكن مع من حوله. بل مع نفسه وحدها. كان يرتدي سترة زرقاء عتيقة، وبنطالا وحذاء ملاكمة. كانت ذقنه في حاجة إلى حلاقة. كان ستاينفلت ومورغن متأنقين في لباسهما، وكذلك كان جون. أما جاك فقد كان إيرلنديا خشنا.

أخرج ستاينفلت زجاجة مشروب، وأحضر هوغن بعض الكؤوس، فتناول كل واحد جرعة واحدة. اكتفينا أنا وجاك

بجرعة واحدة، لكن الآخرين تناولوا جرعتين أو ثلاثا.
«يجدر بكم أن توفرُوا شيئاً لرحلة العودة»، قال هورغن.
«لا تقلق، فلدينا كثير»، قال مورغن.
لم يتناول جاك أي شيء منذ تلك الجرعة. نهض ونظر إليهم جميعاً. حل مورغن محل جاك على السرير.
«هيا، خذ جرعة أخرى، يا جاك»، قال له جون وناولوه الكأس والزجاجة.

«لا»، قال جاك. «لم أكن مغرماً قط بالذهاب إلى مجالس السهر عند جثث الأموات»^(٢٢).
ضحكوا جميعاً ما عدا جاك.
كانوا جميعاً في معنويات جيدة عندما غادروا. وقف جاك في الرواق عندما ركبوا السيارة. لوحوا له، فقال لهم: «وداعاً».
تناولنا العشاء ولم يقل جاك شيئاً سوى: «هلا ناولتني هذه؟» أو «هلا ناولتني تلك؟» تناول العشاء معنا على المائدة نفسها مريضاً المنتجعاً الصحي. كانا شخصين رائعين. بعد أن انتهينا من الطعام خرجنا إلى الرواق، وكان الظلام قد حل باكراً.
«هل تحب أن تتمشى، يا جيرى؟» سألتني جاك.
«بالتأكيد»، قلت له.

ارتدى كل منا معطفه وانطلقنا. كانت تفصلنا عن الطريق الرئيسي مسافة لا بأس بها، ثم مشينا على الطريق مسافة ميل ونصف الميل. كانت السيارات تمر بنا باستمرار وكنا نضطر إلى الابتعاد عنها حتى تتجاوزنا. ظل جاك صامتا. ولم نكد ندخل

(٢٢) يسهر أهل الميت وأصدقاؤه في إيرلندا طوال الليل عند جثته قبل دفنها، ويرافق ذلك إسراف في تناول المشروبات الروحية [المترجم].

بين الأحرار لندع سيارة كبيرة تمر، حتى قال جاك، «تبا لهذا المسير. هيا بنا نعد إلى منزل هوغن».

سلكنا طريقا فرعيا يمر فوق الرايبة ويخترق الحقول نحو منزل هوغن. عندما بلغنا قمة الرايبة شاهدنا أنوار المنزل. عرّجنا على المدخل الأمامي للمنزل فرأينا هوغن واقفا في الممر. «كيف كان المشوار؟»

«لا بأس»، قال جاك. «قل لي، يا هوغن، هل لديك أي مشروب؟»

«بالتأكيد»، قال هوغن. «لكن لماذا؟»

«ابعث به إلى غرفتي»، قال له جاك. «أريد أن أنام الليلة».

«أنت الطبيب»، قال هوغن.

«تعال معي إلى الغرفة، يا جيري»، قال جاك.

جلس جاك في غرفته على السرير وأمسك رأسه بكلتا يديه.

«أي حياة هذه؟» قال جاك.

جاء هوغن بربعية مشروب وكأسين.

«هل تريد شراب الزنجبيل؟»

«وهل تظن أنني أريد أن أمرض؟»

«كان مجرد سؤال»، قال هوغن.

«هل تريد أن تشرب؟» سأله جاك.

«لا، شكرا»، قال هوغن، ثم خرج.

«وأنت، يا جيري؟»

«سأتناول جرعة واحدة معك»، قلت له.

صب جاك جرعتين من المشروب، ثم قال، «والآن أريد أن أتناول مشروبي على مهل».

«أضف إليه بعض الماء»، قلت له.

«أجل»، قال جاك. «أعتقد أنه يجدر بي أن أفعل».

تناولنا جرعتين من المشروب بصمت، ثم راح جاك يصب لي جرعة أخرى.

«لا»، قلت له. «لقد اكتفيت».

«لا بأس»، قال جاك ثم صبّ لنفسه جرعة أخرى كبيرة وأضاف إليها بعض الماء. راحت أساريه تنفرج قليلا.

«كانت تلك زمرة ممتازة التي زارتنا عصر هذا اليوم»، قال جاك. «إنهما لا يجازفان إطلاقاً».

ثم بعد هُنيهة أضاف: «لا بأس بهما. قل لي بحق الجحيم أي نفع في المجازفة؟».

«ألا تريد جرعة أخرى، يا جيري؟» سألني. «هيا، اشرب معي»^(٢٣).

«لست في حاجة إليه، يا جاك»، قلت له. «أنا بخير».

«فقط جرعة أخرى»، قال جاك. بدا رقيقاً مع المشروب.

«لا بأس، إذن»، قلت له.

صب جاك جرعة لي وواحدة أخرى كبيرة لنفسه.

«هل تعلم أنني مغرم بالشراب؟» قال جاك. «لولا الملاكمة لشربت كثيراً».

«بالتأكيد»، قلت له.

(٢٣) من عادة همنغواي في بعض الأحيان أن يقطع حديث إحدى شخصياته ليستأنفه في فقرة جديدة، كما في هذه الفقرة والتي تسبقها [المترجم].

«وهل تعلم أنه فاتتني كثير بسبب الملاكمة؟».

«لكنك جنيت مالا كثيرا».

«بالتأكيد»، فهذا ما أسعى إليه. لقد فاتتني كثير، يا جيري».

«ماذا تقصد؟».

«إنني أفقد زوجتي، على سبيل المثال. كما أن البعد عن البيت كثيرا يحزُّ في نفسي. ليس هذا في مصلحة بناتي. ماذا يقلن لأبناء المجتمع الراقي عندما يسألونهن عن أبيهن؟ إن أبانا هو جاك برينن؟ هذا لن يجديهن نفعا».

«ويلك»، قلت له. «إن كل ما يهم هو إن كان لديهن المال».

«في هذا لم أقصر معهن»، قال جاك.

صبَّ جرعة أخرى. كادت الزجاجة تفرغ.

«أضف إليه بعض الماء»، قلت له، ففعل.

«إنك لا تعلم كم أشتاق إلى زوجتي»، قال لي.

«بالتأكيد».

«ليس لديك أدنى فكرة. لا يمكنك أن تتصور هذا الشوق».

«كان من المفروض أن تكون حالك في الريف خيرا منها في المدينة».

«لم يعد يهمني أين أنا، ولا يعرف الشوق إلا مَنْ يُكابده».

«خذ جرعة أخرى».

«هل رحت ألهو؟ هل بدأت أهدر؟».

«حتى الآن لا بأس عليك».

«لا يمكنك أن تتصور كم أقاسي. بل لا يمكن لأي مخلوق أن

يتصور ما أنا فيه».

«ما عدا زوجتك»، قلت له.

«أجل، فهي بحالي عليمَةٌ»، قال جاك. «نعم، إنها تعلم جيدا، ولا غبار على ذلك».

«أضف بعض الماء إلى ذاك»، قلت له.

«جيري»، قال جاك. «لا يمكنك أن تتصور ما أنا فيه».

لقد لها صاحبي لهما لا مرء فيه. كان يسدد نظراته نحوي، وكانت عيناه تنظران إليّ بثبات لا يريم.

«ستنام نوما عميقا الليلة»، قلت له.

«قل لي، يا جيري»، قال جاك، «ألا تريد أن تكسب بعض المال؟ أقصد أن تراهن على الكوت؟».

«عفوا؟».

«اسمع، يا جيري»، قال جاك وهو يضع الكأس من يده. «أنا لست ثملا الآن. هل تعرف بكم راهنتُ عليه؟ بخمسين ألف دولار».

«هذا مالٌ كثير».

«خمسون ألف دولار»، قال جاك، «بنسبة واحد إلى اثنين. سأحصل على خمس وعشرين ألف دولار. راهن عليه واكسب بعض المال، يا جيري».

«لا بأس»، قلت له.

«كيف يمكنني أن أهزمه؟» سألني جاك. «ليس في الأمر تَلَاعُب. كيف يمكنني أن أهزمه؟ ولماذا لا نجني المال من ذلك؟».

«أضف بعض الماء إلى ذلك»، قلت له.

«سأعتزل بعد هذه المباراة»، قال جاك. «سأعتزل. وعليّ أن أُهْزَمَ. ولم لا أجني المال من ذلك؟».

«طبعا».

«لم أعرف طعم النوم منذ أسبوع»، قال جاك. «أظل مستيقظا طوال الليل حتى يكاد ينفجر رأسي من القلق. لا أستطيع أن أنام يا جيرى. لا يمكنك أن تتصور ما تؤول إليه حالك عندما تأرق».

«هذا أكيد».

«لا أستطيع أن أنام. هذا كل ما في الأمر. ببساطة لا أستطيع أن أنام. تظل تعتني بنفسك عددا من السنين، وفي النهاية لا تستطيع أن تنام، فتذهب عنايتك هباء منثورا».

«إنه أمر سيئ».

«لا يمكنك أن تتصور، يا جيرى، ما تؤول إليه حالك عندما تأرق».

«أضف شيئا من الماء إلى ذلك»، قلت له.

في حوالي الحادية عشرة غاب جاك عن الوعي، فحملته إلى سريره. ظل يشرب حتى لم يعد قادرا على مقاومة النعاس. ساعدته على خلع ملابسه ووضعتة في سريره.

«ستنام نوما عميقا، يا جاك»، قلت له.

«بالتأكيد، سأنام الآن».

«تصبح على خير، يا جاك»، قلت له.

«تصبح على خير، يا جيرى»، قال لي. «أنت صديقي الوحيد».

«كفى، كفى»، قلت له.

«أنت صديقي الوحيد»، قال جاك، «صديقي الوحيد».

«نم، نم»، قلت له.

«سأنام»، قال جاك.

كان هوغن يجلس في مكتبه في الأسفل ويقرأ الصحف. نظر إلي وقال: «هل أسلمت صاحبك للنوم؟»
«إنه يغرق فيه».

«هذا خير له من الأرق»، قال هوغن.

«بالتأكيد».

«لكنك ستلقى عنتاً شديداً في تفسير ذلك للصحافيين»، قال هوغن.

«وأنا أيضاً ذاهب إلى النوم»، قلت له.

«تصبح على خير»، قال لي هوغن.

في الصباح نزلت إلى الطابق الأسفل نحو الثامنة وتناولت شيئاً من الإفطار. كان هوغن قد أخرج زبونه إلى المنتجع لإجراء بعض التمارين. خرجت ورحت أراقبهم.

«واحد! اثنان! ثلاثة! أربعة!» كان هوغن يعد لهم. «مرحباً،

يا جيري»، قال هوغن. «هل استيقظ جاك؟».

«لا. لا يزال نائماً».

عدت إلى غرفتي وحزمت أمتعتي استعداداً للنزول إلى المدينة. في حوالي التاسعة والنصف سمعت جاك يستيقظ في الغرفة المجاورة. وعندما سمعته يهبط الدرج لحقت به. كان جاك يجلس إلى مائدة الإفطار. كان هوغن قد جاء، وها هو الآن

يقف بجانب المائدة.
 «كيف حالك يا جاك؟» سألته.
 «لا بأس».
 «هل نمت جيدا؟» سأله هوغن.
 «بلا منغصات»، قال جاك. «لقد ثقل لساني لكني لا أحس برأسي».
 «جيد»، قال هوغن. «كان ذلك مشروبا جيدا».
 «سجله على الحساب»، قال جاك.
 «متى تريد أن تذهب إلى المدينة؟» سأله هوغن.
 «قبل الغداء»، قال جاك. «في قطار الحادية عشرة».
 «اجلس، يا جيرى»، طلب مني جاك، فخرج هوغن.
 جلست إلى المائدة. كان جاك يأكل الجريب فروت. كان كلما وجد بذرة بصقها في المعلقة ثم قذفها في الطبق.
 «أعتقد أنني كنت ثملا جدا ليلة أمس»، قال مُفَاتِحًا.
 «لقد شربت كثيرا».
 «أعتقد أنني تَفَوَّهت بكثير من الحماقات».
 «حاشاك من هذه».
 «أين ذهب هوغن؟» سألني. كان قد فرغ من الجريب فروت.
 «إنه في المكتب».
 «ماذا قلت لك بشأن الرهان على المباراة؟» سألني جاك. كان يمسك بالمعلقة وكأنه يريد أن يطعن الجريب فروت بها.
 أحضرت الفتاة شرائح من اللحم والبيض وأخذت الجريب فروت.

«هاتي لي كأساً أخرى من الحليب»، قال لها جاك، وذهبت.
«قلت إنك راهنت بخمسين ألف دولار على الكوت»، قلت
له.

«هذا صحيح»، قال جاك.

«هذا مبلغ كبير».

«لست مسرورا لهذا»، قال جاك.

«لا تعرف ماذا يحدث».

«لا»، قال جاك. «إنه يَتَحَرَّقُ لنيل اللقب. وستجدهم يلكمون
معه من دون شك».

«لا سبيل إلى معرفة هذا».

«بل يوجد. فهو يريد اللقب، وهذا بالنسبة إليه يستحق مالا
كثيرا».

«إن مبلغ خمسين ألف دولار مبلغ هائل»، قلت له.

«هكذا هي التجارة»، قال جاك. «لا أستطيع أن أفوز. أنت

تعرف أنني لا أستطيع أن أفوز بأي حال من الأحوال».

«ما دمت في الحلبة فلديك فرصة».

«لا»، قال جاك. «لقد اعتزلت. إنها تجارة فقط».

«كيف تشعر؟».

«على خير ما يرام»، قال جاك. «ما كنت في حاجة إليه هو

النوم».

«قد تُبلي بلاء حسنا».

«سأريهم ما يسرُّهم»، قال جاك.

بعد الإفطار اتصل جاك بزوجته بوساطة المقسم الخارجي.

كان يتحدث مع زوجته من حُجيرة الهاتف.
«هذه أول مرة يتحدث فيها مع زوجته منذ قدومه إلى هذا المكان»، قال هوغن.
«إنه يرسلها كل يوم».
«بالتأكيد»، قال هوغن. «الرسالة لا تكلفه سوى سنتين».
ودّعنا هوغن ونقلنا بروس، المدلك الزنجي، بالعربة إلى محطة القطار.
«وداعا، يا سيد بريّن»، قال بروس عند محطة القطار.
«أتمنى من كل قلبي أن تطيح برأس منافسك».
«وداعا، يا بروس»، قال جاك وناولته دولارين. كان بروس قد عمل في تدليكه كثيرا. بدت على وجهه ملامح الخيبة والانكسار.
رآني جاك أنظر إلى بروس وهو يمسك بالدولارين وقال:
«كله في الحساب. لقد حاسبني هوغن حتى على التدليك».
ظل جاك صامتا في القطار الذي أقلنا إلى المدينة. انزوى في ركن مقعده، واضعا تذكرته تحت نطاق قبعته، وراح يسرح بنظراته خارج النافذة. في إحدى المرات التفت وخاطبني:
«قلت لزوجتي سأنزل في فندق شلبي هذه الليلة. فهو قريب من ملعب الغاردن. سأذهب إلى البيت في صباح الغد»^(٢٤).
«هذه فكرة صائبة»، قلت له. «هل رأيتك زوجتك يوما وأنت تلاكم، يا جاك؟».
«لا»، قال جاك. «لم ترني وأنا ألاكم».
قلت في نفسي لا بد أنه يتوقع هزيمة نكراء إذا لم يكن يرغب

(٢٤) يقع فندق شلبي في مدينة نيويورك، وكذلك ملعب الغاردن الذي هو حلبة ملاكمة مشهورة [الترجم].

في الذهاب إلى بيته مباشرة بعد المباراة. عندما وصلنا المدينة
أخذنا سيارة أجرة نقلتنا إلى فندق شلبي. خرج شاب وأخذ
حقائبنا وتوجهنا إلى الاستقبال.
«ما هي أسعار الغرف؟» سأل جاك.
«ليس لدينا سوى غرف مزدوجة»، قال الموظف. «لدي غرفة
مزدوجة ممتازة بعشرة دولارات».
«هذا كثير».
«لدي غرفة أخرى بسبعة دولارات».
«فيها حمام؟»
«طبعا».
«الأجدر بك أن تبيت معي، يا جيري»، قال جاك.
«لا عليك»، قلت له. «سأبيت عند صهري».
«لم أقصد أنني سأجعلك تدفع»، قال جاك، «كل ما هنالك هو
أنني لا أريد أن تذهب فلوسي سدى».
«هلا دَوَّنتما اسميكما، من فضلكما؟» قال الموظف. نظر إلى
اسميننا وقال، «رقم ٢٣٨، يا سيد برين».
صعدنا في المصعد. كانت الغرفة جميلة وكبيرة وفيها سريران
وباب يفتح على حمام.
«هذه غرفة جيدة جدا»، قال جاك.
رفع الصبي الذي صعد معنا الستائر، وأدخل حقائبنا إلى
الغرفة. لم يتحزج جاك، لذلك أعطيت الصبي ربع دولار.
استحم كل منا، ثم قال جاك: علينا أن نذهب لتناول الطعام.
تناولنا طعام الغداء في مطعم جيمي هانلي. كان في المطعم

كثير من الفتيان. وبينما نحن نأكل جاء جون وانضم إلى مائدتنا. لم يتحدث جاك كثيرا.

«ما أخبار وزنك يا جاك؟» سأله جون الذي رأى أمام جاك طعاما كثيرا.

«ليس لدي مشكلة حتى لو وزنوني بشيabi»، قال جاك. لم يجد قط ما يدعو للقلق بشأن وزنه. كان بطبيعته من الوزن الخفيف ولم يسمن. حيث كان قد فقد بعض الوزن في مُنتَجَع هوغن الصحي.

«في الحقيقة، هذا أمر لم تجد موجبا للقلق بشأنه»، قال جون.

«ولكنه أمرٌ وحيد»، ردَّ جاك.

ذهبنا إلى ملعب الغاردن كي يزن جاك نفسه بعد الغداء. حُدد الوزن المطلوب للمباراة بمائة وسبعة وأربعين رطلا عند الثالثة عصرا^(٢٥). صعد جاك إلى الميزان وهو يلف منشفة حول جذعه. لم يتحرك مقياس الوزن. كان والكوت قد فرغ لتوه من الوزن، وكان يقف مع جمع كثير حوله.

«دعنا نَرَكَم وزنك، يا جاك»، قال فريدمَن، مدير أعمال والكوت.

«لا بأس في ذلك، لكن زَنَّهُ بعدي»، قال جاك وهو يشير برأسه نحو والكوت بحركة عصبية.

«انزع المنشفة»، قال فريدمَن.

«ماذا لديكم؟» قال جاك للمشرفين على الميزان.

(٢٥) أي نحو ٦٧ كغ [المترجم].

«مائة وثلاثة وأربعون رطلا»، قال الرجل السمين خلف الميزان.

«لقد نزل وزنك بشكل ممتاز، يا جاك»، قال فريدمن.
«زَنَّهُ»، قال جاك.

أقبل والكوت نحو الميزان. كان رجلا أشقر، عريض المنكبين، وذراعاه كذراعي ملاكم من الوزن الثقيل. أما ساقاه فلا تستحقان الذكر. كان جاك أطول منه بنحو نصف الرأس.
«مرحبا، يا جاك»، قال والكوت. كان وجهه يحمل علامات قتال كثيرة.

«مرحبا»، قال جاك. «كيف حالك؟».

«بخير»، قال والكوت. نزع المنشفة عن خاصرته وصعد إلى الميزان. كان منكباه وظهره أعرض ما يمكن أن يراه إنسان.
«مائة وستة وأربعون رطلا واثنى عشرة أونصة».
نزل والكوت عن الميزان ورمى جاك مكشرا.
«لقد تفوق عليك جاك بنحو أربعة أرطال»، قال له جون.
«بل بأكثر من ذلك حين أعود، يا بُنيّ»، قال والكوت. «إني ذاهب الآن لتناول الغداء».

عدنا وارتدى جاك ملابسه. «يبدو أنه وَلَدٌ خشن جدا»، قال لي جاك.

«ويبدو أنه تعرض للضرب مرارا».

«نعم، طبعاً»، قال جاك. «ليس ضربه بالأمر العسير».

«إلى أين وجهتك الآن؟» سأله جون عندما فرغ جاك من ارتداء ملابسه.

«نعود إلى الفندق»، قال جاك. «هل رتبت كل شيء؟».

«نعم»، قال جون. «كل شيء جاهز».

«أنا ذاهبٌ لأستلقي قليلاً»، قال جاك.

«سأتي إليك في حوالي الساعة إلا ربعا لنذهب للعشاء».

«لا بأس».

في الفندق خلع جاك حذاءه ومعطفه واستلقى قليلاً. كتبتُ رسالة. نظرت مرتين إلى جاك فوجدته لا يزال مستيقظاً. كان يستلقي بلا حراك، لكنه كان يفتح عينيه بين الفينة والأخرى. وأخيراً اعتدل في سريره.

«هل تريد أن تلعب الكريج، يا جيرى؟» قال لي^(٢٦).

«بالتأكيد»، قلت له.

ذهب إلى حقيبته وأخرج الورق ولوحة الكريج. لعبنا الكريج ففاز بثلاثة دولارات مني. طرقت جون الباب ودخل.
«هل تريد أن تلعب الكريج، يا جون؟»، سأله جاك.
وضع جون قبعته على الطاولة، وكانت مُبلّلة تماماً وكذلك كان معطفه.

«هل تمطر؟» سأله جاك.

«بل تنهمر! لقد علقت سيارة الأجرة التي أخذتها في أزمة السير، فتركتها وجئت سيرا على الأقدام».
«هيا، دعنا نلعب الكريج»، قال له جاك.
«عليك أن تأكل».
«لا»، قال جاك. «لا أريد أن أكل الآن».

(٢٦) الكريج نوع من ألعاب الورق [المترجم].

وهكذا لعبا الكريج لمدة نصف ساعة تقريبا، ففاز جاك بدولار ونصف الدولار من جون.

«أعتقد أنه حان وقت العشاء»، قال جاك. ذهب إلى النافذة ونظر من خلالها.

«لا يزال المطر يهطل؟».

«نعم».

«دعنا نأكل في الفندق»، قال جون.

«لا بأس»، قال جاك. «ولكن سألاعبك مرة أخرى لنرى من سيدفع ثمن العشاء».

بعد هنيهة نهض جاك وقال: «أنت الذي سيدفع، يا جون». ثم نزلنا الدرج وتناولنا طعام العشاء في صالة الطعام الكبيرة.

بعد العشاء صعدنا الدرج، ولعب جاك الكريج مع جون مرة أخرى، فربح دولارين ونصف الدولار منه. كانت معنويات جاك ترتفع. كان لدى جون حقيبة يضع فيها كل أمتعته. خلع جاك قميصه ولفحة عنقه، وارتدى سترة وكنزة كي لا يتعرض للفضة برد عند خروجه، ثم وضع ملابس الحلبة والحمام في حقيبة. «هل أنت جاهز تماما؟» سأله جون. «سأصل بهم كي يطلبوا لنا سيارة أجرة».

لم يمض سوى وقت قصير حتى رن الهاتف وقالوا لنا إن السيارة بانتظارنا.

نزلنا بالمصعد، وعبرنا ردهة الفندق، وركبنا السيارة إلى ملعب الغاردن. كان المطر يهطل بغزارة، لكن الشوارع كانت تغص بالناس. كان ملعب الغاردن يغص بالمتفرجين. وبينما كنا نشق طريقنا إلى

غرفة الملابس، رأيت كيف امتلأ الملعب إلى آخره. بدت المسافة بيننا وبين الحلبة كأنها نصف ميل. كان الظلام يحيط بكل شيء ما عدا الحلبة التي كانت الأنوار مُسلَّطة عليها. «لقد أحسنوا صنعا، والمطر هكذا، في عدم تنظيم هذه المباراة في حديقة الباليه»، قال جون.

«لقد اجتذبوا جمهورا هائلا»، قال جاك.

«هذه مباراة تجتذب أكثر مما يتسع له ملعب الغاردن».

«لكنك لا تستطيع التنبؤ بالطقس»، قال جاك.

أقبل جون على غرفة الملابس ودس رأسه في الباب. كان جاك يجلس مرتديا ملابس الحمام، وذراعا متصالبتان، وعيناه مسددتان نحو الأرض. حضر مع جون مدربا ملاكمة. وقفا عند منكبيه، فرفع جاك ناظره إليهما. «هل دخل؟» سأل جاك.

«لقد نزل من فوره»، قال له جون.

انطلقنا نحو الحلبة التي كان والكوت يدخلها في تلك الأثناء. صفق له الجمهور تصفيقا حادا. تسلل من بين الحبال، ثم ضم قبضتيه وابتسم، ثم هز قبضتيه ملوحا للجمهور ذات اليمين وذات الشمال، وبعدها جلس. صفق الجمهور تصفيقا حادا لجاك وهو يشق طريقه بينهم. جاك إيرلندي، والإيرلنديون دائما يلقون تصفيقا حادا. لا يجتذب الإيرلندي الجماهير في نيويورك كما يجتذبهم اليهودي أو الإيطالي، لكنه دوما يلقي تصفيقا حادا. تسلق جاك ثم انحنى ليمر من بين الحبال، فأقبل والكوت من ركنه وداس على الحبل كي يمر جاك. لقيت هذه

البادرة استحسانا عند الجمهور. وضع والكوت يده على كتف جاك ووقفوا وجها لوجه لمدة ثانية.

«إذن، تريد أن تكون واحدا من هؤلاء الأبطال المحبوبين من الجماهير»، قال له جاك. «أبعد يدك اللعينة عن كتفي». «كما تشاء»، قال له والكوت.

كل هذا لقي استحسانا عظيما لدى الجمهور. ما أشدَّ تهذيب الولدين قبل المباراة وهما يتمنيان التوفيق أحدهما للآخر! أقبل سولي فريدمن نحونا، بينما كان جاك يُدعم يديه بالضمادات، وجون في ركن والكوت. أخرج جاك إبهامه من شق الضمادة ثم لفها حول يده لفاً متقنا سلسا. ثم قمت أنا بتثبيتها بشريط لاصق حول المعصم ومرتين حول أصابعه. «اسمع»، قال فريدمن. «من أين لك كل هذا الشريط اللاصق؟».

«تحسّسه»، قال جاك. «إنه ناعم، أليس كذلك؟ لا تكن كالريفي الأخرق».

ظل فريدمن واقفا في مكانه بينما كان جاك يضمده يده الأخرى. جاء أحد مدربيّه بالقفازين، فوضعتهم على يديه وسوّيت أمرهما.

«قل لي، يا فريدمن»، قال جاك، «ما هو أصل والكوت هذا؟».

«لا أعرف»، قال سولي. «أعتقد أنه دنماركي». «بل من بوهيميا»، قال المدرب الذي أحضر قفازي جاك. دعاهما الحَكَم إلى وسط الحلبة، فأقبل عليه جاك، وأقبل

والكوت باسمًا. تقابل الاثنان ووضع الحكم ذراعه على كل منهما.

«مرحبا بحبيب الجماهير»، قال جاك لوالكوت.
«قل ما تشاء».

«لماذا تدعو نفسك والكوت؟» قال جاك. «ألم تكن تعلم أنه زنجي؟».

«استمع» قال لهما الحكم، ثم كرر عليهما لازمته المعهودة. قاطعه والكوت في إحدى المرات. أمسك بذراع جاك وقال: «هل يمكنني أن أضربه عندما يعاملني هكذا؟».
«أبعد يديك عني»، قال له جاك. «فهذه مباراة وليس ست سينما».

ذهب كلٌّ إلى زاويته. خلعتُ رداء الحمام عن جاك، فمال على الحبال، وثا ركبتيه مرتين، ثم جرجر خُفَّيه في مادة راتنجية لاصقة. رن الجرس، فالتفت جاك بسرعة، وانطلق. أقبل والكوت نحوه، فالتحما بالقفازين، ولم يكد والكوت يرخي يديه حتى عاجله جاك بلطمتين من يسراه على وجهه. لم يوجد في الدنيا كلها ملاكم أفضل من جاك. كان والكوت يطارده ويهجم عليه وذقنه دائما على صدره. كان كصنارة صيد وهو يُسَبِّل يديه. كان كل ما يبغيه هو الاقتراب من خصمه وَلَكَّمِهِ. لكنه كلما اقترب من جاك، عاجله هذا بلطمة من يسراه في وجهه. لقد بدا الأمر برمته كأنه فعلُ آلة. يرفع جاك يسراه فتحط على وجهه والكوت. حاول جاك بيميناه ثلاث مرات أو أربعاً، فكانت إما تحط على كتف والكوت أو تحلق فوق رأسه. إنه واحد من هؤلاء المحترفين.

وكان كل ما يخشاه هو ملاكمة محترف آخر. كان يحمي كل ما يمكن أن يصيبه بأذى. أما اللكمات العسراء فلم يكن يبالي بها. بعد نحو أربع جولات جعله جاك ينزف نزفاً ومزّق وجهه تمزيقاً. لكنه كلما اقترب منه والكوت كان هذا يلكمه لكمة شديداً يسبب له كدمات حمراء كبيرة تحت أضلاعه. وكلما دنا والكوت، قيّده جاك، ثم يحرر إحدى يديه ويلكمه من تحت، لكن عندما يحرر والكوت كلتا يديه كان يضرب جاك على جسده ضرباً يسمعه المارة في الشارع. كان ملاكماً رهيباً.

وتستمر الحال على هذا المنوال ثلاث جولات أخرى. يتلاكمان بلا هوادة، لكن بصمت. كنا ندلك جسد جاك كثيراً بين كل جولة وأخرى. كان في أبأس حال، لكنه لم يقم بأي عمل في الحلبة. لم يكن يتحرك كثيراً، أما يده اليسرى فكانت كالذراع الآلية. كانت كأنها موصولة بوجهه والكوت، فما كان على جاك سوى أن يطلب ويتمنى ذلك كل مرة. كان جاك دائماً يحافظ على هدوئه في القتال القريب ولا يهدر طاقته. كان يعرف كل شاردة وواردة عن القتال القريب، وكان يقوم بكثير مما هو غير مسموح. عندما كانا في زاويتنا، رأيت يديه يقيّد يدي والكوت، ثم حرر يمينه وأدارها وسدد من تحت لكمة إلى أنف والكوت أصابته بكعب القفاز. راح والكوت ينزف نزيفاً شديداً، فمال هذا بأنفه على كتف جاك كي يقاسمه النزيف، ولكن جاك رفع كتفه بحِدَّة، فلطمه على أنفه، ثم سدّد إليه لكمة أخرى بيمينه، فزاد أنفه نزفاً على نزف.

صار والكوت يتصعّد غيظاً كالجحيم. وفي نهاية الجولة الخامسة أصبح كرهه لجاك بلا حدود. أما جاك فلم يكن حانقاً،

أي أنه لم يكن أكثر حنقا مما هو عليه دائما . كان من دون شك يجعل كل من يلاكمه يكره الملاكمة . ولهذا السبب كان يُكَنِّ لِكِد لويس حقدا شديدا ، إذ لم يتمكن من إغاضة كِد . كان كِد دائما يتفوق على جاك بالقذارة في القتال . كان جاك يشعر بالأمان ما دام في الحلبة وقويا . كان بلا شك يتعامل مع والكوت بغلظة . والمضحك في الأمر أن جاك بدا كأنه ملاكم تقليدي مكشوف . والحقيقة أنه كان يتمتع بتلك الصفة أيضا .

بعد الجولة السابعة ، قال جاك : «بدأت أشعر بالخدَر في يسراي» . من بعدها ، بدأ جاك يتخاذل . لم يبدُ عليه الوهن في البداية . لكن بدلا من أن يكون هو المسيطر على المباراة صار والكوت هو المسيطر ، وبدلا من أن يكون في مأمن دائم صار في خطر . لم يعد الآن قادرا على التصدي لخصمه بيسراه . لم يبدُ الفرق واضحا في البداية ، لكن ما تغير هو أن لكومات والكوت باتت تصيبه بدلا من أن تخطئ هدفها . وراح جسده يتعرض لضرب شديد .

«في أي جولة أصبحنا؟» .

«الحادية عشرة» .

«لا يمكنني البقاء» ، قال جاك . «بدأت ساقاي تخذلانني» .

كان والكوت في هذه الأثناء قد أوسع جسده ضربا . صار الأمر كمن يتلقف الكرة في لعبة البيسبول بيده كي يخفف من الصدمة . من هذه اللحظة فصاعدا راح والكوت يسير على أرض صلبة . كان يلاكم كأنه آلة ، وأصبح جلُّ هم جاك هو أن يتفادى اللكمات . لم يكن ظاهرا للعيان أي ضرب كان يتلقى ، لكنني

عندما كنت أدلك عضلات ساقيه بين الجولة والأخرى، كانت عضلاته تخفق بين يديّ كالطير، وكان في أسوأ حال. «كيف ترى الأمور؟» سأل ملتفتاً إلى جون، متورم الوجه. «في مصلحته».

«أعتقد أنني قادر على الاستمرار»، قال جاك. «لا أريد أن يوقفني هذا الأخرق».

كانت الأمور تسير كما توقع. كان يعلم أنه لا يستطيع أن يهزم والكوت. لقد خارت قواه تماماً. لكنه لم ينته تماماً. أصبحت فلسفه مضمونة، وكل ما يريده الآن هو أن يُنهي المباراة بشكل سليم إرضاء لنفسه. لم يكن يريد أن يُهزم هزيمة نكراء.

رن الجرس، فدفعناه خارج الحلبة. كان خروجه بطيئاً. لحقه والكوت، فمد له جاك يده اليسرى، لكن والكوت جعلها تمر من فوقه، وراح يوسع جسد جاك ضرباً. حاول جاك أن يقيده، فإذا بالأمر كمن يحاول الإمساك بمنشار كهربائي. تحرر جاك من خصمه، وسدد بيميناه لكنه لم يُصِبْه. لطمه والكوت بيسراه لطمة خاطفة طرحته أرضاً. انطرح جاك على يديه وركبتيه وراح ينظر إلينا. بدأ الحُكم في العد. كان جاك يراقبنا ويهز رأسه. عند العدة الثامنة أوماً له جون. كان هَرْجُ الجمهور يصم الآذان. نهض جاك. كان الحكم يمسك والكوت بإحدى ذراعيه وهو يعد.

عندما وقف جاك على قدميه، انطلق نحوه والكوت. «حذار، يا جيمي»، سمعت سولي فريدمن يناديه بأعلى صوته. أقبل والكوت على جاك الذي كان يتطلع إليه. قذف جاك يده اليسرى صوبه، فhez والكوت رأسه. رصَّ جاك إلى الحبال،

ثم قاسه، ولطمه لطمه خفيفة بيسراه على جانب رأسه، ثم ضربه بيمينه بأقصى ما أوتي من قوة على أدنى نقطة ممكنة في جسده. لا بد أنه ضربه تحت الحزام بمسافة خمس بوصات. ظننت أن عيني جاك ستخرجان من رأسه. لكنهما جحظتا فقط، وتهدّل فمه.

أمسك الحكم بوالكوت. تقدم جاك. إن خسرت ذهبت معه خمسون ألف دولار. سار كأن أحشاه جميعا ستتدلق. «لم تكن منخفضة»، قال. «لم تكن مقصودة». كان الجمهور يصرخ حتى إنك لا تسمع شيئا. «أنا بخير»، قال جاك. كانوا أمامنا. نظر الحكم إلى جون ثم هز رأسه.

«هيا، أيها النغل البولندي»، قال جاك لوالكوت^(٢٧). كان جون يتعلق بالحبال، وكان يمسك بالمنشفة تحسبا لأي طارئ. كان جاك يقف على مقربة من الحبال. خطأ خطوة واحدة نحو الأمام. رأيت العرق يتصبب على وجهه كأن شخصا قد عصره، ورأيت قطرة كبيرة تتحدر على أنفه. «هيا إلى النزال»، قال جاك لوالكوت. نظر الحكم إلى جون وأومأ إلى والكوت بالانقضاض، قائلا: «هيا، أيها الخامل».

تقدم والكوت. كان في حيرة من أمره أيضا. لم يكن يتصور أن بإمكان جاك أن يصمد مثل هذا الصمود. قذف جاك بيده اليسرى في وجه خصمه. كان الصراخ يصل إلى كبد السماء. كانا أمامنا

(٢٧) لا تدل هنا صفة «البولندي» على أصل والكوت، بل يستخدمها جاك لغرض الشتيمة فحسب [المترجم].

تماما. ضربه والكوت مرتين. لم أر في حياتي منظرا أبشع من وجه جاك. كان يتحامل على نفسه بمشقة كبيرة، وكانت التعاسة تترسم على وجهه. كان لا يكف عن التفكير أو الإمساك بموضع الإصابة في جسده.

ثم راح يلاكم. كان وجهه مرعبا. يلاكم ويداه منخفضتان إلى جانبه، محاولا إصابة والكوت. كان والكوت يحمي نفسه بشكل جيد، بينما كان جاك يخبط رأس خصمه خبط عشواء. ثم طَوَّح بيسراه فأصابت والكوت في أربيته، أما اليمنى فقد أصابت والكوت في المنطقة نفسها التي أصابها منه والكوت من قبل: تحت الحزام بكثير. انطرح والكوت أرضا، فأمسك موضع الإصابة، وراح يَتَقَلَّبُ وَيَتَلَوَّى. أمسك الحكم بجاك ودفعه إلى زاويته. قفز جون إلى الحلبة. ظل الضجيج متواصلا. كان الحكم يتحدث مع القضاة، ثم قفز المذيع وسط الحلبة يحمل مكبرا للصوت ويقول، «فاز والكوت بضربة جزاء».

كان الحكم يتحدث مع جون، فقال له: «ماذا كان بإمكانك أن أفعل؟ لم يكن جاك يقبل الفوز بضربة جزاء. وعندما راح يترنح، ارتكب خطأ في حق خصمه».

«لقد خسر في كل الأحوال»، قال جون.

جلس جاك على الكرسي. نزعته له قفازيه. كان يجلس مطأطئ الرأس، ويمسك رأسه بكلتا يديه. لم يبدُ وجهه بذاك السوء عندما يوجد ما يسنده.

«هيا، اذهب واعتذر»، قال له جون في أذنه. «ستكون تلك بادرة جيدة».

نهض جاك والعرق يتصبب على وجهه. وضعتُ رداء الحمام على منكبيه، فتحامل على نفسه، واضعا إحدى يديه تحت الرداء، وخطا إلى حيث يربض والكوت في الحلبة. كانوا قد أنهضوا والكوت وكانوا يدلكونه. كانت زاوية والكوت تعج بالناس. لا أحد يكلم جاك، الذي انحنى فوق والكوت وقال:

«أنا آسف. لم أقصد أن أضربك ضربة مخالفة للقوانين». لم يقل والكوت شيئا، وكان يبدو شديد الاعتلال. «على أي حال، أنت البطل الآن»، قال له جاك. «وآمل أن تتال من المتعة من جراء ذلك ما تتال».

«اترك الفتى وحده»، قال له سولي فريدمن. «مرحبا، يا سولي»، قال جاك. «أنا آسف لأنني ضربت غلامك ضربة غير قانونية».

لا يفعل فريدمن شيئا سوى النظر إليه. سار جاك إلى ركنه يترنح ترنحا مضحكا، ثم أخرجناه من بين الحبال وعبر موائد الصحافيين على جانبي الممر. كان كثير من الناس يريد أن يصفع جاك على ظهره. شق طريقه بين الحشود في رداء الحمام قاصدا غرفة الملابس. كان فوزا شعبيا بالنسبة إلى والكوت. هكذا كانت تجري الرهانات المالية في ملعب الغاردين.

لم نكد ندخل غرفة الملابس حتى استلقى جاك على ظهره وأغمض عينيه.

«علينا الذهاب إلى الفندق وطلب الطبيب»، قال جون. «لقد تمزقت كل أحشائي»، قال جاك.

«أنا آسف جدا، يا جاك».

«لا عليك»، قال جاك.

ظل مستلقيا في مكانه وعيناه مغمضتان.

«مما لا شك فيه أنهما حاولا عمل خدعة ذكية»، قال جون.

«إنهما صديقاك: مورغن وستاينفلت»، قال له جاك. «لديك

صديقان رائعان».

ظل مستلقيا في مكانه، لكن عينيه مفتوحتان الآن. وظلت تلك

النظرة المرعبة المتجهمّة لا تُفارق وجهه.

«عجبا، ما أشد ذكاءك عندما يتعلق الأمر بأموال طائلة»، قال

له جاك.

«أنت فتى رائع، يا جاك».

«لا»، قال جاك. «لم يكن في الأمر ما يستحق».

الناسك

جي دي موباسان

مترجمة بقلم
محمد عبد الله عنيان
المحامي

(الحقوق كلها محفوظة)

[الطبعة الأولى]

مطبعة دار الكتب المصيرية بالقاهرة

١٣٥٠ هـ - ١٩٣٢ م

الناسك

ذهبتا مع الأصدقاء لنرى الناسك الشيخ الذى يقيم فى قبة قديمة تظلها الأشجار الباسقة وسط السهل الشاسع الذى يمتد من كان الى نابول .
وجعلنا عند العودة نتحدث عن أولئك الناسك الديويين وغريب أطوارهم ؛ وقد كانوا كثيرين من قبل ، ولكن جنسهم ينقرض اليوم ، وأخذنا نبحث عن الأسباب النفسية ونتعرف طبائع الأحران ، التى كانت تدفع بالناس فيما مضى ، الى وحشة العزلة .

فقال أحد أصحابنا بخافة : لقد عرفت فريدين ، رجلا وامرأة ؛ أما المرأة فلعلها ما زالت حية ، وكانت تسكن منذ خمسة أعوام طلالا فى أكمة جبل فقرو على ساحل كورسيكا ، يبعد عن الأحياء العاصرة زهاء عشرين كيلومترا . وكانت تعيش هنالك مع خادمة لها ، فذهبت لرؤيتها . ولا ريب أنها كانت سيدة من الطبقة الراقية ، لأنها استقبلتني بحفاوة بل وفى ظرف رقيق ، ولكنى لم أعرف شيئا عنها ولم أحرر

أما الرجل ، فسوف أقص عليكم قصته الموحشة

ارتدوا بأبصاركم فترون هنالك تلك الأكمة المديبة الغاصة بالأشجار التى تنفصل فيما وراء نابول ، منفردة بنفسها فى مقدمة آكام «استيريل» وهى التى يسميها أهل تلك الجهة بجبل الثعابين . فهناك كان يقيم «ناسكى» فى خرائب معبد قديم منذ زهاء اثنتى عشرة سنة .

وقد سمعت به فاعترمت أن أعرف به ، فذهبت إلى كان على ظهر الجواد ، ذات صباح من مارس . ثم تركت جوادى فى فندق نابول ، وأخذت أقطع سيرا ذلك المخروط الغريب الذى يرتفع عن الارض زهاء مائتى مترا ، وتغطيه النباتات العطرة ، حتى لقد يصيب المرء حين اختراقه الدوار لقوة أريجها ؛

والأرض هنالك حجرية ينسل الى شقوقها كثير من الزواحف الصغيرة، ومن ثم سميت بأكمة الثعابين . وهنالك تروءك كثرة هذه الحشرات وتشعر كأنها تولد تحت قدميك . نخيل لى وأنا أصعد هذه الهضبة، انى أرقى جبلا عتيقا مقدسا، وتلا غربيا يغطيه العطر، وينثىق منه الخفاء، يغص بالأزهار، وتعمره الزواحف، وتوجه خرائب المعبد .

وهذا المعبد ما زالت خرابثه قائمة، فقد أكد لى على الأقل أنه معبد؛ بيد أنى لم أحاول أن أبحث فى تاريخه أكثر من ذلك، احتفاظا بما خالجنى من انفعال وتأثر .

تسلقت الأكمة إذن فى ذات صباح من مارس، بحجة مشاهدة مناظر الطبيعة؛ فلما وصلت الى القمة رأيت الخرائب، ورأيت هنالك رجلا يجلس فوق حجر. ولم يكن يزيد سنة عن الخامسة والأربعين وان كان الشيب قد عم رأسه، ولكن لحيته ما زالت سوداء . وكان يداعب هرة تنام على ركبتيه وكأنه لم يلحظ مفدى، فدرت حول الخرائب . وكانت قسم منها مسقفا، موصدا بالأغصان والقش والأعشاب والحصى، وكان هذا مسكنه، ثم عدت الى جانبه .

والطبيعة هنالك بديعة جدا، فانك ترى جبل استريل ذا الآكام المدببة، ثم البحر الزخار، يمتد الى ما بعد قيد البصر الى ايطاليا ورؤوسه العديدة . وترى أمام كان جزر ليران خضراء منبسطة وكأنها عائمة، وفى أنحراها يقوم حصن قديم ذو أبراج بنيت فوق الموج ذاته .

وترى نحو الشرق جبال الألب وآكامها الشاهقة غائضة فى البرد .
فغمغمت قائلا، ما أبجل هذا !

فرفع الرجل رأسه وقال «أجل، ولكن المنظر يغدو عاديا اذا رأيته كل يوم» .

وإذن فقد كان يتكلم ، وكان يتضجر .
ولم أمكث طويلا هنالك يومئذ ، بل حاولت فقط أن أتعرف نفسيته ،
فشعرت بالأخص أنه مخلوق سئم عشرة غيره ، وإن نفسه تفيض من نفسه
اشمئازا وخيبة أمل .

فتركته بعد أن حادثته نصف ساعة . ولكنى عدت بعد ثمانية أيام ،
ثم عدت الثالثة بعد أسبوع ، ثم اعتدت أن أراه كل اسبوع ، فلم يمض
شهران حتى كنا صديقين .

ففى ذات مساء من آخر ما يورأت الوقت قد حان ، حملت طعاما
نتعشى به معا على أكمة الثعابين .

وكان مساء جنوب زاه منعش ، من تلك الأمسية التى تزرع فيها الأزهار
فى الجنوب كما يزرع القمح فى الشمال ، فى تلك البلاد التى تصنع فيها كل الروائح
التي تعطر لحم النساء وأثوابهن : أحد هذه الأمسية التى ترسل فيها بساطتين
البريقال الكثيرة فى تلك الأنحاء شذاها ، فتسحر الناس ، وتبعث الحب الى قلب
الشيخ .

فاستقباني ناسكى بحيا يتهلل ، وقبل أن يشاطرني طعامى رحبا . فسقيته
شيئا من النبيذ الذى اعتاد مقاطعته منذ أعوام . فانتعش وأخذ يتحدثني عن
حياته الماضية . والظاهر أنه كان يسكن باريس دائما ، وكان ينفق أيامه
أعزب طروبا .

ثم سألته فجأة : أى خاطر غريب ساقك الى أن تنقطع فوق هذه الأكمة ؟
فأجابني على الأثر : آه ، ذلك لأننى أصبت بشر صدمة يصاب بها امرؤ .
ولكن لم أكن عنك هذه النكبة ؟ انك قد تثرى لى . ثم لاني لم أفص بسرى
الى أحد ، لم أفص به قط وأريد أن أعرف مرة ماذا يرى فيه غيرى ، وبم
يصدر حكمه على ...

لقد ولدت في باريس ، وريت فيها ، فترعرت وعشت في هذه المدينة .
وترك لى والدى بضعة آلاف من الفرنكات ايرادا ، ثم ان كبيرا ساعدنى على
الالتحاق بوظيفة متواضعة هادئة ، كانت ثروة بالنسبة لأعزب .

وقد عشت منذ حدائى عيشة أعزب . وأنت تعرف ما هى . ولإذ
كنت حرا لا أسرة لى ، وإذ كنت أعتم ألا أتخذ زوجة شرعية ، فقد
كنت أنفق ثلاثة أشهر مع واحدة ، وسنة مع أخرى ، ثم سنة بلا صاحبة
أخوض فيها جماعة البنات الساقطات أو اللاتى يعن .

وكانت هذه الحياة الوضيعة ، المتبدلة إذا شئت ، تلائم أذواق الطبيعة
من القلب والمرح . فكنت أعيش فى الشوارع ، وفى المسارح والمقاهى ،
دائما فى الخارج ، لا أؤم منزلى تقريبا مع أنى كنت أتخذ مسكنا حسنا .
كنت أحد هذه المخلوقات الجملة الذين يحملهم تيار الحياة فيستسلمون اليه ،
والذين يرون فى جدران باريس جدران العالم بأسره ، والذين لا يهتمون
لأمر ، ولا يشغفون بشئ . كنت ما يسمونه فتي حسنا لا خلال له ولا
نقائص . هكذا كنت ، وحكى صحيح .

وهكذا لبثت حياتى من العشرين الى الأربعين ، تمر بطيئة سريعة ،
لا يشوبها حادث بارز . ولما كانت أعوام باريس المتماثلة تمر سريعة ، فقلما
يرسخ فى الذهن من تلك الأعوام الطويلة العاجلة ذكرى أو تاريخ معين ،
ولا غرو فكلها مبتدلة طروبة ، تقضى فى الشرب والأكل والضحك الذى
لا تدرك له سرا ، وفى تقبيل الشفاه التى تقدم لكل ذائق ومقبل . ولأنت
فتى ، فاذا بك تهرم دون أن تؤدى شيئا مما يؤديه الآخرون : دون أن ترتبط
أو تتصل ، أو ترسخ قدمك فى شئ ، ودون أن يكون لك صحب أو أهل
أو نساء أو أولاد .

وهكذا وصلت الأربعين فى رفق وعجلة معا . واعتزمت للاحتفاء بهذا

العيد، أن أقدم لنفسى فقط، عشاء طيبا فى مطعم كبير. ولا غرو فقد كنت وحيدا فى العالم، ولذا سرنى أن أحتفل بهذا التاريخ وحدى .

وبعد العشاء ترددت فيم أصنع . فكرت أولا أن أذهب الى المسرح، ثم خطرلى أن أذهب حاجا الى الحى اللاتينى، الذى أتممت فيه دراستى للحقوق فيما مضى . فاخترت باريس ، وازدلفت بلا عمد، الى احدى هاته الحانات التى تخدم فيها البنات .

وكانت تلك التى تعنى بمائدتى فتية جدا، حسناء ، ضاحكة؛ فقدمت اليها شرابا تناولته للحال؛ وكانت تجلس تجاهى، وتحدجنى بعينها الثاقبة، دون أن تعرف أى رجل هذا الذى ترى . وكانت شقراء نضرة جدا، تخيلتها وردية عبلة، تحت ثوبها المنتفخ . فأفضيت اليها بعبارات غرامية سخيفة، من تلك التى تقال دائما لهاته المخلوقات . ولما كانت ساحرة حقا، فقد خطرلى بقاء أن أصطحبها ... وذلك حبا فى الاحتفاء بالأربعين كذلك . ولم يكن الأمر طويلا أو عسيرا، فقد كانت حرة منذ خمسة عشر يوما على قولها، فقبلت أن تأتى أولا للعشاء فى (هال) بعد أن ينتهى عملها .

ولما كنت أخشى ألا تبر بوعدى، اذ ليس يعلم انسان قط ماذا عسى يحدث فى هذه الحانات، أو ماذا تهب من الرياح فى رأس امرأة، فقد لبثت أنتظرها طول السهرة . وكنت حرا أيضا، منذ شهر أو اثنين، فكنت أجدج هذه الحسناء، البادئة فى الحب وهى تسير من مائدة الى أخرى، لأرى ماذا كنت قد أحسنت صنعا باستئجارها الى حين .

انى أقص عليك إحدى هاته المخاطرات اليومية العامة، التى هى ظاهرة لحياة الرجل فى باريس، ولكن أصفح عن هذه التفاصيل المملة . ذلك لأن أولئك الذين لم يحبوا الحب الشعرى، يأخذون النساء ويختاروهن، كما يختارون ضلع الضأن فلا يفكرون فى غير مزايائهم .

اصطحبتها عندها اذن، وليس عندي، لأنني كنت أحترم فراشي؛ فوجدتها
تسكن جناح عاملة صغيرة، في الطبقة الخامسة، نظيفاً وضيئاً. وقضيت
هنالك ساعتين ساحرتين، والحق أنها كانت ذات ظرف وسحر نادرين .
ولما هممت بالذهاب تقدمت نحو المدفأ لأضع فوقه الهبة المعتادة ،
وذلك بعد أن ضربت معها ميعاداً آخر، فحانت مني التفاتة الى وعائين من
الزهر، وصورتين، أحدهما قديمة جداً ومن الطراز القديم، فانتثيت نحوها
عرضاً، ووقفت جامداً صعباً لا أفهم . ذلك لأنها كانت صورتى ومن
أوليات صوري، التي كنت أصنعها حينما كنت أعيش طالباً في الحى اللاتينى .
فامسكتها بلهفة لأفحصها عن كذب، فلم ألك مخطئاً، وغلبني الضحك لأنني
رأيت الأمر مفاجأة غريبة مضحكة وسألتها : من هذا السيد ؟
فأجابتنى وهى ما تزال فى الفراش، هذا أبى الذى لم أعرفه . وقد أعطتنى
إياه والدتى وأوصتنى بالمحافظة عليه لعل ذلك ينفعنى ذات يوم ...
ثم ترددت وأخذت تضحك وهى تقول : « ولست أدري بم ينفع ،
ولست أظن أنه سياتى ليعترف بى » .
وكان قلبي يخفق عندئذ بشدة كأنه خيب جواد جامع . فوضعت
الصورة على ظهرها فوق المدفأ، ثم وضعت فوقها دون أن أدري ماذا أصنع
ورقتين بمائتى فرنك كانتا فى جيبى، وفررت قائلاً : « الى اللقاء يا عزيزتى،
الى اللقاء ! » .
فسمعتها تقول : « الى يوم الثلاثاء » . وكنت فى السلم المظلم أقطعها
تلمساً .

فلما صرت خارجاً ، رأيت المطر ينهمل، فالتحدرت مسرعا الى أحد
الشوارع، وكنت أسير أمام نفسى ذاهلاً مرتاعاً أحاول التذكر . أمممكن هذا؟
نعم ذكرت بغاة أن فتاة كتبت لى ذات مرة بعد نحو شهر من فراقنا أنها

تجمل منى فزقت الخطاب وأحرقته ونسيت كل ذلك . وكان واجبا أن أخلص صورة المرأة التي فوق مدفا الفتاة . ولكن أكنت أعرفها؟ اذ يلوح لى أنها كانت صورة امرأة عجوز .

ووصلت الى ضفة النهر، فارتميت على مقعد وكان المطر ما زال ينهمل، والناس يمرون من وقت لآخر تحت المظلات . فتبدت لى الحياة كريهة مثيرة غاصصة بصنوف البؤس والخزى والعار، الظاهرة أو المستترة . ابقي ! لعلى قد ملكت ابنتى . وباريس تلك المدينة الكبرى المظلمة الموحشة، المتعرجة الكثيبة، السوداء، وكل ما فيها من المنازل المغلقة، انما تفيض بأمثال هذه الأمور؛ تفيض بالفسق، وعشرة المحارم، وانتهاك الأولاد .

وأذكر أنى سمعت ما يقال عن بعض أولئك الأوغاد السفلة . ولكنى قد ارتكبت دون عمد ودون علم ، أشنع ما يرتكبه هؤلاء . لقد دخلت فى فراش ابنتى !

وكدت ألقى بنفسى فى النهر؛ كنت مجنوننا فجعلت أهيرم على وجهى حتى الصباح ثم عدت الى منزلى لأفكر .

وصنعت عندئذ ما رأيته خيرا للول ، فرجوت مسجلا أن يدعو الفتاة اليه، وأن يسألها عن الظروف التي تركت لها فيها أمها صورة ذلك الذى تعتقد أنه والدها ، قائلا أننى كلفت بذلك من صديق؛ فنفذ المسجل ما أردت . وكان أن تلك المرأة قد عينت لا بنتها صورة والدها، وهى تعالج سكرات الموت وذلك أمام كاهن ذكر اسمه . فعندئذ باسم ذلك الصديق أيضا ، وهبت للفتاة نصف ثروتى، وهو نحو مائة وأربعين ألف فرنك ، لا تقبض سوى ريعها، ثم استقلت من وظيفتى وها أنا ذا .

رأيت وأنا أهيرم فى تلك الأثناء، تلك الأكمة فوقفت بها ... إلام ؟ هذا ما أجهله .

فماذا ترى فى أمرى وفيم صنعت ؟
فأجبتة وقد مددت يدى إليه : لقد صنعت ما كان واجبا أن تصنع ؛ وقد
كان كثير غيرك يعلقون على ذلك القدر المشئوم أهمية أقل مما علقت .
فقال : هذا ما أعرف . ولكنى كدت أجن ، والظاهر أن كانت روحى
حساسة جدا دون أن أدرى ، وقد خشيت باريس كما يجب أن يخشى المؤمنون
من الجحيم ، وقد أصابتنى ضربة فى الرأس . ولكن نفسى قد برئت نوحا منذ حين .
فغادرت ناسكى وقد تأثرت لقصته كل التأثر .
ورأيتـه مرتين بعد ذلك ثم رحلت .
فلما عدت الى الجنوب فى العام التالى لم أجده فوق الأكمة ، ولم أسمع
عنه بعد ذلك قط .
وهذه هى قصة ناسكى^(١) .

(١) أخذت هذه القصة من مجموعة La Petite Roque .

على القبر

جي دي موباسان

مترجمة بقلم
محمد عبد الله عنيان
المحامي

(الحقوق كلها محفوظة)

[الطبعة الأولى]
مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة
١٣٥٠ هـ - ١٩٣٢ م

على القبر

انتهى الأصدقاء الخمسة من تناول العشاء — وهم خمسة رجال، راقون، ناضجون، أغنياء، تزوج ثلاثة منهم، وبقى اثنان بلا زواج . وكانوا يجتمعون كل شهر لاستعراض ذكريات الشباب، ويتسامرون بعد العشاء حتى مطلع الفجر، ويضطربون بهذا الاجتماع أيما طرب، بل لعلهم يرون فيه أحسن أمسية في حياتهم . وكان الحديث يدور على كل شيء يشغل الباريزيين ويسليهم . وكان أشدهم مرحا جوزف دى باردون، وهو عزب يحيا الحياة الباريزية على أكل نحو وأظرفه . ولم يكن خليعا ، ولا ساقطا ، ولكنه كان متطلعا ، فرحا . وما زال شابا لأنه لم يتجاوز أربعين . وكان رجلا أنيقا بكل معنى الكلمة ، كثير الملح دون تعمق ، ذا معارف متباينة دون متانة ، وذا فهم يقظ دون نفاذ خطير . فكان يستخرج من ملاحظاته، ومغامراته، ومن كل ما رأى ووجد ، قصصا فلسفية مضحكة معا ، وتعليقات طريفة تجعل له شهرة واسعة بالذكاء .

وكان خطيب العشاء . وكان له في كل مجال قصة يرويها دون أن يرجوه أحد .

وكان يدخن ، معتمدا بمرفقيه على المائدة ، وأمامه قدح نصف مملوء بالشمبانيا ، وجو الغرفة يتنفس عطر الدخان وحرارة القهوة . وكان يشعر في هذا المقام أنه دائما في منزله ، كما يشعر بعض الناس بذلك في أمكنة وفي لحظات معينة، أو كالعابدين في زاويته .

قال في نفثة من الدخان : لقد وقع لى منذ حين حادث غريب .

فقال الجميع في صوت واحد : أرو لنا ذلك .

فقال : سمعا وطاعة . تعرفون أنى أكثر التجوال فى باريس ، وأترىص

بالمناظر وبالناس، وبكل مار وكل حادث . ففي نحو منتصف سبتمبر كان
الجو بديعا جدّا، نخرجت ذات عصر دون أن أعرف أين أسير . والمرء
يألس دائما رغبة غامضة في زيارة أية امرأة حسناء، فيسدّد اختياره، ويفارن
بينهنّ في ذهنه، ويزن ما يثرن فيه من اهتمام، وما يفرضن عليه من سحر، ثم
يعترم عزمه طبقا لما يوحى إليه . ولكن الشمس اذا كانت بدبعة، والهواء
فاترا، فإن رغبة الزيارة قلما تخطر لك .

وكانت الشمس بدبعة، والهواء فاترا، فأشعلت سيكارا، وسرت متمهلا،
وإذ قد خطر لي أن أستمز في السير حتى مقبرة مونمارتر .

وإني أحب المقابر كثيرا ، فهناك تهدأ نفسي وتفيض كآبة . ونفسي
في حاجة الى السكينة والوحشة . ولنا هنالك أصدقاء أعزاء لا نراهم بعد .
ولذا أذهب هنالك من وقت لآخر .

ولي في مقبرة مونمارتر هذه أيضا حديث قلب : لي خليلة كانت فتاة
ساحرة، تؤلمني ذكراها، وتشير في نفسي كل شجن ، فأذهب هنالك لأطلق
العنان فوق قبرها لتصوراتي ...

ثم اني أحب المقابر لأنها مدن عظيمة أهلة بالسكان . فتصوروا كم ميت
في ذلك الفضاء الصغير من كل الأجيال ، يرقدون هنالك الى الأبد، في تلك
الأوكار الصغيرة التي تغطيها الحجارة أو يعينها الصليب ، بينما يشغل الأحياء
أيما فضاء، ويثيرون أيما ضجيج .

دخلت مقبرة مونمارتر اذن ، وتولاني بغاة حزن عميق ، هو ذلك الذي
يهلك على التفكير وأنت صحيح مرير : «انه مقام روعة ولكن ساعتى لم تأت
بعد » . وكان أثر الخريف ، وما يحمل من تلك الرطوبة الفاترة التي تنبعث
من الأوراق الذابلة، والشمس المتعبة الضعيفة الباهتة، يؤكد شعور الوحشة،
ويشير في النفس ذكرى تلك الخاتمة الأبدية التي ترفرف على هذا المكان .

(٧)

فسرت بخطوات بطيئة في تلك الشوارع الخافتة بالقبور، والتي لا يتجاور فيها
الحيوان بعد ولا يبيتون معا، ولا يقرأون الصحف . وجعلت أقرأ الأسماء
المنقوشة على مهل .

وإني لأعبد في هذه المقبرة بالأخص، نايها ووحشتها وقدمها .
فلما أنفقت هنالك من الوقت ما يكفي لترويح النفس ، خشيت أن
أتضجر، ورأيت أن أحمل الى صاحبي الزاهية ذكرى الإخلاص والحب .
وكان قلبي يتكش حينما وقفت بقبرها . فوارحمته لهذه العزيرة المسكينة ،
التي كانت تفيض رقة وحنانا ونعومة !

انثيت فوق السياج الحديدي ، وهمست اليها بحزني الذي لا تسمعه
بلا ريب . وهممت بالذهاب ، فلمحت امرأة ترتدى السواد ، وتجتو أمام
القبر المجاور . وكان نمارها الأسود المرفوع ، يشف عن رأس أشقر بديع كأنما
يضيء خصلاتها نور الفجر تحت ليل سواد ثيابها . فوقفت ، وخيل لي أنها
تعاني حزنا عميقا ، لأنها كانت تنجي وجهها بين يديها ، وترسل عنان تصوراتها
كالتمثال ، أو كهيئة . ثم خيل لي فجأة أنها ستبكي ، ثم بكت في رفق أول
الأمر ، ثم علا بكائها ، واهتركتها زفيرا . ثم رفعت يديها عن وجهها فجأة
فكانت عينها تفيض بالدمع والسحر ، عين هائمة أرسلتها حولها كأنها أفاقت
من كابوس . فرأيتني أنظر اليها ، وكأنما نجلت من ذلك نخبات وجهها ثانية .
وعندئذ تحول زفيرها الى تشنج ، ومال رأسها ببطء على حافة الرخام ، وأسندت
جبينها اليه ، وانفرد نمارها من حولها على زوايا القبر الأبيض كأنه حزن جديد .
وسمعتها تن ثم تسكن ، وخدتها على الرخام ، ثم تلبث جامدة فاقدة الرشد .

فهولت اليها ، وأخذت أروح على جفنيها ، وأفرك يديها ، وأنا أقرأ على
القبر « هنا يشوى لوى تيودور كاريل ، ضابط في قسم المشاة البحرية ، قتلته
العدو في طونكين . صلوا لأجله » وكانت الوفاة ترجع الى بضعة أشهر ،

فانقبضت نفسى حتى سال دمعى، وضاعفت عنايتى حتى أفاقت . وكانت
التأثر الشديد باديا على وجهى، ففهمت من نظراتها الأولى أنها وافرة التأدب
والعرفان، ففاض دمعها ثانية، وأخذت تقص تاريخها بين الزفات والدموع
فى عبارات متقطعة خارجة من صدرها المضطرب ، وكيف توفى الضابط
الميت لعام واحد من زواجه، بعد أن تزوجته حبا وهوى، لأنها كانت يتيمة
الأب والأم .

فعزيزتها وشجعته وأنهضتها ثم قلت لها : هيا ولا تلبى هنا بعد .
فقالت : لست أقوى على السير .
قلت : سأساعدك .

قالت : شكرا يا سيدى، إنك لكريم فهل أتيت مثل تبنى مينا ؟
أجبت : أجل يا سيدتى .

قالت : أميتة؟ أجبت : نعم يا سيدتى .

قالت أزوجة؟ أجبت كلا بل صاحبة .

قالت : قد يحب المرء صاحبتة قدر ما يحب زوجه . وليس للهوى
قانون .

قلت : أجل يا سيدتى .

وهكذا سرنا معا ، وهى تتكى على ، وأنا أكاد أحملها فى طرقات المقبرة .

فلما خرجنا غمغمت متخاللة : أشعر أنى أكاد أسقط .

قلت : فهل تريد أن ندخل محلا ما وأن نتناول هنالك شيئا ؟

أجابت : نعم يا سيدى .

فلمحت بالقرب منى مطعما ، هو أحد هذه المطاعم التى يؤمها أصدقاء

الموتى للاحتفاء بانتهاء مخزومتهم . فدخلنا ، ولما شربت قدحا من الشاى الحار،

انتعشت قليلا ، وبدأت هى شفيتها ابتسامة غامضة . فحدثتني عن نفسها .

وكانت في حالة مؤسسية جدا ، ولشد ما يؤسى أن تكون وحيدة في الحياة ، وحيدة في منزلها ، بالليل والنهار ، لا تجد من تغدق عليه عطفها وثقتها وحنانها . وكان يبدو على محياها الصدق ، وكان نعرها ساحرا ، حتى جاشت نفسى حنانا . وكانت فتية جدا ، قد لا تتجاوز العشرين . فبدأت أقدم اليها تحياتي وهي تستقبلها شاكرة . ولما كان الوقت قد تأخر ، اقترحت أن أصحبها الى منزلها في عربة ، فقبلت . وفي العربة التصق كل منا بصاحبه حتى اختلطت الثياب والحرارة ، وهو لعمري أشد ما يثير .

فلما وقفت العربة بمنزلها غمغمت قائلة : أشعر أنى لا أستطيع الصعود وحدى لأنى أقيم في الطبقة الرابعة . فهل أستفضل بمساعدتى حتى مسكنى ؟ فبادرت بالقبول ، وأخذت تصعد ببطء . فلما وصلنا الى الباب قالت : ألا تدخل بضع دقائق حتى أستطيع شكرك ؟ فدخلت طبعاً .

وكان مسكنها متواضعا ، بل تبدو عليه بعض مظاهر الفقر ، ولكنه بسيط حسن النظام .

فجلسنا جنباً إلى جنب ، وأخذت تحدثنى من جديد عن وحشتها . ثم قرعت جرساً وأمرت خادمتها أن تقدم لى شيئاً لأشربه ، ثم لم تأت الخادمة بعد . فطربت لذلك لاعتقادي أنها من خادمات اليوم فقط . وكانت قد رفعت قبعتها . وكان لها رأس ساحر حقاً ، فأخذت تحدثنى بعينها الصافيتين ملياً ، حتى ملكتنى رغبة لم أستطع أن أقاومها ، فطوقتها بذراعى بقاءة ، وانملت لثماً على عينيها اللتين أغلقتا بقاءة . وكانت تقاومنى وتدفعنى قائلة : ما هذا؟ ما هذا ؟

ماذا كانت تعنى هذه العبارة ؟ انها تعنى فى مثل هذا الظرف على الأقل أمرين . فحولت قبلاقى الى فيها مفضلاً أن أفسر العبارة على ما اشتبهى .

فلم تقاوم كثيرا . فلما التقت نظراتنا ثانية بعد الذى أسأنا به الى ذكرى الضابط الميت ، لاحت عليها امارات الفتور والخيال والاستسلام ، حتى تبدد كل ريب فى نفسى ، فغدوت شهما كثير العرفان . وبعد حديث مستفيض ، قلت لها : أين لتناولين عشاءك ؟

أجابت : فى مطعم صغير بالقرب من المنزل .

قلت : هل تتعشين وحيدة ؟

أجابت : نعم بالطبع .

قلت : هل تتعشين معى ؟

أجابت : وأين هذا ؟

قلت : فى مطعم من المطاعم الأنيقة .

فعارضت قليلا ، ثم رضيت أخيرا وهى تقول «انى أتضجر ... أتضجر كثيرا » ثم قالت : «يجب أن أرتدى ثوبا أقل كآبة من هذا» ثم دخلت غرفة نومها ، وعادت فى ثوب قاتم ظريف ساحر وفى زينة بسيطة . وكان العشاء بهجا فشربت بعض الشمبانيا ، وانتعشت ، وأضاء محياها . ثم عدت معها الى منزلها .

واستمرت هذه العلاقة التى ارتبطت على القبور بضعة أسابيع . ولكن المرء يعاف كل شئ ولا سيما النساء . فتركها محتجا بسفرة طارئة ، وأثبتها بكرم شكرتى عنه أوفر الشكر ، وطلبت أن أعاهدها على العودة اليها . قى عدت ، لأنها كانت ، على ما يلوح ، تخلص لى بعض الشئ .

وحررت وراء لذات أخرى ، ومر شهر قبل أن أفكر فى حبيبة القبور الصغيرة ، ومع ذلك فإنى لم أنسها ...

وكانت ذكراها تعاودنى ، وكأنها لغز أو عضلة نفسية أو احدى هذه المسائل التى نحار فى حلها .

ولا أدري لم تصورت ، ذات يوم ، أننى سأراها فى مقبرة مونمارتر ، فذهبت الى هنالك .

ولبثت أتجول هنالك طويلا دون أن أقابل أحدا غير الزوار العاديين ، أعنى أولئك الذين لم يقطعوا بعد كل رابطة بالموتى . ولم يكن ثمة بايكات على قبر الضابط الذى قتل فى طونكين ، ولا زهور ولا أكاليل .

ولكنى إذ أتجول فى ناحية أخرى من تلك المدينة الحافلة بالموتى ، لمحت بجأة ، فى نهاية ممر ضيق ، شخصين يرتديان السواد : رجل وامرأة . ولشدد ما كانت دهشتى حينما اقتربت المرأة وعرفتها : لقد كانت اياها .

فرأيتنى واحمرت . وأشارت لى ، وأنا أمر الى جانبها ، بطرفها اشارة ذات مغزى ، وكأنها تقول لى « ألا تعرفنى » أو « عد الى يا عزيزى » . وكان الرجل أنيقا ، يحمل وسام الشرف ، وفى نحو الخمسين من عمره . وكان يسندها ، كما كنت ، عند مغادرة المقبرة .

فعدت ذاهلا أسائل نفسى عما رأيت ، وإلى أى جنس من البشر تنتمى هذه الصائدة بين القبور : هل كانت حقا فتاة ساذجة ، أم كانت عاهرا ذكية ، تجتنى فوق القبور حزانى الرجال ، الذين يساورهم شبح امرأة : زوج أو خلية ، وما زالت تؤسفهم ذكرى الخيال الذاهب ؟ وهل كانت وحيدة من نوعها ؟ أم تنتمى الى جماعة عديدة ؟ وهل تلك مهنة ؟ وهل تجعل المقبرة كالافريز فيؤمها صائدات المقابر ؟ أم هل ابتكرت من تلقاء نفسها تلك الفكرة البديعة ، ذات الفلسفة العميقة ، فى استثمار مؤسسات الحب التى تعاود جوانح المرء فى ذلك المكان الموحش ؟

وتالله كم وددت أن أعرف لمن كانت أرمل فى ذلك اليوم .^(١)

(١) أخذت هذه القصة من مجموعة La Maison Tellier

غوستاف فلوبر

اسطورة القديس

ترجمة
حسين كيلو

عويادات

اسْطُورَةُ الْقَدِيسِ
جُولِيَانِ الْمَضِيَّافِ (لُوسِبِيَّتَالِيِيَه)



زجاجية من وحي أسطورة القديس جوليان (كاتدرائية روان)

كان والدا جوليان يسكنان أحد القصور وسط الغابات وعلى منحدر إحدى الروابي. وكانت الأبراج الأربعة لهذا القصر ذات سقوف استدقت رؤوسها وغطتها رقاقات من الرصاص، بينما قاعدة جدرانها تتركز على قطع من الصخور تنحدر انحداراً شديداً إلى قعر خزانات تجمع المياه الزائدة. وكان بلاط باحة القصر نظيفاً نقياً، نظافة بلاط كنيسة ونقاءه.

وترى ميازيب طويلة ترمز بشكلها إلى التنين، أشداقها متجهة إلى الأسفل، وتلقي في الحوض بمياه الأمطار المتساقطة. بينما ترى على حواشي النوافذ وفي بقية طوابق ذلك القصر زهرات من الحبق أو من رقيب الشمس تفتتح في آنية من الخزف الملون.

وهناك حزام آخر مؤلف من الأوتاد، يحتوي أولاً على روضة تضم أشجار الفاكهة. ثم ترى حديقة أزهار تحتوي على مجموعات منها وترسم بأشكالها أرقاماً. ثم تجد كرمًا معترشاً ومقاعد متحركة لتنشق الهواء المنعش. تخرج الأماكن

المغلقة. كما يوجد بالإضافة الى ذلك مكان تجري فيه لعبة الكروكي من أجل الترفيه عن القائمين على خدمة القصر. ومن الجهة الأخرى تجد وجاراً لأحد الكلاب، وزرائب، ومخبزاً ومعصرة ومخازن للحبوب. كما تجد مرعى من العشب الأخضر وقد أخذ بالنمو حوالى القصر. وهو مغلق أيضاً بسياج منيع من الأشواك.

كان الناس يعيشون بأمن وسلام منذ وقت طويل الى حد أن المشبك لم يعد يُخَفَض.

كانت الحفر مليئة بالمياه، وطيور السنونو تبني أعشاشها في شقوق مرامي السهام، بينما أحد النبالين يتجول على الجدار الفاصل بين متراسين من متاريس الحصن، وحالما ترسل الشمس أشعتها المحرقة يعود الى مرقبه في القصر وينام كالناسك في صومعته.

وفي الداخل كانت الأدوات الحديدية من زينة وغيرها، تشع كالمصابيح. وكان أثاث القصر من بسط وغيرها من المفارش يقي من فيه غائلة البرد الشديد. أما خزانات الأمتعة فكانت ممتلئة بالملابس المختلفة عن آخرها. بينما براميل النبيذ مكدسة في أماكن تخزين المؤن، والصناديق المصنوعة من خشب البلوط تقضض وتحث قرقة من فرط ما حوت من أكياس الفضة.

وترى في غرفة السلاح بين الرايات المرفوعة ومشافر
الحيوانات المتوحشة أسلحة تعود الى مختلف العصور والأمم
بدءاً من راجات العمالقة الى رماح القرامطة فالى سيوف
الإسماعيليين القصيرة، وانتهاء بزرد النورمنديين.
ولقد كان في وسع السفود الرئيسي في مطبخ القصر أن
يدور حاملاً ثوراً من الثيران.

وكانت الكنيسة الخاصة القائمة داخل القصر فخمة
ككنيسة ملك من الملوك. كذلك تجد فيه فرنًا للتجفيف على
الطريقة الرومانية يقع في مكان منزوٍ منه. ولكن سيد القصر
الطيب استغنى عنه معتبراً أن هذه عادة من العادات الوثنية.
وكان يتجول في أرجاء قصره بشكل دائم متسربلاً
بعباءة مبطنة بفراء الثعلب كيما يفصل في ما ينشأ من قضايا
ومشاكل بين خدم القصر، وينهي ما ينشأ من خصومات
ومنازعات بين جيرانه.

وفي فصل الشتاء كان يراقب كتل الثلج المتساقط أو
يستمتع الى من يقرأ له القصص. ثم إنه فور انتهاء الشتاء،
ومع الأيام الأولى من أيام الطقس الجميل، يذهب للتجوال في
الطرقات على متن بغلته فيمتع الطرف بمنظر القمح
المخضوضر، ويتحدث مع الفلاحين فيسدي لهم من النصائح
ما يسدي.

وبعد كثير من المغامرات العاطفية تزوج بفتاة ذات حسب ونسب . كانت ناصعة البياض، رزينة، تمتلئ زهواً بنفسها وفخاراً. وكانت رؤوس طنطورها تلامس القسم الأعلى المقابل للعتبة من الأبواب، بينما ذيل معطف الجوخ الذي ترتديه تجره وراءها مسافة ثلاث خطوات من مواطىء قدميها ولقد كان يسود قصرها نظام دقيق كما هو الحال في أحد الأديرة.

كانت توزع العمل كل صباح على خادمتها، وتراقب المربّيات على أنواعها وتغزل على مغزلها أو تطرز أغشية للمذبح.

ومن فرط ما دعت ربها وتضرعت اليه فقد رزقها طفلاً ذكراً، فأقيمت الأفراح العظيمة، ومدت الموائد الفاخرة التي استمرت ثلاثة أيام وأربع ليال، على أضواء المشاعل وأصوات القيثارات، وفوق أوراق الشجر المنشور على الأرض إحتفالاً بالمناسبة العظيمة.

وقدم في هذا الاحتفال ما ندر من التوابل وعز نظيره منها في العالمين. بالإضافة الى دجاج كالخراف في حجمها.

ومن أجل التسلية والترويح عن النفس خرج أحد الأقزام بعدما فرغ من أكل فطيرة محشوة من الفطائر، بينما لم تعد تكفي قدور الطعام لأن جمهور المدعوين كان يزداد باطراد، فاضطروا لأن يتناولوا المشروبات في الأبواق والقبعات.

ولم تحضر النفساء هذه الاحتفالات، بل كانت تبقى في سريرها وقد ران عليها الهدوء وغشيتها السكينة.
واستيقظت من نومها ذات مساء فتراءى لها وكأن شعباً يتحرك تحت شعاع من أشعة القمر، دخل من النافذة. وكان ذلك الشبح يتمثل في هيئة رجل هرم يرتدي ثياباً خشنة سمراء كثياب النساك، وفي خاصرته مسبحة، وعلى عاتقه خرج. وفي عبارة موجزة، فإن كل علامات الزهد والنسك كانت بادية عليه. فتقدم من مخدعها وقال لها من غير أن يحرك شفتيه:
- « قري عيناً وافرحي أيتها الأم! فإن ابنك سيصبح قدسياً! » .

وكادت الأم أن تصيح، إلا أن الشبح ارتفع في الهواء بلطف واختفى منزلقاً على شعاع القمر.
وصدحت الأغاني التي يرددها المحتفلون المتحلقون حول المائدة، صدحت بشكل أقوى من ذي قبل. وسمعت الأم أصوات الملائكة، ثم عاد رأسها ليستقر على وسادتها التي كان يغطيها عظم أحد الشهداء ضمن إطار من العقيق الأحمر.
وفي اليوم التالي سئل الخدم عن مشاهداتهم، فأعلنوا أنهم لم يروا ناسكاً. وسواء كان ذلك حلماً أم حقيقة فإنه لا بد له من أن يكون اتصالاً سماوياً. ولكن كان همها ألا تفصح بشيء عما رآته أو تراءى لها مخافة أن يتهمها السامعون بالزهو والكبرياء.

وانصرف المدعوون في ساعة مبكرة من النهار، بينما كان والد جوليان خارج الباب السري للقصر حيث رافق آخر المدعوين إليه .
وفجأة إنتصب أمامه أحد المتسولين وقد غطى الضباب جسده .
كان ذلك المتسول أفاقاً متشرداً ذا لحية مجدولة ، وفي ذراعيه حلقات فضية ، بينما حدقتاه كأن فيهما ناراً متقدة . ولقد قال ، وهو يتلجلج ، كلمات لم يكملها ، وكأنه يردد وحياً أو إلهاماً :

- «آه ! آه ! ابنك كثير من الدماء . . . كثير من
المجد ! . . . سعيد دائماً ! عائلة إمبراطور» .
واختفى المتسول بين الاعشاب وتلاشى بينما كان منحنيّاً
ليلتقط صدقة تصدق أحد المحسنين بها عليه .
ونظر صاحب القصر الطيب يمينه ويسرة ، وناداه بأقصى ما
لديه من قوة فلم يرد عليه أحداً ! كانت الرياح تهب ، وضباب
الصباح يمر سريعاً ولقد عزا صاحب القصر هذه الرؤيا الى ما
ألم به من التعب وما حل برأسه من الألم والصداع لأنه لم ينم
سوى جزء يسير من الوقت . وقال في نفسه : « إذا تحدثت
بذلك بين الناس فإنهم سيسخرون مني » .
ورغم ذلك فإن الأنوار السنية والمجد الساطع بجلاله
وجماله المكتوب لابنه في لوح القدر كانت تخطف بصره وتبهره
رغم أن الوعد الذي قطع له بشأن ابنه لم يكن واضحاً ، ولم
يكن هو نفسه متيقناً من سماعه .

واحتفظ الزوجان بهذا السر لنفسهما . لكنهما كانا يحضنان ولدهما جوليان نصيباً متساوياً من حبهما ويخصانه برعاية لا حدود لها، بالإضافة الى احترامهما له باعتبار أن الله يصنعه على عينه وتحت رقابته ورعايته .

كان فراش جوليان محشواً بريش النعام، ويضاء فوقه دائماً مصباح يشبه اليمامة، بينما تهدده في سريره ثلاث حاضنات . كان يبدو كأنه يسوع صغير ملفوفاً في قماطه الذي شد عليه، ووجهه الوردي، وعينه الزرقاوين، ومعطفه المقصب بخيوط الحرير والذهب، وطاقيته المزدانة بالجواهر والحلي . ولقد اشقت لثته عن أسنان من غير أن يبكي ولو مرة واحدة .

ولما بلغ السابعة من عمره علمته والدته الغناء ورفعته أبوه على جواد ضخمة ليصنع منه رجلاً شجاعاً . وكان الطفل جوليان يضحك شعوراً منه بالارتياح والسرور . وما لبث أن أصبح على معرفة تامة بكل ما يتعلق بالحياد التي تستعمل في القتال . ولقد علمه ناسك عجوز تميز بعلمه الغزير الخط المقدس والأرقام العربية، كما علمه الحروف اللاتينية وكيف يرسم لوحات جميلة ظريفة على جلد العجل الدقيق الرقيق . كان جوليان والناسك يعملان معاً في أعلى برج صغير في منأى عن الصخب والضوضاء .

وحالما ينتهي الدرس ينزل الناسك وتلميذه جوليان الى

حيث يدرسان الأزهار وهما يتجولان بينها زهرة زهرة.
وكانا يريان أحياناً، وهما يسيران بعيداً في بطن الوادي،
صفاً طويلاً من الدواب يقودها رجل يسير على قدميه، ويرتدي
لباساً شرقياً.

وظن صاحب القصر أنه تاجر يتجر بهذه الدواب، فأرسل
إليه خادماً من خدامه، فحول الرجل الغريب وجهة سيره وقد
امتألت نفسه ثقة واطمئناناً. وعندما أدخل ذلك الرجل إلى
ردهة الاستقبال في القصر أخرج من صناديقه قماشاً من
المخمل والحرير، كما أخرج منها مجوهرات وعطوراً وأشياء فريدة
لا نظير لها ولا يعرف أحد كيفية استعمالها.
وانصرف الرجل أخيراً وقد أحرز ربحاً وفيراً من غير أن
يكابد مشقة ولا نصباً.

وأحياناً أخرى تأتي مجموعة من الحجيج فيقرعون الباب،
عليهم ثياب بللها الماء، فيتصاعد منها البخار أمام الموقد وكأنه دخان.
وعندما يشبعون يروون ما حصل لهم أثناء السفر،
ويقصون ما حدث في رحلاتهم الطويلة الحافلة بالمغامرات في
البحر الهائج المزد، وفي رمال الصحراء المحرقة كما يقصون ما
عاينوا وشهدوا من شراسة الوثنيين ووحشيتهم، ويتحدثون عن
مغاور سوريا وكهوفها، وعن المذود الذي ولد فيه يسوع المسيح
وعن قبره في القدس الشريف. وبعد ذلك يعطون صاحب

القصر بعضاً من الأصداف التي حملوها معهم في معطفهم .
وكثيراً ما كان صاحب القصر يولم لرفاقه القدامى في
السلاح . لقد كانوا يتذكرون ، وهم يشربون الخمر ، حروبهم
وانقضاضهم على الحصون تصحبهم دقات الطبول وأنغام
الآلات الموسيقية المختلفة ، كما كانوا يتحدثون عن الجراح
العجيبة الغريبة التي تحدث إثر معركة من المعارك
كان جوليان يصغي اليهم ويطلق صيحة في إثر أخرى
استهجاناً لما يسمع منهم من التفاصيل المذهلة . ولم يكن والده
ليشكك لحظة واحدة في أن ابنه سيكون في مستقبل الأيام في
عداد الفاتحين .

لكنه عند خروجه مساء ذلك اليوم من صلاة التبشير ،
وبينما كان يمر بين الفقراء الذين انحنوا له احتراماً ، اغترف
جوليان من كيس نقوده بعضاً منها بكثير من التواضع والنبل الى
درجة أن والدته كانت تقدر أن تراه في ما بعد أسقفاً من
الأساقفة .

كان مكانه في الكنيسة الصغيرة للقصر الى جانب والديه .
ومهما كانت الفروض الدينية طويلة فإنه كان يظل في مصلاه
راكعاً ، وقلنسوته على الأرض ، بينما يداه مضمومتان الى
صدره .

وفي أحد الأيام شاهد ، وهو يرفع رأسه أثناء القداس ،

فأرة بيضاء صغيرة خارجة من ثقب في السور. لقد قفزت على الدرجة الأولى من المذبح. وبعد جولات معدودة عن اليمين وعن الشمال هربت من حيث جاءت. وإن مجرد التفكير في أنه سيراهما الأحد التالي كان يعكر مزاجه. وبالفعل، فقد عادت يوم الأحد لتفعل مثل ما فعلت من قبل.

كان جوليان ينتظر الفأرة كل يوم أحد، فلقد تضايق منها وأضمر في نفسه الحقد عليها، فصمم على الخلاص منها. لقد وضع على درجات المذبح فتاتاً من الحلوى، وأغلق الباب، وتمركز أمام الثقب الذي اعتادت الفأرة الخروج منه والعودة عبره، وقد أمسك بيده قضيباً صغيراً. وبعد وقت قصير بدا خطمها الوردي ثم ظهر جسمها برمته فضربها جوليان ضربة خفيفة وبقي مذهولاً أمام هذا الجسم الصغير الذي لم يعد يبدي حراكاً.

ولطخت نقطة من دم الفأرة إحدى البلاطات فمسحها جوليان بكمه سريعاً وألقى بالفأرة الى الخارج دون أن يروي لأحد من الناس شيئاً مما حدث.

وكانت أفراخ العصافير من كل صنف ولون تنقر الحب في البستان. وخيل الى جوليان أن يضع حبات من الكرسنة في إحدى القصبات المجوفة، وأن يتقدم حالماً يسمع زقزقة أفراخ الطير هذه على إحدى الأشجار، يتقدم من هذه الشجرة بهدوء

ثم يرفع قصبته وينفخ فيها؛ وما إن فعل ذلك حتى تساقطت الطيور الصغيرة على منكبيه كأنها مطر منهمر، الى درجة أنه لم يتمالك نفسه من الضحك الذي هو عنوان لسعادته بنجاح مكيدته. وفي صباح أحد الأيام، بينما كان عائداً من ذلك البستان عبر الجدار القائم بين المتراسين، رأى على قمة السور حمامة ضخمة تمد عنقها نحو الشمس، فتوقف ليراقبها. وحيث إن الجدار في ذلك الموضع له فتحة، فإن قطعة من حجر تصادف وجودها تحت أصابعه، فأدار جوليان ذراعه قاذفاً بتلك القطعة الحمامة، فسقطت كتلة واحدة في الحفرة، فأسرع جوليان الى مكان سقوطها، وقد أصابه من الجراح ما أصابه لوجود الأشواك فيه. أسرع الى ذلك المكان باحثاً في كل شبر منه بخفة ورشاقة تفوقان خفة كلب صيد صغير ورشاقتها.

كانت الحمامة تحتلج وقد تحطم جناحها، وعلق جسمها بشجرة من نوع جنبنة الرباط. إلا أن بقاءها على قيد الحياة أثار غيظ الطفل جوليان فأمسك بخناقها ليخمد ما تردد فيها من أنفاس الحياة.

وإن اختلاجات الحمامة جعلت قلبه يخفق خفقاناً سريعاً وغمرته بلذة فريدة كانت تضيغ في ضلوعه.

وفي المساء، وأثناء تناول طعام العشاء، أعلن والد جوليان أنه في مثل سن ابنه على المرء أن يتعلم صيد الوحوش. وذهب

ليبحث عن دفتر للخط قديم، يحتوي، بطريقة الأسئلة والأجوبة؛ على عرض تفصيلي وشرح واف عن الصيد وأساليبه.

ففيه يطالع المرء أن معلم الصيد يعلم تلميذه فن ترويض الكلاب، وتدجين الصقور، ونصب الفخاخ ويعلمه كيف يعرف الأيل بروثه، والثعلب بآثاره، والذئب بما يحدثه على الأرض من خدوش بعد التبرز، والوسيلة الصالحة لتمييز مسالك الطرائد التي تعرف بآثار وعلامات مختلفة، كما يعلمه كيفية إخراجها من مخابئها، وأماكن وجود هذه المخابئ عادة، وما هي الرياح الأكثر ملاءمة للصيد بالإضافة الى تعداد الصيحات وأصول اختيار مراكز الصيد.

وعندما تمكن جوليان من حفظ هذه الأشياء برمتها ألف له والده مجموعة من كلاب الصيد. ففي بادئ الأمر كانت تلك المجموعة تتألف من أربعة وعشرين كلباً سلوقياً من بلاد البربر، أسرع من الغزلان عدواً، ولكنها عرضة لأن تهتاج وتستعر ثورتها.

ثم أضيف إليها سبعة عشر زوجاً من الكلاب البريتانية ذات الجلد الأحمر المرقط ببقع بيضاء، والتي لا تنخدع بحيل الطرائد ومكائدها، صدورها قوية ونباحها عظيم. وكانت تضم هذه المجموعة التي شكلها والد جوليان لابنه

أربعين قشعاً لمهاجمة الخنازير البرية ومداومتها في مكانها
ومسالكها الخطرة. وكان يغطي جسمها وبر كثيف كالديبة. كما
ضمت مجموعة جوليان كلاباً للحراسة ضخمة مخصصة
لمطاردة الثيران البرية، يبلغ حجمها حجم الحمر تقريباً، لونها
كالنار، وظهرا عريض، وعرقوبها قائم.

وكان جلد الكلاب الصغيرة السوداء يلمع كالحرير.
وفي باحة أخرى منزوية من باحات القصر راحت تنبح
ثمانية كلاب بربرية، وهي حيوانات مرعبة تقفز فتبلغ الى بطن
الفارس، ولا تخشى الأسود.

كانت هذه الكلاب تنبح فتتهز سلاسلها الحديدية بعنف
وتحرك حدقاتها بشكل دائري.

وهذه الكلاب كلها تقتات بخبز القمح، وتشرب في
أجران حجرية، وتحمل أسماء رنانة.

وإن جماعة الصقور ربما تجاوز عددها مجموعة الكلاب
الأنف ذكرها. وحصل على طيور الباز من الذكور الكائنة في بلاد
القوقاز، وعلى الصقور الضخمة من بلاد بابل، ثم على نوع
منها يعرف بالسنقر جاء به من ألمانيا. كما تم له الحصول على
صقور جواله ثم أسرها وهي على الصخور في شواطئ البحار
الباردة، أو في البلاد البعيدة النائية.

كانت هذه المجموعة من الحيوانات المختلفة تسكن في

حظيرة مغطاة بالقش، تصطف جائمة في مكانها وقد وضع أمامها تلاح من العشب من أجل أن تستعيد نشاطها وتقتات بين آونة وأخرى.

ولقد صنعت أدوات مختلفة للصيد؛ من شباك جيبيية وصنانير وفخاخ للثعالب. وكثيراً ما كان يجري في البرية تدريب الكلاب على اعتراض الطرائد وتثبيتها في مكانها، فكانت تنقض بسرعة فائقة على طرائدها وتثبتها في مكانها.

فبينما قادة كلاب الصيد يتقدمون شيئاً فشيئاً، وهم على صهوات جيادهم، بسطوا بحذر شبكة كبيرة على أجسامهم الممتنعة على الألم. وأشار هؤلاء الى الكلاب فأخذت تنبح. وكانت طيور الفري تحلق في الجو، فدعيت السيدات القاطنات في جوار ذلك المكان مع أزواجهن وأولادهن، وكذلك خادماهن، فألقوا بأنفسهم جميعاً على الطيور وأمسكوها بسهولة ويسر.

وأحياناً أخرى كانت تقرر الطبول لإخراج الأرانب البرية من مكانها، ويقع غدد من الثعالب في الحفر المفخخة، أو ينتفض أحد النباضات فجأة فيلتقط ذئباً من الذئاب من إحدى قوائمه.

ولكن جوليان أزرى بهذه المكائد السهلة التي لا تتطلب جهداً ولا مشقة، بل كان يفضل الصيد بعيداً عن الناس وعلى

صهوة جواده ، مصطحباً صقره، وهو طير ضخمة من بلاد
ياجوج وماجوج.

بينما جلاجل الذهب تهتز في قائمته الزرقاوين، كان
يتشبث جيداً بذراع سيده بينما هو يطوي من على جواده
السهول والوهاد. فحل جوليان وثاقه وأطلقه على الفور. إن
هذا الطير الشجاع يخلق في الفضاء كالسهم المنطلق، فترى فيه
بقعتين غير متساويتين تدوران وتلتقيان، ثم تختفيان في أعالي
الفضاء اللازوردي. وما يعتم الصقر حتى يعود فيهبط ومعه
عصفور مزقه تمزيقاً، ثم يعود ليحتم على قفازات سيده
الجلدية، وجناحه يرتعشان. وبهذه الطريقة فقد سرق جوليان
مالك الحزين، وحداة، وغراباً ونسراً.

ولقد كان يجب أن يتبع كلابه وهي تعدو على سفوح
الهضاب، وتجتاز السواقي وتتقدم نحو الغابة على أنغام البوق.
وعندما يبدأ الأيل بإطلاق صيحات الألم إثر عضات
الكلاب، في ذلك الوقت بالذات يصصره جوليان بخفة
ورشاقة، ويشعر بالمتعة عندما يرى الكلاب الضخمة تنهشه
وهي في سورة غضبها وعنفوان ثورتها فتقطعه إرباً إرباً.
وفي الأيام التي يغشى فيها الضباب الساء كان يختبئ
جوليان في أحد المستنقعات ليرصد البط في وروده، وئعالب
الماء، والبط البري الصغير.

وكان ينتظره منذ الفجر في أسفل درج المدخل ثلاثة من مروضي الجياد.

بينما حاول الناسك العجوز عبثاً أن يستدعيه بإشارة من يده عبر نافذة صغيرة انحنى فوقها. ولم يستدر جوليان ليرى تلك الاشارة لقد كان يمضي تحت وطأة الشمس المحرقة، والمطر المدرار، وفي الطقس العاصف، يمضي فيشرب من مياه الينابيع في راحة يده، ويأكل تفاحاً برياً وهو يقفز. وإذا تعب استراح في ظل شجرة من أشجار البلوط، ثم يعود ليلاً وقد غطاه الدم والوحل، وعلقت بشعره الأشواك وفاحت منه رائحة الحيوانات البرية المتوحشة، فلقد أصبح مثلها من فرط ما اعتادها وعندما تعانقه أمه يستجيب بفتور لهذا العناق، وقد بدا عليه أنه يحلم بأشياء بعيدة عميقة.

قتل جوليان عدداً من الدببة بطعنات من مديته، وعدداً من الثيران بضربات من فأسه، كما قتل عدداً من الخنازير البرية بواسطة إحدى حرايب الصيد. وفي مرة من المرات دافع عن نفسه ضد عدد من الذئاب التي هاجمته، بواسطة إحدى العصي التي لم يعد يمتلك غيرها آنذاك. وكانت تلك الذئاب تنهش عدداً من الجيف المنتنة.

وفي صباح يوم من أيام الشتاء، إنطلق جوليان قبل طلوع الشمس، وقد جهز نفسه تجهيزاً كاملاً. فقد كان يحمل على

عائقه قاذفة للسهام، ورزمة صغيرة من النبال وضعها في عدل
سرج جواده الدائري الذي ينطلق بخطى متساوية فتحدث
قوائمه وقعاً على الأرض منتظماً. بينما تبعه كلبا صيد قصيران
إعوجت منهما القوائم.

ولقد كانت تلتصق على معطفه كتل صغيرة من الجليد
المتساقط وتهب عليه ريح عاتية.

وفي بياض الغسق رأى جوليان أرناب تقفز قفزات متعددة
عند ظاهر أوجارها، فانقض عليها الكلبان في الحال، وما
هي إلا جولات خاطفة حتى قصماها قصاً.

وبعد قليل من الوقت دخل الى إحدى الغابات. وكان
أحد الديكة يعيش على أرض ينبت فيها الخننج، قد خدره
البرد، كان ذلك الديك نائماً على حافة أحد الغصون داساً
رأسه تحت جناحه، فقطع له جوليان قائمته بظهر سيفه وتابع
طريقه غير آبه بالتقاطه.

وبعد ساعات ثلاث وصل الى قمة جبل بلغت من
الارتفاع حداً تكاد تبدو السماء معه سوداء قائمة. وأمامه صخرة
داكنة أيضاً، طويلة الجانب، تنحدر مشرفة على هوة، وعلى
طرفها تيسان بريان ينظران الى الهوة. وحيث إنه لم تكن معه
سهام بسبب وجود جواده وراءه، فإنه قد رسم في ذهنه أن

يهبط الى الصخرة. ووصل أخيراً الى أحد هذين التيسين،
وصل إليه وهو حافي القدمين ، مقوس الظهر قليلاً، فأغمد
خنجره في ضلوعه، فخر صريعاً. وأما الثاني فقد انتابه دعر
شديد، وما كان منه إلا أن قفز قفزة في الهواء، فمد جوليان
جسمه ليضرب عنقه، فانزلقت قدمه اليمنى ووقع على جثة
التيس الصريع، وجهه فوق الهوة، وذراعا مفترقتان بعضهما عن
بعض.

وعندما نزل جوليان الى السهل مرة أخرى، سلك طريقاً
نهرياً زرعت أشجار الصفصاف على ضفتي النهر الذي يمر فيه .
وكانت طيور الكركي تحلق على ارتفاع منخفض، فتمر
فوق رأسه حيناً فحيناً، فانهاك عليها جوليان ضرباً بسوطه
فقتلها ولم يغادر منها واحدة.

ولقد أذاب الهواء، الذي أصبح أكثر حرارة من ذي قبل،
أذاب الطبقة الرقيقة من الجليد المتساقط.

وتصاعد الضباب في الفضاء، بينما أسفرت الشمس
وتنفس الصبح.

ورأى جوليان بحيرة جمد ماؤها تلمع من بعيد، رآها
تكتسي لوناً كلون الرصاص، وفي وسطها حيوان لا يعرفه، ألا
وهو القندس ذو الخطم الاسود. وبرغم المسافة الفاصلة بينه

وبين ذلك الحيوان، فإن سهماً من سهامه قد أصابه فصرعه .
وحزن جوليان لعدم تمكنه من الحصول على جلده . ثم تقدم
سالكاً جادة ذات اشجار ضخمة ترسم ورؤوسها شكلاً يشبه
قوس النصر على مدخل غابة من الغابات . وقفز حيوان من
فصيلة الأيائل خارج احد الأدغال . وظهر أيل أسمر في احد
المفارق، وخرج من احد الثقوب غرير، بينما ظهر احد
الطواويس فارساً على العشب ذنبه .

ولما قتل جوليان سائر تلك الحيوانات، تقدمت أخرى من
فصيلة الأيائل، ودلف عدد آخر من الطواويس والشحارير
وبنات عرس، وعدد من الثعالب والمناجد والأواسي، بالإضافة
الى عدد يكاد لا يحصى من الحيوانات التي كانت تتكاثر مع
كل خطوة من الخطوات .

كانت تدور حول جوليان مرتجة مرتعدة، وتحذجه بنظرات
ملؤها اللطف والضراعة . ولكن جوليان لم يكل أو يمل من
قتلها مع غيرها من الحيوانات التي برزت له في صيده، تارة
بتوتير قوسه، وأخرى بتجريد سيفه، وثالثة طعنأً بخنجره، وهو
في ذلك لا يلوي على شيء، ولا يفكر في أمر سواه، كبيراً كان
أو صغيراً .

لقد كان يصطاد في بلد ما منذ وقت غير محدد . وكان مجرد

وجوده الشخصي يجعل بقية الأمور تجري رخاء حيث أراد وكأنه يعيش حليماً من الأحلام. ولكن مشهداً خارقاً للعادة استوقفه وأثار دهشته، ألا وهو مشهد مجموعة من الأيائل تملأ وادياً صغيراً بأعدادها الهائلة. وكان ذلك الوادي يشبه أحد الملاعب الشعبية المغلقة. لقد ألصقت تلك الأيائل أجسامها بعضها الى بعض طلباً للدفع بينما تصاعدت أنفاسها الدافئة في الجو وكأنها دخان.

وإن وقوع مثل تلك المجزرة على يد جوليان خلال بضعة دقائق، قد أفعم نفسه بهجة لا تضاهيها بهجة في العالمين.

ثم ترجل جوليان عن جواده، ورفع كفيه ثم بدأ بإطلاق السهام على الأيائل. وعند سماع أول سهم يشق الفضاء متجهاً نحو الوادي أدارت الأيائل رؤوسها جميعاً، وحدثت فجوات في تجمعاتها، فأصبح شملها شتتاً، وارتفعت أصواتها متذمرة شاكية. وهاج القطيع وماج بحركة عظيمة بثت الفوضى والبلبلة في صفوفه المذعورة.

ولقد كانت حافة الوادي مرتفعة ارتفاعاً شاهقاً لا يسمح بتجاوزها من قبل ذلك القطيع، فكانت الأيائل تقفز وتقفز داخل الوادي محاولة أن تجد لها منه مخرجاً ومناصاً.

وكان جوليان يصوب سهامه ثم يطلقها فتسقط على القطيع مثل زخات المطر في اليوم العاصف. وأصبحت الأيائل في غاية

، ، ،

الهياج، فتقوم بقفزات عالية ويصعد بعضها على ظهور الأخرى. وكانت أجسام حيوانات القطيع تشكل مع قرونها المتشابكة كثيباً من الرمال عظيماً لا يلبث أن ينهار لدى انتقالها من مكان الى مكان.

ونفقت الأيائل أخيراً، فألقيت جثثها على الرمال، بينما بلل اللعاب خطم كل واحد منها. وبرزت أحشاؤها ثم همدت حركة بطونها قليلاً قليلاً، الى أن استحالت جثثاً هامدة. وأوشك الليل على الهبوط. فوراء الغابة وعبر الفراغات القائمة بين أغصان الأشجار، كانت السماء تبدو حمراء كغطاء من الدم.

وأسند جوليان ظهره الى جذع شجرة فأخذ يتأمل بعينين اتسعت حدقتاهما دهشة وذهولاً، أخذ يتأمل فداحة المجزرة وحجمها غير مدرك كيفية تمكنه من إحداثها.

وفي الجهة الأخرى من الوادي، في حاشية الغابة، أبصر أيلاً وظبية مع شادنهما. كان ذلك الأيل أسود، عظيم الجثة الى حد كبير، في رأسه ستة عشر قرناً، وله لحية بيضاء. وكانت الظبية شقراء مثل أوراق الخريف الميتة، تخضم العشب، بينما شادنهما ذو الجلد المرقط يرضع ثديها من غير أن يكلفها مؤونة التوقف عن سيرها.

وانطلقت سهام جوليان مرة أخرى، فقتل الشادن على

الفور، فنظرت أمه الى السماء تشكو رزيتها، متضرعة بصوت عميق يقطع نياط القلوب، واستشاط جوليان غضباً فصرعها بضربة أصابت صدرها إصابة مباشرة ورأى الأيل الكبير ذلك المشهد فقفز في مكانه وكأنه دهش من هول ما رأى، فوجه اليه جوليان آخر سهم في كنانته فأصابه في جبهته، وبقي السهم فيها مغروزاً.

لم يظهر على الأيل العظيم أنه أحس به، فلقد كان لا يزال يسير قدماً فوق جثث الأيائل الصريعة، وكاد أن ينقض على جوليان فيبقر بطنه، بينما هذا يتراجع في دعر لا يمكن أن يقع تحت وصف الواصفين.

وتوقف الحيوان العجيب وردد كلمة واحدة بعينين متوهجتين متقدتين، وكأنه قاضٍ من القضاة أو بطرك من البطارقة، ردها ثلاثاً بينما كان الناقوس يقرع في الكنيسة:.

- «ملعون! ملعون! ملعون! إنك ستقتل في يوم من الأيام أباك وأمك يا صاحب القلب الغليظ الفظ!». ثم ثنى ركبتيه وأطبق جفنيه يهدوء ليسلم نفسه الى قدره المحتوم.

فاعترى جوليان الدهول والتعب المفاجيء، وشعر باشمئزاز وتقزز بالإضافة الى شعوره بأن حزناً ملأ قلبه وملك عليه أقطار نفسه.

لقد بكى كثيراً واضعاً رأسه بين كفتي يديه . وكان قد ضاع جواده وغادرته كلابه . وبدا له أن الوحدة التي تلف كيانه تهدده بأخطار لا يعرف لها وصفاً ولا تحديداً . فدفعه ذعره الى أن يجري عبر البرية ، فاختار جزافاً ممراً ضيقاً ثم ألقى نفسه لدى باب القصر في الحال .

وعند هبوط الليل لم ينم . وكان لا يزال يعاوده مشهد الأيل الأسود العظيم وهو يجلس تحت المصباح المتأرجح في سماء غرفته . فلقد أصبحت نبوءة الأيل هاجسه الوحيد . وأخذ جوليان يقاوم هذا الهاجس ويحاول أن يتخلص منه قائلاً : « كلا ! كلا ! لا يمكن أن أقتلها ثم فكر وقدر وقال في نفسه : « وإذا اتفق لي أن قتلتهما ؟ » .

ولكم كان يخشى أن يسول له الشيطان قتلها ويزينه له . ودعت له امه وهي تصلي مدة ثلاثة أشهر عند رأس سريريه ، والقلق يملأ نفسها .

أما والده فقد كان يذرع الممرات مصعداً آهاته الحرى . واستدعى له أعظم الأطباء شهرة ، فوصفوا له مقادير من الدواء وقالوا إن مرض جوليان مرده ريح نحسة أو نزوة عشق أملت به .

ولكن الشاب جوليان كان يكتفي من الإجابة على ما طرح عليه من أسئلة بهز رأسه .

ولما استرد عافيته وعاد اليه نشاطه، أخذوا يطوفون به في
باحة القصر مستنداً الى ذراعي كل من الناسك العجوز
والكاهن.

وعندما تماثل جوليان الى الشفاء تماماً أصر على ألا يعود
الى صيدٍ أبداً.

وأراد والده أن يدخل السرور الى قلبه، فأهدى اليه سيفاً
عريباً كبيراً يشبه في طوله سارية من السواري، أهداه اليه
بالإضافة الى مأطورة للسلح. ولكي يصل الى قبضة ذلك
السيف، كان لزاماً عليه أن يتسلق سلماً. وارتقى جوليان سلماً
فبلغ الى ذلك السيف. وعندما حاول أن يمسه بيده أفلت من
بين أصابعه، ولامس الكاهن عن كثب ملامسة جعلت ثوبه
الفضفاض ينشق، فاعتقد جوليان أنه قتل أباه فأغمي عليه.
ومنذ ذلك الحين أخذ يوجس من السلح خيفة الى درجة انه
يتمتع لمجرد رؤيته لسلح خارج غمده. وذلك ما سبب لعائلته
الحزن والأسى.

وفي نهاية الأمر أمره الناسك العجوز باسم الله والشرف،
وباسم الآباء والأجداد، أن يستأنف تمريناته التي هي من شأن
النبلاء.

وكان معلمو الفروسية يلهون كل يوم باستعمال إحدى
الحراب. وقد برع فيها جوليان بسرعة مذهلة. فقد كان يدخل

حربته في عنق الزجاجاة، ويحطم أسنان دوارة الهواء، ويدق
المسامير في الأبواب من مسافة مئة خطوة.

وفي إحدى أمسيات الصيف، وفي اللحظة التي يغطي فيها
الضباب الاشياء فيحجبها عن الأنظار، رأى مكانه تحت
العريش جناحي طائر أبيض يطير على مستوى ارتفاع العريش،
فلم يشك في أنه طائر البجع، فرماه برمحه. وانطلقت صيحات
تقطع نياط القلب.

لقد كانت الضحية والدة جوليان التي بقيت قبعتها ذات
الحواشي الطويلة مسمرة على الجدار، ففر جوليان من القصر
ولم يعد يظهر أمام الناس.



إنضم جوليان الى عصابة من المغامرين تصادف مرورهم من أمامه.

لقد جاع وعطش وأصابته ضروب الحميات، وابتلي بالحشرات على أنواعها. وأصبح العراك الصاخب والمشاجرات العنيفة من الأشياء المألوفة بالنسبة اليه. كما اعتاد منظر المحتضرين.

لقد لوحث الريح بشرته، وعرك لبوس الحديد بالقسوة أعضائه. ولقد حصل بسهولة على مرتبة قائد لمجموعة من صحابه لكونه شديد البأس، شجاعاً، غير متطرف في آرائه ومواقفه لأنه حذر يقط، وفطين ذكي.

كان يثير جنوده بحركة بارعة من سيفه، ويتسلق جدران الحصون بواسطة جبل فيه عدد من العقد، يتسلقها ليلاً، بينما تكاد العواصف أن توقعه أرضاً، والنار تلتصق بدرعته، والصمغ المغلي وذوب الرصاص ينهمران مطراً مدراراً عبر مرامي السهام في الحصون.

فلكم تحطم ترسه لدى اصطدام أحد الحجارة به! ولكم انهارت تحت قدميه جسور غصت بالجموع الغفيرة من البشر.

قضى على أربعة عشر فارساً بضربة واحدة من سيفه،
وألقي بقفاز التحدي في وجه سائر الذين تقدموا منه للمبارزة.
ولقد حسبوه في عداد الأموات أكثر من عشرين مرة.
كان يفلت في كل مرة من برائن الموت بفضل الله لأنه كان
يضع رجال الكنيسة تحت ظل حمايته ورعايته، كما كان يرعى
اليتامى والأرامل، لا سيما من تقدمت به السن.
فما إن يرى أمامه شخصاً من هؤلاء الناس يسير على
قدميه حتى يصرخ به ليتعرف على صورة وجهه خوفاً من أن
يقتله خطأ.

لقد انضوى تحت رايته وسار تحت لوائه الفارون من
العبيد، والثائرون من الفلاحين، ومن لا يعرف له أباً
أو أمّاً من المفلسين، والرجال الأشداء البواسل من
كل جنس ولون، فكان له من هؤلاء جيش عرمرم ما لبث أن
ذاع صيته حتى أصبح الكثير من الناس يودون الانخراط فيه.
فلقد أنجد كلاً من ولي عهد فرنسا، وملك إنكلترا،
ورهبان هيكل الرب في بيت المقدس، ونائب ملك البارثيين،
ونجاشي الحبشة، وإمبراطور كليكوت. قاتل قوماً اسكندنافيين
غطيت أجسامهم بقشور السمك، وآخرين من الزنوج المزودين
بالدروع ذات الأشكال الدائرية المصنوعة من جلود أفراس
النهر، والذين يمتطون حميراً حمراء. كما قاتل هنوداً ذوي بشرة

صفراء، يشهرون سيوفاً عريضة فوق رؤوسهم التي تعلوها
التيجان، سيوفاً تفوق المرايا جلاء وصفاء.

لقد قهر سكان الكهوف وأكلي لحوم البشر من المتوحشين،
وعبر مناطق بالغة الجفاف، وصلت حرارة الشمس فيها الى حد
جعل شعور الناس تشتعل من تلقائها وكأنها مشاعل مضيئة.
كما عبر مناطق أخرى غيرها بلغت البرودة فيها درجة جعلت
سواعد الناس تنفصل عن أجسامهم فتقع أرضاً. كذلك، فقد
عبر بلاداً فيها من الضباب ما يجعل المرء يسير كأنه يعيش في
عالم من الأشباح.

وقد استشارته جمهوريات في ساعة العسرة ليرجها من
مخبتها. ولدى مقابلته لسفراء البلدان كان يحصل على شروط لا
يحلم أحدها بالحصول عليها.

وإذا تصرف ملك من الملوك تصرفاً سيئاً، يأتي اليه جوليان
في الحال ليقرعه ويؤنبه.

ولقد حرر شعوباً برمتها، وأطلق ملكات سجينات في
البروج. وهو الذي قتل ثعبان ميلان وتنين أوبريرباخ^(١).

(١) هذا الثعبان الخارق العجيب، وذلك التنين كان لهما منزلة في الأساطير التي
ترقى الى القرون الوسطى، والأساطير الألمانية، كذلك كان لهما إعتبارهما في الخيال
الابداعي.

إن إمبراطور أوكسيتانيا كان قد تزوج سفاحاً بأخت خليفة قرطبة عندما انتصر على المسلمين الأسبان، واحتفظ بفتاة قرطبية كان قد رباها تربية مسيحية. ولكن الخليفة جاء ليزور الامبراطور متظاهراً بأنه يريد أن يتحول عن دينه الى المسيحية، جاء ومعه مجموعة كبيرة من الحرس فذبح حامية الامبراطور عن بكرة أبيها وألقى بذلك الامبراطور في أحد الدهاليز حيث كان يعامله بغلظة لينتزع منه كنوزه وما ملكت يده من أموال. فهرع جوليان اليه ليساعده في محنته ويخرجه من ورطته، فدمر جيش الكفرة، وحاصر المدينة فقتل الخليفة وقطع رأسه ثم ألقى به من على الأسوار مثلما يلقي بكرة من الكرات.

وبعد ذلك أخرج الإمبراطور من سجنه ورفع على عرشه من جديد بحضور جميع أفراد حاشيته.

وقدم الامبراطور لجوليان كثيراً من المال في سلال خاصة ثمناً لهذه الخدمة التي اسداها اليه. ولكن جوليان لم يرد ان يأخذها، فقدم له الامبراطور ثلاثة أرباع ثروته معتقدا أنه يبغى المزيد من ماله وعطائه، فما كان من جوليان إلا أن كرر رفضه، فعرض عليه أن يشاطره مملكته، فشكر له جوليان ذلك. عندئذ راح الإمبراطور يبكي من الغيظ غير عالم بالطريقة التي يظهر بها شكره وامتنانه لمن أنقذه وأعادته الى

ملكه . ولطم جبهته ثم أسر الى أحد ندمائه بكلمة . وارتفعت
الستائر فظهرت فتاة في ميعة الصبا .

كانت عيناها الواسعتان السوداوان تلمعان وكأنهما
مصباحان في الغاية من اللطف والجمال ، بينما انفرجت شفاتها
عن ابتسامة هي السحر والفتنة عينها . كانت حلقات شعرها
مقرونة الى الحجارة الكريمة التي تزين معطفها المنفرج شيئاً
قليلاً . ويمكن المراء أن يتنبأ بصبائها من خلال ثوبها الرقيق
الشفاف الذي كانت ترتديه .

لقد كانت عظيمة الظرف واللطف ، ممتلئة الجسم ، ولها
خصر نحيل .

إفتتن جوليان بجمالها فأحبها حباً عظيماً ، خصوصاً وأنه
عاش حتى ذلك الوقت حياة عفة .

وتزوج جوليان ابنة الامبراطور هذه التي ورثت عن امها
أحد القصور .

وعندما انتهت مراسم الزفاف تفرق شمل المحتفلين إثر
لياقات ومجاملات لاحد لها .

كان قصر العروس مبنياً على الطراز العربي من الرخام
الأبيض ، ويقع على أنف جبل داخل في البحر ، وفي إحدى
الغابات المليئة بأشجار البرتقال .

وكانت الشرفات المغطاة بالأزهار تنحدر الى شاطئ أحد

س .

الخلجان حيث تسمع قرقة الأصداف الوردية اللون تحت
الأقدام.

وخلف القصر تمتد غابة تشبه المروحة في شكلها. وكانت
السماء دائمة الزرقة، والأشجار تتمايل ذات اليمين وذات
الشمال تحت تأثير نسيم البحر والريح الآتية من الجبال، هذه
الريح وذلك النسيم كانا يسدان الأفق برمته.

وإنك لتجد غرف القصر ينيها ساعة الأصيل ما غشي
جدرانها من الوشي والزينة. كما تجد أعمدة صغيرة دقيقة
كالقصب تقوم دعائم لعقود القباب، تزينا نتوءات تشبه
الرواسب الكلسية المتحجرة الهابطة من سقوف المغاور.

كذلك تجد في غرف القصر نوافير ماء، وأنماطاً من
الفسيفساء في باحات القصر، وقواطع مزركشة بالكشاكش،
بالإضافة الى ألف لطيفة ولطيفة من لطائف الفن المعماري
ودقائقه. فضلاً عن ذلك كله، فإن صمتاً كاملاً كان يخيم على
كل زاوية من زوايا القصر، حتى إنك لتسمع حفيف الشال
على عاتق إحدى الصبايا، أو تسمع صدى نفس من الأنفاس
التي تتردد في صدرها.

وكف جوليان عن الحرب، فكان يرتاح بين شعب
هادىء.

وفي كل يوم كان يمر من أمامه حشد من البشر مؤدين له

فروض الطاعة والولاء بالركوع وتقبيل يديه على الطريقة
المشرقية.

لقد جلس بلباسه الأرجواني مستنداً بمرفقيه الى كوة إحدى
النوافذ متذكراً الأيام الخالية التي أمضاها في الصيد.
وكان يود أن يعدو خلف الغزلان والنعامات، ويختبئ في
أشجار الخيزران متربصاً بالفهود ليوقع بها، وأن يقطع غابات
تمتلئ بحيوانات من مثل وحيد القرن، كما كان يتمنى أن يصل
الى قمم أكثر الجبال وعورة وامتناعاً على التسلق، كان يتمنى
ذلك كيما يحسن التصويب الى العقبان بطريقة فضلى، ويقاتل
الدبة البيض في البحار المتجمدة.

وكان جوليان يبصر نفسه احيانا في المنام وكأنه آدم ابو
البشرية وسط الجنة وبين سائر الحيوانات. كما يرى في تلك
الاحلام انه يمد ذراعه فيقضي على تلك الحيوانات، أو
يستعرضها مثنى مثنى متقدمة امام عينيه حسب حجم كل منها،
بدءاً من الفيلة والأسود، وانتهاء بحيوانات الفاقم والبط؛
يستعرضها بهذه الطريقة مثلما استعرضها نوح عندما أدخلها
سفينته.

فلقد كان جوليان يصوب نحوها رماحه التي لا تخطيء
بينما هو مختبئ يترصدها في ظل إحدى المغارات. ثم يأتي

غيرها. وهكذا الى ما لا نهاية له من تلك الأصناف من الحيوانات.

ويستيقظ جوليان من ذلك الحلم مرسلاً نظراته الشرسة القاسية الى من حوله وما حوله.

ودعاه أمراء من أصحابه ليصطاد معهم، فرفض ظناً منه، انه بهذا النوع من التوبة يحول من وجهة تعاسته وسوء طالعته، ذلك بأنه كان يبدو له أن مصير والديه منوط بالمجزرة التي ارتكبتها بحق الحيوانات أثناء صيده.

ولكن عدم رؤيته لوالديه كان يثير مكانن الألم في نفسه. وأصبحت رغبته في التكفير عن خطاياها تكاد لا تستقر في ضلوعه من فرط ما ألحت عليه وضجت في صدره.

ولقد استدعت له زوجته المشعوذين والراقصات كي تروح عن نفسه وتخفف عنه ما يكابده من عذاب.

كما كانت تنزه وإياه في البرية على محمل مفتوح. وفي أحيان أخرى كانا يتجولان وهما مستلقيان على حافة زورق من الزوراق، ويتفرجان على الأسماك التي تنتقل من مكان الى مكان في مياه كالسقاء صفاء ونقاء.

وكثيراً ما كانت زوجته تلقي على وجهه بالأزهار وهي جاثية على قدميه، وتعزف له على آلة موسيقية ذات أوتار ثلاثة، ثم تضع كلتا يديها المضمومتين على منكبيه وتقول له بلهجة حيية:

- «ماذا دهالك يا سيدي العزيز؟»، فلا يجيبها عن سؤالها، أو ينفجر باكياً منتحباً.
واعترف أخيراً في أحد الأيام بما يفكر فيه من أفكار فظيعة مرعبة.
ولقد حاربت زوجه هذه الأفكار بأن فكرت بصورة منطقية على النحو الآتي:

من المحتمل أن يكون والداه قد توفيا؛ فإذا حدث له أن رآهما في يوم من الأيام فكيف يحصل له، وفي أي هدف يتفق له أن يصل إلى ما يصل إليه من التفكير، على هذا النحو الفظيع؟

إذاً فإن خوفه لا مبرر له، ويجب أن يعود إلى ممارسة الصيد. ويتسم جوليان وهو يستمع إليها، ولكنه لم يعقد العزم على أن يلبي لها رغبتها.

وفي إحدى أمسيات شهر آب (أغسطس) بينما هو وزوجه في غرفتهما هي نائمة منذ وقت قصير، وهو في صلاة وركوع، سمع جوليان ثعلباً يعوي، كما سمع وقع أقدام خفيفاً تحت النافذة. ولمح في الظلام أشباح حيوانات تراءت له، فأنزل كنانته من مكانها معداً نفسه للصيد. وبدأت على زوجه الدهشة والذهول من هذه المفاجأة، فقال لها زوجها:

- «ما ذلك إلا طاعة لك وتنفيذاً لنصائحك، وسأعود عند شروق الشمس».

بيد أن زوج جوليان أوجست خيفة في نفسها من مغامرة مشؤومة ينوي زوجها القيام بها، فطمأنها هذا وعجب من عدم انسجام مزاجها. وبعد فترة وجيزة جاء أحد الخدم ليعلن أن شخصين مجهولين يطالبان بمقابلة ربة القصر ما دام رب القصر غائباً

ولم يلبث أن دخل إلى الغرفة رجل وإمراة عجوزان، وقد تقوس منها الظهر، وبدا كل منهما أشعث أغبر، يرتديان ثياباً خشنة، ويتوكآن على عصوين. ولم تكن الشجاعة هذين الشيخين في أن يعلن أنهما يحملان إلى جوليان أخباراً من والديه. فانحنت زوجه لتسمع الأخبار. لكن العجوزين نظر بعضهما إلى الآخر نظرة تواطؤ واتفاق وسألاها بصوت واحد إذا كان جوليان لا يزال يضمّر الحب لوالديه ويتحدث عنهما في بعض الأحيان. فأجابت زوجه:

- «أجل،»، فصاح العجوزان معاً بهذه الكلمات:

- «حسناً! نحن والداه،»، ثم جلسا لفرط ما اعتراهما

من التعب والإعياء.

ولم يكن هنالك شيء يؤكد للصبية أن زوجها هو ابن لهذين العجوزين ولكنها أعطيا الدليل على ذلك محددين

علامات معينة توجد على بشرة جوليان. فنهضت الزوج من مخدعها ودعت خادمتها فأعدت للعجوزين الطعام وبرغم كونها شديدي الجوع، لم يستطيعا أن يتناولوا من الطعام إلا لقيمات قليلة. وكانت تلاحظ وهي بعيدة عنها اهتزاز أيديهما الناحلة وهما يتناولان قدحي الشراب.

وطرح الشيخان ألف سؤال حول جوليان، فكانت زوجه تحييهما عنها كلها، ولكن كان همها أن تقصي عن ذهنها الخاطر المشؤم الذي كان يخطر على بالها في شأنها.

وأخبرها أنها، إذ وجدا أن جوليان لم يعد إلى قصرهما بعدما انتظراه طويلاً، إنصرفا بدورهما من القصر بحثاً عنه، تتبعاً لإشارات غامضة تدل على مكان وجوده، تتبعاً سنين طويلة دون أن يفقدا الأمل في العثور عليه. وكان عليهما أن ينفقا كثيراً من المال في مصاريف متعددة شتى، منها مثلاً رسوم المرور عبر الأنهار، ونفقات الإقامة في الفنادق، وحقوق الأمراء، وما يتطلبه اللصوص منها. وبلغت هذه الأموال المدفوعة حداً جعل ما لديهما مما خصص لهما منه ينفد، وذلك ما حداهما على التسول. وما همهما من ذلك المصير ما داما سيعانقان بعد قليل من الوقت ابنها جوليان؟

وكانا يثنيان على سعادة ابنهما جوليان لكونه قد حظي

بزوجة في مثل ذلك القدر من اللطف، ولم يتعبا من إلقاء نظراتهما المتأملّة عليها وتقيلها.

وأثار أثار القصر ورياشه دهشتها الى حد كبير. وعندما تفحص العجوز بنظراته المتأملّة جدرانها، سأل عن سبب وجود شعار نسب إمبراطور أو كيستانيا عليها، فأجابته زوج جوليان قائلة:

- «إنه أبي!».

فاختلج العجوز وارتعد مستذكراً بنوة ذلك المتشرد الآفاق.

وفكرت العجوز في كلام الناسك. فلا ريب أن مجد ابنها وعظمته ليسا سوى فجر النور الأبدي.

وبقي العجوزان مشدوهين مذهولين تحت نور مشكاة فيها مصباح يضيء بنوره الطاولة التي كانا يجلسان اليها.

ولا بد أنهما كانا رائعي الجمال في شبابهما، فلم تكن الأم قد فقدت بعد شيئاً من شعرها الذي بقيت منه ذؤابات دقيقة تشبه كتلاً من الثلج تتدلى الى أسفل خديها. وكان الأب يشبه بقده الفارع الطول ولحيته الكبيرة أحد تمائيل الكنيسة.

وحملت زوج جوليان العجوزين على ألا ينتظرا جوليان، وأضجعتها بنفسها في فراشه وأغلقت زجاج النافذة، ونام

العجوزان. وأوشك أن يطلع النهار، بينما بدأت صفار
العصافير تزقزق خلف زجاج الغرفة.
وكان جوليان قد اجتاز الحظيرة بينما هو يسير في الغابة
بخطى تتفجر نشاطاً ورشاقة مستمتعاً بلدانة العشب ولطف
الهواء.

كانت الأشجار تمد ظلالها على الأعشاب، والقمر يرسم
أحياناً بقعاً بيضاء في منفرجات الغابة، فيتردد جوليان في السير
قدماً ظناً منه أنه رأى مستنقعاً، أو أن صفحة مياه البحيرات
التي لا موج فيها ولا رياح تحركها يختلط لونها بلون العشب.
وساد الصمت الرهيب كل مكان، ولم يكتشف جوليان أيّاً من
الحيوانات التي كانت تهيم على وجهها حول قصره لدقائق
معدودات.

وأرخی الظلام سدوله الكثيفة وألقى بظله الرهيب على
الغابة.

وهبت رياح ساخنة محملة بالأريج الذي يبعث في النفس
الراحة، ويبث في الأعصاب الهدوء والاسترخاء. وتوغل
جوليان عبر ركام من الأوراق الذابلة الميتة، وأسند ظهره الى
شجرة بلوط ليتنفس الصعداء ويحظى بقسط من الراحة.
وفجأة، قفزت من خلفه كتلة أشد سواداً من ذي قبل،
وكانت عبارة عن خنزير بري. ولم يتح الوقت لجوليان حتى

يأخذ قوسه فيرمي هذا الخنزير بسهامه، فحزن لذلك حزناً عظيماً، وكأنا أصابته كارثة.

ثم شاهد جوليان خارج الغابة ذئباً يذرع سياجاً جيئةً وذهاباً، فصوب نحوه سهماً من سهامه فتوقف الذئب وأدار رأسه ليراه ثم استأنف عدوه. كان يقفز محتفظاً بالمسافة عينها بينه وبين جوليان، وأخذ يتوقف من حين إلى حين. وحالما صوب إليه سهمه مرة أخرى أخذ الذئب يجد في الهرب من جديد.

وبهذه الطريقة اجتاز جوليان سهلاً لا تدرك له نهاية. وقطع تلالاً رملية، ثم ألقى نفسه في نهاية المطاف فوق هضبة تشرف على مساحات شاسعة من البلاد.

وكانت الحجارة المسطحة متناثرة بين أقبية صغيرة صارت بياباً. بينما كان الناس هنا يتعثرون بعظام الموتى، والصلبان التي نخرها السوس في حالة يرثى لها.

ولكن أشباحاً حركت في الظلام المريب قبوراً، فخرجت منها ضباع فزعة مشدوهة، لاهثة، فاقتربت من جوليان وشمته وهي تشاءب تناؤياً كشف عن لثاتها.

ولما نزع جوليان سيفه من غمده فرت جميع الضباع دفعة واحدة في كل اتجاه، واختفت بعيداً مخلفة وراءها سحاً من النقع.

وبعد ساعة من الزمان التقى ثوراً هائجاً في أحد الأودية،
قد انتصبت قرونيه الى الأمام، وهو ينكت الرمال بإحدى
قوائمه، فسدد جوليان سهماً من سهامه صوب اللحم المتدلي
من تحت فكه، فانفجر الثور وكأنه من البرونز، وأطبق جوليان
عينيه منتظراً أن ينفق، لكنه عندما عاد وفتحها كان الثور قد
توارى عن الأنظار فأصيب جوليان بحالة من الانهيار النفسي
نتيجة الخزي الذي احس به إثر هذه الحادثة، فإن قوة علوية قاهرة
هي التي دمرت قوته. ولكي يعود الى قصره دخل مرة أخرى
الى الغابة التي تشابكت فيها النباتات المتسلقة، فأخذ جوليان
يقطعها بسيفه.

وفي هذه الأثناء مر خمس فجأة من بين ساقيه، وقفز أحد
الفهود من فوق منكبيه، بينما التفت حية حول شجرة من
أشجار الدردار أمامه. وكان بين أوراق تلك الشجرة غراب
هائل ينظر الى جوليان. وظهر هنا وهناك عدد من الشرارات
الضخمة بين الأغصان، وكأن السماء أسقطت كل نجومها على
الغابة مطراً منهمراً. ولم يكن ذلك المطر سوى عيون حيوانات
كالهرة البرية والسناجب والبوم والبيغاوات والقروود. فرماها
جوليان بسهامه، فاستقرت تلك السهام على الأوراق بريشها
وكأنها فراشات بيضاء. ثم قذفها بالحجارة من غير أن تصيب
هدفاً. فلعن جوليان نفسه وتمنى لو يقاتل وينازل. ودوى صوته

لاعناً متسخطاً حتى كاد أن يخنقه الغضب. وتقدمت الحيوانات التي طاردها جوليان في صيده، وضربت حوله طوقاً ضيقاً محكمًا، فبعضها كان يجلس على ردفه والبعض الآخر ينتصب واقفاً بكامل قامته. وبقي جوليان وسطها وقد شل الرعب حركته وعجز عن القيام بأدى حركة. ولكن خطأ خطوة واحدة بفضل جهد إرادي عظيم وعزيمة صادقة ثابتة. فنشرت الطيور الجائمة على الأشجار أجنحتها، وتحركت الحيوانات التي تدب على الأرض من مكانها، ورافقت هذه وتلك الى حيث خطأ أول خطاء.

كانت الضباع تسير أمامه، والذئب والخنزير البري خلفه؛ أما الثور فكان يسير عن يمينه هازا رأسه يمنة ويسرة؛ وأما الحية فكانت تتلوى زاحفة على الأعشاب؛ بينما يسير الفهد بخطى وادعة واسعة عنخيا ظهره. كان يسير بأقصى درجة ممكنة من البطء حتى لا يثير غضب الحيوانات وسخطها. وكان جوليان يرى الشياهم والشعالب والثعابين، وبنات آوى، والديبة تخرج من قلب الأدغال العميقة. وأخذ يجري فعدت وراءه. وشرعت الحية تطلق فحيحها، والحيوانات المنتنة يسيل لعابها، بينما الخنزير البري يضرب كعبي جوليان ببرائنه، والذئب يفرك بطن راحتيه بوبر خطمه. وقرصته إحدى القردة وهي تكشر عن أنيابها؛ أما النمس

فأخذ يتقلب على قدميه. ورفع له أحد الدببة قبعته عن رأسه
بظهر إحدى قوائمه. وأوقع له الفهد باحتقار واستخفاف سهما
من سهامه، وحمل ذلك السهم بخطمه. وجميع هذه الحيوانات
كانت تظهر وتعبر بتصرفاته تلك عن الازدراء والسخرية من
جوليان.

كان يبدو على هذه الحيوانات أنها تخطط للانتقام عندما
كانت ترنو إلى جوليان بأطراف عيوتها.

كان جوليان يمشي ويداه مبسوطتان، وجفناه مطبقان
كالمكفوف، يمشي وقد أصم أذنيه طنين الحشرات المهيمة، وضربته
بأذنانها، وخنقته الأنفاس المتصاعدة من الحيوانات في
الغابة. يسير بلا حول ولا قوة حتى لكي يصبح طالبا العفو
والغفران.

وهز أمواج الأثير صياح أحد الديكة، فتجاوبت سائر
الديكة في الغابة مع هذا الصياح، وتنفست في الغابة أنوار
الصباح، فتعرف جوليان على قمة قصره وراء أشجار البرتقال.
ثم رأى في ظاهر أحد الحقول، ومن مسافة ثلاث خطوات منه
حجلانا حمرا تحوم فوق أكواخ ذات أسقف من القش
والقصب، فحل جوليان إزاره وألقاه عليها وكأنه شبكة من
شباك الصيد، وعندما كشف عن الحجلان إزاره لم يجد سوى
حجل واحد متعفن لما مضى على لفظ أنفاسه من الزمان.

خيبة الأمل هذه أثارت سخطه أكثر من خيبات الأمل الأخرى التي عاناها. فعاوده عطشه إلى الدماء. كان يود لو يذبح بشرا عوضا عن الحيوانات التي قتل وعزت على سهامه ونصاله؛ فاجتاز السطوح الثلاثة وخلع الباب بضربة واحدة من قبضة يده. لكنه عند أسفل السلم عاودته ذكرى زوجه فقرت عينه وارتاحت نفسه. فهي لا شك نائمة، وانه سيذهب بعد قليل كي يغاجئها بحضوره.

أدار المفتاح بهدوء في قفل الباب بعدما خلع نعليه ودخل إلى القصر. كانت الواح الزجاج المؤطرة بالرصاص تحول أنوار الفجر الضعيفة إلى ظلام دامس.

وعثرت قدماه بشياب ملقاة على أرض الغرفة، واصطدم على مسافة قصيرة من هناك بخزانة للصحون كانت لا تزال مثقلة بها، فقال في نفسه: « لربما تناولت زوجي طعامها. »، وتقدم نحو سريرها الغارق في ظلام الليل الحالك عند آخر الغرفة. وعندما وصل إلى حافته، وفي نيته أن يقبلها، إنحنى على وسادتها التي كان عليها رأسان أحدهما إلى جانب الآخر، وأحس بأن شفثيه تلامسان لحية رجل لا وجه امرأة، فترجع ظنا منه أنه فقد صوابه. لكنه عاد إلى حيث كان قريبا من السرير وتلمس المكان بيديه فوجد شعرا طويلا على الوسادة. ولكي يقنع نفسه بأنه على خطأ، عادت يده تلمسان الوسادة

بهدهوء وتؤدة، فشعر أنه يحس شعر لحية هذه المرة، وأن رجلاً ينأى إلى جانب زوجته! فأنفجر سخطه وغبضه بشكل لا حدود له، فقفز عليها طاعناً إياهما طعنات كثيرة بخنجره، ثم أخذ يضرب الأرض بقدميه مرغياً مزبداً، ومطلقاً عواء يشبه عواء حيوان متوحش كاسر. ثم هدأت عاصفة غضبه، ولم يبد القتيلان اللذين صرعهما جوليان حراكاً لأنهما تلقيا طعنات خنجره في قلوبهما. وكان جوليان يستمع إلى حشرجهما بانتباه. وكانت كلما ضعفت حشرجة أحدهما تكمله أخرى من مكان بعيد. واقترب ذلك الصوت الشاكي رويداً رويداً، وأصبح ضخماً غليظاً. وعرف جوليان، وقد انتابه ذعر شديد، أن ذلك الصوت هو نزيب الأيل الأسود الهائل.

وبينما كان جوليان يستدير إلى الوراء ظن أنه رأى في إطار الباب شيخ زوجته يحمل في إحدى يديه نبراساً. فلقد شدتها إلى هناك الجلبة التي رافقت الجريمة التي اقترفها جوليان. وبمنظرة عامة شاملة فهمت كل شيء، وسقط النبراس من يدها حينما أرادت الفرار من هول ذلك المشهد الذي رآته، فالتقطه جوليان. كان والداه ممدين أمامه على ظهرهما، بينما في صدر كل منهما ثقب ناشئ عن طعنة من الطعنات التي سدها جوليان إليهما، وعلى وجهيهما الجلال والجمال، وكأنهما يحتفظان بسر من الأسرار الخالدة. وتلطف جلدتهما الأبيض برشاش من

الدم المنهمر إثر طعنات جوليان؛ وقد تجمعت بقع الدم في وسطه وعلى أغطية السرير، كما تجمعت على الأرض وعلى تمثال عاجي صغير معلق على مخدعها يمثل صورة السيد المسيح. واضاء الانعكاس الشمسي تلك البقع الحمراء من الدم ورسم اخرى اكبر عددا منها في طول القصر وعرضه.

مشى جوليان نحو القتيلين وهو يقول في نفسه إن ذلك غير ممكن، وإنه أخطأ وإنه توجد أحيانا مواطن شبه كثيرة لا يمكن تفسيرها. وأخيرا، إنحنى شيئا قليلا ليرى عن كثب العجوز القتيل فأبصر بين جفنيه غير المطبقين تماما، حذقة انطفأ نورها ولكنها تحرقه كالنار بلهبها. ثم انتقل إلى الجهة الأخرى من السرير الذي سجي فيه جثمان الضحية الثانية التي كان شعر رأسها يغطي قسما من وجهها. فدرس جوليان أنامله تحت صفائرها ورفع بيده رأسها ثم نظر إليه ممسكا إياه بطرف ذراعه القاسي، بينما حمل باليد الأخرى مشعلا أضواء له الأشياء من حوله، وقطرات الدم الناضح من الفراش تتساقط على أرض الغرفة قطرة قطرة.

في آخر النهار، تقدم إلى امرأته متحدثا إليها بصوت يخالف طبيعة صوته، فأمرها أولاً بالآلا تحببه على كلامه، وبألا تدنونه ولا تنظر إليه، وبأن عليها أن تطيع أوامره كلها التي لا رجوع عنها.

ووفقاً للتعليمات الخطية التي وجهها فإن مراسم الجنازة والدفن ستم في مصلى الغرفة المخصصة للموتى.

وترك لزوجها قصره وخدمه وكل أمواله، ولم يحتفظ حتى بثيابه أو نعليه التي ربما تركها على العتبة العليا لسلم القصر.

لقد أذعنت لزوجها لارادة الله عندما تسببت بالظروف التي اتاحت لزوجها ارتكاب جريمته. وعليها الآن أن تصلي لراحة نفس هذا الزوج مادام بعد الآن سيصبح غير موجود.

ودفن الفقيدان في كنيسة دير تبعد مسيرة ثلاثة أيام عن القصر. وساز في الموكب الجنائزي ناسك يلبس ثوبا لا كم له، مزود بغطاء للرأس لا يبرز منه سوى العينين. كان يسير بعيدا عن الآخرين دون أن يجرؤ أحد على التحدث اليه وبقي أثناء القداس منبطحا على بطنه وسط المدخل الفخم للكنيسة راسما بذراعيه اشارة الصليب، وواضعاً جبهته على التراب.

وبعد الدفن شوهذ الناسك يسلك الطريق المؤدية إلى الجبال. ولقد التفت خلفه مرات ومرات ثم اختفى وتوارى عن الأنظار.

إنصرف جوليان متسولاً ليحصل على قوت يومه، فكان
يمد يده يسأل الفرسان على الطريق أن يمنوا عليه بصدقة.
ويقترّب من الحاصدين لأرضهم راكعاً جاثياً، أو يبقى مسمراً
أمام حواجز باحات القصور والبيوت، وكان الحزن مرئياً على
وجهه الى حد لم يعد معه أحد يمانع في أن يعطيه صدقة.
وكان يروي قصته للناس بروح يشيع فيه الذل
والانكسار، فيفر الجميع من أمامه عند سماعهم إياها راسمين
على وجوههم إشارة الصليب.
وحالما عرفه سكان القرى التي مر فيها أقفلوا الأبواب
أمامه، وأطلقوا التهديدات في وجهه، ورجموه بالحجارة.
وكان أكثر الناس إحساناً اليه يضعون طاسة الاحسان على
حافة النافذة ثم يغلقون هذه حتى لا يروه.
وأصبح جوليان يعتزل الناس لأنه لقي منهم ما لقيه من
الصدود والاعراض. وصار يغتذي بالنباتات وجذورها،
وبالأثمار غير الصالحة للأكل، وبالحيوانات المحارية التي يلتقطها
عن رمال الشاطئ.

وكان مرات يبصر عند مفترق الطريق الساحلي خليطاً
عجيباً من الأسقف، وسهاماً خشبية، وجسوراً، وأبراجاً، وشوارع
سوداء تتقاطع ويتصاعد منها نحوه دوي دائب لا يعرف الإنقطاع.

وإن حاجته الى الاختلاط بالناس والى معاشتهم، جعلته
ينزل الى المدينة، ولكن وجوه الناس وأشكالها البهيمية
القييحة، وصخب المدينة والأحاديث التي تفرق في اللامبالاة،
كل ذلك ملأ قلبه خوفاً ورعباً.

وفي أيام الأعياد، وعندما يملأ دوي الكاتدرائيات
بالصلوات نفوس الناس منذ الفجر، كان جوليان ينظر الى
هؤلاء وهم خارجون من بيوتهم، ويتفرج على الرقص في
الساحات، ثم ينظر الى مناهل الجعة على مفترقات الطرق،
ويرى المضارب المصنوعة من الدمقس منصوبة أمام منازل
الأمراء. وعند حلول المساء يرى جوليان، عبر زجاجية
الطبقات السفلى من البيوت، الموائد العائلية الممتدة طولاً
وعرضاً، حيث يجلس الأجداد محتضنين أحفادهم.

وعندما يرى جوليان ذلك المشهد يبكي حتى يشعر
بالاختناق. ويعود أدراجه الى البرية.

وأخذ يتأمل الامهار يشغف عظيم وهي تسرح في الحقول
الخضراء الممرعة. كما كان يراقب العصافير في أعشاشها،
والحشرات على الأزهار، وكلها تطير مسرعة عندما يقترب جوليان

منها، وتعدو بعيداً عنه مخبئة وقد امتلأت ذعراً ورعباً.
وأخذ يبحث عن الأماكن المنعزلة بعيداً عن عالم الأحياء.
ولكن الريح كانت تحمل اليه حشرة مدنف يعالج سكرات
الموت.

وكانت قطرات الندى المتساقطة على الأرض تذكره
بقطرات أخرى غيرها أكثر منها وزناً، والشمس تصبغ الغيوم
كل مساء بلون الدماء. وكل ليلة كان يتكرر حلمه الذي يقتل
فيه أبويه.

فصنع لنفسه مسحاً مزوداً برؤوس حديدية، وصعد على
ركبته الى الهضاب التي في كل منها كنيسة خاصة. ولكن
الخاطر الذي لا يرحم والذي يراوده باستمرار كان يلف جمال
بيوت القربان في كنائس تلك الهضاب، ويتعذب جوليان من
خلال ما كان يمارسه من تعذيب لنفسه بفعل الندامة التي لم
تغادره لحظة من اللحظات.

ولم يثر جوليان على الله الذي عاقبه بقتله والديه، ولم
يتسخط لكنه أصيب باليأس من جراء ما فعل. ولقد بلغت
كراهيته لنفسه درجة جعلته يجازف بها كيما يتخلص منها وينجو
من العذاب الذي يلاقيه في حياته.

فلقد أنقذ أناساً مشلولين من أخطار الحريق، وخلص
أطفالاً من براثن الموت بانتشاله إياهم من أسفل الدركات،

فتتذفه الهوة ولا يتردى فيها، وتوفره النيران المشتعلة فلا تأكله .
ولم يسكن الوقت من آلامه، بل أصبحت لا تطاق. فعزم على
أن يموت انتحاراً.

وبينما كان يقف يوماً على حافة أحد الينابيع، وعندما
انحنى لكي يتفحص عمق المياه فيها، رأى في الجهة المقابلة
رجلاً شيخاً كبيراً، شديد النحول، ذا لحية بيضاء، هيئته تثير
الرثاء الى حد لم يتمالك معه نفسه من ذرف الدموع الحرى .
وبكى الشيخ أيضاً، إلا أن جوليان لم يهتد الى معرفة صورة
الوجه، بل أخذ يتذكر بشكل مشوش غامض وجهاً يشبه ذلك
الذي رآه . وصاح ذلك الرجل فعرف جوليان انه أبوه . ولم يعد
جوليان يفكر في الانتحار.

وهكذا راح جوليان يجول في بقاع الأرض حاملاً عبء
ذكراه فوق كاهله . ووصل الى منطقة بالقرب من نهر كان
اجتيازه يعد مجازفة من المجازفات الخطرة بسبب عنف أمواجه
وتياراته . ولم يعد أحد يجروء على اجتيازه منذ زمن بعيد لأنه
كانت على ضفتيه مساحة شاسعة من الحمأ والطين .

وفي ذلك النهر زورق قديم اختفت مؤخرته، فيما بدت منه
سوى مقدمته المنتصبة على القصب .

واكتشف جوليان أثناء تفحصه مجذافين، فخطر له أن
يسخر وجوده ويكرس حياته لخدمة الآخرين .

بدأ بإقامة نوع من طريق أو ممر يسمح بالنزول الى ذلك
الممر المائي وحطم أظفاره عند تحريكه الحجارة الضخمة على
صفتيه.

كان ينقلها مسنداً إياها الى بطنه فتزلق قدماء بالأوحال
وتنغرزان فيها. واوشك على الهلاك غير مرة، فكان قاب قوسين
أو أدنى من الموت.

ثم رمم الزورق بقطع من حطام السفن المحطمة، وصنع
لنفسه كوخاً حقيراً من الصلصال ومن جذوع الأشجار.
وأخذ الركاب يقدون الى ذلك الممر المائي الذي أصبح
يعرفه الجميع.

وكانوا ينادون جوليان من الضفة الأخرى للنهر ملوحين له
بالأعلام فيقفز جوليان الى زورقه سريعاً وقد أثقلته أحماله
الكثيرة على اختلاف ألوانها وأنواعها. عدا حيوانات الركوب
التي كانت ترفس بقوائمها بدافع من الخوف، فتزيد في
العراويل القائمة من جراء ما يقله ذلك الزورق على منته من
أعمال.

ولم يكن جوليان يطلب شيئاً في مقابل أتعابه. ولكن
بعضهم كانوا يعطونه الطعام والمؤن الغذائية، يخرجونها من
أكياسهم ذات العدلين أو يعطونه أسماً بالية لم تعد لهم اليها
حاجة ويشتمه أناس غلاظ، فيتلقى جوليان شتائمهم وسبابهم

بالهدوء ورحابة الصدر، فيرد أولئك بالسباب مرة أخرى،
فيكتفي جوليان بمباركتهم.

وكان ما يمتلكه جوليان من أثاث في كوخه عبارة عن
طاولة صغيرة ومرفاة، وسرير من الأوراق الصفراء الذابلة،
وثلاثة كؤوس خزفية. أما نافذاته فكانتا لا تخرجان عن كونها
ثقبين في جدار الكوخ.

ومن إحدى جهات ذلك الكوخ تمتد على مدى الرؤيا
سهول لا زرع فيها ولا ضرع، تجد فيها هنا وهناك مستنقعات
ذات لون كادر.

وأمامه النهر الكبير الذي تندحرج أمواجه الضاربة الى
الخصرة.

وفي فصل الربيع تفوح رائحة التراب الرطب عطنة
متعفنة، وتثير الرياح المتقلبة الهبوب زوابع من النقع، فيدخل
ويتخلل كل مكان في الكوخ ويغشى جميع الموجودات فيه،
فيوحل الماء وتصر حبيبات التراب تحت أسنانه ولثته. ولم تلبث
أن غطت المكان مجموعات كبيرة من البعوض كأنها سحائب
تملأ الفضاء، وتسد الأفق، فتحجب نور الشمس. ولا يتوقف
هسيس تلك المجموعات من الحشرات ولا لسعها ليلاً ولا
نهاراً.

ثم طرأ صقيع قاسٍ أكسب الأشياء اللينة صلابة

فأصبحت كالحجارة، وأوحى الى الناس بالحاجة الجنونية الماسة الى تناول اللحوم.

وانقضت سنون طويلة لم ير جوليان خلالها أحداً من الناس. وكثيراً ما كان يطبق عينيه محاولاً أن يعود بالذاكرة الى شبابه. وتبدو له إحدى باحات القصر وقد وقف على مدخلها عدد من الأرانب البرية، ويرى الخدم في غرفة السلاح، كما يرى غلاماً يافعاً أشقر الشعر بين عجوز يلبس الفراء، وسيدة تزين رأسها بطنطورها الكبير.

وفي أسرع من لمح البصر انتقلت جثتا القتيلين الى حيث يقيم جوليان، فانبطح على سريره وأخذ يردد باكياً:
- «آه، أبي المسكين، أُمي المسكينة، أُمي المسكينة،» .
ويغط بعدها في نوم عميق حيث تتواصل رؤاه المحزنة المفجعة.

وفي إحدى الليالي كان نائماً، فظن أنه سمع أحد الناس يناديه، فأصغى الى مصدر الصوت فلم تميز أذناه سوى هدير الأمواج ودويها.

ولكن الصوت عاوده قائلاً:

- «يا جوليان!» .

كان النداء آتياً من الضفة الأخرى. وذلك ما بدا له خارقاً للعادة، نظراً لأن النهر واسع بعيد الضفتين. ونودي جوليان مرة

ونودي جوليان مرة ثالثة: « يا جوليان! ».

كانت نبرة ذلك الصوت الجمهوري تشبه نبرة جرس كنيسة وخرج من الكوخ بعدما أشعل مصباحه. وهبت ليلاً عاصفة هوجاء، فتكاثفت حجب الظلام وكانت ظلمات بعضها فوق بعض. إلا أنها ما لبثت أن خفت وطأتها بفعل بياض الأمواج المتلاطمة النائرة. وبعد دقيقة من الزمان سيطر عليه فيها التردد حلّ جوليان حبل زورقه، فأصبحت المياه هادئة في الحال، وانزلق الزورق فوقها فلامس الضفة الأخرى حيث كان احد الرجال يقف منتظراً، يلبس أسماً بالية، ووجهه يشبه قناعاً من الجص، أما عيناه فقد كانتا أشد من الجمر حمرة.

وعندما أدنى منه جوليان فانوسه تبين أن به برصاً شنيعاً، بيد انه تبدو عليه هبة وجلال كهية الملوك وجلالهم.

وحالما دخل ذلك الرجل الى الزورق غارت به مياه النهر بصورة خارقة عجيبة. وتحطم الزورق بفعل وزنه الكبير، ثم رفعت هزة من جديد الى صفحة الماء، فأخذ جوليان يجذف. وكان ارتداد الأمواج عند كل تجذيفة يرفع الزورق من الأمام.

وتجري المياه في النهر هائجة نائرة من على جانبي الزورق، وقد أصبح لونها أكثر سواداً من المداد الأسود، فتحفر الأخاديد، وتنصب الجبال. وقفز الزورق مستقراً عليها، ثم هوى من جديد وتردى في الدرك الأسفل من النهر، يدور حول

نفسه مرات ومرات، ويمور تحت عتو الرياح موراً. فانحنى
جوليان ومد ذراعيه وقلب جسمه لاوياً خاصرته ومثبتاً قدميه
كيما يتاح له أكبر قدر من القوة.

كان البرد يلسع يديه لسع الشياط، والمطر يهطل فيبيلل ظهره،
بينما تكاد أن تخنقه الرياح بعنفها وتكتم انفاسه في صدره.
فتوقف عن التجذيف، وعبثت الرياح بزورقه، فانحرف عن
وجهته الأصلية. ولكنه عاد الى التجذيف لأنه أدرك أن الأمر
متعلق بشيء له اعتباره وخطره، ومنوط بأمر لا يرد ولا
يعصى.

كان صرير المجذافين في حركتهما حول محورها يقطع
ضوضاء العاصفة.

وكان الفانوس الصغير يضيء امام عينيه، وتحلق الطيور
من حين الى حين فتحجب ذلك الفانوس عن رؤية العين.
ولكنه كان يرى دائماً حدقتي الأبرص الذي يقف خلفه
مسمراً في مكانه وكأنه سارية في بناء.
واستمر ذلك وقتاً طويلاً طويلاً!

وعندما وصل جوليان تصحبه الطيور الى الكوخ، أغلق
بابه فرأى الأبرص جالساً على المرقاة. أما الكفن الذي كفن به
فقد سقط حتى أعلى فخذه، بينما اختفى كتفاه وصدره وذراعاها
الناحلان تحت كتل من البثور ذات القشور. وظهرت على

جبينه غضون وتجددات كأنها أحاديث حفرتها سكة الفلاحة في أرض زراعية.

وكان للأبرص عند موضع أنفه ثقب كما الهيكل العظمي تماماً. ثم إن شفثيه الضاربتين إلى الزرقة تتصاعد منها رائحة كريهة وكثيفة كالضباب.

قال ذلك الأبرص:

- «إني جائع!»، فأعطاه جوليان ما كان عنده من الطعام: قطعة صغيرة من شحم الخنزير، وفتات رغيف من الحنطة السوداء. وعندما التهمها أصبحت الطاولة والجفنة ومقبض المديّة ملطخة جميعاً بالبقع ذاتها التي تلتطخ جسمه. ثم قال: «إني عطشان!»، فذهب جوليان ليأتي له بأبريقه. وبينما هو يشرب منه خرج منه أريج شرح صدره ووسع منخريه. وكان ما يحويه ذلك الأبريق نبیذاً. وأي شيء نفيس وجده، ولكن الأبرص قدم ساعده إلى الأمام، وشرب الإبريق كله جرعة واحدة وقال:

- «إني بردان»، فأشعل جوليان بشمعته الكبيرة حزمة من الخنشار وسط الكوخ. فدلف الأبرص إلى حيث أوقدت النار يطلب الدفء، فجلس القرفصاء، وأخذت جميع أعضائه تهتز وترتعد ارتعاد المفرور. ونحارت قواه، ولم تعد عيناه تلمعان،

وانفقت بثوره فسال صديدها، ثم تمت بصوت كاد أن يخفيه
الوهن تماماً:

- « سريرك! »

وأعانه جوليان بهدوء على الانتقال الى سريريه، وغطاه
بغطاء زورقه. فأخذ الأبرص يئن ويئن، وظهرت أسنانه عبر
زاويتي فمه، بينما كانت تهز صدره حشرجة متسارعة، وينشق
بطنه عند كل نفس تردد من أنفاسه، فتبدو فقراته. ثم أغمض
جفنيه وقال:

- « أحس وكأن ثلجاً يستقر في عظامي! أدنُ مني! ».

فاضطجع جوليان على الأوراق الصفراء جنباً الى جنب
بالقرب منه. فأدار الأبرص رأسه وقال له:

- « إنخلع ثيابك لأتدفأ بحرارة جسمك! »، فصدع

جوليان بما أمره به الأبرص وتعرى من ثيابه ثم استلقى على
السريير عارياً مثلما خلقه الله. وكان يحس جوليان بفخذه أن
جلد الأبرص أشد بروداً من جلد ثعبان، وأنه يشبه المبرد في
خشونته.

وحاول جوليان أن يشجعه وينهض من عزيمته فكان
الأبرص يجيئه لاهئاً:

- « آه! سأموت بعد قليل،.. إقترب مني وامنحني

الدفع، لا بيدك بل بكل جسمك ».

فتمدد جوليان فوقه تماماً، واضعاً فمه على فمه وصدره على صدره، فعانقه الأبرص، وفجأة اكتسبت عيناه لمعاناً كالنجوم تألقاً واستطال شعره استطالة أشعة الشمس، بينما أصبح نفسه لطيفاً كالورد.

وتصاعدت من الكوخ سحابة من البخور، بينما الأمواج تنشد وتغني. وان فيضاً غامراً من النعيم، وفرحاً يفوق الطاقة البشرية حلا في نفس جوليان وغشياها كما يغشى الفيضان ما حوله من الأرض. فابتهج بذلك الى أبعد الحدود بينما الأبرص الذي يشد عليه بذراعيه، يكبر باستمرار حتى لامس رأسه وقدماه جدران الكوخ.

وطار السقف، واتسعت السماء، وصعد جوليان في الفضاء اللازوردي وألقى نفسه وجهاً لوجه أمام سيدنا يسوع الذي نقله الى السماء.

كانت هذه قصة القديس جوليان المضياف (لوسيتالييه) مثلما توجد بالتقريب على الواجهة الزجاجية لإحدى الكنائس في بلدي.

من الأدب الانجليزي

حكاية الفارس

تأليف

جيوڤرى تشوسر

ترجمة وتقسيم وتعليق

د. مجدى وهبة - د. عبد الحميد يونس



الهيئة العربية العامة للكتاب

١٩٨٣

حكاية الفارس

هنا تبدأ حكاية الفارس (١)

« فى قديم الزمان ، كما تروى لنا قصص التاريخ القديمة ، كان هناك دوق يدعى « ثيسوس » ، وكان سيّدا وحاكما لمدينة آثينا . وكان هذا الدوق فى زمانه فاتحا عظيما ، لم يفقه أحد فى هذا المجال تحت الشمس . وكم من منطقة غنية كسبها اذ أنه بفضل حكمته ، وفروسيته ، فتح كل مملكة النساء ، التى كانت تسمى فى الماضى سكبديا (٢) ، كما كان قد تزوج من ملكتها «هيبوليتا» وأحضرها معه الى وطنه فى موكب مجيد عظيم وأحاطها بكل مظاهر الاحترام والتبجيل ، وأحضر معها أيضا أختها الجميلة « اميلى » ، وهكذا دعونى أترك هذا الدوق النبيل (٣) يركب الى آثينا على رأس جيشه العظيم ، حاملا كل أسلحته ، ولا شك أنه لولا أنى أخشى أن أطيل عليكم فى سرد الرواية الى درجة الملل لقلت لكم كل ما يتعلق بكيفية فتح مملكة النساء على يد ثيسوس وفرسانه ، ولحدثكم عن المعركة الكبرى التى دارت بين الأثينيين والنساء المحاربات (الامازون) وعن كيفية حصار هيبوليتا ملكة سكبديا الفاتنة الباسلة ، وعن الوليمة التى أقيمت بمناسبة حفل عرسها ، وعن العاصفة التى هبت عندما عادت مع زوجها الى وطنه .

ولكن أرى لزاما على أن أكف عن رواية كل ذلك ، اذ أن أمامى حقلا كبيرا على أن أحرثه ، ويعلم الله أن الثورين اللذين يجران محراثى ضعيفان للغاية ، وبقية قصتى طويلة الى درجة كافية . ولا أريد أن أؤخر أحدا عن السير فى طريقه فى هذه الرحلة ، فليرو كل منكم قصته ، ودعونا نرى من سيفوز بالعشاء . وانى أستأنف الحديث حيث توقفت عنه .

ان هذا الدوق الذى حدثتكم عنه ، عندما أوشك أن يصل الى أبواب مدينته محاطا بكل مظاهر عظمته وسلطانه ، لاحظ ، وهو يلقي نظرة جانبية ، أن جماعة من السيدات راكعات فى وسط الطريق كل اثنتين وراء اثنتين ، وكن مرتديات ملابس سوداء ، ولكن أصواتهن كانت ترتفع ، وكن يجهشن بالبكاء الى حد أن أحدا فى الدنيا لم يسمع قط بمثل هذا النحيب وذلك البكاء ، ولم يتوقفن عن البكاء حتى قبض على لجام جواده . وقال « ثيسىوس متسائلا » . من أنتن يا من تعكرن بالبكاء جو فرحى بالعودة ؟ ثم قال . . هل تحقدن على الاحتفال بما نلته من مجد ، وترفعن أصواتكن بالشكوى والبكاء ؟ أو من الذى ثلم شرفكن أو أساء اليكن ؟ قلن لى اذا كان هناك أحد قد ثلم شرفكن ، وقلن لى لماذا بلبسن مثل هذه الثياب السوداء ؟ .

فنهضت كبراهن سنا ، وأخذت تتكلم ثم أغمى عليها وشحب وجهها ، الأمر الذى أثار مزيدا من الأسى والعطف فى قلب كل من رآها ، وبعد قليل قالت . . « يا سيدى يا من وهبه الحظ النصر ومنحه الحق فى أن يعيش فاتحا عظيما . اننا لا نبكى حزنا على ما حققته من مجد وما نلته من شرف عظيم ، بل اننا نتوسل اليك أن تجود علينا بالمساعدة ونلتمس منك الرحمة . نرجو أن تعطف على أسانا وترثى لحزنا . . دع قطرات من الشفقة تتساقط علينا نحن النساء البائسات لما نعهده فيك من كرم وما تتصف به من مروءة . انك يا سيدى ، والحق يقال لن تجد بيننا واحدة لم تكن فى يوم من الأيام زوجة دوق أو ملك . وها نحن أولا الآن أسيرات كما يتبين ذلك بجلاء . والفضل فى ذلك يرجع الى ربة الحظ وعجلتها الخداعة ، تلك العجلة التى لا تضمن الخير أو دوام الحال (٤) وفى الواقع ها نحن أولاء يا سيدى فى معهد آلهة الرافة نترقب حضورك منذ أسبوعين . فساعدنا يا سيدى مادام ذلك فى مقدورك . أما أنا ، تلك البائسة التى تراها أمامك باكية منتحبة ، فقد كنت ذات يوم زوجة للملك كابانيوس الذى قتل فى طيبة (٥) . لعناتى على ذلك اليوم الذى قتل فيه ! ونحن كلنا كما ترانا قد تملكنا اليأس بعد أن فقدنا أزواجنا جميعا فى تلك المدينة ، أثناء حصارها والآن فى هذه الساعة (ويل لنا !) ينصب كريون العجوز حاكما مطلقا على مدينة طيبة . ان قلبه ملىء بالغضب والقسوة وقد أراد أن يعبر عن حقد ، ودفعه وظلمه الى أن يفعل المحظور بجثث أزواجنا وسادتنا الذين قتلوا ، فأمر بأن تكون كلها كوما واحدا ، ولم يسمح بأى حال من الأحوال أن تقام لها شعائر الدفن أو الحرق على المحرقة . بل تركها للكلاب تمزقها اربا اربا . » وما ان انتهت من الكلام حتى خررن كلهن ساجدات وبكين بكاء مثيرا للعطف والشفقة وصحن : « ارحمنا ، نحن البائسات ، ودع حزنا ينفذ الى قلبك » .

وعندئذ هبط هذا الدوق الكريم من فوق ظهر جواده وقد امتلأ قلبه بالعطف عندما سمع كلامهن . وكاد قلبه أن يتمزق من الرأفة لما رأى النساء فى مثل هذه الحال من البؤس والأسى « تلك النساء اللاتى كن فى وقت ما ينعمن بالجاه والسلطان ورفعهن كلهن بذراعيه وواساهن بقلب كريم ، ثم أقسم بشرفه كفارس أن ينتقم لهن من كريون الحاكم الظالم حتى ترى كل شعوب اليونان كيف عالج ثيسسيوس أمر كريون وكيف نال هذا الكريون ما يستحقه من جزاء بازهاق روحه . ونهض فى الحال دون أن يتريث لحظة أخرى ، ورفع لواءه ، وركب جواده وانطلق الى طيبة على رأس جيشه ، وأبى أن يدنو من مدينته أثينا كما أبى أن يستريح نصف يوم فى الطريق بل تقدم الى طيبة منذ تلك الليلة ، بعد أن أرسل ملكته هيبوليتا فى رفقة أختها الصغرى اميل الفاتنة لتمكثا فى مدينة أثينا ، وامتطى صهوة حصانه وسار قدما الى الأمام . وليس هناك شئ آخر يروى فى هذا الأمر ، وكانت الصورة الحمراء للاله المريح وهو حامل حربته وترسه تتألق فى علمه الأبيض الكبير وتضىء كل الحقول والمروج فى كل الأنحاء . كما كان درفس رمحه يلمع بما فيه من الذهب الخالص الذى نقشت به صورة المينوتور (وحش له رأس ثور وجسد انسان) الذى كان قتله فى جزيرة كريت ، وهكذا ركب الدوق . وهكذا ركب الفاتح وبين جيشه زهرة الفروسية حتى وصل الى طيبة فهبط من فوق ظهر جواده فى مرج حيث قرر أن يشن منه القتال . ولنختصر الكلام فى هذا الأمر . لقد بارز كريون ملك طيبة وصرعه فى قتال شريف ، كما يليق بالفارس فى معركة مفتوحة ، وهزم جيشه وأجبره على الفرار . ثم هاجم المدينة وحطم أسوارها وفتحها ، وهدم الأسوار والسقوف والدعائم وأعاد الى السيدات عظام أزواجهن القتلى حتى تقمن شعائر الدفن حسبما يتراءى لهن . وانه لحديث طويل ممل أن نستطرد فى وصف صوت النحيب والبكاء الذى تصاعد من أفواه النساء ، وهن حاضرات أثناء حرق جثث أزواجهن وأن نتكلم عن تكريم الفاتح النبيل ثيسسيوس للسيدات عندما نهضن للرحيل ، على أن قصدى هو الاختصار فى الكلام .

وعندما قام هذا الدوق الكريم ثيسسيوس بقتل كريون وفتح مدينة طيبة مكث فى ميدان القتال وقضى به ليلته هادئا ، وفعل ما عن له بالمقاطعة كلها . وكان لا هم للناهبين الا أن يفتشوا فى كوم الجثث الهامدة ليجردوها مما عليها من أردية وعناد ، وكان ذلك يتم بعد انتهاء المعركة والحاق الهزيمة بالأعداء وحدث أن وجد أحدهم فى الكوم فارسين شابين أحدهما بجوار الآخر ومصابين بجروح غائرة ، وكان الاثنان مزودين بنفس عتاد الحرب وبنفس الزرود ، وكان أحدهما يدعى أركيتى والآخر يدعى بالامون . ولم يكونا فى حكم الأحياء ولا فى حكم الموتى وعرف رسل الملك عن زردهما ومن ترسيهما وشعاريهما أنهما من بيت ملكى طيبى ابنا أختين . فحملهما الناهبون من بين كوم الجثث برفق الى خيمة ثيسسيوس ، فأمر هذا الأخير بعد قليل بارسالهما الى أثينا حتى يبقيا

مسجونين طوال حياتهما بهذه المدينة ، ورفض أن تدفع لهما فدية . وبعد أن فعل الدوق الكريم ذلك تقدم جيشه ، وعاد به الى وطنه وعلى رأسه أكاليل الغار ، كما يجرى العرف بالنسبة للمنتصرين . وعاش في وطنه وسط مظاهر البهجة والتبجيل حتى نهاية حياته . وما يعنى المزيد من الكلام فى هذا الأمر ؟ وكان بالامون وأخوه أركيتى يعيشان فى سجن أبدى بين الأسى والحزن فى برج منيع ، لا يمكن أن يفتديهما ذهب أو مال .

وهكذا مرت السنة تلو السنة واليوم وراء اليوم حتى حل يوم صباح فى شهر مايو ظهرت فيه اميلى وهى أجمل من زهرة الزنبق فوق عودها الأخضر ، وأكثر رشاقة من شهر مايو نفسه ، الذى تتفتح فيه براعم الزهور . وكان لون بشرتها يتنافس مع لون الورد ، ولست أدرى من منهما كان أجمل من الآخر .

وكانت قد اعتادت أن تنهض للقيام عند شروق الشمس وترتدى كل ملابسها . لأن شهر مايو لا يرضى قط بالكسل فى الليل . بل ان من صفات هذا الفصل (الربيع) أن يحرك كل قلب كريم ويوقظه من النوم قائلا . « انهض وقم بواجبك ! » ولذلك تذكرت اميلى أن الوقت حان لتنهض من فراشها وتقدم التبجيل الى شهر مايو . أقول لكم اذن أنها كانت قد ارتدت ملابسها الجديدة وكان شعرها الأشقر قد عقص فى جديلة صغيرة وراء ظهرها ، بلغ طولها ياردة حسب اعتقادى . ولما أشرقت الشمس تريضت فى الحديقة ، وأخذت تقطف ما يحلو لها من الأزهار ، بعضها بيضاء وبعضها حمراء ، لتصنع منها اكليلا تضعه على رأسها ، وفى أثناء ذلك كانت تشدو بصوت عذب يذكرنا بشدو الملائكة فى السماء .

وكان البرج المنيع الكبير المتين وهو بمثابة السجن الرئيسى فى القلعة ملاصقا لسور الحديقة ، التى كانت تروح فيها اميلى عن نفسها . وكان الفارسان حبيسين فى هذا البرج ، كما قلت لكم من قبل ، وكما سأقص عليكم فيما بعد .

وكانت الشمس مشرقة والنهار جليا وكان بالامون ذلك السجن التمس قد نهض من فراشه باذن من سجانه ، وأخذ يتمشى كعادته فى حجرة علوية كان منها يستطيع أن يكشف المدينة العريقة بأسرها . كما كان يستطيع أن يرى الحديقة العامرة بالفصون الخضراء . نعم نفس الحديقة التى كانت اميلى الفاتنة تترىب فيها هنا وهناك وكان هذا الأسير البائس بالامون يتمشى فى الحجرة ذهابا وإيابا ، يشكو قدره ، ويتمنى لو أنه لم يولد فى هذه الدنيا ويتنهد ويصيح « ياويل ! » واتفق عندئذ أن نظر من خلال نافذة محصنة بكثير من القضبان الحديدية المربعة الضخمة ، فوقعت عيناه على اميلى فأخذ وصاح « آه ! » كان سهما قد نفذ الى قلبه ، ولما سمع أركيتى هذه الصيحة قام مسرعا وقال . « يا ابن خالتى ما بك ، لقد شحب وجهك . لماذا تصيح ؟ من من الناس أهانك ؟ وأستحلفك بحق محبة الله (٦) أن تصبر على وجودك فى سجننا هذا ، فلا مفر

مما نحن فيه ، لأن ربة الحظ نفسها هي التي فرضت علينا هذا المصير الأليم .
وسوء الطالع لكوكبة الزحل (ساتور نوس) قد نكبتنا بما نشكوا منه مهما
أقسمنا ، وهذا ليس هو السبب فيما أصابنا ، والواقع أن السماء كانت في ذلك
الوضع المشئوم عندما ولدنا ، وعلينا إذن أن نتحمل ما حدث لنا وهذا هو
خلاصة القول » .

فرد عليه بالامون قائلا : « يا ابن خالتي الحق أن رأيك في هذا الأمر
غريب مخطيء ، ليس السجن هو الذي جعلني أصيح وانما شيء أصابني من
خلال عيني واخترق قلبي وهذه هي بليتي (V) . انه جمال تلك المرأة التي أراها
هناك في الحديقة تتربص هنا وهناك . ان هذا الجمال هو الذي دفعني الى اطلاق
صيحتي وهو سبب تعاستي . وأنا لا أدري ما اذا كانت هذه هي امرأة أم الهة
وان كنت أعتقد أنها فينوس الالهة بالحق . وعندئذ ركع على الأرض وقال :
« يا فينوس اذا كانت مشيئتك أن تتجسدي أمامي في هذه الحديقة . . أمامي
أنا ، ذلك المخلوق التعس فاني أتوسل اليك أن تساعدنا على الفرار . ولكن
اذا كان مصيرنا المقدر بالكلمة الأبدية أن نموت هنا في السجن ، أرجو أن
تشفقي على سلالتنا العريقة التي انحدرت الى مثل هذا الدرك ظلما وعدوانا » .

وبعد أن سمع أركيتي ذلك بدأ يرى تلك السيدة تتمشي هنا وهناك .
ولما رآها آلمته فتنهتها الى حد أنه اذا كان جرح بالامون بليغا فان جرح أركيتي
يمائل جرحه بل انه يفوقه فيما يسببه من ألم . وتنهد قائلا بنبرات تثير
الشفقة : « ان هذا الجمال الغض يكاد أن يقتلني ، انه جمال تلك التي تتربص
هناك . واذا لم يقدر لي أن أفوز بلطفها ورحمتها وأراها مرة أخرى على الأقل ،
فاني سوف أكون في حكم الموتى ، وليس لدى ما أقوله أكثر من ذلك ؟ . فلما
سمع ذلك بالامون نظر اليه غاضبا وقال له : أتقول ذلك جادا أم هازلا ؟ » .

فقال أركيتي « لا اني أتكلم جادا وحق ايماني - فلست في مزاج يسمح
لي بالمزاح والله على ما أقول شهيد » .

فقطب بالامون جبينه غضبا وقال « لا يليق بك ولا بشرفك أن تكون خائنا
لي أنا ابن خالتك بل أخوك ، بعد أن أقسمنا أن تدوم بيننا الأخوة الى الأبد ،
وأقسمنا أن يكون كل منا مخلصا للآخر ، حتى لو تعرضنا للتعذيب ولقينا
حتفنا أثناءه . لقد أقسمنا على الاخلاص المتبادل حتى يفرق بيننا الموت ، كما
أقسمنا ألا يعرقل أحد منا الآخر في حبه ولا في أي شيء آخر أيها الأخ الحبيب .
وأقسمنا أيضا على أن أعمل كل ما في وسعي لاساعدك دائما ، وأن تعمل كل ما في
وسعك لتساعدني دائما . والحق أن ذلك كان ما أقسمت عليه ، وهو أيضا
ما قسمت عليه أنت ، واني لا أعرف تماما أنك لن تجرؤ على انكاره . ولا أشك
في أنك تشاركني الرأي . أما الآن فاني أراك تشرع شروعا خداعا في جنب تلك
السيدة التي أحبها أنا وأخدمها بكل ما في قلبي من اخلاص ، بل تلك التي

سأكون لها خادما مطيعا حتى يتمزق قلبي . لا . لا يا أركيتي الخداع لن تقوم بذلك العمل .

لقد أحببتها أولا قبلك وكاشفتك بسرى كمن يكشف أمين سره أو أخاه الذى أقسم أن يساعدني دائما كما قلت قبل ذلك . اذن فأنت ملتزم التزام الفرسان بأن تساعدني قدر طاقتك ، وان لم تفعل تكن خائنا ، وهذا ما أقوله لك . فرد عليه أركيتي بكبرياء قائلا : « ان الخائن هو أنت ولست أنا . وأنا أقول لك بوضوح تام انك أنت الكاذب المخادع قد عشقتها عشق الحبيب قبل أن تحبها أنت ، فماذا تقول ؟ انك لم تكن تعرف هل هي امرأة أو الهة لقد كنت تحب حب المرء للالهة المقدسين أما حبي أنا فهو حب المرء للمخلوقات ولذلك قصصت لك ما حدث لى بصفتك ابن خالتي وأخى فى القسم . فلنفرض أنك أحببتها قبلى » ألا تعرف ذلك المثل القديم الذى يتداوله العلماء والقائل : « من ذا الذى يفرض قانونا على عاشق ؟ ان الحب قانون أعظم (وأسمى) من أى . . تشريع يقننه أى أحد من البشر فى الدنيا » (٨) ولذلك ترى أن القوانين الوضعي (٩) ، وما يماثله من قرارات ، ينتهك كل يوم وعلى جميع المستويات فى سبيل الحب ، فالانسان لابد له من أن يحب على الرغم مما يمليه عليه عقله ولا يستطيع أن يفر من الحب حتى لو أدى ذلك الى الموت وحتى اذا كان حبه لفتاة بكر أو أرملة أو سيده .

وعلى أية حال ليس من المحتمل أن تسعد طوال حياتك بلطف النساء ، كما أنه لا يحتمل أن أنعم أنا نفسى بهذه الحال ، اذ انك تعلم حق العلم أننا أنت ، وأنا ، محكوم علينا بالسجن الى الأبد فلا فدية تحررنا ، اننا فى المثل أشبه ما نكون بكلين متصارعين طوال اليوم فى سبيل قطعة من العظم ، وفى النهاية لا يفوز أحد منهما بشئ ما . لأن الهدأة جاءت أثناء عراكهما وسلبت منهما قطعة العظم . وكذلك تجد فى بلاط الملوك يا أخى أن كل شخص يسعى لنفسه ولا يفكر فى أحد غيره ، اذن يا أخى العزيز لك أن تعشق اذا أردت فاني سأحب أنا أيضا وسأحب الى الأبد ، وفى الحقيقة لا يمكن أن يقال خلاف ذلك . فعلىنا أن نبقى فى هذا السجن وأن يأخذ كل منا حظه من الدنيا .

واشتجر بينهما الخلاف ، واشتد واستمر وقتا طويلا ، ولو تيسر لى الوقت لوصفته لكم ، ولكن دعونا نعود الى لب الموضوع . لقد حدث ذات يوم (اذا صح أن أروى لكم ما حدث بايجاز قدر ما أستطيع) أن جاء الى أثينا دوق عظيم يدعى بيروثيوس وكان صديقا للدوق ثيسسيوس منذ كانا طفلين . وقد جاء الى أثينا ليزور صديقه ، ويتسلى معه كعادته اذ انه لم يحب فى الدنيا أحدا قط قدر ما كان يحبه ، وكان يتعاطف معه تعاطفا كله حنان . وتروى الكتب القديمة أن حبهما كان عظيما لدرجة أنه لما مات أحدهما ذهب الآخر الى العالم السفلى بحثا عنه ، وهذا قول حق . ولكن ليس قصدى أن أروى لكم هذه القصة .

كان الدوق بيروثيوس يحب أركيتى حبا جما ، وكانت معرفته به قد استمرت عاما بعد آخر فى طيبة . وفى النهاية بعد توسلات ورجاء من بيروثيوس سمح الدوق ثيسسيوس بالافراج عن أركيتى من غير فدية ، ليذهب أنى شاء على النحو الذى ساقصه عليكم .

كان الاتفاق بين ثيسسيوس وأركيتى أنه لو قبض على هذا الأخير فى أى اقليم من تلك الأقاليم التى يحكمها ثيسسيوس ، فى أى وقت من النهار أو الليل ، يفقد فى الحال حياته بقطع رأسه بالسيف . واذن لم يكن له أى حول أو خيار ، ولم يكن أمامه الا أن يغادر البلاد ، ويسارع بالعودة الى أوطانه . فكان عليه أن يكون على حذر للمحافظة على سلامة عنقه .

وكم كان حزن أركيتى كبيرا . لقد أحس بسهام الموت تصيبه فى قلبه وها هو ذا يبكى ، ويولول وينتحب انتحابا يثير الأسى ويتأهب للانتحار سرا . . . وقال : « الويل لذلك اليوم الذى ولدت فيه ! انى الآن فى سجن أسوأ من سجنى فيما مضى . . . لقد قضى على الآن أن أعيش الى الأبد لا فى المطهر ، وانما فى الجحيم نفسه ، ويحى لأنى عرفت بيروثيوس فى يوم من الأيام لو لم أعرفه لمكثت هنا سجيناً فى سجن ثيسسيوس بقية أيام حياتى ولعشت سعيداً لا تعيساً . لقد كان يكفينى أن ألقى نظرة من وقت لآخر على تلك التى أنا عبد لها وان كنت لا أستحق فى يوم من الأيام عطفها ولطفها . فقال : « يا ابن خالتى العزيز بالامون ، لقد فزت بالنصر فى هذا الأمر ولك أن تبقى فى السجن سعيداً ، هل أقول فى السجن ؟ حقا ! لا بل فى الجنة ! لقد أحسنت ربة الحظ فى رمى النرد فى صالحك ، اذ قدر لك أنت أن تراها وقد رلى أنا أن أغيب عنها . لقد أصبح من الممكن لك (مادمت تنعم بوجودها) وأنت فارس قدير فاضل أن تتغير الأحوال (اذ أن ربة الحظ قلب) وأن تبلغ مرادك . أما أنا ، أنا المنفى المحروم من كل عطف المتلىء بئاس عظيم ، الى حد أنه ليست هناك أرض ولا ماء ولا نار ولا هواء ولا مخلوق مكون من هذه العناصر (١١) يستطيع أن يمنحنى السلوى ، أو يخفف من آلامى فى هذا الأمر فلم يبق لى الا أن أموت يأساً وكهداً .

وداعا يا حياتى ، يا سعادتى ، يا بهجتى ! آه يا ويلي . . . لماذا يشكو الناس عادة من العناية الالهية أو ربة الحظ التى تمن عليهم بالكثير فى شتى الصور ، وتوجد عليهم بهبات تفوق ما يستطيعون أن يتصوروه لأنفسهم ؟

ان بعض الناس يريدون الثروة التى قد تؤدى الى القضاء عليهم أو اصابتهم بمرض خطير ، والبعض يتطلع بشغف الى الخروج من السجن فى حين أنه سيلقى حتفه حتما فى بيته هو بيد أحسن رجال حاشيته (١٢) . كم من نكبات كبيرة ينطوى عليها هذا الأمر ، فالواقع أننا لا ندرى ماذا يجب علينا أن ندعو الله فى صلواتنا أن يمن به علينا وسلوكنا

شبيه بسلوك من سكر سكرة الفيران (١٣) ، فالسكر يعرف جيدا أن له بيتا ، ولكنه لا يعرف كيف يتجه الى بيته سالكا الطريق السليم . والمعروف أن طريق السكر زلق . والحق أن سلوكنا فى الدنيا مثل سلوكه تماما ، ونحن نسعى الى السعادة فى شغف ، ولكننا كثيرا ما نضل اليها الطريق . وهذا ما يمكن أن يقوله كل منا (وبخاصة أنا) ممن ظنوا واعتقدوا اعتقادا جازما أنني كنت أستطيع فى يوم ما أن أهرب من السجن ، واننى كنت أسعد بذلك بسرور وأنعم بتمام الصحة ، فى حين أنني أبعد ما أكون عن مصدر كل سعادة . ومادمت لا أستطيع أن أراك يا اميلي فلست الا من الأموات ولا علاج لى .

ومن ناحية أخرى لما عرف بالامون أن أركيتى قد غادر السجن انفجر حزنا ، حتى أخذت القلعة تصلصل برنين نحيبه وبكائه ، وتبللت نفس القيود الكبيرة التى كانت تربط ساقيه بدموعه الغزيرة المرة فقال :

« ويلاه ! ويلاه يا أركيتى يا ابن خالتى ، يعلم الله أنك جنيت ثمرة خلافتنا كله . . . أنك سوف تمشى فى طيبة حرا طليقا . ولا يهلك حزنى وبؤسى الا قليلا وبما أنك تتميز بالحكمة والرجولة فانك تستطيع أن تجمع كل أنصارنا وأقاربنا وأن تشن حربا على هذه المدينة بحيث تنجح بمحض الصدفة أو عن طريق اتفاقية أن تفوز بها وتتخذها سيدة لك بل زوجة . نعم لك أن تفوز بتلك السيدة التى سألقى حتفى - لا محالة - فى سبيلها . وهناك احتمال كبير أنه (بما أنك حر طليق خارج سجننا هذا وسيد لنفسك) فان لك امتيازنا بيننا بالنسبة الى أنا الذى يموت فى هذا القفص ، وليس أمامى الآن الا أن أبكى وأنتحب طوال حياتى أسى وحزنا بسبب هذا السجن وأيضا للتعاسة التى أعانيها من جراء العشق ، الأمر الذى يضاعف حزنى وشقائى » .

وعندئذ اشتعلت نار الحسد فى صدره وعذبتة عذابا شديدا ألما حتى كاد أن يجن وقبض على قلبه حتى شحب وجهه واصفر فأصبح مثل لون خشب شجرة البقس أو الدردار الميتة الهامدة . ثم قال :

« أيها الآلهة القساة يا من تحكمون هذه الدنيا بكلمتكم الملزمة الأبدية (١٤) ، يا من تنقشون قراراتكم فى لوحات من الحجر الصلب بما أدتتم به الانسانية أكثر مما تدينون به الأغنام الراقدة فى الحظيرة ، فالانسان يقتل مثله كمثل أى حيوان آخر كما أنه يمكن أن يلقى فى سجن ، ويمكن أن يصاب بمرض وأن يشقى شقاء عظيما وكثيرا ما يكون ذلك من غير ذنب ارتكبه ما هى الحكمة فى ذلك المنطق الذى يقرر بأن هناك علما الهيا سابقا يقضى بأن يشقى البرىء ، بلا سبب - ؟ وما يزيد فى شقائى أن أعلم أن الانسان ، نزولا على حكم الكلمة الالهية ملزم بأن . . . يطيع القانون الأخلاقى وبأن يضحى بما يريده فى هذه الدنيا . واذا مات الحيوان فانه لا يشعر بالألم بعد موته أما الانسان فان عليه بعد موته أن يبكى ويشكو لأن حياته فى الدنيا كانت مليئة بالهموم والأسى

ولا شك فى أن هذه هى حال الدنيا . والرد على هذه التساؤلات أتركه لتخمينكم ، ولكنى أعلم تمام العلم أن الدنيا فيها شقاء بليغ . ويحيى . ! انى أرى أن ثعبانا أو لصا قد ألحق الضرر بكثير من الأفاضل ، ومع ذلك فإنه يهيم على وجهه حرا طليقا . أما أنا فعلى أن أمكث فى هذا السجن ، كما قضى ذلك الاله ساتورنوس والالهة جونو الحسودان المجنونان (١٥) . وقد أهلكا تقريبا كل أهل طيبة ذات الأسوار المنيعة الكبرى . فى حين أن الالهة فينوس تقتلنى من ناحية أخرى بفعل الحسد والخوف من أركيتى . . . والآن سأترك بالامون قليلا وهو باق فى سجنه وأروى لكم شيئا ما ، مما حدث لأركيتى .

لقد مضى الصيف وزادت الليالى الطويلة من شقاء السجن العاشق ، وليست أدرى من كان منهما فى حالة أسوأ من الآخر . وخلاصة القول أن بالامون هذا كان محكوما عليه بالبقاء فى السجن الى الأبد حتى يموت ، بينما كان أركيتى منفيا مهددا فى حياته نفيا أبديا خارج البلاد ، بحيث لا يستطيع أبدا أن يرى مالكة قلبه مرة أخرى ، ويا أيها العشاق أسألكم الآن من منهما كان حاله أسوأ من الآخر ، بالامون أم أركيتى ؟ (١٦) أحدهما يستطيع أن يرى سيده يوم بعد يوم ، ولكن قضى عليه أن يبقى فى السجن والآخر يستطيع أن يركب جواده ويسافر أنى شاء ، ولكنه لن يرى سيده قط . فيأيتها الملمون بالأمر فكروا كما تشاءون أما أنا فسوف أستمر فى الكلام كما بدأت .

انتهى الجزء الأول

(واليكم الجزء الثانى)

ولما نزل أركيتى فى مدينة طيبة كان كثيرا ما يغمى عليه فى أثناء النهار ويتنهد قائلا « ويلى ! » اذ انه لن يرى مالكة قلبه قط بعد ذلك وخلاصة القول أن حزنه لم يشهد أحد له مثيلا لدى أى مخلوق من المخلوقات الكائنة تلك التى قدر لها أن تكون ، طالما أن هناك دنيا . فقد جافاه النوم وصده عن الطعام والشراب حتى أصبح نحيل البدن وجف لحمه حتى صار كعود السهم . أما عيناه فقد صارتا غائرتين مخيفتين ، وشحب لونه ، وأصبح كالجنة الهامدة ، وكان دائما

وحيدا لا يختلط بأحد ، وكان نحيبه يعلو الى السماء طوال الليل ، وكان يثن
أثينا ألما . وكان كلما سمع نشيدا أو عزفا انفجر بالبكاء ، ولا يستطيع أحد
أن يمنعه عن ذلك . وكانت حالته النفسية سيئة وهابطة ، تختلف عما كانت
عليه ، حتى أن الناس لم تستطع أن تفهم كلامه أو تسمع صوته ، ولو كان صوته
يدرك أذان الناس . أما عن مظهره فإنه يبدو للعالم كله أنه لا يسلك سلوك من
أصيب بمرض العشق فحسب ، وإنما سلوك من أصيب بجنون المزاج الأسود
فى خلية الادراك الحسى بمقدمة مخه (١٧) .

وخلاصة القول أن هذا العاشق التمس السيد أركيتى انقلبت أحوال
مزاجه وعاداته رأسا على عقب . فهل أمضى اليوم كله فى رواية تفاصيل حزنه ؟

بعد أن تحمل هذا العذاب الأليم سنة أو اثنتين فى طيبة أى فى مسقط
رأسه ، كما شرحت لكم ، خيل له فى ليلة من الليالى وهو نائم أن الاله ميركورىوس
المنجى قد مثل أمامه وأمره بأن يكون مرحا سعيدا ، وكان هذا الاله يمسك بين
يديه بتلك العصا التى تبث النوم فى الناس ، كما كان يرتدى قبعة فوق شعره
اللامع . (١٨) وكان هذا الاله يلبس نفس الملابس التى كان يرتديها عندما سلبه
أرحوس نومه (وهذا ما لاحظته أركيتى ! ثم نطق الاله قائلا : « عليك أن تذهب
الى أثينا فقد قررت أن تكون هناك نهاية لكل أحزانك » ولما سمع ذلك أركيتى
استيقظ فجأة ونهض من فراشه وقال : « هيا هيا مهما كلفنى الأمر من ألم
فسأذهب فى الحال الى أثينا ولن يمنعنى الخوف من الموت أن أرى مالكة قلبى »
تلك التى أحبها ، ومن أنا عبد لها ، ولا يهمنى أن أموت فى سبيل ذلك مادمت
بحضرتها .

ولما انتهى من الكلام أخذ امرأة كبيرة وتطلع الى صورته فيها ، فوجد أن
لون بشرته قد شحب ، وأن وجهه قد أصبح من نوع جديد آخر غير مألوف ،
ومن ثم خطر بذهنه أن شكله مادام قد تغير الى هذا الحد بسبب ماعاناه من
العشق ، فليس هناك ما يمنع من أن يعيش فى أثينا الى الأبد ، لا يعرفه أحد
من الناس ، وبخاصة اذا كان متواضعا وديعا فى عيشه ، وبهذا يستطيع أن يرى
مالكة قلبه كل يوم تقريبا ، وعندئذ استبدل ملابسه وتزىي بزى فلاح فقير .

وشرع فى الحال فى الذهاب الى أثينا لا يصحبه من حاشية الا وصيف
تنكر مثله فى زى رجل فقير ، وكان مطلعا على كل أسرار وأحواله . وذات يوم
ذهب الى البلاط ووقف عند باب القصر وعرض خدماته ليعمل حمالا فى القصر ،
يلبى طلبات أهل القصر . وبالاختصار شاء حظ أن يعمل فى خدمة أحد أمناء
القصر الذى كان يسكن فى القصر بالقرب من امبلى ، وكان أركيتى ماهرا حكيما
فتعلم من الخدم الآخرين كيف يقوم بالخدمة وعرف كيف يقطع الحشب ، وكيف
يحمل الماء لأنه بهذه المناسبة كان شابا قويا ، كما كان طويل القامة عريض
المنكبين ، مما جعله قادرا على أن يقوم بعمل كل ما يطلب منه ، ومكث سنة

أو اثنتين فى هذه الخدمة بمثابة تابع فى حجر ات امبلى الفاتنة وقال انه يدعى فيلوستراتوس (١٩) . ولم يظفر أحد فى القصر ممن فى درجته بمثل ما ناله من الحب والتقدير ، وكان فى سلوكه كريما نبىلا ، حتى عمت شهرته البلاط كله . وقال الناس انه يعتبر من قبيل التفضل والتقدير أن يرفع ثيسسيوس مرتبته فى القصر بأن يعينه فى وظيفة رفيعة محترفة تتيح له أن يباشر فضائله المختلفة .

وهكذا اشتهر بعد قليل اسمه بفضل أعماله الصالحة ، وأيضاً بسبب رقة الفاظه ، الأمر الذى جعل ثيسسيوس يقربه اليه ويعينه وصيفاً له فى حجراته الخاصة وأعطاه ما يكفيه من الذهب حتى يحافظ على سمو منزلته بين الناس . والى جانب ذلك كان بعض الناس يحملون له من سنة الى أخرى من الريف سرا ما يحق له من ريع ، ولكنه كان يصرف هذا الريع بتخفظ وحصافة حتى لا يعرف أحد من الناس أنه كان يملك من المال شيئاً آخر غير مرتبته الذى يتقاضاه من القصر . وعاش على هذا النحو ثلاث سنوات ، وسلك المسلك نفسه فى الحرب وفى السلام ، حتى أن ثيسسيوس لم يجد بجواره أحداً يحبه ويقربه أكثر منه . والآن أترك أركيتى فى هذه النعمة وأنتقل قليلاً الى أمر بالامون .

لقد قضى بالامون هذه السنوات السبع فى سجن منيع مظلم مخيف يتحسر على ما يعانیه من بؤس وأسى ، ومن كان أجدر بأن يكون حزنه مضاعفاً غير بالامون الذى أفقده الحب رشده ؟ أضف الى ذلك أنه كان سجيناً محكوماً عليه بالسجن الى الأبد وليس سنة واحدة ، ومن من الشعراء يستطيع أن ينظم قصة استشهاد فى قصيدة بالانجليزية ، كما يجب ؟ والحق أنى لست الشاعر . لذلك فانى أمر بغاية الخفة والسرعة على هذه الأحداث .

لقد حدث فى السنة السابعة من شهر مايو فى الليلة الثالثة (كما تروى الكتب القديمة التى تشرح هذه القصة بمزيد من التفصيل الواضح) . اما بمحض الصدفة أو لأن ذلك كان قدراً مقدوراً (فاذا قدر للأمر أن يحدث حدث فعلاً) حدث أن استطاع بالامون بعد منتصف الليل بقليل بمساعدة صديق له أن يهرب من السجن وأن يفر بعيداً عن المدينة بأقصى سرعة . وكان قد قدم لسجانه شراباً من النبيذ العذب المزوج بالمخدر وبأرق أفيون طيبى الأمر الذى جعل هذا السجن يستغرق فى النوم طوال تلك الليلة حتى انه ما كان ليستيقظ لو حاول الناس أن يهزوه . ومن ثم فر بأسرع ما يمكن ، فكانت لياليه قصيرة وكلما أوشك النهار أن يشرق (الأمر الذى كان يستدعى أن يختفى) كان يهرول الى غابة قريبة بخطى حذرة . . هكذا فعل بالامون . وبالاختصار كان رأيه أن يخفى نفسه فى الغابة طوال النهار وأن يسير ليلاً الى مدينة طيبة حتى يلتقى بأصدقائه ويقنعهم بأن يتحالفوا معه لشن الحرب على ثيسسيوس ، وخلاصة الأمر أنه كان ينوى اما أن يفقد حياته فى هذه المغامرة واما أن يفوز بامبلى زوجة له ، وهذا هو قصده واضحاً جلياً .

أما الآن فسأعود الى أركيتى ثانية الذى كان لا يعلم بقرب همه وحزنه حتى أوقعته ربة الحظ فى شراكها .

وكان طائر القنبرة رسول النهار يرحب بالنهار الرمادى اللون بشدوه وكان فيبوس اله الشمس ينهض ويصعد صعودا براقا فيضحك الشرق كله لرونق الضوء ، كما كان يدع أشعته تجفف قطرات الندى الفضية العالقة بالأوراق فى أعماق الأدغال ونهض أركيتى الذى أصبح الأمين الأول لثيسوس فى القصر الملكى وأخذ يتأمل النهار المشرق البهيج ولكى يقوم بشعائر شهر مايو (واضعا نصب عينيه دائما الهدف من كل رغباته) امتطى جوادا جامعا كلهب النار وانطلق الى المروج ليروح عن نفسه خارج القصر الملكى على بعد ميل أو ميلين فيه ، واتفق أن أتجه الى الغابة التى حدثتكم عنها من قبل لكى يصنع أكاليل من عساليح الفصون ومن أوراق الزعرور أو اللبلاب ، وغنى بصوت عال متجها نحو الشمس وقال :

« ياما يو يا من تحيط بك هذه الزهور وهذه الخضرة ، مرحبا بك ياما يو الجميل الرطب .. انى لأرجو أن أحصل منك على بعض الخضرة » وترجل من فوق جواده بقلب جسور وتوغل فى أعماق الدغل مسرعة خطاه وهام على وجهه فى أحد طرق الغابة وكان بالامون بمحض الصدفة مختفيا بجواره وراء شجيرة حتى لا يراه أحد ، اذ أنه كان يخشى خشية عظمية أن يقتل ولم يعلم قط أن الشخص الذى يراه هو أركيتى. والله أعلم أنه ماكان يعير ذلك الأمر أهمية كبرى. والحق يقال انه قيل منذ سنوات طويلة (ولا يزال هذا صحيحا) ان المرح له عيون وان الغابة لها آذان . ولذلك خير للمرء أن يحتفظ بحصافة عقله واتزانة لأن الناس دائما يلتقون مصادفة دون أن يتوقعوا ، ولم يعرف أركيتى شيئا عن وجود أخيه بجواره وأنه يستطيع أن يسمع كل ما يقوله ، اذ أنه كان جالسا فى سكون وراء الشجيرة .

ولما كان أركيتى قد تنزه كما شاء وأخذ يشدو بصوت رخيم ، فانه استغرق فى حالة تأمل ، كما يفعل العشاق فى حالاتهم النفسية المتقلبة فهم يحلقون آنا فوق قمم الأشجار وآنا يهبطون الى أعماق الحشائش ، ويطيرون آنا فى الأعلى ، وآنا يغوصون فى الأعماق مثلهم فى ذلك مثل الدلو فى البئر . ومثلهم أيضا فى الحقيقة مثل يوم الجمعة الذى يكون آنا ممطرا وآنا مشرقا ، تسطع فيه الشمس وهكذا تستطيع الالهة فينوس القلب أن تنشر الظلمة فى قلوب عبادها تماما كما يفعل يومها (أى يوم الجمعة) فهى مولعة بالقلب كولعها بكثرة تغيير ملابسها ، ويندر أن يكون يوم الجمعة شبيها بغيره من أسبوع لأسبوع. وبعد أن انتهى أركيتى من شدوه وأخذ يتنهد وجلس على الأرض فى الحال قائلا « ويل لليوم الذى ولدت فيه ! ياجونو الى متى تحاربين مدينة طيبة بقسوتك ؟ » ويلي ! لقد حلت اللعنة بالسلالة الملكية لآل كادموس وأمفيون . (٢٠) كادموس ذلك الرجل الذى كان أول من ذاع صيته من بنى مدينة طيبة أو وضع أسس الحياة الاجتماعية فى أجيالها ، وأول من توج ملكا للمدينة . وأنا من سلالته وأنتمى اليه مباشرة

بالدم الملكي . وها أنذا الآن أصبحت أسيرا وعبدا أخدم ذلك المخلوق نفسه . . .
عدوى اللدود ، أخدمه كوصيف مسكين ولكن جونو وصمتني بعاركبير عن هذا فانا
لا أجرؤ أن أكشف عن اسمي الحقيقي أنا الذي كنت اسمي أركيتي أصبحت أدعى
فيلوستراتوس ولا أساوى فلسا ، ويلي ! فيا أيها الاله مارس القاسى ! يا ويلي !
ياجونو يا من أنزلت غضبك على كل أسرتي وقضيت عليها كلها ماعدى أنا
وبالامون التيس الذى يعذبه ثيسوس فى السجن وبالإضافة الى كل ذلك
غرس الحب سهمه الملتهب فى شغاف قلبي المخلص المهوم حتى أهلك تماما ،
وكتب على أن أموت بهذا الشكل حتى قبل أن يصنع لى قماطى (أى قبل أن
أولد) . اميلي . . انك تقتلينى بعينيك وأنت سبب هلاكى ، أما همومى الأخرى
فانى لا أقيم وزنا لها ولو مثقال ذرة مادمت أستطيع أن أقوم بشئ يسترك . »

ولما سكت عن الكلام أغمى عليه لمدة طويلة ثم أفاق ونهض فجأة .

أما بالامون هذا الذى كان يشعر بسيف بارد جدا ينزلق خلال قلبه فانه
فجأة أخذ يرتعد غضبا ولم يستطع أن ينتظر أكثر من ذلك فبعد أن سمع
قصة أركيتي نهض فجأة من وراء الشجيرات الكثيفة ، كرجل جن وكان وجهه
شاحبا شحوب الموتى وقال : « أركيتي . . أيها الخائن الخداع الشرير ، هاأنذا
أقبض عليك . يا من تعشق مالكة قلبي ، الذى أشقى فى سبيلها كل هذا الشقاء
يامن كنت كاتم سرى ، ويا من أنت من دمي ولحمي (كما قلت لك كثيرا فى
الماضى) يا من خدع الدوق ثيسوس وانتحلت اسما غير اسمك ! اما أن ألقى
حتفى على يدك واما أن تموت أنت ! لن تعشق سيدتى اميلي بعد الآن ولن يحبها
أحد سواى وأعلم أنى أنا بالامون عدوك اللدود . وعلى الرغم من أننى لا أملك
سلاحا هنا فى هذا المكان ، لأننى فررت توا من السجن بمعونة الحظ فانى أخشى
أن أقول انه قدر سيئ أن تلقى حتفك على يدي أو تكف عن حب اميلي . ولك
أن تختار ما تشاء ولن تفر منى .

ولما سمع أركيتي ذلك وعرف من يخاطبه اشتعل قلبه غضبا وأشهر سيفه
غاضبا - كالأسد المفترس وقال : « والله الذى يتربع على عرشه (٢١) لولا أنك
مريض ومجنون بالحب ولولا أنك لا تملك هنا سلاحا لما خرجت من هذه الغابة
حيا ولقتلتك بسيفي أنا ، وأنا أنقض ذلك الاتفاق الذى تدعى أننى أبرمته معك .
وماذا أيها الأحمق . هلا فكرت تفكيرا جادا . ان الحب حر وسوف أحبها متحمدا
كل عافيتك ! ولكن بما أنك فارس كريم ، وتريد أن تحتكم الى المبارزة فى اثبات
حقك فانى أعدك بأننى لن أنغيب عن موعد الغد ولن يدرى بى أحد من الناس ،
وسوف أكون هنا مرتديا دروع الفرسان ، وسوف أحضر معى ما يكفيك من
الدروع والأسلحة ، ولك أن تختار أحسن الدروع لنفسك وأن تترك لى أسوأها ،
فى هذه الليلة سأحضر لك ما يكفيك من الطعام والشراب والملاءات والأغطية
أفراشك . وإذا قدر لك أن تفوز بعد ذلك بسيدتى ان قتلتنى هنا فى هذه

الغاية فان لك أن تأخذ سيدتي وأنا راض بهذا سلفا . « فرد عليه بالامون قائلا : « رضيت وأسلم بهذا الرأي » . وهكذا غادرا المكان حتى يلتقيا غدا في الموعد الذى تعهدا باحترامه .

يا كوبيد (٢٢) . . يامن تفتقر الى كل محبة انسانية ! يا صاحب الملك الذى لا يرضى بأن يشاركه أحد فى ملكه . . لقد قيل حقا ان كلا من الحب والملك لا يرضى بالكرم أو الشكر وكان ذلك ما أدركه حقا بالامون وأركيتى . وامتطى أركيتى جواده وركب الى المدينة . وفى اليوم التالى قبل الفجر أعد سرا درعين ، كل منهما كاف وصالح للاستعمال فى المبارزة التى ستقام بينهما . وحمل الدرعين أمامه وهو راكب على جواده وفى المكان والموعد اللذين اتفقا عليهما التقى أركيتى ببالامون فى الغابة . وأخذ لون وجهيهما يتغير كما حدث للصيادين فى مملكة طراقيا وهم واقفون أمام الغار حاملين الرمح أثناء صيد أسد أو دب - ثم يسمعون يأتى جامعا بين الأدغال محطما الغصون أثناء اندفاعه فى طريقه فيتأملون ويقول كل منهم لنفسه « ها هو ذا عدوى اللدود يأتى الى بدون انحراف . اما أن يموت هو واما أن أموت أنا . . واما أن أقتله عند الغار أو يقتلنى أنا اذا خائنى الحظ » . وكان هذا هو الأسلوب الذى انتهجهما ، وتغير لون بشرتهما لما أدرك كل منهما أن الآخر مائل أمامه . ولم يفه أحدهما بعبارة « صباح الخير » ولم يلق أى سلام على الآخر . بل شرع كل منهما فى الحال فى مساعدة الآخر على ارتداء الزرد والدروع تحوطهما كل مظاهر الصداقة كأنهما أخوان وبعد ذلك قضيا وقتا طويلا فى الطعنات بعضهما الى بعض برمحيهما الطويلين . . وقد يبدو لك أن بالامون هذا كان فى قتاله مثل الأسد المفترس المجنون وأن أركيتى كان مثل النمر القاسى ، وتقائلا وأخذ كل منهما يضرب الآخر كأنهما خنزيران بريان يخرج الزبد من شديهما بفعل الغضب ، واستمر قتالهما حتى وقفا فى بركة من الدماء تصل حتى عقبيهما . . وعلى هذا النحو أتركهما يتبارزان وأعود الى ثيسسيوس أروى لكم ما جرى له .

ان القدر ذلك المنفذ العام لأموال الدنيا والذى يطبق على الدنيا بأسرها تلك العناية الالهية التى أمر بها الله من قبل ، نعم ان ذلك القدر له من القوة والسلطان « أن تنفذ مشيئته حتى اذا أقسم العالم كله أن العكس سوف يقع ايجابا أو سلبا ولا بد أن يقع ذلك يوما من الأيام ، وقد لا يتكرر هذا الا بعد ألف سنة . ولا شك فى أن شهواتنا ورغباتنا فى هذه الدنيا سواء كانت خاصة بالحروب أو السلم أو البغض أو الحب ، تحكمها كلها النظرة الآتية من أعلى .

والآن انتقل الى ثيسسيوس العظيم الذى كان مشغوبا بالصيد وخاصة صيد الوعل الكبير فى شهر مايو حتى انه ما أن انبلج الفجر حتى نهض من فراشه وارتدى ملابسه وتاهب تماما للركوب ومعه جماعة من الصيادين وحاملى أبواق الصيد وبجواره أيضا كلاب الصيد ، والواقع أنه كان مشغوبا بالصيد لدرجة أن

غاية مراده هي أن يصبح كارثة تدهم الوعل الكبير اذ أنه كان عبدا لديانا
(الهة الصيد) فى المرتبة الثانية للمارس (اله الحرب) .

وكان النهار مشرقا صافيا كما قلت لكم من قبل ، وكان نيسيوس سيدا
مرحا بصحبة هيبوليتا زوجته وملكته الفاتنة ومعه أيضا اميلى وكانوا جميعا
يرتدون الملابس الخضراء وانطلقوا جميعا راكبين فى موكب ملكى للصيد .
واتجه الدوق نيسيوس مباشرة الى الغابة القريبة لأن الناس قالوا له ان بها
وعلا . فذهب راكبا حتى وصل الى مرج فى وسط الغابة . كان الوعل قد اعتاد
أن يجمع اليه هاربا وقصد الى ذلك المرج مباشرة وقفز من فوق جدول فى
الطريق وتخطى غيره من العراquil التى تعوق تقدمه . وأخذ الدوق يطارد الوعل
مرة واثنين ومعه كلاب الصيد .

ولما أدرك المرج نظر حوله وهو يظل عينيه من أشعة الشمس بيده واذا به
يتنبه لوجود أركيتى وبالامون وهما يتقاتلان فى مبارزة شعواء كأنهما خنزيران
بريان . وكان سيفاهما يلوحان هنا وهناك بطريقة فظيعة مخيفة ، الأمر الذى
جعل المرء يتصور أن ضربة من أحد هذين السيفين كافية لأن تهشم شجرة بلوط
بأسرها . الا أن الدوق لم يكن يعرف فى الحال من هما ، فدفع جواده بمهارة
وهروا الى حيث كانا ، ووقف بينهما وشهر سيفه وصاح : « قفا ! كفى والا
قطعت رأسيكما وانى لأقسم بالاله مارس العظيم أنه اذا ضرب أحدكما ضربة
واحدة على مرأى منى فسوف يقتل فى الحال ، قولا من أنتما أيها الغريبان .
من أنتما يامن تتبارزان هنا بمثل هذا العنف دون أن يكون بينكما حكم أو غيره
من المشرفين على المبارزات كما جرت العادة فى المبارزات التى يحضرها الملوك بما
يجب أن تحاط به من الرونق والعظمة ؟ » .

فأسرع بالامون بالاجابة قائلا . « مولاي ، ما حاجتى الى مزيد من الكلام ؟
اننا نحن الاثنين نستحق الموت . . اننا بائسان حزينان أسيران أثقلتها صروف
الحياة ، وبما أنك قاضى وملك شرعى فاننا نتوسل اليك ألا تمن علينا برحمة أو
مأوى ، بل اقتلنى أنا أولا بحق عاطفة المحبة المقدسة ثم اقتل صديقى أيضا .
أو أقتله أولا فانك حقا لا تعلم أن هذا هو عدوك اللدود أركيتى الذى نفى من
مملكته على أن يقتل ان عثر عليه فيها ، مما يستدعى اعدامه . هذا هو ذلك
الشخص الذى وفد الى باب قصرك وقال انه يدعى فيلوستراتوس ، هذا هو الذى
خدعك سنين طويلة وعينته أمينا أولا لك . . هذا هو الذى أحب اميلى . وما دام
اليوم الذى ألقى فيه حتفى قد حان ، فانى أعترف لك بكل أمانة أننى أنا بالامون
ذلك الرجل التعس الذى فر من سجنك دون وجه حق . . أنا عدوك اللدود . .
وأنا أيضا أعشق اميلى الفاتنة عشقا حارا لدرجة أننى على استعداد لأن أموت
بين يديها . لذلك فانى أطلب منك النطق بالحكم واعدامى ، ولكن أرجو أن
تقتل رفيقى بالطريقة نفسها اذ أننا نحن الاثنين نستحق الاعدام . »

فأجابه الدوق العظيم بدوره قائلا : « ان قرارى لن يستغرق وقتا طويلا
 .. انكما بأفواهكما وباعترافكما قد أصدرتما الحكم على نفسيكما وقد سجلت
 ذلك عليكما فلا داعى لتعذبيكما بحبال التعذيب (فى سبيل الحصول على
 اعتراف) . ستعدمان وحق الاله العظيم مارس الأحمر (٢٣) .

وقد حملت نوازع الأنوثة الملكة امبلى وكل سيدات الحاشية على البكاء
 وأجمعن كلهن على أنه مما يدعو للحزن والأسى الشديدين أن تحل بهما مثل هذه
 الكارثة ، فهما من نسل كريم وبيت عظيم ولم يتبارزا الا بدافع الحب ،
 ولما رأين الجروح البالغة الدامية فى جسديهما عريضة أليمة صرخن جميعا وبكين
 وانتحبن وقلن .. ارحمنا يا مولانا .. ارحم كل هؤلاء النساء ! » وخررن
 ساجدات على ركبهن العارية ، وهمن بتقبيل قدميه وهو واقف لولا أن غضبه
 هدا بعد قليل فالرحمة تتدفق بسرعة فى القلب الكريم . واذا كان الدوق قد
 ارتعد فى أول الأمر من شدة غضبه فانه وقف قليلا وتأمل برهة .. تأمل فى
 جريمة كل منهما وأيضا فى سببها ، واذا كان غضبه يدينهما فان عقله كان
 يلتمس لهما العذر . وكان بتفكيره على النحو الآتى : سيحاول أن يفر من السجن
 زد على ذلك أن قلبه قد فاض بالرحمة بالنساء لكثرة بكائهن الذى لا ينقطع
 واستفتى قلبه وقال لنفسه هامسا بهدوء « ويل السيد الذى لا تجرى فى قلبه
 الرحمة بل ينتهج سلوك الأسد فى كلامه وفى أفعاله أيضا بالنسبة لمن يقفون
 أمامه وقفة الخشوع والندم كما لو كان أمامه رجل متكبر مزدر عنيد يتشبث
 بموقفه الأول . ان ذلك الملك ينقصه الحكمة والحصافة اذا كان لا يستطيع أن
 يميز بين الحالتين ويصر على أن يزن الكبرياء والوداعة بمكيال واحد » .

ولما انطفأ غضبه بعد قليل أخذ يتأمل ما حوله بعين صاغية وقال بصوت
 عال : « ما أعظم اله الحب وما أقواه ! آه بارك الله فينا ! فليست هناك عقبات
 تستطيع مقاومة سلطانه .. وانه يمكن حقا أن يسمى الها نظرا لما يأتى به
 من معجزات وانه لقادر على أن يفعل ما يشاء بأى قلب يقع فى قبضته .. اليكم
 مثلا أركيتى هذا وبالامون هذا خرجا من سجنى وأصبحا طليقين تماما وكان
 يمكنهما أن يعيشا فى طيبة كما يعيش الملوك . ومع أنهما يعلمان تماما أنني
 عدوهم اللدود وأنه بوسعى قتلهما فانهما سمحا للحب أن يأتى بهما الى هذا
 المكان ليلقى كل منهما حتفه على الرغم مما يتمتعان به من بصرية .. قولوا لى
 ألا تعتبروا أن ذلك قمة الحمق ؟ حقا ليس هناك من هو أشد حمقا من العاشق !
 انظروا اليهما ، وحق الآلهة الجالسين فى السموات . ما أكثر ما سال من
 دماثهما ! ما أجمل منظرهما وهيئتهما ! هذا هو الأجر الذى دفعه لهما اله الحب
 فى مقابل عبادتهما ، ومع ذلك فان عباد الحب يظنون أنفسهم متنبهين لما قد يقع
 من الأمور . والأمر الذى يثير الضحك الى أبعد حد هو أن تلك الفتاة التى أقاما
 من أجلها هذا المهرجان لا تستطيع أن تشكرهما لذلك أكثر مما تشكرنى ،
 فالحقيقة أنها لا تعلم عن هذه الأحداث الملتهبة أكثر مما يعلمها الأرنب البرى .

أو طائر الوقواق (٢٤) ! ولكن سنة الحياة أن الانسان يجب أن يختبر كل حالة ولا بد له من أن يتصرف تصرف الأحق سواء أكان فتى أو شيخا .

وقد خبرت ذلك الحق بنفسى منذ سنين طويلة اذ كنت أنا أيضا فى زمان عبدا للحب ، واذن مادمت أعلم آلام الحب وأعرف الى أى حد يمكن أن يصيب النفس شأنى فى ذلك شأن من وقع فى شراكه أكثر من مرة ، لذلك فانى أعفو عن جريمتكما عفوا شاملا ، نزولا على طلب الملكة الساجدة أمامى هنا وأيضا قلبية لرغبة اميلى أختى العزيزة . . وعليكما الآن أن تقسما أنكما لن تلحقا ضررا بوطنى هذا ، وأنكما لن تشننا الحرب على لا بالليل ولا بالنهار وأنكما ستصباحان صديقين مخلصين لى قدر استطاعتكما . وهكذا أكون قد غفرت لكما جريمتكما تماما (٢٥) .

وعندئذ أقسم الاثنان قسم الولاء له باخلاص ووضوح وطلبا منه أن يمنحهما حمايته ورحمته فأصدر لهما قرار العطف قائلا :

« اذا رجعنا الى الأصل الملكى والثروة فان كلا منكما بلا شك جدير بأن يتزوج فى الوقت المناسب ولو كان ذلك من ملكة أو أميرة .

ومع ذلك فانى أتكلم بالنيابة عن أختى اميلى التى اشتجر بينكما من أجلها مثل هذا الخلاف واشتدت الغيرة وأنتما تعلمان تماما أنها لا تستطيع أن تتزوج من اثنين فى وقت واحد مهما طال عراكما فى سبيلها . ولا بد لأحدكما شء أو لم يشأ أن ينفخ فى ورقة اللبلاب (٢٦) . ويعنى ذلك أنهما لا يمكنها أن تأخذكما أنتما الاثنين مهما بلغت درجة شعوركما بالغيرة ومهما اشتد غضبكما . لذلك قررت أن أضعكما فى موقف يمكن من خلاله أن ينال كل منكما ما قدر له فانصتا لتعلما كيف دبرت ذلك واستمعا لما قررته لكما . ان ما أريده هو باختصار ، وبلا مناقشة شئتما أو لم تشاءا هو أن يذهب كل منكما أنى يشاء حرا طليقا دون أن يدفع فدية ودون أى قيد على تحركاتكما .

وبعد خمسين أسبوعا من اليوم لا أكثر ولا أقل على كل منكما أن يأتى ومعه مائة فارس مزودين بعدة الحرب والدروع اللازمة للمبارزة الرسمية ومستعدين للقتال المشروع فى سبيل الحق . وهذا هو أمرى الذى لا مفر منه وشرفى بصفتى فارسا . فمن يستطيع منكما بقوته أى وهو على رأس المائة فارس أن يقتل الآخر أو أن يهزمه فى المبارزة فسوف أعطيه اميلى زوجة له وسوف يكون هو الذى يفوز من ربة الحظ يمثل هذا الجزاء العظيم . وقد قررت أيضا أن أقيم هنا ميدان المبارزة وسأكون أنا (بعون الله ورحمته) بينكما حكما عادلا . ولن أسمح بأى اتفاق بيننا غير هذا فأحدكما يجب أن يموت قتيلا أو يؤخذ أسيرا . واذا راق لكما هذا الرأى فأفصحوا عن رضاكما واعتبرا أنفسكما سعيدين وهذا هو المطلوب منكما الآن وهذه هى نهاية كلامى .

ومن أبرقت عيناه الآن سرورا غير بالامون ؟ ومن نهض مبتهجا سوى أركيتى ترى من يعرف كيف يحكى أو يصف مدى ما ساد من المرح والسرور فى هذا المكان بعد أن تفضل ثيسسيوس بمثل هذه المنحة الكريمة ؟ لقد سجد كل الحاضرين أمامه وعبروا عن شكرهم له ، وبخاصة أهل طيبة . وهكذا استأذنا من الدوق ممثلين بالأمل وحاملين قلوبا خفيفة ، وغادرا المكان راكبين نحو ديارهم فى طيبة ذات الأسوار العريضة العتيقة .

« انتهى الجزء الثانى »

« واليكم الجزء الثالث » ،

وأعتقد أن الناس قد يعتبرون من قبيل الإهمال أن أنسى وصف كل ماأنفقته ثيسسيوس من نفقات باهظة لاعداد المكان لميدان المبارزة على النحو الذى يليق بالملوك . . . وأستطيع أن أقول ان مسرحا شامخا مثل هذا لم يوجد قط من قبل فى العالم أجمع . اذ كان قطر دائرة الميدان ميلا تقريبا وكان مسورا بسور من الحجر تحيط به قناة ، فكان شكل الميدان اذن دائريا كأنه « بوصلة » وبداخله درجات تصل الى علو ستين ذراعا بحيث اذا جلس أحد على درجة من الدرجات فانه لا يحجب الرؤية عن غيره .

وفى الشرق كان هناك رتاج من الرخام الأبيض وفى الغرب رتاج يمانله ، وبالاختصار لم يوجد فى العالم كله من قبل مثل هذا المكان على الرغم من أنه كان فى مساحة صغيرة للغاية . والسبب فى ذلك أنه لم يوجد فى القطر كله رجل ماهر خبير بالهندسة أو الرياضة أو الرسم أو نحت التماثيل لم يتعهده ثيسسيوس بالطعام والأجر حتى يساهم فى اقامة هذا المسرح وهذا ما فعله مع المصورين والمثاليين .

ولكى يستطيع ثيسسيوس أن يقوم بالطقوس الدينية ويقدم القرابين على النحو اللائق أقام مذبحا ومصلى من فوق الرتاج الشرقى ، وذلك من أجل عبادة فينوس الهة الحب ، كما أقام آخر مثله على الرتاج الغربى توقيرا لذكرى الاله مارس ، وقد كلفه ذلك حمولة عزبة من الذهب .

وفي الشمال في برج من أبراج السور ، أقام مصلى من المرمر الأبيض والمرجان الأحمر كان منظره رائعا ، وذلك من أجل عبادة ديانا الهة العفاف ، وكان ذلك قد أقامه ثيسسيوس بحكمة نبيلة . الا أنني نسيت أن أصف لكم أعمال النحت العظيم والصور والأشكال المثلثة التي كانت تضمها هذه المصليات الثلاث :

فأولا في معبد فينوس تستطيع أن ترى ، مصورا ومنقوشا على الحائط ، منظرا مثيرا للعطف الى أقصى حد يرمز الى الأرق والتنهيدات الحزينة والدموع المقدسة والنحيب والضربات المتهبة للشوق التي يتحملها في هذه الحياة ، عباد الهوى والايامن التي يقسمونها تأكيدا لوعودهم ، وتجسيدات المسرة والأمل والشوق والجراءة الحقاء والجمال والشباب والمرح والاعتدال والأحبة والقوة والخداع والنفاق والاسراف والههم والحسد ، وكلها كانت متوجة بأكاليل الذهب الحر حاملة طائر الوقواق . كما كانت الصور تمثل الأعياد والآلات الموسيقية والأغاني الراقصة والرقصات نفسها والمسرح والزى الغنى وكل أطوار الحب التي أستطيع أن أحسبها وتلك التي يمكن أن أتصورها فيما بعد ، وكل منها مصور على الجدران بترتيب درجاتها ، وعددها يربو على ما أستطيع أن أذكره على سبيل الحصر .

والحق أن جبل كثايرون (٢٧) بأسره حيث تقيم فينوس ومسكنها الرئيسي كان مصورا على الجدران بما يحيط به من حدائق ومناظر بهيجة ولم ينس الكسل بواب حديقة الحب ولا نرجس الوسيم الذي عاش في الماضي البعيد ولا حماقة الملك سليمان ولا قوة هرقل الهائلة ، ولا سحر مديا وكركي ولا تورنوس المفترس ذا القلب الباسل ، ولا كريسيوس الغنى أسير عناء (٢٨) . وهكذا يمكن أن تلاحظوا أنه لا الحكمة ولا الغنى ولا الجمال ولا الخداع ولا القوة ولا الجلد بقادر على مشاركة فينوس في السلطان ، لأن في وسعها أن ترشد الدنيا الى ما تريد ، وها هم الناس جميعا يقعون في شراكها ، وكثيرا ما صاح كل منهم « ويلي » ويكفي هنا ذكر مثال أو مثالين ، وان كنت أستطيع أن أذكر ما يزيد عن ألف .

كان تمثال فينوس الرائع يمثلها وهي تطفو فوق البحر الواسع ، مغطاة من السرة حتى قدميها بالأمواج الخضراء ، مشرقة براقاة كالمرآة ، وكانت تحمل في يمينها قيثارة ، وتضع على رأسها اكليلا من الورد العطر وفوق رأسها ترفرف حمائماتها ، وكان واقفا أمامها ابنها كوبيد ويحمل جناحين على ظهره ، وأعمى كما كان يصور في كثير من الأحيان . وكان يحمل قوسا وسهاما براقاة حادة . ولم لا أصف لكم الصور التي كانت منقوشة على جدران معبد الاله مارس الأحمر ؟ لقد كانت الجدران كلها مصورة طولا وعرضا ، وكانت هذه هي الحال بالنسبة لحجرات المعبد الداخلية في هذا المكان المخيف الذي كان يسمى المعبد الأعظم

لمارس فى طراquia ، تلك المنطقة الباردة الثلجية التى كانت وطن مارس ، وكانت له عليه سيادة تامة .

فأولا صورت على الجدران غابة لم يسكنها انسان ولا حيوان ، فيها أشجار قديمة ذات عقد ونتوءات ، وبها جذوع مقطوعة مدببة قبيحة . وكانت الغابة مليئة بزئير وصوت الرياح الجارفة ، كأن عاصفة شديدة تحاول أن تهشم كل غصن فى الغابة . وتحت سفح تل كان معبد الاله مارس صاحب السلطان على السلاح . مصورا أيضا ، وكان هذا المعبد من الصلب المصقول ومدخله على شكل ممر ضيق طويل يخيف كل ناظر ، وكان ينحرف من هذا الممر هبوب ريح وتيار من الهواء يهز الرتاج كله هزا عنيفا . ومن الأبواب كان ضوء الشمال ينساب الى الداخل اذ كانت لا توجد نوافذ فى هذا المعبد يرى الناس من خلالها ضوء النهار . وكان الرتاج من الحديد الصلب الذى لا يمكن أن يتآكل أبدا وكان مدعما طولا وعرضا بمشابك من الحديد المتين . وفى سبيل تقوية المعبد كان كل عمود فيه يحمل سقفه من الحديد البراق وقطره قطر البرميل .

وهناك رأيت أولا التصوير المظلم للخيانة ومكائدها ، والغضب القاسى الأحمر فى لون الجمر المتقد ، والخوف الشاحب النشال والانسان المتسسم الذى يخفى خنجره فى طيات معطفه ، والخطيرة التى تلتهمها النار والدخان الأسود الذى يتصاعد منها ، والاعتيال الغادر للنائم فى فراشه والحرب الشعواء وجراحه التى تنزف الدماء ، والعراك الذى يستخدم فيه الخنجر الدامى ، وكلمات التهديد الحادة ، وكان هذا المكان الكريه زاخرا بالعراك . كما رأيت هناك قاتل نفسه وقد تناثرت دماء قلبه على كل شعره ، كما رأيت المسمار الذى يدق فى رأس النائم ليلا والموت البارد ذا الفم المفتوح وهو ملقى على ظهره .

وفى وسط المعبد كانت ربة الحظ السيئ تجلس بوجهها الذى ترسم عليه سمات الحزن والقلق ، كما رأيت الجنون يضحك ضحكة هستيرية فى احدى نوباته والانتفاضة المسلحة ، وصرخة الخوف ، والنقمة المفترسة ، والجنة الهامدة ملقاة فى الدغل بعد قطع رقبتها ، وألف قتيل لم يمت واحد منهم بسبب مرض أو طاعون ، والحاكم المستبد الذى سلب فريسته بالقوة ، وأطال المدينة التى لم يبق فيها شئ أو أى شخص . كما رأيت السفن المتأرجحة فى البحر وقد أحرقت تماما ، والصياد الذى خنقته الدبة المفترسة ، وأنثى الخنزير التى تلتهم الطفل وهو نائم فى مهده ، والطاهى وقد أصيب بالحرق على الرغم من معرفته الطويلة ، ولم ينس شئ بفضل التأثير السيئ للاله مارس . ورأيت قائد عربة الحرب وقد دهسته عربته ، وملقى على الأرض تحت عجلتها ، وكان هناك من يقعون تحت تأثير مارس كالحلاق والجزار والحداد الذى يصقل السيوف الحادة على سندانه . وفى مكان عال رأيت مصورا على برج رب الفتح متربعا

على عرشه محاطا بمظاهر التكريم وكان معلقا فوق رأسه بخيط رفيع سيف يتدلى من عل .

وقد صور اغتيال يوليوس قيصر ونرون العظيم وأنطونيوس وحتى أولئك الذين لم يولدوا بعد حينذاك ، اذ صورت الطريقة التي لاقوا بها حتفهم مسبقا وذلك بتهديد مارس وفق الحساب التنجيمي . فقد صور على هذه الجدران ما هو مصور بالفعل فى ترتيب النجوم فى السماء أى صور من سيقتل ومن سيموت فى سبيل الحب . ويكفينى لذلك ذكر مثال واحد من القصص القديمة فانى لا أستطيع أن أرويها كلها ولو أردت أن أقصها .

وكان تمثال مارس واقفا على عربة حربية وهو مدمج بالسلاح وسماته تدل على القوة والافتراس كأنه مجنون وفوق رأسه تتلأأ تشكيلتان للنجوم ورد ذكرهما فى كتب العلوم هما ما تسمى « بويلا » وما تسمى « روبيوس » (٣٠) .

وكان يكتنف اله الأسلحة والمنظر الآتى : كان هناك ذئب مائل بين يديه عيناه حمراوان ، وهو يلتهم رجلا وكانت هذه القصة قد صورت بمرفاش رقيق احتراما للاله مارس وما له من مجد .

والآن أصف لكم معبد الالهة ديانا العفيفة وسوف أسرع فى الوصف اختصارا ، كما سأصف لكم بمنتهى الإيجاز ما نقش على الجدران من مناظر الصيد والعفة المحتشمة . (٣١) فرأيت كيف مسخت كالستو التعيسة (لما غضبت منها ديانا) فتحولت من امرأة الى دبة وكيف حولت بعد ذلك الى الكوكب الشمالى وهذا ما كان مصورا ، ولا أستطيع أن أقول لكم أكثر من ذلك . وقد حول ابنها كذلك الى نجم كما يستطيع الناس أن يروا ذلك بأنفسهم . ورأيت أيضا هناك « دفنى » التى مسخت شجرة ولست أعنى الالهة ديانا وانما بنت « بنيوس » التى تدعى « دفنى » ، ورأيت أيضا « اكتايون » الذى مسخ وعلا انتقاما منه لأنه أمعن النظر فى ديانا وهى عارية . ورأيت كذلك كيف أمسكت به كلابه ومزقته والتهمته لأنهم لم يتعرفوا عليه . وعلى مقربة من ذلك كانت هناك صورة الأنا لانتا وهى تطارد الخنزير البرى أننا الصيد كما صور « ملياجر » وكثيرون غيره ممن اختارت لهم ديانا الشقاء والتعاسة . وكما رأيت هناك كثيرا من القصص العجيبة التى لا تعيها ذاكرتى الآن .

وكانت الالهة هذه تجلس عاليا على وعل وحول قدميها كثير من الجراء وتحت قدميها تماما القمر فى صورة هلال يوشك أن يتحول الى المحاق بعد قليل (٣٢) . وكان تمثالها تكسوه ملابس من السندس الأخضر ويصورها تحمّل فى يدها قوسا وسهامها فى جراب وكانت عيناها تنظران الى الأعماق السفلى حيث يحكم « يلوتر » مملكته المظلمة . وكانت أمامها صورة امرأة فى حالة مخاض ولكن ولادتها تعسرت وقتا طويلا ، فأخذت تصرخ بصوت مثير تنادى

« لوسينا » (الالهة ديانا بوصفها راعية الولادة) وتصيح : « ساعديني فأنت خير معين ! » وما أروع صنع المصور في أن يثبت الحياة فيما يصوره ، وليس من شك في أن الأصباغ التي استعملها قد كلفتها الكثير من المال (٣٣) .

ها هو ذا ميدان المبارزة قد أعد تماما وبعد أن تحمل ثيسيوس نفقات تزيين المعابد وميدان العرض ، ولما رآها كان سروره بها بالغا ولكننى سوف أتوقف قليلا عن الكلام عن ثيسيوس وأتحدث عن بلامون وأركيتى .

لقد دنا موعد عودة كل منهما على رأس جماعة من مائة فارس ليشتبكوا فى مبارزة كما ذكرت لكم . وقد جاء كل منهما بالفعل الى أثينا محافظة على ما تعهدا به على رأس جماعة من مائة فارس مزودين بعدة حرب كاملة . والحق يقال ان كثيرا من الناس قد لاحظوا أنه فيما يتعلق بالمرورة والفروسية لم توجد قط ، منذ بدء العالم مثل هذه الزمرة الرائعة على الرغم من قلة عددها . فكل امرئ منهم يحب الفروسية ويطمع بمحض ارادته في أن يحصل على شهرة تفوق كل ماعداها ، التمس شرف الاشتراك فى هذه المبارزة وكان ذلك شرفا لكل من اختير بالفعل للاشتراك فيها .

واذا قدر أن يقع غدا مثل هذا الأمر فما من شك في أن كل فارس مولع بعشق سيده وممتلك لكامل قواه (سواء أكان ذلك فى انجلترا أو فى غيرها من البلاد) لابد من أن يشعر بأكبر شوق الى أن يكون من هذه الزمرة لكى يتبارز فى سبيل سيده ، وأقول ذلك بعد التماس بركات الله علينا . وما أروع ذلك المنظر . هكذا صارت الأمور مع بالامون . وقد ذهب معه كثير من الفرسان بعضهم مسربل بالزرد ، والبعض الآخر بالصدرية المغطاة بالقميص الخفيف ، وبعضهم يرتدى درعين كبيرين ، والبعض الآخر يحمل ترسا بروسيا (٣٤) أو درقة . وبعضهم درع ساقية ، والبعض الآخر يحمل بلطة حرب ، وبعضهم كسارة للدروع . وليس هناك نمط جديد فى الدروع لم يعرف من قديم الزمان ، وكما قلت لكم كان كل منهم قد تسليح كما يحلو له .

وها هو ذا ملك طراقيا العظيم يأتى بجوار بالامون هو ليكورجوس نفسه (٣٥) وكانت لحيته سوداء ووجهه ينم عن الرجولة . . وكانت مقلتا عينيه فى رأسه تلمعان بلون يتراوح بين الاصفرار ، والاحمرار . وكان يتلفت يمينا وشمالا مثل العنقاء ، ويعلو جبينه شعر غليظ وأطرافه ضخمة وعضلاته صلبة قوية ، ومنكباه عريضتان وذراعا طويلتان مستديرتان . وكان يقف فى أعلى عربة حربية من الذهب تمشيا مع تقاليد بلاده ، يجرها أربعة من الثيران البيض ، شدوا الى نبرها ، وبدلا من أن يرتدى قميصا عليه شارة دولته فوق درعه كان يلبس جلد دب أسود فى لون الفحم وقديما جدا ، مربوطا بمشابك صفراء فى لون الذهب ، وكان شعره الطويل مرجلا وراء ظهره أسودا براقا يلمع كأنه ريش

غراب ، وكان يرتدى فوق رأسه اكليلا ثقيلا جدا من الذهب فى سمك الذراع ومرصعا بالأحجار الكريمة البراقة وبالماس والياقوت . وكان يصاحب عربته عشرون أو أكثر من الكلاب البيضاء كل منها أضخم من الثور ، وذلك نصيد الأسد أو الوعل . وكانت تتبعه وعلى أفواها كمادات مربوطة ربطا محكما ومزدانة بالذهب وبالحلقات الصغيرة ، وكان فى حاشيته مائة من السادة مسرلين بخير الدروع من ذوى القلوب الصارمة الباسلة .

ويروى الرواة أن أركيتى كان يصاحبه اميتريوس ملك الهندس ، ممتطيا صهوة جواد أشقر مصفحا بالصلب وملقى عليه ساتر مرقم بالقصب وكان وهو راكب أشبه ما يكون باله الحرب مارس ، وكان القميص الذى يرتديه فوق دروعه من القماش التركستانى مزدانا باللآلئ البيضاء الكبيرة المستديرة . وكان سرجه من الذهب المصقول حديثا فى النهار ، وكان يتدلى من كتفيه معطف زاهر بالياقوت الأحمر البراق مثل لهب النار . وكان شعره المجعد يتدلى فى صفائر من الشعر الأصفر الذى يتألق كالشمس . وكان له أنف أقنى وعينان لونهما أصفر ضارب الى الاخضرار ، وشفتان ممتلئتان وبشرة لونها يضرب الى الاحمرار الدموع .

وكانت بعض الحسنات تتناثر على وجهه ولونها مزيج من الأصفر والأسود وكان يتطلع حوله كأنه أسد . واعتقد أنه كان يبلغ من العمر خمسا وعشرين سنة تقريبا ، وكانت لحيته قد بدأت تنبت بالفعل وصوته رنانا كصوت النفير . وكان يضع على رأسه اكليلا من الغار الأخضر يبعث السرور فى نفس كل من يتأمله . ولكى يدخل على نفسه السرور يضع على يده نسرا أليفا أبيض فى لون السوسن . وكان فى حاشيته مائة من السادة مرتدين كل عدتهم للحرب ماعدا خوذاتهم ، وكان منظرهم ينم عن اليسار فى كل شئ وتأكدوا أن السادة من رتبة الدوق والايمل والملك تجمعوا فى هذه الفرقة النبيلة من أجل الحب وللقيام بالمزيد من أعمال الفروسية . . وحول هذا الملك كان يجرى هنا وهناك كثير من الأسود والفهود الأليفة . . وعلى هذا النحو وبهذا الشكل كان هؤلاء السادة أجمعون قد أتوا الى المدينة فى يوم الأحد فى أول الصباح (حوالى الساعة التاسعة والنصف) وهبطوا من فوق جيادهم .

ولما أحضرهم ثيسسيوس هذا الدوق . . هذا الفارس الكريم الى المدينة وأعد لكل منهم مسكنا يليق بمنزلته أقام لهم الولائم وبالغ فى اكرامهم لدرجة أن الكل أجمعوا على أنه لا يمكن لأى عقل بشرى أن يأتى بخبر من ذلك . فهناك الموسيقى ، والغناء والخدمة الممتازة فى الولائم ، والهدايا القيمة التى قدمت لكل واحد مهما كبر أو صغر والزخرفة الرائعة لقصر ثيسسيوس ، وتكريم من كان يجلس على رأس المائدة العالية وتكريم من يجلس فى أسفلها ، والسيدات اللاتى ففن غيرهن فى الجمال أو فى رشاقة الرقص ، وهؤلاء اللاتى ففن غيرهن فى الغناء الرخيم وفى الرقص الجميل ، ومن يعرف كيف يتكلم فى أمور الهوى كلاما

عاطفيا بليغا ، ومن يتحدث عن الباز الراقد على المحثم فى الأعلى ، والكلاب التى ترقد تحت على الأرض . أنا فى غنى عن ذكر كل ذلك لكم ، ولكنى أود أن أقول لكم خلاصة ما حدث هناك . والآن أعود الى روايتى فانصتوا اذن لما أقوله ، اذا كنتم تريدون .

فى يوم الأحد ليلا قبل أن ينبلع النهار سمع بالامون غناء القبرة (فبالرغم من ان النهار لم يشرق الا بعد ساعتين الا أن القبرة بدأت تغرد) فنهض بالامون بقلب تقى وبروح سامية ليؤدى فروض الحج الى الهه « كيثرا » أعنى فينوس الكريمة الجديرة بالتبجيل ، وفى الساعة المقدسة لفينوس سار الى ميدان المبارزة حيث كان معبدها وسجد بخشوع وحزن وقال متضرعا :

« يا أجمل الجميلات ياسيدتى فينوس ، يابنت جوبيتر وزوجة فولكانوس يامن تبئين المسرة فى سفوح جبل كيثابرون (٣٦) . فى سبيل العشق الذى كنت تكنينه لأدونيس أرجو أن ترحمى دموى المرة الأليمة وتتقبل تضرعاتى المتواضعة بقلبك الرحيم » ويلي ! انى لا أجد الكلمات للتعبير عن ذلك الجحيم الذى يشتعل فى نفسى ويعذبنى باستمرار .

ان قلبى لا يستطيع أن يكشف عن آلامى « ولقد ملأنى الشعور بالحيرة الى حد أننى لا أستطيع أن أقول شيئا سوى «الرحمة» ياللع السيدات يا من تعرفين كنه أفكارى وتدرकिन مدى آلامى . خذى كل ذلك فى اعتبارك واحزنى من أجل حزنى الأليم واذا قبلت رجائى أتعهد أن أكون عبدا لك الى الأبد أخدمك بكل ما أملك من قوة وأشن حربا شعواء على العفاف ، وهذا قسم منى على ذلك اذا ساعدتنى ، انى لا أريد أن أفخر بما أفعله بالسلاح ، كما أننى لا أطلب أن أفوز بالنصر غدا ولا بالشهرة ولا بالمجد الباطل ولا بالصيت فى التفوق بالسلاح فى كل أنحاء العالم بل أن تكون اميلى لى أنا وحدى ، وأن أفضى نحبى وأنا عبد لك . ولك أن تجدى الوسيلة فلا يهمنى ذلك ، ولكن الأحسن بطبيعة الحال أن أنتصر عليهم بدلا من أن يتغلبوا على حتى أستطيع أن أضم مالكة قلبى الى صدرى ، ومع أن مارس هو اله السلاح والحرب فان قدرتك وتأثيرك فى السموات يفوقان كل شيء ومن ثم يمكنك أن تسلمينى من أحبها اذا أردت وسوف أعبدك بعد ذلك الى الأبد فى معبدك وأقدم لك القرابين على مذبحك أينما كنت راكبا أو ذاهبا وأشعل نيران عبادتك .

واذا شئت ارادت لك أيتها السيدة الكريمة ألا يحدث كل ذلك فان رجائى أن تخترق قلبى غدا حربا أركيتى ، وعندئذ لن أبالى بشيء ولا يهمنى أن يفوز بها أركيتى زوجة له مادمت قد فقدت حياتى . وخلاصة مطلبى وقصدى أن تهبى لى حبيبتى أيتها السيدة العزيزة المباركة . ولما انتهى بالامون من دعائه قدم القرابين على المذبح بروح تثير العطف والرحمة وبكل ما يلزم من خشوع واحترام

للقوس ولا داعى لأن أروى لكم تفاصيل ما قام به من طقوس . وفى نهاية الأمر ارتعد تمثال فينوس وأوماً بإشارة تدل على أن دعاءه قبلته الالهة وعلى الرغم من أن الإشارة تأخرت فى الظهور قليلا فانه عرف تماما أن رجاءه قد أجيب ، فعاد الى بيته وقلبه مفعم بالسعادة والهناء .

وفى الساعة الثالثة الفردية التى أعقبت بدء سير بالامون الى معبد فينوس أشرفت الشمس فاستيقظت اميلى وأخذت تسير نحو معبد الالهة ديانا . وكانت الفتيات الأبنكار اللاتى سارت على رأسهن الى المعبد قد أحضرن النار المقدسة والبخور والملابس الخاصة وما الى ذلك من الأشياء اللازمة لاقامة طقوس تقديم القربان ، وكانت القرون ممتلئة بجعة العسل حسب التقاليد ولا ينقص شيء لتقديم القربان فبخرن المعبد وهن مرتديات أجمل ثيابهن . وغسلت اميلى ذات القلب الوديع جسمها بالماء من العين ومع ذلك فانى لا أجسر أن أصف طقوس وضوئها ، ولكنى أشير الى ذلك اشارة عامة . أما الوصف الوافى لما حدث فان من شأنه أن يبت البهجة فى نفوسكم وأنا واثق أن ذلك الوصف لا يسئ الى من كان عقله نظيفا صافيا ، ومع ذلك فان من الأفضل أن أترك لكم الحرية فى أن تتصوروا ما حدث بدون ايحاء منى بذلك . كان شعرها البراق مرجلا وضفاثرد مسدولة ، وعلى رأسها وضع اكليل من البلوط الأخضر بصورة لائقة تتخلب الابواب وأخذت تشعل نارين على المذبح وأقامت شعائرها وفق ما يمكن للناس أن يقرأوه فى كتابات أستاتايوس الطبيعى وبعض الكتب القديمة الأخرى . وعندما اشتعلت النار بشدة خاطبت الالهة ديانا بكلمات حزينة على النحو الذى تسمعونه :

« أيتها الالهة العفيفة فى الغابات الخضراء يا من ترين ما فى السموات والأرض فى آن واحد ، يا ملكة بلوتو المظلمة السفلى ، يا الهة الأبنكار ، يا من عرفت ما فى نفسى منذ سنين عديدة يا من تعرفين ما أتطلع اليه » أرجو أن تقينى شر غضبك ونقمتك . . . اللذين قاسا منهما أكتايون وتعرض لشقاء اليم ، أيتها الالهة العفيفة أنت تعرفين جيدا أننى أريد أن أبقي عذراء طوال حياتى ، وأننى لا أريد حبا ولا زيجة أبدا ! . . أنت تعرفين أننى فتاة عذراء من رفقتك ، وأننى أحب الصيد والقنص والسير فى الغابة المهجورة وأننى لا أريد أن أصبح زوجة وأحمل طفلا . كما أننى لا أريد أن أعرف رفاقا من الرجال . ساعدينى ياسيديتى فهذا فى وسعك لأنك تتجسدين فى ثلاثة أشكال .

أما بالامون الذى يحترق حيالى أيضا وأركيتى الذى يأسى من عشقه لى فأرجو أن تمنحيهما السلام وأن تجعلى الوثام يسود بينهما ولا أطلب منك طلبا آخر . كما أرجو أن تحولى قلبيهما عنى حتى يتبدد كل عشقهما الحار وكل حنينهما وكل شقائهما القلق ، وأن تخدم نارهما وتخبو وتطفأ ، أو تتحول الى مكان آخر . وإذا قدر لى أن يكون أحدهما من نصيبى أرجو أن ترسلنى لى من يحبني منهما حقا ويرغب فى أكثر من الآخر .

تأمل يا الهة العفة الطاهرة .. تأمل تلك الدموع التى تتساقط على خدى .
مادمت عذراء وحامية لنا جميعا فأرجو أن تحافظى على بكارتى ، وما دمت بكرًا
فسوف أكون دائما أمة لك .

وكانت النيران ملتهبة على المذبح اللامع عند ما كانت اميلي تتضرع للالهة
ولكن فجأة رأت شيئا غريبا اذ انطفأت احدى النارين فجأة ثم اشتعلت من جديد
وهذا ما حدث للنار الأخرى اذ خمدت برهة ثم اشتعلت من جديد . وعندما
انطفأتا صدر منهما صوت صغير مثل صوت الغصون الميتلة وهى تحترق .
وحدث أيضا أن سالت من أطراف الغصون الملتهبة ما يشبه قطرات دم كثيرة
مما أذهل اميلي الى حد أنها كادت تجن وأخذت تبكى لأنها كانت لا تعرف ما يدل
عليه كل ذلك ، والواقع أنها لم تبك ولم تصرخ الا لأنها كانت خائفة وكان ذلك
يشير العطف حقا .

وعندئذ ظهرت الالهة ديانا وهى تحمل فى يدها قوسا كما تفعل الصائدة
وقالت : « يا بنتى دعى همك جانبا فقد تأكد فى دوائر الآلهة فى الأعلى وسجل
ذلك فى كلمات مكتوبة أنك سوف تتزوجين أحد هذين الاثنين اللذين يكتن
لك مثل هذا الحب الشديد الأليم ، ولكنى لست حرة فى أن أقول لك من هو
ذلك الرجل . والآن وداعا لأننى لا أستطيع أن أبقي معك أكثر من هذا وسوف
تخبرك النيران المشتعلة هنا على مذبحى وقبل مغادرتك بحظك فى الحب وما قدر
لك كما حدث من قليل . »

ولما انتهت الالهة من كلامها أخذت السهام فى حراها تتخبط وتصلصل
ثم اختفت . ولما رأت اميلي كل هذا ذهلت ذهولا شديدا وقالت : ..

« ما معنى كل هذا ؟ ويلي ! انى يا ديانا أضع نفسى تحت حمايتك وأنا
نحت تصرفك » . ثم نهضت وعادت الى بيتها سالكة أقرب الطرق . هذه هى
خلاصة الرواية وليس هناك شئ آخر يقال فيها .

وفى الساعة المقبلة المكرسة للاله مارس دخل أركيتى معبد مارس المفترس
ليقدم له القربان بالطقوس اللازمة حسب العادات الوثنية . وتلا دعاء لمارس
بصوت يشير الشفقة والعطف فقال :

« أيها الاله القوى يا من تكرم فى المملكة الطراقية الباردة .. شديدة
البرودة وتعتبر سيدا لها » يا من تمسك بزمام كل عمل مسلح فى كل مملكة
وكل اقليم .. يا من تقدر الحظ ، كما تريد ، لمن تريد ، تقبل منى هذا القربان
المتواضع واذا كان شبابى وقوتى جديرين بخدمة ألوهيتكم ، واذا كنت حقا
أحد عبادك أرجو أن ترثى لحزنى .. وذلك فى ذكرى الشقاء والنار المحرقة
للذين قاسيتهما رغبة وشوقا لفينوس الفتية الفاتنة الرشيقة واستمتعت بمفاتيح
جسدها وأمسكتها بين ذراعيك كما تشتهى وذلك على الرغم من أن فولكانوس
أوقعك فى شراكه ، فخانك الحظ ووجدك ملقى بجوار زوجته ، ويل لك .

أتوسل اليك بحق ذكرى ذلك الحزن الذى يملأ قلبك أن ترثى لحزنى وأن تعطف على جرحى الأليم . انى شاب غر جاهل كما تعلم ، وأعتقد أنى أصبت بجروح الحب أكثر مما أصيب غيرى ممن لا يزالون على قيد الحياة . فتلك التى ألحقت بى كل هذا الأسى لا يههما قط أن أغرق فى البحر أو أطفو سابحا .

وانى لأعرف تماما أنها قبل أن تجود على بعطفها ، لابد لى من أن أفوز بها بقوتى فى هذا الميدان وانى لأعلم جيدا أننى بدون مساعدتك وعطفك لا ينفعنى بقوتى قط . فساعدنى يا سييدى غدا فى المبارزة فى ذكرى تلك النار التى أحرقتك يوما ما وتحرقنى الآن ، وأفعل بحيث أحظى غدا بالنصر . وليكن العمل والشقاء من نصيبى وليكن لك المجد ! انى سأبجل معبدك العظيم خير تبجيل وأكثر من تبجيل لآى مكان آخر وسأعمل دائما على أن أحوز رضاك وأغنم من مآثرك العظيمة وسأعلق فى معبدك لوائى وكل أسلحة حاشيتى وسوف أوقد دائما أمامك حتى تحين منيتى نيرانا لا تطفأ أبدا . وحتى ألتزم بعهدى لك أعدك بأن أعطيك لحيتى وشعرى هذا الذى يتدلى فى صفائر مسدلة لم يتعرض قط للالهانة بالموسى أو المقص وسأكون لك عبدا مخلصا طوال حياتى يا سيدي .

أتوسل اليك أن تشفق على حزنى الأليم وأن تهبنى النصر ولا أطلب منك شيئا آخر » .

ولما انتهى أركيتى من دعائه هذا أخذت الحلقات المعلقة على رتاج المعبد والأبواب نفسها تصطك صكات سريعة ، الأمر الذى أذهل أركيتى اذهالا شديدا واشتعلت النيران على المذبح العظيم وتوهج ضوءها حتى أثار المعبد بأسره » وأخذت رائحة عطره تتصاعد من الأرض فرفع أركيتى يده ووضع المزيد من البخور فى النار ، كما قام بغير ذلك من الشعائر المقدسة وأخيرا بدأ زرد مارس يصل صليلا رنانا وسمع تممة خافتة مصاحبة للصليل تهمس بكلمة «النصر» وبعد ذلك قدم لمارس فروض التبجيل والاكرام ، وهكذا عاد أركيتى ممتلئا بالبهجة يحدوه الأمل فى حسن الختام وذهب الى مأواه سعيدا سعادة الطير بأشراق الشمس .

وبدأ بعد ذلك صراع كبير فى السموات من أجل هذه المنح المزدوجة بين فينوس الهة الحب ومارس الهة الأسلحة الصارم ، مما دعا جوبيتر الى السعى لاختماده . وعندئذ جاء الاله ساتورنوس الشاحب البارد (٣٧) الذى كان يعرف الكثير من مغامرات قديم الزمان وأخرج من جعبته القديمة حيلة فنية يمكن بها ارضاء الطرفين . ويقال دائما بحق ان الشيخوخة لها مزايا كثيرة لأن الشيخوخة تشمل الحكمة والخبرة القديمة فقد يستطيع المرء أن يفوق الشيخ فى الجرى ، ولكنه لا يستطيع آخر أن يجاريه فى الحكمة والرأى الصائب .

ومن ثم أخذ ساتورنوس يحاول أن يجد العلاج المناسب لانهاء الخلاف والهول وان لم يكن ذلك من صميم اختصاصه فقال « يا فينوس يا ابنتى العزيزة ان مدار فلكى أوسع من غيره ، وفيه قدرة تفوق أية قدرة عرفها الناس ، الى يرجع سبب

الغرق فى البحر المتلاطم والعجس فى الكوخ المظلم والخنق والشنق وتمتمة المارد
 وثورة الغوغاء وأنين الشكوى وأنسم سرا . أنا راعى الشار والجلد الواضح
 الصريح مادمت فى برج الأسد . أنا الذى أمنع تدهور القصور الشامخة وتهشم
 الأبراج والأسوار على رأس التجار وعامل المنجم . أنا الذى قتل شمشون لما هز
 الأعمدة ، وأنا مصدر الأمراض الباردة والخيانات فى الظلام والحيل العتيقة .
 نظرتى تورث الطاعون . فلا تبكى واعلمى أنى سأعمل جهدى على أن يفوز
 بالامون فارسك بسيدته كوعدك له . وحتى لو ساعد مارس فارسه فثقى أن
 السلام سوف يسود بينكما بعد حين ولو لم تكونا مؤتلفين فى المزاج (الأمر
 الذى يثير مثل هذه الخلافات بينكما) ، انى جدك وتحت أمرك . فلا تبكى بعد
 الآن لأننى سأنفذ مشيئتك » . والآن سأكف عن الكلام عن الآلهة فى السموات
 وعن مارس وفينوس إلهة الحب وسأقص عليكم بوضوح قدر استطاعتي صميم
 القصة التى كنت قد بدأت فى سردها .

« انتهى الجزء الثالث »

« واليكم الجزء الرابع »

كانت الأفراح فى أثينا فى ذلك اليوم عظيمة جدا ، وترتب على حلول شهر
 مايو المرح أن كل واحد هناك أصبح فى حالة من البهجة والطرب ، مما دفع الناس
 الى قضاء يوم الاثنين فى الرقص وفى العبادة السامية للآلهة فينوس . ولما كان
 عليهم أن . . يستيقظوا مبكرين فى اليوم التالى لحضور المباراة الكبرى فانهم
 آووا الى مضاجعهم ليناموا طوال الليل . وفى اليوم التالى لما انبجس النهار عم
 ضجيج الحيل والاستعدادات فى كل النزل التى كانوا يقيمون فيها . وقامت
 جماعات من الفرسان والسادة وامتطوا جيادهم وافراسهم وساروا نحو القصر .
 وكان يمكنكم أن تروا هناك الاعداد الماهر لعدة الحرب ، اذ أعدت بحذق ، وأنفق
 عليها بسخاء ، وصنعت صنعا محكما على يد الصائغين والمطرزين والحدادين .
 فهناك التروس البراقة والخوذات ودروع الخيل والخوذات المصنوعة من الذهب
 والزرود والقمصان التى تحمل الشعارات الملبوسة فوق الدروع . وهناك السادة

دور الأزدية المقصبة ممتطين صهوات جيادهم ، وفرسان الحاشية والحجاب يعدون الحراب ، ويربطون الخوذات على رؤوس ساداتهم ، ويضعون المماسك على التروس بربط شرائط الجلد عليها ، وفي كل مكان ، وبحسب مقتضيات الحال كانوا في حركة مستمرة لا تنقطع . وكانت الجياد الجامعة المغطاة بالزبد تقرب على اللجام الذهبي وكان صانعو السلاح يهرولون هنا وهناك بهمة لا تعرف الكلل ويعملون بالمخرطة والمطرقة . وكان تابو الفرسان وعامة الناس يمشون كلهم حاملين العصى القصيرة في جماعات غفيرة ، وكان يسمع صوت الناي من أعلاه إلى أسفله ، هنا ثلاثة وهناك عشرة يتراهنون ويتساءلون عن نتيجة المباراة حتى يعرفوا من من الفارسيين الطيبين سوف يكتب له النصر . فالبعض قال ان الأمر لابد من أن ينتهي إلى الحل الفلاني ، والبعض راهن على الفارسي ذي اللحية السوداء ، والبعض راهن على الفارسي الأصلع والبعض على ذي الرأس الضخم والبعض قال ان هذا يبدو عليه الشراسة ، الأمر الذي يؤدي إلى اجادته القتال . وهناك من قال ان ذلك كان يحمل بلطة حرب وزنها عشرون رطلا . وهكذا كان القصر يزخر بالتخمين وطال حديثهم طويلا بعد شروق الشمس .

أما ثيسبيوس العظيم ، فان صوت الموسيقى والعزف والضوضاء أيقظته من النوم ولكنه لازم حجرته في قصره الشامخ وظل بها حتى أحضر إليه الفارسيان الطيبان تحيط بهما على قدم المساواة مظاهر التكريم والتبجيل . وكان ثيسبيوس الدوق جالسا بجوار نافذة ، وكأنه اله متربع على عرشه من حيث روعة منظره وبهاء ملبسه . فاندفع الناس إلى الأمام ليروه وليقدموا له فروض الطاعة والتمجيد وليستمعوا إلى ما سينطق به من قرار في التحكيم . وصعد رسول الدوق فوق منصة عالية وصاح يقول . أوه !! فسكت الجميع وانقطعت الضوضاء ، ولما تأكد من سكوت الناس واخلاصهم للسكون أخذ يكشف عن ارادة الدوق العظيم قائلا :

« ان السيد العظيم بوحي حكمته وحصافته رأى أنه سوف يقضى على سلالة عتيقة ورفيعة ان سمح أن تقوم المباراة حتى الموت على هذا النحو وفي هذا المكان .

ومن ثم فانه من أجل حمايتهما من الموت قرر أن يعدل عن ارادته السابقة فليكشف كل انسان عن ادخال قذيفة أو بلطة حرب أو خنجر إلى ميدان المباراة ، وعليه ألا يأتي بسيف قصير لكي يطعن غريمة بنصله الحاد ، وعلى كل امرئ أن يكف عن حمل أى سلاح أو شبره وان لم يفعل فسيعدم في الحال . ولن يسمح لأحد بمهاجمة غريمة على جواد بحربة مدببة الا مرة واحدة في الميدان . وليطعن ، اذا أراد ، مرة واحدة وهو واقف على قدميه ليدافع عن نفسه ، ومن غلب على أمره سيقبض عليه لا ليقتل ، وانما ليؤتى به إلى أحد الوتدين الموضوعين على كل جانب من الميدان واذا حدث أن قبض أحد الرئيسين على غريمة أو قتله

فان المبارزة تكون انتهت فى الحال • الله معكم • اذهبوا وبادروا بالقتال وخذوا
حظكم منه بالسيف الطويل والصولجان • هذه هى ارادة سيدنا فاذهبوا اذن •

فتعالت صيحات الناس حتى بلغت عنان السماء وارتفعت الأصوات تضج
بالفرح والمرح وقالوا « حفظ الله مثل هذا السيد لما أظهره من طيبة .. انه
لا يريد أن تسفك الدماء وتضيع هدرًا ! » فارتفعت العقائر بعد ذلك بالأناشيد
وتعالى صوت التفير . وبناء على أمر الدوق وكبت جماعة الفرسان الى ميدان المبارزة
وساروا مختربين المدينة الكبيرة التى علفت من نوافذ بيوتها أقمشة القصب
لا أقمشة الصوف العادى • ثم ركب الدوق كما يركب السادة العظماء والى جانبه
هذان الطيبان وركبت بعده الملكة واميلى وبعدهما جماعة أخرى من الناس من
مختلف الدرجات ، وهكذا مروا من خلال المدينة ووصلوا الى ميدان المبارزة فى
الموعد المحدد وما ان بلغ النهار ذروته حتى تربع ثيسوس على عرشه العالى الفاخر
وحوله الملكة هيپوليتا واميلى وسيدات أخريات كل واحدة حسب درجتها، واندفع
الى المقاعد ودخل أركيتى الى جهة المغرب من خلال الرتاج ومعه مائة فارس من
رفاقه • وكان ذلك تحت الاله مارس ، ورفع أمامه العلم الأحمر •

وفى الوقت نفسه اتجه بالامون الى الشرق تحت رعاية فينوس ورفع أمامه
العلم الأبيض ، وكان وجهه كله ينم عن الشجاعة والاقدام • وأقول لكم انكم
مهما بحثتم فى أنحاء العالم بأسره فلن تجدوا مثيلا لهاتين الرفقتين العظيمتين لم
يكن هناك من أوتى الحكمة أو البصيرة ما يجعله يعرف مقدما من من الاثنين يمتاز
على الآخر بالنسبة للدرجة أو السن أو القيمة ، وذلك لأن الرفقتين كانتا فى منزلة
واحدة • ووقفت الفرقتان فى صفين متساويين وما ان تلى اسم كل واحد من
الواقفين ليتضح ألا خداع أو مغالطة فى تعدادهم حتى أغلقت الأبواب وارتفع
صوت عال يصيح :

« والآن هيا أيها الفرسان المعتزون بأنفسكم وأدوا واجبكم ! »

وانقطع رسل الدوق عن الركوب ذهابا وإيابا ، وارتفع صوت النفير
والأبواق ، ولا يبقى شئ يقال الا أن الحربات وضعت فى مقابضها غربا وشرقا
وضعا متينا وشك المهماز جوانب الخيل • وشوهد هناك رجال ممن يجيدون
المبارزة وركوب الخيل كما تهشم نصول السيوف على التروس السمكية ، هذا
محارب يتلقى طعنة فى بطنه ، وهذه شظايا الحربات تقفز عشرين قدما الى أعلى ،
وهذه السيوف تشهر كالفضة البراقة ، وهذه خوذات تتحطم وتصبح هشيمًا •
وهذا دم يتفجر من الأجساد فى سيول غزيرة حمراء وهذه صولجانات القتال
تفتت العظام ، وهذا مقاتل يندفع الى أعماق المعركة • وهناك خيل قوية تتعثر
وتقع بمن يمتطيها ، وهذا فارس يتدحرج تحت أقدام الجياد كأنه كرة ، وهذا
مقاتل يطعن وهو واقف على قدميه بعضا حربته المهشمة ، وذلك فارس آخر
يتساقط الى الأرض مع حصانه ، اذا أصيب بجرح فى بدنه ، ولذلك قبض عليه

وأوتى به الى التود رغم أنه ليقف بجواره كما تعهد من قبل . وهناك فتى آخر واقف بجوار التود الآخر . ويدعهما ثيسوس بعض الوقت ليستريحا وليشربا اذا أرادا . ترى كم من مرة فى ذلك اليوم التقى هذان الطيبان فى القتال وأصاب أحدهما الآخر بضرر وجروح ، وكم من مرة انتزع كل منهما الآخر من فوق جواده . . . وليس هناك نمر مفترس فى وادى جافيا ، (٣٨) اختطف شبله الصغير ، بلغ من القسوة فى مطاردة خصمه ، ما بلغه أركيتى حقا على بالامون وليس هناك أسد فى دولة البنى مرين (فى شمال أفريقيا) جن من الجوع أو تميز غضبا لمطاردته أو بلغ تعطشه لسفك دماء عدوه قدر تعطش بالامون لقتل عدوه أركيتى . . . فكانت ضربات الصفائح تغوص فى خوذتيهما حتى سال الدم من جانبيهما .

وبما أنه لابد من أن يكون هناك أوان لنهاية كل حدث من الأحداث قبيل غروب الشمس فقد استطاع الملك اميتريوس القوى أن يطعن بالامون هذا وهو يتبارز مع أركيتى وجعل سيفه يغوص فى لحمه الى الأعماق . ثم قبض عليه عشرون من الرجال وسحبوه بالقوة الى التود دون أن يكف عن الضرب . . . وعندئذ هم الملك ليكورجوس العظيم لينقذ بالامون ، وعلى الرغم مما يتمتع به الملك اميتريوس من قوة هائلة فقد انتزع من سرجه وأبعد على بعد مسافة تصل سيف ، ولكنه قبل أن يقبض عليه استطاع أن يضرب بالامون ومع ذلك جىء به الى التود . ولم يشفع له فى ذلك قلبه الجسور وكان لابد من أن يطيع طاعة أملتها عليه القوة والتعهد السابق معا .

ومن يحزن الآن غير بالامون بعد أن أيقن أنه لن يستطيع أن يعود الى القتال ؟ ولما شهد ثيسوس ما حدث صاح فى المقاتلين قائلا . . . « هو ! كفى لقد انتهى الأمر ! انى حكم أمين ولست طرفا فى النزاع . سيفوز أركيتى الطبيعى بأميلى لأنه انتصر بها نصرا عادلا حسب القضاء والحظ » وعند ذلك ارتفعت أصوات الناس فى سعادة وهناء ، وكانت أصوات البهجة ترن رنينا فخيلى للناس كأن أسوار ميدان المبارزة ستنهار .

ترى ماذا عسى أن تفعل فينوس فى السموات الآن ؟ وماذا فى وسعها أن تقول ؟ ماذا فى وسع ملكة الحب هذه أن تفعل سوى أن تبكى بكاء مريرا لأن أحدا لم ينفذ ارادتها وفاضت دموعها حتى ملأت ميدان المبارزة تماما ؟ وقالت : « لقد لحقنى العار ولا شك » ، فقال ساتورنوس : « كفى عن الكلام يا ابنتى . . ان مارس قد بلغ مراده وأدرك فارسه ما ارتجاه من دعائه وأقول لك ورأسى أنك ستنعين بالراحة قريبا » .

وارتفعت أصوات النفير بالموسيقى الرنانة وحناجر رسل الدوق وهم يصيحون معلنين ارادة الدوق كانوا فى أسعد حال ، وشاركوا السيد أركيتى فرحه . ولكن انصتوا الى قليلا وانتظروا برهة حتى تعرفوا ما حدث بعد ذلك من معجزة ففى غضون ذلك كان أركيتى هذا الرجل الصارم قد فك رباط خوذته وامتنطى جوادا جسورا ، . . وكشف عن وجهه ، وأخذ يسير ذهابا وإيابا فى

ساحة الميدان ناظرا الى أعلى ليرى اميلي فأرسلت له نظرة عطوفة (لأن المعروف ان النساء كلهن يتبعن ما يقدره الحظ) وكانت عواطفها كلها متجهة اليه ، وفجأة ظهر عفريت مخيف انشقت عنه الأرض . وكان بلوتو قد أرسله بناء على طلب ساتورتوس ، فخاف جواد أركيتي والتفت وقفز جانبا . ولما قفز تعثر ووقع . وقبل أن يستطيع أركيتي أن يحافظ على توازنه وقع على أم رأسه وبقي مطروحا على الأرض كأنه جثة هامدة ، وقد مزق صدره قربوس السرج الأمامي . وبقي هالقي على الأرض أسود اللون كأنه غراب أو قطعة من الفحم وكان الدم يسيل من وجهه . وحمله الناس بعد ذلك الى قصر ثيسوس خارج الميدان وفي قلوبهم غصة وقطعت عنه مشايك دروعه وطرح برفق وحنان على سرير ، اذ كان لا يزال يعي ما حوله وكان ينادى دائما على اميلي .

وعاد ثيسوس الدوق على رأس كل حاشيته الى أثينا مدينته في موكب مهيب عظيم ممثلا بالفرح ، اذ أنه بالرغم من سوء الحظ الذي وقع لم يكن يريد أن يبيت الحزن في نفوس الناس أجمعين . وقال البعض ان أركيتي لن يموت بل سيشفى من جروحه ويبل من مرضه ، وكان هناك سبب آخر لسعادتهم هو أن أحدا لم يقتل في هذه المناسبة وان كان البعض قد خرج مصابا بجروح بالغة ، وبخاصة ذلك الذي تلقى طعنة نفذت من خلال درعه الى عظام صدره . وفي سبيل شفاء جروحهم وأذرعهم المهشمة لجأ البعض الى المراهم والبعض الآخر الى التمايم وعقاقير من الأعشاب ، كما شربوا خلاصة عشب المريمية حتى تندمل جروح أعضائهم . ومن أجل ذلك أخذ هذا الدوق الكريم يقدم السلوى والتكريم لكل امرئ ، وأقام ولأم الفرح طوال الليل تكريما للفرسان الغرباء ، كما تقضى بذلك قوانين اللياقة . والحقيقة أنه لم يحدث نصر ولا هزيمة الا في حدود المبارزة وألعاب تبادل الطعن « فالحق أن البطل لم يهزم انما وقع بمحض الصدفة كما أن غريمه لم يذهب الى الودت رغم أنفه محاطا بعشرين فارسا ، وانما كان وحده ولا أحد معه وكان كثير من أعدائه حوله قد اقتيدوا بجر أذرعهم وأقدامهم وأصابع أقدامهم في حين دفع جواده الى الأمام بالعصى على يد الجنود ، سواء كانوا من حاشية الدوق أو من خدمه . ومن ثم كان ما حدث له لا يعد عارا اذ أن أحدا لا يمكن أن يعتبر ما حدث جينا منه .

ولذلك أمر ثيسوس رسله بأن يعلنوا أمره بوضع نهاية لكل أعمال الحقد والحسد ، لأن الطرفين يستحقان الامتياز على قدم المساواة ، باعتبار أن كل جانب صنو للجانب الآخر في النبالة والشجاعة . وأعطاهم جميعا الهدايا ، كل واحد منهم حسب درجته ، وأقام الأفراح والأعياد لمدة ثلاثة أيام كما اصطحب الملوك بعد ذلك بنفسه الى خارج مدينته على مسافة يوم من السفر . ومن ذلك عاد كل امرئ الى بيته سالكا أحسن الطرق ولم يبق شيء يقال الا « الوداع وطاب يومكم » لذلك أكف الآن عن الكلام في المبارزة الكبرى وانتقل الى بالامون وأركيتي .

لقد ظل صدر أركيتى يتورم حزنا واستمر الألم فى قلبه يتزايد ، والدم المتجلط يتعفن فى جسمه ويحتبس على الرغم من كل علم الأطباء حتى لم تعد تقيد فيه الفصاد أو الحجاماة أو شراب عصارة الأعشاب ، لأن القدرة الطاردة أو الحيوانية فى جسمه - تلك القدرة التى توصف بأنها طبيعية - لم تستطع طرد السم السارى فى جسمه . وأخذت عروق رثتيه تتورم وكل عضلة من عضلات صدره المجروح تصاب بالسم والعفونة ، ولم يعد يستطيع أن يحافظ على نسمة الحياة بأن يخرج القىء من أعلى ولا أن يتبرز السم بمساعدة حادور أو مسهل .

وفى تلك المنطقة من جسمه تلف كل شىء ولم يعد للطبيعة فيها أى سلطان ولا شك فى أنه حيث لا تعمل الطبيعة فوداعا للطب ! فهيا اذهبوا واحملوا للمسكين الى الكنيسة . . . وخلاصة الأمر أن أركيتى كتب عليه أن يموت فبعث برسول يدعو اميلى وبلامون ابن خائنته العزيز . ثم قال ما يأتى كما ستسمعون :

« لن تستطيع الروح التعيسة تهيم على قلبى أن تكشف لك عن كل آلامى يا سيدتى : يا من أحبها أكثر من جميع النساء . وانى أوصيك بالصلاة على روحى الراحلة وهذه وصيتى لك وحدك دون أى مخلوق آخر - مادامت حياتى لا يمكن أن تستمر بعد اليوم . ويلي . . . ويحى ! ويلي ! ما أشد الآلام التى تحملتها فى سبيلك وما أطولها . . . آه . . . من الموت . . . آه . . . يا اميلى يا حبيبتى . . . آه من الفراق . . . وآه يا مالكة قلبى ! يا زوجتى ! آه من مالكة قلبى والقاضية على حياتى ! ما هذه الدنيا ماذا يطلب الناس ؟ ان المرء يكون آنا فى صحبة حبيبه وأنا آخر وحيدا لا رفيق له فى لحده الوداع يا أعذب أعدائى يامن أنت لى يا اميلى أتوسل اليك أن تأخذينى بين ذراعيك برفق بحق محبة الله وأن تنصتى لما أقوله لك :

« لقد نشب بينى وبين ابن خالتى بالامون القتال واشتد بيننا الحقد منذ أيام طويلة بسبب حبى لك وغيرتى منه ، ألا فليحافظ جوبيتر الحكيم على روحى وليرشدها وانى لا أعرف مثل بالامون عبدا له (وفيما يتعلق بالأخلاق اللائقة لفن خدمة الحب الرفيع أى الاخلاص والشرف والفروسية والحكمة والوداعة وسمو المنزلة والسلالة الرفيعة) نعم وحق حماية جوبيتر لروحي ، لا أعرف أحدا فى هذه الدنيا جديرا بالحب جدارة بالامون عبدك الذى يخدمك وسوف يضع نفسه فى خدمتك طوال حياته . وإذا قدر لك أن تصبحى زوجة فلا تنسى بالامون ذلك الانسان الكريم » -

ولما قال ذلك بدأت قدرته على الكلام تتلاشى لأن برودة الموت بدأت تسرى من أطراف قدميه حتى وصلت الى صدره وتغلبت عليه تماما ، زد على ذلك أن القوة الحيوية قد غادرت ذراعيه وانصرفت عنه ، وبعد قليل لم يبق الا العقل المدرك الذى كان يسكن فى قلبه المتألم المريض ، وأخذ بدوره يتلاشى عندما شعر القلب ببرودة الموت تسرى فيه ثم كلت عيناه عن النظر وخفت تنفسه ، ومع ذلك

فان آخر نظرة له كانت هى التى ألقاها على مالكة قلبه وآخر كلمة فاه بها كانت « الرحمة يا اميلي ! » . ثم انتقلت روحه من بيتها الى حيث لم اذهب أبدا .

ومن ثم لا أستطيع أن أقول الى أين ذهبت ، لذلك انقطع عن الكلام فى ذلك اذ أننى لست عرافا أتنبأ بالمستقبل ، ولا أجد فى سجلاتى ما يلزمنى بأن أتحدث عن مصير الأرواح ، ولا أريد أن أقص لكم آراء أولئك الذين يؤلفون الكتب فى وصف مخادعها . وهكذا أصبح أركيتى جثة هامدة باردة لشخص شمل مارس روحه برعايته ، والآن انتقل الى الكلام عن اميلي .

لقد ارتفع صوت اميلي بالنحيب وصرخ بالامون وحمل ثيسيوس أخته بعد أن أغمى عليها وانتزعها من جوار الجثة . وما الفائدة فى قضاء اليوم كله فى وصف بكائها ليلا ونهارا ! ففى مثل هذه الحالات يشتد الحزن بالنساء عندما يرحل عنهن أزواجهن مثلا ، ويصل الى الحد الذى لا ينقطعن فيه عن النحيب والا مرضن مرضا شديدا يودى بهن حتما فيلقين حتفن فى آخر الأمر .

ولا حد لأحزان ودموع الشيوخ مثلهم فى ذلك مثل الفتيان فى جميع أنحاء المدينة على موت هذا البطل الطيبى . لقد بكى من أجله الطفل والكهل معا . ولم يبلغ النحيب على هيكتور لما حمل الى طروادة أثر قتله درجة ما بلغه فى هذه الحالة . آه من الأسى وخمش الحدود وتمزيق الشعر ! وصاحت النساء « أكان لابد من أن تموت ومعك ما يكفيك من الذهب واميلي » . ولم يستطع أحد أن يبيث السعادة فى قلب ثيسيوس سوى أبيه العجوز احيوس الخبير بتقلبات هذه الدنيا اذ أنه كثيرا ما شهد لها تهبط من عال الى أسفل وتتعاقب فيها البهجة بعد الحزن والحزن بعد البهجة ، وقد ذكر له بعض الأمثلة على هذه الحال قائلا :

« كما لم يمت أحد قط الا بعد أن تبوأ فى هذه الدنيا منزلة ما ونال درجة ما ، فكذلك لم يعيش أحد قط الا وكتب عليه فى آخر الأمر أن يموت . ان هذه الدنيا ليست الا طريقا للشقاء ، ونحن لسنا الا حجاجا نمر فيه ذهابا وإيابا والموت يضع حدا لكل آلام الدنيا » وزيادة على ذلك قال أشياء كثيرة أخرى لكى يقدم السلوان للناس فى حكمة وحصافة .

واهتم بعد ذلك الدوق ثيسيوس بالبحث عن مكان لائق يدفن فيه جثمان أركيتى الكريم ، يتفق مع سمو منزلته . وفى نهاية الأمر استقر رأيه على نفس المكان الذى اختاره بالامون وأركيتى ميدانا لمبارزتهما الأولى أى فى الغابة الخضراء الرطبة ، حيث عبر عن شوقه وبث شكواه ولوعة حبه الملتهب ، وقرر أن يقيم فى هذا المكان محرقة حيث يمكن القيام بكل شعائر الجنازة . ثم أمر بقطع فروع أشجار البلوط العتيقة ووضعها فى صفوف معدة للاحتراق . فهورل ضباطه وتابعوه لتنفيذ أوامره وامتطوا جيادهم وعادوا سريعا نزولا على مشيئته . وبعد ذلك أمر ثيسيوس باحضار تابوت وألقى فوقه سترة من القصب ، كانت من أثمن

ما لديه ثم أمر بالباس أركيتى القماش نفسه ووضع القفازات البيضاء على يديه
كما توج رأسه بالكليل من الغار الأخضر ووضع فى يده سيفاً حاداً لامعاً . ثم
وضعه فى التابوت حاسر الوجه ، وعندئذ انفجر باكياً بكاء يمزق قلوب الحاضرين .
ولكى يستطيع الناس جميعاً أن يروا أركيتى حمل جثته الى القصر لما انبجح
النهار . وارتفع من كل ناحية زئير النحيب والبكاء .

ثم حضر بالامون ، ذلك البطل الطيبى الحزين وكانت لحيته غير مرجلة
وعلى شعره آثار الرماد وردائه أسود بللته الدموع . أما اميلى فكانت تفوق كل
الحاضرين فى البكاء بل كانت أشد الموجودين تعاسة ، ومحافظة على علو منزلة
الراحل الكريم جعل ثيسسيوس الشعائر الجنائزية تتناسب مع علو درجته ، فأمر
باحضار ثلاثة جياد كريمة مسرجة بسروج من الصلب اللامع البهى وعليها
شعارات الفارس أركيتى . وكان يمتطى هذه الجياد العالية البيضاء رجال ،
أحدهم يحمل ترس البطل ، وآخر يمسك حربته بين يديه ، وثالث يحمل قوسه
التركي الثمين ، وكانت كنانة السهام من الذهب الحر وكذلك اللجام . وركبوا
الى الغابة . وساروا فى ببطء وجوعهم تعبر عن الحزن والأسى ، وحدث ذلك على
النحو الذى ستسمعون . كان أعلى الاغريق منزلة يحملون التابوت على أكتافهم
وأخذوا يمشون مشياً وئيداً وعيونهم كلها مبتلة حمراء مخترقين الطريق الرئيسى
فى المدينة ، وكانت تتدلى على جانبي الطريق ستائر سوداء . وكانت هذه الستائر
قد علقت فى كل أنحاء المدينة . وعلى يمين التابوت كان احيوس العجوز يسير
وعلى الجانب الآخر الدوق ثيسسيوس وكانا يحملان فى أيديهما أوعية من الذهب
الخالص ممثلة بالعسل واللبن والدماء والنبيد ، وأقبل كذلك بالامون مع رفاقه
العظام ، ثم تبعته اميلى الحزينة وهى تحمل شعلة بين يديها اذ كانت التقاليد
فى ذلك الوقت تقضى بأن تقام الشعائر الجنائزية على هذا النحو .

وقد بذلت جهود كبرى فى اعداد الشعائر الجنائزية ، واقامة المحرقة التى
وصلت قيمتها المغطاة بالغصون الخضراء الى عنان السماء ، كما كان عرضها عشرين
قامة ، وان دل هذا على شئ فانما يدل على امتداد الغصون فى المحرقة . وفى بادئ
الأمر وضع أكثر من حمولة من القش ولكنى لا أستطيع أن أقول لكم كيف
أقيمت بقية المحرقة حتى وصلت الى مثل هذا العلو ، كما أننى لن أذكر (٣٩)
لكم أسماء الأشجار المختلفة التى استعملت فى المحرقة من البلوط والصنوبر
والبتولا والحدود الزجاج والحورة الرومية والسنديان والدلب والصفصاف
والدردار والبصنار والبوداق والبقس وأبى فروة والزيفون والفار والاسفندان
والشوك والزنان والبندق والسرور والقرانيا كما أننى لن أذكر كيف تم قطعها
واعداها . ولن أقص عليكم كيف أخذ الآلهة يهيمنون على وجوههم لطردهم من
مأواهم الطبيعى حيث كانوا يعيشون فى راحة وسلام وكيف أخذت تهيم جنبات
الجدائل والحراج والحدريات . ولن أقص لكم كيف فر الحيوان والطيور خوفاً

بعد قطع الأشجار ولا كيف فزعت التربة من رؤية الضوء اذ أنها لم تألف رؤية الشمس المشرقة من قبل ، ولا كيف رتبت أكوام القش على المحرقة ثم شقت جذوع الأشجار الجافة ثلاثة أجزاء ، ثم وضع الخشب النضير وخلط بالتوابل والعطور ثم القماش المقصب والجواهر والأحجار الكريمة والأكاليل المرصعة بزهور كثيرة ثم المر والبخور ذو الرائحة القوية . ولن أقص عليكم كيف ألقى أركيتي على كل ذلك ، ولن أتحدث عن شراء ما كان يحيط بجثته ، وكيف أشعلت اميلي المحرقة حسب الطقوس المألوفة ، وكيف أغمى عليها لما أضرم الناس النلب . ولن أحدثكم عما فاهت به ، وما كانت تتطلع اليه في ذلك الوقت ، وما ألقاه الناس من جواهر في النار عندما اشتد لهبها وبلغت أوج اشتعالها . ولن أقص عليكم شيئا عن أولئك الذين ألقوا تروسهم وأولئك الذين قذفوا بحرباتهم أو أرديتهم كيفما اتفق وبأفداح من النبيذ واللبن والدم في النار المشتعلة كالمجنونة . ولن أقص عليكم كيف ركب الاغريق وطافوا بالمكان ثلاث مرات متجهين نحو اليسار رافعين عقائرهم بصيحة كبرى . ثم طافوا ثلاث مرات بخشخشة حرباتهم . ولن أروى لكم كيف ارتفع نحيب النساء ثلاث مرات ، وكيف حملت اميلي الى البيت ، وكيف احترق أركيتي حتى صار رمادا باردا ، وكيف تمت السهرة في تلك الليلة ، وكيف قام الفرسان الاغريق بالعابهم الجنائزية . ولن أقص عليكم العرض الذي قام به المصارعون وهم عراة ، وأجسامهم ممسوحة بالزيوت ، ومن الذي انتصر في هذه الألعاب بلا صعوبة . كما أنني لن أقول لكم كيف عادوا كلهم الى أثينا بعد انتهاء مهرجان الألعاب الجنائزية . وانما سأنتقل بسرعة الى لب الموضوع وأصل بقصتي الطويلة الى نهايتها .

فيمرور الزمن وبعد مضي بضع سنين كف الاغريق بالاجماع عن النحيب والدموع ، ويبدو لي أنه أقيم بعد ذلك مجلس شورى في أثينا لمناقشة بعض الموضوعات والقضايا ، ومن بين الموضوعات التي نوقشت ضرورة ابرام الحلف مع بعض البلاد وضممان خضوع الطيبين لأثينا خضوعا تاما . وفي سبيل ذلك استدعى ثيسسيوس الكريم بالامون عريق النسب دون أن يعرف هذا الأخير لماذا استدعاه . فمثل بين يدي ثيسسيوس مرتديا ملابس السوداء التي تدل على أنه حزين حقا . وأمر ثيسسيوس باستدعاء اميلي . وعندما نفذت أوامره وأخلد الناس الى السكون في ذلك المكان سكنت ثيسسيوس قليلا قبل أن يبدأ الكلام وقبل أن تصدر كلمة واحدة من أعماق صدره الحكيم وجه أنظاره في الاتجاه الذي اعتاد أن يتطلع اليه وبوجه ينطق بالحزن والأسى تنهد ثم عبر عما كان يجيش في صدره على النحو الآتي (٤٠) :

« ان المحرك الأول للأسباب السماوية عندما بدأ يصنع سلسلة الحب الجميلة أنجز شيئا عظيما يتناسب مع نيته السامية ، كان يعرف حق المعرفة ما كان يقصده من ذلك اذ ربط بهذه السلسلة النار والهواء والماء والأرض في

قيود معينة حتى لا تفر بعيدا ، واستطرد قائلا : وهذا الأمير الأمر .. هذا .. المحرك ذاته قد عين في هذه الدنيا التعيسة بعض الأيام وقدر الآجال المحددة لكل ما يولد في هذا المكان . ولا يستطيع أحد أن يتجاوز هذا الأجل ولكنه يستطيع أن يختصر من أيامه المحددة بمحض ارادته ، وهذا أمر لا يحتاج أن نرجع فيه الى ثقة نستند اليه ، وانما تدل عليه التجارب والخبرات ، ولا أريد الآن الا أن أعبر لكم عن رأيي في ذلك الأمر .

ومن ثم يستطيع الانسان أن يلاحظ أن هذا النظام فيه المحرك الأول أبدى صمد ثابت . والناس يعرفون كل ذلك حق المعرفة ، ولكن من يظن أن كل جزئية في الكون مستمدة مباشرة من هذا الكل ليس الا أحمق .. لأن الطبيعة لم تبدأ من جزء معين أو مقطعة من شيء وانما نشأت من شيء كامل ثابت ثم نزلت وهبطت حتى أصبحت فاسخة قابلة للفساد .

ولذلك أمر بما أوتي من حكمة وبصيرة أن تكون أحوال الدنيا بحيث لا تدوم الأشياء بأجناسها وتطوراتها الا بالتتابع والتوالى ، وألا تظل على حالها الى الأبد وهذه هي الحقيقة التي يمكنكم ادراكها وتمييزها بوضوح .

ها هو ذا البلوط الذي لا ينمو الا بعد وقت طويل منذ بدأ في الظهور على وجه الأرض والذي يعيش عمرا مديدا كما يبدو ذلك جليا لنا جميعا ، بيد أنه في نهاية الأمر يذبل ويضمحل ، وتأمّلوا أيضا ذلك الحجر الصلب تحت أقدامنا ذلك الحجر الذي نمشي فوقه ونطأه ينتهي بأن يمحي وهو ملقى على قارعة الطريق . وها هو ذا النهر الواسع يجف أحيانا وها هي ذى المدن العظمى تندثر وتفتنى .

وعلى ذلك يمكنكم أن تعرفوا أن لكل شيء نهاية . ويمكننا أن نرى جليا أن الرجل والمرأة لابد من أن يموتا في وقت ما أى فى شرح الشباب أو فى الشيخوخة ولابد من أن يموت الملك مثلما يموت تابعه ، يموت فى الفراش والبعض فى أعماق البحار والبعض الآخر فى الحقل الواسع كما يبدو ذلك جليا لكل الناس ، ولا مفر لنا من ذلك فالكل يسلكون نفس الطريق . ولذلك أستطيع أن أقول ان كل هذا الذى نشهده هالك لا محالة ولا صانع لذلك الا جوبيتر الملك المالك لكل شيء والمسبب له أليس هو الذى يحول كل شيء ، ويرشده الى منبعه الحق الذى نشأ منه أولا فى واقع الأمر ؟ ولا يستطيع أى مخلوق حى مهما كانت منزلته أن يتجنب هذا المصير .

اذن يبدو لى أن من الحكمة أن نحول مقتضيات الحال الى فائدة وفضيلة وأن نتقبل بصدر رحب ما لا يمكن أن نفلت منه ، وهو ذلك المصير المكتوب لنا جميعا ومن يشكو أو يشن من شيء فهو أحمق ومتمرد على سلطة قادرة على تدبير كل الأمور وتوجيهها الى حيث تريد . ولا شك أن قمة الشرف للمرء أن يموت فى عنفوان شبابه وقد بلغ ذروة الامتياز وهو مطمئن لحسن سمعته . عندئذ

إذا مات فإنه لا يكون قد أساء الى صديق أو ألحق بنفسه عارا ما - وخير لصديقه أن يزداد فرحا عند هلاكه إذا كان قد جاد بأنفاسه الأخيرة بطريقة مشرفة ، فهذا خير مما لو كدرت سمعته الشيخوخة ونسيت مآثره تماما . وعندئذ يكون خيرا للمرء فى سبيل مجد كريم أن يموت وصيته على أحسن ما يرام ، أما نقض ذلك فإنه يصبح من باب العناد والمشاكسة . فما الداعى الى أنيننا وشكوانا ؟ لماذا نحزن إذا كان أركيتى زهرة الفروسية ، قد رحل عنا محاطا بكل مظاهر التكريم مبرا من كل عيب لاختلاصه للواجب ، وغادر سجن الحياة الدنس هذا ، ولماذا يثن ابن خالته وزوجته ويضجبان بالبكاء على خيره وقد أحياه مثل هذا الحب الوفى ؟ أيستطيع أن يشكرهما على ذلك ؟ كلا والله أعلم ، فهو لا يستطيع أن ينيس بحرف واحد أو نقطة واحدة ! انهما يسيثان الى روحه والى نفسيهما معا ، ومع ذلك لا يستطيعان أن يعدلا ميولهما .

وفضلا عما يمكن أن أصل اليه فى عرض هذا الموضوع الطويل فأننى أريد أن أنصحكم بأن تتحولوا الى المسرح وأن تحمدوا جوبيتر على كل أفضاله ؟ وقبل أن تغادر هذا المكان أنصح بأن نحول هذين الحزين الى سعادة واحدة كاملة تدوم الى الأبد ، واذن انظروا الآن : حيث تكمن التعاسة القصوى تبدأ باصلاح الحال وتحسينه ؟ .

ثم استمر قائلا : « يا أختى هذا هو قرارى بعد مشاورة مجلسى المنعقد هنا . . ها هو ذا بالامون الكريم فارسك المخلص الذى يخدمك طائعا مختارا بقلبه ، وكان هذا ما يعمل منذ أن عرفك . نعم ها هو ذا بالامون وأرجو أن تسبغى عليه عطفك وأن تقبلية زوجا لك وسيدا لك : اذن هاتى يدك فهذا هو ما نريده ودعينا نرى منك عطف النساء . واعرفى أنه والله ابن أخ ملك . وإذا كان حتى الآن مجرد مريد لدرجة الفارس فإنه قد خدمك سنين طويلة ، ولقى فى سبيلك ما لاقاه من عوائق وشقاء ، الأمر الذى يحملك على أن تأخذى كل ذلك فى اعتبارك ، وأرجو أن تستجيبى الى طلبى ، لأن الرحمة الكريمة يجب أن تقدم على العدالة والحقوق .

ثم اتجه نحو بالامون قائلا له : « أنا واثق أنك لست فى حاجة الى من يعظك لتقبل عرضى هذا . فاقترب وضع يدك فى يد مالكة قلبك » .

وبعد ذلك أبرم بينهما العقد . ذلك العقد الذى يسمى زواجا أو زيجة أمام المجلس والاشراف أجمعين . وهكذا فى سعادة تامة وعلى أنغام الموسيقى تزوج بالامون من امبلى . وليمينحه الله خالق هذا العالم كله حبيبته التى فاز بها بشن غال . لقد أدرك بالامون الآن قمة الخير ، وهو يعيش فى هناء وينعم بالفنى والصحة ويحب امبلى حبا حنونا ويقدم لها خدمة كريمة ولم تصدر منهما أية كلمة تدل على الغيرة ولم يحد بينهما ما يملأ القلب كآبة .

وهكذا انتهت قصة « بالامون وامبلى » وسلام الله على كل هذه الرفقة الكريمة !! آمين .

(هنا تنتهى حكاية الفارس)

إبداعات عالمية

قصص

مختارة من الأمريكيتين

المشروع القومي للترجمة

جابريل جارشيا ماركيث

ايرينديرا

ترجمة وتقديم
على إبراهيم على منوفى

مراجعة
صلاح فضل



٢٠٠٠

الحكاية العجيبة والحزينة لطيبة القلب

"إيرينديرا" وجدتها القاسية

(١٩٧٤)

كانت إيرينديرا تقوم بمساعدة الجدة على الاستحمام عندما هبت رياح تعاستها. تعرض المنزل الضخم - المبنى وسط سكون الصحراء والذي يبدو كأنه شامة - لهزة عظيمة زلزلت كيانه مع أول الهجمات. لكن إيرينديرا وجدتها كانتا مهيأتين لمجابهة أخطار الطبيعة ولم تلحظا مدى شدة الرياح وهما فى البانيو المزين بصفوف الطاووس والموزايك المكون من رسوم صينائية مثلما هو الحال فى الحمامات الرومانية.

كانت الجدة تبدو فى عرقها وضخامة جثتها كأنها سبع بحر جميل ذو لون أبيض يسبح فى حمام من الرخام. أما الحفيدة فلم تكذب تبلغ الرابعة عشرة من عمرها، كانت نحيفة وطرية العظام وبها طيبة تتجاوز حدود سنها. تقوم بصب الماء على الجدة بخفة ورقة يصحبهما دقة تصل إلى القدسية. كانت قد غلت الماء وأضافت إليه بعض النباتات بغرض التنقية وبعض الأوراق الأخرى حتى تكون ذات رائحة طيبة، وقد تعلق تلك الأوراق بتجاعيد الظهر وبالشعر القوي المنسدل وعلى الكتف القوي الذي يحمل وشمًا قويًا وضع بلا رحمة وهو عبارة عن مسوخ من البحارة.

- لقد حلمت فى المساء أننى أنتظر رسالة - قالت الجدة .
أما إيرينديرا التى لم تكن تنطق بكلمة إلا عند الضرورة فقد
سألت :
- أى يوم فى هذا الحلم ؟
- كان الخميس .

إذن كانت رسالة تحمل أنباء سيئة - قالت - لكنها لم
تصل أبداً :

عندما انتهت من إعطاء الحمام لجدها أخذتها إلى حجرة
نومها . الجدة ضخمة لدرجة لا يمكن معها أن تسير إلا مستندة
على كتف الحفيدة أو متكئة على عصا تشبه عصا الأسقف . ورغم
هذه الصعوبات يبدو عليها أنها صاحبة سلطان قديم . وعلى
السريـر الذى يضم الكثير من التفاصيل فى مكوناته بدرجة تزيد
عن الحد لتصبح كأنها هذياناً ، كانت الحفيدة بحاجة إلى ساعتين
آخرين حتى تجعل الجدة تبدو مهذياناً فقامت بفك شعرها خصلة
خصلة ثم قامت بتعطيرها وتصفيف شعرها وألبستها فستاناً مشجراً
بألوان استوائية ووضعت بودرة التلك على وجهها ووضعت لها
أحمر شفاه ثم وضعت لها أحمر الخدود ، وخططت لها حواجبها
بالمسك وطلت لها أظافرها بلون الصدف اللامع . وعندما أصبحت
أمامها كأنها عروس - لعبة - أكبر حجماً من الإنسان . ذهبت بها
إلى حديقة صناعية من الزهور الخائقة مثل المرسومة على فستانها

وأجلستها على كرسى بمسند كان كأنه العرش بشكل الظهر والأجناب ثم تركتها لتستمع إلى اسطوانات وضعتها على الجرامافون .

وفى الوقت الذى أخذت فيه الجدة تطوف فى مستنقعات الماضى كانت إيرينديرا تقوم بكنس المنزل الذى كان معتمًا وممتلئًا بقطع الأثاث الفخمة وتماثيل قياصرة من وحى الخيال وثريرات تتدلى منها الأذرع وملائكة مصنوعة من الألباستر وبيانو مذهب والعديد من الساعات ذات الأشكال والأنماط المختلفة . وفى فناء البيت هناك مستودع لتخزين المياه التى تصل عبر مزاريب من عيون المياه البعيدة . وعلى أحد جوانب الخزان هناك نعامة واهنة ، وهى الحيوان الوحيد من الحيوانات ذات الريش الذى أمكنه مقاومة هذه الطبيعة العاتية . كانت النعامة بعيدة عن كل شىء ، أى فى قلب الصحراء فى عزبة ذات شوارع حزينة وساخنة حيث تموت ذكور الماعز رعبًا عندما تهب رياح

كان هذا الملجأ غير المفهوم مكانه قد بناه زوج الجدة وهو رجل كان يعمل دائماً فى التهريب ، ونال شهرة أسطورية . اسمه أماديس ، وكان له ابن منها سمى بنفس الاسم أيضاً وهو والد إيرينديرا . لم يعرف أحد أصل هذه الأسرة أو فصلها . والرواية الأكثر شهرة التى تذكر بلغة الهنود تقول بأن أماديس ، الوالد ، كان قد افتدى زوجته الجميلة من بيت دعارة فى أنيتاس بأن قتل رجلاً

بطعنات سكين ونقلها لتكون فى حماية الصحراء . وعندما مات كل أفراد عائلة أماديس، أحدهم بسبب حمى الكدر والآخر قتلاً أثناء تصفية حسابات بين المتنافسين، قامت المرأة بدفن الجثتين فى الفناء وقامت بإقالة الأربع عشرة خادمة وأخذت تجتر ذكريات عظمتها فى ظلال هذا المنزل بفضل تضحيات الحفيدة المولودة سفاحاً والتي قامت الجدة بتربيتها منذ مولدها .

كانت إيرينديرا فى حاجة لست ساعات لتقوم بملء الساعات وضبطها . وفى اليوم الذى بدأت فيه تعاستها لم تقم بهذا العمل ، ذلك أن الساعات كانت مملوءة لتعمل حتى صباح اليوم التالى، ومع ذلك قامت بمساعدة الجدة لأخذ الحمام وارتداء ملابسها وتنظيف الأرضية بالمياه وإعداد طعام الغذاء وتلميع الزجاج . وفى الحادية عشرة قامت بتغيير المياه للنعامة ورى الحشائش والنباتات الصحراوية الموضوعة على المقابر المجاورة الخاصة "بالأماديسين" كان عليها أن تقاوم شدة الرياح التى لم تعد محتملة . لكنها لم تتصور أبداً أن هذه ستكون رياح تعاستها . وفى الثانية عشرة كانت تلمع آخر كؤوس الشمبانيا . فى هذه اللحظة أحست برائحة شورية وفعلت المستحيل لتصل عدواً إلى المطبخ دون أن يتأتى عن ذلك أى كسر للأواني الزجاجية الواردة من فيينا .

استطاعت بالكاد أن ترفع الحلة التى أخذت تفور فوق الشعلة ثم قامت بوضع طيبخ آخر، على النار كانت قد أعدته

مسبقاً، وانتهزت الفرصة لترتاح بعض الشيء على كرسى فى المطبخ. أغمضت عينيها ثم فتحتها بعد ذلك لكن لم يد عليها التعب وأخذت تفرغ الشورية فى السلطانية وتؤدي هذا العمل وهى نائمة.

كانت الجدة تجلس بمفردها على حافة مائدة لتناول الطعام أثناء الاحتفالات عليها الشمعدانات الفضية وأطقم السفرة لاثني عشر فرداً. قرعت الجرس الصغير وفى الحال ظهرت إيرينديرا وهى تحمل السلطانية مملوءة بالشورية. وفى اللحظة التى كانت تغرف لها الشورية لاحظت الجدة أن الفتاة تبدو عليها ملامح النعاس، فمررت كفها أمام عينيها وكأنها تقوم بتنظيف الزجاج. لم تر الطفلة يد الجدة التى تابعتها بنظراتها، وعندما أدارت إيرينديرا ظهرها لتعود إلى المطبخ صاحت فيها الجدة.

- يا إيرنيدا

استيقظت فجأة فسقطت سلطانية الشورية من يديها على السجادة.

- لا شيء يهم يا ابنتى - قالت الجدة بحنان صادق - لقد عدت للنوم وأنت تمشين.

- إنها عادة الجد - قالت إيرينديرا وهى معتذرة.

ركعت لتستعيد السلطانية ولا زالت آثار النوم عليها وحاولت تنظيف السجادة من البقعة.

- اتركها هكذا - قالت الجدة وهى تنهزها - وعليك أن تغسلها هذا المساء .

الأمر هو أن إيرينديرا أضافت إلى أعباء المساء المعتادة عبء غسل سجادة حجرة السفرة. أضف إلى هذا أنها انتهزت عملية الغسيل هذه لتقوم بغسل الملابس التى ترتديها يوم الاثنين. بينما تضرب الرياح ضرباتها حول المنزل وتبحث عن منفذ للدخول. كانت أعباء الفتاة كثيرة لدرجة أن الظلام حل عليها دون أن تدري، وعندما انتهت من سجادة حجرة الطعام كانت ساعة النوم قد حانت.

كانت الجدة تحاول العزف على البيانو بالضرب على أصابعه طوال المساء، وتحاول أن تغنى وترنم بأغاني أيام الشباب وبقايا المسك لا زالت عالقة بأهدابها وبها آثار الدموع. لكنها عندما استلقت فى سريرها وهى ترتدى قميص نومها المصنوع من قماش "الموسلين" زالت عنها مرارة تذكر الأيام الخوالى.

- انتهزى يوم الغد فى تنظيف سجادة الصلاة - قالت لإيرينديرا- فهى لم تر الشمس منذ أيام الهرج والمرج .
- حاضر يا جدتى - أجابت الطفلة .

أخذت مروحة من الريش وأخذت تحرك الهواء على السيدة التى لا ترحم والتى بدأت تعدد مفردات الواجبات الليلية وهى تخلد للنوم .

- عليك كى كافة الملابس قبل أن تخلدى للنوم حتى يرتاح ضميرك .

- حاضر يا جدتى .

- وأن تفحصى دوايب الملابس جيداً ذلك أن العتة تنشط فى المساء .

- حاضر يا جدتى .

- وعليك فى الوقت المتبقى أمامك أن تخرجى أصص الزرع إلى الفناء لتتنفس .

- حاضر يا جدتى .

- وعليك أن تضعى للنعامة طعامها .

أخذت تغرق فى النوم ومع ذلك لا تزال تصدر أوامرها .
وقد ورثت الطفلة الحفيدة عنها صفة الاستمرار فى الحياة أثناء النوم . خرجت إيرينديرا من الحجرة دون جلبه وقامت ببقاى الأعمال الليلية مستجيبة دائماً لما تأمر به الجدة النائمة .

- وعليك أن تسقى الزرع الموجود على المقابر .

- حاضر يا جدتى .

- وقبل أن تنامى تأكدى من أن كل شىء على ما يرام ،
فالأشياء كثيراً ما تتألم عندما لا تكون فى موضعها السليم .

- حاضر يا جدتى .

- وإذا ما حضر "الأماديسيون" أبلغهم ألا يدخلوا - قالت
الجلدة - ذلك أن عصابة بورفيديوغالان - تترقبهم للقضاء عليهم .

لم تجبها إيرينديرا بعد ذلك فهى تعرف أنها أخذت تدخل
فى مرحلة الهذيان . ومع ذلك لم تخالف أية تعليمات . وعندما
انتهت من مراجعة مزاييج النوافذ وأطفأت باقى الأنوار، أخذت
شمعداناً من حجرة الطعام لتستضىء به حتى تصل إلى حجرتها
فى الوقت الذى تملأ فيه أنفاس الجلدة النائمة جو المكان عند
اللحظات التى تهدأ فيها حدة الرياح .

لها حجرتها فاخرة أيضاً لكن ليس بنفس الدرجة التى عليها
حجرة الجلدة . كانت مليئة بالعرائس المحشوة ولعباً أخرى على
شكل حيوانات جاءتها فى آخر فترات طفولتها . ولما كان إعياء
العمل يغالب إيرينديرا لم تجد متسعاً من الوقت لتخلع ملابسها
فقامت بوضع الشمعدان على "الكومودينو" واستلقت فى
سريرها . وبعد ذلك بقليل استطاعت رياح تعاستها أن تنفذ إلى
حجرة نومها دفعة واحدة كأنها مجموعة من الكلاب فانقلب
الشمعدان فوق الستارة .

وفى صباح اليوم التالى كانت الرياح قد توقفت وبدأت
تساقط قطرات المطر التى أطفأت الجمرات الأخيرة وجعلت

الرماد، فى المنزل، يتصلب. حاول أهل القرية، الذين هم فى أغلبهم من الهنود إنقاذ ما تبقى من الكارثة، أخرجوا جثة النعامة وقد تفحمت وهيكل الببانو المذهب والجزء الخلفى لأحد التماثيل. كانت الجدة تتأمل كسيرة رماد ثروتها. أما إيرينديرا فكانت جالسة بين المقبرتين بعدما توقفت عن البكاء. وعندما أصبحت الجدة على قناعة بأن بقى لها القليل من الحريق نظرت إلى الطفلة بالم نابع من القلب.

- يا طفلى المسكينة - تنهدت - لو عشت حياتك كلها فلن تستطيعى أن تدفعى لى ثمن هذا.

أخذت تسدد لها ذلك منذ هذا اليوم تحت المطر وذلك بأن أخذتها إلى تاجر القرية وهو رجل ماتت زوجته، نحيف الجسم، يعرفه كل من فى الصحراء وذلك لأنه يدفع ثمنًا مناسبًا للعذرية. وأمام ناظرى الجدة التى أخذت ترقب وهى رابطة الجأش، قام الرجل بفحص إيرينديرا بتقشف علمى: أخذ فى الاعتبار قوة ساقىها وحجم ثدييها ومحيط أردافها. ولم ينبس بكلمة حتى استطاع تقدير قيمتها.

- لا رالت صغيرة بعد - قال فى هذه اللحظة - ولها نهدان صغيران.

وبعد ذلك طلب منها أن تصعد على الميزان ليتأكد من صحة تقديره، كانت إيرينديرا تزن ٤٢ كجم.

- لا تزيد عن مائة بيزو - قال الرجل الأرملة .
- مائة بيزو فقط مقابل مخلوقة جديدة تمامًا ! قالت بصوت
فيه صياح - لا يا رجل إن هذا هو مخالفة صريحة للحقيقة .
- يمكن أن يصل السعر إلى مائة وخمسين - قال .
- لقد ألحقت الطفلة بى أذى بليغًا يقدر بحوالى مليونى
بيزو - قالت الجدة - وعلى هذا فهى فى حاجة إلى مائتى عام
لتدفع لى ما عليها .
- فقال : لحسن الحظ فلن أفضل شىء لديها هو صغر
سنها .

كانت العاصفة تهدد بالقضاء على المنزل، كما أن المطر
يتسرب من السقف من أماكن كثيرة كأنها تمطر بشكل متقارب فى
الداخل والخارج، شعرت الجدة أنها وحيدة وسط عالم من
الركام. فقالت:

- ليتك ترفع السعر إلى ثلاثمائة .

- مائتان وخمسون .

وفى النهاية اتفقا على سعر مائتين وعشرين بيزو على أن
تدفع نقدًا بالإضافة إلى بعض الأطعمة، وعندئذ أشارت الجدة
على الطفلة بأن تذهب مع العجوز الأرملة، بينما أمسك هو بيدها
وأدخلها فى مؤخرة المحل وكأنه يأخذها إلى المدرسة .

- إني أنتظرك هنا - قالت الجدة .

- حاضر يا جدتي - قالت إيرينديرا .

الجزء الخلفى من المحل عبارة عن منطقة مظلمة قائمة على أربعة أعمدة من الطوب الأحمر، أما السقف فكان من سعف النخيل المتهالك وسياج جدارى من الطوب الأخضر يبلغ ارتفاعه مترًا حيث توضع فوقه البقايا الناجمة عن العواصف. وفوق هذا الساتر من الطوب وضعت أيضًا أصص الصبار والنباتات الصحراوية الأخرى، كما كان هناك سرير معلق مربوط إلى عمودين يتأرجح فى الهواء كأنه شمعة. لم يكن للسرير لون معين، وبالإضافة إلى صفيير العاصفة وصوت قطرات المطر كانت تسمع صرخات آتية من بعيد وأصوات حيوانات واستغاثة غريق.

عندما دخلت إيرينديرا والعجوز فى هذا المكان اتكأ كل منهما على الآخر حتى لا تلقى بها رخة مطر تركتهما مبللين تمامًا. لم تكن أصواتهما مسموعة، كما أن حركاتهما كانت مختلفة من جراء المطر. وفى أول محاولة قام بها العجوز صاحت إيرينديرا بصوت غير مسموع وحاولت الفرار. فكان رد العجوز عليها بلا صوت، بأن قام بلى ذراعها وأخذها من معصمها وجرها إلى السرير، قاومته بأن خربشته فى وجهه وعادت لتصبح فى صمت، فكان رده هو صفعة قوية على وجهها رفعتها عن الأرض وجعلتها تطير فى الهواء للحظة وشعرها الطويل يتموج

فى الفراغ . وقام بالإمساك بها من خصرها قبل أن تنزل إلى الأرض وألقى بها فى السرير دفعة واحدة ملؤها الفظاظه ، وأمسك بركبتها حتى أصبحت بلا حراك . أذعنت إيرينديرا فى هذه اللحظة للرعب وفقدت وعيها وتحولت إلى حالة من إصابه الذهول ، بينما يقوم العجوز بنزع ملابسها وكأنه يقلع الحشائش ويقذف ببقايا الملابس فكانت تطير فى الهواء متأرجحة .

ولما لم يتبق فى القرية أى رجل آخر يمكن له أن يدفع مقابل ممارسة الحب مع إيرينديرا ، ذهبت بها الجدة فى شاحنة متجهة إلى الأماكن التى تتم فيها عمليات التهريب . كانت الرحلة فى صندوق الشاحنة وقد أحاطت بهما أجولة الأرز وصفائح دهن الخنزير وما تبقى من الحريق : مقدمة سرير ملكى وملاك حرب والعرش المحترق وبعض الأشياء الأخرى غير ذات القيمة . وفى الصندوق المرسوم عليه صليبين بريشة عريضة حملتا رفات الأماديسيين .

كانت الجدة تحتمى من الشمس القوية بأن فردت مظلة متهالكة فوق رأسها . تتنفس بصعوبة من جراء العرق والتراب . ورغم هذه الحالة تحتفظ ببعض سلطانها . خلف صف الصفائح وأجولة الأرز قامت إيرينديرا بسداد ثمن الرحلة ونقل الأمتعة وذلك بممارسة الحب مع عمال الشاحنة مقابل عشرين بيزو . وكانت دفاعاتها - فى البداية - مشابهة للدفاع الذى اتخذته عند

اعتداء العجوز، لكن طريقة الحمال كانت جد مختلفة إذ اتسمت بالبطء والخبرة، وانتهى به الأمر إلى تطويعها باللين. وعندما وصلت الشاحنة إلى أول قرية بعد يوم ثقيل كانت إيرينديرا والحمال يستريحان من ممارسة الحب الجيد خلف الشحنة الساترة.

صاح سائق الشاحنة فى الجدة :

- العمار هو ابتداء من هذا المكان فصاعدًا.

راقبت الجدة الشوارع البائسة وهى لا تكاد تصدق. لم يكن هناك أحد من المارة فى شوارع هذه القرية الكبيرة بعض الشيء، لكنها كانت حزينه بنفس الدرجة التى كانت عليها القرية السابقة.

- لا يلاحظ شيء.

- إنها أرض إرساليات دينية - قال السائق.

- أنا لا يهمنى الحصول على الصدقات بل ما يهم هو

التهرب - قالت الجدة.

كانت إيرينديرا تستمتع إلى الحوار الدائر بينما تحاول وضع إصبعها فى أحد أجولة الأرز، وسرعان ما وجدت فتلة جذبتها فأخرجت عقدًا من اللؤلؤ الحر. تأملته وهى تشعر بالفزع وأخذته بين أصابعها وكأنه حية ميتة. فى هذه اللحظة كان السائق يرد على الجدة :

- لا تحلمى أحلام اليقظة - يا سيدتى . لا يوجد هناك
مهربون .

- وكيف لا - قالت الجدة - قل لى أنت ذلك !

- ابحنى عنهم وسترين - قالها السائق حازماً - إن كل
الناس تتحدث عنهم لكن لا أحد يراهم .

أدرك الحمال أن إيرينديرا قد استخرجت العقد فسارع بأخذه
منها ووضعها مرة أخرى فى جوال الأرز . وعندئذ قررت الجدة
البقاء فى هذه القرية رغم فقرها فنادت على الحفيدة لتساعددها فى
النزول من الشاحنة . ودعت إيرينديرا الحمال بقبلة سريعة لكنها
عفوية وحقيقية .

انتظرت الجدة وهى جالسة على العرش وسط الشارع حتى
انتهوا من إنزال الأمتعة ، وكان آخرها الصندوق الذى به رفات
"الأماديسين" .

- إنه صندوق ثقيل الوزن كأنه ميت - ضحك السائق .

- إنهما اثنان - قالت الجدة - وعليك أن تعاملهما
باحترام .

- أراهن على أنها تماثيل من العاج - ضحك السائق .

وضع الصندوق الذى يحمل الرفات كيفما اتفق وسط قطع
الاثاث التى أصابها الحريق ومد يده مفتوحة إلى الجدة .

- خمسين بيزو - قال .

أشارت الجدة إلى الحمال .

- لقد تم السداد لعبك باليد اليمنى .

نظر السائق مندهشًا إلى الحمال وصدرت عن هذا إيماءة تؤكد القول، فعاد إلى كابينة القيادة حيث كانت هناك امرأة تسافر وهي ترتدى ملابس الحداد ومعها طفل تحمله على ذراعيها وهو ييكى من الحر . كان الحمال واثقًا من نفسه جدًا وتوجه إلى الجدة بالقول:

- سوف تأتى إيرينديرا معى . إلا إذا رغبت سيادتك فى شىء آخر . إننى أقول ذلك بنية صادقة .

تدخلت الطفلة مفزوعة .

- أنا لم أقل شيئًا !

- أنا الذى أقول فهذه فكرتى - قال الحمال .

تفحصته الجدة وهى تراه بقامته كاملة دون أن تقلل منه بل تحاول أن تدرك الحجم الحقيقى لبنيته .

- لا مانع عندى - قالت الجدة - إذا ما دفعت لى ما خسرت به بسبب إهمالها . المبلغ هو ٨٧٢٣١٥ بيزو، ولما دفعت لى

مسبقًا ٤٢٠ بيزو، أى أن المبلغ المطلوب هو ، ٨٧١٨٩٥

أخذت الشاحنة تتحرك .

- صدقيني ! إننى على استعداد لأسدد لك هذا المبلغ الضخم إذا ما توفر لدى - قال الحمال جادًا - فالطفلة تساوى ذلك .

شعرت الجدة بارتياح لقرار الفتى .

- إذن عد عندما يتوفر لك هذا المبلغ يا بنى - ردت عليه بلهجة فيها ظرف - أما الآن فعليك بالذهاب لأننى إذا ما عدت لمحاسبتك مرة أخرى ستكون مدينًا لى بعشرة بيزو .

قفز الحمال على مؤخرة الشاحنة التى أخذت تبتعد . ومن هناك ودع إيرينديرا ملوحًا لها بيده، ولما كانت لا تزال تشعر بالفزع لم ترد عليه .

على نفس الأرض البوار التى تركتها الشاحنة قامت إيرينديرا والجدة بارتجال كشك مصنوع من ألواح الصفيح والسجاد الآسيوى للعيش فيها وضعتا حصيرتين على الأرض، ونامتا براحة كأنهما فى المنزل الكبير، ومكثتا نائمتين حتى نفدت الشمس بين ثقوب السقف ولفحت وجهيهما .

الجدة هى التى قامت بإصلاح هندام إيرينديرا هذا اليوم عكس ما كان يحدث دائمًا . فوضعت المساحيق على وجهها

بشكل مبالغ فيه طبقًا للموضة التي كانت سائدة أيام شبابها، وتلت ذلك بوضع أهداب صناعية وربطت شعرها بشريط بدا كأنه فراشة.

- سوف ترين نفسك فى شكل فظيع - قالت - لكن هذا أفضل : الرجال قساة جدًا فى معاملتهم للنساء.

عرفت كلتا المرأتين صوت حوافز اثنين من البغال قادمين من الصحراء، وقد وصل الصوت إلى سمعيهما قبل رؤيتهما بوقت طويل. وبناء على أوامر الجدة استلقت إيرينديرا على حصيرة وكأنها ممثلة مسرح مبتدئة أخذت وضعها عند رفع الستار، واتكأت الجدة على عصا الأسقف ثم خرجت من هذه الحجرة المرتجلة وجلست على العرش فى انتظار مرور البغال.

كان رجل البريد يقترب. لم يكن عمره يتجاوز العشرين رغم أن المهنة قد أضافت إلى عمره سنوات، يرتدى الكاكي وغطاء رأس من الفلين، ويحمل مسدسًا خاصًا بالجنود يضعه فى حزامه المعد لحمل الطلقات. كان يمتطى بغلة جيدة ويسحب أخرى لا زالت أقل حجمًا من التى يمتطيها وقد وضع عليها أجولة و"خرج" البريد المصنوع من القماش.

قدم التحية للجدة ملوحاً بيده عند مروره بها، وواصل سيره، لكنها أشارت إليه حتى يلقي نظرة على ما بداخل الكشك.

فتوقف الرجل ورأى إيرينديرا وهى مستلقية على الحصيرة مهندمة وقد ارتدت فستاتاً مزخرفاً بالألوان الحمراء .

- هل تروق لك - سألت الجدة .

لم يدرك رجل البريد حتى هذه اللحظة ما تريده .

- ليس الأمر بسيئ على غير إفطار - ابتسم .

- السعر خمسون بيزو - قالت الجدة .

- عجباً هل هى من ذهب ! قال - هذا المبلغ هو المطلوب لطعامى طوال شهر .

- لا تكن بخيلاً - قالت الجدة - فالبريد الجوى دخله أفضل من دخل القساوسة .

- أنا من البريد الوطنى - قال الرجل - أما البريد الجوى فهو ذلك الذى ينقل على شاحنة صغيرة .

- على أى الأحوال، الحب هو أمر هام مثله مثل الطعام - قالت الجدة .

- لكنه لا يغذى .

أدركت الجدة أن ذلك الرجل الذى يعيش على آمال الناس سيكون لديه الوقت الكافى للفصال .

- كم معك ؟ سألته .

نزل الرجل من على البغلة وأخرج من جيبه بعض الأوراق النقدية المتآكلة وأبرزها للجدّة فأخذتها جميعها كالكرة بأصابعها الخمسة وكأنها مخلب إحدى الطيور الجوارح .

- سوف أخفض لك السعر - قالت - لكن بشرط : أن تضيع الخبر فى كل مكان .

- سوف أفعل ذلك حتى الطرف الآخر من الدنيا - قال رجل البريد - فأنا أكثر نفعًا فى مثل هذه الأمور .

لم تكن إيرينديرا قد تمكنت من تحريك أهدابها وعندئذ نزعت الرموش الصناعية وأخذت جانبًا من الحصيرة لتخلى مكانًا للخطيب المؤقت . وعندما دخل الكشك قامت الجدة بإغلاق المدخل بأن جذبت الستارة بقوة .

كان الاتفاق الذى تم ذا فاعلية فقد كان الرجال معلقون بصوت وصول البريد فجاءوا من كل حذب وصوب ليعرفوا الخبر الجديد الخاص بإيرينديرا . وخلف الرجال جاءت ترابيزات القمار ومنافذ بيع الطعام . ووراء كل هؤلاء قدم المصور على دراجته واستقر به المقام أمام المعسكر فوضع الكاميرا اليدوية ذات القماش الأسود وكذا الستارة الخلفية وعليها رسمت بحيرة مليئة بالجمع الذى لا حياة فيه .

كانت الجدة تحرك الهواء بالمروحة وهى تجلس على العرش .
بدا أنها غير مبالية بهذا التجمع ، فما يهمها هو النظام فى طابور
الزبائن الذين أخذوا أدوارهم ، وكذا حقيقة المبلغ الذى يدفعونه
مقدماً ليدخلوا على إيرينديرا . كانت حادة فى البداية لدرجة أنها
رفضت زبوناً جيداً كان المبلغ الذى يقدمه أقل خمسة بيزو من
المطلوب . لكن بمرور الشهور أخذت تتعلم دروس الواقع وانتهى
بها الأمر لقبول سداد باقى المبالغ المتفق عليها من خلال ميداليات
تحمل صور القديسين أو بعض المقتنيات القديمة للأسرة وخواتم
الزواج وكل شئ تتأكد من أنه ذهب جيد العيار ، عندما تضغط
عليه بأستانها ، رغم أنه لم يكن يلعب .

وبعد وقفة طويلة فى تلك القرية الأولى ، كانت الجدة قد
جمعت المال الكافى لتشتري حماراً وبدأت تبحث داخل الصحراء
عن أماكن أخرى أكثر مناسبة من أجل قبض الدين المستحق لها .
كانت تسافر على بردعة مرتجلة وضعت على ظهر الحمار ، وكانت
تختبئ من الشمس باستخدام الشمسية المتهالكة التى كانت إيرينديرا
تمسك بها . كان يسير خلفهما أربعة هنود من الحمالين وهم
يحملون معهم مكونات العسكر : العرش الذى تم إصلاحه وعدة
النوم والملاك المصنوع من الألباستر والصندوق الذى يضم رفات
الأماديسيين . وكان المصور يسير وراء القافلة وهو يركب دراجته
لكنه كان بعيداً عنهما وكأنه ذاهب إلى مهرجان آخر .

كان قد مضى على الحريق ستة أشهر، وفي هذه اللحظة كان للجدة تصور كامل عن هذه التجارة.

- إذا ما سارت الأمور هكذا - قالت لإيرينديرا - فستكونين قد وفيت بالدين خلال ثمانى سنوات وسبعة أشهر وأحد عشر يوماً.

أخذت تراجع حساباتها وهى مغمضة العينين وتمضغ بعض الحبوب التى كانت تخرجها من كيس قماش تحتفظ فيه بالمال أيضاً ثم قالت :

- وهذا دون أن نأخذ فى الاعتبار أجر الهنود وطعامهم، بالإضافة إلى نفقات أخرى غير كبيرة.

لم تعترض إيرينديرا، وهى تسير إلى جوار الحمار وقد أنهكها الحر والتراب، على الحسابات التى تقوم بها الجدة، لكن حاولت ضبط نفسها حتى لا تنهمر دموعها.

- إن عظامى تتكسر - قالت.

- حاولى أن تنامى.

- حاضر يا جدتى.

أغمضت عينيها ثم أخذت شهيقاً عميقاً من الهواء الساخن وواصلت سيرها وهى نائمة.

* * *

ظهرت فى الأفق المترب شاحنة صغيرة محملة بالأقفاص وقد أخذت ذكور الماعز تفر هنا وهناك، ثم كان ظهور الطيور بمثابة المياه العذبة فى يوم أحد حار للقديس ميخائيل، قديس الصحراء. يقود السيارة مزارع هولندى ضخمة الجثة اكتوى جلده بالطقس المستعر، وله شنب رمادى اللون ورثه عن أحد آباء أجداده. أما ابنه "عليس" الذى يجلس إلى جواره فهو شاب يافع ذهبى اللون عيناه زرقاوين تنطقان بالعزلة، وهيئته هى هيئة ملاك هبط عرضاً. استرعى انتباه الهولندى وجود خيمة يقف أمامها على شكل طابور كل جنود الحامية المحلية. كانوا يجلسون على الأرض ويشربون من نفس الزجاجات التى تنتقل من فم إلى فم، ويضعون على رؤوسهم أغصان شجر اللوز وكأنهم يريدون التمويه إيماناً بالدخول فى معركة. سأل الهولندى بلغته.

- ما الذى يباع هنا بحق الشياطين؟

- إنها امرأة - أجابه الابن بتلقائية - اسمها إيرينديرا.

- وكيف عرفت

- كل الناس فى الصحراء يعرفون ذلك - أجاب عليس.

نزل الهولندى بالفندق الصغير فى القرية وأبطأ عليس بعض الشيء فى الشاحنة وقام بأصابعه الماهرة بفتح حافظة النقود والأوراق التى تركها والده على المقعد وأخذ رزمة من الأوراق

المالية ووضع بعضًا منها فى جيوبه ثم عاد وترك كل شىء فى مكانه، وانتهز حلول الظلام، وعندما كان والده نائمًا تسلق خارجًا من نافذة الفندق وذهب ليأخذ دوره أمام خيمة إيرينديرا.

كانت الحفلة فى أوج ازدهارها. الجنود سكارى يرقصون وحدهم حتى يفيدوا من مجانية الموسيقى. والمصور يلتقط الصور الليلية مستخدمًا ورق الماغسيوم للإضاءة. وفى الوقت نفسه تشرف الجدة على التجارة وتقوم بعد النقود فى الخفاء وتقوم بتوزيع الأوراق كل فئة على حدة ثم تقوم بترتيب كل ذلك فى سلة. لم يتبق إلا اثنى عشر جنديًا، غير أن طابور المساء كان يضم بعض المدنيين، وكان عليس آخر فرد فى الطابور.

وقع الدور على جندى كتيب الشكل، فباعده الجدة وزادت من هذا بأن باعدت نفسها عن لمس نقوده.

- لا يا بنى - قالت له - لن تدخل ولو كان معك ذهب الدنيا - إنك إنسان ثقيل.

شعر الجندى بالمفاجأة فهو ليس من هذه النواحي.

- ما معنى هذا؟

- إنك مُعدى بثقلك - قالت الجدة - وهذا بمجرد النظر إلى وجهك.

أبعدته بإشارة من يدها . وأذنت للجندى الثانى بالدخول .

- أدخل أنت أيها الضخم - قالت له بمزاجية - وعليك ألا تتأخر كثيراً فالوطن فى انتظارك .

دخل الجندى ، لكنه خرج فى الحال ذلك أن إيرينديرا كانت تريد التحدث مع جدتها . فقامت بوضع سلة النقود على صدرها ودخلت الخيمة ضيقة المساحة لكنها كانت مرتبة ونظيفة . كانت إيرينديرا ممددة على السرير الشبكي وهى غير قادرة على أن تتحكم فى رعشة سرت بجسدها . فقد عوملت بقسوة وملأتها قذارة الجنود .

- يا جدتى - وفى صوتها حشرجة البكاء - إننى أموت .

وضعت الجدة يدها على جبهتها وعندما تأكدت أن حرارتها ليست مرتفعة حاولت تهدئتها .

- لم يبق إلا عشرة من الجنود - قالت .

أجهشت إيرينديرا باكية بصوت حيوان يشعر بالغىظ . عرفت الجدة حينئذ أنها تجاوزت حدود الرعب ، فقامت بملاطفتها بأن ربت على رأسها لتساعدتها على استرجاع هدوئها .

- كل ما فى الأمر أنك تعبت - قالت لها - هيا لاتبك أكثر من ذلك قومى بالاستحمام بماء الرضاب حتى يسرى الدم فى عروقك .

خرجت من الخيمة فى اللحظة التى أخذت فيها إيرينديرا تستعيد هدوءها. فأعادت النقود للجندى الذى كان عليه الدور "لقد انتهينا اليوم - قالت له - عد غداً وسوف تكون فى أول الطابور.

ثم صاحت فى باقى الطابور.

- انتهينا اليوم أيها الفتية. إلى اللقاء غداً فى التاسعة صباحاً.

خرج الجنود والمدنيون من الطابور وهم يصيحون احتجاجاً.

واجهتهم الجدة بذكاء لكنها خفتت من وقع هراواتها.

- أنتم لا تضعون اعتباراً لما يحدث أيها الحمقى - كانت تصيح - هل تظنون أن هذه المخلوقة من حديد، أه لو كنتم مكانها، أيها الفاسدون يا روثاً بلا وطن

فكان رد الرجال عليها بشتائم أقذع لكن انتهى الأمر بأن سيطرت على الموقف وظلت تترقب وهى تحمل الهراوة حتى رفع البائعون مواثد بيع شحم الخنزير المقلّى وانفض أصحاب مواثد القمار. وبينما كانت تستعد لدخول الخيمة رأت عليس وحده فى المساحة الخالية والمظلمة التى كان الطابور يصطف فيها شكله يوحى بهيئة غير واقعية لكنه بدا مرثياً فى هذه الظلمة بفضل وميض وسامته.

- وأنت - قالت له الجدة - أين تركت أجنحتك؟
- كان جدى هو صاحب الأجنحة - أجاب عليس بتلقائية
- لكن لا أحد يصدق ذلك .

عادت الجدة لتفحصه باهتمام كأنها مسحورة " أنا أو من
بذلك - قالت - وعليك أن تأتى غداً وقد وضعت الأجنحة " .
دخلت الخيمة وتركت عليساً وهو يغنى فى مكانه .

شعرت إيرينديرا بالتحسن بعد الحمام، وقد ارتدت ملابس
قصيرة مزركشة، وأخذت تجفف شعرها لتنام، ومع ذلك تغالب
الدموع، استغرقت الجدة فى النوم .

ومن وراء سرير إيرينديرا أطل عليس برأسه بخفة وحذر
فرأت هى العينين الشغوفتين الرقراقتين، لكنها - قبل أن تنطق
بكلمة - قامت بدعك وجهها بالفوطة للتأكد أن ما تراه حقيقة،
وعندما طرف عليس بعينه لأول مرة سألته إيرينديرا بصوت
هامس .

- من تكون أنت؟

ظهر عليس بجزء من جسده حتى الاكتاف - " أنا أسمى
عليس " - قال، وأظهر لها الأوراق المالية التى سرقها من والده،
ثم أضافت :

- هات النقود .

وضعت إيرينديرا يديها على السرير ثم اقتربت بوجهها من وجه عليس وواصلت حديثها معه كأنهما تلميذان في مدرسة ابتدائية .

- كان عليك أن تكون في الطابور - قالت له .

- لقد انتظرت الليل بطوله - قال عليس .

- والآن عليك الانتظار حتى الصباح - قالت إيرينديرا -
إننى أشعر وكأنى قد تعرضت للضرب على كليتى .

فى هذه اللحظة بدأت الجدة تتحدث وهى نائمة .

- لقد مضى عشرون عاماً منذ آخر مرة أمطرت - قالت -
كانت ربيعة رهيبة إذ اختلط المطر بماء البحر وأصبحنا فوجدنا
المنزل مليئاً بالسّمك والكاراكول، أما جدتك يا أماديس رحمها
الله فقد شوهدت مضيئة وهى تسبح فى الفضاء .

عاد عليس ليهرب خلف السرير، ابتسمت إيرينديرا ابتسامة
لذيذة .

- اهدأ - قالت له - إنها تبدو مجنونة وهى نائمة لكنها لا
يوقظها زلزال .

عاد عليس ليطل من جديد. تأملته إيرينديرا بابتسامة مأكرة وفيها شيء من الود وقامت برفع الملاء المستخدمة من على الحصيرة.

- تعال - قالت له - ساعدنى على تغيير الملاء.

عندئذ خرج عليس من خلف السرير وأخذ الملاء من أحد أطرافها. ولما كانت أكبر بكثير من حجم الحصيرة فقد استغرقا وقتاً في طيها أكثر من مرة، وفي كل مرة يصبح عليس أكثر اقتراباً من إيرينديرا.

- جن جنونى لأراك - قال سريعاً - الجميع يقولون بأنك جميلة للغاية وهذا حقيقى.

- لكننى سأموت - قالت إيرينديرا.

- تقول أُمى أن من يموتون فى الصحراء لن يصعدوا إلى السماء بل سيذهبون إلى البحر - قال عليس.

- قالت : أنا لا أعرف البحر.

- قال عليس: إنه مثل الصحراء لكن به ماء.

- إذن لا يمكن السير فيه.

- عرف والدى أحد الناس الذى كان يسير فى البحر - قال عليس - لكن ذلك كان منذ زمن طويل.

كانت إيرينديرا سعيدة لكنها كانت بحاجة للنوم فقالت :
- إذا ما أتيت غداً فى الصباح الباكر سوف تكون أول
الطابور.

-فقال عليس: سوف أرحل مع والدى فجر هذا اليوم.
- ألن تعود إلى هنا مرة أخرى؟
- لا أحد يدري متى - قال عليس - إننا نمر بهذه القرية
بمحض الصدفة لأننا فقدنا الاتجاه الصحيح فى الطريق إلى
الحدود.

نظرت إيرينديرا، مفكرة، إلى الجدة النائمة.
- حسن - قالت مقررة - هات ما معك من نقود.
أعطائها عليس النقود، فنامت إيرينديرا فى السرير لكنه ظل
يرتعش فى مكانه، وفى اللحظة الحاسمة خارت عزيمته، فأخذته
إيرينديرا من يده لتنتهى بسرعة وعندئذ أدركت رهبته، كانت
تعرف هذا الخوف.

- أهذه أول مرة؟ سألته.
لم يجب عليها لكن ظهرت على وجهه ابتسامة خيبة
الأم، فتغيرت إيرينديرا.

- تنفس بهدوء - قالت له - الأمر صعب فى البداية -
لكن ستتعود عليه بعد ذلك .

جعلته ينام إلى جوارها، وبينما تساعده فى خلع ملابسه
كانت تربت عليه بمداعبات فيها أمومة .

- ما اسمك؟

- عليس .

- إنه اسم أجنبى - قالت إيرينديرا .

- لا، إنه اسم بحار .

كشفت إيرينديرا عن صدره وقبلته قبلات مثل تلك التى
تعطى لليتامى، ثم أخذت تشمه .

- تبدو كأنك ذهب - قالت - ذلك أن رائحتك هى
الزهور .

- لابد وأنها رائحة البرتقال - قال عليس .

وبعد أن عاد إليه الهدوء ابتسم ابتسامة مأكرة .

- إننا نحمل الكثير من الطيور للتمويه - أضاف - لكن ما
نحمله فى السيارة ونتجه به إلى الحدود هو تهريب البرتقال .

- البرتقال لا يهرب - قالت إيرينديرا .

- هذا النوع نعم يتم تهريبه - قال عليس - فكل واحدة تساوى خمسين ألف بيزو.

كانت إيرينديرا تضحك لأول مرة منذ وقت طويل.

- إن أفضل شيء يعجبني فيك - قالت - هو هدوءك وأنت تخترع هذه الترهات.

استعادت إيرينديرا تلقائيتها وكأن براءة عليس أثرت في تغيير مزاجها وتوجهاتها.

كانت الجدة وهى على مسافة قصيرة منهما لا زالت تتكلم وهى نائمة.

- فى هذه الأزمئة، أى فى بداية مارس أتوا بك إلى المنزل - قالت - كنت تبدو أنك سلحفاة صغيرة ملفوفة فى القطن. أما أماديس والدك الشاب الوسيم فقد كان سعيداً فى ذلك المساء لدرجة أنه أرسل فى البحث عن عشرين عربة صغيرة محملة بالزهور. ثم وصل وهو يصيح ويلقى بالزهور فى الشارع حتى أصبح اللون الذهبى هو المسيطر على القرية وكأنها البحر.

أخذت تهذى عدة ساعات بصوت مرتفع ويشغف فيه إصرار. لكن لم يسمعها عليس ذلك أن إيرينديرا أحبته كثيراً وبصدق. عادت لتمارس معه الحب بنصف السعر فى الوقت الذى

ظلت الجدة تهذى فيه . وظلت تمارس معه الحب حتى الصباح بدون مقابل .

كانت هناك مجموعة من المبشرين يرفعون الصليبان إلى أعلى قد تراصوا جنباً إلى جنب وسط الصحراء . كانت الرياح العاتية، مثل رياح التعاسة، تعصف بملابسهم المصنوعة من الخيش ويلحاهم الخشنة لدرجة أنهم لا يكادون يصمدون على أقدامهم . كانت دار التبشير خلفهم وهى عبارة عن مبنى من العصر الاستعماري بها برج صغير للأجراس يقوم على حوائط خشنة عليها طبقة من الجير .

أشار المبشر الأصغر سنًا والذي كان يقود المجموعة بسبابته إلى وجود شرخ طبيعى فى الأرضية الطينية اللامعة .
- لا تعبروا هذا الخط - صاح فيهم .

توقف الحمالون الأربعة من الهنود الذين كانوا يحملون الجدة على محفة خشبية عندما سمعوا هذه الصيحة . ورغم أن الجدة كانت تجلس جلسة غير مريحة على المحفة، كما أن مزاجها غير طبيعى بسبب الصحراء وترابها، إلا أنها كانت تحتفظ بتعاليتها . لايرنديرا تسير إلى جوارها . وخلف المحفة هناك ثمانية من الحمالين الهنود، المصور على دراجته فى المؤخرة .
- الصحراء ليست ملكاً لأحد - قالت الجدة .

- إنها لله - قال المبشر - وأنتم تعتدون على القوانين المقدسة بما تحملون من قذارة .

عرفت الجدة أن المبشر قادم من شبه جزيرة أيبيريا وذلك من خلال لكتته فى الحديث . فحاولت تفادى مواجهة مباشرة معه حتى لا تصطدم بعناده . استعادت رباطة جأشها وقالت .

- لا أفهم الغارك يا بنى .

أشار المبشر إلى إيرينديرا .

- هذه المخلوقة لا زالت قاصراً .

- لكنها حفيديتى .

- هذا أسوأ - رد المبشر - عليك أن تضعيها تحت وصايتنا بالحسنى ، وإلا لجأنا إلى أساليب أخرى .

لم تكن الجدة تنتظر أن تصل الأمور إلى هذا الحد .

- حسن ليكون ذلك - تنازلت وهى تشعر بالفزع - لكننى سأعود آجلاً أم عاجلاً وسوف ترى .

ظلت الجدة وإيرينديرا تسامان لمدة ثلاثة أيام فى قرية قريبة من الدير ، وعندئذ دخلت أجساد صامته وهى تزحف ، كأنها مجموعة اقتحام ، داخل الخيمة . كانت هذه الأجساد لسته من المبتدئات فى الرهبة من الهنديات اللائى يتمتعن بالحيوية

والشباب، وهن يرتدين الملابس الخشنة التى يبدو وميضها، كأنها فسفورية، تحت ضوء القمر المتقطع. ودونما جلبة، قمن بتغطية إيرينديرا بقماش سميك وأخذنها دون إيقاظها وكأنها سمكة كبيرة الحجم وضعيفة تم اصطيادها فى شبكة فضية.

لم يكن هناك مخرج أمام الجدة لتنفذ حفيدتها من وصاية المبشرين. وعندما أعيثها الحيل، سواء المباشرة منها أو الملتوية، لجأت للسلطات المدنية التى يرأسها أحد العسكريين، فوجدته فى فناء منزله والجزء العلوى من جسده عريان، ويصوب ببندقية من بنادق الحرب صوب سحابة سوداء تعبر الشمس المشتعلة. كان يحاول فتح ثقب فى السحابة حتى تفرغ ما فيها من مياه لكن طلقاته ذهبت أدراج الرياح ومع ذلك كان يصمت بين الحين والآخر للاستماع إلى الجدة.

- أنا غير قادر على فعل شيء - شرح لها عندما انتهى من الاستماع إليها - فهؤلاء الآباء من حقهم طبقًا للاتفاق الموقع أن يأخذوا الفتاة حتى تبلغ سن الرشد. أو حتى تتزوج.

- لماذا إذن تشغل سيادتك وظيفة العمدة؟ سألت الجدة.

- حتى أجعل المطر يسقط - قال العمدة.

وبعد أن رأى أن السحابة قد ابتعدت عن مرماه قطع مهامه الرسمية وأبدى كل اهتمامه بالجدة..

- إن ما تحتاجينه يا سيدتى هو إنسان له وزن كبير يستطيع الدفاع عنك - قال لها - أنت فى حاجة لأحد يضمنك فى حسن السير والسلوك من خلال مستند كتابى . ألا تعرفين السناطور أونيسيمو سانشيث؟

كانت الجلدة تجلس تحت أشعة الشمس الحمراء الحارقة على كرسى صغير على عجزها الضخم فأجابت قائلة:

- إننى امرأة مسكينة فى هذه الصحراء الشاسعة .

تأملها العمدة بعينه اليمنى وقد أغمضها قليلاً بسبب الحر وكانت نظرة متعاطفة .

- إذن لا تضيعى الوقت يا سيدتى - قال لها - لقد ذهبت مع الريح .

لم يذهب الريح بها بالطبع . فقد أقامت الخيمة أمام دير التبشير وجلست تفكر كأنها محارب وحيد يقوم بحصار مدينة محصنة . أما المصور الجوال الذى يعرفها جيداً فقد حزم الماكينة على دراجته واستعد للذهاب عندما رآها وهى تحت الشمس وعيناها مثبتتان على الدير .

- لى من سيصاب بالإجهاد أولاً - قالت الجلدة - هل أنا أم هم .

- إنهم هناك منذ ثلاثمائة عام ولا زالوا يتحملون - قال المصور - أما أنا فذاهب .

فى هذه اللحظة رأت الجدة الدراجة محملة .

- إلى أين أنت ذاهب؟

- إلى حيث تأخذنى الرياح - قال المصور ثم مضى - الدنيا واسعة .

تنهدت الجدة .

- ليس بنفس الشكل الذى تتصور أيها التعس .

لكنها لم تحرك رأسها رغم الغيظ حتى لا يبتعد ناظرها عن الدير - وظلت على هذا الحال طوال أيام كثيرة كان الحر فيها شديداً . وطوال ليالى كثيرة تضرب الرياح فى أرجائها . وطوال أوقات التأمل لم يخرج أحد من الدير . قام الهنود ببناء عشة من السعف إلى جوار الخيمة وعلقوا فيها حاجياتهم ، لكن الجدة كانت تسهر حتى ساعة متأخرة من الليل يغالبها النعاس وهى جالسة على العرش وتلوك الجبوب ، التى أخرجتها من كيسها ، بإصرار ثور يرقد ويعتري طعامه .

وذات ليلة ، مرت بالقرب منها مجموعة من الشاحنات المغطاة ؛ كانت تسير ببطء ، وكانت الأضواء الوحيدة المشتعلة هى

كشافات ملونة تجعل من الإضاءة كأنها ألوان طيف . عرفت الجدة نوعية السيارات على الفور فهي مماثلة لشاحنات الأماديسين . تأخرت آخر سيارة فى هذا الرتل ثم توقفت ونزل منها رجل ليقوم بإصلاح شىء ما فى صندوق السيارة . كان يبدو أنه صورة طبق الأصل من الأماديسين إذ كان يلبس قبعة ملتوية أطرافها وحذاء ذا رقبة طويلة وحزامين من الخراطيش متعاقدين على منطقة الصدر وبندقية من بنادق الجيش بالإضافة إلى مسدسين . ولما كان قد غلبتها قناعة لا تقاوم نادى الجدة على الرجل .

- ألا تعرف من أنا؟ سألته

وجه إليها الرجل ضوء البطارية التى يحملها بشكل لا رحمة فيه وتأمل للحظة الوجه الذى أصابه الإعياء من السهاد والعينين المتعبتين والشعر الذابل لامرأة كان يمكن أن تكون أجمل امرأة فى الدنيا رغم تقدم عمرها . وعندما تفحصها جيداً ليكون على يقين من أنه لم يرها قط قبل ذلك أطفأ البطارية .

- الشىء الوحيد الذى أعرفه ومتأكد منه - قال - هو أنك لست عذراء دى لوس ريميديوس .

- على العكس تماماً - قالت الجدة بصوت فيه عذوبة - إننى السيدة .

وضع الرجل يده على المسدس بحركة غريزية .

- أى سيدة !

- زوجة أماديس الكبير .

- إذن لست من هذا العالم - قال بتوتر - ما الذى تريدين؟

- أن تساعدونى فى إنقاذ حفيدتى ، حفيدة أماديس الكبير ،
ابنة ابننا أماديس فهى أسيرة فى هذا الدير .

غالب الرجل خوفه .

- لقد أخطأت العنوان - قال - إذا ما تصورت أننا قادرون
على التدخل فى الأمور الدينية، فلست أنت يا سيدتى التى
تقولين هذا، ولست تعرفين الأماديسيين وليست لديك أى فكرة
عن ماهية التهريب .

نامت الجدة فى ذلك الفجر وقتًا أقل من الليالى السابقة،
وقد قضت الليل وهى تلوّك الحبوب وقد لفت نفسها ببطانية من
الصوف، وتولى وقت السحر إضعاف ذاكرتها وأخذ الهذيان
المكبوت يصارع من أجل الخروج إلى النور رغم أنها يقظة وكان
عليها أن تضغط على قلبها بيديها حتى لا تطاردها ذكريات منزل
يطل على البحر تملؤه الزهور من مختلف الألوان حيث كانت
تعيش سعيدة وظلت على هذا الحال حتى دق جرس الدير
وأضيئت الأنوار الأولى فى النوافذ وملأت الصحراء رائحة الخبز
الطازج . وعندئذ تركت نفسها نهبًا للإرهاق وقد خدعها الأمل فى

أن إيرينديرا قد نهضت من نومها وتحاول أن تجد الوسيلة للهروب.

أما إيرينديرا فلم تضيع ليلة واحدة إلا ونامت وذلك منذ أن حملوها إلى داخل الدير. فقاموا بقص شعرها باستخدام مقص تقليم النباتات وتركوا رأسها كأنها فرشاه وجعلوها تلبس القفطان الخشن الذى عادة ما ترتديه المبتدئات فى الرهينة وسلموها دلوًا من الجص للماء وكذا مقشة لتقوم بتنظيف درجات السلم كلما مر عليه أحد. هو عمل لا يتحملة إلا البغال ذلك أن صعود السلم ونزوله كان مستمرًا إذ تواصل صعود المبشرين والمبتدئات اللاتى تقمن بأعمال الحمالين. لكن إيرينديرا شعرت بذلك وكأنها تقضى يوم الأحد فى كل يوم. أى تخلد بعد العملية المهلكة إلى السرير. كما أنها لم تكن الوحيدة التى تصاب بالإرهاق من كثرة العمل عند حلول الليل ذلك أن الدير لم يكن مسخرًا لمحاربة الشيطان بل لمحاربة الصحراء.

كانت إيرينديرا ترى المبتدئات الهنديات وهن يحكمن سيطرتهن على الأبقار حلبها فى الزرائب، وكن يقضين أياماً كاملة وهن يتقافزن فوق صناديق خشبية من أجل تصفية اللبن. وكن يساعدن الماعز فى لحظات المخاض الصعبة. لقد رأتهن وهن يتصببن عرقاً، كأنهن عمال شحن وتفريغ، وهن يخرجن المياه من البئر ويقمن برى حديقة ترتعد من الخوف قامت بفلاحتها مبتدئات

أخريات استخدمن فى ذلك الفأس البقول فى قلب الصحراء . لقد رأت الجحيم الدنيوى فى أفران الخبز وحجرات الكى . شهدت أيضاً إحدى الراهبات وهى تقوم بمطاردة خنزير فى الفناء ورأتها وهى تتزحلق ممسكة بالخنزير من أذنيه وتسقط به فى منطقة موحلة فتهب لنجدتها اثنتان من المبتدئات وهن يرتدين مرايل من الجلد ويسيطرن على الخنزير ، وقامت إحداهن بذبحه مستخدمة سكين جزارة وتلطخت ثلاثهن بالطين والدم . رأت فى أحد الأروقة الجانبية للمستشفى بعض الراهبات المصابات بمرض السل وهن يرتدين قمصان الموتى الذين ينتظرون قضاء الله ، وهن يقمن بتطريز ملاءات الأسرة وجالسات فى الشرفات بينما يقوم رجال الإرسالية بالتبشير فى الصحراء .

كانت إيرينديرا تعيش مع نفسها وهى تكتشف أنماطاً جديدة للجمال والفضاعة لم تتصورها أبداً فى هذا العالم الضيق للسريـر . لكن لم تستطع أى واحدة من المبتدئات سواء الخشنات الطبع منهن أو العنيدات أن تجعلها تنطق بكلمة منذ أن حملوها إلى الدير . وذات صباح وعندما كانت تقوم بوضع الماء فى الجردل سمعت صوت آلة موسيقية وترية بدت وكأنها نور ساطع وسط ضوء الصحراء . لقد استأثرت المعجزة بلبها وجعلتها تطل على صالون ضخم وخال ، ليس على حوائط شئ له نوافذ ضخمة ، كانت أنوار شهر يونيو تدخل منها بقوة وتظل واقفة هناك . ورأت فى

وسط الصالون راهبة عظيمة الجمال لم ترها قبل ذلك، وهى تعزف مقطوعة موسيقية دينية على آلة Claviembalo وهى طراز قديم من البيانو. استمعت إيرينديرا للموسيقى دون أن تطرف لها عين وروحها فى حالة تسامى حتى رن الجرس لتناول الطعام. وبعد الغداء، وبينما تقوم بتلميع السلم باستخدام الفرشة المصنوعة من الحلفاء، انتظرت حتى تصعد جميع المبتدئات وتنزل بعد ذلك. وبقيت وحيدة لم يسمعها أحد، وعندئذ تكلمت لأول مرة منذ أن دخلت الدير. وقلت:

- أنا سعيدة.

فقدت الجدة آمالها فى أن تحاول إيرينديرا الهرب والذهاب معها، ورغم ذلك ظلت تعيش حالة الحصار الحديدى دون أن تتخذ أى قرار، وظلت هكذا حتى يوم الأحد الذى يوافق عيد العنصرة. وخلال هذه الفترة من العام كان المبشرون يقومون بتمشيط الصحراء للبحث عن العشيقات الحبليات من أجل تزويجهن. كانوا يذهبون حتى العزب المجهولة البعيدة وهم يركبون شاحنة متهالكة ويرافقهم أربعة من الجنود جيدي التسلح وجوال به بعض الحاجيات الضئيلة القيمة. وأصعب شئ فى عملية الاصطياد هذه يتمثل فى إقناع النساء اللاتى يحاولن الهروب من الكرم الإلهى بحجة قوية تقول بأن الرجال يشعرون بأنهم أصحاب حق فى أمرهم الزوجات الشرعيات بالقيام بأعمال

أكثر غلظة وقسوة من أن تطلب من العشيقات، وفي الوقت نفسه ينامون ملء جفونهم على الأسرة المعلقة. كان الأمر يقتضى اللجوء إلى وسائل خداعية وذلك بتذويب دواء إرادة الله في شراب من نفس المعين الذى يستخدمته حتى لا يشعرون بوطأتها. وكان الأمر ينتهى بهن، بما فى ذلك أكثرهن مقاومة، بالاقتناع وقبول أقرات من النحاس. أما فى حالة الرجال فكان تصرفهم عكسيًا إذ عندما تقبل النساء يقوم الرهبان بإخراجهم بالقوة من على الأسرة المعلقة ويذهبوا بهم مقيدين إلى أماكن الشحن والتفريغ لتزويجهم بالقوة.

وطوال عدة أيام كانت الجلدة ترى الشاحنة الصغيرة وهى تدخل الدير محملة بالنساء الهنديات الجليات لكن لم تجد الفرصة السانحة، لكن هذه الفرصة كانت سانحة يوم الأحد (يوم العنصرة) وذلك عندما سمعت الصواريخ النارية وقرع الأجراس وشاهدت أعدادا من جمهور البؤساء الفرحين تدخل للمشاركة فى الحفلة، ورأت نساء جليات وهن يضعن على رؤوسهن الطرحة وتاج الزفاف ويتأبطن أذرع أزواج الصدفة حتى تكتسب العلاقة صبغة شرعية فى هذا الزفاف الجماعى.

كان آخر واحد فى هذا الطابور شاب برئ القلب ذو شعر هندي وقد قصه على هيئة ثمرة الـ Totuma ويرتدى لباسا من الأسمال ويحمل فى يده شمعة طويلة عليها شريط من الحرير. نادته الجلدة.

- قل يا بنى، أود أن تقول لى شيئًا - سألته بصوف ناعم
- ماذا أنت فاعل فى هذا الهرج والمرج .

كان الفتى يشعر بالخوف وهو يحمل الشمعة، ولما كانت
أسنانه قوية كأنها أسنان الحمار، كان يجد صعوبة فى إغلاق فمه .

- الأمر هو أن الآباء سيقومون بعمل التناول الأول لى -
قال .

- كم دفعوا لك؟

- خمسة بيزو .

أخرجت الجدة من كيس نقودها حزمة من الأوراق المالية
نظر إليها الفتى وقد شعر بالدهشة .

- سوف أعطيك عشرين بيزو - قالت الجدة - لكن ذلك
ليس من أجل التناول الأول بل حتى تتزوج .

- وممن أتزوج؟

- من حفيدتى .

بهذه الطريقة تزوجت إيرينديرا فى فناء الدير وهى ترتدى
قفطان السجينات وتضع على رأسها طرحة أهديتها إليها
المبتدئات، ودون أن تعرف ما هو اسم الزوج الذى اشتترته لها
الجدة، تحملت بأمل غير واثق عملية الركوع على الأرض المليئة

بالخصى الكريهة التى تشبه رائحة جلد ذكر الماعز المنبعثة عن المائى عروس الحبليات. وتحملت طول رسالة القديس بابلو التى أُلقيت باللغة اللاتينية فى هذا القبط المحرق وذلك لأن المبشرين لم يجدوا لديهم الأسباب لمعارضة مصيدة الزواج غير المتوقعة، إلا أنهم وعدوها بآخر محاولة للإبقاء عليها فى الدير، ومع كل هذا فعند نهاية حفل عقد القران، وفى حضور كل من الممثل الرسولى والعمدة العسكرية الذى كان يطلق النيران على السحب ووجود الزوج الذى هلّ حديثاً، وجدتها اللامبالية وجدت إيرينديرا نفسها تحت السحر الذى سيطر عليها منذ مولدها. وعندما سئلت عن رغبتها الحرة والحقيقية والنهائية لم تتردد لحظة واحدة.

- أريد الذهاب من هنا - قالت، وأوضحت مشيرة إلى الزوج - لكنى لن أذهب معه، بل أنا ذاهبة مع جدتى.

قضى عليس الأمسية بالكامل محاولاً سرقة برتقالة من مزرعة والده الذى لم تفارقه عيناه وهما يقومان بتقليم الأشجار المريضة، أما أمه فكانت تحرسه وهى فى المنزل. وفى النهاية تخلى عن عزمه، فى هذا اليوم على الأقل، وأصبح عكر المزاج وهو يساعد والده حتى انتهاء من تقليم باقى أشجار البرتقال.

كانت المزرعة الفخمة ساكنة وبعيدة عن الأعين، أما المنزل الخشبي ذو السقف المصنوع من ألواح الصفيح، فقد كانت توضع على نوافذه شبك نحاسية وله شرفة ضخمة أقيمت على دعائم

ووضعت فيها نباتات برية ذات زهور نفاذة الرائحة . كانت والدة عليس فى الشرفة مستلقية على كرسى هزاز وقد وضعت على صدغها بعض الأوراق المدخنة لمقاومة الصداع . أما نظراتها الثاقبة التى يتميز بها الهنود الأصلاء فكانت تتابع الابن وحركاته كأنها حزمة ضوء غير مرئى حتى فى الأماكن المنزوية من حديقة البرتقال . جمالها أخاذ، وهى أصغر سنًا بكثير من الزوج . ترتدى القميص القبلى كما كانت على علم ودراية بالأسرار القديمة لبنى جلدتها .

عندما عاد عليس إلى المنزل وهو يحمل عدة التقليل طلبت منه والدته أن يأتى لها بالدواء الذى يجب أن تتناوله فى الرابعة ، والموجود على منضدة صغيرة قريبة . وبمجرد أن لمس الدواء والكوب تبدل لونهما . وبعد ذلك لمس على سبيل اللعب ، إناءً من الزجاج كان موضوعاً على المنضدة مع أكواب أخرى فتغير اللون إلى اللون الأزرق .

كانت أمه تراقبه وهى تتناول جرعة الدواء ، وعندما تأكدت أن ما تراه ليس سحر عين أو هذيان سألته بلغتها المحلية :

- منذ متى يحدث لك هذا؟

- منذ أن عدنا من الصحراء - قال عليس متحدثاً بلغة الأم

- وهذا يحدث لى مع كل ما هو رجاجى .

وحتى يبرهن على ذلك أخذ يلمس الأكواب الواحد بعد الآخر، فأخذ كل كوب لوناً مختلفاً.

- هذه الأمور تحدث فقط من جراء الحب - قالت الأم -
من هي؟

لم يرد عليس، أما والده الذى لم يكن يعرف هذه اللغة المحلية فكان يمر فى الشرفة وهو يحمل فرعاً به ثمار البرتقال.

- عم تتحدثان؟ - سأل عليساً بالهولندية.

- مجرد كلام - أجاب عليس.

لم تكن والده عليس تعرف الهولندية. وعندما دلف زوجها إلى الداخل سألت ابنها باللغة المحلية.

- ماذا قال لك؟

- فقال : لا شيء ذو قيمة.

اختفى والده داخل المنزل ثم عاد ليراها وهو فى مكتبه من خلال إحدى النوافذ، انتظرت الأم حتى تكون بمفردها مع عليس وعندئذ أصرت.

- قل لى من هي؟

- لا يوجد أحد - قال عليس.

أجاب بلا اهتمام ذلك أنه كان يراقب تحركات والده داخل المكتب فرآه يضع البرتقال فوق الخزانة وذلك حتى يقوم بحل الشفرة، وفي الوقت الذى أخذ يراقب فيه والده كانت أمه تراقبه هو.

- منذ زمن طويل وأنت لا تأكل الخبز - لاحظت الأم.
- لا أرغب.

سرعان ما اعتلت وجه الأم حيوية غريبة "هذا كذب - قالت - الموضوع هو أنك تعاني من الحب ومن هم على الجانب الآخر لا يستطيعون تناول الخبز" وتحول صوتها مثل عينها من ملامح التضرع إلى نغمة التهديد.

- الأجدرك أن تقول لى من هى - قالت - أو أن أقوم بإعطائك حماماً بالقوة لتطهيرك.

قام الهولندى بفتح الخزانة ووضع البرتقالات فى الداخل ثم عاد لإغلاق الباب المصفح. ابتعد عليس فى هذه اللحظة عن النافذة وقام بالرد على والدته بنغمة غير صبورة.

- لقد قلت لك أن لا أحد هناك - قال - وإذا لم تصدقنى فاسألى والدى.

ظهر الهولندى على باب المكتب وهو يقوم بإشعال الغليون كما كان يحمل الإنجيل الذى تفسخت جلدته تحت إبطه. فسأله المرأة بالأسبانية:

- على من تعرفتم فى الصحراء؟

- لا أحد - أجاب الزوج وهو ذاهل بعض الشيء - وإذا لم تصدقيني فاسألى عيسى.

جلس آخر الممشى وهو يدخن غليونيه حتى نفذ ما به من تبغ؛ وبعد ذلك فتح الإنجيل كيفما اتفق وأخذ يقرأ فقرات من مواضع مختلفة على مدار ساعتين، كان يقرأ بالهولندية وبصوت مسموع.

كان عيسى - حتى منتصف الليل - لا زال يفكر بتركيز لدرجة أنه لم يستطع النوم، أخذ يتقلب فى سريره المعلق لمدة ساعة محاولاً السيطرة على آلام الذكريات التى أعطته فى النهاية حافز اتخاذ القرار. وعندئذ نهض وارتدى البنطلون الجينز وقميص "كاروهات" اسكتلندى والحذاء المخصص لركوب الخيل، ثم قفز من النافذة وهرب من البيت وقد أخذ معه سيارة النقل الصغيرة المحملة بالعصافير. وعندما مر بحديقة البرتقال قطف البرتقالات الثلاثة الناضجة التى لم يستطع سرقها فى المساء.

وظل يسير فى الصحراء باقى الليل، وعند شروق الشمس أخذ يسأل فى القرى والعزب عن الاتجاه الذى سلكته إيرينديرا، لكن لا أحد يشفى غليله، وأخيراً قالوا له إنها تسير خلف فريق الحملة الانتخابية للسناتور أونيسيمو سانثيث وأنها يمكن أن تكون

فى هذه المرحلة فى قشتالة الجديدة، إلا أنه لم يجدها هناك بل كانت فى القرية التالية. لكن إيرينديرا لم تكن مع فريق الحملة ذلك أن الجدة استطاعت أن تجعل السناتور يشهد لها بحسن السير والسلوك من خلال ورقة كتبها بخط يده واستطاعت بهذه الورقة أن تفتح مغاليق الأبواب الموصدة أمامها فى الصحراء. وفى اليوم الثالث التقى برجل البريد الوطنى فساعدته على معرفة العنوان الذى يبحث عنه.

-إنهما متجهتان نحو البحر - قال له - وأسرع فى سيرك ذلك أن القحبة العجوز تريد العبور إلى جزيرة "أروبا".

وجد عليس فى الاتجاه الذى سلكه بعد نصف يوم من السفر الخيمة الكبيرة التى قامت الجدة بشرائها من سيرك كان فى طريقه للتفكك. المصور الجوال عاد ليرافقها، وهو هذه المرة على قناعة بأن الدنيا ليست واسعة كما كان يتصور، وعدته مهياة للعمل بالقرب من الخيمة، كما كانت هناك مجموعة من الموسيقيين من عازفى الآلات النحاسية تخلق لب زبائن إيرينديرا بفالس مهيب.

أخذ عليس دوره للدخول، وأول شىء لفت انتباهه كان النظافة والنظام داخل الخيمة. سرير الجدة قد أصبح على سابق عهده من الفخامة، ووضع تمثال الملاك فى مكانه المناسب بجوار

الصندوق الجنائزى للأماديسين، كما كان هناك (بانيو) معدنى يقوم على أرجل بهيئة أرجل الأسد. أما إيرينديرا فهى مستلقية على سريرها الجديد ذى الظلة، عريانة وهادئة وتشع منها ملامح الطفولة وهى تحت حزمات الضوء النافذة إليها عبر الخيمة. تنام وعيناها مفتوحتان، توقف عليس إلى جوارها وهو يحمل البرتقالات فى يده ولاحظ أنها كانت تنظر نحوه دون أن تراه، وعندئذ مرر يده أمام عينيها ونادى عليها باسم ابتكره ليفكر فيها :
- يا أريدنيرى.

استيقظت إيرينديرا، شعرت أنها عريانة أمام عليس، صاحت صيحة مكتومة وغطت نفسها بالملاءة حتى رأسها.

- لا تنظر إلىّ - قالت - أنا غير مهندمة.

- إنك بلون البرتقال - قال عليس، وقام بوضع الفاكهة على مستوى عينيها لتقوم هى بالمقارنة - انظرى.

كشفت إيرينديرا عينيها وتأكدت أن البرتقالات لها نفس لونها.

- الآن لا أريدك أن تبقى - قالت.

- إننى دخلت إلى هنا لأريك هذا - قال عليس -
تصورى.

قام بتقشير برتقالة طازجة بأظافره وقسمها بكلتا يديه وبين
لإيرينديرا عما بداخل البرتقالة: ففي داخل البرتقالة كانت هناك
ماسة حرة.

- هذه هي البرتقالات التي نأخذها إلى الحدود - قال.

- لكنها برتقالات حية - قالت باستغراب.

- بالطبع - ابتسم عليس - يقوم والدى بزراعتها.

لم تصدق إيرينديرا ذلك فكتفت عن وجهها وأخذت الماسة
بأصابعها وأخذت تتأملها وهي مندهشة. قال عليس:

- بثلاثة من هذه يمكن أن نطوف حول العالم.

أعادت إليه إيرينديرا الماسة وهي تشعر بقليل من الحماس،
أصر عليس.

- أضف إلى ذلك عندي سيارة نقل صغيرة - قال - ثم
... انظري !

أخرج من تحت القميص مسدساً قديماً.

- لا يمكن لى أن أغادر المكان قبل عشر سنوات - قالت
إيرينديرا.

- سوف تذهبين - قال عليس - هذه الليلة سوف أنتظرك
في الخارج وعليك انتهاز الفرصة عندما ينام سبع البحر الأبيض،

وسوف تكون كلمة السر هي تقليد صوت البومة . قام بتقليد صوت البومة ، ولأول مرة تضحك عينا إيرينديرا .

- إنها جدتي .

- البومة؟

- سبع البحر .

ضحكا . . لهذا اللبس لكن إيرينديرا استأنفت الحوار .

- لا أحد يستطيع أن يذهب إلى أى مكان دون إذن من جدته .

- لا يجب أن يقال لها شىء .

- هى ستعرف على أى الأحوال - قالت إيرينديرا : إنها تحلم بما يحدث .

- عندما تبدأ تحلم بأنك سوف تذهبن ، فإننا سنكون على الجانب الآخر من الحدود ، وسوف نعبرها مثل المهرين . . قال عليس .

أمسك بالمسدس كأنه بطل سينمائي وقلد صوت الطلقات ليقتنع إيرينديرا بإقدامه . لم تقل نعم أو لا لكن عينيها تنهدتا وودعت عليس بقبلة ، كان عليس قد عاش الانفعال ، ثم قال مغمغماً .

- غداً سوف نرى السفن وهى تمر .

وبعد السابعة بقليل من تلك الليلة كانت إيرينديرا تقوم بتمشيط الجدة عندما عادت رياح تعاستها لتهب من جديد . وفى حماية الخيمة ، هناك الهنود الحمالون وكذا مدير الفرقة الموسيقية فى انتظار قبض الأجر ، انتهت الجدة من عد النقود فى صندوق قريب منها ، وبعد أن اطلعت على دفتر الحسابات قامت بدفع الأجر لكبير مجموعة الهنود .

- ها هو مبلغ عشرون بيزو قيمة عمل الأسبوع يخصم منها ثمانية مقابل الأكل وثلاثة مقابل الشرب ، ويخصم منها نصف بيزو لحساب القمصان الجديدة والباقي هو ثمانية بيزو ونصف ، قم بعد المبلغ جيداً .

قام كبير الهنود بعد المبلغ وذهبوا جميعاً وهم يؤدون تحية الاحترام .

- شكراً يا بيضاء .

أما التالى فكان مدير الموسيقيين ، عادت الجدة لتطلع على دفتر الحسابات وتوجهت إلى المصور الذى كان يحاول لصق الكم القماش الأسود للكاميرا مستخدماً بعض الصمغ الهندى .

- علام اتفقنا؟ قالت له - هل ستدفع ربع مستحقات الموسيقيين أم لا؟

- لم يرفع الموسيقى رأسه ليجيب على سؤالها .
- الموسيقى لا تظهر فى الصور .
- لكنها تجعل الناس فى حالة نفسية جيدة للتصوير - قالت
الجلدة .
- على العكس من ذلك - قال المصور - إنها تذكرهم
بالموتى ، وبعد ذلك يظهرون فى الصورة وعيونهم مغمضة .
- تدخل مدير الفرقة الموسيقية .
- الموسيقى لا تجعل العيون مغمضة - قال - بل إنها
فلاشات التصوير ليلاً .
- إنها الموسيقى - أصر المصور .
- أنهت الجلدة الجدل " لا تكن بخيلاً " - قالت للمصور -
تأمل جيداً فى الوضع الممتاز الذى عليه السناطور أونيسمو سانشيث
وهذا بفضل مجموعة الموسيقيين المرافقين له . وبعد ذلك قالت
بلهجة حادة :
- عليك أن تدفع الجزء الذى يخصك أو أن تذهب بعيداً
عنا ، وليس من العدل أن تتحمل هذه المخلوقة الضعيفة كل
التفقات .
- إننى أسير نحو مصيرى بمفردى - قال المصور - فأننا
لست إلا فنناً .

هزت الجدة كتفيها وانشغلت مع الموسيقى وسلمته حزمة أوراق مالية طبقاً للرقم المدون في الدفتر.

- الحساب هو مائتان وأربعة وخمسون ورقة، قالت له -
فئة كل واحدة خمسون ستاً، وأضف إلى ذلك اثنين وثلاثين عن
أيام الأحاد وأيام الأعياد بمعدل ستين ستاً كل واحدة يكون
الإجمالي مائة وستة وخمسون بيزو وعشرون ستاً.

لم يأخذ الموسيقى المبلغ.

- المبلغ المطلوب هو مائة واثنان وثمانون بيزو وأربعون ستاً
- قال - ذلك أن الفالس أغلى.

- ولماذا؟

- ذلك أنه أكثر حزناً - قال الموسيقى.

- إذن فعليك أن تعزف لنا هذا الأسبوع مقطوعتين مرحتين
مقابل كل فالس أدين لك به. ونسوى الحساب بهذا الشكل.

لم يفهم الموسيقى منطق الجدة لكنه قبل بالحساب هكذا وهو
يقوم بفك رزمة الأوراق المالية. وفي هذه اللحظة كانت الرياح
العاتية على وشك أن تخلع الخيمة، وبعد أن سكنت سجع في
الخارج الصوت الحزين للبوم.

لم تدر إيرينديرا ماذا تفعل حتى تخفى توترها. قالت
بإغلاق صندوق النقود ووضعت تحت السرير، لكن الجدة أدركت

BIBLIOTECA
ALEX

ما بها من خوف من خلال يدها وهى تسلمها المفتاح - لا تخافى
- قالت لها - هذه الطيور عادة ما تكون موجودة فى ليالى
الزوايح، ومع ذلك لم تبد منها بادرة اقتناع وخاصة عندما رأت
المصور وهو يحمل الكاميرا على كتفه ويغادر المكان.

- ابق حتى الصباح إذا ما أردت - قالت له - فالموت طليق
السراح فى هذه الليلة.

سمع المصور صوت البومة، لكنه لم يغير من نيته.

- ابق يا بنى - أصرت الجدة - ولو كان هذا بفضل معزتك
عندى.

- لكن لن أدفع للموسيقى شيئاً - قال المصور.

- ما عدا هذا - قالت الجدة - إلا هذا.

- أترين؟ - قال المصور - إنك لا تحبين أحداً.

- إذن ابتعد - قالت - يا من ولدت يوم نحس!

كانت تشعر أنها مستغلة، ولهذا ظلت تصب عليه اللعنات
فى الوقت الذى تساعدها فيه إيرينديرا على النوم " ابن الأم
الملعونة، ما الذى يعرفه ابن الساقطة هذا عن قلوب الآخرين " لم
تهتم إيرينديرا وذلك لأن صوت البومة كان ينادى عليها بإصرار
فى اللحظات التى تسكن فيها الرياح. كانت تشعر بالرهبة من

جاء الحيرة. الجدة دخلت السرير سيرا على نفس الخطوات المعهودة فى المنزل الكبير القديم. وفى الوقت الذى كانت الحفيدة تقوم فيه بالتهوية عليها تجاوزت الجدة حالة الحنق والغيط وعادت تسترد تنفسها الطبيعى.

- عليك بالاستيقاظ مبكراً - قالت - وذلك حتى تقومى بغلى مياه الحمام الخاص بى وبه الأعشاب قبل أن يأتى الناس.
- حاضر يا جدتى.

- وفى الوقت الباقى أمامك عليك بغسل الملابس الداخلية المتسخة الخاصة بالهنود وبذلك نخصص المزيد من حسابهم للأسبوع القادم.

- حاضر يا جدتى - قالت إيرينديرا.
- ونامى ببطء حتى لا تتعبى فغداً الخميس هو أطول يوم فى الأسبوع.

- حاضر يا جدتى.
- وعليك أن تضعى الطعام للنعام.
- حاضر يا جدتى - قالت إيرينديرا.

تركت المروحة عند رأس السرير وقامت بإشعال شمعتين من الشموع أمام الصندوق الذى به رفات الموتى، ولما كانت الجدة قد نامت فقد أصدرت لها هذا الأمر متأخرة.

- لا تنسى إشعال شموع الأماديسيين .

- حاضر يا جدتى .

كانت إيرينديرا تعرف أنها لن تستيقظ، ذلك أنها بدأت تهذى . سمعت عواء الرياح حول الخيمة، لكنها لم تعرف هذه المرة أيضاً زوبعة تعاستها . أخذت تحملق فى الظلام حتى أخذ صوت البومة يتردد من جديد، وأخيراً تغلب حبها للحرية على الأسر السحري لجدتها .

لم تكد تسير خمس خطوات خارج الخيمة حتى وجدت المصور الذى يحزم حاجياته على الشبكة الخلفية للدراجة . كانت ابتسامته الماكرة مثاراً لتهدئتها .

- أنا لا أعرف شيئاً - قال المصور - وأنا لم أر شيئاً ولن أدفع للموسيقيين شيئاً .

ودعها ودعا لها بالبركة بإيماءة معروفة، اتجهت إيرينديرا جرياً نحو الصحراء وقد حزمت أمرها بشكل نهائى . واختفت فى ظلمة الرياح متجهة صوب صوت البومة .

فى هذه المرة لجأت الجدة إلى السلطة المدنية على الفور . وعندئذ قفز قائد الحامية المحلية من على سريره المعلق، فى السادسة صباحاً عندما أظهرت له رسالة التوصية التى وقعها السناتور . كان والد عليس ينتظر على الباب .

- كيف تريدني منى قراءتها، اللعنة - صاح القائد - إننى لا أعرف القراءة.

- إنها رسالة توصية من السناتور أونيسمو سانشيث - قالت الجدة.

قام القائد بسحب بندقية معلقة بالقرب من السرير ولم يوجه المزيد من الأسئلة، وأخذ يصيح موجهًا أوامره لأتباعه، وبعد خمس دقائق كان الجميع على متن شاحنة حربية صغيرة، أخذت تنهب الأرض متوجهة إلى الحدود، وكانت الرياح تهب فى الاتجاه المعاكس، الأمر الذى أدى إلى إزالة أى آثار للهاربين. القائد يجلس فى المقعد الأمامى إلى جوار السائق وخلفهما الهولندى ومعه الجدة. وفى كل مقعد من مقاعد العربة هناك أحد الجنود المسلحين.

أوقفوا قافلة الشاحنات المغطاة بالقماش العازل، بالقرب من القرية عندئذ قام عدد من الرجال الذين يسافرون مختبئين تحت الأغطية بتصويب مدافعهم الرشاشة وبنادق القتال على الشاحنة العسكرية، سأل القائد سائق الشاحنة الأولى عن المكان الذى وجد فيه شاحنة زراعية صغيرة محملة بالعصافير.

استأنف القائد سيره قبل الإجابة.

- لسنا جواسيس على أحد - قال باستياء - إننا مهربون.

رأى القائد المدافع والدخان يخرج من فوهاتهما وهى تمر
بالقرب من أمام عينيه فرفع ذراعيه وابتسم .

- عليكم أن تستحووا بعض الشيء - صاح فيهم - ولا
تسيروا هكذا فى وضح النهار .

كانت الشاحنة الأخيرة تحمل لافتة علقت على الجزء الخلفى
تقول : " أفكر فيك يا إيرينديرا " . الرياح تزداد قوتها كلما تقدموا
نحو الشمال ، وأخذت حرارة الشمس ترتفع ووصل الأمر إلى أن
أصبح من العسير التنفس بسبب الحر والتراب داخل الشاحنة
المغلقة .

كانت الجدة هى أول من لمح المصور : كان يغالب الرياح
فهو يأخذ الاتجاه الذى هم فيه ، ولم يكن معه أى وسيلة للحماية
إلا منديلاً ربطه على رأسه .

- ها هو هناك - أشارت إليه - إنه متواطئ معهما ، هذا
الذى ولد يوم شؤم .

أمر القائد واحداً من أتباعه بأن يتولى أمر المصور .

- أمسك به وانتظر فى هذا المكان - قال - سوف نعود .

قفز الجندى من مكانه ونادى على المصور مرتين ليتوقف .
لم يسمعه المصور نظراً لأن الرياح كانت تهب فى اتجاه عكس

الصوت، وعندما مرت به الشاحنة لوحت له الجدة بإشارة فيها الغار، إلا أنه فسرهما على أنها تحية، فابتسم ولوح لها بيده مودعاً، لم يسمع الطلقة، طار فى الهواء وسقط ميتاً على الدراجة وقد تهشم رأسه برصاصة بندقية لم يعرف من أين أتت.

قبل منتصف النهار، بدأوا يلاحظون وجود الريش الذى يطير فى الهواء، كان ريش عصافير جديدة، تعرف عليها الهولندى لأنه يخص عصافيره التى تنفث الرياح ريشها، فقام السائق بتصحيح المسار وداس على بدال البنزين بقوة ليزيد من سرعة السيارة، وقبل أن تنقضى نصف الساعة لمحو الشاحنة الصغيرة فى الأفق.

ولما رأى عليس ظهور السيارة العسكرية فى مرآة الشاحنة بذل جهده لزيادة فارق المسافة، لكن الموتور كان قد وصل إلى أقصى طاقته. كانا قد رحلا دون نوم وقد استسلما للإرهاق والعطش. كانت إيرينديرا تنام على كتف عليس، فاستيقظت مذعورة. إذ رأت السيارة العسكرية التى أصبحت قام قوسين منهما، وبعزيمة بريئة أخذت المسدس من الشنطة الأمامية فى الكابينة.

- لن يفيد شيئاً - قال عليس - إذ كان يخص فرانسيس دراك.

قامت بالدق عليه عدة مرات ثم ألقت به من النافذة.
تقدمت الدورية العسكرية الشاحنة الصغيرة المتهالكة والمحملة
بالعصافير التى تتنف الرياح ريشها، ثم قامت الشاحنة العسكرية
بالدوران قليلاً لتغلق الطريق أمام الشاحنة الصغيرة.

* * *

تعرفتُ عليها فى هذه الفترة التى كانت تعتبر من أزهى
عصورهما رغم أنه لم يكن من المستحب التعرض تفصيلياً لحياتهما
إلا بعد ذلك بأعوام طويلة. كان هذا عندما غنى رفايل إسكالونا
أغنية تعرض فيها للنتيجة الرهيبة للدراما، وبدأ لى أن من المناسب
سرد ذلك. لقد كنت أبيع الموسوعات وكتب الطب فى محافظة
"ديو أتشا"، كما أن البارو ثييدو ساموديو هو الآخر يطوف بتلك
النواحي لبيع ماكينات الجيلاتى المصنوع من البيرة، فأخذنى معه
فى الشاحنة التى يقودها وطففت معه بقرى الصحراء، وكان هدفه
أن يحدثنى عن شىء ما. وتحدثنا كثيراً عن أمور لا قيمة لها
وتناولنا الكثير من البيرة دون أن نعرف المكان والزمان الذى نعبر
فيه الصحراء ونصل إلى الحدود، ها هى خيمة الحب المتجولة
هناك وقد علقت عليها لافتات تقول: "إيرينديراهى الأفضل" كان
الطابور الطويل والمتعرج والذى يضم رجالاً من مختلف السلالات
والطبقات يبدو كأنه حية مكونة من فقرات إنسانية، نائمة فى
المناطق الخلوية والميادين وبين المحلات المتراصة والأسواق التى

يملؤها ضجيج البشر ثم تخرج من شوارع تلك المدينة الوعرة المليئة بالمهرجين الذين حطوا فيها بصفة مؤقتة. كان كل شارع كأنه مكان مفتوح للمغامرة، وكان كل منزل بمثابة (كانتين)، وكل باب ملجأ للمتهربين من التجنيد. كانت أصوات المقطوعات الموسيقية غير المفهومة والنداءات بصوت مرتفع كلها تشكل ضجيجاً مزعجاً وسط الحر المهلك.

بين هذا الجمع ممن لا وطن لهم، وهؤلاء الذين يطلبون الرزق أياً كان مصدره كان "بلاكمان" الطيب، يتكئ على منضدة وهو يطلب حية حقيقية ليحرب على نفسه الترياق الذى اخترعه. كانت هناك المرأة التى تحولت إلى عنكبوت لأنها عصت والديها، وكانت تقبض من كل من يريد لمسها خمسين سنتاً حتى يتأكدوا أن ليس هناك خدعة. وترد على الأسئلة التى توجه إليها حول سبب شقائها. كان من بين الجمهور أيضاً أحد مبعوثى الحياة الخالدة، وكان يعلن قرب مجيء الوطواط النجمى الطيار وبما ينقشه من كبريت سوف يؤثر على نظام الطبيعة وسوف يجعل أسرار البحار تطفو على السطح.

كان المكان الوحيد الذى يتميز بالهدوء هو حى التسامح الذى يأتى إليه بقايا ضجيج المدينة، هناك نساء قد أتين من مختلف الجهات يتشاءبن وهن جالسات فى صالونات الرقص المهجورة. كن قد نمن القيلولة وهن جالسات دون أن يوقظهن أحد

ليمارس الحب معهن، وظللن ينتظرن الخفاش النجمى تحت
المراوح ذات الأجنحة والمعلقة فى السماء المنبسطة. نهضت واحدة
منهن فجأة وتوجهت إلى إحدى الطرقات الممتلئة بزهور البنفسج
التي تطل على الشارع. كان الراغبون فى لقاء إيرينديرا يمرون
هناك.

- لى - صاحت فيهم - ما هو الذى عند تلك وليس عندنا
نحن؟

- إنها رسالة توصية من السناتور - صاح أحدهم.
خرجت نساء أخريات إلى الطريقة وقد شد انتباههن الصياح
والضحكات.

- منذ أيام الطفولة وهذا الطابور لا زال هناك - قالت
إحداهن - تصورى أن يقوم كل واحد منهم بدفع خمسين بيزو.
- فقالت التي خرجت أولاً مقررة :
- بالنسبة لى سوف أذهب لأرى ما الذى عليه ابنة السبعة
أشهر هذه.

- وأنا أيضًا - قالت أخرى - وهذا أفضل من البقاء هنا
وتسخين مكان الجلوس مجانًا.

انضم إليهن نساء أخريات وهن فى طريق الذهاب وعندما
وصلن إلى خيمة إيرينديرا كن قد كوّنَ فرقة مليئة بالجلبة ودخلن

عليها دون إذن. وأفرعن بضرباتهن الرجل الذى وجدنه وهو يقوم بالتمتع بأفضل شىء يمكن أن يجلبه له المال الذى دفعه، وأمسكن بسرير إيرينديرا وخرجن به كأنه محفة إلى الشارع.

- إن هذا عدوان - كانت الجدة تصيح - أيتها القافلة غير الآمنة يا لكن من هجمات.

ثم توجهت إلى الرجال الذين كانوا فى الطابور - وأنتم أيها الذكور، أين هى رجولتكم التى سمحت بهذا العدوان على مخلوقة ضعيفة - إنكم مختثون.

ظلت تصيح بأقصى ما يصل إليه صوتها وتقوم بتوجيه ضربات بهراوتها لهؤلاء الذين هم بالقرب منها، لكن غضبها تاه وسط صيحات الجمهور واستهزائه.

لم تستطع إيرينديرا الفرار من هذه المهزلة والسخرية ذلك أن جدتها كانت تربطها بسلسلة كلب فى أحد أجناب السرير منذ محاولة الفرار. لكن لم يمسسها أحد. لقد طافوا بها وهى على سريرها المغطى بالناموسية فى الشوارع المزدحمة وكأنهم يطوفون رمزياً بالتأثبة المقيدة بالسلاسل ثم يضعونها فى النهاية فى غرفة للحريق وسط الميدان الكبير. كانت إيرينديرا منكفئة على نفسها وتغطي وجهها لكن دون أن تبكى، وهكذا ظلت تحت وطأة حرارة الشمس وهى تعض - خجلاً وغيظاً - سلسلة الكلب التى

تمثل مصيرها المؤلم حتى جاء أحد الناس وترفق بها ووضع قميصاً عليها.

كانت هذه هى المرة الوحيدة التى رأيتها فيها، لكننى عرفت بعد ذلك أنها بقيت فى هذه المدينة المطلة على الحدود تحت حماية السلطات المحلية حتى أنفقت الجدة كل ما لديها من أموال وعندئذ تركتا الصحراء واتجهتا صوب البحر. كان من النادر أن يرى وفرة هائلة من ممالك الفقراء. كان الأمر عبارة عن طابور طويل من العربات التى تجرها الثيران حيث وضع فوقها نسخ مقلدة وغير جيدة من الأشياء التى لم تنج من الكارثة التى حلت بالمنزل الكبير. ولم يقتصر الأمر على التماثيل النصفية الإمبراطورية والساعات الغريبة بل أيضاً كان هناك بيانو، وكذلك ماكينة ذات مقبض ومعها اسطوانات الزمن الذى مضى. تولت قافلة من الهنود عملية الحمل كما تولت فرقة موسيقية الإعلان عن وصولها المظفر إلى القرى.

كانت الجدة تسافر وهى موضوعة على محفة مزينة بزهور ورقية وهى تقوم بمضغ الحبوب التى تستخرجها من كيسها وتحميها من الشمس مظلة كنسية. كان حجمها الضخم قد زاد وذلك لأنها كانت تضع تحت البلوزة صدىرى من قماش قلع المراكب تحفظ فيه سبائك الذهب كأنها طلقات مرصوفة فى حزام لحمل الذخيرة. كانت إيرينديرا إلى جوارها ترتدى لباساً زاهياً الألوان

ومعلقة حولها شرائط الزينة، لكن لا زالت سلسلة الكلب مربوطة
فى خلخال رجلها.

- ليس من حقك الشكوى - قالت لها الجدة عند الخروج
من المدينة الحدودية - فعندك ثياب كأثك الملكة وسرير فاخر وفرقة
موسيقية خاصة وأربعة عشر هندية فى خدمتك، ألا يبدو لك هذا
رائعاً؟

- بلى يا جدتى.

- وفى اليوم الذى أقضى نحبى فيه - واصلت الجدة - فلن
تكونى تحت رحمة الرجال فسوف يكون لك مسكنك الخاص فى
مدينة هامة، سوف تكونى حرة وسعيدة.

كانت رؤية جديدة وغير متوقعة للمستقبل، إلا أنها لم تعد
تحدث عن الدين القديم الذى تتعقد تفاصيله وتزداد قيمة
أقساطه، كما تعرضت التجارة لبعض العثرات، ومع ذلك لم
تتنهد إيرينديرا بشكل يعكس ما تفكر فيه. لقد أذعنت صاغرة
لعذاب السرير وسط الملاحات ووسط سبات القرى المطلة على
البحيرات وعلى السرير النقال المصنوع من القماش فى مناجم
التلك، بينما تقوم الجدة بتعداد ملامح رؤيتها المستقبلية كأنها تقرأ
الطالع من خلال أوراق الكوتشينة. وذات مساء، بعد الخروج من
شعب ضيق، تسما رياحاً تحمل أكاليل الغار القديمة وسمعا جلبة

تشبه الحوار الذى يدور فى جامايكا وشعرتا بشغف بالحياة وبعقدة فى القلب. ها هما قد وصلتا إلى البحر.

- ها هو أمامك - قالت الجدة وهى تتنفس الضوء الشفاف للكاريبى بعد أن قضينا نصف الحياة فى المنفى - ألا يطيب لك؟
- بلى يا جدتى.

قاموا بنصب الخيمة، قضت الجدة ليلتها وهى تتحدث دون أن تحلم وأحياناً تخلط ذكرياتها بشفافية رؤيتها المستقبلية ونامت على غير العادة ثم استيقظت وقد هدأت بصور البحر، ومع ذلك فعندما كانت إيرينديرا تقوم بمساعدتها فى حمامها عادت لتحدث عن تصوراتها للمستقبل، وكان حديثاً شغوفاً لدرجة أنه بدا وكأنه هذيان السهاد والأرق.

- ستكونين مالكة عظيمة الشأن - قالت لها- وسيدة عريقة النسب، ويحرمك من تحمينهن، وسوف تحظين بتقدير وكرم الكبار فى السلطة - وسوف يقوم قباطنة السفن بإرسال "كروت بوستال" لك من كل موانئ العالم.

لم تكن إيرينديرا تسمعها، كانت المياه الدافئة والمعطرة بالأعشاب تنساب فى البانيو عبر قناة تتغذى من الخارج، وكانت إيرينديرا تأخذ المياه بكوب من ثمرة التوتوم دون أن تتنفس وتصب الماء على الجدة بيد وتقوم بتصبينها باليد الأخرى.

- وسوف تطوف سمعة منزلك بكل مكان ابتداء من الكاريبي حتى ممالك هولندا - كانت تقول الجدة - وسوف يكون أكثر أهمية من منزل الرئاسة ذلك أنه فى هذا البيت سوف تتم مناقشة الشؤون الحكومية وسوف يتم تحديد مصير الأمة.

وفجأة انقطعت المياه الآتية من الخارج فخرجت إيرينديرا من الخيمة لتستطلع الأمر، فوجدت أن الهنـدى المكلف بصب المياه فى المزراب كان يقوم بتقطيع الأخشاب فى المطبخ.

- لقد انتهت المياه، ويجب تبريد المزيد منها.

توجهت إيرينديرا إلى الفرن حيث كانت هناك حلة أخرى كبيرة الحجم وبها الأوراق المعطرة بعد غليها، فغطت يديها بخرقـة من القماش وتأكدت من إمكانية رفع الحلة دون مساعدة الهنـدى.

- اذهب أنت - قالت له - سوف أقوم أنا بصب الماء.

انتظرت حتى خرج الهنـدى من المطبخ وعندئذ دفعت الحلة وهى تغلى من على النار وكلفها ذلك الكثير من الجهد حتى وصلت إلى المكان الذى تصب فيه المياه، وعندما تهيأت لصب المياه المغلية فى المجرى المؤدى إلى البانيو صاحت جدتها من داخل الخيمة.

- يا إيرينديرا

صاحت وكأنها تراها، فزعت الحفيدة من الصبيحة وندمت على فعلتها فى الحال .

- أنا قادمة يا جدتى - قالت - إننى أقوم بتبديد المزيد من المياه .

فى هذه الليلة ظلت تفكر حتى ساعة متأخرة من الليل ، بينما تغنى الجدة وهى نائمة مرتدية الصديرى المحشو بالذهب ، تأملتها إيرينديرا وهى فى سريرها بعينين نفاذتين كأنهما عينا قط فى الظلام ، ثم قامت كأنها غريق بوضع يدها على صدرها وعيناها مفتوحتين ثم نادت بأعلى صوت .

- يا عليس .

استيقظ عليس فجأة وهو فى المنزل المحيطة به حديقة البرتقال . كان قد سمع صوت إيرينديرا بوضوح شديد للدرجة أنه بحث عنها فى ظلمة الحجرة . وبعد هنيهة من التأمل قام بلف ملابسه وأخذ حذائه ثم غادر غرفة النوم ، كان قد عبر الشرفة عندما فاجأه صوت والده .

- إلى أين أنت ذاهب ؟

رآه عليس وكأنه معرض لضوء أزرق تحت ضوء القمر .

- إلى هذه الدنيا - أجاب .

- أنا لن أمنعك هذه المرة - قال الهولندى - لكنى أحذرك من شيء: سوف تحل عليك لعنتى فى أى مكان تذهب إليه. فقال عليس:

- ليكن هذا.

شعر الأب بمفاجأة فى رد ابنه، وشعر بشيء من الفخار لعزيمته وتصميمه فتابعه وهو يسير فى حديقة البرتقال التى يغمرها ضوء القمر بنظرة أخذت تنفرج أساريرها شيئاً فشيئاً. كانت امرأته خلفه جميلة كعادة بنات جلدتها من الهنديات، تكلم الهولندى عندما أغلق عليس الباب الكبير.

- سوف يعود - قال - وقد علمته الحياة، وسوف تكون عودته أسرع مما تتصورين.

- إنك شديد الفظاظة - تنهدت - لن يعود أبداً.

لم يسأل عليس هذه المرة عن الوجهة التى ذهبت إليها إيرينديرا فعبر الصحراء وهو يختبئ فى شاحنات مرت عرضاً وأخذ يسرق لياكل وينام، وكثيراً ما سرق لمتعة المخاطرة - حتى وجد الخيمة فى قرية أخرى من القرى المطلة على البحر، ومن هناك كانت ترى المباني الزجاجية الفخمة لمدينة تملؤها الأضواء حيث تسمع أصوات التحية الليلية التى تصدرها السفن المبحرة إلى جزيرة "أروبا". كانت إيرينديرا تنام وهى مربوطة بالسلسلة

وتأخذ فى رقدها وضع الغريق الذى يطفو على السطح تتقاذفه الأمواج، وهو نفس الوضع الذى كانت عليه عندما نادته. ظل عليس يتأملها لمدة طويلة دون إيقاظها لكنه تأملها بتمعن شديد حتى استيقظت. وعندئذ تبادلا القبلات فى الظلام وأخذ يداعب أحدهما الآخر دون عجلة من الأمر. وأخذا يخلعان ملابسهما رويداً رويداً ويعيشان الحنان الصامت والسعادة البريئة لدرجة كانا معها يشبهان الحب نفسه أكثر من أى وقت مضى.

فى الطرف الآخر من الخيمة تقلبت الجدة وهى نائمة وأخذت تهذى.

- كان ذلك فى الأيام التى وصلت فيه السفينة اليونانية - قال - كان طاقمًا مجنونًا يجعل النساء سعيدات، ومقابل الحب هو قطع الإسفنج وليس المال. كانت قطعاً إسفنجية حية أخذت تسير بعد ذلك وحدها فى أرجاء المنازل وهى تتن مثل المرضى فى المستشفيات وتدفع الأطفال للبكاء حتى تشرب دموعهم.

بعد ذلك تحركت كأن هناك دافع داخلى ثم جلست على السرير.

- كان ذلك عندما وصل هو - يا إلهى - صاحت - إنه أكثر قوة وضخامة وأكثر رجولة من أماديس.

أما عليس الذى لم يبد اهتماماً بهذيانها حتى تلك اللحظة فقد حاول الاختباء عندما رأى الجدة جالسة فى السرير. فهدأت إيرينديرا من روعه.

- اهدأ - قالت له - إنها عندما تصل إلى هذا الجزء من
الحلم تجلس فى السرير لكنها لا تستيقظ .
نام عليس على جانبه .
- أنا كنت أغنى فى تلك الليلة مع البحارة وفكرت أن ذلك
ربما كان هزة أرضية .

- استمرت الجدة - وظن كل الناس هذا الأمر ذلك أنهم فروا
وهم يصيحون ، وقد ملكت الضحكات لبهم . لكن لم يبق إلا هو
تحت سقف . إننى أتذكره كأنه بالأمس وكنت أنا أغنى الأغنية التى
كان جميع الناس يرددونها فى ذلك الزمان بما فى ذلك البيغوات
فى أفنية المنازل .
ولما كان من الممكن الغناء فقط فى الأحلام ، فإنها غنت
سطور مرارتها :

سيدى ، سيدى ، أعد إلى براءتى القديمة
حتى أتمتع بحبك مرة أخرى من البداية
فى هذه اللحظة أخذ عليس يصغى لذكريات الجدة
وحينها .

- ها هو هناك - كانت تقول - وهو يحمل ببغاء على كتفه
وبندقية من الطراز القديم لقتل آكلى لحوم البشر ، كان مجيئه مثل

مجيئ "غواترال" إلى "لاس غواياناس" أما أنا فقد شعرت
برائحة الموت فيه عندما وقف أمامي ورأيت كل النساء من كل
الأمم، وبذلك لا يمكن أن أقول لك من واقع خبرتي أنك أكثر
النساء رفعة ووداً وجمالاً على هذه الأرض.

ثم عادت لترقد من جديد وبدأ يصدر عنها صوت بكاء
ورأسها على المخلدة - ظل عليس وإيرينديرا فترة طويلة وهما
صامتان غارقان في الظلمة بسبب التنفس غير المنتظم للعجوز
النائمة. وفجأة سألت إيرينديرا بصوت واضح ونبرة لا خوف
فيها.

- هل تجرؤ على قتلها؟

أخذته المفاجأة، فلم يعرف بماذا يجيب.

- من يدري - قال - هل تجرؤين أنت؟

- أنا لا أستطيع - قالت إيرينديرا - ذلك لأنها جدتي.

وعندئذ لاحظ عليس مرة أخرى الجسم الضخم النائم وكأنه
يقوم بقياس حجم الحياه فيه ثم قال مقررًا.

- من أجلك يمكنني أن أفعل أى شىء.

اشترى عليس رطلاً من مبيد لقتل الفئران وأذابه في كريمة
ومربى الفراولة ثم أفرغ هذه الكريمة القاتلة في قالب للحلوى كان

قد أخرج منه حشوته الأصلية، وبعد ذلك وضع فوق القالب طبقة سميكة من الكريمة وأخذ يسويها بالمعلقة حتى أضاع كل الآثار المتعلقة بالعملية. وأكمل الخدعة باثنين وسبعين شمعة وردية اللون.

اعتدلت الجدة على العرش وأخذت تلوى الهراوة عندما رآته يدخل الخيمة وهو يحمل قالب الحلوى الخاص بالحفلة.

- أيها الوقح - صاحت - كيف تجرؤ أن تضع قدمك في هذا المنزل اختبأ عليس خلف وجهه الملائكى.

- أنا هنا من أجل طلب الصفح - قال - يوم عيد ميلادك.

خارت قوى الجدة أمام كذibته الحقيقية فأمرت بإعداد المائدة وكان الأمر هو عشاء حفلة عرس. وأجلست عليس على اليمين بينما إيرينديرا تقوم بخدمتهما. وبعد إطفاء الشموع بنفخة واحدة قوية قطعت قالب الشيكولاتة إلى قطع متماثلة وقدمت قطعة منها لعليس.

- إن الرجل الذى يستطيع أن يجعل الآخرين يسامحوه له نصف الجنة - قالت - أقدم لك أول قطعة فهى للسعادة.

- أنا لا أحب الحلويات - قال - بالهناء والشفاء لك.

قدمت الجدة قطعة أخرى لإيرينديرا فأخذتها إلى المطبخ وقذفت بها فى صندوق الزبالة.

أكلت الجدة باقى قالب الحلوى وحدها، فكانت تضع القطع بكاملها فى فمها وتبلعها بدون مضغ وهى تتلذذ بالطعام وتنظر إلى عليس من علوية المتعة، وعندما لم يتبق شىء فى الطبق الخاص بها أخذت القطعة التى رفض عليس تناولها. وبينما تقوم بمضغ آخر قطعة كانت تأخذ البقايا والفتافيت بأصابعها وتضعها فى فمها.

كانت قد أكلت زرنِيخًا يكفى لإبادة جيل كامل من الفئران، ومع ذلك بدأت تعزف على البيانو وأخذت تغنى حتى منتصف الليل ثم نامت سعيدة وعاشت الحلم المعتاد. أما الشىء الجديد فقد كان بعض الحشرة فى التنفس.

كانت إيرينديرا وعليس يراقبانها وهما فى السرير الآخر وكانا ينتظران آخر أنفاسها، لكن الصوت ظل حيًا كعادته عندما بدأت تهذى.

- لقد أطار صوابى، يا إلهى لقد أطار صوابى - صاحت - كنت أضع نبوتين غليظين خلف باب غرفة النوم حتى لا يستطيع الدخول، كما وضعت التسريحة والمنضدة أيضاً خلف الباب وفوقها الكراسى، لكن ضربة واحدة بخاتمه كانت كافية للإطاحة بكل هذا، فقد نزلت الكراسى وحدها من فوق المنضدة، أما المنضدة والتسريحة فقد ابتعدتا، وكذلك خرج النبوتان من بين الفتحات.

كانت إيرينديرا وعليس يتأملانها وقد أخذت علامات الاستغراب تزداد رويدًا رويدًا توافقًا مع عمق الهذيان ودراميته وتحول إيقاع الصوت إلى إيقاع حميم .

- كنت أشعر أنني سأموت وأنا غارقة في عرق الخوف وأنضرع وأنا في الداخل أن يفتح الباب دون فتح وأن يدخل هو دون دخول وألا يذهب أبدًا لكن ألا يعود مطلقًا حتى لا أضطر لقتله .

ظلت تجسد الدراما الخاصة بها لعدة ساعات، وصلت خلالها إلى سرد أدق التفاصيل كأنها عادت لتعيش نفس الموقف في الحلم، لكنها قبل شروق الشمس تقلبت في السرير لتأخذ وضعًا مريحًا فكانت حركتها كأنها هزة أرضية وتهدج صوتها إيذانًا بوشوك بكائها .

- لقد حذرتي، وضحك مني - كانت تصيح - وعدت للتحذير وعاد للضحك حتى فتح عينيه المفزوعتين وقال: آه يا ملكة آه يا ملكة، لكن الصوت لم يكن يخرج من فمه، بل كان يخرج من ضربة السكين التي في حنجرتي .

شعر عليس بالرعب لهذا الاستدعاء الرهيب للذكريات الذي تقوم به الجدة فأمسك بيد إيرينديرا .

- أيها العجوز القاتلة صاح متعجبًا .

لم تولى إيرينديرا أى اهتمام ذلك أنه فى هذه اللحظة أخذت خيوط الفجر تظهر ودقت الساعة الخامسة فى مختلف الساعات .

- اذهب قالت إيرينديرا - سوف تستيقظ .

- إنها حية ومليئة بالحياة كالفيل - تعجب عليس - هذا مستحيل

حدجته إيرينديرا بنظرة قاتلة

- الموضوع - قالت - هو أنك لا تجدى فى محاولة قتل أى إنسان .

تأثر عليس كثيراً بقسوة التأنيب وخرج هارباً من الخيمة ، استمرت إيرينديرا فى مراقبتها للجدّة النائمة وهى تكن لها الكراهية الخفية وتشعر بالغيط من الإحباط كلما زادت خيوط نور الصباح وازدادت شقشقة العصافير ثم رمقتها بابتسامة راضية .

- حفظك الله يا ابنتى .

والتغيير الوحيد الذى لوحظ هو عدم الانتظام فى الخطوات اليومية المعتادة . كان يوم أربعاء إلا أن الجدة أرادت أن ترتدى لباس الأحد وقررت ألا تستقبل إيرينديرا أى زبائن قبل الحادية عشرة وطلبت منها أن تطفى لها أظافرها بلون أحمر قانى وأن تقوم بتصفيف شعرها على طريقة الأبحار والأساقفة .

- لم أعش قبل ذلك مثل هذه الرغبة فى التقاط صورة لى
- قالت متعجبة .

بدأت إيرينديرا فى تصفيف شعر الجدة لكنها عندما وضعت
على رأسها المشط ذا الأسنان الواسعة وجدت بينها خصلة من
الشعر، وقامت مفزوعة بإظهارها للجدة التى قامت بفحصها
وحاولت أن تنتزع خصلة أخرى بأصابعها، وبقيت خصلة طويلة
من الشعر فى يدها فألقت بها على الأرض، ثم عادت لتجرب
مرة أخرى منتزعة خصلة أكبر بكلتا يديها وهى تكاد تموت ضحكاً
وتقوم بإلقاء الشعر فى الهواء بفرحة وسعادة غير مفهومة حتى
أصبحت رأسها كأنها ثمرة جوز مقشرة .

لم تعرف إيرينديرا أى شىء عن عليس إلا بعد أسبوعين
عندما سمعت صوت البوم خارج الخيمة، كانت الجدة قد بدأت
تعزف على البيانو وكانت مستغرقة فى ذكرياتها لدرجة أنها لم
تكن تعى ماحولها حولها . وتضع على رأسها باروكة من الريش
ذى الألوان الزاهية .

لبّت إيرينديرا النداء، وعندئذ لاحظت الفتيل الذى يخرج
من صندوق البيانو ويمتد عبر الأعشاب والحشائش ويتوه فى
الظلام، جرت إلى حيث عليس واختبأت إلى جواره بين
الشجيرات ورأى كلاهما وهما، يضغطان على القلب، ذلك

اللهب الأزرق الذى ذهب عبر الفتيل ماراً بالمنطقة المظلمة ودخل إلى الخيمة. ثم قال عليس :

- ضعى يديك على أذنيك .

فعل كلاهما ذلك ولكن دون حاجة، فلم يقع أى انفجار، أضيئت الخيمة من الداخل من جراء اشتعال سريع انفجر صامتاً ثم اختفى فى شكل عمود دخان لبارود مبلل . وعندما جرؤت إيرينديرا على الدخول معتقدة أن الجدة قد ماتت وجدها وقد تفسخت باروكتها وأصبحت البلوزة مهلهلة لكنها أكثر حيوية من أى وقت مضى إذ كانت تعمل على إخماد النيران باستخدام بطانية .

هرب عليس مستغلاً صيحات الهنود الذين أصابتهم الحيرة، ولا يدرون ماذا يفعلون، وذلك من جراء الأوامر المتناقضة التى كانت تصدرها الجدة . وعندما استطاعوا السيطرة على اللهب وتهوية الخيمة من الدخان كان الوضع يشبه عملية غرق سفينة .

- يبدو أنها من فعل ذلك الملعون - قالت الجدة - فالبيانو لا ينفجر بمحض الصدفة .

حاولت طرح كل الاحتمالات التى أدت إلى هذه الكارثة الجديدة ' لكن تهرب إيرينديرا وموقفها غير الواضح جعل الأمور غير جلية فى نظر الجدة، لم تجد أى مسلك مريب فى تصرفات

الحفيدة ولم تتذكر وجود عليس . وظلت مستيقظة حتى الفجر وهي تطرح الافتراضات وتقوم بحساب الخسارة - نامت سويعات بشكل متقطع - وفي صباح اليوم التالي قامت إيرينديرا بمساعدتها في خلع الصديري الذى به أسياخ الذهب . وجدت بقايق على كتفيها من جراء الحريق ، كما وجدت صدرها وقد احترق الجلد وظهر اللحم " هذا هو السبب الذى جعلنى لا أنام مرتاحة - قالت هذه العبارة فى الوقت الذى تقوم فيه إيرينديرا بوضع بياض البيض على الحروق - كما أننى حلمت حلمًا غريبًا " . حاولت التركيز لاسترجاع الحلم واستطاعت استحضار ذلك فى مخيلتها مثلما تفعل أثناء أحلامها . قالت :

- الحلم هو وجود طاووس على سرير أبيض .

شعرت إيرينديرا بالمفاجأة ، لكنها استعادت فى الحال التعبيرات المعتادة على وجهها .

- إنها بشرى طيبة - كذبت - الطاووس فى الأحلام هى حيوانات تعبر عن طول العمر .

- لسمع الله منه - قالت الجدة - لأننا عدنا من جديد من نقطة الصفر . عليك البدء من جديد .

لم يبدُ على إيرينديرا أى تأثر ، فخرجت من الخيمة وهي تحمل الضمادات فى طبق كبير وتركت الجدة وصدرها ملطخ

ببياض البيض، أما رأسها فكانت مغطاة بالخردل، كانت تضع المزيد من بياض البيض فى الطبقة، تحت الظلة المصنوعة من سعف النخيل والتي كان الفراغ الذى تحتها يستخدم كمطبخ. وفى هذه اللحظة ظهرت عيون عليس خلف الستائر وهى تنظر إليها مثل أول مرة من خلف سريرها. لم تفاجأ بل قالت له بصوت متعب. - الشئ الوحيد الذى فعلته هو أنك أسهمت فى زيادة ما علىّ من ديون.

ظهرت اللهفة والشغف فى عيون عليس وظل جامداً بلا حراك ينظر فى صمت لإيرينديرا ويراهها وهى تقوم بتكسير البيض بإيقاع يشير إلى الاحتقار الكامل وكأنه غير موجود. بعد هنيهة تحركت العيون وأخذت تطوف فى أرجاء المطبخ من الحلل والمطبقيات الخشبية والأطباق وسكين لتقطيع الذبائح. نهض عليس دون أن ينطق بشئ كما هى عادته ودخل تحت الظلة وأخذ السكين.

لم تنظر إليه إيرينديرا لكنها قالت له بصوت خفيض وهو يخرج من تحت الظلة:

- خذ حذرك فقد جاء لها نذير الموت، إذ حلمت بطاووس يقف على سرير أبيض.

رأت الجدة عليس يدخل ومعه السكين، فبذلت كل جهدها لتنهض دون الاعتماد على العصا ورفعت ذراعيها، وصاحت:

- هل جننت أيها الفتى؟

قفز عليس فوقها وطعنها طعنة قوية فى صدرها العريان،
فصدر عن الجدة أنين وألقت بنفسها فوقه وحاولت خنقه بذراعيها
الغليظتين اللذين تشبهان قوائم الدب.

- يا ابن الساقطة - أخذت تصيح - لقد تأخرت كثيراً فى
اكتشاف أن لك وجه ملاك خائن.

لم تستطع الجدة أن تنطق بأكثر من هذا، ذلك أن عليس
استطاع أن يحرر يده التى تحمل السكين وعاجلها بطعنة أخرى فى
الضلوع، فصدر عنها أنين أشد فظاعة، وأمسكت بالمعتدى بمزيد
من القوة، فعاجلها عليس بضربة لا رحمة فيها فكان أن خرج
الدم منها باندفاع شديد تطايرت بقع منه على وجهه: كان دمًا كأنه
الزيت لامعاً وأخضر اللون وكأنه غسل النعناع.

ظهرت إيرينديرا فى المدخل وهى تحمل الطبق فى يدها،
ولاحظت صراعاً تخيم عليه جراءة إجرامية. كانت الجدة ضخمة
تثن من الألم والغیظ، فأحكمت يدها على جسم عليس. غطى
الدم الأخضر ذراعيها وأوراها ورأسها الحليق. كانت تتنفس فتبدو
كأنها الكبير، وبين كل نفس وآخر تظهر أول بوادر الحشرجة، كل
ذلك كان يخيم على الجو. استطاع عليس أن يفك قيد يده التى
تمسك بالسكين مرة أخرى وقام بشق بطنها فكان أن تفجر الدم

وغطاه باللون الأخضر حتى أخمص قدميه، بينما الجدة تحاول استنشاق الهواء الذى كانت فى حاجة إليه لتواصل الحياة لكنها سقطت على بطنها. خلّص عليس نفسه من اليدين المترهلتين ولم يدخر وقتًا فقام بطعن الجسد الضخم الطعنة الأخيرة.

عندئذ وضعت إيرينديرا الطبق على منضدة ومالت على الجدة وأخذت تتفحصها جيدًا دون أن تلمسها. وعندما تأكدت أنها ماتت اكتسى وجهها بلامح إنسان ناضج كأنه لم تمض عليه عشرون سنة من الحظ التعس. وبحركات سريعة ومحدودة أخذت الصديرى الذهبى وخرجت من الخيمة.

ظل عليس جالسًا إلى جوار الجثة وقد أجهده الصراع، وكلما أخذ ينظف وجهه من هذه المادة الخضراء الحية كانت تزداد للدرجة بدا أنها تفور من أصابعه. ولم يع جيدًا لما هو عليه إلا عندما رأى إيرينديرا وهى تخرج من الخيمة حاملة معها الصديرى.

ناداها صائحًا لكنه لم يتلق أى إجابة، أخذ يزحف حتى مدخل الخيمة ورأى كيف أن إيرينديرا أخذت تجرى نحو شاطئ البحر فى اتجاه معاكس لاتجاه المدينة. وعندئذ بذل آخر ما عنده من جهد ليلحق بها وأخذ ينادى عليها بصيحات تعبر عن فقدان الأمل، فلم تعد صيحات العاشق بل صيحات الابن. لكن

الإرهاق الرهيب الناجم عن قيامه بقتل امرأة دون مساعدة أحد قد تغلب عليه . فأدركه الهنود الذين كانوا يعملون لحساب الجدة فوجدوه ملقى على الشاطئ ووجهه إلى الأرض وهو يبكي من الخوف والوحدة .

لم تسمعه إيرينديرا، كانت تسابق الريح لدرجة أنها تسبق الأيائل، ولم يكن هناك أى صوت فى العالم قادر على إيقافها، مرت وهى تجرى دون أن تلتفت بالبخار الناجم عن الملاحات ومناجم التلك وبالمساكن القائمة وسط البحيرات حتى انتهى كل ما يتعلق بالبحر، وظلت كذا حتى وصلت إلى الصحراء . لكنها واصلت جريها وهى تحمل الصديرى الذهبى إلى ما وراء الريح الساخنة وأوقات الشفق التى تطول وتطول، ولم يعد أحد يدرى عنها شيئاً، كما لم يعثر على أى أثر، ولو ضئيل لتعاستها .

المشروع القومي للترجمة

جابريل جارشيا ماركيث

الصيف السعيد للسيدة فوريس

ترجمة وتقديم
على إبراهيم على منوفى

مراجعة
صلاح فضل



الصيف السعيد للسيدة / فورييس

(١٩٧٦)

عندما عدنا إلى المنزل فى المساء وجدنا ثعبانًا بحريًا ضخمًا معلقًا من رقبتة فى إطار الباب. كان أسود اللون فسفوريًا، بدا لنا أنه تعويذة سحرية للعجر. كانت عيناه مفتوحتين وبهما حياة، أما أسنانه فبدت كأنها منشار صغير على فكين أصابهما الإعياء. كان عمرى آنذاك تسعة أعوام؛ شعرت بخوف شديد أمام هذا الشكل الذى يشير الهذيان لدرجة ذهب معها صوتى. لكن أخى الذى يصغرنى بعامين انتزع أنايب الأوكسجين والقناع وزعانف العوم وخرج مذعورًا وهو يصيح صيحة فزع. سمعته السيدة/ فورييس وهى على السلم الحجرى المتعرج الذى يمتد على طول الأرصفة ابتداء من المرسى وحتى المنزل. فأدركتنا وجاءت وهى تلهث وقد علت الزرقة وجهها. وبمجرد أن رأت الثعبان مدقوقًا على الباب، عرفت سبب الرعب الذى نحن فيه. عادة ما كانت تقول بأنه إذا ما كان هناك طفلان مجتمعين فكلاهما مذنبان بما قد يفعله كل واحد منهما على حدة. وعلى ذلك نهرت كلينا بسبب صيحات الفرع التى صدرت عن أخى وظلت تؤنبنا على عدم قدرتنا على السيطرة على أنفسنا. تحدثت إلينا بالألمانية وليس بالإنجليزية، كما كان ينص العقد الذى وقع معها لتعمل كمربية. وربما كان ذلك

لأنها كانت مذعورة هي الأخرى لكنها تقاوم الاعتراف
بمشاعرها، لكنها عادت لتحدث بالإنجليزية غير مستقيمة وعادت
إلى هوسها التربوى بمجرد أن استعادت شجاعته.

- إنها سمكة "أبو مرينا" الهيلينية - قالت - هكذا
يسمونها فقد كان قدماء الإغريق يقدسونها.

وفجأة ظهر "أوريستى" ذلك الفتى من أبناء المنطقة الذى
يعلمنا السباحة فى المياه العميقة.

ظهر بين الشجيرات الخاصة بنبات الكبار. يضع قناع
الغوص على جبهته ويرتدى بنطلون مسباحة قصير وحزاماً من
الجلد وقد علق به ست نصال مختلفة الأشكال والأحجام ذلك أنه
لا توجد لديه طريقة أخرى للصيد تحت الماء إلا الصراع جسداً
لجسد مع الحيوانات البحرية. يبلغ العشرين من العمر، وكان
يقضى أغلب وقته تحت الماء لدرجة بدا لنا معها أنه حيوان بحرى
ذلك أن جسده كان ملطخاً بالبقع الناجمة عن شحم الموتور.
وعندما رأته السيدة/ فُوربس لأول مرة قالت لوالدى إنه من
المستحيل أن يتصور المرء إنساناً أجمل منه، ومع ذلك لم يشفع له
جماله ووسامته من تعرضه للعقاب: فقد كان عليه أن يتعرض
لتأنيب وجه إليه باللغة الإيطالية لفعلته بتعليق "أبومرينا" على
الباب وليس لديه أى مبرر اللهم إلا إدخال الرعب على الأطفال.

وبعد ذلك أمرت السيدة فوريس أن يرفع الشعبان البحرى بحرص واحترام، فهو حيوان أسطورى، ثم طلبت منا أن نرتدى ملابسنا لتناول العشاء.

فعلنا ما أمرتنا به فى الحال، وحاولنا ألا نرتكب أية أخطاء ذلك أنه بعد أسبوعين من العيش فى ظل نظام السيدة/ فوريس كنا قد تعلمنا أن أصعب شىء هو أن يحيا المرء. وبينما نأخذ دُشًا فى الحمام غير المضاء لاحظت أن أخى لا زال يفكر فى "أبومرينا". قال لى: "كانت عيناه تشبه أعين البشر"، كنت على اتفاق معه فيما يقول لكننى جعلته يظن عكس ذلك واستطعت تغيير الموضوع حتى انتهيت من حمامى. لكن عندما خرجت من تحت الدش طلب منى أن أبقى لأرافقه. فقلت له:

- لم تغرب الشمس بعد.

قمت بفتح الستارة، كان الوقت خلال شهر أغسطس يرى عبر النافذة السهل الحار المقوس فى الجانب الآخر من الجزيرة، الشمس متوقفة فى السماء.

- ليس لهذا السبب - قال أخى - إننى خائف من الخوف.

ومع ذلك فعندما جلسنا إلى مائدة الطعام بدا هادئًا وقام بفعل كل شىء بدقة استحق عليها تهنئة خاصة من السيدة/ فوريس بالإضافة إلى درجتين أخريين لصالحه خلال هذا الأسبوع.

أما بالنسبة لى فقد خصمت منى درجتين من الدرجات الخمس التى كانت من نصيبى ذلك أننى سارعت فى خطاى فسمع وقع قدمائى، ووصلت إلى المائدة وأنا غير منتظم الأنفاس. وإذا ما حصلنا على خمسين درجة يكون من حقنا قطعنا حلوى لكن كلانا لم يتجاوز الخمس عشرة نقطة. كان الأمر مؤلماً حقاً ذلك أننا لم نتذوق حلو "البودين" فى مكان آخر أشهى من الذى كانت تعده السيدة/ فوريس.

كان العشاء يبدأ بأن نقف أمام الأطباق الخالية من الطعام لتتلو الصلوات والأدعية. لم تكن السيدة/ فوريس كاثوليكية. لكن العقد المبرم معها كان يفرض عليها أن تجعلنا نصلى ست مرات فى اليوم. كما تعلمت صلواتنا للوفاء بذلك. ثم نجلس ثلاثتنا ونحن نكتم أنفاسنا، بينما تقوم هى بفحص دقيق وشامل لكل تصرفاتنا. وعندما تتأكد من أن كل شىء على ما يرام وبالشكل المطلوب تقرر الجرس الصغير، وعندئذ تدخل "فوليا فلامينيا" الطباخة وهى تحمل شوربة الشعيرة التى عهدناها منذ زمن طويل خلال هذا الصيف الممل.

عندما كنا مع والدينا بمفردنا، كان الطعام مهرجاناً. فكانت فوليا فلامينيا تقوم بتقديم الأطعمة وهى تُقاى مثل الدجاج وتقدم الطعام بغير نظام ثابت مما يثير البهجة. ثم تجلس بعد ذلك على المائدة ويتهى بها الأمر أن تأخذ شيئاً من أطباقنا جميعاً. لكن منذ

أن تولت السيدة/ فوريس أمرنا، تقوم فولبيا بتقديم الطعام فى صمت مهيب لدرجة أننا كنا نسمع صوت الشورية وهى تغلى فى شكل فقاعات داخل السلطانية. كنا نتناول طعام العشاء وظهورنا مستقيمة مستندة على مسندة الكراسى، ونقوم بالمضغ عشر مرات على أحد الأشداق أخرى مثلها على الشدق الآخر دون أن تفارق عيوننا هذه السيدة الصارمة والنحيفة التى وصلت إلى خريف العمر، إذ كانت تتحدث من خلال ذاكرتها عن دروس المدنية، كانت دروساً تشبه قداس الأحد لكن ليس بها أى عزاء مثل غناء الناس فى القداس.

فى اليوم الذى وجدنا فيه الشعبان البحرى معلقاً فى الباب تحدثت إلينا السيدة/ فوريس عن الواجبات المقدسة نحو الوطن، بينما فولبيا فلامينيا تكاد تطير وتطفو فى الهواء الذى يملأ الصوت جنباته، وتقوم بتقديم قطعة فيليه - بعد تناول الشورية - وقد تم شواؤها على الفحم، كانت قطعة لحم بيضاء لها رائحة رائعة. وبالنسبة لى فمند تلك اللحظة كنت أفضل السمك على أى طعام آخر من الطيور أو الحيوانات، وكانت هذه الذكرى الخاصة التى أحملها فى منزلنا فى "غواكامايال" بمثابة شىء يثلج صدرى. لكن أخى رفض الطبق دون أن يتذوقه.

- لا أحبه - قال.

قطعت السيدة/ فوريس درسها

- لا يمكن لك أن تعرف ذلك - قالت له - فلم تذوقه بعد .

وجهت إلى الطباخة نظرة تحذير لكن بعد فوات الأوان .
- إن "أبو مرينا" هو أفضل سمك في الدنيا يا بنى - قالت له فولبيا فلامينيا - جربه وسترى صدق ما أقول .

لم يطرأ أى تغيير على السيدة/ فوريس . أخذت تقص علينا - بمنهجيتها غير الرحيمة - أن "أبو مرينا" هو طعام الملوك فى العصور القديمة وأن المحاربين كانوا يتصارعون من أجل الحصول على مرارة هذه السمكة ذلك أنها تنفث فيهم شجاعة تفوق الخيال . وبعد ذلك أخذت تكرر علينا كعادتها فى هذه الفترة القصيرة معنا أن المذاق الطيب ليس صفة لازمة ، كما أنها لا يتم تعلمها فى أى مرحلة من مراحل العمر ، بل يجب فرضها منذ الطفولة . وبالتالي ليس هناك أى مبرر لعدم الإقبال على تناول الطبق . أما أنا الذى كنت قد جربت "أبو مرينا" دون أن أعرف ما هو ، أصبحت أعيش حالة النقاش : فمن جانب أراه جميل الطعم رغم أنه حزين بعض الشيء لكن صورة الثعبان وهو معلق على طوق الباب كانت أكبر من شهيتى المفتوحة . بذل أخى أقصى جهد له مع أول لقمة من الطبق لكنه لم يستطع تحمله : تقياً .

- اذهب إلى الحمام - قالت له السيدة/ فوريس حراك - ونظف نفسك جيداً ثم عد لتناول الطعام .

شعرت بكرب شديد من أجله ذلك أننى كنت أعرف كم كان يتكلف من الجهد وهو يعبر وسط أرجاء المنزل وقد أوشكت الشمس على المغيب، ثم يبقى وحيداً فى الحمام طوال الوقت الضرورى لتنظيف نفسه. لكنه عاد سريعاً وهو يرتدى قميصاً نظيفاً، كان متفخ الوجه ولم تكدرعشة الخوف قد زالت عنه بعد، وقاوم الامتحان الخاص بمسألة النظافة جيداً، وحينئذ أخذت السيدة/ فوريس قطعة من "أبومرينا" وأمرت بمواصلة العشاء. أخذت أنا قطعة ثانية ووضعتها فى فمى رغم أنفى. أما أخى فلم يمد يده على أى شىء حتى على طاقم الشوك والملاعق.

- لن أكل هذا الطبق - قال.

كان واضحاً فى حزمه، لدرجة أن السيدة/ فوريس تفادت ذلك.

- حسن - قالت - لكن لن تناول الحلو.

أدت الراحة التى شعر بها أخى إلى تشجيعى، فوضعت الشوكة والسكين متعامدتين فوق الطبق علامة على الانتهاء من الطعام كما علمتنا السيدة/ فوريس، ثم قلت:

- وأنا أيضاً لن أتناول الحلو.

- ولن تشاهدا التلفزيون - أجابت هى.

- ولن نشاهد التلفزيون - قلت أنا.

وضعت السيدة/ فورس الفوطة على المائدة ونهض ثلاثنا للصلاة. وبعد ذلك طلبت منا الذهاب إلى حجرة نومنا وهي تحذرننا أننا يجب أن نخلد للنوم فى الفترة التى تحتاجها هى للانتهاء من تناول طعامها. هكذا تم محو كل الدرجات التى حصلنا عليها. ولن نستطيع التلذذ بتناول حلوى الكريمة أو قالب الفانيلى أو بسكويات البرقوق اللذيذ إلا بعد حصولنا على عشرين درجة. وهذا الصنف الأخير من الحلويات لم نعثر على مثيل له طوال حياتنا.

، الوصول إلى هذه القطعية كان مؤكداً، لكنها مسألة وقت، فلمدة عام كامل كنا ننتظر بفارغ الصبر هذا الصيف الحار الطليق فى جزيرة "بانتيلاريا" الواقعة فى أقصى الجبهة الجنوبية من صقلية. وكان صيفاً طليقاً خلال الشهر الأول حيث كان والدينا معنا. إننى لازلت أتذكر، حتى اليوم، فيما يشبه الحلم، ذلك السهل المشمس من الصخور البركانية وذلك البحر الخالد، وذلك المنزل المدهون بالجير القوى الألوان حتى غطى طبقة الطوب، والذى كنا نرى من نوافذه أثناء الليل الساكن الوميض المتلألئ للفتارات المطلة على سواحل أفريقيا. كنت أقوم مع والدى بالغوص فى الأعماق الموجودة حول الجزيرة، واكتشفنا سلسلة من الطورييدات الصفراء التى سقطت فى العمق منذ الحرب الأخيرة. كنا قد انتشلنا جرة إغريقية يبلغ طولها متراً تقريباً وعليها أكاليل

تقادت وأصابها العطب . كان بداخلها بقايا نبيذ لا يعرف أحد إلى أى زمن يعود . كان نبيذاً مُسمماً . ثم قمنا بالاستحمام فى منطقة هادئة تنبعث منها الأبخرة . كانت مياهها ثقيلة يكاد المرء يسير فوقها . لكن الاكتشاف الأغرب بالنسبة لنا تمثل فى فوليا فلامينيا . كانت تبدو كأنها أسقف معبد ، تسير وحولها مجموعة من القطط تضيق عليها الطريق الذى تسير فيه ، وتقول إنها لا تأوى هذه القطط حباً منها للحيوانات ، لكن حتى تحول دون أن تأكلها الفئران . وفى المساء عندما كان والدينا يشاهدان برامج تليفزيونية للكبار تأخذنا فوليا فلامينيا معنا إلى المنزل الواقع على بعد أقل من مائة متر من منزلنا وتقوم بتعليمنا كيفية تمييز أنواع الأصوات التى تسمع من بعيد والأغاني وصوت الرياح المتقطع القادم من تونس . كان زوجها رجلاً أكثر شباباً منها بكثير ، وكان يعمل طوال الصيف فى الفنادق السياحية الكاثنة على الطرف الآخر من الجزيرة ، يعود إلى المنزل للنوم فقط . أما الفتى أورستى فيعيش مع والده فى مكان أبعد قليلاً ، وكان يظهر دائماً أثناء الليل وهو يحمل جبل سمك وشبكة بها الجمبرى الذى انتهى للتو من صيده ثم يعلق كل ذلك فى المطبخ حتى يقوم روج فوليا فلامينيا ببيعه للفنادق فى اليوم التالى . بعد ذلك يضع بطارية الغوص على جبهته ويأخذنا لنصطاد الفئران الجبلية الكبيرة كأنها الأرانب ، كانت تعيش على فضلات المطابخ ، وأحياناً كنا نعود إلى المنزل

بعد أن يكون والدانا قد خلدنا للنوم . ولم يكن النوم يداعب جفوننا بسبب الأصوات الناجمة عن معارك تدور بين الفئران فى الأفنية من أجل الفور بالبقايا . ورغم هذا فقد كان أحد المكونات الغامضة الجميلة فى صيفنا السعيد .

أما قرار التعاقد مع مربية ألمانية فلم يدر إلا بخلد والدى أحد كتاب منطقة الكاريبي ، كثير الخلاء قليل الألمية . كان رماد الفاخر الأوروبية قد ملك عليه جماع عقله وكان ميالاً للتنكر لأصوله وجذوره سواء على صفحات كتبه أم فى الحياة اليومية وفرض على نفسه وهماً هو ألا يتبقى فى أبنائه أى أثر لماضيه . أما أمى فقد ظلت دائماً المرأة المتواضعة مثلما كان عليه حالها وهى تمارس وظيفة المعلمة فى أقاصى " غواطيرا " ولم يخطر ببالها أن تطوف بخلد زوجها فكرة إلا وكانت من وحى الإلهام . وبهذا لم يسأل كل منهما نفسه ويحكم قلبه حول نمط المعيشة التى سنعيشها مع " مساعدة عسكرية " من دورموند ، تبذل ما فى وسعها لتعلمنا بالقوة العادات المهجورة عن المجتمع الأوروبى بينما يقوم والدينا مع أربعين مؤلفاً من مؤلفى العصر بالتنزّه على ظهر عبارة ثقافية لمدة خمسة أسابيع بين جزر بحر إيجه .

وصلت السيدة/ فوريس فى السبت الأخير من شهر يوليو على متن مركب صغير وعادى قادمة من باليرمو ، ومنذ أن رأيناها لأول مرة شعرنا بأن البهجة قد ولت عنا . جاءت وهى تلبس

حذاء برقبة يشبه أحذية الميليشيات وترتدى فستاناً ياقته كبيرة ومتعانقة وسط هذا الحر. أما شعرها فقد كان قصيراً كأنه شعر رجل يضع قبعة من اللباد. كانت رائحتها تشبه رائحة بول الرجال " كل الأوروبيين رائحتهم هكذا وخاصة فى الصيف " قال لنا والدى. "إنها رائحة الحضارة". لكن خلافاً لمظهرها العسكرى فالسيدة فوريس كانت مخلوقاً نحيف الجسد ربما كان يثير شفقتنا إذا ما كنا كباراً فى السن أو كان عندها بقايا حنان. أصبحت الدنيا غير الدنيا. فالساعات الست التى كنا نقضيها فى البحر والتى كانت منذ بداية الصيف ممارسة دائمة للخيال أصبحت ساعة واحدة لا تبديل فيها كأنها الرتابة نفسها. عندما كنا برفقة والدينا نتمتع بكل ما نريد من وقت لنسبح مع أورستى وقد شعرنا بالدهشة أمام الفن والجرأة التى يواجه بها الأخطبوط البحرى وهو فى مكمنه وقد اعتلته الأحبار والدم وليس فى يده إلا سكاكين المصارعة التى يحملها. وبعد ذلك ظل يأتى فى الحادية عشرة وهو على متن اللنش الصغير، كما كان يفعل دائماً. لكن السيدة/ فوريس لم تكن تسمح له أن يمكث معنا، أكثر من الوقت المحدد لحصة الغوص ولو لدقيقة واحدة. منعنا من الذهاب ليلاً إلى منزل فولبيا فلامينيا ذلك أنها تعتبر ذلك ودّاً رائداً عن الحد مع العامة. واضطربنا أن نخصص الوقت المتبقى من صيد الفئران فى قراءة تحليلية لأعمال شكسبير. ولما كنا قد تعودنا سرقة ثمار المانجو

ومطاردة الكلاب حتى قتلها بالحجارة فى الشوارع الحارة لغوا كما يال كان من المستحيل علينا تصور شىء أكثر فظاعة من حياة الأمراء هذه .

لكن سرعان ما أدركنا أن السيدة/ فوربس لم تكن صارمة مع نفسها مثلها هو الحال معنا . وذلك أول شرخ فى سلطاتها . كانت - فى البداية - تظل على الشاطئ تحت الشمسية الملونة وهى ترتدى ملابس البحر وتقرأ قصائد لشيلر بينما يقوم أورستى بتعليمنا الغوص ، وبعد ذلك تقوم بإعطائنا دروساً نظرية حول السلوك الاجتماعى ويمتد الدرس ساعات وساعات حتى يحين وقت الغذاء .

طلبت ذات يوم من أورستى أن يحملها فى النش إلى المحلات السياحية التابعة للفنادق ثم عادت وقد اشترت لباس بحر من قطعة واحدة لونه أسود متموج كأنه جلد سبع البحر ، لكنها لم تنزل البحر أبداً ، إذ كانت تأخذ حمامات شمسية على الشاطئ بينما نقوم نحن بالعموم . ثم تقوم بتجفيف عرقها بالفوطة دون أن تصب الماء على نفسها من الإناء الذى تحمله . وبعد ثلاثة أيام كانت تبدو وكأنها جمبرى إحمر لحمه من الحر وتحمل رائحة حضارتها لدرجة لا يمكن التنفس معها .

كانت تقضى الليل فى استرخاء ، فمنذ أن بدأ حكمها كنا نشعر بخطوات تدور فى المنزل المظلم وتتحسس طريقها وسط الظلام وقد أصاب ذلك أخى بالقلق . وفكر أن تكون هذه هى

خطوات الغرقى تطوف بالمنازل وهى حكايات طالما قصتها علينا فوليا فلامينيا. وسرعان ما اكتشفنا أنها السيدة/ فوريس إذ كانت تقضى الليل تمارس الحياة العادية لامرأة تعيش بمفردها. هى نمطية الحياة التى تؤنب نفسها عليها أثناء النهار. وفى فجر أحد الأيام فاجأناها وهى فى المطبخ ترتدى قميص النوم الذى يشبه قميص الطالبات. تقوم بإعداد الحلوى اللذيذة وكان كل جسدها قد تلطخ بالدقيق حتى وجهها، تتناول كأساً من النبيذ البرتقالى ويعتريها نوع من عدم الدقة والتردد كان السبب فيه الاشمئزاز الذى عليه السيدة/ فوريس الأخرى. ومنذ هذه اللحظة عرفنا أنه بعد أن نذهب إلى حجرة نومنا لم تكن تخلد هى للنوم، بل كانت تنزل للسباحة خلسة، أو أن تظل فى الصالة حتى ساعات متأخرة من الليل تشاهد الأفلام الممنوعة على الصغار فى التلفزيون بينما تتناول قوالب كاملة من الحلوى وتشرب زجاجة كاملة من نبيذ خاص احتفظ به والدى للمناسبات الخاصة. كانت تناقض كل ما تحدث به عن التقشف والاتزان فى السلوك بأن كانت تلتهم القطع التهاماً ويشغف لا حدود له. ثم كنا نسمعها بعد ذلك تتحدث وحدها وهى فى حجرتها، إذ كانت تقوم بقراءة متأنية بالألمانية لفقرات كاملة.

كنا نسمعها وهى تغنى وتتحبب فى سريرها حتى الصباح. ثم تظهر بعد ذلك على مائدة الإفطار وقد تضخمت عيناها من

كثرة البكاء وتزداد حزناً وتشدداً. فارقتنا السعادة والمرح أنا وأخى
لكنتى كنت على استعداد لتحملها حتى النهاية ذلك أننى أعرف
أن حجبها هى التى ستتغلب على حجبنا. أما أخى فقد دخل فى
مواجهة معها بكل حدة طابعة وتحول الصيف السعيد إلى جحيم.
وكانت واقعة "أبو مرينا" هى النقطة التى طفح معها الكيل، ففى
تلك الليلة، وعندما نحن فى سريرنا نسمع الحركة الدائبة للسيدة
فوربس، فى هذا المنزل النائم. قال أخى بكل ما فيه من عزم
النقمة:

- سوف أقتلها.

كانت مفاجأة لى، ليس للقرار فقط، بل للتوافق العجيب
ذلك أننى كنت أفكر فى هذا الأمر منذ العشاء. ومع ذلك حاولت
كبح جماحه. فقلت:

- سوف يقطعون رقبتك.

- لا توجد مقصلة فى صقلية - قال - كما أنه لن يعرف
أحد من القاتل.

كان يفكر فى الجرة التى انتشلت من الماء والتى لا زال فى
قاعها بقايا النبيذ السام. كان والدى يحتفظ بها وذلك لأنه يريد
تحليله لمعرفة طبيعة ذلك السم الذى لا يمكن أن يكون قد تكون
بمرور الزمن. واستخدام هذا السم لقتل السيدة/ فوربس هو أمر

غاية فى السهولة ولن يفكر أحد فى الأمر إلا على أنه حادثة أو انتحار. والخلاصة أنه عند الفجر وعندما تسقط فريسة السهاد نقوم بأخذ السم الذى فى الجرة ونخلطه بزجاجة النبيذ الجيد الخاص بوالدى، وطبقاً لما سمعنا فإن هذه الجرعة تكفى للقضاء على حصان.

كنا نتناول الإفطار فى المطبخ فى تمام التاسعة، وكانت السيدة/ فورييس هى التى تقوم بنفسها بإعداده لنا، نتناول فيه الخبز المسكر الذى تأتى به فوليا فلامينيا مبكراً وتضعه فوق الفرن. وبعد ذلك يومين أى بعد أن وضعنا السم فى الزجاجة، وبينما نتناول طعام الإفطار الملح لى أخى بعينه لنذكر ونحن غير سعيدين أن الزجاجة المسممة ظلت كما هى لم تُمس. كان ذلك يوم الجمعة وظلت الزجاجة طوال نهاية الأسبوع دون أن يقنص منها شىء، لكن السيدة/ فورييس شربت ليلة الثلاثاء نصف الزجاجة وهى تشاهد الأفلام الفاضحة فى التليفزيون.

ومع كل هذا حضرت كعادتها اليومية طعام الإفطار صباح الأربعاء. كان وجهها مثل العادة وجه امرأة قضت ليلة تعسة. أما العينان فقد كان يطوف بهما شغف واضح أخذ يزداد عندما وجدت فى سلة الخبز المسكر رسالة تحمل طوابع ألمانية. قرأت الرسالة وهى تتناول القهوة رغم أنها كررت علينا كثيراً أنه لا يجب فعل ذلك. وأثناء القراءة كانت تكسو وجهها انفراجة مؤقتة

تنقلها لها الكلمات المكتوبة. وبعد ذلك انتزعت الطوابع من الظرف ووضعتها فى السلة مع الخبز المتبقى وذلك لتكون جزءاً من مجموعة الطوابع الخاصة بزواج فوليبيا فلامينيا. ورغم الفكرة السيئة التى أخذناها عنها منذ البداية رافقتنا فى رحلة الغوص ذلك اليوم وظللنا نسبح فى بحر خفيف المياه حتى انتهى الأوكسجين فى الأنابيب، وعدنا إلى المنزل دون درس السلوكيات الاجتماعية. كانت السيدة/ فوربس معتدلة المزاج ذلك اليوم أضف إلى هذا أنها بدت أثناء العشاء وهى أكثر حيوية عن ذى قبل. لم يتحمل أخى حالة فقدان الأمل. فعندما تلقينا الأمر بالبداية فى تناول العشاء بطبق شوربة الشعيرة أزاح الطبق بطريقة استفزازية. وقال:

- لقد سئمت هذه المياه المخلوطة بالديدان.

كان الأمر بمثابة إلقاء قنبلة على المائدة - انتفخ وجه السيدة/ فوربس وتوترت شفاتها وانطبقت فوق بعضها إلى أن زال دخان الانفجار وكست الدموع رجاس نظارتها. ثم رفعتها عن عينها وجففتها بالفوطة ثم وضعتها على المائدة قبل أن تنهض وهى تشعر باستسلام لا فخار فيه.

- افعل ما شئتما - قالت - فأنا غير موجودة.

دخلت إلى غرفتها منذ الساعة. لكنها خرجت منها قبل منتصف الليل وقد ظنت أننا خلدنا إلى النوم فرأيناها وهى ترتدى

قميص نوم الطالبات تتجه إلى المطبخ ثم تعود إلى غرفة نومها وقد حملت معها نصف قالب من الشيكولاتة والزجاجة التي تبقى بها ما يزيد قليلاً عن أربعة قراريط من النبيذ المسموم. شعرت لحظتها برعشة الأسى.

- مسكينة يا سيدة / فوريس - قلت.

لم يكن أخى يتنفس بشكل هادئ. قال:

- الساكين هم نحن إذا لم تمت هذه الليلة.

عادت تتحدث وحيدة في تلك الليلة وظلت هكذا لفترة غير قصيرة وأنشدت لشيلر بصوت عال وكأنها أصيبت بجنون مفاجئ وأنهت إنشادها بصيحة دوت في أرجاء المنزل، ثم تنهدت كثيراً بعد ذلك حتى وصلت التنهدات إلى أعماق روحها وأخذت تصدر صفيراً حزيناً ومستمرّاً كأنها قارب تتقاذفه الأمواج. وعندما استيقظنا كنا نشعر بالإرهاق بسبب التوتر والسهاد، كانت الشمس تدخل عبر النافذة في شكل حزمة ضوء، إلا أن البيت بدا وكأنه غارق في صمته. عندئذ أدركنا أن الساعة قد اقتربت من العاشرة ولم يوقظنا أحد بناء على عادة السيدة/ فوريس. فلم نسمع صوت المياه وهي تنساب بقوة من "السيفون" إلى المراض في الثامنة صباحاً، ولم نسمع صوت حنفية حوض الغسيل أو صوت "شيش" النوافذ وهو يرفع ولم نسمع وقع حديد حذائها أو

الضربات الثلاث القاتلة على الباب بكف يدها. وضع أخى أذنه على الحائط وكنم أنفاسه حتى يتمكن من سماع أى مؤشر للحياة فى الحجرة المجاورة، وفى النهاية صدرت عنه تنهيدة الشعور بالحرية.

- انتهى الأمر ! - قال- الشيء الوحيد الذى يسمع هو صوت البحر.

أعددنا إفطارنا قبل الحادية عشر بقليل، ثم نزلنا بعد ذلك الشاطئ ونحن نحمل اثنتين من الأنايب لكل واحد منا بالإضافة إلى اثنتين آخريين كاحتياطي، وذلك قبل مجئ فوليا فلامينيا بمرافقيها من القطط، لتقوم بتنظيف المنزل. كان أوريسى فى الميناء يقوم بتنظيف سمكة وزنها ستة أرتال اصطادها للتو. قلنا له إننا انتظرنا السيدة/ فوريس حتى الحادية عشرة، ولما ظلت نائمة قررنا النزول وحدنا إلى البحر، وقصصنا عليه، بالإضافة إلى ذلك، أنها كانت تبكى فى الليلة السابقة وهى جالسة على مائدة العشاء، وربما نامت نوماً غير طبيعى، وفضلت البقاء فى السرير. لم يهتم أوريسى كثيراً بالشرح وذلك ما كنا نتوقعه وذهب بنا لنغوص فى أعماق البحر لما يزيد عن الساعة بقليل. وبعد ذلك طلب منا أن نذهب لتناول الغذاء، ثم ذهب فى اللش ليبيع السمكة لأحد الفنادق السياحية. ودعناه ونحن على السلم الحجرى وجعلناه يظن أننا متوجهين إلى المنزل حتى اختفى عن ناظرينا، وبعد ذلك

وضعنا أنابيب الأوكسجين وعدنا نسبح دون إذن من أحد.

كان الجو غائماً، وكانت تشم رائحة الرعد القاتم في الأفق، لكن البحر كان ساكناً وشفافاً، وكان مكتفياً بضوئه هو. قمنا بالسباحة على السطح حتى خط الفنار المسمى "بانثيلاريا" ثم انحرفنا بعد ذلك وسرنا مائة متر على اليمين ثم قمنا بالغوص في المكان الذي اعتقدنا أننا رأينا فيه صف الطوربيدات الحربية في بداية الصيف.

كانت هناك ستة طوربيدات مدهونة باللون الأصفر وعليها أرقاماً مسلسلّة وملقاة في الأعماق البركانية في نظام لا يمكن أن يكون بمحض الصدفة. وبعد ذلك واصلنا الطواف حول الفنار بحثاً عن المدينة الغارقة التي حدثتنا عنها فوليا فلامينيا كثيراً، لكن لم نعثر لها على أثر. وبعد ساعتين صعدنا إلى سطح المياه بعد أن اقتنعنا أن ليس هناك المزيد من الأسرار، ولم يتبق معنا إلا القليل من الأوكسجين.

كانت قد بدأت عاصفة من عواصف الصيف ونحن نسبح، البحر هائج وهناك أسراب من الطيور الآكلة للحوم، تحوم وهي تصبح صياعاً حاداً مقتتلة حول بقايا الأسماك الملقاة على الشاطئ، لكن ضوء المساء لم يكن قد بدأ بعد، كما أن الحياة جميلة بدون السيدة/ فوريس. ومع ذلك عندما انتهينا من صعود

السلم الحجري رأينا المنزل وأمامه جمع غفير، وسيارتى بوليس، عندئذ أدركنا جيداً حقيقة ما فعلناه. ارتعد أخى وحاول الرجوع عن دخول المنزل.

- أنا لن أدخل المنزل - قال.

أما أنا فقد كنت أخمن تخميناً غامضاً يقول بأنه لو شهدنا الجثة مجرد مشاهدة فسوف ننجو من أى شبهة.

- كن هادئاً - قلت له - عليك أن تتنفس بعمق وفكر فى شيء واحد : نحن لا نعرف شيئاً.

لم يهتم بنا أحد، تركنا أنابيب الأوكسجين والأقنعة والزعانف على الباب الرئيسى ودخلنا الردهة الخلفية حيث كان هناك رجلان يدخان وهما جالسان على الأرض إلى جوار سرير نقال. عندئذ أدركنا أن هناك عربة إسعاف على الباب الخلفى وبعض العسكريين المسلحين بالبنادق. أما الصالة فكانت هناك نساء الجوار وهن يصلين بلغتھن المحلية، كن جالسات على الكراسى التى رصھا إلى جوار الحائط، بينما الأزواج قد وقفوا فى الفناء وهم يتحدثون عن أشياء لا علاقة لها بالموت. ضغطت بقوة على يد أخى التى كانت جامدة وسرت فيها رعشة برودة، ودخلنا المنزل عبر الباب الخلفى. كانت حجرة نومنا مفتوحة وهى على نفس الحالة التى تركناها عليها. أما حجرة السيدة/ فوريس فكانت

هى الحجرة التالية وكان بها أحد الرجال المسلحين يراقب المدخل، لكن الباب كان مفتوحاً. تطلعنا إلى الداخل ونحن نمسك قلوبنا بأيدينا ولم نكد نفعل ذلك حتى خرجت فولبيا فلامينيا من المطبخ كأنها السهم وأغلقت الباب وهى تصيح صيحة مفزعة.

- بحق الله يا أبنائي لا تنظروا إليها !

كانت صيحتها متأخرة، فلن ننسى طوال حياتنا ما رأيناه فى تلك اللحظة الخاطفة، كان هناك رجلان يرتديان ملابس مدنية ويقومان بقياس المسافة بين السرير والحائط بينما يقوم آخر بالتقاط الصور بكاميرا لها كم أسود مثل المصورين الذين يطوفون بالحدائق. لم تكن السيدة/ فوربس على السرير غير مرتب الفراش، كانت ملقاة على جانبها بعض الشيء على الأرض وهى عريانة وغارقة فى بركة دماء جافة كانت قد غطت أرض الحجرة بالكامل، كما كان جسمها تغطيه طعنات مختلفة، كانت سبعة وعشرين طعنة قاتلة، وانطلاقاً من كثرة الطعنات وحدتها يلاحظ أنها عوملت بقسوة بسبب حب لا يعرف الكلل، وأن السيدة/ فوربس قد تلقت هذه الطعنات بنفس الشغف دون أن تصيح بل كانت تبكى وهى تتشد لشيلر بصوتها العذب الذى يشبه صوت الجندي وعلى وعى كامل بأن ذلك هو الثمن الحتمى لصيفها السعيد.

المشروع القومي للترجمة

جابريل جارشيا ماركيث

جئت لأتصل بالهاتفون فقط

ترجمة وتقديم
على إبراهيم على منوفى

مراجعة
صلاح فضل



جئت لأتصل بالتليفون فقط

(١٩٧٨)

ذات مساء ممطر من أمسيات الربيع وعندما كانت ماريا لوث ثربانتس تسافر وحدها تعرضت السيارة التى استأجرتها لعطل فى صحراء "مونيجروس". كانت مكسيكية، تبلغ من العمر سبعاً وعشرين عاماً، جميلة وجادة، وقد حازت قبل سنوات نصيباً من الشهرة كممثلة لأدوار مختلفة. متزوجة بواحد ممن يؤدون الألعاب السحرية فى الصالونات، وفى ذلك اليوم كانت عائدة إليه بعد زيارة قامت لبعض أقربائها فى سرقسطة، ويعد ساعة من النداءات غير المجدية على السيارات المارة والشاحنات التى تمر مندفعة وسط عاصفة المطر أشفق عليها سائق أتوبيس متهالك. وحذرها إلى أنه لن يذهب بعيداً.

- لا يهم - قالت ماريا - إن ما أريده فقط هو الاتصال بالتليفون.

كان ما تقول صحيحاً، إذ هى فى حاجة إلى التليفون لتبلغ زوجها أنها لن تضل قبل الساعة مساءً، تبدو كأنها طائر مبلل وهى ترتدى معطفاً من المعاطف الطلابية وتلبس حذاء مخصصاً للشاطئ خلال شهر أبريل، كما كانت خائفة لأنها لم تأخذ حذرها وتحمل معها مفاتيح السيارة. كانت هناك امرأة تسافر إلى

جوار سائق ذى هيئة عسكرية لكنه حسن التصرفات إذ أعطاها فوطة وبطانية ويحث لها عن مكان بجانبه، وبعد أن جففت نفسها بعض الشيء جلست والتحففت البطانية وحاولت إشعال سيجارة من السجائر القليلة التى نجت من مياه المطر. وبينما تدخنان فتحت ماريا باب الحوار لتفرج عن نفسها بالكلام. صوتها أعلى من صوت المطر وإيقاع صوت الأتوبيس. قاطعتها المرأة وهى تضع سبابتها على شفيتها. وهمست لها.

- إنهن نائمات.

نظرت ماريا من أعلى كتفها ورأت أن الأتوبيس كان مليئاً بنساء ذوات أعمار متقدمة وأوضاع اجتماعية مختلفة. كُن نائمات وهن يلتحفن بطانيات مماثلة لتلك التى معها. أصابت ماريا عدوى راحتهم فتمكن من مقعدها وتركت نفسها لصوت المطر. وعندما استيقظت كان الظلام مخيماً وتحولت زذاذات المطر إلى نتف ثلج تهبط بهدوء. لم تدر كم من الوقت نامت أو فى أى مكان من العالم هى موجودة. كانت جارتها فى المقعد تتخذ موقفاً حذراً.

سألت ماريا :

- أين نحن.

- وصلنا - أجابت المرأة.

دخل الأتوبيس الفناء المبلط بالحجارة، وهو فناء مبنى ضخم ومظلم بدا على شكل دير أقيم وسط غابة من الأشجار العالية،

أما المسافرين فقد كانت تسقط عليهن أشعة ضوء لمبة واحدة فى
الفناء، وظللن ساكنات حتى جاءت المرأة ذات الشكل العسكرى
وأشارت إليهن بالنزول فى نظام وكأنهن فى حضانة للأطفال. كن
كبيرات فى السن وكن يتحركن فى ظلمة الفناء ببطء لدرجة يدين
معها صوراً من صور الأحلام. كانت ماريا آخر من تركت
الأتوبيس وفكرت أنهن راهبات. لكنها أخذت تستبعد هذا الظن
عندما رأت بعض النساء وهن يرتدين الزى ويستقبلن المسافرين
على باب الأتوبيس ويقمن بتغطية رؤوسهن بالبطانيات حتى لا
تبتل، ثم يقمن بصفهن صفّاً واحداً على طريقة الهنود ويربن
عليهن دون التوجه بالحديث إليهن. وبعد أن ودعت ماريا جاريتها
فى المقعد أرادت أن ترد لها البطانية، لكن الأخرى قالت لها بأن
تغطى بها رأسها حتى تتمكن من عبور الفناء ثم تسلمها فى
البوابة.

- هل سيكون هناك تليفون؟ سألتها ماريا.

- بالطبع - قالت المرأة - سيرشدك عن مكانه.

طلبت من ماريا سيجارة أخرى فأعطتها باقى العلبه
بالسجائر المبتلة. "سوف تجف فى الطريق" قالت لها. لوحت
المرأة بيدها مودعة وهى على سلم الأتوبيس وقالت لها بصوت
مرتفع "حظاً طيباً" أخذ الأتوبيس طريق الخروج دون أن تتمكن
من أكثر من هذا.

بدأت ماريا تجرى صوب مدخل المبنى، فحاولت إحدى الحارسات إيقافها بتريئة صارمة، ورغم ذلك لجأت إلى صيحة مكتومة : " قلت توقفي!" نظرت ماريا من تحت البطانية فرأت عيين جامدتين وسبابة صارمة تشير إليها أن تلتزم الطابور، فأطاعت، وعندما دخلت دهليز المبنى انفصلت عن الباقيات وتوجهت للبواب لتسأل عن تليفون، فجعلتها إحدى الحارسات تعود مرة أخرى إلى الطابور وهي تربت على كتفها كما تقول لها بتلطف شديد.

- من هنا يا جميلة، التليفون من هنا.

واصلت ماريا مثل باقى النساء سيراً عبر ممر مظلم وفي النهاية دخلت عرفة نوم جماعية حيث قامت الحارسات باسترجاع البطانيات وبدأن فى توزيع الأسرة. كانت هناك امرأة، بدت فى عين ماريا مختلفة وأكثر إنسانية ومختلفة عن الباقيات، هذه المرأة تقوم بمراجعة الطابور على أساس قائمة من الأسماء تحملها وتضاهيها بالأسماء المكتوبة على قطعة كرتونية مثبتة بواسطة خيط على ملاسهن. وعندما وصلت إلى ماريا فوجئت بأنها لا تحمل إثبات شخصيتها.

- الأمر هو أننى جئت لأتصل بالتليفون - قالت ماريا.

وقامت بسرعة شديدة لإيضاح بأن سيارتها تعطلت فى الطريق، وأن زوجها الذى يقوم بألعاب السحر فى الحفلات

ينتظرها فى برشلونة وذلك حتى يفى بثلاثة من التزاماته تمتد حتى منتصف الليل، وأنها لذلك تريد إبلاغه بأنها لن تصل فى الوقت المناسب لمرافقته. كانت الساعة قد اقتربت من الساعة، ومن المفترض أن يغادر المنزل فى غضون عشر دقائق. وكانت تخشى أن يقوم هو بإلغاء كل ارتباطاته بسبب تأخيرها. بدا أن الحارسة تصغى إليها باهتمام.

- ما هو اسمك؟ سألتها.

ذكرت لها ماريا اسمها بالكامل وهى تصدر تنهيدة ارتياح، لكن المرأة لم تعثر على الاسم بعد مراجعة القائمة عدة مرات. فسألت مستفسرة من إحدى الحارسات، لكنها هزت كتفها دون أن تنطق بشيء.

- إننى جئت إلى هنا لأتصل بالتليفون فقط - قالت ماريا.

- وهو كذلك يا حلوة - قالت لها الرئيسة، وأخذتها إلى سريرها بعدوبة شديدة تفقدها مصداقيتها وواقعيتها - إذا ما تصرفت جيداً ستتمكنين من الاتصال بالتليفون بمن تريدين، لكن ليس الآن - غداً.

طراً خاطر فى عقل ماريا فى هذه اللحظة جعلها تفهم لماذا كانت النساء فى الأتوبيس تتحركن وكأنهن فى قاع جدول. لقد تم إعطاؤهن المنومات، أما هذا القصر المظلم ذو الأسوار السميكة

المبنية من الحجارة والسلالم المتجمدة فلم يكن فى الحقيقة إلا مصحة للأمراض العقلية. فشعرت بالفرح وفرت هاربة من حجرة النوم، لكنها قبل أن تصل إلى الباب قابلتها حارسه ضخمة الجثة وعاجلتها بضربة قوية كلها غلظة فطرحتها أرضاً وأفقدتها القدرة على الحركة بلى ذراعيها.

نظرت إليها ماريا وقد أعجزها الرعب.
- بحق الله - قالت - أقسم لك بأمر الميتة أننى جئت لأتصل بالتليفون.

كان كافياً أن ترى وجهها لتعرف أن لا ملاذ أمام هذه الجثة الضخمة الغبية التى كن يطلقن عليها "هريقلة" نظراً لقوتها غير العادية. كانت توكل إليها المهام الصعبة لدرجة أن اثنتين من السجينات لقيتا حتفهن خنقاً بذراع الدب القطبى هذا، والمدرّب على فن القتل سهواً. وتم حل القضية الأولى على أنه حادث، أما الحالة الثانية فكانت غير واضحة، وتم توجيه اللوم والتحذير لهريقلية، وأنه فى المرة القادمة سوف تتعرض للمساءلة الدقيقة. والصورة الشائعة عنها هو أنها تلك النعجة الضالة التى تنسب إلى عائلة ذات ألقاب كثيرة، تاريخها ملئ بالحوادث المشبوهة التى وقعت فى أكثر من مصحة عقلية فى أسبانيا.

وحتى تنام ماريا أول ليلة حقنوها بنوم. وقبل شروق الشمس أيقظتها الرغبة فى التدخين فوجدت نفسها مربوطة من

يديها ورجليها فى السرير . لم يلب أحد صيحاتها . وفى الصباح وبينما لم يجد الزوج أى أثر لها فى برشلونة ، أخذوها إلى العيادة ذلك أنهم وجدوها وهى غارقة فى بحر من البول والبراز .

لم تدر كم من الوقت استغرقتة عندما تنهت من سباتها . لكن الدنيا كانت فى هذه اللحظة ينبوع حب ، فقد كان على رأس سريرها رجل عجوز أترى يسير على أطراف قدميه وله ابتسامة ناعمة ، ومن خلال لمستين حائيتين أعاد إليها فرحة الحياة ، كان مدير المصحة .

وقبل أن يقول لها شيئاً أو حتى يحييها طلبت منه ماريًا سيجارة فأعطاهما واحدة مشتعلة وأهداها باقى العلبه . فأجهشت ماريًا بالبكاء .

- انتهزى الفرصة الآن لتبكى كما تشائين - قال لها الطبيب بصوت يبعث على النوم - فالدموع هى أفضل علاج .

بكت ماريًا تفضفض عن نفسها دون حرج ، ولم تكن قد فعلت ذلك أبداً وهى مع عشاق الصدفة الذين صادفوها ، وخاصة فى فترة الاسترخاء التالية لممارسة الحب . وبينما كان الطبيب يستمع إليها كان يقوم بتمشيط شعرها بأصابعه ويقوم بإزاحة المخدة عن أنفها حتى تتنفس بشكل أفضل ، وأخذ يساعدها وهى غارقة فى حيرتها ، ويتمتع فى ذلك بحكمة وعذوبة لم تحلم بهما أبداً .

ولأول مرة فى حياتها تشعر أن هناك من يفهمها، وأن الرجل الذى ينصت إليها يفعل ذلك من أعماق روحه دون انتظار للمقابل، وهو ممارسة الحب معها. وبعد ساعة طويلة من البكاء بحرارة طلبت منه الموافقة على أن تتصل بزوجها تليفونياً.

اعتدل الطبيب فى مهابة تليق بمنصبه. "ليس الآن يا مليكتى، قال لها ذلك وقد ربت على خدها برقة لم تشعر بمثلها من قبل" سيتم كل شىء فى وقته، كما باركها كأنه رجل دين وهو على الباب واختفى للأبد.

- ثقى فى - قال لها.

تم تسجيلها مساء ذلك اليوم فى المصححة، وأخذت رقمًا مسلسلًا وأضيف إلى جوار اسمها تعليقًا سطحيًا يتعلق بغموض المكان الذى جاءت منه والشكوك حول حقيقتها. وفى نهاية التعليق هناك عبارة كتبها المدير بخط يده "حالة هياج".

وكما توقعت ماريا كان زوجها قد خرج من شقته المتواضعة الكائنة فى حى "أورتا" نصف ساعة متأخرًا عن الوقت المتفق عليه ليفى بالارتباطات الثلاثة. هذه هى المرة الأولى التى لا تأتى فى موعدها طوال ما يقرب من عامين من بداية الزواج الحر الذى تم الاتفاق عليه جيدًا. وفهم هو أن التأخير بسبب غزارة المطر الذى نزل على المنطقة فى نهاية ذلك الأسبوع، لكنه قبل أن ينزل ترك رسالة علقها فى الباب يوضح فيها مساره فى تلك الليلة.

وفى الحفلة الأولى كان الأطفال جميعهم قد ارتدوا قناع الكنغر وبذلك تخلى عن اللعبة المعتادة وهى لعبة الأسماك غير المراثية، فلم يتمكن من القيام بها دون مساعدتها. أما الحفلة الثانية فكانت فى منزل سيدة عجوز تبلغ الثالثة والتسعين من العمر جالسة على كرسى متحرك. كانت هذه العجوز تفخر بأنها احتفلت كل عام بعيد ميلادها خلال الثلاثين سنة الأخيرة، وفى كل مرة تتعاقد مع ساحر مختلف. كان يشعر بالقلق بسبب تأخير ماريا ولم يستطع التركيز فى الألعاب التى تتسم بالبساطة. أما الحفلة الثالثة فكانت هى التى اعتاد المشاركة فيها كل ليلة والمكان هو عبارة عن مقهى تعزف فيه الفرق الموسيقية فى شارع/ لاس رامبلاس. وقد أدى النمر المعتادة دون أى إلهام، أمام مجموعة من السياح الفرنسيين الذين لم يصدقوا ما يرونه ذلك أنهم كانوا يقاومون الاعتقاد فى السحر. وكان يقوم بالاتصال بمنزله بين كل لعبة وأخرى، وانتظر بلا أمل، أن تحيب على اتصالاته. وفى آخر مرة لم يستطع كبح جماح قلقه فى أن شيئاً سيئاً قد حدث لها.

عندما عاد إلى المنزل وهو يقود الشاحنة الصغيرة التى قام بإعدادها لتتناسب مع العروض فى الأماكن العامة شهد جمال الربيع متمثلاً فى النخيل المصطف فى طريق/ جراثليا. وسيطرت عليه فكرة أخذت تلح عليه وهى كيف يمكن أن تكون المدينة بدون ماريا. ضاعت آخر آماله عندما وجد الورقة التى تركها على

الباب كما هى . كان القلق قد استبد به لدرجة أنه نسى إعداد وجبة الطعام للقط .

عندما أقوم الآن بكتابة الاسم أدرك أنني لا أعرف ما اسمه فى الحقيقة . ذلك أننا فى برشلونة كنا نعرفه باسمه المهنى/ ساتورنو الساحر . كان رجلاً ذو طبيعة غريبة، ولم يكن به أى ذكاء اجتماعى إلا أن الظرف والحساسية فى التصرفات اللتان تنقصه توجدان بشكل رائد فى ماريا . كانت هى التى تأخذ بيده فى هذا المجتمع الملىء بالكثير من الأسرار والذى لم يخطر ببال أحد منه أن يتصل تليفونياً بآخر بعد منتصف الليل ليسأل عن زوجته . لكن ساتورنو فعلها وقد وصل للتو للمنزل، ولم يكن يريد أن يتذكر ذلك الموقف . وعلى هذا اكتفى بالاتصال بسرقسطة حيث ردت عليه إحدى الجدات وهى شبه نائمة ودون أن تشعر بأى خوف، وقالت له بأن ماريا رحلت بعد تناول الغداء . ولم ينم أكثر من ساعة حتى الفجر، ورأى أثناء النوم حلمًا طينياً - شهد فيه ماريا وهى ترتدى فستان زفاف مكون من القصاصات ومخضب بالدماء . واستيقظ وهو على يقين بأنها عادت وتركته، وهو الآن يعيش وحده فى هذا العالم الواسع بدونها .

كانت قد فعلت تلك الفعلة قبل ذلك ثلاث مرات مع ثلاثة من الرجال وكان هو واحد من هؤلاء الثلاثة خلال الخمسة أعوام الأخيرة، قد تركته فى مدينة "المكسيك" بعد مضى ستة أشهر

على تعارفهما عندما كانا فى قمة السعادة وهما يعيشان حباً
مجنوناً فى حجرة حمام فى مستعمرة أنثوريس . وذات صباح
كانت ماريا قد غادرت المنزل قبل الشروق وتركت كل متعلقاتها بما
فى ذلك خاتم ريجتها السابقة وكذا رسالة تقول فيها بأنها، بعد
ليلة من الممارسات الزائدة عن الحد والتي لا يمكن الإفصاح بها،
غير قادرة على تحمل تبعات ذلك الحب الذى لا يقف عند حد .
وفكر ساتورنو أنها ربما عادت إلى زوجها الأول الذى كان أحد
تلاميذها فى المدرسة الثانوية، وتزوجت به خفية لأنه لم يبلغ سن
الرشد ثم تركته من أجل آخرين بعد عامين من اللا حب . لكن
ليس هذا هو ما حدث، لقد عادت إلى منزل والديها وذهب
ساتورنو إلى هناك ليبحث عنها بكل السبل . أخذ يرجوها، دون
أن يضع أية شروط، ووعداها بأكثر مما هو قادر على الوفاء به،
لكنه لم يجد إلا الصد الذى لا يلين : "هناك أنواع من الحب
قصيرة العمر وأنواع أخرى طويلة العمر" . قالت له واختتمت
حديثها بلا رحمة "كان ذلك الحب من النوع القصير العمر" .
استسلم أمام قوة إرادتها، ومع ذلك فذات صباح وهو بالتحديد
يوم القديسين، وعندما كان عائداً إلى حجرته وهو يشعر باليتم
بعد عام من النسيان، وجدها نائمة على الكنب الكائنة فى الصالة
وهى تحمل باقة الورد وذيل فستان الزفاف يمتد كأنها عروس لم
تدخل الدنيا بعد .

قصت عليه ماريا الحقيقة، وهى أن خطيبها الجديد رجل أرمل ليس عنده أولاد يعيش حياة سهلة ومستعد للزواج عن طريق الكنيسة الكاثوليكية، هذا الرجل تركها وهى ترتدى فستان الزفاف وتنتظره فى مذبج الكنيسة. وقرر والدها إتمام الحفل. فواصلت هى معهما اللعبة، فرقصت وغنت وشربت حتى سكرت وهاجمها إحساس رهيب بتأنيب الضمير، ذهبت فى منتصف الليل لتبحث عن ساتورنو.

لم يكن فى المنزل، لكنه وضع المفاتيح فى إحدى إصص الزهور الكائنة فى الممشى حيث كانا يضعانها دوماً. كانت هى هذه المرة التى استسلمت له بلا قيد أو شرط "والآن إلى متى؟" سألتها. فأجابت عليه ببيت من الشعر لفيتشوس دى موراليس :
" الحب خالد ما دام مستمراً " وبعد ذلك بعامين كان الحب لا يزال خالداً.

بدا أن ماريا نضجت! إذ تخلت عن أحلامها بأن تكون ممثلة وكرست نفسها له سواء فى ممارسته لمهنته أم فى السرير. وفى نهاية العام الماضى كانا قد حضرا مؤتمراً للسحرة فى بربيجان، وعندما عادا تجولا فى برشلونة فأعجبتهما المدنية لدرجة أنهما اشتريا شقة فى حى قطلانى محض هو حى "أورتا" إنه حى كثير الضوضاء، كان المنزل الذى هما فيه بلا بواب، إلا أن به مساحة

تكفى خمسة أبناء، كانت تلك هى السعادة الممكنة حتى قامت
هى فى نهاية الأسبوع واستأجرت سيارة وذهبت لزيارة أقربائها فى
سرقسطة على وعد بأن تعود فى السابعة من مساء الاثنين، لكن
لم يظهر لها أى أثر حتى فجر الخميس.

وفى يوم الاثنين من الأسبوع التالى اتصلت شركة التأمين
على السيارة المؤجرة تليفونياً بالمنزل لتسأل عن ماريا "لا أعرف
شيئاً" قال ساتورنو "ابحثوا عنها فى سرقسطة" ثم وضع
الساعة، وبعد ذلك بأسبوع ذهب أحد رجال البوليس وكان
يرتدى زيًا مدنيًا إلى منزله ليلبغه بأنهم وجدوا السيارة، وقد
جردت من كل شيء، فى طريق فرعى بالقرب من قادش، أى
على بعد تسعين كيلوا متراً من المكان الذى تركتها فيه ماريا. وكان
رجل البوليس يريد أن يعرف المزيد من التفاصيل عن عملية السرقة
هذه. كان ساتورنو يقوم بتقديم الطعام للقط، ولم يكذب ينظر إليه
وهو يقول لرجل البوليس بالآ يضيعوا الوقت ذلك أن امرأته قد
هربت من المنزل وهو لا يعرف مع من هربت أو إلى أين ذهبت.
كان على هذه القناعة لدرجة أن رجل البوليس شعر بالخرج
واعتذر له عن كثرة أسئلته. وأعلن حفظ القضية.

داهمت ساتورنو الغيرة من أن تقوم ماريا بالهرب من المنزل
فى عيد القيامة فى "كاداكييس" حيث كانت روسا ريجاس قد
دعتها لممارسة رياضة الإبحار بالمراكب الشراعية. كنا فى

"ماريتيم" البار الشعبى الشهير الملىء بالضوضاء الكائن فى "لاجوش ديين" وذلك فى فترة مغيب شمس الحكم الفرنكوى. وكنا نجلس على مائدة مصنوعة من الحديد، وكذلك كراسى من نفس المادة، كان المكان يستوعبنا نحن الستة بالكاد، لدرجة أننا كنا نشعر بأننا محشورون كأننا عشرون فردًا. وبعد أن انتهت علبة السجائر الثانية خلال ذلك اليوم وجدت ماريا نفسها بدون كبريت. وفجأة امتدت ذراع نحيفة مليئة بالشعر القوى، وفى المعصم سوار من البرونز الرومانى، وفتحت لنفسها مكانًا وسط الجموع الجالسة حول المنضدة وأعطتها الكبريت. أما هى فقد شكرته دون أن تنظر إليه لكن ساتورنو الساحر رآه، كان شابًا يافعًا نحيفًا وأمردًا شاحب اللون شحوب الموت، وكان شعره طويلًا يمتد فى حزمة سوداء حتى خصره. أما زجاج البار فلا يكاد يقاوم غطرسة الربيع إلا أن الفتى كان يرتدى نوعًا من البيجامات الشعبية المصنوعة من القطن الخام وحذاءً مثل أحذية العمال.

لم يرياه بعد ذلك اليوم إلا فى نهاية الخريف، وذلك فندق صغير تباع فيه القشريات والرخويات البحرية فى منطقة "بارثيلونيتا" وهو يرتدى نفس الطقم الواسع الانتشار، كذلك كان شعره فى الضفيرة الطويلة بدلًا من الحزمة. حياهما وكأنه يحيى أصدقاء قدامى، وبناء على شكل تقبيله لماريا ومبادلتها له زادت شكوك ساتورنو فى أنهما كانا يتواعدان سرًا. وبعد ذلك بعدة أيام

وجد بمحض الصدفة اسماً جديداً ورقم تليفون جديد وقد دونتهما ماريا فى النوتة المنزلية . وأسهمت الغيرة غير الرحيمة فى تخمينه لمن يكون الاسم والرقم . وأدى العثور على المفكرة الشخصية للدخيل إلى التأكد من كل شىء : العمر اثنى عشر عاماً ، هو ابن وحيد لأسرة غنية يتمثل عمله فى إعداد ديكورات فترينات العرض ، ويشتهر بأنه شاذ جنسياً وأنه ذا سمعة معترف بها فى قدرته على تسلية السيدات المتزوجات مقابل أجر مادي ، ومع ذلك استطاع ساتورنو أن يتحمل هذه الغيرة حتى الليلة التى لم تعد فيها ماريا إلى المنزل . وعندئذ أخذ يتصل به تليفونياً كل يوم ، وكان يتصل ، فى البداية ، بمعدل كل ساعتين أو ثلاث ساعات ابتداء من السادسة صباحاً وحتى فجر اليوم التالى . ثم أخذ يتصل به كلما وجد أمامه الفرصة مهيأة لاستخدام التليفون . ولما لم تكن هناك إجابة رادت تعاسته وعظم شقاؤه .

وفى اليوم الرابع رد عليه صوت أندلسية كانت تقوم بأعمال النظافة " لقد خرج الأستاذ " قالت له هذه العبارة بكثير من الغموض لتزيد من جنونه . فلم يستطع ساتورنو مقاومة فضوله بسؤالها عما إذا كانت قد رأت الأنسة ماريا هناك على سبيل الصدفة .

- لا تعيش هنا أى امرأة اسمها ماريا - قالت له المرأة -
تعرف أن الأستاذ أعزب .

- أنا أعرف - قال لها - إنها لا تعيش هناك ولكن أحياناً
تذهب إلى المكان، أليس كذلك؟

اغتاظت المرأة

- من الذى يتحدث؟

وضع ساتورنو السماعة، وبدأ نفي المرأة كأنه المزيد من
التأكيد على أن ما يتصوره ليس مجرد شكوك، بل حقيقة لا مراء
فيها. ففقد سيطرته على نفسه، وأخذ خلال الأيام التالية يجرى
اتصالات بكل من يعرفهم فى برشلونة واستعمل فى ذلك نظام
الترتيب الأبجدي. لم يقده أحد لشيء، لكن كل مكالمة كانت
تزيد من تعاسته، ذلك أن هوس الغيرة عنده كان معروفاً لدى
السهارى الدويين فى "لاجوش ديين" وكانوا يرددون عليه ببعض
العبارات الساخرة التى كانت تزيد من عذابه. وفى هذه الآونة
أدرك أنه إلى أى مدى يعيش وحيداً فى هذه المدينة الجميلة المجنونة
والصعبة المنال والتى لن يكون سعيداً فيها أبداً، وفى الفجر، وبعد
أن وضع الطعام للقط أمسك بقلبه حتى لا يموت واتخذ قراراً
بنسيان ماريا.

لم تكن ماريا قد تعودت بعد على الحياة فى المصححة بعد
مرور شهرين، كانت تعيش على القليل من جارية السجن وهى
تستخدم طقم الطعام المربوط إلى المنضدة المصنوعة من ألواح

الخشب غير الناعمة وعيناها ثابتان على صورة الجنرال فرانكو التي كانت تسيطر على حجرة طعام، من العصور الوسطى، تتسم بالكآبة. كانت في البداية تقاوم ساعات الوعظ الدينى بروتيبتها الغيبة من صلوات الفجر والظهر والمساء، وكذلك بعض التراتيل الكنسية الأخرى التى تغطى معظم الوقت. وكانت ترفض اللعب بالكرة فى الفناء أو العمل فى ورشة الزهور الصناعية التى تقوم على رعايتها مجموعة من السجينات باهتمام بالغ. وفى الأسبوع الثالث أخذت ماريا تنضم رويداً رويداً للحياة فى الدير، وعلى حد قول الأطباء فإن البداية عندهن واحدة، وبعد ذلك ينخرطن فى صفوف المجتمع المحيط بهن.

كانت تجد حلاً لمشكلة السجائر خلال الأيام الأولى بواسطة إحدى الحارسات التى تبيعها بسعر مرتفع، وأدت حاجتها للسجائر إلى إقلاقها عندما انتهى ما معها من النقود القليلة. وكان عزاؤها بعد ذلك تدخين السجائر المصنوعة من ورق الصحف التى تقوم بصناعتها بعض السجينات باستخدام "السابرس" التى تجمعها من القمامة. وقد وصلت رغبتها الشديدة فى التدخين إلى نفس درجة رغبتها فى الاتصال بالتليفون، وكانت البيزيتات القليلة التى جنتها من المشاركة فى إعداد الزهور تشكل نوعاً من المسكنات قصيرة المفعول.

إن أقصى شئ هو العزلة أثناء الليل. فكانت الكثيرات من السجينات تمكنن يقطات فى الظلام مثلها لكن دون أن تجرؤ واحدة

منهن على شىء، فها هى هناك الحارسة الليلية التى تراجع البوابة الموصدة بواسطة سلسلة وقفل. ومع ذلك، اشتد بها الضيق ذات يوم فسألت بصوت واضح حتى تسمعها جارتها فى السرير.

- أين نحن؟

أجابها الصوت الحاد والواضح للجارة.

- فى أعماق أعماق الجحيم.

- يقولون إن هذه هى أرض عريية - قال صوت آخر بعيد رن فى فراغ حجرة النوم - ولابد أن يكون هذا الكلام سليماً، ففى الصيف وعندما يطلع القمر تسمع الكلاب وهى تنبح على البحر.

سمع صوت السلسلة وهى تدور فى الحلقة وكأنها خطاف لأحد المراكب التى تستعد للرسو أو الإبحار، ثم فتح الباب، كانت الحارسة الشديدة هى الكائن الوحيد الذى يبدو حياً فى هذا الصمت المفاجئ. أخذت تروح وتغدو من طرف لآخر فى حجرة النوم. أصاب الخوف ماريا وكانت هى الوحيدة التى تعرف السبب.

منذ الأسبوع الأول لها فى المصححة عرضت عليها الحارسة الليلية بوضوح ودون لف أو دوران أن تنام معها فى حجرة الحراسة. وقد بدأت عرضها بإيقاع يشير إلى مصلحة محددة:

مبادلة الحب بالسجائر والشيكلاتة أو أى شىء آخر . " سيكون لك كل شىء " . كانت تقول لها وهى خائفة " وستكونين المليكة المسيطرة " . وأمام رفض ماريا تغيرت الطريقة عند الحارسة . فقد كانت تترك لها عبارات مكتوبة تعبر لها عن حبها ، تحت المخلدة ، أو فى جيوب البيجامة أو فى الأماكن الأخرى التى قد لا تخطر على البال . كانت رسائل استعجال وفيها وله يمكن أن يلين له الحجر . منذ ما يقرب من شهر وهى تبدو أنها استسلمت للهزيمة وهى تلك الليلة التى دبرت فيها الواقعة التى جرت فى حجرة النوم . وعندما تأكدت أن كافة السجينات نائمات اقتربت الحارسة من سرير ماريا وهمست فى أذنها بكل العبارات الرقيقة وهى تقبل وجهها ورقبتها التى توترت من الرعب وتجمدت أطرافها . ولما تصورت الحارسة أن حالة الجمود التى عليها ماريا لا ترجع للخوف بل لأنها تشعر بالمتعة جرؤت على الذهاب إلى أبعد من هذا ، وعندئذ سددت لها ماريا ضربة بظهر يدها جعلتها تطير إلى السرير المجاور ، نهضت الحارسة مغتظة وسط الضجيج الذى أحدثته السجينات .

- يا ابنة الساقطة - صاحت - سوف نهلك هنا جميعاً فى حظيرة الخنازير هذه حتى تصابين بالجنون من حبك لى .

هل الصيف ، دون أن يعلن عن نفسه ، يوم الأحد الأول من شهر يونيو ، وكان من الضرورى اتخاذ إجراءات عاجلة ذلك أن

السجينات كن يشعرن بالحر ويخلعن المعاطف الصوفية أثناء القداس. كانت ماريا تتسلى بمشاهدة المريضات وهن عاريات وتقوم السجينات بسوقهن كأنهن دجاج أعمى. ووسط هذا الهرج والمرج حاولت أن تحمى نفسها من الضربات الطائشة، ودون أن تدري وجدت نفسها بمفردها فى مكتب خال وجهاز تليفون يدق دون توقف وبه زر الطلب. أخذت ماريا السماعه دون تفكير وسمعت صوتًا بعيدًا وضاحكًا يتسلى وهو يقلد خدمة الساعة التليفونية:

- أنها الساعة الخامسة والأربعون واثنان وتسعون دقيقة -
ومائة وسبعة من الثوانى.

- أيها الشاذ جنسيًا - قالت ماريا.

وضعت السماعه وهى تشعر بروح الدعابة. كانت على وشك الانصراف عندما أدركت أنها أمام فرصة ذهبية لا تتكرر. وعندئذ ضربت أرقامًا ستة، بسرعة وتوتر، ولم تكن متأكدة أن الرقم الذى طلبته هو رقم المنزل. انتظرت وقلبها يدق بعنف، سمعت الجرس المعتاد بصوته الحزين، يدق مرة ثم اثنتين ثم ثلاثة وسمعت بعد ذلك صوت الرجل شريك حياتها وهو فى المنزل بدونها.

- حسن؟

كان عليها الانتظار حتى تنقضى خنقة الدموع التي تكونت
فى حنجرتها.

- أيها الأرنب - يا حياتى - تنهدت.

هزمتها الدموع، وعلى الطرف الآخر من الخط كان هناك
صمت وجيز يتسم بالفزع والصوت الذى أصابته الغيرة بالتوتر.

- أيتها القحبة !

ووضع السماعه بعنف.

فى هذه الليلة - خلال نوبة حادة - قامت ماريا بإنزال
صورة جنرال الجنرالات وألقت بها بكل ما أوتيت من قوة على
أرض الحديقة ووقعت غارقة فى دمائها. كان لا زال بها بعض
الغیظ لتواجه الحارسات اللاتى حاولن السيطرة عليها دون جدوى
بأن وجهت لهن بعض اللكمات حتى رأت "هريقلية" واقفة على
الباب وهى معقودة الذراعين تنظر إليها، عندئذ استسلمت، ومع
ذلك جررتها حتى عنبر المجنونات الخطرات وضربنها بخرطوم مياه
قوى وقمن بحققنها فى فخذها بمادة "التربتين". وقد أدى الحقن
إلى تورم حال دون قدرتها على المشى وأدركت ماريا أن ليس
هناك شىء فى هذه الدنيا يحول دون العمل على الفرار من
الجحيم. وفى الأسبوع التالى وعند العودة إلى حجرة النوم
الجماعية نهضت على أطراف قدميها وضربت على مكان إقامة
الحارسة الليلية.

كان السعر الذى تطلبه ماريا هو الدفع مقدماً وهى أن تقوم بتوصيل رسالة إلى زوجها فوافقت الحارسة طالما أن الاتفاق بينهما يظل فى طى الكتمان، وحذرتها بسبابتها التى تصلبت من شدة التأكيد.

- إذا ما عُرف عن الأمر شيء فسوف تموتين .

وهكذا ذهب ساتورنو الساحر إلى المصلحة العقلية للنساء يوم السبت التالى وهو يركب شاحنته الصغيرة المهيأة للألعاب السحر وسط الجماهير وذلك ليحتفل بعودة ماريا . فاستقبله مدير المصلحة بنفسه فى مكتبه النظيف والمرتب وكأنه مركب هارب . وأبلغه برقة عن حالة زوجته . فلا أحد كان يعرف من أين أتت أو كيف أو متى ذلك . إن أول البيانات الخاصة بتسجيلها فى الدفاتر الرسمية قام هو بنفسه بتدوينها عندما التقى بها ، وبعد ذلك تم إجراء تحرير فى نفس اليوم لم يسفر عن أى شيء . وعلى أى الأحوال فإن كل ما كان يهم المدير هو معرفة الكيفية التى عرف من خلالها ساتورنو المكان الذى فيه زوجته . فما كان من ساتورنو إلا حماية الحارسة .

- لقد أبلغتني شركة التأمين على السيارة بذلك - قال .

فما كان من المدير إلا القبول راضياً بالإجابة " لست أدرى كيف يقومون بالتأمينات حتى يعرفوا كل شيء " قال ثم ألقى نظرة على ملفها الموجود على منضدة مكتبه واختتم حديثه قائلاً:

- الشيء الوحيد المحقق هو خطورة حالتها .

كان مستعداً للموافقة على زيارته لها مع الأخذ فى الاعتبار المحاذير اللازمة إذا ما وافق ساتورنو الساحر على الالتزام بما يملى عليه وذلك حرصاً على مصلحة زوجته وخاصة فيما يتعلق بمعاملتها للحيلولة دون إثارة هيجانها الذى أصبح يتكرر بكثرة وخطورة فى الفترة الأخيرة .

- إنه لأمر غريب - قال ساتورنو - كانت دائماً حادة المزاج، لكنها كانت تسيطر على نفسها .

أوما الطبيب إيماءة العارف بكل شيء " هناك سلوكيات تظل ساكنة لسنوات طويلة ثم تنفجر بعد ذلك ذات يوم " . قال " وعلى أى الأحوال فإن حظها الطيب جعلها تأتى إلى هنا ذلك أننا متخصصون فى حالات تتطلب العزيمة الصلبة " وفى النهاية حلّره من الهوس الذى تبديه ماريا بالتليفون .

- عليك مسيرتها - قال .

- اطمئن يا دكتور - قال ساتورنو وهو يبدى مرحة - إن ذلك هو تخصصى .

كانت صالة الزيارات خليطاً من السجن وكرسى الاعتراف، وكانت هى غرفة الدردشة القديمة فى الدير، لم يكن دخول ساتورنو هو تفجر الفرحه التى كان كلاهما فى انتظارها . كانت

ماريا واقفة فى وسط الصالون إلى جوار منضدة صغيرة وإلى جوارها مقعدين واثنين من الأصص دون ورود. كان من البديهي أنها كانت جاهزة لترحل عن المكان وهى ترتدى معطفها المحزن بلون الفراولة وتلبس حذاءها العجيب الذى أعطى لها على سبيل الشفقة. كانت هيريقلية تقف ولا تكاد تلمح فى أحد الأركان وهى معقودة الذراعين، لم تتحرك ماريا عندما رأت زوجها وهو يدخل، لم يبد أى انفعال على وجهها الذى لا زالت به آثار الكدمات، تبادلوا القبلة الروتينية.

- كيف حالك - سألها.

- سعيدة بأنك جئت فى النهاية أيها الأرنب - قالت - كان ذلك هو الموت.

لم يسعفهما الوقت للجلوس فقد غرقا فى الدموع وقصت عليه ماريا مآسى الدير ووحشية الحارسات والطعام الذى لا تقبله الكلاب والليالى الطويلة التى تنقضى دون أن تغمض لها عين بسبب الرعب.

- أنا لا أعرف كم يوماً قضيتها هنا، أم هل كانت شهوراً أم أعواماً، لكننى أعرف جيداً أن كل يوم هو أسوأ من الآخر - قالت ذلك وتنهدت من أعماقها- أعتقد أننى لن أعود كما كنت سابقاً.

- ها قد انتهى كل شئ - قال العبارة وهو يداعب بينان أصابعه البثور والندب التى فى وجهها - سوف أظل أحضر كل سبت وأكثر من ذلك إذا ما سمح لى المدير بهذا، وسوف ترين أن كل شئ سوف يكون على ما يرام.

حدجته بنظرة من عينيها الفزعتين، فحاول ساتورنو استخدام فنونه السحرية، فأخذ يقص عليها فى أسلوب صياني الأكاذيب الكبرى ورواية مخففة عن تشخيص الطبيب " وإيجازاً للقول " اختتم " لا رالت أمامك بعض الأيام حتى تستردى عافيتك تمامًا " عندئذ فهمت ماريا الحقيقة .

- بحق الله يا أرنبى ! قالتها بمرارة - لا تقل لى أنك أيضاً تظن أننى مجنونة!

- كيف يخطر لك هذا على البال ! قال ذلك وهو يحاول الابتسام - الأمر هو أنه من المناسب للجميع أن تظلى هنا بعض الوقت، وهذا يعنى أنك فى ظل ظروف أحسن بالطبع .

- لكنى أقول لك أننى جئت إلى هنا للاتصال بالتليفون - قالت ماريا .

لم يعرف كيف يكون رد فعله إزاء هذا الهوس المخيف، فنظر إلى هيريقلية، فانتهزت هى هذه النظرة لتشير إليه بساعتها أن زمن الزيارة قد انتهى . أدركت ماريا الإشارة فنظرت إلى الخلف

ورأت هيريقلية فى حالة استعداد لهجوم وشيك ، وعندئذ أمسكت بكل قوة برقبة الزوج وأخذت تصيح وكأنها مجنونة حقيقية، فأبعدها عنه بكل حب قدر الإمكان وتركها تحت رحمة هيريقلية التى هاجمتها من الخلف ولم تدع لها فرصة، كرد فعل، حتى لوت ذراعها بيدها اليسرى وطوقت بيدها الحديدية الأخرى رقبتها وصاحت فى ساتورنو الساحر .

- اذهب من هنا !

هرب ساتورنو الساحر فزعاً .

كان قد استرد أنفاسه من الرعب الذى عاشه فى الزيارة السابقة، فعاد يوم السبت التالى إلى المصححة وهو يحمل القبط، وقد ألبسه ثوباً مائلاً لما يلبسه هو: زرد مكون من اللونين الأحمر والأصفر مثل الساحر الكبير ليوناردو والقبة الطويلة كأنها الكأس وجاكته عريضة الياقات فى الصدر وكأنها من أجل الطيران. دخل وهو يقود شاحنته الصغيرة حتى داخل الفناء، وهناك قام بأداء الألعاب السحرية الطريفة واستمر فيها لمدة ثلاث ساعات وقد سعدت السجينات وهن فى الشرفات وأعربن عن سعادتهن بصيحات متنوعة وهتافات غير مناسبة - شهدن جميعهن العرض ما عدا ماريا " فلم ترفض فقط استقبال الزوج، بل رفضت أن تراه من الشرفة، شعر ساتورنو بأنه أصيب بطعنة قاتلة .

- إنه رد فعل تقليدى - قال المدير معزياً - وسوف يذهب عنها .

لكن رد الفعل لم يتغير أبداً، فبعد الكثير من المحاولات لرؤية ماريا وعمل المستحيل حتى تستقبل رسالة منه ذهبت جهوده سدى، فقد عادت إليه الرسائل أربع مرات وهى مغلقة ودون أى تعليق. تخلى ساتورنو عنه زيارته لكنه ظل يترك على بوابة المستشفى كمية من السجائر دون أن يعرف فيما إذا كانت تصل إلى ماريا أم لا، حتى هزمه الواقع .

لم يعرف عنه بعد ذلك أى شىء - باستثناء أنه تزوج بأخرى وعاد لبلده. وقبل أن يترك برشلونة ترك القط وهو شبه ميت من الجوع إلى خطيبة صدفه، وقد وعدت هذه الخطيبة بأن تظل على إرسال السجائر إلى ماريا، لكنها اختفت هى أيضاً. وتذكر "روسا ريجاس" أنها رأت فى محلات "الكورت إنجليز" هذه الخطيبة منذ حوالى اثنتى عشر عاماً وكان رأسها حليقاً، وترتدى معطفاً برتقالى اللون يتمى إلى إحدى الطوائف الشرقية. وكانت حاملاً فى شهرها الأخير. وقد قصت عليها بأنها ظلت ترسل بالسجائر إلى ماريا طالما سمحت لها الظروف. وكانت تتدخل فى حل بعض المسائل العاجلة المتعلقة بها حتى وجدت المستشفى وقد تحول إلى أنقاض. وكأنه ذكرى سيئة لتلك الأيام الكثيرة. بدت ماريا فى نظرها وقد اكتست بالحياة فى آخر مرة

رأتها وقد زاد وزنها بعض الشيء وسعيدة بالسلام الذى يخيم على
الدير. ذهبت إليها فى ذلك اليوم وهى تحمل القط وذلك لأن المال
الذى تركه لها ساتورنو من أجل إطعامه قد نفذ.

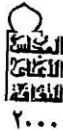
المشروع القومي للترجمة

جابريل جارشيا ماركيث

رحلة طيبة سيدي الرئيس

ترجمة وتقديم
على إبراهيم على منوفى

مراجعة
صلاح فضل



٢٠٠٠

رحلة طيبة يا سيدى الرئيس

(١٩٧٩)

كان جالساً على المقعد الخشبي تحت الأوراق الصفراء
للحديقة الخالية، يتأمل البجع الذى تعلوه طبقة من التراب، يضع
كلتا يديه على قمة العصا ذات المقبض المستدير والمكسو بالفضة
وهو يفكر فى الموت. فعندما جاء إلى جنيف لأول مرة كانت
البحيرة هادئة ورقاقة، كما كانت طيور النورس المستأنسة تقترب
لتنقر طعامها من الأكف. ونساء للإيجار كأنهن أشباح فى
السادسة مساء وهن يرتدين فساتين بها كرايش مصنوعة من قماش
من القطن الأبيض الشفاف ويضعن على رؤوسهن قبعات من
الحرير. أما الآن فالمرأة الوحيدة التى يمكن أن يراها على مرمى
البصر هى بائعة الزهور فى الميناء الصغير الخالى من البشر. لا
يكاد يصدق ما أحدثه الزمن من خراب ودمار ليس فقط فى حياته
بل فى الدنيا كلها.

كان مجرد فرد آخر من أفراد المدينة من هؤلاء المشاهير غير
المعروفين يرتدى حلة لونها كحلى بخطوط بيضاء، أما الصدى
فكان من الديباج، كما كان يضع قبعة سمكة مثل تلك التى
يضعها القضاة المحالون للتقاعد، شاربه قوى وكث، أما شعره
فيميل إلى الزرقة وبه تموجات رومانسية ويداه كيدى عازف آلة

وترية، وفي بنصر اليد اليسرى، يضع خاتم الترمل وعيناه تلمعان بالسعادة، أما الشيء الوحيد الذى لا يدل على حالته الصحية فهو ترهل الجلد، لكن رغم بلوغه الثالثة والسبعين من العمر كان لا يزال يتمتع بشياكة واضحة. ومع هذا ففي ذلك الصباح كان يشعر بتباعده عن كل ما يتفاخر به المرء. فها هى أعوام المجد والجاء قد ولت ولا مناص من ذلك ولم يتبق إلا أيام انتظار الموت.

عاد إلى جنيف بعد حربيين عالميتين وذلك بحثاً عن علاج ناجح للألم لم يستطع الأطباء فى "مارتينيك" تحديد ماهيته. كان من المقرر أن يمكث خمسة عشر يوماً كحد أقصى، لكن ها هو يقضى سبعة أسابيع فى إجراء فحوصات مضية تؤدي إلى نتائج غير مؤكدة، ولم تبد حتى الآن بارقة أمل فى إنهاؤها. الأطباء يتحدثون عن موطن الألم فى كل مكان، فى الكبد، وفى الكلية، وفى البنكرياس، والبروستاتا ولم يعثر على أثر، وظل على هذا الحال حتى ذلك الخميس الملعون حيث ضرب له واحد من الأطباء الذين يجرون له الفحوصات- وكان أقلهم شهرة - موعداً ليأتى فى التاسعة صباحاً إلى قسم الأعصاب.

المكتب يبدو كأنه مكان لتهجد الرهبان، والطبيب صغير الحجم ومتجهماً ويده اليمنى فى الجبس لكسر فى إبهامه. وعندما أطفأ النور ظهرت صورة الأشعة الخاصة بالعمود الفقرى لكنه لم يتعرف عليه ويدرك أن صورة الأشعة تخصه حتى أشار الطبيب بعضا يحدد بها التحام فقرتين فى المنطقة التى توجد تحت الوسط.

- مصدر ألمك ها هنا - قال له .

لم يكن الأمر سهلاً عليه، فقد كان الألم يتنقل من مكان إلى آخر، وأحياناً ما يبدو أن مصدره هو الأضلاع اليمنى، وأحياناً ينظر أسفل البطن، لكنه كثيراً ما يفاجئه بوخزة في الحوض. سمعه الطبيب وهو صامت، لكن العصا موضوعة على الشاشة بلا حراك "ولهذا فقد بحثنا عنه في كل مكان طوال فترة من الزمن" قال "لكننا الآن نعرف أنه هذا هو مصدر الألم" ثم وضع سبائته على الجزء العلوى من صدغه وقال:

- وبمفهوم دقيق ومحدد فكل ألم هو هنا يا سيدى الرئيس .

كان أسلوبه التشخيصى درامياً للغاية للدرجة أن ما قاله بدا رحيماً: فالرئيس لابد أن يجرى عملية جراحية خطيرة لا مناص منها، فسأل الطبيب عن حجم المخاطرة، فما كان من الطبيب العجوز إلا أن أغرقه بضوء القلق.

- لا يمكننا أن نحدده بوضوح - قال له .

وحتى وقت قريب، أوضح، كانت مخاطر وقوع مضاعفات جسيمة كبيرة، وخاصة إمكانية حدوث شلل بدرجات مختلفة. لكن التقدم العلمى فى الطب الناجم عن الحربين أدى إلى أن تكون هذه المخاوف تاريخاً مضى.

- كن هادئاً - استتج - استعد للأمر، وأبلغنا، لكن لا تنس أنه كلما عجلت كان ذلك مناسباً.

لم يكن صباحاً جيداً حتى يهضم هذا الخبر السيئ وخاصة فى التقلبات الجوية، خرج مبكراً من الفندق ولم يرتد المعطف، ذلك أنه رأى الشمس ساطعة من النافذة ثم ذهب بخطواته المعدودة ابتداء من "شيمين دى بوسولى" حيث المستشفى، متجهاً إلى المكان الذى يلجأ إليه العشاق فى الخفاء فى "الحديقة الإنجليزية"، أمضى فى هذا المكان أكثر من ساعة وهو يفكر فى الموت عندما بدأ الخريف. هاجت البحيرة كأنها المحيط وهبت رياح من كل مكان فأفزعت طيور النورس وأطاحت بما بقى من أوراق الشجر، نهض الرئيس وبدلاً من أن يشتري بعض الورود من البائعة قام بقطف زهرة الأقحوان من الأصص العامة ووضعها فى فتحة الزرار الموجودة فى ياقة الجاكتة. فاجأته بائعة الزهور:

- هذه الزهور ليست مشاعاً يا سيدى - قالت له وهى غاضبة - إنها ملك البلدية.

لم يولها اهتماماً وأخذ يبتعد عنها بخطوات سريعة وهو يمسك عصاه من منتصفها وأحياناً ما يطوحها فى الهواء بلا إيقاع ثابت. وعلى كوبرى "مونت بلانك" كانوا يسارعون بإنزال الرايات الخاصة "بالاتحاد الكونفدرالى" وقد كانت تهتز بشدة من

أثر الرياح . أما النافورة الملساء والمليئة بالرغوة فقد أطفئت قبل الوقت المحدد لها . ولم يتعرف الرئيس على الكافيتريا التي تعود عليها والكائنة على الميناء ذلك أنهم قاموا بدفع القماش الأخضر للمظلة ، كما أغلقوا الشرفات المزدهرة . أما فى الصالون فقد أضيئت الأنوار رغم أننا فى وضوح النهار ، كما أن الرباعية الورتية كانت تعزف موزار محذراً . مد الرئيس يده على اللوحة الخشبية الحاملة وأخذ صحيفة من المكان المخصص للزبائن ، ثم قام بتعليق القبة والعصا على الشماعة المخصصة ووضع نظارة القراءة ذات الشنبر الذهبى وجلس إلى المائدة الأكثر انعزلاً . وعندئذ أدرك فى هذه اللحظة مجيء الخريف . أخذ يتصفح الجرنان بادئاً بالصفحات المخصصة للأخبار العالمية ، وقلما كان يجد أخباراً عن أمريكا اللاتينية ، وواصل قراءته للصحيفة على عكس الترتيب المعتاد ، وظل على هذا الحال حتى جاءت إليه النادلة وهى تحمل له رجاءته اليومية من المياه ماركة " إيفيان " . كان قد أقلع عن عادته بتناول القهوة منذ ثلاثين عاماً وذلك بناء على تعليمات الأطباء ، غير أنه قال : " إذا ما تأكدت من أننى سأموت بعد وقت محدد ، فإننى سأعود إلى تناول القهوة " ، وربما حانت هذه الساعة .

- أحضرى لى فنجان قهوة - قال هذه العبارة بلغة فرنسية سليمة ثم أكد : على الطريقة الإيطالية وكأنها قهوة لإحياء ميت - قالها دون أن يأخذ فى اعتباره ما تحمله العبارة من تورية .

تناول قهوته السادة، رويدًا رويدًا. وبعد ذلك قلب الفنجان فوق الطبق حتى تقوم رواسب القهوة بعد أعوام وأعوام بكتابة حظه في المستقبل. هذا المذاق الذى استعاده أخرجه ولو للحظة من أفكاره السوداء. وبعد ذلك بلحظة، وكأنها جزء من التكهن بالمستقبل، شعر بأن أحدًا يتطلع إليه. وعندئذ قلب الصفحة فى حركة عفوية ونظر من فوق عدسات القراءة فرأى الرجل الشاحب وغير حليق الذقن وهو يضع قبعة رياضية ويرتدى جاكته فروشاه متموجة، وفى هذه اللحظة أبعد ذلك الرجل ناظره حتى لا تلتقى بعينه.

كان وجهًا مألوفًا، فقد رآه بشكل عابر فى عمرات المستشفى ثم عاد ورآه فى يوم من الأيام السابقة وهو يركب دراجة بخارية صغيرة فى شارع "بروميناد دى لاك" بينما كان هو يتأمل البجع. لكنه لم يشعر أبدًا أن أحدًا تعرف عليه. إلا أنه لم يستبعد أن ما يحدث ليس إلا واحدة من الأوهام الكثيرة الخاصة بالملاحظات فى المنفى.

انتهى من قراءة الصحيفة دون عجلة من أمره وهو غارق فى المعزوفات "التشيلو" الرائعة لبراهامز إلى أن تغلب صوت الألم على المسكن الموسيقى، فتناول القرصين المسكين وهى جرعة منتصف النهار واستخدم فى ذلك آخر جرعة ماء كانت أمامه. وقبل أن يخلع نظارة القراءة ألقى نظرة على الفنجان ليقرأ طالعه فشعر برعشة باردة: إذ كان الأمر مثيرًا للحيرة.

وأخيراً دفع الحساب ومعه بقشيشاً ضئيلاً ثم أخذ عصاه وقبعته من الشماعة وخرج إلى الشارع دون أن ينظر إلى الرجل الذى كان يتطلع إليه: ابتعد عن المكان بخطوات فيها تبختر ماراً بأصص الزهور التى حطمتها الرياح وظن أنه تحرر من القيود. لكنه سرعان ما شعر بخطوات وراه، فتوقف عند الناصية ونظر إلى الخلف. فما كان على الرجل الذى يتابعه إلا التوقف فجأة حتى لا يصطدم به ونظر إليه بدهشة وهو على بعد ضئيل جداً عن عينيه.

- سيدى الرئيس - قال بصوت خفيض.
- قل لمن يدفعون لك ألا تأخذهم الآمال بعيداً - قالها الرئيس دون أن يطرأ أى تغير على ابتسامته أو صوته - أنا أتمتع بصحة جيدة.

- لا أحد يعرف هذا أفضل منى - قالها الرجل وقد شعر بالخرج أمام هذا الشعور بالجدارة التى أمامه - إننى أعمل فى المستشفى.

كانت النغمة والعبارة والاستحياء تدل على أنه من أعماق منطقة الكاريبى.

- لن تقول لى أنك طيب - قال له الرئيس.
- كم كنت أود ذلك يا سيدى - قال الرجل - أنا سائق سيارة إسعاف.

- أنا متأسف - قال الرئيس وهو على قناعة بخطئه - إنه عمل شاق.

- ليس بنفس درجة العمل الذى تقوم به يا سيدى .
نظر إليه بلا تحفظ واتكأ على عصاه بكلتا يديه وسأله
باهتمام حقيقى "

-من أين أنت؟

- من الكاريبى

- هذا ما تصورته - قال الرئيس - لكن من أى البلاد
أنت .

-من نفس بلدك يا سيدى - قال الرجل ومد يده مصافحاً
- أنا أدعى هوميرو ريبى

قاطعته الرئيس وهو يشعر بالمفاجأة ودون أن يسحب يده من
يد الرجل .

- عجباً - قال له - يا له من اسم طيب .

خف التوتر عن هوميرو .

- وهناك ما هو أكثر من ذلك أن اسمى بالكامل هو
"هوميرو ريبى دى لاكاسا"

هاجمتهما زويدة شتوية فجأة وهما فى وسط الشارع . فـشعر الرئيس بقشعريرة تسرى فى جسده وتصل إلى العظام وأدرك أنه لا يمكنه مواصلة السير دون معطف، هذه المسافة القصيرة حتى المطعم الفقير حيث اعتاد تناول طعامه .

- هل تناولت طعام الغداء؟ سأل هوميرو .

- أنا لا أتناول طعام الغداء أبداً، قال هوميرو - إننى أتناول وجبة واحدة فى منزلى فى المساء .

- حاول أن تجعل هناك استثناء - قالها له بكل ما أوتى من عذوبة القول - أدعوك لتناول الغداء .

أخذه فى ذراعه وقاده إلى المطعم الكائن فى الناحية المقابلة " اسم المطعم مطبوع باللون الذهبى على السحابة القماشية : "لوبيف كورنييه" المطعم ضيق ودافئ، ولأول وهلة بدا أنه لا توجد أماكن خالية، شعر هوميرو ريبى بالمفاجأة وهو أن أحداً لا يعرف الرئيس وواصل حتى نهاية المطعم طلباً للعون .

- هل الرئيس لا زال يمارس مهام منصبه؟ سألـه صاحب المطعم .

- لا - قال هوميرو - لقد أقضى من منصبه .

فكانت ابتسامة الموافقة من صاحب المطعم .

- مثل هؤلاء هناك مائدة خاصة.

قادهما إلى مكان منعزل في آخر الصالون حيث يمكن لها الدردشة بحرية، وشكر له الرئيس ذلك.

- هم نادرون هؤلاء الذين يعترفون بجدارية من هم في المنفى مثلما فعلت.

كان المطعم متخصصاً في طبق معين وهو لحم ضلع الثور المشوى على الفحم، نظر الرئيس ومدعوه حولهما فشاهدا قطع اللحم الكبيرة المشوية والمقدمة للزبائن على الموائد المجاورة.. "إنه طبق رائع" همهم الرئيس، لكنى ممنوع من تناول مثل هذا الطعام، ألقى نظرة مأكرة ومداعبة على هوميرو، وغير من لهجة الحديث.

- فى الحقيقة لقد منعت من كل شيء.

- أيضاً ممنوع عليك تناول القهوة - قال هوميرو - ومع ذلك تتناولها.

- هل لاحظت ذلك؟ قال الرئيس - لكن كان هذا استثناء فى يوم خاص.

فالاستثناء الذى حدث ذلك اليوم لم يكن فى موضوع القهوة فقط، بل طلب الرئيس طبق لحم الثور المشوى على الفحم

وسلاطة بقوليات طارئة دون أى متبيلات اللهم إلا بعضاً من زيت الزيتون. وطلب المدعو نفس الشيء وأضاف إليه نصف لتر من النيذ الأحمر. وبينما هما فى انتظار الطعام أخرج هوميرو من جيب سترته حافظة أوراق ليس بها نقود وإنما مليئة بالأوراق، وأبرز للرئيس صورة ذهبت ألوانها، لقد تعرف الرئيس على صورته حيث كان يرتدى قميصاً، وكان وزنه أقل، كما كان شعره وشاربه فاحمى السواد، يقف وسط مجموعة من الشبان تصارعوا على الظهور فى الصورة. تعرف على المكان من أول نظرة وتعرف أيضاً على الشعارات الخاصة بحملة انتخابية عملة، وكذلك تذكر التاريخ المقيت لها " يا للهول! " همهم، لقد قلت دوماً إن الإنسان يعتريه التقدم فى السن فى الصورة أكثر منها فى الواقع. وأعاد إليه الصورة بإيماءة تشير إلى النهاية.

- إننى أتذكر ذلك جيداً - قال - كانت هذه الصورة فى مباراة مصارعة الديكة ببلدة "سان كريستوبال دى لاس كاساس" منذ آلاف السنين.

- إنها قريتى - قال هوميرو وأشار لنفسه كواحد من الذين فى الصورة - هنا هو أنا.

تعرف عليه الرئيس.

- كنت صغير السن!

- نعم - قال هوميرو - لقد رافقت سيادتك طوال الحملة الانتخابية فى الجنوب بصفتى زعيم اللجان الطلابية.
حاول الرئيس أن يسبق التأييب .

- أنا بالطبع لم أمعن النظر جيداً فيك - قال .
- على العكس من ذلك كنت لطيفاً معنا جداً - قال
هوميرو - لكن كان عددنا كثيراً لدرجة يصعب على المرء تذكر كل هؤلاء .

- وبعد ذلك؟

- من يعرف هذا أكثر منك يا سيدى - قال هوميرو - فبعد الانقلاب العسكرى أجد أنه من المعجزات أن يكون كلانا هنا ونحن على وشك تناول نصف ثور. هناك الكثيرون الذين لم يحالفهم نفس الحظ .

وفى هذه اللحظة قُدمت لهم الأطباق . قام الرئيس بوضع الفوطة على رقبته كأنها فوطة لطفل ، ولم يكن غير معنى بالصمت المفاجئ الذى حدث لمدعوه . " إذا لم أفعل هذا سوف أخسر رابطة عنق فى كل وجبة أتناولها " قال - وقبل أن يبدأ تذوق درجة الشواء وأعلن موافقته بإشارة تعبر عن تلذذه . ثم عاد لنفس الموضوع .

- الأمر الذى لا أفهمه - قال - هو لماذا لم تقترب منى قبل ذلك بدلاً من السير ورائى بهذا الشكل؟

عند ذلك قص عليه هوميرو أنه تعرف عليه منذ أن رآه وهو يدخل المستشفى عبر باب مخصص للحالات الشديدة الخصوصية. كان الوقت صيفاً وكان يرتدى حلة كاملة من كتان الكاريبي الأبيض ويلبس حذاءً ذا لونين - الأبيض والأسود - وزهرة البنفسج الحمراء فى فتحة الزرار على صدر الجاكطة والشعر الجميل يداعبه الهواء. تأكد هوميرو من أنه وحده فى جنيف ولا يساعده أحد، فقد كان يعرف بذاكرته المدينة التى درس فيها القانون. وبناء على طلبه اتخذت المستشفى الإجراءات الداخلية الأمنية للمحافظة على سرية الموضوع بشكل مطلق. وفى نفس تلك الليلة كان هوميرو قد اتفق مع زوجته لإجراء اتصال معه. ومع ذلك فقد ظل يتابعه خمسة أسابيع متوالية محاولاً البحث عن الفرصة السانحة وربما لم يكن ليتمكن من تحيته لو لم يواجهه الرئيس.

- أنا سعيد بما فعلته - قال الرئيس - رغم أنه لا يتقبنى أى ضيق لأننى وحدى هنا.

- ليس من العدل.

- لماذا؟ - سأل الرئيس بصراحة - إن أكبر نصر فى حياتى هو أننى تمكنت من جعلهم ينسونى.

- إننا نذكرك يا سيدى أكثر مما تتصور - قال هوميرو دون أن يخفى تأثره - إنه لمصدر سعادة لى أن أراك معافى ومليئاً بالحياة.

- ومع ذلك - قال دون درامية - فكل شىء يشير إلى أننى سأموت قريباً.

- إن احتمالات نجاح العملية عالية - قال هوميرو.

صدرت عن الرئيس قفزة مفاجئة لكن لم يفقد خفة روحه.

- عجباً ! - صاح مستغرباً- هل لم تعد هناك أسرار طبية فى سويسرا الجميلة؟

- لا توجد أسرار تخفى على سائق سيارة إسعاف فى أى مستشفى فى العالم - قال هوميرو.

- إن ما أعرفه عن حالتى لم يمض عليه إلا ساعتين ومن خلال الرجل الوحيد الذى يجب أن يعرف السر.

- على أى الأحوال لن تموت سيادتك بلا جدوى - قال

هوميرو - فسوف يقوم أحد ما بوضع سيادتك فى المكانة التى تليق وهى النموذج الحى للجدارية.

أظهر الرئيس نوعاً من الاستغراب الكوميدي.

- شكراً لتحذيرك - قال.

كان يأكل بنفس الطريقة التى يؤدى بها كافة أنشطته: ببطء ودقة، وفى نفس الوقت كان ينظر إلى هوميرو محدقاً فى عينيه حتى إن هذا الأخير واثاه إحساس بأن الرئيس يرى ما يفكر فيه، وبعد جدال طويل وتطرق للأيام الخوالى ابتسم ابتسامه فيها دهاء. -لقد قررت ألا أقلق على جثتى - قال - لكننى أرى الآن أن على اتخاذ بعض التدابير على طريقة القصص البوليسية حتى لا يجد الجثة أحد.

- سيكون ذلك غير مجد - قال هوميرو بفكاهة - الألغار فى المستشفى لا تستمر أكثر من ساعة.

عندما انتهى من تناول القهوة قام الرئيس بقراءة قاع الفنجان وعادت له القشعريرة: إذ كانت نفس الرسالة السابقة. ومع ذلك لم يطرأ أى تغيير على تعبيرات وجهه. دفع الحساب نقداً لكنه قام بالتأكد من صحة المبلغ أكثر من مرة وباهتمام زائد عن الحد، وترك بقشيشاً كان زُدل النادل عليها هو الغمغمة.

- أنا بالطبع لم أمعن النظر جيداً فيك - قال.

- سررت بمعرفتك - قال الرئيس وهو يودع هوميرو - ليس هناك تاريخ لإجراء العملية كما أننى لم أقرر بعد إجراءها أم لا. لكن إذا ما كانت الأمور مواتية فسوف نلتقى من جديد.

- ولماذا لا يكون قبل ذلك؟ قال هوميرو - إن زوجتى "لائارا" طباحة الأغنياء، فلا أحد مثلها يستطيع إعداد طبق الأرز

بالجمبرى ويطيب لنا أن ندعوك إلى المنزل فى إحدى الليالى القادمة .

- إن الرخويات ممنوعة بالنسبة لى لكنى سأكل ذلك الطبق بكل سرور - قال - قل لى متى؟

- إن يوم الخميس هو اليوم الذى لا أعمل فيه - قال هوميرو .

- تمام - قال الرئيس - إذن يوم الخميس فى السابعة مساء سوف أكون فى منزلك، وسوف يكون هذا مصدر سعادتى .

- سوف أمر لآخذك يا سيدى - قال هوميرو - العنوان هو فندق "دام" ١٤ شارع إندوستريا - خلف المحطة - هل هذا صحيح؟

- نعم - قال الرئيس ونهض وهو يشعر بمرض عن أى وقت مضى - على ما يبدو تعرف كل شىء حتى مقاس حذائى .

- نعم يا سيدى - قال هوميرو بمرح - المقاس هو ٤١

* * *

إن ما لم يقم هوميرو ربه بسرده على الرئيس، لكنه ظل يقصه طوال أعوام طويلة لكل من أراد أن يستمع إليه هو أن هدفه الأول لم يكن بريئاً للباية، فهو مثل غيره من سائقى سيارات الإسعاف له اتصالاته مع شركات التجهيزات الجنائزية وشركات

التأمين لبيع بعض الخدمات داخل المستشفى وخاصة بالنسبة للمرضى الأجانب من ذوى الموارد الضئيلة. كانت مبالغ ضئيلة وفوق ذلك كان عليه أن يقوم بتوزيعها بين بعض الموظفين وخاصة هؤلاء الذين يتولون التقارير السرية بشأن المرضى من ذوى الحالات الحرجة. لكنه مبلغ يعتبر عزاء لطريد لا مستقبل له ويحاول العيش ما أمكنه هو وزوجته وطفليه بمرتب بسيط جداً.

كانت لاثارا دافيس - زوجته - أكثر واقعية إذ كانت مولدة من سان خوان فى بويرتوريكو. قصيرة وممتلئة لون بشرتها مثل لون الكرملة فى حالة ترسب. لها عينا كلبة جريئة، كانتا تتسقاان اتساقاً طيباً مع طبيعتها. تعرفت على زوجها فى قسم خدمة المرضى المعوزين فى المستشفى حيث كانت تعمل كمساعدة فى الشئون العامة وذلك بعد أن أتى بها أحد أصحاب الأموال من بلادها للعمل كمريلة وبعد ذلك تركها رهن الظروف فى جنيف، تزوجا على الطريقة الكاثوليكية، ورغم أنها كانت أميرة فى بلدها كانا يعيشان فى منزل مكون من صالة وحجرتى نوم فى الطابق الثامن وهو مبنى مخصص للمهاجرين الأفارقة ليس به مصعد، لها ابنة تبلغ التاسعة من العمر اسمها باربارا وطفل فى السابعة يدعى "لاثارو، تظهر عليه الأعراض الطفيفة للتخلف العقلى.

لاثارا دافيس امرأة ذكية، سيئة الطبع لكنها ذات قلب طيب. كانت تعتبر نفسها المثال الصادق لمواليد برج الثور. إيمانها

مطلق بالتنبؤات . ومع ذلك لم تحقق حلمها بكسب لقمة العيش من خلال عملها كقارئة للطالع لأصحاب الملايين، ورغم هذا تسهم فى ميزانية المنزل ببعض الأموال التى تأتيها عرضاً، وأحياناً ما تكون مبالغ جيدة. كان ذلك من خلال إعدادها موائد العشاء لبعض السيدات الغنيات اللائى يتباهين أمام المدعوين متظاهرات بأنهن أعددن هذه الأطباق الخاصة بمنطقة الكاريبى، أما هوميرو فهو إنسان خجول للغاية ولم يستطع أن يفعل أكثر مما يقدمه، إلا أن روجته لم تتصور الحياة بدونه، وذلك لطهارة قلبه وذكورته - سارت أحوالهما فى البداية بشكل جيد، لكن بدأت تسوء الأمور شيئاً فشيئاً بينما الأطفال فى غم مستمر . وبالتالي فإن هوميرو عندما اكتشف وجود الرئيس بين المرضى المهمين فى المستشفى أخذت تحدوه آمال تتجاوز المعقول.

لم يتأكدا تماماً مما سيطلبانه منه، وبأى حق سيفعلان ذلك. فكرا فى البداية أن ييسعا له إتمام إجراءات الجنازة بالكامل بما فى ذلك التحنيط وإعادة الجثة إلى الوطن. لكنهما أخذا يعيان شيئاً فشيئاً بأن الموت لا يبدو وشيكاً مثلما تصورا فى البداية. كان الشك يأكلهما من الداخل يوم تناول طعام الغداء.

الحقيقة أن هوميرو لم يكن أبداً رعيماً للألوية الجامعية، أو أى شىء من هذا القبيل، وفى المرة الوحيدة التى شارك فيها فى الحملة الانتخابية كانت لحظة التقاط الصورة، التى عثر عليها فيما يشبه المعجزة وسط الملابس. والشىء الحقيقى الوحيد كان حماسه

لدرجة أجبر معها على الفرار من البلاد لمشاركته فى المقاومة الجماهيرية للانقلاب العسكرى، إلا أن السبب الوحيد الذى جعله يواصل العيش فى جنيف بعد مرور أعوام طويلة هو فقره الروحى . وعلى ذلك فإذا ما كذب كذبة أخرى لن تتغير الأمور، فالهدف هو الفوز بكرم الرئيس .

كانت أول مفاجأة لكليهما هو أن الطريد الشهير يعيش فى فندق من الدرجة الرابعة فى الحى الفقير "لاجروت" محاطاً بالمهاجرين الآسيويين وفتيات الليل . وكان يأكل وحده فى مطاعم الفقراء فى الوقت الذى نجد فيه جنيف مليئة بالمساكن الفخمة التى تليق بالسياسيين المتقاعدين . شاهده هوميرو وهو يكرر ما فعله ذلك اليوم خلال الأيام السابقة . فقد رافقه ببصره وأحياناً ما كان قريباً منه بدرجة تزيد عن التصرف الحكيم سواء فى نزحاته الليلية بين الحيطان الكثيفة وأصص النباتات الصفراء اللون فى المدينة العتيقة . رآه وهو مستغرق فى التفكير أمام تمثال "كالفينو" ، وصعد خلفه، خطوة بخطوة، ذلك السلم الحجري الذى تملؤه رائحة الياسمين الخانقة ، وذلك ليتأمل لحظات الغروب البطيئة من على قمة "بورج لوفور" رآه ذات ليلة وهو تحت أول قطرات المطر دون معطف وشمسية تقيه ضمن طابور من الطلاب لي شاهد حفلاً موسيقياً "لروبينتين" "لست أدري كيف لم يصب بالبرد" قال هذه العبارة لزوجته . وعندما بدأت أحوال الطقس تتغير يوم

السبت الماضى رآه وهو يشتري معطفاً له رقبة من جلد " الفيزون" الصناعى ولم يشتري المعطف من المحلات ذات فترينات العرض الكائنة فى شارع/ رون حيث المكان المعتاد الذى يقوم الأمراء الهاربون بشراء احتياجاتهم منه، بل اشتراه من "سوق لاس بولجاس".

-إذن ليس هناك ما يمكن عمله - قالت لاثارا متعجبة عندما قص عليها هوميرو ذلك - إنه بخيل بخلاً رهيباً وهو قادر على قبول دفنه فى مقبرة خيرية جماعية. ولن نخرج منه بشيء.
- ربما كان فقيراً بالفعل - قال هوميرو - بعد أن قضى أعواماً طويلة دون عمل.

- آه، أيها الأسود، هناك فرق بين أن تكون من برج الحوت الأصيل وبين أن تكون جبائاً - قالت لاثارا - فكل الناس يعرفون أنه استولى على ذهب الحكومة وأنه الطريد الأكثر غنى فى مارتينيكا.

كان هوميرو الذى يكبر زوجته بعشرة أعوام قد ترعرع وهو يعيش تحت تأثير المقولة التى تتحدث عن أن الرئيس درس فى جنيف وكان أثناء الدراسة عامل بناء، أما لاثارا فقد تربت على الفضائح التى تنشرها الصحافة المعادية والتى تضخم منها الحوارات فى منازل الأسر التى تنتهج سياسة معادية له. وكانت على هذا

الحال منذ نعومة أظافرها، تقوم بتربية الأطفال، لذلك فإن هوميرو عندما جاء متهللاً لتناول طعام الغداء مع الرئيس لم تقتنع زوجته بأنه تناول الغداء فى مطعم مرتفع المستوى. فقد ضايقها أن هوميرو لم يطلب من الرئيس شيئاً مما كان يحلم هو به مثل الحصول على منحة دراسية لولديه، أو الحصول على وظيفة أفضل فى المستشفى. وبدأ فى نظرها أن ما حدث إنما يؤكد شكوكها فى أن الرئيس يفضل أن يلقوا بجثته إلى النسر بدلاً من إنفاق الفرنكات على إجراءات جنازية لائقة وعودة كريسة إلى أرض الوطن. وما زاد الطين بله هو الخبر الذى فضل هوميرو أن يطرقة فى النهاية والمتمثل فى دعوته للرئيس لتناول الأرز بالجمبرى مساء الخميس فى المنزل.

- هذا ما كان ينقصنا- صاحت لاثارا - وهو أن يموت هنا بالتسمم من جراء تناوله الجمبرى المحفوظ ويكون من المحتم علينا أن ندفنه وندفع فى سبيل هذا مدخرات الأطفال.

كان وفاؤها كزوجة هو العنصر الأساسى الذى حسم الموقف، فقد طلبت من إحدى جاراتها ثلاثة أطقم مائدة من المعدن المطفى، وطبقاً للسلطة مصنوعاً من الزجاج. وطلبت من جارة أخرى ماكينة القهوة الكهربائية، ومن ثالثة مفرشاً مطرزاً وطقم صينى لتناول القهوة، كما قامت بتغيير الستائر القديمة ووضعت الجديدة مكانها، وانتزعت الكسوة من على قطع

الأثاث، وأمضت يوماً كاملاً وهي تنظف البلاد وتزيل الأتربة وتغير أماكن محتويات المنزل، ووصل بها الأمر إلى نتائج عكسية إذ كان من الأولى بها إثارة استعطف الضيف بديكور الفقر.

وفى مساء الخميس صعد الرئيس الأدوار الثمانية، وبعد أن استرد أنفاسه توجه إلى الباب وهو يرتدى المعطف الجديد القديم والقبعة ذات اللون المائل للخضرة التى تنسب إلى أزمنة مضت، يحمل فى يده زهرة واحدة ليقدمها إلى لاثارا. تأثرت هى كثيراً بوسامته كرجل وتصرفاته كأمر، أضف إلى ما سبق أنها رأته على نفس الحال الذى تصورته، أى مزيقاً وانتهازيًا. بدا لها قليل الحياء، فقد كانت تطهو الطعام فى المطبخ والنوافذ مفتوحة حتى لا يملأ بخار طهى الجمبرى جو المنزل، وكان أول شيء فعله عند الدخول هو أن أخذ شهيقاً عميقاً وكأنه فى حالة انتعاش مفاجئة وصاح متعجباً وهو مغمض العينين ويفرد ذراعيه: "آه، إنها رائحة بحرنا" بدا لها أكثر بخلاً مما تصورت ذلك أنه أتى لها بوردة واحدة سرقها - بلا شك - من الحقائق العامة. وبدا لها أنه سليلط وذلك لنظرته التى تحمل معنى الاحتقار لقصاصات الصحف التى تتحدث عن مآثره عندما كان رئيساً وكذا رموز وأعلام الحملة الانتخابية التى قام هو ميمرو بتشييتها على حوائط المنزل بروح تعكس طيبة القلب. بدا لها أنه غليظ القلب فهو لم يقم بتحية لاثارو أو أخته بربارا رغم أنهما قاما بشراء هدية له، كما أنه أثناء تناول

طعام العشاء تحدث فى موضوعين لا يمكن لها تحملها: الكلاب والأطفال . كرهته، ورغم ذلك تغلبت عليها طبيعة أهل الكاريبي فى إظهار الاحترام والود، وها هى قد لبست الحذاء الأفريقى المعتاد فى ليالى الفرح، كما لبست الأساور والأطواق التى تحمل صور القديسين، ولم تفعل أو تتلفظ بكلمة واحدة تزيد عن الحد طوال العشاء، كانت فى وضع لا تلام فيه على شىء: تصرفت تصرفاً سليماً.

والواقع أن طبق الأرز بالجمبرى ليس من الأطباق التى تحسن إعدادها، لكنها أعدته بكل ما تملك من استعداد، وكان طبقاً جيداً جداً، فلقد تناول الرئيس أكثر من طبق، وبالغ فى الإطراء على الطعام وأعجبه شرائح الموز المقلية وكذا سلطة الأفوكاتو. إلا أنه لم يتفق معها فى الحديث عن الأيام الخوالى. تحملت لاثارا الاستماع لحديثه حتى حان موعد تقديم الحلو وذلك عندما دخل هوميرو فى حارة مسدودة - دون أن يكون هناك مبرر- تتعلق بوجود الله.

- نعم أنا أؤمن بالله - قال الرئيس - لكن هذا ليس له صلة بالبشر- فدائرة اهتمامه أكبر من ذلك.

-أنا أؤمن فقط بالفلك - قالت لاثارا وحاولت جس نبض رد فعل الرئيس - فى أى يوم ولدت سيادتك؟
- الحادى عشر من شهر مارس.

- لابد أن يكون ذلك اليوم - قالت لاثارا بقفزة فيها انتصار
وسألت بتؤدة- ألن يكون هناك تجاوز عندما يجلس اثنان من برج
الحوت على نفس المائدة؟

ظل الرجال يتحدثون عن الله عندما دخلت المطبخ لتعد
القهوة، قامت برفع أواني الطعام وكانت شديدة الأمل فى أن
تنتهى الليلة على خير، وعندما عادت إلى الصالة وهى تحمل
القهوة سمعت عبارة نطق بها الرئيس جعلتها تشعر بالحيرة.

- لا يخالـجـك شك فى هذا يا صديقى العزيز: إن أسوء
شـئ كان يمكن أن تمر به بلادنا هو أن أكونُ أنا رئيسًا.

. رأى هوميرو لاثارا وهى على الباب تحمل فناجين الصينى
وماكينه القهوة التى استعارتها من الجيران، فظن أنها على وشك
السقوط لفقدانها التوازن. كما حدث فيها الرئيس أيضاً " لا
تنظرى إلىّ بهذا الشكل يا سيدتى " قال العبارة بنغمة مرحة " إننى
أتحدث من قلبى " ثم توجه إلى هوميرو قائلاً:

- الحمد لله أننى أدفع سعراً عالياً لتهورى.

قامت لاثارا بصب القهوة وأطفأت اللبنة المضاءة فى وسط
المائدة ذلك أنها كانت تشكل عائقًا بضوئها لمواصلة الحوار،
فاكتست الصالة بضوء ضعيف حميم. ولأول مرة تبدى اهتمامها
بالضيف الذى لم تغط خفة روحه على حزنه. فزاد فضول لاثارا

عندما انتهى من تناول القهوة وقلب الفنجان فوق الطبق ليقرأ طالعه .

قص الرئيس عليها بعد تناول العشاء أنه اختار جزيرة مارتينكا لتكون ملاذًا له وذلك لصداقته للشاعر/ حاييم قيصر الذى نشر مؤخرًا "كراسة العودة إلى مسقط الرأس" وساعده على أن يبدأ حياة جديدة، ثم قام هو وزوجته باستخدام ما بقى لهما من مال ورثته وزوجته واشترى منزلاً مصنوعاً من الأخشاب الجيدة فى تلال "فورت دى فرانس" تغطى نوافذه شباك معدنية وله شرفة تطل على البحر وقد امتلأت بالزهور البرية حيث كان النوم وسط صوت الحشرات الليلية والنسمة المحملة برائحة العسل والرون المصنوع من قصب السكر الذى يبيعه الجائلون نوعاً من المتعة . وظل هناك هو وزوجته التى تكبره بأربعة عشر عاماً والتى أخذت تعاني من المرض منذ ولادتها الوحيدة . وقد تحصن ضد الزمن بقراءة شغوفة ومتكررة للكلاسيكيين من اللاتين باللغة اللاتينية وكان على قناعة بأن ما يفعله هو آخر مرحلة فى حياته، وظل لأعوام طويلة يقاوم الإغراءات فى القيام بمغامرات يوحى له بها زملاؤه المهزومون .

- لكننى لم أفض أى رسالة - قال - وذلك بعد أن اكتشفت أن أكثر الرسائل استعجالاً كانت لا تستحق ذلك فى الحقيقة - بعد مرور أسبوع وأنه بعد مرور شهرين لم يعد ذلك الذى أرسلها يتذكر فحواها أو أنه حررها .

نظر إلى لاثارا وهى تشعل سيجارتها وسحبها بسرعة من بين أصابعها وأخذها ثم حبس الدخان فى حلقه . شعرت لاثارا بالمفاجأة فأخذت العلبة والكبريت لتشعل سيجارة أخرى، لكنه أعاد السيجارة المشتعلة إليها، " دخنى سيادتك بكل راحة، الأمر هو أننى لم أستطع المقاومة " قال لها، لكن سرعان ما أخرج الدخان من فمه فقد كان على وشك التعرض للكحة .

- لقد أقلعت عن هذه العادة منذ سنوات عديدة، لكنها لم تقلع عنى بالكامل - قال - فقد استطاعت هزيمتى فى بعض الأحيان، مثلما هو الحال الآن .

هاجمته الكحة مرتين . ها هو الألم قد عاد، نظر الرئيس فى ساعة الجيب وتناول القرصين ثم نظر إلى قاع الفنجان : لم تتغير الأمور، لكنه لم يشعر هذه المرة بالقشعريرة .

- هناك بعض من أنصارى تولوا الرئاسة من بعدى - قال .

- إنه " ساياغو " قال هوميرو .

- هو وغيره - قال الرئيس - وكلهم مثلى : قمنا باغتصاب شرف لا نستحقه بأن مارسنا مهنة ولم نكن ندرى ماذا نفعل فيها . فهناك البعض الذين يريدون السلطة لكن أغلبهم يبحثون عما هو أقل من ذلك وهو الوظيفة .

شعرت لاثارا بالغىظ .

- هل تعرف سيادتك ما يقولونه عنك؟ سألته .

شعر هوميرو بالخرج فتدخل

- إنها أكاذيب.

- هي أكاذيب وليست كذلك - قال الرئيس بهدوء سماوى
- فإذا ما كان الموضوع هو الرئيس فإن أسوأ شيء يمكن أن يتمثل
فى اجتماع النقيضين: الكذب والصدق.

كان قد عاش فى مارتينيك كل أيام المنفى ولم يكن له أى
صلة بالعالم الخارجى إلا من خلال الصحيفة المحلية الرسمية،
وأخذ يعيش من عائد مادى يحصل عليه من دروس بالأسبانية
واللاتينية فى مدرسة رسمية، وكذلك من خلال الترجمات التى
كان يكلفه بها حاييم قيصر.

الحر لا يحتمل فى أغسطس، يظل فى السرير حتى منتصف
النهار وهو يقرأ تحت المروحة الكائنة فى غرفة النوم. أما زوجته
فكانت تعنى بالعصافير التى كانت تربيها وهى طليقة. ورغم ذلك
فعندما تشتد وطأة الحر تحمى نفسها باستخدام قبعة من القش ذات
أجناب عريضة تزينها الفواكه الصناعية والزهور الحمراء. وعندما
تنكسر موجة الحر كان من المناسب الترويح عن النفس بالجلوس
فى الشرفة. كان يحملق دائماً فى البحر حتى يفرق فى الظلام،
أما هى فكانت على سريرها المعلق المصنوع من الخيزران وتضع
على رأسها قبعة مهلهلة، كما تضع الإكسسوارات فى كل

أصابها، وتتأمل السفن المارة " هذه السفينة ذاهبة لترسو فى ميناء بويرتوسانتو" كانت تقول، " وهذه الأخرى لا تستطيع مواصلة الإبحار لثقل حمولتها من الغيينيين من أهالى "بويرتوسانتو" تقول: الأمر أن كل السفن التى تعبر كانت، فى نظرها، من بلادها. أما هو فقد كان يتصنع عدم القدرة على الاستماع، ورغم ذلك استطاعت أن تنسى وتكون فى وضع أفضل منه إذ فقدت ذاكرتها فى النهاية.

كانا على هذا الحال حتى مغيب الشمس ثم يدخلان الدار وقد أصابهما الإعياء بسبب طنين الناموس. وأثناء ليلة من لىالى شهر أغسطس وبينما كان يقرأ الصحيفة فى الشرفة قفز الرئيس قفزة استغراب.

- عجبًا - قال - لقد واتتنى المنية فى استوريل.

فزعت زوجته للنبا وهى جالسة تخفف عن نفسها وطأة الحر. ورد النبا فى ستة سطور على الصفحة الخامسة من الصحيفة التى تطبع على الناصية المجاورة. كما كان ينشر فيها ترجماته. وفوق هذا كان رئيس تحريرها يتردد عليه لزيارته بين الحين والآخر. والآن يقول النبا أننى توفيت فى مدينة استوريل لشبونة، المكان الذى يرتاده الطاعنون فى السن فى أوروبا للاصطياف، كما أنه لم يزر هذا المكان وربما كان المكان الوحيد فى العالم الذى لا

يرغب أن يموت فيه . وبالفعل توفيت الزوجة بعد عام من هذا التاريخ ، وكانت فى أيامها الأخيرة تعيش حالة هوس تتمثل فى الابن الوحيد الذى كان قد شارك فى الإطاحة بوالده وقام شركاؤه بإطلاق النار عليه بعد ذلك .

تنهد الرئيس : " هكذا نحن ولا شىء يمكن أن يغيرنا " قال " إنها قارة مليئة ببحالة الدنيا كلها وليس فيها لحظة حب : إنهم أبناء الاختطاف والاعتصاب والمعاملة الدنيئة والخداع والأعداء مع الأعداء " ثم نظر إلى عيني لاثارا الأفريقيتين ، حيث كانت تتفحصه بلا رحمة وحاول تهدئتها بوسائله وهو العجوز المحترف .

- إن كلمة المهجن تعنى خلط الدموع مع الدم الذى يجرى ، فما الذى يمكن أن نأمله من هذا الكوكبيل الكريه ؟

تركته لاثارا جامداً فى مكانه ، وذلك بصمت القبور الذى أصبحت عليه . لكنها استطاعت أن تتحامل على نفسها قبل منتصف الليل بقليل وودعته بقبلة رسمية . عارض الرئيس أن يقوم هوميرو بمرافقته إلى الفندق ، لكنه لم يحل دون مساعدته له فى الحصول على تاكسى . وعندما عاد هوميرو إلى المنزل وجد امرأته فى شدة الغيظ .

- إن هذا هو أفضل رئيس تمت الإطاحة به فى العالم - قالت - إنه ابن قحبة .

ورغم ما بذله هوميرو من جهد لتهدئتها ظلاً الليل بطوله دون نوم، اعترفت لاثارا أنه واحد من أجمل الرجال الذين رأتهم ولديه قدرة هائلة على المغازلة وفحولة واضحة "إذا كان هذا هو ما عليه من الشيخوخة وسوء الأحوال فلا بد وأنه أسد فى السرير" قالت لكنها كانت تظن أن هذه العطايا الإلهية لن يساء استخدامها بأن تكون غطاءً مظهرياً.

لم تتحمل هوسه بأنه كان أسوأ رئيس لبلده - ولم تتحمل تظاهره بالورع، بل كانت على يقين بأنه يملك نصف ما على ظهر مارتينيكا. لم تتحمل أيضاً نفاقه فى تحقيره للسلطة، وكان واضحاً عندها أنه على استعداد للتضحية بكل شيء ليعود للرئاسة ولو للحظة، وذلك حتى يجعل أعداءه يلحسون التراب.

- كل هذا - اختتمت عبارتها - من أجل أن يرانا راكعين على قدميه.

- ما الذى يمكن أن يجنيه من وراء هذا؟ قال هوميرو.

- لا شيء - قالت - كل ما فى الأمر هو أن الدلال خصلة لا ترتوى أبداً.

كان غيظها شديداً لدرجة أن هوميرو لم يتحملها فى السرير معه، فذهب ليقضى ما تبقى من الليل على كنبه فى الصالة وهو يلتحف البطانية. نهضت لاثارا هى أيضاً عند الفجر، وكانت عارية تماماً كما هى عاداتها فى النوم عندما تكون فى المنزل.

أخذت تتحدث مع نفسها. وفي لحظة محت من ذاكرتها ومن ذاكرة الإنسانية كل ما يتعلق بذلك العشاء غير المرغوب فيه. فأعادت الأشياء المستعارة إلى جاراتها. وغيرت الستائر الجديدة وعادت لوضع القديمة، ووضعت قطع الأثاث فى مكانها حتى أصبح المنزل على حالة الفقر والبساطة - كما كان قبل الليلة السابقة، وأخيراً انتزعت القصاصات الصحفية والصور والمرايات والرموز الخاصة بالحملة الانتخابية البغيضة - وألقت بكل شئ فى سلة الزباله - وهى تصيح:

- إلى الجحيم.

بعد أسبوع من دعوة العشاء وجد هوميرو الرئيس وهو ينتظره عند مدخل المستشفى رجاه أن يرافقه إلى الفندق. صعدا الأدوار الثلاثة حتى وصلا إلى فراغ عليه قبة تفصل المبنى عن السماء الملبدة، كما يمر من تحت هذه القبة جبل غسيل عليه بعض الملابس.

كان هناك أيضاً سرير كبير يشغل نصف المساحة الخالية، وكرسياً بسيطاً وإبريقاً لغسل الأيدي، وحوضاً صغيراً متنقلاً لغسل الأرجل، وكذلك دولاباً متواضعاً به مرآة قديمة، لاحظ الرئيس ما على وجه هوميرو من انطباع.

- إنه نفس المكان الذى عشت فيه سنوات دراستى - قال هذه العبارة وكأنه يعتذر - وقد احتفظت به منذ "فورت دى فرانس".

أخرج شنطة من القטיפه وفرش على السرير آخر ما معه من موارد: عدة أساور ذهبية مطعمة بعضها بالأحجار الثمينة، وعقدًا من اللؤلؤ بثلاث أفرع، وعقدان آخران من الذهب والأحجار الثمينة، وثلاثة سلاسل ذهبية معلق بها ميداليات تحمل صور القديسين، وزوج من الخلقان الذهبية المطعمة بالزمرّد، وزوج آخر من الماس وثالث من الياقوت الأحمر، وقطعتان من القطع الأثرية وعلبة من المعادن الثمينة لحفظ خصلات الشعر، وإحدى عشرة قطعة حلّى بها أنواع مختلفة من المعادن الثمينة. وكذا تاج من البرلنت لابد وأنه كان للملكة. وأخرج بعد ذلك عليه علبة أخرى بها ثلاثة أزواج من الأزرار المصنوعة من الفضة وزوجين آخرين من الذهب ولكل واحد منها المشبك الخاص برابطة العنق، وساعة جيب مطلية بالذهب الأبيض. وأخيرًا أخرج من صندوق للأحذية النياشين الستة التي حصل عليها: اثنين من الذهب وآخر من الفضة، أما الأخرى فهي من المعادن العادية.

- هذا كل ما تبقى لى فى هذه الحياة - قال .

لم يكن أمامه مخرج آخر إلا بيع كل ما يملك من أجل سداد مصاريف العلاج، وكان يريد أن يقوم هوميرو بهذه المهمة فى سرية مطلقة، ومع ذلك شعر هوميرو بعدم قدرته على المساعدة طالما أنه لا توجد لديه الفواتير الرسمية .

شرح له الرئيس أن هذه هى متعلقات زوجته التى ورثها عن جدتها من العصر الاستعماري، وهذه الأخيرة كانت قد ورثت مجموعة من الأسهم فى أحد مناجم الذهب فى كولومبيا. أما الساعة والأزرار والدبايس الخاصة برابطة العنق فهى لى. ومن المعروف أن النياشين لم تكن لأحد قبله.

- لا أعتقد أن أحداً يمكن أن تتوفر لديه فواتير بهذا الشكل - قال.

أصر هوميرو على موقفه.

- فى هذه الحالة - قال الرئيس بتمعن - لن يكون أمامى إلا مواجهة الموقف بنفسى.

أخذ يجمع قطع الحلى بهدوء محسوب " أرجوك أن تعذرنى يا صديقى هوميرو وذلك أنه ليس هناك فقر أسوأ من الفقر الذى عليه رئيس". قال له "لدرجة أن محاولة التغلب على مصاعب الحياة تكتنفها التنازلات"، وفى هذه اللحظة، رق له قلب هوميرو وأسلم له قياده.

عادت لاثارا متأخرة إلى المنزل ذلك المساء، ورأت الحلى وهى تعكس ضوء حجرة الطعام، وتغيرت ملامحها كأنها رأت عقرباً فى سريرها.

- لا تكن فظاً أيها الأسود - قالت مفزوعة - لماذا توجد هذه الأشياء هنا؟

زاد كلام هوميرو وشرحه من قلقها، وجلست لتأمل الحلوى واحدة بعد الأخرى وكأنها أحد خبراء هذه المصنوعات، تنهدت فى لحظة "لابد وأن المقابل مبلغ ضخم" ثم أخذت تنظر إلى هوميرو بعد ذلك وهى لم تجد بعد مخرجاً لهذا الارتباك.

- يا للمصيبة - قالت - ما الذى يمكن أن يفعله المرء حتى يتأكد من أن كل ما يقوله هذا الرجل هو الحقيقة؟

- ولم لا؟ قال هوميرو - لقد رأيته منذ وقت قصير وهو يغسل ملابسه ويتركها لتجف فى الحجرة مثلما نفعل نحن بتعليقها على السلك.

- لأنه بخيل - قالت لاثارا.

- أو لأنه فقير - قال هوميرو.

عادت لاثارا لتتفرج على الحلوى، لكن بدرجة اهتمام أقل ذلك أنها كانت تشعر بالهزيمة. وعلى ذلك فصباح اليوم التالى ارتدت أفضل ما لديها من ثياب ووضعت الحلوى التى بدت أغلى شئ فى نظرها ووضعت أكثر من خاتم فى كل واحد من أصابع يديها بما فى ذلك الإبهام، وكذلك بعض الأساور فى كل ذراع

وذهبت لتسبيح كل ذلك. "لنرى من الذى سيطلب من لاثارا ادفيس فاتورة" قالت وهى خارجة وقد غمرتها ابتسامة فيها شموخ. اختارت محل الذهب المناسب، ظاهره الفخامة لكنه ليس شهيراً، وكانت تعرف أن عمليات البيع والشراء تتم دون أسئلة كثيرة. دخلت المحل وهى تشعر بالفزع لكنها ثابتة الخطا.

قام أحد البائعين الذين يرتدون الزى الخاص بالمحل بإيماءة مسرحية مقبلاً يدها. كان رجلاً نحيفاً وشاحب اللون. ووضع نفسه فى خدمتها. كان داخل المحل واضحاً وضوح النهار وذلك بفضل الفترينات والأضواء الكثيرة. بدا المحل كأنه من الماس. واصلت لاثارا طريقها إلا داخل المحل دون أن تنظر إلى الموظف خوفاً من أن يكشف هذه التمثيلية.

دعاها الموظف للجلوس أمام واحد من المكاتب الثلاثة من طراز لويس الخامس عشر والتى تستخدم كفتريانات فردية. ثم قام بفرد منديل نظيف فوق المكتب وجلس فى مواجهة لاثارا وانتظر.

- ماذا يمكن أن أقدم لك يا سيدتى؟

أخذت تخلع الحلى من الخواتم والأساور والعقود والأقراط وكل ما كانت تضعه وتضع كل ما تخلعه على المنضدة فى ترتيب كأنه قطع شطرنج. إن الشيء الوحيد الذى أريده - قالت - هو معرفة القيمة الحقيقية لكل هذا.

وضع بائع الحلوى العدسة على عينه اليسرى وأخذ يفحص
الحلوى فى صمت كأنه فى عيادة. وبعد وقت ليس بالقصير، ودون
أن تتوقف عملية الفحص سأل:

- من أين أنت يا سيدتى؟

لم تكن لاثارا تتوقع سؤالاً مثل هذا.

- آه يا سيدى - تنهدت - من مكان بعيد جداً.

- أتصور ذلك - قال.

عاد إلى صمته بينما تقوم لاثارا بتفحصه بعينيها الذهبيتين
الحادتين بلا رحمة. أولى الجواهرجى اهتماماً خاصة بالتاج الماسى
ووضعه فى مكان خاص بعيداً عن باقى الحلوى. تنهدت لاثارا.

- إنك يا سيدى من برج العذراء - قالت.

لم يتوقف الجواهرجى عن فحص القطع.

- وكيف تعرفين؟

من خلال كينونة المرء - قالت لاثارا.

لم يعلق بشيء حتى انتهى من عملية الفحص وتوجه إليها
بنفس درجة الاحترام التى بدأ بها.

- ما هو مصدر كل هذا؟

- إنه ميراث من جدتي - قالت لاثارا بصوت متوتر -
ماتت العام الماضى فى باراماريبو عن عمر يناهز السابعة
والتسعين .

عندئذ نظر الجواهرجى فى عينيها "أنا شديد الأسف" قال
لها "إن الشئ الوحيد الذى له قيمة فى كل هذا هو الوزن" وبعد
ذلك أخذ التاج بأطراف أصابعه فأخذ يعكس الضوء الشديد
المنبعث من المحل .

- ما عدا هذه القطعة - قال - إنها قديمة جداً - وربما
كانت مصرية، وبالتالي قد لا يمكن تقدير ثمنها اللهم إلا بسبب
الحالة السيئة التى عليها الماسات، على أى الأحوال لها قيمة
تاريخية .

أما باقى الأحجار المرصعة بها قطع الحلى الأخرى، من
الزمرد والجمشت والأوبال والياقوت إلى غيرها فكلها فالصو "ومما
لا شك فيه أن القطع الأصلية كانت ممتازة" قال الجواهرجى وهو
يجمع القطع لإعادةتها إليها، لكن مع توالى الأجيال ذهبت القطع
الأصلية وأخذت تحل محلها قطعاً رجاجة. شعرت لاثارا بالغثيان
القوى فأخذت نفساً عميقاً وسيطرت على فزعها . أخذ البائع
يهدئ من روعها .

- هذا يحدث كثيراً يا سيدتى .

- أعرف ذلك - قالت لاثارا وهي تشعر بعودة الهدوء إلى نفسها - ولهذا أريد التخلص منها.

عندئذ شعرت أنها تجاوزت حدود التمثيلية وأخذت تسترد سيطرتها على نفسها. وبدون المزيد من اللف والدوران فتحت شنطتها وأخرجت الأزرار والساعة الذهبية ومشابك رابطة العنق والقلادات الذهبية والفضية ووضعت كل شيء على المنضدة.

- وهذا أيضاً؟ سأل الجواهرجى؟

- كل شيء - قالت لاثارا.

كانت أوراق العملة من الفرنكات السويسرية جديدة لدرجة أنها خشيت أن تتسخ أصابعها من أحبار هذه الأوراق. أخذت النقود دون عدها، وودعها الجواهرجى حتى الباب بنفس الطريقة التي استقبلها بها. وعندما أصبحت على الباب وهو يمسك الضلفة الزجاجية ليفسح لها الطريق قال:

- هناك شيء آخر يا سيدتى - قال - أنا من برج الدلو.

عند حلول المساء ذهبت كل من لاثارا وهوميرو إلى الفندق ومعهما ثمن الحلوى. وبعد القيام بعمليات حسابية كان قد تبقى مبلغ صغير للوفاء بالمصاريف، وعلى ذلك أخذ الرئيس يستزع بعض الحلوى التي يضعها ويلقى بها على السرير بادئاً بدبلة الزواج وساعة الجيب والدبوس الخاص بالكرافات الذي كان يستخدمه.

أعادت إليه لاثارا الدبلة .

- ليس هذا - قالت لاثارا - فتذكر مثله لا يمكن بيعه .

قبل الرئيس ذلك، ووضع الدبلة، أعادت إليه لاثارا ساعة الجيب التي كان يضعها في الصدري " وهذا أيضاً " قالت - لم يكن الرئيس على اتفاق معها في هذا لكنها وضعت له الساعة في مكانها .

- من هو ذلك الذى يفكر فى بيع ساعات فى سويسرا؟

- لقد بعنا واحدة - قال الرئيس .

- نعم لكن ليس لأنها ساعة بل لما فيها من ذهب .

- هذه أيضاً ذهبية - قال الرئيس .

- نعم - قالت لاثارا - يمكن لك ألا تجرى العملية ولكن لا يمكن لك ألا تعرف كم الساعة .

ولم تقبل أن يبيع الشنبر الذهبى لنظارته رغم أنه كان لديه نظارة أخرى . وضعت القطع فى يدها كأنها تزنها ثم وضعت نهاية للشكوك .

- كما أن ما معى - قالت - يكفى للوفاء بالمبلغ المتبقى .

قبل أن تخرج قامت بأخذ الغسيل دون أن تأخذ رأيه وذهبت به لتجففه وتقوم بكيه فى المنزل . ركباً الدراجة البخارية .

كان هوميرو يقوم بالقيادة أما هي فقد ركبت على الشبكة الخلفية وهي تحتضنه، ومنذ فترة قصيرة أضيئت الأنوار فى الشوارع فى ذلك المساء البنفسجى . كانت الرياح قد قضت على آخر الأوراق الجافة وأضحت الأشجار كأنها حجريات منتوفة الريش، وكانت هناك شاحنة تمر من شارع / رودانو وفيها مذياع مرتفع الصوت أخذ يملأ الشوارع بالموسيقى . كان المغنى هو "جورج براسنى" وتقول كلمات الأغنية بالفرنسية:

يا حبيبى اقبض على عصاك جيداً، سوف يمضى الزمن من هناك، هذا الزمن البربرى من هو من نوعية أتيللا، عندما يمر حصانه لا يندفع الحب .

كان هوميرو ولائارا يجريان فى صمت وقد أسكرتهما الأغنية ورائحة الزهور الحمراء، بعد هنيهة بدت وكأنها استيقظت من حلم .

- يا للكارثة - قالت

- ماذا؟

- إنه العجوز المسكين - قالت لائارا - يا لها من حياة

تعسة!

* * *

ويوم الجمعة التالى الموافق السابع من أكتوبر أجريت للرئيس جراحة استمرت خمس ساعات، وكانت المحصلة أن كل شىء ظل على ما هو عليه سابقاً، وكان عزاؤه الوحيد هو أنه لا زال حيّاً، وبعد مرور عشرة أيام نقلاه إلى غرفة مشتركة مع بعض المرضى الآخرين وأمكن لهما زيارته. كان إنساناً آخر. فقد بعض إدراكه وبه هزال وأصبح شعره واهناً للدرجة أنه كان يتساقط عندما يلامس المخدة. ولم يبق له من قدراته السابقة إلا مرونة الحركة فى يديه.

كانت حالته مثيرة للأسى عند أول محاولة للسير على عكازين صُمما لهذا الغرض. وكانت لاثارا تقضى الليل إلى جواره لتوفر عليه نفقات ممرضة ليلية. فى الليلة الأولى أخذ أحد المرضى فى الحجرة يئن بصوت عال طوال الليل خوفاً من الموت، وقد أدت الليالى التى لا تنتهى إلى ضرب المعاول فى مقاومة لاثارا.

خرج من المستشفى بعد أن قضى أربعة أشهر فى جنيف. قام هويمرو الذى كان يشرف إشرافاً دقيقاً على مدخراته الضئيلة، بسداد مصاريف المستشفى وحمله فى سيارة الإسعاف ومعه بعض الموظفين ليساعدوه فى الصعود به إلى الدور الثامن. وهياؤا له حجرة الأولاد اللذين لم يتعرف عليهما أبداً. وأخذ بعد ذلك يستعيد وعيه بالواقع المحيط. أخذ يهتم بتمرينات العلاج الطبيعى

متبعاً نظاماً صارماً حتى عاد للسير مستخدماً عكازاً واحداً فقط .
ورغم أنه عاد لارتداء أفضل الملابس الخاصة به إلا أنه لم يعد أبداً
إلى سابق عهده سواء فى الشكل العام أم فى الطباع . فقد أصبح
شديد الخوف من الخريف الذى أخذ يعلن عن نفسه بقسوة ، وكان
أقسى خريف تمر به المدينة منذ بداية القرن . قرر العودة إلا بلاده
على متن سفينةبحر من مرسيليا يوم الثالث عشر من ديسمبر .
كان القرار مخالفاً لنصائح الأطباء الذين رغبوا فى الإشراف عليه
لمزيد من الوقت ، لكن المال الذى معه لم يكف لكل هذا ، فأرادت
لائارا أن تزيد المبلغ المتبقى بشيء آخر ، ولو ضئيلاً ، من المدخرات
المخصصة للأبناء ، غير أنها وجدت فى الحصالة أقل مما كانت
تتوقع ، وعندئذ اعترف لها هوميرو بأنه أخذ بعض النقود خلصة
لاستكمال مصاريف المستشفى .

- حسن - قالت لائارا مستسلمة - لنقل أنه كان الابن
الأكبر .

فى الحادى عشر من ديسمبر ذهبوا به إلى المحطة ليأخذ
القطار المتجه إلى مرسيليا ، كانت هناك عاصفة ثلجية عاتية .
عندما عادا إلى المنزل وجدا رسالة وداع موضوعة على الكومود
الخاص بحجرة نوم الأطفال . ترك معها دبله الخطوبة لباربارا ومعها
دبله زوجته التى توفيت ، والتى لم يحاول بيعها أبداً ؛ كذلك
الساعة من أجل لائارا . ولما كان يوم الأحد فإن بعض الجيران من

أبناء الكاريبي عرفوا بالسر وذهبوا إلى محطة القطار "كورنافين" وهم يحملون بعض الآلات الوترية من "بيراكروث" لم يكن الرئيس فى حالة معنوية جيدة. كان يرتدى المعطف غير المهندم وشالاً رفيعاً ملوناً يلفه حول رقبته أهده إياه لاثارا. ورغم هذا ظل فى آخر. كان فى العربة الأخيرة يودعهم ملوحاً بالقبة تحت ضربات العاصفة الثلجية. أخذت سرعة القطار فى الازدياد فى الوقت الذى أدرك فيه هوميرو بأن العصا لا زالت معه فجرى حتى آخر الرصيف وقذف بها بقوة حتى يلتقطها الرئيس وهى تطير فى الهواء. لكنها سقطت بين عجلات القطار وتحطمت. كانت لحظة رعب. كان آخر شيء رآته لاثارا هو اليد المرتعشة التى امتدت لتلتقط العكاز. ولم تستطع أبداً نسيان تلك الصورة وكذلك صورة عامل القطار الذى استطاع أن يمسك العجوز بواسطة "التلفيحة" بعد أن غطاه الثلج وأنقذه من السقوط. جرت لاثارا، وقد أصابها الهول لما رأت، لتلحق بزوجها محاولة الابتسام بعد الدموع.

- يا إلهى - صاحت - هذا الرجل لا يموت من شيء.

وصل سليماً معافى وذلك طبقاً لتلغراف شكر مطول أرسله، وطوال أكثر من عام لم يعرف عنه شيء، بعد ذلك وصلت رسالة مكونة من ست صفحات مكتوبة بخط اليد، كان من المستحيل التعرف عليه، فقد عاودته الآلام بنفس القوة والشدة المعهودتين سابقاً، إلا أنه قرر ألا يوليها أى اهتمام وأن يكرس

نفسه للحياة كيفما اتفق . وقام الشاعر حاييم قيصر بإهدائه عكازاً آخر مطعماً بالصدف ، لكنه قرر ألا يستخدمه . أمضى ستة أشهر وهو يتناول اللحم بشكل منتظم كما كان يتناول بعض الرخويات البحرية وكان قادراً على تناول ما قد يصل إلى عشرين فنجان قهوة يومياً ، لكنه لم يعد يقرأ طالعه فى الفنجان ، ذلك أن توقعاته تؤتى العكس تماماً . ويوم أن بلغ الخامسة والسبعين من العمر ، تناول عدة كئوس من رون مارتينيكا الممتاز كان لها تأثير طيب عليه . كما عاد للتدخين ، لم يكن يشعر بتحسن ، لكنه أيضاً لم يشعر بأن حالته تسوء . السبب الذى جعله يكتب هذه الرسالة هو إبلاغهما برغبته فى العودة إلى بلاده ليكون على رأس حركة تجديد فى سبيل قضية عادلة ووطن أهل للكفاح من أجله رغم أن ذلك قد يكون الدافع من ورائه هو الفخر التعس بأنه لم يمت فى سريره من الشيخوخة .

انتهت الرسالة مشيرة إلى الاتجاه الجديد ، وكأن رحلته إلى جنيف كانت بمثابة النبوءة بما سيحدث .

جاك لندن

سخرية بورتيك

تعريب
سقار عبظو

خطوات للتوزيع

سخرية بوربورتیک

أصبحت "إل-سو" فتاةً الإرسالية التبشيرية.

ذات يومٍ صيفي، خطف الموت والدُها وهي ما تزال صغيرةً جداً. التقطتها الأخت "البرتا"، كالجمر من الاشتعال، وكرّستها لخدمة الرب في كنيسة الصليب المقدس.

"إل-سو" فتاة هندية ممثلة الجسم، رشيقة، سريعة العدو، ذكية ذات خيال متقد وشخصية قوية، لطيفة وشجاعة، شعور مفعم بحيوية الحياة. بزّت كل الفتيات المهجّينات ونصف المهجّينات. يسيل في عروقها دم والدّها الذي كان زعيماً. احترمت العلاقات المتبادلة. تفوقت في علم الحساب وفي أمور أخرى، أيضاً. تعلمت قراءةً وكتابةً اللغة الإنكليزية، في وقتٍ، لم تتمكن أية فتاة في الإرسالية التعلم أبداً. ترأست الفتيات في الإنشاد وأفعم إحساسها بالعدالة. رغبت أن تنظم

أدباً أو موسيقياً، حفل حماسها إلى الإبداع ، مع أنها كانت ابنة الزعيم
\\ كلاكي - ناه \\ ، لكنها ترعرعت في الكنيسة التي لا تحوي
فنانات، فقط، الأخوات ذوات النفوس الطاهرة اللاتي كنَّ يُحلَّين
بالطهارة والاستقامة ورفاهية الروح في عالم الخلود الذي يكمن
خلف السماوات. مرت السنون، كان عمرها ثمان سنوات عندما
التحقت بخدمة الكنيسة، وعندما بلغت سنَّ السادسة عشر، تبادلَت
الأخوات الرسائل مع رؤسائهن حول إرسال "إل-سو" إلى
الولايات المتحدة كي تتابع تعليمها وثقافتها.

آنذاك، جاء رجل من قبيلتها إلى مقر الإرسالية، وتحدث
معهما. ارتعبت قليلاً. كان قدراً، يشبه كائناً بدائياً قبيحاً، على رأسه
كتلة شعر كثيفة، بدا أنه لم يُمشطها منذ زمن بعيد.
رفض الجلوس ونظر إليها باستهجان، وقال بإيجاز: مات
أخوك.

لم يبد أن صدمة أصابتها. تذكرت أخاها الصغير.
قال الرسول: إن أباك رجل عجوز ووحيد، مترلّه واسع
وفارغ، يرغب رؤيتك وسماع صوتك.
تذكرته، "كلاكي - ناه"، زعيم القرية، وصديق المبشرين
والتجار، يركب عربته مُباعداً رجله بشعور نبل صريح.
أجابت "إل-سو": قل له، سوف أذهب إليه.

عادت الجمرة الملتقطة من التوهج إلى الاشتعال، وأصيبت الأخوات باليأس المفرط. ضاعت كل الالتماسات دون جدوى. رفض وبكاء، حتى أن الأخت "البرتا" كشفت لها عن خطة إرسالها إلى الولايات المتحدة.

حدثت "إل - سو" بعينين واسعتين الى المستقبل الذهبي الذي انفتح أمامها، وهزّت رأسها، كان في عينيها إصرارٌ على المستقبل الآخر.

بدا تعرج نهر اليوكون رائعاً نحو محطة "تاناانا"، كنيسة القديس جورج على جانب، والمخطة التجارية على الجانب الآخر، وفي منتصف الطريق إلى القرية الهندية، يقطن رجل عجوز مع بعض الخدم في منزل خشبي كبير . كل قاطني ضفتي اليوكون، ولمسافة ألفي ميل، عرفوا المنزل الخشبي الكبير، والرجل العجوز، والخدم الذين يعتنون به. الأخوات، عرفن المنزل جيداً، كان دائم المرحح الصاحب والنكات، والولائم وطيب الطعام.

غادرت "إل - سو" كنيسة الصليب المقدس، مخلفةً نواحاً وحزناً.

عندما وصلت، أضفت على المنزل الخشبي الكبير ترتيباً أيقناً. احتج "كلاكى - ناه" على سلوك ابنته الرائع، لكنه في النهاية، كان يحلم بمحبة العظمة.

انطلق واقترض مبلغ ألف دولار من العجوز "بوربوتيك"، حيث كان لا يوجد مثله في اليوكون هندي ثري، ورفع قيمة الفاتورة الثقيلة في المحطة التجارية أيضاً.

بثت "إل-سو" روح النشاط في المنزل، ومنحته روعة جديدة. بينما حافظ "كلاكي-ناه" على التقاليد القديمة كحسن الضيافة والمرح الصاحب.

كل هذا غير عادي لهنود اليوكون، لكن "كلاكي-ناه" كلن هندياً مختلفاً. لم يحب من تلقاء نفسه إظهار حسن الضيافة المبالغ فيه، لكن؛ من يكن الزعيم، يجب أن يكسب أموالاً كثيرة، وهو قادر على ذلك. في بداية عمله في التجارة، تقاسم الأرباح مع شركاء ييخ. فيما بعد، توصل مع "بوربوتيك" إلى اكتشاف مفاجئ للذهب في نهر "كويوكوك".

كان "كلاكي-ناه" ذا نزعة ارسقراطية، و"بوربوتيك" تاجراً برجوازيّاً، باعه حصته من منجم الذهب رغبةً في اكتناز وجمع الأموال. أما "كلاكي-ناه" فمضى ينفق بإسراف.

كان "بوربوتيك" معروفاً أنه أثرى هندي في آلاسكا، مرايياً. بينما كان "كلاكي-ناه" في زمن غير زمنه -إفلاس قروسطي- مقاتل ويدعو، إلى الولائم. سعيد مع النصر والغناء.

تأقلمت "إل-سو" مع المنزل الكبير، كما كانت قد تأقلمت مع كنيسة الصليب المقدس. لم تحاول إصلاح والدها وتوجيه خطواته

نحو الرب. أنبته - هذا صحيح - عندما شرب كثيراً، لكن ذلك من أجل صحته وتصويب خطواته على الأرض الصماء.

لم يُبَنِّتَ جبل مزلاج الباب الخشبي الكبير أبداً، كان دائماً نحو الخارج مع كل وافدٍ ومغادر. وتتمتع عوارض السطح الخشبي المائل لغرفة المعيشة الكبيرة مع أصوات هدير شراب "الواسيل" والأغاني. جلس حول المائدة رجال من كل أنحاء العالم، وزعماء قبائل مختلفة، رجال إنكليز، وساكنو المستعمرات، تجارٌ يانكيون هزليون، موظفو الشركات الضخمة البدينين، رعاة بقر من المراعي الغربية، رجال بحارة، صيادون، مزالَجٌ ثلجية جلبت أعداداً لا حصر لها من الجنسيات.

نفثت "إل - سو" في الهواء الكوسموبوليتاني (*) وتمكنت من التحدث باللغة الإنكليزية، إضافة إلى لهجتها المحلية. أنشدت أغاني إنكليزية وشعبية. وأدركت ضعف التقاليد، وزوال الطقوس الهندية. كانت تعرف كيف ترتدي الثوب القبلي لابنة الزعيم عند الضرورة.

لكن؛ كانت ترتدي ثياباً كالمرأة البيضاء، معظم الوقت، تلك الثياب التي خاطتها في الكنيسة وحملتها معها لدى مغادرتها إلى مقر والدها. وفي طريق العودة أحسّت أنها غير عادية مثل والدها، وهذه الحالة نشأت من تفكيرها أنها وحيدة مثله. كانت المرأة الهندية الوحيدة التي تتساوى اجتماعياً مع نساء بيض مختلفات. وهي الهندية

* - الكوسموبوليتاني: الجو المتحرر من الأحقاد القومية أو المحلية.

الوحيدة في محطة تانانا التي عَرَضَ عليها الرجال البيض الزواج باحترام. والتي لم يقدم رجل أبيض على إهانته أبداً.

كانت "إل-سو" جميلةً، ليست كجمال النساء البيض، ولا كجمال النساء الهنديات. بدا تألقها في أنفها لم تعتمد على المستقبل، ذاك كان جمالها. لم يكن هذا إلى حد ما سوى مجرد تفكير، فقد كانت مثال المرأة الهندية الكلاسيكية.

اللون البرونزي الجميل والشعر الأسود كانا خاصتهما، العينان السوداوان، متألقتان وجسورتان كوميض السيف، وأنف كخاصة نسر دقيق برقه، أنف يهتز بإباء، عظمتا الوجنتين ليستا عريضتين، شفتان رقيقتان، وليستا رقيقتين أيضاً. لكن؛ خلال تدفق كل الشعور الملتهب، كان حماسها شيء ما غير قابل للتحليل، الروح المحركة لها، أمدت الدفء اللطيف والتوهج في عينيها، وأزهرت الوجنتين، ووسعت ثقي الأنف، وفتلت الشفة، أو، عندما تكون الشفة في حالة سكون كان الارتجاف يستمر مع طيفها.

وكانت ذا فطنة ودهاء، قلما تحتد بالأذى، بل تُسرِع إلى إظهار قدرة العفو. ينشط الضحك على محياها كوميض لامع وينتشر على كل من حولها، وترتفع استجابات الضحك.

لم تكن مركز الأشياء، أيضاً، ولم ترغب أن تكون.

كل ما يتضمنه المنزل الخشبي الكبير، له دلالات. إنه منزل والدها، ومن خلاله، حرك شخصيته البطولية - صاحب المنزل، سيد المرح الصاخب، واضع القانون.

هذه حقيقة. عندما بدأت قوته تضعف، تحملت "إل-سو" المسؤولية عنه. لكنه من حيث المظهر ظلّ مسيطراً، يقضي معظم أوقاته متكاسلاً حول المائدة، بقايا شخص عرييد، ومع ذلك يبدو هو الأمر للوليمة.

ضمن حدود المنزل، تحركت شخصية "بوربورتيك"، يهزّ رأسه متشائماً، يستنكر ببرود، ويدفع كل شيء مقابل امتلاك المنزل. في الحقيقة هو لم يدفع. لقد ضاعف الفائدة بأساليب غريبة، وعاماً بعد عام، امتصت ملكية "كلاكي-ناه".

ذات مرة؛ أقدم "بوربورتيك" على توبيخ "إل-سو" حول أسلوب الحياة المرفهة في المنزل - كان ذلك عندما أوشك على استنزاف آخر ثروة "كلاكي-ناه" - لكنه أبداً لن يجازف مرة أخرى بتوبيخ مماثل.

"إل-سو"، شابهت والدها، أرستقراطية، تزدرى المال بشعور متساوٍ للشرف.

"بوربورتيك" مصممٌ بتدمير على الإسراع بدفع الديون عندما يشاهد أن المال يتدفق بزبدٍ ذهبي بعيداً. توقفت "إل-سو" كثيراً عند أمر هام، والدها سيموت كما عاش، يجب أن لا يسقط من الشموخ إلى الحضيض، دون أن يقلل من العربرات والعادات المرفهة.

في الماضي، أثناء حدوث المجاعة، توافد الهنود الحمر إلى المنزل الكبير، وغادروا قانعين.

آنذاك، لم يكن المال متوفراً. كان "كلاكسي - ناه" يستدين من "بوربورتيك" وظلّ الهنود الحمر يأتون ويغادرون قانعين.

ربما، "إل - سو" كانت تردد حقاً، خلف الأرسستقراطية في زمان ومكان آخرين، الطوفان. الطوفان بالنسبة إليها، كان العجوز "بوربورتيك".

مع كل سلفة مالية، كانت نظرات "بوربورتيك" تحاول الاستئثار بحبها، لكن؛ لم تكن تكثر به، ولم تعرّ أيضاً نظرها نحو أي من الرجال البيض الذين رغبوا الزواج منها بالطقوس الكنسية المعروفة.

كل ذلك من أجل الشاب "آكون"، الشاب القوي الذي يعمل في محطة تانانا. إنه من قبيلتها وقريتها ومن دمهها. كان في نظرها شاباً قوياً وجميلاً، صياداً ماهراً.

شاب فقير جداً، ارتحل وتحوّل كثيراً وبعيداً، وصل إلى جميع القفار والأماكن غير المعروفة، ارتحل إلى "ستيك" وإلى الولايات المتحدة، وعبر أوروبا إلى "هيدسون باي"، ثم عاد مرة أخرى، وأبحر على متن سفينة كصياد بحري، ثم إلى سيبيريا واليابان.

عندما عاد من اكتشاف الذهب في /الكلونديك/، جاء برغبته إلى المنزل الخشبي الكبير، كي يروي للعجوز "كلاكسي - ناه" عن كل

ما شاهده في رحلاته. وقد سبق أن شاهد "إل-سو" قبل ثلاث سنوات في الإرسالية التبشيرية. آنذاك، لم يتحول كثيراً. رفض العمل كمدير دفة في مركب تجاري مقابل أجر اثني عشر دولاراً يومياً.

كان ميالاً للصيد، يصطاد السمك، لكنه لم يتعد عن محطة تانانا، ويتردد على المنزل الكبير في معظم الأحيان، ولمدة طويلة، قارنته "إل-سو" مع رجال كثيرين، فكان الأفضل، أنشد لها الأغاني، وانتشرت قصة حبهما في أرجاء محطة تانانا.

هذا ما أزعج "بوربورتيك" الذي دفع أموالاً ضخمة كي يحصل على المنزل الخشبي الكبير.

حلّت ضريبة الموت لـ "كلاكي-ناه".

أخذ مكانه في المأدبة بمنجرة ميتة، لم يستطع كتم الصوت مع النييد. دارت الأغاني والنكات والضحكات، وروى "أكون" قصة رددت الروافد الخشبية صداها. على تلك المائدة، لا دموع، لا تنهدات، لكن ثمة "كلاكي-ناه" سوف يموت كما عاش، ولا أحد أدرك هذا أفضل من "إل-سو".

كان حفل السكر والعريذة يضم، كالسابق، ثلاثة رجال بحارة تأذوا من الصقيع عندما سلكت سفينتهم الطريق الطويل المتعرج، مواكبةً الريح، قادمةً من القطب الشمالي، وهم الوحيدون الناجون من حادثة شركة السفن الأربع والسبعين.

خلف "كلاكي- ناه" وقف أربعة رجال عُجز. عملوا على خدمته بعيون دامعة، وبأيدي مصابة بشلل ارتجافي يملأون كأسه، أو، يضربونه على الظهر بين الكتفين، حين يسعل ويلهث.

كانت ليلة عاصفة، وكما مضت الساعات الطويلة بظلمتك وهديره، كذلك نشط الموت أكثر، متواصلاً في حنجرتيه.

أرسل "كلاكي- ناه" من يدعو "بوربورتيك" الذي جاء من الخارج الصقيعي وألقى نظرة استنكار على المائدة المليئة باللحم والنيبذ. وبعد أن أزدري الوجوه المتوردة، شاهد وجه "إل- سو"، فتألق النور في عينيه، وانتهت نظرة الاستنكار.

أجلسه "كلاكي- ناه" بجانبه، ووضعت أمامه كأس .

ملاً "كلاكي- ناه" له الكأس بحماس؛ اشرب!، هتف وتلعب، أليس هذا الشراب جيداً؟ أشار "بوربورتيك" برأسه موافقاً، وتلمّظ بشفتيه وسال دمع من عينيه.

ألديك في منزلك، شراب كهذا؟ سأله "كلاكي- ناه".

- أنا لا أنكر أن هذا الشراب جيد لعجوز مثلي، أجاب "بوربورتيك"، ثم تأنى بالكلام.

- لكن؛ هذا ثمنه باهظ، زآر "كلاكي- ناه"؛ أكمل الشراب.

جفل "بوربورتيك" من الضحك الممتد تحت الطاولة. تأججت عيناه بالحق، وقال:

- أنا وأنت رفاق طفولة، وبنفس العمر، في حنجرتك الموت،
وأنا سأبقى حياً وقوياً.

صدرت عن الضيوف دممة تنذر بالسوء. سعل "كلاكي-
ناه" واحتنق، ضربه الخدم بين كتفيه. بدأ يلهث، ثم أشار بيده يهدئ
دممة الوعيد وقال :

أنت ضننت بالنار في متركك بسبب سعر الخشب،
حياتك شحيحة. كانت حياتك تشبه كوخاً والنار تشتعل خارجه،
ولا توجد أغطية على الأرض - أشار إلى الخادم كي يملأ الكأس التي
حملها عالياً- لكن أنا، عشت حياة آمنة، لم تعشها أنت أبداً

هذه حقيقة، أنت ستعيش طويلاً. لكن الليالي الأطول، هي
الليالي الباردة عندما يرتجف الإنسان وينام مستيقظاً. وأنا، كانت
ليالي قصيرة، وكنت أنام دافئاً.

شرب الكأس، وأخفقت يد الخادم المرتعشة في إمساك الكأس
التي سقطت متحطمة على الأرض. عاد "كلاكي- ناه" إلى الخمود،
يلهث، يراقب دوران الكؤوس نحو شفاه الشاربين، وابتسمت شفاته
ابتسامة استخفاف بإطراء.

حاول اثنان من الخدم -بإشارة منه- مساعدته على الجلوس
بشكل صحيح مرة أخرى. لكن، كان جسمه ثقيلًا، وهما ضعيفان،
ثم ترنح أربعة رجال وتمايلوا عندما أجلسوه.

- لكن؛ أسلوب الحياة لا يكون هنا، ولا هناك، تابع
"بوربورتيك" يقول : لدينا أنا وأنت أعمال أخرى هذه الليلة.
الديون بليّة، وأنا في بليّة معك.

- ماذا عن ديوني؟ وكم تبلغ؟

فتش "بوربورتيك" حقيته وأخرج مذكرةً. رشف من كأسه،
وبدأ يقرأ التدوينات: في شهر آب عام 1889، مبلغ ثلاثمائة دولار.
الفائدة لم تدفع. العام التالي، مبلغ خمسمائة دولار. هذا التدوين كان
يشتمل على تدوين لشهرين سابقين نحو ألف دولار. إذن هنا
يكون.....،

- لا تذكر عدد التدوينات! صاح "كلاكي- ناه" بضيق
صدر. لقد جعلوا رأسي يدور. في المحصلة كم يكون المبلغ؟

عاد "بوربورتيك" إلى المذكرة، خمسة عشر ألفاً وتسعمائة
وسبعة وستون دولاراً وخمسة وسبعون سنتاً، قرأ الرقم
بإتقان وحرص.

قال "كلاكي- ناه" متشامخاً: اجعل المبلغ ستة عشر ألف
دولار، الأرقام الوترية مزعجة، والآن -أنا أملك سنتاً واحداً، وهو
من أجلك- حرر المبلغ ستة عشر ألف دولار، وأنا سوف أوقع.
ليست لدي فكرة عن الفائدة، اجعلها كما ترغب، ودون، دفعها
واجب في العالم الآخر، عندما أقابلك، في نار أب

الهنود الأعظم. عندئذ، سأدفع المبلغ. أعدك بذلك. هذا وعدٌ من "كلاكي-ناه".

بدا "بوربورتيك" مرتبكاً، وبيطء ارتفع صوت الضحك واهتزت الغرفة.

رفع "كلاكي-ناه" يديه وهتف: ليس هذا دعابة. أنا أتكلم بجدٍ. من أجل هذا أرسلت بطلبك. حرّر الصك.

رد "بوربورتيك" ببطء: ليست لديّ علاقات مع العالم الآخر.

سأله "كلاكي-ناه": أليست لديك رغبة لتقابلني أمام الأب الأعظم؟

وأضاف؛ من المؤكد سأكون هناك.

كرر "بوربورتيك" بتجهم: ليست لديّ علاقات مع العالم الآخر.

حذق الرجل شبه الميت إليه باندهال.

أوضح "بوربورتيك": ليست لديّ علاقات تجارية مع العالم الآخر.

أشرق وجه "كلاكي-ناه" وضحك قائلاً: هذا ناشئ عن نوم الليالي الباردة.

تأمل للحظة في الفراغ، ثم قال "بوربورتيك": في هذه الحالة يتوجب عليك أن تدفع في هذا العالم.

— هنا، يبقى لي المنزل، خذه، واحرق وثائق الديون بلهب
الشمعة هناك.

أجاب "بوربورتيك": هذا المنزل لا يساوي قيمة الديون.

— توجد لدي مناجم في التواء السلمون.

— لا يؤدون إلى نتيجة.

— أملك نصف السفينة التجارية /كويوكوك/.

— إنها في قاع نهر /اليوكون/.

جفل "كلاكي - ناه": صحيح، لقد نسيت، منذ الربيع
الماضي، عندما ذاب الجليد.

استغرق في التفكير والوجوه صامتة، والكؤوس ملاءى، بانتظار
الكلام.

إذن، أنا مدين لك بمبلغ لا أستطيع دفعه... في هذا العالم!

أحنى "بوربورتيك" رأسه وألقى نظرة عجلَى أسفل الطاولة.

قال "كلاكي - ناه" بمكرٍ: هذا يبدو أنك ستكون رجل أعمال
فقير.

أجاب "بوربورتيك" بحسارة: لا، بل يوجد كفيل.

— ماذا؟ صرخ "كلاكي - ناه"، هل بقيت لي ملكية؟ سَمّه،
ويكون لك مقابل الديون.

— تلك، وأشار "بوربورتيك" نحو "إل-سو".

لم يستطع "كلاكي-ناه" أن يفهم. أمعن نظره أسفل الطاولة، مسح عينيه مسحة خفيفة، ثم عاد يمعن النظر.

ابتتك "إل-سو" مقابل الديون. وسوف أحرق وثائق الديون بلهب الشمعة.

بدأ صدر "كلاكي-ناه" الضخم يتنهد: يا هذا! ما هذه! دعابة، يا هذا، يا هذا! وضحك باسترسال ضحكة عالية. وبفراشك البارد، ولبناتك الكبيرات، ستكون "إل-سو" أمماً لهم، يا هذا! يا هذا! يا هذا!.

بدأ بالسعال والاختناق، ضربه الخدم على ظهره. يا هذا! يا هذا! بدأ ثانية، ثم مضى بعيداً داخل البرجاء. (*)

انتظر "بوربورتيك" بصبر، ارتشف من كأسه وأمعن النظر في الوجوه ثم قال: — ليست هذه دعابة، أنا حسن النية.

صحا "كلاكي-ناه" من الشراب المسكر، ونظر إليه. حلول الوصول إلى كأسه، لم يستطع إمساكه. ناوله الخادم الكأس، ثم رشف الكأس والشراب نحو وجه "بوربورتيك".

— اطرده خارجاً! هدد "كلاكي-ناه" متوعداً، ثم مثل كلب مشدود بمقود، سحب الخدم خارجاً ودحرجوه على الثلج.

* - البرجاء: اشتداد مفاجئ في أعراض المرض يحدث بين فترة وأخرى.

عندما هدا الهياج المجنون، أشار إلى الخدم، ثم أسنده أربعة رجال عجز يترنحون، على قدميه كما كان يقابل السكرى العائدين، منتصباً، وكأس في يده، يشرب نخب الرجل الذي ينام دافئاً في الليلة القصيرة.

لن أتناول مطولاً الحسم لحالة "كلاكي-ناه".

طلبت "إل-سو" مساعدة كاتب إنكليزي في المحطة التجارية يدعى "تومي" الذي صار يدقق في الوثائق. كمبيالات غير مدفوعة، وقد فات موعد دفعها، ملكيات مرهونة، صكوك رهن الملكيات، جميعها كانت محفوظة لدى "بوربورتيك" الذي وصفه "تومي" بالسارق عدة مرات عندما كان يدقق ويتأمل تزايد الفائدة.

سألت "إل-سو"؛ تومي ، هل هذه الديون صحيحة؟

أجاب "تومي": هذه سرقة!

واصلت "إل-سو": ومع ذلك، تكون ديون.

سحل الشتاء بعيداً، وجاء الربيع باكراً، وظلّت مطالب "بوربورتيك" كما هي دون أن تسدد الديون.

شاهد "إل-سو" مراراً، وكرّر العرض مرات كثيرة. أحضر مشعوذين عجّزاً، أيضاً، أسهبوا باللعنات على والدها. اللعنات الأبدية، إذا لم تسدد الدين.

ذات يوم، بعد تعرضها لشتائم المشعوذين، حسمت الأمر نهائياً
مع "بوربورتيك".

قالت له: سأخبرك عن أمرين. أولاً، لن أكون زوجة لك،
تذكر ذلك؟

ثانياً، سوف تحصل على آخر سنت من الستة عشر ألف
دولار....."

— خمسة عشر ألف وتسعمائة وسبعة وستون دولاراً وخمسة
وسبعون سنتاً.

والدي قال، ستة عشر ألف دولار. وسوف تحصل عليها.

— كيف؟

— لا أعلم كيف! لكن؛ سأجد طريقة. اذهب الآن،
ولا تضايقني أكثر.

— وإذا أنت فعلت - ترددت لتجد عقاباً مناسباً- إذا أنت
فعلت، سوف اخرجك على الثلج مرة أخرى.

تحوّلت "إل-سو" في المقاطعة من "شيلكوت" إلى "الدلتا"،
استحوذت على المشاعر من مخيم إلى مخيم، ثم نحو المخيمات الأبعد.

في شهر حزيران، عندما بدأ سمك السلمون بالهجرة، قررت
"إل-سو" أن تبيع نفسها في المزاد العلني الشعبي، كي تسدد
ديون والدها.

محاولات إقناعها بالعدول عن قرارها كانت عقيمة. تجادل معها مبشرو كنيسة القديس جورج، وجوابها دائماً: إن ديون الرب تسدد في العالم الآخر، وديون الناس يجب أن تسدد في هذا العالم. حاول "أكون"، لكن، الجواب؛ أنا أحبك، لكن الشرف أعظم من الحب، وهل أكون أنا التي تشوه سمعة والدها.

على أول سفينة بخارية سافرت الأخت "البرتا" وإلى نهاية ليست أفضل.

قالت "إل - سو": تجول والدي في الغابات الكثيفة واللاهائية. وهناك أراد التحوال، مع أرواح تائهة تصرخ، حتى يسدد الدين، ربما تابع إلى منزل الأب الأعظم.

سألت الأخت "البرتا": وأنت هل تعتقدين ذلك؟

— أنا! لا أعلم، كان هذا اعتقاد والدي.

هزت الأخت "البرتا" كتفيها بارتياح.

— من يعلم لو أن تلك الأمور التي نعتقد بها تصبح حقيقة؟ تابعت "إل - سو": من يعلم؟ العالم الآخر، ربما يكون بالنسبة إليك، فردوساً وقيثارات..... بسبب اعتقادك بالجنة والقيثارات، أمّا، بالنسبة لوالدي، فالعالم الآخر، ربما يكون المنزل الكبير حيث سيجلس دائماً على مائدة الوليمة مع الرب.

سألت "البرتا": وأنت؟ ماذا يكون عالمك الآخر؟

ترددت "إل-سو" للحظة؛ سأرغب القليل لكليهما، أرغب رؤية وجهك كوجه والدي أيضاً.

ازدحمت محطة تانانا في يوم المزاد العلني، تجمعت القبائل - حسب تقاليد موسم هجرة السلمون- يبددون الوقت بالرقص والمرح، يتبادلون البضائع وينشرون الإشاعات. وثمة نثار مألوف من المغامرين البيض، تجار ومنقبون عن الذهب، أيضاً، عدد كبير من الرجال البيض الذين قدموا بسبب الفضول أو الاستمتاع بالعلاقات الغرامية القصيرة الأمد.

أصبح الربيع مثاقلاً، وتأخرت أسماك السلمون في هجرتها. هذا يعيق، لكن؛ يثير الاستمتاع. كذلك كانت محطة تانانا تعيش حالة توتر من قبل "أكون"، الذي ظهر للعيان وصار ينشئ إعلاناً دينياً، ولوح بينديقية /ونشتسر/، وهدد أيّ إنسان بالموت فوراً إذا حاول شراء "إل-سو".

غضبت "إل-سو" وهو رفض التحادث معها، ثم ذهب إلى المكتب التجاري كي يحصل على ذخيرة إضافية.

تم اصطيد أول سمكة سلمون في الساعة العاشرة ليلاً، وفي منتصف الليل، بدأ المزاد العلني.

الموقع، أعلى قمة الحافة العالية على طول امتداد ضفة اليوكون. والشمس كانت على خط مستقيم تحت الأفق تماماً، والسماء حمراء متوهجة.

تجمع الحشد الكبير أمام الطاولة والكرسيين. في الأمام
عدة رجال بيض وزعماء مختلفون و"أكون" واقفاً أيضاً
والبنديقية في يده.

كان هناك الدلال "تومي"، بناءً على رغبة "إل-سو". لكنها
بدأت ووضع البضاعة التي ستباع. كانت ترتدي زياً محلياً، ثياب
ابنة الزعيم، مشرقة ومتألقة. وقفت على الكرسي، وذلك ربما كي
تظهر أوصافها.

سألت: من يرغب شراء زوجة؟ انظروا إليّ. فتاة عذراء في
سنّ العشرين.

سأكون زوجة جيدة للرجل الذي يبتاعني. إذا كان رجلاً
أبيض، سأرتدي زي النساء البيض. وإذا كان هندياً، سأرتدي مثل -
ترددت لحظة- المرأة الهندية.

أمارس الخياطة، وأستطيع حياكة ثيابي الخاصة، وأرتق. لقد
تعلمت ذلك في كنيسة الصليب المقدس. وأستطيع قراءة وكتابة اللغة
الإنكليزية، وأعرف كيف أعزف على الأرغن. وأعرف أيضاً، علم
الحساب وبعض الجبر. سأكون زوجة الرجل الذي يدفع السعر
الأعلى وسأنظم له وثيقة بيع نفسي له. نسيت أن أقول، أستطيع
الغناء بشكل جيد جداً، لم أعانِ من المرض طيلة حياتي، وزني مائة
واثنان وثلاثون باوند، والدي ميت، ليس لي أقارب. من يريدني؟

تفحصت الحشد بجرأة ونزلت عن الكرسي. اعتلت مرة أخرى بناءً على طلب "تومي" الذي اعتلى الكرسي الثانية، وبدأ المزايدة.

التف أربعة من خدم والدها، أحنى العمر ظهورهم، أصيبوا بشلل ارتجافي، أجيال خرجت من الماضي تراقب دون حركة قهرج الحياة الفتية.

يقف أمام الحشد ملك بونانزا ورجال /الألدورادو/ من اليوكون الشمالي، وبجانبيهم، اثنان من منقي الذهب، يتكآن على عكازات بسبب مرض الاسقربوط.

من وسط الحشد، اندفعت امرأة هندية من المناطق البعيدة للتنانا الشمالية، وقفت جنباً إلى جنب مع /ستيك/ من بحيرة /الابرج/، ثم، ستة رحالة فرنسيين وكنديين، يتشاورون مع بعضهم.

من البعيد، صياح متكرر لديوك وحشية، لا تُعد ولا تخصي. طيور السنونو تطير بخفة وسرعة فوق الرؤوس من السطح الهادئ لليوكون، وطيور أبو الحناء تشدو.

الأشعة المائلة للشمس المتوارية، تنشق خلال الضباب الرقيق، تبدد هائل من نيران غابة الألف ميل بعداً، تحول السماء إلى لون أحمر داكن، بينما أضيئت الأرض بتوهج انعكاس الضوء الذي أضاء كل الوجوه، وجعل كل شيء يبدو خيالياً وغير حقيقي.

بدأت المزايذة ببطء. الرجل الستيكاني الغريب الذي وصل وحيداً قبل نصف ساعة عرض بصوت واثق من نفسه؛ مائة دولار. ودُهِشَ عندما اتجه إليه "أكون" مهدداً بالبندقية. جرت المزايذة ببطء وملل. عرض هندي أحمر من /التوزبكاكات/ -مرشد السفن- مائة وخمسين دولاراً. ورفع المقامر الذي كان آمراً في المقاطعة الشمالية المزاد إلى مائتي دولار.

"إل-سو"، حزينه، جُرِحَ كبرياؤها، لكن الحقيقة الوحيدة كانت تلهب غيظها أكثر على الحشد. حدث انزعاج شديد عندما شقَّ "بوربورتيك" طريقه عنوة نحو الأمام، وصاح بصوت عالٍ، خمسمائة دولار! ونظر حوله بغرور. كانت نيته عرض ثروته الضخمة كالهراوة التي تصدم كل متنافس في المزاد. لكن أحد الرحالة نظر نحو "إل-سو" بعينين متألفتين ورفع السعر مائة دولار.

وفوراً، صاح "بوربورتيك": سبعمائة دولار. ثم، بنفس أسلوب "بوربورتيك" صار السعر ثمانمائة دولار للرحال. عندئذ، لوح "بوربورتيك" بهراوته مرة أخرى وهتف: ألف ومائتي دولار. استسلم الرحال بنظرة خيبة أمل مؤثرة.

لا مزايذة. ومرة أخرى، حاول "تومي" بصعوبة، لكنه لم يستطع إثارة المزايذة.

تكلمت "إل-سو" مع "بوربورتيك": لترجع لأجلك المزايذة، لكن؛ هل نسيت الأمر الذي أخبرتك به، أنا لن أكون زوجة لك أبداً.

رد "بوربورتيك" بحسم: هذا مزاد علني، وسأبتاعك بوثيقة البيع. لقد دفعت ألف ومائتي دولار، أنت تساوي مبلغاً زهيداً.

— انه ثمن زهيد جداً! صاح "تومي". وماذا يهم إذا كنت أنا الدلال؟ ذلك لا يعني من المزايدة؛ ألف وثلاثمائة دولار.

— ألف وأربعمائة دولار من "بوربورتيك".

همس "تومي" في إذن "إل-سو" سأبتاعك بكونك أختسألي، ثم نادى بصوت عالٍ: ألف وخمسمائة دولار.

— ألف ورقة نقدية فئة الدولارين، لملك الدورادو. كفّ "تومي" عن الاشتراك.

للمرة الثالثة، لوح "بوربورتيك" بهراوة ثروته؛ رفع السعر خمسمائة دولار.

جرح كبرياء ملك الدورادو، لم يسبق لأحد أن تجرأ على مضاربتة. ثم، أعاد الضربة برفع السعر المعروض خمسمائة دولار.

أصبح سعر "إل-سو" ثلاثة آلاف دولار. ورفع "بوربورتيك" قيمة السعر خمسمائة دولاراً، وصار يلهث عندما رفع الملك قيمة السعر ألف دولار.

مرة أخرى، رفع السعر خمسمائة دولار، ثم لهث ثانية عندما رفع الملك السعر مرة أخرى ألف دولار.

غضب "بوربورتيك"، وشعر أن كبريائه جرح. كانت قوته في تحدٍ مع قوة ملك الدورادو، تحدٍ أخذ شكل الثروة. لا يريد أن يظهر ضعيفاً أمام الناس.

أصبحت "إل-سو" حادثاً عرضياً. الاقتصاد والتوفير من الليالي الباردة لكل سنوات عمره، حان وقت تبديده. بلغ سعر "إل-سو" ستة آلاف دولار. رفع السعر ألفاً، فأصبح سبعة آلاف. وعندئذ، وعلى هذه الحال في مزايده بألف دولار، ارتفعت الأصوات /ارتفع سعرها/. وفي الألف الرابع عشر، وقف اثنان من الحشد كي يستنشقا الهواء. في هذا الوقت، حدث غير المتوقع في الاستراحة المؤقتة. المقامر الذي كان له المقدرة على التخمين، شكل مجموعة من أصدقائه وعرض سعر ستة عشر ألف دولار.

قال "بوربورتيك" بضعف: سبعة عشر ألف دولاراً.

— ثمانية عشر ألفاً، قال الملك.

جمع "بوربورتيك" قوته: عشرون ألفاً.

انسحبت مجموعة الأصدقاء. رفع الملك السعر ألف دولار، وأضاف "بوربورتيك" أيضاً، ألف دولار.

وأثناء ذلك، دار "أكون" من واحد إلى آخر، نصف مهدهد ونصف فضولي، وكأنه يحاول معرفة ردود الفعل، إذا حاول أن يقتله. وعندما استعد الملك للمزاودة التالية، حلّ المسدس عن وركه وقال: ثلاثة وعشرون ألفاً.

قال "بوربورتيك": أربعة وعشرون ألفاً، وابتسم ابتسامة وحشية عريضة لوثوقه أن الملك قد ارتعش أخيراً.

انتقل إلى الجانب الآخر نحو "إل-سو". تمعن اهتمامها للحظات، ثم قال: وخمسمائة دولار.

— خمسة وعشرون ألف دولار، رفع "بوربورتيك" السعر.

هز الملك رأسه ورفض مواجهة نظرة "تومي" الدفاعية.

لحت "إل-سو" آكون يندفع بسرعة ويحيط بـ "بوربورتيك"، وانحنت نحو الخادم وهمست في أذنه، وبينما كان "تومي" يتجادل مع ملك الدورادو من أجل رفع سعر المزايدة قال له: اذهب... اذهب... اذهب "احكمّ الهواء. مضى الخادم نحو "آكون". لكنه لم يفعل شيئاً.

قالت "إل-سو": اجلبوا كفتي ميزان.

قال "بوربورتيك": سأجعل الدفع في متري.

كررت "إل-سو": اجلبوا كفتي الميزان. سيكون الدفع هنسا حتى يستطيع الجميع مشاهدته. جُلِبَت كفتا الميزان الذهبيتان من المكتب التجاري، بينما مضى "بوربورتيك" إلى منزله وعاد مع رجل يسير خلفه، يحمل على كتفيه أكياساً من جلد الموط مملوءة بمسحوق الذهب، يسير خلف "بوربورتيك" أيضاً رجل وفي يده بندقية، عيناه مثبتتان على "آكون" فقط.

قال "بوربورتيك": الديون وصكوك الرهن بخمسة عشر ألفاً وتسعمائة وسبعة وستون دولاراً وخمسة وسبعون سنتاً.

استلمت "إل-سو" الصكوك وتدوينات الديون، ثم قالت "تومي": اعتبرهم ستة عشر ألف دولار.

قال "تومي": يبقى عشرة آلاف دولاراً تُدفع ذهباً.

أوماً "بوربورتيك" رأسه موافقاً، ثم فك أربطة الأكياس.

وقفت "إل-سو" على طرف الحافة، ومزقت الأوراق مِزْقاً صغيرة وقذفتهم عالياً يتطايرون فوق سطح اليوكون. بدأ الوزن، لكن توقف.

قال "بوربورتيك" لـ "تومي" عندما كان يضبط كفتي الميزان: طبعاً، بسبعة عشر دولاراً.

ردت "إل-سو" بحدة قاطعة: بستة عشر دولاراً.

السائد في كل المقاطعة، سبعة عشر دولار لكل أونصة ذهب، وكذلك في الأعمال التجارية. أجاب "بوربورتيك".

ضحكت "إل-سو" وقالت: هذه عادة جديدة. بدأت هذا الربيع، لكن عندما تكونت ديون والدي في الأعوام السابقة والعام الماضي، وعندما أنفق المال الذي حصل عليه منك، كانت الأونصة الواحدة تساوي ستة عشر دولاراً للمسحوق. ولذلك لي ستة عشر دولاراً، وليس سبعة عشر دولاراً.

نخر "بوربورتيك"، وأقرّ بصحة كلامها. ثم بدأ الوزن ثانية.
قالت: اجعل الأوزان بثلاث كومات، ألف دولار هنا، ثلاثة
آلاف هناك، وهناك ستة آلاف دولار.

تتابع وزن الذهب ببطء، والجميع يراقب بصمت "أكون".
وقال أحد الحضور، لو أنه ينتظر حتى يتم دفع المال. ولاقى هذا
الكلام قبولاً لدى الحضور، ثم انتظروا ما سيفعله "أكون"، وكذلك
كان رجل "بوربورتيك" يراقبه.

انتهت عملية الوزن، ثلاث كومات من مسحوق الذهب
الأصفر الداكن على الطاولة. قالت "إل-سو" موجهة كلامها لـ
"تومي": هذه كومة الثلاثة آلاف دولار تعطى لرفاق والدي، تسديداً
لديونه لهم، أنت تعرفهم. أربعة رجال عجز. وهذه كومة الألف
دولار، خذها، وتأكد أنهم لا يجوعوا ولا ينقصهم التبغ.

أما كومة الست آلاف دولار، فقد غرزت "إل-سو" المغرفة
ضمن الكومة، وبدورة فجائية قذفت بشكل دائري محتواها بعيداً،
تنهمر وابللاً ذهبياً على سطح اليوكون.

أمسك "بوربورتيك" بمعصمها عندما غرزت المغرفة ثانية
في الكومة.

قالت بهدوء: إنها ملكي. ترك "بوربورتيك" معصمها، وصرّ
على أسنانه، وعبس بغموض عندما تابعت ما فعلته في المرة الأولى
حتى لم يبق أثر للكومة.

كانت نظرات الناس مركزة على "أكون"، وفوهة
بندقية رجل "بوربورتيك" الممددة عبر ثنية ذراعاه موجهة نحو
"أكون" على بعد ياردة، وإبهامه على الزناد. لكن، لم يفعل
"أكون" شيئاً.

قال "بوربورتيك" عابساً: حرّر وثيقة البيع.

حرر "تومي" الوثيقة التي ورد فيها؛ ان المرأة "إل-سو"
أصبحت حقاً شرعياً ومكتسباً للرجل "بوربورتيك".

بعد أن وقعت "إل-سو" على الوثيقة، أخذها "بوربورتيك"
وطواها ثم وضعها في محفظته.

فجأةً، ومضت عيناه، ثم خاطب "إل-سو": ما دفعته ليس
ديون والدك، بل كان ثمنك. بيعة المزاد، أعمال اليوم، ليس من العام
الماضي أو الأعوام السابقة. لقد فقدت دولاراً في كل أونصة، فقدت
ستمائة وخمسة وعشرين دولاراً، إن السعر في المكتب، سبعة عشر
دولاراً، وليس ستة عشر دولاراً.

فكرت "إل-سو" للحظات، أدركت الخطأ الذي ارتكبته.
ابتسمت، ثم ضحكت وقالت:

أنت على حق، أنا ارتكبت خطأ، أنت دفعت، والذهب
ضاع. لم تفكر جيداً، ذكاؤك بليد هذه الأيام، لقد أصبحت عجوزاً.
إنه ضياعك.

لم يجب. ألقى نظرة قلقة على "أكون"، ثم، مط شففيه
وارتسمت على وجهه إشارة خفيفة من الوحشية وقال: تعالي،
سوف نذهب إلى متري.

سألته دون أن تتحرك: هل تذكر الأمرين اللذين أخبرتك
عنهما في الربيع؟

أجاب: إن رأسي مليء بأشياء قالتها نساء اهتمامتُ بهن.
تابعت "إل - سو" بحذر: أنا أخبرتك، أنني سأدفع، وأخبرتك
أنني لن أصبح زوجتك أبداً.
لكن كان ذلك قبل وثيقة البيع. قال ذلك وهو يقطع الورقة
بين أصابعه داخل المحفظة.

لقد اشتريتك أمام الناس. أنت حقي. لن تتبرني مني، أنتِ
تتبعين لي.

قالت "إل - سو" بهدوء: أنا أنتمي إليك.

— أنا أملكك.

— أنت تملكيني.

ارتفع صوت "بوربورتيك" ببطء وقال ببهجة النصر: أنا
أملكك، مثل الكلبة.

كررت "إل - سو" بهدوء: أنت تملكيني، مثل الكلبة. لكن
نسيت أمراً أخبرتك به.

لو أي شخص آخر اشتراي، كنت سأصبح زوجة له، زوجة جيدة لذلك الرجل. هذه كانت رغبتي. لكن لك أنت، لن أكون زوجة أبداً. لذلك أنا أكون كلبتك.

أدرك "بوربورتيك" أنه لعب بالنار، وصمم على اللعب بقوة. — أنا أتكلم معك بصفتك كلبة، ولست "إل-سو"، أطلب منك أن تأتي معي إلى منزلي. ومد يده ليمسك ذراعها، لكن بإيماءة أجبرته على التراجع.

— ليس بهذه السرعة، "بوربورتيك". أنت اشتريت كلبة. الكلبة تعدو سريعاً وبعيداً. هذا يكون ضياعك. أنا كلبتك. وماذا يحدث إذا أنا عدوت بعيداً.

— مثل مالك الكلب، سأضربك....."

— عندما تمسكني.

— عندما أمسكك أنا!

— إذن، أمسكني.

وصل إليها بسرعة، لكنها تملصت منه. ضحكت وهي تدور حول الطاولة. أمر "بوربورتيك" رجل البندقية الذي يقف بجانبها أن يمسك بها، وعندما مد الهندي يده نحوها، عاجله ملك "الدورادو" بضربة تحت إذنه أسقطته أرضاً وسقطت البندقية. عندئذ أصبحت الفرصة مناسبة، لكن "أكون" لم يفعل شيئاً.

كان "بوربورتيك" رجلاً عجوزاً، لكن الليالي الباردة استبقت له نشاطه. لم يقيم بالدوران حول الطاولة. وثب فجأة عبر الطاولة، حمداً دفاع "إل-سو". وثبت خلفاً تبكي مذعورة، سيقبض عليها. لكن عندما تقدم "بوربورتيك"، مد "تومي" رجله فتعثر "بوربورتيك". وسقط على وجهه أرضاً. عندئذ نالت "إل-سو" مخرجاً.

إذن، أمسكت. ضحكت وهي تشق طريقها بين الجموع، وهربت بعيداً.

ركضت "إل-سو" برشاقة وسهولة، كمن "بوربورتيك"، وركض بسرعة ووحشية. كان يفوقها في العدو. كان في شبابه الأسرع عدواً من كل أقرانه.

لكنها استعملت أسلوب المراوغة. صبية في زي محلي، لا تتعثر قدماها مع الجزء السفلي لتنورتها. جسمها المرن، يتلوى برشاقة ومرونة، متحدياً أصابع قبضة "بوربورتيك".

باهتياج وضحك، تفرق الحشد الكبير هنا وهناك كي يشاهدوا المطاردة.

انطلاقاً من مخيم الهنود، كل حركة مفاجئة، دوران، حركت عكسية، كانا يظهران ويتواريان داخل المخيم. بدت "إل-سو" أنها توازن نفسها مع الهواء بذراعيها. الآن، جانب واحد، الآن على الجانب الآخر، وأحياناً جسمها، تمايلت أيضاً، عندما أنجزت انحناءاتها

الحادة. ودائماً، يثب "بوربورتيك" خلفها، أو يثب إلى هذا الجانب، أو ذاك، مثل كلب صيد تمايل مشدوداً خلفها. عبراً الأرض الجرداء خلف المخيم واختفياً في الغابة.

في غضون ذلك، تناول "أكون" طعامه على رصيف السفينة التجارية. وبعد مغادرة الآخرين لم يعر اهتماماً، ولم يفعل شيئاً لردود الفعل الغاضب المستاء من أهالي محطة تانانا.

عاد "بوربورتيك" بعد أربع وعشرين ساعة منهكاً ومتوحشاً لم يتكلم مع أحد سوى "أكون". حاول التحرش به ومشاجرته. لم يكثرث "أكون" وسار في طريقه وهو يهزّ كتفيه. لم يهدر "بوربورتيك" وقته، فقد جهّز ستة من الرجال الشبان. اختار أفضل الرحالة والكشافة، وانطلقوا مسرعين داخل الغابة.

في اليوم التالي، توجهت السفينة البخارية (سياتل) نحو أعلى النهر. رست على الشاطئ، وبعد التزود بالخشب، تحررت الحبال وتحركت السفينة.

كان "أكون" على متن السفينة، في قمرة مدير الدفة. وبعد ساعات قليلة أخذ دوره على الدولااب. شاهد على مبعدة من الشاطئ (كانو)^(*) صغير وعلى متنه شخص واحد. تمعن به بحرص، ترك الدولااب مثبتاً باتجاه واحد، ونزل بهدوء نحو الأسفل.

* - الكانو : زورق طويل خفيف، يُقاد بمغدق.

دخل الكابتن قمرة مدير الدفة وسأل: ما المشكلة؟ المياه جيدة.
نخرَ "أكون". شاهد (كانو) كبيراً يغادر الضفة وعلى متنه
بعض الأشخاص.

بينما كانت السفينة (سياتل) تَصَلُّ مسارها، صحَّحَ وضعية
الدولاب أكثر قليلاً. اهتاج الكابتن غضباً. وقال متأكداً: إن المرأة
الهندية وحدها. لم يجب "أكون"، كل نظراته باتجاه المرأة الهندية
و(الكانو) المطارد، وخلفه ستة مجاديف تجدف بسرعة، بينما المرأة
الهندية تجدف ببطء.

قال الكابتن وهو يمسك بالدولاب: سوف تجنح السفينة.
أمسك "أكون" الدولاب بكل قوته، ونظر إلى الكابتن
متفحصاً إياه.

ببطء حرر الكابتن برامق(*) الدولاب، وقال في نفسه محتقراً:
فتى غريب الأطوار. أوقف "أكون" السفينة (سياتل) على أطراف
المياه الضحلة وانتظر حتى شاهد أصابع المرأة الهندية تحاول التعلق
بالدرازين الأمامي. عندئذ أشار من أجل مساعدتها وحرك الدولاب
بصعوبة إلى الجانب الآخر.

(الكانو) الكبير كان قريباً جداً، لكن؛ بدأت تتوسع الفجوة
بينه وبين السفينة البخارية.

* - برمق الدولاب: شعاع الدولاب.

ضحكت المرأة الهندية، اتكأت على الدرازين وهتفت: إذن
إمسكني "بوربورتيك". غادر "آكون" و"إل - سو" السفينة البخارية
. في حصن (بوكون) جهازاً قارباً صغيراً ثم صعدا نحو نهر
(بوركوبارين).

كانت رحلة شاقة، امتد الطريق عبر أهم جزء في العالم؛ لكن،
"آكون" سافر خلاله سابقاً. عندما وصلا إلى منابع (بوركوبارين) تخليا
عن القارب، وتابعاً سيراً على الأقدام عبر الجبال الصخرية.

أحبّ (آكون) السير خلفها، يراقب حركاتها. أحبّ الموسيقى
التي تصدر عن حركاتها. أحب بطي الساقين المدورتين في قراهمما
الجلدي الأسمر الناعم، الكاحلين النحيفين، القدمين الصغيرتين داخل
الموكازين وقد أصيبنا بالتعب خلال الأيام الطويلة. قال وهو ينظر
إليها: أنت كالريح الخفيفة، . أنت كالآيل، "إل سو"، أنت مثل
الآيل، وعيناك كعيني، أحياناً، عندما تنظرين إليّ، أو عندما تسمعين
صوتاً لاذعاً وتندeshين فيما إذا كانت تلك الجلجلات خطرة.

عيناك تشبه الآن عيني الأيل وأنت تنظرين إليّ.

رقّ قلب "إل سو"، انخنت، ثم قبلته.

قال "آكون" فيما بعد: عندما نصل إلى /الماكييري/، لن نتأخر
هناك، سوف نذهب جنوباً قبل أن يدركنا الشتاء. سنذهب إلى أرض
الشمس، حيث لا يوجد ثلوج. لكن؛ سوف نعود.

تجولت وشاهدت مناطق كثيرة في العالم، لا توجد أرض تشبه
آلاسكا، لا شمس مثل شمسنا، والثلج يصبح جميلاً بعد صيف طويل.

قالت "إل رسو": وسوف تتعلم القراءة.

أجاب: بالتأكيد، سأتعلم القراءة.

وصلا إلى قبيلة الماكيثري، وحدث ما لم يكن في الحسبان.

التقيا مصادفة مع جماعة من هنود الماكيثري، ثم، أثناء الصيد،
جُرِحَ "آكون" مصادفة من رصاصة انطلقت من بندقية شاب هندي
وكسرت ذراعه اليمنى، وتوغلت أكثر، وحطمت له ضلعين.

كان "آكون" يعرف بعض الإسعافات الأولية، لكن، "إل
رسو" تعلمت في كنيسة الصليب المقدس، إسعافات أكثر تطوراً.
وأخيراً، تجبرت العظام، واستلقى بجانب النار كي يلتئم الجرح.
واستلقت هي، أيضاً، بجانب النار، مستنقدة بالدخان لطرد البعوض
بعيداً.

آنذاك، وصل "بوربورتيك" ورجاله الستة.

"آكون" يتأوه لضعفه ويستغيث بالماكيثين: "بوربورتيك"
يطلب، والماكيثيون في ارتباك. وكاد "بوربورتيك" يقبض على "إل
سو"، ولكنهم لم يسمحوا له.

يجب أن تعطي المحكمة قرارها في حقيقة العلاقة بين
الرجل والمرأة، قال ذلك عضو مجلس الرجال العجز. ثم أردف

بصوت عال: هذه محكمة مغلقة، ربما لأنه لا تضم شباناً،
قلوبهم رقيقة.

جلس الرجال العجز ذوو الوجوه النحيلة والمجعدة حول
النار الداخنة.

لهثوا وأطلقوا أنفاساً في الهواء -الدخان ليس جيداً لهم-
وأحياناً يضربون بأيديهم الذابلة البعوض الذي كان يتحدى الدخان.
ثم، بعد هكذا جهد، سعلوا بعمق وألم موجع. بعض البصاق،
دماءً، وأحدهم أحنى رأسه إلى الأمام، ثم، نرف فمه ببطء، سيطر
عليهم غثيان السعال. انهم كالموتى، وأجلهم كان قصيراً. تلك
هي المحكمة.

— وأنا قد دفعت من أجلها ثمناً باهظاً. اختتم
"بوربورتيك" انعامه، هكذا ثمن، لم تملكوه أبداً. بيعوا كل الجلود
والفراء التي لديكم، بيعوا كل خيامكم وقواربكم وكلابكم، بيعوا
كل شيء. ربما لن تحصلوا على ألف دولار. ومع ذلك أنا دفعت ثمن
المرأة "إل-سو" ستة وعشرين مضروباً بسعر كل سهامكم
ورماحكم وبنادقكم، جلودكم وفراءكم، خيامكم وقواربكم
وكلابكم. إنه سعر باهظ.

أحنى الرجال العجز رؤوسهم ببطء ووقار موافقين. توسعت
حدقات عيونهم الذابلة تعبيراً عن الدهشة التي أصابتهم لدى سماعهم

أن المرأة "إل-سو" تساوي هذا الثمن. مسح الرجل النازف فمه ،
وسأل: أهذا الكلام صحيح؟

أجاب كل رجل من رجال "بوربورتيك"، إن ذلك صحيح.

سأل "إل-سو"؛ أصحيح ما قاله الرجل "بوربورتيك"؟
وأجابت "إل-سو"؛ إن كلام "بوربورتيك" صحيح.

قال "أكون": لكن، لم يعلن "بوربورتيك" أنه رجل عجوز،
أب لبنات أكبر من "إل-سو". وأكدت "إل-سو" كلام "أكون"؛
نعم إنه رجل عجوز.

قال الرجل النازف فمه: إن "بوربورتيك"، أراد أن يختبر
مقدرته قياساً لعمره، نحن رجال عجز. حلقة الرجال العجز، مضغوا
علكتهم، وأومؤوا برؤوسهم استحساناً، ثم سعلوا.

قالت "إل-سو": لقد أخبرتة، لن أكون زوجته أبداً.

سأل الرجل ذو العين الواحدة: مع ذلك أخذت منه ستة
وعشرين مضروباً بكل ما نملكه؟

صمتت "إل-سو" ولم تجب.

احتاج غيضاً وقال: أليس هذا صحيحاً؟

قالت: هذا صحيح، لكن سأهرب مرة أخرى، دائماً سوف
أهرب.

ذلك من شأن "بوربورتيك"، ليفكر في الأمر، ونحن علينا أن نفكر ملياً بالحكم.

قال ذلك رجل آخر من الرجال العجائز. وسأل "أكون"؛ ما السعر الذي دفعته أنت؟ أجاب "أكون": لم أدفع أي ثمن. هي أغلى من كل ثمن. لا أقارنها بمسحوق الذهب ولا بكلاب وخيام وفراء. تناقش أعضاء المحكمة الوقورة فيما بينهم، وتتمموا بصوت خفيض.

قال "أكون" بلغة إنكليزية: هؤلاء العجز كالجليد. لن أصغي لحكمهم، "بوربورتيك" إذا أخذت "إل - سو"، سوف أقتلك. كفّ الرجال العجز عن المناقشة مع أنفسهم، ونظروا إليه بارتياح وقال أحدهم: نحن لم نفهم ما تقول.

قال "بوربورتيك" نيابة عن "أكون": سوف يقتلني، لذلك أطلب أن تأخذوا بندقيته، وتضعوا بعض رجالكم حوله، كي لا يلحق الأذى بي. هو رجل شاب، وماذا تعني عظام محطمة للشباب! تمدد "أكون" بائساً بعد أن أخذوا منه البندقية والسكين، وفي الجانب الآخر، جلس رجال شبان من الماكيتزين.

نفض الرجل ذا العين الواحدة، ووقف منتصباً: لقد أدهشنا السعر الذي دُفعَ لجرد امرأة واحدة، لكن معرفة السعر لا يهمنا. نحن هنا المحكمة. ونحن نصدر الحكم. لقد بات معروفاً للجميع أن

"بوربورتيك" دفع مبلغاً باهظاً من أجل "إل-سو". ولماذا فعلت
"إل-سو" ذلك به. وجلس بثاقل، ثم، سعل.

أحنى الرجال العجز رؤوسهم، وسعلوا.

صرخ "أكون" بلغة إنكليزية: سوف أقتلك.

وقف "بوربورتيك" وابتسم. وقال يوجه كلامه لمجلس الرجال
العجز؛ أتم تملكون حق إصدار الحكم الصادق، ورجالي الشبان
سوف يمنحوكم الكثير من التبغ.

— الآن، اطلبوا من المرأة أن تحضر أمامي.

عندما حاول الرجال إمساك "إل-سو" من ذراعيها، صرّ
"أكون" على أسنانه. لكن "إل-سو" رفضت النهوض، عندئذ
اقتيدت نحو "بوربورتيك" ووجهها ينفث لهباً غاضباً.

أمرها "بوربورتيك": اجلسي هنا عند قدمي، كي أكلمك.

فكرَ للحظات. ثم قال: إنها الحقيقة، أنا رجل عجوز. مع ذلك
أستطيع فهم أساليب الشباب. ومع أنني لم أعد شاباً، لم أفقد كل
الحماس، ولم أكن قد فكرت أن هذين الساقين للركض خلال كل
السنوات المتبقية لي.

"إل-سو" كالآيل، تستطيع الجري بسرعة ورشاقة. أنا
أدركت ذلك عندما ركضت خلفها. هذه الحالة ليست جيدة
لامرأة دفعت ثمنها مبلغاً باهظاً وتركض هكذا سريعاً، ومع

ذلك تنهرب مني وتجري نحو "أكون" الذي لم يدفع ثمناً
بأي حلل.

عندما وصلت إلى شعبكم الماكيزي، كنت على رأي واحد.
وعندما أصغيت لكم في المجلس، وفكرت بساقي "إل-سو"
السريعتين، صرت بعدة آراء.

الآن ، ومرة أخرى ، لدي رأي واحد. لكن؛ هذا الرأي
مختلف عن الرأي الأول، عندما قدمت إليكم. دعوني أقول رأيي.

عندما يهرب الكلب من سيده مرةً. سوف يهرب مرة
أخرى. لا مشكلة في عدد المرات التي يُعاد بها، في كل مرة
سيهرب ثانية.

عندما يكون لدينا مثل هذه الكلاب، نبيعهم. "إل-سو"
كالكلبة التي تهرب. أنا سأبيعها. هل يوجد شخص ما في المجلس
يرغب بشرائها؟

سعل رجال المجلس، وظلوا صامتين.

تابع "بوربورتيك": "أكون" سيشتري، لكن لا يملك مالاً. من
أجل ذلك، سأعطيه "إل-سو"، كما هو قال، دون ثمن، وأرغب
إعطائه إياها الآن.

انحنى وأخذ "إل-سو" من ذراعها، ثم قادها إلى حيث يتمدد
"أكون" على ظهره.

قال موجهاً حديثه إلى "آكون": طبعها سيئ. ثم أجلسها عند قدمي "آكون". كما هربت مني سابقاً، ربما ستهرب منك في الأيام القادمة. لكن لا حاجة للخوف، وإن كانت ترغب الهروب دائماً، لكن، سوف أتأكد من ذلك، إنها ذات دهاء عظيم. أنا أعترف أن دهاءها ترك انطباعاً عميقاً داخلي. ومع ذلك فكرت بنفسي أن أقدم خدمة لك لمرة فقط، وسأضمنها لك.

انحنى "بوربورتيك"، صالب قدمي "إل-سو"، بحيث وضع مشط قدمها فوق مشط القدم الأخرى؛ وعندئذ، قبل أن يعرف أحد هدفه، أفرغ رصاص بندقيته على الكاحلين. وعندما حاول "آكون" جاهداً النهوض والإفلات من سيطرة الرجال الشبان، صدر صوت تحطيم عظم، تحطم ثانيةً.

قال القضاة العجز كل للآخر: هذا عدلٌ.

لم يصدر عن "إل-سو" صوت. جلست ونظرت إلى كاحليها المحطمين، لن تستطيع السير ثانية أبداً.

قال "آكون" محدثاً "إل-سو": رجلاي قويتان، لكن، لن تحملاني بعيداً عنك أبداً.

نظرت إليه "إل-سو" ولأول مرة منذ أن عرفها شاهد الدموع في عينيها.

قال لها: عيناك تشبه عيني الآيل، "إل-سو".

سأل "بوربورتيك": أأكون هذا عدلاً؟ ثم ابتسم بسخرية
عندما كان يستعد للرحيل.

هذا أكون عدلاً، أجابت المحكمة العجوز وغرقت في
صمت رزين.

جاك لندن

قطعة من شريحة لحم

تعريب
سقار عبطو

خطوات للتوزيع

فُطْعَةُ مَنْ
شَرِيحَةُ لِيَم

بآخر كسرة خبز مسح "توم كينغ" طبقة من آخر ذرة صلصة
مرقة اللحم بالطحين، وصار يعضغ ببطء وتأمل.
لاشك كان جائعاً، وعندما نهض عن المائدة، سكن شعور
الجوع لديه، وقد تناول الطعام بمفرده.

إلى الغرفة الأخرى، طفلان أرسلا للنوم، ربما نسيا أنهما ينامان
دون عشاء. وزوجته جالسة بصمت، تمسك اللاشيء، تراقبه بعينين
قلقتين. كانت امرأة من طبقة العمال، نحيفة ومتعبة، وقد ارتسمت
على وجهها ملامح لجمال مُبكر لا يرغب في الظهور. استعارت
الطحين من أجل صلصة مرقة اللحم من الجيران في الجانب الآخر من
الرواق. وقد أنفقت آخر بنسين لشراء الخبز.

جلس قرب النافذة على كرسي متداع ناء تحت ثقل وزنه،
وبهدوء آلي وضع غليونه في فمه ومال نحو جيب معطفه. لا يوجد
تبغ، عبس ووضع غليونه جانباً.

كانت حركاته بطيئة، ثقيلة تقريباً، وكأنه أرهق عضلاته
بالوزن الثقيل. وكان صلباً، بدا بهيئة قليلة الجاذبية .

ثيابه خشنة عتيقة، فضفاضة. أجزاء حذائه العلوية كانت
أضعف من أن تمسك نعلًا جديدًا ثقيلًا يُشير إلى تاريخ جديد لإنتعال
الحذاء.

قميصه القطني الرخيص الثمن - بشلنين - بدا لونه ملطخاً
بدهان لا يمكن إزالته. لكن سمات الوجه تدل بوضوح، من كان "توم
كينغ"؟

الوجه، وجه ملاكم نموذجي ممتاز، ملاكم أمضى أعواماً
طويلة في حلبة الملاكمة، ثم، بكل تلك المعاني الظاهرة أكد على
علامات القتال البهيمي.

دون شك، كانت الملامح عابسة، ثم، ما من قسمة من
قسمات الوجه، ربما، أشارت إلى التهرب من الواقع، كان وجهاً
حليقاً ونظيفاً.

الشفتان المشوهتان متآلفتان مع فم خشن، كأنه جرحٌ بليغٌ في
الوجه. الحنك صلب، ثقيلٌ..... عدواني. العينان - بطء في

الحركة- بدتا خاليتين من المشاعر وغائرتين تحت حاجبين أهلبين
بجفنين ثقيلين.

حيوان صرف، ذاك كان هو، والأكثر شبهاً بالملاح الحيوانية،
عيناه الناعستان - كعيني الأسد- عينا حيوان ملاكم.

الجبين مائل خلفاً نحو الشعر، الذي، قُصَّ قصيراً، يُظهرُ أوراماً
رديئةً. الأنف حُطِمَ مرتين بلكمات لا تُعدّ ولا تحصى وأخذ شكلاً
مختلفاً، وأذن شوحتها لكلمات متكررة، تورمت وزاد حجمها
ضعفين، بينما كانت اللحية حلقة ونمت قوية بسرعة في الجلد
وأعطت الوجه بقعة زرقاء داكنة. إجمالاً، كانت حالة وجه الرجل ،
حالة خوف في زقاق مظلم أو مكان مُوحش. مع ذلك لم يكن "توم
كينغ" محجراً، ولا أقدم على عمل إجرامي.

خارج نطاق الملاكات، كان عادياً في حياته، لا يسيء إلى
أحد. ولم يعرف أبداً سبباً لتراخ، كان محترفاً، وكل ملاكماته
الوحشية كانت من أجل مظاهر احترافه. وخارج الحلبة كان يسير
ببطء، حالته طبيعية هادئة، ثم، في أيام شبابه السابقة، عندما كان
المال متوفراً، كان سخياً أيضاً. لا يحمل أحقاداً، وأعداؤه قليلون.
كانت الملاكمة بالنسبة له عملاً.

في الحلبة، ضرب ليؤذي، ليشوه، ليهلك، لكن
في ذلك لا يوجد أعداء. كانت الملاكمة قضية عمل
محضة. الجمهور المحتشد، يدفع من أجل مشاهدة رجلين

يصرع أحدهما الآخر بضربة قاضية. الفائز يأخذ الحصة الأكبر من الجائزة المالية.

قبل عشرين عاماً، عندما واجه "توم كينغ" خصمه "كوجر" الودلومولو" كان يعلم أن فك "كوجر" قد عولج مدة أربعة أشهر بعد أن تحطم في مباراة ملاكمة في "نيوكاسل". وهو قابله من أجل ذلك الفك، وقد حطّمه في الجولة التاسعة. لم يكن يحمل له أيّ حقد، لكن كان الأسلوب الأوثق ليصرع "كوجر" ويفوز بالحصة الأكبر من الجائزة المالية. كذلك، لم يكن "كوجر" يحمل حقداً. إنها مباراة ملاكمة وكلاهما يعرف قواعد المباراة، واللعب.

جلس قرب النافذة صامتاً ببلاهة - لم يكن ثثاراً قط - يحدق في يديه. برزت الشرايين في قفا كفيه منتفخة، والبراحم، تَهَشَّمَت وعُطِبَت من تكرار اللكم، وأثبتت استعمالها كيف صارت حالة الشرايين.

لم يسمع أبداً أن حياة الرجل كانت الحياة لشرايينه، لكن عرف جيداً المعنى الكبير لانتفاضها، الشرايين المنتصبة. قلبه، أيضاً، ضخ دمّاً كثيراً بضغط أعظمي خلال تلك الشرايين. وهي لن تعمل مدة أطول. المرونة خرجت منها، وتحول ثباته بانتفاضها.

الآن، لا ريب هو مرهق. لم يستطع الصمود اثني عشرة جولة سريعة لمدة طويلة، بقوة وعنف كبيرين، يلاكم، يلاكم، من جرس إلى جرس، يتبادل لكمات عنيفة، وفي ذروة تبادل اللكمات

العنيفة، ضُربَ مراراً نحو الحبال، ويرد بضرب الخصم نحو الحبال أيضاً، وتبادل اللكمات الأعنف والأحكم يبلغ ذروته في الجولة الثانية عشرة، يقف المشاهدون على أقدامهم ويهتفون، يدفع نفسه بعنفٍ، يضرب، يتفادى وابلأً من اللكمات اثر وابل، وبالمقابل يتلقى وابلأً من اللكمات، وطيلة الوقت يضخ القلب دافعاً الدم في العروق. وفي كل مرة، تنتفخ العروق ثم تنقلص ثانية، مع ذلك ليس تماماً، في البدء ضالة تدريجية دقيقة إلى أبعد حد- تبقى متوسطة الصلابة أكبر من السابق. حدّق بها وبمفاصل أصابعه المهشمة، ثم، للحظة، أدرك متخيلاً التفوق العضلي لهاتين اليدين قبل التهشم، لقد تهشمتا على رأس "بيني جونز"، أدرك ذلك بطريقة أخرى مثل الرعب الويلزي. عاوده إحساس الجوع. أطبق قبضتيه، ثم دمدم بصوت عال : يا للقسوة ! ألا أستطيع تناول قطعة صغيرة من شريحة لحم !

قالت الزوجة نصف مبررة: حاولت مع "بورك" و"ساولي".

سأل : ألا يريدان؟

قالت متلعثمة: قال "بورك"، ليس لديه بنس.....،

نخر "توم كينغ" لكن لم يجب. كان يفكر بكلب من كلاب الصيد اعتنى به أيام شبابه عندما كان يأكل شرائح اللحم دون حدود.

لقد سبق و استدان من "بورك" قيمة نحو ألف شريحة لحم. لكن الزمن تبدل.

أصبح "توم كينغ" متقدماً في السن، والرجال العُجُز، يلاكمون في أندية الدرجة الثانية، ولا يمكن لهم أن يتوقعوا الوقوع في دين الفواتير مع أصحاب المتاجر.

كان "توم كينغ" قد استيقظ صباحاً ولديه رغبة شديدة لقطعة من شريحة لحم. لم يكن قد تدرب تدريباً مناسباً لهذه الملائكة.

كان عام قحط في استراليا، وكانت أوقاته عصيبة، ومن الصعب إيجاد عمل آخر. لم يكن لديه ملاكم معاون، وطعامه، لم يكن الأفضل ولا الكافي. كاف، عندما استطاع الحصول على عمل آخر، عمل أياماً قليلة. كان في الصباح الباكر يجري حول الميدان كي يحافظ على حيوية رجله. لكن ذلك كان صعباً.

عندما تبارى مع "ساندل" كان يعاني من مشكلة ديونه مع التجار.

دفع سكرتير نادي "كايتي" ثلاثة جنيهات - حصة الخاسر - وبعد ذلك رفض المتابعة.

في هذه الأيام، ومرة أخرى، أراد استعارة بعض الشلنات من أصدقاء قدامى لديهم القدرة على الإعارة في سنة القحط.

صار تدريبه سيئاً - لا فائدة من إخفاء الحقيقة - وعليه أن يحصل على طعام أفضل دون إرهاق. إضافة لذلك، عندما يكون

الإنسان في سن الأربعين، من الصعب أن يكون في حالة جيدة أفضل مقارنة مع سن العشرين.

سأل: كم الوقت الآن؟

مضت زوجته غير الرواق كي تستعلم عن الوقت، ثم عادت.
— التاسعة إلا ربع.

سوف تبدأ المباراة الأولى خلال دقائق. قال "توم"، "التجربة فحسب". بعدئذ مباراة من أربع جولات بين "ويلرويلس" و"كريدي"، ومباراة من عشر جولات بين "النجم الساطع" وشخص ما، بحار. ومباراتي لا يمكن أن تبدأ قبل ساعة.

في نهاية العشر دقائق الأخيرة من الصمت، نهض على قدميه.

في الحقيقة، لم أحصل على تدريب حقيقي.

حاول الوصول إلى قبعته ثم وثب نحو الباب. لم يبد استعداداه لتقيلها. كان يفعل ذلك لدى مغادرته المنزل دائماً، لكن في هذه الليلة تجرأت هي على تقيله، أحاطته بذراعيها وأجبرته أن يحني وجهه إليها. شعرت بهدوءٍ قليل على جسد الرجل الضخم.

قالت: حظاً سعيداً، أنت الفائز، افعل ذلك.

— سأفعل ذلك.

ضحك مع محاولة الحماس، بينما ضغطت بذراعيها أكثر مطوقة إياه.

نظر فوق كتفيها إلى أرجاء الغرفة الخالية من الأثاث. زد على ذلك لم يكن قد دفع الأجرة بعد، وزوجته والطفلان، كل ما يملكه. كان يعيش في هذه الغرفة ويخرج ليلاً كي يجلب طعاماً لزوجته وصغيريه، ليس كعامل عصري يذهب إلى صرير آتته، لكن؛ كما في الماضي، بواسطة التزل في مباراة ملاكمة.

دمدم وفي صوته إلماحة يأس: سأحصل على الفوز. إذا فُوت، أحصل على ثلاثة جنيهات، عندئذ أستطيع دفع كل المستحق دفعه. وإذا خسرت لن أحصل على بنس كي أركب الترام عائداً إلى المنزل. إلى اللقاء أيتها المرأة العجوز، إذا فزت، سأعود إلى المنزل فوراً.

ودعته زوجته قائلة: وأنا سوف أظل يقظة أنتظرك.

تبعد "كايتي" مسافة ميلين، تذكر وهو سائر أيام انتصاراته، مرة توج بطلاً للوزن الثقيل في "نيوساوث ولز"، راودته الرغبة بركوب مركبة إلى مباراة الملاكمة، والمناسب أكثر، أن يركب معه نصير ما ويدفع الأجرة عنه. "تومي بورنز" وذاك اليانكي "جاك جونسون"، ركبوا جميعاً في الأوتوموبيل. وهو ساراً ثم، مثل أي رجل أدرك أن صعوبة مسير الميدين لم تكن تمهيداً حسناً لمباراة الملاكمة. كان شخصاً عجوزاً، والعالم لا يتعامل جيداً بالقييل والقال مع الأشخاص العجائز.

الآن، هو جيد لأجل لا شيء، ما عدا عامل غير بارع،
كذلك، أنفه المكسور وأذنه المهشمة، كانتا ضده حتى في ذلك.
أحسن برغبته في تعلم التجارة، إذ أنها ستجعله في
النهاية أفضل.

لكن لم يحدثه أحد، وهو أدرك في قرارة نفسه، أنه لا يرغب
الصمت إذا هم رغبوا. قد تكون الحالة هكذا أسهل. جائزة ضخمة
- ملاكمات شيقة - فترات الاستراحات والتسكع - متابعة تملقات
ارتفاع المد المفاجئ، لطمات على الظهر، اهتزاز تصافح الأيدي،
حزن الأشخاص الأنيقون لابتياعه الشراب من أجل حديث لمدة
خمس دقائق - وتفاخره بذلك، الجمهور الهائج، نهاية الزوبعة، الحكم،
الفائز "كينغ"! وفي اليوم التالي يُدَوّن اسمه في أعمدة الصحف
الرياضية.

ذلك كان في الماضي! لكن في الوقت الحاضر أدرك ببطأه، كان
شاباً صاعداً، وهم متقدمون في السن، لا عجب في إخفاقهم، الحالة
سهلة، العروق المنتفخة، البراجم المنسحقة، الإرهاق الشديد في
عظامهم لما لاقوه من ملاكمتهم السابقة.

تذكر عندما أخرج العجوز "ستوشريل" من الحلبة في "روش
كوترزباي" في الجولة التاسعة. وتذكر كذلك كيف أن ذاك العجوز
بكى في غرفة الملابس كطفل. ربما كان للعجوز آنذاك زوجة وطفل
أو طفلان ينتظرونه، وربما لم يحصل على أجرته، وربما في تلك

الملاكمة كان يرغب بقطعة من شريحة لحم. لقد لاكم "بيل" وحصلَ على معاملة قاسية لا تُصدّق.

استطاع أن يدرك الآن. أن "ستوشربيل" لاكم من أجل رهان أكبر. مضى على تلك المباراة عشرون عاماً ونصف، وكان "توم كينغ" شاباً، يلاكم من أجل الشهرة والمال السهل. لا عجب أن "ستوشربيل" بكى في غرفة الملابس.

حسنٌ، في البدء كانت لديه ميول متعددة للملاكمة.

كان قانون المباراة صارماً. ربما كان لأحدهم القدرة على مئة مباراة قاسية، وآخر لديه القدرة على عشر مباريات، كلُّ منهما يتوافق مع طبيعة مزاجه ونفسه، وهو عندما لاكمهم كان في مقدّره أن يلاكم أكثر منهم، وكان أكثر قسوة، ملاكمات مرهقة عملت على إتعاب القلب والرئتين وأزالت المرونة من الشرايين، والعقد القاسية للعضلة المرنة الملساء الفتية أرهقت الأعصاب والقدرة على الاحتمال، وأجهدت الدماغ والعظام. نعم كان قد لاكم أفضل من الجميع.

لم يبق أحد من زملائه الملاكمين القدماء. لقد شاهد نهاياتهم، وساهم في إنهاء بعضهم. كانوا قد اختبروه أمام أشخاص متقدمين في السن، وكان يفوز عليهم واحداً تلو الآخر. عندما يضحك، مثل "ستوشربيل" - كانوا يكون في غرفة الملابس - والآن هو الشخص العجوز، ويختبرون الشباب أمامه.

ذاك "بلوك ساندل"، جاء من مكان بعيد من "نيوزلاند".
ولا أحد في استراليا يعرف عنه شيئاً، لذلك هيؤوه ضد العجوز
"توم كينغ".

إذا فاز "ساندل"، سيحصل على جائزة مالية كبيرة، وسيكون
أفضل الملاكمين، لذلك استطاع الاستعداد لمباراة عنيفة، كان يملك
المؤهلات للفوز بها - مال وشهرة ونجاح- أما ذلك العجوز الأشيب
"توم كينغ" كان يدافع بأسلوب عالٍ عن القدر والمصير. لم يكن لديه
شيء للفوز سوى ثلاثة جنيهات كـي يدفعها لمالك الفندق
وأصحاب المتاجر.

بينما كان "توم كينغ" غارقاً في تأملاته، خطر في خياله المتلبد
صورة الشباب. الشباب الرائع، الصعود رائع لا يقهر، عضلات مرنة
وجلد حريري، لم يتعب القلب والرئتان أبداً، وقد سخر من محاولة
العجز. نعم، حياة شابة كانت نقمة، حطمت الرجل العجوز،
ولم تكتثر لذلك، على هذا النحو فعلت، حطمت نفسها.
وسعت شرايينها، حطمت البراجم، وكانت رويداً رويداً تحطم
وتمحق بالشباب. من ناحية الشباب، كان دائماً فتياً، العمر
فقط يهرم.

في شارع "كاستلري" دار نحو اليسار، وشاهد مجموعات من
الناس يسرعون نحو الصالة، تسكع حشد كبير من
الشباب المشاكسين خارج الباب وصاروا يتحدثون عنه

بأسلوب ماكر، وقد سمع أحدهم يقول للأخر: ذاك "توم كينغ"! ذاك هو العجوز!.

في الداخل، في طريقه إلى غرفة الملابس، صادف السكرتير الشاب ذا النظرة الحادة وتعابير الوجه التي تنم عن الدهاء، صافحه وسأله: كيف تشعر، توم؟

أجاب "توم": بصحة جيدة، ولو عرف أنه يكذب، مع ذلك إذا كان لديه الجنيه سيعطيه إياه من أجل قطعة لحم جيدة.

عندما ظهر من غرفة الملابس يتبعه مؤيدوه، سار على الممر بين المقاعد متجهاً نحو الحلبة وسط القاعة، علا التصفيق والترحيب من الجمهور المنتظر.

عبر عن شكره للتحيات بالانحناء يميناً وشمالاً، وعرف قليلاً من الوجوه.

أغلب الوجوه كانت لأولاد لم يكونوا قد ولدوا بعد، عندما فاز بأول أمجاده في حلبة الملاكمة وثب برشاقة مرتقياً السلم نحو الحلبة، وانحنى خلال الحبال إلى زاويته حيث جلس على كرسي بلا مسند.

استبدَّ بحكم المباراة "جاك بول" شعور ما، ثم صافحه بيده.

كان "جاك بول" ملاكماً محترفاً وقد تخلّى عن الملاكمة بسب سوء صحته. و"توم كينغ" مسرور لتكريم الحكم

له، كلاهما شخصان عجوزان. إذن سوف يتخاشن مع "ساندل" مخالفة صغيرة من القانون، وأدرك أن "بول" يمكن أن يتغاضى عنها معه.

ارتقى الملاكمون الشبان، ذوي الأوزان الثقيلة، الحلبة، وصلر الحكم يقدمهم للجمهور ويعلن عن تحدياتهم لبعضهم.

"الشاب برونو" تحدى "بيل" من جنوب "سيدرني"، حدّ الرهان خمسون جنيهًا. دوت عاصفة من التصفيق، ثم صفق الجمهور مرة أخرى عندما ارتقى "ساندل" الحلبة وجلس في زاويته.

نظر "توم كينغ" إليه بفضول، بعد لحظات سيشتبكان مع بعضهما بملاكمة عديمة الرحمة، كل منهما سيحاول بكل قوته ضرب الآخر بعنفٍ في اللاوعي. كان وجه "ساندل" وسيمًا، شديد القوة، متوجًا بمعدة كتلة شعر أصفر كثيف مجمد، عنقٌ نامي العضلات يشير إلى عظمةٍ جَسدية.

في زاوية أخرى، تصافح الشاب "بروتسو" ومنافسه مع المسؤولين عن المباريات، ثم انسحبا من الحلبة. تتابعت التحديات. كل شاب يرتقي الحلبة يصرخ بقوة ومهارة.

منذ أعوام قليلة، في أيام ذروته كان لا يُقهر. لكن الآن، يجلس مسلوب القدرة على الحركة، لا يستطيع طرد خيال حياته الشابة من ناظره.

كانت هذه الشبابية تتأجج دائماً في مباراة الملاكمة، يرتقي
الحلبة خلال الحبال ويصرخ متحدياً، ودائماً الملاكمون الأكبر سناً
يُهزَمون أمامه.

الملاكمون الشباب يرتقون سُلّم النجاح فوق أجساد الملاكمين
العُجُز. ودائماً، يزدادون شباباً أكثر فأكثر - شباب لا يُقاوم - ودائماً
يفوزون عليهم.

كذلك، هم أنفسهم يتقدمون بالسن، ويرتحلون نفس الدرب
تنازلاً، بينما خلفهم، ودائماً شباب أبدي - الشبان الجدد، ينمون
مفعمين بالحيوية ويطرحون أسلافهم، وهكذا، حتى نهاية الزمن، ذلك
الشباب يملك إرادة لا تموت أبداً.

نظر "توم كينغ" عالياً نحو مقصورة الصحافة، ثم أشار إلى "مورغان"،
من جريدة "سبورت مان" و"كورييت" من جريدة "الريفير".

بعد ذلك، مدّ يديه، بينما قام مساعداه "سد سوليفان"
و"شارلي باتس" بالباسه القفازين، ثم ربطا عقدتيهما.

راقب عن كثب أحد مساعدي "ساندل" الذي بدأ يفحص
بحسب الأشرطة على مفاصل أصابع "توم كينغ"، كذلك كان أحد
مساعديه يقوم بعمله في زاوية "ساندل" مثل الحكم.

عندما خلع "ساندل" سترته، نظر "توم كينغ" إليه، فشاهد
ملاكاً من الوزن الثقيل، شاباً راسخ الصدر، عضلاته القوية تنساب
بحيوية تحت الجلد الأبيض.

كامل الجسم ينبض حيوية وقوة، وينمو مع الحياة. "توم كينغ" عرف تلك الحياة التي كانت أبداً تترّ عذوبتها خلال تأملات الألم الخفيف المتواصل أثناء مباريات الملاكمة الطويلة التي دفع خلالها الشباب ضريبة ثمينة. تقدم الملاكمان يقابل كل منهما الآخر، وعندما أعلن الجرس عن بدء المباراة انسحب مساعدهما خارج الحلبة، وبعد أن تصافحا، اتخذوا وضع بدء المباراة. ومباشرة، كالألات الفولاذية، وتوازن الوثبات على المقداح، يشب "ساندل" إلى الأمام ثم الخلف ثم ثانية نحو الأمام، يلکم باليسرى نحو العينين، واليمين نحو الأضلاع، يضرب ضربات مضادة، يرقص برشاقة هنا وهناك. كان خفيف الحركة وذكياً. والجمهور يُعبر عن الاستحسان.

لم يكن "توم كينغ" متألّفاً. وقد اشترك سابقاً في عدة مباريات ومع شباب أيضاً. أدرك "كينغ" لماذا الضربات رشيقة وسريعة. من الواضح أن "ساندل" يسعى للحصول على نقاط، وذلك كان متوقعاً. أسلوب الشاب، يرغب التفوق والامتياز في تمرد وحشي وانقضاض عنيف، خصائص المقابلة الساحقة، الشهرة اللامحدودة للقوة والرغبة.

كان "ساندل" يرقص هنا وهناك، أماماً، خلفاً، بقدمين رشيقتين، وقلب غمر، حيوية مدهشة للجسد الأبيض والعضلات المرنة التي تتحرك بأسلوب رائع، يشب ويتفادى بجسده الضربات كالمكوك الطائر من نشاط إلى نشاط، يحاول القضاء على "توم كينغ" الذي ظلّ ثابتاً ويتحمل بصبر.

لم يكن لدى "كينغ" شيء يعمل به كي يفقد منافسه بعض قوته. ابتسم ابتسامة عريضة مع نفسه عندما أحنى رأسه بتروء بعد أن تلقى ضربة ثقيلة على أعلى رأسه. كان فعل ذلك أمراً بارعاً، ويُعد ذلك تفوقاً مشروحاً حسب قوانين مباراة الملاكمة.

الملاكم يهتم بالاعتناء ببرأجه، وإذا أصرّ على ضرب الخصم على قمة الرأس فهو يخاطر بها.

استطاع "كينغ" إخفاض رأسه وترك طنين الضربة السابقة غير المؤذية، لكنه تذكر مبارياته القديمة، وكيف حطم أول برجة على رأس "ويلش تيرور". تلك الضربة جعلت "ساندل" يُحطم إحدى البراجم. لكن لا يرغب "ساندل" بالاكتراث الآن. استطاع المتابعة لا مبالياً يضرب بقسوة. لكن فيما بعد، بعد معارك الحلبة الطويلة، سيندم لفقدان ذلك البرجم ويتذكر كيف حطمه على رأس "توم كينغ".

كانت الجولة الأولى، وهتافات الجمهور لصالح "ساندل".

بمحومه الزويعي واللكمات السريعة أربك "توم كينغ"، و"كينغ" لم يفعل شيئاً سوى أنه اكتفى بحماية نفسه، والإعاقة، يتفادى بحسمه الضربات ويتماسك مع "ساندل" بقوة كي يتفادى المعاملة القاسية. أحياناً، عندما تستقر ثقل لكمة على رأسه، يتظاهر بالتمايل هنا وهناك ببلاهة، لم يثب أبداً أو استهلك مقداراً قليلاً من القوة.

كان على "ساندل" أن يزبد زبد الشباب على شيخ حذر، استطاع أن يتجرأ على المقابلة. كل حركات "كينغ" بطيئة ومنهجية، جفنا عينيه ثقيلان، حركة عينيه البطيئة أشارت وكأنه نصف نلثم أو مصابٌ بدوارٍ من ضربة عنيفة. كانت عيناه تشاهد كل شيء خلال السنوات الاثنتي والعشرين ونيفاً في الحلبة. لا تطرف أو تضطرب أمام لكمة توشك أن تحدث، ثم قاسَ التفاوت بعد نظرة فاترة.

في نهاية الجولة، أُجسِسَ في زاويته، ثم، استلقى ممدداً رجليه، وأراح ذراعيه على الزاوية اليمنى للحبال، صدره وبطنه يعلنان وينخفضان بعمق عندما يتنفس الهواء بمساعدة مناشف مساعديه.

أصغى بعينين مغمضتين إلى أصوات الجمهور: لماذا لا تلاكهم، توم؟ هل أنت خائف؟ وتناهى إلى سمعه صوت الرجل على المقعد المقابل منتقداً: إنه جامدٌ، لا يستطيع التحرك بسرعة، أراهن بجنيهين على "ساندل".

أعلن الجرس بدء الجولة الثانية، واندفع الرجلان كلاهما من زاويته. تقدم "ساندل" ثلاث أرباع المسافة، بينما اكتفى "توم" بالتقدم المسافة الأقصر. حالة توافق مع حكمته في التدبير. لم يكن قد تدرَّب جيداً، ولم يأكل كفاية، وكل خطوة يأخذها في الحسبان. إضافة لذلك لقد سار مسافة ميلين إلى موقع الحلبة.

هذه الجولة، كالجولة الأولى. هجوم "ساندل" كالزوبعة، دمدمات السخط من المشاهدين يتساعلون لماذا "توم" لا يلکم؟ بينما

"توم" يتظاهر بالهجوم، يخدع، ويسدد ببطء لكلمات عقيمة، لم يفعل "توم" شيئاً سوى الإحباط والحيلة والتماسك مع الخصم بقوة. وعندما أراد "ساندل" أن يجعل التماسك أكثر إحكاماً، يرفض "توم".

ابتسم ابتسامة عريضة بتأثر حزين لا ريب فيه في هدوء اندفاع هجومه المتكرر، وتابع يُدلل قوته بيقظة شديدة.

كان "ساندل" شاباً، و"توم" صار يفقد قوته بالتنازل السخي للشباب. منذ عهد بعيد نُسبت إلى "كينغ" زعامة الحلبة، الحكمة.

تحرك ببطء، راقب بعينين ورأس بارد، انتظر زيد "ساندل" يزيد. بدا على وجوه أغلب المشاهدين أن تفوق "توم" مستحيل، وقد عبروا عن آرائهم برهان ثلاثة مقابل واحد لصالح "ساندل".

لكن كان يوجد أشخاص قلائل ممن عرفوا "توم" منذ زمن، راهنوا لصالحه. بدأت الجولة الثالثة كالعادة، انقضت نصف دقيقة و"ساندل" يسدد بثقة اللكمات القوية، كاشفاً الجبهة اليسرى.

نظرات "كينغ" وذراعه اليمنى اندفعت في نفس اللحظات. كانت لكمته الأولى الحقيقية - حركة دائرية خاطفة مع تقوسٍ للذراع كي يجعلها صارمة، مع ثقل جسم نصف مرتكز - كأسدٍ يتظاهر بالنعاس، وفجأة يدفع كفه بشكل مفاجئ كالبرق.

أصيب "ساندل" على جانب الفك، وشعر كالثور المخصي. أطلق الجمهور لهاثاً ودمدم استحساناً مليئاً بالروعة. لم يكن "كينغ"

جامداً، لقد استطاع أن يسدد لكمة كضربة مطرقة. ترنح "ساندل"، تمايل من جانب إلى آخر، حاول أن يثبت في مكانه، لكن صيحات مساعديه اضطرته أن يحصل على العدّ.

ركع على ركبة واحدة، مستعداً للنهوض، ثم تريت، بينما كان الحكم يقف بجانبه يعدُّ في أذنه. عند الرقم تسعة، هُض في وضع قتالي، و"توم" يقابله، لقد أسِفَ لتلك الضربة التي كانت بعيدة بوصة واحدة عن نقطة الفك، التي كانت ستكون الضربة القاضية، وبالتلي كان يستطيع الحصول على ثلاثين جنيهاً ويعود إلى زوجته وطفليه. تتابعت الجولة بدقائقها الثلاث إلى النهاية. وكان "ساندل" مُتسماً باحترام خصمه وبطء حركات "كينغ" ونظراته الناعسة دائماً.

عند اقتراب الجولة من النهاية، حذر مساعده "توم" كينغ" الجماهون خارج الحلبة طالبين منه أن يكون في جهة زاويته

عندما قُرِع الجرس مُعلنًا انتهاء الجولة الثالثة، جلس "توم" في زاويته المخصصة، بينما سار "ساندل" عبر قطر الحلبة إلى زاويته. كان ذلك شيئاً قليلاً، لكن تلك الأمور الصغيرة كانت في حسابان "توم كينغ"، الخطوات الكثيرة المتعددة، تُضعف من نشاط "ساندل"، ويهدر قسماً من دقيقة الاستراحة النفيسة.

في بداية كل جولة، كان "توم كينغ" يهدر الوقت بالتباطؤ وهو منطلقاً من زاويته، يُجبر خصمه على التقدم المسافة الأكبر. وفي

نهاية كل جولة يناور كي يكون قريباً من زاويته، ولذلك يستطيع الجلوس فوراً.

انقضت جولتان، وفي الجولتين كان "توم كينغ" شحيحاً بالجهد، بينما كان "ساندل" مُبذراً. كان "توم كينغ" مصراً على تباطئه العنيد في محاولة منه الحفاظ على قوته، وكان يحتقر البكاء لأشخاص حاديّ الطباع.

في الجولة السادسة، ومرة أخرى، كان "ساندل" لا مبالياً، انطلقت يمين "توم كينغ" الضخمة بسرعة البرق نحو فك "ساندل"، وثانية حصل "ساندل" على العدة التاسع.

في الجولة السابعة، هدأ "ساندل" وقرر كيف تكون الملاكمة الأصعب في خبرته. كان "توم كينغ" رجلاً عجوزاً، لكن الأفضل ممن كان قد قابل - الرجل العجوز الذي لم يفقد أبداً اتزانه أو تزعمه - الذي كان رائعاً في الدفاع، من كانت للكلمات تأثير هراوة كثيرة العقد، ومن كان يصارع خصمه باليد الأخرى.

عندما جلس "توم" في زاويته يُحدد نحو الجانب الأخر إلى خصمه، راوده تفكير أن ذروة خبرته وشباب "ساندل" تؤلفان بطل العالم في الوزن الثقيل. لكن كان ذلك يُزعج، "ساندل" لن يصبح بطل العالم. إنه يفتقر الخبرة، والأسلوب الوحيد ليحصل عليها، عليه أن يتاعها بشبابه، وعندما يحصل عليها، يصبح رجلاً عجوزاً.

استعمل "كينغ" كل ميزة عرفها، لم يفوت أبداً فرصة الإمساك بقوة، وفي الواقع كان يحسم معظم الأمور بوضع كتفه بصلاية ضمن الحبال الأخرى. في فلسفة الحلبة، كان للكتف أثر شديد بقدر ما الأذى كان معنياً والتفكير الأعظم أفضل بقدر ما أهمية المحاولة. وفي الإمساكات أراح "كينغ" ثقله أيضاً على خصمه، وكان كارهاً أن يدعه يفلت. هذا ما يُجبر الحكم على التدخل، ويفصلهما عن بعضهما. كان "ساندل" لا يرتاح، لم يستطع الإحجام عن استخدام الذراعين المتألقين وعضلاته المفتولة، وعندما ستندفع الأخرى بسوعة داخل التماسك المحكم، تضرب الكتف مقابل الحبال، ويريح "كينغ" رأسه تحت ذراع "ساندل" الأيسر.

وغالباً، لوح "ساندل" بثبات بذراعه اليمنى خلف ظهره ثم نحو بروز الوجه، كانت ضربة ذكية، اندهاش كبير من الجمهور، لكن الضربة غير خطيرة، وقد بدد قوة كبيرة لكن "ساندل" لا يعرف التعب، و"كينغ" يتسم ابتسامة عريضة ويثبت بعناد.

سد "ساندل" لكمة اليمين القوية إلى جسد "كينغ" وقفاز "كينغ" الأيسر الرشيق الذي يُعجب به الملاكمون القدماء يتجه نحو العضلات قبل تأثير لكمة ساندل.

كانت حقيقة، اللكمة سدّت مرة تلو الأخرى، لكن في كل مرة كانت تفقد من قوتها بواسطة تلك الضربة الحقيقية على العضلات. في الجولة التاسعة، سد "توم كينغ" يمينية دائرية بشكل

قوس نحو الفك، وثلاث مرات قهاوى جسم "ساندل" ثقيلاً نحو خشبة الزاوية، وفي كل مرة يحصل على العدّ التاسع ثم ينهض على قدميه، مترنحاً ومتضيقاً، منصدماً، لكن يظل قوياً.

بدد جهداً قليلاً، وفقد كثيراً من سرعته. يلاكم بشراسة ويعتمد على مصدر قوته الرئيسة، القوة التي يملكها الشباب. ومصدر قوة "كينغ" الرئيسة كانت خبرته وحنكته.

عندما ضعفت حيويته، وحمد نشاطه، اعتمد أسلوب المكر وخبرة الملاكمات الطويلة مع الحرص برعاية القوة. لقد تعلم أن لا يقوم بحركة غير ضرورية، و تعلم كذلك كيف يغري الخصم لإضاعة الوقت.

ثانية، وثانية، بخدعة قدميه ويده وجسمه، واصل بإغواء "ساندل" نحو قفزة خلفية، ينحني، يتفادى، أو يضرب ضربة مضادة. ارتاح "كينغ"، لكنه لم يتح الفرصة لـ "ساندل" كي يرتاح. كانت هذه استراتيجية الكبير في السن.

من بداية الجولة العاشرة، بدأ "توم كينغ" يوقف اندفاعات خصمه بضربات يساريه مستقيمة نحو الوجه، وازداد "ساندل" حرصاً، استجاب بسحب اليد اليسرى، ويوجه يمناه في دوران خطاف نحو طرف الرأس. وترفع إلى الأعلى أيضاً، كي يكون لها تأثير فعال؛ وعندما استقرت اللكمة، شعر "توم كينغ" بهبوط آليفاً لستار أسود للاوعي عبر عقله. للحظة، أو جزء قليل من اللحظة،

على الأصح، توقف. في لحظة واحدة شاهد خصمه يتملص خارجاً من مجال الطيف وخلفية الصورة البيضاء، يراقب الوجوه؛ في اللحظة التالية، شاهد خصمه وخلفية الوجوه ثانيةً.

شعرَ وكأنه نام للحظة، ثم فتح عينيه مرة أخرى، وبعد ذلك كانت الفترة الفاصلة للعقل اللاواعي قصيرة وبالغة في القصر، لذلك لا يوجد وقت له للسقوط. شاهده الجمهور يترنح، تنهار ركبته، ثم شاهده يستعيد وعيه ويحمي ذقنه بكتفه الأيسر.

كرر "ساندل" اللكمة مرات عديدة كي يحافظ على إغماء "توم كينغ"، لكن كينغ أحدث أخيراً، دفاعه ورد الضربة بضدها. أخذ نصف خطوة إلى الخلف، يخدع باليسرى، وفي نفس الوقت يسدد لكمة من الأسفل إلى الأعلى نحو الخصم بكامل قوة يده اليمنى. وصلت اللكمة بشكل زاوية قائمة على وجه "ساندل"، الذي ارتفع في الهواء ثم تحرك بطريقة لولبيه، يضرب الحشية برأسه وكتفيه. أحرز "كينغ" ذلك مرتين، ثم تحرر ودفع خصمه نحو الجبال.

لم يعط "ساندل" فرصة كي يرتاح أو يجمع نفسه، لكم بعنف لكمةً إثر لكمة حتى أن المشاهدين وقفوا على أقدامهم وقد امتلأ الهواء بهدير التصفيق المتواصل وعبارات الإطراء.

لكن قوة واحتمال "ساندل" ثابتة، لقد واصل كي يظل واقفاً على قدميه. بدت الضربة القاضية مؤكدة، وارتعب ضابط البوليس

من المعاملة القاسية المربعة. نهض ووقف جانب الحلبة كي يوقف المباراة.

أعلن الجرس عن انتهاء الجولة، ثم تهاوى "ساندل" نحو زاويته، وهو يحتجّ على ضابط البوليس أنه ما زال قوياً وثابتاً. وليثبت ذلك، قفز قفزتين خلفاً. ثم تراجع ضابط البوليس.

استلقى "توم كينغ" في زاويته على ظهره يتنفس بصعوبة. كان حزناً لما أصابه من خيبة أمل. إذا توقفت المباراة، فإن الحكم، بحكم الظروف والاضطرار سوف يعلن فوزه، وستكون الجائزة المالية من نصيبه.

بخلاف "ساندل"، لم يلاكم من أجل المجد أو المهنة، لكنه يلاكم من أجل ثلاثين جنيهاً. والآن، سوف يتعافى "ساندل" في فترة الاستراحة. (الشباب سوف يخدمك) ومضت هذه العبارة في عقل "توم كينغ"، ثم تذكر المرة الأولى التي سمعها، في ليلة المباراة التي هزم بها "ستوشريل". إن المتأنق الذي قدم له شراباً وربّت على كتفه، هو الذي استعمل هذه الكلمات، الشباب، سوف يخدمك! كان الأنيق محقاً.

في تلك الليلة في الزمان الماضي، كان هو شاباً. الليلة، جلس الشباب في الزاوية المقابلة. في هذه المباراة —وهو الرجل العجوز— لاكم مدة نصف ساعة. هل يلاكم مثل "ساندل"؟ لن يستطيع الثبات خمسين دقيقة.

لكن النقطة الأساسية، لم يسترد عافيته. هذه العروق المنتصبة، ومحاولة القلب المؤلمة، لا تمكنه من جمع قوته في فترات الاستراحة بين الجولات. ثم، لم تكن لديه قوة كافية أيضاً. رجلاه ثقيلتان وبدأتا بالتشنج. لم يكن لديه الخيار بالسير مسافة ميلين إلى حلبة الملاكمة. وكان قد أعدَّ برغبة شديدة شريحة اللحم في الصباح. شعر بحقد عظيم على الجزارين الذين رفضوا تسليفه. لقد كان ذلك صعباً على رجل عجوز كي يذهب إلى مباراة ملاكمة بدون طعام كافٍ. وقطعة من شريحة اللحم مثل تلك كانت شيئاً قليلاً.

بنسات قليلة في أحسن الأحوال، مع ذلك تعني ثلاثين جنيهاً له.

مع إعلان الجرس بداية الجولة الحادية عشرة، اندفع يصنع عرضاً من النشاط المفعم بالحياة، حيث أنه في الواقع لم يحتفظ بهدوئه.

عرف "كينغ" من أجل ماذا يكون ذلك - كالسابق، المباراة نفسها- لقد ثبت كي ينقذ نفسه، عندئذ، اندفع بحرية بينما كان "ساندل" يهين نفسه. خدع بيسراه، وسدد ضربة خطافة نحو الأعلى، ثم خطى نصف خطوة نحو الورا، سدد لكمة كاملة إلى الوجه، ثم أهار "ساندل" فوق الحشية. بعد ذلك لم يدعه يرتاح أبداً، يسدد ويسدد أكثر، يضرب "ساندل" نحو الحبال، يسدد إليه كل أنواع اللكمات، ينتزع نفسه من امساكاته القوية. ودائماً عندما يهيم

"ساندل" بالسقوط، يمسكه بإحدى اليدين ثم يقذفه بالأخرى نحو
الحبال بحيث لا يستطيع السقوط. احتاج الجمهور وهتف: تابع ذلك،
توم، اقض عليه! اقض عليه! ووقف المشاهدون جانب الحلبة كي
يشاهدوا نهاية الزوبعة.

"توم كينغ" الذي صان قوته لمدة نصف ساعة، أنفقها الآن
بإسراف في مسعى واحد عظيم يعرفه. كانت فرصة واحدة - الآن
أو مطلقاً.

كانت قوته تضعف بسرعة، وكان يأمل ذلك قبل انحسارها
منه، سيرهق خصمه من أجل العدة. وبينما يواصل الضرب والقوة،
يستنتج يهدوء وزن لكماته ونوعها. وأدرك كم كان صعباً أن يصرع
"ساندل"، خصمه بضربة لا يستطيع النهوض بعدها.

قدرته على التحمل والثبات كانت الدرجة القصوى، ثبات
الشباب. كان "ساندل"، من المؤكد، في طريقه إلى النجاح
والشهرة. الطبيعة الصارمة وحدها التي تصنع ملاكمين ناجحين.
"ساندل" يترنح ويتمايل، لكن رجلي "توم" تشنجتا وخذلتة مفلصل
أصابعه. مع ذلك ملأ نفسه عزمًا وتصميماً ليسدد لكمات عنيفة،
وكلّ لكمة أشعرته بألم مبرح بتشويه يديه.

مع ذلك، لا يلاقي الآن معاملة قاسية بشكل عملي، كان
يضعف بسرعة كأنه مثل الأخر. اللكمات ذهبت سدى، ولا أهمية
أكبر لها، وكل لكمة هي نتيجة لجهد قاس. كانت رجلاه كخيطي

رصاص، سحبنا تحته بوضوح، بينما ابتهج مؤيدو "ساندل" لهذه العلامة، وبدأوا يشجعون رجلهم.

باندفاع عنيف ومفاجئ سدّد "كينغ" لكمتين متعاقبتين، اليسرى ارتفعت أكثر مما يجب إلى فم المعدة، وسُدّدت اليمنى نحو الفك. كانت اللكمتان ضعيفتين، ومع ذلك الضعف سقط "ساندل" واستلقى يرتجف. وقف الحكم فوقه يصرخ بأرقام العدّ في أذنه. إذا لم ينهض "ساندل" قبل العدّ الثامن سيخسر المباراة.

وقف الجمهور صامتاً، بينما ارتاح "توم كينغ" على رجليه المشنجتين. أمام عينيه بحر من الوجوه تمايل وتنخفض، بينما تنأهى صوت الحكم إلى أذنيه.. بعد ذلك، شيء لا يُصدّق، لقد استطاع "ساندل" النهوض، الشباب فقط يستطيع ذلك، و"ساندل" نهض. في العدّ الرابع رفع وجهه، ثم التمس طريقه زاحفاً نحو الجبال بعملاء. في العدّ السابع رفع نفسه على ركبتيه، استراح، أدار رأسه بترنح على كتفيه. عندما هتف الحكم؛ تسعة! وقف "ساندل" على رجليه بشكل صحيح، لوى ذراعه الأيسر حول وجهه، ولوى الذراع الأيمن نحو الأمام. لقد اتخذ وضعاً دفاعياً، ثم تمايل أماماً باتجاه "كينغ" أملاً أن يحدث تماسكاً ويكسب وقتاً أكثر.

في لحظة نهوض "ساندل" اقترب منه "كينغ" وسدّد لكمتين لفتتا على الذراعين. في اللحظة التالية، "ساندل" يتماسك معه بيأس، بينما يحاول الحكم جاهداً إبعادهما عن بعضهما. وكان "كينغ" يحاول دفع نفسه على التحرر.

عرف "كينغ" كيف تُستعاد حيوية الشباب وسرعة عودتها للشباب "ساندل"، كل لكمة واحدة عنيفة تمنع عودة الحيوية إذا هو تمكن من ذلك. فقد كان "ساندل" متفوقاً عليه، لقد أحرز نقاطاً أكثر منه، وفوزه مؤكد. حرر نفسه من التماسك، توازن على الخط الشعري بين الهزيمة أو الفوز. لكمة واحدة عنيفة سترميه أرضاً، ثم تكون هي الضربة القاضية. تذكر "كينغ" - في لحظة التفوق - قطعة شريحة اللحم، وأدرك عندئذ كم تكون ضرورية خلف تلك الضربة.

شجع نفسه وسدد لكمة، لكن، ليست سريعة ولا ثقيلة كفاية. تمايل "ساندل"، لكنه لم يسقط، هوى خلفاً نحو الجبال وأمسك بها، تبعه "كينغ"، ثم بألم لاذع مفاجئ، يشبه الانحلال، سدد لكمة أخرى. لكمة يسارية ضعيفة من شدة الإهناك. تلك اللكمة كانت موجهة لضرب الفك وليس أعلى الكتف. لقد أراد أن تكون اللكمة أعلى، لكن العضلات المنهكة خذلته. لقد تخلى جسده عنه. ترنح خلفاً وكاد أن يسقط.

جاهد مرة أخرى. لكن هذه المرة أخفقت لكمته تماماً. ومن الضعف اللاريب فيه، سقط "كينغ" على "ساندل" وتماسك بإحكام، أمسك به كي ينقذ نفسه من السقوط على الأرض.

لم يحاول "كينغ" تحرير نفسه، لقد استنفذ هجومه، كان واهناً. الشباية أصبحت تُفيد. استطاع أن يشعر في هذا التماسك أن "ساندل" يزداد قوة.

عندما أبعدهما الحكم عن بعضهما، شاهد بعينه استعادة الشباب. من لحظة إلى أخرى ازداد "ساندل" قوة.

كانت لكماته في البداية ضعيفة وبدون تأثير، ثم أصبحت رشيقة ودقيقة. شاهدت عينا "توم كينغ" الغائمتان القبضة القفازية تُسدّد إلى فكه، صمم أن يحذرهما ويعترضها بذراعه. شاهد الخطر، صمم على العمل، لكن كانت الذراع ثقيلة أيضاً. بدت مُثقلة بمئة وزنة رصاص، لا ترغب الذراع أن ترتفع، وهو جاهد ليرفعها. عندئذ وصلت القبضة القفازية بإحكام.

"توم كينغ" تمرّس الحركة السريعة الخاطفة، كانت تشبه ومضة الكهرباء. وتواقى طوقه الستار المظلم.

عندما فتح عينيه مرة أخرى وجد نفسه في زاويته وسمع هتاف الجمهور وكأنه هدير الأمواج المتكسرة على شاطئ "بوندي"

كان "سيد سوليفان" يرش الماء البارد برذاذ ينعش وجهه وصدر "توم كينغ"، ويضغط الاسفنجية الرطبة على أسفل الدماغ. نُزِعَ قفازا "توم كينغ"، بينما انحنى "ساندل" فوقه يلوح بيده. يتمتم عبارات نحو الرجل الذي صرعه، ثم أعاد القبضة بقوة جعلت مفاصل أصابعه المعطوبة بالضرب تؤكّد.

خطى نحو مركز الحلبة وأخذ حالة الصخب كي يسمع الجمهور قبول تحدي الشاب وييدي استعداده لزيادة المراهنة إلى مئة

جنيه. نظر "توم كينغ" بلا مبالاة بينما كان مساعده يمسحون ويجففون الماء عن وجهه، وهمسوا له أن يغادر الحلبة.

كانت الحالة غير عادية، طبيعة تزعج، شعر بالجوع، مع أن حالة الإغماء الشديدة، خفقان القلب المتلاحق إلى وخز المعدة، انتشر إلى كامل الجسد. تذكر عندما أجبر "ساندل" على الترنح والتمايل على ميزان الخط الشعري للهزيمة. آه، قطعة شريحة اللحم تلك كانت تستطيع عمل ذلك! كان بحاجة إلى تلك القطعة فقط من أجل الضربة الحاسمة، وهو قد أضاعها. كل ذلك بسبب قطعة شريحة اللحم.

عندما أعانه مساعده بالتزول من الحلبة، اندفع متحرراً منهم، انحنى بين الحبال دون أن يساعده أحد، وقفز متثاقلاً على الأرض. تبعه مساعده وفسحوا له طريقاً بين الكراسي في الممر المزدحم.

لدى مغادرته غرفة الملابس نحو الطريق، وفي مدخل الردهة، سأله شاب: لماذا لم تحصل على الفوز عندما كان باستطاعتك ذلك؟ أجابه "توم كينغ": اذهب إلى الجحيم! ثم اجتاز الردهة نحو رصيف المشاة.

كانت أبواب الخمارة في زاوية الشارع تتأرجح واسعة، وشاهد الأضواء وابتسامات النادل، سمع أصواتاً عديدة تناقش مباراة الملاكمة، ورنين النقود على البار. دعاه شخص ما لتناول الشراب، تردد، ثم رفض وتابع طريقه.

لم يكن لديه قطعة نقدية نحاسية في جيبه، وبدا الميلان إلى منزله
مسافة طويلة.

بلا شك، قد أصبح عجوزاً.

جلس فجأة على مقعد في معبر الميدان، فقد شجاعته وتوترت
أعصابه، عندما فكرّ بزوجته التي تنتظره ساهرةً كي تعرف نتيجة
المباراة. إن ذلك أصعب من أي ضربة قاضية.

أشعرته آلام مفاصل أصابعه المحطمة بالضعف. إذا استطاع
إيجاد عمل ما، لن يكون باستطاعته أن يمسك معولاً أو مقبضاً قبل
أسبوع.

كان الوجيب الغاضب في وخز معدته يُقزز النفس. قهره
بؤسه، وبدت في عينيه رطوبة غير مرغوبة بها.

أخفى وجهه بين ذراعيه عندما بكى. تذكر "ستوشربيل"
وكيف خدمه تلك الليلة في الزمان البعيد.

مسكين "ستوشربيل" العجوز!

استطاع "توم كينغ" أن يفهم الآن لماذا بكى "ييل" في
غرفة الملابس.

أشجار الرمان

تأليف: وليام سارويان
 ترجمة: فتحي الجميل وسلوى النعيمي
 مراجعة: د. عبدالغني البزاز

أشجار الرمان

لا ريب أن عمي مالك بالتأكيد لم يكن أفضل فلاح عاش على الأرض، إلا أن أحلامه كانت لا حدود لها، كان الجمال كل شيء بالنسبة إليه. أراد أن يزرع الجمال ويراه ينمو. وقد غرست له بنفسه أكثر من مائة شجرة رمان ذات سنة، حين كان العالم كله يبدو في مستقبل العمر. وقدت جرارا، وكذلك فعل عمي، كان كل ذلك من أجل الجمال النقي، لا لأجل الزراعة، كان عمي يحب فكرة غرس الأشجار ورؤيتها وهي تنمو، وحسب، لا شيء أكثر من ذلك.

إلا أن الأشجار لم تكن لتنمو، وكان ذلك بسبب التربة، حيث كانت صحراوية جافة. أخذ عمي يشير بيده إلى الأفدنة الستمائة والثمانين من الصحراء التي اشتراها، ويقول بأجمل ما يمكن أن يسمعه المرء باللغة الأرمينية: هنا في هذه الأرض القاحلة ستزهر جنة وسيتدفق الماء البارد من الأرض، وستأتي إلى الوجود كل آيات الجمال.

قلت: نعم سيدي.

كنت الأول والوحيد من بين أفراد العائلة الذي رأى الأرض التي اشتراها، وكان يعرف أنني سأفهم الأمر. وهو ما حدث فعلا. كنت أعرف كما كان يعرف أن ما اشتراه مجرد أرض صحراوية لا قيمة لها. إذ كانت بعيدة جدا عن كل شيء، تقع عند سفح جبال «سيرانيفا» وكانت مملوءة بكل أنواع النباتات الصحراوية التي

تثبت في الأراضي الحارة الجافة وتجتاحها أنواع من الحيوانات الصغيرة . ولم يكن فضاء هذه الأرض يشهد غير الطيور الجارحة الكبيرة . كانت أرض الوحدة والحقيقة، وكانت تمثل الطبيعة بأشد ما فيها من مظاهر الفخر والجفاف والوحدة والجمال .

تزلنا أنا وعمي مالك من السيارة في وسط قطعة الأرض، وبدأنا نتمشى على أديمها القاحل. وقال عمي: هذه الأرض أرضي.

مشى ببطء على التراب الجاف، وإذا بسحلية تقترب من قدميه: فأمسك بكتفي وتوقف عن المشي قائلاً: ما هذا الحيوان؟ قلت: نطلق عليها سحالي.

توقفت السحلية على بعد ثلاث أقدام تقريباً، وأدارت رأسها. نظر عمي إلى الحيوان الصغير قائلاً: هل هي سامة؟ قلت: أتسأل عن ذلك بغية أكلها، أم خشية أن تلدغك؟ قال عمي: لكلا السببين.

قلت: لا أعتقد أنها تصلح للأكل، لقد سبق أن أمسكت بالكثير منها. وهي تستاء عندما يمسك بها أحد، لكنها لا تؤذي أبداً، هل لي أن أمسك بهذه؟

قال عمي: افعل ذلك أرجوك.

وأمسكت السحلية فيما كان عمي يراقبني وقال: حذار، هل أنت واثق أنها غير سامة؟

قلت: لقد سبق أن أمسكت بكثير منها؟

أخذت السحلية إلى عمي فحاول ألا يظهر خوفه، وقال بصوت مرتجف: إنه كائن صغير لطيف أليس كذلك؟

قلت: أتود أن تمسك بها؟

قال عمي: لا. أمسك بها أنت، لم أقرب هكذا قط من مثل هذا الحيوان. أرى أن لها عينين، وأعتقد أنها تستطيع رؤيتنا.

قلت: أعتقد ذلك، إنها تنظر إليك الآن.

نظر عمي في عيني السحلية مباشرة، وفعلت السحلية الشيء نفسه تجاهه، وظلا مدة نصف دقيقة يتبادلان النظرات. ثم أدارت السحلية رأسها ونظرت إلى الأرض.

قال عمي: أعتقد أن ألفا منها تستطيع قتل إنسان.

قلت: إنها لا تتنقل في مجموعات كبيرة أبدا. فلا تكاد ترى أكثر من واحدة منها في كل مرة.

فقال عمي: قد نستطيع الضخمة منها قتل إنسان.

قلت: إنها لا تنمو كثيراً حتى تصبح ضخمة، هذا أضخم ما يمكن أن تكون عليه السحالي.

قال عمي: تبدو أعينها كبيرة بالنسبة إلى حجمها. هل أنت متأكد من أنها لا تمانع أن يمسك بها أحد؟

قلت: أعتقد أنها تتسنى كل ما حدث لها حين تضعها أرضاً.

قال عمي: هل ترى ذلك حقاً؟

قلت: لا أعتقد أنها تتذكر الكثير.

قال: ضع الكائن الصغير على الأرض. دعنا نكن لطفاء مع الحيوانات الصغيرة التي خلقها الله. بما أنها غير سامة ولا تنمو أكبر من هذا الحجم، ولا تتنقل في مجموعات كبيرة العدد ولا تتذكر أشياء كثيرة، دعها تعد إلى الأرض. لنكن مهذبين مع هذه الكائنات الصغيرة التي تعيش معنا على الأرض.

قلت : أمرك سيدي.

وضعت السحلية أرضاً فقال عمي: لطفاً بها. لا تدع مكروها يصيب هذا الحيوان الغريب على أرضي.

انطلقت السحلية بعيداً، فقلت: إن هذه الكائنات الصغيرة تعيش في مثل هذه الأراضي منذ قرون.

قال عمي: منذ قرون؟ هل أنت متأكد من ذلك؟

قلت: لست متأكداً. لكني أظن ذلك، وهي لا تزال هنا على أي حال.

نظر عمي إلى أرضه من حوله، إلى الصبار وغيره من النباتات الصحراوية التي تنمو فيها، وإلى السماء من فوقه. وقال صائحاً: ماذا كانت تأكل طيلة هذا الزمن؟ أجبته: لا أدري.

قال: ماذا تظن أنها تأكل؟

أجبت: الحشرات على ما أظن.

قال عمي صائحاً: الحشرات؟ أي نوع من الحشرات؟

قلت: ربما الصغيرة فيها. لا أعرف أسمائها. لكن يمكنني معرفة ذلك في المدرسة غداً.

استدردنا وعدنا أدراجنا إلى السيارة.

قال عمي: سأجعل من هذا المكان جنة.

قلت: أجل سيدي.

قال عمي: أعرف مشاكلتي، وأعرف كيف أحلها.

قلت: كيف؟

قال عمي: أتقصد السحالي؟

قلت: أقصد المشاكل.

قال عمي: حسن، أول ما سأفعله هو استئجار بعض المكسيكيين للعمل.

قلت: أي عمل؟

قال عمي: لتنظيف الأرض، ثم سأطلب منهم الحفر لاستخراج الماء.

قلت: أين سيحضرون؟

قال عمي: إلى الأسفل مباشرة وبعد الحصول على الماء سأطلب منهم تهيئة الأرض.. ثم سأتولى زراعتها.

قلت: ماذا ستزرع؟ القمح؟

صاح عمي: القمح؟ ماذا سأصنع بالقمح؟ إنك تشتري الخبز بخمسة سنتات. من المتجر، سأغرس أشجار الرمان.

قلت: وكم ثمن الرمان؟

قال عمي: يكاد الرمان يكون غير معروف في هذا البلد.

قلت: أهذا كل ما ستزرع؟

قال عمي: أفكر في زراعة عدة أنواع أخرى من الأشجار.

قلت: أأمل ألا يواجه المكسيكيون أي صعوبات في العثور على

الماء. هل يوجد ماء تحت هذه الأرض؟

قال عمي: طبعاً. أهم ما علينا فعله هو بدء العمل. إنه الرمان.

أدار عمي محرك السيارة، وانطلقنا من الأرض القاحلة إلى الطريق العام. ومضت السيارة ببطء حتى وصلنا إلى الطريق المعبد. ثم بدأنا نسير بسرعة.

قال عمي: انتبه، عندما نصل إلى المنزل أريدك ألا تتحدث

بشيء عن هذه الضيعة إلى العائلة.

قلت له: أمرك سيدي. (وقلت في نفسي: ضيعة؟ أي ضيعة؟)
قال عمي: أريد أن أفاجئهم. أنت تعرف جدتك. سأنفذ ما
أخطط له، وعندما يصبح كل شيء على ما يرام، سأخذ العائلة
كلها إلى الضيعة لأفاجئهم بها.

قلت: نعم سيدي.

قال عمي: لا تتفوه بكلمة لأي أحد.

قلت: نعم سيدي.

ذهب المكسيكيون إلى العمل ونظفوا الأرض. نظفوا قرابة عشرة
أفدنة منها في حوالي شهرين. كانوا سبعة أشخاص لا يفقهون شيئا
في أي شيء. وكان الأمر كله يبدو غريبا جدا. لكنهم لم يقولوا ذلك
قط. كانت أجورهم تدفع لهم وهو الأمر الوحيد الذي يشغلهم.
لقد اختفى الصبار لمدة قصيرة فقط. إذ سرعان ما امتلأت
الأرض التي تم تنظيفها بنباتات الصبار الجديدة النضرة. وقد
استغرب عمي ذلك كثيرا.

ناقش عمي كل شيء مع ريان، الذي كان يبيع معدات المزارع، فطلب
ريان من عمي ألا يفكر بالجيداد، فالعمل في عصرنا هذا يتطلب
استعمال جرار جيد في الزراعة، وإنجاز عمل سنة كاملة في يوم واحد.
فاشتري عمي جرارا. كان جرارا جميلا. وقام أحد عمال ريان بتدريب
دييجو على استخدامه. وفي اليوم التالي، أستطعت أنا وعمي بعد
وصولنا إلى الحقل رؤية الجرار منطلقا، واستطعنا سماع ضجيج
العالي في صمت الصحراء. وكان عمي يراه رائعا. قال: هذا العصر
الجديد هو عصرك. فمنذ عشرة آلاف سنة، كان الأمر يحتاج إلى مائة
رجل لينجزوا في أسبوع ما أنجزه هذا الجرار في يوم واحد فقط.

قلت: عشرة آلاف سنة؟ تقصد أمس.

سألني عمي: هل تستطيع أن تصفر؟

قلت: نعم سيدي. أي نوع من الأغاني تود سماعه؟

قال عمي: أي أغان؟ لا أريد سماع أغان. أريد منك أن تصفر

لذلك المكسيكي الذي يقود الجرار.

قلت: لم؟

قال عمي: لا عليك، صفر وحسب. أريده أن يعرف أننا هنا،

وأنا مسروران بعمله. قد يكون نظف عشرين فدانا.

قلت: نعم سيدي.

وضعت السبابة والوسطى من كلتا يدي في فمي ونفخت بكل ما

أملك من قوة. كان الصوت قويا جدا، لكن بيد أن ديجو لم

يسمعه، لأنه كان بعيدا جدا عني كنا نمشي في اتجاهه على كل

حال، أراد عمي أن أصفر له. قال: صفر مرة ثانية.

فصفرت مرة ثانية. لكن ديجو لم يسمع. قال عمي: صفر

بصوت أعلى.

صفرت صغيرا قويا جدا، بأقصى ما أستطيع ثم أعلى. فوضع

عمي كفيه على أذنيه. أما أنا فقد احمز وجهي. وسمع المكسيكي

الذي يقود الجرار صافرتي هذه المرة. فأبطأ سرعة الجرار.

واستدار به وبدأ يتجه نحونا عبر الحقل.

وصل الجرار والمكسيكي في أقل من دقيقة ونصف الدقيقة.

وبدا المكسيكي مسرورا جدا. فنزل من الجرار قائلاً: هذا رائع!

قال عمي: أنا مسرور أنه يروق لك.

سأل المكسيكي عمي: هل تود قيادته؟

لم يكن عمي متأكدا من ذلك، فنظر إلي قائلا: هيا. اقفز. قد
الجرار لبعض الوقت.

صعد ديجو على الجرار وساعدني على الصعود. جلس على
المقعد ووقفت خلفه لافا ذراعي حوله». وبدأ الجرار يهتز، ثم قفز،
ثم بدأ يتحرك. تحرك بسرعة محدثا ضجة عالية. وقاد المكسيكي
الجرار على شكل دائرة كبيرة ثم أعاد الجرار إلى حيث كان عمي
واقفا. فقفزت خارجا. وقال عمي للمكسيكي: حسن. عد إلى
عملك.

لم يحصل عمي على الماء لعدة أشهر. تم حفر عدة آبار في كل
مكان في الحقل، لكن قطرة ماء واحدة لم تخرج من الأرض، وجاء
أحد خبراء المياه ويدعى روي من تكساس، وقد اصطحب معه
أخوين له أصغر منه. وبدأوا يفحصون الأرض. وأخبروا عمي أنهم
سيستخرجون له الماء. واستغرق الأمر ثلاثة أشهر حتى استخرجوا
الماء، لكن خرج الماء بكمية ضئيلة جدا. وقال الخبير لعمي إن
الأمر سيتحسن بمرور الوقت. وعاد إلى تكساس.

أصبح نصف الأرض مهيتا، وتوفر بعض الماء. فحان وقت الزراعة،
زرعنا أجود أنواع الرمان وأبهظها ثمنا. غرسنا قرابة سبعمئة
شجرة: غرست أنا بنفسني مائة، وغرس عمي قليلا منها. فأصبح
لدينا عشرون فدانا من أشجار الرمان في ذلك المكان الغريب البعيد
والمنعزل. كان غباء يبدو جميلا جدا، وكان عمي مغرما به. المشكلة
الوحيدة هي أن أمواله قد أوشكت على النفاد. وعوض أن يمضي
قدما ويحاول إنشاء جنة من تلك الأفدنة الستمئة والثمانين
بأسرها، قرر أن يخصص كامل وقته وماله لأجل أشجار الرمان.

قال: سيستمر هذا الأمر إلى أن نبدأ في إرسال الرمان إلى السوق، واسترداد أموالنا.

قلت: أجل سيدي.

لم أكن متأكدا مما قال، لكنني حسبت أننا لن نحصل على أي رمان من تلك الشجيرات مدة سنتين أو ثلاث على الأقل. إلا أنني لم أقل شيئا. وصرف عمي العمال المكسيكيين. وبدأنا أنا وهو نقوم بكل الأعمال في الحقل. كان لدينا الجرار والأرض. لذلك، كنا نذهب إلى الحقل بالسيارة من آن إلى آخر، ونقود الجرار هناك نقلب الأرض بين أشجار الرمان. واستمر ذلك العمل ثلاث سنوات.

قال عمي: ستري في يوم من الأيام أجمل جنة في العالم في هذه الصحراء.

لم تعد المياه تخرج من الأرض، وبين فترة وأخرى كانت المياه فجأة تخرج قليلا، وعندها كانت السعادة تغمر عمي، ولكن سرعان ما كان الماء يفيض في اليوم التالي مرة أخرى. كانت أشجار الرمان تناضل من أجل الحياة، لكنها لم تحصل على ما يكفي من الماء حتى تثمر.

وأزهرت الأشجار في عامها الرابع. وكان يوما مشهودا بالنسبة إلى عمي. إذ جن جنونه حين رأى الأشجار مزهرة، لكن الأزهار لم تعط كثيرا من الثمار. كانت جميلة جدا. وكان ذلك كل ما في الأمر. كانت جميلة ووحيدة. وجنى عمي في تلك السنة ثلاث رمانات صغيرة.

أكلت إحداها، وأكل عمي الثانية، واحتفظنا بالثالثة في مكتبه. في السنة التالية بلغت الخامسة عشرة من عمري، وشهدت عدة

أشياء رائعة في حياتي، قرأت كتبا لعدة كتاب متميزين، وأصبحت في طول عمي.

لقد كلفت الضيعة عمي أموالا طائلة، لكنه كان دائما يعتقد أنه سيبدأ قريبا في بيع رمانه في السوق، واسترجاع نقوده، والمضي قدما في خطته لإنشاء جنة في الصحراء.

في ذلك الوقت، لم تكن الأشجار في حالة جيدة. لقد نمت قليلا. لكن بشكل غير ملحوظ. وجف الكثير منها ومات. فقال عمي: لن نغرس المزيد من الأشجار. سنفعل ذلك آجلا في وقت لاحق.

وكان لا يزال يدفع المال ثمننا للأرض.

وفي السنة التالية حصدنا - أنا وعمي - ما يقارب مائتي رمانة، اقتطفناها أنا وهو، كانت كئيبة المنظر إلى حد ما، وضعناها في صناديق جميلة بلغ عددها أحد عشر صندوقا شحنها عمي إلى أحد مراكز التجارة في شيكاغو.

لم يصلنا رد من مركز التجارة طيلة شهر. لذلك أجرى عمي ذات ليلة مكالمة خارجية، فأخبره التاجر - ويدعى دوجوستينو - أن لا أحد يرغب في شراء الرمان.

قال عمي صارخا عبر الهاتف: كم تطلب ثمننا للصندوق الواحد؟ ورد دوجوستينو صارخا: دولارا واحدا. فصرخ عمي: هذا غير كاف. لن أقبل بأقل من خمسة دولارات للصندوق.

قال دوجوستينو: إنهم لا يريدون شراءها بدولار للصندوق الواحد.

صرخ عمي: لماذا؟
فرد ديجوستينو: لا يعرفون ما هي.
فصرخ عمي: أي رجل أعمال أنت؟ إنه رمان. أريد خمسة دولارات للصندوق.
ورد التاجر: لا أستطيع بيعها. لقد أكلت رمانة منها بنفسني ولم أرَ ما يميزها.
صرخ عمي: إنك لمجنون. ليس هناك ثمرة في الدنيا تضاهي الرمان. إن خمسة دولارات للصندوق هي أقل من نصف الثمن الحقيقي لها.
قال دوجوستينو: وماذا علي أن أفعل بها؟ لا أستطيع بيعها. لا أريدها.
قال عمي بصوت منخفض حزين: حسن. أرجعها. اشحنها إلي. وكلفت هذه المكالمة عمي قرابة سبعة عشر دولارا. ووصلت إلينا الصناديق الأحد عشر. هاكلنا - أنا وعمي - معظم الرمان.
في السنة التالية عجز عمي عن مواجهة المزيد من مصاريف الأرض. فأحضر الوثائق للرجل الذي باعه الأرض. وكنت يومئذ في المكتب.
قال عمي: ياسيد جريفيث أنا مضطر إلى إعادة أرضك إليك، لكن لدي طلبا صغيرا، لقد زرعت عشرين فدانا من أشجار الرمان. وكم أتمنى أن تسمح لي بأن أعتني بهذه الأشجار.
قال السيد جريفيث: تعطني بها؟ لم؟ من أجل ماذا؟
حاول عمي شرح الأمر لكنه عجز. كان من الصعب محاولة الشرح لرجل لا يعير الأمر اهتماما حقا. وبذلك خسر عمي الأرض والأشجار أيضا.

وبعد حوالي ثلاث سنوات ذهبنا أنا وعمي بالسيارة إلى تلك الأرض، ومشينا بين أشجار الرمان. كانت جميعها ميتة، واكتظت التربة بالصبار، مرة أخرى. وباستثناء ما بقي في المكان من شجيرات الرمان الميتة، كان هذا المكان كما كان عليه طيلة تلك السنين كلها.

تمشينا برهة ثم عدنا أدراجنا إلى السيارة. ركبنا في السيارة وتوجهنا نحو المدينة. لم نتفوه بكلمة لأنه كانت هناك أمور كثيرة ينبغي أن نتحدث عنها، إلا أننا لم نملك الكلمات للخوض فيها.



الصدى

تأليف: بول بولز

ترجمة وتقديم: محمد هاشم عبدالسلام

مراجعة: د. سليمان خالد الرياح

الصدى

وضعت إلين مرآتها جانبا؛ فاهتزاز الطائرة يرجها بسرعة شديدة لدرجة أنها لم تكن قادرة على أن ترى ما إن كان أنفها بحاجة إلى مسحوق أم لا. كان هناك راكبان آخران فقط وكانا نائمين. كان الوقت ظهرا؛ والشمس الاستوائية تلمع بشدة أسفل الجناحين الفضييين العريضين وتلقي بانعكاساتها الحادة على السقف. ومن النافذة كان منظر الأرض عبارة عن بساط من الخضرة المنتظمة يمر ببطء. كانت تشعر بالنعاس، لكنها كانت مستثارة جدا لكونها ذاهبة إلى البيت الجديد. أخرجت من حقيبة يدها الخطاب المطوي الذي راحت تقرأه للمرة الثانية عن قصد، كما لو كانت تحاول فك الشفرة التي لم تكن مضمنة في الكلمات المتتابعة. كان الخطاب بخط والدتها:

إلين - حبيبتي..

يجب عليّ أن أبدأ هذا «وأنهيه» قبل العشاء. خرجت بروو لتأخذ حمامها، وذلك يعني أنها في تلك الأثناء ستجعل لوز (الطاهية) تقوم بتسخين المياه وسوف تعثر على جوزيه (البستاني) كي يحملها إلى السطح حيث الخزان، وسوف يستغرق هذا الأمر حوالي الساعة. هذا بخلاف الوقت الذي سيستغرقه الانتهاء من حمامها بالفعل وارتداؤها للملابسها، وهكذا ترين أنني سيكون عندي متسع من الوقت لمحادثة لطيفة.

ربما ينبغي عليّ أن أبدأ بقولي إنني وبروو هنا في قمة سعادتنا. إنها اللجنة بال تأكيد مقارنة بواشنطن، بقدر ما يسعك أن تتخيلي

جيدا . بالطبع، بروو، لم تستطع أبدا البقاء في الولايات المتحدة، وقد شعرت أنا، عقب المشكلة التي نشبت مع والدك، بأنني لن أقدر على مواجهة أي شخص لفترة من الوقت. أنت تعرفين، إلى أي حد أنا مولعة بالراحة دائما . وهذا هو المكان المثالي لذلك .

بالطبع شعرت بالذنب قليلا بسبب فراري إلى هنا من دون أن أراك . لكنني أظن أن الرحلة إلى نورثامبتون كانت من الممكن أن تقرر مصيري بشكل نهائي لا أعتقد بأمانة أنه كان بوسعي أن أجعل مصيري معلقا . كانت بروو عصبية بسبب إصدار الولاية لبعض القوانين الجديدة التي كانت ستمنع المواطنين من مغادرة الولايات المتحدة بسبب الأوضاع والظروف المضطربة، وغيرها من الأمور . وقد شعرت أنا أيضا أننا كلما أسرعنا بالمجيء إلى هنا في جامونوكال أمكننا تجهيز البيت القديم لأجلك كي تستطيعي قضاء إجازتك فيه . وأن هذا سيكون جميلا . أنا لن أسهب في سرد الأسباب الخاصة بي التي لم تجعلك على دراية مسبقة، وإلا ستبدو ذات نبرة تبريرية، وأنا أعرف أنني لست مضطرة أبدا للاعتذار لك عن أي شيء . لذلك سأترك هذا وأواصل خطابي . أنا واثقة على أي حال من أن الأشهر الثمانية الفأثة قد مرت سريعة جدا عليك هناك .

كانت عندنا حشود كبيرة من الرجال العاملين في البيت منذ أكتوبر الماضي . تصادف أن كان السيد فوربس موجودا في بررانكيليا^(٢٨) من أجل تنفيذ مشروع أمريكي جديد في الداخل، وقد أردت أن أتأكد من إشرافه على تشييد الدعامات

(٢٨) ميناء في شمال كولومبيا على نهر مكدينا - المترجم .

أو الكوابيل الحاملة للأساس. إن هذا الرجل أمير فعلا. فلم تكن الدعامات على درجة عالية من الجودة. وكان ينهض على قدميه مرة بعد الأخرى، ليصدر أوامر خاصة بأدق التفاصيل. لقد شعرت بالذنب لكوني قد جعلته يعمل بجهد شديد، لكنني أظن بأمانة أنه كان يشعر بالاستمتاع معنا نحن الفتيات. على أي حال فقد كان الأمر سيبدو من الحمافة، عندما يكون واحد من أفضل المهندسين المعماريين في الولايات المتحدة موجودا هنا في كولومبيا وأن يكون صديقا قديما، ولا أستعين به عندما أكون في حاجة إليه. على أي حال، البيت القديم أصبح الآن عبارة عن جناح قديم وجزء جديد، وذلك الجزء الجديد مثير جدا، لدرجة أنني لا أقوى على انتظاري لك كي تريه، فقد تم تشييده فوق الوادي العميق مباشرة. أعتقد أنه ليس من المرجح أن يكون هناك بيت في العالم مثل هذا البيت، إذا جاز لي أن أقول هذا بنفسني. إن التراس يجعلني أفكر في الرسم الكاريكاتيري الذي ظهر في «النيويورك» وكان فيه رجلان ينظران من فوق حافة الأخدود العظيم «الجراند كانيون»، ويقول أحدهما للآخر: «هل سبقت لك الرغبة في البصق لمسافة ميل، يا بيل؟ إنها فرصتك جرب حظك الآن».

لقد تمتعنا بالاستقرار جميعا. كان الطقس رائعا، فقط لو أمكن للوز أن تتعلم أكثر قليلا ما يحب الناس ذوو البشرة البيضاء أن يأكلوه وكيفية القيام على خدمتهم، فسيكون الوضع ممتازا فعلا. أعرف أنك سوف تستمتعين بوجودك هنا مع بروو، فلديكن أشياء كثيرة مشتركة، حتى لو زعمت أنك «لا تتذكرين كثيرا حبك لبروو».

كان هذا في واشنطن وكنت أنت، لنقولها بلطف واعتدال، في مرحلة سنية صعبة. الآن، كبالغة «لأنك بالفعل بالغة»، ستكونين أكثر قدرة على الاستيعاب، أنا واثقة من هذا. إنها تحب الكتب، خصوصا المتعلقة بالفلسفة وعلم النفس وموضوعات أخرى لا تحاول أمك المسكينة مجاراتها فيها قط. لقد قامت بتجهيز فرن واستوديو في الاستراحة القديمة التي ربما لا تتذكرينها. إنها تعمل هناك في صناعة وتشكيل الخزف الخاص بها طوال اليوم، وكل ما يسعني القيام به هو الإشراف على ترتيب البيت والتأكد من أن المشتريات قد تم إحضارها. لدينا نظام تقوم لوزز بمقتضاه بأخذ القائمة إلى أخيها بعد كل ظهيرة، ليقوم بإحضار المشتريات من البلدة في اليوم التالي. هذا فقط لجعله مشغولا بشكل تام بصعود الجبل وهبوطه بحصانه، فالفرس عجوز وكسول لدرجة أنه لم يقم طوال حياته بشيء سوى التهادي جيئة وذهابا بين البيت والوادي، ولذلك فإنه لا يعرف معنى كلمة سرعة. ومع ذلك، لماذا العجلة، هنا في هذه المنطقة الهادئة.

أعتقد أنك ستجدين كل شيء وفق هواك، أنا واثقة من أنك لن تستغرق أكثر من خمس دقائق كي تكتشفي أن بروو محبة ووديدة، وليست «غريبة الأطوار» على الإطلاق، مثلما كتبت أنت في رسالتك. أرسل لي برقية بمجرد أن تتسلمي هذه، ودعيني أعرف في أي أسبوع بالضبط سوف تنتهين من دروسك. سوف نقابلك أنا وبروو في بررانكيليا. لدي قائمة بأشياء أريدك أن تأتي لي بها من نيويورك. سوف أبرق لك بها بمجرد وصول ردك. انتهى حمام بروو، يجب أن أنهى الخطاب.

مع حبي، أمك وضعت إلين الخطاب جانبا، ثم ابتسمت قليلا، وأخذت تشاهد أجنحة الطائرة وهي تغوص في داخل وخارج السحب الكثيفة الممتدة في مسار الطائرة. كانت تحدث هزة خفيفة في كل مرة كانت تصطدم فيها بإحدى السحب، وقد أصبح العالم في الخارج شديد البياض. انتابتها رغبة في أن تقفز إلى الخارج وتسير فوق هذه الصلابة الناعمة، مثل شخصية في كرتون متحرك.

ذكرها خطاب أمها بفترة مبكرة جدا في حياتها، الشتاء الذي تم اصطحابها فيه لزيارة جامونوكال. كل ما كان بإمكانها تذكره فيما يتعلق بالأحداث أن أحد السكان المحليين قد وضعها فوق ظهر البغل، وأنها شعرت برعب مؤلم من أن يسير الحيوان في الاتجاه الخطأ، بعيدا عن البيت باتجاه حافة الوادي. لم تكن عندها أي ذكرى متعلقة بالوادي. ربما لم تره أبدا، على الرغم من أنه كان على بعد خطوات قليلة من البيت، عبر طريق قصير من أعواد الخيزران. مع ذلك، فقد كانت لديها ذكرى واضحة فيما يتعلق بوجوده، وكذلك الإحساس الكبير بالفراغ فيما وراء وأسفل ذلك الجانب من البيت. وتذكرت الصوت البعيد العميق المكتوم للمياه التي تسقط من ارتفاع كبير، وخلفية صوت المياه الثابتة الناعمة التي كانت تنزل في كل لحظة على مدار اليوم - خلال المناقشات التي كانت تتم أثناء تناول الطعام، وأثناء فترات اللعب في الحديقة، وفي الليل خلال الأحلام. تعجبت إن كان من الممكن فعلا أن تتذكر كل هذا منذ الفترة التي كان عمرها فيها لا يتجاوز الخامسة.

في بنما كان هناك تغيير لا بد منه في رحلة الطائرة. كان الشفق أخضر صافيا، قامت بنزهة قصيرة فيما وراء نطاق المطار. كانت بيغاوات الباراكيت تتعارك فوق الأفرع العلوية للأشجار، ثم هدأت فجأة. استدارت هي فجأة عائدة ومضت إلى الداخل، حيث جلست تقرأ حتى حان وقت المغادرة.

لم يكن هناك أحد في استقبالها عندما وصلت إلى بررانكيليا في الساعات المبكرة من الصباح. قررت الذهاب إلى البلدة وحجز غرفة في الفندق. مضت إلى الخارج بحقيبتى سفرها وبحث هنا وهناك عن سيارة أجرة. كانت سيارات الأجرة قد ذهبت جميعها إلى البلدة تحمل ركابا، لكن رجلا كان يجلس فوق أحد صناديق تعبئة البضائع أخبرها بأن سيارات الأجرة سوف تعود عما قريب. ثم قال فجأة: «هل تبحثين عن السيدتين؟»

«ماذا؟ لا، ما الذي تعنيه؟»

«هل تريدين السيدتين اللتين كانتا تبحثان عنك هذه الليلة؟»
«أين هما؟» قالت إلين وقد تفهمت.

«ذهبتا لتناول الشراب»، أجاب بابتسامة عريضة.

«أين؟ في بررانكيليا؟»

«لا. هنا». أشار إلى نهاية طريق مظلم.

«أين؟ هل بإمكانى الذهاب سيرا؟»

«بالتأكيد. سأذهب معك».

«لا شكرا. ابق هنا. شكرا لك. يمكننى المضي في سلام. أين

هذا المكان؟ وكم يبعد؟»

«أوكي».

«ما هذا ؟ هل هو بار ؟ ما اسمه؟»

«إنهما تستمعان إلى الموسيقى في بار لا جلوريا هذا هو اسمه.
بإمكانك الذهاب، لكي تستمعي إلى الموسيقى. إنك تبحثين عن
سيدتين. إنهما تتناولان الشراب».

ذهبت إلى الداخل مرة ثانية وتركت الحقيبتين مع موظف
شركة الطيران الذي أصرّ على اصطحابها. هرولا في صمت
على امتداد الطريق الخلفي. كانت أسوار النباتات على كلا
الجانبين تؤوي حشرات كانت تصدر ضجة عرضية عنيفة ومملة
مثل ترس خشبي يدور. بعد فترة قصيرة كانت هناك أصوات
طبول وأبواق تعزف موسيقى رقص الكوبية.

«لا جلوريا»، قال مرافقها بابتهاج.

كان لا جلوريا عبارة عن كوخ طيني يلمع في تألق وله
شرفة مسقوفة بالقش تطل على الطريق. كان صندوق تشغيل
الأسطوانات (الجووك بوكس)^(٢٩) قد تم وضعه في الخارج، حيث
انتشرت قلة من الزنوج المخمورين.

«هل هما هناك؟» قالت بصوت عال، لكن لنفسها.

«لا جلوريا»، أجاب، وهو يشير.

عندما أصبحت قبالة واجهة المبنى، لمحت امرأة مرتدية الجينز
الأزرق، وعلى الرغم من أنها تعرفت عليها من فورها حيث كانت
بروو، فإن عقلها فشل لسبب ما في تقبل هذه الحقيقة، واستمرت
تسأل نفسها، «هل هما هنا أم لا؟»

(٢٩) خزانة تختار منها أسطوانة أغان لتذيعها لك مقابل عملة معدنية توضع فيها - المترجم.

استدارت لتذهب نحو الشرفة. كانت الاسطوانة قد توقفت عن الدوران. كان هناك مصرف ممتد في الظلام بين الطريق والمدخل، وإذ بها تسقط فيه على الفور ثم سمعت نفسها وهي تصرخ. كان الرجل من خلفها قد صاح بالإسبانية قائلاً: «انتهي!»، إلا أنها تمددت هناك بالفعل وهي تلهث في غضب وألم، وتصيح قائلة «آه! كاحلي!» كان هناك تعجب واندهاش داخل البار. ثم صاح صوت أمها قائلة: «آه، إنها إلين». وبعد ذلك بدأ صندوق الجووك في الصرير والصخب مرة ثانية. ظلّ الزوج ساكنين تماماً. ساعدها شخص ما كي تنهض. كانت تجلس الآن داخل البار في وهج أضواء الكهرباء الحاد.

«أنا بخير»، قالت، عندما استراحت في الكرسي.
«لكن يا حبيبتي، أين كنت؟ كنا ننتظرك منذ الثامنة، وكنا على وشك أن نفقد الأمل. إن بروو المسكينة مريضة».
«هراء، سوف أتعافى»، قالت بروو، وهي لا تزال جالسة إلى البار. «بمجرد أن تتاح لي فرصة لالتقاط أنفاسي، هذا كل شيء».
«لكن هل أنت على ما يرام يا حبيبتي؟ إن وصولك إلى هنا بهذه الطريقة شيء سخييف وغير معقول»، ونظرت إلى كاحل إلين وسألتها:

«هل هناك مشكلة في الكاحل؟»

جاءت بروو من عند البار لتصافحها قائلة:

«ظهور درامي، يا فتاة».

كانت إلين جالسة هناك وهي تبتسم. كانت لها عادات عقلية غريبة. أقنعت نفسها عندما كانت طفلة أن ذهنها كان يتميز

بالشفافية والوضوح، لدرجة أن الأفكار الموجودة بداخله كان بإمكان الآخرين إدراكها على الفور. وبناء على ذلك، عندما كانت تجد نفسها في أوضاع غير مريحة، بدلا من المجازفة بخطر الارتياح في إضمارها لأفكار ازدرائية أو متمردة، قامت بتطوير نظام جديد للامتناع عن التفكير كلية لفترة ما. أثناء طفولتها امتد هذا الخوف من عدم قدرتها على امتلاك أي خصوصية ذهنية ليشمل جميع الأشخاص؛ وبصفة خاصة الأشخاص المتواجدين في نطاق قد يسمح لهم بالتدخل في رأيها. كانت تشعر الآن بالانفتاح على هؤلاء الموجودين فقط. لذلك عندما وجدت نفسها وجها لوجه مع بروو، كانت مدركة لعدم وجود عاطفة بعينها باستثناء الإحساس الغامض المألوف بالملل. لم تكن هناك فكرة في ذهنها، وكان وجهها خير معبر عن هذه الحقيقة الجلية.

كان الصباح في كل يوم يكرر نفسه بشكل يصعب تصديقه، التجدد الأزلي للبرودة المنسكبة إلى أسفل من الغابة فوق البيت، كان يجثم على مقربة من الأرض بفعل الضباب الخفيف. في الداخل والخارج، كان الجو رطبا وله رائحة تشبه أريج محال الزهور، ولكن الرطوبة كانت تتقشع كل يوم عندما تشتعل الشمس اللافتة عبر دثار الضباب الرقيق الذي يغلف ظهر الجبل. وكان العيش في هذا المكان أشبه بالعيش إلى اليمين أو اليسار، بسبب الأرض المترامية إلى أعلى على أحد الجانبين وإلى أسفل على الجانب الآخر بنفس الزاوية. كان الوادي العميق وحده الذي يعطي شعورا بالتعامدية أو الارتفاع وكانت الحوائط الصخرية

التي انتصبت في الجانب المقابل لهذا المدرج الواسع، كانت تذكر بأن اتجاه مركز الأرض إلى أسفل وليس مائلا بشكل ما إلى أحد الأجناب. كان البخار يتصاعد من بحيرة غير المرئية في عمق القاع بشكل مستمر، وكان صوت الماء الغامض القادم من بعيد مثل صوت خرير أو شخير النوم نفسه.

لبضعة أيام كانت إلين تستلقي في السرير وهي تستمع إلى صوت الماء والطيور، وإلى الأصوات السابحة في هذه البيئة الغربية والقريبة. كانت بروو وأمها تتناولان الإفطار في السرير معها، وتظهران بصفة عامة قبل وجبة منتصف النهار مباشرة لعدة دقائق، وتتحدثان معها حتى تقوم كونتشا بإحضار صينية الغداء الخاصة بالعجزة والمقعدين من أجل إلين. في فترات بعد الظهر كانت إلين تقلب صفحات المجلات القديمة وتقرأ حوادث القتل. كانت الدنيا تمطر عادة حوالي الساعة الثالثة، وكان الصوت في البداية يأتي مثل تدفق متزايد لشلال عظيم على مسافة بعيدة، ثم يزداد عنف انهمار المطر حتى يصبح الصوت جليا وأكثر وضوحا وقريبا - وكان الهدير الصاخب حول البيت بأكمله يغطي على أي صوت آخر. كانت السحب الداكنة تخيم على المكان وتطوق الجبل بإحكام، إلى درجة أنه كان يبدو أن الليل سوف يحل في غضون وقت قصير. فتدق إلين جرسا صغيرا لتأتي كونتشا وتشعل المصباح الزيتي الذي فوق المنضدة المجاورة للسرير. وتظل مستلقية وهي تنظر إلى أوراق أشجار الموز المبتلة خارج النافذة، ولأن جلبة الأمطار كانت في كل مكان، فقد كانت تشعر بالراحة تماما عوضا عن

لحظة الخطر. لم تكن هناك ضرورة لاختبار الشعور، وليس ثمة حاجة للتفكير، فقط تراجع المطر، والظهور المبهج للشمس هي أبخرة الشفق، والعشاء المبكر هو ما كانت تتشوق إليه. كل مساء بعد العشاء كانت أمها تأتي للثرثرة لفترة طويلة، عادة بخصوص الخدم. في الليالي الثلاث الأولى كانت بروو تحضر هي الأخرى، وهي تحمل شراب الهاي بول^(٢٠)، لكن بعد ذلك كانت الأم تأتي وحدها.

طلبت إلين أن يتم نقلها إلى الجزء القديم من البيت، بدلا من وضعها في هذه الحجرة غير المريحة إلى حد بعيد في الجناح الجديد، حيث كانت نافذة حجرتها الأصلية تطل على الحديقة، والتي كانت عبارة عن مربع صغير من النجيل يحتوي على أشجار موز صغيرة في كل جانب منه. في الطرف البعيد كانت هناك نافورة؛ وخلفها كانت التضاريس غير المنتظمة لجانب الجبل بشجيراته المقطوعة حديثا والبقايا التي تم حرقها، وفي الخلف كانت الغابة العالية لا تزال هناك في البعيد وكان طرفها قد تم قطعه في شرائح مستقيمة بطول المنحدرات منذ سنوات بعيدة لإقامة المزرعة. على الأقل كانت تشعر هنا في حجرتها بأن الأرض موجودة تحتها في مكان ما.

عندما توقف كاحلها عن إيلاها، بدأت تنزل إلى الطابق الأسفل لتناول الغداء، الذي كان يقدم في التراس فوق مائدة مزودة بمظلة بحر مغروزة في منتصفها. كانت بروو تأتي متأخرة بشكل دائم من الاستديو الخاص بها، مرتدية الجينز الأزرق، الذي كان مغطى

(٢٠) شراب يخلط بالصودا أو الماء ويقدم مع الثلج في كأس طويلة - المترجم.

بالطين، وبلطخات قذرة على وجهها . ولأن إلين لم يكن بمقدورها أن تطاوع نفسها على التفكير فيما كانت تشعر به فعلا نحوها، وهو أن بروو كانت غير مهذبة، قبيحة ومتطفلة بعض الشيء، فقد ظلت غير واعية بشكل انفعالي بوجود بروو، بمعنى أنها كانت مهذبة لكن برمة وكان جودها نادرا أثناء محادثات الطعام. ثم إن إلين، أيضا، كانت تشعر بعدم الراحة تحديدا نحو التراس. فقد كان الفراغ قريبا جدا وبدا الدرايزين منخفضا جدا بمعنى الكلمة فيما يتعلق بالأمان. وقد فضلت أن يكون تناولها للوجبات بشكل مختصر قدر الإمكان، من دون إضاعة وقت لا لزوم له في ارتشاف القهوة بعد الطعام، لكن لم يخطر لها على الإطلاق أن تبوح بأسبابها. أما في ما يتعلق ببروو فقد كانت مكرهة على التصرف بأقصى ما أمكنها في حدود اللياقة والذوق. من حسن الحظ أن أتاح لها كاحلها عذرا مقنعا لتعود إلى غرفتها.

اكتشفت بعد وقت قصير فناء صغير مجاورا للمطبخ حيث كانت هناك أصص كبيرة تحوي على أزهار ذات رائحة جميلة نمت فوق تعريشة كانت موضوعة في أحد الأركان. كان الجو ممتلئا بطنين المئات من النحل الذي كان ملتصقا بكثافة إلى البتلات ويتحرك في الهواء ببطء هنا وهناك. بعد الغداء كانت تسحب كرسيها قابلا للطي إلى ظل التعريشة وتقرأ إلى أن يبدأ المطر في التساقط. كان مكانا خانقا لا هواء فيه، لكن طنين النحل كان يغطي على صوت الشلال. في عصر أحد الأيام تبعثها بروو إلى هناك ووقفت واضعة يديها في جيبيها الخلفيين وهي تنتظر إليها .

«كيف يمكنك تحمل هذا الحر؟» قالت إلين.
«آه، إنني أحب هذا المكان».
«حقاً؟» توقفت. ثم سألت «أخبريني، هل تحبين المكان هنا
فعلاً، أم أنك تعتقدين أنه ممل جداً؟»
«لَمْ، أعتقد أنه رائع بمعنى الكلمة».
«همهم. إنه كذلك».
«ألا تحبينه؟»
تثاءبت بروو. «آه، أنني مولعة به. لكنني مشغولة طوال الوقت.
أي مكان يمكنني العمل فيه، أبقى فيه، كما تعرفين».
«نعم، أظن ذلك»، قالت إلين. ثم أضافت. «هل تخططين
للبقاء لفترة طويلة؟»
«عجبالاً ما الذي تعنيه؟» قالت بروو، وهي تميل إلى الوراء
نحو المنزل، ولا تزال يداها خلفها. «إنني أعيش هنا».
ضحكت إلين باقتضاب. بالنسبة إلى أي شخص باستثناء
بروو كان سيبدو الأمر عبارة عن ضحكة مرح صاخبة، لكن بروو
ضيقت عينيها ومدت شفرتها إلى الأمام قليلاً متسائلة:
«ما الذي يبعث على الاستغراب الشديد؟»
«أعتقد أنك غريبة، ومُحيرة جداً. إنك تنزعجين وتضطربين
بسهولة شديدة. ربما تعملين أيضاً بجذ زائد هناك في الخارج
في حظيرتك الصغيرة».
كانت بروو تنتظر إليها باندهاش.
«سبحان الله»، قالت أخيراً، «إن نسبة ذكائك مرتفعة جداً،
يا فتاة».

«أشكرك»، قالت إلين بجدية شديدة. «على أي حال، أعتقد أن الأمر على ما يرام لدرجة أنك سعيدة هنا، وأنا أتمنى لك الاستمرار في سعادتك».

«هذا هو ما جعلني أحضر لأخبرك به».

«كل شيء على ما يرام إذن».

«أنا لا أستطيع فهمك»، قالت بروو بتجهم.

«أنا لا أعرف ماذا تقصدين»، أجابت إلين، وهي تلمس بأصابعها صفحات كتابها بضيق صدر. «إنها أكثر محادثة تافهة سبق لي دخولها».

«أنا لا أعتقد ذلك»، قالت بروو، وهي تدخل المطبخ. وفي المساء نفسه، عندما حضرت أمها لتثرثر معها بعد العشاء كالعادة، بدت حزينة قليلا.

«لا يبدو أنك تتسجمين بشكل جيد جدا مع بروو»، قالت بتأنيب، بينما كانت تجلس في نهاية السرير. «لماذا، إننا منسجمتان بشكل جيد تماما. آه. أنت تتحدثين عما حدث بعد الظهر، ربما».

«نعم، أنا أقصد ذلك، ربما. فعلا، يا إلين، إنك ببساطة لا تستطيعين أن تكوني وقحة مع امرأة في مثل سنها. إنها ضيفتي، وأنت كذلك، ويجب أن تكونا لطيفتين إحدكما مع الأخرى. إنها لطيفة دائما وأنا أشعر بأنك لست كذلك».

أمسكت إلين أنفاسها وقالت، «أنا ضيفتك...»

«دعوتك إلى هنا لقضاء عطلتك وأنا أريد أن تحدث أشياء لطيفة، ولا أرى سببا ولو بسيطا لعدم سير الأمور بهذه الطريقة».

صرخت إلين فجأة، «إنها معتوهة».
نهضت أمها وغادرت الحجرة بسرعة.
في الأيام الهادئة التي تلت، لم تأت أي منهما على ذكر
الحادثة. وظلت إلين تواصل التردد على الساحة الصغيرة بعد
تناولها وجبة الغداء.

أقبل صباح أكثر جمالا من كل صباح سبقه، عندما تعلق ضباب
الصباح المبكر داخل حجرة نومها، وأتت الصيحات المختلطة
للطيور الصاخبة بمنتهى الوضوح من الغابة غير المقطوعة.
قامت إلين بارتداء ملابسها ومضت بسرعة إلى الخارج. كان
هناك ألق أبيض في الجو لم تر مثله من قبل. مشيت على طول
طريق أفضى إلى أكواخ الأهالي. كانت هناك حياة تمور وتدور
في داخل تلك الأكواخ؛ أطفال رضع يبكون وببغاوات وطيور
مفردة تضحك وتغني في أقفاصها. انحنى الطريق نحو امتداد
من الأشجار الواطئة التي زرعت لحماية شجيرات البن التي
مازالت في الغالب تتفتح هنا في الليل. كان الهواء موشى بتيارات
البرودة، وروائح الخضراوات تتساب مثل أشرطة زينة غير مرئية
تتدلى من الأفرع الخضراء، كلما تقدمت هي في سيرها.

عنكبوت ضخم فاتح اللون كان يتمشى ببطء ليعبر الطريق عند
قدميها. وقفت ساكنة وراقبته حتى اختفى في الأوراق الخضراء
في أحد الجوانب. وضعت يدها على قلبها لتشعر كيف كان يخفق
بشكل متكرر بطريقة لافتة. ثم استمعت إلى صوته في رأسها
للحظة، ولم ترد كسر الإيقاع باستئناف السير مرة ثانية. ثم بدأت
تواصل سيرها إلى الأمام في سرعة، وهي تتبع الطريق الصاعد

نحو الجزء الأكثر إشراقا ولمعانا في السماء. وعندما أصبحت فجأة فوق ربوة تعلو المزرعة مباشرة، كان بإمكانها بصعوبة أن تميز مجموعة من الأسطح خلال الضباب. ولكن في هذا المكان كان صوت الشلال أكثر قوة، فافترضت أنها قريبة من الوادي، على الرغم من أنه ليست ثمة علامة دالة عليه. كان الطريق ينعطف في هذا المكان ثم يواصل امتداده بطول أرض وعرة مفتوحة متجهة إلى أعلى. راحت إلين تصعد في هذا الطريق بثبات مطرد، وهي تتنفس ببطء وبعمق، ربما لنصف ساعة، وكانت مندهشة لأنها وجدت أن الغابة قد تم اجتثاثها تماما من كل الجوانب في هذا الجزء من حرف الجبل. اعتقدت لبعض الوقت أن السماء كانت آخذة في أن تصبح أكثر صفاء، وأن الشمس البازغة كانت على وشك اختراقها، لكن لأن الطريق صار منبسطا وأصبحت قادرة على أن ترى من مسافة بعيدة أمامها مباشرة، فقد رأت أن الضباب هنا كان أكثر كثافة منه في الأسفل.

في بقع أو أماكن بعينها كانت هناك انحدارات شديدة على كل جانب من جانبي الطريق. وكان من المستحيل عليها أن تتبين مقدار العمق الذي تنحدر إليه الأرض. كان هناك في الجوار القليل من النباتات والصخور، وفي الورا قليلا ارتفعت أوراق عالية جدا لأشجار سرخس، وخلف هذا كان الفراغ الأبيض، كان هذا مثل اعتلاء قمة حائط أو جدار عال في الهواء. ثم انعطف الطريق انعطافة واسعة وامتد إلى أعلى بشكل شديد الحدة أو شبه عمودي وكان بإمكانها أن ترى أشجارا بمفردها فوقها على أحد الجانبين.

فجأة وجدت نفسها في مواجهة صف من الأكواخ. كانت أقل جودة في الصنع وأصغر من تلك التي سبق أن رأتها في المزرعة. كان الضباب ممثلاً برائحة دخان الخشب، وكانت هناك رائحة خنازير. وقفت إلين ساكنة. كان هناك رجل يغني، وطفلان صغيران عاريان خرجا من باب أحد الأكواخ، نظرا إليها للحظة في رعب، ثم جريا بسرعة عائدين إلى الداخل. تابعت سيرها إلى الأمام. كان الغناء آتيا من وراء الكوخ الأخير. عندما صارت في مواجهة الكوخ، رأت أنه محاط بسور متشابك وممتين من السلك الشائك، وقد ترك معبر بعرض حوالي ست أقدام حول جوانب الكوخ. ظهر شاب من الجانب البعيد في تلك المساحة المسيجة. كان قميصه وبنطاله باليين، وله نفس البشرة السمراء المعهودة في أماكن عديدة. كان يغني وهو يتقدم مقتربا في اتجاهها، وظل مستمرا في الغناء، وهو ينظر مباشرة إلى وجهها بعيون تلمع بالتساؤلات. ابتسمت قائلة له بلغته، «يوم جميل». صدرت عنه إيماءة ترحيب، بطريقة مسرحية مفاجئة ومثيرة إلى حد ما. توقفت إلين عن التقدم وثبتت في مكانها، ونظرت بنوع من التردد إلى الورا نحو الأكواخ الأخرى. أشار الشاب مرحبا بها مرة ثانية ثم مضى إلى داخل الكوخ، ثم ظهر بعد لحظة، ووقف يحدق إليها بافتتان، ثم قام بعمل إشارات دعوة أخرى. وقفت إلين في هدوء تام، لا تحيد بعينيها عن وجهه. مشى الشاب ببطء نحو السور وأمسك بالسلك بكلتا قبضتيه، كانت عيناها تتسعان، بينما كان يضغط السلك الشائك في راحتيه، ثم أحنى جذعه عبر السور، ومد رأسه نحوها، وعيناها مثبتتان في عينيها بتركيز

شديد وقوة غير معقولة. لعدة ثوان أخذ يرقب كل منهما الآخر؛ ثم تقدمت تخطو نحوه قليلا، وهي تحديق في وجهه وجبينها مقطب. في هذه اللحظة صرخ وأفرغ فمه من الماء الذي كان مخزونا فيه، موجها هذا الماء بقوة إلى وجه إلين، فطال بعض منه جزءا من وجنتها، والباقي كان من نصيب الجزء العلوي من ثوبها. انفرجت أصابعه عن السلك، ثم اعتدل قائما، وتراجع في بطاء نحو الكوخ، وهو يراقب وجهها عن قرب طوال الوقت.

ظلت جامدة لبرهة ويدها على خدها. ثم انحنت إلى أسفل، والتقطت حجرا كبيرا من الطريق قذفته بكل قوتها نحو الباب. جاءت صرخة مخيفة من الداخل؛ لم تكن الصرخة كصوت أي صراخ سمعته من قبل. الأمر محير، نعم، هكذا اعتقدت عندما بدأت تركض عائدة إلى ما وراء الأكواخ الأخرى، كانت صرخة وإهانة ساذجة لطفل صغير، لكنها كانت أيضا بكاء رجل ناضج. لم يظهر أحد بينما كانت تعبر الأكواخ. عادت بعد فترة قصيرة إلى صمت الجانب الجبلي الفارغ، لكنها واصلت عدوها، وهي مندهشة لاكتشافها أنها كانت تبكي أيضا. جلست فوق صخرة وهدأت من روعها بمشاهدة بعض النمل الذي يأتي على إحدى الشجيرات حيث كان يقوم بتقطيع أوراقها إلى مربعات صغيرة ثم تحمل كل نملة منها مريعا في فمها إلى البعيد. كانت السماء قد صارت مشرقة في ذلك الوقت؛ وكانت الشمس عما قليل ستصبح كذلك في المنتصف منها. استأنفت سيرها مرة ثانية، وعندما عادت إلى البقعة العالية فوق المزرعة، صار الضباب سحبا كبيرة راحت تتهادى في

زحفها بعيدا لتهبط نحو سفح الجبل نحو الشعاب والوهاد .
كانت مرتعبة لرؤيتها إلى أي مدى كانت على مسافة قريبة
حين وقفت عند الحافة المعتمة القبيحة للممر الجبلي الضيق .
وكيف بدا البيت كأنه منزل مخبول هناك في الأسفل، وقد
بدا مائلا إلى الخارج كما لو كان يحاول أن يرى القاع . بعيدا
إلى أسفل البيت كانت الأبخرة تتصاعد من البحيرة . تابعت
بعينها الجوانب شديدة الانحدار للجرف الصخري المقابل
الذي كان يعلو مكان وقوفها . وقد جعلها هذا تشعر بأنها قد
أصابها المرض، وسارت وهي تترنح في اضطراب عائدة إلى
البيت وقد وضعت يدها على جبهتها، لا تعير انتباها إلى
الأهالي الذين كانوا يحيونها من على عتبات منازلهم .
بينما كانت تجري مجتازة الحديقة ناداها صوت ما . التفتت
إلى الخلف فرأت بروو تغسل يديها في حوض النافورة . فوقفت
ساكنة .

«لقد نهضت مبكرا . لا بد أنك تشعرين بتحسن» ، قالت بروو ،
مجففة يدها في شعرها . «أمك أصابتها نوبة . ادخلي لتريها» .
حدقت إلين في بروو للحظة قبل أن تقول ، «كنت سأدخل .
ليس عليك أن تخبريني» .
«آه ، أظن أنني أخبرتك» .

«لست مضطرة لأن تخبريني بأي شيء . أعتقد أنني أستطيع
تدبير أمري بشكل جيد جدا بدون مساعدتك» .
«ليست المساعدة بالضبط هي ما أرغب في أن أعطيك
إياه» ، قالت بروو ، وهي تضع يدها في جيبها . «ستكون ضربة

سريعة في الأسنان أكثر تفضيلاً. هل تعتقدين أنني أحب أن أرى أمك وهي قلقة عليك؟ في البداية كنت مريضة في السرير، ثم تختفين تماماً في الغابة الملعونة. هل تعتقدين أنني أرغب في مواصلة التحدث معها عنك، وطمأننتها كل عشر دقائق؟ بحق الجحيم ما الذي تعتقدينه في ما يتعلق بالحياة، حفلة خروج طويل المدة؟»

حدقت إلين بشكل أكثر قوة، وبكراهية شديدة. «أعتقد ذلك»، قالتها ببطء، مضيئة «إن الحياة سيئة جداً. خصوصاً في هذا المكان. وأعتقد أنه يجب عليك أن تتظري مرة في المرأة ثم تقفزين بعد ذلك من الشرفة. وأنا أعتقد أن عقل امرأة كبيرة في السن مثلك يجب أن يتم فحصه».

«فهمت»، قالتها بروو بصوت تغير من الألم والكآبة. أشعلت سيجارة ومشيت إلى الاستديو الخاص بها. مضت إلين مسرعة إلى داخل البيت وصعدت إلى حجرتها.

بعد أقل من ساعة، طرقت أمها باب حجرتها. عندما كانت تدخل الحجرة، لم تستطع إلين أن ترى أنها كانت تبكي قبل لحظة فقط.

«عزيزتي إلين، لدي شيء ينبغي أن أقوله لك»، بدأت كلامها على هيئة اعتذار مضيئة، «وسيتحطم قلبي تماماً من جراء الإفشاء به. لكن أنا مضطرة إلى قوله».

توقفت، كما لو كانت تنتظر أن تواتيها الشجاعة.

«أمي، ما الأمر؟»

«أظن أنك تعرفين».

«بشأن بروو، على ما أعتقد. أليس كذلك؟»
«إنه بشأنها بالتأكيد. أنا لا أعرف كيف يمكنني أن أصلح الأمر على الإطلاق. لقد أخبرتني هي بما قلته أنت لها، ويجب أن أقول أنني وجدته صعب التصديق. كيف استطعت التفوه به؟»
«هل تقصدين الآن مباشرة في الحديقة؟»
«أنا لا أعرف أين قلته، لكنني أعرف أن ذلك لا يمكن أن يستمر. لذلك أنا مجبرة على أن أخبرك بهذا ... يجب عليك الرحيل. أنا لا أقدر على الاستثارة وتعكير الصفو بهذه الطريقة، ويمكنني أن أقول بالضبط ما الذي سيكون عليه الأمر إذا بقيت هنا».

«أنا لست مندهشة لهذا على الإطلاق»، قالت إلين، متظاهرة بالهدوء. «متى تريدني أن أغادر؟»
«هذا مؤلم للغاية ...»

«آه، كفى! لا بأس. لقد أخذت الإجازة ويمكنني الحصول على الكثير من العمل لأقوم به قبل أن يبدأ الفصل الدراسي. اليوم؟ أم في الغد؟»

«أعتقد أول الأسبوع. سوف أذهب معك إلى بررانكيليا».
«هل تعتقدين أنني سأكون سخيفة إذا تناولت وجباتي كلها هنا فوق؟»

«أعتقد أنها فكرة مثالية، يا عزيزتي، ويمكننا أن نحظى معا بزيارات قصيرة، أنت وأنا، بين الوجبات».
«الآن، برغم أن التوتر يجب أن يكون قد انتهى، فإنه لم ينته من ناحية أو أخرى. أثناء الليالي الأربع التي سبقت رحيلها، كانت

تنتاب إلين أحلام مروعة بشكل لا نهائي. كانت تستيقظ في الظلام أكثر مما ينبغي وهي تتعذب بشدة حتى لو حركت يدها. لم يكن هذا بسبب الخوف؛ فلم يكن باستطاعتها تذكر الأحلام. بدا الأمر إلى حد ما كما لو كان جزءا من أعماق أعماق وجودها قد تم اكتشافه حديثا وأنه يعاني من حدة الألم. كانت تتنفس بسرعة وهي مستلقية في تيبس تام لفترات طويلة، تستمع إلى الصوت اللانهائي للشلال، الذي يقطعه على فترات كبيرة بعض الضوضاء الليلية الخافتة في مكان قريب بين الأشجار. وفي النهاية، عندما كانت تستجمع الطاقة الكافية للتحرك، كانت تبدل من وضعها في السرير، وتتنهد بعمق شديد، ثم تسترخي بقدر يكفي لأن تسقط مجددا في عالم النوم المنذر بسوء العاقبة.

عندما جاء اليوم الأخير، كان هناك صوت نقر خفيف على بابها بعد الفجر مباشرة. نهضت وفتحت الباب. كانت أمها هناك، تبتسم بشكل رقيق قائلة:

«هل تسمحين لي بالدخول؟»

«آه. صباح الخير. بالطبع. إن الوقت مبكر، أليس كذلك؟»

مشت أمها نحو النافذة ووقفت تنظر إلى الأسفل في الحديقة المشبعة بالضباب.

«أنا لست على ما يرام اليوم»، قالت. «أخشى ألا أقدر على اصطحابك إلى بررانكيليا. أنا لست متهيئة لركوب حصاني اليوم. إنها طويلة جدا، رحلة الساعات الثلاثة تلك إلى جومونوكال، ثم بعد ذلك القطار ثم المركب طوال الليل. ليس عليك سوى أن تسامحينني. فليس بإمكانني تحمل كل تلك الوسائل في الانتقال.

إنها ليست بالأمر الكبير، أليس كذلك؟» واصلت، وهي ترفع
بصرها أخيرا نحو إلين. «ستودع إحدانا الأخرى هنا».

«لكن، يا أمي، كيف أذهب بمفردي؟»

«آه، سيذهب معك جوزيه طوال الطريق إلى بررانكيليا وسيعود
مساء الأربعاء. هل كنت تظنين أنني سأدعك ترحلين بمفردك؟»
بدأت تضحك بشدة، ثم توقفت فجأة وبدت غارقة في التفكير
والتأمل.

«إنني على العكس أكره أن أكون هنا لليلتين من دون جوزيه،
لكنني لا أرى أي طريقة أخرى لإرسالك إلى هناك بحلول الغد.
بإمكانك الذهاب على متن أحد المراكب المتوجهة إلى بنما. دائما
ما يكون هناك مقعد في مكان ما. والآن، هيا إلى الإفطار، هيا
إلى الإفطار...»

ربتت على خد إلين، وهي تسرع إلى الخارج ثم نزلت إلى
الطابق الأسفل حيث المطبخ. كان غناء طيور الصباح يصل
من الغابة؛ وكان الضباب جاثما بكثافة فوق قمم الأشجار
هناك في الأعلى. نقلت إلين تحديقها إلى نهاية الحديقة.
فجأة شعرت بعدم قدرتها على الرحيل؛ أي كما لو أنها كانت
تترك حبا خلفها. جلست على السرير. «لكن ما هو؟» سألت
نفسها بشدة. «ليس تجاه أمي. ولا نحو البيت. ولا الغابة».
ارتدت ملابسها بطريقة آلية وحزمت أدوات التزيين المتبقية
في الحقيبة الخاصة بالرحلات القصيرة. وعلى الرغم من
ذلك، ظل ذلك الإحساس موجودا هناك، يصعب تجاهله وهو
مغلف في تمامه.

نزلت إلى الطابق السفلي، كانت هناك مجموعة من الأصوات وقعقة الآنية الصيني في المطبخ. كانت كونتشا ولووز تعدان صينية إفطارها. توقفت وراحت تشاهدهما حتى أتما كل شيء. «لماذا لا تبقي معنا فترة أطول، يا سنيورا ^(٣١)؟»، سألتها كونتشا بحزن.

لم تجبها، لكنها أخذت منها الصينية وحملتها عبر المنزل إلى الخارج حيث الشرفة، ووضعتها فوق المائدة. كان كل شيء في الشرفة مبلا بندي ورطوبة الوادي. قلبت وسادة الكرسي إلى الجهة الأخرى ثم جلست لتأكل. كان صوت الشلال قد بدد شهيتها، لكنها فكرت، «هذه هي المرة الأخيرة». قالت وهي مشحونة بالعواطف، لكن هذه العواطف كانت متباينة ومشوشة جدا بالنسبة إليها بحيث لم تستطع تحديد أي منها كعاطفة واضحة بارزة لا لبس فيها. بينما كانت جالسة هناك تأكل بعزم وتصميم، أدركت فجأة أن شخصا ما كان يراقبها. تحركت فرأت بروو واقفة في المدخل. كانت ترتدي منامتها وروب الحمام، وتمسك في يدها بكوب ماء، وبدت ناعسة جدا. «كيف حالك؟» قالت، وهي ترتشف الماء.

نهضت إلين.

«إننا جميعا مستيقظون مبكرا هذا الصباح»، واصلت بروو بابتهاج.

«إنني راحلة، ينبغي علي الذهاب. بعد إذنك، فالوقت قد أزف»، غمغمت إلين وهي تتلفت ملقية بنظرة مختلسة في ما حولها.

(٣١) جاء السؤال بالإسبانية - المترجم.

«آه، على رسلك، يا فتاة. إنك لم تودعي أمك حتى الآن. وجوزيه لا يزال يسرج الخيول. يجب عليك أن تأخذي معك الكثير من الحقائب.»

«بعد إذنك»، قالت إلين محاولة المرور متجاوزة إياها عبر المدخل.

«جيد، لتتصافح»، قالت بروو، وهي تمد يدها إلى إلين.

«أغربي عن وجهي!» صرخت إلين، وهي تكافح من أجل الاستمرار في الابتعاد عن بروو، «لا تلمسيني!» لكن بروو نجحت في أن تقبض على إحدى ذراعيها المهتاجين بشدة، وأمسكت به بسرعة.

«يكفي هذا الدخول المسرحي. لسنا مضطرتين للقيام بنفس نوع الخروج. قولي لي مع السلامة مثل الآدميين.» ثم قامت بلي الذراع قليلا، رغما عنها أمالت إلين نفسها ضد الباب وصارت بشرتها شديدة الشحوب.

«هل تشعرين بالضعف؟» قالت بروو، ثم تركت ذراعها يتدلى، ورفعت كوب المياه المسككة به، وقذفت ببعض الماء في وجه إلين بأصابعها.

كان رد الفعل فوريا. قفزت إلين عليها بشراسة مفاجئة، وهي ترفسها وتدفعها وتضربها ضربا عنيفا في أن واحد. سقطت الكوب على الأرض الحجرية؛ بعد أن كانت بروو ممسكة به في حذر. بشكل آلي، وفي سرعة شديدة، وخفة كخفة الطائر ضربت الفتاة وجه ورأس المرأة في عنف وقسوة، بينما كانت تدفعها ببطء بعيدا عن المدخل وإلى الجانب الآخر من الشرفة.

صدرت من بين شففتي بروو عدة مرات كلمة «يا إلهي». في البداية بذلت القليل جدا لتدافع عن نفسها. فقد بدت نصف نائمة عندما تحركت نحو الحافة الخارجية تحت الهجوم الضاري. ثم ألقت بنفسها فجأة على الأرض. واصلت إلين رفسها بينما كانت تتلوى هناك على الأرض، وهي تحاول حماية وجهها.

«لا أحدا لا أحدا لا أحدا لا أحدا يستطيع أن يفعل بي هذا»، كانت تصرخ بطريقة إيقاعية بينما كانت ترفس بروو.

ارتفعت طبقة وحجم صوتها؛ توقفت للحظة، وعندئذ، رفعت رأسها، ثم أطلقت أعظم صيحة في حياتها. ارتدت الصيحة على الفور من الجدار الصخري الأسود في الطرف الآخر من الوادي بشكل مباشر خلال ضوضاء المياه. أنهى الصوت الخاص بها الحادثة بالنسبة إليها، وبدأت تعود إلى الطرف الآخر من الشرفة.

كانت كونتشا وأمها واقفتين في المدخل وقد تملكهما الرعب؛ بدتا كما لو أنهما قد جاءتا لمشاهدة عاصفة فظيعة تمر عبر الريف. تتحتا جانبا بينما كانت إلين تتجاوزهما.

خارج الإسطبل، كان جوزيه يصفر، وقد انتهى من إسراج الخيول، وكانت الحقائق قد حزمت بالفعل فوق البغل.

وهي لا تزال في منتصف حلمها العميق، أدارت إلين رأسها نحو البيت بينما ركبا ماضيين. فرأت لوهلة قصيرة، بين أوراق الأشجار، شكلين كانا لأمها وبروو وهما واقفتان جنبا إلى جنب في الشرفة، وحائط الوادي الجبلي العميق يلوح في الخلف. ثم استدارت الخيول وبدأت تهبط الطريق.



زمن الصداقة

تأليف: بول بولنز

ترجمة وتقديم: محمد هاشم عبدالسلام

مراجعة: د. سليمان خالد الرياح

زمن الصداقة

كانت الصعاب تزداد تفاقماً في كل سنة، منذ أن انتهت الحرب. منذ البداية، وعلى الرغم من أنها كانت تعلم بوجود الحرب، فقد قررت الأنسة ويندلينج ألا تغيرها انتباها. في البداية لم تكن هناك سوى إشاعات هامسة عن الاعتقالات السرية، وكان الناس يقولون: «عدة آلاف من المسلمين قد أُرسِلوا إلى السجن في فرنسا»، وبعد فترة قصيرة بدأ نفر من أصدقائها يختفون، مثل الشاب بشير وعمر بن الأخضر، وكذلك مدير مكتب البريد في تميمون، الذي اختفى ذات صباح، أو هذا ما أُخبرت به، لأنها عندما عادت في الشتاء التالي لم يكونوا موجودين ولم يكن من أثر لهم هناك، ولم ترهم بعد ذلك منذ تلك الفترة. كانت وجوه الناس يعترها التجهم الصامت عندما كانت تحاول التحدث عنهم في الأمر. بعدما بدأت أعمال العنف بشكل جدي، وعلى الرغم من أن الوطنيين قد سببوا إخراج القطارات عن قضبانها وعطلوا خدمة النقل عبر الصحراء في مناسبات عدة، إلا أنه لا يزال بالإمكان الوصول إلى ما وراء المنطقة المضطربة إلى حيث الواحة التي كانت تذهب إليها الأنسة ويندلينج. وهناك في الجنوب، حيث الواحة، كان القتال بعيداً جداً، وفي الصحراء الخالية التي كانت الساعات الطويلة تتقضي فيها ببطء جعلها تبدو أكثر امتداداً، تقريبا كما لو كانت هذه الساعات تتقضي في البحر. إذا افترض في أي وقت من الأوقات أن أصيب رجال هذه الواحة بفيروس السخط عن طريق الشمال البعيد - وكان

هذا غير متصور من وجهة نظرها - عندئذ وعلى الرغم من حقيقة أنها كانت على يقين من أن الحرب لن تعود عليهم بشيء سوى التعاسة، فإنها لم يكن بوسعها إلا أن تتمنى لهم النصر. فقد كانت أراضيتهم وحدهم هي التي يقاتلون من أجلها، وحياتهم وحدهم هي التي سيخسرونها للفوز بالقتال. لكن الناس لم يكونوا يتكلمون عن الحرب حتى ذلك الوقت، فالحياة كانت شاقة بالنسبة إليهم لكنها كانت لاتزال هادئة. وكان كل فرد منهم يعلم بأنها مستمرة في الشمال، وكانوا سعداء جميعا لأن الحرب كانت بعيدة جدا عنهم.

في أثناء فصول الصيف، حيث كانت الأنسة ويندلينج تعمل بالتدريس في مدرسة فرلوفر في برن، كانت تسري عن تلاميذها بحكايات عن الحياة التي كان يحياها الناس في الصحراء الكبرى في أفريقيا. كانت تقول لهم إنه في القرية التي كانت تعيش فيها كان كل شيء يُصنع بواسطة أهالي القرية أنفسهم مما كانت توفره لهم الصحراء، وإنهم كانوا يعيشون في عالم من الأشياء التي كانت تصنع مما كانت تنضجه الأرض وتجد به، من ألياف العشب، وأشجار النخيل وجلود الحيوانات. لم تكن هناك أي أشياء مصنوعة من المعدن. على الرغم من أنها لم تعترف بهذا للأطفال، فلم يعد هذا حقيقيا تماما، نظرا إلى أن النساء في الوقت الحالي قد اعتدن استخدام صفائح الزيت الفارغة لحمل الماء، بدلا من قرب جلد الماعز، وذلك منذ سنوات قليلة مضت. وكانت قد حاولت شي صديقاتها من نسوة القرية عن هذا الابتكار، وقالت لهن إن العلب الصفيح يمكن أن تسمم الماء، وكن يوافقنها

الرأى، ويستمررن في استخدامها . «كن كسولات»، قررت، «فقد كانت علب الزيت أكثر سهولة للحمل بالنسبة إليهن».

عندما كانت الشمس تميل نحو الغروب والهواء المحمل برائحة دخان الخشب يرتفع بلسعته الباردة من الواحة في الأسفل إلى مستوى الفندق، كان بإمكانها أن تستشقه داخل غرفتها فتتوقف عن أي شيء كانت تفعله . ثم ترتدي «بُرنسها» وتصعد السلالم إلى السطح . كانت تفرش البطانية هناك حيث تقوم بأخذ حمام شمس كل صباح، وكانت تستلقي فوقها في مواجهة سماء الجهة الغربية، وهي تشعر بأن حرارة الشمس الغاربة لاتزال تحت جلدھا بقوة . وكانت إحدى متع اليوم، أن تشاهد الضوء وهو يتغير في الواحة تحتها، عندما كان الغسق والدخان المنبعث من حرائق المساء يخفيان الوادي تدريجيا . دائما ما كانت تأتي لحظة يكون فيها كل ما تبقى من هذا عبارة عن شكل غير واضح، هندسي ودقيق، الطينية التي كانت تتألف منها القرية، وكتل بعينها من أشجار النخيل العالية التي كانت تقف منتصبة خارج مداخل القرية . ثم لا تعود البيوت نفسها موجودة بعد، وفي النهاية تختفي حتى قمم أشجار النخيل نفسها، وفي حالة وجود القمر كان كل ما يصبح بالإمكان رؤيته هو السماء المحتضرة، وأطراف الصخور الحادة في صحراء الحمادة، والفرغ المتسع والممتد للضباب الذي كان ينتشر فوق الوادي، لكنه لا يصل بعيدا إلى أعلى المنحدرات الصخرية حيث يوجد الفندق .

ربما مرتين كل شتاء كانت مجموعة من نساء القرية تقوم بدعوة الأنسة ويندلينج للذهاب معهن إلى أعلى حيث الأرض

الفسيحة الممتلئة بالكثبان الرملية بحثا عن الحطب. كان الوهج قاسيا بشكل دائم في هذا المكان. ولم يكن هناك من أثر حتى لغصن شجرة أو ساق نبات في أي مكان في الرمال، وعلى الرغم من ذلك فقد كان في مقدور النساء اللائي يتجولن على امتداد القمم عاريات الأقدام أن يحددن أماكن الجذور المطمورة أسفل السطح، وعندئذ كن يتوقفن، ويكشفن الرمال عنها ويستخرجنها. كن يقلن لها، «إن الريح تترك إشارة»، إلا أنها لم تكن متأكدة قط من قدرتها على التعرف على الإشارة، ولم يكن باستطاعتها أن تفهم كيف يمكن أن تكون هناك علاقة بين الجذور المطمورة في الرمال والريح التي في الهواء من فوقها. «ما افتقدناه نحن، لايزالون هم محتفظين به»، كانت تفكر.

كانت رؤيتها الأولى للصحراء وأهلها بمنزلة خبرة ذات شكل مغاير، وبالطبع، بدا لها الآن أنها قبل مجيئها إلى هنا لم تكن على اتصال بالحياة. كانت تؤمن بشكل كامل وثابت أن كل يوم كانت تقضيه هنا يزيد من إجمالي محصلة قدرتها على المقاومة. كانت تحسد المواطنين على الصحة السليمة وقوة البنيان، في الوقت الذي كانت فيه صحتها قوية بالقدر نفسه، لكن لأنها كانت ذات بشرة بيضاء وعلى قدر من التعليم، فقد كانت على اقتناع بالسليقة أن جسمها كان أقل صحة.

كان عمل الفندق كله يقوم به شخص ذو وجه هادئ حزين يدعى بوفيلجا. كان موجودا هناك عندما وصلت لأول مرة منذ عدة سنوات؛ وفي نظر الأنسة ويندلينج أصبح وجوده في الفندق كأنه جزء لا يتجزأ من المكان مثله مثل المنحدرات

المتدة عبر الوادي. كانت تجلس دائما إلى طاولتها قرب المدفأة وتتناول الغداء ثم تلعب الورق مع نفسها، حتى تتوقف كتل الخشب المشتعلة عن بعث الحرارة في المكان. كان هناك جنديان فرنسيان صغيران جدا من الحصن المقابل يأكلان في حجرة الطعام بالفندق- ويحتسيان كمية كبيرة من الشراب، وكان من المزعج لها أن ترى وجهيهما وهما يتحولان ببطء إلى اللون الأحمر بينما كانا يجلسان هناك. في البداية كان الجنديان يخفضان قبعتيهما لها بينما يهمان بالخروج، وكانا يحاولان إمساك ضحكهما لأطول فترة ممكنة حتى ينتهيا من أن يقولا لها «صباح الخير يا سيدتي»^(*)، لكنهما لم يعودا يفعلان هذا في الوقت الراهن. كانت تتنابها السعادة عندما يغادران، وتستمتع باللمحة قبل أن تخبو النار، بينما كانت تتأجج بفعل هبات الريح التي كانت تهب إلى أسفل من المدخنة العريضة.

كانت الريح تهب بشكل دائم تقريبا في فترات مبكرة من بعد الظهر، وتعصف بشكل دائم وقوي حتى أنها كانت تزمجر خلال الآلاف من أفرع أشجار النخيل في الواحة في الأسفل، وتصفر أسفل أبواب الفندق كلها، وتغطي على أصوات القرية الأكثر بعدا. في هذه الساعة كانت تلعب بالأوراق لعبة السوليتير، أو تجلس فقط لمشاهدة القطع الخشبية المحترقة وهي تتفتت إلى قطع أصفر أمام عينيها. وكانت تذهب بعد ذلك إلى الشرفة، ذلك المكان المرتفع والمضيء مثل ظهر سفينة عملاقة تبهر عبر الصحراء بعد الظهر، ثم تسرع عائدة إلى

(*) وردت بالفرنسية [الترجم].

غرفتها للحظة لتحضر سترتها وعصاها، وتشرع في السير. في بعض الأحيان كانت تذهب باتجاه الجنوب بمحاذاة وادي النهر، على امتداد سفوح المنحدرات الصخرية الهادئة ثم خلال الأودية الملتوية، إلى قرية مهجورة سُيدت في مكان شديد الحرارة في منعطف في الوادي الضيق. كانت الجدران الصخرية العمودية خلف القرية تعمل على إعادة الحرارة ثانية، لدرجة أن الهواء كان يلهب حلقتها عندما كانت تتنفسه. أو كانت تمضي إلى مكان أكثر بعدا، حيث كانت توجد الكهوف المحفورة على جدرانها رموز أشكال حيوانية.

كانت تعود من الطريق الذي يؤدي إلى القرية، والذي يتوغل عبر الظلال الخضراء في الجزء الكثيف من غابة أشجار النخيل، وكانت تدرك بشكل منتظم وجود المجموعة نفسها من الأولاد الذين كانوا يجلسون في منعطف الطريق، في مكان تمضي فيه قبل أن تصعد مباشرة إلى أعلى التل حيث توجد المحلات والقرية. كانوا يجلسون متربعين فوق الرمل تحت الأفرع الهشة لشجرة طرفاء(*) عملاقة، وهم يتكلمون في هدوء. وعندما كانت تصل إليهم كانت تلقي عليهم التحية، ودائما ما كانوا يردون، ثم يظلون صامتين حتى تمر متجاوزة إياهم، وعندئذ يستأنفون حديثهم. كان يوسعها إلى حد ما أن تتبين أنه لم يكن في حديثهم أي ذكر لها، ومع ذلك فقد بدا لها في بعض الأحيان في هذه السنة أنه بمجرد مرورها بهم، كانت درجات أصواتهم تتغير بخبث وكأنه كان يحدث تبدل في نبرات أصواتهم من مقام إلى

(*) الطرفاء: شجرة قريبة من الأثل [المترجم].

مقام، ومن نبرة إلى أخرى. هل كان موقفهم هذا يقترب من السخرية والاستهزاء؟ لم تكن تعرف، لكن نظرا إلى أن هذه كانت المرة الأولى على مدار السنوات التي قضتها في الصحراء حيث لم تطرح الفكرة نفسها عليها من قبل، فقد أبعدتها بعزم عن ذهنها. «يتطلب الجيل الجديد تكتيكا جديدا إذا أراد المرء إقامة علاقة معهم»، فكرت. «ويجب عليّ أن أجد هذا التكتيك». ومع ذلك فقد كانت آسفة لأنه لم تكن ثمة طريق أخرى للوصول إلى القرية إلا عبر هذه الطريق الرئيسية التي كانوا يتجمعون فيها دائما، لدرجة أن التوتر الخفيف الذي كان ينجم عن اضطرابها إلى العبور من أمامهم كان يفسد عليها متعة السير.

أدركت في أحد الأيام بصدمة خجل خفي أنها لم تكن تعرف حتى ما كانت عليه وجوه الأولاد. فقد كانت تراهم فقط كمجموعات من بعد؛ وعندما كانت تقترب منهم بدرجة كافية لتحيتهم، كان رأسها منكسا دائما، تنتظر إلى الطريق تحت قدميها. حقيقة أنها كانت خائفة من أن تنتظر إليهم كانت غير مبررة، وفي الوقت الراهن، عندما كانت تقترب منهم، كانت تحرق بعناية في عيني كل منهم الواحد تلو الآخر. تومئ بالتحية في ارتباك، ثم تواصل طريقها. نعم، كانت وجوههم وقحة، فكرت - لا تشبه وجوه الكبار على الإطلاق. وسمات الوقار التي ترتسم على وجوههم عندما يجفلون، كانت نوعا منحطا من التصنع والافتعال. لكن الشيء المهم بالنسبة إليها أنها قد فازت؛ ولم تعد مشغولة بعد الآن بمرورها اليومي بهم. وببطء تمكنت تدريجيا من التعرف على كل ولد منهم.

لاحظت أن هناك واحدا أصغر من الآخرين، وكان يجلس دائما بعيدا عنهم بعض الشيء، وكان هذا الولد الخجول هو الذي يقف في مطلع كل صباح يتحدث مع بوفيلجا في مطبخ الفندق عندما كانت تدخل. تظاهرت في ذلك اليوم بأنها لم تلاحظه في الفندق، وقالت لبوفيلجا: «أنا ذاهبة لأعمل على الآلة الكاتبة مدة ساعة تقريبا في غرفتي، وبعدئذ يمكنك أن تحضر لترتيب الغرفة». ثم استدارت لتخرج. وبينما كانت تجتاز المدخل ألقت بنظرة سريعة على وجه الولد. كان ينظر إليها، ولم يبعد وجهه عندما تلاقت أعينهما. «كيف حالك؟» قالت. بعد ذلك ربما بنصف ساعة، عندما كانت تكتب خطابها الثاني على الآلة الكاتبة، رفعت رأسها، كان الولد يقف هناك في الشرفة ينظر إليها عبر الباب المفتوح. كان يحدق فيها، ولأن الريح قوية؛ فقد كان بوسعها أن ترى قمم أشجار النخيل وهي تتمايل وتحنى خلف رأسه.

«إذا كان يرغب في مراقبتي، فلندعه يراقبني»، قالت لنفسها، وقررت ألا تغيره انتباهها. بعد فترة ذهب بعيدا. بينما كان بوفيلجا يقدم لها الغداء، سألته عن الولد. «مثل رجل عجوز»، قال بوفيلجا، «يبلغ من العمر اثنتي عشرة سنة، لكنه شديد الجدية. مثل بعض الرجال، الرجال الكبار»، وابتسم، ثم هز كتفيه وأضاف: «إنها الطريقة التي أراد الله أن يكون عليها».

«بالطبع»، قالت. وتذكرت الوجه التعييس واليقظ للولد. «الكلب الصغير الذي ينبذه الجميع»، فكرت، «لكنه لا يستسلم».

في الأيام التالية، كان كثيرا ما يأتي إلى الشرفة ويقف يراقبها بينما كانت تطبع على الآلة الكاتبة. في بعض الأحيان كانت تلوح له، أو تقول: «صباح الخير». ومن دون أن يجيبها يتراجع خطوة إلى الخلف، بحيث يصبح بعيدا عن مرمى بصرها. ثم يستمر في الوقوف حيث كان. أزعجها سلوكه، وفي أحد الأيام عندما فعل هذا، نهضت بسرعة وذهبت إلى الباب. «ماذا في الأمر؟»، سألته، محاولة الابتسام بينما كانت تتكلم.

«أنا لم أفعل شيئا»، قال، وكانت بعينيه نظرة عتاب.

«أعرف»، أجابت. «لماذا لا تأتي إلى الداخل؟»

نظر الولد بسرعة في الشرفة من حوله كأنه كان يطلب المساعدة، ثم خفض رأسه وخطا إلى داخل الباب. ووقف ينتظر هناك، ورأسه إلى أسفل، وقد بدا بائسا. أحضرت من بين أمتعتها حقيبة بها حلوى جافة، وأعطته واحدة منها. ثم وجهت إليه بضعة أسئلة، ووجدت أن لغته الفرنسية كانت أفضل بكثير مما كانت تتوقع. «هل يجيد الأولاد الآخرون الفرنسية مثلك؟» سألته.

«كلا، يا سيدتي»، قال، وهو يهز رأسه ببطء. كان والدي يعمل

جنديا، والجنود يتحدثون الفرنسية بشكل جيد».

حاولت أن تبعد وجهها وتخفي تعبير الاستكثار الذي كانت تشعر به، لأنها كانت تزدرى كل ما هو عسكري. «أفهم هذا»، قالت ببعض الحدة، ثم عادت إلى طاولتها وعمدت إلى تغيير الأوراق. «يجب علي أن أعمل الآن»، أخبرته بذلك، وأضافت على الفور في صوت أكثر دفئا، «لكن بإمكانك العودة في الغد،

إذا أحببت». ظل منتظرا لحظة، وهو ينظر إليها بلهفة شديدة. ثم ابتسم ببطء، ووضع غلاف قطعة الحلوى، وقد طواه على هيئة مربع صغير، فوق طرف طاولتها. «وداعا، يا سيدتي»، قال، وخرج من الباب. في الصمت المتسع كانت تسمع بصعوبة الصوت المكتوم لقدميه العاريتين فوق أرضية الشرفة. «في هذا الجو البارد»، فكرت. «يا للطفل المسكين! لو أنني سأقدم على شراء شيء له فسيكون صندلا».

كل يوم بعد ذلك، عندما كانت الشمس ترتفع بقدر كاف لإضفاء وجود على هواء الصباح الساكن، كان الشاب يأتي خلسة عبر الشرفة إلى بابها، ويظل واقفا عدة دقائق، ثم يقول بعد ذلك في صوت يفتقر إلى الثقة لدرجة أنه كان الصوت الأكثر انخفاضاً وهدوءاً وسط الصمت العظيم في الخارج: «صباح الخير، يا سيدتي»، وتدعوه هي إلى الدخول، ويتصافحان في ارتباك، وبعد ذلك يرفع الولد ظهر أصابعه إلى شفتيه، دائما بالبطء نفسه الذي في التعاملات الرسمية. في بعض الأحيان كانت تحاول أن تفهم تعبيره جيدا بينما كان يقوم بهذا الطقس، لتري إن كان بإمكانها أن تكتشف عن طريق المصادفة إن كانت فيه ظلال من السخرية؛ لكنها كانت ترى تعبيرات تدل على ولاء شديد الإقناع لدرجة أنه أفزعها، وكانت تنظر بعيدا على الفور. كانت تحتفظ دائما بقليل من الخبز أو بعض البسكويت في درج دولاب الملابس، وعندما كانت تُخرج الطعام ويتناوله الولد، كانت تسأله عن أخبار العائلات في حي القرية الذي يسكن فيه. وكانت لأجل ترسيخ الانضباط تعرض عليه قطعة واحدة فقط

من الحلوى ما بين يوم وآخر. كان الولد يجلس على الأرض عند المدخل، فوق بطانية قديمة بالية من وبر الجمل، وكان يراقبها بشكل مستمر، ولا يدير رأسه أبدا بعيدا عنها.

كانت ترغب في معرفة اسمه، لكنها كانت تعرف إلى أي مدى كان سكان المنطقة كتومين في ما يتعلق بالأسماء، وأنهم نادرا ما كانوا يبوحدون بأسمائهم الحقيقية للأغراب، وكانت تحترم هذه الخصوصية لأنها كانت تعرف أن لها جذورها في دينهم الخاص الذي يرجع إلى ما قبل التاريخ. لذا أحجمت عن سؤاله، وهي واثقة من أنه سيأتي الوقت الذي سيثق فيه بها بدرجة كافية لأن يقوله لها بمحض إرادته. وجاءت تلك اللحظة من دون توقع ذات نهار، بالضبط عندما كان يروي لها عدة أساطير متعلقة بأحد ملوك المسلمين العظام منذ عهد بعيد، والذي كان اسمه سليمان. فجأة توقف الشاب، وأجبر نفسه على أن يحدق فيها بثبات من دون أن يطرف له جفن، ثم قال: «أنا أيضا اسمي سليمان، نفس اسم الملك».

حاولت تعليمه القراءة، لكنه لم يبد قادرا على التعلم. في أحيان كثيرة، عندما كانت تشعر بأنه على وشك أن يربط بين جزأين غير مكتملين من الأفكار والعبارات، الأمر الذي كان سيمكنه في النهاية من استيعاب القاعدة الأساسية، كانت تبدو على وجهه نظرة استسلام وسلبية، ويقطع عن عمد محاولة التدفق من منابعها، ويظل جالسا، وهو يحدق فيها فقط، ويهز رأسه من جانب إلى آخر، ليبين لها أن هذا كان غير ذي جدوى. وفي تلك اللحظات كان من الصعب ألا ينفد صبرها معه.

قررت في السنة التالية ألا تستمر في الدروس، وأن تستخدم سليمان بدلا من ذلك كمرشد، أو حمال، أو مرافق لها، أو أي دور كانت ترى على الفور أنه أكثر ملاءمة لطبيعته منه كتلميذ. لم يكن يمانع مهما كانت المسافة التي سيمشيانها أو كم التجهيزات التي كان عليه أن يحملها، بل على العكس، كانت الرحلة الطويلة بالنسبة إليه تمثل ما يفوق الحدث، وأي شيء كانت تجعله يحمله كان يحمله بمظهر الرجل الذي تم تكريمه ومنحه جائزة. ربما كان هذا الفصل من أسعد الفصول التي قضتها الأنسة ويندلينج في الصحراء، شتاء الصداقة حيث قاما فيه معا برحلات لا حصر لها إلى أسفل الوادي. بينما كانت الأسابيع تمر كانت الرحلات تتزايد فرصتها، وكانت ساعة الرحيل تتقدم أكثر فأكثر إلى أن جاءت فعلا عقب انتهائها من تناول وجبة الإفطار مباشرة. على مدار اليوم، وبينما كانا مجهدين من السير في الشمس الساطعة المباشرة وفي الظل العارض لأطراف أشجار النخيل المتكسرة التي تتأخم مجرى النهر، ظلت تتحدث إليه بحرارة عاطفية. في بعض الأحيان كان بإمكانها أن ترى أنه كان يشعر وكأنه كان يطلعها في اطمئنان على ما يدور في رأسه، وكانت تسمح له بأن يتحدث ما دام حماسه مستمرا ومتواصلا، وكثيرا ما كانت تتعشه وتجده عندما يخبو في النهاية بأسئلة مختارة بعناية. لكن في العادة كانت هي التي تتحدث بالفعل في أكثر المرات بينما كانت تمشي خلفه. وهي تدق الأرض الحجرية بعصاها المصنوع طرفها من الصلب مع كل مرة كانت تطأ الأرض بقدمها اليمنى، راحت تخبره بتفصيل شديد بقصة حياة هتلر، موضحة له لماذا كان

مكروها من جانب المسيحيين، وقد اعتقدت أن هذا كان ضروريا لأن سليمان كان لديه انطباع مختلف، وأنه كان يتصور بالطبع أن الأوروبيين كانوا يحترمون ويقدرّون إلى حد بعيد هذا الزعيم الذي اختفى نهائيا عن الأنظار، وأن سليمان وبقية الناس من أهل القرية كانوا يعتقدون هذا عن الأوروبيين. كما أنها تحدثت كثيرا عن سويسرا، وكانت تؤكد في كلامها من دون قصد على النظافة والصدق والأمانة والصحة الجيدة لأهل بلدها في شكل حكايات قصيرة من صميم الحياة اليومية. أخبرته عن السيد المسيح، ومارتن لوتر، وغريبالدي.

كانت قد حافظت منذ فترة طويلة على الوعد الأول الذي كانت قد قطعتة على نفسها بأن تشتري له صندلا، وهذا الشراء تلتة عدة شراعات أخرى، فعلى فترات منتظمة نوعا ما كانت تأخذه إلى محل «بن عيسى» لشراء قميص، وينطلون قطني أسود فضفاض من النوع الذي يرتديه قائدو جمال التشامبا، وأخيرا برنس جديد أبيض، على الرغم من أنها كانت تعرف أن القرية بأكملها سوف تتحدث عن أمر هذه الهدايا الثمينة جدا التي أعطته إياها. وكانت تعرف أيضا أن هذه الهدايا الممنوحة بشكل متكرر هي التي كانت تجعل والد سليمان لا يمنعه عن قضاء الوقت معها. وعلى الرغم من ذلك، وفقا لما كان يرويه سليمان، فقد كان والده يعترض في بعض الأحيان. لكنها كانت واثقة من أن سليمان نفسه لم يكن يرغب في شيء، ولا ينتظر شيئا منها. كل سنة عندما كان يقترب شهر مارس من نهايته تبدأ الحرارة في الاشتداد طوال النهار بشكل مؤلم وحتى الليالي

كانت تصبح خالية من النسيم؛ بعد ذلك، على الرغم من أنها دائماً ما تتطلب مجهوداً شاقاً من الإرادة لتجعل الأنسة نفسها قادرة على الخطوة التي سوف توفر لها اتصالاً من جديد مع العالم الخارجي، كانت تخصص يومين أو ثلاثة لغسل ملابسها والاستعداد للسفر. عندما كان يحين الأسبوع المحدد لمغادرتها، كانت تذهب إلى الحصن وتتصل بالمقهى في كيرزاز، وتطلب إلى صاحبه أن يخبر سائق الشاحنة التالية المتجهة إلى الشمال أن يأخذ الطريق الجانبية الفرعية التي تتيح لها أن تستقل هذه الشاحنة في مكان يبعد نحو ثلاثة كيلومترات عن القرية.

عندما عادت هي وسليمان إلى الفندق في فترة ما بعد الظهر من رحلتها الأخيرة القصيرة إلى أسفل الوادي، كانت الأنسة ويندلينج واقفة في الشرفة تتطلع إلى جبال الرمل البرتقالية خلف الحصن. كان سليمان قد أحضر العلب إلى داخل الغرفة ووضعها على الأرض. استدارت وقالت: «أحضر الصندوق الصغير الكبير». وعندما سحب الصندوق وأخرجه من تحت السرير حمله إليها، وهو يمسح عنه الغبار بكمّ قميصه، تقدمته وصعدت السلالم إلى السطح، وجلسا معا فوق البطانية، وكان وهج الشمس الغاربة يلهب وجهيهما. كانت عدة ذبابات لاتزال تحلق في الهواء، ومن وقت إلى آخر كانت تهاجم رقبتيهما. أعطاهما سليمان علبة البسكويت الصغير وأعطته هي حفنة من الكعك المغطى بالشيكولاتة. «الكثير ودفعة واحدة؟»

«نعم»، قالت، «أنت تعرف أنني سأعود إلى بلدي في غضون أربعة أيام».

خفض رأسه وراح ينظر إلى البطانية لحظة قبل أن يتمتم مجيباً: «أعرف». وصمت مرة ثانية. كان يشتهي بشكل فيه إحساس بالاضطهاد قائلاً: «يقول بوفيلجا إن الجو حار هنا في فصل الصيف. إنه ليس حاراً! إنه لطيف في بيتنا. إنه يشبه الواحة حيث توجد البركة الكبيرة. ولن تشعري بالحر أبداً هناك».

«يجب عليّ أن أكسب بعض المال، أنت تعرف، فأنا أريد أن أعود في العام المقبل».

قال بحزن: «العام المقبل، يا سيدتي! لا يعرف ما سيحدث في العام المقبل إلاّ مولانا».

كانت بعض الجمال تزمجر بينما كانت تتمايل فوق الرمل أسفل الحصن، وكان الضوء يتراجع بسرعة. «كل بسكويتاتك»، قالت له، وأكلت هي بسكويتها «في العام المقبل سوف نذهب إلى العبادلة بصحبة القائد إن شاء الله»(*).

تنهد بعمق وقال: «آه، نعم يا سيدتي». لاحظت في البداية غصة التعاطف ثم بعد ذلك، وبعدما أعادت النظر، باستتكار، العذاب الذي أضفى على صوته حدة غير معتادة. كانت سجيته المتألمة هي أقل ما كانت تحبه فيه، هذا الإشفاق المسرحي الباهت على الذات. «سوف تصبح رجلاً في العام المقبل»، قالت بثبات وحزم. كان صوتها قد أضحى أقل يقيناً، وكان محملاً بنبرة افتراض متفائلة: «هل ستتذكر كل الأشياء التي تحدثنا عنها؟» أرسلت له بطاقة بريدية من مارسيليا، وأطلعت تلاميذ فصلها

(*) وردت بالعربية [الترجم].

على الصور الفوتوغرافية التي التقطها أحدهما للآخر، والصور الخاصة بالقائد. كان الأطفال منبهرين بعمامة القائد الضخمة، «هل هو بدوي؟» سأل أحدهم.

عندما غادرت مكتب السفارة الفرنسية كانت تعرف أن هذه كانت السنة الأخيرة التي ستعود فيها إلى الصحراء. لم يكن فقط العداء الرسمي من جانب الموظف المسؤول أو الارتياح المعبر عنه بشكل سافر: بل كانت هذه هي المرة الوحيدة التي جعلها فيها تجيب عن قائمة من الأسئلة التي وجدتها مفزعة. فقد أراد أن يعرف أي موضوعات تدرّسها في مدرسة فرلوفر، وإن كانت قد عملت من قبل كصحافية، وعلى وجه التحديد في أي مكان من المفترض أن تقضي يومها بعد وصولها إلى الصحراء. ردت عليه بشكل استفزازي حاسم وسريع قائلة: «أذهب إلى حيث أشعر بالرغبة في الذهاب. لا أضع خططا». لكنها أتت بالكاد على ذكر اسم الواحة. كانت تعرف أن الرجال الفرنسيين لم يكونوا يكونون أي احترام للسيدات السويسريات الكبار في السن اللاتي يلبسن الجوارب الصوفية؛ فكان هذا يجعلهم ببساطة أكثر خسة في نظرها. ومع ذلك، فقد كانوا هم من يتحكمون في الصحراء.

كان اليوم الذي دخلت فيه السفينة إلى الميناء الغربي لأفريقيا يوما ماطرا. كانت تعرف أن طرقات المدينة الرمادية المنحدرة المزودة بشرفات كانت هناك في الظلام في المقدمة، إلا أنها كانت غير مرئية. كانت الملابس الأوروبية البالية لعمال رصيف الميناء مشبعة بمياه الأمطار. في ما بعد، بدت لها المدينة المبتلة عن آخرها بمياه المطر غريبة ومزعجة، وبدا الناس الذين يمرون

على امتداد الشوارع غير سعداء. كان التغيير، حتى عن السنة الماضية، ضخماً، وقد جعلها الذهاب والجلوس في مقهى كبير واسع وبارد، حيث كانت ترغب في تناول القهوة عقب العشاء، تشعر بالحزن، ولذا عادت إلى الفندق الذي كانت تنزل فيه ونامت. في اليوم التالي استقلت القطار إلى «بريجوكس». ظل المطر يسقط معظم اليوم. وفي بريجوكس استأجرت غرفة في أحد الفنادق قرب المحطة، ولم ترحها، وهي تنصت إلى صوت قعقعة المطر في أحد المزاريب أسفل نافذتها. «سيكون هذا المكان نموذجاً مثالياً للجحيم»، هذا ما كتبته في تلك الليلة إلى صديقة لها في بازل قبل أن تذهب لتنام. «مثال كامل للتفسخ الاجتماعي تم تحقيقه عن طريق فرض التهجين الثقافي. تم إفساد العامة والخط من قدرتهم وخلق عداوات عن طريق استغلال الأجيال بطريقة لا رحمة فيها. سأستقل قطار السكة الحديد الضيقة الصغير المتجه إلى الجنوب غدا صباحاً إلى حيث الأرض الأكثر سعادة، وأنا واثقة من أن صديقتي الشمس ستطلع في بعض الأوقات أثناء اليوم، تحياتي القلبية وسلامي إلى العزيزة ماريا».

بينما كان القطار يزحف متقدماً صوب الجنوب، إلى أعلى أرض الهضبة الواسعة المرتفعة، كانت السحب تختص وقد بسطت الشمس سطوتها على الريف. كانت الآنسة ويندلينج تجلس بانتباه بجانب نافذة متسخة، وهي تشعر بالحزن المتزايد يغلفها. طوال الفترة التي كان المطر يسقط فيها، كانت تتصور أن المطر من بين أسباب اكتئابها، فقد كان ضوء السحاب الرمادي

يضيف معنى غير مألوف على المنظر عن طريق تغييره للأشكال والمسافات. وقد استوعبت الآن أن معالم وتضاريس الصحراء الأكثر ألفة وتمييزا كانت على وشك ألا تصبح أكثر إدراكا ووعيا من جانبها؛ لا لسبب سوى أن هذه كانت آخر زيارة لها.

بعد يومين، عندما توقفت الشاحنة لإنزالها، كان بوفيلجا واقفا في الشمس بجانب إحدى الصخور وهو يلوح لها، وكان معه أحد الرجال من القرية لمساعدته في حمل الأمتعة. بمجرد انطلاق الشاحنة وتلاشي سحابة الغبار الأصفر التي خلفتها عبر صحراء الحمادة، كان هناك صمت، ولم يبد أن ثمة صوتا بإمكانه أن يغطي على صوت أحذيتهم وهي تسحق الأرض.

«كيف حال سليمان؟» سألته. كان بوفيلجا غير محدد وغير واضح في إجابته. «إنه بخير»، قال، وأضاف، «يقولون إنه حاول الهرب. لكنه لم يصل إلى مكان بعيد جدا». قد تكون الإشاعة حقيقية، وربما تكون غير صحيحة؛ على أي حال فقد قررت ألا تأتي على ذكرها إلا إذا ذكرها سليمان بنفسه أولا.

كانت تشعر براحة غير عادية عندما اقتربوا من حافة المنحدرات الصخرية وتمكنت من رؤية القرية عبر الوادي، لكن ليس قبل أن قامت بجولات في البيوت حيث يعيش أصدقائها، لتناقش معهم مشكلاتهم وتترك بعض الحبوب وأقراص الدواء الدوائية هنا وبعض والحلوى هناك، حتى اقتتعت بأنه لم يحدث تغيير مهم في الواحة في أثناء غيابها. ذهبت إلى بيت عائلة سليمان، ولم يكن سليمان موجودا هناك. «قل له أن يأتي ليراني»، قالت لوالده، بينما كانت تغادر البيت.

في صباح اليوم الثالث لوصولها ظهر سليمان، وظل واقفا هناك في المدخل وهو يبتسم. وبمجرد أن حيته أجلسته وجعلته يتناول القهوة معها، وأخذت تمطره بوابل من الأسئلة عن الحياة في القرية في أثناء فترة وجودها في أوروبا. أخبرها سليمان أن بعضا من أصدقائه قد ذهبوا ليصبحوا من الوطنيين، وأنهم يقتلون الفرنسيين مثل الذباب. تحطم قلبها لما سمعته لكنها لم تقل شيئا. بينما كانت تراقبه وهو يبتسم، كانت مبتهجة بشدة لفكرة أن سليمان كان منفتحاً ويسهل الوصول إلى أعماقه، وعلى الرغم من كل شيء، كان بإمكانها أن تثبت أن بالإمكان تكوين أصدقاء حقيقيين صادقين ممن هم أصغر سناً. لكن بينما كانت تقول له: «كم أنا سعيدة لرؤيتك، يا سليمان»، تذكرت أن وقتها معا أصبح محدوداً، فاعتري وجهها تعبير من الألم بينما كانت تختم عبارتها. «يجب عليّ ألا أنطق له بكلمة عن هذا الموضوع»، قررت. فإذا ظل سليمان، على الأقل، يعيش في الوهم غير المحدد عن الزمن الممتد في المستقبل، فسوف يحتفظ بطريقة ما بهالة البراءة والنقاء التي له، وسوف تشعر هي بعذاب أقل في أثناء الوقت الذي يقضيانه معا.

نزلا معا في أحد الأيام إلى الوادي لرؤية القائد، ومناقشته في مخطط الرحلة الطويلة إلى العبادلة. وفي اليوم التالي عند الفجر انطلقا لزيارة ضريح مولاي «علي بن سعيد». حيث كان هناك ينبوع ماء ساخن. كان المكان عبارة عن واحة صغيرة على مشارف قمة كثيب من الكثبان الرملية، وكان هناك ما يقرب من خمسين نخلة حول المقام المتهدم. وهناك في ظلال الصخور

أسفل الحوائط الصخرية كان هناك صهريج متهدم يتدفق الماء الفائز فيه. فرش البطاطين فوق الرمل في مكان مجاور للضريح، أسفل شجرة طرفاء صغيرة، وتناولوا غداءهما. وقبل أن يشرعا في الأكل، شربا حفنات قليلة من الماء، الذي قال عنه سليمان إنه معروف بقداسته. كان سعف النخيل يصدر أصوات خشخشة وهسيس في الريح فوق رأسيهما.

«أرسل الله الريح لأجلنا كي تجعلنا نشعر بالبرودة بينما نأكل»، قال سليمان عندما انتهى من تناول تمراته.

«كانت الريح هنا بشكل دائم»، ردت هي بلا مبالاة، «وستكون هنا دائما».

وهي تراقب سليمان وهو يقف في الجانب من الصهريج الخرب ويتخذ المظهر التقليدي لشخص على وشك أن تلتقط له صورة، خطرت في رأسها فكرة. سوف تقوم لأجل ليلة عيد الميلاد المجيد، والتي ستحل في غضون الأسبوعين القادمين، بعمل منظر لميلاد المسيح. وسوف تدعو سليمان ليأكل معها وهما جالسان بجانب المدفأة، وعندما ينتصف الليل سوف تأخذه وترها له.

بعدما انتهت من تصوير سليمان، ملما أغراضهما ورحلا في الاتجاه المعاكس لريح بعد الظهيرة الساخنة صوب القرية. في بعض الأحيان كان الرمل يندفع بقوة، ويلسع وجهيهما بأهدابه الدقيقة غير المرئية. كانت الأنسة ويندلينج تتقدم المسيرة في هذه المرة، وكانا يسيران بسرعة. كانت صورة منظر لميلاد المسيح، المضاء بواسطة الشموع، قد خطرت لها عدة مرات

وهي في طريق عودتها فوق الصخور المترامية في الصحراء الرملية الواسعة، وجعلتها تشعر بحزن يفوق الوصف، لأنها لن تتمكن من ربط هذا بحقيقة أن كل شيء كان في طريقه إلى الانتهاء. وصلا إلى بقعة في شمال القرية حيث كانت الصحراء الصخرية المترامية الأطراف يقطعها من طرف إلى آخر نهر الوادي المتدفق. عندما تسلقا ببطء إلى أعلى قمة الرمل الناعم، وجدت نفسها تهمس: «إن هذا هو الشيء الصائب الذي يتعين القيام به». وفكرت، «صائب، ليست الكلمة المناسبة»، ولم تستطع أن تجد كلمة أحسن منها. كانت ستقدم على عمل لوحة ميلاد المسيح لأنها كانت تحب ليلة الميلاد، ولأنها أرادت أن يشاركها سليمان هذه الليلة. وصلا إلى الفندق بعد الغروب بوقت قصير، وقامت بإرسال سليمان إلى بيته لكي تجلس لتخطط مشروعها على الورق.

أدركت فقط عندما شرعت بالفعل في وضع تصميم منظر الميلاد مقدار العمل الذي سوف يتعين بذله. في وقت مبكر من صباح اليوم التالي طلبت من بوفيلجا أن يعثر لها على صندوق خشبي قديم. وقبل أن يمر نصف ساعة على انهماكها في العمل، سمعت صوت سليمان يتحدث في المطبخ، فدفعت بسرعة كل شيء تحت السرير وخرجت إلى الشرفة.

«سليمان، أنا مشغولة جدا، تعال بعد الظهر»، قالت، وبعد ظهر ذلك اليوم قالت له إنه نظرا إلى أنها ستصبح مشغولة في كل صباح حتى إلى ما بعد يوم الاحتفال بميلاد يسوع الابن، فإنهما لن يتمكنوا من القيام بأي مشاوير طويلة في أثناء تلك

الفترة. تلقى سليمان الخبر بتجهم، وقال: «أعرف. أنت تستعددين لليوم المقدس. أنا أفهم هذا».

«عندما يجيء اليوم المقدس، سنعمل وليمة».

«إذا أراد الله»، قال.

«أنا آسفة»، قالت وهي تبتسم.

هزّ سليمان كتفيه وقال لها «إلى اللقاء إذن».

كانا لا يزالان يسيران بعد كل ظهيرة في الواحة أو يتناولان الشاي على السطح، لكن فترات الصباح كانت تقضيها في غرفتها تقوم بأعمال الخياطة، والدق والنحت. بمجرد انتهائها من بناء المنصة الخشبية، كان عليها أن تعتمد إلى تشكيل الشخصيات. أحضرت كتلة كبيرة من طمي النهر إلى غرفتها. وتمكنت في غضون يومين من تنفيذ تمثال العذراء الذي سرها شكله النهائي. ومن قطعة قماش صغيرة من الموسلين شكلت خيمة متقنة لإيواء الأم والطفل في عش من ريش الدجاج الأبيض الصغير، وشقت بشكل طولي بعض أوراق إبرية من شجرة طرفاء مهملة وصنعت منها سجادة جيدة لتضعها داخل الخيمة. ثم سكبت الرمل خارج الخيمة وغرست فيه بعمق أرجل الجمال الطويلة، كان أحد الجمال يسير خلف الآخر فوق أحد الكتبان، وكان يجلس فوق كل واحد منها بشكل مستقيم رجل ماجوس يرتدي جلبابا أبيض تتدلى أطرافه الطويلة المدببة على جانبي الجمل. سيأتي الرجال الماجوس(*) محملين بأجولة اللوز وشيكولاتة الليكوير الصغيرة جدا والمفوفة في الورق الفضي الملون. عندما انتهت من تنفيذ

(*) إشارة إلى الماجوس الثلاثة الذين قادتهم النجمة التي ظهرت في الشرق إلى مهد يسوع في بيت لحم [الترجم].

لوحة الميلاد، وضعتها على الأرض في منتصف الغرفة وورست أكوام اليوسفي والتمر أمامها، بالإضافة إلى صف من الشموع خلفها، وشمعة واحدة على كل جانب في المقدمة منها، سوف تبدو مثل لوحة دينية إسلامية ملونة مطبوعة حجريا. كانت تأمل أن يكون المنظر مميزا بالنسبة إلى سليمان، فعندئذ من الممكن أن يقتنع بسهولة أكثر بالحقيقة الشاعرية للمشهد. أرادت فقط أن توحى له بأن الله الذي كان سليمان مرتبطا معه بعلاقة حميمة هو نفسه الإله الذي يعبد النصارى. ولم تكن لتحاول أبدا أن تعبر له عن هذه الفكرة عن طريق الكلمات.

ستكون هناك مفاجأة إضافية في هذه الأمسية وهي الفلاش الجديد الملحق بكاميرتها، والذي لم يكن سليمان قد رآه حتى تلك اللحظة. اعتزمت أن تلتقط الكثير من الصور لمنظر الميلاد ولسليمان وهو ينظر إليها، وسوف تكبر هذه الصور لتريها لتلاميذها. كما ذهبت واشترت عمامة جديدة لسليمان، لأنه حتى الوقت الراهن ولما يزيد على سنة لم يكن يرتدي عمامة. وكانت هذه العمامة لرجل بالغ، وكانت رائعة جدا: عشرة أمتار من أنعم الأقطان المصرية.

في اليوم الذي سبق يوم عيد الميلاد ظلت الأنسة ويندلينج مستغرقة في النوم، فقد خدعتها السماء الملبدة بالغيوم. في كل شتاء كانت تمر على الواحة بضعة أيام مظلمة، وكانت تلك الأيام نادرة، لكن هذا اليوم كان أحدها. بينما كانت لاتزال مستلقية في السرير، سمعت هدير الريح، وعندما نهضت لتطل من النافذة لم تجد أثرا للعالم في الخارج - لا يوجد سوى ضباب وردي رمادي

خافت كان يخفي أو يطمس معالم كل شيء. وكان الرمل المدوم يتردد في موجات بلا توقف أمام الزجاج، وقد اتخذ شكل كتل رملية على أرضية الشرفة. عندما ذهب لتناول إفطارها، كانت ترتدي برنسها وتضع قلنسوته حول وجهها. كان صوت الريح العاصف عندما خرجت إلى الشرفة قد أصابها بأثر اصطدام ناتج عن شيء صلب، وكان الرمل يصدر صريرا على الأرضية الخرسانية تحت حذاءها. كان بوفيلجا قد أحكم إغلاق الضلقات الخشبية في حجرة الطعام، قام بتحيتها بطريقة حماسية من داخل الحجرة المظلمة، وكان سعيدا بوجودها هناك.

«يوم سيئ جدا لاحتفالك، للأسف، يا آنسة»، أبدى ملاحظته بينما كان يضع إبريق القهوة على المائدة.
«الاحتفال غدا»، قالت، «إنه يبدأ الليلة».

«أعرف. أعرف». كان نافذ الصبر في ما يتعلق بولائم واحتفالات النصارى لأن الساعات التي تبدأ فيها وتنتهي كانت تؤدي مراسمها بطريقة غير متقنة بالمرة. أعياد المسلمين تبدأ في وقت محدد، إمّا في وقت الغروب أو قبل الشروق بساعة، أو عندما يظهر الهلال لأول مرة بشكل واضح في الجهة الغربية من السماء في الشفق. لكن النصارى يبدأون أعيادهم متى شعروا بأنه يجب عليهم بدؤها.

قضت فترة الصباح في غرفتها تكتب خطابات. وعند الظهر كان الجو في الخارج أكثر قتامة ولا يزال محملا بالرمال، وكانت الريح تهز قمم الفندق فوق صخرته المقام عليها كما لو أنها سوف تطوح به من فوق قمم أشجار النخيل التي تحته إلى حيث قاع

النهر. نهضت عدة مرات وذهبت إلى النافذة لتحقق في الخارج حيث الفراغ القرنفلي خلف الشرفة. كانت العواصف تجعلها تشعر بالسعادة، وعلى الرغم من ذلك تمت لو أن هذه العاصفة كان بإمكانها المجيء بعد عيد الميلاد. كانت قد تخيلت ليلة صحراوية صافية - باردة، تسطع فيها النجوم، وتتبع الكلاب من الواحة. حتى الآن قد تكون هذه هي تلك الليلة الجميلة، فلا يزال هناك متسع من الوقت، فكرت، بينما كانت ترتدي برنسها من فوق رأسها لتذهب لتناول الغداء.

كانت المدفأة، بسبب الرياح، نعمة غير أكيدة، فإضافة إلى الحرارة التي كانت تبعثها، وإلى أنها كانت المصدر الوحيد للضوء في حجرة الطعام، إلا أن الدخان الذي كانت تبعثه بقوة كان يلسع عيني الأنسة وحلقها. كانت الضلقات الخشبية تققع وهي ترتطم بالنوافذ وتقرعها بعنف مرارا وتكرارا، وقد غطى صوتها على صوت الريح نفسها.

خرجت الأنسة ويندلينج على الفور من حجرة الطعام بمجرد انتهائها من الأكل، وأسهرت عائدة إلى غرفتها وجلست في ظلمة بعد الظهر التي كانت تتقضي ببطء، بينما كانت مستمرة في كتابة خطاباتها وهي تنتظر أن يخبو ضوء النهار تماما، كان سليمان سيأتي في تمام الساعة الثامنة. سيكون هناك متسع من الوقت يكفي لحمل كل شيء إلى حجرة الطعام قبل أن يحضر، وكذلك لإنارة لوحة الميلاد في الجزء البعيد المظلم غير المستغل فيها والذي كان من المستبعد أن يذهب إليه بوفيلجا، لكن عندما هممت بأن تفعل هذا، وجدت أن الريح كانت أقوى بكثير مما

تخلّيت. كرّرت الرحلة بين الغرفة وحجرة الطعام مرارا وتكرارا، وهي تحمل كل قطعة من اللوحة ملفوفة بعناية في برنسها. وفي كل مرة كانت تمر أمام المطبخ كانت تتوقع أن يفتح بوفيلجا الباب ويكتشف أمرها. ولم تكن راغبة في أن يكون بوفيلجا موجودا هناك عندما تطلع سليمان على لوحة الميلاد، بإمكانه أن يراها في صباح اليوم التالي عند الإفطار.

نجحت الآنسة ويندلينج، محتمية بضوضاء العاصفة، في نقل جميع القطع إلى الركن البعيد المظلم في حجرة الطعام من دون أن ينتبه بوفيلجا. قبل العشاء بفترة طويلة كانت لوحة الميلاد على أتم الاستعداد، لا ينقصها سوى إشعال الشموع كي تصبح حية ومتوهجة تماما. تركت علبة أعواد الثقاب على المائدة بجانب اللوحة، وأسرعت عائدة إلى غرفتها لترتيب شعرها وتغيير ملابسها. كان الرمل قد تسلل مخترقا ملابسها وأصبح الآن في كل مكان، بل وتسلل إلى أسفل ملابسها الداخلية مباشرة والتصق بجلدها مثل السكر. كانت ساعتها تشير إلى ما بعد الثامنة بعدة دقائق عندما مضت إلى خارج غرفتها.

لم يكن هناك سوى مكان مخصص لشخص واحد على المائدة. انتظرت، بينما كانت الضلقات الخشبية ترتج وتلتصق بالجدار، حتى ظهر بوفيلجا حاملا سلطانية الحساء. «يا لها من ليلة سيئة»، قال.

«لقد نسيت أن تجهز مكانا لسليمان»، قالت له. «لأنه لم يعرها انتباهه، وصاح بصوت عال «إنه غبي!» وبدأ في صب الحساء.

«انتظرا!» صاحبت، «سليمان آت، ويجب عليّ ألا أكل حتى يجيء».

لا يزال بوفيلجا غير متفهم. «أراد أن يدخل إلى حجرة الطعام، وهو يعرف أن هذا ممنوع في وقت تناول العشاء»، قال. «لكنني دعوته!»، قالت وهي تنظر إلى طبق الحساء الوحيد الموضوع على المائدة، ثم أكملت قائلة: «قل له أن يدخل، وأعد له طبقاً آخر».

كان بوفيلجا صامتا. وقام بوضع المغرفة في السلطانية، «أين هو؟» سألته، ومن دون أن تنتظر منه إجابة واصلت قائلة: «ألم أخبرك أنه كان سيتناول عشاءه معي الليلة؟» ثم ارتابت فجأة في أن تكون رغبتها السرية قد جعلتها تهمل إخبار بوفيلجا بدعوة سليمان.

«إنك لم تخبريني بأي شيء»، قال لها وأردف: «ليس لدي علم، لقد أرسلته إلى بيته، لكنه سيعود بعد العشاء».

«آه، بوفيلجا!» صاحبت، «أنت تعرف أن سليمان لا يكذب أبداً». خفض بصره ونظر إلى وجهها بنوع من اللوم. «أنا لا أعرف شيئاً عن خطط الأنسة»، قال في حزن. وجعلها هذا تعتقد، لحظة خاطفة، أنه قد اكتشف أمر لوحة الميلاد، لكنها قررت أنه لو كان يعرف شيئاً لكان قد تكلم من دون ريب.

«نعم. نعم. أعرف. كان يجب عليّ أن أخبرك، إنه خطئي أنا».

«هذا صحيح، يا آنسة»، قال. لاحظت الأنسة ويندلينج وهو يقدم لها بقية أصناف الطعام الصمت الوقور الذي كان عليه،

إلا أنها وهي لاتزال تشعر ببعض الاستياء منه، لم تحته على أن يقطع هذا الصمت. فقط عند نهاية الوجبة، عندما دفعت كرسيها إلى الخلف بعيدا عن المائدة وجلست تنعم النظر في أشكال اللهب في المدفأة، قرر بوفيلجا أن يتكلم، «هل ستتناول الأنسة القهوة؟».

«أرغب في تناول القليل»، قالت، وهي تحاول أن تجعل صوتها محملا بنبرة حماسية، «حسنًا» (*)، تمتم بوفيلجا، وتركها في الحجرة بمفردها. وعندما عاد بوفيلجا حاملا القهوة، كان سليمان في صحبته، ولاحظت الأنسة أنهما كانا يضحكان، وكأنه ليس هناك سوء تفاهم بشأن موضوع العشاء. وقف سليمان لحظة عند الباب، وهو يدق الأرض بقدميه وينفض الرمل عن برنسه. وعندما تقدم كي يأخذ يدها، صرخت قائلة: «أم، يا سليمان، إنه خطئي أنا، لقد نسيت أن أخبر بوفيلجا. إن هذا فظيع!»

«ليس هناك خطأ، يا سيدتي، فهذا احتفال»، قال سليمان في رصانة ووقار.

«نعم، هذا احتفال»، قالت مرعدة، «ولا تزال الريح تعصف. انصت!»

لم يشرب سليمان القهوة، ولكن بوفيلجا شرب بناء على ضغط منها، تركها تصب له فنجانا، وشربه وهو واقف قرب المدفأة. شكت الأنسة ويندلينج في أن يكون مسرورا بشكل خفي لأن سليمان لم يتمكن من تناول العشاء معها. عندما انتهى من تناول

(*) وردت بالفرنسية [المترجم].

قهوته، تمنى لهما ليلة سعيدة وذهب إلى السرير في حجرته الصغيرة المجاورة للمطبخ.

ظلا جالسين فترة يشاهدان النار، دون أن يتحدثا. كانت الريح تسرع وهي تمر في الخلاء بالخارج، وكانت تصفق الضلقات الخشبية التي ما انفكت تصدر طرقاتها. كانت الأنسة ويندلينج مرتاحة البال، فحتى لو كان الجزء الأول من الاحتفالية قد سار على نحو خاطئ، فلا يزال بالإمكان أن تكون بقية الليلة مبهجة مرضية.

انتظرت الأنسة ويندلينج حتى تأكدت من أن بوفيلجا قد ذهب إلى السرير فعلا، ثم تناولت حقيبتها وأخرجت منها كيسا بلاستيكا صغيرا ممتلئا بشيكولاتة الكريمة، حيث وضعت على المائدة.

«كل»، قالت من دون اهتمام، وأخذت منه قطعة لنفسها. مد سليمان يده بقليل من التردد وأخذ الكيس. عندما كانت الشيكولاتة في فمه، شرعت الأنسة في التحدث. كانت تعتزم أن تخبره بقصة ميلاد السيد المسيح، وهي موضوع كانت قد تطرقت إليه بالفعل مرات كثيرة في أثناء رحلاتهما، لكن بشكل عابر فقط. أحست هذه المرة أنه ينبغي عليها أن تخبره بالقصة كاملة. وتوقعت منه أن يقاطعها عندما يكتشف أنها قصة دينية، لكنه فقط أبقى عينيه الخاليتين من المعنى مسلطتين عليها وهو يمضغ بطريقة آلية، مبينا لها بين الحين والآخر أنه يتابعها عن طريق إيماءات من رأسه. بدأت تستغرق في ما كانت تقوله، وأخذت في استخدام ذراعيها

لتصدر بهما إشارات كبيرة. تناول سليمان قطعة أخرى من الشيكولاتة وواصل الاستماع.

ظلت الأنسة تتكلم ساعة أو أكثر، وهي مدركة، كما لو من بُعد فصاحتها الخاصة. عندما أخبرته عن بيت لحم كانت تصف بالفعل قرية سليمان، وكان بيت يوسف النجار ومريم هو البيت الموجود في الأسفل عند القصر(*) حيث ولد سليمان. تقوس سماء الليل فوق «أويد زوسفانا»، وسطعت نجومه على صحراء الحمادة الباردة. وعبر الصحراء المترامية الأطراف جاء الماجوس الثلاثة فوق جمالهم يرتدون البرانس والعمامات، وتوقفوا فوق قمة آخر كثيب رملي كبير ليتطلعوا إلى الوادي حيث كانت تمتد القرية المظلمة. وعندما انتهت الأنسة ويندلينج من قصتها، تمخطت.

بدا سليمان في حالة تقترب من الغيبوبة. ألقت بنظرة سريعة عليه، وتوقعت منه أن يتكلم، لكن لأنه لم يفعل شيئا، فقد نظرت إليه بعناية أكثر. كانت عيناه تبعثان على القلق، عينان خاليتان من التعبير، وعلى الرغم من أنهما كانتا مثبتتين على وجهها، فقد كان بإمكانها أن تقول إنه كان ينظر إلى شيء ما أبعد كثيرا منها. تهددت، لم تكن تريد اتخاذ قرار يؤدي إلى إفاخته. فرضية أنها كانت ترغب في إمتاعه، إن لم تكن مدركة جدا لاستحالتها، كانت تعني أن الولد بطريقة ما قد أسرته وجذبه القصة الشعرية، وأنه كان يستعرضها في خياله. «بالتأكيد لا يمكن أن يكون هذا هو الأمر»، قررت، كان الأكثر ترجيحا

(*) وردت بالعربية [المترجم].

أنه قد توقف منذ بعض الوقت عن الإنصات لكلماتها، وأنه كان جالسا هناك وحسب، وأنه قد أدرك بطريقة غامضة أنها قد وصلت إلى نهاية القصة.

بعد ذلك تحدث سليمان: «أنت محقة، كان ملك الماجوس». التقطت الأنسة ويندلينج أنفاسها وانحنت إلى الأمام، لكنه واصل قائلا: «وبعد ذلك أرسل الشيطان حية ذات رأسين، وقام يسوع بقتلها. كان الشيطان غاضبا من يسوع. وقال له الشيطان: «لماذا قتلت صديقتي؟ هل كان من المحتمل أنها أرادت أن تؤذيك؟» وقال له يسوع: «لقد عرفت من أين جاءت». وكان الشيطان مرتديا برنسا أسود. هذا صحيح»، أضاف، بينما رأى على وجهها تعبيراً اعتبره دلالة على عدم التصديق.

اعتدلت الأنسة، جلست مستقيمة وقالت: «سليمان، ما الذي تتحدث عنه؟ ليست هناك قصص مثل هذه عن يسوع. ولا عن سيدنا عيسى أيضا». لم تكن متأكدة من دقة تصريحها الأخير عن سيدنا عيسى، كان من الممكن، هكذا افترضت، أن توجد مثل هذه الأساطير بين هؤلاء الناس. «أنت تعرف أن تلك مجرد قصص وأنها لا تمت إلى الحقيقة بصلة».

لم يتمكن سليمان من سماعها لأنه كان قد شرع بالفعل في التحدث قائلا: «أنا لا أتحدث عن سيدنا عيسى»، قال بثبات وصرامة. أنا أتحدث عن يسوع، نبي النصارى. الجميع يعرفون أن الشيطان أرسل له حية ذات رأسين».

أنصت الأنسة لصوت الريح للحظة، «آه»، قالت، وتناولت قطعة أخرى من الشيكولاتة، وهي لا تعترم التطرق في النقاش

إلى حدود أبعد من هذا. بعد ذلك بفترة قصيرة فتشت في حقيبتها مرة ثانية وأخرجت منها العمامة، التي كانت ملفوفة في منديل ورق كبير من نسيج رقيق أحمر في أبيض.

«هذه هدية لك»، قالت وهي تناولها له. أمسك بها سليمان بطريقة آلية، ووضعها على حجره وظل يحدق فيها. «ألن تقوم بفتحها؟» سألته.

أوما برأسه مرتين ومزق الورق الخفيف فاتحا إياه. عندما رأى لفة من القطن الأبيض ابتسم. بعدما رأت الحياة تدب أخيرا في وجهه، رفعت نفسها إلى أعلى، وصرخت بقوة «دعنا نضعها على رأسك!». أعطاهما سليمان طرفا من طرفيها، شدته بإحكام عن آخره بعدما سارت حتى وصلت إلى باب الحجرة. بعد ذلك رفع سليمان الطرف الآخر بيده إلى جبهته، وظل يدور ببطء مرارا وتكرارا، وهو يقترب منها في أثناء دورانه، وهو يرتب ويسوي هيئة العمامة وهو يلفها حول رأسه. «رائع!» صاحت. اقترب سليمان من صف النوافذ المظلمة لكي يتطلع إلى نفسه والعمامة في زجاجها.

«هل بوسعك أن ترى؟» سألته.

«نعم. بإمكانني أن أرى جانبيها»، قال لها، وأضاف، «إنها جميلة جدا».

تقدمت إلى الأمام نحو منتصف الحجرة. «أريد أن ألتقط صورة لك، يا سليمان»، قالت، فرأت نظرة حيرة فورية بدت على وجهه. «هل بإمكانك أن تسدي لي صنيعا؟ اذهب إلى غرفتي وأحضر لي الكاميرا».

«في الليل؟ هل بإمكانك أن تلتقطي صورة في الليل؟»
أومأت بالموافقة، وهي تبتسم بشكل غامض، وأضافت
«وأحضر لي الصندوق الأصفر من فوق السرير».
أبقى سليمان العمامة فوق رأسه، وارتنى برنسه، وأخذ
كشافها الضوئي ومضى إلى الخارج، تاركا الريح تصفق الباب
خلفه. تمت الأنسة ويندلينج ألا يكون الصوت قد أيقظ
بوفيلجا، لأنها راحت تنصت للحظة في حين لم يكن هناك
من صوت سوى هزيم الهواء المندفع عبر الممر في الخارج.
ثم جرت إلى الركن البعيد في الحجرة وأشعلت عود ثقاب،
وراحت بسرعة تشعل جميع الشموع المحيطة حول منظر
الميلاد، وعدلت من وضع أحد الجمال في الرمل ثم عادت
مرة ثانية إلى الركن قرب المدفأة. لم يكن في مقدورها أن
تتصور أن الشموع يمكن أن تبعث بالكثير جدا من الضوء.
وفي الوقت الحالي صار الطرف الآخر من الحجرة أكثر
إضاءة من الطرف الذي كانت تقف فيه. على الفور انفتح
الباب فجأة ورجع سليمان وهو يحمل الكاميرا وقد علقها
على كتفه. وضع الكاميرا بعناية فوق المائدة، وقال لها: «ليس
هناك صندوق أصفر على السرير». ثم التقطت عيناه بسرعة
خاطفة الخفقان الإضافي غير المألوف للضوء المرتمي على
الجدران البعيدة، فتقدم إلى منتصف الحجرة. رأت الأنسة
ويندلينج أن هذه هي اللحظة المناسبة، «تعال»، قالت وأمسكت
ذراع سليمان وجذبتة برقة قرب الركن إلى حيث كانت لوحة
الميلاد مرئية في شكلها النهائي، وهي تلمع وتتوهج بفعل ضوء

الشموع المرتعش الساقط عليها . لم يقل سليمان شيئا، توقف عن السير ووقف ساكنا تماما . وبعد لحظة من الصمت، جذبت ذراعه بتردد، وشجعتة قائلة: «تعال وانظر». واصلا السير نحو لوحة الميلاد، وعندما وصلا تولد لدى الأنسة ويندلينج انطباع بأنها لو لم تكن موجودة هناك لكان سليمان قد قام بمد يده ولمس المنظر، وربما كان سيهم برفع الطفل يسوع المكسو باللون الذهبي من سريره المصنوع من ريش الدجاج. لكنه كان واقفا بشكل هادئ، وهو ينظر إليها . وفي النهاية قال: «هل أحضرت كل هذا من سويسرا؟».

«بالطبع لا!»، كان الأمر محبطا لها بعض الشيء فقد كان من الواجب عليه أن يتعرف على الصحراء في الصورة، وأنه كان يجب عليه أيضا أن يحس بأن تلك الأشياء كانت من بيئته، وأنها ليست مستوردة. «لقد نفذتها هنا»، قالت. ثم انتظرت لحظة وسألته: «هل أعجبتك؟».

«آه، نعم»، قال بانفعال. «إنها جميلة. اعتقدت أنها جاءت من سويسرا».

ولكي تتأكد من أنه قد تسنى له فهم الموضوع، بدأت في التعريف بالشخصيات الواحدة تلو الأخرى، واتخذ صوتها مثل هذه التغير في التعبير غير المعتاد النابع عن الاحترام لدرجة أنه رفع بصره إليها بدهشة في إحدى المرات. كان الأمر كما لو أنها كانت تراها هي أيضا للمرة الأولى. «ووصل الماجوس الثلاثة إلى مكان بعيد خارج الصحراء الصخرية المترامية الأطراف لرؤية الطفل».

«لماذا وضعت كل هذا اللوز هناك؟»، سأل سليمان، وهو يلمس بعضه بسبابته.

«إنها هدايا ليسوع الصغير».

«لكن ما الذي ستفعلينه بها بعد ذلك؟»، تابع.

«نأكلها، ربما، في ما بعد»، قالت بشكل مقتضب. «خذ واحدة إذا أحببت. تقول إنه لم يكن هناك صندوق أصفر على السرير؟» كانت ترغب في التقاط بعض الصور بينما كانت الشموع لاتزال على القدر نفسه من الارتفاع المتساوي.

«لم يكن هناك سوى السترة وبعض الأوراق، يا سيدتي».

تركته عند اللوحة، ثم اجتازت الحجرة وارتدت برنسها. كان الظلام في الممر كاملا، ولم تكن هناك علامة على أن بوفيلجا كان مستيقظا. كانت تعرف أن غرفتها في حالة كبيرة من الفوضى، فأطلقت شعاع الكشاف هنا وهناك فوق الأرضية قبل أن تدلف إليها. في خضم مزيج الأشياء المبعثرة في كل مكان فوق أرضية الغرفة الصغيرة بدا أن هناك فرصة صغيرة للعثور على أي شيء. كان البصيص الضعيف يضيء، بشكل متتابع، الأشكال الخالية من المعنى الناجمة عن تكوين الأشياء المختلفة الواحد فوق الآخر، تحرك الضوء على امتداد السرير، وخلف الستار الرقيق المهلهل لخزانة الملابس. توقفت فجأة ووجهت الشعاع إلى أسفل السرير. كان الصندوق أمام وجهها، كانت قد وضعت بجانب لوحة الميلاد.

«لا بد أنني قد أخطأت»، فكرت، وهي تجري خلال الممر. أجبرت نفسها على أن تبطئ من خطواتها السريعة إلى سير

عادي، دخلت إلى حجرة الطعام وأغلقت الباب خلفها بحرص. كان سليمان راكعا على ركبتيه في منتصف الحجرة، وفي يده شيء صغير. لاحظت بارتياح أنه كان يسلي نفسه. «أنا آسفة فقد استغرق ذلك مني وقتا طويلا جدا»، أعلنت في قوة. «لقد نسيت المكان الذي وضعته فيه». كانت تنزع البرنس من فوق رأسها، وقامت بتعليقه الآن على مسمار قرب المدفأة، ثم التقطت الكاميرا والصندوق الأصفر، ومشت بخطى واسعة لتتضم إليه. ربما كان وميض إحساس بذنب غير واضح في تعبيرات وجهه، عندما رفع بصره إلى أعلى، هو الذي جعل عينيها تشردان على امتداد الأرضية نحو شيء آخر كان موجودا على مسافة قريبة، شيء ما شبيه بذلك الذي كان ممسكا به في يده. كان هذا الشيء الملقى في الجوار أحد الرجال الماجوس، وقد تمزق من عند مفصل وركبه عن مطيته. وكان الرجل الماجوسي الذي في يد سليمان سليما، إلا أن الجمل كان قد فقد رأسه وجزءا كبيرا من رقبتة. «سليمان! ما الذي تفعله؟» صرخت بغضب واضح. «ما الذي فعلته بلوحة الميلاد؟» تقدمت مقتربة من الركن وألقت بنظرة نحوها. لم يكن هناك في الواقع ما هو أكثر من صف الشموع وكومة من الرمال المبعثرة وقد اختلط بها قشر اليوسفي ونوى البلح، وكانت مربعات الورق المفضض ذات اللون الأرجواني والبرتقالي مطوية بعناية ومغروسة هنا وهناك في الرمل. وكان الرجال الماجوس الثلاثة قد جُندوا في معركة سليمان التي أقامها فوق الأرضية، وتم تدمير الخيمة في الحملة العسكرية لانتزاع اللوز المكوم داخلها، وتم نهب شيكولاتة «الليكوز من الأجولة التي

كانت تحتوي عليها . لم تكن هناك علامة في أي مكان تدل على أثر ليسوع الطفل أو ملابسه المصنوعة من قماش اللاميه الذهبي . شعرت بالدموع تطفر من عينيها . ثم ضحكت باقتضاب ، وقالت : « حسنا ، لقد انتهيت ، أليس كذلك ؟ » .

« نعم ، يا سيدتي » ، قال بهدوء . « هل ستلتقطين الصورة الآن ؟ » ثم نهض على قدميه ووضع الجمل الممزق على الأرضية في الرمل إلى جوار الأنقاض والأطلال الأخرى .
تكلمت الأنسة ويندلينج بهدوء واتزان قائلة : « كنت أرغب في التقاط صورة لمنظر الميلاد » .

انتظر سليمان للحظة ، كما لو كان يستمع إلى صوت بعيد . ثم قال : « هل يجب عليّ أن أرتدي برنسي ؟ » .

« لا » ، وبدأت تخرج الفلاش الملحق بالكاميرا . وعندما انتهت من تجهيزه ، التقطت الصورة قبل أن يتاح له وقت كافٍ لاتخاذ الوضع المناسب للتصوير . رأت أن دهشته نفسها إزاء الضوء الساطع المفاجئ قد طالت وامتدت وتحولت إلى مفاجأة من أن الأمر قد تم بالفعل ، ثم تحولت إلى نوع من الاستياء لكون التصوير قد تم في غفلة منه ، غير أنها تظاهرت بأنها لم تر شيئا ، وراحت تحكم غلق غطاء الكاميرا . كان سليمان يراقبها وهي تجمع أشياءها وترتبها . « هل انتهى الأمر ؟ » ، قال بإحباط .
« نعم » ، أجابت . « ستكون صورة جيدة جدا » .

« إن شاء الله » ، قال سليمان بالعربية .

لم تعتمد هذه المرة إلى ترديد عبارته الأخيرة بعده . « أتمنى أن تكون قد استمتعت بالاحتفال » ، قالت له .

ابتسم سليمان ابتسامة عريضة. «آه، نعم، يا سيدتي. استمتعت
أيما استمتاع. شكرا لك».

جعلته يخرج بعيدا إلى ساحة الجمال وأغلقت مزلاج الباب.
وعادت بسرعة إلى غرفتها، وتمنت لو كانت هذه الليلة صافية
مثل الليالي الأخرى، حيث كان بإمكانها الوقوف في التراس
والتطلع إلى الكثبان الرملية والنجوم، أو الجلوس فوق السطح
وسماع نباح الكلاب، لأنها على الرغم من تأخر الوقت، لم تكن
بها رغبة في النعاس. أدخلت سريرها من كل الأشياء التي كانت
ملقاة عليه، واستلقت فوقه، وهي على يقين من أنها ستظل
مستلقية لفترة طويلة من دون نوم، بسبب الصدمة التي ألمت
بها نتيجة للفوضى التي أحدثها سليمان في أثناء الدقائق
القليلة التي غابت فيها عنه. على مدار الفصول التي مرت على
صداقتهما اعتبرت أن تفكيرها فيه كان باعتباره مثلاً أو قريبا
جدا إلى نفسها، على الرغم من أنها كانت تعرف أن سليمان لم
يكن قريبا إلى نفسها في المرة الأولى التي التقت فيها. وهي الآن
ترى كيف أنها خدعت نفسها وسقطت في ذلك الغرور الخطير
الباطل والزائف في قلب ذلك الوهم: فقد افترضت بطريقة ما
أن مرافقته وصداقته لها، بطريقة تلقائية، كانت شيئا جيدا إلى
أقصى حد بالنسبة إليه، لدرجة أنه كان سيمر بعملية تحسن
وتطور لا يمكن التفاوض عنها، نتيجة لمعرفته بها. وفي غمرة
رغبتها في رؤيتها له وهو يتغير، كانت قد بدأت تتسى ما كان
عليه سليمان بالفعل في الأصل. «لن أتمكن من فهمه أبدا».
فكرت بشكل يائس، وهي واثقة من هذا كل الثقة لأنها أحست

بأن اقترابها الشديد منه لم يتح لها الفرصة أبدا لأن تكون قادرة على ملاحظته من دون تحيز.

«هذه هي الصحراء»، قالت لنفسها. الطعام هنا ليس للزينة؛ فالغرض منه هو الأكل. لقد قمت بتقديم الطعام، وقام هو بتناوله. وأي نقاش سيلقي باللوم على هذا ويدين الولد يمكن أن يكون خاطئا في النهاية. ولذا كانت ممددة هناك وهي تتهم نفسها، «لقد كان الأمر مثاليا بدرجة متقدمة وراقيا إلى حد كبير جدا»، فكرت بإمعان، «وليس مجرد رغبة أو ميل إلى الشفقة». وفي النهاية غرقت في النوم على صوت الريح.

عندما استيقظت في الفجر رأت أن اليوم سيصبح يوما آخر مظلما. كانت الريح قد هدأت. نهضت وأغلقت النافذة. كانت سماء الصباح الباكر مليدة بالغيوم. فعادت إلى سريرها وراحت في النوم. كان الوقت متأخرا عن المعتاد عندما نهضت عن سريرها، وارتدت ثيابها ودخلت إلى حجرة الطعام. كان وجه بوفيلجا خاليا من التعبير بشكل غريب عندما ألقى عليها تحية الصباح. فافترضت أن هذا كان بسبب ذكرى سوء التفاهم الذي وقع في الليلة الماضية والتي لم تفارقه بعد، أو من المحتمل أنه كان متضايقا للاضطراب إلى تنظيف بقايا منظر الميلاد. بمجرد أن جلست وبسطت فوطتها فوق حجرها، اعتدل بشكل كاف ليقول لها: «احتفال سعيد».

«شكرا لك، قل لي يا بوفيلجا»، واصلت وقد تغيرت نبرة صوتها، «عندما أحضرت سليمان إلى هنا في الليلة الماضية بعد تناولي العشاء، هل كنت تعرف أين كان؟ هل أخبرك بمكانه؟».

«إنه ولد غبي»، قال بوفيلجا، «قلت له أن يذهب إلى البيت ويتناول طعامه ويعود في وقت لاحق. هل تعتقدن أنه قد فعل ذلك؟ أبداً. فقد ظل طوال الوقت يتجول في أرجاء الفناء، خارج باب المطبخ، في الظلام».

«لقد فهمت!» صاحبت الأنسة ويندلينج في فرح، «وبالتالي لم يتناول أي عشاء على الإطلاق».

«لم يكن لدي شيء لأقدمه له»، بدأ بوفيلجا، وقد تحفز للدفاع عن نفسه.

«لم يكن عليك بالطبع»، قالت بصرامة. «فقد كان ينبغي عليه أن يذهب إلى البيت ويتناول طعامه».

«آه، أترين؟» ابتسم بوفيلجا ابتسامة عريضة، وأضاف: «هذا هو ما قلت له أن يفعله!».

راحت القصة كلها تتجسد في ذهنها على النحو التالي: ليس من المستبعد أن يكون سليمان قد أخبره والده وهو واقف بعيداً عنه أنه سيتناول طعامه في الفندق مع السيدة السويسرية، وأغلب الظن أن الرجل العجوز قد أتى ببعض الإشارات الدالة على الاحتقار لها، ثم غادر سليمان البيت. ولم يكن هناك مجال للتفكير في العودة إلى البيت ومواجهة السخرية من جانب عائلته، عندما تم منعه من الدخول إلى حجرة الطعام، «يا للولد المسكين»، تمت.

«قائد الشرطة يرغب في رؤيتك»، قال بوفيلجا، بطريقة من طرقة الفجة في الكلام والتي يلجأ فيها إلى استخدام عنصر المفاجأة. أصابتها الدهشة، نظرا إلى أن القائد، العام تلو الآخر،

ثم تصدر عنه أي بادرة تدل على أنه كان على دراية بوجودها،
غالفندق والحصن كانا مثل مدينتين منفصلتين. «ربما بسبب
الاحتفال»، قال بوفيلجا مقترحا، ووجهه يخفي حقيقة ما يخبئه.
«ربما»، قالت بارتباك.

وعندما فرغت من تناول إفطارها، سارت إلى الجهة المقابلة
حيث بوابات الحصن. بدا أن الحارس كان في انتظارها، وكان
أحد الجنديين الفرنسيين الشابين يطلي أحد الكراسي في الفناء
الداخلي للحصن. ألقى الجندي الشاب عليها التحية، وقال لها إن
القائد في مكتبه. صعدت درجات السلم الطويلة وتوقفت لحظة
في أعلاها، وألقت بنظرة إلى أسفل على الوادي ولاحظت، في
الضوء الرمادي غير المعتاد، إلى أي مدى كان الوادي مختلفا
تماما عما هو عليه في العادة، في هذا اليوم المعتم.

جاءها صوت من الداخل يناديها: «تفضلي بالدخول إذا
سمحت!» (*) ففتحت الباب ودخلت إلى الحجرة. كان القائد
جالسا خلف مكتبه، تولد لديها شعور قوي غير محبب لأنه سبق
لها الوقوف في موقف مشابه لهذا في مناسبة أخرى، وفي مكان
آخر. واقتنعت فجأة أنها كانت تعرف ما كان على وشك أن يقوله.
أمسكت الأنسة ويندلينج بظهر الكرسي الخالي المواجه للمكتب.
«تفضلي بالجلوس، يا أنسة ويندلينج»، قال، وهو ينهض عن مقعده
بشكل جزئي، وأشار بذراعه ثم جلس بسرعة مرة ثانية.

كانت هناك عدة خرائط طبوغرافية معلقة على الحائط
خلفه، وعليها علامات بالطباشير الأرجواني والأخضر. نظر

(*) وردت العبارة بالفرنسية [المترجم].

القائد إلى مكتبه ثم إليها، وقال في صوت واضح: «إنه لمن سوء الحظ أن أضطر إلى استدعائك إلى هنا في هذه الإجازة». جلست الأنسة ويندلينج على الكرسي، ومالت إلى الأمام، وقد بدا أنها على وشك أن تسند مرفقها إلى مكتبه، لكنها بدلا من ذلك وضعت إحدى ساقها فوق الأخرى وعقدت ذراعيها إلى صدرها بإحكام. «نعم؟» قالت، في توتر، وهي تنتظر الرسالة. وعلى الفور جاءت الرسالة التي كانت على دراية مسبقة بها، وعلى الرغم من ذلك، فقد كانت ممتنة له. قال لها بوضوح إن المنطقة بأكملها قد أُغلقت بالنسبة إلى المدنيين، وأن هذا الأمر ينطبق على المواطنين الفرنسيين بالإضافة إلى الأجانب، ولذلك يجب ألا تشعر بتحمل تجاهها. وقد قيلت الجملة الأخيرة مصحوبة بمحاولة رسم ابتسامة تدل على الاستياء والتسليم بالأمر الواقع. «هذا يعني أنه يجب عليك أن تستقلي الشاحنة غدا في الصباح»، وقال القائد مواصلا كلامه: «لقد تم إخطار السائق بالفعل برحلتك. ربما في عام آخر عندما ينتهي الاضطراب...» (لماذا يقول ذلك؟) فكرت، في حين أنه يعرف أن هذه هي النهاية، وأن وقت الصداقة قد انتهى؟) نهض القائد ومدّ يده إليها.

لم يكن بوسعها أن تتذكر خروجها من حجرة المكتب وهبوطها السلم الطويل إلى الفناء الداخلي، إلا أنها كانت تقف الآن خارج البوابة التي يقف عليها الحارس بجوار سور الحصن، ويدها على جبينها. «بالفعل، لقد جاء سريعا جدا»، فكرت. وخطر لها أنه لن يتاح لها وقت كاف للقيام بالإصلاح من شأن سليمان

وتحسينه لذلك فقد كان حقيقيا فعلا أنها لن تتمكن من فهمه أبدا . تقدمت إلى حاجز الشرفة المنخفض لتتظر للحظة إلى أسفل حيث حافة الواحة، ثم عادت إلى غرفتها لتشرع في حزم أمتعتها . ظلت طوال اليوم تعمل في غرفتها، تخرج الصناديق، وهي تجبر نفسها على أن تعمل تركيزها فقط على القرارات التي كانت تتخذها في ما يتعلق بما كان يتعين عليها أن تأخذه معها أو تتركه بصفة نهائية .

في وقت الغداء أخذ بوفيلجا يتلأأ قرب كرسيها، ثم قال: «آه، يا آنسة، كم من الأعوام قضيناها معا، وانتهت الآن!». «نعم»، فكرت، لكن لم يكن ثمة شيء للقيام به في ما يتعلق بهذا الشأن. أزعجها رثاؤه أو تفجعه وجعلها عصبية وجافة معه. ثم أحسست بالذنب على نحو كامل، فقالت ببطء وهي تتظر إليه مباشرة: «أنا حزينة جدا، يا بوفيلجا». تنهد قائلا: «نعم، يا آنسة، أعرف!».

وعند مغيب الشمس زحفت السحب الكثيفة القاتمة بعيدا عبر الصحراء، وكانت السماء الغربية صافية بشكل جزئي. كانت الآنسة ويندلينج قد انتهت من حزم جميع أمتعتها. خرجت إلى الشرفة، وشاهدت الكتبان الرملية القرنفلية المتوهجة، ثم صعدت السلالم إلى السطح لتشاهد الغروب. كانت السماء مخططة بمجموعات كبيرة من السحب شديدة الاحمرار بلون النار. تركت نظرتها المكددة تتبع بطريقة آلية التواءات وتعرجات وادي النهر الذي راح يضيع نفسه في صحراء الحمادة المظلمة في اتجاه الجنوب. «إن هذا في الماضي»، ذكرت نفسها، كان هذا عهدا جديدا بالفعل. بدت الصحراء هناك في الخارج كما

كانت تبدو عليه دائما . لكن السماء، المفتقرة للتناسق، بين اللونين الأحمر والأسود، كانت مثل الإعلانات اليدوية التي انتشرت فوقها مباشرة، تعلن قدوم الحرب.

كانت خيانة، هكذا فكرت، وراحت تهبط السلالم العالية شديدة الانحدار، وتنقل يدها على امتداد الحائط الطيني الخشن المألوف لتحافظ على ثباتها وتوازنها. كان الفرنسيون بالطبع هم المتهمين. لكن بعيدا عن هذا كانت هي على اقتناع غير مقبول بأن الريف ذاته قد تأمر في الخيانة، بما أنه كان ينتظر ليتحول إلى ساحة للصراع. دخلت إلى غرفتها وأنارت المصباح الزيتي الصغير، وجلست، وأبقت يديها فوق المصباح لتدفئتهما. من ناحية أخرى كان هناك تغيير، فلم يعد الناس راغبين في الاستمرار في العيش في العالم الذي عرفوه. وضغط الماضي أصبح عظيما جدا، وتحطمت محارته الواقية.

بعد الظهر قامت بإرسال بوفيلجا لينقل الخبر إلى سليمان، ويطلب منه أن يحضر إلى الفندق في الفجر. في أثناء وجبة العشاء راحت تناقش بشكل دقيق تفاصيل المغادرة والسفر. وعندما حاول بوفيلجا التطرق في المحادثة إلى اتجاهات عاطفية، لم ترد عليه. كانت مواساته لا تطاق، وكانت هي غير معتادة على التعبير عن قنوطها. عندما وصلت إلى غرفتها ذهبت من فورها إلى السرير. وظلت الكلاب تنبح حتى منتصف الليل.

كان الطقس باردا في الصباح. كانت يدها تؤلمها عندما راحت تجمع أغراضها المبتلة من حوض الغسل فوق المنضدة، وبطريقة ما دفعت شظية على نحو عميق تحت ظفر إبهامها. أخرجت

جزءاً منها بواسطة إبرة، لكن تبقى الجزء الأكبر منها. مضت إلى الخارج قبل الإفطار.

ووقفت في أرض قاحلة بين الفندق والحصن، ونظرت إلى أسفل إلى وجه الريف البريء. ومضخة الجازولين المقفلة بالقفل، والمبهجة في طلائها الجديد باللونين الأحمر والبرتقالي، واللافتة للانتباه في ضوء الشمس المبكر النقي. وقد بدت لها لبرهة الشيء الوحيد الحقيقي في المشهد. استدارت إلى الوراء. فوق الكتلة المظلمة غير المتناسقة لأشجار النخيل ارتفعت القرية بشرفاتها، هادئة في الصباح تحت ستار دخان الخشب. أغلقت عينها للحظة، ثم دخلت إلى الفندق.

كان في مقدورها أن تشعر بنفسها وهي جالسة ساكنة فوق كرسيها بينما كانت تشرب قهوتها، وكانت تعرف أنها كانت متحفظة ورسمية في تعاملها مع بوفيلجا لكنها كانت متأكدة من أن تلك هي الطريقة الوحيدة التي كانت تجعلها قادرة على الاستمرار. وبمجرد أن جاء لإخبارها أن سليمان قد وصل جالبا معه الحمار وصاحبه لحمل أمتعتها، شكرته ووضعت فنجان قهوتها على المنضدة. «هل ترغبين في المزيد؟» قال بوفيلجا. «كلا»، أجابت. «تناولي فنجانا آخر يا آنسة»، حثها. «إنه جيد في الصباح البارد». وصب فنجانا آخر لها فشربت بعضاً منه. كان هناك صوت طرق على البوابة. كان أحد الجنديين الشابين قد أرسل بعربة جيب ليقوم بتوصيلها إلى نقطة توقف الشاحنة على الطريق.

«لن أستطيع!» صاحت، وهي تفكر في سليمان والحمار. أوضح الجندي أنه لا يقوم بعمل تطوعي، وأنه قد صدر إليه أمر بهذا.

كان سليمان واقفا بجوار الحمار خارج البوابة. وعندما شرعت في التحدث مع سليمان صاح الجندي: «هل يريد هذا الصبي المجيء معنا؟ بإمكانه أن يأتي أيضا، إذا أحب». جرى سليمان ليحضر الأمتعة وأسرعت الأنسة ويندليج لتسوي حسابها. «لا تتعجلي»، صاح الجندي إليها، «هناك فسحة من الوقت». كان بوفيلجا واقفا في مدخل المطبخ. خطر لها للمرة الأولى أن تتساءل عما سيحدث له، فعند إغلاق الفندق سيصبح بلا عمل. عندما انتهت من تسوية حسابها وأعطته «بقشيشا» كان أكبر بكثير مما بوسعها أن تمنحه، أمسكت بكلتا يديه في يدها وقالت: «عزيزي بوفيلجا، سوف يرى أحدنا الآخر قريبا جدا». «آه، نعم»، صرخ بوفيلجا وهو يحاول أن يبتسم. «قريبا جدا، يا آنسة».

أعطت سائق الحمار بعض المال، وصعدت إلى العربة الجيب بجوار الجندي، وكان سليمان قد انتهى من وضع الأمتعة ووقف خلف العربة، يركل الإطارات. «هل أحضرت كل شيء؟»، نادى عليه. «كل شيء؟» كانت ترغب في رؤية كل شيء بنفسها، لكنها كرهت الرجوع إلى الغرفة. كان بوفيلجا قد اختفى، وعاد الآن مسرعا وهو يلهث حاملا كومة من المجلات القديمة. «حسنا، لا، لا! أنا لا أريدها»، قالت. كانت العربة قد تحركت بالفعل إلى الأمام باتجاه أسفل التل. وفي غضون وقت كان بالنسبة إليها قصيرا جدا كانوا قد وصلوا إلى منطقة الصخور. عندما حاولت الأنسة ويندليج رفع حقيبة يدها بدأت الدموع تطفر من عينيها بسبب الألم الذي سببته بقية الشظية تحت ظفر إبهامها، فتركت

نفسها تتفجر في البكاء. لمحا سليمان فأصابته الدهشة، «لقد أصبت يدي»، قالت له مفسرة، «ليس الأمر خطيرا». تم رص الحقائق في الظل. كان الجندي الفرنسي جالسا فوق صخرة قرب العربية في مواجهة الأنسة ويندلينج، ومن وقت إلى آخر كان ينعم النظر في الأفق من خلفها بحثا عن أثر للشاحنة. كان سليمان يتفحص العربية الجيب من جميع الجهات، وفي النهاية جلس على مقربة منها. لم يقل أحدهما للآخر الكثير. لم تكن متأكدة إن كان هذا بسبب الجندي، أو لأن إبهامها كان يؤلمها جدا بشكل مستمر، لكنها كانت جالسة في هدوء تنتظر، ولا ترغب في التحدث.

كان قد مر وقت طويل قبل أن يتم سماع صوت موتور الشاحنة. وعندما كانت الشاحنة لاتزال بعيدة ولا تعدو كونها سحابة من الغبار بين السماء والأرض، كان الجندي قد نهض على قدميه وراح يراقبها، وبعد فترة قصيرة نهض سليمان وقال: «لقد وصلت، يا سيدتي». ثم انحنى واقترب بوجهه بشدة من وجهها وهمس إليها «أريد أن أذهب معك إلى» كولون - بشار(*)». وعندما لم ترد عليه، لأنها كانت ترى بالكامل قصة صداقتهما تترى أمامها رويدا رويدا، بدءا من نهايتها وحتى بدايتها، قال لها في صوت أعلى، وبإلحاح كبير: «من فضلك، يا سيدتي».

ترددت الأنسة ويندلينج لحظة فقط. رفعت رأسها ونظرت بتفرس في وجه سليمان الأسمر الأملس الذي كان قريبا جدا منها، وقالت «بالطبع، يا سليمان». كان من الواضح أنه لم يكن

(*) مدينة في غرب الجزائر [المترجم].

يتوقع أن يسمع هذا، وانتقلت البهجة التي غمرته إليها، فابتسمت بينما كانت تشاهده وهو يجري إلى كومة الحقائب وراح ينقلها من الظل إلى حيث ضوء الشمس ليضعها على هيئة صف في الغبار بجانب الطريق الوعرة.

في ما بعد، عندما كانوا ينطلقون بسرعة على امتداد الحمادة، هي في المقدمة إلى جوار السائق وسليمان مقرفصا في الخلف مع دسته من الرجال والغنم، راحت تنظر بعين الاعتبار إلى ما قامت به من عمل غير مسؤول بسماحها له بالقيام بهذه الرحلة العبثية بصحبتها على طول الطريق إلى كولون - بشار. ومع ذلك، كانت تعرف أنها تريد أن تعطي قصتهما نهاية كهذه. كانت بين الحين والآخر تلتفت بشكل جزئي في مقعدها لتتظر بسرعة عبر الزجاج المتسخ، وكان سليمان جالسا هناك في الغبار والدخان، يضحك مثل الآخرين، وقلنسوة برنسه تغطي معظم وجهه.

كانت الدنيا تمطر في كولون - بشار، وكانت الشوارع عبارة عن برك كبيرة تنعكس على صفحتها السماء الملبدة بالغيوم. في الجراج تمكنا من العثور على ولد زنجي فظ ليساعدهما على نقل الأمتعة إلى محطة السكة الحديد. كان إبهامها يؤلمها بدرجة أقل قليلا.

«إنها بلدة باردة»، قال لها سليمان بينما كانا يهبطان إلى الشارع الرئيسي. في المحطة أودعا الحقائب في الأمانات، ثم ذهبوا إلى الخارج ووقفا يشاهدان إحدى السيارات التي كان يجري إنزالها من قطار بضائع مفتوح: كان سقف السيارة لا يزال مغطى بالثلج الأبيض الذي تساقط فوقه من السهول المرتفعة.

كان النهار داكنا، وكانت الريح تحدث أمواجاً في أسطح الماء في الأراضي الجرداء المغمورة به. ولأنه لم يكن بإمكان قطار الأنسة ويندلينج أن يغادر حتى وقت متأخر من بعد الظهر، فقد ذهبوا معاً إلى المطعم وجلسوا فترة طويلة يتناولان الغداء.

«هل ستعود بالفعل إلى بيتك غدا؟»، سألتها في قلق في إحدى المرات، بينما كانا يتناولان الفاكهة. «أنت تعرف أننا قمنا بعمل مزعج جداً لأبيك وأمك. وأنهما لن يسامحاني أبداً». بدا وكأن ستارا قد سقط على وجه سليمان. «لا يهم»، قال باقتضاب.

بعد الغداء سارا في الحديقة وشاهدت النسور في أقفاصها. بدأت الريح تجلب مطراً خفيفاً. وأصبح طين الطريق أكثر عمقا. عادا إلى وسط البلدة وجلسا في شرفة مقهى حديث واسع ورديء. كانت الطاولة الموضوعة في مؤخرة الشرفة محمية بشكل جزئي من الريح المحملة بالمياه، كانا في مواجهة بقعة فارغة تناثرت بها قمامة ملقاة. وكان في الجوار، ممدداً مثل عظام أحد الجمال التي تسقط على الطريق، بقايا حافلة قديمة صدئة. وكانت نخلة طويلة مقطوعة حديثاً ملقاة بشكل قطري بطول رقعة الأرض الكبيرة. التفتت الأنسة ويندلينج لتتظر إلى الألياف البرتقالية المبتلة في جذع النخلة المقطوعة، وشعرت بشفقة كاملة لا جدوى منها نحو الشجرة. «سأطلب كوكا كولا»، قالت معلنة. وقال سليمان إنه يرغب هو أيضاً في واحدة.

ظلاً جالسين هناك فترة طويلة. مال المطر الخفيف خلال الهواء إلى خارج الأروقة المقنطرة، وراح يرتطم بالأرض في ضمت. كانت قد توقعت أن يقترب منها الشحاذون، لكن لم

يصل أحد منهم، ونظرا إلى أن الوقت قد حان لمغادرة المقهى والذهاب إلى المحطة فقد كانت ممثلة لرؤية أن اليوم قد انصرم بسهولة شديدة. فتحت محفظتها، وأخرجت منها ثلاثة آلاف فرنك، وأعطتها لسليمان وهي تقول: «سيكون هذا المبلغ كافيا لكل شيء». لكن يجب عليك أن تشتري تذكرة العودة إلى قريتك اليوم، عندما تغادر محطة السكة الحديد. كن شديد الحرص عليها».

وضع سليمان المال في ملابسه، وأعاد تسويه برنسه، ثم شكرها. «هل فهمت يا سليمان»، قالت، ثم احتجزته بيدها لتمهله، لأنه بدا على وشك أن ينهض عن الطاولة. «لن أعطيك أي نقود أخرى الآن، لأنني في حاجة إلى ما معي لرحلتي. لكن عندما أصل إلى سويسرا سأرسل لك القليل، من وقت إلى آخر. ليس كثيرا، القليل».

كان وجهه قد سيطرت عليه علامات الذعر، وكانت هي في حيرة من أمرها.

«إنك لم تأخذي عنواني»، قال لها.

«لا. لكنني سأرسلها على عنوان بيت بوفيلجا»، قالت، فلما منها أن هذا سوف يرضيه. مال نحوها، وعيناه تشعان قوة وتركيزا، وقال في حسم: «لا، يا سيدتي. لا، لدي عنوانك، وسأرسل إليك عنواني. وعندما يصلك، يمكنك أن تكتبي لي عليه».

لم يبد أن هذا الأمر يستحق الجدل بشأنه. طوال فترة بعد الظهر لم يؤلها إبهامها كثيرا جدا، لكن الآن، وبينما كان النهار على وشك الانتهاء، بدأ يؤلها بشدة، مرة ثانية. أرادت أن تنهض،

وتبحث عن النادل لتعطيه حسابه. لا يزال المطر الخفيف يهب، وكانت المحطة بعيدة نوعاً ما، إلا أنها رأت أن سليمان كان لديه شيء ما أكثر ليقوله. مال سليمان في كرسيه إلى الأمام ونظر إلى الأرض، «سيدتي»، بدأ. «نعم؟» قالت. «عندما تكونين في بلدك وتفكرين فيّ لن تكوني سعيدة. هذا صحيح، أليس كذلك؟».

«سأكون حزينة جداً»، أجابت وهي تنهض. نهض سليمان ببطء، وصمت برهة قبل أن يواصل كلامه قائلاً: «حزينة لأنني أكلت الطعام من اللوحة. كان هذا سيئاً جداً. سامحيني».

صاحت صارخة في نبرة قوية أفزعته «لا لا لا!». صرخت مرة ثانية: «كان هذا شيئاً جيداً!» وأحست بعضلات وجهها وشفثتها تتقلص إلى تكشيرات توحى بالبكاء، فأمسكت بذراع سليمان بقوة ونظرت إلى وجهه: «آه، يا صغيري المسكين!» وراحت تتشجج، ثم غطت وجهها بكفتي يديها. وشعرت بسليمان وهو يلمس كمّها في رقة ورفق. مرت شاحنة في الشارع الرئيسي، فهزّت الأرض. وبصعوبة بالغة ابتعدت وراحت تفتش في حقبيتها عن منديل. «تعال»، قالت، ثم تتحنّحت، وأضافت: «ناد على النادل».

وصلا إلى المحطة مبتلين وهما يشعران بالبرد. كان القطار يجري ترتيب عرباته وتجهيزه، ولم يكن مسموحاً للركاب بالاتجاه إلى الرصيف فجلسوا على الأرضية في الداخل. بينما كانت الأنسة ويندلينج تشتري تذكرتها ذهب سليمان ليحضر الحقائق من الأمانات. كانت قد مضت على ذهابه فترة طويلة. وعندما

عاد كان برنسه مطروحا على ظهره فوق كتفيه، وابتسامة فخر وانتصار عريضة على شفتيه، والحقائب الثلاثة مرصوفة فوق رأسه. وكان رجل يرتدي سترة وبنطلونا أوروبيين باليين يسير خلفه حاملا بقية الأمتعة. عندما اقترب منها أكثر رأت الرجل يحمل قصاصة ورقية بين أسنانه.

كانت مقصورة القطار القديمة تبعث برائحة ورنيش. كان بوسعها أن ترى عبر النافذة، فوق بعض الأراضي الجرداء البعيدة في اتجاه الغرب، بضعة خيوط من السماء البيضاء الممتلئة بالمياه. أراد سليمان أن يغطي المقاعد بالأمتعة، حتى لا يجيء أحد ويجلس في المقصورة. «لا»، قالت. «ضعها على الأرفف». كان هناك ركاب قليلون جدا في عربة القطار. عندما تم الانتهاء من وضع كل شيء في موضعه الصحيح، وقف الحمال خارج المقصورة في الممر، ولاحظت أنه لا يزال ممسكا بقصاصة الورق بين أسنانه. عمد إلى عد العملات المعدنية التي أعطته إياها ووضعها في جيبه. ثم بسرعة أعطى الورقة إلى سليمان، وانصرف.

مالت الأنسة ويندلينج إلى أمام قليلا، وراحت تتفحص وتتظر إلى وجهها في المرأة الصغيرة التي كانت ممتدة بالطول على ظهر المقعد المقابل لها. لم يكن هناك ضوء كاف، وكان المصباح الزيتي فوقها يضيء السقف فقط، وكانت قاعدته تلقي بظل واهن على كل ما تحتها. فجأة اهتز القطار وصدرت عنه سلسلة من الأصوات الصاخبة. أخذت رأس سليمان بين يديها وقبلته في منتصف جبينه. «من فضلك انزل من القطار»، قالت له.

«بإمكاننا التحدث من هنا»، وأشارت إلى النافذة وبدأت تجذب الحزام الجلدي الذي في أسفل النافذة لتفتح زجاجها.

بدأ سليمان صغيراً في ظلمة الرصيف، وهو يحدق فيها إلى أعلى بينما مالت هي إلى الخارج. ثم بدأ القطار في التحرك. اعتقدت في ثقة أن القطار سيتحرك عدة أقدام فقط ثم يتوقف بعد ذلك، لكنه واصل تقدمه ببطء. راح سليمان يسير معه، محافظاً على محاذاته للنافذة التي تقف فيها. وفي يده الورقة التي أعطاه إياها الحمال. رفعها إلى أعلى ليناولها إليها، وهو يصيح: «هذا هو عنواني! أرسله على هذا العنوان!».

أخذت الورقة، وظلت تلوح له بينما كان القطار يسرع، وواصلت الصياح: «إلى اللقاء!» استمر سليمان في المشي بسرعة بمحاذاة النافذة، وظل يزيد من خطوته حتى صار يجري، ثم انتهى الرصيف فجأة ولم يعد هناك المزيد منه. انحنت هي إلى الخارج أكثر، وهي تنظر إلى خلف القطار، وتلوح لسليمان، حتى اختفى في الظلام والمطر. التمع لسان برتقالي من اللهب عند القضيب، ولسع الدخان فتحتي أنفها. سحبت النافذة إلى أعلى، ونظرت بسرعة إلى قصاصة الورق التي في يدها، ثم جلست. ظل القطار يهزها يمناً ويسرة، وهي تواصل التحديق في الورقة، على الرغم من أنها أصبحت الآن في الظل والعتمة. وتذكرت اليوم الأول، منذ فترة طويلة، عندما كان الطفل سليمان يقف خارج الباب يراقبها، ويتراجع عن مجال رؤيتها في كل مرة كانت تحاول فيها أن تنظر إليه. كانت الكلمات المكتوبة له على عجل بواسطة الحمال على قصاصة الورق هي عنوانه من دون شك،

غير أن العنوان كان في كولون - بشار. «قالوا إنه حاول الهرب، لكنه لم يذهب بعيدا جدا». كانت كل جزئية من تفاصيل سلوكه عندما استرجعتها بوضوح تبين طبيعته ونمط سلوكه لها. «إنه صغير جدا لكي يكون جنديا»، قالت لنفسها. «لن يأخذوه إلى الجندية»، لكنها كانت تعرف أنهم سوف يفعلون.

كان إبهامها ساخنا ومتورما، وبدا في بعض الأحيان أن خفقان إبهامها كان متزامنا تقريبا مع اهتزاز العربة من جانب إلى آخر. نظرت إلى البقع القليلة الباقية من الضوء في السماء، كانت هذه البقع بلا لون. «كان سيقدم على فعلته هذه إن أجلا أو عاجلا»، قالت محاولة أن تقنع نفسها.

«ربما في عام آخر»، قال القائد. رأت ابتسامتها اليائسة الملتوية في زجاج النافذة المعتم المجاور لوجهها. ربما سيكون سليمان من بين المحظوظين، أول الجنود الذين يسقطون في المعركة. «لو كان الموت هو الشيء الوحيد المؤكد تماما في زمن الحرب»، فكرت بامتعاض، «فلن يكون الحزن والنحيب مؤلما جدا». بدأ القطار، رحلة الصعود الطويلة إلى أعلى قمة الهضبة، وهو يتميل ويصدر صوتا كالأنين.

١٩٣١

وليام فوكنر

غروب الشمس في ذلك المساء

عن «ذي أمريكيان مركوري»

١

لا يختلف يوم الاثنين في جيفرسون الآن ، عن أي يوم آخر في الأسبوع ، فالشوارع أصبحت الآن معبدة ، وشركات الاتصالات والكهرباء تقطع كل يوم ، المزيد من الأشجار المظلمة - البلوط المائي والقيقب والخرنوب والدردار ، لإفساح المكان أمام الأعمدة الحديدية ، التي تحمل عناقيداً شبيهة منقوخة لا تجري فيها الدماء . كما أصبح لدينا مغسلاً للملابس ، يقوم بجولاته صباح الاثنين ليجمع أكوام الثياب في سيارات خاصة ، زاهية الألوان ، تهرب بملابس الأسبوع المغبرة مثل الأشباح خلف الأبواب الكهربائية المثيرة للسيارات وسط أصوات المطاط التي يطول تلاشيها على الاسفلت مثل أصوات تمزيق الحرير . حتى نساء العبيد اللواتي ما زلن يغسلن ثياب البيض ، بحسب العادات القديمة ، صرن ينقلن الملابس في السيارات .

قبل خمسة عشر عاماً كانت الشوارع الهادئة المغبرة والمظلمة ، صبيحة الاثنين تمتلئ عادة بنساء العبيد ، وهن يوازنّ على رؤوسهن المعممة أكداس الثياب المربوطة في ملاءات ، يصل حجم بعضها إلى حجم بالات القطن ، ويسرن بها دون أن تلمسها أيديهن بين أبواب مطابخ البيض وقدور الغسيل السوداء قرب مداخل الأكواخ في نيجروهولو .

كانت نانسي تضع كومة الغسيل على رأسها ، ومن فوق الكومة تركز قبعة القش البحرية السوداء التي كانت ترتديها صيفاً وشتاءً ، كانت طويلة ذات وجه عال حزين غائر قليلاً حول فمها الذي فقد أسنانه ، كنا أحياناً نرافقها جزءاً من الطريق أسفل الممر الضيق ومن ثم عبر المرعى لنراقب الكومة المتوازنة ، والقبعة التي لم تهتز أو تتمايل أبداً . حتى وهي تعبر الخندق ، وتنسلق مرة أخرى أو حين تنحني لتمر عبر السياج . كانت تنزل على يديها وركبتيها ، وترحف عبر الفتحة ورأسها صلب ، مرفوع والكومة ثابتة كالصخرة أو كالبالون ثم تنهض على قدميها وتتابع السير .

أحياناً كان أزواج النسوة الغسالات يقومون بإحضار الغسيل ، ولكن جوباً لم يكن ليفعل ذلك لنانسي ، حتى قبل أن يبلغه أبي بأن يبقى بعيداً عن منزلنا وحتى عندما كانت ديلسي مريضة ، وكانت نانسي تأتي لتطبخ لنا الطعام .

وبعد مضي نصف الوقت اللازم لعبورنا أسفل الممر الضيق إلى منزل نانسي لإبلاغها ، كي تأتي وتحضر الفطور ، كنا نقف عند الخندق ، لأن والدي يقول لنا أن لا نتعاطى بشيء مع جوبا ، الذي كان رجلاً أسود قصيراً على وجهه أثر لضربة سكين ، وكنا نرمي الأحجار على بيت نانسي حتى تطل من الباب . وتقف متكئة عليه دون أن تكون مرتدية أي ثياب .

- «ماذا تعنون بهذا ؟» قالت نانسي «ترمون بيتي بالحجارة» .

«ماذا تريدون أيها الشياطين الصغار»

- «يقول والدي بأن تأتي وتحضري الفطور» يجيبها كادي «يقول والدي لقد مضت نصف ساعة على الوقت ويجب أن تأتي في هذه الدقيقة» .

- «لا أريد أن أحضر أي فطور» أجابت نانسي أريد أن أحصل على نصيب من النوم .

- «أراهن أنك ثملة» قال جاسون «يقول والدي أنك ثملة أأنت ثملة يا نانسي

؟»

- «من يقول ذلك» تجيب نانسي «أريد أن أنام الآن . لن أحضر أي فطور» .

بعد ذلك نتوقف عن رشق المنزل ، ونعود إلى بيتنا ، وعندما تأتي هي أخيراً يكون الوقت قد تأخر على ذهابي إلى المدرسة ، كنا نظن أن سبب ذلك هو الويسكي . إلى

أن جاء اليوم الذي اعتقلوها فيه مرة أخرى ، وعلى طريق السجن مروا بالسيد ستوفال ، الذي يعمل أمين صندوق في البنك ، وشماساً في الكنيسة الإنجيلية وعندها بدأت نانسي بالصراخ :

«متى ستدفع لي أيها الرجل الأبيض ؟ متى ستدفع لي أيها الرجل الأبيض ؟ لقد مرت ثلاث مرات ، منذ أن دفعت لي سنتاً واحداً» . أوقعها السيد ستوفال أرضاً ، إلا أنها استمرت في قول : «متى ستدفع لي أيها الرجل الأبيض لقد مرت ثلاث مرات منذ» إلى أن ضربها السيد ستوفال على فمها ، وسقطت نانسي في الشارع وهي تضحك . استدارت نانسي وبصقت بعض الدم والأسنان وقالت لقد مرت ثلاث مرات ولم يدفع لي سنتاً واحداً .

هكذا فقدت نانسي أسنانها ، ومر النهار والجميع يتحدثون عن نانسي والسيد ستوفال ، كان العابرون قرب السجن يسمعونها طوال الليل ، تغني وتزقق وكانوا يرون يديها معلقتين بقضبان النافذة . وقف العديد منهم قرب السياج يستمعون لها وللسجان وهو يحاول أن يخرسها . لم تسكت إلى ما قبل طلوع النهار ، عندما بدأ السجان يسمع أصوات ارتطام وكشط في الأعلى . عندما صعد وجد نانسي معلقة على قضيب النافذة ، قال أن السبب هو الكوكائين وليس الويسكي لأنه لا يوجد أسود يحاول الانتحار . إلا إذا كان معبأً بالكوكائين ، لأن الأسود الذي يمتلئ بالكوكائين لا يعود أسود أبداً . أنزلها السجان وأنعشها ثم أوسعها جلدًا وضرباً ، حاولت شق نفسها بثوبها ، كانت قد ثبتته تماماً ، لكن عندما تم اعتقالها لم يكن عليها سوى هذا الثوب ، لذا لم يكن لديها شيء لتربط يديها به ، لم تستطع أن تفلت يديها من إفريز النافذة . لذا عندما سمع السجان الأصوات صعد راکضاً ووجد نانسي مدلاة من الشباك عارية تماماً .

عندما كانت دلسي مريضة في كوخها ونانسي تطبخ لنا ، كنا نرى مريولها منفوخاً . كان هذا قبل إخبار والدي جوبا ، بأن يبقى بعيداً عن المنزل . كان جوبا يجلس في المطبخ خلف الموقد ، وندبة السكين على وجهه الأسود كقطعة سلك قدرة . قال إن نانسي تضع تحت ثوبها بطيخة . كان الفصل شتاءً وسأله كادي :

- من أين تأتي ببطيخة في الشتاء ؟

- أنا لم أت بها قال جوبا أنا لم أعطيها إياها ولكنني أستطيع أن أنزلها تماماً كما كانت .

ما الذي يجعلك تتكلم هكذا أمام هؤلاء الأطفال ؟ قالت نانسي . لماذا لا تذهب إلى عملك ؟ هل تريد أن يقبض عليك السيد جاسون ، وأنت تتجول حول المطبخ وتتكلم بهذه الطريقة أمام الأطفال ؟

- يتكلم بهذه الطريقة يا نانسي ؟ قال كادي

- «لا أستطيع أن أبقى حول مطبخ الرجل الأبيض» قال جوبا ، «ولكن الرجل الأبيض يستطيع أن يبقى في مطبخي . ويستطيع الرجل الأبيض أن يأتي إلى بيتي ، ولا أقدر أن أمنعه . عندما يأتي الرجل الأبيض إلى بيتي ، لن يكون لدي بيت . فأنا لا أستطيع منعه وهو يستطيع أن يطردني خارجه . ولا يجب أن يفعل هذا » . كانت ديلسي ما تزال مريضة في كوخها . أخبر والدي جوبا البقاء بعيداً عن المكان ، كانت ديلسي مريضة منذ وقت طويل ، وكنا نحن في المكتبة بعد العشاء .

- «ألم تنتهي نانسي بعد» ؟ قالت أُمي «يبدو لي أنها أمضت وقتاً طويلاً في غسيل الأطباق .»

«ليذهب كوينتين وير» قالت «أُمي اذهب لترى إذا كانت نانسي قد انتهت وقولي لها أن تعود إلى بيتها .»

«ذهبت إلى المطبخ ، كانت الأطباق مرفوعة والنار خامدة ، ونانسي قد انتهت من عملها ، جلست على كرسي بجانب المدفأة الباردة ، نظرت إلي فقلت لها : أن أُمي تسأل إذا كنت قد انتهيت .»

- نعم لقد انتهيت ، نظرت إلي .

- «ماذا هناك» قلت «لها ماذا هناك ؟»

- «أنا لست سوى زنجية» قالت نانسي : «إن هذه ليست غلطتي» . نظرت الي وهي تجلس على الكرسي بجانب المدفأة الباردة ، وقبعتها البحرية على رأسها . عدت إلى المكتبة . كانت المدفأة الباردة ، وكل شيء ولكنك عندما تفكر بالمطبخ تراه دافئاً ومزدحمًا ومرحاً . والآن أصبح الموقد بارداً ، والأطباق مرفوعة ولا يوجد أحد ليأكل في تلك الساعة .

- هل انتهت ؟ سألت أمي
- نعم يا أمي . قلت
- ماذا تفعل ؟ سألت أمي
- إنها لا تفعل شيئاً لقد انتهت .
- «سأذهب لأرى» قال أبي
- «ربما تنتظر جواباً ليأتي ويصطحبها إلى البيت» قال كادي .
- جواباً ذهب . قلت : فقد أخبرتنا نانسي كيف أنها استيقظت ذات صباح وكان جواباً قد اختفى .
- «لقد تركني» ، قالت نانسي «وذهب إلى ممفيس على ما أظن ، مراوغاً شرطة المدينة على ما أظن» .
- «ونعم الخلاص» قال أبي «أمل أن يبقى هناك» .
- «إن نانسي تخاف من الظلام» قال جيسون .
- «كذلك أنت» . قال كادي .
- «أنا لست كذلك» قال جيسون .
- «أيها القطة المرعوبة» قال كادي .
- «أنا لست كذلك» قال جيسون .
- «أنتما» . . . قالت أمي . عاد أبي
- «سوف أسير عبر الممر الضيق مع نانسي» قال أبي «إنها تقول أن جواباً قد عاد» .
- «هل رأيته ؟» سألت أمي
- «كلا ، . جاء شاب أسود وأبلغها بأنه قد عاد إلى البلدة ، لن أمكث طويلاً» .
- «تتركني لوحدي ، لترافق نانسي إلى بيتها ؟ هل سلامتها أضمن لديك من سلامتي قالت أمي .»
- «لن أتأخر كثيراً» قال أبي .
- «هل تترك هؤلاء الأطفال بدون حماية من أجل تلك السوداء؟»
- «أنا ذاهب أيضاً» قال كادي «دعني أذهب يا أبي» .
- «ماذا سيفعل بهم إذا كان حظه سيئاً لدرجة الحصول عليهم؟» قال أبي

- «أنا أريد أن آتي أيضاً» قال جيسون .

«جيسون» قالت أمي موجهة حديثها إلى أبي - يمكنك أن تشعر من الطريقة التي قالتها ، بأنها تظن أن أبي كان يجهد تفكيره طوال النهار ، بأن يفعل أكثر شيء تكرهه . وأنها كانت تعلم طوال الوقت أنه سوف يفكر بفعله بعد فترة . لبثت هادئة ، لأن أبي وأنا كنا نعلم بأن أمي تريدني أن أبقى معها ، لو فكرت بالأمر في وقته . لذا لم ينظر والدي إليّ . فقد كنت أنا أكبرهم وفي التاسعة من عمري كان كادي في السابعة وجيسون في الخامسة .

- هراء قال أبي لن تتأخر .

نانسي تضع قبعتها على رأسها ، وصلنا إلى الممر الضيق ، قالت نانسي «لقد كان جوبا لطيفاً معي . كلما كان في جيبه دولاران كان أحدهما لي» . سرنا عبر الممر . وقالت نانسي ، «سأكون بخير عندما أستطيع عبور الممر حينها فقط سأكون بخير» . الممر معتماً دائماً . قال كادي «هنا أصيب جيسون بالهلع في عيد الهالوين» .
- «أنا لم أخف» قال جيسون .

- «ألا تستطيع العمة راشيل أن تفعل معه شيئاً؟» قال أبي كانت العمة راشيل عجوزاً ، تعيش في كوخ بقرب كوخ نانسي ، لها شعر أبيض وتدخل الغليون على باب بيتها طوال النهار . وهي لم تعد تعمل أبداً ، يقولون إنها والددة جوبا وكانت تعترف أحياناً بذلك ، في حين كانت في أحيان أخرى تنكر أي صلة قرابة لها مع جوبا .

- «نعم لقد خفت» قال كادي . «إنك تخاف أكثر من فروني ، لقد خفت حتى أكثر من تي . بي وخفت أكثر من السود» .

- «لا يستطيع أحد أن يفعل معه شيئاً» قالت نانسي ، «إنه يقول بأنني أصحي الشيطان فيه ولا يعيده إلى هلوئه إلا شيء واحد» .

- «حسناً ، لقد ذهب الآن» ، قال أبي : «لا يوجد شيء تخافين منه» لو يمكنك فقط أن تتركي الرجال البيض بحالهم .

- «كيف تترك الرجال البيض فقط؟» قال كادي «كيف تتركهم؟»

- «إنه لم يذهب إلى أي مكان» قالت نانسي : «إنني أشعر به ، إنني أشعر به الآن

في هذا الممر الضيق وأنه يسمع حديثنا وكل كلمة . أنه يختبئ في مكان ما وينتظر .
لا أراه ولا أريد أن أراه مرة أخرى ، وهو يحمل ذلك السكين المدلى بسلك وراء ظهره ،
داخل القميص ولن أدعه لا يفاجئني .

- «لم أكن خائفاً» قال جيسون .

- «لو أحسنت التصرف لبقيت في منأى عن هذا كله» ، قال أبي : «ولكن لا
بأس ، الآن على الأرجح أنه في سانت لويس وربما تزوج امرأة أخرى ، نسي أمرك» .
- «إذا فعل ذلك فالأفضل لي أن لا أعرف» قالت نانسي : «لأنني سأقف هناك
وأقطع ذراعاه كلما حاول أن يضمهما إليه ، أو أقطع رأسه وأشق بطنها وسوف
أكده . . .»

- «هش» قال أبي :

- «تشقين بطن من يا نانسي؟» سأل كادي

- «لم أكن خائفاً» قال جيسون «وأستطيع ان أسير الآن لوحدي في هذا الممر .»

- «نعم» . كادي لن تجربوا أن تضع قدمك فيه لو لم تكن نحن معك .

كانت ديلسي ما تزال مريضة ، لذا بقينا نحضر نانسي كل ليلة ، إلى أن قالت
أمي : إلى متى سيستمر هذا الأمر ، أن أترك لوحدي في هذا البيت الكبير وأنت
تذهب لترافق زنجية مرعوبة إلى منزلها ؟

أقمنا لنانسي في المطبخ فراشاً من القش . وفي إحدى الليالي ، استيقظنا بعد
سماعنا صوتاً قادماً من الدرج المظلم في الأعلى ، لم يكن صوت بكاء . هناك ضوء
في غرفة أمي ، سمعنا أبي ينزل إلى القاعة أسفل الأدراج الخلفية . ذهبت أنا وكادي
إلى القاعة ، كانت الأرضية باردة ، كنا نحاول إبعاد أصابع أقدامنا بعيداً عن الأرضية
الباردة ، نحن نستمع إلى الصوت . كان يشبه الغناء ولكنه ليس غناءً ، كان صوت
من تلك الأصوات ، التي تصدر عن الزوج . ثم توقف الصوت ، وسمعنا والدي
يصعد الدرج الخلفي مرة أخرى ، ذهبنا إلى رأس الدرج ، عاد الصوت مرة أخرى في
مر الدرج . لم يكن عالياً واستطعنا رؤية عيني نانسي في منتصف الدرج قرب الجدار ،
كانت عيناها تشبهان عينا قط . مثل قط كبير ، يرقبنا من اتجاه الجدار عندما نزلنا
الدرج حيث تجلس ، توقفت عن إصدار الصوت ، يقينا واقفين حتى عاد أبي من

المطبخ ، ومسدسه في يده . عاود النزول إلى أسفل ، مع نانسي ثم عاد وهو يحمل فراشها . وضعنا الفراش في غرفتنا بعد أن انطفأ النور في غرفة والدتي ، ورأينا عيني نانسي مرة أخرى . همس كادي : «نانسي هل أنت نائمة ؟» همست نانسي شيئاً : مثل أه أو لا أعلم أيهما وكأن أحداً لم يقلهما ، أو أنهما قدمتا من مكان غير معروف ، وذهبتا إلى مكان آخر غير معروف ، وكأن نانسي لم تكن هناك أبداً .

كنت أنظر إلى عينيها عند الدرج بحدة ، شعرت وكأنهما انطبقتا على جفني ، مثلما تفعل الشمس ، عندما تغمض عينيك ولا تراها . «يا يسوع» همست نانسي ، «يا يسوع»

- «هل هو جوبا» همس كادي «هل حاول أن يدخل إلى المطبخ؟»
- «يا يسوع» قالت نانسي : وظلت تقول يا يسوع إلى أن اختفى الصوت كما يختفي ضوء الشمعة .
- «هل تستطيعين رؤيتنا يا نانسي؟» همس كادي «وهل تستطيعين رؤية أعيننا أيضاً؟» .

- «أنا لست الا زنجية سوداء ، الله يعلم ، الله يعلم» .
- «ما الذي رأيته في المطبخ؟» همس كادي ، «من الذي حاول الدخول؟»
- «الله يعلم» قالت نانسي وكنا نستطيع رؤية عينيها .
- لقد تحسنت حالة ديلسي وجهزت لنا الغداء ، وقال لها أبي : تستطيعين أن تبقي في الفراش يوماً أو يومين آخرين
- ولماذا ؟ لو تأخرت يوماً أو يومين ، لتحول هذا المكان إلى خرابة ، اخرجوا من هنا الآن ودعوني أعيد تنظيم مطبخي مرة أخرى .
جهزت ديلسي العشاء أيضاً في تلك الليلة قبل حلول الظلام . وجاءت نانسي إلى المطبخ .

- «كيف تعرفين أنه عاد؟» قالت لها ديلسي «فإنك لم تريه .»
- «جوبا أسود» قال جيسون .
- «إنني أشعر به ، أشعر به مخبئاً في ذلك الخندق» قالت نانسي .
- «الليلة ؟» قالت ديلسي «هل هو هناك الليلة ؟»

- «ديلسي زنجية أيضاً» قال جيسون .
- «حاولي أن تأكلي شيئاً» قالت ديلسي .
- «لا أريد شيئاً» قالت نانسي .
- «أنا لست زنجياً» قال جيسون .
- «تناولي بعض القهوة» قالت لها ديلسي ، صبت لنانسي فنجاناً من القهوة ، وأضافت «هل تعلمين أنه هناك الليلة ؟ وكيف تعلمين ذلك ؟»
- «أنا أعلم» قالت نانسي - «إنه هناك ينتظر ، أنا أعلم ، لقد عشت معه طويلاً وأعرف ماذا يريد أن يفعل قبل أن يعرف هو .»
- «تناولي بعض القهوة» قالت ديلسي ، ورفعت نانسي الفنجان إلى فمها ، نفخت فيه وخرج فمها من الفنجان ، كالأفعى المبسطة ، وكأنه فم مطاطي أو كأنها لم تبق من شفاهها أي لون وهي تنفخ في القهوة .
- «إنني لست أسود» قال جيسون : «وأنت سوداء يا نانسي»
- «يا للجحيم ، لقد ولدت هكذا يا ولد» . قالت نانسي : «وقريباً لن أكون شيئاً - سأعود قريباً من حيث أتيت .»
- بدأت تشرب قهوتها ، وهي تمسك الفنجان بيديها الاثنتين ، ثم بدأت بإصدار ذلك الصوت مرة أخرى . أطلقت الصوت داخل الفنجان فارتشت القهوة على يديها وثوبها وكانت عيناها تنظر إلينا ، وهي جالسة وأكواعها عند ركبيتها تمسك الفنجان بكلتا يديها وتنتظر من خلال الفنجان المبتل وتطلق هذا الصوت .
- «انظر إلى نانسي» قال جيسون «إنها لن تطبخ لنا الآن فقد عادت ديلسي إلى صحتها .»
- «اخرس أنت» قالت ديلسي في حين كانت نانسي تطلق ذلك الصوت ، وهي تنظر إلينا ممسكة الفنجان بكلتا يديها ، وبدت كأن هناك اثنتين منها واحدة تنظر إلينا والأخرى تصدر الصوت .
- لماذا تركت السيد جاسون يهااتف المارشل ؟ قالت ديلسي .
- توقفت نانسي عن الشرب ، وهي ما تزال ممسكة بالفنجان بكلتا يديها السمراوتين ، وحاولت أن تشرب القهوة مرة أخرى ، ولكن أندلق فنجان على يديها

وعلى ثوبها . فوضعت الفنجان جانباً في حين راج جيسون يراقبها .
- «لا أستطيع أن أبتلعها» قالت نانسي «إنني أحاول ابتلاعها ولكنها لا تنزل .»
- «انزلي إلى الكوخ» قالت ديلسي : «سيجهز لك فروني فراشاً وسأوافيك بعد قليل» .

- «ألن يوقفه أي زنجي؟» سألت نانسي .
- «أنا لست زنجياً» قال جيسون «هل أنا كذلك يا ديلسي؟»
- «لا أظن ذلك» . قالت ديلسي ونظرت إلى نانسي «لا أظن ذلك ماذا ستفعلين الآن؟»

حدقت نانسي بها ، وكانت عيناها تدوران بسرعة دون أن تتحرك ، كانت خائفة من أن لا تجد الوقت لتنظر ، وتحقق بنا نحن الثلاثة وفي وقت واحد وقالت :
- «هل تذكرون تلك الليلة التي نمت فيها في غرفتكم؟»
أخبرتنا كيف استيقظنا في اليوم التالي ، ولعبنا بهدوء على فرشتها إلى أن استيقظ أبي وصار لزاماً عليها أن تنزل لتحضير الفطور .
- «اذهبوا واسألوا أمكم إذا كنت أستطيع البقاء هنا الليلة . أنا لا أريد فراشاً ويمكننا أن نلعب المزيد» . قالت .

سأل كادي أمي وكذلك جيسون .
- «لا أستطيع أن أترك سوداً ينامون في بيتي» قالت أمي .
بكى جيسون ، وظل يبكي إلى أن هدأت أمي بأنه لن يتناول الحلوى لثلاثة أيام ، إذا لم يتوقف عن البكاء . عندها قال جيسون أنه سيتوقف إذا قامت ديلسي بصنع كعكة شوكلاتة ، وكان أبي واقفاً هناك .

- «لماذا لا تفعل شيئاً حول الموضوع؟» قالت أمي «لماذا يوجد رجال شرطة هنا؟»
- «لماذا تخاف نانسي من جواباً؟» قال كادي : «هل تخافين من أبي يا أمي؟»
- «ماذا يمكنهم أن يفعلوا؟» قال أبي : «إذا كانت نانسي لم تره بعد فكيف يمكن للضباط أن يروه؟»

- «إذن لماذا كل هذا الخوف من طرفها؟» قالت أمي .
- «تقول إنه هنا ، تقول إنها تعلم أنه الليلة هنا .»

- «ومع ذلك فنحن ندفع الضرائب» قالت أمي؟ وأنا علي أن أنتظر هنا في هذا البيت الكبير لوحدي ، بينما أنت ترافق امرأة سوداء لبيتها .

- «إنك تعلمين أنني لا أبيت الليل في الخارج ، ومعني سكين» قال أبي
- «سوف أتوقف إذا صنعت ديلسي كعكة شوكلاته» قال جيسون : أمرتنا أمي بالخروج وقال أبي لجيسون إنه لا يعلم إذا كان سيحصل على كعكة شوكلاته أم لا ولكنه يعلم ما الذي سيلاقيه جيسون بعد دقيقة ، عدنا جميعاً إلى المطبخ وأخبرنا نانسي .

- قال لها أبي أن عليها العودة للبيت واغلاق الباب وسوف تكون بخير ، وقال كادي «بخير من ماذا ؟ يا نانسي هل جوبا غاضب عليك ؟» كانت نانسي تحمل فنجان القهوة بين يديها ، وأكواعها عند ركبتها والفنجان بين ركبتها وكانت تنظر في الفنجان .

- «ماذا فعلت حتى غضب منك جوبا ؟» قال كادي .
أقلت الفنجان من بين يدي نانسي ، وسقط على الأرضية دون أن ينكسر ، لكن القهوة اندلقت . جلست نانسي ، وقد لفت يديها على هيئة فنجان ، ثم بدأت بإطلاق ذلك الصوت مرة أخرى ، ليس عالياً كأنها تغني ولا تغني وأخذنا نراقبها .
- «هيا توقفي عن هذا» قالت ديلسي : «وتالكي نفسك وانتظري هنا فسوف أطلب من فيرش أن يرافقك إلى المنزل» ثم خرجت ديلسي ونظرنا إلى نانسي ، كانت كتفاها ترتجفان . ولكنها توقفت عن إطلاق الصوت . بقينا نراقبها . «ماذا سيفعل لك جوبا ؟» قال كادي : «لقد غادر» نظرت نانسي إلينا .

- «لقد تمتعنا في تلك الليلة التي أمضيتها في غرفتكم أليس كذلك؟»

- «كلا» . قال جيسون . «أنا لم أمتع» .

- «لقد كنت نائماً» قال كادي : «إنك لم تكن معنا» .

- «لنذهب إلى منزلي ونمتع أكثر» قالت نانسي :

- «إن أمي لن تسمح لنا» قلت لها ، «والوقت متأخر الآن»

- «لا تقلقوها سوف نخبرها في الصباح ، لن تبالي كثيراً!»

- «إنها لن تسمح لنا» قلت لها .

- «لا تطلب منها الآن» قالت نانسي : «لا تزعجها» .
- «لم يقولوا بأننا لا نستطيع الذهاب» قال كادي :
- «إننا لم نسأل» قلت له :
- «إذا ذهبتما فسوف أخبر عنكما» قال جيسون :
- «سوف نتمتع» قالت نانسي ، «لن يباليا كثيراً ، فقط إلى بيتي» .
- لقد عملت عندكم وقتاً طويلاً . لذا فهما لن يباليا .
- «أنا لست خائفاً من الذهاب» ، جيسون هو الذي يخاف ، وسوف يخبر عنا .
- «أنا لست خائفاً» قال جيسون :
- «أنت خائف» قال كادي وسوف تخبر عنا .
- «أنا لن أخبر عنكم ولست خائفاً» . قال جيسون :
- «جيسون لا يخشى بأن يذهب معنا ، هل أنت خائف يا جيسون ؟»
- قالت نانسي :
- «جيسون سوف يخبر» قال كادي .
- كان الممر الضيق معتماً ، مررنا عبر بوابة المرعى . قال كادي : «إذا قفز علينا شيء من خلف ذلك الباب ، فإن جيسون سوف يصيح» .
- «لن أفعل ذلك» قال جيسون : وسرنا عبر الممر الضيق ، فيما كانت نانسي تتكلم بصوت مرتفع .
- «لماذا تتكلمين بصوت مرتفع هكذا يا نانسي ؟» قال كادي :
- «من ؟ أنا ؟» قالت نانسي «اسمعوا ! كوينتين وكادي وجيسون يدعون بأني أتكلم بصوت مرتفع» .
- «إنك تتكلمين وكأننا أربعة هنا» قال كادي : «تتكلمين وكأن أبي هنا أيضاً» .
- «من ؟ أنا أتكلم بصوت مرتفع يا سيد جيسون ؟» قالت نانسي :
- «لقد نادى نانسي جيسون باسم سيد» قال كادي :
- «اسمعوا كيف يتكلم جيسون وكوينتين وكادي» قالت نانسي :
- «إننا لا نتكلم بصوت مرتفع» قال كادي ، «بل إنك أنت التي تتكلمين وكأن
- أبي» ...

- «هش . اسكت يا سيد جيسون» .
- نادت نانسي جيسون باسم سيد مرة أخرى . . .
- «هش» قالت نانسي : كانت تتكلم بصوت مرتفع ، عندما عبرنا الخندق وانحنينا لنمر عبر السياج ، الذي كانت تنحني لتمر خلاله . وهي تحمل الثياب على رأسها ثم وصلنا إلى بيتها . كنا نسير بسرعة حينها . فتحت الباب كانت رائحة البيت تشبه رائحة المصباح ، أما رائحة نانسي فكانت كرائحة الفتيلة . وكأنهما كانا ينتظران رائحة أخرى . أضواء المصباح وأغلقت الباب وأقفلته بالمزلاج ثم بدأت تتكلم ، لكن بصوت منخفض وهي تنظر إلينا .
- «ماذا سنفعل ؟» قال كادي :
- «ما الذي تريدون كلكم ان تفعلوه ؟» قالت نانسي :
- «لقد قلت أننا سنستمتع .» قال كادي :
- كان هناك شيء في منزل نانسي ، شيء تستطيع شمّه ، حتى جيسون شمّ ذلك ، قال لا أريد أن أبقى هنا ، أريد أن أعود إلى البيت
- «عد إذن» قال كادي :
- «لا أريد أن أعود لوحدي» قال جيسون :
- «سوف نتسلى قليلاً» قالت نانسي :
- «كيف ؟» قال كادي :
- وقفت نانسي بجانب الباب وراحت تنظر إلينا ، لكن هذه المرة كانت عيناها مفرغتين وكأنها توقفت عن استعمالهما .
- ماذا تريدون أن تفعلوا؟ قالت نانسي :
- «أخبرينا قصة» . قال كادي : «هل تستطيعين أن تخبرينا قصة ؟»
- «نعم» قالت نانسي :
- «إذن احكي» قال كادي : «ألا تعرفين أي قصص» . نظرنا جميعاً إلى نانسي
- «نعم» قالت نانسي «أعرف» .
- جلست على مقعد بالقرب من المدفأة ، هناك بعض النار . أوقدتها قليلاً وأصبح المكان حاراً . لم نكن نحتاج إلى نار فقد ، كان اللمب كافياً . حكّت لنا قصة . كانت

تتكلم وعيناها تراقبنا ، أو كأنها صوتها ليس لها ، أو كأنها تعيش في مكان آخر .
تنتظر في مكان آخر ، وكأنها كانت خارج البيت . صوتها وشكلها كانا خارج البيت ،
تلك النانسي التي كانت تنحني أسفل السياج ، وهي تحمل كومة من الثياب بتوازن
على رأسها وكأنها لا تحمل وزناً أو كأنها تحمل بالوناً ، كانت هناك وكان هذا كل
شيء . تابعت تروي القصة : «وهكذا كانت الملكة تسير صاعدة إلى الخندق ، وكان
الرجل الشرير يختبئ هناك ، وكانت تقول : لو أستطيع فقط عبور هذا الخندق ، . هذا
ما كانت تقوله» .

- «أي خندق؟» قال كادي : «أهو خندق مثل ذلك الذي في الخارج؟»

«لماذا تريد الملكة أن تدخل إلى الخندق.»

- «لكي تصل إلى بيتها» قالت نانسي : ونظرت إلينا - «كان عليها أن تعبر

الخندق لكي تصل إلى بيتها.»

- «لماذا أرادت أن تذهب إلى بيتها؟» قال كادي :

٤

نظرت نانسي إلينا ثم توقفت عن الكلام ، كانت رجلا جيسون بارزتين خارج
بنطاله بسبب صغر حجمه وقال :

- «لا أظن أن هذه القصة جيدة ، أريد أن أعود إلى البيت .»

- «ربما لدينا قصة أفضل» قال كادي ونهض عن الأرضية ، أظن أنهم يبحثون عنا

الآن ثم اتجهت نحو الباب .

- «كلا» قالت نانسي : «لا تفتح الباب» .

نهضت بسرعة وسبقت كادي نحو الباب وقالت : «لا تلمس الباب ولا المزلاج

الخشبي .»

- «لم لا؟» قالت كادي :

- «تعالوا إلى المصباح» قالت نانسي «سوف نتسلى . لا تذهبوا .»

- «إن علينا أن نذهب» قال كادي «إلا إذا تسلينا كثيراً .» عاد هو ونانسي نحو نار

المصباح .

- «أريد أن أعود إلى البيت» قال جيسون : «سوقف أبلغ عنكم .»
- أعرف قصة أخرى قالت نانسي ووقفت بجوار المصباح ونظرت إلى كادي مثلما تكون عيناك تنظر إلى عود موضوع بتوازن على أنفك . كان عليها أن تنظر إلى الأسفل ، لترى كادي ولكن عيناها كانتا هكذا كأنما يوازنان عوداً .
- «لن أستمع إليها» قال جيسون : «سوف أطرق على الباب .»
- «إنها قصة جيدة» قالت نانسي : «وأفضل من الأولى .»
- «عن ماذا تتحدث هذه القصة» قال كادي :
- كانت نانسي تقف بجوار المصباح ، ويدها فوقه أمام الضوء طويلة وسمراء .
- «إن يدك على هذه الكرة الساخنة . ألا تشعرين بحرارتها على يديك» قال كادي : نظرت نانسي إلى يدها على مدخنة المصباح ، ورفعتها ببطء ووقفت هناك تنظر إلى كادي ، وهي تلوي يدها وكأنها كانت مربوطة بخيط إلى معصمها .
- «لنفعل شيئاً آخر» قال كادي :
- «أريد أن أعود إلى البيت» قال جيسون :
- «إن لدي بعض البوشار» قالت نانسي ونظرت إلى كادي ، ثم إلى جيسون ثم إليّ ومن ثم إلى كادي مرة أخرى .
- «إن لدي بعض البوشار» قالت مرة أخرى .
- «أنا لا أريد البوشار» قال جيسون : «أفضل الحلوى .»
- نظرت نانسي إلى جيسون وقالت : «بإمكانك أن تمسك بوعاء التحميص الذرة» وكانت لا تزال تلوي يدها الطويلة السمراء .
- «حسناً» قال جيسون : «سوف أبقى إذا تمكنت من فعل ذلك ، فكادي لا تستطيع الإمساك به ، وسوف أذهب إلى البيت إذا أمسك كادي بوعاء التحميص .»
- أشعلت نانسي النار وقال كادي : «انظروا إلى نانسي إنها تضع يدها في النار ، ما بالك يا نانسي؟»
- «إن لدي بوشار» ، وأخرجت وعاء التحميص من تحت السرير ، كان مكسوراً فأخذ جيسون بالبكاء وقال لا يمكننا أن نحصل على بوشار .
- «علينا أن نعود إلى البيت على أية حال» قال كادي وأردف : «هيا يا كوينتين» .

- «انتظروا» قالت نانسي : «انتظروا سوف أصلحه ألا تريدان مساعدتي في إصلاحه .»

- «لا أظن أنني أريد شيئاً» قال كادي : «فالوقت متأخر جداً الآن .»

- «أتساعدني يا جيسون ؟» قالت نانسي : «ألا تريد أن تساعدني ؟»

- «كلا» قال جيسون : «أريد أن أعود إلى البيت .»

- «هش» قالت نانسي : «هش ، راقبني وانظر كيف يمكنني أن أصلحه ، بحيث

يسكه جيسون ويحمص الذرة» أحضرت قطعة سلك وأصلحت وعاء التحميص .

- «إنه لن يسك جيداً» قال كادي :

- «نعم سوف يسك» قالت نانسي : «انظروا جميعاً ستساعدوني في تقشير

الذرة» .

كانت الذرة موضوعة تحت السرير أيضاً ، قمنا بتقشيرها ووضعها في وعاء

التحميص ، وساعدت نانسي جيسون في تثبيت الوعاء فوق النار .

- «إنها لا تفرقع» قال جيسون ، «أريد أن أعود إلى البيت .»

- «انتظر» قالت نانسي : «سوف تبدأ بالفرقة وعندها سوف تتسلى» ، كانت

تجلس بقرب النار ، كان المصباح قد أدير عالياً لدرجة أنه بدأ يدخن .

- «لماذا لا تخفضين منه قليلاً ؟» قلت لها :

- «إنه على ما يرام» قالت نانسي : «سوف أنظفه ، انتظروني سوف يكون البوشار

جاهزاً خلال دقائق .»

- «لا أصدق أنه سيبدأ بالفرقة» قال كادي : «يجب أن نعود إلى البيت على أي

حال ، فإنهم سيقلقون علينا .»

- «كلا» قالت نانسي : «سوف يفرقع ، وإن ديلسي ستقول لأكم أنكم معي

ولأنني عملت لديكم وقتاً طويلاً فهم لن يبالوا كثيراً إذا كنتم في منزلي . والآن

انتظروا فإن الفرقة ستبدأ خلال دقائق .»

دخل بعض الدخان في عيني جيسون ، وبدأ يبكي ثم أسقط الحماسة في النار .

أحضرت نانسي رقعة مبلولة ، ومسحت وجه جيسون ولكنه لم يتوقف عن البكاء .

- «هش» قالت له «هش» ولكنه لم يسكت . أخرج كادي وعاء التحميص من

- النار ، وقال «لقد احترقت وعليك إحضار المزيد من الذرة يا نانسي .»
- «هل وضعتها كلها فيها ؟» سألت نانسي :
- نعم قال كادي ، فنظرت نانسي إلى كادي ثم أخذت الحماسة من كادي وفتحتها وسكبت البوشار الأسود في مريولها . ثم أخذت تفرز الحبوب بيديها الطويلتين السمرأوين فيما نحن جميعاً نراقب .
- «أليس لديك المزيد ؟» سألتها كادي :
- «نعم ،» قالت نانسي ، «انظروا ! هذه لم تحترق وجميع ما نحتاج فعله . . .»
- «أريد أن أذهب إلى البيت» قال جيسون ، «سوف أبلغ عنكم .»
- «هش» قال كادي ، أخذنا نصغي جميعاً ، كان رأس نانسي قد اتجه نحو الباب المغلق بالمزلاج ، وعيناها تلمعان في ضوء المصباح الأحمر .
- «هناك شخص قادم ،» قال كادي :
- بدأت نانسي بإطلاق ذلك الصوت مرة أخرى بصوت غير مرتفع . كانت تجلس قرب النار ويداها الطويلتان تتدليان بين ركبتيها ، وفجأة بدأ الماء يخرج من وجهها في نقاط كبيرة ، وينسل أسفل وجهها في كل نقطة ، منه تجري كرة ضوء نارية إلى أن يصل إلى ذقنها .
- «إنها لا تبكي» قلت :
- «أنا لا أبكي» قالت نانسي بعينين مغمضتين «أنا لا أبكي : من هناك ؟»
- «لا أعلم قال كادي . ذهب إلى الباب وأخذ ينظر .
- إن علينا العودة الآن إلى البيت ها هو أبي قادم .»
- «سوف أبلغ» قال جيسون : «لقد أجبرتوني جميعاً على المجيء إلى هنا .» كان الماء ما يزال يجري على وجه نانسي ، واستدارت في مقعدها ثم قالت : «اسمعوا أخبروه أنكم استمتعتم هنا ، وأنتي اعتنيت بكم جيداً حتى الصباح . أخبروه أن يسمح لي بالذهاب معكم إلى البيت والنوم على الأرضية . أخبروه أنني لا أحتاج إلى فراش . سوف نستمتع معاً ، فهل تذكرون كم استمتعنا في المرة الأخيرة ؟»
- «أنا لم أستمع أبداً» قال جيسون : «إنك سببت لي الأذى وأدخلت الدخان في عيني» .

دخل أبي - ونظر إلينا - لم تنهض نانسي .

- «أخبروه» قالت :

- «لقد أحضرنا كادي إلى هنا» قال جيسون - «لم أكن أريد ذلك» اقترب والدي من النار ، نظرت نانسي إليه فقال لها : «ألا تستطيعين الذهاب إلى العمة راشيل والبقاء عندها ؟»

نظرت نانسي إلى أبي ، كانت يداها بين ركبتيها . فقال أبي : «إنه ليس هنا وإلا لرأيت ، لم يكن هناك شخص واحد على الطريق» . «إنه في الخندق» قالت نانسي : «ينتظر في الخندق هناك» .

- «كلام فارغ» قال أبي : «هل تعلمين أنه هناك ؟»

- «لقد وصلتني إشارة» .

- «أية إشارة ؟»

- «لقد وصلتني . كانت موضوعة على الطاولة عندما دخلت ، فقد كانت هناك عظمة خنزير ، وعليها بعض اللحم والدم بالقرب من المصباح . إنه في الخارج هناك ، وعندما تغادرون هذا الباب سأكون قد انتهيت .»

- «من الذي انتهى يا نانسي» قال كادي :

- «أنا لست بواش» قال جيسون :

- «كلام فارغ !» قال أبي :

- «إنه هناك في الخارج ينظر من النافذة في هذه الدقيقة - ينتظر خروجكم جميعاً وعندها سأكون قد انتهيت .»

- «كلام فارغ !» قال أبي : «أقفلي باب بيتك وسنأخذك عند العمة راشيل» .

- «لن ينفعني هذا الأمر بشيء» قالت نانسي ولم تكن الآن تنظر إلى أبي بل كان هو ينظر إليها إلى الأسفل إلى يديها الطويلتين المنهكتين المتحركتين .

- «لو غضضت الطرف عن الأمر فلن ينفعني بشيء» قالت نانسي :

- «إذن ماذا تريد أن تفعل ؟» قال أبي

- «لا أعرف» قالت نانسي : «لا أستطيع أن أفعل شيئاً . فقط نسيان الأمر وهذا

لن ينفعني بشيء ، أظن أن الأمر عائد إلي ، أظن أن ما سأناله هو عائد إلي .
 - «تتالين ماذا؟» قال كادي : «ما الذي لك؟»
 - «لا شيء» قال أبي يجب أن تذهبوا جميعاً إلى النوم .
 - «لقد أجبرني كادي على المجيء هنا» قال جيسون :
 - «اذهبي إلى العمة راشيل» قال أبي .
 - «لن ينفعني بشيء قالت نانسي ، وجلست بجانب النار واضعة أكواعها ويديها الطويلتين بين ركبتيها وأضافت : «حتى إن مطبخكم لن ينفعني بشيء وحتى عندما أنام على أرضية الغرفة مع أولادك وفي الصباح التالي ها أنا والدم . . .»
 - «هش» قال لها أبي : «أفقلي الباب وأطفئي النور واذهي للنوم .»
 - «إنني أخاف من الظلام» قالت نانسي : «أخاف أن يحدث الأمر في الظلام .»
 - «هل تعنين أنك ستبقين جالسة هنا والنور مضاء؟» قال أبي :
 بدأت نانسي تطلق الصوت المعهود مرة أخرى وهي جالسة أمام النار ويدها بين ركبتيها .
 - «آه يا للجنة» قال أبي : «هيا يا أولاد حان وقت النوم .»
 - «عندما تذهبون جميعاً ، أذهب وسأكون ميتة غداً» قالت نانسي : «لقد وفرت بعض المال لكفني لدى السيد لفلادي - .»
 كان السيد لفلادي رجلاً قصيراً قذراً ، يجمع التأمين للسود ، ويأتي صباح كل سبت إلى الأكواخ ليجمع خمسة عشر سنتاً . كان هو وزوجته يعيشان في فندق . في أحد الأيام عثر على زوجته منتحرة . كان لديهما طفلة صغيرة ، وكان السيد لفلادي وطفلته قد رحلا بعد انتحار زوجته ، إلا أنه عاد بعد فترة . وكنا نراه وهو يعبر الممرات والأزقة الضيقة صباح كل سبت ، ويذهب إلى الكنيسة المعمدانية .
 حمل أبي جيسون على ظهره ، وخرجنا من باب منزل نانسي ، وبقيت هي جالسة أمام النار .
 - «تعالني وضعي المزلاج» قال لها أبي لكنها لم تتحرك ولم تنظر نحونا مرة أخرى .
 تركناها مكانها بجوار النار وباب منزلها مفتوح حتى لا يحدث الأمر في الظلام .

١٩٣٩

ريتشارد رايت

نجمة الصبح الساطعة

عن «نيو ماسز»

وقفت بوجهها الأسود ، ستة بوصات بعيدة عن لوح النافذة الرطب ، وهي تتساءل متى يمكن لهذا المطر أن يتوقف ، ربما يبقى هكذا طوال الأسبوع . أخذت تفكر ثم سمعت دندنة المطر على السقف . راحت عينها تلاحق عاليا ، وسط السماء الرطبة ، ومضة صامتة لشعاع أصفر لامع ، ينعكس من ضوء طائرة تخترق سماء ممفيس . بين لحظة وأخرى ، كانت تراها تشق طريقها عبر ظلمة المطر وتحوم ثانية مثل سيف يبرق فوق رأسها ثم تختفي .

تنهدت منزعجة ، فقد كان جوني بوي يدوس وسط الوحل طوال النهار ، بدون حذاء لائق في قدميه . . . ومن خلال النافذة كانت ترى الأرض الغنية السوداء تبسط ذراعيها للظلام في الخارج . كان المطر أكثر مما تستطيع التربة استيعابه ، والبرك منتشرة في كل مكان . ثاءبت وتمت : المطر جيد وسيئ ، يمكنه أن يزهر البذور من الأرض . ولكنه يمكن أن ينقعها ، مثل كفن مبتل . كانت يداها متشابكتين بارتخاء فوق معدتها . هواء المطبخ الساخن ينشر ستارا من العرق ، على جبهتها . ومن مدفأة المطبخ كانت تسمع أصواتاً رقيقة للخشب ، وهو يحترق وظهرت الآن فقاعة حلقيه من وعاء تغلي فيه بعض الأعشاب .

سحقاً ، لم يسمح جوني بوي لأحد غيره أن يقوم بكل هذا العمل الحزبي في

المطر، هناك آخرون أفضل منه في ذلك ولكن جوني، لا يثق بأحد أن يفعل له شيئاً، فهو يفعلها بنفسه .

حدقت في كومة من الثياب الرطبة، الملقاة في حوض نحاسي . «واو» من الأفضل أن أبدأ بالعمل، استدارت ثم تناولت مكواة للتلميس، مع قطعة سميكة من القماش ولمستها بإصبع مبلول باللعباب في حركة سريعة : سميتز ! نعم إنه حار . انحنيت وتناولت قميص عمل أزرق اللون من الحوض، وهزته قليلاً . وباستدارة رشيقة من كتفها، التقطت المكواة بيدها اليمنى في حين قامت بسحب قطعة من الشمع من علبة نحاسية، بأصابع يدها اليسرى، وسمع صوت أزيز القلي، بينما هي تمسح قاعها . لم تعد تفكر بشيء الآن، فقد اتبعت يداها طقوساً حياتية طويلة من الكدح والعمل . بسطت قميصاً ثم مررت المكواة جيئةً، وذهاباً حتى تصلب الثوب المبلل . كانت ما تزال في خضم عملها، عندما شقت شفتها الغارقتين أغنية قديمة تعود لأيام الطفولة البعيدة :

هذه هي زنبقة الوادي، نجمة الصباح المشرقة

هذه هي الأجل بين عشرة آلاف

رشقت هبة ريح ببعض المطر على النافذة، يجب أن يعود جوني بوي - إلى البيت لتناول عشاءه، يا إلهي سيكون رائعاً، أن يأكل «سغ» حقاً الليلة، مثل أيام زمان، ربما لن يطول به الأمر حتى يعود، قال في رسالته في الأسبوع الماضي أن لا أقطع الأمل . نعم علينا أن نعيش في أمل . فقد يعود والداها الاثنان سغ وجوني بوي . وبحركة عصبية لا إرادية، توقفت عن الكوي، ووقفت ثابتة تصغي . ولكن الصوت الوحيد الذي طرق مسامعها، كان صوت رشق المطر المتساقط . سحقاً! لا فائدة من حديثي بهذه الطريقة، كانت تفكر، منذ أن جهزوا أنفسهم لعقد الاجتماعات . أصبحت عصبية، وأصبحت أخاف قليلاً منذ وضع سغ في السجن .

سمعت قرع الساعة ونظرت إليها . لقد تأخر جوني بوي ساعة . لا بد أنه يستمتع بوقته وهو يدوس في هذا الوحل . ولكن خوفها كان هادئاً، كان نوعاً من الاكتئاب الشديد، أكثر منه خوفاً . نوعاً من احتضان الحقائق الكريهة، عن قرب بحيث أصبحت تشعر بالجزع، تماماً مثل ما تشعر بسرمان الماء البارد على يديها من صنوبر في

صباح يوم شتاء .

عادت إلى الكي مرة أخرى ، ولكن بسرعة هذه المرة ، وكأنها كلما أشغلت نفسها بالعمل كلما قل انهماكها في التفكير . ولكن كيف يمكنها أن تتناسى جوني بوي في تلك الحقول الرطبة؟ وهو يجمع الشيوعيين من البيض والسود لحضور اجتماع في الغد وماذا كان يفعل سغ بالضبط عندما ألقى رجل الشرطة القبض عليه ؟ وضربه وحاول أن يجبره على الاعتراف من هم رفاقه وأين هم ؟ لا بد أنهم ضربوه ضرباً مبرحاً المسكين سغ ، الحمد لله إنه لم يتكلم فهو ليس ضعيفاً لقد كان قلبه قلب أسد طوال حياته .

حدث هذا قبل سنة ، وكلما عادت مثل هذه الاجتماعات عاد الرعب ليستولي عليها . وبينما هي تدفع بالكوة ، عادت إليها ذكرى أيام الكفاح ، أيام الغسيل والكي من أجل إطعام جوني بوي وسينغ ليتمكنوا من القيام ، بالأعمال الحزبية . أياماً من حمل مئآت الباوندات من ثياب القوم البيض فوق رأسها عبر حقول رطبة أحياناً وجافة أحياناً أخرى . ولكن في تلك الأيام ، لم يكن حمل مئآت الباوندات يعني شيئاً عندما يكون الحمل متوازناً على الرأس ، وهي تدور بالغريزة بين خطوط الذرة والقطن . والمرة الوحيدة التي شعرت بثقلها كانت عندما سمعت عن اعتقال سغ . كانت عائدة ذات صباح إلى البيت وعلى رأسها رزمة من الغسيل ، ويدها تلوحان بتراخ على جنبها ، كانت تسير ببطء وعيناها مثبتتان أمامها ، عندما ناداها بوب صديق جوني بوي عبر الحقول وأبلغها أن رجل الأمن ، قد قبض على سغ ، في ذلك اليوم أصبحت الرزمة أثقل مما تستطيع أن تتذكر .

ومع كل أسبوع يمر الآن ، رغم أنها لم تقل شيئاً لأحد ، أصبحت الأشياء أثقل . أصبحت دلاء الماء والمكواة ورزم الثياب أصعب على الحمل من قبل . فقد ازداد وجع ظهرها وصار العمل يأخذ منها مدة أطول . كل هذا لأن سغ قد غاب ولا تدري متى سيأتي دور جوني بوي . وحتى تخفف من ألم القلق الذي يثقل على قلبها أخذت تهتمهم ثم بدأت تغني برقة :

إنه يمشي معي .

إنه يتكلم معي .

ويقول لي أنني ملكه .

توقفت وابتسمت ، وشعور بالذنب يراودها ، قالت لنفسها يبدو أنني لا أستطيع نسيان هذه الأغاني ، مهما حاولت جاهدة . كانت قد تعلمت هذه الأغاني منذ نعومة أظفارها ، عندما كانت تعمل في مزرعة . صبيحة كل اثنين ، وعبر حقول الذرة والقطن ، كانت هذه الأغاني البطيئة تتردد على شفاه أمها وحيدة ومتلازمة . وفيما بعد ، ومع مرارة السنين ، تعلمت تماماً المعاني العميقة لهذه الأغنيات . علمتها الساعات الطويلة من مسح الأرضيات ، مقابل بعض السنتات القليلة . ماذا كان المسيح وأي نعمة عظيمة أن تلتصق به ، وأن تكون مثله تعاني دون أن تنبس بكلمة . صبت كل شوق حياتها في الأغاني ، واستشعرت مدعومة بإيمان أبعد من هذا العالم ، صورة الرجل وهو مسممر بالأم على الصليب ، ثم صورة دفنه في قبر بارد وانبعائه المجيد فيما بعد ، حقيقة كونه نفس وطين واله وإنسان ، كل هذا ركز مشاعرها ، نحو صورة جرفت حياتها في مسار من الرؤى الرائعة ولكن ، مع تقدمها في السن ، اقتحم رؤاها جبل أبيض بارد ، القوم البيض وقوانينهم ، بعثروا أغانيها ، وحطموا تعاويذ السلام فيها ، بالنسبة لها شكّل هذا الجبل تجربة ، وكان شيئاً غريباً بالابتعاد عن إلهها ، أو جزءاً من عالم نظمته الله لكي تستطيع تحمله ، وتخرج من التجربة أقوى من قبل ، تماماً مثلما خرج المسيح من القبر بمجد عظيم .

عززت الأيام المفعمّة بالمشاكل من إيمانها ، وكبرت لتعشق الصعاب بكبرياء مريّة . أطاعت قوانين القوم البيض بابتسامة هادئة تعرف سرها .

وبعد أن رُفعت أمها إلى السماء في عربة من نار ، جاءها نصيبها من السنين برجل ، يعمل بكدح وطفلين أسودين هما سغ وجونيبوي . قامت هي بإدخالهم في رؤاها ، ثم جاءتها التجربة من الله ، فقد توفي رجلها وكانت تجربة استطاعت تحملها بالقوة التي أسبغت عليها نعمة رؤاها .

وأخيراً ذابت ذكرى رجلها في الرؤيا نفسها ، وتركتها مع ولديها الأسودين الذين راحا ينموان تدريجياً على طريق الرجولة . إلى أن جاء يوم امتلأ قلبها بالحزن ، عندما تقدم جوني بوي وسغ نحوها يطلبان بأن يعيشا حياتيهما . كانت تريد أن تملأ عينيها برؤاها ، ولكنهما لم يريدوا شيئاً من هذا . بكت عندما أخذوا يفاخران بالقوة ، التي

أسبغتها عليهما رؤيا جديدة ورهيبة ، ولكنها كانت تحبهما كما أحبتهما الآن ، وقلبيها الدامي يتابعهما . لم تكن تستطيع أن تفعل أكثر من هذا كونها امرأة عجوزاً في عالم غريب . ويوماً بعد يوم أخذ أولادها ينتزعان ، رؤياها القديمة من أمام عينيها المروعتين . وصورة تلو صورة بدأت تظهر لها رؤيا مختلفة ، كانت كافية بما فيها من القوة والعظمة ، لأن تزج بها في نور نعمة أخرى . أخذت عذابات ومعاناة الرجال السود مكان المسمر على الصليب . وأصبحت البدايات الضعيفة للحزب بمثابة انبعاث جديد لها . وصار الحقد على هؤلاء الذين يريدون تدمير إيمانها الجديد ، يسرع فيها نهماً ويشعرها بمدى عمق قوتها . يا إلهي ، جوني بوي ، كانت تقول أحياناً : القوم البيض يحاولون أن يجبروني على إخبارهم عن من ينتمي إلى الحزب ، ومن لا ينتمي ولكنني سأريهم شيئاً لم يظنوا أن امرأة سوداء يمكن أن تمتلكه .

ولكن في بعض الأحيان ، مثل هذه الليلة ، وبينما هي غارقة في العمل الذي ينسيها همها ، يختلط الماضي بالحاضر في مخيلتها ، وهي مستمرة في الكدح ، تحت نجمة غريبة تبحث عن حرية جديدة ، تنزلق من شفتيها تلك الأغاني القديمة بعذوبتها الخادعة .

بدأت المكواة تبرد ، فوضعت مزيداً من الخطب على النار ، ووقفت أمام النافذة تراقب قطعة من الضوء الأصفر وهي تشق رطوبة الظلام . لم يعد جوني بوي بعد . . . ثم وقبل أن تعي الأمر صمتت برهة تستمع إلى الأصوات . ووسط أزيز المطر ، سمعت وقع أقدام في الطين ، هذا ليس جوني بوي ، فقد كانت تعرف وقع أقدامه الثقيلة الطويلة بين الملايين . أصغت إلى وقع الأقدام وهي تسير على الشرفة ، إنها امرأة ، سمعت أصابعها العارية تدق الباب ثلاث مرات متتالية ، ثم مرة واحدة . لا بد أنهم بعض الرفاق ، رفعت مزلاج الباب ثم فتحته قليلاً وأحجمت إثر رشقه باردة من الهواء الرطب .

– من هذا ؟

– إنها أنا .

– من ؟

– أنا ريفا .

فتحت الباب على مصراعيه .

– يا إلهي إن الجو بارد ، ادخلي .

تحت خطوات جانباً ، وهرعت بسرعة عبر الباب فتاة بيضاء ، نحيفة شقراء الشعر ، وفيما كانت تحكم إغلاق الباب ، سمعت لهاث الفتاة ، هي تنفض ثيابها المبتلة ، لا بد أن هناك أمراً سيئاً ، فلو لم يكن هناك شيء لما جاءت ريثا سيراً عبر المنحدر إلى منزلي . إن هذه الفتاة متعلقة بجوني بوي ، فهل حدث له شيء؟

– ادخلي إلى المطبخ يا ريثا فإنه أذفاً . يا إلهي كم أنت مبتلة؟

– كيف تظنينني سأكون مع مثل هذا المطر؟

– ألم يعد بعد جوني بوي ؟ سألت ريثا .

– كلا ، لا فائدة من القلق عليه . فقط قومي بنزع حذائك ، وإلا ستموتين من البرد ، وقفت تنتظر بذهول : نعم . أظن أن شيئاً قد حصل بالنسبة للحزب أو لجوني بوي يا إلهي » وتتساءل كيف يشعر أبوها لو عرف شعورها نحو جوني بوي ؟

– يا عزيزتي ما كان يجب أن تأتي في مثل هذا الجو الموحل .

– لقد كان لزاماً علي أن آتي يا عمة سو .

قادت ريثا إلى المطبخ .

– اخلعي حذاءك ، واقتربي من المدفأة كي تجفي كلياً .

– عمة سو أريد أن أخبرك شيئاً .

أحست بوقع الكلمات تكتم أنفاسها . لا بد أن الأمر يتعلق بجوني بوي .

– ماذا يا عزيزتي ؟

– لقد جاء رجل الأمن إلى بيتنا الليلة ليرى أبي .

– نعم .

– لا بد أنه سمع كلاماً حول ذلك الاجتماع غداً .

– هل الأمر متعلق بجوني بوي يا ريثا ؟

– كلا يا عمة سو لم أسمع أي كلمة حوله ، هل سترينه الليلة ؟

– لم يعد للبيت ليأكل بعد .

– أين يمكن أن يكون ؟

- الله أعلم يا بنيتي .
 - لا بد لأحد أن يخبر الرفاق ، بأن الاجتماع قد ألغي . قالت ريثا لقد وضع رجل
 الأمن رجالاً ليراقبوا بيتنا ، وكان علي أن أتسلل سراً ، لأصل إلى هنا دون أن
 يتبعوني .
 - ريثا ؟
 - نعم ؟
 - إنني امرأة عجوز ، ويجب عليك أن تقولي لي الحقيقة .
 - ماذا يا عمة سو ؟
 - أنت لا تخدعيني ، أليس كذلك ؟
 - أأخدعك ؟
 - بخصوص جوني بوي .
 - يا إلهي ، كلا يا عمة سو .
 - إذا كان هناك شيء خطأ فأخبريني يا بنيتي . إنني أستطيع تحمله . وقفت قرب
 لوح الكي ويداها معقودتان بتراخ فوق بطنها ، تراقب ريثا وهي تنزع حذاءها المبلل .
 كانت تشعر أنها قد أضاعت جوني بوي ، أخذت تشعر بالألم الذي سيراودها ،
 عندما تعلم حقيقة ذلك . كما شعرت بأن عليها أن تكون شجاعة وأن تتحمل .
 كانت مثل شخص عالق وسط تيار ماء سريع ، والمياه تحرفها ولا ترغب في الاستمرار
 ولكن كان عليها أن تمضي للنهاية .
 الأمر لا يتعلق بجوني بوي يا عمة سو ، قالت ريثا ولكن علينا أن نفعل شيئاً وإلا
 سنقع في ورطة .
 - كيف عرف رجل الأمن عن هذا الاجتماع ؟
 - هذا ما يريد والدي أن يعرفه .
 - لا بد أن أحداً خان مثل يهودا .
 - يبدو الأمر كذلك .
 - أراهن أنه أحد هؤلاء الأعضاء الجدد قالت : - من الصعب معرفة ذلك ، قالت
 ريثا .

– اسمعي يا ريفاً عليك أن تبقي هنا لكي تجففي نفسك ، ولكن عليك بعد ذلك أن تذهبي وتخبري أباك أن جوني بوي ليس هنا ، ولا أدري متى سيأتي . وعلى أحد أن يخبر الرفاق ، بأن يبقوا بعيداً عن بيت أبيك .

وقفت وظهرها إلى النافذة ، تنظر إلى عيني ريفاً الزرقاوين الواسعتين ، ولسان حالها يقول مسكينة هذه المخلوقة ، لقد سارت كل هذه الطريق المنحدر .

وبالرغم من أنها شعرت بالشفقة على ريفاً ، إلا أنها لم تشك لحظة في أن ما فعلته كان يتوجب عليها فعله . كون ريفاً لم تكن امرأة مشبوهة ، ولا بد لها أن تخرج من البيت . كان طبيعياً أن تخرج ريفاً في مثل هذا المطر القارس ، تماماً كما هو طبيعي بالنسبة لها ، وهي تقضي الليل والنهار تكوي ، أو كما هو بالنسبة لسخ بأن يكون في السجن . أو كما هو حالياً بالنسبة لجون بوي ، الذي ما يزال يطارد في تلك الحقول المظلمة ، محاولاً أن يعود إلى البيت . يا إلهي لا تدعه يأتي هنا الليلة ! وعلى الرغم من تمزق أحاسيسها ، فقد كانت تحب ابنها . ومن خلال محبتها له أصبحت تحب كل ما يحاول أن يفعله . كان جوني بوي في أسعد حالاته ، وهو يعمل من أجل الحزب . كانت محبتها له هي سبب سعادته في الأساس . تهجم وجهها قليلاً ، وهي تحاول تجميع مشاعرها لتصل إلى شيء ما . إن محاولتها منع جوني بوي ، تعني الاعتراف بأن كفاحها طوال هذه السنين كان عبثاً .

كما أن محاولة تركه على سجيته ، تعني أنه سوف يقبض عليه بعد حين تماماً مثلما قبض على سخ . ذهلت قليلاً وهي تحاول مواجة الأمر بهذه الطريقة ، وكأنها وصلت فجأة إلى حائط مسدود في الظلام . ولكن في الخارج كان هناك أناس ، سواء بيضاً ، كانوا أم سوداً ممن عرفتهم طوال حياتها . وكان هؤلاء الناس يعتمدون على جوني بوي ، ويحبونه وينظرون إليه كرجل وكقائد . نعم عليه أن يستمر ، لا يمكنه أن يتوقف الآن . نظرت إلى ريفاً . كانت تبكي تشد حذاءها إلى الخلف لتدخل فيه أصابعها المترددة .

– لماذا تتعين نفسك من هذه الطريق يا بنيتي ؟

– لقد خسرت سخ والآن ستخسر جوني بوي .

– لقد فهمت ذلك يا عزيزتي .

كانت سعيدة لأنها استطاعت أن تقول ذلك . فقد كانت ريشا تؤمن بقضية السود . ولا يمكن تحت أي ظرف في الدنيا أن تتردد أمامها . وجدت في ثقة ريشا وتقبلها لها ، بدايات إحساساتها بالإنسانية . كانت محبة ريشا هي ملجؤها من العار ، والذل . فإذا كان الجبل الأبيض قد جرفها في بداية حياتها ، بعيداً عن الأرض ، فإن صحبة ريشا قد أعادتها إليها تماماً مثل المنارة في الخارج ، والتي ترشد الضالين في الليل .

سمعت ريشا تبكي .

– اهدئي يا عزيزتي .

– إن إخوتي في السجن أيضاً وأمي تبكي كل يوم .

– أنا أعلم يا عزيزتي .

ساعدت ريشا على ارتداء معطفها ، وتحسست كتفيها الهزيلين . لا بد أنها لا تأكل بما فيه الكفاية ، لفت خصر ريشا بذراعيها وضمتها إليها لبرهة .

– والآن توقفي عن هذا البكاء .

– لا أستطيع ، إنه رغم إرادتي .

– سوف يكون كل شيء على ما يرام ، سيعود جوني بوي .

– هل تظنين ذلك ؟

– بالتأكيد يا طفلي . لأنه سوف يعود .

توقفتا عن الكلام حتى وصلتا إلى باب الممر . وكان خرير المياه يسمع في الخارج وسط أقية الشوارع .

قالت ريشا – تأكدي أن ترسلي جوني بوي ليخبر الشباب بأن يبقوا بعيداً عن البيت .

– سأقول له . لا تقلقي .

– وداعاً .

– رافقتك السلامة .

اتكأت على نافذة الباب وراحت تهز رأسها ببطء وهي تراقب ريشا تختفي وسط المطر المنهمر .

عادت ثانية إلى لوح الكي ، وعندما سمعت أصوات أقدام تغوص في الوحل من الناحية الخلفية من الدار ، عرفت فوراً ومن خبرة سنين طويلة في الإصغاء ، أن جوني بوي قد عاد . ولكن الليلة ، مع كل هذا المطر والخوف ، بدا لها حضوره مثل ذهابه شيء أكبر من أن تستطيع تحمله ، غمرت الدموع عينيها وأشاحت بعيداً . شعرت بأنه جاء إليها لكي تتخلى عنه ، أن تراه الآن مثلما أن تقول له وداعاً ، ولكن «وداعاً» كانت تعلم تماماً بأنها لن تستطيع أن تقولها أبداً . لم يكونا يشعران بهذه الطريقة تجاه بعضهما البعض . فقد كانا يجلسان طوال النهار في غرفة واحدة دون أن يتكلما . كانت هي أمه وكان هو ابنها . معظم الوقت كانت مجرد إيماء ، أو شجرة صغيرة تحمل كل المعاني ، التي تريد أن تقولها له أو يقولها لها .

لم تدر رأسها عندما سمعته يدخل ، سمعته وهو يجز كرسياً ، يجلس ويتنهد ، ويخلع حذاءه الموحد سمعت الحذاء ، يسقط على الأرض ، ثم ما لبثت رائحة جواربه التي بدأت تنشف ، وجليونه المشتعل تعم المطبخ . لا بد أنه جائع . توقفت ونظرت إليه من فوق كتفها . كان ينفخ غليونه ، ورأسه مائل إلى الوراء وقدماه مستندتان على طرف الموقد ، كان جفناه متدليين ، والبخار يتصاعد من ثيابه المبتلة على وهج النار . يا إلهي هذا الولد ، ينقلب مثل أبيه يوماً بعد يوم . استغرقت في التأمل ، وافترت شفتاها عن ابتسامة واهية . إنه يضع الغليون في فمه ، تماماً مثلما كان يضعه أبوه . وتساءلت كيف سيكون أمره مع والده لو بقي الأخير حياً؟ لا بد أنهما كانا سيحبان بعضهما البعض . فهما متشابهان كثيراً ، وغنت لو كان لها أولاد غير سغ كي ، لا يشعر جوني بوي بالوحدة . فالرجل يحتاج إلى امرأة ، تقف إلى جانبه . فكرت بريفاً ، فهي تحب ريفاً .

لم يعرف قلبها إشراقة أجمل من تلك اللحظة ، التي علمت فيها أن ريفاً تحب جوني بوي . ولكن وراء ريفاً تقف تلك الوجوه البيضاء الباردة ، لو عرفوا بالأمر ، فقد يعني هذا الموت . تحركت قليلاً ، عندما سمعت جوني بوي ينفض غليونه على الأرض ، ثم رآته يلمه ثانية وابتسم لها ابتسامة خجولة ثم يهز رأسه .

– يا إلهي كم أنا تعس ، تتمم .

– أحضرت وسادة من غرفتها وأعطتها له .

هنا ! قالت له .

— هه ، قال هو يضع الوسادة بين رأسه وطرف المقعد الخلفي . عاددا للصمت ثانية ، نعم إن عليها أن تخبره أن يعود أدراجه ، وينطلق في هذا الجو الممطر البارد . ربما لكي يتم القبض عليه . ربما لآخر مرة ، لم تكن لتعلم . ولكنها أرادت أن يأكل ويجفف نفسه ، قبل إبلاغه بأن رجال الأمن قد عرفوا عن الاجتماع الذي سيعقد غداً في بيت «ليم» . ستجعله يأخذ جرعة كبيرة من الصودا قبل أن يخرج ، فالصودا تساعد دائماً على دفع البرد . نظرت إلى الساعة الحادية عشرة ، يوجد وقت كاف . نشرت صحيفة على ستار الموقد ووضعت وعاءً مليئاً بالخضار ، بجانبه سكينه وشوكة وفنجان من القهوة ، وقطعة من خبز الذرة وصحناً يحتوي على فطيرة دراق .

عشاؤك جاهز . قالت .

نعم . أجابها ولم يتحرك ، وعادت ثانية إلى كيّ الملابس ، ثم ما لبثت أن سمعته يأكل . وعندما لم تعد تسمع قرقعة سكينه على طرف الصحن ، أدركت أنه قد انتهى من تناول طعامه . الساعة الآن الثانية عشرة ، ربما ستدعه يرتاح قليلاً ، قبل أن تخبره ، ربما عند الساعة الواحدة فهو متعب جداً . انتهت من الكي ، وضعت اللوح جانباً ثم كدست الثياب في جرار الألبسة وصبت لنفسها فنجاناً من القهوة ، وجلست لتحتسيه على الكرسي .

— نعم لقد نشفت تقريباً ، قالت دون أن تنظر حولها .

— نعم أجابها وهو يلتفت نحوها بحدة . أحس في نبرة صوتها أن هناك المزيد . أنهت شرب فنجانها ثم انتظرت بعض الوقت .

— ريثا كانت هنا .

— نعم ؟

— لقد غادرت منذ ساعة .

— ماذا قالت ؟

— قالت إن رجل الأمن قد جاء إلى بيت ليم اليوم .

— بخصوص الاجتماع .

— نعم .

رأته يحرق في قطع الفحم المتجمرة في شق الموقد ، ويمر أصابعه في شعره بعصبية ، علمت بأنه يتساءل كيف عرفت رجل الأم؟ في هذا الصمت قد يسأل سؤالاً بدون أن ينطق ، وفي هذا الصمت قد تحببه ودون أن تنطق أيضاً . فكرت في نفسها ، أن جوني بوي يثق بسرعة ، ويحاول أن يوسع الحزب ، لذا فهو يضم أناساً لا يعرفهم جيداً بعد ، لا يمكنك أن تثق في كل رجل أبيض تلاقيه .

— أتعلم يا جوني بوي ، لقد كنت تضم مؤخراً أعداداً أكبر من البيض .

— أوه ، يا أمي .

— ولكن يا جوني بوي .

— أرجوك ألا تكلميني في هذا الموضوع الآن .

— عليك أن تصغي وتتعلم يا بني . قالت له .

— أنا أعلم ماذا ستقولين يا أمي ، ستقولين «كلا أنت على خطأ ، لا يمكنك أن تحكم على الناس فقط من خلال ما تشعر نحوه ، بل من خلال المدة التي تعرفهم فيها . وأنا أقول : لو بدأنا نطبق هذا ، فلن نضم أحداً إلى الحزب ، وعندما يقسم الناس بأن يقفوا معنا ، فعلينا أن نضمهم . إننا أضعف من أن ننتقي .

نهض فجأة ، وأدخل يديه في جيوبه ثم وقف في مواجهة النافذة . نظرت إليه من الخلف في صمت ، كانت تعلم أن إيمانه عميق ، كان يقول دائماً أن السود لا يمكنهم أن يحاربوا ، الزعماء الأغنياء لوحدهم . لا يمكن للرجل أن يحارب حين تكون كل الأيدي ضده . لقد كان يؤمن إيماناً أعمى بقضيته . وفي بعض الأوقات السيئة كانا يتجادلان ، وكان دائماً يشفق على مشاعرها أمام شدة تفكيره ودائماً كان يخسر . أطرقت برأسها : المسكين جوني بوي إنه لا يعرف .

— ليس من جماعتنا من قام بالتبليغ — قالت له .

— كيف عرفت ؟ سألتها بصوت منخفض ولكن بنبرة غضب . وكان لا يزال يواجه النافذة ، ومن حين لآخر كان شعاع الضوء الأصفر يلمع عبر ملامحه السوداء الحادة .

— لأنني أعرفهم . قالت له .

— يمكن لأي كان أن يبلغ .

— إنه ليس من جماعتنا . قالت له ثانية .

رأت يده تتحرك سريعاً باشمئزاز .

– جماعتنا يا أمي بربك من هم جماعتنا ؟

– الناس الذين ولدنا وتربينا معهم . الناس الذين نعرفهم .

– لا يمكننا أن نوسع الحزب هكذا يا أمي .

– ربما كان بوكرا قالت له .

– أنت لا تعرفين

– أو بلا تبرغ . . .

– بحق المسيح .

– أو أي من الأربعة أو الخمسة ، الذين انضموا في الأسبوع السابق .

– أماه ، إنك لا ترغبين أن أخرج الليلة ؟ قال لها .

– كلا ، إن أمك تريدك أن تخرج . ولكن كن على حذر يا بني .

– أماه ، عندما تبدئين بالشك في أبناء الحزب فإن الأمر ليس له نهاية .

– يا بني ، أنا أعرف كل رجل أسود ، وكل امرأة سوداء في هذه الناحية من البلد ، ثم أردفت قائلة ، وهي واقفة أيضاً : لقد راقبتهم يكبرون وحتى أنني ساعدت في ولادة بعضهم . أنا أعرفهم جميعاً منذ زمن . لا يوجد منهم أحد ممن يبلغ رجال الأمن .

– إن الناس الذين أعرفهم لا يتكلمون ، حتى لو واجهوا الموت .

– إنه أحد القوم البيض . فقط تذكر ما قلته لك .

– لماذا يجب أن يكون من القوم البيض ؟ سألها . إذا أبلغوا فهم بالضبط مثل يهودا .

– يا بني انظر ماذا أمامك .

– أطرق برأسه وتنهد .

– أماه ، لقد قلت لك مئات المرات ، لا أرى بيضاً وسوداً ولكني أرى أغنياء وفقراء فقط .

تناولت أطباق الطعام القذرة ووضعتها في وعاء . ومن طرف عيناها ، رأيته يجلس ويشد حذاءه الرطب ، إنه ذاهب . عندما وضعت آخر طبق ، كان قد انتهى من لبس

ثيابه ، وقف يدفع يديه عند الموقد . بعد دقائق قليلة سيذهب ، ربما مثل سخ ، تورم حلقها ، إن كفاح السود سيأخذ كل شيء ! وكأن الله قد وضعنا في هذا العالم فقط من أجل أن يحطمنا !

— أبقى هذه معك يا أماء .

رأت رزمة مجمعة من الأوراق المالية بين أصابعه الممدودة .

— كلا ، أبقها معك فقد تحتاجها .

— إنها ليست لي ، إنها للحزب .

— ولكن يا جوني بوي قد تضطر إلى الذهاب بعيداً .

— أستطيع أن أدبر أمري .

— لا تنس نفسك كثيراً يا بني .

— وإذا لم أعد فسوف يحتاجون هم لها .

كان ينظر إلى وجهها فيما كانت هي تنظر إلى النقود .

— أبقى هذه معك ، أنا سأعطيهم النقود .

— من أين ؟

— لدي بعضها .

— من أين جئت بها ؟ تنهدت .

— كنت أوفر دولاراً كل أسبوع من أجل دخوله إلى السجن .

— يا إلهي أماء .

لاحظت نظرة المحبة المميزة والمندهشة في عينيه ، أعاد النقود إلى جيبه بطريقة فوضوية .

— أنا ذاهب قال لها .

— خذ اشرب هذا الكأس من الصودا .

وراقبته وهو يشرب الصودا ويضع الكأس جانباً .

— حسناً ، قال

— أخرج جميع الأوراق من جيبك .

رفعت غطاء الموقد ورمت جميع الأوراق ، التي كانت في جيبه ، داخل حفرة

الموقد ، ثم لحقت به إلى الباب وأجبرته على الاستدارة نحوها .
- يا إلهي إنك تحاول أن تصنع ثورة ، وأنت لا تستطيع حفظ أزرار معطفك ، شدت بأصابعها الرشيقة ، قبة المعطف حول رقبته هكذا أفضل .
شد طرف قبعته لتغطي فوق عينيه ، فتحت الباب ومع الوقع المفاجئ للريح الباردة ، التي لفحت وجهها ، كان قد ذهب . راقبت الحقول السوداء بينما هو يشق المطر ، كانت عيناها تلتهبان حرقه . وعندما لم تعد تسمع آخر صوت لوقع أقدامه أغلقت الباب ، واستلقت على سريرها بكامل ثيابها ورفعت الغطاء عليها . كانت مشاعرها تسرح مع إيقاع المطر ، لقد ذهب ! يا إلهي ! أنا أعلم أنه قد ذهب ، أحست بالدم البارد يسري في عروقها .

٣

كانت تسبح في فراغ رمادي بين الحلم واليقظة ، إلى أن استيقظت فجأة وهي تسمع الباب يفتح على مصراعيه ، وتشعر بالريح الباردة تملأ الغرفة ، كان الظلام حالكاً ، راحت تحديق وهي تتكئ على أكواعها ، وفمها مفتوح بدون نفس ، وأذناها تمتلئان بأصوات وقع أقدام وألفاظ مدوية . عرفت على الفور أنهم يبحثون عنه . نهضت على قدميها بإرادة ثابتة صارمة ، تنتظر وتصغي .

- إن المصباح مشتعل .

- ألقى نظرة عليه .

- الآن .

- انظر في المطبخ .

- هذا المكان له رائحة السود .

- أقول ، لا بد أن أحداً هنا أو كان هنا .

- ربما كان هنا وذهب .

- يا ولد ! انظر إلى أوعية المربى هذه .

- إن السود يصنعون مربيات جيدة .

- أحضر بعض الخبز .

- يوجد هنا بعض خبز الذرة .
- أقول دعني آخذ شيئاً .
- على مهلك يوجد الكثير هنا .
- سوف آخذ بعضاً منها إلى البيت .
- انظر يوجد هنا بعض الخضروات .
- وبعض القهوة الساخنة .
- أقول يا شباب توقفوا عن هذا وتعالوا هنا ، فنحن لم نأت هنا لاحتفال .
- سارت ببطء عبر الردهة ، إنهم يبحثون عنه ولكنهم لم يعثروا عليه بعد ، توقفت عند ممر الباب ، ويدها السوداوتان معقودتان فوق معدتها ولكنها كانت تشدهما ، الآن حتى تكاد تبرز عروقهما . كان المطبخ يزدحم بالرجال البيض ، الذين يرتدون معاطف متلائة ، ورغم أن المصباح كان مشتعلاً ، إلا أن مصابيحهم اليدوية ، كانت تلمع في قبضاتهم الحمراء ، وشاهدت على الأرضية آثار الطين من أقدامهم .
- أيها القوم البيض اخرجوا من منزلي .
- ساد صمت سريع ، التفتت كل الوجوه نحوها ، ولاحظت حركة سريعة ، لكنها لم تعرف معناها حتى صفعها شيء رطب ، وساخن في وجهها . لهت ولكنها لم تتحرك ، وبهدوء مسحت عينيها بيدها اليسرى ، لتنظفهما من مرقعة الخضروات اللزجة الساخنة . حيث كان أحد الرجال البيض قد قذفها بحفنة الخضروات ، التي وجدها في الوعاء .
- كيف هو طعمها أيتها العجوز القحبة ؟
- يجب أن أخرجوا من بيتي .
- يخرج رجل الأمن من بين الحشد ويسير باتجاهها .
- والآن يا عمتي . .
- أنا لست عمك أيها الرجل الأبيض .
- إنك لست في روح جيدة .
- لتذهب الروح إلى الجحيم ، أخرج هؤلاء الرجال من بيتي .
- يبدو أن الأمر لا يعجبك ؟

- كلا لا يعجبني وأنت تعلم تماماً أن هذا الأمر لا يعجبني .
- ماذا ستفعلين إذن ؟
- أنا أقول لك أن تخرج من بيتي .
- لقد بدأت تصبحين وقحة .
- إذا كان طلبتي إليك أن تخرج من بيتي وقاحة ، فأنا وقحة . بدت كلماتها ، مثل همسة متوترة ، ولكنها كانت تراقب الرجال عن كثب ، تفكر كيف تتعامل معهم وتقيمهم؟
- اسمعي يا عمتي ، جاء صوت رجل الأمن ناعماً خفيفاً : أنا هنا لأساعدك ، لماذا تتصرفين هكذا ؟
- إنك لم تساعد نفسك منذ ولدت – انفجرت غاضبة – كيف يمكن لأمثالك أن يساعدوني ؟
- تقدم أحد الرجال البيض من الخلف ، ووقف في وجهها مباشرة .
- اسمعي أيتها المرأة السوداء ، إنك تكلمين رجالاً بيضاً .
- أنا لا أبالي من الذي أكلمه .
- سوف تتمنين يوماً أن تبالي .
- ليس أمثالك .
- إنك تحتاجين إلى شخص يعلمك كيف تصبحين سوداء صالحة؟
- إنك لن تستطيع أن تعلمني ذلك .
- سوف تغيرين من نبرتك .
- لن أفعل طالما في جسمي عرق ينبض .
- لا تدعي الذكاء الآن .
- يجب أن تخرجوا من بيتي .
- وإذا لم نخرج ؟ سألها الرجل الأبيض .
- كانوا قد تجمعوا حولها ، لم تكن قد تحركت من مكانها ، منذ أن وقفت على باب الممر . كانت ترمي لهم بالكلمات وتتلقاها منهم . وتفكيرها منصب فقط على جوني بوي – كانت تعلم أنهم يفكرون أيضاً في جوني بوي ، وفي أنهم يريدون القبض

عليه ، كان قلبها يتحداهم على أخذه منها .
- افرضي أننا لن نخرج ؟ سألها رجل الأمن مرة أخرى .
- عشرون منكم يهاجمون امرأة عجوزاً ، أشعرون بالسرور لشجاعتكم امسك رجل الأمن بذراعها .
- كفى الآن ، لقد كلت لنا من الوقاحة ، ما يكفي لليلة واحدة - أين ابنك الأسود ؟
- ألا تتمنى أن تعرف ؟
- هل تريد أن تُضربي ؟
- لم أعرف من أمثالكم شخصاً لم يكن حقيراً للدرجة
صفعها رجل الأمن على وجهها براحة يده المفتوحة ، فوقعت على ركبتيها عند الجدار .
- هل هذا ما يفعله الرجال البيض للنساء السود ؟
نهضت ببطء ووقفت مرة ثانية ، دون أن تتحسس مكان الألم الذي سببته الصفعة ، وكانت يداها معقودتين على معدتها .
- لم أعرف من أمثالكم شخصاً لم يكن حقيراً للدرجة . . .
صفعها رجل الأمن مرة أخرى . نكصت على عقبيه عدة أقدام ثم وقعت على جنبها .
- هل هذا أقل ما يمكن أن تفعله ؟
وقفت أمامه ثانية ، وعيناها جافتان لكنها لم تتلق أي ضربة . كانت شفتاها خدرتين وذقنها مبتلة بالدم .
- أه اتركوها تذهب ، إنه الأسود الذي نحن بصدده .
- أين ابنك الأسود سألها رجل الأمن ؟
- اعثر عليه ، قالت له
- بربي إذا وجدناه فسنقتله .
- إنه لن يكون الأسود الوحيد الذي تقتلونه . قالت .
كانت قد استنفذت مرارة كبرياتها . شعرت بأنه لا يوجد شيء على الأرض يمكن

أن يفعلوه إلا وتستطيع تحمله .

وقفت على تلك القطعة الضيقة من الأرضية ، حيث مواجهة الموت . دون أن تتكلم . وهنا تبين لها الأمر ، حين كانت تتحسس الدم الذي يسيل على رقبتها بأنها تخلت عن جوني بوي ، تخلت عنه للقوم البيض ، لأنهم جاؤوا يدوسون على قلبها ، ويطلبونه وقد ظنوا أنهم يستطيعون انتزاع الكلام منها بالضرب والتخويف . لقد تخلت عنه ، لأنها أرادت أن يعرفوا أنهم لن يستطيعوا الحصول على ما يشاؤون بالخداع والقتل .

– أين سيعقد هذا الاجتماع ؟ سألها رجل الأمن ؟

– ألا تتمنى أن تعرف ؟

– أليس هناك اجتماع سيعقد ؟

– ولماذا تسألني ؟

– سوف يكون هناك اجتماع قال رجل الأمن .

– هل سيكون ؟

– إن لدي عقلاً كبيراً لأخرج الكلام من فمك .

– إنك ذكي جداً . قالت .

– إننا نلهو معك .

– هل قلت إنك تلهو ؟

– إن ابنك الأسود موجود هنا في مكان ما ، ونحن نريد العثور عليه قال رجل الأمن ، إذا أخبرتنا أين هو وإذا هو تكلم فسنخرج من الأمر بسهولة ؟ ولكن إذا اضطررنا للبحث عنه فسوف نقتله . إذا اضطررنا للبحث عنه فعليك أن تحضري ملاءة في الصباح لتغطيه ، أترين ؟ أحضري ملاءة لأنه سيكون ميتاً حينها .

– لن يكون الأسود الوحيد الذي تقتلونه . قالت له مرة أخرى ، مر رجل الأمن من أمامها وتبعه الآخرون ، كانت تفكر بابتهاج إنك لم تحصل على ما أتيت من أجله ، ولن تحصل عليه أبداً . كان هناك ألم حار في قلبها ، جعلها تشعر بحدة كبريائها وحررتها . كان قلبها يتلمس طريقة ، لكي يحول هذه الساعات المريعة من حياتها إلى كلمات من النوع الذي يشعرها بأنها قد تحملت كل ما فعلوه بها في مسيرتها وأنها

تستطيع تحمل المزيد . خلق بها إيمانها عالياً ، قد تكون كل شيء ، ولكنها ليست عمياء . سارت خلفهم ، وهي تعقد أصابعها ورأتهم ينزلون إلى الأرض الغارقة في الطين ، كانت كل دورة من الضوء الأصفر ، تكشف لمحة من المطر الساقط ، تحركت شفتاها وصاحت :

– لم تحصل على ما تريد ولن تحصل عليه .

توقف رجل الأمن واستدار جاء صوته قاسياً وخفيضاً .

– برربي ، الآن هذا يكفي .

– كلا هذا لا يكفي ، إنك لا تعرف متى يكفي ، ولكنني سأعلمك ذلك الليلة .

انطلق نحو الدرج ووصل إلى الشرفة بقفزة واحدة ، تراجعت هي نحو القاعة وكانت عيناها تمتلآن من وجهه .

– قولني لي متى ستوقفين عن الكلام . قالها وهو يلوح بقبضة يده ، تلقت الضربة

عند خديها ، أحست بفراغ في عينيها ووقعت على الأرض ، شعرت بكعب حذاءه المبتل يدخل في معدتها وفي صدغها .

– دعيني أسمعك مرة أخرى .

أرادت أن تتكلم ، ولكنها لم تتمكن فقد كان الألم يخنقها ، ارتجت على الأرض بلا حراك ، ومن وسط الفراغ الرمادي ، الذي سبق فقدانها الوعي سمعت صوتاً يقول : لأجل المسيح اتركها لوحدها ، إن الشاب هو الذي نحن بصدده .

٤

لم تعلم كم مضى عليها من الوقت وهي مكومة في ردهة الممر المظلمة ، وأول شعور راودها عند عودتها إلى الوعي ، كان خوفاً لا اسم له يتجمع داخلها ثم ألماً شديداً يمتد من صدغها نزولاً حتى باقي جسمها . كانت أذناها مشبعتين بأزيز المطر ، وكانت ترتعد من الريح الباردة ، التي تهب عبر الباب فتحت عينيها وفي البداية لم تستطع أن ترى شيئاً ، بل بدت وكأنها تتخيل الأشياء ، كانت تعلم أنها كانت نصف مددة ونصف جالسة ، عند زاوية الجدار . أدارت رقبتها بصعوبة وصعقت لما رآته . فقد كان هناك غشاوة ، ضخمة معلقة فوقها مباشرة أيضاً . ولوهلة لم تكن

تستطيع أن تجزم ، إذا كان خوفها ناجماً عن هذه الغشاوة أم أن هذه الغشاوة ناجمة عن خوفها . تدريجياً بدأت الغشاوة تتوضح في صورة وجه أبيض ، ضخم ملأ بصرها ببطء ، تجمدت كالحجر ، وكانت في الحقيقة ، واعية بأنها تحاول أن تتنفس وشعرت بأنها عاشت فقط ، بسبب رحمة هذا الوجه الأبيض . كانت قد شاهدت مثله من قبل ، تملكها الخوف عدة مرات . وكان الخوف دائماً ، من الوجوه البيض التي رأتها في حياتها . سو . . . وكأنها من مسافة بعيدة سمعت من ينادي عليها باسمها ، وبدأت الآن تسترد وعيها ، ولكن الخوف بقي مرافقاً لها . نظرت في وجه الرجل الأبيض ، يراودها شعور بأن تصرخ وتطلب منه أن يذهب ولكنها رضىت بتقبل وجوده ، لأنها أحست بأنها في حاجة إليه ، بقيت شفتاها عاجزتين عن النطق . رغم أن جزءاً من ذهنها عادت إليه حيويته .

بدأ الأمر وكأن سكيناً خفية شقتها ، إلى نصفين ، نصف ملقى على الأرض بلا حول ولا قوة في حين تقلص النصف الآخر ، مرعوباً من عدو مألوف قد نسيته . سو إنه أنا ياسو . . . وفجأة بدا الصوت واضحاً لها .
- إنه أنا بوكر .

سمعت صوتاً مجيئاً في داخلها : إنه بوكر الشخص الذي انضم حديثاً ، نهضت وهي تحاول استعادة وعيها ، وبينما هي تفعل ذلك نقلت إلى شخص بوكر ؛ هذا الخوف اللامسمى الذي تشعر به . بدا لها وكأن بوكر يحلق فوقها في تحد ، لحقها بالوجود على وجه الأرض .

- حسناً ، هل أنت على ما يرام ؟

- لم تجب وحاولت أن تقف على قدميها ولكنها عاودت السقوط .

- سو هل تأذيت ؟

- نعم أجابت لاهثة .

- أين ضربوك ؟

- على رأسي همست .

كانت تتكلم ، رغم أنها لم تكن ترغب في الكلام ، ولكن الخوف أجبرها على ذلك .

- لقد ضربوك .
- نعم .
- الأوغاد ، الأوغاد الملعونون .
- سمعتة يرددها مرات ، ومرات ثم أحست بشيء يرفعها .
- لا ، كانت تلهث .
- سوف آخذك إلى المطبخ .
- انزلني .
- ولكن لا يمكنك البقاء هكذا .
- انكمشت بين ذراعيه ودفعت جسمه بيديها . عندما أصبحت في المطبخ ، حررت نفسها ، وغرقت في أحد المقاعد ، وهي تقبض بشدة على مؤخرة المقعد . نظرت بتساؤل إلى بوكر ، فلم يكن فيه شيء يخيفها ، ولكن حتى هذا الأمر لم يخفف من توترها ، رآته يمضي إلى دلو الماء ، ويبلل منديله ويطويه ثم يقدمه لها . نظرت إلى الخرق المبللة بريية .
- هنا ! ضعي هذا على جبينك .
- كلا .
- هيا سيجعلك تشعرين بتحسن .
- ترددت حائرة ، ولكن ما الحق الذي تملكه في أن تخاف من شخص ، يتصرف معها بمثل هذه الرقة . مالت إلى الأمام ، بتردد ثم وضعت الخرق المبللة على رأسها . ساعدتها قليلاً ، وكانت مع كل دقيقة تمر تحاول أن تتمالك نفسها متسائلة لماذا شعرت هكذا
- ماذا حدث ؟
- لا أعلم .
- هل تشعرين بتحسن ؟
- نعم .
- من الذي كان هنا ؟
- لا أعلم ، قالت مرة أخرى . .

– هل ما زال رأسك يؤلك ؟

– نعم .

– أنا آسف .

– أنا على ما يرام ، تنهدت ودفنت وجهها في يدها .

أحست به بمسك كتفها .

– سو ، لدي أخبار سيئة لك .

عرفت ما حدث ، تجمدت وأحست بالبرد ، لقد حدث الأمر ، حدثت بعينيها الجافتين ، تكلمت وشفثاها مضغوطتان .

– إنه جوني بوي – قالت .

– نعم ، أنا آسف بأن أخبرك الأمر بهذه الطريقة ، ولكنني ظننت بأنه يجب أن

تعرفني .

خف توترها وأحست بمساحة فارغة ، تمتد في داخلها وصوت يهمس : أيها المسيح

ساعدني .

– أين هو ؟

– لقد قبضوا عليه خارج غابات فوليز ، ويحاولون استنطاقه عن الآخرين .

– لن يخبرهم ، قالت له . يمكنهم أن يقتلوه لأنه لن يخبرهم .

– أمل أن لا يخبرهم ، قال بوكو : ولكن الفرصة لم تتح له لإخبار الآخرين ، فقد

قبضوا عليه عندما خرج من الغابات . اعتراها خوف شديد ، رأت في المنطقة الريفية

الماطرة ، صفاً من الأكواخ يخرج منها رفاق سود وبيض متوجهين نحو منزل ليم حيث

سيقبض عليهم . كل هذا يعني الرعب والسجن والموت . يجب على أحد أن يخبر

الرفاق ، عليها هي أن تخبرهم ، لا يمكن أن تسلم عمل جوني بوي لأحد غيره ،

وخاصة بوكو الذي طالما شعرت نحوه ما تشعره الآن . قبضت على رجل المقعد ،

بيديها الاثنتين وحاولت النهوض ولكنها أحست بالدوار وترنحت وجدت نفسها مرة

أخرى بين ذراعي بوكو .

– دعني أذهب .

– إنك أضعف من أن تستطيعين السير .

– علي أن أخبرهم . قالت
– اجلسي يا سوانك مصابة ومريضة .
جلست ثم نظرت إليه ببؤس .
– اسمعي يا سولقد اعتقل جوني بوي ، وأنا هنا ، أخبريني من هم ؟ وسأقوم
بإبلاغهم .

حدقت نحو الأرضية ولم تجب . كانت أضعف من أن تستطيع السير ، لا سبيل
أمامها لقطع كل هذه الأميال ، وسط هذا المطر الليلة . ولكن هل عليها أن تبلغ بوكر .
لو أن هناك شخصاً مثل ريشا لتكلمه . لم تكن ترغب ، في أن تأخذ هذا القرار
وحدها . لا يجب أن ترتكب خطأ بهذا الشأن . أحست بأصابع بوكر تضغط على
ذراعها . بدا وكأن الجبل الأبيض يدفعها نحو حافة مرتفع شديد الانحدار . أخذت
تساءل بداخلها – يا يسوع ساعدني – كان وجه بوكر متجهاً نحوها ينتظر . هل تفعل
الصحيح إذا أخبرته ؟ ماذا لو لم تخبره وتم اعتقال الرفاق ؟ لا يمكن أن تسامح نفسها
أبداً على هذه الفعلة ، ولكن ربما تكون على خطأ ، ربما يكون خوفها ناتجاً فقط . عما
كان جوني بوي دائماً يدعو حماقة . وتذكرت كلماته : أماه لا يمكننا أن نؤلف حزباً
إذا بدأنا نشكك في الجميع .

– أخبريني من هم يا سولقد انضمت إلى الحزب لتوي؟ ولا أعرف من هم؟
– وأنا لا أعرف من هم أيضاً؟
– يجب عليك أن تخبريني .
– لقد قلت لك لا أعرف .
– إنك تعرفين . هيا اجلسي وتكلمي .
– كلا .

– هل ترغبين بأن يقتلوهن جميعاً ؟
أطرقت برأسها وبلعت ريقها ، يا إلهي أنا لا أؤمن بهذا الرجل .
– اسمعي سوف أقرأ الأسماء وأخبريني أنت أيّاً منهم في الحزب وأيّاً لا .
– كلا .
– أرجوك يا سول .

- لا أعرف . قالت له .
 - سو إنك لا تفعلين الصواب ، إن جوني بوي لا يرغب منك أن تفعلني هكذا ،
 لقد خرج هناك يسعى في طريقه دعينا نسعى نحن .
 - يا إلهي ، أنا لا أعرف .
 - هل تخافين مني لأنني أبيض؟ جوني بوي ليس كذلك ، لا تجعلني عملنا كله
 يذهب سدى .
 استسلمت وأحنت رأسها بين يديها .
 - هل هو جونسون ؟ قللي لي يا سو؟
 - نعم ، همست برعب .
 تملكها رعب طاغ وشعرت كأنها تتفكفك .
 - هل هو جرين ؟
 - نعم .
 - ميرفي
 - يا إلهي لا أعرف .
 - يجب أن تخبريني يا سو .
 - سيد بوكر أرجوك اتركني لوحدي .
 - هل هو ميرفي ؟
 أجابت بنعم ، على أسماء رفاق جوني بوي ، بقيت تحجب حتى توقف عن
 الأسئلة ، ثم أخذت تفكر ، كيف علم أن رجال الأمن يراقبون منزل ليم؟ وقفت
 وأمسكت بالكروسي ، وهي تشعر بشيء واثق وأكد بداخلها .
 - كيف عرفت عن ليم ؟
 - ماذا ! كيف أعرف ؟
 - ما الذي فعله هنا في مثل هذا الوقت من الليل . وكيف عرفت أن رجال الأمن
 قد قبضوا على جوني بوي ؟
 - سو ألا تثقين بي ؟
 لم تكن تثق به ولكنها لم تحب ، حدثت به حتى فغرت شفيتها وهي تبحث في

أعماقها عن الحقيقة .
– هل قابلت ريفاً ؟ سألته
– ريفاً ؟
– نعم ابنة ليم .
– طبعاً بالتأكيد قابلت ريفاً .
– هل هي التي أخبرتك ؟
كانت توجه الأسئلة إلى نفسها ، أكثر من توجيهها إليه وكانت تتوق إلى
تصديقه .
– نعم ، أجاب بهدوء . أظن أنه علي أن أذهب ، لأخبرهم الآن .
– تخبر من ؟ سألته
وكانت كل عضلات جسدها تتيبس ، وهي تنتظر جوابه وأحست كأن الحياة
تعتمد على هذا الجواب .
– الرفاق . قال :
– نعم . تنهدت .
ولم تنتبه متى غادر ، لم تكن تنظر أو تسمع ، وفجأة رأَت الغرفة خالية فأحست
أن الرعب الذي في داخلها قد ولى .

٥

مرت فترة من الوقت ، بدت لها طويلة كطول بقائها على هذه الأرض . وكومت
نفسها بالقرب من الموقد البارد . ولدقيقة حدثت نفسها . لقد ذهب الاثنان الآن جوني
بوي وسغ ، وربما لن تراهما بعد اليوم ، واعتراها إحساس بالذنب أحبط مشاعرها . يا
إلهي ما كان يجب أن أقول له ، تتمت ، ولكن لا يوجد إنسان بهذه الحقارة ، ليفعل
ذلك . وراودها لعدة مرات شعور بأن تحاول هي نفسها إخبار الرفاق ، أخذت تشعر
بالتحسن ، الآن ولكن ما الفائدة لقد أعطت الأسماء لبوكر . لا يمكن أن يكون يهودا
أمام قوم فقراء مثلنا . . . لا يستطيع .
عمتي سو !

هذه ريثا ! قفز قلبها بمزيج من الفرح والقلق ، ونهضت دون أن تجيب ، وسارت وهي تعرج أسفل ممر الردهة المعتمة . وعبر الباب المفتوح في مواجهة المطر ، رأت وجه ريثا يضيء تارة ، ويتحول إلى البياض تارة أخرى بفعل أنوار المنارة المتमوجة . كانت على وشك أن تنادي ، ولكن منعته فكرة راودتها ، يا يسوع المسيح ساعدني لا بد أن أخبرها عن جوني بوي ، يا إلهي لا يمكن .

– عمتي سو هل أنت هناك ؟

– ادخلي يا طفلي .

– أمسكت بريثا وضمتها لبرهة دون أن تنطق بكلمة .

– يا إلهي ، كم أنا سعيدة لأنك هنا؟ قالت أخيراً .

لقد ظننت أن أمراً ما قد حصل لك ، قالت ريثا وهي تتنحى جانباً عندما رأت الباب مفتوحاً ، لقد قال لي والدي أن أعود وأبقى معك الليلة – وفجأة توقفت ريثا وحدقت بها ماذا حدث ؟

كان فرحها بوجود ريثا ، قد أنساها ما حدث ، ولم تفهم ماذا يعني السؤال .

– هه ؟

– رقبتك ...

– لا شيء يا طفلي تعالي إلى المطبخ .

– ولكن هناك دم على رقبتك !

– كان رجل الأمن هنا

– إنهم حمقى ، لماذا يريدون أن يضايقوك ، إن باستطاعتي أن أقتلهم ، فليساعدني الله على أن أستطيع ذلك .

– لا شيء قالت لها .

كانت تتساءل كيف ستخبر ريثا عن جوني بوي وبوكر ، سوف أنتظر قريباً فكرت في نفسها بما أن ريثا هنا ، أحسست أن الخوف لم يعد مؤلماً كما قبل .

– تعالي لأعالج لك رأسك ، تبدين مصابة يا عمة سو .

ذهبتا إلى المطبخ ، وجلست صامتة فيما كانت ريثا تربط لها رأسها ، شعرت بتحسن الآن ، وبعد قليل ستخبر ريثا وأحست بأصابع الفتاة تضغط بركة على

رأسها .

– هل هذا يؤلم ؟

– قليلاً يا طفلي .

– أيتها المسكينة .

– إن هذا لا شيء .

– هل جاء جوني بوي ؟

ترددت قليلاً .

– نعم .

– وهل ذهب لإبلاغ الآخرين ؟

بدا صوت ريقاً واضحاً ، ووثقاً مما جعلها تهزأ من نفسها يا إلهي لا أستطيع إخبار هذه الطفلة .

– لقد أخبرتيه يا عمة سو . أليس كذلك ؟

– نعم .

– هذا جيد . وقد أخبرت والدي أن لا يقلق إذا وصل الخبر إلى جوني بوي ، أرجو

أن تتعدل الأمور .

– أمل ذلك .

لم تستطع أن تستمر ، فقد وصلت إلى أبعد حد ولأول مرة في تلك الليلة شرعت بالبكاء .

– هش يا عمتي سو ، فالأمر على ما يرام ، كنت دائماً شجاعة .

– لا شيء على ما يرام يا طفلي ، إن العالم أصبح كبيراً علينا على ما أظن .

– إذا استمررت في البكاء هكذا فسأبدأ أنا بالبكاء .

أجبرت نفسها على التوقف عن البكاء ، لا يمكنني أن أستمر هكذا أمام ريقاً ، أنا الآن بحاجة إلى ثقة ريقاً بي . راقبت الفتاة وهي تجمع أغصان الصنوبر من خلف الموقد وتعيد إشعال النار . إلى أن وضعت عليها إبريق القهوة .

– هل ترغبين ببعض القهوة يا عمة سو ؟

– كلا يا عزيزتي .

— هيا يا عمة سو .

— قليلاً يا عزيزتي .

هكذا يجب أن تسير الأمور ، لقد نسيت قالت ريشا .

أخبرني والدي ، أن تلزمني الحذر من هذا الشاب بوكر إنه حقير . لم يصدر عنها أية إيماءة أو تعبير ، ولكنها أحست بشلل في داخلها ، وهي تستمع إلى الكلمات تخرج من فم ريشا .

— لقد أخبرني والدي بالأمر ، عندما عدت إلى البيت ، وصله خبر من المدينة .
توقفت عن الإصغاء ، وأحست كأنها تلقت صفعه ، في أعماق أعماق حياتها .
نظرت من خلال ضباب الألم ورأت بوكر . كانت صورته مثل صورة القوم البيض ، والخوف الذي يجيء معهم ، ذلك الخوف الذي رآته ، وأحست به طوال حياتها . ومرة أخرى أحست بأن ما شعرت به . قد تجسد حقيقة ثانية ، وكل ما استطاعت أن تقوله لنفسها إنها لم تحبه ، الله أعلم إنها قد أخبرت جوني بوي أنه أحد هؤلاء القوم البيض . . .

— هيا اشربي قهوتك

— رفعت الفنجان ، كانت يداها ترتعشان وتدفق السائل البخاري على ثوبها ورجلها .

— أنا أسف يا سو .

شعرت بحرق في رجلها جراء السائل المسكوب ولكن الألم لم يضايقها .

— لا بأس ، قالت .

— انتظري ، دعيني أضع شيئاً على هذا الحرق .

— إنه لا يؤلم .

— هل أنت قلقة من شيء ؟

— كلا يا عزيزتي .

— دعيني أعد لك المزيد من القهوة .

— لا أريد شيئاً الآن يا ريشا .

— إذن اهدئي . لا تتصرفي هكذا .

ساد الصمت بينهما ، وسمعت ريشا تشرب القهوة ، كلا لن نخبرها . إن ريشا هي كل ما بقي لها . ولكن عليها أن تفعل شيئاً ، شيئاً ما وبطريقة ما . لقد تفككت بما يكفي ، لم يكن في مقدورها أن تخبر ريشا بما حصل مع جوني بوي ، ومع بوكر ، إنه لعار بارد عليها . أرادت أن تكون لوحدها وأن تخوض هذه المعركة بنفسها .

– اذهبي للنوم يا عزيزتي إنك متعبة .

– كلا أنا على ما يرام يا عمتي سو .

سمعت صوت طقة فنجان ريشا على الموقد ، سأذهب لأحضر لها الفراش ، إن بوكر سوف يخبر رجل الأمن بأسماء الرفاق ، لو تستطيع فقط أن توقفه بطريقة ما . هذا هو الجواب ، النقطة الرئيسية ، النجمة التي تلمع في الصباح بأمل جديد ، لقد مضى نصف ساعة حتى الآن ، وسيصل بوكر إلى غابات فوليز ، وهو لا يعرف الطريق المختصرة إلى الغابة لذلك فهو سيستخدم الطريق الطويلة ، أستطيع أن أصل إلى الجرف وأوقفه هناك ولكن ماذا ستفعل بعد ذلك ؟

– ريشا يا عزيزتي اخلدي للنوم فإنك بحاجة إلى الراحة .

– أنا لست نعسانة يا عمتي .

– أنا أعلم ما هو الأفضل لك ، إنك متعبة ومبتلة .

– أريد أن أبقى معك .

أجبرت نفسها على الابتسام وقالت :

– لا أظن أنهم سيؤذون جوني بوي .

– أحقاً يا عمة سو ؟

– بالتأكيد يا عزيزتي .

– ولكنني أريد أن أنتظر معك .

– هذه وظيفتي يا عزيزتي . إنه تحد سوف أقف له .

– تصبحين على خير يا عمة سو .

– تصبحين على خير يا عزيزتي .

راقبت ريشا وهي تنهض ، وتغادر المطبخ وسمعت صوت اللحاف وهو يرتفع ويهبط ، وعلمت بأنها أصبحت لوحدها ، وأن ريشا قد نامت . رأت النار في شقوق

الموقد ، وهي تتحول إلى رماد محترق . وعاد البرد إلى الغرفة ، وكانت أشعة الضوء ما تزال تتماوج عبر النافذة والمطر يتساقط . نعم لقد أصبحت لوحدها ، وقد فعلت هذا الشيء المروع وحدها ، ولا بد أن تجد مخرجاً ، وكأنها لمست قيج الجرح ، ووضعت أصبعها على تلك اللحظة ، التي صاحت بها بتحد أمام رجل الأمن ، صاحت لتستشعر قوتها ، لقد أضاعت سغ لتحمي الآخرين . وتخلت عن جوني بوي لتحمي الآخرين وبعدها وفي لحظة ضعف نبعت من فرط قوتها خسرت الجميع . لو لم تصرخ بتحد أمام رجل الأمن ، لبقيت في قوة كافية لتواجه بوكر . كان يمكنها أن تبلغ الرفاق بنفسها . انقبض شيء بداخلها ، وهي تستذكر وتستوعب نوبة الرعب ، التي داهمتها عندما عادت إلى وعيها في ممر الردهة المظلم . ظنت بأن جزءاً من حياتها قد انتهى . مع كل ما عانت في ذلك الوقت . ظنت بأن الماضي الرقيق الدافئ قد ولى . وأن الأغنية التي تغنيها لم تعد تعني شيئاً «وردة الأقحوان» في الوادي ونجمة الصباح المشرقة .

كانت الأيام التي رددت فيها هذه الأغنية ، هي الأيام التي لم تكن تأمل فيها شيئاً على وجه الأرض . الأيام التي دفعها فيها الجبل الأبيض البارد ، نحو أحضان المسيح . فكرت كيف أن جوني بوي وسخ علمها أن تنساه وأن تركز أملها على صراع السود؟ من أجل الحرية عبر السنين المارة ، أمنت وعملت معهما ، وأحست بالقوة تنبع من نعمة رؤاهما الرهيبة .

لقد حلت عليها هذه النعمة منذ اللحظة التي سمحت فيها لرجل الأمن ، أن يصفعها ويسقطها على الأرض ، وبقيت هذه النعمة عندما نهضت مرة ثانية عن الأرض وواجهته ، ولكنها أوقعت نفسها في فخ جوعها . فمن أجل أن تروي عطش ، إيمانها قطع كبريائها عهداً لا يستطيع جسدها الوفاء به . أن تقر بأسماء رفاق جوني بوي ، كان بالنسبة لها حادث أوقعها في رعب عميق . وقفت ونظرت إلى الأرضية تتنازعها قوتان : قوة تدعوها للإبلاغ وقوة تقف ضد هذا ، قوة الولاء وقوة عدم الولاء .

كانت واقعة بين عالمين مهجورين ، عالم الحياة وعالم الموت بدون أن تملك قوة النعمة ، التي يعطيها كل منهما . وكلما توضحت الأمور أمامها أحست ، بشيء في أعماقها يريد أن يتحرر . ولما أحست بحاجة ملحة لإطلاق نجمة أخرى في سماءها

السوداء ، وإلى إطلاق أمل آخر ورؤيا رهيبة تمنح لها قوة الحياة والتصرف ، خرجت من المطبخ بهدوء ، وقلق وهي تشعر بنفسها عارية أمام الليل والمطر والعالم . كان العار يغلفها ، كلما خطر ببالها حب ريثا . رفعت يديها الفارغتين ، ونظرت إلى أصابعها الملوية . يا إلهي ماذا أفعل الآن ، كان ما يزال باستطاعتها أن تصل إلى الجرف . ومن ثم إلى غابات فوليز قبل وصول بوكر ، ثم ماذا ؟ كيف يمكنها أن ترى جوني بوي أو بوكر .

مرة أخرى استذكرت رجل الأمن ، وهو يهدد ويطلب إليها إحضار ملاءة لتغطيته لأنه سيكون ميتاً . الملاءة ! هذه هي الملاءة ! قفزت بكل جوارحها ، تحولت كل سنين حياتها الطويلة إلى لحظة تركيز ، إلى نقطة ، أستطيع أن أذهب بالملاءة ، سوف أفعل ما طلبه . يا إلهي في السموات سأذهب مثل أي امرأة سوداء وأحمل الملاءة لأحضر ابني الميت . ثم ماذا ؟

انتصبت واقفةً وابتسمت ، كانت تحفظ في قلبها كل معنى حياتها . كانت كل شخصيتها ، تقف بتوازن على حافة عمل كلي . أنا أعلم ! أنا أعلم ! فقد تذكرت بندقية جوني بوي في جرار الملابس . سوف أخبئ البندقية ، في الملاءة وأسعى وراء جثة جوني بوي . سارت على رؤوس أصابعها إلى غرفتها . وفتحت الجرار ، وأخرجت ملاءة . كانت ريثا نائمة وصوت أنفاسها يملأ الظلام ، بحثت في الجرار ، إلى أن عثرت على البندقية ، ولقتها بالملاءة ثم حملتها تحت منزرها . اقتربت من السرير ، إلى جانب ريثا ونظرت إليها ، يا رب ساعدها ولكن ربما تتحسن الأمور ، إن مثل هذه الأشياء تحصل أحياناً ، لن تستطيع ريثا وجوني بوي أن يبقيا معاً في هذا الجنوب . . . كما أنها لا تستطيع أن تخبرها عن بوكر .

سوف تسير الأمور ولن تعلم شيئاً . لا يجب أن تهتز ثقة ريثا . التقطت أنفاسها ، حين سمعت صوت حفيف الشرشف . ثم سارت تتنفس بهدوء ، على أصابع قدميها نحو باب الغرفة ، ثم باتجاه الردهة ووقفت عند الشرفة . وفي الأعلى كان يتماوج شعاع الضوء الأصفر عبر المطر ، نزلت إلى الأرض المغمورة بالطين ، ثم ارتقت مرتفعاً صغيراً ، توقفت ونظرت خلفها إلى المنزل ، كان المصباح يلمع في نافذتها والشعاع الأصفر في الخارج ، يبدو وكأنه يغذيه بالضوء ، استدارت وسارت عبر الحقول تحمل

البندقية المغطاة بالملاءة وهي تفكر بريقاً ، المخلوقة المسكينة . لا بد أنها نائمة .

٦

سارت معظم الطريق وعيناها نصف مغلقتين وشفاتها مضغوطتان تواجه بجسدها الريح والمطر المنهمر وتتحسس البندقية تحت الملاءة ، باردة وثقيلة بين أصابعها . بدت مبتلة تماماً كما لو أن قدميها كانتا تبحثان عن كل بقعة ماء وسط صفوف الذرة لتدوس بها .

وصلت إلى حافة الجرف وتوقفت ، وأخذت تفكر في أخفض نقطة للمرور ، رفعت الملاءة من مريولها ولفت البندقية لكي تبقي يدها على الزناد . لقد سارت كل الطريق إلى هنا ، ولم تكن في البداية تشعر بالماء ، فقد كانت قدماها مبللتين ولكن الماء أصبح بارداً كلما اقترب من ركبتها ، أخذت تلهث عندما وصل الماء إلى خصرها ، يا إلهي إن هذا الجرف مرتفع ، وعندما عبرت وسطه علمت بأنها ابتعدت عن الخطر . خرجت من الماء ، وتسلفت تلاً عشبياً ثم سارت قليلاً . وشاهدت أضواء السيارات تلمع من بعيد . نعم إنهم ما يزالون هناك ، أسرع الخطة ، ورأسها إلى الأسفل ، وهي تتساءل فيما إذا كانت تستطيع الوصول قبله ، يا إلهي أمل ذلك . لاح وجه بوكير لوهلة أمام عينيها ، وتدفتت فيها إرادة كانت من القوة والقسوة بحيث تلاشى واختفى .

اقتربت من السيارات ، وأصبحت تسمع أصوات الرجال الجشة عن قرب .

— هي ، أنت !

توقفت ، وهي تقبض بعصبية على الملاءة ، واقترب منها رجلان من البيض يحملان بنادق .

— ماذا تفعلين هنا بحق الجحيم ؟

لم تجب .

— ألم تسمعي أحداً يكلمك .

— لقد جئت أبحث عن ابني ، قالتها بتواضع .

— ابنك ؟

- نعم .
- ماذا يفعل ابنك هنا ؟
- إنه في قبضة رجل الأمن .
- يا إلهي يا جيم إنها أم هذا الأسود .
- ماذا لديك هنا ؟ سألها أحدهم .
- إنها ملاءة .
- ملاءة ؟
- نعم .
- ولماذا ؟
- لقد قال لي الشريف ، بأن أحضر ملاءة لأغطي بها جسد ابني .
- حسناً ، حسناً .
- أليس هذا شيئاً عجيباً ؟
- نظر الرجال البيض إلى بعضهم البعض .
- إن هؤلاء السود ، يحبون بعضهم بعضاً .
- إن هذه حقيقة وليست كذباً . قال آخر .
- خذوني إلى رجل الأمن . توسلت لهم .
- إنك لا تعطينا أوامر ، أليس كذلك .
- كلا يا سيدي .
- سنأخذك عندما يكون الوقت مناسباً .
- نعم يا سيدي .
- إذن تريدن جسده ؟
- نعم يا سيدي .
- حسناً إنه لم يمت بعد .
- سوف يقتلونه ! قالت .
- إذا تكلم فلن يقتلوه .
- لن يتكلم ، قالت .

- كيف تعلمين ذلك .
 - لأنه لن يتكلم .
 - إن لدينا طرقاً لجعل السود يتكلمون .
 - إنك لا تملك طريقة له .
 - إنك تقدرين هذا الأسود كثيراً ، أليس كذلك ؟
 - إنه ابني .
 - لماذا لا تعلميه أن يعقل .
 - إنه ابني . قالت مرة أخرى .
 - اسمعي أيتها العجوز السوداء ، وأنت تقفين هنا بشعرك الأبيض ، لا بد أن لديك منطقاً أفضل لكي تؤمني بأن السود يستطيعون القيام بثورة ...
 - جمهورية سوداء ! قال الآخر ضاحكاً .
 - أرجوكم خذوني إلى رجل الأمن .
 - أنت أمه قال أحدهم ربما تؤثرين عليه ، كي يتكلم ويبلغ عن رفاقه في هذه القضية .

- إنه لن يتكلم . قالت .
 - هلي تريدن له أن يعيش ؟
 لم تجب
 - هيا لنأخذها إلى برادلي .
 أمسكا بذراعيها ، وشدت هي من قبضتها على الملاءة والبندقية ، ثم سارا بها نحو جمع من الأشخاص في الغابة . كانت مشاعرها بسيطة ، بوكر لن يتكلم هي هنا لتكون له بالمرصاد إذا فعل ذلك . وكلما تعالت أصوات الرجال . تعمقت لديها مشاعر الرغبة ، بإصلاح الغلظة التي ارتكبتها ، وأن تشق طريقها لتعود الى الأرض الصلبة . سوف تتحايل على الوقت حين وصول بوكر . أه لو يدعوني فقط أقترب من جوني بوي . وعندما اقترب بها الإثنان من الجمع شاهدت الوجوه البيضاء تلتفت وتحقق بها والصيحات تتعالى حولها .
 - من هذه ؟

- امرأة سوداء .
 - ماذا تفعل هنا ؟
 - إنها أمه ، صاح أحد الرجال .
 - ماذا تريد ؟
 - أحضرت ملاءة لتغطي جسده !
 - إنه لم يمت بعد .
 - إنهم يحاولون إجباره على الكلام .
 - ولكنه سيموت قريباً إذا لم يتكلم .
 - أقول ، انظروا ، لقد أحضرت أم الرجل الأسود ملاءة لتغطي بها جسده !
 - أليس هذا لاثقاً ؟
 - ربما تريد أن تقيم له الصلاة .
 - هل أحضرت معها كاهناً ؟
 - أقول ، اذهب واحضر برادلي .
 - حسناً .
- هدأت أصوات الجميع . كانوا ينظرون إليها بفضول ، وأحست عيونهم الباردة وهي تحاول أن تبحث عن ضعف فيها . وقفت بتواضع والملاءة تغطي بندقيتها ، لقد قبلت بكل ما سيفعلونه بها . وصل رجل الأمن .
- إذن فقد أحضرت ملاءتك ، ها ؟
 - نعم يا سيدي ، همست .
 - يبدو أن الصفعات ، التي تلقيتها قد أوجدت فيك بعض المنطق ، أليس كذلك ؟
 - لم تجبه .
 - إنك لا تحتاجين لهذه الملاءة ، فابنك لم يمت بعد ، اقترب منها فتراجعت إلى الوراء قائلة :
 - كلا .
 - والآن اسمعي يا عمة . قال لها ، لا تتصرفي كالحمقاء ، فلن ينفعك هذا التصرف بشيء . ادخلي إلى هنا واطلبي من ابنك ، أن يعترف بأسماء شركائه

وأعدك أننا لن نقتله ، إذا تكلم وسوف نخرجه إلى خارج البلدة .

– لا يوجد شيء أقوله له .

– هل تريد أن نقتله ؟

لم تجب ، ورأت شخصاً يميل نحو رجل الأمن ويهمس ، في أذنه شيئاً . أحضروها هنا .

أخذوها نحو ساحة خالية من الطين . وكان المطر ينهمر عبر الوهج الضبابي ، لمصابيح اليد ، وشاهدت الرجال يتحلقون في نصف دائرة ، وشاهدت جوني بوي مبطوحاً في حفرة من الطين وكان مقيداً بحبل ، وقد ترك في الحفرة محدودباً . وجانب من وجهه ملقى في بركة من الماء الأسود ، وكانت عيناه تحدقان بها في تساؤل .

– كلميه . قال لها رجل الأمن .

لو أنها فقط تستطيع أخباره لماذا هي هنا ، ولكن كان هذا مستحيلاً ، كانت قريبة بما تريد ، وأخذت تحرق أمامه بشفاه مضغوطة . لم يتحرك جوني بوي ولم يتكلم ، وعاد رجل الأمن ليقف أمامها مرة أخرى .

– اسمعي يا عمّة ، إن لديك الكثير لتقولينه أكثر من أي شخص آخر ، قولي له أن فرصته هي في التكلم ، لماذا يريد أن يحمي السود الآخرين ؟ والبيض ؟ وضعت أصبعها على زناد البندقية وحدقت في الطين بنظرة كالحجر .

– اذهبي إليه ، قال رجل الأمن .

لم تتحرك وكان قلبها يصيح راغباً في الرد على السؤال الذي يبدو في عيني جوني بوي المدهوشتين ، ولم يعد هناك أي طريق الآن .

– حسناً ، إنك تطلّين هذا – برّبي – سوف نجعلك تتكلمين معه قالها ثم التفت إلى تيم ، وقال أحضر أحد جذوع الشجر لنعلق عليه هذا الزنجي رأساً على عقب .

سرت مهممات الرضا ، بين الجمع فعضت على شفتيها لأنها تعلم ماذا يعني ذلك .

– هل تريد أن تري ابنك مشلولاً؟ سألها رجل الأمن . ولكنها لم تجب ، ورأتهم يدحرجون جذع شجرة ورفعوا جوني بوي ، ثم بطحوه على وجهه ومعدته ، وربطوا

رجليه على جذع الشجرة ، وكانت ركبتاه موضوعتين على الجزء العاري من الجذع الخلفي للشجرة وأصابع قدميه مثبتة في الأرض . كانت منهمكة في مراقبة ذلك لدرجة شعرت فيها بأنها هي التي رفعت و جهزت للتعذيب .
أحضر عصا قال رجل الأمن .

أحضر رجل طويل نحيل الجسم ، عصا من سيارة قريبة ، ووقف فوق جذع الشجرة ، وفكاه تتحركان ببطء وهو يضغط بعض التبغ . والآن المجال مفتوح أمامك يا عمه ، قال رجل الأمن ، لذلك قولي له ماذا عليه أن يفعل .
حدقت عبر المطر ، والتفت رجل الأمن وقال : ربما تعتقدين بأننا نلعب ، إذا لم تتفوهي بشيء أضربه عند قمة ركبتيه .

حسناً يا سيدي !

وقفت تنتظر بوكر ، وأحست برجليها تضعفان ، وتساءلت فيما إذا كان باستطاعتها أن تنتظر أكثر ، مرة تلو الأخرى كانت تقول لنفسها ، إذا وصل الآن فسأقتلها الاثنين .

— إنها لا تقول شيئاً يا سيدي .

— حسناً ، اللعنة دعه يذوقها .

انهالت العصا ، واهتز جسم جوني بوي وسط الطين . وكانت هناك صيحة فتمايلت ولكنها شددت قبضتها على الملاءة والبنديقية .
ارفعه !

وانهالت العصا مرة أخرى ، وتعالص صيحة أخرى .

سوف تكسرهما ؟ سأل رجل الأمن .

رفع الرجل الطويل رجلي جوني بوي ، ثم طوحهما مرة أخرى ، ليقرب ركبتيه على الجهة الأخرى . كان جسده جوني بوي راقدًا بلا حراك ورأسه مائل إلى جهة واحدة يمكن معها رؤية وجهه .

— تماماً مثل جناح عصفور دوري مكسور ، قال أحدهم وهو يضحك ، التفت جوني بوي نحوها وصاح :

— اذهبي يا أماء ، اذهبي .

كانت أول مرة تسمع فيها صوته ، منذ وصلت إلى الغابة ، فقدت السيطرة على نفسها وتقدمت نحوه إلا أن رجل الأمن أمسك بها .
والآن لقد أخذت فرصتك ثم التفت إلى جوني بوي ، وقال : يمكنك أن تذهب إذا تكلمت .

– يا سيد إنه لن يتكلم .
– اذهبي يا أماءه قال جوني بوي .
– اقتلوه لا تتركوه يتعذب هكذا ، قالت متوسلة .
– إما أن يتكلم أو لن يسمعك أبداً ، قال رجل الأمن ، هناك أشياء أخرى يمكننا أن نفعلها به .
لم تجب .
– لماذا جئت إلى هنا يا أماءه ؟ سألتها جوني بوي بعبوس .
– سوف أمزق طبلتي أذنيه ، قال رجل الأمن إذا كان لديك شيئاً تقولينه فقوله الآن .

أغمضت عينيها ، وسمعت صوت أقدام رجل الأمن تدوس في الوحل ، يمكنني أن أنقذه . فتحت عينيها ، كانت هناك صيحات حقد تنطلق من الجمع وتحاصرها :
– فجره يا سيدي .
– اضربه حتى لا يعود لسمع .
– إنه يعلم كيف يفعلها أيضاً .
– لقد لكم شاباً يهودياً قبل فترة بهذه الطريقة .

رأت رجل الأمن يدوس فوق جوني ، ويضع راحة يده فوق أذنه ثم رآته يضربها بقبضته بكل عزم ، ثم يفعل الشيء ذاته بالأذن الأخرى . كان أنين جون بوي عالياً ، وهو يلوح برأسه من جهة لأخرى . وظهر بياض عينية في دهشة من عالم بلا موت .
– لم تتكلمي معه عندما أعطيناك فرصة ، قال رجل الأمن : حاولي الآن .
أحست بدموع حارة تسيل على خديها ، وتاقت إلى قتل جوني بوي وإخلاء سبيل روحه ، ولكنها إذا فعلت فإنهم سيأخذون البندقية منها ، وستتاح الفرصة لبوكر لكي يعطيهم الأسماء . يا رب ساعدني ، كان الرجال قد بدؤوا يتكلمون بصوت مرتفع ،

الآن وكأن القضية الرئيسية قد انتهت . بدا لها وكأنها وقفت دهرأ وهي تنظر إلى
جونى بوي ، يترنح ويثني في عالم من الصمت .

• - سيدي هناك شخص يسأك عنك .

- من هو ؟

- لا أعرفه .

- أحضره إلى هنا .

تجمد الدم في عروقها ونظرت حولها بوحشية ، وهي تقبض بشدة على البندقية ،
هل يكون هذا بوكر ؟

وقفت هادئة وهي تشعر أن إثارتها ستخدعها . ربما أستطيع أن أقتل الاثنين ، وقف
أمامها رجل الأمن ، ينتظر وقد تفرق الجمع ثم رأت بوكر يتقدم .

- إني أعرفهم جميعاً يا سيدي ، نادى بوكر وهو يسير نحو الساحة الفارغة من
الطين حيث كان جونى بوي مبطوحاً .

- هل تعني أن لديك أسماء .

- بالتأكيد! هذه العجوز السوداء

- رأت شفاهه تتحرك ثم تصمت ، عندما رآها فتقدمت إلى الأمام ورفعت الملاءة .
أطلقت النار ، وبدون توقف استدارت ، هي تسمع صراخهم وسددت نحو جونى
بوي ، ولكن أذرعهم التي امتدت نحوها ألقتها على الأرض . وبينما هي تلقي بالملاءة
من يدها ، لاحظت منها نظرة نحو بوكر ، كان مرغاً في الطين . وقد سقط على وجهه
بينما كانت يده ممدودتين أمامه . قامت مجموعة من الرجال برفعه ، وارتقت هي على
الأرض بدون مقاومة ، تنظر عبر المطر إلى تلك الوجوه البيضاء فوقها . وشعرت فجأة
بأنها في سلام ، لم يعودوا جبلاً أبيضاً الآن ، لم يعودوا ليدفعوا بها إلى أطراف
الحياة . أصبحت الآن على ما يرام .

- لقد أطلقت النار على بوكر .

- كانت تحمل بندقية تحت الملاءة .

- لقد أطلقت النار على رأسه مباشرة .

- لماذا قتلته ؟

– اقتلوا القحبة .
– لقد كنت أظن أن هناك أمراً غريباً بالنسبة لها !
– لقد قلت لكم من الأفضل أن ننتهي منها أولاً .
– هذا ما تتلقاه عندما تعامل السود بلطف !
– أقول إن بوكر قد مات .
وقفت تنظر في الوجوه البيضاء ، وتصغي ، انتظرت . لكي تسلم حياتها قبل أن يأخذوها منها . لقد فعلت ما كانت تريد أن تفعله . فقط لو أن جوني بوي . . . نظرت إليه . كان ملقى هناك ينظر إليها بعينين متعبتين . لو أنها فقط تستطيع أن تخبره .
– لماذا قتلتها ؟
كان هذا صوت رجل الأمن .
لم تجب .
– ربما أرادت أن تطلق النار عليك يا سيدي .
– لماذا قتلتها ؟
أحست بقدم رجل الأمن ، تكاد تدوس عليها ، أغمضت عينيها .
– أيتها القحبة السوداء .
– دعها تم .
– لا بد أنها اكتشفت أمر بوكر .
– ربما .
– يا يسوع المسيح ، ماذا تنتظرون أيها الأغبياء .
– نعم اقتلوها .
– اقتلوها معاً .
– دعها ترى مقتل ابنها أولاً .
أدارت وجهها نحو جوني بوي ، كان ملقى هناك ينظر بحيرة في عالم يخلو من الأصوات ، وقالت في نفسها إنه على الأقل لن يسمع .
– هيا لنقتله .
وقفت تصغي إلى الصوت الذي لن يسمعه جوني بوي ، جاء اثنان منهم واحد تلو

الآخر ، كانا قريين جداً لدرجة أن الأمر ظهر ، وكأنه طلقة واحدة . لم تنظر إلى
جونني بوي بل نظرت إلى وجوه الرجال البيض القاسية ، وهي مقبلة تحت وهج
المصابيح .

– هل سمعت هذا أيتها السوداء ؟

– هل تفاجأ ؟ لا بد أنه يتساءل في الجحيم ما هو الشيء الذي ضربه ؟

– هيا اقتلها يا سيدي .

– دعني أقتلها أنا فهذا الذي قتلته كان صديقي .

– حسناً ، يا بيتير هذا يكفي .

أعطت من عمرها ما استطاعت قبل أن يأخذوه منها ، ولكن صوت الطلقة ،
وشريط النار الذي مزق صدرها أجبرها ، وبشدة على أن تحيا ثانية . لم تتحرك سوى
بقدر صدمة الرصاصة . أحست بحرارة دمها ، تدفئ ظهرها البارد . رغبت فجأة في
الكلام . إنكم لم تحصلوا على ما أردتم ، ولن تحصلوا عليه . إنكم لم تقتلوني . لقد
جئت هنا بنفسى – أحست بالمطر يسقط في عينيها الضعيفتين ، وسمعت أصواتاً
خافتة ، وكانت شفتاها تتحركان بدون صوت : إنكم لم تحصلوا على ما أردتم . كانت
مركزة تماماً ، على وضعها وغارقة في أعماق نجمتها ، ومشبعة بسلامها وقوتها . لم
تكن تشعر بجسدها وهو يبرد ، تماماً مثل المطر البارد ، الذي يسقط من سماء غير
منظورة فوق الأحياء الملعونين ، والأموات الذين لا يموتون أبداً .

١٩٥٥

جون شيفر

الزوج الريفى

عن «ذي نيويوركر»

لنبدأ من البداية ، كانت الطائرة التي أقلعت من منيابوليس نحو الشرق ، وعلى متنها فرانسييس ويد تطير في جو ثقيل ، عبر سماء ملبدة بالغيوم التي تقاطبت أسفل الطائرة حتى حجبت رؤية الأرض . أخذ الضباب يتشكل خارج النوافذ ، ودخلت الطائرة وسط غيوم بيضاء كثيفة لدرجة أنها كانت تعكس اللهب ، الذي تنفثه محركات الطائرة ، وقد تغير لون الغيوم ليصبح قاتماً رمادياً وأخذت الطائرة تهتز ، ومع أن فرانسييس كان قد سبق له أن ركب الطائرة في جو ثقيل كثيف الغيوم والضباب ، إلا أنه لم يسبق له أن شهد ارتجاجاً بمثل هذه الصورة .

سحب الرجل الذي يجلس بجواره في المقعد قارورة من جيبه ، وتناول منها جرعة . ابتسم فرانسييس لجاره ، ولكن الرجل اشاح بوجهه وأخذ ينظر إلى البعيد . فلم يكن يريد من أحد أن يشاطره مسكن الألم الذي يتناوله ، وأخذت الطائرة تنحدر وتتخبط بعنف ، . كان هناك طفل يبكي . الهواء داخل القمرة حاراً أكثر مما ينبغي ومجهداً ، وأخذت قدم فرانسييس اليسرى في التخذر ، وقرأ قليلاً في صفحة من كتاب كان قد اشتراه من المطار ، ولكن عنف العاصفة شتت ذهنه ، وفي الخارج سادت الظلمة ، وكان لهيب المحركات المتوهج ينثر الشرر خلالها ، أما في داخل قمرة

الطائرة ، فقد أشاع خفوت الاضاءة والازدحام وستائر النوافذ جواً من الإجهاد وعدم الإلفة ، ثم أخذت الأضواء تومض وتخبو داخل الكابينة إلى أن انطفأت تماماً .
- هل تعلم ما كنت أرغب في فعله دائماً؟ قال الرجل الذي يجلس بجوار فرانسيس فجأة «لقد كنت دائماً أرغب في شراء مزرعة في نيوهامبشير وأربي فيها قطعاً من الأبقار» .

أعلنت المضيفة بأنهم سيقومون بهبوط اضطراري ، الجميع ما عدا الطفل رأو في أذهانهم الأجنحة المنتشرة لملاك الموت ، وكان يمكن سماع الطيار وهو يغني بصوت هزيل ، «لقد حصلت على ستة بنسات ، ست بنسات ، فرحة فرحة ، لقد حصلت على ست بنسات لتكفيني مدى حياتي . . .» ، ولم يكن هناك صوت آخر سواه .
علا صوت هدير الصمامات الهيدروليكية ، وتضخم حتى غطى على أغنية الطيار ، وكان هناك زعيق في أعلى الجو يشبه صوت كوابح سيارة وانزلقت الطائرة على بطنها في حقل ذرة وهزتهم بعنف حتى أن رجلاً عجوزاً أخذ يولول «كلوتي ، كلوتي»!

فتحت المضيفة باب الطائرة بسرعة ، وقام احد الأشخاص بفتح باب طوارئ في المؤخرة مدخلاً ضجة لطيفة على شعورهم المستمر بالموت الجماعي - رذاذ خفيف من الماء ورائحة المطر الكثيف في وسط الرعب والقلق على حياتهم . اندفعوا في طوابير عبر الأبواب ، وانتشروا في جميع الاتجاهات وسط حقل الذرة وتحته رذاذ المطر وهم يصلون من أجل عدم انقطاع خيط الحياة ، وهذا ما حصل بالفعل ، فلم تحترق الطائرة ولم تنفجر ، ولما تأكد أن ذلك لن يحصل قام طاقم الطائرة ومعهم المضيفات بجمع الركاب وقادوهم إلى ملجأ في حظيرة ، لم يكونوا بعيدين عن مدينة فيلادلفيا ، وخلال وقت قصير حضر رتل من سيارات التاكسي ، التي أفلتهم بدورها إلى المدينة «أنه بالضبط مثل المارن» قال أحدهم ، الا أن المفاجأة كانت وجود بعض الارتياح من الشك الذي ينتاب العديد من المسافرين الأمريكيين من المسافرين الآخرين معهم .

وفي فيلادلفيا ، استقل فرانسيس القطار إلى نيويورك ، وفي نهاية الرحلة عبّر إلى المدينة ، وبالكاد تمكن من اللحاق بالقطار الذي يستقله خمسة ليالي في الأسبوع إلى منزله في شادي هيل . جلس مع تريس بيردن «أتعلم أنني كنت على متن الطائرة

التي سقطت منذ لحظات خارج فيلادلفيا» قال «وهبطنا في حقل». لقد اجتاز المسافة أسرع من الصحف أو المطر . كان الجو في نيويورك مشمساً ، ولطيفاً . وكان يوم من أواخر أيام شهر ايلول منعشاً وهادئ الشكل مثل تفاحة . استمع تريس إلى القصة ، ولكن أتى له أن يستشار؟ ففرانسيس لا يملك قوى تستطيع أن تجعله يعيد الحياة إلى غصن في حالة الموت - خاصة في جو قطار الضواحي ، الذي يرتحل خلال منطقة ريفية مشمسة ، بدأت حدائقها الفقيرة للتو تعلن موعد الحصاد .

التقط تريس جريدته وبقي فرانسيس وحيداً مع أفكاره . ودّع تريس متمنياً له ، ليلة سعيدة عند رصيف محطة القطار في شادي هيل ، ثم استقل سيارته الفولكس فاجن المستعملة إلى حيث يسكن في ضاحية بلنهولو .

كان منزل آل ويد قد بني أيام المستعمرات الهولندية . وكان أوسع مما يبدو من الطريق العام . كانت غرفة المعيشة واسعة ومقسمة إلى ثلاثة أجزاء ، على طراز بيوت بلاد الغال ، وحول الجناح القائم على يسار المخل المسقوف ، توجد الطاولة الطويلة ، المعدة لستة أشخاص مع شموع وطبق فواكه في الوسط . وكانت الأصوات والروائح التي تنبعث من باب المطبخ المفتوح مثيرة للشهية ، فقد كانت جوليا ويد طاهية ماهرة ، وكان الجزء الأكبر من غرفة المعيشة يتحلق حول الموقد ، وعلى اليمين توجد بعض أرفف الكتب وبيانو ، كانت الغرفة مرتبة وهادئة ، تتسلل في نوافذها بعض خيوط شمس آخر الصيف وتطل على الجهة الغربية صافية كصفاء الماء ، ولم يكن هناك شيء مهممل أو شيء لم يتم تلميعه . انه لم يكن من تلك البيوت ، التي اذا قادتك الفضول إلى فتح صندوق السجائر الملصق فانك ستجد تحته زراً لقميص قديم ، أو قطعة نقود صغيرة قد فقدت بريقها . كان الموقد منظفاً ، والزهور الموضوعة على البيانو تنعكس على صفحة السقف اللامعة ، وكان هناك البوما لمعزوفات شوبارت على الحماله .

كانت لويزا ويد ، الفتاة الجميلة ابنة التسعة سنوات تنظر من النوافذ الغربية ، إلى الخارج . وإلى جانبها يقف شقيقها الأصغر هنري فيما شقيقها توبي الذي لا يزال صغيراً يتأمل أشكال بعض الرهبان الحليقي الرؤوس ، وهم يشربون الجعة على الصفة النحاسية اللامعة لصندوق الخشب .

خلع فرانسيس قبعته ووضع أوراقه ، لم يكن مغتبطاً لهذا المشهد . فلم يكن ذلك الإنسان التأملّي ، ذلك هو عنصره وتلك هي حلقته وتكوينه . يعود اليها دائماً مع الإحساس بالإشراق ، والقوة التي يعود بها أي مخلوق إلى بيته ، «مرحباً لكل واحد» قال «الطائرة من مينابوليس . . .» ، تسعة من كل عشر مرات كان فرانسيس يستقبل بحرارة ، ولكن الجميع هذه الليلة كانوا مستغرقين في خصوماتهم الخاصة . لم يكذب فرانسيس يكمل جملته بشأن الطائرة التي سقطت . الا وكان هنري يسدد ضربة إلى ظهر لويزا ، التفت لويزا حول نفسها وهي تقول «عليك اللعنة» ، كان فرانسيس دائماً يرتكب غلطة بتوبيخه لويزا على اللغة السيئة قبل أن يعاقب هنري . استدارت لويزا الآن نحو ابائها واتهمته بالمحاباة ، فهنري دائماً على حق ، وهي مضطهدة ومتوحدة ولا فائدة من حظها . استدار فرانسيس نحو ابنه ، ولكن الولد قال إن لديه العذر في توجيه الضربة لأنها هي التي ضربته أولاً على أذنه وهي منطقة خطيرة ، وأقرت لويزا بهذا الأمر بانفعال واعترفت بأنها ضربته على أذنه ، وكانت تقصد أن تضربه على أذنه لأنه أفسد لها مجموعة الخزف الصيني .

رد هنري بأن هذا كذب . ادار توبي الصغير نظره بعيداً عن صندوق الخشب ، ليقدم الدليل على صدق لويزا . فقام هنري بوضع يده بقوة على فم توبي الصغير ليمنعه من الكلام ، حاول فرانسيس الفصل بين الأولاد ولكنه عن غير قصد دفع بتوبي إلى صندوق الخشب ، فأخذ توبي في البكاء بينما كانت لويزا قد شرعت في البكاء للتو .

حينئذ دخلت جوليا ويد إلى ذلك الجزء من الغرفة حيث الطاولة معدة ، كانت امرأة لطيفة وذكية وقد بدا البياض يغزو شعرها باكراً ، لم يبدُ عليها أنها لاحظت وجود شجار .

-«مرحباً حبيبي» ، قالت لفرانسيس بلهجة صادقة ثم تابعت «اغسلوا أيديكم جميعاً فالعشاء جاهز ، اشعلت عود ثقاب واضاءت الشمعات الستة وسط هذا الجو من الدموع .

هذا الإعلان البسيط الذي يشبه صيحات الحرب لرؤساء الجماعات الاسكتلندية يؤدي فقط إلى تأجيج شراسة المحاربين . إثر ذلك ، توجه لويزا ضربة ، إلى كتف

هنري ، ومع أن هنري نادراً ما يبكي ، إلا أنه كان تعباً فقد رمى تسعة ، رميات في لعبة البيسبول ذلك النهار . لذلك انفجر بالبكاء ، ويكتشف توبي الصغير شظية في يده فيأخذ في العويل .

يصرخ فرانسيس بصوت عال بأنه كان على متن الطائرة التي تحطمت ، ولذلك فهو متعب تظهر جوليا مرة أخرى من المطبخ متجاهلة كل هذه الفوضى . وتطلب من فرانسيس أن يصعد إلى الطابق العلوي ويخبر هيلين بأن كل شيء جاهز ، فرانسيس يبدي سروره بالذهاب ، مثل سروره بالرجوع إلى المركز الرئيسي للشركة . ويخطط أن يخبر ابنته الكبرى عن الطائرة التي تحطمت ، ولكنه يجد هيلين مستلقية على سريرها تقرأ مجلة «ترورومانس» . وكان أول شيء يفعله فرانسيس هو أن ينتزع المجلة من يدها ويذكرها بأنه قد منعها من شرائها .

- تجيبه هيلين بأنها لم تقم بشرائها ، وانما اعطتها اياها بيسي بلاك أعز صديقاتها ، وبيسي بلاك وكل شخص يقرأ «ترورومانس» . وحتى والد بيسي بلاك يقرأ ترورومانس» ، ولا توجد فتاة في صف هيلين لا تقرأ «ترورومانس» . يعبر فرانسيس عن مقتته لهذه المجلة ثم يخبرها بعد ذلك بأن العشاء جاهز - على الرغم من أن الأصوات المنبعثة من الأسفل لا توحى بذلك - تتبعه إلى أسفل الدرج . كانت جوليا قد جلست على ضوء الشموع وفردت منديلاً على حجرها .

لم تحضر لويزا ولا هنري إلى المائدة . وكان توبي الصغير لا يزال يولول ووجهه على الأرض . يخاطبه فرانسيس بلطف «كان أبوك في الطائرة التي تحطمت بعد ظهر هذا اليوم . ألا تريد أن تسمع يا توبي قصتها؟» .

يستمر توبي في البكاء . «إذا لم تأت الآن إلى المائدة يا توبي» يقول فرانسيس «فانني سوف أرسلك إلى السرير بدون عشاء» .

ينهض الولد الصغير ويوجه إليه نظرة قاطعة ، ثم يصعد الدرج بسرعة إلى غرفة نومه ويغلق الباب خلفه بعنف .

- أوه يا عزيزي» تقول جوليا . وتهتم بالحقاق به .

- يقول فرانسيس بأنها ستفسده .

- تقول جوليا ان وزن توبي أقل عشر باوندات مما يجب أن يكون عليه وأنه بحاجة

إلى من يشجعه على الأكل ، كما أن الشتاء على الأبواب وسيمضي الأشهر الباردة في السرير ، ما لم يتناول طعامه ، تصعد جوليا إلى الطابق العلوي . ويجلس فرانسيس مع هيلين على الطاولة . كانت هيلين تشعر بالكآبة لأنها قرأت بتركيز مفرط في يوم لطيف مثل هذا . ترمق والدها والغرفة حولها بنظرة منهكة ، ولم تفهم ما جرى للطائرة التي تحطمت لأنه ، لم يكن هناك قطرة مطر في شادي هيل .

تعود جوليا مع توبي ويجلسوا جميعاً لتناول الطعام .

- «هل يتوجب علي أن انظر إلى تلك السمينية الخرقاء؟» . يقول هنري قاصداً لويزا . يتدخل الجميع ، ما عدا توبي في هذه المشادة الكلامية التي يمتد سعيها ، لمدة خمس دقائق فوق الطاولة وتحته . وعند النهاية يضع هنري منديل المائدة فوق رأسه ، محاولاً أن يأكل بتلك الطريقة مما تسبب في دلق السبانخ على جميع انحاء قميصه . ويسأل فرانسيس جوليا ، ألم يكن بالإمكان ان يتناول الأولاد عشاءهم في وقت مبكر . وهنا تشرع جوليا بجميع اسلحتها فهي لا تستطيع أن تطبخ عشائين ، وان تعد مائدتين : - وترسم مثل خطوط البرق صوراً للكدح ، والعمل الشاق الذي أضاع شبابها وجمالها وأفقدتها عقلها .

- يقول فرانسيس . ان عليهم ان يدركوا أنه كان على وشك أن يقتل في حادث تحطم طائرة ، ولا يرغب ان يعود إلى البيت ليشهد ساحة قتال في كل ليلة . وهنا تشعر بأن جريمة قد ارتكبت بحقها ، ويرتجف صوتها : ليس صحيحاً أنه يعود كل ليلة إلى البيت ليشهد ساحة قتال ، هذا اتهام غبي وخسيس ، كل شيء كان هادئاً إلى أن وصل ، ثم توقفت عن الكلام ووضعت الشوكة والسكين وراحت تتأمل ، في طبقها كأنها تتأمل في خليج ثم اجهشت بالبكاء .

«مسكينة امي» قال توبي ، وعندما تنهض جوليا عن الطاولة تقوم بتجفيف دموعها بمنديل مائدة ، ويذهب توبي ليقف بجانبها «مسكينة امي» . يردد «مسكينة أمي» . : ثم يصعد الاثنان الدرج معاً . وينفض الأطفال الآخرون مبتعدين عن ساحة المعركة . ويخرج فرانسيس إلى الحديقة الخلفية لتدخين سيجارة ولتنشق الهواء . كانت حديقة مبهجة توجد فيها ممرات ومسالك زهور وأماكن للجلوس . وكانت الشمس على وشك الأفول ، ولكن كان ما يزال هناك الكثير من الضوء .

انشغل تفكيره تماماً في سقوط الطائرة وفي المعركة ، وكأن حادث سقوط الطائرة والمشاجرة في البيت قد فتحا على مزاجه باب التفكير ، وأخذ ينصت إلى أصوات المساء في شادي هيل .

«حقيرين ! أوغاد» ، كان نيكسون العجوز يصرخ على السناجب في محطة اطعام طيوره «اغربن عن ناظري» .

وسمع صوت طرقة باب ، فقد كان احدهم يلعب التنس في ساحة آل بابكوكس . وآخر كان يجز العشب .

وبعد ذلك ، بدأ دونالد جوسلين الذي يسكن عند الزاوية بعزف «لحن ضوء القمر» . وكان يفعل ذلك في كل ليلة تقريباً . ويطلق اللحن قوياً خارج النوافذ ويعزفها ، روباتو من البداية إلى النهاية ، مثل فيضان سيل من الدموع والوحشية والاشفاق على الذات - من كل شيء . وعن كل شيء لم تعرفه عظمة بيتهوفن . دوت الموسيقى في أعلى الشارع وفي أسفله تحت الأشجار وكأنها دعوة للحب وللرقة موجهة إلى احدى خادمت البيوت التي تشعر بالوحدة - أو إلى فتاة حسنة الوجه من جالواي ، تنظر إلى صورة فوتوغرافية قديمة في غرفتها بالطابق الثالث وتحن إلى وطنها .

«من هنا يا جوبيتر ، من هنا يا جوبيتر» نادى فرانسيس على كلب آل ميرسير ، جوبيتر الذي اندفع عبر أشغال الطماطم ، يحمل في فمه بقايا قبة ، كان جوبيتر كلباً شاذاً ذو غرائز ومعنويات عالية غير معهودة في شادي هيل . كان لونه اسوداً كالفحم ، ويشع وجهه الطويل فطنة وذكاء وفجوراً ، في حين تومض عيناه بالشر . ولا يسير الا رافعاً رأسه عالياً . كان جوبيتر من نوعية الكلاب الشرسة التي تشد حول رأسها الأطواق بكثافة وتظهر صورها على الأنسجة والسجاجيد ومقابض الشماسي وعصي السير ، كان يذهب حيث يحلوه منقباً في حبال الغسيل أو صناديق القمامة ، أو حقائب الأحذية . يخرب حفلات الحدايق ومباريات التنس ، ويحشر نفسه في مسيرات الكنائس يوم الأحد ، وينبح على الرجال الذين يرتدون الثياب الحمراء . كان يندفع عبر حديقة ازهار السيد نيكسون العجوز ، مرتين أو ثلاث مرات في اليوم ، يشق فتحة عريضة عبر حوض ورود الكونيساوي ساستاغوس ، وحالما

يشعل دونالد جوسلين نار منقله في ليالي الخميس ، يلتقط جوبيتر الرائحة . ولا يوجد شيء يمكن لآل جوسلين ان يفعلوه حتى يبعده عنهم ، فالعصي ، والحجارة والأوامر القاسية تحركه فقط إلى خافة الشرفة ، حيث يبقى واقفاً بفمه الودود الأنيق ، ينتظر ان يدير دونالد جوسلين ظهره باحثاً عن الملح فيقفز نحو المصطبة وينتزع قطعة من اللحم المشوي بخفة عن النار ويهرب بعيداً بعشاء آل جوسلين .

أيام جوبيتير كانت معدودة ، فسرعان ما سيقدم المزارع الألماني أو طباح آل فاركاسون ، بوضع السم له في القريب العاجل . حتى العجوز نيكسون يمكن أن يضع له بعض الزرنخ في القمامة التي يحبها جوبيتر . «هنا جوبيتر ، جوبيتر» نادي فرانسيس ، ولكن الكلب وثب مبتعداً وهو يهز القبعة بأسنانه البيضاء .

وفيما هو ينظر إلى داخل نوافذ بيته ، رأى فرانسيس جوليا وهي تنزل وتطفئ الشموع ، جوليا وفرانسيس كانا يخرجان كثيراً ، فجوليا كانت اجتماعية ومحوبة وقد جاء حبها للحفلات نتيجة خوف طبيعي من الفوضى والوحدة . وكانت تقرأ بريدها الصباحي بقلق حقيقي ، باحثة فيه عن دعوات غالباً ما كانت تجد البعض منها ، ولكنها كانت نهمة للخروج . ولو أنها خرجت سبع ليالي في الأسبوع لهذا الأمر من نظرتها التأملية - نظرة شخص يستمع إلى الموسيقى البعيدة - لأنها كانت تفترض دائماً وجود حفلات أكثر تألقاً في مكان آخر . وقد حدد لها فرانسيس حفلتين ليليتين في الأسبوع ، واضعاً تفسيراً مرناً ليوم الجمعة . بينما يعبر عطلة نهاية الأسبوع كما يعبر زورق صغير وسط ريح . وفي اليوم الثالث لسقوط الطائرة كان من المفترض أن تتناول عائلة ويد طعام العشاء وعائلة فاركوانرسون .

وصل فرانسيس من البلدة إلى البيت متأخراً . واثناء ارتدائه لملابسه ، أحضرت جوليا جليسة الأطفال الليلية للبقاء مع الأولاد ، كانت الحفلة صغيرة ولطيفة ، وهذا فرانسيس ، قاصداً الترويح عن نفسه . قامت خادمة جديدة بتقديم المشروبات . كان شعرها داكناً ووجهها مستديراً وشاحباً ، وبدت مألوفة لفرانسيس . لم يكن قد نمت ذاكرته في مواجهة قدرات أحاسيسه . فرائحة الخشب والليلك والروائح الأخرى المشابهة لم تكن تثيره . وكانت ذاكرته تشبه زائدته الدودية - مخزن بلا وطيفة . لم يكن هذا العجز ناتجاً عن عدم رغبة للهروب من الماضي ، بل ربما كان عجزه انه

استطاع تجاوز هذا الماضي بنجاح . يمكن أن يكون قد رأى الخادمة في حفلات أخرى ، أو يمكن أن يكون قد رآها تمشي في نزهة بعد ظهر أيام الأحد ، ولكنه في كلتي الحالتين لم يكن يرغب في نبش ذاكرته الآن . كان وجهها رائعاً كوجه قمر - نورمانديه أو ايرلندية - ولكنها لم تكن جميلة إلى حد أن تثير شعوره ليتذكر أين يمكن أن يكون قد رآها من قبل ، في ظروف تستحق الاستذكار . سأل نيللي فاركوارسون من تكون . فأجابت نيللي بأن الخادمة جاءت عبر أحد الوكالات ، وأن موطنها هو ترينون في نورماندي - وهو مكان صغير توجد فيه كنيسة ومطعم كانت نيللي قد زارته من قبل .

وبينما كانت نيللي تتحدث عن رحلاتها الخارجية ، أدرك فرانسيس أين رأى المرأة من قبل . حصل ذلك في نهاية الحرب . غادر مركز تدريب المجندين التكميليين مع بعض الرجال الآخرين في اجازة لمدة ثلاثة أيام في ترينون ، وفي يومهم الثاني ساروا نحو تقاطع طرق ليشاهدوا عقاباً علنياً لامرأة شابة ، كانت تعيش مع قائد وحدة الماني خلال الاحتلال .

كان صباحاً خريفاً معتدل البرودة ، السماء ملبدة بالغيوم تصب ضوءاً هزياً على الطرق المتقاطعة المغبرة . كانوا يقفون على أرض مرتفعة يستطيعون ان يروا منها ، وكانت أشكال الغيوم والتلال الشبيهة ببعضها البعض تمتد باتجاه البحر . وصلت السجينة في عربة زراعية ، وقد أجلس على مقعد بثلاثة أرجل وأوقفت بجانب العربة أثناء تلاوة المحافظ لائحة الاتهام وقرار الحكم . كان رأسها منحنياً وعلى وجهها نصف ابتسامة تخفي روحها المعذبة ، وعندما انتهى المحافظ حلت شعرها وتركته ينتثر على ظهرها ، وقام رجل ضئيل ذو شوارب رمادية بقص شعرها بمقص كبير ثم القاه على الأرض . وبعد ذلك أحضر وعاء مملوءاً بماء الصابون وقام بحلاقة رأسها بموس حلاقة ولم يبق فيه شعره واحدة ، ثم وصلت امرأة وبدأت في فك رباطات ملابسها الا أن السجينة دفعتها جانباً ، وبدأت بخلع ملابسها بنفسها ، وعندما خلعت قميصها من فوق رأسها ورمته على الأرض أصبحت عارية . فسخرت المرأة منها أما الرجال فظلوا هادئين ، ولم يطرأ أي تغيير على الابتسامة الزائفة الكئيبة التي كانت على وجه السجينة . وقد جعل الهواء البارد جلدها مشدوداً وصلب حلمات ثدييها .

خفت السخرية تدريجياً نتيجة ادراكهم لانسانيتهم العامة . وبصقت احدى النساء عليها ، لكن جلال عريها الذي لم ينتهك بقي معها خلال محنتها . وعندما هدا الجمهور ، استدارت وأخذت في البكاء ، وسارت بعد ذلك وحيدة في الطريق المغيرة مبتعدة عن القرية ولم تكن ترتدي شيئاً سوى حذاء بال وجوارب . لقد شاخ قليلاً ذلك الوجه الأبيض المستدير ، ولم يعد هناك شك الآن بأن الخادمة التي قدمت الكوكتيل والتي قامت أخيراً بخدمة فرانسيس على العشاء ، كانت هي المرأة التي تمت معاقبتها عند تقاطع الطرق .

بدت الحرب بعيدة الآن ، وبدا ذلك العالم الذي كان فيه ثمن التحزب يعني الموت أو التشويه ، بعيداً جداً .

لقد أضاع فرانسيس مسار أولئك الرجال الذين كانوا معه في فيسي . ولم يكن يستطيع الاعتماد على تعقل جوليا . لم يستطع أن يخبر أحداً ، واذا قام الآن بأخبار القصة على مائدة العشاء ، فإنه سيرتكب مغالطة اجتماعية وخطأ انسانياً . بدا الناس في غرفة معيشة عائلة فاركواراسون متحدين في صمتهم الضمني بأنه لم يكن هناك لا ماض ولا حروب وأنه لا يوجد خطر أو قلق في هذا العالم . في التاريخ المسجل للترتيبات البشرية ، كان يمكن لهذا اللقاء غير العادي أن يجد له مكاناً لكن الجو في شادي هيل . كان يمكن أن يجعل من هذا الترتيب ، غير لائق وغير مهذب . انسحبت السجينة بعد تقديم القهوة ، ولكن اللقاء أوهن شعور فرانسيس ، فقد فتح ذاكرته واحساساته . كما وسع مدارك ذهنه . قاد سيارته بصحبة جوليا عائدين إلى البيت بعد انتهاء الحفلة ، ودخلت جوليا إلى البيت فيما بقي فرانسيس في السيارة ليوصل جليسة الأطفال إلى منزلها كان يتوقع أن يرى السيدة هينلين ، المرأة العجوز التي تمكث عادة مع الأولاد . ولكنه دهش عندما فتح الباب وخرجت إلى الشرفة المضاءة على مدخل ، المنزل فتاة شابة وقفت تحصي كتبها المدرسية تحت الضوء ، كانت متجهمة وجميلة ، العالم الآن مليء بالفتيات الشابات الجميلات . لكن فرانسيس رأى هنا الفرق بين الجمال والكمال . لم يكن فيها أي من تلك العيوب أو الشامات أو وحامات الولادة أو آثار الجروح ، دارت في ذهنه تلك اللحظة التي تكسر فيها الموسيقى الزجاج ، وشعر بوخزة من الإدراك غريبة وعميقة ومدهشة

كأي شيء في حياته ، جاءت تلك الوحزة من عبوسها ، ومن نظرة كثيبة غير محسوبة في وجهها - نظرة تركت في نفسه انطباعاً ينم عن نداء مباشر للحب . وعندما احصت كتبها ، نزلت الدرجات ثم فتحت باب السيارة وتحت الضوء رأى أن خديها كانا مبللين .

ثم دخلت في السيارة وأغلقت الباب .

- «أنت جديدة» قال فرانسيس

- «نعم ، السيدة هينلين مريضة ، وأنا أن مورشيسون» .

- «هل سبب لك الأولاد أي ازعاج؟»

- «أو ، لا ، لا» استدارت وابتسمت له بحزن تحت الضوء الخافت للوحة أجهزة

القياس «التابلوه» ، وعلق شعرها اللامع في قبة سترتها فهزت رأسها لتطلقه .

- «كنت تبكين»

- «نعم»

- «أرجو أن لا يكون قد حدث شيء في بيتنا» .

- «لا . لا . لم يحدث شيء في بيتكم» كان صوتها كثيباً . انه ليس سراً . فالكل

في القرية يعرف أن أبي مدمن كحول . وقد استدعاني إلى أحد البارات ووبخني

بقسوة ، فهو يعتقد أنني فاسقة . لقد هاتفني قبل عودة السيدة ويد بقليل» .

- «أنا أسف» .

- «أوه ، يا الهي» ، وأخذت تلهث ثم بدأت في البكاء . استدارت ناحية

فرانسيس فأخذها بين ذراعيه وتركها تبكي على كتفه . ارتعشت في احضانه وأثارت

هذه الحركة شعوره بلباقه لحمها وعظامها . واحس برقة ملابسها على صدره . وعندما

خفتت حدة رجفتها ، بدا الأمر وكأنه نوبة حب .

فقد فرانسيس عقله وشدها اليه بقوة ولكنها تملصت وانسحبت بعيداً .

- «أنا أسكن في شارع بلليفيو» ، قالت «اسلك اسفل شارع لانسنغ إلى جسر

سكة الحديد .

- «حسناً» وشغل السيارة .

- «استدر إلى اليسار عند الإشارة الضوئية . . . والآن استدر هنا إلى اليمين واتبع

المسارات باتجاه مستقيم» .

الطريق التي سلكها فرانسيس أخذته إلى خارج الضاحية التي يعيش فيها عبر خطوط سكة الحديد . ومن ثم باتجاه النهر إلى شارع يسكن فيه الفقراء متوسطي الحال في بيوت تعكس اسطحها المثلثة وحوافها الخشبية الناتئة ، انقى مشاعر الكبرياء والرومانسية ، مع أن البيوت نفسها لا يوجد فيها ما يوحي بالخصوصية ، أو بالراحة فكلها كانت صغيرة جداً . كان الشارع مظلماً ، وكان فرانسيس قد تحركت مشاعره أمام رشاقة وجمال هذه الفتاة المضطربة . وعندما دخل الشارع بدا له ، وكأنه دخل في أعماق أجزاء ذاكرته المدفونة . وعلى البعد شاهد ضوء شرفة يتوهج ، كانت الشرفة الوحيدة المضاءة ، فقالت له ان ذلك المنزل المضيء هو المكان الذي تعيش فيه . وعندما أوقف السيارة استطاع أن يرى خلف ضوء الشرفة عبر رواق خافت الاضاءة مشجباً عمودياً للملابس قديم الطراز .

«حسناً ، نحن هنا» قالها وهو مدرك بأن شاباً يافعاً كان يمكن أن يقول شيئاً مختلفاً .

لم تحرك يديها عن الكتب المطوية فيها ثم استدارت وواجهته . كانت في عينيه دموع الشهوة - شهوة عازمة وغير حزينة - فتح الباب إلى جانبه ثم استدار ليفتح لها الباب من جانبها ، امسك بيدها الطليقة مشبكاً أصابعه في أصابعها ، وصعد معها الدرجتين الاسمنتيتين ثم سارا في ممر ضيق عبر حديقة أمامية حيث الأضاليا والأذريون والزهور - نباتات مقاومة لصقيع الليل الخفيف - ما زالت تزهر وتفتح ، وتفوح منها روائح لطيفة بقوة في هواء الليل . عند الدرجات حررت يدها وقبلته برشاقة ، ثم عبرت الشرفة وأغلقت الباب ، انطفأ ضوء الشرفة وبعده ضوء الصالة ، بعد ثانية أشعل الضوء المؤدي إلى الطابق الثاني على جانب من البيت ، مخترقاً شجرة ما زالت تكسوها الأوراق . استغرقها الأمر بضع دقائق حتى تخلع ملابسها وتذهب إلى الفراش وبعدها انكفأ البيت في الظلام .

كانت جوليا نائمة عندما عاد فرانسيس إلى البيت . فتح نافذة ثانية واندس في الفراش ليغمض عينيه على تلك الليلة ، لكنه حالما اغمض عينيه - محاولاً الاستغراق في النوم - دخلت الفتاة في مخيلته ، تتجول بحرية كاملة عبر الأبواب

المغلقة ، وتدف من غرفة إلى غرفة باسراقتها ، ورائحة عطرها ، ونغمة صوتها . كان يعبر معها الأطلسي على متن الماوريتانيا القديمة ولاحقاً يعيش معها في باريس ، عندما استيقظ من حلمه . نهض ودخن سيجارة عند النافذة المفتوحة ، ثم عاد إلى الفراش وأخذ ينبش في ذهنه عن بعض الأشياء التي يرغب في فعلها دون أن تتسبب أذى لأي أحد ، فكرر في ممارسة التزلج على الجليد . وظهرت له من خلال ظلمة تفكيره صورة لجبل مغطى بالثلج . كان الوقت متأخراً وأينما اتجهت عيناه كان يرى أشياء رحبة وعاطفية . عبر كتفه رأى وادياً يملؤه الثلج يصعد نحو تلال تكسوها الغابات ، حيث الأشجار تجعل البياض يبدو معتماً ، مثل فروة رأس غير كثة . كان البرد قد أخرس كل الأصوات ، ما عدا الأصوات العالية لقرعة حديد الآلة الرافعة . وكان الضوء على مسارات السكك يبدو أزرقاً . وأصبحت رؤية المنعطفات والتقدير اصعب ، مما كانت عليه قبل دقيقة أو دقيقتين ، والآن أصبح لون الثلج أزرقاً قائماً . كذلك الأديم والجليد والبقع العارية ومحارق البارود الجاف العميقة .

كان هو في أسفل الجبل يتهدى ، محاولاً ضبط سرعته في مواجهة خطوط منحدر ، قد تشكل منذ عصر الجليد الأول ، باحثاً بحماسة عن بعض البساطة في الشعور وفي الواقع . بعد ذلك هبط الليل فشرب كأساً من المارتيني ، مع بعض الأصدقاء القدامى في حانة ريفية قذرة .

في الصباح ، كان جبل فرانسيس المغطى بالثلج قد زال ، وبقي مع ذكرياته المفعمة بالحياة عن باريس والماوريتانيا . كان حلماً منهكاً جداً . نهض واستحم ، ثم حلق ذقنه وشرب القهوة . ولكنه لم يستطع اللحاق بالقطار رقم ٧٣١ . انطلق القطار بالضبط في اللحظة التي دخل فيها بسيارته إلى المحطة ، ذكره ذلك الشعور بالهفوة نحو الحافلات التي انطلقت مبتعدة عنه بنزوات الحب ، فانتظر قطار الثامنة ودقيقتين على الرصيف ، الذي أصبح خالياً الآن ، كان صباحاً صافياً ، يرتقي على أفكاره المختلطة مثل جسر يومض بالضياء ، كان يشعر بمعنويات عالية وانفعال شديد ، وبدت صورت الفتاة وكأنها تدخله في علاقة مع عالم ساحر عميق الأسرار . بدأت السيارات تملأ ساحة الوقوف ولاحظ ان السيارات القادمة من الأراضي المرتفعة فوق شادي هيل كانت بيضاء ، مغطاة بالندى المتجمد . كانت هذه أولى الملامح الخريفية التي تثيره .

ورأى قطار الليل السريع القادم من بوفالو أو الباني وقد تغطت سطوح عرباته الأمامية بطبقة من الجليد . فتنته المعجزات المادية لكل شيء ، وراح يبتسم للمسافرين في عربة الطعام الذين كانوا منهمكين في تناول البيض ويمسحون أفواههم بمناديل خلال السفر . أما الحجيرات في عربات النوم فبدت شرشف أسرتهما الكتانية بنية اللون تحت نور الصباح ، مثل سلسلة من نوافذ غرف مفروشة للايجار . بعد ذلك رأى شيئاً استثنائياً ، من احدى نوافذ عربة النوم . رأى امرأة فاتنة الجمال ، لا ترتدي اية ملابس ، تمشط شعرها الذهبي ، عبرت شادي هيل مثل ظاهرة غريبة تمشط وتمشط شعرها ، تابعها فرانسيس بنظرة حتى اصبحت خارج مرمى البصر ، بعد ذلك انضمت اليه السيدة العجوز ريغستون على الرصيف وأخذتا يتحدثان .

- «حسناً ، اظن انك قد فوجئت برؤيتي ثالث صباح واقفة بالصف» . قالت له «ولكن بسبب ستائر نوافذي اصبحت مسافرة منتظمة على الخط . فالستائر التي اشتريتها يوم الاثنين ارجعتها يوم الثلاثاء ، وها أنا أرجعها اليوم ، في يوم الاثنين حصلت بالضبط على ما كنت أريده - كانت نسيجاً صوفياً مزوداً برسوم الطيور والزهور - ولكن عندما أخذتها الي البيت وجدت أن المقاس كان خطأ . حسناً . قمت بتبديلها أمس وعندما أخذتها إلى البيت وجدت ان مقاسها ما يزال خطأ . والآن أصلي للسماء العليا من أجل أن يقوم فني الديكور باعطائي المقاس الصحيح ، لأنك تعرف بيتي وتعرف شبابيك غرفة معيشتي وبإمكانك ان تتخيل ما المشكلة التي تسببها . ولا أعلم ما الذي أفعله بها» .

- «أنا أعلم ما الذي تفعلينه بها» قال فرانسيس .

- «ماذا؟»

- «ادهنيها بالأسود من الداخل واغلقي فمك» .

كان هناك صوت استهجان صادر عن السيدة ريغستون ، ونظر فرانسيس إلى الأسفل نحوها ليتأكد من أنها أدركت انه قصد ان يكون فظاً . استدارت ومشت بعيداً عنه بروح متحطمة لدرجة انها أخذت تعرج .

أحاط به شعور مدهش كما لو أن نوراً قد اهتز حوله وفكر مرة أخرى في «فينوس» ، وهي تمشط وتمشط شعرها بينما هي مندفعة عبر خط برونكس . كان

ادراكه لعدد السنين التي مرت منذ أن استمتع بتعمده الفظاظة ، كفيلاً بأحاساسه بالتعقل ، فقد كان من بين اصدقائه وجيرانه أناس رائعين وموهوبين ، وقد رأى ذلك بنفسه ، ولكن الكثير منهم أيضاً كانوا حمقى وثقيلي الظل ، وقد ارتكب خطأ عندما كان يستمع اليهم جميعاً بنفس الدرجة من الاهتمام ، كان يخلط عدم التمييز في المعاملة مع المحبة المسيحية ، وبدا هذا الخلط عاماً ومهلكاً . وكان ممتناً لتلك الفتاة لأنها منحتة احساساً بالاستقلالية - كانت طيور الكاردينال وما تبقى من طيور أبو الحناء تغرد في الأعلى ، والسماء تلمع مثل طلاء مصقول من الميناء وحتى رائحة الخبر المنبعثة من جريدته الصباحية ، شحذت شهيته للحياة ، وشعر بأن العالم حوله هو ببساطة جنة ساحرة .

إذا كان فرانسيس قد آمن ببعض المراتب الهرمية للحب - في الأرواح المسلحة بأقواس صيد وفي نزوات لفينوس أو ايروس - أو حتى في المشروبات والأمزجة السحرية التي تثير العشق في العظام . وفي تأثير القمر وهو في ربعه فإن ذلك يمكن أن يفسر أحاسيسه ومشاعره المحمومة الجذلة . ان قصص الحب الخريفية للرجال في منتصف العمر معروفة جيداً ، وقد أظن بأنه يقف وجهاً لوجه أمام واحدة منها ، ولكن لم يكن هناك أي أثر للخريف فيما كان يشعر به ، فقد أراد أن يتريض في الغابات الخضراء ، ويحك جلده حيث يستدعي الحك وأن يشرب من نفس نفس الكأس .

كانت سكرتيرته الأنسة ريني قد تأخرت ذلك الصباح - فهي تذهب إلى الطبيب النفساني ثلاث صباحات في الأسبوع - وعندما قدمت تساءل فرانسيس عن النصيحة . التي يمكن أن يسديها له الطبيب النفساني . لكن الفتاة تعهدت بأن تعيد إلى حياته شيئاً مثل صوت الموسيقى . كان ادراكه بأن هذه الموسيقى قد تقوده مباشرة إلى دار قضاء المقاطعة لمحاكمته بتهمة اغتصاب ، قد أسقط عنه سعادته . وأنبته صورة اطفاله الأربعة وهم يضحكون للكاميرا على الشاطئ في خليج هيد . كانت الأوراق المروسة باسم مؤسسته تحمل رسماً لللاوكون . وشكلاً لراهب يقف مع أولاده في تلافيف أفعى ، وقد ظهر له هذا الرسم وكأنه يحمل أعرق المعاني .

تناول غداءه مع پنكي ترابيرت الذي روى له قصتين قدرتين ، وعلى مستوى المحادثة كانت أخلاق اصدقائه مطاطة وغير مصقولة . ولكنه كان يعرف أن البيت

الأخلاقي المبني من الورق سوف يتهدم على رؤوسهم جميعاً - على جوليا وعلى الأولاد - اذا ما قبض عليه وهو يحاول استغلال جليسة أطفال ، نظر إلى الورا ، إلى تاريخ شادي هيل الحديث باحثاً عن حالة سابقة فلم يجد شيئاً . لم يكن هناك اي حالة لفساد خلقي ولم يحصل أي طلاق منذ أن عاش هناك . وحتى أنه لم يكن هناك خبر لفضيحة . وجد أن الأشياء بدت محتشمة بطريقة تفوق حتى مملكة السماء . بعد أن غادره بنكي ذهب فرانسيس إلى بائع مجوهرات وابتاع اسورة للفتاة . كم جعلته هذه الصفقة السرية سعيداً؟ وكم بدا وجه بائع المجوهرات متجهماً ومضحكاً؟ وكم كانت رائحة العطر المنبعثة من المرأة التي عبرت من خلفه رائعة!

في الشارع الخامس ، حين تخطى فرانسيس تمثال أطلس بأكتافه المنحنية تحت ثقل العالم ، فكر في النشاط الذي احتوته طبيعته البدنية ضمن النماذج التي اختارها . لم يكن يعرف متى يمكن أن يرى الفتاة تالياً . وضع الأسورة في جيبه الداخلي ، عندما دخل إلى البيت وعندما فتح باب بيته وجدها في الصالة وكان ظهرها باتجاهه ، استدارت عندما سمعت الباب يغلق ، كانت ابتسامتها صريحة ومحبة . واذله كمالها الذي يشبه يوم جميل - يوم يلي عبور عاصفة رعديّة - أمسك بها والصق شفتيه بشفتيها قاومت ، الا أنها لم تضطر للمقاومة طويلاً ، لأنه في تلك اللحظة بالضبط ظهرت الصغيرة جيرترود فلانري من مكان ما وقالت «أوه ، سيد ويد . . .» . كانت جيرترود فتاة مشردة وقد ولدت مع ولع بالاستكشاف ، ولم تعمل على تركيز حياتها مع والديها الحنونين ، الناس الذين لا يعرفون عائلة فلانري ، يذهب بهم الظن إلى أنها طفلة قادمة من عائلة متفسخة حيث مشاجرات السكر هي السائدة ، ولكن هذا لم يكن حقيقة ، فحقيقة رغبة جيرترود بارتداء ملابس رثة وهزيلة كانت نكاية بأمرها التي تحاول اجبارها ، على ارتداء ملابس دافئة ونظيفة . كانت ثرثرة هزيلة الجسم ولا تغتسل ، تندفع من بيت إلى بيت عبر ضاحية بلنهولو ، تقيم التحالفات المبنية على تعلقها بالرضع وبالحيوانات والأطفال في مثل سنّها ، والمراهقين والكبار في بعض الأحيان ثم تخربها . عندما تفتح باب بيتك الأمامي في الصباح ، فإنك قد تجد جيرترود جالسة على الشرفة عند مدخل البيت ، وعند ذهابك إلى الحمام ، لكي تحلق قد تجدها تستعمل مقعد الحمام ، وعندما تنظر في مهد طفلك

وتجده فارغاً ، ابحت في الأمر قليلاً وعندها قد تجد أن جيرترود قد أخذته نزهة ، في عربيته إلى القرية المجاورة ، كانت تقدم مساعدتها في كل مكان ، أمينة ، جائعة ووفية . ولم تكن لتعود إلى بيتها باختيارها أبداً . لا تكثرث بكل النداءات التي تصدر اليها حين يحين موعد عودتها إلى البيت .

« اذهبي إلى البيت جيرترود » تستطيع ان تسمع الناس يقولونها في منزل أو في آخر ليلة إثر ليلة « اذهبي إلى البيت يا جيرترود » ، « لقد حان وقت عودتك إلى البيت يا جيرترود » . « من الأفضل أن تعودى إلى البيت وتتناولي طعام العشاء يا جيرترود » . « لقد أخبرتك أن تذهبي إلى البيت قبل عشرين دقيقة يا جيرترود » . « سوف تقلق امك عليك يا جيرترود » . « اذهبي إلى البيت يا جيرترود ، اذهبي إلى البيت » . هناك أوقات تبدو فيها الخطوط حول عين الانسان مثل نحت في جروف صخرية ، وعندما ترمقنا هذه العين المحدقة نفسها بوحشية المشاعر الحيوانية فإننا نصبح في ضياع ، كانت النظرة التي رمق بها فرانسيس الفتاة الصغيرة بشعة وشاذة اصابتها بالهلع . مد يده إلى جيبه - كانت يدها ترتعشان - وأخرج منها ربع دولار « اذهبي إلى البيت يا جيرترود ، اذهبي إلى البيت ولا تخبرني أحداً يا جرترود . اياك أن . . . » . . . اختنق صوته وركض إلى غرفة المعيشة عندما نادته جوليا من الطابق العلوي كي يسرع ويرتدي ملابسه .

كانت فكرة قيامه بايصال أن مرشيسون إلى بيتها في وقت متأخر ، من تلك الليلة تطرق رأسه مثل خيط ذهبي خلال أحداث الحفلة ، التي ذهب اليها مع جوليا . وقد ضحك بصخب على نكات باهتة وغير مضحكة . وجفف دمعة عندما تحدثت اليه ما بل ميرسر بشأن موت قطتها . وتمطى وتشاءب وتنهد ونخر مثل أي رجل آخر على موعد غرامي في باطن ذهنه . كانت الأسوارة في جيبه ، وعندما جلس يتحدث كانت رائحة العشب في انفه ، وبدا محتاراً أين سيوقف سيارته فلا أحد يعيش في قصر باركرالقديم ، وكانت الدرب المتفرعة عن الطريق العام تستعمل كشارع للعشاق . كما أن شارع تاوسند كان شارعاً غير نافذ في نهايته ، وقد يستطيع أن يوقفها هناك وراء البيت الأخير ، كان الزقاق القديم الذي يصل بين شارع إلْم وضفاف النهر قد غطاه العشب ، لكنه كان قد تنزه هناك مع أطفاله ويمكنه أن يقود سيارته إلى عمق

كاف يساعده على الاختفاء داخل الأجمة

كان آل ويد آخر من غادر الحفلة ، وتحدث مضيفهم ومضيفتهم عن سعادتهم الزوجية أثناء وقوف أربعتهم في الرواق متمنين لبعضهم ليلة سعيدة .
«انها فتاتي» ، قال مضيفهم وهو يعانق زوجته «انها سمائي الزرقاء ، بعد ستة عشر عاماً لا أزال أعرض كتفيها ، . أنها تجعلني أشعر مثل هانيبال وهو يجتاز جبال الألب» .

عاد آل ويد بسيارتهم إلى البيت صامتين ، . وأوقف فرانسيس السيارة على مفرق الشارع وبقي جالساً فيها والمحرك يدور .

«تستطيع أن تضع السيارة في الجراج» . قالت جوليا حال نزولها من السيارة : «لقد أخبرت فتاة مرشيسون بأنها تستطيع أن تغادر عند الحادية عشرة . لا بد أن أحداً ما قد أوصلها إلى بيتها» . أغلقت الباب وجلس فرانسيس في الظلام . لم تبق صفة من صفات الجنون الا وتوفرت به في تلك الليلة ، ضراوة في الفسق وغيره ، جرحت مشاعره إلى درجة ظهور الدموع في عينيه ، الازدراء - لأنه استطاع الآن أن يرى بوضوح الصورة التي تستحضره ، امتدت ذراعه حول عجلة القيادة ودفن رأسه بهما من أجل الحب .

كان فرانسيس عضواً مخلصاً في منظمة كشفية عندما كان صغيراً ، تذكر قواعد السلوك في شبابه ، وغادر مكتبه مبكراً بعد ظهر اليوم التالي ، ولعب بضعة جولات من السكواش ، لكنه ادرك بأنه كان من الأفضل له لو بقي جالساً في مكتبه ، بعد أن تنشط جسده بالتمرين وشدش الماء . كانت ليلة شديدة الصقيع عندما وصل إلى بيته ، اشتد في الهواء رائحة تغيير حاد .

وعندما دلف داخل عتبة البيت ، شعر أن هناك جلبة غير عادية ، فقد كان الأولاد في أحسن هندام ، وعندما هبطت جوليا كانت ترتدي لباساً أرجوانياً شاحباً وتضع بروشها الماسي الذي يمثل شمساً تكتنفها الأشعة .

فسرت له الجلبة بقولها : سوف يحضر السيد هابر عند الساعة السابعة ليأخذ لهم صورة فوتوغرافية ، من أجل بطاقات عيد الميلاد ، كانت قد جهزت بدلة فرانسيس الزرقاء . وربطة عنق فيها بعض الألوان . لأن الصورة ستكون بالألوان هذه السنة .

وكانت جوليا مبتهجة لكونها ستأخذ صورة من أجل عيد الميلاد ، فقد كان بالنسبة لها نوع من الاحتفال الذي تستمتع به . صعد فرانسيس إلى الطابق العلوي ليبدل ملابسه ، كان متعباً من عمل اليوم ومتعباً بشوق . وقد زاد جلوسه على طرف السرير من عمق تعبهِ . وأخذ يفكر في أن مرشيسون وفي الحاجة الطبيعية للتعبير عن نفسه بدلاً منه ، بقائه مقيداً بالأضواء القرنفلية المتبعثة من طاولة زينة جوليا . ذهب إلى مقعد جوليا وتناول قطعة من ورق الكتابة ، وأخذ يكتب عليها «عزيزتي آن ، أنا أحبك . أنا أحبك ، أنا أحبك . . .»

لا يمكن لأحد أن يرى الرسالة ولم يتقيد هو بشيء ، فقد استخدم عبارات مثل «النعيم السماوي» و «عش الحب» .

سال لعابه وتنهد وارتعش . وعندما نادى عليه جوليا ، كي ينزل أحس بازدياد عرض الفجوة بين خياله الجامح والعالم العملي لدرجة أثرت على عضلات قلبه . كانت جوليا والأولاد يقفون على الشرفة عند مدخل البيت . وقد جهز المصور ومساعدته بطارية مزدوجة للضوء ، الغامر لكي تظهر صورة العائلة والجمال المعماري لمدخل بيتهم . وكان الناس الذين عادوا إلى بيوتهم في القطار المتأخر ، يبطئون بسياراتهم ليشاهدوا عائلة ويد وهي تأخذ الصور من أجل بطاقات عيد الميلاد . كان البعض يلوح للعائلة وينادي عليها . استغرقت العملية نصف ساعة من الابتسام ، والتعرق قبل أن يأخذ السيد هابر كفايته من التصوير . وقد تسببت حرارة الأضواء في رائحة مزعجة في الهواء البارد جداً ، وعندما أطفأها بقي أثرها واضحاً حول شبكية عيون فرانسيس .

في وقت متأخر من تلك الليلة ، بينما فرانسيس وجوليا يحتسيان قهوهتهما في غرفة المعيشة ، قرع جرس الباب ففتحت جوليا وأذنت للطارق بالدخول ، كان كلايتون ثوماس . وقد جاء ليدفع لها قيمة بعض بطاقات المسرح ، التي كانت قد أعطتها لأمه قبل فترة من الوقت ، وأخبرها بأن هيلين ثوماس قد ألحت عليه باصرار لأن يدفع ثمن ، البطاقات مع العلم ان جوليا كانت قد طلبت منها أن لا تفعل .

دعته جوليا إلى الداخل لتناول فنجان من القهوة «لا أريد أن أتناول أي قهوة» قال كلايتون «لكنني سأدخل لدقيقة» ، تبعها إلى غرفة المعيشة وقال لفرانسيس ليلة

سعيدة وجلس مرتبكاً على الكرسي .

كان والد كلايتون قد قتل في الحرب . وقد أحاط به فقدان أبيه طوال حياته ، . وكان هذا واضحاً جلياً في شادي هيل لأن عائلة ثوماس هي العائلة ، الوحيدة التي فقدت جزءاً منها ، في حين بقيت جميع الزيجات الأخرى سليمة ومثمرة لم يسها أذى .

كان كلايتون في سنته الثانية أو الثالثة في الكلية ويعيش مع أمه وحيدتين في بيت واسع ، كانت الأم تأمل في بيعه .

ومنذ سنين مضت تسبب كلايتون ببعض المشاكل عندما سرق نقوداً وهرب ، إلى كاليفورنيا قب أن يدركوه ويعيدوه إلى البيت ، كان طويلاً وبيتي الطبع ويلبس نظارات ذات اطار مدبب ويتكلم بصوت عميق .

- «متى ستعود إلى الكلية يا كلايتون؟» ، سأل فرانسيس .

- «أنا لست عائداً» ، قال كلايتون «ليس لدى أُمي ما يكفي من النقود لذلك ، وليس هناك أي معنى لكل هذا الأمر ، فسوف أقوم بالبحث عن وظيفة ، وإذا تمكنا من بيع البيت فسنقوم بأخذ شقة في نيويورك» .

- «ألن تفتقد شادي هيل؟» سألت جوليا .

- « كلا» قال كلايتون «أنا لا أحبها» .

- «لم لا؟» سأل فرانسيس .

- «حسناً ، هناك مجموعة اشياء لا استحسنها هنا» قال كلايتون بصوت رزين «أشياء مثل رقصات النادي ، ففي ليلة السبت الماضية مكثت حتى النهاية وشاهدت السيد جرانر يحاول وضع السيدة مينوت في داخل صندوق الطعام . فقد كانا سكرانين . أنا لا استحسن الشرب بهذه الطريقة .

- «كانت ليلة سبت» قال فرانسيس .

- «جميع ابراج الحمام زائفة» ، قال كلايتون «وهذه الفوضى التي يسير بها الناس حياتهم ، لقد فكرت بشأنها كثيراً ، وما ظهر لي خطأ حقاً في شادي هيل هو أنها لا تملك أي مستقبل ، فقد انفق الكثير من الطاقة في ادامة المكان - مثل تجنب الأشياء غير المرغوب فيها وهلم جرا - بحيث بقيت الفكرة الوحيدة لمستقبل هذا المكان هي

القيام بمزيد من الرحلات في قطارات الضواحي . واقامة المزيد من الحفلات وحسب .
واظن ان ذلك ليس صحيحاً . أظن أنه يجب على الناس أن يصبحوا قادرين على أن
يحلّموا أحلاماً كبيرة بشأن المستقبل ، أظن أنه يتوجب على الناس ان يصبحوا قادرين
على أن يحلموا أحلاماً عظيمة » .

- «انه لأمر سيء جداً ان لا تستطيع الاستمرار في الكلية» ، قالت جوليا .

- «أنا لا أرغب في الذهاب إلى مدرسة لاهوت» قال كلايتون .

- «ما هي كنيستك؟» سأل فرانسيس .

- «الموحدة ، الثيوصوفية ، الانسانية المتعالية عن الوجود المادي قال كلايتون» .

- «ألم يكن ايمرسون من اتباع الحركة المتعالية عن الوجود المادي» . سألت جوليا .

- «اقصد الحركة المتعالية الانجليزية» . قال كلايتون «جميع الأميركيين من اتباع

الحركة المتعالية ، كانوا حمقى» .

- «ما نوع الوظيفة التي تتوقع الحصول عليها؟» سأل فرانسيس .

- «حسناً ، أرغب أن أعمل كناشر إلى حد ما» قال كلايتون «ولكن الجميع

أخبرني بأنه لا يوجد ما أفعله في هذا العمل الا أنني مهتم به ، وأنا أكتب قصيدة

مسرحية طويلة حول الخير والشر ، ويمكن أن يحصل لي العم شارلي على وظيفة في

بنك ، وذلك سيكون جيداً بالنسبة لي ، فأنا بحاجة إلى الانضباط واحتاج إلى وقت

طويل لأنظم مسلكي ، فأنا كثير الكلام وأظن أنه يتوجب علي أن آخذ على نفسي

عهداً بالصمت ، كما يتوجب علي أن أجرب عدم الكلام لمدة اسبوع ، وأن أضبط

نفسي . فكرت في القيام برياضة روحية في أحد أديرة الكنيسة الأسقفية

البروتستانتية لكنني لا أحب عقيدة التثليث» .

- «هل لديك صديقة؟» سأل فرانسيس .

- «أنا خاطب وفي طريقي للزواج» ، قال كلايتون «أنا لست كبيراً أو غنياً بما فيه

الكفاية لأجعل من خطوبتي شأناً لافتاً للنظر أو أي شيء لكنني اشتريت بالنقود التي

استقطعتها من قص الحداثق هذا الصيف قطعة شبيهة بالزمردة لأن مرشيسون

وستزوج حالما تنهي المدرسة» .

نكص فرانسيس عند سماعه اسم الفتاة . وانبثق حينها من روحه ضوء داكن

أظهر له كل شيء - جوليا والولد والكراسي - في عدميته لونهم الحقيقية ، لقد كان وقع الأمر يشبه تغييراً حاداً في الطقس .

- «سنقوم بتكوين عائلة كبيرة» . قال كلايتون «والدها سكير مزعج وأنا لدى طباع صعبة ، ونريد عدداً كبيراً من الأولاد ، أوه ، أنها مذهشة يا سيد ويا سيدة ويد ، ونحن متشابهان بشكل عام ، فنحن نحب نفس الأشياء ، وفي السنة الماضية ارسلنا نفس بطاقة عيد الميلاد بدون تخطيط مسبق ، ولدى كل منا حساسية من البندورة وحواجبنا تنمو مع بعضها في الوسط . حسناً ، ليلة سعيدة .

رافقتة جوليا إلى الباب . وعندما عادت قال فرانسيس : لقد كان كلايتون كسولاً ، غير قادر على تحمل المسؤولية ، متكلف وكريه الرائحة . أجابت جوليا . بأن فرانسيس أصبح غير قادر على التحمل .

كانت جوليا قد لاحظت حالات أخرى انفعّل فيها فرانسيس قليلاً* ، وقالت :
- «لقد دعت السيدة ريغستون كل من في شادي هيل عدانا نحن إلى حفلتها السنوية»

- «أنا أسف يا جوليا» .

- «هل تعلم لماذا لم يدعوننا» .

- «لماذا؟» .

- «لأنك أهنت السيدة ريغستون» .

- «اذن فقد عرفت بهذا الشأن؟» - «أخبرتني جون ماسترسون فقد كانت تقف خلفك» .

مشّت جوليا أمام الكنبه خطوة صغيرة ، عرف منها فرانسيس انها تعبير عن غضبها . - «لقد أهنت السيدة ريغستون يا جوليا ، وأنا قصدت ذلك ، فأنا لا أحب حفلاتها أبداً وأنا سعيد لأنها أهملتنا» .

- وماذا بشأن هيلين؟» .

- «كيف أقحمت هيلين في هذا؟»

- «ان السيدة ريغستون هي الوحيدة التي تقرر من بإمكانه ان يذهب إلى الاجتماعات»

- «تقصدين بأنها تستطيع منع هيلين من الذهاب للرقص» .

- «نعم» .

- «أنا لم أفكر بذلك» .

- «أوه ، أنا أعرف بأنك لم تفكر في ذلك» صاحت جوليا وهي تغرز مقبض سيفها في هذا الشق من درعه «ويغضبني كثيراً هذا النوع من العبث الأحمق الذي يتسبب في تحطيم سعادة الآخرين» .

- «أنا لا أظن بأنني قد حطمت سعادة أحد» .

- «ان السيدة ريغستون هي التي تسيّر شادي هيل وقد سيّرت المكان خلال الأربعين سنة الأخيرة ، وأنا لا أعرف ما الذي يجعلك تظن أنك في مجتمع مثل هذا . يمكنك أن تطلق العنان لكل نبضة فيك لكي تكون مهيناً وعدوانياً وسوقياً» .

- «ان لدي سلوكيات جديدة جداً» قال فرانسيس محاولاً أن يلطف جو الأمسية .

- «عليك اللعنة يا فرانسيس ويد» ، صرخت جوليا وكان رذاذ اللعب المرافق لكلماتها يصفعه في وجهه ، «لقد عملت بجهد من أجل بناء هذا المركز الاجتماعي الذي ننعم به في هذا المكان ، ولن أقف مكتوفة اليدين وأنا أراك تحطمه ، لا بد أنك قد أدركت حين استقرت هنا أنك لن تستطيع أن تتوقع العيش مثل دب في كهف» .

- «أن علي أن أعبر عما أحب وعما لا أحب» .

- «باستطاعتك أن تخفي ما لا تحبه ، وليس لك أن تقابل كل شيء بعناد مثل طفل ، مالم تكن تواقاً لأن تصبح منبوذاً اجتماعياً . ليست مصادفة أننا ندعى دائماً للحفلات ، وليس مصادفة أن يكون لهيلين العديد من الأصدقاء . هل ترغب في أن تقضي ليالي السبت في مشاهدة الأفلام؟ هل ترغب في أن تقضي أيام الأحد في جمع الأوراق المتساقطة؟ هل ترغب أن تقضي ابنتك ليالي الاجتماعات وهي تجلس على نافذتها تستمع إلى الموسيقى المنبعثة من النادي؟

هل ترغب في ذلك---؟» .

عند هذه النقطة قام فرانسيس بحركة غير مسؤولة ، فقد رفعت كلماتها بينهما

حائطاً مربعاً دفعه لآخراسها واغلاق فمها ووجه لها لظمة على ملء وجهها
فترنحت . وبعد ذلك بلحظة عاد لها الهدوء وصعدت إلى غرفتها بالطابق العلوي ،
ولم تطرق الباب بشدة ، وعندما لحق بها فرانسيس بعد بضع دقائق وحدها ترزم
حقيبتها .

- «جوليا ، أنا آسف جداً»
- « لا يهم» قالت وهي تبكي .
- «الى أين تفكرين بالذهاب؟»
- «لا أعرف ، لقد نظرت إلى جدول المواعيد ، وهناك قطار إلى نيويورك عند
الساعة الحادية عشرة وستة عشرة دقيقة ، سوف أخذ ذلك القطار» .
- «لا تستطيعين الذهاب ، جوليا» .
- «لا يمكنني ان أمكث ، أنا أعلم ذلك» .
- «أنا آسف بخصوص السيدة ريغستون يا جوليا وأنا» .
- «المشكلة لست السيدة ريغستون ، ليست هي تلك المشكلة» .
- «ما هو البلاء اذن؟»
- «انك لا تحبني» .
- «بل أنا أحبك يا جوليا» .
- «لا ، لست تحبني» .
- «جوليا ، بل أنا أحبك وأرغب في أن نكون كما كنا - سعيدين وفاسقين
ولطيفين - لكن هناك أناس كثيرون» .
- «أنت تكرهني» .
- «أنا لا أكرهك جوليا» .
- «ليس لديك فكرة إلى أي حد أنت تبغضني في عقلك الباطني ، فأنت لا
تدرك الأشياء القاسية التي تفعلها» .
- ««ما هي الأشياء القاسية يا جوليا» .
- «الأفعال القاسية التي يقودك لا وعيك إليها من أجل أن تعبر عن كرهك لي» .
- «ماذا ، جوليا؟» .

- « أنا لم أتذمر أبداً » .
- « أخبريني » .
- « أنت لا تعلم ماذا تفعل » .
- « أخبريني » .
- « ملابسك » .
- « ماذا تقصدين؟ » .
- « أقصد الطريقة التي تترك بها ملابسك المتسخة ، متناثرة هنا وهناك حتى تعبر لي عن بغضك الدفين » .
- « أنا لم أفهم » .
- « أنا أعني جراباتك المتسخة وبيجاماتك المتسخة ، وملابسك الداخلية المتسخة ، وكذلك قمصانك المتسخة! » . نهضت من الركوع على قدميها بجانب الحقيبة وواجهته ، كانت عيناها تتوهجان وصوتها يرن بانفعال .
- « أنا أتكلم حول الحقيقة ، فانك لم تتعلم أن تعلق أي شيء . أنت فقط تترك ملابسك حيث تلقيها في جميع أنحاء الأرضية . من أجل أن تدلني . أنت تفعلها لهدف! » وازمتمت على السرير وهي تنشج .
- « جوليا ، حبيبتي » ، قال ، لكنها هبت واقفة عندما احست بيده فوق كتفها .
- « اتركني لوحدي » قالت « يجب أن أذهب » وتخطته بسرعة إلى دورة المياه ثم عادت ومعها رداء « أنا لم آخذ أي شيء من الأشياء التي أعطيتني اياها » ، قالت « وقد تركت عقد اللؤلؤ ومعطف الفرو » .
- « أوه . جوليا! » ، كان شكلها بائساً إلى حد بعيد في خداعها لذاتها ، وانحناؤها على حقيبة الملابس جعله يشعر بالشفقة عليها ، انها لم تفهم كم ستكون حياتها كثيبة بدونه ، ولم تدرك كم هي ساعات العمل التي على المرأة أن تقضيها . كما أنها لم تدرك بأن أغلبية صداقاتها قد حافظت على استمرارها من خلال بنية زواجها وبدون ذلك فستجد نفسها وحيدة . ولم تدرك ما يتعلق بالسفر وما يتعلق بالفنادق والنقود .
- « جوليا ، لا أستطيع أن أدعك تذهبين! ما لا تفهميه يا جوليا هو أنك أصبحت

تعتمد علي» .

ردت رأسها إلى الورااء بحركة مفاجئة وغطت وجهها بيديها .

- «هل قلت بأنني كنت أعتمد عليك؟» سألت «هل هذا ما قلته؟» .

«من الذي يخبرك عن الوقت لتنهض في الصباح ومتى تذهب إلى الفراش في

الليل؟»

«من هو الذي يعد ويجهز وجباتك وينظف خزانةك القذرة ويدعو اصدقاءك إلى

العشاء؟» «ولو لم أكن موجودة ، لكنت ربطات عنقك ملوثة بالشحمة ولكنت

ملابسك مليئة بثقوب العث» .

«لقد كنت وحيداً عندما قابلتك وستعود وحيداً عندما أغادر»

«وعندما طلبت أمني منك قائمة بأسماء من ستدعوهم إلى حفل زفافنا كم اسماً

اعطيتها؟ أربعة عشر!» .

- «لم تكن كليفلاند موطني يا جوليا» .

- «وكم عدد اصدقائك الذين جاؤوا إلى الكنيسة؟ اثنان!» .

- «كليفلاند لم تكن موطني يا جوليا» .

- «وبما أنني لم آخذ معطف الفرو» قالت بهدوء «فمن الأفضل ، ان تعيده إلى

مخزن الملابس ، وهنا بوليصة تأمين على عقد اللؤلؤ تستحق في شهر كانون الثاني ،

ان اسم المصبغة ورقم تلفون الخادمة - كل تلك الأشياء - موجودة في درج مكتبي .

أرجو أن لا تشرب كثيراً يا فرانسيس . وأرجو أن لا يحدث لك أي مكروه ، وإذا

وجدت نفسك في مشكلة عويصة فبإمكانك أن تستدعيني» .

- «آوه ، حبيبتي لا أستطيع أن أدعك تذهبن!» ، قال فرانسيس «لا أستطيع أن

أدعك تذهبن» وأخذها بين ذراعيه .

- «أظن أنه من الأفضل أن أمكث واعتني بك لبعض الوقت» قالت . وعند ركوبه

في الصباح في طريقه إلى العمل ، رأى فرانسيس الفتاة تمشي اسفل ممر الحافلة ،

فوجئ بذلك ، لم يكن يتوقع أن تكون المدرسة التي تذهب إليها في المدينة . لكنها

كانت تحمل كتباً وبدت وكأنها ذاهبة إلى المدرسة . لقد أخرجت الدهشة ردة فعله .

لكنه بعد ذلك نهض مرتبكاً داخل الممر ، مرّ العديد من الناس بينهما ولكنه استطاع

ان يراها أمامه تنتظر أي شخص ليفتح لها باب العربة ، بعد ذلك ، وعندما اهتز القطار مدت يديها لتسند نفسها أثناء عبورها المنصة التالية ، فلحق بها خلال تلك العربة وقبل أن يصل إلى منتصف المسافة ناداها باسمها - «آن ، آن!» ، الا انها لم تلتفت ، عاد ولحق بها إلى داخل العربة الأخرى ورأها تجلس على كرسي جانبي ، وصل إليها وهو يضج بحرارة المشاعر ثم انحنى إلى جهتها ووضع يده على ظهر الكرسي الذي تجلس عليه - حتى هذه اللمسة زادت في حرارة عواطفه - وانثنى إلى الأسفل كي يتحدث معها ولكنه اكتشف انها لم تكن آن ، كانت امرأة كبيرة وتلبس نظارات . عاد إلى العربة الأخرى بأناة وقد احمر وجهه من الارتباك ومن شعور سيء ألمّ به لأنه لم يستطع ان يعتمد على تقدير حواسه ، اذ لم يعد يستطيع أن يميز شخصاً من آخر .

ماذا يوجد من أدلة على أن حياته مع جوليا والأولاد هي حقيقة ناصعة مثل احلامه . في دروب الخطيئة بباريس . أو مهاد القش حيث رائحة العشب والأشجار التي تشبه الكهوف في زقاق المحبين .

في وقت متأخر من بعد ظهر ذلك اليوم اتصلت جوليا بالهاتف لتذكر فرانسيس ، بأنهما سيتناولان عشاءهم خارج المنزل ، وبعد دقائق معدودة لاحقاً اتصل تريس بيردن «انظر يا فلاح» قال تريس ، «أنا اتصل معك من أجل السيدة ثوماس . هل تعرفها؟ يبدو أن كلايتون ، ذلك الولد ، إنها غير قادر على الحصول على وظيفة وأنا أتساءل اذا كان في استطاعتك مساعدته . ليتك تتصل مع شارلي بيل - أنا أعلم بأنه مدين لك - وقل له كلمة طيبة بحق الولد - اعتقد أن شارلي يرغب - » .

- «تريس ، أنا أكره قول هذا» قال فرانسيس ، «لكنني لا أشعر بأنني أستطيع أن أفعل شيء من أجل ذلك الولد . فالولد عديم النفع ، أعرف أن ما أقوله هو شيء مؤلم لكنها هي الحقيقة ، أي معروف تفعله من أجله سيعطي عكس النتائج المرجوة في وجه كل شخص ، انه مجرد ولد تافه ، يا تريس . ولا يوجد هناك أي شيء يمكن فعله بهذا الشأن . حتى لو حصلنا له على وظيفة فانه لن يكون قادراً على الاحتفاظ بها لمدة اسبوع ، أنا أعرف أن تلك هي حقيقة . انه شيء مروع يا تريس وأنا أعرف أنه كذلك ، لكن بدلاً من تزكية ذلك الولد اشعر بأنني مكروه ، على تحذير الناس منه - الناس الذي عرفوا والده ويودون بشكل طبيعي أن يتدخلوا ويفعلوا شيئاً لصالحه .

اشعر بأنني مجبر على تحذيرهم ، انه لص . . . » .

في اللحظة التي انتهت فيها المكالمة دخلت عليه الأنسة ريني ، ووقفت إلى جانب مكتبه «لم أعد أستطيع أن أعمل معك أكثر يا سيد ويد» قالت «أستطيع أن أمكث حتى السابع عشر اذا كنت بحاجةتي ، ولكنني أرغب في أترك في أسرع وقت ممكن» . خرجت تاركة إياه يواجه منفرداً الأذى الذي سببه للفتى ثوماس . كان أولاده في الصورة الفوتوغرافية ، يضحكون مشرقين بكل ألوان الصيف الساطعة ، وتذكر أنهم قابلوا على الشاطئ عازفاً على مزمار القربة في ذلك اليوم . وأنه أعطى العازف دولاراً ، كي يعزف لهم أغنية معركة «البلاك ووتش» . قد تكون الفتاة في منزلهم عند عودته إلى البيت . وسوف يقضي ليلة أخرى بين جيرانه الكرماء يختار ويدقق الشوارع غير النافذة ، وفي أثر العربات ودروب البيوت المهجورة .

لا يوجد هناك شيء يلطف شعوره - لا شيء يفرحه ، حتى ولا لعبة الكرة الناعمة ، مع الأطفال يمكنها أن تبدل حاله - عاد إلى التفكير بالطائرة المعطوبة ، وخادمة عائلة فاركوارسون الجديدة ، وفي أن مرشيسون والصعوبات التي تواجهها مع والدها السكير ، وتساءل كيف يمكنه تجنب الوصول إلى ما هو عليه الآن؟ كان واقعاً في مشكلة ، لقد سبق له أن ضلّ مدة في حياته عندما كان عائداً من نهر لصيد سمك السلمون في الغابات الشمالية ، وها قد عاد به الآن نفس ذلك الادراك الكئيب بأنه لا يوجد أي مقدار من سعادة أو أمل أو شجاعة أو مثابرة . تستطيع أن تساعد على ولوج هذه الظلمات المتراكمة في الممر الذي أضاعه ، كان قد اشتم رائحة الغابات . وكان الشعور بالكآبة لا يطاق ورأى بوضوح بأنه قد ، وصل إلى نقطة اصبح لزاماً عليه فيها أن يضع اختياراً .

يستطيع أن يذهب إلى طبيب نفساني مثل الأنسة ريني ، ويستطيع أن يذهب إلى كنيسة ويعترف بشهوته ، ويستطيع ان يذهب إلى قاعة مساج دغاركي في الوست سيفنتيز كان قد اقترحها عليه رجل مبيعات ، يستطيع أن يغتصب الفتاة ، أو يثق في أن يحال بينه وبين هذا الفعل بطريقة ما ، أو يستطيع أن يسكر ، فالأمر متعلق بحياته ، وقاربه ، ومثله مثل أي رجل آخر ، لقد خلق ليكون أباً لآلاف ، وما الضرر في تحديد موعد لقاء يجعل نظرة كليهما إلى العالم أكثر لطفاً؟

وكان هذا تسلسلاً خاطئاً للأفكار ، عاد إلى الوراء ، إلى البداية ، إلى الطبيب النفساني ، كان لديه رقم هاتف طبيب الأنسة ريني ، اتصل وطلب موعداً عاجلاً ، وكان شديد الحاجة على سكرتيرة الطبيب - تلك كانت طريقته في العمل - وعندما قالت أن برنامج مواعيد الطبيب مليء لبضع أسابيع تالية ، طلب فرانسيس موعداً في ذلك اليوم وتم اخباره ان يأتي عند الساعة الخامسة .

كان مكتب الطبيب في بناية يشغل معظمها أطباء وأطباء أسنان ، وكانت الرداهات مليئة برائحة غسول الفم التي تشبه رائحة الحلوى وذكريات الآلام . كانت شخصية فرانسيس قد تشكلت بناء على سلسلة من الحلول الخصوصية - حلول بشأن النظافة ، وبشأن الابتعاد عن منصة الغطس العالية ، أو تكرار أي عمل آخر يتحدى جرأته ويثبط همته ، وحلول بشأن الدقة في المواعيد ، والأمانة ، والفضيلة ، كان التخلي عن الانفرادية التامة التي اتخذ فيها معظم قراراته الحيوية . قد شئت مفهومه لشخصيته ، وتركه الآن في حالة من الصدمة ، كان يبدو وكأنه مخدراً ، وكان المشهد مثل غرفة الانتظار في عيادات كثير من الأطباء ، يشبه تمثلاً عارياً . يومئى باتجاه حلاوة السعادة المنزلية ، والمكان منسقاً بالأثاث وطاولات القهوة ، ونباتات الزينة في القواوير وكليشيهات لثلج يغطي الجسور ، وأوز يطير ، بالرغم من أنه لم يكن هناك أطفال ولا فراش زوجي ولا مدفأة ، في محاكاة زائفة للبيوت ، حيث لا أحد يمضي الليل هنا أبداً ، وحيث النوافذ المغطاة بالستائر والتي تظل مباشرة على ممر التهوية المظلم .

أعطى فرانسيس اسمه وعنوانه للسكرتيرة . وبعد ذلك رأى في جانب الغرفة رجل شرطة يتقدم نحوه «توقف ، توقف» قال رجل الشرطة «لا تتحرك وابق يديك حيث هي»

- «اعتقد أن كل شيء على ما يرام أيها الضابط» ، وابتدأت السكرتيرة «أظن أنه سيكون - » .

- «دعينا نتأكد» قال رجل الشرطة ، ثم أخذ يفتش في ملابس فرانسيس ، يبحث عن ماذا - مسدسات ، سكاكين ، واداة تكسير الثلج؟ لم يجد شيئاً ، فابتعد ، وأخذت السكرتيرة بالاعتذار في عصبية ، «عندما اتصلت بالهاتف يا سيد ويد بدوت

مهتاجاً جداً ، وكان أحد مرضى الطبيب يهدد حياته ، وعلينا أن نكون حذرين ، اذا رغبت يمكنك أن تدخل الآن» .

دفع فرانسيس بابا متصلاً بجرس كهربائي ، وجلس في سرير العيادة بتثاقل ومخط انفه بالمنديل ثم أخذ يبحث في جيوبه عن سجائر ، عن كبريت ، عن شيء ما ، ثم بصوت اجش والدموع في عينيه :

- «أنا واقع في الحب يا دكتور هيرزوغ» .

مرّ اسبوع أو عشرة أيام على شادي هيل ، وجاءت احتفالات السفن فوزتين وذهبت ، وانتهت وجبات العشاء هنا وهناك ، ووضعت الأطباق في ماكنات الغسيل . كانت القرية معلقة اخلاقياً واقتصادياً ، لكنها تتعلق بخيطها في ضوء الليل . راح دونالد جوسلين يقلق القلوب بعزف «سوناتا ضوء القمر» ، بدا وكأنه يعصر منشقة حمام ، لكن الخادمة لم تبال به فقد كانت في قبو منزله تكتب رسالة إلى آرثر جودفري ، وكان فرانسيس ويد يصنع طاولة للقهوة ، فقد أوصى الدكتور هيرزوغ بالأعمال الخشبية كعلاج ، ووجد فرانسيس بعض التعزية الحقيقية في البساطة التي تتضمنها هذه الحسبة ، وفي رائحة الخشب الجديد المفعمه بقوة خفية . وكان الصغير توبي يبكي في الطابق العلوي ، ولأنه كان متعباً فقد وضع قبعته الكاويوي والقفازات والسترة ذات الأهداب جانباً ، وفك ابزيم حزامه المرصع بالذهب والياقوت ، وقراب مسدسه ورصاصاته الفضية ، ثم ازلق حمالات البنطلون وخلع قميصه وشيالاته وبنطلونه الأزرق الضيق ، وجلس على طرف سريره ليخلع حذاءه الطويل ، ترك هذه التجهيزات مكومة هناك ، وذهب إلى دورة المياه وانتزع بدلته الفضائية من مسمار التعليق ، كان ادخال جسمه في البدلة الضيقة صراعاً بالنسبة له ولكنه نجح في النهاية ، ثم عقد رداءه السحري على كتفيه وتسلق قائمتي سريره ، وفرد ذراعيه وطار عبر المسافة القصيرة إلى الأرضية ، وهبط مرتطمًا بالأرضية محدثاً صوتاً مسموعاً لكل من في البيت ما عداه هو .

- «اذهبي إلى البيت يا جرتروود ، اذهبي إلى البيت» . قالت السيدة ماسترسون «لقد قلت لك منذ ربع ساعة ان تذهبي إلى البيت يا جرتروود فقد تجاوز الوقت موعد عثائك وستقلق امك عليك ، اذهبي إلى البيت!» .

فتح باب عند شرفة بيت بوبكوس بعنف وخرجت منه السيدة بوبكوس بدون

ملابس ، متبوعة بزوجها العاري (كان اطفالهم في مدرسة داخلية وشرفتهم محجوبة بواسطة سياج) ، كانا يروحان ويجيئان عبر الشرفة بجانب المطبخ مثل أي صورة تجدها على جدران مدينة البندقية . حورية مشبوبة العاطفة ترافق إلهاً أغريقياً شبقاً ، وبينما كانت جوليا تقطف آخر زهرة من حديقته سمعت صوت العجوز نيكسون . وهو يصرخ على السناجب في محطة اطعام طيوره «حقيرين ، اوغاد ، اغربن عن وجهي!» .

وعبر حديقة منزلهم كانت تتجول قطة مسكينة بائسة جسداً وروحاً ، وقد شُدت على رأسها قبعة قش صغيرة - قبعة لعبة - كما لُفَ عليها باحكام ثوب لعبة ، ومن بين قطع القماش برز ذيلها الطويل الكثيف الشعر ، وبينما هي تسير زلت قدمها وسقطت في الماء .

- «تعالى بوسي ، بوسي ، بوسي» ، نادى جوليا .
- «هنا بوسي ، هنا بوسي المسكينة!» ، لكن القطة نظرت اليها نظرة متشككة ، وابتعدت وهي تمشي في ثيابها باضطراب .
وكان آخر القادمين جوبيتر ، وثب من خلال معرش البندورة يحمل في فمه الكريم ، بقايا شبشب ليلي . وبعدها سقط الظلام ، انه الليل الذي يمتطي فيه الملوك بملابسهم الذهبية ظهور الفيلة فوق الجبال .

١٩٦٠

فيليب روث

مدافع عن الإيمان

عن «ذي نيويورك»

في أيار ١٩٤٥ وبعد أسابيع قليلة من انتهاء الحرب في أوروبا أرسلت لأناوب في الولايات المتحدة ، حيث قضيت باقي مدة الحرب أعمل في فرقة تدريب في كامب كراودر بولاية ميسوري . كنت قد قضيت مع من تبقى من الجيش التاسع معظم الوقت ، أنتقل عبر ألمانيا بشكل سريع ومتواصل خلال أواخر الشتاء والربيع لدرجة أنني لم أصدق ، حين استقلت الطائرة أنها ستوجه بي إلى الغرب . كان عقلي ينتحي بي منحى آخر . ثمة إحساس ينيثني أنني سأنتقل إلى جبهة جديدة حيث سنواصل اندفاعنا شرقاً حتى نلف الكرة الأرضية ، نسير عبر بلدان تنتظرنا في شوارعها الملتوية ، حشود من الأعداء تراقبنا ونحن نستولي على ما يعتبرونه حتى الآن ملكاً لهم . لقد تغيرت لدرجة كبيرة خلال السنتين ، لم يعد يهمني كبار السن وهم يرتجفون ، أو بكاء اليافعين أو الأطفال . نظرات الموت والشك في عيون الذين كانوا سابقاً يعيشون في عز وفخار . لقد صادفني الحظ بأن أطور مشاعري إلى مشاعر رجل مشاة ، قلبه كما قدماه تشعران بوخز الألم أولاً ثم تنتفخان ، لكنهما في النهاية تصبحان قاسيتين بما يكفي لكي يسير عليهما في أصعب المناطق دون أن يشعر بشيء . كان قائدي في كامب كراودر الكابتن بول باريت ، قد خرج من مكتبه يوم تسلمت المناوبة ليصافحني . كان قصيراً فظاً حاد الطباع ، يضع دائماً خوذته اللامعة

المشدودة إلى الأسفل حتى عينيه الصغيرتين ، سواء في الخارج أو الداخل . كان قد أصيب في أوروبا بجرح خطير في صدره في أرض المعركة وتمت إعادته إلى الولايات المتحدة قبل عدة أشهر . «كان يتكلم معي بسهولة وعند التشكيل المسائي قدمني إلى باقي القوات قائلاً كما تعلمون فالرقيب ثيرستون لم يعد معنا وهذا هو الرقيب الجديد ناثن ماركس وهو ضابط مخضرم في الساحة الأوروبية ويتوقع دائماً أن يجد هنا فرقة من العسكر وليس فرقة من الأولاد» .

جلست في غرفة القيادة أحاول بفتور ، حل معضلة جداول المناوبة والاستمارات الشخصية وتقارير الصباح . كان مسؤول المركز نائماً على فرشاة أرضية وفمه مفتوحاً . كان هناك متدرب يقف وهو يقرأ جدول المناوبة الخاص بيوم الغد والذي كان معلقاً على لوحة الإعلانات قرب باب الغرفة . كان الجو دافئاً مساءً ذلك اليوم . كنت أستطيع سماع صوت الموسيقى الراقصة تنبعث من الثكنات . أما المتدرب الذي كان يحاول استراق النظر إلي ظاناً أنني لا ألاحظه ، فقد تقدم باتجاهي خطوة وهو يسألني أيها الرقيب ، هل سنقيم حفلة تنظيف الثكنات غداً؟ سألته فيما إذا كانوا يقيمونها بالعادة في أمسيات الجمعة . قال نعم ثم أضاف : هذا هو كل ما في الأمر إذن سوف نقيم حفلة تنظيف .

أدار ظهره لي ، سمعته يتمتم ويهز كتفيه ، انتابني الشك بأنه يبكي فسألته ما اسمك أيها الجندي ؟

التفت إلي ، لم يكن يبكي أبداً بل على العكس . كانت عيناه الخضراوين ضيقتين وطولتين تلمعان كالسماك تحت الشمس .

خطا ناحيتي وجلس على طرف المكتب ومد يده قائلاً : «اسمي شيلدون» . «قف على قدميك يا شيلدون» . قلت له .

نهض عن المكتب وتابع : «شيلدون غروسبارت» . ابتسم وبدأ راضياً من تمكنه من استدراجي إلى رفع الكلفة بيني وبينه .

قلت له : «هل أنت ضد تنظيف الثكنات ليلة الجمعة يا غروسبارت؟ ربما من غير المستحسن إقامة حفلات تنظيف ، ربما يجب أن نحضر خادمة تفعل ذلك» .

دهشت من نبرة صوتي ، شعرت أنني أتكلم مثل أي رقيب أول أعرفه . «كلا أيها

الرقيب» رد بجدية ،جدية كانت تخفي وراءها ابتسامةٍ «الأمر فقط يتعلق باختيار حفلات التنظيف ليلة الجمعة من بين كل الليالي» . عاد إلى زاوية المكتب مرة أخرى ، لم يكن جالساً أو واقفاً بل كلاهما . ونظر إليّ بتلك العينين اللامعتين الضيقتين ثم أطلق إشارة من يده . كانت إشارة خفيفة ليست أكثر من تلويح زنده أماماً وخلفاً لكنها كانت كافية لتشغلنا عن شأن أي أمر آخر في غرفة القيادة ، تجعلنا نحن الاثنين مركز العالم . بدت للحقيقة وكأنها تستثني كل شيء ما عدا قلبينا .

«الرقيب ثيرستون كان شيئاً مميزاً» همس وهو ينظر إلى المسؤول النائم «ولكننا اعتقدنا أن الأمور ستتغير معك قليلاً» .

– «نحن؟» سألته

– «الأشخاص الذين يدينون باليهودية هنا» .

– «لماذا؟» سألته بصوت أجش «ماذا يدور في خلدك؟» كنت غاضباً دون معرفة سبب ذلك ، هل هي قضية شيلدون أو أي شيء آخر؟

– «ظننا بما أنك من عائلة ماركس مثل كارل ماركس ، الأخوة ماركس فهولاء كلهم . . ماركس أتلفظ اسمك هكذا أيها الرقيب؟» .

– «ماركس نعم» .

– يقول فيشباين . . توقف «ما أريد قوله أيها الرقيب» . كان وجهه ورقبته حمراوين وفمه يتحرك بدون صوت ، صمت برهة ثم قال لنفسه وهو ينظر إليّ . بدا وكأنه قرر أنه لن يتوقع أي تفهم مني أكثر من ثيرستون ، فقد كنت على دين ثيرستون وليس على دينه ؛ أربك الشاب نفسه بمحاولة معرفة ديني ولكنني لم أرغب بمعارضته والسبب ببساطة أنني لم أرتح له .

حين أدرك أنني لم أفعل شيئاً سوى التحديق به ، تكلم بنبرة مختلفة «أترى أيها الرقيب من المفروض على اليهود في ليلة الجمعة أن يقيموا صلواتهم» .

– «وهل حرمكم الرقيب ثيرستون من هذا عندما كان هناك حفلات تنظيف؟»

– «كلا» .

– «هل فرض عليكم أن تبقوا وتمسحوا الأرضيات؟»

– «كلا أيها الرقيب» .

– «هل فرض عليكم الكابتن أن تبقوا وتمحسوا الأرضيات؟»
– «ليس الأمر هكذا أيها الرقيب إنما الآخرون في الثكنات» ، مال نحوي قليلاً
«يعتقدون أننا نحاول التملص ولكننا في الحقيقة نحترم موعد صلواتنا فاليهود
يذهبون إلى الصلاة الجمعة ليلاً.»

– «إذن اذهبوا.»

– «الآخرون يحتجون علينا بدون وجه حق.»
– «إن هذه ليست مشكلة الجيش يا غروسبارت ، إنها مشكلة شخصية عليكم أن
تخلوها بأنفسكم.»

– «ولكن هذا ليس عدلاً.»

– «علي أن أذهب ، لا يمكنني أن أفعل شيئاً تجاه ذلك» قلت له .
تصلب غروسبارت ووقف أمامي قائلاً : «ولكن هذه مسألة دينية يا سيدي .»
– «رقيب أول» قلت له .

– «أعني رقيب أول» أجابني بغضب شديد .

– «أنظر ! إذهب وراجع القس ، إذا أردت رؤية الكابتن باريت يمكنني أن أرتب لك
موعداً معه .»

– «كلا كلا لا أريد أن أسبب أية مشكلة أيها الرقيب . إن هذا أول شيء
يتهمونك به ، أنا أريد حقوقي فقط .»

– «اللجنة يا غروسبارت كفاك احتجاجاً ، إن لك حقوقك . بإمكانك البقاء
لتمسح الأرضية أو بإمكانك أن تذهب إلى شول» .

عادت له ابتسامته ثانية ومض اللعاب على جوانب فمه .

«أعني الكنيس يا رقيب؟»

«أعني شول يا غروسبارت.»

زلفت عنه وخرجت ، بالقرب مني سمعت صوت وطأة قدم الحارس على
الحصى ، خلف النوافذ المضاء للثكنات رأيت شباباً يرتدون التي شيرت وثياب العمل
جالسين على المقاعد يلمعون بنادقهم . فجأة سمعت صوت حفيف خلفي التفت
ورأيت غروسبارت ، يركض نحو الثكنات يسابق الريح ليخبر أصدقاءه اليهود أنهم

كانوا على حق وأنتي مثل كارل وهاريو ، واحد منهم .

في اليوم التالي وبينما كنت أتبادل الحديث مع الكابتن باريت ، ذكرت حادثة الأمس وقد بدا لي أن الكابتن فهم من حديثي ، أنني كنت أدافع عن رأي غروسمارت أكثر من أنني كنت أشرحه . أجابني الكابتن : ماركس أنا مستعد أن أقاتل جنباً إلى جنب مع زنجي إذا ثبت لي أنه رجل ، وهذا مدعاة فخر لي ، قالها وهو ينظر إلى النافذة ، ثم تابع أنني أملك عقلاً متفتحاً وبالنتيجة أيها الرقيب لا أحد هنا ، يعامل معاملة خاصة لا للأفضل ولا للأسوأ ، ما على الرجل أن يفعله هو أن يثبت نفسه . إذا كان يطلق النار جيداً أعطيه إجازة آخر الأسبوع ، وإذا حصل على درجات جيدة يأخذ أيضاً إجازة أسبوع ، فقد استحقها ، ثم أدار وجهه على النافذة وأشار إليّ بأصبعه أنت يهودي . أأست على حق في ذلك يا ماركس .

– «نعم يا سيدي .»

– «وأنا معجب بك . أنا معجب بهذه الأوسمة على صدرك . إنني أحكم على الرجل بما أراه منه في ساحة القتال أيها الرقيب! إنه ما يملكه هنا» وتوقعت أن يشير إلى موقع قلبه ولكنه بدلاً من ذلك أدار بهامه باتجاه أزرار قميصه وأشار إلى بطنه «شجاعته» أعني شجاعته .

– «حاضر يا سيدي ، لا أقصد من ذلك سوى أن أمرر لك ما يشعر به بعض الرجال .»

– «يا سيد ماركس سوف تشيخ قبل وقتك إذا بقيت مهموماً بما يشعره الرجال ، أترك هذه الأمور للقسم فهي مهمته . وليست مهمتك ، دعنا ندرّب هؤلاء الرجال على إطلاق النار جيداً ، إذا كان الشبان اليهود يشعرون أن باقي الرجال يتهمونهم بالتهرب من المهام الموكولة إليهم ! حسناً لا أدري ولكن يبدو مضحكاً تخيل الله ينادي غروسمان بأعلى صوته بأن عليه أن يذهب إلى الكنيسة .

– «إلى الكنيس» قلت له .

– «الكنيس هو الصحيح سوف أكتب بهذا للمراجع المسؤولة ، شكراً على إبلاغك الأمر لي .» ذلك المساء وبعد دقائق من تجميع الفرقة خارج غرفة القيادة لتشكيلات الطعام ، دعوت العريف روبرت لاهيل لرؤيتي ، كان لاهيل غامقاً ضخم الجثّة ذا شعر

كثيف يزحف خارج ثيابه حيثما استطاع . كان في عينيه نظرة تذكرك بالديناصورات والكهوف ، قلت له : «لا هيل عندما تنتهي من التشكيلة أرجو أن تذكر الرجال بأنهم أحرار في الذهاب إلى الصلاة عند عقدها ، شرط أن يبلغوا غرفة القيادة قبيل مغادرتهم .»

حك لاهيل زنده ، لكنه لم يعط أي انطباع يدل على أنه سمع أو فهم ! قلت له : «لاهيل الكنيسة هل تتذكر كنيسة ، قس ، قداس ، اعتراف؟» ثنى إحدى شفتيه محاولاً أن يبتسم ، اعتبرت هذه الإشارة ، علامة على عودته للحظة إلى الوضع البشري .

«الرجال اليهود الذين يرغبون بحضور الصلوات هذا المساء عليهم أن يمروا على غرفة القيادة في الساعة السابعة» ثم بعد تفكير قليل أضفت : «بأمر من الكابتن باريت .» قبل أن يختفي ضوء النهار بقليل عن كامب كراودر (كان أرقّ ضوء رأيته هذه السنة) ، سمعت صوت لاهيل الغليظ الذي لا يعرف الرقة يدوي خارج نافذتي «أصغوا إلي جيداً أيها الجنود ، أبلغني توبي بأن أخيركم أنه في الساعة السابعة ينبغي على كل الجنود اليهود أن يمروا هنا إذا رغبوا في حضور الصلوات اليهودية .

في الساعة السابعة نظرت من نافذة غرفة القيادة ورأيت ثلاثة جنود باللباس الكاكي المنشئ يقفون على الساحة الرباعية المغبرة . كانوا ينظرون إلى ساعاتهم ويتململون بعصبية ، بدأ الظلام ينتشر وظهر الثلاثة ، صغاراً جداً على تلك الساحة المهجورة .

عندما فتحت الباب سمعت أصوات حفلة التنظيف قادمة من الشكنات المجاورة ، أصوات الأسرة تجر نحو الجدران الخشنة وصنابير الماء تصب على الأرضية والمكانس تمسح الأرضيات الخشبية ، لإزالة الغبار تحضيراً للتفتيش يوم السبت . خطوات إلى الخارج وما أن لمست قدماي الأرض حتى سمعت غروسبارت يقول للآخرين انتبهوا . قفز الثلاثة وتخيلت أنني أسمع الأمر . تقدم غروسبارت إلى الأمام وقال «شكراً يا سيدي» . «نادني رقيب يا غروسبارت» ذكرته مرة أخرى أن الضباط فقط ينادون بسيدي .

«أنا لست ضابطاً ، لقد مر عليك في الجيش ثلاثة أسابيع وأظنك تعرف ذلك»

فرك راحتيه على جانبيه ، مشيراً إلى أننا أنا وهو نعيش نفس التقليد وقال شكراً على أي حال .

«نعم» قالها شاب طويل يقف خلفه «شكراً على كل حال» .

أما الثالث فقال هامساً : «شكراً» ولكن فمه لم يرتعش ولم يحرك ساكناً سوى طرف شفته .

«شكراً على ماذا؟» سأله .

شخر غروسبارت بفرح «شكراً على بلاغك الذي أعلنه العريف لقد جعل الوضع ألطف بكثير» أكمل الشاب الطويل جملة غروسبارت . ابتسم غروسبارت وقال : «إنه يعني بأن الوضع أصبح رسمياً ومعلنًا ، وأننا لا نبذو وكأننا نتهرب من مهماتنا حال ابتداء العلم .»

— «لقد كان الأمر صادراً عن الكابتن باريت أجبتهم .» «ولكنك ساعدت في إعطاء دفعة للأمر .»

قال غروسبارت «لذلك نحن نشكرك» ثم التفت إلى رفيقيه وقال : «أيها الرقيب ماركس أريد أن أعرفك على لاري فيشباين» .

خطا الشاب الطويل إلى الأمام ومد يده ، صافحته وسألني : «هل أنت من نيويورك ؟»

«نعم» أجبته .

— «وأنا أيضاً» كان له وجه هزيل شديد الشحوب يرتد إلى الداخل واصلاً عظمة خده بذقنه عندما يبتسم ، كما فعل عند إعلان بلاغنا يفتح فمه على أسنان خربة . كان يرمش كثيراً وكأنه يغالب الدموع . «من أية ناحية من نيويورك ؟» سألني .
التفت إلى غروسبارت وسألته : «الساعة الآن السابعة وخمس دقائق متى تبدأ الصلوات ؟»

أجابني وهو يبتسم : «بعد ١٠ دقائق أريدك أيضاً أن تقابل ميكلي هالبرن هذا هو ناثن ماركس رقيبنا .»

خطى الشاب الثالث أماماً وأدى التحية صائحاً : «الجندي مايكل هالبرن .»
رددت له التحية وأنزل يده ثم تفقد جيوب قميصه إذا كانت مزررة . أم لا «هل

أسير بالشباب أم ستأتي معنا؟»

برز فيشباين من خلف غروسبارت «سوف يقدمون لنا المرطبات كتبرع من سيدات سانت لويس ، أخبرنا الرابي عن ذلك في الأسبوع الماضي أعني ، «القس» تتم هالبرن .»

«إننا نرحب بك معنا» قال غروسبارت .

نظرت حولي أحاول أن ألتمس عذراً ، رأيت مجموعة من الوجوه تحديق بنا من خلف نوافذ الشكنات «هيا أسرع يا غروسبارت» قلت له .

«حاضر» التفت إلى الآخرين وقال : «إلى الأمام سر .»

بدؤوا بالسير ولكن بعد عشر خطوات ، استدار غروسبارت وركض باتجاهي قائلاً : «عيد حصاد سعيد يا سيدي» ثم اختفى الثلاثة في ظلمة ميسوري الغربية .

حتى بعد اختفائهم عن ساحة العرض التي تحول لونها إلى الأزرق الغامق الآن بقيت أسمع صوت غروسبارت يهتف خطوتين إلى الأمام .

مع ازدياد الظلمة عادت إليّ الذاكرة مثل لمعة ضوء بدأت أتذكر الصيحات الحادة التي انطلقت من ملعب برونكس قبل سنوات عديدة بالقرب من جراندي كون كورس حيث لعبت في أمسيات الربيع الطويلة . كانت ذكرى عطرة بالنسبة لشاب مثلي بعيداً مثل هذا البعد عن السلاح ، وعن البيت . أعادت إليّ صوراً قديمة جعلتني أزداد شفقة على حالي . انسجمت في حلمي بشدة لدرجة أنني شعرت أن يداً تتحرك بداخلي ، تتحرك مروراً بتلك الأيام العتيقة في غابات بلجيكا حين كنت أرفض أن أبكي عليّ الأموات ، مروراً بتلك الليالي في بيوت المزارعين الألمان حيث كنا نتدفأ على كتبهم التي نحرقها ، مروراً بالسجناء الذين كانوا يقضون محكومية لا نهاية لها حين كنت أغلق قلبي عن أي شعور بالرحمة نحو زملائي ، حيث كنت أنكر على نفسي وقفة المنتصر المتباهي . يجدر بي كيهودي أن أضرب بحذائي جدران سجون ويسل ومنستر برونشفيك .

أما الآن فقد سقطت كل تلك التخديرات التي خدرت بها ذاكرتي أمام أصوات الليل التي حركت ذاكرتي ، نحو بيتي ونحو الماضي القديم ووجدت نفسي أتذكر فجأة من أنا وأتبع طريق غروسبارت إلى الكنيس رقم ٣ حيث تقام خدمة الصلاة

اليهودية ، جلست في مقعد فارغ في الصف الأخير . أمامي بصفين كان يجلس غروسبارت وفيشباين وهاليرن وهم يحملون الأقداح الصغيرة البيضاء الخاصة بالحبوب .

كان كل صف من المقاعد أعلى من الذي أمامه لذا كنت أستطيع أن أرى بوضوح ما يجري أمامي ، كان فيشباين يصب محتويات قدحه في قدح غروسبارت وكان غروسبارت يبدو مرحاً وهو يصب السائل الملون ويلون يده ويد فيشباين باللون الأرجواني .

من خلال الضوء الأصفر اللامع ، رأيت القس يقف على المسرح أمام الجميع وينشد أول سطر من القراءة السريعة الإجابة .

أخذ غروسبارت يحف بأصابعه على طرف الكأس بينما بقي كتابه مغلقاً على حضنه ، وحده هاليرن كان يجيب على الترانيم بالصلوات ، وهو يمد أصابع يده اليمنى فوق غلاف كتابه المفتوح . كانت قُبْعَتُهُ مشدودة للأسفل عند حاجبه لكي تبدو مستديرة كالقلنسوة . أما فيشباين ذو الوجه الطويل الشاحب فكان ينظر هنا وهناك ، يحني رأسه ليتفحص الوجوه بالدور في الصفوف الواقعة أمامه وبجانبه وخلفه . عندما التفت إلى الخلف رأني ولمعت عيناه ثم أحنى رقبته باتجاه غروسبارت وهمس شيئاً في أذنه ، عندها عاد الجميع إلى تلاوة صلوات الرد على الأناشيد . كان صوت غروسبارت يعلو بين أصوات الآخرين ، أما فيشباين فأخذ ينظر إلى الكتاب أمامه ولكن دون أن تتحرك له شفة .

أخيراً جاء وقت شرب النبيذ ، ابتسم القس وهو يرى غروسبارت ينهي كأسه بجرعة واحدة ، شرب هالبرن بهدوء وهو يتأمل أما فيشباين فقد أنهى الأمر بكأس فارغ - قال القس موجهاً حديثه للجميع : «أنا أنظر إلى هذا الجمع الليلة (وشدد على كلمة الليلة) أرى أمامي وجوهاً جديدة أود أن أرحب بها وهي خاشعة في خدمة صلوات مساء الجمعة في كامب كراودر أنا الميجر ليو بن عزرا قسيسكم .»

رغم كونه أمريكياً إلا أن القس تهجأ كلامه بالحرف كأنما ليجعله مفهوماً لقراء الشفاه بين جمهوره ثم تابع : «تحضرني كلمات قليلة لأقولها قبل أن نلتحق بغرفة المرطبات حيث قامت السيدات اللطيفات من جمعية معبد سيناء في سانت لويس

بولاية ميسوري بتحضير جلسة رائعة لنا .»

انطلق التصفيق والصفير ، رفع القس يديه بعد ابتسامة فورية وراحته ممدودتان وعينه متجهتان إلى الأعلى كأنما ليذكر الحضور أين هم ، أعقب ذلك صمت فجائي ، أعتقد أنني سمعت حينها غروسبارت يثرثر دع الغويم (الرعاع) ينظفون الأرضية . لم أكن متأكداً من الكلمات ولكن فيشباين وكز هالبرن الذي نظر إليه ببلاهة . عاد إلى كتاب الصلاة الذي ظل مشغولاً به طوال خطبة الربّي (القس) ثم شد بيده على خصلة شعره البارزة من تحت القبة وبدأ يحرك شفّتيه .

تابع الربّي : «أرغب أن أكلّمكم للحظة عن الطعام أنا أعلم! أنا أعلم (كان يلحن كلماته بضجر ، ثم أضاف) أنا أعلم أن الطعام الغريب له طعم الرماد في أفواهكم ، ويسبب لبعضكم القيء أحياناً ، اعلم كم يتعذب ذووكم وهم يرون أطفالهم وأبناءهم يأكلون أطعمة غير نظيفة ومهينة للذوق . لا أستطيع أن أقول لهم إلا أن أغمضوا عيونكم وابلعوا ما استطعتم كلوا ما تحتاجونه للعيش وتخلصوا من الباقي ، أتمنى أن أساعدكم أكثر وبالنسبة للذين يرون الأمر مستحيلاً أطلب منهم أن يحاولوا ويحاولوا أكثر أو يأتوا إليّ لأكلّمهم على انفراد .»

إذا كان اشمئزازكم قوياً فسنحاول طلب مساعدة من الأعلى . امتلأ المكان بالهمسات والثرثرة ثم خمدت الأصوات ، وعاد الجميع يغني «أين كيلا وهائينو» ، بعد كل هذه السنين اكتشفت أنني ما أزال أحفظ بعض الكلمات ، ما إن انتهى الحفل فجأة حتى وجدت غروسبارت فوقّي . «مساعدة من الأعلى؟ هل يعني الجنرال» : «لا يا شيلي» قال فيشباين : «إنه يعني الله .» صفق على وجهه ونظر إلى هالبرن «إلى أي مدى تستطيع أن تعلقو؟»

«اسكت» قال غروسبارت : «ماذا تظن أيها الرقيب؟»

– قلت : «لا أدري ، الأفضل أن تسأل القس .»

«سأذهب إليه سأخذ موعداً معه على انفراد وكذلك ميكّي ، طأطأ هالبرن رأسه :

كلا كلا يا شيلدون .»

«إن لك حقوقاً يا ميكّي» قال غروسبارت : «لا يجب أن يظلوا يدفعوا بنا من مكان

لآخر .»

- قال هالبرن : «حسناً إن الأمر يزعج أُمي ولكن لا يزعجني .»
- نظر غروسبارت إليّ وقال : «لقد تقياً بالأمس بسبب اللحم المفروم . كان لحم خنزير والله أعلم ماذا أيضاً .»
- «كنت أعاني من نزلة برد» قال هالبرن : «هذا هو السبب ثم دفع بخصلة شعره البارزة تحت قبّعته .»
- سألته : «وماذا عنك يا فيشباين؟ هل تطلب الكوشر أيضاً؟»
- احمر وجهه وقال : «قليلاً ولكنني أحتمل الأمر . لدي معدة قوية ولا أكل كثيراً على أي حال .» استمررت في التحديق به ، رفع معصمه تأكيداً على ما يقول . كان رباط ساعته محكم الشد حتى آخر ثقب ، قد ظهر ذلك لي بوضوح . .
- «لكن خدمة الصلاة مهمة لك .»
- نظر إلى غروسبارت وقال طبعاً «يا سيدي .»
- «يا رقيب» قلت له .
- قال غروسبارت وهو يقفز بيننا : «لا تبدو الصلاة مهمة كثيراً في المنزل ، لكن بعيداً عن البيت تعطيك إحساساً بيهوديتك .»
- «علينا أن نقف مع بعضنا البعض» قال فيشباين .
- اتجهت نحو باب الخروج ، أفسح لي هالبرن المكان ، سمعت غروسبارت يقول بصوت عالٍ لكي أسمع .
- «هذا ما حدث في ألمانيا ، لم يقف اليهود مع بعضهم البعض ، بل تركوا الآخرين يقضون عليهم .»
- استدرت وقلت لغروسبارت «اسمع يا غروسبارت . هنا يوجد جيش وليس مخيماً صيفياً .»
- ابتسم ورد قائلاً : «وماذا يعني هذا؟»
- حاول هالبرن أن يبتعد ولكن غروسبارت أمسك يده
- «كم تبلغ من العمر يا غروسبارت؟» سألته .
- «تسع عشرة !!»
- «وأنت يا فيشباين»

- «تسعة عشرة أيضاً لقد ولدنا في نفس الشهر» .
- «وماذا عنه» أشرت إلى هالبرن الذي كان قد وصل سالماً إلى باب الخروج .
- «ثمانية عشرة» همس غروسبارت «ولكنه لا يستطيع ربط حذائه أو تنظيف أسنانه لوحده ، إنني أشعر بالأسف عليه .»
- «إنني أشعر بالأسف علينا جميعاً يا غروسبارت ولكن أطلب منك أن تتصرف كرجل فقط ولا تبالي في الأمور» . قلت
- «أبالي بماذا يا سيدي ؟»
- «مقالة سيدي كبدية لا تبالي في هذه» قلت له وتركته واقفاً ثم مررت بهالبرن ولكنه لم ينظر إليّ وعندما صرت في الخارج سمعت غروسبارت يقول : «ميكي حبيبي عد إلى هنا يوجد مرطبات .»
- تذكرت جدتي وهي تناديني حبيبي .
- مضى أسبوع على هذه الأحداث . في صباح أحد الأيام بينما كنت أعمل على مكتبي ناداني الكابتن باريت لشرب القهوة معه في مكتبه . عندما دخلت لاحظت أن خوذته مشدودة إلى أسفل وجهه حتى تكاد تغطي عينيه . كان يتكلم على الهاتف عندما دخلت ، توجه بالكلام إليّ بعد أن غطى بيده سماعة الهاتف وسألني «بحق الجحيم من هو غروسبارت هذا ؟»
- «إنه متدرب في الكتيبة الثالثة يا كابتن .»
- «ما هذا القرف حول موضوع الطعام ، لقد اتصلت أمّ بأحد أعضاء الكونغرس تشكي له طعامنا» . رفع يده عن السماعة ثم حرك خوذته إلى الأعلى حتى أصبحت أرى رموش عينيه .
- «نعم يا سيدي» ، كان يرد على الهاتف – «نعم يا سيدي أنا ما أزال معك» هزّ الهاتف أمامي قائلاً : «أنا لا أطعم الفرقة ما هذا بحق الجحيم» . قلت له «إن غروسبارت هذا شخص غريب» ، استقبل باريت كلامي بابتسامة مأكرة ولكن متسامحة ، جعلتني أغير توجهي في الحديث ، تابعت «إنه يهودي أرثوذكسي لذلك ليس مسموحاً له أن يأكل بعض الأطعمة» .
- «إنه يتقيأ قال لي النائب في الكونغرس ، كلما أكل شيئاً يتقيأ تقول أمه» .

– «إذن لماذا يجب على أمه أن تتصل بالبيت الأبيض .»
– «إن الآباء والأمهات اليهود هم أكثر محافظة مما تتوقع ، لديهم حياة عائلية متماسكة وعندما يغيب الولد عن البيت تقلق الأم كثيراً ربما ذكر الشاب شيئاً في رسالته فسرتها أمه خطأ .»

– «أود أن أناوله لكمة في فمه ، أننا نخوض حرباً هنا وهو يريد طبقاً من الفضة .»
– «لا يجب أن تلوم الشاب يا سيدي ، أنا متأكد أننا سنصلح الأمر عندما نسأله .
إن الآباء والأمهات اليهود .»

– «إذا كان الآباء والأمهات يقلقون على أولادهم بحق المسيح . لكنهم لا يركبون خيولهم ويشدون رسلها .»

قاطعته بصوت أعلى وبنبرة أشد : «إن الحياة العائلية يا كابتن هامة جداً ولكنك على حق ، الأمور تخرج عن نصابها أحياناً ، إنه شيء عجيب ولكن لأن العلاقة متماسكة بهذا الشكل فإن الأمر يصبح»

لم يعد يريد أن يسمع أكثر ، رغم كل محاولاتني الهادئة لتفسير الرسالة عاد وأمسك بسماعة الهاتف قائلاً : «يا سيدي إن ماركس هنا يخبرني أن اليهود يميلون دائماً إلى الضغط لنيل مطالبهم ويعتقد بأنه سيحل المشكلة هنا في الفرقة ، نعم يا سيدي سأعود إليك بأسرع وقت ممكن» . علق السماعة وقال : «أين الرجال أيها الرقيب .»

– «في ميدان التدريب .»
– أنزل خوذته بعنف فوق عينيه للمرة الثانية وقفز عن مقعده قائلاً : «سوف نذهب في جولة .»

قاد الكابتن السيارة وأنا بجانبه . كان يوماً ربيعياً حاراً ، كنت تعباً وأحسست أن إبطي يذوبان على جانبي وعلى صدري . كانت الطريق جافة ، ومع وصولنا إلى ميدان الرماية شعرت بحبات الغبار تصرّت تحت أسناني على الرغم من أن فمي بقي مغلقاً طوال الرحلة ، أوقف الكابتن السيارة بعنف وقال لي أن أخرج بسرعة واعثر على غروسبارت .

وجدت غروسبارت مبطوحاً على بطنه يطلق النار على هدف من مسافة ٥٠٠

قدم ، أما فيشبائين وهالبرن فكانا ينتظران دورهما وكان فيشبائين يضع على عينيه نظارات «جي أي» الفولاذية الخواف ، لم أرها عليه من قبل ، كانت تسبغ عليه منظر بائع متجول عجوز ، على استعداد لبيعك بندقيته التي يحملها بالإضافة إلى الحزام الملفوف حوله . وقفت خلف صناديق الذخيرة بانتظار أن ينهي غروبسبارت إطلاق النار . رجع فيشبائين إلى الخلف ليقف بجانبني .

«مرحبا رقيب ماركس» قال لي .

«كيف حالك» تمت .

«جيد شكراً لك إن شيلدون قناص جيد .»

«لم ألاحظ ذلك .»

«إنني لست بمثل خبرته ولكنني سوف أجرب الأمر الآن ، إنني لا أريد كما تعلم أن أسأل » - توقف عن الكلام فقد شعر رغم دفء الحوار أن أصوات إطلاق النار اضطرتته إلى رفع صوته علي .

ماذا هناك؟ سألت كان الكابتن باريت منتصباً في وضع الوقوف في سيارة الجيب وهو يمسخ الصفوف بنظره بحثاً عني وعن غروبسبارت .

«إن أهلي يسألونني دائماً إلى أين نحن ذاهبون» قال فيشبائين : «الجميع يقولون إلى المحيط الباسيفيكي ، أنا شخصياً لا أبالي إلى أين ولكن أهلي . . أريد أن أريح تفكيرهم حتى أستطيع التركيز على إطلاق النار .»

«لا أدري إلى أين سنذهب يا فيشبائين ولكن حاول التركيز على أي حال .»

«يقول شيلدون أنك ربما تستطيع أن تعرف أين؟»

«إنني آخذ الأمر بهدوء أيها الرقيب إن المشكلة في البيت .»

أنهى غروبسبارت إطلاق النار وبدأ ينفخ الغبار عن ثيابه بيد واحدة ناديته قائلاً غروبسبارت الكابتن يريد أن يراك .

اتجه نحونا كانت عيناه تلمعان وترمشان مرحبا .

«لا توجه هذه البندقية إلينا .»

«لن أطلق النار عليك أيها الرقيب» ابتسم ابتسامة عريضة وأزاح فوهة البندقية جانباً .

- «اللعة عليك يا غروسبارت إن الأمر ليس مزاحاً اتبعني .»
 سرت أمامه ، اعتمرني شك بأن غروسبارت كان يمشي خلفي مشية عسكرية
 وبندقيته على كتفه وكأنه في مهمة خاصة ، عندما وصلنا إلى الجيب العسكرية
 أعطى الكابتن تحية عسكرية قائلاً : الجندي شيلدون غروسبارت سيدي .
 «هون عليك يا غروسمان» . انسل الكابتن قليلاً في المقعد الفارغ بجانبه وعقف
 إصبعه كإشارة ليدعوه إلى الاقتراب منه
 «غروس بارت يا سيدي : شيلدون غروسبارت إنها غلطة شائعة .» انحنى
 غروسبارت أمامي وأشار إليّ أنه قد فهم الأمر . التفت بعيداً في الوقت الذي كانت
 شاحنة الطعام تنزل ستة أفراد رافعي الأكمال .
 كان رقيب الشاحنة يصرخ عليهم بينما هم يجهزون المعدات لصف الطعام .
 - «يا غروسبارت لقد كتبت والدتك إلى أحد أعضاء الكونغرس مدعية بأننا لا
 نطعمك جيداً هل لك علم بذلك؟» قال الكابتن
 - «إنه والدي يا سيدي لقد كتب إلى عضو الكونغرس فرانكوني يخبره بأن ديني
 لا يسمح لي بأكل بعض أنواع الطعام .»
 - «ما هو هذا الدين؟»
 - «اليهودية .»
 - «اليهودية يا سيدي» قلت لغروسبارت .
 - «عفواً - اليهودية يا سيدي» قال غروسبارت .
 - «على ماذا كنت تعتمد في طعامك ، لقد مضى عليك في الجيش شهر كامل
 ولا يبدو لي كأنك ستتهار جوعاً .»
 - «إنني أكل لأنني مضطر لذلك يا سيدي ولكن الرقيب ماركس يمكنه أن يشهد
 أنني أكل فقط ما يلزمي لكي أستمر حياً .»
 - «هل هذا صحيح يا ماركس» سأل بارت .
 - «أنا لم أر غروسبارت وهو يأكل يا سيدي .»
 - «ولكنك سمعت الربّي» قال غروسبارت «لقد أخبرنا ماذا علينا أن نفعل وأنا
 استمعت له .»

- نظر الكابتن إلي وقال : «حسناً يا ماركس؟»
- «أنا ما زلت لا أعرف ما الذي يأكله وما الذي لا يأكله يا سيدي» رفع غروسبارت يده يلمس العون ، بدا وكأنه يريد مني أن أحمل له بندقيته .
- «ولكن أيها الرقيب .»
- قاطعته بجذبه فوراً : «عليك يا غروسبارت فقط أن تحيى على أسئلة الكابتن .»
- ابتسم بارت ابتسامة لم يكن لها وقع طيب لدي : «حسناً يا غروسبارت ما الذي تريده ؟ ورقة صغيرة للخروج من هنا .»
- «كلا يا سيدي أريد أن يسمح لي بالعيش كيهودي كذلك الآخرون .»
- «أي آخرين؟» قال الكابتن .
- «فيشباين وهالبرن .»
- «هما أيضاً لا يجبان طريقة خدمتنا .»
- «إن هالبرن يتقياً يا سيدي لقد رأيته .»
- «كنت أظن أنك أنت الذي يتقياً .»
- «مرة واحدة يا سيدي ، لم أكن أعرف أن الصوصج لحم خنزير .»
- «سوف تقدم لكم لائحة طعام يا غروسبارت ونعرض عليكم أفلام للتدريب حول الطعام ، ويمكنك أن تحدد حينها متى نحاول أن نسملك .»
- لم يجب غروسبارت ، اكتمل خط الطعام ضمن صفين طويلين ، لمحت فيشباين في آخر أحد الصفوف أو ربما لمحت نظاراته التي كانت تعكس الشمس على وجهي ، وقف هالبرن بجانبه وهو ينفذ ياقته الداخلية بمحرمة كاكية اللون ، تحرك الجميع مع الصف باتجاه الطعام ، لوهلة صغيرة انتابني رعب حقيقي من أن الرقيب المسؤول عن الطعام قد يصبح متورطاً في قضية غروسبارت .
- «ماركس» قال الكابتن : «أنت يهودي أليس كذلك؟»
- «أجبت بصراحة نعم يا سيدي .»
- «كم لك من الوقت في الجيش أخير هذا الشاب»
- «ثلاث سنوات وشهرين .»
- «سنة كاملة في ميدان القتال يا غروسبارت ١٢ شهر في ساحات المعارك في

أوروبا . إنني معجب بهذا الرجل» ضرب الكابتن على صدري «هل سمعته يتأفف من الطعام أريد منك جواباً واضحاً يا غروسمبارت نعم أم لا .»

— «كلا يا سيدي .»

— «لماذا فهو يهودي أيضاً .»

— «إن بعض الأشياء تبدو أهم لبعض اليهود من غيرها .»

— انفجر بارت : «اسمع يا غروسمبارت ، إن ماركس هذا رجل وطيب وبطل ، عندما كنت أنت ما تزال في المدينة كان ماركس يقاتل الألمان .

مَن الذي يعمل أكثر لمصلحة اليهود ، أنت الذي تتقيأ بسبب قطعة صوصج أو قطعة لحم أم ماركس الذي يقتل هؤلاء النازيين .

لو كنت أنا يهودياً يا غروسمبارت لقبلت أقدام هذا الرجل ، إنه بطل ويأكل ما نعطيه ، لماذا يجب أن تتسبب لنا بمشاكل ، أريد أن أعرف ما الذي تهويّه لاتهامنا .

— «كلا يا سيدي .»

— «إنني أتكلم مع حائط ، خذه من طريقي» قذف با ريت نفسه في مقعد السائق إنني ذاهب لأرى القس ، انطلق با ريت بالجيب عائداً نحو المعسكر وسط عاصفة من الغبار التي أثارها موتور السيارة .

وقفنا أنا وغروسمبارت لوهلة بجانب بعضنا البعض ، نراقب الجيب وهو يبتعد ثم نظر إليّ وقال : «أنا لا أريد أن أبدأ بإثارة المشاكل إن هذا أول اتهام يرموننا به دائماً .» عندما تكلم غروسمبارت تنبّهت إلى أسنانه البيضاء والمستقيمة وقد دفعني منظر أسنانه إلى تفهم موقف أهله ، لا بد أنهم قد أخذوه في السابق إلى طبيب أسنان فقد كان ابنهم . وعلى الرغم من كل حديثه عن أهله ، كان من الصعب التصديق أن غروسمبارت كطفل وكوريث له صلة رحم بأحد مثل أب أو أم ، وفوق كل شيء أنا . هذا الإدراك دفعني إلى موضوع آخر .

— «ماذا يعمل أبوك يا غروسمبارت؟» سألته بينما نحن نتوجه إلى خط الطعام

— «إنه خياط .»

— «أمريكي؟»

— «الآن نعم مع وجود ابن له في الجيش» قالها مازحاً .

«وأملك؟» سألته

رمش قليلاً ثم أجاب : ربة بيت إنها تنام ومسحة الغبار في يدها .

– «هل هي مهاجرة سابقة أيضاً؟»

– «إنها تتكلم اللغة اليهودية فقط .»

– «وأبوك أيضاً؟»

«إنه يتكلم الإنجليزية قليلاً مثل كلمات تنظيف ، ضغط ، ارتد بنطالك ، هذا كل مداه في اللغة ولكنهما طيبان معي .»

– إذن يا غروسبارت ، مددت يدي لأوقفه ، التفت إلي وعندما التقت عيوننا ، شعرت أن عيناه قد تراجعتا قليلاً وأخذتا ترتجفان في محجريهما يا «غروسبارت أنت الذي كتبت الرسالة إذن .»

بدا لي لوهلة أن عيناه ترمشان جذلاً نعم واستمر بالسير تبعته ، وأكمل «إن أبي كان سيكتب نفس الشيء لو كان يعرف الكتابة بالإنجليزية لقد كانت الرسالة موقعة باسمه ، حتى أنه هو الذي أرسلها بالبريد ، لقد بعثتها لهما من بريد نيويورك . كنت مندهشاً وقد لاحظ هو ذلك ، مد يده أمامي بجديّة تامة! الدم هو الدم أيها الرقيب ، قالها وهو يقرص عرقاً أزرقاً في معصمه .»

– سألته : «بحق الجحيم ما الذي تحاول أن تفعله يا غروسبارت لقد رأيتك تأكل بنهم كالذئب في صف الطعام ، وإذا أردت للمدفأة أن تشتعل فعليك أن تلقمها بالفحم .»

– «إننا نتعب كثيراً من التدريب أيها الرقيب .»

– «لماذا قلت في رسالتك أنك تتقيأ كل الوقت؟»

– «كنت أتكلم عن ميكى هنا ، فهو لن يكتب أبداً أيها الرقيب رغم أنني رجوته فعل ذلك ، سيضيع نفسه هدرًا إذا لم أساعده لقد استعملت اسمي واسم أبي ولكنني مهتم بميكى وفيشباين أيضاً .»

– «أتعتبر نفسك المسيح كذلك؟» كنا قد وصلنا إلى خط الطعام .

– قال وهو يبتسم : «إن هذه ملاحظة جيدة أيها الرقيب ولكن من يعلم ربما تكون أنت المسيح المنتظر . . . يقول ميكى أن فكرة المسيح هي فكرة جامعة ، ذهب مرة إلى

يشيفا ، وعاد يقول إننا جميعاً نكوّن المسيح ، مني قليلاً ومنك قليلاً ، عليك أن تسمع هذا الشاب يتكلم .»

– «أنا قليلاً وأنت قليلاً قلت له ، إنك تريد أن تصدق ذلك أليس كذلك يا غروسبارت؟ فهو سيجعل كل شيء مبرراً بالنسبة لك .» إنها ليست فكرة سيئة لكي تؤمن بها أيها الرقيب إنها تعني أن علينا جميعاً أن نعطي قليلاً .» أجاب غروسبارت . ابتعدت عنه لأكل حصتي من الطعام مع الآخرين .

بعد مضي يومين ، وصلت إلى مكتبي رسالةً معنونة إلى الكابتن باريت جاءت عبر تسلسل قيادي من مكتب عضو الكونغرس فرانكوني ، حيث انتقلت من الجنرال ليتمان إلى الكولونيل سوسا إلى الميجر لامونت ، والآن إلى الكابتن باريت قرأتها مرتين ، كانت مؤرخة في ٤ أيار وهو اليوم الذي تحدث فيه باريت مع غروسبارت في ميدان الرماية .

عزيزي عضو الكونغرس

قبل كل شيء أود أن أشكرك نيابة عن ابني شيلدون غروسبارت على اهتمامك ، لقد استطعت مخاطبة شيلدون على الهاتف في الليلة السابقة ، أعتقد أنني قد قد تمكنت من حل مشكلتنا ، فهو كما ذكرت لك سابقاً ولد متدين جداً ، وقد وجدت صعوبة كبيرة في إقناعه بأن أفعل ما يمكن للمتدين عمله وهو ما أراد الله نفسه من شيلدون أن يفعله ، تحمل آلام الندم الديني لصالح بلده ولصالح الإنسانية . لقد أخذ هذا الأمر مني وقتاً وجهداً يا سيدي عضو الكونغرس .

لكنه تمكن من رؤية النور في النهاية ، الحقيقة إنه قال (لقد كتبت كلماته على مسودة كي لا أنساها) أظن أنك على حق يا أبي فمثلي الملايين من زملائي اليهود دفعوا حياتهم في كفاحهم أمام العدو ، إن أقل ما يمكنني عمله هو أن أحيا حتى ولو بقليل من ميراثي الديني ، من أجل المساعدة في إنهاء هذا الكفاح ومن أجل أن أعيد لأبناء الله كرامتهم وإنسانيتهم ، إن هذا الأمر سيكون مصدر فخر لأبي يا سيدي ، وعلى فكرة أراد شيلدون أن يعلمني وأن يمرر لك اسم الجندي الذي ساعده في الوصول إلى هذا القرار ، إنه الرقيب ناثن ماركس وهو مقاتل مخضرم مسؤول عن

شيلدون وقد ساعد شيلدون في تحمل بعض الصعوبات الأولى التي واجهها في الجيش ، كما تمكن من إقناع شيلدون بتغيير أفكاره حول قوانين الطعام في المعسكر .
إنني متأكد من أن شيلدون سيثمن كثيراً أي تقرير يتسلمه ماركس ، شكراً لك وحظاً طيباً . أنتظر رؤية اسمك في الانتخابات القادمة .

مع الاحترام

صامويل غروسبارت

كان هناك رسالة أخرى ملحقه برسالة غروسبارت وموجهة إلى الجنرال مارشال ليمان القائد الأعلى للقوات المسلحة ، مرسله من عضو الكونغرس شارلز . أي .فرانكوني يعلم فيها القائد ليمان أن الرقيب ناثن ماركس هو ذخرك للجيش الأمريكي والشعب اليهودي .

ما هو الدافع لغروسبارت وراء هذا وهل يشعر أنه قد تمادى كثيراً ؟ هل كانت الرسالة نوع من التراجع الاستراتيجي أو محاولة بارعة ، لتقوية ما يسميه تحالفاً بيننا أو هل غير رأيه حقيقة أمام حوار خيالي بينه وبين أبيه .

بقيت في حيرة من أمري لأيام قليلة إلى أن أدركت ، أنه مهما كانت دوافعه فقد قرر الابتعاد عني وإعطاء نفسه الفرصة ليصبح جندياً . رأيتة عند التفتيش ولكنه لم يرمش ورأيتة في تشكيلات الطعام ولم يومئ لي بأية إشارة . وفي أيام الأحاد كان يجلس مع باقي المتدربين ، يراقب فريق الكرة الخفيفة (سوفت بول) .

ولكنه لم يكلمني بأي كلام غير ضروري . كذلك فعل فيشباين وهالبرن اللذان كانا يأتمران بأمر غروسبارت! أنا متأكد من ذلك .

يبدو أنه رأى حكمة في التراجع ، قبل أن يغوص في قباحة الحصول على امتيازات لا يستحقها . لقد أتاح لي هذا الابتعاد فرصة لأغفر له مواجهاته السابقة علاوة على إعجابي به وبحسن تقديره .

في نفس الوقت وبعيداً عن غروسبارت ، بدأت أعتاد على عملي وعلى مهماتي الإدارية . اكتشفت حين وقفت على الميزان فيما بعد أنني لم أعد مقاتلاً ، فقد زاد وزني وصرت أجد الصبر ، لأقرأ أكثر من ثلاث صفحات من الكتاب . بدأت أفكر

في المستقبل أكثر وأكثر حتى أنني كتبت رسالة إلى فتاة كنت أعرفها قبل الحرب ووصلتني عدة إجابات ، راسلت جامعة كولومبيا طالباً فهرس كلية الحقوق وتابعت أخبار الحرب في الباسيفيكي ، راودني ظن بأني قد بدأت أرى نهاية الأمور ، حلمت ذات ليلة أنني أسير في شوارع منهاتن بروادواي الشارع ١١٦ بالتحديد ، حيث عشت الثلاث سنوات التي درست فيها كولومبيا . أخذت ألملم نفسي حول تلك الأحلام وبدأت أشعر ببعض السعادة . في أحد أيام السبت وبينما كان الجميع في الخارج ، جلست وحدي في غرفة القيادة أقرأ دورية شهرية حول أبناء الرياضة ظهر غروسبارت أمامي فجأة .

– «هل أنت من مشجعي لعبة البيسبول أيتها الرقيب؟»

– رفعت رأسي ورأيت «كيف حالك» قلت له .

– قال غروسبارت : «بخير لقد بدأوا بصنع جندي مني .»

– «وكيف حال فيشباين وهالبرن؟»

– إنهما يتدبران أمرهما ، ليس لدينا تدريب بعض الظهر لذلك قررا الذهاب إلى السينما .

– «لماذا لم تذهب معهما؟»

– «رغبت أن أمر وأسلم عليك .»

ابتسم ابتسامة خجولة تعني أن كلانا على دراية بأن صداقتنا قد نمت خلال هذه الزيارات غير المتوقعة ، من خلال تذكر أعياد ميلادي واقتراض ماكينة قص الحشيش من بعضنا البعض . في البداية شعرت بالضيق ثم أبعدت هذا الشعور شعور عام بعدم الراحة غمرني وأنا أفكر بأن الجميع في المعسكر منهمكون في حضور فيلم في قاعة معتمة ، وأنا هنا لوحدي مع غروسبارت ، أغلقت المجلة واستمعت إليه .

قال لي «أيها الرقيب أريد أن أطلب منك خدمة ، إنها خدمة ولا شيء غير ذلك» توقف متيحاً لي فرصة رفض الاستماع إليه ، مما دفعني طبعاً إلى التصرف بلياقة لم أكن أرغب بها «تفضل» قلت له .

«في الحقيقة إنهما خدمتان .»

انتظرت ولم أقل شيئاً .

«الأولى هي تلك الإشاعات التي تقول إننا ذاهبون إلى الباسيفيكي» .
- «كما قلت لصديقك فيشباين إنني لا أعرف ، علينا أن ننتظر لنعرف ذلك مثل
سائر القوم .»

«هل تعتقد أن هناك فرصة لنا للذهاب شرقاً؟»
- «ألمانيا على ما أعتقد .»
- «أقصد نيويورك .»
- «لا أظن ذلك يا غروسبارت . أجبتك بارتجال .»
- «شكراً على المعلومات أيها الرقيب .»
- «إنها ليست معلومات يا غروسبارت فقط . إنها تكهنات .»
- «للحقيقة إنه من المريح أن نبقي قريبين من البيت . . . الأهل كما تعلم . . .
مشى خطوة باتجاه الباب ثم التفت إلي وقال : «هل من الممكن أن أسألك خدمة
أخرى .»

«ما هي؟» قلت له
- «هي أن لي أقارب في سانت لويس وقد أبلغوني أنهم سيعدون لي عشاء عيد
الفصح إذا تمكنت من زيارتهم ، بحق الله أيها الرقيب إن هذا يعني الكثير لي .»
وقفت وقلت له : «لا إجازات خلال التدريب الأساسي يا غروسبارت .» «لكن
لدينا فرصة من الآن وحتى صباح الاثنين أيها الرقيب ، يمكنني أن أذهب هناك دون
علم أحد .»

- «أنا أعلم وأنت تعلم .»
- «لكن هذا يبقى بيننا فقط نحن الاثنين . في الليلة السابقة اتصلت بعمتي
وكان عليك أن تسمعها وهي تقول لي ، تعال عندنا ما سأطبخ سمكة بموجب الطرق
الدينية ، يوماً واحداً أيها الرقيب أنا سأتحمل اللوم ما قد يحدث .»

- «لكن الكابتين غير موجود لتوقيع الإجازة .»
- «يمكنك أن توقعها أنت .»
- «اسمع يا غروسبارت .»
- «أيها الرقيب لقد مضى علي شهران وأنا أكل هذه القمامة ، أشعر أنني أكاد أن

أموت .»

– «لكن اعتقدت أنك عقدت العزم على التعايش مع هذا الأمر . حتى ولو نقص قليلاً من ميراثك الديني .»

– «أشار بأصبعه إلي «إنها لم تكن موجهة إليك لتقرأها .»
– «لقد قرأتها فماذا تريد ؟»

– «إن هذه الرسالة كانت موجهة إلى عضو الكونغرس .»
– «غروسبارت لا تخادعني لمقد رغبت أن أقرأها .»
– «لماذا تضطهمني أيها الرقيب ؟»

– «هل تمزح ؟»

– «لقد مررت بهذا من قبل ، لكن ليس من شخص يدين بنفس ديني .»

– «اخرج من هنا يا غروسبارت اغرب عن وجهي .»

لم يتحرك من مكانه بل أجابني : «إنك خجل من نفسك هذا ما أنت عليه لذلك تتحامل على ما تبقى منا . يقولون إن هتلر نفسه كان نصف يهودي وعندما أراك أقول لا شك في ذلك .»

– سألته «ماذا تريد مني يا غروسبارت ، هل تريدني أن أمنحك بعض الامتيازات ، أن أغير لك طعامك أن أبحث لك عن أوامرك الجديدة وأن أعطيك إجازات في نهاية الاسبوع .»

– «إنك تتكلم مثل الرعاع» ضرب غروسبارت بقبضته «هل هو بسبب هذه الإجازة التي طلبتها أليس الفصح مقدساً ؟»

– الفصح ! خطر لي فجأة أن الفصح قد مرّ منذ أسابيع وقد قلت له ذلك .

– «نعم هذا صحيح» إجابتي «من يقول لا ، لقد مر منذ شهر وكنت أنا في ميدان التدريب ، أكل الحشيش والآن أطلب منك خدمة بسيطة .»

«إن أي يهودي يمكن أن يفهم طلبي . إن عمّتي ترغب في أن تحتفل معي بعيد الفصح بعد شهر من وقوعه» أدار ظهره للخروج وهو يتمتم .

– «عد إلى هنا ناديت ، توقف ونظر إلي ، قلت له : يا غروسبارت لماذا لا تحاول أن تكون مثل الباقيين ، لماذا تصر على أن تبقى مثل القرحة في الإبهام .»

– «لأنني يهودي أيها الرقيب أنا مختلف عن الجميع ، ربما أفضل منهم ربما لا لكنني مختلف .»

– «إننا في حالة حرب يا غروسبارت حاول أن تكون في الوقت الحالي مثل سائر الناس .»

– «إنني أرفض .»

– «ماذا ؟»

– «إنني أرفض ، لا أستطيع أن أكون غير ما أنا عليه هذا كل ما أملكه» اغرورقت عيناه بالدموع «من الصعب أن تكون يهودياً ، لكنني أتفهم الآن ما يقوله ميكي : إن من أصعب الأشياء عليك أن تبقى وحيداً» رفع يده باتجاهي «وقال انظر إلى نفسك .»

– «توقف عن البكاء»

– «توقف عن هذا ، توقف عن ذاك ، توقف أنت أيها الرقيب ، توقف عن الإنغلاق على نفسك» ، خرج مسرعاً وهو يمسخ دموعه بكم قميصه «إنه أقل شيء يمكن أن نفعله لبعضنا البعض .»

بعد ساعة نظرت من النافذة ، رأيت غروسبارت يتجه نحو ميدان الرماية ، كان يرتدي بنظلاً كاكياً . ويحمل كيساً صغيراً ، خرجت إلى الحرّ في الخارج كان الوضع هادئاً ، لم أر أحداً سوى أربعة متدربين قرب قاعة الطعام ، يتحلقون حول وعاء كبير موضوع أمامهم ، يقشرون البطاطا تحت الشمس .

– ناديت غروسبارت .

التفت ناحيتي وأكمل سيره .

– «غروسبارت تعال هنا»

التفت وعبر الميدان ثم وقف أمامي .

– «إلى أين أنت ذاهب ؟»

– «إلى سانت لويس ولست أبالي بشيء .»

– «سوف يتم اعتقالك بدون إجازة .»

– «سوف يتم اعتقالي بدون إجازة .»

– «سوف توضع في الحجز.»

– «أنا أعيش الآن في الحجز أدار ظهره ومشى». تركته يمشی خطوة أو خطوتين ثم قلت له: «عد إلى هنا، تبعني إلى المكتب حيث طبعت له إجازة، وقعتها باسم الكابتن وباسمي وبالأحرف الأولى من اسمي.»

أخذ الإجازة ثم عاد وأمسك بيدي، «أيها الرقيب إنك لا تعرف كم يعني هذا لي.»

– «حسناً لا تورط نفسك في متاعب».

– «يا ليتني استطعت أن أصف لك كم يعني هذا لي.»

– «لا أريد منك أي خدمات ولا تكتب لأعضاء الكونغرس مرة أخرى.»

– ابتسم «إنك على حق لن أفعل ذلك لمكن دعني أفعل لك شيئاً بالمقابل.»

– «أحضر لي قطعة من تلك السمكة، فقط اغرب عن وجهي بحق الجحيم.»

«سوف أفعل سأحضر معها شرحة جزر وبعض الفجل الحار لن أنس.» «حسناً فقط أريهم إجازتك على البوابة ولا تخبر أحداً.

«لن أخبر أحداً، إنني متأخر شهراً عن الفصح لمكن كل عام وأنت بخير».

– «وأنت بخير يا غروسبارت قلت له.»

– «أنت يهودي طيب أيها الرقيب مهما حاولت أن تفتعل من قسوة القلب، إلا

أنك من الداخل شخص محترم طيب إنني أعني ذلك.»

تأثرت كثيراً بتلك الكلمات التي خرجت من فم غروسبارت: «حسناً يا

غروسبارت بإمكانك أن تناديني الآن سيدي واغرب عن وجهي بحق الجحيم.»

خرج من الباب، شعرت بارتياح شديد لتوقف المراكب مع غروسبارت لم يكلفني

الأمر شيئاً ولن يكتشف باريت الأمر وإذا ما اكتشف فسوق أخلق له عذراً. جلست

على مكتبي لبعض الوقت وأنا مرتاح لقراري ثم فتح باب الشبك فجأة ودخل

غروسبارت.

«أيها الرقيب!» نظرت إلى الخلف. كان يقف فيشبين وهالبرن وهما يرتديان

الكاكي ويحملان كيسين صغيرين مثل غروسبارت.

– «أيها الرقيب لقد صدفت ميكلي وهالبرن خارجين من السينما، كدت

أضيعهم .»

– «غروسبارت ألم أقل لك لا تخبر أحداً .»

– «ولكن عمتي قالت ، بأنه يمكنني أن أحضر بعض الأصدقاء معي ، والحقيقة يجب أن أفعل ذلك .»

– «إني أنا الرقيب يا غروسبارت وليس عمتك .»

نظر إلي غروسبارت غير مصدق ثم شد هالبرن من قميصه وقال لميكي : «أخبر الرقيب كم يعني هذا الأمر لك .»

– نظر إلي هالبرن وغص قليلاً ثم قال : «كثيراً» .

خطى فيشباين إلى الأمام تلقائياً وقال : «إن هذا يعني الكثير لي ولأهلي أيها الرقيب ماركس .»

– «كلا» قلت بصوت عال .

طأطأ غروسبارت رأسه «أيها الرقيب إنني أفهم منعك لي ولكن كيف يمكنك منع ميكي وهو شاب يهودي متدين إنني لا أفهم ذلك .»

– «إني لا أنكر على أحد ، لكنك تماديت قليلاً يا غروسبارت ، إنك أنت الذي أنكرتهم .»

«سوف أعطيه إجازتي» قال غروسبارت «وأعطيه عنوان عمتي مع ملاحظة صغيرة على الأقل دعه يذهب .»

خلال ثوان كان غروسبارت يضع الإجازة في جيب بنطال هالبرن ، نظر إلي هالبرن وكذلك فعل فيشباين ، كان غروسبارت قد وصل إلى باب الخروج ودفعه قائلاً : «يا ميكي أحضر لي قطعة من السمكة على الأقل وانطلق خارجاً .»

نظر ثلاثتنا إلى بعضنا البعض ثم قلت لهالبرن : «أعطني هذه الإجازة أخرجها من جيبه وسلمها لي ، وفي هذه الأثناء كان فيشباين قد تحرك نحو الباب ثم تباطأ قليلاً ووقف فاغر الفم قليلاً ثم قال : «وأنا» .

أرهقتني سخافته المطلقة ، ارتيمت على مقعدي وأنا أشعر بنبضات قوية تضرب مؤخرة عيني ، قلت يا فيشباين : «إنك تفهم أنني لا أحاول إنكار شيء عليكم لو كان الجيش ملكاً لي لقمتم بتقديم سمكة جيلفايت في قاعة الطعام وربما كنت أبيع كوغل

في المطعم أقسم لك .»

ضحك هالبرن

«إنك تفهم ذلك أليس كذلك يا هالبرن ؟»

– «نعم أيها الرقيب .»

– «وأنت يا فيشباين أنا لا أريد أن أصنع أعداء هنا أنا مثلكم أريد أن أنهى وقتي

هنا وأعود للبيت إنني أتوق لجميع الأشياء التي تتوقان لها .»

«إذن أيها الرقيب لماذا لا تأتي معنا ؟» قال فيشباين

– «إلى أين ؟»

– «إلى سانت لويس عند عمته شيللي ، سوف نأكل طعام فصيح عادي ونلعب

لعبة إخفاء الفطير» . ابتسم ابتسامة عريضة أظهرت أسنانه السوداء ،

حانت مني التفاتة ورأيت غروسبارت يقف على الطرف الآخر من الباب ، نادى

ميكي قائلاً : «خذ هذا هو العنوان ملوَّح بقطعة ورق قل لها إنني لم أستطع الحضور» .

لم يتحرك هالبرن نظر إلي ورأيته يهز كتفيه استهجاناً .

جلست إلى الآلة الكاتبة وقمت بطباعة إجازتين لفيشباين وهالبرن : «إذهبوا أنتم

الثلاثة .»

ظننت لوهلة أن هالبرن سيقوم بتقبيل يدي .

عصر ذلك اليوم جلست أحتسي الجعة في أحد بارات جوبلين مصغياً نصف

إصغاءة ، لأحدى مباريات لعبة كاردينال . حاولت أن أقيّم بوضوح هذا الأمر الذي

تورطت به ، أخذت أفكر بأن هذه المعركة مع غروسبارت لم تكن خطأي ولم تكن

خطأه ، من أكون أنا لأقدم هذه المشاعر الكريمة ، بل من أكون أنا لأكون مغلق القلب ،

حقوداً بهذا الشكل ، وبعد ذلك ليس مطلوباً مني أن أحرك العالم ، هل أملك الحق أو

المنطق لكي أثقل على غروسبارت ، عندها يعني ذلك أن أضغط على هالبرن

وفيشباين أيضاً . هذا الشخص القبيح الرضي .

من بين ذكريات الطفولة التي راودتني في الأيام القليلة الأخيرة . كان صوت

جدتي وهو يقول : لماذا كل هذا الضجيج ، كانت كلمتها هذه موجهة إلى أمي التي

كانت كلما أذيت نفسي وأنا أقوم بعمل ، ليس من المفروض أن أعمله تنهمك في

توبيخي في الوقت الذي كنت أحتاج فيه إلى قبرة أو ضمة حنونة ، تأبى أُمى أن تقوم بها .

كانت جدتي تعلم أن الرحمة تأتي قبل العدالة . كان يجب أن أتذكر ذلك أيضاً من يكون ناثن ماركس ليبخل بالرحمة أيضاً . أعتقد أن المسيح نفسه لن يبخل بالتأكيد ببعض الأمور البسيطة . . أستغفر الله ربما يقوم بالضم والتقيل .

في اليوم التالي وبينما كنت أَلعب الكرة الخفيفة على ساحة العرض ، قررت أن أسأل بوب رايت الذي كان مسؤولاً عن التصنيف والتعيين ، إلى أين سيُرسل المتدربون حال انتهاء الدورة بعد أسبوعين ، سألته بطريقة عارضة .

أجابني سوف يرسلون جميعاً إلى الباسيفيك ، لقد أنهى شولمان الترتيبات للباسيفيك منذ أيام .

صَدَمَتْنِي تلك الأخبار ، فقد صرت أنا الأب بالنسبة لهالبرن وفيشباين وغروسبارت .

تلك الليلة وبينما كنت أهم بالنوم سمعت قرعاً على باب غرفتي سألت من وجاءني الجواب :

– «شيلدون .»

– فتح الباب ودخل إلى الغرفة ، شعرت بوجوده لوهلة دون أن أتمكن من رؤيته كيف كانت؟ سألته :

اقترب مني عبر الظلام «رائعة أيها الرقيب» ، جلس على طرف سريري نهضت لأستقبله .

قال : «وماذا عنك أنت هل كانت نهاية أسبوع سعيدة ؟»

– «نعم» .

لقد خلد الجميع للنوم . أخذ نفساً عميقاً – جلسنا صامتين لبعض الوقت غمرني شعور بيتي غريب ، الباب كان مغلقاً والقطعة في الخارج والأطفال نائمون .

– «أيها الرقيب هل يمكنني أن أخبرك بشيء شخصي ؟»

لم أجدبه وبدا كأنه يعرف لماذا ، تابع قائلاً : «ليس بخصوصي أنا ولكن بخصوص ميكى ، لا أشعر مع أحد كما أشعر معه ، فقد سمعته يبكي ليلة أمس ويتنهد

بشدة وبشكل يحطم القلب .»

– «أنا أسف لسماع ذلك ، اضطرت أن أكلمه لأوقفه عن البكاء ، أمسك بيدي أيها الرقيب ولم يتركها كان في حالة هستيريا ، كان يقول باستمرار يا ليتنا نعلم إلى أين سنذهب حتى لو كان إلى الباسيفيكي ، هذا أفضل من لا شيء ، فقط يريد أن يعرف .»

منذ مدة طويلة ، يبدو أن أحدهم علم غروبسبارت تلك القاعدة المؤلمة بأن الأكاذيب فقط هي التي تخرج الحقيقة . ليس لأنني لم أكن أصدق أن هالبرن يبكي فقد كانت عيناه دائماً حمراوين ولكن للحقيقة أن غروبسبارت كان يكذب . كان يتبع استراتيجية معينة بطريقته تلك ، وشعرت بمدى قوة هذا الإلهام فهناك استراتيجية اعتداء ولكن يوجد مقابلها استراتيجيات تراجع ، لذلك ومع إدراكي أنني أنا أيضاً لا أدخلو من الخداع أخبرته ما أعرفه ، ستذهبون إلى الباسيفيكي .

تنهد قليلاً ، لم يكن يخدع بذلك وقال : «كنت أتمنى أن يكون مكاناً آخر .»

– «كذلك أنا .»

قفز فوق كلماتي وقال : «أتظن أنه بإمكانك أن تفعل شيئاً إزاء ذلك كأن تغير شيئاً ربما .»

– «لا يمكنني أن أفعل شيئاً .»

– «ألا تعرف أحداً من تلك القيادات ؟»

– يا غروبسبارت لا يوجد شيء يمكنني أن أفعله ، إذا كانت الأوامر تقول نحو الباسيفيكي فهي كذلك .

– «ولكن ميكى .»

– «ميكى ، أنت ، أنا كلنا يا غروبسبارت لا يوجد شيء يمكننا أن نفعله ربما تنتهي

الحرب قبل ذلك – صلي لكي تحصل معجزة .»

– «ولكن !»

«تصبح على خير يا غروبسبارت» ، أدت ظهري وشعرت بالراحة وأنا أسمع صوت ارتفاع زنبركات السرير ، حين وقف غروبسبارت استعداداً للخروج . رأيته الآن بوضوح ، كانت فكاه ساقطين وبدا كالدائنخ ، لاحظت لأول مرة كيساً من الورق في

يده .

- يا غروسبارت ابتيست له : «هل هذه هي هديتي ؟»
أه نعم أيها الرقيب : «منا جميعاً» سلمني الكيس قائلاً إنها كعكة بيض .
- «كعكة بيض ؟»
- «كعكة بيض ؟» أخذت الكيس وشعرت برطوبة السمن في قاعه فتحتة لا بد
أن غروسبارت يمزح .
- «ظننا أنك ربما تحبها كعكة بيض صينية ربما تحب طعم»
- «هل قدمت لكم عمتك كعكة بيض ؟»
- «لم تكن بالبيت .»
- «غروسبارت لقد دعيتك إلى منزلها أنت وأصدقائك .»
- «أنا أعلم لقد أعدت قراءة الرسالة كان الموعد في الأسبوع القادم» . نهضت من
الفراش وسرت إلى النافذة غروسبارت ولكنني لم أكن أنادي عليه .
- «نعم» .
- «ماذا أنت بحق الله ماذا أنت يا غروسبارت» ظننت بأن هذه أول مرة يواجه
سؤالاً لا يملك له جواباً فورياً .
- «كيف يمكنك أن تفعل بالناس هكذا ؟»
- «أيها الرقيب لقد كان يوماً جيداً لنا جميعاً . إن فيشبائين يحب الأكل
الصيني» .
- «ولكن الفصح» قلت له .
لقد أخذنا الأكلة المفضلة من الدرجة الثانية .
اشتد بي الغضب ورفضت أن أتحنى
- «يا غروسبارت إنك كذوب ومخادع وماكر ولا تحترم شيئاً أبداً ، لا تحترمني ولا
تحترم الحقيقة ولا تحترم حتى هالبرن المسكين إنك تستخدمهم جميعاً .»
- «أيها الرقيب - أيها الرقيب أنني أشعر مع ميكي أقسم بالله أنا أحبه وأحاول .»
- «تحاول ! تشعر !» تقدمت نحوه وأمسكته من قميصه وهزته بعنف ، اخرج يا
غروسبارت ، اخرج وابتعد عن وجهي بحق الجحيم ، لأنني إذا رأيتك مرة أخرى

فسأقلب حياتك كلها تعاسة . هل تفهم ذلك .

— «نعم» .

أقلته من يدي ، عندما غادر الغرفة راودتني رغبة في أن أبصق على الأرض التي كان يقف عليها حيث لم أستطع أن أكبح غضبي ، بدا لي أن هذا الغضب قد سيطر عليّ لدرجة لن أستطيع التخلص منه إلا بالبكاء أو بارتكاب العنف .

تناولت الكيس الذي أعطاني إياه غروسبارت وطوحته من النافذة بكل عزم ، وفي اليوم التالي وبينما كان الرجال يشطون المنطقة حول الثكنات سمعت صيحة من أحد المتدربين الذي كان يبحث في الأرض عن بقايا سجناء ولفافات حلوى كعكة بيض يا الله كعكة بيض صينية .

بعد أسبوع كنت أقوم بقراءة الأوامر التي وصلت إليّ من القيادة ، لم أصدق ما قرأته . كان على كل المتدربين أن ينطلقوا إلى معسكر ستوغان بكاليفورنيا ومن ثم إلى الباسيفيك ، ما عدا واحداً هو الجندي غروسبارت ، فسيرسل إلى قلعة مون ماوت في نيوجيرسي .

قرأت الأسماء في الرسالة المنسوخة عدة مرات دي ، فاريل ، فيشباني ، فيوزيللي ، فيليبويش ، جلينيكي ، غرومك ، جوكوا هالبرن ، هاردي ، هيلبرانت وحتى انتون زيغالزو ، كلهم سيرسلون إلى الباسيفيك قبل نهاية الشهر ، كلهم ما عدا غروسبارت لقد أمسك خيطاً ولكن لم يكن أنا .

رفعت السماعة واتصلت بالقيادة . جاءني الرد علي الهاتف الآخر :

— «العزيز شولمان يا سيدي .»

— «أريد أن أكلّم الرقيب رايت .»

— «من يتكلّم يا سيدي .»

— «الرقيب ماركس .»

— لدهشتي سمعت الصوت يقول أه أنت رفيقه أيها الرقيب . كلمة أه من شولمان أخذت تدور في رأسي وأنا أنتظر رد الرقيب رايت ، لماذا أه ومن هو شولمان ثم فجأة بكل بساطة ، اكتشفت الخيط الذي أمسكه غروسبارت ، للحقيقة استطعت أن أسمع غروسبارت ، يوم اكتشف شولمان في مركز القيادة أو في لعبة بولنج أو ربما خلال أداء

الصلوات أنا سعيد لرؤيتك من أين جئت ؟»

– «من برونكس .»

– «وأنا أيضاً .»

– «هل تعرف كذا وكذا ؟»

– «وأنا أيضاً .»

«أتعمل في القيادة ؟ حقاً ما هي الفرص المتاحة للذهاب شرقاً ، هل تستطيع أن تفعل شيئاً بهذا الخصوص أن تغير شيئاً ، تكذب ، تخادع ، تغش ، يجب علينا أن نساعد بعضنا البعض ، كما تعلم لو أن اليهود في ألمانيا

– «كيف حالك يا نات» – أجبني رايت «كيف أصبحت يدك الآن ؟»

– «بخير يا بوب ، أرجو أن تستطيع مساعدتي ،»

كنت أسمع كلماتي بوضوح وقد ذكرتني تلك الكلمات بغروسمبارت الذي استهدفته في خطيئتي بأسرع ما كنت أتخيل . قلت لرايت قد يبدو الأمر غريباً ولكن هناك شاب جاءت الأوامر بإرساله إلى مونموث ويريد أن يغيرها ، فقد قتل أخاه في أوروبا وهو متحمس للذهاب إلى الباسيفيكي ، يقول إنه يشعر بالجنين إذا بقي في الولاية هنا ، لا أدري يا بوب هل يمكن أن تفعل شيئاً حيال ذلك وأن تضع شاباً آخر مكانه إلى مونموث .

– «مَن ؟» سألني راي ؟

– «أي شخص ، أول اسم على الحرف ربما لا يهمني ، الشاب يريد فقط أن يسأل

إذا كان هنا إمكانية لعمل شيء ؟»

– «ما هو اسم الشاب ؟»

– «غروسمبارت – شيلدون»

لم يجب رايت

– «نعم قلت له إن هذا الشاب يهودي ، يظن أنني ربما أستطيع مساعدته أنت

تعلم .»

– «أظن أنني أستطيع أن أفعل شيئاً» قال رايت أخيراً ، «لم يأت الميجر إلى هنا

منذ مدة فلدیه مهمة مؤقتة في ملعب الغولف ، سأحاول يا نات . هذا كل ما أستطيع

أن أقوله لك .»

«سأكون شاكراً بالتأكيد يا بوب ، أراك يوم الأحد» ، أغلقت السماعة وأنا أتصيب عرقاً .

في اليوم التالي جاءت الأوامر الجديدة : فيشباين ، فيوزيللي ، فيليبويشي ، جلينيكى ، غرومك ، غروسبارت ، غوكوا ، هالبرن ، هاردي . . . وحده الجندي هارلي أزلتون حالفه الحظ بالذهاب إلى فورت مونوث بنيوجيرسي ، حيث يحتاجون لسبب ما لشاب متدرب على المشاة ،

بعد تناول الطعام تلك الليلة عدت إلى غرفة القيادة لأعد جدول الحراسة . كان غروسبارت ينتظرني صاح في وجهي : «أيها الوغد ماذا لديك ضدي - وضد عائلتي ، هل يؤذيك أن أبقى بجانب أبي - الله يعلم كم شهر بقي له على قيد الحياة» .

- «ولماذا ؟»

«إنه مريض بالقلب» قال غروسبارت «ألا يكفيه ما واجه من المشاكل في حياته حتى تضيف عليه ، إنني ألعن اليوم الذي قابلتك فيه يا ماركس ، لقد أخبرني شولمان بما حدث ، ليس هناك حدود لعدائك للسامية أليس كذلك؟ ألا يكفيك الضرر الذي فعلته هنا حتى تتم ذلك الاتصال الهاتفي ، هل حقاً تريدني أن أموت ؟» .

- «تصبح على خير يا غروسبارت .»

«إنك مدين لي بتفسير! وقف في طريقي .»

«شيلدون أنت مدين لي بالعديد من التعبيرات .»

- «قطب جبينه ، أنا مدين لك ؟»

- «نعم مدين لي ومدين أكثر لفيشباين وهالبرن .»

- «هذا صحيح تريد أن تعكس الأمور الآن ، أنا لست مديناً لأحد ، فعلت كل ما

أستطيع لهم وأظن أن لدي الحق الآن لأساعد نفسي .»

- «علينا أن نساعد بعضنا البعض أنت قلت لي هذا بنفسك يا شيلدون .»

- «هل تسمي هذه مساعدة بعد الذي فعلته ؟»

- «كلا إنها مساعدة لنا جميعاً .»

دفعته جانباً وسرت نحو الباب ، سمعت أنفاسه الغاضبة ورائي وقد بدت كالبخار الخارج بقوة من آلة بخارية .

«سوف تكون بخير» قلت له وأنا أقف على الباب «وأظن أن فيشبائين وهالبرن سيكونان بخير حتى وهم في الباسيفيكي ، هذا إذا استمر غروسبارت يرى في خنوع الأول ورومانسية الآخر بعض المنفعة لنفسه .»

وقفت خارج غرفة القيادة ، كنت أسمع غروسبارت يبكي خلفي هناك في الشكنات المضاءة النواخذ . كنت أستطيع رؤية الشباب بقمصان التي شيرت ، جالسين على أسرتهم يتحدثون عن الأوامر تماماً كما كانوا يتحدثون لليومين الأخيرين . كانوا يلمعون أحذيتهم وأحزمتهم بعصبية هادئة ويرتبون ثيابهم الداخلية محاولين أن يتقبلوا قدرهم . أما خلفي فقد كان غروسبارت يبتلع الأمر بصعوبة ، أما أنا فقاومت نفسي بشدة من أن ألتفت إلى الخلف ، أطلب السماح منه لحقدي وانتقامي ومشيت أتقبل قدري .

١٩٦٢

ستانلي إكن

باعة وفضوليون - فضوليون وباعة

عن «برسبكتيف»

لعن غرينسبان عجلة القيادة التي تضرب معدته ، مثل ضربة قاسية مباشرة من يد إنسان ! لعن الله السيارات التعيسة ، لقد دفعت ٤٥٠٠ دولاراً ولا يوجد فيها مكان أتنفس فيه . أخذ يفكر بمرارة بالبائع المبتسم الذي باعه السيارة . كانوا ينادونه جيـك في صالة العرض . انسل من المقعد بحذر كأنه يحمل شيئاً قابلاً للكسر وأراح جسمه الضخم خارج السيارة ، لكنه عندما رأى عداد الموقف انتابه غضب جامح : إنهم لا يدعونك تعيش ! سوف أضع نقودك في العداد من أجلك سيد غرينسبان . كان يقلد صوت الشرطي الإيرلندي . دولارين أسبوعياً من أجل هذا النذل ، إضافة إلى النقود التي ندفعها للعداد ثم يتكلمون عن اليهود . رأى غرينسبان الشرطي عبر الشارع يحرر مخالفة . دار حول سيارته وتفقد بعناية أبواب السيارة . انطلق نحو مخزنه . أيها السيد غرينسبان ناداه الشرطي .

التفت إليه قائلاً : «نعم» .

« صباح الخير »

« نعم نعم . صباح الخير »

تقدم النذل نحوه عابراً الشارع البزات ، من يرتدي البزات غير المجانين .

« يوم لطيف يا سيد غرينسبان » قال الشرطي .

وافق غرينسبان بغيظ .

– «لقد تأثرت كثيراً حين عرفت مشكلتك يا سيد غرينسبان»
«هل وصلك كرتي؟» سأله الشرطي
– «نعم لقد وصلني ، شكراً لك ،» تذكر أنه استلم شيئاً عليه رسمة ورد وأشعة
وردية . ربما صورة صليب أو ما شابهه .
«كنت أود الحضور إلى الكنيسة ، لكن عديلي جاء من كليفلاند لزيارتنا ، فلم
أتمكن من ذلك .»

«نعم» قال غرينسبان «ربما في المرة القادمة»
نظر إليه الشرطي ببلاهة ، بينما كان غرينسبان يمد يده إلى جيبه .
– «كلا لا تهتم بذلك سيد غرينسبان ، سأهتم بها اليوم .»
«أرجوك إنسى الموضوع اليوم .»
– شعر غرينسبان وكأنه يعطي المال هباءً ، قال في نفسه لا تمن علي أيها النذل
أبقي الدولارين بدل منتك .

أدار الشرطي ظهره استعداداً للذهاب وهو يقول : «حسناً يا غرينسبان لا يستطيع
أحد أن يقول شيئاً في أوقات مثل هذه ، لكنك تعلم كم يهمني أن تستمر في
حياتك أليس كذلك؟» «بالتأكيد» قال غرينسبان «هذا صحيح أيها الضابط .»
عبر الشرطي الشارع منهياً كتابة المخالفة ، تابعه غرينسبان بنظرة حانقاً وهو يراقب
مسدسه يتدلى في قرابه . كانت الشمس تعكس أشعتها على الأصفاد التي تلمع
على جنبه ، النذل قال في نفسه :
– «يخاف على نقوده القذرة – سوف يصبح هناك زيادة في أماكن الوقوف أسرع مما
يعتقد .»

مشى باتجاه الدكان . كان بإمكانه أن يوقف السيارة أمام محله ، لكنه تركها بحكم
العادة أمام دكان منافسه ، مسألة ضغينة قديمة لا معنى لها ، غداً سوف يغير المكان ما
الفرق ، موقف واحد بالناقص لماذا عليه أن يسير على قدميه .
أحس بانتفاخ وبثقل في معدته ، يجب أن أذهب إلى الحمام وإلا سأنفجر ، نظر
إلى الشارع بفراغ دون أن يشعر بأي من الإثارة السابقة وما الذي جعله يعود .
فجأة أخذ يسائل نفسه في حزن ، كم أفتقد هذا الولد يا إلهي هارولد المسكين ،

لن أراه مرة أخرى ، لن أرى ابني مرة أخرى ، كاد يختنق ، رجل ضخيم شاحب اللون يضرب بقبضته على صدره بحزن وأسى ، سحب محرمة من جيبه وتنشق .

هكذا سارت الأمور ، يعوم في الفراع والفتور فجأة ليزوب في حزن شديد وحائق . لم يعد الشارع مكاناً له ، تذكر زوجته غاضباً ، لا بد أنها أصيبت بالجنون حتى تردد على مسامعه دائماً ، أشغل نفسك ، أشغل نفسك ، ماذا تظنه ولد صغير ، سيفقد عقله .

لقد فقد حقه في تقرير مصيره ، صار المطلوب منه أن يمضي وكأن شيئاً لم يحدث . زوجته وهذا الشرطي لهما نفسيتان متشابهتان ، الأمر كما في أفلام السينما إذ بعد أن يرفسك الحصان في رأسك ، عليك أن تنهض وتمتطيه كي يرميك وينهي الأمر ، لو أنه يستطيع الحصول على مشتر فسيبيع كل شيء .

نظر في طريقه إلى النوافذ ، بدت العروض أمامه خرقاء سخيفة الآن ، أصبح الآن يكره كعكات الأعراس والساعات المخوفة ، بينما كان في السابق يستمتع كثيراً بتمائيل العرض الغريبة الضخمة ، تماثيل اللعب تلك ، أخذ يفكر بمرارة . كان يجد متعة خاصة في مشاهدة رفوف الملعبات وأكوام البرتقال والتفاح المرتبة على شكل هرمي في دكانه ، كانت تبدو له شيء لا يصدق . تذكر أنه كان يحب النظر إلى غرف المعيشة الصغيرة المعروضة في نافذة صالة العرض والتماثيل الشمعية الجالسة على الأرائك تقدم القهوة لبعضها البعض . اعتاد أن ينظر إلى ذلك الأثاث الباهظ الثمن ويسمّيها بضاعة . كانت الكلمة تبدو ثقيلة وغامضة بالنسبة له . بضاعة ينقلونها على ظهورهم ، ماذا يعني ذلك ؟ لا شيء لا معنى له . فطن إلى وجود أحد يراقبه .

أحد يراقبه

– «مرحباً يا جييك» كان ذلك مارغوليس الذي – يعمل في محل بيع التلفزيونات .

– «مرحباً مارغوليس . كيف حالك ؟»

«إن الأشغال سيئة جداً . لقد اخترت العودة للعمل في الوقت التعس» ، رجل يموت ابنه ويقول مارغوليس إن الأشغال سيئة . أخذ يفكر في ابن القحبة التافه هذا .

– «لا يمكنك أن تغلق المحل دقيقة واحدة ، فأنت لا تعلم متى يأتي الزبون ، إنني لم أتناول القهوة منذ فارقتنا قال مارغوليس .»
«يبدو أن الأمر كان صعباً عليك ، كان عليك أن تخبرني فقط ، كي أرسل لك فنجاناً»

ابتسم مارغوليس بحزن . تذكر موت ابن غرينسبان .
«لا بأس يا مارغوليس» أحس بالضعف يداهم مرة أخرى ، أصبح شيئاً يتوجب عليه أن يراقبه ، شيئاً جديداً بالنسبة له ، لكنه مألوف ، ينطلق بسرعة كأنه مركب على زنبركات «بياجيك» أخذ مارغوليس ينتحب .
ليس الآن يا مارغوليس قالها بغضب ، أحس أن عليه أن يبتعد . كان وجهه منتفخاً كطفل على وشك البكاء ، وبدا خنوعاً هادئاً ، كان عليه أن يحمل قبعته بيده ، لم يستطيع جيك أن ينظر إليه ، لأنه كان يشعر دائماً أنه على وشك إلقاء خطبة أمامه لا يرغب سماعها ، لماذا يحتاج إلى خطبة في الوقت الذي أصبح فيه ابنه تحت التراب ، في علبه معدنية محكمة الإغلاق ، كما يقول مدير الجنازة يا إلهي محكمة الإغلاق مثل معلبات القهوة . ابنه تحت التراب والموديلات في نوافذ العرض يرتدين موضة الموسم القادم . سوف يلکم مارغوليس في وجهه إذا قال كلمة واحدة .

نظر مارغوليس إليه ، انحنى بحزن وهو يمد راحته كأنما يقول أعرف ، أعرف ، استمر ينظر إليه ، أخذ غرينسبان يفكر : إنه يحسب ، هذا ما يفعله ، أن يضع بحسابه حقيقة أن ابني قد مات ، أظنه يقدر كيف يقدم لي الاعتذارات كما يقدر بالعادة حساب زبون في محله .

«يجب أن أذهب يا مارغوليس» قال غرينسباين .
«بالتأكيد وأنا أيضاً» قال مارغوليس وقد بدا عليه الارتياح ، سوف «أراك يا جيك ، إن الرجل القادم من آر . سي . أي . قد عاد مع الحمولة ، ماذا سأفعل بها ؟»
سار غرينسباين إلى آخر صف المنازل ، عبر الشارع وهو ينظر إلى أسفل الشاعر الفرعي ، شاهد الكنيس الذي صلى به الليلة عن روح ابنه .
دخل المحل وهو ينظر إليه باشمئزاز ، رأي الإشارات خلف الزجاج ، كالبالونات في

ألعاب التسلية ، وقد كتبت عليها بعض الكلمات ، كانت الأحرف كبيرة وباللون الأحمر ، كأنها تعلن عن نهاية العالم . أما الزجاج فكتبت عليه كلمات كبيرة باللون الأبيض ، كأنها لوحة إعلانات . دخل إلى الواجهة الزجاجية ونظر إليها ، كان مسؤول قسم الخضروات يقف - فرانك على واجهة الخضروات ، يرفع الورق الذي يغلف حبات البرتقال ، أما الجزار هوارد فقد كان واقفاً عند آلة الحساب يتكلم مع شيرلي المحاسبة ، رآه هوارد من خلال الزجاج ولوح له بحرارة أما شيرلي ففتحت له الباب ، «صباح الخير يا سيد غريسبان» قالت له .

«مرحباً يا جيك كيف حالك؟» قال له فرانك .

«كيف تسير الأمور يا جيك قال هوارد .»

«هل جاء «سينغي»؟ هل أخبرته عن الجبنة ؟»

«لم يأت بعد يا جيك» قال فرانك

«وماذا عن اللحم هل قدمتم الطلبية .»

«طبعاً يا جيك» قال هوارد : «لقد اتصلت بالرجل يوم الخميس .»

«أين الوصولات» سأل شيرلي .

«سوف أحضرها لك يا سيد غريسبان ، لقد اطلعت على وصولات الأسبوعين

السابقين ، سأحضر لك وصولات الأسبوع الأخير» ، سلمه رزمة من الورق ، كانت أقل من الأسبوع الماضي بأربعمائة وسبعين دولاراً ، لا بد أنهم كانوا في نزهة ، قال غريسبان في نفسه ، هذا كل شيء! نظر إليهم ورأهم ينظرون إليه باهتمام ، إذن قال إذن .

«من اللطيف أن تعود بيننا يا سيد غريسبان» قالت شيرلي وهي تبتسم «نعم» قال

لها «نعم» .

«وصلتنا طلبية أمس يا جيك ، لكن الحمال المحترم كان ثملاً فلم يتمكن من

وضعها بكاملها على الرف» قال فرانك :

انحنى غريسبان قائلاً «لكن المبيعات قليلة»

«لقد كان العمل سيئاً ، أعتقد أنه بسبب الإضراب» قال فرانك .

«إن إضراب عمال المناجم في غرب فرجينيا ، هو السبب في ذلك وفي هبوط

الأشغال في هذه المنطقة .»

«هناك مضاعفات» أجاب فرانك معظم الصناعات تأثرت .

«نعم» قال غريسبان «نعم صناعة البرتزل وصناعة حساء الدجاج بالشعيرية .»

«حسناً كانت الأشغال سيئة يا جيـك» قال هـوارد مشاكساً .

«أظن أنها كانت سيئة جداً ، إن الوقت مناسب للبيع ما رأيك ؟»

قال غريسبان .

«هل تفكر جدياً بالبيع يا جيـك ؟» سأله فرانك .

«هل تشتري محلي يا فرانك ؟»

«أنت تعلم يا جيـك ، أني لا أملك مثل هذه الكمية من المال» قال فرانك مرتبكاً .

— قال غريسباين «نعم» نعم .

نظر فرانك إلى غريسباين الذي كان ينتظر منه أن يقول شيئاً ، ولكنه سرعان ما أدار ظهره ليكمل نزع الأوراق عن البرتقال ، لص ! قال غريسباين في نفسه ، يظن نفسه شيئاً أظن أنني أهنته ، أنا ذاهب لأبدل ملابسي ، يا شيرلي أرجو أن تنادينني إذا حضر سيغي ، دخل إلى الحجرة الصغيرة في الواجهة الخلفية للمحل ، ومد يده لتناول ثياب العمل الموضوعة على العلاقة خلف الباب ، لكنه فوجئ بوجود ثياب داخلية نسائية معلقة فوق ثيابه . كانت هناك صدرية معلقة من جهة واحدة فوق بنطاله . ما هذا ؟ هل هذه غرفة لتغيير الملابس ؟ هل تستحم هذه المرأة في مجلى الحمام ؟

فكر قليلاً ثم حاول بحذر أن يأخذ ثيابه عن العلاقة ، دون أن يلمس باقي الثياب النسائية ، لكنه إرتبك وأسقطها على الأرض ، تكومت فوق بنطاله على الأرض . نظر إلى تلك الثياب ، بدا المنظر قذراً بالنسبة له ، كأنما أمامه شخصان أسقطاها على عجلة من أمرهما ، وراحا يمارسان الحب خلف الباب .

تناول بنطاله وبدل ملابسه ثم تناول علاقة أخرى من تحت الجملى ، ألصقها بجانب الأولى ليضع عليها صدرية شيرلي ، توقف قليلاً وتأمل الصدرية ثم شعر بالخجل من نفسه ، شعر بتعب شديد . أدخل رأسه في فتحة المايول وطواه خلف ظهره ، فوق كنزته الزرقاء القديمة التي يرتديها حتى في فصل الصيف . أدار حنفية الجملى وغسل

عينيه . «أغبياء أغبياء قال لنفسه تضعون المرايا لمراقبة زبون ، يسرق العلكة وتغادرون المخزن كلكم في نفس الوقت» كان يتكلم عن هوارد وفرانك . جلس على مقعد الحمام يحاول أن يريح ثقل معدته ، ظل المربول معلقاً تحت صدره وكأنه على مقعد الخلاقة والمنشفة على ركبتيه ، لا بد أني أبدو كمن يقص شعره ، قال لنفسه ، ثم نظر إلى ثياب شيرلي الداخلية إنها نجمتي المفضلة ، تذكر ما قاله هوارد مرة ، «كانت فتاة عرض» ، لا بد أن شيئاً ما كان يجري بينهما أغبياء ! كان يعلم أنهما يذهبان للشرب معاً بعد الدوام . هذا شيء سيء كخطوة أولى ، هل يا ترى يتضاجعان خلف المخزن ؟ إن هوارد متزوج ورب عائلة لكن لا يمكن أن تثق بجزار شاب ، لماذا لا يحاول أن يبيع المخزن ويرتاح من هذه المأساة . هل يجني مائلاً كافياً ، إن هذا الجنون ، لكن على كل حال ، هناك أشياء يضطر الرجل أن يلاحقها في عمله ، لكن مثل هذا ! هذا جنون إنه محاط باللصوص والمخادعين ، يثقلون عليه ويدفعونه دائماً ، ماذا يعني هذا ؟ لماذا يفعلون هذا ؟ هل سيكون الأمر مختلفاً لو كان هارولد حياً ؟

طبعاً كلا لقد كان يعرف الكثير عن العمل ، ولكن هذا لن يغير النتيجة . الموت هو عبرة ، يبق لي شيء أطمح إليه الآن . ما الذي أحتاج إليه ؟ في الشارع أو المخزن لقد رأى كل شيء ، كأن الجميع مصنعون من الزجاج . لماذا أصبح فجأة هكذا ؟ وقف ونظر إلى مقعد الحمام ، لا بد أني أحتاج إلى مسهل ، غادر الحمام منزعجاً .

في مكتبه في الغرفة الخلفية ، وقف بجانب الحمام ونظر حوله ، رأى أربعة أو خمسة صناديق من الحساء والخضار المعلبة مستودة على أحد الجدران ، دفع طاولة أمام خزانة اللحوم وذهب ليحضر قلماً ، حانت منه التفاتة إلى أوراق الملاحظات الموضوعة بجانب جهاز الهاتف ، وقعت عيناه على ورقة كانت بخط ابنه ، يبدو أنها طلبية نقلوها عندما كان يأتي يوم السبت في أوقات ازدحام العمل ، كاد قلبه أن ينفطر وهو يتأمل الكتابة ، يا إلهي إن هارولد ميت ، لمس الأحرف المهجأة بدون دقة والتي كتبت على عجل ، يبدو أنه كان مشغولاً ، بالكاد أستطيع قراءتها ، قربها إلى عينيه لا بد أنه كان مستعجلاً ، تنهد ثم كرر القول ، يا إلهي لا بد أنه كان في عجلة من أمره ، انتزع الورقة من الدفتر وطواها في جيبه ، خلال دقيقة كان داخل المخزن .

في الواجهة كانت شيرلي تتحدث إلى سيغي ، متعهد الأجبان ، لاحظ

غريسباين أنه كان يتكئ على منصة الكاش بطريقة عفوية ، أثارت غضب غريسباين وعبر الممر نحوه ،سيغي قادماً ، قال له شالوم جيک .

– «أريد أن أكلمك .»

– «هل الأمر هام يا جيک؟ إنني في عجلة شديدة من أمري ، ما زال لدي بعض الطلبيات .»

– «ماذا أحضرت لي ؟»

– «الطلبية العادية يا جيک باوندين من الجبنة الزرقاء ، بعض الجبنة السويسرية ! شهية» قال وهو يمسخ شفتيه .

– «لقد تلقيت بعض الشكاوي يا سيغي .»

– «من الأمريكيين بالتأكيد ! إن الأمريكي العادي لا يفقه شيئاً عن الجبنة ، أنا لا أعني شيئاً» ثم استدار ليمشي .

– «سيغي هل أنت تركض .»

– «سوف أعود غداً يا جيک بإمكاننا التحدث عن الموضوع .»

– «الآن أريد الآن .»

– «استدار سيغي بتردد ما الأمر ؟»

– «إنك تحضر بضاعة قديمة . من هو موزع الجملة الذي يعطيك هذه البضاعة ؟»

– «جيک ، جيک لقد تباحثنا في هذا الأمر سابقاً ، أنا أسترده المتبقي دائماً أليس كذلك ؟»

– «ليست هذه هي النقطة .»

– «هل خسرت بنساً من ورائي ؟»

– ««سيغي» من هو مورد الجملة ؟ ومن أين تأتي بهذه البضاعة ؟»

– «أنا أبيعك أرخص من مصنع الألبان أليس كذلك ، أليست أرخص منهم ؟ ما

الذي تريده يا جيک ؟»

– «سيغي لا تكن غيبياً واعرف مع من تتحدث ، لا تكن غيبياً ، إنك تترك لي

تلك الجبنة الرخيصة القذرة التي تلقي بها مصانع الألبان ، إنني اشتري منك مستردات جميع المحلات ، لأن الجبنة التي اشتريتها تبدو فاسدة . هل تظن أن الزبون

سيرضى بهذه الجبنة التي تنفجر ، كالقنبلة بعد يومين من شرائها . وماذا عن الزبائن الذين لا يعيدونها ، إنهم يظنون أنني أحتال عليهم ولن يعودوا إليّ أبداً ، أنا لا أريد هذه البضاعة ، أعطني بضاعة طازجة ، وإلا سألجأ إلى بائع غيرك .

— «لا أستطيع أن أعطيك جبنة طازجة بالسعر نفسه با جيك أنت تعلم ذلك .»
— «بالسعر نفسه» .

— «جيك ما بالك» قالها مشدوهاً .

— «بالسعر نفسه يا سيغي لا تحاول أن تخدعني .»

— «كلمني غداً سوف نصل إلى حل ما» ، أدار ظهره استعداداً للذهاب سيغي ناداه غرينسباين ، لكنه أصبح خارج المخزن .

شد غرينسباين على قبضته : «الأحمق» قال :

— «إنه دائماً في عجلة هذا الرجل» قالت شيرلي .

نعم ، نعم قال غرينسباين ثم خطا نحو ثلاثة عرض الألبان ، ليرى ما أحضره سيغي .

— «أيها السيد غرينسباين ، لا أعتقد أن لدي كفايتي من الفراطة» قالت شيرلي .

— «أين الحمّال أرسله إلى البنك .»

— «لم يأت بعد هل أذهب أنا بسرعة .»

أدخل غرينسباين أصابعه في علبة الكأس . . . «إن لديك ما يكفي حتى يحضر .»

— «حسناً إذا كنت تظن ذلك فلا بأس .»

— «ماذا نفعل ، عمل كبير ، عمل كبير يستعمل فكة النقود ؟ أنا لا أرى الزبائن

يتدافعون فوق بعضهم البعض في الممرات .»

— «لقد سبق وأخبرتكم يا جيك» قال هوارد وهو يطل من خلفه «إن العمل أصبح

سيئاً . لم تعد الناس تستهلك مثل السابق .»

هنا قال غرينسباين «أعطني عشرة دولارات وسأذهب بنفسني ، يا هوارد ، لقد

رأيت بعض الصناديق ، لم توضع على الرف بعد في الخلف ، قم بوضعها على

الرفوف يا هوارد .»

– «أنا أضعها على الرفوف ؟» سأل هوارد .
– «لقد قلت لي بنفسك أن العمل أصبح سيئاً . هل أنت هنا لتبقى بعيداً عن الشوارع أم لسبب آخر ؟ ما هذا ؟»
– «ولماذا تدفع للولد نقوداً ؟»
– «إنه لم يأت بعد ، وعندما يأتي سأمره بتقطيع بعض اللحم وهكذا تصبحان متساويين .»

– أخذ النقود وانطلق إلى الشارع ، إن الأمر سيء ، عليك إما أن – تثق بهم أو أن تفقد صوابك ، إن كل صاحب محل بيع بالمفرق يعاني من نفس المشكلة ، رَمَش بعينه وأخذ يفكر ، حسناً يجدر بي أن أضع نسبة لتراجع العمل ! مهما تأمن الوضع عند علبة الكاش فسيبقى سخيلاً في حالته ، فهؤلاء محترفون مثل المافيا . ماذا سينفعه الغضب ، تقول زوجته : الآن ها قد عاد ليراقبهم ، لم يعد يحتمل حتى الوقوف في مخزنه ، يظنون أنهم سوف يخرجون بشيء ، هؤلاء الأوغاد .

دخل إلى المصرف ، شاهد نباتات الخنشار التي تزين الجدران والمكاتب المرمرية حيث يملأ المودعون بياناتهم ، الروزنامات الأنيقة التي يتم تبديل أوراقها كل يوم ، الحارس الذي يضع مسدسه على وسطه وقرنفلة بيضاء في جيب بذلته . القاصة الضخمة التي يزيد سمكها على سماكة الجدران ، لامعة ومفتوحة خلف الباب الحديدي الصلب .

أماء الصناديق خلف أقفاصهم ، صغار وهاذئون ، لكنهم دخلوا إليها بلا صوت أقدام ، موظفو البنك بشعورهم الرمادية وثيابهم الأنيقة ، يرتاحون على مكاتبهم الضخمة ، وقد ثبتوا شخصياتهم الرسمية خلف لوحات أسمائهم المحفورة إن هذا شيء عظيم . البنك شيء عظيم ، فعلى الأقل لا يتراجع عمله .

سلم أحد أماء الصناديق ورقة العشرة دولارات ليفكها .

– «مرحباً يا سيد غرينسبان ، كيف حالك هذا الصباح ؟ لم نرك مؤخراً .»

– «لم أداوم في مخزني منذ ثلاثة أسابيع» قال غرينسبان .

– «أه إن هذه فرصة طويلة» قال أمين الصندوق .

– «لقد توفي ابني .»

– «لم أكن أعلم ذلك ، فقال الرجل : أنا أسف جداً .»

أخذ الأوراق التي أعطاها له الرجل ووضعها في جيبه ، ثم شكره . كان الشارع هادئاً وبدا كيوم الأحد ، لا يوجد أحد في المخزن ، لاحظ من خلال زجاج المحلات ، أنه نسي أن يخلع مريوله . بدا له أن المريول يعطيه صفة الرجل المشغول جداً . إن المريول يترك أثراً أكثر من بذلة العمل ، إلا في حال وجود حقيبة ، ربما حقيبة ومريول ، يجعلانك تبدو مشغولاً ، أما الزي وحده فلا يترك أثراً ، الجنود لا يبدو مشغولين وكذلك رجال الشرطة ، ربما رجل الإطفاء يبدو مشغولاً عندما يضع قبعته الضخمة على رأسه .

يا إلهي رجل في مثل سنه يسير في الشارع مرتدياً مريولاً ، تساءل فيما إذا لاحظته مساعدتي الرئيس في البنك وهو يرتدي المريول ، شعر بثقل في معدته مرة أخرى ، بدا قلقاً محبطاً وغير مرتاح ، مر عبر اللوحة الكبيرة على زجاج مطعم الكوكيري حيث يتناول طعامه في العادة ، لوحته له الفتاة الواقفة على عتبة الكاش تدعوه إلى الدخول ، أحنى رأسه وتردد ، قبل لحظة عندما رآها تلوح بيدها فكر بالدخول ، سيكون هناك أصدقاؤه وبعض رجال الأعمال ، يشربون القهوة ويدخنون السجائر وينفضونها في فناجينهم ، سيجد هناك تلك الحلويات المقطعة والملفوفة بأناقة في أجزاء متساوية ، حتى بدون أن يدخل كان يعلم تماماً كيف سيكون الأمر في الداخل ، سيكون هناك البائعون والطفيليون ، البائعون يتحدثون ويشكون بحماس عن أوضاع عملهم وعن المسافات التي يقطعونها ، وعن صحتهم ويأسهم الواضح في الحياة ، عن أوضاعهم الغامضة وأحزانهم التي لا يتوقعون من أحد أن يفهمها . الطفيليون الذين يصدون آذانهم عن الحزن ويغمزون من طرف الآخرين ، ترتفع أصواتهم عندما يتمازحون ويخفضونها بنبرة تأمرية عند الحديث عن انتصاراتهم ، أو عن الرجال الذين يعرفونهم في قلب المدينة التجاري ، أو عن المخالفات والبضائع التي يتم تحريكها فجأة وبدون توقع ، عن المكاسب الفجائية غير المتوقعة ، يحركون أصابعهم الدبقة الملطخة بالسكر المرشوش على لفائف الحلويات .

لماذا يحتاجهم ! هؤلاء الشخصيات الكبيرة ؟ ما الذي يعرفونه

هل خسروا أبناءهم ؟

عاد إلى مخزنه وأعطى النقود لشيرلي .

— هل جاء الولد ؟ سألها

— «كلا يا سيد غرينسباين .»

— «سوف أخصم من راتبه!» فكر قليلاً «سوف أخصم من راتبه» .

نظر حوله ، رأى عدة زبائن في المحل ، لم يكن مزدحماً ، لكنه لم يتوقع مثل هذا النشاط ، ربات البيوت الشابات القادمات من الجامعة ، إنهن متسوقات جيدات ، يعرفن تماماً حدود مصروفهن وهذا كل شيء . لم يكن هناك أي خداع في الأسعار ، تمنى أن تتعلم زبونات القديمات ، الزبونات اللواتي يحضرن في معاطف الفراء ويعتقدن أن معرفتهن القديمة به ، تؤهلهن لبعض الامتيازات الخاصة ، امتيازات في السوبر ماركت ، هل يعطيه تجار الجملة حسومات ؟ ماذا يريدون منه ؟ سار بين الرفوف يعدل وضعها ، حسناً ، على الأقل العمل ليس متوقفاً تماماً ، إذا استمر كذلك طوال اليوم ، يمكنه تحقيق بعض الربح بضعة بنسات ، أو ربما بضعة دولارات ما الفرق !

كان يتكلم مع أحد الباعة عندما رآها ، كان البائع يخبره شيئاً عن منتج جديد ، نوع من المنظفات ثمنه ١٠ سنتات ، أقل على كل علبة ، أو شيء من هذا القبيل ، لكن غرينسباين لم يستطع أن يرفع عينيه عنها ، «هل أسجل لك بعض الصناديق للتجربة يا سيد غرينسباين ؟ ففي ديترويت عندما يضعوا المنتج على الرفوف»

— «كلا» قاطعه غرينسباين «ليس الآن لا أريده الآن» .

— «ولكن يا سيد غرينسباين إنني أحاول أن أخبرك ، هذا منتج جديد لم يمض عليه في السوق ثلاثة أسابيع .»

— «فيما بعد ، فيما بعد» قال غرينسباين «تحدث مع فرانك ولا تضايقني» .

ترك البائع مكانه واقتفى أثر المرأة عبر الممر ، يقف حين تقف ويدير رأسه إلى الرفوف مدعياً أنه يرتبها . إذا لمست بيضة واحدة سوف أطردها . كانت المرأة هي السيدة فرمكين زوجة الطبيب وهي زبونة قديمة وخبيرة في الاحتيال ، مضى عليها مدة لم تأت إلى المخزن إثر مشادة حول خمسة وثلاثين سنتاً . كان عليه أن يراقبها ، فقد كانت تملك ملايين الخدع . أحياناً كانت تتسلل إلى رف البيض تكسر بيضتين أو ثلاثاً بأصبعها ثم تلتطخ ثوبها بالبيض ، وتهرع إليه شاكية أنه دمر ثوبها ، وأنها

تناولت طبق البيض بكل ثقة ظناً منها أنه صحيح بدون كسر ، كان يضطر أن يبيعها الطبق كاملاً ، بسعر ستة بيضات فقط ليخرسها .

انطلق نحوها ، كانت ترتدي ثوباً لائقاً ، شعر بالارتياح لأنها لن تفعل خدعة البيض بمثل هذا الثوب الأنيق ، قد تفعلها فقط بثوب عادي .
- «جيك»! ابتسمت له .

انحنى لها

تابعت : «لقد سمعت عن هارولد ، قالت بحزن ، لقد أخبرني الطبيب ، كدت أصاب بجلطة ليهول الخبر ، لمست ذراعه قائلة : اسمع إنك لا تعلم متى يحدث ذلك . السيدة بارون التي كانت جارة لنا في دركسل ، سقطت ميتة وسط الشارع ، في الوقت الذي كانت ستزوج ابنتها في الشهر التالي .
«كيف حال زوجتك؟»

هز غريسبان كتفيه بلا مبالاة : «هل أستطيع خدمتك ، سيدة فريمكين؟»
«ماذا ؟ أنا لست غريبة ، لا أريد مساعدة ، تابع ترتيب رفوفك ، يمكنني أخذ ما أحتاجه .»

- «نعم نعم خذي ما تشائين» ، لا بد أنها بصدد خدعة أخرى ، وصلت إلى مكانه ، ماذا يهم ؟ كانت تقرأ تسعيرة كل شيء ، حتى أنها كانت تكتب ملاحظات ، كان يعلم أنها لن تشتري شيئاً ، إلا بعد اقتناعها بأنها لن تجد أرخص منه في أي مكان آخر .

- «أنا بحاجة فقط لبضعة أشياء قليلة ، لا تقلق بشأنني» قالت له .

- «نعم» قال غرينسباين ! يمكنه أن يلوي عنقها هذه الخرقاء النذلة .

- «كيف هي الفاكهة اليوم ؟» سأله .

- «أتعنين بكل ثقة ؟»

- «ماذا إذن ؟»

«سأقول لك الحقيقة ، قال غرينسباين إنها جيدة ، لدرجة أنني لا أرغب في إخراجها من الخزن .»

- «ربما سأشتري موزه إذن .»

— «ليس خطأ البتة» قال غرينسباين .
— «إن لديك مخزناً جميلاً يا جييك ، أنا أقول هذا دائماً .»
— «إذن اشترى شيئاً» قال لها .
— «سوف نرى» قالت بغموض «سوف نرى» .
كانا يقفان قرب رف الخضرات المعلقة . مدت يدها لتناول علبة بازلاء من الرف ،
ثم قامت بمسح الغبرة عن العلبة براحتيها بطريقة مبالغ فيها ، حدقت في السعر .
سبعة وعشرون سألت مندهشة؟
— «نعم» قال غرينسباين «إن هذا كثير .»
— «حسناً قالت»
قال : «اللعة عليّ» قد مضى لي في هذا العمل إثنتين وعشرون سنة ، ولم أعرف
أبداً ما هو سعر علبة البازلاء .
نظرت إليه بريبة ثم ابتسمت ابتسامة هادئة واثقة وأعادت العلبة إلى مكانها .
حدق غرينسباين فيها وإذ بفرائك يمر بجانبه ، التقطه غرينسباين من ذراعه مدعياً
أنه يتحدث معه في شأن العمل ، بينما هو يحرص على متابعة السيدة فريمكن متأبطاً
ذراع فرائك .
«الخرفاء الحقيرة» تتم بغضب .
هون عليك يا جييك قال له فرائك ، يمكنها أن تعود زبونة جيدة مرة أخرى ، دعها
تخادع قليلاً ، أنا سعيد أنها عادت إلينا .
— «نعم - سعيد . . .» خلى ذراع فرائك واتجه نحو قسم اللحوم «هل من طلبات؟»
سأل هوارد
— القليل فقط يا جييك يمكنني أن أتدبر الأمر .
لا بأس قال غرينسباين ، أعطني لأرى ، تناول الأوراق من هوارد ، سأقوم بإرسالها
عندما تهدأ قليلاً .
قرأ الطلبيات بسرعة ثم اتجه إلى الجهة الخلفية من المخزن ، انتقى أربع علب من
الكرتون المقوى ، ثم بدأ يختار الطلبيات من الرفوف ويضعها في العلب ، كان يجد
متعة كلما انخفضت أعداد البضاعة عن الرفوف وكلما كان يضع شيئاً في العلبة

يتولد لديه شعور بأنه أصبح هناك كمية أقل للبيع ، انتزع شريحة دهن من قطعة لحم كبيرة ، كانت ملقاة على خشبة تقطيع اللحوم في زاوية الملحمة ، بدت بقع الدماء القديمة على الخشب وكأنها جزء منه ، راقبه هارولد الذي كان متكئاً على لفافة الورق بجانبه وقد لاحظ غرينسباين أن هارولد يراقبه! «طلبية برينشتاين؟» سأله هارولد .
- «نعم» قال غرينسباين .

«إنها تقيم حفلة ، قالت لي ، إنها بمناسبة عيد ميلاد زوجها .»
«عيد ميلاد سعيد» قال غرينسباين .
- «نعم» قال هارولد «اسمع يا جييك سوف أذهب لتناول الطعام .»
- «أظن ذلك ، أنه يوم بطيء كما ترى .»

وافق غرينسباين

سوف أتناول بعض الطعام وسأتم العمل بعد الظهر .
أخذ علبة أخرى وبدأ يحضر الطلبية التالية ، ذهب إلى قسم المعلبات الموضوعة في رفوف عالية وضيقة ومائلة قليلاً ، الكمية المعروضة للبيع في تناقص ، قال في نفسه بمرارة بدا الأمر وكأنه بلا نهاية ، لا يمكنك أن تصفي عملك وتحوله إلى نقود فلا يوجد صفقات كبيرة في عمل البقالات ، أخذ يفكر بيأس في مئآت المنتجات الموجودة في مخزنه من جميع الأنواع والأحجام . كان يعرف كل متسوق ويعلم ما يضعه كل متسوق في عربته ، شيء مزعج قال في نفسه أنه لا يبيع الماس أو البانانو إنما هو يبيع خبزاً وحليباً وبيضاً . لذا يجب أن يكون لديك كمية وإلا فإنك لن تباع شيئاً . كان يخسر الكثير من النقود على مصاريف الكهرباء والتبريد ولوحات الإعلانات والرواتب والامتيازات والبضائع . والسبب هو تلك المحلات الكبيرة ذات الفروع الكثيرة التي تملك مواقف سيارات أمام أبوابها وتدفع أموالاً كثيرة على الإعلانات وتتميز في التسعير فائتان بالمئة من الربح لن يؤثر عليها .

وهي تملك مصادر تمويلها من مزارعها الخاصة ومصانع الألبان والخنازير ومصانع التعليب الخاصة بها . كل شيء . أولاد السوء .

كان يبدو وكأنه ينتحر في مواجهتهم .

بعد لحظة جاءت إليه شيرلي ، «هل أستطيع أن أتناول طعامي الآن يا سيد

غرينسباين ؟»

لماذا يسألونه ؟ هل هو طاغية «طبعاً طبعاً اذهبي تناولي طعامك سأراقب علبة الكاش .»

خرجت شيرلي فيما أخذ غرينسباين يفكر ، ذهب الأول والآن هي ، لا بد أنهما يلتقيان ، ماذا يفعلان يا ترى يسكان بأيدي بعضهما البعض ، ادخل بحذر طبق بيض كامل في العلبة وقال ، ما الفرق أحرق وخرقاء .

وقف أمام منصة الخروج وضغط المفتاح البرتقالي ، أخذ يراقب الراية التي تعني لا يوجد بيع تخرج من نافذة علبة الكاش ، أخذ يعد النقود بحزن .

كان فرانك واقفاً عند واجهة الخضار يقشر بعض الخس .

– «يا جيك إذا أردت أن تذهب لتناول الطعام فسأبقى لأراقب» هنا قال له .

– «ليس بعد» قال جيك .

دخلت امرأة عجوز إلى المخزن ، عرفها غرينسباين فقد جاءت مرتين قبل اليوم وفي كلتا المرات اشترت علبتين من القهوة التي وضع عليها غرينسباين سعراً خاصاً ولم تشتري شيئاً غيرهما . خسر بسببها حتى الآن ١٢ سنتاً راقبها غرينسباين بحذر واستبد به الغضب عندما رآها تتجه نحو رف القهوة ، تناولت علبتين واتجهت إلى منصة الكاش . كانت تضع سعراً مستعاراً أحمر اللون أعطاها شكل المهرج بجانب جلدها الأبيض الهرم . وضعت القهوة على المنصة ونظرت إلى غرينسباين بخوف ، لكن غرينسباين لم يحرك ساكناً ليحاسبها . وقفت لوهلة ثم دفعت علبتي القهوة باتجاهه وقالت : «٩٦ سنتاً للباوند ، ٢ باوند يساوي دولار و ٣٨ سنتاً إضافة إلى ٦ سنتات ضريبة يصبح المبلغ دولار و ٤٤ سنتاً .»

– «سيدتي» قال غرينسباين وهو يحدق بها «ألا تأكلين ؟» هل كل ما تفعلينه هو

شرب القهوة ؟»

بدأت شفتاها ترتجفان وجسدها يضطرب . همهمت بخوف «دولار وأربعة وأربعون سنتاً إنها مسجلة هنا» .

– «سيدتي هذه هي علبتك السادسة ، إنني أخسر نقوداً هنا ألا تعلمين ؟»

استمرت المرأة ترتجف وكان برداً ألم بها .

«ماذا تفعلين بهذه يا سيدتي أتبيعينها من باب لباب ؟ هل أنا تاجر الجملة خاصتك ؟»

استمر جسدها ينتفض ، وأخذت تنظر إليه بعينين ذابلتين وكأنها لم تكن مدركة ، لرجفة جسدها الذي بدا وكأنه ليس ملكها .

ذلك الجسد المختبئ وراء تلك العينين ، أحس غرينسباين أن رأسها الأجرد يهتز تحت كومة الشعر المستعار . حسناً قالت في النهاية «دولار وأربعة وأربعون سنتاً» .

أخذ منها النقود ، راقبها وهي تتسلم الكيس وتخرج من المخزن دون أن تنبس ببنت شفة . هز برأسه وهو يتخيل ، منظر امرأة تجلس على المداخل أو تقف على الأبواب الخلفية المفتوحة على مصراعيها ، تعرض القهوة بحزن .

أراد أن يخرج ، يمكن لفرانك أن يراقب المحل وإذا أراد أن يسرق فليسرق .

– قال فرانك «الوضع هادئ أنا ذاهب لتناول الطعام» .

«اذهب يا جيک ، أنا لست جائعاً ، معدتي تؤمني» .

– «نعم» قال غرينسباين .

توجه نحو المطعم ، مرّ على طريقه بالسوبر ماركت الوطني (ناشونال) وحين رأى موقف السيارات المزدحم ، شعر بألم في معدته ، وقف بجانب النافذة ونظر عبر الزجاج ليرى الممرات المزدحمة ، رأى من خلال الزجاج نساءً يتحركن ببطء عبر المخزن ، تراجع إلى الخلف وقرأ الإعلانات على الزجاج ، إنَّ الخضار والفواكه عندي أرخص وأسعار اللحم متشابهة تقريباً . تحرك نحو المطعم ماراً عبر المخازن المألوفة على الطريق وذهب إلى مطعم الكوكري . عندما دفع الباب الزجاجي الثقيل سمع ثرثرة الزبائن ، بدا الصوت في أذنيه مثل بوق انطق فجأة من صمته ، باثعون ومتطفلون ، فكر لحظة متطفلون باثعون ابتسمت له الفتاة العاملة على عربة الكاش ، لم نرك منذ مدة أيها السيد ج . أحدهم أخبرني أنك تتبع برنامج حُميّة هي أيضاً متطفلة وتصنع الفكة .

توجه إلى الجهة الخلفية من المطعم ، ناداه رجل يجلس على مائدة بمقعدين ، كيف حالك يا جيک تعال واجلس معنا .

انحنى تحية للرجل ثم سحب مقعداً من طاولة أخرى ، جلس في الممر المواجه

للرجل ، جلس وانحنى للأمام رافعاً رجلي المقعد الخلفي لجلب انتباه النادلة ، أحس وهو يجلس هناك ، كأنه زائر مؤقت جاء إلى المائدة ليلقي تحية أو يحكي نكتة . كان يدرك أسباب هذا الشعور ، إنها الطريقة التي يجلس بها هؤلاء المتطفلون . أما الآخرون المتحلقون حول الموائد فيبدون وكأنهم يعيشون هناك إذ تعطيك صحنونهم النصف فارغة ، انطباعاً أنهم يمضون معظم نهارهم هنا .

– «لقد فاتك الأمر يا جيك» قال أحد الرجال «لقد كدنا نوقع «بتراوب» هنا ليكتب شيكاً في الأسبوع الماضي هل أقول صدقاً يا مارغوليس؟ لقد كاد أن يفعلها يا جيك ولكنه في اللحظة الأخيرة قفز من مقعده على ذراعه فكسرها .»

ضحك الرجال الجالسون حول المائدة ، نظر غرينسباين إلى تراوب الجالس بوهن ويأس بين رجلين ضخمين ، كان ينظر باستحياء إلى زجاجة الكوكا كولا أمامه . لا بأس يا تراوب قال الرجل الأول ، إننا نعلم أنك مشغول بتزويج بناتك الكثيرات وبالأعراس الفخمة في نفس الوقت ، إن الأمر رهيب ، إن لتراوب ابن واحد فقط ، وهل تظن أنه يفكر بالزواج ليذهب تراوب إلى العرس ويمتد نفسه فقط . كلا إنه ما يزال صغيراً على الزواج ، لكنه ليس صغيراً كفاية لكي يدور ويوقع نفسه في مشاكل مالية ،

«أليس كذلك يا تراوب ؟ ولد سيئ» .

نظر غرينسباين إلى الرجال وإلى تراوب ذو البنات الكثيرات العدد والذي كان على وشك البكاء . طفيليون وبائعون ، قال في نفسه ، إن الأمر متشابه في كل مكان وعلى كل طاولة ، يلتقي نوعان من الناس كل منهما ، كأنه من جنس آخر يبحث عن شريكه ، بالتأكيد البائع لا يستمع إلى شكاوي غيره ولا الطفيلي يمازح غيره ولكن هذا كله ، المزاح والحزن لا يعني له شيئاً إنهم مثل الطيور التي تطلق صيحاتها فوق شجرة ، إذا حاولت أن تجرهم إلى صفقة يقتلونك ، يأتون كل يوم لتناول طعامهم ويطلقون أصواتهم مثل رعاة البقر في أفلام التلفزيون ، يعلقون أحزمة مسدساتهم ليذهبوا للرقص .

لكن على الرغم من ذلك فهم تماماً كما يدعون ، لا يلوون على شيء ، هل فقدوا أولاداً ؟ حتى النقود التي يحصلون عليها لا تساوي عندهم شيئاً في النهاية .

– «كما كنت أقول لكم» تابع مارغوليس «عاد رجل غرفة التجارة إلى هنا اليوم.»

– «لقد جاء عندي» أيضاً قال بول غولد .

– «أعطيته شيئاً» قال مارغوليس .

– «كلا طبعاً» قال له الرجل .

«هل جاء إليك يا جيك ، اقذف به خارجاً ، إنه يجمع تبرعات لإقامة ديكورات ، اسمعني إن أمثال هذا الرجل ، يقبضون من جماعة محلات الزهور . إن المبالغ التي يجمعونها من أجل تزيين المخازن الكبرى وسط البلاد ، لا تقدر بثمن أخبرني بذلك ابن عمي الذي يعمل في شارع ستيت ، وقد قلت له : من الذي يحتاج إلى غرفة التجارة ؟ من الذي يحتاج إلى سلال بيض الفصح الملونة المعلقة على قناديل .

لا حاجة لها ، ما دامت خدمة الخاتم ما تزال فعالة ، أليس كذلك يا مارغوليس ؟ قال جوفيشر .

نظر مارغوليس إلى طية سترته وهز كتفيه بلا مبالاة ، كانت هذه بالنسبة لغرينسباين أحدث حركة يقوم بها مارغوليس ، ضحك الرجال ، فقد كانت خدعة الخاتم من اختراع مارغوليس وهي طريقة لإحياء العمل ، كما أخبر غرينسباين وهي أفضل من الطوايع الخضراء ، لقد أثبتت فعاليتها ، فقد كان مارغوليس يقف أمام المخزن ويؤشر لأحد المتفرجين على التلفزيون المعلق عند نافذة العرض ، ثم يدق بخاتمه على الزجاج لكي يجلب انتباهه ، يتسم له ويقول أي شيء لا يهم ما يقول ، لا يستطيع الرجل الواقف في الشارع أن يسمعه ، بينما كان غرينسباين يراقبه قال له مارغوليس ، انظر إلى هذا ثم ينظر إلى الزبون وهو يحاول تقريب وجهه من النافذة لسماع ما يقوله وفي النهاية ، يضطر الزبون إلى الدخول إليه ليعرف ماذا يريد مارغوليس أن يقول له ، وهنا ينهض مارغوليس مبتسماً مرحباً ، يا صديقي ، كنت أريد أقول لك إن هذا الجهاز المعروض في الخارج لا يساوي شيئاً ، إن ثمناً أغلى من قيمته بكثير ، ولو عرف صاحب المحل أنني أقول لك هذا فسيطرطني ولكن ما الفرق ليذهب إلى الجحيم ، فكلنا طبقة عاملة ، تعال إلى الداخل وسأريك الجهاز الحقيقي . كان مارغوليس على حق ، فمن الذي يحتاج إلى غرفة التجارة لا البائعون ولا المتطفلون ولا حتى العاملون في الذهب ، شاهد غرينسباين على المائدة الأخرى الرجل الآخر ،

كانا توأمين ولكنهما لا يبدوان كأخوين ، لم يكونا بحاجة إلى سلال الورد المتدلية من المصابيح . كان بول جولد ينادي أخاه في الخلف يا سيد جولد أرجوك أن تُري هذا السيد شيئاً لائقاً ثم يبدآن بالعرض أولاً فيأخذان بالحديث باللهجة الليدية أمام عجوز أبيض الشعر يبرز زراً في طية سترته ليبيعوه شيئاً . كان غرينسباين يسمع صوت الرجل العجوز وهو يخبر الآخرين في قاعة فرسان كولومبس ، لقد اشتريت هذه السترة من شابين يهوديين من يهود الاتحاد السوفيياتي في شارع ٥٣ . أغرار قليلي خبرة ، لكن عليك أن تعرف كيف تتعامل معهم فهم يعرفون تماماً ماذا يفعلون . كانت التجارة لعبة بالنسبة لهم ، قال غرينسباين لنفسه حتى النقود لا تعني لهم شيئاً .

«هل أخبرتك عن هؤلاء الأولاد الذين دخلوا لينظروا إلى الخواتم» قال جوفيشر ، «بالتأكيد ، طفلان يرتديان ثياباً أنيقة ، أظن أنهم كانوا قادمين من وسط البلد ، ربما من محلات بيكوتس وفيلدز ، أظن أنني عرفت الفتاة فهي تسكن في الجوار ، قلت له إني أملك خاتماً هنا ولكن لن أريك سعره . هل تعطيني شيئاً بقيمة ثلاثمائة دولار الآن بدون أن تأخذ موافقة والدك أو أحد» . «يجب أن أرى الخاتم أولاً» قال لي .

خذ هذا وضعت أصبعي على رقعة السعر المعلقة على خاتم دفعت ثمنه ١١٠٠ دولار . خاتم ضخم عليك أن ترتدي نظارات مكبرة لتتظر إليه ، إني أعني ذلك تماماً يا بول لقد كان خاتم وأي خاتم ، أعطيك سعراً لتأخذه هدية لزوجتك في عيد زواجكما ، لا أمزح معك إنه خاتم وأي خاتم ، فكر جدياً بالموضوع ، يمكننا أن نصنع منه خاتماً جميلاً ملوناً . على أي حال حدّق هذا الولد في الخاتم كالأبله حتى كدت أظن أنه تحجّر ، كان خائفاً فقد شك في أمر مثل هذا الخاتم الذي يعرض بقيمة ٣٠٠ دولار فقط ، أما الفتاة التي معه فقد بدت متوترة . كانت تعتقد أن الولد على وشك ارتكاب خطأ ، وبدأت تهز برأسها وأخيراً نظر إليّ الولد قائلاً : اسمعني جيداً إنني لا أبحث عن خاتم بهذا الحجم ، على أية حال إنه ليس حجراً أزرق ! تصور الأمر ولا تحدثني عن المتسوقين ، إنني أستحق جوائز في معاملتهم .

— «ماذا ستفعل لو قال لك أنه سيشتري الخاتم» سأله تراوب .

– «ماذا هل أنت مجنون ، كان واضحاً أنه من جماعة مشتري الجملة ، هل تظن أنني لا أستطيع تمييز الشخص الذي يحاول أخذ فكرة عن الأسعار من زبون حقيقي؟»

– «جيك قل لي ، أليست الفتاة التي تجلس مع لحامك هي نفسها التي تعمل لديك على علبة الكاش .»

نظر غرينسباين حوله ، كانت شيرلي جالسة مع هوارد ، لم يرهما عندما دخل المحل ، كانا يجلسان في مواجهة بعضها على المائدة ، لم يرياه بالتأكيد ، ظهرت شيرلي منحنية إلى الأمام وقد ركزت ذقنها على راحتي يديها مثل الفنجان ، بدت وهي تجلس هناك مثل فتاة شابة ، انزعج قليلاً للأمر فقد بدا سخيفاً ، كان يعلم أنهما يلتقيان ، لكن هذا لا يهم ، ليس الأمر من شأنه . لكن لم يكن محموداً بالنسبة لهما أن يظهرأ علناً هكذا ، أخذ يفكر بصدرية شيرلي المعلقة في الحمام ، إن هذا عبث وهم أناس عابثون ، كلهم ، هوارد وشيرلي وحتى الرجال في المطعم كلهم عابثون .

– «يبدو أنهما على علاقة حميمة أليس كذلك؟» قال مارغوليس .

– «كيف لي أن أعلم» أجاب غرينسبان .

– «ماذا تدير في محلّك هناك؟ نادياً للقلوب الوحيدة» .

– «هذا ليس من شأنني إنهما يقومان بعملهما .»

– «وأي عمل !» قال بول .

– «إنني أرغب بعمل مثل هذا» قال جوفيشر

– «أليس هوارد متزوجاً» قال بول جولد .

– «أنا لست شرطياً» أجاب غرينسبان .

– «إن جيك يغار لأنه لا يتال شيئاً من هذا .»

– «إنك رجل كثير الكلام يا هذا» قال غريسبان إنني رجل في حالة حداد صمت

الجميع على المائدة وقال تراوب البائع «لقد كان جو يمزح معك .»

– «بالتأكيد يا جيك» قال جوفيشر .

– «حسناً» قال غريسبان : «حسناً .»

طوال المدة التي قضاها غرينسبان على مائدة الغداء . كان يفكر بشيرلي وهوارد ،

إنه يأمل أن لا يرياه ، ولو حصل ذلك ألا يقوموا بأي إشارة نحوه ، توقف عن الاستماع إلى أحاديث الرجال حوله واستمر يضع بعض اللحم أمامه بصمت ، سمع شخصاً يذكر اسم جورج شتاين ، رفع رأسه بانتباه ، فقد كان شتاين يملك بقالة مثله في حي آخر ، كان يقول لمن حوله إنه يرغب في التغيير وأنه سيترك المنطقة ويبحث عن محل مثل محل غرينسباين ، يمكنه أن يحادثه بالتأكيد ، ولم لا فمن يحتاج لمثل هذا ، فهو يملك البناية التي يوجد فيها المخزن ويمكنه أن يعيش على إيجاراتها . حتى جو فيشر كان مستأجراً لديه ، أخذ يفكر بأن يحادث شتاين ، وقد أحس أنه قد وصل إلى قرار حول شيء .

انتظر حتى أنهى هوارد وشيرلي طعامهما ثم غادر المطعم نحو مخزنه . بعد الظهر أحس غرينسباين أن بإمكانه التخلص من بعض الغائط في معدته ، لذا ذهب إلى المراض الخلفي وجلس على مقعد الحمام ، يحدّق في عتمة السقف فوقه ، لم يكن هناك شيئاً يلاحظه سوى الألواح الفولاذية الصغيرة للسقف والتي بدت مغبرة منقورة مثل قطع أسلحة مدمرة .

أه إن هذا المكان يشبه حظيرة خنازير ، حوض المغسلة ملطخ مسود ، تبرز الشقوق من طلائه مثل خطوط على خريطة بلد مُدمّر ، الحنفية التي تنقط باستمرار ، دفعت غرينسبان إلى التفكير بحزن بغاتورة المياه ، شاهد غرينسبان على مقبض الحنفية وجود حرف س . س . باللون الأزرق ،

ماذا تعني س . س . بحق الجحيم ، هو يعلم أن حرف ح . يعني حار وحرف ب . يعني بارد ، لكن ما هو هذا الحرف س . نظر غرينسباين حوله ، كان هناك ثياب قديمة معلقة على خلف الباب ، بنطال رجالي معلق من الداخل والخارج سحّابه مفتوح ، مثل موزة مقشّرة والتجاعيد الكثيرة عند نقطة انفراج الرّجلين تبدو مثل رقع مهملة الخياطة .

سمع صوت هوارد في المخزن ، كان هوارد يغالي في رفع صوته .
أصغى بانتباه .

خمسة وأربعون سمع هوارد يقول ، كان يكلم رجلاً عجوزاً خفيف السمع يأتي عصر كل يوم ، لشراء قطعة كبدة للعشاء ، لا أستطيع إعطاءك أونصتين . لقد قلت لك

لا أستطيع أن أخرب القطعة ، يسمع صوت امرأة تضحك - شيرلي ربما ! هل هي معه ؟ يا للجحيم . أن يتضاجعا وقت الغداء شيء ! لكن ليس في الخزن ، خذ ثمانية أونصات ، إدعُ معك شخصاً آخر على العشاء ، خذ ثمانية أونصات وستكفيك أربعة أيام ، ثمانية ولن تضطر للمجيء هنا ، إن هوارد هذا شخص حكيم ما الذي يريده ؟ هل يريد أن يدفع العجوز إلى الجنون ، العجوز يريد قطعة كبد صغيرة تبقيه حياً . ثم سمع صوت خطوات تتجه نحو الغرفة الخلفية ، ترافقها أصوات جدال ونقاش ، سمع صوت امرأة تقول أنا أسفة لا أعرف كيف جاءت هنا ، صدقني ، اسمع أنا سأدفع ثمنها .

- «وهل تراهني على ذلك» كان هذا صوت فرانك .
- «ماذا تريدني أن أفعل» قالت المرأة محاولة أن تلمس عذراً لنفسها .
- «سوف أستدعي الشرطة .»
- «من أجل علبة سلمون رثة»
- «إنه المبدأ ، أنت محتالة ولصة قدرة ، وتعلمين ذلك ، سوف أستدعي الشرطة وسنرى هل سيصلحك السجن أم لا .»
- قالت المرأة «أرجوك أرجوك يا سيد إن هذا الأمر كله جنون . أنا لم أفعل شيئاً مثل هذا من قبل . لا أملك أعذاراً ولكن أرجوك أعطني فرصة ، أجهشت المرأة بالبكاء .»
- «لا فرص لديّ ، قال فرانك سوف أستدعي الشرطة ، يجب أن تخجلي من نفسك ، امرأة ترتدي ثياباً وقورة مثلك . هل أنت مريضة أم ماذا ؟»
- «سوف أستدعي الشرطة» ، سمع صوت فرانك يرفع سماعة الهاتف .
- قالت المرأة : «أرجوك . أرجوك» أخذت المرأة تشهق «سوف يقتلني زوجي ، ولدي صغير من أجل المسيح أرجوك .»
- أعاد فرانك سماعة الهاتف مكانها
- «١٠ دولارات» قال فرانك بهدوء .
- «ماذا ؟»
- «١٠ دولارات ولا تعودني إلى هنا أبداً .»

- «لا أملك هذا المبلغ قالت له .»
- «حسناً يا سيدتي اذهبي إلى الجحيم ، سوف أستدعي الشرطة .»
- «أيها النذل» قالت له .
- «إحفظي لسانك» قال لها «عشرة دولارات» .
- «سأحرر لك شيكاً» .
- «نقداً» قال فرانك .
- «حسناً – حسناً خذ .»
- «حسناً اخرجي من هنا .»
- سمع غرينسباين صوت خطوات المرأة تهوّل خارجاً . لا بد أن فرانك الآن يتحسس مربوله محاولاً إخراج محفظته الضخمة من الجيب الأمامي . أدار غرينسباين الماء في الحمام ووقف ينتظر .
- «جيك ؟» سأل فرانك مرتعداً .
- «من كانت هذه ؟» .
- «جيك أنا لم أرها من قبل صدقني ، إنها محتالة لقد أخذت منها ١٠ دولارات يا جيك .»
- «لقد أبلغتك من قبل أنني لا أريد مشاكل» قال غرينسباين غاضباً وهو يخرج من الحمام . «ماذا دهاك ؟ هل تظن نفسك في لعبة ؟»
- «أصغ إلي لقد ضبطتها وهي تسرق السالمون هل تريدني أن أبلغ البوليس من أجل قطعة سلامون ، ثم إن لديها طفلاً .»
- «نعم إن لك قلباً كبيراً يا فرانك !»
- «كنت سأترك الأمر لك لتعاجله ، لكنني بحثت عنك ولم أرك .»
- «لقد أرعبتها ، نبهتك لهذا من قبل .»
- «جيك إنها عشرة دولارات لصالح المحل ، أصاب بالجنون عندما أكتشف أن شخصاً يحاول سرقتنا .»
- «إنك نذل لقد انتهى أمرك هنا .»
- «يا جيك لقد كانت محتالة ،» حمل علبة سالمون بيده ليربها لجيك على أساس

أنها شاهد إثبات على الحادث . دفع غرينسباين يده جانباً وصاح : «اخرج من مخزني ، أنا لست بحاجة إليك لا أريد نصابين هنا .»

– «من الذي تسميه نصاباً يا جيـك ؟»

شعر غرينسباين بغضب شديد يتملكه وكأن حيواناً قد انقضَّ عليه في الظلام ، كان جسمه يرتعد وأخذ يحاول أن يهدئ من روعه . نذل مثل هذا أراد أن يوجه له لكمة في الوجه .

– «أرجوك يا فرانك أن تخرج من هنا .»

– «بالتأكيد» صاح فرانك «بالتأكيد» ، كان غرينسباين ينظر إليه بدهشة بدا وكأن الغضب أصبح أقوى منه ، ثم فكر بالزبائن ، سوف يسمعون ماذا سيقولون عن هذا المكان .

تابع فرانك صياحه ، بالتأكيد اطردني هيا ، هل تظن نفسك شخصاً مقدساً ، قديساً ، يا إلهي إنك تشم رائحة الفقر ، الجميع ولا تشم رائحتك . عندما كان ابنك رحمة الله عليه ، يسحب خمس دولارات من علبة الكاش ، لم تكن لتراه أبداً استشاط غرينسباين غضباً وتملكته رغبة في قتله ، وصاح من يقول هكذا ؟ من يقول هذا كرر فرانك .

– «لا شيء يا جيـك لا شيء ، ربما كان حينها ذاهباً إلى موعد مع فتاة ، هذا كل شيء الأمر لا يهم .»

– «من ينعت ابني باللص ؟ .»

– «لا أحد أنا أسف» .

– «ابني المتوفى ، أتصف ابني المتوفى باللص .»

– «لا أحد يصف أحداً باللص ، لا أعرف ما الذي قتله .»

– إنه في التربة ، وعمره ثلاث وعشرون سنة ، في التربة ، لم يهنأ حتى بعمل أو زوجة ، لا شيء ، لم يكن لديه شيء ، لم يكن ليأخذ شيئاً أبداً ، أليس كذلك يا هارولد ، تطلق عليه صفات هي صفاتك ، كان يجب أن يكون حياً اليوم وأنت الميت كان يجب أن تكون مكانه في التراب ، نذل – قوَاد ، لقد رأيت فواتيرك السيئة أيها الكاذب ، كان غرينسباين يزعم وخلال دقيقة كان هوارد بجانبه ، ممسكاً به .

«اهدأ يا جيك خذ الأمور بسهولة ماذا حدث هنا ؟» سأل فرانك ، هز فرانك كتفه استهجاناً .

أخرجه من هنا أرجوك ، أوماً هوارد إلى فرانك بأن يخرج ثم سحب غرينسباين إلى المقعد القريب من الطاولة التي كان يعتبرها مكتبه - «لا بأس يا جيك لا بأس» كان جيك يشهق بشدة وبعد لحظات رفع رأسه وقال : «حسناً يا هوارد أرجوك الزبائن أرجوك .»

- «حسن يا جيك ابق هنا حتى تشعر بتحسن .»

هز غرينسباين رأسه ، وجلس لبضع دقائق بعد مغادرة هوارد ثم عاد إلى الحمام ليغسل وجهه ، أدار الصنبور وراقب المجلى القدر يمتلئ بالماء ، لم يكن الماء بارداً ، فكر بحزن ، ملأ يديه بالماء الساخن وفرك عينيه ثم تناول منديلاً مطوياً من جيبه الخلفي وحله ومسح وجهه بحذر ، سمع ضحكات خارج الباب ، فكر بالمرأة التي تشتري القهوة ثم تذكر الحمال وناداه باسم هارولد ، سمع خطوات تتجه نحو الباب .

هذا صحيح يا سيد غرينسباين كان الرجل ما زال يضحك فتح غرينسباين الباب ، كان الحمال واقفاً وثيابه ممزقة وعيناه حمراوين رطبتين ، بدا وكأنه ينزف ، هل أنت متأكد أنك أخبرت فرانك بذلك ؟

- «ماذا تعني» قال غرينسباين .

«لقد كنت عند قبر هارولد ، لم أذهب إلى الجنازة ولكني ذهبت إلى القبر لأنني رأيت حلاً .»

- «ضع البضاعة على الرفوف» قال غرينسباين : «لقد جاء المزيد منها بعد الظهر .»

«سوف أفعل أجاب الرجل» كان له فم بلا أسنان ولثة ناعمة داكنة ، تبرزمن فمه ،

كان نحيل الجسم وكان ثيابه معلقة عليه وأكمامه تنتفخ على بذلته ، كأنها معقودة ليس بداخلها لحم .

كان غرينسباين يستطيع ملاحظة جلده الرمادي الأجرد من خلال الشقوق في قميصه وبنطاله . كان جلداً مجعداً ملمسه مثل ملمس نواة حبة دراق ومع ذلك فقد

كان من القوة ما يجعله ، يحمل من البطاقة أكثر مما يستطيع فرانك أو هارولد حمله .
«من الأفضل أن تبدأ الآن» قال غرينسباين بضيق وهو يتقدم ليفتح باب الشبك
الذي يدخل إلى الممر .

– «أريد أن أخبرك عن حلمي يا سيد غرينسباين .»
– «بدون أحلام ، لا أريد أن تخبرني عن أية أحلام .»
– «لقد حلمت بالسيد هارولد ، ابنك المتوفى يا سيد غرينسباين .»
– «لا أريد أن أسمع شيئاً ، انظر إذا كان هارولد يريد مساعدة هناك .»
– «لقد حلمت بنفس الحلم مرتين وهذا يعني أنه حقيقي ، فأحلام الحقيقة
هي تلك التي تأتيك أكثر من مرة .»
– «اذهب من هنا أنت وقصصك الخرقاء ، أنا لا أهتم بأحلامك .»
– «في ذلك الوقت في هالستد ، حلمت بالنار مرتين .»
– «نعم النار نعم» قال غرينسباين .
– «لقد حلمت ذات الحلم مرتين ، أرادت الشرطة أن تستجوبني ، إننا نحمل
نفس الاسم أنا وابنك .»

– «نعم لقد أسميته من بعدك .»
– «سأقول لك عن حلمي ، يا سيد غرينسباين لقد كانت غلطة إنه فرانك الذي
كان يجب أن يموت ، مثلما سمعتك تقول الآن وسوف يموت ، قال لي هارولد في
الحلم إن فرانك سوف يمرض ويموت» ، نظر الحمال إلى غرينسباين وعيناه حمراوان
بلون الدم ، إذا أردت ذلك ، قال له فهذا هو حلمي ولقد حلمت بالنار في هالستد
مرتين .

– «إذهب من هنا أنت وأحلامك المجنونة .»
– «إنه حلم حقيقي لقد حصل تماماً كما حلمت .»
– «إنك مجنون مجنون .»
خرج الحمال وهو يضحك «ما هذا المكان المجنون ،»
فكر غرينسباين ، لماذا يفعلون هذا ، هل يريدون إثارتي ، أحس لوهلة أن الأمر
كذلك ، مزحة كبرى يشترك الكل فيها ، ما عداه ، لقد تم التطفل عليه حتى الموت .

الكل يفعل ذلك به ، الشرطة ، الفواتير ، رجل الأجبان ، هاورد ، شيرلي ، الرجال في المطعم ، فرانك وتلك المرأة والحمال النذل ، كلهم ، لكنه لن يسمح بذلك ، هل يظنونه مجنوناً ؟ مد يده إلى جيبه ليخرج منديله ولكنه سحب بدلاً منه ورقة مطوية . كانت تلك الورقة نفسها التي ملأ فيها هاوارد ابنه ، الطلب على الهاتف وتركها على المنصة ، حلّ الورقة وقرأها بدون قصد ، خطرت له فكرة رآها صحيحة فالطلب لم يتم إرساله أبداً ، لأن ابنه نسي كل شيء عنه ، وإلا لم ظل الطلب موضوعاً على لبادة الرسائل .

بالتأكيد ، ماذا يمكن أن يكون غير ذلك . حتى ابني لم يكن يهتم ، لماذا يهتم بالعمل بحق الجحيم . كانت فكرة رهيبة تمر به حول ابنه الميت . كان عمره ثلاثاً وعشرين سنة وما يزال ولداً ، بدون زوجه وبدون عمل ، بدون شيء ! هل كانت الخمسة دولارات مهمة بهذا الشكل . أخذ يتخيل بقرف منظر هاوارد يغمز بمكر إلى فرانك ، وهو يسحب الخمسة دولارات من علبة النقود ، خمسة دولارات يا هاوارد ، خمسة دولارات . أخذ يكلم هاوارد وكأنه ينصحه ، لماذا لم تأت لتطلبها مني يا هاوارد ، تنهّد وقال لماذا لم تأت إلى أبيك ؟ نظف أنفه بالمنديل ، إنه جنون لا شيء عاد يرضيني ، لقد وصفه فرانك بالرجل المقدس ، يا له من رجل مقدس يجلس يبكي في زاوية مخزنه الخلفية ، ليذهب كل شيء للجحيم ، سوف أخلي هذه الرفوف وأبيع البضاعة ، وأتخلص من اللحوم ، وأبيع وأبيع وأكس المال ، هذا ما يجب عمله أن أبيع كل شيء ، أخذ يفكر بالطلبية التي نقلها ابنه على الهاتف ، هل تم تسليمها ، أحس بالضيق ، تمنى لو أنها سلّمت وإذا لم تسلم فإن عليه تحضيرها وبيعها ثانية ، أحس بالإجهاد والتعب ومشى إلى واجهة المحل .

موعد الإقفال قد اقترب ، لم يبق سوى نصف ساعة ، لن يستطيع أن يبقى حتى هذا الموعد ، فعليه أن يكون في الكنيس قبل الغروب ، عليه أن يذهب ليتعبد إلى ربه وأن يعتمد عليهم عند الإغلاق ، إذا لم يستطع بيع المحل ، فإن قلبه سينفطر لتقبل فكرة الاعتماد عليهم عند الإغلاق ، الثقة بهم ، ولكن الثقة بمن ، بروميو — بهاورد ، بشيرلي ، بالحمال المجنون ، فقط فرانك يمكنه عمل ذلك ، كيف طرده هكذا ، انطلق يبحث عنه ، وجدته واقفاً مع شيرلي عند علبة النقود ، هل يذهب للتحدث إليه ، لكن

ماذا يهم ، ربما عليه أن يطردهم جميعاً وبالتالي طرد جميع من سيحضرول للعمل بعدهم ، ربما يطرد بعدها المستأجرين ، حتى القدامى منهم وأخيراً يطرد أي شخص يستأجر المخزن منه ، سيظل يطرد حتى لا يبقى أحد ، ماذا يهم في الأمر على أي حال .

توجه نحو فرانك وقال له أريدك أن تنسى ما جرى بيننا من قبل ، نظر إليه فرانك نظرة شك ، لا بأس طمأنه غرينسباين وأمسكه من ذراعه بعيداً عن شيرلي اسمع لقد كنا نحن الاثنين في حالة غضب ، لم أقصد أبداً ما قلته لك .
استمر فرانك بالنظر إليه ، قال أخيراً : « بالتأكيد يا جيك أنا لا أكن لك أي ضغينة ومد له يده مصافحاً . »

صافحه غرينسباين بتردد وقال : « نعم ولكن أرجوك يا فرانك أن تؤدي لي خدمة وتغلق المحل ، عليّ أن أذهب للصلاة . »
« بأمرك يا جيك » قال فرانك .

ذهب غرينسباين ليبدل ثيابه ، غسل يديه ووجهه وسرح شعره ، خلع ثيابه بحذر ولبس بدلته وقميصه وربطة العنق التي كان يرتديها في الصباح وعاد إلى المخزن .
كان على وشك المغادرة عندما رأى السيدة فرميكس تدخل المخزن ، لا بأس حدث نفسه يمكنها أن تصبح زبونة جيدة فهو بحاجة إلى عودة الزبائن القدامى الآن ، قد يصيبونك بالجنون ولكنهم حين يشترون ، يشترون بكثرة ،

راقب السيدة فرميكس وهي تسحب عربة من أمام المحل ، وتدخل عبر ممرات الرفوف وتبدأ في وضع البضائع في العربة بسرعة ، وكأنها على عجلة من أمرها ، لم تكن لتلقي بالأعلى الأسعار ، هذه هي الطريقة الصحيحة للشراء ، قال في نفسه ، من الممتع مراقبتها وهي تفعل ذلك ، وصلت إلى براد الثلجات وأخذت ستة قطع منها ثم إلى رفوف المعلبات وبدت وكأنها تأخذ أكبر الأحجام ، خلال دقائق كانت عربتها قد امتلأت يا له من شراء ، قال غرينسباين ، ثم راقبها وهي تتجه إلى رف الخبز أخذت لفّة من الخبز الأبيض ثم نظرت حولها ، لترى إذا كان هناك أحد يراقبها ثم انحنى لتحمل اللفة على صدرها وكأنها كرة قدم ، ثم رآها وهي تمزق اللفة وتتخلص من القطعة الممزقة داخل ثيابها ، ثم تضع اللفة الممزقة داخل العربة مع باقي الأغراض ،

وصلت إلى منصة المحاسبة حيث كان يقف غرينسباين أفرغت عربتها وهي تدفع المشتريات باتجاه شيرلي ، لتحسب قيمتها على آلة النقود وكان آخر ما وضعت على المنصة لفة الخبز الممزقة ، عندما همت شيرلي بتسجيل ثمنها استوقفتها السيدة فريمكن قائلة ، انظري ماذا ستحاسبيني على لفة خبز ممزقة إنها ممزقة ، هل من الممكن أن تحسبي ثمنها عشرة سنتات التفتت شيرلي إلى غرينسباين الذي صاح فجأة .
«اخرجي ، اخرجي أيتها المحتالة ، لا أريدك أن تدخلتي إلى هنا - بعد اليوم ، إنك لصة» هرع فرانك .

«جيك ماذا دهالك ؟»

هذه المحتالة ، لقد مزقت لفة الخبز ، رأيته بأمر عيني ، نظرت إليه المرأة بتحدّ لست ملزمة بقبول هذا الكلام ، يمكنني أن أقاضيك على هذا إنك رجل مجنون ولن أقبل الإهانة من شخص مثلك .

اخرجي من هنا صاح غرينسباين قبل أن أحبسك .

ابتعدت المرأة عنه ، عندما شاهدته يتقدم نحوها هرعت هاربة . «يا جيك» قال فرانك وهو يضع يده على كتفه ، «لقد كانت مشترياتها كثيرة لذلك حاولت الخروج ببضعة سنتات ، ماذا يعني هذا ؟ هل تريدني أن أذهب وأعتذر إليها .»

«اسمع» قال غرينسباين «أريد أن أعرف إذا عادت هذه المرأة إلى هنا مرة أخرى ، لا أبالي ما الذي أفعله ، أريد أن أعرف أريدها أن تدفع ثمن ذلك الخبز .»

- «جيك» قال فرانك .

- «أنا أتمنى ذلك» .

- «جيك إنها عشرة سنتات .»

- إنها لي لن أقول أكثر من هذا ، أنا ذاهب للصلاة ، أزاح فرانك جانباً وخرج إلى الشارع ، كانت الشمس قد بدأت تغيب ، أخذ يسرع لأن عليه الوصول إلى هناك قبل المغيب .

في تلك الليلة رأى غرينسباين حلماً للمرة الأولى : كان جالساً في الكنيس ينتظر بدء الصلوات على روح ابنه ، كان الرجال الذين يقفون حوله متقدمين في السن ، يتعبدون وقد بدت وجوههم هشة وشاحبة منذ أن عرفهم في شبابه ، وهم كبار في

السن ، كان أحدهم يراقب الشمس عبر النافذة والجميع بانتظار إشارة منه لبدء الصلاة . أخذ غرينسباين يفكر . لا بد أن هناك دائماً مكان في العالم تقام فيه الصلوات حين تغرب الشمس أو غربت ، كما أن هناك دائماً متعبدون يراقبون غروبها و يقيمون الصلوات التي تلي طائر الله البراق الذي يختفي في الظلام . كان يعلم أن هؤلاء الرجال لا يغادرون الكنيس ، فقد كانت الطريقة الوحيدة التي تبعدهم عن مخاوف الموت ، حتى أنهم لم يكونوا ليتناولوا الطعام ولكن الغرفة كانت عابقةً برائحة البول الحامضية . بالتأكيد فكر غرينسباين في حلمه ، حسناً خلي بينك وبين هؤلاء الحمقى مسافة واسعة ، كل ما يقلقه ، هو الله ، أعطى الرجل الواقف على النافذة إشارة وبدأ الجميع في النواح على ابن غرينسباين ، كانت أصواتهم الهرة تخالف اللحن الغريب للصلاة ، نظر الرابي إلى غرينسباين ، الذي بدأ بتقليد الرجل العجوز ، هز جسمه خلفاً وأماماً ، وهو يقف على كعوب رجله ، حاول أن يسرع بالهز أكثر منهم ، قال إنني ما زلت أصغر منهم عمراً وأكثر شباباً . لكنه أحس أنه إذا أسرع أكثر في الهز فسيصاب بالغثيان ، ابتسم له الربى ابتسامة الرضا ، وصاح الرجل الواقف على النافذة أن الشمس ، قد بدأت تقترب من نقطة الخطر في السماء وأن على غرينسباين أن يستعد للبدء بالصلاة .

نظر إلى الأحرف السميكة الغريبة في كتاب الصلاة ، «هيا» قال الربى : «فكر بهارولد وتحدث إلى الله .»

حاول أن يفكر بابه ، لكنه لم يستطع تذكره إلا وهو طفل في مهده ، كان شيئاً غير حقيقي كأنه صورة . كان الجميع على علم بماذا يفكر وقد عبسوا في وجهه «هيا» قال الربى ثم رأى ابنه يقود دراجة تماماً كما رآه مرة عند الغروب من على شرفة الشقة المطلة على الشارع ، يقود دراجته عبر الممرات الجانبية الرمادية وهو يهز بقفاه وكأنه يركب حصاناً .

شعر أن الآخرين ليسوا راضين بعد .

حاول أن يتذكره وهو أكبر عمراً ولكنه لم يستطع .

قال الربى : «أرجوك يا غرينسباين لقد شارفت الشمس على المغيب ، إنك تضيع الوقت أسرع أسرع .»

حسناً قال غرينسباين ، حسناً دعني أفكر ، توقف الآخرون عن الترتيل وبيأس
أخذ يفكر في المخزن ، وبالمراة التي تشتري القهوة ، كانت أكبر عمراً من جميع الرجال
الذين يصلون معه ، فكر في شعرها المستعار الأحمر وبرأسها الذي ينوء تحته يرتجف
بجنون ، كأن هذا الكوم الكثيف من الشعر الناري ، لم يكن كافياً لتدفئته .
أطلق الربى تكشيرة ،

عاد وفكر في الحمال الذي يعمل لديه ، تخيله نائماً على سرير قديم نقال يتقلب
في فراش رطب بدون ملاءة ، في حلم مرعب رآه يتلوى تحت قطعة لحم كبيرة يحملها
إلى هوارد .

كان الآخرون عابسين جميعاً وبدأ الربى يظهر الملل ، أخذ يفكر بهوارد وكأنه
يراقبه من خلال العيون الحمراء المجنونة للحمال الذي يعمل لديه ، كان هوارد يقوم
بتقطيع اللحم الطازج بسكينه .

رأى الرجال في المطعم ، رأى البائعين الذين يجهلون الأمل ، رأى الطفيلين الذين
يجهلون اليأس ، كل منهم يحلم بعيش قطعة من هذه الحياة ، تمتد فقط إلى نصف ما
يستطيعون تقديمه . رأى المحتالين ومعهم قطع العشرة دولارات ونقودهم المسروقة
وشهواتهم الغذائية ولفة الخبز الممزقة .

حسناً فكر غرينسباين رأى شيرلي عارية إلا من صدريتها . كان الوقت مساءً
والمخزن مغلقاً ، كانت نائمة مع هوارد على بلاطة اللحم «الولد» قال الربى وقد فقد
صبره «الولد» .

ركز لبرهة طويلة بينما وقف الجميع بصمت ثم تدريجياً وبصعوبة بدأ يخرج
بشيء . كان وجه هارولد في الكفن ، رأى تعابير وجهه والموت يعبث به وامتهد
الدفن ، رآه بوضوح . كان نائماً يلهث بالحزن وشفاهه تنضح بالسخرية . هكذا كان
هارولد ذو الثلاثة وعشرين ربيعاً ، لا زوجة ولا عمل ، لم يضع شيئاً حتى في
الموت ، لقد ترك الحياة في بدايتها ، ابتسم الربى لغرينسباين وأدار وجهه وكأنه وأخذ
يتشاغل عنه بأمر آخر .

«كلاً» قال غرينسباين «انتظر انتظر .»

التفت الربى وأخذ الجميع ينظرون إليه .

رأه الآن كما رأه الجميع . ذلك الوجه الضعيف ، الغمزة الماكرة ، الابتسامة المعتدّة
التي يكللها الشعور بالذنب ، التي مرت على وجهه بشكل لا إرادي وكأنها نبضة
غضب . عندما استدار ويده داخل علبة النقود وفرانك ينظر إليه .

حكايات الهنود الأمريكيين وأساطيرهم

من أدب هنود أمريكا الشمالية

تأليف: فلاديمير هلباتش

ترجمة: د. موسى الحالول

مراجعة: د. زييدة أشكناني

الليلة الأولى

الضوء الأول

قبل بداية الأسطورة الأولى، وهي أسطورة حكتهـا لي الحيوانات، كانت أمنا الأرض تغط في نوم عميق. كان الظلام يخيم على العالم ويلفه بأموـاجه السوداء، ولم يعكر هذا السكون العميق أي صوت.

ولولا الغيمة البيضاء، لما استيقظت الأرض أبدا؛ إذ حدث أن فتحت هذه الغيمة عينيها، وعندما لم تر سوى الظلام، غادرت بيتها في الشمال وسافرت إلى الشرق ببطء، متلمسة طريقها بحذر.

لكن خطرا داهمها في الحال؛ إذ كانت غيمة سوداء مربعة تجوس أرجاء الشرق لحماية السبات العظيم، وهذه الغيمة هي الوحيدة التي تقدر أن تخترق الظلام الدامس وهي في حالة تأهب مستمر، متربصة مترقبة أي حركة مريبة. وحالما رأت الغيمة البيضاء تشق طريقها عبر الظلام ومتعثرة في طريقها السماوي، استنفرت كقط بري وانقضت لتتزل العقاب بالمعتدي. واصطدما فوق بلاد الهنود بالضبط. انقضت الغيمة السوداء على أختها البيضاء وأمطرتهما لكمة وراء لكمة، لكن الغيمة البيضاء لم تتقهقر بل صمدت في وجه الهجوم.

لا يعلم إلا «مانيتو» كيف يمكن لهذا اللقاء أن ينتهي، لكن في تلك اللحظة تماما حدث شيء غريب لا سابقة له: بينما كانت الغيمتان تقتتلان، أخذ العرق يتصبب منهما، فاتحدت حبات العرق معا حتى بدأت تمطر أخيرا.

وجلب المطر الحياة إلى بلاد الهند، وخرجت الحيوانات من
أوكارها تحت الأرض حيث كانت حبيسة السبات العظيم؛
فالماء المنهمر من السماء جعل خرقا في الأرض تسلفت منه
جميع الحيوانات.

وبدا أن الجميع يستطيع أن يعيش بأمان وسعادة، فقسّموا
مراعب الصيد بينهم من السهول الواسعة إلى الجبال، ومن الوديان
إلى حدود بلاد الثلج. وقبل مضي وقت طويل كان كل مخلوق يني
بيتا له. لكن العالم ظل ينقصه شيء لم يره أحد من قبل: النور
الذي حملته الأرواح بعيدا خلال السبات العظيم، مما جعل العالم
يلتف بظلام مطبق.

لحسن الحظ ظلت بقية من الغيمة البيضاء الصغيرة في
السماء. كانت متعبة جداً بعد معركتها الكبرى إلى درجة أنها
كادت تعجز عن الحركة، لكنها نادى صديقتها، الغيمة الزرقاء
والغيمة الصفراء.

كانت الغيمة الزرقاء تسكن في أقصى الجنوب من العالم، بينما
كانت الغيمة الصفراء تقيم في الغرب. استيقظت كل منهما
وهرعت إلى الغيمة البيضاء بسرعة الريح.

«لقد استيقظت الدنيا من السبات العظيم»، قالت الغيمة
البيضاء مُرحبة. «هذه الدنيا بحاجة إلى نور الآن، لهذا
استدعيتكما لمساعدتي. تعاليا نير بلاد الهند».

قالت الغيمة الزرقاء محتجة: «لكننا سنتعب حالا».

فأردفت الغيمة الصفراء: «لا أعتقد أنني قادرة على البقاء في
مكان واحد ولو للحظة واحدة».

«لا تقلقا! إن نورنا خافت ولن يرضي أحدا، سنطوف قريبا في السماء كيفما يحلو لنا».

لم تعترض صديقتها بعد سماعها هذا القول. نزلت الغيمات الثلاث إلى أخفض ما في وسعها، وسلّطت مصابيحها الملونة على الأرض بكل ما أوتيت من قوة. وهكذا أصبح في الدنيا أخيرا قليل من النور، لكن الحيوانات أدركت أنها الآن تواجه تحديا لا سابقة له: كيف تجلب النور الحقيقي.

من أتى بالشمس؟

في تلك الأيام، وكما رأينا، من قبل، لم تسطع على الأرض لا شمس ولا قمر. ولم يفلح أحد في عمل أي شيء بسبب الظلام. وحدها البومة استطاعت أن تنير دربها بعينيها.

وصار القيوط هزيلا، فعلى الرغم من أنه كان يخرج للصيد يوميا، لكنه لم يستطع أن يصطاد أيا من الأرانب، ولهذا تعين عليه في نهاية المطاف أن يكتفي بما يصادفه من الجنادب كي يخفف آلام الجوع إلى أجل، ثم يجلس أمام وكره كسير الخاطر، يتطلع بعينين جائعتين. وفجأة سمع حفيف أجنحة جبارة، لقد جاءه النسر في زيارة، فحيّاه القيوط بكل تبجيل واحترام، وقال:

«هذا شرف لم أكن أنتظره! أهلا بك يا أخي. أتمنى لو كان في اليد حيلة، لكن لا أملك ولو عظما منخورا. لقد هدّني الجوع وأكاد أعجز عن المشي، أما أنت فبأحسن حال بلا شك. كم أتمنى لو أستطيع الخروج للصيد معك!»

رازه النسر بعينيه وقال في نفسه: «لقد صار كالفرّاعة، لا شيء سوى الجلد والعظم».

«حسن، يمكننا أن نجرب». قال له. «لكن عليك أن تساعدني». «طبعاً، طبعاً، أنا بإمرتك!» قال القيوط، وحضن النسر بين يديه الهزيلتين حتى كاد يخنقه لفرط سروره.

وفي اليوم التالي خرجا سويا للصيد. حام النسر في أعالي

الجو، وما إن رأى فريسته حتى انقضَّ إلى الأرض. لم يمكُ القيوط شيئاً، ولم يحاول، بل كان راضياً باقتسام ما غنمه النسر. «لست بحاجة إلى مثل هذا المساعد عديم الفائدة»، هتف النسر. «إنك لا تكلف نفسك حتى عناء دفن العظام، بل تتركها متناثرة هنا وهناك».

«وماذا عساي أن أفعل؟ إن الظلام حالك إلى درجة أنني لا أستطيع أن أرى طرف أنفي»، احتج القيوط «إن ما نحتاج إليه هو النور».

«هذا صحيح» وافق النسر. «لقد سمعت أن في الغرب البعيد يختبئ ضوءان كبيران: واحد يدعى الشمس، والآخر يدعى القمر. دعنا نذهب إلى هناك، وأنا على يقين أننا سنجدهما». وفي الحال انطلقا في رحلتهم. ومشى القيوط وطار النسر في الجو حتى وصلا نهراً عريضاً، صفق النسر بجناحيه وعبر النهر، وحط على الضفة الأخرى.

وبقي القيوط متردداً أمام الماء العكر، لا يشعر بأي رغبة في القفز في الماء. لكنه فعل وظل رأسه يغطس تارة ويطفو على السطح تارة أخرى، وجحظت عيناه، بينما راحت يداه ورجلاه تصارع الماء دفعة واحدة.

وما إن لامس القاع الصلبة ثانية، حتى صاح بغضب: «كدت أغرق وأنت تجلس هنا، وكأن شيئاً لم يحدث. لماذا لم تحملني؟».

«ولماذا لا تستنبت لنفسك ريشاً؟ لو كان لك ريش، لاستطعت أن تطير فوق النهر مثلي». ومسد النسر ريشه بعناية العاشق.

«أيها الغبي، ماذا كان بإمكانك أن تفعل لو كنت في مكاني؟»
سأله القيوط وهو يستشيط غضبا .

لكنه كان يعلم أنه ليس من الحكمة أن يزعج النسـر، لهذا كف
عن التذمر، ثم انطلقا ثانية .

وشيئا فشيئا أخذت الطبيعة حولهما تتغير، وأخذت معالم
الهضاب المعزولة والمنحدرات تتضح أكثر فأكثر . كانا يقتربان من
النور، وفجأة غير النسـر مساره، وراح القيوط يحوم أدنى فأدنى،
وصعد القيوط بسرعة إلى رابية منخفضة كانت تعيق رؤياه، فرأى
في فسحة كبيرة - عند قدم الرابية - عددا من المخلوقات الغريبة
تتقافز هنا وهناك وترقص وتغني، وكانت أجسادها مصبوغـة
بألوان قبيحة اقشعر لها جسده من الرعب .

«اهداً»، حذره النسـر، وهو يحط إلى جانبه . «هذه هي
الأرواح الشريرة» .

«ه ه هل سـ سـ ستؤذينا؟» قال القيوط مترددا وهو يتلعثم،
وأسنانه تصطك من الخوف . «لا داعي للخوف، فهي لا تعلم
بوجودنا . هل ترى الصندوقين هناك؟» وأشار النسـر إلى وسط
الراقصين المعريدين، وكانت إحدى الأرواح الشريرة تفتح أحد
الصندوقين بين الفينة والأخرى، فتخرج منه حزمة من الضوء تنير
الفسحة بكاملها .

«ما هذا؟» سأل القيوط .

«في أحد الصندوقين خبأت الأرواح الشريرة الشمس، وفي
الآخر خبأت القمر»، قال النسـر .

«وهل تعتقد حقا أننا سنتمكن من...؟» .

«علينا الانتظار حتى تنام الأرواح الشريرة، وعليك أنت أن تكف عن ارتجافك المتواصل هذا».

وخبأ القيّوط رأسه بين يديه من شدة خوفه من الأرواح الشريرة.

وأخيرا توقفت الأرواح الشريرة عن الرقص بعد أن أعياها التعب، وسقطت الواحدة تلو الأخرى نائمة، وتعالّت أصوات شخيرها حتى رددت الصخور صداها.

كانت هذه هي اللحظة التي ينتظرها النسر والقيّوط، فانقض النسر على الصندوقين كالنشاب، فحملهما بمخالبه وتوارى بين الغيوم. وراح القيّوط يعدو بكل ما استطاع من قوة، كانسا الأرض بذيله.

لم يجرؤ على أن يلتفت حوله حتى بلغ قمة الرابية الأولى. لم يكن أحد يطاردهما، فالأرواح الشريرة كانت تغط في نوم عميق، ولم تكن على علم بما حدث.

تساءل القيّوط في نفسه: «تري ما شكل الشمس؟ وما شكل القمر؟ لا بد أنه يمتاز بجمال خارق. يجب فعلا أن ألقى نظرة عليهما».

رفع رأسه ونادى على النسر:

«ألم تتعب بعد يا أخي؟»

لكن النسر اكتفى بالضحك، ثم نادى من عليائه:

«أأتعب من لا شيء؟ يمكنني أن أحملهما بسهولة إلى

نهاية المطاف».

«آه، ولكن لا يليق بالنسر، سيد الحيوانات، أن يحمل أثقالا».

«لا عليك، فأنا لا أهتم بالرسميات».

«ولكن ما الذي سيقوله الآخرون لو رأوك تحمل كل هذه الأثقال؟ لا بد أنهم سيلقون اللوم علي في نهاية المطاف، وأنا واثق من ذلك،» ثابر القيوط في إلحاحه، وراح يتضرع ويتوسل ويختلق سائر الذرائع عسى أن يستميل النسر فيدعه يحمل الصندوقين ويشبع فضوله.

«حسن، إذن»، قال النسر أخيرا، ثم وضع الصندوقين على الأرض. «لكن عليك أن تحرص عليهما أشد الحرص»، ثم حلق في الجو ثانية.

وعندما استراح النسر على قمة جبل قريب، لم يعد القيوط قادرا على لجم فضوله، فرفع غطاء الصندوق الكبير رويدا رويدا. «آه، ما أروع هذا!» هتف القيوط. «أي دفء هذا؟ وأي بريق ذهبي؟ علي أن أدفئ يدي قليلا». ثم مد يديه داخل الصندوق. «آخ، لقد احترقت!» صرخ فجأة، وفتح غطاء الصندوق من دهشته. وقبل أن يتمكن من تدارك الأمر، قفزت الشمس وبلغت السماء في طرفة عين. توسل إليها القيوط لكي تعود، باسطا نحوها يديه المحترقتين، لكنها ظلت تصعد غير آبهة بتضرعاته.

«علي أن أرسل القمر ليعيد الشمس إلى هنا»، خطر له خاطر. وهكذا فتح غطاء الصندوق الآخر. لكن القمر لم يكن أرحم من سابقتها، بل تسلق السماء وتوارى في ظل الشمس. وراح القيوط يذرع الأرض جيئة وذهابا، ويطوف حول الصندوقين الفارغين، منتظرا بخوف عودة النسر. وفعلا وصل الطائر الكبير في الحال ووبخه:

«انظر ماذا فعلت! فبدلاً من النور الأبدي، سيكون هناك ليل
ونهار يعقب أحدهما الآخر فقط لأنك تركت الشمس تهرب».
لوى القيوط عنقه وهو يشعر بالذنب.
«أنا آسف، لم أكن أدرك...»، قال بصوت وديع. «لكن على الأقل
لن تستطيع الأرواح الشريرة أن تستعيد الشمس أيضاً».
«هناك شيء من الصحة في هذا»، أقر النسر. «لكن على أي
حال، احتفظ بهذا الأمر لنفسك، لأنه لن يصدقك أحد».
صفق النسر بجناحيه مودعاً، وطار نحو الجبال.
وانطلق القيوط إلى مسكنه في المروج، يَصْفِرُ بمرح، ويتطلع
يمنة ويسرة على نحو غير معهود. وهكذا، كما ترى، ولد اليوم
الأول في بلاد الهنود.

أسطورة النار

نشرت الشمس أشعتها على بلاد الهند قاطبة، لكنها لم تبلغ الوادي العميق، حيث كان يسود شتاء قاس، لم ينج من قبضته من الحيوانات سوى الدب بفروه السميك الخشن.

وفي إحدى الليالي هبت عاصفة مرعبة، كسرت الأشجار واقتلعتها، وحطمت الصخور، ودمرت كل شيء صادفته في طريقها. بينما كانت هناك شجرة جُمِّيز وحيدة تنتصب في جزيرة صغيرة في وسط الماء العظيم؛ ظلت تتغنى بالصيف بلا مبالاة وتسخر من الطبيعة الهائجة، مما جعل العاصفة تغضب أكثر.

«سأقتلك!» صاح الرعد وهو يسدد ضربة مباشرة إلى قلب شجرة الجميز الباسلة.

ويا للعجب، فإن النشيد لم يتوقف حتى الآن؛ إذ نقلته النار في قلب شجرة الجميز إلى أمواج البحيرة، وهذه بدورها نقلته إلى الشاطئ، ومن هناك انطلق النشيد في كل الأرجاء.

في هذه الأثناء هدأت العاصفة. كاد الفجر أن ينبج، وولت العاصفة شمالاً، مخلفة وراءها الدمار، يرافقها الرعد الذي ظل يتطلع من حين إلى آخر إلى شجرة الجميز المصعوقة.

توقفت الشجرة عن النشيد، إذ أتت النار على جذعها وأغصانها، وارتفع عمود من الدخان الأزرق حتى وصل إلى كبد السماء.

وسرعان ما لاحظت الحيوانات في الوادي العميق الدخان.
حلق الصقر في الجو وسدد نظره باتجاه عمود الدخان.
«نارا! صاح من عليائه. «هناك نار في الجزيرة!»
«ما شكل هذه النار؟» سألت الحيوانات الأخرى.
«إنها حمراء وصفراء وتغني»، رد الصقر. «لكن هذا كل ما
أعرفه عنها».
«النار صديقتنا»، قال العنكبوت. «إن جئنا بها هنا فستحيطنا
بدفئها، هل تودون أن أذهب لآتيكم بها؟»
«ماذا؟ أنت؟» سأله البومة باستخفاف. «إن أرجلك معوجة، وهذا
يعني أن ذهابك وإيابك سيستغرقان مقدار نوم دب. سأذهب أنا».
نشرت البومة جناحيها وانطلقت باتجاه الجزيرة مسرعة، لكن
تبين لها أن مهمة جلب النار كانت أصعب مما تصورت بكثير، فلما
أمسكت بالجمرة الملهبة، صرخت من الألم وسقطت منها، ولما
سفعت النار ريشها رضيت من الغنيمة بالإياب، وحطت على
غصن، كسيرة الخاطر، واعتذرت:
«لا تريد النار معاشرتنا، فهي لم تتنازل حتى للحديث معي، بل
كادت أن تقتلني».
قالت الحية ذات الأجراس متبجحة: «إن جلدي درع متينة،
سأذهب لأرى ما أستطيع فعله».
لكنها عادت أيضا، معلنة هزيمتها جراء ألم النار المحرقة.
«إن للنار قوى خارقة»، قالت للآخرين، معللة عودتها خالية
الوفاض. «لم يبق في جلدي موضع إلا أذاقته حرقا حتى احمرَّ
كله. لن يجبرها أحد أبدا على مغادرة جزيرتها».

«وهل نسيتموني؟» سأل العنكبوت. «فأنا أيضا لدي قوى خارقة، ومن يعلم، ربما أنجح في جلب النار. فأنا أعلم كيف أداريها».

لم يسخر منه أي من الحيوانات، مع أنها لم تصدقه؛ بل كانت تتساءل إن كان سينجز وعده.

لم يكن العنكبوت في عجلة من أمره. فأول ما فعله هو أنه جلب صرة كبيرة، ثم ربطها ربطا محكما، ثم حزمها على ظهره، وحينئذ انطلق إلى الجزيرة.

استغرقت الرحلة وقتا طويلا، إذ لاقى عنقا كبيرا بسبب أرجله المعوجة التي لاقت شتى أنواع الصعاب. وعندما ولج الماء تقاذفته الأمواج هنا وهناك، وكان شغله الشاغل أن يمنع سقوط الصرة من فوق ظهره وسحبه معها إلى القاع، لذا كان سروره عظيما عندما انتشل نفسه من الماء وبلغ الجزيرة.

بعد أن استراح قليلا، راح يعمل بجهد، فاستخرج من صرته شريطا طويلا، وشيئا فشيئا استطاع أن يربط به أشد الجمرات توقدا، بينما كان يؤدي رقصة عنكبوت سحرية لكي يمنع الشريط من الاحتراق. ولما انتهى وضع كنزه الثمين في الصرة، وانطلق عائدا إلى رفاقه المنتظرين.

ولما كانت كل الحيوانات تنتظره بفارغ الصبر، فقد اجتمعت حوله، متلهفة لمعرفة ما آلت إليه رحلته. نفّض العنكبوت صرته فقفزت النار منها، وقال:

«إن شجرة الجميز الباسلة منّت علينا بصديق يؤنسنا بدفئه، حتى في أشد الأوقات صقيعا. لكن علينا أن نعتي به، ونطعمه لئلا تذهب حرارته».

«أرجو ألا يأكل كثيرا»، قال الهامستر(*) . الذي كان يخشى أن يطلب منه التخلي عن مؤونته .

«لا تقلق، فالنار لا تأكل إلا الخشب اليابس»، طمأنه العنكبوت .

«حسن، ولكن الخشب رطب بسبب العاصفة» .

«سأ تبرع بلحائي للنار»، قالت شجرة البتولا، وهي تخلع قطعة كبيرة من اللحاء الأبيض عن نفسها، فأخذ السنجاب كسرة منها وعرضها للنار . اندفع لسان من اللهب الأحمر والأصفر، وأخذ يتزايد ويطرد البرد بعيدا .

ومنذ ذلك الحين، لم تتمد النار أبدا؛ إذ كان السنجاب يراها نهارا، بينما كانت جميع الحيوانات تتحلّق حولها مساء، وتنشد أغنية ترددها ألسنة اللهب أيضا لو استمعتَ جيدا :

برّاقة صافية تشب النار،

نتحلّق حولها، ننصت بوقار

إلى أوراق تغني باستمرار

عن الدفء الأبدي،

عن صداقة النار .

(*) الهامستر: حيوان قارض صغير الحجم، قصير الأرجل والذيل أصهب الفرو، إلا أن الوبر الذي يغطي بطنه أبيض اللون .

الطوفان الكبير

ذات شتاء، عندما كان الكون في بداية شبابه الغرير، بدأ الثلج يهطل بغزارة وتوالى سقوط ندف الثلج من السماء، حتى اختفت معالم الأرض جميعها: فقد غطى الثلج الطرق المعروفة، وملاّ الوديان، وأزال الأنهار من الوجود.

تحلقت الحيوانات حول النار داخل خيمة مصنوعة من الجلود لتتشاور فيما بينها حول خطة تستعيد من خلالها الطقس الدافئ، لكن لم يستطع أحد أن يصل إلى شيء، وأخيرا تكلم السنجاب: «إن الليل يدنو، والنار توقفت عن الغناء لشدة تعبها. ليذهب كل منا إلى مخدعه، وسنكون قادرين على التفكير بصفاء أكثر في الصباح».

وفعلاً، ذهبت معظم الحيوانات إلى مخادعها، واستلقى السنجاب بجانب النار متوسدا يديه، تداعبه موجات النار الدافئة تارة، ودفقات الريح الباردة تارة أخرى، فرأى مناما غريبا: رأى في منامه أن دبا، كالذي يعيش على الضفة الأخرى للبحيرة، كان يجوب العالم وبيديه كيس يضع فيه كل شيء يجده. وفي هذا الكيس، وضع الفطر والعسل، والطقس الجميل، وكان كل ما يتعين فعله هو مصادرة الكيس من الدب وفتحه.

وعلى عجل فرك السنجاب عينيه ليطمأن أنه لن ينسى حلمه. «انهضوا جميعا». صاح السنجاب. «إنني أعرف من سرق الطقس الجميل منا».

حتى الغرير المعروف بقدرته على النوم في كل الأوقات استيقظ على صوت السنجاب، فاعتدل واستمع بانتباه.

«لقد رأيت الدب في منامي وهو يخبئ الطقس الجميل في كيسه»، صاح السنجاب بحماسة كبيرة «علينا أن نعدو وراءه لنمسك به».

اقترح الثعلب قائلاً: «دعونا نعبّر البحيرة بالقارب».

اندفع الجميع من مسكنهم وجهزوا قاربهم، وانطلقوا فوراً. وبدا وكر الدب مهجوراً. انتظروا طويلاً، وهم يسترقون السمع، لكن لم يكن هناك سوى الصمت في الداخل.

كان السنجاب أول من نظر في داخل الوكر، ولما رأى الكيس في زاوية، تماماً كما رآه في منامه، صاح من الفرح ونادى الآخرين: «تعالوا ساعدوني!»

كان الكيس ثقيلاً جداً لا يستطيع أحد زحزحته سوى الرنة، التي التقطته ووضعت في قاربهم.

قال الثعلب: «لا بد أن الدب سيكتشف ماذا جرى وسيطاردنا».

«من منكم لديه أكثر الأسنان حدة؟»

«أنا، أنا!» صاح صوت صغير وحاد.

«أنت، أيتها الفأرة؟»

«نعم، أسناني أكثر حدة من أسنان الجميع»، قالت

الفأرة باعتداد.

«حسن، اذهبي واقرضي بأسنانك مجداف الدب، لكن، حذارِ

أن يراكِ وأنت تفعلين هذا!»

وشرعت الفأرة في عملها حالا، ثاقبة المجداف من مُتسعه.

«هيا، هيا!» صاحت الحيوانات الأخرى عندما سمعت الدب يقترب مزجرا .

لم يكن لدى الفأرة الوقت الكافي لإنهاء عملها؛ إذ سرعان ما هرعت وقفزت داخل القارب، عندما سمعت وقع أقدام ثقيلة خارج الكهف. وما إن ابتعدت الحيوانات قليلا عن الشاطئ حتى سمعت زمجرة غاضبة. لقد اكتشف الدب السرقة.

«انتظروا حتى أمسك بكم،» صاح بخصومه. التقط مجدافه، وقذف بقاربه في الماء كما يقذف صدفة صغيرة، وراح يجدف بغضب، ويقترب من القارب الآخر مع كل ضربة من مجدافه. ضربة مجداف واحدة ويلحق بهم. في تلك اللحظة، تماما، انكسر المجداف كسرتين، وانقلب القارب، وسقط الدب في الماء وغرق.

كانت فرحة الحيوانات كبيرة، وعندما وصلت إلى منازلها على الضفة الأخرى للبحيرة حملت الرنة الكيس إلى الشاطئ وهناك فتحته بعناية.

قفز الطقس الجميل في الحال وراح يتجول في البلاد. ذاب الثلج بسرعة، وعم الماء كل مكان؛ إذ اجتمعت الجداول والأنهار لتشكل تيارا كبيرا راح يدك الوديان بفيض من الماء. وفاضت البحيرة، وراحت المياه تغمر كل شيء تلاقيه في طريقها، واحتمت جميع الحيوانات بقمة جبل عال، ظل وحيدا في مأمن من غمرة المياه.

وانتشر الطوفان وظلت قمة الجبل الوحيدة فوق الماء وتشاورت الحيوانات فيما يجب فعله، كانت تأمل أن تتراجع المياه تدريجيا، لكنها لم تفعل.

اقترح ثعلب الماء قائلًا: «سأغوص إلى الأعماق وأجلب إليكم بعض التراب، وإلا هلكنا جميعا».

أخذ ثعلب الماء نفسا عميقا جدا، واختفى تحت الماء، ومضى وقت طويل ولما يعد. أخيرا ظهر على السطح، وبعد أن أرغى وأزبد قال:

«المعذرة، لكني لم أجد القاع. فليجرب غيري».

وتطوعت أرنب «البيكا»، وظلت في الماء وقتا أطول، لكنها لم تكن أكثر نجاحا من ثعلب الماء. ثم جاء دور البطة، التي غاصت كما لو كانت حجرة، وبدأت الرحلة بلا نهاية، وكادت تقفل راجعة عندما لامست القاع فجأة، وغرقت من التراب بقدميها ما تستطيع، وعادت مسرعة إلى السطح.

وعلى الرغم من أنها لم تجلب الكثير من التراب، فقد عرفت على الأقل الطريق وقادت الآخرين إليه. وهكذا استطاعت الحيوانات في فترة وجيزة أن تخرج بلاد الهنود من تحت الماء، وعادت إلى مساكنها بعد أن انتصرت على الفيضان الكبير.

مجيء الهنود إلى هذا العالم

ربما ظننتم أنني في هذه الحكاية عن بلاد الهنود نسيت أن أحدثكم عن الهنود أنفسهم. لكنني في الحقيقة لم أنس. في قديم الزمان كان الهنود يعيشون فوق الغيوم، غير عارفين بما يجري في العالم الأرضي.

كانوا يملكون كل شيء يحتاجون إليه، وكان همهم الوحيد هو إيجاد غيمة جميلة، مستديرة، وثيرة، تهددهم للنوم من الصباح حتى المساء، ومن المساء حتى الصباح.

لكن البشر لا يقنعون بما لديهم، بل كان بعضهم لا يرضى بهذه العيشة الهادئة فوق الغيوم؛ فبدأوا يتساءلون لماذا لا تؤوب الشمس إلى مخدعها إلا ليلاً. ترى ماذا تفعل طوال النهار؟

قرر «شاغدويغ»، أشد الهنود بأساً، أن يرسل مجموعة من الكشافة ليقطفوا أثر القرص المحترق، ثم دعا الصيادين للاجتماع، وقال لهم: «سننصب شركاً كبيراً لنصطاد الشمس. قولوا لنسائكم أن يصنعن حبلاً متيناً من وبر الغيوم لنربط به الشمس».

إلا أن خطة «شاغدويغ» لم تلق استحساناً من كل الناس، فبعضهم لم يكثرث حتى برفع رأسه عن الأوراق والكتب التي كانوا يكتبون، بينما عبر بعضهم الآخر عن تدمرهم من أفكار بعض الناس المخبولة ومضوا في طريقهم.

لكن شاغدويغ استطاع أن يجد بضعة مؤازرين وكان الكشافة قد عادوا يحملون البشائر.

كان مسار الشمس طويلا، ومن يتبعه سيصل إلى نهاية السماء ذاتها. وهناك كانت تختفي داخل فتحة ضخمة تصدر منها رائحة حريق. كان هذا أنسب مكان ينصبون فيه شراكهم.

واستغرق نصب الشراك بين الغيوم سحابة يوم بكامله، إذ تبين أنه أصعب مما لو كان على الأرض، حيث كان يمكن تثبيته بحجر كبير، لذلك كان عليهم أن يجلبوا أكداسا كبيرة من الغيوم، ويطاردوا الرياح العابثة لئلا تحمل الشراك في طريقها.

وهكذا احتل الصيادون أماكنهم عندما كانت الشمس تقترب من الفتحة، وأخذت أشعتها تلفح الوجوه بعد أن كانت في البداية تداعبهم بلمساتها الحريرية الناعمة. وسرعان ما أصبحت حرارتها لا تُطاق، لكن أياً من الصيادين لم يبرح مكانه. واقتربت الشمس أكثر فأكثر.

ووقعت الواقعة، وشدت حبال الشراك بجلبة تصم الآذان، وانقض الصيادون بسرعة البرق، ووقع العملاق في الشراك قبل أن يدري ماذا جرى.

ولما عرف أنه وقع، غضب غضبا شديدا، وراح يجر الحبل وينفث ألسنة من اللهب في كل الأرجاء، لكنه بدا عاجزا.

وحض «شاغدويغ» محاريبه على مواصلة جهودهم، وجاءت النسوة والأطفال يتراكمون لمساعدتهم في شد الحبل.

خرجت الشمس عن طورها من الغضب، واهتزت أركان السماء. هاقد انهار الشراك وبدأت المعركة تحتدم أكثر، فيسقط المقاتلون، ثم ما يلبثون أن يتدافعوا للوقوف على أقدامهم مرة أخرى، وتزجر السماء كفرس المروج.

كانت بعض النفوس الجبانة لا تزال منزوية فوق أحد الغيوم،
مختبئة وراء أوراقها، ممتعة اللون من شدة الخوف. فجأة أمسك
أحدهم بفأس وضرب بها السماء فجعلت ولع البرق، وارتمت
الشمس والصيادون، وبدأوا يتساقطون نحو الأرض.

وتنفس ذوو الوجوه الممتعة الصعداء، فالتقطوا أوراقهم
واعتدل كل في جلسته المريحة فوق الغيوم، وبدأوا يقرأون كما لو
أن شيئاً لم يحدث.

في هذه الأثناء، كان شاغدويغ وأصدقائه يتدلون من السماء،
متعقلين بالحبل الطويل الذي أرادوا أن يربطوا الشمس به،
مقتنعين أن أجلمهم قد حان.

إلا أن الشمس، ذلك المحارب الشهم، رقَّ لهم وقال:

«لقد استبسلتم في قتالكم، بالرغم من شدة الحرارة التي شوت
جلودكم حتى احمرَّت. ولقاء ذلك، سأعطيكم بلادا تحمل اسمكم،
اسم الهنود الحمر الأباة».

بينما كانت الشمس تتكلم، شعر شاغدويغ بأن الحبل ينخفض
تدريجياً إلى أن نزل برفق بين الحشائش. وتبعه الآخرون، الواحد
تلو الآخر.

ولما هبط آخر هندي إلى سطح الأرض، نهض شاغدويغ،
الزعيم الأول، وألقى هذا الخطاب الخالد:

«إنني أرى أمامي أجمل بلاد الدنيا، فاذهبوا وانصبوا خيامكم،
وأوقدوا النار، وعاملوا بعضكم بعضاً، وكذلك سائر المخلوقات،
معاملة أشقاء. كلما أوقدتم نيرانا أكثر، أصبحت البلاد أشد كرماً،
وتمتنت روابط الأخوة بينكم، وزادت قوتكم. الويل لكم إن أنتم

تركتم النار تتمد : عندها ستستطيع مجرد حفنة من ذوي الوجوه
الشاحبة الجبناء أن يخدعوكم بسهولة كما حدث من قبل».
حرص الهنود على تمثل هذه النصيحة الحصيفة لزعيمهم،
فكانوا غالباً ما يرددونها لأبنائهم كما يرددون قصة استيطان
الهنود لهذه البلاد. تناقل الأبناء كلام آبائهم جيلاً بعد جيل، حتى
أصبحت الحكاية أسطورة تتداولها الألسن عبر العصور، وها قد
رويتها لكم بدوري.

ذلك الأثر الأبيض في السماء

لم يعد بإمكان أحد أن يتذكر بالضبط كيف استطاع الدب الأسود «واكيني» أن يتغلب على «واكينو»، ذلك الدب الرمادي الجبار. تقول الدببة السوداء إن «واكيني» كان يلتهم محتويات تلة نمل عندما أتاه «واكينو» وبكل فظاظة راح يغمس يديه في عشاء «واكيني»، مما أدى إلى قتال عنيف، تناثر فيه الوبر الأسود والرمادي في كل اتجاه. كان واكيني طبعاً على حق، إذ لا يحق لأي حيوان أن يلمس فريسة حيوان آخر. لذلك لقي «واكينو» جزاء عادلاً، لكن لم يكن هذا كل شيء، كان عليه أن يترك عشيرته إلى الأبد، شأنه شأن أي محارب مهزوم.

انتحب «واكينو» واشتكى، لكن قوانين الهنود لا محيد عنها. وهكذا تعين عليه أن يرحل، فخاض في الجداول التي عهداها، وألقى نظرة أخيرة على شجيرات السرو التي عرفها، وودع الوادي الذي عاش فيه طوال حياته.

ولما كانت دموعه المنهمرة تحجب الرؤية، لم يكن يدري أنه اتجه نحو بلاد الثلج، وفجأة سقط في جرف ثلجي عميق. تسلق خارجاً بصعوبة، ومسح عينيه وألقى نظرة حوله. لم يكن هناك سوى الثلج الناصع في كل مكان.

«لا بد أنني سأجد قريباً أثراً لطريق»، قال الدب في نفسه، وانطلق في رحلته مرة أخرى. كان فروه الرمادي قد أصبح أبيض تماماً من الثلج والصقيع والبرد القارس.

لكن واكينو لم يلحظ أي شيء، بل دأب على مواصلة السير حتى وصل إلى أرض غريبة يسودها ليل دامس، شديد البرد. كان صوت الريح لا يزال مسموعاً عن بعد، لكن هنا لم يكن يسمع سوى وقع أقدامه على الثلج المتجمد.

وتألفت فوقه سماء الليل، وعلى مقربة منه، وبالتحديد على حافة بلاد الثلج والسماء، شاهد أثراً عريضاً أبيض يصعد إلى السماء. وكان ركض «واكينو» يكاد لا يلامس الأرض مسحوراً بذلك الأثر الساطع. وما هي إلا قفزة واحدة حتى وجد نفسه يرتقي الأجواء، نافضاً الثلج عن فروه، وظل يتابع تحليقه بخفة الريشة.

ولأول مرة شاهدت الحيوانات، التي كانت يقظة في تلك الليلة، أثراً عريضاً أبيض في السماء، يعتليه دب رمادي. «لقد وجد «واكينو» بوابة الأرواح الموتى، وهو الآن في طريقه إلى مراتع الصيد الأبدية»، قال «واكينو» الدب الأسود الحكيم. حقاً لقد ذهب الدب الرمادي إلى مراتع الصيد الأبدية، ولم يخلف وراءه سوى الثلج الذي نفضه من فروه. وهذا الثلج الأبيض موجود في السماء حتى يومنا هذا. انظر وشاهد بأم عينك. يتحدث ذوو الوجوه الشاحبة عن درب التبان، لكن كل هندي يعرف أن ذلك هو الطريق إلى مراتع الصيد الأبدية، ذلك الطريق الذي سار عليه واكينو، الدب الرمادي.

ثعبان قوس قزح

كلما لاح قوس قزح في السماء، أدهشت ألوانه المتعددة كل من يراه وود لو يعرف مصدر جماله الخارق. لكن لا أحد يعرف السر سوى الهنود في الغرب، وهم يروون حكاية قديمة تفسر وجود قوس قزح في السماء.

حدث هذا في زمن اشتد فيه القيظ حيث خيمَّ الهواء الساخن فوق السهول القاحلة، وجفت الأنهار والبحيرات، وراح الناس يحتمون بالظل ويتحسرون:

«وا حسرتاه، لا مفر لنا من الهلاك!»

«ولت جميع الطرائد بحثا عن الماء.»

«هاجرت الأسماك إلى مصب النهر.»

«حتى الورود لن تمن علينا ببذورها لنأكلها، فمآلها جميعا إلى الذبول والخواء.» وسمعت حية صغيرة ذات حراشف حسراتهم، فخرجت من مخبئها، وكلمتهم بصوت بشري أدهشهم كثيرا: «إني أملك قدرات سحرية عظيمة، وإني مستعدة لمساعدتكم، كل ما عليكم فعله هو أن تقذفوني في السماء.»

لكن كاهن الهنود لم يصدق الحية، فهو يعتقد أنه وحده الذي يمتلك أعظم القدرات السحرية، ولذا قال للحية: «من المؤكد أنك ستسقطين وتموتين.»

فردت الحية: «لا، لن أسقط ولن أموت، سألتصق بالسماء بواسطة حراشفي، وبها سأكشط لكم بعض المطر والتلج، إذ إن المروج هناك مكونة من الجليد الأزرق.»

احتج الكاهن ثانية: «ولكنك صغيرة جدا».
ردّت الحية: «بإمكاني أن أمتط على طول الأفق كله. هيّا،
اقذفني إلى أعلى ما تستطيع».
لم يرد الكاهن بل التقط الحية المتكورة ورمها بكل ما أُوتي من
قوة في اتجاه السماء الصافية.
وفي أثناء رحلتها العلوية، راحت الحية تتحلل من تكورها
وتزداد طولاً بعد طول، إلى أن اتجه رأسها وذيلها في نهاية
المطاف نحو الأرض، بينما تقوس ظهرها باتجاه الأعلى، كاشطة
في أثناء ذلك الجليد الأزرق عن السماء.
وأخذ جلد الحية بالتبدل من أحمر إلى أصفر إلى أخضر
وأرجواني. وذاب الجليد في السماء، ومرة أخرى استقبلت الأرض
زخات المطر بالبشر والتهليل.
عادت الحياة إلى كل شيء، فامتلأت وديان الأنهار بالماء،
وعادت الحيوانات إلى مواطنها الأصلية، وأزهرت الورود كالعادة.
وماذا فعل الهنود يا ترى؟
رفعوا وجوههم نحو السماء، جاعلين المطر يتدفق عليها، وراحوا
يرقصون تيمناً بالحية، التي أخذت منذ ذلك الحين تشي جسدها
المرن كشريط ملون فوق الأرض كلما نزل المطر في يوم مشمس.

الأطفال الضائعون

كانت قطعان الجواميس تجوب الأرض طولا وعرضا لا يمنعاها من ذلك شيء، لكنها كانت تتفادى خيمة معزولة بمحاذاة النهر، كما لو كانت البقعة التي تنتصب فيها مسكونة بالأرواح.

عاش في هذه الخيمة سبعة أولاد أشد فقرا من فئران المروج. لم يكن والدهم يغنم من الصيد إلا نادرا، وهكذا كان عليهم أن يكتفوا مرارا بالغناء والرقص بدلا من الطعام.

لم يكن لديهم ما يلبسونه أيضا، ففي حين كان الأولاد من القرية المجاورة يرتدون حلة جديدة من جلد الثيران مع مقدم كل ربيع، راح الصبية السبعة يتوارون عن الأنظار خشية أن يسخر أحد من عريهم.

ما كانوا يخرجون من خيمتهم إلا ليلا ليلعبوا بعض الألعاب علها تتسببهم بطونهم الخاوية. كانوا يتسللون بهدوء من خيمتهم، شاقين طريقهم عبر المروج النائمة إلى مكان محمي أصبحت أرضه جرداء قاسية من كثرة الوطاء. وفي أغلب الأحيان كانوا يشعلون النار قبل بدئهم اللعب ليتردوا البرد.

وبما أنهم قضوا نهارهم كله بلا مأكّل، فقد كانوا يحاولون التعويض ليلا بإقامة مأدبة عظيمة، وما كانت هذه طبعا إلا مأدبة مزعومة لا أثر فيها للطعام. وكانوا يجثون حول النار المتصاعدة، تستحضر أخيلتهم صورا مغرية من لحم البيسون المشوي، الذي يسيل له اللعاب. وهكذا يبدأون الرقص حول النار إلى أن يرسلهم مقدم الفجر إلى النوم.

وهكذا مرت ليلة بعد ليلة، وظل الإخوة السبعة فقراء جائعين. كان كبير الأرواح مشغولاً بكثير من الهموم الأخرى، نظراً لانشغال الهنود بالحروب، لذلك لم يخطر في باله ولو للحظة احتمال أن يكون أحد من أبنائه يقاسي.

ومع نهاية شهر العجل الأصفر، كان الصبية السبعة قد هزلوا وضعفوا إلى درجة أنهم رغبوا عن اللعب والرقص.

فحث الأكبر إخوته الستة: «هيا، انهضوا. دعونا نشعل نارا للتشاور، فلا بد أن تأتينا بفكرة تتقذنا».

لا أعرف كم من النيران اشتعلت في بلاد الهنود في تلك الليلة، لكني أعرف يقيناً أنه كانت هناك واحدة تشتعل على حافة المرج، وأنه كان سبعة أولاد يتحلقون حولها. ومضى وقت طويل وهم لا ينبسون ببنت شفة، ثم تكلم الأصغر بصوت رزين قائلاً:

«هذه الدنيا لا خير لنا فيها، وربما يكون من الأفضل أن نغادرها، دعونا نغير إلى طين مثلاً، عندئذ سنكون في أمان ولا ينقصنا شيء».

لكن الأخ الثاني اعترضه: «لا، فالطين لا حياة فيه. من الأفضل أن نتحول إلى صخر».

«لكن الصخر قابل للانكسار»، اعترض الثالث. «من الأفضل أن نصير أشجاراً ضخمة».

لكن الأخ الرابع كانت لديه فكرة مختلفة:

«لكن البرق قد يقصف بنا. فلنتحول إلى ماء. عندها سنكون آمنين، ولن يستطيع أحد أن يؤذينا».

«هل نسيت الشمس؟» سأل الأخ الخامس. «إن شأيت، تستطيع أن تجفف أي بركة أو نهر. دعونا نتحول إلى ليل، فالليل كان دائماً ملاذنا».

ورأى لهم هذه الفكرة، وكانوا على وشك أن يتفقوا لكن الأخ السادس أوقفهم بقوله:

«لا، حتى الليل لا يملك القوة كلها، فهو دائما يتلوه النهار فيحيله عدما. أعتقد أنه من الأفضل لو صرنا النهار وليس الليل». وبعد أن صمتوا هنيهة تكلم الأخ الأكبر:

«كما تعلمون، النهار لا يدوم أيضا، لا خلود إلا للسماء الزرقاء. لكننا لا نستطيع أن نصبح السماء الزرقاء، فواحدة تكفي الهنود. لكن هناك أشياء جميلة في أعالي السماء تدعى النجوم، وأنا متأكد أنها سترحب بنا وتقبل بوجودنا بينها بكل سرور».

بعثت هذه الكلمات الحكيمة المسرة والبشر في قلوب الصبية. نعم، كان هذا هو الجواب على أسئلتهم الحيرة. سيصيرون نجوما. قذفوا بما تبقى لديهم من حطب على النار فتأججت وتوهجت، باعثة الضياء في كل أنحاء الفسحة.

كان هذا ما ينتظره الإخوة السبعة. وقفوا على أقدامهم، وتشابكوا بالأيدي، وأخذوا يرقصون رويدا رويدا.

وبدا أن إرهابهم أخذ يتلاشى مع كل خطوة، وراحت أرجلهم تبرد أسرع فأسرع، وما كانوا يتوقفون. لم تعد أقدامهم تلامس الأرض الآن، فارتفعوا على شكل دائرة نحو الأعلى، وأيديهم لا تزال متشابكة. وانطفأت النار التي خلفوها وراءهم على بعد سحيق، بينما هم يواصلون مسيرتهم العلوية نحو أثر «واكينو» الأبيض.

وتمتد السماوات المتألئة بالنجوم اتساعا فوق بلاد الهنود.

الآن وقد لفتهم سماء الليل بآيات من روعتها، توقف الإخوة السبعة عن الرقص ونظروا حولهم مندهشين، فرأوا سبع خيام عجائبية بدت كأنها في انتظارهم، فعدى كل صبي نحو كوخه. وفي الداخل كانت تنتظر كل واحد منهم مفاجأة؛ فعلى جدران الأكواخ، وعلى أرضها، وفي كل مكان تراه العين، تجد روائع لا تحصى، فوقف الإخوة السبعة مندهشين أمام روعة الثروة المهيبة، الموضوعة في خدمتهم. كانت هناك ملابس جديدة رائعة التطريز، وعمامات براقة تليق بالزعماء، وأحذية غاية في الروعة، ناهيك عن تلال المأكّل الفاخرة.

ولبس كل صبي ملابسه الجديدة بسرعة وانطلق خارجاً من كوخه ليتباهى أمام إخوته بما جدّ له من حظ. وكانت هناك مفاجأة أخرى في انتظارهم: كانت كل ملابسهم متشابهة تماماً، ينطلق منها ألق ذهبي يبهر الأبصار، فنظر كل منهم إلى الآخر بذهول عظيم، متسائلاً عما حدث، لكن الأخ الأكبر اهتدى إلى الجواب عن السؤال الذي لم ينطقوا به، فقال لهم: «لقد لبي كبير الأرواح أمنيّتنا، نادانا إليه وأصبحنا نجوماً». وهذا ما كان حقاً. ومنذ ذلك الزمان، وكلما أتى الخريف واكتست صفار الجواميس لونا بنياً، يجتمع الأطفال في بلاد الهند ويتطلعون نحو السماء ليحصوا الإخوة الضائعين في مجموعة الثريا، لكنهم نادراً ما ينجحون في محاولتهم هذه، لأن كوخ الأخ الأكبر ينتصب فوق أكواخ البقية فيضيع وهجه في عظمة المسافة التي لا تقدر.

النيلوفر الأبيض(*)

قبل أن تدق طبول الحرب في بلاد الهنود، كانت هناك قرية جميلة تقوم على حافة المرج. كان الرجال يغدون مع كل صباح للصيد ويعودون مساءً بغنائم دسمة، بينما كانت النساء يحضرن الطعام ويخطن الثياب، أما الأطفال فكانوا يمضون أوقاتهم في اللهو من مطلع الشمس إلى مغيبها. كانوا جميعاً سعداء قانعين، بل أسعد من أي إنسان في الدنيا.

كانت الشمس تطيل إشراقها في العصري، متبسمة للرجال الحمر، وكان المطر لا يهطل إلا عندما تحتاج الآبار والأنهار والبحيرات إلى مؤونة جديدة من الماء العذب، أو لينعش الأشجار والأزهار.

والآن استمع لما حدث: لم يمض وقت طويل على النجوم التي تتلألأ فوق المخيم حتى علمت بوجود الهنود، ولما كانت مصابيحها صغيرة بحيث يتبدد ضوءها قبل وصوله إلى الأرض، توسلت النجوم إلى زعيمها طالبة منه أن يسمح لها بزيارة القرية.

كان القمر زعيم السماء ليلاً، وما كان يريد لرعيته أن تتسكع هنا وهناك أو تأوي إلى فراشها متأخرة كنجمة الصبح. وكلما فعلت الرعية ما لا يرغب فيه زعيمها، حصلت خلافات بينه وبين الشمس. لكن في تلك الليلة كان القمر في مزاج رائق قل له مثيل، فلبى طلب النجوم. واستعدت هذه للرحلة بسرعة، وراحت

(*) النيلوفر: نوع من الأزهار التي تنمو على سطح الماء حيث تمد عليه أوراقها الكبيرة، يوجد في المناطق ذات المناخ الحار أو المداري.

تتضحك وتثرثر مما جعلها لا تتبته إلى المشورة الحكيمة التي أسداها لها القمر:

«لكم أن تذهبوا أينما شئتم، لكن حذار أن تلمسوا الأرض. إن أنتم فعلتم ذلك، بقيتم هناك، وستميتكم الشمس حرقا في اليوم التالي، لأن سهامها تحمل الموت لنا».

وتجولت النجوم في طول السماء وعرضها، وكان من حسن حظها أن القمر مكتمل في تلك الليلة، ولولا ذلك لضلت طريقها لا محالة. وأخيرا وصلت إلى القرية الهندية وراحت تتفحصها من كل الجوانب وهي حائمة فوقها. كان الهنود نائمين باستثناء صبي صغير يسكن في أطراف المخيم، فلدى سماعه صوتا غريبا هامسا فوق رأسه، أنصت جيدا ثم نظر من خلال فتحة الخيمة العلوية. وكادت نبضات قلبه أن تتوقف لما رأى ما رأى من نجوم جمّة على مسافة قريبة، قريبة جدا. فتسلق إلى أعلى الخيمة وأزاح العمود لكي يرى بشكل أفضل، لكن العمود علق بشيء فارتطم، وإذا بأصغر النجوم وأكثرها فضولا تهوي أرضا. كانت تمر في تلك اللحظة على علو منخفض فوق الخيمة، والآن سقطت على الأرض وانقلبت في الحال إلى فتاة جميلة تتحب.

«تأمل ما فعلته يداك»، قالت موبخة الصبي. «لا أستطيع الآن العودة مع أخواتي، ومع قدوم الفجر ستكتشفني الشمس وتقتلني بسهامها».

وحقق الصبي فيها مذهولا. في هذه الأثناء، درت النجوم الأخرى بما جرى وطارت عائدة إلى موطنها مذعورة، وهي متيقنة أنه ليس بوسعها أن تفعل أي شيء لمساعدة أختها القليلة الحظ.

تدفقت الدموع على وجه الصبية الجميل مما جعل الصبي يشفق عليها، فقال لها:

«سأساعدك، سأغلق باب خيمتي أثناء ظهور الشمس في النهار، وهكذا لن تستطيع أن تراك. لكن ماذا سنفعل بعد ذلك؟»
«لو أستطيع أن أحيا هذا اليوم فقط، فسأتحول إلى زهرة في المساء، وسأذهب لأعيش على قمة جرف شاهق، حيث يمكنني منه أن أراقبك وأراقب أهلك، فأنا أحب طريقة عيشكم معشر الهنود».

ونفذ ما اتفقا عليه بدقة. لازم الصبي بيته في ذلك اليوم، محترسا كيلا تتسلل إلى الخيمة حتى أدق الأشعة صفرا أو أكثرها فضولا. وحالما ولى النهار، تسلك الفتاة عبر منفذ الدخان وأسهرت إلى جرف عال. وهكذا شهد صباح اليوم التالي مولد زهرة بيضاء جميلة على قمة ذلك الجرف.

كان الهنود جميعا معجبين بالزهرة عن بعد، لكن الصبي هو الوحيد الذي كان يعرف حقا أنها لم تكن سوى النجمة التي آواها في خيمته، وحماها من أشعة الشمس القاتلة.

وسرعان ما بدأت الفتاة تشعر بالوحدة في موطنها في الأعالي. فمع أنها كانت قادرة على أن تحرق بنظرها في البلاد البعيدة وتراقب الحياة في المخيم، إلا أنه لم يكلف أحد نفسه عناء تسلق الجرف الشاهق ليحادثها. كانت الطيور المعششة بجوارها تطير إليها أحيانا لتؤنس وحشتها.

وفي أحد الأيام جاءت نمنمة صغيرة لتحادثها، فاشتكت إليها الزهرة البيضاء:

«أنا وحيدة جدا هنا. إنني أحن إلى رفقة بني البشر. كل ما أتمناه هو أن أستطيع العيش هناك في المرج». فردت النمنمة الصغيرة بلطف جم: «إذا كان هذا ما تتمنين، فيمكنني أن أساعدك بسهولة. فقط احني رأسك قليلا كي ألتقطك بمنقاري».

وحنت الزهرة رأسها طائعة، فالتقطتها النمنمة بمنقارها وطارَتْ بها إلى المرج. كانت الحياة هناك أكثر بهجة بكثير. جاء الهنود وجميع الحيوانات المختلفة لتروي الأخبار إلى الزهرة البيضاء. لكن ذات صباح سُمع صوت جلجلة عميقة من بعيد، فصرخ الجميع: «هيا أسرعوا، أسرعوا. علينا أن نختبئ، الجواميس قادمة». وركض الجميع واختبأوا في مكان آمن. وفي الحال لاحت غيمة كبيرة من الغبار في الأفق، وأخذت تتزايد بتزايد الزمن، وارتعدت الزهرة البيضاء من الخوف، وخبأت رأسها تحت أوراقها التي اتسعت نحو الخارج من شدة الهلع. ومرت القطعان كأنها إعصار، يصحبه رعد آلاف الحوافر.

وعندما ساد الهدوء مرة أخرى، اختلست الزهرة البيضاء النظر من تحت أوراقها التي كانت تحتمي بها، وهي خائفة، فإذا بالمرج قد دُمّر، وأصبح خالياً من أسباب الحياة. فقالت النجمة لنفسها: «يجب ألا أبقى هنا وأعرض نفسي لمثل هذا الخطر المرعب، من الأفضل لي أن أكون في البحيرة». وما إن انتزعت نفسها من الأرض حتى رأت تحتها سطح البحيرة يتلألأ، ثم انسابت برفق فوق الماء مثل قارب هندي.

ولما انطلق الهنود في صباح اليوم التالي نحو البحيرة فوجئوا
بأزهار بيضاء جميلة تطفو على سطحها، فقال الأطفال الصغار:
«لقد نثرت نجوم السماء زهوراً». لكن الشيوخ الحكماء هزوا
رؤوسهم وقالوا: «إنها النجمة البيضاء، جاءت لتعيش معنا». وكانوا
طبعاً على حق.

ومنذ ذلك اليوم والنجمة تعيش على سطح البحيرة على شكل
نيلوفر أبيض، ويدعوها الهنود و«هـبـغ واني»، أي الزهرة البيضاء.

الداء والدواء

عاشت الحيوانات والبشر في وئام، لا يعترض أحد طريق الآخر، وظلت الحال كذلك إلى أن بدأ بعض الهنود الجشعين بقتل الحيوانات البرية بقصد بيع لحمها وفرائها لا أكثر.

أخذت أعداد القنادس وثعالب الماء والظباء والجواميس والبيسون تتناقص بسرعة، فدعا الدب الأبيض جميع الحيوانات ذات يوم من أجل التشاور، لكنها لم تتوصل إلى اتفاق حول أفضل وسيلة تنتقم بها من بني الإنسان.

نادت الدببة بشن الحرب عليهم، وأحضرت العدة من قوس ونشاب، لكنها وجدت أن مخالبتها الطويلة حالت دون إطلاق السهام بصورة صحيحة. واقتрحت الطيور سرقة خيام الصيادين الأشرار، واكتفى القندس باقتراح خرق أرضية قواربهم.

أما الذباب فقد أعطى المسألة ما تستحق من تأمل، غير منقطع في أثناء ذلك بالطنين المحموم داخل جذل شجرة أجوف قريب. وعندما عجز الآخرون عن تقديم أفكار جديدة، نهض أكبرهم وأحكمهم، وهو يستند على عكازه، وخاطب جموع الحيوانات:

«سنطلب من الأرواح أن تنزل المرض بالهنود الذين يؤذوننا، ونتعهد نحن الذباب بنشر هذا المرض».

وافق الجميع على هذا الاقتراح، وأعلن الدب الأبيض انتهاء المؤتمر. وتفرقت الحيوانات، كل إلى مسكنه، متسائلين عما سيحدث بعد ذلك.

وقبل مضي وقت طويل صدقت نبوءة الذباب، وحضر المرض إلى قرى الهنود. لكنه لم ينتق ضحاياه، بل هاجم كل من صادفه في طريقه؛ فتوقف الصيد، وبقي الهنود في خيامهم يعانون المرض والجوع، لا فرق في ذلك بين طيب وخبيث.

وحزنت الحيوانات لهذا، لأنها لم تقصد أن يضرب المرض كل الهنود. وراحت تفكر فيما يجب فعله، وتساءلت فيما بينها طلباً للمشورة.

إلا أن النصيحة جاءت من مصدر غير متوقع: من الأعشاب. «إننا نملك قوى شافية»، صاحت الأزهار في القرى والمروج «سنشفي المرضى حالاً».

وانطلق الهنود من خيامهم ليجمعوا الزعتر البري وحشيشة القنطريون وأوراق الفراولة وجذور السرخس الشافية، وكل أنواع الأعشاب، أملاً في الشفاء. وعندما كانوا يحارون فيما يختارون من بين الأدوية لشفاء مرض بعينه، كانت الأرواح الصغيرة اللطيفة المختبئة في الزهور تهمس لهم وتخبرهم.

وهكذا جرى اكتشاف الطب، ووجد ذوو الوجوه الحمراء أن كل شيء في الطبيعة، مهما صغر حجمه، نافع لهم.

الهندباء البرية

كثيرا ما تسأل أطفال الشمال عن سبب قصر إقامة «شاونداسي» (ريح الجنوب) معهم، وعن عدم مطاردته لرياح الشمال، «كابيبونوكا»، حتى مضارب أهله، إلى أرض الجليد في أقصى الشمال. فما أروع الاستمتاع بصيف يدوم على مدار السنة! لكن حكماءهم فسروا السبب على النحو التالي:

«إن «شاونداسي» بدين وكسول، وكل ما يفعله هو الاسترخاء والتدخين. وبهذه الطريقة لا ينجح إلا في طرد حزنه وليس «كابيبونوكا»».

استفسر الأطفال: «وعلام تحزن ريح الجنوب؟»

فرد أحد الكبار: «علام تحزن؟ أنا سأروى لكم ما حدث».

«كلكم يعلم أن «شاونداسي» يجلب الصيف؛ ففي قديم الزمان، عندما كان شاونداسي لا يزال شابا، تطلع نحو الشمال عبر المروج مصوبا نظره باتجاهنا، كان الجو يعبق بأريج الصيف وأغاني الطيور، وكانت السماء زرقاء صافية، كان يوما رائعا».

فجأة رأى فتاة جميلة على مسافة بعيدة، كانت تقف وحيدة بين الورود، كأنها غصن من أغصانها، وكان شعرها يلصف إلى درجة تبهر الأنظار.

«وراق «لشاونداسي» مطلعها كثيرا، لكن لا تظنوا أبدا أنه كلف نفسه عناء الذهاب إليها. كان كسولا جدا، حتى في تلك الأيام التي خلت. كان كل ما يفعله هو أن يقف محدقا فيها حتى تكاد

عيونه أن تخرج من محاجرها. وكلما أفاق من نومه أدار رأسه نحو ذلك المرج ليمتع ناظره بذلك المرأى الجميل. وأخيراً وقع في غرام تلك المخلوقة الساحرة. وكثيرا ما راودته نفسه في أمر رحلة يقوم بها بحثا عن محبوبته، التي ما كانت تغيب عن ناظره أبداً، كأنها حلم يقظة جميل. لكن كسله كان دوماً يتغلب عليه فيخر نائماً. ودارت الأيام ودفع ثمن كسله غالياً.

«ذات صباح نظر نحو الشمال، فإذا بالشعر الذهبي الذي طالما هام به قلبه صار كالفضة، كأن شيباً صقيعياً كساه كله».

«طبعاً، راحت ظنونه في الحال تحوم حول «كابييونوكا»، وكان محققاً في ذلك، إذ استطاعت ريح الشمال أن تستميل قلب الفتاة إليها بحكايات السمر التي كانت ترويها لها، فقيدتها بأربطة من صقيع وكسى شعرها صقيعاً أشيب».

«وراح شاونداسي ينتحب ويندب حظه، نادماً أشد الندامة على تقاعسه، وأطلق زفرة تلو الأخرى، حتى بلغت زفراته الحرى أركان الدنيا القصية».

«ثم هبت عاصفة ثلجية فوق المرج، وشوهد شيء أبيض كالثلج يرفرف طائراً في الجو. أما الفتاة، فقد اختفت إلى الأبد».

«كيف ذلك؟ كيف تختفي؟» ألح الأطفال في استفساراتهم.

فرد العجوز مبتسماً: «انصتوا وسأروي لكم ذلك. لم تكن هناك فتاة تقف في المرج، بل كانت وردة هندباء صفراء. وبما أن «شاونداسي» لم يكن كسولاً فحسب، بل قليل الإدراك أيضاً، فقد فاته أن ينتبه إلى هذا الأمر، وزين له خياله الزهرة على هيئة فتاة. إذن، كل ما هنالك أن الهندباء فقدت وردتها الذهبية، ومن

هنا تراءى له الشعر الفضي. ولما كانت ريح الجنوب تظن
«بكابيونكا» سوءاً، أخذت تطلق الزفرات تباعاً حتى تبعثر زغب
الهندباء في طول المرج وعرضه. بعد هذا أصبح البحث عن الفتاة
الجميلة بطبيعة الحال عبثاً لا طائل منه. إذن، يقع اللوم كله في
الحقيقة على «شاونداسي»، لكن لا يمكن أن تتوقع من كسول مثله
أن يكلف نفسه عناء التفكير ليصل إلى حقيقة الأمور. وعندما
يخيم الحزن على البلاد في نهاية الصيف، لا أحد يعلم سوى
الهنود أن «شاونداسي» هو من يطلق زفرات الأسى مرة أخرى
شوقاً لمحبوبته، التي ليست سوى واحدة من بنات أفكاره».

شبية السيدة العجوز

كانت الذرة طعام الهنود منذ أقدم العصور، ولم يعرفوا القمح أبداً، لذلك كانوا يستخدمون دقيق الذرة في خبزهم وفي حلوياتهم. وهناك أسطورة هندية جميلة عن أصل الذرة.

في يوم من الأيام سافرت امرأة عجوز وحفيدها في بلاد الهنود. لم يكن أحد يعرف من أين أتت أو أي وجهة تقصد، ولم يدعها أحد لتتدفأ بناره، مع أنها طلبت وتوسلت أن يسمحوا لها بذلك. حدث هذا في زمن كانت جميع قبائل الهنود تقريبا تقتل مع بعضها مستخدمة فؤوس «التوماهوك» الهندية، لذلك كان يُشتبه بكل قادم جديد على أنه جاسوس للعدو.

فقالت العجوز لحفيدها: «لا تقلق أبداً، أنا متأكدة أننا سنجد أناسا طيبين، وسيحيطوننا برعايتهم».

وواصلتا طريقهما عبر الجبال والمروج حتى وصلا ذات يوم إلى مخيم قبيلة التماسيح. كانت هذه القبيلة الهندية فقيرة، لكن طيبة القلب، فدعت العجوز وحفيدها أن يقتربا من نارها وقاسمت ضيفيهما طعامها القليل، ثم تحدث زعيم القبيلة المدعو سن التماسيح، قائلاً للسائحين:

«يمكنكما البقاء معنا إن شئتما ذلك، لكن يجب أن تعرفا أننا غالبا ما نعاني المجاعة. ومرايح صيدنا ليست غنية بالطرائد، وعلاوة على ذلك علينا أن نقدم أفضل صيدنا قربانا للتماسيح لئلا نثير سخطها علينا».

«سنقاسمكم حظوظكم أيا كانت بكل سرور»، ردت العجوز.
«ولقاء كرمكم سأعنتي بكل الأطفال حتى لا أكون عديمة الفائدة أبدا».

وهكذا مع إشراقة اليوم التالي، غادر جميع الصيادين المخيم وتبعتهم بعد ذلك بقليل نساؤهم، ولم يبق في المخيم سوى الأطفال الصغار.

صحيح أن الأطفال قد اعتادوا الوحدة خلال النهار، واستمتعوا بلعبهم سوية، إلا أنهم كانوا يظلون من دون طعام حتى المساء عندما يعود آباؤهم وأمهاتهم ومعهم ما يمكن أكله.
أما الآن، فقد اختلفت الأشياء فترى الأطفال يتجمعون حول العجوز، كما تتجمع الصيصان حول دجاجة عجوز، ليستمعوا إلى حكاياتها.

فقد عللت للأطفال الأسباب التي جعلت الأعشاب القصيرة الغضة تغطي الأرض وكذلك الأشجار السامقة، فقالت: في يوم من الأيام، أراد «مانيتو» الجبار أن يداعب تلك الزهور التي كانت تهفف النسائم الخفيفة على أعوادها المشوقة، إلا أنه وجد أنه لا يستطيع أن يلامسها من عليائه في السماوات. كانت هذه الزهور بعيدة المنال، لذلك تمنى أن تنمو أعوادها حتى تلامس راحة كفيه. ومنذ ذلك الحين وأشجار الصنوبر الهيفاء والتتوب والقيقب تخرج من الأرض وتظل تنمو حتى تلامس السماء بتيجانها المهيبة. وما على «مانيتو» الآن إلا أن يمد يده ليداعبها ويهيج قلبه بلمس تيجانها وهي تلمس برفق وتهمس برقة.

لم تكن العجوز راوية قصص بارعة فحسب، بل كانت تعرف بدقة متى يجوع الصغار، وأنداك تغيب عن الأنظار هنيهة ثم تعود بقدر ضخم تفوح منه رائحة غريبة شهية، ثم تقول: «هذه عصيدة ذرة، وسأعطيكم منها كل يوم إن أنتم تصرفتم بلباقة وأطعتم ما يقال لكم».

وهكذا مضت الشهور، حتى جاء الشهر الأخير، شهر الليل الطويل، وولى. كانت العجوز تواظب على إعداد عصيدة ذرتها الشهية للصغار، إلا أنها في الفترة الأخيرة بدأت تذوي رويدا رويدا، كأنها بخار ينطلق من قدر فيتلاشى ببطء.

ولما عجزت ذات صباح عن النهوض من مخدعها، نادت حفيدها وقالت له:

«أنا أعرف يا عزيزي أنني سأغادر هذه الدنيا وأهلها قريبا، لأن حبات الذرة التي زرعتها خارج المخيم نمت جذورها وستتفتح أوراقها في الربيع، لقد أديت واجبي، والآن تقع على عاتقك وعاتق بقية الأطفال مهمة سقايتها وعنايتها وتغشيبها. ولا حصاد إن لم تفعلوا».

كان هذا آخر ما نطقت به العجوز من كلمات، وظلت تعطي حفيدها كل يوم عند الظهر قدرا من عصيدة الذرة، لكنها في اليوم الذي نضج فيه أول كوز من الذرة خارج خيمتها اختفت إلى الأبد مع أنهم فتشوا عنها في كل مكان.

قال سن التمساح: «لن نراها ثانية. مع ذلك لن تفارقنا أبداً. انظروا»، وأشار بيده إلى الذرة المحيطة بمخيمهم. «لقد حولت نفسها إلى هذه النباتات التي أتتنا بها كيلا نجوع أبدا».

وهكذا ردت العجوز للقبيلة جميل ضيافتها . ومنذ ذلك التاريخ
تجد الهنود يعتنون بحقول الذرة لديهم عناية فائقة، وعندما تثبت
الشعرات البيضاء على أكواز الذرة الخضراء يرون فيها شيبة
العجوز التي لن ينسوها أبدا .

هدية الطواطم

في الأفق البعيد وراء الجبال الأربعة والأنهار الأربعة وعلى شواطئ محيط لا حدود له، كانت تنتصب قرية الطواطم، وجاءت تسميتها هذه لأن وراء كل خيمة كان يقوم عمود طوطم طويل ممشوق لحماية الهنود أثناء إبحارهم لصيد الحيتان. كان الصيادون يعتقدون أن هذه الأعمدة المنقوشة والمزركشة بالألوان تساعد على رد البلاء، ولذا فهم يكنون لها احتراماً كبيراً، وكلما عادوا من رحلة موفقة، أقاموا مأدبة عظيمة على شرفها. وفي إحدى الليالي، وقبيل إقامة مأدبة من هذا القبيل، نام غراب في شجرة قريبة من بيّارة الطواطم، ويبدو أنه رأى أحلاماً مزعجة أو شعر بالبرد، لأنه استيقظ فجأة في منتصف الليل. ولما أنصت وسط الظلمة، محاولاً معرفة السبب الذي أقلق نومه، سمع أصواتاً غريبة خافتة كمناجاة الأغصان لبعضها عندما تداعبها الريح. ولما مد الغراب رقبته قليلاً، أصبحت الأصوات أكثر وضوحاً. لم يخطئ الظن، فالطواطم الخشبية فعلاً تتحدث.

«ما رأيكم، يا كبير الطواطم؟»

«علمت من روح سمك القد الأكبر أن الهنود على وشك أن يتلقوا هدية، وأن هذه الهدية ستكون معدناً. نعم، معدن أصفر يلمع كالذهب. فهل حقاً ما سمعت، يا شيخ الطواطم؟»

«لقد أسرت لي روح الرنكة الحكيمة أن هذا المعدن يجب ألا

يكون بقساوة الذهب، لأنه سيجعل قلوب الرجال الحمر قاسية.
فهل تتفقون مع هذا الرأي، يا أحكم الطواطم؟»

«أجل، فقد علمت من روح الحوتة الأم أن من هذا المعدن
سيصنع الهنود رؤوسا لسهامهم، ورماحهم، وحرابهم».

ومع أن الغراب أصغى السمع بعناية، إلا أنه لم يعد قادرا على
سماع الحديث الهامس الذي يدور بين الطواطم.

«على أي حال سمعت بما فيه الكفاية»، قال الغراب في
سره، عاقدا العزم على أن يراقب بعناية مأدبة الغد، علّه ينتفع
من الهدية التي ذكرتها الطواطم. ثم أن قلبه لم يطاوعه أن
ينعم أولئك الهنود الأغبياء بكل شيء، ويظل هو خالي
الوفاض.

وبدأت المأدبة الكبيرة قبل أن تصل الشمس كبد السماء.
فمنذ ذلك الصباح والهنود يتوافدون من قريب وبعيد في قوارب
طويلة مدببة الرؤوس، حاملين معهم هدايا ثمينة كالأغطية
الملونة، وأطايب المأكولات والمشروبات، بالإضافة إلى الأسلحة
المتنوعة.

وبعد أن أدى جميع الضيوف فروض الاحترام تجاه الطواطم
في غابتها وتحلقوا جالسين، حدث شيء لم يكن في الحساب:
فجأة عصف الجو كأن آلاف من أجنحة الطيور تخفق فيه وزمزم
البحر وأرغى، وعلى المدى البعيد وفوق ذرى الموج المتلاطم بدا
شيء غريب يلمع ويطير نحوهم.

في تلك اللحظة بالذات، هتف كبير الطواطم ونادى جموع
الهنود بصوت بشري أذهلهم:

«إن الأرواح الطيبة تأتيكم بأعطية ذات قيمة: إنها نحاس، منه تصنعون رؤوسا لسهامكم، ورماحكم، وحرابكم. وهو خير لكم من الصوان الذي كنتم تستخدمون حتى ساعتنا هذه».

وما كاد كبير الطواطم أن ينهي حديثه، حتى انقض الغراب فجأة فوق رؤوس الهنود المنصتين قاصدا اختطاف الشيء اللاصف في السماء. وعندما رفعوا أنظارهم نحو السماء، بهرهم ألق الشيء اللاصف وصعقتهم وقاحة الغراب. لكن الأرواح الطيبة كانت يقظة ولم تسمح للطائر أن يختطف هديتها.

وعادت الأمور على ما يرام، فالغراب فيما يبدو تبين له عدم جدوى جهوده وأخذ يبتعد، لكنه في تلك اللحظة بالذات، عاد كالبرق، مباغتاً الجميع وانتزع بمخالبه كرة النحاس المتألقة من الأرواح المذهولة، وكان على وشك أن يطير بها.

لكن الكرة كانت أثقل مما توقع، ولم يستطع أن يمسك بها إلا بعض هنيهة ثم أفلتت منه في البحر الذي طمر الكنز الثمين في أعماقه.

«ما العمل الآن؟» تهامس الهنود ملتفتين إلى الطواطم لعلها تجود عليهم بنصيحة طيبة، لكن الأعمدة المقدسة ظلت ساكنة ساكنة، فقال زعيم الهنود، قاطعا الصمت الذي خيم على الجموع المحتشدة:

«أفي القوم صياد ذكي بارع يستطيع انتشال الهدية الثمينة برمحه؟ وإن نجح، فسأعطيه ابنتي الوحيدة زوجة له».

ولما سمعت البنت كلمات أبيها، ارتجفت وترقرقت الدموع في عينيها، لأنها كانت قد عاهدت صيادا شجاعا من قريتهم أن تكون زوجته، وها قد مضت أيام وليال على رحيله، يجوب البحار البعيدة ليجلب لها هدية الزفاف، وقد وفّت بعهدا طوال غيابه.

لكنها لا تستطيع معارضة قرار أبيها . ووافقه آخرون، بل هناك من ألقى بقاربه في الماء لتوّه.

وذهبت ورد البحيرة، ابنة زعيم القبيلة، تلك الفتاة الجميلة، كسيرة الخاطر إلى غيضة الطواطم، وهناك ركعت أمام أحكم الطواطم.

«ماذا عساي أن أفعل؟ أرجوك، ساعدني، يا أحكم الحكماء!» هكذا توسلت إليه.

ولما رأى قلبها يتفطر حزنا، خاطبها الطوطم بصوت خفيض لا يسمعه سواها.

«ارتدي ملابس رجل، ثم سيري بمحاذاة الشاطئ حتى تصلي إلى مصب بحيرة السلمون، وستجدين هناك قاربا وبدخله رمح، انطلقني في عرض البحر ولا تأبهي بأواجه التي ستداعب القارب بشدة تجعلك تعلمين معنى الخوف، وسيأخذك القارب إلى حيث ترقد كرة النحاس في قاع البحر، وعندما يتوقف، خذي الرمح وغطّسيه في الماء حتى يخترق النحاس، وعند انتشارال الهدية، ارجعي إلى مصب بحيرة السلمون. إن لم تفعلي تماما كما أقول لك، فاعلمي أن الأمواج ستغرق قاربك وأنت هالكة في البحر لا محالة. والآن اذهبي ولا تتقاعسي».

ولم تتردد الفتاة لحظة واحدة. ارتدت ثياب أحد إخوتها ولطخت وجهها بطين ملّون رغبة في التمويه، وانطلقت إلى مصب بحيرة السلمون. وهناك وجدت قاربا ورمحا، فأبحرت في البحيرة لا يعتور قلبها الخوف.

اكتشفت بسرعة أن المحيط هائج مليء بالدوامات الغادرة، التي بدأت هي والأمواج بالهجوم على القارب، الذي واصل سيره إلى هدفه المقصود.

وأثناء إبحارها، لاحظت ابنة الزعيم قوارب الذين سبقوها مقلوبة. لم يستطع أحد الإبحار بعيداً، بل دفعوا حياتهم ثمناً لشجاعتهم ورغبتهم في الزواج من ورد البحيرة، فعلموا، حين لا ينفع علم، أن البحر لا يتخلى بملء إرادته عما عدّه في يوم من الأيام ملكاً له.

وتوقف القارب، ورفعت الفتاة رمحها، ورمقت المياه الهائجة. ارتجفت يدها، لكن تفكيرها بحبيبها حولّ يأسها قوة. وشكّت رمحها في الماء بكل ما أوتيت من قوة، وما إن شعرت أنه أصاب الهدف حتى بدأت تتشله.

وراحت الأمواج الهائجة تتقاذف القارب كيفما شاءت، وعندما استخلصت كرة النحاس من الأعماق، أخذ البحر يضرب قاربها بضراوة؛ فزأر وهاج وماج كظبي متوحش، وأيقنت الفتاة أنها هالكة لا محالة، لكنها كانت دائماً تخرج من بين الأمواج النائرة، ولم يمض وقت طويل حتى وصلت إلى شاطئ بحيرة السلمون.

واستقبلتها هتافات الفرح على الشاطئ، حيث تجمع أهل قريتها جميعاً. وانحنى الزعيم ذاته ليلتقط الكرة النحاسية من قاع قاربها، وعندما رفعها ليربها للحشود، انقض الغراب مرة أخرى وهو يزق بصوته المشؤوم؛ فانتزعها من بين يدي الزعيم المذهول وطار بها إلى قمة أعلى صنوبر، كأن الأرواح الشريرة ذاتها قد منحته قوة من لدنها.

«إن هديتكم عندي الآن، ولا تتوقعوا مني أن أعيدها إليكم!»
صرخ الغراب مزهوا بنشوة النصر. «لن أعيدها!» كان يزعم
كلما أزرّ سهم في الهواء يطلقه الهنود في محاولة يائسة
لاسترجاع كنزهم.

وحاولت الفتاة أيضا أن تصيب الغراب السارق بسهامها. في
هذه الأثناء تبين الجميع هويتها، بعد أن انفلت غطاء رأسها
فتدفق شعرها الأسود المتماوج زُرقة وانساب على ظهرها. لكن
حتى سهامها لم تستطع الوصول إلى قمة الصنوبرة.

في تلك اللحظة سمعت الجماهير وقع أقدام آتية من بحيرة
السلمون وأقبل شاب يعدو بخفة الغزال. وما إن اقترب على
مسافة أفصححت عن هويته، حتى انطلقت الفتاة لتلاقيه وترتمي
في أحضانه.

«لقد وصلت أخيرا، يا حبيبي». وأخبرته بما حدث وهي تعانقه،
فأخذ قاهر الموج، وهو لقب اكتسبه الشاب نظرا لمهارته في توجيه
قاربه، أخذ سهمًا من جعبته ووضع في القوس. ولما أخرج الغراب
الوقع رأسه، أطلق سهمه باتجاهه.

وكان الصمت مطبقا عندما انطلق السهم وزعق الغراب. بعدها
سمعت طقطقة في أعلى الشجرة، بينما كان الغراب، وهو يلفظ
أنفاسه الأخيرة، يفرز مخالبه في لحاء الشجرة، ثم سقطت الكرة
النحاسية الملتهبة.

ولما ارتطمت الكرة النحاسية بالأرض انكسرت إلى ألف قطعة
صغيرة، وظن الهنود أن الغراب صدق وعده، فها هو قد سرق
هديتنا منا ودمرها بحيث لم تعد تنفع.

«ليس الأمر كذلك»، جاء صوت من حيث كان يقف أحكم الطواطم.
«فمن هذه الشظايا عينها ستصنعون أفضل الرؤوس لسهامكم
ورماحكم».

وبينما انشغل الهنود بالتقاط القطع النحاسية، التفت الفتاة
إلى الرامي المحظوظ. سألته وهي تمد إليه يديها:
«وما الهدية التي جلبتها لي يا عزيزي؟»

«هدية صغيرة في الواقع»، رد الشاب. «لقد اصطدت حوتا
كبيراً، ربما أكبر حوت في العالم كله، لكنني قدمته هدية عند خليج
الحوت لهنود كانوا يموتون جوعاً. وهذا هو كل ما احتفظت به، إنه
يدعى العنبر». وناول الفتاة علبة خشبية مليئة بدهن تفوح منه
رائحة مُسكرة.

دهنت ورد البحيرة يديها ووجهها، ثم رافقت خطيبها إلى
بستان الطواطم، ومشى خلف العروسين السعيدين حشد من
الهنود يتقدمهم زعيمهم الذي لم يستطع أن يحول ناظره عن
الشابين أمامه، وقد سمعه الماشون بقربه وهو يهمس:
«لقد أحسنت الاختيار يا بني، سيكون قاهر الموج زوجاً طيباً
ومخلصاً ما دمت حية».

الهنود والموت

في تلك الأيام التي خلت منذ أمد طويل، لم يكن الهنود ولا الحيوانات خاضعين لسطوة الموت، كانوا يعيشون جميعا إلى الأبد، ومع ذلك كان هناك متسع للجميع. ولم يتذمر أحد سوى القيوط، إذ إنه بطبيعته غير قنوع، فراح يشتكي: «لا أعرف لماذا علينا أن ننحشر هكذا، أه لو مات العجزة لكنا في أحسن حال». وراح يجوب المروج ويصرخ بأعلى صوته حتى سمعته الغاب والفيافي، لكنه لم يحظَ باهتمام أحد، لأنه كان معروفا بأنه وغد لا يتورع عن خلق المشاكل لكل من حوله، سواء أكانوا أحياء أم جمادا.

لكن هذه المرة بدا واضحا أنه لن يتخلى بسهولة عن الفكرة التي رسخت في رأسه الملتوي الأشعث. ولما طال بقاء الثلج على الأرض على نحو لا مثيل له تلك السنة، وبدأ خطر المجاعة واضحا، راح يصيح مرة أخرى:

«تفضلوا وانظروا! ألم أقل لكم؟ إننا قوم كثيرون ولا نحتمل هذا العدد الزائد، ولهذا السبب نجوع، لو مات كبار السن، لتوافر الغذاء بكثرة».

وأخيرا سمع كبير الكهنة باقتراحات القيوط، فغضب وأراد أن يعاقب الوغد الشرير، لكنه تراجع وقرر أن يدعو لاجتماع لعله يبين للقيوط من خلاله كم يستقبح الجميع اقتراحه هذا، أو لعله تتاح له الفرصة ليقلع عن أفعاله الشريرة.

وهكذا اجتمع الهنود والحيوانات عند قدم الصخرة المقدسة، وجلس كبير الكهنة على جذل شجرة في أعلى المنحدر. ولما رفع رأسه ليخاطب المحتشدين، لامست عمامته كبد السماء. قال: «أيها الأبناء، لم أعد أطيق سماع نباح أخيكم القيوط، الذي لا يفتأ يقترح علينا أن نجلب الموت إلى هذه الدنيا. من أجل هذا دعوتكم للاجتماع. قولوا للقيوط رأيكم بفكرته، لعلكم تلقنونه درسا».

وراحت الحيوانات جميعا تتشاور بهدوء، بينما جلس القيوط وحده. وبين الفينة والأخرى كانت آذانه تشرئب فينهض ويهرول بين هذا وذاك علّه يسمع ما يقولون. وفجأة هتف:

«أيها الكاهن العظيم، لم أكن أقصد الأذى لأي كان. لكن ليس هناك ما يكفي من الطعام ولا نستطيع أن نحيا جميعا». وضافت عيناه الماكرتان حتى أصبحتا مجرد شقين صغيرين. «وما كان قصدي أبدا أن الذين يموتون يجب ألا يعودوا إلى هذه الدنيا». «إذن، ما الذي تقترحه؟» سأل السنجاب.

«سأقول لكم بشرط... لا أعرف. المشكلة أنه لا يثق بي أحد». «بل قل لنا، هيا»، حضه الهنود، وانكفاً كبير الكهنة إلى الأمام كي يسمعه أحسن:

«لا بأس، إذن»، قال القيوط. «أقترح أن نجعل ثقباً في السماء بحيث ينتقل إليه جميع الموتى إلى أجل غير مسمى. وعندما يتوافر الغذاء الكافي للجميع مرة أخرى، نعيدهم إلينا».

همهم الدب: «لكن لا توجد شجرة بهذا العلو الذي تقترحه». أجاب القيوط باعتداد: «لقد خططت لكل شيء؛ يمكن لأي سهم

هندي أن يصل إلى السماء، ثم نطلق سهمًا آخر لينضم إلى الأول،
فثالثًا ورابعًا، وهكذا حتى نصل السماء بالأرض. حينها يستطيع أي
واحد أن يتسلق صاعداً، أما النزول فهو أسهل بكثير».

وبدا اقتراح القيوط معقولا جدا. أما كبير الكهنة فقد ظن أن
الاقتراح محبوبك حبكا ماكرا، لكنه لم يجد اعتراضا عليه. ولاقت
الفكرة استحسانا حتى عند المتشككين. كان القيوط يبتسم
ابتسامة فاعل الخير، لكن آه لو عرفوا الحقيقة!

في هذه الأثناء انطلق الهنود ليحضروا ما يستطيعون حمله من
قوس ونشاب، ثم استعد أفضل الرماة للرمي.

وانطلق أريز أول سهم فوق رؤوسهم واخترق غيمة منخفضة،
وتلاه مباشرة سهم ثان، فشق السهم الأول حتى ريش الزينة، حيث
استوثق جيداً.

ونظرت الحيوانات بإعجاب بينما راح الهنود يظهرون مهارتهم
في الرمي. فلم يخطئ سهم هدفه. كان القيوط يتقافز هنا
وهناك، ويندس بين أرجل الرماة، فيعرقلهم ويسدي لهم نصائحه
كأنه هو الذي علمهم فن الرمي، وأخيرا وصل خط السهام الطويل
إلى الصخرة المقدسة؛ فنهض كبير الكهنة من مجلسه وشد
السهم ليختبر متانتها فبدت مستحكمة وقادرة على حمل مقدار
وزن دب.

كان الغسق قد حل، فأشار كبير الكهنة بيده للجموع إيدانا
بالانطلاق نحو بيوتهم:

«اذهبوا إلى مخادعكم الآن، لكن الموت سيكون معنا بدءا من
هذا اليوم، وكان هذا قراركم أنتم. والآن سأفتح منفذا في

الصخرة المقدسة ليخرج منه الموت، وعلى من يختاره أن يصعد إلى السماء ليبقى هناك إلى أجل غير مسمى».

وخيم الليل على البلاد، وكانت تلك الليلة الأولى التي تجول فيها الموت في بلاد الهنود، الليلة الأولى التي مات فيها غُريّر هرم في جحره، وصياد وحيد في كوخه، ونسر في وكره في أعالي الصخور. وسار الموتى في الظلام إلى الصخرة المقدسة، وقبل طلوع الفجر اختفى آخرهم داخل الثقب في السماء المرصعة بالنجوم.

ومر الوقت، وسرعان ما ملأ نحيب الثكالى الأرجاء، وذهب الكثير إلى كبير الكهنة يطلبون المشورة، لكنه كان هو أيضا عاجزا عن المساعدة في هذا الوقت. لكنه قال لكل عُوّاده:

«علينا أن نتنظر حتى تتخفض النجوم قليلا. أما والحال كهذه، فهي لا تستطيع أن تسمع نداءنا».

وليلة بعد ليلة ركز الناس والحيوانات نظره في السماء، مترقبين عودة الذين فارقوهم. ولم يتوار عن الأنظار سوى القيوط. فقد لازم جحره الذي صارت تصدر منه أصوات صرير غريبة، على حد قول الذين مروا به، فتساءلوا عما يفعله ذلك الوغد اللعين، لكنهم في الأغلب أجمعوا على أنه كان يخشى أن يخرج لئلا يعاقبوه على مزحته السمجة التي سببت كل هذه المشكلات.

إلا أن ذهنه المعوج تفتق عن خطة جديدة أكثر خِسَّة من سابقتها، فقد جلب القيوط أحجارا حادة الأطراف إلى جحره، وراح يقضي أياما طويلة يسن أسنانه عليها حتى تصبح أنيابه أمضى من فأس «التوماهوك» الهندية، وهذا ما يفسر صدور الأصوات الغريبة عن جحره.

وحين كاد القيوط أن يجرح لسانه بأسنانه، قرر في نفسه أنه فعل ما بوسعه استعدادا للمهمة التي تنتظره، ثم خرج بهدوء تحت جنح الظلام.

كان الليل في الهزيع الأخير، والسكون يطبق على كل شيء، فزحف القيوط خلسة إلى الصخرة المقدسة، ينقل مخالبه بحذر على الأرض حتى لا يدل على نفسه ولو بتحريك عشب ساكنة.

توقف عند أسفل المنحدر وأنصت. كان هناك سكون تام، ولا شيء يسمع سوى صوت الريح الليلية، وهي تصفر في أخاديد الصخرة. وهكذا لم يكن هناك ما يردعه عن تنفيذ خطته الشريرة. فوقف على رجليه الخلفيتين، وأطبق بأسنانه على السهم الأخير وراح يقضمه. وسرعان ما انهار الخشب الطري، لكن السهم الباقية ظلت مربوطة بالسماء بكل إحكام. وهذا ما أغضب القيوط، وفي غضبه راح يهز خط السهم بعنف، أملا في انتزاع السهم الأول من علاقته في الغيمة الفوقية.

وبالفعل حقق نجاحا موقفا، فقد تساقطت السهام من حوله محدثة ارتطاما مدويا، ووقع بعضها على ظهره، وصرخ القيوط من الألم.

وزحف عائدا إلى جحره مرضوضا مهشما. واندلعت الجلبة والصخب، مما أيقظ الدب، الذي أيقظ الآخرين، بمن فيهم كبير الكهنة، واكتشفوا ما حدث.

لكن ما عاد في اليد حيلة، فلن يستطيع الموتى أبدا أن يعودوا إلى أرض الأحياء ثانية.

فغضب كبير الكهنة ومن غير تردد أعلن حكمه على الجاني:
«عليك أن تغادرنا جزاء لك. لقد صبرنا عليك طويلا، عليك
تصلح سوء أفعالك، لكن من دون جدوى. والآن اخرج إلى المروج
حيث ستعيش منذ الآن وحيدا لكي تكف أذاك عن سواك».
ولما سمع القيوط الحكم وتبين له أن لا بديل أمامه، راح يَخْبُ
ذليلاً، وذيله يلتف بين ساقيه.

وتجول يوما كاملا، وربما أكثر، إلى أن استقر على مسافة
أميال في بقعة معزولة لا يقربها مخلوق حي. فقد كان شديد
الخوف من الكاهن العظيم.

وأخيرا بدأ يندم على أعماله الشريرة، ومنذ ذلك الزمن وهو
ينتحب ويتوسل إليهم أن يعيدوه. وعلى الرغم من أن توسلاته
كانت غالبا ما تصل إلى أسماعهم، فلم يشفق عليه أحد فيعيده.
فكما أنه جلب بلا مبالاة إلى هذه الدنيا الموت الذي لن يعود أبدا
إلى موطنه في الصخرة المقدسة، فكذلك اليوم يجزى.

النشيد الخالد

أقبل الليل ولف البلاد ظلام مطبق إلى درجة أنه لم يجرؤ
أحد أن يطل ولو بأنفه من خيمته . وحدها الريح كانت تتهد في
التلال البعيدة.

وعلى الرغم من ذلك كان هناك أناس يسرون على الطريق
المعشبة التي تحاذي نهر الأفاعي . كانوا يتقدمون بهدوء وحذر .
كانت قبائل الداكوتا تخوض غمار الحرب، وهنا فصيل من
المقاتلين يغذ السير لمباغطة العدو قبل انزياح الظلام.

والتزم المقاتلون البواسل بالصمت، تارة يسرون وتارة
يركضون، وأمامهم وخلفهم تسير دوريات مراقبة للاحتراس من
أي هجوم مباغت.

وترك نهر الأفاعي السهل وقادهم إلى أجمة صغيرة.
قال زعيمهم، متحدثا بصوت عالٍ لأول مرة: «دعونا نرتاح هنا .
هذا مكان معزول، ويمكننا أن نشعل نارا».

وخلال لحظة جاء المحاربون بقليل من عشب يابس ووَقْدَة،
وراحت النار تستعر في الحال . واتخذوا أمكنة مريحة حولها،
بعضهم يصلح نعله المتمزق، وآخرون يتفقدون عدتهم من قوس
ونشاب وفأس، بينما راح آخرون يعدون طعامهم.

في هذه الأثناء كان كبيرهم يروي لهم قصص معارك من عهود
غابرة ومغامرات غريبة خاضها أبطال مشهورون، قصصا تحكي
عن التعويذة الجبارة التي أنقذت العديد من الأرواح، وعن سترة

سحرية ردت سهام العدو إلى نحورهم، وعن فتيات حسان جئن
من أرض الظلال ليقتدن أشجع الشجعان إلى بلاد لا رجعة منها .
وأنصتت النار إلى هذه الحكايات العديدة، بينما كانت تلف
الأغصان الخضراء بدخانها الصامت، إلا أنها في تلك اللحظة
التي قام فيها هندي ذو شعر أبيض ليدعو دعاءه الرزين، زارت
وطقطقت، ناثرة الشهب حول المعسكر. بل إن شيئاً ما أغرب
من ذلك حدث في اللحظة ذاتها. سُمِعَ صوت نشيد آت من
الأشجار القريبة. وأخذ الصوت يتعالى، مائلاً الغيضة بلحن
شجي، ثم ما لبث أن انخفض ليمتزج مع عواء الريح بين
الأغصان.

«اطفئوا النار»، أمر الزعيم هامسا، وتقدم في الظلام متأهباً
لإطلاق نشابه.

وانسل القمر من بين الغيوم المتدحرجة، كأنه يلبي أمراً سرياً،
وأضاء بنوره الخافت جذوع الأشجار البيضاء. وسار المقاتلون
بحذر بين الأعشاب الطرية الندية، وهم يراقبون ظلال الأغصان
الملتوية التي تتأرجح مع الريح. واستمر النشيد، واتضح لتوه أنه
يأتي من شجرة دردار ضخمة ممتدة الأغصان قائمة على الطرف
الآخر للغيضة.

وشكل المقاتلون دائرة ثم تقدموا ببطء، وخطوة خطوة راحوا
يضيقون الدائرة. وازداد صوت النشيد الغريب علواً وحدة ثم ما
لبث أن توقف بصورة فجائية تماماً كما بدأ. وسار المقاتلون إلى
الشجرة العجوز، وجالت أنظارهم في الجذع الذي عاث فيه
الزمن، ثم استقرت عند الجذور المتشابكة.

وهناك رأوا كومة صغيرة من عظام مبيضة لمحارب مجهول،
وإلى جانب الجمجمة يرقد قوس مكسور، وعلى مسافة قريبة منه
تبعثرت عدة سهام.

وأخيراً قطع الزعيم الصمت الطويل، قائلاً: «إن الذي سمعناه
الآن وشاهدناه لبرهان على أن هذا هو المثلوى الأخير لمحارب
ضحى بحياته من أجل غيره. والآن لا يستطيع حتى الموت أن
يخمد صوته. إن نشيده يستمر حتى يصل إلى أسماع الأحياء
ويستوجب لديهم الرد المناسب. وهذا ما حدث، إنه لواجبنا الآن
أن نحمل النشيد ومغزاه عن أقدم واجب يدفعنا إلى التضحية
بأرواحنا من أجل الآخرين. إنه واجبنا نحن أن نظل نحفظ بهذا
النشيد في قلوبنا حتى يحين موعد رحيلنا إلى أرض الظلال،
عندئذٍ، سيعيش نشيدنا أيضاً إلى أزل الأزل. والسلام».

مبارزة كبير الأرواح مع رب البيض

قال القلموت بعد توقف قصير: «لقد تأخر الوقت وأنت متعب»، ثم أطلق نفثة من دخان. «وعليك أن تأوي إلى فراشك».

توسل الصبي: «لا، ليس بعد. ثم إن هنالك شيئاً أود أن أسألك عنه».

«حسن، هات أسأل، وعجل في السؤال، فقد أوشكت مؤونتي من التبغ أن تنفد، وتعب صوتي».

«أخبرني عن كبير الأرواح وأين يعيش».

«إن كبير الأرواح هو أقوى الأرواح لدى الهنود ويسكن في الخيمة العليا في السماء. مع ذلك، والحق يقال، قد يكون في كل مكان في الوقت نفسه».

«وهل استطاع أحد أن يغلبه أبدا».

«لا، لم يغلبه أحد. صحيح أن شاحبي الوجوه منذ سنين بعيدة خلت أرسلوا ربهم ليخرج كبير الأرواح من بلاد الهنود، لكن مانيتو خرج من المبارزة منتصرا».

«أرجوك أخبرني عنها»، طلب الصبي.

«حسن. سأخبرك القصة كما سمعتها من قبائل الهوران. وستكون هذه القصة ختام يومنا هذا. والآن استمع»:

كان كبير الأرواح يجلس على قمة الصخرة المقدسة عندما ظهر فجأة إله شاحبي الوجوه إلى جانبه.

قال مانيتو لضيفه بأدب جم: «أهلاً بك»، لكن القادم الجديد لم يتنازل ويرد التحية، بل طفق ينظر حوله وعلى وجهه نظرة كئيبة.

«لماذا لا تكلمني؟» سأل كبير الأرواح، فجاءه الرد:
«أنا أكثر منك جبروتا، وإني لمخرجك من هذا المكان!»
«ما عليك إلا أن تحاول، يا هذا!»

ولم يقل رب شاحبي الوجوه شيئا، بل ركع على الأرض وأخرج كتابا أسود وبدأ يهمس بشيء لم يفهمه كبير الأرواح. ولما طال الأمر على هذه الحال ولا شيء يحدث، قال مانيتو مقترحاً:
«لن نستطيع أبداً أن نتبارز على هذه الشاكلة. هل ترى الصخرة التي أجلس عليها؟» فهز رب البيض رأسه، شارد البال.
«إن الذي يستطيع إزاحتها قبل الآخر، هو الذي سيبقى في بلاد الهنود»، قال كبير الأرواح. «هيا جرب!»
وفتح إله شاحبي الوجوه كتابه مرة أخرى، ثم قرأ وقرأ حتى بلغ الصفحة الأخيرة ولم تتزحزح الصخرة قيد أنملة. فصاح وقلبه عامر بالحزن:

«هذا مستحيل!»

عندئذ نهض كبير الأرواح، فشمر عن ساعديه ثم دفع الصخرة بكل ما أوتي من قوة. وسُمع صوت ارتطام عظيم، وإذا بالصخرة قد تحركت مقدار وثبة ظبي.

فسأل مانيتو خصمه: «هل رأيت؟» لكن رب البيض قد ولى يركض لا يلوي على شيء، مثيرا خلفه زوبعة من الغبار، ولم ير له أثر في بلاد الهنود بعدها أبداً.

١٩٧٩

سول بيللو

طبق فضي

عن «ذي نيويورك»

ماذا تفعل حيال الموت - في حالة وفاة أب عجوز . لو كنت شخصاً عصرياً يبلغ من العمر ستين عاماً وقد خبرت الدنيا مثل وودي سلبست . ماذا تفعل؟ هل تأخذ بالبكاء تأخذ به ، على خلفية معاصرة . كيف يمكنك أن تأخذه على خلفية معاصرة ؟ هل تبكي على أب في التسعين من العمر؟ شبه أعمى ، ويعاني من تضخم في القلب ورئتين مليئتين بالماء ، يزحف ويتعثر وتفوح منه الروائح العفنة ، والغازية التي تفوح من الرجال العجائز . أعني كما يضعها وودي كن واقعياً ، فكر بالزمن الذي نحن فيه ، الجرائد اليومية التي تصل اليك - وطيار اللوفتهانزا في عدن ، وقد وصفه الرهائن وهو رাকع على قدميه يتوسل إلى الإرهابيين ، أن لا يقتلوه ، لكنهم يطلقون النار على رأسه ، فيقتل ثم يقتلون هم لاحقاً . وما يزال البعض يقتل البعض أو يقتلون أنفسهم . هذا ما تقرؤه في الصحف ، وتراه على شاشة التلفزيون وتحدث به على العشاء ، فنحن نعرف الآن ما يدور يومياً عبر كافة المجتمع الدولي مثل موجات من الموت تتعاقب لا ارادياً عبر العالم .

لم يكن وودي ، وهو رجل أعمال في ساوث شيكاغو انساناً جاهلاً ، بل كان يعرف من العبارات أكثر مما هو متوقع من متعهد قرميد (للمكاتب والقاعات

والمغاسل) أن يعرف .

وكانت نوعية معلوماته تختلف عن تلك التي تحصل عليها من الشهادات الأكاديمية ، على الرغم من أن وودي قد درس لسنتين في معهد اللاهوت استعداداً ليصبح كاهناً . إلا أن عامين من الدراسة في الكلية في ظل الركود الاقتصادي ، كانا أكثر مما استطاع معظم خريجي المدارس الثانوية تحمله ، بعد ذلك وبطريقته الحيوية الرائعة والأصيلة ، (كان والده العجوز مورييس أيام شبابه نشيطاً ورائعاً) ، قام وودي بقراءة عدة مواضيع ، واشترك في مجلة ساينس ، وعدة مجلات معلوماتية أخرى ، كما قام بدراسة عدة مسابقات في كليات دي بول ونورث وسترن ، شملت مواضيع في علم البيئة ، وفي علم الجريمة ، وفي الفلسفة الوجودية ، كذلك سافر كثيراً إلى اليابان والمكسيك وأفريقيا ، وكانت له تجربة في إفريقيا ترتبط خاصة بمسألة البكاء . سارت التجربة كما يلي : كان راكباً على متن زورق بخاري قرب شلالات مورشيسون في اوغندا ، عندما شاهد تمساحاً يمسك بعجل جاموس عند ضفة النيل الأبيض ، كان هناك زرافات تقف قرب النهر الاستوائي ، وكذلك بعض القروء وأفراس النهر وطيور الفلامنكو وعدد من الطيور الأخرى تواجه الهواء الصافي في حر الصباح ، كان العجل قد اقترب من النهر ليشرب عندما التقطه التمساح بأظلافه وجره إلى الأسفل . لم تستطع الجواميس الكبيرة أن تفهم ما حدث ، تحت الماء كان العجل ما يزال يتخبط ويقاوم ويمخض الطين . راقب وودي وهو الرحالة النشط هذا المنظر ، وبدا له أن أبوي العجل كانا يتساءلان ببلاهة عما حدث . اختار أن يفترض وجود ألم في هذا الأمر وقرأ فيه حزناً وحشياً على النيل الأبيض ، تكون لدى وودي انطباعاً بأنه قد عاد إلى الفترة الزمنية التي سبقت وجود آدم ، وحمل معه انعكاسات هذا الانطباع إلى شيكاغو . كما حمل معه أيضاً رزمة خشيش من كمبالا ، غامر بادخالها دون علم مفتشي الجمارك معتمداً على بنتيه العريضة ووجهه الصريح ولونه الراقي . لم يكن يظهر عليه بأنه فاعل سوء أو رجل شرير بل بدا رجلاً طيباً . كان مغرمًا بتحسين الفرص ، تثيره المغامرة . القى معطفه على طاولة مكتب الجمارك ، ولو قام المفتشون بتفتيش جيوبه لأنكر بأن هذا المعطف ملكه ، ولكن الأمر مر بسلام ، وكان ديك الحبش الذي قدمه ليلة عيد الشكر محشواً بالخشيش .

ولكم تمتعوا به . فقد كان هذا الاحتفال الأخير الذي يحضره بوب الذي كان يستطيب المغامرة والتحدي . الأ أن بذور الحشيش التي احضرها معه من افريقيا لم تلق نجاحاً حين زرعها في حديقته ، ولكنه اكتفى بباقة من الماريجوانا انبتها خلف مخزن بيته بقرب موقف سيارته اللينكولن كونتنتال . لم يكن وودي يؤدي أحداً ، ولكنه لم يكن يحب البقاء كلية ضمن حدود القانون . كانت المسألة بالنسبة له مسألة احترام للذات . بعد عيد الشكر ، اشتد المرض على الأب وكأنه اصيب بارتشاح بطيء ، واستمر هذا الحال لعدة سنوات ، قضاها داخل إلى المستشفى ، وخارجاً منها ، هزل جسمه وخرف ذهنه ، ولم يستطع التركيز بما فيه الكفاية ، حتى لكي يشكو همه ، ما عدا في لحظات استثنائية ، من أيام الأحاد ، التي كان وودي يخصصها له بانتظام ، ولم يعد مورييس وهو الهاوي ، الذي آمن به ويلي هوب الشهير وأخذه على محمل الجد ، يستطيع أن يضرب ابسط كرة بلياردو . كان يستطيع فقط أن يتخيل الضربات . أما هالينا المرأة البولندية التي عاش معها مورييس أكثر من أربعين عاماً ، كزوج وزوجة فقد أصبحت هي نفسها الآن أعجز من أن تستطيع المطاردة إلى المستشفيات ، لذلك اضطر وودي أن يفعل ذلك بنفسه . لكن كان أمام وودي أيضاً مسؤولية أمه وهي مسيحية متجددة ، بلغت الثمانين من العمر ، وتحتاج باستمرار إلى عناية وإلى متابعة في المشافي . الجميع يعاني من السكري وذات الجنب ، والتهاب المفاصل ، واعتماد عدسة العين ، ومنظمات القلب ، الجميع يعيش بأجساد آخذة في الانهيار .

كان لوودي اختان في الخمسين من عمرهما ، مستقيمتين وشديدتي التدين ، لم تتزوجا وبقيتا تعيشان مع أمهما في بيت كلي المسيحية . وودي يتحمل كامل مسؤوليته أمامهم جميعاً ، وكان عليه من حين لآخر أن يضع إحدى أخواته في مصح عقلي . لم يكن الأمر خطيراً ولكنهما أصبحتا مريضتين . كانتا أختين رائعتين وجميلتين يوماً ما ولكنهما كانتا مسكينتين لا تعرفان أصول اللعب . كان كل واحد في العائلة يملك معتقدات منفصلة عن الآخرين ، فالأم كانت مسيحية متجددة ، والأختين متشدتين في الدين ، أما الأب فقد ظل يطالع الصحف البيدية إلى أن فقد قدرته على القراءة ، وكانت هالينا كاثوليكية صالحة ، وظل وودي الذي خلف وراءه

أربعين عاماً في معهد لاهوتي ، يصف نفسه باللا أدري (اللا أدريّة هو مذهب يعتقد بأن وجود الله وأصل الكون هي أمور لا سبيل إلى معرفتها) ، لم يكن الأب يعتنق ديناً أكثر مما يقرّؤه في الصحيفة اليهودية ، ولكنه أجبر وودي على أن يقطع وعداً له بدفنه في مقابر اليهود ، وقد تم دفنه هناك بقميصه المصنوع في هاواي والذي اشتراه له وودي من معرض للأقمشة الحريرية أقيم في هونولولو . لم يسمح وودي لمعهد دفن الموتى بأن يلبسه اياه ، بل جاء إلى قاعة الدفن وادخل جسده المتيبس في القميص وزرره بنفسه ، وظهر العجوز خلال دفنه كأنه بن غوريون ، مسجى في تابوت خشبي لكي يتحلل بسرعة . هكذا أراد وودي أن يكون الأمر كله . عند القبر قام وودي بطي سترته ولف اكمامها لأعلى ذراعيه المنمشتين ، ثم حرك الجرار الذي يقف قرب القبر وهال عليه التراب بيديه .

كان وجهه ضخماً عريضاً من الأسفل وضيقاً في أعلاه مثل منزل هولندي ، أما أسنانه السفلى القوية ، فكان يعض بها شفته العليا كلما أجهده العمل ، لكنه أكمل واجبه النهائي في دفن والده كما يجب ، على كل ابن أن يفعل . كان جسمه عالي اللياقة ، لذلك لم يظهر الاحمرار في وجهه بسبب اجهاد التعب بل بسبب الاجهاد العاطفي . بعد الجنائز عاد إلى المنزل برفقة هالينا ، وابنها وهو بولندي محترم مثل أمه وموهوب أيضاً . يدعى ميتوش . كان ميتوش يعزف على الأرغن في الملاعب خلال مباريات الهوكي وكرة السلة . هذا الأمر يتطلب شخصاً ذكياً ، لأن العملية كانت مشوبة بالفوضى والهيّاج .

قاموا بصب بعض الأقداح وتعزية المرأة العجوز . كانت هالينا انسانة مخلصة كرسّت حياتها مئة بالمئة من أجل موريس .

انشغل وودي باقي الأسبوع بعدة أعمال منها مسؤوليات مكتبية ومسؤوليات عائلية . ويعيش لوحده كذلك زوجته وكذلك حتى عشيقته ، كل في مؤسسة منفصلة . يقوم بأعمال التسوق وشراء حاجيات زوجته كل يوم جمعة ، لأنها منذ انفصالها عنه قبل خمسة عشر عاماً لم تتعلم كيف تدبر أمرها بنفسها؟ كان يملأ لها برادها بالأطعمة ، وكان عليه أن يأخذها هذا الأسبوع لتبتاع أحذية . وكان يقضي مساء الجمعة مع هيلين . وهيلين هي زوجته الفعلية . يوم السبت كان وودي يقوم

بجولته التسوقية الأسبوعية الكبرى ، وفي المساء يكرس نفسه لأمه وإخواته ، لذلك بقي وودي مشغولاً جداً عن الاهتمام بمشاعره الخاصة فيما عدا بعض الملاحظات التي يكتبها لنفسه بشكل متقطع «أول خميس في القبر» : «أول جمعة والطقس لطيف» ، «أول سبت وعليه أن يعتاد على الأمر» وخلف تنهيدته كان يطلق أحياناً كلمة «أه يا أبي» .

لكن يوم الأحد كان صاعقاً بالنسبة له ، عندما تقرر أجراس جميع الكنائس جنوب شيكاغو ، الأوكرانية والكاثوليكية واليونانية والروسية والاصلاحية الإفريقية ، واحدة تلو الأخرى . كان مكتب وودي داخل مخزنه ، وقد بنى لنفسه في الطابق العلوي شقة واسعة ومريحة . لكنه كان قد نسي عدد الكنائس التي تحاصر شركة سيلبست للقرميد لأنه اعتاد ان يترك منزله في الساعة السابعة من صباح كل أحد ليقتضي نهاره مع أبيه ، كان ما يزال في فراشه عندما بدأ قرع الأجراس ، وشعر فوراً كم كان محروق القلب . كانت هذه الحرقه في القلب بالنسبة لرجل في الستين من العمر ، عملي ، نشيط صحيح الذهن وخبير في الحياة أمراً مؤلماً ، وعندما كان يصاب بهذا الألم كان يؤمن بتناول شيء ليسكنه . لذلك أخذ يفكر ماذا يتناول ، كان يملك العديد من العلاجات ، فقد كان قبوه مليئاً بصناديق الويسكي الاسكتلندي ، والفودكا البولندية والأرمانياك ونبذ الموسيل والبورغوندي . وكان يملك في ثلاجته العديد من قطع الستيك والصيد البحري وملك السرطانات الألاسكي . كان يشتري بسخاء ، بالصناديق وبالذينات . لكنه في النهاية عندما نهض من الفراش لم يتناول شيئاً سوى فنجان القهوة . وبينما كان الابريق يغلي ارتدى بدلة الجودو اليابانية الخاصة به وجلس يتأمل .

كان وودي يتأثر عندما تكون الأمور صريحة ، فدعائمه الارتكاز بالنسبة له كانت مكشوفة وصريحة ، وأعمدة الأسمنت الظاهرة للعيان داخل بنايات الشقق العالية ، كانت صريحة أيضاً . من السبب أن تقوم بالتغطية على شيء ، كان يكره التظاهر . فالحجر كان صادقاً . وكذلك المعدن . أجراس الكنائس يوم الأحد كانت مستقيمة جداً . حين تفلت من عقالها وتنازع وتضرب ذات اليمين وذات الشمال ، وكانتذبذباتها وضرباتهما تفعل له شيئاً ، تنظف دواخله وتنقي دمه . كان الجرس مثل مسار

الحلق يملك شيئاً واحداً ليبلغك ثم يبلغك . أما هو فكان يصغي .
كانت له بعض العلاقات مع الأجراس والكنائس ، فقد كان قبل كل شيء مسيحياً . ولد يهودياً ، وبقيت ملامح وجهه يهودية مع مسحة من الشيروكي . ولكن أمه تحولت قبل خمسين عاماً إلى المسيحية على يد زوج اختها القس د . كوفنر . كان كوفنر يدرس ليصبح حاخاما ولكنه ترك كلية يونيون العبرية في سينسيناتي ليصبح راهباً ويؤسس ارسالية تبشيرية وقام بتربية وودي تربية مسيحية . ولكن الأب كان على خلاف مع هؤلاء المتشددين وكان يقول ان اليهود يأتون إلى الارسالية ، ليشربوا القهوة ويأكلوا البيكن والأناناس المقلب والخبز الطازج ومنتجات الألبان ، وإذا توجب عليهم أن يستمعوا إلى الغطاس ، فلا بأس فالزمن كان زمن ركود ، ولا يمكن أن تكون كثير التطلب ، ولكنه كان يعلم أنهم يبيعون البيكن . لقد قال الانجيل بصراحة أن الخلاص سيأتي على يد اليهود . كان الدكتور الراهب يتلقى دعماً من الأغنياء المتشددين ، ومعظمهم من السويديين الذين كانوا يتعجلون الظهور الثاني عن طريق تحويل جميع اليهود إلى المسيحية . كان يقف في المقام الأول لمساندة الدكتور الكاهن ، السيدة سكوغلند التي ورثت مصلحة ضخمة للألبان من زوجها الراحل . وكان وودي تحت رعايتها الخاصة . كان عمره أربعة عشر عاماً عندما رحل أبوه مع هالينا ، التي كانت تعمل معه في دكانه تاركاً زوجته المسيحية المتشددة وابنه ، الذي عيّر ديانتها وابنتيه الصغيرتين .

جاء إلى وودي في أحد أيام الربيع وهو في الحديقة وقال له : من الآن وصاعداً أنت رجل البيت . كان وودي حينها يتمرن على لعب الجولف ويضرب بعضاته ، رؤوس نباتات الهندباء البرية في الحديقة . حضر والده إلى الحديقة ببذلته الأنيقة التي لم تكن تليق بحر ذلك النهار . وعندما خلع قبعته «الفيدورا» ، ظهرت علامة عميقة على جلدة رأسه ، وكان العرق يتصبب حولها بغزارة فاقت على عدد شعرات رأسه . قال : أنا راحل من هنا . كان يبدو قلقاً ولكنه عازماً على الرحيل . لم يعد هناك فائدة ، لا أستطيع العيش هكذا . من خلال منظوره للحياة كان الأب ببساطة يريد أن يعيش حياته حراً .

كان وودي يستطيع تصويره في قاعة بلياردو أو تحت حرف «ل» . في لعبة كراب أو

يلعب البوكر في الطابق العلوي مخزن براون وكوبلر . «سوف تصبح رجل البيت» قال الأب ، « لا بأس سأضعك على لائحة الإعانة » ، لقد عدت للتو من مكتب الإغاثة في شارع «وبانسيا» - لهذا كان يرتدي البذلة والقبعة .

- سوف يرسلون باحث حالات ثم اضاف عليك أن تقرضني بعض النقود ، لكي اشترى بنزين ، من نقود الجولف التي وفرتها .

فهم وودي ان والده لن يتمكن من الرحيل بدون مساعدته ، لذلك أعطاه كل ما كان قد حصل عليه ، من نادي صن ست ريدج للغولف في وينتكا . أحس الأب أن درس العمر الذي أعطاه له هو أضمن بكثير من تلك الدولارات ، وكلما اراد تملق ابنه ، كان يتصنع تعبيراً كهنوياً رفيعاً على وجهه المتورد ذو الأنف الملتوي . كان الأطفال الذين غالباً ما يأخذون تعابيرهم من أفلام السينما ينادونه باسم ريتشارد ديكس . ولاحقاً عندما ظهرت المسلسلات الكوميدية قالوا عنه ديك تريسي .

وكا أصبح وودي يراها الآن ، تحت تأثير اجراسه المتهورة . فقد مهد الطريق لنفسه للهجرة - ها ها - وجد أن الأمر مبهجاً وخاصة موقف أبيه القائل : هذا سيعلمك كيف تثق بأبيك ، فقد كان الموقف دليلاً في صالح الحياة الحقيقية والغرائز الحرة مقابل الدين والنفاق الكاذب ، ولكنه كان موجهاً بشكل رئيسي ضد شخص احمق ، مدقع في الحماسة . كان الأب يحتقر الكاهن د . كوفنر ، ليس بسبب كونه مرتدأ عن دينه ، (لم يكن يهتم بهذا مطلقاً) ، وليس بسبب كون ارساليته موجهة لابتزاز الأموال (اقر الأب بأن الكاهن د . كوفنر كان شخصاً أميناً) ، ولكن لأن د . كوفنر كان يتصرف بحماقة ويتكلم كأحمق ويتصرف مثل انسان عابث . كان يرفع شعره مثل باغانيني ، (هذه اضافة من وودي ، فالأب لم يسمع في حياته عن باغانيني) ، ولعل ما يثبت انه لم يكن قائداً روحياً هو أنه كان يحول النساء اليهوديات إلى المسيحية من خلال سرقة قلوبهن . كان يملك خبرة في ذلك ، قال الأب ، ولا يعلم هو نفسه بأمرة . وأقسم أنه لا يعلم من أين جاءته .

على الطرف الآخر كان كوفنر يحذر وودي دائماً : ان أباك شخص خطر ، بالطبع انت تحبه ، عليك أن تحبه وتسامحه يا فودرو ولكنك أصبحت كبيراً بما فيه الكفاية ، لكي تدرك أنه يسير في طريق الخطيئة .

كان الموضوع كله تافهاً ، فخطايا الأب كانت صبيانية ، لذلك تركت انعكاساً كبيراً ، على صبي وأم ، هل الزوجات أطفال أم ماذا؟ كانت أمه تقول دائماً : أمل أن تشمل هذا البهيمي في صلواتك ، انظر إلى ما فعله ولكن صلي لأجله فقط ولا تراه . ولكن وودي كان يراه معظم الوقت ، فقد كان وودرو نفسه يعيش حياة بوجهين . وجه مقدس ووجه دنس . فهو قد تقبل يسوع المسيح كمخلصه الشخصي . وقامت العمة ريبيكا باستغلال هذا الوضع واجبرته على العمل تحت امرتها . كان يعمل بواباً للإرسالية يبيت في سكن الأرسالية ، وفي الشتاء كان عليه أن يعبئ موقد الفحم ، حتى أنه نام عدة ليالي على طاولة الحوض قرب غرفة الموقد . كما كان عليه أن يحمل قفل غرفة المستودع أيضاً . يتناول الأناناس المقلب ويقطع شرائح البيكن المدخن بسكينه ، يحشي معدته بالبيكن غير المطبوخ . إذ أن لديه جسداً ضخماً لكي يملؤه .

الآن فقط وهو يحتسي القهوة المليتا سأل نفسه : هل كان حقاً جائعاً إلى هذا الحد؟ كلا ، ولكنه رغب أن يكون طائشاً . وعندما كان يستل سكنية ويقف على صندوق ليصل إلى قديد البيكن ، ويقا تل العمة ريبيكا . لم تكن هي لتعرف من الذي يسرق؟ ولا يمكنها أن تثبت أن وودي ذلك الصبي الصريح الطيب والقوي ، الذي ينظر اليك مباشرة في عينيك ، كلص أيضاً . ولكنه كان لص أيضاً . وكلما نظرت اليه ، علمت انها ترى أباه فيه ، في التواء أنفه وحركات عينيه وكثافة جسده ، كما كانت ترى في وجهه العفي ذلك الشرير المتوحش «موريس» .

كان موريس ، كما ترون ، ابن شوارع في ليشربول ، وكانت أم وودي وأختها بريطانيتي المولد . وكانت عائلة موريس قد تخلت عنه وهي في طريقها إلى أمريكا لأنه أصيب بالتهاب في عينيه . وكان يمكن أن يتسبب في اعداتهم من جزيرة اليس . توقفوا لبعض الوقت في انكلترا ، ولكن عينيه بقيتا تدمعان ، فقاموا بالتخلص منه ، وغادروا إلى أمريكا واضطر هو أن يعيش لوحده في ليشربول ولم يزد عمره حينها عن اثنتي عشر عاماً . أما أمي فجاءت من أصل طيب . كان الأب ينام في قبو بيتها ثم وقع في غرامها ، وحين صار في عمر السادسة عشر حل مكان أحد البحارة المضربين . وشق طريقه عبر الأطلسي ثم قفز من السفينة في بروكلين وهكذا أصبح أميركياً ،

دون أن تعلم أمريكا به ، مارس التصويت دون أوراق ثبوتية . وقاد السيارات بدون رخصة قيادة ، ولم يدفع أية ضرائب ، ولم يترك زاوية الا وطرقها ، تشعبت اهتماماته في حياته وبشكل تصاعدي من الخيل إلى ورق الشدة ، إلى البلياردو ثم إلى النساء . هل أحب أحدهن؟ «كان مشغولاً جداً؟ نعم أحب هالينا وأحب ابنه ، وحتى تاريخ اليوم ظلت أُمي تعتقد أنه أحبها أكثر من الجميع» ، ولطالما رغب بالعودة ، أعطاه هذا الاعتقاد فرصة للتصرف مثل ملكة ، بمعصميتها الممثلين ووجهها الشاحب الذي يشبه وجه الملكة فيكتوريا . وقد أوصت البنات بعدم ادخاله إلى البيت . كان تقول : امبراطورة الهند تتكلم .

ظلت روح وودرو التي قصفتها الأجراس تطوف صباح هذا الأحد جيئة وذهاباً نحو الماضي ، نحو أعالي زاوية مخزنة المحفوفة بالأصالة - نحو الأجراس التي تروح وتجيء ، معدن فوق معدن إلى أن تمتد دائرة الأجراس فوق جميع معامل الفولاذ ، ومصافي النفط ومصانع الطاقة في أواسط خريف جنوب شيكاغو ، حيث يتوجه جميع ، الكرواتيين والأوكرانيين واليونانيين والبولنديين والسود المحترمون نحو كنائسهم ليستمعوا إلى القداس أولينشدوا الأناشيد الدينية . كان وودي منشداً جيداً وما زال يحفظ الترانيم حتى اليوم ، يقوم بالشهادة أيضاً حين ترسله العمة ربيكا لينهض ويتحدث في كنيسة مليئة بالمهاجرين من الدول الأسكندنافية ، عن كيفية تقبله وهو الصبي اليهودي الإيمان بيسوع المسيح . كانت تدفع له مقابل هذا خمسين سنتاً . كانت هي التي تقوم بانفاق الأموال ، وهي كاتبة الحسابات وهي المسؤول المالي والمدير العام للارسالية ، لم يكن الدكتور الكاهن يعلم شيئاً عن سير العمل . كان دوره يتلخص في اثاره حماسة الناس فقد كان واعظاً رائعاً واصيلاً . ولكن ماذا عن وودي نفسه ، كان لديه ايضاً بعض الحماسة ومقرباً من الدكتور الكاهن ، وقد علمه الأخير كيف يرفع عينيه وله الفضل في تعليمه هذا المستوى الأعلى من الحياة ، وكان الباقي هو شيكاغو - طرق شيكاغو التي أصبحت طبيعية لدرجة أن أحداً لم يعد يجادل فيها .

فعلى سبيل المثال ، في عام ١٩٣٣ (أيام قديمة ، وأي قديمة) ، وفي المعرض العالمي لتقدم القرن وعندما كان وودي ما يزال غضاً يجر عربة صغيرة بدولابن ، ويركض

بقدميه القويتين ، مرتدياً قبعة القش الصغيرة فيما المزارعون الحمر المفتولي العضلات - ركابه السكارى - يسخرون منه ضاحكين ، ويطلبون منه جلب بنات الهوى ، كان هو على الرغم من كونه طالباً في السنة الأولى ، بكلية اللاهوت ، لا يرى خطأ عندما تسأله الفتيات أن يدبر أمرهن بمواعيد أو أن يتقبل البقشيش من الطرفين . فقد كان يتعانق في غرانت بارك مع فتاة قوية ، اضطرت أن تعود إلى البيت بسرعة لارضاع طفلها . ركبت بجانبه في العربة باتجاه الويست سايد ، كانت رائحة الحليب تفوح منها وهي تضغط على مقبض العربة ، حتى بللت سترتها . كانت هذه عربة شارع روزفلت . ثم وفي الشقة التي تعيش فيها مع أمها لا يتذكر وودي أنه شاهد أي زوج هناك . ما تذكره فقط هو رائحة الحليب القوية . وبدون أن يشعر بأي تناقض وفي اليوم التالي ، قرأ في العهد الجديد باليونانية - النور يشع في الظلمات والظلمات لم تدركه .

وطوال الفترة التي قضاها مهرولاً بين قصبات الأسواق ، كانت تخامرهم فكرة وحيدة ، ليس لها علاقة بهؤلاء الأقوياء الشبقيين الذين يريدون قضاء وقت ممتع في المدينة . ولكن الهدف والسبب والتصور (لم يكن يستطيع تفسير سبب فكرته هذه فكر الدلائل كانت ضدها) . كان يتضمن فكرة الله التي مفادها بأن يكون هذا العالم عالم محبة ، وأنه سيعيد هذا الأمر في النهاية ويصبح برمه عالماً للمحبة . لم يكن ليبوح بهذا الأمر لمخلوق ، لأنه كان يرى شدة غبائه في هذا الأمر ، كان أمر خاص وغبي . وفي نفس الوقت كانت العمة ربييكا على حق ، عندما قربت فمها من أذنه وقالت له بشكل شخصي : أنت أرعن صغير مثل أبيك .

كان هناك ما يشهد على هذا الكلام ، أو ما يمثل شاهداً بالنسبة لانسان عجول مثل ربييكا . نضج وودي بسرعة - كان مضطر لذلك - لكنه ظل يتساءل : كيف تتوقعون من شاب في السابعة عشرة من العمر أن يقوم بتفسير وجهة نظر ومشاعر امرأة في أواسط العمر؟ قامت بازالة ثدييها مثل ربييكا؟ أخبره موريس أن هذا الأمر يحصل فقط مع النساء اللواتي تعرضن للاهمال ، وهو يعتبر نذير لهن . كما أخبره موريس بأن الأثداء التي لم تداعب بالتقبيل ، والتدليل تبقى عرضة للاصابة بالسرطان . كان هذا هو ما يسمى نداء الجسد وبدا ذلك صحيحاً . لوودي . وعندما

حاول أن يطابق هذه النظرية في مخيلته على الدكتور الكاهن ، وجدها مطابقة - فلم يكن يستطيع تخيل الدكتور الراهب وهو يداعب ثديي ربيكا . أبقت نظرية موريس ، عينا وودي تنتقلان من الأثداء إلى الأزواج ومن الأزواج إلى الأثداء ، وما زال يفعل ذلك . يتطلب الأمر رجلاً استثنائياً في ذكائه كي لا يتأثر طوال حياته بنظريات والد وودي الجنسية ، ولم يكن وودي يحمل هذه الصفات .

وكان يعرف ذلك ، شخصياً كان يخرج عن طريقه ، وهو يحاول ان يفعل مع النساء ، بهذا الخصوص ما يعتبره صحيحاً . ما تتطلبه الطبيعة . كان هو وأبوه رجلين صلبين عاديين . ولكن احداً مهما بلغت صلابته ، لا يستطيع تجنب التفكير بهذه الأمور الممتعة .

الكاهن الدكتور يعظ ، وكانت ربيكا تعظ ، وكذلك السيدة سكوغلند الثرية كانت تعظ في ايقانستون ، وكانت أمه تعظ وكم كان أبوه يخطب في الهواء الطلق . كان الجميع كذلك ، الفوضيون ، الاشتراكيون ، الستالينيون ، دافعوا الضرائب ، الصهاينة واتباع تولستوي والنباتيون والوعاظ المسيحيون المتشددون - من تشاء ، قوة عضلية ، أمل ، طريقة للحياة أو الخلاص ، احتجاج ... لماذا تنفلت مكابح أوجاع الناس من جميع الأعمار حين يتم غرسها في أمريكا؟

وتلك المهاجرة السويدية الرقيقة (اوسي كما يلفظون اسمها) ، والتي كانت تعمل طباحة لدى عائلة سكوغلند ، ثم تزوجت ابنهم الأكبر واصبحت فيما بعد أرملة الغنية المتدينة - كانت تناصر الدكتور الكاهن . لا بدّ أنها تربّت لتصبح فتاة كورس . يبدو أن النساء قد فقدن سر رفع شعرهن ، على شكل الجديلة الرفيعة المستوى التي كانت تضعها ، كانت اوسي تولي وودي رعاية خاصة وتدفع قسط دراسته في معهد اللاهوت وقال الأب

في يوم الأحد هذا ، الذي يعمه السلام فور عودة الأجراس إلى الهدوء ، وينفرد بساطه الخريفي باكتف وأجمل عشب حريري أخضر قبيل حلول الصقيع ، ويصبح الدم في رثتيك اشد حمرة ، مما يستطيع هواء الصيف المغمم بالأوكسجين ان يفعل . كما لو أن الحديد في جسدك كان متعطشاً له . حتى رعدة البرد في كل لهثة من أنفاسك . والأب - ستة أقدام تحت التراب لن يحس بهذه اللسعة السعيدة ، مرة

أخرى . كان آخر الأجراس قد ترك الهواء المشرق يتموج اهتزازاً .
في عطلة نهاية الأسبوع ، تعود شواغر السنوات المؤسسية إلى المخزن وتزحف تحت
بوابة شقة وودي . كانت تبدو فارغة في أيام الأحاد كما الكنائس خلال الأسبوع .
قبل أن يبدأ عمل النهار .

وقبل أن تتحرك الشاحنات والجماعات ، كان وودي يمارس رياضة الركض لمسافة
خمسة أميال مرتدياً سترته «الأديداس» . ولكن ليس في هذا اليوم المخصص للأب
رغم أن الطقس كان مغرياً للخروج ونفث الأحزان عن الصدور المثقلة . تضايق وودي
كثيراً هذا الصباح بسبب كونه وحيداً . أخذ يفكر أنا وهذا العالم - العالم وأنا .
بمعنى أنه كان يوجد دائماً ما يفعله في يوم مثل هذا بعض النشاط ليتسلى به ، نزهة
أو زيارة ، رسمة يرسمها (كان هاو وخلاق) ، بعض التدليك ، أو وجبة طعام - شيئاً
يضعه درعاً بينه وبين تلك الوحدة المزعجة التي تعامل العالم وكأنه مستودع لها -
ولكن الأب - يوم الخميس الماضي ، اضطر وودي أن ينام بجانب الأب على سرير
المستشفى ، لأنه ظل ينتزع ابر المصل الذي تغذي شرايينه . كانت الممرضات يعدن
غرزها مرة بعد الأخرى إلى أن أدهشهم وودي جميعاً ، حين تسلق السرير ليثبت
العجوز من ذراعه - بالهون يا موريس ، بالهون ، ولكن الأب ظل يكافح بوهن محاولاً
نزع البرابيج . عندما توقف قرع الأجراس ، لم يلاحظ وودي ان بحيرة من الهواء قد
غطت مملكته في مخزن سيلبست للقرميد . ما رآه وسمعه ، كان مركبة حمراء قديمة
من مركبات شوارع مدينة شيكاغو . من النوع الذي يشبه لونها لون تلك الثيران المعدة
للذبح . تلك الأنواع من المركبات التي كانت تسير قبل بيرل هاربر ، ببطنها الضخم
وقرعتها ومقاعدھا ، المتينة المصنوعة من الروطان ومقابضها النحاسية التي يتمسك
بھا الركاب الواقفون ، كانت هذه السيارات تقف في أربع محطات كل ميل . وتسير
وكأنھا تتخطب تخبطاً في حركتها . وكانت تطلق روائح ننته من الكاربوليك أو
الأوزون ، وترتج عندما يتم شحن ضاغطات الهواء ، كان موصل الكهرباء فيها يُشدّ
بواسطة حبل اشارة معقود لسحبه ، بينما سائقھا يضرب قرص القدم بأكعابه
الغاضبة .

تذكر وودي نفسه وهو يركب السيارة مع أبيه في شارع الويسترن وسط عاصفة

ثلجية عنيفة ، كان الاثنان يرتديان معاطفهما الصوفية ، وقد تسلخت يديهما ووجهيهما بينما الثلج يعصف بالجنح الخلفي ، وعندما فتحت الأبواب وعبروا الأرضية المعدنية الطولية ، لم يكن في السيارة دفء كافٍ لاذابة الثلج وكان شارع ويسترن اطول خط سيارات في العالم كما كان يقول المتحمسون ، وكأن الأمر يستحق المفارقة . كان طوله ثلاثة وعشرون ميلاً وقد صنع وفق مخططات مرسومة لينتهي في مربع على شكل حرف T تحيط به المصانع والمخازن والمخارط وساحات السيارات المستعملة ومباني ايواء العربات ومحطات الوقود وصلالات الدفن وبنائات الخدمات ذات الست طوابق وساحات السكراب وهكذا ، من المروج الجنوبية حتى ايقانستون في الشمال . كان وودرو وأبيه متجهين إلى شارع هوارد في ايقانستون لرؤية السيدة سكوغلند . وعند نهاية الخط كان عليهم السير على أقدامهم مسافة خمسة صفوف من البنائات . وكان الهدف من الزيارة جلب بعض النقود للأب . كان أبوه قد أقنعه بمساعدته في ذلك رغم غضب الأم والعمة ربيكا لو اكتشفتا الأمر ، ولكن وودي كان مكرهاً على الأمر وخائف .

جاء اليه موريس وقال له :

- يا بني لدي مشكلة سيئة .

- ما السيئ فيها يا أبي ؟

- لقد أخذت هالينا من نقود زوجها لأجلي وعليها أن تعيدها قبل أن يفتقدها بوجاك العجوز ، فقد يقتلها لو عرف .

- ولماذا فعلت ذلك؟

- يا بني أنت تعلم كيف يجمع وكلاء المراهنات المال ، يرسلون شخصاً ليرؤّعك ، سوف يشجون رأسي إلى نصفين إذا لم أدفع .

- أنت تعلم يا أبي بأني لا أستطيع أخذك إلى السيدة سكوغلند .

- ولم لا؟ أنت ابني أليس كذلك؟ والمرأة العجوز تريد أن تتبناك ، أليس كذلك؟ ألا يجوز أن أحصل على شيء منها لحل مشكلتي؟ هل أنا - شخص غريب؟ وماذا عن هالينا؟ فقد راهنت بحياتها من أجلي وها هو ابني يرفض مساعدتي .

- آه ، بوجاك لن يؤذيها .

- سوف يضربها حتى الموت يا وودي .

كان بوجاك قصير القدمين ، يتشابه لون عينيه مع لون ثياب العمل الرمادية القائمة التي يرتديها . تتركز كل قوته في ذراعيه الأماميتين الماهرتين في طرق المعادن ، واصابعه السوداء التي تشبه المعدن . كان بوجاك خدوماً ولكن الأب يقول أنه يملك بداخله عنفاً كبيراً ، يملك مرجل فولاذ يغلي داخل صدره الضيق . لم يكن وودي يرى أي عنف فيه على الإطلاق ، فلم يكن بوجاك رجلاً يحب المشاكل . وإذا كان لا بد من وجود أمر فهو خوفه من أن يتأمر موريس وهالينا لقتله .

ولكن الأب لم يكن بقاتل مأجور ، وهالينا كانت امرأة هادئة وجدية كان بوجاك يحتفظ بمدخراته في القبو ، (كانت البنوك في حالة افلاس) ، وكان اسوأ ما يمكن أن يفعلاه هو أن يأخذوا بعض النقود بنية إعادتها ف يما بعد . ويرى وودي أن بوجاك كان عاقلاً ، متقبلاً بليته بهدوء . كان يتطلب من هالينا الحد الأدنى من الخدمات . طبخ الطعام وتنظيف المنزل وإظهار الاحترام ، ولكنه وقع خطأ أمام مسألة السرقة ، لأن النقود أمر مختلف ، وتعتبر بالنسبة له أمراً حيوياً ومادة أساسية . فإذا قاما بسرقة مدخراته فقد يقوم من باب الاحترام لهذه المادة ، ولنفسه بعمل شيء . ولكن لا يمكنك أن تجزم بأن الأب لم يقم باختراع قصة محصلي ، وكلاء الرهان والسرقة والوعيد - وحتى القصة كلها . فقد كان قادراً على ذلك ، وستكون أحمقاً إذا لم يساورك الشك فيه . كان موريس يعلم بأن الأم والعمة ريببكا قد أخبرتا السيدة سكوغلند عن شروره - فقد صورته لها بالألوان ، اللون الأرجواني كناية عن الشر . واللون الأسود كناية عن روحه السوداء ، واللون الأحمر للهب الجحيم - صورته لها مقامراً مدخناً سكيراً زانياً وثنياً وهاجراً لامرأته . لذلك كان الأب ينوي أن يصل إليها . وكان الأمر يشكل خطراً على الجميع ، كانت مصاريف الدكتور الكاهن تغطى من قبل السيدة سكوغلند ، وكانت هذه الأرملة تدع أقساط معهد وودي كما كانت تشتري الثياب للأختين الصغيرتين .

أصبح وودي الآن في الستين ، ذو جسم ملآن وضمخ ، شبيه بصورة المنتصر في المادية الأمريكية . فيها هو يغوص في كرسيه الضخم ويتحسس بين أصابعه جلد مساند ذراعيها الأنعم من بشرة امرأة متحيراً ومشوش الذهن في أعماقه ، بسبب

بعض الوصمات في داخله . ووصمات من الضوء في دماغه ووصمة تختلج في صدره ، هي مزيج من الألم والمتعة (كيف وصلت إلى هناك) ، وقد تغضن الجلد بين عينيه نتيجة للتفكير الشديد تاركاً أثراً لصداع جانبي . لماذا رضي أن يسير على طريقة الأب؟ لماذا وافق على لقائه ذلك اليوم في مؤخرة غرفة حوض الأشباح المعتمة؟

- ولكن ماذا ستقول للسيدة سكوغلند؟

- المرأة العجوز؟ لا تقلق لدي الكثير لاخبرها به ، وكله حقيقي ، الست أحاول ان انقذ دكان التنظيف ، والغسيل الصغيرة التي أملكها؟ ألن يأتي رسول المحكمة لتثبيت الأمور في الأسبوع القادم؟

أخذ الأب يتدرب على نفحات صوته داخل سيارة ويسترن افنيو . يعتمد على نصارة وودي وعافيته ، ان هذا الصبي الذي ينظر في عينيك مباشرة مناسب جداً لدعم حجته .

هل ما تزال عواصف الشتاء في شيكاغو كما كانت عليه؟ بدت هذه الأيام أقل شراسة . كانت العواصف الثلجية تهبط عليهم مباشرة من أونتاريو . من القطب الشمالي جالبة معها الثلج على ارتفاع خمسة أقدام بعد الظهر . بعد ذلك تخرج الآليات الصدئة الخضراء من محطاتها ، بفراشيها التي تدور على الجانبين ، لتنظف الشوارع من الثلج ، تتبعها عشرة أو اثنتي عشر سيارة ببطء ، أو تنتظر وراءها من صف إلى صف . كان هناك تأخير طويل عند بوابات ريفرفيو بارك ، جميع الألعاب الآلية تم تعظيمها بسبب الشتاء ، لعبة ظهر التنين ، آلات الرقص . الأنابيب الملتوية ولعبة اللف والدوران . كلها تم تجميعها من قبل الميكانيكيين والكهربائيين ، رجال مثل بوجاك ، صانع الآلات الماهر في شؤون المحركات . كانت العاصفة قد بدأت تضرب خلف الأبواب ولم تعد تستطيع أن ترى بعيداً ، فقط بعض المصابيح التي كانت تشتغل فوق امتداد الأسبجة . عندما مسح وودي البخار عن الزجاج ، كانت اسلاك شبك حماية النوافذ تنوء تحت ثقل حبات الثلج المتساقطة . وكان الناظر إلى الأعلى يستطيع رؤية تتابع الرياح وهي تندفق من الشمال . كان يجلس في المقعد أمامهم اثنان من عمال تحميل الفحم ، بخوذهم الجلدية وقد وضعوا مجارفهم بين أرجلهم في طريق عودتهم

من العمل . كانت تفوح منهما رائحة العرق والفحم وأكياس الخيش عابقة بالغبار الأسود الذي يلمع على أجسادهم هنا وهناك .

لم يكن هناك الكثير من الركاب ، فالناس لا تغادر بيوتها في مثل هذا الجو . مثل هذا اليوم يصلح لأن تجلس وتلصق رجلك بالمدفأة ، مغلقاً أبوابك الداخلية والخارجية . فقط شخص يعرف كيف يحتال للحصول على بغيته مثل الأب يمكن أن يخرج ويناطح هذا الجو . عاصفة مثل هذه قد تخرج عن نطاق البوصلة ولكنها لا تخرج عن نطاق ميزان بشري يضع خطة للحصول على خمسين دولاراً ، خمسين عسكرياً ، نقود حقيقية عام ١٩٣٣ .

- ان هذه المرأة مجنونة بك ، قال الأب :

- انها امرأة محترمة ولطيفة معنا جميعاً .

- من يعلم ماذا يدور في مخيلتها ، أنك صبي قوي ، لست أي صبي .

- أنها امرأة متدينة ، وتعرف دينها جيداً .

- حسناً ، ليست امك هي الوحيدة التي تدعى أهلك ، لن تقوم هي وربيبكا وكوفنز بحشوك بأفكارهم . أنا أعلم أن أمك تريد أن تمسحني من حياتك ، وإذا لم أمد لك يدي ، فلن نستطيع أن تفهم ماهية هذه الحياة . لأنهم لا يفهمون الحياة - هؤلاء المسيحيون السخفاء .

- نعم يا أبي .

- لا أستطيع أن اساعد الفتيات بشيء ، فهما ما تزالان صغيرتين . أسف لذلك ، ولكنني لا أستطيع أن أفعل لهما شيئاً ، الأمر مختلف معك .

- كان يريدني أن أصبح أمريكياً مثله .

أخترتهم العاصفة ، بينما كانت القاطرة الشبيهة بلون قطيع البقر تنتظر ربطها بالعربة ، وسط هذه الريح المجنونة التي تعصف وتدوي هائجة . عند شارع هوارد . كان عليهم أن يسيروا مشياً على الأقدام باتجاه الشمال .

- أنت ستبدأ بالحديث أولاً ، قال الأب كان وودي يملك قدرات بائعي المتاجر أو بائعي البسطات . وكان مدركاً لذلك حالما أخذ يقف على قدميه في الكنيسة ، ليشهد أمام خمسين أو ستين مستمعاً . ورغم أن العمة ريببكا كانت توفيه حقه في

قدرته على ذلك ، إلا أنه كان يشعر أن قلبه هو يتأثر حين يتحدث في الإيمان ، ولكن قلبه هذا كان يغيب أحياناً ودون انتباه ، بينما هو يتكلم عن الدين . ولم يكن يستطيع أن يعثر عليه في أي مكان . وبغيا بقلبه كانت سلوكياته الجادة تفتح له طريقه . وكانت يعتمد في ذلك على وجهه وصوته وعلى مسلكيته ، ثم تبدأ عيناه بالاقتراب من بعضهما البعض أكثر وأكثر . وعندها كان يشعر بمسحة من نفاق تهب عليه ، حتى يكاد وجهه يخونه عندما يلويه . كان الابقاء على ملامح الصدق . يأخذ منه كل جهده ، لذلك عندما لا يعود باستطاعته تحمل هذه السخرية يقع في مطب العيب . ومن هذا الباب كان الأب يدخل مباشرة عبر كل هذه الحقول المتقطعة فجوة فجوة . حتى يصل اليه بأنفه الملوي . ووجهه العريض . فيما يتعلق بالأب لا يمكنك أن تفكر على أسس الصدق واللاصدق ، فالأب كان مثل الرجل الذي تقول عنه الأغنية - يريد ما يريد عندما يريد - . كان الأب مادياً ومستهلكاً وجنسياً . وحين يريد أن يتكلم بجدية ، يحدثك عن موضوع غسل تحت الأبطين ، أو ما بين الرجلين أو تجفيف اصابع قدميك ، أو طبخ العشاء أو البصل ، أو جولة بوكر ، أو عن حصان معين في السباق الخامس في أرلنغتون . كان الأب يمثل عناصر الطبيعة ولذلك كان غالباً ما يريحك من تعقيدات الدين وتناقضاته . هنا كانت الأم تعتقد نفسها روحانية . ولكن وودي كان يعلم أنها كانت تخدع نفسها . طبعاً بالنسبة للعقلية الانجليزية ، لم تكن تستسلم أبداً وكانت دائماً تحدث الله أو تتحدث عنه - ارجوك يا الهي - ان شاء الله - سبحانه الله . ولكنها كانت امرأة واقعية متواضعة تقوم بمهامها الواقعية ، مثل اطعام الفتيات وحمايتهن وتهذيبن والحفاظ على طهارتهن . وقد كبرت هاتان الحمامتان حتى افرطتا في الوزن وثقلت أوراكيهما وأفخاذهما ، وأصبحت وجوههما تظهر طويلة وهزيلة واختل عقلهما - كانتا طبيبتين ولكن الاختلال كان واضحاً ، كانت باولا مرحة في سداجة وهبل أما جوانا فكانت تنتابها نوبات احباط .

- سوف أفعل ما أستطيع لأجلك ولكن عليك أن تعدني بأن لا تخرجني أمام السيدة سكوغلند .

- انك قلق لأن لغتي الانجليزية سيئة؟ هل أخرجك؟ إن لدي لهجة مقلدة .

- ليس هذا ولكن لهجة كوفتر ثقيلة وهي لا تمانع في ذلك .
- بحق الجحيم! من يكون هؤلاء المعتوهين ليتكبروا علي . أنت عملياً أصبحت رجلاً ، ولوالدك الحق أن يطلب منك المساعدة ، انه في أزمة وانك قد احضرته إلى بيتها لأن قلبها كبير وليس لك أحد تلجأ اليه .
- لقد فهمت فصدك يا أبي .

وقف الرجلان اللذان يعملان في الفحم عند شارع ديثون ، كان أحدهما يرتدي معطف امرأة . كان الرجال يلبسون ثياب النساء في تلك السنوات وكذلك النساء يفعلن هذا عندما لا يكون هناك خيار آخر .

كانت ياقة المعطف المكسوة بالفرو شائكة من السخام المبلل . جرّ الاثنان مجارفهما الثقيلة ، وساروا نحو مقدمة العربة . توقفت العربة ببطء . كانت الساعة ، قد جاوزت الرابعة عندما وصلا إلى نهاية الخط ، والجو بين رمادي وأسود في حين استمر هطول الثلج مندفعاً بحركات دائرية تحت مصابيح الشوارع .

في شارع هوارد كانت السيارات متوقفة في جميع الزوايا وقد هجرها ركابها . كانت الأرصفة مغلقة . عبر وودي الطريق نحو ايقانستون وتبعه الأب وهو يسير في وسط الشارع عبر الأتلام التي حفرتها الشاحنات في الثلج . ظلا يناطحان الريح عبر أربعة صفوف من البنايات ، إلى أن شق وودي طريقه وسط الثلج المتراكم نحو المنزل المحاط بالثلج . وقد اضطر الاثنان إلى دفع الباب الحديدي ، بسبب تراكم . الثلج خلفه . كان هذا البيت الرفيع المستوى مؤلف من عشرين غرفة ، ولا يسكن فيه الا السيدة سكوجلند وخادمتها المتدنية هجورديس . بينما كان وودي والده يمسخان الثلج عن معطفيهما الصوفيين ، وفيما أنهمك الأب بتنظيف حاجبيه الضخمين من العرق والثلج بطرق وشاحه ، اهتزت سلاسل الأقفال وكشفت هجورديس فتحات الهواء في باب العواصف الزجاجي بعد أن أدارت المزلاج الخشبي . كان وودي يدعوها «بوجه الناسك» . فأنت لم تعد ترى نساء مثلها . إذ لا توجد على وجهها أية ملاح اثوية ، جاءت متدمرة كما خلقها ربها وقالت :

- من أنت وماذا تريد؟

- أنا وودرو سلبست ، هجورديس؟ أنا وودي

- ان حضورك غير متوقع .
- كلا . ولكن نحن هنا .
- ماذا تريدان؟
- لقد جئنا لنرى السيدة سكوغلند
- ولماذا تريدان رؤيتها؟
- فقط لنخبرها بأننا هنا .
- يجب أن أبلغها عن سبب مجيئكما بدون موعد مسبق .
- لماذا لا تقولين لها أن وودي ووالده يريدان رؤيتك وما كانا لياتيا في جو عاصف مثل هذا لو لم يكن لامر هام؟ كان حذرهما ، حذر امرأة تعيش لوحدها ، مفهوماً كونها من نساء الجيل القديم المحترمات أيضاً . لم يعد يوجد مثل هذا الاحترام الآن في بيوت ايفانستون بشرفاتها الكبيرة وحدائقها الواسعة . وبوجود خادمة مثل هجورديس تحمل في طيات حزامها مفاتيح كل حجرة ، وكل خزانة وكل جرار ملابس ، وحتى كل صندوق مقفل في قبو المنزل ، وفي منطقة مسيحية انجيلية راقية ، ومحافظة مثل ايفانستون . لم يكن يسمح للبائعين المتجولين ان يقرعوا الأبواب الأمامية . فقط الضيوف المدعوين . والآن بعد مسيرة عشرة أميال في العاصفة جاء هذان المتسولان من الجانب الغربي من المدينة ، إلى هذا القفر حيث تعيش السيدة السويدية المهاجرة ، والتي كانت هي نفسها طباحة وأصبحت اليوم أرملة محسنة . تحلم وهي محاطة بالثلج ، وأغصان الليلك المتجمدة تفرقع تحت نوافذها ، بقدس جديدة وبعث جديد ويوم الحساب الأخير . ومن أجل تسريع عملية البعث الثانية وما يعقبها ، فإن عليها أن تريح قلوب هذين المتسكعين المخادعين ، الذين قدما في العاصفة . بالتأكيد سوف تسمح لنا بالدخول .
- بعد أن عادت الحرارة فجأة إلى ذنبيهما المفلعتين ، شعر الأب وودي بما فعلت بهما العاصفة ، فقد كانت خدودهما تشبه لوحاً مجمداً ، وقفا يرفجان ، ويحكان جلدهما في القاعة الأمامية ، والماء يقطر من ثيابهما . كانت تسمى قاعة أمامية عرضاً . وكان عمود بيت الدرج منحوتاً بصورة المسيح والمرأة السامرية . كان هناك مسحة زجاجية كبيرة ملونة رسمت عليها صورة المسيح والمرأة السامرية . كان هناك مسحة

نصرانية في الهواء ربما . عندما يكون مع الأب يميل وودي إلى ابداء ملاحظات يهودية ، أكثر من أي وقت آخر . كانت صفات الأب اليهودية تتلخص في أنه لا يستطيع قراءة أي صحيفة ، الا باللغة اليدوية . فقد كان يعيش مع هالينا البولندية ، وكانت زوجته تعيش مع المسيح وابنه وودي يأكل من لحم خاصرة الخنزير المدخن وغير المطبوخ . ومع ذلك فقد كان يبدو عليه من وقت لآخر انطباعاً يهودياً .

كانت السيدة سكوغلند من أنظف النساء - أظافر يديها - رقبته البيضاء ، اذناها . كل تلميححات الأب الجنسية لوودي ذهبت هباء لأنها كانت شديدة النظافة ، مما جعل وودي يتخيل عندما يراها شلال ماء ، لضخامة بنيتها . كان صدرها كبيراً . مخيلة وودي تحقق في ذلك . يعتقد انها تبقي جسدها مشدوداً جداً . ولكنها عندما رفعت ذراعيها مرة لتفتح النافذة ، وقف وودي مشدوهاً ، وهو يرى صدرها بجانبه لا يشده شيء . شعرها يشبه خيوط الرافيا التي يتوجب عليك ان تبلها قبل أن تحيكها لتحولها إلى سلة . كان باهتاً جداً . خلع الأب معطفه ولم يكن يرتدي أي بذلة تحته ، وقف بسترته وكانت نظراته الحادة توحى بأنه شخص شرير . وأصعب شيء على آل سلبست ان يعطوا انطباعاً بالصدق مع وجود تلك الأنوف الكبيرة والملوية التي يحملونها وسط وجوههم الواضحة المعالم . كانت كل امارات الغش بادية على وجوههم . وكان هذا الأمر يحير وودي . هل يعود سببه إلى عضلات الوجه أو أن المشكلة كانت أساساً في تركيبة الحنك - الزوايا البارزة للحنك . أو ربما بسبب القدرة على التبصر الموجودة في قلوبهم . كانت الفتيات يسمين الأب ديك تريسي ولكن ديك تريسي كان انساناً صالحاً . من الذي يستطيع الأب أن يقنعه ، وهنا التقط وودي هذا الاحتمال العابر . عندما تريد أن يحكم على الأب من مظهره ، فان أي شخص حساس قد يشعر بالندم اذا حكم على انسان خطأ بسبب مظهره أو بسبب شكل وجهه فقط ، لا بد أن البعض فعلوا ذلك إلى أن يتمكن منهم . ولكن هجورديس لم تكن كذلك ، كان يمكن أن ترمي الأب في الشارع الآن وكل أوان مع وجود عاصفة أو بدون وجود عاصفة .

فرغم كونها متدينة ، كانت هجورديس حكيمة أيضاً ، لم تكن لتصل إلى ادارة منزل مثل هذا بعد عمل أربعين سنة في شيكاغو من أجل لا شيء . قادت السيدة

سكوغلند (اوسي) ، زائريها إلى الغرفة المواجهة وهي أكبر غرفة في البيت ، وتحتاج إلى تدفئة إضافية بسبب ارتفاع سقفها إلى خمسة عشر قدماً . وبسبب نوافذها العالية . كانت هجوردريس قد تركت مدفأة الصالة مشتعلة . وهي مدفأة أنيقة يوجد على رأسها تاج مصنوع من معدن النيكل يؤدي أوتوماتيكياً ، حين تحريكه إلى رفع مفصل غطاء المدفأة . كان غطاء المدفأة تحت التاج مغطى بالصدأ ، والسخام مثله مثل أي غطاء آخر . وتحت الغطاء يتم تلقيم الفحم في الكوة ، وخاصة فحم الأنثراسايت ، الذي يقرقع في الداخل كحبوب الكستناء . كانت النار تأخذ شكل قبة مرئية عبر الهيكل المؤطر . كانت غرفة جميلة مغطاة برسومات على الخشب ، وكانت المدفأة موضوعة داخل مدخنة الموقد الرخامي . أما أرضية الغرفة فقد تغطت بالواح خشبية مزخرفة ، وبسجاجيد الأكسمنستر وقطع سجاد مخصلة بلون التوت البري من العهد الفكتوري ، عليها خزائن مكشوفة الرفوف ، وموضوعة داخل مجرات عرض خصوصية محاطة بصف من المرايا ، صفت عليها الأباريق الفضية والجوائز التي ربحتها بقرات السيدة سكوفلند . وملاقط مزخرفة للسكاكر وأباريق زجاجية وكؤوس . كما كانت هناك بعض الأناجيل ورسومات عن المسيح والأرض المقدسة ، وتلك الرائحة النصرانية الخفيفة وكأن الأشياء قد غسلت بحلول خفيف من الخل .

- سيدة سكوغلند ، لقد أحضرت اليك والدي ، اظنك لم تقابليه من قبل . قال وودي .

- نعم يا سيدتي . أنا هو سلسبيست .

كان الأب يبدو قصيراً ولكن بارعاً تحت سترته . كان منظر بطنه البارز يبدو صلباً دون ترهل ، كان رجل يملك بطناً صلباً . لم يكن يخاف من أحد . ولم يقدم نفسه ابداً كمتسول . ولم يتذلل لأحد أبداً . اشعرها بطريقة قوله « يا سيدتي » ، بأنه شخص مستقل ويعرف كيف يدبر اموره ، دائماً يصرح بأنه يعرف تماماً كيف يتعامل مع النساء؟ أما السيدة سكوغلند ذات الخمسين عاماً فكانت تبدو أنيقة وهي تحمل سلة محاكة بلون شعرها . كانت تكبره بثمانني أو عشرة سنوات .

- لقد طلبت من أبنني ان يحضرني اليكم لأنني أعلم عن أفعالك الخيرة معه ومن الطبيعي ان تتعرفني على كل من والديه .

- يا سيدة سكوغلند ان والدي يعاني من ضيقة ولم أجد أحداً سواك أسأله
العون .

كانت هذه هي المقدمة التي أرادها الأب ومن هنا انطلق يروي للأرملة قصته ،
حول العمل في غسل الملابس وتنظيفها والدفعات المستحقة عليه ، وشرح لها عن
الانذار التي تلقاه وعن المطلوب منه ، وعن مكتب مأمور التنفيذ وماذا سيفعلون به ثم
أضاف أنا رجل وضع أحوال أن أعيل نفسي .

- انك لا تعيل أطفالك . قالت السيدة سكوغلند .

- هذا صحيح قالت هجورديس .

- أنا لا أملك ما أعيلهم به . هل سأتردد لو كنت أملك ذلك؟ هناك طوابير من
الناس ، تقف أمام الخبز والحساء في البلدة ، لست أنا وحدي . ما أملكه هو ما أعيش
به . هل أعطي الأولاد أباً سيئاً؟ هل تظنين أن ابني قد يحضرني اليك لو كنت أباً
سيئاً؟ انه يحب أباه ويثق به ويعرف أنه أب جيد . كلما بدأت عملاً أجد نفسي
خارجة ، ولكن هذا العمل سيكون عملاً صغيراً وجيداً إذا تمكنت من الإمساك به
ويعمل معي ثلاثة أشخاص وأقوم بدفع رواتبهم واذا أغلقت المكان ، فسينتهي بهم
الأمر إلى الشارع . سيدتي سوف أوقع لك مذكرة بأنني سأدفع ما أخذه منك بعد
شهرين . قد أبدو رجلاً عادياً ، ولكني رجل أهل للثقة وأعمل بجد واجتهاد . صعد
وودي عندما سمع كلمة ثقة من أبيه ، نفخة بوق لفرقة موسيقية ، انطلقت من الزوايا
الأربع لتخدر العالم بأجمعه . مخادع! هذا هو الخداع بنفسه . ولمكن السيدة
سكوغلند الغارقة بالتزاماتها الدينية كانت بعيدة عن سماعه ، على الرغم من أن كل
انسان عاقل في هذه البقعة من الأرض ، يعيش حياة عملية ، ولا يملك شيئاً يقوله
لأي كان ، حتى جيرانك لا يملكوا أن يقولوا لك شيئاً ما لم تكن اتصالاتك معهم
مبنية على أسس عملية . أما السيدة سكوغلند فكانت رغم كل ثرائها تعيش في
عالم غير هذا ، كأن ثلثها خارج هذا العالم .

- أعطني فرصة لا ظهر ما بي . قال الأب وسترين ما يمكن أن أفعله لأولادي .

ترددت السيدة سكوغلند ، ثم قالت بأن عليها أن تصعد إلى غرفتها في الأعلى
وتصلي طلباً للهداية في هذا الشأن يمكنكما الجلوس والانتظار . كان هناك مقعدان

هزازان قرب المدفأة رمقت هجروديس الأب بنظرة عابسة (شخص خطير) ، ثم القت على وودي نظرة عتاب .

(فقد احضر شخصاً غريباً وخطيراً وفوضوا ليؤدي سيدتين مسيحيتين لطيفتين) ، ثم بعد ذلك سارت مع السيدة سكوغلند .

ما إن غادرتا الغرفة حتى وثب الأب من كرسیه الهزاز وقال بغضب : ماذا عن هذه الصلاة؟ هل يجب عليها أن تستشير الله اذا أرادت أن تقرضني خمسين دولاراً .

أجابه وودي : لا إن الأمر لا يعنیک شخصياً . ولكن هكذا يتصرف هؤلاء المتدينون .

- كلا ، قال الأب سوف تعود وتخبرنا بأن الله لم يسمح لها بذلك .

لم يرح وودي لهذا الكلام ، ظن أن الأب كان متحاملاً ، قال له كلا إنها صادقة يا أبي ، حاول أن تفهم أنها عاطفية وعصبية وصادقة وتحاول أن تفعل ما هو صواب مع الجميع .

أجابه الأب : وهذه الخادمة سوف تقنعها بأن لا تفعل ذلك ، أنها قاسية ويبدو من وجهها أنها تعتبرنا زوجاً من المحتالين .

- ما الفائدة من الجدال ، هكذا قال وودي . قرب كرسیه من المدفأة ، كانت قدماء مبتلین بالكامل ، لا تنشفان . وكان الذهب الأزرق يخرج من المدفأة مثل قطع سمك مائي وسط نار الفحم . اتجه الأب نحو الخزانة الصينية المكشوفة ، الرفوف وعالج مقبضها ثم انتزع سكيناً من جيبه ، وخلال ثوان فتح القفل الزجاجي وتناول صحناً فضياً .

- ماذا تفعل؟ سأله وودي .

أما الأب الهادئ المتوازن فقد كان يعرف تماماً ما هذا الشيء أعاد اغلاق الخزانة وسار فوق السجادة وأخذ يصغي . ثم خبأ الصحن تحت حزامه ودفعه داخل بنطاله ، ورفع جانباً من اصبعه الصغير الغليظ ، نحو فمه طالباً من وودي ان يخفض صوته .

اخفض وودي صوته ولكنه كان في حالة صدمة . اتجه نحو الأب وأمسكه من طرف يده ، وبينما كان ينظر إلى وجه الأب ، أخذت عيناه تضيقان أكثر وأكثر ، كأن شيئاً كان يضغط جلد وجهه . كانت هذه الحالة تدعى تهوية زائدة ، يرافقها شعور

بأنك مضغوط وخفيف ومصاب بالدوار ، وبالكاد تستطيع أن تأخذ نفسك . قال له :
- أعدده يا أبي .
- قال الأب - انها فضة خالصة ، ويساوي وزنه نقوداً .
- قال له وودي : أبي لقد قلت لي أنك لن تخرجني .
- انه فقط ضمان لي في حال عادت من الصلاة وجابهنتني بالرفض واذا قالت
نعم فسوف أعيده .

- كيف ؟
- سوف اعيده واذا لم أستطع تعيده أنت .
- أنت الذي فتحت القفل ، أنا لا أستطيع ذلك .
- لا ، الأمر سهل .
- سوف نعيده الآن . أعطني آياه .
- يا وودي لقد أصبح تحت بنطالي ، لا تفتعل ضجة مثل هذه .
- أبي ، أنا لا أصدق ما تفعله .
- من أجل المسيح اغلق فمك ، لو لم أكن واثقاً بك لما جعلتك تراقب ما أفعله ،
أنك لا تفهم شيئاً ، ماذا جرى لك؟
- أبي ، هلا أخرجت هذا الصحن من بنطالك الطويل قبل أن تنزل المراتان . ازداد
تشدد الأب وصار يتحدث بلغة عسكرية .
- اسمع أنا أمرك .

وقبل أن يعرف ماذا يفعل قفز وودي على أبيه وراح يتصارع معه . كان أمراً جنونياً
أن تقا تل أباك وأن تضع كعبك خلفه وتدفعه نحو الجدار . فوجئ الأب وقال بصوت
عال : هل تريد أن تقتل هيلينا؟ اقتلها! اذهب واقتلها وتحمل المسؤولية . راح يقاوم
بغضب ودار الاثنان حول بعضهما عدة مرات ، وأخيراً استطاع وودي ، بخدعة تعلمها
من أحد أفلام رعاة البقر ومارسها في الملعب ، أن يوقعه أرضاً ، وفي لحظات كان
وودي الذي يزن عشرين باونداً ، أكثر من أبيه جالساً فوقه . كان الاثنان على الأرض
قرب المدفأة الموضوعة فوق صحن معدني ، مزخرف لوقاية السجاد من النار ، وكان
وودي فوق أبيه يضغط على بطنه ، ولكنه كان يعلم أن هذا الوضع لن يساعد على

انتزاع الصحن الفضي من تحت حزامه . جن جنون الأب ، وكان بيده كل الحق أن يغضب أمام هذا العنف الذي أظهره له ابنه . خلّص يده ولكم وودي في وجهه ثلاث أو أربع مرات ، ولكن وودي اخفض وجهه في كتف أبيه ليتقي ضرباته ثم يهمس في أذنه ، يا للمسيح يا أبي تذكر أين أنت ، سوف تعود هاتان المرأتان ، ولكن الأب رفع ركبته القصيرة ، وضرب وودي في ذقنه هازاً أسنانه . ظن وودي أن الرجل العجوز سوف يعضه . ولأنه كان لاهوتياً اعتقد بأن هذه روح غير نظيفة . ثبت مكانه وتدريباً توقفت ضربات الأب ، كانت عيناه جاحظتين وفمه مفتوحاً ومتجهماً مثل سمكة عنيدة .

أرخاه وودي ومد يده له ليرفعه ، كانت تتجاذبه مشاعر سيئة عديدة . كان وودي يعرف أن العجوز لم يعانيتها من قبل أبداً ، لم يكن الأب يعرف مشاعر التذلل ، كان دائماً يشعر بكامل تفوقه مثل خيال أت من آسيا الوسطى ، أو قاطع طريق من الصين . كانت الأم من ليفربول هي التي تملك المشاعر المهذبة ، السلوكيات الانجليزية . كان القس الدكتور الواعظ ببذلته السوداء ، هو الذي يشرح عن التهذيب وكل ما يفعله هو أن يقمعك ، فلتذهب عظامه إلى الجحيم .

فتح الباب الطويل ودخلت السيدة سكوغلند وهي تقول : هل كنت أتخيل ، أم أن هزة حدثت في البيت؟

أجابها وودي كنت أرفع الدلو لأضع بعض الفحم ، في المدفأة وقد وقع من يدي . أنا أسف اعتذر عن فوضويتي .

كان الأب في حالة من السخط لم تساعده على الكلام ، كانت عيناه الكبيرتان متقرحتين ، وشعره الخفيف ينسدل على جبينه ويمكنك أن تعرف من بطنه المشدود كيف كان يحاول التقاط أنفاسه من الغضب رغم أن فمه بقي مغلقاً .
- لقد صليت ، قالت السيدة سكوغلند .

- أرجو أن يكون كل شيء قد سار على ما يرام ، قال وودي

- حسناً لا أفعل شيئاً بدون هداية ، ولكن الجواب هو نعم . وأشعر اني محقة في ذلك الآن ، لذا إذا انتظرتاني سأذهب إلى مكتبي واحرر لكما شيكاً ، لقد طلبت من هجوردريس أن تقدم لكما فنجانين من القهوة الساخنة ، بعد أن قدمتما في مثل هذه

العاصفة . كان الأب دائماً رجل رهيب ، ما أن اغلقت الباب حتى قال ، شيك؟ إلى الجحيم بالشيك ، لتحضر لي بعض الأوراق الخضراء .

- انهم لا يحتفظون بنقود في البيت ، يمكنك ان تصرفه من بنكها غداً ، ولكنهم اذا افتقدوا الصحن فسوف يوقفون صرفه وأين ستصبح حينها؟ فيما كان الأب يحاول الوصول إلى حزامه ، دخلت هيجوردريس بالقهوة كانت قاسية معه وقالت ، هل هذا مكان مناسب لتعدل فيه من وضعية ثيابك ، يا سيد ، هل هو حمام للرجال ؟

- حسناً ، أين هي الطريق إلى الحمام؟ سألتها الأب .

قدمت لهما القهوة في أكثر الفناجين تشقاً ، بين مجموعتها وضربت الصينية وهي تضعها أمامهما ثم قادت الأب إلى أسفل الممر وظلت واقفة تحرس باب الحمام ، حتى لا تتيح له المجال لأن يتجول في المنزل . استدعت السيدة سكوغلند وودي إلى مكتبها ، وبعد أن سلمته الشيك مطوياً أوصته بأن يصلي من أجل موريس . مرة أخرى جثم على ، «ركبتيه تحت رفوف ورفوف من الملفات العفنة المرتبة في الخزائن الرخامية ، وقرب المصباح الزجاجي الموضوع على طرف المكتب ، والذي كان ظله ينتفض على الجوانب مثل صحن حلوي ؛ ركعت السيدة سكوغلند بلهجتها الاسكندنافية - ذات الرنة العاطفية - تبتهل إلى يسوع - أوه - المسيح - أوه . فيما الريح تعصف بالأشجار وتضرب جوانب المنزل وتقذف بالثلج على الواح النوافذ ، بأن يبعث النور - أوه ويمنح الهداية - أوه ويفتح قلباً جديداً في صدر موريس . كان وودي يضرع إلى الله أن يعيد الأب الصحن الفضي . انتظر السيدة سكوغلند ، وهي راكعة على ركبتيها ما استطاع ، ثم شكرها وهو يشع صدقاً واخلاصاً (قدر ما استطاع) ، على كرمها المسيحي وقال : أنا أعلم أن لهيجوردريس ابن عم يعمل في جمعية الشباب المسيحيين في ايفانستون . هل باستطاعتها أن تتصل به وتحجز لنا غرفة الليلة حتى نتجنب مكافحة هذه العاصفة ، في طريق عودتنا . أننا أقرب إلى موقع الجمعية ، من موقع خط العربات . ربما تكون العربات قد توقفت عن العمل الآن .

جاءت هيجوردريس مرتابة بعد أن استدعتها السيدة سكوغلند ، كانت تغلي غضباً ، فقد اقتحم الاثنان البيت أولاً ثم أخذوا راحتهم فيه ، ثم طلبا مالاً واضطرت إلى تقديم القهوة لهما . وربما يكون الأب قد ترك أثراً لمرض السيلا على مقعد

الحمام . تذكر وودي أن هجورديس كانت تمسح مقابض الأبواب بالكحول ، بعد مغادرة الضيوف . ورغم هذا كله اتصلت بالجمعية ، وحجزت لهما غرفة بسريرين وبستة سترات .

كان أمام الأب متسعاً من الوقت لكي يفتح الخزانة المؤطرة بالزجاج اللامع ، أو بالفضة الألمانية (شيء رائع وفني) ، وما أن قدما شكرهما وودعا أهل المنزل وصارا في وسط الشارع وقد غطى الثلج ركبهما حتى سألته وودي ، حسناً لقد غطيت عليك ما استطعت ، هل أعدت هذا الشيء؟
- طبعاً ، قال الأب .

شقاً طريقهما نحو بناية الجمعية المحاطة بالأسلاك ، والشبيهة بمخفر شرطة ، - نفس الأبعاد تقريباً - كانت مقفلة ولكنهما قرعا على النافذة . جاء رجل أسود صغير الحجم ، وادخلهما ثم قادهما إلى الطابق العلوي عبر ممر اسمتي منخفض الأبواب . كان المكان يشبه منزلاً صغيراً للتدريبات في حديقة حيوانات لنكولن . قال انه لا يوجد طعام ، لذا قاما بخلع ثيابهما وانسلا في سريريهما ملفعين ببعض الأغذية العسكرية الكاكية اللون .

أول شيء فعلاه في الصباح هو الذهاب إلى بنك إيثانستون الوطني لصرف الشيك ، ولكن الأمر لم يمر بدون صعوبات ، فقد تركهم أمين الصندوق ليتصل بالسيدة سكوغلند وغاب عن شبابه وقتاً طويلاً . إلى أين ذهب بحق الجحيم» قال الأب لكنه عندما عاد سألنا ، كيف تريدونها؟

أجابه الأب : أوراق فردية ، ثم التفت إلى وودي قائلاً أن بوجاك يحتفظ بالنقود على شكل أوراق دولار فردية ، ولكن وودي الآن لم يعد يصدق ان هالينا قد سرقت نقود العجوز . نزلا إلى الشارع حيث بدأت فرق ازالة الثلج بالعمل ، وكانت شمس الصباح تشع بقوة ، وكل أطراف مدينة شيكاغو تحاول التخلص من الآثار الجميلة المؤقتة .

- ما كان يجب أن تقفز علي هكذا ليلة أمس .
- أعلم يا أبي ولكنك وعدت بأنك لن تضعني في موقف محرج .
- حسناً ، سوف ننسى الأمر بما أنك وقفت بجانبني .

فقط ، كان بوب قد احتفظ بالصحن الفضي . طبعاً فعل ذلك ، وبعد أيام قليلة علمت السيدة سكوغلند وهجورديس بالأمر ومع نهاية ذلك الأسبوع ، كانت هناك مجموع من الأشخاص تنتظر وودي في مكتب الدكتور كوفتر بمنزل الأرسالية . وقد شملت المجموعة القس الدكتور كرابي مدير المعهد . ووقع وودي الذي كان يحاول قدر الإمكان أن يكون هادئاً ومتوازناً في وسط النيران . أخبرهم أنه بريء ودافع عن نفسه ، حتى وهو يتعرض للهجوم بأنهم مخطئون منكراً أن يكون هو أو أبوه قد مسوا ممتلكات السيدة سكوغلند - قال لهم أن الغرض المفقود - ادعى أنه لا يعرف حتى ما هو - قد يكون وضع في مكان خطأ ، وسوف يندمون على ما فعلوا حين يجده . بعد أن انتهى منه الآخرون ، صرّح الدكتور كرابي أنه سوف يعلق دراسته في المعهد ، حيث أنها لم تكن كما يجب على أي حال ، إلى أن ينطق بالحقيقة ، تنحت به ريبكاً جانباً وقالت له : انك شرير صغير مثل والدك . ان بابنا مغلق في وجهك منذ الآن . كان تعليق الأب على كل هذا ، وماذا في الأمر يا بني؟

- ما كان عليك أن تفعلها يا أبي .

- كلا ، حسناً ، إذا شئت ان تسمع رأيي فأنا لا أباالي بالأمر . يمكنك أن تأخذ الصحن إذا شئت وتعيده لتحشر نفسك بين كل هؤلاء المنافقين .

- أنما لا أستطيع رفع نظري إلى عيني السيد سكوغلند ، لقد كانت لطيفة معنا .
- لطيفة؟

- نعم لطيفة .

- ان كلمة لطيفة لها ثمن .

حسناً ، لم يكن هناك مجال لأن تربح مثل هذه المجادلات مع الأب ، ولكنهما بقيا يتجادلان هكذا لمدة اربعين سنة أو أكثر انطلاقاً من مختلف الأمزجة والمنظورات ، وكلما تغيرت علاقاتهما الحميمة أو تطورت أو نضجت .

- لماذا فعلتها يا أبي؟ من أجل المال؟ ماذا فعلت بالخمسين دولاراً؟

سأله وودي بعد عقود من زمن وقوع الحادثة .

- لقد سويت حساب مكتب وكيل المراهنات ووضعت الباقي في العمل .

- هل راهنت على عدة خيول أخرى؟

- ربما فعلت ذلك ، ولكنني حصلت على ضعفها يا وودي ولم أؤذي نفسي وصنعت معك جميلاً في نفس الوقت .

- معي .

- نعم ، كنت تقود حياة غريبة ، ليست لك يا وودي ، كل تلك النسوة -
- يكن كوفنمر رجلاً - كان بين بين - لنفرض أنهم جعلوا منك قسيساً ، قسيساً مسيحياً ، أولاً لن يكون بإمكانك أن تحمل هذا العبء وثانياً كانوا سيتخلون عنك عاجلاً أو آجلاً .

- ربما .

- ولن يكون باستطاعتك أن تحول اليهود عن دينهم ، وهو ما كانوا يريدونه منك بالضبط .

- ويا له من وقت لازعاج اليهود قال وودي . على الأقل أنا لم أسرق منهم .
أعاده الأب إلى جانبه ، من دمه ولحمه ، نفس الجسد الكثيف ، نفس الطينة الخشنة . لم يكرس نفسه من أجل حياة روحية لأنه ببساطة لم يكن قادراً على ذلك .

لم يكن الأب أسوأ من وودي ولم يكن وودي أفضل منه . لم يرغب الأب بأية علاقة ، مع النظريات مع أنه كان دائماً يشير لوودي نحو مركز معين ، مركز دافئ ، طبيعة مرح محبوب غير مشدود لمبادئ ، لو وجدت هناك أية نقطة ضعف في وودي فهي أنه لم يكن أنانياً . وكان هذا الضعف في صالح الأب ، رغم أنه كان ينتقده في وودي .

- انك تحمل نفسك عبثاً أكبر منك . كان الأب يقول لوودي دائماً ، وكان هذا صحيحاً فقد أعطى وودي قلبه للأب لأن الأب كان مغرقاً في الأنانية . غالباً هم الناس الأنانيون الذين يكونون محبوبين أكثر ، فهم يفعلون ما تنكره أنت على نفسك ولهذا السبب تحبهم وتعطيهم قلبك .

مستذكراً بطاقة الرهن على الصحن الفضي ، انفجر وودي بالضحك فجأة حتى أخذ يسعل ، أخبره الأب بعد أن طرد من المعهد ومنع من دخول بيت الارسالية -
- هل تريد هذا الشيء مرة أخرى ، ها هي بطاقة الرهن ، لقد رهنت هذا الشيء ،

لم يكن ثميناً كما ظننت .

- ماذا أعطوك مقابلة؟

٠- اثنان وستون دولار هو كل ما حصلت عليه ، ولمكن اذا رغبت بإعادته ، فان عليك تحصيل الدراهم بنفسك . فأنا لا أملك منها شيئاً .

- لا بد أنك كنت تتعرق في البنك عندما ذهب أمين الصندوق ليستفسر عن الشيك من السيدة سكوغلند .

- كنت متوتراً إلى حد ما . قال الأب . ولكنني لم أعتقد أنهم سيفتقدون هذا الشيء بهذه السرعة .

شكلت تلك السرقة جزءاً من الحرب بين الأب وبين الأم والعمة ، ريببكا والدكتور الكاهن . كان الأب يمثل الموقف الواقعي في حين مثلت الأم موقف القوى الدينية والشكاكين . لم يتوقف القتال بينهما لأربعين سنة ، ومع مضي الوقت تحولت الأم والفتيات إلى شخصيات خيرية وخسرن نتيجة لذلك حدودهن الشخصية .

أه ، المسكنيات ، أصبحن غير مستقرات يعتمدن على الغير ، وفي نفس الوقت أصبح وودي الخاطي ، الأخ والابن المطيع والمحب ، فقد قام بصيانة بيتهن . وشملت الصيانة السقف والتمديدات ، والعزل وتركيب المكيفات ، يقوم بدفع ثمن الوقود والكهرباء والطعام لهن ، كما ابتاع لهن الألبسة من محلات سيرز وريبوك وويبولد ، واشترى لهن تلفزيوناً ، كن يمتصن الوقت بمراقبته بورع تماماً كما الصلاة . تعلمت باولا دروساً في صنع مكرمات الزهور وفي التطريز الابري ، وعملت أحياناً في مهنة استجمامية صغيرة في أحد بيوت المرضى ، ولكنها لم تكن لتواظب على العمل لتتمكن من الاحتفاظ به . أما الأب الشرير فقد امضى معظم حياته ينزع البقع من ثياب الزبائن ، وفي السنة الأخيرة ادار مع هالينا مركز لتنظيف الثياب ، في حديقة وست روجرز . وهو عمل شبيه بعمله السابق في غسيل الثياب ولكنه يمنحه بعض الوقت للعب البلياردو والمراهنة على الخيل ولعب الورق . كل صباح كان يذهب إلى المشغل لتفقد مصافي آلات التنظيف ، وكثيراً ما كان يعثر على أشياء عجيبة ومسلية في أوعية التنظيف - أحياناً . وعندما كان يحالفه الحظ كان يعثر على سلسلة معدنية نفيسة أو على دبوس زينه ، وعندما كان يتم تعزيز سائل التنظيف بتلك

المساحيق ، الوردية والزرقاء من الأوعية البلاستيكية ، كان يجلس ليقرأ صحيفة فوروارد مع فنجان ثانٍ من القهوة ، أو يغادر المكان تاركاً المسؤولية على هالينا . عندما كانا يحتاجان إلى مساعدة في دفع الإيجار كان وودي يعطيها دائماً . بعد افتتاح عالم ديزني الجديد في فلوريدا ، استضاف وودي جميع أهله إلى قضاء عطلة هناك وقام بارسالهم في دفعات منفصلة بالطبع . وقد استمتعت هالينا بذلك أكثر من أي شخص منهم . ولم تتوقف عن الحديث عن العنوان الذي قدمه لها الانسان الآلي ، الذي يمثل ابراهيم لنكولن - رائع كيف وقف وحرك يديه وفمه ، لقد كان حقيقياً فعلاً ، وما أجمله حين تكلم ، من بينهم كلهم كانت هالينا هي الأ عقل والأصدق والأكثر انسانية . والآن بعد رحيل الأب ، قام وودي وابن هالينا ميتوش الذي يعمل عازفاً على الأرغن بالاعتناء بحاجياتها اضافة إلى الضمان الاجتماعي . بالنسبة للأب ، كان التأمين يعتبر ابتزازاً للأموال ولم يتركها لهالينا سوى بعض المعدات الخربة .

كان وودي يمتع نفسه أيضاً ، ففي كل عام وأحياناً أقل من ذلك ، كان يترك العمل ليدير شأنه بشأنه ، وينظم مع دائرة الأئتمان في البنك لترعى مجموعته ثم يغادر ، وكان يسافر بأسلوب خيالي وعالي في اليابان ، لم يضع وقتاً طويلاً في طوكيو ، وأمضى ثلاثة أسابيع بفندق تاوارايا في كيوتو . وهو فندق يعود تاريخه إلى القرن السابع عشر . هنا ، كان ينام مثل اليابانيين على الأرضية ويستحم بالبخار ، وهناك شاهد أقدر عرض للمعري على وجه الأرض ، وفي نفس الوقت شاهد الأماكن المقدسة وحدائق المعبد . كما زار استامبول والقدس ودلهي وسافر إلى بورما واوغندا وكينيا في رحلات سفاري ، بالاتفاق مع سائقين وبدو وتجار بازار . كان بشخصه الجرد أشبه بأحد رجال الحاشية الملكية أيام النهضة فقد كان منفتحاً ، سخياً ، ألوفاً . ومن أفخم لأفخم . (كان يمارس رياضة الركض ورفع الأثقال) . ولكنه حافظ على عضلاته ومع مرور السنوات أصبح لونه ضارباً أكثر إلى الحمرة وازداد النمش على ظهره ، وغت البقع حول جبينه وأنفه المحترم . وفي أديس أبابا اصطحب فتاة أثيوبية جميلة من الشارع إلى غرفته ، واستحماً معاً وقام بفركها بالصابون بيديه العريضتين الحنونتين . وفي كينيا قام بتعليم بعض العبارات الفاحشة لامرأة سوداء ، حتى تتمكن من

الصراخ بها بينما يمارس الجنس معها . وفوق النيل أسفل شلالات مورشيون . حيث تعملق أشجار الحمى الضخمة ، وسط الطين وتتجشأ أفراس النهر على الضفاف الرملية بعدوانية أمام المارين ، شاهد وودي احدها ترقص على مرج الرمل حيث يقف . تصعد وتنزل فوق الأرض بثقل على أقدامها الأربعة . وهناك شاهد وودي الجاموس الصغير يختفي بعد أن التهمه التمساح .

أما الأم ، التي ستلحق بالأب قريباً ، فكان بالها هادئاً في تلك الأيام ، تتحدث عن وودي كابن لها - ماذا تظنون في ولدي - وكأن عمره ما يزال عشر سنوات . كانت سخيفة أحياناً معه ، وتصرفاتها عابثة مغناجة ، كانت فقط تجهل الحقائق ، وخلفها كل الآخرين مثل أطفال في ملعب . ينتظرون ان ينزلوا على المزلقة كل يصعد الدرجة بدوره نحو الأعلى .

كان الصمت يخيم على مسكن وودي ومكان عمله ، صمت من نفس قياس أجراس الكنائس ، وهي تفرع ، وكان هو يبكي في صمت ذلك النهار الخريفي الشمس الخزين ، كان يقوم بمسح لحياته . ملقياً نظرة متأنية على نواحيها الجسيمة ، وعلى نواحيها الأخرى كذلك ، ومماذا نتج عنها؟ ولكن إذا استمرت حرقة القلب هذه فسوف ينطلق للركض ، ربما ثلاثة أو خمسة أميال من الركض إذا اقتضت الضرورة . هل تظن أن مسألة الركض هذه هي نشاط فيزيائي بحث؟ هناك شيء آخر يكمن فيها . لأنه عندما كان يدرس في المعهد مطارداً بين أعمدة عربات المعرض العالمي . كان يتلقى (وهو قادر وثابت) ، خبراته الدينية وهو منطلق . ربما تعاد معه نفسه التجربة ، ولكن كان يشعر بالصدق يأتيه من الشمس ، وهو يتلقى تصريحات بأنه خفيف ودافع .

كانت هذه التصريحات تجعله بعيداً عن ركابه الشبيين في ويسكونسون . هؤلاء المزارعون الذين لم يكن يسمع صيحاتهم الزانية عندما كان في إحدى ولاياته . وأيضاً جاءه سر أكيد ، خرج من بين اسنة اللهب الشمسية ، بأن هدف هذه الأرض هو أن تمتلئ بالخير وتتشبع به . بعد كل ما جرى من امور منافية للطبيعة ، وبعد أن أكل الكلب ، الكلب الآخر ، وبعد أن سحبت أداة الموت في التمساح الجميع إلى الطين . لم ينته كما أرادت السيدة سكوجلند له أن ينتهي حين كانت ترشيه بتجميع اليهود

والدعوة فيهم لكن تعجل بالبعث الثاني ، ولكنه يسلك طريقاً مغايراً . كان هذا هو حدسه الفوضوي . ولم يذهب أبعد من ذلك ، وبالتالي ، تابع حياته كما أرادت له حياته أن يكون .

شيء آخر في هذا الصباح ، شيء واضح في ماديته ، بدأ كإحساس في ذراعيه وخارج صدره ثم مع ازدياد الضغط انتقل إلى داخله ، إلى داخل صدره .

سار الأمر كالتالي : عندما دخل إلى غرفة الأب في المستشفى ورأى سريره مرفوعاً من الجانبين مثل مهد طفل ، والأب ممدد هناك ضعيف يتلوى بلا أسنان ، مثل طفل وليد . والقذارة ظاهرة ، حتى في تجعدات وجهه وهو يريد نزع الابر التي غرست في شرايينه ، مطلقاً سكرات الموت الضعيفة . ورأى الدم يلطخ الشاش الملفوف حول تلك الابر ، خلع حذائه وانزل السرير إلى الأسفل ثم تسلق نحوه وأمسكه بيديه ليهدي روعه وكأنه كان أباً للأب ، قال له : الآن يا أبي ، كان الأمر شبيهاً بتلك المشاجرة في صالة منزل السيدة سكوغلند عندما استشاط الأب غضباً مثل روح شريرة ، وحاول وودي أن يهدي من روعه ويحذره قائلاً : سوف تعود هؤلاء النسوة . وبقرب مدفأة الفحم ، عندما لكم الأب وودي في أسنانه ورأسه ، ثم انقلب متجهماً مثل سمكة سمينية . لكن الصراع في المستشفى كان ضعيفاً ، ضعيفاً جداً . وفي غمرة اشفاقه على الأب ، حمله وودي وهو يرتعش . كان يقول له : هؤلاء الناس لن يساعدوني على اكتشاف الحياة لأنهم لا يعرفونها . نعم - حسناً يا أبي ما الأمر . كان صعباً عليه أن يستوعب أن الأب الذي بقي يجاهد مدة ثلاثة وثمانون سنة ، وفعل كل ما بوسعه حتى يبقى على قيد الحياة ، أصبح الآن لا يرغب بشيء سوى تحرير نفسه . كيف يمكن لوودي أن يسمح للعجوز بقطع ابر شرايينه؟ الأب العنيد ، أراد ما أراد وحين أرادته ولكن ما أرادته في النهاية لم يستطع وودي أن يلبيه . كانت نقلة كبيرة . مضى بعض الوقت ، وانتهت مقاومة الأب ، حمد تماماً على ذراعي ابنه وتكوّر جسده هناك . جاءت الممرضات ونظرن اليه ولم يوافقن على ما جرى ، ولكن وودي الذي لم يستطع أن يرفع يديه ليأمرهن بالخروج ، حرك رأسه باتجاه الباب ، أما الأب الذي ظن وودي بأنه قد حمد ، فقد وجد طريقة أخرى للالتفاف عليه ، وكانت طريقته هذه المرة أن يفقد حرارته ، كانت حرارته تخرج منه ، وكما يحصل مع الحيوانات الصغيرة

عندما تمسكها بيديك ، كان وودي يشعر بالبرودة تجتاح جسد بوب شيئاً فشيئاً .
عندها ، بينما كان وودي يحاول جاهداً أن يكبحه وظن أنه قد نجح في ذلك . انقسم
الأب عن نفسه وعندما انفصل عن دفنه انسل باتجاه الموت . وبقي هناك ابنه الأكبر
ذو العضلات الفخمة ممسكاً به ، يضغط حين لم يعد هناك شيئاً ليضغطه . لا يمكنك
أن تثبت هذا الرجل القوي الإرادة . عندما أراد أن يقوم بحركته ، قام بها ودائماً
بشروطه ، ودائماً لديه خطة لاستخدامها عند الحاجة . هكذا كان الرجل .

سوزان سونتاغ

طريقة عيشنا الآن

عن «ذي نيويورك»

كان يشعر في بادئ الأمر بنقص في وزنه ، وقليل من الغثيان فقط ، هذا ما قاله غريغ لألين ، كما أنه لم يتصل من أجل تحديد موعد مع طبيبه ، وفقاً لما قاله جريج ، لأنه كان يتدبر أمر مواظبته على القيام بالعمل بنفس الإيقاع لا أقل ولا أكثر ، لكنه توقف عن التدخين كما نوهت تانيا التي افترضت بأنه قد أحس بالخوف ، لكن ذلك ما كان يريده أيضاً ، وحتى أكثر مما كان يعرف ، بأن يكون في وضع صحي جيد وفي وضع صحي أفضل ، أو ربما استعادة بعض الأرتال من وزنه ، كما قال أورسون . واستطردت تانيا بأنه أخبرها بتوقعه بأن يصبح قادراً على تسلق الجدران (أليس هذا ما يقوله الناس؟) ولدهشته فقد وجد أنه لم يفتقد السجائر مطلقاً ، وأنه وجد متعة بالغة لشعوره بأن رثتيه قد تحررتا من الألم المتواصل ولأول مرة منذ سنين . الا أن ما أراد أن يعرفه ستيفن هو ما اذا كان لديه طبيب جيد ، نظراً لأنه سيكون من الحمق عدم اجراء فحوص بعد عودته من مؤتمر هلسنكي نتيجة الضغط الذي تعرض اليه والجهد الذي بذله حتى لو كان يشعر بأنه أحسن حالاً في ذلك الحين ، وقال لفرانك ، أنه يريد أن يذهب برغم خوفه المؤكد ، كما اعترف لجان ، من هوذا الذي لا يشعر بالخوف الآن؟ على الرغم من أن الأمر قد يبدو غريباً ، وقد أقر لكوينتين بأنه حتى وقت قريب ، لم يكن يشعر بالقلق ، بأنه لم يكن يشعر بطعم الخوف المعدني في فمه إلا

الخوف المعدني في فمه إلا في الستة الأشهر الأخيرة فقط ، لأن الإصابة بمرض خطير ، جدي هو أمر يحصل لأناس آخرين ، وأن الأمر هو وهم عادي ، وأردف بأنه اذا كان الشخص في الثامنة والثلاثين ولم يسبق له أن أصيب بمرض خطير ، فانه لن يكون متوهماً كما أكد جان .

بالطبع كان من الصعب أن لا تقلق ، فالجميع كانوا قلقين ، ولكن لن ينفعك أن تصل إلى حد الرعب ، لأنه كما نوه ماكس لكوينتين : لا شيء يمكن للمرء أن يفعله سوى الانتظار والأمل ، انتظر وأبدأ بأن تكون شديد الحرص ، وكن حذراً ثم تأمل ، وحتى لو ثبتت اصابته بالمرض بعد اجراء الاختبار ، فليس له أن يستسلم لأنه أصبح لديهم الآن نتيجة تقدم البحث ، علاجات حديثة تبشر بكبح عناد المرض وايقاف تقدمه . لقد بدا أن كل واحد كان في تماس مع كل واحد غيره ولعدة مرات خلال الأسبوع ، ولدى التدقيق بالأمر ، قال ستيفن لكيت ، لم أكن لأنفق الكثير من الساعات في الحديث على الهاتف ، وعندما أشعر بالانهك بعد الاتصالات أو الثلاثة التي أجريت معي لتنبئني بآخر الأنباء ، وبدلاً من اقفال الهاتف واعطاء نفسي فترة راحة ، أقوم بطلب صديق آخر أو طلب الاستعلامات لاستعراض الأخبار .

قالت الين أنا لست متأكدة من أنني استطيع احتمال التفكير بهذا الأمر كثيراً ، وأصبحت تخامرني الشكوك في دوافعي الخاصة . هناك بعض الأشياء المتعلقة بالمرض ، وأنا في صدد التعود عليها والتأثر بها . لا بد أن هذا مشابه لما كان يشعر به الناس في لندن أثناء الغارة الجوية . بقدر ما أعلم ، فأنا لست في خطر ، ولكنك لا تعرف ما قد يحدث قالت ايلين .

هذا أمر لا سابقة له ، قال فرانك . وقال ستيفن باصرار ، لكن ألا تعتقد بأنه يجب عليه أن يرى طبيباً ، وقال اورسون ، اسمع انك لا تستطيع أن تجبر الناس على الاعتناء بأنفسهم ، ثم ما الذي يجعلك تفكر بالأسوأ ، ربما يكون الأمر مجرد ارهاق أو تعب قد ألمّ به ، فالناس ما زالوا يصابون بأمراض عادية توقع الخوف في نفوسهم ، لماذا نفترض أنه يجب أن يكون «ذلك المرض» . قال ستيفن ، لكن كل ما أريد أن أتأكد منه ، هو أن يدرك خياراته ، لأن غالبية الناس لا يدركونها ، لهذا لا يرغبون في رؤية الطبيب أو اجراء الاختبار ، لأنهم يعتقدون أن لا شيء هناك يستطيع أحد فعله ،

ولكنه قال لتانيا (على ذمة جريج) هل هناك أي شيء يستطيع المرء ان يفعله ، أعني ما الذي سأجنيه اذا ذهبت إلى الطبيب ، اذا كنت مريضاً حقاً ، فانه سيذكر ذلك في تقريره ، وسأعرف الأمر بأقرب وقت .

وعندما كان في المستشفى ، بدأت معنوياته تزداد اشراقاً ، وفقاً لما قاله دوني ، بدا أكثر سعادة مما كان عليه في الأشهر الأخيرة ، كما قالت أورشولا . وبدأت الأخبار السيئة وكأنها راحة له وفقاً لإيرا ، وككارثة حقيقية غير متوقعة وفقاً لكوينتين .

لكن يصعب أن نتوقع منه أن يقول الشيء نفسه لجميع أصدقائه ، لأن علاقته مع ايرا كانت تختلف عن علاقته مع كوينتين (هذا وفقاً لكوينتين الذي كان فخوراً بصداقتهما) . وربما ظن أن كوينتين لن يتحطم عند رؤيته أو يبكي ، لكن إيرا أصرت على أن ذلك لا يمكن أن يكون السبب لتصرفه بشكل مختلف مع كليهما ، ربما يعود ذلك لشعوره بأن الصدمة أصبحت أخف ، أو لأنه كان يستجمع قوته للصراع من أجل حياته في اللحظة التي رأى فيها ايرا . ولكن مشاعر اليأس غمرته عندما وصل كوينتين وهو يحمل الزهور ، لأن الزهور على كل حال كانت تتركه في حالة سيئة ، كما أخبر كوينتين كيت نظراً لأن غرفة المستشفى كانت تغص بالزهور ولا يمكنك أن تحشر زهرة أخرى في تلك الغرفة ، إنك تبالغ بالتأكيد قالت كيت وهي تبتسم ، الجميع يحب الزهور ، حسناً من منا لا يرغب بالمبالغة في وقت مثل هذا قال كوينتين بحده ، ألا تظنين أن في هذا مبالغة ، طبعاً أنا أظن ذلك قالت كيت بلطف ، فقط كنت أمارحك ، أعني لم أقصد أن أسخر منك ، أعرف ذلك قال كوينتين والدموع في عينيه .

قامت كيت بمعانقته ثم قالت ، حسناً ، عندما أذهب هذا المساء ، أظن أنني لن أجلب معي زهوراً ، ما الذي يرغب به . قال كوينتين وفقاً لماكس ، إن أفضل شيء يحبه هو الشوكولاته ، هل هناك شيئاً آخر غيرها ، سألت كيت ، أقصد مثل الشوكولاتة وليس لشوكولاته ، قال كوينتين وهو يخطط أنفه : السوس ، وإلى جانب ذلك . ألا تبالغين ، قالت كوينتين وهي تبتسم ، حسناً ، قالت كيت ، وبالتالي اذا أردت احضار رفاً كاملاً من هذه المواد بالإضافة إلى الشوكولاته والسوس ، ماذا غيرها؟ قال كوينتين ، أحضري حبيبات حلوى هلامية .

لم يرغب في أن يكون وحيداً ، وفق ما قال باولو ، وقد زاره الكثير من الناس في الأسبوع الأول وقالت الممرضة الجمايكية . لقد كان هناك مرضى آخرون على الطابق وسيكونوا سعداء بأن يحصلوا على الفاضل من الزهور ، لم يكن الناس خائفين من الزيارة ، لم يكن الأمر مثل الأيام القديمة ، وكما أشارت كيت إلى ايلين فإنهم لم يعودوا يقومون بعزل المرضى في المستشفى ، وقد لاحظت هيلدا أنه لم يكن هناك على باب غرفته تحذيراً للزائرين من احتمالية العدوى كما كان الأمر يتم منذ بضع سنين وفي الحقيقة فقد تم وضعه في غرفة مزدوجة ، وكما أخبر هو اورسون فإن الرجل العجوز على الطرف البعيد من الستارة (الذي هو على وشك أن يخرج من المستشفى قال ستيفن) ليس مصاباً حتى بالمرض .

وهكذا كما استطردت كيت ، عليك حقاً أن تذهبي وتزوريه وسيكون سعيداً برؤيتك ، انه يحب زيارة الناس له ، أنت لست ذاهبة لزيارته لأنك خائفة ، أليس كذلك؟ بالطبع كلا قالت ايلين ولكني لا أعرف ماذا أقول ، أظن أنني سأشعر بالإرتباك الذي سيلاحظه بالتأكيد ، ولعل ذلك سيجعله يشعر أسوأ من قبل ، ولذلك لن أنفعه بشيء أليس كذلك؟

قالت كيت وهي تربت على يد ايلين ، إنه لن يلاحظ شيء والأمر ليس كذلك ، ليس بالطريقة التي تتصورينها ، إنه لا يحاكم الناس أو يتساءل عن دوافعهم ، انه فقط سعيد برؤية اصدقائه . لكنني في الحقيقة ، لم أكن صديقة له ، قالت ايلين ، أنت صديقتك وقد أحببك على الدوام ، وقد أخبرتني بأنه تحدث معك حول نورا .

أنا أعلم أنه يحبني ، وأنه قد يكون منجذباً لي ، لكنه يحترمك أنت ، أما وفقاً لويسلي فإن السبب في شحة زيارات ايلين هو عدم تمكنها من الاستحواذ عليه لنفسها ، كان هناك دائماً أخريات وعندما يهجرهن ، كان يأتي ويخبرهن . قال دوني ، لقد ظلت واقعة في حبه لسنوات ، وأستطيع أن أدرك بأن ايلين كانت ستشعر بالمرارة لو علمت أنه كان يوجد لديه خلية تنام معه أحياناً ، امرأة أحبها فعلاً ، يا الهي قال فكتور ، الذي يعرفه منذ سنوات ، أنه كان مجنوناً بنورا ، يا لهما من زوجين ممزقي الفؤاد ، بالتأكيد ملاكين ، في حين ايلين لم تتمكن من أن تكون هي . وعندما كان يأتي لزيارته بعض الأصدقاء ، الذين يزورونه يومياً ، كانوا يكمنون للطبيب في الممر ،

وينقصون عليه بالأسئلة ، وكان ستيفن هو الذي يسأل معظم الأسئلة الاستعلامية ، حيث كان على اطلاع حسن ، ليس فقط على القصص التي كانت تظهر في جريدة التايمز لعدة مرات في الأسبوع (والتي أقر جريج بأنه سيتوقف عن قراءتها ، لأنه لم يعد قادراً على الاستمرار معها أكثر) بل وعلى المواضيع التي كانت تنشر في الدوريات الطبية التي تصدر هنا وفي بريطانيا وفرنسا . كما أنه على علاقة اجتماعية بواحد من أبرز الأطباء في باريس والذي كان يجري أبحاثاً مكثفة عن المرض ، إلا أن طبييته لم تزدد عن القول بأن التهاب الرئة لا يهدد الحياة ، وأن الحمى تنخفض ، طبعاً كان لا يزال ضعيفاً ، ولكنه كان يستجيب جيداً للمضادات الحيوية ، وأصبح على وشك إنهاء إقامته في المستشفى والتي استلزمت واحد وعشرين يوماً على الأقل من تناول العلاج والتغذية عن طريق الأوردة قبل أن تبدأ معه بالعلاج الجديد . لأنها كانت متفائلة بشأن امكانية إدخاله في البروتوكول ، وعندما قال فيكتور بأنه كان يواجه مشكلة كبيرة في الأكل (لقد أخبر الجميع عندما حاولوا التحايل عليه لكي يأكل من وجبات المستشفى لم يكن يستسيغ طعام المستشفى ، لأنه يترك في فمه مذاق معدني) وأنه لم يكن أمراً جيداً أن يأتي أصدقاؤه له بكل تلك الشوكولاته ، كانت الطيبة تبتسم فقط وتقول في هذه الحالات فان معنويات المريض عامل مهم ، وإذا كانت الشوكولاته تحسن شعوره وتجعله أفضل ، فإنها لا ترى ضرراً فيها . مما أفلق ستيفن إذ قال ستيفن لدوني مؤخراً ، أنهم أرادوا أن يثقوا بالوعود والمحظورات للأدوية الحديثة ذات التقنية العالية ، لكنهم لم يجدوا هنا سوى الطمأنة المقتضبة والسمعة الفضية لخصوصية المرض ، وقد استشهد أحدهم بما كان ينشر في الصحف بشكل متكرر . وظلت الطيبة تتحدث مثل ذلك الطراز القديم من الأطباء العاميين في الريف الذين كانوا يقولون للأسرة ، ان الشاي مع العسل أو شوربة الدجاج تفعل مع المريض أكثر مما يفعله البنسلين ، والذي يمكن أن يعني كما قال ماكس أنهم كانوا غارقين فقط في اقتراحات معالجته ، وأنهم لم يكونوا متأكدين بشأن ما يفعلونه ، أو على الأصح كما قال اكسفير بانفعال ، انهم وبحق الجحيم لا يعرفون ما الذي يفعلون ، تلك هي الحقيقة ، الحقيقة الناصعة كما قالت هيلدا مضيئة إلى الرهان بأن الأطباء في الواقع ليس لديهم أي أمل .

قال لويس ، أوه ، لا أستطيع احتمالها ، انتظر دقيقة ، لا أستطيع تصديقها ، هل أنت متأكد ، أعني هل هم متأكدون من قيامهم بجميع الفحوص والاختبارات ، أصبح الأمر هكذا : عندما يرن جرس الهاتف : أفزع من الرد لأنني أعتقد أن أحداً ما يود أن يخبرني بأن أحداً آخر قد أصيب بالمرض ، لكن هل حقيقة بأن لويس لم يعلم بالأمر حتى الآن .

قال روبرت بنزق ، اني أجد ذلك صعب التصديق ، فالكمل يتحدث بهذا الشأن ، ويبدو من المستحيل أن أحد الأشخاص لم يقم بالاتصال مع لويس ، وربما أن لويس كان يعلم ولسبب ما ظل يتظاهر بأنه لم يعلم حتى الآن . كما يذكر جان ؛ ألم يقل لويس شيئاً لجريج منذ أشهر وليس فقط لجريج عن أنه لا يشعر بالراحة وأن وزنه أخذ ينقص ، لذا فهو قلق بشأنه ويرغب في أن يرى طبيباً ، لا يبدو الأمر مفاجأة كاملة له . قالت بيتسي ، حسناً الجميع الآن قلق بشأن الجميع ، هذه هي الطريقة التي يبدو أننا نعيش بها ، الطريقة التي نحيها الآن ، وبعد كل هذا فقد كانوا ذات يوم قريبين جداً من بعضهما البعض ، ألا يزال لويس يحتفظ بمفاتيح شقته ، أنت تعرف الطريقة التي بها تترك شخصاً ما يحتفظ بمفاتيحك بعد أن تقطع علاقتك به ، فقط قليلاً ، لأنك تأمل بأنه سيعود في احدى الليالي مخموراً أو ثملاً في وقت متأخر ، ولكن بالأساس لأنك تظن أن من الحكمة الابقاء على عدة أطقم من المفاتيح منشورة في أنحاء البلدة اذا كنت تعيش وحيداً في أعلى البناية التجارية سالفة الذكر والتي لا يوجد لها بواب أو ناظر مقيم . شخصاً ما تستطيع أن تتصل به في وقت متأخر من الليل اذا اكتشفت أنك فقدت مفاتيحك أو أغلقت عليها في الداخل .

من غيرك لديه مفاتيح ، سألت تانيا ، كنت أفكر أن يزورني شخصاً ما غداً قبل المجيء إلى المستشفى حاملاً بعض الكنوز ، لأنه في أحد الأيام - قالت ايرا - كان يتدثر من غرفة المستشفى ، كم هي كثيبة وكيف انها تعطيك انطباعاً بأنك مقفول عليك في غرفة موتيل مما حفز كل شخص أن يبدأ بسرد قصص مضحكة حول غرف موتيلات الطريق العام التي عرفوها ، مثل قصة أورشولا حول نزل لوكسوري برجيت في سكينتادي ، وقد انفجر الجميع ضاحكين حول سريره ، في حين ظل هو يراقبهم بصمت وبعيون تبرق بالحمى ، يلتهم طوال الوقت ذلك اللوح اللعين من الشوكولاتة .

لكن وفقاً لجان الذي مكنته مفاتيح لويس من الطواف في شقة العزوبية لجلب بعض التحف والرسومات من أجل جعل غرفة المستشفى أكثر قبولاً ومواساة ، فان الأيقونة البيزنطية لم تكن على الحائط فوق سريره ، ووقع ارتباك حسمه أورسون حين تذكر دون أن يبدو عليه أي قلق (نوقش هذا الأمر من قبل جريج) بأن ذلك الولد الذي تخلص منه حديثاً قد تمكن من سرقتها مع أربعة صناديق من الورنيش كما لو أن هذه الأغراض يسهل بيعها . في الشارع مثل تلفزيون أو ستيريو ، ولكنه كان دائماً سخياً جداً ، قالت كيت بهدوء ، ومع أنه يحب الأشياء الجميلة فإنه للحقيقة لم ينجذب اليها ، إلى الأشياء ، كما قال أورسون التي تعد غير عادية ، كما علق على ذلك فرانك ، وعندما ارتجفت كيت وانبثقت الدموع من عينيها ، استعلم أورسون بانفعال فيما اذا كان قد صدر منه أي لفظ خاطئ ، ولكنها أشارت إلى أنهم قد أخذهم الحديث عنه نحو استرجاع الإحداث الماضية مستذكركين كيف كان حاله وما الذي جعلهم يحبوه كما لو أنه قد انتهى ، وأصبح الآن جزءاً من الماضي أرهقته كثرة الزائرين . قال روبرت الذي جاء كما أشارت ألين مرتين : (من المحتمل انه كان يبحث عن سبب ، لأن لا يعد ضمن الزائرين المنتظمين . لكن بما لا شك فيه ، كما قالت أورسولا أن معنوياته قد انخفضت وقد بدا الآن وكأنه يرغب أن يكون وحيداً لبضع ساعات في اليوم . وقد أخبر دوني بأنه بدأ يدوّن مذكراته لأول مرة في حياته ، لأنه أراد أن يسجل مسار ردود أفعاله الذهنية أمام هذا التحول المذهل لمجريات الأحداث ، أراد أن يفعل شيئاً موازياً لما كان يفعله الأطباء الذين يأتون كل صباح ، ويجرون المشاورات حول جسده قرب السرير ، وربما لم يكن ما كتبه فيها بتلك الأهمية ، كما قال لكونتين بمرارة ، ولكنها كانت تساوي أكثر قليلاً من تلك القصص العادية حول الرعب والانذهال اللذان يحصلان له ، اضافة إلى تلك التقييمات النادرة حول حياته الماضية والأشياء السطحية التي يمكن اغتفارها ، متوجةً بالحلل من أجل عيش أفضل ، أكثر عمقاً وتواصلاً مع عمله وأصدقائه ، ضارباً عرض الحائط بما يفكر به الناس حوله مسلماً نفسه للتحذيرات والنصائح بأنه في مثل حالته ، فإن ارادته يجب أن تتجه نحو الاستمرار في الحياة أكثر من أي شيء آخر ، وأنه إذا أراد أن يعيش فعلاً ، فإن عليه أن يأمل في العيش وأن يحب نفسه بشكل كاف ، تماماً مثل

ثاناثوس!) يمكن أن يعيش ، وأن يكون استثناء ، ولكن كل هذا ، كما تأمل كوينتين وهو يتحدث على الهاتف مع كيت ربما لم يكن النقطة الأساسية ، فالنقطة الأساسية كانت في الحرص الشديد على المفكرة التي كان يكس فيها بعض الأوراق لكي يعيد قراءتها يوماً ما ، غارساً فيها شكواه خلصة لأيام في المستقبل يمكن أن يكون فيها المفكرة هدفاً أو تذكاراً ، يمكنه أن لا يعيد قراءتها فعلياً ، لأنه يرغب أن يلقي هذه الحنة وراء ظهره ، ولكن المفكرة قد تبقى هناك في درج مكتبه الماجوريل الضخم ، ويمكنه الآن أن يروح بأسراره لكوينتين في وقت متأخر من بعد ظهر يوم مشمس وهو مستند على سرير المستشفى وقد ترك أكل الشوكولاتة بقعة على إحدى زوايا ابتسامته التي تحطم القلوب ، وأن يرى نفسه في حجرة على السطوح وأشعة شمس تشرين الأول تتدفق من خلال تلك النوافذ الصافية بدلاً من هذه الحجرة المخططة . والمفكرة ، المفكرة الشجية آمنة في الدرج .

ليس هناك مشكلة بشأن التأثيرات الجانبية للعلاجات قال ستيفان (عندما كان يتحدث إلى ماكس) أنا لا أعرف لماذا أنت قلق بشأن ذلك ، فكل علاج قوي له بعض التأثيرات الجانبية الخطيرة ، هذا أمر يتعذر تجنبه أنت تعني بطريقة أخرى ، أن المعالجة يمكن أن تكون غير فعالة . قاطعته هيلدا ، وعلى كل حال ، استطرد ستيفان بعناد ، أن مجرد وجود تأثيرات جانبية ، لا يعني أنها ستصيبه كلها ، واحدة واحدة أو حتى بعض منها ، إن هذه تعتبر قائمة بالإخطاء التي يمكن أن تحصل لأن الأطباء لديهم ما يغطون به أنفسهم ، وهكذا فهم يقومون بوضع مخطط (سيناريو) بأسوأ الحالات ، ولكن أليس هذا ما يحدث له وما يحدث للكثير من الناس الآخرين .

قالت تانيا مقاطعة ، مخطط (سيناريو) لأسوأ الحالات ، انها كارثة لا يمكن لأحد أن يتصورها ، انها قاسية جداً ، الا يعتبر كل شيء في هذا الدنيا ، تأثيرات جانبية ، قالت ايرا مازحة ، حتى نحن نعتبر أنفسنا تأثيرات جانبية . ولكننا لسنا تأثيرات جانبية سيئة ، قال فرانك ، أنه يحب أن يرى أصدقاءه حوله ، وكل منا يساعد الآخر ، لأن مرضه صبغنا جميعاً بنفس الغراء ، قال اكسفير وهو مستغرق في التفكير ، عدا عن ذلك فمهما كان الحقد والحسد الذي وضع في الماضي حواجز من القلق وعدم الاستقرار في العلاقات بين بعضنا البعض ، إلا أن أمراً خطيراً مثل هذا

(السماء تسقط ، السماء تسقط) يجعلنا ندرك ما هو الأهم حقاً ، أنا أوافق أنه قد ينعتنا بالجبن قليلاً ، «لكن ألا تعتقد أبدى كوينتين ملاحظة إلى ماكس «كوننا قريبين منه كما نحن الآن ، ومحاولتنا ايجاد متسعاً من الوقت للقيام بزيارة خاطئة للمستشفى كل يوم ، هي محاولة منا لتحديد أنفسنا بطريقة أكثر ثباتاً بين صفوف الأصحاء ، غير المرضى ، وغير القابلين للوقوع في المرض وكأن ما حصل له لا يمكن أن يحصل لنا ، بينما في الحقيقة عندما تلعب الأقدار ، قد يأتي وقت ، ليس بالطويل الأمد ، وينتهي الحال بأحدنا إلى حيث انتهى . ومن المحتمل أن هذا ما شعر به ، عندما كان واحداً من المجموعات التي كانت تزور زاك في الربيع (أنت تعرف زاك : أليس كذلك؟)

ووفقاً لكلاريس ، «أرملة زاك ، لم يكن يأت بصورة متواصلة لأنه ، كما قال ، يكره المستشفيات ولم يشعر بأي فائدة من زيارته لزاك ، وكان زاك يلاحظ عدم الراحة على وجهه . «أوه كان واحداً من أولئك» «جبان مثلي قالت إلي ، وبعد أن أعيد من المستشفى إلى البيت ، وبعد أن تطوع كوينتين لينتقل معه إلى البيت ليقوم بتقديم الوجبات له وتلقي رسائل الهاتف ، وتزويد أمه في ميسيسيبي بالمعلومات لابقائها على اطلاع وتجنبيها الطيران إلى نيويورك حتى لا تنقل حزنها إلى ابنها وتربك روتين العمل المنزلي اليومي بتسلطها وضيق صدرها . بعد كل ذلك كان ما يزال قادراً على العمل لساعه أو ساعتين في دراسته ، في الأيام التي لم يكن يصبر على الذهاب إلى الخارج من أجل وجبة طعام أو فيلم كان يسبب له التعب . بدا متفائلاً ، كما كانت كيت تعتقد وكانت شهيته جيدة ، وما قاله ونقله اورسون كان أنه وافق على نصيحة استيفان بأن الشيء الأساسي هو المحافظة على المظهر . كان مقاتلاً بحق ، وما كان ليكون كما هو عليه ، لو لم يكن كذلك وكان مستعداً للمعركة الكبيرة ، سألت ستيفن ببلاغة (كما أخبر ماكس دوين) وراهنه على ذلك ثم أضاف ، يمكن أن يكون الأمر أسوأ من ذلك بكثير ، فقد كان يمكن أن تصاب بالمرض منذ سنتين مضتا ، لكن يوجد الآن العديد من العلماء الذين يقومون بالأبحاث عنه ، الفريق الأميركي والفريق الفرنسي والكل يعمل بعناد من أجل الحصول على جائزة نوبل تلك بعد سنوات قليلة على الطريق ، وكل ما هو مطلوب منك أن تفعله هو أن تبقى معافى

لسنة أخرى أو لسنتين وبعد ذلك ستكون المعالجة حقيقية وجيدة . قال نعم كما سمعه ستيفن ، إن توقيتي جيد أما بيتسي التي كانت تتسلق وتلتقط أطعمة الحمية النباتية لمدة عقد من الزمن قد جاءته بأحد المختصين اليابانيين لكي يراه ، ولكن حمداً لله قال دوني فقد تولد لديه احساساً بالرفض ، إلا أنه وافق على أن يرى الاختصاصي الذي أحضره فيكتور للمعالجة بالتخيل ، على الرغم من أنه لا يوجد شيء يستطيع المرء أن يتخيله ، قالت هيلدا ، النقطة الأساسية لتخيل المرض هي أن تراه بكينونته مع وجود خطوط وحدود له هنا أكثر من هناك ، أشياء محدودة ، كنت أنت مضيئاً لها ، بمعنى أن باستطاعتك عدم استدعاء المرض ، في حين أن المرض كان أمراً كلياً شاملاً كما قال ماكس ، أو أنه يمكن أن يكون كذلك .

لكن الشيء الرئيسي كما قال جريج هو أن ترى أنه لم يسلك الطريق النباتي الذي قد لا يسبب ضرراً لبيتسي السمينه ولكنه قد يكون مدمراً له ، مع هذا الهزال الذي رافقه كل حياته ومع أكداش السجائر وكابحات الشهية التي كان يتقبلها في جسده لسنوات ، والوقت الآن غير مناسب أبداً كما أشار ستيفن لكي يقلق على تنظيف رواسب أعماله ويتخلص من الكيماويات المضافة والملونات الأخرى ، التي نشعر جميعاً بالسعادة أو بغير السعادة عندما نتناولها ونحن أصحاء ، قدر استطاعتنا أن نكون .

وقالت ايرا ، ما يسعدني حتى الآن هو أن أراه يأكل اللحم والبطاطا ، وأضافت أورسولا بحزن ، ومعكرونة السباغيتي ، وشوربة المحار ، أضاف جريج ، وعجة البيض الغنية بالكولسترول وجبنة موزاريلا مدخنة كما اقترحت ايفون التي طارت من لندن في عطلة نهاية الأسبوع لكي تراه .

قال فرانك ومن الأفضل بدون كعكة شوكلاته قالت أورسولا لأنه الآن يتناول كميات كبيرة من الشوكولاته .

وبعد ذلك ، ليس حالاً ولكن بعض مضي ثلاثة أسابيع ، عندما وافق الأطباء ، بعد وقت طويل من المشاورات وراء الكواليس على ادخاله في بروتوكولات العقار الجديد ، بدأ يتكلم أقل عن كونه مريضاً ، وفقاً لدوني ، بما بدا وكأنه علامة جيدة ، كما شعرت ، علامة على أنه لم يكن يشعر كضحية ، شعور ليس من يصاب بمرض ،

بل بالأحرى من يعيش مع المرض (تلك كانت الفكرة الصحيحة ، ألم تكن؟) .
مزيد من ترتيبات حسن التقبل ، كما قال جان ، نوع من التعايش يتضمن شعوراً
بأن الأمر مؤقت ، وأنه قد ينتهي ، قالت هيلدا ، لكن كيف سينتهي ، أنت تقول كلمة
هو سببتابل (أي حسن الضيافة) وأسمعها هو سببتال (مستشفى) يا جان ، والأمر
المشجع كما أصر ستيفن ، هو أنه ومن البداية وعلى الأمل ومنذ استطعنا إقناعه
بالإتصال مع طبيبه هاتفياً ، كان ينوي أن يذكر إسم المرض وأن يلفظه ببساطة
وبشكل دائم كما لو أنها كانت مجرد كلمة أخرى ، مثل ولد ، أو معرض ، أو سيجارة
، أو نقود ، أو صفقة ، وكأنها ليست صفقة كبرى .

أقحم باولو نفسه في الحديث ، كما تابع ستيفن وقال أن التفوه بالاسم دلالة على
الصحة ، وتلك دلالة يتقبلها المرء كما هو فانياً عرضة للإصابة بالأمراض وغير
مستثنى من شيء . انها علامة على رغبة الانسان ، كل انسان ، للنضال من أجل
حياته ، وعلينا أن نتخلف عنه في مسألة الأمانة أو أن نتركه يشعر بذلك ، فالمسعى
للأمانة قد تم وهو شيء قد انتهينا منه ، ويستطيع أن ينصرف إلى أشياء أخرى .

كما أن المرء يصبح أكثر استعداداً لمساعدته ، قال ويسلي بطريقة ما ، فهو محظوظ .
قالت ايفون ، التي كانت عائدة إلى لندن هذا المساء ، بعد أن عاجلت مشكلة في
مخزن نيويورك : بالتأكيد محظوظ ، قال ويسلي ، كذلك لم يحاول أحد أن يتجنبه أو
ينأى عنه . استطردت ايفون ، فلم يكن أحدا يخاف من معانقته أو تقبيله بخفة على
فمه . نحن في لندن كالعادة ، متخلفين بضع سنوات عنكم ، والناس الذين أعرفهم ،
أعني الناس البعيدون عن خطر الإصابة ، يبدوون مروّعين ، ولكنني متأثرة بتعلقكم
وبرودتكم في مواجهة ما أنتم فيه . قد تجدونا هادئين ، قال كوينتين ، لكن علي أن
أذكر هنا ، كما نقل عن قوله ، انني مرتاع وأجد صعوبة في القراءة والمطالعة (وأنت
تعرف أنه يحب القراءة - قال جريج - نعم القراءة في تلفزيونه قال باولو) أو في
التفكير ولكنني لم أصل إلى حد الهستيريا . ولكن لويس قال لايفون أنا أشعر
بالهستيريا إلى حد بعيد . «لكنك قادر على أن تفعل له شيئاً وهذا أمر رائع ، كم
أتمنى أن أتمكن من الإقامة لمدة أطول» أجابت ايفون «إنه شيء جميل بالأحرى ، ولا
أستطيع الإمتناع عن التفكير ، هذه المثالية للمصداقة التي حشدتموها حوله (هذه مثالية

محزنة ، قالت كيت) لدرجة الشعور بأنه لم يعد هناك وجود لمرض ، اختتمت ايفون الحديث .

قالت تانيا : نعم ألا تعتقدين أننا نعيش شعوراً بيتياً حقيقياً هنا ، معه ومع المرض ، لأن تخيل المرض أسوأ بكثير من حقيقة شخصيته التي نجبها ونتمنى جميعاً ، كل على طريقته أن نستحوذ عليها ، بالنسبة لي ، قال جان ، أنا أعلم أن اصابته قد قضت على شعوري بالأرتباك من المرض ، فأنا لم أعد أشعر بخوف أو الرهبة كما كنت أشعر قبل أن يصبح هو مريضاً ، كان الأمر فقط أخباراً بعيدة تصلنا عن معارفنا وأصدقائنا ، الذين لم نعد نراهم مرة أخرى بعد اصابتهم بالمرض ، قال كوينتين : ولكنك تعلمين بأني بأك لست في صدد الوقوع ببرائث المرض ، مما دعا ايلين للرد عليه قائلة من ناحيتها : النقطة الرئيسية ، وربما لا تجانب الحقيقة ، يقول الطبيب النسائي الذي أراجعه ، بأن كل من له حياة جنسية معرض للخطر ، لأن النشاط الجنسي هو سلسلة تربط كل منا بالآخرين وربما آخرين غير معروفين ، والآن أصبحت تلك السلسلة الأعظم للكينونة ، سلسلة للموت أيضاً . لم يعد الأمر بالنسبة لك كما في السابق ، أكد كوينتين ، لم تعد بالنسبة لك كما هي بالنسبة لي أو للويس أو لفرانك أو لباولو أو لماكس ، أنا خائف أكثر وأكثر ، ولدي كل الأسباب لأن أكون .

قالت هيلدا : أنا لا أفكر اذا ما كنت في خطر أم لا ، فانا أعلم ، أنا أعلم أنني كنت خائفة من أن أعرف شخصاً ما أصابه المرض ، خائفة مما يمكن أن أراه وما يمكن أن أشعر به ، وبعد اليوم الأول لحضوري إلى المستشفى شعرت بأنني قد ارتحت ولن أشعر بعد اليوم بذلك الخوف مرة ثانية ، فهو لا يبدو مختلفاً عني .

إنه لا يختلف عنك قال كوينتين ، ووفقاً للويس ، فقد تحدث أكثر من العادة حول أولئك الذين زاروه أكثر من مرة ، هذا طبيعي ، قالت بيتسي ، أعتقد أنه كان يحتفظ بسجل وكان هناك منافسة بين أولئك الذين زاروه أو استفسروا عنه على طريق الهاتف ، أعني حاشيته الداخلية التي تحصل على نقاط أكثر . كانت تلك المنافسة تثير أعصاب بيتسي كما اعترفت بذلك إلى جان ، دائماً نظهر هناك تلك المناورات المبتذلة حول سرير المريض ، لكسب حظوة عنده رغم الشعور الذي يغمرنا بالامتنان

لولا عنا للمريض ، (تحدثني عن نفسك قال جان) إلى المدى الذي نأخذه من وقتنا كل يوم أو تقريباً كل يوم ، ورغم أن البعض منا قد تخلّى عن هذه العادة كما أشار اكسفير ، إلا أننا نحجني من هذا مقدار ما يجنيه هو على الأقل .

قال جان : هل الأمر كذلك؟ اننا تتنافس على اشارة منه تعبر عن شعور خاص بالسعادة لزيارتنا ، وكل منا ينتظر خاتم نحاسي يهديه لنا ، ويرغب بالشعور بأنه هو المرغوب أكثر لديه .

هذه هي الحقيقة المحتومة عن الأقرب والأعز على شخص ليس له قرينه ولا أطفال ولا حتى عشيق رسمي يعيش معه في بيته ، وهي مراتب هرمية لا يمكن أن يجادل فيها أحد ، هكذا نكون نحن الأسرة التي أوجدها بلا معنى ولا عناوين وظيفية أو مراتب ، استطردت بيتي .

(نحن ، نحن ، صاح كوينتين) وهل هي واضحة بهذا الشكل رغم أن البعض هنا وبينهم لويس وكوينتين وتانيا وآخرون هم عشاق سابقون وجميعنا أكثر من أصدقاء ، إلا أنه لا يفضل أحدنا عن من الآخر قال فكتور ، (من الآن اذن قال كوينتين بغضب) لأنني أظن أنه في بعض الأحيان يكون توافقاً لرؤية ايلين التي لم تزره سوى ثلاث مرات ، مرتين في المستشفى ومرة بعد خروجه إلى البيت أكثر مما يتوق لرؤيتي أو رؤيتك ، ولكن وفقاً لتانيا ، بعد خيبة الأمل التي شعر بها لعدم زيارة ايلين له ، أصبح الآن غاضباً ، ولكنه لم يكن في الحقيقة مجروحاً الا أنه منفعل وفقاً لما قال اكسفير . وقد تقبل غياب ايلين بطريقة أو بأخرى كشيء له ما يبرره ، إلا أنه سعيد لأن يرى الناس حوله ، قال لويس ، ويقول بأنه ينتابه احساس بالنعاس عندما لا يكون حوله اصدقاء ، فو ينام (وفقاً لكوينتين) ويمد عنقه بسرعة عند وصول أحد . إنه لآمر مهم أن يشعر دائماً بأنه ليس وحيداً .

لكن فيكتور قال ، هناك إنسانة واحدة لم يسمع منها ، ومن المحتمل أنه يحب أن يسمع منها أكثر من أغلبيتنا ولكن هذه الإنسانية اختفت تماماً ، حتى بعد أن قطعت علاقتها به . إلا أنه يعرف تماماً أين تعيش الآن ، قالت كيت لقد أخبرني بأنه قد اتصل معها هاتفياً عشية عيد الميلاد وقالت له لقد كان لطيفاً أن أسمع منك وأتمنى لك عيد ميلاد سعيد ، ووفقاً لأوروسون ، فقد ظل يثرثر في حين قالت ايلين أنه كان

يشعر بالغضب والازدراء (ماذا تتوقع منها ، قال ويسلي لقد كانت شعلتها مظفئة) ، لكن كيت تساءلت أنه ربما لم يتصل بنورا في منتصف ليلة أرق ، وما الفرق في التوقيت ، قال كونتين لا ، لا أظن هكذا ، وأظن أنه لم يرغب أن يعلمها بأمره ، مباشرة بعد شعوره بالتحسن وبأنه استعاد الباوندات التي سفحها في المستشفى مع العلم أن ثلاجته قد بدأت تمتلئ بحبوب القمح العضوية والكريبفروت والحليب منزوع القشدة (كان قلقاً على نسبة الكوليسترول في جسمه ، تفجع ستيفن) وأخبر كونتين بأنه يستطيع تدبر الأمر بنفسه الآن وقد فعل ، وراح يسأل كل من زاره : كيف يبدو؟ والجميع قالوا له أنك تبدو رائعاً وأفضل كثيراً من الأسابيع القليلة الماضية حيث لم تتفق أجوبة الجميع في ذلك الوقت . بدأ الأمر يصعب أكثر وأكثر لتحديد كيف يبدو أو كيف يمكن أن تجيب على هذا السؤال بأمانة . كانوا فيما بين أنفسهم يرغبون أن يجيبوه بأمانة ، أكراماً للأمانة (كما اعتقد دوني) واستعداداً للأسوأ ، لأنه كان يبدو هكذا منذ مدة طويلة إلى حد بعيد . بدت على الأقل مدة طويلة نسبياً ، كما لو أنه كان دائماً يبدو هكذا ، كما بدا من قبل ، لكن تلك الكلمات شحبت وصارت باهتة وهشة وغير صالحة للتطبيق بعد مضي عدة شهور .

وفي أحد أيام الخميس ، التقت الين بلويس على باب البناية ، وسألته وهما يستقلان المصعد ، كيف هو في الحقيقة؟ أجابها لويس بلهجة لازعة ، لكنك ترين كيف هو ، انه معافى تماماً ، الا أن ايلين أدركت بالطبع بأن لويس لم يكن يعتقد بأنه معافى تماماً ، ولكن صحته ليست أسوأ من قبل وكانت هذه هي الحقيقة ، ولكن هل هذا هو الصحيح . إن من القسوة أن نتحدث هكذا .

لا يبدو الأمر لي مهيناً قال كونتين ، ولكنني أعلم ما تقصدين اذكر في احدى المرات التي كنت أتحدث فيها إلى فرانك والذي كان قد تطوع للعمل خمس ساعات في الأسبوع في مكتب مركز الكوارث (أعرف ، قالت الين) وقد قام فرانك بمتابعة شخص تم تشخيص حالته على الأغلب منذ سنة ، كان يشكو إلى فرانك على الهاتف من لا مبالاة بعض الأطباء ، ويتفوه بكلام بذيء تماماً عن الطبيب ، وكان فرانك يقول له : لا يوجد سبب لأن تكون منزعجاً هكذا ، إن مضمون هذا الكلام هو أن فرانك لم يتصرف بصورة غير منطقية ، وأجبتة وأنا بالكاد اسيطر على شعوري

بالسخرية ، لكن يا فرانك ، لديه كل الحق أن يكون منزعجاً ، انه يموت ، فأجاب فرانك وفقاً لكونتين ، أوه ، لا أحب أن افكر بشأنه بتلك الطريقة .

وقد مرت فترة قصيرة عندما كان لا يزال في البيت ، أخذ يسترد فيها عافيته ويداوم على معالجته الأسبوعية ، دون أن يصبح قادراً بعد على القيام بعمل كثير ، أخذ يتذمر معظم الوقت ، لكن وفقاً لكونتين ، كان يحضر إلى المكتب عدة أيام في الأسبوع ، حين جاءت أخبار سيئة من صديقين تربطه بهما معرفة جيدة ، أحدهما في هيوستن والآخر في باريس ولكن تم اعتراضها من قبل كونتين لأنه اعتقد أنها ستوقع في نفسه الكآبة . إلا أن ستيفن جادله بأن من الخطأ أن تكذب عليه ، وأن من الأهمية بمكان أن يعيش في واقع حقيقي .

كانت صراحته هي أول انتصاراته ، فقد أحب اطلاق النكات حول المرض ، ولكن الين قالت أن هذا الإحساس لم يكن جيداً لأنه يترك عنده شعور بنهاية العالم ، وهناك الكثير من المصابين بهذا المرض . وقد اصبح المرض عاماً لدرجة أنه قد يستنفذ منه بعض رغبته في الكفاح من أجل حياته . عندما يصبح قدر هذا المرض طبيعياً مثل الموت .

قالت هيلدا : أوه من منا لم يعرف شخصياً ذلك الصديق الذي في هيوستون أو الآخر في باريس ، فأنا كنت أعرف الشخص الذي في باريس كان عازف بيانو متخصص في موسيقى القرن العشرين التشيكية والبولندية . وأنا أحتفظ بتسجيلاته . كان شخصاً ذو قيمة . وعندما حملقت فيها كيت تابعت حديثها مدافعةً أنا أعلم أن كل حياة هي حياة مقدسة على حد سواء ولكن تلك كانت فكرة ، فكرة أخرى . أقصد أن كل هؤلاء الأشخاص النابغين الذي لن يكتب لهم السير في طريق الحياة العادية لبلوغ الثمانين من العمر كما يحصل الآن ، هم أشخاص لا يمكن تعويضهم وهذه خسارة للثقافة . ولكن هذا الأمر لن يستمر إلى الأبد ، قال ويسلي ، ولا يمكن أن يستمر ، من المؤكد أنهم سيخترعون بعض الأشياء (هم ، هم ، تتم ستيفن) ولكن هل فكرت مرة ، قال جريج ، بأنه إذا لم يميت بعض الناس ، أعني ، حتى لو أنهم تمكنوا من إبقائهم على قيد الحياة (هم ، هم ، تتممت كيت) فهم يستمرون بكونهم ناقلين للمرض ، وذلك يعني ، إذا كان لديك ضمير أنك لن تستطيع أن تمارس الحب ،

الحب بكل ما في الكلمة من معنى ، ووفق ما ترغب ، ولجرد أنك ترغب في فعل ذلك ، قالت إيرا ، ولكن ذلك أفضل من الموت ، قال فرانك . ووفقاً لكوينتين ، فإنه عندما كان يسمح لنفسه ببعض الأمل في احاديثه عن المستقبل ، لم يشر البتة إلى أنه حتى ولو لم يمت وبقي محظوظاً بأن يكون من الجيل الأول للناجين من المرض ، لم يشر ابداً كما أكدت كيت بأن ما حصل قد انتهى وأنه وفقاً لإيرا فكّر ملياً بشأن نهاية هذا التظاهر بالشجاعة ، ونهاية الحمق ، ونهاية الثقة بالحياة ، وأخذ الأمر على أنه شيء مسلّم به وان الحياة يجب أن تعامل كأنها شبيهة بالساموراي . فكّر ملياً بأنه على أتم الاستعداد للتخلي عنها بخفة وصفاقة . وتنهدت كيت عندما تذكرت قصة حديث مقتضب ، ظلت تصرّ على اجرائه معه منذ سنتين . كانت تتهادى على منصة مغطاة بسجاد فولاذي صناعي رمادي اللون ، في الطابق العلوي لمقرص «بروفيت» ، وكانت ما تزال تجهز للرقصة التالية عندما ترددت في مخاطبته لأنها شعرت بأن من الحماسة أن تحاول إقناع أمير الاغواء بأن يتقبلها ببساطة وبصدر رحب . إلى جانب أنها لم تكن متحمسة لأن تلعب دور الأخت الكبرى ، وهو دور ، أكدت هيلدا بأنه كان يحاول الإيحاء به للعديد من النساء ، ثم قالت له : يا عزيزي . أنتفهم ما الذي أعنيه؟ وكانت إجابته كما تابعت كيت تقول كلا ، أنا لا أرغب بذلك ، اسمعي ، أنا لا أستطيع ، أنا فقط لا أستطيع . إن الجنس مهم جداً بالنسبة لي وقد كان كذلك دائماً . (لقد بدأ يتحدث مثل هذه الأحاديث . وفقاً لفكتور ، بعد أن تركته نورا) . ثم تابع : وإذا ما حصلت عليه ، فأنا أمارسه على أكمل وجه .

لكنه لن يرغب في مثل هذا الحديث الآن ، أليس كذلك . قال جريج ، لا بد أنه يشعر بحماقته لدرجة تبعث على الأسى ، قالت بيتسي ، مثل شخص يستمر في التدخين مدّعياً بأنه لا يستطيع ترك السجائر . ولكن عندما تظهر صور الأشعة الخيفة ، فإنه لن يستطيع الاستمرار ، حتى ولو كان من أسوأ مدمني النيكوتين .

لكن الجنس ليس مثل السجائر ، هل هو كذلك؟ قال فرانك ، وعلاوةً عن ذلك ، ما الذي سينفعه لو تذكر طيشه ، قال لويس بغضب . ان المرعب في الأمر أن تقع في سوء الحظ مرة واحدة . ولكن ألا يمكن أن يصبح شعوره أسوأ لو توقف عن ممارسة الجنس منذ ثلاث سنوات ثم اكتشف أنه مصاب بالمرض على أية حال ، نظراً لأن

واحداً من أكثر معالم الرعب في هذا المرض أنك لا تعلم متى التقطت عدواه . ربما حدث هذا الأمر منذ عشرة سنوات ، لأن هذا المرض كان موجوداً منذ سنين وسنين ، قبل أن يعرف بمدة طويلة وحتى قبل أن يطلق عليه اسم .

من الذي يعرف كم كانت المدة (أفكر كثيراً بهذا الأمر ، قال ماكس) ولن يعرف (أنا أعرف ماذا ستقول ، قاطعه ستيفن) كم عدد الذين سيصابون به؟ أنا أشعر بأني في وضع ممتاز ، هذا ما كان يقوله رداً على كل شخص يسأله عن حاله ، ولعل هذا السؤال في أغلب الأحيان ، كان أول سؤال يسأله أي شخص . أو أن يقول ، وفقاً لفكتور ، أنا أشعر بأني أفضل ، كيف حالك أنت؟ . لكنه كان يقول أشياء أخرى أيضاً مثل : أنا العب لعبة الضفدع مع نفسي أو لا بد أن هناك طريقة للخروج ببعض الايجابية من هذا الوضع ، وفقاً لكيت . كم يبدو أمريكياً هذا ، قال باولو . وقالت بيتسي : حسناً أنت تعرف المثل الأمريكي القديم والمأثور عندما تحصل على ليمونه فاصنع ليمونادة» . والشيء الوحيد المؤكد الذي لا أستطيع أن أتقبله ، وفقاً لما كان يقول لجان» هو أن أصبح مشوهاً . ولكن ستيفن أشار بعجلة إلى أن المرض لم يعد يأخذ هذا المنحى أبداً . فالمظهر الجانبي له متغير . ومنى إحدى مناقشاته مع الين ذكر كلما تمثل له حاجز دم الدماغ . لم أكن أعتقد أن هناك حاجزاً . قال جان لكنه يجب أن يعرف بما حدث لماكس . قالت الين ان ذلك سيحزنه حقاً ، أرجو أن لا تخبره ولكن كوينتين رد بتجهم . يجب أن يعرف سوف يجن جنونه إذا علم بأننا لم نخبره ، ولكن ما يزال هناك متسع من الوقت حتى يرفعوا جهاز التنفس الصناعي عن ماكس قالت الين : ولكن اليس هذا امرٌ لا يصدق . قال فرانك : لقد كان ماكس رائعاً ولم يكن يشعر بالمرض اطلاقاً إلى أن استيقظ يوماً فجأة ووجد نفسه يعاني من حمى شديدة وارتفاع في درجة الحرارة وصل إلى ١٠٥ فهرنهايت . لم يعد يستطيع التنفس . ولكن هكذا يبدو المرض عادةً ، بدون تحذير على وجه الاطلاق ، قال ستيفن . انه مرض ذو أشكال كثيرة . وبعد مضي حوالي أسبوع سأل كوينتين : أين ماكس؟ لم يسأل عن حساب نشاطات كوينتين من جزر البهاما . بعد ذلك ، بدأ عدد الناس الذين ينتظمون في زيارته بالانخفاض ، والسبب يعود جزئياً إلى عودة الضغائن القديمة بين الأصدقاء إلى السطح بعد أن طويت جانباً في الفترة الأولى لدخوله المستشفى وعودته إلى

البيت . كما يعود جزئياً أيضاً إلى العداوة التي ظلت تخبو وترتفع بين لويس وفرانك . إلى أن تفجرت ، على الرغم من المساعي التي بذلتها كيت للتقريب بينهما . كذلك بسبب قيامه هو شخصياً بتفكيك عرى المحبة التي تربط بين الأصدقاء حوله ، لإظهاره استخفافاً بهم . وكأنه من الطبيعي لمثل هذا العدد الكبير من الناس إن يقوموا بإضاعة الكثير من وقتهم واهتمامهم من أجله ، فيزوروه كل بضعة أيام أو يتحدثون معه بتواصل على الهاتف . ولكن وفقاً لباولو ، إن ذلك لم يكن بسبب نقص عرفانه بالجميل ولكن بسبب أنه أصبح معتاداً على الأمر ، وعلى الزيارات التي أصبحت مع الوقت شيئاً أكثر من الطبيعي . نوع من الذهاب إلى حفلة ما . أولاً في المستشفى والأُن بعد أن عاد إلى البيت وهو بالكاد يستطيع الوقوف على قدميه . لقد بدأ واضحاً ، قال روبرت بأني كنت على القائمة «ب» . ولكن كيت قالت أن ذلك تفكير سخيف . فلا توجد قائمة مثل هذه الا أن فكتور أكّد وجود مثل هذه القائمة دون أن تكون موضوعة من قبله . فقد كان كوينتين هو الذي أعدّها لكي يضمن رؤيتنا ومساعدتنا له ، بالطريقة التي يريدها . لقد سقط بالأمس على الأرض وهو في طريقه إلى الحمام . يجب أن لا يعلم بشأن ماكس (لكنه وفقاً لدوني أصبح يعلم) فقد صار الأمر أكثر سوءاً . عندما كنت في البيت ، كان يقول : كنت أخاف أن أنام ، لأنني كنت أنهار في كل ليلة ، وأشعر أنني أهوى في حفرة سوداء في الأسفل . وعندما أنام . أشعر أنني ذاهب للموت ، لذا كنت أنام كل ليلة في البيت والأضواء مشتعلة ، لكنني هنا في المستشفى ، أصبح أقل خوفاً .

في أحد الصباحات ، قال لكوينتين : ان الخوف يندفع بعنف إلى داخلي ويمزقني . وقال لايرا . انه يضغطني على بعضي ويعصرني ، فالخوف يعطي لكل شيء شكله وعلوه ، أنا أشعر هكذا ولا أدري كيف أقولها . كرر القول لكوينتين . يذهلني علو الكارثة أيضاً ، ولكنني في بعض الأحيان أشعر بأنني في حالة جيدة ، كما لو أنني أستطيع القفز خارج جلدي . هل أنا في طريقي إلى الجنون أم ماذا؟ كل ذلك التدليل والاهتمام الذي ألتقاه من الجميع حولي ، مثل طفل يحلم بأن يكون محبوباً . هل هي الأدوية؟ أنا أعلم أن الأمر يبدو جنوناً ولكن في بعض الأحيان اعتقد أنها تجربة رائعة . قال بنجل : كما أن هناك دائماً ذلك الطعم الرديء في الفم وذلك الضغط

في الرأس خلف العنق وتلك اللثة الحمراء الدامية . والألم الفظيع والصعوبة في التنفس ولون الشحوب الذي يشبه لون العاج أولون الشوكولاته البيضاء .

من بين أولئك الذين بكوا لدى سماعهم نبأ عودته إلى المستشفى ، كانت كيت وستيفن (الذي استدعي عن طريق كوينتين) وكذلك الين وفكتور وايلين ولويس (الذين اعلّموا بالهاتف عن طريق كيت) وأيضاً أكسفير وأورسولا (الذين اعلّموا بالهاتف أيضاً عن طريق ستيفن) .

ومن بين أولئك الذين لم يبكوا كانت هيلدا التي قالت أنها علمت للتو بأن عمّتها العجوز ، ابنة الخمسة والسبعين عاماً كانت تموت من نفس المرض الذي انتقلت إليها عدواه عن طريق نقل الدم خلال عملية قلب ناجحة أجرتها قبل خمس سنوات ، وكذلك لم يكن فرانك دوني ولا بيتسي من بين الباكين . ولكن هذا لا يعني ، وفقاً لما قالتها ثانياً . بأنهم لم يتأثروا أو يهتزوا . فقد ظن كوينتين بأنهم قد لا يأتون إلى المستشفى عاجلاً ولكنهم ربما يقومون بإرسال هدايا .

كانت إقامته هذه المرة في غرفة خصوصية تعج بالورود والنباتات والكتب والأشرطة ، وقد ضاع الحظر القاسي الذي شهده خلال الأسابيع الأخيرة في البيت وسط روتين زيارات المستشفى . مع أن الأكثرية أبدوا امتعاضهم من استلام كوينتين لدفتر الزيارات (لكن كوينتين كان صاحب الفكرة كما أشار لويس) من أجل تأمين تواصل في هذه الزيارات . مفضلاً اثنين فقط لا أكثر في كل زيارة (هذا القانون المعمول به في المستشفيات ، لم يكن اجبارياً هنا ، على الأقل في هذا الطابق ، ولكن لا أحد يستطيع أن يجزم ، ربما من باب اللطف أو عدم الكفاءة) استدعي كوينتين أولاً إلى المستشفى لكي يقوم بحجز الزيارات اذ لم يعد يسمح بالزيارة بدون مواعيد ، كما لم يعد بالمستطاع منع أمه من ركوب الطائرة أكثر من ذلك ، فقد وصلت وأقامت في فندق بجانب المستشفى . ولكن اهتمامه بزياراتها اليومية بدأ أقل من المتوقع ، هذا ما قاله كوينتين . ولكن ايلين قالت . نحن الذين كنا نهتم ، هل تظن أنها ستقيم طويلاً . كانت زيارته هنا أسهل من زيارته في البيت ، كما قال دوني ، حيث لم يكن أحد يكثّر ببقائه وحده في الغرفة . وحين كنا نأتي لزيارته ، أزواجاً ، لم يكن لدينا شك بشأن دورنا ، وكيف ينبغي علينا أن نكون متجمعين ، مذهولين ، مبتهجين ،

متفهمين ، غير متطلبين ، خفيفي الظل . من المهم أن تكون خفيف الظل ، لأن هناك طمأنينة تكمن أيضاً وسط هذا الرعب ، كما قال الشاعر وفقاً لكيت . (عيناه ، عيناه المتألقتان ، قال لويس) عيناه ، تبدوان كليتين مكسوفتين ، قال ويسلي لاكيسفير . لكن بتسي أضافت ليس مجرد عينيه ، بل أن وجهه كله يبدو دافئاً ومفعماً بالعاطفة . مهما كان الأمر ، قالت كيت ، لم أكن واعية هكذا لعينيه من قبل . وقال ستيفن : أنا خائف من كيفية نظرتي ومراقبتي له . إن فيها الكثير من الحدة ، أو نوع من الاحتيال غير المقصود ، قال فيكتور ، أن وجوده هنا ليس مثل وجوده في البيت فهنا يخلق كل صباح وأياً كان الوقت الذي يزورونه فيه ، فإن شعره الملتف كان دائماً مرّحاً . إلا أنه اشتكى من أن الممرضات قد تبدلن منذ أن كان هنا في المرة الأخيرة . وأن هذا التبديل لم يعجبه ، وهو يرغب أن يعود كل شيء إلى ما كان عليه ، كانت الغرفة قد أصبحت تحتوي الآن على بعض لمساته الشخصية (كلمة عرضية تقال عن مقتنيات شخص ، قالت الين) فقد أحضرت تانيا بعض الرسومات ورسالة من ابنها الذي يبلغ من العمر تسع سنوات ويعاني من صعوبة في الكتابة بسبب إصابته بالسلكسيا ، والذي أصبح الآن قادراً على الكتابة بعد أن أحضرت له جهاز كومبيوتر . كما أحضر دوني شمبانيا وبالونات هيليوم ، ثبتها على رجل سريره . قال . بعد أن صحنى من إحدى عفواته ، ووجد دوني وكيت يتسلمان على جانب سريره : أخبراني عما يجري ، أو أسردا لي قصة ، كانت نبرته حزينة وعلّق دوني قائلاً من الذي يستطيع التفكير بقول أي شيء . وقالت له كيت : أنت هي القصة .

وأحضر اكسفير تمثالاً غواتيمالياً للقديس سباستيان ، مصنوعاً من الخشب ويعود تاريخه للقرن الثامن عشر ، وله عينان موجهتان إلى أعلى وفم مفتوح . وعندما سألت تانيا . ما هذا الشيء قال اكسفير إنه مقدمة إلى الحب القديم وأضاف : في موطني يعتبرون القديس سباستيان حاميمهم من الطاعون ، ويرمزون إلى الطاعون بالسهم ، هل الطاعون يرمز اليه بالسهم؟ الجميع يتذكر ذلك الشاب اليانع ذو الجسد الفتى وهو مربوط إلى شجرة والسهم تخترق جسده (يبدو دائماً واضحاً بسببها ، قاطعت تانيا) ولكن الناس ينسون تكلمة القصة ، واصل اكسفير . وعندما جاءت النساء المسيحيات لدفن الشهيد ، وجدت أنه لا يزال على قيد الحياة فقممن برعايته حت استعداد

عافيته . قال له وفقاً لستيفن . لا أعرف أن سان سبستيان لم يمّت . ان روعة الموت لا يمكن أنكارها ، أليس كذلك؟ قالت كيت لستيفن على الهاتف إنه أمر يشعرني بالخجل . وقالت هيلدا : نحن نتعلم كيف نموت أما ايلين فقالت : أنا لست على استعداد لكي أتعلم . أما لويس الذي كان قادماً للتو من مستشفى آخر حيث كان ماكس ما يزال موضوعاً في غرفة العناية الحثيثة . فقد قابل تانيا قبل أن تغادر المصعد في الطابق العاشر ، وبينما كان يتمشيان مع بعضهما في الممر المضاء عبر الأبواب المفتوحة ، ويحولان أبصارهما عن المرضى الآخرين الغارقين في أسرهم وفي برايش أنوفهم وقد بدوا وكأنهم يشعون تحت الضوء المائل إلى الزرقة والمنبعث من أجهزة التلفزيون ، قالت تانيا للويس . ان الشيء الذي لا أستطيع احتمال التفكير بشأنه ، هو أن يمّت شخص ما بينما تلفزيونه شغّال . دخل الآن في حالة عزلة غريبة ومثيرة للأعصاب ، قالت ايلين وذلك ما سبب لي ارباكاً رغم أن البقاء معه أصبح أكثر سهولة . في بعض الأحيان كان كثير التشكي ويقول : انني لا أستطيع تحملهم وهم يأتون هنا في كل صباح فيأخذوا من دمي . ماذا يفعلون بكل ذلك الدم؟ سمعوه يقول ذلك . ولكن أين كان يكمن غضبه ، قال جان بدهشة؟ معظم الوقت ، كان البقاء معه محبباً وغالباً ما كان يسأل : كيف حالك؟ كيف شعورك؟ انه الآن لطيف إلى حد بعيد قالت ايلين . وقريب إلى النفس ، قالت تانيا (قريب إلى النفس ، قريب إلى النفس قالها باولو متأوها) .

في البداية ، كان مريضاً جداً ولكنه بقي متماسكاً ومستجمعاً لقواه ، وفقاً لأفضل المعلومات لدى ستيفن ، لم يكن هناك خوف من عدم شفائه هذه المرة وقد ذكر الطبيب بأنه سيتم اخراجه من المستشفى في العشرة أيام القادمة ، اذا ما سارت الأمور كلها على أحسن ما يرام . تم اقناع الأم بالعودة إلى الميسيسيبي وكان كوينتين قد جهز الشقة لعودته . أما هو فقد ظل يكتب مذكراته دون أن يطلع عليها أحد . الا أن تانيا ، التي كانت أول من وصل اليه في احدى صباحات الشتاء المتأخرة ، وجدته وقد غلبه النعاس وعندما القت عليه نظرة خاطفة . ارتاعت وفقاً لجريج ، ليس بسبب شيء قد قرأته ولكن بسبب التغير المتعظم في كتابة خط يده على الصفحات الحديثة . فقد أصبحت كتابته عنكبوتية وأقل وضوحاً ، حتى أن بعض خطوط النص

راحت تحيد عن السطور صعوداً وهبوطاً حول الصفحة .
قالت أورسولكوينتين : كنت أعتقد أن الفرق بين القصة والرسم أو الصورة هو أنك
يمكنك الكتابة في حالة القصة بأنه ما يزال على قيد الحياة ، قال ستيفن ولكنك في
الصورة أو الرسم لا تستطيعين إظهار «ما يزال» بل تستطيعين فقط اظهار أنه حي ،
حي فقط .



حكايات وأساطير أفريقية

الطفل - الملك

تأليف: سليمان جيفوديوب
ترجمة: محمد الدنيا
مراجعة: د. عبد الرحمن بن زيدان

حكايات وخرافات أفريقية
الطفل - الملك

١- اليتيم

ولد بوبا ذات يوم عاصف، بعد الظهر، في بلاد السانوكا الجميلة، غرب القارة. في اللحظة نفسها، نزلت صاعقة في الحقول، وقتلت أباه. ما إن بدأ يحبو، حتى ماتت أمه أيضا. ووجد بوبا نفسه وحيدا، مع جده والي.

طلبته إحدى قريباته البعيدات لتربيته، بذريعة أن العجوز لا يستطيع حتما الاهتمام بطفل صغير، رضيع بالكاد. رفض الجد بإصرار التخلي عن حفيده. وليبتعد أكثر، هجر منزله، وأقام خارج القرية، في حقله. بنى هناك كوخا مريحا من القش. وسكن فيه مع الطفل، ليبقيه تحت ناظريه، حتى عند انشغاله بالمزروعات، والخراف، والدجاج.

ربى الجد الصبي الصغير بمفرده، واعتنى به كثيرا. لم يفتقد بوبا الحنان ولا الرعاية. علمه حب الطبيعة، وشرح له سلوك الحيوانات. وعرفه بالنباتات الأكثر فائدة. وفسر له الفصول، والرياح، والمطر.

في أحد الأيام، عندما بلغ بوبا الخامسة من عمره تماما، رافقه العجوز والي إلى طرف الحقل، ليريه قرية النمل. ثم، بينما كانت الشمس تلهب الطبيعة بحرارتها، أجلسه تحت شجرة التمر الهندي الكثيفة، وقال له:

«ابق هنا يا قلبي الصغير. انتظرني ولا تتحرك. سأقطف لك جوزة الهند، لأنك تكاد تموت عطشا. سأعود حالا».

لما عاد العجوز، كان الطفل قد اختفى. ووجد في مكان جلوسه الجوهرة الحمراء، التي علقتها أمه في عنقه، لحمايته من الرقى

المؤذية والعيون الشريرة. أدرك الرجل أنه لن يرى حفيده بعد اليوم. حزن حزنا شديدا للمرة الثالثة، وعاد إلى الكوخ حاملا بيده جوزة الهند.

ولما جاء أهل القرية لمواساته، مرة أخرى، قال لهم ببساطة: «آلامي لا حدود لها هذه المرة، لأنني فقدت قلبي الصغير، عزائي الوحيد في هذه الدنيا».

انقضت ثلاث سنوات طوال. وذات صباح، توجه العجوز، دون هدف محدد، نحو طرف حقله. اقترب من شجرة التمر الهندي الكثيفة، التي تدلت أغصانها حتى لامست الأرض. توقف فجأة، مدهوشا: بدا بوبا، حفيده، كأنه بانتظاره، في المكان نفسه الذي اختفى منه، منذ ثلاثة أشتية. ما إن رأى جده، حتى هرع إليه. ضمه الرجل إلى قلبه، وعيناه تذرقان دموع الفرح.

«جدي، لماذا تبكي يا جدي؟ قلت لي ذات يوم: الرجل لا يبكي. - لا، لا يا صغيري، لا أبكي. هذا غبار، إنه الريح. تعال، لنعد إلى البيت».

انتشر خبر عودة بوبا سريعا في القرية كلها. وتوافد الأهالي إلى بيت والي لرؤية الطفل، الذي اختفى بشكل غامض، وعاد بشكل أكثر غموضا. امتلأ قلب الجد سعادة، بعد حزن شديد دام ثلاث سنوات. لم يستطع أحد تفسير اختفاء الطفل، ولا ظهوره من جديد. وكثرت أحاديث القرويين حوله. قال بعضهم إن العجوز أخفى حفيده في قرية أخرى، ليحميه من اللعنة التي سبق أن حلت بوالديه. وقال آخرون إنه لم يبرح داره، إمعانا في إخفاء الطفل، ففي حقله متسع من الخضرة، والزوايا، والخبايا لحجب

طفل بعمر خمس سنوات عن الأنظار، طيلة سنوات. وتساءلت جماعة الثالثة، أشد انتقادا، لماذا لم يعلن العجوز إلا الآن عن عودة الطفل؟ لماذا لم يخفه وقتا أطول؟ لماذا بقي حزينا ثلاث سنوات طويلة، دون أن يبدو متصنعا؟ أدلى الجميع بآرائهم، لكن أحدا لم يستطع الإجابة عن هذه الأسئلة، لأن الحقيقة غابت عن الجميع. ذات مساء، بعد وجبة طيبة في ضوء القمر، جلس الجد وحفيده يتحدثان وجها لوجه، قبالة الكوخ. استمع بوبا إلى حكاية جميلة، صرع فيها طفل صغير شجاع وحشا مخيفا أراد قتل والديه. لبث الحفيد لحظة طويلة حالما، ثم قال له:

«هل تعرف يا جدي أين أمضيت هذا الوقت الطويل، الذي اختفيت فيه؟».

- لا أعرف يا صغيري. ولكن قد أحزر قليلا. إن كان الكلام عنه يضايقك، يمكنك ألا تقول شيئا.
- يجب أن أحدثك عنه يا جدي، لأنني أريد البوح بأشياء رأيتهما. ولكن لا أفهم جيدا.

- أسمعك يا بني، أسمعك. تكلم ولا تخف.
- تخيل يا جدي غابة وافرة الأشجار، لا تدخلها حتى أشعة الشمس، لأنها مغطاة بسطح كثيف ومعتم من الأغصان. كنت في تلك الغابة. رأيت كائنات قبيحة جدا، قامات بعضها طويلة جدا، وأخرى قصيرة جدا، راحت تعلمني بعض الأشياء كل يوم.

- ما هذه الأشياء يا صغيري؟
- علمني أحدهم لغة بعض الطيور، كالغراب. ودلني آخر، شرير، على النباتات التي تشفي من الأمراض والأخرى التي تميت الناس

أو الحيوانات، عند مزجها بطعامهم أو بشرابهم.

- ما اسم هذه الكائنات يا صغيري؟

- لا أعرف أسماءها يا جدي، لكن ذاك الذي يبدو رئيسهم ينادونه «كيافي». غالبا ما سمعته يردد: كي نرضي قائدنا الكبير شيطاني، يجب أن نميت أحدهم. يجب أن نسمم البئر في قرية ما. يجب أن نشعل حريقا في حقل نضجت زروعه. قال لي كيافي ذات صباح: «بتّ تعرف الآن أسرار الطبيعة. عد إلى قريتك. إن أصبحت شيطانا صغيرا «طيبا»، سترتقي في المرتبة... جدي، قل لي يا جدي ماذا تعني «سترتقي في المرتبة»؟

- آه، يا إلهي! آه، يا إلهي! يا صغيري المسكين! ليرأف الله بك. سأحاول شرح ما حدث لك. منذ ثلاث سنوات، أخذتك العفاريت. الشياطين اختطفتك. لم تقتلك. اكتفت فقط بتعليمك أسرار الطبيعة، كي تؤذي أهل القرية. لن تقبل إيذاء الناس الأبرياء، أليس كذلك يا صغيري؟

- لا يا جدي. لن أفعل أبدا. لطالما أوصيتني بإسداء الخدمات للآخرين، دون مقابل.

- نعم يا صغيري. هكذا يجب أن تتصرف. ألم يطلب منك كيافي أن تصبح شيطانا صغيرا «طيبا»؟ إذن، يجب أن تبقى صبيا «طيبا»، خدوما، ومحترما للناس أمثالك. يجب أن تحبهم، وأن تساعدهم على الشفاء، والتمتع بصحة جيدة، بفضل الأسرار التي باح لك بها كيافي وجماعته.

- وجدت بينهم يا جدي كثيرا من الأشرار. شاهدتهم يعذبون العابرين التائهين، ويمرضون الأطفال، ويجعلون النساء يعانين من

الحمى. طلبوا مني، أنا أيضا، أن أفعل مثلهم بعد عودتي إلى القرية.

- يجب ألا تطيع شريرا يا صغيري، وإلا أصبحت مثله. إن فعلت الخير، لا يستطيع حتى كيافي، ولا حتى قائده شيطاني إبليس، إيذاءك. ولكن، إن فعلت أدنى شر، بقيت في قبضتهما. وسيجعلانك تتفد أوامرهما المؤذية، وتعذب الرجال، والنساء، والأطفال، دون مبرر. لن تفعل. أليس كذلك يا صغيري؟. عدني بألا تفعل ذلك!

- أبدا، لن أفعل ذلك يا جدي. لن أفعل ذلك أبدا! أعدك». تناول العجوز حفيده بين ذراعيه، وضمه إلى صدره. قال لنفسه: «سأساعد هذا الطفل في إفشال إبليس. سأساعده. وسأحثه، بالمعارف التي تعلمها من العفاريت، على تخفيف بؤس الناس. أقسم على ذلك. سيعينني الله».

في اليوم نفسه، جاءت امرأة إلى الدار، وبين ذراعيها طفل رضيع. جثت على ركبتيها، وراحت تتوسل، وهي في غاية القلق والاضطراب:

«أرسلتي أمي إليك يا جدي والي. انظر إلى طفلي، ضياء عيني، يكاد يموت. يتقيأ منذ يومين كل ما يأكله. نصحتني أمي أن آتي إليك، لأن لدى المسنين غالبا وصفات لا يعرفها الشباب. يجب أن تساعدني على إنقاذه».

تأثر العجوز الشفوق لاستغاثة الأم الشابة، وأجابها: «لا تخافي يا ابنتي. حفيدي وأنا سنبحث لك فورا عن دواء. انتظرينا هنا. سنعود بأسرع وقت».

توجه العجوز والطفل نحو طرف حقل الأسرة، إلى موقع لم يحرث من قبل قط. نمت في المكان، عشوائيا، ومن تلقاء ذاتها، أشجار وشجيرات صغيرة، وأعشاب ونباتات معروفة كثيرا، وأخرى نادرة جدا. تفحص بوبا كل ذلك بانتباه، وقال:

«انظر يا جدي. سأريك بعض النباتات التي أعرفها. هل ترى هذه الزهرة الحمراء؟ إن جففتها وسحقتها، يجب ألا تشمها أو تبلعها، لأنها تصيبك بحمى شديدة، ثم تجعلك تشعر بأنك سمكة أو طائر. من يستعمل هذا المسحوق، يلقي بنفسه في النهر، أو يرتمي من أعلى الشجرة أو التل، ويموت. انظر إلى تلك العشبة هناك، ذات الساق الضعيفة. سنقطفها، ونغليها، لنقدمها لمريضنا الصغير، الذي ينتظرنا في البيت. ستشفيه».

جعل العجوز حفيده يتكلم طويلا. وأطلعه الحفيد على ضروب كثيرة من النبات. وشرح له فوائد بعضها، ومخاطر وأضرار بعضها الآخر، التي يمكن أن تؤذي البشر والحيوانات، وقد تقتلهم. ورغم الشيب في رأسه، وما يعنيه ذلك من معرفة وحكمة وخبرة في الحياة، تعين على العجوز الاعتراف بأن حفيده أعلم منه بكثير الآن في هذه الأمور. وسأل الطفل:

«ماذا نفعل يا صغيري للتأكد تماما من أن هذه النبتة أو تلك خطيرة؟

- ليس هذا سهلا يا جدي. الحيوانات نفسها تخطئ أحيانا، رغم غريزتها الطبيعية. وهكذا، تخلط الأبقار والدجاج والخراف، وهي أغبى الحيوانات، بين الأعشاب السامة والنباتات الضارة والأخرى الحسنة. تأكلها أحيانا، وتهلك فورا.

لكن الماعز والقرد لا يخطئان في ذلك أبداً. يميز هذان الحيوانان، بالغريزة، بين الضار والنافع. في الغابة أو في السهل العشبي، لا يأكل القرد جولو ثمرة سامة أبداً. تجب ملاحظة ذلك إذن، كي لا يتناول أحد الثمار التي لا يأكلها، وبشكل خاص لتجنب ما يرفض أكله. كما أنه إذا عافت العنزة أي علف، يجب إبعاده عن بقية الماشية، لأنها قد تتعرض لخطر التسمم فعلاً. عندما كنت رهين العفاريت، لاحظت أن التيوس الملتحية، ذوات القرون الطويلة، هي حيوانات هؤلاء المفضلة. ولطالما تساءلت عن السبب.

بعد أن اقتلعا النبات اللازمة لشفاء المريض الصغير، عاد العجوز والطفل إلى البيت. ودلّ بوبا جده على المقادير الدقيقة لمختلف الأوراق، التي تمزج مع بعض الجذور. طبخا المزيج سريعاً، وجرّعا الرضيع قليلاً من شرابه، فنام، وتعرّق كثيراً. لم يستيقظ إلا بعد ثلاث ساعات كاملة. ورضي الرضاعة من ثدي أمه بشراهة، دون أن يتقيأ. ثم، عاد للنوم سعيداً بين ذراعيها. بكت المرأة الشابة من الفرح، وخرجت مع صغيرها مرتاحة ومطمئنة.

سرعان ما انتشر نبأ هذا الشفاء، الذي يشبه الأعجوبة، في القرية كلها. وأخذ الناس يتوافدون على دار العجوز، ليس فقط مع مرضاهم الصغار، بل والكبار أيضاً، رجال ونساء: المصابين بالقرحة، والإسهال، والقيئ، والحمى، أو حتى بالجنون أحياناً. كان بوبا يدل جده على الدواء الذي يخفف أو يشفي كلا من هذه الأمراض. ولم يقبلاً أجراً من أحد أبداً.

٢- أحداث غريبة

وقعت فجأة أحداث غريبة في القرية. فذات صباح، نضب البئر الكبير دون سابق إنذار، مما أذهل السكان. وشرح العجوز لحفيده ما ينتظر الأهالي من قلق ومعاناة نتيجة ذلك. تأثر بوبا، وقال: «يجب يا جدي أن تأمر أهل القرية بحفر بئر آخر بمحاذاة الأول، نحو الغرب، بعد أن يعدوا خمسمائة خطوة، قبالة شجرة البأوباب المثقوبة تماما. سيجدون هناك ماء غزيرا، لن ينضب بعد الآن».

- نعم يا صغيري، سأقول ذلك لمختار القرية حالا. ولكن يجب ألا يعرف أحد أنك أنت من حدد المكان. قد يتساءل الناس كيف عرفت ذلك. وبما أنهم لن يفهموا الأمر، فقد يؤديك بعضهم، لأن الإنسان أكثر ميلا لنكران الجميل منه إلى عرفانه.

- كيف يؤذونني؟ أنت وأنا لا نريد سوى سعادتهم. نعتني بهم، ونساعدهم، ونشد أزركم، ولا نطالبهم بشيء مقابل ذلك.

- نعم، ما تقوله صحيح يا صغيري. لكن بعض البشر أخبث عملا من العفاريت التي اختطفتك. كلما كبرت، ستري أن بعض من تحسن إليهم يقابلونك بالشر. يجب أن تستمر في نشر الخير، لأن بعض الرجال وبعض النساء، الميالين للخير، يستحقون ذلك، رغم قلتهم. انتظرني الآن هنا. أنا ذاهب لرؤية المختار بشأن البئر الجديدة».

نفذ مختار القرية تعليمات العجوز والي بدقة. حفر البئر الجديد. وسرعان ما ظهر الماء، كالأعجوبة! تدفق غزيرا ونقيا، من حسن حظ الأهالي.

بعد ذلك بأيام، حط غرابان في بستان العجوز والي. وراحا ينعقان. قال بوبا:

«اسمع يا جدي ما يقوله هذان الطائران!».

- أسمع صياحهما جيدا يا صغيري. ولكن لا أعرف ما يقولان.

- يخبرنا هذان الغرابان يا جدي بنبا رهيب. يؤكدان أن سحبا من الجراد ستحط هنا.

- أه، يا إلهي! إذا وصلت هذه الحشرات إلى القرية، دمرتها عن آخرها. إن مرت من هنا، لن تبقي للبشر والبهائم شيئا يأكلونه. ماذا سيحل بنا؟ أعرف أنه لا يوجد أي دواء ولا أي حماية من هذه المصيبة».

نهار بعد غد، وكما أعلن طائرا الشؤم، حطت سحابة من الجراد في المنطقة. بدأت الحشرات الشرهة تلتهم المحاصيل، والثمار على الأغصان، والأعشاب. لم تترك شيئا، حتى أوراق الشجر. هاجت القرية واضطربت، لأن أحدا لا يعرف كيف يكافح الجراد الجائع. راقب العجوز والي وحفيده المصيبة من دارهما. قال العجوز، الذي أحزنه ذلك جدا:

«يا لها من تعاسة يا صغيري! أخشى هذه المرة أنك لا تستطيع فعل شيء».

- لا يمكنني تأكيد شيء يا جدي. ولكن، سأحاول. قد يمكن...».

سار بوبا إلى وسط الحقل. انحنى قليلا، والتقط حشرة كبيرة، وكلمها قائلا:

«من أنت؟ من أرسلك إلى هنا، كيافي أم قائده شيطاني إبليس؟ هيا، أجيبيني!».

- أيها الإنسان الصغير، خلافا لما تعتقدونه أنتم البشر، لم يرسلني كيافي ولا إبليس. اصنع إلي جيدا: أنا مجرد حشرة عادية بالتأكيد، لكنني أيضا من جنود الله.

- لماذا أتيت لتخريب حقول قريتي ومراعيها، ونهب أهرائها
وتعرية أشجارها؟

- على الجندي أن يطيع، لا أن يفكر.

- أهل هذه القرية ليسوا جنودا، بل عباد الله. لذلك، عليك أنت
وأخواتك ألا تؤذونا. باسم ربنا جميعا، الرؤوف الرحيم، العظيم
الغفران، الشفوق بمخلوقاته، أطلب منك ومن إخوتك الابتعاد عن
قريتنا.

- دعوتك مستجابة. أطلقني باتجاه مغيب الشمس.

رمى بوبا الحشرة الكبيرة في الاتجاه المحدد. حلقت في الهواء
ودارت لحظات، ثم اتجهت نحو الغرب. وحدثت أعجوبة أخرى:
طارت سحابة الحشرات خلف تلك الجرادة، التي بدت كأنها
قائدتها، كما لو أن إشارة غامضة أمرتها جميعا بالرحيل. نجت
القرية بذلك من المصيبة، دون أن يستطيع أحد تفسير هذا
الحدث الغريب، الذي لا يذكر الناس أنه وقع مثله من قبل. حرص
بوبا وجده على الاحتفاظ بسر هذا الإنقاذ. لم يخبرا أحدا بشيء.
ولا عرف أي إنسان لماذا رحل الجراد بهذه السرعة.

بعد ذلك بوقت قصير، جاءت المصيبة الثالثة. تعرضت الثيران،
والأبقار، والخراف، والماعز لمرض غريب: انتفخت بطونها، ونفقت
بعد أسبوع، دون أن ينفع معها أي دواء. جن جنون الرعاة، ولكن لم
يفقدوا الأمل. ساقوا بقية المواشي إلى أرض العجوز والي، لأن
أحدا لم يعد يجهل أن حفيده وهو يعرفان كثيرا من أسرار
النباتات الشافية. دل بوبا جده، دون تردد، على عشبة تنمو بوفرة
في السهول العشبية، ويتعين خلطها مع أوراق شجرة البأؤباب

وشجرة الجوافة ذات الثمار الطيبة. ما إن تناولت الحيوانات المريضة هذا المزيج، حتى شفيت بسهولة بعد عدة أيام. وعقب هذا النجاح الجديد، وقع ما خشيه الجد: توجه عدد كبير من الرعاة إلى أرضه، وقد ساقوا أمامهم حيواناتهم المريضة. ذعر بوبا من كثرة الحوافر والقرون التي رآها، وصرخ: «جدي، جدي، انظر ما أكثر الحيوانات! إنها تغزونا، ستهدم كوخنا. لا نستطيع أنت وأنا العناية بها كلها. يجب أن تجد حلا». - نعم يا صغيري، مُحق مصيب. الحيوانات ذات القرون تحاصرنا تماما. ولكن اطمئن. أعرف كيف أتصرف. أنا ذاهب حالا لمقابلة مختار القرية لهذه الغرض.

أدرك بوبا بعد وقت قصير كيف حل جده الموضوع. وصل اثنان من الشعراء الموسيقيين المنادين. قرعا الطبول أولا للفت الانتباه. ثم شرحا للرعاة المجتمعين كيف يعتنون بالماشية بأنفسهم، في أراضيهم، باستعمال النباتات الموصوفة. طاف المناديان بعد ذلك شوارع القرية، ثم توجهوا نحو السهول العشبية لإكمال المهمة. انتشرت الوصفة الشافية للماشية على أصوات الطبول، منتقلة من شخص إلى آخر، حتى عرفها الجميع. كل ذلك دون أن يعلم أحد من أين جاءت، لحسن حظ العجوز والطفل، اللذين لم ينشدا أجرا، ولا مكافأة، ولا مجدا.

مرت الأيام... وذات مساء، وصل إلى الدار رجل ليس عجوزا ولا شابا. استقبله العجوز والي، مثلما يليق باستقبال شخص غريب يزورك. قدم له بوبا إناء حليب، وشراب الكولة المنبه أيضا. دعاه الجد للاستراحة على الحصر الممدودة في الشرفة. وبدلا من أن

يقدر هذا الاستقبال الحار، أخذ الرجل يراقب مضيفيه بخبث.
صمت في البداية، ثم خاطب بوبا قائلاً:

«انظر إلي جيداً أيها الصبي الصغير. هل تعرفني؟».

تأمل الطفل هذا الضيف الغريب. وصاح فجأة:

«نعم، الآن عرفتكَ: أنت كيافي. أنت مبعوث شيطاني. تزور البيوت
لزرع الشقاق في الأسر، وتثير النزاعات بين الأصدقاء، والخصام
بين الأب وابنه، والعداوة والبغضاء بين الأم وابنتها. نعم أعرفك».

- بما أنك عرفتني، يجب أن تفهم غرض زيارتي لك. أرسلني
شيطاني للتأكد من أنك تصرفت كعفريت طيب صغير، مثلما
أوصاك. هيا، قل لي. ما الأفعال التي أنجزتها لأمثالك البشر،
والحيوانات، منذ إطلاق سراحك، بعد أن علمناك أشياء كثيرة؟

- هاك ما قمت به: بفضل العلم الذي تلقيته من جماعتك، داويت
أطفالاً بعد أن أشرفوا على الموت. وبالنباتات، شفيت مرضى
شباباً وشيوخاً، ورجالاً ونساءً. ولما نضب الماء في القرية،
أرشدتهم إلى المكان الذي يمكن حفر بئر آخر فيه. وعندما أهلك
نوع من الطاعون الماشية، أعطيت الرعاية الدواء لإيقاف الوباء.
وحينما جاء الجراد، طلبت من الحشرات الرحيل كي لا تقضي
على محاصيلنا، وأطاعت. لم أطلب أجراً من أحد مقابل خدمة
أسديتها إليه. جهدت لأتصرف كعفريت طيب صغير، مثلما رغب
شيطاني وكما أوصاني. ألا تتذكر أنت؟».

لما سمع كيافي هذا الكلام، لم يستطع كبت غضبه. وصرخ:

«أيها الشيطان الصغير العاجز! لماذا فعلت ذلك؟ لماذا لم تقم إلا
بالمكرمات؟».

- لكنني تصرفت هكذا كي «أترج في المراتب»، مثلما وعدني شيطاني. طلب مني أن أكون شيطانا «طيبا». وأطعت.

- يالك من طفل شقي! لزم أن تفعل العكس. كان عليك ألا تداوي أحدا، وألا تساعد أي بشر أو حيوان. لماذا لم ترعهم؟ في لغتنا، «شيطان طيب» تعني إبليس شريرا، شريرا جدا. أنا متأكد أن هذا العجوز دربك بنصائحه لتكون ضد وصايانا. كي أعاقبك، سأميته هنا أمامك، حالا. ستصبح بذلك أكثر طاعة عندما يعطيك شيطاني أوامر في المستقبل.

فتح كيافي كيسه. وأخرج منه قرن تيس طويلا، مخيطا في قطعة قماش حمراء كالدم، وقد تتأثرت حوله قطع نقدية من الأصداق. وتوجه إلى العجوز والي مرددا هذه العبارة الرهيبة: «أيها الإنسان، يا ابن الإنسان، يا أبا الإنسان، فلتصرعك قوى الشر، ولترسلك إلى الظلمات، التي لا يعود منها أحد».

بعد هذه اللعنة، شعر العجوز فورا بتوعك من رأسه حتى قدميه. وبرد جسمه جدا. وسقط على الأرض، كما لو أن قوة الحياة تخلت عنه فجأة. هرع إليه بوبا صارخا:

«جدي، جدي، لا تمت! ماذا سيحل بي لو تركتني؟ ابق معي يا جدي، أرجوك ابق معي! قاوم! حاول».

لم يعد العجوز قادرا على الكلام. أمسك يد الطفل. أراد أن يقول له شيئا، لكن لم تخرج من فمه أي كلمة. تذكر بوبا أن هذا الرجل، الطيب والكريم، أوصاه بالتصرف دائما عكس ما يفعله الأشرار. نهض، ووقف أمام كيافي مادا ذراعه اليمنى، وقال له:

«أيها العفريت، يا ابن العفريت، يا أبا العفريت، فلتصرعك قوى الخير، ولترسلك فوراً إلى ظلماتك أنت، التي لا تعود منها. لتكن مكرمات جدي كلها، من شبابه حتى اليوم، شفيحاً له عند الله، الواسع الرحمة والمحبة. ليطل الله عمره. أما أنت أيها الجني، فليطردك ربي! فليطردك ربي!».

ما إن ذكر اسم الله أمامه، حتى أطلق كيافي صرخة زعر. وهرب في الحال، متجهاً نحو شجرة التمر الهندي، في وسط الحقل. وسرعان ما اختفى.

انحنى بوباً على العجوز، الممدد على الأرض. فتح الجد عينيه، وانتظم تنفسه، وهداً. وأحضر له الطفل طاسة.

«اشرب يا جدي. هذا قليل من العسل الممزوج بقطرات الليمون. ستستعيد قواك سريعاً جداً. هيا، اشرب، بهدوء، بهدوء».

وكالاعجوبة، استعادت أطراف والي حيويتها، شيئاً فشيئاً. وتمكن من الجلوس. وتكوّر بوباً بين ذراعيه.

«أفلحت يا جدي في طرد العفريت بفضل نصائحك».

- نعم يا صغيري. طالما استمررت في فعل الخير، وتجنبيت فعل الشر، وفوضت أمرك إلى الله، لن يستطيع كيافي ولا شيطاني فعل شيء معك. لا تتس.

- نعم يا جدي، سأذكر ذلك دائماً.

- أعرف يا صغيري، أعرف. ولكن، ماذا أرى في عينيك؟ دموعاً؟ قلت لك إن على الرجل ألا يبكي.

- لا أبكي يا جدي. لا أبكي. هذا غبار، إنه الهواء».

٣- مرض الملك

بعد ذلك بأسابيع، وصل إلى الدار ملك السانوكا، قادما من كور دياما، عاصمته البعيدة، ومعه ضباط وجنود الحراسة، والكثير من الخدم.

نزل عن صهوة حصانه. ودخل أرض الدار، محميا من الشمس بمظلة كبيرة يحملها جنديان قويان. لما سمع العجوز والي وبوبا صخب الموكب، تركا البستان، وهرعا لاستقبال الضيوف. وبعد التحيات، قال الملك:

«أيها العجوز، سمعت في عاصمتي أن حفيدك يستطيع تخفيف كثير من الآلام بالنبات. انظر، جسمي تثخنه جراح صغيرة تنز باستمرار. حالما تمسها أشعة الشمس، أتألم بشدة. لهذا، أضطر للبقاء حبيس قصري. عندما أخرج منه، يواكبني الخدم مع هذه المظلة الضخمة، لإبقائي في الظل دائما. في الليل، لا أنام، لأنها تحرضني على حكها طيلة الوقت. لم ينجح أي من مطببي المملكة الكثيرين منذ سنوات في علاجها. هل أنا مصاب بالطاعون، أم بنوع من الجذام؟ لا أعرف. نصحني مستشاري بالمجيء إليك. ها أنا هنا، كلي أمل بالشفاء. اشفاني، ولن تتدما. ستصبحان ثريين».

رد العجوز والي قائلا:

«تشرفنا يا صاحب الجلالة، بوبا وأنا، بحضور جلالتكم إلى منزلنا المتواضع. ولكن، يجب أن أخبركم بأننا لا نتقاضى أي أجر من الفقراء ولا من الأغنياء عما نقدمه من علاج. لم يصادف حفيدي بعد حالة كهذه، لكني متأكد أنه يستطيع شفاءك. أليس كذلك يا بوبا؟ اقرب يا صغيري».

اقترب بوبا لفحص مريضه عن كثب. دهش الملك لصغر سن الصبي. وساوره الشك فجأة.

«كيف يمكن لولد مثلك، لم يفارق صدر أمه إلا البارحة، أن يدعي شفاء ملك عظيم مثلي، بينما لم يقدر على علاجي أفضل أطبائي وأشهرهم في المملكة؟ هل تزعم أنك تعرف أكثر منهم؟ هيا، أجبنني أيها الصبي!».

- لا يا صاحب الجلالة. لا أدعي أنني أفضل معرفة منهم. أظن فقط أن الأدوية التي يصفونها لك ليست هي التي تشفي مرضك.
- إذن، اعطني هذه الأدوية فوراً. منذ سنوات طويلة وأنا أعاني من هذا المرض الرهيب.

- هذه الأدوية ليست عندي. ستبحثون عنها بأنفسكم يا صاحب الجلالة في المكان الذي سأدلكم عليه.

غضب هذا الملك المتعجرف والمتكبر. وكاد يختنق حنقا، وصرخ:
«ماذا؟ ماذا؟ هل تعرف مع من تتكلم؟ هل تعرف أن لي حق الموت والحياة على كل رعاياي؟ هل تعرف أنني أستطيع قطع رأس جدك الآن فوراً؟ إشارة بسيطة من يدي كافية لذلك».

لما سمع بوبا هذه التهديدات، رد بقوة.

«أيها الملك، إن فعلت ذلك، ليس فقط لن أعتني بك، بل سأزيدك ألف مرة أيضاً! سأجعل ناراً تلتهمك من داخلك. ولن يستطيع أشهر مطببي مملكتك وأبرعهم فعل شيء لك. ستموت من الألم، كما لو أنك في نار جهنم».

لما قال ذلك، اقترب مستشاران من الملك. وهمسا إليه بكلام لم يسمعه أحد. عندئذ، هدأ الملك، وخاطب الطفل:

«اقترب مني يا بني. لا تغضب. كنت أمزح فقط. لا أنوي أبدا إيذاء جدك، لكن ما أعانيه يجعلني سيئ المزاج غالبا. هيا اقترب أكثر. قل لي، كيف أتخلص من هذا الجذام الذي يأكل لحمي؟».

لما هدأته كلمات الملك، الذي أصبح أكثر مودة، اقترب منه بوبا:

«يا صاحب الجلالة، ليست لدي الأدوية التي سأعالجك بها. ولكن، سأدلك على ما ينبغي فعله كي تشفى من جراحك. عندما غادرت العاصمة وجئت إلى هنا، صعدت تلة بركانية كبيرة. عند منحدر هذه التلة الجنوبي، في الأسفل، قبل الغابة الكبيرة، هناك ساقية صغيرة مأوها حار، موحلة ومالحة جدا. اذهب إلى هناك كل صباح، لمدة سبعة أيام، واغطس في ذاك الوحل طيلة ساعة. هذه هي الطريقة الوحيدة لشفائك».

غضب الملك جدا لهذا الكلام، وأوشك أن يختق سخطا. وعاد إلى الصراخ أقوى من قبل:

«ماذا تحكي لي أنت؟ أنا، ملك هذه السهول والأدغال، أنا، الذي تمتد مملكتي حتى البحر، تريدني أن أغطس في الوحل؟ ألم تفكر في ذلك أيها الصبي الوقح! ألا يمكن أن تعطيني بدل ذلك نقيعا أو مرهما أو أي شراب آخر، إذ يقولون إنك تعرف سر النباتات الشافية؟

- لا يا صاحب الجلالة، لا يوجد دواء يشفيك سوى هذا الذي ذكرته لك.

وقع الملك في حيرة كبيرة من أمره. وتساءل إن كان هذا الصبي الصغير يسخر منه، أم أنه يريد الثأر انتقاما لتهديده بقطع رأس جده. اقترب المستشاران ثانية من أذنه، وهمسا إليه بشيء،

لتهديته دون شك. نهض الملك، ولم يودع مضيفيه. تبعه ضباطه، وجنود حراسته، وخدمه الكثيرون، وركب حصانه. وانصرف الموكب مثلما جاء.

استعادت الدار هدوءها المعتاد. فوجئ الطفل بهذا اللقاء جدا، وسأل العجوز والي:

«جدي. قل لي يا جدي. هل هكذا يتصرف الملوك دائما؟ هذا الملك يبدو لي متغطرسا وقاسيا. لا أظن أن أولئك المحيطين به يعيشون سعداء بجواره».

- نظرتك صحيحة يا صغيري. الخبث يملأ قلب هذا الرجل. نسي أنه بشر كرعاياه. أعمت ثرواته بصيرته. وبما أن له حق الموت والحياة على رعاياه، ينسى الإصغاء إلى ضميره أحيانا. إن قدرته، التي يستمدّها من الناس أصلا، قد تخنق قلبه. ويفقد بذلك حس الحق، والعدالة، والإنصاف. مع ذلك، هناك يا صغيري ملوك طيبون، لديهم مستشارون عقلاء، ويحبون شعوبهم ويسعون إلى إسعادهم.

- أفهم جيدا ما قلته يا جدي. ولكن أعتقد لو أن رجلا طيبا وعاقلا مثلك ينصح هذا الملك كل يوم، لأسعد شعبه بالتأكد.

- لديه مستشارون طيبون يا صغيري. ولكن يبدو أنه لا يأخذ بآرائهم، غير أن الملك الذي لا يعمل إلا وفق رأيه، يصبح خبيثا، أو أنه يقع في جنون العظمة. عندئذ، يتصرف بطريقة غريبة، ويسبب الألم لرعاياه. السلطة هي كالمادة المخدرة، من يتناولها، يفقد الإحساس بالواقع، ويسقط في القسوة والمغالاة. المخدر يثير إرادة التسلط عند من يتعاطاه. على الملك الصالح أن يظهر

تواضعه وإنسانيته. يجب أن يحترم التقاليد ويراعيها، وأن يلتزم بالقوانين العادلة، وأن يغيرها إن بدت ظالمة. إذا تصرف هكذا، عاش شعبه في أمان وسلام، وأحبه، وسانده دائماً.

بعد ذلك بأشهر، قدمت جماعة صغيرة من الفرسان إلى الدار. كالعادة، استقبلهم العجوز والي وبوبا حسب تقاليد الضيافة الأفريقية. وبعد أن شرب الضيوف حليب الترحاب، وتناولوا كولة الصداقة، تحدثوا عن أشياء كثيرة، وعن المطر والطقس الصحو. ثم، سألو العجوز، وطرحوا أسئلة عديدة على الطفل. وتوجه ذاك الذي بدا قائدهم إلى بوبا قائلاً:

«هل تعرف من أنا يا بني؟ ألم تتذكرني؟»

- بلى يا عمي، أعرف من أنت. أنت الذي رافقت الملك إلى هنا، منذ أشهر. كنت ورفيقك تهمسان إليه بأشياء بين حين وآخر، وتتصحانه دون شك، مثلما يفعل جدي معي كل يوم، منذ ولدت.

- نعم، نعم، هذا صحيح يا بني. أنت دقيق الملاحظة. اسمي عرفان. أنا المستشار الأول للملك. عندما أتى لمقابلتك، من أجل مرضه الجلدي، وصفت له دواء لعلاجه. لم يمتثل لهذا العلاج، بسبب تكبره المفرط. ولكن بعد معاناة أسبوع من الألم الشديد، رضي تجريب الدواء، بناء على نصيحتي. وكما قلت له، عقب سبعة أيام من حمامات الوحل، برئ من هذا المرض الأليم، الذي أضناه منذ سنوات. وعملاً باقتراحي - لأنه يجهل عرفان الجميل - أرسل لك هذه العلبة المملآى بالذهب، تعبيراً عن شكره، لأنك شفيته.

هذه المكافأة غير المتوقعة، جعلت الطفل في حيرة من أمره. لم يشأ هو وجده أبداً قبول أي أجر، مقابل ما يقدّسه على الناس

من الاهتمام والعناية. ولكن، إذا رفض الذهب، ألن يهين بذلك هذا الملك النزق والغضوب؟ أخذ بوبا العلبة، وقال للمستشار عرفان:

«شكرا لك يا عمي. قبلنا جدي وأنا هذه المكافأة. لكننا لن نحافظ بها، لأننا نملك حقلا، وبستانا، وبعض الخراف والدواجن. هذا كاف تماما لمعيشتنا. سعادتنا هي في العناية بمن يتألمون وشفائهم. لا يهم كثيرا إن كانوا أناسا عاديين أو ملوكا. الألم لا يختار ضحاياه. سنشتري بهذا الذهب ماشية وبذارا، ونوزعها على أهل القرية. أطلب منك فقط ألا تخبر الملك بذلك، فقد يصدم به.

- اطمئن يا ولدي. لن أقول له شيئا. ولكن ثق أن الملك يعلم، عاجلا أو آجلا، بما يحدث حتى في أصغر قرية من مملكته. إلى اللقاء يا بني. تابع عمل الخير. ليشملك الله برعايته دائما، أنت وجدك المحترم».

بعد انصراف المستشار، ذهب العجوز والي لإطلاع مختار القرية على قرار حفيده، هذا القرار الكريم والنزيه، الذي استحسنة هو نفسه من كل قلبه. انعقد مجلس الوجهاء فورا تحت شجرة المداولات، لسمع الجميع كلام العجوز.

«أصدقائي الأعزاء، في حياة والدي، كان يقول لي دائما: عندما تكبر ثروة المرء أكثر من اللازم، لا تجلب له السعادة. هل نحتاج، حفيدي وأنا، إلى كل هذا الذهب؟ أضع هذه العلبة إذن تحت تصرفكم. أمنية بوبا هي أن يرى هذه القطع الذهبية تتحول إلى أبقار، وخراف، وماعز، ودخن، وذرة صفراء، توزعونها بالإنصاف قدر الإمكان على سكان هذه القرية، التي ولد فيها. رغم صغر

سنه، همه هو أن تحصل كل أسرة على موارد عيشها بشكل لائق، فلا قدرة له على إزالة الفوارق الاجتماعية». هكذا كان. تلقت كل أسرة نصيبها، مثلما رغب الطفل. ونظمت القرية كلها احتفالا لتكريم بوبا، الذي أطلقوا عليه ألقابا كثيرة، مثل الطفل المسعد، والمحسن الصغير، وغيرهما. لم يضايق صخب القرية الطفل ولا العجوز، اللذين بقيت عيشتهم متوحدة، متواضعة في دارهما، منعزلين قليلا.

٤- رسالة للملك

في ذلك الصباح المشمس، كان بوبا وجده والي موجودين في الحقل. يعتنيان ببعض الأشجار المثمرة. فجأة، حطت ثلاثة غريان على غصن شجرة المنجة المنخفض. وبينما هي تتذوق ثمرة ناضجة، علت أصواتها، متنافسة في النعيق. تسمر بوبا في مكانه، مصغيا بانتباه إلى الطيور الثلاثة. ولما شبت، طارت وابتعدت بأجنحة خافقة، حتى توارت في الأفق. قال العجوز لحفيده:

«أنا متأكد يا صغيري أنك فهمت ما قالته طيور الشؤم هذه».

- نعم يا جدي. أنا أفهم لغتها. أقلقني ما قالته. سأشرحه لك: قالت إن الشتاء هذه السنة سيبدأ باكرا جدا. سيسقط المطر مدرارا، أغزر من السنوات الماضية. قالت أيضا إنه لن تسقط قطرة مطر واحدة على البلد خلال أشهر السنة القادمة كلها. بعد ذلك، تعود الدورة إلى سابق عهدها المعتاد. ما العمل يا جدي؟

- ما أنذرتني به رهيب يا صغيري. من حسن الحظ أنك سمعت هذا الحديث وفهمته. علينا الذهاب كلانا لإخبار الملك، لأن هذا الأمر يفوق قدراتنا. يجب ألا ننتظر. سنرحل منذ الغد.

في اليوم التالي، توجهوا كل على حصانه إلى كور دياما، عاصمة المملكة، لإخطار قائد البلاد. سارا بهدوء. وبينما هما كذلك، مر بجانبهما شاب قوي البنية. حياهما بيده وهو يركض، دون أن يتوقف. حير هذا المشهد بوبا كثيرا.

«انظر يا جدي إلى هذا الرجل القوي! من هو؟ إلى أين يركض؟».

- الفتى الذي شاهدته يا صغيري يتدرب للحفاظ على بطولة قريته في المصارعة التقليدية.

- هل هناك يا جدي من هو أقوى من فتى يتدرب دفاعا عن بطولة قريته، في المصارعة التقليدية؟

- نعم، يوجد يا صغيري. سيلتقي هذا الشاب المصارع القوي يوما بفتاة ضعيفة يقع في حبها. حينها، ستقوده هذه الفتاة، الضعيفة والرقيقة جدا، حيث تريد. وسيصبح بطلنا أكثر عذوبة، وأودع من حمل. سيتزوجها، ويعمل على مراد زوجته. سيفقد دمية متحركة تمسك هي بخيوطها في كل وقت.

- إن كان الأمر كذلك يا جدي، لا يوجد إذن شيء أقوى من شابة عروس؟

- لا يا صغيري، يوجد. ستلد العروس طفلا بعد بعض الوقت. ويصبح هذا الصغير عالمها. ستتبعه إليه وتعتني به كلما صرخ، أو بكى، أو تحرك. لن تنام الليل بعد ذلك. ستبقى تراقب أصغر حركاته وأصواته. سيصير هذا الكائن الصغير محور حياتها.

- نعم يا جدي، فهمت: لا أقوى في هذا العالم من وليد صغير، أليس كذلك؟

- لا، لا، يا صغيري، الأقوى منه موجود. إنه النوم، فما إن يغلبه، حتى ينتهي كل شيء بالنسبة إليه: لا حركة، ولا ضجيج، ولا نشاط. ينام، وينام مغتبطا. ويصبح رائعا، وديعا كأنه ملاك.

- نعم، فهمت الآن يا جدي. ليس في العالم أقوى من النوم، صدقت!

- أوه، لا، يوجد للأسف ما هو أقوى من النوم. إنه الموت، الذي يفقدنا أحاسيسنا، ويطفئ وعينا، ويحول أجسادنا إلى تراب. لا يستطيع أي إنسان، ولا أي ملك، ولا أي جند، ولا أي مطب

الوقوف في وجه الموت. الموت لا يختار، بل يأخذ اتفاقا الصالح والطالح، والغني والفقير، والملك وخادمه، والعجوز والرضيع، والبريء والمذنب. لا أحد يفلت منه.

- نعم يا جدي. فهمت جيدا. لا شيء يقوى على الموت. لا أحد يستطيع مقاومته. لا يمكن لأحد التغلب عليه.

- لا، لا يا صغيري. أنت مخطيء. الله قادر على قهر الموت. يعلمنا الدين أن الله سيصعق الموت ذات يوم، ويبعث المخلوقات من جديد. حينذاك، سيكافئ الطيبين ويعاقب الأشرار.

- نعم، صحيح يا جدي. لهذا تقول لي دائما إن على الناس محبة الله، والخوف منه بعدم ارتكاب الأعمال الحقة. الآن أدركت أشياء كثيرة. وهكذا، بقي العجوز وحفيده يسيران هادئين، براحة حصانتهما، نحو كور دياما، العاصمة، التي وصلها بعد رحلة موفقة، دامت ثلاثة أيام. توجهوا فورا إلى القصر. وبفضل المستشار الأول عرفان، الذي تذكرهما جيدا، استقبلهما الملك في الباحة الكبيرة، تحت شجرة البأوياب الضخمة. ولما رآهما، هتف:

«ها هما، مطببي الصغير وجده! انظر يا بني، صحتي جيدة. أشعر أنني قوي كأسد شاب. جلدي، الذي شفي من القروح، يشبه الآن جلد شابة تنتظر عريسا».

وأنهى الملك كلماته بضحكة قوية، وضحك معه رجال الحاشية. ثم تابع كلامه برصانة ووقار:

«الصحة يا بني أثمن من كل شيء. أظن أن الذهب الذي أرسلته لك غير كاف. انتظر، سأقدم لك هدايا أخرى. سأعطيك مزيدا من الذهب، وجيادا، وماشية، وأكياسا من الدخن والذرة و... و...

وماذا أيضا؟ هيا، أخبرني بكل طلباتك. سأمنحك ما تريد فوراً. سمعت أنك وزعت مكافآتك على أهل القرية».

بدا بوبا خجلاً قليلاً من المجلس. وتردد قليلاً قبل أن يجيب: «يا صاحب الجلالة، نشكرك جدي وأنا على كرمك. ولكن لدينا حق، وبستان، وبعض الخراف والدواجن. يفيض ذلك عن حاجتنا المتواضعة. لا نستطيع قبول هداياك الجديدة. لا نقصد إهانتك يا صاحب الجلالة، تفضلوا بتوزيعها على من هم أحوج وأفقر منا». فوجئ الملك جداً بجواب الفتى. وقال مستغرباً:

«هذه أول مرة أرى أحدا يرفض الهدايا! مع أنني في العادة لا أهدي. اشرح لي إذن لماذا جئت لمقابلتي».

- جئت لأخبرك بشيء مهم جداً بالنسبة إلى مملكتك. هل أستطيع الكلام أمام كل هؤلاء الناس؟

- نعم، نعم، تكلم ولا تخف. مستشاري وضباطي، ووجهائي، كلنا نصغي إليك.

تشجع بإشارة ونظرة من جده، وتجراً قائلاً:

«يا صاحب الجلالة، ستبدأ الأمطار هذه السنة باكراً جداً. سيهطل المطر بكمية كبيرة جداً، ربما بغزارة أكثر من المألوف. نتمنى إعلام كل البلد بذلك، من خلال الشعراء الموسيقيين، على قرع الطبول. نأمل أن تطلبوا إلى الفلاحين بذر حقولهم أكثر من المعتاد بمرتين، أو ثلاث أو أربع مرات أو أكثر، من أجل زيادة محاصيلهم، وتأمينها في أهراء عديدة. أضيف أنه لن تسقط قطرة مطر واحدة بعدها في البلد كله، لمدة اثني عشر شهراً متعاقباً».

بعد هذا الإعلان، ساد صمت عميق. ثم علت ضوضاء. تحدث كل واحد إلى جاره، وطرح أسئلة. كيف يجرؤ صبي، عمره سبع أو ثمان سنوات على الأكثر، على التحدث بهذا الشكل إلى الملك؟ لماذا لم يقل مرافقه العجوز شيئاً؟ من هما؟ هل يمكن تصديق ولد لا تتجاوز قامته طول السيف؟ قيل إنه شفى الملك من مرضه. هل هذا صحيح؟ أهى الحكمة أم السحر؟ ما الحقيقة؟

طلب الملك الهدوء، بإشارة من يده. سكت الجميع. وتحدث لحظة مع اثنين أو ثلاثة من مستشاريه. ثم قال:

«قل لي يا صغييري، كيف عرفت كل هذه الأشياء؟ كيف حدثت وقلت ما قلت، كأنك رجل راشد؟ هل تظن أنني، أنا ملك مملكة السانوكا الكبيرة، سأصدق كلام طفل صغير أت من قرية غير معروفة وبعيدة من قرى مملكتي؟ أنا لا أصغي عادة إلا لمستشاري الذين تراهم هنا، وهم من أكثر الرجال حكمة وخبرة».

لما سمع بوبا هذا الكلام، اعتصر الألم قلبه. وتساءل في نفسه لماذا لا يريد هؤلاء الأشخاص الكبار الإنصات أبدا لما يقوله طفل. وعندما رأى جده ما ناله من إحباط، هب لنجدته. وقال للملك:

«يا صاحب الجلالة، أرجو أن تسمع كلامي، أنا الرجل العجوز. ثق بحفيدي. ألم يشف الجروح التي أملك سنوات؟ هذا الطفل لديه قدرات أدهشت رجالك، وجعلتهم في حيرة من أمرهم. أنا من رباه، لأنه يتيم. يتمتع بحساسية شديدة. يعرف المخلوقات، والأشياء، ويتأمل الطبيعة، والحشرات، والطيور، والسماء، والغيوم. ويجيد تفسير الإشارات. إن لم تصغ إليه اليوم، ندمت غدا على المحنة التي ستحل ببلدنا، بسبب شكوكك وعدم تبصرك. أرجوك، ثق به».

بعد أن سمع هذا الكلام المفعم بالرشاد، تحدث الملك مرة أخرى مع مستشاريه. ثم بدا مقتنعا، وأجاب:

«أيها الشيخ، تقضي تقاليد بلدنا أن نصغي إلى رأي الشيوخ! بما أنك تبدو مؤكدا ما قاله حفيدك، سأنظر إلى تحذيره بجدية. سأعمل بكل ما أشار إليه. سأعطي الأوامر حالا، كي تتخذ كل المملكة التدابير اللازمة. أيها الشيخ، نيابة عن مملكة السانوكا كلها، أتوجه بالشكر لك ولحفيدك. لقد أنقذتماها.

- نحن لم نقدم سوى واجبنا يا صاحب الجلالة. استمع إلى الطفل. يريد إكمال حديثه.

تردد بوبا لحظة، وصدق في الملك. ثم قال بثقة عالية في النفس، على غير عادته:

- يقال يا صاحب الجلالة إنك تحب الصيد كثيرا.

- بالتأكيد يا بني. الصيد هو هوايتي المفضلة، لأن أحدا لا يضاهيني في الرمي بالقوس. سهامى لا تخطئ الطريدة أبدا.

- لا تصد بعد الآن أبدا يا صاحب الجلالة. ثم، احذر الأفاعي.

- لماذا تقول ذلك لي، أنا ملك البلد؟ لماذا تقول لي ذلك؟».

ارتعب الطفل من لهجة الملك الصارمة. ولم يجرؤ على الرد. ولما خاف، وهو جسور جدا عادة، هرع للاختباء خلف جده، الذي شجعه مرة أخرى.

«يا مولاي العظيم، لا تغتظ من كلام حفيدي. أنا أيضا أحذرك، ولو أنني لم أفهم ما رمى إليه: بوبا لديه رؤية عابرة عن المستقبل أحيانا، دون قدرة على كشفه بوضوح. لقد حذرك. يجب أن تأخذ بتبنيه، مهما كلفك ذلك. ما مصلحة هذا الطفل في أن يخدعك

ويخيفك؟ الآن، بعد إذن جلالتم، نريد العودة إلى قريتنا.

- أدرك جيدا ما قلته لي. أشكركما ثانية. سأحاول الالتزام بنصائحكما. أطلب منكما عدم الذهاب الآن. أنتما ضيفاي. استريحا في قصري ما شئتما من الوقت، قبل رحيلكما.

بعد بضعة أيام، عاد والي وبوبا إلى بيتهما. وقد رفضا، رغم إلحاح الملك، أمام دهشة المستشارين الكبيرة، الهدايا الملكية التي وضعت رهن إشارتهما. بعد وقت قصير من عودتهما، وصل شاعران موسيقيان إلى القرية، وقد امتطيا جوادين كريمين. وعقب تشاور سريع مع الوجهاء، قرعا الطبول في وسط الساحة الكبيرة، التي توافد إليها رجال ونساء وأطفال. انتظر بوبا وجده هذه اللحظة بفارغ الصبر، في الصفوف الأولى. ولما تأكدا أن أحدا لم يتخلف عن الحضور، تكلم أحد المبعوثين:

«أيها الناس الطيبون، اسمعوا رسالة ملكنا. هذه ليست فقط دعوة للهدوء والاطمئنان، بل هي أيضا تعليمات يجب أن ينفذها الجميع بدقة في هذا البلد، من أجل المصلحة العامة. يعرف الملك - لا تسألوني كيف - أن الأمطار ستسقط باكرا جدا هذه السنة، بغزارة كبيرة. على كل واحد أن يبذر عدة مرات، لإكثار محاصيله. ابنوا أهراء إضافية لوضع الحبوب في أماكن آمنة. يلزم أيضا تجنب الإسراف، لأن السنة التالية ستكون كلها جفافا. على كل واحد إذن أن يحسب لإنتاج حبوب تكفي معيشته، وتسد حاجة ماشيته ودواجنه من الطعام. هذه هي رسالة الملك. افهموها وانشروها في كل البلد. أخبروا بها بعضكم بعضا، ورددوها على مسامع الجميع!».

وهكذا، من قرية إلى أخرى، في المملكة كلها، أعلن رسل الملك النبأ، الذي فاجأ البعض، وأقلق آخرين. ولكن، كما لو أنه برهان على صحة التنبؤ، بدأ المطر يهطل، قبل أوانه بثلاثة أشهر. راح الناس جميعا يعملون بنشاط، من أكثرهم شكا إلى أكثرهم اقتناعا، تنفيذاً لأوامر الملك. وبعد أن زربوا القطعان في الزرائب، تحول الرعاة إلى مزارعين ماهرين. وضاعف الفلاحون جهودهم. نشروا البذار في كل مكان. لم يصادف عملهم أي صعوبة، لأن الأنهار فاضت، وروت بغزارة حتى أكثر الأراضي قحلا. وامتألت الآبار بالماء حتى فوهتها. وظهر العشب كثيفا متراسا. ونمت الذرة الصفراء والدخن، والأرز، وال فول السوداني بوفرة لا مثيل لها من قبل أبدا. استمر سقوط الأمطار، الذي بدأ باكرا جدا، إلى ما بعد الوقت المعتاد. ثم، ذات صباح، انقشعت الغيوم فجأة. أدرك سكان السانوكا فورا أن الجفاف المعلن عنه قد حل. ولما كان الناس يعرفون ما سيعقب ذلك، حصدوا كل المزروعات في الموعد المحدد. وكادت الأهرام القديمة والجديدة تتصدع لشدة امتلائها بالحبوب. وانتظر الكلاً الوفير جدا قطعان الماشية، التي حموها في زرائب بنيت خصيصا لهذا الموسم. وأخذت الأنهار والسواقي تنقص. لم يهتم الناس كثيرا، لأن ذلك يحدث كل عام بعد الأمطار. ولكن مع مرور الشهور، أخافهم الأمر قليلا بالتأكد. ثم، جاء وقت الجفاف، وكانت مفاجأة الناس تامة: لم تنزل قطرة ماء واحدة من السماء. ومع أن السكان حذروا من قبل، انتابهم شيء من الهلع، الذي تحول إلى قلق. لماذا لم تمطر؟ ولا غيمة واحدة في الأفق. هل هي نهاية العالم؟ لم يتذكر أي

شيخ في البلد مثل هذا الحدث من قبل. ولفحت حرارة ملتهبة الناس والحيوانات.

ولكن، نظرا للتحذير المسبق، لم يعان أحد من ضائقة في البلد. أكل السكان لحوم الماشية، بفضل حكمة الملك، الذي ألزم رعاياه باتخاذ الاحتياطات، التي أنقذت السكان اليوم. ووضعت كل أسرة لنفسها نظاما خاصا: الأكل حتى الشبع، بالتأكيد، ولكن مع تجنب التبذير. وأخرجوا التين، والموز، والمنتجات الأخرى المجففة والمحفوظة في آنية نباتية. وكالعادة، ساهمت أسماك المحيط، الذي تطل عليه المملكة، في إطعام السكان. ولما اختفت النحلات، لعدم وجود الأزهار التي تجمع منها مؤونتها، أكلوا العسل الذي ادخروه. دهنوا به خبز الدخن والذرة الصفراء، هذه الوجبة البسيطة، لكنها مغذية. ومن وقت لآخر، كانت البيوت تذبح حيوانا من القطيع، ليس للأكل فقط، بل أيضا حفاظا على التوازن بين الكلاً المتناقص والماشية المتبقية.

وهكذا، مضت السنة الرهيبة، دون أن ترعب الأهالي كثيرا. أزعج احتباس الأمطار الرجال، والنساء، والأطفال، وضايق الحيوانات، ولكن، لم يمت رجل، ولا امرأة، ولا طفل من الجوع. وذات ليلة، بعد اثني عشر شهرا من جفاف لا مثيل له، دوى الرعد في السماء المعتمدة. وبدأ هطول المطر. وكجميع سكان القرية، خرج بوبا وجده من كوخهما ليبللا جسديهما بقطرات الماء، كنعمة احتجبت بعض الوقت، لكنها عادت بفضل الله.

٥- يعيش الطفل - الملك

استمرت الحياة، هادئة، في القرية. وبقي بوبا، الذي أصبح يافعا، يجامل جده على الدوام. ظل يتردد إلى القرية بين الحين والحين، ليداوي أحدهم. ولطالما استغل هذه الفرصة لتبادل الأحاديث مع الفتيان الآخرين. وقد أحبه هؤلاء كثيرا، مع شيء من الخوف، دون أن يعرف السبب بوضوح.

وذات يوم، وبينما كان بوبا وجده يتناقشان مع مختار القرية، جاء الخبر: مات الملك. خيم الحزن في كل مكان تقريبا، لأن وفاة الملك تهم الشعب دائما.

وإثر عودته إلى الدار، أخذ بوبا يطرح بعض الأسئلة:

«قل لي يا جدي، ماذا يحدث عندما يموت الملك؟».

- الملك يا صغيري يموت هذا اليوم أو ذاك، مثلي ومثلك. حينذاك، يخلفه ولي العهد، ابنه البكر بشكل عام. هكذا تسير الأمور. لماذا تسألني هذا السؤال؟

- لأعرف كيف يحدث ذلك. أعتقد أن ملكنا لم يكن خبيثا كثيرا. قلت لي دائما إنه لا يجوز التحدث بسوء عن الأموات. ولكن، تعرف يا جدي، عندي انطباع بأن ملكنا غالبا ما أهمل النصائح التي أسديتها له.

- نعم يا صغيري، هذا هو انطباعي أيضا. قلت لك، وأكرر الآن: «من لا يستمع إلى رأي النبهاء، غالبا ما يخسر. لا تنس ذلك أبدا».

بعد ذلك بأيام، توغل بوبا في قلب البستان، حيث يمضي معظم وقت الصباح عادة، فيسقي الأشجار المثمرة، والبقول، ويطعم الدواجن، ويجني العسل أو يقطف الخضراوات. وبينما هو كذلك،

رأى طيرا جريحا خلف شجرة المنجة. التقطه بلطف، واعتنى به، ثم تسلق الشجرة، ووضعه في عشه.

ولما عاد إلى الدار، لمح عددا من الجياد، المربوطة بعيدا قليلا. حث الخطأ. ورأى في الفناء صفين من الجنود ينتظرون بانتظام تام. مر بخجل أمام الرجال، المسلحين بالسيوف والرماح والدروع. وفي نهاية الصف، بدا أن جده ورجلا آخر ينتظرانه. ما إن وصل إليهما، حتى بادره الزائر قائلا:

«هل عرفتني؟»

- نعم، أنت عرفان، المستشار الأول للملك. أحبيك.

- أنا من يحييك أولا يا مولاي!

قال عرفان ذلك، وانحنى أمامه. وفعل مثله فورا كل الجنود الموجودين. ماذا يعني ذلك؟ حتى جده حياه هكذا. هذا الولاء لا يحق إلا للملوك. جعلته المفاجأة عاجزا عن الكلام. لم يستطع بوبا نطق حرف واحد. انتصب المستشار عرفان واقفا. وقلده الآخرون. ثم قال بصوت احتفالي:

«ملكنا مات. لدغته أفعى، ممبة سوداء، خلال رحلة صيد. ليس له ابن يخلفه. لم تنجب أي من زوجاته الأربع أولادا. اجتمع مجلس الأعيان، وعينك بالإجماع خليفة له على العرش. يعيش الملك!». أطل الله عمر الملك!.

لم يرد بوبا. وشعر بقلق يضغط على عنقه. لم يجرؤ أحد على تحطيم الصمت. وبعد لحظة طويلة، استطاع أن يقول:

«جدي، أغشني يا جدي. قل لهم إن فتى مثلي، في الخامسة عشرة من عمره، لا يستطيع أن يحمل على ظهره، النحيل والضعيف،

مملكة بهذا الاتساع. من الأنسب البحث عن رجل ناضج يجيد الحكم بحزم ولين في الآن نفسه، رجل ذي حنكة، وعلم، ويصغي إلى شعبه دائما. يجب ألا يتسامح في خرق القانون، وعليه أن يتحسس ضيق المحرومين وآلامهم. قل يا جدي للمستشار عرفان أن يبحث عن مثل هذا الرجل لحكم السانوكا».

أجاب المستشار عرفان حالا:

«ما ذكرته يؤكد أننا أحسنا الاختيار. لديك المزايا اللازمة. جدك، ومستشارو العرش، وأنا نفسي، إن شئت، سنساعدك في القيام بمهمة الملك، التي يجب أن نذيعها منذ هذه اللحظة. يحيا الطفل - الملك! أطل الله عمر الطفل - الملك».

غادر الموكب الملكي الدار في اليوم نفسه. وعبر القرية، التي تلقى فيها بوبا أول ولاء من رعاياه. ولوح له الرجال والنساء والأطفال بأغصان أشجار جوز الهند، هاتفين: «يعيش الطفل - الملك!». وقدم مختار القرية، الذي أراد في البداية أن يتخفى عن نظره، قليلا من الحليب للملكة الجديد. وزوده بقليل من الملح، كإشارة على الطاعة. ثم، رش حصانه ببعض الماء لجلب السعادة، وتمنى له رحلة موفقة.

سار الموكب ببسر وسهولة نحو كور دياما. كان السكان في كل مكان من الطريق يهتفون فرحا. ألقى بعضهم الزهور على الملك. وارتفعت أصوات الفتيات وهن يغنين ويرقصن أمام حصان الملك الشاب. وعرضت الأمهات أطفالهن الرضع على الملك كي يلمسهم. فقد قيل إنه لا يعرف فقط مداواة المرضى، بل يجلب السعادة أيضا لمن يفلح في الاقتراب منه أو يلمس ثوبه.

استقبل في العاصمة استقبالا حافلا. هتف الشعب فرحا. واستمر قرع الطبول. وفي بداية الشارع الرئيسي، المؤدي إلى القصر، ترحل فرسان الموكب. ووفقا للتقاليد، نشرت نساء العاصمة أجمل وزراتهن على الأرض، فبدت كبساط طويل متألئ الألوان، كي يمشي عليها الملك الفتى حتى عتبات القصر. بقي هتاف الحبور يرافق الطفل - الملك، وخلفه جده، حتى حل في منزله الجديد.

في الداخل، وجد نفسه فجأة أمام شخص غير متوقع. كان رجلا طويل القامة جدا، وقد ارتدى ثيابا كثيرة الألوان، واعتمر شاشية حمراء، وبدا أنه بانتظاره. حيا بوبا باحترام.

«أهلا وسهلا بك يا صاحب الجلالة في بيتك».

- شكرا، ولكن... من أنت؟

- اسمي ديالي نيتالي فودي مامايا، شاعر وموسيقي القصر. أنا الذاكرة، مدون أخبار ومآثر مولاي الملك اليومية. خلال حكمك، الذي أتمناه طويلا وسعيدا، ستتولى ذاكرتي تسجيل كل ما ستقوم به من أفعال حميدة أو سواها. سأرددها مثل أغنية. وبعد موتي، سيفعل أولادي وأحفادي الشيء نفسه، كي لا يضيع شيء من صنائعك، جيلا إثر جيل. أنت تعرف ذلك، أمل يا مولاي.

- نعم يا ديالي. هكذا سأناديك، إن أحببت. نعم، أعرف ذلك.

- أعرف كثيرا من الأشياء عنك، يا مولاي. أنت طيب، ورحيم، وسخي. تحب العدل. ونظرا لغيريتك، تهتم بمحيطك أكثر من اهتمامك بنفسك. سعادتك هي إسعاد الآخرين. أيها الطفل - الملك، ستصبح ملكا عظيما! أطل الله عمرك! على الرحب

والسعة. أرجو أن تتبعني، سأقدم لك كبار رجال البلاط، ثم أعرفك إلى منزلك الجديد.

في مساء ذلك اليوم المشهود، ذهب لرؤية جده، الذي أقام في القصر، على مقربة منه.

«أشعر بالدوار قليلا يا جدي. أتمنى ألا تكون الأيام التالية متعبة كالיום. شرح لي ديالي وعرفان جسامه المهمة التي تنتظرني. هذا يخيفني. كيف سأؤدي التزاماتي كل يوم دون أن أخطئ؟ هل يستطيع طفل قيادة بلد؟

- اطمئن يا صغيري. مستشاروك وأنا سنؤازرك بكل قوانا. مع ذلك، يلزم أن تفوض أمرك إلى الله. ادع كل يوم كي يعينك، ويحميك، ويهديك. إن فعلت ذلك، وفقت في عملك ملكا صالحا، رغم صغر سنك. ستحفظ ذاكرة ديالي، الشاعر والموسيقي، مفاخر أعمالك، التي ستردها الأجيال القادمة. عليك إذن أن تحكم بحلم، وفطنة، وتبصّر. ادع، كل يوم، الله كي يساعدك. ولن يتخلّى عنك.

- شكرا على نصائحك يا جدي. أحتاجها اليوم أكثر من أي وقت مضى. أصبحت على خير. حفظك الله إلى جانبي طول العمر. عاد الطفل - الملك إلى غرفته. وهنا، في وحدته، راح يدعو بصوت مرتفع:

«يا ربي، إليك أتوجه. حملت كتفي الضعيفين عبئا ثقيلا. اللهم اجعل هذا الحمل خفيفا كالريشة. أنت يا فاطر السموات والأرض، وخالق البشر، والحيوانات، يا من تعلم بذات الصدور، وتعلم أنني لا أرغب في شيء لنفسي، لا ذهباً، ولا فضة، ولا

مجدا . أصلي لك فقط من أجل الشعب الذي أوكلت أمر حكمه لي . امنحه الطمأنينة والهدوء . طهر قلبه من الخبث والردائل . خذ بيده إلى الصراط المستقيم . أما أنا ، فقني إغراءات السلطة ، واحفظ قلبي نقيا ظاهرا ، وجنبني الظلم والجور والبغي . أتكل عليك ، وأفوض لك أمر شعبي . ارعنا مثلما يرعى الأب أسرته ، واحرسنا كما يحرس الراعي قطيعه ، وراعنا كما فعل جدي معي . هذا رجائي . سأرده دائما .»

٦- تهديدات بالحرب

انقضت السنة الأولى من الحكم دون عثرات. زار الطفل - الملك، يرافقه مستشاروه، كل مقاطعات المملكة. ومكنه ذلك من التعرف إلى واقع البلد عن كثب، وموارده، وقواه، ونقاط ضعفه. استطاع التحدث إلى حكام المناطق، ومدراء النواحي، ومخاتير القرى. وتقرب من البسطاء والناس العاديين. واستمع إلى كل منهم، ليعرف حاجات رعاياه المخلصين، وآمالهم، وشكاويهم. وجعلته حقيقة الأمور يفهم بشكل أفضل كيف يجب قيادة البلد والسكان، بعد أن لمس هموم البعض، ورغبات الآخرين، وتطلعاتهم، وأمنياتهم، وأحيانا أحلامهم.

لم يسترح أبدا بعد عودته إلى القصر. وفي الحال، لقنه مستشاروه دروسا تليق بالأمرء. علمه رئيس حرسه موري أولا الطريقة المثلى لركوب الحصان. عدوا معا، واجتازا الحواجز، ومعهما مرافقة صغيرة. ألزمه موري بإتقان السباحة، في الأنهار، وفي المحيط أيضا. ودربه بعد ذلك على المصارعة، واستخدام الرمح، والقتال بالسيف، ومسك الدرع، ورمي السهام. وتلك أشياء ضرورية لأمير شاب.

أذهله الأمر. لكن الشاعر الموسيقي دياي نيتالي فودي مامايا، الذي سرعان ما أصبح صديقه، شرح له أنه إذا تعرضت البلاد يوما لهجوم أعدائها، لا قدر الله، فإن على الملك أن يكون على رأس جيشه، وسيفه في يده، دفاعا عن الوطن المهدد. وذكره بأن مهمة الملك ليست مريحة للغاية دائما. وسمى دياي ذلك المسؤولية.

أفادت التدريبات القاسية بوبا في شيء آخر. صلبت بنيته الضعيفة، وأضحى قويا، وازداد شجاعة وثقة بنفسه. وذات مساء، في وقت استراحته وحيدا في كوخ القش، عند طرف القصر، دخل عليه رجل. فوجئ بوبا، وسأله:

«من أنت؟ كيف سمح لك الحارس بالدخول دون إذني؟ لا شك أنك آت لتشكو من مظلمة. بما أنك أصبحت هنا، أنا أسمعك. تكلم ولا تخف.

- لم آت للشكوى. انظر إلي جيدا. ألا تعرفني؟

حدق بوبا في الدخيل بانتباه، وعنفه بقسوة، دون أن يفقد هدوءه:

«كيف يمكنني أن أنسى مخلوقا مثلك؟ جماعتك تسميك كوكورونج. أدركت الآن لماذا لم يلحظك الحارس. اعرف أولا أنني لم أعد أخشاك. ماذا تريد مني؟

- عليك أن تخمن. طلب مني رئيسي شيطاني أن أقابلك. هاك ما يرغب: جرت العادة في هذا البلد، سابقا، أن تقتل فتاة كل عام قبل موسم الشتاء، كتضحية، ليحميك شيطاني. يجب أن تعيد إدراج هذه العادة. الأمر بيدك، لأنك الملك الآن. تأمر، فيطيعك الجميع.

- جئتني يا أسوأ الجن لتقول لي كلاما دنسا! هذه العادة البغيضة ألغاه سلفي. أتجرؤ على المجيء إلى هنا لتطلب مني إعادتها؟

أظنني ما أزال رهن أوامر سيدك؟

- أعرف أنك أصبحت متمردا، وأنتك تستغل ما تعلمته منا لتتشر الخير بدلا من الشر. أعرف أيضا أنك محمي جيدا. ولكن أعرض عليك صفقة: إن قمت بما أطلب منك، سأزيد ثروتك. كان عند والد الملك السابق صندوق مليء بالذهب والألماس. لقد خبأه. لم

يعثر عليه أحد حتى اليوم. تعرف أن الناس غالبا ما يجلسون على كنز، دون أن يعلموا. إن قبلت طلبتي، سأدلك على المكان الذي أخفي فيه هذا الكنز، المخبأ بعناية.

- لا تضيع وقتك عبثا. أرفض عرضك. انصرف وإلا غدوت أول من أقطع رأسه.

- فكر أيها الطفل - الملك، فكرا. إذا ألححت على رفضك، سأدفع مملكة مجاورة أقوى من مملكتك بكثير لشن الحرب عليك. وبدلا من أن تضحي بفتاة واحدة كل عام، ستخوض حربا رهيبة مع آلاف القتلى، عدا تبكيت الضمير. أفضّل ذلك؟ هيا فكر مليا قبل أن تطردني، أهذا ما تريد؟

تذكر بوبا مجددا نصائح جده الحكيم: اعتصم بالله دائما. ودعا بصوت مرتفع:

«يا رب السماوات والأرض، بك أحتمي! أنت الكريم، العادل، الرحيم. يا من تضيء بشمسك الأبرار والأشرار، يا من تطعم بغيثك الأطهار وأصحاب النوايا العدوانية. يا عالم الأشياء المعلومة والمجهولة، دثّرني برداء حمايتك! اجعل لي في كنفك ملاذا يحميني من هذا المخلوق الشرير. أنت أيها الشيطان، عد من حيث أتيت. ليطردك الله! ليطردك الله!».

لما سمع كو كورونج ذكر اسم الله، بهذا القدر الكبير من الإيمان والورع، أطلق صرخة يأس قوية. وهرب نحو الباب بسرعة، موقعا الحارس على الأرض. واختفى بشكل غامض.

وصل قائد الحرس موري، تتبعه مرافقة صغيرة، وقد انتابه القلق. «هل أنت جريح يا صاحب الجلالة؟».

- لا، لا، أنا سليم معافى.

- سأعاقب الحارس الذي ترك مجهولاً يدخل إلى غرفة استراحتك.

- لا تعاقب هذا الرجل. لا قدرة لأحد على إيقاف ذلك الذي زارني. تعال، رافقني إلى غرفة جدي. أرغب في التحدث إليه. ما إن لمح والي حفيده، حتى عرف من اضطرابه أنه مر بلحظات مؤلمة قبل قليل.

«يا صغيري، أخبرني يا صغيري بما حدث».

شرح له بوبا ما حصل. ورغم أنه استعاد كامل ثقته، لم يستطع إخفاء إحساسه بقلق خفيف.

«قل لي يا جدي. ما هو البلد القادر على محاربتنا؟

- لا أجد سوى جارتنا القوية جداً في الشمال، الساساي. هذا البلد أقوى من بلدنا، بالتأكيد، لكن لدى السانوكا ثروات وموارد أكبر. عندنا من الأنهار بقدر ما عندهم. لكن واجهتنا البحرية، التي لا يملكون مثلها، قد تثير الأطماع. مع ذلك، يخيم السلام بين المملكتين منذ جيلين على الأقل، وتربطهما علاقات حسن جوار. لا أرى سبباً للنزاع.

- تعرف جيداً يا جدي أن شيطاني، زعيم الأبالسة، يمكن أن يوجد أسباباً للنزاع. ننتظر الأسوأ. أحس أن ذلك لن يتأخر. أحسه فعلاً.

في الحقيقة، بعد أسبوعين من ذلك، زار البلاط سفيراً أوفدته المملكة الجارة. استقبله الطفل - الملك فوراً في قاعة العرش الكبرى، بحضور المستشارين. في مثل هذه المناسبة، شاعر

وموسيقي الملك هو من يتكلم أولاً، مرحباً بالزائر. تحدث ديالي
نيتالي فودي مامايا قائلاً:

«أهلاً وسهلاً بك يا مبعوث دولو، ملك الساساي، جارتنا الشهيرة.
اعتبر هذا البلد بلدك. هاهو الحليب المخصص للضيف الآتي من
بعيد. اشربه. وتناول كولة الصداقة قبل أن تسلم رسالتك. إنها
بالتأكيد رسالة سلام، وصداقة، وحسن جوار».

رفض المبعوث الحليب والكولة المقدمين له، وأجاب:

«لم أصدق ما سمعته أذنائي. والآن لا أصدق ما تراه عيناى. أيها
الشاعر الموسيقي، أليس في بلدكم رجال أنضج حتى تضطروا
لاختيار طفل ملكاً؟ أليس بينكم من هو أكبر سناً لأتكلّم إليه؟».

أحدثت هذه الكلمات الجارحة جواً من الدهشة في القاعة.
وتوجهت أنظار الجميع نحو الطفل - الملك، لمعرفة كيف سيتصرف.
أمام أول وأصعب قضية للدولة. وبصوت هادئ، أجاب فوراً:

«يا مبعوث ملك الساساي، لا أعتبر ما أظهرته من قلة احترام
موجهها لي، بل إلى مملكة السانوكا كلها، التي أمثلها. في بلدي،
وبلدك أيضاً، الرجال الناضجون، والشيوخ هم موضع احترام
كبير. لماذا تهين هؤلاء الناس هنا؟ أقول ذلك، لأنك تعتقد، دون
شك، أنني جلست على العرش مباشرة، أنا الطفل، منذ أن
توفى الله الملك السابق. ثب إلى رشدك. إن المجلس، الذي
يضم الأعيان، والشيوخ الحكماء، والرجال الناضجين
والعاقليين، هو الذي أوصلني إلى القصر. والآن لننتحدث في
موضوع مهمتك. ستدرك لماذا اختار هذا البلد طفلاً لاعتلاء
العرش. لم تذكر اسمك. تدعى عباس. أخوك وأنت، جاءكما

شيطان يدعى كو كورونج يوم كان القمر بدرا، وأوحى إليكما بنصح خبيث. وأوحيتما بدوركما إلى ملككما بأفكار الجشع والطمع، والرغبة في زيادة ثرواته. أبدى ملككما، الحكيم العاقل عادة، تسامحا زائدا حين أصغى إلى نصائحكما. واقتрحت عليه أن يرسلك، أنت نفسك، لتنقل إلينا رسالة ليست إلا ابتزازا مخجلا. سأسمعك، رغم أني أعرف محتواها. تكلم الآن».

بعد هذه الكلمات الحازمة، انطفأت عجرفة المبعوث. كيف أمكن لهذا الطفل أن يكشف سرا لم يطلع عليه أي شخص؟ كيف عرف اسمه ووجود أخيه؟ رد مضطربا ومتلعثما:

«يا صاحب الجلالة... ها... ها... أنا... سأق... سأطلعك على مضمون رسالة ملكي. يعتقد أن... يقول إن... لدى السانوكا إمكانات أكبر من... رغم أنها أصغر من الساساي... لذا، يطلب منك دفع... مساهمة كل عام.

- لكن رسالتك لم تنته. وماذا تقصد بالمساهمة؟ تعني أن علينا دفع إتاوة له سنويا منذ الآن؟

- نعم، نعم، هو كذلك!

بعد هذا الكلام، علا صخب في القاعة. طلب الطفل - الملك الهدوء:

«لندع المبعوث عباس يخبرنا الآن ما هو مبلغ هذه الإتاوة، التي أخال أنها ستؤخذ بالإكراه».

أخذ المبعوث يتصبب عرقا بشدة. وشعر بأنه لم يعد يتقن دوره في هذه المأساة، التي أعدها بنفسه في الحقيقة. وتابع:

«يطلب ملكي ألف بقرة، وألف خروف، وخمسمائة كيس دخن، وخمسمائة كيس ذرة صفراء، ومائة سلة من ثمار الكولة المنبهة، وعشرة أكياس ملح كل سنة. نعم، قال كل سنة».

أعقبت هذا التعداد جلبة قوية. قال الملك الشاب لضييفه: «أيها الرسول، سمعنا ما اعتبرناه إنذارا، أمرا يريد ملكك أن تنفذه. تفضل بالخروج ليتمكن مستشاري من دراسة هذه العروض. بعد ذلك، نسلمك ردنا».

عقد المجلس جلسة فورا. وأعطى العجوز والي رأييه، قبل جميع الآخرين. عقب الجلسة، استدعوا الرسول. وأبلغه الملك القرار. «قل لسيدك يا رسول ملك الساساي إن الطفل - الملك يرفض الانصياع لأوامره. قل له إن رخاء السانوكا يمكنها من دفع مثل هذه الإتاوة، لكن طريقة طلبها غير مناسبة. في الواقع، إذا انصعنا، قد يظن أن الخوف أجبرنا على ذلك».

- أيها الطفل - الملك، فكر بعواقب رفضك. لدينا جيش قوي، وقائد حربي بارع. بلدي أكبر من بلدك وأقدر منه. لدينا تقاليد عسكرية. رعاياك في غالبيتهم فلاحون، وصيادون، ورعاة، وليسوا جنودا. من سيحميكم؟ أبقاركم؟

- نعم، قل للملك إن أبقارنا ستدافع عنا. اذهب الآن، اذهب!

- سأنقل جوابك إلى مولاي.

تباحث بوبا مرة أخرى مع مستشاريه. شرح له هؤلاء ما تعنيه الحرب، وأنه يلزم تعبئة كل الرجال والشباب القادرين على حمل السلاح. ويجب بشكل خاص إيجاد ما سماه جده خزينة الحرب، أي تهئية مبلغ كبير من المال لدفع رواتب الجنود، وإلباسهم،

وإطعامهم، طوال الأعمال الحربية، وشراء السلاح والجياد،
وأشياء أخرى كثيرة.

لم ينم الطفل - الملك تلك الليلة. فكر بما سمعه. ووجد الحل.
يجب الاستعداد بلا تأخير، لمواجهة أي هجوم مباغت. أه يا إلهي،
هل عمل الملك مثل عمل الفلاح أو الراعي؟ ذاك يزرع الأرض
ليعيش، وهذا يسوق قطيعه أمامه بحثا عن المرعى. هل عندهما
هموم الملك، راعي الأمة كلها؟

صحيح أن بوبا لم يعد يبذر الأرض أو يعتني بالخراف، فالآخرون
يقومون بذلك بدلا عنه. ولكن، من الذي يجب أن يجد مبلغا
ضخما لتجنيد الجيش؟ من سيقوده إلى ساحة القتال؟ من الذي
سيموت أولا على رأس الوحدات؟ من يحمل هموم الشعب؟ إنه
الملك، وحده!

وبعد أن قدر مدى الوحدة، المفروضة بحكم المنصب، لم يذق طعم
النوم. نهض، وأخذ يدعو:

«يا رب السماء والأرض، أنت الملاذ. أنت من فوضت إلي أمر حكم
هذا الشعب. ساعدني في حمايته من قوى الشر. اهدني.
أرشدني. شد من أزرعي كي لا أخطئ أو أظلم أحدا. صن حياة
رعايائي، البسطاء، والأبرياء».

بعد هذا الدعاء القصير ولكن الحار، استلقى بوبا، ثم نام نوما
هادئا وعميقا.

في اليوم التالي، جاء أعضاء المجلس لتحية الملك، كما هي العادة.
وبينما بدا القلق على كل واحد منهم، قال لهم بوبا:

«أنتم، يا أحكم حكماء المملكة، الذين تبدون لي حزانى هذا

الصباح! وجوهكم لا تعكس البهجة المعتادة. ما رأيكم بوليمة اليوم كي تتفرج أسارىركم؟ هيا، ابتسموا، كي أفرح. سيجعل عبوسكم القصر حزينا. بما أني الملك، أمركم جميعا بالابتسام. نادوا كبير الطبّاحين».

لم يبهج هذا الكلام المفرح المستشارين. على العكس. قال عرفان: «ندرك يا صاحب الجلالة أن صغر سنك يجعلك لا مباليا أحيانا. أخبرك أن أحدا منا لم ينم طيلة الليل. تلوح في الأفق أخطار جسيمة مصدرها الساساي. مع كل الاحترام الواجب لك، اسمح لنا أن نرفض دعوتك».

أضاف الجد والي، بعد أن نظر إليه حفيده: «نعم يا صغيري. لم ينم أحد هذه الليلة. أنا متأكد أنك تفكر أيضا بما نفكر فيه، رغم ابتهاجك الظاهر: أين نجد المال اللازم؟ هذا الهم ينغص نومنا وينسينا الأكل. تفهم الآن لماذا رفض عرفان عرضك. أجيبك بالشيء نفسه. مع ذلك، بما أني أعرفك أفضل من المستشارين الحاضرين، أكاد أقسم أنك وجدت حلا».

- نعم يا جدي. فكرت بحل. لهذا، أود طرح سؤال على دياالي. لما سمع اسمه، اقترب دياالي العملاق من العرش، وهتف بعذوبته المعهودة:

«هأنذا يا مولاي الملك الشاب، الذي تعلمت أن أقدره وأحبه!». تكلم، أسمعك. أعرف أنك لا تتطق أبدا إلا بالصواب، رغم صغر سنكا».

- شكرا يا دياالي. تعرف أني أنا أيضا أحبك، مثلما أحب جدي وكل المستشارين الحاضرين هنا. قل لي يا دياالي. ماذا تعرف عن

صندوق مخفف منذ وقت طويل جدا؟

- اعلم يا مولاي أن أبي كلمني بهذا الموضوع، منذ أن كنت طفلا. يقال إن والد من حلت مكانه قد جمع ثروة طائلة خلال مدة حكمه، كنزا ضخما. وخبأه. لم يعثر عليه أحد أبدا حتى اليوم. يقال إن اثنين من خدمه حفرا حفرة ذات ليلة، وطمرا فيها هذا الكنز الخيالي. قتل ذاك الملك القاسي هذين الرجلين بيده بعد ذلك، كي لا يفشيا سر الحفرة. بحث عنها ذاك الذي خلفته في كل مكان، واستشار كل العلماء: العرافين، والكهنة، والسحرة، والتمائميين، والمنجمين. عبثا. لم يعثر على هذا الكنز أبدا. لا أعرف أكثر من ذلك.

- شكرا يا ديالي. عرفت أن معلوماتك قد تفيدني. لدي سؤال آخر أود طرحه عليك. أين كان ذاك الملك يحب الجلوس؟
- قيل إنه طالما أحب الجلوس في آخر الباحة، قبالة المكان الذي تستقبل أنت فيه أصحاب الشكاوى المطالبين بحقوقهم. هناك، عند شجرة القابوق التي تراها من مكانك.
- خذ بعض الخدم يا صديقي ديالي، واقطع تلك الشجرة، واحفر حولها. وجئني بما تجده.

- أمر مولاي. سمعا وطاعة يا مولاي، ولو أني لا أفهم ما تعنيه.
قطع شجرة قابوق، عمرها أكثر من مائة عام، ليس أمرا سهلا. لزم إحضار حطابين ماهرين لإنجاز العمل بيسر ونباهة. حفر الخدم حفرة دائرية حول الجذع لاقتلاعه. يا للدهشة! لمحوا صندوقا ضخما أصداه الزمن. نفضوا التراب عنه، وأخرجوه. وأحضره ديالي إلى قاعة العرش. أمر الملك بفتحه، فظهر كنز

مذهل متلألئ أبهر المستشارين: ذهب، وتبر، وأساور، وعقود، وخواتم، ومناجد، وسلاسل عاجية وفضية، وأحجار كريمة، تلمع بكل الألوان. قال الطفل - الملك:

«عثرنا الآن على الصندوق الذي خبئ منذ وقت طويل. إذا ساد السلام بيننا وبين الملك دولو، سأستخدمه فيما يسعد الشعب. ولكن إذا هاجمنا جارنا القوي، أنفقناه على الحرب، مثلما اقترح جدي. تعال يا خازن مال القصر. ضعه في مكان آمن».

وبينما راح المستشارون يهتفون الملك الشاب على ذكائه وفطنته، اللذين أتاحا العثور على الكنز، بعد أن ظن الجميع أنه فقد للأبد، عبر الجد والي عن دهشته أمام الجميع:

«كيف استطعت أن تعرف مكان الكنز يا صغيري؟ اعتقدنا كلنا أنه لابد مدفون في مكان ما من الدغل، بعيدا عن هنا. هيا اشرح لنا».

- الأمر بسيط جدا يا جدي. أنت نفسك غالبا ما رددت أمامي أن البخيل لا يمكنه العيش بعيدا عما يملك، وأن القرد لا يخبئ ثروته إلا داخل شذقيه. تذكر الآن كلمات كو كورونج. قال: غالبا ما يجلس الناس على كنز، دون أن يعلموا. دفعتني هذه الجملة إلى التفكير. هل هناك وسيلة أفضل من أن يخبئ المرء ثروته بطمرها في داره، فيحرسها بنفسه، ويجلس عليها طوال النهار؟ هذا ما فعله ذلك الملك. بذلت يا جدي جهدا كبيرا كي تعثر على خزينة محتملة للحرب. ها هي الآن أمامك. إذا هاجمنا دولو، ملك الساساي، سنجد بين أيدينا ما يساعدنا على حماية أنفسنا. هل أنت مطمئن الآن؟

- نعم، نعم كلنا استعدنا الثقة. لم يعد لديها شيء نخشاه بعد هذا

الاكتشاف. لكنني أفكر الآن: ألم يعدنا الطفل - الملك بوليمة؟ هل
ما يزال الوعد قائما؟ ما رأيكم يا أصدقائي؟
ارتفعت أصوات الفرع بعد هذه الكلمات. وضحك بوبا عاليا،
ضحكة يافع لا مبال نقي القلب. وأخذ دياالي نيتالي فودي مامايا
دوره. أطلق من طبلته الصغيرة إيقاعات مرحة، دوت في باحة
القصر. وخيمت على أرجائه أجواء الحبور، وعاد كل شيء إلى
طبيعته. ولكن، أليس ذلك هو الهدوء الذي يسبق العاصفة؟

٧- الحرب... للأسف!

مرت الأيام، واعتقد بعض وجهاء البلاط أن ملك الساساني تخلص من مشاريعه الحربية. حاول الجد والي إقناعهم بأن الأمر ليس كذلك، فحفيده وهو يعرفان البواعث العميقة، التي تدفع الملك دولو إلى الخصام. لا بد أن كيافي أو أحد العفاريت من جماعته - بوبا مقتنع بذلك - قد أثر على اثنين من مستشاري هذا الملك، ليحثاه باستمرار على مهاجمة جارته الآمنة. لم يتأخر تأكيد هذه الشكوك. عاد عباس، سفير الشؤم، حاملا معه أخبارا شريرة، كالمرّة الأولى. وأمام مجلس حضره الطفل - الملك، ومستشاروه، وأعيانه، صرح قائلاً:

«مولاي القوي جدا السيد دولو مصر على طلباته. إذا رفضتم، سينتظركم جيشه، في غضون ثلاثة أشهر، في سهل سابولا، الحد الفاصل بين بلدينا».

بعد هذه الكلمات المفعمة بالتهديد، خيم صمت ثقيل على المجلس. وقف الطفل - الملك، بقامته النحيلة والمهيبة، مرتديا تاجه الذهبي، ورد على الرسول:

«أيها السفير عباس، بلغ سيدك رفضنا دفع الإتاوة، التي يريد فرضها على السانوكا. ليس لأننا لا نستطيع ذلك، بل لأن طريقة طلبها لا تعجبنا. إن قبلنا، لن نتوقف مطالبه بعد ذلك. قل له إنني سأجابه تحديه. أخبره أنني آت إلى السابولا في اليوم الموعد. سأقاتله بنفسني على رأس جيشي».

منذ اليوم التالي، بدأت الاستعدادات للحرب في المملكة. انتقل الخبر، وكذلك أوامر الملك، على قرع الطبول، من قرية إلى قرية.

أعلنت التعبئة العامة. وجب تجنيد كل المواطنين الذكور، من عمر ثمانية عشر إلى خمسة وأربعين عاما، الأصحاء سليمي الجسم والعقل، القادرين على حمل السلاح، دفاعا عن الوطن. ولزم أن يحمل كل واحد رمحين، وقوسا، وسهاما، وسيفا، وخنجرا. كل هذه الأسلحة يدفع ثمنها الملك، الذي سيعطي أيضا راتبا للمقاتلين طيلة الأعمال الحربية.

نظم خليفة، قائد الجيش، التعبئة والاستعدادات. ودرب ضباطه المجندين الأغرار. وتولى نائبه الأول بكري شؤون الخيالة. واهتم النائب الثاني بأمر المشاة والنبالة. ونسق الملك جميع هذه النشاطات التمهيدية. اقترح على قادته العسكريين خطة قتالية جريئة أدهشتهم، ولكن نالت رضاهم التام، رغم أن تنفيذها صعب ودقيق جدا.

جاء اليوم الرهيب، الذي انتظروه طويلا. ولما أخذ الملك دولو موقعه قبالة خصمه، ذهل للغاية من تلك الشبكة الطويلة العالية، التي تحجب جيش الخصم عن نظره. هل يظن هؤلاء، الذين اعتبرهم ضحاياهم سلفا، أنهم في مأمن إذا تمارسوا خلف هذه السور الرقيق والضعيف والعابر؟ في الواقع، خلف هذه الشبكة، انتشر جيش غريب. ووقف الطفل - الملك على أهبة الاستعداد، ممتطيا حصانه الأبيض، وقد ارتدى بزته العسكرية، وسيفه إلى جنبه. اصطف إلى يساره، كل على صهوة حصانه، الجد والي، الذي لم يشأ أن يتركه في وقت الخطر، والمستشار عرفان، المصمم على أن يضحي بحياته فداء لوطنه، وموري، قائد حرسه المخلص، المستعد للموت في سبيل حماية مولاه الشاب خلال

المعركة. وإلى يمينه، على الجياد أيضا، كان هناك خليفة، قائد الجيش، وبعض الضباط، وبالأخص الشاعر والموسيقي الأمين ديالي نيتالي فودي مامايا، ومعه أولاده الثلاثة، اليافعون الشجعان والمتحمسون، الذين عزموا على تقاسم مصير والدهم. وخلف الشبكة الشهيرة، التي حيرت دولو كثيرا، يا للمفاجأة، انتظر قطع ضخ من الثيران أمام فرسان السانوكا ومشاتها.

بعد أن قوّم اللحظة التالية، بناء على تعليمات من الملك، أعطى خليفة الإشارة بإنزال العلم الأحمر. وفي الحال، أشعل الجنود باقات القش المعلقة بذيول الحيوانات الموجودة في المقدمة، وقطعوا بضربة واحدة الشبكة الفاصلة بين الجيشين. اندفعت الحيوانات إلى الأمام مذعورة هائجة، خائفة بأصوات قوية، بعد أن وخز ألم النار أذيالها. ولحقت بقية الأبقار بالقطع المرعوب غريزيا. ملأ الضجيج والخواار الجو. لم يدرك جيش الساساي سريعا ما يحدث. فوجيء أولا، فدهش، ثم ذهل. ونشر هدير الحيوانات الصاخب، وفرقة حوافرها على الأرض القاسية، وأجسامها المتراسة، وقرونها المتجهة إلى الأمام، الذعر بين جنود مشاة الأعداء، فهربوا وتشتتوا. ركضوا يمينا ويسارا، ولكن ليس بسرعة كافية، لأن القطيع الهائج راح يمزق صفوفهم، ناطحا البعض ومجندلا البعض الآخر بين قوائمها. واستولى القلق والخوف على فرسان دولو، فتبعثروا أكثر من سابقيهم. ذعرت جيادهم وحنقت، وأسرعت في الانسحاب وهي تصل، ولم يتمكن الفرسان من السيطرة عليها، فسقط كثير منهم على الأرض. وتخلص المشاة من رماحهم، وسهامهم، وأقواسهم، ودروعهم، ليسهل عليهم الهرب بسرعة أكبر.

لم يتحرك جيش السانوكا، بل أخذ يراقب هذا المشهد المذهل بهدوء. أعطى خليفة الإشارة الثانية، فتقدم الفرسان، يتبعهم المشاة. بقي قليل من جنود الأعداء، الذين أخبلتهم المفاجأة، في السهل، ولم يهربوا. وسرعان ما تم تطويقهم، وسيقوا أسرى. سلم كثيرون آخرون أنفسهم، بعد إلقاء سلاحهم، حالما تبين لهم أن أحدا لم يؤذهم، مدركين الخسارة التي تكبدها سلفا.

أراد الملك دولو متابعة القتال مهما كلف الأمر، رغم اندحار جيشه. لكن قادة حربه أثثوه عن ذلك، بالقوة تقريبا. هرع بأقصى سرعة نحو العاصمة والغيظ يملأ قلبه، لأنه خسر معركة أمام طفل، واضطر إلى الهروب قبل وقوعه أسيرا بين يديه. ياله من عار عظيم! ومع حلول الظلام، أقنع خليفة، قائد الجيش، الملك الصغير بعدم الاستمرار في مطاردة الجيش المهزوم. نصبت خيمة كبيرة للملك المنتصر، دعيت إليها الحاشية. بدا الطفل - الملك حزينا قليلا، رغم فرح رفاقه الغامر، وقال:

«أيها الأصدقاء، كثيرا ما ذكر لي جدي، الموجود هنا بيننا، أن الله يحب حماية الضعفاء، والأرامل، واليتامى. لهذا أدعو: يا رب، يا خالقنا، شكرا لك لأنك خلصتنا من رجل أراد بنا شرا. حمدا لك لأنك أبقيتنا أحياء».

رقت قلوب كل الرجال الحاضرين، المحاربين الأشداء. كان بعضهم ضعيف الإيمان أحيانا. ورددوا الدعاء وراء ملكهم الشاب المحبوب. وقدم خليفة تقريره بعد ذلك.

«بفضل خطتك البسيطة ولكن الذكية يا مولاي، حققنا نصرا مبينا. نعرف جميعا همك الأول: أقل قدر من الخسائر في الأرواح البشرية. أنا سعيد

أن أعلن لك أننا لم نخسر سوى خمسة قتلى، بدلا من آلاف الأموات الذين كان يمكن أن يهلكوا عادة في مثل هذه المعركة، وعشرين جريحا، مقابل ثلاثين قتيلا ونحو أربعمئة جريح عند العدو، أصيب معظمهم بقرون الثيران أو وقعوا تحت حوافرها أو سقطوا عن خيولهم. لا أذكر أبدا معركة انتهت بهذه السرعة، وهذا العدد القليل من الخسائر.

- شكرا لك أيها القائد العسكري الباسل. هاك أوامري: أرغب في أن تعتنوا بجميع الجنود الأعداء الجرحى، مثلما تعتنون بجرحانا. تجب معاملة الأسرى بكرامة. أطعموهم مثلما تطعمون جنودنا. حافظوا على حياتهم. سترافقون مستشاري منذ الغد إلى الملك دولو من أجل مفاوضات السلام. وحالما تبدأ، أعطوا الأمر لإطلاق جميع الجنود الأسرى.

- فاجأتني جدا يا صاحب الجلالة! عادة لا تجري الأمور هكذا. أنت تستد إلى عواطفك أكثر مما تطبق الأنظمة العسكرية. في العادة، يترك الجرحى يموتون، أو يقضى عليهم إذا تطلب الأمر، ويحتفظ بالأسرى كعبيد، ويطلق العنان لجنودنا لنهب قرى المغلوبين، والسطو على ثرواتهم ومواشيهم، والاستيلاء على محاصيلهم، كفنائم حرب.

- أعرف كل ذلك، لكنني أريد اتباع نصائح جدي، الذي يقول إنه عندما تكون العادات والقوانين سيئة، يجب على الملك محاولة تغييرها. إذن، يجب تنفيذ قراراتي. قل لجنودنا إنني سأمنحهم ما يساوي رواتب سنة كاملة حال انتهاء الأعمال الحربية. سيعوض ذلك عما لحقهم من أضرار. أعرف أن خزانتي لا تتحمل، لكن ذلك أفضل من سلب القرى البريئة وتخريبها.

- أقدر مشاعرك يا مولاي الملك الشاب! سأنفذ أوامرك بدقة.

٨- زواج ملكي

وصل مستشارو ملك السانوكا، بمواكبة القائد خليفة ووحدة من جنود النخبة، إلى بلاط الملك دولو، دون عوائق. استقبلهم الملك الكبير المقهور بكثير من الخشوع. بدا مع قادة حربه أنهم ما يزالون مذهولين بتلك الخدعة الحربية، التي رسمها شاب يافع، طفل تقريبا. لم تطل المفاوضات، فسرعان ما تم الاتفاق حول وجهات النظر. تبادل الطرفان التهاني لقلة الخسائر التي نجمت عن الأعمال الحربية. شكر دولو خصومه، ثم وقع على معاهدة مشرفة بالنسبة إليه. وعبر عن ارتياحه الكبير لبقاء بلده سليما. وعاد مبعوثو السانوكا إلى الوطن.

انتظرهم بوبا بفارغ الصبر. وفور وصولهم، توجهوا إلى قاعة العرش الكبرى، لإطلاع ملكهم على القرارات التي توصلوا إليها. وكما جرت العادة، لزم أن يكون شاعر وموسيقي الملك هو من يعلن عما قيل وتقرر.

«أنا، ديالي نيتالي فودي مامايا، سأقول ما رأيت وسمعت. حضرت بنفسي معركة سابولا إلى جانبك. قهرت القوة الغاشمة بذكائك، ونباهتك، وحيلتك. وتحاشيت بطيبتك، وعذوبتك، وشفقتك، وورعك، إراقة الدماء في السهل الجاف. لم تقتل، ولم تتهب، ولم تستعبد أعداءك. أنت يافع، طفل بعد، لكن البلد المنتصر والآخر المغلوب باتا ينظران إليك على أنك رجل عظيم. المجد لك! أطال الله عمرك! لم يخطئ عقلاء هذا البلد عندما اختاروك ملكا. ولكن، هاكم ما أفضت إليه مباحثات السلام:

- يتخلى الملك دولو نهائيا عن الإتاوة، الضريبة التي أراد فرضها على السانوكا.

- تعهد الملك دولو رسميا وعلنا: لا حرب بعد اليوم مع السانوكا، لا حرب معها أبدا. هاهو تعهده مكتوب على هذا الرق.

- أقصى الملك دولو المستشار عباس وأخاه عبو، اللذين دفعاه للخصام معك بذريعة أنك لست سوى طفل بسيط، لا خبرة لديك ولا حماية.

- يشكرك الملك دولو أنك لم تغز بلاده. ولم تنهب قراه. وأطلقت سراح جنوده الأسرى. ولم تطلب تعويضا مدمرا عن خسائر الحرب.

- أخيرا، ومن أجل إعادة ترسيخ روابط الصداقة والتضامن، بين بلدنا وشعبينا، يعرض الملك دولو تزويج ابنته الصغرى، الأميرة سيرا، البالغ عمرها خمس عشرة سنة، من ملك السانوكا.

انتفض بوبا عندما سمع هذه الكلمات الأخيرة. لم يستشره أحد حول هذا الموضوع. فوجئ جدا، وقلق فعلا، بل أرعبته الفكرة قليلا، وسأل:

«ولكن، كيف يأذن مستشاري لأنفسهم إيجاد زوجة لي لا أعرف عنها شيئا؟ من قال لكم إنني سأحبها؟ أمل أنكم رفضتم هذا العرض».

- لطالما رددنا أمام صاحب الجلالة أن عليه تغليب مصلحة شعبه على مشاعره الخاصة. ووفقا للتقاليد، قمنا، نحن المستشارين، وجدك أولا، بالتدابير اللازمة للزواج، في قصر الملك دولو. سنزف الخبر إلى الشعب منذ الغد، إن شاء مولانا. تلك هي المهمة التي يجب أن ننجزها، نحن مستشاروك، من أجل إعادة استتباب الأمن، بعد الانتصار الكبير، والمبين، والباهر، الذي ستتناقله

الأجيال العشرة، العشرون، المائة القادمة، على مدى القرون، لأنك أصبحت ملكا عظيما رغم صغر سنك. يعيش الملك! تعيش الأميرة سيرا! أطال الله حكمكما.

بعد هذا الخطاب الرائع، تقدم المستشارون من الطفل - الملك لتهنئته، ولسه، إذ يقال في كل مكان إنه يجلب السعادة لكل من يقترب منه. هدأ جده من مخاوفه بشأن الزواج المتسرع قليلا، قائلا له إنه الآن شاب في العشرين، وقوي، ووسيم، وفارس مقدام، وسباح ماهر، ومخطط بارع، وملك حكيم يحبه رعاياه المخلصون. وأخبره أن زوجته، الأميرة الشابة الجميلة، ستضم إلى القصر قريبا.

احتفل أهل السانوكا سبعة أيام بالانتصار، وانتهاء الحرب، وزواج الطفل - الملك في الوقت نفسه. وأكد ديابي أن ذاكرة أي شاعر موسيقي لا تعي، حتى اليوم، أنه حدثت احتفالات كهذه من قبل في البلد. لقد تزامنت مع مجيء الزوجة الشابة، ترافقها عمته، وبعض قريباتها وخادوماتها. قال جده حقا: إنها شابة، وجميلة، وتبدو خجول، وحزينة قليلا. وبعد استقبال حافل، أقامت في شقتها داخل القصر، حيث لا ينقصها شيء.

عند المساء، ذهب بوبا، ومعه جده، لتحية زوجته. «أهلا وسهلا بك أيتها الأميرة سيرا في هذا المنزل. رغم بعد مسقط رأسك، أمل أن تروق لك الإقامة هنا. اعتبري نفسك صاحبة البيت».

لم ترد الشابة فوراً. أشارت بيدها للخدمات كي يخرجن. ولما بقيت وحيدة مع عمته، أجابت:

«شكرا على حفاظك أيها الملك بوبا. لا شيء يوحشني. ولكن، أريد أن تعرف أن والدي ومستشاريه هم الذين رتبوا هذا الزواج. قبلته من أجل عودة السلام إلى شعبينا. لكني لا أحبك، لأن حيلتك الحربية جعلت كل شبان بلدي ينظرون إلى شقيقي، اللذين قاتلا إلى جانب أبي، على أنهما فاران وجبانان. أعتبر نفسي هنا رهينة، لا زوجة».

فوجئت العمة بكلام ابنة أخيها سيرا فعلا. أفزعته هذه العبارات، التي لم تتوقعها. وحاولت إصلاح الموقف.

«لماذا تتكلمين هكذا مع زوجك؟ أنسيت أنه الملك أيضا؟. عليك أن تبادلوه الاحترام، مثلما فعل أبوك!». عذرا على وقاحتها يا صاحب الجلالة. لا بد أنها تتصرف هكذا بسبب إرهاق السفر، ولأنها عروس صغيرة في بلد جديد. هي لا تقصد ما قالت».

فوجئ بوبا أكثر مما انزعج، ولم يتمالك نفسه عن الإجابة متلعثما قليلا:

«لا، لا... نعم، نعم، أنا... أنا... أعلم، أعلم. جدي وأنا نتمنى لكما طيب الإقامة هنا. اعتبري نفسك عمة الملك في هذا القصر».

خرج بوبا، وتبعه جده. هذا الوضع، الجديد بالنسبة إليه، أربكه قليلا. سأل جده، وهو يمشي ببطء:

«قل لي يا جدي، ماذا علي أن أفعل؟. هل كان ترتيب هذا الزواج ضروريا؟».

- نعم يا صغيري. كان ضروريا حتما. شرح لك دياي لزومه. عليك الآن تحويل هذا الفعل السياسي إلى نجاح عائلي. هيا يا صغيري، كفاك قلقا. يجب أن تتصرف.

- ولكن، ماذا علي أن أفعل يا جدي؟
- تدبر أمرك بنفسك يا صغيري. ابحث عن الطريقة الأفضل.
يجب أن تستحوذ على حبها، ولكن سلما. غازلها، قدم لها الهدايا،
أحطها بالاهتمام والمجاملات الرقيقة. باختصار، عليك الفوز
بقلبها. تصرف يا صغيري. تدبر أمرك!. اطلب نصيحة صديقك
ديالي. يجب أن يتمكن من مساعدتك في الأمر، فلهذه خبرة. لأول
مرة في حياتي، لم أستطع فعل أكثر من ذلك لأجلك.
استمرت الحياة عادية في القصر، مع بعض التغيرات الطفيفة، بعد
وصول العروس الشابة. لوحظ أن الملك غالبا ما أخذ يتبادل
الأحاديث مع ديالي، بصوت منخفض، وأكثر من المعتاد بكثير، في
الممر، وتحت الشجرة، وحيثما وجدا بمفردهما. تبين أيضا أن كثيرا
من البائعين الجوالين، غير المسموح لهم بالاقتراب، حفاظا على
راحة الملك، قد بدأوا يترددون إلى القصر. كان الملك يشتري منهم
الحلي، وأدوات الزينة، والقماش، ومستحضرات التجميل، والعديد
من الأشياء الصغيرة الأخرى التي تدخل السرور إلى قلوب الفتيات.
وكثيرا ما أخذ القصر يستقبل أيضا عارضي الحيوانات المدربة،
القرود، والكلاب، وكذلك الفرسان المهرة، الذين يرقصون الجياد
ويجعلونها تلقي التحية، والبهلوانات، والمغنين، والرواة. لكن كل هذه
الأشياء لم تسلّ الأميرة، بما فيها الطواويس البديعة المتبختر،
والبيغاوات المتعددة الألوان، التي تثرثر باستمرار في كوخ الاستراحة
الكبير المنزوع الجدران. ظلت الأميرة حزينة دائما. لم تنقطع أبدا
عن زيارة الملك يوميا بضع لحظات لتحبيه، تعود بعدها إلى شقتها،
المخصصة لها مع عمته وخادماتها.

هكذا سارت الحياة، رتيبة، خالية من الفرح. انعقد ذلك الصباح مجلس المقابلات العامة، الذي يستطيع حضوره كل من أراد إنصافا من الملك. وقبلها بقليل، اقترح ديالي:

«على الأميرة أن تكون بجانبك يا مولاي. يجب أن تراك وأنت تتصف الناس، فذاك قد يسليها ويربها كم أنت حكيم مع شعبك. ما رأيك؟»
- نعم، فكرة ممتازة! سيقول لها ديالي إنني بانتظارها لبدء الجلسات.

وصلت سيرا بعد لحظات، تتبعها عمتها. حيث زوجها باحترام، وجلست إلى جانبه. ارتفع صوت ديالي، معلنا القضية الأولى: نزاع بين رجلين. قال أكبرهما سنا:

«يا صاحب الجلالة، صديقي وأنا، تركنا قرينتنا قاصدين العاصمة. وفي الطريق، جعنا، فاشترينا وعاء صغيرا من حب الفاصولياء المطبوخ وإبرتين. وكي لا يأكل أحدها أكثر من الآخر، رحنا نتناول الفاصولياء بالإبرة من الوعاء، حبة حبة، كل بدوره. في النهاية، بقيت واحدة، لم يرد أي منا تركها للآخر. ما العمل؟»
بعد أن سمع القصة، قطب الطفل - الملك حاجبيه، وقال:

«لماذا تزعجاني بأمر تافه كهذا؟. يستطيع أي قاض حل مثل هذا النزاع الصغير».

- لم ينصفنا أي من القضاة الثلاثة الذين التقيناهم يا صاحب الجلالة.

- حسنا، إذن سأفصل بينكما. موري، يا قائد حرسى الأمين، استل خنجرك. اقطع حبة الفاصولياء إلى قسمين، وقدم لكل من هذين الظرفين نصفا.

هكذا فعل موري. وانصرف المتخاصمان راضيين. وجاءت القضية الثانية: رجل في شرخ الشباب، يدفع أمامه رجلا آخر، أصغر سنا، بدا مرعوبا. قال الأول:

«يا صاحب الجلالة، يدين لي هذا الرجل بمبلغ من المال منذ وقت طويل. لم يلتزم أبدا بأجال الدفع العديدة، التي حددها لي بنفسه. تقضي العادة أن يباع كعبد كي أستعيد حقي، لكنه يهدد بالانتحار. إن مات، ضاع مالي. أرجو الإنصاف».

بعد استماعه إلى الشاكي، استفسر بوبا من ديالي، وجده، وبعض المستشارين حول هذه العادة السيئة، التي تقضي ببيع المدين العاجز عن وفاء دينه. ثم قال للمتهم:

«أتمنى أن أدفع عنك قيمة الدين. ولكن لو فعلت هكذا مع كل المدنيين، لفرغت الخزينة الملكية. ما هي مهنتك؟».

- أنا بستانى ماهر يا صاحب الجلالة. أنبت أحسن الخضار في البلاد. أعتني عناية رائعة بالأشجار المثمرة. ولكن يا حسرة! لم أعد أملك شيئا: مرض القطيع الذي اشتريته بالمال المقترض، ونفق منذ سنوات، قبل أن أعثر على دواء. أتوسل إليك يا مولاي، أنقذني، أنا وأسرتي. أعرف أنك شفوق بالتعساء».

فكر الملك الشاب لحظة. ثم، جاءته الفكرة فجأة. قال للشقي: «اسمع ما أقترحه عليك: توفي بستانى القصر العجوز، ولم أستبدل به أحدا بعد. هل تعمل مكانه؟ ستسكن هنا مع عائلتك، وتهتم بالبستان الداخلي. ولكن انتبه: تعشق الأميرة سيرا الفاكة. أريد أن تعطي أشجاري أفضل ثمار المملكة. ستسد ديونك من أجرك. هل يناسبك هذا الحل؟».

أسرع الرجل نحو الملك ليقبل يديه. وانحنى له، ودموع الفرح تملأ عينيه. وشكره بحرارة.

في القضية التالية، تقدمت فتاتان وانحنيتا أمام الملك. شرحت الكبرى:

«تركنا لنا أماناً بعد وفاتها امرأة جميلة. لا تريد أي منا، نحن الاثنين، التخلي عنها للأخرى مقابل تعويض. نرفض أيضاً بيعها وتقاسم ثمنها، لأننا متعلقتان بهذه المرأة. ما العمل؟».

لم يضطر الملك الشاب إلى التفكير طويلاً. ابتسم وقال:

«هاكما كيف أسوي خلافكما: تحتفظ كل منكما بالمرأة مدة عشرة أشهر، بالدور».

رضيت الأختان بهذه التسوية، التي لم تخطر ببالهما قط، وانصرفتا فرحتين.

كانت القضية التالية أكثر جدية. فقد أحضر مختار القرية، ومعه امرأتان شابتان، طفلاً رضيعاً للملك. قالت إحداهما شاكية:

«أنصفني يا صاحب الجلالة. هذه المرأة وأنا نسين في الدار نفسها. ولدت كل منا طفلاً في الوقت نفسه تقريباً. وذات ليلة، مات طفلها. وبينما أنا نائمة، دخلت إلى كوخى وسرقت طفلي، ووضعت طفلها الميت مكانه. لما استيقظت في الصباح التالي، اكتشفت ما حدث».

اقتربت المرأة الثانية من العرش، وصرخت:

«أيها الملك المحبوب. لا تصدق أكاذيبها. هذا الطفل هو لي، هي التي استبدلته وأنا نائمة. طفلها هي الذي مات، وليس طفلي».

استمرت في الشجار أمام الملك، الذي تدخل وقال:

«اسكتا أنتما الاثنتين، وإلا جعلتكما تتابعان خصامكما في السجن!». هاتا الرضيع. أريد رؤيته. ضعه أمامي. هاهو حكمي: لم تتسببا بعد كيف حلّيت مشكلة حبة الفاصولياء منذ لحظات. حسنا أيتها المرأتين، سأفعل الشيء نفسه. موري، يا قائد الحرس، تعال!. استل سيفك واشطر الرضيع إلى قسمين متساويين، واعط كلا من المشتكيتين نصفًا».

لما سمعت المرأة الأولى هذا الحكم، هبت لتقبل يدي الملك كي ينفذه، بينما لم تكثر الأخرى. وراحت تبكي بدموع غزيرة، وصرخت:

«لا، لا يا مولاي، لا تفعل. أفضل ضياعه على شطره إلى نصفين! اعطه لتلك المرأة، ولكن لا تقتله! أتوسل إليك!». أعرف أنك طيب وعادل. العفو، العفو يا مولاي! أرا أف بي!».

بقي المجلس صامتًا، ومتأثرًا، بانتظار ما سيفعله الملك. نهض، وتناول الرضيع بين ذراعيه. أمسك المرأة المسكينة المنتحبة ليساعدها على الوقوف، وقال لها:

«انهضي أيتها المرأة. عرفت الآن من هي أم الرضيع الحقيقية. هل صدقت أنني سأقتله وأرتكب جريمة شنيعة؟ لو فعلت، لن يغفر لي ربي أبدًا! اعلمي أن ملكا من قديم الزمان، اسمه سليمان، حكم يلدا بعيدا، كان قد حل مشكلة تشبه هذه. لم أفعل إلا مثله. هاك، خذي ولدك، وامضي بسلام. أما أنت أيتها المشتكية، فعلي أن أعاقبك بقسوة. ولكن لن أفعل، لأنني أعرف أن حب الأم هو الذي دفعك للتصرف هكذا. توبي، وادعي إلى الله ليرزقك بطفل آخر».

وقبل رفع الجلسة، قال ديالي نيتالي فودي مامايا بصوت عال:

«وهكذا، مرة أخرى، يحقق ملكنا المحبوب بوبا العدالة! وكعادته دائماً، تعكس أحكامه لطفه، وطيبته، وحس إنصافه، وحيه اللامحدود لشعبه، خصوصاً المحرومين، والضعفاء، ومن لا معين لهم. مد الله في عمر الملك! أطل الله عمر زوجته الأنيقة سيرا، ابنة الملك دولو القوي، الذي أصبح صديقنا، وحليفنا، وقريننا بعد الزواج الملكي، لينعم شعبانا بسلام أبدي! يعيش الملك!».

بعد ظهر اليوم التالي، بينما كان بوبا يجلس وحيداً في حجرة استراحته، جاء موري ليخبره بأن الأميرة سيرا وعمتها ترغبان في التحدث إليه. دخلتا فوراً. سألهما، وقد بدا قلقلهما قليلاً:

«هل تلقيان المعاملة المحترمة والكرامة الواجبة لكما في هذا القصر؟ هل تحتاجان إلى أشياء أخرى لألبيهما لكما؟ قولاً لي رغباتكما. سأنفذهما حالاً.

- أشكرك على اهتمامك بنا يا ابن أخي العزيز. يعاملوننا بمودة بالغة في القصر. جئنا لرؤيتك، لأن زوجتك تريد أن تكلمك. بدت الأميرة سيرا مرتبكة جداً. لم تعد الآن تعرف من أين تبدأ. لكن نظرة زوجها العطوفة جعلتها تحسم أمرها.

«أنا... أنا... أود أن أعبر عن أسفي على ما قلته لك في لقائنا الأول. لم أفكر بالكلام الذي صدر عني. عمتي، وخادماتي، وأنا نفسي، لقينا كل عناية ورعاية منذ قدومنا إلى هنا. واليوم، نعرف كم أنت طيب، ولطيف، ومحب لعامة الناس. تشفق على التعتساء والمتألمين، وتقدم لهم المساعدة. أعلم أيضاً مدى حرصك على حياة حتى أصغر رعاياك. لذلك، أحب أن أقول...جئت لأعرب لك عن اعتزازي بأن اختارك أبي زوجاً لي، أنا صغرى بناته. أعتقد

أن...أنا متأكدة أن مشاعري تغيرت».

- أيتها الأميرة سيرا، القلق الذي اعتصر قلبي منذ قدومك، بدأ يتبدد. أجد في كلامك سعادة لي. قام زواجنا على المصلحة العامة. ولا بد أن يسهم في ترسيخ السلام بين بلدينا. أخبرني جدي بأن علينا، نحن الاثنين، تحويله إلى اتحاد سعيد، فليس أمامنا خيار آخر. أعرف صواب رأيه. ولكن، أود طرح سؤال عليك. قلت منذ لحظة: «مشاعري تغيرت». ماذا تعنين بهذه الكلمات؟

- أعني بها... أود أن أقول.. أحبك يا أميري! نعم، أحبك! لم... لم أكن أعرف... لكنني متأكدة الآن... منذ البارحة. أحبك. ماذا أرى في عينيك؟ دموعاً؟ أتبكي يا أميري؟
- لا، لا أيتها الأميرة الغالية، لا أبكي. هذا غبار.. إنه الهواء. أنا...أنا...أحبك أيضاً يا أميرتي. نعم، نعم، أحبك. اعطني يدك، تعالي معي. هيا، لنمر معا بجدي ونقول له إن حفيدك وجد زوجة وصار للبلد ملكة.

منذ اليوم التالي، تغير الجو المخيم على القصر تماماً. دب النشاط في جناح النساء فجأة، بعد طول صمت. ولم يعد أحد يسمع سوى الضحكات، والزغاريد، والأنغام المترافقة بأصوات الأكف المصفقة. وتوافد الشعراء الغنائيون الجوالون على القصر. وراحوا يروون مآثر أبطال الماضي، ويعددون مادحين أسماء ملوك السانوكا والساساي، الذين تعاقبوا على حكم البلدين منذ أجيال. ولإظهار مدى الحب الذي يكنه لزوجته سيرا، منحها بوبا لقب ملكة، إضافة إلى لقبها كأميرة. واستطاعت الحاشية كلها أن ترى،

بعيون ملؤها التأثر، الملك والملكة يسيران يدا بيد في أرجاء المسكن الواسع. ويضحكان مثل طفلين. ويشهدان العروض الفكاهية والإيمائية المسلية. أدخل هذا الجو الجديد كثيرا من البهجة إلى قلب الجد والي، والمستشارين العقلاء. وتضرع الجميع إلى الله أن يستمر هذا الفرح والصفاء طويلا. ولكن...

بعد وقت قصير، ذات صباح، وصل فارس من الساساي، وقد بدا منهكا من التعب هو وحصانه، حاملا خيرا سيئا جدا.

«جئت يا صاحب الجلالة لأخبر الأميرة بأن والدها دولو، ملك الساساي، مريض بشكل خطير. قد يموت بين لحظة وأخرى».

لما سمعت ذلك، لم تستطع سيرا حبس دموعها. وحزن بوبا، وجده، وديالي كثيرا. ماذا سيحدث لو مات دولو الآن؟ ألن يعود ولي العهد، الذي سيخلفه، إلى الأعمال العدوانية، في محاولة لمحو الإهانة التي حدثت في سابولا؟ يجب تجنب ذلك بأي ثمن. سأل العجوز والي مبعوث دولو:

«مّم يعاني الملك؟ هل تعرف؟»

- نعم، أضعفته الحمى. يتقيأ كل ما يأكله. عدا ذلك، عيناه مصفرتان. هذا المرض أهلك في السابق أخويه وأخته البكر. انتاب القصر قلق شديد.

بعد أن سمع وصف أعراض المرض، استعاد بوبا الأمل، وقال: «أتذكر يا جدي؟ عالجنّا في الماضي مثل هذه الحالات بنجاح في قريتنا. أستطيع شفاء عمي إن وصلت في الوقت المناسب. هيا، لا وقت لدينا. لنرحل حالا».

عجل موري في الاستعدادات: مجموعة فرسان المرافقة، التي

سيقودها بنفسه، والمؤن، والجياد، والكثير من الأشياء الأخرى الضرورية لسفر الملك.

رجت سيرا زوجها أن يصطحبها. تردد بوبا في البداية لأن مثل هذه الرحلة متعبة. لكنه قبل أخيرا بعد أن تدخل جده: «زوجتك شابة. قالت لي إنها تجيد ركوب الحصان. سيسرها أن ترى أهلها. خذها يا صغيري. لن يصيبها مكروه ما دامت معك. سأخبر عمك بقدمك فورا. ستصله الرسالة بسرعة على قرع الطبول، من قرية إلى قرية. ارحل ولا تخف. بما أنك ذاهب لفعل الخير، سيسدد الله خطاك».

غادر الموكب القصر على عجل، يتقدمه الفارس حامل الراية الملكية الخفاقة. ولكسب الوقت، لم تسلك المجموعة الطريق المعتادة. سارت بمحاذاة الشاطئ نهارا كاملا. واستغل بوبا ذلك ليملأ مطرة كبيرة من جلد الماعز بماء البحر. أدهش ذلك المستشار عرفان وديالي، اللذين رافقا الملك. توقفوا مساء في قرية صيادين كبيرة، حيث استضافهم الناس في أكواخ بنيت خصيصا للضيوف المسافرين. وعند الفجر، تابعوا سفرهم. ليس فقط لم تتعب سيرا، بل وجدت في الرحلة استكشافا كبيرا: سحرها المحيط، الذي لم تره من قبل قط. ولمست في الوقت نفسه مدى الشعبية العظيمة، التي تتمتع بها هي وزوجها لدى الأهالي، الذين هتفوا بحياتهما حيث مرا.

في منتصف اليوم الثاني، ابتعدوا عن شاطئ البحر نحو الشرق. عبروا السهل العشبي، وساروا بمحاذاة الغابة الكبيرة اللامتناهية. صعدوا عدة تلال، حتى وصلوا إلى مملكة الساساي. كان

بانتظارهم الاستقبال نفسه: فبعد أن وصلتهم رسالة مجيء الملك على قرع الطبول، خرج السكان لاستقبالهم بحفاوة بالغة. فرح الملك الشاب، والملكة الشابة، والمستشاران عرفان وديالي بهذا الاحتفاء المفاجئ، وهتافات الترحيب، والمجاملات، وإشارات المحبة والتعاطف، التي أغدقها عليهم الأهالي، إبان مرورهم بقرى ومدن الساساي.

بلغوا العاصمة أخيراً. استقبلهم السكان الفرحون استقبال المنقذين، لأن سمعة الملك الشاب، كمطبيب شاف وشهم، سبقته إلى هنا. اتجه الموكب، بسرعة خفيفة، يتقدمه حرس الشرف المرافق، إلى القصر مباشرة.

ما إن ترجلا، حتى هرع بوبا وسيرا إلى سرير الملك دولو. وجداه مستلقيا، محموماً، ومهزولاً، ترعاه الملكة الأم، والمطبيب مومار، وبعض الأقارب المقربين. بدوا جميعاً عاجزين، قلقين، وعلى وشك أن يفقدوا الأمل. كانوا بانتظار الطفل - الملك، الذي سمعوا أنه وهب القدرة على شفاء أَوْخَم الأمراض. حيا الملك الشاب كل الحاضرين، بينما أُلقت زوجته نفسها بين ذراعي أمها. وبمعينة سريعة للمريض، تأكدت شكوكه. وتبادل الحديث مع الطبيب.

«ماذا أعطيته منذ بداية المرض؟».

- غسلته بماء غطست فيه حرباء، ثم دهنت جبينه بنخاع قرد لطرد الأرواح الشريرة. بعدئذ، أحضرت بيض الأفاعي كي...

- أيها الطبيب، أفهم الآن لماذا لم يبرأ مريضك المشهور بعد. مع ذلك، في منزله صديق سيساهم في شفائه. إنه صديق كبير، وأخضر، وأولاده صفرٌ، وأحفاده سودٌ. من هو؟

- أيها الملك بوبا، أنا... لا أعرف هذا الصديق الذي تتحدث عنه.
- إذن، انظر في الباحة. ماذا ترى؟
- لا أرى شيئاً سوى شجرة العنب الهندي، التي يؤرجحها الهواء.
- إنها الصديق الذي سيشفى ملكك. سيراً، يا ملكة السانوكا.
هاك ما ستفعلينه. تناولوا فوراً ديكاً أحمر، وثمرات عنب هندي غير
ناضجة، وأعدي منهما حساء. لا تضيفي إليهما أي شيء آخر.
بدأت زوجة الملك دولو وابنتها بتحضير المطلوب حالا. لم تتركا
لأحد أمر إعداد الدواء الموصوف. في هذه الأثناء، سأل الطبيب
بوبا:

«هل يمكنك يا ملك السانوكا أن تشرح لي معنى اللغز الذي ذكرته
لي، ولم أستطع فهمه؟».

- الجواب هو شجرة العنب الهندي. أنت تراها في الباحة. ولكن
لم تستطع أن تتصور أنني أتكلم عنها. إنها كبيرة وخضراء.
أولادها، ثمارها، وهي صفر. أحفادها، البذور، وهي سود. هل
أدركت المعنى الآن؟

- نعم، يا صاحب الجلالة. أدركت. ولكن، لماذا تعتبر شجرة العنب
الهندي صديقاً؟

- هذه الشجرة صديق لأن الوصفة التي عرضتها ستشفى سيدك.
خذ ذلك بالحسبان. ثم بما أنك تمارس مهنة علاج المرضى،
اسمعي جيداً: أوراق شجرة العنب الهندي المغلية، المطبوخة، تعطي
بالعسل، تخفف حمى المئاع. بزورها المجففة، والمطحونة، تعطي
مسحوقاً يخلص الكبار والصغار من الديدان الطفيلية. ثلاث أو
أربع جرعات من نسق هذه الشجرة، مع قليل من العسل، تشفي

من الداء نفسه. وإذا وضعنا أوراقها، المغسولة، على الجرح،
يندمل. أما جذورها، المنظفة، والمغلية بالماء النقي، فتعطي شرابا
يداوي السعال، بعد مزجه بالعسل. تساعد ثمرتها الناضجة على
الهضم الجيد، وتسكن أوجاع البطون الممسكة. هيا، قل لي أيها
المطبيب، أي صديق يعطيك من الفوائد مثل شجرة الغنب الهندي؟
بعد وقت قصير، أحضرت سيرا وأمها الدواء. في البداية، قدم
بوبا للمريض بعض العسل الممزوج بمسحوق لحاء إحدى الأشجار،
كي لا يتقيأ. ثم، تناول الملك دولو ذلك الحساء، الذي لم يبد
مقرّزا. وجعله بوبا يشرب بعد ذلك ماء البحر الذي جلبه معه.
وأمر بتركه يستريح. تناول الدواء عدة مرات. وبعد بضعة أيام،
زال لون عينيه الأصفر القبيح. وتلاشت البثور الصغيرة التي
ملأت جلد يديه. وراح يشفى بسرعة، حتى تعافى تماما: استطاع
كل القصر أن يسمع من جديد ضحكات الملك القوي دولو المرحّة،
بعد استعادة صحته.

وكما هو الواجب، أقام حفلة كبرى على شرف صهره، الذي
ساعده في استرداد صحته. وخلال الوليمة، أوماً إلى شاعره
الموسيقي أن يمتدح ضيفه. قال الشاعر:

«أيها الملك بوبا، يخاطبك مولاي القوي دولو، ملك الساساي،
بلساني. يعلن ويهتف عاليا وجهارا، مشيدا بأريحيّتك، وسعة
معرفتكَ التي أنقذت حياته. اليوم، وأكثر من الأمس، يهنئ نفسه
أنه منحك ابنته الصغرى زوجة. قالت لي البارحة: «لم أعد أريد
العودة للعيش في هذا القصر. أحب البقاء قرب زوجي الشاب،
لأنني كنت هنا أميرة صغيرة، بينما جعلني بوبا ملكة كبيرة في

السانوكا، الملكة سيرا». ذلك نعرفه أيها الملك الشاب، ونشكرك عليه. تركت كل شؤون مملكتك لتسرع بالمجيء إلى هنا. شكرا لك. منذ وصولك إلى هذا البيت، أظهرت لسيد البلد دولو حب الابن لوالده، والاحترام الواجب للعم، والتبجيل اللازم للملك، ناسيا نفسك أنك أنت ملك. الشكر لك على ذلك. غمرت أخوات زوجتك، وحماتك، وإخوة زوجتك بالهدايا الثمينة. شكرا لك. حماك الله يا ملك السانوكا!. أطال الله عمرك، أنت وزوجتك الأنيقة الملكة سيرا!.

تلا هذا الخطاب هتاف حماسي. وتكلم بوبا بدوره، وقد بدا متأثرا.

«قدمت من بلدي البعيد لأعالج مريضا، فوجدت محاربا قويا ساعدني وهو يصارع الموت وحيدا. أتيت من بلدي البعيد لأحيي ملكا، فوجدت عاهلا عظيما. أخيرا، أنا اليتيم، الذي لم أعرف أبي ولا أُمي، بل جدي فقط، جئت من بلدي البعيد كي أسلم على عمي وحماتي. ووجدت أبا حقيقيا، وأما حقيقية، وإخوة وأخوات. هكذا أنظر إلى كل أقرباء زوجتي، اللطيفة، الحسنة، الملكة سيرا الودودة، التي برهنت ليس فقط عن اهتمامها بمملكة السانوكا كلها، بل عن حبها لها أيضا. هذا أثمن عندي من الذهب والألماس. شكرا على ذلك. شكرا على معاهدة السلام. شكرا لحصولي على مثل هذه الزوجة».

صفق كل من في القصر بحرارة، خصوصا الأميران اللذان عاديا بوبا سابقا. وعندما هدأ التصفيق، قال الملك الشاب:

«أدع الكلام الآن، كما تقتضي تقاليدنا، لشاعري الموسيقي،

مستشاري وصديقي، ورفيقي الأمين دياالي نيتالي فودي مامايا». نهض دياالي، وتكلم.

«يا مولاي القوي دولو. عندما خلا عرش السانوكا، بعد وفاة ملكها المرحوم، طرحتم بالتأكيد أسئلة كثيرة. كذلك فعل ملوك هذه القارة الآخرون. لا، بل حتى بعض مواطنينا سألونا: «أيها المستشارون العقلاء، لماذا نصبتم على العرش يتيما عمره خمسة عشر عاما؟ هل خلا هذا البلد من الرجال الناضجين والشيوخ المجريين؟ أيها الملك دولو، أنت نفسك تعرف الآن الجواب. الطفل - الملك هو علامة. داوى في قريته الرجال، والنساء، والأطفال، والحيوانات مذ كان عمره ست سنوات. يقال إنه يفهم لغة الطيور. أنقذ البلد بما أنعم الله عليه من بصيرة وصحوة الذهن. أسعد قريته، وشعبه. وأنجز، وحقق، وصنع... إذا لزمني الاستمرار في تلاوة كل حسناته، منذ علاجه أول مريض وحتى معالجة الملك دولو، سأحتاج إلى أيام كاملة حتى أنتهي منها. أطلال الله عمر مولاي الملك الشاب! لكن سيدي كلفني بأن أتقدم إليك ببالغ الشكر، يا ملك الساساي. منحته في الوقت نفسه زوجة، وأبا، وأما، وإخوة، وأخوات. أصبحت أسرته. فضلا عن فرحه برؤيتك سليما معافى، هو سعيد بشعوره أنه أحد أفراد العائلة كلها. لماذا تغمره الآن بالتقدير والتكريم والتشريف والثروات؟ في الحقيقة، قال لي إنه تلقى أعظم مكافأة عندما رأى الملك دولو يغادر سرير المرض ويناديه «يا بني». إذن، الشكر لك، أيها الملك القوي، الشكر لك، الشكر لك».

تلا هذا الخطاب هتافاً حماسي. وتابع بوبا الحديث فوراً، ليختم الكلام.

«أيها الملك دولو، يا أبي، أود أن أعبر عن طلب أخير».

- قل يا بني، أيا كان طلبك، سألبيه! تكلم، اطلب ما تريد!

- بما أنني أكن لك مشاعر الابن، لا أريد سوى أن يتابع مطببك محاولة علاجك ببيض الشعابين أو بيض الضفادع. دع مومار يرافقني إلى السانوكا، إن تكرمت. جدي وأنا سنلقنه أسرار النباتات التي تداوي الإنسان والحيوان على حد سواء. سأمنح منذ اليوم كثيراً من الاهتمام لما يبقى العائلة الملكية في صحة جيدة.

- اعتبر مطلبك هدية أخرى لأسرتي، ولي شخصياً. سيجد مطببي في مرافقتك واجباً، إن لم أقل متعة، ليتعلم منك. والآن، تابعوا الاحتفال! فلتقرع الطبول في المملكة كلها، معلنة شفائي، وتعبيراً عن الدين الذين أدين به لمنقذ حياتي، الدين الذي لن يمحوه شيء إلى الأبد.

بعد أسابيع من الإقامة الرائعة، حان وقت الاستعداد للعودة. ذات صباح، عند الفجر، بعد وداع مؤثر، وعود كثيرة بالتلاقي، تهيأ الموكب لسلوك طريق السانوكا. أجرى موري جولة تفتيش أخيرة. وتحقق من المؤن، والجياد، وكل الأشياء الصغيرة والكبيرة الأخرى الضرورية للسفر. ومع شروق الشمس، غادرت الجماعة قصر الملك دولو، على مهل. وراح هواء الصباح يداعب راية السانوكا، التي حملها فارس المقدمة. تلاه موري، قائد الحرس الأمين، ثم الملك والملكة على جواديهما الأبيضين، المزدانين بالأحمر الأرجواني والأزرق السماوي. وواكبهما ملك الساساي، الذي حرص على مرافقة ابنته وصهره حتى مخرج العاصمة. واكتمل الموكب بكوكبة بوبا المرافقة، وعلى رأسها دياتي، وكوكبة مرافقة عمه.

توقف الجميع لحظات عند مخرج المدينة. وخاطب الملك دولو ابنته:

«سيرا، يا صغيرتي. لدي انطباع بأنك مستعجلة على الرحيل أكثر من زوجك. هل أنا مخطئ؟».

- لا يا أبي. ما تقوله صحيح. عشت طفولة رائعة كأميرة في بيتك. ولكن ترى الآن أن لي قصري الخاص. إنني الملكة فيه بجانب زوجي الرائع، الذي تفضلت باختياره لي. نعم، نعم، أنا مستعجلة للعودة إلى بيتي، رغم محبتي الكبيرة لك.

هذا الجواب الصريح جدا، والعفوي، النابع من القلب، أضحك بوبا ودولو وأبهجهما. قال الأخير، وقد بدا متأثرا كثيرا:

«حماك الله يا ابنتي، أنت وزوجك. أتمنى على ربي أن يغمركما سعادة وينعم عليكما بطول الحياة. وداعا يا ابنتي، وداعا يا بني».

وكي لا يرى الآخرون الدموع التي فاضت من عينيه، أدار الملك الكبير، المحارب الأنوف دولو حصانه إلى الوراء، ونكره، وعاد مسرعا، تتبعه المرافقة.

توجه الملك بوبا وموكبه جنوبا مباشرة، دون عجلة. مع ذلك، كان وزوجته يتحرقان رغبة في الوصول إلى قصرهما. اشتاقا لرؤية الجد والي، صاحب الابتسامة التي تدخل الطمأنينة إلى النفس والنصائح السديدة والملائمة. لقد أدركا دائما أهمية بقاءه إلى جانبهما، لأن وجود الكبار في حياة كل قرية، وجماعة، وشعب هو ضرورة ملحة. عرف الطفل - الملك وسيرا أن كل خطوة من خطوات الجياد تزيدهما قريبا من كور دياما، عاصمتها الجميلة جدا والأمنة، التي يحلو العيش فيها. وعرفا أنهما ما يزالان في

بداية حكمهما . وعرفا أن الحياة تمتد فسيحة أمامهما ، بحلوها
ومرها ، ويسرها وعسرها . وعرفا أن هذه الحياة يجب أن تستمر .
كانت الشمس تتسلق كبد السماء الصافية أمام أعينهما ، والطيور
الملونة تحلق فيها فرحة ، كأنها تحييها .



حكايات وأساطير أفريقية

الملك والملكة

تأليف: سليمان جيفو ديوب

ترجمة: محمد الدنيا

مراجعة: د. عبد الرحمن بن زيدان

١- الملك والمملكة

في مكان ما، غرب القارة الأفريقية الشاسعة، تقع مملكة السانوكا. في عاصمتها كور دياما، حكم الطفل - الملك البلاد بحكمة. وسهر بمحبة على رعاية شعبه، الذي أظهر له ودا عظيما.

حكم بوبا المملكة بعدل وفطنة، محاطا بمستشارين علماء، من بينهم جده والي، المسموع الكلمة جدا، نظرا لخبرته الكبيرة في الحياة، وسعة حكمته. وإلى جانبه، وقفت زوجته الشابة الحسنة سيرا تشد من أزره وتشجعه، بحنان ممزوج بالإعجاب، مدركة أنها تعيش مع زوج مفعم بالمزايا.

في ذلك الصباح، عبرت سيرا الباحة الفسيحة، ترافقها عمتها، لزيارة الجد والي، في الجانب الآخر من القصر الواسع. في الطريق إليه، حياها الخدم، والحراس، وانحنوا لها باحترام. وردت على كل واحد بلطفها المعتاد، الذي يقدره الجميع.

وجدت والي عند عتبة الباب، كأنه بانتظارها:

«أحييك يا جدي والي. هل أنت مرتاح اليوم؟».

- أحيي زوجة حفيدي، الملكة الأنيقة. أحيي أيضا عمتك العزيزة مبوديا، التي ترافقك. نعم، الراحة تملأ قلبي. أتمنى أنك كذلك، أنت وكل من تحبين. هيا ادخلا، أهلا وسهلا بكما في مسكني».

دخلت سيرا وعمتها إلى الحجرة. وجلستا على مقعد حجري مفروش بفرو النمر. وبقيتا صامتتين. خاطب العجوز سيرا:

«مجيئك إليّ يا حفيدتي، في هذا الصباح الباكر، يعني أن هناك شيئا ما يقلقك. تكلمي ولا تخافي، صارحيني. سأحاول نصحك».

- نعم يا جدي. أصبت. جئت لأراك لأن...لأنني ألمس بعض الحزن في عيني بوبا هذه الأيام. أنا خائفة قليلا.

- هل تغير سلوكه نحوك؟

- لا، لا، على العكس! ما يزال لطيفا وودودا جدا معي. يتحسب كل أمنياتي ليلبها لي. يغمرنني دائما بالهدايا، مثلما كان في بداية زواجنا منذ عام.

- إذن لا داعي للإفراط في الهمّ يا حفيدتي. زوجك شاب قوي، وأهل للثقة. رغم المحن الرهيبة التي كابدها في طفولته، نجح في البقاء متوازنا. والآن، وقد أصبح لديه زوجة ممتازة تليق به، يجب ألا تقلقي عليه.

- هذا ما تقوله لي عمتي مبوديا غالبا. أرجوك يا جدي، إحك لي المزيد عن طفولته. ربما ساعدني ذلك في أن أفهمه أكثر.

- نعم يا حفيدتي، سأروي لك، رغم أن ذلك قد يوقظ في داخلي ذكريات مؤلمة.

«ولد بوبا ذات يوم عاصف. في النهار نفسه، سقطت الصاعقة على الحقل، وقتلت والده. وهكذا، في الوقت الذي وهبني الله حفيدا، أخذ مني ولدي. لم يكد يبدأ بالمشي، حتى توفيت أمه. جاءتني إحدى قريباتي البعيدات، وقالت إن عجوزا مثلي لا يستطيع الاهتمام بطفل رضيع. لكنني رفضت فراقه. ربيته بمفردي، وصرت له أبا وأما. لم أشك بأنني سأفجع به، فقد اختفى ذات صباح فعلا، وعمره خمس سنوات. اختطفته العفاريت، الجن. لقنته أسرار الطبيعة طيلة ثلاث سنوات، ثم أعادته إلى داري. وبالطبع، طلب منه هؤلاء الأشرار أن يمضي بقية حياته في فعل السوء: تسميم الآبار،

وإمراض الناس والحيوانات، وإبادة بعضهم بين حين وآخر، وجعل الأبرياء يلقون مصيرا رديئا، وهكذا. عندئذ، تحدث إلى حفيدي بهدوء، وصبر وأناة. وزرعت في قلبه حب الخير، وانتزعت من ذهنه فكرة الإساءة للآخرين. وأفلحت. ووضع في خدمة قريته كل ما تعلمه من الجني كيافي وجماعته. عالج الناس والحيوانات، وشفاهم. ودل على المواقع التي يجب أن تحفر فيها الآبار، التي تعطي ماء غزيرا. لا أستطيع إخبارك بكل الخير الذي فعله. ذات يوم، داوى ماديكي، ملك السانوكا، الذي أصابه مرض جلدي قيل إنه لا أمل في شفائه. وكافأه الملك بعلبة مليئة بالذهب. لكنه وزع هذه الثروة كلها على أهل قريتنا، ولم يحتفظ منها بشيء لنفسه. واستطاع كل منهم بذلك الحصول على قطيع وبنار. وأنقذ أيضا بلدنا من الجفاف الذي ضربه.

ولما مات الملك السابق، الذي لم يترك وريثا يخلفه. اجتمع مجلس الأعيان ونصّب مكانه، ولم يبلغ بعد سوى الخامسة عشرة. لهذا لقبه الشعب بالطفل - الملك».

سكت الجد والي بعد هذه الحكاية. وبقيت الملكة الشابة، التي بدت متأثرة جدا، صامتا وقتا طويلا. ثم، بعد بعض الوقت، تكلمت مبوديا، عمة سيرا:

«شكرا أيها الحكيم والي على حكاية طفولة حفيدك. آلمتنا ذكرى بعض الأحداث المأساوية. نعرف البقية. سأرويها لابنة أخي، لإكمال حكايتك».

«اعتلى بوبا عرش السانوكا. نصب ملكا وعمره خمس عشرة سنة. حكم خلال خمس سنوات دون صعوبة. أقنع المستشار عباس أخي

دولو، ملك الساساي، بفكرة شريرة جدا: طلب إتابة باهظة من ملك السانوكا الجديد. وظنوا أن هذا العاهل، الطفل غير المجرب، سيدفعها حتما، دون نقاش. كانت المفاجأة كبيرة، فقد رفض!.

عندئذ، نصح عباس أخي بإعلان الحرب، معتقدين أن جيش الساساي القوي سينتصر على جيش السانوكا سريعا. وحدث العكس!.

ففي سهل سابولا، قهر الطفل - الملك، باستراتيجية تليق بقائد كبير، جيش الخصم بعد أن طوقه. وأسر كل الجنود تقريبا. عاملهم معاملة إنسانية، وأطلق سراحهم بدل أن يستعبدهم. وبعد أن منع جنوده من نهب الساساي، عرض على دولو معاهدة سلام غير مذلة. سعد أخي الملك بخروجه من هذا الوضع بطريقة مشرفة، فمنح ابنته الصغرى سيرا زوجة لبوبا، لتعزيز معاهدة السلام، وإرساء روابط أسرية في الوقت نفسه، لضمان السلام بشكل أفضل بين شعبينا. لا أنسى أبدا أن الملك دولو أصيب العام الماضي بمرض خطير جدا، كاد يموت بسببه. هب بوبا لمداواته، وسهر على صحته. هل نسيت شيئا من هذه الحكاية؟».

رد الجد والي بسرعة:

«لا، لا، لم تنسى شيئا. سارت الأمور كما ذكرت تماما».

في هذا الوقت، سمع وقع أقدام تحت الشرفة. قرع حارس الباب، ثم دخل. وبعد أن حيا بتهذيب، قال:

«يود ملكنا المحبوب إلقاء التحية على جده المستشار والي، كما اعتاد كل صباح».

دخل بوبا، وحيا زوجته وعمتها، اللتين ردتا التحية بالانحناء له. ثم قال:

«أحبيك يا جدي. هل أمضيت ليلة هادئة؟».

- نعم يا صغيري، ليلة راثقة. ولكن، قلت لك دائما إن الملك هو من ينتظر مجيء رعاياه لتحيته. وليس العكس، مثلما تفعل معي كل صباح.

- ولكن ليس الملك هو من يأتي لتحيتك كل صباح، بل حفيد يحب رؤية جده المحبوب، لينال بركته، ويعبر عن محبته اللامحدودة له. لا أستطيع أن أنسى أنك بالنسبة إلي أب، وأم، وجد، وصديق، ومستشار نبيه في الآن نفسه.

- نعم، نعم، ولكن لا تنس أن لديك الآن زوجة شابة وحسنة، عليك الاهتمام بها. لم تعد رضيعا: عمرك اليوم عشرون سنة.

- تماما. بما أنها هنا، سنذهب معا للتنزه قرب البستان. أريد أن أريها نتيجة تطعيم بعض الأشجار المثمرة الذي قام به البستاني. سنستمتع بمشهد بعض الزهور التي طلبت زرعها من أجلها.

خرج بوبا وسيرا يدا بيد. تحدثا وضحكا مثل يافعين لا مباليين، سعيدين بنسيان واجبات الحكم الكبيرة بعض الوقت. سارا باتجاه الطرف الآخر من باحة القصر الواسعة. وفي طريقهما، حياهما الخدم، وجنود الحراسة بالانحناء لهما باحترام.

بعد أن استمتعا برؤية الأزهار الرائعة، العطرة الأريج، وأكلا بعض الثمار اللذيذة، أثنى بوبا وسيرا على البستاني. توقفا عند طرف الحديقة، وفتحا صندوقا، وغرقا منه بعض الحبوب، وأخذا ينثرانها حولهما. نزلت طيور من مختلف الأنواع والألوان لتتقر هنا وهناك، محدثة ضجيجا قويا. بدا بعضها غير خائف كثيرا، فحط على كتفي الملك. وحلق حوله غرابان راحا يثرثران أكثر من البقية

بصوت قوي غير جميل. وبعد أن نقر الحبوب حتى الشبع، طار هذا العالم المجنح، مرفرفا قليلا حول الملكين، قبل أن يبتعد. رغم اعتيادها على هذا المنظر، تأثرت سيرا مرة أخرى، ولم تتمالك نفسها عن السؤال: «قل لي يا بوبا، هل تفهم لغة كل هذه الطيور، التي تبدي لك كثيرا من المحبة؟».

- أعرف ما يقوله بعضها فيما بينها، خصوصا الغريان.
- يبدو أن الغراب الكبير، ذا البقعة الصغيرة على قائمته، يحبك جدا.

- نعم، هذا صحيح. اسمه كروا. اعتنيت به يوم جرح وعجز عن الطيران، وكاد يموت. منذئذ، اعتبرني هو وأسرته واحدا منهم.
- هل صحيح أن بعض الغريان تستطيع التنبؤ بأحداث المستقبل؟
- نعم يا أميرتي، هذا صحيح. ولكن، بما أن الناس لا يفهمون لغتها، لا أحد يعلم المستقبل.

- أراك تقلق فجأة يا أميري. لماذا؟ ما الذي حدث؟
- أنا قلق عليك يا ملكتي الصغيرة. فرئيس الجن، إبليس، الذي يسمونه شيطاني أيضا، غالبا ما يعتدي على من أحبهم، ليؤذيني. جدي وأنا نعرف الآن كيف نحمي أنفسنا. أما أنت، فما تزالين ضعيفة، يسهل عليه التعرض لك. إبليس عنده قوة كبيرة، ولكن يحلو له تعذيب الأبرياء.

- يا ملكي المحبوب، طالما أنت بجانبني، لن أخشى أحدا، جنا كان أو حيوانا.

- نعم، يا روعي الصغيرة، أعرف، لكن شيطاني يجسد الخبث،

والخداع، والحيلة. قد يستغل وقت ابتعادي قليلا عنك كي يهاجمك. انتبهي جيدا إلى ما سأقوله لك. إذا دخل أي رجل أو امرأة إلى غرفتك، وطلب منك أن تفعلي شرا لقاء مكافأة قيمة، لا تحاولي أن تفكري ولا أن تفهمي. أجيبني فورا بهذا الدعاء: «يا الله يا قادر، يا من فطرت السماء والأرض، أرأف بخادمتك المتضعة. يا الله، يا الله، يا الله، اطرده هذا الشيطان، ابعده هذا الشيطان!». ما إن تتلى هذا الدعاء القصير، ولكن القوي، حتى يهرب إبليس، لأن ذكر الله يرضه جدا. هل ستستعين هذا الدعاء؟.

- لا يا أميري، لن أنساه.

- ولكن، انتبهي يا سيرا، كي يصح دعاؤك، يجب أن تكوني نقية القلب، ولا تنوين إيذاء الآخرين، بل ولا حتى تفكرين به. كذلك، إذا آذاك أحد، يجب ألا تحاولي رد الأذى له. على العكس، ينبغي ليس فقط الصفح عنه، بل مبادلتة بالحسنى أيضا. إن تصرفت هكذا، صح دعاؤك. وخلاف ذلك، حالما يرى شيطاني أن قلبك ليس نقيًا ولا طيبًا كما يجب، وقعت فريسة سهلة له، وتصرف على هواه.

- نعم يا بوبا، فهمت. عرفت الآن لماذا جدك والي وأنت مفعمان بالطيبة والعذوبة».

٢- شاعر وموسيقي الملك

تابع الملك بوبا وزوجته مشيهما في باحة القصر الواسعة. ثم توجها إلى الكوخ المدعم سقفه بالأوتاد. وبعد أن جلسا على مقعديهما الخاصين، اقترب منهما رجل طويل القامة، أنيق الملبس، وعلى رأسه غطاء قماشي أحمر، وقال بصوت قوي:

«أنا، دياي نيتالي فودي مامايا، أحيي مولاي، وأنحني أمام مولاتي. هذا الصباح أيضا، أرفع صوتي عاليا وقويا، كي يعرف الجميع ما أقول: أنا شاعر وموسيقي القصر. أنا الذاكرة، حولية مآثر مولاي اليومية. إبان حكمك، كل أفعالك، وصنائعك، وتصرفاتك، من أصغرها إلى أكبرها، ستودع في ذاكرتي. سأرددها مثل أغنية. بعد موتي، سيتابع أولادي مهمتي، كذلك أولادهم وأولاد أولادهم، كي لا تنسى أي مآثرة من مآثرك، جيلا بعد جيل. أطال الله عمر مولاي، الذي تجاوزت طيبته حدود السانوكا منذ وقت طويل!». مد الله في عمر مولاتي، التي لا تحصى خصالها النبيلة، وتحلم بمثل طيبتها أجمل الحسنات!». بعد هذه التحيات الحارة، همست سيرا إلى زوجها ببعض الكلمات، فابتسم، وهز رأسه عدة مرات موافقا. عندئذ، ردت سيرا على الشاعر الموسيقي:

«شكرا يا دياي على هذه الكلمات الحلوة. نعرف أنها نابغة من القلب. منذ مجيئي إلى هذا القصر، لمست محبتك الخالصة التي تكنها لنا. لهذا، لم أتخذ ابنتيك جميلة وتاكو نجيتين مؤتمنتين على أسراري فقط، بل أصبحتا صديقتي أيضا. وحلتا محل أخواتي اللواتي بقين في بيت أبي في الساساي. شكرا يا دياي».

بعد هذه الكلمات العفوية، النابعة من قلب الملكة، جاء دور الطفل - الملك:

«ديالي، يا صديقي الطيب، اعلم أننا نشكرك، الملكة، وجددي، وأنا. لكننا نثمن عاليا ليس كلماتك وحسب، بل كذلك سلوكك نحونا. لن أنسى أبدا وقوفك إلى جانبي وسيفك بيدك في معركة سابولا، مستعدا للنصر أو أن نموت معا. ولم يكن النصر مؤكدا أبدا. هذا ما لا أنساه ما حييت. اعتبر نفسك منذ الآن ليس شاعري الموسيقيّ ومستشاري فقط، بل أيضا صديقي».

قدم بعض أعيان البلاط. حيوا الملك والملكة، وأخذوا أماكنهم على الحصر والبسط على الأرض. جلس الجد والي إلى يمين بوبا. وتناول ديالي، الذي أجذلتته عبارات الملك والملكة، آلتة الموسيقى الصغيرة، الكورا. وراح يعزف أنغاما حلوة. ثم أخذ يتحدث مرة ويفني مرة حسب هواه:

«أيها الطفل - الملك، سعادتك هي إسعاد الآخرين.

لذلك، يحملك الشعب في قلبه.

تهتم بالمحيطين بك، أكثر من اهتمامك بنفسك.

تحب رؤية الناس سعداء حولك.

فرحك، هو أن تمنح الآخرين الفرح.

لذلك، يحملك الشعب في قلبه.

شهدت بنفسي شجاعتك في المعركة، كي يعيش أهل السانوكا أحرارا.

لذلك، يحملك الشعب في قلبه.

أنت تتصف الناس وتعديل بينهم.

تواسي، وتحمي الأرملة واليتيم.
لذلك، يحملك الشعب في قلبه.
لا تستطيع رؤية الآخرين يتعذبون.
لهذا، تحب أن تعالج الناس والحيوانات.
لذلك، يحملك الشعب في قلبه.
أيها الطفل - الملك، سعادتك هي إسعاد الآخرين.
لذلك، يحملك الشعب في قلبه».

أعجب المجلس بهذه القصيدة الجميلة، النابعة عفويا من قلب
ديالي، شاعر وموسيقي الملك. أطربت هذه الكلمات وألحان الكورا
الحاضرين، الذين تأثروا بما سمعوه تأثرا بالغا. في هذه الأثناء،
دخل طائران متعددا الألوان إلى الكوخ. لم يخافا أحدا. رفرفا
قليلا، وحطا أمام دهشة الجميع على كتف الملك مزقزين، كما لو
أنهما أرادا أن يهمسا إليه بشيء ما. تابع ديالي غناءه، وقد ازداد
إلهاما:

«الملك بوبا هو صديق الحيوانات، إنها تكلمه.

حب متبادل يجمع بينهما منذ زمن طويل

لذلك، كل الطيور تحمله في قلوبها.

يعرف حياتها، ويناديها بأسمائها.

كل الطيور تجرؤ على الاقتراب منك.

تلمسك لأنك تحميها.

لذلك، يحملك كل حيوان في قلبه».

توقف ديالي عن الغناء، واستمر في العزف على آلهته بألحان

عذبة. ثم، خاطب الملك، طارحا عليه أسئلة:

«يا مولاي المحبوب، أنت يا من لا تخفى عليك أسرار الحيوانات، هل تستطيع إخبارنا بما عندها؟»
أرهف جميع الحاضرين السمع، إذ إن بوبا يعرف أشياء كثيرة، رغم صغر سنه. ضحك، وأجاب:
«ماذا تريد أن تعرف يا مستشاري وصديقي المخلص ديالي؟»
- ما أسرع حيوان يا صاحب الجلالة؟
- ليس الحصان، ولا قريبه حمار الزرد، عندما يجريان بأقصى سرعة. الظبي أسرع بمرتين، لكن الفهد، الذي يطويه الجوع، يدركه بسهولة ليجعله وجبة.
- ما الحيوان الأطول عمرا؟
- تلك السلحفاة الضعيفة، بالتأكيد. تحمل بيتها على ظهرها، لكنها قد تعيش مائة وخمسين شتاء. بالمقابل، لا يعيش بعض الفراشات سوى حياة عابرة: تولد في الصباح، وتطير، وتموت مساء اليوم نفسه.
- ما أضخم حيوانات الكون يا مولاي؟
- على الأرض، هو الفيل، نعم، بالتأكيد. ولكن هناك ثديي في المحيطات، الحوت، الذي يزن ثلاثين فيلا. يبقى هذا المخلوق العملاق، الذي يشبه السمكة، أضخم الكائنات الحية اليوم. تعيش في أعماق البحار أيضا أنواع لا تحصى من الحيوانات، التي لا يخطر وجودها ببال إنسان.
- تعتبرني يا مولاي مستشارك، لكبر سني بالمقارنة بك. لكني أعتبرك معلمي. لهذا، أود أن أسألك أيضا. هل يمكنك أن تقول لنا ما هو...

لم يتسن لـ ديابي نيتالي فودي مامايا وقت لإنهاء سؤاله، فقد أوقفته جلبة قوية ارتفعت من آخر الباحة. تقدم نحو الكوخ عدد كبير من الخدم ورئيس الطباقين وبعض الحراس. خرج قائد الحرس موري ليري من تجراً على تعكير هدوء صاحب الجلالة، المنشغل بالحديث مع مستشاريه. وعاد دافعا أمامه صيبا ووراءه رئيس الطباقين. حيا هذا الأخير الملك، وقال:

«يا سيدي، كل يوم يختفي فروج، أو فخذ خروف أو شريحة لحم. قبضت على السارق. هاهو، في يده الفروج، الذي اختفى من عندي هذا الصباح».

انحنى صبي صغير، عمره اثنتا عشرة سنة، أمام بوبا، ممسكا بما سرقه بين ذراعيه، وصرخ:

«العفو يا مولاي، أقسم أنني لن أفعلها ثانية!».

- ألا تعرف أن السرقة عمل شائن؟ منذ متى تسرق فراريجي؟
- منذ... منذ بداية فصل الجفاف. مضى على ذلك شهران قمريان.

- كيف حدث ولم يمسك بك أحد؟

- أتسلل عبر شق في جدار السور، آخر الباحة، خلف قن الدجاج. وأخرج من المكان نفسه.

وصلت في هذا الوقت امرأة. تقدمت عنوة، وهجمت في هياج نحو الملك والملكة، وصاحت متوسلة:

«أشفق علي يا مولاي! أرافي بي يا مولاتي! لا تعاقبا الطفل. أنا المذنب، لأنني لم أردعه عندما أخذ يسرق».

- أنت نفسك التي ارتكبت هذه الجرائم يا امرأة. ليس فقط لم

تردعيه عن ارتكابها، بل شجعتيه أيضا. هل تعرفين ما يقوله القانون؟

- ارحمني يا مولاي!. لا تقطع أصابعه كما هو العرف. أنا أرملة. لا معين لي في تلبية حاجات أولادي الثلاثة الصغار. حلمك يا مولاي.

انجنت المرأة المسكينة أمام بوبا وبكت بكاء حارا. نظرت إليها الملكة برأفة. وأعطى الملك الحكم:

«أيتها المرأة. إياك أن تدفعي ابنك بعد الآن في طريق الكسل والسرقة. بما أنه صغير السن، اسمعي ما قررت: لن يلحق به أحد أي مكروه. أما أنت، فستأتين كل صباح لمقابلة رئيس طباطي القصر. سيزودك بما يكفي لإطعام أسرتك، إلى أن يغدو أولادك قادرين على العمل والتكفل بمعيشتك. وأنت أيها الصبي الصغير، ها هي عقوبتك: اذهب حالا وسد الثغرة في السور. تحقق من أنه لا يوجد غيرها».

قبلت المرأة يدي الملك وهي تبكي، بكاء الفرح هذه المرة. شكرته، ومضت مع ابنها. نهض دياي عندئذ، بقامته الطويلة، التي تشرف على كل المجلس. وقال بصوت عال:

«هذا هو العاهل الصالح الشهم الرؤوف، الذي تستحقه السانوكا: متمهل عند الغضب، سريع عند المغفرة!. وكما نصحك الجد والي الحكيم: تلتزم بالقوانين، وتحترم الأعراف والتقاليد إذا تبين صلاحها، وتغيرها إن ساءت. لهذا أفتخر، أنا دياي نيتالي فودي مامايا، بأنك شرفتني بصدافتك».

٣- الاعتداء

في ذلك الصباح، نهض بوبا قبل صياح الديك. تهيأ بسرعة: ارتدى سرواله الضيق، وحذاءه الأحمر. وتسليح بخنجر، ورمحين، وقوس وسهام. وحال خروجه إلى الباحة، استعدت وحدة الجنود، بقيادة موري، وحيته بضرب الرماح على التروس ثلاث مرات. رد بوبا التحية. ولمح سيرا محاطة برفيقاتها، فتوجه نحوها:

«أحيي ملكة قلبي. ولكن، لماذا تستيقظ أميرتي في وقت مبكر كلما تهيأت للذهاب إلى التدريب، بدل أن ترتاح؟».

- أنت أشعة شمسي يا مولاي. لهذا أرغب في رؤيتك، قبل أن تغيب عني بعيدا أسبوعا طويلا.

- لن يطول غيابي. مع ذلك، يوم بعادي عنك يعادل سنة. لكني أراك في أحسن حال مع رفيقاتك. أحييك يا عمتي مبوديا، أنتن كذلك يا جميلة، وتاكو، وماتي، وسودا. أترك الملكة في رعايتكن. اعتنين بها، لأنها نور عيني. هل تعرفن ذلك؟.

ردت العمة مبوديا والأنسات بابتسامة، وانحنين باحترام:

«نعم يا صاحب الجلالة، نعرف».

اطمأن بوبا، وامتطى حصانه. غادرت الوحدة الصغيرة القصر، يتقدمها الفارس حامل الراية الملكية، الخفاقة مع نسيم الصباح. راح قرص الشمس، الذهبي المحمر، يتسلق الأفق بطيئا جهة الشرق. وأخذ السهل العشبي يتبلل بضوء نهار رائع جديد. أعطى موري، قائد الحرس، الإشارة منذ الخروج من العاصمة كور دياما: انطلاق الجياد بسرعة، بعد عدو بطيء. اجتازت الوحدة الحفر، والجذوع، والأشجار المقطوعة، والتلال المخضرة، والمخاضات،

وتعرجات السواقي، وكل العقبات والعوائق بأقصى سرعة.
وفي الوقت المحدد، قام موري، القائد العسكري الحقيقي، بتقسيم
الرجال إلى مجموعتين، الخضر، والزرق، وتعاركوا بالخناجر
بقسوة. تشابكت الخيول بعضها ببعض، وسمع صهيلها من بعيد.
وعلا صوت قرع السيوف، مطلقة الشرر. وبدأت المعركة حقيقية،
حتى أن بعض الفلاحين خافوا، وفروا لتحذير مختار أقرب قرية.
عندما تخلص بوبا بسهولة من خصومه الثلاثة الأشرس، صرخ
موري:

- إلي أيها الخضر! هاهو قائد الزرق! عليكم به! اقتلوه! اقتلوه!
هكذا نتصر!..

مع هذه الكلمات، أنجزت مجموعة من الفرسان مناورة لتطويق
العدو المفترض. ولعلت السيوف تحت أشعة الشمس، مهددة
حياته. ولما رأى بوبا نفسه محاصرا، حث حصانه، وضرب بسيفه
يمينا، ويسارا، وإلى الأمام والخلف، باندفاع غير متوقع. وما إن
حاول الفارس الخصم تغيير مساره، فاجأه الملك بهجوم مباغت
وأسقطه عن حصانه، مجندلا معه فارسين آخرين، وأفلت منهم.
هب الزرق لحمايته، لكن موري أعطى عندئذ إشارة نهاية المعركة.
عالجوا خدوش الفرسان. واعتنوا بجروح الجوادين أو الثلاثة التي
أصيبت بضربات السيف في لهيب المعركة التدريبية. وخلال
الاستراحة، خاطب موري الملك:

«تزيدك هذه التدريبات العسكرية قوة يوما بعد يوم يا صاحب
الجلالة. تذكر معركة سابولا. طوقنا ذلك اليوم مجموعة من جنود
العدو الهاربين. ولكن عندما عرفوك، تجمعوا محاولين القضاء

عليك . هل تذكر؟».

- نعم يا قائد حرسى المخلص موري، أذكر. تمكنت من النجاة بفضل تدريبك لي.

- مع ذلك، في بداية حكمك يا صاحب الجلالة، وجدت هذه التمارين مكرهة، إن لم أقل غير مفيدة.

- صحيح، هذا صحيح. لكن مستشاريّ شرحوا لي أن على الملك، عند قيام حرب مع بلد مجاور، خوض القتال على رأس جيشه. قد يحدث أن يكون أول القتلى أحيانا. منذئذ، قبلت هذه الفترات التدريبية المنتظمة. نصحتني مستشاري بتعيينك قائدا لسلاحي ومدربا لي. أمل أن أكون تلميذا مجتهدا.

- طبعا يا صاحب الجلالة، تعلمت بسرعة. تجيد اليوم الرمي بالقوس، ولا تخطئ هدفا. وتحسن استخدام الرمح. وتتدبر أمرك بالسيف جيدا جدا. وهذا ما أكدته لي جماعة الخضر. أنت أيضا مصارع ممتاز في المصارعة التقليدية. أنا فخور بعملتي، لأن بقاءك على قيد الحياة في المعركة، أكرر ذلك مرة أخرى، متعلق بمهارتك القتالية، حتما، بل أيضا بقدراتك العسكرية.

خلال الاستراحة الطويلة، تحدث الملك مع موري، ومع ضباطه وجنوده الشبان، الذين شاركوا في المناورات العسكرية.

تلت ذلك تدريبات الرمي بالقوس، في المكان، ثم على صهوة الجياد المسرعة. في اليوم الثاني، تدربوا على رمي الرماح، والقتال بالعصا، ثم بالاشتباك بالأيدي، دون سلاح. وفي النهاية تمرنوا على عبور النهر سباحة، مع الحذر من التماسيح الكامنة.

ومع انقضاء الأسبوع الطويل، عادت الوحدة الصغيرة إلى كور دياما، يتقدمها

الفارس حامل الراية الملكية، الخفاقة مع نسيم المساء، دخلوا القصر بينما كانت الشمس المحمرة، التي بدت كقرص من الذهب، تهبط وراء الأفق. في اليوم التالي صباحا، توجه بوبا وسيرا، كعادتهما، إلى الطرف الآخر من مسكنهما الواسع، لتحية الجد والي، الذي وقف بانتظارهما، على عتبة الباب.

«سيرا وأنا نحييك يا جدي. هل أنت مرتاح اليوم؟».

- أحيي حفيدي ومولاي الملك، وأحيي زوجته الملكة الأنيقة. نعم، الراحة تملأ صدري. آمل يا حفيدتي سيرا ألا تتسي ترديد الدعاء الذي علمك إياه بوبا، مساء كل يوم، قبل النوم.

- لا يا جدي، لن أنسى أبدا. أتلوه كلما ذهبت إلى النوم مساء، وعند استيقاظي في الصباح. ثم إنني أشعر بالأمان قرب بوبا.

- نعم، أنا متأكد من ذلك. وأنت يا صغيري، هل أنت مرتاح؟ أرى شيئا من الحزن في نظراتك هذا الصباح.

- نعم يا جدي. أشعر بالارتياح، ولكن... أنا...

- هيا يا صغيري، بح لي بهومك، كما فعلت دائما. أشعر أن شيئا ما يقلقك.

- ولكن أولا، قل لي يا جدي، كيف كانت أمي؟ لم أعد أتذكر مظهرها، لأنها ماتت وأنا صغير جدا.

- كانت امرأة قصيرة القامة، نحيلة، مشرقة الوجه، وذات قسمات ناعمة وشعر أسود طويل. نعم، ففي عروقها دم قبيلة البولو. سيرا تشبهها كثيرا.

- إذن، فهي التي رأيته في الحلم الليلة. أشارت لي بيدها، وهي تضحك، إلى رجل يرتدي لباسا كستنائي اللون، في وسط حشد

كبير من الناس. سألتها: من هو هذا الرجل الذي تشيرين إليه؟
أجابت بضحكة، وغابت.

- سأشرح لك يا صغيري دلالة هذا الحلم. الضحكة في الحلم
هي علامة على مصيبة قد تقع. أمك تحذرك: أنت في خطر.
أحد ما يهدد حياتك.

أفزعت هذه الكلمات سيرا، وأطلقت صرخة. وحاول بوبا
طمأنتها.

«لا تخشي شيئاً يا سيرا. أعرف أي خطر يترصدني. سأحاول
مجابته. كرمني الله عز وجل بهذا التحذير. يمكنني حماية
نفسي، فهناك رجل يسعى إلى قتلي».

لم تطمئن الملكة. وأبكاها كثيراً ما سمعته. لم يستطع الجد والي
وبوبا تهدئتها بسهولة. وظلت تردد وهي تشهق وتبكي:

«أحب زوجي يا جدي. تعلق به كثيراً، لا أستطيع العيش من دونه
إن حدث له مكروه».

- اطمئني يا حفيدتي. كثيراً ما حاول شيطاني إيذاء بوبا منذ
ولادته. وحماه إيمانه بالله دائماً. لا تخافي. ادعي دوماً من أجله،
وستجدين أن الخطر يزول.

هدأت الملكة تدريجياً. واتجه الشابان يدا بيد صوب البستان، لنثر
الحبوب لأصدقائهما الطيور.

في اليوم نفسه، بعد جلسة عمل مع مستشاريه، استدعى الملك
الشاب القائد موري إلى كوخ استراحته، ليكلمه على انفراد:

«قل لي يا موري، إذا أراد أحدهم قتلي، كيف يمكن أن يتصرف؟».
رد القائد المخلص بما يشبه الصراخ، وقد أفزعته عبارة الملك:

«يا مولاي الملك، يا محبوب كل الشعب، لا يمكن أن تراود هذه الفكرة أي رجل أو امرأة في البلد؛ بل يمكنني القول إن كل الرجال والنساء مستعدون للتضحية بحياتهم من أجلك».

- نعم، نعم، أعرف. ولكن، مع ذلك أجب عن سؤالي. من الأفضل أن أعبر بطريقة أخرى: إذا أردت أنت أن تقضي علي، كيف ستعمل؟
- أوه يا سيدي!. أي أفكار رهيبة تُسمعني!. فليعاقبني الله إذا...
- لا، لا، أنت لم تفهم. لا أتهمك بهذه النوايا. لكني أتخيل مثل هذه الحالة حفاظا على حياتي. إذا تعين عليك أنت أن تعتدي علي بأوفر حظ من النجاح، كيف ستصرف؟

- في هذه الحال... يا مولاي،... أعتقد أن... حسنا، في البداية لن أحمل رمحا ولا سيفاً. فهذا مريبك، ويتطلب حيزاً أكبر للتحرك. أستبعد القوس أيضاً. أعتقد أنه... سيلزمني الاقتراب منك قدر الإمكان، ثم أستل خنجري و...و... وأسدهه إلى قلبك أو إلى قاعدة عنقك، حيث شريان الحياة. أفعل ذلك قبل أن يتمكن أي حارس من التدخل. بعد ذلك، أحاول الفرار في غمرة الانفعالات والجلبة.

- أحسنت الوصف جدا يا موري، أحسنت!. والآن، انتبه إلى ما أقول. ستجلس على هذا المقعد، مكاني. سأتظاهر بمهاجمتك بخنجر، لتريني كيف تتجنب الضربة وتتقي الهجوم. أفهمت؟
- نعم يا مولاي، فهمت. سأريك كيف تحمي نفسك في هذه الحال. يمكن أن يهاجمك المعتدي في أربعة أوضاع محتملة: من الأمام وأنت واقف، ومن الخلف وأنت تمشي، ووجهها لوجه وأنت جالس، وأخيرا وأنت مستلق على السرير أو على الحصير.

سأشهر خنجري لأريك كيف يمكن أن تتصرف في كل حالة، وكيف تقلت من الاعتداء، وترد عليه. واعلم أن عليك ألا تترك المبادرة لمن يهاجمك. امسك زمام الأمور بيدك فوراً. الأفضل أن ترد على الضربة بعشر ضربات، والهجوم خير وسيلة للدفاع.

أظهر موري المخلص لمولاه كيف يتحاشى الهجوم، ويرد عليه في الأوضاع الأربعة الممكنة. وفي نهاية هذا التدريب الخاص، قال له بوبا:

«أشكرك يا صديقي. أطلب منك أيضاً كتم هذا السر الذي بحث لك به. يجب ألا يعرف أحد ما علمتني إياه اليوم».

- اطمئن يا صاحب الجلالة، أنا أدرك الوضع تماماً. سأبقى صامتا كالقبر. هل ينبغي تشديد الحراسة حول شخص مولاي ومولاتي الملكة؟

- لا، لا، أبداً. يجب عدم إثارة انتباه العدو المحتمل. لا تحدث أي تغيير!.

استمرت الحياة عادية في بلاط الملك. وانهمك بوبا وسيرا بأعمالهما المعتادة. بدت الملكة حزينة، ولكن لم يظهر على زوجها أي قلق. بقي يتراأس جلسات المجلس، ويبت في شكاوى الناس بالعدل، في الباحة، تحت شجرة البواب الكبيرة. باختصار، لم يطرأ أي تعديل على حياة القصر اليومية.

في ذلك الصباح، بت الملك في قضية امرأة عجوز، قتل جارها عنزتها الوحيدة، وآذاها كثيراً. ثم، أعلن ديالي، الذي ينظم الجلسات:

«يا صاحب الجلالة، الآن دور رجل لم يشأ الإعلان عن سبب

شكواه. قال إنك الوحيد الذي يجب أن تسمعه». تقدم رجل يرتدي جلبابا طويلا كستنائي اللون، وعلى رأسه عمامة من اللون نفسه غطى قماشها نصف وجهه. اقترب من الملك وكأنه يريد أن يهمس إليه بشيء ما. وفجأة، قفز رافعا خنجره قبل أن يأتي أحد بأي حركة. لكن، ورغم سرعة تحركه، نهض بوبا فورا وذراعه اليسرى فوق رأسه، ووجه بيده اليمنى ضربة قوية إلى صدر الرجل، فتراجع إلى الوراء مترنحا. لم يترك له بوبا فرصة ليقف ثانية، إذ بادره بضربة رأس على وجهه، ففقد توازنه، وسقط عند قدمي ديالي. واستعجله هذا الأخير بلكمة على رأسه، فتمدد مغشيا عليه.

لم يستمر المشهد، الذي أذهل الجميع، سوى بضع لحظات. هرع موري ورفع سيفه ليفلع رأس الرجل. صرخ بوبا: «لا، لا، يا موري! لا تقتله! لا تقتله!».

أنهضه الحراس بمهارة. قيدوه بقوة، وانتزعوا العمامة التي أخفت بعض وجهه. وملأت صرخة استغراب المكان: «مابندا! مابندا! إنه مابندا! جندي من حراس الملك حاول اغتياله!».

وصلت الملكة سيرا، يتبعها الجد والي والعمة مبوديا ورفيقاتها. بدت مذهولة، ولم تستطع نطق كلمة واحدة. وارتمت بين ذراعي زوجها وهي تتحب.

ساد المكان جو من الحيرة التامة. وأراد المستشارون، والطباخون، والخدم، وحتى رفيقات الملكة ضرب مابندا. أمر بوبا بإبعاده عن الموجودين. حبسه موري في حجرة، عند أطراف القصر. ووضع

بعض الحراس حولها لتأمين سلامة المعتدي.
انتشر نبأ محاولة الاغتيال بسرعة كبيرة. وترك الرجال، والنساء،
والأطفال أعمالهم وتدفقوا نحو القصر. حاول الجنود إغلاق
أبوابه دون تمهّل. ولكن عبثاً!. ضاق مسكن الملك، على سعته،
بالناس. وارتفع الصراخ في كل مكان:
«أين الملك؟ هل هو جريح؟ نريد رؤية الملك! الملك! الملك!
يعيش الملك!».

تشااور المستشار الأول عرفان، والجدة والي، وديالي، ثم قالوا
للملك:

«يجب أن تخرج ليراك هؤلاء الناس الطيبون، ويتأكدوا بأنفسهم
أنك سليم معافى. بعد ذلك، تطوف شوارع كور دياما على
الحصان، مع حراسة مشددة، ليتبين كل السكان أنك والحمد لله
في كامل صحتك. وإلا، بقي الناس يتدفقون على القصر.
- نعم، هذا هو الحل!. سأنفذ حالا. ديالي، عرفان، سترافقاني.
يبقى جدي هنا للسهر على سلامة البيت، وعدم المساس بالسجين
بشكل خاص.

- فكرة جيدة! ولكن، قل لي يا صغيري، كيف حدث أنك لم تصب
بأذى؟ رأيك تتقي ضربة الخنجر بذراعك اليسرى. كان يمكن أن
يمزق النصل جسدك.

- إن بقيت حيا، فذاك بفضل موري. عندما توقعت الاعتداء،
أخبرته. دريني سرا على الدفاع عن النفس. أما الضربة التي
تحاشيتها بذراعي، فانظروا لماذا لم أصب بجروح.
رفع بوبا كمّ ثوبه. ورأى الجميع الجلد السميك الملفوف حول

ذراعه وساعده. انغرس الخنجر بعمق في هذا الجلد الواقي، ولكن لم يصل إلى لحم الذراع. ضحك الملك الشاب لهذه الحيلة التي أفشلت محاولة الاغتيال، وقال:

«موري وأنا حاولنا التفكير مثل المعتدي، وتوقعنا كيف يمكن أن يتصرف. أنعم الله علينا بحمايته. لهذا أتوجه إليه جل جلاله بهذا الدعاء القوي: يا رب، يا فاطر السموات، والأرض، وخالق كل شيء. يا مبدع النجوم التي لا تحصى، المتألثة في السماء منذ الأزل، ماذا فعلت، أنا الذي أكاد لا أضاهي دودة أرض ضعيفة، حتى تكرمني بحمايتك؟ كل نبضة من قلبي تلهج بالشكر لك حتى آخر لحظة في حياتي. الحمد لك يا ربي، الشكر لك يا الله!». تأثر الحاضرون كثيرا بهذا الدعاء. ولم يقدر أحد على الكلام. وحطم بوبا الصمت:

«إلى الجياد يا أصدقائي. هيا نري رعايانا المخلصين أن ملكهم مازال حيا يرزق!».

ما أن وطأت قدم بوبا باحة القصر الفسيحة، حتى ارتفعت التهتافات الحماسية. وملأ الصياح الجو. عبر الرجال عن فرحهم برؤية ملكهم مرتاحا ومبتسما. وفاضت عيون النساء بدموع الجذل. وأمسك الأطفال به، فرعاياه يؤكدون أن مجرد لمسه يجلب السعادة. ولما بقي الناس يتدفقون أفواجا على كور دياما، اعتلى الطفل - الملك صهوة حصانه، وخرج من القصر، بمرافقة حراسه، وإلى جواره دياالي، وعرفان، وموري. جال في شوارع عاصمته، ليتبين الصغار والكبار، بأم أعينهم، أن ملكهم المحبوب بخير، خلافا لإشاعات تقول إنه أصيب بجراح بليغة، بضربات خنجر.

توافدت إليه، من كل أنحاء البلد، طيلة أيام وأيام، وفود من الوجهاء والحكام. أراد كل واحد أن يرى ملكه، ويتمنى له طول العمر، ويقدم له الهدايا، تعبيراً عن المحبة والإخلاص.

وذات صباح، وصل دولو، ملك الساساي، محاطاً بعدد كبير من الحراس. فرغم الإعلان عن فشل الاعتداء، بقرع الطبول من قرية إلى قرية حتى بلغ مملكته، جاء ملك الساساي ليطمئن بنفسه عن خروج صهره سالما من محاولة الاغتيال.

فور وصوله، ضم بوبا وابنته بين ذراعيه. وعبرت العمة مبوديا، رغم تحفظها في العادة، عن سرورها برؤية شقيقها. وفي مجلس الأعيان، الذين قدموا تكريماً لمقامه، قال دولو بصوت قوي:

«أيها المستشارون الأكارم، آمل أن تطبقوا القانون بحذافيره. ثم إنني أحضرت معي جلادي الخاض، ليتولى أمر المعتدي حال صدور الحكم عليه، الذي أتمنى ألا يتأخر».

لم تطل الأمور. ففي اليوم التالي، تحول المجلس إلى محكمة كبرى. ومثل مابندا أمامها لمحاكمته. وحضرها العاهلان. ترأس الجلسة المستشار الأول عرفان، الذي سأل المتهم:

«اشرح لهذه المحكمة لماذا حاولت اغتيال الملك، وأنت حارسه الأمين».

تكلم الرجل، الذي أرهبه وجود كبار شخصيات المحكمة، قائلاً بخوف:

«منذ بعض الوقت، قابلني رجل. عرض علي صندوقاً من الذهب مقابل... مقابل... مقابل تصفية الملك. اغتظت منه، وأشهرت سيفي لأقتله. هرب، لكنه عاد في اليوم التالي. قال لي إنه إذا نفذت طلبه،

ليس فقط لن يستطيع أحد معرفة أنني الفاعل، بل سيساعدني أيضا في تعييني قائدا لجيش السانوكا، بدلا من خليفة. و... واستسلمت للإغراء. ذكر الرجل أن اسمه كو كورونج. لم أعرف حتى من أين جاء». أدهشت هذه الاعترافات الخطيرة المجلس. وطرح عرفان أسئلة أخرى:

«وهل ظننت أن باستطاعتك الفرار بعد ارتكاب فعلتك؟ ألا تعرف أن كو كورونج هو شيطان؟»

- كان يجب أن أختفي في غمرة الفوضى بعد الاغتيال، لا سيما أنني أخفيت وجهي بوشاح. أما كو كورونج، فلم أعرف أنه شيطان إلا فيما بعد.

- هل تواطأ أحد معك؟

- لا، لم يشترك أحد معي، سواء من رفاقي أو من أسرتي. لم أطلع أي شخص على خطتي. تصرفتم بمفردي. أتحمّل وحدي كامل المسؤولية.

بدا المتهم صادقا. وطرح بعض أعضاء المحكمة أسئلة أخرى. ثم قال له عرفان:

«هل لديك شيء ما تقوله دفاعا عن نفسك، قبل أن نتشاور للحكم عليك؟ هل تريد أحدا للدفاع عنك أمام المحكمة؟»

- يجد أهلي، ورفاقي، وأصدقائي ما ارتكبته عملا شائنا، حتى أن أحدا لا يريد مساعدتي. آسف بآلم ومرارة على فعلتي. أطلب العفو من الملك بوبا، الذي عاملني بطيبة وحسن. أنشد العفو من الملكة سيرا، لأنني أعرف الآن أن شيطاني، رئيس الأبالسة، قد أرسل لي كو كورونج لأرتكب عملا شنيعا. سأدفع ثمن إذعاني له.

أنا نادم من أعماق قلبي. أيها الملك بوبا، أيتها الملكة سيرا،
ارحماني. آسف على ما ارتكبت، آسف جدا، بكل صدق».
نهض أعضاء المحكمة، وذهبوا إلى غرفة أخرى للتشاور حول
عقوبة المتهم. لم يستمر النقاش طويلا. عادوا وجلسوا في قاعة
المحكمة. ثم قال عرفان:
«نحن، الذين نحاكمك اليوم، أخذنا علما باعترافاتك، وتوبتك أيضا،
التي بدت لنا صادقة. مع ذلك، نعتبرك مذنباً، لمحاولتك اغتيال
الملك. ووفقا للقانون المعمول به في بلدنا، نحكم بالعقوبة المنصوص
عليها في مثل هذه الحالة: يجذع الجلاذ أنفك، وأذنيك ولسانك، ثم
يقتلع ذراعيك وساقيك، وينتهي بقطع رأسك. ووفقا للقانون أيضا،
لن يكون لك قبر: سترمى أشلاؤك في قرية النمل. وعندما يرى
العابرون عظامك المَبْيُضَّة تحت الشمس، سيتذكرون القانون: حياة
الملك مقدسة، لا يحق لأي رجل أو امرأة انتزاعها ولا تهديدها.
سيحدد ملكنا المحبوب، حسب مشيئته الطيبة، تاريخ تنفيذ الحكم».

٤- الملك دولو

بعد اطلاع الملك دولو على حكم المحكمة، استحسنه عاليا. وعند المساء، في كوخ الاستراحة الكبير، حيث جلس بوبا، وسيرا، والجد والي، والعمة مبوديا، وديالي المخلص، قال:

«تعرف يا بوبا، أنا أحبك منذ زواجك من ابنتي. وأعتبرك مثل ابني. لن أنسى أنك أنقذت حياتي، وشفيتني بفضل علمك وسعة معرفتك من مرضي المخيف، الذي قضى على اثنين من إخوتي وأختي الكبرى. لن أستطيع أبدا وفاء هذا الدين. عدا ذلك، تعيش ابنتي سيرا، ضياء عيني، في سعادة غامرة، على عكس أخواتها الأكبر، المتزوجات من أنذال. سعادة صغیرتي، بالنسبة إلى أب مثلي، تملأ قلبي بهجة. كيف أشكرك؟ ما تزال ترفض الهدايا التي أريد تقديمها لك. لذلك، أليس من حقي أن أغضب منك قليلا، فقط قليلا؟».

وقهقه الملك دولو ضاحكا كعادته بصوت عال، حتى كادت تُسمع في أرجاء الباحة الفسيحة للقصر.

بدا بوبا متأثرا بعض الشيء، وأجاب حماء:

«يا أبي الملك دولو، بقي جدي والي أسرتي الوحيدة لزمن طويل، فأنا يتيم، كما تعلم. وبفضلك، وجدت نفسي فجأة مع زوجة جميلة جدا. جعلتني في الوقت نفسه واحدا من أسرتك. وهكذا، لي اليوم أب، وأم، وإخوة، وأخوات، لأنني أعتبر نفسي الآن واحدا منكم. هل هناك كنز أروع من هذا؟ لا، بالتأكيد! لهذا، أبقي مدينا لك. وعلي أن أكافئك، لأنك اخترت لي زوجة وديعة، ولطيفة، و... وسيمة. أعتبرك مثل والدي».

- أدرك ذلك يا بوبا . تعرف أنني أعتبرك أنا أيضا مثل ابني . لا أريد أن تصاب ولو بخدش . أرتجف رعبا وسخطا لمجرد تصور أن خنجر مابندا كان يمكن أن يحقق هدفه . وبهذه المناسبة، يجب أن تحدد سريعا وقت إعدامه . عيل صبر جلادي . لن أرحل قبل رؤية الأرض تشرب دم هذا ... هذا ... هذا الدنيء . في مملكتي، قطع جلادي رؤوسا لأسباب أقل أهمية! أه، أسباب تقل أهمية بكثير! كان ملك الساساي، المستعد للضحك بقدر استعدادده للغضب، يوشك أن يختنق كلما فكر باعتداء مابندا . قالت سيرا، لتهديته: «اهدأ يا أبي . بفضل الله، خرج بوبا من محاولة الاعتداء دون أدنى خدش».

تدخل الجد والي، محاولا تسكين روع العاهل:
«أيها الملك دولو . نتفهم غيظك المحقّ . ما يزال مجلس الأعيان يرتعش حنقا كلما فكر بما كان يمكن أن يحدث، لو أن خطة هذا الخائن نجحت . من حسن الحظ أن حفيدي لا تنقصه الحيلة . ومن حسن الحظ أيضا أن موري، قائد حرسه، لا يفتقر إلى الذكاء والدهاء».

لما رأى حماه يهدأ شيئا فشيئا، تابع بوبا قائلا:
«أود يا أبي دولو أن تصغي إلى دياي نيتالي فودي مامايا، صديقي، ومؤتمن أسراري، ومؤرخي الأمين . لديه رسالة يود إبلاغها لك».

تناول دياي الكورا . وعزف بعض الألحان الجميلة، وامتدح الطفل - الملك والملكة سيرا، والضيف الكبير . وتابع:
«أيها الملك دولو، كلفني سيدي الطفل - الملك وشرفني بإعلامك

بما يلي: منحتَه ابنتُكَ الصغرى، أجمل مخلوق في السانوكا
والساساي مجتمعتين، زوجة له. لكن هذه الصفة ليست شيئاً
بجانب مزاياها الأخرى الكثيرة: لديها من الطيبة، واللطف،
والحنان، والرأفة برعاياها، ما جعل كل الشعب يتغنى اليوم
بخصالها النبيلة. كل فتيات المملكة يردن التشبه بها».

عزف ديالي بعض الألحان العذبة. وبصوته الرخيم، أنشد قصيدة
شاعرية جداً، تصف بأمانة صنائع الملكة سيرا، منذ مجيئها إلى
القصر. وتابع منشداً:

«أيها الملك دولو، يا أبا الملك وابن الملك. كلفني مولاي وسيدي بأن
أقول لك أيضاً: الملح هو سلعة نادرة في الساساي، البلد البعيد عن
البحر. ما لذة أي طعام، وأشهى وجبة كسكس إذا نقصها الملح؟
ابنك، الطفل - الملك، يقدم لك منه خمسين كيساً. إضافة إلى ذلك،
يهديك مائة حصان أصيل، ومائة وِرَّة فخمة حاكها أمهر نساجي
مملكته، ومائة سلة كولة، ومائة بقرة بيضاء، ومائة ثور أسود، ومائة
نعجة، ومائة كبش، ومائة عنزة، ومائة تيس. ألم أنس شيئاً؟ أه، بلى،
بلى...! عند عودتك إلى الساساي، ستأخذ معك مائة كيس
دخن، ومائة كيس ذرة صفراء، ومائة كيس حب فاصولياء».

بعد هذا التعداد الطويل، عزف ديالي مزيداً من الألحان على
الكورا. ثم، خيم الصمت. تأثر دولو جداً، مدهوشاً بسخاء بويا.
وتكلم بصوت متردد، خلافاً لعادته:

«يا بني،... يا بني... أنا... أنا... فاجأتني بكرمك. لا أعرف ماذا
أقول لأشكرك. لا أدري ما العمل لأعبر لك عن امتناني. ولكن،
اعلم شيئاً: أعدك بأنني سأوزع هذه الهدايا، التي قدمتها لي

بسخاء، على سكان عاصمتي، كي يفرحوا أولاً، ثم ليصلوا من أجلك. والآن، قل لي يا بني فوراً ماذا تريد. أنا، دولو، ملك الساساي، أعدك بتلبية ما تشاء دون تأخر!.

فاجأ هذا الوعد، غير المتوقع، جميع الحاضرين، حتى الطفل - الملك، الذي أجاب، بعد أن تظاهر بأنه فكر قليلاً:

«لا أجهل سخاءك يا أبي دولو. ولكن، هل يمكنك أن تقدم لي ما أطلبه منك؟

- أقسم يا بني بروح والدي أن طلبك سينفذ سلفاً. تكلم ولا تخف. أنا أسمعك.

- في الواقع، أريد عدة أشياء يا أبي دولو.

- نعم، أقبل بها سلفاً. إنني مصغ إليك. ستبلى طلباتك أياً كانت.

- أطلب منك يا أبي...أطلب منك...تخفيف عمل جلالك بعد عودتك إلى مملكتك».

دهش الملك دولو في البداية، ثم أطلق ضحكة قوية وصاخبة كالعادة، انتشرت بين الحاضرين كالعدوى. ولما هدأ، أجاب:

«نعم يا بني، طلبك مقبول. ماذا ترغب أيضاً؟».

- بعد عودتك يا أبي، استمع إلى عامة الناس بأذن صاغية ورؤوفة. اصنع إلى شكواهم. حاول تلبية حاجاتهم قدر الإمكان.

- سأبني رغبتك يا بني. قل ما هي أمنيتك الأخرى.

- فلتتكرم يا أبي وتصدر مرسوماً في بلدك يقضي بحماية السلطات للأرملة واليتيم، وعدم التناول عليهما وعلى ثروتهما.

- سأصدره يا بني، سأصدره. أعدك بذلك. أتفهم هذا الاهتمام، خصوصاً أنك تقترحه، أنت اليتيم.

- والآن، ماذا تريد من أجلك شخصياً؟
- تلك هي أمنياتي يا أبي دولو. لا أرغب في أي شيء آخر.
- ماذا؟ لا تريد شيئاً؟ لا ترغب في ذهب؟ ولا مال؟ ولا ثروات
أخرى؟ تكلم، أعطني لائحة، سأنفذ كل ما فيها حالا.
- لبيت رغبتني وكفاني ذلك. وعودك كنز بالنسبة إلي. شكرا،
شكرا، شكرا. نهض الملك دولو. وشعر هذا الرجل، العملاق، ذو
التصرفات الخشنة أحياناً، بأن قلبه بدأ يرقّ. ضم بوبا بين
ذراعيه. وببالغ التأثر، خلع رداءه الملكي، ودثر به ذاك الذي اعتبره
مثل ابنه. ولإخفاء عواطفه، تمتم قائلاً:
«أقدم لك ردائي. لاشك أنه طويل قليلاً بالنسبة إلى مقاسك.
قصّره من الأسفل قليلاً. أختي مبوديا خياطة ماهرة، ستتكفل
بذلك. أنا فخور بك يا بني، لأنه ليس هناك كنز يساوي الوعود
التي قطعتها لك. سأفي بها».
بقي الملك دولو موضع حفاوة كبيرة خلال إقامته. اطلع على معالم
كور دياما برفقة بوبا، ونام عدة ليال في مقر إقامته الثاني، في
كوسوما، على شاطئ البحر. وعبر الملك، الذي لم ير المحيط من
قبل:
«يا لهذه المياه الهائلة! كم هي ضخمة! قل لي يا بني، أين يقع
طرف هذا الماء؟ هل هناك بلدان أخرى وراء الأفق؟
- نعم، بالتأكيد يا أبي. يقول أجدادنا إنه توجد هناك، في مكان
بعيد نحو الشمال، بلدان يعيش فيها أناس ذوو بشرة بيضاء،
كالحليب، وعيون صافية، وآذان حمراء. يتكلمون لغة مختلفة عن
لغتنا، ولكن لديهم أفكارنا نفسها، وطموحاتنا ذاتها. يؤكد أجدادنا

أيضا أنهم مصابون بلعنة رهيبة: يصابون بالجنون لمجرد رؤية الذهب. أنا شخصيا، أعتقد أن في هذه الأقاويل بعض الحقيقة، وشيئا من المبالغة.

- رغم صغر سنك يا بني، تتمتع بقدر كبير من الحس السليم والبصيرة. كيف تم لك ذلك؟

- هذا يا أبي دولو بفضل تربية جدي والي، العجوز المضعم بالخبرة، والحكمة، والنضج. وكجميع المسنين، لا ينجز شيئا في العجلة، ولا يعمل أبدا بغضب. عندما يتصرف، يستشير أو يعزم، ويؤدي العمل بهدوء، وصفاء، واتزان، وتعقل، وتفكر. ذلك خلافا لليافع، الذي يعبر عن نفسه بهياج، ويتصرف بعنف، مع احتمال أن يخطئ فيندم، ولكن بعد فوات الأوان، لأن رد فعله لا يتكافأ مع السبب الذي أفضى إليه.

- أه، يا صغيري!. لماذا ليس لدي ابن مثلك إلى جانبي دائما في الساساي؟ لو أن لي هذا الولد، لساد فيها الأمن، والعدل، والإنصاف، ولما تجرأت أي مملكة على مضايقتي.

- لا أستطيع الإجابة عن هذا السؤال. لكن صديقي الأمين دياي غالبا ما يردد: «حتى الملوك لا تتحقق كل رغباتهم دائما، ولو كانت لديهم ثروات كبيرة».

بعد انقضاء بعض الوقت، واطمئنانه إلى مجرى الأحداث، حضر الملك دولو وليمة كبرى أقيمت على شرفه. قدمت له خلالها أفخر منتجات البحر: المحار اللذيذ، وملاقط السلطعون الكبيرة، وأنواع شهية من القشريات، ولحم الأسماك الثمينة، كالمازو والبركودة. وتلذذ الضيف ذو المحتد، الذي يتمتع بشهية كبيرة للطعام، بهذه

الأطعمة غير المعروفة في بلاده. لم يأنف أيضا من لحوم الطرائد، المعدة بعناية، والمعروضة على المائدة بأسلوب رفيع. أحب أيضا لحوم الطيور بمختلف أنواعها. وفي نهاية، الوجبة، قال الضيف ذو المحتد:

«أعتقد يا بني أنني سأخطف رئيس طبائخك عند رحيلي. سأترك لك جلادي عوضا عنه، لأنني وعدتك بأن أعفيه من عمله».

ضحك جميع المدعوين لهذه الفكرة. ثم، بعد تناول الحلوى المصنوعة من دقيق الدخن والذرة الصفراء المطيبة بالعسل، والفاكهة المقطوفة من بستان القصر، تقدم الوجهاء والمستشارون من الملك دولو لتحيته. امتدحه ديالي بكلام يهز المشاعر، حتى أن الملكة سيرا والعمة مبوديا ذرفتا بعض الدموع لشدة تأثرهما.

في اليوم التالي، ودع سيد الساساي الجميع بعد أن تهيأ للعودة إلى بلاده. امتطى حصانه. وقبل تحرك الموكب، قال الضيف لصهره: «أود...أود...رؤية مابندا قبل رحيلي. اطمئن يا بني، لن أخنقه بيدي هاتين، رغم أن هذه الرغبة لا تتقصني».

وبإشارة من بوبا، أعطى موري الأمر. أحضروا الرجل مخفورا بحراسة مشددة. وبخه دولو بقسوة، دون أن يترجل:

«محاولتك الخسيصة يا مابندا جعلت اسمك شهيرا بشكل يبعث الألم في السانوكا والساساي، وحتى في الممالك المجاورة. لماذا فعلت ذلك؟».

- أدركتُ أيها الملك دولو، بعد فوات الأوان، أن زعيم الأبالسة شيطاني أرادني أن ارتكب هذه الجريمة. أنا آسف أشد الأسف على فعلتي. ونادم عليها. أناشدكم العفو، أنت، والملكة ومولاي.

- هل تدري أن أهل السانوكا، الساخطين من سلوكك، قد أحرقوا منزلك؟ هل تعرف أن الناس حاولوا رجم أمك وأختك بالحجارة؟ أعطى صهري بنفسه، الذي أردت اغتياله، أمرا كي لا يصابا بأذى. تعيشان حاليا في القصر، ولا تجرؤان على الخروج، لأن الناس مازالوا غاضبين بشدة.

- نعم يا سيد دولو، أعرف كل ذلك. قيل لي أيضا إن الملكة تشرف بنفسها على رعايتهما والعناية بمأكلهما وملبسهما. يزيدني ذلك خجلا من نفسي. أنا نادم، نادم حقا على فعلتي.

- حسنا، جفف دموع التماسيح التي تذرफها. واشكر مولاك. لو كنت في مكانه، لأعدمتك في الحال. مع ذلك، بما أنك أبديت توبتك، فليغفر الله لك، ولو أنني أشك بذلك.

بعد هذه الكلمات، شد الملك دولو لجام حصانه. تحرك موكبه، يرافقه بوبا، وعبر كور دياما على مهل. قرعت الطبول، وهتف الناس للملك الشاب وضيفه الشهير في كل مكان. ولوح الأطفال بالسعوف تعبيرا عن السلام. ولما وصلوا إلى مخرج العاصمة، توقف الفرسان. حيا الملك دولو الأعيان والمستشارين مودعا. وقال لصهره بوبا بصوت غلب عليه التأثر: «يا بني، يا بني، أمل أن أراك قريبا. في بلدي، انتشرت أسطورة طريفة حولك. يقال إن من يلقاك يشعر فوراً بمحبة صادقة نحوك. وتبينت أن هذا ما حدث لي. أحبك يا بني، نعم، أحبك. ليحفظك الله. وداعا.

- وداعا يا أبي دولو. أنا أيضا أحبك. ليحفظك الله وليطل عمرك بيننا».

وكي لا يرى أحد تأثيره وانفعاله، نكز حصانه، وسلك طريق مملكته، يتبعه جنود الحراسة.

٥- تعيش الملكة الشابة

أشرقت الشمس منذ لحظات. وكعادتهما، ذهب بوبا وسيرا لتحية الجد والي. توجهها بعد ذلك لإطعام أصدقائهما الطيور. كانت كثيرة، بعضها يرفرف هنا وهناك، والبعض الآخر يحط على الأرض وينقر الحبوب، التي ينثرها الملك والملكة. لم يتغيب الغراب الكبير كروا، ولا أحد من أسرته. حط في ذلك الصباح على كتف الملك، وثرثر بلا توقف. وبما أنه يعرف إمام صديقه بلغة الغريان، لم يكف مع شريكته وصغارهما عن الكلام حول المطر، والطقس الصحو، والمشاهد المسلية التي حضروها. أراد كروا أن يظهر أكثر جدية من بقية أفراد أسرته، فتحدث عن مأس شاهدها عند الحيوانات وعند البشر على حد سواء. استمع بوبا، ثم ترجم الحوار إلى سيرا، المستمتعة برؤية زوجها وهو يتواصل مع الحيوانات.

فجأة، رأت الملكة الشابة زوجها يصغي بمزيد من الانتباه إلى صديقه الغراب. نعق هذا الأخير طويلا، دون توقف، ثم نادى أسرته، وبدا أنه يعطيها إشارة كي تطير كلها. لم تبق سوى طيور أم السكَّعَ وأبو الحنّ، وبعض اليمامات المنشغلة بالنقر، والمتخاصمة أحيانا من أجل حبة. رأت سيرا زوجها مفكرا، فاقتربت منه:

«تبدو مهموما يا بوبا. لم تترجم لي ثمرات كروا الأخيرة. أمل أنه لم يأتك بخبر سيئ.

- لا، لا، على العكس. قال... قال... إنك ستلدين توائم.

- ماذا؟ ماذا؟ توائم؟ من؟ أنا... أنا... كيف عرف؟

- لا أدري. قلت لك إن الغربيان تعرف المستقبل أحياناً. وبما أن الإنسان لا يفهم لغتها، لا أحد يطلع مسبقاً على ما سيحدث. أنا محظوظ بهذه القدرة. ثم إنني أتساءل إن كان هذا شيئاً جيداً.

- نعم، نعم يا أميري. أعتقد أنها ميزة أحياناً. تأثرت لهذا النبأ. أسعدني، وفاجأني مع أنني أعرف أن إحدى أخواتي ولدت توأم، وأخرى توأمًا. بوبا، أكاد لا أصدق ما قاله كروا. إذا تحقق ذلك، سأغدو أسعد امرأة في هذه البلاد. نعم، أسعد النساء!

- لا تخشي شيئاً يا ملكة قلبي. سيتم ذلك. سمع الله دعواتنا. حلم كل زوجين شابين، ملوكاً وغير ملوك، هو إنجاب طفل. لنكن واثقين، ولننتزع إلى الله دوماً كي يحقق أمنيته.

بدأ فصل الشتاء. وهياً الفلاحون، المتبصرون، حقولهم للزراعة. في ذلك اليوم، حوالى منتصف الصباح، هطل مطر مدرار. كان المجلس مجتمعاً في قاعة القصر الكبرى. فجأة، فتح الباب. دفعت العمة مبوديا الحارس، ودخلت دون أن تأبه بالنظام، الذي يحظر إزعاج الملك في أثناء نقاشاته مع مستشاريه. هرعت نحو بوبا، وأمسكت بعنقه، وهمست إليه بحماس وحيوية. وبدت على وجه الملك علائم الفرح والمفاجأة معاً. سألها بصوت مرتفع:

«يا عمة مبوديا، قلت: واحدة، أليس كذلك؟»

- نعم، واحدة يا ابن أخي.

- شكراً يا عمة مبوديا. انتظري، لا تذهبي. دعيني أولاً أعانقك على هذا الخبر.

قبل الملك العمة مبوديا، المبللة بالمطر، قبلة كبيرة على رأسها. ثم، وأمام دهشة أعضاء المجلس، غمز جدّه والي، وأطلق ضحكة

«أحبيك يا جدي. هل أمضيت ليلة هادئة؟».

- نعم يا صغيري، ليلة رائعة. ولكن، قلت لك دائما إن الملك هو من ينتظر مجيء رعاياه لتحيته. وليس العكس، مثلما تفعل معي كل صباح.

- ولكن ليس الملك هو من يأتي لتحيتك كل صباح، بل حفيد يحب رؤية جده المحبوب، لينال بركته، ويعبر عن محبته اللامحدودة له. لا أستطيع أن أنسى أنك بالنسبة إلي أب، وأم، وجد، وصديق، ومستشار نبيه في الآن نفسه.

- نعم، نعم، ولكن لا تنس أن لديك الآن زوجة شابة وحسنة، عليك الاهتمام بها. لم تعد رضيعا: عمرك اليوم عشرون سنة.

- تماما. بما أنها هنا، سنذهب معا للتنزه قرب البستان. أريد أن أريها نتيجة تطعيم بعض الأشجار المثمرة الذي قام به البستاني. سنستمتع بمشهد بعض الزهور التي طلبتُ زرعها من أجلها.

خرج بوبا وسيرا يدا بيد. تحدثا وضحكا مثل يافعين لا مبالين، سعيدين بنسيان واجبات الحكم الكبيرة بعض الوقت. سارا باتجاه الطرف الآخر من باحة القصر الواسعة. وفي طريقهما، حياهما الخدم، وجنود الحراسة بالانحناء لهما باحترام.

بعد أن استمتعا برؤية الأزهار الرائعة، العطرة الأريج، وأكلا بعض الثمار اللذيذة، أثنى بوبا وسيرا على البستاني. توقفوا عند طرف الحديقة، وفتحوا صندوقا، وغرفا منه بعض الحبوب، وأخذوا ينثرانها حولهما. نزلت طيور من مختلف الأنواع والألوان لتتقر هنا وهناك، محدثة ضجيجا قويا. بدا بعضها غير خائف كثيرا، فحط على كتفي الملك. وحلق حوله غرابان راحا يثرثران أكثر من البقية

- لا أدري. قلت لك إن الغريان تعرف المستقبل أحيانا. وبما أن الإنسان لا يفهم لغتها، لا أحد يطلع مسبقا على ما سيحدث. أنا محظوظ بهذه القدرة. ثم إنني أتساءل إن كان هذا شيئا جيدا.

- نعم، نعم يا أميري. أعتقد أنها ميزة أحيانا. تأثرت لهذا النبأ. أسعدني، وفاجأني مع أنني أعرف أن إحدى أخواتي ولدت توائم، وأخرى توأما. بوبا، أكاد لا أصدق ما قاله كروالا. إذا تحقق ذلك، سأغدو أسعد امرأة في هذه البلاد. نعم، أسعد النساء.

- لا تخشي شيئا يا ملكة قلبي. سيتم ذلك. سمع الله دعواتنا. حلم كل زوجين شابين، ملوكا وغير ملوك، هو إنجاب طفل. لنكن واثقين، ولننتزع إلى الله دوما كي يحقق أمنيتهما.

بدأ فصل الشتاء. وهيا الفلاحون، المتبصرون، حقولهم للزراعة. في ذلك اليوم، حوالى منتصف الصباح، هطل مطر مدرار. كان المجلس مجتمعا في قاعة القصر الكبرى. فجأة، فتح الباب. دفعت العمة مبوديا الحارس، ودخلت دون أن تأبه بالنظام، الذي يحظر إزعاج الملك في أثناء نقاشاته مع مستشاريه. هرعت نحو بوبا، وأمسكت بعنقه، وهمست إليه بحماس وحيوية. وبدأت على وجه الملك علائم الفرح والمفاجأة معا. سألها بصوت مرتفع:

«يا عمة مبوديا، قلت: واحدة، أليس كذلك؟»

- نعم، واحدة يا ابن أخي.

- شكرا يا عمة مبوديا. انتظري، لا تذهبي. دعيني أولا أعانقك على هذا الخبر.

قبل الملك العمة مبوديا، المبللة بالمطر، قبلة كبيرة على رأسها. ثم، وأمام دهشة أعضاء المجلس، غمز جدّه والي، وأطلق ضحكة

رد بوبا، وقد بدا متعباً:

«جدي يقول الحق أيها الأصدقاء. لنعد إلى بيوتنا. سنرى غدا ثمار جهودنا. ستتولى زوجة موري وأولاده السهر عليه».

عاد الطفل - الملك ليلا إلى القصر، حيث وجد الخدم حملة المشاعل بانتظاره. هرعت الملكة سيرا وارتمت بين ذراعيه، غير آبهة بالقواعد المرعية. قالت وهي تضحك وتذرف دموع الفرح، بحضور عمتها مبوديا، التي راحت تنتظر إليها بعطف وحنان:

«بوبا، يا حبيبي، لم أنم منذ سفرك. حدثني قلبي عن كل الأخطار التي واجهتك. أمضيت وقتي وأنا أفكر فيك. صليت كل يوم ليعيدك الله إليّ سالماً. هل تعرف أن الحياة من دونك لا معنى لها؟ أتعلم كم أحبك؟».

- نعم، يا ملكتي، أعلم. في غمرة الأخطار، كانت صورتك هي التي تبعث فيّ القوة والشجاعة. ولطالما سمعت صوتك يناديني: بوبا، احترس إلى اليسار! بوبا، انتبه إلى يمينك! ساعدتني هذه التحذيرات في مواجهة أكبر الأهوال التي صادفتها.

بعد هذه اللحظات المؤثرة، ذهب الملك والملكة لرؤية نفيسة وسليمة، التوأمين. ولكن وجداهما نائمتين، قرب مربيتيهما جميلة وتاكو.

لشدة تعبها، لم يشأ بوبا حتى الالتفات إلى الوجبة الشهية التي أعدت له. وبعد حمام الماء الساخن، الممزوج بأوراق شجرة الأوكالبتوس المنعشة للجسم، تدلك بدهون بذور شجرة الكريته الممزوجة بزهور نجيل الهند، المجددة للنشاط. ثم توجه إلى السرير وغط في نوم عميق.

عند فجر اليوم التالي، عاد بوبا، ومعه جده، لتفقد المريض. وجدا موري نائما، بسبب المزيج المنوم القوي، الذي تجرعه عشية البارحة. وضع الملك أذنه على صدره ليراقب النبضات: كان قلبه ينبض ضعيفا. وما أقلقه أكثر هو الحمى، فبدلا من أن تتخفّض، وجدها حارقة. وبدا الجريح كأنه في سبات عميق. قال العجوز لحفيده بصوت منخفض، كي لا يسمعه أحد:

«أعتقد يا صغيري...أعتقد أنه يقترب من الموت، فهو لا يتحرك. ما رأيك؟».

- هذا هو انطباعي أيضا. لأول مرة أجد نفسي في حيرة أمام جرح لا أوفق في علاجه.

- هل اخترت المقادير الصحيحة؟ هل قطفت الفطور المطلوبة؟

- نعم، نعم يا جدي، لم أخطئ. رغم كل المخاطر التي واجهتنا، لم تفتني اللحظة المناسبة لقطاف الفطور، بمساعدة صديقي بابينغو الغوريلا.

- إذن، كن واقعيا يا صغيري: لا يمكن شفاء كل المرضى الذين نعالجهم. لا بد من أن نرضى بفقدان أحدهم بين وقت وآخر. يبدو لي أن الحال هي كذلك اليوم.

- أوه، لا يا جدي! ليس موري! لا، ليس هو! يصعب علي الاقتناع بهذه الفكرة المرعبة. أرفض هذا الاحتمال!

اقترب الطفل - الملك من الجريح. ووضع يده على جبينه الحار جدا، ثم دعا:

«يا الله، يا خالق الكائنات، وفاطر السماوات والأرض. يا سيد الموجودات. يا عالما بما في الصدور، تكرم واستجب لرجاء عبدك

الضعيف. إن شئت يا رب، اشف هذا الرجل، وامنحه الحياة، لأنك يا ربي أنت الوحيد الباقي، الشافي في هذه الدنيا».

بعد هذا الدعاء القصير والصادق، جلس الملك على طرف السرير، ليراقب نوم الجريح.

في اليوم التالي، عند الفجر، عاد الملك ثانية إلى بيت موري، يرافقه جده، وخليفة، وديالي، ليعرفوا كيف قضى الليلة الماضية. وجدوه ما يزال نائما. ولكن لاحظوا أن الحمى فارقتة. قال العجوز والي:

«انظر يا بوبا، لكأن تورم ذراعه قد خف كثيرا».

– صحيح ما تقوله يا جدي. تلاشى أيضا اللون البنفسجي البشع. ولكن...ماذا أرى...؟ انظر، كأنه يحرك أصابعه!

اقترب الرجال الأربعة ليروا عن كثب. بدت أصابع المريض تتحرك واحدة إثر أخرى، بعد أن شلها المرض عن الحركة منذ البداية. وازدادوا دهشة عندما لاحظوا أن موري ينظر إليهم منذ هنيهة. خاطبه الملك بلطف:

«موري، أسمعني؟ إذا لم تستطع الكلام، كلمني بعينيك كي أتأكد أنك تفهمني. هل عرفتني؟».

رد الجريح بصوت واهن، ولكن مسموع:

«أموت جوعا وعطشا يا مولاي. أليس هنالك ما نأكله ونشربه في هذا البيت؟».

عندما سمع الرجال الأربعة هذه الكلمات، غير المتوقعة، صرخوا فرحا. وعرفوا أن موري سيشفى قريبا.

منذ ذلك اليوم، سارت الأمور سريعا جدا. في المساء، عاد بوبا

والعجوز والي لتفقد الجريح. وجدا التورم قد زال تماما، واستعادت الذراع حجمها الطبيعي. واندمل الجرح الذي أحدثه بوبا بالخنجر، تاركا مكانه ندبة طويلة وجميلة. انتزع بوبا بهدوء، بواسطة إبرة دقيقة، بقايا النمل الوحشي، التي ظلت عالقة على اللحم. وأصبح موري الآن يحرك ذراعه ويده وأصابعه الخمسة بسهولة، رغم الخدر في الكتف، بسبب خمول يده اليمنى الطويل. وبعد التدليك، مرتين في اليوم، بشحوم الماعز ودهون بذور شجرة الكريته، عادت القوة والحيوية تماما لذراع الجريح.

في ذلك الصباح المشرق، عقب اجتماع مجلس العقلاء، توجه عرفان، المتضايق قليلا، إلى الملك قائلا:

«يا صاحب الجلالة. أحاطنا ديالي علما بالأحداث المفاجئة إبان الحملة التي نظمت للبحث عن علاج لجرح قائد الحرس. أذهلتنا المخاطر التي تعرضتم لها. إلا أن المجلس... المجلس... يتساءل... إن... كان لك الحق في المخاطرة بحياتك هكذا من أجل فرد واحد».

لم يجب الطفل - الملك. ارتسمت على شفثيه ابتسامة سرعان ما تحولت إلى ضحك صاخب. وضرب يدا بيده ثلاث مرات، مناديا الحارس الواقف أمام الباب. وقال له:

«أيها الحارس، ناد رئيسك».

بعد لحظات، دخل هذا الأخير. حيا المجلس باحترام، وانتظر الأوامر كجندي مخلص.

قال له الملك بابتهاج:

«موري، هلاّ استليت سيفك، ليعرف المجلس أن ذراعك ما تزال قادرة على الدفاع عن المملكة وحماية ملكك؟».

رفع قائد الحرس سيفه فوراً. لوح به عدة مرات في الهواء ليري المجلس رشاقته ومهارته المستعادة. عندئذ، خاطب بوبيا المجلس: «يا مستشاري الحكماء، تذكروا: أنقذ هذا القائد الأمين حياتي، وكذلك حياة الملكة سيرا. تذكروا أيضاً أنه قاتل في سابولا إلى جانبي بإخلاص. تذكروا أخيراً أن تعلقه بالتاج، وتفانيه لشخصي قد حازا على تقديركم ونال بهما صداقتي. ألا يستحق ذلك أن أتعرض لبعض الأخطار الصغيرة في سبيل إنقاذ حياته؟ أنت يا عرفان، وأنت يا سامبا كا، وحتى أنت يا جدي الطيب، كم مرة رددتم على مسمعي: «أحياناً، يترك الراعي الصالح قطيعاً من تسع وتسعين دابة ليسترجع نعجة واحدة، تائهة في السهل العشبي؟». هل فعلت شيئاً سوى اتباع نصائحكم؟».

لم يعرف المجلس كيف يرد. تأثر موري، وانحنى أمام الملك قائلاً: «هذه الذراع، التي لا تطمح إلا لخدمتك يا صاحب الجلالة، هي لك. أمنّ لك بشفائي يا مولاي! أجدد قسم الولاء لك. سيفي هو لخدمة السانوكا، بلدنا. أما حياتي التي أنقذتها، فهي ملكك أيضاً، لأنني سأبقى مديناً لك مدى الحياة. مر يا سيدي وسأطيع فوراً! أنا رهن أوامرك، أنفذها دون نقاش! خدمتك هي غايتي الوحيدة، ولا أطمح إلا لحمايتك، وملازمتك هي حلمي الأوحد. المجد لك، المجد لمولاي».

بقي مجلس الشيوخ مدهوشاً أمام هذا التبجيل الصادق، من رجل يفيض بعرفان الجميل. أجاب الملك:

«موري، لا أشك أبداً يا موري بولائك وتفانيك. انهض، تعال واجلس بجانبني. منذ الآن، رغم صغر سنك، أعينك عضواً في

هذا المجلس. يمكنك حضور مداولاتنا والمشاركة في اتخاذ القرارات. أكلفك بمهمة عاجلة: سترافق دياي وعرفان منذ الغد إلى قرية مايندا، لتخبروا أمه وأخته أن معرفته بالمنطقة وفرت على الحملة وقتا ثميناً. ستشرحون لهما أن تضحيتها محت ما مس أسرته من عار. أخيراً، قدموا لهما هذه الصرة المليئة بالذهب، مني أنا».

- نعم يا مولاي. سيكون ذلك، منذ الغد.
وافق مجلس العقلاء على هذا التعيين بالإجماع. وامتدحوا تصرف الملك إزاء مايندا.

ثم، تكلم دياي:

«مولاي المحبوب، عندما رويت المغامرات التي عشناها معاً، لم يشأ المجلس تصديقي، لكثرة ما اعترضتنا من أخطار فاقت المؤلف. ولزم أن يتدخل خليفة لإثبات أقوالي. زرت مختلف أحياء كور دياما ومعى أولادي. وهناك، تحت شجرة النقاشات، حكيت الأعمال الباهرة التي مكنتنا من اختراق جبل كونكو رونكو، بحثاً عن النبتة الضرورية لشفاء موري، قائد حرس القصر المخلص. وهكذا، من شخص إلى شخص، سيعرف سكان كور دياما أولاً، ثم أهالي بقية المدن، فالقرى، أنك تعتبر حياة أي واحد من رعاياك ثمينة، حتى أنك تخاطر بحياتك كي تنقذ حياة أحدهم. بنتيجة هذه الحملة، أنا نفسي، أصبحت بطلاً بقربي منك، مثل خليفة ومرافقيك الجنود البواسل الخمسة والعشرين. عدنا منها سليمين معافين بفضل شجاعتك، وحس تنظيمك السليم، وفن قيادتك الرجال، ولكن خصوصاً بفضل همك الدائم في الحفاظ على حياة

كل واحد، مهما كلف الثمن. وعلى الرغم من قلقه المشروع على شخصك، يعبر لك مجلس الشيوخ، بصوتي أنا، عن فرحه، وفخره، وإعجابه بإنقاذك موري، ابن المملكة المقدام. يعتز المجلس أيضا بانضمامه عضوا جديدا إليه. سيأتيه بدم الشباب، وحماسه، وإخلاصه للعرش. سيبذل المزيد من الانتباه، واليقظة، من أجل سلامتك، الدور المنوط به دائما. أنا متيقن من ذلك.

- شكرا يا دياي. الآن أنهي الاجتماع. بانتظارنا وليمة أعدتها الملكة والعمة مبوديا في الكوخ الكبير. ستضم الوجبة العائلية حراس القصر وأعضاء المجلس. سنحتفل معا بشفاء موري. كانت مأدبة متقنة وشهية. تذوق المدعوون فيها أطيب المأكولات. واستمتعوا بالمشروبات الكثيرة: عصير الفواكه، والحليب الطازج، واللبن الرائب، وعصير النخيل غير المخمر، وغيرها من السوائل اللذيذة الممزوجة بعضها مع بعض.

عقب هذه الوجبة الودية، استمع الضيوف إلى دياي، الذي عزف ألحانا جميلة على الكورا. ثم، وبصوته الجميل، غنى مادحا الطفل - الملك. وخاطب المدعوين وهو يعزف:

«سأروي لكم، أيها الأصدقاء، كيف قاتل بعض الرجال الشجعان، بالسيوف، بقيادة فتى يافع، طفل تقريبا، جيشا غريبا من آلاف القروء المتوحشة، المستعدة لالتهام خصمها وهو حي إذا وقع بين براثنها. سأحدثكم كيف تجرأ مولاي الشاب على مواجهة تمساح وحش بخنجر عادي في قلب النهر، محاولا إنقاذ رجل، متناسيا أن هذا الرجل نفسه حاول اغتياله قبل بعض الوقت. سأحكي لكم كيف غطس القائد خليفة، والجنود الخمسة والعشرون، وأنا

نفسي، في النهر لمؤازرة مولانا المحبوب. سأقص عليكم كيف قاتلت ذلك الوحش بالخنجر، بلا خوف، لأن مولاي قاتله بقربي. سأخبركم بما أصاب أخطر وأشرس أفعى في القارة، الممبة السوداء، حين سولت لها نفسها مهاجمة خليفة، المتكئ بظهره على جذع شجرة. ولكن، لا تسألوني كيف عقد مولاي صداقة مع غوريلا ضخمة على جبل كونكو رونكو. لا تسألوني عن ذلك. أنا، دياي نيتالي فودي مامايا، لا أعرف. لا تسألوني لماذا تبدي الحيوانات كل الود للملك هذا البلد. أنا، دياي نيتالي فودي مامايا، لا أعرف.

سيتابع الطفل - الملك قيادة بلدنا وشعبنا نحو السعادة. هذا أعرفه. يا رجال ونساء قصر السانوكا، اصغوا إلي بانتباه، وانصتوا إلى آلي الكورا:

الآن مرت عشرون سنة في قرية صغيرة في الشرق حيث ولد بوبا الصبي الصغير الذيالخ.



حكايات وأساطير أفريقية

الشاعر الموسيقي وصديق الملك

تأليف: سليمان جيفو ديوب

ترجمة: محمد الدنيا

مراجعة: د. عبد الرحمن بن زيدان

١- الشاعر الموسيقي و صديق الملك

تناول الرجل آله الموسيقية، الكورا. وعزف بأصابعه الماهرة ألهانا شجية. ثم أخذ ينشد بهدوء:

«أنا، دياي نيتالي فودي مامايا، أنا اليوم أسعد إنسان في مملكة السانوكا. لماذا؟ لأن مولاي المحبوب كرمني بصداقته. دوري هو أن أحفظ في ذاكرتي مكرماته وصنائه اليومية، وأن أرويها كي لا ينساها أحد، لأنني شاعر وموسيقي البلاط. هكذا فعل والدي، وهذا ما سيفعله أولادي من بعدي، كي لا ينسى أحد، جيلا إثر جيل، ما أنجزه ملوك هذا البلد خلال حياتهم. ولكن، لننطلق من البداية.

اسمعوني أيها المستشارون الحكماء، أيها الأعيان المجتمعون هنا، مع مولاي المحبوب وملكتي الأنيقة. منذ عشرين سنة، في نديوبينا، إحدى قرى شرق السانوكا، ولد بوبا، الطفل الذي انتظرت أحداث مهمة. يوم مولده، سقطت صاعقة في الحقل، وقتلت والده. وفي وقت فطامه، ماتت أمه. وبقي جده أسرته الوحيدة. لم يشأ الابتعاد عنه، ورباه بمفرده».

كي يبقى مستمعيه مشدودين إليه، نقر دياي نيتالي فودي مامايا على أوتار آله، سعيدا جدا. غنى لحظات، ثم تابع حكايته:

«يقال إن المصيبة لا تأتي وحيدة أبدا. سنتأكد من ذلك. في الواقع، لما صار عمره ثلاث سنوات، اختطفه الجن، العفاريت الشريرة، التي لفنته أسرار الحياة والطبيعة، ولغة الحيوانات. دلته على النباتات التي تشفي المرضى، والأخرى التي تقتل البشر والبهائم. بعد ثلاثة أعوام طويلة، أطلقت العفاريت سراح الطفل،

بعد أن وجهته لتسميم آبار القرية، وقتل سكانها وماشيتها، وترويع أهلها، أي باختصار أن يصبح إبليساً. من سوء حظ شيطاني، رئيس الأبالسة، شرح الجد والي، بصبر وأناة، معنى الخير ومعنى الشر لحفيده، الذي صار عمره ثماني سنوات. أفهمه ضرورة العمل لإسعاد الناس دائماً. وجعله يقسم على عدم إيذائهم أبداً، لأن الله الذي خلقنا يحب العدل بقدر ما يبغض الظلم. أفلح الرجل في إيصال ذلك لحفيده بوبا، الذي لم يتردد لحظة في وضع كل ما تعلمه في خدمة قريته. عالج الرجال، والنساء، والأطفال. ولما انتشر وباء في القرية وكاد يهلك ماشيتها، وجد الدواء الذي أنقذها. وعندما جف بئرها، أرشدهم إلى حفر بئر أخرى أعطى ماء غزيراً. تذكروا حادثتين أيها الأصدقاء: أصيب ماديكي، ملك هذا البلد السابق، بمرض جلدي مؤلم ومخيف، لم يستطع أحد علاجه. داواه بوبا ونجح في إبرائه منه. كافأه الملك بعلبة مليئة بالذهب. لكن الطفل، الذي لا يكثر بالثروات، وزع هذا الكنز على سكان قريته. بعد ذلك بزمان قصير، ذهب برفقة جده إلى البلاط، ليشرح للملك بأن جفافاً رهيباً سيقع. بفضل هذه المعلومة، التي أذيعت على كل البلد بقرع الطبول، استطاع الأهالي اتخاذ الاحتياطات الضرورية كي لا تسبب المجاعة وقوع ضحايا، بسبب احتباس المطر. وذات يوم، عقب هذا الحدث بخمس سنوات، مات ماديكي، دون أن يكون له وريث. اجتمعنا آنذاك، نحن مجلس الأعيان، ونصبنا بوبا ملكاً على السانوكا، ولم يتجاوز عمره في ذلك الوقت خمس عشرة سنة. من هنا لقبه الطفل - الملك. اعتقد البعض أن تنصيب طفل على رأس البلد هو

جنون. ثم، أثار شيطاني العداوات علينا. وهكذا، أعلن دولو، ملك الساساي، الحرب على بلدنا، بتحريض من عباس، الرجل الذي تأثر هو نفسه بالشيطان كو كورونج. قاد الطفل - الملك وحداته لقتال جيش العدو في معركة سابولا. وخلافا للعادة، لم يجهز بوبا على جرحى الطرف الآخر. ولم يحرق القرى المعادية. ولم يحول الأسرى إلى عبيد. ومنع أعمال السرقة والنهب، بينما هذا ما يحدث في العادة. أخيرا، عرض على الملك دولو معاهدة مشرفة. ولما أدرك هذا الأخير نبل خصمه الشاب، منحه ابنته زوجة. لهذه تحكم الملكة سيرا، الموجودة هنا، مملكة السانوكا إلى جانب زوجها، الذي بلغ عمره اليوم عشرين سنة. أذكر بهذه المناسبة أن الله بارك زواجهما، ومنحهما نفيسة وسليمة، البنيتين التوأمين الرائعتين اللتين أسعدتا والديهما».

هنا توقف حكي ديالي، الذي استراح قليلا كي يقضم جوزة كولة. ثم، أنشد على ألحان الكورا أغنية حلوة، ممتدحا الملكة الشابة سيرا ومطريا على جمالها، ومشيدا بطيبة الطفل - الملك وشجاعته. استأنف بعد ذلك حكاية الأحداث:

«أنا، ديالي نيتالي فودي مامايا. أنا ذاكرة الشعب، وحولية الزمن الذي يمضي. ما أرويه، رأيته بأمر عيني. هل أقول لكم إنني حضرت معركة سابولا، برفقة ولديّ، إلى جانب مولاي؟ أنا سيد الكلام. أنا صوت مولاي الملك. كلامه كلامي. ما يفعله أذكره، وما يؤكدّه أوّمن به. هاكم تتمة الحكاية. ذات يوم، وقع دولو، ملك الساساي طريح الفراش. أصابه مرض رهيب أهلك من قبل أخويه وأخته. لم ينصت الطفل - الملك حينذاك إلا إلى قلبه النبيل. امتطى

حصانه، وتوجه بأقصى سرعة إلى عاصمة عدوه السابق، الذي أصبح حماه. وجده عليلا، مشرفا على الموت. عالجه في الحال، وسرعان ما شفي. ودوت ضحكات دولو العجيبة في القصر من جديد، هذا الملك الطيب القلب. لما تعافى، اعتبر بوبا ابنه، وأصبح ينظر إليه ليس كزوج لابنته وحسب، بل كأحد أولاده أيضا. ما تزال الوليمة الكبرى، التي أقامها بهذه المناسبة، ماثلة في ذاكرتي. لم يحكها أحد لي. كنت هناك، لأنكم، أنتم الذين تسمعونني الآن، تعرفون أنني أقسمت ألا أفارق مولاي أبدا: في الحرب، كما في الأعياد والأفراح، وفي خضم الأخطار، كما في محافل التكريم. أقسم على ذلك مرة أخرى!

أتى شفاء الملك دولو بنتيجتين: إحداهما سياسية، والأخرى عائلية. في الحقيقة، توثقت به روابط الصداقة بين بلدينا، وتعمقت محبة أسرة الملك وكل شعب الساساي للطفل - الملك. وهذا ما لا يستطيع تحقيقه ألف دبلوماسي بالكلام، أو بالمعاهدات، أو بالهدايا. أنتم من تسمعونني، تعرفون ذلك!

لم ييأس شيطاني، زعيم الأبالسة، بل أرسل من جديد كو كورونج، مبعوثه المشؤوم، إلى القصر. نجح مبعوث الشر في إفساد ما بندا، أحد حراس البلاط، بعد أن أغراه بالوعود. البقية تعرفونها. حاول هذا الرجل، أحد المخلصين السابقين، قتل الطفل - الملك، الذي استطاع إفشال الهجوم. بعد أن تفادى نصل الخنجر، وجه بوبا ضربة قوية إلى المعتدي طرحته عند قدمي. ولما حاول النهوض، بادرته بضربة من قبضتي على رأسه. ألقى الحراس القبض عليه، بعد أن أفاقوا سريعا من دهشتهم. هل تتذكرون؟

أعزف على الكورا، ثم أتكلم. أتكلم ثم أعزف على الكورا. والآن، سأطرح أسئلة.

من رفض تطبيق حكم عقوبة الإعدام على مابندا، الذي أصدرته المحكمة الملكية؟ الطفل - الملك، بالتأكيد!. من الذي عفا عن المعتدي، وأطلق سراحه، بدلا من قطع رأسه؟ الطفل - الملك، بالتأكيد! من غاص في النهر، وقاتل بالخنجر التمساح الذي نهش ذراع مابندا، بعد أن أوشك على التهامه؟ الطفل - الملك، بالتأكيد! من الذي بعث الشجاعة في قلبي أنا، ديالي نيتالي فودي مامايا، وقلوب خمسة وعشرين جنديا، فخضنا الماء، وساندنا مولانا بخنجر بسيط فقط، في مواجهة تمساح جائع أراد افتراس مابندا؟ الطفل - الملك، بالتأكيد! من قزر الذهاب إلى جبل كونكو رونكو، بحثا عن الدواء الوحيد الذي يشفي موري، قائد الحرس، الذي كاد الجرح المنتن يميته؟ الطفل - الملك، بالتأكيد! خلال هذه الرحلة المليئة بالأخطار، من الذي نكز حصانه، وانطلق لمهاجمة جيش من القراديج، القروود المتوحشة، التي سدت طريقنا؟ الطفل - الملك، بالتأكيد! في أثناء المعركة البطولية ضد هذه الحيوانات، من كان إلى يمين الملك ويساره، فضلا عن الحراس الخمسة والعشرين؟ أعطيك الإجابة: خليفة، قائد الجيش، وأنا نفسي، الذي أتحدث إليكم!. من منع بايينغو، ملك الغوريالات، من مهاجمتنا؟ الطفل - الملك، بالتأكيد! من جعل بايينغو صديقا له، ونجح في دخول إقليمه، وتمكن بذلك من إحضار الدواء الذي أنقذ حياة موري؟ الطفل - الملك، بالتأكيد! من الذي يعرف لغة بعض الحيوانات، والطيور، فيستطيع، بذلك، عقد صداقات مع

أغلبها؟ الطفل - الملك، بالتأكيد! من الذي أنقذ موري؟ من الذي... من الذي؟

والآن، سؤال أخير. من هو أسعد رجل في المملكة؟ ألا تعرفون؟. إذن، سأخبركم: إنه أنا! لا تسألوني لماذا، أجهل ذلك. أعرف أنني أعيش في سعادة غامرة منذ مجيء الطفل - الملك إلى هذا القصر. إنه يجسد الاستقامة، والطيبة، والتسامح. يهتم بهناء رعاياه. ويعمل لإسعاد من حوله. حلیم عند الغضب، سريع المغفرة. لا يمكن أن نجد ملكا يفوقه كمالا. يبتهج مجلس الأعيان كل يوم لأنه نصب الطفل - الملك على عرش السانوكا. أطلال الله عمر الملك! أطلال الله عمر الملكة! يحيا الملك! تحيا الملكة!».

هكذا تكلم ديالي نيتالي فودي مامايا، شاعر وموسيقي البلاط الملكي، ديالي - سيد الكلام، وراعي التقاليد، وذاكرة الشعب، الذي يجب أن يحرص على التذكير دائما بتاريخ بلده وبأفعال الملك اليومية. هذا ما يفعله طبعاً الشعراء الموسيقيون في كل مدينة، وبلدة، وقرية مهما بعدت. هكذا تروى الحكايات وتنتشر الأخبار عموماً، بدءاً بشجرة المداولات وحتى أصغر بيت.

يؤدي الباعة الجوالون، الذين ينتقلون من مكان إلى آخر من أجل التجارة، والمسافرون الراحلون من قرية إلى قرية، دور نقلة الأخبار غالباً. يخبرون الناس بما يحدث في المكان الذي جاءوا منه. أخيراً، لم يقل ديالي لأحد إن شاعر وموسيقي الملك يستطيع إعلام كل المملكة سريعاً بأي نبأ مهم يحدث في القصر الملكي. كل الأهالي يعرفون هذه المهمة، حتى المجلس. يكفي من أجل ذلك تناول الطبل الكبير، وتلاوة الرسالة على صوته القوي. عندما

تسمع أقرب قرية هذه الرسالة، تنتقل منها على قرع طبل آخر إلى القرية التالية. وهكذا، خلال النهار، يتلقى سكان القرى البعيدة رسالة الطبل الكبير، عبر الهواء، معلنة ولادة طفل في القصر، أو زواجا، أو أي أمر مهم، محزنا كان أو مفرحا. لا أحد يجهل أيضا قيام ديالي بالتزاماته الأخرى على أكمل وجه، كنصح الملك، وتذكيره بتجارب الماضي، وتأمين حسن سير الاحتفالات في القصر بشكل خاص. هذا هو دور شاعر وموسيقي الملك، الشخصية المفعمة بالعذوبة، والطيبة، والمحبوب، والمهاب الجانب نظرا لوضعه المميز كنجي وقريب من الملك.

٢- مصيبة في بلاط الملك

طلع الفجر في كور دياما، عاصمة السانوكا. راحت الشمس، التي لم تظهر بعد، تلون أفق الشرق بلون أحمر فاتح. ومع صياح الديك، بزغ قرص الشمس، كأنه لم يكن ينتظر إلا هذه الإشارة، ليصبغ الغيوم المتناثرة في السماء الصاحية بلون ذهبي وأرجواني. ذهب بوبا، المعتاد على الاستيقاظ مبكرا، إلى غرفة الملكة. قرع الباب، فتحت سيرا، وارتمت فورا بين ذراعي زوجها، بعد تأكدها من أن أحدا من الحراس لا يتبعه.

«صباح الخير يا مولاي. أنا مدلهة حبا بك. أشكر أبي كل يوم أنه اختار لي زوجا بهذه الروعة».

- صباح الخير يا ملكتي المحبوبة. أفكر فيك نهارا وليلا. أصبح زواجنا حكاية حب حقيقية الآن، بعد أن كان سياسيا في البداية، لأن المستشارين ووالدك هم من قرروه. أنا أيضا، لن أفي أباك شكرا على اختياره لي زوجة رائعة الجمال، لطيفة ووديدة. هيا، اعطني خدك لأطبع عليه قبلة كبيرة. هل الصغيرتان في غرفتك؟

- لا، عند مريبيتهما. هيا نراهما.

عبر الملك والملكة الممريدا بيد باتجاه غرفة الأميرتين، النائمتين في مرقديهما، برعاية المريبتين جميلة وتاكو. استقبلتهما الصبيتان عند المدخل، وانحنيتا لهما محيبتين.

سألهما بوبا بصوت منخفض، كي لا تستيقظ الطفلتان النائمتان: «كيف حال صغيرتي الغاليتين؟ هل تستطيعان تمييز إحداهما من الأخرى الآن؟

- على أحسن ما يرام. تأكلان جيداً، وتتامان بعمق. ولكن لم نستطع حتى هذا الوقت تمييز واحدة من الثانية لشدة تشابههما. نضطر من أجل ذلك للنظر إلى باطن قدميهما. ارتأت الملكة أن نضع علامة أسفل قدم نفيسة اليسرى بلون لا يمحي، لتمييزها عن سليمة. هذه هي وسيلتنا الوحيدة للتعرف إليهما، لأن لهما الطول، واللون، والابتسامة أنفسها.

- شكراً لاهتمامكما المتفاني بهما. أحضراهما لي بعد استيقاظهما كي أعانقهما وأضمهما إلى صدري. ستجداني في كوخ الاستراحة.

خرج بوبا وسيرا إلى الباحة. وذهبا لتحية العمة مبوديا، يتبعهما موري قائد حرس القصر. ثم توجهوا إلى مسكن الجد والي، الذي بدا بانتظارهما على شرفته. قال الشابان، بصوت واحد تقريبا:

«صباح الخير يا جدي. هل أنت مرتاح اليوم؟».

رد العجوز، بابتسامته الكبيرة المعتادة:

«أحيي حفيدي وأحيي الملك. أحيي زوجته الرائعة، وأحيي الملكة. نعم أنا مرتاح، فأنا لا هم لي في هذه الدنيا سواكما. تبدوان في غمرة السعادة».

ابتسم الشابان، وأبهجهما أن يقرأ الجميع تقريبا السعادة على وجهيهما. ذهبا بعد ذلك إلى البستان، حيث ينتظرهما البستاني دتييه. وبعد أن حيا الملك والملكة باحترام، قال البستاني:

«نجح التطعيم الذي أجريناه على شجرة المنجة الكبيرة يا صاحب الجلالة. أعتقد أن الملكة ستأكل أشهى منجات البلد السنة القادمة. أعد بذلك».

- شكرا يا دتييه. عرفت أنني أستطيع الثقة بمهارتك.
نمت أشجار مثمرة كثيرة في البستان، واعتنى بها البساتنة أحسن
عناية. أضحي هذا المكان من باحة القصر واحة حقيقية للخضرة،
والهدوء، والنضارة. ولكم أحب المكان الاستراحة بين أشجار هذه
الروضة الجميلة الآمنة، برفقة الأطيار الأصدقاء، من كل نوع
ولون، كالطواويس، والبيغاوات، وطيور الكركي التي تعلو رأسها
تيجان من الريش، فضلا عن تلك التي تزور البستان من وقت
الآخر، كما في هذا الصباح.

في الحقيقة، كان البيغاء كروا، ومعه كل أسرته، بانتظار بوبا. فتح
الملك صندوقا بجوار شجرة جوز الهند. وبدأ ينثر الحبوب على
الأرض بملء قبضتيه. فعلت سيرا مثله. وراحت اليمامات،
والقرقف، وأم السكعك، والغريان، والبيغاوات، وأبو الحن، وطيور
أخرى مختلفة جدا بعضها عن بعض، تنقر الحب متزاحمة. ولكن،
سرعان ما هدأ تدافعها، بعد أن انهالت عليها الحبوب بغزارة. أكل
كل منها حتى الشبع. وعقب كثير من الهديل، والقوقاة، والزقزقة،
وغيرها من الأصوات، طار الضيوف المجنحون واحدا بعد الآخر.
وكعادته، بقي كروا ينطق وقتا أطول، جاثما على كتف بوبا، ثم طار،
ولحقت به أسرته.

فتنت سيرا بهذا المشهد، واقتربت من زوجها لتسأله:
«ماذا قال لك صديقك كروا؟».

- أوه، لا يوجد شيء مهم هذه المرة. شاهد رجالا ونساء وأطفالا
منهمكين بأعمالهم أو متخاصمين حول أمور صغيرة. اطمئني يا
غاليتي، حالما يخبرني بشيء مهم، سأطلعك عليه قبل كل الناس.

لنعد الآن ونرى إن استيقظت طفلتانا . أنا مشتاق لمداعية هذين الملاكين الصغيرين».

بدأت الشمس ترتفع في السماء . اتجه بوبا إلى قاعة العرش ليتأأس اجتماع مجلس العقلاء ، الذي يساعده في حكم البلاد . لم يتغيب أحد . حيا المجلس الحكيم الملك باحترام . ورد الملك التحية ، ذاكرة الأعضاء بالاسم ، كما تقضي العادة : عرفان ، المستشار الأول ، والعجوز والي ، جده الذي رباه ، وخليفة ، قائد الجيش ، وسامبا كا ، العجوز المحترم ذا الشعر الأبيض ، وديالي ، الشاعر والموسيقي ، وصديق الملك وكاتم أسرار ، وموري ، قائد حرس القصر ، وبقية أعيان التاج .

بين الحين والحين ، كان يأتي مسؤول كبير في المملكة لمساعدة المجلس ، مثل جيلاديو ، حاكم مقاطعة لومبول ، الواقعة شمال غرب البلاد ، الذي جاء هذا الصباح لحضور الاجتماع . أنجزوا بعض الأمور العادية سريعا . ثم ، بموافقة الملك ، أعطى عرفان الكلام للحاكم جيلاديو . قال الرجل ، متهيبا قليلا من نظرة الملك الشاب اليقظة ، والبريئة من غير سذاجة :

«صاحب الجلالة ، المستشارون المحترمون ، أعرض عليكم الوضع السائد في مقاطعتي ، التي أوكل إلي الملك شرف حكمها . تعرفون أن لمنطقتنا واجهة بحرية كبيرة . تعمل غالبية السكان في الصيد . بما أن شاطئنا هو الأغنى بالأسماك في كل البلد ، فإن الصيادين يأتونه من الجنوب ، وحتى من وسط السانوكا ، للاستفادة من سمكه الوفير . ويسبب ذلك توترات مع الصيادين المحليين ، الذين لا يتحملون جيدا وجود هؤلاء المنافسين الجدد . وتنفجر

مشاجرات باستمرار. يتقاتلون بالعصي والسكاكين والفؤوس، على الشاطئ، أو في قلب البحر أحيانا، على متن الزوارق. يسقط في كل شجار عدد من الجرحى والقتلى دون فائدة. يجب يا صاحب الجلالة إنهاء هذا الوضع المأساوي، الذي يخلف وراءه أرامل ویتامی».

بعد كلام جيلاديو، ساد في القاعة صمت ثقيل. فكر مستشارو الملك الحكماء بهذا الوضع مليا. واندھش وتأثر بوبا لهذه الحالة السائدة في تلك المقاطعة من المملكة. وقال:

«يجب وضع حد لهذه الأمور حالا. لابد من إنهاء النزاعات العنيفة. ينبغي عدم إضاعة الوقت. على جيلاديو إخبارنا فور قيام هذه الأعمال العدوانية بين سكان المنطقة نفسها. يجب أن نتوقف هذه المجازر اللامجدية، الآن».

تکلم عرفان بدوره:

«صاحب الجلالة محق تماما: على حاكم هذه المقاطعة إخبار القصر حال بدء النزاعات، بدلا من الانتظار. الوضع الآن ملتهب. يجب التوجه فورا إلى المكان لإيقاف الدماء التي تسيل بلا طائل». ووجه ديالي كلامه للملك قائلا:

«أتذكر يا مولاي أنه سبق أن ساد هذا الوضع في تلك المنطقة، منذ عشرين سنة. وتوجه سلفك، الملك ماديكي، إلى هناك. جمع المتنافسين، ثم، ودون أن يستمع إلى أي من المشتكين أو خصومهم، قطع عشرة رؤوس، بشكل تعسفي. توقفت الشجارات فورا. لكنها عادت من جديد، فذاكرة الناس قصيرة. يستحسن يا صاحب الجلالة التصرف بسرعة، وبحزم».

بعد أن أبدى معظم المستشارين الآخرين الرأي نفسه، حسم
الطفل - الملك الأمر:

«سأَمْضِي منذ الغد أيها الأصدقاء. سيرافقني عرفان، وديالي،
وخليفة، وموري مع كوكبة صغيرة من الحرس».

تهيأت المرافقة منذ فجر اليوم التالي، وانتظرت الطفل - الملك في
باحة القصر. وفي غرفة انتظار الملكة، قال بوبا لمقريبه:

«أوكل إليك يا جدي أمر رعاية الملكة والصغيرتين. سأحاول العودة
بأسرع وقت ممكن. أطلب إليك يا عمة مبوديا العناية بابنة أخيك.
تعرفين أنها ملكة قلبي. أما أنتما يا جميلة وتاكو، فلا تتسيا أن
الطفلتين اللتين تشرفان على تربيتهما هما نور عيني. أعرف أنهما
في أيد أمينة. ولكن انتبها إليهما أكثر من المعتاد».

اقتربت سيرا من زوجها، وهمست إليه بصوت لم يسمعه أحد:
«عد بسرعة يا كززي. كل يوم يمضي بعيدا عنك، أجده قرنا، لأنني أحبك».
- أنا أيضا يا ملكة قلبي، كل لحظة تمر من دونك، أحسها دهرًا.
سأعود بأسرع وقت ممكن. أعدك.

لم يسمع أحد رسالة الحب والإخلاص المتبادلة، لكنها لم تخف
على الحاضرين، فقد قرأوها على وجهي الزوجين الشابين، اللذين
يحب كل منهما الآخر حبا كبيرا. انضم الطفل - الملك إلى
المرافقة التي تنتظره. امتطى حصانه، وتحركت المجموعة. وعند
مدخل القصر، توقف بوبا لحظة. رأى هناك ثورا أسود جميلا
مربوطا إلى وتد. كان الحيوان يحك الأرض مرة بقاءمته الأمامية
اليمنى، ومرة بقاءمته الخلفية اليسرى. سأل الملك ديالي:
«قل لي يا ديالي، من أين جاءت هذه الدابة؟».

- المستشار سامبا كا هو الذي قدمها لك. تذكر أنه يحضر لك كل عام أجمل دابة بين ماشيته، منذ أن زودته بدواء أنقذ قطيعه، الذي تعرض لمرض وخيم.

- نعم، نعم، أتذكر. أين عرفان؟

تقدم المستشار الأول بحصانه حتى صار بجانب الملك:

«هأنذا يا صاحب الجلالة».

- حركات هذا الحيوان لا تنبئ بشيء طيب يا عرفان، بل تشير إلى أن مصيبة ستقع قريباً. ألا يمكن تأجيل هذه البعثة إلى يوم آخر؟ أود البقاء قرب أسرتي.

- أخشى أن ذلك غير ممكن يا سيدي. تذكر أن مجلس الحكماء يردد على مسمعك دائماً: يجب أن تعلق مصالحة رعاياك ورفاهيتهم على مشاعرك الشخصية.

- نعم، نعم، أعرف ذلك، صحيح ما تقول. ربما كان هذا القلق الثقيل، الذي يخنقني، لا مبرر له. هيا، إلى الأمام!. علينا عدم إضاعة المزيد من الوقت!

انطلقت الكوكبة، يتقدمها الفارس حامل الراية الملكية الخفاقة. مرت في شارع كور دياما الرئيسي. انعطفت بعد ذلك متوجهة نحو الشمال تماماً. سارت بمحاذاة الساحل، بعجلة حينا، وبسرعة أقل حينا آخر. سلكت طريقاً متعرج قليلاً، وصعدت تلة بعض الوقت، وعبرت غابة صغيرة، حتى وصلت مساءً إلى إحدى القرى. استقبل السكان المسافرين بفرح. ولأن قانون الضيافة مقدس، نزل الملك ومرافقوه في أكواخ الضيوف، التي تضعها كل قرية في خدمة المسافرين، الذين يصلون فجأة. نام الرجال، بعد تناول

وجبة فاخرة. ورحلت الكوكبة في الصباح الباكر.

في مساء اليوم التالي، مع حلول الظلام، وصلت المجموعة إلى لومبول، عاصمة المقاطعة الكبيرة. ورغم الوقت المتأخر، استقبل أعيان المدينة الملك ومرافقيه استقبالا حارا. لكن نقاش الأمور الهامة لم يبدأ إلا صباح اليوم التالي.

سوى الملك بعض الخصومات العقارية أولا بشكل سريع، شارحا للمعنيين القوانين والأعراف. ثم، استدعى الحاكم جيلاديو زعماء القضية التي جاء الملك من أجلها. صفّهم أمام الملك ومستشاريه. وجه الطفل - الملك كلامه إلى مسؤولي صيد السمك المحليين أولا، وكلم بعدئذ الصيادين القادمين من المناطق الأخرى:

«أخبروني، كم رجلا فقدنا في هذه القضية منذ البداية؟»

- مات خمسة رجال في المشاجرات على الشاطئ، وهلك ثمانية غرقا، عقب معارك دارت عندما تصادمت زوارقهم في البحر.

- كم يعني ذلك من الأرامل واليتامي؟

- أحصينا يا صاحب الجلالة ست أرامل، وخمسة عشر يتيما، واثنين وثلاثين جريحا.

- الآن، أسألكم: من خلق البحر؟

- الله عز وجل.

- جواب صحيح! من أوجد السمك في الماء؟

- الله سبحانه وتعالى أيضا يا صاحب الجلالة!

- أنتم، صيادي المقاطعة، وأنتم، القادمين من خارجها، هل تستطيعون صيد كل أسماك المحيط، بشباككم أو بالصنارة، حتى لا تبقى سمكة واحدة؟

- لا، لا، يا صاحب الجلالة. هذا مستحيل، يبقى منها دائماً ما يكفي الجميع.

بعد أن استمع إلى هذه الأجوبة، غضب الطفل - الملك لأول مرة. وصرخ بصوت رهيب:

«إذن، أسألكم لماذا تريدون منع القادمين من أماكن أخرى من الصيد في هذا البحر اللامحدود؟ لماذا هذه الشجارات التي لا طائل منها؟ لماذا تريقون هذه الدماء عبثاً؟ ماذا سيحل بالأرامل المسكينات واليتامى الأبرياء؟ هيا أجيبوا عن أسئلتى! مالكم لا تردون؟».

أخفض جميع زعماء المتخاصمين رؤوسهم. لم يعد أحد يجرؤ على مواجهة النظرة الرهيبة للملك. وساد صمت ثقيل، لم تمزقه أحياناً سوى أصوات طيور النورس في السماء. لم يجرؤ أي شخص على خرق مهابة هذه اللحظات. تحادث الطفل - الملك بصوت منخفض مع ديالي، وعرفان، وخليفة، وموري. هز رأسه عدة مرات، ثم وجه كلامه مرة أخرى للصيادين المصطفين أمامه: «قيل لي إنكم تتشاجرون حول الصيد منذ عشرين سنة. لم يدخل سلفي ماديكي في التفاصيل لحل النزاع. سواء يومذاك بقطع بعض الرؤوس، دون بحث عن المحرضين الحقيقيين. أظنونني أضعف من ماديكي؟».

لم يجرؤ الرجال على الرد، بل أخفضوا رؤوسهم، كأنهم أطفال ضبطوا متلبسين بفعالته. وأعطى الملك الشاب الأوامر: «موري، اختر لي، دون تمييز، ثمانية عشر رجلاً من بين هؤلاء الأقوياء، وصفهم أمامي».

نفذ قائد الحرس الأمين الأمر فوراً . ووقف ينتظر التتمة . ثم ،
أصدر الملك أمراً مرعباً :

«اقطع رؤوسهم!».

جثا الرجال الثمانية عشر في الحال عند قدمي الملك يتوسلون
إليه :

«الرحمة! الرحمة! يا سيدي! سامحنا على جرائمنا! لن نفعل ذلك
مرة أخرى أبداً!».

أجاب الملك، بوجه صارم:

«من سيعتني بالأرامل اللواتي قتلتم أزواجهن في مشاجراتكم
الفارغة؟ من سيطعم اليتامى الذين فتكتم بأبائهم من أجل موضع
صيد في هذا المحيط الذي لا حدود له؟. هيا أجيئوا بسرعة. بدأ
صبر قائد حرسى ينفد!».

اقترب زعماء الصيد المتخاصمون من مقعد الملك. انحنوا،
وأقسموا :

«نقسم يا صاحب الجلالة بشرفنا على حماية الأرامل، والاعتناء
بهن. نقسم أننا سنرعى اليتامى حتى لا ينقصهم شيء، طعاما كان
أو عطفاً أو علاجاً، إلى أن يصبحوا قادرين على سد حاجاتهم
بأنفسهم. نقسم على ذلك رسمياً يا سيدي».

بقى المحكوم عليهم الآخرون على الأرض، منحنين أمام الملك
ومستشاريه. ورددوا معا :

«نعم، نعم، نقسم على ذلك! سنفي بوعدنا! اعف عنا يا صاحب
الجلالة! لا تجعلنا نموت».

تظاهر الطفل - الملك بأنه يفكر، ثم سأل :

«ولكن، كيف ستتظمون رحلات الصيد القادمة؟ أخشى أني ما أن أدير ظهري حتى تشتعل الصراعات من جديد».

لم يترك مسؤولو الصيد الملك ينهي كلامه. قالوا كل بدوره:
«ذكرتنا منذ قليل يا صاحب الجلالة كم هو المحيط واسع، وكم هي الأسماك وفيرة. نقسم منذ الآن أننا ليس فقط لن نتشاجر، بل نعاهدك أيضا على أننا سنتعاون، على الشاطئ وفي قلب البحر».

تظاهر الملك مرة أخرى بالتفكير لحظة طويلة. انتظر الجميع الحكم الأخير، وقد احتبست أنفاسهم. أخيرا، رفع يده اليمنى، معطيا إشارة إلى قائد حرسه.

«أعد سيفك إلى غمده يا موري. سأؤجل تنفيذ الحكم. يبدو أن هؤلاء الرجال قد تابوا. عرضوا علي حلا ممتازا لنزاعاتهم. أطلب الآن من جيلاديو، حاكم هذه المقاطعة، الحرص الدائم على احترام الأيمان التي أدوها هنا رسميا. إذا نكل بها أحد، أو ظهر أدنى حادث، عليه إعلامي فورا. حينذاك، سأعود مع جلادي وأحاسبهم بأشد قسوة، دون رحمة هذه المرة».

نهض ديالي ليتكلم حسب التقاليد المتبعة في القصر. وقال:
«يا سكان هذه المقاطعة، كذلك أنتم يا من جئتم من بعيد من أجل الصيد، سمعتم جميعا الحكم الذي قرره ملكنا المحبوب، الحكم العادل، والمنصف، والرؤوف، والصفوح. الآن عليكم أن تقدروا بأنفسكم كم هو هذا القرار متسامح معكم. ولكن، حذار، إذا نكثتم بما وعدتم، سأحضر الجلاد بنفسه عند عودتنا إلى هنا! عودوا إلى أعمالكم الآن. تصرفوا بأريحية تحفظ حياتكم، كي تكفروا

عن أخطائكم. قدموا الشكر للملك! احترموا إرادته العادلة،
ونفذوها!».

بعد أن تقدموا بجزيل شكرهم للملك، انصرف المعفو عنهم مع
أسرهم.

أمضى بوبا بقية الصباح في استقبال الوجهاء، والشيوخ، ومختلف
أرباب المهن، الذين قدموا تعبيراً عن الولاء أو طلباً لرأيه في
مسائل كثيرة. وأعجب هؤلاء بدقة ردود الملك وسداد آرائه حول
مختلف الشكاوى. وحوالي المساء، خلال استراحته في باحة الدار
المخصصة للضيوف العابرين، طرح خليفة سؤالاً على بوبا:

«يا صاحب الجلالة، هل كان موري فعلاً سيقطع رؤوس
المذنبين؟».

- لا يا خليفة، لا. أردت فقط إخافتهم، لمصلحتهم، كي لا ينسوا
خطورة أفعالهم الأنانية، وكي لا يكرروها أبداً بعد اليوم. وقاني
الله من إراقة قطرة واحدة من دم رعاياي!

تأمل دياالي وعرفان ملكهما. لاحظا ملامح وجهه الحزينة، والقلق
البادي عليه. قال له المستشار الأول:

«تبدو قلقاً يا صاحب الجلالة، مع أنك أنهيت منذ قليل مشكلة
صعبة، وشائكة، ومعقدة. وحفظت للأرامل واليتامى حقوقهم،
التي خشيت ضياعها. عندما تنجح عادة في تسوية مثل هذا
الوضع، تبدو مبتهجا ومرتاحا. لكن حالك اليوم مختلفة. يبدو
على محياك حزن شديد. لا نرى ابتسامتك المعتادة. هل يمكننا
معرفة سبب كل هذه الهموم؟».

شاركه الرأي دياالي، الصديق المخلص، مضيفاً:

«حقا ما يقول عرفان يا مولاي. في كل مرة تعيد الحق إلى نصابه، وكلما أنصفت رجلا، أو امرأة، وكلما صنت حقوق الأراامل واليتامى، أشرق وجهك وانفجرت أساريرك. نجد الوضع مختلفا اليوم. تبدو متضايقا. ماذا حدث يا مولاي؟ بُح لي بما في قلبك. ألسنت صديقك، ونجيّك؟».

أمام هذا الإلحاح، ابتسم بوبا قليلا، وتردد هنيهة، ثم أجاب: «ما ترونه صحيح أيها الأصدقاء. القلق يعتصر قلبي. لم أستطع التخلص من هاجس مشؤوم: أعتقد أن مصيبة ستقع في القصر خلال غيابنا. سيقع ضحيتها شخص عزيز جدا علي. أعرف ذلك. أحس به. نعم، أحس به!».

حاول خليفة، قائد الجيش، الذي يكن محبة كبيرة للملك، أن يطمئنه:

«يمكن أن تقلق الانطباعات والهواجس أحدهم، ثم يتبين فيما بعد أنها غير حقيقية. ربما لا يعدو ذلك كونه مجرد حلم. من يدري؟».

خاطب موري، قائد الحرس، الملك بدوره:

«تعرف يا مولاي أنني أودك ودا جما، كجميع أولئك الذين يعيشون بقربك. لا أنسى أنك أنقذت حياتي. لا أنسى أنك قبلتني في مجلس حكمائك الموقر على الرغم من صغر سني. إذن، فأنت تدرك أننا يا صاحب الجلالة، نحن المقربين منك، نحس بالأمك. نفرح أيضا لابتساماتك. لكني أفضل اليوم، أنا أيضا، مثل خليفة، أن أبقى متفائلا. يجب طرد هذه الأفكار السوداء من ذهنك».

تأثر الطفل - الملك لكل هذه الكلمات المعبرة عن المحبة، وأجاب: «شكرا يا أصدقائي، شكرا. عباراتكم التشجيعية أثلجت صدري.

شكرا جزيلا. أتمنى ألا يصدق حدسي للمرة الأولى. أدعو ربي ألا تتحقق إحساساتي السيئة هذه. آمل ذلك. آمل...».

في هذه اللحظة، سمع صوت طبل قوي آت من القرية المجاورة. أصغى الجميع. إنها رسالة. راح دياالي يشرح:

«الجد... يطلب... من الملك، العودة... حالا إلى القصر».

كررت الرسالة عدة مرات، كي تفهم. نهض الطفل - الملك في الحال، وصرخ:

«اقتنعت الآن أن المصيبة وقعت في القصر!». هاكم أوامري: دياالي، قل لـ جيلاديو أن يرسل جوابا على قرع الطبول، لإخبار جدي بأنني سمعت الرسالة، وأني في طريق العودة مباشرة. موري، جهّز الحرس. هيا إلى الجياد، سنرحل فوراً!».

بعد لحظات قليلة، غادرت المجموعة الملكية لومبول بأقصى سرعة. ركضت الجياد بكل قوتها. ساروا بلا توقف حتى مغيب الشمس. وبناء على نصيحة موري، نزلت كوكبة الفرسان في قرية جيدلا لقضاء الليل، لأن السفر بعد المغيب قد يعرضهم لمخاطر الضياع في السهول العشبية، والهلاك بين برائن وحوشها.

ومنذ فجر اليوم التالي، حين أخذ الأفق بالاحمرار، أسرجت الخيول، واستؤنفت رحلة العودة. جرت الجياد بسرعة جهنمية، حتى خرج الزبد الأبيض من شدقها. ولما أضحت الشمس في كبد السماء، أمر الملك بالتوقف، للاستراحة في ظل غابة صغيرة. اهتم الجميع بأحصنتهم المقدمة، بعد أن ارتوت من جدول صغير ورعت بعض العشب. استغل الرجال المناسبة لتجديد نشاطهم بتناول الطعام من مؤونتهم، والاستراحة بعض الوقت في ظل

الأشجار. ثم، أعطى الطفل - الملك إشارة الانطلاق.
ساروا بسرعة أكبر، حتى وصلوا مع حلول المساء إلى كور دياما،
يتقدمهم حامل الراية المرفرفة. ما إن ترجلوا أمام القصر، حتى
التف المستشارون حول بوبا، دون أن يجروا أحد على الكلام. أخذه
العجوز والي من ذراعه. تمتع بوبا، وفي حلقه غصة:
«كلهم ينظرون إلي يا جدي، ولا أحد يجروا على الكلام. أعرف أن
مصيبة حلت في البيت. تكلم، قل لي ما حدث!».
- كن شجاعا يا صغيري. ماتت نفيسة وسليمة.
- ماذا! ماذا! ابنتاي؟ طفلتاي البريئتان! أين سيرا يا جدي؟ هل
أصابها مكروه؟ أريد أن أراها!
- اهدأ يا بني. هيا نراها. سأرافقك.
وجداهما نائمة في غرفتها، وحولها عمتها مبوديا وتاكو وجميلة. لما
رأين الملك، بكين بصمت. وضع بوبا يده على جبين زوجته، وعرف
أنها مصابة بحمى قوية، لكن تنفسها طبيعي.
خرج بوبا وجدته من الغرفة. وفي الممر، شرح الجد المأساة
لحفيدة:
«في صباح يوم رحيلك نفسه، جاءت إلى هنا امرأة مسنة جدا.
أرادت، حسب قولها، تسليم رسالة شخصية إلى الملكة، دون دليل.
أدخلتها العمة مبوديا إلى الكوخ الذي تستريح فيه سيرا. قالت لها
المرأة الهرمة إن على زوجتك إقناعك، بعد رجوعك، بإعادة العادة
البالية، التي تقضي بالتضحية بفتاة كل عام مع بداية الشتاء، لنيل
رضى الطبيعة. أدركت سيرا أنها إبليس، لأنك كنت قد نبهتها إلى
ذلك وحذرتها منه. وفي غمرة انفعالها، نسيت تلاوة الدعاء الذي

تعلمته منك لمواجهة مثل هذه الظروف. لم تستطع إلا أن تصرخ. هرع الحراس، لكن المرأة الإيليس استغلت البلبلة، وهربت. بدأت المأساة مساء اليوم التالي، عندما لاحظت جميلة وتاكو أن الصغيرتين النائمتين في مهديهما، قد توفيتا، بينما لم تظهر خلال النهار أي أعراض مرض أو حمى، ولا أي شيء يدل على مثل هذه النتيجة. دفنا الملاكين الصغيرين، ثم قرر المجلس إرسال رسالة على قرع الطبول لتعود فوراً. منذئذ، والملكة مصدومة. أعطيتها دواء منوما كي تهدأ وترتاح.

بعد أن استمع بوبا بانتباه إلى تتابع الأحداث، تكلم بهدوء، بصوت متقطع، والحزن يملأ قلبه:

«هذه المرأة اسمها كمشة يا جدي. هي إحدى الأبالسة. يمكنها أن تظهر على شكل عجوز قصيرة أو على شكل فتاة شابة، حسبما تريد وحسب الأشخاص الذين تريد تحريضهم على فعل الشر. أماتت الصغيرتين انتقاماً من رفض سيرا. أوكل أمري إلى العناية الإلهية. ألهمني الله الصبر».

عاد بوبا إلى غرفة الملكة. جلس قرب سرير زوجته، وقال للحاضرات:

«تستطعن الذهاب إلى النوم. سأسهر على راحة سيرا».

لما استيقظت في صباح اليوم التالي، لاحظت سيرا أن زوجها جالس قرب سريرها. أمسكت يديه، وتشبثت بهما، وبكت بكاء حزينا وطويلاً. كلمها بوبا برفق، محاولاً تهدئتها ومواساتها. ولما هدأت، نظرت في وجه زوجها، وقالت:

«أنت أيضاً تبكي يا بوبا؟».

- لا يا ملكتي. يقول جدي إن على الرجل ألا يبكي، وإن على الملك عدم إظهار عواطفه، خصوصاً الحزن.

- لكنني أرى الدموع في عينيك.

- إنه... الهواء... الغبار. ارتاحي أنت يا حبيبتي، واحفظي شيئاً واحداً: الله أعطى، والله أخذ. وأظهري لمن يحيطون بك أنك رغم الألم تبقين ملكة، وأنتك جديرة بأن تكوني ابنة الملك دولو العظيم. اعلمي أيضاً شيئاً آخر: حبي لك لا حدود له، مهما حدث. أتدرين ذلك؟

- نعم يا أميري، أعرف. أنت أيضاً تعلم أنني لا أعيش إلا من أجلك. لولا وجودك إلى جانبي، لخلت حياتي من أي معنى، ومضت بلا طعم ولا رغبة. أشعر الآن، وقد عدت إلي، أنني أحيا من جديد، بعد هذه المصيبة الأليمة، وهذا الفراغ الكبير الذي يعذبني.

- اطمئني يا كنزي، سأحميك. لن يحدث لك أي مكروه.

- نعم يا قلبي، لا أخشى بقربك الجن ولا السحرة. بقربك، لا أخشى أحداً.

أنجز ديالي، طيلة النهار، ترتيبات الحداد. انتشر النبأ المحزن في كل البلد على قرع الطبول. وأرسل مبعوث إلى الساساي لإخبار الملك دولو.

راح بوبا وسيرا، اللذان جلسا في كوخ الاستراحة، مرتدين تاجيهما الملكيين وثياباً عادية، يستقبلان شخصيات المملكة، والوجهاء، والحكام، ومخاتير القرى، وحتى عامة الناس. جاءوا جميعاً من تلقاء أنفسهم، لمؤاساة الملك والمملكة بالمصاب الذي ألم

بهما . قال كل منهم بعض عبارات التعزية والتعاطف . وتحول كوخ
الاستراحة إلى ميدان يغص بالقادمين والراجعين .
فجأة ، علا صراخ النساء ، وارتفعت أصوات البكاء المؤثرة في باحة
القصر . دهش الملك الشاب ، وطلب من ديالي استطلاع الأمر .
عاد هذا الأخير بعد لحظة ، وقال للملك :
«إنهن النادبات يا صاحب الجلالة» .
- ولكن ، هل هن قريباتي أو قريبات الملكة حتى يصرخن بهذه
القوة ؟
- لا ، لا يا صاحب الجلالة ، أبدا ، هن نساء محترفات ، مأجورات
للبياء وذرف الدموع في المآثم .
- ومن يدفع لهن ؟
- أمين صندوق القصر يا صاحب الجلالة . تلك هي العادة يا
سيدي .
- تصرف أمين الصندوق دون علمي . هلا ذهبت لتقول لهؤلاء
النسوة أن يتوقفن عن البكاء ؟ قل لهن إنني أشكرهن على صراخهن
الحزين ، غير أن الملكة وأنا نفضل الهدوء . هذه العادة لا تتاسبنا ،
لأن الآلام الكبيرة صامتة .
أعاد ديالي الهدوء إلى باحة القصر . وانقضت بقية النهار دون
حوادث تذكر . ونحو المساء ، ذهب بوبا ، يرافقه جده ، والمستشار
عرفان ، وديالي المخلص ، لتلاوة دعاء قصير عند قبر الضحيتين
البريئتين .

٣ - عندما تكون العادة سيئة.

أشرقت الشمس، ونثرت ألوانها الذهبية على الغيمات، التي أرادت حجبها. وهبت ريح منعشة.

كان بوبا وسيرا يوزعان الحبوب في بستان القصر على أصدقائهما الطيور، المختلفة الأنواع، التي راحت تتزاحم على نقر طعامها. لاحظ الغراب كروا، الذي يكن له الطفل - الملك محبة خاصة، أن الملكين حزينان. ترك أسرته تنقر، واقترب من الملك وزوجته ليحادثهما:

«يجب على صديقي الملك ألا يدع الكآبة تفتت كبده. عليه أيضا مواساة زوجته، ومساندتها كي لا يعتصر الحزن قلبها. فهذا ما تريده الأبالسة، مثل كمشة، وكو كورونج، وكيافي. يريد رئيسهم شيطاني أن تعيد تقليدا همجيا ما يزال قائما في بلاد أخرى. يجب الاستمرار في الرفض، كما تفعل الآن. سيكون الله سبحانه وتعالى إلى جانبك دائما. يفضل أن تحاول إلغاء العادات السيئة، الموجودة حتى اليوم في السانوكا. إن فعلت، لن ينسى لك الشعب هذا الجميل إلى الأبد.

- نعم يا كروا، ما تقوله صحيح. تشجعني نصائحك وتساعدني دائما. أجد في صداقتك إخلاصا لا ألمسه عند بعض الناس.

- هذه هي الحقيقة. المودة التي نحملها لك، نحن الحيوانات، نابعة من قلبنا، وليس من المصلحة كما هي الحال عند البشر غالبا. اعلم أنني سأبقى دائما إلى جوارك، لأدعمك وأساعدك.

- شكرا يا كروا. ثق أنني أحبك. وأعتبرك واحدا من المقربين إليّ.

- أنا أيضا أحبك أيها الطفل - الملك. إلى اللقاء.

شبع الطيور، وطار واحد بعد الآخر. روى بوبا لزوجته، التي تابعت النقاش باهتمام كبير، حديث الغراب الصديق. أصغت إلى زوجها بانتباه. وعزاها قليلا ما سمعته منه.

بعد ذلك بوقت قصير، لدغت أفعى أحد خدم القصر على طريق السوق. ومات فورا.

ذهب الطفل - الملك، تصحبه زوجته وديالي، إلى بيت المتوفى، لتقديم العزاء لأسرته المنكوبة. لكنهم فوجئوا بشيء غريب. وجدوا الأرملة الشابة عارية، تتلوى على بساط في وسط غرفة مظلمة، مرتعشة، وتتصبب عرقا. لما رأت الملكة هذا المنظر المؤلم، خلعت وشاح كتفيها الكبير، وغطت به المرأة المسكينة. انحنى بوبا قليلا، ثم قال، بعد أن تفحصها بانتباه:

«تظهر على هذه المرأة أعراض التسمم. يجب إنقاذها بسرعة!». ديالي، سيرا، ابقيا بقربها. أنا ذاهب إلى القصر لأحضر لها ترياقا».

خرج بوبا من الدار، واتجه مسرعا إلى القصر. لحق به موري الأمين. تناول الملك وعاءين صغيرين، وبعض المساحيق، وعاد بها فورا إلى المريضة. أشربها محتوى الوعاء الأول. وبعد بضع لحظات، تقيأت المسكينة كل ما كانت قد تجرعتة قبل ذلك. ثم، أجبرها بلطف على شرب محتوى الوعاء الثاني، الممزوج بمسحوق غريب. عقب هذا العلاج المكثف، توقفت تشنجات المرأة، وغطت بهدوء في نوم وادع يجدد قواها. خرج الملك والملكة، ثم ديالي من الغرفة، التي رقدت فيها المرأة، التي كانت مهددة بالموت. جلسوا على المقاعد المخصصة لهم في الفناء، تحت شجرة منجاة. وانضم

إليهم عرفان، الذي استدعي على عجل واطلع على الوضع. وأمام الأسرة المجتمعة، تكلم الملك:

«أريد أن أعرف أولاً من هو رب هذه الدار».

تقدم رجل كهل، وأجاب:

«أنا يا صاحب الجلالة أكبر إخوة خادمك المتوفى سنا. بما أنني الابن البكر، فإن إدارة شؤون المنزل تقع على عاتقي منذ وفاة والدينا».

كبح الطفل - الملك غضبه، وخاطب الرجل بقسوة:

«لماذا لا ترتدي زوجة أخيك أي ثوب في غمرة هذا العزاء، والمعزون كثر كما ترى؟».

- هكذا تقضي عادات قبيلتنا يا صاحب الجلالة. لا يجوز أن ترتدي أي ثوب خلال فترة ترملها. يتوزع الأهل والجيران ثيابها وحليها.

- يا لها من عادة منافية للعقل!. أقرر أن عليها منذ الآن ارتداء الثياب التي تليق بالأشخاص المحتشمين. سترسل لها الملكة ثياباً أخرى هذا المساء. يحظر على أي شخص أخذها. هل فهمتني؟

- نعم يا صاحب الجلالة. سأنفذ أوامرك بدقة.

- حسناً، أجب الآن عن سؤالتي الثاني: من جرّع هذه المرأة المسكينة السم، ولماذا؟ هيا، أجب! أريد معرفة الحقيقة؟

- أنا يا صاحب الجلالة. ولكن، هكذا تقضي عادات جماعتنا. أخي مات. ومن الأحسن أن تتجرّع أرملة السم. إذا ماتت به، فذلك يعني أنها هي التي سببت موت زوجها. وإذا بقيت حية، فذاك يثبت براءتها.

- ما هذا الذي تقوله؟ كل الناس يعرفون أن أفعى لدغت أخاك في قدمه على طريق السوق!. هناك عدة أشخاص يشهدون بذلك. لماذا تريد أسرتك اتهام هذه المسكينة؟

- هذه هي تقاليدنا يا صاحب الجلالة.

- لماذا تريد قبيلتك الإبقاء على هذه العادة البالية؟ ألا ترى أنت نفسك أنها جائرة، وخطرة، ومهينة، ومخجلة، خصوصا وأنها تمارس على النساء وحدهن؟ هل تحب أن أطبق عليك هذه الممارسات، إذا ماتت زوجتك؟ هل تريد أن أجركك حالا شرابك هذا؟ بما أنه لا ذنب لك في موت أخيك، فلن يصيبك مكروه.

- أوه، لا، لا يا صاحب الجلالة. لا تفعل ذلك. أدرك الآن ظلم هذه العادات.

- حسنا، يسعدني أن أراك تعترف بظلم هذه العادة، اللاأخلاقية. اسمع الآن ما قررته: سمّ لي ابنا، أو ابن أخ أو أختا، أو أي واحد من أقرباء المتوفى المحتاجين، كي يحل مكانه في العمل في القصر. عليك المجيء هذا المساء لمقابلة ديالي. سيصطحبك إلى أمين خزانتي لتحصل على عشر قطع ذهبية. ستضيف هذا الذهب إلى ميراث الأطفال. أخيرا، أريد أن تعاملوا الأرملة بكل الاحترام والتقدير الممكنين. يجب ألا يزعجها أو يضايقها أحد. أحملك شخصيا مسؤولية ما قد يحدث لها. حياتك متعلقة بحياتها. إن جعلتها تموت، ستموت أنت.

في صباح اليوم التالي، بعد نقاشات المجلس حول شؤون المملكة، قال الملك للحكماء:

«أعزائي المستشارين، أهتدي دوما بكلامكم العاقل، وأتجنب به

الانحراف عن الطريق القويم. أعرض عليكم اليوم موضوعا يبدو لي حله مستعجلا. أعني بذلك حظر وإلغاء بعض العادات السيئة، التي تنغص سعادة الشعب ورغد عيشه. تعرفون أن دياالي وأنا أنقذنا أرملة مسكينة تجرعت سما قويا. فبذريعة عادة تضر أكثر مما تنفع، وجدنا التعيسة تحتضر، عارية، على حصير في بيتها. أنتم، يا عقلاء المملكة، وعلى رأسكم جدي، لطالما رددتم على مسامعي: عندما تكون العادة سيئة، يجب تغييرها أو إلغاؤها. أرى أوان ذلك قد آن. كلما تأخرنا في القضاء عليها، استمرت آثارها الضارة في إيذاء الضحايا الأبرياء».

أيد حكماء السانوكا الملك الشاب بقوة. قال عرفان، الناطق باسمهم:

«أيها الطفل - الملك، نتبين مرة أخرى أن همك الدائم هو نفسه: إسعاد الشعب. ندعمك بكل سرور في هذه المهمة النبيلة. من الأنسب الآن التصرف بسرعة لإنهاء هذه المآسي، اليوم ودون تأخير. هاكم ما يستحسن فعله: يجب أن نستدعي، على أصوات قرع الطبول، حكام المناطق العشرة ورؤساء المقاطعات الثلاثين. سنشرح لهم مبررات مهمتنا هذه. وبدورهم، عليهم أن يشرحوا للسكان الفائدة المرجوة من قبول إلغاء بعض العادات والتقاليد، التي تضر المجتمع الذي نعيش فيه اليوم أكثر مما تنفعه».

شكر الملك الشاب مستشاره الأول عرفان، وأعضاء المجلس الآخرين، على مساعدتهم وتجاوبهم في هذه المهمة الصعبة، التي تريد الملكة سيرا وهو المشاركة بها إلى أن تتكلل بالنجاح، بأقصر مدة ممكنة. وأوكل شأن تنظيم إجراءات هذا اللقاء المهم إلى دياالي، الذي تصرف

بسرعة، بحماسة المعتاد كلما تعلق الأمر بخدمة مولاه.
وصل الأعيان إلى القصر منذ اليوم التالي. وأمكن عقد الاجتماع
فورا داخل قاعة المجلس، في الوقت المحدد.
تقدم المشاركون أولا لتحية الملك شخصيا. ثم بدأت مناقشة
الشؤون الجدية. شرح ديالي للمجتمعين الأسباب التي دفعت الملك
لإصلاح بعض الممارسات التقليدية. وقدم الجد والي، وعرفان
ومستشارون آخرون حججا دامغة دفاعا عن إلغاء بعض الطقوس
السيئة، الضارة بالأسر، وخصوصا النساء والأطفال.
استعرضت بسرعة العادات البغيضة، التي أراد الطفل - الملك
إلغائها: ترك الأرامل دون ثياب؛ وإعطاء ثروات الزوج المتوفى
لإخوته على حساب زوجته وأطفاله؛ وتجريح السم للمرأة لمعرفة
إن كانت هي السبب في موت زوجها؛ ودفن الطفل حيا إذا ولد وله
إصبع سادسة في يده؛ وإبقاء الميت مربوطا بكرسي ثلاثة أيام
أمام باب كوخه، وقطع أذنه بعد ذلك.
دعا الملك أعيان المملكة للإدلاء بآرائهم حول هذه الأشياء الفظيعة.
وتعين عليهم بعدئذ استعراض أنسب الطرق لاستئصالها. وطلب
منهم أن يعبروا عن أفكارهم بحرية، دون أي خوف.
بعد يوم من النقاشات، التي تخللتها وجبة غداء، بدأ صبر بوبا
ينفذ. وحوالي المساء، رفع يده طالبا السكوت. صمت الجميع.
عندئذ، أعلن بصوت مشحون بالخيبة والغضب:
«بعد هذا النهار من المناقشات غير المجدية، استنتجت ما يلي:
أظهر معظمكم تحفظا واضحا حيال إبطال هذه العادات الكريهة.
لمست جيدا، من خلال الكلمات التي قيلت هنا، ومن خلال الحجج

الضعيفة الإقناع التي تقدم بها البعض، أنكم ترفضون أن يتقدم شعبنا إلى الأمام، تقدما روحيا أولا، وتقدما تنمويا اقتصاديا بعد ذلك، وتقدما في الكرامة والعدل أخيرا. إذن، أرفع صوتي عاليا كي تسمعوني جيدا: هذا عار عليكم! هذا عار عليكم! لو تعلق الأمر بزيادة الضرائب، أو إضافة رسوم جديدة، لصفق بعضكم، لأنهم سيجدون فيها مناسبة لملء جيوبهم على حساب الخزينة العامة. أما في هذا، حيث يتعلق الأمر بتدابير إنسانية غرضها إسعاد الناس العاديين، فإنكم تترددون وتواربون وتراوغون، لأنكم لا تجرؤون على قول لا أمامي بشكل علني وصريح. الآن، كفى. كفاكم نقاشات عقيمة. لم أعد أريد الاستماع إلى هذياناتكم!. أعلق النقاش حتى إشعار آخر».

نهض الطفل - الملك. كان تاجه الأنيق يعكس الأضواء أحيانا. وخرج من القاعة بإباء، جارا خلفه معطفه الطويل الذي يلامس الأرض. وتبعه قائد حرسه الأمين موري.

بعد خروج الملك، بقي الحاضرون في حيرة من أمرهم داخل القاعة، بل قلقين بسبب كلام الملك المدوي الذي سمعوه. تحلقوا حول الجد، وعرفان، وديالي، الذين أمطروهم بالأسئلة. وزودهم العجوز والي بالشروح التي يحتاجون إليها:

«هذه أول مرة أرى فيها حفيدي غاضبا بهذا الشكل. أفهمه تماما، لأن همه الوحيد هو إسعاد عامة الناس، والضعفاء، والمضطهدين. لكن يبدو أن بعضكم لا يريد السير خلفه على هذا الطريق. ظن أنه يستطيع الاعتماد على دعمكم، أنتم كبار شخصيات الدولة. لذلك، افهموا خيبتة وسخطه».

بدوره، تكلم ديالي:

«أؤكد ما ذكره والي المحترم. ولكن، من يعيش قرب مولاي، مثلي أنا، الذي أتابعه في كل تحركاته؟ أنا الذي رأيته يغوص في النهر، ليقا تل بخنجر عادي تمساحا أراد التهام أحد جنوده، أقول لكم: إذا أردتم عدم مساندته في تحسين عادات الناس، سينفذ ذلك دون الحاجة إليكم. وسينجح!». أنا أيضا، لا أفهم ضعف حماس بعضكم لمؤازرته في عمل صائب يصحح العقليات، ويظهر السلوكيات. إن ساعدتموه، سينعكس النجاح عليكم. وإن رفضتم التعاون معه، سيقوم هو به، ويحصل كل مزاياه، لأن النجاح في الحالتين مؤكد! أعرف جيدا مولاي المحبوب، وأحذركم: يحمل في قلبه من الطيبة، واللفظ، والتسامح، والحلم، بقدر ما يتمتع بالصلابة في قراراته، عندما تبدو عادلة. لا، لا تفسروا وداعته وعذوبته ضعفا! انتبهوا!».

غادر أعيان المملكة قاعة العرش في جماعات صغيرة، مفكرين بكلمات ديالي نيتالي فودي مامايا، شاعر وموسيقي الملك الشاب، هذه الكلمات المفعمة بالصرامة والحقيقة. في صباح اليوم التالي، توجه بوبا وسيرا إلى البستان، كعادتهما، لإطعام أصدقائهما الطيور. بدا على وجه الزوجين شيء من الحزن، الذي لم يبدده هذه المرة منظر الطيور المتعددة الألوان، اليمامات، والببغاوات، والكركي المتوجة بالريش، والغربان، التي كانت تنقر الحبوب وتتدافع عليها.

جثم كروا، الصديق المخلص، على كتف بوبا، وهمس إليه:
«صديقي الملك وزوجته الجميلة يبدوان لي اليوم كئيبين جدا.

ولكن، لا بد من نسيان المصيبة التي آلمت بيتكما».

- شكرا يا كروا على محاولتك مواساتنا كل يوم. سيرا وأنا مقتنعان بأن في صداقتك لنا إخلاصا لا يضاهيه إخلاص أولئك الرجال الذين استدعيتهم أخيرا.

- نعم يا بوبا، أسرتي تعتبرك واحدا منا، رغم أنك لا تجيد الطيران، ولا بناء عش على الأشجار لتسكن فيه. ولكن، قل لي، لماذا أنت مقطب الجبين هذا الصباح؟

- أنا... أنا... حسنا، سأشرح لك ما يضايقنا اليوم، الملكة وأنا. حكى بوبا لصديقه كروا الإصلاح الذي أراد إنجازه. كلمه عن كبار مسؤولي الملكة الذين استدعاهم، وأبدوا تحفظا في مساعدته. وعبر له عن خيبة أمله، ولكن أيضا عن رغبته في الانطلاق حتى النهاية لتخفيف معاناة الشعب، خصوصا الضعفاء والمحرومين.

استمع الغراب بانتباه إلى صديقه. وبدا مفكرا لحظة. ثم قال: «عقلية الناس ستدهشنا دائما. أما سلوكهم، فلن نستطيع توقعه أبدا. كبار رجال الملكة هؤلاء، الذين جمعتهم، يجب أن يعرفوا أنك تشرفنا بصداقتك، وأنا بالمقابل نطلعك على أسرار الطبيعة. اسمعني جيدا أيها الطفل - الملك. سأخبرك بحدث سيقع خلال ثلاثة أيام. يمكنك تحذير شعبك منه. وبالمناسبة نفسها، ستزيل شكوك أعيان الملكة. إن الأمر يتعلق بما لي: اقترب كروا من أذن صديقه، وهمس إليه بشيء مهم جدا على ما يبدو، نظرا للدهشة التي ارتسمت على وجه بوبا. تحادثا بصوت منخفض، كأنهما متآمران لا يريدان أن يسمعهما أحد. ثم طار كروا، ولحقت به أسرته.

تحيرت سيرا لتصرف الغراب غير المعتاد، والانتباه الكبير الذي أولاه زوجها لحديثه. سألت بوبا:

«أظن أن صديقك أفشى لك سرا مهما جدا. من يراكما وأنتما تتكلمان هكذا يعتقد أنكما تحيكان مؤامرة ضد أحدهم».

- سيرا، يا حبيبتي الصغيرة، أنت تفاجئيني! في الحقيقة، كشف لي كروا عن أشياء مهمة. اقتربي مني. سأطلعك على شيء، وأخبرك بما سأقدم على فعله.

في وقت متأخر قليلا من الصباح، انضم الطفل - الملك إلى ضيوفه، ليرأس جلسة محادثات ثانية. بعد التحيات المعتادة، جلس على العرش. انتظر الجميع بدء المناقشات، وأرادوا بشكل خاص معرفة القرارات التي اتخذها الملك.

ساد في القاعة صمت ثقيل. سعل ديالي، رئيس التشريفات، سعالا خفيفا، ثم أعلن بصوت متردد قليلا:

«هانحن في الاجتماع من جديد يا صاحب الجلالة. يقال إنه يجب انتظار الغد لاتخاذ القرارات الصعبة. أمل من أعضاء مجلس حكمائنا هذا قبول التعاون برضى، والوقوف إلى جانب عملك الإنساني.

- أمل ذلك يا صديقي الطيب ديالي. أمل ذلك! أجاب بوبا. ثم سكت لحظة طويلة. وبان شيء من القلق على كثير من وجوه الحاضرين. وحطم صوت الطفل - الملك الصمت:

«أنتم، أيها المعاونون المقربون، أنتم، الذين تساعدونني في حكم شعب السانوكا، لا أريد أخذا وعطاء مع كل واحد منكم، كي أقنعكم بتبني أفكاري، لممارستها على الشعب. أطرح عليكم سؤالا

وحسب: أيهما أسهل، أن أقترح عليكم إقتناع رعييتكم بالتخلي عن عاداتهم السيئة، أم أن أؤكد لكم بأن الظلام سيحل في منتصف النهار، بعد ثلاثة أيام؟».

ذهل المجلس لهذا السؤال. لم يجروا أحد على الرد. هل يسخر الملك منهم؟ هل يتكلم بجدية؟ هل أثر حزنه على دماغه؟ هل ما يزال يتمتع بكامل عقله؟

لما شاهد الطفل - الملك هذا الذهول العام، تابع قائلاً: «أقرأ في وجوهكم أسئلة لا تجرؤون على طرحها: هل فقد الملك صوابه؟ هل يعرف ماذا يقول؟ هل أصابه مس من الجنون لفقدان ابنتيه؟ حسناً، سأجيبكم. دماغي صاح اليوم أكثر من أي وقت مضى. تأكيداً لذلك، اسمعوا الأوامر التي سأصدرها: ديالي، اذهب حالا وأرسل رسالة على قرع الطبول. أعلن لسكان كل القرى بأن الملك يعلمهم: بعد ثلاثة أيام، سيحل الليل فجأة، عندما تكون الشمس في وسط السماء. أضف إلى ذلك بأن على الجميع عدم الخوف، لأن هذه ظاهرة طبيعية آتية من عند رب العالمين، وأن القمر سيحجب الشمس لوقت قصير، ثم تظهر بعد لحظات لن تطول. يجب ألا يقلق أحد من ذلك».

نهض ديالي، المدهوش كالآخرين، وأجاب دون تردد: «تكلم مولاي. أنا أطيع مولاي، لأن مولاي يقول دائماً ما يفعل، ويفعل ما يقول».

- شكراً لك يا ديالي المخلص. أعلق الجلسات حتى ذلك الوقت. سنستأنفها بعد ثلاثة أيام، عقب وقوع الحدث الذي أخبرتكم به مباشرة.

دوى صوت طبل دىالي حالا . ترددت رسالته من مدينة إلى مدينة، ومن قرية إلى قرية، منبهة البلد كله إلى الحدث الذي أعلن الطفل - الملك أنه لا بد أن يقع خلال ثلاثة أيام. صدقها البعض، وبقي آخرون مرتابين. لكن الجميع طرحوا الأسئلة نفسها: كيف عرف الملك ما سيحدث؟ هل اقترت نهاية العالم؟ رغم طمأنة الرسالة، ألن يحل بنا الموت، والدمار، والخراب في الوقت نفسه؟ لم يجرؤ أحد على الرد على هذه التساؤلات.

بعد ذلك بثلاثة أيام، وبينما كانت الشمس تسطع عاليا في السماء الزرقاء الصافية، استطاع كل الناس رؤية الحدث المنتظر: اعترض القمر طريق الشمس. بدأ الضوء يخفت، ثم عم الظلام في كل مكان. وراحت النجوم تلمع بهدوء.

على الرغم من رسالة الملك، التي أكدت أن أحدا لن يتعرض للخطر، علا صراخ بعض النساء، واختبأت أخريات في بيوتهن بعد أن تغطين بالقماش الأسود. وحسب عادة قديمة، قرع الشيوخ على القصعات والقذور بالعصا، لطرده البلاء وتخويف القمر، الذي أراد حبس الشمس، كما يقولون.

بعد دقائق قليلة، أخذ قرص الشمس يظهر من جديد. تبددت الظلمات شيئا فشيئا. وعاد الضوء أكثر ألحا إلى عيون السكان، الذين قلت تعليقاتهم على الحدث، من شمال البلد إلى جنوبه، ومن شرقه إلى غربه.

توجه الطفل - الملك إلى قاعة العرش، يتبعه جده، وديالي، وموري. قال العجوز والي:

«أتذكر، عندما كنت صبيا صغيرا، أن حدثا مماثلا قد وقع في

هذا البلد . قال أبي يومها إن نهاية العالم وشيكة . واليوم لي لحية طويلة بيضاء ، لكن الشمس ما تزال تشرق! .

رد حفيده ، الذي لم تفاجئه هذه الكلمات كثيرا :

« هذا لا يدهشني يا جدي ، لأن ما حدث هو جزء من الظواهر الطبيعية ، مثل الريح ، والزوابع ، وقوس قزح بعد المطر الطويل . يجب ألا يخاف الناس منها . عليهم أيضا ألا يعطوها معنى خيرا ولا آخر شريرا » .
طرح دياالي ، المذهول حتى الآن ، ولكن دون أن يبدو عليه ذلك ، سؤالا :

« قل لي يا مولاي . كيف عرفت أن هذا سيحدث ، وكيف توقعته بدقة ؟

- لكنني حدثتك بالأمر يا دياالي . صديقي كانوا هو من أخبرني به .
- وكيف علم به هذا الطير يا مولاي ؟
- لا أعرف يا دياالي ، لا أعرف . عليك أن تطرح هذا السؤال على
كروا بنفسك .

انتظر أعيان المملكة الطفل - الملك عند مدخل القاعة . ما إن لمحوه ، حتى التفوا حوله . فإذا بهؤلاء الرجال ، المفعمين بالتجارب ، الذين يحكمون المناطق والمقاطعات والنواحي ، هؤلاء الرجال الأقوياء ، القساة أحيانا ، الذين لا يتأثرون كثيرا ، ولا يميلون إلا قليلا إلى التسامح ، يصبحون فجأة وادعين ، خائفين أمام شاب ، طفل تقريبا بعد . أراد كل منهم لمس ثيابه ، بعد أن تذكروا قول الشعب إن مجرد لمسها يجلب السعادة . وجثوا في الحال إجلالا أمام ملكهم ، الذي يعرف أسرار الطبيعة .

فوجئ بوبا في البداية ، متأثرا بهذا الإكرام غير المتوقع . وقال لهم :

«قفوا أيها الأصدقاء! لا يجوز هذا السجود لأي إنسان، ولو كان ملكاً! هذا الإجلال لا يحق إلا لله وحده. انهضوا! هيا نكمل نقاشاتنا في قاعة العرش».

نهض الجميع. ودخل الضيوف الكبار إلى القاعة، خلف ملكهم ومستشاريه.

ولكن، قبل أن يستطيع دياالي افتتاح الجلسة، كما جرت العادة، وقف رجل من الجالسين في الأمام، وأعلن:

«ليسامحني صاحب الجلالة على تجرؤي على الكلام أولاً. كلفني رفاقي، حكام المناطق، وزعماء المقاطعات والنواحي، أنا جيلاديو، حاكم منطقة لومبول، بتبليغك الرسالة التالية: أيها الطفل - الملك، نحن عينك التي ترى وأذنك التي تسمع على امتداد المملكة. نحن من يدير دفة السلطة الملكية التي كرمتنا بها. نحن من يحكم باسمك بالعدل والإنصاف في أقاليمنا. نحن من يتبين، ويعرف عنايتك واهتمامك الدائم بالشعب! وعليه، فإننا نقسم بأن نحصي منذ اليوم العادات السيئة التي تضر بالرجال، والنساء، والأطفال. نقسم على أننا سنقنع رعايانا بتركها. نقسم بأننا سنقضي على كل هذه العادات الظالمة، والشريرة، والتمييزية، والمذلة، حتى لا تعود مؤذية لأي رجل، وأي امرأة، وأي طفل في مملكة السانوكا!». ما إن بلغت الرسالة، حتى نهض المشاركون، وصرخوا بصوت واحد:

«نقسم على ذلك! نقسم على ذلك!».

لم يتوقع الملك الشاب مثل هذا الإقرار، الذي تأثر به تأثراً شديداً. نهض، وترك عرشه ليصافح هؤلاء الرجال، الذين عبروا

له، بتغيير رأيهم المفاجيء، عن تعاونهم الصادق لإلغاء هذه المظالم الكريهة، الآتية من تقاليد لا ترحم. فهي تعزز الأقوياء غالبا على حساب الضعفاء، وتسلب اليتيم حقوقه، وتتغص عيش الأبرياء، وتضر بالفقراء، الذين لا حول لهم ولا قوة.

بعد ذلك بعدة أيام، عاد القصر إلى هدوئه وشؤونه اليومية المعتادة، عقب مغادرة الضيوف إلى ديارهم.

بعد ظهر ذلك اليوم، الذي هبت فيه رياح شرقية حارة، غادر الملك والملكة إلى مقر استراحتهما في كوسوما، على شاطئ البحر، للاستمتاع ببعض البرودة، بعيدا قليلا عن القصر. كان هناك أيضا دياي، والجد والي، والعمة مبوديا، وتاكو وجميلة، رفيقتا الملكة، وكذلك المخلص موري. وعندما رأى شاعر وموسيقي القصر بوبا وسيرا يتهامسان، كأنهما طفلان لا مباليان، عزف على الكورا، منشدا بصوته الذي يعرف كيف يجعله عذبا:

«بيدو لي أن الفرح قد عاد إلى قلب مولاي ومولاتي. أزهرت الابتسامات مرة أخرى على شفتيكما، وتلألأت عيونكما من جديد. هل يمكنني إعلان عودة السعادة إلى بيت سيدي على أنغام الكورا؟».

ضحك بوبا عاليا. هاهي ضحكته الطفولية البهيجة تعود، بعد أن ظن البعض أنها انطفأت منذ وقت طويل وإلى الأبد، بسبب الأحداث المؤلمة التي تتالت على القصر. عندما سمعها الحاضرون في كوخ الاستراحة، شعروا بها كالبلسم يداوي قلوبهم.

رد الملك الشاب على صديقه:

«ديالي، يا صديقي الطيب دياي، بح لآلتك الكورا بسر الحياة

الذي سأقوله لك: لا يهجر الحزن قلب المرء تماما، بل يخف، ويسكن مع الزمن. يهدئه كثيرا عزاء الأقارب، والأصدقاء المخلصين، مثلكم أنتم الموجودين هنا إلى جانبنا. ذلك عدا عن أن سيرا وأنا مقتنعان الآن أن أحدا في السانوكا لن يجرؤ بعد اليوم على إهانة الأرامل، ولن يحاول أي شخص تسميمهن. لن يخاطر إخوة الزوج المتوفى بأنفسهم للاستيلاء على خيرات الراحل على حساب اليتامى. لن يكون هناك مكان بعد اليوم لتلك المظالم الصغيرة، التي فرضها الانتهازيون في الماضي، ثم سادت بين الناس باسم العادات والتقاليد. لما أدركنا ذلك، شعرنا سيرا وأنا بالفرح والرضا، ووجدنا فيه بعض العزاء بعد فقدان طفلتينا الأليم. لهذا بدأت الفرحة تعود إلى قلوبنا من جديد».

أجاب ديابي، دون أن يتوقف عن العزف على الكورا:

«نعم، يا صاحب الجلالة. صحيح ما قلته. كثيرا ما كان والدي يقول إن الحياة مجبولة على المتناقضات: الخير يحاذي الشر، والفرح يعقب الألم، والدموع تأتي والضحكات تمضي، والإعصار يزمجر ثم تسطع الشمس. لكن الله يحب مخلوقاته الطاهرة ويحميها، مثلك ومثل الملكة».

٤ - تحدي الأسد - الملك

بعد أسبوع وادع أمضيته في دارة كوسوما، عاد الملك والمملكة إلى القصر في كور دياما.

مضت الأيام عادية، دون أحداث تذكر. في ذلك الصباح الهادي، عقب جلسة المشاورات مع مستشاري المملكة العقلاء، ذهب بوبا إلى كوخ استراحته. بدت طيور أبو الحن، والنقار الأخضر، والقرقف، وبعض الترغلات كأنها بانتظاره. راحت ترفرف حوله هنا وهناك، وتحط أحيانا على كتفيه، وتتقر الحبوب من يديه، أمام أعين سيرا، المدهوشة دائما بهذا المنظر، وديالي، وعرفان، وحتى الجد والي، وأيضا بعض الأعيان الذين حضروا إلى الكوخ، المبني سقفه من القش المثبت بوتيدات.

توقف ديالي عن العزف على البلافون ١، لي طرح سؤالا:

«هل يمكنك الإجابة يا مولاي إذا سألتك ما هي السعادة؟».

- ولكن يا ديالي، أنت من يجب أن يفسر لي معنى السعادة، ومم تكون، وكيف نبلغها، نظرا لسعة معرفتك وخبرتك في الحياة.

- رغم أن شعري بدأ يشيب يا سيدي، لا أستطيع إعطاء جواب شاف. لذلك، أطلب الإجابة من الجد والي.

تردد الرجل العجوز لحظة، وداعب لحيته البيضاء، ثم قال:

«أعتقد أنه لا يمكن لأي إنسان، أو أي فيلسوف، تقديم جواب مرض عن هذا السؤال. عندما كنت صبيا صغيرا، روى لي جدي أنه في بلد بعيد، في الشرق، عاش ملك قوي جدا. بحث كثيرا عن السعادة. كانت لديه ثروات لا تحصى: ذهب، وفضة، وأحجار كريمة من كل نوع. ضمت حظائره الواسعة ألف حصان أصيل.

وزينت قصره زوجات كثيرات من أجمل نساء المملكة. وارتدى
أفخر الثياب الحريرية. وسكن أفخم القصور. وأكل ألد المأكولات.
عزف له أوبرع الموسيقيين أروع الأنغام، وغنوا أحلى الأغاني في
الدنيا. مع ذلك، ذات يوم، عبر هذا الملك القوي، الذي لم يجرؤ
على مهاجمته أي من جيرانه، عن مله وضجره: طيور السماء لا
تفلاح ولا تزرع، بل تأكل حتى تشبع. أصغر زهرة في الحقول
ترتدي أجمل مني. لدي القوة والمجد، ولكن ما الفائدة من ذلك إذا
كنت أعرف أنني سأموت غدا؟ لا يمكن أن تصنع ثروة بمفردها، أو
شباب، أو سلطة، أو صحة سعادة. غالبا ما تدفعك هذه الأشياء
إلى الخيلاء. البحث عن السعادة في مثل هذه الأمور أشبه
بمطاردة الريح».

أصغى الجميع بانتباه إلى حكاية الجد والي. وتأمل كل منهم
كلمات العجوز المفعمة بالحكمة. قال بوبا لصديقه المخلص ديالي:
«هل سمعت يا صديقي ما قاله جدي؟».

- نعم، نعم يا صاحب الجلالة. لا شك أن هذا الملك كان يتمتع
بالكثير من الحكمة والتجربة الأكيدة في الحياة. وخبر الناس
أيضا.

- نعم يا ديالي. وأنا أضيف شيئا بسيطا: «يمكن أن يحس الإنسان
بالسعادة في فعل الخير، ونشر العدل، والابتعاد عن الأعمال
المنكرة، وتجنب العار. وخلافا لما يظنه كثير من الناس، الثروة لا
تجعل المرء أكثر سعادة. في قريتنا، لم يكن لدينا، جدي وأنا، سوى
بستان وبعض الخراف والدواجن. واليوم أسكن قصرا. تحت
تصرفي خزائن ملاء بالذهب، لكن هذا الذهب لا يزيدني سعادة.

وجود سيرا إلى جانبي يضيفي على حياتي فرحا لا تعادله كل ثروات المملكة. وأنت يا دياالي، صداقتك لي أفضل من الألباس. وتقاني موري في سبيلي، وأمانة خليفة قائد الجيش نحوي، ومحبة مستشاري الصادقة لي تسعدني، وهي أئمن عندي من كل الذهب والأحجار الكريمة».

في هذه اللحظة، جاء صوت الطبل من بعيد. سكت الجميع ليصفوا إلى الرسالة. راح دياالي يفسرها: «جماعة من الأسود هاجمت قرية دندول خلال الليل. قتل عشرون شخصا وجرح اثنان وثلاثون».

تردد صوت الرسالة مرتين. هذا الخبر، المفاجئ فعلا، جعل القصر في حيرة كبيرة من أمره. وبينما أخذ الملك يعطي تعليماته، لاستدعاء المجلس بسرعة، حمل الهواء رسالة ثانية:

«زرعت جماعة من الأسود الرعب في قرية سمبل. القتل خمسة عشر والجرحى ثمانية وعشرون. القرية تطلق نداء استغاثة».

أذهلت الرسالة الثانية الطفل - الملك وحاشيته كثيرا. وما إن علم المستشارون الآخرون بالنبأ، حتى هرعوا إلى القصر، مما أتاح للمجلس الانعقاد دون تأخر.

قال بوبا متأثرا جدا:

«أنت يا سامبا كا قدت قطع ثيرانك كثيرا إلى السهول العشبية. وجابهت الأسود مرارا لتحمي ماشيتك. هل يمكنك أن تفسر لنا ما حدث في دندول وسمبل؟ أعترف أنني لم أفهم من هذا الأمر شيئا».

- أنا كذلك يا صاحب الجلالة. فاجأني هذا الموضوع. عادة، لا

يهاجم الأسد ذو الصحة الجيدة إلا الحيوانات كي يأكل. ولكن، عندما يجرح ويصبح معوقا، ويعجز عن مهاجمة ظبي، أو حمار بري أو جاموس، يغدو وحيدا. في هذه الحال، يهاجم الإنسان كي يأكل، لأنه الفريسة الأسهل بالنسبة إليه.

- لكن هذا لا يفسر هجوم هذه السنوريات على القريتين ليلا.
- في الواقع، لا أفهم هذا السلوك غير المؤلف. يجب التوجه حالا إلى المكان لمعرفة ما حدث بالضبط.
- أعتقد ذلك. سنسافر إلى هناك منذ الغد.
- أود مرافقتك يا صاحب الجلالة، رغم كبر سني، لأن هذا السر يحيرني.

- نعم، ستذهب معنا، وكذلك دياتي، وعرفان وخليفة. سيؤمن حمايتنا خمسة وعشرون حارسا، بقيادة موري. جدي، أترك سيرا في رعايتك. اعتن بها وبالعمة مبوديا. سيتولى بكري شؤون الأمن في القصر.

«عند فجر اليوم التالي، غادرت الوحدة الصغيرة القصر بسرعة الخيل العادية. سلكت شارع كور دياما الرئيسي، يتقدمها حامل الراية الملكية المرفرفة في هواء الصباح».

«ما إن خرجوا من العاصمة، حتى انعطفت الفرسان شرقا، وظهرهم إلى البحر. انطلقوا بسرعة. وعبروا سهلا عشيبا واسعا فيه حيوانات مختلفة. في هذه المساحات الشاسعة، كانت تتنقل الجواميس، والفيلة، ووحيد القرن، والزرافات بكل حرية. ثم، أصبحت الأرض مرتفعة قليلا. هنا موطن حمار الوحش، والغزلان ذات القرون الطويلة والمديبة، والنعام. من وقت لآخر،

كانوا يَمرون بظباء تفر حال اقترابهم منها، فتقفز تلك القفزات العجيبة التي تساعد على الإفلات من مفترسيها، الأسود والنمور والفهود. وفي السماء الزرقاء، رأوا صقورا وعقبانا تحلق عاليا جدا».

«ولما انتصف النهار، توقفت الوحدة في ظل أشجار القابوق، كي ترعى الجياد وتستريح قليلا. بعد ذلك، ركب الجميع، وانتظروا إشارة الانطلاق من موري. لما رفع يده، أشار بها فجأة إلى اليمين، باتجاه شجرة باؤياب مكث في ظلها شيئان غير واضحين. نهض الطفل - الملك واقفا على ركابه، كي يرى بوضوح أكثر. تحرك الحيوانان الضخمان. لا شك أنهما لن يبقيا ساكنين هكذا. شرح الملك لمرافقيه بصوت منخفض: إنهما وحيدا القرن. ليس هناك أغبى من هذا الحيوان في السهل العشبي. لكن ضخامة جسمه وشراسته تجعلانه من أخطر البهائم. اعلّموا أنه لا يمكن لأي سهم أو رمح اختراق جلده، الأسماك من الدرع. من حسن الحظ أنه لا يرى لمسافة بعيدة، لكن سمعه وشمه قويان جدا. لو أن الريح هبت نحونا، لاكتشفتا هاتان البهيمتان وهاجمتا منذ البداية».

سأل خليفة، الذي قلق جدا:

«هذان الوحشان يسدان علينا الطريق يا صاحب الجلالة. كيف سنتخلص منهما؟».

- انظر إلى اليمين، بعيدا. هناك منحدر شديد الوعورة تحته واد عميق. يجب رميها فيه. ابقوا هنا بين الأشجار. سأتولى أمرهما!

«قبل أن يتمكن أحد من الرد على الملك الشاب، نكز حصانه،

واتجه مباشرة نحو شجرة البأؤباب. ما أن لمح وحيدا القرن
الفرس، حتى تحركا غريزيا. أخفضا رأسيهما لمهاجمته بقرنهما.
ولحقا بالمغامر الذي أقلق راحتهم. انعطف بوبا بحصانه قليلا كي
يجر الحيوانين الهائجين وراءه. وتابع رفاقه المشهد المذهل من بين
الأشجار: فارس يطارده حيوانان ضخمان، وقرنهما إلى الأمام.
قصر بوبا المسافة التي تفصله عن الحيوانين، ثم غير اتجاهه
فجأة. ونجح الفخ بشكل رائع. لم ير وحيدا القرن المنحدر الوعر
جدا، وظلا يجريان بسرعة حتى سقطا فيه. وبقيتا يتدحرجان إلى
أن أصبحا في قعر الوادي. نهضا مضطربين. ولا بد أنهما تساءلا
في مخهما الصغير لماذا وجدا نفسيهما فجأة في هذا المكان
الغريب.

لحق الفرسان الآخرون بالملك، الواقف على حافة المنحدر الوعر.
ولأول مرة، خاطب ديالي مولاه بقسوة:
«ليس لك الحق في المخاطرة بحياتك هكذا يا صاحب الجلالة. لو
حدث لك مكروه، لصب الشعب جام غضبه علينا، نحن رفاقك،
لأنه سيعتبرنا مسؤولين عن ذلك».

تحير بوبا، ولم يستطع إلا أن يجيب:
«نعم، نعم يا ديالي، لكن الجميع يعرفون أن الحيوانين ضعيفا
البصر جدا ومخهما صغير جدا. أرايت كيف أخفضا رأسيهما
ووقعا على المنحدر؟ انظر إليهما الآن في قعر الوادي. لا بد أنهما
ما يزالان يتساءلان كيف حدث لهما ذلك».
قال بوبا ذلك وانفجر ضاحكا، مثل طفل لا مبال أنهى مقلبا مع
أحدهم. ولم يستطع ديالي إلا أن يبتسم.

استأنف الفرسان الرحلة. عند المساء، وصل الملك ورفاقه إلى قرية قرب أحد الوديان. نزلوا، وأمضوا الليل في أكواخ ضيافتها. في اليوم التالي، تابعوا الطريق. وأجبرتهم الشمس، الساطعة في وسط السماء، على الاستراحة قليلا مع جيادهم. استأنفوا بعدها المسير حتى المساء، إلى أن بلغوا قرية، حيث قضوا الليل. ثم ركبوا في الصباح ومضوا. وهكذا حتى وصلوا بعد الظهر إلى دندول. وحالما أصبحوا في القرية، عاد الملك ومستشاروه الجرحى. واستمعوا بعدئذ إلى مختار القرية ووجهائها. أكد هؤلاء ما ورد في الرسالة على قرع الطبل: قبل أربعة أيام، في منتصف الليل، جاءت الأسود ودخلت الأكواخ. قتلت وجرحت رجالا ونساء وأطفالا جروحا بالغة. وأكد عدة شهود أيضا أن الوحوش لم تهاجم حظائر الماشية المسورة أبدا. لم تطمئن هذه المعلومة الأخيرة الملك، بل زادته قلقا.

كان على سامبا كا الإقرار بعدم المعرفة، فالملك هو من يستشير: «لا أعرف يا صاحب الجلالة. أحيانا، يجول أسدان أو ثلاثة قرب مساكن الناس، بدافع الجوع. في هذه الحال، تهاجم الحظيرة، وتقتل ثورا أو اثنين وتلتهمهما. وفي السهل العشبي، تهاجم القطيع، لا الراعي أبدا».

لم يزد هذا الشرح الأمر إلا غموضا. مع ذلك، طرح الطفل - الملك سؤالا على ندياكا، مختار القرية:

«لاحظت، عند زيارة الجرحى، وجود جلد أسد معلق في كل الأكواخ تقريبا. لماذا؟».

- من عادة قريرتنا يا صاحب الجلالة أن يذهب كل رجل إلى

السهل العشبي لقتل أسد وإحضار جلده.
لما سمع بوباً ذلك، انتفض وصاح:
«آه، الآن عرفت!». فهتت لماذا هوجمت قريتك! هل هذه العادة
سارية عند سكان سمبل أيضاً؟
- نعم، يا صاحب الجلالة. ينتمون إلى قبيلتنا. لديهم عاداتنا
وتقاليدنا نفسها.

- لم يعد يفاجئني شيء. سأشرح لكم السر أيها الأصدقاء.
تعرفون أن الحيوانات التي تعيش في جماعات أو قطعان، تعين
رئيساً لها، الأقوى بينها غالباً. لها قانون، مثل البشر. تسير بعض
الأنواع، كالنمل أو النحل، حسب غريزتها. هكذا خلقها رب
العالمين. لكن أخرى، كالغوريلا، والقراديج، والفيلة، والأسود،
تخضع لنظام وقواعد، وتطيع رئيسها، مثلنا نحن. لا شك أن
الأسد - الملك قرر معاقبة سكان دندول وسمبل نظراً لما يسببونه
من معاناة لشعبه. سيشن هجمات أخرى، حتى يبيد كل القرويين
الذين يمارسون هذه العادة. أنا أتفهم رد فعله، لكني لا أبرره. هذا
هو الوضع.

دهش السامعون جداً لهذا التفسير الذي قدمه الطفل - الملك.
وطرح دياتي، وسامبا كا، وخليفة، وموري، وعرفان السؤال نفسه
تقريباً:

«ما العمل يا صاحب الجلالة؟ ما العمل؟».

«أولاً، يجب أن ينتشر الرجال الأقوياء في أماكن متفرقة، حول
القرية، للمراقبة، مسلحين بالرماح والخناجر. على كل رب أسرة
أن يشعل ناراً في وسط داره طوال الليل، لأن الوحوش تخاف من

النيران. يجب إرسال رسالة على قرع الطبول إلى قرية سمبل لإعلام أهلها أني موجود هنا، ولتتخذ الاحتياطات نفسها. أخيراً، أرسلوا رسالة ثانية تقول: الطفل - الملك هو الآن في قرية دندول، يطلب من صديقه كروا الحضور إليه».

حلّ الظلام. وسمع زئير واضح من بعيد. لكن أي وحش لم يهاجم دندول ولا سمبل، بسبب التدابير المتخذة دون شك.

في صباح اليوم التالي، عندما راحت الشمس تتسلق السماء، حلق كروا فوق القرية، ثم حط على كتف بوبا، أمام دهشة مستشاريه، الذين كان يتحدث معهم. ابتعد الصديقان قليلاً. تحدث كروا، الذي لا يتعب من الشرثرة، إلى الملك طويلاً. ورجع بوبا إلى أصدقائه ليبلغهم قراراته:

«يجب عدم إضاعة وقتنا. هاكم ما يلزم القيام به: ستأتون معي أيها المستشارون. موري، سلم قيادة الحرس لأحد رجالك. سينتظروننا هنا. اختر خمسة منهم لمرافقتنا. هيا، الوقت يمر بسرعة».

ركض بوبا نحو كوخه الخاص. واتخذ بعض الاستعدادات. ثم خرج، وقفز على حصانه. غادرت الوحدة الصغيرة دندول بسرعة. ورأى الفلاحون في الحقول، دون أن يفهموا شيئاً، أحد عشر فارساً يغذون في الجري وراء غراب محلق أمامهم مباشرة.

وبعد وقت طويل من المسير المتعب، استراحت الكوكبة الصغيرة قليلاً في ظل شجرة قابوق ضخمة، حيث جثم كروا كأنه ينتظرهم. تناول الطفل - الملك رمحيه، وأعطى تعليماته:

«ابقوا هنا جميعاً. سأعود بأسرع وقت ممكن. انتبهوا جيداً. قد

تهاجمكم الوحوش. اعتنوا جيدا بالحياد».

صرخ ديالي:

«أقسمت ألا أبتعد عن مولاي أبدا، مهما كانت المخاطر. أنا قادم معك».

احتج موري بدوره:

«أقسمت يا مولاي أمام مجلس الحكماء أن أحميك في كل الظروف، وأن أفديك بحياتي إن اقتضى الأمر. اسمح لي بمرافقتك».

- لا، لا يا أصدقائي. شكرا لاهتمامكم. ولكن، كي تنجح مهمتي، يجب أن أذهب لتنفيذها وحيدا. ثقوا بي.

٥ - لقاء الملكين

توغل بوبا بين الأعشاب الطويلة، حاملا كروا على كتفه، حتى اختفى عن أنظار رفاقه. مشى بحذر. تسلق بعض الصخور، ثم نزل نحو أرض جرداء مرتفعة قليلا.

هنا، في ظل شجرة صنوبر بدت كالمظلة، وجد أخيرا ضالته. كان الأسد - الملك مستلقيا بتكاسل على خاصرته، نائما بعمق، دون أي احتياطات، واثقا من قوته ورعب منظره.

ألقى بوبا رمحيه جانبا بهدوء. جلس على الأرض بلا أي صوت، وجثم كروا بجواره. وبعد بعض الوقت، فتح الوحش عينيه بعد أن أزعجته ذبابة كبيرة بطنينها قرب أذنه، فرأى صبيا جالسا قربه ينظر إليه مبتسما. نهض وهم بالوثوب على هذا المخلوق الصغير. لم يخف بوبا أبدا، بل رفع يده وقال:

«رويدك أيها الأسد - الملك، رويدك! اهدأ! لو أردت قتلك، لانتهيت منك منذ وقت، لأنني وجدتك نائما. هاهما رمحاي، انظر، إنهما بجانبي».

سكن غضب الوحش، ولبث مدهوشا، ثم أجاب:

«ولكن... ولكن من أنت؟ كيف استطعت معرفة لغتنا؟».

- اسمي بوبا. سكان هذا البلد يلقبونني بالطفل - الملك، لأنني أحكم السانوكا. أنت نفسك، ولو كنت ملكا على جماعتك، تعتبر واحدا من رعاياي. عليك واجب الاحترام والطاعة نحوي.

- لماذا يجلس هذا الغراب بجوارك؟ ماذا تريدان أنتما الاثنان؟ كيف تتجرآن على أن تتحديانني في عقر داري؟

- بهدوء يا صديقي، بهدوء! لم كل هذه الأسئلة دفعة واحدة؟ هذا

الغراب اسمه كروا. أنا فخور بصداقته. هو من دلني على مكانك.
عليك الآن أن تحزر سبب زيارتي.

- نعم، نعم، جئت بصدد الهجمات التي نظمتها بنفسى ضد تلك
القريتين.

- لماذا قتلت أولئك الأبرياء العزل، فى منتصف الليل وهم نيام؟
- هؤلاء الأبرياء العزل، كما تصفهم، يهاجمون شعبى باستمرار.
فى الماضى، كنا نتواجه بشرف، وبأيديهم رمح أو سكين. أما اليوم،
فينصبون لنا أكثر الفخاخ جبنا: الحفر، والشباك، والحبال،
وغيرها من الأشرار الشيطانية. والأسوأ، أنهم يسلخوننا ليعلقوا
جلودنا أمام أكواخهم. يجب إيقاف ذلك! عندما أتذكر أن شقيقى
لاقى هذا المصير المؤلم، يمتلئ قلبى سخطا، وتراودنى رغبة فى
التهامك. يا لك من وجبة شهية صغيرة! سأجعلك بذلك عبرة
لأهالى دندول وسمبل. نعم، أموت رغبة فى قضم عظامك أيها
الطفل - الملك!

- انزع هذه الفكرة من رأسك أيها الأسد - الملك. لا تتخذ
بضالة منظرى. صحيح أنى لا أملك أنيابك، ولا مخالبك، ولا
قوتك طبعاً. ولكن، انظر إلى جيداً. أترى هذا الخاتم فى إصبعى؟
طرفه المدبب مغموس بمادة نباتية خاصة. يكفي أن أخزك به حتى
تشل فوراً، فأتفرغ لذبحك بخنجري هذا. هل تريد أن أريك؟

- لا، لا، أقول ذلك كي أخيفك فقط. ولكن أرى أنه لا تتقصصك
الشجاعة ولا الجسارة. والآن، ماذا تريد منى؟

- أريد أن تكف عن حملاتك الليلية. أطلب إيقاف مجازرك. أريد
أن يعود السلام من جديد بين الأسود والبشر فى هذه المنطقة.

يجب أن تقسم لي على ذلك. لهذا خاطرت بحياتي عندما جئت لمقابلتك.

- أنا أيضا أنشد السلام، لأنني لا أحب الاعتداء، رغم المظاهر. مع ذلك، لي شروط: أولا، يجب أن يضع سكان هذه المنطقة حدا لهجماتهم ومضايقاتهم لنا. ثم أنه يجب أن أستشير زوجتي الاشتتين، وكذلك أبناء أخي.

- أعدك بأن يكف رعاياي منذ اليوم عن الاعتداء على شعبك، لأنني سأزيل هذه العادة التي تزعجكم. سيطيعونني. والآن، أتفهم إرادتك في استشارة ناري وفاتا. ولكن انته من ذلك سريعا.

- كيف عرفت اسمي زوجتي؟ هل أنت عفريت؟

- لا، أنا مجرد إنسان، لكني أعرف أشياء كثيرة تجهلها أنت. لا تنس أنني أحكم الناس، وهذا أصعب من حكمك للأسود. أحب هذا البلد، وأرغب في أن يخيم عليه السلام دائما. لهذا جازفت بحياتي وأتيتك وحيدا. والآن، أسألك: متى ستعطيني الجواب؟

- بعد ثلاثة أيام، عندما تصبح الشمس في أوج السماء. انتظرني شمال قرية دندول، قبالة غابة أشجار الباؤباب الصغيرة. سأحمل لك إجابتي. والآن، عد إلى جماعتك، قبل عودة أفراد أسرتي، لأن زوجتي ناري وفاتا ستلتهمانك حتما، وقد لا أستطيع منعهما.

كان سامبا كا، وموري، وخليفة، وعرفان، وديالي، وكذلك الحراس الخمسة، ينتظرون بقلق متزايد عودة ملكهم، قرب شجرة القابوق الكبيرة. وقفوا يتعذبون ندما لأنهم لم يلحقوا به في السهل العشبي، المحفوف بشتى المخاطر. تصوروا أكثر الاحتمالات تشاؤما، لأن أي شيء، مهما صغر، في هذا الوسط المعادي قد

يقضي على الإنسان: لدغة عقرب أو أفعى سامة تقتله، أو مخلب وحش مفترس جائع يلتهمه، أو جاموس هائج ينطحه، أو وحيد قرن غاضب يقر بطنه أو يطأه بقوائمه فيحوّله إلى عجينة. الموت يجول في كل مكان، خلف الدغل، وبين العشب، وتحت شجرة يترصد بين أغصانها نمر شرس، وعند منعطف نهر، أو قرب مستنقع.

هؤلاء الرجال، يعرفون كل هذه الأخطار. تذكروا أيضا المثل الذي يقول: «لا أحد يصادف صديقا داخل الغابة».

فجأة، تحركت الأعشاب الطويلة أمامهم، ف تراجعوا قليلا. ظهر بوبا، ورمحاه في يديه. لمحوه يضحك، إذ بدا وكأن الغراب الجاثم على كتفه يحكي له حكاية ظريفة. هرع الرجال لملاقاته، سعيدين به، ومرتاحين لرؤيته حيّا. قال ديالي بصوت مرتفع يشبه الصراخ: «كدنا نموت خوفا عليك يا صاحب الجلالة منذ ذهبت. ها أنت تعود حمدا لله سليما معافى، ولا تشاركنا القلق، لأنك تضحك».

- نعم يا صديقي ديالي. أضحك لأن كروا ذكرني بدهشة الأسد - الملك عندما استيقظ ورآنا نجلس إلى جانبه.

لما سمعه رفاقه يقول ذلك، تحلقوا حوله. وتكلموا كلهم معا تقريبا: «ماذا؟ ماذا؟ رأيت الأسد - الملك يا صاحب الجلالة؟».

- نعم يا أصدقائي، رأيته بعيني!

- كيف أمكنك ذلك يا صاحب الجلالة؟ يبدو أنه لم يهاجمك. لماذا؟ أخبرنا يا صاحب الجلالة، أخبرنا! بعد القلق، يضمننا الفضول!

- رويدكم أيها الأصدقاء، رويدكم! أولا، لنجلس في ظل شجرة

القابوق. بينما أنتم في انتظاري هنا، توجهت إلى عرين الأسد - الملك، بعد أن دلني عليه صديقي كروا. فاجأنا جلالته وهو في عز نومه. تركناه نائما، وجلسنا قبالته. لما استيقظ، فوجئ، ودهش، ثم غضب. أراد تناول فطوره، فأقنعتة بالعدول عنه. وأحب أن أخبركم أن الفطور الذي أراده هو أنا!».

رغم الخوف البادي على وجوه مستمعيه، قال بوبا هذه الكلمات وهو يضحك عاليا، متذكرا موقف خصمه. ثم تكلم برصانة، وشرح بالتفصيل مقابله مع ملك الغابة. في نهاية الحكاية، بقي عرفان، وديالي، وسامبا كا، وخليفة مفكرين لحظة. طرحوا أسئلة أخرى. ثم، ورغم قلقهم وهم يتصورون ملكهم وحيدا في مواجهة الأسد، أثوا على موقفه الشجاع في إنهاء المجازر، التي يتعرض لها القرويون.

تحت الشجرة، في قلب الغابة، عقد الطفل - الملك اجتماعا حقيقيا. سرّ الحراس الخمسة كثيرا بعد أن دعاهم الملك للانضمام إليه. أدلى سامبا كا، وعرفان، وخليفة، وموري، وديالي بآرائهم، كل بدوره. استمع إليهم بوبا بانتباه، وثمن نصائحهم واستحسنها. بعدئذ، ركب الجميع جيادهم للعودة إلى دندول، التي وصلوها بعد جري لا مثيل لسرعته.

حال ترجلهم، استدعى الملك ومستشاروه السكان إلى الساحة الكبيرة، قرب البئر. وأصغى الرجال، والنساء، والأطفال بصمت تام إلى ديالي، الذي تكلم أولا:

«يا أهالي القرية، رغم أن كور دياما بعيدة، لم ينس ملكنا المحبوب أيا من رعاياه. يعني ذلك أنه ترك مدينته وشؤون الحكم كي يأتي

إلى هنا، وينهي إلى الأبد المأساة التي تعيشونها هذه الأيام. اكتشف مولانا سبب هذه المذابح الوحشية، التي ارتكبتها الأسود في دندول وسمبل. ربما تجهلون الأمر، فبعض الحيوانات التي تعيش في جماعات، كالأسود، تتصرف كالبشر. تسير مثلنا وفقا لقانون يحكمها. عندها مراتب، وقائد، وقواعد يحترمونها. لكن العادة في منطقتكم تقضي أن يذهب الرجال لقتل أسد، ثم سلخه وتعليق جلده أمام الكوخ، تعبيرا عن بأسهم وإرضاء لغرورهم في الوقت نفسه. هذه الوحوش، المنظمة جيدا، لا تجهل عادتكم. لهذا جاءت في جماعات لتكافحها، وهاجمت أكواخكم ليلا. التقى* الطفل - الملك، الذي يعرف الحيوانات جيدا، لأنه يفهم لغة معظمها، بالأسد - الملك. قبل هذا الأخير إيقاف الأعمال العدائية، ولكن شرط أن تتخلوا عن مهاجمة الأسود وسلخ جلودها. سيجتمع ملكنا الشجاع خلال ثلاثة أيام بملك الوحوش لعقد السلام، وإلا استمرت الهجمات الليلية. القرار لكم».

بعد ديالي، تحدث بوبا إلى المحتشدين:

«شرح لكم مستشاري ديالي الوضع بوضوح. عليّ مقابلة الأسد - الملك في غضون ثلاثة أيام، على الرغم من الأخطار المحدقة، لأبلغه قراركم، لأن مصيركم الآن بين أيديكم. ها أنا بانتظار ردكم الآن».

تقدمت امرأة عجوز، ووقفت أمام الملك. انحنى، وراحت تتوسل:

«يا صاحب الجلالة، ذهب ابني الكبير ذات يوم إلى السهل العشبي ليحضر جلد أسد. افترسته الوحوش، ولم نجد سوى عظامه. في الأسبوع الماضي، عند منتصف الليل، اقتربت الأسود المتوحشة، التي يبدو أنها تفكر، وغزت القرية. قتلت كثيرا من الأشخاص،

بينهم زوجي وولدي، اللذان لم يبق لي غيرهما. يجب إيقاف هذه المآسي حالا يا سيدي!». يجب أن نطلب من رجالنا الكف عن هذه العادة، التي لا تجلب لنا سوى البؤس والحزن». وكما لو أنهم كانوا بانتظار هذه الإشارة، هتف القرويون بصوت واحد:

«يجب ترك هذه العادة! يجب ترك هذه العادة! السلام مع الأسود! السلام مع الأسود!».

رفع الطفل - الملك يده طالبا السكوت. ولما هدأت الجلبة، قال: «يا رعاياي الأوفياء، أرى أنكم آثرتم العقل. سأعقد باسمكم سلاما مع الأسد - الملك خلال ثلاثة أيام، في المكان الموعد. بانتظار ذلك، أطلب منكم إحضار كل الجلود التي بحوزتكم إلى الساحة. ستحرقونها فورا، تعبيرا عن قراركم وموافقتكم». نفذ الطلب فورا. أشعلت نار قوية في وسط الساحة، ألقى فيها السكان كل جلود الأسود. وبناء على أمر الملك الشاب، أعلن الخبر أولا على قرع الطبول في البلد كله. ثم أبلغت قرية سمبل بوصول الملك الوشيك إليها.

ترك بوبا خمسة حراس في دندول، ومضى على حصانه باتجاه القرية الأخرى، ترافقه بقية الكوكبة.

كانت الأرض ترتفع شيئا فشيئا إلى أن انتهت بنجد تثبت فيه أشواك وأعشاب طويلة. أخيرا وصل الفرسان إلى بحيرة واسعة زخرت ضفافها بنبات كثيف، البردي، والقصب، والكثير من النباتات الأخرى، التي تنمو في الأماكن الرطبة. أدهشتهم مياهها الصافية، المالحة قليلا، المليئة بسمك الجري، والتيلابيا، وسواهما

من الأسماك البديعة الألوان، غير الموجودة إلا هنا. وفاجأتهم ملايين طيور الماء من كل نوع ولون، لاسيما النحام الكثير، الذي بدا كبساط زهري على الضفاف الرملية.

أعجب بوبا ورفاقه كثيرا بهذا المنظر الرائع، الذي زادته الجبال الخضراء البعيدة جمالا، بينما راحت الشمس تترك بقعا متوهجة هنا وهناك، وهي تتحني نحو المغيب. التفت الفرسان، على مضض تقريبا، حول البحيرة الأخاذة، كي لا يزعجوا ضيوفها الوادعين، مستأنفين رحلتهم.

وصلوا إلى سمبل بعد الغروب. استقبلهم القرويون على أضواء المشاعل. بعد الاستقبال الحافل، ورغم الوقت المتأخر، أراد مختار القرية شرح المأساة التي أصابت القرية: قبل أيام، جاءت الأسود في منتصف الليل. غزت الأكواخ، وقتلت النائمين، ولم تهاجم حظائر الماشية.

استمع الطفل - الملك بانتباه إلى أقوال وجهاء القرية. ثم، أجل المناقشات إلى الغد، لأن مستشاريه كانوا منهكين من التعب. وذهب الجميع للنوم.

مع أول صيحة ديك، نهض السكان، مدركين أنهم سيعيشون اليوم نهارا لا ينسى.

بدأ الملك الشاب، يرافقه مستشاروه، بزيارة الأسر المنكوبة. شجع البعض، وآسى البعض الآخر، مظهرا رأفته واهتمامه برعاياه. وفي أحد الدور، وجد موري وحراسه صعوبة كبيرة في تأمين حماية الطفل - الملك وتخليصه من جموع الناس الحاشدة، التي كادت تخنقه. في الواقع، حاول الجميع، الرجال، والنساء،

والأطفال مسك يده أو لمس ثيابه، لاعتقادهم أن مجرد لمسه أو الاقتراب منه يجلب لهم السعادة.

ما إن ابتعد قليلا عن هذا الحشد البشري، الذي أحاط به من كل جانب، حتى استدعى الملك الشاب مطيب القرية. دله على أكثر العلاجات فائدة ل مداواة الجرحى، وأطلعه على النباتات التي تجعل الجروح تلتئم بسرعة.

طلب عرفان من مختار القرية جمع السكان في الساحة الكبيرة. توجه الملك ومستشاروه بمرافقة الحراس إليها مباشرة، بعد أن احتشد فيها الرجال، والنساء، والأطفال. وألقى ديالي في الحال الخطاب نفسه الذي ألقاه في دندول. ثم تكلم بوبا:

«شرح لكم مستشاري الأمين ديالي بوضوح حالة الحرب التي تواجهونها مع جماعة الأسود، التي ساقابل ملكها في غضون يومين. إذا قبلتم بعدم مهاجمتها بعد الآن، سأتمكن من عقد اتفاق السلام معها. وإذا لم تقبلوا، أعتقد أن الاعتداءات ستستمر، مع ما تخلفه من قتلى وجرحى وآلام. هل ستختارون الحل العاقل، مثل أهالي دندول، أم تفضلون الاستمرار في التحدي الذي لا جدوى منه؟ أجيئوني بسرعة، الوقت يمر».

تقدم مختار القرية من الملك، وقال:

«إن في مفادرتك العاصمة يا صاحب الجلالة، من أجل مساعدتنا، ومؤسساتنا، وحمائتنا، ما يعبر عن اهتمامك، ورأفتك، ومحبتك لقريتنا. شكرا لك ألف مرة! تقضي الحكمة أن نتخلى عن عادة لا تجلب لنا سوى البؤس والحزن. نريد منذ الآن السلام مع الأسود».

وردد كل المحتشدين بصوت واحد :
«السلام مع الأسود! نعم، نعم، نعم، السلام مع الأسود!» «السلام!
السلام! السلام!».
رفع الطفل- الملك يده طالبا الهدوء. توقفت الجلبة. وتابع بوبا
قائلا:

«أحضروا إلى هنا كل جلود الأسود وأذيالها، التي تحتفظون بها
في أكواخكم. ستحرقونها فوراً، تعبيرا عن عزمكم».
نفذ القرويون حالا تعليمات الملك. شبت نار قوية في المكان.
وألقيت في لهبها تذكارات صيد الأسود. وأعلن النبأ على قرع
الطبول في كل المملكة، مثلما حدث في دندول.
وبينما النار مشتعلة، أعطى بوبا إشارة الرحيل. ركب الفرسان
الأشداء جيادهم، واتجهوا سريعا إلى دندول، التي وصلوها حوالى
المساء. عبر الأهالي، المسرورون برؤية ملكهم مرة أخرى، عن
فرحهم بهتافات جذلى. علت أصوات الطبول. رقص الرجال
والنساء في البداية رقصة الموت، إكراما لأولئك الذين هلكوا في
هجوم الوحوش. ثم أصبح الإيقاع أكثر بهجة، تعبيرا عن مشاعر
العرفان للملك ومرافقيه.

في اليوم الثالث، امتطى بوبا ومرافقوه أحصنتهم، وساروا نحو
المكان المحدد للقاء. ولما أصبح قريبا منه، ترك كل رجاله على
أرض مرتفعة قليلا. نزل وحيدا، دون سلاح، إلى غابة أشجار
البأواب الصغيرة. وبعد أن ذهبت محاولاتهم لمواكبته عبثا، لاحقه
موري، وديالي، وخليفة بعيونهم، إلى أن اختفى عن نظرهم بين
الأعشاب الطويلة.

انتاب رفاقه خوف شديد، عندما رأوا من بعيد جماعة من الأسود تتجه نحو أشجار السهل العشبي الضخمة.

كان ديالي أول من أفصح عن مخاوفه:

«لن أجرؤ أبدا على إخبار أحد أنني تركت مولاي في وسط حشد من الأسود. ماذا سيحل بي لو التهمته؟ ماذا سيحدث للمملكة؟ ماذا سأقول؟»

لم يكذ ديالي ينهي كلامه النائح، حتى ارتفع صوت خليفة، مشحونا بالقلق:

«وأنا، أأست قائد الجيش؟ أأست معنيا بحماية الملك؟ ماذا سيقول الشعب إذا عرف أنني كنت أقف على تلة حينما بدأت الأسود القاتلة بافتراس مولاي؟ انظروا كم أنا مرتعد لهذه الفكرة! انظروا إلى عرق العار الذي يتصبب من جبيني! سيمحو ضعفي اليوم كل أعمالني النبيلة الماضية!».

قال موري لرفاقه وهو يحدق إلى المكان الذي غاب فيه بوبا:

«وأنا، ما المبررات التي سأقدمها للمجلس، والشعب، والملكة سيرا؟ مولاي أنقذ حياتي، وتخلت عنه. منحني صداقته، ولم أحمه اليوم. أقسمت ألا أتركه أبدا يواجه الأخطار بمفرده. وها أنا أنتظر هنا الآن، بجبن، بعيدا عن الخطر. لا بد أنكم تقرأون الخزي على وجهي. كم أأتمنى الاختباء في هاوية كي لا يرى أحد عاري. يا لفضيحتي، نعم، يا لفضيحتي!».

وبينما هم في تأوهمهم وقلقهم، عن حق، على مصير ملكهم، بدأ بوبا مفاوضاته مع الأسد - الملك. لكن بداية التفاوض لم تنبئ بشيء طيب:

«أيها الطفل - الملك، أراك وحيدا أمامي، وأمام زوجتي، وأبناء أخي، وأبنائي. أفضل حل هو أن نلتهمك. إذا حرم رعاياك من قائدهم، سيدعوننا نعيش في أمان». ضحك بوبا. لم يخف من هذه التهديدات المرعبة. وأجاب:

«أيها الأسد - الملك، أنت مخطئ جدا. في هذا البلد «ملايين الناس» يسكنون مئات ومئات القرى والضياع والمدن. اقتلني اليوم، وغدا سيتدفق هؤلاء إلى كل أرجاء هذا السهل. سيقتلون جميع الأسود، حتى لا يبقى حيوان مثلك في مملكة السانوكا.

- أهذا هو حلمك الذي تخفيه أيها الطفل - الملك؟ يبدو من مصلحتك أن ترى هلاك أبناء جنسي.

- أخطأت مرة أخرى أيها الأسد - الملك. أنا أحب كل الحيوانات، وأحميها، وأحترمها. وأتكلم لغتها. لقد خلق الله، الواسع الرحمة، الإنسان والحيوان. جعلنا مختلفين بعضنا عن البعض الآخر، لأنه دون شك يشاء التنوع: انظر كم هي الأنواع كثيرة ومتباينة. مع ذلك، كلنا من خلقه، كلنا عباده. يحب الجميع دون تمييز، بشرا وحيوانات. فطر الله الأرض فسيحة، كي تتسع لكل المخلوقات، فلا يزاحم بعضها بعضا. بالتأكيد، أنت وجماعتك تتغذون بالحيوانات آكلة العشب كي تعيشوا. بعد موتكم، تعود أجسادكم إلى التراب، فتغذيه وتحياه. وينبت العشب من جديد، ويزداد نموا وقوة، ليطعم آكلات الأعشاب بشكل أفضل. وتستمر دورة الحياة هكذا، وتدور كحلقة من بداية إلى نهاية ومن نهاية إلى بداية. ليس من مصلحة الإنسان تحطيم هذه الحلقة التي خلقها الله، ربنا جميعا. للأسود الحق في الحياة، كبقية أنواع الحيوان.

بدا الأسد - الملك مقدرًا كثيرًا هذه الكلمات المفعمة بالحكمة. ابتعد لحظات، وتكلم بصوت منخفض مع رفاقه، ثم عاد إلى ضيفه:

«أيها الطفل - الملك، تتم كلماتك عن تعقل ورشاد. اسمع ما قررت: لن يهاجم شعبي بعد اليوم شعبك، لأنك أكدت لي أن الناس لن يتحدونا بعد الآن. أعدك بذلك أمام عائلتي. اعتبرني منذ هذه اللحظة صديقًا لك، مثل هذا الغراب الذي يرافقك». من أعلى التلة، بقيت عيون دياالي، وموري، وخليفة، وعرفان، وسامبا كا والجنود مثبتة على المكان الذي غاب فيه الطفل - الملك:

فجأة، صرخ دياالي:

«الأعشاب تهتز. أرى أسدا، اثنين، خمسة، تسعة، تخرج. أرى، لا! تخدعني عينايا! هاهو الملك بينهم! ماذا يفعل؟. يضحك، يفرك رأسه بعفرة الأسود، كل بدوره، ويداعب رؤوس اللبؤات. آه! آه! أمسكوني، دوخني حر الشمس، عينايا لا تريان جيدا، لا أرى بوضوح...».

أغلق دياالي عينيه، وسقط إلى الخلف، لكن الحارسين خلفه سنداه ومدداه بلطف على العشب، بينما انطلق الآخرون للقاء بوبا، الذي راح يتسلق التلة بنشاط.

تحلق الرفاق حول ملكهم باحترام، دون أن يفيقوا بعد من دهشتهم. جثا الملك بجانب دياالي، الممدد على الأرض، وقد بدا كأنه مات. أمسك يده، وحدثه بهدوء:

«ديالي، دياالي، استيقظ، هذا أنا».

- أه، أنا في حلم. الآن أسمع صوت مولاي المحبوب يخاطبني.
- لست تحلم يا دياالي. أنا من يتكلم إليك. استيقظ، انظر إلي!
فتح دياالي عينيه، وأغلقهما، ثم فتحهما. ولما لمح بوبا مبتسما له،
نهض فوراً وضمه بين ذراعيه بقوة جعلت الملك يصرخ بصوت
منخفض:

«آي، آي دياالي، تكاد تخنقني يا دياالي! أنسيت أنك عملاق».
أقلته الصديق المخلص، وانحنى أمامه، وقال بعد أن استعاد وعيه تماماً:
- يا مولاي، أراك ثانية! ضربتني الشمس. شعرت بدوار، ورأيتك
في منامي. كنت تفرك رأسك بعفرة الأسود، ثم داعبت رأس
لبوءتين سمعتهما كأنهما تموءان بارتياح مثل هرتين.
- لم يكن ذلك حلماً يا دياالي. هكذا ودعت الأسد - الملك وعائلته.
لن يهاجموا أبداً القرى والناس المنعزلين في الغابة والسهل
العشبي. هيا أيها الأصدقاء، اجلسوا لأروي لكم لقائي بهؤلاء
الأصدقاء الجدد.

بعدئذ، وقد أثلج صدره اتفاق السلام الذي عقده، عاد الطفل -
الملك وبقيّة الكوكبة إلى دندول، لإعلان خبر معاهدة السلام.
توجهوا بعدها إلى سمبل لنشر الخبر السار. قرعت الطبول في
القريتين لإبلاغ السّانوكا كلها بعودة السلام والهدوء. وسعد
الأهالي بالطمأنينة التي عادت إلى ديارهم.
لم يضيع الطفل - الملك الوقت. عاد فوراً إلى كور دياما، عاصمته،
سعيداً برؤية الوفاق يعم مملكته بين البشر والحيوانات، المحكومين
بقوة الطبيعة ليعيشوا معاً، على الأرض نفسها، التي تتسع
للجميع.

٦ - عودة إلى القرية

صاح الديك. وراح قرص الشمس الأحمر يبرز من الشرق، كأنه لم يكن إلا بانتظار هذا الصباح، ملونا بالذهب والأرجوان السحب التي أرادت أن تجدل له إكليل غيوم.

كعادته، أخذ بوبا، الذي استيقظ منذ وقت طويل، يتأمل مشهد الطبيعة، التي تولد كل صباح. ثم، توجه إلى غرفة زوجته الشابة، يتبعه صديقه الأمين موري.

ما إن وصل إلى الباب، حتى فتح. انحنت سيرا تحية لزوجها، وقالت له:

«صباح الخير يا ملك قلبي. بدت لي الليلة دهرا شوقا إلى رؤياك».

- صباح الخير يا ملكة حياتي. أنت تشغلين كل أفكاري. لولاك، لبدا وجودي مثل حديقة بلا أزهار، وسماء بلا أطيّار.

- كل يوم، أشكر أبي لأنه اختار لي زوجا مثلك.

- أنا أيضا، سأبقى دائما في غاية الامتتان لجدي الذي كرمني بهذا الزواج.

مر الزوجان أمام موري، فانحنى محييا الملكة، التي خاطبته قائلة: «موري، آمل ألا تكون أنت من ينشر في القصر قصائد الحب التي ينشدها لي زوجي كل صباح.

- أنا... يا صاحبة الجلالة، لا، لست أنا من يفشي هذا السر، ولكن أقول لسيدتي إن المملكة كلها تعرف ذلك. في المدن، وفي أصغر قرية، وفي ساحة السوق، وتحت أشجار المداولات، الجميع يرددون أن الطفل - الملك ينشد كل صباح قصيدة حب لزوجته

المحبوبة. يقال أيضا إن شابات كثيرات يطلبن من أزواجهن الشيء نفسه، بحجة أن الملك هو قدوة البلد، ومن المناسب تقليده في أفعاله وحركاته.

بدأت الملكة الشابة محتارة، فابتسم الملك، وأخذها بيدها. عبرا باحة القصر، ثم توجهوا إلى مسكن الجد، الذي بدأ بانتظارهما على شرفته.

قال بوبا وسيرا في الوقت نفسه تقريبا:

«صباح الخير يا جدي. هل أمضيت ليلة هادئة؟»

- أحبي حفيدي الملك وزوجته الحسنة اللطيفة. نعم، الراحة تملأ قلبي. لكن سعادتي تكبر كلما رأيتهما تضحكان، كلاهما، مثل الماضي.

- أعرف يا جدي، أعرف. لكنك، أنت نفسك، تردد دائما أن الحزن سرعان ما يستولي على القلوب، وتتصح بعدم تركه يتوغل فيها عميقا.

- عليكما، أنت وسيرا، أن تتأسيا. الله الذي أعطى، يعطي مرة أخرى.

- نعم، نعم، غالبا ما يقول لي صديقي كروا ذلك. سيرا وأنا ذاهبان الآن إلى البستان، لا بد أنه ينتظرنا هناك.

- هيا، اذهبا يا صغيري. برعاية الله. سنلتقي في المجلس لاحقا. مرا في طريقهما بمسكن العممة مبوديا لتحيتها. وتابعوا السير نحو البستان، حيث وجدا دتييه، بستاني القصر، الذي حيا الملكين باحترام، وقدم لهما المعلومات اليومية حول البستان.

ملأ بوبا وسيرا كفيهما بحبوب الدخن والذرة الصفراء، ونثراها

لأصدقائهما الطيور، التي راحت تتزاحم على نقرها بلذة ونهم.
ترك الغراب كروا زحام رفاقه، طيور البلشون، وأبو الحن،
والببغاء، واليمام، وجاء ليتناول حصته من يد صديقه الملك. لما
شبع، ضايقه بوبا مداعبا:

«لم أرك منذ أسبوع. لا بد أنك تحلق من غيمة إلى أخرى، متحديا
العواصف والرياح، ومستطلعا المدن والأرياف».

- نعم، هو كذلك يا صديقي. المساحات الشاسعة هي ملك أولئك
الذين يطيطرون. أسرّتي وأنا نراقب البشر والحيوانات في الطبيعة.
نتفحص عاداتهم وتصرفاتهم. آسف أن أقول لك إن الحيوانات
التي غالبا ما تصفونها، أنتم الناس، بأنها متوحشة، تمتاز بسلوك
أعقل جدا من سلوك كثير من البشر.

- صحيح ما تقول يا كروا، صحيح. لذلك، الصداقة التي تكنها
أنت لي هي أقرب إلى قلبي من صداقة بعض الناس. الكثيرون من
البشر على الأرض يسعون للعيش في بطانة ملك غالبا من أجل
المصلحة، لنوال الحظوات أو للحصول على النفوذ. أما أنت،
فأعلم أن مشاعرك نحوي نقية، ونزيهة، وودية، وخالصة من كل
جشع، ولا ترجو من خلالها منفعة. لهذا أحبك وأصغي إلى
نصائحك.

- كلامك صحيح يا بوبا. الكثير من الناس قلبهم أسود،
وشرير. أما أنت، فقلبك يشبه السماء الزرقاء، وواضح. كما
أنه ليس لك لسان خبيث أو مخادع. لهذا، نحبك كثيرا، أسرّتي
وأنا». ولما أخذت الشمس ترتفع عاليا في السماء، طار كروا،
وتبعته أسرته. التفت بوبا فورا لإخبار سيرا بما دار بينهما،

وقد بدت مفتونة بما رأت.

بعد ذلك بقليل، توجه الطفل - الملك إلى قاعة المجلس، لدراسة بعض قضايا المملكة العاجلة مع مستشاريه الحكماء. ثم انتقل إلى كوخ الاستراحة يرافقه العجوز والي، والمستشار عرفان، والمخلص موري، وصديقه دياتي. وجد هناك سيرا، وتاكو، وجميلة.

بعد أن جلسوا جميعا، خاطب الجد حفيده:

«ستسر اليوم بزيارة أحدهم يا بوبا. سيدرك بأشياء جميلة».

- من تعني يا جدي؟

- انتظر يا صغيري. إنها مفاجأة.

أشار الجد بيده للحارس. دخل رجل إلى الكوخ، وانحنى محيا المجلس. فوجئ بوبا في البداية، لكنه سرعان ما عرف الزائر:

«أوه.. جالاي، مختار نديوبين، قرينتنا جدي وأنا.. أهلا بك في القصر! اعتبر نفسك في بيتك.

- شكرا يا صاحب الجلالة. عندما وصلت البارحة مساء، استقبلني جدك بحفاوة، رغم الوقت المتأخر.

- تعال اجلس بجانبني أيها المختار جالاي. هات ما عندك من أخبار القرية.

- جئت من أجل ذلك يا صاحب الجلالة. بفضل الله وفضلك، تعيش قرينتنا في رخاء ورفاه. لم تنتظر حتى تصبح ملكا كي تنشر السعادة والازدهار في نديوبين. كل فلاح يزرع حقله. أهراؤنا تفيض بالدخن والذرة الصفراء. ماشيتنا هي على أحسن حال. نحن فخورون بعيشنا في القرية الأكثر رخاء في السانوكا. اسمح لي يا صاحب الجلالة أن أشرح كيف أدير أرض أسرتكم، التي

أوكل جدك أمرها إلي، بعد أن غادرت القرية، كي تحكم البلد كله من هنا. هناك بستانني يهتم بالبستان والحقل. المحاصيل وفيرة، حتى أنني بنيت خمسة أكواخ، وزينتها مثل الاثنين السابقين. زرنا أشجارا مثمرة جديدة، واعتنينا بها، وأصبحت تعطي ثمارا طيبة وجميلة، لا يتردد الأهالي في شرائها حال نزولها إلى السوق. ازداد عدد الدواجن، التي تعطي الآن الكثير من البيض، والفراخ السمينة، التي يتسابق السكان على ابتياعها. تكاثرت الأبقار الثمانية والنعاج التسعة التي تركتها هناك، وأنتجت عجولا وحملانا كثيرة. صارت قطيعا من سبع وخمسين بقرة وعجلا، وثمانية وستين نعجة وخروفا، بحراسة راع متيقظ. وفر بيع المحاصيل، والفاكهة، واللبن، ومنتجات الدواجن، بعد حسم أجور العمال، عدة قطع ذهبية. هاهي في هذا الكيس. وحسب الاتفاق الذي أبرمه جدك معي، أؤكد أنني اقتطعت لنفسني أجور الإشراف، الذي وجدته سخيا جدا، وهو عشر إيرادات أرض الأسرة. والآن، أنقل لك أمنية أهل القرية، وهي رؤيتك تمضي بعض الوقت كل عام في نديوبين، في أرضك هناك.

تأثر بوبا عندما سمع هذه العبارة الأخيرة. وأشرقت ابتسامة فرح كبيرة على وجهه. مالت سيرا نحوه، وهمست إليه بوضع كلمات أصغى إليها بانتباه. هز رأسه عدة مرات موافقا، ورد على مختار القرية:

«مع سروري البالغ بلقائك، أعبر عن ارتياحي لحسن إدارتك أرض الأسرة، التي أثمرت منافع وخيرات كثيرة. همست الملكة في أذني قائلة إنها في غاية الشوق للراحة بضعة أيام في نديوبين، كي ترى قريتي التي ولدت فيها. إذن، سنذهب إليها. أشكرك أيها المختار

جالاي أنك صنت بيتنا هناك، كما لو أنه لك. لكن شيئاً واحداً يشغل بالي: طلبنا منك، جدي وأنا، أن تحسم عشر الأرباح لتوزعها كل عام على محتاجي القرية. لم تحدثنا عن ذلك. هل نسيت؟

- لا يا صاحب الجلالة. لم أنس هذا المطلب. لكن قريتنا أصبحت غنية، وليس فيها محتاج واحد. تذكر، يعود رخاؤنا إلى ذلك اليوم الذي وزعت فيه على أهل القرية كل الذهب الذي قدمه لك الملك ماديكي، بعد أن عالجته من مرضه الرهيب. كنت يومذاك طفلاً صغيراً. وبالتالي، ليس في قريتنا متسولون ولا فقراء.

- أسعدتني أخبارك. لكني أرى جدي مستعجلاً ليكلمك.

- في الحقيقة، أريد بدوري أن أشكرك أيها المختار جالاي، لأنك اعتيت جيداً بإرث أسرتنا الصغير، الذي أينعته بشكل رائع. هذا لم يفاجئني. فأنت وأنا أصدقاء طفولة. أنا كذلك، أتحرق رغبة للعودة إلى نديوبين مع حفيدي. شكراً يا صديقي، أشكرك.

استغرقت الرحلة إلى القرية يومين على الحصان، دون عجلة. لم يصطحب الطفل - الملك سوى وحدة صغيرة من عشرة جنود، بقيادة موري. ضمت الكوكبة العجوز والي، وعرفان، وديالي، والعمة مبوديا، وجميلة وتاكو. لم يعلن عن نبأ الرحلة على قرع الطبول، لأن الملك والملكة أرادا الذهاب للاستراحة دون علم أحد. وهذا ما يفسر ذلك المشهد الغريب، الذي جرى في نديوبين، تحت شجرة المداولات، ذلك الصباح.

كان دوف، مجنون القرية السابق، يتحدث إلى الوجهاء:

«أثناء عودتي هذا الصباح من حقل عمي، مستمتعا بمضغ الفول

السوداني، فإذا بالطفل - الملك يمر بجانبى على حصان أبيض رائع. حييته بيدي. رد التحية قائلاً: «كيف حالك يا دوف؟». رأيت بجواره فتاة حسناء على حصانها وخلفهما خمسة عشر فارساً. شاهدت معهم جالاي أيضاً، مختار القرية. توجهوا نحو دار الجد والى».

أجاب أحد الكهول:

«أعرف يا دوف أنك شفيت من جنونك منذ سنوات طويلة، بعد أن داواك بوبا، يوم كان طفلاً. لماذا تروي اليوم مثل هذه الحماقات؟ أنت تعلم أنه لو أراد الملك القدوم إلى هنا، لأعلن ذلك على قرع الطبول. دعك من هذه البلاهات.

- لا أقول سوى الحقيقة. رأيت أيضاً الجد والى. عرفته من لحيته. إذا كنتم لا تصدقوني، أرسلوني إلى هناك. سأتحقق من الأمر، وأعود لأثبت ما قلت.

- دوف، أنت مصر على حماقاتك. إن أردنا إرسال أحد للتأكد، لن نكلفك أنت بذلك حتماً. ثم إننا ذاهبون بأنفسنا لنثبت لك أنك تهذي.

بدأت سيرا مستمتعة باكتشاف أرض أهل زوجها، البعيدة قليلاً عن القرية. كان سياج عال يحيط ببستان واسع، مليء بالأشجار، معظمها يحمل ثماراً شهية. ظهر المكان كواحة خضراء حقيقية، تضح بالخضرة والندى.

في وسط الأرض، التي بانّت كغابة صغيرة، انتصبت خمسة أكواخ ازدانت جدرانها بألوان بهية. شرب القادمون من بئرها ماء صافياً وبارداً. وتأملوا الطياري الكثيرة والمتنوعة، التي بنت أعشاشها على

الأغصان، مطمئنة ومرتاحة للأمان وكثرة الغذاء هنا.
تمدد بوبا، وسيرا، وعرفان، والعمة مبوديا على حصير كبيرة،
تحت شجرة منجاة كثيفة الأوراق. وأطربهم دياي بنغمات الكورا،
التي أضفت مزيدا من الروعة على هدوء المكان. فجأة، سمعت
جلبة قوية، حتى ملأت الجو. استعد موري، ووقف بقرب الملك.
«هل تسمع يا موري هذا الضجيج القتالي، الآتي من القرية؟
- نعم، يا صاحب الجلالة. أنا ذاهب لاستطلاع الأمر».

عاد موري بعد لحظات، وطمأن الجميع:
«أعلن مختار القرية جالاي نبأ قدومك على الأهالي، فأخذوا
يصرخون فرحا وتدفق الفلاحون من الحقول، والرعاة من
المراعي. الجميع راغبون في الترحيب بك وتكريمك. لكني أخشى
ألا أستطيع، مع حراسي العشرة، رد أهالي نديوبين إذا أصروا
على اكتساح الدار.

- لا تخش شيئا يا موري. سنرى ما يستحسن فعله. ابق معنا».
وبينما كان دياي، وعرفان، والجد والي وحفيده يتناقشون، جاء
وفد من السكان وطلب مقابلة مع الملك. استقبلهم بوبا، وتكلم
رئيس الوفد المختار جالاي أولا:

«كما توقعنا يا سيدي، عرف الجميع أنك هنا. حاولت أن أشرح
إليهم أنك تريد الخلود إلى الراحة والهدوء. لكنهم رفضوا أن
يسمعوني. بالنسبة إليهم، أنت ابن القرية العائد، وملكهم الذي حل
في زيارتهم. إنهم مصرون على تكريمك، مهما كلف الأمر، ولا
أستطيع أن أقول لهم أنتم مخطئون. انتشر خبر وصولك بسرعة.
كل السكان ينتظرونك في ساحة القرية الكبيرة. يجب ألا تخيب

أملهم يا سيدي. يريدون رؤيتك أنت والملكة». بعد أن استمع إلى المختار جالاي، قال بوبا للعجوز والي: «أعتقد يا جدي أننا لا نستطيع تجنب هذه المناسبات». - نعم يا صغيري، لا بد من ذلك. الأهالي محقون. علينا الذهاب إلى هناك.

قال دياي بدوره:

«لا تنس يا صاحب الجلالة أنك ولدت هنا. بالنتيجة، هؤلاء هم أصدقائك. إن شئت نذهب للقائهم في الحال، كي يعبروا لك عن فخارهم وفرحهم برؤياك. أجد رغبتهم عادلة تماما ومشروعة». تشكل الموكب. وتوجهوا فورا. لم يصدق بوبا وسيرا ما رآته عيناها عندما بلغا عتبة باب الدار: امتد بساط طويل من الوزرات من كل الألوان. مشى الملك والملكة على هذا الطريق الناعم. المزركش حتى القرية. ما هي إلا بضع لحظات، حتى وصل الملك ومرافقوه إلى الساحة، الضاحجة بالجمهور الحاشد، حيث امتزج قرع الطبول بالحن عازفي الكورا والبلفون، وأنغام نايات الرعاة الجميلة. وارتفع صوت النساء منشدات أغنيات تمتدح الملك الشاب. زار بوبا البيوت أولا لتحية الشيوخ العاجزين عن القدوم إلى الساحة. في الطريق، راحت الأمهات يقربن أطفالهن الصغار منه كي يداعبهم. وحرص الرجال والنساء والأطفال على لمس ثيابه، لا اعتقادهم بأن مجرد ذلك يجلب لهم السعادة. أخيرا، استقر الموكب في ساحة القرية الكبيرة. وبحركة من يده، أسكت المختار جالاي أصوات الطبول. توقف الهتاف والغناء. وبدأ يتكلم:

«هذه الأجواء الصاخبة يا صاحب الجلالة، وهذه الهتافات البهيجة، تعبر عن فرحنا اللامحدود بوجود ملكنا المحبوب بيننا، ابن القرية، الذي ولد هنا. منذ كان عمرك ثماني سنوات، أخذت تخفف من آلامنا، وتتقذ حياة الرجال، والنساء، والأطفال المرضى، وتعالج مواشيننا. ما نزال نذكر جميعا بادرترك الطيبة، التي صنعت رخاء قريتنا: خلصت ماديكي، سلفك، من مرض رهيب. وكافأك بعلبة مليئة بالذهب سرعان ما وزعتها على الأهالي، دون أن تحتفظ لنفسك ولجذك بشيء منها. بهذه المكرمة بدأ رخاؤنا. منذ ذلك الحين، لم يبق فقراء ولا متسولون في هذه القرية. إذن، فنحن نشعر بالعرفان نحوك إلى الأبد. لا نعرف كيف نعبر لك عنه. نتذكر أنكما عالجتما كثيرا من أهل القرية، الحكيم والي وأنت، لكنكما رفضتما أخذ أي أجر أو مكافأة مقابل ذلك. أما نحن، الرجال، والنساء، والأطفال، فلا نقول لكما اليوم شكرا وألف شكر فقط، بل نرجوك أيضا أن تسمح للمكتنا، الرائعة الجمال، والنقية القلب، التي لا حدود لرأفتها تجاه عامة الناس، كما أنت، قبول هذه الهدايا المتواضعة، التي أحضرناها جميعا».

أعطى جالاي إشارة، فتقدمت ثلاثون فتاة. ووضعن أمام الملكة عشر وزرات في غاية الفن والذوق والدقة. وقدمت عشرون بنتا صغيرة أربعين تمثالا صغيرا من الخشب الثمين، المنحوتة بعناية، والمرصعة بالذهب الخالص والأحجار الكريمة. أخيرا، جلب يافعان صندوقا صنع من خشب الأبنوس، وفتحاه الغطاء لتري الملكة ما فيه: خواتم، وأساور، وعقود، وأقراط، وحلي أخرى متألثة. وحبذ مختار القرية إعطاء شرح: في كل عام، منذ وقت

طويل، بعد إيداع المحاصيل داخل الأهراء، وبيع الفائض، تصنع كل أسرة حلية للملكة. كنا نعرف تماما أنها ستأتي يوما للإقامة بعض الوقت هنا.

تأثر بوبا تأثرا عميقا بهذه الإشارات المعبرة عن المحبة. وقال: «لا تعرفون أيها الأصدقاء كم سررتي بوادر مودتكم هذه، خصوصا أنها عفوية، إذ لم تكونوا تعلمون متى أزور القرية. نقدر عاليا، الملكة، وجدي، وأنا، المحبة الكبيرة التي يكنها لنا سكان نديوبين، الذين نحبههم بدورنا. ولدت هنا، وكبرت هنا. تعرفون جيدا أنني لا أقبل أبدا أي أجر عندما أساعد أو أداوي أحدا. مع ذلك، لا نملك إلا قبول هذه الهدايا النفيسة، التي قدمت بعفوية إلى الملكة، لأنني أعتبركم هنا من أفراد أسرتي، وليس رعايا فقط. أشكركم باسم سيرا. تبينت بنفسها معنى الضيافة، ولطف أهل قريتي، وودهم، هذه الخصال التي طالما تحدثت لها عنها. أيها الأصدقاء، شكرا، شكرا».

بعد هذه الكلمات، عاد الهاتف وازداد حماسا. وعلا صوت الطبول في إيقاع معبر عن جذل السكان العارم. وبعد وقت طويل، رفع بوبا يده طالبا الهدوء. توقف الضجيج فورا. اقترب دياي ليهمس إليه بشيء ما. هز الملك رأسه موافقا عدة مرات، ثم، تقدم صديقه المخلص وقال للمحتشدين:

«أيها الأصدقاء، أنا، دياي نيتالي فودي مامايا، شاعر وموسيقي البلاط، أنقل لكم تحيات مولاي ومولاتي المحبوبين، الموجودين هنا. كلفني الملك، وزوجته الحسنة اللطيفة، والكريمة، بالتعبير عن بالغ تقديرهما وشكرهما على بوادر محبتكم الثمينة هذه. في

الحقيقة، لعلكم توافقوني على أن أول من يجب شكره هو العجوز والي. هذا الرجل، المفعم بالحكمة والرشاد، ربي حفيده هنا أيضا. عرف كيف يلقي الطفل قيم الاستقامة، والعند، والطيبة، والتضامن، والغيرية، والسخاء، ودمائة الخلق، كما لو كان يحس أن هذا اليتيم سيحكم مملكة السانوكا ذات يوم. هذه المبادئ الخلقية، طبقها مولاي هنا أولا، كي يجعل هذه القرية سعيدة. ومنذ تنصيبه ملكا، عمل من أجل أن يعم الرفاه الذي تنعم به المملكة كلها. واليوم الأمن مستتب على حدودنا. ويسود السلام كل البلد، ويعم معه الازدهار، والخيرات الوفيرة، ورغد العيش في السانوكا. لهذا، بكل بساطة، يشكركم الملك، والمملكة، والمجلس. شكرا لكم رجالا ونساء وأطفالا وشيوخا في هذه القرية، العزيزة جدا على قلب مولانا المحبوب وزوجته».

استمرت الاحتفالات نهارا كاملا، تنافس خلالها السكان بحماس، غناء، ورقصا، وتمثيلا إيمائيا، ومشاهد كوميدية. لم يدفعهم إلى ذلك سوى الفرح الصادق بزيارة الملك والمملكة وحاشيتهما، وواجب الاحتفاء بهؤلاء الأعزاء، لتسليتهم والترويح عن أنفسهم. وعلى الرغم من القلق العميق لـ «موري»، استطاع بوبا وسيرا التنزه مساء في القرية، يرافقه دياي والجد والي فقط.

في اليوم التالي، عادت القرية إلى هدوئها. أطلع بوبا زوجته على أرض الأسرة، التي اكتشفت فيها غابة حقيقية صغيرة، نمت فيها مختلف النباتات. شرح لها فوائد كل نبتة، والأمراض التي يمكن أن تشفيها أوراقها، وجذورها، وقشورها. بدت سيرا مهتمة جدا، وأصغت إلى شرح زوجها بانتباه.

في طريق العودة إلى الكوخ، قالت له:
«الملابس والحلي التي قدمها لي القرويون كثيرة يا بوبا. أود أن
يستفيد منها كل من حولي. هل أستطيع ذلك؟
- يا ملكتي الصغيرة، لا حاجة لاستئذاني في ذلك. إنها لك. أنت
طيبة وسخية، تصرفي كما تحبين.
- شكرا يا ملكي الصغير. عرفت أنك ستجيبني هكذا، كعادتك.
هل تعلم أنك شاغل أفكاري في النهار وفي الليل؟
- نعم يا ملكتي الصغيرة. ولكن، هل تعرفين أنت أنك مفتاح قلبي؟
- نعم، أعرف يا أميري. لن تؤنبنني لو اعترفت لك بأن...
- لن أؤنبك أبدا يا أميرتي المحبوبة. تكلمي ولا تخافي. أوافقك
مسبقا على ما فعلت.
- قدمت عشر وزرات وحليا لكل واحد من مرافقينا الحراس،
وأكثر قليلا إلى موري، وعرفان، وديالي، وجميلة، وتاكو، والعمة
مبوديا، وجدنا.
- أنا أبعد الناس عن لومك. أعرف كرمك الواسع، والعضوي، حتى
أنك لم تفكري كي تقدمي هذه الهدايا لحاشيتنا.
- توقعت هذا الجواب منك. سأخبرك بالتتمة. بعد أن قدم جدنا
ثلاث وزرات وعقدا إلى عمتي، أعاد لي البقية قائلا: «بوبا وأنت
حفيداي. لا وريث لي سواكما. أنتما ثروتي الحقيقية. لذلك، أقدم
لكما حصتي».
- لا يفاجئني كلام جدي. لا يعير انتباها لكل ثروات هذا العالم.
- أعرف. ثم إنك تشبهه كثيرا في هذا الجانب يا بوبا. أحبك.
هكذا سارت أمور الإقامة السعيدة في نديوبين. في كل صباح،

كان الملك والمملكة يتنزهان مشيا في القرية، والسوق، والحقول، دون حراسة، يرافقهما دياالي وموري. وأمضيا كثيرا من الوقت في تبادل الأحاديث بحرية مع الرجال، والنساء، والأطفال. استمعا إليهم وهم يشرحون شؤونهم اليومية، ويعبرون عن أفراحهم وأحزانهم.

عند المساء، ذهب بوبا لرؤية قطيع ماشيته. وقدم بعض النصائح للراعي حول العناية الجيدة عند وقوع حادث أو مرض. ولما عادا إلى أرض الدار، استراح الملك والمملكة في ظل شجرة منجاة كبيرة، حيث أمضيا وقتا في الحديث مع عرفان، والعمة مبوديا، والجد وموري. وواكبهم دياالي بالعزف على الكورا، وتاكو وجميلة بغناء شجي جميل. كانت النسومات الندية تداعب أوراق الأشجار، وتضفي على المكان جوا منعشا، بينما راحت الطيور الملونة ترفرف حولهم بلا خوف، أو تحط مزقزقة بابتهاج قرب الملك الشاب.

وبين الحين والحين، كان البستاني يقدم لهم الحليب الطازج، وجوز الهند وثمارا أخرى مليئة بالعصارة، كي يروي الضيوف ظمأهم. صاح دياالي، الذي ارتوى حتى الامتلاء:

«لا بد أن ما أراه هنا يشبه الجنة يا مولاي: الخضرة، والأزاهير، والنداء، والموسيقى، والغناء، والطيور التي لا تخشى الناس أبدا، والطعام الوفير، وعصير الفواكه من كل نوع، دون هموم ولا قلق. نعم، نعم، أعتقد أن هذا يشبه الجنة! أمل ألا يبقى هنا حتى نهاية السنة».

قهقه الجميع. وأجاب الجد:

«هكذا عشنا هنا، بوبا وأنا. ماديكي، الملك السابق، الذي أصيب بمرض جلدي مخيف، بلغته شهرة حفيدي في العناية والعلاج

بالباتات. جاء إلى دارنا كي يتداوى. أرشده الطفل، وعمره آنذاك ثمانية أعوام، إلى ما ينبغي فعله كي يشفى. هل تتذكر يا عرفان؟ جئت معه يومذاك.

– نعم، نعم، أتذكر جيدا. سرعان ما ساء اللقاء بينهما، بسبب طبع ماديكي النزق والغضوب. تبينت لنا منذ ذلك الوقت مهابة بوبا وشجاعته. وبينما هم كذلك، ظهر المختار جالاي فجأة، بمرافقة بعض الوجهاء، طالبا زيارة الملك:

«مرافقي الوجهاء وأنا، نحیی باحترام مولانا الملك، والملكة، وكل الحاضرين الأفاضل. نتمنى أن تكونوا قد أمضيتم هذه الإقامة الطيبة بارتياح، وصفاء، وسلام».

– نحیك أيها المختار جالاي. الملكة، وجدي، ومرافقونا الأكارم، وأنا، نعبر عن شكرنا لكم. شكرا للوجبات الفاخرة واللذيذة التي أولتم لنا بها طيلة وجودنا. شكرا للطف أهالي القرية وتقديرهم لنا. لم يضايقنا أحد خلال نزھاتنا، سيرا وأنا. شعرنا فعلا بأننا في بيتنا. تفضلوا بالجلوس وشاركونا الأحاديث. هاهي الفاكهة، والحليب، كلوا واشربوا، على الرحب والسعة.

ما إن جلس المدعوون على الحصر التي أحضرتها جميلة وتاكو على عجل، حتى سمعت أصوات جليلة قوية آتية من آخر البستان. ذهب موري لاستطلاع الأمر. ثم عاد فوراً يرافقه الحراس، ومعهم البستاني الذي أمسك رجلين يحملان كل منهما سلة. شرح موري: «قبضنا على هذين الرجلين يا صاحب الجلالة. سرقا فاكهة من البستان. هاهي في السلتين».

لما رأى المختار جالاي ذلك، غضب غضبا شديدا:

«يا لعملكما الشائن. عرفتكما. بعد أن علمتما بما تتعم به قريتنا من رخاء، جئتما للإقامة فيها. أعطاكم مجلس الوجهاء حقلا لتزرعاه. تأكلان اليوم حتى الشبع. فلماذا تتجرآن على سرقة بستان ولي نعمتنا؟ هيا أجيبا!».

حاول أحد السارقين أن يشرح، خائفا ومرتجفا:

«يا سيدنا الملك، أيها المختار جالاي، نرجو العفو! يقال في القرية إن من يأكل من ثمار بستان الملك وخضاره، ليس فقط لن يمرض أبدا، بل يطول عمره كثيرا. لهذا ارتكبنا هذه السرقة».

بدأ بوبا، الرؤوف دوما، يشعر بالشفقة على الرجلين. قال:

«إعلم يا صديقي أن منتجات بستانني لا تختلف عن منتجات بستانك في شيء. يجب ألا تصدق الشائعات. ليس لفاكهتي ولا لخضاري أي قدرة على الشفاء. ولا تطيل عمر أحد».

لم يهدئ هذا الكلام من روع المختار جالاي. وتابع كلامه للسارقين بقسوة:

«تريدان استدرا عطف مولانا. لن ينفعكما ذلك. اقترفتما جريمة خطيرة بتجرؤكما على سرقة بستان الملك في حضوره. ثم إن فعلتكما تجعلني أشعر بالخجل والعار. لهذا، أناشد الملك أن يطبق عليكما العرف القديم، الخاص بأولئك الذين يسطون على البساتين».

- لا أتذكر هذا العرف يا مختار جالاي. هل تود أن تذكرنا به؟

- نعم يا صاحب الجلالة. كعقاب على السرقة، يقضي هذا العرف بإدخال الشيء المسروق في إستم السارق.

لما سمع هذه الكلمات، ضحك السارق الثاني. وهذا ما فاجأ الجميع. غضب دياي، وأخذ يوبخه بعنف:

«أنت عديم الحياء! أنت لم تسرق فقط، بل إن ما سرقتَه سيفرس في مؤخرتك. وبدلاً من أن تخاف، نراك تضحك! هل أنت مجنون؟»
- لا، لا، لست مجنوناً. أنا لم أسرق سوى بعض حبات الفول السوداني. لكنني خائف على رفيقي. انظروا إلى سلته. لقد سرق الأناناس!

لما سمعوا ذلك، لم يستطع أحد من الحاضرين أن يتمالك نفسه عن الضحك. كان بوبا أول من ارتفع صوته ضاحكاً. تبعته سيرا والباقون. وتحول الجو إلى ضحك ومرح. سارق الأناناس وحده لم يضحك.
قال الرجل الأول:

«ليست الحاجة هي التي دفعتنا لسرقة بستانك يا صاحب الجلالة، بل الاعتقاد. والآن، تبدو لنا خطورة عملنا بوضوح. نحن آسفان، ونطمح إلى مغفرتك».

تكلم الرجل الآخر مثله تقريباً:

«أنا أرجو عفوك يا مولاي، كرفيقي. تصرفنا بشكل سيء. كرّمنا قرية نديوبين، ونحن أخطأنا بحقها. نحن جاحدان، كأننا قطاع طرق. احتفى بنا المختار جالاي كثيراً، وآوانا، ومنحنا أرضاً نحريها ونزرعها. كان علينا ألا نسيء السلوك، اعترافاً منا بجميل هذه القرية. لهذا نحن نأدمان على فعلتنا. نناشدك الصفح. سرقتنا لسذاجتنا، وليس بسبب طمعنا».

بدا الطفل - الملك مفكراً. وهمست إليه الملكة، التي لا بد أنها أشفقت عليهما، بكلمات لم يسمعها أحد، ولكن دون شك كي تطلب منه تخفيف العقوبة. قال الملك أخيراً:

«أعرف في الواقع أنكما لستما شريرين. ولكن، بما أنكما ارتكبتما

جريمة، هاهو قراري: على كل منكما أن يحدد عقوبته بنفسه.
هيا، أصدرنا الحكم بنفسكما. أنا أنتظر».

فوجئ الرجلان بهذا العرض غير المتوقع. ترددا لحظة، ثم قال
سارق الفول السوداني:

«كي أصبح غلطتي، سأقدم يا صاحب الجلالة كيسا من الدخن
إلى جارتى التى فقدت زوجها. ليست بحاجة لشيء، لأن أولادها
الكبار يعتنون بها. لكن هذه البادرة ستسعدنا، وأستعيد بذلك
سمعتي الحسنة».

بدوره، قال السارق الثانى، مستفيدا مما قاله رفيقه:
«سأقدم يا مولاي خمسة أوعية من الدخن وخمس دجاجات ليتيم
يسكن غير بعيد عن بيتي. الطفل غير محتاج، لأن أعمامه
يرعونه. ولكن بمبادرتي هذه، سيعرف أن الله كريم على عباده».

أصغى الملك بسرور بالغ إلى هذين الحكيمين. وصاح بحماس:
«مرحى لكما! مرحى لكما!». كنت أعرف أنكما لستما خبيثين، بل
عاقلين. أوافق على ما قررتماه. والآن، أعتبركما ضيفي. تفضلا
بالجلوس. قبل انصرافكما، سيملاً راعي بستانى الأمين لاتير
سليتكما بالفول السودانى والأناناس الملىء بالعصارة».

بعد هذه الكلمات، ضحك الجميع فرحين. تناول دىالى الكورا،
وراح يعزف بعض الألحان. ثم ارتجل، على أنغام آله، أغنية
شاعرية جدا:

«يحيا مولاي، يحيا مولاي، يحيا مولاي

حليم عند الغضب، يحيا مولاي

سريع المغفرة، يحيا مولاي

قاض متسامح، يحيا مولاي
كريم النفس، يحيا مولاي
يجعل من أعدائه أصدقاء
يحيا مولاي، يحيا مولاي، يحيا مولاي
تحيا مولاتي، تحيا مولاتي، تحيا مولاتي
جمالها يضيء القصر، تحيا مولاتي
طيبتها تتجاوز الحدود، تحيا مولاتي
ليس لسخائها مثيل، تحيا مولاتي
بنصائحها السديدة ترشد مولاي، تحيا مولاتي
ابتسامتها تنسي الهموم، تحيا مولاتي
تحيا مولاتي، تحيا مولاتي، تحيا مولاتي
بوبا يحب سيرا، يحيا حبهما
سيرا تحب بوبا، تحيا سعادتهما
حبهما وسعادتهما ضمانا للسلام
لا حرب بعد اليوم، يحيا السلام
بين السانوكا والساساي، يحيا السلام
حبهما يزهر كي يعيش السلام
سعادتهما تتفتح كي يعيش السلام
يحيا مولاي، تحيا مولاتي، يحيا مولاي
مولاي يداوي المرضى، يحيا مولاي
مولاتي تغيث البؤساء، تحيا مولاتي
مولاي يكلم البهائم، يحيا مولاي
مولاتي تواسي الحزانى، تحيا مولاتي

مولاي يحب مولاتي، يحيا مولاي
مولاتي تحب مولاي، تحيا مولاتي».
هكذا غنى ديالي نيتالي فودي مامايا، شاعر وموسيقي القصر،
صديق الملك. وأمتع بصوته الرخيم، على أنغام الكورا الشجية، كل
الحاضرين وأطربهم.

في اليوم التالي، نهض بوبا وسيرا باكرا كعادتهما، حتى قبل صياح
الديك. وتوجها إلى آخر البستان، كي يستمتعا بشروق الشمس.
ارتفع القرص الأحمر بهدوء، مضافا ألوانا أرجوانية وزهرية على
السما والغيوم، التي راحت تتسلل بسرعة أمام الريح، فيبددها تارة
ويجمعها تارة أخرى، كما يشاء. وظهرت في الأفق أسراب من
الطيور، اللامعة الألوان في أشعة القرص الذهبي الصاعد، متجهة
نحو أماكن لا يعرفها سواها. بدا الطفل - الملك وزوجته مبهورين
بهذه المشاهد الطبيعية الساحرة، التي تأملها بفرح وحبور.

ثم، عادا يدا في يد إلى وسط البستان، لتقديم الطعام والشراب
لأصدقائهما الطيور، المختلفة الأنواع والأشكال. كانت تعرف أنها تجد ما
تأكله وتشربه كل يوم، حتى في غياب أصحاب هذا الملجأ الآمن والهادئ.
غرف الملك والملكة الحبوب بملء قبضتيهما، وألقياها لهذه
المخلوقات الصديقة، التي هرعت لتتقر مزقزقة، أو مفردة، أو
ساجعة، أو صائحة مع خفقات أجنحتها، أو متصارعة أحيانا
بالمناقير. ولما بقيت الحبوب تنهمر عليها، ظلت تأكل حتى شبعت.
فجأة، هبط كروا من الجو، مباغتة بوبا وسيرا، وحط على كتف
الملك مرفرفا بجناحيه بيضاء:

«أحيي صديقي وزوجته الرائعة».

- أحييك يا كروا، أيها الصديق، والنجي، والناصر. ولكن، لا أرى أسرتك. أين هي؟

- ستصل بعد قليل. كنت متلهفا لرؤيتك، أسرعت فإذا بي أبتعد كثيرا عن زوجتي وصغاري.

في الواقع، بعد قليل، وصل غراب، ثم اثنان، ثم أربعة، فستة، واحدا وراء الآخر. بدأ كل منها يرفرف سعيدا حول الملك والملكة، قبل أن يتزاحم الجميع على أكتافهما، كأنها تريد التعبير بذلك عن فرحتها بلقاء الملكين من جديد. فقهقه بوبا ضاحكا: روى له كروا حكاية مضحكة، سرعان ما نقلها الملك إلى سيرا، التي ضحكت بدورها.

استرعت هذه الجلبة انتباه موري، والجدة، والعمة مبوديا، وديالي، وجميلة، وتاكو، فاقتربوا من مصدر الأصوات. ورغم اعتيادهم على هذا المشهد، استمتعوا مرة أخرى بما رأوه. راحوا ينظرون بصمت من بعيد إلى الزوجين، اللاهيين مع تلك الطيور الصديقة المضحكة المحيطة بهما، وقد بدوا جميعا كجماعة من الأطفال اللامبالين، غير الآبهين بأي شاغل.

فجأة، وكأنها تلقت إشارة من كروا، رفرفت الغريان حول الملك والملكة. ثم حلقت معا كزوبعة من الأجنحة، وحطت على غصن شجرة منجاة منخفض، لتطير بعدها واحدا بعد الآخر خلف زعيم أسرتها. وتبعتهما الطيور الأخرى، بعد أن شبعن وارتوت.

لما التفتا، رأى بوبا وسيرا جدهما والي والآخرين، فانضما إليهم مثل طفلين فوجئا متلبسين.

بعد التحية، قال الجد:

«بدوتما يا صغيري، سيرا وأنت، كطفلين ضاع أبواهما ثم عثرا عليهما فجأة».

- تماما كذلك يا جدي. قال كروا إن سيرا وأنا أصبحنا جزءا من أسرته. صحيح أنها طيور، لكن مشاعرهما نحونا تضيء عليها قيمة إنسانية. ومهما بدا الأمر غريبا، نجد عندها روح التضامن، والطيبة، وحس التضحية، والإيثار، وروح الأسرة، والعاطفة الجياشة، والوفاء، والرأفة، وعواطف أخرى لا نشك فيها نحن البشر. كذلك الأمر بالنسبة إلى معظم الحيوانات الداجنة أو تلك التي يصفها الإنسان بأنها متوحشة.

لما سمع دياي ذلك، لم يتمالك نفسه عن الكلام:

«ما تقوله صحيح يا مولاي المحبوب. يستطيع كل منا ملاحظة ذلك عند الكلب، الذي لا يعض أبدا اليد التي تطعمه. وهذا ما لا ينطبق على بعض البشر، الذين يجعلون جحود المعروف، والخيانة، وعدم الأمانة، والاحتقار، والدسيسة زاهم اليومي.

- أنت أيضا ما تقوله صحيح يا دياي. لهذا تدرك الآن لماذا أؤكد أحيانا أن رفقة البهائم أكثر راحة من رفقة الناس في بعض الأوقات. مع ذلك، لا يجوز التعميم. فهناك الطيبون، مثل جدي، وعارفو الجميل والجدابون، مثلك، والرقيقون والحساسون، مثل سيرا والعمة مبوديا، والخادمون والمخلصون، مثل موري، وعرفان، وسامبا كا، وبقية المستشارين. هنالك أناس كفاكهة الطبيعة: منهم اللذيذ، والمستحب، والناجع، ومنهم المر، والخطر، إن لم أقل القاتل. في الحاليتين، يجب أن نعرف كيف نميزهم.

بدأ الملكان نهارهما بمزاج طيب، واستمر كذلك. جلس بوبا وسيرا

على حصير في ظل شجرة منجة ضخمة، استمعا إلى عرفان،
والجد وهما يرويان الحكايات عن طفولتهما. ثم، أطربت تاكو
وجميلة الحاضرين بأغنيات عذبة على أنغام كورا وبلفون والدهما
ديالي. وفاجأت العمة مبوديا نفسها الجميع وهي تتشد، بصوتها
الرخيم، أغنية تتحدث كلماتها عن مآثر والدها، الذي كان ملكا
على الساساي. وأنهى ديالي، الملهم جدا، الجلسة الحميمة
بأنشودة تروي حكاية عظماء السانوكا، حكاية تبوأ فيها بوبا مكانا
مهما منذ وقت مضى، رغم صغر سنه.

لما حان وقت الغداء، وصلت أطباق شهية من القرية، لأن النساء
أردن التعبير عن شكرهن لضيضهن الشهير، الذي صنع رخاء
بلدهن. وتسابقت الأحياء في إحضار الأطعمة الفاخرة، والطيبة،
كي يستمتع بها الملك والملكة، وحاشيتهما، والحراس.

مر بعد الظهر سريعا. وراحت الشمس تميل نحو الغروب. انحنى
سيرا قليلا نحو زوجها لتهمس إليه:

«هيا نتمشى في الحديقة. أود أن أقول لك شيئا ما».

نهض الشابان، وتوغلا في حديقة الدار الواسعة. لم يشأ موري
إفساد خلوتهما، فلم يجروا على مواكبتهم. وبعيدا عن الأذان
المتطفلة، قالت سيرا لزوجها:

«انظر إلى السماء يا بوبا. أريد أن نذهب معا إلى آخر القرية، كي
نتأمل مغيب الشمس».

- نعم يا أميرتي. هذا ممكن. يجب أن نخرج دون أن يعرف موري.
تعال، اتبعيني.

ذهب بوبا وسيرا، مثل صبيين أرادا القيام بمقلب مع أحدهم، إلى

طرف البستان، ملتفين حول الأشجار. مشيا بطول السور، نحو
بوابة الخروج، فوجدا حارسا. قالت سيرا بصوت منخفض:
«إن خرجنا، لا بد أن يخبر الحارس قائده موري بذلك. ما العمل؟»
- لو كنا في بلد معاد، لأبعدته بطريقتي، مثلما علمني موري. لكن
هذا الجندي هو من حراسي. لا أستطيع التخلص منه.
- لا، لا يا أميري، لا أريدك أن تفعل ذلك. سأستخدم الحيلة
لإبعاده.

وصل الشابان إلى الحارس، الذي عرفهما فورا، وصحح وقوفه،
وحياهما. قالت له سيرا:
«مرحبا أيها الجندي. ما اسمك؟»

- ينادونني ديغانو يا مولاتي.
- سوارتي الفضية تضايقني يا ديغانو. هاهي. هلاّ تحملها إلى
عمتي؟ قل لها أن تضعها في علبتي السوداء الصغيرة.
تناول الحارس السوار، وتردد وهو ينظر إلى البوابة، التي ستبقى
دون حراسة. لكن سيرا طمأنته:
«الملك وأنا سننتظرك هنا حتى تعود».

توجه الجندي نحو البيت. وما إن ابتعد، حتى خرجا راكضين
ضاحكين نحو طرف القرية، الذي سرعان ما بلغاه. جلسا على
جذع شجرة مقطوعة.

كانت الشمس تهبط ببطء وراء الأفق، ناثرة في السماء ألوانا
أرجوانية وذهبية. اقتربت قطعان الماشية الأخيرة من القرية
بهدهوء، تواكبها الكلاب، خلف الراعي، الذي كان يعزف على الناي
ألحانا حزينة. ووصل بعض الفلاحين المتأخرين، ومعارقهم على

أكتافهم، سعداء بالعودة إلى البيت بعد نهار عمل طويل. تبعتهم فتيات يتبادلن الأحاديث بفرح رغم التعب، وقد حملن السلال على رؤوسهن. كانت اثنتان منهن تتحدثان بصوت قوي، سمعه الملك والملكة بوضوح:

«إذا كان ابنك يا فاطمة يكن لابنة أخي عواطف صادقة، ماذا ينتظر عمه ليطلب يدها؟».

- عمه مسافر، لكنه لن يتأخر. يجب انتظار عودته.

- هذا الانتظار الطويل بدأ يقلقني.

- اطمئني يا زينب. أقسم لي ولدي أنه يحب ابنة أخيك حبا خالصا وعميقا، كحب الطفل - الملك للملكة سيرا.

- إن كان الأمر كذلك، فلن أخشى شيئا بعد الآن!

تأثر بوبا وسيرا لهذه الكلمات. نهضا، وعادا إلى الدار. لم يثر اختفاؤهما المفاجئ خوفا واضطرابا، بل قلقا تفهمه الجميع جيدا. شارفت الإقامة في نديوبين على نهايتها. أعطى الملك إشارة الرحيل بأسف. قرعت الطبول، وارتفعت أصوات الكورا والبلفون. عبر موكب الملك القرية المبتهجة على مهل. وفي الساحة الكبيرة استقبل الملك وحاشيته الوجهاء المودعين، ثم سلك المسافرون طريق العودة نحو كور دياما العاصمة. كانت الشمس تتسلق كبد السماء الزرقاء، التي رفرفت فيها بعض الطيور الملونة، كأنها تحيي المسافرين.

سار بوبا وسيرا جنبا إلى جنب، كل على جواده، سعيدين، لا مباليين، واثقين بالحياة التي تنتظرهما، وعازمين على إسعاد الشعب الذي يحكمانه، مقتنعين بأن المستقبل يخبئ لهما أياما جميلة، ولو أنها لن تخلو من بعض المآسي والمرارة.



حکایات و أساطیر أفريقية

سید الکلام

تألیف: سلیمان جیغودیوب
ترجمة: محمد الدنیا
مراجعة: د. عبد الرحمن بن زیدان

١- سيد الكلام

«أنا، ديالي نيتالي فودي مامايا، سيد الكلام. أنا شاعر وموسيقي البلاط، ومستشار الطفل - الملك. أفتخر أيضا بأنني مكرم بصداقته. كل الناس يعرفون مهمتي، التي أحب التذكير بها مرارا: أنا الذاكرة، أنا حولية أحداث مولاي المحبوب اليومية. خلال حكمه، كل ما سيفعله سيودع في ذاكرتي. سأردده مثل أغنية. وبعد موتي، سيؤدي أولادي وأحفادي الدور نفسه، لأنه يجب، جيلا بعد جيل، ألا يؤول أي عمل، أو أي صنيع يقوم بها مولاي إلى عالم النسيان. لذلك، في هذا اليوم، أمام مولاي، وأمام زوجته الشابة الحسنة، وأمام المستشارين وبعض الوجهاء، أذكر مرة أخرى بحكاية الطفل - الملك.

في قرية صغيرة، من مملكة السانوكا، غرب القارة الأفريقية، ولد بوبا، منذ عشرين سنة. مات والده يوم ولد. وعرف الطفل أنه ما كاد يمشي حتى فقد أمه. لم يشأ جده والي الابتعاد عنه. رياه بمفرده. ووقعت مصيبة ثالثة: عندما كان عمر الطفل خمس سنوات، اختطفه أسوأ الجان، الذين علموه، خلال ثلاث سنوات طويلة، أسرار الطبيعة. ثم، أطلقوا سراحه، بعد أن كلفوه بمهمة إيذاء الناس، وإيلامهم، وجعلهم يموتون، أي باختصار أن يمضي بقية حياته في الآثام.

لكن جده العجوز، المعروف بخصاله الحميدة، نجح في إفشال مخططات الشياطين. ربي حفيده على الاستقامة. أقنعه بنشر الخير حوله، واحترام الحياة والناس والحيوانات والأشياء. وأفلح في ذلك على أكمل وجه. فعل تماما عكس ما طلب منه الجان

الأشرار: راح يداوي المرضى، الرجال، والنساء، والأطفال، والماشية، دون أي مقابل. ولما صار عمره ثمانية أعوام، داوى الملك ماديكي، الحاكم في ذلك الوقت، بعد أن أضناه مرض مخيف. كافأه هذا الملك بعلبة مليئة بالذهب. لكن بوبا، الذي يستخف بالثروات، وزع الذهب على أهالي نديوبين، قريته، فساعد بذلك كل الأسر في امتلاك الماشية، والحصول على البذار. استطاع أيضا التنبؤ بحدوث الجفاف الكبير، فاستعد سكان بلدنا، واحتاطوا للأمر، كي لا يموتوا جوعا.

لذلك، من بين أسباب أخرى، عندما مات الملك ماديكي، الذي لم يكن له أولاد، اجتمع مجلس الوجهاء، واختار بوبا بلا تردد خليفة الملك الراحل، مع أن عمره لم يكن سوى خمس عشرة سنة. من هنا جاء لقب الطفل - الملك، الذي أطلقه الشعب عليه.

هكذا إذن، منذ خمس سنوات، يحكم ملكنا المحبوب مملكة السانوكا، جاهدا كل يوم أن يسعد الشعب، ويحمي المستضعفين، الأرملة، اليتيم. مع ذلك، لم تخل بداية حكمه من الدسائس والمكائد. فبعد نصائح سيئة من مستشاريه، هاجم بلادنا دولو القوي، ملك مملكة الساساي، جارتنا في الشمال. وبحيلة تليق بقائد حربي كبير، هزم الطفل - الملك جيش الأعداء في معركة سابولا. ولكن، بدلا من أن يغزو، وينهب، ويخرب الساساي، أعطى بوبا أوامر دقيقة، وصارمة بعدم إلحاق الأذى بالسكان والجنود الأسرى. اقترح بعد ذلك على الملك دولو معاهدة سلام مشرفة، حتى أن هذا الأخير قرر أن يزوج ابنته الصغرى، الأميرة سيرا، إلى الطفل - الملك اعترافا له على ما فعل. سمح ذلك بتقوية

الروابط بين الساساي والسانوكا. ولكن، أنا أتكلم، أنا أتكلم، الكل يسمع والزمن يمضي. فلتعبر الكورا، آلتى الموسيقية، هي أيضا، عن نفسها!.

تناول ديالي آله، ودوزنها بمهارة كبيرة. ارتفع صوته العذب، وعزف بتناغم، أخذ. كان صوته الجميل يمتزج مع الألحان من وقت لآخر، ممتدحا طيبة الطفل - الملك الكبيرة، وجمال ورقة الملكة سيرا، وسعادة الشعب المسرور بحاكمه. ثم، وهو يداعب أوتار آله بلطف، لتبقى موسيقاه الرائعة مألوفة المكان، تابع ديالي كلامه: «أنا أتكلم، أنا أغني، أنا أغني، أنا أتكلم، ولكن سأطرح الآن عليكم بعض الأسئلة. تعرض الملك العظيم دولو لمرض مخيف. وأوشك أن يموت دون أي شك. من الذي امتطى جوادا بلا عنان حتى الساساي كي يداويه ويشفيه؟ إنه الطفل - الملك! كنت هناك.

من هو ذلك الفارس المقدام، الذي هاجم بالسيف، مع قائد الجيش خليفة وخمسة وعشرين حارسا، السعادين المرعبة، التي تجمعت بالآلاف كي تمنعنا من المرور بأرضها؟ إنه الطفل - الملك! كنت حاضرا.

من الذي غاص في مياه النهر العميق، مسلحا بخنجر، كي يقتل التمساح الجائع الذي خطف جنديا من ذراعه؟ الطفل - الملك! غطس خليفة، والحراس، وأنا نفسي وراءه كي نساعد في قتل الوحش الهائج، الذي لم يشأ ترك فريسته.

من الذي أصبح صديق بابينغو، ملك الغوريلا، وحصل منه على دواء يشفي موري الأمين، قائد الحرس؟ إنه الطفل - الملك! كنت موجودا

من الذي أنقذ حياة خليفة، قائد الجيش، عندما قتل بضربة خاطفة الثعبان الأسود الرهيب، ذا اللسعة المميتة، الذي أوشك أن يهاجمه؟ الطفل - الملك! كنت حاضرا!
من الذي داوى موري حينما أشرف على الموت؟ الطفل - الملك!
كنت شاهداً.

من الذي قضى على تلك العادات السيئة، التي حرمت اليتامى من حقوقهم، وسلبت ممتلكات الأطفال الذين لا حول لهم ولا قوة، وأهان الأرامل اللواتي لا معين لهن؟ الطفل - الملك. أنا شاهد على ذلك.

من هو المقدام الذي تحدى الأسد - الملك، هذا الوحش الدموي، الذي نشر الرعب بين سكان القرى الشرقية؟ من الذي نجح في تهدئة هذه الحيوانات المتوحشة، وأسمعها صوت الحق؟ من الذي جعلها تقتنع بعقد اتفاق سلام، كي يخيم الهدوء والصفاء على المنطقة؟ الطفل - الملك. كنت حاضرا.

والآن سؤال أخير: من هو أسعد الناس في هذه المملكة؟
لا تبحثوا عن الإجابة، لن تعرفوها. سأقولها لكم: إنه أنا، ديالي نيتالي فودي مامايا، أسعد إنسان في هذه المملكة! سأقول لكم لماذا. أولاً، شرفني الطفل - الملك بصداقته. ثم إن العيش بجواره يجلب السعادة. السبب بسيط جداً: سعادة الطفل - الملك هي أن يسعد الآخرين. متعته هي أن يرى الناس سعداء من حوله. لا يقدر على تحمل رؤية الآخرين يتألمون. لهذا يداوي الناس والبهايم ويشفيهم.

والآن، أخاطب، بمحبة، مولاي الملك، الذي يفيض منه شيء لا

يمكن تفسيره، شيء يجعل كل الناس حوله يشعرون فوراً بانجذاب إلى شخصه.

مولاي، صاحب الجلالة، أنت تحكم السانوكا منذ خمس سنوات. أنت يافع، طفل تقريبا حتى اليوم، لكن صيت بسالتك، ولباقتك، وطيبتك، ودمائة خلقك، وشهامتك، تجاوزت حدود المملكة. كلنا نعيش إلى جانبك في هذا القصر، ولا نستطيع أن نحصى خصالك الحميدة الكثيرة. أنت حاكم بالعدل والإنصاف. حلیم عند الغضب. ولا تطبق رؤية أحد يتألم دون أن تداوي روحه وجسده. الحيوانات تحبك، لأنك تفهم لغتها. لا أعرف لك إلا عدوا واحدا، مخيفا جدا: شيطاني، رئيس الجن الشرير، أب الشر والخبائث، الذي يسعى إلى هلاكك مهما كلفه ذلك، لأنه فشل في جعلك حليفا له. رغم الجريمتين الفظيعتين اللتين ارتكبتا هنا، حتى في القصر، بحق طفلتين صغيرتين بريئتين، لم يستطع إخضاعك لنواياه الشريرة. لا، لا، لم يتمكن شيطاني ومبعوثوه، الذين يأتون بالمصائب دائما، من تحطيمك وإرغامك على فعل الشر، حتى في أحلك الظروف.

ولكن، ألا يجب، بهذه المناسبة، أن نمتدح جدك والي، المجبول على الحكمة والنزاهة؟ ألم يلقنك هذا العجوز، وأنت طفل صغير، الفضائل التي تمارسها الآن في كل يوم؟ إذا برهنت اليوم عن رأفة، وعطف، ودمائة خلق، وطيبة، وإحسان، وحلم، وتسامح، أفليس ذلك بفضلها؟ إذا كان الطفل - الملك يحكم اليوم ويتكلم بفطنة وروية، ويتصرف بحكمة، ويعمل باستقامة، وشجاعة، وحس سليم، ويذهب إلى المعركة رافعا سيفه بقبضته دون أن يلتفت

خلفه، ويفكر بالآخرين أكثر مما يفكر بنفسه، أفليس ذلك بفضل التربية الحسنة التي، جهد المبجل والي لغرسها في بوبا، اليتيم الضعيف الذي تكفل بتثيئته؟ لطالما ذهل الملك القوي دولو بسلوك مولاي، حتى أنه منحه ابنته الصغرى، الأميرة الحسنة سيرا، زوجة له. أصبح هذا الملك العظيم بذلك قريبننا وحليفنا عند الحدود الشمالية، فضمننا سلاما طويلا بين مملكتينا، لأن أميرة من الساساي أصبحت ملكة على السانوكا».

تابع دياي عزفه على الكورا بعذوبة. ثم قال: «ليتكلم الوجهاء الحاضرون، الذين يريدون الشهادة على ما قلت! فلتتفجر الحقيقة التاريخية!».

في أفريقيا، كبر السن له امتيازاته ومزاياه. تكلم الجد والي أولا: «سعت إلى تثيئة حفيدي بوبا على الاستقامة والوفاء، ومبدأ العدل، والإنصاف. حاولت أيضا تلقيته الفضائل الأساسية السبع، التي يجب أن يتحلى بها كل إنسان، أميرا كان أم من عامة الناس، لأن نبيل النفس يجب أن يبقى ضرورة للرجل وللمرأة على حد سواء».

باختصار وبساطة، بذلت ما في وسعي كي أجعله يحب الخير ويكره الشر. هكذا فعل والداي معي، وهكذا فعلت معه. أحطته فضلا عن ذلك بالعطف، وكل الحب الذي لم أعد أستطيع منحه لأبيه وأمه، اللذين غمرتهما بعطفي منذ نعومة أظفارهما. لم أفعل سوى واجبي عندما ربيته على الطريق القويم للشرف والاستقامة. أن يمارس الآن الفضائل التي علمته إياها، فذاك يغمرني بالسعادة. حمدا لله على ذلك! حمدا لله على ذلك!».

تابع ديابي النقر على أوتار الكورا بلطف. لكن كلمات العجوز أجدلته، وستحفظها ذاكرته العجيبة بأمانة. وتكلم عرفان: «أنا، عرفان، سأعترف. كلما مررت في الشوارع وسمعت أحدهم يقول هذا هو المستشار الأول للطفل - الملك، أقترف خطيئة العجرفة، لأن قلبي ينتفخ حينذاك بالأنفة. في الواقع، عندما كنت في خدمة الملك السابق ماديكي، عملت عنده بضمير. ولكن منذ اعتلاء الملك بوبا العرش، أصبح وجودي إلى جانبه متعة أتحمسها مع كل يوم جديد. منذئذ، لم يعد عملي سخرة متعبة، إن لم أقل خطرة، بل تعاون متناغم، وصادق، ومخلص، وودي. أبعد مجيئه الكآبة عن القصر، وقضى على الضجر وبعض الجمود الذي خيم عليه، لأن جو القصر القاتم انفرج بفتوته، وارتاح بحماسته. وانتهت الريبة والشبهات. سعيانا، المستشارون الآخرون وأنا، لتلطيف حماسه وحمياه القتالية، وهي أشياء طبيعية بالنسبة إلى سنه. ولكن لا تعتمدوا كثيرا على هذه المظاهر! في الواقع، في رأس الطفل - الملك وقلبه كثير من الخلال، التي لا يمتلكها كثيرون من الرجال في سن النضج: فهو مهذب، وعادل، وطيب، ومتبصر، وماهر، وشجاع، وداهية. عندما يضع خطة لمواجهة الخصم، نكتشف فيها ليس فقط البسالة، بل أيضا المهارة والدقة. تذكروا كيف تخلص ببراءة من مطاردة وحيد القرن الشرسين. مازلت أرتجف حتى الآن من مجرد تذكر هذا المنظر، لأنني أنا أيضا، كما يقول ديابي، كنت هناك. أؤكد مرة أخرى ما يتفق الجميع على قوله: التربية الحسنة، التي أنشأ والي عليها حفيده، كانت رائعة. الطفل - الملك هو مولاي. وكما تقول أغنية يرددها

ديالي، تبقى الخدمة إلى جواره ليس فقط امتيازاً، بل تمنح السعادة أيضاً»

استحسن ديالي كلمات المستشار الأول عرفان كثيراً. نقر على أوتار الكورا بمرح ونشاط. وبصوته، الذي يعرف كيف يجعله متناغماً ورخيماً، تغنى بخصال ملك السانوكا الشاب. ثم ترك الكلام للشخص الجالس قبالة:

«أنا، خليفة، قائد الجيش، أشهد بما رأيت وأتكلم بالصراحة التي عرفتُموني بها. عقب موت الملك ماديكي، الذي لم يترك وريثاً له، اجتمع مجلس الحكماء، ورشح فتى عمره خمسة عشر عاماً للجلوس على العرش، الذي أصبح فارغاً. وعلى رغم أنني أعرف فضائل هذا الطفل جيداً، أخبرتكم حينذاك بمخاوفي، بسبب صغر سن الملك الجديد. وازداد قلقي عندما أعلنت مملكة الساساي الحرب علينا. ولكن في معركة سابولا، ومع أنني محارب قديم، وسافرت كثيراً إلى كل مكان تقريباً، ذهلت تماماً بالخطة الحربية التي وضعها الطفل - الملك. رأيت هدوءه، وشجاعته خلال الأعمال الحربية. وبعد المعركة، قدرت عالياً رحمته ورأفته بجرحى المعسكرين المتقاتلين، الذين داوهم دون تفريق ولا تمييز. أحببت شهامته تجاه المغلوبين وقدرتها عالياً، لأنه منع فوراً نهب القرى المعادية، على عكس ما يفعله المنتصرون عادة في النزاعات المسلحة، في كل مكان من العالم. كما عرف المحارب القديم، الذي هو أنا، كيف يثمن مرة أخرى شجاعته في أحيان كثيرة. قاتلنا إلى جانبه بالسيوف، ومعنا عشرون حارساً، جيشاً من السعادين المتوحشة التي سدت طريقنا. غصت برفقة مولاي في نهر عميق

لقتال تمساح جائع أراد أكل رجل، متناسيا جلالته أن هذا الرجل حاول قتله ذات مرة. أخيرا، وبسرعة البرق، قتل أفعى سوداء أوشكت أن تهاجمني. وأنقذ حياتي، فالجميع يعرف أن لدغة الممبة تميت في الحال. منذئذ، لم يتغير رأيي، لقد أحسن مجلس الحكماء الاختيار: الطفل - الملك هو العاهل المطلوب لحكم بلدنا. أطلال الله عمره!».

صرخ دياي، بعد أن بلغ قمة الحماس: «سمع المجلس الآن كل أقوال خليفة، قائد الجيش. ولو أنني تكلمت هكذا، لفكر البعض وقال: هذا طبيعي، الشاعر الموسيقي هو صديق الملك، ولا يمكن أن يقول غير ذلك. هذا المديح، الذي جاء على لسان رجل بمستوى خليفة، يزيدنا إعجابا بملكنا. ستحفظ ذاكرتي هذه الكلمات إلى الأبد، وسأكررها ما حييت. من يريد الكلام أيضا؟».

رفع شاب طويل القامة يده كي يتكلم: «أنا، موري، عندي امتيازان لا أبدلهما بكل ذهب الأرض. أولا أنا قائد الحرس الملكي، المكلف بأمن القصر وحماية مولاي. لذلك، أنا فخور بأني علمته استعمال السيف، ورمي السهام، والنزال، والسباحة. باختصار، لقنته فن القتال. وجدته لين العريكة وموهوبا. وأصبح محاربا ممتازا، ومقاتلا مهابا، لأن عليه أن يتقدم جيشه على جواده عند انفجار صراع مع بلد معاد. والأمر الثاني الذي أفخر به هو انتمائي إلى مجلس التاج العظيم، رغم صغر سني. الفضل في ذلك لكرم سيدي. لكنه أنعم علي أيضا بجميل لن أنساه إلى الأبد. تذكرون جميعا أن موكب حراستنا

تعرض في السنة الماضية، في أثناء العودة من مقر الإقامة في كوسوما، لهجوم جماعة من الخنازير البرية الشرسة، ذوات القرون المعقوفة. خاض الحراس الأربعة، ومولاي وأنا، معركة ضد هذه الحيوانات الهائجة، كي نحمي الملكة سيرا. وبضربة مؤلمة من قرنه، شج أحد هذه الوحوش ذراعي الأيمن. التئمة تعرفونها. تعفن الجرح. ولزم بتر ذراعي قبل امتداد «الغنفرينة» إلى كل جسمي. حينذاك، طاف مولاي نصف البلد على عجل، ومعه عدد من الجنود المخلصين. تعرض لأخطار كثيرة حتى وصل إلى جبل كونكو رونكو، حيث استطاع قطف النبتة النادرة التي يمكن أن تشفيني. وجدني حين عودته غائبا عن الوعي. كان ملاك الموت قد اختطفني وقال إنه لن يتركني. مع ذلك، وبفضل الطفل - الملك، ونبتته العجيبة، ومهارته، وصلواته، هأنذا ما أزال حيا. ستتابع ذراعي التي شفيت خدمة البلد. لهذا، أقسمت للمجلس ألا أبتعد أبدا عن مولاي، وأن أدافع عن حياته دائما وفي كل الظروف، لأن حياتي أصبحت ملكا له. أجدد علنا هذا القسم، هنا بحضرتكم. أقسم أني لن أتخلي أبدا عن مولاي الملك أمام أي خطر كان. نعم، نعم، أقسم أني سأفعل!». علق ديالي باختصار على ما سمعه، ثم أعطى الكلام للعمدة مبوديا:

«عندما قرر أخي، الملك دولو، منح ابنته سيرا زوجة إلى بوبا، من أجل تقوية تحالف السلام، وتعزيز الروابط بين بلدينا، كما قال، أعترف بأنه انتابني شيء من القلق، رغم السمعة العطرة التي يتمتع بها الملك الفتى لدى شعبي بلدينا. وبعد حفل الزواج، رافقت

ابنة أخي إلى بيت زوجها، كما تقتضي العادات. كان علي، بعد شهر، أن أتركها في منزلها وأعود إلى بيتي. لكنني وجدت الطمأنينة والهدوء في هذا القصر. لم يكتف بوبا بمعاملتي على أنني مجرد عمة لزوجته. فقد منحني فورا المكانة والمحبة الواجبتين للأم. أحس الآن أنني لست أميرة من الساساي، بل كالمملكة الأم لهذا البلد. لذلك، وبالاتفاق مع أخي، عزمنا على البقاء هنا. زوجي متوفى، ولم يرزقنا الله أطفالا. والآن، أعتبر بوبا وسيرا الولد والبنت اللذين تمنيت أن أرزق بهما. يعتني الطفل - الملك بي عندما أمرض، ويغدق علي من الهدايا بقدر زوجته. لكنه بشكل خاص، يظهر لي كل يوم احتراما كبيرا، وعطفا مؤثرا، ويحبني محبة الابن لأمه. أعيش في هذا البيت كأني في الجنة. نعم، نعم، أشعر أن حياتي هنا أفضل منها في قصر الملك دولو أخي، لأن الاحترام الذي ألقاه لا يقدر بثمن. أتوجه كل يوم بدعاء حار ليعيش هذان الزوجان، المتكافئان كثيرا، في سلام ووفق تام مدى الحياة. وهل يمكنني أن أفعل غير ذلك وقد درجا على معاملتي كأني أمهما؟».

وضع دياي الكورا جانبا. ثم، تناول آلهة الموسيقى الأخرى، البلافون. وبمهارته المعتادة، راح يعزف أنغاما حلوة سحرت كل الحاضرين مرة أخرى. وبصوته العذب، غنى ممتدحا الملك دولو، وأخته مبوديا، وسيرا، التي أصبحت ملكة «السانوكا» بزواجها من الطفل - الملك.

ثم وجه كلامه إلى الملكة الشابة:

«هل تريد جلالتها أن تقول شيئا؟ دون أي شك، لا أحد أصدق من

الزوجة عندما تتحدث عن زوجها». التفتت سيرا بخجل كبير نحو بوبا، كما لو أنها تستجدي حماسه. ابتسم لها ابتسامة تشجيع كبيرة. ثم، وباللهجة البسيطة والمتحفظة التي عرفت بها، تكلمت الملكة الشابة:

«من السهل ومن الصعب علي في الوقت نفسه التحدث عن بوبا. يجب أن أعترف أولاً أنه عندما ناداني والدي، وتكلم إلي طويلاً حول ضرورة تقوية معاهدة السلام مع السانوكا، لم أفهم شيئاً، لأن هذه الأمور لا يناقشها إلا مع قادته العسكريين ومستشاريه. وكان كلما ازداد حديث والدي عن الواجبات التي يجب أن أؤديها كأميرة، وعن ضرورة تمتين الروابط بين مملكتين متجاورتين، قل فهمي لمعنى كلماته. أخيراً قال لي: «لهذا السبب أجد نفسي مضطراً لأن أزوجه من ملك السانوكا». أعترف حالا أنني بكيت كثيراً من القلق والألم. في الواقع، وكجميع الفتيات، لم أكن أحلم إلا بأمير شاب رائع، وجميل، وأنيق، وكريم، وفهيم. لكن أبي، ولأسباب سياسية، وأسباب تتعلق بالبلاد، وجد لي زوجاً لم أعرفه من قبل، ويسكن فضلاً عن ذلك في مملكة قصية. بذلت أُمي وأخواتي كل جهدهن كي يواسينني. وفي غمرة حزني وحيرتي، لم أعرف أن الله استجاب لطلبي كفتاة. احتفلنا بالزواج في الساساي، حتى دون أن يعرف بوبا. بعد ذلك ببعث الوقت، وصلت إلى هنا مع عمتي وبعض خادماتي، خائفة ومضطربة. وسرعان ما اكتشفت أن زوجي فتى ودود، ومنصف، ومتواضع، ومفعم باللطف، والعذوبة، والفطنة، وحب الآخرين. منذئذ، بقي هنائي وسعادتي من أكبر اهتماماته. لا يعرف الخبث والغضب

والثأر والحق. كل الناس يعرفون سرعة صفحه. وجدته ملكا عادلا، يهتم برفاهية شعبه وعائلته أكثر مما يهتم بنفسه بكثير. ليس سرا أنه لا يأبه بالثروة، وأنه قليل الاهتمام بالألقاب والاعتبارات. يعجبني جدا أن كل الحيوانات هي صديقه. ويدهشني دائما أن أراه يتحدث إليها. لهذه الخصال الحميدة ومزايه الأخرى الكثيرة، التي لا أستطيع أن أعددها كلها هنا، سأبقى أشكر أبي كل يوم، لأنه وجد لي هذا الزوج الذي ليس له مثيل أبدا».

بعد هذه الشهادة المؤثرة، شعر بوبا، الطفل - الملك، بأن قلبه فاض عطفًا وحنانًا. شكلت الكلمات التي قالتها زوجته الشابة إعلانًا حقيقيا عن الحب. واستطاع الجميع أن يقرأوا في وجهه المشاعر التي تركتها هذه الكلمات، التي قيلت علنا وببساطة، ولكن بشيء من الحياء. انتظر الجميع الرد، الذي جاء مترافقا بمداخلات الحاضرين في اللحظات المناسبة. وبصوته العذب، المليء بحيوية الشباب، أعلن بوبا:

«تأثرت وأنا أسمع زوجتي سيرا تبوح بعفوية، ولكن بصدق، أمام هذا المجلس، بحبها العظيم الذي تكنه لي. في بداية حكايتها، عبرت عن خوفها وقلقها عندما أخبرها والدها، دون أن يستشيرها، بزواجنا الذي تقرر، وجرى الاحتفال به لأسباب تتعلق بالبلاد، ولا علاقة لها أبداً بالمشاعر والعواطف. يجب أن أعترف، أنا أيضا، أنني فوجئت جدا عندما عرض علي دياي بيان معاهدة سابولا، ذاكرة أن الملك دولو أصر على أن يدرج في البنود زواج ابنته مني. لم يكن أحد قد أخبرني بهذا الاتفاق السياسي. تكرم

جدي والمستشارون حينذاك وشرحوا لي أن مصالح البلاد تتطلب ذلك، وأن هذه المصالح نفسها يجب أن تقدّم على أمنيات الزوجين ورغباتهما وعواطفهما. أظمت بالتأكيد، ولكن بكثير من مشاعر القلق، لأنني تساءلت أخيرا بيني وبين نفسي: «هذه الأميرة التي يفرضونها عليّ، ألا تشبه النعامة؟ أليست سميّة كأبطال المصارعة؟ أليست عوراء، وحذاء، وعوجاء الساقين؟». الحقيقة أن الحكام لا يتوقفون في اتفاقاتهم السياسية عند هذه التفاصيل، غير المهمة كثيرا في رأيهم بالمقارنة مع المصالح المتفاوض حولها. تساءلت بشكل خاص إن كان والدا هذه الفتاة قد ربيّاها تربية حسنة. وما عمرها؟ ألن أقع على زوجة غير مهذبة، صعبة الطباع، متقلبة، خبيثة، محبة للخصام، عالية الصوت، مستعدة لمهاجمة زوجها بمدق ذرة أو ملعقة خشبية كبيرة أو مدحاة عجين، أو أي شيء آخر من البيوت الحديثة، مثلما تفعل بعض بنات اليوم؟ قضيت الليالي ساهرا، لأن هذه التساؤلات أرقّقتني. ثم، ذات يوم، جاءت سيرا، الخائفة والقلقة مثلي. اكتشفت عندئذ زوجة شابة رقيقة، وخجول، ورائعة الجمال. وسرعان ما أحببت فيها طبع البنت الصغيرة المهذبة، وبراءتها، ونبل أخلاقها، وعذوبتها، وطيبتها، ورفعة نفسها، ورأفتها وقوة تأثرها بالآلام الآخرين، وكرمها. باختصار كل الفضائل التي توجد في أميرة عظيمة.

عندئذ، بناء على نصيحة دياي، توددت إليها، وسعيت إلى أسر قلبها. أعتقد أنني نجحت في ذلك، لأن زواجنا، الذي قام على المصلحة، أصبح زواج احترام متبادل، ثم تقدير، وبعدئذ محبة. وكان أخيرا، وسيبقى، حبا عظيما مشتركا. رغم سنّها الصغير،

تسدي إلي غالبا النصائح المناسبة جدا. أقدر كثيرا الأعمال الطيبة التي تقدمها للناس المحرومين والمحتاجين. أنا، الذي غضبت من مستشاري عندما جاءوني بزوجة لم أطلبها، ولم أكن أعرفها، أشكرهم اليوم ودائما، لأنهم أتوني بجوهرة نادرة، وشمس راحت تضيء حياتي، وزهرة لا مثيل لها تزين حديقة بيتي. نعم، الأميرة سيرا أسرت قلبي، قبل أن أعطيه لها بوقت طويل».

أثرت هذه الترنيمة الحقيقية، من زوج لزوجته، تأثيرا عميقا في الحاضرين. لم تستطع سيرا حبس دموعها من الفرح، كذلك مرافقتها تاكو و جميلة. ومسحت عمتها مبوديا نفسها عينيها المبللتين، باحتشام... ونسي دياالي العزف على آله لشدة تأثيره. لكنه استعاد توازنه شيئا فشيئا، وانتهى بالقول:

«أنا دياالي نيتالي فودي مامايا، أنا شاعر وموسيقي البلاط. لقبوني سيد الكلام لأن على، بصفتي مدون أخبار المملكة، أن أبقى كل الأحداث، وكل المآثر، وكل تصريحات وأقوال مولاي الملك، راسخة في ذاكرتي، لأرددها على مسامع الشعب ما حييت. وبعد موتي، سيتابع أولادي مهمتي. وبعد موتهم، سيقوم أبناؤهم بالشيء نفسه، لأنه يجب، من جيل إلى جيل، ألا يضيع أي فعل، وأي مآثرة، وأي حدث من أيام حكم الطفل - الملك. ذلك كي يتذكر الرجال والنساء والأطفال، دائما، تاريخ بلادهم وتاريخ الملوك الذين حكموها. ومن هذا العصر الرغيد، الذي أعيش فيه، وأنا شاهد محظوظ عليه، سيحفظ رجال ونساء المستقبل أن بوبا، الطفل - الملك، كان ملكا أسطوريا، منحه الله قلبا طيبا وشجاعة عظيمة. ونذر حبا كبيرا لزوجته سيرا، أميرة الساساي، التي

أصبحت ملكة السانوكا. اعتلى العرش في الخامسة عشرة من عمره، وأنجز في خمس سنوات من حكمه أشياء عظيمة جدا لبلده. ودون أي شك، سيحقق المزيد من المآثر لشعبه. سيقوم بإجراءات جديدة لصالح المحتاجين، والمستضعفين، واليتامى، لأنه لا يستطيع رؤية الظلم دون أن يقاومه، أو لمس حاجة الناس دون أن يحاول علاجها. هكذا تصرف دائما، منذ نعومة أظفاره. وبكل تأكيد، لن يتغير أبدا. نعم، ليحفظ الله لنا محبوبنا الطفل - الملك، وليثبت قدميه على طريق الحق إلى الأبد».

هكذا تكلم دياالي نيتالي فودي مامايا، شاعر وموسيقي بلاط ملك السانوكا الشاب، وسيد الكلام، ومدون الأخبار، والمؤرخ، وذاكرة الشعب في الوقت نفسه. حدث ذلك في بلاط الملك الرحب، تحت شجرة المنجة الكبيرة، التي بسطت ظلها الندي على المجتمعين للاستماع إلى دياالي، متحدثا، وعازفا على الكورا تارة، وعلى البلافون تارة أخرى.

فجأة، وصلت امرأة لاهثة. وقبل أن يستطيع الحراس إيقافها، دخلت إلى وسط المدعويين، بشعرها الأشعث وأنفاسها المتقطعة، بعد أن ركضت طويلا تحت حرارة الشمس الشديدة. انحنت أمام بوبا وقالت:

مولاي الملك، مولاي الملك، تعال بسرعة! أبي مشرف على الموت، والدي سيموت!

- ولكن من هو أبوك؟ ومن أنت؟

- اسمي عليمه. أنا بنت مستشارك سامبا كا. هلم بسرعة يا مولاي، أنت وحدك تستطيع إنقاذه! إن تأخرت، فإنه سيموت!.

تأثر بوبا بصدق كلامها. نهض فوراً، وتوجه بسرعة نحو البستان الكبير في آخر البلاط. هناك، قرب شجرة المنجة، قام كوخ صغير من القش، لا يسمح البستاني «دتييه» بدخول أحد إليه بمفرده، إلا الملك أو جده.

دخل بوبا الكوخ. تردد لحظة، ثم اختار بعض الأعشاب الجافة، وتناول ثلاث مطرات صغيرة مليئة بسائل لا لون له، وعلبة. وخرج. كان موري ينتظره على حصانه في الباحة مع خمسة جنود. وكالقادة المعتادين على التفكير بسرعة وإعطاء الأوامر الدقيقة، خاطبه الملك قائلاً:

«موري، أنت وحدك سترافقنا. نحن هنا في كور دياما، العاصمة، ولا يبدو لي أن الحماية ضرورية. جدي، دياتي، أنتما أيضاً، تعالا معي. لم يعد لدينا وقت نضيعه، هيا إلى الجياد».

غادر الأربعة القصر بسرعة في الحال. سلكوا الشارع الكبير المؤدي إلى البيوت القريبة. وما أن بلغوها، حتى اتجهوا يساراً، كما لو أنهم أرادوا الخروج من المدينة. وبعد بضع لحظات، وصلت الكوكبة الصغيرة إلى بيت المستشار سامبا كا. دخل بوبا، يتبعه جده ودياتي، إلى غرفة المريض، الذي كانت تعتني به زوجته واشتاتان من بناته.

فحصه بعناية، ورفع جفنه ليرى ردة فعله، ووضع يده على جبينه. عدم وجود الحمى، الذي لم يطمئنه، أقلقه كثيراً. بقي العجوز ساكناً، ولم تظهر منه أي حركة. وبدأ تنفسه متوقفاً.

بدوره، فحص الجد والي المريض. وضع أذنه على صدره، وأصغى بانتباه. رفع رأسه، وقال لحفيده وهو في حيرة من أمره:

«وصلنا متأخرين كثيرا. لم أعد أسمع نبضات قلبه. لن نستطيع فعل شيء».

- بل أستطيع يا جدي. يمكننا القيام بشيء ما! سأحاول.
كشف الطفل - الملك عن صدر سامبا كا، وراح يدلكه بنشاط.
استمر كذلك لوقت طويل، رغم العرق الذي أخذ يتصبب من جبينه.

توقف لحظة، وتناول مطرة صغيرة، ورفع رأس العجوز قليلا. فتح فمه ليصب بين شفثيه بضع قطرات من سائل غامض. وعاد لتدليك صدره، دون تعب، وبمزيد من النشاط. تابع الحاضرون هذا المشهد بعيون مدهوشة. فجأة، تحركت يد العجوز اليمنى بشكل خفيف. وصرخ الجد:
«حرك أصابعه! حرك أصابعه!».

ازداد نشاط بوبا بضع لحظات. تناول المطرتين الصغيرتين الآخرين، ومزج محتواهما وخضه بقوة. ثم، صب بعناية بضع قطرات منه في أنف المحتضر، الذي بقي لحظة بلا حراك، ولكن راح يعطس. حينئذ، فتح الطفل - الملك علبة صغيرة ملأى بمرهم عطر الرائحة، ودهن به صدر المريض وعنقه وجبينه، وأخذ يدلكه بمهارة. تأكد كل الحاضرين أن العجوز بدأ يتنفس بانتظام. غطاه الملك الشاب بوزرة من قدميه حتى ذقنه، بعد أن أنعشه تماما. أخيرا، وضع يده على جبينه، وجعل يردد هذا الدعاء بصوت عال:
«يا الله، يا من يحيي ويميت، أرجو أن تشمل بعنايتك ورأفتك عبدك العجوز سامبا كا، الرجل الصالح، الصدوق، الذي لا يضمّر شرا لأحد، ويسير على الصراط المستقيم منذ طفولته. من

عليه بالحياة إن شئت، وأطل عمره ليتابع بيننا حياة النزاهة والطيبة التي يحياها منذ وقت طويل». في اليوم التالي، استيقظ سامبا كا وتحدث إلى أسرته ومنقذه، الذي رجع للاطمئنان عليه. وبعد خمسة أيام، عاد لممارسة نشاطاته.

٢ - أرض الفيلة

صاح الديك، فصاح آخر. بزغ الفجر في كور دياما، عاصمة السانوكا. ظهر القرص الأحمر في الشرق، وغطى بالأرجوان والذهب غيوما أرادت أن تجدل له هالة شفافة.

خرج الطفل - الملك، الذي استيقظ باكرا كالعادة، من غرفته. سار بطول الشرفة، ثم طرق أحد الأبواب بلطف. انفتح الباب في الحال. لما رأت سيرا زوجها، انحنى قليلا لتحية. أمسكها بوبا وهمس إليها قائلا:

«أميرتي، أنت نور شمسي الأول. أنت لا تضيئين فقط عالمي، بل تسكين النور في قلبي. ما إن أراك حتى تزول كل همومي، ويتبدد قلقي.

- صباح الخير يا مولاي. هل تعرف أن قلبي لك وأنه لا يخفق لسواك؟ هل تدري أنك ستبقى دائما شاغل أفكاري؟ هل تعرف أن العيش بجانبك كاف لسعادتي؟

- أنت أيضا كنزي الوحيد. ما همني الذهب والفضة إذا لم أرك بجانبك! أنت، وحدك، أغلى من كل ثروات السانوكا والساساي معا. كانت الحرب بين بلدينا شيئا كريها بالتأكيد، لكنها أنجبت حبا لا يموت: حب بوبا لزوجته سيرا وحب سيرا لزوجها بوبا. اعطني يدك يا أميرتي ورددي ورائي هذه الدعاء: «يا الله، يا فاطر السماوات، والأرض وكل ما فيهما، الحمد لك على نعمك التي تنعم علينا بها كل يوم. اللهم اجعل الحب الذي يربطني بزوجتي قويا ومستمرا أبدا، مثل شمسك الملهبة التي تشرق كل صباح، ساطعة كالأمس، كي تدفئ الأرض».

راح نور النهار يضيء أرجاء القصر. توجهت سيرا و بوبا، متهامسين مثل يافعين لا مبالين، وضاحكين كالأطفال، إلى مسكن والي العجوز، الذي وجداه واقفا تحت شرفته. خاطبه الشابان في وقت واحد تقريبا:

«صباح الخير يا جدي. هل أمضيت ليلة هادئة؟ هل أنت مرتاح؟».

- صباح الخير يا ولدي. أحيي في الوقت نفسه حفيدي ومولاي، وزوجته الرائعة والملكة. نعم، أنا مرتاح. من يراكما باسمين مبتهجين يقول إنكما يمامتان تسجعان. إنكما تملآن قلبي فرحا بانسجامكما زوجا وزوجة فتيين. أدعو ربي كل يوم أن يحميكما.

- شكرا يا جدي. نحن أيضا ندعو الله أن يطيل عمرك بيننا، لأنه ليس لخبرتك وحكمتك مثيل. يكفيننا ما تكنه لنا من عطف. حبك لنا يحمينا كأنه تميمة.

بعد أن باركهما الجد والي، توجه الزوجان إلى مسكن العمّة مبوديا. وجداهما بانتظارهما تحت الشرفة، جالسة على حصير صفصاف مجدول يعكس ألوانا زاهية.

قالت لها سيرا:

«جئنا بوبا و أنا لنحييك يا عمتي مبوديا. نتمنى لك يوما هادئا ومريحا».

- شكرا يا ولدي. اجلسا بقربي. سكان هذه البلاد يؤكدون أن مجرد لمس الطفل - الملك يأتي بالسعادة. بدأت أعتقد ذلك، لأن قلبي وروحي يرتويان بالسكينة والصفاء، منذ مجيئي إلى هذا القصر».

تحدثت سيرا و بوبا قليلا مع العمّة مبوديا. ثم نهضا للذهاب إلى

البستان في آخر القصر. عند المدخل، وقف دتييه، البستاني المكلف بالصيانة. ظهرت الأشجار المثمرة الكثيرة، التي نمت هنا، كأنها غابة صغيرة هادئة، وبدت مثل ملجأ أمين. في داخلها، قرب المسكبة، فتح بوبا صندوقاً مليئاً بحبوب الذرة الصفراء، والدخن. ملأ الطفل - الملك و سيرا قبضتيهما حبوباً ونثراها على الأرض. لم تكن سحابة الطيور الملونة تنتظر سوى هذه الإشارة. نزلت سريعاً عن الأغصان لتناول وجبتها اليومية. في البداية، راح هذا العالم المجنح يتصارع قليلاً، لكن الزوجين أمطراها بمزيد من الطعام، فتوقف النزاع. أكلت الطيور حتى شبعت، ثم طارت واحداً بعد الآخر، عدا أسرة الغريان، التي بقيت وقتاً أطول حول الملك والمملكة. رفرف رئيسها قليلاً، وحط على كتف بوبا، وقال له: «أحبك أنت وزوجتك الرائعة».

- زوجتي وأنا نرحب بك يا صديقي كروا. ماذا تفعل هذه الأيام. تعرف أنني أتضايق إذا مر أسبوع لم أرك فيه. أين قادك جناحك أخيراً؟

- لا تتشغل علينا. أسرتي وأنا نطير عبر الجبال والوديان. نذهب إلى حيث تقودنا الريح. نراقب الناس، والحيوانات والأشياء. غالباً ما نفكر فيك، لأنك صديقنا وتفهم لغتنا. لهذا نعود بين وقت وآخر لرؤيتك، وتحيتك، واستشارتك. نحن نشعر بمحبة صافية نحوكما.

- لا أشك في ذلك يا صديقي كروا. أنا أيضاً أعتبرك جزءاً من عائلتي. أحبك جداً أنت وأفراد جماعتك، لأنني أعرف أن مشاعركم نحونا صادقة، وعميقة، وأنقى بكثير من مشاعر بعض البشر.

- وبعد أن زُفر قليلاً حول الملكين، ابتعد كروا، وتبعته كل أسرته.
- قالت سيرا لزوجها:
- «سأبقى يا بوبا مفتونة دائماً برؤيتك تتحدث مع صديقك الغراب.
- من الواضح أنه يحبك كثيراً».
- نعم، يحبني جداً. نحن صديقان منذ طفولتي. عندما كنت صغيراً، التقطته بعد أن سقط على الأرض وجرح جرحاً بالغاً. اعتيت به حتى شفي منه. منذئذ يكن لي محبة عميقة وإخلاصاً كبيراً.
- يا أميري، أودّ طرح سؤال عليك الآن. هل ستجيب عنه؟
- بالتأكيد يا كنز قلبي. كلي آذان صاغية.
- تروج في القصر إشاعة طريفة. يقولون إن مستشارك سامبا كان ميتاً عندما وصلت إليه و... أنك... أنت أعدت الحياة إليه. هل هذا صحيح؟
- يا ملكتي، هل تعتقدين أنني قادر على إحياء ميت؟
- أنا... أنا... لا أعرف ذلك، لهذا سألتك. ولكن فيك الكثير من الطيبة، والكثير من العذوبة، ولديك كثير من... القدرات، حتى أنني لم أعد أفاجأ بأي شيء يصدر عنك. رأيته تشفي بعض الناس بأعجوبة.
- كم تؤثر بي ثقته العظيمة هذه. سأجيبك: لست قادراً على رد الحياة إلى شخص ميت. لا يوجد أحد من البشر يقدر على ذلك. لكن الجنيات الشريرة التي اختطفنتي وأنا صغير، دلتني على ألف دواء ودواء لإنقاذ حياة الناس، والحيوانات، والنباتات، أو إبادتها. لم أقسم لجدي بعدم الإساءة لأحد

فقط، بل وعده أيضا بألا أستخدم هذه المعرفة إلا من أجل تخفيف آلام المرضى وشفائهم. وهكذا استطعت إنقاذ حياة سامبا كما قبل أن يدركه الموت.

- فهمت الآن يا أمير قلبي. كم أنا فخورة بك.

بعد ذلك بقليل، ذهب بوبا إلى قاعة العرش للتشاور مع مستشاريه. وما إن دخل، حتى حيوه باحترام أكبر من المعتاد. وقبل أن تبدأ المناقشات، طلب سامبا كالام. وتكلم هكذا:

«مولاي الملك، ها أنا أعود إلى المجلس، معافى تماما رغم كبر سني جدا. يقولون إنك سقيتني ماء الفتوة. أحس أنني استعدت شبابي، وصحتي ممتازة. أخبرتني زوجتي أن الموت أدركني قبل أن تداويني بوقت قصير، لأن تنفسي كان قد توقف. لهذا، ورغم صغر سنك وكبر سني، أنحني عند قدميك كي أشكر، فقد أنقذت حياتي، أنت يا من منحك الله القدرة على شفاء البشر».

بعد أن أنهى العجوز كلامه، انحنى عند قدمي الملك. لكن بوبا أوقفه، وقال له بلطف:

«لا، لا، أيها المبجل سامبا كا، من غير اللائق تقديم طقوس العبادة لإنسان، ولو كان هذا الإنسان ملكا. انهض وثب إلى رشدك، لا أحد يستطيع إعادة الحياة إلى شخص أصابه الموت. عندما جئتكم وأنت مريض، وجدتك غارقا فيما يشبه الخمود، وقد نجحت في إخراجك منه. ثم ساعدني دواء نافع على شفائك. أما أنتم جميعا يا مستشاري الحكماء عليّ، فإنني أحبكم وأقدركم تقديرا عاليا، مثلما أحب وأقدر جدي والي الموجود بيننا. بما أن الله منّ عليّ بمعرفة بعض أسرار الشفاء، فقد جعلت من واجبي دائما، إن لم

أقل لزاما علي، أن أعنتي بكم كي تبقوا موفوري الصحة. أقوم بذلك من أجل مصلحة المملكة أيضا. في الواقع، أنتم رجال أذكاء، وحكماء، وشيوخ محترمون تتمتعون بالمعرفة والخبرة. لو تركت المرض يصيبكم واحدا بعد آخر، فمن يقدم لي المشورة بعد ذلك؟ إذن فبالسهر على صحتكم، أسهر أيضا على رفاهية السانوكا. يقولون إنني أحييت سامبا كا. أعتمد عليكم جميعا كي تكذبوا علنا هذا الكلام المسيء. الله وحده يعطي الحياة ويأخذها، وهو وحده القادر على إعادة الحياة إلى شخص مات».

أبهج جواب الملك الشاب مجلس العقلاء. واستطاع الأعيان بعد ذلك مناقشة أمور البلاد المهمة بهدوء وصفاء. وانقضى باقي النهار بلا حوادث.

كان الوقت ظلاما بعد، لكن انبلاج الفجر لم يتأخر. اصطف حراس الملك بصمت وانتظام كامل في باحة القصر، بانتظار خروجه. ولم يمزق هذا الصمت سوى سهيل الجياد بين حين وآخر. خرج بوبا من مسكنه ترافقه الملكة. وكى لا يسمعها أحد، همست إليه:

«عد سريعا يا أميري، فيوم من دونك يبدو لي كأنه دهر».

- نعم يا أميرتي المحبوبة، سأحاول العودة بأسرع وقت. أيامي بعيدا عنك ياهتة وباردة، لأنك شمس عمري.

قال بوبا مخاطبا جده والعمة مبوديا:

«أترك سيرا في رعايتكما. احرصا عليها مثلما تحرصان على كنز التاج».

امتطى الطفل - الملك حصانه. حياه الجنود بضرب الرماح على

الدروع ثلاث مرات، ثم أعطى موري إشارة الانطلاق. غادرت الوحدة الصغيرة باحة القصر على مهل. اخترقت الشارع الكبير المؤدي إلى وسط كور دياما، العاصمة. سار في مقدمتها فارس يحمل راية الحرب الملكية، المرفرفة في هواء الصباح، ثم الملك، وإلى جانبه موري و دياي و خليفة. وتبعهم في الخلف جنود الحراسة.

اجتاز الفرسان جزءا من المدينة النائية، وانعطفوا غربا. جروا بعض الوقت بمحاذاة الشاطئ، ثم أداروا ظهورهم للمحيط، وتوغلوا في عمق السهل الوفير العشب. كانت الشمس تشرق ببطء. فجأة تغير سيرهم الهادئ، وأصبح جامحا. انطلق الفرسان بأقصى سرعة، بلا عنان، في رتل متراص تارة كلما ضاقت الطريق، ومتباعدين كثيرا تارة أخرى كلما سمحت طبيعة الأرض بذلك، قافزين فوق جذوع الأشجار المرمية على الأرض، ومجتازين السواقي والحفر المفاجئة. لزمهم الحذر دائما من الأغصان المنخفضة، التي كانت تصفع وجوههم من وقت لآخر، وأوشكت أن تطرحهم أرضا.

وبإشارة واحدة، توقف الجميع. وزع خليفة وحدته إلى فريقين من الفرسان. وأخذوا يتبارزون بالسيوف مبارزة حامية، ويقفزون بقوة وشجاعة. ارتفعت أصوات قرع السيوف قوية، حتى تطاير منها الشرر. لم يعرف الفلاحون المرتعبون أن ذلك ليس سوى تمارين لتدريب الطفل - الملك على القتال والحرب. هربوا مذعورين من صخب المعركة وأصوات العراك، وأخبروا زعماء القرية المجاورة بما يحدث بعد مغيب الشمس، توقفت المعارك، وشرعوا في

تضميد بعض الجراح الخفيفة، وعلاج ثلاثة أو أربعة خيول تعرضت لبعض طعنات السيوف، وتناولوا وجبة خفيفة ليستأنفوا التدريب بعد ذلك.

بعد ذلك، رمى الفرسان السهام بجياد مسرعة على أهداف مثبتة إلى أوتاد. وألقى كل منهم رمحيه على دمية من القش معلقة على غصن شجرة. في النهاية، تصارعوا اثنين اثنين. وفاجأ ديالي الجميع عندما جندل خليفة، ثم قال إنه عندما كان شابا غلب أقوى مصارعي قريته والقرى المجاورة. وشن موري هجوما مفاجئا على بوبا الذي دربه بنفسه، فتأرجح ووقع على الأرض. لكن الطفل - الملك فكر عميقا في المنازلة الثانية. استغل خطأ صغيرا من موري، فأمسكه بحزامه وهزه هزة عنيفة، ثم رماه بقوة على الأرض.

بعد ذلك، صف خليفة كل الفرسان على شكل دائرة، في ظل شجرة بأوواب ضخمة، وبدأ يشرح لهم كيفية الهجوم عندما يفوقهم العدو عددا. وبينما هو يرسم الخطوط على التراب، ليفهموا بشكل أفضل، نزلت خمسة أو ستة غريان من السماء. حامت فوق كوكبة الفرسان، ثم ابتعد عنها واحد وحط على كتف بوبا ناعقا، وقد بدا عليه الاضطراب. استمع إليه الملك الشاب بانتباه تحت أنظار الحاضرين المدهوشة، وأجاب:

«شكرا يا كروا لأنك أخبرتني. سأشرح لرفاقي ما حدث ثم نلحق بك».

- يا أصدقائي، هذا الغراب يدعى كروا. يشرفني بصداقته. بالمقابل أكن له محبة كبيرة. أخبرني أن قطيعا عظيما من الفيلة

أهلك قرية ليست بعيدة من هنا كثيرا . يريد مني الذهاب إليها .
هيا إلى الجياد فورا ، لا وقت لدينا نضيعه .

انطلق الفرسان بكل قوة الجياد . ولكن لم يستطيعوا اللحاق
بالغراب كروا وجماعته . بعد أن سبقت الطيور الرجال ، انتظرتهم
في مكان مكشوف على الأشجار ، ثم حلقت في الجو من جديد .
وبعد مسافة غير قصيرة ، وصل الطفل - الملك وجنوده إلى تلة
تطل على البحر الكبير ، حيث رأوا منظرا أذهلهم : حشدا مذعورا
من الرجال والنساء والأطفال على قمة هضبة قريبة يحيط بها
قطيع من الفيلة . كانت فيلة أخرى قد غزت قريتهم التي بدت
مقفرة ، وراحت تهدم آخر ما بقي من مساكنها . واشتعلت النيران
في بعض بيوت القش . سمعوا نهم الفيلة الغاضبة قويا عبر
الهواء الحار .

تأمل الفرسان منظر الخراب مدهوشين صامتين . فجأة ، صرخ
ديالي :

« يا مولاي ، انظر هناك ، إلى اليسار ! تحاول الفيلة الصعود إلى
أعلى الهضبة . لا شك أنها ستفتك بالأهالي الملتجئين هناك !
- نعم يا ديالي ، هذا صحيح ! إذا استطاعت ارتقاء المنحدر ، ستبيد
هؤلاء البائسين . سأحاول إنقاذهم ! لا أحد يتبعني ! ابقوا هنا
هادئين ! .

نزل الطفل - الملك بأقصى سرعة على سفح الهضبة ، قافزا فوق
الجدوع الملقاة على الأرض ، ومتجنبيا الصخور والحفر بمهارة
فائقة . التفت بوبا وراءه ، فرأى موري يتبعه . توقف ووبخه بقسوة :
« أمرت بالألا يتبعني أحد ! لماذا لم تسمع كلامي ؟ » .

- ليسامحني مولاي أني لم أطعه. أقسمت أمام المجلس على عدم تركك أبدا تواجه الأخطار بمفردك!

لم يتسن للطفل - الملك وقت للرد عليه، إذ خرج من الأيكة فيل فجأة وتوجه بسرعة نحو الفارسين. خاف الحصانان، وشبا وصهلا. شد بوبا العنان ونكز حصانه فورا، وأبعده نحو اليسار لتجنب الفيل العملاق المهاجم. واستطاع تجنبه. لكن الفيل الهائج استمر في ملاحقته. اقترب من موري، ومد خرطوميه. أمسك به بشدة، ورفعته إلى أعلى رأسه الضخم. جذب بوبا حصانه إلى الجانب الآخر. وعلى رغم خوف الحصان الذي اشتد هياجه، جابه الملك الفيل، رافعا يده اليمنى وصارخا بصوت قوي:

- أيها السيد الفيل! أيها السيد الفيل! لا تقتل هذا الرجل! لا تقتله! إنه صديقي!

دهش الحيوان الضخم عندما سمع الفارس يكلمه، ومكث في مكانه بلا حراك. راح يفكر. من هذا الشاب؟ كيف أمكنه فهم لغة الفيلة؟ وهذا الرجل الذي يمسك به، هل يجب قتله أم يتركه وشأنه؟

لما رأى بوبا الفيل مترددا، تابع كلامه إليه:

«أنزل هذا الرجل على الأرض، ولا تؤذه. اسمعني، يجب أن أتحدث إليك. أرجوك».

بقي الفيل مترددا لحظة، ثم وضع موري على الأرض. نهض هذا بسرعة، وهرب وهو يعرج قليلا.

داعب بوبا عنق حصانه كي يهدئه. لكن الفيل هاج مرة أخرى. تقدم خطوتين نحو الفارس ورفع خرطوميه مهددا، وصرخ:

«من أنت؟ ماذا تريد؟ لماذا أنقذت هذا الرجل؟ كيف استطعت أن تتكلم لغتنا؟».

- اهدأ يا عزيزي الفيل! الرجل الذي كدت تقتله هو صديقي. يلقبونني بالطفل - الملك. أنا ملك هذه البلاد. يجب أن تأخذني فوراً إلى زعيمكم قبل أن يقتل رفاقك سكان هذه القرية، الذين التجأوا إلى أعلى الهضبة. بما أننا نتكلم اللغة نفسها، فنحن أصدقاء. سأفسر لك هذا اللغز. ولكن، خذني سريعاً إلى رئيسك، قبل أن يحدث ما لا يمكن إصلاحه!

- أنا قائد هذا القطيع. أنا من أعطى أوامر مطاردة القرويين وقتلهم، وتدمير أكواخهم وتخريب حقولهم.

ترجل بوباً عن حصانه. اقترب من الفيل الضخم، الذي لم يهدأ غضبه تماماً بعد. رفع يده بلطف، وداعب خرطومه قائلاً:

«يا عزيزي الفيل، إهدأ واسمع صوتي. انظر إليّ. هأنذا أقف قريبك، ضعيفاً، بلا حماية. يمكنك أن تقتلني بسهولة، غير أنني أثق بك. اصغ إلى صوتي، اسمع نداء العقل والسلام. غالباً ما يقول لي مستشاري إن على الملك ألا يتوسل إلى أحد، لكنني لا أترفع أمامك. أرجو إعطاء الأوامر لإخوتك كي يتركوا أهل القرية وشأنهم. أتوسل إليك! هيا، هيا، افعل ذلك بسرعة قبل أن يفوت الأوان! ثم عد إلي كي نتناقش أنا وأنت. أستحلفك بالله الواحد القوي القادر، خالق الناس والبهائم، افعل ما أطلبه منك. هيا قرر، الوقت يمضي، ويكاد الدم يسيل».

تردد قائد الفيلة لحظة. هل عليه قتل هذا المخلوق الصغير، وإبادة هؤلاء القرويين الملعونين، أم أن عليه الإصغاء إلى الكلام المطمئن

الذي قاله الرجل؟ أخذ قراره سريعا، وقال:
«أيها الإنسان الصغير، انتظرني هنا. سأحاول تهدئة إخوتي أنا. لا
أعدك بشيء، لأن أبناء جنسي عنيدون غالبا».
توجه الحيوان الضخم نحو الهضبة المجاورة للقرية. وما هي إلا
بضع خطوات كبيرة، حتى بلغ موقع القطيع. لما رأت الفيلة
قائدها، تشجعت، واستعدت للهجوم النهائي بصعود منحدر
الهضبة، التي تجمع في أعلاها الرجال والنساء والأطفال، عقب
فرارهم من القرية بوقت قصير.

أطلق القائد نهيمًا طويلا، فنزلت الفيلة ببطء، بعد وصولها إلى
منتصف المنحدر. بدت كأنها مكرهة على ذلك. انضمت إلى تلك
التي لزمت أماكنها في الأسفل. وخلال لحظة، أحاطت جموع
متراصة وصاخبة من الفيلة بالذكر الكبير، الذي كان يصدر
الأوامر. امتلأ الجو الحار فجأة بصياح خشن يصم الأذان. وارتفع
في الجو غبار كثيف، بعد أن راحت مئات الخراطيم تقذف التراب
إلى الأعلى، تحديا أو غضبا.

توجه موري، الذي أزعجته المغامرة المزعجة وآلمت جسده، إلى الهضبة
المقابلة. وقف مع ديبالي وخليفة وجنود الحراسة يراقبون المشهد
المذهل أمامهم، حائرين، ومرتجفين، ومدهوشين. فجأة، رأى الرجال
القطيع كله يتجه نحو الملك الشاب، الذي وقف هادئ الوجه
والأعصاب، وبدا أنه بانتظار الحيوانات في مكان بعيد قليلا. وصلت
إليه الفيلة العملاقة، وأحاطت به، وحجبتة عن أنظار رفاقه، الذين
كادوا يختنقون من الغضب. ألن تسحق هذه الحيوانات الثقيلة، غير
الفتنة، ملكهم المحبوب؟ أخذ موري ينوح بصوت مرتفع:

«يا لي من جبان! أنقذ سيدي حياتي، وسرعان ما هربت. أرعبتني هذه البهيمة الضخمة التي أمسكتني، حتى لم أعد أفكر بمنقذي. لكنني أقسمت للمجلس أن أحميه دائما، ولو كلفني ذلك حياتي! عار علي! عار علي!».

انتصب خليفة على ركاب سرجه، وراح يصرخ بصوت أقوى من صوت موري:

«لا، لا، سيلحق العار بي أنا. ألسنت قائد الجيش؟ أليست حماية الملك هي مسؤوليتي أنا قبلك، منذ خروجنا من القصر؟ إذا قتلت هذه الحيوانات سيدي، سيسأل الشعب أولا: «ماذا كان يفعل خليفة في ذلك الوقت؟ لماذا احتفى بأعلى الهضبة، بدلا من الذهاب لمساعدة الملك؟». أنا أيضا أنقذ حياتي. علي اللعنة! علي اللعنة! لن أستطيع تحمل هذا الخزي، لا، لن أستطيع».

رد شاعر وموسيقي الملك:

«لا، لا، ذنبكما أصفر من ذنبي. ألم يشرفني الطفل - الملك بصداقته؟ ألا يكن لي ولعائلتي الصدق والمحبة العميقة؟ بعد اليوم سيكتب العار على جبيني. ثم كيف أجرؤ بعد الآن على النظر في وجه والي العجوز والملكة سيرا؟ لا، لا، أفضل الموت على الخزي». لم يكذب ديالي ينهي كلامه، حتى استل سيفه. وفعل مثله خليفة وموري والجنود. نكز الجميع جيادهم، كأنهم رجل واحد. اتجهوا نحو حشد الفيلة المتراص بعزيمة لا تتزعزع، لإنقاذ ملكهم إن استطاعوا، أو فليموتوا والسلاح بأيديهم. ولكن، يا للمفاجأة! هدأت الحيوانات الضخمة دفعة واحدة، وسارت نحو أسفل الوادي بهدوء، واثقة من قوتها. ولكثرة عددها، لم يعد أحد يعرف

إن كان الطفل - الملك حيا أم لا . توقف ديابي ورفاقه وراحوا يراقبون مرور هذا الرتل الخارق. بعد وقت طويل، عندما ابتعد القطيع، لمحوا ملكهم واقفا على صخرة، مرتاحا ومنفرج الأسارير. وبدا بابتسامته الطفولية المعتادة كأنه بانتظارهم. ما إن رأى رفاقه، حتى نزل وركض نحوهم. التفوا حوله. أراد كل منهم لمسه بيده، متذكرين الحكاية المعروفة في البلاد، التي تؤكد أن مجرد لمس الطفل - الملك يجلب السعادة.

قبل موري، المتحمس أكثر من الآخرين، يديه وجثا أمامه ولاء له. وفعل ديابي و خليفة وبقية الجنود مثله في الحال. لكن الملك الشاب أبهى استياءه:

«هيا، انهضوا يا أصدقائي! لا تليق أفعال العبادة هذه بأي إنسان، ولو كان ملكا. الركوع لله وحده».

أحاط الجميع بملكهم، وتكلموا كلهم في وقت واحد:

«لماذا تخلت الفيلة عن الحصار؟»

- لماذا لم تقتل الحيوانات القرويين مثلما صممت؟

- اعتقدنا أن هذه البهائم الضخمة قد قتلتك! كيف أمكنك الإفلات منها؟

- مهلا يا أصدقائي، مهلا! اسألوا واحدا فواحدا. دعوني أولا أتحدث إلى موري. هل أنت جريح؟

- لا، يا صاحب الجلالة، لا. بفضل تدخلك، لم أصب بأذى. عندما أمسكني هذا الوحش بخرطوميه، خلعت أن نهايتي اقتربت. كدت أختنق حين أوثقني به. في الوقت نفسه، رحت أنتظر اللحظة التي سيقذفني فيها على الأرض، ثم يفرس نابيه الكبيرين

في صدري، قبل أن يدوسني بقوائمه الضخمة.

- نعم يا موري، هذا ما كان سيفعله غاندا ملك الفيلة. من حسن الحظ أنني تمكنت من رده عن ذلك. والآن يا أصدقائي، قبل الإجابة عن أسئلتكم، أطلب منكم صعود الهضبة الأخرى. عليكم طمأنة سكان القرية، ثم إحضارهم إلى هذا السهل، كي أشرح لهم ولكم في الوقت نفسه ما حدث، وما يستحسن فعله.

نزل سكان القرية، خائفين بعد. كانت نظراتهم الحائرة تعكس رعبهم من خصومهم غير المألوفين كثيرا. انحنى زعيم القرية ووجههاؤها وبعض النسوة أمام بوبا، وأرادوا تقبيل يديه ولمس ثيابه. طمأنهم بوبا. ثم صعد صخرة كي يراه ويسمعه كل الرجال والنساء والأطفال الذين اجتمعوا حوله.

«يا سكان قرية دونغار، اسمعوني جيدا. كنا نتدرب على القتال، حراسي وأنا، في مكان بعيد، عندما جاء صديقي الغراب كروا، وأخبرني بالمأساة التي تحدث هنا. توجهنا نحوكم بأقصى سرعة، لمساعدتكم ضد الفيلة، التي هاجمتكم بأعداد كبيرة. ليس من الصعب معرفة سبب هياجها. خلف قريتك، هناك ساقية كبيرة، في مكان يدعى ساما بولونغ، أي وادي الفيلة. لكنكم بنيتم مساكنكم هنا بالذات، في هذا المكان، الذي تأوي إليه هذه الحيوانات منذ مئات السنين لقضاء فصل الشتاء قرب الساقية. وبما أنه ليس أمامها سبيل آخر للوصول إلى المكان، فقد عازمت على تخريب مساكنكم، وقتلكم لإعطاء درس لمن ينوي ذات يوم العودة لبنائها. نجحت أنا في جعل زعيمها غاندا يذعن للصواب. آسف أن أقول لكم ذلك. فلكي أهدئه، وبالأخص من أجل أن يرفع

رفاقه الحصار، قلت له إنه على حق. لا يستطيع هو وجماعته أن يمضوا الشتاء في أي مكان آخر. قالوا لي إن أجيالا من الفيلة عاشت في تلك المنطقة منذ قرون. تعيش شتاء في ساما بولونغ، ثم تهاجر في بداية الصيف نحو الجنوب. تعود بعد ذلك إلى منطقتها حالما تبدأ الأمطار بالسقوط فيها. يا مواطني الأعزاء، تعرفون جميعا أن هذه الأرض خلقها الله للناس والحيوانات على حد سواء. علينا العيش فيها بوثام، لأن المكان يتسع للجميع. بالنتيجة، من أجل إنقاذ حياتكم، لأن الفيلة عازمت على صعود الهضبة لتقتلكم. وكي تسود العدالة، أقسمت إلى غاندا أنه إذا أمر بإيقاف هجومه عليكم، سأقوم بنقل القرية من ذلك الموقع، لتصل جماعته منذ اليوم بحرية إلى ساقية آبائها وأجدادها».

خيم صمت كبير على المجتمعين. تشاور مختار القرية مع الوجهاء وبعض الشيوخ لوقت قصير، وهزوا رؤوسهم بالموافقة جميعا، ثم رجعوا إلى الصخرة التي يقف عليها بوبا، الذي سألهم:

«هل فكرتم؟ الوقت يمر بسرعة. يجب أن أعرف ما سأقوله إلى غاندا عند عودته، لأنه سيعود. ثقوا بذلك، فقد أعطاني مهلة يومية».

- نعم يا صاحب الجلالة، اتخذنا القرار. أنا باتور، مختار هذه القرية، أنقل إليك شكرنا جميعا، رجالا ونساء وأطفالا، لأنك أنقذتنا من موت محتم. هاكم ما قررناه: «سنرحل من هنا. سنقيم في أي مكان تحدده لنا أنت يا ملك هذه البلاد. تفضل ودلنا على الموقع. تقضي الحكمة أن نتصرف هكذا».

رأى الجميع ابتسامة ارتياح تضيء وجه الملك الشاب. قفز دياي،

الذي لم يكن ينتظر سوى هذه اللحظة، ووقف بجانب بوبا على الصخرة الكبيرة. بقي متوازنا بقامته الطويلة، ورفع ذراعيه نحو السماء، وصرخ:

«مرة أخرى أنقذ مولاي المحبوب شعبه. مرة أخرى نطق بكلام حكيم. مرة أخرى جعلنا اعتداله، وحسن تدبيره، وفطنته، ورشاده، ودهاؤه نتجنب حماما من الدم. يحيا الطفل - الملك! أطل الله عمر الطفل - الملك».

ردد المجتمعون من قلوبهم، كأنهم رجل واحد:

«يحيا الطفل - الملك، أطل الله عمر الطفل - الملك».

علت الأصوات كالرعد، وترددت أصدائها في أعماق الوادي. مع حلول الظلام، تهيأ القرويون للإقامة في العراء. أعطى بوبا الأوامر، بمساعدة موري و خليفة وديالي، للحفاظ على قليل من النظام والانضباط. وأرسل موسيقي وشاعر الملك، بناء على توجيه سيده، رسالة على قرع الطبل، طالبا فيها من الجد والي، والمستشار الأول عرفان، وسامبا كا، الانضمام إلى كوكبته بأسرع وقت. أقام كل واحد في مكانه كيفما اتفق، أي بشكل سيئ جدا، لقضاء الليل بهدوء، على رغم القلق المخيم على معظم الناس.

كان الطفل - الملك يعرف الأخطار المحدقة. لكنه طمأن السكان، وأمر موري بتنظيم أبراج حراسة من الجنود، الذين اصطفوا متباعدين على الطريق الوعر، الوحيد المؤدي إلى القرية.

في صباح اليوم التالي، منذ طلوع الشمس، بدأ الرجال والنساء والأطفال بالعمل. كدس كل منهم أمتعته القليلة التي استطاع إنقاذها من النكبة. ووفاء للوعد الذي قطعه الطفل - الملك

لصديقه الجديد غاندا، ملك الفيلة، تم تفكيك آخر البيوت التي لم تهدمها الحيوانات. لما رأت النساء، والأطفال، وبعض الرجال أيضا هذا المنظر، لم يستطيعوا حبس دموعهم. شعر بوبا بالألم يعتصر قلبه، وحزن حزنا شديدا. وذكره ديالي وموري وخليفة أن هؤلاء الناس الطيبين، على رغم المصاب الذي حل بهم، بقوا أحياء بفضل رعايته، وأن أمامهم أمل بحياة أفضل. استحسن بوبا كلامهم. وتقل بين السكان ليساعد البعض، ويواسي آخرين. لقيت لطافة الملك الشاب، وعفويته، وبساطته ارتياحا عميقا عند القرويين، وخففت كثيرا من آلامهم. تناول موسيقي وشاعر القرية الطبل، وأطلق في أرجاء الأفق الأربعة رسالة مختصرة، تخبر كل مملكة السانوكا بالمأساة التي يعيشها سكان دونغار، الذين اضطروا إلى هجر بيوتهم، والرحيل إلى مكان أكثر أمانا وأفضل ملاءمة للعيش. *

عندما أصبح الكل جاهزا، أعطى بوبا إشارة الانطلاق. تحرك موكب طويل من الناس في صمت مؤثر. تقدم موري المسير، يرافقه بعض الحراس. وأغلق خليفة وديالي الموكب من الخلف، برفقة الملك. أثرت هذه الهجرة، رغم صغرها، في كل من رآها. سارت الحمير والثيران في السهل العشبي باسترخاء، مثقلة برزم الأمتعة الضخمة والأكياس والمواعين المختلفة. وناء بعض منها بالأم في الظهر تحت ثقل الأحمال. وعلى رغم الأعشاب والأشواك التي خدشت سيقانهم العارية، مشت النساء الشجاعاات بعزم ومثابرة، حاملات قدورهن الثقيلة بتوازن على رؤوسهن، وقد علق بعضهن طفلا رضيعا على ظهورهن، أو أمسكن طفلا صغيرا من يده.

بدأت الشمس ترشق أشعتها على هؤلاء المساكين. وكان رجل عجوز يمشي بعناء بقرب بوبا، متحملاً مشقة المسير بنبل وصمت. لما رأى الملك الشاب هذا الضيق الصامت، نزل عن حصانه، وقال للرجل العجوز:

«تبدو متعباً يا جدي. تعال اركب حصاني، أستطيع أنا المشي».

فوجيء العجوز، وأجاب:

«أوه، لا يا صاحب الجلالة، أنا لا أستحق هذا الشرف. دعني أمشي. أنقذت حياتي من هجوم الفيلة. هذا يكفي. لا يجدر بي أخذ مكانك على الحصان».

- لا تتكلم هكذا أيها الجَد المحترم. يستحق شعرك الأبيض، ويداك المنهكتان من قسوة العمل طوال سنوات من الكد، احترام القرية وتقدير الملك والبلاد كلها. هيا، اركب حصاني. لا ينتظر سواك».

وعلى رغم اعتراضات العجوز، ساعده بوبا في رفع قدمه إلى الركاب، وأجبره على القفز على ظهر الحصان. كاد الفلاحون الذي حضروا هذا المشهد لا يصدقون ما رأته أعينهم!. تخلى الملك عن حصانه الحربي الرائع لرجل عجوز (مجهول). وهاهو يمشي الآن بطول الموكب كبقية الناس العاديين. بما أن الدرس الذي نعطيه للآخرين، ونطبقه على أنفسنا أولاً، هو أفضل من ألف مبدأ نعلمه لهم، دون جدوى غالباً، فقد حذا رفاقه حذوه فوراً. نزل ديابي، وخليفة، والحراس، وقدموا جيادهم للعجائز، والنساء، وبعض المرضى والأطفال.

قال ديابي، الذي تأثر كثيراً كعادته، مخاطباً رفاقه:

«لطالما ردد أبي على مسمعي: اهتراء الحذاء، بالمشي على الطريق، لم يقتل يوماً أحداً. هيا، سأرى اليوم إن كان كلامه صحيحاً».

على رغم هذا الوضع المأساوي، قهقهه الملك، وضحك كل من حوله. خلق ذلك جواً من الارتياح، وجعل الماشين جميعاً أكثر حماساً، خصوصاً أن الخبر أخذ ينتشر في الموكب كله: الملك يمشي كالباقيين، لأنه ترك حصانه لرجل عجوز متعب. «نعم، نعم، هذا صحيح! انظروا في الخلف! بل إن رفاقه فعلوا مثله!».

أصبحت الشمس الآن في كبد السماء. توقف رتل الناس المنهكين في وسط سهل فسيح. كان التعب بادياً على وجوه الجميع. من حسن حظهم أنهم صاروا على مقربة من قرية صغيرة. رأى أحد الرعاة هؤلاء البؤساء، فهرع لإخبار أهل قريته، الذين هبوا لمساعدتهم والتضامن معهم، مثلما يفعل كل الناس في أفريقيا.

وصل موكب طويل من الرجال والنساء والأطفال لنجدة المهجرين، بقيادة مختار القرية الصغيرة، حاملين معهم طبيخ الدخن، والذرة الصفراء، والرز، والكوس كوس. أحضرت النساء أوعية وأواني مليئة بالماء لإرواء ظمأ كل هؤلاء الناس العطشى. وجلب الرعاة معهم حليب قطعانهم، لتقديمه للأطفال الذين فرحوا كثيراً. تشرفت كل أسرة بتقديم شيء ما: الثياب، والمواein، والطحين، واللحم المدخن. حتى الصبيان قطفوا كل ثمار البساتين تقريباً، ووضعوها في سلال أو في أكياس، ثم وزعوها بأنفسهم على رفاقهم الصغار في ذلك الوقت العصيب.

لما رأى الطفل - الملك أعمال التضامن والتآزر العفوية الجميلة

هذه، تأثر تأثراً بالغا، وامتلاً قلبه بهجة. خاطب ديابي وخليفة
قائلاً:

«هل تفهمان الآن لماذا اعتدت أنا على القول إن الطيبة الطبيعية
تغفو في قلب كل إنسان؟ تؤكد تصرفات هؤلاء القرويين ذلك مرة
أخرى، وتعزز إيماني بهذا الاعتقاد الراسخ».

وبينما أخذ الناس يجددون قواهم بالطعام والشراب، وصلت
كوكبة من الفرسان إلى المكان. فرح بوبا عندما رأى جده،
والمستشار الأول عرفان وكذلك سامبا كا. بدا الواصلون الثلاثة
وحراسهم المرافقون متعبين بسبب طول الطريق.

اجتمع المجلس الملكي في الحال تحت شجرة كبيرة بعيدة قليلاً.
ودعي إليه مختار قرية دونغار ووجهاءها. تكلم ديابي أولاً. تحدث
عن المأساة التي يعيشها هؤلاء الناس. واستحسن المجلس ما فعله
الملك الشاب والقرارات التي اتخذت. اقترح سامبا كا، الذي يعرف
المنطقة جيداً، إسكان البؤساء في موقع آمن على مسافة مسير
يوم. قبل الجميع الاقتراح. وتلا الطفل - الملك، بصوت هادئ،
القرارات التي اتخذت، بعد أن استمع إلى شكاوى وآراء وجهاء
القرية المهجرة:

«هاكم ما قررته. أريدك يا جدي أن تعود مع عرفان إلى كور دياما
منذ الغد. ستطلب من خازن مال القصر أن يعطيك علبة كبيرة
ملئية بالذهب. أحضرها إلي بأسرع وقت ممكن. سنستخدم هذا
الذهب في بناء قرية جديدة وشراء الماشية لكل أسرة. أيها
المحترم سامبا كا، يشرفك أن تقود منذ صباح الغد أهالي دونغار
إلى الموقع الجديد، الذي اخترته بنفسك، لأن الوقت تأخر اليوم.

ستترك لي بعض المعالم التي تدلني على المكان، لأنضم إليك بعد بعض الوقت. علي العودة فجرا للقاء غاندا ملك الفيلة. يجب أن أفهمه أنني وفيت بما وعدت، وأن أعقد معه اتفاق سلام وحسن جوار بين جماعته ورعاياي. سيرافقني موري وديالي وخليفة وحارسان أو ثلاثة. والآن، بما أن الشمس بدأت تغيب، يستحسن اتخاذ الاحتياطات لحماية هذا المخيم من الوحوش التي تتجول خلال الليل. لتنفيذ ذلك، أثق بكل من موري وخليفة. وزعا الحراس حسب مخططكما الأمني. رعانا الله».

في اليوم التالي، منذ الفجر، أعلن النادي بالطبل إشارة الانطلاق. اقترب الطفل - الملك من العجوز والي وقال له: «ستقول لـ سيرا إني... أحبها».

- نعم يا بني. سأقول لها ذلك.

- يا جدي، قل لها أيضا إني... أحبها.

- نعم، يا بني، سأقول لها ذلك أيضا. والآن اذهب ولا تخف. فليضئ لك نور الله الطريق ويسدد خطواتك.

وبينما راح موكب المهاجرين يتهيأ للمسير، عاد بوبا ورفاقه الثلاثة وحارسان على أعقابهم باتجاه دونغار، التي وصلوها سريعا. كانت القرية، أو بالأحرى ما بقي منها، مقفزة. مع ذلك، فعلى الأرض دلت الآثار بوضوح على أن كثيرا من الفيلة قد عبرتها قبل وقت قصير، باتجاه المنحدر الآخر من الهضبة.

اقتفى الفرسان في سيرهم هذه الآثار المرئية. اجتازوا الموقع مارين بين جرفين وعرين للأسود، ثم نزلوا نحو السهل. فجأة، توقفوا مذهولين. كانت تمتد أمامهم الساقية الشهيرة، المكان

المسمى ساما بولونغ، وادي الفيلة.

انتشرت الفيلة هناك، بعضها على ضفاف الساقية والآخرين في وسطها. كانت تقذف الماء من خراطيمها لترشه على ظهورها العريضة، أو تقذفه إلى الجو فيسقط كأنه المطر على أجسامها القوية، اللامعة تحت الشمس. لا شك أن الحيوانات كانت تعبر بذلك عن سعادتها، بعد استعادة منطقتها التي تعذر عليها دخولها في السابق بسبب قرية دونغار، التي بناها الناس على الميدان الوحيد المؤدي إليها، أرض الفيلة.

ترجل بوبا. وتبعه موري، الذي صمم على السير خلف ملكه، رغم أنه لم يستعد اطمئنانه تماما بعد. لكن الملك ردعه بقسوة: «موري، أمنعك من اللحاق بي! اطمئن هذه المرة، لن أتعرض لأي خطر. ابق هنا مع دياي والحراس».

تظاهر دياي بالاستجابة، وقال له: «رغم قلقي عليه يا موري، أعرف أن جلالته على صواب. عدا ذلك، لا تتس مغامرتك السيئة ذلك اليوم، وتذكر المثل القائل: «إذا قتلت الأفعى جدك، عليك بالهروب حالما تلمح حبلا على الطريق». ضحك الطفل - الملك بصوت عال لكلمات دياي. وضحك خليفة. وكي يطمئن رفيقه الأمين موري، قال له بوبا بمودة: «هل سمعت ما قاله دياي؟ قوله حق. والآن إن رأيت بقرة بعيدا في الحقل، ما عليك إلا الهروب! ابق هنا، دعني أذهب وحيدا لأتحدث مع غاندا. أعدك بالعودة سليما معافى».

نزل الطفل - الملك إلى أرض الفيلة، متوجها نحو الساقية بعزم وإقدام. وبعد بضع خطوات، صادف ذكرين فتيين، كانا دون شك

في مهمة حراسة. ولما شاهداه، رفعاً خرطوميهما ليطلقا نهيم التحذير مرتين أو ثلاث مرات. وتهياً أصغرهما للهجوم، بعد أن رفع أذنيه ومد خرطوميه في الهواء. لكن بوبا رفع يده اليمنى كي يهدئه:

«اهدأ! اهدأ! أنا صديق. على أن أتحدث إلى رئيسك».

لم يقل الطفل - الملك أي كلمة أخرى. ابتعد الفيلان الفتيان ليمر غاندا، الذي سارت وراءه أنثى ودغفلان. اقتربت الحيوانات الأربعة منه، وشمته، ولمست ذراعيه وساقيه بخراطيمها. ثم جاءت خمسة أو ستة أخرى، وفعلت مثل الأولى. قال له غاندا:

«أيها الطفل - الملك، لقد وفيت بوعدك. أنت صادق. هاهي أسرتي، أما أولئك، فيساعدونني في القيادة. شممنا رائحتك وميزناك. أضبحنا نعرفك كلما صادفناك في السهل. القطيع كله ينظر إليك على أنك صديق. أما أنا، فأعتبرك منذ اليوم واحدا منا، إن شئت ذلك».

«غاندا، يا صديقي، شرف كبير لي أن تعتبرني الآن واحدا من أسرتك. لا أعرف كيف أشكرك على ذلك، خصوصا أنني لست جديرا بهذا الشرف: لم أفعل أكثر من أنني اعترفت بحق شعبك، إن الحق كان بجانبك. غالبا ما أقول للناس والحيوانات إن الله ربنا جميعا. خلق الأرض، وجعلها فسيحة واسعة ليستطيع كل واحد العثور على مكان له. يجب أن يتيح لنا ذلك العيش عليها معا في وئام. سأحافظ على هذا المبدأ ما حييت. شكرا لتفهمك، شكرا لمروءتك التي منعت إراقة الدماء. شكرا لك لأنك لم تؤذ صديقي موري».

- شكرا لك أيضا أيها الطفل - الملك. جئت لتعيد لنا الحق. لهذا، نعاهدك على البقاء أصدقاء دائما.

تحدث الصديقان الجديان وقتا طويلا. روى بوبا قصة حياته إلى غاندا وأسرته. وشرح له زعيم الفيلة بدوره تنظيم قبيلته، والقواعد التي يجب احترامها، ومواقع الرعي الضرورية أحيانا حسب الفصول. وفسر له الاستقرار، والسكون اللذين تتميز بهما الفيلة، بسبب قوتها الهادئة جزئيا.

بعد هذا النقاش الطويل، نهض الملك للعودة إلى رفاقه. شيعه غاندا، الذي قال له بوبا بصوت متردد:

«غاندا، يا صديقي، أنا... أنا... أود أن أطلب منك معروفا، ولكن... ولكن... لا أجرؤ على ذلك».

- أيها الطفل - الملك، لا تتردد لحظة واحدة. أيا كان طلبك، سألبيه فوراً. تكلم ولا تخف.

- كثيرا ما حدثني جدي وأنا طفل عن الفيلة، وضخامة جسمها، وقوتها. كان حلم طفولتي... أن أمتطي فيلا. إن أحببت يا صديقي، أتمنى أن أطلب إلى واحد من جماعتك أن....

لم يستطع بوبا إكمال جملته. قاطعه غاندا بكل بشاشة قائلا: «أفهم حلم طفولتك جيدا. أنا نفسي سأحقق رغبتك بكل طيب خاطر».

لم يكد الحيوان الضخم ينهي كلامه، حتى جثا على قوائمه الثلاث، ومد الرابعة إلى الأمام بهدوء كي يصعد بوبا ظهر صديقه الفيل العريض بأمان. ركب بوبا الفيل برشاقة، وتوجه إلى الربوة التي انتظره فيها ديابي، وموري، وخليفة والحارسان. لما شاهدوا

غاندا يقترب منهم، اضطربوا كثيرا. ثم، ذهلوا لما رأوا الطفل - الملك جالسا على ظهر الفيل الضخم، الذي توقف بجانبهم. وجدوا صعوبة كبيرة في تهدئة أحصنتهم، التي ذعرت وحاولت الهروب عند اقتراب سيد السهول منها.

جثا غاندا مرة أخرى كي ينزل بوبا. ثم نهض، وربت بخرطوميه برفق على رأس الملك الشاب وذراعيه وعنقه، وقال:

«إلى اللقاء أيها الطفل - الملك. أعرف أننا سنلتقي ثانية. شعبي وأنا لن ننساك أبدا».

- إلى اللقاء يا صديقي. ليقرب الله بيننا، سلاما وصفاء.

عاد الفيل إلى قطيعه بخطوات هادئة وواثقة.

لم يجد رفاق بوبا ما يقولونه، بعد رؤية هذا المشهد الذي أذهلهم.

وكي يحطم الصمت المخيم، خاطب رئيس حراسه قائلاً:

«موري، موري، تما لك نفسك! هل تحب القيام بجولة على ظهر

الفيل؟ هل تود أن أستدعي غاندا؟

- لا، يا صاحب الجلالة، لا، لا! أعتقد حتى لو منحتني نصف

مملكته لن أحاول ذلك. لا، بالتأكيد لن أحاول!

ودون أن يضيعوا لحظة واحدة، امتطى الملك الشاب ورفاقه

جيادهم. عادت كوكبة الفرسان مسرعة بقية النهار. ومع حلول

الظلام، رأى خليفة أن من الحكمة التوقف تحت شجرة قابوق

كبيرة. وبعد أن تناولوا وجبة صغيرة، أشعلوا نارا متوهجة لتبقى

مشتعلة طيلة الليل، كي لا تقترب منهم الوحوش والحيوانات

المفترسة، التي تخرج بحثا عن غذائها في الليل.

في اليوم التالي، منذ الفجر، أسرجوا أحصنتهم، وانطلقوا. لم

يخطئ موري أبدا في اقتفاء آثار الأقدام المرئية جيدا، التي تركها سكان القرية المهاجرون وراءهم. كانت الشمس في قبة السماء عندما وصل الطفل - الملك وحاشيته إليهم في موقعهم الجديد، الذي اختاره سامبا كا المحترم. حطوا الرحال في موقع فسيح. نالت كل أسرة قطعة أرض مناسبة وواسعة. وتحول مكان القرية الجديدة إلى ما يشبه ورشة عمل كبيرة. بدا التضامن واضحا، فقد هب مئات الناس من القرى المجاورة والمناطق القريبة والبعيدة، لمساعدة المهجرين، بعد أن سمعوا بنياً المأساة من خلال المنادي بالطبل. كان الضجيج يرتفع صاخبا بالتأكيد، لكن الأمور سارت جيدا، وخيمت مظاهر البهجة على الجميع. حمل باتور ووجهاء القرية شكوى مهمة إلى الملك: نقص الماء. طمأنهم بوبا:

«لا عليكم، ستشربون قريبا حتى ترووا ظمأكم».

خرج بوبا من خيمته القماشية الخفيفة، ومعه ديالي وخليفة وسامبا كا وموري. تناول غصنا متشعبا صغيرا، ونزع عنه اللحاء والأوراق، ثم وضعه في فمه.

سار ببطء بين قطع الأرض، برأس منخفض، ثم عاد أدراجه. توقف بعد ذلك مترددا، ثم تابع سيره. وقادته قدماه بهدوء إلى خارج حدود القرية، حيث توقف فجأة، وقال:

«احفروا هنا».

في صباح اليوم التالي، انبجس الماء الصافي من جوف الأرض بغزارة. وبينما أخذ السكان يهللون من الفرح، قال البعض إنها أعجوبة. وصل العجوز والي قادما من كور دياما. استدعى الملك

الشاب مجلسه للانعقاد، ودعا إليه المختار باتور والوجهاء.
قبل أن يبدأ أحد بالكلام، جاء باتور ورفاقه، وانحنوا أمام الطفل - الملك، وقد امتلأت عيونهم بالدموع.
«يا صاحب الجلالة، أنقذتنا أولا من هيجان الفيلة، وطلبت منها الإبقاء على حياتنا. أنقذتنا مرة أخرى عندما جعلتنا نقيم في هذا المكان الرائع. أكرر قولي: أنقذتنا مرة ثالثة حينما اخترت المكان المناسب لحضر البئر، لنروي ظمأنا، لأن الماء هو الحياة. يا سيدي، إلى متى ستستمر بإنقاذ حياتنا؟ ماذا فعلنا حتى نستحق كل هذا الاهتمام منك؟ ماذا فعلنا كي تقوم بكل هذه الأعمال الباهرة من أجلنا؟».

قال المختار هذه الكلمات بعينين دامعتين. تأثر بوبا كثيرا وأجاب:
«أيها المختار باتور، أنت تحكم قريتك منذ زمن طويل. تهتم بكل واحد من سكانها. وأنا مثلك. الفرق الوحيد هو أن قريتي هي السانوكا كلها. سأهب لمساعدة أي مواطن يصيبه ضيق في هذه البلاد، مهما صغر شأنه. وجودي هنا بجانبكم هو جزء من واجباتي نحو كل رعاياي. انهضوا يا وجهاء هذه البلدة الجديدة، وخذوا أماكنكم إلى جانبنا في المجلس».

قدر المستشارون كلام الملك الشاب تقديرا عاليا، ثم تكلم الجد والي:

«عدنا اليوم، عرفان وأنا، لنعرض نتائج المهمة التي لزم تنفيذها. أعطانا خازن مال القصر هذه اللعبة المليئة بالذهب. ذرفت سيرا، التي اطلعت على ما يحدث هنا، دموع العطف والقلق. طلبت إلى الملك تقديم هذه اللعبة إلى السكان البائسين. تحوي اللعبة حليا

من الملكة. لا بد أن بيعها سيساعد النساء على تأثيث بيوتهن الجديدة، ويسهم في تحسين وضع الأطفال. هذا ما قالتة».

أضاف ديالي:

لم تفاجئنا هذه المبادرة الخيرة من جانب الملكة، لأنها مفعمة بالسخاء والإحساس. بقي وجهاء القرية صامتين من الدهول أمام هذا الكنز، الذي وضع تحت تصرفهم. راح المختار باتور يضحك بعد البكاء. وصرخ مبتهجا:

«يا صاحب الجلالة، إذا بقيت تعاملنا هكذا، سنطلب من الفيلة أن تعود وتهاجم قريتنا مرة أخرى، كي تستمرا، زوجتك وأنت، في تدليلنا أكثر وأكثر».

ضحك بوبا كثيرا لهذا الرد، وضحك بقية أعضاء المجلس، ثم قال:

«يا مختار باتور، أخبرني متى شئت لأذهب وأطلب ذلك من غاندا».

وانفجر الجميع ضاحكين مرة أخرى.

لما اطمأن إلى حسن بناء القرية، واقتنع بأن الخطر قد زال، قرر الطفل - الملك العودة إلى كور دياما، عاصمته.

في الصباح المحدد للانطلاق، توافد جميع سكان القرية لتحيته ووداعه. وشكر باتور، الذي قدم على رأس الوجهاء، الملك الشاب بحرارة. وفي الختام قال:

«يا صاحب الجلالة، تناقش مجلس شيوخنا طويلا البارحة حول مستقبل قريتنا. وبناء على اقتراح من جميع سكانها، قرروا اختيار الغراب طوطما لهذا المكان. منذ الآن، لن يصطاد أحد هذا الطير

أو يقتله هنا، ولا في الحقول. ثم، لن نسمي قريتنا الجديدة دونغار، بل كور سيرا، تكريما للملكة، زوجتك. ومنذ هذا الصباح، سيعلن المنادي بالطبل النبا في البلد كله. لا شك أن هذا الاسم الجديد سيجلب لنا السعادة».

تأثر الملك الشاب لهذا الكلام، وتحادث بعض الوقت مع دياي، ثم خاطب هذا الأخير الناس قائلا:

«يا سكان كور سيرا، أنا دياي نيتالي فودي مامايا، شاعر وموسيقي البلاط وصديق الملك، أتحدث إليكم باسم مولاي المحبوب. طلب مني أن أخبركم كم هو متأثر، ومسرور، وسعيد بهذه المفاجأة الجميلة، التي سمعها منكم، بأن قريتك الجديدة أصبح اسمها كور سيرا. كلفني أيضا بإطلاعكم على القرار الذي اتخذته قبل قليل: لن تدفعوا خلال السنوات الخمس القادمة ضرائب ولا رسوما. يشكركم ويهنئكم باسم كروا، صديقه الغراب الذي اخترتموه طوطما. يعدكم الطفل - الملك، إن شاء الله، بالعودة لزيارتكم في العام المقبل مع شبيبة قريتكم لنحتفل معا بجني أول المحاصيل. يحيا الطفل - الملك! أطل الله عمره».

ما إن انتهى دياي من إبلاغ رسالته، حتى هتف الناس بحياة الملك. وأطلقوا صيحات الفرح عاليا في هذا اليوم الرائع الذي خيم على السهل العشبي. غادر الملك، يرافقه مستشاروه وحراسه، قرية كور سيرا، يتقدمها الفارس حامل الراية الملكية، متوجهين بسرعة نحو عاصمة المملكة.

٣- الملك دولو في خطر

مضى الوقت هادئا، وادعا في كور دياما . وككل يوم، استيقظ بوبا وسيرا باكرا. ذهب كما اعتادا لتحية الجد والي والعمة مبودي، والتأكد من أنهما قد أمضيا ليلة مريحة، ولتلقيا أيضا بركاتهما، لأن كبار السن في بيت الأسرة، مثلما يقول المثل، هم كالتميمة: يحمون الصغار.

بعد ذلك، توجه الملك والملكة، يدا بيد، إلى البستان لنثر الحبوب وإطعام الطيور. وبينما كانت الطيور تنقر الذرة الصفراء والدخن وبقية الحبوب المنثورة على الأرض بنهم، حط كروا على كتف صديقه، مثلما يحب أن يفعل دائما. رأتهما سيرا وهما يضحكان. قال بوبا للطير:

«الطيور التي تحلق في السماء لديها مجال أوسع من مجالنا نحن البشر، «أصحاب الأقدام»، مثلما تسموننا أنتم الطيور. أخبرني، من أين أتيت؟»

- البشر يضعون التخوم على الأرض لرسم الحدود بين البلاد. كثيرا ما أتساءل لماذا. من حسن الحظ أنهم لا يستطيعون فعل ذلك في السماء. نحن الذين نطير نذهب حيث يحلو لنا الذهاب. نركب الريح ونهتدي إلى طريقنا بالشمس والنجوم. أسرتي وأنا، وكذلك كل أقوام الغربان، قدرنا عاليا التكريم الذي مننت به علينا قرية كور سيرا، عندما جعلتنا طوطمها. أقمنا هناك بكل طمأنينة. ثم قادتنا أجنحتنا إلى مملكة الساساي. عند حدود هذا البلد الشمالية، يحشد جاراها القوي، ملك دوليبي، كثيرا من الجنود. لديه نوايا حربية دون أدنى شك. أنا خائف على استقرار

الملك دولو، والد زوجتك. سيتعين عليك مساعدته في أقرب وقت.
- تقلقني هذه الأخبار. والحال كذلك، أحب أن أحدثك، لأن في كلامك هذا حكمة. النصائح التي تقدمها لي تؤكد أن لديك حسا سليما أكثر من غالبية الناس.

- أيها الطفل - الملك، لن أنسى أنك أنقذتني واعتيت بي ذات يوم. منذ ذلك الحين، وأنا أعتبرك ليس مجرد صديق، بل واحدا من عائلتي. يمكنك الوثوق بي دائما».

وبعد أن فرك رأسه بعنق صديقه، طار كروا، ولحقت به أسرته.
قالت سيرا لزوجها مدهوشة:

«بوبا، كم تروق لي رؤيتك متحدثا إلى كروا. آمل ألا يكون قد جاءك بأخبار سيئة».

- لا... لا...، اطمئني. تحدثنا عن الطقس...وأشياء أخرى عادية.

- يا أميري المحبوب، أشعر بشيء...أحس من صوتك أنك متكم قليلا. ألسنت تخفي علي شيئا مقلقا؟

- يا ملكة قلبي، لا تخافي. أمنيته الوحيدة هي أن أراك سعيدة. ابتسامتك تزيل كل همومي وكل مخاوفي. أنا...لا أخفي عليك شيئا».

توجه الملكان (يدا في يد) نحو مقصورة الاستراحة، التي استقر قش سطحها على عوارض خشبية تحملها أربعة أوتاد قوية، وانتزعت جدرانها للتخفيف من وطأة الحرارة.

في الداخل، امتدت على الأرض بعض الحصر والبسط المتعددة الألوان، ونشرت بعض الوسائد هنا وهناك. كانت الببغاوات،

والطواويس، والطيور الأخرى الناعمة الأرياش تدخل إليها دون خوف، فهي تعرف أن أحدا لن يؤذيها. ووجدت فيه جماعة من الطير الوحيد الطويل الذيل، وأبو الحن، وأبو نساج وبعض اليمامات الرمادية مكانا آمنا ترفرف حوله قليلا ثم تحط على الأرض، أو تجثم على العوارض الخشبية للسطح.

دخل الملك الشاب وزوجته المقصورة. وما هي إلا لحظات، حتى جاء عرفان، والجد والي، وسامبا كا، وموري، وخليفة، وديالي وبناته جميلة وتاكو، رفيقتا سيرا. حيا كل واحد العاهلين باحترام، قبل أخذ أماكنهم على الحصر.

عزف ديالي بمهارة على آلتة الكورا، وغنى بصوت عذب أبهج المجلس. ثم توقف فجأة وراح يتحدث:

«يا صاحب الجلالة، وعدتنا برواية قصة مقابلتك مع ذلك الفيل الوحش، الذي كاد يقتل موري وينتزع أحشاءه. هل تذكر؟».

- نعم يا ديالي، أذكر. اسمه غاندا. القطيع يعترف به زعيما، لقوته حتما، ولكن أيضا نظرا لكبر سنه وحكمته. رغم قوتها، تتحاشى الفيلة الناس، مثلها مثل معظم الحيوانات. يعتقد غاندا وجماعته أن الإنسان كان إلها يسكن السماء في الأزمنة البعيدة. وذات يوم، هاجم هذا المخلوق ملك الآلهة، فعاقبه هذا وأنزله إلى الأرض، التي كانت ملكا للحيوانات وحدها في تلك الأزمان. في اليوم نفسه، انتزع منه كل قدراته الإلهية، لكنه استطاع الاحتفاظ بذكائه العظيم. وهذا ما يفسر سبب سيطرة الإنسان، رغم تكوينه الضعيف، على معظم الحيوانات، التي يعيش بعضها برفقته. هذا ما قاله لي غاندا، الذي أصبح صديقي، في لقائنا الثاني».

استمع الحاضرون بخشوع إلى كلام الطفل - الملك. وبدا الجميع مبتهجين بهذه الهبة السماوية، التي تمكنه من فهم لغة الحيوانات، ثم شرحها إلى المحيطين به. لقد سهل ذلك التعايش بأمن وسلام بين الحيوانات وسكان السانوكا.

فجأة، دخل جندي إلى مقصورة الاستراحة، وهمس إلى موري ببضع كلمات، وانصرف. خاطب هذا الأخير الملك قائلاً: «يا صاحب الجلالة، وصل إلينا مبعوث الملك دولو. يرغب في رؤيتك».

- بسرعة يا موري، أدخله فوراً إلى قاعة المجلس. سنراه حالا. توجه الطفل - الملك ومستشاروه مباشرة إلى القاعة الكبيرة. تكلم مبعوث دولو:

«أنا، بيريم، أبلغكم تحية ملك الساساي، مولاي وسيدي. كلفني بتذكير جلالة الملك بوبا وزوجته الملكة سيرا بالمحبة الكبيرة التي يكنها الأب لابنه وابنته. أما أنا، فوجودي هنا هو شرف لي».

- أيها السفير بيريم، أهلاً بك في السانوكا، أهلاً وسهلاً! اشرب لبن الترحيب وكل ثمرة كولة الصداقة. سنرى ما جئت من أجله.

استمتع الضيف بشرب اللبن، وقضم ثمرة الكولة، ثم قال: «أيها الطفل - الملك، جئت أبلغك القلق الكبير الذي يعتصر الآن قلب مولاي الملك».

- نعم يا بيريم، أعرف ذلك. عند الحدود الشمالية لبلدكم، يحشد ملك دوليبي شيئاً فشيئاً عدداً كبيراً من الجنود. ذاك يقلق ملكك.

- ولكن، ولكن، ك...ك...كيف عرفت ذلك؟
- إن قلت لك قد لا تصدقني. أضيف إلى معلوماتك أن ملك هذا البلد أرسل إلى دولو رسالة يهدده فيها، ويقترح عليه شروطا لا يمكن قبولها.

بقي المبعوث مذهولا بعض الوقت مما سمعه. وتابع:
«أجهل كيف تعرف كل ذلك. ولكن يا جلالة ملك السانوكا، ما حدث هو بالضبط ما قلته لي. النتيجة أن بلدي يستعد لمواجهة خصم أقوى منا بثلاث مرات. لهذا توجه إليك الملك دولو بنداء لمساعدته. لن يستطيع جيشه الصغير جدا، بالمقارنة مع جيش دوليبي، مقاومة الغزاة. هؤلاء الغزاة، الذين يرتدون جلود الحيوانات، يقتلون، ويخربون، وينهبون كل ما يجدونه في طريقهم!». لا يعرفون الرحمة، بل يحكون أن وحشية زعيمهم لا مثيل لها. يقولون إنه يأكل قلب خصمه كي يصبح شجاعا مثله. هذا الرجل الرهيب اسمه سجار».

أثارت هذه الكلمات الأخيرة صيحات هول واشمئزاز كل من سمعها.

خيم هدوء ثقيل لحظة على المجلس. وتكلم عرفان أولا:
«نعرف جميعا أن ابنة الملك دولو أصبحت ملكة بلادنا، بعد زواجها من ملكنا. وأضحت الساساي منذئذ حليفنا الطبيعي. عدا ذلك، ودون أي شك، إذا ما انتهى سجار من تدمير هذا البلد، لن يكتفي بذلك، بل سيلتفت إلينا. علينا إذن تقديم المعونة العسكرية إلى دولو، ليس فقط بالتخطيط والعتاد والرجال، بل أيضا بروح الأسرة والمصلحة المشتركة».

أيد المستشارون الآخرون ما قاله عرفان. وقدم الجد والي بعض الملاحظات، ثم قال لحفيده:

«أخبرنا الآن بما قررت. عليك أيضا إعطاء الأوامر لقائد الجيش، كي يتخذ التدابير الضرورية».

لم يفكر الطفل - الملك طويلا. وارتفع صوته القوي في القاعة: «أيها السفير، قل للملك إنني أحترمه كثيرا، ليس لأنه والد زوجتي فقط، بل كأب لي أنا أيضا. عدا ذلك، بما أنه في وضع المعتدى عليه، سأقف على رأس جيشي للقتال إلى جانبه. قل له أيضا إنني سأزرع الرعب في قلب سجار قبل المعركة، حتى لا يفكر مرة أخرى بمهاجمته أبدا. سنستعد لذلك منذ اليوم. خليفة، عليك باتخاذ التدابير العسكرية اللازمة فوراً».

قال ديالي، الذي غالبا ما يكون آخر المتكلمين:

«فليباركك الله أيها الطفل - الملك، الذي تعرف كيف تحترم التحالفات. ليحكم الله أيها الطفل - الملك، فأنت لا تتراجع أبدا عن وعد قطعته. ليكن الله في عونك أيها الطفل - الملك، يا نصير المستضعفين. ولداي الكبيران وأنا سنقاتل إلى جانبك، دون أي خوف، لأننا نعرف أنك ستتتصر. نعم ستتتصر لأنك الأقوى. نعم ستتتصر لأن الحق والعدل إلى جانبك. نعم ستتتصر لأن الله يحب الذين لديهم خلق نبيل وقلب نقي مثلك».

عاد بوبا إلى زوجته الشابة. كانت هذه قد عرفت ما يحدث. احتمت بين ذراعيه، وأخذت تبكي بدموع حارة. حاول زوجها طمأنتها:

«يا قلبي الصغير. جففي دموعك. ألا تثقين بي؟».

- نعم يا أميري المحبوب. أعرف أنك داهية، ولديك قدرات كبيرة، ولا يمكن لأحد أن يشك باستقامتك. بوبا، كنت تعرف ما يجري في الساساي قبل أن يحدثك عنه مبعوث والدي، أليس كذلك؟ ألم يخبرك به كروا؟

- نعم يا سيرا، كنت أعرف. لم أشأ أن أقلقك. ولكن اطمئني، لن يمس سجار شعرة من والدك. سأزرع فيه رعبا يبعد المعركة حتى عن بلادنا. اهْدأي يا أميرتي. تعرفين أنني لا أتحدث أبدا بلا جدوى. هيا امسحي دموعك الآن. أريني بأنك جديرة بأن تكوني ابنة الملك العظيم دولو.

- نعم يا بوبا، أعرف أنك ستنتقذ والدي وكذلك شعبه. لقد بددت قلقي».

في اليوم التالي، عند الفجر، غادر الطفل - الملك القصر، ومعه موري وأربعة حراس، متجهين بسرعة كبيرة نحو الجنوب. في هذه الأثناء، تولى خليفة ترتيب الاستعدادات الحربية، بمساعدة ديالي وبكري والمستشارين. نقل المنادون الخبر والأوامر الملكية على قرع الطبول، من قرية إلى قرية. وأعلنت التعبئة العامة: على جميع المواطنين الذكور من عمر ثمانية عشر إلى أربعين عاما، أصحاب الجسم والعقل، والقادرين على حمل السلاح، الانضمام إلى الجيش، من أجل تأمين الدفاع عن الوطن. على كل واحد أن يحمل رمحا، وسيفا، وخنجرا، وقوسا وسهاما. سيتكفل الطفل - الملك بدفع الرواتب من خزانة القصر، طيلة الأعمال الحربية.

سار بوبا ورفاقه النهار كله. ووصلوا إلى منطقة شبه جبلية،

مقفرة ومهجورة. وجدوا كثيرا من برك الماء الحار الصغيرة والموحلة، المنتشرة هنا وهناك. يدل ذلك على وجود نشاط بركاني. توقف الفرسان أخيرا على سفح هضبة. أعطى بوبا تعليماته: «موري، رفاقك وأنت ستنتظروني هنا. إياكم واللاحق بي لحمايتي. أؤكد لك أنني لن أتعرض لأي خطر. سأعود بأقصى سرعة ممكنة».

- ولكن يا صاحب الجلالة، أنا...

- لا، لا، يا موري، لا تلح. ثق بي. عليكم ألا تتحركوا من هنا، رفاقك وأنت. اعتنوا بالأحصنة جيدا. احذروا الأفاعي. وكي لا يترك لقائد حرسه الأمين وقتا للرد، انطلق دون حصانه، بسرعة، وقد حمل على ظهره كيسا جلديا. صعد السفح المليء بالمغاوير سريعا. بحث في الكثير منها عن شيء ما. ووجد ضالته في آخر مغارة: أكواما صغيرة من مادة مائلة إلى اللون الأصفر. جمع بعضها، وتفحصها بدقة. ثم نزل فورا ليلحق برفاقه.

امتطي الفرسان الستة جيادهم دون تأخر، وعادوا إلى كور دياما. كانت الشمس تهبط رويدا رويدا وراء الأفق المشتعل بالقرص الشمسي الأحمر، الذي أخذ ينشر أشعته الذهبية والأرجوانية على أعشاب السهل الطويلة، وقمم أشجار الباؤباب، المطلة على السهل. لا بد أن الضباع قد بدأت بالخروج من أوكارها للصيد الليلي.

وجد الفرسان أن من الحكمة التوقف في إحدى القرى لقضاء الليل. أراد بوبا أن يبقى مجهولا، وألا يعرف أحد من هو. دخل القرية على أنه مسافر عادي. لكن الاحترام الذي أظهره رفاقه له

جعل القرويين يعرفون حقيقته. احتفوا به جدا، وأعدوا له سريعا وجبة كسكس مغذية، مع لحم الدجاج الفرعوني المشوي. شارك الملك الشاب حراسه في تناول الوجبة دون اهتمام بالألقاب. بعد مضي ليلة هادئة في الأكواخ المخصصة للضيوف العابرين، ركبوا جيادهم، مستأنفين رحلة العودة منذ الفجر.

انطلقت الخيول بسرعة حتى تصببت عرقا. ولم تكد الشمس تميل نحو النصف الآخر من السماء، حتى صار الفرسان داخل القصر.

ترجل بوبا في الحال، وذهب لتحية زوجته. استحم لينظف جسمه من غبار الطريق. ثم، حتى دون أن يأخذ وقتا للأكل، ذهب إلى البستان، ودخل مقصورته الخاصة، التي لا يدخلها أحد. بقي هناك حتى ساعة متأخرة من الليل.

عندما عاد إلى مسكنه، وجد الجد والي والعمة مبوديا في نقاش حار مع سيرا. وشعر أن القلق مخيم على الجو، فأراد تلطيفه. وبصوته المبهج، قال:

«لم آكل منذ الصباح. ماذا يمكن أن تعدي لزوج مسكين جائع بالتأكيد، بعد أن قاد حصانه بأقصى سرعة، تحت أشعة الشمس اللاهبة، مستعجلا كي يرى زوجته المحبوبة؟

- نعم يا أميري، سأخبر جميلة وتاكو كي تحضرا العشاء. جاء الطعام فورا. ولكن، خلال هذا العشاء المتأخر، الذي تناولوه معا في البيت، كان بوبا وحده مبتهجا. أكل بشهية، على عكس الآخرين. ولم يستطع الجد والي إلا أن يقول له:

«يا بني، لم نستطع الأكل جيدا، لأن القلق يعتصر قلوبنا. بما أنني

أعرفك تماما، يمكنني أن أقسم إنك وجدت طريقة فعالة لمساعدة الملك دولو».

- نعم يا جدي، لدي سلاح رهيب للتغلب على سجار. أتمنى فقط ألا يضطرني لاستعماله».

٤- سيد الرعد والنار

رتب خليفة، قائد الجيش، الاستعدادات الحربية ببراعة. ساعده في ذلك معاونه بكري، وموري أيضا، واهتم بوضع كل وحدة في المكان المناسب: المشاة، ورماة السهام، والفرسان.

بعد ذلك، جمع بوبا قادته العسكريين. وعرض عليهم خطة عسكرية متقنة جدا، جريئة وذكية في آن واحد. لاقت قبولهم بالإجماع.

بعد وقت قصير، حان وقت الانطلاق. ودع بوبا زوجته سيرا التي بكت عليه كثيرا، وكذلك العمة مبوديا.

مضى الجيش، وفي مقدمته الطفل - الملك. واكبه جده على فرسه، رافضا تركه في هذه اللحظات العصيبة، والمستشار عرفان، وموري الذي أقسم أن يحمي الملك أينما كان. وإلى يمينه، كان هناك خليفة القائد العام للجيش، والشاعر وموسيقي البلاط دياالي نيتالي فودي مامايا المخلص، الذي رافقه ولداه اليافعان الجريئان، بعد أن قررا القتال إلى جانب والدهما. خلفه مباشرة، سار الضباط والحرس الشخصي للملك.

وصل الجيش إلى الساساي دون حوادث. استقبل الملك دولو صهره بفرح غامر. ولما رأى هذه التعزيزات الكبيرة، استعاد ثقته: «استعدت الأمل يا بني برؤيتك مع جنودك. أهلا وسهلا بك. سيستطيع جيشانا مواجهة جيش سجار السفاح، رغم أنهما أقل عددا منه».

- اطمئن يا أبي دولو. ثق بي. أين يجب أن نقاتل؟
- عبر الغازي حدود مملكتي. يعسكر جيشه في سهل غانجو.

- ينتظرنا هناك في ضوء البدر، أي على بعد خمسة أيام.
- سنلاقيه هناك يا أبي، سنلاقيه هناك! في ذلك اليوم، ستهال الصاعقة على رأسه!
- شكرا يا بني، كنت أعرف أنك لن تتخلى عني في مواجهة هذا الخطر. سأستدعي الآن قائد جيشي، والضباط أيضا، كي تعرض علينا خطتك القتالية. لكننا نقبلها منذ هذه اللحظة.
- في صباح اليوم التالي، مع أول ضوء الفجر، توجه بوبا إلى مضيفه الكبير:
- «يا أبي دولو، قال لي ضباطك إن مستتق تاكوما ليس بعيدا عن ساحة المعركة. هل هذا صحيح؟».
- نعم يا بني، هذا صحيح. ولكن انتبه، يتجنب الناس هذا المكان المليء بالفيلة الغضوبة في هذا الوقت من العام. من الأفضل ألا نغامر.
- كلامك يملأ قلبي فرحا. هل يمكنك تزويدي بمرشد أمين، كي أذهب إلى هناك حالا؟
- نعم يا بني، ولكن، أنا...
- اطمئن يا أبي، لن يعرضني ذهابي إلى هناك لأي خطر. يجب أن أرى صديقي غاندا قبل المعركة.
- ماذا يفعل صديقك في مثل هذه الأماكن؟ أؤكد أن لا أحد يجرؤ على السكن هناك.
- ثق بي. سأشرح لك نيتي عند عودتي.
- إذن، اذهب يا بني. ليوفقك الله.
- كي لا يلفت انتباه أحد، اختار بوبا حارسين فقط لمرافقته، إضافة

إلى موري وديالي، والمرشد. غادروا عاصمة الساساي متوجهين نحو الشمال. وعند منتصف النهار، وصلوا إلى تلة مرتفعة قليلا. استطاعوا أن يشاهدوا من قممتها جزءا من معسكر الجيش المعادي. نزلوا سفح التلة الآخر دون ضجيج، واجتازوا سهلا من الأعشاب الطويلة، فرأوا فجأة منظرا مدهشا: فيلة كثيرة واثقة من قوتها، ترعى بهدوء واطمئنان. من يجرؤ على تعكير صفوها؟ أعطى بوبا لرفاقه أمرا بالانتظار. كان موري أول من أطاع هذه المرة. تركهم الطفل - الملك في أمان، ومشى دون أن يخبئ. ما إن لمح الفيل الحارس، حتى أطلق نهيمًا لتحذير رفاقه. واقترب من الرجل الجسور المتهور، لكنه عرفه دون شك، إذ لم يهاجمه. خاطبه هذا الإنسان الصغير:

«اهدأ، اطمئن أيها الفيل العزيز! أنا قادم لرؤية صديقي غاندا. هل تعرفني، أم أنساك طول الرحلة من مراعي الساتوكا إلى مراعي الساساي شكلي ورائحتي؟ أرغب في رؤية قائدك. هيا خذني إليه».

شاهد موري، وديالي، والمرشد والحارسان الطفل - الملك من بعيد وهو يتحدث مع حيوان ضخمة. لا بد أنه دليل القطيع. ومضى وقت طويل جدا، قبل أن يروا الملك الشاب يتجه نحوهم، بوجه فرح. انتظروا عودته بخوف وقلق، واشتياق كبير لمعرفة ما حدث. أمطروه بالأسئلة، لكنه اكتفى بالإجابة مبتسما:

«لا أستطيع إخباركم بشيء يا أصدقائي. ولكن ستفهمون كل شيء خلال ثلاثة أيام. الآن هيا إلى الجياد! لنعد إلى قصر الملك دولو». وجاء اليوم الموعد. وقف مقاتلو الطرفين وجها لوجه في سهل

غانجو العشبي الواسع. كان الطفل - الملك ودولو وضباطهما على خيولهم، في مقدمة الجيشين. وقبالتهم، وقف الملك الرهيب سجار منتظرا بين ضباطه، على جيادهم أيضا، واثقا من نفسه لأن عدد جنوده أكبر بكثير من عدد خصومه، الذين اعتبرهم ضحاياه سلفا. لقد ملأ هؤلاء الغزاة، الذين ارتدوا جلود الحيوانات، السهل الكبير كأنهم نمل. وعلى رغم آلاف الرجال الموجودين، خيم صمت الموت على الجانبين. ووفقا للخطة الموضوعة، ترك الطفل - الملك الصف. وضع علما أبيض على رأس سارية طويلة، وتوجه مسرعا بمفرده نحو معسكر العدو. فهم سجار أن الفارس القادم يريد التفاوض قبل المعركة. انتظره إذن دون خوف. توقف بوبا أمام الرجل، الذي يبعث مجرد ذكر اسمه الرعب في قلوب السكان. وقال له:

أحييك يا سجار، ملك دوليبي. أطلب منك أن تدع أنت وجنودك هذه البلاد بسلام، لأنني لا أحب رؤية الدماء تسيل .
ضحك سجار بصوت عال. وضحك ضباطه مثله. بعد هذا الضحك الصاخب، أجاب سجار:

«ألا يوجد في الساساي رجال راشدون، حتى يرسل دولو إليّ صبيا صغيرا لمفاوضتي؟ مع ذلك، أحب شجاعتك. إن عثرت عليك بعد المعركة، سأنتزع قلبك وأكله، كي أصبح جسورا مثلك. هل لديك شيء آخر تقوله قبل أن أعطي إشارة الهجوم؟
- نعم، نعم، انتظر قليلا، أود التحدث إلى حصانك.
- ماذا؟ تتحدث إلى حصاني؟ هه، هه، ها، ها، ها، ها لم أسمع من قبل شيئا مضحكا كهذا أبدا».

غرق سجار في نوبة ضحك جنونية، كذلك ضباطه. انتظر بوبا بصبر حتى انتهوا من ذلك. قال له عدوه الرهيب: «اقترب، أيها الفتى، أسمح لك بالتحدث إلى حصاني. أريد أن أرى ذلك».

انجنى الطفل - الملك إلى حصان سجار، وتمتم بشيء ما في أذنيه. فوجئ الحيوان، وهز رأسه مرتين أو ثلاث مرات، ثم بدأت أعصابه تثور. فجأة، أخذ يدور حول نفسه ويقفز مضطربا في الهواء. تشبث به فارسه وحاول تهدئته، ولكن دون جدوى. تهيج الحصان كثيرا وبدأ يرفس المحيطين بعنف. وركض مسافة قصيرة بسرعة، ثم توقف فجأة، فانقلب سجار عن ظهره، وسقط على الأرض بقوة. ترحل ضباطه لمساعدته في النهوض. صرخ ملك دوليبي مدهوشا:

«من أنت؟ أقسم بكامس الإله - بأؤباب أنني سأقت... سأقت...
- أفضل لك يا سجار ألا تتحرك. انظر ما سأفعله بالهك بأؤباب!».

قاد بوبا حصانه بسرعة نحو شجرة بأؤباب ضخمة غير بعيدة. ولما اقترب منها، تناول كيسا من الخرج الجلدي الأيسر، ثم كيسا آخر من الخرج الأيمن على ظهر حصانه. قذف الكيسين الواحد بعد الآخر داخل فتحة واسعة في قلب جذع الشجرة، وابتعد مسرعا.

دوى في المكان انفجار كبير قصم الشجرة إلى قسمين. وانهارت ببطء على الأرض، بينما ارتفع لهب كبير من النار في السماء. وانتشرت في الجو رائحة كريهة جدا أمام دهشة جنود الجيشين

المتقابلين. تراجع الجميع إلى الوراء، بعد أن راحت الشجرة المحترقة تطلق الشرر حولها.

عاد بوبا مسرعا إلى سجار المرتعب، الذي وجده جاثيا على الأرض، وقد زالت عجرفته، وتلاشت مظاهر الشجاعة التي كان يدعيها. سأل بصوت متردد وخافت: «من أنت؟ ماذا تريد؟».

- يسمونني الطفل - الملك. أنا حاكم السانوكا. بنت الملك دولو هي زوجتي، وهذا سبب وجودي هنا. كما رأيت، أنا أيضا سيد الرعد والنار. سأدمر جيشك مثلما دمرت إلهك بأوواب، قبل أن أحول بلادك إلى صحراء مقفرة.. ولكن، إذا... - نعم، نعم، قل شروطك بسرعة!.

- سجار، يا ملك دوليبي، يجب على جنودك إلقاء سلاحهم فوراً والعودة على أعقابهم دون تأخر، وبلا تفكير، وبصمت. أه! نسيت! صديقي غاندا وجماعته يريدون سحقكم تحت قوائمهم، لا أعرف بالضبط لماذا. لا تنس أن لديهم نقطة ضعف كبيرة: يجهلون معنى الصبر. خذ ذلك بالحسبان.

تناول بوبا قرن الكبش المعقوف من حمالته، ونفخ فيه بكل ما يستطيع من قوة. ارتفع صوته الرنان في الجو ثلاث مرات، كإشارة إلى صديقه.

قال سجار، الذي ازداد ذهوله شيئا فشيئا، ورأى أنه لم يعد يقوى على مواجهة ما يدور حوله:

- أنا... أنا لا أفهم. من هو غاندا؟

- ستراه بعد لحظات. أخشى أن يكون أوان التفاهم قد فات.

انظر خلفك، هناك. أنصحك للمرة الأخيرة: قل لجيشك أن يلقي السلاح وينصرف من هنا إلى ما وراء الحدود .

نهض سجار لينظر خلفه. تجمد الدم في عروقه عندما شاهد قطيع الفيلة يقترب. نكر الطفل - الملك حصانه لملاقاة حشد الفيلة المتوحش. ولما اقترب من القائد، انتصب على حصانه، وتحدث إليه لحظة. ثم أشار بيده إلى جنود ملك دوليبي.

ارتفعت مئات الخراطيم نحو السماء، معلقة نهيمًا حادًا. كان ذلك يشبه نداء حرب. ثم اتجه غاندا وقطيعه، وعلى رأسهم الفارس الشاب، نحو جنود الملك سجار بخطى واثقة. لم ينتظر هؤلاء مواجهة الفيلة. رموا رماحهم، ودروعهم وسيوفهم وكل عتادهم على الأرض، وولوا هاربين بسرعة. لم يشاهد جندي من قبل أبداً مثل هذه الهزيمة. هرب آلاف الرجال الذين يرتدون جلود الحيوانات، راكضين ومرعوبين، دون توقف في السهل العشبي، كأن الشيطان يلاحقهم.

وقع كثير منهم على الأرض ثم نهضوا وهروا بسرعة أكبر، بوجوه شاحبة وأفواه مفتوحة كي يستطيعوا التنفس. هكذا تجرع هؤلاء المحاربون الدمويون، الذين طلما نشروا الرعب حولهم، مرارة الهلع أخيراً. لم يكثرثوا في طريقهم بالأشواك القاسية الوحز، ولا بالأعشاب الحادة التي صفت وجوههم أحياناً وتركت فيها جروحاً لا دواء لها.

كان فرسان سجار في مقدمة الهاربين المشتتين. وقد ابتعدوا كثيراً عن المشاة، الذين ظلوا يركضون بسرعة، خوفاً من دوس الفيلة وشرر الرعد والنار التي يقذفها ولد عفريت يحتضن إبليساً، حسب قولهم.

تعتمد بوبا، الذي سار وراءهم على رأس الفيلة، بجوار صديقه غاندا، ألا يسرع كثيرا، كي لاتصل إليهم الفيلة وتفتك بهم، فتقع مذبحه مخيفة.

من حسن حظ سجار وجنوده أن الحدود لم تكن بعيدة جدا. عبر الفارون النهر الحدودي سباحة بسرعة، دون أن يعبأوا بالتماسيح الجائعة، التي كانت تنتظر وجبتها. لم يستطع بعض الجنود الإفلات من فكها الجبار، والبعض الآخر مات غرقا. كان ذلك هو الثمن الوحيد الذي دفعه الملك الطاغية، لمحاولته غزو بلد آمن، بحجة أن القوة يجب أن تتفوق على الحق.

لم يصدق جنود الجيشين الحليفين ما رأته أعينهم. ظن كثيرون أن أشعة الشمس الحامية، في هذا الوقت من السنة، جعلتهم يتوهمون. ولكن سرعان ما عرفوا الحقيقة: فر أعداؤهم جميعا بأقصى سرعة، راكبين على الخيول أو جريا على الأقدام. لم تترك أسلحتهم المتناثرة التي ملأت السهل أي مجال للشك.

كانت العودة إلى عاصمة الساساي مظفرة. وجد حراس الطفل - الملك، وحراس الملك دولو صعوبة كبيرة في فتح طريق للموكب، وسط حشد الناس الضخم الذين قدموا لاستقبالهم. أراد الجنود أولا لمس هذا الذي أسموه سيد الرعد. حاول بعضهم لمس حصانه، ولكن دون جدوى. وجهد سكان العاصمة كي يفعلوا مثلهم.

لم يتوقف هيجان الناس حتى في قصر دولو. ولزم وضع صفين من الفرسان حول القصر الملكي، خوفا من أن يخنق الزحام العاهلين.

منذ صباح اليوم التالي، أذاع المنادون النبأ الذي لا يصدق على قرع الطبول في المملكتين، وحتى خارجهما. وقامت الاحتفالات والمهرجانات الشعبية بعفوية في كل مكان.

في اليوم الثاني من هذا النصر المبين، الذي لم ترق فيه دماء، أقام الملك دولو وليمة كبرى، قدمت فيها أطيب المأكولات، وأفخم أنواع عصير الفاكهة، بكميات كبيرة. عزف الشعراء الموسيقيون على الكورا والبلافون خلال الطعام. وغنت النساء بصوت رائع أغنيات تمجد الطفل - الملك ومضيفه الكبير. وأحاط ضباط الجيشين والمستشارون والأمراء الصغار والأميرات بالملكين. من وقت لآخر، كان الملك دولو يطلق ضحكاته المدوية التي يسمعها كل من في القصر. بعد الوليمة، قال ملك البلاد لصهره:

«أبناء مملكتي يسمونك يا بوبا سيد الرعد والنار بحق. أنت تملك السلاح الأقوى. إن شئت، نستطيع كلانا، مع هذا الجيش المخيف وأصدقائك الفيلة، غزو كل الممالك المحيطة بنا. فكر بالثروات الهائلة التي سنجندها من ذلك. هذا دون الحديث عن المجد، والنفوذ، والشهرة التي ستبقى ملتصقة بشخصينا إلى الأبد!

- أيها الملك دولو، يا أبي، أفهم حماسك. أنا الآن في بيتك، وأشعر فيه بالفعل كابن في بيت والده. لذلك، أجزؤ، باحترام، على التفكير بطريقة أخرى. ألا ترى يا أبي دولو أننا لو تصرفنا هكذا مثلما تقول، ألن نشبه حينذاك سجار؟ بالتأكيد، مع سلاحي الرهيب، نستطيع غزو كل الممالك، وجمع ثروات لا تحصى. ولكن ماذا يفيد الإنسان أن يملك الأرض كلها، بجميع خيراتها، وهو يعرف أنه سيموت غدا؟ الممالك المحيطة بنا تعرف أننا نملك

سلاحا رهيبا. سيردعها ذلك عن مهاجمتنا بعد الآن. وهذا ما
يكفيانا لاطمئنان شعبيينا.

- يا بني، غالبا ما يدفعني طبعي العنيف باتجاه أفكار وأفعال غير
معقولة. على رغم سنك الصغير، أعطيت عجوزا مجنونا درسا في
الحكمة. من يجب علي أن أشكر؟ أنت، أم جدك الذي أقدره على
هذه الإرشادات التي أخذتها عنه؟ ولكن دعنا الآن من أحاديث
السياسة. أين شاعرك الموسيقي؟ يا ديالي، أين تختبئ؟ تعال
وحدثنا عن هذه المعركة التي لم يقع مثلها أبدا!.

لما سمع اسمه، نهض ديالي، الجالس بين العجوز والي وخليفة،
ليس بعيدا عن الملك دولو. وقف في وسط الحضور. نقر بفرج
على أوتار الكورا، ثم بدأ يتكلم:

«أيها الملك القوي دولو. لأول مرة في حياتي، لا أجد كلمات كافية
تعبّر، لوصف هذا اليوم الخالد. والحرارة، وقرب وقوع المعركة،
والقلق، والخوف من عدم الانتصار، ألم يبلبل كل ذلك دماغي
ويشوش رؤيتي؟ هل رأت عيناى سيدي يطلق الرعد والنار، فيهلك
بهما كامس، الإله بأؤباب، رب سجار السفاح؟ هل رأت عيناى
سيدي على حصانه يتقدم أصدقاءه الفيلة، السائرة في صفوف
متراصة؟ هل رأت عيناى آلاف الرجال مذعورين هاربين منقطعي
الأنفاس؟ هل رأت عيناى آلاف الخناجر، والرماح، والجعاب،
والنعال، والقبعات، والتمائم متناثرة على الأرض، بعد أن رماها
الهابيون الخائفون خلفهم؟ ألم تر عيناى فتى يافعا يطرح على
الأرض ملكا متعجرفا حتى دون أن يلمسه؟ بلى، بلى، بلى رأت
عيناى كل ذلك، لم تخدعاني! هل أستطيع التأكيد بأن سجار

ومقاتليه الرهييبين لن يخاطروا بعد الآن بالاقتراب من تراب هذا البلد؟ نعم، نعم، نعم، دون أي شك! هل أستطيع التأكيد أنه لن يتجرأ أي طاغية بعد اليوم على رفع سيفه في وجه الساساي أو السانوكا؟ نعم، نعم، نعم، دون أي شك! هل أستطيع تأكيد شجاعة وكرامة وعزة نفس الملك الكبير دولو؟ نعم، نعم، نعم، دون أي شك! هل أستطيع تأكيد إنسانية الطفل - الملك العميقة، وعطفه الكبير على الضعفاء، ومعرفته الواسعة بما نعرف ونجهل على حد سواء؟ نعم، نعم، نعم، دون أي شك! مهما بدا لنا ذلك عجيبا، فقد وقفت ثلاثة جيوش وجها لوجه، في سهل غانجو. أحرز الطيبون انتصارا رائعا، وهرب الأشرار، ولكن لم تسفك نقطة دم واحدة. مع ذلك، أكد سيدي هذه الحقيقة تماما قبل قدومنا إلى هذه البلد. والآن، هل تعرفون، أيها الجالسون هنا جميعا إلى وليمة النصر، لماذا لدى الطفل - الملك حظ وبركة؟ لا تبحثوا عن الإجابة. إنه يجب العدل، ويكره الخبث والأذى. لهذا، الله معه، ويحميه».

تحمس الملك دولو وصرخ بصوته الجهير:

«مرحى يا ديالي، مرحى لك! أحسنت القول! أعرف أن حكايتك عن معركة غانجو العجيبة صادقة. ستبقى بفضلك في ذاكرة شعبينا. عدا ذلك، أخبرتني أختي مبوديا أنك غالبا ما تغني وتمدحني في بلاط سيدك، وتثني على أجدادي. لذلك، ومن أجل ما قلته منذ لحظة، تعال، خذ هذا الكيس المليء بالقطع الذهبية! اليوم، وفي الأيام القادمة، أشعر أنني سأصبح سخيا، على غير عادتي. طبعاً، أعترف بذلك! أنا، لست الطفل - الملك! وبهذه المناسبة، يا صهري العزيز، هيا، تكلم! قل ما هي أمنياتك،

طلباتك، مطالبك! أيا كانت، أقسم أني سألبّيها سلفاً». هتف كل المدعويين للبطل الشاب، وحيوه وصفقوا له. كانت الهتافات الحماسية تتطلق عفويا من الصدور. لما هداً الابتهاج الحار، تحدث الطفل - الملك:

«يا أبي دولو، قطعت لي منذ لحظة وعدا يفقر إلى الحذر، سأقبله. ولكن اعلم قبل كل شيء أن من يخاطبك هو ابنك. هاهي مطالبي. أخبرني ضباطي أن بعض جنود الملك سجار، الذين غابوا عن سهل غانجو وقت الأحداث، كانوا هنا داخل البلد. أرسلهم قائدهم ليتقدموا جيشه. بعض هؤلاء الغزاة تلقوا طعنات خطيرة. أتمنى يا أبي دولو أن تأمر بالعناية بهم، ومعالجتهم جميعاً بروح إنسانية، وإعادتهم إلى الحدود دون أن يتعرضوا لأي أذى».

بدا ملك الساساي متضايقا، بعد أن فوجئ بما سمعه، وأعلن: «يستحق هؤلاء الغزاة الموت ألف مرة! أرى أن تقطع أعناقهم، لكني أسلم برغبتك. سأفعل كما تريد».

- شكرا يا أبي دولو. هاهو طلبي الثاني. أطلب منك استخدام الأسلحة التي تركها العدو الهارب خلفه بهذا الشكل: ليحول الحدادون السيوف إلى سكك لحراثة الأرض، والرماح إلى مناجل لجني المحاصيل. لتوزع الأحصنة المتروكة على الفلاحين، لاستخدامها في الجر. لتحرق السهام والأقواس والجعاب والهراوات وعصي الحراب في نار الفرع الكبرى المشهودة.

أجاب ملك الساساي، متأثرا هذه المرة: «يا بني، لقننا درساً في الحكمة، مرة أخرى. سأنفذ رغبتك بسرور. تابع، أنا مصغ إلى ما تقول».

- يا أبي دولو، اطلب إلى شعبك ألا يحمل أي ضغينة، أو أي كراهية، أو أي حقد على سكان مملكة دوليبي. يجب ألا ينظر أحد إلى هؤلاء على أنهم المسؤولون عن أفعال ملكهم. لا شك في أن كثيرا من الرجال والنساء، ذوي النوايا الحسنة، الذين يعيشون في هذه المملكة الجارة، يتطلعون إلى الحياة بهدوء، وسلام، وسعادة. تأثر الملك دولو تأثرا بالغا مرة أخرى بكلمات الطفل - الملك. نهض هذا المحارب الصلب واقفا، وقد امتلأت عيناه بالدموع. ضم صهره بين ذراعيه بقوة جعلت هذا الأخير يهمس بصوت منخفض في أذنه:

«أي، أي، يا أبي! تكاد تخنقني! أنسيت أنك عملاق!».

أفلقته ملك الساساي، ثم أعلن، منتقلا من الانفعال إلى الفرح:

«أمنيات ابني بوبا هي أوامر! نفذوها فورا!»

ضحك الملك دولو من جديد ضحكة عالية، وضحك المدعوون فرحين، حتى امتلأ القصر بالأصوات المبتهجة.

في اليوم الثالث لهزيمة الغزاة، أرسل الطفل - الملك الرسالة التالية من خلال قادة جيشه:

«أيها الجنود البواسل، منحنا الله النصر على أعدائنا. لنحمده ونشكره من أعماق قلوبنا على هزيمتهم. لنحمد الله أيضا على عدم إراقة الدماء، خلافا لما يحدث بشكل عام في المجابهات. والآن، ليعد جيش السانوكا المقدام إلى البلاد. ليعد كل واحد إلى عمله. أمر خازن المال بصرف راتب شهرين للجميع. حمى الله الساساي والسانوكا!».

ارتفعت صيحات الفرح. تلا بعض الجنود أدعية. وغنى آخرون.

وبكى كثيرون. لكن الجميع كانوا سعداء بالعودة سالمين إلى بلدهم قريبا، إلى بيوتهم وحقولهم وقطعانهم وزوارق صيدهم، وأسرههم التي تنتظرهم بشوق وقلق.

أما الملك دولو، المغتبط بنصر لم تسفك فيه دماء، فقد أعلن لصهره:

«بوبا، يا بني، ستبقى معي هنا طيلة المهرجانات التي أمرت بإقامتها احتفالا بالأحداث. وجودك إلى جانبي يطمئنني، ويجعلني بشوشا وأكثر ألفة. أعتزف لك بذلك. نعم، نعم، شعوري بأنك إلى جانبي يبدهمومي. الآن فهمت الكلام الذي يقولونه من أن مجرد لمسك يجلب السعادة. الآن أثق بذلك جدا. يا بني، لو أمكنك البقاء بقربي دائما، لما خشيت بعدها شيئا في السماء والأرض!».

- اتق الله يا أبي دولو، يجب على كل كائن أن يحب الله ويجله، ويخشى غضبه، ويهتدي بأوامره. هنا يكمن سر السعادة.

- ولكن، يا بني، ما الذي يجب القيام به كي لا يغضب الله من ملك مثلي؟

- الأمر بسيط جدا يا أبي دولو. انشر الخير في كل مكان. تجنب الشر. احكم بالعدل. وطبق الإنصاف بصرامة على كل رعاياك، من أكبرهم إلى أصغرهم. احم الضعفاء، خصوصا الأرامل واليتامى. يحب الله الصالحين والصالحات، خصوصا أولئك الذين تطهرت قلوبهم من الخبث والكراهية. هكذا يجب أن نكون.

- أصبحت أفهم الآن يا صغيري لماذا يحبك كل الناس المحيطين بك. بت أفهم، نعم، أفهم الآن.

لم تهدأ الأفراح، بل ازدادت. وكي يزيد شعبيته، كان الملك دولو يصطحب صهره أحيانا إلى مختلف أحياء عاصمته وضواحيها. اجتذبت هذه الزيارات، على صهوة الحصان، كل الناس الذين أرادوا خصوصا رؤية الطفل - الملك. صفقوا له وحاولوا لمس ثيابه أو حصانه.

في اليوم الخامس من الاحتفالات، بعد انتهاء هذه الزيارات، وبينما كان الملكان ورفاقهما يستعدان لوليمة كبرى جديدة، تقدم أحد الحراس من سيد البلاد، وهمس إليه بشيء ما.

حينذاك، صرخ الملك المبتهج:

«أيها الحارس، قل لشاعري الموسيقي، رئيس التشريعات، أن يعلن نبأ هذه الزيارة، التي طالما انتظرتها».

وكما لو أنه لم يكن ينتظر سوى هذا الأمر، تناول التاما، الطبل الصغير الذي يضعونه تحت الإبط. ضرب عليه بقضيب صغير بضع ضربات، كي يلفت الانتباه، طالبا من الحاضرين الهدوء. ثم أعلن بصوت قوي:

«اللطافة والجمال والطيبة ستدخل إلى هذه القاعة. هاهي سيرا، أميرة الساساي، ملكة السانوكا، بنت الملك دولو، زوجة الطفل - الملك».

ظن بوبا، وجده، وعرفان، وموري، وخليفة أنهم لم يفهموا ما سمعوه. فوجئوا فرحين بالملكة الشابة وهي تتقدم بجلال، مرتدية ثوبا أزرق طويلا، مطرزا بخيوط فضية، وقد تكلفت بتاج ذهبي متلألئ، ماشية بقماتها الرقيقة وجمالها الأخاذ داخل القاعة الضخمة.

علت الهتافات العفوية. توجهت سيرا بخجل نحو زوجها. ولما اقتربت منه، انحنت لتحيته. عانقها بوبا، وخيم الصمت فجأة. مالت سيرا لتهمس إلى زوجها ببضع كلمات:

«يا قلبي الملك، لم أعد أستطيع الانتظار في كور دياما، لشدة شوقي لرؤيتك. سبقني رسول ليعلم أبي بوصولي. أما أنت فلك عندي مفاجأة».

- يا أميرة أحلامي، فكرت فيك ليلا ونهارا. لكن والدك أبى أن يتركني. وجودي إلى جانبه يغمره فرحا. انظري إليه كم هو سعيد. اذهبي لتحيته قبل أن يفضب، ويملاً صوته القصر كله.

- نعم، أنا ذاهبة. أرغب أولا في الارتقاء بين ذراعيك. ولكن لا أجرؤ. هؤلاء الناس الذين ينظرون كلهم إلينا يخجلونني.

- نعم، يحسدوننا على سعادتنا... اذهبي لتحية سيد البلاد.

اقتربت سيرا من والدها، وانحنت باحترام، وقالت: «أحييك يا والدي، يا ملك الساساي القوي. سدد الله خطاك دائما».

- تحية للملكة السانوكا. تحية لابنتي المحبوبة. ليحكمك الله أنت وزوجك، وليمن عليكما بأطفال وسام، وليمد في حياتكما».

خرجت سيرا من قاعة المأدبة الكبرى. وانضمت إلى بقية أفراد أسرتها، الذين سعدت برؤيتهم في هذه المناسبة المفرحة، التي عاد فيها السلام إلى البلاد.

بعد الظهر، جمع الملك دولو الأسرة في مقصورة استراحته الكبيرة. بدت كل العيون مفعمة بالبهجة. عزف ديالي ألحانا على الكورا تمايل لها الحاضرون طربا. وكانت سيرا، التي جلست قرب

أمها، تنظر إلى زوجها وتبتسم له .

خاطب الملك دولو الجد والي قائلا:

«هل تعرف يا والي أن شاعر وموسيقي بلاطي معجب بك كثيرا؟
قال، والحق يقال، إنه إذا كان الطفل - الملك على هذا القدر من
الخصال الحميدة، فذاك بفضل التربية التي أنشأتها أنت عليها.
أنا أرى ذلك أيضا».

- يا صاحب الجلالة، حاولت فقط أن أؤدي واجبي، بأن أكون
بديلا مثاليا قدر ما أستطيع عن والدي حفيدي، اللذين لم يسعفه
الحظ ليراهما .

- أنت أنجح من ربي! انظر إلى ثمار تربيتك: أصبح اليتيم فتى
وسيما مهذبا، وجسورا، وبسيطا، وشجاعا، وطيبا، وعادلا،
وغيريا، ومترفعا عن خيرات هذا العالم، ناهيك عن صفاته
الرائعة الأخرى. يمتلئ قلبي فرحا للسعادة التي يغمر بها ابنتي
الصفرى، خصوصا أن أخواتها تزوجن من أنذا. أعتقد أنني
سأقطع بعض الأذان عندما يأتيني شاكيات في المرة القادمة.
لم يستطع الملك دولو إكمال كلامه. نهض بوبا وتوجه إلى مضيفه
الكبير قائلا:

«يا أبي دولو، تذكر وعودك. فقد أقسمت لي أن....».

- نعم، نعم، يا بني، سأفي بوعودي. ثم إنني أعتقد بأن هناك حلا
أفضل لهؤلاء الأزواج السيئين. أظن أنني سأوافيك بهم كي يتعلموا
منك كيف تعامل زوجتك. الجهد الوحيد الذي يجب أن يبذلوه هو
محاولة تقليدك، ليس أكثر. لابد أنه سيكون جهدا كبيرا بالنسبة
إليهم. أليست هذه فكرة جيدة؟ ما رأيك بها؟

ضحك الملك دولو بعد ذلك ضحكة عالية، كعادته، ضحكة رجل عملاق خشن، ولكن ليس خبيثا بالتأكيد. وترددت ضحكته في كل أرجاء القصر.

بعد بضعة أسابيع من هذه الإقامة الرائعة، حان وقت العودة. وذات صباح، عند الفجر، بعد وداع حار ومؤثر، بدأت استعدادات الرحيل.

تحقق موري من المؤن، وتفقد الحرس والأحصنة، وتأكد من كل التفاصيل الضرورية لسفر ملك عظيم.

غادر الموكب القصر منذ الفجر. تقدمه جندي يرفع بفخار علم السانوكا المرفرف في نسيم الصباح. مشى موري خلفه، متقدما الملك والملكة والملك دولو على جيادهم البيضاء، المسرجة بألوان لامعة، وتبعهم خليفة، وديالي، والجد والي وعرفان على جيادهم، أمام حراس بوبا. وسار جنود ملك الساساي في الخلف. عند مخرج العاصمة، توقف الجميع لحظة. خاطب الملك دولو ابنته أولا:

«يا صغیرتی الملكة، ألا تودين البقاء بضعة أيام أخرى هنا بين أسرتك؟».

- ولكن يا والدي، أسرتي الآن هي بوبا، والجد والي، والعمة مبوديا. تذكر كلامك عندما احتفلت بزواجنا. أعود اليوم إلى عاصمتي، وقصري، وبلدي. لن أستطيع أبدا التعبير لك عن مدى شكري وامتناني لهذا الزوج الذي اخترته لي.

كعادته، ضحك الملك دولو ضحكة صاخبة، ثم قال لضيوفه: «والي، عرفان، موري، خليفة، أطلب منكم السهر على صهري،

الذي تفضل علي، وأنقذني. أوصيكم بذلك. ولكن لدي انطباع بأن الأمر هو العكس، بوبا هو من يسهر عليكم. أما أنت أيها الطفل - الملك، فاعلم أن لك مكانة مميزة في قلبي. اعلم أيضا أنني حاولت، منذ عرفتكَ، تقليدكَ في سلوككَ، والعمل مثلما تعمل، بحيث أنشر العدل بمزيد من الاعتدال والتسامح. لا، بل حدث لي أن تساهلت أحيانا مع بعض الأخطاء الصغيرة، مثلما تفعل أنت. هنا، في الساساي، أصبحت الأرملة واليتيم تحت رعايتي، كما طلبت مني. والآن وداعا يا بني. حماك الله وسدد خطاك. أحبك يا بني. نعم، نعم، أحبك. هل تعرف؟».

كي يحبس دموعه، ويكظم تأثره البالغ، أمسك الملك دولو، هذا المحارب الشديد، الذي كثيرا ما قالوا إنه لا يهتم بالعواطف، عنان حصانه وشده فجأة نحو الخلف، وانطلق مسرعا يتبعه حراسه. سلك الطفل - الملك وموكبه طريق العودة، باتجاه الجنوب. تلذذ بوبا وسيرا بطعم فرح الرجوع إلى عاصمتهم الرائعة، والجميلة، التي يحلو العيش فيها. فكرا بالاستقبال الحافل الذي ينتظرهما. وتصورا الفرع الذي سيعبر عنه الشعب عند مرورهما على طول الطريق. وفكرا بالحياة التي يجب أن تستمر، بأفراحها وأتراحها. كانت الشمس ترتفع بهدوء فوق رأسيهما. حلقت الطيور الملونة في السماء الصافية، سعيدة هي أيضا بهذا النهار الجديد، الذي منحه الله لها.



حكايات وأساطير أفريقية

لقاء الضبع والعنزة

تأليف: سليمان جيفو ديوب

ترجمة: محمد الدنيا

مراجعة: د. عبد الرحمن بن زيدان

١ - لقاء الضبع والعنزة

لا يجهل أي حيوان، منذ أقدم الأزمان، أن الضبع حاول دائما الإمساك بالعنزة ليأكلها، وأن العنزة بقيت تحاول الإفلات من هذا العدو المتوحش.

وهكذا، كانت العنزة «بيا» عائدة ذات صباح إلى بيتها، بعد زيارة لعمتها المريضة. وعند منعطف الدرب، في مكان بعيد قليلا عن بداية أكواخ القرية، حدث اللقاء الذي طالما خشيته بيا. تقابل الضبع «بوكي» والعنزة بيا، وجها لوجه تقريبا. ارتعبت بيا وحاولت الهرب، لكن بوكي قال لها:

«لن يفيدك الهروب يا بيا. تعرفين أنني سامسك بك بسهولة. هيا، قللي لي، ماذا تفعلين وحدك في هذا الدرب غير البعيد كثيرا عن القرية؟»

- زرت... زرت عمتي منذ قليل، وها أنا أعود سريعا إلى البيت، قبل أن ألتقي بأحد لا أحبه.

- اللقاء، حدث. تكرهينه؟ بالنسبة إليك، نعم، أما أنا فأحبه، وأنت لا تجهلين أن في هذا العالم الوضع مصائب قوم عند قوم فوائد، في هذا اليوم عندي مزاج للثرثرة. اسمعي ما أقوله لك: إذا ذكرت لي أربع حقائق دامغة، سأدعك تمضين بسلام، هذا وعد من بوكي الضبع.

ثم تصدق بيا، المرتعدة الأوصال خوفا، ما سمعته أذناها. حين عرض عليها بوكي صفقة لإنقاذ حياتها. استعادت بيا الأمل، وقالت له:

«موافقة، سأقول لك أربع حقائق مقابل إنقاذ حياتي. هاك الأولى: تناولت وجبة كبيرة منذ قليل».

- آه! عظيم! هذا صحيح! ولكن، قل لي، كيف عرفت ذلك؟ مع أننا لم نلتق إلا منذ لحظة.

- هذا بسيط يا بوكي! لو أنك جائع، لما ضيعت وقتك في الثرثرة. ولهاجمتني والتهمتني بسرعة، دون أن تطلب رأيي.

- هذا صحيح! هذا صحيح! حسنا، لننتقل إلى الحقيقة الثانية.

- هاهي الحقيقة الثانية: لو قلت لأهل القرية إنني التقيتك، وإنني مازلت حية، لما صدقوني.

- في الواقع، أنت محقة. بعد لقاء كهذا، لا بد أن يكون أحدا في بطن الآخر. أمل أن تفهمي، لأنك لست غبية. ولكن تابعي، قل لي التالية الآن.

- هاهي الحقيقة الثالثة: لو كنت أعلم أنني سأقابلك على هذه الطريق، لما خرجت من كوكبي.

راح الضبع بوكي يفكر، لأنه لم يكن ذكيا كثيرا. ثم اعترف قائلا: «آه! هذا صحيح! لو كنت متيقنة، لبقيت في بيتك خلف باب موصل. حسنا، هيا، قل لي بسرعة ما هي الحقيقة الرابعة، لأنني بدأت أجوع الآن.

- إذن، هاك الحقيقة الأخيرة: ليس عندك أي نية في أن تدعني أمضي. لا شك أنك ستفترسني رغم بطئك الملآن.

- آه! إنها أفضل الحقائق الأربعة! تعرفين إذن أن أبناء جنسي لا عهد لهم، ولا يفون أبدا بأي وعد. كم أمتعني هذا اليوم. ها ها ها!.

ضحك بوكي بعد أن فكر أنه استطاع خداع العنزة، ولأنه سيحصل على وجبة ثانية خلال هذا الوقت القصير. وبقي يضحك ويضحك بقوة أكبر، حتى انقلب على ظهره فوق العشب. استغلت بيا الفرصة فورا، فركضت بكل قواها، سريعا، سريعا، حتى بلغت الأكواخ الأولى للقريبة. ونجت بجلدها، قبل أن يستطيع بوكي فعل شيء. سعدت العنزة كثيرا بنجاتها من أنياب الضبع، لكنها لم تتوقف عن التفكير: «إن رويت حكايتي، من سيصدقها؟».

بكل تأكيد.. لا أحد.

٢ - الولد السيئ

منذ زمن بعيد، بعيد جدا، كان يعيش فلاح غني في قرية نائية. كانت لديه أراض كثيرة تعطيه غلالا وفيرة، ومخازن مليئة بالحبوب من كل نوع، وماشية كثيرة، إلى درجة أنه لم يكن يعرف كم يملك من الخراف، والعجول، والماعز. وكان أولاده يساعدونه في العمل: اهتم كل واحد بجزء من الأملاك الواسعة للأب.

ذات يوم، جاء الولد البكر إلى أبيه، وقال:
«أنا متضايق يا أبي، لأنني أقوم كل يوم بالعمل الرتيب والممل نفسه.

- يا بني، الحياة نفسها تمضي هكذا. يجب أن يكون العمل اليومي والأسرة مبرر وجودنا. هكذا سارت الأمور منذ أقدم الأزمان. أيمكنك تغيير ذلك؟

- نعم، يا أبي. أرفض الالتزام بالعيش هكذا دون وجود شيء جديد في حياتي. أريد أن أطوف في العالم الواسع، وأرى أقاليم جديدة، وأشخاصا آخرين، وطرقا مختلفة في الحياة. أريد استنشاق هواء مختلف.

- الباز الصغير يا ولدي لا يستطيع نسيان العش الذي تعلم فيه أن يطير.

- أنا أستطيع. أريد الرحيل. ولن أعود ثانية.
- ولكن يا بني، أيا كان البلد الذي يقوده جناحاه إليه، يبقى الطير يفكر في عشه الأول. عشك أنت هنا. بعد أن أموت، كل

أملاكي ستؤول إليك وإلى إخوتك. ذاك إرثك. هل ستتخلى عن كل شيء من أجل مغامرة غير مضمونة النتائج؟ فكر جيدا، دمعك من هذه الأحلام المجنونة».

- لا أستطيع التراجع عن مشروعي يا أبي. اعطني حصتي من الإرث. أرغب في السفر بعيدا لأحيا حياة أخرى، أعظم من هذه. لا أطيع الرقابة والجمود.

امتلاً قلب الأب حزنا والمأ. ولكن، أمام تصميم ابنه، حسب حصته من الإرث، وقدمها له. يا له من مبلغ ضخمة جدا من القطع الذهبية!. سعد الشاب بذلك، وانطلق لغزو العالم. قطع الجبال والوديان، ولم يستقر في أي مكان. ومن مدينة إلى أخرى، لم يكن يبقى إلا الوقت الذي يكفيه لكسب بعض الأصدقاء. وهذا سهل، نظرا للثروة التي كان يملكها. أراد أن يتذوق طعم اللذائذ والمتع، المباحة منها والمحرمة. أقام حفلات باذخة، وبدد أمواله في ألعاب القمار. ولم يتردد في ارتداء أغلى الملابس، والشرب، ومعاشرة أنداد السوء، وتقديم الهدايا الثمينة، عبثا دون فائدة. باختصار، بذركل إرثه من غير وعي. لكن المال الذي لا نستثمره بالعمل، لا يدوم طويلا. وما كان يجب أن يحدث، حدث بعد وقت قصير. بدد الشاب كل ثروته الضخمة، التي ورثها عن أبيه.

لم يعد يملك شيئا ولم يبق معه فلس واحد.

وراح يبحث عن عمل، كي لا يموت جوعا، بعد تلك الولايم الفاخرة. ابتعد عنه كل أولئك الأصدقاء العابرين، ومارس كل أنواع المهن الشاقة، التي كانت بصعوبة تسد رمقه. سكن في أقذر الأكواخ. وذات مساء، بينما هو في حراسة قطيع من الخنازير، أخذ

يفكر ويتحدث إلى نفسه: «أصبحت بائسا، ولكن لا أستطيع أن أشكو حالي لأحد. أستحق كل ما حصل لي. بددت إرثي. ها أنا أرتدي لباسا رثا، وأحرس الخنازير، التي تأكل أحسن مني. أعرف الآن ما عليّ فعله. سأعود إلى بيت أبي. هناك سأطلب منه أن يسامحني. سأقول له أن يعاملني ليس كابن له، فهذا ما لم أعد أستحقه، بل كعامل عادي، لأن خدمه أسعد مني أنا هنا».

سلك الولد السيئ طريق العودة، مشيا على الأقدام هذه المرة. كان الطريق طويلا جدا ومرهقا، استغرق شهورا، قطعه متسولا من قرية إلى قرية، كي لا يموت جوعا. وفي أحد الأيام، بعد أن تمزقت ثيابه واتسخت كثيرا، وأدمى السير قدميه، وصل إلى منزل والده، ولكن لم يجرؤ على اجتياز عتبة. عرفه الخدم، ودهشوا لمنظره المخيف. وهرعوا لإخبار والده. أسرع أبوه للقاءه، فرأى صبيا ضامرا، ومتسخا، وغائر العينين، حافيا وقد امتلأت قدماه بالجروح. طأطا الشقي رأسه أمام والده، وبكى بكاء مرا، وقال:

«كنت ولدا سيئا يا أبي. سببت لك متاعب كثيرة بتصرفاتي الضالة. أسألك العفو والغفران. سامحني يا أبي. لم أعد أستحق العيش في بيتك. اعطني عملا فقط. اعتبرني منذ الآن واحدا من رعائك».

استدعى الوالد خدمه:

«عاد ابني! هيا، هيا، اغسلوه ونظفوه بسرعة، واعتنوا به. اعطوه ثيابا نظيفة. اذبحوا أضخم ثور في القطيع، سنحتفل بعودته».

ولكن جاء إخوته إلى أبيهم محتجين:

«سبب لك شقيقنا كثيرا من الآلام والمتاعب يا والدنا، ولنا أيضا. طلب حصته من الإرث وأخذه، وأنت حي ترزق، وهذا يخالف تقاليدنا تماما. تركنا وذهب بعيدا، وبدد كل ثروته من الإرث ثم عاد. وبدلا من أن تطرده، ها أنت تستقبله، كأنه لم يسبب كل هذا التعب والألم لأسرتنا. نرجو أن تتفهم دهشتنا واستغرابنا. لماذا تتصرف هكذا؟»

- أنتم على حق يا أولادي. ألمنا جدا سلوك شقيقكم. أبى أن يسمع كلامي، ولم يأبه بإرشاد أعمامه وأخواله، ولم يلتفت إلى توسلهم بعدم ترك البيت. ولكن انظروا ماذا يحدث للمرء عندما يرفض الانتباه لصوت العقل، والاهتمام بنصائح الكبار، مع ذلك، تاب الآن. ويعد أن ذاق كل ألوان العذاب والمرارة، أدرك خطاه وعاد إلى البيت. لقد سامحته. عليكم أن تفعلوا مثلي. لا تنسوا أنه ما يزال أخاكم. هيا نذهب لرؤيته. علينا أن نرحب ونستمتع بعودة أخ وابن كدنا نفقده. هاهو الآن بيننا من جديد. يا أولادي، اسمعوا هذه الكلمات التي غالبا ما كان والدي يرددتها على مسمعي: «عندما نضل الطريق، نعود إلى المكان الذي انطلقنا منه».

٣ - المسافران

روى لنا ديوجوبو، أحد الحكماء، أن فلاحا عزم ذات يوم على السفر إلى قرية بعيدة، ليسلم على أقارب له انقطعت أخبارهم عنه منذ زمن طويل، وطلب من ابنه الفتى مرافقته ليتعرف إلى البلاد، خصوصا كي يتعلم كيف يتصرف الناس، حسبما تقتضيه ظروفهم.

في الصباح الباكر، وضع المسافران كيسا صغيرا من الدخن على ظهر حمارهما، ثم ركبا، ومضيا نحو القرية. بعد بضع ساعات، صادف الأب وابنه جماعة من الحطابين المنهمكين بتقطيع شجرة استأصلوها منذ قليل. ما أن رأى عمال الغابة الخشنون الفتى وأباه، حتى ثاروا غضبا:

«قفأ، يا عديما المروعة! ألا تفهمان أنكما تثقلان مع كيسكما على هذه الدابة المسكينة، التي حملتماها أكثر من طاقتها؟ لو كان في قلبكما رحمة، لما تصرفتما هكذا. ألا تعرفان أن هذا الحمار هو من مخلوقات الله، مثلكما؟

حاول الأب شرح موقفه، ولكن دون جدوى:

«أيها العمال الشرفاء، لا تحكموا علينا من مظهرنا. دابتنا أقوى مما تظنون. سبق أن نقلت أحمالا أثقل منا ومن هذا الكيس الصغير».

رد الرجل، الذي بدا أنه رئيسهم، بلهجة أعنف.

«يا عديم الشفقة، ما تقوله لا يمكن أن يواسي الحمار المسكين.

انزلا وتابعا سفركما على الأقدام. ذلك سيريح الدابة المسكينة،
والا هلكت تعباً قبل أن تبلغاً وجهتكما».

استحسن الخطابون الآخرون بصخب ما قاله صاحبهم
للمسافرين. ونعتوهما بكل الأوصاف. نزل الرجل وابنه عن الدابة،
إرضاء لهؤلاء المتذمرين. حمل الفتى الكيس على كتفيه، ومضيا
مشيا أمام الحمار، الذي تخلص من حملة فجأة، دون أن يفهم لماذا
أو كيف، لكنه مع ذلك بدا سعيدا.

بعد ساعة من المشي، صادف المسافران رجلا يصطاد سمكا على
ضفة النهر. فاجأه المنظر، فصاح مستغربا:

«يا له من ثلاثي مضحك! هل رأى صياد سمك في حياته
رجلا يمشي حاملا كيسه على كتفيه، تاركا حماره خلفه بلا
أحمال؟ لا شك أن الحمار الحقيقي بين هؤلاء ليس ذاك الذي
يبدو أنه الحمار. أخبراني، لماذا تتصرفان هكذا كالحمقى؟».

تردد الفلاح قليلا وحاول إيضاح الأمر:

«عندما خرجنا من البيت، ركبنا أنا وابني دابتنا. لكن بعض
الخطابين الذين صادفناهم في الغابة أقنعونا بأن من الأفضل أن...».

- حسنا! حسنا! نصائح أولئك الخطابين ليست سديدة! أفضل
لكما أن تأخذا بنصيحتي. ضع الكيس على الحمار. أنت أيها
الأب، اركبه أيضا، يستطيع ابنك المشي خلفكما. يكفي ألا تسرعا
كثيرا. هكذا يجب أن تتصرفا.

عمل المسافران بنصيحة صياد السمك. وتابعا طريقهما
شاكرين. بعد بعض الوقت، بينما كانت الشمس تنشر حرارتها
القوية، وجدا بثرا عند مدخل القرية، وحوله فتيات يملأن أوعية

المنزل، وأخريات يغسلن آنية. ما أن رأينهما، حتى توقفن فجأة، وصرخن في وجه الأب غاضبات:

«انظرن، انظرن إلى هذا الرجل القضا! لا يزال في عنفوان شبابه. مع ذلك يستريح بالجلوس على ظهر حماره، في حين أن هذا الفتى الجميل الضعيف يمشي وراءه تحت الشمس الحارقة، منهكا من التعب. يالك من رجل بلا شفقة! ألا تشعر بالانزعاج من تصرفك هذا؟ أليس لك فؤاد في صدرك؟».

حاول الفلاح الاعتراض:

«لا، لا، لست عديم الشفقة، على عكس ما تعتقدن. هذا الصبي هو ابني. صادفنا منذ قليل صياد سمك، ونصحنا أن نفعل هكذا».

ردت عليه إحداهن بعنف، غاضبة أكثر من الأخريات:

«ألا ترى ابنك يلهث من التعب وهو يمشي خلفك؟ جسمه الرقيق لا يساعده على تحمل كل هذا الجهد. أفضل لك أن تفضل العكس. ما تزال شابا قويا. عليك النزول فورا عن الحمار، ليركب ابنك بدلا عنك. هكذا يجب أن تتصرف كي تكمل الطريق، فلا تضرب بذلك نفسك، ولا يتضرر ابنك».

امتثل الأب مرة أخرى للنصيحة. وقدمت لهما الفتيات الماء ليشربا. ولما ارتويا، واطمأنت نفساهما، وقد ظنا أخيرا أن هذا هو الحل الأفضل، استأنف المسافران رحلتهم. ولما بلغا طرف القرية، صادفوا جماعة من الشيوخ، جالسين تحت شجرة كبيرة. في أفريقيا، لا أحد يمر بجماعة من الناس دون إلقاء التحية، ولو لم تربطه بهم علاقة أو معرفة، خصوصا عندما يكون هؤلاء الناس شيوخا محترمين وقورين. وهكذا، توقف الأب وابنه لأداء واجب

التحية. ولكن، ما أن انتهى تبادل التحية والسلام، حتى ويخ أحد الشيوخ الابن بقسوة:

«ألا تعرف آداب السلوك أيها الفتى؟ هل من تقاليد بلادنا أن يعيش الأب على الطريق، ويتبختر ابنه على ظهر دابته؟ أليس عندك شفقة بوالدك؟ ألا تحس بخزي تصرفك، الذي لا يليق بابن من واجبه محبة أبيه واحترامه ومساعدته؟».

خجل الولد، وارتبك لما سمع هذا التأنيب المصيب. طأطا رأسه، ولم يعرف بماذا يجيب. وخاطب شيخ آخر الفلاح قائلا:

«أهكذا تلقن ابنك مبادئ الفضيلة، التي يجب أن يحملها الأبناء، ويمارسوها في مثل هذه الظروف؟ أهكذا فعل والدك معك؟».

بالطبع، لم يعد الفلاح يعرف ماذا يقول. فكر طويلا قبل أن يجيب:

«أيها الشيوخ الأكارم، أعترف بصواب رأيكم، لأنني أحترم هذا الشيب على رؤوسكم، فهو علامة الحكمة والرصانة. مع ذلك، يجب أن أخبركم بكلام سبق هذا. فمنذ الفجر، صادفنا أنا وابني بعض الحطابين العاقلين، ثم صياد سمك فطنا، وبعد ذلك فتيات ساخطات ثم شيوخا حكماء. سلام عليهم جميعا وبارك الله فيهم. قال كل منهم كلاما صادقا يناقض كلام الصديق الذي قيل بعده. وبفضل رحلتي هذه، أصبحت أعرف شيئا: «لا يستطيع أحد إرضاء كل الناس وإرضاء والده في الوقت نفسه». هاكم ما قررته: «لنركب حمارنا يا بني أنا وأنت، لقد اشتريناه لهذا الغرض لنختم سفرنا هكذا».

وداعا أيها الأكارم. شكرا لكم، أنتم أيضا، لأنكم هديتمونا إلى الحقيقة.

٤ - الطرشان الثلاثة

أمنية امرأة طرشاء. لا تسمع زقزقة العصافير، ولا ضربات المدق، ولا حتى رعود العاصفة.

كانت تملك حقلا صغيرا بجوار القرية. في كل صباح، عند شروق الشمس، تضع طفلها الرضيع على ظهرها، وتذهب للعناية بالخضار في الحقل. ذات صباح، بينما هي تعتني بغراس المنيهوت(*) ونزع الأعشاب الضارة، اقترب منها «صيدو»، الذي كان يبحث عن قطيع خرافه الضائع. كان صيدو أكثر طرشا من أمينة، دون أن يعرف أي منهما أن الآخر أطرش. قال الرجل:

«قطيعي ضائع. أنا أبحث عنه منذ الصباح. هل رأيته يمر من هنا؟».

ثم تسمع أمينة طبعاً، ولم تفهم أي شيء. لكنها ظنت أن صيدو يسألها إلى أين يمتد حقلها. أشارت بيدها قائلة:

«حقلي ينتهي هناك، تماماً بعد شجرتي «الباؤياب» اللتين تراهما. وبعده يبدأ حقل جارتي مريم».

لما رأى صيدو ذراعها الممدودة، اعتقد أن أمينة تشير إلى المكان الذي يوجد فيه قطيعه. قال لها:

«شكراً لك، أنت لطيفة. بين قطيعي خروف رجله؟ الخليفة مكسورة. أصبح يعرج. إن وجدت القطيع سأقدم هذا الخروف هدية لك».

(*) المنيهوت نبات يستخرج من جذوره دقيق نشوي.

توجه صيدو نحو شجرتي الباؤياب، عند طرف حقل جارتة أمينة. هل هي المصادفة؟ أم الحظ؟ بالفعل، وجد هناك كل قطيعه الذي ظنه ضائعا. سر كثيرا، وأخذ الخروف الأعرج، وقدمه إلى أمينة قائلا:

«ذهبت إلى المكان الذي أشرت إليه تماما، فوجدت كل خرافي. وبما أنني وعدتك، خذي هذا الخروف كهدية».

لم تفهم أمينة شيئا. رأت الخروف يعرج، وظنت أنه يتهمها بكسر قائمته. غضبت، وأخذت تصرخ:

«لماذا تقول إنني كسرت قائمة خروفي؟ أنتهمني وأنا لم أر هذا الحيوان من قبل أبدا؟ أعرف كيف سأدافع عن نفسي. هيا إلى القاضي فورا».

لم يسمع صيدو شيئا مما قالت، لأنه أطرش، لكنه رأى المرأة في حالة غضب شديد. وحسب أنها ترفض الهدية، وتريد خروفا بكامل صحته. غضب هو أيضا وصرخ:

«هذا هو الخروف الذي وعدتك به، وليس غيره. بما أنك لا ترضين به، هيا إلى القاضي. هو من يستطيع القول من منا على صواب».

ذهبا إلى القرية لرؤية القاضي. وبقيتا يتجادلان طيلة الطريق ويكرران الأشياء أنفسها، دون أن يسمع أحدهما ما يقوله الآخر. وصلا أخيرا غاضبين، منهكين من التعب، إلى ساحة القرية، حيث جلس القاضي بين شيوخ القرية تحت الشجرة الكبيرة ليحكم في شؤون الناس.

«بهدوء بهدوء يا ولدي، أراكما غاضبين جدا. ما قصتكما؟».

ساد الهدوء المكان، لأن الجميع أرادوا أن يسمعوا ويروا كيف ستسير جلسة العدالة. تكلم صيدو أولاً:

«أضعت قطيع خرافي. ولما كنت أبحث عنه منذ ساعات وساعات، صادفت هذه المرأة تعمل في حقلها. وعدها بأن أهديتها الخروف الصغير، الأعرج، إذا ساعدتني في العثور على القطيع. دلتني على المكان الذي وجدت فيه الخراف ترعى، خلف الحقل، قرب شجرتي البواؤياب. وهكذا استعدته بفضلها، وقدمت لها الخروف الأعرج، وفاء لوعدي. لم ترفض شكري فقط، بل راحت تصرخ علي وتشتمني، لأنها أرادت الكباش الكبير السليم. يا سيدي القاضي، تجب معاقبة هذه المرأة، لأنها غير مهذبة».

ولما بدا أن صيدو قد انتهى من رواية حكايته، خاطب القاضي أمينة:

«دورك الآن، أخبريني بما حدث».

«بينما أنا أعمل في الحقل، جاء هذا الرجل، وسألني أين تقع حدود حقلي. أشرت له بيدي، وقلت إنه يمتد حتى شجرتي البواؤياب. وذهب لا أدري إلى أين. ثم، عاد ومعه خروف أعرج ليتهمني بأنني أنا التي كسرت قائمته... لكنني لم أرقطيعه من قبل أبداً. لماذا، وكيف استطعت كسر قائمة خروقه؟ يا سيدي القاضي، تجب معاقبة هذا الرجل، لأنه لم يقل الحقيقة».

لسوء الحظ أن القاضي نفسه أطرش أيضاً. لم يسمع كلمة واحدة مما قاله صيدو وأمينة. ولكن لما كان ينظر إليهما وهما يتكلمان، اعتقد أنه فهم ما قالاه. ظن أنهما زوجان. ورأى أمينة تحمل طفلاً رضيعاً على ظهرها، فحسب أنه سبب الخلاف، وقال للرجل:

«أنا خجل من حديثك عن زوجتك بهذا الشكل. هذا الطفل هو ابنك، انظر كم هو جميل وكم يشبهك. يجب أن تعطي امرأتك مصروفًا يوميًا، كي تستطيع ارتداء ملابس تليق بزوجة، وكي تعد لك وجبات شهية. اذهب حالا وافعل ما أمرتك به ولا تعد للشكوى، وإلا ويل لك».

لما سمع الحاضرون هذه الكلمات، راحوا يضحكون. لم يسمع صيدو وأمينة القاضي، ولم يفهما شيئًا مما قاله. ولكن عندما رأيا الآخرين يضحكون، أخذوا يضحكان مثلهم.

٥ - الحطاب والعفريت

آسان الحطاب شاب قوي البنية. كان يركب حماره كل صباح ويذهب إلى الغابة، فيقطع بفأسه كومة كبيرة من الحطب، ويضعها على ظهر الحمار، ثم يعود مطمئنا إلى البيت.

كانت قطعة الأرض التي كان يقيم عليها آسان تضم ثلاثة أكواخ. في الكوخ الأول، سكن والده وأمه العجوزان جدا. وجعل الثاني له وحده. وترك الثالث لاستقبال الأصدقاء وأفراد العائلة الآخرين، في أثناء زيارتهم له، بين وقت وآخر.

ذات صباح، وبعد أن حيا آسان والديه باحترام وأدى صلاته، مثلما يفعل كل يوم، تناول فأسه، وركب الحمار، ومضى نحو الغابة. كانت الشمس تصعد ببطء في السماء، فتشدد حرارتها ساعة بعد ساعة. بدأ آسان ينعس. لكن الحمار لم يتوقف، بل راح يتوغل شيئا فشيئا بعيدا داخل الغابة. فجأة، استيقظ آسان. وتوقف الحمار.

«أيها الحيوان الأبله، أين أتيت بي؟ لا أعرف هذا المكان. حسنا! مع ذلك، لنقطع الخشب، وسنرى بعد ذلك كيف نخرج من هذا المكان الموحش».

بدأ آسان يعمل. وبقي طيلة الصباح يتسلق الأشجار، ويقطع الأغصان الكبيرة، وينزع الأوراق والأغصان الصغيرة، حتى تشكلت كومة كبيرة من الحطب. بعدها ربط كل ما قطعه بحبل متين، ووضعه على ظهر حماره.

ولكن من أين الذهاب الآن؟ كيف يمكنه الخروج من هذه الغابة، التي لا يعرفها. واعتقد أنه وجد طريقا. ولكن بعد أن سار فيه ساعة، أدرك أنه يدور حول المكان نفسه، ويعود دائما إلى المكان الذي قطع منه الخشب. ثم يعد يعرف حتى الاهتداء بالشمس، التي حجبها الأشجار الكبيرة والأغصان الكثيفة.

فجأة، راوده انطباع بأنه يسمع صوتا خلفه. التفت، ويا لهول ما رأى! وقف رجل ضخيم، بطول الزرافة، وأخذ ينظر إليه بعينين شريرتين. وازداد خوفه عندما لمح في يد الرجل اليسرى سيفا يكاد يكون بطول قامته. أخذ آسان يرتجف خوفا، مثل ورقة في مهب الريح. واشتد فزعه عندما خاطبه الرجل قائلا:

«من أنت؟ لماذا جئت وعكرت هدوء هذا المكان من الغابة، المحظور دخوله على الناس؟».

- أنا... أنا... أنا حطاب مسكين. اسمي آسان. جئت لقطع الخشب، وتهت. حماري هو الذي...

- اسكت! حمارك أذكى منك، لأنك تجرأت على دخول منطقتي.

- الرأفة، أرجوك دلني على الطريق. أعذك بعدم المرور من هنا بعد اليوم.

- أراف بك؟ أنا؟ ألا تعرف أنني عفريت؟ اعتقد بالأحرى أنني سأقطع رأسك؟».

لما سمع آسان هذه الكلمات، ارتجف خوفا، وجثا على ركبتيه، وراح يتوسل إلى العفريت:

«يجب أن تشفق علي، لأن أبي وأمي عجوزان. ليس لهما أولاد

غيري. أنا أطعمهما من عملي كحطاب. إن قتلتنى، من سيعيلهما؟ يمكنك فهم ذلك، لأن لك، أنت أيضا، أب وأم تحبهما مثلي.

- ما تقوله صحيح. لكنى لست سوى مارد عاجز عن الشعور بالشفقة. أخى ملاك طيب، لو صادفته هو، لتركك تمضي بسلام. لسوء حظك، صادفتني أنا. يمضي أخى كل وقته في القيام بالأعمال الحسنة. يساعد الناس، والحيوانات، ويجلب لهم الحظ. أما أنا، فعلى العكس، أنشر الحظ العاثر، وأسبب الحوادث، وبالأخص، أقدم نصائح شريرة. لذلك، يجب أن أقطع رأسك.

- ولكنك إن فعلت ذلك، من سيعيد حماري إلى البيت؟

أخذ العفريت يضحك بصخب وخيث. وقال:

- يالك من أبله. أعود فأقول إنك أغبى من حمارك! هذا واضح من كلامك. مع ذلك، مزاجي رائق اليوم، وهذا نادرا ما يحصل. ولكن قد نستطيع تسوية الأمر. إذا قبلت ما سأعرضه عليك، نجوت بحياتك، وعدت إلى البيت مع كومة حطبك. ما رأيك أيها الإنسان؟

- نعم، نعم، قل بسرعة أيها العفريت! ما هو اقتراحك؟ ثق باني سأقبله.

- حسنا! هاهو! عند وصولك إلى البيت، عليك أن تشتم أمك.

لما سمع آسان هذه الكلمات، ارتجف سخطا وغضبا. وأجاب: «ماذا؟ أنا أشتم أمي التي ولدتنى، وسهرت علي وأنا صغير، واعتنت بي، وحمتنى حتى أصبحت كبيرا! أوه، أيها العفريت، رافة بي، لا تطلب مني ذلك. اقترح على شيئا آخر، أتوسل إليك.

- حسنا حسنا، أنت محظوظ أن مزاجي ما يزال رائقا. اسمع الاقتراح الآخر: حالما تصل إلى البيت، عليك أن تضرب أباك، هذا ما أريده.

- أوه! أوه! يا للشقاء، يا للعار! أنا أضرب أبي! لكن أبي رجل مسن أيها العفريت. رباني على الصراط المستقيم، وعلمني مهنة الخطابين. واليوم، وقد أصبح عجوزا فإني أطعمه، وأحترمه، وأحبه مثلما كنت وأنا صغير. أوه أيها العفريت، لا تستطيع أن تفرض علي ذلك! أرجوك، قدم لي اقتراحا أستطيع تنفيذه.

- بدأ صبري ينفد حتما! أشعر أن مزاجي الرائق يزول شيئا فشيئا. هذه المرة لن أقبل رفضك. ها هو اقتراحي النهائي: خذ هذا الوعاء المليء بالخمير. اشربه حالا وسأخلي سبيلك. العرض كما ترى غير مخيف، بل هو أسهل ما عرضت عليك. كان عليّ الاكتفاء بالأول.

- أيها العفريت، ما تقوله مخيف! أنت تعرف أن ديني يحرم عليّ تناول الكحول. هذا المشروب يسكرني و...

- كفى! ناقشت أكثر مما يلزم! سأقطع رأسك بهذا السيف، وسأرسله إلى أهلِكَ مع حمارك وحطبك.

- لا، لا، انتظرا! أعطني الخمير، سأشربه لأنه أهون اقتراحاتك الشريرة.

ما إن انتهى آسان من كلامه، حتى شرب كل ما في الوعاء، تحت نظر العفريت الذي ظل يراقبه بعينيه الخبيثتين. ساق حماره المثقل بالحطب، وخرج من الغابة الملعونة، دون أن يعرف كيف وصل أخيرا إلى البيت. للأسف، أسكره وعاء الخمير، فراح يقفز

ويعصرخ ويرقص . حاول والداه تهدئته، فشتتم أمه، وضرب أباه.
يا للمسكين آسان! لقد فقد بذلك كرامة الابن وشرفه، لأنه
نسي المثل، الذي طالما أحب أبائنا وأجدادنا أن يكرروه على
مسامعنا: «الموت ولا العار».

٦ - قرية الأولاد

تاريخ الناس تكرر لا نهاية له. فذات مرة، عاش في أفريقيا ملك عجوز، عجوز جدا يعرف أشياء كثيرة. حكم الناس بحكمة. ساعده في الحكم شيوخ محترمون لحاهم بيضاء، وعندهم تجربة كبيرة بأمور الحياة. كان الناس يأتون إليه من كل أنحاء المملكة، وحتى من الممالك المجاورة، لتحيته والاستماع إلى نصائحه.

ذات يوم، جمع ابن الملك الشاب موسى أقرانه، وخاطبهم قائلا: «لم نعد نستطيع العيش هنا كما يحلو لنا يا أصدقائي. لاحظتم مثلي أن أبي ومستشاريه الشيوخ يملون علينا كل يوم أن نضل هذا الشيء، ونتجنب ذاك، وأن نذهب إلى هذا المكان ونبتعد عن الآخر. مللنا خطابات الشيوخ. هيا، لنغادر هذه القرية!». ثنبن قرية أخرى بعيدة. ساكون زعيمكم. أوكد لكم أن أحدا لن يمنعا بعد الآن من اللهو وفعل ما نشاء».

هذا ما حصل. فبعد أن يئسوا من أهلهم، ترك الأولاد قرية الملك العجوز، وذهبوا بعيدا لبناء قرية أخرى. ظلوا أياما وأياما يقطعون الأشجار، ويبنون منها بيوتا، وأسوارا، وحظائر لماشيتهم. وعدة أسابيع من العمل المرهق، أصبحت قريتهم جاهزة للسكن. وكم كانت جميلة! أخذ السكان الجدد يعملون مثلما وعدهم موسى: يجب ألا نمنع أي شخص من اللهو، طيلة النهار.

كانت الألعاب تبدأ بجولة عراك منذ الصباح، فيصرع أقواهم الأضعف أرضا. بعد ذلك، تقام حفلات شواء كبيرة لاستعادة

القوى والنشاط، ويتلذذ الغالبون والمغلوبون بالطعام. ثم ينامون قليلا، ويستيقظون بعد ذلك على أصوات الطبول الصغيرة، فيرقصون، ويغنون، وينظمون الاحتفال تلو الاحتفال. المهم في القرية الجديدة هو معرفة أفضل المغنين وأبرز الراقصين بين سكانها. وترافق كل ذلك بكثير من الصياح والعراك. لا يهم، فكل شيء يجب أن ينتهي في وقت متأخر من الليل، حول موائد الفرائج، ولحوم الخراف والظباء المشوية.

قبل النوم، في ساعة متأخرة جدا من الليل، كان الجميع يتبادلون التهئة، متفاخرين بأن ملكهم صغير السن، وجميل، ومصارع بارع، وراقص ماهر جدا، ولديه ميزة لا تجارى: يعرف ألف طريقة وطريقة للهو. بنتيجة، لم يأسف أحد على مغادرته مدينة الملك العجوز.

في البلدة التي بناها الأولاد، كان الاحتفال يتجدد كل يوم. وذات صباح، قبل بدء العراك، لح الملك الفتى كبشا ناعم الصوف، فقال لرفاقه:

«كم أتمنى أن يكون لي فرو مثل هذا الكبش».

تجمع كل الأولاد فورا، وذبخوا الحيوان، وسلخواه في الحال. خلع موسى ثيابه كلها، وارتدى فرو الكبش حالا، كثوب وزينة في الوقت نفسه. وأخذ يتجول طيلة النهار ضاحكا وعارضا رداءه الجديد، الناعم والجميل، حتى أنه لم يخلعه حتى في أثناء النوم، رغم حرارة الطقس.

ولكن، بدأت مأساة الملك الصغير منذ استيقاظه، في الصباح التالي الباكر. فخلال الليل، جف جلد الكبش وانكمش. والتصق

بقوة بجلد موسى، حتى أنه لم يستطع خلعه. وراح يعيقه حتى عن التنفس جيدا، والتحرك بسهولة. ولما حاول أحدهم نزعها، بتقطيعه بالسكين، اضطر لنزع بعض جلد موسى معه.

أخذ موسى يبكي وينوح:

«أكاد أموت يا أصدقائي! افعلوا شيئا. انزعوا عني هذا الضرو الذي يعصرني. لم أعد أستطيع التنفس. ساعدوني! أنقذوني بسرعة!».

لكن أصدقاءه، الفتيان الصغار، لا يعرفون ما العمل. أخذوا سيكون مثل كل الأولاد. علا صراخهم الواحد تلو الآخر. ولم يعد أحد يسمع في القرية الجديدة، التي كان يقيم عليها الضحك وأصوات الفرح منذ أيام عديدة، سوى أصوات البكاء والصياح تقول: سيموت موسى! سيموت موسى!.

مرت في السهل جماعة من الفرسان. إنه الملك العجوز، ومعه بعض المستشارين والجنود. كان متوجها كعادته إلى إحدى المناطق، لتفقد أحوال رعاياه. سمع الفرسان الصراخ، فتوقفوا. أثار الأمر قلق الملك، فبعث رسولا إلى مصدر الصوت لمعرفة ما يحدث. وعاد الرسول مذعورا بأقصى سرعة:

«تعالوا، أسرعوا، آه يا سيدي الملك! يكاد ابنك يموت!».

اتجه الملك العجوز فورا نحو قرية الأولاد، يرافقه مستشاروه وجنوده. لما رأى ابنه مشلولاً عاجزاً عن الحركة، ولاهثاً على وشك الاختناق داخل جلد الكبش، فهم فورا ما حدث. وعلى رغم بكاء الأولاد، وبهشة الحراس، وقلق المستشارين الذين أتركوا حجم المسألة، وجو الخوف المخيم على القرية، فهقه الملك ضاحكا بصوت قوي.

«آه يا والدي، لا حاجة للضحك! أكاد أموت. لم يستطع أحد نزع هذا الفرو المتصق بجلدي».

- طبعاً يا بني! التصق جلد الكبش بجسمك بقوة، حتى أننا لا نستطيع نزعها دون نزع جلدك. هل حاول رفاقك ذلك بسكين مشحودة جيداً؟

- نعم يا أبي، ولكن لم يقدرُوا على فعل شيء.

- قد نستطيع معالجة الأمر بالحطب المشتعل و...

- آه، لا، لا يا أبي، سيزداد الأمر سوءاً! قد يحترق جسمي كله!

- إذن، قلتها بنفسك، لا أحد يستطيع نزعها. وداعاً يا ولدي، أنا عائد إلى شؤوني.

- لا يا والدي، لا تذهب! أنت شيخ مسن. خبرتك كبيرة في الحياة، وتعرف أدوية كثيرة. أنت وحدك القادر على إنقاذي من هذا الجلد. ساعدني يا أبي!

- ولكن يا بني، أظن أنك وأصدقاؤك مللتم من سماع كلام ونصائح الشيوخ!

- سامحني يا أبي. لا أحد غيرك ينقذني. أنت حكيم، وطيب وعاقل. أنا متأكد أنك تعرف الدواء الذي سينجيني من الاختناق. تأثر الملك العجوز لهذه الكلمات الرضوية واللطيفة. ولم يكن قد فكر لحظة واحدة بترك ابنه يواجه قدره بمفرده. نادى بقية الأولاد وقال لهم:

«احملوا موسى إلى النهر بسرعة. غطسوه في الماء، فيلين جلد الكبش بعد قليل. يمكنكم بعدها انتزاعه بسهولة، دون ألم».

حمل الأولاد رفيقهم بسرعة، ورموه في النهر. وكما قال الملك العجوز، ما هي إلا بضعة لحظات، حتى انفصل فرو الكباش عن جلد موسى، دون عناء. ونجا بحياته.

حينئذ، قرر الأولاد ترك القرية التي بنوها حديثاً، وعادوا للسكن عند أهلهم. منذ ذلك الوقت، يرددون في أفريقيا كلها: «يستحق الشيوخ الحماية في القرية. لكن تاريخ الناس تكرر لا نهاية له». بعد ذلك بسنوات، أصبح موسى ملكاً هو الآخر، بعد موت أبيه. مضت الأيام، وحكم مثل والده، بعقل وحكمة، يعاونه شيوخ أكارم ذوو لحى بيضاء، ولهم دراية كبيرة بشؤون الحياة. وكان الناس يأتون من كل أنحاء المملكة، وحتى من الممالك المجاورة، لتحيته والتزود بنصائحه.

وذات يوم، جمع ابنه الشاب علي رفاقاً من سنه، وخاطبهم قائلاً: «لا نستطيع العيش هنا كما يحلو لنا يا أصدقائي. لاحظتم مثلي أن أبي ومستشاريه الشيوخ يملون علينا كل يوم أن نفعل كذا وتجنب كذا، وأن نذهب إلى هذا المكان ونبتعد عن ذاك. هيا، لنفادر هذه القرية، ونبني أخرى غيرها بعيدة. سأكون زعيمكم. أؤكد لكم إن أحداً لن يمتنعنا بعد الآن من اللهو وفعل ما نشاء».

كان الملك العجوز موسى يجلس في فناء القصر يتحدث مع شيوخ المملكة، عندما دخل عليه رسول، وأخبره بما ينوي الأولاد القيام به. ضحك الملك، وضحك المستشارون الأجلاء، وضحك حتى الحراس. تاريخ الناس تكرر لا ينتهي.

٧ - نزاع الفيل والشيهم

في ذلك العام، هطلت الأمطار بغزارة. لم يشك أحد منها. ولم يأت الجراد الكريه ليفتك بالحقول والبساتين. وهكذا، ظفر الجميع بمحاصيل جيدة. امتلأت المخازن بالأرز، والدخن، والذرة الصفراء. وشبعت قطعان الماشية. وثغت الخراف. وخارت العجول في الأراضي المسورة، ليس جوعا، بل لأن كروشها المكورة، السمينة واللامعة، لم تعد تتسع لمزيد من الطعام.

ولما كان محصول الأرز ممتازا في مزرعة ساو الشيهم، قرر مفاجأة زوجته بهدية، خصوصا أن عيد الحصاد على الأبواب. بحث عن ديارغوني العنكبوت، الذي لا يضاهيه أحد في فن النسج. ذهب إلى دكانه في ساحة القرية الكبيرة، حيث تجذب منسوجاته الفنية انتباه المارين، خصوصا النساء. وصل ساو، ووجد النساج الماهر مواظبا على عمله منذ استيقاظه مع الفجر:

«أحييك يا ديارغوني، يا صانع أجمل تنانير البلد. أريد تنورة لنزوجتي. أحبها زرقاء ومزينة بزخارف خضر. هل يمكنني أخذها قبل العيد؟ هاك النقود. أفضل الدفع سلفا، أعرف كم أنت جاد ومخلص لعملك».

- أشكرك ساو على ثقتك. لدى حائيا كثير من العمل. لكنني أعددك ليس فقط بأنك ستأخذها قبل العيد، بل أيضا بأن أحيك لنزوجتك تنورة تعجبها كثيرا. إلى اللقاء.

بعد ذلك ببضعة أيام، قرر غناي الضيل، الذي فرح جدا بمردودية حقله الممتلئ بالذرة، أن يفاجئ زوجته بهدية جميلة، خصوصا أن عيد الحصاد قد اقترب. ذهب هو أيضا إلى نساج القرية:

«أحييك يا ديارغوني، يا من يثير غيرة النساء بعضهن من بعض، لشدة إعجابهن جميعا بالتنانير التي تحيكها. أريد واحدة لزوجتي. أحبها حمراء ومزينة بزينة زرقاء. هل أستطيع أخذها قبل العيد؟ هاك النقود. أفضل الدفع سلفا، أعرف جديتك وإخلاصك للعمل».

جعلته هذه الكلمات، التي سمعها من قبل، في حيرة عميقة من أمره. في الواقع، لم يبق إلا وقت قصير للعيد. حاول شرح ذلك لزوجته:

«ولكن يا غناي لا أستطيع إنهاء هذا العمل في الوقت المحدد. المدة قصيرة جدا، أعتقد أن...».

- أنا مصرّ يا صديقي. تريد زوجتي تنورتها لتلبسها في العيد. يمكنك بذل جهد إضافي. ثم أنت تعرف أنني لا أحب أن يعاكسني أحد، لأن طبعي رديء وأضرب فورا.

- نعم أعرف ذلك، لكن ساو سبقك في طلب تنورة لزوجته. انظر إلى نولي، لم أضع الخيوط في مكانها إلا منذ قليل.

- ساو؟ لا أعرفه. من هو هذا؟

- إنه الشيهم. يسكن عند طرف القرية، ناحية الشمال.

- لم أره أبدا. أمرك بالتوقف حالا عن متابعة ما بدأت به، والاهتمام فورا بتنورة زوجتي.

لما رأى ديارغوني متردداً، غضب غناي غضباً رهيباً. عندما قثور
القبيلة، لا أحد يستطيع مواجهتها. كان في ساحة القرية الكبيرة وعاء
ضخم ممتلئ بالماء، يرتوي منه الفلاحون العائدون من الحقول
والمسافرون العابرون. وفي فورة غضبه، مد غناي خرطومته داخل الوعاء،
وشرب بصوت قوي كل مائه. ثم صرخ هائجا في وجه ديارغوني:

«لا أعرف من هو ساو، لا أعرف كيف شكله. ولكن قل له إنني، أنا
غناي، الأقوى، والأضخم، شربت ماء هذا الوعاء كله بجرعة
واحدة. سيعرف بذلك من أنا ومدى جبروتي. الآن هيا ابدأ فوراً
بتنورة زوجتي وإلا فويل لك. أنا أولاً والآخرين بعدي».

أمام هذا الاستعراض للقوة، والتهديدات التي تلقاها، أوقف
ديارغوني العمل بالتنورة الأولى. وانهمك بنسج تنورة زوجة هذا
الزبون القوي، الفضوب والمخيف. في اليوم التالي، مر ساو
مصادفة ليرى أين وصل العمل بتنورة زوجته. ودهش عندما لم
يرها على النول:

ولكن، ما الذي حدث يا صديقي ديارغوني؟ لماذا سحبت تنورة
زوجتي؟ أخشى ألا تتمكن من حياكتها في الوقت المحدد. وعدت
بتسليمها لي قبل العيد. ما الذي اضطررك لتركها والبدء بغيرها؟
- إنه غناي. هددني بالضرب.

- من هو غناي؟ لا أعرفه.

- انظر إلى الوعاء الكبير خلفك. شرب البارحة كل الماء الذي
فيه بجرعة واحدة، مع أنه يكاد يكفي بمفرده لإرواء قطيع من
الخراف. وأوعز إلي أن أخبرك بذلك. كي أتجنب غضبه، «لا بد من
تجهيز تنورة زوجته قبل تنورة زوجتك».

راح ساو يفكر. والشياهم لا تنقصها الحيلة والشجاعة. نزع
من ظهره شوكة طويلة، قاسية ومدببة، وأعطاها للنساج
ديارغوني قائلا:

«خذ، دع غنائي يرى هذه. قل له إنها أصغر شوكة عندي. أفهمه
أيضا أنني لا أخشاه. إن أراد مواجهتي فليجدي خلف القرية، قرب
سبخة شجرات البواباب الثلاث. الآن عد إلى عملك الذي دفعت
لك أجره مقدما».

عاد غنائي في المساء نفسه. دهش لرؤية تنورة ساو على
النول. أخرج ديارغوني شوكة الشيهم ليراها، وكرر على
مسامعه ما قاله ساو.

لما رأى غنائي هذه الشوكة الطويلة، القاسية والمدببة، ارتجف
خوفا. وقال بصوت منخفض، أكثر تسامحا بكثير:

«يا ديارغوني، من لديه مثل هذا الشوك، لا بد أن يكون رهيبا.
هل أجرؤ على مواجهته؟ من الأفضل ألا أغضبه. انسج تنورة
زوجته أولا. ثم... ألم يأت قبلي؟ لماذا أريد أخذ دوره؟».

- ولكن أئن تغضب زوجتك يا غنائي؟

- لن تجرؤا عليها أن تصبر، وإلا ويل لها. كيف يمكن مواجهة

من لديه شوك يشبه السهام؟

- أرى أنك أصبحت عاقلا. يا حبي لأنك تفضل عدم مواجهة

ساو. هل تدري ما كان يردده جدي؟

- لا، لا أدري. ولكن ستقوله لي حتما.

- كان كلما رأى أحدهم يبحث عن خصام جاره، حذره قائلا:

«قبل أن ترمي حجرا، عليك أن تتساءل على رأس من سيسقط».

٨ - حقائق كوتشا بارما الثلاثة

كان الملك داود دمبا يتكلم تحت شجرة المداولات، حيث اجتمع كل أعيان بلاطه، للاستماع إلى ما يقول.

«لا أرى ابن خالتي كوتشا بارما، أين هو؟».

- هانذا يا صاحب الجلالة.

- كوتشا يا قريبي، لم أرك منذ أيام، أين كنت؟ ماذا كنت تفعل؟ تعرف أنني أحب أن يأتي رماياي المخلصون للسلام علي كل يوم، وإطلاعي على أخبار البلاد.

- كنت أتأمل ملياً في بعض أمور هذا العالم، وأدعو إلى الله أن يطيل عمرك، ويمن بالنعم على رعاياك.

- أخبرنا إذن بنتائج تأملك، كي نستطيع الاستفادة منها، فأنت أعقل رجال المملكة، وأكثرهم معرفة بأحوالها. كلنا آذان صاغية.

- هناك حقائق ليس من المستحسن دائماً قولها، ولا من المستحب سماعها. فكرت في ثلاث منها خلال الأيام الأخيرة، لكنني أفضل السكوت عنها والاحتفاظ بها لنفسني.

- كوتشا، أمرك بقولها لي. أنت قريبي طبعاً، ولكن يجب عدم استغلال صبري وحلمي!

- أيها الملك داود دمبا، أنت ابن خالتي. إنك رجل كريم المحتد، لا أخافك، بل أحترمك. طالما لم أخالف القانون، لن تستطيع فعل شيء ضدي. أرفض قول هذه الحقائق الثلاث لك. قد تكون جارحة.

صمت كل الحاضرين خوفاً من إغضاب الملك أكثر من ذلك، لأن الجميع يعرف قسوته، وقراراته الظالمة أحياناً. زد على ذلك أن كوتشا بارما وحده، بين المستشارين والأعيان، يجرؤ على معاكسته أو منعه من اقتراف المظالم. ولما كان الملك غاضباً جداً ذلك الصباح، وبلغ ذروة الفضول، أقسم أن يعرف الحقائق الثلاث، التي لم يشأ ابن خالته قولها. صمم أيضاً أن يسمعها هنا، علناً أمام الجميع، كي يظهر لشعبه أن الملك يستطيع فعل كل شيء، بما في ذلك معرفة أكثر الأفكار والأمور سرية وخفية عند رعاياه.

فكر الملك داود دماً ملياً. ما العمل؟ ماذا سيفعل ليعرف أفكار رجل لا يريد البوح بحقائقه؟ بعد عدة أيام وعدة ليالٍ من التفكير، اعتقد أنه وجد الحل.

عندما عرف أن كوتشا بارما ذهب إلى الحقل، استدعى زوجته وقال لها:

«أهلاً بك يا قريبتى. أنا مستاء منك قليلاً، لأنني لم أرك هنا منذ وقت طويل. هل منعك قريبي من المجيء إلى القصر؟ أخبريني. إن كان هذا صحيحاً، سأقطع رأسه فوراً وسأزوجك بـرجل آخر، أغنى وأكثر شباباً. هيا قليني! أجيبيني!».

لم تعرف زوجة كوتشا إن كان داود يمزح أم أنه يتكلم بجد. في الواقع، تعرف قسوته جيداً. ولما كانت غير واثقة كثيراً، أجابت:

«أه يا مولاي، لا يجرؤ زوجي على أمري بمثل هذا. ثم لو أمرني بعدم المجيء إلى هنا لما أطعته، لأنني لا أنسى أنك أنت أيضاً قريبي».

- حسنا، أنا افضل ذلك، لأن كوتشا لا يمثل لأوامري دائما.
يستغل دون شك روابط قرابتي معه لمعارضتي. إنه الوحيد الذي
يجرؤ في هذه المملكة على إخباري بأشياء سيئة جدا أحيانا.
- أوه، يا مولاي، مع ذلك كوتشا يحبك كثيرا. غالبا ما يقول
لي إنك حاكم صالح.

- لا، لا، لا تحاولي الدفاع عنه. أخبريني يا قريبتى العزيزة
جدا، هل تحبين أن يكون لك قطيع من العجول، وعشرة أكياس
دخن، وقطيع من الأكباش وعشرة أكياس فستق العبيد، وعشرة
أكياس فاصولياء ويستان بطيخ أصفر؟
- أوه، يا مولاي، كم أحب كل ذلك!

- حسنا، لك ما تتمنين. أعرف أن زوجك يقدرك ويثق بك.
لا بد أنه أسر لك بالحقائق الثلاث، التي يخفيها عني كسر من
أسرار الدولة. أطلعيني عليها وستحصلين فورا على ما كل ما
ذكرته منذ قبل.

- آه يا قريبي، أسفة جدا، لا أستطيع إخبارك بهذه الحقائق
الثلاث! لو فعلت، لخنت أمانة زوجي. احتفظ بشرواكتك. صحيح
اننا لا نملك مثلها، ولكن لا ينقصنا شيء. ثم أنك تظن، وأنت
تعلمي بكل هذه الأشياء، بأن زوجي لا يطعمني ولا يسقيني.
ولما كان داود دمبا الداهية المحتال يعرف جيدا طبع النساء،
لجأ إلى اللغة التي يجب أن تخاطب بها المرأة:

«لا يا قريبتى، لا تغضبي! أعرف أنك تأكلين في بيتك حتى
الشبع وتشربين حتى الارتواء. اقترني قليلا، ساريك شيئا ما. هل
ترين هذه اللعبة؟ افتحيها، لا تخافي. انظري ما فيها: عقود من

الذهب والفضة والعاج، وأساور، وأقراط وخواتم. لم تحظ بمثلها أي من زوجاتي، ولا حتى الملكة الأم، ولا أحد. هل تسمعين؟ لا أحد لديه مثل هذه الحلي في مملكتي كلها. خذي هذه الحلي يا قريبتى العزيزة، خذيها كلها وبوحي لي بالسر.

ارتجفت يدا المرأة، ولعت عينها، وتناولت اللعبة بلهفة وضمتها إلى قلبها. اقتربت من الملك، وهمست إليه بالحقائق الثلاثة، التي حذرها زوجها من إطلاع الملك عليها.

منذ اليوم التالي، استدعى داود دمبا وجهاء المدينة للاجتماع إليه تحت شجرة المداولات. وكان كوتشا بارما هناك، كبقية مستشاري التاج. وصل الملك، وقد ارتدى أوفر ثيابه، وبدت عليه علامات الارتياح، والسرور. لكن هذا المنظر أثار قلق المستشارين بدلا من أن يطمئنهم، إذ يعرف كل منهم أن ملكهم قاس ومتقلب. جلس على العرش، وخيم الصمت على المكان. وتكلم:

«يا رعاياي الأوفياء، سبق أن قلت لكم إن الملك يستطيع فعل كل شيء، ومعرفة كل شيء، حتى أكثر أفكار خدمه سرية. سأبرهن لكم على ذلك الآن. احتجب قريبي كوتشا بارما عنا أياما للتأمل على انفراد في بعض الأمور. وتوصل إلى ثلاث حقائق رفض قولها لي، متناسيا أنني ملكه. هاكم الحكم الثلاث:

_ أحب زوجتك، ولكن لا تبع لها بأي سر.

_ يستحق الشيوخ الحماية والرعاية في القرية.

_ الملك ليس قريبا ولا صديقا.

بعد أن سمعوا هذه الحكم الثلاث، أخذ الحاضرون يتهامسون، مقتنعين بصحة هذه الأشياء البديهية والحقيقية. ولكن بدت

علامات الاستفهام والتخوف على وجوه الكثيرين، لأن الحقيقة الأخيرة لا بد أنها لا تروق للملك كثيرا. رفع الملك يده طالبا الهدوء، وقال:

«أقبل بالفكرتين الأوليين. لكن الأخيرة لا تعجبني. اعتبرها إهانة خطيرة لشخصي الملكي. إنها جريمة قدح بالذات الملكية. إذن، عند غياب الشمس، سيقطع الجلاد رأس كوتشا. أيها الحراس، اقبضوا عليه وضعوه في السجن بانتظار تنفيذ الحكم». لما سمعت هذه الكلمات المرعبة، ندمت زوجة كوتشا بارما. وأسفت بمرارة على بوحها للملك داود دمبا بسر زوجها، الذي كان قد طلب منها عدم إطلاع أي شخص عليه. وهاهي ستدفع حياة زوجها ثمنا لقلّة فطنتها وضعف كتمانها.

جن جنون الزوجة وبكت حسرة وألما. هرعت إلى القرية المجاورة لتخبر خال كوتشا، الذي هو خال الملك أيضا. تنبه العجوز المحترم ذو اللحية البيضاء للخطر فورا. تناول عصاه، ومضى بأقصى سرعة يمكن أن تتحملها ساقاه المتعبتان. بقي يمشي ويمشي، حتى وصل عند مغيب الشمس تماما. وجد كل السكان مجتمعين في ساحة القرية الكبيرة. ووقف الجلاد ممسكا سيفه بيديه، لا ينتظر سوى إشارة الملك لتنفيذ مهمته المخيفة. وفي اللحظة التي رفع الملك يده لإعطاء هذه الإشارة، ظهر الخال.

وقف الرجل العجوز أمام الجميع، واستجوب الملك بصرامة: «يا ابن أختي الظالم، أمرك بإطلاق سراح قريبك حالا. إذا رفضت، اقتلني معه، لأنني لا أستطيع العيش بعد ارتكابك مثل هذا العمل الجائر. يجب أن تخجل! أنا شقيق أمك، أنا الذي

علمتك وربيتك في بيتي مع ابن خالتك هذا، الذي تريد قتله اليوم. لا أرضى تصرفك الذي لا يليق بملك يحترم نفسه، لأن على الملك أن يضع دائما العدالة وسعادة الشعب فوق كل اعتبار. كل ما قاله كوتشا صحيح: باح بسر لزوجته، ونقلته هذه لك. ثم، أنا عجوز، أجرؤ على قول الحقيقة لك لأمنعك من ارتكاب جريمة رهيبية. أما حقيقة أن الملك ليس قريبا ولا صديقا، فبرهانها أن والدك ووالد هذا الرجل كانا أخوين. مع ذلك، لا تتردد، بعد أن أصبحت ملكا، في إعدامه، ناسيا بذلك القرابة والصداقة اللتين تربطانك به. فكر بهذه الحكمة ووافقني على أنها قد تكون جارية، لكنها تعكس حقيقة واقعة. خجل داود دمبا. وأقر بحكمة أفكار كوتشا بارما. وأطلق سراحه.

٩ - مغامرة السعدان جولو

لأول مرة في حياته، لم يقرب القرد جولو طعام الفطور، الذي أحضره له حبيب، أصغر صبيان البيت، حتى أنه لم يتنازل ويلقي نظرة على الطعام. قلق حبيب وهرع فوراً ليخبر والده مور. اجتمعت كل الأسرة حول الحيوان.

جولو، لماذا لا تريد أن تأكل هذا الصباح؟ هل أنت مريض؟ هل نستدعي لك الطبيب ملال؟

- لا، لست مريضا.

- إذن، كل الطعام الذي أحضره لك حبيب.

- لست جائعا

- لست جائعا! هذه أول مرة يحدث لك فيها ذلك! هيا، أيها الصغير، ربما كان حبلك أقصر مما يجب. انتظر، سأطيله لتستطيع القفز على أغصان شجرتك العالية.

- لا، هذا غير ضروري.

- إذن، زوجاتي ضرينك!

- لا. سرقت أول أمس بعض المنيهوت من كيس الأم أمينة، ولكن لم أتلق أي ضربة بالعصا هذه المرة.

- آه، حزرت! لا يريد الأولاد الآن مقاسمتك الحلوى كعادتهم، أو أنهم أخذوا يتخابثون معك فجأة.

- لا، لا، كلما زارني الأولاد، أنال حصتي من فستق العبيد، والمانجو، والعنابة، والكسكس الممزوجة كلها بالحليب. يحبونني كثيرا.

- إذن أيها الصغير، ما الذي يزعجك في هذا المنزل؟ ماذا تريد؟ تعرف أنك ولدت يوم ولد حبيب، هنا في هذا البيت. عمرك كعمره. الجميع يحبونك، لأنهم يعتبرونك جزءا من الأسرة. هيا، قل لي ولا تخف.

- الحبل الذي ربطوه بحزامي هو الذي يضايقني. «أريد الحرية».

لما سمعت الزوجات هذا الكلام، علا صوتهن معبرات عن تعلقهن بـ جُولو. واحتج الأولاد، خصوصا حبيب. تأثر مور، رب الأسرة، وأدهشه الموقف، ولم يفهمه:

«ولكن هذا بيتك أيها الصغير، ونحن أسرتك. أنت سعيد معنا، لماذا تريد مغادرتنا؟».

- أريد الذهاب لأنط في الغابة، وأقض على الأشجار، وأتسلى وألهو مع بقية رفاقي السعداء.

- ولكن هناك أخطار كثيرة تترصدك في الغابة. من سيطعمك؟ أين ستجد ما تشربه؟ من سيعتني بك إن مرضت؟

- الثمار وفيرة هناك. وتوجد أنهار وسواق. أبناء جنسي يعرفون الأعشاب التي تشفيهم. سأعرف كيف أتدبر أموري. أريد الرحيل.

فك مور وثاقه. ورافقه الأسرة كلها حتى طرف القرية. وحاول حبيب أن يثنيه للمرة الأخيرة عن قراره. لكن دون فائدة. لما وصلوا إلى آخر بيوت القرية، ودع جُولو الجميع، ثم ركض مسرعا نحو حريته المستعادة، دون أن يلتفت وراءه، وغير آسف.

كم هو جميل النط في هذه الفضاءات الفسيحة! وجد الهواء الذي يتنفسه أكثر نقاء، والسماء أكثر زرقة وصفاء. استغل جُولو

ذلك. وراح يمشي ويركض وينط ويتدحرج، مثلما لم يفعل من قبل أبدا. وكم بدا له غناء الطيور عذبا وتلك الغيوم البيضاء، ما أجملها! كانت تشبه أصواف قطعان الخراف النظيفة، متقاطرة بعضها خلف بعض. لم يرها هكذا من قبل قط.

والآن، أصبحت الشمس في قمة السماء. شعر جولو بحرارة قوية تلفح كتفيه. وأحس بجوع وظمأ شديدين. اتجه نحو بستان البطيخ الأخضر، الذي بدا كأنه لا ينتظر غيره. مد يده ليتناول إحداها، فإذا به يتلقى رشقة حجارة من عرزال الحراسة القصبي، رماه بها الأولاد بمقاليح جهنمية الدقة. لم تخطيء الحجارة هدفها: سقطت على رأسه، وظهره، ويديه، وذراعيه، وصدره ومؤخرته. أي، أي، أي، كم هي موجعة! هرب جولو، وطارده الأولاد صارخين، تتقدمهم الكلاب نابحة، بأنياب بارزة. بعد أن ركض مسافة طويلة، اجتاز خلالها كثيرا من العثرات والأحجار الكبيرة، نجح في التخلص منهم. ثم، قفز لاهثا على شجرة باؤبابه ليجلس بين أغصانها بأمان. مكث على غصن مرتفع كي يستريح قليلا. رفع رأسه. ما هذا؟ ماذا يرى فوقه مباشرة؟ من ذاك الذي يحدق فيه بعينين ذهبيتين، ويلحس شفثيه؟ أوه، إنه النمر، الذي تهيأ للانقضاض عليه! وبدأت المطاردة من جديد، بين الأشجار هذه المرة، من غصن إلى غصن. وبما أن الأشجار متقاربة ومتشابكة، راح جولو يقفز من شجرة إلى شجرة، مثلما تقفز السعادين، بسرعة كبيرة، ورشاقة، وثقة ومهارة، مستخدما النباتات العارضة أحيانا، كأنه بهلوان. كانت أوراق الأشجار تصفع وجهه في طريقه، لكنه لم يبال بها أبدا. اصطدم رأسه مرارا ببعض الجذوع،

ولم يتوقف، كأن الخوف أعطاه جناحين يطير بهما. بعد هذا الركض الطويل جدا في الهواء، خفف سرعته لينظر خلفه: اختفى النمر. اضطر الوحش للتوقف، رغم سرعته ورشاقتة، ولم يعد قادرا على متابعة المطاردة المجنونة وراء فريسته.

مع ذلك، بدا جولو غير مطمئن. أخذ قلبه يخفق بقوة داخل صدره، ولم يستطع التنفس كما يجب. جثم في أعلى شجرة ضخمة، مرتعشا كأنه ورقة. كان يجب أن يأكل شيئا حتما، وبالأخص أن يشرب، لأن العطش يجفف اللسان ويلهب الحنجرة، أكثر من الجوع.

ومن أعلى الشجرة، لمح ساقية صغيرة مياهها لامعة تحت الشمس. نزل بحذر، ونظر يمينا، ثم يسارا. لم ير شيئا يخيفه، ولكن وجد جذع شجرة عتيقة عائما. اقترب جولو. وقبل أن يمد فمه ليشرب، رفع رأسه بالغريزة، وقفز إلى الوراء: فتح التمساح فكيه وأطبقهما في الهواء بصوت مخيف. لم يكن جذع الشجرة العتيق سوى تمساح كبير! هرب جولو بسرعة، دون أن يشرب.

ظل يركض طوال النهار. وأسعفه الحظ في الإفلات من قطيع الضباع مرة ومن أفعى ضخمة مرة أخرى. ونجا من سهام صياد عنيد باحث عن جلد سعدان. وعند مغيب الشمس، أنقذته شجرة في الوقت المناسب من أنياب الأسد. ولما استقر في أعلاها، راح يفكر. وبعد أن فكر طويلا، بهدوء، وعمق، قال لنفسه: «إذا بقيت هكذا على هذه الحياة، سأنتهي عاجلا أو آجلا في بطن حيوان آخر. الآن، أعرف ما يجب أن أفعل».

في اليوم التالي، منذ الصباح الباكر، كان حبيب أول المستيقظين. خرج إلى الباحة. ماذا رأى؟ لا، لم يصدق ما رآه عيناه الناعستان! نعم، إنه جوتو! ربط نفسه بنفسه بالحبل، تحت شجرته المعتادة. وأخذ يصيح فرحاً. استيقظ الجميع، وجاءوا صارخين: عاد جوتو! عاد جوتو! تعالوا، أسرعوا!

هرع الرجال، والنساء، والأطفال نحو ذاك الذي ترك المنزل الباردة. وأعطى رب البيت مور أوامره:

«هيا، أحضروا له الطعام والشراب بسرعة! انظروا كم أصبح نحيلًا. يكاد يهلك من الجوع والعطش».

أمام أعين الجميع، التي لم تصدق أنه عاد، ابتلع جوتو قطعة بطيخ كبيرة، وثلاث حبات من المانجو، وستا من حبات الموز، وفستق العبيد، مع إناء ماء كبير. سأله حبيب:

«جوتو، لماذا عدت مسرعاً؟».

- عدت... لأنني... لأن الطقس حار جداً في الغابة. لا عمل هناك سوى الركض طوال النهار.

- لكن الأسرة ظنت أنك تريد الاستقلال مهما كلف الثمن.

- الاستقلال شيء جيد، لكن العيش مع الجماعة أفضل.

في أفريقيا الغربية، تعيش قبيلة صغيرة، تدعى قبيلة «الضيوف»، التي يتجنون على أفرادها بالقول إنهم متخلفون عقليا. من المؤكد أن كثيرين من أفراد القبيلة، الذين يسمونهم «النديويين»، لا يتمتعون بكامل قواهم العقلية، كما يقال. لذلك، اختلقت لهم قبيلة «الندياي»، إذا لم نقل أيضا قبيلة «السي»، هذه السمعة غير اللطيفة كثيرا، والتي هي في غير محلها، بل بلغ الخبث بالندياي والسي أن اختلقوا هؤلاء هذا المثل الغريب الذي يقول: «كل الضيوف مجانين!». مع ذلك، الجد بيراغو، كبير سادة الكلام، لا أحد يضاهيه في فن رواية الحكايات. جاب الأب بيراغو كل القارة السوداء، من الشمال إلى الجنوب، ومن الصحراء إلى بلاد الزرافات، ومن الشرق إلى الغرب، ومن موطن الأسود والظباء إلى شاطئ المحيط الأخضر. وهكذا، سمعنا الأب بيراغو، المعروف بأنه حكيم، ومتسامح، وطيب القلب، يردد هذه الكلمات، التي حفظها عن جده: «إذا كان كل المجانين يسمون الضيوف، فليس كل الضيوف مجانين!».

ذات مساء، روى لنا حكيم آخر، وهو أيضا أحد سادة الكلام، العم بابكر صديق، من قبيلة «السيريري»، ما فعله مودو ضيوف، الذي فند هذه السمعة الجائرة، التي يعزوها له أنسابه.

عاش مودو ضيوف في قطعة الأرض التي ورثها عن أبيه. كان قويا وجسورا، رغم أنه أصغر أفراد الأسرة. تزوج إخوته وأخواته

جميعا. وكان الأب رب عائلة حقيقية، يحكم عائلته الكبيرة ويحميها: أب، وأم، وأبناء، وبنات، وأزواج وزوجات، وأحفاد وحفيدات. عاش جميع هؤلاء في أرض العائلة الواسعة، كل منهم في كوخ مريح يخصه وحده، حتى ليقال إنهم شكلوا قرية صغيرة هادئة.

كان رب عائلة النديوبيين يشرف على كل شيء، رغم كبر سنه. وعرف كل واحد من أفرادها ما ينبغي القيام به، منذ الصباح الباكر. البعض يذهب إلى الحقول، وآخرون يهتمون بقطعان الماشية أو جني العسل. ولا تبقى النساء في البيت دون عمل: المياقل التي يعتنن بها جيدا تدأريحا جيدة أيام السوق. باختصار، لرب العائلة العجوز، هذا الرجل الفاضل، الميسور، والفني، والمحترم، مكان الصدارة في قبيلته التي يسودها الوفاق. كان يمكن أن تكتمل سعادة الأسرة لو أن مودو، صغير الأسرة، الطويل والقوي، يتمتع بكل قدراته. لكن الأمور لم تسر كذلك. أم، لا، لا تظنوا أنه مجنون ثائر، لا شيء من ذلك! أحبه الجميع واثمنوا لطافته، وعدويته، ورغبته القوية في مساعدة الآخرين ومؤازرة من يطلب منه خدمة، بل وحتى من لا يطلبها. وحدث أن عمل في الحقل، واقتلع منه الأعشاب الضارة التي دلوها عليها. لكنه في الواقع كثيرا ما اقتلع كل شيء: الأعشاب، وفستق العبيد، والدخن، والذرة الصفراء. حتى البطيخ الأخضر لم يفلت دائما منه. كان يعلقه على شجر البافاياب، معتقدا أن مثل هذه الثمار الكبيرة لا يمكن أن تسقط إلا من هذه الأشجار الضخمة. لما رأى أخوه الكبير يفعل ذلك - كان مودو يناديه دائما أخي الكبير -

اصطحبه برفق، يدا بيد، وطلب منه سقي النبات. وظن أنه لن يرتكب بذلك أي غلطة، خطأ! كان يسقط دائما في البئر. لكن الله رحيم بالمجانين والأطفال. لم يغرق مرة واحدة، بل لم يصب حتى بجرح. ولم يصرخ. ولم يناد أحدا. كان ينتظر في الماء بهدوء، لأنه يعرف أن أخاه الكبير سيأتي ليناوله حبلا ويساعده في الخروج من «الحفرة الباردة». هكذا يسمي البئر.

أخيرا، قرروا تركه في البيت. منذئذ، بقي ينام في كوخه طول النهار، دون أن يستيقظ إلا ليأكل أو ليغتسل. ثم، يعود مغتبطا ليستلقي وينام نوما هادئا وعميقا، صافي السريرة.

في خضم كل هذه السعادة، وكل هذا الصفاء، حدثت مصيبة كبيرة: مات رب العائلة فجأة. لم يتوقع أحد ذلك. ترك لأولاده ثروات كبيرة، جناها في حياته المليئة بالعمل والاستقامة: عدة بيوت، وكثيرا من الحقول، وعجولا، وخرافا وماعز يصعب عدّها، وكمية كبيرة من الذهب. دفنوا العجوز مثلما يليق برجل جليل، ويكوه بالأم.

بعد الدفن بأيام، اجتمع الإخوة والأخوات لتقدير الثروات التي تركها الفقيد، وتقسيمها حسب تقاليد البلد. خلال الاجتماع، لم يذكر أحد مودو، قائلين إنه مجنون وغير معتاد إلا على النوم. قال لهم الأخ الكبير، الذي أصبح سيد الأسرة، إن مودو لا يفهم شيئا من حكايات الإرث هذه، ولا هم له سوى النوم. ألا يجيبنا كلما استيقظ: «أحب النوم»، عندما نسأله لماذا تنام هكذا كثيرا؟ عرف الأخ الكبير كيف يقنع الجميع. وهكذا، قسموا الإرث بين أفراد الأسرة، دون أن يحسبوا حساب الأخ المجنون، النائم دائما.

في اليوم التالي، استيقظ مودو. وبعد الفداء، حكّت له إحدى أخواته ما حدث في الأسرة وهو قائم. ذهب فوراً للقاء سيد الأسرة الجديد، وقال له:

«يا أخي الكبير، أريد حصتي من الإرث. قالوا لي إن كلا منكم حصل على خراف وعجول وماعز وأكواخ وذهب، مما تركه والدنا الذي توفي. أنت مسرور إذن أنه مات، لأنه لو كان حياً لما نلت كل ما نلت؟ أين حصتي، إذ يقولون إن أبي مات؟».

- كنت نائماً خلال القسمة يا مودو. لذلك، قررنا أن حصتك هي النوم، النوم فقط، لأنك تردد دائماً بنفسك إنك تحب النوم. هيا إذن، عد إلى حصيرة نومك.

رضي مودو بما سمعه، وفرح كثيراً. وضحك. قال إن القسمة عادلة تماماً. شكر أخاه الكبير، وأخواته وكل الآخرين. وعاد للنوم. وبقي نائماً.

عندما حل المساء، عاد الجميع إلى المنزل. لم يغير موت رب الأسرة شيئاً. ولما انتهت أيام المأتم، استأنف كل واحد أعماله المعتادة، في الحقول، ومع قطعان الماشية، وجني العسل، والبستنة، وبيع المنتجات في السوق. كانوا يعودون منهكين مساء كل يوم، ناشدين الراحة صغاراً وكباراً، ورجالاً ونساء. وبعد تناول العشاء معاً، يأوي كل منهم إلى كوخه. وتنطفئ أضواء الأكواخ، واحداً بعد الآخر.

ذات مساء، بعد أن لمعت النجوم في السماء، وساد الصمت والهدوء مساكن الأسرة، استيقظ مودو، وأحضر عصا غليظة، وجلس في الباحة بين الأكواخ، مدهوشاً أنه لا يرى فيها أحداً. نهض ومرباً كواخ إخوته وزوجاتهم، وأخواته وأزواجهن، وبدأ يضربها

بعصاه. لم يفلت حتى كوخ أخيه الكبير من ضرباته. مودو هو بالتاكيد أصغر أفراد الأسرة، لكنه ضخّم الجسم وضرباته مزعجة. ارتفعت صيحات الضيق من كل مكان. استطاع الأخ الكبير إيقاف هذا التصرف المجنون بطريقة أو بأخرى. أصابت الجميع دهشة: ما الذي حدث للصغير مودو، المعروف برقته وهدوئه، حتى راح يوزع مثل هذه الضربات على أفراد أسرته، بمن فيهم الأخ الكبير؟ نجحوا أخيراً في تهدئته. وتوجه للجلوس في مقعده وسط الباحة.

عاد الجميع لإكمال نومهم. لكن مودو نهض ثانية وراح يوزع من جديد ضربات عصاه الغليظة، دون أن يستثنى أحداً. هداؤه مرة أخرى، وعاد للجلوس في مقعده. ولكن ما إن خلدوا إلى النوم، حتى أيقظهم بضربات عصاه القوية. انقضت الليلة هكذا.

في صباح اليوم التالي، استدعى الأخ الكبير كل الأسرة. وطلب من مودو أن يشرح لماذا يمنع الآخرين من إغماض أعينهم طوال الليل. فأجاب:

«قال أخي الكبير إن النوم هو حصتي من الإرث. لماذا تنامون إذن؟ أنتم تأخذون حصتي من الإرث عندما تنامون. لكن ها هي عصاي. سأحمي بها إرثي كل ليلة. إلى اللقاء. أنا ذاهب للنوم». فهمت الأسرة عندئذ أنها ارتكبت خطأ. وأعادوا فوراً توزيع الإرث من جديد، وأعطوا مودو الحصة التي يستحقها منه. وعاد النوم إلى كل الأكواخ.

ختم العم بابكر صديق، حكيم قبيلة السيريري، الذي روى لنا هذه الأحداث، بالقول إن أكثر المجانين جنونا ليس دائماً هو ذلك الذي نظن أنه المجنون.

قامت مدينة تبارو عند تخوم أفريقيا السوداء، بالضبط في مكان ابتداء البلد الصحراوي، الذي يجوبه ذوو اللباس الأزرق، الجاثمون على ظهور جمالهم. كانت مدينة شهيرة جدا. لكن شهرتها المحزنة هذه آتية من سوق عبيدها. وهكذا، توجه إليها مهدي، التاجر الغني، لاقتناء رجل قوي البنية يقوم بأعمال منزله الشاقة.

وسرعان ما وجد طلبه في الساحة الرئيسية، حيث يُعرض العبيد للبيع: رجلا ضخما، عضلاته مفتولة، وأسنانه سليمة وجميلة المنظر. وقد بدت عليه علائم الصحة. قال مهدي للبائع: «بكم تتخلّى عن هذا العبد؟».

- يا سيدي، لا أبيع هذا الرجل بمفرده. تأمل ذاك الواقف إلى جانبه. أبيعهما معا.

في الواقع، لم ينتبه التاجر إلى الرجل القصير الواقف بجواره، إلى الخلف قليلا. تفحصه بانتباه. كان نقيض الآخر تماما. تصورا قزما مع حذبة على ظهره ووجه قبيح. مع ذلك كان فيه شيء يلفت انتباه الناظر القطن: عيناه مفعمتان بالحيوية والدهاء. لا بد أنه يتمتع حتما بذكاء حاد، رغم منظر جسمه، الذي لا يوحي بالجاذبية.

«هيا، قل لهذا الرجل المحترم بنفسك ما تجيد عمله. أنت، أيها القوي، تكلم».

- قوي وموفور الصحة. لا تخيفني أكثر الأعمال مشقة.
أستطيع القيام بكل شيء، كل شيء! لن تندم على شراء رجل
مثلي.

- وأنت هناك، ما الذي تجيد عمله؟

- أنا لا أحسن القيام بأي عمل.

- ماذا تقول، لا تحسن القيام بأي عمل؟

- أنا لا أجيد فعل شيء. لا أملك معرفة، ولا مهارة، فريقي
أخذ كل شيء.

لم يغضب مهدي، واستحسن إجابة القصير. ثم يتردد أبدا.
دفع ثمنهما، حتى دون أن يساوم، خلافا لعادته. ثم سأل:
«هل هناك من لا يجيد فعل شيء ما يا رجل؟ هل لك اسم؟»
- يسمونني ديوغوبا.

- اتبعاني، رفيقك وأنت. أنا أملككما الآن، مثلما أملك الجياد
والماشية. لي عليكم حق الحياة والموت، كبقية عبيد أملاكي
الواسعة. حياتكما متعلقة بمهارتكما، وطاعتكما لي.

أرسلهما التاجر الغني مهدي إلى العمل فورا. سارت أمور
الرجل القوي على أحسن ما يرام منذ البداية. من المعروف أن دور
الخادم الأقوى بنية والأوفر صحة لا يقدر بثمن بالنسبة إلى
الحقول، وقطعان الماشية، ورحلات قوافل البضائع. ولكن، بماذا
يمكن أن يفيد عبد مشوّ، وضعيف، وقصير في مزرعة كبيرة؟ مع
ذلك، أخذ ديوغوبا يدهش سيده، فهو يجيد القراءة، والكتابة،
والحساب. لم يعرف المرتزقة، تجار العبيد، أعداء الحق والأخلاق،
الذين اشتروه وياعوه مرارا، أنه كذلك. كلفه مهدي في البداية

بمهمات صغيرة تحتاج إلى ثقة وأمانة، هي المراقبة أو نقل المشتريات. قام بالمهمة خير قيام. ولما وثق به سيده، أوكل إليه إدارة أملاكه كلها. وأصبح بذلك مشرفا على كل ثروات التاجر. وبفضل حسن تدبيره للأمور، وذكائه وبعد نظره، ودقته وصرامته، وحسن استغلاله للفرص، وصفاء ذهنه، ازدادت غلال الحقول والماشية والبضائع بسرعة. فضلا عن ذلك، اكتشف مهدي أن لدى مدير أعماله خصالا أخرى كثيرة: الحكمة، والصبر، وحس الفكاهة، وفن رواية الحكايات، والتأدب، وإعطاء الكثير من النصائح الحسنة. لم يعد ديوغوبا مجرد عبد. أصبح صديق السيد، ومستشاره ومؤتمن أسراره. وسرعان ما ذاعت حكمته في كل أنحاء المدينة، واجتازت حدودها، حتى وصلت إلى مسامع الملك في العاصمة.

قيل إن هذا العاهل كان عالما كبيرا. وتحرق شوقا لرؤية هذا الرجل، الذي وصل اسمه إليه من خلال قارع الطبل أولا، ثم عبر القوافل الراحلة من مدينة إلى أخرى في أعمال التجارة، التي كانت تنقل أخبار الأحداث التي رأتها وعاشتها إبان أسفارها الدائمة. وهكذا، تدرع الملك بزيارة بعض مناطق مملكته ليلتقي بـ ديوغوبا ويتناقش معه.

ذات صباح، استدعى التاجر مهدي مدير أعماله ديوغوبا وقال له:

«يا صديقي، أعلم أنني دعوت الملك إلى الطعام هنا غدا. سيرافقه مستشاروه. لن أقول لك شيئا بالنسبة للوليمة. حضرها من أفخر مأكولات العالم. لا تهتم بالمصاريف التي ستنفقها عليها. تعرف أنني أصبحت أكثر ثراء بفضلك أنت».

- نعم يا سيدي. لك ما تريد».

في اليوم التالي، في الساعة المحددة، وصل الملك إلى بيت مضيفه، يتبعه مستشاروه. واستقبله مهدي. لم يخف الملك عنه هدف زيارته. وأخذ مكانه في صدر قاعة الطعام. قال له مهدي:

«يا صاحب الجلالة، ديوغويا مدير أعمالني أصبح صديقي، ومستشاري، ورفيقي الذي أودعه كل أسراري. لا أعرف الطعام الذي سنتناوله، لأنني أوكلت كل أمره له. وعدني فقط بأننا سنتلذذ بأطيب أكل في العالم. أنا واثق من أنه سيروق لجلالتكم». لما أصبحت المائدة جاهزة، أعطى الملك إشارة البدء بالطعام. أحضر ديوغويا، أمر جميع الخدم، السنة العجل المطهية أولا. كانت شهية. وصفق له المدعوون. ثم جاء الطبق الثاني بلا تمهيد: السنة العجول المشوية على السيخ مع أزكي التوابل. وأبدى الجميع إعجابهم بالطبق. تتابعت الأطباق دون توقف، وقد رشت كلها بمختلف المشروبات، التي أعطت نكهة رحيق الزهور. في نهاية الوجبة، سر الملك، لكنه بدا متحيرا قليلا. استدعى ديوغويا وقال له:

«أيها الرعي المخلص، أعددت وجبة طيبة جدا. بدت على مستشاري هؤلاء علامات رضا واضحة. يقال إنه لا أحد يضاهيك ذكاء في مملكتي. أما أنا، الملك، فأشك في ذلك. لماذا لم تقدم خلال هذه الوليمة سوى الألسنة؟».

ساد في القاعة صمت عميق. في الحقيقة، كانت ملاحظة الملك مناسبة للغاية. لماذا لم تقدم سوى الأطعمة نفسها خلال الوجبة؟ أجاب ديوغويا:

«يا صاحب الجلالة، منحنى سيدي، الموجود بينكم، أعظم هدية يمكن أن يتمناها رجل من رجل آخر: شرف اعتباري صديقا. عاهدت نفسي ألا أخيب أمله إذا طلب مني إعداد أفضل ما يمكن للملك. وهل هناك أفضل من اللسان؟ فهو الذي يقول الكلام الحسن، ويغني، وينشد الأشعار، ويخفف عن الصديق المكروب، ويواسي القريب في الملمات. إن لسان الملوك هو الذي يأمر ببناء المدن، وشق الطرق، وتشيد القصور. واللسان هو الذي ينطق بالبركات وأيمان التوفاء والمحبة والإخلاص. ليس هناك شيء أفضل من اللسان يا صاحب الجلالة».

فكر الملك طويلا. واقتنع بأن هذا الرجل القصير مصيب وصادق. قال له:

«يا صديقي ديوغويا، ما قلتها هو الحقيقة. سأعود غدا مع مستشاري لتناول الطعام. أطلب منك أن تحضر لنا ليس أفضل ما في العالم، بل أسوأ».

في اليوم التالي، عند الساعة المحددة، عاد الملك ومستشاروه. أحضر ديوغويا، الذي يطيعه كل الخدم، السنة العجول المقلية. كانت شهية، لكن أحدا من المدعوين لم يصفق. مع ذلك، بما أن الملك يأكل، فعلى الجميع أن يفعلوا مثله. ووصل الطبق الثاني فورا دون توقف: السنة عجول مشوية على السيخ مع أطيب التوابل. لم يلق الطبق استحسان الجميع، رغم لذة الشيء. تتالت الأطباق دون توقف، وقد رشت كلها بمختلف المشروبات من رحيق الزهور الحقيقي. في نهاية الوجبة، قطب الملك ومستشاروه وجوههم. لا، لا، لم تظهر من صاحب الجلالة أي علامة غضب،

ولم يبد عليه أي استياء، بل فقط علائم دهشة كبيرة. كان مهدي الأكثر استغراباً بين الحاضرين. نادى ديوغويا ليلومه بشدة أمام الملك ومستشاريه. لكن الملك سبقه:

«قدمت لنا البارحة السنة متبلة بأطيب التوابل والذها. وشرحت لنا أن هذا العضو هو أفضل الأشياء في الدنيا. طلبت منك أن تحضر لنا اليوم أسوأ الأشياء. أراك قد حضرت الوجبة نفسها. أعترف يا صديقي أن مستشاري، وأنا، وحتى سيدك لم نعد نفهم شيئاً. هلا أوضحت لنا الأمر؟».

وهكذا، أجاب ديوغويا أمام المجلس المنصت بانتباه:

«سيدي، لم أفعل سوى ما أمرتني به يا مولاي. هل هناك شيء أسوأ من اللسان؟ فبه تقال العهود التي لا توفى، وبه تنطق الوعود الكاذبة. الكلمات التي يلفظها اللسان هي أحياناً أعمق جرحاً من السهم والسكين. هو الذي يزرع الشقاق بين صديقين أو بين أخوين، ويثير الأب على ابنه، والأم على ابنتها. لسان بعض القادة والزعماء هو الذي يأمر بنهب وتدمير المدن المزدهرة، وقتل سكانها رجالاً ونساء وأطفالاً. إن اللسان هو الذي يحلف كذبا، وذاك شيء يبغضه الله كثيراً! وهو الذي ينطق بالشتائم، والكذب، والنميمة، والحقائق. هو الذي يكيل اللعنات، التي تثير الخلافات في بلد بكامله. إن اللسان هو الذي يسبب الخيانات، ويثير الكراهية بين الشعوب. أوه يا صاحب الجلالة، ليس هناك شيء أسوأ من اللسان!».

اقتنع الملك، وأقر، كذلك مستشاروه، بأن هذا الرجل القصير والدميم يقول الحق.

هكذا عاش ديوغوبا الحكيم. لم يكن أميرا ولا قائدا عسكريا كبيرا. تخيلوا مثل هذا القزم، ذي الوجه القبيح والحدبة الكبيرة على ظهره. مع ذلك، كان بعيد النظر. امتازت آراؤه، وحكاياته، وأحكامه بالدقة والحس السليم، حتى أن شهرته تجاوزت الغابات والوديان والأنهار. ويقال إن الناس في الجانب الآخر من المحيط الكبير، أولئك الذين لا يشبهون الأفارقة، والذين لهم جلد أبيض وعيون شفافة وآذان حمراء، الناس الذين يرتابون عادة من الأشياء الغريبة في قارتهم، يقال إن هؤلاء يتحدثون لأطفالهم وأحفادهم، اليوم أيضا، عن ديوغوبا ليرشدوهم إلى طريق المعرفة والحكمة. من أجل ذلك أعطوه لقب «مبدع الأساطير».

لا يفصل حقل سيدي عن حقل بالا سوى سياج عادي، حتى أنه لا يبدو سياجا. يعرف كل منهما حدود حقله. ولكن، وجدت عند طرف السياج قطعة أرض صغيرة، صغيرة جدا، ادعى كلاهما أنها له. وكان أبواهما، قبلهما بوقت طويل، قد تخاصما على هذه الأرض الصغيرة. لم يستطع مختار القرية، ولا الشيوخ العقلاء، الذين ناقشوا الأمر تحت شجرة المداوولات، ولا غيرهم، تسوية هذا الخلاف. واليوم، بعد أن ورث كل من بالا وسيدي الحقل عن والده، وجدا نفسيهما أمام هذه المشكلة الصعبة، التي عكرت صفو تجاورهما. بعد نزاع الآباء، هاهو نزاع الأبناء.

عزم بالا، الأكبر سنا، على محاوره جاره، في محاولة أخرى لإنهاء هذا النزاع الذي استمر طويلا بلا حل. وهكذا، توجه إلى أملاك سيدي، وقرع باب كوخه. لما رآه هذا الأخير، قال له بعد تبادل التحيات المعتادة:

«أصبحت أخيرا عاقلا يا بالا. لا شك أنك آت لترد لي ما هو ملكي».

- أبدا! إن ما تظنه ملكا لك هو لي. تعرف ذلك جيدا. مع ذلك، جئت لأقترح عليك حلا.

- قل على كل حال. سأرى إن كان ذلك يناسبني.
- تعرف أن في مدخل القرية كوخا منعزلا قليلا يعيش فيه سامبا كا. إنه رجل عجوز ولديه خبرة كبيرة بشؤون الحياة.

يقولون في كل البلد إنه يحسن حل المشكلات المعقدة. لا بد أنه لن يجد أي صعوبة في حل مشكلتنا. أقترح عليك الذهاب معي لمقابلته، لعله يستطيع الفصل بيننا نهائيا.

- لأول مرة يا بالا تقول شيئا حكيمًا. ثم إنني فكرت بعرض هذه الفكرة عليك، فأنا أعرف شهرة سامبا كا. هيا إليه حالا.

توجه الرجلان إلى الحكيم المصلح، الذي وقع عليه اختيارهما. كان العجوز يسكن منعزلا قليلا، وقد لحا كوخه منذ صارا خارج القرية. وجدا سامبا كا جالسا تحت شرفته. بدا أنه بانتظارهما، كأن أحدا أعلمه بقدميهما على نحو غامض. استقبلهما بغاية اللطف. وبما أنه ليس من التهذيب سؤال الضيف فورا عن هدف زيارته، فقد رحب بهما طويلا، وحدثهما عن أشياء كثيرة، وعن تأخر هطول الأمطار، وعن المحاصيل المنتظرة. بعد كل هذه المجاملات والتهذيب، قال لهما سامبا كا:

«عندما يزورني رجلان شابان قويان، فذلك يعني دون شك أن لديهما قضية يريدان معالجتها، ويحتاجان إلى نصائحي. أنا أسمعكما أيها الشابان. تكلما ولا تخافا».

روى سيدي وبالا الحكاية، كل بدوره. أصغى سامبا كا إليهما حتى النهاية، طارحا بين وقت وآخر سؤالا على هذا وسؤالا على ذاك. بعد أن سمع كل شيء، قال لهما:

«يا ولدي، لا بد من رؤية الحقل كي أتمكن من النظر في خلافتكما. من فضلكما، هيا نذهب إلى المكان معا في الحال».

لما وصل الثلاثة إلى المكان، قاس سامبا كا قطعة الأرض المتنازع عليها. ثم قال لهما:

«ألا تخجلان من خصامكما على قطعة أرض صغيرة كهذه، لا يتجاوز طولها عشر خطوات، وعرضها خمس خطوات؟ لم يستطع أبواكما أبدا أن يتفقا في حياتهما، لسبب بسيط هو أنهما لم يكونا في مثل دهاككما. الحل بسيط. هاهو: سأخذ خيطا وبعض قضبان الخشب، وأرسم بمساعدتكما حدودا لهذه الأرض. العمل سهل لأنها صغيرة. سأقسمها إلى قسمين متساويين وأضع بنفسني السياج الفاصل بينهما. وستكون لكل منكما حصة مساوية لحصة الآخر. بعدها لن يتحدث أحد في الأمر».

أخذ سيدي وبالا يصرخان بصوت عال. ثم يريدا رؤية الأرض التي يدعي كل منهما ملكيتها تصغر بهذا الشكل. أكدا معا أنه لو كان والداهما حين، لما رضيا بهذا الحل. وأطلق سيدي صرخة حقيقية: «أيها المحترم سامبا كا، أنت كالقاضي بالنسبة إلينا. ابحث عن حل ينصفني، لأن قطعة الأرض هذه لي».

بدوره، قال بالا:

«يا سامبا كا المكرم، يقال إنك تحل دائما أصعب المشكلات. ساعدني في استعادة حقي، لأن هذه الأرض هي ملكي أنا». عندئذ، عرض سامبا كا تسوية ثانية.

«هاكما ما قررتة: أنت يا بالا، اعط سيدي كيسا من فستق العبيد، واحتفظ بالأرض لنفسك».

وافق بالا على هذه التسوية التي استحسناها ووجدناها منصفة، لكن سيدي رفضها صراحة. وعرض سامبا كا حلا ثالثا: «اعط يا سيدي كيسين من الدخن إلى بالا واحتفظ بالأرض لنفسك».

وافق سيدي على هذه التسوية التي استحسناها ووجدناها منصفة. لكن بالا رفضها علنا. فهم سامبا كما عندئذ سبب استمرار هذه المشكلة البسيطة سنوات وسنوات. وعرض حلا رابعا: «أنت يا بالا، الأكبر سنا، عليك التنازل إلى سيدي عن قطعة الأرض الصغيرة هذه، التي لا قيمة لها، دون مقابل. يمكنك اعتبار سيدي أخا صغيرا لك، مثلما تقتضي تقاليدنا، العزيزة جدا على أجدادنا».

وافق سيدي على هذه التسوية، التي استحسناها ووجدناها منصفة. لكن بالا رفضها صراحة. وعرض سامبا كاحلا خامسا: «أنت يا سيدي، الأصغر سنا، عليك تقديم قطعة الأرض الصغيرة هذه، التي لا قيمة لها، إلى بالا دون مقابل. يمكنك اعتباره أخا كبيرا، مثلما تقتضي تقاليدنا، العزيزة جدا على أسلافنا».

وافق بالا على هذه التسوية، التي استحسناها ووجدناها منصفة. لكن سيدي رفضها صراحة. فهم سامبا كما عندئذ لماذا استمرت هذه المشكلة البسيطة سنوات وسنوات. وراح يفكر بعمق، ثم نادى العنيدين قائلا:

مشكلتكما ليست معقدة إلا بسبب عنادكما الأحمق. تعرفان كلاكما أن ثمن هذه الأرض الصغيرة البخس لا يساوي عناء سخط أحدكما على الآخر منذ سنوات. مع ذلك،ؤكد لكما أنني سأجد حلا. ولكن، بما أنكما لا تريدان قبول أي من هذه الحلول الخمسة، التي عرضتها عليكم، هاهو حل سادس: أمهلاني خمسة أيام، كي اتضرع إلى الله. دعوني أفكر مليا حتى أجد شيئا ما يرضيكما معا.

ولكن، لدي شرط لمتابعة وساطتي: على كل منكما أن يحلف، كما هي العادة، بأنه سيقبل بقراري أيا كان. أنت يا بالا، احلف؛ أيها المحترم سامبا كا، العجوز الحكيم، أقسم بحزام أبي أبي ساقبل طوعا بالحكم الذي تقرره.

- احلف أنت أيضا يا سيدي.

- أيها المحترم سامبا كا، العجوز المضعف بالصبر واللفظ، أقسم أيضا بحزام أبي أبي ساقبل طوعا بالحكم الذي تقرره.

- يا ولدي، أعرف أنكما طيبا القلب. كبرياؤكما غير المبرر هنا هو وحده الذي يعيقكما عن مواجهة الحقيقة. انصرفا الآن دون خوف ولا ضغينة. عودا إلي يوم الجمعة بعد الصلاة. وثيات كل منكما بصحبة عمه، كما هي العادة عندنا حين اتخاذ قرارات مهمة. اذهبا بهدوء ولا تتقاتلا خلال الطريق.

لما وصل إلى البيت، روى سيدي كل شيء لزوجته نابو. ولما انتهى، قالت له:

«انهض. اذهب إلى عمك فورا وقل له كل شيء. إنه داهية وعنده نصائح طيبة. سيقول لك ما الذي يجب فعله قبل يوم الجمعة.»

لما وصل بالا إلى البيت، هرع لرؤية زوجته فاتو، وأخبرها بكل ما حدث. استمعت إليه بهدوء، ثم قالت له:

«اذهب إلى عمك في الحال وأخبره بكل شيء. إنه ذكي ولديه نصائح طيبة. سيقول لك ما الذي يجب القيام به بانتظار نهار الجمعة.»

ذهب سيدي مهرولا إلى بيت عمه لإطلاعه على ما جرى. بعد أن فكر العم طويلا، قال له:

أولا، أقسمت بأن عليك احترام القرار ولو لم يكن في صالحك.

- نعم يا عمي، أقسمت.

- لنفكر بروية الآن. أنت تعرف أن المحترم سامبا كا هو من سلالة بولو. يعرف الجميع أن البولو، الراعي بطبيعته، يحب رفقة الماشية.

- نعم يا عمي، أعرف ذلك.

- اسمع ما يجب أن تفعله: اذهب واشتر كبشا كبيرا بلون أبيض وقرنين كبيرين. عليك تقديمه إلى سامبا كا. وسترى أنه سيحكم لصالحك. هيا بسرعة، ولا تخبر أي مخلوق. يجب ألا يعرف أحد بالأمر.

- ذاهب حالا يا عمي، حالا!

في اليوم نفسه، توجه بالا مسرعا إلى عمه ليخبره بما جرى. وبعد أن استمع إليه بانتباه، قال له عمه:

«أولا، أقسمت أنك ستحترم القرار النهائي ولو لم يأت في صالحك».

- نعم يا عمي، سأفعل، لأنني أقسمت.

- والآن، لنفكر قليلا. أنت تعرف أن المحترم سامبا كا هو من البولو. والبولو الذي يحترم نفسه يحب الماشية، ليس من أجل بيعها أو أكلها، بل لمجرد الاستمتاع بامتلاكها والإعجاب بها.

- نعم يا عمي، هذا أعرفه.

- إذن، ماذا تنتظر؟ هيا اذهب واشتر عجلا صغيرا ليس فيه أي بقعة. عليك تقديمه إلى العجوز المحترم كي تكسب رضاه. هيا

بسرعة، ولكن كن كئوسا ولا تخبر أي شخص بذلك. يجب ألا يعرف أحد بالأمر.

- حاضر يا عمي، أنا ذاهب فوراً، فوراً!

من ينتظر ير. جاء يوم الجمعة الموعد. وصل بالآ وسيدى، كل مع عمه، في الوقت نفسه تقريبا، إلى بيت العجوز سامبا كا. أجلسهم العجوز على الحصيرة، في الباحة، تحت شجرة المانجو المورقة، ذات الظلال المنعشة. وبعد وقت طويل من تبادل التحية بفرح وبشاشة، حيث بدا كل واحد واثقا من أن الحكم سيكون في صالحه، قال السيد المحترم:

«أيها الشابان، جئتماني لتسمعا الحكم، بعد أن اخترتاني لأحكم بينكما بالعدل. هاكما قراري: ستكون قطعة الأرض الصغيرة لك يا بالآ. إنها حق لك دون مجال للمنازعة».

لما سمع سيدى هذه الكلمات، فوجئ جدا، وظن أنه لم يسمع جيدا. وقال:

ولكن أيها السيد المحترم، هذا غير ممكن، غير ممكن!

- لماذا غير ممكن يا بنى؟

وجد سيدى نفسه في حيرة كبيرة من أمره. ولم يستطع الإعلان عن تقديمه كبشا كبيرا بلون أبيض وقرنين كبيرين استرضاء للعجوز. اضطرب، وتضايق، وقال متلعثما:

«ولكن... ولكن... أنا... أنا... هذا غير ممكن لأن... كبا... كبا... كبا».

ودون أي تردد، أجاب سامبا كا:

«هذا ممكن لأنه ماء! ماء! ماء!».

خيم في البداية صمت ثقيل. ثم انفجر العمان ضاحكين بعد أن فهما الأمر، وضحك معهما سيدي ويالا. واما أن الضحك ينتقل بالعدوى، كما نعرف، شاركهم سامبا كما الضحك. ولم يستطع الرجال الخمسة لوقت طويل التوقف عن الضحك... قبل سيدي ويالا أخيرا حكم العجوز، وسرعان ما أصبحا من أعز الأصدقاء. ولم يفارق أحدهما الآخر بعد ذلك. كذلك العمان. منذ ذلك الحين، أصبحوا يقولون: «عندما يذهب العجل والخروف إلى المحكمة، يريح العجل دائما».

أصبح غايندي الأسد عجوزا جدا، ولم يعد قادرا على الصيد لياكل. صارت أكثر الطرائد بطئا وطيشا تفلت منه بسهولة. وراح الدجاج الفرعوني، والظباء، وحمير الزرد تتصرف معه أحيانا بفضاظة، إلى حد الازدراء، فهي تعرف أن أجنحتها أو قوائمها تمكنها الآن من الابتعاد عن مخالب هذا الذي لم يعد إلا ظل نفسه، بسبب هرمه. حتى الضبع بوكي أخذ يتجرا على الملك المخلوع بوقاحة.

وبينما هو يقلب كل هذه الأفكار في رأسه، صادف الأسد تيلي، ابن آوى، وجها لوجه، عند منعطف الطريق. كان اللقاء مفاجئا، حتى أن تيلي لم يتمكن من الاستدارة والهروب. كان يمكن لملك الغابة والسهول العشبية السابق غايندي أن يلتهمه بسهولة. إلا أن الجوع الشديد، الذي يلوي معدته منذ وقت طويل، جعله يحجم عن الاكتفاء بمثل هذه الفريسة الصغيرة. وفضل الدخول في حوار معه: «آه، ما أجمل هذه المصادفة! هاهو صديقي العزيز تيلي الذي لم أتمن رؤية أحد سواه.

- تشرفت برؤيتك، أنا أيضا. يسرني أن أسدي لك خدمة يا ملكنا المحبوب.

- لم أعد ملكا على أحد. تخلى عني الجميع، الأصدقاء، والزوجات، والأولاد، والخدم. تؤلني وحدتي كثيرا. لذلك، وجودك معي يغمرني فرحا.

- يمكنك الاعتماد على صداقتي أيها السيد .
- نعم، نعم، الصداقة تدفئ القلب الحزين، وتواسي الصديق في المحنة، لكن مساعدتك هي التي أحتاجها جدا .
- تكلم أيها السيد الأسد، سأفعل كل ما بوسعي لأساعدك .
- كنت أعرف أنني أستطيع الاعتماد عليك . اسمع ما سأقول . لا يخفى عليك أنني لم أعد قادرا على اصطياد طريدة واحدة أسد بها جوعي، بعد أن أصبحت عجوزا . لم أذق الطعام منذ أسابيع .
- ولكن يا مولاي حجمي الصغير لا يساعدني على اصطياد طريدة تشبعك . ماذا أفعل ؟
- بالضبط، لدي فكرة جيدة . يجب أن تتدبر الأمر، وتحضر لي فريسة تجعلها في متناول مخالبي . يمكنني عندئذ قتلها وأكلها . تعرف أنني لم أعد أستطيع الجري .
- يا صاحب الجلالة، علي العثور على حيوان لديه ما يكفي من السداجة كي يأتي إلى هنا .
- هو كذلك . أعرف كم أنت ذكي ومحتمل . ستفلح في هذه المهمة . ابحث سريعا وستجد بالتأكيد .
- نعم... نعم... أفكر، أعتقد أنني وجدت! . الحمار مبام سوف هو وحده حجمه كبير بما يكفي لإشباعك، وغبي كفاية كي يأتي ليراك عن قرب .
- ماذا تنتظر؟ أكاد أموت من الجوع .
- انطلق تيلي ابن أوى بحثا عن ذاك الذي يجب تقديمه وجبة للملك العجوز المخلوع، عرف أين يجده . في الواقع، رآه منذ بعض

الوقت يرمى الثمار الساقطة تحت شجرة التمر الهندي الكبيرة.
اقترب منه ليحادثه:

أيها العم مبام، يا عمي مبام! كنت أبحث عنك منذ عدة أيام.
أين تختبئ؟

- لست مختبئاً. تعرف تماماً أين تجدني عندما ترغب في
المجيء لتسخر مني.

- أنا، أهزأ بك؟ لا، لا، أبداً، خصوصاً إذا أطلعتك على الخبر
الساار الذي أحمله لك.

- أي خبر سار؟ هل عثرت على حقل عشب شائك مثلما أحب؟
- لا، ليس شيئاً من ذلك أبداً! ستنال ما هو أفضل من ذلك
بكثير: الاعتبار والاحترام.

- الاعتبار والاحترام؟ هل يؤكل هذا؟

- آه يا عمي مبام، دعك من الحماقات. دعني أشرح لك الخبر
الساار الذي يعنيك.

- هيا، اني أسمع، تكلم.

- ملكنا المحبوب غايندي الأسد أرسلني إليك كي.

لما سمع الحمار المذعور هذه الكلمات، انتصبت أذناه عالياً، ورفع
ذنبه، وانطلق من مؤخرته صوت قوي جعل تيلي يغضب غضباً كاذباً.

«يا عمي، ستجعلني فعلاً أصدق ما يقوله الجميع عنك.
لا تخف، اسمعني حتى النهاية!». أقول إن الملك أوفدني لإبلاغك
قرار تعيينك رئيساً للمستشارين».

دهش مبام ثانية، وأطلق من مؤخرته صوتاً آخر أقل قوة، مما
أغضب تيلي من جديد غضباً كاذباً.

«آه يا عمي، ألن تكف عن هذا التصرف! عليك منذ الآن الظهور بمظهر النبل والوقار الذي يليق بمستشار جديد للملك. ثم إنه قد طلب مني أن أواكبك مواكبة احتفالية حتى النهاية، لتثبيت تسميتك كواحد من أعيان المملكة».

لم يصدق ميام ما سمعته أذناه الطويلتان. حاول أن يفكر، فوجد في ذلك صعوبة بالغة، لأن عقله صغير جدا كما يعرف الجميع. لكن تيلي ازداد إلحاحا، شارحا له ماذا يعني الاعتبار والاحترام، دون إغفال المزايا الكثيرة والامتيازات الأخرى، المرتبطة بوظيفة المستشار في بلاط الملك. ولما اقتنع أخيرا، قبل مرافقة مبعوث الأسد الملك عن طيب خاطر.

كان غايندي ينتظره بفارغ الصبر، وقد لوى جوع شديد معدته. ولما لمح مبعوثه وخلفه ميام، لم يصدق ما رأت عيناه. وبدلا من أن ينتظر حتى تصبح فريسته في متناول أنيابه، نهض وحاول الجري. وثب بجسمه الضعيف، فوقع على الأرض، لأن ميام استدار راجعا فورا، وهرب مذعورا، مطلقا خلفه أصواتا قوية من مؤخرته، ساعدته دون شك على زيادة سرعته. غضب تيلي جدا من هذا التصرف الأرعن، ولم يخف استياءه:

أضعت كل شيء بتسرعك ورموثك! ماذا لم تنتظر حتى أصبح قريبا؟

- آه يا صديقي، لا أعرف ماذا يحدث لي! كم عجزت الأطباء والجواميس عن الإفلات مني في السابق! واليوم، شيخوختي تكبلني. لم تعد أطراف الواهنة تسعفني حتى في اصطلياد حمار

غبي على بعد خطوات قليلة مني. والآن، ماذا يجب أن أفعل؟ هل يمكنك إعادته إلى هنا؟

- أعيده إلى هنا؟ ولكن يا صاحب الجلالة، مهما بلغ من الغباء، سيبقى حذرا. لن يرضى العودة إلى هنا أبدا. كان يجب أن تضبط أعصابك وتصبر. أنا ذاهب الآن. علي الاهتمام بشؤوني. إلى اللقاء أيها الملك.

- لا، لا، أرجوك! لا تذهب يا صديقي!. أنت أُملي الوحيد. من دونك قد أموت جوعا.

- ولكن يا صاحب الجلالة، تعرف جيدا أن جسمي الصغير وقوائي الرقيقة لا تساعدني على اصطيد غزال أو جاموس بدلا عنك. أضعت على نفسك، بالخطأ والتسرع، وجبة دسمة، لأن ميام، الضخم والسمين، كمعظم الحيوانات التي تشبهه، كان يمكن أن يكفيك طعاما لأيام وأيام.

لما سمع هذه الكلمات، راح الملك المسكين، الذي خارت قواه تماما، يبكي بكاء مرا وهو يفكر بوحدته والجوع الذي يؤله. أثارت دموعه المفاجئة شفقة تيلي. ماذا يمكن أن يفعل أمام ضائقة هذا التعيس الجائع؟ حاول مؤاساة هذا الذي أصبح يعتبره صديقا له. رغم تأنيباته، كان له قلب رقيق.

«اطمئن يا مولاي المحبوب!. أعدك ببذل كل جهدي كي أعيد ميام إليك. ثق بي. سأحاول المستحيل. انتظرني».

عاد تيلي، الذي امتلأ صدره رافة وعطفا، للبحث عن الحمار الهارب. وجده في المكان نفسه يرمى الأوراق والتمر الهندي. اقترب منه، متظاهرا بالاستياء، وأخذ يويخه بشدة:

أيها العم ميام، لقد خذلتني اليوم حقاً. أنا غاضب منك رغم تعيينك مستشاراً خاصاً للأسد غايندي.

- أنا، مستشار غايندي الخاص؟ لكنه أراد اصطياًدي ليفترسني!

- يفترسك؟ لا! من يفكر بافتراس مستشاره؟ لو فعلها، من سيقدم له النصائح من أجل حسن سير أمور المملكة؟ لا، أقول لك إنك مخطيء.

- لكني رأيته يثب نحوي وفمه مفتوح.

- نعم، نعم، هذا صحيح! كان مستعجلاً ليطالعك على سر مهم من أسرار الدولة يجب ألا يعرفه أحد سواكما، أنت وهو. أراد محادثتك بصوت منخفض كي لا أسمعها أنا. لهذا فتح فمه.

- ما هو هذا السر الذي تتحدث عنه؟

- قلت لك إنني لا أعرف عنه شيئاً. هل تعتقد أن كبار هذا العالم يطلعون الصغار مثلي على شؤونهم؟ أنا مجرد مبعوث من الدرجة الثانية. لا أستطيع زعم الاطلاع على الأسرار الملكية. هذه الأشياء تسوى بينكما وحدكما، من فمه إلى أذنك، ومن فمك إلى أذنه. هذه الحظوة العظيمة، التي منحها لك الملك، سيحسدك عليها كثيرون من سكان الغابة والسهول العشبية. سيملاً الحسد قلوبهم، بمن فيهم أنا. سيرهب الجميع جانبك. من يجروء على مخالفة ذراع الملك اليمنى أو السخرية منه؟ أنا فخور بأنني مبعوثه إليك. بفضلك، سيتعين على الآخرين احترامى قليلاً، أنا أيضاً، لأن عزك سينعكس علي.

- هل تعتقد حقاً أن الأمور ستسير هكذا؟

- أقسم لك بأذنيّ جدي أنّي أقول الحقيقة بالضبط. أه! نسيت! أين عقلي اليوم؟ كلّفني الملك ياخبارك إنه يفكر بجباية ضريبة جديدة، لتلبية حاجاتك الشخصية الأساسية؛ سيتعين على سكان التلال إحضار كيس من ثمار وأوراق شجرة التمر الهندي كل صباح، بينما سيحضر لك سكان السهول العشبية كيساً من الأعشاب الشوكية.

- إي آ، إي آ. أيها الطائش الصغير! ألم تستطع قول ذلك لي من قبل؟ ولكن... هل...

- لا، لا! كن واثقاً تماماً من صدق كلامي!. أقسم لك بنذيل والد جدي إنني لم أخبرك إلا بما سمعته أذناي. تعال معي، سيؤكد لك الملك كل ذلك بلسانه. هيا، لا تتركه ينتظرنا أكثر. اتبعني.

بدلاً من أن يفكر بعقله، استشار ميام بطنه. لكن الجميع يعرفون أن من يصغي إلى معدته بدلاً من دماغه، يسير غالباً نحو حتفه.

سار الشريكان بخفة ونشاط، أحدهما وراء الآخر، عائدين إلى الأسد الذي غاضه الانتظار. ولما رأى عشاءه يقترب منه، ضغط على نفسه كثيراً كي يبقى هادئاً. هذه المرة، اقترب ميام الغبي بجسمه الضخم والسمين، دون خوف ولا فزع، حتى لامس رأسه عفرة صاحب الجلالة. لكن قائمة الأسد تبقى مخيفة ولو أصبح هرماً. رفع الأسد هذه القائمة، وضرب بها رأس الساذج فانشق تحت عنف الضربة. سقط الحمار جثة هامدة. وأراد غايندي أن يبدأ طعامه فوراً، حتى دون النظر إلى تيلي، الذي اعترض:

أه، لا يا ملكي! يجب أن تحتفظ بعزة نفسك ومهابتك حتى النهاية، ولو قرصك الجوع. الملك الجدير بهذا اللقب لا يمكنه

تناول العشاء قبل أن يأخذ حماما .

- هل تعتقد أن هذا مهم؟ أموت جوعا و...

- لا، لا، يا مولاي. أعرف أن الجوع يؤلمك. لكن كرامتك يجب أن تعلو على كل شيء. أنت الذي تحب النظام، والانضباط، والدقة، يجب ألا تخرق القواعد التي وضعتها بنفسك. اذهب، لا تخف، سأحرس وجبتك. من يجرؤ على لمسها؟

- حسنا، حسنا! بما أنك مصر، سأفعل. سأعود حالا. احرس جيدا ولا تلمس شيئا حتى أعود.

وبينما أخذ الأسد يستحم، كان تيلي يحرس الوجبة بعينين تتحرقان رغبة في الطعام، لشدة جوعه. وبما أنه يعرف أنانية الأسد، لم يتوهم أبدا: لن يدعوهُ بالتأكيد إلى تقاسم كل هذا اللحم، الذي كابد هو نفسه في إحضاره إلى هنا. دار مرة، ثم مرة أخرى حول الحمار، الذي ظهر المخ من رأسه المشقوق. لم يعد يستطيع مقاومة رغبته، فخطف هذه القطعة الشهية بسرعة.

لم يكذ ينتهى من التهامها، حتى عاد غايندي، الذي لاحظ فورا غياب أفضل قطعة لديه. غضب الأسد، الجاحد كعادته، وصرخ: تيلي، تعال هنا! قل لي أين المخ! أنا أبدا طعامي به دائما. هل أنت من أكله؟

- لا، لا، صاحب الجلالة مخطئ. هذا المخلوق بلا مخ. لذلك لا تراه.

- لا أفهم ما تقول. هل تريد إقناعي بأن ميام لا مخ له؟

- نعم يا مولاي. لو كان له مخ لما عاد للقائك، بعد أن أفلت منك في المرة الأولى.
- نعم، يبدو لي ما تقوله صحيحا؛ كان يجب ألا يعود.
- لما اقتنع، بدأ غايندي الأسد بالتهام وجبته.

خلق الله الطيبة لأن الله يجسد الطيبة. بعد ذلك، نشر الطيبة في الجو وعلى الأرض. خلق الله السخاء لأن الله يجسد السخاء. بعد ذلك، نشر السخاء في الجو وعلى الأرض. وغالبا ما سارت الطيبة والسخاء معا في الجو، برفقة الغيم، والمطر، والريح كيفما اتجهت. أحيانا، ربما بالمصادفة، كان السخاء والطيبة يسقطان على شخص أو على أسرة.

هذا ما حصل لـ بكري دون شك. عرفتة القرية كلها طيبا وسخيا، ومحبا أيضا للآخرين، ومتأهبا دائما لمساعدتهم. تأكد كل واحد أنه يستطيع الاعتماد عليه في أي ظرف، وفي أي وقت من النهار والليل.

في ذلك الصباح وصل إلى القرية تاجر جياذ غني، قادما من الضاحية الجنوبية. وضع التاجر جياذه في المرمى، في حراسة خدمه، وطلب من الأهالي استضافته. ذكروا له بكري بالطبع، فتوجه إلى منزله. كما هو متوقع، استقبله هذا الأخير بالحفاوة والتكريم، دون أن يعرفه من قبل أبدا. ذبح له كبشه الوحيد، الذي طبخته زوجته مع الأرز المتروك عادة لطعام الضيوف. وقدمت قصعة كبيرة للخدم، الذين بقوا في حراسة الحيوانات خارج القرية. في صباح اليوم التالي، ساعة رحيل الضيف، وقع حدث طارئ: كانت فرسه على وشك أن تضع مهرا، فلم تستطع متابعة الرحلة. قال التاجر لبكري:

أعرف يا صديقي أنني أغالي في ضيافتك، هل يمكنني إبقاء فرسي عندك؟ لا أريد الوصول متأخرا إلى سوق البيع السنوية. سأسدد لك نفقات العناية بفرسي والمهر، لأنها ستضع صغيرها بعد وقت قصير دون شك. سأعوضك عما تصرفه عليهما.

- يا صديقي المسافر، تصرف كأنك في بيتك. يكفيني أنني أسدي لك خدمة. اذهب بسلام، واترك فرسك هنا. سأعتني بها كأنها لي. عند عودتك، ستجد كل شيء على ما يرام. اذهب الآن مطمئنا.

سافر تاجر الجياد مرتاح البال، شاكرا الله أنه وضع في طريقه رجلا خدوما.

أحضر بكري الفرس إلى البيت فورا. وأولاها الاهتمام والعناية اللازمين. ومنذ اليوم التالي، وضعت مهرا ناصع البياض. لكن السفر الطويل كان قد أنهكها، فنضقت بعد الوضع مباشرة، رغم اعتناء بكري بها جيدا. اهتم بكري كثيرا بالحيوان الصغير. وقدم له الحليب وطحين الدخن والذرة الصفراء، والأرز المبلل بالعسل.

عاد التاجر بعد ثلاثين يوما إلى القرية، ومر ببيت بكري، الذي استقبله بالحفاوة والتكريم، كالمرة الأولى. وأشار بيده إلى المهر قائلا للضيف:

«نضقت أمه بعد أن وضعت. اعتنيت به أفضل عناية. يمكنك أخذه اليوم، لأنه قوي بما يكفي لرحلة العودة. لديك الآن حيوان أصيل».

- لا يا صديقي، لن يعود معي. أنت لا تعرفني، لكنك استقبلتني في بيتك كما لو أنني أخوك. ذبحت كبشك لإطعامي،

أنا وخدمي. تعبيرا عن شكري لحسن ضيافتك، أهديك المهر الأبيض، مع هذه القطع الذهبية، لتساعدك في الاهتمام به. اعتن به جيدا. أعرف أنه سيسعدك أنت وزوجتك، لأنه سيعيش عندك زمنا طويلا. لا تفارقه أبدا.

شكر بكري التاجر بحرارة، ودعا له بسلامة العودة إلى دياره. مضت الأيام ببطء. اعتنى بكري بالمهر بيسر، بفضل القطع الذهبية التي أخذها من التاجر. سماه بايو، الاسم الذي يطلقونه عادة على كل من يفقد أبويه باكرا جدا. ومنذ أن صار المهر في بيته، ازدادت كل مشاريعه ازدهارا: كثرت ماشيته، وبنى من حقله محاصيل فاقت كل توقع. لكن لوحظ فقط أن بكري لم يصبح ثريا. ليس دون سبب! لم يطرق بابيه أي جار، أو مسافر، أو عابر طريق، أو فقير، أو أي شخص، إلا وعاد منه بشيء ما. كان المأوى والضرash جاهزين أبدا لكل من نزل في ضيافته. إن احتاجته أسرة فقيرة، عادت من عنده بخروف، أو بالذرة، أو بكليهما معا. لم يستفد من قطيع ماعزه إلا في تموين هؤلاء أو أولئك. اعتنت زوجته ببستان، وحقل بقول، وقن دجاج وطيور أخرى، من أجل تلبية حاجة أولئك القادمين بحثا عما يأكلونه. كان يكفيهم المرور بالببيت، والتحدث قليلا، ليقول لهم سيد البيت أو زوجته عند عودتهم:

«مروا في طريقكم بحظيرة ماشيتنا والبستان والقن، واقتضوا حوائجكم منها. إطعام أسرة في هذه الأيام أصبح صعبا».

بعد أن أتم ثلاث سنوات، أصبح بايو حصانا رائعا يزهو بعرف كثيف. لقد اعتنى به بكري مثلما يعتني الأب بابنه. قدم له أفضل

العلف، ونظفه باستمرار، ودربه على العدو، وعلمه الاستدارة والقفز بأنفة، والرقص، والتحية برأسه. لم ير أحد حصانا أجمل منه في كل البلاد. وتمنى الجميع: التجار، والمسافرون، وأحيانا بعض الأمراء، وكل العابرين، اقتناء هذا الحيوان. عرضوا على بكري مبالغ كبيرة، لكنه رفضها، متذكرا كلمات الرجل الذي أهدها الحصان: «سيسعدك ويحالفك الحظ طالما بقي في بيتك».

وصل اسم الحصان الأنوف وشهرته إلى مسامع الملك. وطلب أن يراه. أقلق ذلك بكري قليلا. لكن، ماذا يمكنه أن يفعل؟ قاد الحصان إلى القصر. ما أن رآه الملك، حتى أطلق صرخة إعجاب: «رائع، رائع!». لم أر أبدا حصانا من قبل بهذه الروعة. يا للجمال! يا للرهادة. لا يمكن أن يكون هذا الحصان إلا ملكا. أيها الرجل، قل لي كم ثمنه، سأدفع لك ما تريد فورا».

– يا صاحب الجلالة، بايو ليس للبيع. نفقت أمه عندما وضعته. منذئذ وأنا أهتم به. اعتنيت به مثلما أعتني بأولادي، تارة أنظر إليه هكذا، وتارة أعدُّ صديقي. بالنتيجة، لا أرغب في مفارقتها، خصوصا أنه طالع سعد حقيقي لأسرتي منذ أن أصبح لي.

شعر الملك بأن الرجل جرح كبرياءه. غضب غضبا شديدا، وصرخ:

– ألا تعرف مع من تتكلم؟ من أجل هييتي، وبالنتيجة من أجل هيبة الوطن، يجب أن يصبح بايو من أملاكى. عليك منذ الآن التخلي عنه لي، شئت أم أبيت، أعجبك ذلك أم لم يعجبك. لن أساومك. حدد مبلغا وسأدفعه لك حالا دون نقاش.

- أرى يا صاحب الجلالة أنك تريد انتزاع بايو مني مهما كلف الأمر. بما أنه لا خيار لي، أنحني أمام إرادتك.

- هيا، بسرعة، لم أعد أطيق صبرا، ما الثمن؟

- يا صاحب الجلالة، لم أبع ندأ لي في حياتي شيئا أملكه. هذا الحصان لم يكلفني شيئا. قدمه لي عابر طريق عن طيب خاطر. يمكنك أخذه بالطريقة نفسها. هو لك منذ اللحظة. لا أريد أي مقابل.

هذه الكلمات، المفعمة بالنبل وعزة النفس، جعلت الملك في حيرة من أمره. لم يعرف ماذا يفعل وبماذا يجيب. لم يتميز حكم هذا العاهل باللطف، غير أن مظلله لم تكن صارخة كثيرا. عدا ذلك، منعه كبرياؤه المفرط دائما من قبول أي شيء دون ثمن. وهكذا، دعا مجلس أعيانه إلى الانعقاد، طالبا رأيهم. تناقش هؤلاء الشيوخ الحكماء مع الملك أولا، ثم تحدثوا مطولا فيما بينهم. أخيرا، أطلعوا الملك على نتيجة مداولاتهم. قال الملك لبكري:

- أشار حكماء مملكتي بأن من الأفضل ألا آخذ ثروة هي ملكك. ولكن، نصحوني بالتعويض لك عما بدر مني من تصلب وتصميم. وجعلوا المبلغ الذي حددوه لك ضخما، متصورين أنه سيدفعني للتخلي عن هدفي، فترحل مع حصانك. لم يشكوا في رغبتني القوية في الحصول على هذا الحيوان. مع ذلك، سأعطيك الألف قطعة ذهبية التي اقترحوها. سيؤثر ذلك كثيرا على خزنتي. ولكن لن أندم عليها إن أصبح بايو ملكا لي. ليكن، سيدفع لك أمين الخزانة المبلغ المستحق، ولا أريد رؤيتك بعد ذلك.

أصبح لدى بكري منذئذ ثروة ضخمة، كنز حقيقي. لكن ذلك جعله في حيرة عميقة وقامة من أمره، إذ فضلا عن حزنه بأنه لن يرى بعد اليوم حصانه في بيته، لم يعرف ما الذي سيفعله بهذا القدر من الذهب. إلا أن الأحداث تتالت سريعا...

جاءت أسراب الجراد، دون أي إشارة منذرة. كانت كثيفة، حتى أنها غطت السماء وحجبت الشمس. انقضت على المنطقة، وخربت حقول الذرة، وثمار البساتين، والمباقل. لم تبق ورقة واحدة على الأشجار. ولما التهمت كل شيء، طارت كلها كأنها تلقت إشارة سحرية. ذعرت البلاد لجسامة المصيبة. ما العمل؟ دعا الملك مجلس أعيانه للاجتماع. تعين عليه إيجاد بذار جديد لزراعة الأرض قبل أوان المطر، أملا بمحصول آخر. ولكن، بانتظار ذلك، أين الدخن لتأمين معيشة الناس؟ بقيت هذه الحبوب، وهي الغذاء الأساسي للبلد، هم السكان الأول. ثم، من أين الحصول على الذرة الصفراء التي تتغذى عليها الماشية؟ ناقش مجلس الأعيان كل ذلك يوما كاملا، دون أن يجد حلا.

لم يفكر بكري طويلا. جمع أقوى شبان القرية، وأخذ كنزهم، وانطلق برفقتهم غربا.

ذات صباح، بعد شهر طويل، لمح السكان قافلة تتجه نحوهم. إنه بكري ورفاقه: كانت مئات من الجمال تحمل أكياسا مليئة بالدخن والذرة الصفراء. لقد اشترى بقطعه الذهبية كل هذا الغذاء، إضافة إلى قطيع من العجول والخراف والماعز وصل مع الغروب.

توجه الرجل السخي، الذي حصل على هذه الخيرات كلها، إلى مجلس الأعيان قائلا:

«أيها الشيوخ الأجلاء، ما زلت مقتنعا بأن القدر الذي جاءني يوما بكنز ضخم لم أكن أستحقه، جعلني أيضا مفيدا لإخوتي وأخواتي، سكان هذه البلاد. أضع تحت تصرفكم الدخن والذرة الصفراء وذاك القطيع. وزعوا كل ذلك بأنفسكم على الأهالي. أعرف أنكم عادلون. يجب أن يأكل كل واحد حتى الشبع، وأن يبذر بما يكفي لملء مخزن غلاله في الموسم القادم، كي لا يموت أحد من الجوع بعد اليوم بسبب الجراد. أحييكم أيها الشيوخ الحكماء، الذين جعلهم الله عوناً لنا ليدلونا على الطريق المستقيم».

هذا ما حدث. بفضل بكري الطيب، السخي، استطاعت كل أسرة طبخ الكسكس كل يوم. وخلال الوجبات، كان الرجال والنساء والأطفال يذكرون هذا المحسن بالمحبة والعرفان. وبفضل سلوكه النزيه، بذر الناس أرضهم من جديد. هطلت الأمطار، ولاحت في الأفق محاصيل واعدة، وولت أشباح المجاعة، التي أحدثتها مصيبة الجراد التي حلت بالمملكة.

ولكن، وقع حدث آخر في البلاد: مات الملك فجأة. ودفن مثلما يليق بملك، بكل تقدير وإجلال. اجتمع مجلس الأعيان حالا. وبعد نقاشات لم تطل كثيرا، عرض كل واحد خلالها رأيه بحكمة وهدوء. ثم وقف أكبرهم سنا، وقال الكلمة النهائية:

«انتهينا منذ قليل من النقاش حول من سيخلف الملك المتوفى، الذي لم يترك ولدا يخلفه. رأى مجلس الأعيان أن يكون الخلف رجلا عادلا، وطيبا، وسخيا، بذل كل ما يملك لإنقاذنا من المحنة الأليمة، التي آلت بملكتنا، وجنب إخوته وأخواته الموت جوعا. من يفعل ذلك قادر على إسعاد شعبه دون شك إذا أصبح ملكا. قرر

المجلس ما يلي: سيعتلي هذا الرجل العرش لقيادة البلاد. ويرث بذلك كنز المملكة كله».

إذن، أصبح بكري ملكا. وعاد إليه حصانه الرائع، الذي أهداه له تاجر لقاء طيبته وسخائه، دون أن يراه ثانية أبدا. بدأ حكمه، واستمر طويلا، وخيم خلاله على المملكة شيئان: السعادة والازدهار. وهل يمكن أن يكون الأمر غير ذلك بالنسبة إلى الشعب، عندما يكون ملكه طيبا وسخيا؟

حكايات وأساطير أفريقية

المنجاة السابعة

تأليف: سليمان جيفو ديوب

ترجمة: محمد الدنيا

مراجعة: د. عبد الرحمن بن زيدان

١ - المنجاة السابعة

كان بيرم يزرع الأرض لياكل، ويؤمن معيشة أسرته. لم تكن هذه الأسرة كبيرة جدا. عاش مع زوجته في أرض صغيرة ورثها عن أبويه. لم يرزقا بأطفال، رغم أنهما تزوجا منذ عدة سنوات. كان كل الجيران يقدرّون الزوج والزوجة الطيبين، اللذين لم يتأقفا أبدا من العمل. خدم بيرم حقله بمحبة ونزاهة. كان ينظفه من الأشواك ويحرق الأعشاب الضارة، ويحرثه قبل أوان المطر، وينثره بالبذار عندما تتساقط الغيوم مطرا، فترتوي الأرض. وبعد الحصاد، كان يخزن محصول تعبهِ وكده، ساعيا للعيش كبقية الناس حتى الفصل التالي. هكذا سارت حياته، رتيبة، بلا أحداث مفاجئة.

لم يتضايق الجيران منه في أي يوم. على العكس، أبدى دوما استعدادا لخدمة هذا ومساعدة ذاك بصدق، في كل الأوقات. ساعدته في ذلك زوجته مريم، المرأة الذكية، والرصينة، والسديدة الرأي، التي اعتنت ببستان صغير خلف المنزل، فضلا عن أعمال البيت. وفي الأرض، قبالة الكوخ الذي يسكنه الزوجان، نبتت شجرة المنجاة صغيرة، ولكن قوية.

بعد ظهر ذلك اليوم، عاد بيرم من حقله متعبا. ولما دخل إلى فناء الدار، قالت له مريم بعد أن حيته: «تعال بسرعة. انظر إلى شجرة المنجاة! هناك شيء غريب. لا أصدق عيني».

أثارت كلمات زوجته فضوله كثيرا. سار بعجلة خلف زوجته، التي أشارت بيدها إلى الشيء الذي أثار دهشتها: بدأت سبع ثمار كبيرة بالنضوج على غصن الشجرة، مختبئة داخل الأوراق. كان يمكن أن يبدو الشيء عاديا بحد ذاته، لكن المدهش أن فصل المنجة انقضى منذ وقت طويل. لم يتذكر أحد أبدا أنه شاهد هذه الثمار في مثل هذا الوقت من السنة. صرخ بيرم مستغربا:

«هذه فعلا أول مرة في حياتي أرى مثل هذا الشيء!». سناكل منها. وسنغطي بعضها للجيران، لأننا إذا اكتفين بالحديث عنها، سيعتبروننا كذابين. ما رأيك؟».

فكرت مريم طويلا قبل أن تجيب. كان زوجها يثق بها كثيرا، لفطنتها وصواب رأيها. لم يتخذ يوما أي قرار قبل استشارتها. قالت أخيرا:

«ما حدث عندنا هو شيء غير عادي. أشعر بأن القدر يخبئ لنا مفاجأة طيبة. لا يمكننا أكل هذه الثمار السبعة دفعة واحدة. راقبها جيدا! يبدو أنها ستنضج واحدة بعد أخرى، يوما بعد يوم. - نعم، هذا صحيح. انظري إلى الكبيرة. إنها ناضجة فعلا».

قطف بيرم ثمرة المنجة بعناية. بدت يانعة وشهية الرائحة، وتليق بمائدة أمير. هذا ما فكرت فيه مريم، إذ قالت لزوجها:

«هاك نصيحتي. احمل هذه الثمرة إلى القصر. قدمها للملك. إنه نهم كبير مثلما نعرفه جميعا. سيعرف كيف يقدرها».

أيد الرجل الفكرة. وضع الثمرة في سلة صغيرة، وتوجه إلى القصر. كان أي واحد يستطيع رؤية الملك في بعض أيام الأسبوع. يكفي الذهاب إليه ليجده في باحة مسكنه الكبير. كان يجلس

هنا، على عرشه، تحت شجرة قابوق كبيرة، فيستمع إلى شكاوى الناس، ويصدر الأحكام. يشهد له الجميع بالقسوة، والصرامة، وسرعة الإنصاف. ألفه الناس سخيا جدا، غير أنه عرف بعيب جسيم لا يجهله أحد في المملكة كلها: يفتاظ بسرعة وعنف. لذلك، تعين على كل من يلتقيه الانتباه جيدا إلى ما يقوله في حضرته. بيرم يعرف كل ذلك. وهذا ما أقلقه أكثر مما طمأنه. ولما حضر أمام الملك، أوضح قائلا:

«يا سيدي المبجل والمحبوب، جئت لأطلعك على شيء غريب جدا حدث في منزلي. بدأت سبع ثمرات تنضج في شجرة المنجة في أرض داري».

فوجيء الملك جدا بهذا الخبر. ولم يفسح له المجال ليكمل حديثه. قاطعه قائلا:

«أتسخر مني أيها الفلاح؟ ألا تعرف أن فصل المنجة قد انقضى منذ وقت طويل؟ هل يمكنك إثبات صحة ما تزعم؟».

- نعم، يا صاحب الجلالة. أحضرت لك أولى هذه الثمار. إنها ناضجة. أقدمها لك لأنك الوحيد الجدير بتذوقها».

قدم السلة إلى الملك، الذي تناولها ضاحكا ومدهوشا. كانت تفوح منها رائحة زكية. ذاق جلالته الثمرة، وقال إنه لم يأكل في حياته شيئا أحلى وأطيب وأشهى وأغزر عصارة من هذه الثمرة. عندما رأى بيرم انشراحه، قال له:

«يا صاحب الجلالة، ستنضج ست أعاجيب أخرى مثلها قريبا، يوما بعد يوم دون شك. أرى أن لزاما علي وشرفا لي أن آتيك بها كل مساء، في مثل هذا الوقت».

- شكرا يا صديقي. كان يمكن أن تأكلها في بيتك دون أن يعرف أحد. فضلت أن تمنحني إياها ككل رعيتي الطيبين والأوفياء. تستحق مكافأة على ذلك.

نادى الملك أمين خزانته وأمره بإعطاء عشر قطع فضية إلى بيرم، الذي فرح كثيرا، وعاد بها إلى البيت. أعد الزوجان، اللذان سعدا جدا بهذه الثروة غير المنتظرة، التي سقطت عليهما من السماء، وليمة كبرى دعيا إليهما كل الجيران، لإخبارهم بما حدث. ابتهج الجميع من صميم قلوبهم.

في اليوم الثاني والأيام التي تلت، راح بيرم يحمل ثمرات المنجة كلما نضجت إحداها إلى الملك، الذي كان يأكلها باستمتاع ولذة. ابتهجت كل حاشية الملك بما يجري. كل الحاشية؟ لا، باستثناء واحد امتلأ صدره ضيقا وانزعاجا. كان بكري، المستشار الأول للملك، هذا الرجل القاسي القلب والجشع، والبخيل، والطماع، والحسود، يتألم كلما رأى الملك يتمتع ثروة حقيقية كل يوم لمزارع بسيط، بعد أن يتناول منه ثمرة منجة عادية. رغم ثرائه الفاحش، أراد بكري أيضا الاستئثار بالمكافأة، التي يحصل عليها الفلاح. وأضمر في قرارة نفسه الخبيثة والحسودة خطة للتخلص من الفلاح المسكين.

في اليوم الرابع، أحضر بيرم المنجة الرابعة. وبعد أن بقي الملك يتلذذ بها ببطء لوقت طويل، تحت الأنظار اللاهية لجلسائه، والحسودة قليلا، قال لذاك الذي أصبح يعتبره صديقا له: «كل ثمرة تأتيني بها يوميا تبدو أطيب من سابقتها. اذهب إلى أمين خزانتي. قل له أن يعد لك عشر قطع فضية جزاء جهدك».

شكر بيرم ولي نعمته، وذهب لأخذ المبلغ. وعاد إلى البيت مسرورا. وفي منتصف الطريق، أمسك به بكري. وقال له: «أيها الشجاع، طلب مني الملك إبلاغك رسالتين. هاك الأولى: يقدر عاليا كرمك وكذلك رغبتك في إبعاده. أما الثانية، فقولها صعب. لا أعرف كيف سأشرحها لك».

تضايق بيرم سريعا، وأمطر محادثه بوابل من الأسئلة: «هل أزعجت الملك بتصرفي؟ هل حادثته بشكل غير لائق؟ هل اقتربت بحقه خطأ جسيما؟».

- لا، ليس الأمر كذلك أبدا.

- إذن، ما الأمر؟

- اسمع: «كلفني الملك بأن أقول لك إن رائحة نفسك مزعجة جدا، هذا يضايقه كثيرا، خصوصا عندما تكلمه».

لما سمع بيرم هذا الكلام، بقي مذهولا. كيف يمكنه التصرف بعد اليوم؟ ألا يجب أن يخاف إغضاب الملك الآن؟ قيل إنه سخي، لكنه نزق، ويكافئ بقدر ما يعاقب. سأل بيرم، الذي ازداد قلقه:

«ماذا علي أن أفعل الآن كي لا أضايق جلالته؟ هل أكلف زوجتي مريم أو أحد أولاد إخوتي بحمل الثمرات الباقية إليه؟».

- لا، لا تفعل ذلك أبدا. اصغ إلى نصيحتي جيدا: استمر في المجيء بنفسك. عليك فقط أن تغطي رأسك ووجهك بقماش سميك. بذلك لن يتضايق الملك».

شكر بيرم بكري بحرارة. ووعدته بالعمل باقتراحه تماما. إذن، عاد في اليوم التالي بهذا الزي إلى القصر، حاملا معه هديته الخامسة. لما رآه الملك، استغرب جدا هذا اللباس الغريب.

في الحقيقة، غطى الرجل رأسه بقماش سميك، كستنائي اللون،
كانه عمامة مكورة، لا تظهر منه سوى عينيه، رغم الطقس الحار.
لما انصرف، استدعى الملك بكري:

«لماذا يرتدي صديقنا هذا اللباس الغريب؟ ما الذي حدث له؟
— لا أعرف يا صاحب الجلالة. لكن سأتبعه حالا لأسأله
عن السبب».

خرج المستشار الخبيث من القصر، وتظاهر بالذهاب لسؤال
بيرم. ثم عاد بعد قليل إلى القصر:

«يا سيدي، سألت الرجل، لكنه قال كلاما وقحا وخطيرا،
لا أجرؤ أبدا على نقله لك».

— قل، أمرك بذلك.

— ولكن يا سيدي، أخشى...

— قل وإلا ويل لك!

— هاكم ما قاله لي: الملك له نفس كرية. كلما تكلم، أتضايق
من رائحة فمه، فاضطرت لوضع قماش سميك على فمي، كي لا
أختنق. سأفعل ذلك كلما أتيت إليه.

— أه، ياله من مضحك! أيجرؤ على قول ذلك؟

— نعم يا مولاي، ثم أغير كلمة واحدة».

من العجب أن الملك لم يغضب، على غير عادته. فكر لحظات.
ثم، وبهدوء غريب، قال:

«حسنا، حسنا! يا لهذا الرجل الذي يسخو معي، ثم يقذفني
بعد ذلك بكلام فظ. سيلقى غدا الجزاء العادل الذي يستحقه».

حيرت هذه الكلمات بكري وأقلقته. هل فشلت مكيدته؟ ها هو

الملك يتحدث عن جزاء عادل. في الحقيقة، لا أحد يستطيع أبدا أن يحزر ما يدور في رأس ملك.

في اليوم التالي، أحضر بيرم المنجاة السادسة، وقد غطى رأسه ووجهه بالقماش السميك. أكلها الملك بلذّة على ما يبدو، دون أن يقول كلمة واحدة، مكتفيا بالتحديق في هذا الذي جلبها. بعد ذلك، طلب شيئا للكتابة. أحضر له الخادم رقعا، وريشة مبرية، وحبرا، وقليلًا من الرمل الأبيض. ثم، ودون أن ينبس بكلمة بعد، خط بضع كلمات، بحضور رجال البلاط الصامتين. وضع عليها رملا كي تجف، وطوى الورقة جيدا وأعطاهما إلى بيرم قائلا: «اذهب يا صديقي إلى رئيس حراس بيت المال، وأعطه هذه لتنال جزاءك العادل».

انحنى بيرم محييا وشاكرا ولي نعمته، والتفت راجعا دون أن يقول شيئا. خرج مسرعا من القصر، لكنه لم يذهب بعيدا جدا، فقد أمسك به بكري الماكر، وقال له:

«مهلا يا صديقي، أرسلني الملك إليك. كلّفني بالتعبير لك عن مودته. يعطيك أيضا هذا الكيس، المليء بالتبر، ويطلب منك إعادة الورقة، التي يأمر هيها كبير حراس بيت المال بمنحك الجزاء نفسه».

كيس التبر هو ثروة ضخمة. أخذه بيرم، ولم يعرف كيف يشكر الملك على سخائه الكبير معه. وأعاد الرسالة إلى مبعوثه. توجه بكري فورا إلى أمين الخزانة، سعيدا بخداع هذا الرجل السريع التصديق. لا شك أبدا أنه سينال عشرة أضعاف ما أعطاه لهذا الساذج.

سار بأقصى سرعة حتى وصل إلى بيت المال، الذي يحرسه جنود أشداء بكامل أسلحتهم. طلب مقابلة قائدهم. ولما وصل إليه، أعطاه الرسالة. ويعد أن قرأ رسالة الملك، وأعاد قراءتها، تردد الرجل لحظة، لأنه يعرف بكري جيدا. لكن هذا الأخير لم يطق الانتظار، فقال له:

«ما بك، ألا تريد تنفيذ أمر الملك؟ لماذا أنت متردد؟».

أشار إليه رئيس حراس بيت المال بأن يتبعه إلى الباحة الخلفية. مشى المستشار خلفه بثقة. وبإشارة من رئيس الحراس، أمسك به حارسان في الحال، وقطع الثالث رأسه بضربة سيف واحدة. في اليوم التالي، وبالساعة نفسها، حضر بيرم إلى القصر ومعه سلته والمنجاة السابعة، التي كانت ألد من سابقاتها. لما رآه الملك، دهش جدا، واستغرب عودته:

«من أين أتيت؟ لماذا أنت هنا؟».

- جئت يا مولاي لأقدم لك آخر ثمار شجرتي العجيبة. أردت في الوقت نفسه أن أشكرك على كرمك وطيبتك العظيمة نحوي، بعد مغادرتي القصر أمس.

- ماذا تعني؟ عن أية طيبة تتحدث؟ لم أعد أفهم شيئا. أحضروا فوراً رئيس حراس بيت المال.

وصل هذا الأخير بسرعة ويده كيس أسود. سأله الملك بقسوة:

«ما الذي يجري هنا؟ لماذا لم تنفذ ما أمرك به؟»

- يا مولاي، نفذت أوامرك حال وصولها إلي. كتبت: «اقطع رأس حامل هذه الورقة». كان مستشارك بكري هو حاملها. ها هو رأسه في الكيس.

لما سمع بيرم هذه الكلمات، فهم فورا الحكاية المحزنة. أخبر الملك بكل ما طلب بكري منه القيام به: القماش السميك حول وجهه، وكيس التبر، واستعادة الرسالة، وكل الأكاذيب كلها، كلها. عرف الملك، من لهجته الصادقة، أن الرجل لا يكذب. بانت الحقيقة، واندحرت المكيدة والكذب. لقد عاقب الخبيث نفسه بنفسه. وأصبح من المناسب مكافأة الصادق. توجه الملك، سيد البلاد، إلى بيرم قائلا:

«تبدو لي رجلا نزيها، وطيبا ومخيا. لم يعد عندي رئيس مستشارين. هل تحب أن تحل مكانه؟ ولكن أولا ناولني هذه السلة الصغيرة والمنجاة السابعة التي فيها. أظن أنني سأتلذذ بها». منذ ذلك الوقت والمثل يقول: «عندما تتمنى الخير لجارك، فذلك كما لو أنك تبني له قصرا. وعندما تضمر له الشر، فذلك كما لو أنك تبني له سجنًا. ولكن عاجلا أو آجلا، أنت من سيسكن فيما بنيت بنفسك، قصرا أو سجنًا».

٢ - تيرنو بوكار

يبحث عن زوجة

عاد تيرنو بوكار، سَمِيَّ كبيرُ حكماء بندياغارا، للعيش في قرية والده، بعد أن طاف ممالك الشمال والجنوب، وممالك الشرق والغرب. زار المدن والقرى، وسافر إلى كل مكان سمع أن فيه رجلاً يمكن الاستفادة من علمه ومعرفته. واليوم، بعد أن تعلم، وامتلاً رأسه فلسفة، وحكمة أيضاً، يعيش بتواضع بين أهله وأصحابه. ذات مساء، بعد سنة من عودته، مع نهاية الحصاد، زاره الخال أمادي في بيته. وبعد تناوله العشاء مع بقية أفراد الأسرة، قال لابن أخته:

«أصبحت رجلاً يا تيرنو بوكار. أعرف أن الملك لا يأخذ أي قرار مهم قبل استشارتك، نظراً لعلمك الواسع وحكمتك. أقول لك، أنا خالك، على الرجل الناضج أن تكون له زوجة. ماذا تنتظر بعد؟ بدأت تثير قلق والديك عليك. وشيوخ القرية لا يتبينون مرادك».

- يا خالي الطيب، ما تقوله صحيح، بالتأكيد إنني أغذي بعض مخاوفي من أجل امرأة ذكية جداً أريدها ذات عقل متفتح، تفهم بسرعة أسرار السماء والأرض، تكون شريكة حياتي.

- نعم يا بني، ما أقوله صحيح. اسمع ما أقترحه عليك. اذهب إلى قرية تاجار، على الضفة الأخرى من النهر الكبير. يعيش هناك أخ آخر لأمك. لم تنجب زوجته سوى البنات. قيل لي إنهن يجدن غزل الصوف، ودق الذرة، والطبخ، وإدارة البيت، والاحتفاء

بالضيوف، توجه إليه واختر إحداهن. أخبرني بعد عودتك أيهن اخترت، وسأذهب لإحضارها زوجة لك. هذا ما اتفقنا عليه أبوك وأنا، إلا إذا كنت قد وجدت هنا فتاة تناسبك.

- لا يا خالي، لم أجد ولا واحدة بعد. سأعمل كما رغبتما والدي وأنت. سأسرح حصاني منذ صباح الغد للسفر.

سافر تيرنو بوكار صباح اليوم التالي، يرافقه صديق طفولته بكر، كل على حصانه، دون استعجال. مع حلول الليل، توقفوا في قلب السهل العشبي، وربطوا دابتيهما إلى جذع شجرة كبيرة لقضاء الليل. واستأنفا الرحلة في صباح اليوم التالي، وحوالي منتصف النهار، وصلا إلى إحدى القرى، وتوجها مباشرة إلى البئر، حيث وجدا بعض الفتيات يملأن الجرار والأواني.

بعد التحية المعتادة، قال لهن تيرنو بوكار:

«أيتها الفتيات، أتود إحداكن تقديم الماء لمسافرين مسكينين ظمآنين، ولحصانيهما أيضا؟».

أحضرت أكبرهن، وأجملهن أيضا، الماء للصديقين. قدمت لهما إناءها بعد أن حيتهما بانحناء صغيرة، تعبيرا عن تهذيبيها البالغ، مثلما يليق بفتاة أو امرأة حين تقديم الماء لأحدهما كي يشرب، أو عندما تحيي شخصا أكبر سنا. ثم سقت الدابتين. ولما همت بالانصراف، شكرها تيرنو بوكار، وقال لها:

«ما اسمك أيتها الحسنة؟».

ترددت الفتاة في الإجابة. هل من الأدب الرد على الغريباء بالتجاهل؟ لما رأى ترددها، وتفهمه تماما، تابع تيرنو بوكار قائلا:

«لا تخافي. نحن رجلان شريفان. سألناك لأنك احتضيت

بنا. ثم إن نظراتك وملامحك تدل على أنك ذكية. من أنت؟
أين تسكنين؟»

- لا أعرف إن كان علي أن أجيبكما، لأن بنات الأسر الكريمة لا
يمكنهن تبادل الحديث مع أشخاص لا يعرفنهم.

- يا له من موقف نبيل! اسمي تيرنو بوكار. وهذا بكر،
صديق طفولتي.

- لا أستطيع ذكر اسمي، ولكن قد تحزرانه إن قلت لكما إنه
ليس لي أي عدو.

فكر الصديقان لحظة. ارتسمت ابتسامة على شفتي تيرنو
بوكار. وأجاب:

«فهمت. هل تدلينا على الطريق المؤدية إلى قرية تاجار؟»

- لا أعرف طريق تاجار، لأنني لم أغادر بيتي أبدا. لكن أبي
يعرف أين هي هذه القرية، فقد ذهب إليها مرارا. يمكنه أن يدلكما
على الطريق.

- دلينا على بيتك لنلتقي بأبيك.

- انتظراني هنا. سأعود حالا.

وضعت الفتاة إناء الماء على رأسها، واتجهت نحو البيت. ثم،
عادت بعد وقت طويل. كان الرجلان بانتظارها في ظل شجرة،
قبالة البئر. وضعت عند أقدامهما قصعة من الخشب المنحوت وقد
غطتها بسلة صغيرة، وقالت:

«انتظركما في البيت. أنا ذاهبة الآن لإخبار أبي بقدمكما.
ستطلعاه بنفسكما على غرض زيارتكما».

قالت كلماتها، وانصرفت. كان في داخل القصعة رمل أحمر

يعلوه غصنان صغيران من شجر الصفصاف، أحدهما جديد
والآخر قديم. وبجانبهما، وضعت عظمة وبعض قطع اللحم على
أوراق شجرة الباؤياب. أثار المنظر غضب بكر:

«لا بد أن هذه الفتاة مجنونة تماما، أو أنها تسخر منا. أعتقد
أنها لا تريد أن تدلنا على مكان سكنها. لماذا ترفض ذكر اسمها؟
هذا ما لا أفهمه. ثم ما هذه الأشياء التي لا أرى لها معنى؟».

أخذ تيرنو بوكار يضحك بصوت عال. خاف بكر من الأسوأ: هل
بليت حرارة الشمس القوية رأس صديقه، مثلما فعلت برأس هذه
الفتاة؟ ليس من الأفضل قطع الرحلة، والعودة من أجل
معالجته؟ ازداد دهشة عندما قال رفيقه:

«يا صديقي بكر، غالبا ما طلبت منك مراقبة الكائنات
والأشياء قبل أن تتكلم. أخبرتنا هذه الفتاة باسمها».

- لا، لا، لم تقل شيئا. أجابت عن سؤالك بالقول: ليس لي
أي عدو.

- تماما، إذا لم يكن لك أعداء، فماذا يكون الناس بالنسبة إليك؟
- أصدقاء على ما أظن.

- حزرت. اسمها صديقة!. ثم إنها دلتنا على بيتها. دع
حصانينا هنا. تناول هذه القصعة واتبعني».

اسمها، حزره بكر. أما البقية، فلم يعرف شيئا عنها. كان
يثق برفيقه، فتبعه بهدوء. مشيا قليلا، ثم توقف تيرنو بوكار
فجأة، وقال:

«ها هو البيت».

في أوج حيرته، رد رفيقه مذهولا:

- لا املك علمك ولا عقلك يا صديقي. هل تفسر لي تأكيدك بأن هذا هو البيت الذي نبحث عنه فعلا؟
 - بكر، يا صديقي، يا أخي، أقول لك مجددا: طالما لم تدرب نظرك على دقة الملاحظة، وعقلك على التفكير، لن تستطيع فهم أشياء الحياة. ضع هذه القصعة على الأرض. قل لي بهدوء ما هي الأشياء الموجودة في داخلها، واحدا بعد آخر.
 - أرى أولا رملا أحمر.
 - انظر إلى فناء هذا البيت. لا يوجد رمل أحمر إلا فيه. أما البيوت الأخرى، فلا نرى فيها سوى رمل أبيض. ماذا يوجد في القصعة أيضا؟
 - غصنان صغيران من شجرة صفصاف. واحد جديد والآخر قديم. أعترف أنني لا أفهم دلالة ذلك.
 - انظر إلى السور أمامك وستفهم فورا. نصف السور جديد والنصف الآخر ينتظر الاستبدال. هذه هي دلالة الفصنين - الجديد والقديم.
 - إذن، ماذا تعني أوراق شجرة البأؤياب، في حين لا توجد في البيت سوى أشجار المنجة؟
 - استدر لتر شجرة البأؤياب قبالة البيت، هي دليل آخر على المكان، لكنك نسيت الشيء الأهم يا بكر.
 - لا، لم أنس العظمة وفتات لحمها. أتساءل ببساطة ماذا يوحي ذلك.
 - ستعرف حالا، تعال وادخل أنت أولا.

ما إن دلف الاثنان أرض الدار، حتى خرج كلب من إحدى الزوايا
وهاجمهما. أخرج بكر العظمة فورا ورمأها له. تناولها سريعا وعاد
إلى زاويته ليأكلها بهدوء.

مع نباح الكلب، خرج من الكوخ الكبير رجل راشد، وامرأة، وفتاة
البئر. استقبلوا المسافرين بلطف وحرارة وبشاشة، كما هي
التقاليد، التي تؤكد أنه إن زارك إنسان غريب مصادفة، دون موعد
مسبق، فذاك يعني أن الله قاده إليك. بعد التحية والسلام
الطويلين المعتادين، وبعد أن استراح المسافران قليلا، وشربا
الحليب وكولة القري، قال تيرنو بوكار لضييفيه:

«أيها الوالدان الكريمان، نشكركما على استقبالكما الذي
أنسانا تعب السفر المرهق، ولسنا إلا في بدايته بعد».

أجاب رب الأسرة:

«اعتبرا هذا المنزل المتواضع كبيت والديكما. ابقيا عندنا ما
شئتما من الوقت. يمكنكما زيارتنا مرة أخرى في طريق العودة،
لتستريحا وتجندا نشاطكما قبل مواصلة السفر إلى دياركما».

- شكرا أيها الصديق. قبل أن نرحل، أود طرح بعض الأسئلة
على ابنتكما، بحضوركم، إن سمحت لي طبعاً».

أشار الرجل إلى زوجته بابتسامة قبول مأكرة، فخرجت لإحضار
الفتاة. ولما وصلت، حيت الضيفين بأثناة صغيرة. قال لها والدها:

- صديقة، يا ابنتي، يريد هذان الرجلان طرح بعض الأسئلة

عليك. هل تحبين أن تسمعيها؟

- طلباتك أوامري يا أبي. سأسمع. وسأجيب إن استطعت.

تكلم بكر أولا:

- «أيتها الفتاة، قام صديقي تيرنو بوكار، سميّ حكيم باندياغارا الكبير، برحلات كثيرة كي يتعلم ويتثقف. يبدو أنك أثرت اهتمامه، إذ يزعم أن ذكاءك واسع وفكرك ثاقب. هل يمكنك الإجابة عن الأسئلة، التي يرغب في طرحها عليك؟».
- بدأت الفتاة خجلة جدا. قالت متممة، وعيناها على الأرض:
- «وصلت شهرة صديقك إلى قريتنا. أشك الآن في قدرتي على الإجابة عن أسئلة رجل مثله».
- أعجب تيرنو بوكار بتهذيب صديقة وتواضعها. ولم يزد ذلك إلا قناعة بالزواج منها. طمأنها قائلا:
- «أعتقد جازما يا صديقة بأنك تستطيعين الإجابة كما يجب. اسمعي أسئلتى جيدا. هاك السؤال الأول:
- من الذي لا يكثرث أبدا بالبحث عن مسكن يأويه، مطمئنا إلى أن هذا المسكن موجود منذ ولادته؟».
- السلحفاة. فما إن تولد، حتى تحمل بيتها على ظهرها.
- وقبل أن يتسنى للحاضرين وقت للتعبير عن إعجابهم بالحوار، تابع تيرنو بوكار فورا:
- يقال إن كل مسكن جميل حالما ينتهي بناؤه، ولا يسع من يسكنه إلا أن يفرج به.
- يمكن اعتبار ذلك صحيحا إلا إذا كان هذا المسكن قبرا.
- تشكر الضفدعة إن غطستها في وعاء ماء.
- إلا إذا كان الماء يغلي.
- لديك يا صديقة ثروة ليس لله مثلها.
- هذا صحيح. لدي والداي. ليس لله أب ولا أم.

- يبقى الذهب الشيء الأثمن في العالم.
- يعتقد الإنسان بذلك، لكن الصداقة أفضل من الذهب.
الصداقة تدفئ القلب الحزين، وتواسي المكروب، وتساعدنا وتسكن
آلامنا في الملمات. نعم، الصداقة المخلصة خير ألف مرة من
الذهب.

- لا تستطيع الفتاة أن تحب أحدا أكثر من أمها.
- بالتأكيد، ولكن أئن تتركها ذات يوم، لتلحق بزوجها؟
- ذراعا الفتى القويتان أفضل خدمة من ذراعي العجوز.
- في شؤون الحياة، ترى عينا العجوز، وهو مستقل، أبعد مما
تراه عينا الفتى وهو واقف فوق مصطبة.
- الثروة هي نعمة من الله.

- لماذا يموت الغني إذن؟ ولماذا يمرض؟ ولماذا لا يغني أبدا؟
- نار الغابة الكثيفة تأتي على كل شيء، وتنشر الرعب في
طريقها.

- لكن الدروب لا تخشاها أبدا.
- لا فرح أكبر من فرح تلقي الهدية.
- يمكن أن تكون متعة تقديم هذه الهدية أكبر من متعة تلقيها
غالباً.

- مشهد الفيلين وهما يتقاتلان غريب، ويسر به كل الناظرين.
- حتماً، لكن الضفدعة تفوز عندما تبتعد سريعا عن
المتقاتلين.

- يزعم صياد ماهر أن لا أحد يستطيع قتل ظبي وهو يركض.
- هكذا يقال، لكن الظبي لا يركض أبدا أسرع من قرنيه.

أعجب تيرنو بوكار كثيرا بأجوبتها، التي أصغى إليها وهي تنساب من فمها بعفوية تقريبا. انتابه لأول مرة شعور غريب وصاح وهو في ذروة انشراحه:

«آه يا صديقي المخلص بكر، هل سمعت مثلي كلام هذه الفتاة الحسنة؟ لماذا نضيع وقتنا بالذهاب إلى تاجار؟»
أجاب بكر ولم يفق بعد من دهشته:

«ولكن، تذكر يا من اعتبره أكثر من أخ! نحن ذاهبان إلى تلك القرية لنرى إن كانت إحدى قريباتك تليق بك زوجة».

- ولماذا نرهق حصانينا بالسفر إلى آخر السهول من أجل ذلك؟
قل لي، ألم نجد الآن تلك التي تناسبني. لنعد فورا إلى القرية كي نخبر خالي بالأمر. عليه زيارة هذا البيت الكريم. الزوجة التي أتمناها تسكن هنا. وجدناها.

وهكذا، تزوج تيرنو بوكار، سمى كبير حكماء باندياغارا. عندما وصلت صديقة، التي ستصبح شريكة حياته، إلى بيت الزوجية، لاحظ أيضا أنها تجيد غزل الصوف، ودق الذرة، والطبخ، والاحتفاء بالضيوف. سر بذلك. منذئذ، بات صديقه بكر وهو مقتنعين بشيء يكاد لا يصدق، خلافا لما كان يردده الخال أمادي: «قد يساعدك القدر أحيانا، في وضع النهار، في الحصول على النجوم والقمر من قرية بعيدة في قلب السهول».

٣ - الاختيار الحسن

هل تعرفون كور سامبا؟ إنها قرية في شمال بلادنا، قرب النهر الكبير. عاش في هذه القرية ثلاثة أصدقاء، دمبا، وسيني، ومديور. ولدوا في بيوت متجاورة. كبروا معا، وختنوا في الكوخ نفسه. وأصبحوا يافعين وساما، أقوياء، ومضعمين بالطموح، كجميع فتیان عمرهم.

ذات يوم، في طريق عودتهم من الصيد، توقفوا عند مدخل القرية ليستريحوا ويتحدثوا قليلا. قال سيني: «تبدو الحياة التي نعيشها في القرية يا أصدقاء رتيبة، وكلها ملل طيلة الأيام. فكرت مليا مثلكما في هذه الأوقات الأخيرة. وأكثر ما فكرت فيه هو ما أكده جدي: في قرية بعيدة، اسمها فابولي، شرق بلادنا، يعيش شخص نصفه إنسان ونصفه جني، يسمونه «خم تان». يقولون إن هذا الشخص يستطيع تحقيق طموحات كل ذي إرادة. الصعوبة الوحيدة هي كيف نجده. ما رأيكم يا أصدقائي بمثل هذه المغامرة، فنحن شباب وأقوياء، ونعرف ما نريد من الحياة. هيا نبحث عن خم تان. ماذا تقولون؟»

قال دمبا:

«سيني محقّ. أنا جاهز. علينا الرحيل بأسرع وقت».

- نعم أنت مصيب. ولم الانتظار؟ لنسافر منذ الغد. بذلك لن يتسنى وقت لتغيير رأينا. سنجد فابولي، وسنرى خم تان.

منذ اليوم التالي، حتى قبل صياح الديك، غادر الفتيان الثلاثة القرية. اتجهوا شرقا مباشرة، واثقين من أنفسهم، وملؤهم الإرادة والتصميم. مشوا عشرة أيام في السهول العشبية الواسعة. ولكن سرعان ما نفذ زادهم، فراحوا يأكلون الثمار البرية. كان سيني، الماهر برمي السهام، يصطاد طريدة بين وقت وآخر. وبرع دمبا ومديور جدا في الصيد بالفضخ والأنشودة. إصطادا أرانب، وحجلا، وطيورا أخرى لحمها طيب. كانوا يشوونها بهمة وحماس، ويأكلونها بلذة، فيجددون بذلك نشاطهم، ويعززون شجاعتهم. مشوا عشرة أيام أخرى في سهل قاحل كثير الغبار، لا نبات فيه. لفحتهم الشمس بقسوة، وجفت أفواههم من شدة العطش. وصارت القرى على طريقهم نادرة أكثر فأكثر، والآبار التي يصادفونها شحيحة الماء. فجأة، ظهرت أمامهم تلال لا يتخللها أي طريق. تسلقوها تلة بعد تلة، واستغرق ذلك عشرة أيام أيضا. وما أن عبروا التلال، حتى واجهتهم غابة كثيفة وكبيرة جدا. مشوا فيها عشرين يوما. لكنهم كادوا يضلوا الطريق، بعد أن حجبت عنهم أغصان الأشجار وأوراقها الكثيفة رؤية الشمس، التي كانوا يهتدون بها. ولما خرجوا من الغابة أخيرا، لاحت أمامهم قرية فابولي.

توقف الأصدقاء الثلاثة، الذين نحتل أجسامهم، واهترأت ثيابهم حتى أصبحت خرقا حقيقية، أمام أول كوخ صادفوه. وجدوا هناك امرأة شابة تدق الذرة في مدق كبير، وقد وضعت طفلها الرضيع على ظهرها. حيوها باحترام. لكن الشابة لم ترد. كاد سيني ودمبا يحتجا ويوبخا المرأة، التي لم تكلف نفسها

حتى بالرد على التحية. لكن مديور أشار إليهما بالسكوت، وقال
لدقاقة الذرة:

«يا أختي، نحن ثلاثة فتيان مسافرين. جئنا إلى هذه القرية
من مكان بعيد جدا، كي نلتقي برجل عجوز. هل يمكن أن تدلينا
إين نجده؟ يدعى خم تان».

توقفت الشابة عن الدق، دون أن تجيب. أنزلت رضيعها عن
ظهرها ووضعتة على حصيرة القصب. ثم تابعت عملها، كأنها ما
رأت أحدا ولا سمعت شيئا.

عندئذ، فتح الرضيع فمه وقال:

«عندما تتفرغ أمي لعملها، تحب ألا يزعجها أحد».

ذهل الأصدقاء الثلاثة حينما سمعوا رضيعا يتكلم. قالوا له
بصوت واحد:

«تستطيع الكلام؟ كيف يمكن ذلك؟».

أجابهم الرضيع بصوت واثق:

«ينذهل الإنسان، ويرتعد خوفا عندما يرى شيئا لا يفهمه، أو
لم يعتد على رؤيته. تريدون إذن رؤية العجوز خم تان؟ امشوا بعد
الصلاة، واخرجوا من القرية. عدوا حتى ثلاثة، إن كنتم تعرفون
العد، وستجدونه أمامكم».

سأله سيني، المدهوش بعد:

«ولكن كيف نخرج من القرية؟ أين يجب أن نتجه؟ لماذا نعد
حتى ثلاثة؟ من أنت؟».

- كثرة الكلام تضر أكثر مما تنفع. أنتم تزعجون أمي وتلهونني عن
التفكير بأشياء الحياة. أعطيتكم كل الإرشادات الضرورية. هيا انهبوا».

أخجلهم تعنيف الرضيع، فابتعد الثلاثة حالا. مشوا في شوارع القرية، التي بدت خالية من السكان. ثم توقفوا في الساحة الكبيرة. هنا أيضا، لم يجدوا أحدا ليدلهم. قال مديور لأصدقائه:

«لنفكر قليلا. قال الرضيع: ,, امشوا بعد الصلاة، واخرجوا من القرية، يعني ذلك أن علينا التوجه نحو مخرج القرية، لأننا نصلي ووجوهنا نحو الشرق. هيا إذن في هذا الاتجاه».

سار المسافرون الثلاثة في الاتجاه الذي تشرق منه الشمس. وما أن خرجوا سريعا من القرية، حتى رأوا ثلاثة أشجار بأزباب، كل منها خلف الأخرى، وبجانبها كوخ. أدركوا حينذاك معنى كلمات الرضيع. لمحوا أمام الكوخ عجوزا بلحية بيضاء، يتأمل. حياه الأصدقاء الثلاثة باحترام. رد العجوز على تحيتهم، ودعاهم للجلوس قبائلته. ثم قال لهم:

«تدل ثيابكم البالية على قدومكم من مكان بعيد جدا».

- نعم يا جدنا، كانت رحلتنا طويلة ومحفوفة بالمخاطر. نجونا من الموت عدة مرات، كل ذلك في سبيل الالتقاء بكم.

- لا بد أن أسباب رحلتكم مهمة جدا. في الحقيقة، أنا أحزرت لماذا أنتم قادمون لرؤيتي، ولكن أفضل أن تقولوه بألسنتكم أنتم. ها أنا أسمعكم.

تكلم دمبا أولا:

«أغلى آمياتي هي أن أكون رجلا غنيا. لن يمكنني ذلك من العيش في بحبوحة فقط، بل من الإحسان للآخرين أيضا. أعرف أيها الجد الكريم أنك تستطيع مساعدتي».

تكلم سيني بدوره، قائلا للعجوز:

«أما أنا، فأتمنى أن أصبح عالما كبيرا، بحأثة، رجل علم، عارفا بكل شيء. ذلك هو حلم حياتي. أعرف أيها العجوز المبجل أنك تستطيع منحني هذه الهبة بما لديك من قدرات.

كان مديور آخر المتكلمين. قال:

«يا جدي المحترم، أمنيته الأعظم، منذ أن أصبحت يافعا، هي أن أجد زوجة صالحة، رقيقة وذكية، تحسن إدارة بيتي وتربية أطفالنا. لا أطلب أكثر من ذلك».

لما سمع دمبا وسيني هذا الكلام، ارتسمت علامات دهشة كبيرة على وجهيهما. هل أحدث طول السفر ومتاعبه لولة في عقل مديور؟ لم يترك لهما خم ثان وقتا للتفكير أكثر من ذلك. قال لهما: «أيها الفتیان، لم تفاجئني آمنياتكم أبدا. سألبيهما. ولكن علي تحذيركم أولا. أنت يا دمبا تريد الثروة. سأعطيك إياها، ولكن انتبه! إذا لم تشفق على المساكين، فقدتها. وأنت يا سيني، ترغب في العلم. ولكن، على العالم أن يتصف بالتواضع. أعرف ذلك. يجب أن يستفيد الجميع من علمك، في أي وقت. إن خالفت هذه القاعدة مرة واحدة، ذهب كل علمك، وعدت أكثر جهلا من قبل. أما أنت يا مديور، وخلافا لما يعتقد صديقاك، اللذان أدهشتهما آمينتك، لم يكن خيارك هو الأسوأ. المرأة الصالحة تسعد أسرتهما، وتبقي بيتها بهيجا وحفيا دائما. تهدي زوجها بالنصح الطيب إلى الطريق الصحيح. النصيحة الطيبة تعني المعرفة. النصيحة الطيبة تساوي ذهابا. النصيحة الطيبة تصنع السعادة. يجب أن تتبع النصيحة الطيبة عندما يسديها لنا شخص عاقل».

«والآن، هاهي قطعة فضة لكل منكم. احفظوها بعناية كبيرة. يجب أن لا تفارقكم مهما كان السبب. وطالما بقيت معكم، لازمتمك الثروة يا دمبا، والعلم بالنسبة إليك يا سيني، والمرأة الصالحة ونصائحها الطيبة بالنسبة إليك يا مديور. ولكن حذار، إن أساتم التصرف مرة واحدة مع أحدهم، استرجعت منكم هذه القطع، فتفقدون كل شيء. عودوا إلى بيوتكم. تذكروا دائما ما أوصيتكم به».

بعد العودة، حافظ كل منهم بعناية كبيرة على الحِرْز، القطعة الفضية التي حصلوا عليها من خم تان، العجوز الجليل. وسرعان ما تحققت أمنياتهم.

أصبح دمبا رجلا غنيا، لديه كثير من الذهب، والحقول، والمخازن المليئة بالغلال، وقطعان الماشية. وتزوج قورا. وراح يأتيه الرجال والنساء كل يوم، طالبين الطعام أو الثياب، أو لتسديد ديونهم، أو لأي شيء آخر. غالبا ما لبى رغباتهم، ولكن ليس بكثير من السخاء.

وصار سيني مثقفا جدا فجأة. أخذ يقدق النصيح، ويعلم الآخرين كثيرا من الأشياء. وتوافد إليه الناس من أماكن بعيدة أحيانا، لينهلوا من علمه ومعرفته. وتزوج هو أيضا.

أما مديور، فلم يكن غنيا، ولا مثقفا كثيرا. لكنه حظي بامرأة ممتازة، وصالحة، ورقيقة، ومحبة، ولطيفة جدا. وتسدي لزوجها نصائح جيدة جدا، حتى أن شيوخ القرية العقلاء لم يترددوا في طلب رأي الفتى كلما واجهت القرية مشكلة صعبة. في كل هذه الأحوال، لم تبخل زوجة مديور بالاقتراحات والأفكار الصائبة

لمعالجة المشكلات. وعاش الزوجان حياة سعيدة، رغم أنهما لم يكونا غنيين.

بعد ذلك بسنوات، وفي ساعة متأخرة من الليل، طرق باب دمبا الغني رجل رث الثياب، متعب، ومتسخ. فتح الخادم الباب صارخا:

«ماذا تريد؟»

- أرغب في الحديث إلى سيدك دمبا. قل له أنا مسافر قادم من مكان بعيد أود رؤيته.

ترك الخادم الرجل في الشارع. تردد لحظة، لكنه ذهب ليخبر دمبا، الذي هرع إلى الباب تتبعه زوجته يدفعها الفضول لرؤية الطارق. خاطب دمبا الرجل بنزق وترفع:

«من أنت؟ ألا ترى أن الوقت متأخر؟ ما طلبك؟»

- أنا مسافر فقير. جئت من مكان بعيد جدا. إني متعب. تمزقت ثيابي، ولم أذق الطعام منذ وقت طويل.

قالت زوجة دمبا لزوجها:

«الوقت متأخر كثيرا. قل لهذا الرجل أن يرحل. ليعد غدا إن أراد. سيقدم له الخدم ما يأكله».

- ألم تسمع ما قالتة زوجتي؟ عد غدا صباحا وسنرى ما يمكن تقديمه لك.

ما أن أنهى كلامه، حتى أغلق دمبا باب منزله. توجه الرجل إلى بيت سيني. قرع الباب بإلحاح، فخرج إليه سيد البيت سيني بنفسه، تتبعه زوجته. ولما فتح الباب، بادره الرجل قائلا:

«تحية أيها السيد. أنا مسافر قادم من مكان بعيد جدا. أود أن أصبح تلميذا لك، لأنهل من علمك وأتعلم أشياء الحياة، إذ يقولون في قريتي إنك تعرف أشياء كثيرة».

وقبل أن يفتح سيني فمه ليرد، تدخلت زوجته:

«هل هذا الوقت مناسب لطرق أبواب الناس؟ انصرف. عد في يوم آخر، ولكن لا تنس أن تغتسل وترقدي ثيابا نظيفة قبل وصولك إلى هنا».

وأغلقت الزوجة الباب فجأة في وجهه. ولما كان طبعها سيئا جدا، وسليطة اللسان وسمينة، خاف منها سيني، ولم يجرؤ على قول شيء.

انصرف الرجل، بهدوء. قادته قدماءه إلى بيت مديور. قرع الباب، وانتظر. وبعد لحظات، فتحت فاما زوجة مديور الباب. وما إن رآته حتى قالت له:

«أهلا يا عمي، تفضل».

- لماذا تنادينني يا عمي؟ أنت لم ترينني من قبل أبدا!

- أناديك هكذا لأنك بمنزلة العم. لذلك أعاملك مثله. هذا ما

علمني إياه والداي. أهلا وسهلا بك كائنا من كنت.

في أثناء ذلك، وصل مديور، الذي حيا الرجل، وسأله:

«من أين أتيت؟ يبدو أنك مشيت كثيرا».

- نعم، في الحقيقة مشيت كثيرا. أنا متسخ، وجائع، وثيابي

رثة، وليس لدي مال لمتابعة السفر. لهذا قرعت بابك.

- لست غنيا، ولكن اعتبر نفسك في بيتك.

- تعال معي يا عمي. الحمام جاهز كي تغتسل. أرى أنك

بطول زوجي، يا للمصادفة! سأعطيك الجلباب الذي حكته له.
بما أن القدر ساقك إلينا هذه الليلة، سيكون هذا الجلباب من
نصيبك. سأحضره.

جلبت فاما الثوب. وبينما كان الرجل يستحم، ذهبت إلى القن،
وأحضرت آخر ديك بقي في البيت. نظفته، وطهته سريعا، وهيأت
الماء العذب. وقطفت بعض ثمار المنجة من شجرة الدار. جلس
المسافر إلى الطعام يأكله بشهية. وهيأت فاما بعد ذلك بعض
الحصر والفرش، ووضعتها في الكوخ، الذي بناه زوجها لنوم
الضيوف العابرين.

في صباح اليوم التالي باكرا، تهيأ الرجل للرحيل:
«سأتابع سفري الآن. ولكن ليس لدي نقود».

عندئذ، قالت فاما لن زوجها:

«ليس عندنا شيء يا مديور. آه تذكرت: لدينا قطعة فضة في
العلبة تحت سريرك. لم تشأ أن تصرفها أبدا. هذا الرجل
يحتاجها اليوم أكثر منا. لنعطه هذه القطعة».

تردد مديور قليلا، ثم قال لن زوجته:

«قطعت عهدا للعجوز الذي أعطاني هذه القطعة ألا أفارقها
أبدا. مع ذلك، أعتقد أنك على صواب. هذا الرجل يحتاجها أكثر
منا. اذهبي وقدميها له».

أعطت فاما، الزوجة الصالحة، القطعة الفضية للرجل. في
هذه اللحظة تماما، سمعت طرقا قويا على باب البيت. كانا دمبا
وسيني. دخل الصديقان، مذعورين لاهئين، والعرق يتصبب منهما
رغم برودة الصباح. وراحا يصرخان معا:

«مديورا مديورا فقدنا قطعة الفضة».

حينذاك، قال لهما المسافر:

«لا تبحثا عنهما. هاهما. فقدتماهما الآن إلى الأبد».

- ولكن، من أنت؟ كيف وصلت إليك القطعتان؟

- هذه القطعة، الأولى، التي في يدي، قدمها لي مديور بناء

على نصيحة زوجته. أما الآخران، هاهما في جيبِي، فقد قدمهما

لكما خم تان. أنا خم تان. استعدتهما.

- غير ممكن! مستحيل أن تكون خم تان! رأيناها، إنه رجل

عجوز.

- أعمت المفاجأة والدهشة بصيرتكما. مع ذلك، قال لكما طفل

رضيع في قرية فابولي: «يذهل الإنسان ويرتعد خوفا عندما يرى

شيئا لا يفهمه، أو لم يعتد على رؤيته، أستطيع أن أتخذ شكل فتى

أو رجل عجوز. الرضيع الذي كلمتموه كان أنا أيضا».

أنت يا دمبا، أردت أن تصبح غنيا، وأعطيتك الثروة. وأنت يا

سيني، أردت أن تغدو عالما، ومنحتك المعرفة. أما أنت يا مديور،

فأردت زوجة صالحة. وحققت لك أمنيتك. بناء على نصيحة

زوجتك يا دمبا، ورغم ثروتك، لم تشأ مساعدة مسافر مسكين

متعب وجائع. وأنت يا سيني، رغم كل معاركك، رفضت إيواء رجل

جاء ليتعلم منك، لأن زوجتك أساءت نصحك. أما أنت يا مديور،

فلم ترغب بأكثر من زوجة صالحة، وكنت الوحيد الذي أحسن

الاختيار. فبناء على نصيحة فاما، زوجتك النبيهة والذكية، مثلما

تمنيتهما، استقبلتني كصديق حقيقي دون أن تعرفني قبل ذلك.

احضرت لي زوجتك الماء كي أستحم. أعدت لي وجبة طيبة رغم

تأخر الوقت. منحنتي أفضل ثيابك. وأخيرا، لم تتردد في إعطائي هذه القطعة الفضية، بناء على نصيحة زوجتك، رغم أنها كنزك الوحيد.

أنا، خم تان، أقرر ما يلي. القطع الفضية الثلاث تصير كلها لـ مديور. ومنذ الآن، ستكون له الثروة، والمعرفة، والمرأة الصالحة لتنصح. أنت يا دمبا، وأنت كذلك يا سيني، أضعتما كل شيء. ستعودان إلى حالكما قبل مجيئكما إلى قرية فابولي. والآن، وقد أمسيتما فقيرين وجاهلين، كما كنتما، فكرا في هذه الحقيقة: «المرأة الصالحة أفضل من كل معارف الدنيا ومن كل ذهب العالم».

٤ - زواج الأرنب الكبير لوك

«يا رعاياي المخلصين، أتيتم جميعا تلبية لدعوتي. أرى هنا أولئك الذين يركضون، وأولئك الذين يمشون، وأولئك الذين يطيرون، وأولئك الذين يزحفون. بالفعل، لم يتخلف أحد. أعرف أنكم تنتظرون بفارغ الصبر كي تعرفوا لماذا جمعتكم. ساشبع فضولكم حالا».

اطمئنوا، الخبر سار. أنمت ابنتي الأميرة، جمانة عيني، وماسة قلبي، سن الخامسة عشرة. وكما تعرفون، ليس هناك فتاة تضاهيها جمالا، وجاذبية، وطيبة. قررت تزويجها لأحدكم».

هكذا تكلم الأسد غايندي، ملك الحيوانات، أمام رعاياه، المجتمعين في باحة بيته الكبير. أنصت الجميع، من أكبر رجال المملكة حتى أصغر جلساء البلاط، بعضهم آملا، والبعض الآخر لم يتوهم. وتابع السيد خطابه:

«بالتأكيد، لن أمنح ابنتي لأي كان. صهري القادم أريده قويا، وشجاعا، وغنيا، ووسيعا، ونبلا، ومستقيما، وذكيا. باختصار يجب أن يتمتع بخصال الأمير الحقيقي، لأنه سيعيش في قصري. يستطيع كل الطامحين التعريف بأنفسهم منذ اليوم. سابدأ في الشهر القادم، بمعاونة مستشاري الأوفياء، بفحص المتقدمين واحدا فواحدا. شاوروا أنفسكم، شاوروا أنفسكم!».

ألحقت هذه الكلمات صدر الكثير من العاشقين، لكنها أفلقت الأميرة والأرنب الكبير لوك كثيرا. في الواقع، كانا متحابين، دون

علم الجميع. ولم يجروا على البوح بسرهما الجميل لأحد، لأن الكل يعرف أنه إذا بدا غايندي عادلا دائما، فلا بد أن يحذروا مع ذلك من إثارة غضبه الرهيب. وغالبا ما لا ينتظر وصول الجلاد لتنفيذ العقوبة التي يفرضها. كانت قائمته الملكية تضرب بسرعة وبقوة، ضربة أو اثنتين أو ثلاثا، فيلطف المذنب أنفاسه. إذا وجدَ جسم هذا المذنب ضخما، مثل لبرتو، فرس النهر، أو بابونو، الغوريلا، تساهل معه. أما إذا رآه صغير الجسم، مثل تيلي، ابن آوى، طرحه أرضا فلا ينهض ثانية. لوك لا يجهل ذلك، كذلك أميرته. وقد حضرا مثل هذه المشاهد مرات عديدة. كان اليأس يملأ صدر العاشقين.

استعدت الأميرة الجميلة للالتقاء خفية بمن اصطفاه قلبها. قالت له وهي تبكي:

«يا صديقي، حظك ضعيف في أن يختارك أبي، فلست الأقوى ولا الأغنى، لكنك تبقى الأذكى بين سكان البلاد كلها. أنت وحدك من أحببت. عليك أن تبرهن عن ذكاء وسعة حيلة كي يستحسنك أبي. هيا، كلي ثقة بك.»

لما سمع هذا الكلام، امتلأ قلب لوك زهوا. وجعلته هذه الثقة العفوية، التي لا تنتعش إلا بحب صادق، يشعر بالجرأة والشجاعة. وأجاب:

«يا أميرتي، يا درة أحلامي، أعدك بأن أجد حلا. لا أعرف بعد كيف سأصرف، ولكن أعدك بأنني سأنجح. ثقي بي، إلى اللقاء. بعد ذلك بأيام، لاح قمر الشهر الجديد في السماء. ومنذ فجر اليوم التالي، انتظر كل الطامحين وصول الملك إليهم في

باحة القصر الكبيرة. في هذا الوقت، جلس إلى يمين العرش ويساره كل من السلحفاة مبوناتا والقرد جولو، مستشاري جلالته المخلصين. حاولا تقدير عدد المرشحين. كانت مبوناتا معروفة في كل المملكة بكبر سنها، وهذونها، واتزانها، وعدالتها. إنها هي التي تهدئ غضب الملك، وتجبره أحيانا على تخفيف العقوبة، التي تفرض بحق مواطن مذنب. لم يأخذ غايندي من قبل أي قرار مهم دون استشارتها. أما جولو، فعرف بنشاطه وخبثه، كجميع أبناء جنسه. لكن جلالته جعله مستشارا له لأن أحدا لا يضاهيه مكرًا، ولأن من الصعب خداعه. لهذا، يطلب الملك رأيه قبل اتخاذ القرارات.

هجأة، توقفت الأحاديث، بعد أن أعلن المنادي عن وصول غايندي، السيد الذي لا ينازعه أحد. جلس على عرشه، وبدأت المقابلات حالا.

كان لبرتو فرس النهر أول المتقدمين. توجه مباشرة نحو هدفه: «يا مولاي، أنا الصهر الذي يلزمك. لي كتفان قويان. لا يخيفني العمل. سأحمي الأميرة مثلما أحمي حقولي المزروعة بالذرة. لدي أيضا بعض المدخرات. هذا كل شيء». اقترب المستشاران المخلصان من أذن الملك وكلماه طويلا. هز جلالته رأسه عدة مرات. ثم قال:

«أيها المواطن المخلص لبرتو، كان بودي أن أمنحك يد ابنتي. ولكن قيل لي إنك غالبا ما تخلط بين حقوك وحقول جيرانك. تأكل محاصيلهم وتكر أنك فعلت ذلك، لا يمكنني إذن قبول ترشيحك. إليّ التالي».

تقدم ديارغونيا العنكبوت:

«أحييك أيها الملك. ليست بي حاجة لامتداح خصالي ومهارتي أمامك. الجميع يعرف أنني أفضل حائك في البلاد. لا يمكن لأي نسيج من شرق القارة أو من غربها منافسة النسيج المصنوع في نولي. إذا تكرمت بمنحي يد ابنتك، سترتدي الأميرة أفخر لباس في المملكة كلها».

بعد أن أصغى إليه جيدا، تحدث الملك بصوت منخفض مع مستشاريه. وقال للعنكبوت:

«ما قلته صحيح يا ديارغونيا. لا أحد يضاهيك مهارة في فن الحياكة. لكنك تناسيت أن تقول إنك لا تعمل إلا حين يقرصك الجوع، وإنك ما إن تنتهي من نسج تنورة جميلة حتى تبيعها كي تكسب قوتك. ثم إنه ما إن يمتلئ بطنك، حتى تمضي كل وقتك بعد ذلك في النوم، أياما وأياما. هل أنا بحاجة إلى صهر مصاب بمرض النوم؟ لست مناسبة. ليتقدم التالي».

دهش الجميع عندما تقدم «ميام سوف» الحمار بجراة، محركا أذنيه الطويلتين. لنستمع إليه مستعرضا طلبه:

«أحييك باحترام يا مولاي. بما أنك أتحت للجميع تجريب حظهم، بما عرفت به جلالتك من روح التسامح والطيبة الكبيرة، هانذا هنا. قد لا أبدو ذكيا كثيرا، ولكن لا أهاب من أكثر الأعمال مشقة. يكفيني القليل دائما. إذا صادف وتفضلت بقبولي صهرا، أقسم أنني لن أسوء أبدا إلى هذا القصير: لن يشكو مني أحد في شيء، خصوصا الأميرة، والمملكة الأم، وأنت».

بعد هذا الطلب المؤثر، اقترب المستشاران سريعا من الملك، وهمسا إليه ببعض الكلمات. وبعد أن سمعهما، بدت الدهشة على وجه الملك. ثم أعطى إجابة محيرة:

«مبام سوف، يا صديقي، أعرف المزايا التي عددتها. وأعرف عنك صفات أخرى لم تشأ ذكرها. أنت اللطف بعينه. لم نعرف هنا أبدا أحدا أكثر صبرا منك. مع ذلك... مع ذلك... يقال إن لديك عادة مزعجة، لا مثيل لها، وغير لائقة أبدا: تحب أن تطلق الأصوات من مؤخرتك أمام الجميع. هل يمكن أن تعيش ابنتي الأميرة مع زوج كهذا؟ أجبني».

- هذا كلام نمامين. يروج أعدائي مثل هذه الأقاويل دائما يا صاحب الجلالة. أنتهز فرصة وجود الجميع هنا لأحتج على هذه الإشاعات المغرضة، التي لا أساس لها من الصحة. أنا عنيد قليلا، صحيح، ولكن...

لم يتسن له وقت كي يكمل عرضه. أهي المصادفة أم العادة؟ أرخى الحمار من مؤخرته صوتا أمام كل الحاضرين. راح الجميع يضحكون، حتى الملك، الذي حاول الاحتفاظ برصافته، ولكن عبثا. بذل طالب الزواج المسكين، الذي جعله الموقف مضطربا، كل جهده لمقاومة هذا الميل الطبيعي، دون جدوى. وازداد الموقف تعقيدا عندما أرخى في أوج اضطرابه صوتا آخر أقوى من الأول. علا الصخب في الباحة. ولم يتمالك حتى جلالته نفسه من الضحك بملء حنجرته. لما عاد الهدوء، خاطب الملك المترشح التعيس، المضطرب والمتضايق:

«يا صديقي المسكين، ترى جيدا أنني لا أستطيع قبول طلبك. لا أريد صهرا على هذا القدر من الضجيج. لقد أقصاك دبرك. لننتقل إلى التالي».

دخل الغوريلا بابونو متمايلا. نسي إلقاء التحية، كي يصل إلى الهدف بسرعة أكبر دون شك.

«أريد أن أصبح الصهر المنتظر. أستطيع العمل والقيام بأشياء كثيرة، فأنا طويل الباع. ولكن فقط لا أحب أن يخاصمني أو يزعجني أحد حين قيلولتي. يقول المغتابون إن قريبي السعدان جولو هو أذكى مني. لو أمسكت بهم، لأوسعت رؤوسهم ضربا، كي يفكروا جيدا. ويقول آخرون إنني بشع جدا. ولكن هل الفيل أجمل مني بأذنيه الكبيرتين، اللتين تشبهان أوراق شجرة الموز، وخرطومه الطويل كأنه ثعبان؟ كثيرا ما قالت زوجتي الأولى إنني أجمل مخلوقات الغابة كلها. تركتني للأسف. لماذا؟ لأنني كنت أضربها بالعصا كلما تأخرت في إطعامي الموز. ولكن أعدك بعدم ضرب الأميرة أبدا، لأن...».

بدأ الملك مشاوراته مع مساعديه، قاطعا كلام بابونو، الذي أوشك أن يطيل خطابه كثيرا.

«بابونو، يا مواطني المخلص، نعتقد أنك إن أصبحت صهري لن تغير عاداتك. ستبقى تمضي وقتك في النوم وأكل الموز. نخشى أيضا أن تعامل ابنتي معاملةك لزوجتك الأولى قبل هروبها من ضربات عصاك. أخيرا أجرؤ، أنا مولاك، على قول الحقيقة لك: لا يبدو لي قريبك جولو أذكى منك بكثير فقط، بل لن أجرؤ أنا نفسي أبدا، إن أصبحت صهري، على تكليفك بمهام تتطلب

الأمانة والثقة. فمثل هذه المهام تحتاج إلى المرونة، والظطنة، وصحوة الذهن، والانفتاح، واللباقة. لذلك، أرفض ترشيحك. والآن، ليتقدم التالي».

التالي ميزه الجميع فوراً. إنه الفيل غنايي. اقترب بخطواته الثقيلة. حيا المجلس، ثم توجه إلى الملك قائلاً:

«يا صاحب الجلالة ومولاي المحبوب، قلبي يخفق لابنتك. أنا الزوج المثالي: قوي، وأمين، وصحتي ممتازة، ذاكرتي لا يبليها الزمن. أؤكد لك أنك لن تجد أفضل مني. يقول النمامون إنني بطيء، وأخرق، وفظ وخشن. تعلمت الرقص كي أكذب أمامكم مزاعم هؤلاء الحسودين وأولئك الغيورين. سارقص أمام الجميع، وقبل أن يحزر أحد ما سيحدث، وقف الشيهم ساو، الذي استعد لمثل هذه المناسبة، وراح يقرع على طبل صغير. وأمام دهشة الحاضرين، أخذ غنايي يتمايل يمينا ويسارا، بهدوء في البداية. ثم، بدأ يهتز بقوة، متارجحا من قائمة إلى أخرى، قافزا بحركات سريعة أكثر فأكثر. لم يصدق المشاهدون المذهولون ما تراه أعينهم. ازدادت ضربات الطبل قوة وحماسة، وحاول الراقص الضخم توفيق حركاته مع أصوات الطبل. فجأة، ساد الصمت: زلت قائمة الفيل، وفقد توازنه، وسقط فوق صديقه ساو، فسحقه مع الطبل. وأدى سقوطه المؤسف، ولكن المتوقع، إلى هرس الحية ديانا وابن آوى تيلي. ولم تنج قائمتا الزرافة نديامالا من الكسر. بذلك، أخرج الفيل كل هؤلاء المرشحين من المنافسة، بعد أن قدموا لتجريب حظهم للفوز بقلب الأميرة. أعقب الحادث تدافع صاحب لا يوصف. ولكن سرعان ما أعاد الملك النظام. وأجلي سيثو الحظ

عن المكان. لم يرتكبوا أي ذنب سوى أنهم أخطأوا بالوقوف بجوار
الفيل الراقص. ولما عاد الهدوء، توجه الملك الغاضب إلى مسبب
الكارثة قائلا:

«أنت راقص عنيف وأحرق يا غنايي. أفسدت احتفالنا بشكل
خطير. ليس فقط لا تستحق يد ابنتي، بل أمنعك أيضا منذ الآن
من المجيء إلى بلاطي لمدة عشر تَشْتِيَّات. أما نسيت! أخبروني أن
عمرك ستون سنة. كيف تجرؤ على طلب الزواج من ابنتي؟ ألا
تخجل؟ أنت أكبر سنا مني!».

- ولكن أعتبر شابا يا مولاي المحبوب عند أبناء جنسي. الفيلة
تعمر طويلا.

- لا أريد معرفة ذلك. هيا انصرفا. لا أرغب في رؤيتك قبل
عشر تَشْتِيَّات. لا تنس أيضا أن عليك إطعام أسر ضحايك لمدة
تشتيتين. هذا ما قررته. يجب أن تنفذ ذلك!

حاول القرد جولو والسلحفاة مبوناتا تهدئة الأسد غايندي،
الذي غضب جدا. ولما عاد الأسد إلى هدوئه، استؤنف الاجتماع.
اقترب الكلب خاتو، الذي لبس أفخر ثيابه. حيا المجلس باحترام،
وبدا عرضه:

«يا مولاي المبجل، يا سيد الدغل والغابة دون منازع. أيها
المخلوق الأقوى، والأجمل، والأشرف، والأكرم، والأجدر، والأشهم،
والأقدر، والأغنى منا جميعا. أتقدم إليك بخالص الاحترام.
أهنئك أنت أيتها الملكة، التي أنجبت أميرة أجمل من النجوم،
وأسطع من الشمس، وأحلى من الورد. صوت أميرتنا أشبه بهمس
النسيم في ضوء القمر العذب».

امتلاً قلب الأسد زهوا وفرحا لهذه الكلمات، لأن كبار هذا العالم يحبون الإطراء. ومال قلبه لهذا المتحدث الفصيح ، الذي تابع يقول:

«حلمي الأغلى، تعرفه أنت، يا سيدي المحبوب، أن أسكن في بيتك الكريم. ساحمي الأميرة ما حييت. لا أحد هنا يجهل كم أنا نبيه. ثم إنني أعرف واجباتي. أجيد التصرف والكلام الذي يواسي القلوب المكروبة والنفوس الحزينة. عندما أصادق أحدا، أغدو وفيما له مدى الحياة. لا أتخلّى أبدا عن صديقي في محنته. فليتكرم سيدي المحبوب بالنظر في طلبي بعطف، إن ثم أقل برافة».

بعد هذه الكلمات المعسولة، شعر الأسد غايندي بحنان يملأ قلبه. وبدا متأثرا، رغم أنه غير عاطفي عادة. وكادت دمعة تسيل من عينيه. مع ذلك، تكلم طويلا بصوت منخفض مع مستشاريه. ثم خرج جولو لحظات، وعاد يحمل كيسا. انتظر الحضور بترقب ما سيحدث. فجأة، أخرج جولو من الكيس شيئا والقاء على الأرض. ما إن رآه خاتو، حتى هجم بخفة وارتمى عليه، فإذا بهذا الشيء عظمة جميلة، عليها بعض اللحم. وأمام دهشة الجميع، أسرع صاحب الحديث الجذاب في قضم عظمتهم بنهم وهو ينخر. ولم ينتبه إلى حاله إلا عندما سمع الآخرين يضحكون ساخرين. خاب ظن الملك به، وخاطبه موبخا بقسوة:

«كدت أقبلك عضوا في أسرتي. لكنني أرى أنك لن تستطيع موازرتي في إدارة شؤون البلاد. يمكن لكل من يلقي لك عظمة أو قطعة لحم أن يفقدك حس الشرف والكرامة، أو ينسيك واجباتك.

عدم حذرِكَ ورزانتك، وهذا لا يليق بأمير، يجعلك مرفوضاً. خذ
عظمتك وارحل من هنا.

انصرف خاتو وعظمة العاربيين فكيه، بعد أن طوى ذيله بين
قائمتيه.

تقدم النمرسيكا طالبا يد الأميرة. صحيح أنه أحد
المحظوظين، ووحد من كبار المملكة، لكن الشعب لا يحبه، بل
يتجنبه ويخاف منه. يعرف الجميع شراسته، وخداعه، وعدم
احترامه للوعود التي يقطعها، وقلة ذكائه. ارتفع صوته الخافت:

«سيدي الملك، يشرفني الانتماء لأسرتك، فأبي هو قريبك. أنا
جميل، وفتي، وغني. لا أخاف أحدا. لا يمكن لأحد سواك الادعاء
بأنه أمهر مني في الصيد. إن اخترتني صهرا، أقسم بأنني
سأساعدك في جباية الضرائب. وويل لمن لا يدفع! وويل له!».

أبدى الملك ارتياحه الواضح لهذا الكلمات. ورغم حماقته
المعروفة، نطق النمرسيكا بكلام يحب كل حاكم الإنصات له:
«سأساعدك في ملء خزانك الملكية، الفارغة غالبا بسبب صعوبة
جباية الضرائب». سعى المستشاران الوفيان جولو ومبوناتا للفت
انتباه الملك إلى عيوب هذا الطامح للمصاهرة: الخبث، وعدم
الجدية في الوعود، التي سرعان ما ينساها، والحماسة، والنهم،
وعيوب أخرى عديدة تعرفها السهول العشبية كلها. لكن غايندي
رفض هذه المرة الاستماع إلى نصيح مستشاريه. ومع معرفته
الأكيدة بأن لهذا المرشح سمعة سيئة جدا، نهض وأعلن:

«هذا هو الذي اخترته! سيصبح النمرسيكا زوج الأميرة. سيتم
الزواج خلال خمسة أيام. ليعرف الجميع!».

مع إعلان هذا النبأ، ساد الوجوم بين المحتشدين في الباحة. إلا أن أحدا لم يجرؤ على إظهار استيائه علنا. على العكس، أبدى بعض صغار النفوس الممالقين ابتهاجا كاذبا، لكسب ود الأمير الجديد سلفا. وسرعان ما وصل الخبر إلى مسامع الأميرة، التي حزنت جدا، وراحت تبكي بدموع غزيرة. لماذا لم يأت حبيبها الأرنب الكبير لوك لتقديم طلبه؟ أين هو؟ ماذا يفعل؟ حاولت صديقات الأميرة مواساتها. ولكن عبثا. ظلت تبكي بآلم حتى المساء.

في اليوم التالي، أقام الملك حفلة صغيرة بمناسبة هذا الاختيار، دعيت إليها الشخصيات المهمة في المملكة، بمن فيهم الزوج القادم. في خضم الأفراح، جاء أحد الحراس، وأخبر الملك أن مبعوثا يود لقاءه، لأمر مهم يتعلق بالدولة. أدخله الملك، الذي بدا رائق المزاج جدا. دخل الأرنب الصغير نديومبور إلى باحة القصر الفسيحة، مرتديا لباسا أنيقا. ولما كان الاجتماع عاما، فقد حبس كل الحاضرين أنفاسهم، متلهفين لسماع ما سيقوله المبعوث.

«أحيي عظيمنا، ملكنا القوي، المحبوب من شعبه، من أصغر واحد فيه إلى أكبرهم. أحيي أيضا كبار المملكة المحيطين بك. لست سوى مبعوث متواضع لقريبي الأرنب الكبير لوك. زودني بهدية لصاحب الجلالة، عشرة عجول، وعشرة خراف، وعشر عنزات، وثلاثين حَبَيْشًا، على سبيل المشاركة في الاحتفالات».

- أشكر قريبك لوك على هذه البادرة الكريمة. لم تخطر هذه

الفكرة السخية على بال أي من ضيوفي الحاضرين هنا.

- سيدي الملك، حملني قريبي رسالة حساسة، حتى أني متردد

في قراءتها. أتساءل إن كنت... إن كان علي...

- تكلم ولا تخف يا صغيري. إني مصغ إليك.
- قريبي يقول لك إن ... إنه ...
- وأخيرا؟ تكلم! ماذا يقول قريبك؟
- يعبر عن استغرابه من اختيارك حصانه زوجا للأميرة.
دوت هذه الكلمات على الحضور وقع الرعد. علت الدهشة
وجوه الجميع. لم يفهم أحد معنى ما قاله الأرنب الصغير. وقبل
أن يستطيع الملك الرد، قال سيكا:
«أنا، حصان لوك؟ لا بد أنه مجنون. اسحب يا نديومبور ما قلته
ولا ويل لك».
- أنا مصر، لأنني قادر على الشهادة بأن سيكا هو فعلا مطية
قريبي، ويركبه حين الذهاب إلى الصيد في البر، وفي الماء، أو عند
الذهاب لزيارة الأصدقاء.
أمام هذا التأكيد القاطع، وقف الملك مترددا لا يعرف ماذا
يقول أو يفعل. ولما شك في الأمر، خاطب صهره القادم:
«لا أفهم شيئا من هذا الموضوع. هل أنت حقا حصان لوك،
مثلما يؤكد قريبه؟»
- ما سمعته يا صاحب الجلالة ليس سوى أكاذيب. ولكن
اطمئن، أنا ذاهب لإحضار لوك حالا. سيقول لك بعظمة لسانه إن
هذه الشهادة كاذبة.
ذهب سيكا فورا، وركض أكثر مما مشى. وسرعان ما وصل إلى
بيت لوك، الذي وجده نائما وقد تغطى ببطانيتين سميكتين، رغم
الجو الحار. كان يرتجف ويسيل عرقا. أخذ سيكا يصيح بغضب
شديد:

«انهض أيها الكذاب! يريدك الملك حالا. تعال معي! هيا،
أسرع!».

- مستحيل يا سيكا، أنا مريض. انظر كم أنا أتصيب عرقا.
اذهب واخبر الملك بذلك.

- لا، لا، يجب أن تأتي فورا لأنك كذبت!
- ربما هي الحمى التي جعلتني أقول أشياء لم أفكر فيها.
ولكن لا أستطيع المشي. قد أستطيع الذهاب إن حملتني على
ظهرك.

- هيا بسرعة، انهض واركب على ظهري. سأأخذك إلى الملك كي
تسحب كذباتك.

قفز لوك على ظهر سيكا، الذي جرى مسرعا إلى حضرة الملك.
دخل الفارس ومطيته إلى الباحة على مرأى من الجميع. نهض
الملك واقفا، وهز رأسه عدة مرات، وأصدر قرارا جديدا:

«قد تخدعنا أذاننا، ولكن ليس عيوننا. هذا صحيح فعلا! أنت
يا سيكا حصان لوك! انصرف. سأزوج ابنتي إلى لوك وليس إلى
حصانه. ليعلم الجميع ذلك».
في اليوم التالي، تزوج لوك أميرته.

ه - بنت ينقصها حسن التربية

لا يستطيع أي رجل في كل البلد، وحتى في الأدغال والسهول العشبية، الادعاء بأنه يضاهي سامبا براعة في رمي السهام. فسهامه لا تخطيء هدفها أبدا. ولا يتذكر أحد أنه رآه يوما يعود من الصيد بخفي حنين. ولأنه سديد الرماية، لا يفرغ كيسه من الطرائد أبدا.

ساعده ذلك على امتلاك أرض خصبة، وقطعان ماشية، وحقول يعمل فيها خدام كثيرون. لم تنجب له زوجته هاريماتا سوى البنات. كانت أكبرهن، كورا، في سن الزواج. للأسف، أمضى سامبا كل وقته في الصيد، ولم يهتم قط ببناته مفضلا ترك هذا الاهتمام لزوجته. ولكن، خلافا للعادة، أهملت الزوجة تربية بناتها تماما. لم تحسن أي منهن الطبخ، ولا كنس الكوخ والفناء، ولا دق الذرة، ولا رتق الثياب. ولكن يجب الاعتراف بأن كل واحدة من بنات سامبا وهاريماتا كانت أجمل من الأخرى. أجملهن كورا، البنت البكر. ولما صارت في سن الزواج، طلب والدها، الذي عاش في وفاق تام مع زوجته، من الشعراء الموسيقيين في البلد نشر الإعلان التالي: أنا سامبا، أكبر، وأغنى، وأقوى، وأمهر الصيادين. سأزوج ابنتي كورا لمن يستطيع تسلق شجرة جوز الهند في باحة بيتي، وبلوغ قممتها دون أن تصيبه سهام.

فاجأ الخبر كل طالبي الزواج تقريبا. لكن جمال كورا يستحق بعض المخاطر. تقدم كثير من الرجال لخوض المغامرة، بينهم

الفتى والشاب، والرشيقي، والبطيء، والمختال، والمتبجح، والخجول، والقلق. وكذلك الواثق من نفسه، والمغرور، والمتردد، وآخرون من كل الطباع، ولكن بالأخص مغامرون ومخاطرون إلى حد التهور.

جاء يوم الامتحان الموعد. اصطف المتنافسون بعضهم وراء بعض. تراحموا قليلا، لأن بعض الطامحين العصبيين، المقتنعين بنجاحهم في الامتحان، أرادوا الوقوف في مقدمة الآخرين، مهما كلف الثمن. كان نسيم ذلك الصباح يهز أوراق شجرة جوز هند العم سامبا، المستقيمة والعالية، غير مبالية بما يجري حولها.

تقدم المترشح الأول. أمسك جذع الشجرة، حتى دون أن يتنازل ويلقي نظرة على سامبا، المسلح بالسهم، على بعد عشر خطوات. ظن أنه إذا تسلق الجذع، دائرا وحائما حوله بسرعة، سيفلت من نياهة الرامي. لكن محاولته ذهبت سدى، فقد جعله رامي السهم يصل إلى منتصف المسافة، ثم رماه فجأة بسهم سديد، انغرس في ريلة ساقه اليسرى. تفضض وجه المتسلق الماء، وحاول الصعود أكثر. ولكن ما أن رأى سامبا يتهاى لرميه بسهم آخر، هرع نازلا. جرب مجازف ثان حظه، فتلقى سهما في ريلة ساقه اليمنى فور وصوله إلى مسافة سابقه نفسه. وهكذا، أخرج سامبا طامحين كثيرين من المسابقة. كان البعض قد توافد إلى الباحة واكتفى بالنظر إلى قمة الشجرة والقوس والسهم، ثم قفل راجعا من حيث أتى دون أن يجرب شيئا.

لما صارت الشمس في كبد السماء، غادر الجميع المكان. وأعلن سامبا قائلا:

«أرى أن لا أحد يستحق يد ابنتي. أليس في هذا البلد رجل جدير بهذا الاسم؟ قد يأتي آخرون غدا ليجربوا حظهم. سأنتظرهم منذ الصباح الباكر».

بعد الظهر، وفي المساء، وخلال الليل، لم يكن هناك حديث إلا عن امتحان الشجرة، حتى أن قولاً ماثوراً ظهر في ذلك اليوم: ليس سهلاً أبداً أن تتسلق شجرة جوز هند حميك القادم إذا أراد امتحان شجاعتك وكان رامي سهام ماهراً.

عند المساء، زار عبدو، الرجل الحكيم، قريبه سامبا. قال له دون موارد، مستاء مما جرى:

«لا أوافقك على ما فعلته اليوم. هل فرض عليك حموك مثل هذا التعذيب يوم أردت الزواج وأنت شاب؟ هيا، عد إلى رشدك!». اختر لابنتك فتى كريماً، وطيباً، ومجتهداً لا يهاب الكد ولا ينحني أمام الشدائد. بهذه الصفات، التي تتمتع بها أنت نفسك، استطعت أن تجد زوجة. لماذا تريد القيام بشيء مختلف مع كورا؟ بماذا تتفوق على بنات البلد الأخريات؟».

– سأجيبك ببساطة يا ابن عمي عبدو: الزمن تغير، ولا بد أن تتغير الأساليب. أعتقد أنني اخترت أفضل وسيلة لاختبار الخصال المطلوبة من صهري القادم. لن أغيرها. امتحان الغد سيتم بالطريقة نفسها.

– انتبه يا سامبا! الله لا يحب الظلم، ولا الخبث. أذكرك بالمثل الذي طمأأ أعدته علي: «من أراد إيذاء الناس دائماً، آذوه ذات يوم». لما سمع سامبا هذه الكلمات، انفجر ضاحكاً. وظل يضحك أكثر وأكثر، كأن المثل الذي سمعه ملاً قلبه بفرح مجنون. وعندما

هذا أخيراً، قال:

«آه، لا تقلق يا قريبي عبدو. من يجرو في هذه البلد، وحتى في خارجه، على توجيه قوسه نحوي؟ أنا أقول لك: لا أحد، لا أحد! تخطت شهرتي الغابات والسهول العشبية. وعبرت الأنهار والبحيرات والسواقي. لا أخاف إنسا ولا جنا. سأصرف على مزاجي وكما أهوى. لن يحدث لي مكروه، وإلا ما الفائدة من ثروتي؟

- كلامك لا يطمئنني، بل يزيدني قلقاً. بما أنك ترفض رأيي، أنا ذاهب. لعل الليل يأتيك بنصيحة.

في صباح اليوم التالي، خرج سامبا منذ شروق الشمس، حاملاً سلاحه الرهيب، ليرى كم رجلاً سيتسلق شجرته هذا النهار. انتظر كثيرون في الباحة، متلهفين للاستمتاع بالمشهد. ولم يحضر خاسرو الأمس. لابد أنهم يضمدون الآن جراح ريلات سيقانهم، وأخذهم، بل ومؤخراتهم أحياناً.

اعتقد بعض القادمين أن أحداً لن يتقدم اليوم. ولكن، خرج من بينهم شاب طويل، وجميل، بدا هادئاً ومصمماً، واقترب من سامبا قائلاً:

«أحييك أيها الصياد الكبير. كما ترى، لا أحد يجرو على خوض الامتحان الذي وضعته لمن يريد الزواج من ابنتك. اسمي والي. سيساعدني الحب العظيم الذي أكنه لكورا على الفوز بما أخفق فيه الآخرون».

شعر سامبا بالضحك لهذا الكلام، الذي لا ينسجم مع تفكيره بإهانة الفتى. توقف الصخب في الباحة. وساد الباحة هدوء ما

قبل العاصفة. وحبس المشاهدون أنفاسهم: أحسوا بأن حدثا استثنائيا سيقع.

فجأة، ابتعد الناس. واتجه والي نحو شجرة جوز الهند. أمسك الجذع ببطء، وهدوء وتصميم. ثم بدأ يصعد بقوة وعزم، ولكن دون استعجال. بقيت عيون المشاهدين مشدودة إليه بقلق. ولما رآه سامبا في منتصف المسافة، تناول جعبته وأخرج منها سهما. ضبطه على القوس، ثم أطلقه بمهارة على ريلة ساق الفتى اليمنى، فانغرس فيها. تابع والي تسلقه، حتى دون أن يرتعش. واستقر السهم الثاني في ريلة ساقه اليسرى. لم يكتثر. رماه سامبا، حتى دون تسديد، بسهمين آخرين، استقر أحدهما في مؤخرته اليسرى، والثاني في اليمنى. التصق الفتى الشجاع بجذع الشجرة، والدم يسيل من جراحه الأربعة. كان بالتأكيد على وشك السقوط بين لحظة وأخرى. انتظر المشاهدون سقوطه الوشيك لاهتين. لكن والي كزَّ على أسنانه، ليتحمل الألم بشكل أفضل، مخيبا أمل الحاضرين، المولعين بمشاهد الإثارة. انتظر دون حراك وقتا بدا له دهرا، ثم استأنف زحفه ببطء نحو القمة. لم يصدق سامبا، الذي وقف فاتحا فمه، ما تراه عيناه. كيف يستطيع هذا الفتى الاستمرار في الصعود، مع كل هذه الجراح؟ إن كان جنيا، فماذا سيحل به، هو الصياد التعيس، بعد أن عامله هذه المعاملة السيئة؟ هل سينتقم منه، أم من أسرته؟ فجأة، ارتفع صراخ المتفرجين، معلنين بلوغ والي قمة الشجرة. وتسلق شابان الجذع لمساعدته في النزول. ولما صار على الأرض، انتزع من لحمه الشوكات الأربع التي آلمته كثيرا. وأحضر أحدهم مطبعا مداواة الفتى البطل بمنقوع الأعشاب العطرية واللزقات.

بعد ذلك النهار المشهود بأيام قليلة، شفي والي من جروحه تماما. وحددت الأسرتان وقت الزواج بالاتفاق. ووفقا للتقاليد، أوكل والي إلى عمه العجوز الحكيم إسماعيل مهمة إحضار مهر الخطيبة الضخم، الذي دفع الخطيب ثمنه غاليا. تباغت كورا، بحضور خالتها، وأمها، وأخواتها، بهدية الزواج المدهشة: ثلاثين صجلا، وأربعين بقرة، وخمسين خروفا، وستين عنزة، وسبعين فروجا، وكيس ملح، الذي يعتبر سلعة ثمينة في هذه البلاد، وسلعة كولة. ليس ذلك كل شيء. فقد أرسل العريس السخي مع عمته اثنتي عشرة وزرة بيضاء، واثنتي عشرة حمراء، واثنتي عشرة سوداء، واثنتي عشرة رمادية، منسوجة كلها من الخيوط الحريرية الفاخرة. وبينما راح الجميع يتفرجون على التنانير، وضعت عمه والي عند قدمي كورا الشيء الذي يخفق له قلب كل امرأة: علبة فيها خواتم وأساور وعقود وأقراط من الذهب الصافي، تشع كلها تحت الشمس بمختلف الألوان والأضواء. قدرت العروس كثيرا هذا الكرم، لأن الأمراء وحدهم يقدمون المهور بمثل هذا السخاء لأميراتهم.

سار متنثنا كل شيء بسرعة. أقيم حفل الزواج فورا. وعند المساء، توجهت كورا على حصان أبيض إلى بيت زوجها، بعد أن لبست أبهى ثيابها، وغطت كل جسمها بوزرتين غامقتين كي لا تنال منها العيون الشريرة وعفاريت الليل. مشت خالتها في الأمام، ممسكة بلجام الحصان. وسارت في الخلف فتيات يحملن صناديق الثياب، وأنية، وأجرانا، وأشياء من كل نوع، ضرورية كثيرا أو قليلا للبيت الجديد.

استمرت الاحتفالات ثلاثين يوما وثلاثين ليلة. ذبحوا في كل يوم عجلا أو خرافا أو ماعزا. وأحضرت صديقات العروس الوجبات للمدعوين، والأعمام والأخوال وأولادهم، والأصدقاء، والعابرين، وكل من رافق العروس. أشرفت الخالة على كل هذا العالم الصغير الصاخب. ولزم ألا تنشغل كورا بأي شيء طوال شهر العسل. في مساء اليوم الثلاثين، حزم الجميع أمتعتهم، وعادوا صباح اليوم التالي إلى بيوتهم، بعد أن أغدقوا النصائح على العروسين الشابين.

ذهب والي للصيد، وعادت كورا إلى المطبخ. في ذلك اليوم، بدأت الأمور تسوء. عندما عاد سيد البيت، وجد الطعام جاهزا. ولكن كان الأرز للأسف غير ناضج، والظليظة المشقوقة مرشوشة بملح كثير. يا لها من وجبة غريبة وسيئة المذاق! أنب والي زوجته، التي يحبها كثيرا. واعتبر سوء الوجبة ناتجا عن ارتباكها ووضعها الجديد. في اليوم التالي، طبخت كورا سمكا مع الأرز. وكانت الوجبة أسوأ من سابقتها. أما الوجبة الثالثة، إذا أمكن تسمية الكسكس الذي أعدته وجبة، فبدت شنيعة. لقد وضعت الشابة قدرا زائدا من التوابل وخلطت أشياء متنافرة لا أحد يخلطها. وبعد أسبوع طويل ومؤلم، رضخ والي لحكم الواقع، بعد أن وجد أن نصائحه وشكواه لا تجدي نفعا مع زوجته الشابة، التي لا تجيد الطبخ أبدا. قال لها بلطف:

«هل أحضر لك إحدى قريباتي لتعلمك إعداد الطعام؟».

- لا، فقد تسخر مني. لن أستطيع تحملها.

- إذن، هل استدعي عمتي؟ فهي رزينة ولطيفة، قد تساعدك لبعض الوقت.

- لا! لا أريد! ما إن ترحل، حتى تمضي كل وقتها في تحقيري في القرية.

- إذن اسمعي ما أقترحه عليك: نادي إحدى أخواتك. ستعلمك الطبخ دون أن يعرف أحد. أبقئها هنا الوقت اللازم. بذلك تتجنبين أي كلام يخدش حساسيتك.

- أخواتي مثلي. لا يجدن الطبخ ولا غسل الثياب ورتقها، ولا حتى كنس الأرض. عوضتنا ثروة أبي عن الأعمال الشاقة هذه، التي لا تليق بمستوانا.

- أه كورا، كلامك يفاجئني! ويؤلني أيضا! مع ذلك، ستتعلمين هذه الأشياء.

- أنا! اتنازل، وأتعلم هذه السخرة؟ أنت تريد زوجة أم عبدة؟ ثم إنني بعد أن فكرت، أرى أن تحضر لي بعض الخادومات. يكفيني تزيتني تعباً كل يوم. هكذا أريد أن أعامل هنا، كما عشت في بيت أهلي، حالا، أكرر: حالا، وإلا سأعود إلى أمي!

وغرقت كورا في نوبة عصبية حقيقية. راحت تبكي وتبكي وتقول كلمات بذيئة لا تليق بفتاة من أسرة كريمة. ولما سمع الجيران هذا الصخب، هرعوا لمعرفة ما يحدث. ولكن كلما حاول والي إقناع زوجته، وتهدئتها، ازدادت غضبا. وفي ذروة هيجانها، أمسكت تمثالا صغيرا من الطين المشوي، وضربت به زوجها ضربة قوية حطمت التمثال. لما أعياء تصرف زوجته، خصوصا بعد أن ضربته تلك الضربة الغاضبة والمؤلة، رد العريس بعنف: صفعها

صفعتين قويتين وصل صوتهما إلى خارج البيت. كانت هذه أول مرة في حياتها تتلقى فيها صفعة، فأخذت تبكي بفيض من الدموع.

ثم يعرف والي ماذا يفعل بعدئذ. خرج من البيت، وتوجه فوراً إلى بيت عمه، العجوز الحكيم إسماعيل، وأطلعه على الأمر بحذافيره. استمع العجوز باهتمام إلى ابن أخيه، وقال له: «يا بني، يبدو لي الوضع أعقد بكثير مما تظن. أولاً، كان عليك البقاء هادئ الأعصاب. الصفعات لا تسوي مثل هذه الأمور. لكنك في العادة أنت لا تفقد هدوءك بسرعة».

- آسف لذلك يا عمي، أعترف بأنني فقدت أعصابي، على غير عادتي غالباً.

- والآن قل لي يا ابن أخي، ماذا تنوي فعله؟

- لا أحب يا عمي الفراق عن زوجتي. لا أريد أن أعيبها ولا أن أطلقها. أرغب فقط في أن تحسن الطبخ وأن تهتم بشؤون البيت.

- هل تعرف لماذا حدث لك ذلك يا بني؟

- لا يا عمي، لا أعرف.

- سأقوله لك. عندما يرغب الشاب في الزواج، وحتى لو اختار خطيبته بنفسه، تقضي تقاليدنا بأن يخبر عمه بالأمر. عندئذ يستفسر العم حول وضع العروس القادمة، وعفتها، وفضائلها الزوجية. ويتيح ذلك تحاشي الخيبات، كهذه التي تعيشها أنت اليوم. لم تتصرف هكذا. لماذا؟

- صحيح ما تقوله يا عمي إسماعيل. دفعني عدم التبصر، والتبجح، وحميا الشباب وطيشه إلى قبول التحدي المجنون، الذي

زرعه في رأسي رجل أرعن. كدت أن أهلك فيه. ولكن، أجد نفسي الآن متعلقا بزوجتي كورا. أحبها. أنا نادم على صفعتي الغضب. لم أعد أدري ماذا أفعل.

- اطمئن يا ابن أخي، أعرف أنا ما يلزم. ثق بي. عد مطمئنا إلى بيتك.

في اليوم نفسه، ذهب العجوز إلى بيت سامبا. وما إن انتهيا من تبادل السلام، حتى ظهر هذا الأخير غاضبا: «أردت أنا زيارتك، لأعبر لك عن استيائي العميق. يجب أن تذهب لإفهام ابن أخيك أنني منحته ابنة حسناء. يجب ألا يعاملها كحمارة ويضربها كل يوم».

- أرى أنك تعرف سبب زيارتي. يجب ألا ننسى أن الأخبار تنتقل بسرعة في القرية. بعض الناس هنا ثرثارون. إذن، اسمع جيدا ما أقوله لك. أولا، أنت لم تمنح شيئا البتة: انتزع والي ابنتك انتزاعا، بعد أن عرضتها عرضا قاسيا يشبه البيع بمزادات دموية لا تحصى، خلافا لعادات وتقاليد أهل هذه البلاد.

- أنا رجل مليء بالذهب. أعيش في رخاء. وأتصرف كما يحلو لي. لا أحد له شيء عندي. ربيت بناتي مثلما أريد.

- إنك مخيف. الثروة الحقيقية التي يجب أن يعطيها الأهل للفتاة هي تعليمها كيف تهتم ببيتها. لكن كورا، كذلك أخواتها، لا تحسن الطبخ ولا دق الذرة. لا تعرف استخدام الإبرة والخيط. كيف يمكنها أن تدير بيتها؟ اسمع ما أقترحه عليك لتسوية الأمور. ستطلب ابنتك من والي، كما تقضي العادات، إذنا بالعودة إلى بيت طفولتها لمدة ثلاثين يوما. تودع بعد ذلك أهلها، وتنتقل

نهائيا إلى بيت زوجها. ستستغل أمها هذه الأيام لتعليمها واجباتها كزوجة سريعة. هذا هو الحل الوحيد.

- لا يعجبني حلك أبدا. هاك ما قررت. سأعيد لابن أخيك المهر الذي دفعه. سيمكنني ذلك من إنهاء الزواج، كما هي عادتنا. هيا، ماذا تريد بعد ٩ آه نعم، تذكرت: سأرسل لابن أخيك، منذ الغد، ثلاثين عجلا، وأربعين بقرة، وخمسين خروفا، وستين عنزة، وسبعين فروجا، وكيس ملح، وسلّة كولة. لن أنسى الاثنتي عشرة وزرة البيضاء، والاثنتي عشرة الحمراء، والاثنتي عشرة السوداء، والاثنتي عشرة الرمادية، والعلبة المليئة بالحلي. سأدفع له، مع الفوائد إن اقتضى الأمر، كل النفقات التي صرفها خلال احتفالات الثلاثين يوما. أعتقد أنني لم أنس شيئا، هيه، أجبني!

ضحك العم إسماعيل بصوت عال. وظل يضحك حتى سألت الدموع من عينيه. لم يطمئن هذا الضحك الصاخب والمفاجيء سامبا، بل أقلقه قلقا شديدا. حزر ما سيقوله له هذا العم العنيد. ولم يجرؤ على التفكير فيه. ولما استعاد العم إسماعيل هدوءه، قال: «سأجيبك، لأنك طلبت الإجابة بلطف. نعم، نعم، نعم، أنت نسيت شيئا ما يجب أن تعيده مع المهر الذي دفعه ابن أخي!».

- لا أعتقد أنني نسيت شيئا. لا يهم، لدي خيارات كثيرة. قدر بسرعة ما نسيته، وقل لي كم قطعة ذهبية يساوي ذلك.

- أخشى ألا يقدر ثمن هذا الشيء بالذهب.

- ولكن يا صديقي إسماعيل، تعرف أن بالإمكان إيجاد أرضية للتفاهم بين الرجال العاقلين. أنت نفسك، ولقاء تعبك في هذا الموضوع، قد يقنعك كيس من الذهب بأن...

- لا، لا، لا، احتفظ بذهبك! أنت لم تعتبرني أبدا صديقك.
ثم، أعتقد أنني أقل حصافة مما تظن. بما أنك فقدت ذاكرتك
فجأة، سأساعدك على التذكر: في بيتي شجرة جوز هند
بارتفاع شجرتك.

- لم لا؟ ممكن. ولكن ما زلت لا أفهم.

- ستفهم إن عرفت أن لدي قوسا ويضعة سهام.

- اه، وما المانع! لن تطلب أن...

- نعم، نعم، نعم، سأطلب! أذكرك فقط بالمثل الذي يقول: «من
أراد إيذاء الناس دائما، آذوه ذات يوم». ستأتي إلى بيتي صباح الغد
يا سامبا. وستحاول تسلق شجرة جوز الهند حتى قمته. كنت
صيايدا في الماضي. ولكن، أعترف بأنني لا أملك مهارتك. إن
استطعت بلوغ القمة، أمكنك إعادة المهر واسترجاع ابنتك. إلى
الغد لا تنس.

لم ينم سامبا الليل. ندم على نزواته، التي انقلبت الآن عليه.
وندم أنه لم يسمع نصائح قريبه عبدو. وندم أنه لم يجبر زوجته
فاريماتا على حسن تربية بناته لأداء دورهن مستقبلا كزوجات
وأمهات، معتقدا بدلا من ذلك أن ذهبه يستطيع تبرير أكثر نزواته
جنونا. في الواقع، ما الفائدة من ثروته إن لم يستطع تحقيق
رغباته المتقلبة؟ دارت كل هذه الأفكار في رأسه تلك الليلة الطويلة
جدا. فاريماتا، التي أفلقتها الوسواس نفسها، لم تنم أيضا.
وحاولت أن تقوي عزيمة سامبا وطمانته قدر ما تستطيع. هل ما
يزال العجوز إسماعيل يجيد رمي السهام؟ هل ما يزال يقظا كما
كان؟ بالتأكيد لا. لقد أصبح دون شك هرما، عاجزا عن إصابة

شجرة باؤياب ضخمة بسهمه. هل يمكنه غرس سهمه في جذع شجرة جوز الهند الرفيع أو أحدا يتسلقها؟ لا، لا، هذا مستحيل! بعد أن طمأنته زوجته قليلا، عزم سامبا بقوة على تسلق شجرة جوز الهند في دار العم إسماعيل، لاستعادة حرية ابنته. ثم، غط في نوم عميق. بعد ذلك بوقت قصير، صاح الديك.

ما إن أشرقت الشمس، حتى صار سامبا الممتلىء عزما في بيت العم إسماعيل، يرافقه قريبه عبدو. وجدا عم والي وأحد أصدقائه بانتظارهما. حيا العجوز القادمين ببشاشة، ببشاشة كبيرة، كي لا يبدو مربيا في عيني القريب عبدو.

«اهلا وسهلا بكما في بيتي المتواضع... على الرحب والسعة. لم أنتظرك طويلا. ثم تشرق الشمس إلا منذ قليل. تدرت قليلا قبل أن نبدا موضوعنا، لأنني أتساءل إن كنت قد فقدت شيئا من مهارة يدي. هل تود أن تساعدني؟».

- وكيف أستطيع مساعدتك؟

- الأمر سهل جدا. علق هذه المطرة الملائى بالحليب على جذع شجرتي. دع عبدو يساعدك إن شئت.

توجه الرجلان نحو الشجرة، وربطا المطرة بخيط، بارتفاع رأسهما. وما إن انتهيا، حتى رمى العم إسماعيل سهمه، الذي مربجانبهما مصفرا كالريح. يا لصوته الخفيف! استقر السهم في المطرة، وفجرها، قبل أن يخطو الرجلان حركة واحدة. وتطاير الحليب ملطخا وجهيهما، فحقد كل منهما في عيني الآخر بدهشة. وتحت نظرات العم إسماعيل الماكرة، الذي أفهمهما أنه ما يزال ماهرا في رمي السهام، قرفص سامبا

وقريبه تحت الشجرة يتها مسان بصوت منخفض لا يسمعه أحد. وبعد أن هزا رأسيهما عدة مرات، نهضا والحليب يقطر من شعرهما ووجههما، وسارا نحو العجوز الذي انتظرهما وقوسه في يده. قال عبدو:

«إذا أراد صاحب الدار أن يأتينا بحصير، يمكننا التحدث قليلا.

أشار العجوز بإصبعه وقال مبتسما:

«الحصير بانتظارنا هناك تحت تلك الشجرة. ولكن اذهبا أولا

إلى البئر واغسلا رأسيكما».

لم يطل الحديث بين الرجال الأربعة. واتفقوا جميعا على القرار السليم: تعود كورا بعد إذن زوجها إلى بيت أهلها، مثلما تقضي العادات، لمدة ثلاثين يوما، لا أكثر. وتستغل أمها هذا الوقت لتعليم ابنتها واجباتها الزوجية. سر العم إسماعيل للقرار كثيرا، وقال لضييفه:

«أنا سعيد لهذا القرار الحكيم كما تريان. سأطلع ابن أخي عليه فورا. ولكن، قل لي يا سامبا، ألا تخشى اعتراض زوجتك على القرار الذي توصلنا إليه؟».

- عليها السكوت والطاعة، ولا أجبرتها على المجيء بنفسها لتتسلق شجرة العم إسماعيل على مسؤوليتها. ثم أن عليها منذ اليوم اتباع النصائح الطيبة، التي طالما أسداها لي قريبي عبدو. اتساءل لماذا لم أصغ أنا أبدا لهذه النصائح. لو فعلت، لتجنبنا كل هذه الإزعاجات التي تحدث لي اليوم.

- أرى أنك أنت نفسك أصبحت عاقلا جدا. لا أعرف فعلا كيف

عدت إلى رشذك بهذه السرعة.

- هذا السؤال طرحته على نفسي. أعتقد أن غسل الرأس والوجه بمطرة حليب، صباحا باكرا، يوقظ المرء ويمنحه أفكارا واضحة. أعتقد ذلك، نعم أعتقد.

هذا ما حصل. وعاش والي وكورا بعد ذلك سعيدين، وأوجد أهل القرية قولا آخر ماثورا: «يخطر كثيرا من أراد تسلق شجرة سامبا، لكن المجنون وحده يجرؤ على تسلق شجرة العم إسماعيل».

سيذكر أهل القرية زواج كريم وعائشة لزمن طويل. في كل صباح، كانوا يذبحون عجلا أو عددا من الخراف. ملأت رائحة الشواء الطيبة الجو طيلة النهار. ووزع الحليب والعسل بغزارة. ولم تكن هناك حاجة لدعوة أي شخص. فوفقا للعادات، يكفي مجيء أي شخص إلى دار العروسين، وتحيتتهما، والدعاء لهما بالسعادة، حتى يقدموا له الشراب والطعام، من دون أن يعرف أحد إن كان هذا الضيف صديقا، أو قريبا، أو عابر سبيل. وبقيت أصوات الطلبة، وأنغام الكورا والبلافون تسمع كل يوم حتى آخر الليل. تلقى والدا العروس، وأعمامها وأخوالها، وعماتها وخالاتها، وأقرباؤها وقرباتها هدايا فخمة. أراد كريم إظهار ثرائه وسخائه لأهل زوجته. وحرص على إفهام الجميع عدم قلقه من إنفاق ثرواته في سبيل زوجته المحبوبة. وبعد انتهاء الموعد المحدد للاحتفالات، نادى حماته، وقال لها:

«وصلنا اليوم إلى نهاية احتفالات العرس. أشكرك على الزوجة التي منحتها لي. إنها مهيبة، وجميلة، ومن أسرة كريمة، تحسن الطبخ، وقوية الشخصية، على رغم عذوبتها. أنا معجب بها. للأسف، سأضطر لتركها بعض الوقت بين حين وآخر. ضرورات عملي في التجارة تتطلب مني السفر خارج البلاد. سأسافر منذ الغد في رحلة طويلة مع شريكي، ثم أعود. في الوقت الحاضر، ووفقا لتقاليدنا، أسمح لزوجتي عائشة بالرجوع إلى بيت أهلها

ثلاثين يوما. نلتقي بعد عودتي. سنعيش سنوات طويلة ملؤها السعادة، إذا لم يحدث طارئ. أمل ذلك».

استعد كريم للرحيل، وسافر منذ اليوم التالي مع شريكه، مثلما قال. في اليوم نفسه، نادت ديانا، أم العروس، ابنتها وقالت لها:

«وفقك الله بأحسن زوج يا عائشة، يجب أن تعرفي كيف تحافظين عليه، وتبقينه بقربك إلى الأبد».

- سأبذل كل ما بوسعي يا أمي من أجل ذلك.

- هذا لا يكفي. في أيامنا، يبدو الرجال متقلبين، وقليلي الإخلاص، قد ينظرون يمينا ويسارا، متناسين أن لديهم زوجة شابة وجميلة في البيت. ومن الأحسن بالنسبة إلى عروس مثلك أن تنتهيا جيدا، وتتدبر أمورها سريعا، كي تتجنب مرارات هذه الأيام، وما أكثرها!.

- لا أفهم يا أمي. كيف تنتهيا وتتدبر أمورها كما تقولين؟

- رغم صغر سنك، يجب أن تفهمي يا ابنتي معنى كلامي: عليك إيجاد شيء يبقي زوجك بجوارك إلى الأبد، شيء يحول دون التفاته إلى امرأة سواك، شيء يبقيه قريبا منك ليلا ونهارا. - لا أعرف يا أمي أين يمكن أن أجد هذا الشيء الذي تتحدثين عنه.

- لا تكوني ساذجة يا عائشة، ساكلمك بوضوح، عليك البحث عن تميمة قوية تحمل زوجك على ملازمتك طول الحياة. أعرف ساحر تعاوين مشهورا يستطيع القيام بذلك. سنزوره هذا المساء، وندفع له أي مبلغ يطلبه.

مع حلول الظلام، ذهبت الأم وابنتها إلى كوخ الكاهن الساحر، العجوز كرموكو، الذي يجيد تحضير التمايم، وتجبير العظام أيضا. ويقال إنه يشفي الممسوسين، ويطرده العيون الشريرة، ويجلب الحظ، ويبعد المصائب، ويقوم بأشياء أخرى كثيرة كذلك.

أدخل العجوز المرأتين إلى كوخه، الذي تناثرت فيه مختلف الأشياء وأكثرها غرابة: جماجم قرود، وجلود عذراءات، وريش البومة، ومساحيق كثيرة، وخلائط، وأوراق، وجذور وقشور أخرى. وبعد التحيات الطويلة، قال العجوز كرموكو، الذي جلس بين هذا الركام المدهش:

«رغم معرفتي مسبقا بغرض زيارتكما، أفضل أن أدعكما تقولانه لي بنفسيكما، بصوت قوي. أنا مصغ إليكما».

قالت عائشة، بعد أن شجعتها أمها:

«يا جدي المحترم، جئتك بناء على نصيحة أمي لأطلعك على ما يشغل بالي كثيرا، لعلك تجد لي دواء. اسمع ما يقلقني. تزوجت أخيرا كما تعرف. زوجي شاب غني، وجميل وسخي، ويحقق لي كل رغباتي. أتيت لأطلب منك تميمة قوية تبقى لي إلى الأبد، وتجعله لا يكثر أباي امرأة أخرى غيري، وتستبقى كل أفكاره وكل عواطفه لي وحدي. عدا ذلك، لا أريد أن يتزوج بامرأة أخرى في المستقبل. أريد أن أبقى سيدة بيتي، أنا بمفردي، حتى آخر يوم في حياتي».

بعد أن استمع إلى كلماتها بانتباه، تفحص العجوز كرموكو صدقاته. ألقاها في السلة، ونظر إليها طويلا، ثم قال للشابة:

«يسعفني علمي وما لدي من قدرات في إيجاد هذه التميمة بسهولة. في الحقيقة، كشفت لي الصدقات ليس فقط عن طريقة إعدادها، بل أيضا وبشكل خاص عن المواد اللازمة لتحضير هذه التميمة. ولكن عليك أن تأتي بهذه المواد بنفسك دون مساعدة أحد. أشك أن تستطيعي ذلك.

- قل أيها العجوز الحكيم. أستطيع بالعزم والتصميم التغلب على الصعوبات. ما هي هذه الأشياء الضرورية لصنع التميمة؟ سأحضرها بنفسني.

- أرى فيك قوة إرادة أبيك، الذي كان صديقي أيام الشباب. اسمعي إذن ما يلزم: «طرف ذيل تمساح، وخرس أسد، وبيضة ببغاء، وجلد أفعى ممبة سوداء طري، وحليب ظبي. يجب أن تأتيني بقطعة ذنب التمساح وناب الأسد من حيوانين حيين. عودي إلي حاملة تحصيلين على هذه الأشياء. سأحضر لك منها التميمة القوية والمؤثرة التي طلبتها».

لما سمعت ديانابا هذه الكلمات، خفق قلبها رعبا، وصرخت: «هل سمعت جيدا يا ابنتي؟ لن تستطيعي أبدا الحصول على هذه الأشياء! علينا التخلي عن الموضوع».

لكن عزيمة عائشة لم تضعف مثل أمها. وشعرت برغبة في النجاح. بنت أكثر تصميميما من أي وقت مضى على نيل ما أرادت. وقالت: «سأحضر لك يا جدي كرموكو ما طلبت. زوجي في سفر لثلاثين يوما. أريد أن تجهز لي هذه التميمة قبل عودته».

عادت المرأتان إلى البيت. وحاولت ديانابا أن تثني ابنتها عن القيام بهذه المغامرة. لكن لم يزلها ذلك إلا إصرارا. ومنذ صباح

اليوم التالي، ارتدت ثياب الرجال، وتسلحت برمحين، وخنجر، وسيف وقوس وجعبة مليئة بالسهم. وتزودت بكيس صغير من جلد الماعز. ثم، ودون تردد، انطلقت في الطريق المؤدية إلى الدغل. اتجهت نحو ساقية تعرفها جيدا. وصلت إليها عند بداية بعد الظهر، وقت اشتداد الحر، حين تنصرف الحيوانات للتفيؤ والاستراحة. كان ماء الساقية الهادئ يلمع تحت الشمس، وعلى ضفافها تماسيح كثيرة تتدفأ على التراب. كمنت عائشة بين الأعشاب الطويلة، وراحت تراقبها وتفكر. ومن قبيل الحذر، لم تتجراً على الاقتراب منها كثيرا. ثم، ابتعدت عن المكان، الذي وجدته خطرا بالنسبة إلى ما تريد القيام به. راحت تدقق في الآثار الموجودة على الأرض بعناية، واقتفت أحدها، مبتعدة عن ضفة الساقية. بعد لحظات، توقفت فجأة، وكادت تصرخ من الفرح: رأت تمساحا جميل الشكل نائما، بمفرده، تحت شجرة ضامرة، وقد جثم على ظهره بعض الطيور الباحثة عن طفيليات تقتات بها بين حراشف جلده الخشنة. ما أن شعرت الطيور بوجود الشابة، حتى طارت مطلقة أصواتا أيقظت التمساح فورا. فتح عينيه، وركض نحو الساقية. لكن عائشة سدت طريقه وتحذته علنا. تهيأت بسرعة وبقوة، وامسكت أحد الرمحين بحزم وثبات لمهاجمة التمساح، الذي سرعان ما ارتد عليها فاتحا فمه الكبير. لم تنتظر الشابة سوى ذلك. قذفت الرمح بكل قواها بين فكيه المخيفين، فانغرس بينهما ممزقا جوف الوحش.

شب التمساح على قائمتيه الخلفيتين من شدة الألم،

وارتجف عدة مرات، محاولا التخلص من هذه الشوكة الضخمة، التي ألهمت صدره. دار حول نفسه، وحرك ذيله بقوة ليكسر ساق هذا الصياد الجسور - لأن ما فعلته لا يليق إلا بصياد ماهر. ابتعدت عائشة بسرعة، ممسكة الرمح الثاني بقوة. وبقيت تراقب حركات التماسح الهائج وهو يلتف حول نفسه، غير عارف كيف ينتزع هذه الشوكة من بين فكيه الملتهبين. وبعد عدة رجفات مضطربة، انقلب الحيوان على ظهره لحظة، سرعان ما استغلتها عائشة. تقدمت خطوة، وبضربة بارعة، غرست الرمح الثاني في بطن التماسح الأبيض الرقيق، نقطة ضعفه ومقتله، كما يعرف كل الصيادين. زاد الجرح الثاني الحيوان وهنا. عندئذ، أمسكت الصيادة الجريئة خنجرها، وقطعت طرف ذيله بضربة قوية وسريعة. التقطت قطعة الذيل التي طالما تمنتها، تاركة التماسح يلفظ أنفاسه مع الرمحين الغروسيين في جسده. ثم رحلت بعجلة في الاتجاه الآخر للساقية.

وصلت الشابة إلى البيت في وقت متأخر من الليل. فتحت الكيس، وأخرجت منه تذكارات أول انتصار، وقدمته إلى أمها. وجلست تحدثها عن معركتها. ثم، ساعدت ديانا ابنتها في الاستحمام، وذلك لها جسمها بمرهم لطيف ومعطر، لإنعاش أطرافها المتعبة. وقالت لها:

«ألا تريدان التخلي عن خطتك يا ابنتي؟ هل تساوي الأخطار التي تعرضت لها اليوم هذه التميمة؟ أنا قلقة عليك. أحس أنك ستواجهين أخطارا أكبر مما واجهت اليوم. أرجوك، أعدلي عن هذه الفكرة».

- لا تخافي يا أمي. ألا يحلو لك أن تقولي لي دائما إن على أفراد القُلبَة (*) ألا يرهبهم أي حيوان في الدغل والسهول العشبية؟ هل يهرب رعاتنا من وحش يهاجم بقرة من القطيع؟ لا أبدا! اتركيني يا أمي أمضي حتى النهاية. ثم من هو صاحب فكرة التميمة؟

- أنا صاحبها، أعترف. آسفة جدا على ذلك. ولكن، بما أنك تصرين، اقبلي أن يرافقك أخوك بولو. أرجوك.
- أقبل مرافقة أخي، شرط أن أحصل أنا بيدي على الأشياء التي أحتاجها. تذكرني ما قاله العجوز كرموكو.
- هذا يطمئنني قليلا. ليكن، سيذهب أخوك معك منذ القد. سيترك لك حرية التصرف فيما تقومين به، ولن يكون بجانبك إلا ليحميك عند الضرورة.
عند فجر اليوم التالي، ركبت عائشة وأخوها حصانيهما، واتجها غربا. وبعد أن سارا وقتا طويلا دون أي استراحة، سالت عائشة:

«هل تستحق أفعى الممبة السوداء السمعة المعروفة بها؟»
- اعرفي يا أختي أن الممبة السوداء هي أسوأ من إبليس. توجد في بلادنا أفاع سامة جدا وشرسة بشكل لا يصدق. الممبة السوداء تتفوق عليها جميعا في ذلك. يقتل سمها الرجل في بضع ثوان. سريعة كالبرق، وحقودة ومبغضة، ومشاجرة، ولا تهرب أبدا. على العكس، تستمتع بمهاجمة أي إنسان وأي حيوان حالما تراه. القتل، هو القانون الوحيد الذي تعرفه. عندما تكف عن ملاحقتك، تكون قد لدغتك.

(*) الغلبة شعب من أفريقيا الغربية (الترجم).

- ما تقوله لا يطمئنني كثيرا، لكنك تعرف أنني حتى وأنا صغيرة لم أكن أخشى الأفاعي.

- نعم أعرف، لكن الأفعى التي تريدونها اليوم لا تشبه الأحناس ولا الثعابين التي كنت تطاردينها. على كل حال، يجب أن تراقبي الطريق منذ الآن: «دخلنا أراضي الممبة وهي كثيرة هنا. لنكن يقظين باستمرار».

عند المساء، توقف المسافران على تلة صخرية، حيث ربطا حصانيهما واستعدا لقضاء الليل. أحاطا نفسيهما بدائرة من الأغصان اليابسة والأوراق الجافة، التي تصدر أصواتا وتحذر من تسلل أي قادم ليلا يضمر سرا. ناما نوما يشبه اليقظة. في صباح اليوم التالي، نهضا مع شروق الشمس. وبينما كانت عائشة تتفحص جعبتها، ناداها أخوها بهدوء:

«عائشة! عائشة! لا تلتفتي، لا تتحركي. خلفك إلى اليسار قليلا، تراقبك على بعد ثلاث خطوات. إن بدرت منك أدنى حركة، هاجمتك. سأحاول أن...».

لم يكذبوا ولو ينهي جملة، حتى التفتت عائشة فجأة والخنجر بيدها اليمنى، فوقفت الأفعى فورا على ذيلها وقفزت على وجه ضحيته. لكن عائشة كانت قد مدت الخنجر أفقيا وحركته بسرعة. لم تتمكن الأفعى من المساس بالشابة كما ظنت، إذ لما هاجمت وجهها، قطع نصل الخنجر رأسها بضربة واحدة. حدث كل شيء سريعا، حتى قبل أن يهيئ بولو القوس مثلما تصور أن يفعل. فوجئ بسرعة اخته وهدوئها، وصرخ:

«هنيئاً لك يا عائشة، هنيئاً لك اليوم فهمت لماذا كانت أُمي تقول دائماً إنك أنت أيضاً ورثت صفات أبينا القتالية. لنسرح الآن الحصانين ونغادر هذا المكان. قتلتم ممبة سوداء، ولكن هناك غيرها قد تهاجمنا مرة أخرى».

ضحكت عائشة، التي لم تخف أبداً، وأجابت:
«لا تنس يا بولو أنني أتيت إلى هنا لأحصل على جلد أفعى ممبة سوداء. هاهو أمامي، دعني أقوم».
- لا، لا، يا أختي، لنرحل حالا، قبل أن تهاجمنا الممبات من جديد، نحن وحصانينا.

وضع بولو الأفعى المقطوعة الرأس في كيسه. تركا المكان المخيف بسرعة، وسارا حتى وصلا إلى سهل عشبي لا أشجار فيه. ترجلا، وانتزع بولو بهدوء جلد الممبة المقتولة، ثم طواه ووضعها تحت سرجه. وسأل أخته:

«ماذا سنفعل الآن؟ إذا اتجهنا غرباً، سنجد منطقة تكثر فيها الضباء. لن يصعب علينا اصطياد إحداها بالسهم».
- لا، يا أخي الكبير. ليس هدفنا قتل ظبية، بل أسرواحدة تدرّ حليباً كافياً. لهذا، أحضرت ما يلزم. انظرا!

أشارت الشابة بيدها إلى شبكة كبيرة مطوية تحت سرج حصانها. شرحت فكرتها. ووافقها بولو عليها تماماً. لما راحت الشمس تميل نحو الغروب، لحا قطيع ظباء، وتوقفا لوضع تفاصيل الخطة: تذهب عائشة لمباغثة الحيوانات من الخلف، محاولة دفعها نحو بولو، الذي يكمن بين شجرتي بأوياب ضخمتين، مسلحاً بالشبكة.

امتطت حصانها، وسارت به في قوس دائري كبير. رجعت بعد ذلك، ثم انطلقت بسرعة نحو الأطباء التي كانت ترعى. هربت الأطباء هورا. وراحت الفارسة تصرخ بأعلى صوتها، محدثة صخبا قويا، ومجبرة القطيع على التوجه نحو الموقع الذي وضع فيه بولو كميناً. تشتت بعضها يمينا وبعضها شمالا، لكن معظمها اندفع نحو المصيدة بقرون مخفضة. ترك بولو الكثير منها يهرب، ثم قذف الشبكة فجأة، فوقعت على ظبيتين دفعة واحدة مع ظبي صغير. وصلت عائشة بسرعة. ترجلت، وعرفت أن إحدى الظبيتين ولدت الطبي الصغير منذ وقت قصير، لحسن الحظ. ملأت الشابة مطرقتها بالحليب بمساعدة أخيها، ثم أطلقت سراح الأطباء. وسرعان ما حل الليل. تناول الصيادان بعض اللحم المدخن الذي تزودا به من البيت.

في اليوم التالي صباحا، مع شروق الشمس، سأل الشاب أخته: «أين سنذهب الآن؟»

- إن أخبرتك، ستقول إنني مجنونة.

- تعرفين أنني لن أفاجأ بعد الآن بأي جسارة تبدر منك.

- إذن، سأقول لك. سنذهب إلى ندومبيلانا!

- أم، لا! لا بد أنك طشت تماما. لن ينجح مشروعك هذه المرة.

لنعد حالا إلى البيت. بت مقتنعا أنك فقدت رشذك.

- يا أخي الكبير العزيز، لم أضيع وقتي، ولم أفقد رشدي.

بالمقابل، يبدو أن بك من الرعب ما يجعلني أنصحك بالعودة إلى

القرية. إن سألتك أمي عن أخباري، قل لها إنك تخليت عني خوفا

في وسط السهول العشوشية.

- عائشة، كفي من استفزازي. الدم نفسه يسير في عروقنا. تدركين جيداً أن أبناء الفلبة لا يعرفون كلمة الخوف. أمرتني أمنا أن أظل بجانبك. سأفعل ولو كلفني ذلك حياتي، رغم قناعتي بقدرتك على حماية نفسك بنفسك. لنسرح الحصانين وننطلق. توجه الأخوان هذه المرة نحو الشمال. وبعد مسافة صمت طويلة، قالت الشابة:

«هل هناك خطر في ذهابنا إلى ندومبيلانا؟».

- إنها مملكة حيوانات الغابة والسهول العشبية. يجب ألا تطأها قدم إنسان. ثم، وقبل الوصول إليها، لا بد من عبور منطقة القراديح، هذه السعادين المتوحشة ذات الرؤوس الكلبية، التي تعيش في جماعات منظمة بقيادة زعيم منها. تهاجم هذه المخلوقات كل من ليس من جنسها. أخشى أن ننتهي أنا وأنت والحصانان في بطونها. إن أمسكتنا، أكلتنا أحياء».

ارتعشت عائشة. وسألت أخاها أيضاً:

«متى نصل إلى بلد القراديح؟».

- نسير الآن باتجاهها، منذ بعض الوقت. انظري إلى تلك الأكمة هناك، إلى اليسار. ستقاتلنا إن تابعتنا الطريق نحوها. توقف الحصانان فجأة، كما لو أنهما شعرا بالخطر. رأى بولو وعائشة حشد السعادين التي بدت كأنها بانتظارهما. سدت مئات القراديح الطريق عليهما. كان صراخها، الشبيه بالنباح القصير، يملأ الجو. ثم هاجمت الفارسين فجأة بجموع متراصة، كأنها تلقت إشارة غامضة.

لم ينتظرها الأخوان، بل أسرعوا للاقائها بالسيف. وبما أنها معتادة على رؤية الخصوم يهريون أمامها، ترددت قليلا. لكن الحصانين توغلا بأقصى سرعة في قلب الحشد المتوحش، وسحقا بحوافرهما الحديدية عظام القراذيع، بينما راح سيفا بولو وعائشة يحصدان رؤوسها وأذرعها المشعرة. ثم خرجا مسرعين من ساحة المعركة. مكث بعض السعادين منهمكا خلفهما بالقتلى والجرحى، وطاردتهما البقية. وعندما اتضح للأخوين أنها لن تكف عن ملاحقتهما، انحرقا فجأة نحو اليسار وصعدا تلة صغيرة. فوجئت القروء برهة بهذه المناورة غير المتوقعة، وتوقفت كما لو أنها تريد التشاور فيما بينها. تهايا الفارسان في أعلى التلة من جديد للدفاع عن حياتهما ببسالة ضد حشد الحيوانات. قالت عائشة لأخيها:

«انظر إليها! يبدو أنها تتشاور. انظر تلك الجماعة هناك، إلى اليمين، كأن كبيرها يعطي الأوامر. اصغ جيدا، إنها تصرخ». - ما تقولينه صحيح يا عائشة، إنه الزعيم. طالما بقي حيا، سيوجههم، ولن نتركنا. يجب قتله مهما كلف الأمر! علينا ألا ندع له وقتا لإعادة تنظيم جماعته. إلى الأمام!

نزل الأخ وأخته بحصانيهما على المنحدر المعشب بأقصى سرعة، رافعين سيفيهما اللذين احمررا من الدم، وانقضا كالصاعقة على جناح السعادين الأيمن، الذي هاجمهما هو أيضا. ويعد أن قتلت بعضهما، تقدمت عائشة بسرعة نحو الزعيم، وضربته من الخلف ضربة خاطفة حطمت رأسه في الحال. كان بولو يضرب يميناً وشمالاً وعينه على أخته. واستطاع الفارسان

الخروج من بين الحشد الهائج سالمين مرة أخرى. ابتعدا بسرعة، متوقعين مطاردة أخرى. ولكن، بعد قتل زعيمها، توقفت القراذيل في مكانها، مثلما فكر بولو.

بقيت عيون الأخوين تترصد السهل العشبي من بعيد جدا، إلى أن بلغا نهرا صافي الماء، يبدو الحصى في قاعه. سارا بمحاذاة المياه الشفافة، حتى وصلا إلى مخاضة يسهل عبورها. واكتشفا العلامة: رمح طويل مفروس في الأرض وعليه جمجمة. الإشارة واضحة: يجب ألا يجتاز أحد هذا النهر، وإلا تعرض للأخطار منها الموت دون أدنى شك. قال بولو لأخته:

«تستطيع حتى الآن العودة على أعقابنا إن أردت. ثم إنني لا أعرف لماذا جئنا إلى هنا».

- ستعرف قريبا. هيا يا أخي، لنعبر النهر.

ما إن عبراه، وسارا لحظات في الغابة، حتى أحاطت بهما جماعة من الضهود الحارسة، عند منعطف درب ضيق. قال رئيسها مهددا:

«ألا تعرفا أن هذه المملكة محظورة على البشر؟ ستموتان الآن». حاول بولو أن يستل سيفه للقتال، لكن أخته منعتة. وأجابت: «أنت هناك، يا من تبدو أنك قائد هذه الوحدة، أنصحك بمواكبتنا إلى رئيسك. إن كنا قد غامرنا بالمجيء إلى هنا، رغم إشارة الخطر، فذلك من أجل إبلاغه رسالة تتعلق بها حياة هذه البلاد. أسرع، ليس لدينا وقت نضيقه».

أمام هذا الإصرار، بدأ رئيس الحراس مترددا. قبل أخيرا مرافقة الغريبين. وصلت الوحدة الصغيرة مع نهاية الصباح إلى

حضرة غايندي الأسد، ملك ندومبيلانا. استقبل فوراً الجسورين،
الذين نقضا الميثاق المحترم منذ أقدم الأزمان، الذي ينص على
بقاء الناس في بلاد الناس، والحيوانات في بلاد الحيوانات. صرخ
بقليل من اللطف:

«ماذا تريدان؟ لماذا جئتما إلى مملكتي؟ كيف لم تلتهمكما
السعادين؟».

ردت عائشة:

«هاهو سبب قدومنا إلى هنا يا صاحب الجلالة».

- لماذا تتكلمين أنت؟ رغم ثيابك، أنت أنثى. هنا الذكور وحدهم
يمكنهم التكلم. اسكتي! دعي الكلام للآخر.

اضطرب بولو، الذي لم يعرف سبب القدوم إلى هذا المكان
المعادي. وكان لا بد أن يترك الحديث لأخته. قال للملك:

«يا صاحب الجلالة، عائشة هي أختي. تضاهي عشرة، بل عشرين
محاربا، في الشجاعة والإقدام. هاك مآثرها خلال رحلتنا هذه:
حاصرت تمساحا وقتلته بالرمح. هاجمتها ممبة سوداء فقطعت
رأسها. سدت علينا القراذيع المتوحشة الطريق، فقاتلتها بالسيف
ببساطة، وجندلت كثيرا منها في السهل العشبي، بما فيها الزعيم،
الذي قتلت به بنفسها. أرجوكم أيها الملك الكبير، اسمح لها بإبلاغك
الرسالة المهمة، التي جعلتنا نقوم بهذه الرحلة المحفوفة بالمخاطر».

تأثر الأسد غايندي كثيرا لهذا الكلام، وخاطب بولو:

«لم أكن أعرف أن فتاة بهذه الرقة والجمال تستطيع القيام بكل
هذه الأعمال، التي تليق بمحارب كبير. أقدرها عاليا. يمكنك
التكلم بلا خوف».

«أخي وأنا حفيدا كاهن توائم عظيم من أكثر الناس علما وشهرة في أفريقيا كلها. منذ وقت قريب، رأى جدنا في الحلم أن وياء رهيبا سينتشر في كل القارة السوداء. هذا ما أكدته توائمه وأصدافه عدة مرات. ستصيب هذه الكارثة، وهي نوع من الطاعون، كل الحيوانات وجميع الناس. سيموت كثيرون. وسيهلك عدد كبير من أفراد مملكتكم أيضا. قد تكون أنت في عداد هؤلاء. من يدري؟ لكن جدنا وجد طريقة لتجنب هذه المصيبة. يلزمه، من بين أشياء أخرى، ضرس أسد حي. ومن يضاهيك يا غايندي الأسد، يا ملك الحيوانات، شرفا، وكرامة، ونبلا وشجاعة لإنقاذ الشعوب المهددة. وصلت إليكم بعد رحلة مليئة بالمخاطر».

لما سمع الأسد غايندي هذه الكلمات، تأثر جدا، وقال بأبهة: «أيتها الشابة الشجاعة، منحتني فرصة لإنقاذ شعبي. هيا، استدعوا الكركدن الحداد كونكو كي ينتزع نابي!». اقبل كونكو مسرعا، ومعه كماشة كبيرة. وبخشونته المعروفة، انتزع بسهولة ضرسا من فك جلالته. قدمه غايندي إلى عائشة، التي وضعت في كيسها. ثم قال الملك:

«أسف لأنني لا أستطيع استضافتك. قوانيننا تحظر استقبال البشر. ثم لو أني التزمت بالأعراف السائدة، لكنتما الآن مع حصانيكما في قدر طعام العشاء، هنا على هذه النار الهادئة. هيا عودا إلى دياركما بسرعة. ولكن ليس من الطريق التي قادتكما إلى هنا. لا أحد يفلت من القراديع مرتين. اتجها نحو حدود البلاد الشمالية، واتركا حصانيكما عند أسفل الجبل الأبيض. اصعداه

مشيا فأنتما شجاعان. التقا بعد ذلك نحو الجنوب مباشرة، نحو بلدكما. وداعا. فليحكمكما خالق الطبيعة، والناس، والحيوانات. اتبع الأخ والأخت نصائح الأسد غايندي. وصلا سريعا إلى الجبل الأبيض. ولما كان يصعب على الحصانين صعود الجبل المليء بالصخور، تركاهما بعد تجريدتهما من عدتهما. تكلم بولو إليهما كما لو أنهما يفهمان:

«أيها الحصانان المقدامان. ندين لكما بحياتنا، لسلسلة قيادكما، وعنقوانكما، وقدرتكما على التحمل. قد لا تعرفان ذلك، لكن أبناء الفلبة يعتبرون الحصان قريبا لهم. لهذا، يحبونه ويحترمونه. عودا إلى حريتكما، هذه الحرية التي يجب ألا تفقداها أبدا. اذهبا بسلام، حماكما الله.»

وكما لو أنهما فهما، ابتعدا مسرعين. بدأت عائشة وأخوها الصعود فورا. بلغا في المساء مكانا قريبا من القمة، حيث دخلا مغارة لقضاء الليل. ورغم النار التي أشعلها، لإبعاد الحيوانات والتدفؤ قليلا، برذا جدا. في صباح اليوم التالي، استأنفا الصعود حتى بلغا القمة، ثم هبطا عبر السفح الآخر. كانت الرياح الباردة تصفر وتلسع جسميهما بقسوة، والحجارة المدببة تدمي أقدامهما بجراح مؤلمة. وتعثر تقدمهما قليلا بسبب الرماح، والأقواس والسهام، والجمعيتين والكيسين. لكنهما وصلا أخيرا بسلام إلى السهل، حيث اصطادا غزالا برمية سهم صائبة. شوياه على العيدان والأغصان، وجددا بلحمه قواهما وعززا شجاعتهما. وساهمت حرارة السهل في إنعاش نشاطهما. ارتويا بعد ذلك بماء النبع العذب القريب. ثم تابعا الرحلة، حتى وصلا قبل الظهر إلى

إحدى القرى، حيث اشترى حصانين مسرجين. انطلقا من جديد في السهل العشبي، إلى أن اقتربا من شجرة كبيرة، فتوقفا في ظلها. قال بولو لأخته:

«هاهي شجرة عنب، المكان الذي تحبه الببغاوات. أسمع أصواتها. هيا يا عائشة، عليك تسلقها، لأن العجوز كرموكو يريد ذلك».

نزلت الشابة عن حصانها. تسلقت الشجرة، ووصلت بسهولة إلى أول غصن كبير. لكنها لم تستطع تجاوزه، إذ انقضت عليها كل ببغاوات الشجرة تقريبا، وأخذت تطلق صيحات صاخبة، وتخدشها، وتنقرها بقسوة بمناقيرها المعقوفة الحادة حتى أدمت ذراعيها وساقها وكل جسمها. واضطرت أخيرا إلى النزول بسرعة. كاد بولو يغمى عليه من الضحك لهذا المشهد. ولما هدا، قال لأخته:

«لا أصدق ما تراه عيناى. قطعت يا عائشة بالأمس رأس أفعى. وهاجمت بالرمح تمساحا. وهزمت بالسيف جيشا كاملا من السعادين. وافتزعت ضرس أسد حي، دون خوف ولا تراجع. والآن تهريين من ببغاوات مسكينة. لم أعد أفهمك أيتها المحاربة الباسلة». شعرت الشابة أن أخاها يهزا منها بلطف.

«لكنى أخاف أن تترك جروح هذه الدويبات ندوبا تشوه وجهي ويدي. لا تنس أنى مازلت عروسا».

- صحيح ما تقولين يا أختي. لكن هذه الطيور تهاجم كجماعة النحل. كيف ستصرفين؟

- مرحى لك يا أخى! أعطيتني الحل. قل لى، كيف يبعدون النحل مؤقتا لجنى عسلها؟

- الأمر بسيط، يبعدونها بالدخان بعد إشعال القش.

- هذا ما سنفعله يا أخي!

جمع الشبان في أسفل شجرة العتاب كومة من الأعشاب والعيدان، وأضافا إليها أوراق شجر الباؤياب، وأشعلوها. صعد منها دخان لاذع، وكثيف، وخانق وصل إلى أعلى الشجرة. هربت كل البغاوات في الحال، مطلقة أصواتا صاخبة، كأنها تحتج. صعدت عائشة إلى أعلى الشجرة بخفة، حيث وجدت أعشاشا. التقطت بيضة واحدة، ووضعتها في فمها لتستطيع النزول دون خوف من كسرها. ولما صارت على الأرض، رفعتها ليراها أخوها، وقد بدت في ذروة الفرح.

«بولو، بولو، أخي الكبير، بفضل مساعدتك الثمينة، لا مشقة بعد الآن! هيا، بسرعة، لنعد إلى البيت، لا بد أن أمانا قلقة علينا».

امتطيا دابتيهما، وحرصاهما على السرعة. جريا بكل ما فيهما من قوة. عبر الفارسان السهول والتلال، والهضاب والوديان. ومع مغيب الشمس، وصلا إلى البيت منهكين من التعب، وقد التهب حوافر الحصانين من الجري. كانت عائشة متلهفة لرؤية الكاهن الساحر، حتى أنها لم تأكل شيئا. خلعت ثياب الرجال، واستحمت وقتا طويلا. ارتدت ثيابا أنيقة، وأرغمت أمها على مرافقتها إلى بيت كرموكو.

لم يصدق العجوز كرموكو ما رأت عيناه. مع ذلك، شاهد أمامه كل ما طلبه: طرفا من ذيل التمساح، وناب أسد، وبيضة بيضاء، وجلد أفعى ممبة سوداء، وحليب ظباء. طلب من الشابة

أن تشرح له كيف أمكنها الحصول على كل هذه الأشياء. روت له كل مغامراتها، دون أن تحذف شيئا: جولاتها على الحصان، والمعارك مع القروء، والحيلة مع الأسد، وأسر الأطباء، والدخان لإبعاد الببغاوات، وهجوم الأفعى. ولم تنس شجاعة أخيها ونصائح الطيبة. ولما انتهت من حكايتها، فكر الكاهن الساحر مليا، ثم قال:

«انتبهي جيدا إلى ما سأقوله لك يا ابنتي العزيزة. عندما طلبت منك تلك الأشياء، أردت اختبارك، آملا أن أوهن عزيمتك. لم أشك أبدا أنك تستطيعين القيام بهذه المآثر، التي تليق بأبطالنا الكبار. والآن، هاك الحقيقة: ليست هناك تميمة تجعل الزوج يلتصق ببيته».

فوجئت عائشة، وصرخت:

«ولكن، وعدتني يا جدي كرموكو أن تعد لي تميمة إذا أحضرت لك هذه الأشياء!».

- دعيني أكمل يا ابنتي. سأخبرك بما يجب أن تفعله بالضببط. قهرت بشجاعتك الممية السوداء، وتغلبت على القراديع التي لا تعرف الشفقة. زوجك لا هذا ولا ذاك. وتمكنت بحيلتك، مقرونة بذكائك، من الحصول على سن ملك الحيوانات. هل يشبه زوجك الأسد؟ إذا أردت أن تعيش زوجة وحيدة لا تنافسك امرأة أخرى، استعيني بقدرتك، وحيلتك، وشجاعتك كي تدير شؤون دارك. ليكن بيتك دائما نظيفا، وحفيا، وبهيجا وحلو السكن. إياك أن يعود زوجك في أي وقت فيجدك مهملة، ومتسخة، وبشعة الملبس. على العكس، احرصى على أن تكوني دائما جميلة اللباس

والزينة، ومطيبة بالعطر، ويشوشة. عرفت كيف تجدین الكلام المناسب لمخاطبة غايندي، افعلی الشيء نفسه مع زوجك، ولا تكذبي عليه. اعتبریه في الوقت نفسه صديقاً، وأخاً كبيراً، وأخاً صغيراً، وضيئاً مميّزاً، وأباً، وصدرًا يتسع لأسرارك. حضري بنفسك، أو لتحضر له خادماتك الأطباق الصغيرة الطيبة، فغالبا ما قالت أمهاتنا بأن الرجل يربط من بطنه بالبیت. عندما يزورك أهل زوجك أو أصدقاءه، عليك استقبالهم بترحاب وحفاوة وبلا تعب، كما لو أنهم أهلك، أو أصدقاءك أنت. أخيرا، إذا كان له أعداء، أو إذا كان هناك من يضمّر له سوءا، انظري إلى هؤلاء على أنهم أعداء لك. تصرفي معهم بقسوة دائمة، وبغاية الصرامة. لا تتركهم يستريحون ولا تهدأهم، في الليل أو في النهار. إن اتبعت هذه النصائح يا ابنتي، ساعدتك على الاحتفاظ بزواجك أكثر من أي تميمة في العالم.

طبقت عائشة بدقة ما أوصاها به العجوز الحكيم كرموكو. وعاشت أياما هائلة مع كريم، زوجها، الذي لم يتزوج من امرأة أخرى أبدا.

حكايات وأساطير أفريقية

من يزرع الشر

تأليف: سليمان جيفوديوب

ترجمة: محمد الدنيا

مراجعة: د. عبد الرحمن بن زيدان

١ - من يزرع الشر...

عثمان عنده دكان شواء في ساحة القرية. وبمساعدة زوجته بيكا، يعرف كيف يجتذب الزبائن، أكثر من منافسيه بكثير. فمن باب دكانه الكبير، ونوافذه العريضة المطلة على الشارع، تنبعث رائحة الشواء اللذيذة، التي تحفز شهية المارين، وغالباً ما تثير رغبتهم في الدخول.

في القرية، يعيش سالف، الشحاذ، الذي لا يتمتع بكامل عقله، لكنه لا يؤذي أحداً. يحب الأطفال، ويبادلونه حباً بحب. لا أحد ينهره أبداً عندما يقطف الفاكهة من البساتين، ليأكلها، أو ليطعمها لأصدقائه الصغار.

عند الظهر، في ساحة القرية الغارقة في أشعة الشمس، اقترب سالف ببطء من دكان الشواء. نظر من النافذة إلى أفخاذ الخراف، والفرايج، وأسياخ اللحم التي يقلبها صبيان الدكان الشواؤون فوق نار هادئة. وقف سالف، وأخذ يشم رائحة اللحم المشوي الطيبة. وأغمض عينيه كي يتلذذ أكثر بأريج الشواء. ثم راح يتنفس ويستنشق بصوت صاخب. فجأة، أمسكه أحدهم بعنف من ياقة جلبابه: إنها بيكا، زوجة صاحب الدكان، التي بدأت تصرخ:

«أيها اللص، تستنشق رائحة الشواء ودخان أسياخ اللحم! يجب أن تدفع ثمنها فوراً».

- ولكن، ولكن... لم أكل شيئاً من عندك! الرائحة تخرج من

تلقاء نفسها إلى الشارع. يستطيع استنشاقها كل المارين! لست
مدينا لك بشيء. دعيني أمضي.

لقت الصراخ انتباه عثمان. خرج من الدكان فلمح زوجته، المرأة
التي يخافها قليلا بسبب ضخامة جسمها، وبالأخص لطبعها
الرديء جدا. حاول تهدئتها:

«دعي هذا المسكين وشأنه يا بيكا، ليس شريرا، ويحب الأطفال
كثيرا».

- لا، لا، ثم لا! لن أدعه يمضي! يجب أن يدفع. لا أريد أن
أسمع شيئا. عد أنت إلى دكانك وراقب عمل الشوائين. ويل لك إن
اقترب لص آخر. اعرف ما يجب أن أفعله معك.

بيكا لا تريد أن تسمع أي شيء، حتى كلام التهدة من زوجها،
ولا توسلات الناس. بقيت تشد المسكين من جلبابه، وتجره بسرعة،
إلى أن وصلا إلى قاضي القرية. روت له كل الحكاية، وأنهت
صارخة:

«سيدي القاضي، تجب أولا معاقبة هذا الرجل بقسوة. يقال إنه
مجنون، لكنني لا أصدق شيئا من هذا. ثم، يجب أن يسدد لي ثمن
رائحة اللحم المشوي الذي استنشقه من دكاني».

فكر القاضي لحظة، ثم سأل سالف:

«هل تحمل في جيبك بعض قطع النقود؟».

- نعم، ولكن ليس معي سوى قطعتين صغيرتين فقط: هاهما!

- يكفيان، هاتهما.

أخذ القاضي القطعتين، اللتين شاهدتهما بيكا، وألقاهما على
الأرض: دم!.. دم!.. دم! ثم قال للمرأة:

«هل سمعت صوت قطعتي نقود هذا الرجل؟».

- نعم، نعم، سمعت. هل أخذهما؟

- لا، يا امرأة، لن تأخذي هاتين القطعتين التعيستين. استنشق

سالف رائحة لحومك المشوية، وأنت سمعت صوت نقوده. إذن، دفع لك الثمن. دعيه، وامضي من هنا. إياك أن تعودي ثانية.

صفق كل الحاضرين لهذا الحكم العادل، المنصف جدا. رجعت بيكا إلى الدكان خجلة، بل وخائبة، لأنها لم تفلح في سلب الشحاذ المسكين هذا القليل الذي يملكه. ما إن وصلت، حتى صبت جام غضبها على زوجها المسكين، واتهمته بأنه مهمل، باحثة عن ذريعة لتنفث عليه مزاجها السيئ. وكثيرا ما دفعتها ضخامة جسمها وقوتها إلى ضرب زوجها القصير والنفيف، الذي لا يجرؤ على فتح فمه، كي لا يثير أعصابها أكثر. ولما أراد أولادهما الثلاثة الوقوف إلى جانب الحق، مع سالف، صفعتهم بقوة. وعاقبتهم بإجبارهم على الذهاب للنوم، دون أن يتناولوا طعامهم.

لم تنم بيكا الليل. سهرت تبحث عن وسيلة تنتقم بها مما اعتبرته إهانة من القاضي أمام الملأ. وبقيت حتى صياح الديك تفكر بطريقة تعاقب بها هذا الرجل، هذا المخبول، هذا المتشرد غير الصالح شيء، الذي يأتي من وقت لآخر لاستنشاق رائحة شوائها، مفلتا من كل عقاب. فكرت في دفع بعض صبيان القرية السيئين كي يعتدوا عليه في الحقول، ويكسروا ساقيه أو ساقيه الاثنتين، أو حتى قتله للتخلص منه، فلا تراه أبدا بعد ذلك. لا، هذا الحل محفوف بمخاطر كثيرة. يجب البحث عن شيء آخر.

مع صياح الديك مرة أخرى، نهضت مرتاحة، بعد أن تصورت فكرة جيدة للتخلص من الشحاذ نهائيا.

حبست نفسها في المطبخ، دون أن تخبر أحدا. تشاغت طيلة ساعة، ثم خرجت خفية من البيت متأبطة وعاء. اتجهت نحو مخرج القرية، باتجاه شجرات الباؤياب الثلاثة، التي يستريح سالف في ظلها عادة. وجدته هناك، جالسا تحت الأغصان. لما رآها، دهش الرجل كثيرا، وقفز واقفا. وراحت تطمئن بصوت عذب: «صباح الخير يا صديقي، كيف حالك هذا الصباح؟».

- صباح الخير. ولكن متى كنت صديقك؟ البارحة جررتني بخشونة من ثوبي، حتى أنك مزقته، وليس عندي غيره. ثم أوصلتني إلى رجل طلبت منه أن يعاقبني. والآن تأتين إلى هنا. أنا متأكد أنك ستأخذين مني قطعتي نقودي. تأخرت، أعطيتهما لامرأة عجوز تشتري دقيقا. كانت جائعة.

- لا، لا، لا ما هذه الأشياء التي تقولها؟ على العكس، أتيت لأراك وأصالحك.

- إن جئت من أجل الصلح، فأنا سعيد. أنا أحب الصلح، أحب الطيور لأن صوتها جميل. أحب الأطفال أيضا لأنهم يتكلمون إلي، ولا يضربونني بالحجارة، ولا يسخرون مني، مثل بعض الناس في القرية. أحب كذلك الكسكس الذي تطعمني إياه ماما مارييتو من وقت لآخر. لولاها أكاد أموت جوعا.

- لو أعرف أنك تحب الكسكس، لأحضرت لك قصعة منه. أسفة للضرر الذي سببته لك. كي تسامحني، أعددت لك بعض القطائر. هاك، خذها.

أعطته بيكا الوعاء الصغير، وعادت إلى البيت دون تأخر. نهض سالف، الذي سره جدا عثوره على صديقة جديدة. وذهب إلى كوخ ماما مارييتو، التي يعرف أنه سيجد عندها طبق كسكس بانتظاره. ولكن، ألا يجب أولا أكل الفطائر؟ لا، الانتظار أفضل. الكسكس أولا، ثم الفطائر. أخذ يرقص فرحا. فجأة، التقى عند منعطف الطريق بثلاثة صبيان صفار، هجموا عليه مبتهجين. قال له أكبرهم:

«عمو سالف، جئنا لثراك. عرفنا أن أمنا أساءت معاملتك البارحة، لأنك استنشقت رائحة شواء دكان أبي. قالوا لنا إنها جرتك أيضا إلى القاضي، ليعاقبك. هل هذا صحيح؟».

- صحيح أيها الأطفال، لكنني نسيت الأمر. تصالحت معها. أحضرت لي هذا الصباح وعاء مليئا بالفطائر. انظروا، هاهو. هل تحبون الفطائر يا أولادي؟

- نعم نحبها، خصوصا أن أمنا هي التي أعدتها.
- إذن، أقدمها لكم بكل سرور، لأنكم تحبونني وأحبكم. أنتم لا تسخرون مني أبدا كال بعض. تنادونني عمو، بينما أنا لا أعني لكم شيئا. هيا، خذوا، كلوها! لا تبقوا منها ولا قطعة!.

تناول الأطفال الثلاثة الوعاء، والتهموا كل ما فيه بسرعة، ثم رجعوا مسرورين إلى البيت. وما أن اجتازوا عتبة البيت، حتى هرعوا إلى أمهم:

«ماما، ذهبنا لرؤية عمو سالف، الشحاذ». - أمنعكم من التكلم إليه. لن تروه بعد اليوم.
- لماذا تقولين ذلك يا ماما؟ إنه صديقنا. يتحدث إلينا بلطف

دائماً. قال لنا إنك تصالحت معه. أعطانا الفطائر التي قدمتها له، وأكلناها كلها.

لما سمعت بيكا هذه الكلمات، أطلقت صرخة قوية. وسقطت على الأرض، وراحت تتدحرج، وأصيبت بنوبة جنون. اجتذب صراخها القوي الجيران، وتجمعوا حولها. وبدا زوجها عثمان قلقاً جداً:

«ماذا حدث؟ ما الذي يجري؟ هيا يا بيكا انهضي. قول لي لماذا تصرخين هكذا؟».

- أخطأت فعاقبني الله فوراً. حضرت فطائر مسمومة وقدمتها للشحاذ سالف كي أقتله. لكنه أطعم أولادي الفطائر. سيموتون. عاقبني الله! عاقبني الله!».

في الواقع، انهار الأطفال الثلاثة قبل أن يستطيع أحد فعل شيء. أغلق الموت عيونهم، وأخذهم إلى مملكته التي لا يعود منها أحد.

يقول المثل: «النية السيئة كالبيوت، صاحبها هو من يمضي الليل فيها».

٢ - قصة صبية

بدأت الشمس تميل غربا في السماء، لتكمل النصف الثاني من مجراها اليومي.

شعر العجوز سامبا، في وسط حقله، باللم في ظهره. توقف عن العمل، واتجه نحو أشجار المنجة الثلاث الضخمة، عند الطرف الآخر من أرضه. جعل الرجل من هذه الأشجار الكثيفة الأوراق ملاذا لاستراحة الظهر، عندما يستحيل عليه العمل، تحت أشعة قرص الشمس اللاهبة.

تمدد العجوز على الحصير. ما كاد ينفو قليلا، حتى وصل أولاده الأربعة، الأقوياء الجسورون، الذين يساعدونه في العمل. لما رآه باتيا، ابنه البكر، ومور، وكودي، وبيرا مستلقيا، انتابهم شيء من القلق. لكن والدهم طمأنهم:

«لا عليكم يا شباب. لا شيء سوى بعض التعب، وحرارة اليوم غير العادية. أنا أستريح على الحصير كما ترون. اطمئنوا، أشعر بالتحسن. هيا لنعد إلى العمل».

انحنى باتيا قليلا ليجلس جبين والده. ثم قال، محاولا إخفاء قلقه: «لا يا أبي، الشمس تغرب الآن. تبدو متعبا أكثر مما تقول. سنعود إلى البيت. يمكنك الاستراحة هناك. اجمع الأدوات يا مور. وانتما يا كودي وبيرا، أحضرا الحمار لنقل والدنا».

ركب الوالد حماره، وسار أولاده خلفه باتجاه القرية. وما إن وصل كبير الأسرة، حتى دخل إلى كوخه، واستلقى في الفراش.

اعدوا له نقيع أوراق شجرة الكنكليبا المدرة للبول. وسقوه شراب النباتات المقوية. وذلك صغير الأبناء أطرافه بزيت حبوب شجرة الكريّة، لتخليصه من التعب.

ومع حلول المساء، تناول الجميع وجبة كسكس شهية. ثم ذهبوا للنوم.

في صباح اليوم التالي، باكراً، جاء الأولاد للاطمئنان عن والدهم. رد الوالد على تحياتهم، ثم خاطبهم قائلاً:
«أشكركم يا أبنائي على لطفكم واهتمامكم بي. لم أكن أريد منكم أكثر من ذلك. ولكن، لا فائدة من أي جهد تبذلونه. أشعر أنني لن أنهض ثانية».

اعترض الأولاد الأربعة قلقين على ما سمعوه منه:

«لا يا والدنا، لا تقل ذلك».

– مازلت قويا يا أبي! ستعيش طويلاً معنا!

– نعم يا أبي، كودي على حق. سأحضر لك مطيب القرية مودو. سيجعلك تنهض سريعاً. كن واثقاً.

تفاخر الوالد بأن لديه مثل هؤلاء الأبناء المتحدين، والطيبين، والمتحمسين، والودودين. وأراد أن يستمر هذا الوفاق وهذا التعاون دائماً. تأثر جداً حتى سالت الدموع من عينيه، وقال لهم:

«اسمعوني جيداً أيها الأولاد. تعرفون أن العجوز، ولو كان على فراشه، يرى أبعد ممّا يراه الفتى ولو وقف في أعلى شجرة. انتبهوا إلى ما سأقول، فهذه آخر كلماتي. لا تبيعوا أبداً حقولنا الذي يطعمكم. منذ وفاة والدتكم وأنا أهتم بكم بمفردي. أصبحتم الآن راشدين. ابقوا متضامنين. حافظوا على بيت

الأسرة كاملا. ساموت فقيرا، ولكن فاضلا. لم أترك لكم الشيء الكثير. ليراني التسعة هي لكم. عند موتي، ستتقاسمها يا باتيا مع إخوانك بالتساوي. الحبال التي ستوثق بها الدواب ذلك اليوم موجودة قرب سريري. ابقوا متحدين يا أولادي. احرصوا على الوفاق داخل الأسرة. أبارككم إلى الأبد، طالما تضامنتم وتعاونتم، كأصابع اليد. فكروا أيضا بأن يتخذ كل منكم زوجة له. أتمنى لكم حياة هائلة.

قال العجوز هذه الكلمات، وسكت. ثم استطع، أو لم يشأ أن ينطق بعد ذلك كلمة واحدة. وصل الطبيب مودو، الذي استدعوه بسرعة، ومعه مساحيقه، ومراهمه، وأشربته الحلوة، وتعاويذه. اعتنى عناية كبيرة بالمريض، الذي كان صديقه. ولكن لم ينفع معه علاج؛ في اليوم التالي، مع شروق الشمس، مات سامبا، الرجل الخير والمستقيم، تاركا أولاده الأربعة. خيم الوجوم والحزن على كل القرية، مثلما يحدث غالبا، عند موت شخص محبوب ومحترم فجأة.

بكوا والدهم، ودفنوه بشكل لائق. وبعد أيام الحداد، جمع باتيا، الابن البكر، إخوته ليكلّمهم.

«رحل والدنا، وتركنا يتامى تماما هذه المرة، نحن الأربعة. لا شك أن العمر الذي نحن فيه يؤهلنا لتدبر أمورنا بمفردنا. لكن هذا الرحيل ترك لدينا فراغا كبيرا. لننتقاسم الثروات التي ورثناها عن المرحوم والدنا. لنقم بذلك بشرف، كما تقضي تقاليدنا. سننظر بعد ذلك كيف نعيد تنظيم حياتنا. ما رأيكم؟»

لزم بقية الإخوة الصمت لحظة، ثم تحدث مور:

«يا أخانا الكبير، منذ البارحة وأنا أفكر بهذا الموضوع، رغم المصاب الذي ألم بنا. بعد أن رقد والدنا بسلام في مقبرة القرية، لنفتح أعيننا ولنأمل كلماته الأخيرة. قال ما يلي بالضبط: «لم أترك لكم الشيء الكثير. ثيراني التسعة هي لكم. عند موتي، ستتقاسمها يا باتيا مع إخوتك بالتساوي. الحبال التي ستوثق بها الدواب ذلك اليوم موجودة قرب سريري». أليس هذا تمامًا ما قاله؟».

وافقه البقية كلهم: «نعم، نعم، هذا ما سمعناه بالضبط».

تابع مور قائلاً:

«كنا حينها منضغلين جداً، ولم ينتبه أي منا جيداً إلى دلالات الكلمات التي قالها. جمعت بنفسي الحبال التي أشار إليها الوالد قرب سريره. هاهي. إنها اثنا عشر حبلاً. انظروا يا إخوتي الأعزاء إلى الخيار الصعب بين حلين، الذي طرحه علينا والدنا. أولاً، لماذا اثنا عشر حبلاً لربط تسعة ثيران؟ ثم، كيف سيوزع أخونا الكبير باتيا هذه الثيران التسعة بين أربعة ورثة؟ هل القسمة ممكنة؟».

جعل كلام مور الشباب في حيرة كبيرة من أمرهم.

راح كل منهم يتذكر آخر كلمات الوالد. قال لهم كودي:

«أعترف بأن حزني الشديد، وأنا أرى والدي يموت، جعلني لا أفكر في كل ذلك. أتساءل الآن إن كان قد بقي حياً حتى ذلك الوقت. في الواقع، لا أعرف كيف يمكن أن يتم ذلك: اثنا عشر حبلاً لربط تسعة ثيران، ثم تسعة ثيران لقسمة متساوية بين أربعة أشخاص؟ ألم يقصد أن على باتيا بيع الدواب لتقسيم ثمنها بيننا؟».

لم تزد لهم كلمات الوالد الأخيرة إلا حيرة، ولم ترح الإخوة أبداً.
لم يقل بيرا شيئاً حتى هذا الحين، فتكلم قائلاً:

«أنا أصغركم سناً. ولكن سأعرض عليكم فكرة، إذا سمحتم لي
يا إخوتي الأكبر، الذين أحبكم واحترمكم، سأعرض عليكم
اقتراحاً. لنذهب إلى الحكيم كوتا بارما، الخبير في حل الألفاظ،
ونشرح له السرّين. سيعرف كيف ينصحنّا. إن لم نفعل، يخشى أن
نختار حلاً يخالف إرادة والدنا. ما رأيكم؟».

فكر بقية الإخوة لحظة، ثم قبلوا اقتراح أخيه الأصغر. وفي
المساء، بعد العودة من الحقل، توجهوا نحو الشجرة التي تدور
تحتها أحاديث كبار القرية.

كل شيوخ القرية كانوا هناك، تحت الشجرة، حيث يجتمعون
عادة، بعد يوم مليء بالعمل الشاق، من أجل النقاش، وتبادل
الأحاديث، وحل النزاعات، أو للتسلية. حضر الاجتماع مختار
القرية، والوجهاء، وكبار السن المحترمون، ذوو اللحي البيضاء.
وانضم إليهم بعض الرجال غير الكبار كثيراً في السن، الذين
رغبوا في الاستفادة من خبرات الشيوخ. كان الجميع يصفون إلى
راع عجوز من قبيلة القلبة وهو يروي كيف قتل، مع رفاقه الثلاثة،
بعض ضخم، أسداً فتياً هاجم ماشيتهم.

وصل باتيا وإخوته مع نهاية الحكاية تماماً. حيوا الحاضرين
بأدب. عرفهم الحكيم، وكذلك الآخرون، الذين كثيراً ما اجتمعوا
مع والدهم تحت هذه الشجرة. قال العجوز كوتا بارما:

«اعلموا أيها الشباب أننا حزنا أشد الحزن لوفاة أبيكم. كنا
رفاقاً منذ الصغر. ألمنا رحيله مثلما ألكم. ولكن لا راد لقضاء الله

وقدره. ماذا ؟ أرى في وجوهكم كلاما . إن كان لديكم ما يقلقكم،
تكلّموا . كلنا آذان صاغية». قال باتيا بخجل: «نعم يا عم كوتا، منذ
وفاة أبينا وبعد كلماته الأخيرة ونحن في حيرة من أمرنا، لهذا
قصدناك طلبا في مساعدتك لفك لغز خطابه الغريب».

روى باتيا ما قاله العجوز سامبا، كلمة كلمة، دون أن ينقص
منها شيئا. أنصت الحضور بانتباه كبير. وفي نهاية الحكاية، ظن
معظم الموجودين أن العجوز سامبا لم يكن صاحي الذهن تماما
خلال ساعاته الأخيرة. تجرأ البعض على قول ذلك. لكن الحكيم
كوتا بارما كان مقتنعا بعكس ذلك. وخاطب باتيا وإخوته بصوت
عال ليعرف الجميع معنى كلامه:

«لا تظنوا أبدا يا أبنائي أن الشمس قد أثرت على تفكير والدكم.
كان صاحيا وسليم التفكير تماما حتى آخر لحظة من حياته. عودوا
غدا، في مثل هذا الوقت، مع الثيران التسعة والحبال الاثني عشر.
سأدلكم على القسمة فيما بينكم أنتم الأربعة».

أعطى أولاد العجوز سامبا وعدا بالعودة في اليوم التالي. حيوا
الحاضرين، ورجعوا إلى الدار مطمئنين مرتاحين. ولما نهض كوتا
بارما ليعود إلى البيت، أمطره رفاقه المحتارون بالأسئلة
والاستفسارات حول تقسيم الثيران التسعة بين أربعة أشخاص مع
اثني عشر حبلا، فأجاب:

«يا أصدقائي، هذه القسمة لا تصعب على طفل صغير. غدا
سترون كيف ساحل الأمر».

في الوقت المحدد من اليوم التالي، لم يشأ أحد تفويت فرصة
حضور القسمة الغريبة. كانت الثيران التسعة، المربوطة بأوتاد

صغيرة، تجتر بهدوء، غير مبالية بما سيجري. وضعت الحبال المتينة الاثنا عشر أمام الإخوة الأربعة، الذين انتظروا بصبر وارتياح. حضر كثير من الناس، ليسمعوا كوتا بارما ويروا كيف سيحل، بحكمته المعروفة وحدة ذهنه، ما بدا سرا خفيا، وتحديا، ومعضلة متعذرة الحل، في هذه القرية الصغيرة من قرى السهول العشبية الأفريقية.

ساد صمت تام. وبدأ العم كوتا، مثلما كان يناديه أهل القرية تحببا، الكلام قائلا:

«أيها الأصدقاء، بقي صديقي سامبا سليم الجسم والعقل حتى وفاته، خلافا لما أمكنكم أن تعتقدوا. والأفضل من ذلك أن وصاياه الأخيرة حملت رسالة، رسالة سأشرحها لكم بوضوح وأنا أقفد رغباته الآن. أنت يا باتيا، البكر، اعط ثلاثة حبال إلى مور وثلاثة إلى كودي وثلاثة إلى بير. قل لهم أن يضعها كل منهم في رقبة ثلاثة ثيران. هذه هي حصتهم».

نفذ الشبان الثلاثة المطلوب، دون أن يفهموا جيدا. وبذلك، حصل كل منهم على ثلاث دواب، فلم يبق منها شيء، دون أن ينال البكر حصته بعد. دهش هذا الأخير، وقال:

«يا عمي كوتا، لدى كل من إخوتي الآن ثلاثة ثيران. لكني بكر الأسرة، ولم أحصل على شيء. لا أفهم. ألم يخطئ والدنا».

– لا يا بني، والدك لم يخطئ. الآن، ناد إخوتك، ليقتفوا أمامك.

ازداد الحاضرون حيرة وهم يتابعون المشهد، ساكتين. كان كل منهم ينظر ويسمع. خاطب كوتا بارما باتيا قائلا له:

«خذ حبالك الثلاثة وضعها في عنق كل واحد من إخوتك!... نعم، نعم، هيا افعل! لا تتردد!... حسنا، هكذا! الآن نضدنا رغبة والدك. حصتك أنت من الميراث هي إخوتك. لن يصبحوا عبيدك، لا، أبدا. لكنك منذ اليوم راعيهم ومرشدهم. الراعي يسوق كل الدواب إلى ساحة القرية، وأنت يا باتيا ستقود إخوتك إلى أرض الأسرة، بدلا من أن تتشتتوا كل منكم في اتجاه. أنت الآن سيد ذلك البيت. كل ما لك لهم وكل ما لهم لك أيضا. يجب أن تستمر وحدة الأسرة وتماسكها. تابعوا زراعة الحقل معا. كونوا متضامنين كأصابع اليد. تلك هي رسالة والدكم، تلك هي أمنيته، وتلك هي رغبته الأخيرة».

عاد باتيا، ومور، وكودي، وييرا إلى البيت، وكلهم تصميم على احترام رغبة الأب بحذافيرها. طمأنهم البكر وذكرهم بأن الوالد أوحى إليهم أن يتخذ كل منهم زوجة. وكانوا جميعا متفقين على ذلك، لكن هذه حكاية أخرى.

٣ - السلفات الأربع

مرت الأيام. لم تكن قسمة الميراث مريحة تماما دون شك، لكن حكمة العم كوتا بارما وفطنته جعلتها تنال رضا الورثة الأربعة. ترك رب الأسرة المتوفى فراغا كبيرا بالتاكيد. ووجه الأخ الأكبر باتيا إخوته بحزم، ويلطف. لهذا، قبل مور وكودي وبيرا وصاية الأخ الأكبر عن طيب خاطر، وفقا للتقاليد، التي تقضي بأن يطيع الأبناء الأصغرأخاهم البكر، وأن يفعلوا مايقوله لهم. هكذا، ومع الاحترام والتقدير والمحبة المتبادلة، تابع الإخوة الأربعة، الأقوياء والجسورون، العمل في حقل الأسرة الكبير، متحدين كأصابع اليد.

سكن كل منهم كوخا من القش، في الدار نفسها، التي ورثوها عن أبيهم. وكانت لهم جارة طيبة تعد لهم الطعام وتعتني بملابسهم.

وذاث مساء، بعد أن تناولوا وجبة الكسكس معا، تمدد الإخوة الأربعة على حصيرباحة الدار الكبيرة، وراحوا يتحدثون عن أشياء كثيرة، وعن الأمطار التي تأخر هطولها، أي باختصار عن أشياء عادية. فجأة، قال باتيا: «اسمعوني جيدا يا إخوتي. هل تتذكرون آخر رغبات والدنا قبل أن يموت؟».

أجاب الأصغر، اليقظ دائما:

«أتذكرها جيدا. قال: «فكروا أيضا بأن يتخذ كل منكم زوجة له».

- نعم يا بيرا، هذه هي كلماته. والآن أطرح عليكم سؤالاً: «ماذا ننتظر كي نتزوج؟».

لاحظ مور وكودي وبيرا، صمتاً محيراً. وبعد لحظات، تكلم مور قائلاً:

«فاجأتنا بسؤالك. حسبنا أنه يمكننا الانتظار سنوات أخرى قبل أن...».

ثم يتركه باتيا يكمل كلامه:

«لا، لا يا أخي، لماذا ننتظر سنوات أخرى؟ أصبحنا راشدين. ثم إن الزواج في سن الشباب يقوي حس المسؤولية، ويجعل الشاب أكثر اطمئناناً، وهدوءاً، ورصانة. ألم تلاحظوا أن المرأة تعد طعامنا تقدم لنا منذ بعض الوقت المأكولات التي تريدها هي؟. عند وجوه زوجة في البيت، لا أحد يشكو من الطعام. وهناك مزايا أخرى كثيرة لا أريد قولها. ما رأيكم؟ هيا تكلموا! إني أسمعكم».

فهم الشباب بسرعة ما أراد باتيا شرحه. أجاب كودي:

«ما قلته صحيح، لكنك تفاجئنا. اعتقد أن عليك أن تتزوج أنت أولاً، لأنك أكبر أبناء الأسرة. ثم نأتي بعدك، نحن، إخوتك الأصغر. بالنسبة إليك، تبقى هناك الخطوة الأصعب: أن تجد الفتاة، وتتعرف عليها، وتجعلها تتعلق بك، ومتطلبات أخرى لا تنتهي».

ترك باتيا أخاه كودي يتكلم. ثم رد مبتسماً، ولكن بشيء من الضيق:

«لا عليكم. ثم، اعتقد أنكم تعرفون أوليماتا، ابنة مختار القرية. حسناً... هيه..ها.. أعني..لا بأس!.. لتكلم بصراحة! هي

الفتاة التي أريد أن أتزوجها، إن لم يكن لديكم مانع. تأخر الوقت الآن يا شباب، أنا ذاهب للنوم.

عاد باتيا إلى كوخه، بعد أن فاجأ إخوته الشباب، وأدهشهم جدا بالخبر. تساءل مور وكودي وبيرا: «هل يقول لنا أخونا الكبير دائما ما في قرارة نفسه، مثلما يزعم؟». لكن تساؤلهم بقي بلا إجابة. انتهت الأمور بسرعة. فمئذ صباح اليوم التالي، ذهب باتيا، الذي لا بد أنه تهيأ للأمر منذ وقت طويل، للقاء العم كوتا بارما. فاتحه بنيته في الزواج، فشجعه على ذلك:

«نعم يا بني، إخوتك على حق. تزوج أنت أولا، ثم يأتي دورهم. ولكن انتبه، الزواج هو في الوقت نفسه برميل عسل وبرميل فليضة لاذعة. كي ينجح، يجب أن نجيد التوازن بين هاتين المادتين. سأحدث بالموضوع وأرتب الأمور منذ الغد، مثلما تقضي العادات».

تم العرس بسرعة، بسيطا وعاديا. ونظرا لحداد أسرة العريس، انتقلت العروس أوليماتا إلى بيت زوجها في المساء نفسه، دون احتفالات، وبلا ضجيج. لم يسمع أحد صوت الطبول، ولا غناء الأفراح.

بدأت العروس حياتها الزوجية على أفضل ما يرام. ولما كانت حسنة التربية، ومدبرة بيت جيدة، وطباخة ممتازة، فقد أولت زوجها عناية كبيرة. وعبر أسلافها الثلاثة عن إعجابهم بالوجبات الطيبة التي راحت تعدها للأسرة، وبنظافة ثيابهم وجمال كيها دائما، وبالأكل الكاوي المكنوسة والمرتبة باستمرار. باختصار، ولدت حياة جديدة في الدار مع مجيء العروس الجديدة. عند الظهر، وكما

تفعل كل نساء القرية، كانت تحمل إلى الحقل قصعة أرز، والكسكس، ومغلي الذرة، ليأكل زوجها وإخوته. وحولت نهار الاثنين، الذي يرتاح فيه المزارعون، إلى يوم دلال لأولادها الأربعة، مثلما أسمتهم. في هذا الوقت من كل أسبوع، كان باتيا، ومور، وكودي، وبيرا يتلذذون باللحوم المشوية، والحليب الطازج أو اللبن الرائب، وعصير التمر الهندي الممزوج بالعسل. ولم يبخل الشباب على أوليماتا بالتدليل أيضا. أغدق عليها زوجها الهدايا، والآخرون كذلك، وغمروها بالمجاملات والكلام اللطيف دائما:

«مرحى لك يا زوجتي! لم تشبع بطوننا أبدا مثلما هي اليوم منذ وفاة أمنا. أنت جميلة بقدر ما أنت طباحة بارعة».

- «شكرا، شكرا مرة أخرى يا زوجة أختينا! بفضل طبخك المغذي، امتلأنا عافية وصحة، وصرنا كالخراف المسمنة. أصحابنا يمتدحون حسن مظهرنا وأناقة ثيابنا. تعرفين أن هذه المدائح هي لك. تستحقينها بجدارة».

دعوا العم كوتا بارما لقضاء نهار الاثنين بين الأسرة. وهذا ما سره كثيرا. في مساء ذلك اليوم الذي لا ينسى، قبل أن يستأذن بالانصراف بقليل، امتدح العم كوتا بارما أوليماتا على طبخها، ونبل تصرفها وودها وتفهمها. سرت جدا لهذا الكلام الجميل، وكادت تبكي فرحا. وقالت بحياء: «إنها بذلك لا تفعل أكثر من واجبها واتباع توصيات زوجها».

وفي أثناء انصراف العم كوتا بورما، قال له بيرا: «كلفني أخواي مور وكودي بالتماس نطلبه منك قبل ذهابك يا عم كوتا».

- هيا يا بني، أنا اسمعك. رغم اني اعرف ما تريدون، افضل ان تقوله لي أنت.

- تأكدت بنفسك يا عمي من أن أخانا الكبير يعيش في سعادة غامرة، منذ أن صارت له زوجة. مور وكودي وأنا نحب أن تحقق لنا الشيء نفسه.

- هل فكرتم بالأمر جيدا يا أولاد أخي الأعزاء؟ ألا تريدون الانتظار قليلا؟

- فكرنا جيدا، ولا نريد الانتظار أكثر؟

- هل اخترتم أم تفضلون أن اختار لكم؟

- اخترنا منذ بعض الوقت. أوليماتا عندها ثلاث قريبات في القرية. نجدهن مناسبات جدا. نطلب منك القيام بما يلزم بأسرع وقت.

هز العم كونا رأسه عدة مرات، وقد فوجيء بهذا القرار السريع، والقاطع. قال لهم:

«في العجلة الندامة. مع ذلك، سأبني رغبتكم. سأقوم بالإجراءات المطلوبة منذ الغد».

بعد ذلك بوقت قصير، جرى الاحتفال بسيطا بزواج الإخوة الثلاثة في يوم واحد. ونظرا لحداد أسرة العرسان، انتقلت العرائس، كومبا، وبيكا، وياما، إلى بيوت أزواجهن في المساء نفسه، بشكل عادي. استقبلتهن أوليماتا بلطف كبير، وحفاوة بالغة، ومحبة من كل قلبها. وبدا الإخوة الأربعة في غاية السرور.

أعادت العرائس ترتيب بيت الأسرة فورا. تقاسمن العمل بالتساوي. وتوزعن أدوار الطبخ، والتسوق، والغسيل، والأعمال

الأخرى اليسيرة. لم يتصرفن كسلفات، بل كأخوات حقيقيات بالفعل، إلى أن جاء اليوم الذي...

حدث ذلك صباحا، عندما نادى أوليماتا سلفتها كومبا قائلة: «دورك اليوم يا كومبا. ستطبخين وتحملين الوجبة إلى الحقل، لأزواجنا هناك».

- أه، لا يا أوليماتا، أنت مخطئة. اليوم دور بيكا. تذكرى، كانت مريضة في الأسبوع الماضي، وحملت أنا الأعباء نهارا كاملا بدلا عنها. عليها اليوم التعويض عن ذلك.

لكن بيكا رفضت أن تفهم. وصاحت وهي تضرب يدا بيد: «لا أريد أن أعوض عن ذلك النهار مهما كلف الأمر. ما فات مات. اطلبوا من ياما القيام بذلك، لأنها أصغرنا».

خرجت ياما من كوخها بسرعة. وبدلا من تهدئة الوضع، صرخت: «أنا الصغرى، صحيح، لكن ذلك لا يعني أن أكون عبدة الأخريات. لا تعتمدوا علي من أجل الطبخ، ولا من أجل الذهاب إلى الحقل اليوم. لن يأتي دوري إلا بعد غد».

تحول اقتراح أوليماتا إلى نقاش، والمناقشة إلى نزاع، والنزاع إلى شجار بين الجميع. وتقاتلت السيدات الشابات بضراوة، بعد أن تعاملن بتهذيب، ولطف، ومحبة. ونسبن روابط القرى.

دار الشجار بصخب وفوضى. ولم يستطع أحد أن يميز من تضرب من، ومن تشد الأخرى من شعرها، وأيهن تمزق تنورة أو قميص الثانية.

هرع الجيران بعد أن اجتذبتهم الجلبة. فصلوا بين المتقاتلات، وأرسلوا فوراً صبيا صغيرا لإخبار الأزواج، محاولين تهدئة النفوس

في الوقت نفسه. ترك الشباب الحرث والبذر، ووصلوا بسرعة. وجدوا الزوجات يتحدثن ويتبادلن الاتهامات في وقت واحد. لا أحد يستمع لأحد. أخيرا، هدأت المتخاصمات بسبب التعب والحر، أكثر مما هدأهن صوت العقل. ويخ باتيا، ومور، وكودي وبيرا زوجاتهم أوليماتا، وكومبا، وبيكا وياما. وردت المتخاصمات بسلاح المرأة الأمضى، البكاء بدموع غزيرة، كل بدورها. وسرعان ما تأثر الأزواج المساكين. راحوا يواسونهن، وينصحنهن، ويداعبنهن، ثم جففوا دموعهن. بدورهن، أسفن على ما حصل، واعتذرت كل منهن للأخرى، ووعدن بعدم العودة أبدا إلى مثل هذه التصرفات، اثني اعتبرنها بأنفسهن صبيانية. خيم الهدوء من جديد على دار الأسرة. فهل سيستمر؟

بعد أسبوع من ذلك، ثارت ياما غاضبة فقط لأن كومبا قلبت إناء مائها بعد عودتها من البئر. ارتفع صوتهما عاليا. ولما جاءت أوليماتا وبيكا لتهدئة الحال، ثارت أعصابهما. احتدم النزاع بين الأربع، ولكن هذه المرة مع استخدام أسلحة تستعملها النساء وحدهن، ولكن ليست أقل رعبا للأسف: المدقات الصغيرة، والمفارقة والملاعق الكبيرة، والمكاوي المخيفة. من حسن الحظ، وبالاتفاق دون تشاور، لم تستخدم أي منهن السكاكين وفؤوس تقطيع اللحم. عاد الأزواج المساكين بسرعة أكبر من المرة الأولى. واستعملوا ما لديهم من طرق الإقناع والنصح لإعادة الهدوء والصفاء. نادوا العم كوتا، الذي توصل، بلطفه، وصبره، وتسامحه، إلى التصالح بين الزوجات الشابات. أقسمن أمامه ألا يعدن إلى هذا السلوك. وقال للأزواج التعماء، الذين بدت علامات الإحباط على وجوههم:

«هذه الأشياء التي تعيشونها لا بد أن تحصل. تلاحظون أن الحياة معا في بيت واحد ليست مريحة تماما. تذكروا قولي إن الزواج هو غسل وظيفلة لاذعة في الوقت نفسه».

- نعم يا عم كوتا، أدركنا الآن معنى هذا الكلام. ولكن أليس من الأفضل أن يرحل كل منا مع زوجته للسكن في مكان آخر؟ لعل الهدوء يعود إلى بيوتنا. أليس هذا هو الحل؟

- لا، ستخالضون بذلك رغبات والديكم، الذي قال: «ابقوا متحدين، وحافظوا على بيت الأسرة كاملا. كونوا متضامنين ومتعاونين كأصابع اليد». لذلك، عليكم البقاء مع زوجاتكم في بيت الأسرة المشترك مثلما تقضي التقاليد.

- أصبح بيت الأسرة جحيما يا عم كوتا. صرنا نأكل من برميل الزيفيلة اللاذعة كل يوم. طعام مؤلم. لن نستطيع أن...

- لا، لا، لن تقدرُوا على فعل شيء. ربما كان...

- نعم، قل لنا الحل بسرعة يا عم كوتا. أنت أكثر الناس حكمة ورجاحة عقل في هذا البلد!

- هدوء يا شباب! لا أحد في هذا العالم، حتى أكثر الرجال علما وحكمة، يمكنه أن يزعم معرفة ما تفكر فيه أو ما ستفعله امرأة. مع ذلك، ستتحسن الأمور حالما تنجب زوجاتكن أولادا. باقظار ذلك، تسلموا بالصبر، الآن ودائما. تلك هي أولى صفات الرجل، خصوصا رب الأسرة. ليحفظكم الله يا أولاد أخي الأعزاء. استمرت الحياة كيفما كان في دار الأسرة. وبقيت الخلافات والنزاعات تظهر، حيناً دون أن يسمعها أحد، وحيناً أكثر حدة. لم يعد باتيا ومور وكودي وبيرا يتركون الحقل خلال العمل للعودة

إلى البيت، والإسراع للفصل بين «المحاريات»، مثلما أسموهن. وفي المساء، بعد نهار شاق من العمل في البذر والحرث، كانوا يلاحظون عبوس زوجاتهم في البيت، مما يدل دون شك على وقوع مشادات حامية بينهن. كانت كل منهن تشتكي إلى زوجها. ولكن ماذا يفعل الزوج المسكين، الذي لا ينشد سوى حمام ينعشه، ثم الاستراحة في ظل شجرة البيت، بعد يوم شاق من العمل؟

ذات يوم، ولدت أوليماتا طفلا قويا. وأطلقت كومبا وبيكا وياما صيحات الفرح:

«أوه، كم هو جميل! انظروا إلى شعره الحريري! ما أحلاه! يا لهذه الأصابع الناعمة!».

– هل رأيتم غمازتيه؟ كم يشبه أبيه! بالتأكيد، له وجه والده!

– لا، لا، يشبه المرحوم جده أكثر! انظروا إلى قدميه الصغيرتين ويديه! كأنه دمية!

كان الطفل ينتقل من يد إلى يد. أرادت كل منهن أن تبقى معه أطول وقت ممكن. أصبحت الشجارات الآن صغيرة وودية، لأن أوليماتا لم تعد تستطيع استرجاع طفلها. أرادت كل من كومبا وبيكا وياما إبقاءه معها، وضمه إلى صدرها، وغسله، واحتضانه حتى ينام. وأعفت الشابات الثلاثة أوليماتا من أعمال الدار: لا غسيل، ولا طبخ، ولا جمع الحطب، ولا ملء الأحواض والأواني بماء البئر.

منذ مجيء الطفل، لم تعد تسمع في البيت إلا صيحات الفرح، والضحك، والغناء، كما في الأيام الأولى للزواج. وارتسمت ابتسامة على وجه العم كوتا، الذي نادوه ليرى عودة الوفاق والمحبة إلى جو الدار، وقال:

«خيم الهدوء من جديد. أنا مسرور لذلك. اطمئنوا، ستسير الأمور من حسن إلى أحسن».

- شكرا يا عم كوتا. كدنا نموت ياسا، حتى أننا تمنينا أحيانا لو نعود إلى أيام العزوبة. ملأ الصفاء الدار منذ قدوم الطفل. ليت ذلك يدوم!

بعد مضي بعض الوقت، ولدت كل من كومبا، وبيكا، وياما صبيبا، في الوقت نفسه تقريبا. تحولت هذه الأحداث المتتالية، إلى مناسبات للابتهاج والسرور. علت أصوات الفرح، والضحك، والغناء في بيت الأسرة الكبير. وعاد جو الألفة والمحبة بين السلفات الأربع، وتعاون على الاهتمام بالصغار دون تمييز. واحطنهم بالرعاية والعناية والمودة، كي يكبروا على الأخوة والحب المتبادل. وهكذا، مثلما تمنى جدهم، استطاعوا أن يبقوا متضامنين، متلاحمين كأصابع اليد بمحبة وقآخ، كأبائهم وآباء آبائهم.

٤ - الضبع بوكي يبحث عن زوجة

في ذلك الصباح، وعلى غير عادته، نهض الضبع بوكي، مصمما على تنفيذ قراره. تناول وعاء الذرة الصغير، واتجه سريعا صوب أرض الأرنب لوك، الذي صادفه لحظة خروجه:

«صباح الخير يا عمي بوكي. أهلا بك في داري المتواضعة، ولو أن زيارتك مبكرة جدا».

الضبع بوكي جاهل بأداب السلوك كأمثاله، وغير محبوب. رد بفظاظة:

«لماذا تصر على أن تناديني يا عمي؟ متى كان للضباع أولاد أخ عند الأرانب، أصحاب الأذان الطويلة».

- لا، لا، لا تغضب! أنا ديك عمي لأنك بعمر عمي نديومبور، ولأنني أكن لك الاحترام الواجب للكبار أيضا. ثم إن شعرك الذي بدأ يشيب، يستحق احترام من هم أصغر سنا.

- حسنا، حسنا، دع عنك شعري الأبيض وكف عن الثرثرة! احتاجك يا لوك لأمر دقيق جدا جدا يتعلق بالأسرة، وحساس إلى درجة أنني لا أعرف كيف أقوله لك.

- ثق بي يا عمي بوكي! تكلم كما تريد. أذناي الطويلتان، كما تقول، تسمعانك.

- بما أنك تشجعني، هاك ما أريد. تعرف أن زوجتي ماتت منذ وقت طويل.

- نعم، لا أجهل ذلك، وقد بكيتها أنت كثيرا، رغم زعم نامي

القرية بأنك لم تكن تطعمها أكثر الأحيان.

- اسكت! لا تذكرني بهذه الأكاذيب! كف أيضا عن مقاطعتي.
ماذا أقول بعد؟ نعم، اسمع! مرزمن طويل على فقداني لزوجتي.
عليك يا لوك مرافقتي إلى قرية نديورينا. ستطلب لي زوجة
جديدة من هناك. أنت فصيح اللسان. يمكنك أن تتوسط لي،
لأنهم أساءوا لسمعتي كثيرا في هذه البلاد.

- عندما حاولت أن أتدبر أمورك آخر مرة، أسأت التصرف
كثيرا، حتى طردك والد خطيبتك. تذكر ذلك. أخجلني سلوكك،
واقسمت يومذاك ألا أسألك بعدها أبدا. آسف على قول ذلك،
أذهب وتدبر أمورك بمفردك. إلى اللقاء. لدي عمل مستعجل عند
أحد أقاربي.

- لا، لا، لن تذهب إلى أي مكان! شئت أم أبيت، سترافقني
لتشهد في صالحي. سأخبرك بالأسباب، لأنني تذكرت فجأة. فقد
رفسني الحمار مبام سولو بسببك. وحرق الحداد مؤخرتي
بالحديد الحامي من جريرتك. من الذي جعل الفلاحين
الغاضبين يضربونني بالعصا؟ من الذي حاصرني في جذع شجرة
التمر الهندي المجوف؟ من الذي أجبرني على مقايضة خالتي،
التي أحببتها كثيرا، بكيس ذرة، ثم سرق هذا الكيس نفسه؟ هذه
الحيل التي قام بها ولد مشاغب تجعلني أرغب فجأة في التهام
أرنب هذا الصباح.

- لا، لا، توقف يا عمي بوكي! لا تفعل! كنت أمزح. قريبي
سينتظر. سأذهب معك إلى نديورينا. هات وعاء الذرة. سأحمله.
هيا بنا قبل أن تشتد حرارة الشمس.

- شكرا يا لوك! كنت أعرف أنني سأقنعك إن خاطبتك بالعواطف.

ترك المسافرين القرية. وسارا في الدرب المتعرج، متحاذئين كصديقين قديمين. مشيا طويلا. وفجأة، عند منعطف الدرب، رأى لوك كيسا ضخما من الجلد يسد الطريق.

- عمي بوكي، انظرا لا بد أن أحدهم ضيع أمتعته.

- ما أسوأ حظه، وما أحسن حظنا!

- ماذا تقول يا عمي بوكي؟ هذا الكيس ليس لنا. من الأفضل أن تبحث عن صاحبه لإعادته له. لقد سقط من عربة. انظر آثار الدواب.

- لوك، هل أنت مجنون؟ هذا الكيس لي. أنا الذي رأيته أولا. سأحتفظ به. رماه حظي الطيب في طريقي لتسهيل أموري، لأنني سأقدمه كهدية زواج إلى زوجتي القادمة.

- ولكن أئن تنظر إلى ما فيه يا عمي بوكي؟ قد لا يكون هدية مناسبة؟

- دعك من هذه التفاصيل. أيا كانت، تسر الهدية مهداها، وتدخل البهجة إلى قلبه مباشرة.

- كلام جميل. أصبحت فيلسوفا. للأسف هذا الشيء ليس لك. ألقي بوكي الكيس الثقيل الغامض على ظهره. تكلما طيلة الطريق، وتناقشا، وتخاصما أحيانا، إلى أن وصلا أخيرا، توجها فورا إلى الشجرة التي يتحادث تحتها شيوخ قرية نديورينا. ألقيا التحية على الكبار بأدب، وتحدثا عن المطر الذي تأخر هطوله، والمحاصيل المرغوبة، والجراد الذي يخشى مجيئه كثيرا، وهموم

الحياة اليومية. أخيراً، أراد الحضور أن يسمعوا من الغريبيين
غرض زيارتهما. ترك بوكي الكلام إلى لوك:

«أيها الشيوخ الأجلاء، المحترمون. يا عقلاء هذه القرية الكريمة.
سلام عليكم. أتمنى لكم العيش في سلام، لأن السلام هو الذي جاء
بنا إلى هنا. أنا أتكلم باسم عمي بوكي، الموجود هنا. رغم كبر سنه،
هو نشيط كالشباب. سليم العقل والجسم، ويرغب في أن تمنحوه
زوجة. ماتت زوجته بعد أن مرضت، رغم عنايته البالغة بها. كبر
أبناؤه، وذهبوا في سبيلهم. وحدته تضايقه، ويريد التخلص منها.
نأمل أن نعود مع أرملة أو، ثم لا، مع شابة عانس».

بعد هذه الكلمات المعسولة، لم يستطع بوكي حبس دموعه،
لشدة تأثره. وابتهج لأنه أصر على اصطحاب لوك، المرح والحيوي
غالباً، العفريت أحياناً، ولكن الذي يجيد الحديث أيضاً كأنه
سفير، على الرغم من صغر سنه.

بعد أن استمع الحاضرون إلى الكلام بانتباه، لزموا الصمت،
الذي بدأ يقلق طالب الزواج. سعل أكبرهم سناً، ثم قال:

«يا بني على الرغم من صغر سنك تتحدث كأنك حكيم. لكننا
في هذه القرية لا نجهل سمعة بوكي. نعرفه زوجاً سيئاً، وغير
عاقلاً، ومحباً للخصام، وشرهاً. لا يكف عن الطواف في الغابة
والسهل ليملاً بطنه، ناسياً إ طعام صغاره، ومستعداً للقتل من
أجل قطعة لحم. أنت ترى بنفسك أن من الصعب إيجاد زوجة له
ضمن هذه الشروط».

- يا جدي المحترم، على الفتى ألا يناقض كلام عجوز مضع
بالحكمة، والخبرة، والحقيقة. وأنا لست كذلك. أريد فقط أن أقدر

سن بوكي. السنون تهدئ الجموح، وتهذب التجارب أكثر الكائنات انحرافا عن الأخلاق. مع مرور السنوات، أبيض شعر الفتى قاطع الطريق، وتطلع فجأة إلى توبة صادقة، وتندم على حياته الماضية. في الحقيقة، أقول لكم إن قلب عمي بوكي يفيض اليوم بحب الحكمة. أرجو أن تثقوا به.

على الرغم من هذه الشهادة المطمئنة التي قالها المتكلم باسمه، بدا بوكي قلقا قليلا. ولم يتمالك نفسه عن الكلام:

«لن تخافوا مني بعد الآن. أقسم أنني لم أعد شرها. أقسم أن اللحم لم يعد يهمني. أخيرا.. ولكن أقول.. تقريبا لم يعد يهمني اللحم. أقسم أنني سأعتني بزوجتي القادمة، وسأعاملها برقة ولطف وتفان. سأحكي لها أيضا حكايات طريفة كي أضحكها. أقسم أمامكم جميعا أنني سأفعل. وتعبيرا عن حسن النية، وكشهادة عن صدق ما أقول، أقدم لزوجتي القادمة هذا الوعاء المليء بالذرة، وأيضا هذا الكيس المليء بـ... بـ... هذا الكيس الذي يحمل مفاجأة كبيرة».

بدا في كلماته المطمئنة شيء من الصدق. وتركت انطبعا طيبا في نفوس مجلس العقلاء. ويعد أن تشاوروا قليلا بصوت منخفض، قرروا الموافقة على طلب بوكي. حينئذ، وقف أحد الشيوخ وخطبه قائلا:

«سنقبل طلبك يا بني، لأننا اقتنعنا الآن بأنك تغيرت. سأزوجك ابنتي أنا. إنها أرملة، لكنها شابة، وجميلة، ومطبعة. تجيد الطبخ، وتحسن إدارة البيت بشكل رائع. هل تريد أن تراها؟»

- لا، لا، لا داعي لذلك يا عمي القادم. ليأخذ المجلس وعاء الذرة وهذا الكيس. لنبدأ بإجراءات الزواج. مضى وقت طويل على ترملي.

- ما هذا الاستعجال، يا لنفاد صبرك يا صهري القادم! حسنا، سنفعل حسب رغبتك. ولكن، ماذا يوجد في هذا الكيس؟ أريك السؤال بوكي. لم يكن عنده فضول ولا حنركي يفتح هذا الكيس، الذي التقطه من الطريق بالمصادفة، وبقي يجهل ما فيه. سارع في الإجابة:

«هذا الكيس فيه مفاجأة. افتحه بنفسك، وسترى». فك عم بوكي القادم رباط الكيس. ونظر إلى ما فيه، ثم صرخ: «إنها قطع لحم مدخن. كم هو نادر الطعام في هذه الأيام. ستقدر أسرتي هذه الهدية الثمينة». لما سمع بوكي هذه الكلمات، كاد يسقط مغشيا عليه. ثم قفز وصرخ:

«ماذا؟ في الكيس قطع لحم مدخن؟»
- طبعا يا بوكي. ألم تكن تعرف ذلك؟
- نعم... نعم... بلى... بلى، أعني أنه... ذلك... أعتقد أن...
لم يتركه العجوز يكمل كلامه.
«حسنا، بدأ الوقت يتأخر. علينا إقامة احتفالات الزواج فورا». شعر بوكي برغبة كبيرة في اللحم. وأخذ ينعت نفسه بكل الصفات الممكنة والمتخيلة. ولام نفسه بقسوة لأنه لم يفتح الكيس. كل هذه الوليمة اللذيذة ستفقد منه؟ وراح يتلعثم أكثر مما يتكلم:

«انتظرا، انتظرا قليلا».

- لماذا أنتظر، يا صهري العزيز القادم؟ لنرتب الاحتفال أولا ثم نتحدث بعد ذلك، كما هي العادات.

- لا، لا، ثم لا أريد قول شيء الآن، قبل الزواج.

- بما أنك تصر، نسمعك.

أحب بوكي استعادة اللحم مهما كان الثمن، لحمه الذي لا يريد تقاسمه مع أحد. تغلب عليه نهمه الطبيعي. وبلهجة تخلو من أي تهذيب، قال للعجوز:

- أنت، أيها العجوز الذي تريد بيع ابنتك. عليك أن تجيبني قبل الزواج، لأن لدي شروطا. هاهي: على زوجتي القادمة أن تأتي كل صباح، حالما أستيقظ، لتحسيني بالانحناء أمامي باحترام.

- هذا واجب الزوجة نحو زوجها. سأقول لابنتي ألا يفوتها ذلك. يبدو لي طلبك عادلا جدا.

- يجب أن تؤدي زوجتي القادمة كل أعمال البيت بهمة ونشاط، وإلا سأضربها بقسوة.

- يا بني، لا أحد يضرب زوجته في هذه القرية. ولكن عندما تصبح في بيتك، ويتبين لك خلل في واجباتها وفي حسن إدارتها، يمكنك عقابها بشدة.

- سأضرب زوجتي القادمة حتى لو أدت كل أعمال البيت بهمة ونشاط. لن أطعمها إلا من وقت لآخر، وعندما يحلو لي ذلك. لا، بل أرى من المفيد لها أن تصوم ستة أيام في الأسبوع.

لما سمع الحاضرون هذه الكلمات الأخيرة، علت الدهشة وجوههم جميعا. هل يطلب هذا المضحك زوجة، نعم أم لا؟

اغتاظ لوك من كلام صاحبه. وحاول تهدئة هذا الرفيق
الغريب:

«لن أناديك يا عمي بعد الآن يا بوكي. أنت لا تستحق ذلك. ما
تقوله مخجل. اعتذر للمجلس عن هذا الكلام. قل إنك نادم عليه
حتى نستطيع إتمام الزواج دون تأخر. أظهر الاحترام لهؤلاء
الأشخاص الأكبر منك سناً».

- هل جننت يا لوك! يريد هؤلاء إعطائي زوجة لا أعرفها. لم
أرها أبدا. قالوا لي إنها أرملة. هذا أفهمه، ولكن من قال لي إنها لم
تقتل زوجها؟ من قال إنها لم تدس له السم؟ لماذا يريد هؤلاء
إقامة احتفالات الزواج على عجل؟

فاجأ هذا الكلام اللفظ المجتمعين تحت الشجرة. ثم يعد أحد
منهم يفهم شيئا. ساد الصمت قليلا. ثم سأل أكبرهم سناً:
«إذن، أنت يا بوكي لا تريد أن نمنحك زوجة؟».

استغل الشرح المناسبة فورا، وأجاب:
«أنت قلتها بنفسك أيها العجوز. أعد إلي كييسي في الحال،
ولننته من هذا الأمر».

لم يكذب ينهي كلامه، حتى نهض بوكي بخفة، وقفز وسط
الجالسين، وأمسك بكيسه الشهير، ورماه على ظهره، منحنيا تحت
ثقل اللحم الطيب. هرب بسرعة لياكل وحده، بكل هدوء، قطع
اللحم المدخن الشهية.

خجل الأرنب لوك وتضايق كثيرا، وقال للشيوخ:
«يا وجهاء القرية المحترمين، أعترف لكم أنني كنت مرغما
ومكرها على مرافقة هذا المخلوق الغريب. نعرف جميعا أن بوكي

لا يفكر مطلقا برأسه، ولا بقلبه كثيرا، ولكن ببطنه فقط. في
سهولنا العشبية، يقول المثل: «عندما لا يصغي الشره إلا إلى
بطنه، يدوس بقدميه كل شيء، حتى شرفه وكرامته».

٥ - هدية للمقرد جولو

المقرد جولو لا يقر له قرار. مرة تراه هنا، ومرة هناك! تارة ينهمك بهذا الشيء، وتارة بذاك. لا حديث للقرية كلها إلا عن المقرد جولو. يسخر من البعض، ويعمل مقالب مع الآخرين. لم يسلم أحد من الأعباء. الجميع يشتكي من هذه المشاغبات. بقي الكلب خاجو ينيح بصوت أقوى من الكلاب الأخرى، لأن جولو أوشك أن يغرق جرويه الصغيرين في النهر المتعرج، خلف القرية، بحيلة لا يعرفها أحد. ومن حسن الحظ أن جماعته تجيد السباحة بالغريزة.

رؤى فرس النهر ليبيرا كيف سقط في حفرة عميقة حفرها هذا المقرد قاطع الطريق. ولم يستطع الخروج منها إلا بعد أن مدوا له حبالاً ضخمة، ربطها على جسمه. وشاركت كل القرية في سحبه منها ذلك اليوم.

وقال الفيل غناي إنه عندما كان ماراً تحت شجرة، فوجيء بسقوط جوزة الهند على رأسه: ذهبت كل محاولاته عبثاً لمعرفة من رماه بها.

ومكث الضفدع مبيتو نهارة كاملاً تحت الشمس الحارقة، بعد أن قلب أحدهم الوعاء عليه بغتة.

ماذا عن قائمة العنزة بيا المكسورة؟ الجميع ما يزالون يتذكرونها. ولولا خبرة الزرافة نديامالا وحكمتها، لبقيت بيا بثلاث قوائم، معاقة بقية حياتها.

الدجاجة غنارا دائمة الشكوى، لأن لصا وقحا يأتي كل يوم تقريبا إلى قنّها، ويسرق بيضاتها ويأكلها. وزوجها الديك سيخو مضطر الآن، وكذلك هي، لحراسة الخمّ باستمرار، ولا يجروان التغيب عنه.

ولا يزال تيلي ابن أوى يتذكر، حتى هذه اللحظة، ضربات العصا الموجهة بينما كان يأكل البطيخة الثالثة الكبيرة من حقل كوركي. من الذي أيقظ المزارع ونبهه، وهو في عز نومه تحت شجرة المنجة، الكثيفة الأوراق؟

لكل هذه الأسئلة جواب واحد يشير إلى الفاعل نفسه: القرد جولو! القرد جولو! القرد جولو!

حتى جاره في الكوخ، الأرنب لوك، المشهور بحدة ذهنه، وسعة حيلته التي يعرفها الجميع، لوك، الأرنب الذي يصعب خداعه، أضاف شكواه إلى شكاوى الآخرين في المجلس: كان أحدهم يسطو على مخزن فوله السوداني. ثم، من الذي رماه ذات يوم بعش دبابير من نافذة الكوخ؟

عدا ذلك، بقيت تساؤلات أخرى كثيرة بلا إجابة، حول مواضيع أخطر من المقالب. من ذاك الذي لديه هذا القدر من الجراءة والخبث، حتى يرمي كيس ملح في بئر القرية؟ لا أحد استطاع أبدا كشف المسؤول عن هذه الجرائم. لكن كل الناس حزروا من هو الجاني المحتمل بين الجماعة.

بعد هذه النقاشات الطويلة، طلب الضبع بوكي الكلام: «أنا لا أجرؤ على قول ما فعله بي هذا الدنيء، لأنني إذا فعلت ستضحكون وتسخرون مني. اعلموا أنني أريد فقط أن يُعاقب

جولو. بذلك، لن يعود ثانية إلى إزعاج أهل قريرتنا الأمنين،
فنميش مرتاحين جميعاً.

صفق الحضور لكلام بوكي، الذي فوجئ بهذا التهاتف
الحماسي، لأن هذه هي أول مرة يحصل فيها على مثل هذه الميزة.
في الواقع، لا يقدرونه كثيراً في القرية، بسبب سلوكه المشبوه
وتصرفاته غير المحترمة غالباً. مع ذلك، استأنف بوكي الكلام:
«اقترح الآن ترك الأمر لي. سأسوي بنفسني الوضع مع جولو.
سأجعله يكف إلى الأبد عن أعماله الشريرة.

هذه المرة، ارتفع صراخ المجلس كله. أراد البعض مرافقة بوكي،
ورفض آخرون اقتراحه. ونجح الفيل غناي في إعادة الهدوء إلى
المجلس قائلاً:

«أحسنتم قولاً في البداية يا بوكي. ولكن عندما أكثرت الكلام،
بدأت تتلفظ بالحماقات. نعرف أنك أغبى من أن تستطيع
الإمساك بالقرد جولو. هل تحسن تسلق الأشجار؟ لا، أليس
كذلك؟ في هذا الجانب، أنت مثلي. إذن، كفأك حماقة، اسكت!..
هاكم ما أعرضه عليكم: جولو هو تجسيد للخبيث. سنقاتله في
أرضه. سنرسل له واحداً لا يقل حيلة عنه، ليريه أنه إذا كان
خبيثاً، فهناك من هو أخبث منه. لا أشك لحظة في ذلك..»

عندما سمع الحاضرون هذا الكلام، التفت الجميع ليس نحو
بوكي، بل نحو لوك، الأرنب، الذي شعر بأن المجلس يطريه ويكرمه،
ويعتبره مقوماً للأخطاء، فقال:

«اصدقائي الأعزاء، لا أعرف إن كان علي قبول هذه المهمة، لأنني...»
قطع الغوريلا بابونو كلامه فجأة:

«نعم، نعم، نعم! يجب أن تقبل يا لوك. جولو هو قريبي. ولكن لو أمسكت به، لسحقته. يأتي كل صباح، باكرا جدا، إلى حقل لي سرق موزي، ثم يفر هاربا. أطارده، لكنه سرعان ما يفر ويختبئ بين الأشجار. هذا الكسول لا يريد أن يعمل كالأخرين هنا. تجب معاقبته بسرعة».

هذه الكلمات التي قالها بابونو، المعروف بلطفه وهدوئه، أقنعت لوك أخيرا. لكنه وضع شرطا:

«يجب أن يساعدني بعضكم قليلا. أحتاج إلى خاجو، الكلب الذي يركض سريعا، وأيضا إلى غناي وبابونو القويين. اتبعوني، سأشرح لكم خطتي».

«في اليوم التالي، صباحا، بعد شروق الشمس بقليل، توجه لوك نحو مخرج القرية. هنا، قرب شجرة البأواب الكبيرة، أخذ ينادي: «جولو، جولو، هل أنت هنا؟».

عندما سمع صوتا يناديه، استيقظ صاحب المكان، النائم داخل فجوة واسعة ومريحة هي أعلى الشجرة. خرج وراح ينظر إلى الأرض تحته، ليعرف من هذا القادم الذي عكر صفو نومه في هذا الصباح الباكر ويناديه باسمه. لما رآه، صرخ:

«أه، هذا أنت يا لوك! ماذا تريد مني؟ ما الذي جاء بك لتقلق راحة الناس المهدبين في هذا الوقت المبكر؟ إن كنت تريد اقتراض بعض الحبوب أو بعض الثمار لتأكلها، فمخزني فارغ. أضن أنه ليس عندي مخزن».

- لا، لا، يا صديقي، لم آت لأستعير شيئا آكله. ما يزال في مخزني بعض الفول السوداني. لم يسرقوا كل ما فيه.

انزل بسرعة، لدي مفاجأة حلوة ستسعد نهارك. هيا،
انزل، أنتظررك..

ومن غصن إلى غصن، نزل جولو سريعا إلى الأرض، يدفعه
فضول قوي، ككل أبناء جنسه.

«هيا يا لوك، أخبرني، بسرعة. لا اطيق الانتظار، أريد رؤية المفاجأة».
- سأقول. اهدأ قليلا. هاك ما هي. يريد أهل القرية أن
تصالحهم. يمكنني التأكيد بأننا جميعا، بمن فيهم أنا، وقعنا في
هذا الوقت أو ذاك ضحية مقالبك. مع ذلك، نريد العفو عنك.
نعرف أنك لست شريرا. ذهناك المضطرب يجعلك تتصرف هكذا.
افهم ذلك جيدا.

- صحيح يا لوك؟ تسامحوتني؟ حتى العنزة بيا؟ حتى قريبي
بابونو؟ حتى خاجو الكلب؟

- نعم، نعم، الكل يسامحونك، بشرط، حتما، ألا تعود إلى
مقالبك الخبيثة معهم.

- ألا أعود إلى خداع هؤلاء الساذجين؟ لا يا لوك، أنت تطلب
مني شيئا صعبا جدا.

- لا يا جولو، يجب أن تتعقل. اسمع التهمة المهمة. كلفني أهل
القرية أن أقدم لك هدية لا تنسى، تعبيرا عن حسن النية.

- هيا يا لوك، قل فورا ما هي! كم أحب الهدايا التي لا تنسى!
ما هي؟ أين هي؟ دعني أحزرا سلة منجاة؟ قرط موز؟

- رويدك يا صديقي، رويدك. يا لك من عديم الصبر. علي ألا
أقول لك ما هي، وإلا لن تكون مفاجأة. ولكن اطمئن، ستعجبك
كثيرا دون شك. اتبعني، سأريك إياها.

رافق جولو لوك دون أي حذر. سارا في الطريق، مبتعدين عن القرية، وتوجهها نحو النهر. وبينما مشي لوك بشكل طبيعي، بقي مرافقه القرد جولو يلتفت شمالا ويمينا، ويقفز هنا وهناك، ويركض، ويتدحرج، ويتراجع ثم يتقدم، دون أن يتوقف عن الكلام في الوقت نفسه:

«مزاجي طيب اليوم يا صديقي لوك. أعرف أن أهل القرية يحبونني في قرارة أنفسهم. جميعهم أغبياء قليلا، لكن هذا طبيعي. أنا الأذكى، وسابقى كذلك، بل والأكثر نباهة وحيلة في الدغل والسهل العشبي. هل تعرف لماذا؟ هيا أجب، هل تعرف لماذا؟».

- لا، لا، لا أعرف لماذا، ولكن ربما تشرح لي أنت.

- نعم، ستفهم لأنك أقل غباء من الآخرين. التفسير بسيط

جدا، ستعرفه بنفسك. قل لي يا لوك، من أشبه الحيوانات بالإنسان؟

- أنت بالتأكيد يا جولو، لا شك في ذلك.

- هل تعرف لماذا أشبه الإنسان كثيرا؟

- لا، لا أعرف. هل تريد أن تشرح لي؟

- نعم، سأقول لك: أنا أشبه الإنسان لأن عندي شيئا من ذكائه.

لهذا، لست فقط أجمل الحيوانات، بل عندي شيء من ذكاء البشر.

أراك تنظر إلي بدهشة. فاجأتك هذه الحقيقة، أليس كذلك؟

- نعم، نعم، فاجأتني... بل أذهلتني قليلا. بالنسبة إلى ذكائك

أنا أفهم، أما بالنسبة إلى جمالك، فلا أستطيع أن أصدق أن...

- نعم، نعم، يجب أن تصدقني. ثم إنك إذا عاشرتني أكثر،

اعدك بأن أهتم بتعليمك يوميا، لأنني أرى أن المكر الذي ينسبه لك

الناس غير واضح كثيرا. ولكن، قل لي أين هي تلك الهدية؟
ابتعدنا كثيرا عن القرية. هذا يقلقني.

- لمَ القلق يا جولو؟ هل تخاف مني؟ أنت تعرف اني مسالم.
- لا، لا أخاف منك. ولكن قد يقع خطر ما. أنت تركض سريعا.
أما أنا، وعلى رغم أن ركضتي ليس سيئا، فأفضل القرب من
الأشجار، التي ألتجأ إليها للهروب، والقفز من غصن إلى آخر. إنها
مجالتي الجوي، الذي لا يستطيع مطاردتي فيه حتى النمر سيبكا.
هنا لا أرى أي شجرة. لا أحب ذلك.

- هيا أيها المذعور الصغير، وصلنا إلى المكان المطلوب. انظر
خلف هذا الدغل. ماذا ترى؟

لح جولو في هذه اللحظة ما يشبه الصندوق المفتوح، وعليه
أوراق شجر الموز. توقف مذهوشا، وسأل رفيقه:

«ماذا يوجد في داخله يا لوك؟ موز؟ فول سوداني؟».

- إنه هدية القرية كلها. تقدم وافتحه! مفاجأة كبيرة
بانتظارك. لماذا أنت متردد؟ هيا، هيا اذهب! بعد هذه
الكلمات المشجعة، اقترب جولو من الشيء. رفع أوراق شجرة
الموز، وبعثرها، وألقى نظرة في الداخل ثم...بقي جامدا في
مكانه أمام الهدية التي لا تنسى: الكلب خاجو محدقا فيه
بعينين مهدتين. خرج بهدوء من مخبأه، وتمدد أمام جولو
الذي لم يعد يعرف ماذا يفعل. استمرت المواجهة الصامتة
لحظات، ثم قال لوك:

«هذه هي الهدية التي تقدمها لك القرية: لقاء مع الكلب
خاجو. ما رأيك بها؟».

نظر جولو إلى اليمين، وإلى اليسار، والوراء، والأمام، وحتى إلى السماء، ثم أجاب:

«ما كانت هذه الهدية التخيفني لو تمت في مكان آخر. لكنها تخيفني هنا: لا شجرة، ولا غصن، ولا أي شيء أتعلم به... نعم هذا ما يربيني. ماذا أفعل؟ كيف سأخرج من هنا؟ لو كان عندي مملكة لبدلتها بشجرة صغيرة.»

أجابه خاجو:

«ستدفع يا جولو ثمن الأذى الذي تسببه كل يوم. عندي أربع قوائم للركض، وأنياي مؤلة جدا. عندما أعض، لا أفلت فريستي أبدا. تأكد أن أقرب شجرة من هنا بعيدة جدا، انظر. صحيح، يوجد نهر خلفنا، لكنك تعرف أن أمثالي يجيدون السباحة مثلما يجيدون الركض. كفى ثرثرة، لننتقل إلى الجد. هل تريد يا لوك أن تشرح لصديقنا أني سأعطيه عشر خطوات سلفا قبل أن أطارده؟ يمكنه اختيار الوجهة التي يريد، ولكن بسرعة. يكاد صبري ينفد.»

ما إن سمع جولو هذه الكلمات حتى انسحب بسرعة. ومع الخطوة العاشرة، لحق به خاجو. اختلط الزعيق بالنباح في المطاردة. ولا يذكر أحد أنه رأى مثلها من قبل! وفي لحظة ما، تماما قبل وقوعه بين الأنياي، أخذ جولو ينعطف يسارا ويمينا، ثم إلى اليسار، ثم، عندما أحس بأنفاس خاجو قرب ظهره، قفز إلى النهر من اليأس. وغطس مطارده خلفه. لا، لم يحسن جولو صنعا. مع ذلك، سرعان ما خرج من النهر والماء يسيل منه أمام عدوه، المبلل مثله. استمرت المطاردة السريعة. بعد بضع خطوات،

أطبق فكا خاجو القويان على مؤخرة جولو وظهره السمين. وبعد
عراك صاحب قصير، استطاع جولو الإفلات من بين الأنياب،
راكضا بأقصى سرعة، وخصمه وراءه كالريح.

وبعد جري ومطاردة صاخبة طويلة، طويلة جدا، أمام أعين أهل
القرية الذين قدموا لحضور العرض، تسلق القرود جولو الشجرة
التي أنقذته وهو في آخر رمق، ولكن ليس قبل أن يتلقى ضربة
أنياب أخيرة، تركت قطعة كبيرة من لحم مؤخرته في شدة المطارد
الضاري العنيد.

منذ ذلك اليوم، احمرت مؤخرة جولو وذريته، ولم يترمم
جلدها أبدا، فبقيت عارية. ولكن، من يقبل شكواه؟
من يستمر في إزعاج جيرانه، سيزعجه واحد أقوى منه
ذات يوم.

في ذلك الصباح، استيقظ المزارع سيجا بصعوبة كبيرة. هزته خوديا، زوجته، عدة مرات، عبثا. رفض جفناه المثقلان بالنوم أن ينفثا. ولم تشأ أطرافه، التي لم يبارحها التعب بعد، أن تطاوعه. مع ذلك، ومنذ أن صاح الديك أول مرة، كانت بانتظاره وجبة بسيطة من الكسكس المرطب بعصير التمر الهندي، والمطيب بالعسل. عندما رأى أولاده الخمسة أنه لم ينهض، ذهبوا دونه إلى حقل الأسرة، بعد تناول حصتهم من الكسكس، معتقدين أن أباهم، المتعب، لن يرافقهم إلى العمل ذلك اليوم.

- بعد أن علا صوت تشاؤياته عدة مرات، عزم سيجا على ترك الفراش أخيرا. وصب على نفسه دست ماء بارد، ليغتسل ويصحو جيدا. ثم تناول وجبته الأولى المتواضعة سريعا. قالت له ابنته أومي: « تبدو متعبا يا أبي. ألا يمكنك البقاء في البيت لترتاح؟ » - لا يا ابنتي. عليّ الذهاب لأساعد إخوتك في زراعة الأرض، فأيام البذر صارت قريبة. يجب تجهيز كل شيء قبل بدء الأمطار، التي لن تتأخر.

قالت خوديا، التي بقيت صامتا حتى ذلك الوقت: «ابنتك محقة يا سيجا. أنت تنسى أنه لم تعد لك ساقا سن العشرين. لم تعد لك قدرة على العمل مثل السابق. عند أولادك الخمسة الكبار ما يكفي من القوة للاهتمام بالحقل. لماذا تريد أن تحمل نفسك ما لا طاقة لك به؟ إبق هنا واسترح اليوم».

- لا، علي المشاركة حتما في تسوية الأرض وحرثها. تعرفين
أنا بالكاد نجني ما يسد الرمق. ذراعاي قادرتان بعد علي
العمل. إذا استطعنا جني محصول طيب هذه السنة، سيستطيع
كل واحد من أولادك إيجاد زوجة له. ثم، من يعلم، ربما تمكنت
ابنتك من الحصول على بعض الثروة، فتوفق هي الأخرى بزواج
طيب، يرعاها ويحميها.

- من المؤكد يا سيجا أننا لا نعيش في بحبوحة. ولكن لدينا
والحمد لله ما هو ضروري. يوجد في القرية محتاجون أكثر
منا. برهان ذلك أننا غالبا ما نقرض جيراننا الذرة البيضاء
والذرة الصفراء والفاصولياء. لنشكر الله على هذه النعمة،
ولنكتف بما يمتحننا إياه. أنا متأكدة أن عائلات كثيرة في القرية
تحسدنا على مخزن غلالنا والبقرتين والخراف الثمانية. لنتعلم
كيف نكتفي بها.

لم يشأ سيجا الاستمرار في نقاش زوجته. حمل معزقته،
والقاها على كتفه، ثم خرج. كانت القرية قد بدأت تستيقظ. القى
التحية على رجل هنا، وامرأة هناك، حتى وصل إلى آخر البيوت.
ومن هناك، سلك درب حقله، البعيد جدا عن القرية. وفي
منتصف الطريق، شعر بشيء من التعب في ساقيه. لماذا لم يصغ
إلى نصائح زوجته وابنته؟ لماذا لم يركب حماره على الأقل؟ لو
فعل لوفر على نفسه التعب في هذا الصباح الباكر. لا جدوى من
الشكوى الآن، ثم إنه على وشك بلوغ وجهته.

ساعد سيجا أولاده طيلة الوقت جيدا. بدا كأن تعبته قد زال. ولما
أصبحت الشمس في منتصف السماء، توقفوا عن العمل

للاستراحة في ظل شجرة المنجة الكبيرة. بعد ذلك بلحظات، وصلت الأخت الصغرى أومي، حاملة الوجبة. وبعد الطعام، تبادل الشباب الأحاديث فرحين، ثم عادوا إلى عملهم تاركين والدهم نائما في ظل الشجرة المنعش. ولما مالت الشمس نحو الغروب، ايقظ الأولاد أباهم:

«أبي، أبي، انهض حان وقت العودة. هيا معنا».

- لا يا أولاد، ساستريح بعض الوقت، ثم ألحق بكم على مهل. لم تغب الشمس بعد. لا تقلقوا علي، رافقتكم السلامة. ذهب الشباب، ولكن غير مرتاحين كثيرا، تاركين والدهم، الذين سرعان ما غط في نوم عميق تحت الشجرة. عندما استيقظ، كان الوقت ظلاما تاما، والنجوم تلمع في السماء بهدوء. نهض بسرعة مدهوشا، غاضبا من نفسه:

«ما الذي حدث لي؟ لماذا أنا هنا حتى هذا الوقت المتأخر من الليل؟ آه، تذكرت، نمت مرة أخرى. أوه، يا ربي، لا بد أن أسرتي قلقة علي! ما العمل؟ هل انتظرة؟ أم أرحل؟ أرى من الأفضل أن أبقى هنا. سيعود الأولاد لأصطحبني. لا، لا، لن يعودوا. من الأفضل أن أرجع إلى الدار معتمدا على نفسي. هيا».

غادر سيجا الحقل، عائدا من الطريق المألوفة، غير مطمئن كثيرا.

«يا لهذا الظلام! رغم النجوم الساطعة، كان الليل حالكا، والقمر يضيء بصعوبة معالم الطريق. انتبه! ما الذي يتحرك هناك؟ أه، لا! إنها قطرة بركة! ظننت أنه... ولكن، أمام شجرة الباويااب الضخمة تلك، التي تسد الطريق، يبدو لي أن هنالك

رجلا ينتظر، أو ربما طفل. ماذا يفعل هنا في مثل هذا الوقت؟ هل هو بشر أم عفريت. يا إلهي لقد تهتأ.

في الواقع، رآه يقف هناك، أمام شجرة الباؤياب، التي تقطع الطريق إلى نصفين. إنه أقرب إلى الطفل، لقصر قامته. لكن لحيته الصغيرة لم تترك أي شك: «ليس طفلا. كان بيتسم، غير أن كلماته الأولى أظهرت أن ابتسامته لا تنم عن أي ود: «من أنت؟ ماذا تفعل هنا في هذه الساعة؟».

ارتبك الفلاح، وفزع، وأجاب مرتجفا:

«اسمي سيجا. أنا مزارع مسكين. أريد العودة إلى بيتي».

- إن كنت تقصد بيتك، لماذا تتسكع في مثل هذا الوقت، بعيدا عن دارك؟ اتنسى في هذه السن أن النهار خلق للبشر، وأن الليل خلق لنا نحن الآخرين؟

- نعم، نعم، أعرف، أعرف. غالبا ما كانت أمي تقول لي ذلك.

- إذن، لماذا تأتي لتتحدثني في داري في مثل هذه الساعة من

الليل؟ هل تعرف من أنا؟

- نعم، نعم... أعني لا، لا!...

- إذن، سأقول لك من هو هذا الواقف أمامك. اسمي كوس، أنا

العفريت المصارع.

- آه! يا إلهي! لقد ضعت.

- كلامك هذا يعني أنك تعرفني. تعلم إذن ما يقولونه عني.

هيا يا سيجا، تشجع قليلا! تكلم!

- أنا... أنا... لا أعرف إلا ما تقوله الشائعات.

- إذن، حدثني عما يعلمه الناس عني. هيا، أنا أسمعك! أنت لا

تجهل أن مزاجي حسن دائما. أنا رفيق مرح.
- يقال إنك كئيب أيضا. وتحب اللعب والضحك والتسلية،
وعمل المقالب مع التائهين في الليل.
- نعم، ما قلته صحيح، ولكن يبدو أنك نسيت الشيء الأهم.
سانعش ذاكرتك. عندما يلتقي أحد البشري، أنا كوس، عليه
مصارعتي، فهذه هي تسليتنا المفضلة.
- أوه، يا إلهي، كنت أعرف. لقد ضعت!
- لا، لا، دعني أكمل. قلت إن عليك مصارعتي. ولكن ضمن
شروط: إن صرعتني، أعرتك وعائي الخشبي بضع لحظات، لتقول
ثلاث أمنيات، بصوت عال. سيحقق لك الوعاء كل ما تطلب، فورا:
الذهب، والمال، والخيرات، والطعام... باختصار، سيلبي رغباتك في
الحال.

- أوه، أيها الأب كوس، العفريت المصارع. نسيت أن تقول لي
أن لا أحد استطاع مواجهة أمثالك، حتى الأبطال. كيف
يمكنني أنا ذلك؟

- أنت وحدك يا سيجا قادر على الإجابة عن السؤال. ولكن
دعني أكمل شرحي. أقول إن ريحت أنت النزال، فزت بالوعاء. وإذا
خرجت أنا منتصرا منه، سأجد نفسي مضطرا، للأسف الشديد،
لتهشيم رأسك بهراوتي هذه.

لما سمع هذه الكلمات، ارتعدت فرائص سيجا خوفا. وبقي
صامتا من الفزع. وراح يتصبب عرقا، رغم نداوة الليل. تهيا
الآخر، فخلع جلبابه، وبقي بسرواله. اتخذ وضعية المصارع فورا.
دون أن تبارح الابتسامة شفتيه. خلع سيجا ثيابه أيضا، ولم يبق

إلا سرواله الطويل المنتفخ. عندما نظر إلى قامته خصمه القصيرة، استرد بعض شجاعته. هل يمكن لرجل ضخيم مثله ترك هذا القزم يصصره، ولو كان عفريتاً مصارعاً؟ تذكر المزارع أنه، هو ذاته، كان بطل قريته أيام الشباب. جندل أقوى المصارعين في القرى المجاورة أولاً، ثم في البلدان الأبعد بعد ذلك. هنا استعاد ثقته بنفسه. وبعد أن استرجع في ذاكرته سريعاً طريقته الخاصة الموثوقة في المصارعة، انقض فجأة على خصمه، موجهاً إليه لكمة قوية. وحاول وضع ساقه خلف ساق خصمه ليرميه أرضاً. ولكن، دون أن يعرف كيف، شعر أنه ارتفع عن الأرض، ثم سقط بقوة فجأة. اقترب الخصم القصير منه فرحاً، ملوحاً بهراوته الضخمة، ومصمماً على تحطيم جمجمته. جثا المغلوب على ركبتيه، وتوسل إليه:

«لا، لا، يا سيد كوس العفريت المصارع، لا تقتلني! دعني أعيش. أقسم لك أنني لن أخرج بعد اليوم للسير في الظلام. أقسم لك! أقسم لك! لن أفعل ذلك بعد الآن!».

لما سمع كوس هذا الكلام، أخذ يضحك بصوت صاخب. وظل يضحك حتى سالت دموعه. أضحكه أن يسمع رجلاً بهذا السن يتكلم هكذا، ويتوسل مثل طفل صغير ارتكب خطأ. كان كجميع أمثاله محباً للهزل والمزاح واللعب، والمصارعة بشكل خاص. رد على الفلاح بابتهاجه المعتاد:

«سليتني كثيراً أيها الإنسان، كم أحب الضحك! يالك من محظوظ، لو أنك صادفت أخي لكان رأسك الآن مهشماً. أريد منحك فرصة أخرى. انهض، سنتصارع ثانية،

ولكن إن خسرت هذه المرة، ستحل نهايتك على يدي. هيا،
انهض بسرعة!.

بدا الفلاح غير واثق كثيرا. لكنه وقف على قدميه، ولم يفقد
الأمل. تأمل خصمه بانتباه. لا، غير معقول ألا يتغلب على هذا
القصير. هذه المرة، من الأفضل مهاجمته بهدوء، وامتحان قوته،
بدلا من الانقضاض عليه فجأة. نعم، هذا ما يلزم القيام به. يجب
فرض امتحان القوة عليه.

سيطر سيجا على خصمه لأنه أطول قامة منه. أمسكه من كتفيه
بهدوء، وضغط بكل قوته، محاولا خنقه ورفعته عن الأرض. عبثا! من
يستطيع اقتلاع شجرة باؤياب؟ لا أحد بالتأكيد!. بقي كوس العفريت
المصارع ثابتا على الأرض، كأشجار السهول العشبية. قهقه العفريت
لجهود خصمه العبثية. أمسكه بدور، ورفعته عن الأرض، وبرمه فوق
رأسه لحظة، ثم رماه في الهواء، فراح يتدحرج على بعد ثلاث خطوات.
ذهل سيجا مرة أخرى، ولم يفهم شيئا مما حدث. سمع فقط كوس
وهو يضحك بملء فمه. لو كان الظرف مختلفا، لربما استمتع هو
نفسه بهذا الحادث المزعج. لكن تلك الهراوة ظلت ترعبه للغاية وهي
تحوم فوقه. زحف نحو خصمه، متوسلا مرة أخرى:

«كوس، كوس يا ملك المصارعين، أيها المنتصر علي ولا أنكر
ذلك، كن كبيرا... أعني كن كريما. أنا متأكد أنك أفضل من أخيك!
أرجوك، دعني وشأني. أنقذ حياتي. أقبل أن أصبح عبدك. بما أنك
عفريت قوي، عليك أن تعرف أن لدي أسرة كبيرة، بنت صغيرة
 وخمسة صبيان وأهمهم. إن قتلتنني، من يعيلهم، ويطعمهم،
ويحميهم؟ من سي...؟».

لما سمع كوس هذه الكلمات، ازداد ضحكا. تدرج على الأرض، ونهض. ثم جلس على جذع شجرة مقطوعة، واضعا يديه على خصره. عاد شيئا فشيئا إلى الجد، وقال للمغلوب:

«أيها الإنسان، أعترف أن رفقتك لا تزعم، ولا تفوتني الفكاهة معك. ولكن، ماذا تحكي؟ ومن تظنني؟ أعرف جيدا أن أولادك الخمسة أصبحوا راشدين أقوياء، قادرين على إطعام أنفسهم بأنفسهم. أما «ابنتك الصغيرة»، فلم تعد صغيرة إلى هذا الحد، لأنها تطلب منك كل يوم أن تجد لها زوجا.

- نعم، نعم يا سيد كوس، ما تقوله صحيح. ولكن، إرأف بي، دعني أعيش! بما أنك تعرف أشياء كثيرة، عليك أن تعرف أنني رجل مسالم ولطيف، لا أؤذي أحدا. أسدي خدمات لجيرانني دائما، عندما أقرض أحدا ذرة أو أرزا، أتناسى المطالبة بالدين. ليس في قلبي خسة ولا خبث. ألا تعفو عني بسبب كل ذلك؟ فكر قليلا وأجبني.

- نعم، نعم، صحيح ما تقول هذه المرة. أنا... أنا... لم أعد أعرف ما يجب أن أفعل. تأثرت كثيرا بكلامك، ولكن... مع ذلك... أعتقد... يجب...».

عندما رأى كوس حائرا فيما سيفعل، لم يترك له سيجا وقتا للتفكير:

«كوس، يا سيدي، أقسم لك بسمعة أبي الطيبة أنني سأبقى ما حييت رجلا مستقيما، وطيبا، ومخلصا، وفاعلا للخير، ومحبا، وأمينا، وخدميا، وبشوشا، ومتسامحا، وسخيا، ونبيلا، ومحترما».

- حسنا، حسنا، كفاك أيماذا، أصدقك. أعتقد أنني لن أؤذيك، لأنك عددت لي الخصال التي يحبها أبناء جنسي. لا، بل سأكافئك أيضا. إسمع جيدا ما أقول.

- ها هو وعائي الصغير المصنوع من خشب الأبنوس. قل ثلاث أمنيات، وسيلبىها فورا. ولكن انتبه! وعائي يا سيجا يكره الظلم! يوم تظلم أحدا، سيعاقبك حالا، ويقسوة كبيرة. هيا، تمال! لا تخف من هراوتي! لن تضريك. هات بسرعة ثلاث أمنيات. فوجيء الرجل بالطلب، ولكن سرعان ما عاد إلى صحوته. جثا أمام الوعاء وقال:

«أريد ذهباً، أريد أن أبقي شاباً، أريد أن... أن أنتصر دائما كلما صارت أحدا».

سر العفريت المصارع كوس من رفيقه كثيرا. لكنه عاد إلى ضحكه الصاخب عندما سمع الأمنية الأخيرة. ولما هدا، قال مبتسما:

«انظر إلى كيس الذهب قرب قدميك. ذاك برهان على أن وعائي استجاب لرغباتك. الآن، تأخر الوقت. لا تعد للتنزه ليلا، ولا تنس بشكل خاص كلماتي: وعائي لا يحب الظلم، لا، لا يحب الظلم».

عاد سيجا إلى البيت في وقت متأخر ذلك المساء. ثم يشأ إعلام أسرته بما حدث، غير أن الغبار الذي غطاه من رأسه إلى قدميه أقلقهم قليلا. أطلعهم على كيس الذهب، وطلب منهم ألا يخبروا أحدا بهذه الثروة، التي حصل عليها فجأة، ولكن بالأم.

في اليوم التالي، ورغم محاصرته بأسئلة زوجته خونيا، وابنته أومي، وأبنائه، بقي يرفض بعناد التكلم عن مصدر الكيس. واكتفى بالقول:

«أتاني هذا الذهب بالمصادفة. لا تسألوا لماذا وكيف. لنكتف
بإنفاقه بعقل وروية. انتهت أيام البؤس، زالت أوقات الهم
والقلق والفاقة».

في الحقيقة، عاشت الأسرة في رغد ورفاهية لم تعرفهما من
قبل. رمت أكواخ القش التي تسكن فيها. وأصلحت الجدران،
وزينتها بزخارف تتم عن ذوق رفيع جدا. واستبدلت بسور أرض
الدار القديم آخر جديد. وازداد عدد الثيران، والخراف، والماعز،
حتى صارت قطعانا يحرسها رعاة نشيطون ومتحمسون. وتوسعت
حقولها بسرعة، وتحسن حرثها وزرعها بفضل عمال موسمين
يحصلون على أجور مرتفعة، وصارت تعطي محاصيل طيبة جدا
خزنوها في أهرام كبيرة. فضلا عن هذا كله، أثار شيثان ذهول
الأسرة وأهل القرية، وحتى القرى المجاورة: أولا اختفاء الشعر
الأبيض فجأة من رأس سيجا وزوال تجاعيد وجهه. وثانيا عودة
سيجا إلى حلبات المصارعة من جديد، ليس كمشاهد مثلما يليق
بسنة، بل كمصارع! فإمام دهشة الجميع، راح يجندل بسهولة بالغة
أكثر منافسيه بأسا. ثم حدث ذلك قبل سنوات لما دهش أي إنسان،
أما في هذه السن، فيعتبر أعجوبة. لم يفهم أحد سر حيويته
وحماسه الجليدين، ولا لغز عودة الشباب إليه.

سارت الحياة وادعة هادئة، وسعيدة، حتى جاء ذلك اليوم
المشهور. ذات صباح، قالت خوديا لزوجها:

«دعوت ابنة جارتنا لتصبغ شعري بالأسود وتجعله. تعرف أيضا
أن رب أسرتهم مريض. أود مساعدتهم ببعض المال، وكيس ذرة
بيضاء وخروف».

لما سمع سيجا هذا الكلام، غضب بشكل غير مفهوم، وقال لها: «ما حاجتك إلى جدل شعرك؟ كله أبيض. ألا ترين أيضا تجاعيد وجهك الكثيرة؟ تشبهين أمي. أرفض إعطاء الذرة لأي كان. من يريد ذرة، عليه زرع أرضه بها. أعلمي أخيرا أنني سأتزوج امرأة ثانية، أكثر شبابا منك بكثير وأقرب إلى عمري الآن، وتناسب قوتي وثروتي. إن لم يعجبك ذلك، عودي إلى أمك، أنا لا أمسك بك. لن أراجع عن قراري».

عندما سمعت خوديا كلام زوجها، الهادئ واللطيف عادة، أخذت تبكي بدموع غزيرة. لفقت الجلبة انتباه الأولاد، الذين جاءوا وحاولوا تهدئة أمهم. قال البكر:

«لا نفهم يا أبي ما يحدث. لا نريد أن نقاضيك، لكنك في العادة هادئ وطيب. أنت اليوم مختلف. لماذا تنصرف بهذه القسوة مع أمنا؟ هل تستحق هذه المعاملة؟ ما الذي حدث؟».

غضب الوالد غضبا شديدا لهذا الكلام، ولم يهدأ أبدا: «اسكتوا كلكم أيها الأولاد الكنودون! كنت أعرف أنكم ستقفون إلى جانب أمكم. لم أستغرب ذلك. يجب أن تعلموا أنني سيد هذه الدار، لذا أنا حر التصرف. سأبحث منذ اليوم عن زوجة تليق بشبابي وتناسب ثروتي. عدا ذلك، قررت ألا أعطي أحدا منكم أي ثور، أو خروف أو عنزة من إرثي، بحجة الإحسان أو مساعدة شخص تزعمون أنه محتاج. كما لا أريد بعد الآن رؤيتكم توزعون حبوب أهرائي على أحد، لأي سبب. أخيرا، ومنذ هذا المساء، عليكم أيها الأولاد الرحيل كل مع زوجته إلى أي مكان يحلو لكم. وعلى اختكم أومي أن تنصرف مع زوجها منذ اليوم حيث يشاءان.

يمكنها أخذ أمها معها إن راق لها ذلك. مللت من إطعامكم ومن وجوهكم. يكفيني منذ الآن وجود زوجتي الجديدة الشابة بجانبى. هيا، ارحلوا، منذ هذه اللحظة.

خرج الأولاد وأمهم وأختهم لتجهيز أمتعتهم، ومغادرة دار الأسرة. ولم ينفع توسل الجيران ولا كلام مختار القرية المهدي في ثني سيجا عن عزمه. وظل على عناده. أصر على قراراته. وطرد الأسرة كلها. وتزوج فتاة صغيرة جدا.

بعد ذلك بسبعة أيام، استيقظ سيجا، المزارع الغني، بصعوبة كبيرة. هزته زوجته كومبا، الشابة الصغيرة الجديدة والجميلة، عدة مرات كي ينهض. أبى جفناه الثقيلان أن ينفثا. لم تطاوعه أطرافه المتيبسة في مغادرة الفراش. مع ذلك، منذ أن صاح الديك أول مرة، كانت بانتظاره وجبة من الكسكس المطيب والفاخر، مع فروج سمين، وصلصة الفول السوداني.

تثاءب سيجا عدة مرات بصوت مرتفع، وهمّ أخيرا بالنهوض من سرير الوثير. بذل جهدا كبيرا حتى جلس. لماذا هذا التعب؟ فتحت كومبا نافذتي الكوخ، واقتربت من زوجها و... أطلقت صرخة قوية. ثم خرجت راكضة، مبتعدة عن الدار، وازداد صراخها. سمعت كل القرية الصباح، ودخل الجيران بعجلة إلى الكوخ.

ماذا وجدوا؟ وجدوا فيه عجوزا ضعيفا. هل هو ذلك الرجل، المزارع الغني، الذي أذهل بشبابه الدائم، وبأسه في المصارعة، وسخائه، كل الناس؟ طبعاً، إنه هو. رغم شعره الأبيض، كأنه القطن، ورغم تجاعيده الغائرة عميقا في جبينه وخديه، ورغم أطرافه الهزيلة، وفمه الخالي من الأسنان، كان يمكن تمييزه

والتعرف إليه. شيء غريب، الكوخ الذي تركوه جديداً البارحة، مساءً، رأوه اليوم متهدماً. والأغرب أيضاً أن أحداً لم يعثر ذلك الصباح على قطعة ذهبية واحدة داخل الكوخ، الذي خبأ فيه ثروته بعناية. وزيادة في المصيبة، هلك في الليلة الماضية كل قطعان ماشيته، دون أن يعرف أحد كيف، وكأنها قد ابتليت بالطاعون.

بعد فوات الأوان، تذكر التعيس، الذي جلس منذ ذلك الحين متهدماً وفانياً، وحيداً في البيت بعد أن هجره أقرباؤه، كلمات كوس الخبيث، والماهر، والمرح، والسخي، ولكن المصارع الرهيب: «انتبه يا سيجا، وعائلي يكره الظلم!». يوم تظلم أحداً، سيعاقبك حالاً، وبقسوة كبيرة».

مع ذلك، كان المزارع المسكين يعرف أن الثروة الكبيرة جداً قد تفقد قلب المرء الإحساس، وتجعله أقسى من صخرة. ذكره وعاء كوس بذلك، بالم شديد.



ISBN 978-9933-407-05-6

